الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد السادس والعشرون

الاجزاء من ٤٩٤ الى ٥١٢

الحاوي في التفسير

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
494	سورة طه	الآية 1 الى الآية 14	2
495	=	الآية 15 الى الآية 35	407
496	=	الآية 36 الى الآية 48	816
497	=	الآية 49 الى الآية 55	1132
498	=	الآية 56 الى الآية 69	1600
499	=	الآية 70 الى الآية 79	1990
500	=	الآية 80 الى الآية 82	2271
501	=	الآية 83 الى الآية 97	2626
502	=	الآية 98 الى الآية 110	3002
503	=	الآية 111 الى الآية 127	3292
504	=	الآية 128 الى الآية 135	3757
505	سورة الانبياء	فصول مهمة	4274
506	=	الآية 1 الى الآية 3	4683
507	=	الآية 4 الى الآية 20	4939
508	=	الآية 21 الى الآية 28	5207
509	=	الآية 29 الى الآية 35	5538
510	=	الآية 36 الى الآية 50	5899
511	=	الآية 51 الى الآية 73	6446
512	=	الآية 74 الى الآية 80	6781

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من نفس السورة

(4/494)

{ فى رياض آيات السورة الكريمة }

(5/494)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة طه

أقول: روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول: أن طه نزلت بعد سورة مريم ، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف وذلك وحده كاف في مناسبة الوضع ، مع التآخي بالافتتاح بالحروف المقطعة وظهر لي وجه آخر ، وهو: أنه لما ذكر في سورة مريم قصص

عدة من الأنبياء ، وهم: زكريا ، ويحيى ، وعيسى ، الثلاثة مبسوطة وإبراهيم ، وهي بين البسط والإيجاز وموسى ، وهي موجزة بجملة أشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالاً وذكر في هذه السورة شرح قصة موسى ، التي أجمل هناك ، فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط ، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم ، الذي وقع مجرد اسمه هناك ثم أورد في سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر في مريم ، كنوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب وذي الكفل ، وذي النون ، وأشير إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة ، كموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وزكريا ، ومريم ، لتكون السورتان كالمتقابلتين وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ، ومع أنه مبسوطاً فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب ، وبديع هذا الترتيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 117.116 ﴾

(6/494)

قوله تعالى ﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم) الواسع الحلم التام القدرة (الله) الملك الأعظم

(الرحمن) الذي استوى في أصل نعمته جميع خلقه (الرحيم) الذي أتم النعمة على أهل توفيقه ولطفه

﴿ طه ﴾ أي تخلص بالغ من كل ما يخشى وظهر عظيم وطيب منتشر في كل قطر إلى نهاية الوطن الذي هو التاسع ، ممن له الإحاطة التامة بكل غيب ، وإليه يرجع الأمر كله ، كما اجتمعت أسماؤه كلها في غيب هو الذي جعل العزة للمهتدين والهدى للمتقين .

هذه السورة والتي قبلها من أقدم السور المكية ، قال هشام في تهذيب السيرة : قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أم أمية بن المغيرة زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا وعبدنا الله تبارك وتعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم .

فذكر إرسالهم إليه بهدايا ليردهم إليه ، وأن بطارقته كلموه في ذلك ، وأنه أبى حتى يسمع كلامهم ، وأنه طلبهم فأجمع أمرهم على أن يقولوا الحق كائناً فيه ما كان ، فدخلوا وقد دعا

النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله فقال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا به في دين أحد من هذه الملل .

(7/494)

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ـ رضى الله عنهم ـ فقال : أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم .

وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام .

فصدقناه وآمنا به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان .

فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ! فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ فقرأ عليه صدراً من كهيعص ، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ؛ ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم ذكر تأمينه لهم ورد هدايا قريش ورسلهم خائبين .

(8/494)

وقال ابن هشام : وقال ابن إسحاق : فحدثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي حثمة .رضى الله عنهم.ا قالت : والله ! إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر .رضى الله عنهم.في بعض حاجاتنا إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ، وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا ، فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ؟ قلت : نعم ! والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً ، فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى

خروجنا ، فجاء عامر -رضى الله عنهم- بحاجته تلك فقلت له : يا أبا عبد الله ! لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا ! قال : أطمعت في إسلامه ؟ قلت : نعم ! قال : لايسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب .

يأساً منه .

لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام ، قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل -رضى الله عنهم-م ، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد وهم مستخفون بإسلامهم من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله بن النحام .

رجل من قومه بني عدي بن كعب .

(9/494)

قد أسلم -رضى الله عنهم- ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت -رضى الله عنهم- يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب -رضى الله عنهم-ا يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورهطاً من أصحابه -رضى الله عنهم-م قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم

قريب من أربعين ما يين رجال ونساء ، ومع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين ـ رضى الله عنهم ـ م أجمعين ممن كان أقام مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله ـ رضى الله عنهم ـ فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم ـ رضى الله عنهم ـ : والله ! لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأيّ أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت ـ رضى الله عنهم ـ وعنهما ، معه صحيفة فيها طه يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب بن الأرت ـ رضى الله عنهم ـ في مخدع لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب ـ رضى الله عنهم ـا الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئاً ؟ قال : بلى ! والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ـ رضى الله عنهم ـ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ،

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه ـ رضى الله عنهما ـ : نعم ! قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟ وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لاتخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت : يا أخي ! إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب ـ رضى الله عنهم ـ خرج إليه فقال له : يا عمر ! والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم ! أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر ! فقال له عمر عند ذلك : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوحشه ثم عمد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من

أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر من خلال الباب فرآه متوحشاً السيف فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فزع فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوحشاً السيف ! فقال حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنهم ـ : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ائذن له ، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ! فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال

(11/494)

عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عمر قد أسلم ، فتفرق أصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكانهم ، وقد عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر بن الخطاب مع إسلام حمزة ـ رضى الله عنهما ـ ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينتصفون بهما من عدوهم ، فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن أسلام عمر ـ رضى الله عنهم ـ حين أسلم .

وكان إسلام عمر بعد إسلام حمزة ـ رضى الله عنهما ـ بثلاثة أيام ، كما ثبت ذلك في حاشية شرح العقائد عن فوائد تمام الرازي ، وصفوة الصفوة لابن الجوزي ؛ قال ابن هشام : قال ابن إسحاق : وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما أسلم عمر قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ قال : قيل له : جميل بن معمر الجمحي ، فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه .

واتبعه عمر ـ رضى الله عنهم ـ واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! وهم في أنديتهم حول الكعبة .

ألا ! إن ابن الخطاب قد صبأ قال : يقول عمر ـ رضى الله عنهم ـ من خلفه : كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم قال : وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها أو تركتموها لنا ،

قال : فبينما هو على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، قال : فمه ! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم ؟ هكذا عن الرجل ! قال : فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه .

وفي الروض الأنف للامام أبي القاسم السهيلي أن يونس روى عن ابن إسحاق أن عمر قال حين أسلم . رضى الله عنهم . :

الحمد لله ذي المن الذي وجبت . . .

له علينا أياد ما لها غير

وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا . . .

صدق الحديث نبي عنده الخبر

وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى . . .

ربي عشية قالوا قد صبا عمر

وقد ندمت على ما كان من زلل . . .

بظلمها حين تتلى عندها السور

لما دعت ربها ذا العرش جاهدة . . .

والدمع من عينها عجلان يبتدر

أيقنت أن الذي تدعوه خالقها . . .

فكاد يسبقني من عبرة درر

فقلت أشهد أن الله خالقنا . . .

وأن أحمد فينا اليوم مشتهر

نبي صدق أتى بالحق من ثقة . . .

وافى الأمانة ما في عوده خور

(13/494)

إذا تقرر هذا ، علم أن المقصود من السورة – كما تقدم – تشريف هذا النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- بإعلامه بالرفق بأمته ، والإقبال بقلوبهم حتى يملؤوا الأرض كثرة ، كما أنزل عليهم السكينة وهم في غاية الضعف والقلة ، وحماهم ممن يريد قتلهم ، ولين قلب عمر -رضى الله عنهم- بعد ما كان فيه من الغلظة وجعله وزيراً ، ثم حماه بعدوه ، وتأمينه -صلى الله عليه وسلم- من أن يستأصلوا بعذاب ، وبأنه يموت نبيهم قبلهم لا كما وقع للمهلكين من قوم نوح وهود عليهما السلام ومن بعدهم – بما دل عليه افتتاح هذه بنفي الشقاء وختم تلك بجعل الود وغير ذلك ، والداعي إلى هذا التأمين أنه سبحانه لما ختم تلك بإهلاك القرون

وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللد ، ولم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك ، كان ربما أفهم أنه قد انقضت مدتهم ، وحل بوارهم ، وأتى دمارهم ، وأنه لا يؤمن منهم – لما هم فيه من اللد – إلا من قد آمن ، فحصل بذلك من الغم والحزن ما لا يعلم قدره إلا الله ، لأن الأمر كان في ابتدائه ، ولم يسلم منهم إلا نفر يسير جداً ، فسكن سبحانه الروع بقوله : ﴿ ما أنزلنا ﴾ بعظمتنا ﴿ عليك ﴾ أي وأنت أعلم الخلق ﴿ القرآن ﴾ أي أعظم الكتب ، الجامع لكل خير ، والدافع لكل ضير ، الذي يسرناه بلسانك ﴿ لتشقى ﴾ أي بتعب قلبك بكونك من أقل المرسلين تابعاً بعد استئصال قومك وشقائهم بإنذارك ﴿ إلا ﴾ أي لكن أنزلناه ﴿ تذكرة ﴾ أي تذكيراً عظيماً ﴿ لمن يخشى ﴾ ممن أشرنا في آخر التي قبلها إلى بشارته إيماء إلى أنه سيكون فيهم من المتقين من تناسب كثرته إعجاز هذا القرآن ودوامه ، وما فيه من الجمع المشار إليه بالتعبير بالقرآن لجميع ما في الكتب السالفة من الأحكام أصولاً وفروعاً ، والمواعظ والرقائق ، والمعارف والآداب ، وأخبار الأولين والآخرين ، ومصالح الدارين ، وزيادته عليها بما شاء الله ، لأن كثرة الأمة على قدر جلالة الكتاب ، والتعبير عن " لكن " بالإشارة إلى أنه يمكن

أن يكون من باب :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

وأشار بالمصدر الجاري على غير الفعل في قوله : ﴿ تنزيلاً ﴾ إلى أنه يتمهل عليهم ترفقاً بهم ، ولا ينزل هذا القرآن إلا تدريجاً ، إزالة لشبههم ، وشرحاً لصدورهم ، وتسكيناً لنفوسهم ، ومداً لمدة البركة فيهم بتردد الملائكة الكرام إليهم ، كما أنه لم يهلكهم بمعاصيهم اكتفاء ببينة ما في الصحف الأولى ، بل أرسل إليهم رسولاً لئلا يقولوا : ربنا لولا - كما اقتضته حكمته وتمت به كلمته ، ولما كان رجوعهم إلى الدين على ما يشاهد منهم من الشدة والأنفة والشماخة التي سماهم الله بها قوماً لداً في غاية البعد ، شرع سبحانه يذكر بقدرته إشارة إلى أن القلوب بيده يقلبها كيف شاء كما صورها كيف شاء ، وأن شأنه الرفق والأناة ، فقال ملتفتاً من التكلم إلى الغيبة ليدل على ما اقتضته النون من العظمة مقدماً ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوين المعتنى بتذكرتهم وهداية أريد منهم : ﴿ممن خلق الأرض ﴾ المنخفضة .

ولما قدم الأرض إعلاماً بالاعتناء برحمها بالترفق بسكانها ليملأها بالإيمان منهم تحقيقاً لمقصود السورة تشريفاً للمنزل عليه ، أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقي من بيت العزة إلى

ما كنزه في خزانة العرش فقال : ﴿ والسماوات العلى ﴾ في ستة أيام ، ولو شاء كانتا في لحظة .

(15/494)

ولما كان القادر قد لا يكون ملكاً ، قال دالاً على ملكه مادحاً له بالقطع خبراً لمبتدأ محذوف : ﴿ الرحمن ﴾ مفتتحاً بالوصف المفيض للنعم العامة للطائع والعاصي ؛ ثم ذكر خبراً ثانياً دالاً على عموم الرحمة فقال : ﴿ على العرش ﴾ الحاوي لذلك كله ﴿ استوى ﴾ أي أخذ في تدبير ذلك منفرداً ، فخاطب العباد بما يفهمونه من قولهم : فلان استوى ، أي جلس معتدلاً على سرير الملك ، فانفرد بتدبيره وإن لم يكن هناك سرير ولا كون عليه أصلاً ، هذا روح هذه العبارة ، كما أن روح قوله عليه الصلاة والسلام الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ " القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء " أنه سبحانه وتعالى عظيم القدرة على ذلك ، وهو عليه يسير خفيف كخفته على من هذا الحالة ، وليس المراد أن هناك إصبعاً أصلاً – نبه على ذلك حجة الإسلام الغزالي ، ومنه أخذ الزمخشري أن يد فلان مبسوطة كناية عن جواد وإن لم يكن هناك يد ولا بسط أصلاً .

ولما كان الملك قد لا يكون مالكاً ، قال مقدماً الأشرف على العادة : ﴿ له ما في

السماوات ﴾ أي كله من عاقل وغيره ﴿ وما في الأرض ﴾ جميعه ﴿ وما بينهما ﴾ أي السماوات والأرض ﴿ وما تحت الثرى ﴾ وهو التراب النديّ، سواء قلنا : إنه آخر العالم فما تحته العدم المحض أم لا ؟ فيكون تحته النور أو الحوت أو غيرهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 10.4 ﴾

(16/494)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : بإمالة الطاء والهاء . حمزة وعلي وخلف ويحيى وحماد وعباس وقرأ أبو جعفر ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب . وفي الكشاف أن أبا عمرو فخم الطاء لاستعلائها وأمال الهاء . والآخرون بتفخيمها ﴿ لأهله امكثوا ﴾ بضم الهاء وكذلك في " القصص " : حمزة ﴿ إني آنست ﴾ ﴿ إني أنا الله ﴾ بفتح ياء المتكلم فيهما : أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ﴿ لعلي آتيكم ﴾ بفتح ياء المتكلم : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر غير ابن مجاهد ﴿ على النار هدى ﴾ ممالة : عليّ غير ليث وأبي حمدون وحمدوية وحمزة في رواية ابن معدان وأبي عمر والنجاري عن ورش وأبي عمرو وغير

ابراهيم وابن حماد ﴿ أني أنا ربك ﴾ بفتح الهمزة وياء المتكلم : ابن كثير وأبو عمرو ويزيد . بكسر الهمزة وفتح الياء : نافع الباقون : بكسر الهمزة وسكون الياء ﴿ طوى ﴾ منوناً حيث كان : عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر ﴿ وإنا اخترناك ﴾ على الجمع : حمزة والمفضل ﴿ لذكري ﴾ ﴿ إني ﴾ ﴿ لي ﴾ ﴿ أمري ﴾ ﴿ عيني ﴾ ﴿ برأسي ﴾ (إني) بفتح اليآات : حمزة والمفضل ونافع وأبو عمرو . (لي فيها) بالفتح : حفص والمفضل والأعشى والبرجمي والأصبهاني عن ورش مخير ﴿ أخي اشدد ﴾ بفتح الياء موصولة : ابن كثير غير الخزاعي عن ابن فليح وأبو عمرو ﴿ واشدد ﴾ بفتح الهمزة ﴿ وأشركه ﴾ بضمها على التكلم : ابن عامر والباقون بضم الأول وفتح الثاني على الأمر ﴿ سؤلك ﴾ بالواو : أبو عمرو غير شجاع ويزيد والأعشى والأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف . الآخرون بالهمزة .

(17/494)

الوقوف : ﴿ طه ﴾ 5 كوفي ومن قال معناه يا رجل أو يا طالب أو يا هادي لم يقف ﴿ لتشقى ﴾ 5 للاستثناء ﴿ يخشى ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿ تنزيلاً ﴾ بدل ﴿ تذكره ﴾ ﴿ لعلي ﴾ 5 ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ ﴿ استوى ﴾ 5 ﴿ الثرى ﴾ 5 ﴿ وأخفى

﴿ 5 ﴾ إلا هو ﴿ ط ﴾ الحسنى ﴿ 5 ﴾ حديث موسى ﴿ 5 لئلا يوهم أن "إذ" ظرف للإتيان ﴾ هدى ﴿ 5 ﴾ يا موسى ﴿ 5 ﴾ نعليك ﴿ ج للابتداء بأن مع اتحاد القول ﴾ طوى ﴿ 5 ط إلا لمن قرأ ﴾ إنا اخترناك ﴿ ﴾ بوحي ﴿ 5 ﴾ فاعبدني ﴿ 5 لا للعطف ﴾ لذكرى ﴿ 5 ﴾ تسعى ﴿ 5 ﴾ فتردى ﴿ 5 ﴾ يا موسى ﴿ 5 ﴾ عصاي ﴿ ج لا مكان أن يجعل ﴾ أتوكأ ﴿ مستأنفاً أو حالاً والعامل أضمر أو أشير بناء على أن "هي" بمعنى "هذه" . ﴾ أخرى ﴿ 5 ﴾ يا موسى ﴿ 5 ﴾ تسعى ﴿ 5 ﴾ ولا تخف ﴿ ق لحق السين ﴾ الأولي ﴿ 5 ﴾ آية أخرى ﴿ 5 لا لتعلق اللام. ﴾ الكبرى ﴿ 5 ج للآية والاستئناف بالأمر على أن المقول متصل ﴾ طغى ﴿ 5 ﴾ صدري ﴿ 5 ﴾ أمري ﴿ 5 لا ﴾ لساني ﴿ 5 لا ﴾ قولي ﴿ ص لطول الكلام ﴾ أهلي ﴿ 5 لا ﴾ أخي ﴿ 5 لا وقف لمن قرأ ﴾ أشدد ﴿ بفتح الهمزة جواباً للدعاء ومن فتح الياء فله الوصل ومن قرأ ﴾ اشدد ﴿ بضم الهمزة فله الجواز لاتساق الدعاء على الدعاء بلا عاطف ﴾ أزري ﴿ 5 لا ﴾ أمري ﴿ 5 لا لتعلق "كي" ﴾ كثيراً ﴿ 5 ﴾ بصيراً ﴿ ﴾ يا موسى ﴿ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴾ غرائب القرآن حـ 4 صـ 514.513 ﴾

(18/494)

فصل

قال الفخر :

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اعلم أن قوله ﴿ طه ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء وقرأ حمزة والكسائي بكسر الطاء والهاء ، قال الزجاج وقرىء طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات .

قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلأن ما قبل الألف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لأن الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الإمالة إلى الكسرة .

المسألة الثانية :

للمفسرين فيه قولان : أحدهما : أنه من حروف التهجي والآخر أنه كلمة مفيدة ، أما على القول الأول فقد تقدم الكلام فيه في أول سورة البقرة والذي زادوه ههنا أمور : أحدها : قال الثعلبي : طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار .

وثانيها : يحكى عن جعفر الصادق عليه السلام الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم .

وثالثها : يا مطمع الشفاعة للأمة ويا هادي الخلق إلى الملة .

ورابعها : قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي .

وخامسها : الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل يا طاهراً من الذنوب ويا هادياً إلى علام الغيوب .

وسادسها : الطاء طول القراء والهاء هيبتهم في قلوب الكفار .

قال الله تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ [آل عمران : 151] .

وسابعها : الطاء تسعة في الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها .

القول الثاني : قول من قال : إنها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين : أحدهما : معناه يا رجل وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي رضي الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبي بلغة عك وأنشد الكلبي لشاعرهم :

إن السفاهة طه في خلائقكم . . لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين : الأول : أنه بمعنى يا رجل في اللغة حمل عليه لكنه لا يجوز إن ثبت على هذا المعنى إلا في لغة العرب إذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب في هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التي حكيناها ، فأما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح .

الثاني : قال صاحب "الكشاف" : إن كان طه في لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا في يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا : طا واختصروا في هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقالوا : لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طا ها .

وثانيهما : أنه عليه السلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً وكان الأصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك في إياك وهرقت في أرقت ويجوز أن يكون الأصل من وطىء على ترك الهمزة فيكون أصله طأ يا رجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ، أما قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : إن جعلت طه تعديداً لأسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وإن جعلتها اسماً للسورة احتمل أن يكون قوله : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ خبراً

عنها وهي في موضع المبتدأ والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جواباً لها وهي قسم .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ مَّا نَزَّلَ عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ .

المسألة الثالثة :

(20/494)

ذكروا في سبب نزول الآية وجوهاً : أحدها : قال مقاتل إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام : " بل بعثت رحمة للعالمين " قالوا : بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم وتعريفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام إلى نيل كل فوز والسبب في إدراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها .

وثانيها : أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام : " أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً " أي ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة

العظيمة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وروي أيضاً أنه عليه السلام : "كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام" وقال بعضهم كان يقوم على رجل واحدة ، وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله : ﴿ لتشقى ﴾ ذلك ، قال القاضي هذا بعيد لأنه عليه السلام إن فعل شيئاً من ذلك فلا بد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى ، وإذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له : ما أمرناك بذلك .

وثالثها : قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء فإنا إنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به ، فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك إلا البلاغ وهو كقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ [الكهف : 6] الآية ، ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس : 65] .

ورابعها : أنك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] ، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : 107] أي ليس عليك كفرهم إذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم .

(21/494)

وخامسها : أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفي ذلك الوقت كان عليه السلام مقهوراً تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة أبداً بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فإنا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقياً فيما بينهم بل تصير معظماً مكرماً .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في كلمة إلا ههنا قولان ، أحدهما : أنه استثناء منقطع بمعنى لكن .

والثاني : التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة كما يقال ما شافهناك بهذا الكلام لتتأذى إلا ليعتبر بك غيرك .

المسألة الثانية :

إنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم المنتفعون بها وإن كان ذلك عاماً في الجميع وهو كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] وقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غافلون ﴾ [يس : 6] وقال : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : 97] وقال : ﴿ وَذَكّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] .

المسألة الثالثة :

وجه كون القرآن تذكرة أنه عليه السلام كان يعظمهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه في الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل .

وأما قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في نصب تنزيلا وجوهاً .

أحدها : تقديره نزل تنزيلاً ممن خلق الأرض فنصب تنزيلاً بمضمر .

وثانيها : أن ينصب بأنزلنا لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة أنزلناه تذكرة .

وثالثها : أن ينصب على المدح والاختصاص .

(22/494)

ورابعها : أن ينصب بيخشى مفعولاً به أي أنزله الله تعالى : ﴿ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ﴾ تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين وقرىء تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

المسألة الثانية :

فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور ، أحدها : أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة .

وثانيها : أنه قال أولا أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين .

وثالثها : يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه إلى أنه تنزيل ممن خلق الأرض وخلق السموات على علوها وإنما قال ذلك لأن تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وإنما عظم القرآن ترغيباً في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه وذلك معتاد في الشاهد فإنه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل إليه أقرب إلى الامتثال .

المسألة الرابعة :

يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها أما قوله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء الرحمن مجروراً صفة لمن خلق والرفع أحسن لأنه إما أن يكون رفعاً على المدح والتقدير هو الرحمن وإما أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق فإن قيل الجملة التي هي على العرش استوى ما محلها إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح ؟ قلنا : إذا جررت

فهو خبر مبتدأ محذوف لا غير وإن رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ .

المسألة الثانية :

المشبهة تعلقت بهذه الآية في أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه .

(23/494)

أحدها : أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنياً عنه فهو بالصفة التي لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش .

وثانيها : أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش فيكون في نفسه مؤلفاً مركباً وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال .

وثالثها : أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكناً من الإنتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فإن كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثاً لا محالة وإن كان الثاني كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ منه فإن الزمن إذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه

ذلك وهو غير ممكن على معبودهم .

ورابعها : هو أن معبودهم إما أن يحصل في كل مكان أو في مكان دون مكان فإن حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل ، وإن حصل في مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجاً وهو على الله محال .

وخامسها : أن قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فإنه يحسن أن يقال ليس كمثله شيء إلا في الجلوس وإلا في المقدار وإلا في اللون وصحة الاستثناء تقتضي دخول جميع هذه الأمور تحته ، فلو كان جالساً لحصل من يماثله في الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] فإذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لأن الخلق هو الذي يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله .

وسابعها : أنه لو جاز أن يكون المستقر في المكان إلهاً فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليس بإله لأن طريقنا إلى نفس إلهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثاً ولم يكن إلهاً فإذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في إلهية الشمس والقمر .

وثامنها : أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس ، فلو كان المعبود مختصاً بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقاً لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين ، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المبعود تحت جميع الأشياء .

وتاسعها : أجمعت الأمة على أن قوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصاً بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركباً منقسماً فلا يكون أحداً في الحقيقة فيبطل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] .

وعاشرها : أن الخليل عليه السلام قال : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ [الأنعام : 76] ولو كان المعبود جسماً لكان آفلاً أبداً غائباً أبداً فكان يندرج تحت قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ [الأنعام : 76] فثبت بهذه الدلائل أن الإستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان ، الأول : أنا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك

تأويل الآية وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الإمام أحمد بن حنبل أنه أول ثلاثة من الأخبار : قوله عليه السلام " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " ، وقوله عليه السلام : " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن " وقوله عليه السلام : " إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن " واعلم أن هذا القول ضعيف لوجهين : الأول : أنه إن قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأن ليس مراد الله تعالى من الإستواء الجلوس وهذا هو التأويل .

(25/494)

وإن لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكاً فيه فهو جاهل بالله تعالى ، اللهم إلا أن يقول أنا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به ظاهره بل مراده به شيء آخر ولكني لا أعين ذلك المراد خوفاً من الخطأ فهذا يكون قريباً ، وهو أيضاً ضعيف لأنه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ إلا موضوعه في لسان العرب وإذا كان لا معنى للاستواء في اللغة إلا الاستقرار والإستيلاء وقد تعذر حمله على الإستقرار فوجب حمله على الإستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وإنه غير جائز .

والثاني : وهو دلالة قاطعة على أنه لا بد من المصير إلى التأويل وهو أن الدلالة العقلية لما

قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار ، فإما أن نعمل بكل واحد من الدليلين ، وإما أن نتركهما معاً ، وإما أن نرجح النقل على العقل ، وإما أن نرجح العقل ونؤول النقل .

والأول باطل وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد منزهاً عن المكان وحاصلاً في المكان وهو محال .

والثاني : أيضاً محال لأنه يلزم رفع النقيضين معاً وهو باطل .

والثالث : باطل لأن العقل أصل النقل فإنه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح في العقل يقتضي القدح في العقل والنقل معاً ، فلم يبق إلا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع في المقصود إذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الإستواء الإستيلاء قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق . . من غير سيف ودم مهراق

فإن قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه .

أحدها : أن الإستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك في حق الله تعالى محال .

وثانيها : أنه إنما يقال فلان استولى على كذا إذا كان له منازع ينازعه ، وكان المستولى عليه موجوداً قبل ذلك ، وهذا في حق الله تعالى محال ، لأن العرش إنما حدث بتخليقه وتكوينه .

وثالثها : الاستيلاء حاصل بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة .

والجواب : أنا إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية ، قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش ، وهو سرير الملك لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على البلد يريدون ملك ، وإن لم يقعد على السرير ألبتة ، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى في الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لأنه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة : 64] أي هو بخيل ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة والتمحل بالتسمية من ضيق العطن .

وأقول : إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فإنهم أيضاً يقولون المراد من قوله : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12] الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور فعل ، وقوله : ﴿ يا نَارُ كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ [ابراهيم : 69] المراد منه تخليص

إبراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب ألبتة ، وكذا القول في كل ما ورد في كتاب الله تعالى ، بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد في القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه ، وليت من لم يعرف شيئاً لم يخض فيه ، فهذا تمام الكلام في هذه الآية ، ومن أراد الاستقصاء في الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق .

(27/494)

أما قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما شرح ملكه بقوله : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ والملك لا ينتظم إلا بالقدرة والعلم ، لا جرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم .

أما القدرة فهي هذه الآية والمراد أنه سبحانه مالك لهذه الأقسام الأربعة فهو مالك لما في السموات من ملك ونجم وغيرهما ، ومالك لما في الأرض من المعادن والفلزات (1) ومالك لما بينهما من الهواء .

ومالك لما تحت الثرى ، فإن قيل الثرى هو السطح الأخير من العالم فلا يكون تحته شيء فكيف يكون الله مالكاً له قلنا : الثرى في اللغة التراب الندي فيحتمل أن يكون تحته شيء

وهو إما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 8.3 ﴾

---

(1) في الأصل الأميري : والفلوات جمع فلاة وهي الخلاء والفضاء في الأرض كالصحاري لا نبات بها ، وهي محرفة عن الفلزات ، وهي جواهر الأرض وعناصرها المكونة منها .

(28/494)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ طه ﴾

فيه سبعة أقاويل :

أحدها : أنه بالسريانية يا رجل ؛ قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وحكى الطبري : أنه بالنبطية يا رجل ؛ وقاله ابن جبير ، والسدي كذلك .

وقال الكلبي : هو لغة عكل ، وقال قطرب : هو بلغة طيىء وأنشد ليزيد بن مهلهل :

إن السفاهة (طه) من خليقتكم . . . لا قدس الله أرواح الملاعين

الثاني : أنه اسم من أسماء الله تعالى وَقَسَمٌ أَقْسَمَ بِهِ ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : أنه اسم السورة ومفتاح لها .

الرابع : أنه اختصار من كلام خص الله رسوله بعلمه .

الخامس : أن حروف مقطعه يدل كل حرف منها على معنى .

السادس : معناه : طوبى لمن اهتدى ، وهذا قول محمد الباقر بن علي زين العابدين رحمهما الله .

السابع : معناه طَإِ الأَرْضَ بقدمك ، ولا تقم على إحدى رجليك يعني في الصلاة ، حكاه ابن الأنباري .

ويحتمل ثامناً : أن يكون معناه طهّر ، ويحتمل ما أمره بتطهيره وجهين :

أحدهما : طهر قلبك من الخوف .

والثاني : طهر أُمَّتَك من الشرك .

قوله تعالى : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بالتعب والسهر في قيام الليل ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه جواب للمشركين لما قالواْ : إنه بالقرآن شقى ، قاله الحسن .

الثالث : معناه لا تشْق بالحزن والأسف على كفر قومك ، قاله ابن بحر .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا إنذاراً لمن يخشى الله .

والثاني : إلا زجراً لمن يتقي الذنوب .

والفرق بين الخشية والخوف : أن الخوف فيما ظهرت أسبابه والخشية فيما لم تظهر أسبابه .

قوله عز وجل : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : له ملك السموات والأرض .

الثاني : له تدبيرها .

الثالث : له علم ما فيها .

وفي ﴿ . . . الثَّرَى ﴾ وجهان :

أحدها : كل شيء مُبْتّل ، قاله قتادة .

(29/494)

الثاني : أنه التراب في بطن الأرض ، قاله الضحاك .

الثاني : أنها الصخرة التي تحت الأرض السابعة ، وهي صخرة خضراء وهي سجّين التي فيها كتاب الفجار ، قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(30/494)

وقال ابن عطية :

﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

اختلف الناس في قوله ﴿ طه ﴾ بحسب اختلافهم في كل الحروف المتقدمة في أوائل السور إلا قول من قال هناك إن الحروف إشارة إلى حروف المعجم كما تقول أ . ب . ج . د . فإنه لا يترتب هنا لأن ما بعد ﴿ طه ﴾ من الكلام لا يصح أن يكون خبراً عن ﴿ طه ﴾ واختصت أيضاً ﴿ طه ﴾ بأقوال لا تترتب في أوائل السور المذكورة ، فمنها قول من قال ﴿ طه ﴾ اسم من أسماء محمد عليه السلام ، وقوله من ﴿ طه ﴾ معناه " يا رجل بالسريانية " وقيل بغيرها من لغات العجم ، وحكي أنها لغة يمينة في عك وأنشد الطبري : [الطويل]

دعوت بطه في القتال فلم يجب . . . فخفت عليه أن يكون موائلاً

ويروى مزايلاً وقال الآخر : [البسيط]

إن السفاهة طه من خلائقكم . . . لا بارك الله في القوم الملاعين

وقالت فرقة : سبب نزول الآية إنما هو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحمله من مشقة الصلاة حتى كانت قدماه تتورم ويحتاج الى الترويح بين قدميه فقيل له طأ الأرض أي لا تتعب حتى تحتاج الى الترويح ، فالضمير في ﴿ طه ﴾ للأرض وخففت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة ، وقرأت " طه " وأصله طأ فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت ، وقرأ ابن كثير وابن عامر " طَهَ " بفتح الطاء والهاء وروي ذلك عن قالون عن نافع ، وورُوي عن يعقوب عن كسرهما ، وروي عنه بين الكسر والفتح ، وأمالت فرقة ، والتفخيم لغة الحجاز والنبي عليه السلام ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الطاء والهاء ، وقرأ أبو عمرو " طَهِ " بفتح الطاء وكسر الهاء ، وقرأت فرقة " طَهْ " بفتح الطاء وسكون الهاء ، وقد تقدمت ، وروي عن الضحاك وعمرو بن فائد انهما قرأ " طاوي " . وقوله ﴿ لتشقى ﴾ قالت فرقة : معناه لتبلغ عن نفسك في العبادة والقيام في الصلاة ، وقالت فرقة : إنما سبب الآية أن قريش لما نظرت إلى عيش رسول صلى الله عليه وسلم وشظفه وكثرة عبادته قالت : إن محمداً مع ربه في شقاء فنزلت الآية رادة عليهم ، أي إن الله لم ينزل القرآن ليجعل محمداً شقياً بل ليجعله أسعد بني آدم بالنعيم المقيم في أعلى المراتب ، فالشقاء الذي رأيتم هو نعيم النفس ولا شقاء مع ذلك ع : فهذا التأويل أعم من الأول في لفظة الشقاء ، وقوله ﴿ إلا تذكرة ﴾ يصح أن ينصب على البدل من موضع ﴿ لتشقى ﴾ ويصح أن ينصب بفعل مضمر تقديره لكن أنزلناه تذكرة ، و ﴿ يخشى ﴾ يتضمن الإيمان والعمل الصالح إذ الخشية

باعثة على ذلك ، وقوله ﴿ تنزيلاً ﴾ نصب على المصدر ، وقوله ﴿ ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾ صفة أقامها مقام الموصوف ، وأفاد ذلك العبرة والتذكرة وتحقير الأوثان وبعث النفوس على النظر ، و﴿ العلى ﴾ جمع عليا فعلى .

(32/494)

وقوله ﴿ الرحمنُ ﴾ رفع بالابتداء ويصح أن يكون بدلاً من الضمير المستقر في ﴿ خلق ﴾ . وقوله ﴿ استوى ﴾ قالت فرقة : هو بمعنى استولى ، وقال أبو المعالي وغيره من المتكلمين : هو بمعنى استواء القهر والغلبة ، وقال سفيان الثوري : فعل فعلاً في العرش سماه استواء وقال الشعبي وجماعة غيره : هذا من متشابه القرآن يؤمن به ولا يعرض لمعناه ، وقال مالك بن أنس لرجال سأله عن هذا الاستواء فقال له مالك : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والسؤال عن هذا بدعة وأظنك رجل سوء أخرجوه عني ، فأدبر السائل وهو يقول يا أبا عبد الله لقد سألت عنها أهل العراق وأهل الشام فما وفق احد توفيقك .

قال القاضي أبو محمد : وضعف أبو المعالي قول من قال لا يتكلم في تفسيرها بأن قال إن كل مؤمن يجمع على أن لفظة الاستواء ليست على عرفها في معهود الكلام العربي ، فإذا فعل هذا فقد فسر ضرورة ولا فائدة في تأخره على طلب الوجه والمخرج البين ، بل في ذلك

البأس على الناس وإبهام للعوام ، وقد تقدم القول في مسألة الأستواء . وقوله ﴿ له ما في السماوات ﴾ الآية تماد في الصفة المذكورة المنبهة على الخالق المنعم ، وفي قوله ﴿ ما تحت الثرى ﴾ قصص في أمر الحوت ونحوه اختصرته لعدم صحته ، والآية مضمنة أن كل موجود محدث فهو لله بالملك والاختراع ولا قديم سواه تعالى . و﴿ الثرى ﴾ التراب الندي . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(33/494)

وقال ابن الجوزى :

سورة (طه) وهي مكية كلُّها بإجماعهم .

وفي سبب نزول (طه) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يراوح بين قدميه ، يقوم على رِجْل ، حتى نزلت هذه الآية ، قاله [علي] عليه السلام .

والثاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا نزل عليه القرآن صلَّى هو وأصحابه فأطال القيام ، فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إِلا ليشقى ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك .

والثالث : أن أبا جهل ، والنضر بن الحارث ، والمطعم بن عدي ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنك لتشقى بترك ديننا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

وفي "طه" قراءات .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر : "طَهَ" بفتح الطاء والهاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الطاء والهاء .

وقرأ نافع : "طه" بين الفتح والكسر ، وهو إِلى الفتح أقرب ؛ كذلك قال خلف عن المسيّبي .

وقرأ أبو عمرو : بفتح الطاء وكسر الهاء ، وروى عنه عباس مثل حمزة .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين العقيلي ، وسعيد بن المسيب ، وأبو العالية : بكسر الطاء وفتح الهاء .

وقرأ الحسن : "طَهْ" بفتح الطاء وسكون الهاء .

وقرأ الضحاك ، ومورِّق : "طِهْ" بكسر الطاء وسكون الهاء .

واختلفوا في معناها على أربعة أقوال .

أحدها : أن معناها : يا رجل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ؛ واختلف هؤلاء بأيِّ لغة هي ، على أربعة أقوال .

أحدها : بالنبطيّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير في رواية ، والضحاك .

والثاني : بلسان عكّ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : بالسريانية ، قاله عكرمة في رواية ، وسعيد بن جبير في رواية ، وقتادة .

والرابع : بالحبشية ، قاله عكرمة في رواية .

قال ابن الأنباري : ولغة قريش وافقت هذه اللغة في المعنى .

والثاني : أنها حروف من أسماء .

ثم فيها قولان .

(34/494)

أحدهما : أنها من أسماء الله تعالى .

ثم فيها قولان .

أحدهما : أن الطاء من اللطيف ، والهاء من الهادي ، قاله ابن مسعود ، وأبو العالية .

والثاني : أن الطاء افتتاح اسمه "طاهر" و"طيِّب" والهاء افتتاح اسمه "هادي" قاله سعيد بن جبير .

والقول الثاني : أنها من غير أسماء الله تعالى .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الطاء من طابة ، وهي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهاء من مكة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثاني : أن الطاء : طرب أهل الجنة ، والهاء : هوان أهل النار .

والثالث : أن الطاء في حساب الجُمل تسعة ، والهاء خمسة ، فتكون أربعة عشر .

فالمعنى : يا أيها البدر ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، حكى القولين الثعلبي .

والثالث : أنه قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقد شرحنا معنى كونه اسماً في فاتحة (مريم) .

وقال القرظي : أقسم الله بطَوْله وهدايته ؛ وهذا القول قريب المعنى من الذي قبله .

والرابع : أن معناه : طإِ الأرض بقدميك ، قاله مقاتل بن حيان .

ومعنى قوله ﴿ لتشقى ﴾ : لتتعب وتبلغ من الجهد ما قد بلغتَ ، وذلك أنه اجتهد في العبادة وبالغ ، حتى إِنه كان يراوح بين قدميه لطول القيام ، فأُمر بالتخفيف .

قوله تعالى : ﴿ إِلاّ تَذْكِرَةً ﴾ قال الأخفش : هو بدل من قوله : "لتشقى" ما أنزلناه إِلا تذكرةً ، أي : عظةً .

قوله تعالى : ﴿ تنزيلاً ﴾ قال الزجاج : المعنى : أنزلناه تنزيلاً ، و ﴿ العُلى ﴾ جمع العُلَيا ، تقول : سماء عُلْيا ، وسماوات عُلَى ، مثل الكُبرى ، والكُبَر .

فأما "الثرى" فهو التراب النديّ .

والمفسرون يقولون : أراد الثرى الذي تحت الأرض السابعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(35/494)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ اختلف العلماء في معناه ؛ فقال الصدّيق رضي الله تعالى عنه : هو من الأسرار ؛ ذكره الغزنوي .

ابن عباس : معناه يا رجل ؛ ذكره البيهقي .

وقيل : إنها لغة معروفة في عُكْلٍ .

وقيل : في عَكّ ؛ قال الكلبي : لو قلت في عَكّ لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول طه .

وأنشد الطبريّ في ذلك فقال :

دعوت بطه في القتال فلم يُجِبْ . . .

فخفتُ عليه أن يكون مُوَائِلا

ويروى : مُزايلا .

وقال عبد الله بن عمرو : يا حبيبي بلغة عَكّ ؛ ذكره الغزنوي .

وقال قطرب : هو بلغة طيّء ؛ وأنشد ليزيد بن المهلهِل :

إنّ السَّفاهَةَ طَهَ من شمائلكم . . .

لا بارك الله في القوم المَلاَعِين

وكذلك قال الحسن : معنى "طه" يا رجل .

وقاله عكرمة ، وقال : هو بالسريانية كذلك ؛ ذكره المهدويّ ، وحكاه الماوردي عن ابن عباس أيضاً ومجاهد .

وحكى الطبريّ : أنه بالنَّبَطِيّة يا رجل .

وهذا قول السدي وسعيد بن جبير وابن عباس أيضاً ؛ قال :

إن السفاهة طه من خلائقكم . . .

لا قدّس الله أرواح الملاعين

وقال عكرمة أيضاً : هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ؛ ذكره الثعلبي .

والصحيح أنها وإن وجدت في لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا ، وأنها لغة يمنية في عَكّ وطيِّء وعُكل أيضاً .

وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقَسَمٌ أقسم به .

وهذا أيضاً مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمداً .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لي عند ربي عشرة أسماء " فذكر أن فيها طه ويس ، وقيل : هو اسم للسورة ، ومفتاح لها .

وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه .

وقيل : إنها حروف مُقطَّعة ، يدل كل حرف منها على معنى ؛ واختلف في ذلك ؛ فقيل : الطاء شجرة طوبى ، والهاء النار الهاوية ، والعرب تعبر عن الشيء كله ببعضه ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار .

(36/494)

وقال سعيد بن جبير : الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء افتتاح اسمه هادي .

وقيل : "طاء" يا طامع الشفاعة للأمة ، "هاء" يا هادي الخلق إلى الله .

وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء من الهداية ؛ كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : يا طاهراً من الذنوب ، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب .

وقيل : الطاء طُبول الغزاة ، والهاء هيبتهم في قلوب الكافرين .

بيانه قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ [آل عمران : 151]

وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ [الأحزاب : 26] .

وقيل : الطاء طرب أهل الجنة في الجنة ، والهاء هوان أهل النار في النار .

وقول سادس : إن معنى "طه" طوبى لمن اهتدى ؛ قاله مجاهد ومحمد بن الحنفية .

وقول سابع : إن معنى "طه" طَإِ الأرض ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل من مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ، ويحتاج إلى الترويح بين قدميه ، فقيل له : طإ الأرض ؛ أي لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح ؛ حكاه ابن الأنباري .

وقد ذكر القاضي عياض في "الشفاء" أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى "طه" يعني طَإِ الأرض يا محمد ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ .

الزمخشري : وعن الحسن "طَهْ" وفُسّر بأنه أمر بالوطء ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه ، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً ، وأن الأصل طَأْ فقلبت همزته هاء كما قلبت (ألفاً) في "يطا" فيمن قال :

. . .

. . .

لا هَنَاكِ المرتَعُ . . .

ثم بنى عليه هذا الأمر ، والهاء للسكت .

وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ، ثم نسخ ذلك بالفرض ، فنزلت هذه الآية .

(37/494)

وقال الكلبي : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة ، واشتدّت عبادته ، فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية ، فأمره الله تعالى أن يُخفّف عن نفسه فيصلي وينام ، فنسخت هذه الآية قيامَ الليل ؛ فكان بعد هذه الآية يصلي وينام .

وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا ، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ؛ فأنزل الله تعالى "طه" يقول : يا رجل ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ أي لتتعب ؛ على ما يأتي .

وعلى هذا القول : إن "طه" (طاها أي) طإِ الأرض ؛ فتكون الهاء والألف ضمير الأرض ، أي طَإِ الأرض برجليك في صلواتك ، وخُفّفت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة .

وقرأت طائفة "طَهْ" وأصله طَأْ بمعنى طَإِ الأرض فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت .

وقال زرّ بن حبيش : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ فقال له عبد الله : "طِهِ" فقال : يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطأ الأرض برجليه أو بقدميه .

فقال : "طِهِ" كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمال أبو عمرو وأبو إسحاق الهاء وفتحا الطاء .

وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش .

وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين ، واختاره أبو عبيد .

الباقون بالتفخيم .

قال الثعلبي : وهي كلها لغات صحيحة فصيحة .

النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : إحداهما أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة ؛ والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة ، فهاتان علتان بينتان .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ وقرىء "مَا نُزِّلَ عَلَيكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى" .

قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفي ، وبعضهم يقول لام الجحود .

وقال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء .

والشقاء يمدّ ويقصر .

وهو من ذوات الواو .

وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب ، أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب .

قال الشاعر :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله . . .

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فمعنى لتشقى "لتتعب" بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ ﴾ [الكهف : 6] أي ما عليك إلا أن تبلغ وتُذكِّر ، ولم يُكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرّط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة .

وروي أن أبا جهل بن هشام لعنه الله تعالى والنضر بن الحارث قالا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك شقيّ لأنك تركت دين آبائك ؛ فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب في درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها .

وعلى الأقوال المتقدّمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسَمغدَّت قدماه؛ فقال له جبريل: أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً؛ أي ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك في العبادة، وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: هو بدل من "تشقى" أي ما أنزلناه إلا تذكرة.

النحاس: وهذا وجه بعيد؛ وأنكره أبو عليّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوب على المصدر، أي أنزلناه لتذكِّر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أي ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازه: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى، ولئلا تشقى.

﴿ تنزِيلاً ﴾ مصدر؛ أي نزّلناه تنزيلاً.

وقيل: بدل من قوله: "تذكِرة".

وقرأ أبو حيوة الشامي "تنزِيل" بالرفع على معنى هذا تنزِيل.

﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرضَ والسماواتِ العلى ﴾ أي العالية الرفيعة ، وهي جمع العُليَا ؛ كقوله : كُبْرى وصُغْرى وكُبَر وصُغَر ؛ أخبر عن عظمته وجبروته وجلاله ثم قال : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ ويجوز النصب على المدح.

قال أبو إسحاق : الخفض على البدل .

وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن .

النحاس : يجوز الرفع بالابتداء ، والخبر ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ فلا يوقف على "استوى" وعلى البدل من المضمر في "خلق" فيجوز الوقف على "اسْتَوَى" .

وكذلك إذا كان خبر ابتداء محذوف ؛ ولا يوقف على "العُلاَ" .

وقد تقدم القول في معنى الاستواء "في الأعراف" .

والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كَيْفٍ ، كما يكون استواء المخلوقين .

وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة .

﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى .

وقال محمد بن كعب : يعني الأرض السابعة .

ابن عباس : الأرض على نون ، والنون على البحر ، وأن طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان

تحت العرش ؛ والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها ، وهي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض ﴾ [لقمان : 16] ؛ والصخرة على قرن ثور ، والثور على الثرى ، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى .

وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر ، والأرضون سبع ، بين كل أرضَين بحر ، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم ، ولولا عِظمه وكثرة مائة وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها .

قال : وجهنم على متن الريح ، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، وذلك الحجاب على الثرى ، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(40/494)

وقال أبو حيان :

﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

هذه السورة مكية بلا خلاف ، كان عليه السلام يراوح بين قدميه يقوم على رجل فنزلت قاله عليّ .

وقال الضحاك : صلّى عليه السلام هو وأصحابه فأطال القيام لما أنزل عليه القرآن ، فقالت قريش : ما أنزل عليه إلاّ ليشقى .

وقال مقاتل : قال أبو جهل والنضر والمطعم : إنك لتشقى بترك ديننا فنزلت .

ومناسبة هذه السورة لآخر ما قبلها أنه تعالى لما ذكر تيسير القرآن بلسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أي بلغته وكان فيما علل به قوله ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ أكد ذلك بقوله ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلاّ تذكرة لمن يخشى ﴾ والتذكرة هي البشارة والنذارة ، وإن ما ادعاه المشركون من إنزاله للشقاء ليس كذلك بل إنما نزل تذكرة ، والظاهر أن طه من الحروف المقطعة نحو : يس وألر وما أشبههما ، وتقدم الكلام على ذلك في أول البقرة .

وعن ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة : معنى ﴿ طه ﴾ يا رجل .

فقيل بالنبطية .

وقيل بالحبشية .

وقيل بالعبرانية .

وقيل لغة يمنية في عك .

وقيل في عكل .

وقال الكلبي : لو قلت في عك يا رجل لم يجب حتى تقول ﴿ طه ﴾ .

وقال السدّي معنى ﴿ طه ﴾ يا فلان .

وأنشد الطبري في معنى يا رجل في لغة عك قول شاعرهم :

دعوت بطه في القتال فلم يجب . . .

فخفت عليه أن يكون موائلاً

وقول الآخر :

إن السفاهة طه من خلائقكم . . .

لا بارك الله في القوم الملاعين

وقيل هو اسم من أسماء الرسول .

وقيل : من أسماء الله .

وقال الزمخشري : ولعل عكاً تصرفوا في يا هذا كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء فقالوا في يا طأ واختصروا هذا فاقتصروا على ها ، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفي في البيت المستشهد به :

إن السفاهة طه في خلائقكم . . .

لا قدس الله أخلاق الملاعين

انتهى .

وكان قد قدم أنه يقال إن طاها في لغة عك في معنى يا رجل ، ثم تخرص وحزر على عك بما لا يقوله نحوي هو أنهم قلبوا الياء طاء وهذا لا يوجد في لسان العرب قلب يا التي للنداء طاء ، وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرارها التي للتنبيه .

وقيل : طا فعل أمر وأصله طأ ، فخففت الهمزة بإبدالها ألفاً وها مفعول وهو ضمير الأرض ، أي طأ الأرض بقدميك ولا تراوح إذ كان يراوح حتى تورمت قدماه .

وقرأت فرقة منهم الحسن وعكرمة وأبو حنيفة وورش في اختياره ﴿ طه ﴾ .

قيل : وأصله طأ فحذفت الهمزة بناء على قلبها في يطأ على حد لا هناك المرتع بُني الأمر عليه وأدخلت هاء السكت وأجري الوصل مجرى الوقف ، أو أصله طأ وأبدلت همزته هاء فقيل ﴿ طه ﴾ .

وقرأ الضحاك وعمرو بن فائد : طاوي .

وقرأ طلحة ما نزل عليك بنون مضمومة وزاي مكسورة مشددة مبنياً للمفعول ﴿ القرآن ﴾ بالرفع .

وقرأ الجمهور ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن ﴾ ومعنى ﴿ لتشقى ﴾ لتتعب بفرط تأسفك

عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ والشقاء يجيء في معنى التعب ومنه المثل : أتعب من رائض مهر .

وأشقى من رائض مهر .

قال الزمخشري : أي ما عليك إلاّ أن تبلغ وتذكر ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة انتهى .

وقيل : أريد رد ما قاله أبو جهل وغيره مما تقدم ذكره في سبب النزول .

و﴿ لتشقى ﴾ و﴿ تذكرة ﴾ علة لقوله ﴿ ما أنزلنا ﴾ وتعدى في ﴿ لتشقى ﴾ باللام لاختلاف الفاعل إذ ضمير ﴿ ما أنزلنا ﴾ هو لله ، وضمير ﴿ لتشقى ﴾ للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولما اتحد الفاعل في ﴿ أنزلنا ﴾ و﴿ تذكرة ﴾ إذ هو مصدر ذكر ، والمذكر هو الله وهو المنزل تعدى إليه الفعل فنصب على أن في اشتراط اتحاد الفاعل خلافاً والجمهور يشترطونه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أما يجوز أن تقول : ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى كقوله ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ قلت : بلى ولكنها نصبة طارئة كالنصبة في ﴿ واختار موسى قومه

﴾ وأما النصبة في ﴿ تذكرة ﴾ فهي كالتي في ضربت زيد لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها انتهى .

وليس كون أن تشقى إذا حذف الجار منصوب متفقاً عليه بل في ذلك خلاف .

أهو منصوب تعدى إليه الفعل بعد إسقاط الحرف أو مجرور بإسقاط الجار وإبقاء عمله ؟

وقال ابن عطية : ﴿ إلا تذكرة ﴾ يصح أن ينصب على البدل من موضع ﴿ لتشقى ﴾ ويصح أن ينصب بإضمار فعل تقديره لكن أنزلناه تذكرة انتهى .

وقد ردّ الزمخشري تخريج ابن عطية الأول فقال : فإن قلت : هل يجوز أن يكون ﴿ تذكرة ﴾ بدلاً من محل ﴿ لتشقى ﴾ ؟ قلت : لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلاّ فيه بمعنى لكن انتهى .

ويعني باختلاف الجنسين أن نصب ﴿ تذكرة ﴾ نصبة صحيحة ليست بعارضة والنصبة التي تكون في ﴿ لتشقى ﴾ بعد نزع الخافض نصبة عارضة والذي نقول أنه ليس له محل البتة فيتوهم البدل منه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى ﴿ إنا أنزلنا ﴾ إليك ﴿ القرآن ﴾ لتحمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة و ﴿ ما أنزلنا عليك ﴾ هذا المتعب الشاق ﴿ إلاّ ﴾ ليكون ﴿ تذكرة ﴾ وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون ﴿ تذكرة ﴾ حالاً ومفعولاً له ﴿ لمن يخشى ﴾ لمن

يؤول أمره إلى الخشية انتهى .

وهذا معنى متكلف بعيد من اللفظ وكون ﴿ إلاّ تذكرة ﴾ بدل من محل ﴿ لتشقى ﴾ هو قول الزجاج.

وقال النحاس : هذا وجه بعيد وأنكره أبو عليّ من قبل أن التذكرة ليست بشقاء .

وقال الحوفي : ويجوز أن يكون ﴿ تذكرة ﴾ بدلاً من ﴿ القرآن ﴾ ويكون ﴿ القرآن ﴾ هو ﴿ التذكرة ﴾ وأجاز هو وأبو البقاء أن يكون مصدراً أي لكن ذكرنا به ﴿ تذكرة ﴾ .

قال أبو البقاء ولا يجوز أن يكون مفعولاً له لأنزلنا المذكور لأنه قد تعدى إلى مفعول وهو ﴿ لتشقى ﴾ ولا يتعدى إلى آخر من جنسه انتهى .

والخشية باعثة على الإيمان والعمل الصالح .

وانتصاب ﴿ تنزيلاً ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف أي نزل ﴿ تنزيلاًممن خلق ﴾ .

وقال الزمخشري : في نصب ﴿ تنزيلاً ﴾ وجوه أن يكون بدلاً من ﴿ تذكرة ﴾ إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له ، لأن الشيء لا يعلل بنفسه ، وأن ينصب بنزل مضمراً ، وأن

ينصب بأنزلنا لأن معنى ﴿ ما أنزلنا ﴾ ﴿ إلاّ تذكرة ﴾ أنزلناه تذكرة ، وأن ينصب على المدح والاختصاص ، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به أي أنزله الله ﴿ تذكرة لمن يخشى ﴾ تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين انتهى .

والأحسن ما قدمناه أولاً من أنه منصوب بنزل مضمرة .

وما ذكره الزمخشري من نصبه على غير ذلك متكلف أما الأول ففيه جعل ﴿ تذكرة ﴾ و ﴿ تنزيلاً ﴾ حالين وهما مصدران ، وجعل المصدر حالاً لا ينقاس ، وأيضاً فمدلول ﴿ تذكرة ﴾ ليس مدلول ﴿ تنزيلاً ﴾ ولا ﴿ تنزيلاً ﴾ بعض ﴿ تذكرة ﴾ فإن كان بدلاً فيكون بدل اشتمال على مذهب من يرى أن الثاني مشتمل على الأول لأن التنزيل مشتمل على التذكرة وغيرها .

وأما قوله : لأن معنى ما أنزلناه إلاّ تذكرة أنزلناه تذكرة فليس كذلك لأن معنى الحصر يفوت في قوله أنزلناه تذكرة ، وأما نصبه على المدح فبعيد ، وأما نصبه بمن يخشى ففي غاية البعد لأن يخشى رأس آية وفاصل فلا يناسب أن يكون تنزيل مفعولاً بيخشى وقوله فيه وهو معنى حسن وإعراب بين عجمة وبعد عن إدراك الفصاحة .

وقرأ ابن أبي عبلة تنزيل رفعاً على إضمار هو ، وهذه القراءة تدل على عدم تعلق يخشى بتنزيل وأنه منقطع مما قبله فنصبه على إضمار نزل كما ذكرناه ، ومن الظاهر أنها متعلقة بتنزيل ويجوز أن يكون في موضع الصفة فيتعلق بمحذوف .

وفي قوله ﴿ ممن خلق ﴾ تفخيم وتعظيم لشأن القرآن إذ هو منسوب تنزيله إلى من هذه أفعاله وصفاته ، وتحقير لمعبوداتهم وتعريض للنفوس على الفكر والنظر وكأن في قوله ﴿ ممن خلق ﴾ التفات إذ فيها الخروج من ضمير التكلم وهو في ما أنزلناه إلى الغيبة وفيه عادة التفنن في الكلام وهو مما يحسن إذ لا يبقى على نظام واحد وجريان هذه الصفات على لفظ الغيبة والتفخيم بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظم نفسه ، ثم إسناده إلى من اختص بصفات العظمة التي لم يشركه فيها أحد فحصل التعظيم من الوجهين .

وقال الزمخشري ويجوز أن يكون ﴿ أنزلنا ﴾ حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه انتهى .

وهذا تجويز بعيد بل الظاهر أنه إخبار من الله تعالى عن نفسه .

و﴿ العلى ﴾ جمع العليا ووصف ﴿ السموات ﴾ بالعُلَى دليل على عظم قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوها من غيره تعالى ، والظاهر رفع ﴿ الرحمن ﴾ على خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ﴿ الرحمن ﴾ .

وقال ابن عطية : ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير المستتر في ﴿ خلق ﴾ انتهى .

وأرى أن مثل هذا لا يجوز لأن البدل يحل محل المبدل منه ، و﴿ الرحمن ﴾ لا يمكن أن يحل محل الضمير لأن الضمير عائد على من الموصولة و﴿ خلق ﴾ صلة ، والرابط هو الضمير فلا يحل محله الظاهر لعدم الرابط .

وأجاز الزمخشري أن يكون رفع ﴿ الرحمن ﴾ على الابتداء قال يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق .

وروى جناح بن حبيش عن بعضهم أنه قرأ الرحمن بالكسر .

قال الزمخشري : صفة لمن خلق يعني لمن الموصولة ومذهب الكوفيين أن الأسماء النواقص التي لا تتم إلاّ بصلاتها نحو من وما لا يجوز نعتها إلاّ الذي والتي فيجوز نعتهما ، فعلى مذهبهم لا يجوز أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ صفة لمن فالأحسن أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ بدلاً من من ، وقد جرى ﴿ الرحمن ﴾ في القرآن مجرى العلم في ولايته العوامل .

(45/494)

وعلى قراءة الجر يكون التقدير هو ﴿ على العرش استوى ﴾ وعلى قراءة الرفع إن كان بدلاً كما ذهب إليه ابن عطية فكذلك أو مبتدأ كما ذكره الزمخشري ففي موضع الخبر أو خبر مبتدأ كما هو الظاهر ، فيكون ﴿ الرحمن ﴾ والجملة خبرين عن هو المضمر .

وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة في الأعراف .

وما روي عن ابن عباس من الوقف على قوله ﴿ على العرش ﴾ ثم يقرأ ﴿ استوى له ما في السموات ﴾ على أن يكون فاعلاً لاستوى لا يصح إن شاء الله .

ولما ذكر تعالى أنه اخترع السموات والأرض وأنه استوى على العرش ذكر أنه تعالى ﴿ له ﴾ ملك جميع ﴿ ما ﴾ حوت ﴿ السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ أي تحت الأرض السابعة قاله ابن عباس ومحمد بن كعب .

وعن السدّي : هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة .

وقيل : ﴿ ما تحت الثرى ﴾ ما هو في باطن الأرض فيكون ذلك توكيداً لقوله ﴿ وما في الأرض ﴾ إلاّ إن كان المراد بفي الأرض ما هو عليها فلا يكون توكيداً .

وقيل : المعنى أن علمه تعالى محيط بجميع ذلك لأنه منشئه فعلى هذا يكون التقدير ﴿ له ﴾ علم ﴿ ما في السموات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(46/494)

وقال أبو السعود :

﴿ طه ﴾ فخّمهما قالونُ وابنُ كثير وابنُ عامر وحفصٌ ويعقوبُ على الأصل ، والطاءَ

وحده أبو عمْرو وورْشٌ لاستعلائه وأمالَهما الباقون ، وهو من الفواتح التي يُصدّر بها السورُ الكريمةُ وعليه جمهورُ المتْقنين . وقيل : معناه يا رجلُ وهو مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهدٍ وسعيدِ بن جُبير وقَتادةَ وعِكرِمةَ والكلبي ، إلا أنه عند سعيدٍ على اللغة النبْطية وعند قتادة على السُّريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبي على لغة عكّ ، وقيل : عُكْل وهي لغة يمانيةٌ ، قالوا : إن صح فلعل أصلَه يا هذا فتصرّفوا فيه بقلب الياء طاءً وحذفِ ذا من هذا ، وما استُشهد به من قول الشاعر

إن السَّفاهَةَ طاها في خلائِقكُم . . . لا قدّس الله أخلاقَ الملاعينِ

(47/494)

ليس بنص في ذلك لجواز كونِه قسماً كما في حم لا يُنْصرون ، وقد جوز أن يكون الأصلُ طَأْها بصيغة الأمر من الوطء فقُلبت الهمزةُ في يطأُ ألفاً لانفتاح ما قبلها كما في قول مَنْ قال : لا هَناك المرتعُ ، وها ضميرُ الأرض على أنه خطابٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأَ الأرضَ بقدميه لمّا كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه مبالغةً في المجاهدة ، ولكن يأباه كتابتُهما على صورة الحرف ، كما تأبى التفسيرَ بيا رجلُ فإن الكتابةَ على صورة الحرف مع كون التلفظِ بخلافه من خصائص حروفِ المُعجم ، وقرىء إما على أن أصلَه طَأْ

فقلبت همزتُه هاءً كما في أمثال هَرَقتَ أو قلبت الهمزة في يطأ ألفاً كما مر ، ثم بُني منه الأمر وألحق به هاءُ السكت وإما على أنه اكتُفي في التلفظ بشطْري الاسمين وأُقيما مُقامَهما في الدِلالة على المسمَّيين فكأنهما اسماهما الدالان عليها . وعلى هذا ينبغي أن يحمل قولُ من قال : أو اكتفى بشطري الكلمتين وعبّر عنهما باسمهما وإلا فالشطران لم يذكرا من حيث إنهما مسمَّيان لاسمَيهما ليقعا معبَّراً عنهما ، بل من حيث إنهما جزءان لهما قد اكتُفيَ بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأُنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية في الموضعين الشطران من حيث هما جزآنِ للاسمين ، ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقامَ الاسمين فالمعنى اكتُفي في التلفظ بشطري الكلمتين أي الاسمين فعبّر عنهما أي عن الشطرين من حيث هما مسمَّيان بهما من حيث هما قائمان مقامَ الاسمين ، وأما حملُه على معنى أنه اكتُفي في الكتابة بشطري الكلمتين يعني طا على تقديري كونِه أمراً وكونِه حرفَ نداء ، وها على تقديري كونِها كنايةً عن الأرض وكونِها حرفَ تنبيهٍ وعُدل عن ذينك الشطرين في التلفظ باسمهما تبيّن البُطلانُ كيف و(طا) و(ها) على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين ، بل الأول أمرٌ أو حرفُ نداء والثاني ضميرُ الأرض

أو حرفُ تنبيهٍ ، على أن كتابةَ صورةِ الحرف والتلفظَ بغيره من خواصّ حروفِ المعجم كما مر ، فالحق ما سلف من أنها من الفواتح إما مسرودةٌ على نمط التعديدِ بأحد الوجهين المذكورين في مطلع سورة البقرة فلا محلَّ لها من الإعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءانَ لِتَشْقَى ﴾ فإنه استئنافٌ مَسوقٌ لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب ، فإن الشقاءَ شائعٌ في ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مُهْرٍ أي ما أنزلناه عليك لتتعبَ بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العُتاةِ ومحاورة الطغاةِ وفرْطِ التأسّف على كفرهم به والتحسرّ على أن يؤمنوا كقوله عز وجل : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءاثَارِهِم ﴾ الآية ، بل للتبليغ والتذكير وقد فعلتَ فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك ، أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة في المجاهدة في العبادة ، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه ، فقال له جبريلُ عليه السلام : أَبقِ على نفسك فإن لها عليك حقاً ، أي ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسِك وحملِها على الرياضات الشاقةِ والشدائدِ الفادحة وما بُعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وقيل : إن أبا جهل والنضْرَ بنَ الحارث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك شقيٌّ حيث تركت دينَ آبائك وإن القرآنَ نزل عليك لتشقى به ، فرُدّ ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لِما قالوا ، والأولُ هو الأنسبُ كما يشهد به الاستثناء الآتي .

هذا ، وإما اسمٌ للقرآن محلّه الرفعُ على أنه مبتدأٌ وما بعده خبرُه ، والقرآنُ ظاهرٌ أوقع موقعَ العائد إلى المبتدأ كأنه قيل : القرآنُ ما أنزلناه عليك لتشقى ، أو النصبُ على إضمار فعلِ القسم أو الجرُّ بتقدير حرفِه وما بعده جوابُه ، وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسماً للسورة أيضاً بخلاف الوجهِ الأول فإنه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مَقامَه ، فإن القرآنَ صادقٌ على الصورة لا محالة إما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدْرُ المشترَكُ بين الكل والبعض ، أو باعتبار الاندراجِ إن أريد به الكلُّ ، بل لأن نفيَ كونِ إنزالِه للشقاء يستدعي سبقَ وقوعِه الشقاء مترتباً على إنزاله قطعاً إما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعْم الكفرة كما لو أريد به ضدُّ السعادة ، ولا ريب في أن ذلك إنما يُتصور في إنزال ما أُنزل من قبل ، وأما إنزالُ السورةِ الكريمة فليس مما يمكن ترتبُ الشقاءِ السابق عليه حتى يُتصدّى لنفيه عنه . أما باعتبار الاتحادِ فظاهرٌ وأما باعتبار الأندارجِ فلأن مآله أن يقال : هذه السورةُ ما أنزلنا القرآنَ المشتمِلَ عليها لتشقى ، ولا يخفى أن جعْلَها مُخبَراً عنها مع أنه لا دخلَ لإنزالها في الشقاء السابق أصلاً مما لا يليق بشأن التنزيلِ الجليل وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً ﴾ نُصب على أنه مفعولٌ له لأنزلنا لكن لا من حيث أنه معللٌ بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآنَ لتتعب بتبليغه إلا تذكرةً .

. الآية ، كقولك : ما ضربتُك للتأديب إلا إشفاقاً لما أنه يجب في أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسةٌ بالسببية والمسبَّبية حتماً كما في المثال المذكور ، وفي قولك : ما شافهتُك بالسوء لتتأذّى إلا زجراً لغيرك فإن التأديبَ في الأول مسبَّبٌ عن الإشفاق والتأذّي في الثاني سببٌ لزجر الغير ، وقد عرفت ما بين الشقاءِ والتذكرة من التنافي ولا يُجدي أن يراد به التعبُ في الجملة الجامعُ للتذكرة لظهور أن لا ملابسةَ بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكانَ إلا تذكرةً : إلا تكثيراً لثوابك فإن الأجر بقدر التعب ، ولا من حيث أنه بدلٌ من محل لتشقى كما في قوله تعالى : ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ لوجوب المجانسةِ بين البدلين وقد عرفتَ حالَهما ، بل من حيث إنه معطوفٌ عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراكِ المستفادِ من الاستثناء المنقطعِ ، كأنه قيل : ما أنزلنا عليك القرآنَ لتتعب في تبليغه ولكن تذكرةً ﴿ لِّمَن يخشى ﴾ وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلاً لفاعل الفعل المعلّل ، أي لمن شأنُه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثرَ بالإنذار لرقة قلبه ولينِ عريكتِه أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف ، وتخصيصُها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها .

وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لمضمر مستأنفٌ مقرّر لما قبله ، أي نُزّل تنزيلاً أو لما تفيده الجملةُ الاستثنائيةُ فإنها متضمّنةٌ لأن يقال : أنزلناه للتذكرة والأولُ هو الأنسبُ بما بعده من الالتفات أو منصوبٌ على المدح والاختصاص ، وقيل : هو منصوبٌ بيخشى على المفعولية أي يخشى تنزيلاً من الله تعالى ، وأنت خبير بأن تعليقَ الخشيةِ والخوفِ ونظائرِهما بمطلق التنزيلِ غيرُ معهودٍ ، نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائرِه كما في قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ وقيل : هو بدلٌ من تذكرةً لكن لا على أنه مفعولٌ له لأنزلنا إذ لا يعلل الشيءُ بنفسه ولا بنوعه ، بل على أنه مصدرٌ بمعنى الفاعل واقعٌ موقعَ الحال من الكاف في عليك أو من القرآن ، ولا مساغَ له إلا بأن يكون قيداً لأنزلنا بعد تقيّده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف ، وقرىء تنزيلٌ على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومِنْ في قوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ متعلقةٌ بتنزيلاً أو بمضمر هو صفةٌ له مؤكدةٌ لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، ونسبةُ التنزيلِ إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامتِه تعالى بحسب الصفات والأفعال إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق

الإبهامِ ، ثم التفسيرِ لزيادة تحقيق وتقريرٍ ، وتخصيصُ خلقِهما بالذكر مع أن المراد خلقُهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ الآية ، لأصالتهما واستتباعِهما لما عداهما ، وتقديمُ الأرض لكونه أقربَ إلى الحس وأظهرَ عنده ، ووصفُ السمواتِ بالعُلا وهو جمعُ العليا تأنيثُ الأعلى لتأكيد الفخامةِ مع ما فيه من مراعاة الفواصل ، وكل ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ مَسوقٌ لتعظيم شأنِ

(52/494)

المنزِل عز وجل المستتبعِ لتعظيم شأنِ المنزَل الداعي إلى تربية المهابةِ ، وإدخالَ الروعةِ المؤديةِ إلى استنزال المتمرّدين عن رتبة العتوّ والطُّغيان واستمالِتهم نحو الخشية المُفْضِية إلى التذكرة والإيمان .

﴿ الرحمن ﴾ رُفع على المدح أي هو الرحمن وقد عرفت في صدر سورةِ البقرة أن المرفوعَ مدحاً في حكم الصفةِ الجاريةِ على ما قبله وإن لم يكن تابعاً له في الإعراب ، ولذلك التزموا حذفَ المبتدأ ليكون في صورة متعلّق من متعلقاته وقد قرىء بالجر على أنه صفةٌ صريحةٌ للموصول ، وما قيل من أن الأسماءَ الناقصةَ لا يوصف منها إلا الذي وحده مذهب

الكوفيين ، وأياً ما كان فوصفُه بالرحمانية إثرَ وصفِه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقَهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن ﴾ للإيذان بأن ربوبيتَه تعالى بطريق الرحمةِ ، وفيه إشارةٌ إلى أن تنزيلَ القرآنِ أيضاً من أحكام رحمتِه تعالى كما ينبّىء عنه قوله تعالى :

﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان . ﴾ أو رفع على الابتداء واللامُ للعهد والإشارةِ إلى الموصول ، والخبرُ قوله تعالى : ﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ وجعلُ الرحمة عنوانَ الموضوعِ الذي شأنُه أن يكون معلومَ الثُبوت للموضوع عند المخاطَب للإيذان بأن ذلك أمرٌ بيّن لا سُتْرَةَ به غنيٌّ عن الإخبار به صريحاً ، وعلى متعلقةٌ باستوى قدّمت عليه لمراعاة الفواصِل ، والجارُّ والمجرور على الأول خبرُ مبتدأ محذوفٍ كما في قراءة الجرِّ وقد جُوِّز أن يكون خبراً بعد خبر ، والاستواءُ على العرش مجازٌ عن المُلك والسلطان ومتفرّعٌ على الكناية فيمن يجوّز عليه القعودَ على السرير ، يقال : استوى فلانٌ على سرير الملك يراد به مَلَك وإن لم يقعُدْ على السرير أصلاً ، والمرادُ بيانُ تعلقِ إرادتِه الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبيرِ أمرها .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلولِ فيهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو دائماً كالهواء والسحاب أو أكثرياً كالطير ، أي له وحده دون غيرِه لا شِرْكةً ولا استقلالاً كلُّ ما ذكر مُلكاً وتصرفاً وإحياءً وإماتةً وإيجاداً وإعداماً ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ أي ما وراءَ التراب ، وذكرُه مع دخوله تحت ما في الأرض لزيادة التقريرِ ، روي عن محمد بن كعب أنه ما تحت الأرضينَ السبعِ ، وعن السدّي أن الثرى هو الصخرةُ التي عليها الأرضُ السابعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(54/494)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم طه ﴾

فخمها على الأصل ابن كثير .

وابن عامر .

وحفص .

ويعقوب وهو إحدى الروايتين عن قالون .

وورش .

والرواية الأخرى انهما فخما الطاء وأمالا الهاء وهو المروى عن أبي عمرو .

وأمال الحرفين حمزة .

والكسائي .

وأبو بكر ؛ ولعل إمالة الطاء مع أنها من حروف الاستعلاء والاستعلاء يمنع الأمالة لأنها تسفل لقصد التجانس وهي من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة على إحدى الروايتين عن مجاهد بل قيل : هي كذلك عند جمهور المتقنين ، وقال السدى : المعنى يا فلان ، وعن ابن عباس في رواية جماعة عنه .

والحسن .

وابن جبير .

وعطاء .

وعكرمة وهي الرواية الأخرى عن مجاهد أن المعنى يا رجل ، واختلفوا فقيل : هو كذلك بالنبطية .

وقيل : بالحبشية ، وقيل : بالعبرانية ، وقيل بالسريانية .

وقيل : بلغة عكل ، وقيل : بلغة عك .

وروي ذلك عن الكلبي قال : لو قلت في عك : يا رجل لم يجب حتى تقول : طاها وأنشد

الطبري في ذلك قول متمم بن نويرة :

دعوت بطاها في القتال فلم يجب . . .

فخفت عليه أن يكون موائلاً

وقول الآخر :

إن السفاهة طاها من خلائقكم . . .

لا بارك الله في القوم الملاعين

وقال ابن الأنباري : إن لغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا لأن الله تعالى لم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بلسان غير لسان قريش ، ولا يخفى أن مسئلة وقوع شيء بغير لغة قريش من لغات العرب في القرآن خلافية ، وقد بسط الكلام عليها في الإتقان ، والحق الوقوع وتخرص الزمخشري على عك فقال : لعل عكا تصرفوا في يا هذا كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء فقالوا : في يا طا واختصروا هذا واقتصروا على ها .

وتعقبه أبو حيان بأنه لا يوجد في لسان العرب قلب يا التي للنداء طاء وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرارها التي للتنبيه ولم يقل ذلك نحوى .

وذكر في البيت الأخير أنه إن صح فطه فيه قسم بالحروف المقطعة أو اسم السورة على أنه شعر إسلامي كقوله : ﴿ حم لاَ يُنصَرُونَ ﴾ .

وتعقب بأنه احتمال بعيد وهو كذلك في المثال وقد رواه النسائي مرفوعاً .

ولفظ الخبر إذا لقيكم العدو فليكن شعاركم حم لا ينصرون وليس في سياقه دليل على ذلك ، ويحتمل أن يكون لا ينصرون مستأنفاً والشعار التلفظ بحم فقط كأنه قيل : ماذا يكون إذا كان شعارنا ذلك فقيل : لا ينصرون ، وأخرج ابن المنذر .

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه سبحانه ، وعن أبي جعفر أنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأت فرقة منهم أبو حنيفة .

والحسن .

وعكرمة .

وورش ﴿ طه ﴾ بفتح الطاء وسكون الهاء كبل فقيل : معناه يا رجل أيضاً ، وقيل : أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الأرض بقدميه فإنه عليه الصلاة والسلام كما روي عن الربيع بن أنس كان إذا صلى قام على رجل واحدة فأنزل الله تعالى ﴿ طه ﴾ الخ ، وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ يا أَيُّهَا المزمل قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : 1 ، 2] قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلا ويضع رجلاً فهبط عليه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ طه ﴾ الآية

والأصل طأ فقلبت الهمزة هاء كما قالوا في إياك وارقت ولانك هياك وهرقت ولهنك أو قلبت الهمزة في فعله الماضي والمضارع ألفا كما في قول الفرزدق :

راحت بمسلمة البغال عشية . . .

فارعى فزارة لا هناك المرتع

(56/494)

وكما قالوا في سأل ﴿ سال ﴾ [المعارج : 1] وحذفت في الأمر لكونه معتل الآخر وضم إليه هاء السكت وهو في مثل ذلك لازم خطا ووقفا ، وقد يجري الوصل مجرى الوقف فتثبت لفظاً فيه ، وجوز بعضهم أن يكون أصل ﴿ طه ﴾ في القراءة المشهورة طاها على أن طا أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يطا الأرض بقدميه وها ضمير مؤنث في موضع المفعول به عائد على الأرض وإن لم يسبق لها ذكر ، واعترض بأنه لو كان كذلك لم تسقط منه الألفان ورسم المصحف وإن كان لا ينقاس لكن الأصل فيه موافقته للقياس فلا يعدل عنه لغير داع وليست هذه الألف في اسم ولا وسطا كما في الحرث ونحوه لتحذف لا سيما وفي حذفها لبس فلا يجوز كما فصل في باب الخط من التسهيل .

واعترض بهذا أيضاً على تفسيره بيا رجل ونحوه ، وقيل : توجيه ذلك على هذا الأصل

ويعلم منه توجيه آخر لقراءة أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ومن معهم أن يقال : اكتفى من طا بطاء متحركة ومن ها الضمير بهاء ثم عبر عنهما باسميهما فها ليست ضميراً بل هي كالقاف في قوله :

قلت لها قفي فقالت قاف . . .

واعترض أيضاً بأنه كان ينبغي على هذا أن لا تكتب صورة المسمى بل صورة الاسم .

وأجيب بأن كتابة الأسماء بصور المسميات أمر مخصوص بحروف التهجي .

وتعقب بأن ما ذكر لا يقطع مادة الإيراد إذ لو كان كذلك لا نفصل الحرفان في الخط بأن يكتبان هكذا ط ه .

فإن قيل : إن خط المصحف لا ينقاس قيل عليه ما قيل ، والحق أن دعوى أن خط المصحف لا ينقاس قوية جدا وما قيل عليها لا يعول عليه ، وما صح عن السلف يقبل ولا يقدح فيه عدم موافقة القياس ، وإن كانت الموافقة هي الأصل .

وقد روي عن علي كرم الله تعالى وجهه .

والربيع بن أنس أنهما فسرا ﴿ طه ﴾ بطأ الأرض بقدميك يا محمد ولم أقف على طعن في الرواية والله تعالى أعلم .

واختلف في إعرابه حسب الاختلاف في المراد منه فهو على ما نقل عن الجمهور من أن المراد منه طائفة من حروف المعجم مسرودة على نمط التعديد افتتحت بها السورة لا محل له من الاعراب، وكذا ما بعده من قوله تعالى:

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾

فإنه استئناف مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فإن الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه المثل أشقى من رائض مهر، وقول الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله . . .

وأخو الجهالة في الشقاء ينعم

أي ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا به كقوله تعالى شأنه ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم ﴾ [الكهف: 6] الآية بل لتبلغ وتذكر وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة في المجاهدة في العبادة كما سمعت فيما أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه أي ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعث إلا بالحنفية السمحة، وقال مقاتل: إن أبا جهل.

والنضر بن الحرث .

والمطعم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوا كثرة عبادته : إنك لتشقي بترك ديننا وإن القرءان أنزل عليك لتشقي به فرد الله تعالى عليهم ذلك بأنا ما أنزلناه عيك لما قالوا : والشقاء في كلامهم يحتمل أن يكون بمعناه الحقيقي وهو ضد السعادة والتعبير به في كلامه تعالى من باب المشاكلة وإن أريد منه القرآن بتأويل بالمتحدي به جنس هذه الحروف .

فجوز فيه أن يكون محله الرفع على الابتداء والجملة بعده خبره ، وقد أقيم فيها الظاهر أعني القرآن مقام الضمير الرابط لنكتة وهو أن القرآن رحمة يرتاح لها فكيف ينزل للشقاء ، وقيل : الخبر محذوف ، وقيل : هو خبر لمبتدأ محذوف .

والجملة على القولين مستأنفة .

وجوز أن يكون محله النصب على إضمار اتل .

وقيل : على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب بفعله مضمراً نحو قوله :

إن على الله أن تبايعا . . .

وجوز أن يكون محله الجر بتقدير حرف القسم نظير قوله من وجه ،

أشارت كليب بالأكف الأصابع . . .

والجملة بعده على تقدير إرادة القسم جواب القسم .

وجوز هذه الاحتمالات على تقدير أن يكون المراد منه السورة .

وأمر ربط الجملة على تقدير ابتدائيته وخبريتها ان كان القرآن خاصاً بهذه السورة باعتبار كون تعريفه عهديا حضورياً ظاهر .

وإن كان عاماً فالربط به لشموله للمبتدأ كما قيل في نحو زيد نعم الرجل .

ومنع بعضهم إرادة السورة مطلقاً لاتفاق المصاحف على ذكر سورة في العنوان مضافة إلى طه وحينئذ يكون التركيب كإنسان زيد وقد حكموا بقبحه وفيه بحث لا يكاد يخفى حتى على بهيمة الأنعام ، وبعضهم إرادة ذلك على تقدير الأخبار بالجملة بعد قال : لأن نفى كون إنزال القررن للشقاء يستدعي وقوع الشقاء مترتباً على إنزاله قطعاً إما بحسب الحقيقة كما إذا أريد به التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ، ولا ريب في أن ذلك إنما يتصور في إزال ما أنزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار اتحاد القرآن بالسورة فظاهر ، وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن له يقال : هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ، ولا يخفى أن جعلها مخبراً عنها مع أنه لا دخل لإنزالها في الشقاء السابق أصلاً مما لا يليق بشأن التنزيل اه ولا يخلو عن حسن ، وعلى ما روي عن أبي جعفر من أنه من أسمائه صلى

الله عليه وسلم يكون منادي وحكمه مشهور ، والجملة جواب النداء ، ومحله على ما

أخرج ابن المنذر .

وابن مردويه عن الحبر من أنه قسم أقسم الله تعالى به وهو من أسمائه تباركت أسماؤه

النصب أو الجر على ما سمعت آنفاً .

(59/494)

وعلى ما روي عن الأمير كرم الله تعالى وجهه .

والربيع يكون جملة فعلية وقد مر لك تفصيل ذلك ، والجملة بعده مستأنفة استئنافاً نحوياً أو بيانياً كأنه قيل لم اطؤها ؟ فقيل : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ وقرأ طلحة ﴿ مَّا نَزَّلَ عَلَيْكَ القرءان ﴾ بتشديد الفعل وبنائه للمفعول وإسناده إلى القرآن .

﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً ﴾ نصب على الاستثناء المنقطع أي ما أنزلناه لشقائق لكن تذكيراً ﴿ لّمَن يخشى ﴾ أي لمن شأنه أن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف ، والجار والمجرور متعلق بتذكرة أو بمحذوف صفة لها ، وخص الخاشي بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم لتنزيل غيره منزلة العدم فإنه المنتفع به .

وجوز الزمخشري كون "تذكرة" مفعولاً له لِ ﴿ أنزلنا ﴾ [طه : 2] ، وانتصب لاستجماع الشرائط بخلاف المفعول الأول لعدم اتحاد الفاعل فيه ، والمشهور عن الجمهور اشتراطه للنصب فلذا جر ، ويجوز تعدد العلة بدون عطف وإبدال إذا اختلفت جهة العمل كما هنا لظهور أن الثاني مفعول صريح والأول جار ومجرور ، وكذا إذا اتحدت وكانت إحدى العلتين علة للفعل والأخرى علة له بعد تعليله نحو أكرمته لكونه غريباً لرجاء الثواب أو كانت العلة الثانية علة للعلة الأولى نحو لا يعذب الله تعالى التائب لمغفرته له لإسلامه فما قيل عليه من أنه لا يجوز تعدد العلة بدون اتباع غير مسلم .

وفي الكشف أن المعنى على هذا الوجه ما أنزلناه عليك لتحتمل مشاقه ومتاعبه إلا ليكون تذكرة ، وحاصله أنه نظير ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً ، ويرجع المعنى إلى ما أدبتك بالضرب إلا للإشفاق كذلك المعنى هنا ما أشقيناك بإنزال القرآن إلا للتذكرة ، وحاصله حسبك ما حملته من متاعب التبليغ ولا تنهك بدنك ففي ذلك بلاغ اه .

(60/494)

واعترض القول بجعله نظير ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً بأنه يجب في ذلك أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتماً كما في المثال المذكور ، وفي قولك : ما شافهته

بالسوء ليتأذى إلا زجراً لغيره فإن التأديب في الأول مسبب عن الاشفاق والتأذي في الثاني سبب لزجر الغير وما بين الشقاء والتذكرة تناف ظاهر ، ولا يجدي أن يراد به التعب في الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكان ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ إلا تكثيراً لثوابك فإن الأجر بقدر التعب كما في الحديث انتهى.

ولعل قائل ذلك يمنع وجوب أن يكون بين العلتين الملابسة المذكورة أو يدعي تحققها بينهما في الآية بناء على أن التذكرة أي التذكير سبب للتعب كما يشعر بذلك قول المدقق في الحاصل الأخير حسبك ما حملته من متاعب التبليغ الخ ، وقد خفي المراد من الآية على هذا الوجه على ابن المنير فقال: إن فيه بعدا لأنه حينئذ يكون الشقاء سبب النزول وإن لم تكن اللام سببية وكانت للصيرورة مثلاً لم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه صلى الله عليه وسلم من نهيه عن الشقاء والحزن على الكفرة وضيق الصدر بهم وكان مضمون الآية منافياً لقوله تعالى:

﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ [الأعراف: 2] ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءاثَارِهِم ﴾ [الكهف: 6] اه ، وأنت تعلم بعد الوقوف على المراد أن لا منافاة.

نعم بعد هذا الوجه وكون الآية نظير ما ضربتك للتأديب إلا اشفاقاً مما يشهد به الذوق ، ويجوز أن تكون حالاً من الكاف أو ﴿ القرآن ﴾ [طه: 2] والاستثناء مفرغ ، والمصدر

مؤول بالصفة أو قصد به المبالغة .

وجوز الحوفي كونها بدلاً من "القرآن" .

والزجاج كونها بدلاً من محل ﴿ لتشقى ﴾ [طه : 2] لأن الاستثناء من غير الموجب يجوز فيه الإبدال .

(61/494)

وتعقب بأن ذلك إذا كان متصلاً بأن كان المستثنى من جنس المستثنى منه والبدلية حينئذ البدلية البعضية في المشهور ، وقيل : بدلية الكل من الكل ، ولا يخفى عدم تحقق ذلك بين التذكرة والشقاء .

والقول ببداية الاشتمال في مثل ذلك لتصحيح البدلية هنا بناء على أن التذكرة تشتمل على التعب مما لم يقله أحد من النحاة .

واعتبارها لهذا الاشتمال من جنس الشقاء فكأنها متحدة معه لا يجعل الاستثناء متصلاً كما قيل ، وقد سمعت اشتراطه ، وبالجملة هذا الوجه ليس بالوجيه وقد أنكره أبو علي على الزجاج .

وجوز أن يكون مفعولاً له لأنزلنا و ﴿ لتشقى ﴾ [طه : 2] ظرف مستقر في موضع الصفة

للقرآن أي ما أنزلنا القرآن الكائن أو المنزل لتعبك إلا تذكرة ، وفيه تقدير المتعلق مقروناً باللام وحذف الموصول مع بعض صلته وقد أباه بعض النحاة ، وكون أل حرف تعريف خلاف الظاهر ، وقيل : هي نصب على المصدرية لمحذوف أي لكن ذكرناه به تذكرة ، وقوله تعالى :

﴿ تَنْزِيلاً ﴾ كذلك أي نزل تنزيلاً ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

وقيل : لما تفيده الجملة الاستثنائية فإنها متضمنة لأن يقال : إنا أنزلناه للتذكرة والأول أنسب لما بعده من الالتفات .

وقيل : منصوب على المدح والاختصاص .

وقيل : بيخشى على المفعولية .

واستبعدهما أبو حيان وعد الثاني في غاية البعد لأن ﴿ يخشى ﴾ [طه : 3] رأس آية فلا يناسب أن يكون "تنزيلاً" مفعوله .

وتعقب أيضاً بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود .

نعم قد تعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونحوه كما في قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ [التوبة : 64] .

وأنت تعلم أن المعنى على هذا الوجه إلا تذكرة لمن يخشى المنزل من قادر قاهر وهو مما لا خلل فيه ، وأمر عدم المعهودية سهل .

وقيل : هو بدل من ﴿ تذكرة ﴾ [طه : 3] بناء على أنها حال من الكاف أو ﴿ القرآن ﴾ [طه : 2] كما نقل سابقاً وهو بدل اشتمال .

وتعقبه أبو حيان بأن جعل المصدر حالاً لا ينقاس ، ومع هذا فيه دغدغة لا تخفى ، ولم يتجوز البدلية منها على تقدير أن تكون مفعولاً له لأنزلنا لفظاً أو معنى لأن البدل هو المقصود فيصير المعنى أنزلناه لأجل التنزيل وفي ذلك تعليل الشيء بنفسه ان كان الإنزال والتنزيل بمعنى بحسب الوضع أو بنوعه إن كان الإنزال عاماً والتنزيل مخصوصاً بالتدريجي وكلاهما لا يجوز .

وقرأ ابن عبلة "تنزيل" بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو تنزيل ﴿ مّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ متعلق بتنزيل .

وجوز أن يكون متعلقاً بمضمر هو صفة له مؤكدة لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية .

ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبة الإنزال إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى شأنه بحسب الأفعال والصفات أثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثم

التفسير لزيادة تحقيق تقرير .

واحتمال كون "أنزلنا" الخ حكاية لكلام جبرائيل والملائكة النازلين معه عليهم السلام بعيد غاية البعد .

وتخصيص خلق الأرض والسموات بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [البقرة : 255] الآية لاصالتهما واستتباعها لما عداهما ، وقيل : المراد بهما ما في جهة السفل وما في جهة العلو ، وتقديم خلق الأرض قيل لأنه مقدم في الوجود على خلق السموات السبع كما هو ظاهر آية حم السجدة ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] الآية . وكذا ظاهر آية البقرة ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ ﴾ [البقرة : 29] الآية .

(63/494)

ونقل الواحدي عن مقاتل أن خلق السموات مقدم ، واختاره كثير من المحققين لتقديم السموات على الألاض في معظم الآيات التي ذكرا فيها واقتضاء الحكمة تقديم خلق الإشراف والسماء أشرف من الأرض ذاتاً وصفة مع ظاهر ءاية النازعات

﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السماء بناها رفَعَ ﴾ [النازعات : 27] الآية ، واختار بعض المحققين أن خلق السموات بمعنى إيجادها بمادتها قبل خلق الأرض وخلقها بمعنى إظهارها بآثارها بعد خلق الأرض وبذلك يجمع بين الآيات التي يتوهم تعارضها ، وتقديم السموات في الذكر على الأرض تارة والعكس أخرى بحسب اقتضاء المقام وهو أقرب إلى التحقيق ، وعليه وعلى ما قبله فتقديم خلق الأرض هنا قيل لأنه أوفق بالتنزيل الذي هو من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه ما بعد وقوله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 1 ، 2] ويرمز إليه ما قبل فإن الأنعام على الناس بخلق الأرض أظهر وأتم وهي أقرب إلى الحس . وقيل : لأنه أوفق بمفتتح السورة بناء على جعل ﴿ طه ﴾ [طه : 1] جملة فعلية أي طأ الأرض بقدميك أو لقوله تعالى : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ [طه : 2] بناء على أنه جملة مستأنفة لصرفه صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من رفع إحدى رجليه عن الأرض في الصلاة كما جاء في سبب النزول ، ووصف السموات بالعلى وهو جمع العليا كالكبرى تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ [طه : 8] مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم المنزل الداعي إلى استنزال المتمردين عن رتبة العلو والطغيان واستمالتهم إلى التذكر والإيمان .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) ﴾

﴿ الرحمن ﴾ رفع على المدح أي هو الرحمن .

(64/494)

وجوز ابن عطية أن يكون بدلاً من الضمير المستتر في ﴿ خُلِقَ ﴾ [طه : 4] وتعقبه أبو حيان فقال : أرى أن مثل هذا لا يجوز لأن البدل يحل محل المبدل منه ولا يحل ههنا لئلا يلزم خلو الصلة من العائد اه ، ومنع بعضهم لزوم اطراد الحلول ثم قال : على تسليمه يجوز إقامة الظاهر مقام الضمير العائد كما في قوله :

وأنت الذي في رحمة الله أطمع . . .

نعم اعتبار البدلية خلاف الظاهر ، وجوز أن يكون مبتدأ واللام للعهد والإشارة إلى الموصول وخبره قوله تعالى : ﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ ويقدر هو ويجعل خبراً عنه على احتمال البدلية ، وعلى الاحتمال الأول يجعل خبراً بعد خبر لما قدر أولاً على ما في "البحر" وغيره ، وروى جناح بن حبيش عن بعضهم أنه قرأ ﴿ الرحمن ﴾ بالجر ، وخرجه الزمخشري على أنه صفة لمن .

وتعقبه أبو حيان بأن مذهب الكوفيين أن الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلاتها كمن وما

لا يجوز نعتها إلا الذي والتي فيجوز نعتهما فعندهم لا يجوز هذا التخريج فالأحس أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ بدلاً من ﴿ مِنْ ﴾ وقد جرى في القرآن مجرى العلم في وقوعه بعد العوامل ، وقيل : إن ﴿ مِنْ ﴾ يحتمل أن تكون نكرة موصوفة وجملة ﴿ خُلِقَ ﴾ صفتها و ﴿ الرحمن ﴾ صفة بعد صفة وليس ذاك من وصف الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلاتها غاية ما في الباب أن فيه تقديم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد وهو جائزاه وهو كما ترى .

وجملة ﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ على هذه القراءة خبر هو مقدراً ، والجار والمجرور على كل الاحتمالات متعلق باستوى قدم عليه لمراعاة الفواصل ، و ﴿ العرش ﴾ في اللغة سرير الملك وفي الشرع سرير ذو قوائم له حملة من الملائكة عليهم السلام فوق السموات مثل القبة ، ويدل على أن له قوائم ما أخرجاه في "الصحيحين" عن أبي سعيد قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه فقال : يا محمد رجل من أصحابك قد لطم وجهي فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ادعوه فقال : لم لطمت وجهه ؟ فقال : يا رسول الله إني مررت بالسوق وهو يقول : والذي اصطفى موسى على البشر فقلت : يا

خبيث وعلى محمد صلى الله عليه وسلم فأخذتني غضبة فلطمته فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون وأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور " وعلى أن له حملة من الملائكة عليهم السلام قوله تعالى :

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [غافر : 7] .

(66/494)

وما رواه أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة " وعلى أنه فوق السموات مثل القبة ما رواه أبو داود أيضاً عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس ونهكت الأموال أو هلكت فاستسق لنا فإنا نستشفع بك إلى الله تعالى ونستشفع بالله تعالى عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحك أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : ويحك أنه لا يستشفع بالله تعالى على أحد من خلقه شأن الله تعالى أعظم

من ذلك ويحك أتدري ما الله إن الله تعالى فوق عرشه وعرشه فوق سمواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة وأنه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب " ومن شعر أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهل . . .

ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالي الذي بهر النا . . .

س وسوى فوق السماء سريرا

شرجعا لا يناله طرف الع . . .

ين ترى حوله الملائك صورا

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أنه مستدير من جميع الجوانب محيط بالعالم من كل جهة وهو محدد الجهات وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع .

وتعقبه بعض شراح عقيدة الطحاوي بأنه ليس بصحيح لما ثبت في الشرع من أن له قوائم تحمله الملائكة عليهم السلام ، وأيضاً أخرجا في "الصحيحين" عن جابر أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ " والفلك التاسع عندهم متحرك دائماً بحركة متشابهة ، ومن تأول ذلك على أن المراد باهتزازه استبشار

حملة العرش وفرحهم فلا بد له من دليل على أن سياق الحديث ولفظه كما نقل عن أبي الحسن الطبري.

(67/494)

وغيره بعيد عن ذلك الاحتمال، وأيضاً جاء في "صحيح مسلم" من حديث جويرية بنت الحرث ما يدل على أن له زنة هي أثقل الأوزان والفلك عندهم لا ثقيل ولا خفيف، وأيضاً العرب لا تفهم منه الفلك والقرآن إنما نزل بما يفهمون.

وقصارى ما يدل عليه خبر أبي داود عن جبير بن مطعم التقبيب وهو لا يستلزم الاستدارة من جميع الجوانب كما في الفلك ولا بد لها من دليل منفصل.

ثم إن القوم إلى الآن بل إلى أن ينفخ في الصور لا دليل لهم على حصر الأفلاك في تسعة ولا على أن التاسع أطلس لا كوكب فيه وهو غير الكرسي على الصحيح فقد قال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

" ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض".

وروى ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش.

والحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

قال : الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى ، وقد روي مرفوعاً والصواب وقفه على الحبر ، وقيل : العرش كناية عن الملك والسلطان .

وتعقبه ذلك البعض بأنه تحريف لكلام الله تعالى وكيف يصنع قائل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] أيقول ويحمل ملكه تعالى يومئذٍ ثمانية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش " أيقول آخذ بقائمة من قوائم الملك وكلا القولين لا يقولهما من له أدنى ذوق ، وكذا يقال : أيقول في " اهتز عرش الرحمن " الحديث اهتز ملك الرحمن وسلطان ، وفيما رواه البخاري .

(68/494)

وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً " لما قضى الله تعالى الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي فهو عنده سبحانه وتعالى فوق الملك والسلطان " وهذا كذينك القولين ، والاستواء على الشيء جاء بمعنى الارتفاع والعلو عليه وبمعنى الاستقرار كما في قوله تعالى : ﴿ واستوت عَلَى الجودى ﴾ [هود : 44] ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف : 13] وحيث كان ظاهر ذلك مستحيلاً عليه تعالى قيل : الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء كما في قوله :

قد استوى بشر على العراق . . .

وتعقب بأن الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز ، وذلك محال في حقه تعالى ، وأيضاً إنما يقال : استولى فلان على كذا إذا كان له منازع ينازعه وهو في حقه تعالى محال أيضاً ، وأيضاً إنما يقال ذلك إذا كان المستولى عليه موجوداً قبل والعرش إنما حدث بتخليقه تعالى وتكوينه سبحانه ، وأيضاً الاستيلاء واحد بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة .

وأجاب الإمام الرازي بأنه إذا فسر الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية ، ولا يخفى حال هذا الجواب على المنصف ، وقال الزمخشري : لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على العرش البتة وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى أنه جواد أو بخيل ولا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم : جواد ومنه قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ اليهود يَدُ الله ﴾ [المائدة : 64] الآية عنوا الوصف بالبخل ورد عليهم بأنه جل جلاله جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط انتهى ، وتعقبه الإمام قائلاً : إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فإنهم يقولون أيضاً : المراد من قوله تعالى : ﴿ اخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12] الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور نعل ، وقوله تعالى : ﴿ يا نار كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 69] المراد منه تخليص إبراهيم عليه السلام عن يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة .

وكذا القول في كل ما ورد في كتاب الله تعالى بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد في القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه ، وليست من لم يعرف شيئاً لم يخض فيه انتهى ، ولا يخفى عليك أنه لا يلزم من فتح الباب في هذه الآية انفتاح تأويلات الباطنية فيما ذكر من الآيات إذ لا داعي لها هناك والداعي للتأويل بما ذكره الزمخشري قوي عنده ، ولعله الفرار من لزوم المحال مع رعاية جزالة المعنى فإن ما اختاره أجزل من معنى الاستيلاء سواء كان معنى حقيقياً للاستواء كما هو ظاهر كلام الصحاح والقاموس وغيرهما أو مجازياً كما هو ظاهر جعلهم الحمل عليه تأويلاً .

واستدل الإمام على بطلان إرادة المعنى الظاهر بوجوه .

الأول : أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولما خلق الخلق لم يحتج إلى ما كان غنياً عنه .

الثاني : أن المستقر على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الجزء الحاصل منه في يساره فيكون سبحانه وتعالى في نفسه مؤلفاً وهو محال في حقه تعالى للزوم الحدوث .

(70/494)

الثالث : أن المستقر على العرش أما أن يكون متمكناً من الانتقال والحركة ويلزم حينئذٍ أن يكون سبحانه وتعالى محل الحركة والسكون وهو قول بالحدوث أو لا يكون متمكناً من ذلك فيكون جل وعلا كالزمن بل أسوأ حالاً منه تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

الرابع : أنه إن قيل بتخصيصه سبحانه وتعالى بهذا المكان وهو العرش احتيج إلى مخصص وهو افتقار ينزه الله تعالى عنه ، وإن قيل بأنه عز وجل يحصل بكل مكان لزم ما لا يقوله عاقل .

الخامس : أن قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] عام في نفي المماثلة فلو كان جالساً لحصل من يماثله في الجلوس فحينئذٍ تبطل الآية .

السادس : أنه تعالى لو كان مستقراً على العرش لكان محمولاً للملائكة لقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] وحامل حامل الشيء حامل

لذلك الشيء وكيف يحمل المخلوق خالقه .

السابع : أنه لو كان المستقر في المكان إلهاً ينسد باب القدح في الهية الشمس والقمر .

الثامن : أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلى قوم هي تحت بالنسبة إلى آخرين وبالعكس فيلزم من إثبات جهة الفوق للمعبود سبحانه إثبات الجهة المقابلة لها أيضاً بالنسبة إلى بعض ، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال : المعبود تحت .

التاسع : أن الأمة أجمع على أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 1] من المحكمات وعلى فرض الاستقرار على العرش يلزم التركيب والانقسام فلا يكون سبحانه وتعالى أحداً في الحقيقة فيبطل ذلك المحكم .

العاشر : أن الخليل عليه السلام قال : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] فلو كان تعالى مستقراً على العرش لكان جسماً آفلاً أبداً فيندرج تحت عموم هذا القول انتهى .

(71/494)

ثم أنه عفا الله تعالى عنه ضعف القول بأنا نقطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به الظاهر بل مراده سبحانه شيء آخر ولكن لا نعين ذلك المراد خوفاً من الخطا بأنه عز وجل لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا نريد باللفظ إلا موضوعه في لسانهم وإذا كان لا معنى

للاستواء في لسانهم إلا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وأنه غير جائز .

وإلى نحو هذا ذهب الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال في بعض فتاويه : طريقة التأويل بشرطه وهو قرب التأويل أقرب إلى الحق لأن الله تعالى إنما خاطب العرب بما يعرفونه وقد نصب الأدلة على مراده من آيات كتابه لأنه سبحانه قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 19] ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] وهذا عام في جميع آيات القرآن فمن وقف على الدليل أفهمه الله تعالى مراده من كتابه وهو أكمل ممن لم يقف على ذلك إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وفيه توسط في المسألة .

وقد توسط ابن الهمام في المسايرة وقد بلغ رتبة الاجتهاد كما قال عصرينا ابن عابدين الشامي في "رد المحتار" حاشية "الدر المختار" توسطاً أخص من هذا التوسط فذكر ما حاصله وجوب الإيمان بأنه تعالى استوى على العرش نفي التشبيه وأما كون المراد استولى فأمر جائز الإرادة لا واجبها إذ لا دليل عليه وإذا خيف على العامة عدم فهم الاستواء إذا لم يكن بمعنى الاستيلاء إلا بالاتصال ونحوه من لوازم الجسمية فلا بأس بصرف فهمهم إلى الاستيلاء فإنه قد ثبت إطلاقه عليه لغة في قوله :

فلما علونا واستوينا عليهم . . .

جعلناهم مرعى لنسر وطائر

وقوله قد استوى بشر البيت المشهور .

وعلى نحو ما ذكر كل ما ورد مما ظاهره الجسمية في الشاهد كالاصبع والقدم واليد .

ومخلص ذلك التوسط في القريب بين أن تدعو الحاجة إليه لخلل في فهم العوام وبين أن لا تدعو لذلك .

(72/494)

ونقل أحمد زروق عن أبي حامد أنه قال : لا خلاف في وجوب التأويل عند تعين شبهة لا ترتفع إلا به .

وأنت تعلم أن طريقة كثير من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساك عن التأويل مطلقاً مع نفي التشبيه والتجسيم منهم الإمام أبو حنيفة .

والإمام مالك .

والإمام أحمد .

والإمام الشافعي .

ومحمد بن الحسن .

وسعد بن معاذ المروزي .

وعبد الله بن المبارك .

وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري .

وإسحاق بن راهويه .

ومحمد بن إسماعيل البخاري .

والترمذي .

وأبو داود السجستاني .

ونقل القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد في كتاب الاعتقاد عن أبي يوسف عن الإمام أبي حنيفة أنه قال : لا ينبغي لأحد أن ينطق في الله تعالى بشيء من ذاته ولكن يصفه بما وصف سبحانه به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئاً تبارك الله تعالى رب العالمين .

(73/494)

وأخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى قال : سمعت الشافعي يقول لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر فنثبت هذه الصفات وننفي عنها التشبيه كما نفى سبحانه عن نفسه فقال : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ

﴾ [الشورى: 11] ، وذكر الحافظ ابن حجر في "فتح البخاري" أنه قد اتفق على ذلك أهل القرون الثلاثة وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، وكلام إمام الحرمين في الإرشاد يميل إلى طريقة التأويل وكلامه في الرسالة النظامية مصرح باختياره طريقة التفويض حيث قال فيها : والذي نرتضيه رأياً وندين به عقداً اتباع سلف الأمة فالأولى الأتباع وترك الابتداع ، والدليل السمعي القاطع في ذلك إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعاني المتشابهات مع أنهم كانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها فلو كان تأويل هذه الظواهر مسنوناً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق الاهتمام بفروع الشريعة وقد اختاره أيضاً الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي صنفه في اختلاف المضلين ومقالات الإسلاميين ، وفي كتابه الإبانة في أصول الديانة وهو آخر مصنفاته فيما ، قيل : وقال البيضاوي في "الطوالع" : والأولى اتباع السلف في الإيمان بهذه الأشياء يعني المتشابهات ورد العلم إلى الله تعالى بعد نفي ما يقتضي التشبيه والتجسيم عنه تعالى انتهى.

وعلى ذلك جرى محققو الصوفية فقد نقل عن جمع منهم أنهم قالوا : إن الناس ما احتاجوا إلى تأويل الصفات إلا من ذهولهم عن اعتقاد أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق وإذا

كانت مخالفة فلا يصح في آيات الصفات قط تشبيه إذ التشبيه لا يكون إلا مع موافقة حقيقته تعالى لحقائق خلقه وذلك محال .

(74/494)

وعن الشعراني أن من احتاج إلى التأويل فقد جهل أولاً وآخراً أما أولاً فبتعقله صفة التشبيه في جانب الحق وذلك محال ، وأما آخراً فلتأويله ما أنزل الله تعالى على وجه لعله لا يكون مراد الحق سبحانه وتعالى .

وفي "الدرر المنثورة" له أن المؤول انتقل عن شرح الاستواء الجثماني على العرش المكاني بالتنزيه عنه إلى التشبيه بالأمر السلطاني الحادث وهو الاستيلاء على المكان فهو انتقال عن التشبيه بمحدث ما إلى التشبيه بمحدث آخر فما بلغ عقله في التنزيه مبلغ الشرع فيه في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ألا ترى أنه استشهد في التنزيه العقلي في الاستواء بقول الشاعر :

قد استوى البيت ، وأين استواء بشر على العراق من استواء الحق سبحانه وتعالى على العرش فالصواب أن يلزم العبد الأدب مع مولاه ويكل معنى كلامه إليه عز وجل .

(75/494)

ونقل الشيخ إبراهيم الكوراني في تنبيه العقول عن الشيخ الأكبر قدس سره أنه قال في الفتوحات أثناء كلام طويل عجب فيه من الأشاعرة والمجسمة : الاستواء حقيقة معقولة معنوية تنسب إلى كل ذات بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات ولا حاجة لنا إلى التكلف في صرف الاستواء عن ظاهره ، والفقير قد رأى في الفتوحات ضمن كلام طويل أيضاً في الباب الثالث منها ما نصه ما ضل من ضل من المشبهة إلا بالتأويل وحمل ما وردت به الآيات والأخبار على ما يسبق منها إلى الفهم من غير نظر فيما يجب لله تعالى من التنزيه فقادهم ذلك إلى الجهل المحض والكفر الصراح ولو طلبوا السلامة وتركوا الأخبار والآيات على ما جاءت من غير عدول منهم فيها إلى شيء البتة ويكلون علم ذلك إلى الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ويقولون : لا ندري كان يكفيهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ثم ذكر بعد في الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم : الذي رواه مسلم : " إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف شاء " التخيير بين التفويض لكن بشرط نفي الجارحة ولا بد وتبيين ما في ذلك اللفظ من وجوه التنزيه ، وذكر أن هذا واجب على العالم عند تعينه في الرد على بدعي مجسم مشبه ، وقال أيضاً فيما رواه عنه تلميذه المحقق إسماعيل بن سودكين في "شرح التجليات" : ولا يجوز للعبد أن يتأول ما جاء من أخبار السمع لكونها لا تطابق دليله العقلي

كأخبار النزول وغيره لأنه لو خرج الخطاب عما وضع له لما كان به فائدة وقد علمنا أنه عليه الصلاة والسلام أرسل ليبين للناس ما أنزل إليهم ثم رأيناه صلى الله عليه وسلم مع فصاحته وسعة علمه وكشفه لم يقل لنا أنه تنزل رحمته تعالى ومن قال تنزل رحمته فقد حمل الخطاب على الأدلة العقلية والحق ذاته مجهولة فلا يصح الحكم عليه بوصف مقيد معين ، والعرب تفهم نسبة النزول مطلقاً فلا تقيده بحكم دون حكم ، وحيث

(76/494)

تقرر عندها أنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء يحصل لها المعنى مطلقاً منزهاً وربما يقال لك هذا يحيله العقل فقل الشأن هذا إذا صح أن يكون الحق من مدركات العقول فإنه حينئذٍ تمضي عليه سبحانه وتعالى أحكامها انتهى ، وقال تلميذه الشيخ صدر الدين القونوي في مفتاح الغيب بعد بسط كلام في قاعدة جليلة الشأن حاصلها أن التغاير بين الذوات يستدعي التغاير في نسبة الأوصاف إليها ما نصه : وهذه قاعدة من عرفها أو كشف له عن سرها عرف سر الآيات والأخبار التي توهم التشبيه عند أهل العقول الضعيفة واطلع على المراد منها فيسلم من ورطتي التأويل والتشبيه وعاين الأمر كما ذكر مع كمال التنزيه انتهى ، وخلاصة الكلام في هذا المقام أنه قد ورد في الكتاب العزيز والأحاديث

الصحيحة ألفاظ توهم التشبيه والتجسيم وما لا يليق بالله تعالى الجليل العظيم فتشبث المجسمة والمشبهة بما توهمه فضلوا وأضلوا ونكبوا عن سواء السبيل وعدلوا وذهب جمع إلى أنهم هالكون وبربهم كافرون ، وذهب آخرون إلى أنهم مبتدعون وفصل بعض فقال : هم كفرة إن قالوا : هو سبحانه وتعالى جسم كسائر الأجسام ومبتدعة إن قالوا : جسم لا كالأجسام وعصم الله تعالى أهل الحق مما ذهبوا إليه وعولوا في عقائدهم عليه فأثبتت طائفة منهم ما ورد كما ورد مع كمال التنزيه المبرأ عن التجسيم والتشبيه فحقيقة الاستواء مثلاً المنسوب إليه تعالى شأنه لا يلزمها ما يلزم في الشاهد فهو جل وعلا مستو على العرش مع غناه سبحانه وتعالى عنه وحمله بقدرته للعرش وحملته وعدم مماسة له أو انفصال مسافي بينه تعالى وبينه ومتى صح للمتكلمين أن يقولوا : إنه تعالى ليس عين العالم ولا داخلاً فيه ولا خارجاً عنه مع أن البداهة تكاد تقضي ببطلان ذلك بين شيء وشيء صح لهؤلاء الطائفة أن يقولوا ذلك في استوائه تعالى الثابت بالكتاب والسنة .

فالله سبحانه وصفاته وراء طور العقل فلا يقبل حكمه إلا فيما كان في طور الفكر فإن القوة المفكرة شأنها التصرف فيما في الخيال والحافظة من صور المحسوسات والمعاني الجزئية

ومن ترتيبها على القانون يحصل للعقل علم آخر بينه وبين هذه الأشياء مناسبة وحيث لا مناسبة بين ذات الحق جل وعلا وبين شيء لا يستنتج من المقدمات التي يرتبها العقل معرفة الحقيقة فاكف الكيف مشلولة وأعناق التطاول إلى معرفة الحقيقة مغلولة وأقدام السعي إلى التشبيه مكبلة وأعين الأبصار والبصائر عن الإدراك والإحاطة مسملة :

مرام شط مرمى العقل فيه . . .

ودون مداه بيد لا تبيد

وقد أخرج اللالكائي في كتاب السنة من طريق الحسن عن أمه عن أم سلمة أنها قالت : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإقرار به إيمان والجحود به كفر ، ومن طريق ربيعة بن عبد الرحمن أنه سئل كيف استوى على العرش فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول وعلى الله تعالى إرساله وعلى رسوله البلاغ وعلينا التسليم ، ومتى قالوا بنفي اللوازم بالكلية اندفع عنهم ما تقدم من الاعتراضات وحفظوا عن سائر الآفات وهذه الطائفة قيل هم السلف الصالح ، وقيل : إن السلف بعد نفي ما يتوهم من التشبيه يقولون : لا ندري ما معنى ذلك والله تعالى أعلم بمراده .

واعترض بأن الآيات والأخبار المشتملة على نحو ذلك كثيرة جداً ويبعد غاية البعد أن يخاطب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم العباد فيما يرجع إلى الاعتقاد بما لا يدري معناه ، وأيضاً قد ورد في الأخبار ما يدل على فهم المخاطب المعنى من مثل ذلك ، فقد أخرج أبو نعيم عن الطبراني قال : حدثنا عياش بن تميم حدثنا يحيى بن أيوب المقابري حدثنا سلم بن سالم حدثنا خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يضحك من يأس عباده وقنوطهم وقرب الرحمة منهم فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله أو يضحك ربنا ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده إنه ليضحك " قلت : فلا يعدمنا خيراً إذا ضحك فإنها رضي الله تعالى عنها لو لم تفهم من ضحكه تعالى معنى لم تقل ما قالت .

وقد صح عن بعض السلف أنهم فسروا ، ففي "صحيح البخاري" قال مجاهد : استوى على العرش علا على العرش وقال أبو العالية : استوى على العرش ارتفع ، وقيل : إن السلف قسمان قسم منهم بعد أن نفوا التشبيه عينوا المعنى الظاهر المعري عن اللوازم وقسم رأوا صحة تعيين ذلك وصحة تعيين معنى آخر لا يستحيل عليه تعالى كما فعل بعض الخلف فراعوا الأدب واحتاطوا في صفات الرب فقالوا : لا ندري ما معنى ذلك أي المعنى المراد له عز وجل والله تعالى أعلم بمراده .

وذهبت طائفة من المنزهين عن التشبيه والتجسيم إلى أنه ليس المراد الظواهر مع نفي اللوازم بل المراد معنى معين هو كذا وكثيراً ما يكون ذلك معنى مجازياً وقد يكون معنى حقيقياً للفظ وهؤلاء جماعة من الخلق وقد يتفق لهم تفويض المراد إليه جل وعلا أيضاً وذلك إذا تعددت المعاني المجازية أو الحقيقة التي لا يتوهم منها محذور ولم يقم عندهم قرينة ترجح واحداً منها فيقولون : يحتمل اللفظ كذا وكذا والله تعالى أعلم بمراده من ذلك .

(79/494)

ومذهب الصوفية على ما ذكره الشيخ إبراهيم الكوراني وغيره إجراء المتشابهات على ظواهرها مع نفي اللوازم والتنزيه بليس كمثله شيء كمذهب السلف الأول وقولهم بالتجلي في المظاهر على هذا النحو ، وكلام الشيخ الأكبر قدس سره في هذا المقام مضطرب كما يشهد بذلك ما سمعت نقله عنه أولاً مع ما ذكره في الفصل الثاني من الباب الثاني من الفتوحات فإنه قال في عد الطوائف المنزهة : وطائفة من المنزهة أيضاً وهي العالية وهم أصحابنا فرغوا قلوبهم من الفكر والنظر وأخلوها وقالوا : حصل في نفوسنا من تعظيم الله تعالى الحق جل جلاله بحيث لا نقدر أن نصل إلى معرفة ما جاءنا من عنده بدقيق فكر ونظر فاشبهوا في هذا العقد المحدثين السالمة عقائدهم حيث لم ينظروا ولم يؤولوا بل قالوا :

ما فهمنا فقال أصحابنا بقولهم ثم انتقلوا عن مرتبة هؤلاء بأن قالوا : لنا أن نسلك طريقة أخرى في فهم هذه الكلمات وذلك بأن نفرغ قلوبنا من النظر الفكري ونجلس مع الحق تعالى بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيء لقبول ما يرد منه تعالى حتى يكون الحق سبحانه وتعالى متولي تعليمنا بالكشف والتحقق لما سمعوه تعالى يقول : ﴿ واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [البقرة : 282] ﴿ وَأَن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : 29].

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114].

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : 65] فعندما توجهت قلوبهم وهممهم إلى الله عز وجل ولجأت إليه سبحانه وتعالى وألقت عنها ما استمسك به الغير من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول كانت عقولهم سليمة وقلوبهم مطهرة فارغة فعند ما كان منهم هذا الاستعداد تجلى لهم الحق عياناً معلماً فاطلعتهم تلك المشاهدة على معاني تلك الكلمات دفعة واحدة فعرفوا المعنى التنزيهي الذي سيقت له .

ويختلف ذلك بحسب اختلاف مقامات إيرادها وهذا حال طائفة منا وحال طائفة أخرى منا أيضاً ليس لهم هذا التجلي لكن لهم الإلقاء والإلهام واللقاء والكتاب وهم معصومون فيما يلقى إليهم بعلامات عندهم لا يعرفها سواهم فيخبرون بما خوطبوا به وبما ألهموا وما ألقى إليهم أو كتب اه المراد منه .

ولعل من يقول بإجراء المتشابهات على ظواهرها مع نفي اللوازم كمذهب السلف الأول من الصوفية طائفة لم يحصل لهم ما حصل لهاتين الطائفتين والفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء هذا بقي هل يسمى ما عليه السلام تأويلاً أم لا المشهور عدم تسمية ما عليه المفوضة منهم تأويلاً وسماه بعضهم تأويلاً كالذي عليه الخلق ، قال اللقاني : أجمع الخلف ويعبر عنهم بالمؤولة والسلف ويعبر عنهم بالمفوضة على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذي دل عليه الظاهر وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال وعلى الإيمان به بأنه من عند الله تعالى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما اختلفوا في تعيين محمل له معنى صحيح وعدم تعيينه بنا .

على أن الوقف على قوله تعالى : ﴿ والرسخون فِي العلم ﴾ [آل عمران : 7] أو على قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ الله ﴾ ويقال لتأويل السلف إجمالي ولتأويل الخلف تفصيلي انتهى ملخصاً .

وكان شيخنا العلامة علاء الدين يقول : ما عليه المفوضة تأويل واحد وما عليه المؤولة

تأويلان، ولعله راجع إلى ما سمعت، وأما ما عليه القائلون بالظواهر مع نفي اللوازم فقد قيل: إن فيه تأويلاً أيضاً لما فيه من نفي اللوازم وظاهر الألفاظ أنفسها تقتضيها ففيه إخراج اللفظ عما يقتضيه الظاهر، وإخراج اللفظ عن ذلك لدليل ولو مرجوحاً تأويل.

(81/494)

ومعنى كونهم قائلين بالظواهر أنهم قائلون بها في الجملة، وقيل: لا تأويل فيهم لأنهم يعتبرون اللفظ من حيث نسبته إليه عز شأنه وهو من هذه الحيثية لا يقتضي اللوازم فليس هناك إخراج اللفظ عما يقتضيه الظاهر، ألا ترى أن أهل السنة والجماعة أجمعوا على رؤية الله تعالى في الآخرة مع نفي لوازم الرؤية في الشاهد من المقابلة والمسافة المخصوصة وغيرهما مع أنه لم يقل أحد منهم: إن ذلك من التأويل في شيء، وقال بعض الفضلاء: كل من فسر فقد أول وكل من لم يفسر لم يؤول لأن التأويل هو التفسير فمن عدا المفوضة مؤولة وهو الذي يقتضيه ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ والرسخون فِي العلم يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران: 7] بناءً على أن الوقف على ﴿ إِلاَّ اللهُ ﴾ ولا يخفى أن القول بأن القائلين بالظواهر مع نفي اللوازم من المؤولة الغير الداخلين في الراسخين في العلم بناءً على الوقف المذكور لا يتسنى مع القول بأنهم من السلف الذين هم هم وقد يقال: إنهم داخلون

في الراسخين والتأويل بمعنى آخر يظهر بالتتبع والتأمل ، وقد تقدم الكلام في المراد بالمتشابهات وذكرنا ما يفهم منه الاختلاف في معنى التأويل وأنا أميل إلى التأويل وعدم القول بالظواهر مع نفي اللوازم في بعض ما ينسب إلى الله تعالى مثل قوله سبحانه : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] وقوله عز وجل : ﴿ ياحسرة عَلَى العباد ﴾ [يس : 30] كما في بعض القراآت وكذا قوله صلى الله عليه وسلم إن صح : " الحجر الأسود يمين الله في أرضه فمن قبله أو صافحه فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه " فاجعل الكلام فيه خارجاً مخرج التشبيه لظهور القرينة ، ولا أقول : الحجر الأسود من صفاته تعالى كما قال السلف في اليمين وأرى من يقول بالظواهر ونفي اللوازم في الجميع بينه وبين القول بوحدة الوجود على الوجه الذي قاله محققو الصوفية مثل ما بيه سواد العين

(82/494)

وبياضها ، وأميل أيضاً إلى القول بتقبيب العرش لصحة الحديث في ذلك ، والأقرب إلى الدليل العقلي القول بكريته ومن قال بذلك أجاب عن الأخبار السابقة بما لا يخفى على الفطن .

وقال الشيخ الأكبر محيى الدين قدس سره في الباب الحادي والسبعين والثلثمائة من

الفتوحات : إنه ذوار كان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية وبين كل قائمتين قوائم وعددها معلوم عندنا ولا أبينها إلى آخر ما قال ، ويفهم كلامه أن قوائمه ليست بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن ، وصرح بأنه أحد حملته وأنه أنزل عند أفضل القوائم وهي خزانة الحرمة ، وذكر أن العمى محيط به وأن صورة العالم بجملته صورة دائرة فلكية ، وأطال الكلام في هذا الباب وأتى فيه بالعجب العجاب ، وليس له في أكثر ما ذكره فيه مستند نعلمه من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه ما لا يجوز أنا أن نقول بظاهره ، والظاهر أن العرش واحد ، وقال من قال من الصوفية بتعدده ، ولا يخفى ما في نسبة الاستواء إليه تعالى بعنوان الرحمانية مما يزيد قوة الرجاء به جل وعلا وسبحان من وسعت رحمته كل شيء .

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

(83/494)

و﴿ لَهُ ﴾ به على ما يقتضيه ما روى عن ابن عباس من أن الوقف على ﴿ العرش ﴾ [طه : 5] ويكون المعنى استقام له تعالى كل ذلك وهو على مراده تعالى بتسويته عز وجل إياه كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [البقرة : 29] أو

استوى كل شيء بالنسبة إليه تعالى فلا شيء أقرب إليه سبحانه من شيء كما يشير إليه "لا تفضلوني على ابن متي" مما لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً ، والرواية عن ابن عباس غير صحيحة ، ولعل الذي دعا القائل به إليه الفرار من نسبة الاستواء إليه جل جلاله ، ويا ليت شعري ماذا يصنع بقوله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] وهو بظاهره الذي يظن مخالفته لما يقتضيه عقله مثله ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ بل ﴿ لَهُ ﴾ خبر مقدم و﴿ مَا فِى السماوات ﴾ مبتدأ مؤخراً أي له عز وجل وحده دون غير لا شركة ولا استقلالاً من حيث الملك والتصرف والإحياء والإماتة والإيجاد والإعدام جميع ما في السموات والأرض سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلو فيهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو دائماً كالهواء والسحاب وخلق لا نعلمهم هو سبحانه يعلمهم أو أكثرياً كالطير الذي نراه ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ أي ما تحت الأرض السابعة على ما روى عن ابن عباس وأخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب ، وأخرج عن السدي أنه الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء ، وأخرج أبو يعلى عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ما تحت الأرض ؟ قال : الماء قيل : فما تحت الماء ؟ قال : ظلمة قيل : فما تحت الظلمة ؟ قال : الهواء قيل : فما تحت الهواء ؟ قال : الثرى قيل : فما تحت الثرى ؟ قال : انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق .

وأخرج ابن مردويه عنه نحوه من حديث طويل ، وقال غير واحد .

(84/494)

الثرى التراب الندى أو الذي إذا بل لم يصر طيناً كالثريا ممدودة ، ويقال : في تثنيته ثريان وثروان وفي جمعه أثراء ؛ ويقال : ثريت الأرض كرضى تثرى ثرى فهي ثرية كغنية وثرياء إذا نديت ولانت بعد الجدوبة واليبس وأثرت كثر ثراؤها وثرى التربة تثرية بلها والمكان رشه وفلانا ألزم يده الثرى ، وفسر بمطلق التراب أي وله تعالى ما واراه التراب وذكره مع دخوله تحت ما في الأرض لزيادة التقرير ، وإذا كان ما في الأرض ما هو عليها فالأمر ظاهر ، وما تقدم من الإشارة إلى أن المراد له تعالى كل ذلك ملكاً وتصرفاً هو الظاهر .

وقيل : المعنى له علم ذلك أي إن علمه تعالى محيط بجميع ذلك ، والأول هو الظاهر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(85/494)

وقال القاسمى :

﴿ طه ﴾

قدمنا أن الحق في هذه الحروف التي افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففي عجزهم عن محاكاتها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى في " الكافية الشافية " بقوله :

~وانظر إلى السور التي افتتحت بأحْرفها ترى سرّاً عظيم الشان

~لم يأت قط بسورة إلا أتى في إثرها خبر عن القرآن

~إذ كان إخباراً به عنها . وفي هذا الشفاءُ لطالب الإيمان

~ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيان

~فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الأعراف ثم كذا إلى لقمان

~مع تلوها أيضاً ومع حمَ مع يسَ وافهم مقتضى الفرقان

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ أي : لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا والشقاء في معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : تذكيراً له . أي : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ لتتعب بتبليغه ، ولكن تذكرة لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار . والقصد أنه ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة . وقد جرت السنة الإلهية في خطاب الرسول في مواضع من التنزيل ، أن ينهاه عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ [الأعراف : 2] ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى

آثَارِهِمْ ﴾ [الكهف : 6] ، ﴿ وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [آل عِمْرَان : 176] ، وهذه الآية من هذا الباب أيضاً .

(86/494)

وفي ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة ، ما لا يخفى .

ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله : ﴿ تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ ﴾ قرئ بالرفع على المدح . أي : هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول . وقوله : ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أي : علا وارتفع . قاله ابن جرير . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والسلطان . كقولهم : استوى فلان على سرير الملك ، وإن لم يقعد على السرير أصلاً .

وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً .

قال ابن كثير : والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل .

وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيقيّ موجود وأنه مركز العوالم كلها . أي : مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ . بيان لشمول قهره وملكته للكل . أي : كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره . لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 125.124 ﴾

(87/494)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ طه (1) ﴾

أظهر الأقوال فيه عندي – أنه من الحروف المقطعة في أوائل السُّوَر ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة جاءتا في مواضع أخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة أما الطاء ففي فاتحة « الشعراء » ﴿ طسم ﴾ وفاتحة « النمل » ﴿ طس ﴾ . وفاتحة « القصص » وأمَّا الهاء ففي فاتحة « مريم » في قوله تعالى ﴿ كهيعص ﴾ وقد قدمنا الكلام مُسْتوفى على الحروف المقطعة في أول سورة « هود » وخير ما يفسِّر به القرآن القرآن .

وقال بعض أهل العلم : قوله طه : معناه يا رجل . قالوا : وهي لغة بني عك بن عدنان وبني

طيء وبني عكل قالوا : لو قُلتَ لرجل من بني عك : يا رجل لم يَفهم أَنك تناديه حتى تقول طه

ومنه قول متمم بن نويرة التميمي :

دَعَوت بطة في القتال فلم يجب . . . فخفت عليه أن يكون موائلا

ويروى مزايلاً وقال عبد الله بن عمر : معنى (طه) بلغة عك يا حبيبي ذكره الغزنوي . وقال قطرب : هو بلغة طيىء وأنشد ليزيد بن المهلهل .

إن للسفاهة طه في شمائلكم . . . لا بارك الله في القوم الملاعين

ويروى :

إن السفاهة طه من خلائقكم . . . لا قدّس الله أرواح الملاعين

وممن روي عنه أن معنى « طه » : يا رجل ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبو مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير وغيره . وذكره القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النّبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله « طه » يعني طأ الأرض بقدميك يا محمد . وعلى هذا القول فالهاء مبدلة من الهمزة والهمزة حففت بإبدالها أن ألفاً كقول في الفرزدق :

راحت بمسلمة البغال عشية . . . فارعى فزارة لا هناك المرتع

وفي قوله ﴿ طه ﴾ أقوال أخر ضعيفة كالقول بأنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم . والقول بأن الطاء من الطهارة والهاء من الهداية يقول لنبيه : يا طاهراً من الذنوب يا هادي الخلق إلى علام الغيوب وغير ذلك من الأقوال الضعيفة . والصواب إن شاء الله في الأية هو ما صدرنا به ودل عليه القرآن في مواضع أخر .

(89/494)

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)

في قوله تعالى ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ وجهان من التفسير وكلاهما يشهد له القرآن :

الأول – أن المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . أي لتتعب التعب الشديد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم . وتحسرهم على أن يؤمنوا . وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : 8] الآية وقوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] وقوله ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] . والآيات بمثل ذلك

كثيرة جداً وقد قدمنا في مواضع من هذا الكتاب المبارك .

الوجه الثاني – أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالليل حتى تورَّمتْ قدماه فأنزل الله ﴿ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ أي تنهم نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة . وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة . وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب الله كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] وقوله ﴿ يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ﴾ [البقرة : 185] . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(90/494)

ويفهم من قوله : ﴿ لتشقى ﴾ أنه أُنزل عليه ليسعد . كما يدل له الحديث الصحيح : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وقد روى الطبراني عن ثعلبة بن الحك رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن الله يقول للعلماء يوم القيامة : « إني لم أجعل علمي وحكتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي »

وقال ابن كثير : إن إسناده جيد ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ﴾ [المزمل : 20] الآية . وأصل الشقاء في لغة العرب : العناء والتعب ومنه قول أبي الطيب :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله . . . وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] .

(91/494)

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3)

أظهر الأقوال فيه : أنه مفعول لأجله أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة أي إلا لأَجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه . والتذكرة : الموعظة التي تلين لها القُلوب . فتمتثل أمر الله وتجتنب نهيه . وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم لأنهم هم المنتفعون بها كقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [يس : 11] وقوله ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : 45] . فالتخصيص المذكور في الآيات ب ﴿ من ﴾ تنفع فيهم الذكرى لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم . وما ذكره هنا من أنه ما أنزل القرآن إلا للتذكرة – بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير : 27– 28] وقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : 90] إلى غير ذلك من الآيات . وإعراب ﴿ إلا تذكرة بأنه بدل من ﴾

لتشقى ﴾ لا يصح لأن التذكرة ليست بشقاء . وإعرابه مفعولاً مطلقاً أيضاً غير ظاهر .

وقال الزمخشري في الكشاف : ﴿ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ﴾ [طه : 2-3] : ما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون ﴿ تذكرة ﴾ حالاً ومفعولاً له .

(92/494)

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)

في قوله ﴿ تنزيلاً ﴾ أوجه كثيرة من الإعراب ذكرها المفسون . وأظهرها عندي أنه مفعول مطلق منصوب بنزل مضمرة دل عليها قوله ﴿ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] أي أنزله الله ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض ﴾ الآية أي فليس بشعر ولا كهانة ولا سحر ولا أساطير الأولين كما دل لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الحاقة : 41 - 43] والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جداً معروفة كقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 192] الآية وقوله : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ [

الزمر : 1] وقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت : 2] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(93/494)

وقال ابن عاشور :

﴿ طه (1) ﴾

وهذان الحرفان من حروف فواتح بعض السور مثل آلم ، ويس .

ورسما في خط المصحف بصورة حروف التهجي التي هي مسمى (طا) و(ها) كما رُسم جميع الفواتح التي بالحروف المقطعة .

وقرئا لجميع القراء كما قرئت بقية فواتح السور .

فالقول فيهما كالقول المختار في فواتح تلك السور ، وقد تقدم في أول سورة البقرة وسورة الأعراف .

وقيل هما حرفان مقتضبَان من كلمتي (طاهر) و(هاد) وأنهما على معنى النّداء بحذف حرف النداء .

وتقدم وجه المدّ في (طا) (ها) في أول سورة يونس .

وقيل مقتضبان من فعل (طَأْ) أمراً من الوطء .

ومن (ها) ضمير المؤنثة الغائبة عائد إلى الأرض .

وفُسر بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان في أول أمره إذا قام في صلاة الليل قام على رِجْل واحدة فأمره الله بهذه الآية أن يطأ الأرض برجله الأخرى .

ولم يصح .

وقيل (طاها) كلمة واحدة وأن أصلها من الحبشية ، ومعناها إنسان ، وتكلمت بها قبيلة (عَك) أو (عُكْل) وأنشدوا ليزيد بن مهلهل:

إن السفاهة طاها من شمائلكم . . .

لا باركَ الله في القومِ الملاعين

وذهب بعض المفسرين إلى اعتبارهما كلمة لغة (عَك) أو (عُكل) أو كلمة من الحبشية أو النبطية وأنّ معناها في لغة : (عك) يا إنسان ، أو يا رجل ، وفي ما عداها : يا حبيبي ،

وقيل : هي اسم سمى الله به نبيئه صلى الله عليه وسلم وأنه على معنى النّداء ، أو هو قسم به .

وقيل : هي اسم من أسماء الله تعالى على معنى القسم .

ورويت في ذلك آثار وأخبار ذكر بعضها عياض في "الشِّفاء" .

ويجري فيها قول من جعل جميع هذه الحروف متحدة في المقصود منها .

كقول من قال : هي أسماء للسور الواقعة فيها ، ونحو ذلك مما تقدم في سورة البقرة .

وإنما غرّهم بذلك تشابه في النطق فلا نطيل بردها .

وكذلك لا التفات إلى قول من زعموا أنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

(94/494)

افتتحت السورة بملاطفة النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك ، أي تصيبه المشقّة ويشده التعب ، ولكن أراد أن يذكر بالقرآن من يخاف وعيده .

وفي هذا تنويه أيضاً بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادّكروا بالقرآن .

وفي هذه الفاتحة تمهيدٌ لما يرد من أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاضطلاع بأمر التبليغ ، وبكونه من أولي العزم مثل موسى عليه السلام وأن لا يكون مفرطاً في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض .

وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن لأن في ضمن ذلك تنويهاً بمن أنزل عليه وجاء به .

والشقاء : فرط التعب بعمل أو غمّ في النفس ، قال النابغة:

إلاّ مقالةَ أقوام شَقِيت بهم . . .

كانت مقالتهم قَرعا على كبدي

وهمزة الشقاء مُنقلبة عن الواو .

يقال : شَقاء وشَقاوة بفتح الشين وشِقوة بكسرها .

ووقوع فعل ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله ، لأنّ الفعل في سياق النفي بمنزلة النكرة في سياقه ، وعموم الفعل يستلزم عموم متعلقاته من مفعول ومجرور .

فيعمّ نفي جميع كلّ إنزال للقرآن فيه شقاء له ، ونفي كل شقاء يتعلق بذلك الإنزال ، أي جميع أنواع الشّقاء فلا يكون إنزال القرآن سبباً في شيء من الشقاء للرسول صلى الله عليه وسلم وأول ما يراد منه هنا أسف النبي صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن الإيما ن بالقرآن .

قال تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [الكهف : 6] .

ويجوز أن يكون المراد : ما أرسلناك لتخِيب بل لنؤيدك وتكون لك العاقبة .

وقوله ﴿ إلاَّ تَذْكِرَةً ﴾ استثناء مفرّغ من أحوال للقرآن محذوفة ، أي ما أنزلنا عليك القرآن

في حال من أحوال إلا حال تذكرة فصار المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وما أنزلناه في حال من الأحوال إلا تذكرة .

(95/494)

ويدل لذلك تعقيبه بقوله ﴿ تنزيلاً ممّن خلَق الأرضَ ﴾ الذي هو حال من القرآن لا محالة ، ففعل ﴿ أنْزَلنا ﴾ عامل في ﴿ لِتَشْقَى ﴾ بواسطة حرف الجرّ ، وعامل في ﴿ تَذْكِرة ﴾ بواسطة صاحب الحال ، وبهذا تعلم أن ليس الاستثناء من العلّة المنفية بقوله : ﴿ لِتَشْقَى ﴾ حتى تتحير في تقويم معنى الاستثناء فتفزع إلى جعله منقطعاً وتقع في كُلف لتصحيح النّظم .

وقال الواحدي في "أسباب النزول" : "قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث (وزاد غير الواحدي : الوليد بن المغيرة ، والمطعِم بنَ عديّ) للنبيء صلى الله عليه وسلم إنك لتشقى بترك ديننا ، لما رأوا من طول عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ الآية ، وليس فيه سند .

والتذكرة : خطور المنسي بالذهن ؛ فإن التوحيد مستقرّ في الفطرة والإشراك مناف لها ، فالدعوة إلى الإسلام تذكير لما في الفطرة أو تذكير لملّة إبراهيم عليه .

و﴿ من يخشى ﴾ هو المستعد للتأمل والنظر في صحة الدّين ، وهو كل من يفكّر للنجاة في العاقبة ، فالخشية هنا مستعملة في المعنى العَربي الأصلي ، ويجوز أن يراد بها المعنى الإسلامي ، وهو خوف الله ، فيكون المراد من الفعل المآل ، أي من يؤول أمره إلى الخشية بتيْسِير الله تعالى له التقوى ، كقوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] أي الصائرين إلى التقوى .

و﴿ تنزيلاً ﴾ حال من ﴿ القُرءَانَ ﴾ ثانية .

والمقصود منها التنويه بالقرآن والعناية به لينتقل من ذلك إلى الكناية بأن الذي أنزله عليك بهذه المثابة لا يترك نصرك وتأييدك .

والعدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من تحتم إفراده بالعبادة ، لأنه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم مما هو أعظم منهم خلقاً ، ولذلك وُصف والسَّمَاوات بالعُلَى صفةً كاشفةً زيادةً في تقرير معنى عظمة خالقها .

(96/494)

وأيضاً لمّا كان ذلك شأن مُنْزل القرآن لا جرم كان القرآن شيئاً عظيماً ، كقول الفرزدق:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا . . .

بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

و﴿ الرحمن ﴾ يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف لازم الحذف تبعاً للاستعمال في حذف المسند إليه كما سماه السكّاكي .

ويجوز أن يكون مبتدأ .

واختير وصف ﴿ الرحمن ﴾ لتعليم النّاس به لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمان : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان ﴾ [الفرقان : 60] .

وفي ذكره هنا وكثرة التذكير به في القرآن بعث على إفراده بالعبادة شكراً على إحسانه بالرحمة البالغة .

وجملة ﴿ على العرش استوى ﴾ حال من ﴿ الرحمن ﴾ .

أو خبر ثان عن المبتدأ المحذوف .

والاستواء : الاستقرار ، قال تعالى : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ [المؤمنون : 28] الآية .

وقال : ﴿ واستوت على الجوديّ ﴾ [هود : 44] .

والعرش : عالم عظيم من العوالم العُليا ، فقيل هو أعلى سماء من السماوات وأعظمها .

وقيل غير ذلك ، ويسمى : الكرسي أيضاً على الصحيح ، وقيل : الكرسي غير العرش .

وأيّاً مّا كان فذكر الاستواء عليه زيادة في تصوير عظمة الله تعالى وسعة سلطانه بعد قوله :

﴿ ممّنْ خلقَ الأرضَ والسموات العُلى ﴾ .

وأما ذكر الاستواء فتأويله أنه تمثيل لشأن عظمة الله بعظمة أعظم الملوك الذين يجلسون على العروش .

وقد عرَفَ العرب من أولئك ملوكَ الفرس وملوكَ الروم وكان هؤلاء مضرب الأمثال عندهم في العظمة .

وحَسّنَ التعبيرَ بالاستواء مقارنته بالعرش الذي هو ممّا يُستوى عليه في المتعارف ، فكان ذكر الاستواء كالترشيح لإطلاق العرش على السماء العظمى ، فالآية من المتشابه البيّن تأويله باستعمال العرب وبما تقرر في العقيدة : أن ليس كمثله شيء .

وقيل : الاستواء يستعمل بمعنى الاستيلاء .

وأنشدوا قول الأخطل:

قد استوى بشر على العراق . . .

بغير سيف ودمٍ مُهْراق

وهو مولّد .

ويحتمل أنه تمثيل كالآية .

ولعلّه انتزعه من هذه الآية .

وتقدم القول في هذا عند قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ في سورة [الأعراف : 54] .

وإنما أعدنا بعضه هنا لأن هذه الآية هي المشتهرة بين أصحابنا الأشعرية .

وفي تقييد الأبيّ على تفسير ابن عرفة : واختار عز الدين بن عبد السلام عدم تكفير من يقول بالجهة .

قيل لابن عرفة : عادتك تقول في الألفاظ الموهمة الواردة في الحديث كما في حديث السوداء وغيرها ، فذكر النبي دليلٌ على عدم تكفير من يقول بالتجسيم ، فقال : هذا صعب ولكن تجاسرتُ على قوله اقتداء بالشيخ عز الدين لأنه سبقني لذلك .

وأتبع ما دلّ على عظمة سلطانه تعالى بما يزيده تقريراً وهو جملة : له ما في السمَّوات ﴾ الخ .

فهي بيان لجملة ﴿ الرحمان على العرش استوى ﴾ .

والجملتان تدلان على عظيم قدرته لأن ذلك هو المقصود من سعة السلطان .

وتقديم المجرور في قوله ﴿ له ما في السموات ﴾ للقصر ، رداً على زعم المشركين أن لآلهتهم تصرفات في الأرض ، وأن للجنّ اطلاعاً على الغيب ، ولتقرير الردّ ذكرت أنحاء الكائنات ،

وهي السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

والثّرى : التراب .

وما تحته : هو باطن الأرض كله .

وجملة ﴿ له ما في السَّموات ﴾ عطف على جملة ﴿ على العرشِ اسْتَوى ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(98/494)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ طه (1) ﴾

تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطَّعة في بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد في (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهي اسم من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآخرون يروْنَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهي حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما في (ن) حرف وهو اسم للحوت : ﴿ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ [الأنبياء : 87] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ، فتكون (طه) اسماً من أسماء

الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وأن بعدها : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] .

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنها حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْز فيُخَفِّفونها ، كما في ذئب يقولون : ذيب وفي بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطّعة تختلف عن باقي آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنيت على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف ؛ لذلك فكل المصاحف تُبنَى على الوَصْل في الآيات وفي السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم في السورة التي بعدها .

(99/494)

تقول : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ [مريم : 98] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى في آخر سور القرآن ونهايته تقول : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ [الناس : 6] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة في القرآن ، وماذا سيقول بعدها ؟ لكنها

جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصول أوَّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوَهُ ، أو تظن أنك أنهيته ؛ لأن نهايته موصولة ببدايته ؛ فنقرأ ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ ﴿ بِسمِ الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ الحمدُ لله رب العالمين . . . .

إذن : فالقرآن كله في كل جملة وكل آية وكل سورة مبنيٌّ على الوَصْل ، إلا في فواتح السور بالحروف المقطّعة تُبنَى على الوقف (ألف لام ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربِّ العالمين .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال " تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات " .

يقول الحق سبحانة : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن ﴾

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ ، فالحق سبحانه ينفي عن رسوله صلى الله عليه وسلم التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل ؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أَهْلاً لنزول القرآن عليك ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفِعْل الخير كل الخير .

فلماذا إذن جاءتْ كلمة ﴿ لتشقى ﴾ [طه : 2] ؟ .

هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل ، ومُطعِم بن عدي ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له : لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة .

(100/494)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله بعثني رحمة للعالمين" .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِي معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذي نزل به القرآن لوجده يتدخل في إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألَف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعِب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزِلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب في الدنيا على أمل الثواب في الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً . كالتلميذ الذي يتحمل مشقّة الدرس والتحصيل ؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار في منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها ؛ لذلك شعروا بالمشقة ، في حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هي التي جعلتهم يتخذون آلهةً لا مطالبَ لها ، ولا منهج ، ولا تكليف ، آلهة يعبدونها على هواهم ، ويسيرون في ظلها على حَلِّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون في هذه المسألة ، فقال : ﴿ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] .

أو يكون الشقاء : تعرُّضه لِعُتاة قريش وصناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، يشتمونه ويرمونه بالحجارة ، وهو صلى الله عليه وسلم يُشقِي نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

(101/494)

والحق تبارك وتعالى ينفي الشقاء بهذا المعنى أيضاً : ﴿ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] أي : لتُشقي نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبليغهم فحسب ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً في مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ

أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً ولله المثَل الأعلى برجل عنده عبدان : ربط أحدهما إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره ؟

لا شكَّ أنه الحر الطليق ؛ لأنه جاء مختاراً ، في حين كان قادراً على العصيان .

وكذلك ربك تبارك وتعالى يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم ؟ طالما أن ربه هو الذي يُصوّب له ، هل أنتم الذين صَوَّبتم لرسول الله ! ؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله ؟ أليس هو الذي أخبركم ؟ أليس هذا من قوة أمانته في التبليغ ويجب أن تحمد له ؟

إذن : فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستنكف أنْ يُربّيه ربه ؛ لذلك يقول : " إنما أنا بشر يَرِد عليَّ يعني من الحق فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم " .

وقد تمحّك هؤلاء كثيراً في قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل في هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شيء ، فالكلام معه ميسور وأمر سَهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد في خصومتهم للإسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه في جدالهم أملاً في أنْ يهدي الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبي في هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عِتَاب لصالحه ، له لا عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ﴾

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3)

أي : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أي تذكيراً (لِمَنْ يَخْشَى) الخشية : خوْف بمهابة ؛ لأن الخوف قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخوْف ومهابة معاً .

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)

تنزيلاً : مصدر أي : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد في نزول القرآن : أنزلناه ، ونزلناه ونزل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر * لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ [القدر : 14] .

لأن القرآن أخذ أدواراً عِدّةً في النزول، فقد كان في اللوح المحفوظ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته في الوجود، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا . فأنزله أي الله تعالى ثم تَنَزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نزل به جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ [طه : 4] .

(103/494)

خَصَّ السموات والأرض، لأنها من أعظم خَلْق الله، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعدَّ لخدمته بأرضه وسمائه، ولا قدرة له على تسيير شيء منها، كان عليه أن يُعمِل عقله، ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق تبارك وتعالى يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء ؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته في الأرض استبقاءَ حياته، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام

وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة .

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظةً تستغرق عِدَّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذي لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن في جسمك على شكل دُهْن يُغذِّي الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أي مادة أخرى يحتاجها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحول كيماوياً إلى الحديد ، وإن احتاج الزرنيخ تتحول كيماوياً إلى زرنيخ ، وهي في الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى ؟

وبعد أنْ أعطاك ما يستبقي حياتك من الطعام والشراب والهواء أعطاك ما يستبقي نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : ﴿ السماوات العلى ﴾ [طه : 4] العلا : جمع عُليا ، كما تقول في جمع كبرى : كُبَر ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ [المدثر : 35] .

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالي لخليفة الله في الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حياته ونوعه بخَلْق السموات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القرآن الذي يحرس حركاتنا من شراسة الشهوات ، فالذي أنزل القرآن هو الذي خلق الأرض والسموات العلا .

والصفة البارزة في هذا التكوين العالي للإنسان هي صِفَة الرحمانية ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ الرحمن عَلَى العرش ﴾

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) ﴾

فالآية السابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحمة ، وهذه تعطينا مظهراً من مظاهر القَهْر والغَلَبة ، واستواء الرحمن تبارك وتعالى على العرش يُؤخَذ في إطار .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] .

وسبق أن تكلمنا في الصفات المشتركة بين الحق سبحانه وبين خَلْقه ، فلَكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ، أو أن بصره كبصرك .

كذلك في مسألة الاستواء على العرش ، فالحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس

كاستوائك أنت على الكرسي مثلاً .

والعرش في عُرْف العرب هو سرير المُلك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أ نْ يستتبّ له الأمر ؟

وكذلك الخالق جَلّ وعلا خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينظم حياتهم ، وبعد أن استتبّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه ؛ لأنهم في حاجة إلى قيوميته تعالى في خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه في الحديث القدسي : "يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم ، لأنِّي قَيُّوم لا أنام ".

فكوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها ؛ لذلك كانت المعجزات التي تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾

الحق تبارك وتعالى يمتنُّ بما يملكه سبحانه في السموات وفي الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشيء النفيس الذي يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما في الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ، ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات في السموات والأرض ، والناظر في حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما حفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى في عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن في الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا في العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةً تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة في أرض الله بالتساوي ، بحيث لو أخذتَ قطاعاتٍ متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهي أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قِطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ طه (1) ﴾

قد تقدَّمَ الكلامُ في الحروفِ المُقَطَّعةِ أول هذا الموضوعِ ، و" طه " مِنْ ذاك ، هذا هو الصحيح . وقيل : إنَّ معنى " طه " يا رجلُ في لغةِ عَك ، وقيل : عُكْل ، وقيل : هي لغة يمانية . وحكى الكلبي أنك لو قلتَ في عَكّ : يا رجلُ ، لم يُجِبْ حتى تقولَ : طه .

وقال الطبري : " طه في عَكّ بمعنى : يا رجلُ " ، وأنشدَ قولَ شاعرهم :

3269 دَعَوْتُ بِطهَ في القتالِ فلم يُجِبْ . . . فَخِفْتُ عليهِ أَنْ يكونَ مُوائِلا

وقول آخر :

3270 إنَّ السَّفاهةَ طه في خلائِقكمْ . . . لا قَدَّسَ اللهُ أُرواحَ المَلاعينِ

قال الزمخشري : " وأثرُ الصَّنْعَةِ ظاهرٌ في البيت المستشهدِ به " فذكره ، وقال السدي : " معناه : يا فلانُ " . وقال الزمخشري أيضاً : " ولعل عَكّاً تَصرَّفوا في " يا هذا " ، كأنهم في لغتهم قالبون الياءَ طاءً ، فقالوا : في يا : طا ، واختصروا " هذا " فاقتصروا على " ها " .

يعني فكأنه قيل في الآية الكريمة: يا هذا . وفيه بُعدٌ كبيرٌ .

قال الشيخ: "ثم تَخَرَّص وحَزَرَ على عَك ما لم يَقُلْه نحويٌّ: وهو أنهم يقلبون يا التي للنداء طاءً، ويحذفون اسم الإشارة ويقتصرون منه على "ها" التي للتنبيه" . قلت: وهذا وإن كان قريباً مما قاله عنه إلاَّ أنه أنحى عليه في عبارته بقوله "تَخَرَّص" .

وقيل: "طه" أصلُه طَأْها بهمزة "طَأْ" أمراً مِنْ وَطِئ يَطَأُ، و"ها" ضميرُ مفعولٍ يعودُ على الأرض، ثم أبدل الهمزة لسكونها ألفاً، ولم يَحْذِفْها في الأمرِ نظراً إلى أصلها أي: طَأَ الأرضَ بقدمَيْكَ . وقد جاء في التفسير: "أنه قام حتى تورَّمَتْ قدماه" .

(107/494)

وقرأ الحسنُ وعكرمةُ وأبو حنيفةَ وورشٌ في اختياره/ بإسقاطِ الألفِ بعد الطاء، وهاءٍ ساكنة . وفيها وجهان، أحدهما: أنَّ الأصلَ "طَأْ" بالهمز أمراً أيضاً مِنْ وَطِئ يَطَأُ، ثم أبدلَ الهمزةَ هاءً كإبدالهم لها في "هَرَقْتُ" و"هَرَحْتُ" و"هَبَرْتُ" . والأصلُ: أَرَقْتُ وأَرَحْتُ وأَبَرْتُ . والثاني: أنه أبدل الهمزةَ ألفاً، كأنه أَخَذه مِنْ وَطي يَطا بالبدل كقوله:

3271 . . . .

. . . . . لا هَنَاكِ المَرْتَعُ

ثم حذَفَ الألفَ حَمْلاً للأمرِ على المجزومِ وتناسِياً لأصلِ الهمزِ ثم ألحق هاءَ السكتِ ، وأجرى الوصلَ مُجْرى الوقفِ . وقد تقدَّم في أولِ يونس الكلامُ على إمالةِ طا وها فأغنى عن أعادتِه هنا .

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

قوله : ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ . وقرأ طلحة " ما نُزِّلَ " مبنياً للمفعول ، " القرآنُ " رُفِعَ لقيامه مَقامَ فاعِله .

وهذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ مستأنفةً إنْ جُعِلت " طه " تعديداً لأسماءِ الحروفِ ، ويجوز أن تكونَ خبراً ل طه إنْ جَعَلْتَها اسماً للسورة ويكون القرآنُ ظاهراً واقعاً موقعَ المضمرِ ؛ لأنَّ طه قرآنٌ أيضاً ، ويجوز أن تكونَ جوابَ قسمٍ ، إنْ جَعَلْتَ طه مُقْسَماً به ، وقد تقدَّم تفصيلُ القولِ في هذا .

(108/494)

قوله : ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً ﴾ : في نصبه أوجهٌ ، أحدها : أن تكونَ مفعولاً من أجله . والعاملُ فيه فِعْلُ الإنزال ، وكذلك " تَشْقَى " علةٌ له أيضاً ، ووجبَ مجيءُ الأولِ مع اللامِ لأنه ليس لفاعلِ الفعلِ المُعَلَّل ، ففاتَتْه شريطةُ الانتصابِ على المفعولية ، والثاني جاز قطع اللام عنه

ونصبه لاستجماعه الشرائط . هذا كلام الزمخشري ، ثم قال : " فإن قلتَ : " هل يجوزُ أن تقولَ : ما أُنْزَلْنا ، أن تَشقى كقوله ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [الحجرات : 2] ؟ قلت : بلى ولكنها نصبةٌ طارئة كالنصبةِ في ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] وأما النصبةُ في " تَذْكِرَةً " فهي كالتي في " ضَرَبْت زيداً " لأنه أحدُ المفاعيلِ الخمسةِ التي هي أصولٌ وقوانينُ لغيرِها " .

قلت : قد منع أبو البقاء أن تكونَ " تَذْكِرَةً " مفعولاً له لأَنْزَلْنا المذكورةِ ، لأنها قد تعدَّتْ إلى مفعولٍ له وهو " لتشقى " فلا تتعدى إلى آخرَ مِنْ جنسِه . وهذا المنعُ ليس بشيءٍ ؛ لأنه يجوزُ أَنْ يُعَلَّلَ الفعلُ بعلتين فأكثرَ ، وإنما هذا بناءً منه على أنه لا يُفضِي العاملُ من هذه الفَضَلاتِ إلاَّ شيئاً واحداً ، إلاَّ بالبدليةِ أو العطف .

الثاني : أن تكونَ " تذكرة " بدلاً مِنْ محلِّ " لِتَشْقَى " وهو رأيُ الزجاج ، وتبعه ابنُ عطية ، واستبعده أبو جعفر ، وردَّه الفارسيُّ بأنَّ التذكرةَ ليسَتْ بشقاءٍ . وهو ردٌّ واضحٌ . وقد أوضح الزمخشريُّ هذا فقال : " فإنْ قلتَ : هل يجوزُ أن تكونَ " تذكرةً " بدلاً مِنْ محلِّ " لِتشْقى " ؟ قلت : لا ؛ لاختلافِ الجنسينِ ولكنها نُصِبَتْ على الاستثناءِ المنقطعِ الذي " إلاَّ " فيه بمعنى " لكن " .

قال الشيخُ: "يعني باختلافِ الجنسَيْنِ أن نَصْبَةَ "تذكرةً" نصبةٌ صحيحةٌ ليست بعارضةٍ، والنصبةُ التي تكون في "لِتشقى" بعد نَزْعِ الخافضِ نصبةٌ عارضةٌ. والذي تقول: إنه ليس له محلٌّ البَتَةَ فيتوهمُ البدلُ منه". قلت: ليس مُرادُ الزمخشري باختلافِ الجنسين إلاَّ ما ذكرتُه عن الفارسيِّ ردّاً على الزجاج، وأيُّ أثرٍ لاختلاف النصبين في ذلك؟

الثالث: أن يكونَ منصوباً على الاستثناء المنقطع أي: لكنْ أَنْزَلْناه تذكرةً. الرابع: أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعلٍ مقدر، أي: لكنْ ذكَّرْنا، أو تذكَّرْ به أنت تَذْكِرة. الخامس: أنه مصدرٌ في موضع الحال أي: إلاَّ مُذَكِّراً. السادس: أنه بدلٌ من "القرآن"، ويكون القرآنُ هو التذكرةَ، قاله الحوفي. السابع: أنه مفعولٌ له أيضاً، ولكن العاملَ فيه "لِتَشْقَى" ويكون المعنى كما قال الزمخشريُّ: "إنا أَنْزَلْنا عليك القرآنَ لتحتمل متاعبَ التبليغِ ومقاولةَ العُتاةِ من أعداءِ الإِسلام ومقاتلتَهم، وغيرَ ذلك من أنواعِ المشاقِ وتكاليفِ النبوة، وما أنزلنا عليك هذا المُتْعَبَ الشاقَّ إلاَّ ليكونَ تذكرةً.

وعلى هذا الوجهِ يجوزُ أن يكونَ "تذكرةً" حالاً ومفعولاً له" انتهى.

فإنْ قلتَ : مِنْ أينَ أَخَذْتَ أنه لَمَّا جعله حالاً ومفعولاً له أنَّ العاملَ فيه "لِتَشْقَى" ؟ وما المانعُ أن يريدَ بالعاملِ فيه فعلَ الإِنزال ؟ فالجوابُ أنَّ هذا الوجهَ قد تقدَّم له في قولِه : " وكلٌّ واحدٍ مِنْ "لتشقى" و"تذكرةً" علةٌ للفعل" . وأيضاً فإنَّ تفسيرَه للمعنى المذكور منصبٌّ على تسلُّطِ "لِتَشْقَى" على "تذكرةً" . إلاَّ أنَّ أبا البقاء لَمَّا لم يظهرْ له هذا المعنى الذي ظهر للزمخشري مَنَعَ مِنْ عملِ "لِتَشْقَى" في "تذكرةً" فقال : " ولا يَصِحُّ أن يعملَ فيها "لِتَشْقَى" لفساد المعنى" وجوابُه ما تقدَّم . ولا غَرْوَ في تسميةِ التعبِ شقاءً . قال الزمخشري : " والشقاءُ يجيء في معنى التعب . ومنه المثل : "أتعبُ مِنْ رائضِ مُهْر" و"أشقى مِنْ رائض مُهْر" .

و ﴿ لِّمَن يخشى ﴾ متصلٌ ب "تذكرةً" . وزيدت اللامُ في المفعولِ تقويةً للعاملِ لكونِه فَرْعاً ، ويجوز أن يكونَ متعلقاً بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل "تذكرةً" .

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)

قوله : ﴿ تَنزِيلاً ﴾ : في نصبه أوجهٌ ، أحدها : أن يكونَ بدلاً مِنْ "تذكرةً" إذا جُعِل حالاً لا إذا كان مفعولاً [له] لأنَّ الشيءَ لا يُعَلَّلُ بنفسِه . قلت : لأنه يصيرُ التقديرُ : ما أنزَلْنا القرآنَ إلاَّ للتنزيل . الثاني : أن ينتصبَ ب نزَّل مضمراً . الثالث : أن ينتصبَ ب "أَنْزَلْنا" لأنَّ معنى ما أنزلناه إلاَّ تذكرةً : أنزَلْناه تذكرةً . الرابع : أن ينتصبَ على المدحِ والاختصاصِ .

الخامس : أن ينتصبَ ب " يخشى " مفعولاً به أي : أنزله للتذكرةِ لِمَنْ يخشى تنزيلَ الله ، وهو معنى حسنٌ وإعرابٌ بيِّن .

(111/494)

قال الشيخُ : ولم يُنْصِفْه " والأحسنُ ما قدَّمناه أولاً من أنه منصوبٌ ب " نَزَّل " مضمرةً . وما ذكره الزمخشري مِنْ نصبه على غيره فمتكلَّفٌ : أمَّا الأول ففيه جَعْلُ تذكرةً وتنزيلاً حالين ، وهما مصدران . وجَعْلُ المصدر / حالاً لا ينقاسُ .

وأيضاً فمدلولُ " تذكرةً " ليس مدلولَ " تنزيل " ، ولا " تنزيلاً " بعضُ تذكرة . فإن كان بدلاً فيكونُ بدلَ اشتمالٍ على مذهب مَنْ يرى أن الثاني مشتملٌ على الأول ؛ لأنَّ التنزيلَ مشتملٌ على التذكرة وغيرِها . وأمَّا قولُه : " لأنَّ معنى ما أنزلناه إلاَّ تذكرة : أَنْزَلْناه تذكرةً " فليس كذلك لأنَّ معنى الحصرِ يَفُوت في قولِه أنزلناه تذكرةً . وأمَّا نصبُه على المدحِ فبعيدٌ . وأمَّا نصبُه ب " يخشى " ففي غاية البُعْدِ لأنَّ " يخشى " رأسُ آيةٍ وفاصلٌ ، فلا يناسبُ أن يكونَ " تنزيلاً " منصوباً ب " يخشى " ، وقوله فيه " وهو حسنٌ وإعرابٌ بيِّنٌ " عُجمةٌ وبُعْدٌ عن إدراك الفصاحة " .

قلت : ويَكْفيه ردُّه الشيءَ الواضحَ مِنْ غير دليل ، ونسبةُ هذا الرجلِ إلى عدمِ الفصاحةِ

ووجودِ العُجْمة .

قوله : ﴿ مِّمَّنْ خَلَق ﴾ يجوز في " مِنْ " أن تتعلق ب " تنزيلاً " ، وأن تتعلقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل " تنزيلاً " . وفي " خَلَق " التفاتٌ مِنْ تَكَلُّمٍ في قوله " أَنْزَلْنا " إلى الغَيْبة . وجوَّز الزمخشري أن يكونَ " ما أنزَلْنا " حكايةً لكلامِ جبريل وبعضِ الملائكة فلا التفاتَ على هذا .

وقوله : ﴿ العلى ﴾ جمع عُلْيا نحو : دنيا ودُنا . ونظيرُه في الصحيح كُبْرى وكُبَر ، وفُضْلى وفُضَل .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) ﴾

(112/494)

قوله : ﴿ الرحمن ﴾ : العامَّةُ على رفعِه ، وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه بدلٌ من الضميرِ المستكنِّ في " خَلَق " . ذكره ابنُ عطية . وردَّه الشيخُ بأن البدلَ يَحُلُّ مَحَلَّ المبدلِ منه ، ولو حَلَّ هنا مَحَلَّه لم يَجُزْ لخلوِّ الجملةِ الموصولِ بها مِنْ رابطٍ يربطُها به . الثاني : أن يرتفعَ على خبرِ مبتدأ مضمرٍ ، تقديرُه : هو الرحمن . الثالث : أن يرتفعَ على الابتداءِ مشاراً بلامِه إلى مَنْ خَلَق ، والجملةُ بعده خبرُه .

وقرأ جناح بن حبيش " الرحمنِ " مجروراً . وفيه وجهان ، أحدهما : أنه بدلٌ من الموصولِ . لا يقال إنه يؤدي إلى البدلِ بالمشتق وهو قليلٌ ؛ لأنَّ الرحمنَ جرى مَجْرى الجوامدِ لكثرة إيلائِه العواملَ . والثاني : أن يكونَ صفةً للموصول أيضاً .

قال الشيخ : " ومذهبُ الكوفيين أنَّ الأسماءَ النواقصَ كـ " مَنْ " و " ما " لا يُوصف منها إلاَّ " الذي " وحدَه ، فعلى مذهبِهم لا يجوز أن يكونَ صفةً " . قال ذلك كالرادِّ على الزمخشري .

والجملةُ مِنْ قوِله ﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ خبرٌ لقوِله " الرحمنُ " على القول بأنه مبتدأٌ ، أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ إنْ قيل : إنه مرفوعٌ على خبر مبتدأ مضمر ، وكذلك في قراءةِ مَنْ جَرَّه . وفاعلُ " استوى " ضميرٌ يعودُ على الرحمنِ ، وقيل : بل فاعلُه " ما " الموصولةُ " بعده أي : استوى الذي له في السماوات ، قال أبو البقاء : " ويقال بعضُ الغلاةِ : " ما " فاعلُ " استوى " . وهذا بعيدٌ ، ثم هو غيرُ نافعٍ له في التأويل ، إذ يبقى قولُه ﴿ الرحمن عَلَى العرش ﴾ كلاماً تاماً ومنه هرب " . قلت : هذا يُروى عن ابنِ عباس ، وأنه كان يقف على لفظ " العرش " ، ثم يبتدِىءُ " استوى له ما في السماوات " وهذا لا يَصِحُّ عنه .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) ﴾

قوله : ﴿ الثرى ﴾ : هو الترابُ النديُّ ، ولامُه ياءٌ بدليل تثنية على ثَرَيْين ، وقولهم ثَرِيَتْ الأرَضُ تَثْرَى ثرَىً . والثرى يستعمل في انقطاعِ المودة . قال جرير :

3272 فلا تَنْبُشُوا بيني وبينَكمُ الثرى . . . فإنَّ الذي بيني وبينَكمُ مُثْرِي

والثَّراءُ بالمدِّ : كثرةُ المالِ قال :

3273 أَماوِيَّ ما يُغْني الثراءُ عن الفتى . . . إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ

وما أَحسنَ قولَ ابنِ دريد :

3274 يوماً تصيرُ إلى الثَّرى . . . ويفوزُ غيرُك بالثَّراءِ

فجمع في هذه القصيدةِ بين الممدودِ والمقصورِ باختلاف معنىً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 14.5 ﴾

(114/494)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الهاء)

ويرد على نحوٍ من عشرين وجهاً :

1 – حرفٌ من حُروف الهجاءِ ، مَخْرَجُه من أَقصَى الحَلْق من جِوار مخرج الأَلف ، يُمَدُّ ويُقْصَر ، والنسبة هائىٌّ وهاوِىٌّ وهوِىٌّ ، والفعل منه هَيَّيْتُ هاءً حسنةً .

ويجمع على أَهْياءٍ ، وأَهْواءٍ ، وهاءَات ، كأَدْواءٍ وأَحْياءٍ وراءَات .

2 – فى حساب الجُمَّلِ الصَّغير اسمٌ لعدد الخمسة .

3 – الهاء الأَصلى ويكون فى [أَوَّل] الكلمة نحو : هَبَط ، أَو فى وسطه نحو سَهُل ، أَو فى آخره نحو وَجُه .

4 – الهاء المكرّرة ويكون : مخففًا نحو : مَهِهَ ؛ ومُشَدَّدا نحو : سَهَّل ومَهَّلَ .

5 – الهاء الكافِيَة ، نحو طه ، وكهيعص ، فالطَّاء من طاهر ، والهاء من هادِى .

6 – هاءُ التَّذْكير ، وتكون للمبالغة ، نحو علاَّمَةٍ ونَسَّابةٍ ، ﴿ ياداوُودُ إِنَّا جعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ .

7 – هاءُ التأْنيث ، نحو قائمة وقائمة ؛ ويكون : للوَحْدَة نحو حمامَة وغَمامة ، وللجمع : نحو أَبْنِيَة وأَفْنِيَة ، ويكون للتَّشْبيه بالمُؤَنَّث كغُرْفَة وظُلْمَة ؛ أَو للمرَّة ، نحو : جَلْسَةٍ وسَجْدة ؛ أَو للحالَة والهَيْئَة نحو : قَعْدَة ورِكْبَة ؛ أَو للمصدر ، نحو : رَحْمةٍ وكَرامَةٍ ؛ أَو للْعِوَض نحو : عِدَة وزِنَةٍ .

أَو للمصدر على زِنَةِ فاعِلَة ، كقوله : ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ

كَاشِفَةٌ﴾ ، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ﴾ أو لغو ، وكَشْف ، وخيانَة .

8 – هاءُ الكِنايَة ، نحو : هُوَ ، وهِيَ ، قال الله تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ ، وقال تعالى :

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ ، وقال : ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَى﴾ .

9 – هاءُ العِمادِ : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ ، ﴿إِنْ كَانَ هَذا هُوَ الحَقَّ﴾ ﴿إِنَّه هو يُبْدِئ

ويُعِيدُ﴾ .

(115/494)

---

10 – هاء الأَداة : ويكون للاستِبْعاد ، نحو : هَيْهات ؛ أَو للاستزادة ، نحو : إِيهِ ؛ أَو/

للانكفاف نحو إيها ، أَى كفَّ ؛ أَو للتحْضيض نحو :

وَيْها ؛ أَو للدّعاءِ : نحو ﴿هَآؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ﴾ ؛ أَو للاستدعاءِ ، نحو هاتِها ؛ أَو للإِعطاءِ

نحو : هاكَها ، أَو للاستِعْجال ، نحو : هَلاَّ وحَيَّهَلاً ؛ أَو للمُسارَعَة نحو هَلُمَّ ؛ أَو للتوجّع نحو :

آهِ وأَوْه ؛ أَو للتعجُّب نحو : واهٍ ، وهاهٍ ؛ أَو للإِشارة إِلى المكان القريب نحو : هُنا وهاهُنا ؛

أَو إِلى المكان البعيد نحو هُناكَ وهُنالِك ؛ أَو للإِشارة إِلى الشخص الحاضر نحو : هَذا

وهَذِه .

11 – الهاءُ الزَّائدة فى الأَوّل نحو : هذا وهَذه ؛ وفى الآخر ، وهو الَّذى يكون بعلَّة الوَقْف

والتَّنفُّس ؛ ولا تكون الزّائدة فى الوسط أبداً .

12 – الهاءُ المُبْدَلَة من الياءِ ، نحو : هَذِه فى هذى ، أو من الهمز نحو : هِيَّاك فى إيّاك ، وهَنَرْتُه وأَنَرْتُه ، وهرَقْتُ الماءَ وأَرَقْتُه ، ومُهَيْمِنٌ ومُؤيْمِن ، أو من الألف نحو إنَّهْ فى إنَّا ، ولَمَّهْ فى لَمَّا ، وهنهْ فى هُنا .

13 – هاءُ الاستراحة : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ ، ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ ، ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ .

14 – هاءُ النّداءِ نحو : أَيا زَيْدُ ، وهَيا زَيْدُ .

15 – هاءُ النُّدْبَة نحو : واأُمّاه ، واأَبَتاه .

16 – هاءُ الأَمرِ : نحو قِه ، أوشِهْ ، وعِهْ ، ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

17 – هاءُ الزَّجْر : ﴿ هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ ، ﴿ هاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ .

18 – الهاءُ اللُّغَوِىّ ، قال الخليل : الهاءُ عندهم بياضٌ فى وَجْهِ الظَّبْى ، قال الرّاجز :

*كأَنَّ خَدَّيه إذا لَثَمْتَها * هاءُ غزالٍ يافعٍ لَطَمْتَها*

وقال النَّحويُّون : هاءُ التَّنْبِيه تدخل على أَربعة :

أَحدُها : الإِشارة غير المختصّة بالبَعِيد نحو هذا ، بخلاف ثَمَّ وهَنَّا بالتشديد .

وهُنالك .

والثانى : ضميرُ الرّفع المُخْبَر عنه باسم الإِشارة ، نحو : ﴿ هَآأَنْتُمْ أُوْلاءِ ﴾ ، وقيل : إِنما كانت داخلة على الإِشارة فقدّمت ، فَرُدَّ بنحو : ها أَنْتُم هؤلاءِ ، فأُجيب بأَنها أُعِيدَت توكيداً .

والثالث : بعد أَى فى النّداءِ ، نحو : يا أَيُّها الرّجلُ ، وهى فى هذا واجبةٌ للتنبيه على أَنَّه المقصودُ بالنداءِ ، قيل : وللتّعويض عمّا تُضاف إِليه أَىّ ، ويجوز فى هذه عند بنى أَسَد أَنْ تُحْذَفَ أَلِفُها وأَن تُضَمَّ هاؤُها إِتْباعاً ، وعليه قراءَة ابنُ عامر : ﴿ أَيُّهُ الثَّقَلان ﴾ بضمّ الهاءُ فى الوَصل .

والرّابع : اسمُ اللهِ فى القسَمِ عند حذف الحرف ، يقال : ها أَللهِ بقطع الهمزة ووصلها ، وكلاهما مع إِثبات أَلفها وحذفها .

وها تكون : اسماً لفعل وهو خُذْ ، ويجوز مَدُّ أَلِفها ، ويستعملان بكاف الخطاب وبِدُونها ، ويجوز فى الممدودة أَن يُسْتَغْنَى عن الكاف بتصريف همزتها تصاريف الكافِ فيقال هاءَ للمذكَّر بالفَتْح ، وهاءِ للمؤنَّث بالكسر وهاؤُما وهاؤُنَّ وهاؤُمْ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 295 . 299 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

بسم الله اسم عزيز من تحقق بجلال عزته تمحض في خلوص عبوديته ، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سيماء نعوته .

اسم عزيز من عرفه سمت همته ، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طلبته .

اسم من عرفه زال كربه وطاب قلبه ، دينه ربه وجنته حبه .

اسم عزيز من وسمه بعبوديته حرره من رق شهواته ، وأعتقه من أسر مطالبه ، فلا له لمحبوب طلب ، ولا يستفزه لمحذور لا هرب .

الطاء إشارة إلى قلبه – عليه السلام – من غير الله ، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طَأْ بِسرِّك بساط القربة فأنتَ لا تهتدي إلى غيرنا .

ويقال طوينا عن سرِّك ذِكْرَ غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيشُ مَنْ اهتدى بك .

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى ﴾ : أي ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك، وإنما هذا استفتاحُ الوُصلة، والتمهيد لبساط القُرْبَةِ.

ويقال إنه لما قال له: ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر: 88] وقف بِفَرْدِ قدم تباعدا وتنزها عن أن يقرب من الدنيا استمتاعا بها بوجهٍ فقيل له: طأ الأرض بقدميك... لِمَ كل هذا التعب الذي تتحمله؟ فزاد في تعبده، ووقف، حتى تقدمت قدماه وقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً" أي لما أهلني من التوفيق حتى أعبده.

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) ﴾

فالقرآنُ تَبْصِرةٌ لذوي العقول، تذكرة لذوي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحة النَّفْسِ في آجِلهم، وهؤلاء به يذكرون فيجدون رَوْحَ الأُنْسِ في عاجِلهم.

﴿ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) ﴾

جَعَلَ الأرض قراراً لِعبادِه. ونفوسُ العابدين أرضٌ وقرارٌ لطاعتهم، وقلوبُ العارفين قرارٌ لمعارفهم.

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) ﴾

استواء عَرْشِه في السماءِ معلوم ، وعَرْشه في الأرض قلوبُ أهل التوحيد .

قال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 17] وعرش القلوب : قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الإسراء : 70] أمَّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى ، وعرشُ القلوبِ الرحمنُ عليه استولى . عرشُ السماءِ قِبْلَهُ دعاءِ الخَلْق ، وعرشُ القلبِ مَحَلُّ نظرِ الحق . . . . . فشتَّان بين عرش وعرش !

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) ﴾

له الأشياء على العموم مِلْكاً ، والأولياء تخصيصاً وتشريفاً . له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العَدَمِ ؛ فالكلُّ له إثباتاً وخَلْقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 446.444 ﴾

(119/494)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الملك لا ينتظم غاية الانتظام إلا بإحاطة العلم ، وكان الملك من الآدميين قد لا يعلم أحوال أقصى ملكه كما يعلم أحوال أدناه لا سيما إذا كان واسعاً ولذلك يختل بعض أمره ، اعلم أنه سبحانه بخلاف ذلك ، فقال حثاً على مراقبته والإخلاص له : ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ أي بهذا القرآن للبشارة والنذارة أو لغير ذلك أو بغيره ، فإنه علام به وغير محتاج إلى الجهر ، فلا يتكلف ذلك في غير ما أمرت بالجهر به لغرض غير الإسماع ﴿ فإنه يعلم السر ﴾ وهو ما يناجي به الاثنان مخافتة ﴿ وأخفى ﴾ من ذلك ، وهو ما في الضمائر مما تخيلته الأفكار ولم يبرز إلى الخارج وغيره من الغيب الذي لم يعلمه غيره تعالى بوجه من الوجوه ، ومنه ما سيكون من الضمائر .

ولما كان من هو بهذه الأوصاف من تمام العلم والقدرة ربما ظن أن له منازعاً ، نفى ذلك بقوله معلماً أن هذا الظن باطل قطعاً لا شبهة له وأن ما مضى ينتج قطعاً : ﴿ الله ﴾ مفتتحاً بالاسم الأعظم الحاوي لصفات الكبر وغيرها ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ أي صفات الكمال التي لا يصح ولا يتصور أن يشوبها نقص ما ، بل هو متصف بها دائماً اتصافاً حقيقياً لا يمكن انفكاكه ، كما يكون لغيره من الاتصاف ببعض المحاسن في بعض الأحايين ثم يعجز عنه في وقت آخر أو بالنسبة إلى زمان آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 10 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما العلم فقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾

وفيه قولان ، أحدهما : أن قوله : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ بناء المبالغة ، وعلى هذا القول نقول إنه تعالى قسم الأشياء إلى ثلاثة أقسام : الجهر ، والسر ، والأخفى .

فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذي يجهر به ، وقد يسر في النفس وإن ظهر البعض ، وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم .

ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذي لا يسمع وما هو أخفى منه فكيف لا يعلم الجهر ، والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة ، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب ، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها ، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة ، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه ، ويتحمل ما لم يقع في سره بعد فيكون أخفى من السر ، ويحتمل أيضاً ما سيكون من قبل الله تعالى من الأمور التي لم تظهر ، وإن كان الأقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب .

القول الثاني : أن أخفى فعل يعني أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : 255] فإن قيل كيف يطابق الجزاء الشرط ؟ قلنا معناه إن تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره ، فاعلم أنه غني عن جهرك ، وإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله : ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول ﴾ [الأعراف : 205] وإما تعليماً للعباد أن الجهر ليس لاستماع الله تعالى ، وإنما هو لغرض آخر ، واعلم أن الله تعالى لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات في كل الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير ، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفاً بالحدوث أو الإمكان والعبد لا يشارك الرب إلا في السدس الأول (1) وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضاً نصفان فخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ، ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الأنبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم في علومهم الضرورية والكسبية

والحرف والصناعات وجميع الحيوانات في إدراكاتها وشعوراتها والاهتداء إلى مصالحها في أغذيتها ومضارها ومنافعها ، والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ، ثم إنك بتلك الذرة عرفت أسرار إلهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة .

فإذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الأسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف .

---

(1) بنى الفخر الرازي هذه القسمة السداسية من تقسيمه السابق للأشياء إلى ثلاثة أقسام الجهر والسر والأخفى .

(122/494)

أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك ؟ فهذا تحقيق قوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالقَولِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ بل الحق أن الدينار بتمامه له ، لأن الذي علمته فإنما علمته بتعليمه على ما قال : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : 166] وقال : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك : 14] ولهذا مثال وهو الشمس فإن ضوءها يجعل العالم مضيئاً ، ولا ينتقص ألبتة من ضوئها شيء ، فكذا ههنا فكيف لا يكون عالماً بالسر والأخفى ، فإن من تدبيراته في خلق الأشجار وأنواع النبات أنها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة في الأرض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء إلى الأغصان ومنها إلى العروق ومنها إلى الأوراق ، ثم

إنه تعالى جعل عروقها كالأطناب التي بها يمكن ضرب الخيام.

وكما أنه لا بد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة، كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة، ثم لو نظرت إلى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها إلى كل جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعاً، وهي شبه العروق المخلوقة في بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن، ثم انظر إلى الأشجار فإن أحسنها في المنظر الدلب والخلاف، ولا حاصل لهما، وأقبحها شجرة التين والعنب، و[لكن] انظر إلى منفعتهما، فهذه الأشياء وأشباهها تظهر أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

أما قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ فالكلام فيه على قسمين.

الأول: في التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتي إن شاء الله في تفسير قوله تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: 22] وإنما ذكره ههنا ليبين أن الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذي تقدم واحد لا شريك له، وهو الذي يستحق العبادة دون غيره، ولنذكر ههنا نكتاً متعلقة بهذا الباب وهي أبحاث:

البحث الأول : اعلم أن مراتب التوحيد أربع .

أحدها : الإقرار باللسان .

والثاني : الاعتقاد بالقلب .

والثالث : تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة .

والرابع : أن يصير العبد مغموراً في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شيء غير عرفان الأحد الصمد .

أما الإقرار باللسان فإن وجد خالياً عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق ، وأما الاعتقاد بالقلب إذا وجد خالياً عن الإقرار باللسان ففيه صور .

الصورة الأولى : أن من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل أن يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم إنه لا يتم إيمانه والحق أنه يتم لأنه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطباً ، ورأيت في [بعض] الكتب أن ملك الموت مكتوب على جبهته لا إله إلا الله لكي إذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر .

الصورة الثانية : أن من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه ، قال الشيخ الغزالي : يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فإذا حصل المقصود في القلب كان امتناعه من التلفظ جارياً مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من

أهل النار ، وقد قال عليه السلام : "يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان" وقلب هذا الرجل مملوء من الإيمان ؟ وقال آخرون : الإيمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم أن الممتنع من هذه الكلمة كافر .

الصورة الثالثة : من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف في صحة إيمانه مشهور .

(124/494)

أما المقام الثالث : وهو إثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] أنه يمكن إثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك .

أما المقام الرابع : وهو الفناء في بحر التوحيد فقال المحققون : العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن في جميع صفات هي من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه إلى الواحد القهار ، ثم وقوف هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السائرين إلى الله تعالى .

البحث الثاني : في الأخبار الواردة في التهليل ، أولها : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات "

وثانيها : قال عليه السلام : " إن الله تعالى خلق ملكاً من الملائكة قبل أن خلق السموات والأرض وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ماداً بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها ، فإذا أتمها أمر إسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيماً لله عز وجل " وثالثها : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : " ما زلت أشفع إلى ربي ويشفعني وأشفع إليه ويشفعني حتى قلت : يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لأحد وعزتي وجلالي لا أدع أحداً في النار قال لا إله إلا الله " وثانيها : قال سفيان الثوري : سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال : الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته ، يقول الله جل ذكره : بحكمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي لا أعذب بالنار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وخامسها : أن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قام في السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير

وهو على كل شيء قدير ، كتب له الله ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتاً في الجنة "

البحث الثالث : في النكت .

أحدها : ينبغي لأهل لا إله إلا الله أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله : التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية ، فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر .

وثانيها : قال بعضهم قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم : 24] إنه لا إله إلا الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : 10] لا إله إلا الله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ [العصر : 3] لا إله إلا الله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدة ﴾ [سبأ : 46] لا إله إلا الله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسؤولون ﴾ [الصافات : 24] عن قول لا إله إلا الله : ﴿ بَلْ جَاء بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ [الصافات : 37] هو لا إله إلا الله : ﴿ يُثَبّتُ اللهُ الذين ءَامَنُواْ بالقول الثابت فِى الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ [إبراهيم : 27] هو لا إله إلا الله : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ [إبراهيم : 27] عن قول لا إله إلا الله .

وثالثها : أن موسى بن عمران عليه السلام قال : "يا رب علمني شيئاً أذكرك به ، قال : قل لا إله إلا الله قال كل عبادك يقولون لا إله إلا الله ! فقال : قل لا إله إلا الله قال إنما أردت شيئاً

تحصني به ! قال يا موسى لو أن السموات السبع ومن فيهن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله" .

(126/494)

البحث الرابع : في إعرابه قالوا كلمة لا ههنا دخلت على الماهية ، فانتفت الماهية ، وإذا انتفت الماهية انتفت كل أفراد الماهية .

وأما الله فإنه اسم علم للذات المعينة إذ لو كان اسم معنى لكان كلها محتملاً للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد ، فقالوا : لا استحقت عمل أن لمشابهتها لها من وجهين ، أحدهما : ملازمة الأسماء ، والآخر تناقضهما فإن أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفي ، ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر في الحكم ، إذا ثبت هذا فنقول لما قالوا : إن زيداً ذاهب كان يجب أن يقولوا لا رجلاً ذاهب إلا أنهم بنوا لا مع ما دخل عليه من الاسم المفرد على الفتح ، أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسماً واحداً ، وأما الفتح فلأنهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقاً بين الدليل الموجب للإعراب والدليل الموجب للبناء .

الثاني : خبره محذوف والأصل لا إله في الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على أن

الوجود زائد على الماهية .

البحث الخامس : قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب ، فإن السلب ما لم يضف إلى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت .

وجوابه : أنه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لا جرم قدم عليه .

القسم الثاني : من الكلام في الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه أبحاث :

البحث الأول : قال عليه السلام : " إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أيها الناس أنا جعلت لكم نسباً وأنتم جعلتم لأنفسكم نسباً ، أنا جعلت أكرمكم عندي أتقاكم وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي وأضع نسبكم ، أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! " ، واعلم أن الأشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقاسم : كامل لا يحتمل النقصان ، وناقص لا يحتمل الكمال ، وثالث يقبل الأمرين ، أما الكامل الذي لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك في حقه بالوجوب الذاتي وبعده الملائكة فإن من كمالهم أنهم : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : 6] ومن صفاتهم أنهم : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] ومن صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وأما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو

الجمادات والنبات والبهائم ، وأما الذي يقبل الأمرين جميعاً فهو الإنسان تارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِ ﴾ [القمر : 55] وتارة في التسفل بحيث يقال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافلين ﴾ [التين : 5] وإذا كان كذلك استحال أن يكون الإنسان كاملاً لذاته ، وما لا يكون كاملاً لذاته استحال أن يصير موصوفاً بالكمال إلى أن يصير منتسباً إلى الكامل لذاته .

لكن الانتساب قسمان : قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال .

أما الذي يكون يعرض للزوال ، فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال ، وأما الذي لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فإنه كما يمتنع زوال صفة الإلهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال ، والمنتسب إليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال .

(128/494)

ثم إذا كنت من بلد أو منتسباً إلى قبيلة فإنك لا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي فلأن تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتي كان أولى فلهذا قال : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180]

وقال : ﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ .

البحث الثاني : في تقسيم أسماء الله تعالى .

اعلم أن اسم كل شيء ، إما أن يكون واقعاً عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الأمور الخارجة عن ذاته .

أما القسم الأول : فقد اختلفوا في أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسألة مبنية على أن حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر أم لا ؟ فمن قال إنها غير معلومة للبشر قال : ليس لذاته المخصوصة اسم ، لأن المقصود من الاسم أن يشار به إلى المسمى وإذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت الإشارة العقلية إليها ، فامتنع وضع الاسم لها ، وقد تكلمنا في تحقيق ذلك في تفسير اسم الله ، وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لأنه ليس لذاته شيء من الأجزاء لأن كل مركب ممكن وواجب الوجود لا يكون ممكناً فلا يكون مركباً ، وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته ، فالصفات إما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية إضافية أو سلبية أو ثبوتية مع إضافية أو ثبوتية مع سلبية أو إضافية مع سلبية أو ثبوتية وإضافية وسلبية ولما كانت الإضافات الممكنة غير متناهية ، وكذا السلوب غير متناهية ، أمكن أن يكون للباري تعالى أسماء متباينة لا مترادفة غير متناهية .

فهذا هو التنبيه على المأخذ .

البحث الثالث : يقال : إن لله تعالى أربعة آلاف اسم ، ألف لا يعلمها إلا الله تعالى وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة والأنبياء .

(129/494)

وأما الألف الرابع فإن المؤمنين يعلمونها فثلثمائة منها في التوراة وثلثمائة في الإنجيل وثلثمائة في الزبور ومائة في الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة .

البحث الرابع : الأسماء الواردة في القرآن منها ما ليس بانفراده ثناء ومدحاً ، كقوله جاعل وفالق وخالق فإذا قيل : ﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ [الأنعام : 96] صار مدحاً ، وأما الاسم الذي يكون مدحاً فمنه ما إذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا : حي فإذا قيل الحي القيوم أو الحي الذي لا يموت كان أبلغ وأيضاً قولنا بديع فإنك إذا قلت بديع السموات والأرض ازداد المدح ، ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لا يجوز إفراده كقولك : دليل .

وكاشف فإذا قيل : يا دليل المتحيرين ، ويا كاشف الضر والبلوى جاز ، ومنه ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً كقولنا الرحمن الرحيم .

البحث الخامس : من الأسماء ما يكون مقارنتها أحسن كقولك الأول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى في حكاية قول المسيح : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] وبقية الأبحاث قد تقدمت في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم .

البحث السادس : في النكت [أولها] رأى بشر الحافي كاغداً مكتوباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى في النوم قائلاً يقول : يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة .

(130/494)

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] وليس حسن الأسماء لذواتها لأنها ألفاظ وأصوات بل حسنها لحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسناً يتعلق بالصورة والخلقة فإن ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع إلى معنى الإحسان مثلاً اسم الستار والغفار والرحيم إنما كانت حسناء لأنها دالة على معنى الإحسان ، وروى أن حكيماً ذهب إليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن : أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح ، وقال للآخر أنت قبيح والقبيح إذا فعل الفعل

القبيح عظم قبحه .

فنقول : إلهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر لنا من تلك الأسماء الحسنة والصفات الحسنة إلا الإحسان ، إلهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا نضم إليه قبح العقاب ووحشة العذاب .

وثالثها : قوله عليه السلام : " اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه " إلهنا حسن الوجه عرضى أما حسن الصفات والأسماء فذاتي فلا تردنا عن إحسانك خائبين خاسرين .

رابعها : ذكر أن صياداً كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها الماء وقالت : إنها ما وقعت في الشبكة إلا لغفلتها ، إلهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها وألقنا في بحار رحمتك مرة أخرى .

وخامسها : ذكرت من الأسماء خمسة في الفاتحة ، وهي الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الإلهية وهي إشارة إلى القهارية والعظمة فعلم أن الأرواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكر بعده أربعة أسماء تدل على اللطف ، الرب وهو يدل على التربية والمعتاد أن من ربى أحداً فإنه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية في اللطف والرأفة ثم

ختم الأمر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولأن عائشة قالت لعلي عليه السلام :

" ملكت فأسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء " وسادسها : عن محمد بن كعب القرظي قال موسى عليه السلام : "إلهي أي خلقك أكرم عليك ؟ قال الذي لا يزال لسانه رطباً من ذكري ، قال : فأي خلقك أعلم ؟ قال : الذي يلتمس إلى علمه علم غيره ، قال : فأي خلقك أعدل ؟ قال : الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس ، قال : فأي خلقك أعظم جرماً ؟ قال : الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قضيته له" .

إلهنا إنا لا نتهمك فإنا نعلم أن كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا .

وسابعها : قال الحسن إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ سيعلم الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، ثم يقال : أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ ثم ينادي منادٍ أين الحامدون لله على كل

حال ؟ ثم تكون التبعة والحساب على من بقي إلهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك.

ومن أراد الاستقصاء في الأسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات في الأسماء والصفات وبالله التوفيق. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 13.8 ﴾

(132/494)

وقال الجصاص :

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاس : " السِّرُّ مَا حَدَّثَ بِهِ الْعَبْدُ غَيْرَهُ فِي خَفَى ، وَأَخْفَى مِنْهُ مَا أَضْمَرَهُ فِي نَفْسِهِ مِمَّا لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ غَيْرَهُ ".

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ : " السِّرُّ مَا أَضْمَرَهُ الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ ، وَأَخْفَى مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَا أَضْمَرَهُ أَحَدٌ ". انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(133/494)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ ﴾

فما حاجتك إلى الجهر ؟ لأن الله يعلم بالجهر وبالسر .

﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن " السِّرَّ " ما حدَّث به العبد غيره في السر . " وأَخْفَى " ما أضمره في نفسه ، ولم يحدّث به غيره ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن السر ما أَضمره العبد في نفسه . وأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد في نفسه قاله قتادة وسعيد بن جبير .

الثالث : يعلم أسرار عباده ، وأخفى سر نفسه عن خلقه ، قاله ابن زيد .

الرابع : أن السر ما أسره الناس ، وأخفى : الوسوسة ، قاله مجاهد .

الخامس : أن السر ما أسره من علمه وعمله السالف ، وأخفى : وما يعلمه من عمله المستأنف ، وهذا معنى قول الكلبي .

السادس : السر : العزيمة ، وما هو أخفى : هو الهم الذي دون العزيمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾

معناه وإن كنتم أيها الناس إذ أردتم إعلام أحد بأمر أو مخاطبة أوثانكم وغيرها فأنتم تجهرون بالقول فإن الله الذي هذه صفاته ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ فالمخاطبة ب ﴿ تجهر ﴾ لمحمد عليه السلام وهي مراد جميع الناس إذ هي آية اعتبار ، واختلف الناس في ترتيب ﴿ السر ﴾ وما هو ﴿ أخفى ﴾ منه ، فقالت فرقة ﴿ السر ﴾ هو الكلام الخفي كقراءة السر في الصلاة ، و" الأخفى " هو ما في النفس ، وقالت فرقة وهو ما في النفس متحصلاً ، و" الأخفى " هو ما سيكون فيها في المستأنف ، وقالت فرقة ﴿ السر ﴾ هو ما في نفوس البشر ، وكل ما يمكن أن يكون فيها في المستأنف بحسب الممكنات من معلومات البشر ، و" الأخفى " هو ما من معلومات الله لا يمكن أن يعلمه البشر البتة : فهذا كله معلوم لله عز وجل .

وقد تؤول على بعض السلف أنه جعل ﴿ أخفى ﴾ فعلاً ماضياً وهذا ضعيف ، و ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ يريد بها التسميات التي تضمنتها المعاني التي هي في غاية الحسن ووحد الصفة مع جمع الموصوف لما كانت التسميات لا تعقل ، وهذا جار مجرى ﴿ مآرب أخرى ﴾ [طه : 18] ﴿ ويا جبال أوبي معه ﴾ [سبأ : 10] وغيره ، وذكر أهل

العلم أن هذه الأسماء هي التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله تسعة وتسعين إسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة " وذكرها الترمذي وغيره مسنده .

انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(135/494)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِن تجهر بالقول ﴾

أي : ترفع صوتك ﴿ فإنه يعلم السِّرَّ ﴾ والمعنى : لا تجهد نفسك برفع الصوت ، فإن الله يعلم السرّ .

وفي المراد ب "السِّرَّ وأخفى" خمسة أقوال .

أحدها : أن السرّ : ما أسره الإِنسان في نفسه ، وأخفى : ما لم يكن بَعْدُ وسيكون ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثاني : أن السرّ : ما حدَّثت به نفسك ، وأخفى : ما لم تلفظ به ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أن السرّ : العمل الذي يُسِرُّه الإِنسان من الناس ، وأخفى منه : الوسوسةُ ، قاله مجاهد .

والرابع : أن معنى الكلام : يعلم إِسرار عباده ، وقد أخفى سرَّه عنهم فلا يُعْلَم ، قاله زيد بن أسلم ، وابنه .

والخامس : يعلم ما أسرَّه الإِنسان إلى غيره ، وما أخفاه في نفسه ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ قد شرحناه في [الأعراف : 180] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(136/494)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾

قال ابن عباس : السر ما حَدّث به الإنسان غيره في خفاء ، وأخفى منه ما أضمر في نفسه مما لم يحدّث به غيره .

وعنه أيضاً : السر حديث نفسك ، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن ؛ أنت تعلم ما تسِر به نفسك اليوم ، ولا تعلم ما تُسِرّ به غداً ، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّه غداً ؛ والمعنى : الله يعلم السّر وأخفى من السّر .

وقال ابن عباس أيضاً : "السر" ما أسر ابن آدم في نفسه ، ﴿ وَأَخْفَى ﴾ ما خفي على ابن

آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه ، فالله تعالى يعلم ذلك كله ، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد ، وجميع الخلائق في علمه كنفس واحدة .

وقال قتادة وغيره : "السر" ما أضمره الإنسان في نفسه ، "وأخفى" منه ما لم يكن ولا أضمره أحد .

وقال ابن زيد : "السر" سرّ الخلائق ، "وأخفى" منه سِره عز وجل ؛ وأنكر ذلك الطبري ، وقال : إن الذي هو "أخفى" ما ليس في سر الإنسان وسيكون في نفسه كما قال ابن عباس .

﴿ الله لا إله إلاَّ هُوَ لَهُ الأسماَء الحسنى ﴾ "الله" رفع بالابتداء ، أو على إضمار مبتدأ ، أو على البدل من الضمير في "يعلم" .

وَحَّدَ نفسه سبحانه ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فكبر ذلك عليهم ، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ وأنزل : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسماَء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] وهو واحد وأسماؤه كثيرة ؛ ثم قال : ﴿ الله لا إله إلاَّ هُوَ لَهُ الأسماَء الحسنى ﴾ وقد تقدم التنبيه عليها في سورة "الأعراف" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى أولاً إنشاء السموات والأرض وذكر أن جميع ذلك وما فيهما ملكه ذكر تعالى صفة العلم وأن علمه لا يغيب عنه شيء والخطاب بقوله : ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ للرسول ظاهر أو المراد أمته ، ولما كان خطاب الناس لا يتأتى إلاّ بالجهر بالكلام جاء الشرط بالجهر وعلق على الجهر علمه بالسر لأن علمه بالسر يتضمن علمه بالجهر ، أي إذا كان يعلم السر فأحرى أن يعلم الجهر والسر مقابل للجهر كما قال ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ والظاهر أن ﴿ أخفى ﴾ أفعل تفضيل أي ﴿ وأخفى ﴾ من السر .

قال ابن عباس : ﴿ السر ﴾ ما تسره إلى غيرك ، والأخفى ما تخفيه في نفسك وقاله الفراء .

وعن ابن عباس أيضاً ﴿ السر ﴾ ما أسره في نفسه ، والأخفى ما خفي عنه مما هو فاعله وهو لا يعلمه .

وعن قتادة : قريب من هذا .

وقال مجاهد : ﴿ السر ﴾ ما تخفيه من الناس ﴿ وأخفى ﴾ منه الوسوسة .

وقال ابن زيد ﴿ السر ﴾ سر الخلائق ﴿ وأخفى ﴾ منه سره تعالى وأنكر ذلك الطبري.

وقيل: ﴿ السر ﴾ العزيمة ﴿ وأخفى ﴾ منه ما لم يخطر على القلب، وذهب بعض السلف إلى أن قوله ﴿ وأخفى ﴾ هو فعل ماض لا أفعل تفضيل أي ﴿ يعلم ﴾ أسرار العباد ﴿ وأخفى ﴾ عنهم ما يعلمه هو كقوله ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ وقوله ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ قال ابن عطية: وهو ضعيف.

وقال الزمخشري: وليس بذلك قال: فإن قلت: كيف طابق الجزاء الشرط؟ قلت: معناه إن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك فإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ وإما تعليماً للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر انتهى.

(138/494)

والجلالة مبتدأ و ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ الخبر و ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ خبر ثان، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل من ذا الذي يعلم السر وأخفى؟ فقيل: هو ﴿ الله ﴾ و ﴿ الحسنى ﴾ تأنيث الأحسن وصفة المؤنثة المفردة تجري على جمع التكسير، وحسن

ذلك كونها وقعت فاصلة والأحسنية كونها تضمنت المعاني التي هي في غاية الحسن من التقديس والتعظيم والربوبية ، والأفعال التي لا يمكن صدورها إلاّ منه ، وذكروا أن هذه ﴿ الأسماء ﴾ هي التي قال فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن لله تسعاً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة " وذكرها الترمذي مسندة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(139/494)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول ﴾

بيانٌ لإحاطة علمِه تعالى بجميع الأشياء إثرَ بيانِ سعةِ سلطنتِه وشمولِ قدرتِه لجميع الكائنات ، أي وإن تجهَرْ بذكره تعالى ودعائِه فاعلم أنه تعالى غنيٌّ عن جهرك ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ أي ما أسرَرْته إلى غيرك وشيئاً أخفى من ذلك وهو ما أخطرْتَه ببالك من غير أن تتفوّه به أصلاً ، أو ما أسرَرْتَه لنفسك وأخفى منه وهو ما ستُسِرُّه فيما سيأتي ، وتنكيرُه للمبالغة في الخفاء ، وهذا إما نهيٌ عن الجهر كقوله تعالى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول ﴾ وإما ارشادٌ للعباد إلى أن الجهر ليس

لإسماعه سبحانه بل لغرض آخرَ من تصوير النفسِ بالذكر ، وتثبيتِه فيها ، ومنْعِها من الاشتغال بغيره ، وقطعِ الوسوسةِ عنها ، وهضمِها بالتضرّع والجُؤار وقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أن ما ذُكر من صفات الكمالِ موصوفُها ذلك المعبودُ بالحق ، أي ذلك المنعوتُ بما ذكر من النعوت الجليلةِ الله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ تحقيقٌ للحق وتصريحٌ بما تضمّنه ما قبله من اختصاص الألوهيةِ به سبحانه ، فإن ما أُسند إليه تعالى من خلق جميعِ الموجوداتِ والرحمانيةِ والمالكيةِ للكل والعلمِ الشاملِ مما يقتضيه اقتضاءً بيناً ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ بيانٌ لكون ما ذكَر من الخالقية والرحمانيةِ والمالكيةِ والعالَمية أسماءَه وصفاتِه من غير تعددٍ في ذاته تعالى ، فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبيَّ عليه الصلاة والسلام يقول : " يا ألله يا رحمن " قالوا : ينهانا أن نعبُدَ إلهين وهو يدعو إلها آخرَ . والحُسنى تأنيثُ الأحسن يوصف به الواحدةُ المؤنثةُ والجمعُ من المذكر والمؤنث كمآربُ أُخرى ، وآياتِنا الكبرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول ﴾ الخ

بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته تعالى لجميع الكائنات ، والخطاب على ما قاله في "البحر" : للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته عليه الصلاة والسلام ، وجوز أن يكون عاماً أي وإن ترفع صوتك أيها الإنسان بالقول ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر ﴾ أي ما أسررته إلى غيرك ولم ترفع صوتك به ﴿ وَأَخْفَى ﴾ أي وشيئاً أخفى منه وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلاً ، وروى ذلك عن الحسن.

وعكرمة أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها وروى ذلك عن سعيد بن جبير.

وروى عن السيدين الباقر.

والصادق السر ما أخفيته في نفسك والأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته.

وقيل : ﴿ أُخْفِىَ ﴾ فعل ماض عطف على ﴿ يَعْلَمْ ﴾ يعني أنه تعالى يعلم أسرار العباد وأخفى ما يعلمه سبحانه ، عنهم وهو كقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] ، وروى ذلك أبو الشيخ في "العظمة" عن زيد بن أسلم وهو خلاف الظاهر جداً ؛ فالمعول عليه أنه أفعل تفضيل والتنكير للمبالغة في الخفاء ، والمتبادر من القول ما يمل ذكر الله تعالى وغيره وإليه ذهب بعضهم ، وخصه جماعة بذكره سبحانه ودعائه على أن التعريف للعهد لأن استواء الجهر والسر عنده سبحانه المدلول

عليه في الكلام يقتضي أن الجهر المذكور في خطابه عز وجل ، وعلى القولين قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ قائم مقام جواب الشرط وليس الجواب في الحقيقة لأن علمه تعالى السر وأخفى ثابت قبل الجهل بالقول وبعده وبدونه .

والأصل عند البعض وإن يجهر بالقول فاعلم أن الله تعالى يعلمه فإنه يعلم السر وأخفى فضلاً عنه .

(141/494)

وعند الجماعة وإن تجهر فاعلم أن الله سبحانه غني عن جهرك فإنه الخ ، وهذا على ما قيل إرشاد للعباد إلى التحري والاحتياط حين الجهر فإن من علم أن الله تعالى يعلم جهره لم يجهر بسوء ، وخص الجهر بذلك لأن أكثر المحاورات ومخاطبات الناس به ، وقيل : إرشاد للعباد إلى أن الجهر بذكر الله تعالى ودعائه ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثنيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة وغير ذلك ، وقيل : نهى عن الجهر بالذكر والدعاء كقوله تعالى : ﴿ تُرْحَمُونَ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول ﴾ [الأعراف : 205] .

وأنت تعلم أن القول بأن الجهر بالذكار والدعاء منهي لا ينبغي أن يكون على إطلاقه .

والذي نص عليه الإمام النووي في "فتاويه" أن الجهر بالذكر حيث لا محذور شرعياً مشروع مندوب إليه بل هو أفضل من الإخفاء في مذهب الإمام الشافعي وو ظاهر مذهب الإمام أحمد وإحدى الروايتين عن الإمام مالك بنقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري وهو قول لقاضيخان في "فتاويه" في ترجمة مسائل كيفية القراءة وقوله في باب غسل الميت : ويكره رفع الصوت بالذكر ، فالظاهر أنه لمن يمشي مع الجنازة كما هو مذهب الشافعية لا مطلقاً كما تفهمه عبارة البحر الرائق وغيره وهو قول الإمامين في تكبير عيد الفطر كالأضحى ، ورواية عن الإمام أبي حنيفة نفسه رضي الله تعالى عنه بل في مسنده ما ظاهره استحباب الجهر بالذكر مطلقاً ، نعم قال ابن نجيم في "البحر" نقلاً عن المحقق ابن الهمام في "فتح القدير" ما نصه قال أبو حنيفة : رفع الصوت بالذكر بدعة مخالفة للأمر من قوله تعالى :

﴿ واذكر ربَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ [الأعراف : 205] الآية فيقتصر على مورد الشرع ، وقد ورد به في الأضحى وهو قوله سبحانه : ﴿ واذكروا اللهَ فِى أَيَّامٍ معدودات ﴾ [البقرة : 203].

وأجاب السيوطي في نتيجة الذكر عن الاستدلال بالآية السابقة بثلاثة أوجه ، الأول : أنها مكية ولما هاجر صلى الله عليه وسلم سقط ذلك ، الثاني : أن جماعة من المفسرين منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وابن جرير حملوا الآية على الذكر حال قراءة القرآن وأنه أمر له عليه الصلاة والسلام بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن وأنه أمر له عليه الصلاة والسلام بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن أن ترفع عنده الأصوات ، ويقويه اتصالها بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ القرءان ﴾ [الأعراف : 204] الآية ، الثالث : ما ذكره بعض الصوفية أن الأمر في الآية خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم الكامل المكمل وأما غيره عليه الصلاة والسلام ممن هو محل الوساوس فمأمور بالجهر لأنه أشد تأثيراً في دفعها وفيه ما فيه .

واختار بعض المحققين أن المراد دون الجهر البالغ أو الزائد على قدر الحاجة فيكون الجهر المعتدل ، والجهر بقدر الحاجة داخلاً في المأمور به ، فقد صح ما يزيد على عشرين حديثاً في أنه صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يجهر بالذكر .

وصح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " وهو محمول على اقتضاء

حاجة التعليم ونحوه لذلك ، وما في "الصحيحين" من حديث أبي موسى الأشعري قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنه معكم إنه سميع قريب"

(143/494)

محمول على أن النهي المستفاد التزاماً من أمر اربعوا الذي بمعنى ارفقوا ولا تجهدوا أنفسكم مراد به النهي عن المبالغة في رفع الصوت ، وبتقسيم الجهر واختلاف أقسامه في الحكم يجمع بين الروايتين المختلفتين عن الإمام أبي حنيفة ، وما ذكر في الواقعات عن ابن مسعود من أنه رأى قوماً يهللون برفع الصوت في المسجد فقال : ما أراكم إلا مبتدعين حتى أخرجهم من المسجد لا يصح عند الحفاظ من الأئمة المحدثين ، وعلى فرض صحته هو معارض بما يدل عليه ثبوت الجهر منه رضي الله تعالى عنه مما رواه غير واحد من الحفاظ أو محمول على الجهر البالغ ، وخبر خير الذكر الخفي وخير الرزق أو العيش ما يكفي صحيح .

وعزاه الإمام السيوطي إلى الإمام أحمد .

وابن حبان .

والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص ، وعزاه أبو الفتح في سلاح المؤمن إلى أبي عوانة في مسنده الصحيح أيضاً ، وهو محمول على من كان في موضع يخاف فيه الرياء أو الإعجاب أو نحوهما ، وقد صح أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام جهر بالدعاء وبالمواعظ لكن قال غير واحد من الأجلة : إن إخفاء الدعاء أفضل .

وحد الجهر على ما ذكره ابن حجر الهيتمي في المنهج القويم أن يكون بحيث يسمع غيره والإسرار بحيث يسمع نفسه .

وعند الحنفية في رواية أدنى الجهر إسماع نفسه وأدنى المخافتة تصحيح الحروف وهو قول الكرخي .

وفي كتاب الإمام محمد إشارة إليه ، والأصح كما في المحيط قول الشيخين الهندواني والفضلي وهو الذي عليه الأكثر أن أدنى الجهر إسماع غيره وأدنى المخافتة إسماع نفسه .

ومن هنا قال في "فتح القدير" : إن تصحيح الحروف بلا صوت إيماءً إلى الحروف بعضلات المخارج لا حروف إذ الحروف كيفية تعرض للصوت فإذا انتفى الصوت المعروف انتفى الحرف العارض وحيث لا حرف فلا كلام بمعنى المتكلم به فلا قراءة بمعنى التكلم الذي هو

فعل اللسان فلا مخافتة عند انتفاء الصوت كما لا جهر انتهى محرراً ، وقد ألف الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة في تحقيق هذه المسألة رسالتين جليلتين سمي أولاهما : نشر الزهر في الذكر بالجهر وثانيتهما : باتحاف المنيب الأواه بفضل الجهر بذكر الله رد فيها على بعض أهل القرن التاسع من علماء الحنفية من أعيان دولة ميرزا أبلغ بيك بن شاه دخ الكوركاني حيث أطلق القول بكون الجهر بالذكر بدعة محرمة وألف في ذلك رسالة ، ولعله يأتي إن شاء الله تعالى زيادة بسط لتحقيق هذه المسألة والله تعالى الموفق .

وقوله سبحانه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) ﴾

قوله سبحانه ﴿ اللَّهِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود الحق أي ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل ، وقوله تعالى :

﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه فإن ما أسند إليه عز شأنه من خلق جميع الموجودات والعلو اللائق بشأنه على

جميع المخلوقات والرحمانية والمالكية للعلويات والسلفيات والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بيناً ، وقوله تبارك اسمه ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية وغيرها أسماءه تعالى وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى وجاء الاسم بمعنى الفة ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد : 33] والحسنى تأنيث الأحسن وصفة المؤنثة المفردة تجرى على جمع التكسير وحسن ذلك كونها وقعت فاصلة ، وقيل : تضمنها الإشارة إلى عدم التعدد حقيقة بناء على عدم زيادة صفاته تعالى على ذاته واتحادهما معها وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في غاية الظهور ، وجوز أبو حيان كون الاسم الجليل مبتدأ وجملة ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ خبره وجملة ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ خبر بعد خبر ، وظاهر صنيعه يقتضي اختيار لأنه المتبادر للذهن ، ولا يخفى على المتأمل أولية ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(146/494)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ .

بيان لكمال لطفه . أي : علمه نافذ في الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر .

فكذلك إن تجهر وإن تخفت، فيعلمه بجهر وخفت .

﴿ اللَّهُ ﴾ أي : ذلك المُنْزل الموصوف بهذه الصفات هو الله : ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي : الفضلى، لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 126.125 ﴾

(147/494)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) ﴾

خاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة بأنه : إن يجهر بالقول أي يقله جهرة في غير خفاء فإنه جل وعلا يعلم السر وما هو أخفى من السر . وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا ذكره في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك : 13] وقوله : ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : 19]، وقوله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد : 26]، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] الآية إلى غير ذلك من

الآيات. وفي المراد بقوله في هذه الآية ﴿ وَأَخْفَى ﴾ أوجه معروفة كلها حق ويشهد لها قرآن. قال بعض أهل العلم ﴿ يَعْلَمُ السر ﴾ : أي ما قاله العبد سراً ﴿ وَأَخْفَى ﴾ أي ويعلم ما هو أخفى من السر وهو ما توسوس به نفسه. كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16]. وقال بعض أهل العلم الإنسان أنه فاعله كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذلك هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 63] وكما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ [النجم : 32] فالله يعلم مـا يسره الإنسان اليوم. وما سيسره غداً. والعبد لا يعلم ما في غد كما قال زهير في معلقته :

وأعلم علم اليوم والأمس وقبله . . . ولكنني عن علم ما في غد عم

(148/494)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ صيغة تفضيل كما بينا أي ويعلم ما هو أخفى من السر. وقول من قال : إن « أخفى » فعل ماض بمعنى أنه يعلم سر الخلق وأخفى عنهم ما يعلمه هو. كقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه

: 110] – ظاهر السقوط كما لا يخفى . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] أي فلا حاجة لك إلى الجهر بالدعاء ونحوه كما قال تعالى : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول ﴾ [الأعراف : 205] الآية .

ويوضح هذا المعنى الحديث الصحيح . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع أصحابه رفعوا أصواتهم بالتكبير قال صلى الله عليه وسلم : « ارْبُعوا على أنفسكم فإنكم لا تَدْعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً . إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

(149/494)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه المعبود وحده وأن له الأسماء الحسنى . وبين أنه المعبود وحده في آيات لا يمكن حصرها لكثرتها كقوله : ﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم ﴾ [البقرة : 255] وقوله : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ الله ﴾ [محمد : 19] الآية . وبين في مواضع أخر أن له الأسماء الحسنى وزاد في بعض المواضع الأمر بدعائه بها كقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] ، وقوله : ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] وزاد في موضع آخر تهديد من ألحد في أسمائه . وهو قوله : ﴿ وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 180] .

قال بعض العلماء ك ومن إلحادهم في أسمائه أنهم اشتقوا العزى من اسم العزيز واللات من اسم الله وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسماص مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » وقد بعض الأحاديث على أن من أسمائه جل وعلا ما استأثر به ولم يعلمه خلقه كحديث : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمتَه أحداً من خلقِك أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك » الحديث وقوله : ﴿ الحسنى ﴾ تأنيث الأحسن وإنما وصف أسماءه جل وعلا بلفظ المؤنث المفرد لأن جمع التكسير مطلقاً وجمع المؤنث السالم يجريان مجرى المؤنثة الواحدة المجازية التأنيث كما أشار له في الخلاصة بقوله :

والتاء مع جمع سوى السالم من . . . مذكر كالتاء من إحدى اللبن

ونظير قوله هنا ﴿ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ [طه : 8] من وصف الجمع بلفظ المفرد المؤنث قوله : ﴿ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾ [طه : 23] ، وقوله : ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) ﴾

عطف على جملة ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ [طه : 6] لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلّت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته .

وأصل النظم : ويعلم السر وأخفى إن تجهر بالقول ؛ فموقع قوله : ﴿ وإن تَجْهَر بالقَوْلِ ﴾ موقع الاعتراض بين جملة ﴿ يعلم السر وأخفى وجملة الله لا إله إلاّ هو .

فصيغ النظم في قالب الشرط والجزاء زيادة في تحقيق حصوله على طريقة ما يسمى بالمذهب الكلامي ، وهو سوق الخبر في صيغة الدليل على وقوعه تحقيقاً له .

والمعنى : إنه يعلم السر وأخفى من السرّ في الأحوال التي يجهر فيها القائل بالقول لإسماع مخاطبه ، أي فهو لا يحتاج إلى الجهر لأنه يعلم السر وأخفى .

وهذا أسلوب متبع عند البلغاء شائع في كلامهم بأساليب كثيرة .

وذلك في كل شرط لا يقصد به التعليق بل يقصد التحقيق كقول أبي كبير الهذيلي :

فأتت به حُوش الفؤاد مبطّنا . . .

سُهُداً إذَا ما نَام ليلُ الهَوْجل

أي سُهُداً في كلّ وقت حين ينام غيره ممن هو هَوْجل .

وقول بشامة بن حزن النهشلي:

إذا الكماة تنحّوا أن يصيبهم . . .

حَدّ الظُبات وصَلنا ها بأيدينا

وقول إبراهيم بن كُنيف النبهاني:

فإن تكن الأيام جَالت صروفها . . .

ببؤسَى ونُعمى والحوادث تفعل

فما ليّنَتْ منا قناةً صَليبةً . . .

وما ذللتنا للّتي ليس تَجْمُل

وقول القطامِي:

فمن تكن الحضارة أعجبته . . .

فأيّ رجال بادية ترانا

فالخطاب في قوله وإنْ تَجْهَر ﴾ يجوز أن يكون خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو يعم غيره .

ويجوز أن يكون لغير معيّن ليعم كلّ مخاطب .

واختير في إثبات سعة علم الله تعالى خصوص علمه بالمسموعات لأنّ السر أخفى الأشياء عن علم الناس في العادة.

ولمّا جاء القرآن مذكراً بعلم الله تعالى توجهت أنظار المشركين إلى معرفة مدى علم الله تعالى وتجادلوا في ذلك في مجامعهم.

(151/494)

وفي "صحيح البخاري" عن عبد الله بن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقهُ قلوبِهم فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهَرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر: إنْ كان يسمع إذا جهرنا (أي وهو بعيد عنا) فإنه يسمع إذا أخفينا.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا قلوبكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ [فصلت: 22].

وقد كثر في القرآن أنّ الله يعلم ما يسرّ الناس وما يعلنون ولا أحسب هذه الآية إلا ناظرة إلى مثل ما نظرتْ الآية الآنفة الذكر.

وقال تعالى: ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما

يسرّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ [هود : 5] .

يبقى النظر في توجيه الإتيان بهذا الشرط بطريقة الاعتراض ، وتوجيه اختيار فرض الشرط بحالة الجهر دون حالة السر مع أن الذي يتراءى للناظر أنّ حالة السر أجدر بالذكر في مقام الإعلام بإحاطة علم الله تعالى بما لا يحيط به علم الناس ، كما ذكر في الخبر المروي عن ابن مسعود في الآية الآنفة الذكر .

وأحسب لفرض الشرط بحالة الجهر بالقول خصوصية بهذا السياق اقتضاها اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بالقرآن في الصلاة أو غيرها ، فيكون مورد هذه الآية كمورد قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ [الأعراف : 205] فيكون هذا مما نسخه قوله تعالى : ﴿ فاصدَع بما تؤمر ﴾ [الحجر : 94] ، وتعليم للمسلمين باستواء الجهر والسر في الدعاء ، وإبطال لتوهم المشركين أن الجهر أقرب إلى علم الله من السر ، كما دل عليه الخبر المروي عن أبي مسعود المذكور آنفاً .

والقول : مصدر ، وهو تلفظ الإنسان بالكلام ، فيشمل القراءة والدعاء والمحاورة ، والمقصود هنا ما له مزيد مناسبة بقوله تعالى : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [طه :

2] الآيات .

وجواب شرط ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ محذوف يدل عليه قوله : ﴿ فإنه يعلم السر وأخفى .

والتقدير : فلا تشقّ على نفسك فإنّ الله يعلم السر وأخفى ، أي فلا مزية للجهر به .

وبهذا تعلم أن ليس مساق الآية لتعليم الناس كيفية الدعاء ، فقد ثبت في السُّنّة الجهر بالدعاء والذكر ، فليس من الصواب فرض تلك المسألة هنا إلاّ على معنى الإشارة .

وأخفى اسم تفضيل ، وحذف المفضل عليه لدلالة المقام عليه ، أي وأخفى من السر .

والمراد بأخفى منه : ما يتكلم اللسان من حديث النفس ونحوه من الأصوات التي هي أخفى من كلام السر .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) ﴾

تذييل لما قبله لأنّ ما قبله تضمن صفات من فعل الله تعالى ومن خَلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته .

واسم الجلالة خبر لمبتدأ محذوف .

والتقدير : هو الله ، جرياً على ما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العَرْشِ استوى ﴾ [طه : 5] .

وجملة ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ حال من اسم الجلالة .

وكذلك جملة ﴿ لَهُ الأسماءُ الحسنى ﴾ .

والأسماء : الكلمات الدالة على الاتّصاف بحقائق .

وهي بالنسبة إلى الله : إما علَم وهو اسم الجلالة خاصةً .

وإما وصف مثل الرحمان والجبّار وبقية الأسماء الحسنى .

وتقديم المجرور في قوله ﴿ له الأسماءُ الحُسْنى ﴾ للاختصاص ، أي لا لغيره لأنّ غيره إما أن يكون اسمه مجرداً من المعاني المدلولة للأسماء مثل الأصنام ، وإما أن تكون حقائقها فيه غير بالغة منتهى كمال حقيقتها كاتصاف البشر بالرحمة والمِلك ، وإما أن يكون الاتّصاف بها كَذباً لا حقيقة ، كاتصاف البشر بالكِبْر ، إذ ليس أهلاً للكبر والجبروت والعزّة .

(153/494)

ووصْف الأسمَاءُ بالحسنى لأنها دالة على حقائق كاملة بالنسبة إلى المسمى بها تعالى وتقدس .

وذلك ظاهر في غير اسم الجلالة ، وأما في اسم الجلالة الذي هو الاسم العلَم فلأنه مخالف للأعلام من حيث إنّه في الأصل وصف دال على الانفراد بالإلهية لأنّه دال على الإله ، وعُرّف باللام الدالة على انحصار الحقيقة عنده ، فكان جامعاً لمعنى وجوب الوجود ،

واستحق العبادة لوجود أسباب استحقاقها عنده .

وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ في سورة الأعراف (180) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(154/494)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عنه نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنني سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندي مثل السر ، بل وأخفى من السر ، وهو صلى الله عليه وسلم مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع في أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس في أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ،

وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقِي بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك في حياة كل منا أمور تضيق النفس بها ، فلا بُدَّ لك أن تُنفِّس عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إلَى ذِي مُرُوءَةٍ . . . يوَاسِيكَ أَوْ يُسَلِيكَ أَوْ يتوجّعُ

فأنت إذن في حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى ﴿ وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] أي : أَخْفى من السر ، فإنْ كان سِرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أَخْفَى من السر ، أي : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك : 13] أي : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .

(155/494)

وقال أيضاً : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هي الأَخْفى من السر ، فلدينا إذن جهْر ، وسِرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك في علم الله ما هو أخْفى من الأخفى ، فما هو؟ يقول : إنه تعالى يعلم

ما سيكون في النفس قبل أن يكون .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التي بعث عليها الرسل جميعاً : ﴿ الله لا إله إلاَّ هُوَ ﴾

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) ﴾

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هي قمة العقيدة ، وقال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : " خير ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله " .

وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .

" وحينما دخل أعرابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم مع أبي بكر رضي الله عنه لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أُحسن دندنتك ولا دندنة أبي بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : " حَوْلَها ندندن يا أخا العرب " .

فهي الأساس والمركز الذي يدور حوله الإسلام .

وكلمة (اللهُ) عَلَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحيّ ، الله المحيي ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ،

لكن هذه الصفات لما بلغتْ حدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العَلَم ، بحيث إذا أُطلق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .

وقد يشترك الخَلْق مع الخالق في بعض الصفات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم ﴾ [النساء : 8] .

(156/494)

فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .

وكما في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17] .

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق : الإيجاد من عدم ، فالذي جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أن توجد أنتَ ، فهو إذن أحسن الخالقين في حين لم يضِنّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضِنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ؛ لأنك توجِد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق سبحانه وتعالى يُوجِد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يتلقى بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذي أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب ؟ ! وهل يكبر الكوب الصغير ، أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً ؟ !

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ [طه : 8] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل " أحسن " للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هي أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى ؛ لأنها بلغتْ القمة في الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التي تنطبق عليها موجودة في الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول في أسماء الله تعالى (الرازق) فهي الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه في خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هي في الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلِقت على الحق تبارك وتعالى أصبحتْ أسماء . ولَكَ أنْ تُسمَّى فتاة زنجية (قمر) وتسمى قِزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلِق عَلَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلي ولزم العَلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلي حتى بعد أنْ أصبحتْ عَلَماً على الله تعالى ، فهي إذن أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق تبارك وتعالى عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم فليس بعده نبي وليس بعد منهجه منهج أراد سبحانه أنْ يُسلّيه تسليةً تُبيّن مركزه في موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها في سبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان ؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك

في الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك في الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفي المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

(158/494)

لذلك اختار الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم نبياً من أُولي العزم ؛ لأنه جاء لبني إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى عليه السلام ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هذه الحق وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 120] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] .

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذي يكتفي بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شَكَّ أن كلاّ منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(159/494)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) ﴾

قوله : ﴿ وأخفى ﴾ : جوَّزوا فيه وجهين ، أحدهما : أنه أفعل تفضيل ، أي : وأخْفَى من السِّر . والثاني : أنه فعلٌ ماضٍ أي : وأَخْفى اللهُ عن عبادِه غيبَه كقولِه : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) ﴾

والجلالةُ : إمَّا مبتدأٌ ، والجملةُ المنفيةُ خبرُها ، وإمَّا خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي : هو الله . و " الحُسْنى " تأنيثُ الأحسن . وقد تقدَّم غيرَ مرة أنَّ جمعَ التكسيرِ في غير العقلاء يُعامَلُ معاملةَ المؤنثةِ الواحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 14 ﴾

(160/494)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) ﴾

النَّفْسُ لا تقف على ما في القلب ، والقلبُ لا يقف على أسرار الرُّوح ، والروح لا سبيل له إلى حقائق السرِّ . والذي هو أخفى من السِّرِّ فهو ما لا يَطَّلِعُ عليه إلا الحق .

ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان ، ولا يكتبه المَلَكَانِ ، ويستأثِرُ بعلْمه الجبَّارُ ، ولا تقف عليه الأغيار .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) ﴾

نَفَى كل موهوم من الحدثان بأن يكون شيءٌ منه صالحاً للإبداع ، وأثبت كُلِّ ما في الوجود له باستحقاق القِدَم .

﴿ لَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى ﴾ أي صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى .

ويقال ﴿ لَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى ﴾ تعريفٌ للخَلْق بأنّ استحقاق العلو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرُّد به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 447.446 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتبع ذلك قصة موسى عليه السلام مصدرة باستفهام مقترن بواو عطف ، وأرشد ذلك إلى أن المعنى : هل تعلم له سمياً ، أي متصفاً بأوصافه أو بشيء منها له بذلك الوصف مثل فعله ، ولما كان الجواب قطعاً : لا ، ثبت أن لا متصف بشيء من أوصافه ، فعطف على هذا المقدر قصة موسى عليه السلام ، ويكون التقدير : هل علمت بما ذكرناك به في هذه الآيات أنا نريد ما هو علينا يسير بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل من إسعادك في الدارين تكثير أجرك ، وتفخيم أمرك ، بتكثير أتباعك ، وعطف عليه القصة شاهداً محسوساً على ما له من الاتصاف بما انتفى عن غيره من الأسماء الحسنى ، ولاسيما ما ذكر

هنا من الاتصاف بتمام القدرة والتفرد بالعظمة ، وأنه يعلي هذا المصطفى بإنزال هذا الذكر عليه وإيصاله منه إليه النصرة على الملوك وسائر الأضداد ، والتمكين في أقطار البلاد ، وكثرة الأتباع ، وإعزاز الأنصار والوزراء والأشياع ، وغير ذلك بمقدار ما بين ابتداء أمرهما من التفاوت ، فإن ابتداء أمر موسى عليه السلام أنه أتى النار لُيقبس أهله منها ناراً أو يجد عندها هدى .

فمنح بذلك من هدى الدارين والنصرة على الأعداء كما سيقص هنا ما منح ، وهذا النبي الكريم كان ابتداء أمره أنه يذهب إلى غار حراء فيتعبد الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك اجتذاباً من الحق له قبل النبوة بمدد ، تدريباً له وتقوية لقلبه ، فأتته النبوة وهو في مضمارها سائر ، وإلى أوجها بعزمه صائر بل طائر ، وموسى عليه السلام رأى حين أتته النبوة آية العصا واليد ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قبل النبوة لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه ، كما أسنده ابن إسحاق في السيرة .

وروى مسلم وغيره عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إني لأعرف حجراً كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث " فقال تعالى مقرراً تنبيهاً على أنه

يذكر له منه ما يكفي في تسليته وتقوية قلبه ، وتبكيت اليهود الذين توقفوا في أمره. صلى الله عليه وسلم. وغشوا قريشاً حين تكلفوا طيّ شقة البين إليهم ورضوا بقولهم لهم وعليهم ليكون فائدة الاستفهام أن يفرغ أذنه الشريفة للسماع وقلبه للوعي العظيم : ﴿ وهل أتاك ﴾ أي يا أشرف الخلق ! ﴿ حديث موسى ﴾ نادباً إلى التأسي بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة وتكليف الرسالة والصبر على مقامات الشدائد ، وشارحاً بذكر ما في هذه السورة من سياق قصة ما أجمل منها في سورة مريم ، ومقرراً بما نظمه في أساليبها ما تقدم أنه مقصد السورة من أنه يسعده ولا يشقيه ، ويعزه على جميع شانئيه بإعزازه على أهل بلده بعد إخراجهم له ، كما أعز موسى عليه السلام من خرج من بلادهم خائفاً يترقب ، ترغيباً في الهجرة ثالثاً بعد ما رغب فيها أولاً بقصة أصحاب الكهف وثانياً بقصة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وأنه يعلي قومه على جميع أهل الأرض ، وينقذهم به بعد ضعفهم من كل شدة ويغني فقرهم ويجعلهم ملوك الأرض ، يذل بهم الجبابرة ، ويهلك من علم شقاوته منهم كما فعل بقوم موسى ، وأشار بإنجاء موسى عليه السلام على يد عدوه وإلقائه المحبة عليه وهداية السحرة دون فرعون وقومه ، وعبادة بني إسرائيل العجل بعد ما رأوا من الآيات والنعم والنقم ، ثم رجوعهم عنها إلى عظيم قدرته على التصرف في القلوب لمن كان يبخع نفسه لكفرهم بهذا الحديث أسفاً ، وكذا ما في قصة آدم عليه السلام من قوله ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ [طه : 115] وقوله ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ [طه :

122] ولعله أشار بقوله ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ [طه : 27] إلى ما أنعم الله به

عليه من تيسير هذا الذكر بلسانه ، وأرشد بدعاء موسى عليه السلام

(163/494)

بشرح الصدر وتيسير الأمر وطلب وزيراً من أهله إلى الدعاء بمثل ذلك حتى دعا المنزل عليه هذا القرآن بأن يؤيد الله الدين بأحد الرجلين ، فأيده بأعظم وزير : عمر بن الخطاب . رضى الله عنهم . - كما مضى هذا إلى تمام ما اشتمل عليه سياق قصة موسى عليه السلام هنا ، إتماماً لتبكيت اليهود على تعليمهم قريشاً أن يسألوا النبي . صلى الله عليه وسلم . عن الروح ، وما ذكر معها من دقائق ، من أمر قصة نبيهم . صلى الله عليه وسلم . ، لا يعلمها أحد منهم أو إلا حذاقهم ، منها أن الموعد كان يوم الزينة ، ومنها إيمان السحرة إيماناً كاملاً ، ومنها التهديد بتصليبهم في جذوع النخل ، ومنها إلقاء السامري لأثر الرسول ، فإني لم أر أحداً من اليهود يعرف ذلك ، وأخبرني بعض فضلائهم أنه لا ذكر لذلك عندهم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه : لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام وما منحه وأعطاه ، وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به ، وأعقب ذلك بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ [مريم : 58] وكان ظاهر الكلام تخصيص

هؤلاء بهذه المناصب العلية ، والدرجات المنفية الجليلة لا سيما وقد اتبع ذلك بقوله ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ [مريم : 59] كان هذا مظنة إشفاق وخوف فاتبعه تعالى بملاطفة نبيه محمد . صلى الله عليه وسلم . ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ وأيضاً فقد ختمت سورة مريم بقوله ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ بعد قوله ﴿ وتنذر به قوما لداً ﴾ وقد رأى عليه الصلاة والسلام من تأخر قريش عن الإسلام ولددها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم .

ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام يحزنه تأخير إيمانهم ، ولذلك قيل له ﴿ فلا تحزن عليهم ﴾ فكأنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه يستصعب المقصود من استجابتهم ، أو ينقطع الرجاء من إنابتهم فيطول العناء والمشقة ، فبشره سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ فلا عليك من لدد هؤلاء وتوقفهم ، فيستجيب من انطوى على الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله كما قيل له في موضع آخر ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ [يونس : 65] ثم تبع ذلك سبحانه تعريفاً وتأنيساً بقوله ﴿ الرحمن على العرش

استوى ﴾ إلى أول قصص موسى عليه السلام ، فأعلم سبحانه أن الكل خلقه ملكه ، وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه .

فإذا شاهد آية من وفقه لم يصعب أمره ، ثم اتبع ذلك بقصة موسى عليه السلام ، وما كان منه في إلقائه صغيراً في اليم ، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني إسرائيل ، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم ، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول - والله أعلم ، انتهى .

﴿ إذ ﴾ أي حديثه حين ﴿ رأى ناراً ﴾ وهو راجع من بلاد مدين ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ أي مكانكم واتركوا ما أنتم عليه من السير ؛ ثم علل أمره بقوله : ﴿ إني ءانست ﴾ أي أبصرت في هذا الظلام إبصاراً بيناً لا شبهة فيه من إنسان العين الذي تبين به الأشياء ، وهو مع ذلك مما يسر من الإنس الذين هم ظاهرون ما ترك بهم ﴿ ناراً ﴾ فكأنه قيل ، فكان ماذا ؟ فقال معبراً بأداة الترجي لتخصيصه الخبر الذي عبر به في النمل بالهدى : ﴿ لعلي ءاتيكم ﴾ أي أترجى أن أجيئكم ﴿ منها بقبس ﴾ أي بشعلة من النار في رأس حطبة فيها جمرة تعين على برد هذه الليلة ﴿ أو أجد على ﴾ مكان ﴿ النار هدى ﴾ أي ما أهتدي به لأن الطريق كانت قد خفيت عليهم ﴿ فلما أتاها ﴾ .

ولما كان في الإبهام ثم تعيين تشويق ثم تعظيم ، بنى للمفعول قوله : ﴿ نودي ﴾ من الهدى الذي لا هدى غيره ؛ ثم بين النداء بقوله : ﴿ يا موسى ﴾ ولما كان المقام للتعريف بالأيادي تلطفاً ، قال مؤكداً ، تنبيهاً له على تعرف أنه كلامه سبحانه من جهة أنه يسمعه من غير جهة معينة وعلى غير الهيئة التي عهدها في مكالمة المخلوقين ، مسقطاً الجار في قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي حفص بالفتح ، وحاكياً بقول مقدر عند الباقين : ﴿ إني أنا ربك ﴾ أي المحسن إليك بالخلق والرزق وغيرهما من مصالح الدارين ﴿ فاخلع نعليك ﴾ كما يفعل بحضرات الملوك أدباً ، ولتنالك بركتها ولتكون مهيأً للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد ، ولهذا قال أهل العبارة : النعل يدل على الولد .

ثم علل بما يرشد إلى أنه تعالى لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان فقال : ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ أي المطهر عن كل ما لا يليق بأفنية الملوك ؛ ثم فسره بقوله : ﴿ طوى ﴾ ولما كان المعنى : فإني اخترته تشريفاً له من بين البقاع لمناجاتك ، عطف عليه قوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ أي للنبوة ﴿ فاستمع ﴾ أي أنصت ملقياً سمعك معملاً قلبك للسماع ﴿ لما ﴾ أي اخترتك للذي ، وقدم استمع اهتماماً به ﴿ يوحى ﴾ أي يقال لك مني سراً مستوراً عن غيرك سماعه وإن كان في غاية الجهر ، كما يفعل الحبيب مع حبيبه من صيانة حديثهما عن ثالث بما يجعل له من الخلوة إعلاماً بعلو قدره وفخامة أمره ؛ ثم فسر الموحى بأول الواجبات

وهو معرفة الله تعالى ؛ فقال مؤكداً لعظم الخبر وخروجه عن العادات : ﴿ إنني أنا الله ﴾ فذكر الاسم العلم لأن هذا مقامه إذ الأنسب للملطوف به - بعد التعرف إليه بالإكرام - الإقامة في مقام الجلال والجمال .

(166/494)

ولما كان هذا الاسم العلم جامعاً لجميع معاني الأسماء الحسنى التي علت عن أن يتصف بها أو بشيء منها حق الاتصاف غيره تعالى ، حسن تعقيبه بقوله : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ ولما تسبب عن ذلك وجوب إفراده بالعبادة ، قال : ﴿ فاعبدني ﴾ أي وحدي : ثم خص من بين العبادات معدن الأنس والخلوة ، وآية الخضوع والمراقبة وروح الدين فقال : ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أي التي أضاعها خلوف السوء ، إشارة إلى أنها المقصود بالذات من الدين ، لأنها أعلى شرائعه لأنها حاملة على المراقبة ، بما فيها من دوام الذكر والإعراض عن كل سوء ، وذلك معنى ﴿ لذكري ﴾ وذلك أنسب الأشياء لمقام الجلال ، بل هي الجامعة لمظهري الجمال والجلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 14.11 ﴾

(167/494)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه اتبع ذلك بما يقوي قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام تقوية لقلبه في الإبلاغ كقوله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء الرسل مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] وبدأ بموسى عليه السلام لأن المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ﴾ يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام فقال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ﴾ أي لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له ، وهذا قول الكلبي .

ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال : أليس قد أتاك ، وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ﴾ وإن كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب في قلبه ، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا ؟ فيتطلع السامع إلى معرفة ما يرمى إليه ، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبي عليه السلام لا من قبل الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ أي هل أتاك حديثه حين رأى ناراً قال المفسرون : استأذن موسى عليه السلام شعيباً في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج فولد له ابن في الطريق في ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيئاً ، فبينا هو مزاولة ذلك إذ نظر ناراً من بعيد عن يسار الطريق .

قال السدي : ظن أنها نار من نيران الرعاة وقال آخرون : إنه عليه السلام رآها في شجرة وليس في لفظ القرآن ما يدل على ذلك ، واختلفوا فقال بعضهم الذي رآه لم يكن ناراً بل تخيله ناراً والصحيح أنه رأى ناراً ليكون صادقاً في خبره إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء ، قيل : النار أربعة أقسام : نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا ، ونار تشرب ولا تأكل وهي نار

الشجر لقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ [يس : 80] ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة ، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام وقيل أيضاً النار على أربعة أقسام : أحدها : نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام .

وثانيها : حرقة بلا نور وهي نار جهنم .

وثالثها : الحرقة والنور وهي نار الدنيا .

ورابعها : لا حرقة ولا نور وهي نار الأشجار ، فلما أبصر النار توجه نحوها ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ .

فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذي معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الأهل فإن الأهل يقع على الجمع ، وأيضاً فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيماً أي أقيموا في مكانكم : ﴿ إِنّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرت ، والإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه إنسان العين فإنه يبين به الشيء والإنس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو أيضاً ما يؤنس به ولما وجد منه الإيناس وكان منتفياً حقيقة لهم أتى بكلمة إني لتوطين أنفسهم ولما كان الإيناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع فقال : ﴿ لعلي آتيكم ﴾ ولم يقطع فيقول إني آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به .

والنكتة فيه أن قوماً قالوا : كذب إبراهيم للمصلحة وهو محال لأن موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلي آتيكم ولم يقطع فيقول إني آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ والهدى ما يهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة ، ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها ﴿ فَلَمَّا أَتاها ﴾ أي أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً ، قال وهب : فظن موسى عليه السلام أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطعمه ويطمع فيها ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره إلى فرعها فإذا خضرته ساطعة في السماء .

وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكل عنه الأبصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودي يا موسى قال القاضي الذي يروى من أن الزند ما كان يورى فهذا جائز وأما الذي يروى من أن النار كانت تتأخر عنه فإن كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك وإلا فهو ممتنع إلا أن يكون معجزة لغيره من الأنبياء عليهم السلام وفي قوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يوحى ﴾ [طه : 13] دلالة على أن في هذه الحالة أوحى الله إليه وجعله نبياً ، وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يا موسى ﴾ وإن كانت تتأخر عنه حالاً بعد حال لما صح ذلك ولما بقي لفاء التعقيب فائدة قلنا : القاضي إنما بنى هذا الاعتراض على مذهبه في أن الإرهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لأن تخلل الزمان القليل فيما بين المجيء والنداء لا يقدح في فاء التعقيب .

المسألة الرابعة :

قرأ أبو عمرو وابن كثير (أنى) بالفتح أي نودي بأني أنا ربك والباقون بالكسر أي نودي فقيل : يا موسى أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته .

المسألة الخامسة :

قال الأشعري إن الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت ، وأما المعتزلة فإنهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا : إنه سبحانه خلق ذلك النداء في جسم من

الأجسام كالشجرة أو غيرها لأن النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله ، وأما أهل السنة من أهل ما وراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى في الشجرة واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث قالوا : إنه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث .

المسألة السادسة :

اختلفوا في أن موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادي هو الله تعالى فقال أصحابنا : يجوز أن يخلق الله تعالى له علماً ضرورياً بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة ، قالت المعتزلة : أما العلم الضروري فغير جائز لأنه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوماً له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفاً لأن حصول العلم الضروري ينافي التكليف ، وبالإتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا في

ذلك المعجز على وجوه .

أولها : منهم من قال نعلم قطعاً أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولا حاجة بنا إلى أن نعرف ذلك المعجز ما هو .

وثانيها : يروى أن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة إلى السماء وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه فنودي يا موسى ؟ فقال : لبيك إني أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت ؟ قال : أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك منك .

ثم إن إبليس أخطر بباله هذا الشك وقال : ما يدريك أنك تسمع كلام الله ؟ فقال : لأني أسمعه من فوقي ومن تحتي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي كما أسمعه من قدامي ، فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين .

ومعنى إطلاقه هذه الجهات أني أسمعه بجميع أجزائي وأبعاضي حتى كأن كل جارحة مني صارت أذناً .

وثالثها : لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزاً .

ورابعها : أنه رأى النار في الشجرة الخضراء بحيث أن تلك الخضرة ما كانت تطفىء تلك النار وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة ، وهذا لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه .

المسألة السابعة :

قالوا : إن تكرير الضمير في ﴿ إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ كان لتوليد الدلالة وإزالة الشبهة .

المسألة الثامنة :

ذكروا في قوله : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ وجوهاً .

أحدها : كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس ولذلك قال عقيبه : ﴿ إِنَّكَ بالوادي المقدس طوى ﴾ وهذا قول علي عليه السلام وقول مقاتل والكلبي والضحاك وقتادة والسدي .

والثاني : إنما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادي وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد .

وثالثها : أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها إلا حافياً ليكون معظماً لها وخاضعاً عند سماع كلام ربه ، والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه : ﴿ إِنَّكَ بالوادي المقدس طوى ﴾ وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى : اخلع نعليك لأنك بالوادي المقدس طوى .

وأما أهل الإشارة فقد ذكروا فيها وجوهاً : أحدها : أن النعل في النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ إشارة إلى أن لا يلفت خاطره إلى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما .

وثانيها : المراد بخلع النعلين ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة كأنه أمره بأن يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره إلى ما سوى الله تعالى والمراد من الوادي المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعني أنك لما وصلت إلى بحر المعرفة فلا تلتفت إلى المخلوقات .

وثالثها : أن الإنسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل إليه إلا بمقدمتين مثل أن يقول العالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان تشبهان النعلين لأن بهما يتوصل العقل إلى المقصود ويتنقل من النظر في الخلق إلى معرفة الخالق ثم بعد الوصول إلى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتاً إلى تينك المقدمتين لأن بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروماً عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فإنك وصلت إلى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته .

المسألة التاسعة :

استدلت المعتزلة بقوله : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ على أن كلام الله تعالى ليس بقديم إذ لو كان قديماً لكان الله قائلاً قبل وجود موسى اخلع نعليك يا موسى ومعلوم أن ذلك سفه فإن الرجل في الدار الخالية إذا قال : يا زيد افعل ويا عمرو لا تفعل مع أن زيداً وعمراً لا يكونان حاضرين بعد ذلك جنوناً وسفهاً فكيف يليق ذلك بالإله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين : الأول : أن كلامه تعالى وإن كان قديماً إلا أنه في الأزل لم يكن أمراً ولا نهياً .

والثاني : أنه كان أمراً بمعنى أنه وجد في الأزل شيء لما استمر إلى ما لا يزال صار الشخص به مأموراً من غير وقوع التغير في ذلك الشيء كما أن القدرة تقتضي صحة الفعل ثم إنها كانت موجودة في الأزل من غير هذه الصحة فلما استمرت إلى ما لا يزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق .

المسألة العاشرة :

ليس في الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف في النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لأنا إن عللنا الأمر بخلع النعلين بتعظيم الوادي وتعظيم كلام الله كان الأمر مقصوراً على تلك الصورة ، وإن عللناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز أن يكون قد كان محظوراً لبس جلد الحمار الميت وإن كان مدبوغاً فإن كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام : " أيما إهاب دبغ فقد طهر " وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم في نعليه ثم خلعهما في

الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال : " ما لكم خلعتم نعالكم " قالوا : خلعت فخلعنا قال : " فإن جبريل أخبرني أن فيهما قذراً " فلم يكره النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه إنما خلعهما لما فيهما من القذر .

المسألة الحادية عشر : قرئ طوى بالضم والكسر منصرفاً وغير منصرف فمن نونه فهو اسم الوادي ومن لم ينونه ترك صرفه لأنه معدول عن طاوي فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسماً للبقعة .

المسألة الثانية عشرة :

في طوى وجوه : الأول : أنه اسم للوادي وهو قول عكرمة وابن زيد .

والثاني : معناه مرتين نحو مثنى أي قدس الوادي مرتين أو نودي موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى أي مثنى .

والثالث : طوى أي طياً قال ابن عباس رضي الله عنهما إنه مر بذلك الوادي ليلاً فطواه فكان المعنى بالوادي المقدس الذي طويته طياً أي قطعته حتى ارتفعت إلى أعلاه ومن ذهب إلى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال : طويته طوى كما يقال هدى

يهدي هدي ، والله أعلم .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) ﴾

قرأ حمزة : (وإنا اخترناك) وقرأ أبي بن كعب : (وإني اخترتك) وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذي خصصتك به ، وهذه الآية تدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق لأن قوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ يدل على أن ذلك المنصب العلي إنما حصل لأن الله تعالى اختاره له ابتداء لا أنه استحقه على الله تعالى .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه فقوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله : ﴿ فاستمع ﴾ يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لآ إله إِلآ أَنَاْ فاعبدنى ﴾ يدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع لأن التوحيد في علم الأصول والعبادة من علم الفروع وأيضاً الفاء في قوله :

﴿ فاعبدنى ﴾ تدل على أن عبادته إنما لزمت لإلهيته وهذا هو تحقيق العلماء أن الله هو المستحق للعبادة.

المسألة الرابعة:

(175/494)

أنه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد، أولاً ثم بالعبادة ثانياً، أمره بالصلاة ثالثاً احتج أصحابنا بهذه الآية على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين: الأول: أنه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت أنه يجوز ورود المجمل منفكاً عن البيان.

الثاني: أنه قال: ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ ولم يبين كيفية الصلاة قال: القاضي لا يمتنع أن موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التي تعبد الله تعالى بها شعيباً عليه السلام وغيره من الأنبياء فصار الخطاب متوجهاً إلى ذلك ويحتمل أنه تعالى بين له في الحال وأن كان المنقول في القرآن لم يذكر فيه إلا هذا القدر.

والجواب: أما العذر الأول فإنه لا يتوجه في قوله تعالى: ﴿ فاعبدنى ﴾ وأيضاً فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لأن موسى عليه السلام ما كان يشك في وجوب الصلاة التي جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله:

﴿ وأقم الصلاة ﴾ على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة ، أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة ، قوله : لعل الله تعالى بينه في ذلك الموضع وإن لم يحكه في القرآن قلنا لا نشك أن البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكوراً لكان أولى بالحكاية .

المسألة الخامسة :

في قوله : ﴿ لِذِكْرِي ﴾ وجوه : أحدها : لذكري يعني لتذكرني فإن ذكري أن أعبد ويصلي لي .

وثانيها : لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد .

وثالثها : لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها .

ورابعها : لأن أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق .

وخامسها : لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري .

وسادسها : لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر .

وسابعها : لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى :

﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور : 37] وثامنها : لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة لقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ [النساء : 103] .

وتاسعها : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ حين تذكرها أي أنك إذا نسيت صلاة فاقضها إذا ذكرتها .

روى قتادة عن أنس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك " ثم قرأ : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ قال الخطابي يحتمل هذا الحديث وجهين .

أحدهما : أنه لا يكفرها غير قضائها والآخر أنه لا يلزم في نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة في ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم إذا ترك شيئاً من نسكه فدية من إطعام أو دم .

وإنما يصلي ما ترك فقط فإن قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام : " فليصلها إذا ذكرها " قلنا قوله : ﴿ لِذِكْرِى ﴾ معناه للذكر الحاصل بخلقي أو بتقدير حذف المضاف أي لذكر صلاتي .

المسألة السادسة :

لو فاته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الأداء فلو ترك الترتيب في قضائها جاز عند الشافعي رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر إن كان في الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وإن ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعدما شرع في صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب في قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال : لو تذكر في خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضي الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت إلا أن يكون الوقت ضيقاً فلا تبطل حجة أبي حنيفة رحمه الله الآية والخبر والأثر والقياس ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِي ﴾ أي لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] أي عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضي رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام : " من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها " والفاء للتعقيب وأيضاً روى جابر بن عبد الله قال :

"جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا والله ما صليتها بعد قال فنزل إلى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها " وهذا الحديث مذكور في "الصحيحين" قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين : أحدهما : أنه عليه الصلاة والسلام قال : " صلوا كما رأيتموني أصلي " فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك .

(178/494)

والثاني : إن فعل النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بياناً لمجمل قوله تعالى : ﴿ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [النور : 56] ولهذا قلنا إن الفوائت إذا كانت في حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها وإذا دخلت في حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الأثر فما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : " من فاته صلاة فلم يذكرها إلا في صلاة الإمام فليمض في صلاته فإذا قضى صلاته مع الإمام يصلي ما فاته ثم ليعد التي صلاها مع الإمام " وقد يروى هذا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما القياس فهو أنهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد في اليوم والليلة فأشبهتا صلاتي

عرفة والمزدلفة فلما لم يجب إسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعي رحمه الله أنه روى في حديث أبي قتادة : " أنهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها " ولو كان وقت التذكر معيناً للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع إذا ثبت هذا فنقول إيجاب قضاء الفوائت وإيجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجري مجرى التخيير بين الواجبين فوجب أن يكون المكلف مخيراً في تقديم أيهما شاء ولأنه لو كان الترتيب في الفوائت شرطاً لما سقط بالنسيان ألا ترى أنه إذا صلى الظهر والعصر بعرفة في يوم غيم ثم تبين أنه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فإنه يعيدهما جميعاً ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطاً فيهما فهنا أيضاً لو كان شرطاً فيهما لما كان يسقط بالنسيان .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 19.13 ﴾

(179/494)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْك ﴾

قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ : أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ لِيُبَاشِرَ بِقَدَمِهِ بَرَكَةَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَقِيبَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ فَتَقْدِيرُهُ : اخْلَعْ نَعْلَيْكَ ؛ لِأَنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ .

وَقَالَ كَعْبٌ وَعِكْرِمَةُ : "كَانَتْ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ فَلِذَلِكَ أُمِرَ بِخَلْعِهَا " .

(180/494)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى كَرَاهَةِ الصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ فِي النَّعْلِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ إنْ كَانَ هُوَ الْأَوَّلَ فَالْمَعْنِيُّ فِيهِ مُبَاشَرَةُ الْوَادِي بِقَدَمِهِ تَبَرُّكًا بِهِ كَاسْتِلَامِ الْحَجَرِ وَتَقْبِيلِهِ تَبَرُّكًا بِهِ ، فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِخَلْعِ النَّعْلِ مَقْصُورًا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ بِعَيْنِهِ ، وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هُوَ الثَّانِي فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ مَحْظُورًا لُبْسُ جِلْدِ الْحِمَارِ الْمَيِّتِ وَإِنْ كَانَ مَدْبُوغًا ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مَنْسُوخٌ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَيُّمَا إهَابٍ دُبِغَ فَقَدْ طَهُرَ ﴾ ، وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَعْلَيْهِ ثُمَّ خَلَعَهُمَا فِي الصَّلَاةِ فَخَلَعَ النَّاسُ نِعَالَهُمْ فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا لَكُمْ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ ؟ قَالُوا : خَلَعْتَ فَخَلَعْنَا ، قَالَ : فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهَا قَذَرًا ﴾ ، فَلَمْ يَكْرَهْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ فِي النَّعْلِ ، وَأَنْكَرَ عَلَى الْخَالِعِينَ خَلْعَهَا ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إنَّمَا خَلَعَهَا ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ أَخْبَرَهُ أَنَّ فِيهَا قَذَرًا

وَهَذَا عِنْدَنَا .

مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ نَجَاسَةً يَسِيرَةً ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَثِيرَةً لَاسْتَأْنَفَ الصَّلَاةَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

قَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ : " لِتَذْكُرَنِي فِيهَا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّعْظِيمِ " .

وَقِيلَ فِيهِ : " لَأَنْ أَذْكُرَك بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ " .

(181/494)

وروى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَامَ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى طَلَعَتْ الشَّمْسُ فَصَلَّاهَا بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴾ .

وَرَوَى هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا لَا كَفَّارَةَ لَهَا إلَّا ذَلِكَ وَتَلَا : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ قَدْ أُرِيدَ بِهِ فِعْلُ الصَّلَاةِ الْمَتْرُوكَةِ ، وَكَوْنُ ذَلِكَ مُرَادًا بِالْآيَةِ لَا يَنْفِي أَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي الَّتِي تَأَوَّلَهَا عَلَيْهَا الْآخَرُونَ مُرَادَةً أَيْضًا ؛ إذْ هِيَ غَيْرُ

مُتَنَافِيَةٍ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَقِمْ الصَّلَاةَ إذَا ذَكَرْتَ الصَّلَاةَ الْمَنْسِيَّةَ لِتَذْكُرَنِي فِيهَا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّعْظِيمِ لِأَنْ أَذْكُرَك بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ ، فَيَكُونُ جَمِيعُ هَذِهِ الْمَعَانِي مُرَادَةً بِالْآيَةِ .

(182/494)

وَهَذَا الَّذِي وَرَدَ بِهِ الْأَثَرُ مِنْ إيجَابِ قَضَاءِ الصَّلَاةِ الْمَنْسِيَّةِ عِنْدَ الذِّكْرِ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِيهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ فِيهِ قَوْلٌ شَاذٌّ لَيْسَ الْعَمَلُ عَلَيْهِ ، فَرَوَى إسْرَائِيلُ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ سَعْدٍ قَالَ : " مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا وَلْيُصَلِّ مِثْلَهَا مِنْ الْغَدِ " وَرَوَى الْجَرِيرِيُّ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ : إذَا فَاتَتْ الرَّجُلَ الصَّلَاةُ صَلَّاهَا مِنْ الْغَدِ لِوَقْتِهَا ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي سَعِيدٍ فَقَالَ : صَلِّهَا إذَا ذَكَرْتَهَا .

وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ شَاذَّانِ ، وَهُمَا مَعَ ذَلِكَ خِلَافُ مَا وَرَدَ بِهِ الْأَثَرُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْرِهِ بِقَضَاءِ الْفَائِتَةِ عِنْدَ الذِّكْرِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِ صَلَاةٍ أُخْرَى غَيْرِهَا .

وَتِلَاوَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ عَقِيبَ ذِكْرِ الْفَائِتَةِ وَبَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا ﴾ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُ الْآيَةِ قَضَاءَ الْفَائِتَةِ عِنْدَ الذِّكْرِ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي التَّرْتِيبَ فِي الْفَوَائِتِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ مَأْمُورًا بِفِعْلِ الْفَائِتَةِ عِنْدَ الذِّكْرِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ صَلَاةٍ فَهُوَ مَنْهِيٌّ لَا مَحَالَةَ عَنْ فِعْلِ صَلَاةِ الْوَقْتِ فِي

تِلْكَ الْحَالِ ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ فَسَادَ صَلَاةِ الْوَقْتِ إِنْ قَدَّمَهَا عَلَى الْفَائِتَةِ ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي الْفَسَادَ حَتَّى تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى غَيْرِهِ .

(183/494)

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " التَّرْتِيبُ بَيْنَ الْفَوَائِتِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْوَقْتِ وَاجِبٌ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَمَا دُونَهُمَا إذَا كَانَ فِي الْوَقْتِ سَعَةٌ لِلْفَائِتَةِ وَلِصَلَاةِ الْوَقْتِ ، فَإِنْ زَادَ عَلَى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ لَمْ يَجِبْ التَّرْتِيبُ " وَالنِّسْيَانُ يُسْقِطُ التَّرْتِيبَ عِنْدَهُمْ ، أَعْنِي نِسْيَانَ الصَّلَاةِ الْفَائِتَةِ .

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بِوُجُوبِ التَّرْتِيبِ وَإِنْ نَسِيَ الْفَائِتَةَ ، إلَّا أَنَّهُ يَقُولُ : " إنْ كَانَتْ الْفَوَائِتُ كَثِيرَةً بَدَأَ بِصَلَاةِ الْوَقْتِ ثُمَّ صَلَّى مَا كَانَ نَسِيَ ، وَإِنْ كَانَتْ الْفَوَائِتُ خَمْسًا ثُمَّ ذَكَرَهُنَّ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ صَلَّاهُنَّ قَبْلَ الصُّبْحِ وَإِنْ فَاتَ وَقْتُ الصُّبْحِ ، وَإِنْ صَلَّى الصُّبْحَ ثُمَّ ذَكَرَ صَلَوَاتٍ صَلَّى مَا نَسِيَ ، فَإِذَا فَرَغَ أَعَادَ الصُّبْحَ مَا دَامَ فِي الْوَقْتِ فَإِذَا فَاتَ الْوَقْتُ لَمْ يُعِدْ " .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ بِوُجُوبِ التَّرْتِيبِ ، إلَّا أَنَّهُ لَمْ يُرْوَ عَنْهُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ ؛ لِأَنَّهُ سُئِلَ عَمَّنْ صَلَّى رَكْعَةً مِنْ الْعَصْرِ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ صَلَّى الظُّهْرَ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ أَنَّهُ يَشْفَعُ بِرَكْعَةٍ ثُمَّ يُسَلِّمُ فَيَسْتَقْبِلُ الظُّهْرَ ثُمَّ الْعَصْرَ .

وَرُوِيَ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ رِوَايَتَانِ فِي إِحْدَاهُمَا إِسْقَاطُ التَّرْتِيبِ وَفِي الْأُخْرَى إِيجَابُهُ.

وَقَالَ اللَّيْثُ: " إذَا ذَكَرَهَا وَهُوَ فِي صَلَاةٍ وَقَدْ صَلَّى رَكْعَةً فَإِنْ كَانَ مَعَ إمَامٍ فَلْيُصَلِّ مَعَهُ حَتَّى إذَا سَلَّمَ صَلَّى الَّتِي نَسِيَ ثُمَّ أَعَادَ الصَّلَاةَ الَّتِي صَلَّاهَا مَعَهُ ".

(184/494)

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: " إذَا صَلَّى صَلَوَاتٍ بِغَيْرِ وُضُوءٍ أَوْ نَامَ عَنْهُنَّ قَضَى الْأُولَى فَالْأُولَى، فَإِنْ جَاءَ وَقْتُ صَلَاةٍ تَرَكَهَا وَصَلَّى مَا قَبْلَهَا وَإِنْ فَاتَهُ وَقْتُهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا ".

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: " الِاخْتِيَارُ أَنْ يَبْدَأَ بِالْفَائِتَةِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ وَبَدَأَ بِصَلَاةِ الْوَقْتِ أَجْزَأَهُ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ ".

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: " مَنْ نَسِيَ صَلَاةً وَذَكَرَهَا وَهُوَ خَلْفَ إمَامٍ فَلْيُصَلِّ مَعَ الْإِمَامِ، فَإِذَا فَرَغَ صَلَّى الَّتِي نَسِيَ ثُمَّ يُصَلِّي الْأُخْرَى ".

وَرَوَى عَبَّادُ بْنُ الْعَوَّامِ عَنْ هَمَّامٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ كَثِيرِ بْنِ أَفْلَحَ قَالَ: " أَقْبَلْنَا حَتَّى دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ وَقَدْ غَابَتْ الشَّمْسُ، وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُؤَخِّرُونَ الْمَغْرِبَ، فَرَجَوْتُ أَنْ أُدْرِكَ مَعَهُمْ الصَّلَاةَ، فَأَتَيْتهمْ وَهُمْ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ فَدَخَلْتُ مَعَهُمْ وَأَنَا أَحْسَبُهَا الْمَغْرِبَ، فَلَمَّا صَلَّى الْإِمَامُ قُمْتُ فَصَلَّيْتُ الْمَغْرِبَ ثُمَّ صَلَّيْتُ الْعِشَاءَ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ سَأَلْت عَنْ

الَّذِي فَعَلْتُ ، فَكُلُّهُمْ أَخْبَرُونِي بِالَّذِي صَنَعْتُ ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا يَوْمَئِذٍ مُتَوَافِرِينَ " .

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَالْحَسَنُ وَعَطَاءٌ بِوُجُوبِ التَّرْتِيبِ .

فَهَؤُلَاءِ السَّلَفُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ إيجَابُ التَّرْتِيبِ وَلَمْ يُرْوَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ خِلَافُ فَصَارَ ذَلِكَ إجْمَاعًا مِنْ السَّلَفِ .

(185/494)

وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ التَّرْتِيبِ فِي الْفَوَائِتِ مَا رَوَى يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : جَاءَ عُمَرُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَلَّيْتُ الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغِيبَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { وَأَنَا وَاَللَّهِ مَا صَلَّيْتُ بَعْدُ فَنَزَلَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى الْمَغْرِبَ بَعْدَ مَا صَلَّى الْعَصْرَ .

} وَرُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { أَنَّهُ فَاتَتْهُ أَرْبَعُ صَلَوَاتٍ حَتَّى كَانَ هَوِيٌّ مِنْ اللَّيْلِ ، فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ الْعَصْرَ ثُمَّ الْمَغْرِبَ ثُمَّ الْعِشَاءَ .

} وَهَذَا الْخَبَرُ يَدُلُّ مِنْ وَجْهَيْنِ عَلَى وُجُوبِ التَّرْتِيبِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ ﴿ : صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي ﴾ فَلَمَّا صَلَّاهُنَّ عَلَى التَّرْتِيبِ اقْتَضَى ذَلِكَ إيجَابَهُ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنَّ فَرْضَ الصَّلَاةِ مُجْمَلٌ فِي الْكِتَابِ ، وَالتَّرْتِيبُ وَصْفٌ مِنْ أَوْصَافِ الصَّلَاةِ ، وَفِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا وَرَدَ عَلَى وَجْهِ الْبَيَانِ فَهُوَ عَلَى الْوُجُوبِ ، فَلَمَّا قَضَى الْفَوَائِتَ عَلَى التَّرْتِيبِ كَانَ فِعْلُهُ ذَلِكَ بَيَانًا لِلْفَرْضِ الْمُجْمَلِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْوُجُوبِ .

(186/494)

وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِهِ أَيْضًا أَنَّهُمَا صَلَاتَانِ فَرْضَانِ قَدْ جَمَعَهُمَا وَقْتٌ وَاحِدٌ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَأَشْبَهَتَا صَلَاتَيْ عَرَفَةَ وَالْمُزْدَلِفَةِ ، فَلَمَّا لَمْ يَجُزْ إسْقَاطُ التَّرْتِيبِ فِيهِمَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمَ الْفَوَائِتِ فِيمَا دُونَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، وَقَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنِّي مَا صَلَّيْتُ الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغِيبَ ، فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالْإِعَادَةِ ﴾ ، فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ صَلَّى الْعَصْرَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَلَا إعَادَةَ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(187/494)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّك فَاخْلَعْ نَعْلَيْك إنَّك بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَان :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي خَلْعِ النَّعْلَيْنِ قَوْلَان : أَحَدُهُمَا : مَا أَنْبَأَنَا أَبُو زَيْدٍ الْحِمْيَرِيُّ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ اللَّخْمِيُّ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدَ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ ، أَنْبَأَنَا عَمِّي عَبْدُ الصَّمَدِ ، حَدَّثَنَا عَمِّي أَبُو عُمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ ، حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ إسْحَاقَ ، حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كَانَتْ نَعْلَا مُوسَى مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ الْهَرَوِيُّ ، حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ الْأَشْجَعِيُّ ، عَنْ حُمَيْدٍ الْأَعْرَجِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : يَوْمَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى كَانَ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ ، وَكِسَاءُ صُوفٍ ، وَسَرَاوِيلُ صُوفٍ ، وَكُمَّةُ صُوفٍ ، وَنَعْلَانِ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ مُذَكًّى .

وَرَوَاهُ ابْنُ عَرَفَةَ عَنْ خَلَفِ بْنِ خَلِيفَةَ بِمِثْلِهِ مُسْنَدًا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الثَّانِي : قَالَ مُجَاهِدٌ : قَالَ لَهُ رَبُّهُ : اخْلَعْ نَعْلَيْك ، أَفِضْ بِقَدَمَيْك إلَى بَرَكَةِ الْوَادِي .

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ : إنْ قُلْنَا : إنَّ خَلْعَ النَّعْلَيْنِ كَانَ لِيَنَالَ بَرَكَةَ التَّقْدِيسِ فَمَا أَجْدَرَهُ بِالصِّحَّةِ ، فَقَدْ اسْتَحَقَّ التَّنْزِيهَ عَنْ النَّعْلِ ، وَاسْتَحَقَّ الْوَاطِئُ التَّبَرُّكَ بِالْمُبَاشَرَةِ ، كَمَا لَا تُدْخَلُ الْكَعْبَةُ بِنَعْلَيْنِ ، وَكَمَا كَانَ مَالِكٌ لَا يَرْكَبُ دَابَّةً بِالْمَدِينَةِ ، بِرًّا بِتُرْبَتِهَا الْمُحْتَوِيَةِ عَلَى الْأَعْظُمِ الشَّرِيفَةِ ، وَالْجُثَّةِ الْكَرِيمَةِ .

وَإِنْ قُلْنَا بِرِوَايَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ ، فَلَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ أَنْ يَكُونَ مُوسَى أُمِرَ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ ، وَكَانَ أَوَّلَ تَعَبُّدٍ أُحْدِثَ إلَيْهِ ، كَمَا كَانَ أَوَّلَ مَا قِيلَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي جِلْدِ الْمَيْتَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ يُنْتَفَعُ بِهِ عَلَى حَالِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُدْبَغْ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ ، لِمُطْلَقِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ هَلَّا أَخَذْتُمْ إهَابَهَا فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ دِبَاغًا .

الثَّانِي : أَنَّهُ يُدْبَغُ فَيُنْتَفَعُ بِهِ مَدْبُوغًا ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ هَلَّا أَخَذْتُمْ إهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ ﴾ قَالَهُ مَالِكٌ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ إذَا دُبِغَ فَقَدْ طَهُرَ ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَيُّمَا إهَابٍ دُبِغَ فَقَدْ طَهُرَ ﴾ .

خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ .

وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ: ﴿ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَوَضَّأُ مِنْ قِرْبَةٍ مَدْبُوغَةٍ مِنْ جِلْدِ مَيْتَةٍ، حَتَّى صَارَتْ شَنًّا ﴾ قَالَهُ مَالِكٌ فِي الْقَوْلِ الثَّانِي، وَهُوَ الرَّابِعُ، وَوَرَاءَ هَذِهِ تَفْصِيلٌ.

وَالصَّحِيحُ جَوَازُ الطَّهَارَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ نَعْلَا مُوسَى لَمْ تُدْبَغَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَا دُبِغَتَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي شَرْعِهِ إذْنٌ فِي اسْتِعْمَالِهَا.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لَمْ تُدْبَغْ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا الْقَوْلَ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ فِي الْبَابِ.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ إنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾.

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ لِذِكْرِي ﴾ وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَقِمْ الصَّلَاةَ، لِأَنْ تَذْكُرَنِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

الثَّانِي: أَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي لَك بِالْمَدْحِ.

الثَّالِثُ: أَقِمْ الصَّلَاةَ إذَا ذَكَرْتنِي.

وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَرُوِيتْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَقِمْ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ، وَقُرِئَ: لِلذِّكْرَى.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الذِّكْرَ مَصْدَرٌ مُضَافٌ إلَى الضَّمِيرِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إلَى الْفَاعِلِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إلَى ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ .

(190/494)

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : أَقِمْ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرَى ، وَلِذِكْرِي ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : لِلذِّكْرَى إذَا ذَكَّرْتُك بِهَا ، وَلِتَذْكُرَنِي فِيهَا ، وَلِذِكْرِي لَك بِهَا .

فَإِنْ قِيلَ : الذِّكْرُ مَصْدَرٌ فِي الْإِثْبَاتِ ، وَلَا يَحْتَمِلُ الْعُمُومَ .

قُلْنَا : بَلْ يَحْتَمِلُ الْعُمُومَ ، كَمَا تَقُولُ : عَجِبْت مِنْ ضَرْبِي زَيْدًا ، إذَا كَانَ الضَّرْبُ الْوَاقِعُ بِهِ عَامًّا فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الضَّرْبِ ، فَيَكُونُ الْعُمُومُ فِي كَيْفِيَّاتِ الضَّرْبِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ ، وَالْإِثْبَاتُ فِي النَّكِرَةِ الَّتِي لَا تَعُمُّ مَا يَتَنَاوَلُ الْأَشْخَاصَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا ﴾ يَقْتَضِي وُجُوبَ الصَّلَاةِ عَلَى كُلِّ ذَاكِرٍ إذَا ذَكَرَ ، سَوَاءٌ كَانَ الذِّكْرُ دَائِمًا ، كَالتَّارِكِ لَهَا عَنْ عِلْمٍ ، أَوْ كَانَ الذِّكْرُ طَارِئًا ، كَالتَّارِكِ لَهَا عَنْ غَفْلَةٍ ، وَكُلُّ نَاسٍ تَارِكٌ ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِغَيْرِ قَصْدٍ ، فَمَتَى كَانَ الذِّكْرُ وَجَبَ الْفِعْلُ دَائِمًا أَوْ مُنْقَطِعًا .

فَافْهَمُوا هَذِهِ النُّكْتَةَ تُرِيحُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ شَغَبِ الْمُبْتَدِعَةِ ، فَمَا زَالُوا يُزَهِّدُونَ النَّاسَ فِي الصَّلَاةِ ، حَتَّى قَالُوا : إنَّ مَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا لَا يَلْزَمُهُ قَضَاؤُهَا ، وَنَسَبُوا ذَلِكَ إلَى مَالِكٍ .

(191/494)

وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ ذِهْنَهُ أَحَدُّ ، وَسَعْيَهُ فِي حِيَاطَةِ الدِّينِ آكَدُ مِنْ ذَلِكَ ، إنَّمَا قَالَ : إنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مُتَعَمِّدًا لَا يَقْضِي أَبَدًا .

كَمَا قَالَ فِي الْأَثَرِ : ﴿ مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مُتَعَمِّدًا لَمْ يُجْزِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَإِنْ صَامَهُ ﴾ إشَارَةً إلَى أَنَّ مَا مَضَى لَا يَعُودُ ، لَكِنْ مَعَ هَذَا لَا بُدَّ مِنْ تَوْفِيَةِ التَّكْلِيفِ حَقَّهُ بِإِقَامَةِ الْقَضَاءِ مَقَامَ الْأَدَاءِ ، وَإِتْبَاعِهِ بِالتَّوْبَةِ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَتْ الْمُتَزَهِّدَةُ : مَعْنَى : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ أَيْ : لَا تَذْكُرْ فِيهَا غَيْرِي ، فَإِنَّهُ قَالَ : فَاعْبُدْنِي ، أَيْ لِي تَذَلَّلْ ، وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِمُجَرَّدِ ذِكْرِي ، تَحَرَّمْ عَنْ الدُّنْيَا ، وَأَخْلِصْ لِلْأُخْرَى ، وَاعْمُرْ لِسَانَك وَقَلْبَك بِذِكْرِ الْمَوْلَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذَا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ هُوَ الْأَوْلَى ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كُتِبَ لَهُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ ذَلِكَ فِيهَا ، وَقَدْ مَهَّدْنَا هَذَا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾

أي قد أتاك حال موسى فيما اجتباه ربه لنبوته وحمله من رسالته . واحتمل ذلك أن يكون ذلك بما قصه عليه في هذا الموضع ، واحتمل أن يكون بما عرفه في غيره .

﴿ إِذْ رَءَا نَاراً ﴾ وكانت عند موسى ناراً ، وعند الله نوراً ، قال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة في الشتاء .

﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ ﴾ أي أقيموا . والفرق بين المكث والإقامة أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم .

﴿ إِنِّي أَنَسْتُ نَاراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : رأيت ناراً .

والثاني : إني آنست بنار .

﴿ لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي بنار تصطلون بها .

﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هادياً يهديني الطريق ، قاله قتادة .

والثاني : علامة أستدل بها على الطريق . وكانوا قد ضلوا عنه فمكثوا بمكانهم بعد ذهاب موسى ثلاثة أيام حتى مر بهم راعي القرية فأخبره بمسير موسى ، فعادوا مع الراعي إلى قريتهم وأقاموا بها أربعين سنةً حتى أنجز موسى أمر ربه .

قوله تعالى : ﴿ فلمَّآ أَتَاهَا ﴾

يعني النار ، التي هو نور ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ وفي هذا النداء قولان :

أحدهما : أنه تفرد بندائه .

الثاني : أن الله أنطق النور بهذا النداء فكان من نوره الذي لا ينفصل عنه ، فصار نداء منه أعلمه به ربه لتسكن نفسه ويحمل عنه أمره فقدم تأديبه بقوله : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ الآية .

وفي أمره بخلعهما قولان :

أحدهما : ليباشر بقدميه بركة الوادي المقدس ، قاله علي بن أبي طالب ، والحسن ، وابن جريج .

والثاني : لأن نعليه كانتا من جلد حمار ميت ، قاله كعب ، وعكرمة ، وقتادة .

﴿ إِنَكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المقدس هو المبارك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنه المطهر ، قاله قطرب ، وقال الشاعر :

وأنت وصول للأقارب مدره . . . بريء من الآفات من مقدس

(193/494)

وفي ﴿ طُوىً ﴾ خمسة تأويلات :

أحدها : أنه اسم من طوى لأنه مر بواديها ليلاً فطواه ، قاله ابن عباس .

الثاني : سمي طوى لأن الله تعالى ناداه مرتين . وطوى في كلامهم بمعنى مرتين ، لأن الثانية إذا أعقبتها الأولى صارت كالمطوية عليها .

الثالث : بل سمي بذلك لأن الوادي قدس مرتين ، قاله الحسن .

الرابع : أن معنى طوى : طَإِ الوادي بقدمك ، قاله مجاهد .

الخامس : أنه الاسم للوادي قديماً ، قاله ابن زيد :

فخلع موسى نعليه ورمى بهما وراء الوادي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : وأقم الصلاة لتذكرني فيها ، قاله مجاهد .

والثاني : وأقم الصلاة بذكري ، لأنه لا يُدْخَل في الصلاة إلا بذكره .

الثالث : وأقم الصلاة حين تذكرها ، قاله إبراهيم . وروى سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا " قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(194/494)

وقال ابن عطية :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾

هذا الأستفهام هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إلى استماع ما يورد عليها ، وهذا كما تبدأ الرجل إذا أدرت إخباره بأمر غريب فتقول أعلمت كذا وكذا ، ثم تبدأ تخبره . والعامل في ﴿ إذ ﴾ ما تضمنه قوله ﴿ حديث ﴾ من معنى الفعل ، وتقديره ﴿ وهل أتاك ﴾ ما فعل موسى ﴿ إذ رأى ناراً ﴾ أو نحو هذا ، وكان من قصة موسى عليه السلام أنه رجل من مدين بأهله بنت شعيب وهو يريد أرض مصر وقد طالت مدة جنايته هنالك فرجاً عن طريقه في ليلة مظلمة وندية ويروى أنه فقد الماء فلم يدر أين يطلبه فبينما هو كذلك وقد قدح بزنده فلم يور شيئاً ﴿ إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا ﴾ أي أقيموا ، وذهب هو إلى النار فإذا هي مضطرمة في شجرة خضراء يانعة قيل كانت من عناب ، وقيل من عوسج ،

وقيل من عليقة ، فلما دنا منها تباعدت منه ومشت ، فإذا رجع عنها اتبعته فلما رأى ذلك أيقن أن هذا أمر من أمور الله تعالى الخارقة للعادة ، وانقضى أمره كله في تلك الليلة ، هذا قول الجمهور وهو الحق ، وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : أقام في ذلك الأمر حولاً ومكثه أهله ع : وهذا غير صحيح عن ابن عباس وضعيف في نفسه . و ﴿ آنست ﴾ معناه أحسست ومنه قول الحارث بن حلزة : [الخفيف]

آنست نبأة وروعها القنْ . . . ناص ليلاً وقد دنا الإمساء

(195/494)

والنار على البعد لا تحس إلا بالأبصار ، فلذلك فسر بعضهم اللفظ برأيت ، و" آنس " أعم من ﴿ رأى ﴾ لأنك تقول آنست من فلان خيراً أو شراً . و" القبس " الجذوة من النار تكون على رأس العود أو القصبة أو نحوه ، و" الهدى " أراد الطريق ، أي لعلي أجد ذا هدى أي مرشداً لي أو دليلا ، وان لم يكن مخبراً . و" الهدى " يعم هذا كله وإنما رجا موسى عليه السلام هدى نازلته فصادف الهدى على الإطلاق ، وفي ذكر قصة موسى بأسرها في هذه السورة تسلية للنبي عما لقي في تبليغه من المشقات وكفر الناس فإنما هي له على جهة التمثيل في أمره . وروي عن نافع وحمزة " لأهلهُ امكثوا " بضمة الهاء وكذلك في القصص ،

وكسر الباقون الهاء فيهما . وقوله تعالى ﴿ فلما أتاها ﴾ الضمير عائد على النار ، وقوله ﴿ نودي ﴾ كناية عن تكليم الله له ، وفي ﴿ نودي ﴾ ضمير يقوم مقام الفاعل ، وإن شئت جعلته موسى إذ قد جرى ذكره ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " إني " بكسر الألف على الإبتداء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " أني " بفتح الألف على معنى " لأجل أني " ﴿ أنا ربك فاخلع نعليك ﴾ ، و﴿ نودي ﴾ قد توصل بحرف الجر وأنشد أبو علي : [الكامل]

ناديت باسم ربيعة بن مكدم . . . ان المنوه باسمه الموثوق

(196/494)

واختلف المتأولون في السبب الذي من أجله أمر بخلع النعلين ، فقالت فرقة كانتا من جلد حمار ميت فأمر بطرح النجاسة ، وقالت فرقة بل كانت نعلاه من جلد بقرة ذكي لكن أمر بخلعها لينال بركة الوادي المقدس وتمس قدماه تربة الوادي ، وتحتمل الآية معنى آخر هو الأليق بها عندي ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يتواضع لعظم الحال التي حصل فيها ، والعرف عند الملوك أن تخلع النعلان ويبلغ الإنسان إلى غاية تواضعه ، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه ، ولا نبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها ، و﴿ المقدس ﴾ معناه

المطهر ، و﴿ طوى ﴾ معناه مرتين مرتين ، فقالت فرقة معناه قدس مرتين ، وقالت فرقة معناه طويته أنت ، أي سرت به ، أي طويت لك الأرض مرتين من طيك ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " طوىً " بالتنوين على أنه اسم المكان ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو " طوى " على أنه اسم البقعة دون تنوين ، وقرأ هؤلاء كلهم بضم الطاء ، وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو بكسر الطاء ، وقرأت فرقة " طاوي " وقالت فرقة هو اسم الوادي ، و" طوى " على التأويل الأول بمنزلة قولهم ثنى وثنى أي مثنياً ، وقرأ السبعة غير حمزة " وأنا اخترتك " ويؤيد هذه القراءة تناسبها مع قوله ﴿ أنا ربك ﴾ وفي مصحف أبي بن كعب " وأني اخترتك " ، وقرأ حمزة " وأنّا اخترناك " بالجمع وفتح الهمزة وشد النون ، والآية على هذا بمنزلة قوله ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الأسراء : 1] ثم قال ﴿ وآتينا ﴾ [الإسراء : 2] فخرج من إفراد إلى جمع ، وقرأت فرقة وإنا اخترناك " بكسر الألف .

(197/494)

قال القاضي أبو محمد : وحدثني أبي رضي الله عنه قال : سمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول : لما قيل لموسى ﴿ فاستمع ﴾ وقف على حجر ، واستند إلى حجر ، ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره ، ووقف يستمع وكان كل لباسه وصوفاً . وقرأت فرقة

" بالواد المقدس طاوي " وقوله ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ يحتمل أن يريد لتذكيري فيها أو يريد لأذكرك في عليين بها فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول واللام لام السبب ، وقالت فرقة معنى قوله ﴿ لذكري ﴾ أي عند ذكري إذا ذكرتني وأمري لك بها ، فاللام على هذا بمنزلتها في قوله ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] وقرأت فرقة " للذكرى " ، وقرأت فرقة " لذكرى " بغير تعريف ، وقرأت فرقة " للذكر " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(198/494)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاكَ حديث موسى ﴾

هذا استفهام تقرير ، ومعناه : قد أتاك .

قال ابن الأنباري : وهذا معروف عند اللغويين أن تأتي "هل" معبرة عن "قد" ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب : " اللهم هل بلَّغتُ" يريد : قد بلَّغت .

قال وهب بن منبِّه : استأذن موسى شعيباً عليهما السلام في الرجوعِ إلى والدته ، فأذن له ، فخرج بأهله ، فوُلد له في الطريق في ليلة شاتية ، فقدح فلم يُورِ الزِّناد ، فبينا هو في مزاولة

ذلك، أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق؛ وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله في كتاب "الحدائق" فكرهنا إِطالة التفسير بالقصص، لأن غرضنا الاقتصار على التفسير ليسهل حفظه.

قال المفسرون: رأى نوراً، ولكن أخبر بما كان في ظن موسى.

﴿ فقال لأهله ﴾ يعنى: امرأته ﴿ امكثوا ﴾ اي: أقيموا مكانكم.

وقرأ حمزة: "لأَهْلِهُ امْكُثُوا" بضم الهاء هاهنا وفي [القصص: 29].

﴿ إِنّي آنستُ ناراً ﴾ قال الفراء: إِني وجدت، يقال: هل آنستَ أحداً، أي: وجدتَ؟ وقال ابن قتيبة: "آنستُ" بمعنى أبصرتُ.

فأما القَبَس، فقال الزجاج: هو ما أخذته من النار في رأس عود أو في رأس فتيلة.

قوله تعالى: ﴿ أو أَجِدُ على النّار هدىً ﴾ قال الفراء: أراد: هادياً، فذكره بلفظ المصدر.

قال ابن الأنباري: يجوز أن تكون "على" هاهنا بمعنى "عند"، وبمعنى "مع"، وبمعنى الباء.

وذكر أهل التفسير أنه كان قد ضَلَّ الطريق، فعلم أن النار لا تخلو من مُوقِد.

وحكى الزجاج: أنه ضل عن الماء، فرجا أن يجد من يهديه الطريق أو يدلّه على الماء.

قوله تعالى: ﴿ فلما أتاها ﴾ يعني: النار ﴿ نودي يا موسى إِنّي أنا ربُّك ﴾ إِنما كرَّر

الكناية ، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإزالة الشبهة ، ومثله ﴿ إِنّي أنا النذير المبين ﴾ [الحجر : 89] .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر : "أَنِّيَ" بفتح الألف والياء .

(199/494)

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "إِنّي" بكسر الألف ، إلا أن نافعاً فتح الياء .

قال الزجاج : من قرأ : "أَنِّي أنا" بالفتح ، فالمعنى : نودي [بأني أنا ربك ، ومن قرأ بالكسر ، فالمعنى : نودي] يا موسى ، فقال الله : إِنّي أنا ربُّك .

قوله تعالى : ﴿ فاخلع نعليكَ ﴾ في سبب أمره بخلعهما قولان .

أحدهما : أنهما كانا من جلدِ حمارٍ ميت ، رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه قال علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعكرمة .

والثاني : أنهما كانا من جلد بقرة ذُكِّيتْ ، ولكنه أُمر بخلعهما ليباشر تراب الأرض المقدسة ، فتناله بركتها ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدَّس ﴾ فيه قولان قد ذكرناهما في [المائدة : 21] عند قوله

: ﴿ الأرضَ المقدسةَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ طُوى ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "طُوى وأنا" غير مُجْراة .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "طُوىً" مُجْراة ؛ وكلُّهم ضم الطاء .

وقرأ الحسن ، وأبو حيوة : "طِوىً" بكسر الطاء مع التنوين .

وقرأ عليّ بن نصر عن أبي عمرو : "طِوى" بكسر الطاء من غير تنوين .

قال الزجاج : في "طُوى" أربعة أوجه .

طُوى ، بضم أوّله من غير تنوين وبتنوين .

فمن نوّنه ، فهو اسم للوادي .

وهو مذكَّر سمي بمذكَّر على فُعَلٍ نحو حُطَمٍ وصُرَدٍ ، ومن لم ينوِّنه ترك صرفه من جهتين .

إِحداهما : أن يكون معدولاً عن طاوٍ ، فيصير مثل "عُمَرَ" المعدول عن عامر ، فلا ينصرف كما لا ينصرف "عُمَر" .

والجهة الثانية : أن يكون اسماً للبقعة ، كقوله : ﴿ في البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] ، وإِذا كُسِر ونوِّن فهو مثل مِعىً .

والمعنى : المقدّس مرّةً بعد مرّةٍ ، كما قال عدي بن زيد :

أَعاذِلَ ، إِنَّ اللَّومَ في غَيْر كُنْهِهِ . . .

عليَّ طوىً مِن غَيِّك المُتَرَدِّدِ

أي : اللوم المكرَّر عليّ ؛ ومن لم ينوّن جعله اسماً للبقعة .

[وللمفسرين في معنى "طوىً" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم الوادي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أن معنى "طوى" : طأِ الوادي ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : أنه قدّس مرتين ، قاله الحسن ، وقتادة] .

قوله تعالى : ﴿ وأنا اخترتُك ﴾ أي : اصطفيتُك .

وقرأ حمزة ، والمفضل : "وأنّا" بالنون المشددة "اخترناكَ" بألف .

﴿ فاستمِع لما يوحى ﴾ أي : للذي يوحى .

قال ابن الأنباري : الاستماع هاهنا محمول على الإِنصات ، المعنى : فأنصت لوحيي ، والوحي هاهنا قوله : ﴿ إِنني أنا الله لا إِله إِلا أنا فاعبدني ﴾ أي : وحّدني ، ﴿ وأقم الصلاة لِذِكْري ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أقم الصلاة متى ذكرتَ أن عليكَ صلاةً ، سواء كنتَ في وقتها أو لم تكن ، هذا

قول الأكثرين .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من نسي صلاة فليصلها إِذا ذكرها ، لا كفارة لها غير ذلك ، وقرأ : ﴿ أَقِم الصَّلاة لذِكْري ﴾ " .

والثاني : أقم الصلاة لَتذْكُرَني فيها ، قاله مجاهد .

وقيل : إِن الكلام مردود على قوله : ﴿ فاستمع ﴾ ، فيكون المعنى : فاستمع لما يوحى ، واستمع لذِكْري .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وابن السميفع : "وأقم الصلاة للذِّكْرى" بلامين وتشديد الذال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(201/494)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

قال أهل المعاني : هو استفهام إثبات وإيجاب معناه ؛ أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه وقد أتاك ؛ قاله ابن عباس .

وقال الكلبي : لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره .

﴿ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه السلام رجلاً غيوراً ، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه ، لئلا يروا امرأته ؛ فأخطأ الرفقة لما سبق في علم الله تعالى وكانت ليلة مظلمة .

وقال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة في الشتاء .

وهب بن منبه : استأذن موسى شعيباً في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله وغنمه ، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتيةٍ باردةٍ مثلجةٍ ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تورِ المِقْدَحة شيئاً ، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا ﴾ أي أقيموا بمكانكم ﴿ إني آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرت .

قال ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عنابٍ ، فوقف متعجباً من حسن ذلك الضوء ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة ، ولا كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار .

وذكر المهدوي : فرأى النار فيما روي وهي في شجرة من العُلَّيق ، فقصدها فتأخرت عنه ، فرجع وأوجس في نفسه خيفة ، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة .

الماوردي : كانت عند موسى ناراً ، وكانت عند الله تعالى نوراً .

وقرأ حمزة "لِأَهْلِهُ امْكُثُوا" بضم الهاء ، وكذا في "القصص" .

قال النحاس وهذا على لغة من قال : مررت بِهُوِيا رجل ؛ فجاء به على الأصل ، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة .

(202/494)

وقال : "امكثوا" ولم يقل أقيموا ، لأن الإقامة تقتضي الدوام ، والمكث ليس كذلك .

"وآنست" أبصرت ، قاله ابن الأعرابي .

ومنه قوله : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً ﴾ [النساء : 6] أي علمتم .

وآنست الصوت سمعته ، والقبس شعلة من نار ، وكذلك المِقباس .

يقال : قبَستُ منه نارا أقبس قَبْسا فأقبسني أي أعطاني منه قَبَساً ، وكذلك اقتبست منه ناراً ، واقتبست منه علماً أيضاً أي استفدته ، قال اليزيدي : أَقبستُ الرجل علماً وقَبَسته ناراً ؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته .

وقال الكسائي : أقبسته ناراً أو علماً سواء .

وقبسته أيضاً فيهما .

"هُدًى" أي هادياً .

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعني النار ﴿ نُودِيَ ﴾ أي من الشجرة كما في سورة "القصص" أي من جهتها وناحيتها على ما يأتي ﴿ يا موسى إني أَنَا رَبُّكَ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجُبّة صوفٍ وكُمَّة صوف وسراويلُ صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت" قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج (حميد هو ابن علي الكوفي) منكر الحديث، وحميد بن قيس الأعرج المكي صاحب مجاهد ثقة؛ والكمة القلنسوة الصغيرة.

وقرأ العامة "إني" بالكسر؛ أي نودي فقيل له يا موسى إني، واختاره أبو عبيد.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن محيصن وحميد "أَنِّي" بفتح الألف بإعمال النداء.

واختلف العلماء في السبب الذي من أجله أمر بخلع النعلين.

والخلع النزع.

والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض.

فقيل: أمر بطرح النعلين؛ لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مُذَكًّى؛ قاله كعب وعِكرمة وقتادة.

وقيل : أمر بذلك لينال بركة الوادي المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادي ؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جريج .

وقيل : أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى .

وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت .

وقيل : إعظاماً لذلك الموضع كما أن الحرَم لا يُدخَل بنعلين إعظاماً له .

قال سعيد بن جبير : قيل له طَإِ الأرض حافياً كما تدخل الكعبة حافياً .

والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع ، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه ؛ ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها .

وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة براً بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة ، والجثة الكريمة .

ومن هذا المعنى " قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخَصَاصِيّة وهو يمشي بين القبور بنعليه : "إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك" قال : فخلعتهما " وقول خامس : إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد .

وقد يعبر عن الأهل بالنعل .

وكذلك هو في التعبير : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوّج .

وقيل : لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغي أن يطأ على بساط رب العالمين بنعله .

وقد يحتمل أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه ، وكان ذلك أوّل فرض عليه ؛ كما كان أوّل ما قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : 52] والله أعلم بالمراد من ذلك .

الثانية : في الخبر أنّ موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي .

وقال أبو الأحوص : زار عبد الله أبا موسى في داره ، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى ؛

فقال أبو موسى لعبد الله : تقدّم .

فقال عبد الله : تقدّم ؛ أنت في دارك .

فتقدّم وخلع نعليه ؛ فقال عبد الله : أبالوادي المقدس أنت ؟ ! وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال : قلت : لأنس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في نعلين ؟

قال : نعم .

ورواه النّسائي عن عبد الله بن السائب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح

فوضع نعليه عن يساره .

وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه ، إذ خلع نعليه ، فوضعهما عن يساره ، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال : "ما حملكم على إلقائكم نعالكم" قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قَذَراً" وقال : "إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر إذا رأى في نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وليصلِّ فيهما" " صححه أبو محمد عبد الحق .

وهو يجمع بين الحديثين قبله ، ويرفع بينهما التعارض .

ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرة من ذكيّ ، حتى لقد قال بعض العلماء : إن الصلاة فيهما أفضل ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] على ما تقدّم .

وقال إبراهيم النخعي في الذين يخلعون نعالهم : لوددت أن محتاجاً جاء فأخذها .

الثالثة : فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك ؛ فإن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه" وقال أبو هريرة للمقبري : اخلعهما بين رجليك ولا تُؤذِ بهما مسلماً .

وما رواه عبد الله بن السائب رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماماً ، فإن كنت إماماً أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت ، وإن كنت مأموماً في الصف فلا تُؤذِ بهما من على يسارك ، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك ، ولكن قدام قدميك .

وروي عن جُبَير بن مطعم أنه قال : وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة .

الرابعة : فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمَع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بني آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء ، عند مالك والشافعي وأكثر العلماء ، وإن كانت النجاسة مختلفاً فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهّرها المسح بالتراب من النعل والخفّ أو لا ؟ قولان عندنا .

وأَطلقَ الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزَاعيُّ وأبو ثور .

وقال أبو حنيفة : يزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ما عدا البول ، فلا يجزىء فيه عنده إلا الغسل .

وقال الشافعي : لا يطهّر شيئاً من ذلك كله إلا الماء .

والصحيح قول من قال : إن المسح يطّهره من الخفّ والنعل ؛ لحديث أبي سعيد .

فأما لو كانت النعل والخفّ من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق ، ما عدا ما ذهب إليه الزُهريّ والليث ، على ما تقدمّ بيانه في سورة "النحل" .

ومضى في سورة "براءة" القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ﴾ المقدّس : المطهَّر .

والقُدْس : الطهارة ، والأرض المقدّسة أي المطهرة ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين .

وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض ؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض ، ولبعض الحيوان كذلك .

ولله أن يفضل ما شاء .

وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدساً بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين ؛ فقد شاركه في ذلك غيره .

و "طُوًى" اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطَّوِيّ .

وقرأ عِكْرِمة "طِوًى" .

الباقون "طُوًى" .

قال الجوهري : "طوى" اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة وقال بعضهم : "طُوًى" مثل "طِوًى" وهو الشيء المَثْنِيُّ ، وقالوا في قوله ﴿ المقدس طُوًى ﴾ : طُوِيَ مرتين أي قُدِّس .

وقال الحسن : ثُنِيَتْ فيه البركة والتقديس مرّتين .

وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قيل له "طوى" لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي ؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه ، فكأنه قال : "إنك بالوادِ المقدس" الذي طويته طوى ؛ أي تجاوزته فطويته بسيرك .

الحسن : معناه أنه قدّس مرتين ؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ أي اصطفيتك للرسالة .

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائي ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ .

وقرأ حمزة "وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ" .

والمعنى واحد ؛ إلا أنّ ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ ها هنا أولى من جهتين : إحداهما : أنها أشبه

بالخط ، والثانية : أنها أولى بنسق الكلام ؛ لقوله عز وجل : ﴿ يا موسى إني أَنَاْ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ وعلى هذا النّسق جرت المخاطبة ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فاستمع لِمَا يوحى ﴾ فيه مسألة واحدة قال ابن عطية : وحدثني أبي رحمه الله قال : سمعت أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ فاستمع لِمَا يوحى ﴾ وقف على حجر ، واستند إلى حجر ، ووضع يمينه على شماله ، وألقى ذقنه على صدره ، ووقف يستمع ، وكان كل لباسه صوفاً .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولئك الذين هَدَاهُمُ الله ﴾ [الزمر : 18] وذم على خلاف هذا الوصف فقال : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ [الإسراء : 47] الآية .

(207/494)

فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل ، وأمر عباده بذلك أدباً لهم ، فقال : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ القرآن فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : 204] وقال ها هنا : ﴿ فاستمع لِمَا يوحى ﴾ لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى .

روي عن وهب بن منبّه أنه قال : مِن أدب الاستماع سكون الجوارح وغَضّ البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل ، والعزم على العمل ، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى ؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه ، ولا يشغلها .

فيشتغل قلبه عما يسمع ، ويغضّ طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى ، ويحصر عقله فلا يُحدّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه ، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم .

وقال سفيان بن عُيينة : أوّل العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له في قلبه نوراً .

قوله تعالى : ﴿ إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَا فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى : اختلف في تأويل قوله : "لِذِكرِي" فقيل : يحتمل أن يريد لتذكرني فيها ، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول .

وقيل : المعنى ؛ أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة .

وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ؛ وعلى هذا فالصلاة هي الذكر .

وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكراً في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الجمعة : 9] .

وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت فصلِّ كما في الخبر "فليصلِّها إذا ذَكَرها " .

أي لا تسقط الصلاة بالنسيان .

(208/494)

الثانية : روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلِّها إذا ذَكَرها فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ " وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج وهو حجاج الأول الذي روى عنه يزيد بن زُرَيع قال : حدّثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال : "كفارتها أن يصليها إذا ذكرها" " تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجاج ، وكذا يروي همام بن يحيى عن قتادة .

وروى الدارقطنيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها " فقوله : "فليصلِّها إذا ذكرها" دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل ، كثرت الصلاة أو قلَّت ، وهو مذهب عامّة العلماء .

وقد حكي خلاف شاذ لا يعتد به ، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعالى بإقامة الصلاة ، ونص على أوقات معينة ، فقال :

﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] الآية وغيرها من الآي .

ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار ، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقاً لما أمر به ، ولا ثواب له على فعله وهو عاصٍ ؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته .

ولولا قوله عليه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلِّها إذا ذَكَرها " لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها ، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء ؛ لأن القضاء بأمر متجدّد وليس بالأمر الأول .

الثالثة : فأما من ترك الصلاة متعمداً ، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصياً إلا داود .

ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي ، حكاه عنه ابن القصّار .

والفرق بين المتعمد والناسي والنائم ، حط المأْثم ؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون .

والحجة للجمهور قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا ﴾ ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها .

هو أمر يقتضي الوجوب .

وأيضاً فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي ، مع أنهما غير مأثومين ، فالعامد أولى .

وأيضاً قوله : "من نام عن صلاة أو نسيها" والنسيان الترك ؛ قال الله تعالى : ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] و﴿ نَسُواْ اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] سواء كان مع ذهول أو لم يكن ؛ لأن الله تعالى لا يَنْسى وإنما معناه تركهم و﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة : 106] أي نتركها .

وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره .

قال الله تعالى : " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي " وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان وإنما معناه عَلِمت .

فكذلك يكون معنى قوله : "إذا ذكرها" أي علمها .

وأيضاً فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ، وهي مما يسقطها الإبراء كان في ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه .

وأيضاً فقد اتفقنا أنه لو ترك يوماً من رمضان متعمداً بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة .

فإن قيل فقد روي عن مالك : من ترك الصلاة متعمداً لا يقضي أبداً .

فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود ، أو يكون كلاماً خرج على التغليظ ؛ كما روي عن ابن

مسعود وعليّ : أن من أفطر في رمضان عامداً لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه .

ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء ، وإتباعه بالتوبة ، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

وقد روى أبو المُطَوِّس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أفطر يوماً من رمضان متعمداً لم يجزه صيام الدهر وإن صامه " وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود .

وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح ، وفي بعضها قضاء اليوم ؛ والحمد لله تعالى .

الرابعة : قوله عليه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها " الحديث ؛ يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام : " رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ " والمراد بالرفع هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه ، وليس هذا من باب قوله : " وعن الصبي حتى يحتلم " وإن كان ذلك جاء في أثر واحد ؛ فقف على هذا الأصل .

الخامسة : اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو في آخر وقت صلاة ، أو ذكر صلاة وهو في صلاة ، فجملة مذهب مالك : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت

صلاة أخرى ، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى ، وإن فات وقت هذه .

وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها ، وعلى نحو هذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث ؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا : الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت .

فإن خشي فوات الوقت بدأ بها ، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم .

وقد روي عن الثوري وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير .

وهو تحصيل مذهب الشافعي .

قال الشافعي : الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه .

وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر .

وقال : لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه .

وروى الدَّارَقُطْني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال عليه الصلاة والسلام : " إذا ذكر أحدكم صلاة وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي " وعمر بن أبي عمر مجهول .

قلت : وهذا لو صح كان حجة للشافعي في البداءة بصلاة الوقت .

والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله : " أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فوالله إنْ صَلَّيتُها" فنزلنا البطحان فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب " وهذا نصٌّ في البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيَّق غير ممتد في الأشهر عندنا ، وعند الشافعي كما تقدم .

وروى الترمذي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق ، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى ، فأَمر بالأذان بلالاً فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء .

وبهذا استدل العلماء على أن من فاتته صلاة قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها في وقت واحد .

واختلفوا إذا ذكر فائتة في مضيَّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة ، وبه قال مالك والليث والزهري وغيرهم كما قدّمناه .

الثاني : يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعي وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا .

الثالث : يتخير فيقدم أيتهما شاء ، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة ؛ قاله القاضي عياض .

واختلفوا في مقدار اليسير ؛ فعن مالك : الخمس فدون ، وقد قيل : الأربع فدون لحديث جابر ؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادسة : وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به (يقول) ، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته .

(212/494)

والأصل في هذا ما رواه مالك والدارقطني عن ابن عمر قال : "إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصلّ الصلاة التي نسي ثم ليعد صلاته التي صلّى مع الإمام" هذا لفظ الدارقطني ؛ وقال موسى بن هارون : وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانيّ ، قال : حدثنا سعيد (به) ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ووهم في رفعه ، فإن كان قد رجع عن رفعه فقد وفق للصواب .

ثم اختلفوا ؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصلي التي ذكر ، ثم يصلي التي صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين .

وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين .

وذكر الخِرقي عن أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتمها ويقضي المذكورة ، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت واسعاً ، فإن خشي خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألّا يعيدها ، وقد أجزأته ويقضي التي عليه .

وقال مالك : من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين سَلَّم من ركعتين ، فإن كان إماماً انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت .

هذا هو الظاهر من مذهب مالك ، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك ؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلّم .

ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلّم ، وصارت نافلة غير فاسدة ولو انهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى ، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى .

السابعة : روى مسلم

" عن أبي قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث الميضأة بطوله ، وقال فيه ثم قال : "أَمَا لكم فيّ أُسوة" ثم قال : "أَمَا إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها " " وأخرجه الدارقطني هكذا بلفظ مسلم سواء ، فظاهره يقتضي إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتي ؛ ويعضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حُصَين ، وذكر القصة وقال في آخرها : "فمن أدرك منكم صلاة الغَداة من غدٍ صالحاً فليقضِ معها مثلها " .

قلت : وهذا ليس على ظاهره ، ولا تعاد غير مرة واحدة ؛ لما رواه " الدارقطني عن عِمران بن حصين قال : سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزاة أو قال في سريّة فلما كان وقت السحر عرّسْنا ، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حرُّ الشمس ، فجعل الرجل منا يَثِب فَزِعاً دَهِشاً ، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا ، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس ، فقضى القوم حوائجهم ، ثم أمر بلالاً فأذن فصلينا ركعتين ، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة ؛ فقلنا : يا نبي الله ألا نقضيهما لوقتهما من الغد ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم" " وقال الخطّابي : لا أعلم أحداً قال بهذا وجوباً ، ويشبه أن يكون الأمر به استحباباً ليحرز فضيلة الوقت في

القضاء .

والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام : " أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم " ولأن الطّرق الصحاح من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيء ، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو محتمل كما بيناه .

(214/494)

قلت : ذكر الحكاية الطبري في "أحكام القرآن" له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام : " من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك " فقال : يصبر إلى مثل وقته فليصل ؛ فإذا فات الصبح فليصل من الغد .

وهذا قول بعيد شاذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(215/494)

وقال أبو حيان :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾

ولما ذكر تعالى تعظيم كتابه وتضمن تعظيم رسوله أتبعه بقصة موسى ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، كما قال تعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ فقال تعالى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ وهذا استفهام تقرير يحث على الإصغاء لما يلقى إليه وعلى التأسي .

وقيل : ﴿ هل ﴾ بمعنى قد أي قد ﴿ أتاك ﴾ ، والظاهر خلاف هذا لأن السورة مكية .

والظاهر أنه لم يكن أطلعه على قصة موسى قبل هذا .

وقيل : إنه استفهام معناه النفي أي ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى ، ونحن الآن قاصّون قصته لتتسلى وتتأسى وكان من حديثه أنه عليه السلام لما قضى أكمل الأجلين استأذن شعيباً في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخته فأذن له ، وقد طالت مدة جنايته بمصر ورجا خفاء أمره ، فخرج بأهله وماله وكان في فصل الشتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل فلا يدري أليلاً تضع أم نهاراً ، فسار في البرية لا يعرف طرقها ، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، وأخذ امرأته الطلق فقدح زنده فلم يور .

قيل : كان رجلاً غيوراً يصحب الرفقة ليلاً ويفارقهم نهاراً لئلا ترى امرأته ، فأضل الطريق .

قال وهب : ولد له ابن في الطريق ولما صلد زنده ﴿ رأى ناراً ﴾ .

والظاهر أن ﴿ إذ ﴾ ظرف للحديث لأنه حدث .

وأجاز الزمخشري أن تكون ظرفاً لمضمر أي ﴿ ناراً ﴾ كان كيت وكيت ، وأن تكون مفعولاً لأذكر ﴿ امكثوا ﴾ أي أقيموا في مكانكم ، وخاطب امرأته وولديه والخادم .

وقرأ الأعمش وطلحة وحمزة ونافع في رواية ﴿ لأهله امكثوا ﴾ بضم الهاء وكذا في القصص والجمهور بكسرها ﴿ إني آنست ﴾ أي أحسست ، والنار على بعد لا تحس إلاّ بالبصر فلذلك فسره بعضهم برأيت ، والإيناس أعم من الرؤية لأنك تقول ﴿ آنست ﴾ من فلان خيراً .

وقال الزمخشري : الإيناس الإبصار البيّن الذي لا شبهة فيه ، ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشيء والإنس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم .

وقيل : هو إبصار ما يؤنس به لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقناً حققه لهم بكلمة إن ليوطن أنفسهم .

ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء

والطمع ، وقال : لعل ولم يقطع فيقول إني آتيكم لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به انتهى .

والظاهر أنه رأى نوراً حقيقة .

وقال الماوردي : كانت عند موسى ﴿ ناراً ﴾ وكانت عند الله نوراً .

قيل : وخيِّل له أنه نار .

قيل : ولا يجوز هذا لأن الإخبار بغير المطابق لا يجوز على الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

ولفظة على ههنا على بابها من الاستعلاء ، ومعناه إن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ، أو لأن المصطلين بها والمستمتعين إذا تكنفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها ومنه قول الأعشى :

وبات على النار الندى والمحلق . . .

وقال ابن الأنباري : على بمعنى عند وبمعنى مع وبمعنى الباء ، وذكر الزجّاج أنه ضل عن الماء فترجى أن يلقى من يهديه الطريق أو يدله على الماء ، وانتصب ﴿ هدى ﴾ على أنه مفعول به على تقدير محذوف أي ذا ﴿ هدى ﴾ أو على تقدير حذف لأنه إذا وجد الهادي فقد وجد الهدى هدى الطريق .

وقيل : ﴿ هدى ﴾ في الدين قاله مجاهد وقتادة وهو بعيد ، وهو وإن كان طلب من يهديه الطريق فقد وجد الهدى على الإطلاق .

والضمير في ﴿ أتاها ﴾ عائد على النار أتاها فإذا هي مضطرمة في شجرة خضراء يانعة

عناب قاله ابن عباس .

وقيل : سمرة قاله عبد الله .

وقيل : عوسج قاله وهب .

وقيل : عليقة عن قتادة ومقاتل والكلبي وكان كلما قرب منها تباعدت فإذا أدبر اتبعته ، فأيقن أن هذا أمر من أمور الله الخارقة للعادة ، ووقف متحيراً وسمع من السماء تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة و﴿ نودي ﴾ وهو تكليم الله إياه .

(217/494)

وقرأ الجمهور : ﴿ إني ﴾ بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين ، وعلى معاملة النداء معاملة القول لأنه ضرب منه على مذهب الكوفيين .

و﴿ أنا ﴾ مبتدأ أو فصل أو توكيد لضمير النصب ، وفي هذه الأعاريب حصل التركيب لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمر : وأني بفتح الهمزة والظاهر أن التقدير بأني ﴿ أنا ربك ﴾ .

وقال ابن عطية : على معنى لأجل ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك ﴾ و﴿ نودي ﴾ قد توصل بحرف الجر وأنشد أبو عليّ :

ناديت باسم ربيعة بن مكدم . . .

إن المنوّه باسمه الموثوق

انتهى .

وعلمه بأن الذي ناداه هو الله تعالى حصل له بالضرورة خلقاً منه تعالى فيه أو بالاستدلال بالمعجزة ، وعند المعتزلة لا يكون ذلك إلاّ بالمعجز فمنهم من عينه ومنهم من قال : لا يلزم أن يعرف ما ذلك المعجز قالوا : ولا يجوز أن يكون ذلك بالعلم الضروري لأنه ينافي التكليف ، والظاهر أن أمره تعالى إياه بخلع النعلين لعظم الحال التي حصل فيها كما يخلع عند الملوك غاية في التواضع .

وقيل : كانتا من جلد حمار ميت فأمر بطرحهما لنجاستهما .

وفي الترمذي عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : "كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبّة صوف وكمة صوف وسراويل صوف ، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت" قال : هذا حديث غريب ، والكمة القلنسوة الصغيرة وكونهما من جلد حمار ميت غير مدبوغ قول عكرمة وقتادة والسدّي ومقاتل والكلبي والضحاك .

وقيل : كانتا من جلد بقرة ذكي لكن أمر بخلعهما لبيان بركة الوادي المقدس ، وتمس قدماه تربته وروى أنه خلق نعليه وألقاهما من وراء الوادي .

و﴿ المقدس ﴾ المطهر و﴿ طوى ﴾ اسم علم عليه فيكون بدلاً أو عطف بيان .

وقرأ الحسن والأعمش وأبو حيوة وابن أبي إسحاق وأبو السمال وابن محيص بكسر الطاء منوناً .

وقرأ الكوفيون وابن عامر بضمها منوناً .

وقرأ الحرميان وأبو عمرو بضمها غير منون .

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو بكسرها غير منون .

(218/494)

وقرأ عيس بن عمر والضحاك طاوى أذهب فمن نون فعلى تأويل المكان ، ومن لم ينون وضم الطاء فيحتمل أن يكون معدولاً عن فعل نحو زفر وقثم ، أو أعجمياً أو على معنى البقعة ، ومن كسر ولم ينون فمنع الصرف باعتبار البقعة .

وقال الحسن : ﴿ طوى ﴾ بكسر الطاء والتنوين مصدر ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين فهو بوزن الثناء وبمعناه وذلك لأن الثنا بالكسر والقصر الشيء الذي تكرره ، فكذلك الطوى على هذه القراءة .

وقال قطرب ﴿ طوى ﴾ من الليل أي ساعة أي قدس لك في ساعة من الليل لأنه نودي بالليل ، فلحق الوادي تقديس محدد أي ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ ليلاً .

قرأ طلحة والأعمش وابن أبي ليلى وحمزة وخلف في اختياره وأما بفتح الهمزة وشد النون اخترناك بنون العظمة .

وقرأ السلمي وابن هرمز والأعمش في رواية ﴿ وأنا ﴾ بكسر الهمزة والألف بغير النون بلفظ الجمع دون معناه لأنه من خطاب الملوك اخترناك بالنون والألف عطفاً على ﴿ إني أنا ربك ﴾ لأنهم كسروا ذلك أيضاً ، والجمهور ﴿ وأنا اخترتك ﴾ بضمير المتكلم المفرد غير المعظم نفسه .

وقرأ أُبَيّ وأني بفتح الهمزة وياء المتكلم ﴿ اخترتك ﴾ بتاء عطفاً على ﴿ إني أنا ربك ﴾ ومفعول ﴿ اخترتك ﴾ الثاني المتعدي إليه بمن محذوف تقديره من قومك .

والظاهر أن ﴿ لما يوحى ﴾ من صلة استمع وما بمعنى الذي .

وقال الزمخشري وغيره : ﴿ لما يوحى ﴾ للذي يوحى أو للوحي ، فعلق اللام باستمع أو باخترتك انتهى .

ولا يجوز التعليق باخترتك لأنه من باب الأعمال فيجب أو يختار إعادة الضمير مع الثاني ، فكان يكون فاستمع له لما يوحى فدل على أنه إعمال الثاني .

وقال أبو الفضل الجوهري : لما قيل لموسى صلوات الله على نبينا وعليه استمع لما يوحى وقف على حجر واستند إلى حجر ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره ، ووقف ليستمع وكان كل لباسه صوفاً .

وقال وهب : أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور العقل والعزم على العمل ، وذلك هو الاستماع لما يحب الله وحذف الفاعل في ﴿ يوحى ﴾ للعلم به ويحسنه كونه فاصلة ، فلو كان مبنياً للفاعل لم يكن فاصلة والموحى قوله ﴿ إني أنا الله ﴾ إلى آخره معناه وحّدني كقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ إلى آخر الجمل جاء ذلك تبييناً وتفسيراً للإبهام في قوله ﴿ لما يوحى ﴾ .

وقال المفسرون ﴿ فاعبدني ﴾ هنا وحدني كقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ معناه ليوحدون ، والأولى أن يكون ﴿ فاعبدني ﴾ لفظ يتناول ما كلفه به من العبادة ، ثم عطف عليه ما هو قد يدخل تحت ذلك المطلق فبدأ بالصلاة إذ هي أفضل الأعمال وأنفعها في الآخرة ، والذكر مصدر يحتمل أن يضاف إلى الفاعل أي ليذكرني فإن ذكري أن اعبد و يصلي لي أو ليذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها ، ويحتمل أن تضاف إلى المفعول أي لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق ، أو لأن تذكرني خاصة لا تشوبه بذكر غيري أو خلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر ، أو لتكون لي ذاكراً غير ناسٍ فعل المخلصين

في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به كما قال

﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ واللام على هذا القول مثلها في قوله ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها " .

قال الزمخشري : وكان حق العبادة أن يقال لذكرها كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "إذا ذكرها" .

(220/494)

ومن يتمحل له يقول : إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله ، أو بتقدير حذف المضاف أي لذكر صلاتي أو لأن الذكر والنسيان من الله عز وجل في الحقيقة انتهى .

وفي الحديث بعد قوله : "فليصلها إذا ذكرها" قوله "إذ لا كفارة لها إلاّ ذلك" ثم قرأ ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ .

وقرأ السلمي والنخعي وأبو رجاء : للذكرى بلام التعريف وألف التأنيث ، فالذكرى بمعنى التذكرة أي لتذكيري إياك إذا ذكرتك بعد نسيانك فأقمها .

وقرأت فرقة لِذِكْرَى بألف التأنيث بغير لام التعريف .

وقرأت فرقة : للذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(221/494)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير أمر التوحيدِ الذي إليه انتهى مَساقُ الحديث وبيانِ أنه أمرٌ مستمرّ فيما بين الأنبياء كابراً عن كابر ، وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَاْ ﴾ وبه ختَم عليه الصلاة والسلام مقالَه حيث قال : ﴿ إِنَّمَا إلهكم الله الذى لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبيِّ عليه الصلاة والسلام في الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباءِ النبوة والصبرِ على مقاساة الخطوبِ في تبليغ أحكامِ الرسالة ، فيأباه أن مساقَ النظمِ الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاقّ ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ ظرفٌ للحديث ، وقيل : لمضمر مؤخّر أي حين رأى ناراً كان كيتَ وكيت ، وقيل : مفعولٌ لمضمر مقدّم أي اذكرْ وقتَ رؤيته ناراً .

روي أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيباً عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمّه

وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام ، فلما وافى وادي َطُوًى وهو الجانبُ الغربيُّ من الطور وُلد له ولَدٌ في ليلة مظلمةٍ شاتية مُثلجة وكانت ليلةَ الجمعة وقد ضل الطريقَ وتفرّقت ماشيتُه ولا ماءَ عنده ، وقَدَح فصَلَد زندُه ، فبينما هو في ذلك إن رأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امكثوا ﴾ أي أقيموا مكانَكم ، أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتْبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب إلى النار كما هو المعتادُ ، لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخرَ فإنه مما لا يخطُر بالبال ، والخطابُ للمرأة والولدِ والخادمِ ، وقيل : لها وحدها والجمعُ إما لظاهر لفظ الأهلِ أو للتفخيم كما في قول مَنْ قال

(222/494)

وإن شئتِ حرمتُ النساءَ سواكمُ . . . ﴿ إِنّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرتُها إبصاراً بيّناً لا شُبهةَ فيه ، وقيل : الإيناسُ خاصٌّ بإبصار ما يؤنَس به والجملةُ تعليلٌ للأمر أو المأمورِ به ﴿ لَّعَلّى ءاتِيكُمْ مّنْهَا ﴾ أي أجيئكم من النار ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ أي بشُعلة مقتبَسةٍ من معظم النارِ وهي المُرادةُ بالجذوة في سورة القَصص وبالشهاب القبسُ ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ هادياً يدلني على الطريق على أنه مصدرٌ سمّي به الفاعلُ مبالغةً ، أو حُذف منه المضافُ

أي ذا هدايةٍ ، أو على أنه إذا وُجد الهادي فقد وجد الهُدى ، وقيل : هاديا ً يهديني إلى أبواب الدين فإن أفكارَ الأبرارِ معمورةٌ بالهمّة الدينية في عامة أحوالِهم لا يشغَلهم عنها شاغلٌ ، والأول هو الأظهرُ لأن مساقَ النظمِ الكريم لتسلية أهلِه ، وقد نُصّ عليه في سورة القَصص حيث قيل : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ الآية ، وكلمةُ أو في الموضعين لمنع الخلوِّ دون منْعِ الجمعِ ، ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى : ﴿ عَلَى النار ﴾ أن أهلَ النارِ يستعلون المكانَ القريب منها أو لأنهم عند الاصطلاءِ يكتنفونها قِياماً وقعوداً فيُشرفون عليها . ولما كان الإتيانُ بهما مترقَّباً غيرَ محقَّقِ الوقوعِ صُدّر الجملة بكلمة الترجي ، وهي إما علةٌ لفعل قد حذف ثقةً بما يدل عليه من الأمر بالمُكث والإخبار بإيناس النارِ وتفادياً عن التصريح بما يوحشهم ، وإما حالٌ من فاعله أي فأذهب إليها لآتيكم أو كي آتيكم أو راجياً أن آتيكم منها بقبس . . الآية ، وقد مر تحقيق ذلك مفصلاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدِيرٌ يا أيها الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا ﴾ أي النارَ التي آنسها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : رأى شجرةً خضراءَ أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نارٌ بيضاءُ تتقدُ كأضوإ ما يكون ، فوقف متعجباً من شدة ضوئها وشدةِ خُضرة الشجرة فلا النارُ تُغيّر خضرتها ولا كَثرةُ ماء الشجرة تُغيّر ضوءَها . قالوا : النارُ أربعةُ أصنافٍ : صنفٌ يأكل ولا يشرب وهي نارُ الدنيا ، وصنفٌ يشرب ولا يأكل وهي نارُ الشجرِ الأخضر ، وصنفٌ يأكل ويشرب وهي نار جهنم ، وصنفٌ لا يأكل ولا يشرب وهي نارُ موسى عليه الصلاة والسلام ، وقالوا : هي أربعةُ أنواعٍ : نوعٌ له نورٌ وإحراقٌ وهي نارُ الدنيا ، ونوع لا نورَ له ولا إحراقَ وهي نارُ الأشجار ، ونوعٌ له نورٌ بلا إحراقٍ وهي نارُ موسى عليه الصلاة والسلام ، ونوعٌ له إحراقٌ بلا نور وهي نارُ جهنم . روي أن الشجرة كانت عَوْسَجةً ، وقيل : كانت سَمُرة ﴿ نُودِىَ يَا مُوسَىٰ ﴾ أي نودي فقيل : يا موسى ﴿ إِنِّىٓ أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ أو عومل النداءُ معاملةَ القول لكونه ضرباً منه ، وقرىء بالفتح أي بأني ، وتكريرُ الضمير لتأكيد الدليلِ وتحقيقِ المعرفة وإماطةِ الشبهة . روي أنه لما نودي يا موسى ، قال عليه الصلاة والسلام : من المتكلم ؟ فقال الله عز وجل : "أنا ربك" فوسوس إليه إبليسُ : لعلك تسمع كلامَ شيطان ، فقال : أنا عرفتُ أنه كلامُ الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهاتِ بجميع الأعضاء . قلت : وذلك لأن سماعَ ما ليس من شأنه ذلك من الأعضاء ليس إلا من آثار الخلاق العليم تعالى وتقدس ، وقيل : تلقّى عليه الصلاة والسلام كلامَ رب العزة تلقياً روحانياً ثم تمثل ذلك الكلامُ لبدنه

وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهه ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ أُمر عليه الصلاة والسلام بذلك لأن الحفْوةَ أدخل في التواضع وحسن الأدب ، ولذلك كان السلفُ الصالحون يطوفون بالكعبة حافين ، وقيل : ليباشر الواديَ بقدميه تبركاً به ، وقيل : لما أن نعليه

كانتا من جلد حمارٍ غيرِ مدبوغ ، وقيل : معناه فرِّغْ قلبَك من الأهل والمال ، والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الأمر وداوعيه وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس ﴾ تعليلٌ لوجوب الخَلْع المأمور به وبيانٌ لسبب ورودِ الأمر بذلك من شرف البُقعة وقُدْسِها ، روي أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي ﴿ طُوًى ﴾ بضم الطاء غيرُ منوّن ، وقرىء منوناً ، وقرىء بالكسر منوناً وغيرَ منّون ، فمَنْ نوّنه أوّله بالمكان دون البقعة ، وقيل : هو كثني الطي مصدرٌ لنودي أو المقدس أي نودي نداءين أو قدّس مرة بعد أخرى .

﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة ، وقرىء وأنّا اخترناك بالفتح والكسر ، والفاء في قوله : ﴿ فاستمع ﴾ لترتيب الأمرِ أو المأمورِ به على ما قبلها ، فإن اختيارَه عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمرِ به ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لِمَا يُوحَى ﴾ متعلقةٌ باستمعْ وما موصولةٌ أو مصدريةٌ ، أي فاستمع الذي يوحى إليك أو الوحْيَ لا باخترتك كما قيل ، لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازُعِ وإعمالِ الأول فلا بد حينئذ من إعادة الضميرِ مع الثاني بل لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ ﴾ بدلٌ من (ما يوحى) ولا ريب في أن اختيارَه عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحي فقط ، والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فاعبدنى ﴾ لترتيب المأمورِ به على ما قبلها فإن اختصاصَ الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيصِ العبادةِ به عز وجل ﴿ اتل مَا ﴾ خُصت الصلاةُ بالذكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفضلها وإنافتِها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبودِ وشُغل القلبِ واللسانِ بذكره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ لِذِكْرِى ﴾ أي لتذكُرني فإن ذِكْري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادةِ والصلاة ، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار ، أو لذكري خاصةً لا تشوبُه بذكر غيري ، أو لإخلاص ذكري وابتغاءِ وجهي لا تُرائي بها ولا تقصِدُ بها غرضاً آخرَ ، أو لتكون ذاكراً لي غيرَ ناس ، وقيل : لذكري إياها وأمْري بها في الكتب ، أو لأنْ أذكُرَك بالمدح والثناء ، وقيل : لأوقات ذكري

وهي مواقيتُ الصلاة ، أو لذِكْر صلاتي لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " من نام عن صلاة أو نسِيَها فليصلّها إذا ذكرها لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّنِى أَنَّا اللهُ ﴾ " . وقرىء لذكرى بألف التأنيثِ وللذكرى معرفاً وللذكْر بالتعريف والتنكير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(226/494)

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

مسوق لتقرير أمر التوحيد الذي انتهى إليه مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء عليهم السلام كابراً عن كابر وقد خوطب به موسى عليه السلام حيث قيل له ﴿ إِنَّنِى أَنَّا اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَّاْ ﴾ [طه : 14] وبه ختم عليه السلام مقاله حيث قال : ﴿ إِنَّمَا إِلهكمُ اللهُ الذى لا إِلهَ إِلاَّ هُو ﴾ [طه : 98] وقيل : مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ [طه : 2] بناء على ما نقل عن مقاتل في سبب النزول إلا أن الأول تسلية له عليه الصلاة والسلام برد ما قاله قومه وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم برد ما قاله قومه وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم بأن إخوانه من

الأنبياء عليهم السلام قد عراهم من أممهم ما عراهم وكانت العاقبة لهم وذكر مبدأ نبوة موسى عليه السلام نظير ما ذكر إنزال القرآن عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: مسوق لترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة بعد ما خاطبه سبحانه بأنه كلفه التبليغ الشاق بناء على أن معنى قوله تعالى: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءانَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ [طه: 2، 3] إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة فالواو كما قاله غير واحد لعطف القصة على القصة ولا نظر في ذلك إلى تناسبهما خبراً وطلباً بل يشترط التناسب فيما سيقتا له مع أن المعطوف ههنا قد يؤول بالخبر.

(227/494)

ولا يخفى أن ما تقدم جار على سائر الأوجه والأقوال في الآية السابقة، وسبب نزولها ولا يأباه شيء من ذلك، والاستفهام تقريري، وقيل: هل بمعنى قد؛ وقيل: الاستفهام إنكاري ومعناه النفي أي ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى عليه السلام ونحن الآن مخبروك

بها والمعول عليه الأول ، والحديث الخبر ويصدق على القليل والكثير ويجمع على أحاديث على غير قياس .

قال الفراء : نرى أن واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعاً للحديث ، وقال الراغب : الحديث كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه ويكون مصدراً بمعنى التكلم .

وحمله بعضهم على هذا هنا بقرينة ﴿ فَقَالَ ﴾ [طه : 10] الخ ، وعلق به قوله تعالى : ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ ولم يجوز تعلقه على تقدير كونه اسماً للكلام والخبر لأنه حينئذ الجوامد لا يعمل ، والأظهر أنه اسم لما ذكر لأنه هو المعروف مع أن وصف القصة بالاتيان أولى من وصف التحدث والتكلم به وأمر التعلق سهل فإن الظرف يكفي لتعلقه رائحة الفعل ، ولذا نقل عن بعضهم أن القصة والحديث والخبر والنبأ يجوز أعمالها في الظروف خاصة وإن لم يرد بها المعنى المصدري لتضمن معناها الحصول والكون .

وجوز أن يكون ظرفاً لمضمر مؤخر أي حين رأى ناراً كان كيت وكيت ، وأن يكون مفعولاً لمضمر متقدم أي فاذكر وقت رؤيته ناراً .

وروى أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً عليه السلام في الخروج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه وقد طالت مدة جنايته بمصر ورجا خفاء أمره فأذن له وكان عليه السلام رجلاً غيوراً فخرج بأهله ولم يصحب رفقة لئلا ترى امرأته وكانت على أتان وعلى ظاهرها جوالق فيها أثاث البيت ومعه غنم له وأخذ عليه السلام على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى وادي طوى وهو بالجانب الغربي من الطور ولد له ابن في ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصله زنده فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امكثوا ﴾ أي أقيموا مكانكم أمرهم عليه السلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه من الذهاب إلى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخر فإنه مما لا يخطر بالبال ، والخطاب قيل : للمرأة والولد والخادم ، وقيل : للمرأة وحدها والجمع إما لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم كما في قوله من قال :

وإن شئت حرمت النساء سواكم . . .

وقرأ الأعمش .

وطلحة .

وحمزة .

ونافع في رواية ﴿ لِأَهْلِهِ امكثوا ﴾ بضم الهاء ﴿ إِنِّى ءانَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرتها

إبصاراً بيناً لا شبهة فيه ، ومن ذلك إنسان العين والإنس خلاف الجن ، وقيل : الإيناس خاص بإبصار ما يؤنس به ، وقيل : هو بمعنى الوجدان ، قال الحارث بن حلزة :

آنست نبأة وقد راعها القن . . .

اص يوماً وقد دنا الإمساء

(229/494)

والجملة تعليل للأمر والمأمور به ولما كان الإيناس مقطوعاً متيقناً حققه لهم بكلمة إن ليوطن أنفسهم وإن لم يكن ثمت تردد أو إنكار ﴿ لَّعَلّى ءاتِيكُمْ مّنْهَا ﴾ أي أجيئكم من النار ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ بشعلة مقتبسة تكون على رأس عود ونحوه ففعل بمعنى مفعول وهو المراد بالشهاب القبس وبالجذوة في موضع آخر وتفسيره بالجمرة ليس بشيء ، وهذا الجار والمجرور متعلق بآتيكم ، وأما منها فيحتمل أن يكون متعلقاً به وأن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ قَبَسٍ ﴾ على ما قاله أبو البقاء ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ هادياً يدلني على الطريق على أنه مصدر سمي به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أي ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادي فقد وجد الهدي ، وعن الزجاج أن المراد هادياً يدلني على الماء فإنه عليه السلام قد ضل عن الماء ، وعن مجاهد .

وقتادة أن المراد هادياً يهديني إلى أبواب الدين فإن أفكار الأبرار مغمورة بالهمم الدينية في عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل وهو بعيد فإن مساق النظم الكريم تسلية أهله مع أنه قد نص في سورة القصص على ما يقتضي ما تقدم حيث قال : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الاجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ الآية ، والمشهور كتابة هذه الكلمة بالياء .

وقال أبو البقاء : الجيد أن تكتب بالألف ولا تمال لأن الألف بدل التنوين في القول المحقق ، وقد أمالها قوم وفيه ثلاثة أوجه ، الأول : أن يكون شبه ألف التنوين بلام الكلمة إذا اللفظ بهما في المقصور واحد ، الثاني : أن يكون لام الكلمة ولم يبدل من التنوين شيء في النصب ، والثالث : أن يكون على رأي من وقف في الأحوال الثلاثة من غير إبدال انتهى ، وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع وعلي على بابها من الاستعلاء والاستعلاء على الناء مجاز مشهور صار حقيقة عرفية في الاستعلاء على مكان قريب ملاصق لها كما قال سيبويه في مررت بزيد : إنه لصوق بمكان يقرب منه ، وقال غير واحد : إن الجار والمجرور في موضع الحال من ﴿ هُدِىً ﴾ وكان في موضع الفة له فقدم والتقدير أو أجد هادياً أو ذا هدى مشرفاً على النار ، والمراد مصطلياً بها وعادة المصطلي الدنو من النار والإشراف عليها .

وعن ابن الانباري أن علي ههنا بمعنى عند أو بمعنى مع أو بمعنى الباء ولا حاجة إلى ذلك وكان الظاهر عليها إلا أنه جيء بالظاهر تصريحاً بما هو كالعلة لوجدان الهدي إذ النار لا تخلو من أناس عندها ، وصدرت الجملة بكلمة الترجي لما أن الإتيان وما عطف عليه ليسا محققي الوقوع بل هما مترقبان متوقعان .

وهي على ما في إرشاد العقل السليم إما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر بالمكث والإخبار بإيناس النار وتفادياً عن التصريح بما يوحشهم ، وإما حال من فاعله أي فاذهب إليها لآتيكم أو كي آتيكم أو راجياً أن آتيكم منها بقبس الآية ، وقيل : هي صفة لناراً ، ومتى جاز جعل جملة الترجي صلة كما في قوله :

وإني لراج نظرة قبل التي . . .

لعلي وإن شطت نواها أزورها

فليجز جعلها صفة فإن الصلة والصفة متقاربان ولا يخفى ما فيه

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ أي النار التي آنسها وكانت كما في بعض الروايات عن ابن عباس في شجرة عناب خضراء يانعة ، وقال عبد الله بن مسعود : كانت في سمرة ، وقيل : في شجرة عوسج .

وأخرج الإمام أحمد في الزهد .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : لما رأى موسى عليه السلام النار انطلق يسير حتى وقف منها قريباً فإذا هو بنار عظيمة تفور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرماً ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة وحسناً فوقف ينظر لا يدري علام يضع أمرها إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق وأوقد إليها بوقد فنالها فاحترقت وأنه إنما يمنع النار شدة خضرتها وكثرة مائها وكثافة ورقها وعظم جذعها فوضع أمرها على هذا فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها ولم تزل تطمعه ويطمع بها ثم لم يكن شيء باوشك من خمودها فاشتد عند ذلك عجبه وفكر في أمرها فقال : هي نار ممتنعة لا يقتبس منها ولكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين فلما رأى ذلك قال إن لهذه لشأناً ثم وضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة لا يدري من أمرها ولا بم أمرت ولا من صنعها ولا لم صنعت

فوقف متحيراً لا يدري أيرجع أم يقيم فبينما هو على ذلك إذ رمى بطرفة هو فرعها فإذا أشد ما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر إليها تغشى الظلام ثم لم تزل الخضرة تنور وتصفر وتبيض حتى صارت نوراً ساطعاً عموداً بين السماء والأرض عليه مثل شعاع الشمس تكل دونه الأبصار كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه فرد يده على عينيه ولصق بالأرض وسمع حينئذ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عظماً فلما بلغ موسى عليه السلام الكرب واشتد عليه الهول كان ما قص الله تعالى .

(232/494)

وروى أنه عليه السلام كان كلما قرب منها تباعدت فإذا أدبرا تبعته فأيقن أن هذا أمر من أمور الله تعالى الخارقة للعادة ووقف متحيراً وسمع من السماء تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة وكان ما كان .

وقالوا : النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا ، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر ، وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنم ، وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام .

وقالوا أيضاً هي أربعة أنواع .

نوع له نور وإحراق وهي نار الدنيا ، ونوع لا نور له ولا إحراق وهي نار الأشجار ونوع له إحراق بلا نور وهي نار جهنم .

ونوع له نور بلا إحراق وهي نار موسى عليه السلام بل قال بعضهم : إنها لم تكن ناراً بل هي نور من نور الرب تبارك وتعالى .

وروى هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذكر ذلك بلفظ النار بناء على حسبان موسى عليه السلام وليس في إخباره عليه السلام حسب حسبانه محذور كما توهم واستظهر ذلك أبو حيان وإليه ذهب الماوردي .

وقال سعيد بن جبير .

هي النار بعينها وهي إحدى حجب الله عز وجل واستدل له بما روى عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " ذكر ذلك البغوي وذكر في تفسير الخازن أن الحديث أخرجه مسلم وظاهر الآية يدل على أنه عليه السلام حين أتاها ﴿ نُودِىَ ﴾ من غير ريث وبذلك رد بعض المعتزلة الأخبار السابقة الدالة على تخلل زمان بين المجيء والنداء ، وأنت

تعلم أن تخلل مثل ذلك الزمان مما لا يضر في مثله ما ذكر ، وزعم أيضاً امتناع تحقق ظهور الخارق عند مجيئه النار قبل أن ينبأ إلا أن يكون ذلك معجزة لغيره من الأنبياء عليهم السلام ، وعندنا أن ذلك من الإرهاص الذي ينكره المعتزلة ، والظاهر أن القائم مقام فاعل ﴿ نُودِىَ ﴾ ضمير موسى عليه السلام ، وقيل : ضمير المصدر أي نودي النداء ، وقيل : هو قوله تعالى : ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ الخ وكأن ذلك على اعتبار تضمين النداء معنى القول وإرادة هذا اللفظ من الجملة وإلا فقد قيل : إن الجملة لا تكون فاعلاً ولا قائماً مقامه في مثل هذا التركيب إلا بنحو هذا الضرب من التأويل .

وفي "البحر" مذهب الكوفيين معاملة النداء معاملة القول ومذهب البصريين إضمار القول في مثل هذه الآية أي نودي فقيل : ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ .

﴿ إِنّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ ولذلك كسرت همزة إن في قراءة الجمهور ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو بفتحها على تقدير حرف الجر أي بأني ، والجار والمجرور على ما قال أبو البقاء .

وغيره متعلق بِ ﴿ نودي ﴾ [طه : 11] والنداء قد يوصل بحرف الجر أنشد أبو علي :

ناديت باسم ربيعة بن مكرم . . .

إن المنوه باسمه الموثوق

ولا يخفى على ذي ذوق سليم حال التركيب على هذا التخريج وإنه أنما يحلو لو لم يكن

المنادي فاصلاً .

وقيل : على تقدير حرف التعليل وتعلقه بفعل الأمر بعد وهو كما ترى .

(234/494)

واختير أن الكلام على تقدير العلم أي أعلم أني الخ ، وتكرير ضمير المتكلم لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة ، واستظهر أن علمه عليه السلام بأن الذي ناداه هو الله تعالى حصل له بالضرورة خلقاً منه تعالى فيه ، وقيل : بالاستدلال بما شاهد قبل النداء من الخارق ، وقيل : بما حصل له من ذلك بعد النداء ، فقد روى أنه عليه السلام لما نودي يا موس قال عليه السلام : من المتكلم ؟ فقال : أنا ربك فوسوس إليه إبليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان فقال عليه السلام : أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء ، والخارق فيه أمران سماعه من جميع الجهات وكون ذلك بجميع الأعضاء التي من شأنها السماع والتي لم يكن من شأنها ، وقيل : الخارق فيه أمر واحد وهو السماع بجميع الأعضاء ، وهو المراد بالسماع من جميع الجهات ، وأياً ما كان فلا يخفى صحة الاستدلال بذلك على المطلوب إلا أن في صحة الخبر خفاء ولم أر له سنداً يعول عليه ، وحضور الشيطان ووسوسته لموسى عليه السلام في ذلك الوادي المقدس والحضرة الجليلة

في غاية البعد .

والمعتزلة أوجبوا أن يكون العلم بالاستدلال بالخارق ولم يجوزوا أن يكون بالضرورة قالوا لأنه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع القادر العالم لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوماً بالضرورة لخرج موسى عليه السلام عن كونه مكلفاً لأن حصول العلم الضروري ينافي التكليف وبالاتفاق أنه عليه السلام لم يخرج عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالخارق وفي تعيينه اختلاف .

وقال بعضهم : لا حاجة بنا إلى أن نعرف ذلك الخارق ما هو ، وأخرج أحمد .

وغيره عن وهب أنه عليه السلام لما اشتد عليه الهول نودي من الشجرة فقيل : يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه وما كان سرعة إجابته إلا استئناساً بالإنس فقال : لبيك مراراً إني لأسمع صوتك وأحس حسك ولا أرى مكانك فأين أنت : قال : أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فلما سمع هذا موسى عليه السلام علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تعالى فايقن به فقال : كذلك أنت يا إلهي فكلامك أسمع أم رسولك ؟

قال : بل أنا الذي أكلمك ، ولا يخفى تخريج هذا الأثر على مذهب السلف ومذهب الصوفية وأنه لا يحصل الإيقان بمجرد سماع ما لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى من الصفات إذا فتح باب الوسوسة ، ثم إن هذا الأثر ظاهر في أن موسى عليه السلام سمع الكلام اللفظي منه تعالى بلا واسطة ولذا اختص عليه السلام باسم الكليم وهو مذهب جماعة من أهل السنة وذلك الكلام قديم عندهم .

وأجابوا عن استلزام الحدوث لأنه لا يوجد بعضه إلا بتقضي بعض آخر بأنه إنما يلزم من التلفظ بآلة وجارحة وهي اللسان أما إذا كان بدونها فيوجد دفعة واحدة كما يشاهد في الحروف المرسومة بطبع الخاتم دون القلم ويلزمهم أن يؤولوا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ ﴾ [طه : 11] الخ بأن يقولوا : المراد فلما أتاها أسمع أتاها أسمع النداء أو نحو ذلك وإلا فمجيء النار حادث والمرتب على الحادث حادث ، ولذا زعم أهل ما وراء النهر من أهل السنة القائلين بقدم الكلام أن هذا الكلام الذي سمعه موسى عليه السلام حادث وهو صوت خلقه الله تعالى في الشجرة ، وأهل البدعة أجمعوا على أن الكلام اللفظي حادث بيد أن منهم من جوز قيام الحوادث به تعالى شأنه ومنهم من لم يجوز ، وزعم أن الذي سمعه موسى عليه السلام خلقه الله عز وجل في جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها .

وقال الأشعري : إن الله تعالى أسمع موسى عليه السلام كلامه النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت ولا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك ، وقد حققه بعضهم بأنه عليه السلام تلقى ذلك الكلام تلقياً روحانياً كما تتلقى الملائكة عليهم السلام كلامه تعالى لا من جارحة ثم أفاضته الروح بواسطة قوة العقل على القوى النفسية ورسمته في الحس المشترك بصور ألفاظ مخصوصة فصار لقوة تصوره كأنه يسمعه من الخارج وهذا كما يرى النائم أنه يكلم ويتكلم ، ووجه وقوف الشيطان المار في الخبر الذي سمعت ما فيه على هذا بأنه يحتمل أن يكون كذلك ، ويحتمل أن يكون بالتفرس من كون هيئته عليه السلام على هيئة المصغي المتأمل لما يسمعه وهو كما ترى ، وقد تقدم لك في المقدمات ما عسى ينفعك مراجعته هنا فراجعه وتأمل ، واعلم أن شأن الله تعالى شأنه كله غريب وسبحان الله العزيز الحكيم ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ أزلهما من رجليك والنعل معروفة وهي مؤنثة يقال في تصغيرها نعيلة ويقال فيها نعل : بفتح العين أنشد الفراء :

له نعل لا يطي الكلب ريحها . . .

وإن وضعت بين المجالس شمت

وأمر صلى الله عليه وسلم بذلك لما أنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ كما روي عن الصادق رضي الله تعالى عنه .

وعكرمة .

وقتادة .

والسدي .

ومقاتل .

والضحاك .

والكلبي ، وروى كونهما من جلد حمار في حديث غريب .

فقد أخرج الترمذي بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان على موسى عليه السلام يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وكمة صوف أي قلنسوة صغيرة وسراويل صوف وكانت نعلاه من جلد حمار " وعن الحسن .

ومجاهد .

وسعيد بن جبير .

وابن جريج أنهما كانتا من جلد بقرة ذكيت ولكن أمر عليه السلام بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدس .

وقال الأصم : لأن الحفوة أدخل في التواضع .

وحسن الأدب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين ، ولا يخفى أن هذا ممنوع عند القائل بأفضلية الصلاة بالنعال كما جاء في بعض الآثار ، ولعل الأصم لم يسمع ذلك أو يجيب عنه .

وقال أبو مسلم : لأنه تعالى أمنه من الخوف وأوقفه بالموضع الطاهر وهو عليه السلام إنما لبسهما اتقاء من الانجاس وخوفاً من الحشرات ، وقيل : المعنى فرغ قلبك من الأهل والمال من الدنيا والآخرة .

ووجه ذلك أن يراد بالنعل كل ما يرتفق به ، وغلب على ما ذكر تحقيراً ، ولذا أطلق على الزوجة نعل كما في كتب اللغة ، ولا يخفى عليك أنه بعيد وإن وجه بما ذكر وهو أليق بباب الإشارة ، والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات الأمر ودواعيه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس ﴾ تعليل لموجب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها .

روي أنه عليه السلام حين أمر خلعهما وألقاهما وراء الوادي ﴿ طُوًى ﴾ بضم الطاء غير منون .

وقرأ الكوفيون .

وابن عامر بضمها منوناً .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وأبو حيوة .

وابن أبي إسحاق .

وأبو السمال .

وابن محيصن بكسرها منوناً .

(238/494)

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو بكسرها غير منون ؛ وهو علم لذلك الوادي فيكون بدلاً أو عطف بيان ، ومن نونه فعلى تأويل المكان ومن لم ينونه فعلى تأويل البقعة فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقيل : ﴿ طُوًى ﴾ المضموم الطاء الغير المنون ممنوع من الصرف للعلمية والعدل كزفر وقثم ، وقيل : للعلمية والعجمة ؛ وقال قطرب : يقال طوى من الليل أي ساعة أي قدس لك ساعة من الليل وهي ساعة أن نودي فيكون معملاً للمقدس ، وفي "العجائب" للكرماني قيل : هو معرب معناه ليلاً وكأنه أراد قول قطرب ، وقيل : هو رجل بالعبرانية وكأنه على هذا منادي ، وقال الحسن : طوى بكسر الطاء والتنوين مصدر

كثنى لفظاً ومعنى ، وهو عنده معمول للمقدس أيضاً أي قدس مرة بعد أخرى ، وجوز أن يكون معمولاً لنودي أي نودي نداءين ، وقال ابن السيد : إنه ما يطوى من جلد الحية ويقال : فعل الشيء طوى أي مرتين فيكون موضوعاً موضع المصدر ، وأنشد الطبرسي لعدي بن زيد :

أعاذل إن اللوم في غير كنهه . . .

على طوى من غيك المتردد

وذكر الراغب أنه إذا كان بمعنى مرتين يفتح أوله ويكسر ، ولا يخفى عليك أن الأظهر كونه اسماً للوادي في جميع القراءات .

﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ أي اصطفيتك من الناس أو من قومك للنبوة والرسالة .

وقرأ السلمي .

وابن هرمز .

والأعمش في رواية ﴿ وَأَنَا ﴾ بكسر الهمزة وتشديد النون مع ألف بعدها ﴿ اخترناك ﴾ بالنون والألف ، وكذا قرأ طلحة .

وابن أبي ليلى .

وحمزة .

وخلف .

والأعمش في رواية أخرى إلا أنهم فتحوا همزة إن ، وذلك بتقدير أعلم أي وأعلم أنا اخترناك ، وهو على ما قيل عطف على ﴿ اخلع ﴾ [طه : 12] ، ويجوز عند من قرأ ﴿ إِنّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] بالفتح أن يكون العطف عليه سواء كان متعلقاً بنودي كما قيل أو معمولاً لا علم مقدراً كما أختير .

(239/494)

وجوز أبو البقاء أن يكون بتقدير اللام وهو متعلق بما بعده أي لأنا اخترناك ﴿ فاستمع ﴾ وهو كما ترى ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاستمع ﴾ لترتيب الأمر والمأمور به على ما قبلها فإن اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمر به ، واللام في قوله سبحانه : ﴿ لِمَا يُوحَى ﴾ متعلقة باستمع ، وجوز أن تكون متعلقة باخترناك ، ورده أبو حيان بأنه يكون حينئذٍ من باب الأعمال ويجب أو يختار حينئذٍ إعادة الضمير مع الثاني بأن يقال : فاستمع له لما يوحى .

وأجيب بأن المراد جواز تعلقها بكل من الفعلين على البدل لا على أنه من الأعمال .

واعترض على هذا بأن قوله تعالى :

﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لا إله إِلا أَنَاْ ﴾

بدل من ﴿ مَا يوحى ﴾ [طه : 13] ولا ريب في أن اختياره عليه السلام ليس لهذا فقط والتعلق باخترناك كيفما كان يقتضيه .

وأجيب بأنه من باب التنصيص على ما هو الأهم والأصل الأصيل ، وقيل : هي سيف خطيب فلا متعلق لها كما فِى ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ [النمل : 72] لكم وما موصولة .

وجوز أن تكون مصدرية أي فاستمع للذي يوحى إليك أو للوحي ، وفي أمره عليه السلام بالاستماع إشارة إلى عظم ذلك وأنه يقتضي التأهب له ، قال أبو الفضل الجوهري : لما قيل لموسى عليه السلام استمع لما يوحى وقف على حجر واستند إلى حجر ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره وأصغى بشراشره .

وقال وهب : أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور العقل والعزم على العمل وذلك هو الاستماع لما يحب الله تعالى ، وحذف الفاعل في ﴿ يُوحَى ﴾ [طه : 13] للعلم به ويحسنه كونه فاصلة فإنه لو كان مبنياً للفاعل لم يكن فاصلة ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاعبدنى ﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها فإن اختصاص الألوهية به تعالى شأنه من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل ، والمراد بها

غاية التذلل والانقياد له تعالى في جميع ما يكلفه به ، وقيل : المراد بها هنا التوحيد كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] والأول أولى ﴿ وَأَقِمِ الصلاة ﴾ خصت الصلاة بالذكر وافردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفضلها وإنافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره ، وقد سماها الله تعالى إيماناً في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] .

واختلف العلماء في كفر تاركها كسلاً كما فصل في محله ، وقوله تعالى : ﴿ لِذِكْرِى ﴾ الظاهر أنه متعلق بأقم أي أقم الصلاة لتذكرني فيها لاشتمالها على الاذكار ، وروي ذلك عن مجاهد ، وقريب منه ما قيل أي لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به ، وفرق بينهما بأن المراد بالإقامة على الأول تعديل الأركان ، وعلى الثاني الإدامة وجعلت الصلاة في الأول مكاناً للذكر ومقره وعلته ، وعلى الثاني جعلت إقامة الصلاة أي إدامتها علة لإدامة الذكر كأنه قيل أدم الصلاة لتستعين بها على استغراق فكرك وهمك في الذكر كقوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] .

وجوز أن يكون متعلقاً باعبدني أو بأقم على أنه من باب الأعمال أي لتكون ذاكراً لي بالعبادة وإقامة الصلاة ، وإذا عمم الذكر ليتناول القلبي والقالبي جاز اعتبار باب الأعمال في الأول أيضاً وهو خلاف الظاهر .

وقيل : المراد ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِذِكْرِى ﴾ خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهي ولا تقصد بها غرضاً آخر كقوله تعالى :

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ [الكوثر : 2] أو لأن أذكرك بالثناء أي لأثنى عليك وأثيبك بها أو لذكري إياها في الكتب الإلهية وأمري بها أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلوات فاللام وقتية بمعنى عند مثلها في قوله تعالى : ﴿ ياليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر : 24] وقولك : كان ذلك لخمس ليال خلون ، ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها ، وروي ذلك عن أبي جعفر ، واللام حينئذٍ وقتية أو تعليلية ، والمراد أقم الصلاة عند تذكرها أو لأجل تذكرها والكلام على تقدير مضاف والأصل لذكر صلاتي أو يقال : إن ذكر الصلاة سبب لذكر الله تعالى فأطلق المسبب على السبب أو أنه وقع ضمير الله

تعالى موقع ضمير الصلاة لشرفها أو أن المراد للذكر الحاصل مني فأضيف الذكر إلى الله عز وجل لهذه الملابسة ، والذي حمل القائل على هذا الحمل أنه ثبت في "الصحيح" من حديث أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم نام عن صلاة الصبح فلما قضاها قال : " من نسي صلاة فليقضها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِى ﴾ " فظن هذا القائل أنه لو لم يحمل هذا الحمل لم يصح التعليل وهو من بعض الظن فإن التعليل كما في "الكشف" صحيح والذكر على ما فسر في الوجه الأول وأراد عليه الصلاة والسلام أنه إذا ذكر الصلاة انتقل من ذكرها إلى ذكر ما شرعت له وهو ذكر الله تعالى فيحمله على إقامتها ، وقال بعض المحققين : إنه لما جعل المقصود الأصلي من الصلاة ذكر الله تعالى وهو حاصل مطلوب في كل وقت فإذا فاته الوقت المحدود له ينبغي المبادرة إليه ما أمكنه فهو من ءشارة النص لا من منطوقه حتى يحتاج إلى التمحل فافهم .

وإضافة ﴿ ذِكْرَ ﴾ إلى الضمير تحتمل أن تكون من إضافة المصدر إلى مفعوله وأن تكون من إضافة المصدر إلى فاعله حسب اختلاف التفسير .

وقرأ السلمي .

والنخعي .

وأبو رجاء ﴿ للذكرى ﴾ بلام التعريف وألف التأنيث ، وقرأت فرقة ﴿ الصلاة لِذِكْرِى ﴾ بألف التأنيث بغير لام التعريف ، وأخرى ﴿ لِلذّكْرِ ﴾ بالتعريف والتذكير . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(244/494)

وقال القاسمى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾

من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر التوحيد الذي انتهى إليه الآية قبله ، ببيان أنه دعوى كل نبيّ لا سيما أشهرهم نبأ ، وهو موسى عليه السلام . فقد خوطب بقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [14] وبه ختم تعالى نبأه في هذه السورة بقوله : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [98] ، أو تقرير لسعة علمه المبين في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ ﴾ [7] الخ لقوله بعدُ : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [98] ، أو لهما معاً . أو لحمله ، صلوات الله عليه ، على التأسي بموسى في الصبر والثبات . لكونه ابتلي بأعظم من هذا فصبر ، وكانت العاقبة له . وقد أشير في طليعة نبأ موسى عليه السلام ،

إلى كيفية ابتداء الوحي إليه، وتكليمه تعالى إياه . وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وصار بأهله قاصداً بلاد مصر، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته . فأضلّ الطريق . وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء . وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، كما قصه تعالى بقوله : ﴿ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي : أبصرتها إبصاراً بيّناً لا شبهة فيه : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي : بشعلة مقتبسة تصطلون بها : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾ أي : هادياً يدلني على الطريق .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ أي : النار : ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ﴾ أي فيجب فيه رعاية الأدب، بتعظيمه واحترامه لتجلي الحق فيه، كما يراعى أدب القيام عند الملوك وطُوىً : اسم للوادي .

(245/494)

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ أي : اصطفيتك للنبوة : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ أي : للذي يوحي . أو للوحي . ثم بينه بقوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ أي : خصني بالعبادة : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ أي : لتذكرني فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك، بأن

تجعل حركاتها دالة على ما في القلب واللسان . قال أبو السعود : خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى : ﴿ لِذِكْرِي ﴾ أي : لتذكرني . فإن ذكري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرني فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري . أو لإخلاص ذكري وابتغاء وجهي . لا ترائي بها ، ولا تقصد بها غرضاً آخر . أو لتكون ذاكراً لي غير ناس . انتهى . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 126 . 127 ﴾

(246/494)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾

أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أنزل عليه بذكر قصة موسى عليه السلام ليتأسّى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب ، وتسليةً له بأن الذين كذبوه سيكون جزاؤهم جزاء مَن سلَفهم من المكذبين ، ولذلك جاء في عقب قصة موسى قوله تعالى : ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه

فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه ﴾ [طه : 99 101] .

وجاء بعد ذكر قصة آدم وأنه لم يكن له عزم ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ [طه : 130]

الآيات .

فجملة ﴿ وهل أتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ عطف على جملة ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن

لتشقى ﴾ [طه : 2] .

الغرض هو مناسبة العطف كما تقدم قريباً .

وهذه القصة تقدّم بعضها في سورة الأعراف وسورة يونس .

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازاً وليس مستعملاً في حقيقته سواء كانت

هذه القصة قد قُصت على النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أم كان هذا أولَ قصصها

عليه .

وفي قوله : ﴿ إذ رأى ناراً زيادة في التشويق كما يأتي قريباً .

وأوثر حرف (هل) في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق لأن (هل) في الاستفهام مثل (

قَد) في الإخبار .

والحديث : الخبر ، وهو اسم للكلام الذي يحكى به أمر حدث في الخارج ، ويجمع على

أحاديث على غير قياس .

قال الفراء : واحِد الأحاديث أُحْدُوثة ثم جعلوه جمعاً للحديث أ هـ .

يعني استغنوا به عن صيغة فُعلاء .

وإذْ ﴿ ظرف للحديث .

وقد تقدّم نظائره ، وخص هذا الظرف بالذكر لأنه يزيد تشويقاً إلى استعلام كنه الخبر ، لأن رؤية النار تحتمل أحوالاً كثيرة .

ورؤية النار تدلّ على أن ذلك كان بليل ، وأنه كان بحاجة إلى النار ؛ ولذلك فرع عليه : ﴿ فَقَالَ لأَهْله امْكُثُوا ﴾ . . .

الخ .

والأهل : الزوج والأولاد .

وكانوا معه بقرينة الجمع في قوله ﴿ امكثوا .

(247/494)

وفي سفر الخروج من التّوراة فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر .

وقرأ الجمهور بكسر هاء ضمير أهلِه على الأصل .

وقرأه حمزة وخلف : بضم الهاء ، تبعاً لضمة همزة الوصل في امكثوا .

والإيناس: الإبصار البيّن الذي لا شبهة فيه.

وتأكيد الخبر بإن لقصد الاهتمام به بشارة لأهله إذ كانوا في الظلمة.

والقبَس: ما يؤخذ اشتعاله من اشتعال شيء ويقبس، كالجَمرة من مجموع الجمر والفتيلة ونحو ذلك.

وهذا يقتضي أنه كان في ظلمة ولم يجد ما يقتدح به.

وقيل: اقتدح زَنده فَصَلَد، أي لم يقدح.

ومعنى أو أجدُ على النار هدى ﴾: أو ألقَى عارفاً بالطريق قاصداً السير فيما أسير فيه فيهديني إلى السبيل.

قيل: كان موسى قد خفي عليه الطريق من شدّة الظلمة وكان يحب أن يسير ليلاً.

و﴿ أوْ ﴾ هنا للتخيير، لأنّ إتيانه بقبس أمر محقق، فهو إما أن يأخذ القبس لا غير، وإما أن يزيد فيجد صاحب النار قاصداً الطريق مثله فيصحبه.

وحرف ﴿ على ﴾ في قوله: ﴿ أو أجِدُ على النّارِ هُدىً ﴾ مستعمل في الاستعلاء المجازي، أي شدّة القرب من النار قرباً أشبه الاستعلاء، وذلك أنّ مُشعِل النار يستدني منها للاستنارة بضوئها أو للاصطلاء بها.

قال الأعشى:

وباتَ على النار النّدى والمحلّقُ...

وأراد بالهدى صاحب الهدى .

وقد أجرى الله على لسان موسى معنى هذه الكلمة إلهاماً إياه أنه سيجد عند تلك النار هُدى عظيماً ، ويبلّغ قومه منه ما فيه نفعهم .

وإظهار النّار لموسى رمْز رباني لطيف ؛ إذ جعل اجتلابه لتلقي الوحي باستدعاء بنور في ظلمة رمزاً على أنه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) ﴾

بني فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق إلى استطلاع القصة ، فإبهام المنادي يشوّق سامع الآية إلى معرفته فإذا فاجأه ﴿ إِنِّي أنا ربُّكَ ﴾ علم أنّ المنادي هو الله تعالى فتمكن في النفس كمال التمكن .

(248/494)

ولأنه أدخل في تصوير تلك الحالة بأنّ موسى ناداه مناد غير معلوم له ، فحكي نداؤه بالفعل المبني للمجهول .

وجملة ﴿ إِنِّي أنا ربُّكَ ﴾ بيان لجملة ﴿ نُودِيَ ﴾ .

وبهذا النداء علم موسى أنّ الكلام موجّه إليه من قِبَل الله تعالى لأنه كلام غير معتاد والله تعالى لا يغيّر العوائد التي قررها في الأكوان إلاّ لإرادة الإعلام بأنّ له عناية خاصة بالمغيّر ، فالله تعالى خلق أصواتاً خَلقاً غير معتاد غير صادرة عن شخص مشاهد ، ولا موجهة له بواسطة ملَك يتولى هو تبليغ الكلام لأنّ قوله ﴿ إِنِّي أنا ربُّكَ ﴾ ظاهر في أنه لم يبلّغ إليه ذلك بواسطة الملائكة ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ [النساء : 164] ، إذ علم موسى أن تلك الأصوات دالة على مراد الله تعالى .

والمرادُ التي تدلّ عليه تلك الأصوات الخارقة للعادة هو ما نسميه بالكلام النفسي .

وليس الكلام النفسي هو الذي سمعه موسى لأن الكلام النفسي صفة قائمة بذات الله تعالى منزّه عن الحروف والأصوات والتعلّق بالأسماع .

والإخبار عن ضمير المتكلم بأنه ربّ المخاطب لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطِبه فإن شأن الرب الرفق بالمربوب .

وتأكيد الخبر بحرف (إنّ) لتحقيقه لأجل غرابته دفعاً لتطرق الشك عن موسى في مصدر هذا الكلام .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير "أني" بفتح الهمزة على حذف باء الجر .

والتقدير : نودي بأني أنا ربّك .

والتأكيد حاصل على كلتا القراءتين .

وتفريع الأمر بخلع النعلين على الإعلام بأنه ربّه إشارة إلى أن ذلك المكان قد حلّه التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيه.

والخلع: فصل شيء عن شيء كان متّصلاً به.

والنعلان: جلدان غليظان يجعلان تحت الرجل ويشدّان برباط من جلد لوقاية الرِّجل ألم المشي على التّراب والحصى، وكانت النعل تجعل على مثال الرجل.

وإنما أمره الله بخلع نعليه تعظيماً منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي.

(249/494)

وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت نعلاه من جلد حمارٍ ميّت" أقول: وفيه أيضاً زيادة خشوع.

وقد اقتضى كلا المعنيين قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ فحرف التوكيد مفيد هنا التعليل كما هو شأنه في كل مقام لا يقتضي التأكيد.

وهذه خصوصية من جهات فلا يؤخذ منها حكمٌ يقتضي نزع النعل عند الصلاة.

والواد: المَفْرَج بين الجبال والتلالِ.

وأصله بياء في آخره.

وكثر تخفيفه بحذف الياء كما في هذه الآية فإذا ثُني لزمته الياء يقال : وادِيان ولا يقال وادَان .

وكذلك إذا أضيف يقال : بوادِيك ولا يقال بوادِك .

والمقدّس : المطهر المنزّه .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ونُقدس لك ﴾ في أول البقرة (30) .

وتقديس الأمكنة يكون بما يحلّ فيها من الأمور المعظمة وهو هنا حلول الكلام الموجه من قِبَل الله تعالى .

واختلف المفسرون في معنى طُوَىً ﴾ وهو بضم الطاء وبكسرها ، ولم يقرأ في المشهور إلاّ بضم الطاء ، فقيل : اسم لذلك المكان ، وقيل : هو اسم مصدر مثل هُدى ، وصف بالمصدر بمعنى اسم المفعول ، أي طواه موسى بالسير في تلك الليلة ، كأنه قيل له : إنك بالواد المقدّس الذي طويتَه سَيراً ، فيكون المعنى تعيين أنه هو ذلك الواد .

وأحسن منه على هذا الوجه أن يقال هو أمر لموسى بأن يطوي الوادي ويصعَدَ إلى أعلاه لتلقي الوحي .

وقد قيل : إنّ موسى صَعِدَ أعلى الوادي .

وقيل : هو بمعنى المقدس تقديسين ، لأن الطي هو جعل الثوب على شقين ، ويجيء على هذا الوجه أن تجعل التثنية كناية عن التكرير والتضعيف مثل : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين

﴾ [الملك: 4].

فالمعنى: المقدّس تقديساً شديداً.

فاسم المصدر مفعول مطلق مبيّن للعدد، أي المقدّس تقديساً مضاعفاً.

والظاهر عندي: أنّ ﴿ طُوىً ﴾ اسم لصنف من الأودية يكون ضيقاً بمنزلة الثوب المطوي أو غائراً كالبئر المطوية، والبئر تسمى طَوِيّاً.

(250/494)

وسمي وادٍ بظاهر مكة (ذا طوى) بتثليث الطاء، وهو مكان يسن للحاج أو المعتمر القادم إلى مكة أن يغتسل عنده.

وقد اختلف في (طوى) هل ينصرف أو يمنع من الصرف بناء على أنه اسم أعجمي أو لأنه معدول عن طاو، مثل عُمر عن عامر.

وقرأ الجمهور ﴿ طوى بلا تنوين على منعه من الصرف.

وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف منوّناً، لأنه اسم واد مذكّر.

وقوله وأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ أخبر عن اختيار الله تعالى موسى بطريق المسند الفعلي المفيد تقوية الحكم، لأنّ المقام ليس مقام إفادة التخصيص، أي الحصر نحو: أنا سعيت في حاجتك،

وهو يعطي الجزيل .

وموجِب التقوّي هو غرابة الخبر ومفاجأته به دفعاً لتطرّق الشك في نفسه .

والاختيار : تكلف طلب ما هو خير .

واستعملت صيغة التكلف في معنى إجادة طلب الخير .

وفُرع على الإخبار باختياره أن أُمِر بالاستماع للوحي لأنه أثر الاختيار إذ لا معنى للاختيار إلاّ اختياره لتلقي ما سيوحي الله .

والمراد : ما يوحى إليه حينئذ من الكلام ، وأما ما يوحى إليه في مستقبل الأيام فكونه مأموراً باستماعه معلوم بالأحْرى .

وقرأ حمزة وحده ﴿ وأنّا اخترناك بضميري التعظيم .

واللام في لِمَا يُوحَى ﴾ للتقوية في تعدية فعل "استمع" إلى مفعوله ، فيجوز أن تتعلق باخْتَرْتُكَ ، أي اخترتك للوحي فاستمع ، معترضاً بين الفعل والمتّعلق به .

ويجوز أن يضمّن استمع معنى أصْغِ .

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) ﴾

هذا ما يوحى المأمور باستماعه ، فالجملة بدل من ﴿ ما يوحى ﴾ [طه : 13] بدلاً مطلقاً .

ووقع الإخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلَم الدالّ على الذات الواجب الوجود المستحق

لجميع المحامد .

وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية ، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله عَلَماً عليه لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيُخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربّهم .

(251/494)

وفي هذا إشارة إلى أنّ أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم ، فأشار الله إلى أنه عالم باسم كليمه وعلّم كليمه اسمه ، وهو الله .

وهذا الاسم هو علم الربّ في اللغة العربية .

واسمه تعالى في اللغة العبرانية (يَهْوَهْ) أو (أَهْيَهْ) المذكور في الإصحاح الثالث من سفر الخروج في التوراة ، وفي الإصحاح السادس .

وقد ذكر اسم الله في مواضع من التوراة مثل الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج في الفقرة الثامنة عشرة ، والإصحاح الثاني والثلاثين في الفقرة السادسة عشرة .

ولعله من تعبير المترجمين وأكثر تعبير التوراة إنما هو الرب أو الإله .

ولفظ (أهْيَهْ) أو (يَهْوَهْ) قريب الحروف من كلمة إله في العربية .

ويقال : إن اسم الجلالة في العبرانية "لاَهُمْ" .

ولعل الميم في آخره هي أصل التنوين في إله .

وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لدفع الشك عن موسى ؛ نزل منزلة الشاكّ لأن غرابة الخبر تعرّض السامع للشك فيه .

وتوسيط ضمير الفصل بقوله ﴿ إنَّني أنا الله ﴾ لزيادة تقوية الخبر ، وليس بمفيد للقصر ، إذ لا مقتضى له هنا لأن المقصود الإخبار بأنّ المتكلّم هو المسمى الله ، فالحمل حمل مواطاة لا حملُ اشتقاق .

وهو كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ [المائدة : 72] .

وجملة ﴿ لا إله إلاَّ أنا ﴾ خبر ثان عن اسم (إنّ) .

والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى .

ثمّ فرع على ذلك الأمر بعبادته .

والعبادة تجمع معنى العمل الدالّ على التعظيم من قول وفعل وإخلاصٍ بالقلب .

ووجه التفريع أن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يُعبد .

وخصّ من العبادات بالذكر إقامة الصلاة لأنّ الصلاة تجمع أحوال العبادة .

وإقامة الصلاة : إدامتها ، أي عدم الغفلة عنها .

والذكر يجوز أن يكون بمعنى التذكر بالعقل ، ويجوز أن يكون الذكر باللّسان .

واللاّم في ﴿ لِذِكْرِي ﴾ للتّعليل ، أي أقم الصلاة لأجل أن تذْكُرني ، لأنّ الصلاة تذكّر العبد بخالقه .

إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته .

ففي هذا الكلام إيماء إلى حكمة مشروعية الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة لأنّ المكلّف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه والله عرّف موسى حكمَةَ الصلاة مُجملةً وعرّفها محمداً صلى الله عليه وسلم مفصّلة .

ويجوز أن يكون اللام أيضاً للتوقيت ، أي أقم الصلاة عند الوقت الذي جعلتُه لذِكري .

ويجوز أن يكون الذكر الذكرَ اللساني لأن ذكر اللسان يحرّك ذكر القلب ويشتمل على الثناء على الله والاعترافِ بما له من الحق ، أي الذي عيّنته لك .

ففي الكلام إيماء إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة ، وفي الكلام حذف يعلم من السياق .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُراد هنا طب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه عز وجل فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتي كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس ؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أي الخبر عنه سواء أكان بالوحي ، أو بغير الوحي ، كأن حكيت له قصة موسى عليه السلام . . فهل بلغتْك هذه القصة ؟ اسمعها الآن مني : ﴿ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ ﴾

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب . . الخ ، وإنما قصد إلى مَناط الأمر ، وهي الرسالة مباشرة .

وقوله : ﴿ إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ [طه : 10] آنست : أي أبصرت ، وشعرت بشيء يستأنس به ويُفرح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (

توجست) للشر الذي يخاف منه كما في قوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ [طه : 67] .

(لَعَلَّى) رجاء أنْ أجدَ فيها القبس ، وهو شعلة النار التي تُتَّخذ من النار إنْ إدركت النار وهي ذات لَهَب ، فتأخذ منها عوداً مشتعلاً مثل الشمعة .

وفي سياق آخر قال : (جذوة) وهي النار حينما ينطفىء لهبها ويبقى منها جمرات يمكن أن تشعل منها النار . وفي موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [النمل : 7] .

(254/494)

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبعض أن يقول ، فموسى عليه السلام حينما قال ﴿ لعلي آتِيكُمْ ﴾ [طه : 10] يرجو أن يجد القبس ، لكن لا يدري حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جذوة ؟

وقد طلب موسى عليه السلام القَبَس لأهله ؛ لأنهم كانوا في ليلة مطيرة شديدة البرد ، وهم غرباء لا يعلمون شيئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه ؟

إنهم في أمسِّ الحاجة للنار ، إما للتدفئة في هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الطريق ، لذلك قال : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ [طه : 10] أي : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفي موضع آخر قال : ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : 29] .

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : ﴿ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً ﴾ [طه : 10] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثَار تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : ﴿ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ ﴾ [طه : 10] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : 29] .

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) ومرة (بجَذْوَة) ومرة يقول : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ [طه : 10] ومرة يقول : ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : 29] .

والمتأمل في الموقف الذي يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه في هذا المكان المنقطع وقد أكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلُّ منهم يستقبل

الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : ﴿ سَآتِيكُمْ ﴾ [النمل : 7] فلما رآهم مُتعلّقين به يقولون : لا تتركنا في هذا المكان قال : ﴿ امكثوا ﴾ [طه : 10] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك في قوله : قَبَسٍ أو جَذْوةٍ لأنه حين قال : ﴿ لعلي آتِيكُمْ ﴾ [طه : 10] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفي مرة أخرى يجزم فيقول : ﴿ سَآتِيكُمْ ﴾ [النمل : 7] .

إذن : هي لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ للمراجعة ، ولا ينتهي بكلمة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ ﴾

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ في شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر في النور فتبهته ، ولا النور يُطغي على خضرة الشجرة فيمنع عنها الخضرة ، فهي إذن مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .

فكانت هذه النار هي أول الإيناس لموسى في هذا المكان الموحِش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذي رآه إعداد إلهي لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعي .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ يا موسى ﴾ [طه : 11] أي : في هذه الدهشة ﴿ نُودِيَ ﴾ [طه : 11] فالذي يناديه يعرفه تماماً ؛ لذلك ناداه باسمه ﴿ يا موسى ﴾ [طه : 11] وما دام الأمر كذلك فطمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنَسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو ؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التي ينبعث منها النور .

﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾

(256/494)

فساعة أنْ كلَّمه ربه : ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] أزال ما في نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى؟

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] أن الحق تبارك وتعالى حينما يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمير المفرد ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] وحينما يتحدث عن فِعْله يتحدث بصيغة الجمع ، كما في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ

عَلَيْهَا ﴾ [مريم : 40] .

فلماذا تكلَّم عن الفعل بصيغة الجمع ، في حين يدعونا إلى توحيده وعدم الإشراك به ؟ قالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فيه من التوحيد ، كما في : ﴿ إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] .

لكن في الفعل يتكلم بصيغة الجمع ؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .

إذن : كل صفات الحق تتكاتف في الفعل ؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون في النون في قوله : ﴿ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] ﴿ نَرِثُ الأرض ﴾ [مريم : 40] أنها : نون التعظيم .

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] لإيناس موسى ؛ لأن الربوبية عطاء ، فخطابه (بربك) أي الذي يتولى رعايتك وتربيتك ، وقد خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدم ، ولم يقُلْ : إني أنا الله ؛ لأن الألوهية مطلوبها تكليف وعبادة وتقييد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تعالى : ﴿ إني أَنَا رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] أي : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق ؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْق جميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] وقال : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ [طه : 41] .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّي الرسل تربيةً تناسب المهمة التي سيقومون بها .

وقوله تعالى : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12] هذا أول أمر ، وخَلْع النعل للتواضع وإظهار المهابة ؛ ولأن المكان مُقدَّس والعلة ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ﴾ [طه : 12] فاخلع نعليك حتى لا تفصل بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك ما نراه في مدينة رسول الله من أناس يمشون بها حافيي الأقدام ، يقول أحدهم : لَعلِّي أصادف بقدمي موضع قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ طُوًى ﴾ [طه : 12] اسم الوادي وهذا كلام عام جاء تحديده في موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة ﴾ [القصص : 30] .

والبعض يرى في الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادي المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ : أين طوى ؟ يقول لك : في الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان ؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : أسكن في حي كذا ، وفي شارع كذا ، في رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَا اخترتك فاستمع ﴾

أي : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ [طه : 13] أي : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

(258/494)

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثُل عليا ، ولم يجدوا فيه مَأْخذاً في أسلوبه ، وهم أمة أَلِفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

فكلُّ اعتراضهم أنْ ينزلَ القرآن على محمد بالذات ؛ لذلك رَدَّ عليهم القرآن بما يكشف غباءهم في هذه المسألة ، فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] كيف ونحن قد قسمنا بينهم معيشتهم الأدنى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [

الزخرف : 32] .

وهم يريدون أنْ يقسموا رحمة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فاستمع لِمَا يوحى ﴾ [طه : 13] مادة : سمع . منها : سمع ، واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أي مصادفة وأنت تسير في الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك وما لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفْنِ للعين ، مثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .

إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .

إنما : استمع أنْ تتكلَّف السماع ، والمتكلم حُر في أنْ يتكلم أو لا يتكلم .

وتسمَّع . أي : تكلّف أشدّ تكلّفاً لكي يسمع .

لذلك ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم حين يخبر أنه ستُعم بلوى الغِنَاء ، وستنتشر الأجهزة التي ستشيع هذه البلوى ، وتصبها في كل الآذان رَغْماً عنها يقول : " مَنْ تسمَّع إلى قَيْنة صب الآنك في أذنيه " .

أي : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التلفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .

وهنا قال تعالى : (فَاسْتَمِعْ) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أي : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسّك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .

فعليك أنْ تُجنِّد كل الحواسّ لكي تسمع ، وتستحضر قلبك لتعي ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك ؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغِلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَا يوحى ﴾ [طه : 13] الوحي عموماً : إعلام بخفاء من أيٍّ لأيٍّ في أيٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحي الشرعي فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحي من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحي الشرعي .

وهكذا تحدَّدَتْ من أيٍّ لأيٍّ في أيٍّ .

لكن ، كيف ينزل الوحي من الله تعالى على الرسول ؟ كيف تلتقي الألوهية في عُلُوِّها بالبشرية في دُنُوها ؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [الحج : 75] .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطي للمصطفى من البشر ؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقي بالأدنى مباشرة ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : 51] .

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تؤهّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق سبحانه للجبل جعله دكّاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحِسّه بأيّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأيِ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق تبارك وتعالى ومن خَلْقه وصَنْعته مَا لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً ؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هي ، ولا نُحِسّها بأيّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطع أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها ؟

الحق الذي يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعاني : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً ؟ فكيف إذن تطمع في أنْ تدرك الخالق عز وجل ؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقي بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى

من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطي للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطي للخَلْق ، ومع ذلك كان صلى الله عليه وسلم يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً في أول الوحي ؟

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحي عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلك له ، وبانقطاع الوحي تبقى لرسول الله حلاوة ما أُوحي إليه ويتشوّق إلى الوحي من جديد ، فيهون عليه ما يلاقي في سبيله من مشقة ؛ لأن انشغال القلب بالشيء يُنسي متاعبه ؟ .

وقد رُوي أنه صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي يُسمَع حوله دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل ، ولو صادف أن رسول الله وضع رجله على أحد أصحابه حين نزول الوحي عليه فكان الصحابي يشعر كأنها جبل ، وإن نزل الوحي وهو على دابة كانت تنخ وتئن من ثِقَله .

وقد مثّلنا للواسطة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالتيار الكهربائي حين نُوصِّله بمصباح صغير لا يتحمل قوة التيار ، فيضعون له جهازاً ينظم التيار ، ويعطي للمصباح على قَدْر حاجته وإلاّ يحترق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إنني أَنَا الله ﴾

في الآية قبل السابقة خاطبه ربه : ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] ليُطمئنه ويُؤنسه بأنه المربِّي العطوف ، يعطي حتى للكافر الذي يعصاه ، لكن هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [طه : 14] أي : صاحب التكاليف ، والمعبود المطاع في الأمر والنهي ، وأوّل هذه التكاليف وقمّتها ، والينبوع الذي يصدر عنه كل السلوك الإيماني : ﴿ إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ ﴾ [طه : 14] .

لذلك قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : " خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله " .

وما دام لا إله إلا هو فلا يصح أنْ نتلقَّى الأمر والنهي إلاَّ منه ، ولا نعتمد إلا عليه ، ولا يشغل قلوبنا غيره ، وهو سبحانه يريد منا أنْ نكون وكلاء : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : 58] .

فالناصح الفطن الذي لا يتوكل على أحد غير الله ، فربما توكّلت على أحد غيره ، فأصبحت فلم تجده ، وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بربّكَ كُلَّ عِزِّكَ . . . يسْتقِرُّ ويَثبتُ

فَإذَا اعْتَزَزْتَ بمَنْ يموتُ . . . فإنَّ عِزَّكَ ميّتُ

فكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿ لا إله إلا أَنَاْ ﴾ [طه : 14] يقول لموسى : لا تخفْ ، فلن تتلقى أوامر من غيري ، كما قال سبحانه في أية أخرى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

أي : لذهبَ هؤلاء الذي يدّعُون الألوهية إلى الله يجادلونه أو يتودّدون إليه ، ولم يحدث شيء من هذا .

ويشترط فيمن يُعطي الأوامر ويُشرِّع ويُقنِّن ألاَّ ينتفع بشيء من ذلك ، وأن تكون أوامره ونواهيه لمصلحة المأمورين ، ومن هنا يختلف قانون الله عن قانون البشر الذي يدخله الهوى وتخالطه المصالح والأغراض ، فمثلاً إنْ كان المشرِّع والمقنِّن من العمال انحاز لهم ورفعهم فوق الرأسماليين ، وإن كان من هؤلاء رفعهم فوق العمال .

(262/494)

وكذلك ألاَّ يغيب عنه شيء يمكن أنْ يُستدرك فيما بعد ، وهذه الشروط لا توجد إلا في التشريع الإلهي ، فله سبحانه صفات الكمال قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال بعدها : ﴿ فاعبدني ﴾ [طه : 14] بطاعة أوامري واجتناب نواهيَّ ، فليس لي هَوَى فيما آمرك به ، إنما هي مصلحتك وسلامتك .

ومعنى العبادة : الناس يظنون أنها الصلاة والزكاة والصوم والحج ، إنما للعبادة معنى أوسع من ذلك بكثير ، فكلُّ حركة في الحياة تؤدي إلى العبادة ، فهي عبادة كما نقول في القاعدة :

كُلُّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب .

فالصلاة مثلاً لا تتم إلا بستْر العورة، وعليك أنْ تتأمل قطعة القماش هذه التي تستر بها عورتك: كم يد ساهمتْ فيها منذ كانتْ بذرة في الأرض، إلى أنْ أصبحتْ قماشاً رقيقاً يستر عورتك؟ فكلُّ واحد من هؤلاء كان في عبادة وهو يُؤدِّي مهمته في هذه المسألة .

كذلك رغيف العيش الذي تأكله، صنبور المياه الذي تتوضأ منه، كم وراءها من أيادٍ وعمال ومصانع وعلماء وإمكانات جُنّدَتْ لخدمتك، لتتمكن من أداء حركتك في الحياة؟

لذلك، فالحق تبارك وتعالى حينما يُحدِّثنا عن الصلاة يوم الجمعة يقول: ﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة: 910] .

وهكذا أخرجنا إلى الصلاة من عمل، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسعي والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، فمخالفة الأمر في: ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: 9] كمخالفة الأمر في: ﴿ فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة: 10] .

وخَصَّ البيع هنا ؛ لأن البائع أحرص على بيْعه من المشتري على شرائه ، وربما كان من مصلحة المشتري ألاَّ يشتري ؟

فالإسلام إذن لا يعرف التكاسل ، ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرِّك .

وسيدنا عمر رضي الله عنه حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه . لماذا ؟ لأنه يسهم في حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكلُّ عمل نافع عبادة شريطة أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفي نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل ، نعم لِيقوتَ نفسه ، وأيضاً لُيُيسِّر لإخوانه قُوتَهم وحركة حياتهم . فسائق التاكسي مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته ، وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذي يحتاج مَنْ يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ، ثم أغلق دكانه مَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك ، وفي بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت في عبادة . تعمل على قَدْر طاقتك ، لا على قَدْر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقي يُرَدُّ على الناس إما في صورة صدقة ، وإما بثمن ، وحَسْبك أنْ يسرت له

السبيل .

إذن : نقول : العبادة كل حركة تؤدي خدمة في الكون نيتك فيها لله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] فلماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات ؟

قالوا : لأن الصلاة هي العبادة الدائمة التي لا تنحلّ عن المؤمن ، ما دام فيه نَفَس ، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير ، والصيام يسقط عن المريض ، والحج يسقط عن غير المستطيع ، أمّا الصلاة فلا عذر أبداً يبيح تركها ، فتصلي قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، فإنْ لم تستطيع تصلي ، ولو إيماءً برأسك أو بجفونك ، فإنْ لم تستطع فحَسْبُك أن تخطرها على قلبك ، ما دام لك وَعْي ، فهي لا تسقط عنك بحال .

كذلك ، فالصلاة عبادة مُتكرِّرة : خمس مرات في اليوم والليلة ؛ لتذكرك باستمرار إنْ أنستْك مشاغل الحياة رب هذه الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم .

وما بالك بآلة تُعرَض على صانعها هكذا ، أيمكن أن يحدث بها عُطْل أو عَطَب ؟

أما الزكاة فهي كل عام ، أو كل محصول ، والصوم شهر في العام ، والحج مرة واحدة في العمر .

لذلك ، كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما حَزَبه أمر قام إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه وخالقه عز وجل ، ونحن نصنع هذا في الصنعة المادية حين نعرض الآلة على صانعها ومهندسها الذي يعرف قانون صيانتها .

وفي الحديث الشريف : " وجعلت قرة عيني في الصلاة " .

وسبق أن ذكرنا أن للصلاة أهميتها ؛ لأنها تُذكِّرك بربك كل يوم خمس مرات ، وتُذكِّرك أيضاً بنفسك ، وبقَدر الله في الآخرين حين ترى الرئيس ومرؤوسه جَنْباً إلى جَنْب في صفوف الصلاة ، فإنْ جئتَ قبل رئيسك جلستَ في الصف الأول ، وجلس هو خلفك ، ثم تراه وهو منُكسِر ذليل لله تعالى ، وهو يعرف أنك تراه على هذه الهيئة فيكون ذلك أدْعى لتواضعه معك وعدم تعاليه عليك بعد ذلك .

وكم رأينا من أصحاب مناصب وقيادة يبكون عند الحرم ، ويتعلقون بأستار الكعبة وعند الملتزم ، وهو العظيم الذي يعمل له الناس ألف حساب . ففي الصلاة إذن استطراق للعبودية لله تعالى .

لذلك من أخطر ما مُنِي به المسلمون أنْ تجعلَ في المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلَى لها المكَان ، ويصاحبها الحرس حتى في بيت الله ، ثم يأتي في آخر الوقت ويجلس في الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره ، فيجد المكان خالياً .

وينبغي على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أنْ تُنحِّي سجادته جانباً ، وتجلس أنت ؛ لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفها الله في المسجد إقبالاً عليه .

وهذه العادة السيئة تُوقع صاحبها في كثير من المحظورات ، حيث يتخطى رقاب الناس ، ويُميِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدث انتقاص عبودي في بيت الله .

ولأهمية الصلاة ومكانتها بين العبادات تميّزت في فرضها بما يناسب أهميتها ، فكُلُّ العبادات فُرِضَتْ بالوحي إلا الصلاة ، فقد استدعى الحق رسوله الصدق ليبلغه بها مباشرة لأهميتها .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى بالرئيس إذا أراد أنْ يُبلِّغ مرؤوسه أمراً يكتب إليه ، فإنْ كان الأمر مهماً اتصل به تليفونياً ، فإنْ كان أهمّ استدعاه إليه لِيُبلِّغه بنفسه . ولما قرَّبه الله إليه بفرض الصلاة جعل الصلاة تقرُّباً لعباده إلى الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] أقام الشيء : جعله قائماً على أُسس محكمة ، فإقامة الصلاة أن تؤديها مُحكَمة كاملة الأركان غير ناقصة .

﴿ لذكري ﴾ [طه : 14] أي : لتذكري ؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعم ،

فحين تسمع نداء (الله أكبر) ، وترى الناس تُهرَع إلى بيوت الله لا يشغلهم عنها شاغل تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(266/494)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى) (طه : 9-18) ، وفي سورة النمل : (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا سَآَتِيكُمْ مِنْهَا

بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) (النمل : 7–8) إلى قوله : (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (النمل : 10) .

(267/494)

وفي سورة القصص : (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) (القصص : 29–31) ، هذه الآي من مشكلات الضرب (الثاني) الذي بنينا عليه مقصود هذا الكتاب ، لأن محصولها الإخبار عن ابتداء أمر موسى ، عليه السلام ، في رسالته ، وتكليم الله سبحانه إياه ، وهو خبر واحد عن قصة واحدة قد وقعت وعين وقوعها ما وقعت عليه من الصفة التي التحدث بوقوعها وتبينت ، فلا يمكن فيها العدول عما وقعت عليه ، فكيف هذا الواقع الوارد في السورتين (امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) ولم يقع لفظ امكثوا في سورة النمل ؟ وفي السورتين : (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا) وفي النمل : (سَآتِيكُمْ مِنْهَا) فورد : سآتيكم عوض : لعلي ؟ وفي طه (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) وفي النمل : (بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ) ، فقدم ذكر القبس في طه وآخر في السورتين ، ثم اختلف التعبير عنه ، فعبر عنه في القصص : (جَذْوَةٍ) وعوض في النمل فقيل (بِشِهَابٍ) مضافاً إلى القبس وكرر : (أَوْ آتِيكُمْ) في النمل ولم يقع ذلك في غيرها ؟ وأفصح في السورتين الأخيرتين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء ولم يقع ذلك في طه جملة ؟ وعبر عن الخبر في طه بقوله : (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ

(268/494)

هُدًى) ولم يذكر ذلك في السورتين ؟ فهذه مواضع اختلفت العبارة (فيها ، واختلفت) في الزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير والتعويض ، مع أن الإخبار عن واقعة معينة وقصة متحدة ، والخبر الواحد الصدق لا تمكن فيه الزيادة ولا النقص ولا النسخ من حيث هو خبر ولا شيء مما ذكر ، (ويرجع) السؤال فيها إلى شيئين : أحدهما وجه الاختلاف ؟ والثاني وجه تخصيص كل موضع بما خص (به) ؟

فأقول مستعيناً بالله وسائلاً منه سبحانه (توفيقه) وإرشاده أن المعاني المتصورة في الأذهان المعقولة القائمة بنفوس العقلاء لا تحصل تعديتها إلى غير من قامت به إلا بالعبارات المترجمة عنها الألفاظ الاصطلاحية ، وربما خوطب العالم بغيرها وما سوى اللفظ من إشارة وغيرها لا يستقل في تحصيل المعنى المترجم عنه استقلالها ، وبالجملة فلم يخاطب

إلا بها ، وإذا تقرر هذا ، فمن المعلوم أن اللفظ بالتفات مدلوله المعنوي يتعدد ، ومرجع الألفاظ بالنظر إلى مسمياتها ينحصر في أربعة أقسام : إما أن يتحد اللفظ والمعنى ، أو يختلف اللفظ والمعنى ، أو يتحد اللفظ ويختلف المعنى ، أو يختلف اللفظ ويتحد المعنى ، ولا يقتضي النظر العقلي زائداً على هذا التقسيم ، وعلى مقتضاه دارت اللغات ، وتخاطب العقلاء .

فالقسم الأول وهو المتحد اللفظ والمعنى هو المتواطئ ، وهو دلالة لفظ على معنى ، ثم يعرض لذلك المعنى عند التشخص كثرة فيكون ذلك اللفظ يدل على تلك الاشخاص بتواطئ ، ومثاله : وجل وفرس وأسد ، ومنه دلالة اسن النوع كالإنسان على أشخاصه ، وكذلك دلالة الجنس على أنواعه كالحيوان على الإنسان والفرس والطائر .

والقسم الثاني هو مختلف اللفظ والمعنى ، وهي الأسماء المتباينة ، وهي أسماء مختلفة لمعان مختلفة ، كل اسم منها يخص معناه الذي وضع له ، نحو السواد والبياض والقدرة والعجز .

والقسم الثالث ما اتحد فيه اللفظ واختلف المعنى ، وهي الأسماء المشتركة نحو عين للعضر الباصر وعين الماء ونحو ذلك ، فاللفظ متحد والمعنى مختلف .

والقسم الرابع هو ما تعدد لفظه واتحد معناه ، وهي المترادفة كالأسد والليث للحيوان المعروف ، ثم يعرض للمشترك ، وهو المتحد اللفظ مع اختلاف المعنى ، تفاوت في قوة دلالته على ما تحته ، وأعني بالتفاوت استقلال المعنى بنفسه غير مفتقر إلى الغير ، وعدم استقلاله ، (فينقسم) بحسب هذا إلأى متواطئ ومشكك كوقوع اسم موجود عليهما تفاوت بين ، فهو في وقوعه على الجوهر (من) قسم المتواطئ ، ووقوعه على العرض بتشكيك .

ثم من الألفاظ على الجملة مجازية ، وهي الواقعة على مسمياتها (لا) على أنها أسماء لها بل وضعت لمناسبتها لما وضعت الأسماء الحقيقية بإزائها ، ومن المعلوم في عوارض التركيب الضرب المسمى بلحن الخطاب ، وهو خذف الكلمة من الجملة مع إرادتها ، ودلالة السياق والمعنى عليها ، كالواقع في قوله تعالى : (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) (الشعراء : 63) ، ولا شك أن المراد : فضرب فانفلق ، ومما يلحق به عند الجمهور – إلا من قول بقول الكرخي – (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) (البقرة : 184) ، والتقدير : فأفطر فعدة من أيام أخر ، فهذا من لحن الخطاب ومن معروف التخاطب الجاري ، وهي دلالة المنطوق على مسكوت عنه يفهمه السياق وقصد المتكلم من عرف اللغة ، نحو فهم (منع) الضرب والشتم من قوله تعالى : (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) (الإسراء : 23) ، وهذا الضرب من المفهوم يجاري النصوص ولهذا لم يختلف فيه من أنكر

القياس ، فهذه جملة يستعان بها على تلقي ما يرد ، وليست خاصة بالذي نحن فيه من هذه السورة ولا بموضوع دون موضوع .

(270/494)

ثم من المعلون –بإعلام الله سبحانه– أنه تعالى لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فموسى ، عليه السلام ، إنما خاطب أهله في هذه المحاورة باللسان العبراني (الذي هو لسان قومه ، وجل كلام ربنا عن الحرف والصوت والتقييد بالجملة ، فالوارد في كتابنا إنما هو حكاية المعنى الذي خوطب به موسى ، عليه السلام ، وخاطب به ، واللسان العبراني) أقرب الألسنة إلى اللسان العربي ، فما المانع أن يجري فيه ويطرد كل ما في اللسان العربي من الضروب المذكورة قل أو كثر (ذلك) .

(ثم) في الجواب عما تقدم ما لا يفتقر فيه إلى بنائه على ما مهدناه . فأقول مستعيناً بالله سبحانه في قول موسى ، عليه السلام ، لأهله : (امكثوا) وسقوط ذلك في سورة النمل قد يكون مما قاله ، عليه السلام ، نطقاً باللغة التي كلمهم بها ، وقد يكون مما فهمه عنه أهله بإشارة أو قرينة أو حال ، فيكون قد أمرهم بذلك على كل حال فإما بنطق أو غيره ، فمرة حكى معنى نطقه أو مراده بما قد فهم عنه أهله الأمر ، ومرة اكتفى بما بعد (هذا) الأمر

اقتصاراً على ما يحصل المقصود ، فلا اختلاف ولا اعتراض في ذلك .

وأما قوله : ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ في السورتين وقوله في النمل : ﴿سَآتِيكُمْ﴾ فإن حرف التسويف يفهم الاستقبال ، و (ولفظ) لعل أيضاً يعطي ذلك مع زيادة الترجي والطمع ، فيمكن لتقارب معنييهما أن يكون في لسانهم عبارة موضوعة للمعنيين معاً ، فلم يكن بد من ورود الحرفين عند الحكاية ليحرز ذلك وقوع المعنى وحصوله على ما هو في لسانهم .

وأما تقديم ذكر القبس في سورة طه على الخبر وتأخيره في السورتين فعنوان بين يعرف أن القصة محكية على معناها لضرورة اختلاف اللغتين ولو ورد الأخبار على التزام التقدين في إحداهما وتأخير الآخر على اللزوم لما أحرز ما ذكرنا .

وأما القبس والجذوة والشهاب من القبس فإن ذلك مما يتصل في لغتنا بمراعاة أدنى شيء يسوغ افتراق التسمية ، وذلك كثير في لغتنا كقولهم : سيف وصارم ومهند ، وقولهم في التمر طلع وضحك وإغريض وبلح وسياب إلى تمام أحواله العشر ، له في كل حالة منها اسم والمسمى واحد ، ومتى كان للعرب تعمم بشيء من الموجودات ، وكان مما يكثر في كلامهم ، وضعوا له عدة أسماء اتساعاً ، حتى أنهم قد أنهو بعض المسميات إلى مائة اسم أو

نحوها . وإنما ما كان هذا في لغة العرب لاضطرارهم إليه في الشعر والإسجاع ، فلو لم تتسع اللغة العربية فيما ذكر لضاق عليهم الأمر واعتاص النظم والنثر ، وأقرب شيء (أن) يكون التعبير في تلك اللغة وقع بلفظ واحد لا يعبر في لغتهم عن ذلك المراد المقصود لغيره ، وقد أحرز وضع ذلك اللفظ العبراني ما عبر عنه في لغتنا بعدة أسماء ، وسواء عني في كل اسم منها معنى ما في المسمى (أو كانت مترادفة على المسمى من غير أن يراعى في شيء منها معنى ما في المسمى) .

وأما تكرار : أو آتيكم في سورة النمل فليس فيه إلا تكرار ما يحرز التأكيد ، وتأكيد ما هو خبر ليس أمراً ولا نهياً إنما ثمرته وفائدته صدق الإخبار ، وذلك حاصل هنا سواء تأكد أو لم يتأكد وإذا كان الكلام على ما قلنا والصدق حاصل على كل حال فلا ينكر إذا حكي بمعناه . أو يؤكد مرة ولا يؤكد أخرى ، إذ لا زيادة للتأكيد فيه سوى الجري على مرتكبات العرب في مثله .

وأما الإفصاح في السورتين الأخريين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء ، ولم يقع ذلك في طه ، فإن ذلك إخبار بزيادة لا يعارضها شيء مما في سورة طه ، فقوله : (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ

هُدًى) (طه : 10) ، فإفصاح بما هو معلوم من قوله في سورة النمل : (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ) (النمل : 7) ، لأن أهله لم يكن بهم من حاجة لغير الاصطلاء واستعلام طريقهم ، فورد في سورة طه مفصحاً بالمقصود مفسراً لما هو مفهوم في آيتي النمل والقصص من معنى الكلام وسياقه ، فلا اختلاف في شيء من ذلك كله ولا تعارض ولا خلاف ، والحمد لله .

والجواب عن السؤال الثاني : أن تخصيص كل سورة من هذه السور بما ورد فيها مقتضيه بين . أما أولاً فإن فواصل هذه السورة ومقاطع آيها مناسبة للوارد فيها ، أما سورة

طه فمقاطع آيها لازمة الألف المقصورة وعلى ذلك أي السور كلها ، وأما النمل والقصص فقد اكتنف الواقع في آي هذه القصة فيها ما مقطعه النون الواقع قبلها الياء والواو الساكنتان بحسب ما تقدمهما من حركتي الضمة والكسرة . فإن قلت : إن السورتين مستويتان في هذا فما الفارق ؟ قلت : الإيجاز والطول ، أما سورة النمل فأوجز في هذا المقصد ، وأما سورة القصص فإن خبر موسى ، عليه السلام ، فيها يكاد يستغرق آيها كلها ، فناسبه طول الوارد فيها مما فيه الكلام ، وذلك غير خاف . وتأمل الوارد في سورة طه من قوله تعالى مخبراً عن نبيه موسى ، عليه السلام ، من قوله : (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) ، ومناسبة ذلك لما

بنيت عليه سورة طه من تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم ، وافتتاحها بقوله تعالى : (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه : 2) ، يلح لك التلاؤم والتناسب ، وقد وضح أن كل ما في كل سورة من السور الثلاث من هذه القصة لا يلائم غيرها ، وأن كل قصة منها لا يحسن وقوعها في موضع الآخر لعدم المناسبة وبعد التلاؤم ، والله أعلم . انتهى . اهـ

﴿ ملاك التأويل صـ 331.335 ﴾

(274/494)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾

قيل المصدر مضاف إلى الفاعل أي لأذكرك بها وقيل مضاف إلى المذكور أي لتذكروني بها واللام على هذا لام التعليل وقيل : هي اللام الوقتية أي أقم الصلاة عند ذكري كقوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ وهذا المعنى المراد بالآية لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف والذكر مصدر إلا أن يقدر زمان محذوف أي عند وقت ذكري

وهذا محتمل

والأظهر أنها لام التعليل أي أقم الصلاة لأجل ذكري ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره وإذا ذكر العبد ربه فذكر الله تعالى سابق على ذكره فإنه لما ذكره ألهمه ذكره فالمعاني الثلاثة حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الوابل الصيب صـ 102 ﴾

(275/494)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أول ما أنزل عليه الوحي ، كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن مردويه وابن جرير ، عن ابن عباس قال : قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه ، فأنزل الله : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن عساكر ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا قام من

الليل يربط نفسه بحبل ؛ كي لا ينام فأنزل الله عليه ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد قال : كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يربط نفسه ، ويضع إحدى رجليه على الأخرى ، فنزلت : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي رضي الله عنه قال : لما نزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ [المزمل : 1] قام الليل كله حتى تورمت قدماه ، فجعل يرفع رجلاً ، ويضع رجلاً ، فهبط عليه جبريل ، فقال : ﴿ طه ﴾ يعني : الأرض بقدميك يا محمد ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ وأنزل ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ .

وأخرج البزار بسند حسن ، عن علي قال : كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يراوح بين قدميه ، يقوم على كل رجل ، حتى نزلت ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله ﴿ طه ﴾ يعني طأ الأرض يا محمد ، ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن مردويه، عن بان عباس في قوله: ﴿ طه ﴾ قال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ربما قرأ القرآن إذا صلى، قام على رجل واحدة، فأنزل الله ﴿ طه ﴾ برجليك ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: لما أنزل الله القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - قام به وأصحابه، فقال له كفار قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى به. فأنزل الله ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله: ﴿ طه ﴾ قال: يا رجل.

وأخرج الحارث بن أبي أسامة وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ طه ﴾ بالنبطية أي ﴿ طا ﴾ يا رَجُل.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ طه ﴾ بالنبطِيَّةِ أي ﴿ طا ﴾ يا رجل.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ طه ﴾ قال: هو كقولك يا رجل.

وأخرج ابن أبي شيبة، عن عكرمة قال: ﴿ طه ﴾ يا رجل بالنبطية.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ بالنبطية يا رجل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك قال : ﴿ طه ﴾ يا رجل بالنبطية .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ يا رجل . بالسريانية .

وأخرج الحاكم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ طه ﴾ قال : هو كقولك يا محمد بلسان الحبش .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ طه ﴾ قال : هو كقولك يا رجل : بلسان الحبشة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي صالح في قوله : ﴿ طه ﴾ قال : كلمة عربت .

وأخرج عن مجاهد ، قال : ﴿ طه ﴾ فواتح السور .

وأخرج عن محمد بن كعب ﴿ طه ﴾ قال : الطاء من ذي الطول .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي الطفيل قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن لي عشرة أسماء عند ربي قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية : محمد وأحمد وأبو القاسم والفاتح والخاتم والماحي والعاقب والحاشر ، وزعم سيف أن أبا جعفر قال : الاسمان

الباقيان ﴿ طه ﴾ ويس .

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه ، عن زر قال : قرأ رجل على ابن مسعود ﴿ طه ﴾ مفتوحة فأخذها عليه عبد الله ﴿ طه ﴾ مكسورة فقال له الرجل : إنها بمعنى ضع رجلك . فقال عبد الله : هكذا قرأها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهكذا أنزلها جبريل .

وأخرج ابن عساكر ، "عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : أول سورة تعلمتها من القرآن ﴿ طه ﴾ وكنت إذا قرأت ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا شقيت يا عائش" " .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ وكان يقوم الليل على رجليه فهي لغة لعك إن قلت لعكي يا رجل ، لم يلتفت وإذا قلت ﴿ طه ﴾ التفت إليك .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عروة بن خالد - رضي الله عنه - قال : سمعت الضحاك ، وقال رجل من بني مازن بن مالك : ما يخفى علي شيء من القرآن ، وكان قارئاً للقرآن شاعراً . فقال له الضحاك : أنت تقول ذلك ؟ أخبرني ما ﴿ طه ﴾ ؟ قال : هي من أسماء الله الحسنى . نحو : طسم ، وحم ، فقال الضحاك : إنما هي بالنبطية يا رجل .

وأخرج ابن المنذر وابن مسعود ، عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ قسم أقسمه الله ، وهو

من أسماء الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ يقول : في الصلاة هي مثل قوله : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ [المزمل : 20] قال : وكانوا يعلقون الحبال بصدروهم في الصلاة .

(278/494)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ يا رجل ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ لا والله ، ما جعله الله شقياً ، ولكن جعله الله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ قال : إن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة رحم بها العباد لِيذكُر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزله الله ، فيه حلاله وحرامه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب ﴿ وما تحت الثرى ﴾ ما تحت سبع أرضين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : ﴿ الثرى ﴾ كل شيء مبتل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي : ﴿ وما تحت الثرى ﴾ قال : هي الصخرة التي تحت

الأرض السابعة ، وهي صخرة خضراء ، وهو سجين الذي فيه كتاب الكفار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك قال : الثرى ما حفر من التراب مبتلاً .

وأخرج أبو يعلى عن جابر بن عبد الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ، ما تحت هذه الأرض ؟ قال : الماء . قيل : فما تحت الماء ؟ قال : ظلمة . قيل : فما تحت الظلمة ؟ قال : الهواء . قيل : فما تحت الهواء ؟ قال : الثرى . قيل : فما تحت الثرى ؟ قال : انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله قال : كنت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك ، إذ عارضنا رجل مترجب – يعني طويلاً – فدنا من النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخذ بخطام راحلته فقال : أنت محمد ؟ قال : نعم . قال : إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض ، إلا رجل أو رجلان ؟ فقال : سل عما شئت . قال : يا محمد ، ما تحت هذه ؟ – يعني الأرض – قال : خلق . قال : فما تحتهم ؟ قال : أرض . قال : فما تحتها ؟ قال : خلق ؟ قال : فما تحتهم ؟ قال : أرض ، حتى انتهى إلى السابعة . قال : فما تحت السابعة ؟ قال : صخرة . قال : فما تحت الصخرة ؟ قال :

الحوت . قال : فما تحت الحوت ؟ قال : الماء . قال : فما تحت الماء ؟ قال : الظلمة . قال : فما تحت الظلمة ؟ قال : الهواء . قال : فما تحت الهواء ؟ قال : الثرى . قال : فما تحت الثرى ؟ ففاضت عينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالبكاء ؟ فقال : انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق أيها السائل ، ما المسؤول بأعلم من السائل . قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله يا محمد ، أما إنك لو ادعيت تحت الثرى شيئًا ، لعلمت أنك ساحر كذاب ، أشهد أنك رسول الله ، ثم ولى الرجل . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " أيها الناس ، هل تدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا جبريل " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال : السر ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿ وأخفى ﴾ ما خفي ابن آدم مما هو فاعلة ، قبل أن يعلمه ، فإنه يعلم ذلك كله ، فعلمه فيما مضى من ذلك ، وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك ، كنفس واحدة وهو كقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان : 28] .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال : السر ما علمته أنت ، وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي بلفظ : يعلم ما تسر في نفسك ، ويعلم ما تعمل غداً .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن قتادة في قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال : أخفى من السر ما حدثت به نفسك ، وما لم تحدث به نفسك أيضاً مما هو كائن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال : الوسوسة ، والسر العمل الذي تسرون من الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن الحسن قال : السر ما أسر الرجل إلى غيره ، وأخفى من ذلك ما أسر في نفسه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير في الآية . قال : السر ما تسر في نفسك ، وأخفى من السر ، ما لم يكن بعد وهو كائن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن عكرمة في الآية . قال : السر ما حدث به الرجل أهله ، وأخفى ما تكلمت به في نفسك .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك في قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال : السر ما أسررت في نفسك ﴿ وأخفى ﴾ ما لم تحدث به نفسك .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ قال :

يعلم أسرار العباد ﴿ وأخفى ﴾ سره فلا نعلمه والله أعلم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ إني آنست ناراً ﴾ أي أحسست ناراً . ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ قال : من يهديني .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ قال : من يهديني إلى الطريق ، وكانوا شاتين فضلوا الطريق .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ يقول : من يدل على الطريق .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ قال : يهديه الطريق .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة في قوله : ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ قال : هادٍ يهديني إلى الماء .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن وهب بن منبه قال : لما رأى موسى النار ، انطلق يسير ، حتى وقف منها قريباً ، فإذا هو بنار عظيمة : تفور

من ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة ، يقال لها العليق ، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرماً ، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق ، إلا خضرة وحسناً ! فوقف ينظر لا يدري ما يصنع ، إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق ، وأوقد إليها موقد ، فنالها فاحترقت ، وإنه إنما يمنع النار ، شدة خضرتها ، وكثرة مائها ، وكثافة ورقها ، وعظم جذعها ، فوضع أمرها على هذا ، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه ، فلما طال عليه ذلك ، أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها ، فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريده ، فاستأخر عنها وهاب ، ثم عاد فطاف بها ، ولم تزل تطمعه ويطمع بها ، ثم لم يكن شيء بأوشك من خمودها ، فاشتد عند ذلك عجبه وفكر موسى في أمرها ، فقال : هي نار ممتنعة لا يقتبس منها ، ولكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ، ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين . فلما رأى ذلك موسى قال : إن لهذه شأناً . ثم وضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة ، لا يدري من أمرها ولا بما أمرت ولا من صنعها ولا لم صنعت ، فوقف متحيراً لا يدري أيرجع أم يقيم ؟ فبينا هو على ذلك ، إذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا هو أشد مما كان خضرة ساطعة في السماء ، ينظر إليها يغشى الظلام ، ثم لم تزل الخضرة تنوّر وتصفر وتبيض حتى صارت نوراً ساطعاً عموداً بين السماء والأرض ، عليه مثل شعاع الشمس ، تكل دونه الأبصار ، كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره ، فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه ، فرد يده على عينيه ، ولصق بالأرض وسمع الحنين والوجس . إلا أنه

سمع حينئذ شيئا لم يسمع السامعون بمثله عظماً ! فلما بلغ موسى الكرب واشتد عليه الهول نودي من الشجرة ، فقيل : يا موسى ، فأجاب سريعاً ، وما يدري من دعاه ؟ وما كان

سرعة إجابته إلا استئناساً بالإنس ، فقال لبيك مراراً إني لأسمع صوتك ، وأحس حسك ، ولا أرى مكانك ، فأين أنت ؟ قال : أنا فوقك ومعك وخلفك وأقرب إليك من نفسك . فلما سمع هذا موسى علم أنه لا ينبغي هذا إلا لربه ، فأيقن به ، فقال : كذلك أنت يا إلهي ، فكلامك اسمع أم رسولك ؟ قال : بل أنا الذي أكلمك فادن مني ، فجمع موسى يديه في العصا ، ثم تحامل حتى استقل قائماً ، فرعدت فرائصه حتى اختلفت ، واضطربت رجلاه ، وانقطع لسانه وانكسر قلبه ، ولم يبق منه عظم يحمل آخر ، فهو بمنزلة الميت ، إلا أن روح الحياة تجري فيه ، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب ، حتى وقف قريباً من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك وتعالى : ﴿ ما تلك بيمينك يا موسى ﴾ قال : هي عصاي .

قال : ما تصنع بها ؟ – ولا أحد أعلم منه بذلك – قال موسى : ﴿ أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴾ قد علمتها ، وكان لموسى في العصا مآرب ، كان لها شعبتان ومحجن تحت الشعبتين ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين ، وكان يتوكأ عليها ويهش بها ، وكان إذا شاء ألقاها على عاتقه ، فعلق بها قوسه وكنانته ومرجامه ومخلاته وثوبه ، وزاداً إن كان معه ، وكان إذا ارتع في البرية حيث لا ظل له ركزها ، ثم عرض بالوتد بين شعبتيها ، وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان مرتعاً ، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه . قال له الرب ﴿ ألقها يا موسى ﴾ فظن موسى أنه يقول : ارفضها . فألقاها على وجه الرفض ، ثم حانت منه نظرة ، فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يرى ! يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه ، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها ، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها ، عينان توقدان ناراً ، وقد عاد المحجن عرقاً فيه شعر مثل النيازك ، وعاد الشعبتان فهما مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف ، فلما عاين ذلك موسى ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ [النمل : 10] فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية ، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم ﴿ نودي يا موسى ﴾ أن ارجع حيث كنت ، فرجع وهو شديد الخوف فقال : خذها بيمينك ولا تخف سنعيدها سيرتها

الأولى. قال: وكان على موسى حينئذ مدرعة فجعلها في يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر؟ أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً قال: لا. ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، ثم سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا تؤكا بين الشعبتين. قال له ربه: "ادن". فلم يزل يدنيه – حتى شد ظهره بجذع الشجرة. فاستقر وذهبت عنه

(284/494)

الرعدة، وجمع يديه في العصا، وخضع برأسه وعنقه ثم قال له: إني قد أقمتك اليوم في مقام لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك... إذ أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامي، وكنت بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالتي، فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي وبصري، وإني قد ألبستك جبة من سلطاني، لتكمل بها القوّة في أمري، فأنت جند عظيم من جنودي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر من نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، وعد من دوني، وزعم أنه لا يعرفني، وإني لأقسم بعزتي: لولا العذر والحجة التي وضعت بيني وبين خلقي.

. . لبطشت به بطشة جبار – يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار – فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت البحار غرقته، وإن أمرت الجبال دمرته، ولكنه هان عليّ وسقط من عيني، وَسِعَهُ حلمي، واستغنيت بما عندي، وحق لي أني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وتوحيدي، وإخلاص اسمي، وذكره بآياتي، وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي ﴿ وقل له ﴾ فيما بين ذلك: ﴿ قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس يطرف ولا ينطق ولا يتنفس إلا بإذني، وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة فإنه قد أمهلك أربعمائة سنة؛ في كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تتشبه وتتمثل به وتصد عباده عن سبيله، وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب، ولو شاء أن يجعل لك ذلك أو يسلبكه فعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم، وجاهده بنفسك وأخيك، وأنتما محتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها فعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه: أن الفئة

القليلة ، ولا قليل مني تغلب الفئة الكبيرة بإذني ، ولا يعجبنكما زينته ولا ما متع به ، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين ، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ، يعلم فرعون – حين ينظر إليها – أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ، ولكن أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي ، وقد نما ما حويت لهم من ذلك ، فإني لأذودهم عن نعيمها ورخائها ؛ كما يذود الراعي الشفيق غنمه من مواقع الهلكة ، وإني لأجنبهم شكوها وغنمها ، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة ، وما ذاك لهوَانِهم عليّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي

(286/494)

سالماً موفراً لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى ، واعلم أنه لم يتزين إليّ العباد بزينة . . . هي أبلغ فيما عندي من الزهد في الدنيا ، فإنه زينة المتقين عليهم منه : لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ [الفتح : 29] " أولئك هم أوليائي حقاً فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أهان لي ولياً أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة ، وبادأني وعرض لي نفسه ودعاني إليها ، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي ، فيظن الذي يحاربني أو يعاديني أن يعجزني ، أو يظن الذي يبارزني

أن يسبقني أو يفوتني ، وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة ؟ ! لا أكل نصرتهم إلى غيري "

قال : فأقبل موسى إلى فرعون في مدينة قد جعل حولها الأسد في غيضة قد غرسها ، والأسد فيها مع ساستها إذا أرسلها على أحد أكلته ، وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة ، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون ، فلما رأته الأسد صاحت صياح الثعالب ، فأنكر ذلك الساسة وفرقوا من فرعون ، فأقبل موسى حتى انتهى إلى الباب الذي فيه فرعون فقرعه بعصاه وعليه جبة من صوف وسراويل ، فلما رآه البوّاب عجب من جراءته فتركه ولم يأذن له ، فقال هل تدري باب من أنت تضرب ؟ ! إنما أنت تضرب باب سيدك .

قال : أنت وأنا وفرعون عبيد لربي ، فأنا ناصره ، فأخبر البوّاب الذي يليه من البوابين ، حتى بلغ ذلك أدناهم ودونه سبعون حاجباً ، كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله ، حتى خلص الخبر إلى فرعون فقال : أدخلوه عليّ ، فأدخل فلما أتاه قال له فرعون : أعرفك ؟ قال : نعم . قال : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ [الشعراء : 18] قال : فرد إليه موسى الذي رد . قال : فرعون خذوه . فبادر موسى ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان

مبين ﴾ [الشعراء : 32] فحملت على الناس فانهزموا منها ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ، قتل بعضهم بعضاً ، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت فقال لموسى : ﴿ اجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ ننظر فيه . قال : موسى : لم أؤمر بذلك ، إنما أمرت بمناجزتك ، وإن أنت لم تخرج إليّ دخلت عليك . فأوحى الله إلى موسى : أن اجعل بينك وبينه أجلاً ، وقل له : أن يجعله هو . قال فرعون : اجعله إلى أربعين يوماً ففعل . قال : وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في كل أربعين يوماً مرة ، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة . قال : وخرج موسى من المدينة ، فلما مر بالأسد خضعت له بأذنابها ، وسارت مع موسى تشيعه ، ولا تهيجه ، ولا أحداً من بني إسرائيل .

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن علي رضي الله عنه في قوله : ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال : كانتا من جلد حمار ميت ، فقيل له اخلعهما .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن رضي الله عنه قال : ما بال خلع النعلين في الصلاة ؟ إنما أمر موسى بخلع نعليه ، إنهما كانا من جلد حمار ميت .

وأخرج عبد بن حميد ، عن كعب رضي الله عنه في قوله : ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال : كان نعلا موسى من جلد حمار ميت ، فأراد ربك أن يمسه القدس كله .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الزهري في قوله: ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال: كانتا من جلد حمار أهلي.

(288/494)

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه قال: كانت نعلا موسى التي قيل له اخعلهما: من جلد خنزير.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله: ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قال كي تمس راحة قدميك الأرض الطيبة.

وأخرج الطبراني، عن علقمة؛ أن ابن مسعود أتى أبا موسى الأشعري منزله، فحضرت الصلاة فقال أبو موسى - رضي الله عنه - تقدم يا أبا عبد الرحمن، فإنك أقدم سناً وأعلم. قال: لا. بل تقدم أنت، فإنما أتيناك في منزلك، فتقدم أبو موسى رضي الله عنه فخلع نعليه، فلما صلى قال له ابن مسعود: - رضي الله عنه - لم خلعت نعليك؟ أبالواد المقدس أنت؟ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في الخفين والنعلين.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ قال: المبارك ﴿ طوى ﴾ قال: اسم الوادي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله: ﴿ بالواد المقدس ﴾ قال: الطاهر.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ بالواد المقدس ﴾ قال: واد بفلسطين قدس مرتين.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿ بالواد المقدس طوى ﴾ يعني الأرض المقدسة، وذلك أنه مر بواديها ليلاً فطوي. يقال: طويت وادي كذا وكذا، والطاوي من الليل وارتفع إلى أعلى الوادي، وذلك نبي الله موسى عليه السلام.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ قال المبارك: ﴿ طوى ﴾ قال: اسم الوادي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مبشر بن عبيد ﴿ طوى ﴾ بغير نون وادٍ بإيلة زعم أنه طوي بالبركة مرتين.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ طوى ﴾ قال: طا الوادي.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي نجيح رضي الله عنه في قوله : ﴿ طوى ﴾ قال طا الأرض حافياً كما تدخل الكعبة حافياً .

يقول : من بركة الوادي ، هذا قول سعيد بن جبير . قال : وكان مجاهد رضي الله عنه يقول : ﴿ طوى ﴾ اسم الوادي .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ بالواد المقدس طوى ﴾ قال : واد قدس مرتين واسمه ﴿ طوى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ طوى ﴾ برفع الطاء وبنون فيها .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مكتوب على باب الجنة : إنني أنا الله لا إله إلا أنا لا أعذب من قالها " .

وأخرج ابن سعد وأبو يعلى والحاكم والبيهقي في الدلائل ، عن أنس رضي الله عنه قال : خرج عمر متقلداً بالسيف لقيه رجل من بني زهرة فقال له : أين تغدو يا عمر ، قال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك ! قال : أفلا أدلك على العجب ؟ ! إن أختك وختنك قد صبآ

وتركا دينك ، فمشى عمرا زائراً حتى أتاهما ، وعندهما خباب ، فلما سمع خباب بحس عمر ، توارى في البيت ، فدخل عليهما فقال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم وكانوا يقرأون ﴿ طه ﴾ فقالا : ما عدا حديثاً تحدثنا به . قال : فلعلكما قد صبأتما . فقال له ختنه : يا عمر ، إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً : فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها ، فنفخها نفخة بيده فدمى وجهها . فقال عمر : أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه ، فقالت أخته : إنك رجس وإنه ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ [الواقعة : 79] فقم فتوضأ ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿ طه ﴾ حتى انتهى إلى ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ فقال عمر : دلوني على محمد ، فلما سمع خباب قول عمر ، خرج من البيت فقال : أبشر يا عمر ، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لك – ليلة الخميس – " اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بعمر بن هشام " فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل – عليه السلام – قال : " قال الله عز وجل ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ " من جاءني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله بالإخلاص دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن عذابي " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ قال: إذا صلى عبد ذكر ربه.

وأخرج عبد بن حميد، عن إبراهيم في قوله: ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ قال: حين تذكر.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن مردويه، عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال أقم الصلاة لذكري".

وأخرج الترمذي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لما قفل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من خيبر أسرى ليلة حتى أدركه الكرى، أناخ فعرس ثم قال: "يا بلال، أكلأنا الليلة" قال: فصلى بلال ثم تساند إلى راحلته مستقبل الفجر، فغلبته عيناه فنام، فلم يستيقظ أحد منهم حتى ضربتهم الشمس، وكان أولهم استيقاظاً النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أي بلال" فقال بلال: بأبي أنت يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، فقال رسول الله: –

صلى الله عليه وسلم - " اقتادوا " ثم أناخ فتوضأ وأقام الصلاة ثم صلى مثل صلاته للوقت في تمكث ، ثم قال : " من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ " وكان ابن شهاب يقرؤها " للذكرى " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت قال : " سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن رجل غفل عن الصلاة حتى طلعت الشمس أو غربت ما كفارتها ؟ قال : " يتقرب إلى الله ويحسن وضوءه ويصلي فيحسن الصلاة ويستغفر الله فلا كفارة لها إلا ذلك " إن الله يقول : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن سمرة بن يحيى قال : نسيت صلاة العتمة حتى أصبحت ، فغدوت إلى ابن عباس فأخبرته فقال : قم فصلها ، ثم قرأ ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا نسيت صلاة فاقضها متى ما ذكرت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الشعبي وإبراهيم في قوله : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ قالا :

صلِّها إذا ذكرتها وقد نسيتها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن إبراهيم قال : من نام عن صلاة أو نسيها ، يصلي متى ذكرها عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ثم قرأ ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ قال : إذا ذكرتها فصلها في أي ساعة كنت .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " أقبلنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية فنزلنا دهاساً من الأرض - والدهاس الرمل - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : من يكلؤنا ؟ قال بلال : أنا ، فناموا حتى طلعت عليهم الشمس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " افعلوا كما كنتم تفعلون " كذلك لمن نام أو نسي .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي جحيفة قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفره الذي ناموا فيه ، حتى طلعت الشمس ثم قال : " إنكم كنتم أمواتاً فرد الله إليكم أرواحكم ، فمن نام عن الصلاة أو نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، وإذا استيقظ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِذْ رأى ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ منصوباً بالحديث وهو الظاهرُ . ويجوز أن ينتصِبَ ب " اذكر " مقدَّراً ، كما قاله أبو البقاء ، أو بمحذوفٍ بعدَه أي : إذ رأى ناراً كان كيتَ وكيتَ ، كما قاله الزمخشريُّ .

و" هل " على بابها مِنْ كونِها استفهامَ تقريرٍ ، وقيل : بمعنى قد ، وقيل : بمعنى النفي . وقرأ " لأهلِهُ امكثُوا " بضم الهاء حمزة وقد تقدم أنه الأصلُ وهو لغةُ الحجاز ، وقال أبو البقاء : " إن الضمَّ للإِتباع " .

قوله : ﴿ آنَسْتُ ﴾ أي : أبصرْتُ . والإِيناسُ : الإِبصارُ البيِّنُ ، ومنه إنسانُ العينِ ؛ لأنه يُبْصَر به الأشياءُ ، وقيل : هو الوِجْدان ، وقيل : الإِحساسُ فهو أعمُّ من الإِبصار ،

وأنشدوا للحارث بن حِلّزة :

3275 آنسَتْ نَبْأَةً وأَفْزَعها القنْ . . . ناصُ عَصْراً وقد دنا الإِمْساءُ

والقَبَسُ : الجَذْوَةُ من النار ، وهي الشُّعْلةُ في رأسِ عُوْدٍ أو قَصَبةٍ ونحوِهما . وهو فَعَلٌ بمعنى مَفْعول كالقَبَض والنَّقَض بمعنى المَقْبوض والمَنْقوض . ويقال : أَقْبَسْتُ الرجلَ علماً وقَبَسْتُه ناراً ، ففرقوا بينهما ، هذا قول المبردِ . وقال الكسائيُّ : إن فَعَلَ وأَفْعَلَ يُقالان في المعنيين ،

فيقال: قَبَسْتُه ناراً وعلماً، وأَقْبَسْته أيضاً عِلْماً وناراً.

وقوله ﴿ مِّنْهَا ﴾ يجوز أَنْ يتعلق/ ب "آتِيكم" أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ قَبَس.

وأمال بعضُهم ألفَ "هدى" وقفاً. والجيدُ أَنْ لا تُمال لأنَّ الأشهر أنها بدلٌ من التنوين.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) ﴾

قوله: ﴿ نُودِيَ ﴾: القائمُ مَقامَ الفاعلِ ضميرُ موسى وقيل: ضميرُ المصدرِ أي: نُودي النداء. وهو ضعيفٌ، ومنعوا أن يكونَ القائمُ مَقامه الجملةَ مِنْ "يا موسى"؛ لأنَّ الجملةَ لا تكونَ فاعلاً.

(294/494)

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) ﴾

قوله: ﴿ إني ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح، على تقديرِ الباءِ بأني؛ لأنَّ النداءَ يُوْصَلُ بها تقول: نادَيْتُه بكذا. قال الشاعر: أنشده الفارسيُّ

3276 ناديَتُ باسمِ ربيعةَ بنِ مُكدَّمٍ ... إنَّ المُنَوَّهَ باسمِه المَوْثُوقُ

وجوَّز ابنُ عطيةَ أن يكونَ بمعنى لأجْلِ. وليس بظاهر. والباقون بالكسرِ: إمَّا على إضمارِ القولِ كما هو رأيُ البصريين، وإمّا لأنَّ النداءَ في معنى القولِ عند الكوفيين.

وقوله : ﴿ أَنَاْ ﴾ يجوزُ أن يكونَ مبتدأ ، وما بعده خبرُه ، والجملةُ خبرُ " إنَّ " . ويجوزُ أن يكونَ توكيداً للضميرِ المنصوب ، ويجوزُ أَنْ يكونَ فَصْلاً .

قوله : " طوى " قرأ الكوفيون وابنُ عامر " طُوىً " بضمِّ الطاءِ والتنوين . والباقون بضمِّها من غيرِ تنوين . وقرأ الحسنُ والأعمش وأبو حيوةَ وابن محيصن بكسرِ الطاءِ منوَّناً . وابو زيدٍ عن أبي عمروٍ بكسرِها غيرَ منون .

فمَنْ ضَمَّ ونَوَّنَ فإنه صرَفَه لأنَّه أَوَّله بالمكان . ومَنْ منَعه فيحتمل أوجهاً ، أحدها : أنه مَنَعه للتأنيث باعتبار البُقْعَةِ والعَلَمِيَّة . الثاني : أنه مَنَعه للعَدْل إلى فُعَل ، وإن لم يُعْرَفِ اللفظُ المعدولُ عنه ، وجعله كعُمَر وزُفَر . والثالث : أنه اسمٌ أعجمي فمَنْعُه للعَلَمِيَّة والعُجْمة . ومَنْ كَسَر ولم يُنَوِّن فباعتبارِ البُقْعة أيضاً . فإن كان اسماً فهو نظيرُ عِنَب ، وإن كان صفةً فهو نظيرُ عِدَى وسِوَى . ومَنْ نَوَّنَه فباعتبار المكان . وعن الحسنِ البَصْرِيِّ أنه بمعنى الثنى بالكسرِ والقَصْر ، والثنى : المكررُ مرتين ، فيكون معنى هذه القراءة أنه ظهر مرتين ، فيكون مصدراً منصوباً بلفظ " المقدَّس " لأنه بمعناه كأنه قيل : المقدَّس مرتين ، من التقديس .

وقرأ عيسى بن عمر والضحَّاك " طاوِيْ اذهَبْ " .

و " طوى " : إمَّا بدلٌ من الوادي ، أو عطفُ بيانٍ له ، أو مرفوعٌ على إضمارِ مبتدأ ، أو منصوبٌ على إضمار أعني .

قوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ : قرأ حمزةُ في آخرين " وأَنَّا اخترناك " بفتحِ الهمزة بضمير المتكلمِ المعظمِ نفسَه . وقرأ السلميُّ والأعمش وابن هرمز كذلك ، إلاَّ أنهم كسروا الهمزةَ . والباقون " وأنا اخْتَرْتُك " بضميرِ المتكلم وحدَه . وقرأ أُبَيٌّ " وأني اخترتك " بفتح الهمزة . فأمَّا قراءةُ حمزة فعطفٌ على قوله ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ ، وذلك أنه بفتح الهمزة هناك ، ففعل ذلك لمَّا عطف غيرَها عليها . ومَنْ كسرها فلأنه يقرأ " إنِّي أنا ربك " بالكسر . وقراءة أُبَيّ كقراءةِ حمزة بالنسبة للعطف . وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ الفتحُ على تقديرِ : ولأَنَّا اخترناك فاستمع ، فعلَّقه باستمع . والأول أَوْلَى . ومفعولُ " اخترتك " الثاني محذوف أي : اخترتك مِنْ قومك .

قوله ﴿ لِمَا يوحى ﴾ الظاهرُ تعلُّقه ب " استمِعْ " . ويجوزُ أن تكونَ اللامُ مزيدةً في المفعول على حدِّ قولِه تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] . وجوَّز الزمخشريُّ وغيرُه أن تكونَ المسألة من باب التنازع بين " اخْتَرْتُك " وبين " استمع " كأنه قيل : اخترتُك لِما يوحى فاستمع لما يوحى . قال الزمخشري : " فَعَلَّق اللامَ ب " استمعْ " أو ب " اخترتُك " .

وقد رَدَّ الشيخُ هذا بأنْ قال : " ولا يجوزُ التعليقُ ب " اخترتك " لأنَّه مِنْ باب الإعمال ، يجب أو يُختار إعادةُ الضميرِ مع الثاني فكان يكونُ : فاستمعْ له لما يوحى ، فَدَلَّ على أنه

من باب إعمال الثاني " . قلت : الزمخشريُّ عنى التعليقَ المعنويَّ من حيث الصلاحية ، وأما تقديرُ الصناعةِ فلم يَعْنِه .

و" ما " يجوزُ أَنْ تكونَ مصدرية ، وبمعنى الذي أي : فاستمعْ للوحيِ أو للذي يوحى .

(296/494)

قوله : ﴿ لذكري ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ المصدرُ مضافاً لفاعِله أي : لأِّني ذكرتُها في الكتب ، أو لأِّني أذكرُك . ويجوز أن يكونَ مضافاً لمفعولِه أي : لِأَنْ تذكرَني . وقيل : معناه ذِكْرُ الصلاةِ بعد نِسْيانِها كقولِه عليه السلام : " مَنْ نام عن صلاةٍ أو نَسِيها فَلْيُصَلِّها إذا ذكرها " قال الزمخشري : " وكان حقُّ العبارة : " لذكرها " . ثم قال : " ومَنْ يَتَمَحَّلْ له أن يقول : إذا ذَكَرَ الصلاة فقد ذكر [الله] ، أو على حذفِ مضاف أي : لذكر صلاتي ، أو لأنَّ الذِّكْرَ والنيسانَ من الله تعالى في الحقيقة " .

وقرأ أبو رجاء والسُّلمي " للذكرى " بلام التعريف وألفِ التأنيث . وبعضهم " لذكرى " منكرةً ، وبعضهم " للذكر " بالتعريف والتذكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 19.14 ﴾

(297/494)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات . وأجرى - تعالى - سُنَّتَه في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا صلى الله عليه وسلم فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) ﴾

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم ، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهِله :

﴿ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَاراً ﴾ فقال أهلُه : كيف تتركنا والوادي مسبع ؟ فقال : لأجِلكم أفارقكم ؛ فلَعَلِّي آتيكم من هذه النار بقبس .

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ ، فلم يتمالك حتى خرج . ففي القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجمع موسى - عليه السلام - حشائشَ ليأخذ من تلك النار ، فعرف أن هذه النار لا تسمح نفْسُها بأَنْ تُعْطِي إلى أحدٍ

شعلة :

وقَلْنَ لنا نحن الأَهِلَّة إنما . . . نضيءُ لِمَنْ يَسْري بليلٍ ولا نُقْرِي

يا موسى هذه النارُ تضيءُ ولكن لا تعطي لأحدٍ منها شعلة . يا موسى هذه النارُ تحرق القلوبَ لا النفوس .

ويقال كان موسى عليه السلام في مزاولة قَبسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً ، فبينما هو في حالته إذ سمع النداءَ من الحقّ .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) ﴾

علم موسى أنه كلام الحق – سبحانه – لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيبَ والتنظيمَ والتركيب ، فعَلِمَ أنه خطاب الحق .

ويقال إنما عرف موسى – عليه السلام – أنه كلامُ الله بتعريفٍ خصَّه الحق – سبحانه – به من حيث الإلهام دون نوع من الاستدلال .

قوله : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ . . . ﴾ فإن بِساطَ حضرةِ الملوكِ لا يُوطَأُ بِنَعْلٍ .

ويقال ألقِ عصاك يا موسى واخلع نعليك ، وأَقِمْ عندنا هذه الليلةَ ولا تَبْرَحْ ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن ، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد .

ويقال : ﴿ اخلع نعليك ﴾ : تَبَرَّأْ عن نَوْعَيْ أفعالك ، وامْحُ عن الشهود جِنْسَيْ أحوالِك من قربٍ وبُعْدٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وارتياحٍ واجتياحٍ ، وفناءٍ وبقاءٍ . . . . وكُنْ بوصفنا ؛ فإنما أنت بحقنا .

أَثْبَتَه في أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته ، المُصْطَلَم عن شواهده .

قوله : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ﴾ : أي إنك بالوادي المقدس عن الأعلال ؛ وساحاتُ الصمدية تَجِلُّ عن كل شيْن ، وإيمانٍ وزَيْن ؛ عن زَيْنٍ بإحسانٍ وشَيْنٍ بعصيانٍ ؛ لأَنَّ للربوبية سَطَعَاتِ عِزٍّ تقهر كل شيء .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) ﴾

وعلى علمٍ مني بك اصطفيتكُ ، وجرَّدْتُكَ ونقيتك عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يُكَدِّرُ صَفْوَكَ .

ويقال بعدما اخترتُك فأنت لي وبي ، وأنت محوٌ في فنائك عنك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لآ إِلَهَ إِلآَّ أَنَا فَاعْبُدْنِى ﴾ .

تقدَّسْتُ عن الأعلال في أزلي ، وتنزهت (. . .) والأشكال باستحقاقي لجلالي وجمالي .

ويقال : ﴿ لآ إِلَهَ إِلآَّ أَنَا ﴾ : الأغيار في وجودي فَقْدٌ ، والرسومُ والأطلالُ عند ثبوتِ حقي

محوٌ.

قوله : ﴿ فَاعْبُدْنِى ﴾ : أي تَذَلَّلْ لِحُكْمي ، وأنفِذْ أمري ، واخضعْ لجبروتِ سلطاني .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ﴾ .

(299/494)

اقامتُها من غير ملاحظة مُجْرِيها ومُنْشِيها يُورِث الإعجاب . وإذا أقام العبدُ صلاتَه على نعت الشهود والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلة . والوقوف على محل النجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 447 . 449 ﴾

(300/494)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وسُمِّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم علل الأمر بالعبادة بأنه لم يخلق الخلق سدى ، بل لا بد من إماتتهم ، ثم بعثهم لإظهار العظمة ونصب موازين العدل ، فقال مؤكداً لإنكارهم معبرا بما يدل على سهولة ذلك عليه جداً : ﴿ إن الساعة ءاتية ﴾ أي لا ريب في إتيانها ، فهي أعظم باعث على الطاعة .

ولما كان بيان حقيقة الشيء مع إخفاء شخصه ووقته وجميع أحواله موجباً في الغالب لنسيانه والإعراض عنه ، فكان غير بعيد من إخفائه أصلاً ورأساً ، قال مشيراً إلى هذا المعنى : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أي أقرب من أن أجدد إخفاءها ، فلذا يكذب بها الكافر بلسانه والعاصي بعصيانه فالكافر لا يصدق بكونها والمؤمن لا يستعد غفلة عنها ، فراقبني فإن الأمر يكون بغتة ، ما من لحظة إلا وهي صالحة للترقب ؛ ثم بين سبب الإتيان بها بقوله : ﴿ لتجزى ﴾ أي بأيسر أمر وأنفذه ﴿ كل نفس ﴾ كائنة من كانت ﴿ بما تسعى ﴾ أي توجد من السعي في كل وقت كما يفعل من أمر ناساً بعمل من النظر في أعمالهم ومجازاة كل بما يستحق .

ولما كانت – لما تقدم – في حكم المنسي عند أغلب الناس قال : ﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أي إدامة ذكرها ليثمر التشمير في الاستعداد لها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ بإعراضه عنها وحمله غيره على ذلك بتزيينه بما أوتي من المتاع الموجب للمكاثرة المثمرة لامتلاء القلب بالمباهاة والمفاخرة ، فإن من انصد عن ذلك غير بعيد الحال ممن كذب بها ، والمقصود من العبارة نهي موسى عليه السلام عن التكذيب ، فعبر عنه بنهي من لا يؤمن عن الصد إجلالاً لموسى عليه السلام ، ولأن صد الكافر عن التصديق سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب ، ولأن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب ، فكأنه قيل : كن شديد الشكيمة صليب المعجم ، لئلا يطمع أحد في صدك وإن كان الصاد هم الجم الغفير ، فإن كثرتهم تصل إلى الهوى لا إلى البرهان ، وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله نبه عليه الكشاف .

ثم بين العلة في التكذيب بها والكسل عن التشمير لها بقوله : ﴿ واتبع ﴾ أي بغاية جهده ﴿ هواه ﴾ فكان حاله حال البهائم التي لا عقل لها ، تنفيراً عن مثل حاله ؛ ثم أعظم التحذير بقوله مسبباً : ﴿ فتردى ﴾ أي فتهلك ، إشارة إلى أن من ترك المراقبة لحظة حاد عن الدليل ، ومن حاد عن الدليل هلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 14 .

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) ﴾

اعلم أنه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله : ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] أتبعه بقوله : ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله ﴿ لِذِكْرِى ﴾ أي لأذكرك بالأمانة والكرامة فقال عقيب ذلك : ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ لأنها وقت الإثابة ووقت المجازاة ثم قال : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ وفيه سؤالان :

السؤال الأول : هو أن كاد نفيه إثبات وإثباته نفي بدليل قوله : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] أي وفعلوا ذلك فقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ يقتضي أنه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين ، أحدهما : قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] .

والثاني : أن قوله : ﴿ لِتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار .

والجواب : من وجوه ، أحدها : أن كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفي والإثبات فقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ معناه قرب الأمر فيه من الإخفاء وأما أنه هل حصل ذلك

الإخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله : ﴿ لتجزى كُلُّ نفسٍ بِمَا تسعى ﴾ فإن ذلك إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار .

وثانيها : أن كاد من الله واجب فمعنى قوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أي أنا أخفيها عن الخلق كقوله : ﴿ عسى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : 51] أي هو قريب قاله الحسن .

وثالثها : قال أبو مسلم : ﴿ أَكَادُ ﴾ بمعنى أريد وهو كقوله : ﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : 76] ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد أي ولا أريد أن أفعله .

(6/495)

ورابعها : معناه : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ من نفسي وقيل إنها كذلك في مصحف أبي وفي حرف ابن مسعود : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ من نفسي فكيف أعلنها لكم قال القاضي هذا بعيد لأن الإخفاء إنما يصح فيمن يصلح له الإظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لأن كل معلوم معلوم له فالإظهار والإسرار منه مستحيل ، ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعني لو صح مني إخفاؤه على نفسي لأخفيته عني والإخفاء وإن كان محالاً في نفسه إلا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة في عدم إطلاع الغير عليه ، قال قطرب : هذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضاً يقولون : إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته

حتى من نفسي فالله تعالى بالغ في إخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب في مثله .

وخامسها : ﴿ أَكَادُ ﴾ صلة في الكلام والمعنى : إن الساعة آتية أخفيها ، قال زيد الخيل :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه . . فما إن يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما يتنفس قرنه .

وسادسها : قال أبو الفتح الموصلي ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذا اللفظ أكاد أزيل عنها إخفاءها لأن أفعل قد يأتي بمعنى السلب والنفي كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أي أزلت عجمته وإشكاله وأشكيته أي أزلت شكواه .

وسابعها : قرئ أخفيها بفتح الألف أي أكاد أظهرها من خفاه إذا أظهره أي قرب إظهاره كقوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] قال امرؤ القيس :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه . . وإن تمنعوا الحرب لا نقعد

أي لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لأن معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها .

وثامنها : أراد أن الساعة آتية أكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الأول إلى أن الأولى الإخفاء : ﴿ لتجزى كُلُّ نفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ وهذا الوجه بعيد ، والله أعلم .

السؤال الثاني : ما الحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت ؟ الجواب : لأن الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وإنه لا يجوز .

أما قوله : ﴿ لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصي والمحسن عن المسيء وذلك غير جائز وهو الذي عناه الله تعالى بقوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] .

المسألة الثانية :

احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل لأن الباء للالصاق فقوله : ﴿ بِمَا تسعى ﴾ يدل على أن المؤثر في ذلك الجزاء هو ذلك السعي .

المسألة الثالثة :

احتجوا بها على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لأن الآية صريحة في إثبات سعي العبد ولو كان الكل مخلوقاً لله تعالى لم يكن للعبد سعي ألبتة أما قوله : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ فالصد المنع وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

في هذين الضميرين وجهان .

أحدهما : قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أي عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها أي بالساعة فالضمير الأول عائد إلى الصلاة والثاني إلى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع إلى كل خبر حقه .

وثانيهما : قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أي عن الإيمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان إلى يوم القيامة .

قال القاضي : وهذا أولى لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين وههنا الأقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فإنما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا .

المسألة الثانية :

الخطاب في قوله : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وأن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والأقرب أنه مع موسى لأن الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج إنه ليس بمراد وإنما أريد به غيره وذلك لأنه ظن أن النبي

صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الإيمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطباً بذلك وليس الأمر كما ظن، لأنه إذا كان مكلفاً بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادراً على ذلك جاز أن يخاطب به ويكون المراد هو وغيره، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بقوله: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ النهي له عن الميل إليهم ومقاربتهم.

المسألة الثالثة:

المقصود نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان، أحدهما: أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب.

والثاني: أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله: لا أرينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته، فكذا ههنا كأنه قيل: لا تكن رخواً بل كن في الدين شديداً صلباً.

المسألة الرابعة:

الآية تدل على أن تعلم علم الأصول واجب لأن قوله: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ يرجع معناه إلى صلابته في الدين وتلك الصلابة إن كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلا بد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قوياً في تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حتى لا يتمكن

الخصم من إزالته عن الدين بل هو يكون متمكناً من إزالة المبطل عن بطلانه .

المسألة الخامسة :

(9/495)

قال القاضي قوله : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ ﴾ يدل على أن العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لأفعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر ، والجواب : المعارضة بمسألة العلم والداعي ، والله أعلم ، أما قوله تعالى : ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ فالمعنى أن منكر البعث إنما أنكره اتباعاً للهوى لا لدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لأن المقلد متبع للهوى لا الحجة أما قوله : ﴿ فتردى ﴾ فهو بمعنى ولا يصدنك فتردى وإن صدوك وقبلت فليس إلا الهلاك بالنار .

واعلم أن المتوغلين في أسرار المعرفة قالوا : المقام مقامان .

أحدهما : مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى .

والثاني : مقام البقاء بالله والأول مقدم على الثاني لأن من أراد أن يكتب شيئاً في لوح مشغول بكتابة أخرى فلا سبيل له إليه إلا بإزالة الكتابة الأولى ثم بعد ذلك يمكن إثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن في هذا الباب لأنه قال لموسى

عليه السلام اولا : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ وهو إشارة إلى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة : علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد ، فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله :

(10/495)

﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَاْ ﴾ [طه : 14] وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الأمر الذي يجب أن يشتغل الإنسان به في هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله : ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] ثم في هذا أيضاً تعثر لأن قوله : ﴿ فاعبدني ﴾ إشارة إلى الأعمال الجسمانية وقوله : ﴿ لِذِكْرِي ﴾ إشارة إلى الأعمال الروحانية والعبودية أولها الأعمال الجسمانية وآخرها الأعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله : ﴿ إِنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ثم إنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله : ﴿ إِنّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ [طه : 12] واختتمها بمحض القهر وهو قوله : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا واتبع هَوَاهُ فتردى ﴾ تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه وإشارة إلى أن العبد لا بد له في العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف ، وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف أن هذا الترتيب هو النهاية في الحسن والجودة وأن

ذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 21.19 ﴾

(11/495)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أي لا أظهر عليها أحداً ، قاله الحسن ، ويكون أكاد بمعنى أريد .

الثاني : أكاد أخفيها من نفسي ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وهي كذلك في قراة أُبَيّ " أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي " ويكون المقصود من ذلك تبعيد الوصول إلى علمها . وتقديره : إذا كنت أخفيها من نفسي فكيف أظهرها لك ؟

الثالث : معناه أن الساعة آتية أكاد . انقطع الكلام عند أكاد وبعده مضمر أكاد آتي بها تقريباً لورودها ، ثم استأنف : أخفيها لتجزى كل نفسٍ بما تسعى . قاله الأنباري ، ومثله قول ضابىء البرجمي :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني . . . تكرت على عثمان تبكي حلائله

أي كدت أن أقتله ، فأضمره لبيان معناه .

الرابع : أن معنى –أخفيها : أظهرها ، قاله أبو عبيدة وأنشد :

فإن تدفنوا الداءَ لا نخفيه . . . وأن تبعثوا الحرب لا نقعد

يقال أخفيت الشيء أي أظهرته وأخفيته إذا كتمته ، كما يقال أسررت الشيء إذا كتمته ، وأسررته إذا أظهرته .

وفي قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أسر الرؤساء الندامة عن الأتباع الذي أضلوهم . والثاني : أسر الرؤساء الندامة . قال الشاعر :

ولما رأى الحجاج أظهر سيفه . . . أسر الحروري الذي كان أضمرا

﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه على وجه القسم من الله ، إن كل نفس تجزى بما تسعى .

الثاني : أنه إخبار من الله أن كل نفس تجزى بما تسعى .

قوله عز وجل : ﴿ فَتَرْدَى ﴾ فيه وجهان : أحدهما : فتشقى .

الثاني : فتنزل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

في قوله ﴿ إن الساعة آتية ﴾ تحذير ووعيد ، أي اعبدني فإن عقابي وثوابي بالمرصاد ، و﴿ الساعة ﴾ في هذه الآية القيامة بلا خلاف ، وقرأ ابن كثير والحسن وعاصم " أكاد أخفيها " بفتح الهمزة بمعنى أظهرها أي أنها من صحة وقوعها وتيقن كونه تكاد تظهر لكن تنحجب إلى الأجل المعلوم ، والعرب تقول خفيت الشيء بمعنى أظهرته ومنه قول امرىء القيس : [الطويل]

خفاهن من أنفاقهن كأنما . . . خفاهن ودق من سحاب مجلّب

ومنه قوله أيضاً : [المتقارب]

فإن تدفنوا الداء لا نخفه . . . وإن توقدوا الحرب لا نقعد

قال أبو علي : المعنى أزيل خفاءها ، وهو ما تلف به القربة ونحوها ، وقرأ الجمهور " أُخفيها " بضم الهمزة ، واختلف المتأولون في معنى الآية فقالت فرقة : معناه أظهرها وأخفيت من الأضداد ، وهذا قول مختل ، وقالت فرقة معناه ، ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي على معنى العبارة من شدة غموضها على المخلوقين ، فقالت فرقة : المعنى ﴿ إن الساعة آتية أكاد ﴾ وتم الكلام بمعنى ﴿ أكاد ﴾ أنفذها لقربها وصحة وقوعها ثم استأنف الإخبار

بأن يخفيها ، وهذا قلق ، وقالت فرقة ﴿ أكاد ﴾ زائدة لا دخول لها في المعنى بل تضمنت الآية الإخبار بأن الساعة آتية وأن الله يخفي وقت إتيانها عن الناس ، وقالت فرقة ﴿ أكاد ﴾ بمعنى أريد ، فالمعنى أريد إخفاءها عنكم ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾

واستشهد قائل هذه المقالة بقول الشاعر : [الكامل]

(13/495)

كادت وكدت وتلك خير إرادة . . . وقد تقدم هذا المعنى ، وقالت فرقة ﴿ أكاد ﴾ على بابها بمعنى أنها متقاربة ما لم يقع ، لكن الكلام جار على استعارة العرب ومجازها ، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاء أمر القيامة ووقتها وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أهيب على النفوس بالغ قوله تعالى في إبهام وقتها فقال ﴿ أكاد أخفيها ﴾ حتى لا تظهر البتة ولكن ذلك لا يقع ولا بد من ظهورها ، هذا تلخيص هذا المعنى الذي أشار إليه بعض المفسرين وهو الأقوى عندي ، ورأى بعض القائلين بأن المعنى ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي ما في القول من القلق فقالوا معنى من نفسي من تلقائي ومن عنديع وهذا رفض للمعنى الأول ورجوع إلى هذا القول الذي اخترناه أخيراً فتأمله ، واللام في قوله ﴿ لتجزى ﴾ متعلقة ب ﴿ آتية ﴾ وهكذا يترتب الوعيد . و ﴿ تسعى ﴾ معناه تكسب وتجترح

، والضمير في قوله ﴿ عنها ﴾ يريد الإيمان بالساعة فأوقع الضمير عليها ، ويحتمل أن يعود على ﴿ الصلاة ﴾ [طه : 14] وقالت فرقة المراد عن لا إله الا الله ع : وهذا متجه ، والأولان أبين وجهاً . وقوله ﴿ فتردى ﴾ معناه تهلك والردى الهلاك ومنه قوله دريد بن الصمة : [الطويل]

تنادوا فقالوا أدرت الخيل فارساً . . . فقلت أعبد الله ذلكمُ الردي

وهذا الخطاب كله لموسى عليه السلام وكذلك ما بعده ، وقال النقاش : الخطاب ب ﴿ فلا يصدنك ﴾ لمحمد عليه السلام وهذا بعيد ، وفي مصحف عبدالله بن مسعود "أكاد أخفيها من نفسي" وعلى هذه القراءة تركب ذلك القول المتقدم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(14/495)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أكادُ أخفيها ﴾

أكثر القراء على ضم الألف .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أكاد أخفيها من نفسي ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في آخرين .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، ومحمد بن عليّ : أكاد أخفيها من نفسي ، قال الفراء : المعنى : فكيف أُظهركم عليها ؟ ! قال المبرّد : وهذا على عادة العرب ، فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمتُه حتى مِنْ نَفْسي ، أي : لم أُطلع عليه أحداً .

والثاني : أن الكلام تم عند قوله : "أكاد" ، وبعده مضمر تقديره : أكاد آتي بها ، والابتداء : أخفيها ، قال ضابىء البرجمي :

هَمَمْتُ ولَم أَفْعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَنِي . . .

تَرَكْتُ على عُثْمانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ

أراد : كدتُ أفعل .

والثالث : أن معنى "أكاد" : أريد ، قال الشاعر :

كادَتْ وكِدْتُ وتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ . . .

لَوْ عَادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى

معناه : أرادت وأردتُ ، ذكرهما ابن الأنباري .

فإن قيل : فما فائدة هذا الإخفاء الشديد ؟

فالجواب : أنه للتحذير والتخويف ، ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوُّه كان أشد حذراً .

وقرأ سعيد بن جبير ، وعروة ابن الزبير ، وأبو رجاء العطاردي ، وحميد بن قيس ،

"أَخفيها" بفتح الألف.

قال الزجاج: ومعناه: أكاد أظهرها، قال امرؤ القيس:

فإنْ تدفِنُوا الدّاءَ لا نَخْفِه . . .

وإنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لا نَقْعُدِ

أي: إِن تدفنوا الداء لا نظهره.

قال: وهذه القراءة أَبْيَن في المعنى، لأن معنى "أكاد أُظهرها": قد أخفيتُها وكدت أُظهرها.

﴿ لتُجزى كُلُّ نَفْسٍ بما تسعى ﴾ أي: بما تعمل.

و"لتُجزى" متعلق بقوله: "إِن الساعة آتية" لتجزى، ويجوز أن يكون على "أقم الصلاة لذكري" لتجزى.

(15/495)

قوله تعالى: ﴿ فلا يصدَّنَّك عنها ﴾ أي: عن الإِيمان بها ﴿ من لا يؤمِنُ بها ﴾ أي: من لا يُؤمن بكونها؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لجميع أُمَّته، ﴿ واتَّبَعَ هواه ﴾

أي : مُراده وخالف أمر الله عز وجل ، ﴿ فتردى ﴾ أي : فتهلِك ؛ قال الزجاج : يقال : رَدِي يَرْدَى : إذا هلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(16/495)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾

آية مشكلة ؛ فروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ "أَكَادُ أَخْفِيهَا" بفتح الهمزة ؛ قال : أظهرها .

﴿ لتجزى ﴾ أي الإظهار للجزاء ؛ رواه أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن وِقَاء بن إياس عن سعيد بن جبير .

وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنباري في كتاب الرد ؛ حدثني أبي حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائي ؛ ح وحدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحِمانيّ حدثنا محمد بن سهل .

قال النحاس ؛ وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد عن جبير : أنه قرأ "أَكَادُ أُخْفيها" بضم الهمزة .

قلت : وأما قراءة ابن جبير "أَخْفِيهَا" بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري

قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفيه إذا أظهرته .

وأنشد الفراء لامرئ القيس :

فإنْ تَدفِنُوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ . . .

وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

أراد لا نظهره ؛ وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون "أَخْفِيهَا" بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال : خَفيتُ الشيء وأَخفيته إذا أظهرتَه ؛ فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار .

وقال أبو عبيدة : خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد .

النحاس : وهذا حسن ؛ وقد حكاه عن أبي الخطّاب وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك في صدقه ؛ وقد روى عنه سيبويه وأنشد :

وإِنْ تَكتُموا الداءَ لا نُخْفِهِ . . .

وإِنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

كذا رواه أبو عبيدة عن أبي الخطاب بضم النون .

وقال امرؤ القيس أيضاً :

خَفَاهنَّ من أنفاقِهنّ كأنما . . .

خفاهنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

أي أظهرهن .

وروي : "من سحاب مركَّب" بدل "من عَشيٍّ مجلِّب" .

(17/495)

وقال أبو بكر الأنباري : وتفسير للآية آخر : "إِن الساعة آتية أكاد" انقطع الكلام على "أكاد" وبعده مضمر أكاد آتي بها ، والابتداء "أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ" .

قال ضابئ البُرْجميّ :

هَممْتُ ولم أَفعلْ وكِدتُ وليتَني . . .

تَرَكتُ على عثمانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ

أراد وكدت أفعل ، فأضمر مع كدت فعلاً كالفعل المضمر معه في القرآن .

قلت : هذا الذي اختاره النحاس ؛ وزيف القول الذي قبله فقال يقال : خَفَى الشيءَ يخفيه إذا أظهره ، وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضاً إذا أظهره ، وليس بالمعروف ؛ قال : وقد رأيت علي بن سليمان لما أشكل عليه معنى "أُخْفيها" عدل إلى هذا القول ، وقال : معناه كمعنى "أَخْفيها" .

قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و"أَخْفيها" قراءة شاذة ، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ، ومعنى المضمر أولى ؛ ويكون التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتي بها ؛ ودل "آتية" على آتي بها ؛ ثم قال : "أُخْفيها" على الابتداء .

وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التي هي القيامة ، والساعة التي يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام في "لِتجزى" متعلقة ب"أُخفِيها" .

وقال أبو علي : هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد ، ومعنى "أُخفِيها" أزيل عنها خفاءها ، وهو سترها كخِفاء الأخفية (وهي الأكسية) والواحد خفاء بكسر الخاء (ما تلف به) القربة ، وإذا زال عنها سترها ظهرت .

ومن هذا قولهم : أشكيته ، أي أزلت شكواه ، وأعديته أي قبلت استعداءه ولم أحوجه إلى إعادته .

وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن "كاد" زائدة مؤكدة .

قال : ومثله ﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : 40] لأن الظلمات التي ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه .

وروي معناه عن ابن جبير ، والتقدير : إن الساعة آتية أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .

وقال الشاعر :

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ . . .

فما إِنْ يَكادُ قِرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد فما يتنفَّس .

وقال آخر :

وأَلاَّ ألوم النفسَ فيما أصابني . . .

وألاَّ أكاد بالذي نِلتُ أَنجحُ

معناه : وألا أنجح بالذي نلت ؛ فأكاد توكيد للكلام .

وقيل : المعنى "أَكَادُ أُخْفِيهَا" أي أقارب ذلك ؛ لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم .

ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب .

قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب : قاربت الفعل ولم أفعل ، وما كدت أفعل معناه : فعلت بعد إبطاء .

وشاهده قول الله عزت عظمته ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : 71] معناه

: وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم .

وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد .

وقيل : معنى ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد أخفيها .

قال الأنباري : وشاهد هذا القول الفصيح من الشعر :

كادتْ وكِدتُ وتلكَ خيرُ إرادةٍ . . .

لو عَادَ من لَهْوِ الصَّبابةِ ما مَضَى

معناه : أرادت وأردت .

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين فيما ذكره الثعلبي : إن المعنى أكاد أخفيها من نفسي ؛

وكذلك هو في مصحف أبيّ .

وفي مصحف ابن مسعود : أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق .

وفي بعض القراءات : فكيف أظهرها لكم .

وهذا محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العرب في كلامها ، من أن أحدهم إذا بالغ

في كتمان الشيء قال : كدت أخفيه من نفسي .

والله تعالى لا يخفى عليه شيء ؛ قال معناه قطرب وغيره .

والله أعلم .

وقال الشاعر :

أيامَ تَصحبني هند وأخبرُهَا . . .

ما أَكْتم النفسَ من حَاجِي وأَسْرَارِي

فكيف يخبرها بما تكتم نفسه .

(19/495)

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " الزمخشري وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسي ، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ؛ ومحذوف لا دليل عليه مُطرَّح ، والذي غرهم منه أن في مصحف أبيّ : أكاد أخفيها من نفسي ؛ وفي بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسي ؛ أي إن إخفاءها كان من قِبلي ومن عندي لا من قِبل غيري .

وروي عن ابن عباس أيضاً : أكاد أخفيها من نفسي ؛ ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحداً .

وروي عن سعيد بن جبير قال : قد أخفاها .

وهذا على أن كاد زائدة .

أي إن الساعة آتية أخفيها ، والفائدة في إخفائها التخويف والتهويل .

وقيل : تعلق "لتجزى" بقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة ﴾ فيكون في الكلام تقديم وتأخير ؛

أي أقم الصلاة لتذكرني .

"لِتُجْزَى كل نفسٍ بِما تسعى" أي بِسعيها ﴿ إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ .

والله أعلم .

وقيل : هي متعلقة بقوله : "آتية" أي إن الساعة آتية لتجزى .

﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أي لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصديق لها ﴿ مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا واتبع هَوَاهُ ﴾ .

﴿ فتردى ﴾ أي فتهلك .

وهو في موضع نصب بجواب النهي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(20/495)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى الأمر بالعبادة وإقامة الصلاة ذكر الحامل على ذلك وهو البعث والمعاد

للجزاء فقال ﴿ إن الساعة آتية ﴾ وهي التي يظهر عندها ما عمله الإنسان وجزاء ذلك إما ثواباً وإما عقاباً .

وقرأ أبو الدرداء وابن جبير والحسن ومجاهد وحميد أَخْفِيها بفتح الهمزة ورويت عن ابن كثير وعاصم بمعنى أظهرها أي إنها من صحة وقوعها وتيقن كونها تكاد تظهر ، ولكن تأخرت إلى الأجل المعلوم وتقول العرب : خفيت الشيء أي أظهرته .

وقال الشاعر :

خفاهن من إيقانهن كأنما . . .

خفاهن ودق من عشي مجلب

وقال آخر :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه . . .

وإن توقدوا الحرب لا نقعد

ولام ﴿ لتجزَى ﴾ على هذه القراءة متعلقة بأخفيها أي أظهرها ﴿ لتجزَى ﴾ كل نفس .

وقرأ الجمهور ﴿ أُخْفِيها ﴾ بضم الهمزة وهو مضارع أخفي بمعنى ستر ، والهمزة هنا للإزالة أي أزلت الخفاء وهو الظهور ، وإذا أزلت الظهور صار للستر كقولك : أعجمت الكتاب أزلت عنه العجمة .

وقال أبو علي : هذا من باب السلب ومعناه ، أزيل عنها خفاءها وهو سترها ، واللام على قراءة الجمهور .

قال صاحب اللوامح متعلقة بآتية كأنه قال ﴿ إن الساعة آتية ﴾ لنجزي انتهى ، ولا يتم ذلك إلاّ إذا قدرنا ﴿ أكاد أخفيها ﴾ جملة اعتراضية ، فإن جعلتها في موضع الصفة لآتية فلا يجوز ذلك على رأي البصريين لأن أسم الفاعل لا يعمل إذا وصف قبل أخذ معموله .

وقيل : ﴿ أخفيها ﴾ بضم الهمزة بمعنى أظهرها فتتحد القراءتان ، وأخفى من الأضداد بمعنى الإظهار وبمعنى الستر .

قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد وقد حكاه أبو الخطاب وهو رئيس من رؤساء اللغة لا شك في صدقه و﴿ أكاد ﴾ من أفعال المقاربة لكنها مجاز هنا ، ولما كانت الآية عبارة عن شدة إخفاء أمر القيامة ووقتها وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أهيب على النفوس بالغ في إبهام وقتها فقال ﴿ أكاد أخفيها ﴾ حتى لا تظهر ألبتة ، ولكن لا بد من ظهورها .

وقالت فرقة ﴿ أكاد ﴾ بمعنى أريد ، فالمعنى أريد إخفاءها وقاله الأخفش وابن الأنباري وأبو مسلم .

قال أبو مسلم : ومن أمثالهم لا أفعل ذلك : ولا أكاد أي لا أريد أن أفعله .

وقالت فرقة : خبر كاد محذوف تقديره ﴿ أكاد ﴾ أتى بها لقربها وصحة وقوعها كما حذف في قول صابيء البرجمي :

هممت ولم أفعل وكذت وليتني . . .

تركت على عثمان تبكي حلائله

أي وكدت أفعل .

وتم الكلام ثم استأنف الإخبار بأنه يخفيها واختاره النحاس .

وقالت فرقة : معناه ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي إشارة إلى شدة غموضها عن المخلوقين وهو مروي عن ابن عباس .

ولما رأى بعضهم قلق هذا القول قال معنى من نفسي : من تلقائي ومن عندي .

وقالت فرقة ﴿ أكاد ﴾ زائدة لا دخول لها في المعنى بل الإخبار أن الساعة آتية وأن الله يخفي وقت إتيانها ، وروي هذا المعنى عن ابن جبير ، واستدلوا على زيادة كاد بقوله تعالى ﴿ لم يكد يراها ﴾ وبقول الشاعر وهو زيد الخيل :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه . . .

فما إن يكاد قرنه يتنفس

ويقول الآخر :

وأن لا ألوم النفس مما أصابني . . .

وأن لا أكاد بالذي نلت أنجح

ولا حجة في شيء من هذا .

وقال الزمخشري : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل : معناه ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطرح .

والذي غزهم منه أن في مصحف أبي ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي وفي بعض المصاحف ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي فكيف أظهركم عليها انتهى .

ورويت هذه الزيادة أيضاً عن أُبَيّ ذكر ذلك ابن خالويه .

وفي مصحف عبد الله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ من نفسي فكيف يعلمها مخلوق .

وفي بعض القراءات وكيف أظهرها لكم وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء قال : كدت أخفيه من نفسي ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء قال معناه قطرب وغيره .

وقال الشاعر : . . .

أيام تصحبني هند وأخبرها

ما كدت أكتمه عني من الخبر . . .

وكيف يكتم من نفسه ومن نحو هذا من المبالغة ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، والضمير في ﴿ أخفيها ﴾ عائد على ﴿ الساعة ﴾ و ﴿ الساعة ﴾ يوم القيامة بلا خلاف ، والسعي هنا العمل .

والظاهر أن الضمير في ﴿ عنها ﴾ و ﴿ بها ﴾ عائد على الساعة .

وقيل : على الصلاة .

وقيل ﴿ عنها ﴾ عن الصلاة و ﴿ بها ﴾ أي بالساعة ، وأبعد جداً من ذهب إلى أن الضمير في ﴿ عنها ﴾ يعود على ما تقدم من كلمة ﴿ لا إله إلاّ أنا فاعبدني ﴾ .

والظاهر أن الخطاب في ﴿ فلا يصدنك ﴾ لموسى عليه السلام ، ولا يلزم من النهي عن الشيء إمكان وقوعه ممن سبقت له العصمة ، فينبغي أن يكون لفظاً وللسامع غيره ممن يمكن وقوع ذلك منه ، وأبعد من ذهب إلى أنه خطاب للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) لفظاً ولأمته

معنى .

وقال الزمخشري : فإن قلت : العبارة أنهى من لا يؤمن عن صدّ موسى ، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق ؟ قلت : فيه وجهان .

أحدهما : أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب ، فذكر السبب ليدل على المسبب .

والثاني : أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ها هنا .

المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صلب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ﴿ فتردى ﴾ يجوز أن يكون منصوباً على جواز النهي وأن يكون مرفوعاً أي فأنت تردى .

وقرأ يحيى فَتِردى بكسر التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(23/495)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾

تعليلٌ لوجوب العبادة وإقامةِ الصلاة أي كائنةٌ لا محالة ، وإنما عُبّر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمرٍ محقق متوجّهٍ نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أي لا أظهرها ، بأن أقول : إنها آتيةٌ ، ولولا أن ما في الإخبار بذلك من اللطف وقطعِ الأعذار لما فعلتُ ، أو أكاد أظهرُها بإيقاعها من أخفاه إذا أظهره بسلب خفائِه ، ويؤيده القراءةُ بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره ، وقيل : أخفاه من الأضداد يجيء بمعنى الإظهار والسَّترِ .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ متعلقٌ بآتيةٌ ، وما بينهما اعتراضٌ أو بأخفيها على المعنى الأخير ، وما مصدرية أي لتُجزى كلُّ نفس بسعيها في تحصيل ما ذُكر من الأمور المأمور بها ، وتخصيصُه في معرِض الغاية لإتيانها مع أنه لجزاء كلِّ نفس بما صدر عنها سواءٌ كان سعياً فيما ذكر ، أو تقاعداً عنه بالمرة ، أو سعياً في تحصيل ما يُضادّه للإيذان بأن المرادَ بالذات من إتيانها هو الإثابةُ بالعبادة ، وأما العقابُ بتركها فمن مُقتَضَيات سوءِ اختيارِ العصاة وبأن المأمورَ به في قوة الوجوبِ والساعةَ في شدة الهول والفظاعة يوجبان على كل نفسٍ أن تسعى في الامتثال بالأمر وتجدَّ في تحصيل ما ينجّيها من الطاعات ، وحينئذ تحترز عن اقتراف ما يُرديها من المعاصي ، وعليه مدارُ الأمر في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فإن الابتلاءَ مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيح أيضاً لا إلى الحسن والأحسَن فقط قد عُلّق بالأخيرين ، لما ذكر من أن المقصودَ الأصليَّ من إبداع تلك البدائعِ على ذلك النمط الرائعِ إنما هو ظهورُ كمالِ إحسانِ المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقةِ وأكملِ الأنحاءِ اللائقةِ يوجب العملَ بموجبه بحيث لا يحيد أحدٌ عن سَنَنه المستبين ، بل يهتدي كلُّ فرد إلى ما يرشد إليه من مطلق الإيمان والطاعة ، وإنما التفاوتُ بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعفِ ، وأما الإعراض عن ذلك والوقوعُ في مهاوي الضلال فبمعزل من الوقوع فضلاً عن أن ينتظم في سلك الغايةِ لذلك الصنعِ البديع ، وإنما هو عمل يصدُر عن عامله بسوء اختيارِه من غير مصحّحٍ له أو مسوّغ . هذا ويجوز أن يُراد بالسعي مطلقُ العمل .

(25/495)

﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أي عن ذكر الساعةِ ومراقبتِها ، وقيل : عن تصديقها والأولُ هو الأليقُ بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وإن كان النهيُ بطريق التهييجِ والإلهاب ، وتقديمُ

الجارِّ والمجرور على قوله تعالى : ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدّم والتشويقِ إلى المؤخّر فإن ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفةً له فيتمكن عند ورودِه لها فضلُ تمكّنٍ ، ولأن في المؤخر نوعَ طولٍ ربما يُخِلُّ تقديمُه بجزاله النظمِ الكريم ، وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه في الحقيقة نهيٌ له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجهٍ وآكَدِه ، فإن النهيَ عن أسباب الشيءِ ومباديه المؤديةِ إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني وإبطالٌ للسببية من أصلها كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ الخ ، فإن صدَّ الكافر حيث كان سبباً لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهيُ عنه نهياً بأصله وموجبه وإبطالاً له بالكلية ، ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبَّب وإرادةِ النهي عن السبب على أن يراد نهيُه عليه الصلاة والسلام عن إظهار لينِ الجانبِ للكفرة ، فإن ذلك سببٌ لصدّهم إياه عليه الصلاة والسلام كما في قوله : لا أُرينّك هاهنا ، فإن المراد به نهيُ المخاطب عن الحضور لديه الموجبِ لرؤيته ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية ﴿ فتردى ﴾ أي فتهلِكَ فإن الإغفالَ عنها وعن تحصيل ما ينجّي عن أهوالها مستتبعٌ للهلاك لا محالة ، وهو في محل النصبِ على جواب النهي أو في محلّ الرفعِ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي فأنت تردى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾

تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أي كائنة لا محالة ، وإنما عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أقرب أن أخفي الساعة ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية ولولا أن في الإخبار بذلك من اللطف وقطع الأعذار لما فعلت ، وحاصله أكاد أبالغ في إخفائها فلا أجمل كما لم أفصل ، والمقاربة هنا مجاز كما نص عليه أبو حيان أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره وإلى ذلك ذهب الأخفش.

وابن الأنباري.

وأبو مسلم ، ومن مجيء كاد بمعنى أراد كما قال ابن جني في المحتسب قوله :

كادت وكدت وتلك خير إرادة . . .

لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

وروي عن ابن عباس.

وجعفر الصادق رضي الله تعالى عنهما أن المعنى أكاد أخفيها من نفسي ، ويؤيده أن في مصحف أبي كذلك ، وروى ابن خالويه عنه ذلك بزيادة فكيف أظهركم عليها ، وفي بعض القراآت بزيادة فكيف أظهرها لكم ، وفي مصحف عبد الله بزيادة فكيف يعلمها مخلوق وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة في كتمان الشيء قال : كدت أخفيه من نفسي ومن ذلك قوله :

أيام تصحبني هند وأخبرها . . .

ما كدت أكتمه عني من الخبر

ونحو هذا من المبالغة قوله صلى الله عليه وسلم في حديث السبعة الذين يظلهم تحت ظل " ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " ويجعل ذلك من باب المبالغة يندفع ما قيل إن إخفاء ذلك من نفسه سبحانه محال فلا يناسب دخول كاد عليه ، ولا حاجة لما قيل : إن معنى من نفسي من تلقائي ومن عندي ، والقرينة على هذا المحذوف إثباته في المصاحف ، وكونه قرينة خارجية لا يضر إذ لا يلزم في القرينة وجودها في الكلام .

وقيل : الدليل عليه أنه لا بد لأخفيها من متعلق وهو من يخفى منه .

ولا يجوز أن يكون من الخلق لأنه تعالى أخفاها عنهم لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] فيتعين ما ذكر .

وفيه أن عدم صحة تقدير من الخلق ممنوع لجواز إرادة إخفاء تفصيلها وتعيينها مع أنه يجوز أن لا يقدر له متعلق ، والمعنى أوجد إخفاءها ولا أقول : إنها آتية .

وقال أبو علي : المعنى أكاد أظهرها بإيقاعها على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها أي ساترها وهو في الأصل ما يلف به القربة ونحوها من كساء وما يجري مجراه .

ومن ذلك قول امرىء القيس :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه . . .

وإن توقدوا الحرب لا نقعد

ويؤيده قراءة أبي الدرداء .

وابن جبير .

والحسن .

ومجاهد .

وحميد .

ورويت عن ابن كثير .

وعاصم ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ بفتح الهمزة فإن خفاه بمعنى أظهره لا غير في المشهور ، وقال أبو عبيدة كما حكاه أبو الخطاب أحد رؤساء اللغة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد .

ومتعلق الإخفاء على الوجه السابق في تفسير قراءة الجمهور والإظهار ليس شيئاً واحداً حتى تتعارض القراءتان .

وقالت فرقة : خبر كاد محذوف أكاد آتي بها كما حذف في قول صابىء البرجمي :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني . . .

تركت على عثمان تبكي حلائله

أي وكدت أفعل وتم الكلام ثم استأنف الأخبار بأنه تعالى يخفيها ، واختار النحاس وقالت فرقة أخرى : ﴿ أَكَادُ ﴾ زائدة لا دخول لها في المعنى بل المراد الإخبار بأن الساعة آتية وإن الله تعالى يخفي وقت إتيانها .

وروي هذا المعنى عن ابن جبير .

واستدلوا على زيادة كاد بقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور : 40] .

ويقول زيد الخيل :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه . . .

فما أن يكاد قرنه يتنفس

ولا حجة في ذلك كما لا يخفى ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بآتية كما قال صاحب اللوامح وغيره وما بينهما اعتراض لا صفة حتى يلزم إعمال اسم الفاعل الموصوف وهو لا يجوز على رأي البصريين أو بأخفيها على أن المراد أظهرها لا على أن المراد أسترها لأنه لا وجه لقولك : أسترها لأجل الجزاء ، وبعضهم جوز ذلك ، ووجهه بأن تعمية وقتها لتنتظر ساعة .

فساعة فيحترز عن المعصية ويجتهد في الطاعة .

وتعقب بأنه تكلف ظاهر مع أنه لا صحة له إلا بتقدير لينتظر الجزاء أو لتخاف وتخشى ، وما مصدرية أي لتجزى بسعيها وعلمها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وهذا التعميم هو الظاهر ، وقيل : لتجزى بسعيها في تحصيل ما ذكر من الأمور المأمور بها ، وتخصيصه في معرض الغاية لإتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعياً فيما ذكر أو تقاعداً عنه بالمرة أو سعياً في تحصيل ما يضاده للإيذان بأن المراد بالذات من إتيانها هو الإثابة بالعبادة ، وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به في قوة الوجوب والساعة في شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى في الامتثال بالأمر وتجد في تحصيل ما ينجيها من الطاعات وتحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصي انتهى .

ولا يخفى ما فيه ، وقيل : ما موصولة أي بالذي تسعى فيه ، وفيه حذف العائد المجرور بالحرف مع فقد شرطه .

وأجيب بأنه يجوز أن يكون القائل لا يشترط ، وقيل : يقدر منصوباً على التوسع .

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾

(29/495)

خطاب لموسى عليه السلام ، وزعم بعضهم أنه لنبينا صلى الله عليه وسلم لفظاً ولأمته معنى وهو في غاية البعد ﴿ عَنْهَا ﴾ أي الساعة ، والمراد عن ذكرها ومراقبتها ، وقيل : عن الإيمان بإتيانها ورجح الأول بأنه الأليق بشأن موسى عليه السلام وإن كان النهي بطريق التهييج والإلهاب ورجوع ضمير ﴿ عَنْهَا ﴾ إلى ﴿ الساعة ﴾ [طه : 15] هو الظاهر وكذا رجوع ضمير ﴿ بِهَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ وقيل : الضميران راجعان إلى كلمة ﴿ لا إله إِلا أَنَاْ ﴾ [طه : 14] وقيل : الأول راجع إلى العبادة والثاني راجع إلى الساعة ، وقيل : هما راجعان إلى الخصال المذكورة ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن في المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم ، والنهي وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكافر عن صد

موسى عليه السلام عن الساعة لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية عن أصلها كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ [المائدة : 2] الخ فإن صد الكافر حيث كان سبباً لانصداده عليه السلام كان النهي عنه نهياً بأصله وموجبه وإبطالاً له بالكلية ، ويجوز أن يكون نهياً عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة فإن ذلك سبب لصدهم إياه عليه السلام كما في قوله : لا أرينك ههنا فإن المراد به نهي المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته فكأنه قيل : كن شديد الشكيمة صلب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالساعة وينكر البعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ، وفيه حث على الصلابة في الدين وعدم اللين المطمع لمن كفر ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فصده عن الإيمان ﴿ فتردى ﴾ أي فتهلك فإن الإغفال عن

(30/495)

الساعة وعن تحصيل ما ينجي عن أحوالها مستتبع للهلاك لا محالة .

وذكر العلامة الطيبي أنه يمكن أن يحمل ﴿ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ ﴾ على المعرض عن عبادة الله تعالى

المتهالك في الدنيا المنغمس في لذاتها وشهواتها بدليل ﴿ واتبع ﴾ الخ ويحمل نهي الصد على نهي النظر إلى متمتعاته من زهرة الحياة الدنيا ليكون على وزان قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني والقرءان العظيم لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ﴾ [الحجر : 87 ، 88] الخ ، ويحمل متابعة الهوى على الميل إلى الإخلاد إلى الأرض كقوله تعالى : ﴿ ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض واتبع هَوَاهُ ﴾ [الأعراف : 176] يعني تفرغ لعبادتي ولا تلتفت إلى ما الكفرة فيه فإنه مهلك فإن ما أوليناك واخترناه لك هو المقصد الأسنى وفي هذا حث عظيم على الاشتغال بالعبادة وزجر بليغ عن الركون إلى الدنيا ونعيمها ، ولا يخلو عن حسن وإن كان خلاف الظاهر .

و﴿ تردى ﴾ يحتمل أن يكون منصوباً في جواب النهي وأن يكون مرفوعاً والجملة خبر مبتدأ محذوف أي فأنت تردى بسبب ذلك .

وقرأ يحيى ﴿ فتردى ﴾ بكسر التاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(31/495)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ طه ﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبي إسحاق ، وأمالهما جميعاً

أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش .

وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ الباقون بالتفخيم .

قال الثعلبي : وهي كلها لغات صحيحة فصيحة .

وقال النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : الأولى أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة ، والعلة الثانية أن الطاء من موانع الإمالة .

وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال : الأوّل أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به .

والثاني : أنها بمعنى : يا رجل في لغة عكل ، وفي لغة عكّ .

قال الكلبي : لو قلت لرجل من عك : يا رجل لم يجب حتى تقول : طه ، وأنشد ابن جرير في ذلك :

دعوت بطه في القتال فلم يجب . . . فخفت عليه أن يكون موائلا

ويروى مزايلاً وقيل : إنها في لغة عكّ بمعنى : يا حبيبي .

وقال قطرب : هي كذلك في لغة طيّ أي بمعنى : يا رجل ، وكذلك قال الحسن وعكرمة

وقيل : هي كذلك في اللغة السريانية ، حكاه المهدوي .

وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية ، وبه قال السديّ وسعيد بن جبير .

وحكى الثعلبي : عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة ، ورواه عن عكرمة ، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل .

القول الثالث : أنها اسم من أسماء الله سبحانه .

والقول الرابع : أنها اسم للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

القول الخامس : أنها اسم للسورة .

القول السادس : أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى .

ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة .

القول السابع : أن معناها : طوبى لمن اهتدى .

القول الثامن : أن معناها : طأ الأرض يا محمد .

(32/495)

قال ابن الأنباري : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى التروّح ، فقيل له : طأ الأرض ، أي لا تتعب حتى تحتاج إلى التروّح .

وحكى القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم

إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ يعني : طأ الأرض يا محمد ، وحكي عن الحسن البصري أنه قرأ : " طه " على وزن دع ، أمر بالوطء ، والأصل : طأ ، فقلبت الهمزة هاء .

وقد حكى الواحدي عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها : يا رجل ، يريد النبي صلى الله عليه وسلم قال : وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد ابن جبير والضحّاك ، وقتادة ومجاهد وابن عباس في رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول : هي بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ، ويقول الكلبي : هي بلغة عك .

قال ابن الأنباري : ولغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا المعنى ؛ لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش .

انتهى .

وإذا تقرّر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قدّمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة ، وهكذا إذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم واستعملتها العرب في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز ، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب .

وجملة : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى

الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب ، والشقاء يجيء في معنى التعب .

قال ابن كيسان : وأصل الشقاء في اللغة : العناء والتعب ، ومنه قول الشاعر :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله . . . وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ ﴾ [الكهف : 6] .

قال النحاس : بعض النحويين يقول : هذه اللام في : ﴿ لتشقى ﴾ لام النفي ، وبعضهم يقول : لام الجحود .

وقال ابن كيسان : هي لام الخفض ، وهذا التفسير للآية هو على قول من قال : إن طه كسائر فواتح السور التي ذكرت تعديداً لأسماء الحروف ، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ خبراً عنها ، وهي في موضع المبتدأ ، وأما على قول من قال : إن معناها : يا رجل ، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض ، فتكون الجملة مستأنفة لصرفه صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من المبالغة في العبادة .

وانتصاب ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا كقولك : ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقاً عليك .

وقال الزجاج : هو بدل من لتشقى ، أي : ما أنزلناه إلا تذكرة .

وأنكره أبو علي الفارسي من جهة أن التذكرة ليست بشقاء ، قال : وإنما هو منصوب على المصدرية ، أي أنزلناه لتذكر به تذكرة ، أو على المفعول من أجله ، أي ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ، ما أنزلناه إلا للتذكرة .

وانتصاب ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض ﴾ على المصدرية ، أي أنزلناه تنزيلاً .

وقيل : بدل من قوله ﴿ تذكرة ﴾ وقيل : هو منصوب على المدح .

وقيل : منصوب ب ﴿ يخشى ﴾ أي : يخشى تنزيلاً من الله على أنه مفعول به .

وقيل : منصوب على الحال بتأوله باسم الفاعل .

وقرأ أبو حيوة الشامي : " تنزيل " بالرفع على معنى هذا تنزيل ؛ و﴿ ممن خلق ﴾ متعلق ب ﴿ تنزيلاً ﴾ أو بمحذوف هو صفة له ، وتخصيص خلق الأرض والسموات ؛ لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عزّ وجلّ ، والعلى : جمع العليا ، أي المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر .

ومعنى الآية : إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله .

وارتفاع ﴿ الرحمن ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش ، ويجوز أن يكون مرتفعاً على المدح أو على الابتداء .

وقرئ بالجر ، قال الزجاج : على البدل ممن ، وجوز النحاس أن يكون مرتفعاً على البدل من المضمر في خلق ، وجملة ﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ .

قال أحمد بن يحيى : قال ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء .

وقيل : هو كناية عن الملك والسلطان ، والبحث في تحقيق هذا يطول ، وقد تقدّم البحث عنه في الأعراف .

والذي ذهب إليه أبو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستوٍ على عرشه بغير حدّ ولا كيف ، وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذي يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل .

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي أنه مالك كل شيء ومدبره ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ الثرى في اللغة : التراب النديّ ، أي ما تحت التراب من شيء .

قال الواحدي : والمفسرون يقولون : إنه سبحانه أراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ الجهر بالقول : هو رفع الصوت به ، والسرّ : ما حدّث به الإنسان غيره وأسرّه إليه ، والأخفى من السرّ : هو ما حدّث به الإنسان نفسه وأخطره بباله .

والمعنى : إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنيّ عن ذلك ، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ ، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول ، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف : 205] .

وقيل : السر ما أسرّ الإنسان في نفسه ، والأخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه .

(35/495)

وقيل : السرّ : ما أضمره الإنسان في نفسه ، والأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد ، وقيل : السرّ سرّ الخلائق ، والأخفى منه : سرّ الله عزّ وجلّ ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال : إن الأخفى : ما ليس في سرّ الإنسان وسيكون في نفسه .

ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المنزه عن الشريك

المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى فقال : ﴿ اللّهُ لا إله إلا هُوَ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾

فالله خبر مبتدأ محذوف ، أي الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله ، وجملة .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه ، أي لا إله في الوجود إلا هو

، وهكذا جملة : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى ،

وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح .

وقد تقدم بيانها في قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] .

من سورة الأعراف والحسنى تأنيث الأحسن ، والأسماء مبتدأ وخبرها الحسنى .

ويجوز أن يكون الله مبتدأ وخبره الجملة التي بعده ، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في يعلم .

ثم قرّر سبحانه أمر التوحيد بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة ، والخبر

الغريب ، فقال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ الاستفهام للتقرير ، ومعناه : أليس قد

أتاك حديث موسى .

وقيل : معناه قد أتاك حديث موسى .

وقال الكلبي : لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك .

وفي سياق هذه القصة تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوّة ،

وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها ، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله .

والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى .

و﴿ إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ ظرف للحديث.

وقيل: العامل فيه مقدر، أي اذكر.

(36/495)

وقيل: يقدر مؤخراً أي حين رأى ناراً كان كيت وكيت، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافراً إلى أمه بعد استئذانه لشعيب فلما رآها ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا ﴾ والمراد بالأهل هنا: امرأته، والجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم؛ وقيل: المراد بهم المرأة والولد والخادم، ومعنى ﴿ امكثوا ﴾: أقيموا مكانكم، وعبر بالمكث دون الإقامة؛ لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك.

وقرأ حمزة: "لأهله" بضم الهاء، وكذا في القصص.

قال النحاس: وهذا على لغة من قال: مررت بهو يا رجل، فجاء به على الأصل وهو جائز، إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة.

﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرت، يقال: آنست الصوت سمعته، وآنست الرجل: أبصرته.

وقيل: الإيناس: الإبصار البين.

وقيل : الإيناس مختص بإبصار ما يؤنس .

والجملة تعليل للأمر بالمكث ، ولما كان الإتيان بالقبس ، ووجود الهدى متوقعين بني الأمر على الرجاء ، فقال : ﴿ لَّعَلّي آتِيكُمْ مّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي أجيئكم من النار بقبس .

والقبس : شعلة من النار ، وكذا المقباس ، يقال : قبست منه نارا ًأقبس نارا ً قبساً فأقبسني ، أي أعطاني وكذا اقتبست .

قال اليزيدي : أقبست الرجل علماً وقبسته نارا ً ، فإن كنت طلبتها له قلت : أقبسته .

وقال الكسائي : أقبسته نارا ً وعلماً سواء ، قال : وقبسته أيضاً فيهما .

﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ أي هاديا ً يهديني إلى الطريق ويدلني عليها .

قال الفراء : أراد هاديا ً ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف ، أي ذا هدى ، وكلمة " أو " في الموضعين لمنع الخلوّ دون الجمع ، وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها .

(37/495)

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ ﴾ أي : فلما أتى النار التي آنسها ﴿ نُودِيَ ﴾ من الشجرة ، كما هو مصرّح بذلك في سورة القصص ، أي من جهتها ، ومن ناحيتها ﴿ نُودِيَ يا موسى إِنّي أَنَاْ

ربُّكَ ﴾ أي نودي ، فقيل : يا موسى .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر وابن محيصن وحميد واليزيدي : " أني " بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بكسرها ، أي بأني .

﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ أمره الله سبحانه بخلع نعليه ؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع ، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب .

وقيل : إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ .

وقيل : معنى الخلع للنعلين : تفريغ القلب من الأهل والمال ، وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ﴾ المقدّس : المطهر .

والقدس : الطهارة .

والأرض المقدّسة : المطهرة ؛ سميت بذلك ؛ لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ، و﴿ طوى ﴾ اسم للوادي .

قال الجوهري : وطوى : اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ، يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، وقرأ عكرمة : " طوى " بكسر الطاء ، وقرأ الباقون بضمها .

وقيل : إن طوى كثنى من الطي مصدر لنودي ، أو للمقدس ، أي نودي نداءين ، أو قدس مرة بعد أخرى .

﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ قرأ أهل المدينة، وأهل مكة وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي ﴿ وأنا اخترتك ﴾ بالإفراد.

وقرأ حمزة: "وإنا اخترناك" بالجمع.

قال النحاس: والقراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام لقوله: ﴿ يا موسى إِنِى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ ومعنى ﴿ اخترتك ﴾: اصطفيتك للنبوّة والرسالة، والفاء في قوله: ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها و"ما" موصولة أو مصدرية، أي فاستمع للذي يوحى إليك، أو للوحي، وجملة ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله ﴾ بدل من ما في: ﴿ لما يوحى ﴾.

(38/495)

ثم أمره سبحانه بالعبادة، فقال: ﴿ فاعبدنى ﴾ والفاء هنا كالفاء التي قبلها؛ لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ خصّ الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله ﴿ لذكري ﴾ أي لتذكرني فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة، أو المعنى: لتذكرني فيهما لاشتمالهما على الأذكار،

أو المعنى : أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة .

وقيل : المعنى : لأذكرك بالمدح في عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول .

وجملة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر ، أي إن الساعة التي هي وقت الحساب والعقاب آتية ، فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة .

ومعنى ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ : مختلف فيه .

قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسي ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة .

وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي ، أي لم أطلع عليه أحداً ؛ ومعنى الآية : أن الله بالغ في إخفاء الساعة ، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب .

وقد روي عن سعيد بن جبير أنه قرأ : " أخفيها " بفتح الهمزة ، ومعناه : أظهرها .

وكذا روى أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن وفاء بن إياس عن سعيد ابن جبير .

قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قال القرطبي : وكذا رواه ابن الأنباري في كتاب الردّ قال : حدّثني أبي ، حدّثنا محمد بن

الجهم ، حدثنا الفراء حدثنا الكسائي فذكره .

قال النحاس : وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ أُخفيها ﴾ بضم الهمزة .

قال ابن الأنباري : قال الفراء : ومعنى قراءة الفتح : أكاد أظهرها ، من خفيت الشيء : إذا أظهرته أخفيه .

(39/495)

قال القرطبي : وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون ﴿ أخفيها ﴾ بضم الألف معناه : أظهرها ؛ لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار .

قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد .

قال النحاس : وهذا حسن ، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر ، وذلك قول امرئ القيس :

فإن تكتموا الداء لا نخفه . . . وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أي : وإن تكتموا الداء لا نظهره .

وقد حكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنه بضم النون من نخفه، وقال: امرؤ القيس:

خفاهن من أنفاقهن كأنما . . . خفاهن ودق من عشيّ مُجَلَّب

أي أظهرهن.

وقد زيف النحاس هذا القول وقال: ليس المعنى على أظهرها، ولا سيما و" أخفيها" قراءة شاذة، فكيف تردّ القراءة الصحيحة الشائعة.

وقال ابن الأنباري: في الآية تفسير آخر، وهو أن الكلام ينقطع على: ﴿ أكاد ﴾ وبعده مضمر، أي أكاد آتي بها، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمي:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني . . . تركت على عثمان تبكي حلائله

أي وكدت أفعل.

واختار هذا النحاس.

وقال أبو عليّ الفارسي: هو من باب السلب وليس من الأضداد، ومعنى أخفيها: أزيل عنها خفاءها، وهو سترها، ومن هذا قولهم: أشكيته، أي أزلت شكواه.

وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن أكاد زائدة للتأكيد، قال: ومثله ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور: 40]، ومثله قول الشاعر:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه . . . فما أن يكاد قرنه يتنفس

قال : والمعنى : أكاد أخفيها ؛ أي أقارب ذلك ، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم ، جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم ، ودلّ على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا .

وقوله : ﴿ لتجزى كُلُّ نفْسٍ بمَا تسعى ﴾ متعلق بآتية ، أو بأخفيها ، و" ما " مصدرية ، أي لتجزى كل نفس بسعيها .

(40/495)

والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال ، فهو هنا يعمّ الأفعال والتروك ؛ للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به .

﴿ فَلاَيَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أي لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة ، والتصديق بها ، أو عن ذكرها ومراقبتها ﴿ مَن لاَّيُؤْمِنُ بِهَا ﴾ من الكفرة ، وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر ، فهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وسلم عن الانصداد ، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، كما هو معروف .

وقيل : الضمير في : ﴿ عنها ﴾ للصلاة وهو بعيد ، وقوله : ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ معطوف على ما قبله ، أي من لا يؤمن ، ومن اتبع هواه أي هوى نفسه بالانهماك في اللذات الحسية الفانية ﴿ فتردى ﴾ أي فتهلك ؛ لأن انصدادك عنها بصدّ الكافرين لك مستلزم للهلاك

ومستتبع له .

وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أوّل ما نزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه ، فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج ابن عساكر عنه أيضاً قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام ، فأنزل الله هذه الآية" .

وأخرج البزار عن عليّ قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ " وحسن السيوطي إسناده .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً بأطول منه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل الله : ﴿ طه ﴾ برجليك فما أنزلنا عليك القرآن لتشقى .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ طه ﴾ قال : يا رجل .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ بالنبطية ، أي طأ يا رجل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : هو كقولك : اقعد .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال : ﴿ طه ﴾ بالنبطية : يا رجل .

وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ طه ﴾ : يا رجل بالسريانية .

وأخرج الحاكم عنه أيضاً قال : ﴿ طه ﴾ هو كقولك : يا محمد بلسان الحبش .

وفي هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف وتدافع .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لي عند ربي عشرة أسماء " ، قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية : محمد ، وأحمد ، وأبو القاسم ، والفاتح ، والخاتم ، والماحي ، والعاقب ، والحاشر .

وزعم سيف أن أبا جعفر قال له الاسمان الباقيان : طه ويس .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ قال : يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وكان يقوم الليل على رجليه فهي لغة لعك إن قلت لعكي : يا رجل ، لم يلتفت ، وإذا قلت طه ، التفت إليك .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ طه ﴾ قسم أقسم الله به ، وهو

من أسمائه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ قال : الثرى : كل شيء مبتل .

وأخرج أبو يعلى عن جابر : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل ما تحت هذه الأرض ؟ قال : " الماء " ، قيل : فما تحت الماء ؟ قال : " ظلمة " قيل : فما تحت الظلمة ؟ قال : " الهواء " قيل : فما تحت الهواء ؟ قال : " الثرى " قيل : فما تحت الثرى ؟ قال : " انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق " وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه .

(42/495)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : و﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ قال : السرّ ما أسرّه ابن آدم في نفسه ، وأخفى : ما خفي عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله ، فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة وهو كقوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ [لقمان : 28] .

وأخرج الحاكم وصححه عنه في الآية قال : السرّ : ما علمته أنت ، وأخفى : ما قذف الله

في قلبك مما لم تعلمه .

وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي بلفظ : يعلم ما تسرّ في نفسك ويعلم ما تعمل غداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ يقول : من يدلّ على الطريق .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عليّ في قوله : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ قال : كانتا من جلد حمار ميت فقيل له : اخلعهما .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس ﴾ قال المبارك : ﴿ طوى ﴾ قال : اسم الوادي .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ بالواد المقدس طُوًى ﴾ يعني : الأرض المقدسة ، وذلك أنه مرّ بواديها ليلاً فطوى يقال : طويت وادي كذا وكذا .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ طُوًى ﴾ قال : طإ الوادي .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أنس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِذِكْرِى ﴾ " وأخرج الترمذي وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نسي صلاة

فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِي ﴾ " وكان ابن شهاب يقرؤها :

" للذكرى " .

(43/495)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ قال : لا أظهر عليها أحداً غيري .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال :

﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ من نفسي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(44/495)

وقال القاسمى :

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره . بقوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾

أي : واقعة لا محالة : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ أي : بسعيها عن

اختيار منها . واللام متعلقة بآتية . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفي كاد معنى

القرب من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها : أن كَادَ منه تعالى واجب . والمعنى أنا أخفيها عن الخلق . كقوله : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ [الإسراء : 51] ، أي : هو قريب .

ثانيها : قال أبو مسلم : أَكَادُ بمعنى أريد كقوله : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : 76] .

ومن أمثالهم المتداولة : لا أفعل ذلك ولا أكاد , أي : ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير أَكَادُ بأريد هو أحد معانيها . كما نقله ابن جني في " المحتسب " عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله .

~ كادتْ وكدتُ وتلك خيرُ إرادةٍ لو عاد من لَهْوِ الصِّبابةِ مَا مَضَى

بمعنى أرادت . لقوله : تلك خير إرادة .

ثالثها : أن أَكَادُ صلة في الكلام . قال زيد الخيل .

~ سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سلاحُهُ فما إنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

رابعها : أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالاً ولا أقول هي آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلا أن في إجمال ذكرها حكمة ، وهي اللطف بالمؤمنين ، لحثهم على الأعمال الصالحة ، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يعتذروا بعدم العلم . وثمة وجوه أخر لا تخلو من تكلف ، وإن اتسع اللفظ لها .

(45/495)

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أي : عن تصديق الساعة : ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي : ما تهواه نفسه من الشهوات وترك النظر والاستدلال : ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أي : فتهلك .

قال الزمخشري : يعني أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شيء أطمّ على الكفرة ، ولا هم أشد له نكيراً من البعث . فلا يهولنّك وفور دهمائهم, ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك . واعلم أنهم ، وإن كثروا تلك الكثرة ، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه . لا البرهان وتدابره . وفي هذا حث عظيم على العلم بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 11 صـ 127.128 ﴾

(46/495)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾

مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدّين بعد أصل التوحيد ، وهو إثبات الجزاء .

والساعة : علَم بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب .

وجملة ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ في موضع الحال من الساعَة ، أو معترضة بين جملة وعلّتها .

والإخفاء : الستر وعدم الإظهار ، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام .

والمشهورُ في الاستعمال أن "كاد" تدلّ على مقاربة وقوع الفعل المخبر به عنها ، فالفعل بعدها في حيّز الانتفاء ، فقوله تعالى : ﴿ كادُوا يكونون عليه لِبداً ﴾ [الجنّ : 19] يدلّ على أن كونهم لِبَداً غير واقع ولكنه اقترب من الوقوع .

ولما كانت الساعة مخفية الوقوع ، أي مخفية الوقت ، كان قوله ﴿ أكاد أُخفيها ﴾ غير واضح المقصود ، فاختلفوا في تفسيره على وجوه كثيرة أمثلها ثلاثة .

فقيل : المراد إخفاء الحديث عنها ، أي من شدّة إرادة إخفاء وقتها ، أي يراد ترك ذكرها ولعلّ توجيه ذلك أنّ المكذبين بالساعة لم يزدهم تكرر ذكرها في القرآن إلا عناداً على إنكارها .

وقيل : وقعت ﴿ أكَادُ ﴾ زائدة هنا بمنزلة زيادة كان في بعض المواضع تأكيداً للإخفاء .

والمقصود : أنا أخفيها فلا تأتي إلاّ بغتة .

وتأوّل أبو عليّ الفارسي معنى ﴿ أُخفِيها ﴾ بمعنى أظهرها ، وقال : همزة ﴿ أخفيها ﴾ للإزالة مثل همزة أعْجَم الكتابَ ، وأشكى زيداً ، أي أزيل خفاءَها .

والخفاء : ثوب تلفّ فيه القِربة مستعار للستر .

فالمعنى : أكاد أظهرها ، أي أظهر وقوعها ، أي وقوعها قريب .

وهذه الآية من غرائب استعمال (كاد) فيضم إلى استعمال نفيها في قوله : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ في سورة البقرة (71) .

وقوله لتجزى ﴾ يتعلق بآتِيَةٌ وما بينهما اعتراض .

وهذا تعليم بحكمة جعل يوم للجزاء .

واللام في ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ متعلّق بآتِيَةٌ .

(47/495)

ومعنى ﴿ بِمَا تسعى ﴾ بما تعمل ، فإطلاق السعي على العمل مجاز مرسل ، كما تقدم في قوله : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾ في سورة الإسراء (19) .

وفُرع على كونها آتية وأنها مخفاة التحذيرُ من أن يصده عن الإيمان بها قوم لا يؤمنون بوقوعها اغتراراً بتأخر ظهورها ، فالتفريع على قوله أكاد أُخفيها ﴾ أوقع لأنّ ذلك الإخفاء هو الذي يُشبّه به الذين أنكروا البعث على الناس ، قال تعالى : ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴾ [الإسراء : 51] وقال : ﴿ وإذا قيل إن

وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] .

وصيغ نهي موسى عن الصدّ عنها في صيغة نهي من لا يؤمن بالساعة عن أن يصدّ موسى عن الإيمان بها ، مبالغة في نهي موسى عن أدنى شيء يحول بينه وبين الإيمان بالساعة ، لأنه لما وجّه الكلام إليه وكان النّهي نهي غير المؤمن عن أن يصدّ موسى ، عُلم أنّ المراد نهي موسى عن ملابسة صدّ الكافر عن الإيمان بالساعة ، أي لا تكن ليّن الشكيمة لمن يصدك ولا تُصْغ إليه فيكون لينك له مجرئاً إياه على أن يصدك ، فوقع النهي عن المسبب .

والمراد النهي عن السبب ، وهذا الأسلوب من قبيل قولهم : لا أعرفنّك تفعل كذا ولا أرَيَنّك ههنا .

وزيادة ﴿ واتَّبَعَ هَواه ﴾ للإيماء بالصلة إلى تعليل الصدّ ، أي لا داعي لهم للصدّ عن الإيمان بالساعة إلا اتّباع الهوى دون دليل ولا شبهة ، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة كما أشار إليه قوله ﴿ لِتُجزى كلُّ نفسٍ بما تَسعى ﴾ .

وفرع على النهي أنّه إن صُدّ عن الإيمان بالساعة رَدِيَ ، أي هلك .

والهلاك مستعار لأسوأ الحال كما في قوله تعالى : ﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ في سورة براءة (42) .

والتفريع ناشيء عن ارتكاب المنهِي لا على النهي ، ولذلك جيء بالتفريع بالفاء ولم يقع بالجزاء المجزوم ، فلم يقل : تَرْدَ ، لعدم صحة حلول (إنْ) مع (لا) عوضاً عن الجزاء ، وذلك ضابط صحة جزم الجزاء بعد النّهي .

وقد جاء خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام بطريقة الاستدلال على كلّ حكمٍ ، وأمرٍ أو نهي ، فابتديء بالإعلام بأنّ الذي يُكلمه هو الله ، وأنه لا إله إلاّ هو ، ثمّ فرع عليه الأمر في قوله فاعْبُدني وأقِمِ الصلاةِ لذِكري ﴾ ، ثم عقب بإثبات الساعة ، وعلل بأنها لتجزى كلّ نفس بما تسعى ، ثم فرع عليه النهي عن أن يصده عنها من لا يؤمن بها .

ثم فرع على النهي أنه إن ارتكب ما نهي عنه هلك وخسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(49/495)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) ﴾

أي : مع ما سبق وَطِّنْ نفسك على أن الساعة آتية لا محالةَ ، والساعة هنا هي عمر الكون

كله ، أمّا أعمار المكين في الكون فمتفاوته ، كل حسب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته وانتهت المسألة بالنسبة له .

إذن : نقول : الساعة نوعان : ساعة لكُلٍّ منا ، وهي عمره وأجَله الذي لا يعلم متى سيكون ، وساعة للكون كله ، وهي القيامة الكبرى .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الساعة آتِيَة ﴾ [طه : 15] أي : اجعل ذلك في بالك دائماً ، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين ؛ لأن الزمن مُلغىً بعد الموت ، كيف ؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا في النوم ، وهل تستطيع أنْ تُحدِّد الوقت الذي نمْتَه ؟ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] .

والعبد الذي أماته الله مائة عام لما بعثه قال : يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، لأن يوماً أو بعض يوم هي أقْصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام ؛ لذلك نقول : " مَنْ مات فقد قامت قيامته " .

ومن حكمته سبحانه أن أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع ؛ وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت ؛ لذلك أخفاها الحق تبارك وتعالى لنكون على حذر أنْ نلقى الله على حال معصية .

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقت سَترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْتَ سَترجع إلى الله فاستقِمْ وعَدِّل من سلوكك ، كما يقول أهل الريف (ارع مساوي) .

(50/495)

وقوله تعالى : ﴿ آتِيَةٌ ﴾ [طه : 15] أي : ليس مَأْتياً بها ، فهي الآتية ، مع أن الحق تبارك وتعالى هو الذي سيأتي بها ، لكن المعنى (آتية) كأنها منضبطة (أوتوماتيكيا) ، فإنْ جاء وقتها حدثتْ .

وقوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] كاد : أي : قَرُب مثل : كاد زيد أن يجيء أي : قَرُب لكنه لم يأتِ بعد ، فالمراد : أقرب أن أخفيها ، فلا يعلم أحد موعدها ، فإذا ما وقعتْ فقد عرفناها . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] .

وقد تكون ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] بمعنى آخر ، فبعض الأفعال الثلاثية تُعطى عكس معناها عند تضعيف الحرف الثاني منها ، كما في : مرض أي : أصابه المرض . ومرَّضه الطبيب . أي : عالجه وأزال مرضه . وقَشَرتُ الشيء أي : جعلْتُ له قشرة ، وقشَّرتُ

البرتقالة أزلْتُ قِشْرها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَى تَكُونَ حَرَضاً ﴾

[يوسف : 85] والحَرض : هو الهلاك . من : حَرِض مثل : تَعِب .

وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال ﴾ [الأنفال : 65] .

ومعنى (حَرِّض) حثَّهم على القتال ، الذي يُزيل عنهم الهلاك أمام الكفار ؛ لأنهم إنْ لم

يجاهدوا هلكوا ، فَحرِض : هلك ، وحرَّض : أزال الهلاك .

وقد يأتي مضاد الفعل بزيادة الهمزة على الفعل مثل : ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ

حَطَباً ﴾ [الجن : 15] فالقاسط من قسط . أي : الجائر بالكفر .

أما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ [المائدة : 42] فالمقسط من أقسط :

العادل الذي يُزيل الجوْرَ . وإنْ كانت المادة واحدة هي (قَسَط) فالمصدر مختلف نقول :

قسط قِسْطاً أي : عدل ، وقسط قَسْطاً وقسوطاً يعني : جار . فهذه الهمزة في أقسط

تسمى " همزة الإزالة " .

ومن الفعل الثلاثي قَسَطَ يستعمل منها : القسط والميزان والفرق بين قَسَط وأقسط : قسط أي : عدل من أول الأمر وبادىء ذي بَدْء ، إنما أقسط : إذا وجد ظُلْماً فرفعه وأزاله ، فزاد على العدل أنْ أزال جَوْراً .

وأيضاً الفعل (عجم) عجم الأمر : أخفاه ، وأعجمه : أزال خفاءه . ومن ذلك كلمة المعجم الذي يزيل خفاء الكلمات ويُوضّحها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] خفى بمعنى : استتر وأخفاها : أزال خفاءها ، ولا يُزَال خفاء الشيء إلا بإعلانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ [طه : 15] .

وإلا لو لم يكُنْ في الآخرة حساب وجزاء لَكَان الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا في الوجود أكثر حظاً من المؤمنين المتلزمين بمنهج الله ؛ لذلك في نقاشنا مع الشيوعيين قُلْنا لهم : لقد قتلتم مَنْ أدركتموه من أعدائكم من الرأسماليين ، فما بال مَنْ مات ولم تدركوه؟ وكيف يفلت منكم هؤلاء ؟

لقد كان أَوْلَى بكم أن تؤمنوا بمكان آخر لا يفلت منه هؤلاء ، وينالون فيه جزاءهم ، إنها الآخرة التي تُجزَى فيها كُلُّ نفس بما تسعى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ ﴾

كأن الحق تبارك وتعالى يعطي لموسى عليه السلام مناعة لما سيقوله الكافرون الذين

يُشكِّكون في الآخرة ويخافون منها ، وغرضهم أنْ يكون هذا كذباً فليست الآخرة في صالحهم ، ومن حظهم إنكارها .

فإياك أنْ تصغي إليهم حين يصدونك عنها ، يقولون : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الأولون ﴾ [الصافات : 1617] .

ولماذا يستبعدها هؤلاء ؟ أليس الذي خلقهم مِنْ لا شيء بقادر على أنْ يعيدهم بعد أن صاروا عِظاماً ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] .

(52/495)

وهذا قياس على قَدْر أفهامكم وما تعارفتم عليه من هَيِّن وأهْوَن ، أما بالنسبة للحق تبارك وتعالى فليس هناك هيِّن وأهون منه ؛ لأن أمره بين الكاف والنون ؟

لكن لماذا يصدُّ الكفار عن الآخرة ، والإيمان بها ؟ لأنهم يعلمون أنهم سَيُجازون بما عملوا ، وهذه مسألة صعبة عليهم ، ومن مصلحتهم أن تكون الآخرة كذباً .

وصدق أبو العلاء المعري حين قال :

زَعَمَ المنجّمُ والطبيبُ كِلاَهُمَا . . . لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إلَيْكُمَا

إنْ صَحّ قَولكُمَا فلسْتُ بخَاسِرٍ . . . أوْ صَحّ قَوْلِي فَالخسَارُ عليكُمَا

أي أن المؤمن بالبعث إن لم يكسب فلن يخسر ، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون .

وقوله تعالى : { فتردى } [طه : 16] أي : تهلك من الردَى ، وهو الهلاك .

وهكذا جاء الكلام من الله تعالى لموسى عليه السلام أولاً : البداية إيماناً بالله وحده لا شريك له ، وهذه القمة الأولى ، ثم جاء بالقمة الأخيرة ، وهي البعث فالأمر إذن منه بداية ، وإليه نهاية : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ } [طه : 14] إلى أنْ قال : { إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] . انتهى انتهى . اهـ { تفسير الشعراوى صـ }

(53/495)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) (طه : 15) ، وفي سورة غافر : (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا) (غافر : 59) ، للسائل أن يسأل عن تخصيص آية طه بقوله في وصف الساعة : (أَكَادُ أُخْفِيهَا) ووصفها في سورة غافر بقوله : (لَا رَيْبَ فِيهَا) ؟ فهذان

سؤالان .

والجواب عن الأول منهما : أن آية طه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، يتضمن تأنيسه وتسليته عن حال كفار قريش في (توقفهم عن) الإيمان ، فافتتحت السورة بأجل التأنيس وهو قوله تعالى مبشراً لنبيه ، عليه السلام ، مقسماً على ذلك : (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه : 2) ، ثم تابع التعريف بتعظيم الكتاب ، وذكر منزلته سبحانه وتعالى بما انفرد فيه من ملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، ووصفه بأنه يعلم السر وأخفى ، وانفراده بأسمائه الحسنى ، ثم عرف نبيه صلى الله عليه وسلم بابتداء (أمر) موسى ، عليه السلام ، (إلى قوله) : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) (طه : 15) تعريفاً بعظيم خفاء أمر الساعة وتغيب كنهها عن الخلق حتى كأن أمرها لم يخبر عنه ولا وقع تعريف بشيء منه ، فهو إخبار بفرط إخفاء أمرها ، وذلك إعلام بوصف وحال من قد تقرر بوقوعها يقينه ، وانطوى على علم كيانها إيمانه ، ولما كان هذا الخطاب والتعريف لمن جرى ذكره من تنزهه صلى الله عليه وسلم عن الارتياب في أمر الساعة ، لم يحتج إلى نفي الريب ، إذ مقام النبوى في الإيمان بها المقام الذي لا يداني ، فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب ، وإنما عرفوا بحال وصف تابع .

أما آية غافر، في أكثر الخطاب المتقدم قبلها، من أول السورة إليها، خطاب لقريش وسائر كفار العرب. وهم المجادلون في أمر الساعة، والجاهلون بكيانها، والقائلون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون: 37)، فقدم لهم قبل ذكر الآيات قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (غافر: 57)، فذكروا بما لا يمكن لأحد من المخلوقين إلا الاعتراف بعظيم أمره والعجز عنه، وهو بدخول اللام ونفي الريب في ذلك، وذلك أوضح شيء في المناسبة، فكل من الآيتين وارد على أتم مناسبة، ولا يمكن أن يقع الوارد في سورة غافر في سورة طه. ولا الوارد في سورة طه في سورة غافر، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن الثاني: أن آية طه وردت أثناء خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتأنيس والتسلية عما يلقاه من مكابدة قريش وسائر كفار (العرب)، وتعريفه بما جرى لموسى، عليه السلام، وظهوره على فرعون، فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر الساعة، إذ هو، عليه السلام، من أمرها على أوضح الجادة.

أما آية غافر فإن قبلها تعنيفاً لكفار من قريش وغيرها، وعلى ذلك استمرت الآيات من أول السورة إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ (غافر: 56)، إلى قوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (غاف: 58)، فناسب ذلك من حالهم تأكيد الإخبار عن

إتيان الساعة بدخول اللام ، وصيرورة الآية بذلك في قوة المقيس عليه تحقيقاً للأمر وتأكيداً لما في طي ذلك من وعيدهم بسوء مآلهم ، فورد كل من الآيتين على ما يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 335 .336 ﴾

(55/495)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

هذه الآية الكريمة يتوهم منها أنه جل وعلا لم يخفها بالفعل ولكنه قارب أن يخفيها ؛ لأن (كاد) فعل مقاربة .

وقد جاء في آيات أخر التصريح بأنه أخفاها كقوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن المراد بمفاتح الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية .

وكقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ وقوله: ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

والجواب من سبعة أوجه:

الأول: وهو الراجح ، أن معنى الآية أكاد أخفيها من نفسي أي لو كان ذلك يمكن وهذا على عادة العرب ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم والواحد منهم إذا أراد المبالغة في كتمان أمر قال كتمته من نفسي أي لا أبوح به لأحد ، ومنه قول الشاعر:

أيام تصحبني هند وأخبرها

ما كدت أكتمه عني من الخير

ونظير هذا من المبالغة قوله صلى الله عليه وسلم في حديث السبعة الذين يظلهم الله "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" .

وهذا القول مروي عن أكثر المفسرين, وممن قال به ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح كما نقله عنهم ابن جرير وجعفر الصادق كما نقله عنه الألوسي في تفسيره ويؤيد هذا القول أن في مصحف أُبيّ (أكاد أخفيها من نفسي) كما نقله الألوسي وغيره وروى ابن خالويه أنها في مصحف أبي كذلك بزيادة (فكيف أظهركم عليها) وفي بعض القراءات بزيادة (فكيف أظهرها لكم) وفي مصحف عبد الله ابن مسعود بزيادة (فكيف يعلمها مخلوق) كما نقله الألوسي وغيره .

الوجه الثاني: أن معنى الآية أكاد أخفيها أي أخفي الأخبار بأنها آتية والمعنى أقرب أن أترك الأخبار عن إتيانها من أصله لشدة إخفائي لتعيين وقت إتيانها .

الوجه الثالث: أن الهمزة في قوله: (أخفيها) هي همزة السلب لأن العرب كثيرا ما تجعل الهمزة أداة لسلب الفعل كقولهم شكا إلي فلان فأشكيته أي أزلت شكايته وقولهم عقل البعير فأعقلته أي أزلت عقاله وعلى هذا فالمعنى أكاد أخفيها أي أزيل خفاءها بأن أظهرها لقرب وقتها كما قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ .

الآية.

وهذا القول مروي عن أبي علي كما نقله عنه الألوسي في تفسيره ونقله النيسابوري في تفسيره عن أبي الفتح الموصلي ومنه قول امرئ القيس ابن عابس الكندي:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه

وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

على رواية ضم النون من لا نخفه وقد نقل ابن جرير في تفسير هذه الآية عن معمر بن المثنى أنه قال: أنشدنيه أبو الخطاب عن أهله في بلده بضم النون من لا نخفه ومعناه لا نظهره أما على الرواية المشهورة بفتح النون من لا نخفه فلا شاهد في البيت إلا على قراءة من قرأ أكاد أخفيها بفتح الهمزة وممن قرأ بذلك أبو الدرداء وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وحميد

وروي مثل ذلك عن ابن كثير وعاصم وإطلاق خفاه يخفيه بفتح الياء بمعنى أظهره إطلاق مشهور صحيح إلا أن القراءة به لا تخلو من شذوذ ومنه البيت المذكور على رواية فتح النون وقول كعب بن زهير أو غيره:

داب شهرين ثم شهرا دميكا

باريكين يخفيان غميرا

أي يظهرانه.

وقول امرئ القيس:

خفاهن من إنفاقهن كأنما . . .

خفاهن ودق من عشى مجلب

الوجه الرابع: أن خبر كاد محذوف والمعنى على هذا القول أن الساعة آتية أكاد أظهرها فحذف الخبر ثم ابتدأ الكلام بقوله: ﴿أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾, ونظير ذلك من كلام العرب قول ضابئ ابن الحرث البرجمي:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني

تركت على عثمان تبكي حلائله

يعني وكدت أفعل.

الوجه الخامس: أن كاد تأتي بمعنى أراد وعليه فمعنى أكاد أخفيها أريد أن أخفيها وإلى هذا القول ذهب الأخفش وابن الأنباري وأبو مسلم كما نقله عنهم الألوسي وغيره قال ابن جني في المحتسب ومن مجيء كاد بمعنى أراد قول الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة

لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

كما نقله عنه الألوسي.

وقال بعض العلماء أن من مجيء كاد بمعنى أراد قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي أردنا له كما ذكره النيسابوري وغيره ومنه قول العرب لا أفعل كذا ولا أكاد أي لا أريد كما نقله بعضهم.

الوجه السادس: أن كاد من الله تدل على الوجوب كما دلت عليه عسى في كلامه تعالى نحو ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ أي هو قريب وعلى هذا فمعنى أكاد أخفيها أنا أخفيها.

الوجه السابع: أن كاد صلة وعليه فالمعنى أن الساعة آتية أخفيها لتجزى الآية.

واستدل قائل هذا القول بقول زيد الخيل:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه

فما أن يكاد قرنه يتنفس

أي فما يتنفس قرنه .

قالوا : ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي لم يرها وقول ذي الرمة:

إذا غير النأي المحبين لم يكد

رسيس الهوى من حب مية يبرح

أي لم يبرح على قول هذا القائل, قالوا ومن هذا المعنى قول أبي النجم:

وإن أتاك نعي فاندبن أبا . . .

قد كاد يطلع الأعداء والخطبا

أي قد اطلع الأعداء .

وقد قدمنا أن أرجح الأقوال الأول والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 194.198 ﴾

(58/495)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

العامةُ على ضمِّ الهمزةِ مِنْ " أُخْفيها " . وفيها تأويلاتٌ ، أحدُها : أن الهمزةَ في " أُخْفيها " للسَّلْبِ والإِزالةِ أي : أُزيل خفاءَها نحو : أعجمتُ الكتابَ أي : أزلْتُ عُجْمَتَه . ثم في ذلك معنيان ، أحدهما : أنَّ الخفاءَ بمعنى السَّتْر ، ومتى أزال سَتْرَها فقد أظهرَها . والمعنى : أنها لتحقُّق وقوعِها وقُرْبِها أكادُ أُظْهِرُها لولا ما تَقْتضيه الحكمةُ من التأخير . والثاني : أنَّ الخفاءَ هو الظهورُ كما سيأتي . والمعنى : أُزيلُ ظهورَها ، وإذا أزالَ ظهورَها فقد استترَتْ . والمعنى : أني لشدَّةِ أبهامها أكاد أُخْفيها فلا أُظْهِرُها / البتَةَ ، وإن كان لا بد من إظهارها ؛ ولذلك يوجدُ في بعض المصاحف كمصحف أُبَيّ : أكاد أُخْفيها مِنْ نفسي فكيف أُظْهِرُكُمْ عليها ؟ وهو على عادةِ العرب في المبالغة في الإِخفاء قال :

3277 أيامَ تَصْحَبُني هندٌ وأُخْبِرُها . . . ما كِدْت أكْتُمُه عني من الخبرِ

وكيف يُتَصَوَّرُ كِتْمانُه مِنْ نفسه ؟

والتأويلُ الثاني : أنَّ " كاد " زائدةٌ . قاله ابنُ جُبَيْر . وأنشدَ غيرُه شاهداً عليه قولَ زيدِ الخيل :

3278 سريعٌ إلى الهَيْجاء شاكٍ سلاحُه . . . فما إنْ يكادُ قِرْنُه يتنفَّسُ

وقال آخر :

3279 وألاَّ ألومَ النفسَ فيما أصابني . . . وألا أكادَ بالذي نِلْتُ أَبْجَحُ

ولا حُجَّةَ في شيءٍ منه .

والتأويل الثالث : أنَّ الكَيْدُوْدَةَ بمعنى الإِرادة ونُسِبت للأخفش وجماعةٍ ، ولا ينفعُ فيما قصدوه .

والتأويل الرابع : أنَّ خبرَها محذوفٌ تقديره : أكاد آتي به لقُرْبها . وأنشدوا قول ضابىء البرجمي :

3280 هَمَمْتُ ولم أَفْعَلْ وكِدْتُ وليتني . . . تَرَكْتُ على عثمانَ تَبْكي حلائِلُهْ

أي : وكِدْتُ أفعلُ ، فالوقفُ على " أكادُ " ، والابتداء ب " أُخْفيها " ، واستحسنه أبو جعفر .

(59/495)

وقرأ أبو الدرداء وابن جبير والحسنُ ومجاهدٌ وحميدٌ " أَخْفيها " بفتح الهمزة . والمعنى : أُظْهرها ، بالتأويل المتقدم يقال : خَفَيْتُ الشيءَ : أظهَرْتُه ، وأَخْفَيْتُه : سترته ، هذا هو المشهور . وقد نُقِل عن أبي الخطاب أنَّ خَفَيْتُ وأَخْفَيْتُ بمعنىً . وحُكي عن أبي عبيد أنَّ " أَخْفى " من الأضدادِ يكون بمعنى أظهر وبمعنى سَتَر ، وعلى هذا تَتَّحد القراءتان .

ومِنْ مجيءِ خَفَيْتُ بمعنى أظهَرْت قول امرىء القيس :

3281 خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفاقِهِنَّ كأنما . . . خفاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

وقول الآخر :

3282 فإنْ تَدْفِنوا الداءَ لا نَخْفِهِ . . . وإنْ تُوْقِدُوْا الحربَ لا نَقْعُدِ

قوله : ﴿ لتجزى ﴾ هذه لامُ كي ، وليسَتْ بمعنى القسمِ أي : لَتُجْزَيَنَّ كما نقله أبو البقاء عَنْ بعضهم . وتتعلَّق هذه اللامُ ب " أُخْفيها " . وجعلها بعضُهم متعلقةً ب " آتيةٌ " وهذا لا يَتِمُّ إلاَّ إذا قَدَّرْتَ أنَّ " أكاد أُخْفيها " معترضةٌ بين المتعلِّق والمتعلَّقِ به ، أمَّا إذا جعلتَها صفةً لآتِيةٌ فلا يتجه على مذهب البصريين ؛ لأن اسمَ الفاعلِ متى وُصِفَ لم يعملْ ، فإنْ عَمِل ثم وُصِف جاز .

وقال أبو البقاء : " وقيل ب " آتِيَةٌ " ، ولذلك وَقَفَ بعضُهم عليه وَقْفَةً يسيرةً إيذاناً بانفصالِها عن أخفيها " .

قوله : ﴿ بِمَا تسعى ﴾ متعلِّقٌ ب " تجزى " . و " ما " يجوز أَنْ تكونَ مصدريةً أو موصولةً اسميةً ، ولا بدَّ من مضاف أي : تُجْزى بعقابِ سَعْيها أو بعقابِ ما سَعَتْه .

قوله : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ :

﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ ﴾ هو المَنْهيُّ صورةً، والمرادُ غيرُه، فهو من بابِ "لا أُرَيَنَّك هَهنا " . وقيل : إنَّ صَدَّ الكافر عن التصديقِ بها سببٌ للتكذيب، فذكر السببَ ليدُلَّ على المسبَّب .

والضميران في "عنها " و"بها " للساعة . وقيل : للصلاة . وقيل في "عنها " للصلاة، وفي " بها " للساعة .

قوله : ﴿ فتردى ﴾ يجوزُ فيه أَنْ ينتصبَ في جوابِ النهيِ بإضمارِ "أنْ" ، وأن يرتفعَ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ تقديرُه : فأنت تردى . وقرأ يحيى "تردى" بكسر التاء . وقد تقدم أنها لغةٌ . والردى : الهلاك يقال : رَدِيَ يردى رَدَى .

قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة :

3283 تنادَوْا فقالوا أَرْدَتِ الخيلُ فارساً . . . فقلتُ أَعَبْدُ اللهِ ذلكمُ الرَّدِي . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 19.23﴾

(61/495)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) ﴾

الفائدة في تعريف العِباد بِقُرْب الساعةِ أن يستفيقوا من غفلات التفرقة ، فإذا حضروا بقلوبهم – ففي حال استدامة الذكر – فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في العاجل ؛ والحاضرة لهم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهودَ الوقتِ قيامة .

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) ﴾

إذا أكرمه اللَّهُ بِحُسْنِ التنبيه ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطوحهم في أودية التفرقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 449 . 450 ﴾

(62/495)

قوله تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المقام مرشداً إلى أن يقال : ما جوابك يا موسى عما سمعت ؟ وكان تعالى عالماً بأنه يبادر إلى الجواب بالطاعة في كل ما تقدم ، طوى هذا المقال مومئاً إليه بأن عطف عليه قوله : ﴿ وما تلك ﴾ أي العالية المقدار ﴿ بيمينك يا موسى ﴾ مريداً - بعد تأنيسه بسؤاله عما هو أعلم به منه - إقامة البينة لديه بما يكون دليلاً على الساعة من سرعة القدرة على إيجاد ما لم يكن ، بقلب العصا حية بعد تحقق أنها عصاه بقرب النظر إليها عند السؤال عنها ليزداد بذلك ثباتاً ويثبت من يرسل إليهم ﴿ قال هي ﴾ أي ظاهراً وباطناً ﴿ عصاي ﴾ ثم وصل به مستأنساً بلذيذ المخاطبة قوله بياناً لمنافعها خوفاً من الأمر بإلقائها كالنعل : ﴿ أتوكأ ﴾ أي أعتمد وأرتفق وأتمكن ﴿ عليها ﴾ أي إذا أعييت أو أعرض لي ما يحوجني إلى ذلك من زلق أو هبوط أو صعود أو طفرة أو ظلام ونحو ذلك ؛ ثم ثنى بعد مصلحة نفسه بأمر رعيته فقال : ﴿ وأهشُّ ﴾ أي أخبط الورق ، قال ابن كثير : قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك : والهش أن يضع الرجب المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود ولا يخبط فهذا الهش ، قال : وكذا قال ميمون بن مهران ، وقال أبو حيان : والأصل في هذه المادة الرخاوة .

يقال : رجل هش .

﴿ بها على غنمي ﴾ .

ولما كان أكمل أهل ذلك الزمان ، خاف التطويل على الملك فقطع على نفسه ما هو فيه من لذة المخاطبة كما قيل : اجلس على البساط وإياك والانبساط ، وطمعاً في سماع كلامه سبحانه وتعالى ، فقال مجملاً : ﴿ ولي فيها مآرب ﴾ أي حوائج ومنافع يفهمها الألبّاء .

(63/495)

ولما كان المحدث عنه لا يعقل ، وأخبر عنه بجمع كثرة ، كان الأنسب معاملته معاملة الواحدة المؤنثة فقال : ﴿ أخرى ﴾ تاركاً للتفصيل ، فكأنه قيل : فماذا قيل له ؟ فقيل : ﴿ قال ألقها ﴾ أي العصا ، وأنسه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يا موسى فألقاها ﴾ أي فتسبب عن هذا الأمر المطاع أنه ألقاها ولم يتلعثم ﴿ فإذا هي ﴾ أي في الحال ظاهراً وباطناً ﴿ حية ﴾ عظيمة جداً يطلق عليها لعظمها بنهاية أمرها اسم الثعبان ، والحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير ﴿ تسعى ﴾ سعياً خفيفاً يطلق عليها لأجله في أول أمرها اسم الجان ، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنها صارت حية صفراء لها عرف كعرف الفرس ، وجعلت تتورم حتى صارت ثعباناً – انتهى .

فهي في عظم الثعبان وسرعة الجان .

ولما كان ذلك أمراً مخيفاً ، استشرف السامع إلى ما يكون من حاله عند مثل هذا بعد ذلك

، فاستأنف إخباره بقوله : ﴿ قال ﴾ أي الله تبارك وتعالى على ما يكون منها عند فرعون لأجل التدريب : ﴿ خذها ولا تخف ﴾ مشيراً إلى أنه خاف منها على عادة الطبع البشريّ ؛ ثم علل له النهي عن الخوف بقوله ﴿ سنعيدها ﴾ أي بعظمتنا عند أخذك لها بوعد لا خلف فيه ﴿ سيرتها ﴾ أي طريقتها ﴿ الأولى ﴾ من كونها عصا ، فهذه آية بينة على أن الذي يخاطبك هو ربك الذي له الأسماء الحسنى ، فنزلت عليه السكينة ، وبلغ من طمأنينته أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيتها ، فإذا هي عصاه ، ويده بين شعبتيها .

(64/495)

ولما أراه آية في بعض الآفاق ، أراد أن يريه آية في نفسه فقال : ﴿ واضمم يدك ﴾ من جيبك الذي يخرج منه عنقك ﴿ إلى جناحك ﴾ أي جنبك تحت العضد تنضم على ما هي عليه من لونها وما بها من الحريق ، وأخرجها ﴿ تخرج ﴾ فالآية من باب الاحتباك ، والجناح : اليد ، والعضد ، والأبط ، والجانب - قاله في القاموس ، فلا يعارض هذا ما في القصص لأنه أطلق الجناح هناك على اليد وهي أحق به ، وهنا على الجنب الذي هو موضعها تسمية للمحل باسم الحال ﴿ بيضاء ﴾ بياضاً كالشمس تتعجب منه .

ولما كان البرص أبغض شيء إلى العرب ، نافياً له ولغيره ، ولم يسمه باسمه لأن أسماعهم له

مجاجة ، ولأن نفي الأعم من الشيء أبلغ من نفيه بخصوصه : ﴿ من غير سوء ﴾ أي مرض لا برص ولا غيره ، حال كونها ﴿ آية أخرى ﴾ افعل ما أمرتك به من إلقاء العصا وضم اليد ، أو فعلنا ذلك من إحالة العصا ولون اليد من مناداتك لمناجاتك ﴿ لنريك ﴾ في جميع أيام نبوتك ﴿ من آياتنا الكبرى ﴾ ليثبت بذلك حنانك ، ويزداد إتقانك . انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 17.15 ﴾

(65/495)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ لفظتان ، فقوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ ﴾ إشارة إلى العصا ، وقوله : ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ إشارة إلى اليد ، وفي هذا نكت ، إحداها : أنه سبحانه لما أشار إليهما جعل كل واحدة منهما معجزاً قاهراً وبرهاناً باهراً ، ونقله من حد الجمادية إلى مقام الكرامة ، فإذا صار الجماد بالنظر الواحد حيواناً ، وصار الجسم الكثيف نورانياً لطيفاً ، ثم إنه تعالى ينظر كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد ، فأي عجب لو انقلب قلبه من

موت العصيان إلى سعادة الطاعة ونور المعرفة .

وثانيها : أن بالنظر الواحد صار الجماد ثعباناً يبتلع سحر السحرة ، فأي عجب لو صار القلب بمدد النظر الإلهي بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء .

وثالثها : كانت العصا في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعباناً وبرهاناً ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن فإذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة ، فأي عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب إصبعي الرحمن من ظلمة المعصية إلى نور العبودية ، ثم ههنا سؤالات : الأول : قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ سؤال ، والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه .

والجواب فيه فوائد : إحداها : أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : هذا ما هو ؟ فيقولون هذا هو الشيء الفلاني ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذا منه كذا وكذا .

فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية ، وكضربه البحر حتى انفلق ، وفي الحجر حتى انفجر منه الماء ، عرضه أولاً على موسى فكأنه قال له : يا

موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً ، فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ .

وثانيها : أنه سبحانه لما أطلعه على تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ، ثم إنه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولاً بقوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ ثم قهره بإيراد التكاليف الشاقة عليه وإلزامه علم المبدأ والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم ، تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ ليعرف موسى عليه السلام أن يمينه هي التي فيها العصا ، أو لأنه لما تكلم معه أولاً بكلام الإلهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة ، والنكتة فيه أنه لما غلبت الدهشة على موسى في الحضرة أراد رب العزة إزالتها فسأله عن العصا وهو لا يقع الغلط فيه .

كذلك المؤمن إذا مات ووصل إلى حضرة ذي الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الأمر الذي لم يغلط فيه في الدنيا وهو التوحيد ، فإذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه .

وثالثها : أنه تعالى لما عرف موسى كمال الإلهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية ، فسأله عن

منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى أن فيها منافع أعظم مما ذكر ، تنبيهاً على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات النبي الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول إلى معرفة أجل الأشياء وأعظمها .

(67/495)

ورابعها : فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده أنه خشبة حتى إذا قلبها ثعباناً لا يخافها .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ، ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد .

الجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمداً عليه السلام في قوله : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [النجم : 10] إلا أن الفرق بينهما أن الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الله إلى الخلق ، والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سراً لم يستأهل له أحد من الخلق .

والثاني : إن كان موسى تكلم معه وهو [تكلم] مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله في كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم : " المصلي يناجي ربه "

والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم في قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

السؤال الثالث : ما إعراب قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ الجواب ، قال صاحب "الكشاف" : (تلك بيمينك) كقوله : ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ [هود : 72] في انتصاب الحال بمعنى الإشارة ويجوز أن يكون تلك اسماً موصولاً وصلته ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾

قال الزجاج : معناه وما التي بيمينك ، قال الفراء : معناه ما هذه التي في يمينك ، واعلم أنه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء ، ثلاثة على التفصيل وواحد على الإجمال .

الأول : قوله : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ قرأ ابن أبي إساحق : (هي عصي) ومثلها : (يا بشرى) وقرأ الحسن (هي عصاي) بسكون الياء والنكث ههنا ثلاثة .

(68/495)

إحداها : أنه قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولاً بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقاً في بحر معرفة الحق ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت إلى شيء :

﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم : 17] ولما قيل له امدحنا ، قال : " لا أحصي ثناء عليك " ثم نسي نفسه ونسي ثناءه فقال : " أنت كما أثنيت على نفسك " وثانيها : لما قال : ﴿ عَصَاىَ ﴾ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلْقِهَا ﴾ ، فلما ألقاها ﴿ فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ ليعرف أن كل ما سوى الله فالالتفات إليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك .

ولهذا قال الخليل عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] وفي الحديث : " يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذي لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع " الحديث بتمامه .

وثالثها : أنه قال هي عصاي فقد تم الجواب ، إلا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الآخر لأنه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض .

الثاني : قوله : ﴿ أتوكأ عليها ﴾ والتوكي ، والإتكاء ، واحد كالتوقي ، والإتقاء معناه اعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئاً على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : " اتكىء على رحمتي " بقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] وقال : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] فإن قيل : أليس قوله : ﴿ وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ يقتضي كون محمد يتوكأ على المؤمنين ؟ قلنا قوله : ﴿ وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ معطوف على الكاف في قوله : ﴿ حَسْبَكَ الله ﴾ والمعنى الله حسبك ،

وحسب من اتبعك من المؤمنين .

الثالث : قوله : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ أي أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله .

(69/495)

وقال أهل اللغة : هش على غنمه ، يهش بضم الهاء في المستقبل ، وهششت الرجل أهش بفتح الهاء في المستقبل ، وهش الرغيف يهش بكسر الهاء .

قاله ثعلب ، وقرأ عكرمة : (وأهس) بالسين غير المنقوطة ، والهش زجر الغنم ، واعلم أن غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه في قوله : ﴿ أتوكأُ عليها ﴾ ثم بمصالح رعيته في قوله : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ فكذلك في القيامة يبدأ بنفسه فيقول : نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في الدنيا إلا بإصلاح أمر الأمة : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] .

" اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضاً بأمته فيقول : " أمتي أمتي "

والرابع : قوله : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مآرِبُ أخرى ﴾ أي حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها ، وحكى ابن الأعرابي وقطرب بكسر الراء أيضاً ، والأرب بفتح الراء ، والإربة

بكسر الألف وسكون الراء الحاجة ، وإنما قال أخرى لأن المآرب في معنى جماعة فكأنه

قال : جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت أخر لكان صواباً كما قال :

﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : 184] ثم ههنا نكت .

إحداها : أنه لما سمع قول الله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ عرف أن لله فيه أسراراً

عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقي التي ما عرفها إجمالاً لا تفصيلاً بقوله : ﴿ وَلِىَ فِيهَا

مَآرِبُ أخرى ﴾ .

وثانيها : أن موسى عليه السلام أحس بأنه تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة .

فقال موسى : إلهي ما هذه العصا إلا كغيرها ، لكنك لما سألت عنها عرفت أن لي فيها

مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتني بسببها فوجدت هذا الأمر العظيم الشريف بسببها .

وثالثها : أن موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأل ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله

مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك .

ورابعها : أنه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره

فأجمل مرة أخرى ، ثم قال وهب : كانت ذات شعبتين كالمحجن ، فإذا طال الغصن حناه

بالمحجن ، وإذا حاول كسره لواه بالشعبتين ، [و] إذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب ، وإذا كان في البرية ركزها وألقى كساء عليها فكانت ظلاً .

وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً ويصيران شمعتين في الليالي ، وإذا ظهر عدو حاربت عنه .

وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت .

وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام .

واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بإلقاء العصا فقال : ﴿ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ وفيه نكت ، إحداها : أنه عليه السلام لما قال : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مآرِبُ أخرى ﴾ أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال : ﴿ أَلْقِهَا يا موسى * فألقاها فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ .

وثانيتها : كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا ، والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال أولاً : ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12] إشارة إلى ترك الهرب ، ثم قال ألقها يا موسى وهو إشارة إلى ترك الطلب .

كأنه سبحانه قال : إنك ما دمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلاً بنفسك وطالباً

لحظك فلا تكون خالصاً لمعرفتي فكن تاركاً للهرب والطلب لتكون خالصاً لي .

وثالثها : أن موسى عليه السلام مع علو درجته ، وكمال منقبته لما وصل إلى الحضرة ولم يكن معه إلا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه .

(71/495)

ورابعتها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان مجرداً عن الكل ما زاغ البصر فلا جرم وجد الكل ، لعمرك أما موسى لما بقي معه تلك العصا لا جرم أمره بإلقاء العصا ، واعلم أن الكعبي تمسك به في أن الاستطاعة قبل الفعل فقال : القدرة على إلقاء العصا ، إما أن توجد والعصا في يده أو خارجة من يده فإن أتته القدرة وهي في يده فذاك قولنا :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران : 182] وإذا أتته وليست في يده وإنما استطاع أن يلقي من يده ما ليس في يده فذلك محال ، أما قوله : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ففيه أسئلة : السؤال الأول : ما الحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت ؟

الجواب فيه وجوه : أحدها : أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء ، والنداء وإن كان

مخالفاً للعادات إلا أنه لم يكن معجزاً لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلاً قاهراً والعجب أن موسى عليه السلام قال : أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له .

وثانيها : أن النداء كان إكراماً له فقلب العصا حية مزيداً في الكرامة ليكون توالي الخلع والكرامات سبباً لزوال الوحشة عن قلبه .

وثالثها : أنه عرض عليه ليشاهده أولاً فإذا شاهده عند فرعون لا يخافه .

ورابعها : أنه كان راعياً فقيراً ثم إنه نصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيهاً على أني لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين .

وخامسها : أنه لما قال : ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ فقيل له : ﴿ أَلْقِهَا ﴾ فلما ألقاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له : ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها ، تنبيهاً على سر قوله : ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ [الذاريات : 50] وقوله : ﴿ قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام :

.[91

السؤال الثاني : قال ههنا حية وفي موضع آخر ثعبان وجان ، أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير ، وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان : أحدهما : أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها .

والثاني : أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ .

السؤال الثالث : كيف كانت صفة الحية .

الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعاً ، وابتلعت كل ما مرت به من الصخور والأشجار حتى سمع موسى صرير الحجر في فمها وجوفها ، أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾ ففيه سؤالات : السؤال الأول : لما نودي موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه معبوث من عند الله تعالى إلى الخلق فلم خاف .

والجواب من وجوه : أحدها : أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط .

وأيضاً فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول .

وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عنه .

قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه ألبتة .

وثانيها : قال بعضهم : خافها لأنه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها .

(73/495)

وثالثها : أن مجرد قوله : ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين ﴾ [الأحزاب : 1] لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ولى مُدْبِراً ﴾ [النمل : 10] يدل عليه ، ولكن ذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فإنه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان ، وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار .

السؤال الثاني : متى أخذها ، بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك .

والجواب : روي أنه أدخل يده بين أسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضاً بقوله : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيَرتَهَا الأولى ﴾ وذلك يقع في الاستقبال ، وأيضاً فهذا أقرب للكرامة لأنه

كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك إدخال يده في فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشباً معجز آخر فيكون فيه توالي المعجزات فيكون أقوى في الدلالة .

السؤال الثالث : كيف أخذه ، أمع الخوف أو بدونه .

والجواب : روي مع الخوف ولكنه بعيد ، لأن بعد توالي الدلائل يبعد ذلك .

وإذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عند الأخذ سيعيدها سيرتها الأولى فكيف يستمر خوفه ، وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه : ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ بلغ من ذلك ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه إلى أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها .

السؤال الرابع : ما معنى سيرتها الأولى ، والجواب : قال صاحب "الكشاف" : السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال : سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة .

السؤال الخامس : علام انتصب سيرتها ، الجواب فيه وجهان : أحدهما : بنزع الخافض يعني إلى سيرتها .

وثانيهما : أن يكون سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها كانت أولاً عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أي تسير سيرتها الأولى يعني سنيعدها سائرة بسيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها .

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) ﴾

اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

يقال لك ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنه يجنحهما عند الطيران ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما إلى جناحك إلى صدرك والأول أولى لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر لأنه قال : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله : ﴿ تَخْرُجْ ﴾ معنى واعلم أن معنى ضم اليد إلى الجناح ما قال في آية أخرى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [النمل : 12] لأنه إذا أدخل يده في جيبه كان قد ضم يده إلى جناحه ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

السوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شيء إلى العرب فكان جديراً بأن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد

الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور .

المسألة الثالثة :

(75/495)

بيضاء وآية حالان معاً ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفي نصب آية وجه آخر وهو أن يكون بإضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام ، وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا لنريك بها تين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك ، فإن قيل الكبرى من نعت الآيات فلم لم يقل الكبر ؟ قلنا : بل هي نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا في قوله : ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] ، و﴿ الأسماء الحسنى ﴾ [طه : 8] .

المسألة الرابعة :

قال الحسن : اليد أعظم في الإعجاز من العصا لأنه تعالى : ذكر ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لأنه ليس في اليد إلا تغير اللون ، وأما العصا ففيه

تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ، ثم عاد عصا بعد ذلك .

فقد وقع التغير مرة أخرى في كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم ، وأما قوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ فقد بينا أنه عائد إلى الكل وأنه غير مختص باليد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 22. 27 ﴾

(76/495)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾

قِيلَ فِي وَجْهِ سُؤَالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمَّا فِي يَدِهِ أَنَّهُ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيرِ لَهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي فِي يَدِهِ عَصًا لِيَقَعَ الْمُعْجِزُ لَهَا بَعْدَ التَّثَبُّتِ فِيهَا وَالتَّأَمُّلِ لَهَا ، فَإِذَا أَجَابَ مُوسَى بِأَنَّهَا عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا عِنْدَ الْإِعْيَاءِ وَيَنْفُضُ بِهَا الْوَرَقَ لِغَنَمِهِ وَأَنَّ لَهُ فِيهَا مَنَافِعَ أُخْرَى فِيهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ إعْلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا اقْتَضَى السُّؤَالُ مِنْهُ جَوَابًا لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ الْإِجَابَةِ بِذِكْرِ مَنَافِعِ الْعَصَا إقْرَارًا مِنْهُ بِالنِّعْمَةِ فِيهَا وَاعْتِدَادًا بِمَنَافِعِهَا وَالْتِزَامًا لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الشُّكْرِ لَهُ .

(77/495)

وَمِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ : إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ لَهُ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ فَإِنَّمَا وَقَعَتْ الْمَسْأَلَةُ عَنْ مَاهِيَّتِهَا وَلَمْ تَقَعْ عَنْ مَنَافِعِهَا وَمَا تَصْلُحُ لَهُ ، فَلِمَ أَجَابَ عَمَّا لَمْ يُسْأَلْ مِنْهُ ؟ وَوَجْهُ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا وَهُوَ أَنَّهُ أَجَابَ عَنْ الْمَسْأَلَةِ بَدِيًّا بِقَوْلِهِ : هِيَ عَصَايَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ الْمَنَافِعِ فِيهَا عَلَى وَجْهِ الِاعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ وَإِظْهَارِ الشُّكْرِ عَلَى مَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ سَبِيلُ أُنَبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مِثْلِهِ فِي الِاعْتِدَادِ بِالنِّعْمَةِ وَنَشْرِهَا وَإِظْهَارِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(78/495)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّمَا سَأَلَهُ عَنْهَا لَمَّا كَانَ أَضْمَرَ مِنْ الْآيَةِ لَهُ فِيهَا ، حَتَّى إذَا رَجَعَ عَلَيْهَا ، وَتَحَقَّقَ حَالَهَا ، وَكُسِيَتْ تِلْكَ الْحُلَّةَ الثُّعْبَانِيَّةَ بِمَرْأًى مِنْهُ لِابْتِدَائِهَا كَانَ تَبْدِيلُهَا مَعَ الذِّكْرِ أَوْقَعَ فِي الْقَلْبِ وَأَيْسَرَ لَهُ مِنْ أَنْ يَغْفُلَ عَنْهَا ، فَيَرَاهَا بِحُلَّةِ الثُّعْبَانِيَّةِ مَكْسُوَّةً ، فَيَظُنُّ أَنَّمَا عَيْنٌ أُخْرَى سِوَاهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ قَالَ أَرْبَابُ الْقُلُوبِ : الْجَوَابُ الْمُطْلَقُ أَنْ يَقُولَ هِيَ عَصًا ، وَلَا يُضِيفُ إلَى نَفْسِهِ شَيْئًا ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَكُونَا اثْنَيْنِ أَفْرَدَ عَنْهَا بِصِفَةِ الْحَيَّةِ ، فَبَقِيَ وَحْدَهُ لِلَّهِ ، كَمَا يُحِبُّ ، حَتَّى لَا يَكُونَ مَعَهُ إلَّا اللَّهُ ، يَقُولُ اللَّهُ : أَنْتَ عَبْدِي ، وَيَقُولُ مُوسَى : أَنْتَ رَبِّي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَجَابَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ الْمَعْنَى الَّذِي وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْهُ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي الْجَوَابِ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ ، وَكَانَ يَكْفِي وَاحِدٌ قَالَ : الْإِضَافَةُ ، وَالتَّوَكُّؤُ ، وَالْهَشُّ ، وَالْمَآرِبُ الْمُطْلَقَةُ ، وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى جَوَابِ السُّؤَالِ بِأَكْثَرَ مِنْ مُقْتَضَى ظَاهِرِهِ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ طَهُورِ مَاءِ الْبَحْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْهَشُّ : هُوَ أَنْ يَضَعَ الْمِحْجَنَ فِي أَصْلِ الْغُصْنِ وَيُحَرِّكَهُ فَيَسْقُطَ مِنْهُ مَا سَقَطَ ، وَيَثْبُتُ مَا ثَبَتَ قَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَاعٍ يَعْضِدُ شَجَرَةً فَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : هُشُّوا وَارْعَوْا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الِاقْتِصَادِ فِي الِاقْتِيَاتِ ، فَإِنَّهُ إذَا عَضَدَ الشَّجَرَةَ الْيَوْمَ لَمْ يَجِدْ فِيهَا غَدًا شَيْئًا وَلَا غَيْرُهُ مِمَّنْ يَخْلُفُهُ ، فَإِذَا هَشَّ وَرَعَى أَخَذَ وَأَبْقَى ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، فَلْيَأْخُذْ وَلْيَدَعْ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ كَثِيرًا فَلْيَأْخُذْهُ كَيْفَ شَاءَ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ .

تَعَرَّضَ قَوْمٌ لِتَعْدِيدِ مَنَافِعِ الْعَصَا ، كَأَنَّهُمْ يُفَسِّرُونَ بِذَلِكَ قَوْلَ مُوسَى ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ فِي الْعِلْمِ ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ الْعَصَا فِي حَاجَةٍ عَرَضَتْ ؛ أَمَّا إنَّهُ يُحْتَاجُ إلَيْهَا فِي الدِّينِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ إجْمَاعًا وَهُوَ الْخُطْبَةُ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِاخْتِلَافٍ وَهُوَ التَّوَكُّؤُ عَلَيْهَا فِي صَلَاةِ النَّافِلَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِهِ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ هُنَا وَسِوَاهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾

ليس هذا سؤال استفهام ، وإنما هو سؤال تقرير لئلاّ يدخل عليه ارتياب بعد انقلابها حيةً تسعى .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ فتضمن جوابه أمرين :

أحدهما : الإِخبار بأنها عصا وهذا جواب كافٍ .

الثاني : إضافتها إلى ملكه ، وهذه زيادة ذكرها ليكفي الجواب بما سئل عنه .

ثم أخبر عن حالها بما لم يُسأل عنه ليوضح شدة حاجته إليها واستعانته بها لئلا يكون عابثاً بحملها ، فقال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ أي أخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي . قال الراجز :

أهش بالعصا على أغنامي . . . من ناعم الأراك والبشام .

وقرأ عكرمة " وأهس " بسين غير معجمة . وفي الهش والهس وجهان :

أحدهما : أنهما لغتان معناهما واحد .

والثاني : أن معناهما مختلف ، فالهش بالمعجمة : خبط الشجر ، والهس بغير إعجام زجر الغنم .

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ أي حاجات أخرى ، فنص على اللازم وكنّى عن العارض ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كان يطرد بها السباع ، قاله مقاتل :

الثاني : أنه كان يَقْدَحُ بها النار ، ويستخرج الماء بها .

الثالث : أنها كانت تضيء له بالليل ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إلى عضدك ، قاله مجاهد .

الثاني : إلى جيبك .

الثالث : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل في محل الجناح. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(81/495)

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾

تقرير مضمنه التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها وإلا فقد علم ما هي في الأزل ، وقوله ﴿ بيمينك ﴾ من صلة تلك وهذا نظير قول الشاعر يزيد بن ربيعة : [الطويل]

عدسْ ما لعباد عليك إمارة . . . نجوت وهذا تحملين طليق

قال ابن الجوهري : وروي في بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن فقيل له ﴿ ألقها ﴾ [طه : 19] ليرى منها العجب فيعلم أنه لا ملك له عليها ولا تضاف إليه ، وقرأ الحسن وأبو عمرو بخلاف عنه " عصاي " بكسر الياء مثل غلامي ، وقرأت فرقة " عصى " وهي لغة هذيل ومنه قول أبي ذؤيب : [الكامل]

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهم . . . وقرأ الجمهور " عصايَ " بفتح الياء ، وقرأ ابن أبي إسحاق " عصايْ " بياء ساكنة ، ثم ذكر موسى عليه السلام من منافع عصاه عظمها وجمهورها ، وأجمل سائر ذلك ، وقرأ الجمهور " وأهُشُّ " بضم الهاء والشين المنقوطة ومعناه أخبط بها الشجر حتى ينتثر بها الورق للغنم ، وقرأ إبراهيم النخعي " وأهِش " بكسر والمعنى كالذي تقدم ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس " وأهُسُّ " بضم الهاء والسين غير المنقوطة ومعناه أزجر بها وأخوف ، وقرأت فرقة " علي غنمي " بالجر ، وقرأت " غنمي " فأوقع الفعل على الغنم ، وقرأت " غنْمي " بسكون النون ولا أعرف لها وجهاً ، وقوله ﴿ أخرى ﴾ فوحد مع تقدم الجمع وهو المهيع في توابع جمع ما لا يعقل والكناية عنه فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة كقوله تعالى : ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ [طه : 8]

وكقوله ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ [سبأ : 10] وقد تقدم القول في هذا المعنى غير مرة ، وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أخذها من بيت عصا الأنبياء التي كان عند شعيب حين اتفقا على الرعية ، وكانت عصا آدم هبط بها من الجنة وكانت من العير الذي في ورق الريحان وهو الجسم المستطيل في وسطها وقد تقدم شرح أمرها فيما مضى .

(82/495)

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) ﴾

لما أراد الله تعالى أن يدربه في تلقي النبوءة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فألقاها ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها ، وكانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان لها فماً وصارت ﴿ حية تسعى ﴾ أي تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة ، فلما رآها موسى رأى عبرة فولى مدبراً ولم يعقب ، فقال الله تعالى له : ﴿ خذها ولا تخف ﴾ وذلك أنه أوجس في نفسه خفية أي لحقه ما يلحق بالبشر ، وروي أن موسى تناولها بكمي جبته فنهي عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهي ﴿ سيرتها الأولى ﴾ ثم أمره الله عز وجل أن يضم يده إلى جنبه وهو الجناح استعارة ومجازاً ومنه قول الراجز : [الرجز] " أضمه للصدر والجناح " . . . وبعض الناس يقولون الجناح اليد وهذا كله صحيح على

طريق الاستعارة ، ألا ترى أن جعفر بن أبي طالب يسمى ذا الجناحين بسبب يديه حين أقيمت له الجناحان مقام اليدين بجناح طائر وكل مرعوب من ظلمة أو نحوها فإنه إذا ضم يده إلى جناحه فتر رعبه وربط جأشه فجمع الله لموسى عليه السلام تفتير الرعب مع الآية في اليد ، وروي أن يد موسى خرجت بيضاء تشف وتضيء كأنها الشمس . وقوله ﴿ من غير سوء ﴾ ، أي من غير برص ولا مثله بل هو أمر ينحسر ويعود لحكم الحاجة إليه .

وقوله ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ يحتمل أن يريد وصف الآيات بالكبر على ما تقدم من قوله ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ [طه : 8] ، و﴿ مآرب أخرى ﴾ [طه : 18] ونحوه ، ويحتمل أن يريد تخصيص هاتين الآيتين فإنهما أكبر الآيات كأنه قال لنريك الكبرى فهما معنيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(83/495)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينكَ ﴾

قال الزجاج : "تلك" اسم مبهم يجري مجرى "التي" ، والمعنى ما التي بيمينك ؟

قوله تعالى : ﴿ أتوكَّأُ عليها ﴾ التوكُّؤ : التحامل على الشيء ﴿ وأَهُشُّ بها ﴾ قال الفراء

: أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه فترعاه غنمي ؛ قال الزجاج : واشتقاقه من أنّي أُحيل الشيء إلى الهشاشة والإمكان .

والمآرب : الحاجات ، واحدها : مَأْرُبَة ، ومَأْرَبَة .

وروى قتيبة ، وورش : "مآرب" بامالة الهمزة .

فإن قيل : ما الفائدة في سؤال الله تعالى له : "وما تلك بيمينك" وهو يعلم ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الاستفهام ، ومجراه مجرى السؤال ، ليجيب المخاطَب بالإقرار به ، فتثبت عليه الحجة باعترافه فلا يمكنه الجحد ، ومثله في الكلام أن تقول لمن تخاطبه وعندك ماء : ما هذا ؟ فيقول : ماءٌ ، فتضع عليه شيئاً من الصبغ ، فإن قال : لم يزل هكذا ، قلت له : ألست قد اعترفت بأنه ماء ؟ فتثبت عليه الحجة ، هذا قول الزجاج : فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرّر موسى أنها عصاً لمّا أراد أن يريَه من قدرته في انقلابها حيَّة ، فوقع المُعْجِز بها بعد التثبت في أمرها .

والثاني : أنه لما اطّلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم ، أراد أن يؤانسه ويخفف عنه ثِقَل ما كان فيه من الخوف ، فأجرى هذا الكلام للاستئناس ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فإن قيل : قد كان يكفي في الجواب أن يقول : "هي عصاي" ، فما الفائدة في قوله : "أتوكَّأُ عليها" إلى آخر الكلام ، وإنما يُشرح هذا لمن لا يعلم فوائدها ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه أجاب بقوله : "هي عصاي" ، فقيل له : ما تصنع بها ؟ فذكر باقي الكلام جواباً عن سؤال ثانٍ ، قاله ابن عباس ، ووهب .

والثاني : أنه إنما أظهر فوائدها ، وبيِّن حاجته إليها ، خوفاً [من] أن يأمره بإلقائها كالنعلين ، قاله سعيد ابن جبير .

(84/495)

والثالث : أنه بيَّن منافعها لئلا يكون عابثاً بحملها ، قاله الماوردي .

فإن قيل : فلم اقتصر على ذِكْر بعض منافعها ولم يُطِل الشرح ؟ فعنه [ثلاثة] أجوبة .

أحدها : أنه كره أن يشتغل عن كلام الله بتعداد منافعها .

والثاني : استغنى بعلم الله فيها عن كثرة التعداد .

والثالث : أنه اقتصر على اللازم دون العارض .

وقيل : كانت تضيء له بالليل ، وتدفع عنه الهوام ، وتثمر له إذا اشتهى الثمار .

وفي جنسها قولان .

أحدهما : أنها كات من آس الجنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : [أنها] كانت من عوسج .

فإن قيل: المآرب جمع، فكيف قال: "أُخرى" ولم يقل: "أُخَر"؟ فالجواب: أن المآرب في معنى جماعة، فكأنه قال: جماعة من الحاجات أُخرى، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ قال المفسرون: ألقاها، ظنّاً منه أنه قد أُمر برفضها، فسمع حِسّاً فالتفتَ فإذا هي كأعظم ثعبان تمر بالصخرة العظيمة فتبتلعها، فهرب منها.

وفي وجه الفائدة في إِظهار هذه الآية ليلة المخطابة قولان.

أحدهما: لئلا يخاف منها إِذا ألقاها بين يدي فرعون.

والثاني: ليريَه أن الذي أبعثك إِليه دون ما أريتك، فكما ذُلِّلَتْ لك الأعظم وهو الحية، أُذَلِّلُ لكَ الأدنى.

ثم إِن الله تعالى أمره بأخذها وهي على حالها حيَّة، فوضع يده عَليها فعادت عصاً، فذلك قوله: ﴿ سنُعيدها سيرتها الأولى ﴾ قال الفراء: طريقتها، يقول: تردُّها عصى كما كانت.

قال الزجاج: و"سيرتها" منصوبة على إِسقاط الخافض وإِفضاء الفعل إِليها، المعنى: سنُعيدها إِلى سيرتها.

فإن قيل: إِنما كانت العصا واحدة، وكان إِلقاؤها مرَّة، فما وجه اختلاف الأخبار عنها، فإنه يقول في [الأعراف: 107]: ﴿ فإذا هي ثُعبان مُبين ﴾، وهاهنا: "حية"، وفي

مكان آخر : ﴿ كأنها جانّ ﴾ [النمل : 20] ، والجانّ ليست بالعظيمة ، والثعبان أعظم الحيات ؟

(85/495)

فالجواب : أن صفتها بالجان عبارة عن ابتداء حالها ، وبالثعبان إخبار عن انتهاء حالها ، والحيّة اسم يقع على الصغير والكبير والذكر والأنثى .

وقال الزجاج : خَلْقُها خَلْق الثعبان العظيم ، واهتزازها وحركتها وخِفَّتها كاهتزاز الجانّ وخِفَّته .

قوله تعالى : ﴿ واضمم يدكَ إِلى جناحكَ ﴾ قال الفراء : الجناح من أسفل العَضُد إِلى الإِبط .

وقال أبو عبيدة : الجناح ناحية الجَنْب ، وأنشد :

أَضُمُّهُ للصَّدْرِ والجَنَاحِ . . .

قوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بيضاءَ من غير سوءٍ ﴾ أي : من غير بَرَص ﴿ آيةً أُخرى ﴾ أي : دلالة على صدقك سوى العصا .

قال الزجاج : ونصب "آيةً" على معنى : آتيناك آية ، أو نؤتيك [آية] .

قوله تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ .

إن قيل : لِمَ لم يقل : "الكُبَر ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه كقوله : ﴿ مآرب أخرى ﴾ وقد شرحناه ، هذا قول الفراء .

والثاني : أن فيه إضماراً تقديره : لنريك من آياتنا الآية الكبرى .

وقال أبو عبيدة : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : لنريك الكبرى من آياتنا .

والثالث : إنما كان ذلك لوفاق رأس الآي ، حكى القولين الثعلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(86/495)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ قيل : كان هذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا ؛ لأنه قال : ﴿ فاستمع لِمَا يوحى ﴾ ولا بد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوّة نفسه ، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك .

ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة آية كافية له في نفسه ، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد ، وبرهاناً يلقى به قومه .

واختلف في "ما" في قوله : "وَمَا تِلْكَ" فقال الزجاج والفراء : هي اسم ناقص وصلت ب"يمينك" أي ما التي بيمينك ؟ وقال الفرّاء أيضاً : "تلك" بمعنى هذه ؛ ولو قال : ما ذلك لجاز ؛ أي ما ذلك الشيء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هي عصاي ؛ لتثبت الحجّة عليه بعدما اعترف ، وإلاّ فقد علم الله ما هي في الأزل .

وقال ابن الجوهري : وفي بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن ؛ فقيل له : ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا مِلك لك عليها ولا تنضاف إليك .

وقرأ ابن أبي إسحاق "عَصَيَّ" على لغة هُذيل ؛ ومثله "يا بُشْرَيَّ" و "مَحْيَيَّ" وقد تقدّم .

وقرأ الحسن "عَصَايِ" بكسر الياء لالتقاء الساكنين .

ومثل هذا قراءة حمزة : ﴿ وَمَآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ ﴾ [إبراهيم : 22] .

وعن ابن أبي إسحاق سكون الياء .

الثانية : في هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ؛ لأنه لما قال : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ ذكر معاني أربعة : وهي : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ؛ والتوكؤ ؛ والهش ، والمآرب المطلقة .

فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك.

وفي الحديث "سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: "هو الطَّهورُ ماؤه الحلُّ مَيتته" ".

(87/495)

" وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: "نعم ولك أجر" "

ومثله في الحديث كثير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف؛ ومنه الاتكاء.

﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ "وَأَهِشُّ" أيضاً؛ ذكره النحاس.

وهي قراءة النَّخَعي، أي أخبط بها الورق، أي أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمي تناوله فتأكله.

قال الراجز:

أَهُشُّ بالعَصَا على أَغْنامِي . . .

من ناعِمِ الأَراكِ والبَشامِ

يقال : هَشَّ على غنمه يَهُشُّ بضم الهاء في المستقبل .

وهشَّ إلى الرجل يَهَش بالفتح .

وكذلك هشّ للمعروف يَهَشّ وهشِشت أنا : وفي حديث عمر : هشِشْت يوماً فقبَّلت وأنا صائم .

قال شِمْر : أي فرحتِ واشتهيت .

قال : ويجوز هَاش بمعنى هَشَّ .

قال الراعي :

فكبَّرَ للرؤيا وهَاشَ فؤادُهُ . . .

وبَشَّرَ نفساً كان قبل يَلُومَها

أي طَرب .

والأصل في الكلمة الرخاوة .

يقال : رجل هَشٌّ وزوج هَشٌّ .

وقرأ عكرمة "وأَهُسُّ" بالسين غير معجمة ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد .

وقيل : معناهما مختلف ؛ فالهشّ بالإعجام خبط الشجر ، والهس بغير إعجام زَجْر الغنم ؛ ذكره الماوردي ؛ وكذلك ذكر الزمخشري .

وعن عكرمة : "وأَهُسُّ" بالسين أي أنحى عليها زاجراً لها والهَسُّ زَجْر الغنم .

الرابعة : قوله تعالى ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ أي حوائج .

واحدها مَأْرُبة ومَأْرَبة ومَأْرِبة .

وقال "أخرى" على صيغة الواحد ؛ لأن مآرب في معنى الجماعة ، لكن المَهْيَع في توابع جمع ما لا يعقل الإفراد والكناية عنه بذلك ؛ فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] وكقوله : ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ : 10] وقد تقدّم هذا في "الأعراف" .

(88/495)

الخامسة : تعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس ، قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر فقَصُر الرِّشا وصلته بالعصَا ، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلني ، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة ، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

وروى عنه ميمون بن مِهْران قال : إمساك العصا سنة للأنبياء ، وعلامة للمؤمن .

وقال الحسن البصري : فيها ست خصال ؛ سنة للأنبياء ، وزينة الصلحاء ، وسلاح على الأعداء ، وعون للضعفاء ، وغمّ المنافقين ، وزيادة في الطاعات .

ويقال : إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ، ويخشع منه المنافق والفاجر ، وتكون قبلته إذا صلى ، وقوّة إذا أعيا .

ولقى الحَجّاجُ أعرابياً فقال : من أين أقبلت يا أَعرابي ؟ قال : من البادية .

قال : وما في يدك ؟ قال : عصايَ أَرْكزها لصَلاَتي ، وأعدّها لِعداتي ، وأسوق بها دابتي ، وأقوى بها على سفري ، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي ، وأثب بها النهر ، وتؤمنني من العَثْر ، وألقي عليها كسائي فيقيني الحرّ ، ويُدفئني من القرّ ، وتدني إليّ ما بعد مني ، وهي مَحْمِل سُفْرتي ، وعلاقة إداوتي ؛ أعصِي بها عند الضِّراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأتّقي بها عَقور الكلاب ؛ وتنوب عن الرمح في الطّعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ؛ ورثتها عن أبي ، وأورِّثها بعدي ابني ؛ وأهشّ بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى ، كثيرة لا تحصى .

قلت : منافع العصا كثيرة ، ولها مدخل في مواضع من الشريعة : منها تتخذ قبلة في الصحراء ؛ وقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام عَنزَة تُركز له فيصلّي إليها ، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحَرْبة فتوضع بين يديه فيصلّي إليها ؛ وذلك ثابت في الصحيح .

والحَرْبة والعَنزَة والنّيزْك والآلة اسماء لمسمى واحد .

وكان له مِحْجَن وهو عصا معوجّة الطّرَف يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبّله ؛ ثابت في الصحيح أيضاً .

وفي الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبيّ بن كعب وتميماً الداريّ أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة ، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصيّ من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر .

وفي الصحيحين : أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة .

والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكّئاً على سيف أو عصا ، فالعصا مأخوذة من أصل كريم ، ومعدن شريف ، ولا ينكرها إلا جاهل .

وقد جمع الله لموسى في عصاه من البراهين العظام ، والآيات الجسام ، ما آمن به السحرة المعاندون .

واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته .

وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعَنَزته ؛ وكان يخطب بالقضيب وكفى بذلك فضلاً على شرف حال العصا وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء ، وعادة العرب العرباء ، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام ، وفي المحافل والخطب .

وأنكرت الشّعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعاني .

والشّعوبية تبغض العرب وتفضل العجم .

قال مالك : كان عطاء ابن السائب يمسك المِخصرة يستعين بها .

قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفي مشيته كما قال بعضهم :

قد كنتُ أمشي على رجلين معتمداً . . .

فصرتُ أمشي على أخرى من الخشَبِ

قال مالك رحمه الله ورضي عنه : وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصي

يتوكأون عليها ، حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيّهم ، وربما أخذ ربيعة العصا من

بعض من يجلس إليه حتى يقوم .

ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم ، ويصلح حاله وحالهم معه .

ومنه قوله عليه السلام : " وأما أبو جَهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه " في إحدى الروايات .

وقد روي عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه : " لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم في الله " رواه عبادة بن الصامت ؛ خرجه النسائي .

ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " علِّق سوطك حيث يراه أهلك " وقد تقدم هذا في "النساء" .

ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من هذه الدار ؛ كما قيل لبعض الزهاد : ما لك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : إني أعلم أني مسافر ، وأنها دار قُلعة ، وأن العصا من آلة السفر ؛ فأخذه بعض الشعراء فقال :

حملتُ العصا لا الضَّعف أوجبَ حملَها . . .

عليّ ولا أني تَحنَّيتُ من كِبَرْ

ولكنّني ألزمتُ نفسيَ حَملَها . . .

لأُعلمها أنَّ المقيمَ على سَفَر

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ : لما أراد الله تعالى أن يُدرِّبه في تلقي النبوّة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها .

وكانت عصا ذات شُعبتين فصارت الشُّعبتان لها فماً ، وصارت حية تسعى أي تنتقل ، وتمشي وتلتقم الحجارة ؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة ف ﴿ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل : 10] فقال الله له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ وذلك أنه ﴿ فَأَوْجَسَ

فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ [طه : 67] أي لحقه ما يلحق البشر .

وروي أن موسى تناولها بكمي جُبّته فنُهي عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصاً كما كانت أول مرة وهي سيرتها الأولى ، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون .

ويقال : إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله ، وتضيء له الشُّعبتان بالليل كالشّمع ؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشّعبتان كالدلو ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها في الأرض فأثمرت تلك الثمرة .

وقيل : إنها كانت من آس الجنة .

وقيل : أتاه جبريل بها .

وقيل : مَلَك .

وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيده تلك العصا ، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ النحاس : ويجوز "حَيَّةً" ؛ يقال : خرجت فإذا زيد جالس وجالساً .

والوقف "حَيه" بالهاء .

والسعي المشي بسرعة وخفة .

وعن ابن عباس : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه .

وعن بعضهم : إنما خاف منه لأنه عرف ما لقي آدمُ منها .

وقيل لما قال له ربه : "لَا تَخَفْ" بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها .

﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ سمعت علي بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها ، مثل "وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ" قال : ويجوز أن يكون مصدراً لأن معنى سنعيدها سنسيّرها .

قوله تعالى : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جنَاحِكَ ﴾ يجوز في غير القرآن ضُمَّ بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين ، والفتح أجود لخفته ، والكسر على الأصل .

ويجوز الضم على الإتباع .

ويَدٌ أصلها يَدْيٌ على فَعْل ؛ يدل على ذلك أيدٍ .

وتصغيرها يُدَيَّة .

والجناح العضد ؛ قاله مجاهد .

وقال : "إلى" بمعنى تحت .

قطرب : ﴿ إلى جَنَاحِكَ ﴾ إلى جيبك ؛ ومنه قول الراجز :

أَضُمُّه للصدر والجَنَاحِ . . .

وقيل : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل في محل الجناح .

وقيل : إلى عندك .

وقال مقاتل : "إلى" بمعنى مع أي مع جناحك .

و ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ من غير برص نوراً ساطعاً ، يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءاً .

عن ابن عباس وغيره : فخرجت نوراً مخالفة للونه .

و"بَيْضَاءَ" نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها ألفي التأنيث لا يزايلانها فكأن لزومهما علّة ثانية ، فلم ينصرف في النكرة ، وخالفتَا الهاء لأن الهاء تفارق الاسم .

و ﴿ مِنْ غَيْرِ سوء ﴾ "من" صلة "بيضاء" كما تقول : ابيضت من غير سوء .

﴿ آيَةً أخرى ﴾ سوى العصا .

فأخرج يده من مِدْرَعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس يعشي البصر .

و"آيةً" منصوبة على البدل من بيضاء ؛ قاله الأخفش .

(92/495)

النحاس: وهو قول حسن.

وقال الزجاج: المعنى آتيناك آية أخرى أو نؤتيك؛ لأنه لما قال: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضاَءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى.

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾ يريد العظمى.

وكان حقه أن يقول الكبيرة، وإنما قال: "الكبرى" لوفاق رؤوس الآي.

وقيل: فيه إضمار؛ معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى؛ دليله قول ابن عباس: يد موسى أكبر آياته. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(93/495)

وقال أبو حيان:

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾

هو تقرير مضمنه التنبيه، وجمع النفس لما يورد عليها وقد علم تعالى في الأزل ما هي وإنما

سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة ، ويتقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة و﴿ ما ﴾ استفهام مبتدأ و﴿ تلك ﴾ خبره و﴿ بيمينك ﴾ في موضع الحال كقوله ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ والعامل اسم الإشارة.

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿ تلك ﴾ أسماً موصولاً صلته بيمينك ، ولم يذكر ابن عطية غيره وليس ذلك مذهباً للبصريين وإنما ذهب إليه الكوفيون ، قالوا : يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولاً حيث يتقدر بالموصول كأنه قيل : وما التي بيمينك ؟ وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفاً كأنه قيل : وما التي استقرت بيمينك ؟ وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى عليه السلام استئناس عظيم وتشريف كريم.

﴿ قال هي عصاي ﴾.

وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري عصَيّ بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم.

وقرأ الحسن عَصَايِ بكسر الياء وهي مروية عن ابن أبي إسحاق أيضاً وأبي عمرو معاً ، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين.

وعن أبي إسحاق والجحدري عَصَايْ بسكون الياء.

﴿ أتوكأ عليها ﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف ، وهذا زيادة في الجواب كما جاء "هو الطهور ماؤه الحل ميتته".

في جواب من سأل أيتوضأ بماء البحر؟ وكما جاء في جواب ألهذا حج؟ قال: "نعم ولك أجر".

وحكمة زيادة موسى عليه السلام رغبته في مطاولة مناجاته لربه تعالى، وازدياد لذاذته بذلك كما قال الشاعر:

وأملي عتاباً يستطاب فليتني . . .

أطلت ذنوباً كي يطول عتابه

وتعداده نعمه تعالى عليه بما جعل له فيها من المنافع، وتضمنت هذه الزيادة تفصيلاً في قوله ﴿ أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ﴾ وإجمالاً في قوله ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾.

(94/495)

وقيل: ﴿ أتوكأ عليها ﴾ جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال ﴿ هي عصاي ﴾ قال له تعالى فما تصنع بها؟ قال: ﴿ أتوكأ عليها ﴾ الآية.

وقيل: سأله تعالى عن شيئين عن العصا بقوله ﴿ وما تلك ﴾ وبقوله ﴿ بيمينك ﴾ عما يملكه، فأجابه عن ﴿ وما تلك ﴾؟ بقوله ﴿ هي عصاي ﴾ وعن قوله ﴿ بيمينك ﴾ بقوله ﴿ أتوكأ عليها وأهش ﴾ إلى آخره انتهى.

وفي التحقيق ليس قوله ﴿ بيمينك ﴾ بسؤال وقدم في الجواب مصلحة نفسه في قوله ﴿ أتوكأ عليها ﴾ ثم ثنى بمصلحة رعيته في قوله ﴿ وأهش ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ وَأَهُشُّ ﴾ بضم الهاء والشين المعجمة ، والنخعي بكسرها كذا ذكر أبو الفضل الرازي وابن عطية وهي بمعنى المضمومة الهاء والمفعول محذوف وهو الورق .

قال أبو الفضل : ويحتمل ذلك أن يكون من هش يهش هشاشة إذا مال ، أي أميل بها على غنمي بما أصلحها من السوق وتكسير العلف ونحوهما ، يقال منه : هش الورق والكلأ والنبات إذا جف ولأن انتهى .

وقرأ الحسن وعكرمة : وأَهُسُّ بضم الهاء والسين غير معجمة ، والهس السوق ومن ذلك الهس والهساس غير معجمة في الصفات .

ونقل ابن خالويه عن النخعي أنه قرأ وأَهُسُّ بضم الهمزة من أهس رباعياً وذكر صاحب اللوامح عن عكرمة ومجاهد وأَهُشُّ بضم الهاء وتخفيف الشين قال : ولا أعرف وجهه إلاّ أن يكون بمعنى العامة لكن فرّ من قراءته من التضعيف لأن الشين فيه تفش فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي .

فيكون كتخفيف ظلت ونحوه .

وذكر الزمخشري عن النخعي أنه قرأ ﴿ وأهش ﴾ بضم الهمزة والشين المعجمة من أهش رباعياً قال : وكلاهما من هش الخبز يهش إذا كان يتكسر لهشاشته .

ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال ما هي إلاّ عصا لا تنفع إلاّ منافع بنات جنسها كما ينفع العيدان ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه ، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة كأنه يقول أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة .

كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها وقالوا اسم العصا نبعة انتهى .

وقرأت فرقة ﴿ غنمي ﴾ بسكون النون وفرقة عليّ غنمي بإيقاع الفعل على الغنم .

والمآرب ذكر المفسرون أنها كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين ، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل ، وإذا قصر رشاؤه وصل بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه .

وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً

وتكونان شمعتين بالليل ، وإذا ظهر عدو حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب .

وكانت تقيه الهوامّ ويردّ بها غنمه وإن بعدوا وهذه العصا أخذها من بيت عصى الأنبياء التي كانت عند شعيب حين اتفقا على الرعية هبط بها آدم من الجنة وطولها عشرة أذرع ، وقيل : اثنتا عشرة بذراع موسى عليه السلام وعامل المآرب وإن كان جمعاً معاملة الواحدة المؤنثة فأتبعها صفتها في قوله أخرى ولم يقل آخر رعياً للفواصل وهي جائز في غير الفواصل .

وكان أجود وأحسن في الفواصل .

(96/495)

وقرأ الزهري وشيبة : مارب بغير همز كذا قال الأهوازي في كتاب الإقناع في القراءات ويعني والله أعلم بغير هم محقق ، وكأنه يعني أنهما سهلاها بين بين .

﴿ قال ألقها ﴾ الظاهر أن القائل هو الله تعالى ، ويبعد قول من قال يجوز أن يكون القائل الملك بإذن الله ومعنى ﴿ ألقها ﴾ اطرحها على الأرض ومنه قول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى . . .

وإذا هي التي للمفاجأة ، والحية تنطلق على الصغيرة والكبيرة والذكر والأنثى والجان الرقيق من الحيات والثعبان العظيم منها ، ولا تنافي بين تشبيهها بالجان في قوله ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ﴾ وبين كونها ثعباناً لأن تشبيهها بالجان هو في أول حالها ثم تزيدت حتى صارت ثعباناً أو شبهت بالجان وهي ثعبان في سرعة حركتها واهتزازها مع عظم خلقها .

قيل : كان لها عرف كعرف الفرس وصارت شعبتا العصا لها فماً وبين لحييها أربعون ذراعاً .

وعن ابن عباس : انقلبت ثعباناً تبتلع الصخر والشجر والمحجن عنقاً وعيناها تتقدان ، فلما رأى هذا الأمر العجيب الهائل لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف لا سيما هذا الأمر الذي يذهل العقول .

ومعنى ﴿ تسعى ﴾ تنتقل وتمشي بسرعة ، وحكمة انقلابها وقت مناجاته تأنيسه بهذا المعجز الهائل حتى يلقيها لفرعون فلا يلحقه ذعر منها في ذلك الوقت إذ قد جرت له بذلك عادة وتدريبه في تلقى تكاليف النبوّة ومشاق الرسالة ، ثم أمره تعالى بالإقدام على أخذها ونهاه عن أن يخاف منها وذلك حين ولى مدبراً ولم يعقب .

وقيل : إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها .

وقيل : لما قال له الله ﴿ لا تخف ﴾ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيتها ويبعد ما ذكره مكي في تفسيره أنه قيل له خذ مرة وثانية حتى قيل له ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ فأخذها في الثالثة لأن منصب النبوة لا يليق أن يأمره ربه مرة وثانية فلا يمتثل ما أمر به ، وحين أخذها بيده صارت عصا والسيرة من السير كالركبة والجلسة ، يقال : سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة .

وقيل : سير الأولين .

وقال الشاعر :

فلا تغضبن من سيرة أنت سرتها . . .

فأول راض سيرة من يسيرها

واختلفوا في إعراب ﴿ سيرتها ﴾ فقال الحوفي مفعول ثان لسنعيدها على حذف الجار مثل ﴿ واختار موسى قومه ﴾ يعني إلى ﴿ سيرتها ﴾ قال : ويجوز أن يكون بدلاً من مفعول ﴿ سنعيدها ﴾ .

وقال هذا الثاني أبو البقاء قال : بدل اشتمال أي صفتها وطريقتها .

وقال الزمخشري : يجوز أن ينتصب على الظرف أي ﴿ سنعيدها ﴾ في طريقتها الأولى

أي في حال ما كانت عصا انتهى.

و﴿ سيرتها ﴾ وطريقتها ظرف مختص فلا يتعدى إليه الفعل على طريقة الظرفية إلاّ بواسطة، في ولا يجوز الحذف إلاّ في ضرورة أو فيما شذت فيه العرب.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون مفعولاً من عاده بمعنى عاد إليه.

ومنه بيت زهير:

وعادك أن تلاقيها عداء . . .

فيتعدى إلى مفعولين انتهى.

وهذا هو الوجه الأول الذي ذكره الحوفي.

قال: ووجه ثالث حسن وهو أن يكون ﴿ سنعيدها ﴾ مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها، بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية، فسنعيدها بعد الذهاب كما أنشأناها أولاً ونصب ﴿ سيرتها ﴾ بفعل مضمر أي تسير ﴿ سيرتها الأولى ﴾ يعني ﴿ سنعيدها ﴾ سائرة ﴿ سيرتها الأولى ﴾ حيث كنت تتوكأ عليها، ولك فيها المآرب التي عرفتها انتهى.

والجناح حقيقة في الطائر والملك، ثم توسع فيه فأطلق على اليد وعلى العضد وعلى جنب الرجل.

وقيل لمجنبتي العسكر جناحان على سبيل الاستعارة ، وسمي جناح الطائر لأنه يجنح به عند الطيران ، ولما كان المرغوب من ظلمة أو غيرها إذا ضم يده إلى جناحه فتر رغبة وربط جأشه أمره تعالى أن يضم يده إلى جناحه ليقوى جأشه ولتظهر له هذه الآية العظيمة في اليد .

والمراد إلى جنبك تحت العضد .

ولهذا قال ﴿ تخرج ﴾ فلو لم يكن دخول لم يكن خروج كما قال في الآية الأخرى ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج ﴾ وفي الكلام حذف إذ لا يترتب الخروج على الضم وإنما يترتب على الإخراج والتقدير ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ تنضم وأخرجها ﴿ تخرج ﴾ فحذف من الأول وأبقى مقابله ، ومن الثاني وأبقى مقابله وهو ﴿ اضمم ﴾ لأنه بمعنى أدخل كما يبين في الآية الأخرى .

﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ قيل خرجت بيضاء تشف وتضيء كأنها شمس ، وكان آدم اللون وانتصب ﴿ بيضاء ﴾ على الحال والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة ، وكما كنوا عن جذيمة وكان أبرص بالأبرص والبرص أبغض شيء إلى العرب وطباعهم تنفر منه وأسماعهم تمج ذكره فكنى عنه .

وقوله ﴿ من غير سوء ﴾ متعلق ببيضاء كأنه قال ابيضت ﴿ من غير سوء ﴾ .

وقال الحوفي : ﴿ من غير سوء ﴾ في موضع النعت لبيضاء ، والعامل فيه الاستقرار انتهى .

ويقال له عند أرباب البيان الاحتراس لأنه لو اقتصر على قوله ﴿ بيضاء ﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق .

وانتصب ﴿ آية ﴾ على الحال وهذا على مذهب من يجيز تعداد الحال لذي حال واحد .

وأجاز الزمخشري أن يكون منصوباً على إضمار خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام كذا قال ، فأما تقدير خذ فسائغ وأما دونك فلا يسوغ لأنه اسم فعل من باب الإغراء فلا يجوز أن يحذف النائب والمنوب عنه ولذلك لم يجر مجراه في جميع أحكامه ، وأجاز أبو البقاء والحوفي أن يكون ﴿ آية ﴾ بدلاً من ﴿ بيضاء ﴾ وأجاز أبو البقاء أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ بيضاء ﴾ أي تبيض ﴿ آية ﴾ .

وقيل منصوب بمحذوف تقديره جعلناها ﴿ آية ﴾ أو آتيناك ﴿ آية ﴾ .

واللام في ﴿ لنريك ﴾ قال الحوفي متعلقة باضمم ، ويجوز أن تتعلق بتخرج .

وقال أبو البقاء : تتعلق بهذا المحذوف يعني المقدر جعلناها أو آتيناك ، ويجوز أن تتعلق بما دل عليه ﴿ آية ﴾ أي دللنا بها ﴿ لنريك ﴾ .

وقال الزمخشري : ﴿ لنريك ﴾ أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بها تين الآيتين بعض ﴿ آياتنا الكبرى ﴾ أو ﴿ لنريك ﴾ بهما ﴿ الكبرى ﴾ من ﴿ آياتنا ﴾ أو ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ فعلنا ذلك ، ونعني أنه جاز أن يكون مفعول ﴿ لنريك ﴾ الثاني ﴿ الكبرى ﴾ أو يكون ﴿ من آياتنا ﴾ في موضع المفعول الثاني .

وتكون ﴿ الكبرى ﴾ صفة لآياتنا على حد ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ و ﴿ مآرب أخرى ﴾ بجريان مثل هذا الجمع مجرى الواحدة المؤنثة ، وأجاز هذين الوجهين من الإعراب الحوفي وابن عطية وأبو البقاء .

والذي نختاره أن يكون ﴿ من آياتنا ﴾ في موضع المفعول الثاني ، و ﴿ الكبرى ﴾ صفة لآياتنا لأنه يلزم من ذلك أن تكون آياته تعالى كلها هي الكبر لأن ما كان بعض الآيات الكبر صدق عليه أنه ﴿ الكبرى ﴾ .

وإذا جعلت ﴿ الكبرى ﴾ مفعولاً لم تصف الآيات بالكبر لأنها هي المتصفة بأفعل التفضيل ، وأيضاً إذا جعلت ﴿ الكبرى ﴾ مفعولاً فلا يمكن أن يكون صفة للعصا واليد معاً لأنهما كان يلزم التثنية في وصفيهما فكان يكون التركيب الكبريين ولا يمكن أن يخص أحدهما لأن كلاً منهما فيها معنى التفضيل .

(100/495)

وبعد ما قال الحسن من أن اليد أعظم في الإعجاز من العصا لأنه ذكر عقيب اليد ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ لأنه جعل ﴿ الكبرى ﴾ مفعولاً ثانياً ﴿ لنريك ﴾ وجعل ذلك راجعاً إلى الآية القريبة وهي إخراج اليد بيضاء من غير سوء وقد ضعف قوله هذا لأنه ليس في اليد إلاّ تغيير اللون ، وأما العصا ففيها تغيير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الشجر والحجر ، ثم عادت عصا بعد ذلك فقد وقع التغيير مراراً فكانت أعظم من اليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(101/495)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾

شروعٌ في حكاية ما كُلف به عليه الصلاة والسلام من الأمور المتعلقةِ بالخلق إثرَ حكايةِ ما أُمر به من الشؤون الخاصة بنفسه ، فما استفهاميةٌ في حيز الرفعِ بالابتداء وتلك خبرُه أو

بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفقُ بالجواب ، وبيمينك متعلقٌ بمضمر وقع حالاً أي وما تلك قارّةً أو مأخوذةً بيمينك ، والعاملُ معنى الإشارة كما في قوله عز وعلا : ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ وقيل : تلك موصولةٌ أي ما التي هي بيمينك وأياً ما كان فالاستفهامُ إيقاظٌ وتنبيهٌ له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب ، وتكريرُ النداء لزيادة التأنيس والتنبيه

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾

(102/495)

نسبها إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونِها بيمينه وتمهيداً لما يعقُبه من الأفاعيل المنسوبةِ إليه عليه الصلاة والسلام ، وقرىء عَصَيَّ على لغة هذيل ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياءِ أو الوقوفِ على رأس القطيع ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ أي أخبط بها الورقَ وأُسقطه ﴿ على غَنَمِى ﴾ وقرىء أهِشّ بكسر الهاء وكلاهما من هشّ الخبزُ يهش إذا انكسر لهشاشته ، وقرىء بالسين غيرِ المعجمة وهو زجرُ الغنم وتعديتُه بعلي لتضمين معنى الإنحاءِ والإقبال ، أي أزجُرها مُنْحِياً ومُقبلاً عليها ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ أي حاجاتٌ أخرى من هذا الباب مثلُ ما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا سار ألقاها

على عاتقه فعلّق بها أدواتِه من القوس والكِنانة والحِلاب ونحوها ، وإذا كان في البرية ركَزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكِساء واستظل به ، وإذا قصُر الرِّشاءُ وصله بها ، وإذا تعرضت لغنمه السباعُ قاتل بها ، قيل : ومن جملة المآربِ أنها كانت ذاتَ شعبتَين ومِحْجَن فإذا طال الغصنُ حناه بالمحجن وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين ، وكأنه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصودَ من السؤال بيانُ حقيقتها وتفصيل منافعِها بطريق الاستقصاءِ حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقةِ وبدت منها خواصُّ بديعةٌ علم أنها آياتٌ باهرة ومعجزاتٌ قاهرة أحدثها الله تعالى ، وليست من الخواصّ المترتبةِ عليها ، فذكرُ حقيقتَها ومنافعَها على التفصيل والإجمال على معنى أنها من جنس العِصِيّ مستتبِعةٌ لمنافعِ بناتِ جنسِها ليطابقَ جوابُه الغرضَ الذي فهمه من سؤال العليم الخبير .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه الذهنُ ، كأنه قيل : فماذا قال عز وجل ؟ فقيل : قال : ﴿ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ لترى من شأنها ما لم يخطُر على بالك من الأمور ، وتكرارُ النداءِ لتأكيد التنبيه .

﴿ فألقاها ﴾ على الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ رُوي أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حيةً صفراءَ في غِلَظ العصا ثم انتفخت وعظُمت ، فلذلك شُبّهت بالجانّ تارةً وسميت ثُعباناً أُخرى وعبّر عنها هاهنا بالاسم العامّ للحالين ، وقيل : قد انقلبت من أول الأمر ثعباناً وهو الأليقُ بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وإنما شبهت بالجان في الجلادة وسُرعة الحركةِ لا في صِغَر الجُثة ، وقوله تعالى : ﴿ تسعى ﴾ إما صفةٌ لحيّةٌ أو خبرٌ ثان عند من يجوز كونَه جملة .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما سبق ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع كلَّ شيء من الصخر والشجَر ، فلما رآه كذلك خاف ونفَر ، وما يملك البشرُ عند مشاهدةِ الأهوال والمخاوفِ من الفزع والنّفار ، وفي عطف النهي على الأمر إشعارٌ بأن عدمَ المنهيّ عنه مقصودٌ لذاته لا لتحقيق المأموريةِ فقط وقوله تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيَرَتَهَا الأولى ﴾ مع كونه استئنافاً مسوقاً لتعليل الامتثال بالأمر والنهي فإن إعادتَها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها ، وعدمِ الخوفِ منها عِدةٌ كريمة بإظهار معجزةٍ أخرى على يده عليه الصلاة والسلام ، وإيذانٌ بكونها مسخّرةً له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمَأْنينة من أمره ولا يعتريه شائبةُ تزلزُل عند مُحاجّة فرعون ، أي سنعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التي هي الهيئةُ العَصَوية .

قيل : بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدمِ الخوف إلى حيث كان يُدخل يدَه في فمها ويأخذ بلَحْيَيها . والسِّيرةُ فِعْلةٌ من السير تجوز بها للطريقة والهيئة ، وانتصابُها على نزع الجارِّ أي إلى سيرتها ، أو على أنَّ أعاد منقولٌ من عاده بمعنى عاد إليه ، أو على الظرفية أي سنعيدها في طريقها ، أو على تقدير فعلها وإيقاعِها حالاً من المفعول أي سنعيدها عصاً كما كانت من قبل تسير سيرتَها الأولى ، أي سائرةً سيرتَها الأولى فتنتفعَ بها كما كنت تنتفع من قبل .

﴿ واضمم يَدكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾

(105/495)

أُمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعد ما أخذ الحيةَ وانقلبت عصاً كما كانت أي أدخلها تحت عضُدِك فإن جناحَيْ الإنسانِ جنباه كما أن جناحيَ العسكر ناحيتاه مستعارٌ من جناحي الطائرِ ، وقد سُمّيا جناحين لأنه يجنَحُهما أي يُميلهما عند الطيران وقوله تعالى :

﴿ تَخْرُجْ ﴾ جوابُ الأمر وقوله تعالى : ﴿ بَيْضَاء ﴾ حالٌ من الضمير فيه وقوله تعالى :

﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من الضمير في بيضاء أي كائنةً من غير

عيب وقبح ، كنّي به عن البرص كما كنّي بالسوأة عن العورة لما أن الطِباعَ تعافه وتنفِر منه ، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان آدمَ فأخرج يده من مُدرّعته بيضاءَ لها شُعاعٌ كشعاع الشمس تُغشّي البصرَ ﴿ ءَايَةً أُخرى ﴾ أي معجزةً أخرى غيرَ العصا وانتصابُها على الحالية إما من الضمير في تخرجْ على أنها بدلٌ من الحال الأولى ، وإما من الضمير في بيضاءَ ، وقيل : من الضمير في الجار والمجرور ، وقيل : هي منصوبةٌ بفعل مضمرٍ نحوُ خذْ أو دونك وقوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءايَاتِنَا الكبرى ﴾ متعلقٌ بمضمر ينساق إليه النظمُ الكريم ، كأنه قيل : فعلنا ما فعلنا من الأمر والإظهارِ لنُريَك بذلك بعضَ آياتنا الكبرى ، على أن الكبرى صفةٌ لآياتنا أو نريَك بذلك من آياتنا ما هي كُبرى على أن الكبرى مفعولٌ ثانٍ لنُريَك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول ، وأيّاً ما كان فالآيةُ الكبرى عبارةٌ عن العصا واليدِ جميعاً ، وأما تعلقُه بما دل عليه آيةٌ أي دلّلنا بها لنريك الخ ، أو بقوله تعالى : ﴿ واضمم ﴾ أو بقوله : ﴿ تَخْرُجُ ﴾ أو بما قُدّر من نحو خذ ودونك كما قال بكلٍ من ذلك قائل ، فيؤدّي إلى عَراء آيةِ العصا عن وصف الكِبَر فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) ﴾

شروع في حكاية ما كلفه عليه السلام من الأمور المتعلق بالخلق إثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه .

فما استفهامية في محل الرفع بالابتداء و ﴿ تِلْكَ ﴾ خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب و ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ متعلق بمضمر وقع حالاً من ﴿ تِلْكَ ﴾ أي وما تلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل فيه ما فيه من معنى الإشارة كما في قوله عز وجل حكاية ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [هود : 72] وتسميه النحاة عاملاً معنوياً .

وقال ابن عطية : تلك اسم موصول و ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ متعلق بمحذوف صلته أي وما التي استقرت بيمينك .

وهو على مذهب الكوفيين الذين يقولون إن كل اسم إشارة يجوز أن يكون اسماً موصولاً .

ومذهب البصريين عدم جواز ذلك إلا في ذا بشرطه .

والاستفهام تقريري وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى بيان المراد منه .

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾

نسبها عليه السلام إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام .

واسمها على ما روي عن مقاتل نبعة .

وكان عليه السلام قد أخذها من بيت عصى الأنبياء عليهم السلام التي كانت عند شعيب حين استأجره للرعي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة وكانت فيما يقال من آسها .

وقال وهب : كانت من العوسج وطولها عشرة أذرع على مقدار قامته عليه السلام .

وقيل : اثنتا عشرة ذراعاً بذراع موسى عليه السلام .

وذكر المسند إليه وإن كان هو الأصل لرغبته عليه السلام في المناجاة ومزيد لذاذته بذلك .

وقرأ ابن أبي إسحاق .

والجحدري ﴿ عصي ﴾ بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم على لغة هذيل فإنهم يقلبون الألف التي قبل ياء المتكلم ياء للمجانسة كما يكسر ما قبلها في "الصحيح" .

قال شاعرهم :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم . . .

فتخرموا ولكل جنب مصرع

وقرأ الحسن ﴿ هِيَ عَصَاىَ ﴾ بكسر الياء وهي مروية عن أبي ابن إسحاق أيضاً .

وأبي عمرو ، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين كما في "البحر" .

وعن ابن أبي إسحاق ﴿ عَصَایَ ﴾ بسكون الياء كأنه اعتبر الوقف ولم يبال بالتقاء الساكنين ، والعصا من المؤنثات السماعية ولا تلحقها التاء ، وأول لحن سمع بالعراق كما قال الفراء : هذه عصاتي وتجمع على عصي بكسر أوله وضمه وأعص وأعصاء ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ أي أخبط بها ورق الشجر وأضربه ليسقط ﴿ على غَنَمِی ﴾ فتأكله .

وقرأ النخعي كما ذكر أبو الفضل الرازي .

وابن عطية ﴿ أهش ﴾ بكسر الهاء ومعناه كمعنى مضموم الهاء ، والمفعول على القراءتين محذوف كما أشرنا إليه .

وقال أبو الفضل : يحتمل أن يكون ذلك من هش يهش هشاشة إذ مال أي أميل بها على غنمي بما يصلحها من السوق وإسقاط الورق لتأكله ونحوهما ، ويقال : هش الورق والكلأ والنبات إذا جف ولأن انتهى .

وعلى هذا لا حذف .

وقرأ الحسن .

وعكرمة ﴿ أهس ﴾ بضم الهاء والسين المهملة من الهس وهو زجر الغنم ، وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء يقال : أنحى عليه بالعصا إذا رفعها عليه موهماً للضرب أي أزجرها

منحياً عليها .

وفي كتاب السين والشين لصاحب القاموس يقال : هس الشيء وهشه إذا فته وكسره فهما بمعنى .

ونقل ابن خالويه عن النخعي أنه قرأ ﴿ أهش ﴾ من أهش رباعياً .

وذكر صاحب اللوامح عن عكرمة .

ومجاهد ﴿ أهش ﴾ بضم الهاء وتخفيف الشين المعجمة ثم قال لا أعرف وجهه إلا أن يكون بمعنى أهش بالتضعيف لكن فر منه لأن الشين فيه تفش فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي فيكون كتخفيف ظلت ونحوه اه وهو في غاية البعد .

وقرأت جماعة ﴿ على غَنَمِى ﴾ بسكون النون .

وأخرى ﴿ على غنَمِى ﴾ على أن ﴿ على ﴾ جار ومجرور و ﴿ غنَمِى ﴾ مفعول صريح للفعل السابق ، ولم أقف على ذكر كيفية قراءة هذه الجماعة ذلك الفعل وهو على قراءة الجمهور مما لا يظهر تعديه للغنم ، وكذا على قراءة غيرهم إلا بنوع تكلف ، والغنم الشاه وهو اسم مؤنث موضوع للجنس يقع على الذكر والإناث وعليهما جميعاً ولا واحد له

من لفظه وإنما واحده شاة وإذا صغرته قلت غنيمة بالهاء ويجمع على أغنام .

وغنوم .

وأغانم ، وقالوا : غنمان في التثنية على إرادة قطعتين وقدم عليه السلام بيان مصلحة نفسه في قوله : أتوكأ عليها وثنى بمصلحة رعيته في قوله : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِى ﴾ ولعل ذلك لأنه عليه السلام بعد أن ناداه ربه سبحانه وتحقق أنه جل وعلا هو المنادي قال سبحانه له : ادن مني فجمع يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائماً فرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه وانقطع لسانه وانكسر قلبه ولم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجري فيه ثم زحف وهو مرعوب حتى وقف قريباً من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك وتعالى ما تلك بيمينك يا موسى ؟ فقال ما قص عز وجل ، وقيل : لعل تقديم التوكؤ عليها لأنه الأوفق للسؤال بما تلك بيمينك ، ثم إنه عليه السلام أجمل أوصافها في قوله : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَأَرِبُ أخرى ﴾ أي حاجات أخر ومفرده مأربة مثلثة الراء .

وعومل في الوصف معاملة مفرده فلم يقل أخر وذلك جائز في غير الفواصل وفيها كما هنا أجوز وأحسن .

ونقل الأهوازي في كتاب الإقناع عن الزهري .

وشيبة أنهما قرأا ﴿ مَأَرِبُ ﴾ بغير همز وكأنه يعني بغير همز محقق ، ومحصله أنهما سهلا الهمزة بين بين ، وقد روى الإمام أحمد .

(109/495)

وغيره عن وهب في تعيين هذه المآب أنه كان لها شعبتان ومحجن تحتهما فإذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكان إذا شاء عليه السلام ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنانته ومخلاته وثوبه وزادا إن كان معه وكان إذا رتع في البرية حيث لا ظل له ركزها ثم عرض بالزندين الزند الأعلى والزند السفلى على شعبتيها وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان مرتعاً ، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه .

وذكر بعضهم أنه كان عليه السلام يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً وتكونان شمعتين في الليل وإذا ظهر عدو حاربت عنه وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء وإذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وكانت تحدثه وتؤنسه ؛ ونقل الطبرسي كثيراً مما ذكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

والظاهر أن ذلك مما كان فيها بعد ، وتكلف بعضهم للقول بأنه مما كان قبل .

ويحتمل إن صح خبر في ذلك ولا أراه يصح فيه شيء ، وكأن المراد من سؤاله تعالى إياه عليه السلام أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه تعالى عقب ذلك الآية العظيمة كأنه جل وعلا يقول : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها فما طالبة للوصف أو يقدر المنفعة بعدها .

واختيار ما يدل على البعد في اسم الإشارة للإشارة إلى التعظيم وكذا في النداء إيماء إليه والتعداد في الجواب لأجله ؛ و ﴿ مَأَرِبُ أُخرى ﴾ تتميم للاستعظام بأنها أكثر من أن تحصى ، وذكر العصا في الجواب ليجري عليها النعوت المادحة وفيه من تعظيم شأنها ما ليس في ترك ذكرها ، ويندفع بهذا ما أورد من أنه يلزم على هذا الوجه استدراك ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ إذ لا دخل له في تعداد المنافع .

(110/495)

ويجوز أن يكون المراد إظهاره عليه السلام حقارتها ليريه عز وجل عظيم ما يخترعه في الخشبة اليابسة مما يدل على باهر قدرته سبحانه كما هو شأن من أراد أن يظهر من الشيء

الحقير شيئاً عظيماً فإنه يعرضه على الحاضرين ويقول : ما هذا ؟ فيقولون هو الشيء الفلاني ويصفونه بما يبعد عما يريد إظهاره منه ثم يظهر ذلك فما طالبة للجنس و ﴿ تِلْكَ ﴾ للتحقير والتعداد في الجواب لأجله ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ تتميم لذلك أيضاً بأن المسكوت عنه من جنس المنطوق فكأنه عليه السلام قال : هي خشبة يابسة لا تنفع إلا منافع سائر الخشبات ولذلك ذكر عليه السلام العصا وأجرى عليها ما أجرى ، وقيل : إنه عليه السلام لما رأى من آيات ربه ما رأى غلبت عليه الدهشة والهيبة فسأله سبحانه وتكلم معه إزالة لتلك الهيبة والدهشة فما طالبة إما للوصف أو للجنس وتكرير النداء لزيادة التأنيس ، ولعل اختيار ما يدل على البعد في اسم الإشارة لتنزيل العصا منزلة البعيد لغفلته عليه السلام عنها بما غلب عليه من ذلك ، والإجمال في قوله : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ يحتمل أن يكون رجاء أن يسأله سبحانه عن تلك المآرب فيسمع كلامه عز وجل مرة أخرى .

وتطول المكاملة وتزداد اللذاذة التي لأجلها أطنب أولاً ، وما ألذ مكالمة المحبوب ، ومن هنا قيل :

وأملي حديثاً يستطاب فليتني . . .

أطلت ذنوباً كي يطول عتابه

ويحتمل أن يكون لعود غلبة الدهشة إليه عليه السلام ، وزعم بعضهم أنه تعالى سأله عليه السلام ليقرره على أنها خشبة حتى إذا قلبها حية لا يخافها وليس بشيء ، وعلى جميع هذه الأقوال السؤال واحد والجواب واحد كما هو الظاهر ، وقيل : ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ الخ جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ قال له تعالى : ﴿ فَمَا قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ الخ ، وقيل : إنه تعالى سأله عن شيئين عن العصا بقوله سبحانه ﴿ وَمَا تِلْكَ ﴾ وعما يملكه منها بقوله عز وجل : ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ فأجاب عليه السلام عن الأول بقوله : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ وعن الثاني بقوله : ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ الخ ، ولا يخفى أن كلا القولين لا ينبغي أن يتوكأ عليهما لا سيما الأخير .

هذا واستدل بالآية على استحباب التوكؤ على العصا وان لم يكن الشخص بحيث تكون وترا لقوسه وعلى استحباب الاقتصاد في المرعى بالهش وهو ضرب الشجر ليسقط الورق دون الاستئصال ليخلف فينتفع به الغير .

وقد ذكر الإمام فيها فوائد سنذكر بعضها في باب الإشارة لأن ذلك أوفق به .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل : فماذا قال الله عز وجل فقيل ؟ قال : ﴿ أَلْقِهَا يا موسى موسى ﴾ لترى من شأنه ما ترى ، والإلقاء الطرح

على الأرض ، ومنه قوله :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى . . .

كما قر عينا بالأياب المسافر

وتكرير النداء لمزيد التنبيه والاهتمام بشأن العصا ، وكون قائل هذا هو الله تعالى هو الظاهر ، وزعم بعضهم أنه لا يجوز أن يكون القائل الملك بأمر الله تعالى وقد أبعد غاية البعد .

(112/495)

﴿ فألقياها ﴾ ريثما قيل له ألقها ﴿ فألقاها فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ تمشي وتنتقل بسرعة ، والحية اسم جنس ينطلق على الصغير والكبير والأنثى والذكر ، وقد انقلبت حين ألقاها عليه السلام ثعبانا وهو العظيم من الحيات كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 107] وتشبيهها بالجان وهو الدقيق منها في قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [النمل : 10] من حيث الجلادة وسرعة الحركة لا من حيث صغر الجثة فلا منافاة ، وقيل : إنها انقلبت حين ألقاها عليه السلام حية صفراء في غلظ العصا ثم انتفخت وغلظت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعباناً

أخرى ، وعبر عنها بالاسم العام للحالين ، والأول هو الأليق بالمقام مع ظهور اقتضاء الآية التي ذكرناها له وبعدها عن التأويل .

وقد روي الإمام أحمد .

وغيره عن وهب أنه عليه السلام حانت منه نظرة بعد أن ألقاها فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يرى يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه يمر بالضخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها عيناه توقدان ناراً وقد عاد المحجن عرفا فيه شعر مثل النيازك وعاد الشعبتان فما مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف .

وفي بعض الآثار أن بين لحييه أربعين ذراعاً فلما عاين ذلك موسى عليه السلام ولي مدبراً ولم يعقب فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية ثم ذكر ربه سبحانه فوقف استحياء منه عز وجل ثم نودي يا موسى إلى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف فأمره سبحانه وتعالى بأخذها وهو ما قص الله تعالى بقوله عز قائلاً :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي الله عز وجل ، والجملة استئناف كما سبق ﴿ خُذْهَا ﴾ أي الحية وكانت على ما روي عن ابن عباس ذكراً ، وعن وهب أنه تعالى قال له : خذها بيمينك ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾ منها ، ولعل ذلك الخوف مما اقتضته الطبيعة البشرية فإن البشر بمقتضى طبعه يخاف عند مشاهدة مثل ذلك وهو لا ينافي جلالة القدر .

وقيل : إنما خاف عليه السلام لأنه رأى أمراً هائلاً صدر من الله عز وجل بلا واسطة ولم يقف على حقيقة أمره وليس ذلك كنار إبراهيم عليه السلام لأنها صدرت على يد عدو الله تعالى وكانت حقيقة أمرها كنار على علم فلذلك لم يخف عليه السلام منها كما خاف موسى عليه السلام من الحية ، وقيل : إنما خاف لأنه عرف ما لقي من ذلك حيث كان له مدخل في خروج أبيه من الجنة ، وإنما عطف النهي على الأمر للاشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط ، وقوله تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا ﴾ أي بعد الأخذ ﴿ سِيرَتَهَا ﴾ أي حالتها ﴿ الاولى ﴾ التي هي العصوية استئناف مسوق لتعليل الامتثال بالأمر والنهي فإن إعادتها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها ، ودعوى أن فيه مع ذلك عدة كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام وإيذاناً بكونها مسخرة له عليه السلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا تعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون لا تخلو عن خفاء ، وذكر بعضهم أن حكمة انقلابها حية وأمره بأخذها ونهيه عن الخوف تأنيسه فيما يعلم سبحانه أنه سيقع منه مع فرعون ، ولعل هذا مأخذ تلك

الدعوى .

قيل : بلغ عليه السلام عند هذا الخطاب من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحييها ، وفي رواية الإمام أحمد .

(114/495)

وغيره عن وهب أنه لما أمره الله تعالى بأخذها أدنى طرف المدرعة على يده وكانت عليه مدرعة من صوف قد خلها بخلال من عيدان فقال له مالك : أرأيت يا موسى لو أذن الله تعالى بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال : لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الاضراس والانياب ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها فيه إذا توكأ بين الشعبيتين ، والرواية الأولى أوفق بمنصبه الجليل عليه السلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه السلام نودي المرة الأولى يا موسى خذها فلم يأخذها ثم نودي الثانية ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ فلم يأخذها ثم نودي الثالثة ﴿ إِنَّكَ مِنَ الامنين ﴾ فأخذها ، وذكر مكي في تفسيره أنه قيل له في المرة الثالثة : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الاولى ﴾ ، ولا يخفى أن ما ذكر بعيد عن منصب النبوة

فلعل الخبر غير صحيح .

والسيرة فعلة من السير تقال للهيئة والحالة الواقعة فيه ثم جردت لمطلق الهيئة والحالة التي يكون عليها الشيء ، ومن ذلك استعمالها في المذهب والطريقة في قولهم : سيرة السلف وقول الشاعر :

فلا تغضبن من سيرة أنت سرتها . . .

فأول راض سيرة من يسيرها

واختلف في توجيه نصبها في الآية فقيل : إنها منصوبة بنزع الخافض والأصل إلى سيرتها أو لسيرتها وهو كثير وإن قالوا : إنه ليس بمقيس ، وهذا ظاهر قول الحوفي : إنها مفعول ثان لسنعيدها على حذف الجار نحو ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] وإليه ذهب ابن مالك وارتضاه ابن هشام ، وجوز الزمخشري أن يكون أعاد منقولا من عاده بمعنى عاد إليه ، ومنه قول زهير :

فصرم حبلها إذ صرمته . . .

وعادك أن تلاقيها عداء

فيتعدى إلى مفعولين ، والظاهر أنه غير التوجيه الأول لاعتبار النقل فيه والخافض يحذف من أعاد من غير نظر إلى ثلاثيه ؛ وتعدى عاد بنفسه مما صح به النقل ، فقد نقل الطيبي عن الأصمعي أن عادك في البيت متعد بمعنى صرفك ، وكذا نقل الفاضل اليمنى .

وفي المغرب العود الصيرورة ابتداء وثانيا ويتعدى بنفسه وبإلى وعلى وفي واللام .

وفي مشارق اللغة للقاضي عياض مثله ، ونقل عن الحديث "أعدت فتانا يا معاذ ؟" .

وقال أبو البقاء : هي بدل من ضمير المفعول بدل اشتمال ، وجوز أن يكون النصب على الظرفية أي سنعيدها في طريقتها الأولى .

وتعقبه أبو حيان قائلاً : إن سيرتها وطريقتها ظرف مختص فلا يتعدى إليه الفعل على طريقة الظرفية إلا بوساطة في ولا يجوز الحذف إلا في ضرورة أو فيما شذت فيه العرب ، وحاصله أن شرط الانتصاب على الظرفية هنا وهو الإبهام مفقود ، وفي شرح التسهيل عن نحاة المغرب أنهم قسموا المبهم إلى أقسام منها المشتق من الفعل كالمذهب والمصدر الموضوع موضع الظرف نحو قصدك ولم يفرقوا بين المختوم بالتاء وغيره فالنصب على الظرفية فيما ذكر غير شاذ ولا ضرورة ، وجوز الزمخشري واستحسنه أن يكون ﴿ سَنُعِيدُهَا ﴾ مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية فسنعيدها بعد الذهاب كما أنشأناها أولا ، و ﴿ سِيرَتَهَا ﴾ منصوبا على أنه مفعول مطلق لفعل مقدر أي تسير سيرتها الأولى أي سنعيدها سائرة

سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك ولك فيها المآرب التي عرفتها انتهى.

(116/495)

والظاهر أنه جعل الجملة من الفعل المقدر وفاعله حالا، ويجوز أن يكون استئنافاً، ولا يخفى عليك أن ما ذكره وإن حس معنى إلا أنه خلاف المتبادر، هذا والآية ظاهرة في جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كانقلاب النحاس إلى الذهب وبه قال جمع، ولا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ذلك وتخصيص الإرادة له، وقيل: لا يجوز لأن قلب الحقائق محال والقدرة لا تتعلق به والحق الأول بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس مثلاً ذهباً على ما هو رأي بعض المحققين أو بأن يسلب عن أجزاء النجاس الوصف الذي صار به نحاساً ويخلق فيه الوصف الذي يصير به ذهباً على ما هو رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحال إنما هو انقلابه ذهباً مع كونه نحاساً لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاساً وذهباً، وانقلاب العصا حية كان بأحد هذين الاعتبارين والله تعالى أعلم بأيهما كان، والذي أميل إليه الثاني فإن في كون خلق البدل انقلاباً خفاء كما لا يخفى.

﴿ واضمم يَدكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾

أمر له عليه السلام بعد ما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت ؛ والضم الجمع ، والجناح كما في القاموس اليد والعضد والابط والجانب ونفس الشيء ويجمع على أجنحة وأجنح ، وفي البحر الجناح حقيقة في جناح الطائر والملك ثم توسع فيه فاطلق على اليد والعضد وجنب الرجل .

وقيل : لمجنبتي العسكر جناحان على سبيل الاستعارة وسمي جناح الطائر بذلك لأنه يجنحه أي يميله عند الطيران ، والمراد ادخل يدك اليمنى من طوق مدرعتك واجعلها تحت إبط اليسرى أو تحت عضدها عند الابط أو تحتها عنده فلا منافاة بين ما هنا ، وقوله تعالى : ﴿ ادخل يَدكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ [النمل : 12] .

(117/495)

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ جعله بعضهم مجزوماً في جواب الأمر المذكور على اعتبار معنى الادخال فيه ، وقال أبو حيان : وغيره إنه مجزوم في جواب أمر مقدر وأصل الكلام اضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف ما حذف من الأول .

والثاني وأبقى ما يدل عليه فهو إيجاز يسمى بالاحتباك ، ونصب ﴿ بَيْضَاء ﴾ على الحال

من الضمير في ﴿ تَخْرُجْ ﴾ والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الضمير في ﴿ بَيْضَاء ﴾ أو صفة لبيضاء كما قال الحوفي أو متعلق به كما قال أبو حيان كأنه قيل : أبيضت من غير سوء أو متعلق بتخرج كما جوزه غير واحد .

والسوء الرداءة والقبح في كل شيء ، وكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة لما أن الطباع تنفر عنه والأسماع تمجه .

وهو أبغض شيء عند العرب ولهذا كنوا عن جذيمة صاحب الزباء وكان أبرص بالأبرش والوضاح.

وفائدة التعرض لنفي ذلك الاحتراس فإنه لو اقتصر على قوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ لأوهم ولو على بعد أن ذلك من برص ، ويجوز أن يكون الاحتراس عن توهم عيب الخروج عن الخلقة الأصلية على أن المعنى تخرج بيضاء من غير عيب وقبح في ذلك الخروج أو عن توهم عيب مطلقاً .

يروي أنها خرجت بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر وكان عليه السلام آدم اللون ﴿ ءايَةً أخرى ﴾ أي معجزة أخرى غير العصا .

وانتصابها على الحالية من ضمير ﴿ تَخْرُجْ ﴾ والصحيح جواز تعدد الحال لذي حال واحداً ومن ضمير ﴿ بَيْضَاء ﴾ أو من الضمير في الجار والمجرور على ما قيل أو على

البدلية من ﴿ بَيْضَاء ﴾ ويرجع إلى الحالية من ضمير ﴿ تُخْرِجُ ﴾ ، ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مضمر أي خذ آية وحذف لدلالة الكلام .

(118/495)

وظاهر كلام الزمخشري جواز تقدير دونك عاملاً وهو مبني على ما هو ظاهر كلام سيبويه من جواز عمل اسم الفعل محذوفاً ومنعه أبو حيان لأنه نائب عن الفعل ولا يحذف النائب والمنوب عنه ، ونقض بيا الندائية فإنها تحذف مع أنها نائبة عن أدعوا ، وقيل : إنها مفعول ثان لفعل محذوف مع مفعوله الأولى أي جعلناها أو آتيناك أية أخرى ، وجعل هذا القائل قوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾

متعلقاً بذلك المحذوف .

ومن قدر خذ ونحوه جوز تعلقه به ، وجوز الحوفي تعلقه بِ ﴿ اضمم ﴾ [طه : 22] ، وتعلقه بِ ﴿ تخرج ﴾ [طه : 22] وأبو البقاء تعلقه بما دل عليه ﴿ ءايَةً ﴾ أي دللنا بها لتريك .

ومنع تعلقه بها لأنها قد وصفت .

وبعضهم تعلقه بالق ، واختار بعض المحققين أنه متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل : فعلنا ما فعلنا لنريك بعض آياتنا الكبرى على أن ﴿ الكبرى ﴾ صفة لآياتنا على حد ﴿ مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] و﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ في موضع المفعول الثاني ومن فيه للتبعيض أو لنريك بذلك الكبرى من آياتنا على أن ﴿ الكبرى ﴾ هو المفعول الثاني لنريك ﴿ وَمِنْ ءاياتنا ﴾ متعلق بمحذوف حال منه ومن فيه للابتداء أو للتبعيض .

وتقديم الحال مع أن صاحبه معرفة لرعاية الفواصل .

وجوز كلا الاعرابين في ﴿ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ الحوفي .

وابن عطية .

وأبو البقاء .

وغيرهم .

واختار في البحر الاعراب الأول ورجحه بأن فيه دلالة على أن آياته تعالى كلها كبرى بخلاف الاعراب الثاني وبأنه على الثاني لا تكون ﴿ الكبرى ﴾ صفة العصا واليد معا وإلا لقيل : الكبريين .

ولا يمكن أن يخص أحدهما لأن في كل منهما معنى التفضيل ، ويبعد ما قال الحسن وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن اليد أعظم في الإعجاز من العصا لأنه ليس في اليد إلا تغيير اللون وأما العصا ففيها تغيير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة مع عودها عصا بعد ذلك فكانت أعظم في الإعجاز من اليد ، وجوز أن تكون ﴿ الكبرى ﴾ صفة لهما معا ولاتحاد المقصود جعلتا آية واحدة وأفردت الصفة لذلك .

وأن تكون صفة لليد والعصا غنية عن الوصف بها لظهور كونها كبرى .

وأنت تعلم أن هذا كله خلاف الظاهر .

وكذا ما قيل : من أن من على الاعراب الثاني للبيان بأن يكون المراد لنريك الآيات الكبرى من آياتنا ليصح الحمل الذي يقتضيه البيان ولا يترجح بذلك الإعراب الثاني على الأول ولا يساويه أصلاً .

ولا يخفى عليك أن كل احتمال من احتمالات متعلق اللام خلا من الدلالة على وصف آية العصا بالكبر لا ينبغي أن يعول عليه .

ويعتذر بأن عدم الوصف للظهور مع ظهور الاحتمال الذي لا يحتاج معه إلا الاعتذار عن ذلك المقال فتأمل والله تعالى العاصم من الزلل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾

شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفي الاستفهام إيقاظ له وتنبيه على ما سيبدو له من عجائب الصنع : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أي : أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفتُ على رأس القطيع وعند الطفرة : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ أي : أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ أي : حاجات أخر .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ أي : هيئتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل . أي : ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ أي : إبطك : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ أي : نيّرة : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي : قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفر عنه . واعتمد الزمخشري ؛ أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ كناية عن البرص . كما كني عن العورة بالسوأة ، قال : والبرص أبغض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه مجّاجة . فكان جديراً بأن يكنى عنه . ولا ترى أحسن ولا ألطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ أي : معجزة أخرى غير العصا : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أي : أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرا بعد التحدي والمناظرة ، لنريك أولاً بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 129 ﴾

(122/495)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) ﴾

بقية ما نودي به موسى .

والجملة معطوفة على الجمل قبلها انتقالاً إلى محاورة أراد الله منها أن يُري موسى كيفية

الاستدلال على المرسَل إليهم بالمعجزة العظيمة ، وهي انقلاب العصا حيّة تأكل الحيات التي يظهرونها .

وإبراز انقلاب العصَا حيّةً في خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى ، ودفع الشكّ عن أن يتطرقه لو أمره بذلك دون تجربة لأنّ مشاهدَ الخوارق تسارع بالنفس باديء ذي بدء إلى تأويلها وتُدخل عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل ، فلذلك ابتدىء بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حيّة لم يشك في أنّ تلك الحيّة هي التي كانت عصاه .

فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه .

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء ، وأن الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلّم معتاد ولا في صورة المعتاد ، كما دلّ عليه قوله بعد ذلك ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ [طه : 23] .

فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه .

وبُنيت الإشارة بالظرف المستقر وهو قوله ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ ، ووقع الظرف حالاً من اسم الإشارة ، أي ما تلك حال كونها بيمينك ؟ .

ففي هذا إيماء إلى أن السؤال عن أمر غريب في شأنها ، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسؤول عنه جرياً على الظاهر ، وببيان بعض منافعها استقصاء

لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأنّ شأن الواضحات أن لا يسأل عنها إلاّ والسائل يريد من سؤاله أمراً غير ظاهر ، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجّة الوداع : "أيُّ يوم هذا ؟" سكت النّاس وظنوا أنه سيسميه بغير اسمه . وفي رواية أنهم قالوا : "الله ورسوله أعلم ، فقال : أليس يوم الجمعة ؟ . . . " إلى آخره .

(123/495)

فابتدأ موسى ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسؤول عنه ، وتوقع أن السؤال عنه توسل لتطلب بيان وراءه .

فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ ، بذكر المسند إليه ، مع أنّ غالب الاستعمال حذفه في مقام السؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولاً عنه ، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول : عصاي .

فلما قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجب من الاحتياج إلى الإخبار ، كما يقول سائل لما رأى رجلاً يعرفه وآخر لا يعرفه : من هذا معك ؟ فيقول : فلان ، فإذا لقيَهما مرة أخرى وسأله : من هذا معك ؟ أجابه : هو فلان ، ولذلك عَقب موسى

جوابه ببيان الغرض من اتّخاذها لعلّه أن يكون هو قصد السائل فقال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا عليها وأَهُشُّ بها على غَنَمي ولِي فيها مَئَارِبُ أخرى ﴾ .

ففصّل ثمّ أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتّى إذا استزاده بياناً زاده .

والباء في قوله ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ للظرفية أو الملابسة .

والتوكّؤ : الاعتماد على شيء من المتاع ، والاتّكاء كذلك ، فلا يقال : توكّأ على الحائط ولكن يقال : توكأ على وسادة ، وتوكأ على عصا .

والهَشّ : الخَبْط ، وهو ضرب الشجرة بعصاً ليتساقط ورقها ، وأصله متعدّ إلى الشجرة فلذلك ضمت عينه في المضارع ، ثمّ كثر حذف مفعوله وعدي إلى ما لأجله يوقع الهش بعلى لتضمين (أهشّ) معنى أُسقط على غنمي الورق فتأكله ، أو استعملت (على) بمعنى الاستعلاء المجازي كقولهم : هو وكيل على فلان .

ومَآرب : جمع مَأْرُبة ، مثلث الراء : الحاجة ، أي أمور أحتاج إليها .

وفي العصا منافع كثيرة روي بعضها عن ابن عباس ، وقد أفرد الجاحظ من كتاب "البيان والتبيين" باباً لمنافع العصا .

ومن أمثال العرب : "هو خير من تفارق العصا" .

ومن لطائف معنى الآية ما أشار إليه بعض الأدباء من أن موسى أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال لأنّ المقام مقام تشريف ينبغي فيه طول الحديث .

والظاهر أنّ قوله ﴿ مَآرب أُخرى ﴾ حكاية لقول موسى بمماثله ، فيكون إيجازاً بعد الإطناب ، وكان يستطيع أن يزيد من ذكر فوائد العصا .

ويجوز أن يكون حكاية لقول موسى بحاصل معناه ، أي عدّ منافع أخرى ، فالإيجاز من نظم القرآن لا من كلام موسى عليه السلام .

والضمير المشترك في ﴿ قال ألقِها عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات من التكلّم الذي في قوله إنني أنا الله ؛ دعا إلى الالتفات وقوع هذا الكلام حواراً مع قول موسى : هي عصاي . . .

إلخ.

وقوله أَلقِهَا ﴾ يتضح به أن السؤال كان ذريعة إلى غرض سيأتي ، وهو القرينة على أن الاستفهام في قوله ﴿ وما تلك بيمينك ﴾ مستعمل في التنبيه إلى أهمية المسؤول عنه كالذي يجيء في قوله : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ [طه : 83] .

والحيّة : اسم لصنف من الحنش مسموم إذا عضّ بنابيه قتل المعضوض ، ويطلق على الذكر .

ووصف الحيّة بتسعى لإظهار أنّ الحياة فيها كانت كاملة بالمشي الشديد .

والسعي : المشي الذي فيه شدّة ، ولذلك خصّ غالباً بمشي الرجل دون المرأة .

وأعيد فعل ﴿ قَالَ خُذْهَا ﴾ بدون عطف لوقوعه في سياق المحاورة .

والسيرة في الأصل : هيئة السير ، وأطلقت على العادة والطبيعة ، وانتصب ﴿ سِيرَتَهَا ﴾ بنزع الخافض ، أي سنعيدها إلى سيرتها الأولى التي كانت قبل أن تنقلب حيّة ، أي سنعيدها عصاً كما كانت أول مرة .

والغرض من إظهار ذلك لموسى أن يعرف أنّ العصا تطبعت بالانقلاب حيّة ، فيتذكر ذلك عند مناظرة السحرة لئلا يحتاج حينئذ إلى وحي .

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) ﴾

هذه معجزة أخرى علمه الله إياها حتى إذا تحدّى فرعون وقومه عمل مثل ذلك أمام السحرة .

فهذا تمرين على معجزة ثانية مُتّحِد الغرض مع إلقاء العصا .

والجناح : العضد وما تحته إلى الإبط .

أطلق عليه ذلك تشبيهاً بجناح الطائر .

والضمّ: الإلصاق، أي ألصق يدك اليمنى التي كنت ممسكاً بها العصا.

وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلدَ جناحه بأن يدخلها في جَيْب قميصه حتى تماس بَشرة جنبه، كما في آية سورة سليمان: ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ [النّمل: 12].

جعل الله تغيّر لون جلد يده مماستها جناحه تشريفاً لأكثر ما يناسب من أجزاء جسمه بالفعل والانفعال.

و﴿ بيضَاءَ ﴾ حال من ضمير ﴿ تَخْرُجُ ﴾، و﴿ مِنْ غيرِ سُوءٍ ﴾ حال من ضمير ﴿ بَيْضَاء ﴾.

ومعنى ﴿ مِنْ غيرِ سُوءٍ ﴾ من غير مَرض مثل البَرص والبَهق بأن تصير بيضاء ثم تعود إلى لونها المماثل لونَ بقية بشرته.

وانتصب ﴿ آيَةً ﴾ على الحال من ضمير ﴿ تَخْرُجُ ﴾.

والتعليل في قوله ﴿ لِنُرِيكَ مِنْ ءاياتنا الكُبْرى ﴾ راجع إلى قوله ﴿ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ ﴾، فاللام متعلّقة بـ ﴿ تَخْرُجُ ﴾ لأنّه في معنى نجعلها بيضاء فتخرج بيضاء أو نخرجها لك بيضاء.

وهذا التعليل راجع إلى تكرير الآية، أي كررنا الآيات لنريك بعض آياتنا فتعلم قدرتنا على

غيرها ، ويجوز أن يتعلق ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ بمحذوف دلّ عليه قوله ﴿ ألقها ﴾ وما تفرّع عليه.

وقوله ﴿ واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ وما بعده ، وتقدير المحذوف : فعلنا ذلك لنريك من آياتنا .

و﴿ مِن ءاياتنا ﴾ في موضع المفعول الثاني ل ﴿ نريك ، فتكون (مِن) فيه اسماً بمعنى بعض على رأي التفتزاني .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ في سورة البقرة (8) ، ويشير إليه كلام الكشاف ﴾ هنا .

و﴿ الكبرى ﴾ صفة ل ﴿ ءاياتنا ﴾ .

والكِبر : مستعار لقوّة الماهية .

أي آياتنا القوية الدلالة على قدرتنا أو على أنا أرسلناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(126/495)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) ﴾

ما : استفهامية . والتاء بعدها إشارة لشيء مؤنّت ، هو الذي يمسكه موسى في يده ، والكاف للخطاب ، كأنه قال له : ما هذا الشيء الذي معك ؟ والجواب عن هذا السؤال يتم بكلمة واحدة : عَصَا .

أمّا موسى عليه السلام فهو يعرف أن الله تعالى هو الذي يسأل ، ولا يَخْفَى عليه ما في يده ، ولكنه كلام الإيناس ؛ لأن الموقف صعب عليه ، ويريد ربه أنْ يُطمئنه ويُؤنسه .

وإذا كان الإيناس من الله ، فعلى العبد أنْ يستغلّ هذه الفرصة ويُطيل أمدَ الائتناس بالله عز وجل ، ولا يقطع مجال الكلام هكذا بكلمة واحدة ؛ لذلك رد موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾

قال موسى : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه : 18] ، ثم يفتح لنفسه مجالاً آخر للكلام : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 18] وهنا يرى موسى أنه تمادى وزاد ، فيحاول الاختصار : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] .

وكان موسى ينتظر سؤالاً يقول : وما هذه المآرب ؟ ليُطيل أُنْسه بربه ، وإذا كان الخطاب مع الله فلا يُنهيه إلا زاهد في الله .

وللعصا تاريخ طويل مع الإنسان ، فهي لازمة من لوازم التأديب والرياضة ، ولازمة من لوازم

الأسفار، ولها أهميتها في الرعي . . الخ وهنا يذكر موسى عليه السلام بعض هذه الفوائد

يقول:

﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ [طه: 18] أي: أعتمد عليها، وأستند عندما أمشي، والإنسان يحتاج إلى الأعتماد على عصا عند السير وعند التعب؛ لأنه يحتاج إلى طاقتين: طاقة للحركة والمشي، وطاقة لحمل الجسم والعصا تساعده في حَمْل ثقل جسمه، خاصة إنْ كان مُتْعباً لا تقوى قدماه على حَمْله .

(127/495)

فقوله: ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ [طه: 18] أي: أعتمد عليها حين المشي وحين أقف لرعي الغنم فأستند عليها، والاتكاء يراوح الإنسان بين قدميْه فيُريح القدم التي تعبتْ، وينتقل من جنب إلى جنب .

والإنسان إذا ما استقرّ جسمه على شيء لمدة طويلة تنسدّ مسامّ الجسم في هذا المكان، ولا تسمح بإفراز العرق، فيُسبِّب ذلك ضرراً بالغاً نراه في المرضى الذين يلازمون الفراش لمدة طويلة، ويظهر هذا الضرر في صورة قرحة يسمونها " قرحة الفراش "؛ لذلك ينصح الأطباء هؤلاء المرضى بأن يُغيِّروا من وضْعِهم، فلا يناموا على جنب واحد .

لذلك شاءت قدرة الله عز وجل أن يُقلّب أهل الكهف في نومهم من جَنْب إلى جَنْب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال ﴾ [الكهف : 18] .

لذلك إذا وقف الإنسان طويلاً ، أو جلس طويلاً ولم يجد له متكأ تراه قَلِقاً غير مستقر ، ومن هنا كان المتَّكأ من مظاهر النعمة والترف في الدنيا وفي الآخرة ، كما قال تعالى في شأن امرأة العزيز : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ [يوسف : 31] .

وقال عن نعيم الآخرة : ﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ [الطور : 20] .

وقال : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن : 54] .

وقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن : 76] .

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة ، وعلى الإنسان أنْ يُغيِّر مُتكَأه من جنب إلى جنب حتى لا يتعرّض لما يسمى ب " قرحة الفراش " .

(128/495)

ومن فوائد العصا : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 18] أي : أضرب بها أوراق الشجر فتتساقط فتأكلها الغنم والماشية ؛ لأن الراعي يمشي بها في الصحراء ، فتأكل من

العِذْي ، وهو النبات الطبيعي الذي لم يزرعه أحد ، ولا يسقيه إلا المطر ، فإن انتهى هذا العُشْب اتجه الراعي إلى الشجر العالي فيُسقِط ورقه لتأكله الغنم ، فيحتاج إلى العصا ليؤدي بها هذه المهمة .

إذن : قوله : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ [طه : 18] لراحته هو ، و ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 18] لخدمة الرعية ، وفيها سياسة إدارة الرزق كلها للماشية وللناس ، ورَعْي الغنم وسياستها تدريب على سياسة الأمة بأسْرها ؛ لذلك ما بعث الله من نبي إلا ورَعَى الغنم ليتعلم من سياسة الماشية سياسة الإنسان .

وفي الحديث الشريف : " ما بعث الله من نبي إلا ورعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة " .

ولما أحسَّ موسى عليه السلام أنه أطال في خطاب ربه عز وجل أجمل فقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] أي : منافع .

وقد حاول العلماء جزاهم الله عَنَّا خيراً البحث في هذه المآرب الأخرى التي لم يذكرها موسى عليه السلام ، فتأملوا حال الرعاة ، وما وظيفة العصا في حياتهم فوجدوا لها منافع أخرى غير ما ذكر .

من هذه المنافع أن الراعي البدائي يضع عصاه على كتفه ويُعلِّق عليها زاده من الطعام والشراب ، وبعض الرعاة يستغل وقته أيضاً في الصيد ، فيحتاج إلى أدوات مثل : القوس ،

والنبل ، والسهام والمخلاة التي يجمع فيها صَيْده ، فتراه يضع عصاه على كتفه هكذا بالعرض ، ويُعلِّق عليها هذه الأدوات من الجانبين .

(129/495)

فإذا ما اشتدت حرارة الشمس ولم يجد ظلالاً غرز عصاه في الأرض ، وألقى بثوبه عليها فجعل منها مثل الخيمة أو المظلة تقيه حرارة الجو . فإن احتاج للماء ذهب للبئر ، وربما وجده غائر الماء لا يبلغه الدلو فيحتاج للعصا يربطها ويُطيل بها الحبل ، إلى غير ذلك من المنافع .

وبعض العلماء يقولون : لقد كان موسى عليه السلام ينتظر أن يسأله ربه عن هذه المآرب ليطيل الحديث معه ، لكن الحق سبحانه لم يسأله عن ذلك ؛ لأنه سينقله إلى شيء أهم من مسألة العصا ، فما ذكرتَه يا موسى مهمة العصا معك ، أمّا أنا فأريد أنْ أخبرك بمهمتها معي :

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى ﴾

ارْمِ بها على الأرض ، وهو هنا إلقاء الدُّرْبة والتمرين على لقاء فرعون ، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام ، لم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ،

ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية ، قال الحق سبحانه : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ﴾

وهذه نَقْلة كبيرة في مسألة العصا ، فقد كان في الإمكان لإثبات المعجزة أنْ تتحوّل العصا ، وهي عود جاف من الخشب إلى شجرة خضراء ، لكن الحق تبارك وتعالى يُجرِي لموسى هذه المعجزة ؛ لأنه سيحتاج إليها فيما بعد ، ولو تحولتْ العصا إلى شجرة خضراء فسوف تستقر في مكانها ، أما حين تتحول إلى حيّة فهي حيوان مُتحرِّك ، تجري هنا وهناك ، وهذا ما سيحتاجه موسى في معركته القادمة .

ألقى موسى عصاه ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ [طه : 20] إذا هنا فجائية كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب . وحينما ألقى موسى العصا سرعان ما تحولت وهي جافة يابسة إلى حيّة ، وحيّة تسعى ليستْ جامدة ميتة ، أليست هذه مفاجأة ؟

وطبيعي أن يخاف موسى عليه السلام مما رآه ، فطمأنه ربه فقال : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾

أي: امسكها بيدك، وسوف نعيدها في الحال ﴿ سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ [طه: 21] أي: كما كانت عصا يابسة جافة في يدك، وقال: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ [طه: 21] لما ظهر عليه من أمارات الخوف. وقد أخبر عن خوفه في آية أخرى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ [طه: 67].

وكانت هذه المسألة تدريباً لموسى عليه السلام وتجربة، فللعصا مهمة في رسالته، وسوف تكون هي معجزته في صراعه مع فرعون حين يضرب بها البحر وفي دعوته لبني إسرائيل حين يضرب بها الحجر فيتفجّر منه الماء.

وقد عالج القرآن هذه القصة في لقطات مختلفة، فمرة يقول عن العصا كأنها ثعبان. ومرة يقول: حيّة. وأخرى يقول: جان؛ لذلك اعترض البعض على هذه الاختلافات، فأيها كانت العصا؟

الحقيقة أنها صور مختلفة للعصا حينما انقلبتْ، فمن ناحية قتْلتها المميتة هي حية، ومن ناحية ضخامتها ثعبان، ومن ناحية خِفَّة حركتها جان، وكل هذه الخصائص كانت في العصا، وحين تجمع كل هذه اللقطات تعطيك الصورة الكاملة للعصا بعد أنْ صارت حية. فآيات القرآن إذن تتكامل لترسم الصورة المرادة للحق تبارك وتعالى.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾

اليد معروفة، والجناح للطائر، ويقابله في الإنسان الذراع بداية من العَضُد، والحق سبحانه

حينما أوصانا بالوالدين قال : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 24] يعني : تواضع لهما ، ولا تتعالَ عليهما .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [القصص : 32] .

(131/495)

والجَيْب : طَوْق القميص ، سُمِّي جَيْباً ؛ لأنهم كانوا في الماضي يجعلون الجيب الذي يضعون به النقود أو خلافه في داخل الثوب ، ليكون بعيداً عن يد السارق ، فإذا ما احتاج الإنسان شيئاً في جَيْبه يُدخِل يده من طَوْق القميص ليصل إلى الجيْب فسُمِّي الطوق جيباً . وهذا من مظاهر التكامل بين الآيات .

والمعنى هنا : اضمم كف يدك اليمنى ، وأدْخله من طَوْق قميصك إلى تحت عَضُدك الأيسر ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [طه : 22] أي : ساعة أنْ تُخرِج يدك تجدها بيضاء ، لها ضوء ولمعان وبريق وشعاع .

ومعلوم أن موسى عليه السلام كان أسمر اللون ، كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم حينما طُلِب منه أنْ يَصف الرسل الذين لقيهم في رحلة الإسراء والمعراج ، فقال : " أما

موسى ، فرجل آدم طُوَال ، كأنه من رجال أزدشنوءة . . . . " .

أي : أسمر شديد الطول ؛ لان طُوَال يعني : أكثر طولاً من الطويل .

ومن هنا كان بياضُ اليد ونورها في سُمْرة لونه آيةً من آيات الله ، ولو كان موسى أبيض اللون ما ظهر بياضُ يده .

وقوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سوء ﴾ [طه : 22] أي : من غير مرض ، فقد يكون البياض في السُّمرة مرضاً والعياذ بالله كالبرص مثلاً . فنفى عنه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ آيَةً أخرى ﴾ [طه : 22] أي : معجزة ، لكنه لم يقُلْ شيئاً عن الآية الأولى ، فدلَّ ذلك على أن العصا كانت الآية الأولى ، واليد الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾

أي : نُريك الآيات العجيبة عندنا ؛ لتكون مقدمة لك ، فحين نأمرك بشيء من هذا القبيل فاعلم أن الذي يأمرك ربٌّ لن يغشَّك ، ولن يتخلى عنك ، وسوف يُؤيدك وينصرك ، فلا ترتَعْ ولا تخف أو تتراجع .

وكأن الحق تبارك وتعالى يُعِدُّ نبيه موسى للقاء مرتقب مع عدوه فرعون الذي ادعى الألوهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾ يقول : لا أظهر عليها أحداً غيري .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾ قال : أكاد أخفيها من نفسي .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال : من نفسي .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قرأ " أكاد أخفيها من نفسي " . يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه قال : ليس من أهل السموات والأرض أحد إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود " أكاد أخفيها عن نفسي " . يقول : أكتمها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه قال : في بعض القراءة " أكاد أخفيها عن نفسي " . قال : لعمري ، لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي صالح في قوله : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال : يخفيها من نفسه .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباري ، عن ورقاء قال : أقرأنيها سعيد بن جبير ﴿ أكاد أخفيها ﴾ يعني بنصب الألف وخفض الفاء . يقول : أظهرها . ثم قال أما سمعت قول الشاعر :

دأت شهرين ثم شهراً دميكاً . . . ما دميكين يخفيان عميرا

وأخرج ابن الأنباري ، عن الفراء قال : في قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه " أكاد أخفيها من نفسي فكيف أطلعكم عليها " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ قال : لتعطى ثواب ما تعمل .

أخرج ابن أبي حاتم ، عن الشعبي رضي الله عنه وابن شبرمة قال : إنما سمي هوى ، لأنه يهوي بصاحبه إلى النار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : عصا موسى – قال – : أعطاه إياها ملك من الملائكة ، إذ توجه إلى مدين فكانت تضيء له بالليل ، ويضرب بها الأرض فيخرج له النبات ، ويهش بها على غنمه ورق الشجر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ هي عصاي أتوكأ عليها ﴾ قال : إذا مشى مع غنمه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ قال : أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عمرو بن ميمون في قوله : ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ قال : الهش أن يخبط الرجل بعصاه الشجر ، فيتساقط الورق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عمرو بن ميمون قال : الهش ، العصا بين الشعبتين ، ثم يحركها حتى يسقط الورق ، والخبط ، أن يخبط حتى يسقط الورق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مالك بن أنس قال : الهش ، أن يضع الرجل المحجن في الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود ، فهذا الهش ولا يخبط .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ وأهش بها على

غنمي ﴾ قال : أخبط بها الشجر . ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ قال : حاجات أخرى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ قال : حوائج .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ مآرب أخرى ﴾ قال : حاجات ومنافع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ مآرب أخرى ﴾ يقول : حوائج أخرى ، أحمل عليها المزود والسقاء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ قال : كانت تضيء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ ولم تكن قبل ذلك حية ، فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها ف ﴿ ولى مدبراً ﴾ [النمل : 10] فنودي أن يا موسى خذها فلم

يأخذها ثم نودي الثانية أن ﴿ خذها ولا تخف ﴾ فقيل له في الثالث : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ [القصص : 31] فأخذها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ قال : حالتها الأولى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ قال : هيئتها الأولى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ قال : أدخل كفك تحت عضدك ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ قال : من غير برص .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ من غير سوء ﴾ قال : من غير برص .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه قال : أخرجها كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقي ربه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ . انتهى ا . هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ :

" ما " مبتدأٌ استفهامية . و" تلك " خبره . و" بيمنيك " متعلقٌ بمحذوفٍ لأنه حال كقوله : ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] . والعامل في الحال المقدرة معنى الإِشارة .

وجوَّز الزمخشريُّ أَنْ تكونَ " تلك " موصولةً بمعنى التي ، و" بيمينك " صلتُها . ولم يذكر ابنُ عطيةَ غيره ، وهذا ليس مذهبَ البصريين ، لأنهم لم يجعلوا من أسماءِ الإِشارة موصولاً إلاَّ " ذا " بشروطٍ ذكرْتُها أولَ هذا الكتابِ . وأمَّا الكوفيون فيُجيزون ذلك في جميعها ، ومنه هذه الآيةُ عندهم أي : " وما التي بيمينك " وأنشدوا أيضاً :

3284 . . . . نَجَوْتِ وهذا

تحملين طَليقُ

أي : والذي تحملين .

قوله : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ : " هي " تعود على المُسْتَفْهَمِ عنه . وقرأ العامَّةُ " عصايَ " بفتح الياء ، والجحدري وابن أبي إسحاق " عَصَيَّ " بالقلب والإِدغام . وقد تقدم في أول البقرة توجيهُ ذلك ، ولِمَنْ تُنْسَبُ هذه اللغةُ ، والشعرُ المَرْوِيُّ في ذلك . ورُوِي عن أبي عمرو وابن أبي إسحاق أيضاً " عَصَايْ " بسكونها وصلاً . وقد فعَلَ نافعٌ مثلَ ذلك في " مَحْيَايْ "

"فجمع بين ساكنين وصلاً، وتقدَّم الكلام هناك.

قوله: ﴿ أَتَوَكَّأُ ﴾ يجوز أن يكونَ خبراً ثانياً ل "هي"، ويجوز أن يكونَ حالاً: إمَّا مِنْ "عصايَ"، وإمَّا من الياء. وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ مجيءَ الحالِ من المضاف/إليه قليلٌ، وله مع ذلك شروطٌ ليس فيه شيءٌ منها هنا. ويجوز أن تكون جملةً مستأنفةً. وجَوَّز أبو البقاء نقلاً عن غيره أن تكونَ "عصايَ" منصوبةً بفعل مقدَّر، و"أتوكَّأُ" هو الخبر، ولا ينبغي أَنْ يقال ذلك.

(136/495)

والتوكُّؤ: التحامُلُ على الشيءِ، وهو بمعنى الاتكاء. وقد تقدَّم تفسيرُه في يوسف فهما من مادةٍ واحدة، وذكَرْتُه هنا لاختلاف وزنَيْهما.

والهَشُّ بالمعجمةِ الخَبْطُ. يقال: هَشَشْتُ الورَقَ أَهُشُّه أي: خَبَطْتُه ليسقطَ، وأمَّا هَشَّ يَهِش بكسر العين في المضارع فبمعنى البَشاشة، وقد قرأ النخعي بذلك فقيل: هو بمعنى أهُشُّ بالضمِّ، والمفعول محذوفٌ في القراءتين أي: أهشُّ الورقَ أو الشجرَ. وقيل: هو في هذه القراءةِ مِنْ هَشَّ هَشاشةً إذا مال. وقرأ الحسن وعكرمة "وأَهُسُّ" بضم الهاءِ والسينِ المهملة وهو السَّوْقُ، ومنه الهَسُّ والهَساس، وعلى هذا فكان ينبغي أن يتعدى

بنفسه ، ولكنه ضُمِّنَ معنى ما يتعدَّى ب " على " وهو أقوم . ونقل ابن خالويه عن النخعي أنه قرأ " وأُهِشُّ " بضم الهمزة وكسر الهاء مِنْ " أَهَشَّ " رباعياً وبالمهملة ، ونقلها عنه الزمخشري بالمعجمة فيكون عنه قراءات .

ونقل صاحب " اللوامح " عن مجاهد وعكرمة " وأَهُشُ " بضم الهاء وتخفيف الشين قال : " ولا أعرف لها وجهاً " إلاَّ أَنْ يكونَ قد استثقل التضعيف مع تفشِّي الشين فخفف ، وهو بمعنى قراءة العامة .

وقرأ بعضهم " غَنْمي " بسكون النون ولا ينقاس . والمآرب : جمع مَأْرُبَة وهي الحاجة وكذلك الإِرْبة أيضاً . وفي راء " المأربة " الحركاتُ الثلاثُ . و" أخرى " كقوله : ﴿ الأسمآء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] وقد تقدم قريباً . قال أبو البقاء : " ولو قيل " أُخَر " لكانَ على اللفظ " يعني : " أُخَر " بضمِّ الهمزة وفتح الخاء ، وباللفظ لفظ الجمع .

ونقل الأهوازي عن شيبة والزهري " مارب " قال " بغيرِ همزٍ " كذا أَطْلق . والمرادُ بغير همز محقق بل مُسَهَّل بين بين ، وإلاَّ فالحذفُ بالكليَّةِ شاذٌّ .

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) ﴾

قوله: ﴿ تسعى ﴾: يجوز أن يكون خبراً ثانياً عند مَنْ يُجوِّز ذلك. ويجوز أن يكونَ صفةً ل "حيَّة".

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) ﴾

قوله: ﴿ سِيرَتَهَا ﴾: في نصبها أوجه، أحدها: أن تكونَ منصوبةً على الظرف أي: في سيرتها أي: طريقتها. الثاني: أنها منصوبةٌ على أنها بدلٌ من ها "سنعيدها" بدلُ اشتمال؛ لأن السيرةَ الصفة أي: سنعيدها صفتها وشكلها. الثالث: أنها منصوبة على إسقاط الخافض أي: إلى سيرتها. قال الزمخشري: "ويجوز أن يكون مفعولاً، مِنْ عاده أي: عاد إليه، فيتعدى لمفعولَيْن، ومنه بيتُ زهير:

3285 . . . . وعادَكَ أَنْ تُلاَقِيَها العَداءُ

وهذا هو معنى قولِ مَنْ قال: إنه على إسقاط إلى، وكان قد جوَّز أن يكونَ ظرفاً كما تقدَّم. إلاَّ أن الشيخ ردَّه بأنه ظرفٌ مختص، ولا يَصِلُ إليه الفعلُ إلاَّ بوساطة "في" إلاَّ فيما شَذَّ.

والسِّيرة: فِعْلَة تدل على الهيئة من السَّيْر كالرِّكْبَة من الركوب، ثم اتُّسِع فعُبِّر بها عن المذهب والطريقة. قال خالد الهُذَلي:

3286 فلا تغْضَبَنْ مِنْ سِيرةٍ أنت سِرْتَها . . . فأولُ راضٍ سيرةً مَنْ يَسِيرُها

وجوَّز أيضاً أن ينتصبَ بفعلٍ مضمرٍ أي: يسير سيرتَها الأولى، وتكون هذه الجملةُ المقدرةُ في محلِّ نصبٍ على الحال أي: سنعيدها سائرةً سيرتَها.

قوله : ﴿ واضمم ﴾ : لا بدَّ هنا مِنْ حَذْف ، والتقدير : واضمُمْ يدك تنضمَّ ، وأَخْرِجْها تَخْرُجْ ، فحذف من الأول والثاني ، وأبقى مقابلَيْهما ليدلا على ذلك إيجازاً واختصاراً ، وإنما احتيج إلى هذا لأنه لا يترتَّبُ على مجردِ الضمِّ الخروجُ .

قوله : ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ حالٌ مِنْ فاعل " تَخْرُجْ " .

(138/495)

قوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ يجوز أن يكونَ متعلِّقاً ب " تخرجْ " ، وأن تكونَ متعلقةً ب " بيضاءَ " لِما فيها من معنى الفعل نحو : ابيضَّتْ من غيرِ سوءٍ . ويجوز أن تكونَ متعلقةً بمحذوفٍ على أنها حال من الضمير في " بيضاء " . وقوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ يُسَمَّى عند أهل البيان " الاحتراس " وهو : أن يؤتى بشيءٍ يرفعُ تَوَهُّمَ مَنْ يتوهَّمُ غيرَ المراد ؛ وذلك أن البياضَ قد يُرادُ به البَرَصُ والبَهَقُ ، فأتى بقوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ نفياً لذلك .

قوله : ﴿ آيَةً ﴾ فيها أوجهٌ ، أحدها : أن تكونَ حالاً أعنى أنها بدلٌ مِنْ " بيضاءَ " الواقعةِ حالاً . الثاني : أنها حالٌ من الضمير في " بيضاءَ " . الثالث : أنها حالٌ من الضمير في الجارِّ والمجرور . الرابع : أنها منصوبةٌ بفعلٍ محذوفٍ . فقدَّره أبو البقاء : جَعَلْناها آيةً ، أو آتَيْناك آيةً . وقَدَّره الزمخشري : خُذْ آيةً ، وقدَّر أيضاً : دونكَ آية . وردَّ الشيخُ هذا : بأن من باب

الإِغراء . ولا يجوز إضمارُ الظروفِ في الإِغراء . قال: لأنّ العاملَ حُذِفَ، وناب هذا مَنابَه فلا يجوز أن يُحْذَفَ النائبُ أيضاً . وأيضاً فإنّ أحكامَها تخالفُ العاملَ الصريحَ، فلا يجوز إضمارُها، وإنْ جاز إضمارُ الأفعال .

قوله: ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ : متعلقٌ بما دَلَّتْ عليه "آية" أي: دَلَلْنا بها لِنُرِيَكَ، أو بجعلناها، أو بآتيناك المقدَّرِ . وقدَّره الزمخشريُّ "لِنريك فَعَلْنا ذلك" . وَجوّز الحوفيُّ أن يتعلقَ ب "اضْمُمْ" . وجوَّزَ غيرُه أَنْ يتعلَّقَ ب "تَخْرُجْ" . ولا يجوز أَنْ يتعلَّقَ بلفظ "آية" لأنها قد وُصِفَتْ وقدَّره الزمخشريُّ أيضاً: "لِنُرِيَكَ خُذْ هذه الآيةَ أيضاً" .

(139/495)

قوله: ﴿ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾ يجوزُ أَنْ يتعلقَ "مِنْ آياتنا" بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِن "الكبرى" ويكون "الكبرى" على هذا مفعولاً ثانياً ل "نُرِيَكَ" . والتقديرُ: لِنُرِيَكَ الكبرى حالَ كونِها مِنْ آياتنا، أي: بعض آياتِنا . ويجوز أَنْ يكونَ المفعولُ الثاني نفسَ "مِنْ آياتنا"، فتتعلقَ بمحذوفٍ أيضاً، وتكون "الكبرى" على هذا صفةً ل "آياتنا" وصفاً لجمع المؤنثِ غيرِ العاقل وصفَ الواحدةِ على حَدِّ ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه: 18] و﴿ الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء: 110] .

وهذان الوجهان قد نقلهما الزمخشري والحوفي وأبو البقاء وابنُ عطية . واختار الشيخُ الثاني قال : " لأنه يلزمُ من ذلك أَنْ تكونَ آياتُه كلُّها هي الكُبَرَ ؛ لأنَّ ما كان بعضَ [الآيات] الكبر صَدَقَ عليه أنه الكبرى ، وإذا جَعَلْتَ " الكبرى " مفعولاً ثانياً لم تتصِفْ الآياتُ بالكُبَرِ ؛ لأنها هي المتصفةُ بأفعلِ التفضيل . وأيضاً إذا جَعَلْتَ " الكبرى " مفعولاً فلا يمكنُ أَنْ تكونَ صفةً للعصا واليد معاً ، إذ كان يلزم التثنية . ولا جائزٌ أَنْ يَخُصَّ إحداهما بالوصف دونَ الأخرى ، لأنَّ التفضيلَ في كلٍ منهما . ويَبْعُدُ ما قاله الحسنُ : من أنَّ اليدَ أعظمُ في الإِعجاز من العصا ؛ فإنه جعل " الكبرى " مفعولاً ثانياً لِنُرِيَك ، وجعل ذلك راجعاً للآية القريبة ، وقد ضَعُفَ قولُه بأنَّ منافعَ العصا أكبرُ . وهو غيرُ خفيّ " . انتهى ملخصاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 23 .29 ﴾

(140/495)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) ﴾

كرَّرَ عليه السؤالَ في غير آية من عصاه لمَّا كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم

المعجزة.

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هيبةُ المقام عند فَجْأَةِ سماعِ الخطاب ، فَلِيُسَكِّنَ بعضَ ما به من بَوَادِهِ الإجلال . . . رَدَّهُ إلى سماعِ حديث العصَا ، وأراه ما فيها من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لعلَّه كان لا يعي ولا يطيق ذلك . . . .

فقال له : وما تلك بيمينك يا موسى ؟

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) ﴾

قال هي عصاي وأخذ يُعدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى ﴾ .

فإنَّك بنعت التوحيد ، واقفٌ على بساط التفريد ، ومتى يصحُّ ذلك ، ومتى يَسْلَمُ لك أن يكون لَكَ معتمدٌ تتوكأ عليه ، ومستند عليه تستعين ، وبه تنتفع ؟

ثم قال : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَى ﴾ : أَوّلُ قدمٍ في الطريق تَرْكُ كُلِّ سَبَبٍ ، والتَّنَقِّي عن كل طَلَبٍ ؛ فكيف كان يَسْلَمُ له أن يقول : أَفْعَلُ بها ، وأمتنع ، ولي فيها مآرب أخرى .

ويقال ما ازداد موسى – عليه السلام – تفصيلاً في انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأَوْلَى بأن يؤمن بإلقائها ، والتنقي عن الانتفاع بها على موجب التفرُّد لله .

ويقال التوحيد التجريد ، وعلامةُ صحته سقوط الإضافات بأُسْرِها ؛ فَلاجَرَمَ لما ذكر

موسى – عليه السلام – ذلك أُمِرَ بإلقائها فجعلها اللَّهُ حَيَّةً تسعى ، وولَّى موسى هارباً ولم يُعَقِّب . وقيل له يا موسى هذه صفة العلاقة ؛ إذا كوشِفَ صاحبُها بِسِرِّها يهرب منها .

(141/495)

ويقال لمَّا باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب ، فأجاب عما يُسْأَل وعمَّا لم يُسْأَل فقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ : وذَكَرَ وجوها من الانتفاع ؛ منها أنه قال تؤنسني في حال وحدتي ، وتضيءُ لي الليل إذا أظلم ، وتحملني إذ عَيِيتُ في الطريق فأركبُها ، وأَهُشُّ به على غنمي ، وتدفع عني عَدَوِّي . وأعظم مأربٍ لي فيها أَنَّكَ قُلْتَ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ؟ ﴾ وأية نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أَنْ تقولَ لي : وما تلك ؟ ويقال قال الحقُّ – بعد ما عدَّد موسى وجوهَ الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها – ولَكَ يا موسى فيها أشياءُ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً ، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ .

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله . . . . فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

يا جنَّة الخُلْدِ ، والهدايا إذا . . . تُهدَى إليك فما مِنْكِ يُهْدَى

ويقال قال موسى لما رآها حيةً تهتز: لقد عَلِمْتُ كلَّ وصفٍ بهذه العصا ، أمَّا هذه الواحدة فلم أعرفها .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) ﴾

لا عِبْرَةَ بما يوهِمُ ظاهرُ الأشياء ؛ فقد يُوهِمُ الظاهرُ بشيءٍ ثم يبدو خِلافُه في المستقبل ؛ فعصا موسى صارت حيةً .

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آيةً ومعجزةً لا بلاءً وفتنةً .

قوله : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . . ﴾ أَشْهَدَه - بانقلاب العصا من حال إلى حال ؛ مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى - أنه يُثَبِّتُ عِبادَه في حال التلوين مرةً ومرةً ؛ فمِنْ أَخْذٍ ومِنْ رَدٍّ ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ .

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾

(142/495)

كما أراه آيةً من خارج أراه آيةً من نَفْسِه ، وهي قلْبُ يَدِه بيضاءَ ؛ إذْ جَعَلَها في جيبه من غير البَرَص . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : 53] .

وإنما قال : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جيبك ولم يقل كُمّك لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللِّباس كُمّان .

قوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الكُبْرَى ﴾ : الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من الشهود والوجود ، وما لا يكون بتكلُّفِ العبد وتصرُّفِهِ من فنون الأحوال التي يدركها صاحبُها ذوقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 450 . 453 ﴾

(143/495)

قوله تعالى ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فكأنه قيل : لماذا يفعل بي هذا ؟ فقيل : لنرسلك إلى بعض المهمات ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ أي لترده عن عتوه : ثم علل الإرسال إلية بقوله ، مؤكداً لأن طغيان أحد بالنسبة إلى شيء مما للملك الأعلى مما يستبعد : ﴿ إنه طغى ﴾ أي تجاوز حده من العبودية فادعى

الربوبية ، وأشار إلى ما حصل له من الضيق من ذلك بما عرف من أنه أمر عظيم ، وخطب جسيم ، يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح قلب ضابط كما صرح به في سورة الشعراء - بقوله ﴿ قال رب اشرح ﴾ أي وسع ﴿ لي ﴾ ولما أبهم المشروح ليكون الكلام أوكد بتكرير المعنى في طريقي الإجمال والتفصيل ، قال رافعاً لذلك الإبهام : ﴿ صدري ﴾ للإقدام على ذلك ، وإلى استصعابه بقوله : ﴿ ويسر لي ﴾ ثم بين ذلك الإبهام بقوله : ﴿ أمري ﴾ وإلى استعجازه نفسه عن الإبانة لهم عن المراد بقوله : ﴿ واحلل ﴾ ولما كان المعنى هنا ما لا يحتمل غيره إذ إنه لم يسأل بقاءه في غير حال الدعوة ، عدل عن طريق الكلام الماضي فقال : ﴿ عقدة من لساني ﴾ أي مما فيه من الحبسة عن الإتيان بجميع المقاصد من الجمرة التي وضعها في فيه وهو عند فرعون ، كما نقل عن ابن عباس . رضى الله عنهما . ، ولما كان سؤاله هذا إنما هو الله ، ولذلك اقتصر على قدر الحاجة فلم يطلب زوال الحبسة كلها ، أجابه بقوله : ﴿ يفقهوا قولي ﴾ وإلى اعتقاد صعوبة المقام مع ذلك كله بطلب التأييد بنصير يهمه أمره بقوله : ﴿ واجعل لي ﴾ أي مما تخصني به ؛ وبين اهتمامه بالإعانة كما يقتضيه الحال فقدم قوله : ﴿ وزيراً ﴾ أي ملجأ يحمل عني بعض الثقل ويعاونني ﴿ من أهلي ﴾ لأني به أوثق لكونه عليّ أشفق ، ثم أبدل منه قوله : ﴿ هارون ﴾ وبينه بقوله : ﴿ أخي ﴾ أي لأنه أجدر أهلي بتمام مناصرتي ؛ وأجاب الدعاء في قراءة ابن عامر فقال : ﴿ اشدد ﴾ بقطع الهمزة مفتوحة ﴿ به أزري ﴾ أي

قوتي وظهري ﴿ وأشركه ﴾ بضم الهمزة مسنداً الفعلين إلى ضميره على أنهما مضارعان

، وقراءة الباقين بوصل الأول وفتح همزة الثاني على

(144/495)

أنهما أمران ، مسندين إلى الله تعالى على الدعاء ﴿ في أمري ﴾ أي النبوة .

ولما أفهم سؤاله هذا أن له فيه أغراضاً ، أشار إلى أنها ليست مقصودة له لأمر يعود على نفسه بذكر العلة الحقيقية ، فقال : ﴿ كي نسبحك ﴾ أي بالقول والفعل بالصلاة وغيرها ﴿ كثيراً ﴾ فأفصح عن أن المراد بالمعاضدة إنما هو لتمهيد الطريق إليه سبحانه .

ولما كان التسبيح ذكراً خاصاً لكونه بالتنزيه الذي أعلاه التوحيد ، أتبعه العام فقال : ﴿ ونذكرك ﴾ أي بالتسبيح والتحميد ﴿ كثيراً ﴾ فإن التعاون والتظاهر أعون على تزايد العبادة أنه مهيج للرغبات ؛ ثم علل طلبه لأخيه لأجل هذا الغرض بقوله : ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ قبل الإقامة في هذا الأمر في أنك جبلتنا على ما يلائم ذكرك وشكرك ، وأن التعاضد مما يصلحنا ، وكل ذلك تدريب لمن أنزل عليه الذكر على مثله وتذكير بنعمة تيسيره بلسانه ليزداد ذكراً وشكراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 17 .

﴿ 18

فصل

قال الفخر :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

المسألة الخامسة :

إنه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية عقبها بأن أمره بالذهاب إلى فرعون وبين العلة في ذلك وهي أنه طغى ، وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر وكان متبوعاً فكان ذكره أولى .

قال وهب : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : "اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري وإني ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي ، وإني أقسم بعزتي لولا الحجة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه عني رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي : وقل له قولاً ليناً لا يغترن بلباس الدنيا فإن

ناصيته بيدي ، لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي ، في كلام طويل ، قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده" .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) ﴾

اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وكان ذلك تكليفاً شاقاً فلا جرم سأل ربه أموراً ثمانية ، ثم ختمها بما يجري مجرى العلة لسؤال تلك الأشياء .

المطلوب الأول : قوله : ﴿ رَبِّ اشرحِ لِي صَدْرِي ﴾ واعلم أنه يقال شرحت الكلام أي بينته وشرحت صدره أي وسعته والأول يقرب منه لأن شرح الكلام لا يحصل إلا ببسطة .

والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر وهو قوله : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء : 13] فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة ، وقال : ﴿ رَبِّ اشرحِ لِي صَدْرِي ﴾ فأفهم عنك ما أنزلت علي من الوحي ، وقيل : شجعني لأجترىء به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بأمور .

أحدها : فائدة الدعاء وشرائطه .

وثانيها : ما السبب في أن الإنسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى إلا الرب .

وثالثها : ما معنى شرح الصدر .

ورابعها : بماذا يكون شرح الصدر .

وخامسها : كيف كان شرح الصدر في حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وسادسها : صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحاً أو لم يكن منشرحاً ، فإن كان منشرحاً كان طلب شرح الصدر تحصيلاً للحاصل وهو محال ، وإن لم يكن منشرحاً فهو باطل من وجهين .

الأول : أنه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالأديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر في باب الدين فقد حصل ، ثم إنه سبحانه تلطف له بقوله : ﴿ وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ [طه : 13] ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ، ثم أعطاه منصب الرسالة بعد أن كان فقيراً وكل ما يتعلق به الإعزاز والإكرام فقد حصل ، ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لأدون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر .

والثاني : أنه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الأشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة

إليه فإن من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام : " لا يقضي القاضي وهو غضبان " فكيف يصلح للنبوة التي أقل مراتبها القضاء ؟ فهذا مجموع الأمور التي لا بد من البحث عنها في هذه الآية .

أما البحث الأول : وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم في تفسير قوله : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : 286] إلا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول : اعلم أن للكمال مراتب ودرجات وأعلاها أن يكون كاملاً في ذاته مكملاً لغيره ، أما كونه كاملاً في ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته ، وكل ما كان كذلك كان كاملاً في الأزل ولكنه يستحيل أن يكون مكملاً في الأزل لأن التكميل عبارة عن جعل الشيء كاملاً وذلك لا يتحقق إلا عند عدم الكمال ، فإنه لو كان حاصلاً في الأزل لاستحال التأثير فيه ، فإن تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم أنه سبحانه ، وإن كان كاملاً في الأزل إلا أنه يصير مكملاً فيما لا يزال ، فإن قيل : إذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملاً في الأزل فقد كان عارياً عن صفات الكمال فيكون ناقصاً وهو محال ، قلنا : النقصان إنما يلزم لو كان ذلك ممكناً في الأزل لكنا

بينا أن الفعل الأزلي محال فالتكميل الأزلي محال فعدمه لا يكون نقصاناً ، كما أن قولنا : إنه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصاناً لأنه غير ممكن الوجود في نفسه ، وكقولنا : إنه لا يعلم عدداً مفصلاً كحركات أهل الجنة لأن كل ما له عدد مفصل فهو متناه ، وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل ، فامتنع ذلك لا لقصور في العلم ، بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول .

إذا ثبت هذا فنقول : إنه سبحانه وتعالى لما قصد إلى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لأن الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فأجلس على المائدة بعض المعدومات دون البعض لأسباب .

أحدها : أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لا نهاية له في الوجود .

وثانيها : أنه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادراً على الإيجاد لأن إيجاد الموجود محال ، فكان ذلك وإن كان كمالاً للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل فإنه ينقلب القادر من القدرة

إلى العجز .

وثالثها : أنه لو دخل الكل في الوجود لما بقي فيه تمييز فلا يتميز القادر على الموجب والقدرة كمال والإيجاب بالطبع نقصان ، فلهذه الأسباب أخرج بعض الممكنات إلى الوجود فإن قيل عليه سؤالان : أحدهما : أن الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي ، فتكون أيضاً الضيافة ضيافة للأقل ، وأما الحرمان فإنه عدد لما لا نهاية له ، وهذا لا يكون وجوداً .

الثاني : أن البعض الذي خصه بهذه الضيافة إن كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل ؟ وإن كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثاً وهو محال كما قيل :

يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً . . وإنه لا يليق بأكرم الأكرمين .

والجواب عن الكل أن هذه الشبهات إنما تدور في العقول والخيالات لأن الإنسان يحاول قياس فعله على فعلنا ، وذلك باطل لأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

إذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] ثم إن الموجودات انقسمت إلى الجمادات وإلى الحيوانات ، ولا شك أن الجماد بالنسبة إلى الحيوان كالعدم بالنسبة إلى الوجود لأن الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة إليه كالعدم وعدمه كالوجود ، وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة إليه ولأن الجماد بالنسبة إلى الحيوان آلة لأن الحيوانات تستعمل الجمادات في أغراض أنفسها ومصالحها وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي ، فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن إحسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض ، فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض .

والحياة بالنسبة إلى الجمادية كالنور بالنسبة إلى الظلمة والبصر بالنسبة إلى العمى والوجود بالنسبة إلى العدم ، فعند ذلك صار بعض الموجودات حياً مدركاً للمنافي والملائم واللذة والألم والخير والشر ، فمن ثم قالت الأحياء عند ذلك : يا رب الأرباب إنا وإن وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك ، لكن ازدادت الحاجة لأنا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج إلى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافي والمؤذي ، ولما حصل الوجود والحياة احتجنا إلى طلب الملائم ودفع المنافي فإن لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع

والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفاً لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التي بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى ، فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود .

(150/495)

فقال القادرون عند ذلك : إلهنا الجواد الكريم إن الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون إلا لأحد القسمين إما للمجانين المقيدين بالسلاسل والأغلال ، وإما للبهائم المستعملة في حمل الأثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان إلى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذي شرفته بقولك : "بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب" حتى تفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبعث في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الأربعة ، الوجود والحياة والقدرة والعقل ، فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل ألا ترى أن رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والإنسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك

العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذي الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ، ثم نظر العقل في نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوءة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوءة من الكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة في بدائه العقول وصرائح الأذهان ، وكما أن الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدي بها السائرون في ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها .

فلما نظر العقل إلى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الأرقام على راقم ، وبتلك النقوش على ناقش .

وعند ذلك عرف أن النقاش بخلاف النقش والباني بخلاف البناء ، فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن إلى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الأزلية والجلال وكان العقل إنما نظر إلى أضواء عالم الأزلية من ظلمات عالم الحدوث والإمكان فغلبته دهشة أنوار الأزلية فعميت عيناه فبقي متحيراً فالتجأ بطبعه إلى مفيض الأنوار ، فقال :

﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ فإن البحار عميقة والظلمات متكاثفة ، وفي الطريق قطاع من الأعداء الداخلة والخارجة وشياطين الإنس والجن كثيرة فإن لم تشرح لي صدري ولم تكن لي عوناً في كل الأمور انقطعت ، وصارت هذه الخلع سبباً لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات .

فهذا هو المراد من قوله : ﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ ثم قال : ﴿ وَيَسّرْ لي أَمْرِي ﴾ وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريداً له استحال أن يصير فاعلاً له ، فهذه الإرادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل وفاعلها إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ، ولزم التسلسل بل لا بد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم فيكون في الحقيقة هو الميسر للأمور وهو المتمم لجميع الأشياء وتمام التحقيق أن حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله : ﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ وعبر عن حصول الفاعل بقوله : ﴿ وَيَسّرْ لي أَمْرِي ﴾ وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي القابل قابليته والفاعل فاعليته ، ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يقولون : يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها .

ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على أن جميع الحوادث في هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته .

ويمكن أن يقال أيضاً : كأن موسى عليه السلام قال : إلهي لا أكتفي بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الأمر وتحصيل الغرض فلهذا قال : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أو يقال : إنه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الأربع وهي الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الأربع فلا بد في مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة .

فقال موسى عليه السلام : ما تلك الخدمات ؟ فقال : وأقم الصلاة لذكري فإن فيها أنواعاً أربعة من الخدمة ، القيام والقراءة والركوع والسجود فإذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ، ثم إنه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهي خلعة الرسالة قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ حتى أعرف أني بأي خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد في أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى : يا رب إن هذا لا يتأتى مني مع عجزي وضعفي وقلة آلاتي وقوة خصمي فاشرح لي صدري ويسر لي أمري .

الفصل الثاني : في قوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ اعلم أن الدعاء سبب القرب من الله تعالى وإنما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلباً للقرب فنفتقر إلى بيان أمرين إلى بيان أن الدعاء سبب القرب ثم إلى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء ، أما بيان أن الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه .

الأول : أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية ، أما الأصولية فأولها في البقرة : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة : 189] .

وثانيها : في بني إسرائيل ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : 85] .

وثالثها : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ [طه : 105] .

ورابعها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ [النازعات : 42] وأما الفروعية فستة منها في البقرة على التوالي .

(153/495)

أحدها : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فللوالدين والأقربين ﴾ [البقرة : 215] وثانيها : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 217] .

وثالثها : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 219] .

ورابعها : ﴿ ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ [البقرة : 219] .

وخامسها : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إصلاحٌ لهم خير ﴾ [البقرة : 220] .

وسادسها : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة : 222] .

وسابعها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول ﴾ [الأنفال : 1] .

وثامنها : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مّنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف : 83] .

وتاسعها : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : 53] .

وعاشرها : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِى الكلالة ﴾ [النساء : 176] .

(154/495)

والحادية عشر : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] إذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة ، فالأغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفي صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفي صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ [الأعراف : 187] وفي صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ ولا بد لهذه الأشياء من الفائدة فنقول : أما الأجوبة الواردة بلفظ قل فلا

إشكال فيها لأن قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد في ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد في كونه مخاطباً من الله تعالى بأداء الوحي والتبليغ .

وأما الصورة الثانية وهي قوله : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ [طه : 105] فالسبب أن قولهم : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ [طه : 105] سؤال إما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تقتصر فإن الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الأمر لئلا يقعوا في الشك والشبهة ، ثم كيفية الجواب أنه قال : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ ولا شك أن النسف ممكن لأنه ممكن في حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً في حق كل الجبل وذلك يدل على أنه ليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف ، فإن قيل : إنهم قالوا : أخبرنا عن إلهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] ولم يقل فقل هو الله أحد مع أن هذه المسألة من المهمات قلنا إنه تعالى لم يحك في هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة

فيستدعي سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فإنه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء .

وأما الصورة الثالثة : فإنه تعالى لم يذكر الجواب في قوله : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ فالحكمة فيه أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التي شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على أن من الأسئلة ما لا يجاب عنها .

وأما الصورة الرابعة : وهي قوله : ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يذكر في جوابه قل ففيه وجوه .

أحدها : أن ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وأنه من أعظم العبادات فكأنه سبحانه قال : يا عبادي أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير الدعاء أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات .

قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابنى ءَادَمَ بالحق ﴾ [المائدة : 27] .

﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذى ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : 175] .

﴿ واذكر فِى الكتاب موسى ﴾ [مريم : 51] ، ﴿ واذكر فِى الكتاب إسماعيل ﴾ [مريم : 54] .

﴿ واذكر فِى الكتاب إِدْرِيسَ ﴾

[مريم : 56] .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر : 51] ، ثم قال في قصة يوسف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] وفي أصحاب الكهف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبأَهُم بالحق ﴾ [الكهف : 13] .

وما ذاك إلا لما في هاتين القصتين من العجائب والغرائب ، والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال : يا محمد إذا سئلت عن غيري فكن أنت المجيب ، وإذا سئلت عني فاسكت أنت حتى أكون أنا القائل .

وثانيها : أن قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي ﴾ يدل على أن العبد له [أن يسأل] وقوله : ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ يدل على أن الرب قريب من العبد .

وثالثها : لم يقل فالعبد مني قريب ، بل قال أنا منه قريب ، وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو ، هو في مركز العدم وحضيض الفناء ، فكيف يكون قريباً ، بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فإنه بفضله وإحسانه جعله موجوداً وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال : ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ .

ورابعها : أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولاً بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعياً لله تعالى فإذا فنى عن الكل وصار مستغرقاً بمعرفة الله الأحد الحق امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال : فقل إني قريب بل قال : ﴿ فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ فثبت بما تقرر فضل الدعاء وأنه من أعظم القربات ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا فلا جرم أول ما أراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال : ﴿ رَبِّ اشْرِحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

والوجه الثاني : في بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام : " الدعاء مخ العبادة " ثم إن أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام (العبادة) لأن قوله : ﴿ إِنِّنِى أَنَّا اللهُ ﴾ [طه : 14] إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله : ﴿ فاعبدنى ﴾ [طه : 14] فلما كان أول ما أورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة لا جرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال : ﴿ رَبِّ اشْرِحْ لِى صَدْرِى ﴾ .

والوجه الثالث : وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما أنه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة

والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ ﴾ [البقرة : 186] .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] .

﴿ وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف : 56] .

﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] .

﴿ هُوَ الحى لاَ إله إِلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [غافر : 65] .

﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء : 110] .

(158/495)

﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف : 205] وقال صلى الله عليه وسلم : " ادعوا بياذا الجلال والإكرام " فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال : الدعاء على خلاف العقل من وجوه : أحدها : أنه علام الغيوب يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور ، فأي حاجة بنا إلى الدعاء .

وثانيها : أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه .

وثالثها : الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى سوء أدب .

ورابعها : المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وإن لم يكن من المصالح لم يجز طلبه .

وخامسها : فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى .

وقد ندب إليه والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب .

وسادسها : قال عليه السلام رواية عن الله تعالى : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " فدل على أن الأولى ترك الدعاء والآيات التي ذكرتموها تقتضي وجوب الدعاء .

وسابعها : أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله : " حسبي من سؤالي علمه بحالي " استحق المدح العظيم فدل على أن الأولى ترك الدعاء .

والجواب عن الأول أنه ليس الغرض من الدعاء الإعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات .

وعن الثاني : أنه يجري مجرى أن نقول للجائع والعطشان إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه .

وعن الثالث : أن الصيغة وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك .

وعن الرابع : يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء .

وعن الخامس : أنه إذا دعا إظهاراً للتضرع ثم رضي بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات ، ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمراً ورد مجملاً لا جرم شرع في أجل العبادات وهو الدعاء .

(159/495)

الوجه الرابع : في فضل الدعاء أنه سبحانه لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به بل بين في آية أخرى أنه يغضب إذا لم يسأل فقال : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 43] وقال عليه السلام : " لا يقولون أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ولكن يجزم فيقول : اللهم اغفر لي " فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لي صدري .

الوجه الخامس : في فضل الدعاء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] وفيه كرامة عظيمة لأمتنا لأن بني إسرائيل فضلهم الله تفضيلاً عظيماً فقال في حقهم : ﴿ وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾

(160/495)

[البقرة : 47] وقال أيضاً : ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : 20] ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ [البقرة : 68] وأن الحواريين مع جلالتهم في قولهم : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ الله ﴾ [آل عمران : 52] سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم إنه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة في أمتنا فقال مخاطباً لهم من غير واسطة : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] وقال : ﴿ واسألوا الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 32] فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الأمة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لا جرم فقال : "اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم " فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ واعلم أنه تعالى قال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] ثم إنه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام : أحدها : عبد العصمة : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر : 42] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد العصمة : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ [طه : 41] فلا جرم طلب زوائد العصمة فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ .

وثانيها : عبد الصفوة : ﴿ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد الصفوة : ﴿ يا موسى إِنْى اصطفيتك عَلَى الناس

برسالاتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] فلا جرم أراد مزيد الصفوة فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ .

وثالثها : عبد البشارة : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِى * الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 17 ، 18] وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك : ﴿ وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ [طه : 13] فأراد مزيد البشارة فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ .

(161/495)

ورابعها : عبد الكرامة : ﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [الزخرف : 68] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك : ﴿ لاَ تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ [طه : 46] فأراد الزيادة عليها فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ .

وخامسها : عبد المغفرة : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [الحجر : 49] ، وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك : ﴿ رَبِّ اغفر لِي ﴾ [ص : 35] فغفر له فأراد الزيادة فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ .

وسادسها : عبد الخدمة : ﴿ اعبدوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : 21] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ فطلب الزيادة فيها فقال : ﴿ اشرح لِي

صَدْرِي ﴾ .

وسابعها : عبد القربة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بالقرب : ﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الأيمن وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] فأراد كمال القرب فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ .

الفصل الثالث : في قوله : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أنه تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة [التي] أحدها : معرفة التوحيد : ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لا إله إِلا أَنَاْ ﴾ [طه : 14] ، وثانيها : أمره بالعبادة والصلاة :

(162/495)

﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] ، وثالثها : معرفة الآخرة : ﴿ إِنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ ﴾ [طه : 15] ورابعها : حكمة أفعاله في الدنيا : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] ، وخامسها : عرض المعجزات الباهرة عليه : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ [طه : 23] ، وسادسها : إرساله إلى أعظم الناس كفراً وعتواً فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه

أن كل من سأله قرب منه فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ أو يقال خاف شياطين الإنس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء إلى مقام القرب فيصير مأموناً من غوائل شياطين الجن والإنس .

وثانيها : أن المراد أنه أراد الذهاب إلى فرعون وقومه فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف أن من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الأطماع بالكلية فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

وثالثها : الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ما سوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شيء هالك إلا وجهه فالكل كأنهم في ظلمات العدم وإظلال عالم الأجسام والإمكان فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ حتى يجلس قلبي في بهي ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر والجالس في الضوء لا يرى من كان جالساً في الظلمة فحين جلس في ضوء شرح الصدر لا يرى أحداً في الوجود فلهذا عقبه بقوله : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ فإن العبد في مقام الاستغراق لا يتفرغ لشيء من المهمات .

ورابعها : رب اشرح لي صدري فإن عين العين ضعيفة فأطلع يا إلهي شمس التوفيق حتى أرى كل شيء كما هو ، وهذا في معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم : " أرنا الأشياء كما هي " واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية في القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهي فاستمع لما يوحى فلا جرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الأخرى فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لي صَدْرِي ﴾ ولما آل الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] والعلم هو المقصود ، فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لا جرم أعطى المقدمة ، ولما كان محمد كالمقصود لا جرم أعطى المقصود فسبحانه ما أدق حكمته في كل شيء .

وسادسها : الداعي له صفتان : إحداهما : أن يكون عبداً للرب : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] .

وثانيتهما : أن يكون الرب له : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] أضاف نفسه إلينا وما أضافنا إلى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملاً من هذين الوجهين فأراد موسى عليه السلام أن يرتع في هذا البستان فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ .

وسابعها : أن موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52

] فكأن موسى عليه السلام قال إلهي لما قلت : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ صرت قريباً منك ولكن أريد قربك مني فقال يا موسى أما سمعت قولي : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فاشتغل بالدعاء حتى أصير قريباً منك فعند ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

(164/495)

وثامنها : قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] ثم إنه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال : ﴿ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 46] فانظر إلى التفاوت فإن شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلاً للنور والسراج المنير هو أن يعطي النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطي ثم نقول إلهنا إن ديننا وهي كلمة لا إله إلا الله نور ، والوضوء نور ، والصلاة نور ، والقبر نور ، والجنة نور ، فبحق أنوارك التي أعطيتنا في الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك وإحسانك يوم القيامة .

الفصل الرابع : في قوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال : نور يقذف في القلب ، فقيل : وما أمارته فقال : التجافي عن دار

الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ، ويدل على أن شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور ، أحدها : وصف ذاته بالنور : ﴿ الله نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] .

وثانيها : الرسول : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ مّنَ الله نُورٌ وكتاب مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : 15] .

وثالثها : القرآن : ﴿ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : 157] .

ورابعها : الإيمان : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله بأفواههم ﴾ [التوبة : 32] .

وخامسها : عدل الله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبّهَا ﴾ [الزمر : 69] .

وسادسها : ضياء القمر : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] ، وسابعها : النهار : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

وثامنها : البينات : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : 44] .

(165/495)

وتاسعها : الأنبياء : ﴿ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ [النور : 35] .

وعاشرها : المعرفة : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور : 35] إذا ثبت هذا

فنقول كأن موسى عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك .

وثانيها : رب اشرح لي صدري ، بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك .

وثالثها : رب اشرح لي صدري ، باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك .

ورابعها : رب اشرح لي صدري ، بنور الإيمان والإيقان بإلهيتك .

وخامسها : رب اشرح صدري بالإطلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك .

وسادسها : رب اشرح لي صدري بالإنتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس إلى حضرة العزة .

وسابعها : رب اشرح لي صدري من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك .

وثامنها : رب اشرح لي صدري بالإطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك في أرضك وسمواتك .

وتاسعها : رب اشرح لي صدري في أن أكون خلف صور الأنبياء المتقدمين ومتشبهاً بهم في الإنقياد لحكم رب العالمين .

وعاشرها : رب اشرح لي صدري بأن تجعل سراج الإيمان في قلبي كالمشكاة التي فيها المصباح ، واعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير القلب

كالسراج وذلك النور كالنار ، ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء : زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن .

فالعبد إذا طلب النور الذي هو شرح الصدر افتقر إلى هذه السبعة .

فأولها : لا بد من زند المجاهدة : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] .

وثانيها : حجر التضرع : ﴿ ادعوا ربَّكُمْ تَضرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] .

وثالثها : حراق منع الهوى : ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ [النازعات : 40] .

ورابعها : كبريت الإنابة : ﴿ وَأَنِيبُواْ إلى رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 54] ملطخاً رؤوس تلك الخشبات بكبريت توبوا إلى الله .

وخامسها : مسرجة الصبر : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] .

وسادسها : فتيلة الشكر : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] .

وسابعها : دهن الرضا : ﴿ واصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : 48] أي ارض بقضاء ربك فإذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن لا تطلب المقصود إلا من حضرته :

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : 2] ثم اطلبها بالخشوع والخضوع : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108] فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ فهنالك تسمع ؛ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى ﴾ [طه : 36] ثم تقول هذا النور الروحاني المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه : أحدها : الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] .

وثانيها : الشمس تغيب ليلاً وتعود نهاراً قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ [الأنعام : 76] أما شمس المعرفة فلا تغيب ليلاً : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ وطئاً ﴾ [المزمل : 6] ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] بل أكمل الخلع الروحانية تحصل في الليل : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] .

وثالثها : الشمس تفنى : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] وشمس المعرفة لا تفنى : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

ورابعها : الشمس إذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهي معرفة أشهد أن لا إله إلا الله ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمداً رسول الله لم يصل نوره إلى عالم الجوارح.

وخامسها : الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها :

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ [آل عمران : 106] .

وسادسها : الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق ، جزياً مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبي .

وسابعها : الشمس تصدع والمعرفة تصعد : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] .

وثامنها : الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في العقبى : ﴿ والباقيات الصالحات خَيۡرٌ ﴾ [الكهف : 46] .

وتاسعها : الشمس في السماء زينة لأهل الأرض والمعرفة في الأرض زينة لأهل السماء .

وعاشرها : الشمس فوقاني الصورة تحتاني المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر ، والمعارف الإلهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى ، وذلك يدل على التواضع مع الشرف .

وحادي عشرها : الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب إلى الخالق .

وثاني عشرها : الشمس تقع على الولي والعدو والمعرفة لا تحصل إلا للولي فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لا جرم قال موسى : ﴿ رَبِّ اشرحِ لِي صَدۡرِي ﴾

وأما النكت : فإحداها : الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء : ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴾ [الرحمن : 26] والمعرفة استوقدها للبقاء فالذي خلقها للفناء لو قرب الشيطان

منها لاحترق : ﴿ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : 9] والمعرفة التي خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

وثانيتها : استوقد الله الشمس في السماء وإنها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك، وأوقد شمس المعرفة في قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك .

وثالثتها : من استوقد سراجاً فإنه لا يزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة : ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ﴾ [الحجرات : 7] أفلا يمده وهو معنى قوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

(168/495)

ورابعتها : اللص إذا رأى السراج يوقد في البيت لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

وخامستها : المجوس أوقدوا ناراً فلا يريدون إطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الإيمان في قلبك فكيف يرضى بإطفائه، واعلم أنه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات، أحدها : الحياة : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] فلما رغب موسى عليه السلام في الحياة الروحانية قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ثم النكتة أنه

عليه السلام قال من أحيا أرضاً ميتة فهي له فالعبد لما أحيا أرضاً فهي له فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الإيمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب : ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : 91] وكما أن الإيمان حياة القلب بالكفر موته : ﴿ أموات غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 21] .

وثانيها : الشفاء : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 14] فلما رغب موسى في الشفاء رفع الأيدي قال : ﴿ رَبِّ اشرحِ لِي صَدْرِي ﴾ والنكتة أنه تعالى لما جعل الشفاء في العسل بقي شفاء أبداً فهنا لما وضع الشفاء في الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبداً .

وثالثها : الطهارة : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ [الحجرات : 3] فلما رغب موسى عليه السلام في تحصيل طهارة التقوى قال : ﴿ رَبِّ اشرحِ لِي صَدْرِي ﴾ والنكتة أن الصائغ إذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله في النار فهنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانياً ولكن الله يدخل في النار قلب الكافر : ﴿ لِيَمِيزَ الله الخبيث مِنَ الطيب ﴾ [الأنفال : 37] .

ورابعها : الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام في طلب زوائد الهداية فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ والنكتة أن الرسول يهدي نفسك والقرآن يهدي روحك والمولى يهدي قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لا جرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : 56] وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لا تحصل : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 26] أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فإنها لا تزول لأن الهادي لا يزول : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : 25] .

وخامسها : الكتابة : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ [المجادلة : 22] فلما رغب موسى عليه السلام في تلك الكتابة قال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ وفيه نكت : الأولى : أن الكاغدة ليس لها خطر عظيم وإذا كتب فيها القرآن لم يجز إحراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم إحراقه .

الثانية : بشر الحافي أكرم كاغداً فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فإكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك .

والثالثة : كاغد ليس فيه خط إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره حتى أنه لا يجوز للجنب والحائض أن يمسه بل قال الشافعي رحمه الله تعالى ليس له أن يمس جلد المصحف

، وقال الله تعالى : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلمطهرون ﴾ [الواقعة : 79] فالقلب الذي فيه أكرم المخلوقات : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم .

(170/495)

وسادسها : السكينة : ﴿ هُوَ ٱلذى أَنزَلَ ٱلسكينة فِى قُلُوبِ ٱلمؤمنين ﴾ [الفتح : 4] فلما رغب موسى عليه السلام في طلب السكينة قال : ﴿ رَبِّ ٱشرح لِي صَدْرِي ﴾ والنكتة أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفاً فلما نزلت السكينة عليه قال : لا تحزن فلما نزلت سكينة الإيمان فرجوا أن يسمعوا خطاب : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] وأيضاً لما نزلت السكينة صار من الخلفاء :

﴿ وَعَدَ ٱلله ٱلذين ءَامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلأرض ﴾ [النور : 55] أي أن يصيروا خلفاء الله في أرضه .

وسابعها : المحبة والزينة : ﴿ ولكن ٱلله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] والنكتة أن من ألقى حبة في أرض فإنه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة في أرض القلب فكيف يحرقها .

وثامنها : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [الأنفال : 63] والنكتة أن محمداً صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم إنه ما تركهم [في] غيبة ولا حضور : " سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " فالرحيم كيف يتركهم .

وتاسعها : الطمأنينة : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] وموسى طلب الطمأنينة فقال : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ والنكتة أن حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما في العالم من الأجسام فإنه لا يكفيه لأن حاجته غير متناهية والأجسام متناهية والمتناهي لا يصير مقابلاً لغير المتناهي بل الذي يكفي في الحاجة الغير المتناهية الكمال الذي لا نهاية له وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه : أحدها : فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم .

وثانيها : ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم .

وثالثها : في قلوبهم مرض .

ورابعها : جعلنا قلوبهم قاسية .

وخامسها : إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه .

وسادسها : ختم الله على قلوبهم .

وسابعها : أم على قلوب أقفالها .

وثامنها : كلا بل ران على قلوبهم .

وتاسعها : أولئك الذين طبع الله على قلوبهم .

إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ما تشاء قدير .

الفصل الخامس : في حقيقة شرح الصدر ، ذكر العلماء فيه وجهين : الأول : أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهي أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم ، وأما الرهبة فهي أن يكون خائفاً من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا في عين همته ، فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها ، فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى ، فإن القلب في المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فأما إذا انصب الكل في موضع واحد قوي فسأل موسى عليه السلام

ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفوراً عنها فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية .

الثاني : أن موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة منها ضبط الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها إصلاح العالم الجسداني فكأنه صار مكلفاً بتدبير العالمين والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ، ألا ترى أن المشتغل بالإبصار يصير ممنوعاً عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعاً عن الإبصار والخيال ، فهذه القوى متجاذبة متنازعة وأن موسى عليه السلام كان محتاجاً إلى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالاً من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر .

وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة .

المثال الأول : اعلم أن البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم إلى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذي يشتغل بالضرب والتأديب أبداً والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم إن الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج في مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى يدعو إلى الشيطان ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الشيطان في مقابلة الفطنة الشهوة ، فالفطنة توقفك على معايب الدنيا والشهوة تحركك إلى لذات الدنيا ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوي الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعائب على ما قال عليه السلام : " تفكر ساعة خير من عبادة سنة " فأخرج الشيطان في مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فإن العجلة ترى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فأخرج الشيطان في مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام : " ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه " ولهذا خلق السموات والأرض في ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصنفين ، وقلبك وصدرك هو القلعة .

ثم إن لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقاً وهو الزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى فإن كان الخندق عظيماً والسور قوياً عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوي قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فينحصر الملك في القصر ويضيق الأمر عليه فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ .

المثال الثاني : اعلم أن معدن النور هو القلب واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة في مصاحبة الناس والخوف من الأعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه ولا شك في أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله

تعالى إلى أن يشاهد أنهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر .

(175/495)

الفصل السادس : في الصدر اعلم أنه يجيء والمراد منه القلب : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسلام ﴾ [الزمر : 22] ، ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ [العاديات : 10] ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : 19] وقد يجيء والمراد الفضاء الذي فيه الصدر : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] واختلف الناس في أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على أنه القلب ، وقد شرحنا هذه المسألة في سورة الشعراء في تفسير قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وقال بعضهم المواد أربعة : الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الإسلام : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسلام ﴾ [الزمر : 22] والقلب مقر الإيمان : ﴿ ولكن اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] والفؤاد مقر المعرفة : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ [النجم : 11] ، ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ

مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] واللب مقر التوحيد : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الألباب ﴾ [الرعد : 19] واعلم أن القلب أول ما بعث إلى هذا العالم بعث خالياً عن النقوش كاللوح الساذج وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ ، ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى ، فربما وصلت سفينة النظر إلى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات ،

(176/495)

وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة في ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ واعلم أن العقل إذا أخذ في الترقي من سفل الإمكان إلى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات ، ومعلوم أن كل ماهية فهي إما هي معه أو هي له ، فإن كانت هي معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الإلهية فلا

يبقى هناك مستطلعاً لمطالعة سائر الأنوار فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة ، وإن وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة ، وهي أنه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع إلى موضع معين فذلك الموضع الذي إليه تنعكس الشعاعات يحترق فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافي الموضوع في مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال ، فإذا وقع للقلب التفات إليها حصلت للقلب نسبة إليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الإلهية عن كل واحد منها إلى القلب فيحترق القلب ، ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر ، كان الإحتراق أتم فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ حتى أقوى على إدراك درجات الممكنات فأصل إلى مقام الاحتراق بأنوار الجلال ، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام :

" أرنا الأشياء كما هي " فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال : " لا أحصى ثناء عليك ".

الفصل السابع : في بقية الأبحاث إنما قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ولم يقل رب اشرح صدري ليظهر أن منفعة ذلك الشرح عائدة إلى موسى عليه السلام لا إلى الله ، وأما كيفية شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره إن شاء الله في تفسير قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] ، والله أعلم بالصواب .

المطلوب الثاني : قوله : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعي والبواعث بفعل الألطاف المسهلة ، فإن قيل : كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأي فائدة في هذا السؤال ، قلنا يحتمل أن يكون هناك من الألطاف ما لا يحسن فعلها إلا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الألطاف .

المطلوب الثالث : قوله : ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه .

أحدها : قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 3 ، 4] ولم يقل وعلمه البيان لأنه لو عطفه عليه لكان مغايراً له ، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ كالتفسير لقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ كأنه إنما يكون خالقاً للإنسان إذا علمه البيان ، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هي الحيوان الناطق .

وثانيها : اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان ، قال زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده . . فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال علي : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة .

والمعنى أنا لو أزلنا الإدراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الإنسان إلا القدر الحاصل في البهائم ، وقالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه .

وقال صلى الله عليه وسلم : " المرء مخبوء تحت لسانه " وثالثها : أن في مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال : ﴿ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السموات والأرض ﴾ [البقرة : 33] .

(178/495)

ورابعها : أن الإنسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبداً صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الأجسام وواسطته في تلك الاستفادة هي الفكر الذهني وواسطته في هذه الإفادة هي النطق اللساني فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل : " تفكر ساعة خير من عبادة سنة " فكذلك الواسطة في الإفادة يجب أن تكون أشرف الأعضاء فقوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ إشارة إلى طلب النور الواقع في الروح ، وقوله : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ إشارة إلى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل ، وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة

الروحانية فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البياني وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون إلا باللسان .

فلهذا قال : ﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لِّسَانِي ﴾ .

وخامسها : وهو أن العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت والجود والإعطاء أفضل الطاعات ، وليس في الأعضاء أفضل من اليد ، فاليد لما كانت آلة في العطية الجسمانية قيل : "اليد العليا خير من اليد السفلى" فالعلم الذي هو خير من المال لما كانت آلة إعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الأعضاء ، ولا شك أن اللسان هو الآلة في إعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الأعضاء ، ومن الناس من مدح الصمت لوجوه ، أحدها : قوله عليه السلام : " الصمت حكمة وقليل فاعله " ويروى أن الإنسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا .

وثانيها : أن الكلام على أربعة أقسام منه ما ضرره خالص أو راجح ، ومنه ما يستوي الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه راجح ومنه ما هو خالص النفع ، أما الذي ضرره خالص أو راجح فواجب الترك ، والذي يستوي الأمران فيه فهو عيب ، فبقي القسمان الأخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر ، فالأولى ترك الكلام .

وثالثها : أن ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي ، فإن كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل ، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان ، والصور والآذان لا تصل إلا إلى الأصوات والحروف ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء بخلاف اللسان فإنه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد فله في الخير مجال رحب وله في الشر بجر سحب ، وإنه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصي فإنه يحتاج فيها إلى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها في الأكثر فلذلك كان الأولى ترك الكلام .

ورابعها : قالوا : ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والإنصات والإصاخة ، فأما الصمت فهو أعمها لأنه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لا يقوى عليه ولهذا يقال : مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له إنصات قال تعالى : ﴿ فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ ﴾ [الأعراف : 204] والإصاخة استماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد .

واعلم أن الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق في نفسه فضيلة والرذيلة في محاورته ولولاه لما سأل كليم الله ذلك في قوله تعالى : ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ .

المسألة الثانية :

اختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على قولين ، الأول : كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى إزالته .

الثاني : السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذي يزول ملكي على يده فقالت آسية : إنه صبي لا يعقل وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور فكيف يحترق هنا ؟ ومنهم من قال : احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة .

الثالث : احترق اللسان دون اليد لأن الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت .

والرابع : احترقا معاً لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أنه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه .

أحدها : لئلا يقع في أداء الرسالة خلل ألبتة .

وثانيها : لإزالة التنفير لأن العقدة في اللسان قد تفضي إلى الإستخفاف بقائلها وعدم الالتفات إليه .

وثالثها : إظهاراً للمعجزة فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزاً في حقه فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه .

ورابعها : طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسر جداً فإذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية ، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفاً وتسهيلاً .

المسألة الرابعة :

قال الحسن رحمه الله : إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] وهو ضعيف لأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لساني بل قال : ﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لّسَانِي ﴾ فإذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله ، والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء قليل لقوله : حكاية عن فرعون

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] أي يقارب أن لا يبين وفي ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد في لسانه وأجيب عنه من وجهين .

أحدهما : المراد بقوله : ولا يكاد يبين أي لا يأتي ببيان ولا حجة .

والثاني : إن كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللساني لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفي البيان بالكلية وذلك باطل لأنه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفي البيان أصلاً بل إنما قال ذلك تمويهاً ليصرف الوجوه عنه قال أهل الإشارة إنما قال : ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ لأن حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : 152] فلما كان ذلك حقاً ليتيم أبي طالب لا جرم ما دار حوله ، والله أعلم .

المطلوب الرابع : قوله : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾ واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى الله ولذلك قال عيسى ابن مريم : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله ﴾ [آل عمران : 52] وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتبعك مِنَ

المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] وقال عليه السلام : " إن لي في السماء وزيرين وفي الأرض وزيرين ، فاللذان في السماء جبريل وميكائيل واللذان في الأرض أبو بكر وعمر " وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(182/495)

الوزير من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر وهو الجبل الذي يتحصن به لأن الملك يعتصم برأيه في رعيته ويفوض إليه أموره أو من الموازرة وهي المعاونة ، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب قاله الأصمعي وكان القياس أزيراً فقلبت الهمزة إلى الواو .

المسألة الثانية :

قال عليه السلام : " إذا أراد الله بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن نوى خيراً أعانه وإن أراد شراً كفه " وكان أنوشروان يقول : لا يستغني أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

المسألة الثالثة :

إن قيل الإستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحي من الله تعالى إلى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير ؟ وأيضاً فإنه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكاً له في النبوة فقال : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ فكيف يكون وزيراً .

والجواب : عن الأول أن التعاون على الأمر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة في تأثير الدعاء إلى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقاً بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل في الإبلاغ .

المطلوب الخامس : أن يكون ذلك الوزير من أهله أي من أقاربه .

المطلوب السادس : أن يكون الوزير الذي من أهله هو أخوه هارون وإنما سأل ذلك لوجهين .

أحدهما : أن التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله ، أو لأن كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه والموافقة له ، وقوله هارون في انتصابه وجهان .

أحدهما : أنه مفعول الجعل على تقدير اجعل هارون أخي وزيراً لي .

والثاني : على البدل من وزيراً وأخي نعت لهرون أو بدل ، واعلم أن هارون عليه السلام كان مخصوصاً بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى : ﴿ وَأَخِي هارون هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً ﴾ [القصص : 34] ومنها أنه كان فيه رفق قال : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ [طه : 94] ومنها أنه كان أكبر سناً منه .

المطلوب السابع : قوله : ﴿ أشدد به أزري ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

القراءة العامة : ﴿ اشدد بِهِ * وَأَشْرِكْهُ ﴾ على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده : (اشْدُدْ ، وَأَشْرِكْهُ) على الجزاء والجواب ، حكاية عن موسى عليه السلام أي أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل ﴿ أَخي ﴾ مرفوعاً على الابتداء ﴿ واشدد بِهِ ﴾ خبره ويوقف على هارون .

المسألة الثانية :

الأزر القوة وآزره قواه قال تعالى : ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أي أعانه قال أبو عبيدة ﴿ أَزْرِي ﴾ أي ظهري وفي كتاب الخليل : الأزر الظهر .

المسألة الثالثة :

أنه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن جعل هرون وزيراً له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصراً له لأنه لا اعتماد على القرابة .

المطلوب الثامن : قوله : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِي ﴾ والأمر ههنا النبوة ، وإنما قال ذلك لأنه عليه السلام علم أنه يشد به عضده وهو أكبر منه سناً وأفصح منه لساناً ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وأن يكون بالاعتقاد ، وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به ، وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك أن النفي مقدم على الإثبات ، أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ ففيه وجوه : أحدها : إنك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحداً سواك .

(184/495)

وثانيها : ﴿ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ لأن هذه الاستعانة بهذه الأشياء لأجل حاجتي في النبوة إليها .

وثالثها : إنك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا ، وإنما قيد الدعاء بهذا إجلالاً لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضاً للأمر بالكلية إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 44.27 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : لحفظ مناجاته .

الثاني : لتبليغ رسالته .

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما لا يطيق .

الثاني : في معونتي بالقيام على ما حملتني .

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها عقدة كانت بلسانه من الجمرة التي ألقاها بفيه في صغر عند فرعون .

الثاني : عقدة كانت بلسانه عند مناجاته لربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه .

الثالث : استحيائه من الله من كلام غيره بعد مناجاته .

﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ببيان كلامه .

الثاني : بتصديقه على قوله .

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾ وإنما سأل الله أن يجعل له وزيراً إلا أنه لم يرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون شريكاً في النبوة ، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة .

﴿ هَارُونَ أَخِي اشدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الأزر : الظهر في موضع الحقوين ومعناه فقوّ به نفسي . قال أبو طالب :

أليس أبونا هاشمٌ شد أزره . . . وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

الثاني : أن يكون عوناً يستقيم به أمري . قال الشاعر :

شددت به أزري وأيقنت أنه . . . أخ الفقر من ضاقت عليه مذاهبه

فيكون السؤال على الوجه الأول لأجل نفسه وعلى الثاني لأجل النبوة . وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين ، وكان في جبهة هارون شامة ، وكان على أنف موسى شامة ، وعلى طرف لسانه [شامه] . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾

ثم أمره تبارك وتعالى بالذهاب إلى فرعون وهو مصعب بن الريان في بعض ما قيل ، وقيل غير هذا ، ولا صحة لشيء من ذلك . و ﴿ طغى ﴾ معناه تجاوز الحد في فساد ، قوله ﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ الآية ، لما أمره الله تعالى بالذهاب الى فرعون علم أنها الرسالة وفهم قدر التكاليف فدعا الله في المعونة إذ لا حول له إلا به . و ﴿ اشرح لي صدري ﴾ معناه "لفهم ما يرد علي من الأمور والعقدة التي دعا في حلها هي التي اعترته بالجمرة التي جعلها في فيه حين جربه فرعون" . وروي في ذلك أن فرعون أراد قتل موسى وهو طفل حين مد يده إلى لحية فرعون ، فقالت له امرأته إنه لا يعقل ، فقال بل هو يعقل وهو عدو لي ، فقالت له نجربه ، قال أفعل ، فدعت بجمرات من نار وبطبق فيه ياقوت فقالا إن أخذ الياقوت علمنا أن يعقل وإن أخذ النار عذرناه فمد موسى يده إلى جمرة فأخذها فلم تعد على يده ، فجعلها في فمه فأحرقته وأورث لسانه عقدة في كبرة أي حبسة ملبسة في بعض الحروف قال ابن الجوهري "كف الله تعالى النار عن يده لئلا يقول النار طبعي واحترق لسانه لئلا يقول موسى مكانتي" وموسى عيله السلام إنما طلب من حل العقدة قدر أن يفقه قوله ، فجائزاً أن يكون ذلك كله زال ، وجائزاً أن يكون بقي منه القليل ، فيجتمع أن يؤتى هو

سؤله وأن يقول فرعون ، ولا يكاد يبين ، ولو فرضناه زال جملة لكان قول فرعون سبأ لموسى بحالته القديمة .

(187/495)

و " الوزير " المعين القائم بوزر الأمور وهو ثقلها ويحتمل الكلام أن طلب الوزير من أهله على الجملة ثم أبدل ﴿ هارون ﴾ من الوزير المطلوب ، ويحتمل أن يريد واجعل هارون وزيراً ، فإنما ابتدأ الطلب فيه فيكون على هذا مفعولاً أولاً ب ﴿ اجعل ﴾ . وكان هارون عليه السلام أكبر من موسى بأربعة أعوام ، وقرأ ابن عامر وحده " أَشدد " بفتح الهمزة و " أُشركه " بضمها على أن موسى أسند هذه الأفعال إلى نفسه ، ويكون الأمر هنا لا يريد به النبوءة بل يريد تديره ومساعيه لأن النبوة لا يكون لموسى أن يشرك فيها بشراً ، وقرأ الباقون " أُشدد " بضم الهمزة " وأشرك " على معنى الدعاء في شد الأزر وتشريك هارون في النبوءة وهذه في الوجه لأنها تناسب ما تقدم من الدعاء وتعضدها آيات غير هذه بطلبه تصديق هارون إياه . و " الأزر " بمعنى الظهر قال أبو عبيدة كأنه قال شد به عوني واجعله مقاومي فيما أحاوله وقال امرؤ القيس : [الطويل]

بمحنية قد آزر الضال نبتها . . . فجر جيوش غانمين وخيب

أي قاومه وصار في طوله ، وفتح أبو عمرو وابن كثير الياء من ﴿ أخي ﴾ وسكنها الباقون وروي عن نافع " وأشركهو " بزيادة واو في اللفظ بعد الهاء ثم جعل موسى عليه السلام ما طلب من نعم الله تعالى سبباً يلزم كثرة العبادة والاجتهاد في أمر الله ، وقوله ﴿ كثيراً ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره تسبيحاً كثيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(188/495)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ مُوسَى ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَك كَثِيرًا إنَّك كُنْت بِنَا بَصِيرًا ﴾

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَعْنَى (كُنْت) فِي الْأَزَلِ وَلَمْ تَزَلْ ، فَأَنْتَ تَعْلَمُ مُبْتَدَأَ أَمْرِنَا وَتَفَاصِيلِهِ كُلِّهَا مِنْ أَوَّلِ عُمْرِنَا إلَى آخِرِهَا .

بَصِيرٌ بِهَا لَا يَخْتَصُّ عِلْمُك بِالْوَقْتِ الْحَاضِرِ .

فَهَذِهِ فَائِدَةُ إدْخَالِ " كَانَ " وَقَوْلُهُ " بِنَا " أَيْ بِي وَبِأَخِي هَارُونَ .

وَفِيهِ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ : أَحَدُهَا تَعْلَمُ أَنَّا نُسَبِّحُك كَثِيرًا وَنَذْكُرُك كَثِيرًا وَكَذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا وَإِنَّا لَمْ

نَزَلَ كَذَلِكَ فِي الْمَاضِي فَكَذَلِكَ نَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَهُمَا نَبِيَّانِ مَعْصُومَانِ ؛ فَحَسُنَ مِنْهُمَا ذَلِكَ .

وَالثَّانِي تَعْلَمُ أَنَّا مُتَعَاوِنَانِ مُتَعَاضِدَانِ وَأَنَّ الْأُخُوَّةَ الَّتِي بَيْنَنَا وَالتَّعَاضُدَ وَالتَّعَاوُنَ بِتَوْفِيقِكَ لَنَا .

وَعَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يَكُونُ تَوَسُّلًا بِمَا عَلِمَ مِنْ حَالَيْهَا وَالثَّالِثُ تَعْلَمُ ذَوَاتِنَا وَصِفَاتِنَا فَلَا تَخْفَى عَلَيْكَ خَافِيَةٌ ؛ فَأُمُورُنَا مُفَوَّضَةٌ إِلَيْكَ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ ذَلِكَ ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَكُونُ تَفْوِيضًا مِنْهُمَا وَ " بَصِير " فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَبْلَغُ مِنْ " عَلِيمٍ " لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْمُشَاهَدَةِ وَكَذَا اُسْتُعْمِلَ فِي قَوْلِ ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وَمَعْنَاهُ مُشَاهِدٌ وَحَالَ غَيْرِي فَتَقِينِي مَكْرَهُمْ .

وَانْظُرْ كَيْفَ أَتَى بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، فَهَاهُنَا قَالَ " بِالْعِبَادِ " وَفِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَالَ " بِنَا " وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ مِنْ مَعْنَى التَّفَوُّضِ إِلَيْهِ وَمَعْنَى الِاجْتِمَاعِ .

وَلَمْ يَقُلْ بَصِيرٌ بِي وَذَلِكَ مِنْ كَمَالِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَفْرَدَ لَرُبَّمَا كَانَ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِكَمَالٍ مُوجِبٍ لِلْإِجَابَةِ .

وَقَدَّمَ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى لِيَبْدَأَ بِمَحَلِّ السُّؤَالِ ؛ وَهُوَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا

السَّلَامُ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِمَا بِالضَّمِيرِ، فَهُوَ خَاصٌّ فَلِذَلِكَ قَدَّمَ بَيَانًا لِلْمُرَادِ وَكَانَ تَقْدِيمُهُ هُنَاكَ لِلِاهْتِمَامِ، وَلَيْسَ مِنْ قَوْلِهِمْ: إنَّ تَقْدِيمَ الْمَجْرُورِ لِلِاخْتِصَاصِ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَصِيرٌ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَخَّرَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتاوى السبكى جـ 1 صـ 68. 69 ﴾

(190/495)

وقال ابن الجوزى:

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنه طغى ﴾

أي: جاوز الحدَّ في العصيان.

قوله تعالى: ﴿ اشرح لي صدري ﴾ قال المفسرون: ضاق موسى صدراً بما كلِّف من مقاومة فرعون وجنوده، فسأل الله تعالى أن يُوسِّع قلبه للحق حتى لا يخاف فرعونَ وجنوده.

ومعنى قوله: ﴿ يسِّر لي أمري ﴾: سهِّل عليَّ ما بعثْتَني له.

﴿ واحلُل عُقدة من لساني ﴾ قال ابن قتيبة: كانت فيه رُتَّة.

قال المفسرون : كان فرعون قد وضع موسى في حِجره وهو صغير ، فجرَّ لحية فرعون بيده ، فهمَّ بقتله ، فقالت له آسية : إِنه لا يعقل ، وسأُريك بيان ذلك ، قدِّم إِليه جمرتين ولؤلؤتين ، فإن اجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، فأخذ موسى جمرة فوضعها في فيه فأحرقت لسانه وصار فيه عقدة ، فسأل حَلَّها ليفهموا كلامه .

وأما الوزير ، فقال ابن قتيبة : أصل الوِزَارة من الوِزْر وهو الحِمْل ، كأن الوزير قد حمل عن السلطان الثِّقْل .

وقال الزجاج : اشتقاقه من الوَزَر ، والوَزَر : الجبل الذي يُعتصم به ليُنجى من الهلكة ، وكذلك وزير الخليفة ، معناه : الذي يعتمد عليه في أموره ويلتجىء إِلى رأيه .

ونصب "هارون" من جهتين .

إِحداهما : أن تكون "اجعل" تتعدى إِلى مفعولين ، فيكون المعنى : اجعل هارون أخي وزيري ، فينتصب "وزيراً" على أنه مفعول ثانٍ .

ويجوز أن يكون "هارون" بدلاً من قوله : ﴿ وزيراً ﴾ ، فيكون المعنى : اجعل لي وزيراً من أهلي ، [ثم] أبدل هارون من وزير ؛ والأول أجود .

قال الماوردي : وإِنما سأل الله تعالى أن يجعل له وزيراً ، لأنه لم يُرِد أن يكون مقصوراً على الوزراة حتى يكون شريكاً في النبوّة ، ولولا ذلك لجاز أن يستوزر من غير مسألة .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتح ياء "أخيَ" .

قوله تعالى : ﴿ أَشْدُدْ به أزري ﴾ قال الفراء : هذا دعاء من موسى ، والمعنى : اشْدُد به يا ربِّ أزري ، وأَشْرِكه يا ربِّ في أمري .

(191/495)

وقرأ ابن عامر : "أَشدد" بالألف مقطوعة مفتوحة ، "وأُشركه" بضم الألف ، وكذلك يبتدىء بالأَلفين .

قال أبو علي : هذه القراءة على الجواب والمجازاة ، والوجه الدعاء دون الإِخبار ، لأن ما قَبْله دعاء ، ولأن الإِشراك في النبوَّة لا يكون إِلا من الله عز وجل ، قال ابن قتيبة : والأَزْر : الظهر ، يقال : آزرت فلاناً على الأمر ، أي : قوّيته عليه وكنت له فيه ظَهْراً .

قوله تعالى : ﴿ وأَشْرِكه في أمري ﴾ أي : في النبوّة معي ﴿ كي نسبِّحك ﴾ أي : نصلّي لكَ ﴿ ونَذْكُرَكَ ﴾ بألسنتنا حامدين لك على ما أوليتنا من نِعَمِكَ ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بنا بصيراً ﴾ أي : عالِماً إِذ خَصَصْتَنا بهذه النِّعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(192/495)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾

لما آنسه بالعصا واليد ، وأراه ما يدل على أنه رسول ، أمره بالذهاب إلى فرعون ، وأن يدعوه .

"طغى" معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد .

﴿ قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾ طلب الإعانة لتبليغ الرسالة .

ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ؛ فقال موسى : يا رب فكيف تأمرني أن آتيه وقد ربطت على قلبه ؛ فأتاه ملك من خزان الريح فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به .

فقال موسى عند ذلك : ﴿ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ أي وسِّعه ونوِّره بالإيمان والنبوّة .

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أي سهِّل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون .

﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ يعني العجمة التي كانت فيه من جمرة النار التي أطفأها في فِيهِ وهو طفل .

قال ابن عباس : كانت في لسانه رُتَّة .

وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمة ، وأخذ بلحيته فنتفها فقال

فرعون لآسية : هذا عدوّي فهات الذبّاحين .

فقالت آسية : على رِسْلك فإنه صبيّ لا يفرق بين الأشياء .

ثم أتت بطَسْتين فجعلت في أحدهما جمراً وفي الآخر جوهراً ، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها في فيه على لسانه ، فكانت تلك الرتّة .

وروي أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ .

ولما دعاه قال : إلى أيّ ربٍّ تدعوني ؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها .

وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قَصْعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة .

ثم اختلف هل زالت تلك الرتّة ؛ فقيل : زالت بدليل قوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى ﴾ .

(193/495)

وقيل : لم تزل كلها ؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] .

ولأنه لم يقل احلل كل لساني ، فدل على أنه بقي في لسانه شيء من الاستمساك .

وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : "أُوتِيتَ سُؤْلَكَ" وإنما قال فرعون : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] لأنه عرف منه تلك العقدة في التربية ، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ حين كلمه موسى بلسان ذَلِق فصيح .

والله أعلم .

وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه .

﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أي يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه .

والفقه في كلام العرب الفهم .

قال أعرابي لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه .

تقول منه : فَقِه الرجل بالكسر .

وفلان لا يَفْقَه ولا يَنْقَه .

وأفقهتك الشيء .

ثم خُصّ به علم الشريعة ، والعالم به فقيه .

وقد فَقُه بالضم فَقَاهَة وفَقَّهه الله وتَفَقَّه إذا تعاطى ذلك .

وفاقهته إذا باحثته في العلم ؛ قاله الجوهري .

والوزير المؤازر كالأكيل المؤاكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله .

وفي كتاب النسائي عن القاسم بن محمد : سمعت عمتي تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذَكَّره وإن ذَكَرَ أعانه " ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله " رواه البخاري .

فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيراً ، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى لا يكون شريكاً له في النبوّة ، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة .

وعَيَّن فقال : "هَرُونَ" .

وانتصب على البدل من قوله : "وَزِيراً" .

(194/495)

أو يكون منصوباً ب"اجعل" على التقديم والتأخير ، والتقدير : واجعل لي هارون أخي وزيراً .

وكان هارون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث .

﴿ اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ أي ظهري .

والأزر الظهر من موضع الحَقْوين ، ومعناه تقوى به نفسي ؛ والأزر القوّة ، وآزره قوّاه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَآزَرَهُ فاستغلظ ﴾ [الفتح : 29] .

وقال أبو طالب :

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَه . . .

وأَوْصى بنيه بالطِّعانِ وبالضَّرْبِ

وقيل : الأزر العون .

أي يكون عوناً يستقيم به أمري .

قال الشاعر :

شَددتُ به أَزْرِي وأَيقنتُ أَنَّهُ . . .

أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبُه

وكان هارون أكثر لحماً من موسى ، وأتم طولاً ، وأبيض جسماً ، وأفصح لساناً .

ومات قبل موسى بثلاث سنين .

وكان في جبهة هارون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة ، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده ، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التي في لسانه .

والله أعلم .

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي في النبوة وتبليغ الرسالة .

قال المفسرون : كان هارون يومئذٍ بمصر ، فأمر الله موسى أن يأتي هو هارون ، وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى ، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه ؛ فقال له موسى : إن الله أمرني أن آتي فرعون فسألت ربي أن يجعلك معي رسولاً .

وقرأ العامة "أخي اشدد" بوصل الألف "وَأَشْرِكْهُ" بفتح الهمزة على الدعاء ، أي اشدد يا رب أزري ، وأشركه معي في أمري .

وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حَيْوة والحسن وعبد الله بن أبي إسحاق "أَشْدُدْ" بقطع الألف "وَأُشرِكْه" [بضم الألف أي أنا أفعل ذلك أشدد أنا به أزري "وأشركه"] أي أنا يا رب "في أمري" .

(195/495)

قال النحاس : جعلوا الفعلين في موضع جزم جواباً لقوله : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً ﴾ وهذه القراءة شاذة بعيدة ؛ لأن جواب مثل هذا إنما يتخرج بمعنى الشرط والمجازاة ؛ فيكون المعنى : إن تجعل لي وزيراً من أهلي أشدد به أزري ، وأشركه في أمري .

وأمره النبوة والرسالة ، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ، إنما سأل الله عز

وجل أن يشركه معه في النبوة .

وفتح الياء من "أَخِي" ابن كثير وأبو عمرو .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ قيل : معنى "نسبحك" نصلي لك .

ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان .

أي ننزهك عما لا يليق بجلالك .

"وكَثِيراً" نعت لمصدر محذوف .

ويجوز أن يكون نعتاً لوقت .

والإدغام حسن ؛ وكذا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ .

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ قال الخطابي : البصير المبصر ، والبصير العالم بخفيات الأمور ، فالمعنى ؛ أي عالماً بنا ، ومدركاً لنا في صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا أيضاً كذلك يا رب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(196/495)

وقال أبو حيان :

ولما أراه تعالى هاتين المعجزتين العظيمتين في نفسه وفيما يلابسه وهو العصا أمره بالذهاب

إلى فرعون رسولاً من عنده تعالى وعلل حكمة الذهاب إليه بقوله ﴿ إنه طغى ﴾ وخص فرعون وإن كان مبعوثاً إليهم كلهم لأنه رأس الكفر ومدعّي الإلهية وقومه تباعه .

قال وهب بن منبه : قال الله لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي أرعاك بعيني وسمعي ، وإن معك يدي ونصري ، وألبسك جنة من سلطاني تستكمل بها العزة في أمري أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي ، أقسم بعزتي لولا الحجة والقدر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان عليّ وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي .

وقل له قولاً ليناً فإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلاّ بعلمي في كلام طويل .

قال : فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام .

وقيل : أكثر فجاءه ملك فقال انفذ ما أمرك ربك .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) ﴾

لما أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون عرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلاّ ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فسأل ربه ورغب في أن يشرح صدره ليحتمل ما يرد عليه من الشدائد التي يضيق لها الصدر ، وأن يسهل عليه أمره للذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب ، وقد علم ما عليه فرعون من الجبروت

والتمرد والتسلط .

وقال ابن جريج : معناه وسع لي صدري لأعي عنك ما تودعه من وحيك .

وقال الكرماني وسع قلبي ولينه لفهم خطابك وأداء رسالتك .

والقيام بما كلفتنيه من أعبائها ، والعقدة استعارة لثقل كان في لسانه خلقة .

وقال مجاهد : كانت من الجمرة التي أدخلها فاه وكانت آسية قد ألقى الله محبته في قلبها

وسألت فرعون أن لا يذبحه ، فبيناهي ترقصه يوماً أخذه فرعون في حجره فأخذ خصلة

من لحيته .

وقيل : لطمه .

وقيل : ضربه بقضيب كان في يده فغضب فرعون فدعا بالسياف فقالت : إنما هو صبي لا

يفرق بين الياقوت والجمر .

فاحضرا وأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها

ووضعها في فيه فاحترق لسانه انتهى .

وإحراق النار وتأثيرها في لسانه لا في يده دليل على فساد قول القائلين بالطبيعة .

وعن ابن عباس كانت في لسانه رتة .

وقيل : حدثت العقدة بعد المناجاة حتى لا يكلم أحداً بعدها .

وقال قطرب : كانت فيه مسكة عن الكلام .

وقال ابن عيسى : العقدة كالتمتمة والفأفأة .

وطلب موسى من حل العقدة قدر ما يفقه قوله ، قيل : وبقي بعضها لقوله وأخي هارون هو أفصح مني لسان وقوله ولا يكاد يبين .

وقيل : زالت لقوله ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وهو قول الحسن ، قيل : وهو ضعيف لأنه لم يقل واحلل العقدة بل قال ﴿ عقدة ﴾ فإذا حل عقدة فقد آتاه الله سؤله .

وقيل في قوله ولا يكاد يبين أن معناه لا يأتي ببيان وحجة ، وإنما قال ذلك فرعون تمويهاً وقد خاطبه وقومه وكانوا يفهمون عنه فكيف يمكن نفي البيان أو مقاربته ؟ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لي في قوله ﴿ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ ما جدواه والكلام بدون مستتب ؟ قلت : قد أبهم الكلام أولاً فقال ﴿ اشرح لي ﴾ ﴿ ويسر لي ﴾ فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً ثم بين ورفع الإبهام فذكرهما فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره ، وأمره من أن يقول اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الشارح لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل .

وقال أيضاً : وفي تنكير العقدة وإن لم يقل ﴿ واحلل عقدة ﴾ ﴿ لساني ﴾ أنه طلب حل

بعضها إرادة أن يفهم عنه فهماً جيداً ولم يطلب الفصاحة الكاملة، و ﴿ من لساني ﴾ صفة للعقدة كأنه قيل ﴿ عقدة من ﴾ عقد ﴿ لساني ﴾ انتهى.

ويظهر أن ﴿ من لساني ﴾ متعلق باحلل لأن موضع الصفة لعقدة وكذا قال الحوفي.

(198/495)

وأجاز أبو البقاء الوجهين والوزير المعين القائم بوزر الأمور أي بثقلها فوزير الملك يتحمل عنه أوزاره ومؤنه.

وقيل: من الوزر وهو الملجأ يلتجئ إليه الإنسان.

وقال الشاعر:

من السباع الضواري دونه وزر . . .

والناس شرهم ما دونه وزر

كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع . . .

وما نرى بشراً لم يؤذهم بشر

فالملك يعتصم برأيه ويلتجئ إليه في أموره.

وقال الأصمعي: هو من المؤازرة وهي المعاونة والمساعدة، والقياس أزير وكذا قال

الزمخشري : قال وكان القياس أزير فقلبت الهمزة إلى الواو ووجه قلبها أن فعيلاً جاء في معنى مفاعل مجيئاً صالحاً كعشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم ، فلما قلب في أخيه قلبت فيه ، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز .

ونظراً إلى يوازر وأخواته وإلى الموازرة انتهى ولا حاجة إلى ادعاء قلب الهمزة واواً لأن لنا اشتقاقاً واضحاً وهو الوزر ، وأما قلبها في يؤازر فلأجل ضمة ما قبل الواو وهو أيضاً إبدال غير لازم ، وجوزوا أن يكون ﴿ لي وزيراً ﴾ مفعولين لاجعل و﴿ هارون ﴾ بدل أو عطف بيان ، وأن يكون ﴿ وزيراً ﴾ و﴿ هارون ﴾ مفعولية ، وقدم الثاني اعتناء بأمر الوزارة و﴿ أخي ﴾ بدل من ﴿ هارون ﴾ في هذين الوجهين .

قال الزمخشري : وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن انتهى .

ويبعد فيه عطف البيان لأن الأكثر في عطف البيان أن يكون الأول دونه في الشهرة ، والأمر هنا بالعكس .

وجوزوا أن يكون ﴿ وزيراً من أهلي ﴾ هما المفعولان و﴿ لي ﴾ مثل قوله ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ يعنون أنه به يتم المعنى .

و﴿ هارون ﴾ على ما تقدم .

وجوزوا أن ينتصب ﴿ هارون ﴾ بفعل محذوف أي اضمم إليّ هارون وهذا لا حاجة إليه لأن الكلام تام بدون هذا المحذوف .

وقرأ الحسن وزيد بن عليّ وابن عامر ﴿ أَشدد ﴾ بفتح الهمزة ﴿ وأُشْرِكْهُ ﴾ بضمها فعلاً مضارعاً مجزوماً على جواب الأمر وعطف عليه ﴿ وأشركه ﴾ .

(199/495)

وقال صاحب اللوامح عن الحسن أنه قرأ أشدِّد به مضارع شدّد للتكثير ، والتكرير أي كلما حزنني أمر شددت ﴿ به أزري ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ أشدد ﴾ ﴿ وأشركه ﴾ على معنى الدعاء في شد الأزر وتشريك هارون في النبوة ، وكان الأمر في قراءة ابن عامر لا يريد به النبوة بل يريد تدبيره ومساعدته لأنه ليس لموسى أن يشرك في النبوة أحداً .

وفي مصحف عبد الله أخي وأشدد .

وقال الزمخشري : ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل ﴿ أخي ﴾ مرفوعاً على الابتداء ﴿ وأشدد ﴾ خبره ويوقف على ﴿ هارون ﴾ انتهى .

وهو خلاف الظاهر فلا يصار إليه لغير حاجة ، وكان هارون أكبر من موسى بأربعة أعوام ، وجعل موسى ما رغب فيه وطلبه من نعم سبباً تلزم منه العبادة والاجتهاد في أمر الله والتظافر على العبادة والتعاون فيها مثير للرغبة والتزيد من الخير .

﴿ كي نسبحك ﴾ ننزهك عما لا يليق بك ﴿ ونذكرك ﴾ بالدعاء والثناء عليك وقدم التسبيح لأنه تنزيهه تعالى في ذاته وصفاته وبراءته عن النقائص ، ومحل ذلك القلب والذكر والثناء على الله بصفات الكمال ومحله اللسان ، فلذلك قدم ما محله القلب على ما محله اللسان .

و﴿ كثيراً ﴾ نعت لمصدر محذوف أو منصوب على الحال ، أي نسبحك التسبيح في حال كثرتهم على ما ذهب إليه سيبويه ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ عالماً بأحوالنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(200/495)

وقال أبو السعود :

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾

تخلّصٌ إلى ما هو المقصودُ من تمهيد المقدمات السالفةِ فُصل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته ، أي اذهبْ إليه بما رأيتَه من الآيات الكبرى وادْعُه إلى عبادتي وحذّره نِقَمَتي

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ تعليلٌ للأمر أو لوجوب المأمورِ به أي جاوز الحدَّ في التكبر والعتوّ والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ينساق إليه الذهنُ ، كأنه قيل : فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أُمر بهذا الأمر الخطيرِ والخطب العسير ؟ فقيل قال مستعيناً بربه عز وجل : ﴿ رَبِّ اشرحِ لِى صَدْرِى ﴾ ﴿ وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ لما أُمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرّع إلى ربه عز وجل وأظهر عجْزَه بقوله : ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ، وسأله تعالى أن يوسعّ صدرَه ويفسَحَ قلبه ويجعله عليماً بشؤون الحق وأحوالِ الخلق حليماً حَمولاً يستقبل ما عسى يرِدُ عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبرِ وحسن الثبات ويتلقّاها بصدر فسيحٍ وجأش رابط ، وأن يسّهل عليه مع ذلك أمرَه الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمُها وأصعبُ الخطوب وأهولُها بتوفيق الأسبابِ ورفع الموانعِ ، وفي زيادة كلمة (لي) مع انتظام الكلامِ بدونها تأكيدٌ لطلب الشرحِ والتيسير بإبهام المشروحِ والميسّر أولاً وتفسيرِهما ثانياً ، وفي تقديمها وتكريرِها إظهارُ مزيدِ اعتناءٍ بشأن كل من المطلوبَيْن وفضلِ اهتمامٍ باستدعاء حصولهما له واختصاصِهما به ﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لّسَانِى ﴾ روي أنه كان في لسانه عليه الصلاة والسلام رُتّةٌ من جمرة أدخلها فاه في صغره ، وذلك أن فرعون حمله ذاتَ يوم فأخذ لحيتَه فنتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله ، فقالت آسيةُ

: إنه صبيٌّ لا يفرق بين الجمر والياقوت فأُحضِرا بين يديه فأخذ الجمرةَ فوضعها في فيه ، قيل

: واحترقت يده فاجتهد فرعونُ في علاجها فلم تبرأ . ثم لما دعاه قال : إلى أي ربّ

تدعوني ؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عَجزْتَ عنه ، واختلف في زوال العُقدة بكمالها

فمن قال به تمسك بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى :

﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنّى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل

حلَّ عُقدة لسانه بالكلية بل حلَّ عقدةٍ تمنع الإفهام ولذلك نكرّها ووصفها بقوله

(202/495)

: ﴿ مِّن لِّسَانِى ﴾ أي عقدةً كائنة من عُقَد لساني وجعل قوله تعالى : ﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾

جوابَ الأمر وغرضاً من الدعاء ، فبحلّها في الجملة يتحقق إيتاءُ سؤله عليه الصلاة والسلام

، والحقُّ أن ما ذكر لا يدل على بقائها في الجملة أما قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنّى ﴾ فلأنه

عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاءِ الحلِّ كما ستعرفه على أن أفصحيّتَه منه عليهما

الصلاة والسلام لا تستدعي عدمَ البقاءِ لما أن الأفصحيةَ توجب ثبوتَ أصلِ الفصاحة في

المفضول أيضاً وذلك منافٍ للعقدة رأساً ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ فمن باب

غلوِّ اللعين في العتوّ والطغيان وإلا لدل على عدم زوالِها أصلاً ، وتنكيرُها إنما يفيد قِلتها في

نفسها لا قِلَّتها باعتبار كونِها بعضاً من الكثير ، وتعلقُ كلمةِ مِنْ قوله تعالى : ﴿ مِّن لِّسَانِى ﴾ بمحذوف هو صفةٌ لها ليس بمقطوع به ، بل الظاهرُ تعلُّقها بنفس الفعل فإن المحلولَ إذا كان متعلقاً شيء ومتصلاً به فكما يتعلق الحلُّ به يتعلق بذلك الشيء أيضاً باعتبار إزالتِه عنه أو ابتداءِ حصوله منه .

(203/495)

﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى * هارون أَخِى ﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمّل أعباء ما كُلِّفتُه ، على أن اشتقاقَه من الوِزْر الذي هو الثِقَل أو ملجأً أعتصمُ برأيه على أنه من الوَزَر وهو الملجأ ، وقيل : أصله أَزير من الأَزْر بمعنى القوة فعيل بمعنى فاعل كالشعير والجليسِ قُلبت همزتُه واواً كقلبها في مُوازِر ، ونصبُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لاجْعل قُدّم على الأول الذي هو قوله تعالى : ﴿ هارون ﴾ اعتناءً بشأن الوزارة ، ولي صلةٌ للجعل أو متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من وزيراً إذ هو صفةٌ له في الأصل ومن أهلي إما صفةٌ لوزيراً أو صلةٌ لاجعل ، وقيل : مفعولاه : لي وزيراً وهارونَ عطفُ بيانٍ للوزير ومن أهلي كما مر من الوجهين ، وأخي في الوجهين بدلٌ من هارونَ أو عطفُ بيانٍ آخرَ ، وقيل : هما وزيراً من أهلي ولي تبيينٌ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ ورُدّ بأن شرطَ المفعولين في باب

النواسخِ صحةُ انعقادِ الجملةِ الاسمية ولا مساغَ لجعل وزيراً مبتدأً ويُخبر عنه بما بعده ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ كلاهما على صيغة الدعاءِ أي أحكِمْ به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالةِ حتى نتعاونَ على أدائها كما ينبغي، وفصلُ الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فإن شدَّ الأزْر عبارةٌ عن جعله وزيراً، وأما الإشراكُ في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسّطَ بينهما العاطف.

(204/495)

﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى * هارون أَخِى ﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمّل أعباء ما كُلّفتُه، على أن اشتقاقَه من الوِزْر الذي هو الثِقَل أو ملجأً أعتصمُ برأيه على أنه من الوَزَر وهو الملجأ، وقيل: أصله أزير من الأزْر بمعنى القوة فعيل بمعنى فاعل كالشعير والجليس قُلبت همزتُه واواً كقلبها في مُوازِر، ونصبُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لاجْعل قُدّم على الأول الذي هو قوله تعالى: ﴿ هارون ﴾ اعتناءً بشأن الوزارة، ولي صلةٌ للجعل أو متعلقٌ بمحذوف هو حالٌ من وزيراً إذ هو صفةٌ له في الأصل ومن أهلي إما صفةٌ لوزيراً أو صلةٌ لاجعل، وقيل: مفعولاه: لي وزيراً وهارونَ عطفُ بيانٍ للوزير ومن أهلي كما مر من الوجهين، وأخي في الوجهين بدلٌ من هارونَ أو عطفُ بيانٍ آخرَ، وقيل: هما وزيراً من أهلي ولي

تبيينٌ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وردّ بأن شرطَ المفعولين في باب النواسخِ صحةُ انعقاد الجملةِ الاسمية ولا مساغَ لجعل وزيرا مبتدأً ويُخبر عنه بما بعده ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ كلاهما على صيغة الدعاءِ أي أحكِمْ به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالةِ حتى نتعاونَ على أدائها كما ينبغي ، وفصلُ الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فإن شدَّ الأَزْر عبارةٌ عن جعله وزيرا ، وأما الإشراكُ في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسّطَ بينهما العاطف .

(205/495)

﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ غايةٌ للأدعية الثلاثةِ الأخيرة فإن فعل فيها كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثِرًا لفعل الآخر ومضاعفاً له بسبب انضمامِه إليه مكثِرٌ له في نفسه أيضاً بسبب تقويتِه وتأييدِه ، إذ ليس المرادُ بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخَلَوات حتى لا يتفاوت حالُه عند التعدد والانفرادِ ، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداءِ الرسالة ودعوةِ المَرَدة العُتاة إلى الحق ، وذلك مما لا ريب في اختلاف حالِه في حالتي التعددِ والانفراد فإن كلاًّ منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحقِّ ما لا يكاد يصدر عنه مثلُه في حال الانفراد . وكثيراً في الموضعين نعتٌ لمصدر محذوف أو زمانٍ

محذوف أي ننزّهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من جملتها ما يدّعيه فرعونُ الطاغيةُ ويقبَلُه منه فئتُه الباغية من ادّعاء الشِرْكةِ في الألوهية ، ونصفُك بما يليق بك من صفات الكمالِ ونعوتِ الجمالِ والجلالِ تنزيها كثيراً أو زماناً كثيراً من جملته زمانُ دعوةِ فرعون وأوانُ المُحاجّة معه . وأما ما قيل من أن المعنى كي نصليَ لك كثيراً ونحمَدَك ونُثنيَ عليك فلا يساعده المقام .

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾

أي عالماً بأحوالنا وبأن ما دعوتُك به مما يُصلحنا ويفيدنا في تحقيق ما كُلِّفتُه من إقامة مراسمِ الرسالةِ وبأن هارونَ نِعمَ الرِّدْءُ في أداء ما أُمرت به ، والباءُ متعلقة ببصيراً قُدّمت عليه لمراعاة الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(206/495)

وقال الآلوسى :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾

تخلص إلى ما هو المقصد من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الأوامر إيذاناً بإصالته أي اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أي جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية ، قال وهب بن منبه : إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : ادن فلم يزل يدنيه حتى شد ظهره بجذع الشجرة فاستقر وذهبت عنه الرعدة وجمع يده في العصا وخضه برأسه وعنقه ثم قال له بعد أن عرفه نعمته تعالى عليه : انطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي وإن معك أيدي ونصرى وإني قد ألبستك جنة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري فأنت جند عظيم من جنودي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي وعبد من دوني وزعم أنه لا يعرفني وإني لأقسم بعزتي لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار فإن أمرت السماء حصبته وإن أمرت الأرض ابتلعته وإن أمرت البحار غرقته وإن أمرت الجبال دمرته ولكنه هان علي وسقط من عيني ووسعه حلمي

واستغنيت بما عندي وحق لي إني أنا الغني لا غنى غيري فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وتوحيدي واخلاص اسمى وذكره بايامى وحذره نقمتي وباسى وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبه وقل له فيما بين ذلك قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغب والعقوبة ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا فإن ناصيته بيدي ليس يطرف ولا ينطق ولا يتنفس إلا بإذني وقل له : أجب ربك فإنه واسع المغفرة وانه قد أمهلك

أربعمائة سنة في كلها أنت مبارزه بالمحاربة تتشبه وتتمثل به وتصد عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء وينبت لك الأرض لم تسقم .

(207/495)

ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء أن يفعل ذلك بك فعل ولكنه ذو أناة وحلم عظيم في كلام طويل .

وفي بعض الروايات أن الله تعالى لما أمره عليه السلام بالذهاب إلى فرعون سكت سبعة أيام ، وقيل : أكثر فجاءه ملك فقال : أنفذ ما أمرك ربك ، وفي القلب من صحة ذلك شيء .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام حين قيل له ما قيل ؟ فأجيب بأنه قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي .

﴿ وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ الظاهر أنه متعلق بقوله تعالى ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ [طه : 24] الخ ، وذلك انه عليه السلام علم من الأمر بالذهاب إليه والتعليل بالعلة المذكورة أنه كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جاش رابط وصدر فسيح فاستوهب ربه تعالى أن يشرح صدره ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى أن يرد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مر الحق من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل

الصبر وحسن الثبات وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الأمور وأعظمها

وأصعب الخطوب وأهو لها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع ، فالمراد من شرح الصدر جعله

بحيث لا يضجر ولا يقلق مما يقتضي بحسب البشرية الضجر والقلق من الشدائد ، وفي

طلب ذلك إظهار لكمال الافتقار إليه عز وجل واعراض عن الأنانية بالكلية :

ويحسن إظهار التجلد للعدا . . .

ويقبح إلا العجز عند الأحبة

وذكر الراغب أن أصل الشرح البسط ونحوه ، وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى وروح منه عز وجل ولهم فيه عبارات أخر لعل بعضها سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة .

(208/495)

وقال بعضهم : إن هذا القول معلق بما خاطبه الله تعالى به من لدن قوله سبحانه : ﴿ إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ فَاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12] إلى هذا المقام فيكون قد طلب عليه السلام شرح الصدر ليقف على دقائق المعرفة وأسرار الوحي ويقوم بمراسم الخدمة والعبادة على أتم وجه ولا يضجر من شدائد التبليغ .

وقيل : إنه عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العغظيم وخوطب بما خوطب في ذلك المقام احتاج إلى تكاليف شاقة من تلقي الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى وإصلاح العالم السفلى فكأنه كلف بتدبير العالمين والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر فسأل شرح الصدر حتى يفيض عليه من القوة ما يكون وافياً بضبط تدبير العالمين ، وقد يقال : إن الأمر بالذهاب إلى فرعون قد انطوى فيه الإشارة إلى منصب الرسالة المستتبع تكاليف لائقة به منها ما هو راجع إلى الحق ؛ ومنها ما هو منوط بالخلق ، وقد استشعر موسى عليه السلام كل ذلك فبسط كف الضراعة لطلب ما يعينه على أداء ذلك على أكمل وجه فلا يتوقف تعميم شرح الصدر على تعلقه بأول الكلام كما لا يخفى ، ثم إن الصدر عند علماء الرسوم يراد منه القلب لأنه المدرك أو مما به الإدراك والعلاقة ظاهرة .

ولعلماء القلوب كلام في ذلك سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة مع بعض ما أطنب به الإمام في تفسير هذه الآية ، وفي ذكر كلمة ﴿ لِى ﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولاً وتفسيرهما ثانياً فإنه لما قال ﴿ اشرح لِى ﴾ [طه : 25] علم أن ثم مشروحا يختص به حتى لو اكتفى لتم فإذا قيل ﴿ صَدْرِى ﴾ أفاد التفسير والتفصيل أما لو قيل ﴿ اشرح ﴾ واكتفى به فلا وكذا الكلام في ﴿ يَسّرْ لِى ﴾ .

وقيل : ذكر ﴿ لِى ﴾ لزيادة الربط كما في قوله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] .

وتعقب بأنه لا منافاة وهو الذي أفاد هذا المعنى وفي الانتصاف أن فائدة ذكرها الدلالة على أن منفعة شرح الصدر راجعة إليه فإنه تعالى لا يبالي بوجوده وعدمه وقس عليه ﴿ يَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ .

﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لّسَانِى ﴾

روى أنه كان في لسانه عليه السلام رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره .

وذلك ان فرعون حمله ذات يوم فأخذ خصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر .

وقيل : لطمه .

وقيل : ضربه ضربه بقضيب في يده على رأسه فتطير فدعا بالسياف فقالت آسية بنت مزاحم امرأته وكانت تحب موسى عليه السلام : إنما هو صبي لا يفرق بين الياقوت والجمر فاحضرا وأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانه .

وفي هذا دليل على فساد قول القائلين بأن النار تحرق بالطبيعة من غير مدخلية لاذن الله تعالى في ذلك إن لو كان الأمر كما زعموا لأحرقت يده .

وذكر في حكمة إذن الله تعالى لها بإحراق لسانه دون يده ان يده صارت آلة لما ظاهره الإهانة لفرعون .

ولعل تبييضها كان لهذا أيضاً وإن لسانه كان آلة لضد ذلك بناء على ما روي أنه عليه السلام دعاه بما يدعو به الأطفال الصغار آبائهم .

وقيل : احترقت يده عليه السلام أيضاً فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ .

ولعل ذلك لئلا يدخلها عليه السلام مع فرعون في قصة واحدة فتفقد بينهما حرمة المؤاكلة فلما دعاه قال : إلى أي رب تدعوني ؟ قال : إلى الذي أبرأ يدى وقد عجزت عنه .

وكان الظاهر على هذا أن يطرح عليه السلام النار من يده ولا يوصلها إلى فيه .

ولعله لم يحس بالألم إلا بعد أن أوصلها فاه أو أحس لكنه لم يفرق بين القائها في الأرض والقائها في فمه وكل ذلك بتقدير الله تعالى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وقيل : كانت العقدة في لسانه عليه السلام خلقة .

وقيل : إنها حدثت بعد المناجاة وفيه بعد .

واختلف في زوالها بكمالها فمن قال به كالحسن تمسك بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى ﴾ [طه : 36] من لم يقل به كالجبائي احتج بقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى ﴾ [القصص : 34] وقوله سبحانه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] .

وبما روي أنه كان في لسان الحسين رضي الله عنه رتة وحبسة فقال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : إنه ورثها من عمه موسى عليه السلام .

وأجاب عن الأول بأنه عليه السلام لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل عقدة تمنع الافهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله : دمن لساني ﴾ ولم يضفها مع أنه أخصر ولا يصلح ذلك للوصفية إلا بتقدير مضاف وجعل ﴿ من ﴾ ولم يضفها مع أنه أخصر ولا يصلح ذلك للوصفية إلا بتقدير مضاف وجعل ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية أي عقدة كائنة من عقد لساني فإن العقدة للسان لا منه .

وجعل قوله تعالى :

﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ جواب الطلب وغرضا من الدعاء فبحلها في الجملة يتحقق إيتاء سؤاله عليه السلام .

واعترض على ذلك بأن قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى ﴾ [القصص : 34] قال عليه السلام قبل استدعاء الحل على أنه شاهد على عدم بقاء اللكنة لأن فيه دلالة على أن

موسى عليه السلام كان فصيحاً غايته إن فصاحة أخيه أكثر وبقية اللكنة تنافي الفصاحة اللغوية المرادة هنا بدلالة قوله ﴿ لساناً ﴾ [القصص : 34] .

(211/495)

ويشهد لهذه المنافاة ما قاله ابن هلال في كتاب الصناعتين : الفصاحة تمام آلة البيان ولذا يقال : لله تعالى فصيح وإن قيل لكلامه سبحانه فصيح ولذلك لا يسمى الالثغ والتمتام فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف وبأن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] معناه لا يأتي ببيان وحجة ، وقد قال ذلك اللعين تمويهاً ليصرف الوجوه عنه عليه السلام ، ولو كان المراد نفي البيان وافهام الكلام لاعتقال اللسان لدل على عدم زوال العقدة أصلاً ولم يقل به أحد ، وبانا لا نسلم صحة الخبر ، وبأن تنكير ﴿ عُقْدَةَ ﴾ [طه : 27] يجوز أن يكون لقلتها في نفسها .

ومن يجوز تعلقها بـ ﴿ احلل ﴾ [طه : 27] كما ذهب إليه الحوفي واستظهره أبو حيان فإن المحلول إذا كان متعلقاً بشيء ومتصلاً به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشيء أيضاً باعتبار إزالته عنه أو ابتداء حصوله منه ، وعلى تقدير تعلقها بمحذوف وقع صفة لعقدة لا نسلم وجوب تقدير مضاف وجعل من تبعيضية ، ولا مانع من أن تكون بمعنى في ولا تقدير

أي عقدة في لساني بل قيل : ولا مانع أيضاً من جعلها ابتدائية مع عدم التقدير وأي فساد في قولنا : عقدة ناشئة من لساني .

والحاصل أن ما استدل به على بقاء عقدة ما في لسانه عليه السلام وعدم زوالها بالكلية غير تام لكن قال بعضهم : إن الظواهر تقتضي ذلك وهي تكفي في مثل هذه المطالب وثقل ما في اللسان لا يخفف قدر الإنسان .

وقد ذكر أن في لسان المهدي المنتظر رضي الله عنه حبسة وربما يتعذر عليه السلام حتى يضرب بيده اليمني فخذ رجله اليسرى وقد بلغك ما ورد في فضله .

وقال بعضهم : لا تقاوم فصاحة الذات اعراب الكلمات .

وأنشد قول القائل :

سر الفصاحة كامن في المعدن . . .

لخصائص الأرواح لا للالسن

وقول الآخر :

لسان فصيح معرب في كلامه . . .

فياليته في موقف الحشر يسلم

وما ينفع الأعراب ان لم يكن تقى . . .

وما ضر ذا تقوى لسان معجم

نعم ما يخل بأمر التبليغ من رتة تؤدي إلى عدم فهم الوحي معها ونفرة السامع عن سماع ذلك مما يجل عنه الأنبياء عليهم السلام فهم كلهم فصحاء اللسان لا يفوت سامعهم شيء من كلامهم ولا ينفر عن سماعة وان تفاوتوا في مرات تلك الفصاحة وكأنه عليه السلام إنما لم يطلب أعلا مراتب فصاحة اللسان وطلاقته عند الجبائي ومن وافقه لأنه لم ير في ذلك كثير فضل ، وغاية ما قيل فيه إنه زينة من زينة الدنيا وبهاء من بهائها والفضل الكثير في فصاحة البيان بالمعنى المشهور في عرف أهل المعاني والبيان وما ورد مما يدل على ذم ذلك فليس على إطلاقه كما بين في شروح الأحاديث .

ثم إن المشهور تفسير اللسان بالآلة الجارحة نفسها وفسره بعضهم بالقوة النطقية القائمة بالجارحة .

والفقه العلم بالشيء والفهم كما في القاموس وغيره ، وقال الراغب : هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم .

والظاهر هنا الفهم أي احلل عقدة من لساني يفهموا قولي

﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى هارون أَخِى ﴾ أي معاونا في تحمل أعباء ما كلفته على أن

اشتقاقه من الوزر بكسر فسكون بمعنى الحمل الثقيل فهو في الأصل صفة من ذلك ومعناه صاحب وزر أي حامل حمل ثقيل ، وسمي القائم بأمر الملك بذلك لأنه يحمل عنه وزر الأمور وثقلها أو ملجأ أعتصم برأيه على أن اشتقاقه من الوزر بفاحتين وأصله الجبل يتحصن به ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقاً كما في قوله :

شر السباع الضوارى دونه وزر . . .

والناس شرهم ما دونه وزر

كم معشر سلموا لم يأذهم سبع . . .

وما ترى بشرا لم يؤذه بشر

(213/495)

وسمي وزير الملك بذلك لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجيء إليه في أمره فهو فعيل بمعنى مفعول على الحذف والإيصال أي ملجوء إليه أو هو للنسب ، وقيل : أصله أزير من الأزر بمعنى القوة ففعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر وقلبت فيه لانضمام ما قبلها ووزير بمعناه فحمل عليه وحمل النظير على النظير كثير في كلامهم إلا أنه سمع مؤازر من غير إبدال ولم يسمع أزير بدونه على أنه مع وجود الاشتقاق الواضح وهو ما

تقدم لا حاجة إلى هذا الاشتقاق وادعاء القلب .

ونصبه على أنه مفعول ثان ﴿ لا جعَلَ ﴾ قدم على الأول الذي هو قوله تعالى : ﴿ هارون ﴾ اعتناء بشأن الوزارة لأنها المطلوبة و﴿ لِى ﴾ صلة للجعل أو متعلق بمحذوف وقع حالا من وزيرا وهو صفة له في الأصل و﴿ مّنْ أَهْلِى ﴾ إما صفة لوزيراً أو صلة لا جعل ، وقيل : مفعولاه ﴿ لّى وَزِيراً ﴾ و﴿ مّنْ أَهْلِى ﴾ على ما مر من الوجهين و﴿ هارون ﴾ عطف بيان للوزير بناء على ما ذهب إليه الزمخشري والرضى من أنه لا يشترط التوافق في التعريف والتنكير ، وقيل : هو بدل من وزيراً .

وتعقب بأنه يكون حينئذ هو المقصود بالنسبة مع أن وزارته هي المقصودة بالقصد الأول هنا .

وجوز كونه منصوباً بفعل مقدر في جواب من اجعل ؟ أي اعجل هارون ، وقيل : مفعولاه ﴿ وَزِيراً مّنْ أَهْلِى ﴾ و﴿ لِى ﴾ تيبين كما في سقيا له .

(214/495)

واعترض بأن شرط المفعولين في باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية منهما ولو ابتدأت بوزيراً وأخبرت عنه بمن أهلى لم يصح إذ لا مسوغ للابتداء به ، وأجيب بأن مراد

القائل : إن "من أهلي" هو المفعول الأول لتأويله ببعض أهلي كأنه قيل اجعل بعض أهلي وزيراً فقدم للاهتمام به وسداد المعنى يقتضيه ولا يخفى بعده ، ومن ذلك قيل الأحسن أن يقال : إن الجملة دعائية والنكرة يبتدأ بها فيها كما صرح به النحاة فكذا بعد دخول الناسخ وهو كما ترى ، وقيل : المسوغ للإبتداء بالنكرة هنا عطف المعرفة وهو ﴿ هارون ﴾ عليها عطف بيان وهو غريب ، وجوز في ﴿ هارون ﴾ أيضاً على هذا القول كونه مفعولاً لفعل مقدر وكونه بدلاً وقد سمعت ما فيه .

والظاهر أنه يجوز في ﴿ لِى ﴾ عليه أيضاً أن يكون صلة للعجل كما يجوز فيه على بعض الأوجه السابقة أن يكون تبييناً .

ولم يظهر لي وجه عدم ذكر هذا الاحتمال ولا وجه عدم ذكر احتمال كونه صلة للجعل هنا .

ويفهم من كلام البعض جواز كل من الاحتمالين هنا وهناك .

وكذا يجوز أيضاً أن يكون حالاً من ﴿ وَزِيراً ﴾ ولعل ذلك مما يسهل أمر الانعقاد على ما قيل وفيه ما فيه ، و﴿ أَخِى ﴾ على الوجوه عطف بيان للوزير ولا ضير في تعدده لشيء واحد أو لهرون .

ولا يشترط فيه كون الثاني أشهر كما توهم لأن الإيضاح حاصل من المجموع كما حقق في المطول وحواشيه .

ولا حاجة إلى دعوى أن المضاف إلى الضمير أعرف من العلم لما فيها من الخلاف.

وكذا إلى ما في "الكشف" من أن ﴿ أَخِى ﴾ في هذا المقام أشهر من اسمه العلم لأن موسى عليه السلام هو العلم المعروف والمخاطب الموصوف بالمناجاة والكرامة والمتعرف به هو المعرفة في الحقيقة ثم إن البيان ليس بالنسبة إليه سبحانه لأنه جل شأنه لا تخفى عليه خافية وإنما إتيان موسى عليه السلام به على نمط ما تقدم من قوله ﴿ هِىَ عَصَاىَ ﴾ [طه: 18] الخ.

وجوز أن يكون ﴿ أَخِى ﴾ مبتدأ خبره.

اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31)

(215/495)

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾

وتعقبه أبو حيان بأنه خلاف الظاهر فلا يصار إليه لغير حاجة.

والكلام في الاخبار بالجملة الإنشائية مشهور.

والجملة على هذا استئنافية.

والأزر القوة.

وقيدها الراغب بالشديدة.

وقال الخليل.

وأبو عبيدة: هو الظهر روى ذلك عن ابن عطية، والمراد أحكم به قوتي وأجعله شريكي في أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

وفصل الدعاء الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فإن شد الأزر عبارة عن جعله وزيراً وأما الإشراك في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف كذا قيل لكن في مصحف ابن مسعود ﴿ واشدد ﴾ بالعطف على الدعاء السابق وعن أبي ﴿ أَهْلِى هارون أَخِى اشدد بِهِ أَزْرِى ﴾ فتأمل.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما الحسن.

وابن عامر ﴿ اشدد ﴾ بفتح الهمزة ﴿ وَأَشْرِكْهُ ﴾ بضمها على أنهما فعلان مضارعان مجزومان في جواب الدعاء أعني قوله: ﴿ أَجْعَلَ ﴾، وقال "صاحب اللوامح": عن الحسن أنه قرأ ﴿ اشدد بِهِ ﴾ مضارع شدد للتكثير والتكرير.

وليس المراد بالأمر على القراءة السابقة الرسالة لأن ذلك ليس في يد موسى عليه السلام بل أمر الإرشاد والدعوة إلى الحق، وكان هرون كما أخرج الحاكم عن وهب أطول من موسى عليهما السلام وأكثر لحماً وأبيض جسماً وأعظم ألواحاً وأكبر سناً، قيل: كان أكبر منه بأربع سنين، وقيل: بثلاث سنين.

وتوفي قبله بثلاث أيضاً .

وكان عليه السلام ذا تؤدة وحلم عظيم .

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33)

(216/495)

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة فإن فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثراً لفعل الآخر ومضاعفاً له بسبب انضمامه إليه مكثر له في نفسه أيضاً بسبب تقويته وتأييده إذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة إلى الحق وذلك مما لا ريب في اختلاف حالة في حالتي التعدد والانفراد فإن كلاً منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله حال الانفراد ، و﴿ كَثِيراً ﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أي ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من الشركة في الألوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيهاً كثيراً ووصفاً كثيراً أو زماناً كثيراً من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة

معه كذا في إرشاد العقل السليم .

وجوز أبو حيان كونه منصوباً على الحال أي نسبحك التسبيح في حال كثرته ، وكذا يقال في الأخير وليس بذاك ، وتقديم التسبيح على الذكر من باب تقديم التخلية على التحلية ، وقيل : لأن التشبيح تنزيه عما يليق ومحله القلب والذكر ثناء بما يليق ومحله اللسان والقلب مقدم على اللسان ، وقيل : إن المعنى كي نصلي لك كثيراً ونحمدك ونثني عليك كثياً بما أوليتنا من نعمك ومننت به علينا من تحمل رسالتك ، ولا يخفى أنه لا يساعده المقام .

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾

(217/495)

عالماً بأحوالنا وبأن ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا في تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الردء في أداء ما أمرت به ، والباء متعلقة ببصيراً قدمت عليه لمراعاة الفواصل ، والجملة في موضع التعليل للمعلل الأول بعد اعتبار تعليله بالعلة الأولى ، وروى عبد بن حميد عن الأعمش أنه سكن كاف الضمير في المواضع الثلاثة ، وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بمثل هذا الدعاء إلا أنه أقام علياً كرم الله تعالى وجهه مقام هرون عليه السلام ، فقد أخرج ابن مردويه .

والخطيب .

وابن عساكر عن أسماء بن عميس قالت : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإزاء ثبير وهو يقول أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك مما أسألك أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي أمرى وأن تحل عقدة من لساني يفقه قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً " ولا يخفى أنه يتعين هنا حمل الأمر على الإرشاد والدعوة إلى الحق ولا يجوز حمله على النبوة ، ولا يصح الاستدلال بذلك على خلافة علي كرم الله تعالى وجهه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بلا فصل .

ومثله فيما ذكر ما صح من قوله عليه الصلاة والسلام له حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته : " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "كما بين في التحفة الإثني عشرية ، نعم في ذلك من الدلالة على مزيد فضل علي كرم الله تعالى وجهه ما لا يخفى ، وينبغي أيضاً أن يتأول طلبه صلى الله عليه وسلم حل العقدة بنحو استمرار ذلك لما أنه عليه الصلاة والسلام كان أفصح الناس لساناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾

قال الزجاج والفراء : إن ﴿ تلك ﴾ اسم ناقص وصلت ﴿ بيمينك ﴾ أي ما التي بيمينك ؟ وروي عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ، ولو قال : ما ذلك لجاز ، أي ما ذلك الشيء ؟ وبالأوّل قال الكوفيون .

قال الزجاج : ومعنى سؤال موسى عمّا في يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها .

قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هي عصاي لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل ، ومحل "ما" الرفع على الابتداء ، و﴿ تلك ﴾ خبره ، و﴿ بيمينك ﴾ في محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ ، وإن كانت اسماً موصولاً كان ﴿ بيمينك ﴾ صلة للموصول .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ قرأ ابن أبي إسحاق : " عصى " على لغة هذيل .

وقرأ الحسن : "عَصَايِ" بكسر الياء لالتقاء الساكنين ﴿ أتوكأ عليها ﴾ أي أتحامل عليها في المشي وأعتمدها عند الإعياء والوقوف ، ومنه الاتكاء .

﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ هش بالعصا يهش هشاً : إذا خبط بها الشجر ليسقط منه

الورق .

قال الشاعر :

أهش بالعصا على أغنامي . . . من ناعم الأوراك والشام

وقرأ النخعي " أهس " بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة ، وقيل : هما لغتان لمعنى واحد ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ أي حوائج ، واحدها مَأْرَبَة ومَأْرُبَة ومأربة مثلث الراء ، كذا قال ابن الأعرابي وقطرب ، ذكر تفصيل منافع العصا ، ثم عقبه بالإجمال .

(219/495)

وقد تعرّض قوم لتعداد منافع العصا ، فذكروا من ذلك أشياء منها قول بعض العرب : عصاي أركزها لصلاتي ، وأعدّها لعداتي ، وأسوق بها دابتي ، وأقوى بها على سفري ، وأعتمد بها في مشيتي ، ليتسع خطوي ، وأثب بها النهر ، وتؤمنني العثر ، وألقي عليها كسائي ، فتقيني الحرّ ، وتدفيني من القرّ ، وتدني إليّ ما بعد مني وهي تحمل سفرتي ، وعلاقة إداوتي ، أعصي بها عند الضراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأقي بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح في الطعان ، وعن السيف عند منازلة الأقران ، ورثتها عن أبي وأورثها

بعدي بنيّ .

انتهى .

وقد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين ، وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتاً رشيقة .

وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرّة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنزته ، وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام ، وفي المحافل والخطب .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿ فألقاها ﴾ موسى على الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى ، أي تمشي بسرعة وخفة ، قيل : كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وباقيها جسم حية ، تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها ، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب ، فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ قال الأخفش والزجاج : التقدير : إلى

سيرتها ، مثل

﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] .

(220/495)

قال : ويجوز أن يكون مصدراً ؛ لأن معنى سنعيدها : سنسيرها ، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي سائرة ، أو بمعنى اسم المفعول ، أي مسيرة .

والمعنى : سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العصوية .

قيل : إنه لما قيل له : ﴿ لا تخف ﴾ بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحيها .

﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ قال الفراء والزجاج : جناح الإنسان عضده ، وقال قطرب : جناح الإنسان جنبه .

وعبر عن الجنب بالجناح ؛ لأنه في محل الجناح ، وقيل : إلى بمعنى مع ، أي مع جناحك ، وجواب الأمر ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ أي تخرج يدك حال كونها بيضاء ، ومحل ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ النصب على الحال ، أي كائنة من غير سوء .

والسوء : العيب ، كني به عن البرص ، أي تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار

كضوء الشمس من غير برص .

وانتصاب ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ على الحال أيضاً ، أي معجزة أخرى غير العصا .

وقال الأخفش : إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء .

قال النحاس : وهو قول حسن .

وقال الزجاج : المعنى : آتيناك أو نؤتيك آية أخرى لأنه لما قال : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ دلّ على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ قيل : والتقدير : فعلنا ذلك لنريك ، و﴿ من آياتنا ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، و﴿ الكبرى ﴾ معناها : العظمى ، وهو صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : لنريك من آياتنا الآية الكبرى ، أي لنريك بهاتين الآيتين يعني : اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى ، فلا يلزم أن تكون اليد هي الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا ، فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة .

ثم صرّح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات، فقال: ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ وخصه بالذكر؛ لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ أي عصى وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحدّ، وجملة ﴿ قَالَ رَبّ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال؟ ومعنى شرح الصدر: توسيعه، تضرّع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه بقوله:

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ [الشعراء: 13]، ومعنى تيسير الأمر: تسهيله.

﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لّسَانِى ﴾ يعني: العجمة التي كانت فيه من الجمرة التي ألقاها في فيه وهو طفل، أي أطلق عن لساني العقدة التي فيه، قيل: أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾.

وقيل: لم تذهب كلها؛ لأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حلّ عقدة تمنع الإفهام بدليل قوله: ﴿ مّن لّسَانِي ﴾ أي كائنة من عقد لساني، ويؤيد ذلك قوله: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنّى لِسَاناً ﴾ [القصص: 34]، وقوله حكاية عن فرعون: ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: 52]، وجواب الأمر قوله: ﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ أي يفهموا كلامي، والفقه في كلام العرب: الفهم، ثم خص به علم الشريعة والعالم به فقيه، قاله الجوهري.

﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى * هارون أَخِي ﴾ الوزير: الموازر، كالأكيل المواكل، لأنه

يحمل عن السلطان وزره ، أي ثقله .

قال الزجاج : واشتقاقه في اللغة من الوزر ، وهو الجبل الذي يعتصم به لينج من الهلكة .

والوزير : الذي يعتمد الملك على رأيه في الأمور ويلتجىء إليه .

وقال الأصمعي : هو مشتق من الموازرة ، وهي المعاونة .

(222/495)

وانتصاب ﴿ وزيراً ﴾ و﴿ هارون ﴾ على أنهما مفعولا اجعل ، وقيل : مفعولاه : لي وزيراً ، ويكون هارون عطف بيان للوزير ، والأوّل أظهر ، ويكون لي متعلقاً بمحذوف ، أي : كائناً لي ، و﴿ من أهلي ﴾ صفة ل ﴿ وزيراً ﴾ ، وأخي بدل من هارون .

قرأ الجمهور : ﴿ اشدد ﴾ بهمزة وصل ، و﴿ أشركه ﴾ بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء ، أي يا رب أحكم به قوّتي واجعله شريكي في أمر الرسالة ، والأزر : القوة ، يقال : آزره ، أي قوّاه .

وقيل : الظهر ، أي أشدد به ظهري .

وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبي إسحاق " أشدد " بهمزة قطع " وأشركه " بضم الهمزة ، أي أشدد أنا به أزري وأشركه أنا في أمري .

قال النحاس : جعلوا الفعلين في موضع جزم جواباً لقوله ﴿ اجعل لي وزيراً ﴾ ، وقرأ بفتح الياء من : "أخي " ابن كثير وأبو عمرو .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ هذا التسبيح والذكر هما الغاية من الدعاء المتقدّم .

والمراد التسبيح هنا باللسان .

وقيل : المراد به : الصلاة ، وانتصاب ﴿ كثيراً ﴾ في الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف ، أو لزمان محذوف ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ البصير المبصر والبصير العالم بخفيات الأمور ، وهو المراد هنا ، أي إنك كنت بنا عالماً في صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا أيضاً كذلك الآن .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في عصا موسى قال : أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضيء له بالليل ، ويضرب بها الأرض فتخرج له النبات ، ويهشّ بها على غنمه ورق الشجر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى ﴾ قال : أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ قال : حوائج .

(223/495)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ نحوه .

وأخرج أيضاً عن قتادة قال : كانت تضيء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس في قوله : ﴿ فألقاها فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ قال : ولم تكن قبل ذلك حية فمرّت بشجرة فأكلتها ، ومرّت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبراً ، فنودي أن يا موسى خذها ، فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية : أن خذها ولا تخف ، فقيل له في الثالثة : إنك من الآمنين فأخذها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ قال : حالتها الأولى .

وأخرجا عنه أيضاً : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ قال : من غير برص .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ واجعل لّي وَزِيراً مّنْ أَهْلِي * هارون أَخِي

﴿ قال : كان أكبر من موسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ قال : نبىء هارون ساعتئذٍ حين نبىء موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(224/495)

وقال القاسمى :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة . فُصِل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته . أي : اذهب إليه بما رأيته من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أي : جاوز الحد في التكبّر والعتوّ ، حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية . فلا بد من تنبيهه على طغيانه بالدلائل العقلية ، التي صدقتها المعجزات .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون في القتيل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أطغى الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمَدّ بمنطق فصيح ،

لما في لسانه من عقدة كانت بمنعه من كثير من الكلام كما قال : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص : 34] ، وقول فرعون : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] ، ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هارون ، ليكون له رِدْءًا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ أي : قَوِّ به ظهري .

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ أي : كي نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر : ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي : عالمًا بأحوالنا ، وبأن المدعوّ به مما يفيدنا .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ أي : أجيب دعاؤك . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب ، فَلَأَنْ ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ،

لكمال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 131.130 ﴾

(226/495)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) ﴾

قال بعض العلماء : دل قوله ﴿ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ بالتنكير والإفراد وإتباعه لذلك بقوله ﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ على أنه لم يسأل إزالة جميع ما بسانه من العقد بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها . وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى عنه : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً ﴾ [القصص : 34] الآية وقوله تعالى عن فرعونه ﴿ أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] والستدلال بقول فرعون في موسى فيه أن فرعون معروف بالكذب والبهتا ن . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(227/495)

وقال ابن عاشور :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) ﴾

لما أظهر الله لهُ الآيتين فعلم بذلك أنه مؤيد من الله تعالى ، أمره الله بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يُدخل الرّوع في نفس المأمور به وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله ، وقد جاء في الآيات الآتية : ﴿ قالا ربّنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : 45 ، 46] .

والذهاب المأمور به ذهاب خاص ، قد فهمه موسى من مقدمات الإخبار باختياره ، وإظهار المعجزات له ، أو صرح له به وطوي ذكره هنا على طريقة الإيجاز ، على أنّ التّعليل الواقع بعده ينبىء به .

فجملة ﴿ إنه طَغَى ﴾ تعليل للأمر بالذهاب إليه ، وإنما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص ، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله .

ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون ، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه ، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه ، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة .

وحكي جواب موسى عن كلام الرب بفعل القول غير معطوف جرياً على طريقة

المحاورات.

ورتّب موسى الأشياء المسؤولة في كلامه على حسب ترتيبها في الواقع على الأصل في ترتيب الكلام ما لم يكن مقتض للعدل عنه.

فالشرح، حقيقته: تقطيع ظاهر شيء ليّن.

واستعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدره أو توجب تردده في الإقدام على عمل ما تشبيهاً بتشريح اللحم بجامع التوسعة.

والقلب: يراد به في كلامهم والعقل.

فالمعنى: أزل عن فكري الخوف ونحوه، مما يعترض الإنسان من عقبات تحول بينه وبين الانتفاع بإقدامه وعزامته، وذلك من العُسر، فسأل تيسير أمره، أي إزالة الموانع الحافّة بما كلف به.

والأمر هنا: الشأن، وإضافة (أمر) إلى ضمير المتكلم لإفادة مزيد اختصاصه به وهو أمر الرسالة كما في قوله الآتي ﴿ وأشْرِكه في أمْرِي ﴾.

والتيسير: جعل الشيء يسيراً، أي ذا يسْر.

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ في سورة البقرة (185) .

ثم سأل سلامة آلة التبليغ وهو اللسان بأن يرزقه فصاحة التعبير والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة ، فشبه حُبسة اللسان بالعُقدة في الحبل أو الخيط ونحوهما لأنها تمنع سرعة استعماله .

والعُقدة : موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه ، وهي بزنة فُعلة بمعنى مفعول كقُضة وغُرفة ؛ أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة وهي استعارة مصرّحة ، ويقال لها حُبْسة .

يقال : عَقِد اللسان كفرح ، فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام .

واستعار لإزالتها فعل الحل المناسب العقدة على طريقة الاستعارة المكنية .

وزيادة ﴿ لِي ﴾ بعد ﴿ اشْرَحْ ﴾ وبعد ﴿ يسر ﴾ إطناب كما أشار إليه صاحب "المفتاح" لأنّ الكلام مفيد بدونه .

ولكن سلك الإطناب لما تفيده اللام من معنى العلّة ، أي اشرح صدري لأجلي ويسر أمري لأجلي ، وهي اللام الملقبة لامَ التبيين التي تفيد تقوية البيان ، فإن قوله ﴿ صدري وأمري واضح أن الشرح والتيسير متعلقان به فكان قوله لي فيهما زيادة بيان كقوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] وهو هنا ضرب من الإلحاح في الدعاء لنفسه .

وأمّا تقديم هذا المجرور على متعلقه فليحصل الإجمال ثم التفصيل فيفيد مفاد التأكيد من

أجل تكرر الإسناد .

ولم يأت بذلك مع قوله ﴿ واحْلل عُقدةً مِن لساني ﴾ لأنّ ذلك سؤال يرجع إلى تبليغ رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتها راجعة إليه حتى يأتي لها بلام التبيين .

وتنكير ﴿ عقدة ﴾ للتعظيم ، أي عقدة شديدة .

و﴿ مِن لِساني ﴾ صفة لعُقْدة .

(229/495)

وعدل عن أن يقول : عقدة لساني ، بالإضافة ليتأتى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة .

وفعل ﴿ يَفْقَهُوا ﴾ مجزوم في جواب الأمر على الطريقة المتّبعة في القرآن من جعل الشيء المطلوب بمنزلة الحاصل عقب الشرط كقوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ [النور : 30] أي إن تقل لهم غضّوا يغضوا ، أي شأنهم الامتثال .

والفقه : الفهم .

والوزير : فعيل بمعنى فاعل ، من وَزَار على غير قياس ، مثل حكيم من أحكم ، وهو مشتق من الأَزْر ، وهو المعونة ، والمؤازرة كذلك ، والكل مشتق من الأزر ، أي الظهر ، كما سيأتي قريباً ، فحقه أن يكون أزيراً بالهمزة إلا أنّهم قلبوا همزته واواً حملاً على موازر الذي هو بمعناه

الذي قلبت همزته واواً لانضمام ما قبلها .

فلما كثر في الكلام قولهم : موازر ويوازر بالواو نطقوا بنظيره في المعنى بالواو بدون موجب للقلب إلاّ الحمل على النظير في النطق ، أي اعتياد النطق بهمزته واواً ، أي اجعَل معيناً من أهلي .

وخصّ هارون لفرط ثقته به ولأنه كان فصيح اللسان مقوالاً ، فكونه من أهله مظنة النصح له ، وكونه أخاه أقوى في المناصحة ، وكونه الأخ الخاصّ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي .

وجملة ﴿ اشْدُدْ به أَزْرِي ﴾ على قراءة الجمهور بصيغة الأمر في فعلي ﴿ اشدد ، وأشرك بيان لجملة اجْعَل لي وَزِيراً ﴾ .

سأل الله أن يجعله معيناً له في أعماله ، وسأله أن يأذن له بأن يكون شريكاً لموسى في أمره ، أي أمر رسالته .

وقرأ ابن عامر بصيغة المتكلم بفتح الهمزة المقطوعة في "اشدُد" وبضم همزة "أشركه" ، فالفعلان إذن مجزومان في جواب الدعاء كما جزم ﴿ يفقهوا قولي .

وهارون ﴾ مفعول أول لفعل ﴿ اجْعَل ﴾ ، قُدم عليه المفعول الثاني للاهتمام .

والشد : الإمساك بقوّة .

والأزر : أصله الظهر .

ولما كان الظهر مجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القُوّة إطلاقاً شائعاً

يساوي الحقيقة فقيل الأزر للقوّة .

وقيل : آزره إذا أعانه وقوّاه .

(230/495)

وسمي الإزار إزاراً لأنّه يشدّ به الظهر ، وهو في الآية مراد به الظهر ليناسب الشدّ ، فيكون الكلام تمثيلاً لهيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظهر بحزام ونحوه وشادّه .

وعلّل موسى عليه السلام سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه ، بأن يسبّحا الله كثيراً ويذكُرَا الله كثيراً .

ووجه ذلك أنّ فيما سأله لنفسه تسهيلاً لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها ، وذلك مظنة تكثيرها .

وأيضاً فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل ، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته ، وذلك يبعث أخاه أيضاً على الدعوة .

ودعوةُ كلّ منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح ، وفي الدعوة حثّ على العمل بوصايا الله تعالى عباده ، وإدخال الأمة في حضرة الإيمان والتّقوى ، وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه .

ألا ترى إلى قوله تعالى بعد هذه الآيات ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تَنِيَا في ذِكري ﴾ [طه : 42] ، أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة ، فلاجرم كان في تحصيل ما دعا به إكثار من تسبيحهما وذكرهما الله .

وأيضاً في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة ، إذ يمكن أن يقتسما العملَ الضروري لحياتهما فيقلّ زَمن اشتغالهما بالضروريات وتوفّر الأوقات لأداء الرسالة .

وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ .

والذي ألجأ موسى إلى سؤال ذلك علمُه بشدّة فرعون وطغيانه ومنعه الأمة من مفارقة ضلالهم ، فعلم أنّ في دعوته فتنة للداعي فسأل الإعانة على الخلاص من تلك الفتنة ليتوفّرا للتسبيح والذكر كثيراً .

وجملة ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ تعليل لسؤاله شرح صدره وما بعده ، أي لأنك تعلم حالي وحال أخي ، وأنّي ما دعوتك بما دعوت إلا لأننا محتاجان لذلك ، وفيه تفويض إلى الله تعالى بأنه أعلم بما فيه صلاحهم ، وأنه ما سأل سؤاله إلاّ بحسب ما بلغ إليه علمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) ﴾

فلماذا أرسله إلى فرعون أولاً ، ولم يرسله إلى قومه ؟ قالوا : لأن فرعون فعل فعلاً فظيعاً ، حيث ادعى الألوهية ، وهي القمة في الاعتداء ، ثم استعبد بني إسرائيل ، فلا بُدَّ أن نُصفِّي الموقف أولاً مع فرعون .

لذلك حدثت معجزة العصا في ثلاثة مواقف .

الأول : وكان لِدُرْبة موسى ورياضته على هذه العملية ، وكانت هذه المرة بين موسى وربه عز وجل تدريباً ، حتى إذا أتى وقت مزاولتها أمام فرعون لم يتهيّب منها أو يتراجع ، بل باشرها بقلب ثابت واثق .

والثاني : كان مع فرعون بمفرده ترويعاً له .

والثالث : مع السَّحَرة تجميعاً .

فكُلُّ موقف من هذه المواقف كان لحكمة وله دور ، وليس في المسألة تكرار كما يدَّعي البعض .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 24] الطغيان : مجاوزة الحدّ ، ومجاوزة الحدِّ يكون بأخْذ ما ليس لك والمبالغة في ذلك ، وليْتَه أخذ من المساوي له من العباد ، إنما أخذ ما

ليس له من صفات الله عز وجل .

ولما سمع موسى اسم فرعون ، تذكَّر ما كان من أمره في مصر ، وأنه تربَّى في بيت هذا الفرعون الذي ادَّعى الألوهية ، فكيف سيواجهه .

كما تذكَّر قصة الرجل الذي وكَزه فقتله ، ثم خرج منها خائفاً يترقب ، فلما شعر موسى أن العبء ثقيل قال : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾

كأنه قال : يا رب أنا سأنفِّذ أوامرك ؛ لكني لا أريد أنْ أُقبل على هذه المهمة وأنا منقبض الصدر منْ ناحيتها ؛ لأن انقباضَ الصدر من الشيء يُهدِر الطاقة ويُبدِّدها ، ويعين الأحداث على النفس .

لذلك دعا موسى بهذا الدعاء : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه : 25] ليوفر قوته لأداء هذه المهمة الصعبة التي تحتاج إلى مجهود يناسبها ، ومعنى ذلك أنه انقبض صدره من لقاء فرعون للأسباب الذي ذُكِرت .

ثم قال : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾

لأن شَرْح الصدر في هذه المسألة لا يكفي ، فشَرْح الصدر من جهة الفاعل ، وقد يجد من القليل لَدَداً شديداً وعناداً ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه : 26] فلا أجد لَدَداً وطغياناً من فرعون ، فتيسير الامر من جهة القابل للفعل بعد شرح الصدر عند الفاعل .

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) ﴾

لأن الكلام وتبليغ الرسالة يحتاج إلى منطق ولسان مُنطِلق بالكلام ، وكان موسى عليه السلام لديه رُتَّة أو حُبْسَة في لسانه ، فلا ينطلق في الكلام .

وكانت هذه الرُّتَّة أيضاً في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع الحسين يضحك ويقول : " ورثها عن عمه موسى " .

وتلحظ دِقَّة التعبير في قوله : ﴿ مِّن لِّسَانِي ﴾ [طه : 27] ولم يقل : احلل عقدة لساني . فقد يُفهم منها أنه مُتمرِّد على قَدَر الله من حُبسة لسانه ، إنما هو لا يعترض ويطلب مجرد جزءٍ من لسانه ، يمكّنه من القيام بمهمته في التبليغ .

﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) ﴾

هذه هي العِلّة في طلبه ، ولولاها ما طلب انطلاقة اللسان . والفقه هو أن يفهموا الكلام والحديث عنه .

ويواصل موسى عليه السلام ما يراه مُعيناً له على أداء مهمته : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ

أَهْلِي ﴾

وزيراً : أي : معيناً وظهيراً . والحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يُخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ [القيامة : 1112] .

أي : لا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله ، فالوزير من (وَزَر) ، ويطلب الوزير حين لا يستطيع صاحب الأمر القيام به بمفرده ، فيحتاج إلى مَنْ يعينه على أمره ، وهو وزير إنْ كان ناصحاً أميناً يُعين صاحبه بصِدْق ، فإنْ كان غاشّاً لئيماً يعمل لصالح نفسه ، فليس بوزير ، بل هو (وِزْر) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [فاطر : 18] .

وفي الحديث النبوي الشريف : " خَيْر الملوك ملك جعل الله له وزيراً ، إنْ نسي ذكَّره ، وإنْ نوى على خير مجرد نيّة أعانه ، وإن أراد شرّاً كفَّه . . . . " .

تلك علامات الوزير الناصح للرعية كما بيَّنتها سياسة السماء ؛ لأن لكل حاكم بطانتين : واحدة تأمر بالمعروف ، وأخرى تأمر بالمنكر كما جاء في الحديث الشريف .

فإنْ كانت هذه هي سياسة السماء ، فماذا عن سياسة البشر ؟

يقول أنوشروان : إياكم أنْ تفهموا أن أحداً مِنّا يستغني عن أحد ، فلكُلِّ واحد مهمته ، فإنْ

زدت في شيء فقد نقصت في أشياء ، جعلها الله في غيرك ليكمل بها نقصك ، فالمعايشة مشتركة ، لكن هذه المشاركة تفرضها الضرورة لا التفضّل ، وإلاَّ لو لم يتفضّل عليك غيرك فماذا تفعل ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لحاجة الناس بعضهم لبعض ، قلنا : ماذا يحدث لو امتنع رجال الصرف الصحي أو الكناسون عن العمل لعدة أيام ؟ أما لو غاب الوزراء لعدة أيام فلن يحدث شيء .

إذن : لا تظن أنك أفضل من الآخرين ؛ لأن لكل منهم مهمة يؤديها ، فإنْ كنتَ خيراً منه في هذه فهو خير منك في هذه ؛ لأن مجموع مواهب كل إنسان يساوي مجموع مواهب الآخر ، فإنْ قلتَ : فلماذا وُجِد التفاوت بين الناس ؟

قالوا : لتكون هناك ضرورة في حاجة بعضنا لبعض ، فلو تساوى الجميع لقلنا لجماعة منا : تفضّلوا بكنس الشوارع يوم كذا فلن يتفضلوا ، أما إنْ ألجأتْهم الحاجة إلى مثل هذا العمل فسوف يسارعون إليه ، كما نرى الآن في أشقّ المهن وأصعب المهام التي ينفر منها الناس بل ويحتقرونها ترى صاحبها مُقبلاً عليها حريصاً على القيام بها ، رغم ما فيها من مشقّة ، بل ويغضب إنْ لم يجد فرصة للعمل ، لماذا ؟ لأنه مصدر قُوته وقُوت عياله .

وبهذه النظرة لا يتعالى أحد أو يستكبر ليحدث في المجتمع توازن استطراقي .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِي ﴾ [طه : 29] أي : ليكون مأموناً عليَّ .

وهذا المطلب من موسى عليه السلام يشير لأدب عال من آداب النبوة ، وقد اختار الله موسى للرسالة ، فلماذا يشرك معه أخاه في هذه المهمة ؟ إذن : موسى لا يريد أنْ يفخَر بالرسالة ، أو يتعالى بها ، أو يطغى ، إنما يريد أن يقوم بها على أكمل وجه ؛ لذلك يحاول أنْ يُكمل ما فيه من نقص بأخيه ليُعينه على تبليغ رسالته ، ولو أراد الاستئثار بالرسالة ما طلب هذا الطلب .

وهذا نموذج يجب أنْ يُحتذَى ، فإنْ كُلِّفت بأمر فوق طاقتك فلا غبارَ عليك أن تستعين عليه بغيرك ، فهذا دليل على إخلاصك للمهمة التي كُلِّفت بها .

﴿ هَارُونَ أَخِي (30) ﴾

فاختار أخاه هارون ليعينه في مهمة الرسالة .

ثم أوضح العِلّةَ في ذلك ، فقال في آية آخرى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص : 34] .

وهكذا يتكامل موسى وهارون ويُعوّض كل منهم النقص في أخيه . ويُقال : إن هارون عليه السلام كان يمتاز على موسى في أمور آخرى ، فكان به لِينٌ وحِلْم ، وكان موسى حاداً

سريع الغضب ، فكان هارون للّين ، وموسى للشدة .

ويتضح هذا حينما عاد موسى إلى قومه ، وقد تركهم في صُحْبَة أخيه هارون فعبدوا العجل فاشتد غضبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ [الأعراف : 150] .

ثم احتدّ على أخيه ، وجذبه من ذَقْنه ، وظهرتْ حِدَّته . وقَسْوته ، فماذا قال هارون ؟ ﴿ قَالَ ابن أُمَّ ﴾ [الأعراف : 150] ليستعطفه ويُذكِّره برأفة الأم وحنانها ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94] ، كأنه يقول لأخيه : اضربني كما تريد ، لكن لا تروعني في لحيتي ، وفي رأسي .

(235/495)

إذن : فالفصاحة في هارون تجبر العُقدة في لسان موسى ، واللين يجبر الشدة والحدة .

وأيضاً فإن موسى عليه السلام كان أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أما هارون فكان أبيض اللون ، مُرْسَل الشعر ، وسيم التقاطيع والملامح ، ترتاح له الأبصار ، فمَنْ لم يرتَحْ لموسى ارتاح لهارون .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن ينزل الوحي عليه في صورة دِحْيَة الكلبي ،

وكان رضي الله عنه وسيماً ، ترتاح له العين لرؤيته ، فكان جبريل عليه السلام ينزل عليه في هذه الصورة لِيُؤنسه .

وموسى عليه السلام مع ما تميَّز به أخوه هارون عليه من هذه الصفات لم يحقد على أخيه ، ولم ينظر إليه على أنه أفضل منه ، إنما جعل صفات أخيه مكملة لصفاته ، والجميع من أجل أداء الرسالة وتبليغها على وجهها الأكمل ، فلم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو ، وإنما إلى نجاح المهمة التي كلّفه الله بها .

ويجب أنْ يشيعَ هذا الخُلق بين الناس ، فإنْ رأيت خَصْلةَ خَيْر في غيرك ، أو وجهاً من وجوه الكمال في غيرك ، فاحمد الله عليها ، واعلم أنها سيعود عليك نفعها ، وستجبر ما عندك من نقص فلا تحقد عليه ؛ لأنه سيتحمل ما فيك من قصور ، وتنتفع أنت بخيره .

ثم يقول الحق سبحانه أن موسى عليه السلام قال : ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾

الأَزْر : القوة . وكأن موسى عليه السلام عرف أن حَمْل الرسالة إلى فرعون وإلى قومه من بعده عملية شاقة ، فقال لله : أعطني أخي يساعدني في هذه المشقة .

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) ﴾

قوله : (وَأَشْرِكْهُ) أي : أنت يا ربّ ، ليس أنا الذي أشركه تفضُّلاً مني عليه ، فأراد موسى عليه السلام أن يكون الفضل من الله ، وأن يكون التكليف أيضاً من الله حتى لا يعترض هارون أو يتضجر عند مباشرة أمر الدعوة .

لذلك لما ذَهَبا إلى فرعون قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] ولم يقُلْ موسى : إن هارون تابع له بل هو مثله تماماً مُرْسَل من الله ، وإذا تكلَّم موسى تكلَّم عنه وعن هارون .

فلما دعا موسى على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

جاءت الإجابة من الله : ﴿ قَالَ قَدْ أُجيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : 89] ؛ لأن الدعاء كان من موسى ، وهارون يُؤمِّن عليه ، والمؤمِّن أحد الداعيَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه عن هارون وموسى أنهما قالا : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾

فهذه هي العِلّة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته ، لا طلباً لراحة نفسه ، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله ، وتسبيحه وذِكْره .

والتسبيح : تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً . فلا ذات مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] لا في الذات ، ولا في الصفات ولا في الأفعال ، فلا تقل : إن سَمْع الله كسَمْعك ، أو أن بصره تعالى كبصرك ، أو أن فِعْله كفِعْلك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يرفعك إلى مستوى الألوهية الثابتة لك ، فلا نزيد

شيئاً من عندنا .

وقوله : ﴿ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ [طه : 33] أي : دائماً ، فكأن التسبيح يُورِث المسبِّح لذة في نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذة في نفسه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " . . وجُعِلتْ قرّة عيني في الصلاة " .

وكان صلى الله عليه وسلم " إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة " .

﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) ﴾

فأنت قيّوم علينا ، مُطلع على أفعالنا ، أنؤدّيها على الوجه الأكمل ، أم نُقصِّر فيها ؟

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي

﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) (طه : 24-36) ، وفي سورة الشعراء : (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) (الشعراء : 10-14) ، وفي سورة القصص : (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ

(238/495)

يَقْتُلُونِ ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) (القصص : 32-35) إلى قوله : (وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) (القصص : 35) . للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي من قول موسى ، عليه السلام ، حين بعث إلى فرعون مع اتحاد القضية في السور الثلاث وقد وقع في كل سورة منها ما ليس

في الأخرى ، فيسأل عن هذا ؟ وعن وجه اختصاص كل سورة بما ورد فيها ؟

والجواب عن السؤال الأول : أن قول موسى ، عليه السلام ، لا توقف في أنه لم ترد حكايته إلا بالمعنى لاختلاف اللسانين كما تقدم ، وإذا تقرر كونها بالمعنى ، والترادف فيما بين اللغتين في كل لفظتين يراد بهما معنى واحد غير مطرد ، فلا إشكال في أن المعنى قد يتوقف حصوله على الكمال على تعبيرين أو أكثر ، لا سيما مع ما في اللسان العربي من الاشتراك والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز وغير ذلك من عوارض الألفاظ ، فكيف ينكر اختلاف التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ وعبارات مختلفة ، بل نقول إنه لو كان المحكي قولاً عربياً وحكي بالمعنى لما استنكر اختلاف العبارة ، فكيف مع اختلاف اللسانين ؟ والحاصل من قول موسى ، عليه السلام ، في هذه السور الثلاث سؤاله ربه شرح صدره وتيسير أمره وإطلاق لسانه وتشكيه منه والتعاون بأخيه هارون ، عليهما السلام ، وخوفه أن يكذب وذكره ما تقدم منه من قتل القبطي ، على هذه القضيات السبع دار المحكي من كلامه ، عليه السلام ، وقد يرد في سورة منها بعض ذلك مما ليس في الأخرى ، ولم يتعارض شيء من ذلك ، فارتفع الإشكال المتوهم جملة .

والجواب عن السؤال الثاني : أن الوارد في سورة طه من قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (طه : 25) إلى أن قيل له : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (طه : 36) مناسب لما بينت عليه السورة من التأنيس والبشارة لنبينا صلى الله عليه وسلم من لدن افتتاحها بقوله : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (طه : 2) إلى ختامها بقوله لنبيه عليه السلام : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ (طه : 132) وقوله تهديداً ووعيداً لأعداء نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا . . . ﴾ (طه : 135) ، ولا توقف في بيان هذا التناسب .

وأما سورة الشعراء وسورة القصص فإنما بناؤها على قصص موسى عليه السلام ، أما الشعراء فمبينة على ابتداء الرسالة ودعائه فرعون ومراجعة إياه إلى نجاة بني إسرائيل وإغراق فرعون ، وأما سورة القصص فمبينة على ابتداء امتحان بني إسرائيل بذبح الأبناء واستحياء النساء للخدمة والمهنة ، وتخليص موسى ، عليه السلام ، من ذلك ، وتكفل الله سبحانه من ابتداء ونشأة ، إلى توجهه إلى مدين ورجوعه من عند شعيب ، عليهما السلام ، إلى ما تخلل ذلك وما أعقبت به ، إلى أخذ فرعون وهلاكه ، ولما كانت سورة الشعراء مذكوراً فيها قصص الرسل مع أممهم ابتداء واختتاماً فيما يخص حال الرسالة ، إلى أخذ كل طائفة بما أخذت به ، خصت من قصص موسى ، عليه السلام ، بما يلائم دعاء ومحاورة ، إلى أخذ فرعون وملئه .

ولما كان قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (القصص : 3) تأنيساً وتنبيهاً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود : 120) ، وفي آخر السورة الإفصاح من هذا التأنيس برجوعه إلى مكة بعد أن أخرج عنها ، عليها السلام ، مهاجراً لأجل قومه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص : 85) ، ناسب ذلك من قصص موسى ، عليه السلام ، خروجه إلى مدين ورجوعه إلى مصر ، فتناسب هذا أكمل مناسبة في السور الثلاث ، (وإذا عتبر ذلك علم أنه لا يناسب كل سورة من الثلاث) إلا ما خصت به ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 336 . 338 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

لا يخفى أنه من سؤل موسى الذي قال له ربه أنه آتاه إياه بقوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ وذلك صريح في حل العقدة من لسانه, وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على بقاء شيء من الذي كان بلسانه كقوله تعالى عن فرعون: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ .

وقوله تعالى عن موسى: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ﴾ . الآية .

والجواب أن موسى – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لم يسأل زوال ما كان بلسانه بالكلية وإنما سأل زوال القدر المانع من أن يفقهوا قوله كما يدل عليه قوله: ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ ما نصه: وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال, ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ولهذا بقيت بقية, قال تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي يفصح بالكلام .

قال الحسن البصري: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ قال: " حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطى " وقال ابن عباس: " شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون ردءا له ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فأتاه سؤله فحل عقدة من لسانه"، وقال ابن أبي حاتم: "ذكر عن عمر بن عثمان حدثنا بقية عن أرطأة بن المنذر حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب عنه قال: أتاه ذو قرابة له فقال له: ما بك بأس لو لا أنك تلحن في كلامك ولست تعرب في قراءتك فقال القرظي: يا ابن أخي ألست أفهمك إذا حدثتك؟ قال نعم، قال: فإن موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل قوله ولم يزد عليها " .

انتهى كلام ابن كثير بلفظه وقد نقل فيه عن الحسن البصري وابن عباس ومحمد بن كعب القرظي ما ذكرنا من الجواب ويمكن أن يجاب أيضا بأن فرعون كذب عليه في قوله: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ كما كذب على الله في إدعاء الربوبية وأن قوله: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ يدل على اشتراكه مع هارون في الفصاحة فكلاهما فصيح إلا أن هارون أفصح وعليه فلا

إشكال والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 198. 200 ﴾

(243/495)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) ﴾

قوله: ﴿ لِي صَدْرِي ﴾: " لي " متعلق ب " اشرح ". قال الزمخشريُّ: " فإنْ قلت: " لي " في قوله: ﴿ اشرح لي صَدْرِي ويَسِّرْ لي أَمْرِي ﴾ ما جدواه والأمرُ مستتبٌّ بدونه؟ قلت: قد أبهم الكلامَ أولاً فقال: اشرح لي ويسِّر لي، فعُلِمَ أنَّ ثَمَّ مشروحاً ومُيَسَّراً، ثم بَيَّن ورفع الإِبهامَ بذكرِهما فكان آكدَ لطلبِ الشرحِ لصدرِه والتيسير لأمره ".

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) ﴾

ويقال: يَسَّرْتُه لكذا، ومنه ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ [الليل: 7] ويَسَّرْتُ له كذا، ومنه هذه الآيةُ.

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) ﴾

قوله : ﴿ مِّن لِّسَانِي ﴾ : يجوز أَنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل " عُقْدَةً " أي : مِنْ عُقَدِ لساني . ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَه . ويجوز أن يتعلَّقَ بنفسِ " احلُلْ " والأولُ أحسنُ .

قوله : ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " لي " مفعولاً ثانياً مقدماً ، و" وزيراً " هو المفعولُ الأول . و" مِنْ أهلي " على هذا يجوز أَنْ يكونَ صفةً ل " وزيراً " . ويجوز أن يكونَ متعلِّقاً بالجَعْل .

و" هارونَ " بدلٌ مِنْ " وزيراً " . وجَوَّز أبو البقاء أن يكونَ " هارونَ " عطفَ بيانٍ ل " وزيراً " . ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَه . ولَمَّا حكى الشيخُ هذا لم يُعْقِبْه بنكير ، وهو عجيبٌ منه ؛ فإنَّ عطفَ البيانِ يُشترط فيه التوافقُ تعريفاً وتنكيراً ، وقد عَرَفْتَ أنَّ " وزيراً " نكرةٌ و" هارونَ " معرفة ، والزمخشري قد تقدَّم له مثلُ ذلك في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران : 97] وقد تقدم الكلام معه هناك وهو عائد هنا .

ويجوز أَنْ يكونَ " هارونَ " منصوباً بفعلٍ محذوف كأنه قال : أَخصُّ من بينهم هارون أي : مِنْ بينِ أهلي . ويجوز أَنْ يكونَ " وزيراً " مفعولاً ثانياً ، و" هارونَ " هو الأول ، وقَدَّم الثاني

عليه اعتناءً بأَمْرِ الوِزارة . وعلى هذا فقوله " لي " يجوز أن يتعلَّق بنفسِ الجَعْل ، وأَنْ يتعلقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " وزيراً " ؛ إذ هو في الأصل صفةٌ له . و" مِنْ أهلي " على ما تقدَّم من وَجْهَيْه . ويجوز أن يكون " وزيراً " مفعولاً أولَ ، و" مِنْ أهلي " هو الثاني . وقوله " لي " مثلُ قولِه ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] يَعْنُون أنه به يتمُّ المعنى ، ذكر ذلك أبو البقاء . ولَمَّا حكاه الشيخ لم يتعقبه بنكير ، وهو عجيب ؛ لأنَّ شرطَ المفعولَيْن في باب النواسخ صحةُ انعقادِ الجملة الاسمية ، وأنت لو ابتَدَأْتَ ب " وزير " وأخبرْتَ عنه ب " من أهلي " لم يَجُزْ إذ لا مُسَوِّغ للابتداءِ به .

و" أخي " بدلٌ أو عطفُ بيانٍ ل " هارونَ " . وقال الزمخشري : " وإنْ جُعِل عطفَ بيانٍ آخرَ جاز وحَسُنَ . قال الشيخ : " ويَبْعُدُ فيه عطفُ البيان ؛ لأنَّ عطفَ البيان الأكثرُ فيه أن يكونَ الأولُ دونَه في الشُّهرة وهذا بالعكس " . قلت : لم يُرِدْ الزمخشري أنَّ " أخي " عطفُ بيانٍ ل " هارون " حتى يقول الشيخ إن الأولَ وهو " هارون " أشهرُ من الثاني وهو " أخي " ، إنما عَنَى الزمخشريُّ أنه عطفُ بيانٍ أيضاً ل " وزيراً " ولذلك قال : " آخَر " . ولا بُدَّ من الإِتيان بلفظِه ليُعْرَفَ أنه لم يُرِدْ إلاَّ ما ذكرتُه قال : " وزيراً وهارونَ مفعولا قولِه " اجعَلْ " ، أو " لي وزيراً " مفعولاه ، و" هارونَ " عطفُ بيانٍ للوزير ، و" أخي " في الوجهين بدلٌ من " هارون " ، وإن جُعل عطفَ بيانٍ آخرَ جاز وحَسُنَ " .

فقوله " آخر " تعيَّنَ أن يكونَ عطفَ بيانٍ لما جعله عنه عطف بيان قبل ذلك .

وجوَّز الزمخشري في " أخي " أن يرتفعَ بالابتداء ، ويكونَ خبرُه الجملةَ مِنْ قوله : " اشْدُدْ به " ، وذلك على قراءةِ الجمهور له بصيغة الدعاء ، وعلى هذا فالوقفُ على " هارونَ " .

وقرأ ابن عامر " أَشْدُدْ " بفتح الهمزة للمضارعة وجزمِ الفعل جواباً للأمر ، " وأُشْرِكْهُ " بضم الهمزة للمضارعة وجزمِ الفعل نَسَقاً على ما قبله . وقرأ الباقون بحذف همزة الوصل من الأول ، وفتحِ همزة القطع في الثاني ، على أنهما دعاءٌ من موسى لربِّه بذلك . وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة قد تُرِكَ فيها العطفُ خاصةً دونَ ما تقدَّمَها مِنْ جمل الدعاء .

وقرأ الحسنُ " أُشَدِّدُ " مضارعَ شَدَّد بالتشديد .

والوزير : قيل : مشتقٌّ من الوِزْر وهو الثِّقَل . وسُمِّي بذلك لأنه يَحْمل أعباءَ المُلْكِ ومُؤَنَه فهو مُعِيْنٌ على أمر/ الملك ويأتَمُّ بأمره . وقيل : بل هو من الوَزَرِ وهو الملجأُ ، كقوله تعالى : { لاَ وَزَرَ } [القيامة : 11] وقال :

3287 من السِّباعِ الضَّواري دونَه وَزَرٌ . . . والناسُ شَرُّهُمُ ما دونَه وَزَرُ

كم مَعْشَرٍ سَلِموا لم يُؤْذِهِمْ سَبُعٌ . . . وما نرى بَشَراً لم يُؤْذِهِمْ بَشَرُ

وقيل : من المُؤَازَرَة وهي المعاونة . نقله الزمخشري عن الأصمعي قال : " وكان القياسُ أَزيراً " يعني بالهمزة ؛ لأنَّ المادةَ كذلك . قال الزمخشريُّ : " فَقُلِبَت الهمزةُ إلى الواو ووجهُ قَلْبها إليها أنَّ فَعيلاً جاء بمعنى مُفاعِل مجيئاً صالحاً كقولهم : عَشِير وجَلِيس وخليط وصديق وخليل ونديم ، فلمَّا قُلِبت في أخيه قُلِبَتْ فيه ، وحَمْلُ الشيءِ على نظيره ليس بعزيزٍ ، ونظراً إلى يُوازِرُ وأخواتِه وإلى المُوَازَرة " .

(246/495)

قلت : يعني أنَّ وزيراً بمعنى مُوازِر ، ومُوازِر تقلب فيه الهمزةُ واواً قلباً قياسياً ؛ لأنها همزةُ مفتوحةٌ بعد ضمه فهو نظيرُ " مُوَجَّل " و"يُوَاخذكم " وشبهِه ، فحُمِل " أزير " عليه في القلب ، وإن لم يكنْ فيه سببُ القلبِ .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) ﴾

قوله : ﴿ كَثِيراً ﴾ : نعتٌ لمصدر محذوف أو حالٌ من ضمير المصدر ، كما هو رأيُ سيبويه . وجوَّز أبو البقاء أن يكون نعتاً لزمانٍ محذوفٍ أي : زماناً كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 30 . 34 ﴾

(247/495)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) ﴾

بعد ما أسمعه كلامه من غير واسطة ، وشرَّفَ مقامه ، وأَجْزَل إكرامه أَمَرَه بالذهاب ليدعوَ فرعونَ إلى الله - مع عِلْمِه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يَعْرِف - فشَقَّ على موسى ذهابُه إلى فرعون ، وسماعُ جُحدِه منه ، بعد ما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه آثر أَمْرَ محنته على مرادِ نفسه .

ويقال لَمَّا أَمَرَه بالذهاب إلى فرعونَ سأل اللَّهَ أُهْبَةَ النَّقْلِ وما به يتمُّ تبليغ ما حمل من الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) ﴾

لِيُعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التكليفِ التَّمكُّنَ مِنْ اداءِ المأمور به .

ويقال إن موسى لما أَخذَ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو :

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى . . . . ﴾ وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .

قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ : حتى أُطِيقَ أَنْ أَسمعَ كلامَ غيرك بعد ما سَمِعْتُ منك ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِسَانِى ﴾ : حتى ينطلقَ بمخاطبة غيرك ، وقَوِّني

حتى أردَّ . . . بكَ لا بي .

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) ﴾

سأل أنْ يَصْحَبَ أخاه معه ، ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : 143] كان بمفرده ، لأن الذهاب إلى الخَلْق يوجب الوحشة ؛ فَطَلَبَ من أخيه الصحبة لِيُخَفِّفَ عليه كلفة المشقة .

ويقال إن المحبة توجِب التجرُّدَ والانفراد وألا يكونَ للغيرِ مع المحبِّ مساغ ؛ ففي ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه ، ولمَّا كان الذهابُ إلى الميقاتِ لم يكن للغيرِ سبيلٌ إلى صحبته ، إذ كان المقصود من ذهابِه أن يكونَ مخصوصاً بحاله .

(248/495)

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) ﴾

بين أن طَلَبَه مُشاركةَ أخيه له بحقِّ ربه لا بحظِّ نَفْسِه حيث قال : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 453 . 454 ﴾

(249/495)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

(250/495)

التفسير : في ﴿ طه ﴾ قولان للمفسرين : أحدهما أنه من حروف التهجي وقد سلف البحث في أمثالها ، والذي زادوه ههنا أمور منها : قول الثعلبي : الطاء شجرة طوبى ، والهاء الهاوية وكأنه أقسم بالجنة والنار . ومنها ما روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن الطاء طهارة أهل الدين والهاء هدايتهم . وقيل : أراد يا طاهراً من الذنوب ويا هادياً إلى علام الغيوب . ومنها قول سعيد بن جبير هو افتتاح باسمه الطيب الطاهر الهادي . قيل : الطاء تسعة في الحساب والهاء خمسة ومعناه : يا أيها البدر . القول الثاني أنها كلمة مفيدة ومعناها يا رجل . مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن يبر وقتادة وعكرمة والكلبي . ثم قال سعيد بن جبير بلسان القبطية : وقال قتادة بلسان اليونانية والسريانية . وقال عكرمة بلسان الحبشة . وقال الكلبي بلسان عك وهو عك ابن عدنان أخو معد وهو

اليوم في اليمن . وعن الحسن أن طه أمر وأصله طأ أمراً بالوطء فقلبت الهمزة هاء وذلك لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معاً ، ويؤكده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم بالليل حتى اسمعدّت قدماه – أي تورمتا – فقال له جبرائيل : أرفق على نفسك فإن لها عليك حقاً ونزلت ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ أي تتعب بالعبادة ولكنك بعثت بالحنيفية السهلة . وعند الأكثرين معنى ﴿ لتشقى ﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وتحسرك على أن يؤمنوا . والشقاء يجيء بمعنى التعب ومنه المثل "أشقى من رائض مهر وأتعب" . وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له : إن كل شقي لأنك تركت دين آبائك فرد الله عليهم بأن القرآن هو السبب في نيل كل سعادة . قال جار الله : إن جعلت ﴿ طه ﴾ تعديد الأسماء الحروف فقوله ﴿ ما أنزلنا ﴾ ابتداء الكلام ، وإن جعلته اسماً للسورة فمبتدأ وما بعده خبر وقد أقيم الظاهر – وهو القرآن – مقام الضمير الرابط ، وإن جعلته قسماً فما يتلوه جواب وكل واحد

من ﴿ لتشقى ﴾ و ﴿ تذكرة ﴾ علة للفعل إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس فعلاً لفاعل الفعل المعلل والثاني جاز قطع اللام عنه لوجود الشرط. ولا يجوز أن يكون ﴿ تذكرة ﴾ بدلاً من محل ﴿ لتشقى ﴾ لاختلاف الجنسين، فإن التذكرة لا يمكن أن تحمل على الشقاء ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي فيه "إلا" بمعنى "لكن". وفي قوله ﴿ لتشقى ﴾ و ﴿ إلا تذكرة ﴾ وجه آخر وهو أنه ما أنزلنا عليك القرآن لتتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة أي ما أنزلنا عليك هذا التعب الشاق إلا لهذا الغرض كما يقال: ما شافهناك بذلك الكلام لتتأذى إلا ليعتبر بك غيرك.

فانتصب ﴿ تذكرةً ﴾ على أنه حال أو مفعول له، وإذا كانت حالاً جاز أن يكون ﴿ تنزيلاً ﴾ بدلاً منها، وإذا كانت مفعولاً لأجله لم يجز أن يكون ﴿ تنزيلاً ﴾ بدلاً منها لأن الشيء لا يعلل بنفسه، فالإنزال لا يعلل بالتنزيل في الظاهر. ويجوز أن ينتصب ﴿ تنزيلاً ﴾ بمضمر أي نزل تنزيلاً أو بأنزلنا لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرةً أنزلناه تذكرةً، أو على المدح والاختصاص، أبو ب ﴿ يخشى ﴾ مفعولاً به أي أنزله الله تذكرةً لمن يخشى تنزيل الله عز وجلّ أي لمن يؤل أمره إلى الخشية لأنه هو المنتفع به. ومعنى كون القرآن تذكرةً أنه صلى الله عليه وسلم كان يعظهم به وببيانه. ﴿ ممن خلق ﴾ متعلق ﴿ بتنزيلاً ﴾ فيكون الظرف لغواً أو بكائناً صفة له فيكون مستقراً. وفائدة الانتقال إلى الغيبة من لفظ المتكلم حين لم يقل تنزيلاً منا أمور منها: الافتنان في الكلام على عادتهم. ومنها تنسيق الصفات مع لفظ

الغيبة. ومنها التفخيم بالإسناد أولاً إلى ضمير المتكلم المطاع في ﴿ أنزلناه ﴾ ثم إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد . وقيل : أنزلنا حكاية كلام جبرائيل فلا التفات .

(252/495)

و ﴿ العلى ﴾ جمع العليا تأنيث الأعلى وفي وصف السموات بها دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها . ويحصل منه تعظيم شأن القرآن بالضرورة فعلى قدر المرسل يكون حال الرسالة. ومنه قول الحكماء : عقول الرجال تحت لسان أقلامهم. وارتفع ﴿ الرحمن ﴾ على المدح على تقدير هو الرحمن ، أو هو مبتدأ مشار بلامه إلى من خلق. والبحث في الاستواء على العرش من جانبي المشبهة والموحدة قد مر مشبعاً في " الأنعام " في قوله ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : 18] وفي الأعراف في قوله ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات ﴾ [الآية : 54] فلا حاجة إلى الإعادة. ثم أكد كمال ملكه وملكه بقوله ﴿ له ما في السموات ﴾ الآية. عن محمد بن كعب : أن ما تحت الثرى هو ما تحت سبع الأرضين. وعن السدي : هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة. وقيل : الثور أو الحوت. والتحقيق أن الثرى هو التراب الندى وهو ما جاوز البحر من جرم الأرض ، فالذي تحته هو ما بقي من جرم الأرض إلى المركز فيحتمل أن يكون هناك أشياء لا يعلمها

إلا الله سبحانه من المعادن وغيرها ، ولا ريب أن الكل لله سبحانه . ثم بيّن كمال علمه بقوله ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ فالسر ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك ما أخطرته ببالك ، أو السر هذا وأخفى منه ما استسره . وقيل : أخفى فعل ماضٍ أي يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلم هو .

قلت : هذا المعنى صحيح لأنه تعالى محيط بجميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء قط ولا يحيط به شيء من الأشياء فلا يطلع على غيوبه أحد ، إلا أن اللفظ يحصل فيه بشاعة إذا حمل على هذا التفسير فلهذا قال صاحب الكشاف : وليس بذلك وكيف طابق الجزاء الشرط . وأجيب بأن معناه إن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك . فإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ [الأعراف : 205] وإما أن يكون تعليماً للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر كأن يقتدي غيره به . ومن فوائد الآية زجر المكلف عن القبائح – ظاهرة كانت أو باطنة – وترغيبه في الطاعات – ظاهرة وباطنة – وقد شرحنا شمة من حقيقة علمه تعالى في تفسيره قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة : 31] وفي غير ذلك من المواضع المناسبة ، فلنقتصر الآن على

ذلك . ثم ذكر أن الموصوف بالقدرة والعلم على الوجه المذكور لا شريك له وهو الذي يستحق العبادة دون غيره . واعلم أن مراتب التوحيد أربع : الإقرار باللسان ، ثم الاعتقاد بالقلب ، ثم تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة ، ثم الاستغراق في بحر المعرفة بحيث لا يدور في خاطره سوى الأحد الصمد . والأول بدون الثاني نفاق ، والثاني بدون الأول غير مفيد إلا إذا لم يجد مهلة كما إذا نظر وعرف فمات . ويروى أن ملك الموت مكتوب في جبهته "لا إله إلا الله" حتى إذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك ويؤيده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال "يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان" والإقرار بدون الثالث إيمان المقلد وفيه خلاف مشهور والأصح أنه مقبول ، وأما المقام الرابع فهو مقام الصديقين والخاصة من عباد الله ، ومبتداه تفريق ونقص وترك ورفض على ما قرره المحققون ، وآخره الفناء في الله والبقاء به .

قال النحويون : لا إله إلا الله تقديره لا إله في الوجود إلا الله . وقال أهل العرفان : معناه لا إله في الإمكان إلا الله . روي أن موسى بن عمران قال : يا رب علمني شيئاً أذكرك به . فقال : قل لا إله إلا الله . فقال : كل عبادك يقول . فقال : قل لا إله إلا الله . قال إنما أردت شيئاً

تخصني به . قال : يا موسى لو أن السموات السبع ومن فوقهم في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن "لا إله إلا الله" . والبحث عن أسماء الله تعالى قد سلف في تفسير البسملة ، وعن أسمائه الحسنى قد مر في "الأعراف" في قوله ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام : كامل لا يحتمل الزيادة والنقصان وهو الله تقدس وتعالى ، وناقص لا يحتمل الكمال سوى الصورة الكمالية التي جبل عليها كصغيرة الإنسان من المخلوقات وناقص يتقلب بين الأمرين فتارةً يصعد إلى حيث يخبر عنه بأنه

﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ [القمر : 55] وتارةً يتسفل إلى أن يقال له ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : 5] والكمال بالحقيقة لما ليس معرض الزوال فلا كمال في الصحة والجاه والمال وإنما الكمال في الانتساب إلى الكبير المتعال ، وهو تحقيق نسبة العبدية المنبئة عن عزة الربوبية ، وكل منتسب إلى بلد أو قبيلة فإنه يبالغ في مدحها حتى يلزم مدحه بالعرض فيجب على المكلف أن يذكر ربه بالأسماء الحسنى حتى يثبت بذلك شرفه ويحسن ذكره . إلهنا حسن الاسم دليل حسن المسمى ، وحسن المسمى يدل على أنه لا يفعل القبيح ولا يزال مواظباً على الإحسان كما قيل :

يا حسن الوجه توق الخنا . . . لا تخلطن الزين بالشين

فيا حسن الأسماء والصفات لا تردّنا عن خوان إحسانك محرومين. ذكر أن صياداً اصطاد سمكةً وكانت له بنت فأخذتها وألقتها في البحر وقالت: إنها ما وقعت في الشبكة إلا لغفلتها. إلهنا تلك المرأة رحمت سمكة بسبب غفلتها ونحن قد اصطادنا إبليس وأخرجنا من بحر رحمتك لغفلتنا فردّنا إلى مقرنا وأنت أرحم الراحمين. عن محمد بن كعب القرظي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أيّ خلق أكرم عليك؟ قال: الذي لا يزال لسانه رطباً من ذكري. قال: أيّ خلقك أعلم؟ قال: الذي يلتمس علماً إلى علمه. قال: وأيّ خلقك أعدل؟ قال: الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس. قال: وأيّ خلقك أعظم جرماً؟ قال: الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قضيته له. إلهنا إنا نتهمك فإنا نعلم أن كل ما أحسنت فهو فضل، وكل ما لا تفعله بنا من الإحسان فهو عدل، فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا. وعن الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: سيعلم الجمع من أهل الكرم، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس. ثم يقال: أين الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله؟ ثم ينادي أين الحمادون لله على كل حال؟ ثم تكون التبعة والحساب على من بقي. إلهي فنحن حمدناك واثنينا عليك بمقدار قدرتنا وطاقتنا، فاعف عنا بفضلك وحسن أسمائك. وحين عظم شأن القرآن وبيّن حال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كلف من أعباء الرسالة قفاه بقصة موسى

تثبيتاً وتقوية وتسلية.

قال الكلبي: معنى ﴿ وهل أتاك ﴾ أي لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له. ويقول المرء لصاحبه: هل بلغك خبر كذا ليتطلع السامع لما يومي إليه. وعن مقاتل والضحاك عن ابن عباس أن المراد منه تقرر الخبر في قلبه أي قد أتاك ذلك في الزمان المتقدم.

(256/495)

" وإذ " ظرف للحديث لأنه حدث، أو المراد اذكر وقت كذا ومظروفه محذوف أي حين رأى ناراً كان كيت وكيت. قال أهل السير: استأذن موسى شعيباً عليهما السلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله وولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده، فرأى ناراً من يسار الطريق من بعيد. قال السدي: ظن أنها من نيران الرعاة. وقال الآخرون: إنه رآها في شجرة. واختلفوا أيضاً في أن الذي رآه كان ناراً أم لا. قالوا: والصحيح أنه كان ناراً ليكون صادقاً في خبره إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء. ويمكن أن يقال: إطلاق اللفظ على ما يشبه مسماه ليس بكذب. قيل: النار أربعة أقسام: نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا، ونار تشرب ولا تأكل وهو نار الشجر ﴿ جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ [يس:

80] ونار تأكل وتشرب وهي نار موسى عليه السلام. وبعبارة أخرى نور بلا حرقة وهي نار موسى، وحرقة بلا نور وهي نار جهنم، وحرقة ونور وهي نار الدنيا، ولا حرقة ولا نور وهي نار الأشجار. ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ إنما جمع لأن أهله جمع وهم المرأة والخادم والولد. ويجوز أن يخاطب المرأة وحدها ولكن أخرج الخطاب على ظاهر لفظ الأهل فإنه اسم جمع. وأيضاً فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيماً أي أقيموا في مكانكم فقد ﴿ آنست ناراً ﴾ أي أبصرت إبصاراً لا شبهة فيه أو إبصاراً يؤنس به. والتركيب يدل على الظهور، ومن ذلك إنسان العين لأنه يظهر الأشياء، ومنه الإنس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم، ومنه الأنس ضد الوحشة لظهور المطلوب وهو المأنوس به. قال جار الله: لما وجد الإيناس وكان مقطوعاً متيقناً حققه لهم بكلمة "إن" ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين بنى الأمر فيهما على الرجاء دون الجزم قائلاً ﴿ لعلي آتيكم ﴾ قال المحققون: فيه دلالة على أن إبراهيم عليه السلام لم يكذب ألبتة

لأن موسى قبل نبوته احترز عن الكذب المظنون فلم يقل "إني آتيكم" لئلا يعد ما لم يستيقن الوفاء به ، فإبراهيم وهو أبو الأنبياء أولى بالاحتراز من الكذب الصريح . والقبس النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة ونحوهما . ﴿ وهدى ﴾ على حذف المضاف أي ذوي هدى ، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى . والظاهر أنه أراد قوماً يهدونني الطريق . وعن مجاهد وقتادة : قوماً ينفعونني بهداهم في أبواب الدين ، وذلك أن همم الأبرار معقودة في جميع أحوالهم بالأمور الدينية لا يشغلهم عنها شاغلٌ . ومعنى الاستعلاء في على النار وهو مفعول ثانٍ لأجد ، أو حال من ذوي هدى أن أهل النار يشغلون المكان القريب منها أو المصطلون بها كفنوها قياماً وقعوداً فهم مشرفون عليها وإن كان المكانان مستويين .

﴿ فلما أتاها ﴾ أي أتى النار . قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد ، وسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً فخاف وبهت فألقيت عليه السكينة ، ثم نودي وكانت الشجرة عوسجة . وقال وهب : ظن موسى أنها أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ، ثم لم يزل تطمعه ويطمع فيها ، ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ، ثم رمى

موسى بنظره إلى فرعها فإذا خضرته ساطعة في السماء ، وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكل عنه الأبصار ، فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودي ﴿ يا موسى ﴾ من قرأ ﴿ أني ﴾ بالفتح فتقديره نودي بأني ، ومن قرأ بالكسر فلأن النداء في معنى القول ، أو لأن التقدير نودي فقيل يا موسى . وتكرير الضمير في " أني " ﴿ أنا ربك ﴾ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة . روي أنه لما نودي يا موسى قال : من المتكلم ؟ فقال الله عزوجلّ : إني أنا ربك . فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان . فقال : أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست وأسمعه بجميع أعضائي حتى كأن كل جارحة مني صارت أذناً . وقيل : لعله سمع النداء من جماد كالحصا والشجرة فيكون معجزاً . وأيضاً إنه رأى النار في الشجرة الخضراء بحيث إن الخضرة ما كانت تطفىء تلك النار ولا النار تضر بالخضرة ، فعرف أنه لا يقدر عليه أحد إلا الله . وجوّز الأشاعرة أن يكون قد خلق الله تعالى علماً ضرورياً بذلك والمعتزلة منعوا منه قالوا إن حصول العلم الضروري بأن ذلك المتكلم هو الله يستلزم العلم الضروري بوجود الصانع لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلوماً بالاستدلال ، وحصول العلم الضروري بوجود الصانع ينافي التكليف وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف . قال القاضي : إن كانت النبوة قد تقدمت لموسى فلا كلام في حصول هذه الخوارق وإلا وجب أن تكون المعجزات لغيره من الأنبياء

في زمانه كشعيب مثلاً . قال : وهذا أولى لأن قوله ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ دليل على أنه أوّل وحي يوحى إليه . وعند أهل السنة الإرهاص جائز فلم يوجبوا إحالة تلك الخوارق إلى غيره . وعندهم أن الله تعالى أسمعه الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت . والمعتزلة أنكروا وجود ذلك الكلام . وقالوا : إنه تعالى خلق ذلك النداء في جسم من الأجساد كالشجرة وهو قادر على ذلك . وأهل السنة مما وراء النهر أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى صوت خلقه الله في الشجرة لأنه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار ، والمرتب على المحدث .

ومثله استدلال المعتزلة بقوله ﴿ فاخلع نعليك ﴾ على أن كلامه تعالى ليس بقديم لأن الأمر والمأمور معدوم سفه فلا بد أن يكون هذا الأمر عند وجود موسى فيكون محدثاً . أجابت الأشاعرة بأن كلامه الأزلي ليس بأمر ولا نهي ، ولو سلم فأمره بالأزل مستمر إلى أن صار الشخص مأموراً من غير تغير في أمره كالقدرة الأزلية تتعلق بالمقدور الحادث . وأما الحكمة في الأمر بخلع النعلين قال المفسرون : لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ وهو قول علي ومقاتل والكلبي والضحاك وقتادة والسدي . وقال الحسن وسعيد بن جبير

ومجاهد : ليباشر الوادي بقدميه متبركاً به . وقيل : عظم البقعة عن وطئها إلا حافياً يؤيده قوله ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ . ومن هنا كره بعضهم الصلاة والطواف في النعل ، وكان السلف يطوفون بالكعبة حفاة . ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه وكان إذا وقع منه ذلك تصدق . وعلى القول الأول لا يكره إلا إذا كان غير مدبوغ . " وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال : ما لكم خلعتم نعالكم ؟ قالوا : خلعت فخلعنا . قال : فإن جبرائيل أخبرني أن فيهما قذراً " يروى أن موسى خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي .

قال الجوهري ﴿ طوى ﴾ بكسر الطاء وضمها اسم موضع بالشأم . فمن صرفه جعله اسم واد ومكان ، ومن لم يصرفه جعله اسم بقعة . وقال بعضهم . طوى بالضم مثل طوى وهو الشيء المثنى أي طوى مرتين أي قدس . وقال الحسن : ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين ، ويحتمل أن يراد نودي نداءين . وقيل : طوى مصدر كهدى ومعناه العلى . وعن ابن عباس أنه مر بذلك الوادي ليلاً فطواه فكان المعنى بالواد المقدس الذي طويته طياً أي قطعته حتى ارتفعت إلى أعلاه . ﴿ وأنا أخترتك ﴾ اصطفيتك للنبوة . قيل : فيه دلالة

على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق وإنما هي ابتداء عطية من الله . وفي هذه الأخبار غاية اللطف والرحمة ولكن في قوله ﴿ فاستمع ﴾ نهاية الجلال والهيبة ففي الأول رجاء وفي الثاني خوف كأنه قال : جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل جميع همتك مصروفة إليه . ﴿ لما يوحى ﴾ أي للذي يوحى أو للوحي متعلق ب ﴿ استمع ﴾ أو ب ﴿ اخترتك ﴾ ثم قال ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ ورتب عليه ﴿ فاعبدني ﴾ ليعلم أن عبادته إنما لزمت لإلهيته ومن هنا قال العلماء : إن الله معناه المستحق للعبادة . قال الأصوليون : تأخير البيان عن وقت الحاجة غير جائز ولكن عن وقت الخطاب جائز لأنه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفيتها . وأيضاً قال ﴿ وأقم الصلاة ﴾ ولم يبين هيئاتها . أجاب القاضي عن هذا الأخير بأنه لا يمتنع أن موسى عليه السلام عد عرف الصلاة التي تعبد الله بها شعيباً وغيره من الأنبياء ، فكان الخطاب متوجهاً إلى ذلك ، وزيف بأن حمل الخطاب متوجهاً على التأسيس أولى قال : قد بين له ولكن لم يحك الله تعالى سوى هذا القدر .

ورد بأن البيان أكثر فائدة من المجمل ، فلو كان مذكوراً لكان أولى بالحكاية . ولقائل أن يقول : سلمنا أن المبين أكثر فائدةً للمخاطب ، ولكن لا نسلم أن حكاية المبين أولى فلعل حكاية المجمل تكفي لغيره لصيرورة بعض هيئات ذلك التكليف منسوخاً وإن كان أصله باقياً .

وفي قوله ﴿ لذكري ﴾ وجوه. لأن اللام إما بمعنى الوقت أو هي للتعليل. والذكر إما بالجنان أو هو ضد النسيان. وياء المتكلم فاعل في الأصل أو مفعول. وهل يحتمل الكلام تقدير مضاف أم لا؟. ولمثل هذه الاعتبارات تعددت الوجوه فمنها: أن اللام للتعليل والياء منصوب أي لتذكرني فإن ذكري أن أعبد ويصلى لي، أو أراد لتذكرني في الصلاة لاشتمالها على الأذكار. عن مجاهد: والفرق أن إطلاق الذكر على العبادة والصلاة في الأول حقيقة شرعية، وفي الثاني مجاز. أو نقول: في الأول تكون نفس الصلاة مطلوبة بالذات، وفي الثاني تكون مطلوبة بعرض الذكر، أو أراد لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري. ومنها أن المضاف مع ذلك محذوف أي لإخلاص ذكري وطلب وجهي. ومنها أن الياء فاعل أي لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالمدح والثنا وأجعل لك لسان صدق. ومنها أن اللام للوقت كقولك "جئتك لوقت كذا" أي لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة. ومنها أن يحمل الذكر على ضد النسيان أي لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في كونهم رطاب اللسان في جميع الأحيان بذكر مولى الأنعام ومولى الإحسان ﴿ رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ﴾ [النور: 37] وأراد ذكر الصلاة بعد نسيانها وكان حق العبارة أن يقال لذكرها كقوله صلى الله عليه وسلم "من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها" فلعل المضاف محذوف أي لذكر صلاتي، أو ذكر الصلاة هو ذكر الله

فالياء في الأصل منصوب ، أو الذكر والنسيان من الله عز وجلّ في الحقيقة فلياء فاعل . قال الشافعي : من فاتته صلاة يستحب أن يقضيها على ترتيب الأداء ولو ترك الترتيب جاز . ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة فإن كان في الوقت سعة يستحب أن يبدأ بالفائتة ، وإن بدأ بصلاة الوقت جاز إلا إذا ضاق الوقت فإنه يجب الابتداء بصلاة الوقت ، وإن تذكر الفائتة بعد ما شرع في صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ، ويستحب أن يعيد صلاة الوقت

بعدها . وقال أبو حنيفة : يجب الترتيب في قضاء الفوائت ما لم يتزيد على صلاة يوم وليلة حتى لو تذكر خلال صلاة الوقت بطلت إلا أن يكون الوقت ضيقاً فلا تبطل .

حجة الشافعي ما روي في حديث قتادة أنهم ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها ، ولو كان وقت الانتباه متعيناً للصلاة لما فعل كذلك . نعم إنه وقت لتقرير الوجوب عليه ثم الوقت موسع بعد ذلك . حجة أبي حنيفة قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم " فليصلها " إذا ذكرها " وفي حديث جابر أن عمر جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق يسب كفار قريش ويقول : يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب

الشمس . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وأنا والله ما صليتها بعد . " قال : فنزل في البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها . وأما القياس فهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد في اليوم والليلة فأشبهتا صلاتي عرفة ومزدلفة . فلما لم يجز إسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون كذلك حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة ، وأما إذا دخل في حد الكثرة فيسقط هذا الترتيب . ثم لما أمر موسى بالعبادة عامة وبالصلاة التي هي أفضلها خاصة علل ذلك بقوله ﴿ إن الساعة آتية ﴾ .

(263/495)

سؤال : "كاد " نفيه إثبات وإثباته نفي . فقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ يكون معناه لا أخفيها وهو باطل لقوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان : 34] ولأن قوله . ﴿ لتجزى كل نفس ﴾ إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار إذ لو كان المكلف عارفاً وقت القيامة وكذا وقت الموت اشتغل بالمعاصي إلى قريب من ذلك الوقت ثم تاب فيكون إغراء على المعصية . والجواب لا نسلم أن "كاد " إثباته نفي وإنما هو للمقاربة فقط . والباقي موكول إلى القرينة . ولئن سلم فالمراد بعدم الإخفاء إخباره بأنها آتية وإن كان وقتها غير معين كأنه قال : أكاد لا أقول هي آتية لفط إرادة الإخفاء ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها

من اللطف لما أخبرت به . وبالغ بعض المفسرين في هذا المعنى فقال : أراد أكاد أخفيها من نفسي أي لو صح إخفاؤها من نفسي لأخفيتها مني وأكدوا ذلك بأنهم وجدوه في مصحف أبيّ كذلك . فقال قطرب : هذا على عادة العرب في المخاطبة إذا بالغوا في كتمان الشيء قالوا : كتمته من نفسي . وقيل : "كاد " من الله واجب وأراد أنا أخفيها من الخلق كقوله ﴿ عسى أن يكون قريباً ﴾ [الاسراء : 51] أي هو قريب قاله الحسن . وعن أبي مسلم أن " أكاد " بمعنى أريد كقوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ [يوسف : 21] ومنه قولهم " لا أفعل ذلك ولا أكاد " أي لا أريد أن أفعله . وقيل : أكاد صلة والمعنى أن الساعة آتية أخفيها . وقال أبو الفتح الموصلي : الهمزة للإزالة أي أكاد أظهرها معناه قرب إظهارها كقوله

﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] ومثله ما روي عن أبي الدرداء وسعيد بن جبير أخفيها بفتح الهمزة من خفاه إذا أظهره . وقوله ﴿ لتجزى ﴾ متعلق ﴿ بأخفيها ﴾ كما قلنا أو ب ﴿ آتية ﴾ ، فلولا القيامة لم يتميز المطيع من العاصي والمحسن من المسيء وذلك خلاف قضية العدالة والحكمة . واحتجاج المعتزلة بالآية ظاهر لأنه قال ﴿ بما تسعى ﴾

أي بسعيها . فلو لم يكن أعمال العباد بسعيهم لم يصح هذا الإسناد ، ولو لم يكن الثواب مستحقاً على العمل لم يكن لباء السببية معنى والجواب أن اعتبارها الوسط لا ينافي انتهاء الكل إلى الله ، واستناد الجزاء إلى عنايته الأزلية التي لا علة لها . ومعنى الفاء في ﴿ فلا يصدّنك ﴾ أنه إذا صح عندك أني أخبرتك بإتيان الساعة فلا تلتفت إلى قول المخالف الذي يصدك عن التصديق بالساعة ، لأن قوله ناشىء عن الهوى واتباعه . وجوّز أبو مسلم أن يكون الضمير في ﴿ عنها ﴾ للصلاة . والعرب تذكر شيئين لم ترمي بضميرهما إلى السامع اعتماداً على أنه يرد كلاً منهما إلى ما هو له ، وزيف بأن هذا إنما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة هنا . وأما الخطاب فالظاهر أنه لموسى لأن الكلام أجمع معه . وجوّز بعضهم أن يكون لنبينا عليه السلام والمقصود الأمة ، والنهي عن الصد في الظاهر لمن لا يؤمن بالساعة وهو بالحقيقة نهي لموسى عن التكذيب . والوجه فيه أن صد الكافر عن التصديق سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب ، أو صدّ الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب كأنه قيل : كن في الدنيا صلباً حتى لا يطمع في إغوائك الكافر . والذي دعا إلى هذا النهي البالغ في معناه هو أن في المبطلين والجاحدين كثرة وهي مزلة قدم فعلى المرء أن يكون مع المحقين وإن قلوا لا مع غيرهم وإن كثروا . وفيه حث بليغ على العمل بالدليل وزجر قويّ عن التقليد وإنذار بأن

الردى والهلاك مع اتباع الهوى . وههنا استدل الأصوليون على شرف علمهم ووجوب تعلمه

(265/495)

كيلا يتمكن الخصم من تشكيكه . وزعم القاضي أن في نسبة الصد إلى الكافر بالبعث دليلاً على أن القبائح إنما تصدر عن العباد . وعورض بالعلم والداعي كما مر مراراً . قال أهل التحقيق : قوله أوّلاً لموسى ﴿ اخلع نعليك ﴾ إشارة إلى التخلية وتطهير لوح الضمير عن الأغيار وما بعده إشارات إلى التحلية وتحصيل ما ينبغي تحصيلة . وأصول ذلك ترجع إلى علم المبدأ وهو قوله ﴿ إنني إنا الله ﴾ وإلى علم الوسط وهو قوله ﴿ فاعبدني ﴾ وإنه مشتمل على الأعمال الجسمانية . وقوله ﴿ لذكري ﴾ وهو مشتمل الأعمال الروحانية وإلى علم المعاد وذلك قوله ﴿ إن الساعة آتية ﴾ . وأيضاً إنه افتتح الخطاب بقوله ﴿ وأنا اخترتك ﴾ وهو غاية اللطف ، وختم الكلام بقوله ﴿ فلا يصدّنك ﴾ إلى آخره وهو قهر تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه ، وأن العبد لا بد أن يكون سلوكه على قدمي الرجاء والخوف .

قوله ﴿ وما تلك ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿ بيمينك ﴾ حال منتصب بمعنى الإشارة أو

الاستفهام. وجوّز الكوفيون أن يكون ﴿ تلك ﴾ اسماً موصولاً صلته ﴿ بيمينك ﴾ أي ما التي بيمينك. قيل: لم يقل بيدك لأنه يحتمل أن يكون في يساره خاتم أو شيء آخر وكان يلتبس عليه الجواب.

(266/495)

أسئلة: ما الفائدة في هذا السؤال؟ جوابه أن الصانع الماهر إذا أراد أن يظهر من الشيء الحقير كقطعة من حديد شيئاً شريفاً كاللبوس المسرد عرضه على الحاضرين ويقول ما هذا حتى إنه بعد إظهار صنعته يلزمهم بقولهم ويقول: خذوا هذا من ذلك الذي قلتم فكأنه سبحانه قال لموسى: هل تعرف حقيقة ما في يمينك وأنه خشبة يابسة حتى إذا قلبه ثعباناً عظيماً كان قد نبهه على كمال قدرته الباهرة. وقال أهل الخطابة: إنه سبحانه لما أطلعه على تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء، وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ممازجاً باللطف والقهر والتكاليف تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له ﴿ وما تلك بيمنك يا موسى ﴾ ليعرف موسى أن يمينه هي التي فيها العصا. وأيضاً إنه لما تكلم معه بالكلم الإلهية وقرب موسى أن يدهش تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة لا لأن المسؤول عنه مما يقع فيه الغلط كما أن السائل لا

يجوز عليه الغلط نظيره حال المؤمن في القبر يغلبه الوجل والخجل فيسأل عن أمر لا يشك فيه في الدنيا وهو التوحيد دفعاً للإيحاش وجلباً للاستئناس . وأيضاً لما عرف موسى كمال الإلهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا فذكر ما ذكر ، فعرّفه الله تعالى أن فيها منافع أجل مما ذكر تنبيهاً على أن عقول البشر قاصرة عن خفيات الأمور لولا التوفيق والإرشاد . آخر : خاطب موسى بلا واسطة خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم بواسطة جبرائيل ، فيلزم أن يكون موسى أفضل . وجوابه المنع بدليل ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 10] وبيان الأفضلية أن كلامه مع موسى لم يكن سراً وكلامه مع محمد سر لم يستأهل له سواه . وأيضاً حصل لأمته في الدنيا شرف التكليم ؛ المصلي يناجي ربه ، وفي الآخرة شرف التسليم والتسليم ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍ رحيمٍ ﴾ [يس : 58] . وأيضاً إن موسى كان عند استغراقه في بحر المحبة متعلقاً بالعصا ومنافعها

، ومحمد عليه السلام لم يلتفت إلى الكونين حين عرضا عليه ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم : 17] بل كان فانياً عن الأغيار باقياً بالواحد القهار ولهذا لم يزد في الثناء حينئذٍ على قوله " أنت كما أثنيت على نفسك " .

وههنا نكت منها : أنه سبحانه لما أشار إلى العصا واليد بقوله ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ حصل في كل منهما برهان باهر ومعجز ماهر فصار أحدهما – وهو الجماد – حيواناً والآخر – وهو الكثيف – نورانياً لطيفاً .

(268/495)

ثم إنه تعالى ينظر في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد فأي عجب أن ينقلب قلبه الجامد المظلم حياً مستنيراً . ومنها أن العصا صارت بين يمين موسى حياً فكيف لا يصير قلب المؤمن الذي هو بين أصبعين من أصابع الرحمن حياً ! ومنها أن العصا بإشارة واحدة صارت بحيث ابتلعت سحر السحرة كلهم فقلب المؤمن أولى أن يصير بمدد نظر الرب في كل يوم مرات بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء . ثم إن جواب موسى عليه السلام يتم بقوله ﴿ هي عصاي ﴾ إلا أنه زاد على ذلك لأنه كان يحب المكالمة وكان المقام مقام انبساط وقرب فاغتنم الفرصة وجعل ذلك كالوسيلة إلى درك الغرض . وقيل : هو جواب سؤال آخر كأنه سئل فما تصنع بها فأخذ في ذكر منافعها . وقيل : خاف أن ينكر عليه استصحاب العصا كالنعلين . ومعنى ﴿ أتوكأ عليها ﴾ أعتمد عليها إذا أعييت أو قوفت على رأس القطيع وعند الطفرة والتركيب يدور على الشد والإيثاق . ﴿ وأهش

بها ﴾ أي أخبط الورق بها على رؤوس غنمي لتأكله . والتركيب يدل على الرخاوة واللين ومنه " رجل هش المكسر " أي سهل الشأن فيما يطلب من الحوائج وهو مدح " وهش الخبز " يهش بالكسر إذا كان ينكسر لرخاوته . قال المحققون : إن موسى عليه السلام كان يتوكأ على العصا ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يتكل على فضل الله ورحمته قائلاً مع أمته ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] فورد في حقه ﴿ حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] أي حسبك وحسب من اتبعك . وأيضاً إنه بدأ بمصالح نفسه في قوله ﴿ أتوكأ عليها ﴾ ثم بمصالح رعيته بقوله ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في الدنيا إلا بإصلاح أمر أمته ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " فلا جرم يقول موسى يوم القيامة " نفسي نفسي " ومحمد يقول " أمتي أمتي " . ثم قال ﴿ ولي فيها مآرب ﴾ هي جمع المأربة بضم الراء الحاجة وقد تفتح

الراء . وحكى ابن الأعرابي وقطرب بكسر الراء أيضاً ومثله الأرب بفتحتين والإربة بكسر الهمزة وسكون الراء . وإنما قال ﴿ أخرى ﴾ لأن المآرب في معنى جماعة ونظيره

الأسماء الحسنى . ومن آياتنا الكبرى قالوا : إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فتطول مكالمته وقالوا : انقطع بالهيبة كلامه فأجمل . وقيل : في المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين ، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والجراب وغيرها ، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه .

وقيل : إن موسى عليه السلام كان أحس بأنه تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال : إلهي ما هذه العصا إلا كغيرها ولكنك لما سألت عنها وكلمتني بسببها عرفت أن لي فيها مآرب أخرى . وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً وتكونان شمعتين بالليل . وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام . قلت : هذه الخوارق إن كانت بعد نبوة موسى فلا كلام ، وإن كانت قبلها ففي صحة الرواية بُعْدٌ وإلا كان الأنسب تقديمها عند تعدد المنافع . وعلى تقدير صحتها فلعلها إرهاص أو من معجزات شعيب على ما يروى أنه كان قد أعطاها إياه .

قال أهل النكت : إن موسى لما قال ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ أراد الله سبحانه أن يعرّفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها و﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ وبوجه آخر كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا ، والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب ، فأمر بتركهما تنبيهاً على أن السالك ما دام في مقام الطلب والهرب كان مشتغلاً بنفسه وطالباً لحظه فلا يحصل له كمال الاستغراق في بحر العرفان . وفيه أن موسى عليه السلام مع جلالة منصبه وعلو شأنه لم يمكن له الوصول إلى حضرة الجلال حتى خلع النعل وألقى العصا ، فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه ؟ ! قال الكلبي : الاستطاعة قبل الفعل لأن القدرة على إلقاء العصا إما أن توجد والعصا في يديه فذاك قولنا ، أو توجد وهي خارجة عن يده وذلك تكليف بأنه يلقي من يده ما ليس في يده . ويمكن أن يجاب بأن القدرة مع إلقاء العصا . قوله ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ [الأعراف : 107] وفي موضع آخر ﴿ فإذا هي ثعبان ﴾ وفي آخر ﴿ كأنها جان ﴾ [النمل : 10] عبارات عن معبر واحد لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والعظيم . وأما الثعبان - وهو العظيم من الحيات - والجان - وهو الدقيق منها - فبينهما تنافٍ في الظاهر لا في التحقيق ، لأنها حين انقلابها كانت تكون حية صفراء دقيقة كالجان ، ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى يصير ثعباناً آخر الأمر . أو أنها كانت في شخص ثعبان وسرعة حركة

الجان ولهذا وصفها بالسعي وهو المشي بسرعة وخفة حركة . والعجب أن موسى قال ﴿ أتوكأ عليها ﴾ فصدّقه الله تعالى في ذلك وجعلها متكئاً له بأن كانت أعظم معجزاته .

(271/495)

وإنما قلبها حية في ذلك الوقت لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه فإن النداء والنور والكلام لم يكن في ظهور الدلالة كهذه ، ولأن توالي المعجزات كتتابع الخلع والكرامات . وأيضاً لأنه عرضها عليه ليشاهدها ويوطن نفسه عليها حتى لا يخافها عند عدوّه ؛ فالولي يستر العيوب والعدوّ يبرز المناقب في صورة المثالب ، فكيف إذا وجد مجال طعن وقدح ؟ ! وقد مر في " الأعراف " أن الحية كان لها عرف كعرف الفرس ، وكان بين لحييها أربعون ذراعاً ، فلما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفار ما يملك البشر عند الأهوال حتى ذهل عن الدلائل وأخذ يفر ، ولو أنه بلغ حينئذٍ مقام ﴿ ففروا إلى الله ﴾ [الذاريات : 50] لم يفر عن شيء . او لعله لما حصل له مقام المكالمة بقي في قلبه عجب فأراه الله تعالى أنه بعد في نقص الإمكان ولم يفاوت عالم البشرية وما النصر والتثبيت إلا من الله وحده . فقد روي أنه لما قال له ربه : ﴿ لا تخف ﴾ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها ، قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري :

ذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة ، لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه ألبتة . وعن بعضهم أنه خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها .

قلت : يحتمل أن يكون خوف موسى وهجره إياها من فوات المنافع المعدودة ولهذا علل عدم خوفه بقوله ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ قال جار الله : السيرة من السير كالركبة من الركوب . يقال : سار فلان سيرة حسنة . ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة ومنه سير الأولين ، فيجوز أن ينتصب على الظرف أي في طريقتها الأولى حال ما كانت عصاً ، أو يكون أعاد منقولاً بالهمزة من عاده بنزع الخافض بمعنى عاد إليه فيتعدى إلى مفعولين ، أو يكون المراد بالإعادة الإنشاء ثانياً . ونصب ﴿ سيرتها ﴾ بفعل مضمر في موضع الحال أي سنعيدها تسير سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها . ثم قوى أمره بمعجزة ثانية فقال ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ يقال : لكل ناحيتين جناحان ومنه جناحا العسكر وجناحا الإنسان لجنبهما . والأصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران أي يميلهما . فقيل : المراد بالآية تحت العضد بدليل قوله ﴿ تخرج ﴾ وعن ابن عباس : معناه إلى صدرك . وضعف بأنه لا

يطابقه قوله ﴿ تخرج ﴾ قلت : لا شك أن الصدر مستور بالقميص فيظهر عند ذلك معنى الخروج ويفسره قوله في موضع آخر ﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ [النمل : 12] والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوءة. والبرص أبغض شيء عند العرب بحيث تمجه أسماعهم فكان جديراً بأن يكنى عنه.

(273/495)

ومعنى ﴿ بيضاء ﴾ أنها تنور كشعاع الشمس. قال في الكشاف : من غير سوء من صلة البيضاء كما تقول : ابيضت من غير سوء. قلت : لعله أراد أن " من " للتعليل أي ليس البياض هو السوء وإنما السبب غيره وحقيقته ترجع إلى الابتداء. و ﴿ بيضاء ﴾ و ﴿ آية ﴾ حالان معاً أو متداخلتان. واحتمل أن ينتصب آية بمضمر يدل عليه الكلام نحو " خذ ودونك ". وقوله ﴿ لنريك ﴾ إما أن يتعلق بهذا المحذوف أو بمحذوف آخر أي لنريك ﴿ من آياتنا ﴾ فلعنا ما فعلنا. ولا يبعد عندي أن يتعلق بالأمرين المذكورين أي ﴿ ألقها ﴾ و ﴿ اضمم ﴾ لنريك قال الحسن : اليد في الإعجاز أعظم من العصا لأنه تعالى وصفها بالكبرى. وضعف بأنه ليس في اليد إلا تغير اللون وأما في العصا ففيه تغير اللون والزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة، فالمراد لنريك بهاتين الآيتين

بعض آياتنا الكبرى. وجوز في الكشاف أن يكون المراد لنريك بهما الكبرى من آياتنا . ويرد عليه لزوم أن تكون الآيات الكبرى منحصرة فيهما وليس كذلك فإن معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكبر من الكل ، وكفاك بالقرآن شاهداً على ذلك. ثم صرح بالمقصود من المعجزات فقال ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ وخصه بالذكر لأن قومه تبع له. ثم بين العلة في ذلك فقال ﴿ إنه طغى ﴾ وعن وهب أن الله تعالى قال لموسى : استمع كلامي واحفظ وصيتي برسالتي فإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري وإني ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر تقديسي ، وإني أقسم بعزتي لولا الحجة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار شديدة ، ولكن هان عليّ وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولاً ليناً لا يغتر بلباس الدنيا ، وإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي في كلام طويل. قال : فسكت موسى سبعة أيام ثم جاءه ملك فقال له : أجب

ربك فيما أمرك فعنده ﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ قال علماء المعاني : أنهم أولاً بقوله ﴿ ربي اشرح لي ﴾ ﴿ ويسر لي ﴾ فعلم أن ثمة مشروحاً وميسراً . ثم بين فرفع الإبهام بذكر الصدر والأمر وكان أوكد من جهة الإجمال . ثم التفصيل كان في صدر موسى ضيق كما جاء في موضع آخر ﴿ ويضيق صدري ﴾ [الشعراء : 13] فسأل الله أن يبدل الضيق بالسعة حتى يفهم ما أنزل عليه من الوحي . وقيل : أراد شجعني على مخاطبة فرعون وعلى تحمل أعباء الرسالة . واعلم أن الكلام في الدعاء وشرائطه وفوائده وسائر ما يتعلق به قد سبق منا في " البقرة " في تفسير قوله سبحانه

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ [الآية : 186] .

ولنذكر ههنا نكتاً شريفة : الأولى أنه تعالى كامل في الأزل إلا أنه غير مكمل في الأزل لأن التكميل هو جعل الشيء كاملاً ولا شيء معه في الأزل فلا تكميل ، وذلك كما يقال : " إنه سبحانه لا يعلم عدداً مفصلاً لحركات أهل الجنة لأن كل ما له عدد مفصل فهو متناه وحركات أهل الجنة غير متناهية فامتنع ذلك لا لقصور في العلم بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول . ولما كان الغرض من التكوين تكميل الناقصين ، وكان الوجود أول صفة من

صفات الكمال أجلس الله سبحانه على هذه المائدة بعض المعدومات ، لأنه لو أجلس الكل عليها لدخل في الوجود ما لا نهاية له ، ولانتهت القدرة الذاتية لامتناع إيجاد الموجود . وكما أن رحمته اقتضت وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون بعض حتى صار ذلك البعض حياً مدركاً للمنافي والملائم واللذة والألم والخير الشر فقال : الأحياء عند ذلك يا رب الأرباب شرفتنا بخلعة الوجود وخلعة الحياة ، ولكن ازدادت حاجتنا لأنا – حال العدم وحال الجمادية – ما كنا نحتاج إلى الملائم والمخالف والموافق ، وما كنا نخاف المنافي والمؤذي ، والآن احتجنا إلى طلب الملائم ودفع المنافي ، فإن لم يكن لنا قدرة على الهرب والطلب كنا كالزمن المعقد في الطريق عرضة للآفات وهدفاً لسهام البليات ، فاقتضت الرحمة الكاملة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض المعدومات بالوجود وتخصيص بعض الموجودات بالحياة فقال : القادرون عند ذلك : إلهنا الجواد الكريم إن الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون إلا للبهائم المسخرة في حمل الأثقال ، فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف مخلوقاتك . فأعطى بعضهم العقل فحصل في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية ختامه مسك كما أن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم كان أفضل المخلوقات ، فنظر العقل في نفسه فرأى نفسه كالحقة المملوءة من الجواهر بل كسماء مزينة بالزواهر وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة في بداية العقول وصرائح الأذهان ،

يهتدي بها السائرون في ظلمات بر الشكوك وبحر الشبهات ، فاستدل العقل بتلك الأرقام على راقم ، وبتلك النقوش على نقاش ، فغلبته دهشة الأنوار الأزلية وكاد يغرق في بحر الفكر ، ويضيق عليه نطاق التأمل والتدبر ، ويقع في تجاذب أيدي الأعداء الداخلة والخارجة وشياطين الجن والإنس فعند ذلك قال : ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ فانتهاء جميع الحوادث اليه وتيسير الأمور الكلية والجزئية من عنده ، وهو الذي يعطي القابل قابليته والفاعل فاعليته .

الثانية : إنه تعالى خاطبه أولاً بالتوحيد ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ وثانياً بالعبادة ﴿ فاعبدني ﴾ وثالثاً بمعرفة المعاد ﴿ إن الساعة آتية ﴾ ورابعاً بمعرفة الحكمة في جملة أفعاله ﴿ وما تلك بيمينك ﴾ وخامساً بعرض المعجزات الباهرة عليه ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ وسادساً بإرساله إلى أعظم الناس كفراً وكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً لضيق العطن وانحلال عقدة الصبر فلا جرم تضرع إلى الله سبحانه قائلاً ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ وههنا دقيقة هي أن شرح الصدر .

مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية في القلب ، والاستماع مقدّمة الفهم . ولما أعطى موسى المقدّمة بقوله ﴿ فاستمع ﴾ نسج موسى على ذلك المنوال فقال ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ ولما آل الأمر إلى محمد وكان خاتم النبيين ومقصوداً من الكائنات ومخاطباً بقوله

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] أوتي النتيجة فقيل له ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾ [طه : 114] ووصف بقوله ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب : 46] فشرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلاً للنور ، والسراج المنير هو المعطي للنور : فالتفاوت بين موسى ومحمد عليهما السلام هو التفاوت بين الآخذ والمعطي ولهذا قال موسى : اللهم اجعلني من أمة محمد .

(277/495)

الثالثة : إنه تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور أحدهما وصف ذاته بالنور ﴿ الله نور السموات والارض ﴾ [النور : 35] وثانيهما الرسول ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ [المائدة : 15] وثالثهما الكتاب ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ [الأعراف : 157] ورابعها الإيمان ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله ﴾ [التوبة : 32] وخامسها عدل الله ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ [الزمر : 69] وسادسها ضياء القمر ﴿ جعل القمر فيهن نوراً ﴾ [نوح : 16] وسابعها النهار ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وثامنها البينات ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : 44] وتاسعها الأنبياء ﴿ نور على نور ﴾ [النور : 35] وعاشرها المعرفة ﴿ مثل نوره

كمشكاة فيها مصباح ﴾ [النور : 35] فكأن موسى عليه السلام قال أوّلاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ بمعرفة أنوار جلال كبريائك . وثانياً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك . وثالثاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك . ورابعاً ﴿ رب أشرح لي صدري ﴾ بنور الإيمان والإيقان بالهيّتك .

وخامساً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ بالاطلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك . وسادساً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلالك وعزتك كما فعله إبراهيم صلوات الرحمن عليه . وسابعاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ عن مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك . وثامناً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك في أرضك وسمائك . وتاسعاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ في أن أكون خلف صدق أنبيائك المتقدمين متشبهاً بهم في الانقياد لحكم رب العالمين . وعاشراً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ بأن تجعل سراج الإيمان كالمشكاة التي فيها المصباح .

الرابعة : شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير القلب كالسراج ، ومستوقد السراج محتاج إلى سبعة أشياء : زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن . فالزند زند المجاهد ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ [العنكبوت : 69] والحجر حجر التضرع ﴿ وادعوا ربكم تضرعاً وخيفةً ﴾ [الأعراف : 55] والحراق منع الهوى ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ [النازعات : 40] والكبريت الإنابة ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ [الزمر : 54] والمسرجة الصبر ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] والفتيلة الشكر ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [ابراهيم : 7] والدهن الرضا ﴿ واصبر لحكم ربك ﴾

(279/495)

[الطور : 48] ثم إذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن تطلب المقصود من حضرة ربك بالتضرع والدعاء قائلاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ فهنالك تسمع ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ . الخامسة : هذا النور الروحاني المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه أحدها : الشمس يحجبها الغيم ، وشمس المعرفة لا تحجبها السموات السبع ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] وثانيها الشمس

تغيب ليلاً وشمس المعرفة لا تغيب ليلاً ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً ﴾ [المزمل : 6] ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ [الإسراء : 1] الليل للعاشقين ستير ياليت أوقاته تدوم وعند الصباح يحمد القوم السرى . وثالثها الشمس تفنى ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ [التكوير : 1] والمعرفة لا تفنى ﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ [ابراهيم : 24] ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍ رحيمٍ ﴾ [يس : 58] ورابعها الشمس إذا قارنها القمر انكسفت وشمس توحيد المعرفة وهي " أشهد أن لا إله إلا الله " إذا لم تقرن بقمر النبوة وهي " أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم " لم يصل نور إلى عالم الجوارح . وخامسها الشمس تسود الوجه والمعرفة تبيض الوجوه ﴿ يوم تبيض وجوه ﴾ [آل عمران : 106] وسادسها الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الإحراق " جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " وسابعها الشمس تصدع والمعرفة تصعد ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] وثامنها الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في الدارين ﴿ فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] وبوجه آخر الشمس زينة لأهل الأرض ، والمعرفة زينة لأهل السماء . وتاسعها الشمس فوقاني الصورة تحتاني المعنى ، والمعارف الإلهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى ، وفيه أن الخيبة مع الترفع والشرف مع التواضع . وعاشرها الشمس تعرّف أحوال الخلق ، والمعرفة تصل

القلب إلى الخالق . والشمس تقع على الولي والعدوّ والمعرفة لا تحصل إلا للولي ، ولما كان شرح الصدر الذي هو أول مراتب الروحانيات أشرف من أعلى مراتب الجسمانيات بدأ موسى بطلبه قائلاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ .

السادسة : الشمس سراج أوقدها الله تعالى للفناء ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] والمعرفة سراج استوقده للبقاء ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ [ابراهيم : 27] والذي خلقه للفناء إذا قرب منه الشيطان احترق ﴿ يجد له شهاباً رصداً ﴾ [الجن : 9] والذي خلقه للبقاء كيف يقرب منه الشيطان ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ وأيضاً : الشمس في السماء ثم إنها مع بعدها تزيل الظلمة عن بيتك ، فشمس المعرفة مع قربها لأنها في قلبك أولى أن تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك . وأيضاً الإنسان إذا استوقد سراجاً فإنه لا يزال يتعهده ويمده ، والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ [الحجرات : 7] أفلا يمده وهو معنى قوله ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ . وأيضاً إذا كان في البيت سراج فإن اللص لا يقرب منه ، وإنه سبحانه قد أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقرب الشيطان منه ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾

وأيضاً المجوس إذا أوقدوا ناراً لا يجوزون إطفاءها ، فالملك القدوس إذا أوقد سراج المعرفة في قلبك كيف يرضى بإطفائها ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ .

السابعة : أنه سبحانه أعطى قلب المؤمن تسع كرامات أحدها ﴿ أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] وقال صلى الله عليه وسلم : " من أحيا أرضاً ميتة فهي له " فيعلم أنه لما خلق أرض القلب فأحياها بنور الإيمان لا يكون لغيره فيها نصيب . وثانيها الشفاء ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ [التوبة : 14] وفيه أنه إذا وضع الشفاء في العسل بقيت تلك الخاصية فيه أبداً . فإذا وضع الشفاء في الصدر فكيف لا يبقى أبداً ؟ وثالثها الطهارة ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ [الحجرات : 3] وفيه أن الصائغ إذا امتحن الذهب فبعد ذلك لا يدخله في النار ، فالله تعالى لما امتحن قلب المؤمن كيف يدخله النار بعده ؟ ورابعها الهداية ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ [التغابن : 11] وفيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يهدي نفسك والقرآن يهدي روحك والمولى يهدي قلبك ، والأول قد يحصل وقد لا يحصل ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 56] وكذا الثاني ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [البقرة : 26] وأما هداية القلب فلا تزول

ألبتة لأن الهادي لا يزول ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [القصص : 56] وخامسها الكتابة ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ [المجادلة : 22] وفيه أن القرطاس إذا كتب فيه القرآن لم يجز إحراقه ، فقلب المؤمن الذي فيه القرآن وجميع أحكام ذات الله وصفاته كيف يليق بالكريم إحراقه ؟ وأيضاً إن بشراً الحافي أكرم قرطاساً فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين ، فإكرام قلب فيه معرفة الله أولى بذلك . وأيضاً إن القرطاس إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره حتى إنه لا يجوز للجنب والحائض مسه ، فالقلب الذي فيه أكرم الموجودات كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه ؟ وسادسها ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ [الفتح : 4] وفيه أن أبا بكر لما نزلت عليه السكينة في الغار قيل له لا تحزن إن الله معنا . فالمؤمن إذا نزلت السكينة في

قلبه لا بد أن يقال له عند قبض الروح : لا تخف ولا تحزن كما قال ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ [فصلت : 30] وسابعها المحبة والزينة كما قال ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 6] وفيه أن الدهقان إذا ألقى في الأرض حبة فهو لا يفسدها ولا يحرقها ، فهو سبحانه حين ألقى حبة المحبة في أرض القلب كيف

يحرقها ؟ وثامنها ﴿ وألف بين قلوبكم ﴾ [آل عمران : 103] وفيه أن محمداً حين ألف بين قلوب أصحابه ما تركهم غيبة ولا حضوراً سلام " علينا وعلى عباد الله الصالحين " فأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين كيف يتركهم ﴿ سلامٌ قولاً من رب رحيم ﴾ [يس : 58] وتاسعها الطمأنينة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : 21] وفيه أن الحاجات غير متناهية وما سوى الله فهو متناه ، المتناهي لا يقابل غير المتناهي .

فالكافي للمهمات لا يكون إلا من له كمالات غير متناهيات فلا يزيل قلق الحوائج واضطراب الأماني إلا الله سبحانه ، وبإزاء هذه الكرامات ورد في حق الكفار أضدادها ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : 5] ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ [التوبة : 127] ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة : 10] ﴿ قلوبهم قاسية ﴾ [المائدة : 13] ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه ﴾ [الكهف : 57] ﴿ وختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : 7] ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : 24] ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ [المطففين : 14] ﴿ طبع الله على قلوبهم ﴾ [النحل : 108] فلأجل تلك الكرامات والهرب من أضدادها قال موسى ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ .

الثامنة : في حقيقة شرح الصدر وذلك أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا إلا رغبة بأن يكون متعلق القلب الأهل والولد وتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم ، ولا رهبة بأن يكون خائفاً من الأعداء والمنازعين فإن القوة البشرية لضعفها كينبوع صغير ، فإذا وزعت على جداول كثيرة ضعف الكل وضاعت وإذا انصب الكل في موضع واحد ظهر أثرها وقويت فائدتها ، فسأل موسى ربه أن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها ليكون متوجهاً بالكلية إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات وهذا معنى قوله ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ . أو نقول : إنه لما كلف بضبط الوحي في قوله ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ وبالمواظبة على خدمة الخالق في قوله ﴿ فاعبدني ﴾ فكأنه صار مكلفاً بتدبير العالمين ، والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر فسأل موسى ربه قوة وافية بالطرفين فقال ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ أو نقول : معدن النور هو القلب ، والاشتغال بما سوى الله - من الزوجة والولد والصديق والعدوّ بل الجنة والنار - هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر ، فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه كالذباب والبق والبعوض فلا يدعوه رغبة إلى شيء مما يتعلق بالدنيا ولا رهبة من شيء من ذلك فيصير الكل عنده كالعدم فعند ذلك يزول الحجاب وينفسخ القلب بل الصدر للنور ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ .

التاسعة : لنضرب مثلاً لذلك فنقول : البدن بالكلية كالمملكة ، والصدر كالقلعة ، والفؤاد كالصفة ، والقلب كالسرير ، والروح كالملك ، والعقل كالوزير ، والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم إلى البلدة ، والغضب كالاسفهيد الذي يشتغل بالضرب ، والتأديب والحواس كالجواسيس ، وسائر القوى كالمحترفين والعملة والصناع . ثم إن الشيطان كملك مطاع وإنه يخاصم هذه البلدة والقلعة والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده ، فإذا أخرج الروح وزيره وهو العقل أخرج الشيطان في مقابله الهوى فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى إلى الشيطان . ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الخصم في مقابلته الشهوة ، فالفطنة توقفك على معايب الدنيا ، والشهوة تحسن لذات الدنيا . ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة لتوقف على الحاضر والغائب من المعايب على ما قال " تفكر ساعة خير من عبادة سنة " فأخرج الشيطان في مقابلة الفكرة الغفلة ، ثم أخرج الروح الحلم والثبات فإن العجلة ترى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، فأخرج الشيطان بإزائه العجلة والسرعة فلهذا قال صلى الله عليه وسلم

" ما دخل الرفق في شيء إلا زانه وما دخل الخرق في شيء إلا شانه " وخلق السموات والأرض في ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصفين وقلبك وصدرك هو المعركة . ثم إن لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقاً وهو الزهد في الدنيا ، وله

سور وهو الرغبة في الآخرة . فإن كان الخندق عظيماً والسور قوياً عجز عسكر الشيطان وجنوده فانهزموا ، وإن كان بالضد دخل الشيطان وجنوده من الكبر والهوى والعجب والبخل وسوء الظن بالله ومن النميمة والغيبة وسائر الخصال الذميمة ، وينحصر الملك في القصر ويضيق الأمر عليه ، ثم إذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح وانشرح ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ .

(285/495)

النكتة العاشرة : في الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب . الصدر مقر الإسلام ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ [الزمر : 22] والقلب مقر الإيمان ﴿ حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 7] ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ [المجادلة : 22] والفؤاد مقر المشاهدة ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم : 11] واللب مقام التوحيد ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الزمر : 9] أي الذين خرجوا من قشر الوجود المجازي وبقوا بلب الوجود الحقيقي . ثم إن القلب كاللوح المحفوظ في العالم الصغير فإذا ركب العقل سفينة التوفيق وألقاها في بحار أمواج المعقولات من عالم الروحانيات هبت من مهاب العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الأدبار أخرى ،

فحينئذٍ يضطر الراكب إلى التماس أنوار الهدايات وطلب انفتاح أبواب السعادات فيقول ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ وإنما سأل موسى شرح الصدر دون القلب لأن انشراح الصدر يستلزم انشراح القلب دون العكس . وأيضاً شرح الصدر كالمقدمة لشرح القلب والجواد يكفيه الإشارة ، فإذا علم أنه طالب للمقدمة فلا يليق بكرمه أن يمنعه النتيجة . وأيضاً إنه راعى الأدب في الطلب فاقتصر على طلب الأدنى . فلا جرم أعطى المقصود فقال ﴿ قد أتيت سؤلك يا موسى ﴾ وحين اجترأ في طلب الرؤية بقوله ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف : 143] أجيب بقوله ﴿ لن تراني ﴾ . واعلم أن جميع المهيئات الممكنة كالبلور الصافي الموضع في مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال ، فإذا وقع للقلب التفات إليها حصلت له نسبة إليها بأسرها ، فينعكس شعاع كبرياء الإلهية من كل واحد منها إلى القلب فيحرق القلب . ومعلوم أن المحرق كلما كان أكثر كان الاحتراق أتم ، فلهذا قال موسى ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ حتى أقوى على إدراك درجات الممكنات وأصل إلى مقام الاحتراق بأنوار الجلال كما نبينا صلى الله عليه وسلم " أرني الأشياء كما هي " وههنا دقيقة وهي أن موسى لما زاد لفظة ﴿ لي ﴾

في قوله ﴿ رب اشرح لي ﴾ دون أن يقول " رب اشرح صدّري " علم أنه أراد أن تعود منفعة الشرح إليه فلا جرم يقول يوم القيامة " نفسي نفسي " وإن نبينا صلى الله عليه وسلم لما لم ينس أمته في مقام القرب إذ قيل له " السلام عليك أيها النبي " فقال :

" السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " ، فلا جرم يقول يوم القيامة " أمتي أمتي " وشتان ما بين نبي يتضرع إلى الله ويقول ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ وبين نبي يخاطب أولاً بقوله ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] . ولا يخفى أن المراد بالشرح والتيسير عند أهل السنة هو خلقهما ، وعند المعتزلة تحريك الدواعي والبواعث بفعل الألطاف المسهلة ، فإنه يحتمل أن يكون هناك من الألطاف ما لا يحسن فعلها إلا بعد هذا السؤال .

أما قوله سبحانه ﴿ واحلل عقدةً من لساني ﴾ فاعلم أن النطق فضيلة عظيمة وموهبة جسيمة ولهذا قال ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ [الرحمن : 3 ، 4] بغير توسط العاطف كأنه إنما يكون خالقاً للإنسان إذا علمه البيان . وفي لسان الشاعر وهو زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده . . . فلم يبق إلا صورة اللحم والدم .

وعن علي كرم الله وجهه : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة مصورة أو بهيمة مهملة .

وقالت العقلاء : المرء بأصغريه . المرء مخبوء تحت لسانه . وفي مناظرة آدم والملائكة لم تظهر الفضيلة إلا بالنطق . ومن التعريفات المشهورة : إن الإنسان هو الحيوان الناطق ، وهذا النطق وإن كان في التحقيق هو إدراك المعاني الكلية لكن النطق اللساني لا ريب أنه

أظهر خواص الآدمي وقد نيط به أمر تمدنه والتعبير عما في ضميره فقول موسى ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ إشارة إلى طلب النور الواقع في القلب ، وقوله ﴿ ويسر لي أمري ﴾ رمز الى تسهيل ذلك التحصيل ، وقوله ﴿ واحلل ﴾ طلب لسهولة أسباب التكميل لأن اللسان آلة الإفاضة والإفادة وبه يتيسر ذلك الخط الجسيم والمنصب العظيم .

وحسبك يا فتى شرفاً وفخراً . . . سكوت الحاضرين وأنت قائل

(287/495)

ومن الناس من مدح الصمت بوجوه منها : قوله صلى الله عليه وسلم " الصمت حكمة وقليل فاعله " وقوله : مقتل الرجل بين فكيه . وفي نوابغ الكلم : يا بني قِ فاك لا تقرع قفاك .

ومنها أن الكلام خمسة أقسام : فالذي ضرره خالص أو غالب أو مساوٍ للنفع واجب الترك احترازاً من السفه والعبث ، والذي نفعه خالص أو غالب عسر المراعاة فالأولى تركه .

ومنها أنه ما من موجود أو معدوم معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله بإثبات أو نفي بحق أو بباطل ، بخلاف سائر الأعضاء . فالعين لاتصل إلا إلى الألوان والسطوح ، والأذن لا تصل إلا إلى الأصوات والحروف ، واليد لا تصل إلا إلى الأجسام ، وكذا باقي الجوارح .

(288/495)

أما اللسان فإنه رحب الميدان واسع المضطرب خفيف المؤنة سهل التناول لا يحتاج إلى آلات وأدوات للمعصية به فكان الأولى ترك الكلام وإمساك اللسان . والإنصاف أن الصمت في نفسه ليس بفضيلة لأنه أمر عدمي والنطق في نفسه فضيلة ، وإنما يصير رذيلة لأسباب عرضية مما عددها ذلك القائل فيرجع الحق إلى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم " رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم " قالوا : ترك الكلام له أربعة أسماء : الصمت وهو أعمها حتى إنه يستعمل فيما ليس يقوى على النطق كقولهم " مال ناطق أو صامت " . والسكوت وهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والإنصات هو السكوت مع استماع قال تعالى ﴿ فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ [الأعراف : 204] والإصاخة وهو الاستماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد . أما العقدة فقيل : إنها كانت في أصل خلقته وعن ابن عباس أنه في حال صباه أخذ بلحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال : هذا هو الذي يزول ملكي على يده فقالت آسية : إنه صبي لا يعقل وإن شئت فامتحنه بالتمرة والجمرة . وقيل : بالياقوت والجمر . فأحضرا بين يديه فأراد مد اليد إلى الياقوت فحول جبرائيل يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فظهر به تعقد وتحبس عن بعض الحروف . فإن صحت هذه الرواية فالنار إنما أحرقته وأثرت فيه إطفاء لثائرة غضب فرعون وإلا فالله سبحانه قادر على دفع الإحراق عن طبع النار كما في حق

إبراهيم صلوات الرحمن عليه ، وكما في حق موسى حين ألقي في التنور . ويروى أن يده احترقت أيضاً وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم يبرأ ولما دعاه قال : الي أيّ رب تدعوني ؟ قال : إلى الذين أبرأ يدي وقد عجزت عنها . وعن بعض العلماء أنه لم تبرأ يده لئلا ينعقد بينه وبين فرعون حرمة المؤاكلة من قصعة واحدة . وقيل : لم تحرق يده لأن الصولة ظهرت باليد ، وإنما احترق اللسان لأنه خاطبه بقوله "يا أبت" .

(289/495)

وما الحكمة في طلب حل العقدة ؟ الأظهر كيلا يقع في أداء الرسالة خلل فلهذا ﴿ قال يفقهوا قولي ﴾ وقيل : لأن العقدة في اللسان قد تقتضي الاستخفاف بالقائل وعدم الالتفات إليه . وقيل : إظهاراً للمعجزة فكما أن حبس لسان زكريا عن الكلام كان معجزاً له فكذا إطلاق لسان موسى كان معجزاً في حقه . وهل زالت تلك العقدة بالكلية ؟ فعن الحسن نعم لقوله ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ والأصح أنه بقي بعضها لقوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف : 52] أي يقارب أن لا يبين . وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنه رتة أي عجمة في الكلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ورثها من عمه موسى " وفي تنكير عقدة أيّ عقدة من عقد دلالة على أنه طلب حل بعضها بحيث يفهم عنه فهماً جيداً ولم يطلب الفصاحة الكاملة. وقال أهل التحقيق: وذلك لأن حل العقدة بالكلية نصيب محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفصح العرب والعجم وقد قال تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ [الإسراء: 34] فلما كان ذلك حقاً ليتيم أبي طالب لا جرم ما دار حوله. ومن مطالب موسى قوله ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هرون ﴾ قال أهل الاشتقاق: الوزير من الوزر بالكسر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنة، أو من الوزر بفتحتين وهو الملجأ لأن الملك يعتصم برأيه ويلجيء إليه أموره، أو من الموازرة وهي المعاونة فيكون من الأزر والقوة ومنه قوله تعالى ﴿ اشدد به أزري ﴾ أي ظهري لأنه محل القوة. قال الجوهري: آزرت فلاناً أي عاونته، والعامة تقول: وازرته. وعلى هذا فيكون القياس أزيراً بالهمز على ما حكي عن الأصمعي ووجه القلب حمل " فعيل على " مفاعل " لاتحاد معنييهما في نحو " عشير " و " جليس " و " صديق " وغيرها. وحمله على أخوته من نحو الموازرة ويوازر والاستعانة بالوزير وبحسن رأيه دأب الملوك العقلاء وقد استحسنه نبينا صلى الله عليه وسلم فقال "

إذا أراد الله بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن نوى خيراً أعانه عليه ، وإن أراد شراً كفه " وكان أنو شروان يقول : لا يستغني أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير . وكفى بمرتبة الوزارة منقبة وفخراً وشرفاً وذكراً أن النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات الباهرة ابتهل إلى الله سبحانه في مقام القرب والمكالمة يطلبه منه ، فيجب على من أوتي هذه الرتبة أن يؤدي إلى الله حقها ولا يغتر بالدنيا وما فيها ، ويزرع في أرض الوزارة ما لم يندم عليه وقت حصاده . وقيل : إن موسى خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر العظيم والخطب الجسيم فطلب

المعين . والأظهر أنه رأى أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع خلوص النية وصفاء الطوية أبعد عن التهمة وأعون على الغرض ، ولهذا حكى عن عيسى أنه قال ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ [الصف : 14] وخوطب نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال " إن لي في السماء وزيرين وفي الارض وزيرين فاللذان في السماء جبرائيل وميكائيل واللذان في الأرض أبو بكر وعمر " ثم إن موسى طلب أن يكون ذلك الوزير من

أهله أي من أقاربه لتكون الثقة به أكثر وليكون الشرف في بيته أوفر وإنه كان واثقاً بأخيه هارون فأراد أن يخصه بهذا المنصب الشريف قضاء لحقوق الإخاء ، فمن منع المستوجبين فقد ظلم وكان أفصح منه لساناً وأكبر سناً وألين جانباً .

(292/495)

قال جار الله : ﴿ وزيراً ﴾ و﴿ هرون ﴾ مفعولاً ﴿ اجعل ﴾ قدم ثانيهما عناية بأمر الوزارة ، أو ﴿ لي ﴾ و﴿ وزيراً ﴾ مفعولان ﴿ هرون ﴾ عطف بيان للوزير و﴿ أخي ﴾ في الوجهين بدل من ﴿ هرون ﴾ أو عطف بيان آخر . وقيل : يجوز فيمن قرأ ﴿ اشدد ﴾ على الأمر أن يجعل ﴿ أخي ﴾ مرفوعاً على الابتداء و﴿ اشدد ﴾ خبره فيوقف على ﴿ هرون ﴾ وشد الأزر به عبارة عن تقويته به وأن يجعله ناصراً له فيما عسى يرد عليه من الشدائد والخطوب ، بل يجعله وسيلة له في أمر النبوة وطريق الرسالة لأنه صرح بذلك في قوله ﴿ وأشركه في أمري ﴾ . ثم ذكر غاية الأدعية فإن المقصد الأسنى هو الاستغراق في بحر التوحيد ونفي الإشراك ، فإن التعاون مهيج الرغبات ومسهل سلوك سبل الخيرات فقال ﴿ كي نسبحك كثيراً ﴾ أي تسبيحاً كثيراً ﴿ ونذكرك ﴾ ذكراً ﴿ كثيراً ﴾ وقدم التسبيح وهو التنزيه لأن النفي مقدم على الإثبات ، فبالأول تزول العقائد

الفاسدة ، وبالثاني ترتسم النقوش الحسنة المفيدة . ثم ختم الأدعية بقوله ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ وفيه فوائد منها : أنه فوض استجابة الدعوات إلى عمله بأحوالهما وأنهما يصدد أهلية الإجابة أم لا ، وفيه من حسن الأدب ما لا يخفى . ومنها أنه عرض فقره واحتياجه على علمه وأنه مفتقر إلى التعاون والتعاضد ولهذا سأل ما سأل . ومنها أنه أعلم بأحوال أخيه هل يصلح لوزارته أم لا ، وأن وزارته هل تصير سبباً لكثرة التسبيح والذكر . وحين راعى من دقائق الأدب وأنواع حسن الطلب ما يجب رعايته فلا جرم أجاب الله تعالى مطالبه وأنجح مآربة قائلاً ﴿ قد أوتيت سؤلك ﴾ والسؤل بمعنى المسؤول كالخبز بمعنى المخبوز والأكل بمعنى المأكول . وزيادة قوله ﴿ يا موسى ﴾ بعد رعاية الفاصلة لأجل كمال التمييز والتعيين والله أعلم . بمصالح عبيده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 514.539 ﴾

(293/495)

فصل في التفسير الإشاري في الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابوري :

التأويل : يا من طاب بطهارته بساط النبوة ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن ﴾ إلا لتسعد بتخلقك

بخلقه ويسعد بسببك الأولون والآخرون من أهل السموات وأهل الأرضين . ﴿ تنزيلاً ممن خلق ﴾ أرض بشريتك وسموات روحانيتك التي هي أعلى الموجودات الممكنات كما قال "أول ما خلق الله روحي " استوى بصفة الرحمانية على عرش قلبك ليكون معه وقت لا يسعك فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل : ﴿ له ما في السموات ﴾ الروحانية من الصفات الحميدة ﴿ وما في الأرض ﴾ البشرية من الصفات الذميمة ﴿ وما بينهما ﴾ أي بين سماء الروح وأرض النفس وهو القلب بما فيه من الإيمان والإيقان والصدق والإخلاص ﴿ وما تحت الثرى ﴾ أي ما هو مركوز في جبلة الإنسانية : ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ أن يظهر شيء من صفاتك بالقول ﴿ فإنه يعلم السر ﴾ وهو ما يظهر من سيرتك ﴿ وأخفى ﴾ هو ما أخفى الله من خفيك .

السر في اصطلاح الصوفية لطيفة بين القلب والروح ، وهو معدن الأسرار الروحانية .

والخفي لطيفة بين الروح والحضرة الإلهية وهو مهبط أنوار الربوبية وأسرارها وجملتها المعقولات ، وقد يحصل لكل إنسان عند نشأته الأولى وإن كان كافراً . والأخفى لطيفة بين الروح والحضرة الإلهية ويكون عند نشأته الأخرى ولا يحصل إلا لمؤمن موحد صار مهبط

الأنوار الربانية وجملتها المشاهدات والمكاشفات وحقائق العلوم اللدنية ، ولهذا قال عقيبه ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ لأن مظهر الألوهية وصفاته العليا وأسمائه الحسنى هو الخفي الذي لا شيء أقرب إلى الحضرة منه إلا وهو سر ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة : 31] وهو حقيقة قوله " إن الله خلق آدم فتجلى فيه " ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ القلب ﴿ إذ رأى ناراً ﴾ [طه : 10] وهو نور في الحقيقة مأنوس به من جانب طور الروح ﴿ فقال لأهله ﴾ وهم النفس وصفاتها ﴿ امكثوا ﴾ في ظلمة الطبيعة الحيوانية ﴿ إني آنست ﴾ نار المحبة التي لا تبقى ولا تذر من حطب الوجود المجازي شيئاً ﴿ لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ يخرجكم من ظلمات الطبيعة إلى أنوار الشريعة ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ بآداب الطريقة إلى الحقيقة ﴿ فلما أتاها نودي ﴾ من شجرة القدس بخطاب الإنس ﴿ فاخلع نعليك ﴾ أي اترك الالتفات إلى الزوجة والولد فإن النعل يعبر في الرؤيا بهما ، أو اترك الالتفات إلى الكونين إنك واصل الى جناب القدس ، أو هما المقدمتان في نحو قولنا " العالم محدث وكل محدث فله محدث وموجد " وذلك أنه إذا غرق في لجة العرفان بقيت المقدمات على ساحل الوسائل ﴿ وأنا اخترتك ﴾ يا موسى القلب من سائر خلق وجودك من البدن والنفس والسر والروح ﴿ فاستمع ﴾ بسمع الطاعة والقبول إنني لما تجليت بأنانية الوهيتي لأنانية وجودك المجازي لا يبقى إلا أنا ﴿ فاعبدني ﴾ بإفناء

وجودك وأدم المناجاة معي لنيل ذكري إياك بالتجلي . إن قيامة العشق ﴿ آتية أكاد أخفيها ﴾ لعظم شأنها إلا أن متقاضى

الكرم اقتضى إظهارها لأخص عبيدي ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ في العبودية من الروح والسر والقلب والنفس والقالب فلما كان سعي الروح بجب الوطن الأصلي للرجوع إليّ أمكن إضافة ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [ص : 72] فجزاؤه من تجلي صفات الجلال بانعدام الناسوتية في اللاهوتية وكان سعي السعي بالخلو عن الأكوان لقبول فيض المكون فجزاؤه بإفاضة الفيض الإلهي عليه . وسعي القلب بقطع تعلقات الكونين لتصفيته وقابليته لتجلي صفات الجمال والجلال ، فجزاؤه بدوام التجلي وأن يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه من الشراب الطهور الذي يزيل لوث الحدوث عن لوح القلوب لكشف حقائق .

وسعي النفس بتبديل الأخلاق وانتفاء الأوصاف الحيوانية ، فجزاؤه بإشراق نور ربها لإزالة ظلمة صفاتها واطمئنانها إلى ذكر ربها لتصير قابلة لجذبه ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] وسعي القالب باستعمال أركان الشريعة وآداب الطريقة ، فجزاؤه ورفعة الدرجات ونيل الكرامات في الدارين فلا يصدنك عن هذه السعادات النفس الأمارة

بالسوء التي لا تؤمن بها .

ويحتمل أن يقال : أكاد أخفي الساعة ودخول الجنة والنار لئلا تكون عبادتي مشوبة بطمع الجنة وخوف النار . قالوا : أخطأ موسى في قوله ﴿ هي عصاي ﴾ وكان عليه أن يقول " أنت أعلم بحالها مني " وفي قوله ﴿ أتوكأ عليها ﴾ وكان عليه أن يتكىء على لطف الله وكرمه فلهذا قيل له ﴿ ألقها يا موسى ﴾ وفي قوله ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ إذ نسي أن العصا لا تكون واسطة لرزق أغنامه وإنما الرزاق هو الله . ﴿ خذها ولا تخف ﴾ فإن الضار والنافع هو الله وحده فلا يكن خوفك إلا منه ولا رجاؤك إلا به ﴿ واضمم ﴾ يد همتك إلى جناح قنوعك ﴿ تخرج بيضاء ﴾ نقية عن درن السؤال وعن الطمع وباقي الحقائق مذكور في التفسير . وفي قوله ﴿ قد أوتيت ﴾ بلفظ الماضي إشارة إلى أنه أعطي ذلك بالتقدير الأزلي لا بالتدبير العملي والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 539. 541 ﴾

(296/495)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى.رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 48 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ذلك ، كان موضع توقع الجواب ، فأتبعه قوله : ﴿ قال ﴾ أي الله : ﴿ قد أوتيت ﴾ بأسهل أمر ﴿ سؤلك ﴾ أي ما سألته ﴿ يا موسى ﴾ من حل عقدة لسانك وغير ذلك ولو شئت لم أفعل ذلك ولكني فعلته منة مني عليك .

ولما كان إنجاؤه من فرعون يث ولد في السنة التي يذبح فيها الأبناء - قالوا : وهي الرابعة من ولادة هارون عليه السلام - بيد فرعون وفي بيته أمراً عظيماً ، التفت إلى مقام العظمة مذكراً له بذلك تنويراً لبصيرته وتقوية لقلبه ، إعلاماً بأنه ينجيه منه الآن ، كما أنجاه في ذلك الزمان ، ويزيده بزيادة السن والنبوة خيراً ، فيجعل عزه في هلاكه كما جعل إذ ذاك عزه في وجوده فقال : ﴿ ولقد مننا ﴾ أي أنعمنا إنعاماً مقطوعاً به على ما يليق بعظمتنا ﴿ عليك ﴾ فضلاً منا ﴿ مرة أخرى ﴾ غير هذه ؛ ثم ذكر وقت المنة فقال : ﴿ إذ ﴾ أي

حين ﴿ أوحينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إلى أمك ﴾ أي بالإلهام ﴿ ما ﴾ يستحق لعظمته أن ﴿ يوحى ﴾ به ، ولا يعلمه إلا نبي أو من هو قريب من درجة النبوة ؛ ثم فسره بقوله : ﴿ أن اقذفيه ﴾ أي ألقي ابنك ﴿ في التابوت ﴾ وهو الصندوق ، فعلوت من التوب الذي معناه تفاؤلاً به ، وقال الحرالي : هو وعاء ما يعز قدره ، والقذف مجاز عن المسارعة إلى وضعه من غير تمهل لشيء أصلاً ، إشارة إلى أنه فعل مضمون السلامة كيف ما كان ، والتعريف لأنه نوع من الصناديق أشد الناس معرفة به بنو إسرائيل ﴿ فاقذفيه ﴾ أي موسى عليه السلام عقب ذلك بتابوته ، أو التابوت الذي فيه موسى عليه السلام ﴿ في اليم ﴾ أي البحر وهو النيل .

(5/496)

ولما كانت سلامته في البحر من العجائب ، لتعرضه للغرق بقلب الريح للتابوت ، أو بكسره في بعض الجدر أو غيرها ، أو بجريه مستقيماً مع أقوى جرية من الماء إلى البحر الملح وغير ذلك من الآفات ، أشار إلى تحتم تنجيته بلام الأمر عبارة عن معنى الخبر في قوله ، جاعلاً البحر كأنه ذو تمييز ليطيع الأمر : ﴿ فليلقه ﴾ أي التابوت الذي فيه موسى عليه السلام أو موسى بتابوته ﴿ اليم بالساحل ﴾ أي شاطئ النيل ، سمي بذلك لأن الماء يسحله ، أي

ينشره إلى جانب البيت الذي الفعل كله هرباً من شر صاحبه ، وهو فرعون ، وهو المراد بقوله : ﴿ يأخذه ﴾ جواباً للأمر ، أي موسى ﴿ عدو لي ﴾ ونبه على محل العجب بإعادة لفظ العدو في قوله : ﴿ وعدو له ﴾ فإنه ما عادى بني إسرائيل بالتذبيح إلا من أجله ﴿ وألقيت عليك محبة ﴾ أي عظيمة ؛ ثم زاد الأمر في تعظيمها إيضاحاً بقوله : ﴿ مني ﴾ أي ليحبك كل من رآك لما جبلتك عليه من الخلال الحميدة ، والشيم السديدة ، لتكون أهلاً لما أريدك له ﴿ ولتصنع ﴾ أي تربى بأيسر أمر تربية بمن هو ملازم لك لا ينفك عن الاعتناء بمصالحك عناية شديدة ﴿ على عيني ﴾ أي مستعلياً على حافظيك غير مستخفى في تربيتك من أحد ولا مخوف عليك منه ، وأنا حافظ لك حفظ من يلاحظ الشيء بعينه لا يغيب عنها ، فكان كل ما أردته ، فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع ، فلما لم تقبل واحدة منهن بالغ في الطلب ، كل ذلك إمضاء لأمري وإيقافاً لأمره به نفسه لا بغيره ليزداد العجب من إحكام السبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 18 .

19 ﴾

(6/496)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ولتصنع ﴾ بسكون اللام والعين على الأمر : يزيد الآخرون بكسر اللام ونصب العين ﴿ لنفسي اذهب ﴾ ﴿ في ذكري اذهبا ﴾ تفتح ياء المتكلم : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ خلقه ﴾ فتح اللام على أنه فعل : نصير الباقون بالسكون. ﴿ مهداً ﴾ وكذلك في " الزخرف " : عاصم وحمزة وعليّ وخلف وروح. الآخرون ﴿ مهاداً ﴾ ﴿ سوى ﴾ بكسر السين : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وعليّ الآخرون بالضم ﴿ لا نخلفه ﴾ بالجزم جواباً للأمر : يزيد ﴿ يوم الزينة ﴾ على الظرف : هبيرة : ﴿ وقد خاب ﴾ حيث كان بالإمالة : حمزة ﴿ فيسحتكم ﴾ من الإسحات : حمزة وعليّ وخلف ورويس وحفص. الباقون بفتح الياء والحاء ﴿ إن ﴾ مخففة : ابن كثير وحفص والمفضل. الباقون مشددة. ﴿ هذين ﴾ أبو عمرو و﴿ هذان ﴾ بالتشديد : ابن كثير. الباقون بالتخفيف ﴿ فاجمعوا ﴾ بهمزة الوصل وفتح الميم أمراً من الجمع : أبو عمرو. والآخرون على لفظ الأمر من الإجماع : ﴿ وقد أفلح ﴾ بنقل الحركة إلى الدال حيث كان : ورش وعباس وحمزة في الوقف ﴿ تخيل ﴾ بالتاء الفوقانية : ابن ذكوان وروح والمعدل عن زيد الباقون وابن مجاهد عن ابن ذكوان بالتحتانية : ﴿ تلقف ﴾ بالتشديد والرفع على الاستئناف : ابن ذكوان : ﴿ تلقف ﴾ بالتخفيف والجزم :

حفص والفضل. وقرأ البزي وابن فليح مشددة التاء ﴿كيد سحر﴾ على المصدر: حمزة وعلي وخلف. الباقون ﴿كيد ساحر﴾ على الوصف. ﴿قال آمنتم﴾ بالمد: أبو عمرو وسهل ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر ونافع وابن كثير عن ابن مجاهد وأبي عون عن قنبل ﴿قال أمنتم﴾ على الخبر بغير مد: حفص وابن مجاهد وأبو عون عن قنبل. الباقون ﴿أآمنتم﴾ بزيادة همزة الاستفهام ﴿ومن يأته﴾ مختلسة الهاء: يزيد وقالون ويعقوب غير زيد، وأبو عمرو عن طريق الهاشمي عن اليزيدي ﴿ومن يأته﴾ بسكون الهاء: خلاد ورجاء والعجلي وشجاع واليزيدي غير أبي شعيب ويحيى وحماد. الباقون ﴿يأته﴾ بالإشباع.

(7/496)

الوقوف: ﴿أخرى﴾ 5 لا لأن "إذ" تفسير المرة ﴿ما يوحى﴾ 5 لا لأن ما بعده تفسير ﴿ما يوحى﴾ ﴿وعدوّله﴾ ط ﴿مني﴾ ج لأن الواو وقد تكون مقحمة وتعلق اللام ب ﴿ألقيت﴾ وقد تكون عاطفة على محذوف أي لتحب ولتصنع، ومن جزم اللام وقف على ﴿مني﴾ لا محالة ﴿على عيني﴾ م لئلا يوهم أن "إذ" ظرف ﴿لتصنع﴾ ﴿من يكفله﴾ ط لانقطاع النظم وانتهاء الاستفهام على أن فاء التعقيب مع

اتحاد القصة يجيز الوصل . ﴿ ولا تحزن ﴾ ط لابتداء منة أخرى ﴿ فتوناً ﴾ 5 ط ﴿

يا موسى ﴾ 5 ﴿ لنفسي ﴾ 5 لاتساق الكلام مع حق الفاء مضمرة ﴿ ذكري ﴾ 5 ج

لمثل ما قلنا والمضمر واو ﴿ طغى ﴾ 5 للآية مع الفاء ﴿ يخشى ﴾ 5 ﴿ يطغى ﴾ 5

﴿ وأرى ﴾ 5 ﴿ ولا تعذبهم ﴾ ط لأن " قد " لتوكيد الابتداء وقد انقطع النظم على

أن اتحاد المقول يجيز الوصل ﴿ من ربك ﴾ ط لذلك فإن الواو للابتداء ﴿ في كتاب ﴾ ج

لاحتمال ما بعده الصفة والاستئناف ﴿ ولا ينسى ﴾ 5 بناء على أن " الذي " صفة

الرب والأحسن تقدير هو الذي أو أعني الذي ﴿ ماء ﴾ ط للالتفات ﴿ شتى ﴾ 5 ﴿

أنعامكم ﴾ ط ﴿ النهى ﴾ 5 ﴿ أخرى ﴾ 5 ﴿ وأبى ﴾ 5 ﴿ يا موسى ﴾ 5

﴿ سوى ﴾ 5 ﴿ ضحى ﴾ 5 ﴿ أتى ﴾ 5 ﴿ بعذاب ﴾ ج لاختلاف الجملتين

﴿ افترى ﴾ 5 ﴿ النجوى ﴾ 5 ﴿ المثلى ﴾ 5 ﴿ صفاً ﴾ 5 ﴿ استعلى ﴾ 5

﴿ ألقى ﴾ 5 ﴿ ألقوا ﴾ ج لأن التقدير فألقوا ما ألقوه فإذا حبالهم مع فاء التعقيب وإذا

المفاجأة المنافيين للوقف ﴿ تسعى ﴾ 5 ﴿ موسى ﴾ 5 ﴿ الأعلى ﴾ 5 ﴿ ما

صنعوا ﴾ ط ﴿ كيد ساحر ﴾ ط ﴿ أتى ﴾ 5 ﴿ وموسى ﴾ 5 ﴿ لكم ﴾ ط

﴿ السحر ﴾ ق للقسم المحذوف ولانقطاع النظم مع فاء التعقيب وإتمام مقصود الكلام

﴿ النخل ﴾ ج لابتداء معنى القسم ولفظ استفهام يعقبه مع اتفاق الجملة واتحاد الكلام .

﴿ وأبقى ﴾ 5 ﴿ قاض ﴾ ط ﴿ الحياة الدنيا ﴾ ط ﴿ من السحر ﴾ ط ﴿ وأبقى

﴿ 5 ﴾ جهنم ﴾ ط ﴿ ولا يحيى ﴾ 5 ﴿ العلى ﴾ 5 لا لأن ما بعده بدل ﴿ فيها ط ﴿ تزكى ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 542 . 543 ﴾

(8/496)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

اعلم أن السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول ، واعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الأمور الثمانية ، وكان من المعلوم أن قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل إلا بإجابته إليها ، لا جرم أجابه الله تعالى إليها ليكون أقدر على الإبلاغ على الحد الذي كلف به فقال : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ فنبه بذلك على أمور : أحدها : كأنه تعالى قال : إني راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال .

وثانيها : إني كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك رداً بعد القبول وإساءة

بعد الإحسان فكيف يليق بكرمي.

وثالثها: إنا لما أعطيناك في الأزمنة السالفة كل ما احتجت إليه ورقيناك من حالة نازلة إلى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب، وههنا سؤالان:

السؤال الأول: لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف؟ والجواب إنما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التي وصلت إليه ما كان مستحقاً لشيء منها بل إنما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والإحسان.

السؤال الثاني: لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة؟ والجواب: لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لأن ذلك قد يقال في القليل والكثير.

(9/496)

واعلم أن المنن المذكورة ههنا ثمانية: المنة الأولى: قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِى التابوت فاقذفيه فِى اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ أما قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليه السلام ما كانت من الأنبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل إلى

الأنبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والإمامة بل عند الشافعي رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء : 7] وهذا صريح في الباب ، وأيضاً فالوحي قد جاء في القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وقال : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ [المائدة : 111] ثم اختلفوا في المراد بهذا الوحي على وجوه : أحدها : المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام في التابوت وقذفه في البحر وأن الله تعالى يرده إليها .

وثانيها : أن المراد عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع إليه ظهر له الرأي الذي هو أقرب إلى الخلاص ويقال لذلك الخاطر إنه وحي .

وثالثها : المراد منه الإلهام لكنا متى بحثنا عن الإلهام كان معناه خطور رأي بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه الثاني وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الإلقاء في البحر قريب من الإهلاك وهو مساوٍ للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الإقدام على أحدهما لأجل الصيانة عن الثاني .

والجواب : لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان إفضاء الإلقاء في البحر إلى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون .

ورابعها : لعله أوحى إلى بعض الأنبياء في ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم إن ذلك النبي عرفها ، إما مشافهة أو مراسلة ، واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها .

والجواب : أن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان يأمره بالذهاب إليه مراراً .

وخامسها : لعل الأنبياء المتقدمين كإبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر إلى تلك المرأة .

وسادسها : لعل الله تعالى بعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم في قوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : 17] وأما قوله : ﴿ مَا يوحى ﴾ فمعناه وأوحينا إلى أمك ما يجب أن يوحى وإنما وجب ذلك الوحي لأن الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل إلى معرفة المصلحة فيها إلا بالوحي فكان الوحي واجباً أما قوله تعالى : ﴿ أَنِ اقذفيه ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن هي المفسرة لأن الوحي بمعنى القول .

المسألة الثانية :

القذف مستعمل في معنى الإلقاء والوضع ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ [الأحزاب : 26] .

المسألة الثالثة :

روى أنها اتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته في النيل وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ بتابوت يجيء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجواري بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً فلما رآه فرعون أحبه وسيأتي تمام القصة في سورة القصص ، قال مقاتل : إن الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون .

المسألة الرابعة :

اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر في قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم .

المسألة الخامسة :

قال الكسائي الساحل فاعل بمعنى مفعول سمي بذلك لأن الماء يسحله أي يقذفه إلى أعلاه .

المسألة السادسة :

قال صاحب "الكشاف" الضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يؤدي إلى تنافر النظم فإن قيل المقذوف في البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام في جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر .

المسألة السابعة :

لما كان تقدير الله تعالى أن يجري ماء اليم ويلقي بذلك التابوت إلى الساحل سلك في ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : قوله : ﴿ يَأْخُذْهُ ﴾ جواب الأمر أي اقذفيه يأخذه .

البحث الثاني : في كيفية الأخذ قولان ، أحدهما : أن امرأة فرعون كانت بحيث تستسقي الجواري فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه إياه .

الثاني : أن البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر إلى

بركة فرعون فلما رآه أخذه.

البحث الثالث: قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ فيه إشكال وهو أن موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى.

وجوابه: أما كونه عدواً لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدواً لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث إنه لو ظهر له حالة لقتله ويحتمل أنه من حيث يؤول أمره إلى ما آل إليه من العداوة.

(12/496)

المنة الثانية: قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وفيه قولان: الأول: وألقيت عليك محبة هي مني قال الزمخشري: ﴿مِنِّي﴾ لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثاني ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أي وألقيت عليك محبة حاصلة مني واقعة بخلقي فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: 9] يروى أنه كانت على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً﴾ [مريم: 96] قال القاضي: هذا الوجه أقرب لأنه

في حال صغره لا يكاد يوصف بمحبة الله تعالى التي ظاهرها من جهة الدين لأن ذلك إنما يستعمل في المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد أن ما ذكرنا من كيفيته في الخلقة يستحلي ويغتبط فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما في التربية ما لا مزيد عليه ويمكن أن يقال بل الاحتمال الأول أرجح لأن الاحتمال الثاني يحوج إلى الإضمار وهو أن يقال : وألقيت عليك محبة حاصلة مني وواقعة بتخليقي وعلى التقدير الأول لا حاجة إلى هذا الإضمار بقي قوله : إنه حال صباه لا يحصل له محبة الله تعالى قلنا : لا نسلم فإن محبة الله تعالى يرجع معناها إلى إيصال النفع إلى عباده وهذا المعنى كان حاصلاً في حقه في حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر إلى آخر عمره فلا جرم أطلق عليه لفظ المحبة .

المنة الثالثة : قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾

(13/496)

قال القفال : لترى على عيني أي على وفق إرادتي ، ومجاز هذا أن من صنع لإنسان شيئاً وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه فكذا ههنا وفي كيفية المجاز قولان : الأول : المراد من العين العلم أن ترى على علم مني ولما كان العالم

بالشيء يحرسه عن الآفات كما أن الناظر إليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه .

الثاني : المراد من العين الحراسة وذلك لأن الناظر إلى الشيء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] ويقال : عين الله عليك إذا دعا لك بالحفظ والحياطة ، قال القاضي ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله : ﴿ وِلتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾ الحفظ والحياطة كقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ فرجعناك إلى أُمّكَ كَى تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ ﴾ فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له ، بقي ههنا بحثان :

الأول : الواو في قوله : ﴿ وِلتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾ فيه ثلاثة أوجه .

أحدها : كأنه قيل : ﴿ وَلتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾ ألقيت عليك محبة مني ثم يكون قوله : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ متعلقاً بأول الكلام وهو قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى * إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمّكَ مَا يوحى ﴾ و ﴿ إذ تمشي أختك ﴾ .

وثانيها : يجوز أن يكون قوله : ﴿ وِلتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾ متعلقاً بما بعده وهو قوله : ﴿ إِذْ تَمْشِي ﴾ وذكرنا مثل هذين الوجهين في قوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [الأنعام : 75

] .

وثالثها : يجوز أن تكون الواو مقحمة أي وألقيت عليك محبة مني لتصنع وهذا ضعيف .

(14/496)

الثاني : قرىء ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر وقرىء ولتصنع بفتح التاء والنصب أي وليكون عملك وتصرفك على علم مني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 45.48 ﴾

(15/496)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَلْقَيْت عَلَيْك مَحَبَّةً مِنِّي ﴾

يَعْنِي أَنِّي جَعَلْت مَنْ رَآك أَحَبَّك حَتَّى أَحَبَّك فِرْعَوْنُ فَسَلِمْت مِنْ شَرِّهِ وَأَحَبَّتْك امْرَأَتُهُ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ فَتَبَنَّتْك .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : "لِتُغَذَّى عَلَى مَحَبَّتِي وَإِرَادَتِي " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(16/496)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَلْقَيتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : حببتك إلى عبادي ، قاله سلمى بن كميل .

الثاني : يعني حسناً وملاحة ، قاله عكرمة .

الثالث : رحمتي ، قاله أبو جعفر (الطبري) . الرابع : جعلت من رآك أحبك ، حتى أحبك فرعون فسلمت من شره وأحبتك آسية بنت مزاحم فتبنتك ، قاله ابن زيد .

ويحتمل خامساً : أن يكون معناه : وأظهرت عليك محبتي لك وهي نعمة عليك لأن من أحبه الله أوقع في القلوب محبته .

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لتغذي على إرادتي ، قاله قتادة .

الثاني : لتصنع على عيني أمك بك ما صنعت من إلقائك في اليم ومشاهدتي .

ويحتمل ثالثاً : لتكفل وتربى على اختياري ، ويحتمل قوله : ﴿ عَلَى عَيْنِي ﴾ وجهين :

أحدهما : على اختياري وإرادتي .

الثاني : بحفظي ورعايتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(17/496)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

(18/496)

المعنى قال الله تعالى : قد أعطيت يا موسى طلبتك في شرح الصدر وتيسير الامر وحل العقدة إما بالكل وإما على قدر الحاجة في الإفقاه . وإتيان هذا السؤال منه من الله عز وجل فقرن إليها عز وجل قديم منته عنده على جهة التوقيف عليها ليعظم اجتهاده وتقوى بصيرته . وكان من قصة موسى فيما روي أن فرعون ذكر له أن خراب ملكه على يدي غلام

من بني إسرائيل فأمر بقتل كل مولود يولد لبني إسرائيل ، ثم إنه رأى مع أهل مملكته أن فناء بني إسرائيل يعود على القبط بالضرر إذ هم كانوا عملة الأرض والصناع ونحو هذا ، فعزم على أن يقتل الوالدان سنة ويستحييهم سنة ، فولد هارون في سنة الاستحياء فكانت أمه آمنة ، ثم ولد موسى في العام الرابع سنة القتل فخافت أمه عليه من الذبح فبقيت مهتمة فأوحى الله إليها ، قيل بملك جاء لها وأخبرها وأمرها ، قال بعض من روى هذا لم تكن نبية لأنا نجد في الشرع ورواياته أن الملائكة قد كلمت من لم يكن نبياً ، وقال بعضهم بل كانت أم موسى نبية بهذا الوحي ، وقالت فرقة بل كان هذا الوحي رؤيا رأتها في النوم ، وقالت فرقة بل هو وحي إلهام وتسديد كوحي الله إلى النحل وغير ذلك فألهمها الله إلى أن اتخذت تابوتاً فقذفت فيه موسى راقداً في فراش ، ثم قذفته في يم النيل ، وكان فرعون جالساً في موضع يشرف على النيل اذا رأى تابوتاً فأمر به ، فسيق اليه وامرأته معه ففتح فرحمته امرأته وطلبته لتتخذه أبناً فأباح لها ذلك وروي أن ﴿ التابوت ﴾ جاء في الماء إلى المشرعة التي كان جواري امرأة فرعون يستقين فيها الماء فأخذن التابوت وجلبنه إليها فأخرجته وأعلمت فرعون وطلبته منه ثم إنها عرضته للرضاع فلم يقبل امرأة ، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويطاف يعرض للمراضع ، فكلما عرضت عليه امرأة أباها . وكانت أمه حين ذهب عنها في النيل بقيت مغمومة فؤادها فارغ إلا من همه فقالت لأخته اطلبي أمره في المدينة عسى أن يقع لنا منه خبر ، فبينما الأخت تطوف إذ بصرت به

وفهمت أمره قالت لهم أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فتعلقوا بها وقالوا أنت تعرفين هذا الصبي ، فقالت لا ، غير أني أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرب الى الملكة والجد في خدمتها ورضاها ، فتركوها ، وسألوها الدلالة فجاءت بأم موسى فلما قربته شرب ثديها ، فسرت آسية أمراة فرعون وقالت لها كوني معي في القصر ، فقالت لها ما كنت لأدع بيتي وولدي ولكنه يكون عندي ، قالت نعم فأحسنت إلى ذلك البيت غاية الإحسان واعتز بنوا إسرائيل بهذا الرضاع ، والسبب من الملكة ، وأقام موسى حتى كمل رضاعه فأرسلت إليها آسية أن جيئي بولدي ليوم كذا ، وأمرت خدمها ومن لها أن يلقينه بالتحف والهدايا واللباس ، فوصل إليها على ذلك وهو بخير حال وأجمل ثياب فسرت به ودخلت على فرعون ليراه ويهبه فرآه وأعجبه وقربه فأخذ موسى عليه السلام بلحية فرعون وجذبها ، فاستشاط فرعون وقال هذا عدو لي وأمر بذبحه ، فناشدته فيه امرأته وقالت إنه لا يعقل ، فقال فرعون بل يعقل فاتفقا على تجربته بالجمر والياقوت حسبما ذكرناه آنفاً في حل العقدة ، فنجاه الله من فرعون ورجع إلى أمه فشب عندها فاعتز به بنو إسرائيل إلى أن ترعرع ، وكان فتى جلداً فاضلاً كاملاً فاعتزت به بنوا اسرائيل بظاهر ذلك

الرضاع وكان يحميهم ويكون ضلعه معهم وهو يعلم من نفسه أنه منهم ومن صميمهم ، فكانت بصيرته في حمايتهم وكيدة ، وكان يعرف ذلك أعيان بني إسرائيل .

(20/496)

ثم إن قصة القبطي المتقاتل مع الإسرائيلي نزلت وذكرها في موضعها مستوعب ، فخرج موسى عليه السلام من مصر حتى وصل إلى مدين ، فكان من أمره مع شعيب ما هو في موضعه مستوعب يختص منه بهذا الموضع أنه تزوج ابنته الصغرى على رعية الغنم عشر سنين ، ثم إنه اعتزم الرحيل بزوجته إلى بلاد مصر فجاء في طريقه فضل في ليلة مظلمة فرأى النار حسبما تقدم ذكره ، فعدد الله تعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من لطف الله تعالى به في كل فصل وتخليصه له من قصة إلى أخرى ، وهذه الفتون التي فتنه بها أي اختبره وخلصه حتى صلح للنبوءة وسلم لها . وقوله ﴿ ما يوحى ﴾ إبهام يتضمن عظم الأمر وجلالته في النعم وهذا نحو قوله تعالى ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ [النجم : 16] وهو كثير في القرآن والكلام ، و ﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن اقذفيه ﴾ بدل من ﴿ ما ﴾ والضمير الأول في ﴿ اقذفيه ﴾ عائد على موسى وفي الثاني على ﴿ التابوت ﴾ ، ويجوز أن يعود على ﴿ موسى ﴾ . وقوله ﴿ فليلقه اليم ﴾ خبر خرج في صيغة

الأمر إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها ، ومنه قول النبي عليه السلام " قوموا فلأصل لكم " فأخبر الخبر في صيغة الأمر لنفسه مبالغة وهذا كثير ، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأمر حسن جوابه كذلك ، و" العدو " الذي هو لله ولموسى كان فرعون ولكن أم موسى أخبرت به على الإبهام وذلك قالت لأخته قصيه وهي لا تدري أين . ثم أخبر تعالى موسى أنه " ألقى عليه محبة " منه فقال بعض الناس أراد محبة آسية لأنها كانت من الله وكانت سبب حياته . وقالت فرقة : أراد القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده ، وكان حظ موسى منه في غاية الوفر . وقالت فرقة : أعطاء جمالاً يحبه به كل من رآه ، وقالت فرقة : أعطاء ملاحة العينين ، وهذان قولان فيهما ضعف وأقوى الأقوال أنه القبول . وقرأ الجمهور و" لِتُصنع " بكسر اللام وضم التاء على معنى ولتغذى وتطعم وتربى ، وقرأ أبو نهيك " ولَتصنع " بفتح التاء ، قال

ثعلب معناه لتكون حركتك وتصرفك على عين مني ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " ولْتصنع " بسكون اللام على الأمر للغالب وذلك متجه . وقوله ﴿ على عيني ﴾ معناه بمرأى مني وأمر مدرك مبصر مراعى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال قد أُوتيتَ سؤلك ﴾

قال ابن قتيبة : أي : طَلِبَتَكَ ، وهو "فُعْل" من "سَأَلت" ، أي : أُعطيتَ ما سألتَ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد مَنَنّا عليكَ ﴾ أي : أنعمنا عليكَ ﴿ مَرَّةً أخرى ﴾ قبل هذه المَرَّة .

ثم بيَّن متى كانت بقوله : ﴿ إذ أَوحينا إِلى أُمِّك ما يوحى ﴾ أي : ألهمناها ما يُلهم مما كان سبباً لنجاتك ، ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ أن اقذفيه في التابوت ﴾ وقذف الشيء : الرمي به .

فإن قيل : ما فائدة قوله : "ما يوحى" وقد علم ذلك ؟ فقد ذكر عنه ابن الأنباري جوابين .

أحدهما : أن المعنى : أوحينا إِليها الشيء الذي يجوز أن يوحى إِليها ، إذ ليس كل الأمور يصلح وحيه إِليها ، لأنها ليست بنبيّ ، وذلك أنها أُلهمت .

والثاني : أن "ما يوحى" أفاد توكيداً ، كقوله : ﴿ فغشّاها ما غشّى ﴾ [النجم : 54] .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيُلقِه اليمُّ ﴾ قال ابن الأنباري : ظاهر هذا الأمرُ ، ومعناه معنى الخبر ، تأويله : يلقيه [اليمُّ] ، ويجوز أن يكون البحر مأموراً بآلة ركَّبها الله تعالى فيه ، فسمع وعقل

، كما فعل ذلك بالحجارة والأشجار .

فأما الساحل ، فهو : شط البحر .

﴿ يأخذْه عدوٌّ لي وعدوٌّ له ﴾ يعني : فرعون .

قال المفسرون : اتخذت أُمُّه تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ، ووضعت فيه موسى وأَحكمت بالقار شقوق التابوت ، ثم ألقته في النيل ، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون ، فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية ، إِذا بالتابوت ، فأمر الغلمان والجواري بأخذه ، فلما فتحوه رأَوا صبياً من أصبح الناس وجهاً ؛ فلما رآه فرعون أحبَّه حُبّاً شديداً ، فذلك قوله : ﴿ وألقيتُ عليكَ محبَّةً مِنّي ﴾ ، [قال أبو عبيدة : ومعنى "ألقيتُ عليكَ" أي : جعلتُ لكَ مَحَبَّةً مِنّي] .

قال ابن عباس : أَحَبَّه وحبَّبَه إِلى خَلْقه ، فلا يلقاه أحد إِلا أحبَّه من مؤمن وكافر .

(23/496)

وقال قتادة : كانت في عينيه مَلاحة ، فما رآه أحد إِلا حبَّه .

قوله تعالى : ﴿ ولِتُصْنَعَ على عيني ﴾ وقرأ أبو جعفر : "ولْتُصنعْ" بسكون اللام والعين والإِدغام .

قال قتادة: لتُغذى على محبتي وإرادتي.

قال أبو عبيدة: على ما أُريد وأُحِبّ.

قال ابن الأنباري: هو من قول العرب: غُذي فلان على عيني، أي: على المَحَبَّة مِنّي.

وقال غيره: لتُرَبَّى وتغذى بمرأىً مني، يقال: صنع الرَّجل جاريته: إِذا ربَّاها؛ وصنع فرسه: إِذا داوم على علفه ومراعاته، والمعنى: وِلتُصْنَعَ على عيني، قدَّرنا مشي أختك وقولها: ﴿ هل أَدُلُّكم على من يَكْفُلُه ﴾ لأن هذا كان من أسباب تربيته على ما أراد الله عز وجل. انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(24/496)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾

لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ما ذكر، أجاب سؤله، وأتاه طِلْبته ومرغوبه.

والسؤل الطِّلْبة؛ فُعْل بمعنى مفعول، كقولك خُبز بمعنى مخبوز وأُكل بمعنى مأكول.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ أي قبل هذه، وهي حفظه سبحانه له من شر الأعداء في الابتداء؛ وذلك حين الذبح.

والله أعلم .

والمنّ الإحسان والإفضال .

وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يوحى ﴾ قيل : "أوحينا" ألهمنا .

وقيل : أوحي إليها في النوم .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : أوحي إليها كما أوحي إلى النبيين .

﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذي صنع التابوت ونَجَره

وكان اسمه حِزْقيل .

وكان التابوت من جُمَّيز .

﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ أي اطرحيه في البحر : نهر النيل .

﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : ﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ أمر وفيه معنى المجازاة .

أي اقذفيه يلقه اليمُّ .

وكذا قوله : ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [العنكبوت : 12] .

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ يعني فرعون ؛ فاتخذت تابوتاً ، وجعلت فيه نطعاً ،

ووضعت فيه موسى ، وقَيَّرت رأسه وخِصَاصه يعني شقوقه ثم ألقته في النيل ، وكان يَشْرَع

منه نهر كبير في دار فرعون ، فساقه الله في ذلك النهر إلى دار فرعون .

وروي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً ، فوضعته فيه وقَيَّرته وجَصَّصته ، ثم ألقته في

اليمّ .

وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعون نهر كبير ، فبينا هو جالس على رأس بِركة مع آسية ، إذا بالتابوت ، فأمر به فأخرج ، ففتح فإذا صبيّ أصبح الناس ، فأحبه عدوّ الله حبًّا شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه .

وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه ، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه .

(25/496)

ويحتمل أن يكون إلقاء اليمّ بموضع من الساحل ، فيه فُوّهة نهر فرعون ، ثم أدّاه النهر إلى حيث البِركة .

والله أعلم .

وقيل : وجدته ابنة فرعون وكان بها برص ، فلما فتحت التابوت شفيت .

وروي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فأعياهم ، فدنت آسِية فرأت في جوف التابوت نوراً فعالجته ففتحته ، فإذا صبيّ نوره بين عينيه ، وهو يمصّ إبهامه لبناً فأحبّوه .

وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقال له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر ، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها رِيقه ؛ فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرئت .

وقيل : لما نظرت إلى وجهه برئت . والله أعلم .

وقيل : وجدته جوارٍ لامرأة فرعون ، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبياً من أصبح الناس وجهاً ، فأحبه فرعون ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحَبَّبه إلى خلقه .

وقال ابن عطية : جعل عليه مَسْحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه .

وقال قَتَادة : كانت في عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبّه وعشقه .

وقال عِكْرمة : المعنى جعلت فيك حسناً وملاحة فلا يراك أحد إلا أحبّك .

وقال الطَبري : المعنى وألقيت عليك رحمتي .

وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبّك حتى أحبّك فرعون فسلمت من شرّه ، وأحبّتك آسِية بنت مُزَاحم فتبنّتك .

﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ قال ابن عباس : يريد إن ذلك بعيني حيث جُعلت في التابوت ، وحيث ألقي التابوت في البحر ، وحيث التقطك جواري امرأة فرعون ؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه ، فقالت منهن واحدة : لا تفتحْنه حتى تأتين به سيد تكنّ فهو أحظى

لكنّ عندها ، وأجدر بألا تتهمكنّ بأنكنّ وجدتن فيه شيئاً فأخذتموه لأنفسكنّ .

وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقينه أولئك الجواري .

(26/496)

فذهبن بالتابوت إليها مغلَقاً ، فلما فتحته رأت صبياً لم يُرَ مثله قطّ ؛ وألقى عليها محبته

فأخذته فدخلت به على فرعون ، فقالت له : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9]

قال لها فرعون : أمّا لك فنَعم ، وأما لي فلا .

فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن فرعون قال نعم هو قرة عين لي ولك

لآمن وصدّق " فقالت : هَبْه لي ولا تقتله ؛ فوهبه لها .

وقيل : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ أي ترَبَّى وتُغذى على مرأى مني ؛ قاله قتادة .

قال النحاس : وذلك معروف في اللغة ؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنتَ القيام

عليه .

والمعنى "وِلتصنع على عينِي" فعلت ذلك .

وقيل : اللام متعلقة بما بعدها من قوله : "إِذ تمشِي أختك" على التقديم والتأخير ف"إذ"

ظرف "لتصنع" .

وقيل : الواو في "وِلتصنع" زائدة .

وقرأ ابن القَعْقاع "وَلْتُصْنَعْ" بإسكان اللام على الأمر ، وظاهره للمخاطب والمأمور غائب .

وقرأ أبو نُهَيك "وِلتَصْنَعَ" بفتح التاء .

والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي وعلى عين مني .

ذكره المهدوي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(27/496)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

والسؤل فعل بمعنى المسؤل كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول ، والمعنى أعطيت طلبتك وما سألته من شرح الصدر وتيسر الأمر وحل العقدة ، وجعل أخيك وزيراً وذلك من المنة عليه .

ثم ذكره تعالى تقديم منته عليه على سبيل التوقيف ليعظم اجتهاده وتقوي بصيرته و ﴿ مرة ﴾ معناه منة و ﴿ أخرى ﴾ تأنيث آخر بمعنى غير أي منة غير هذه المنة ، وليست ﴿ أخرى ﴾ هنا بمعنى آخرة فتكون مقابلة للأولى ، وتخيل ذلك بعضهم فقال : سماها ﴿

أخرى ﴾ وهي أولى لأنها ﴿ أخرى ﴾ في الذكر والأخرى لفظ مشترك يكون تأنيث الآخر بفتح الخاء وتأنيث الآخر بمعنى آخره ، فهذه يلحظ فيها معنى التأخر .

والمعنى أني قد حفظتك وأنت طفل رضيع فكيف لا أحفظك وقد أهّلتك للرسالة .

وفي قوله ﴿ مرة أخرى ﴾ إجمال يفسره قوله ﴿ إذ أوحينا إلى أمّك ﴾ .

قال الجمهور : هي وحي إلهام كقوله ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ وقيل : وحي إعلام إما بإراءة ذلك في منام ، وإما ببعث ملك إليها لا على جهة النبوّة كما بعث إلى مريم وهذا هو الظاهر لظاهر قوله ﴿ يأخذه عدوّ لي وعدوّ له ﴾ ولظاهر آية القصص ﴿ إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ ويبعد ما صدر به الزمخشري قوله : من يرد يده إما أن يكون على لسان نبي في وقتها كقوله ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ لأنه لم ينقل أنه كان في زمن فرعون ، وكان في زمن الحواريين زكريا ويحيى .

وفي قوله ﴿ ما يوحى ﴾ إبهام وإجمال كقوله ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ وفيه تهويل وقد فسر هنا بقوله ﴿ أن اقذفيه في التابوت ﴾ .

قال الزمخشري : و﴿ أن ﴾ هي المفسرة لأن الوحي بمعنى القول .

وقال ابن عطية : و﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن اقذفيه ﴾ بدل من ما يعني أنّ ﴿ أن ﴾

مصدرية فلذلك كان لها موضع من الإعراب .

والوجهان سائغان والظاهر أن ﴿ التابوت ﴾ كان من خشب .

(28/496)

وقيل : من بردى شجر مؤمن آل فرعون سدت خروقه وفرشت فيه نطعاً .

وقيل : قطناً محلوجاً وسدت فمه وجصصته وقيرته وألقته في ﴿ اليم ﴾ وهو اسم للبحر العذب .

وقيل : اسم للنيل خاصة والأول هو الصواب كقوله ﴿ فأغرقناهم في اليم ﴾ ولم يغرقوا في النيل .

والظاهر أن الضمير في ﴿ فاقذفيه في اليم ﴾ عائد على موسى ، وكذلك الضميران بعده إذ هو المحدث عنه لا ﴿ التابوت ﴾ إنما ذكر ﴿ التابوت ﴾ على سبيل الوعاء والفضلة .

وقال ابن عطية : والضمير الأول في ﴿ اقذفيه ﴾ عائد على موسى وفي الثاني عائد على ﴿ التابوت ﴾ ويجوز أن يعود على موسى .

وقال الزمخشري : والضمائر كلها راجعة إلى موسى ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة لما يؤدي إليه من تنافر النظم فإن قلت : المقذوف في البحر هو التابوت وكذلك

الملقى إلى الساحل قلت : ما ضرك لو قلت المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن ، والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر انتهى .

ولقائل أن يقول أن الضمير إذا كان صالحاً لأن يعود على الأقرب وعلى الأبعد كان عوده على الأقرب راجحاً ، وقد نص النحويون على هذا فعوده على ﴿ التابوت ﴾ في قوله ﴿ فاقذفيه في اليم فليلقه اليم ﴾ راجح ، والجواب أنه إذا كان أحدهما هو المحدث عنه والآخر فضلة كان عوده على المحدث عنه أرجح ، ولا يلتفت إلى القرب ولهذا رددنا على أبي محمد بن حزم في دعواه أن الضمير في قوله ﴿ فإنه رجس ﴾ عائد على خنزير لا على لحم لكونه أقرب مذكور ، فيحرم بذلك شحمه وغضروفه وعظمه وجلده بأن المحدث عنه هو لحم خنزير لا خنزير .

(29/496)

و ﴿ فليلقه ﴾ أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها ، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " قوموا فلأصل لكم " أخرج الخبر في صيغة الأمر لنفسه مبالغة ، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأمر حسن جوابه كذلك وهو قوله ﴿

يأخذه ﴾ .

وقال الزمخشري : لما كانت مشيئة الله وإرادته أن لا يخطىء جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وإلقاءه إليه سلك في ذلك سبل المجاز ، وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل ﴿ فليلقه اليم بالساحل ﴾ انتهى .

وقال الترمذي : إنما ذكره بلفظ الأمر لسابق علمه بوقوع المخبر به على ما أخبر به ، فكأن البحر مأمور ممتثل للأمر .

وقال الفراء : ﴿ فاقذفيه في اليم ﴾ أمر وفيه معنى المجازاة أي اقذفيه يلقه اليم ، والظاهر أن البحر ألقاه بالساحل فالتقطه منه .

وروي أن فرعون كان يشرب في موضع من النيل إذ رأى التابوت فأمر به فسيق إليه وامرأته معه ففتح فرأوه فرحمته امرأته وطلبته لتتخذه ابناً فأباح لها ذلك .

وروي أن التابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كانت جواري امرأة فرعون يستقين منها الماء .

فأخذت التابوت وجلبته إليها فأخرجته وأعلمته فرعون والعدو الذي لله ولموسى هو فرعون ، وأخبرت به أم موسى على طريق الإلهام ولذلك قالت لأخته ﴿ قصيه ﴾ وهي لا تدري أين استقر .

﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ .

قيل : محبة آسية وفرعون ، وكان فرعون قد أحبه حباً شديداً حتى لا يتمالك أن يصبر عنه .

قال ابن عباس : أحبه الله وحببه إلى خلقه .

وقال عطية : جعلت عليه مسحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه .

وقال قتادة : كان في عينيه ملاحة ما رآه أحد إلاّ أحبه .

وقال ابن عطية : وأقوى الأقوال أنه القبول .

(30/496)

وقال الزمخشري : ﴿ مني ﴾ لا يخلوا أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب ، وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة أي محبة خالصة أو واقعة مني قد ركزتها أنا فيها في القلوب وزرعتها فيها ، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك .

وقرأ الجمهور ﴿ وِلِتُصْنَعَ ﴾ بكسر لام كي وضم التاء ونصب الفعل أي ولتُرَبَّى ويحسن إليك .

وأنا مراعيك وراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به .

قال قريباً منه قتادة .

وقال النحاس : يقال صنعت الفرس إذا أحسنت إليه وهو معطوف على علة محذوف أي ليتلطف بك ﴿ ولتصنع ﴾ أو متعلقة بفعل متأخر تقديره فعلت ذلك .

وقرأ الحسن وأبو نهيك بفتح التاء .

قال ثعلب : معناه لتكون حركتك وتصرفك على عين مني .

وقرأ شيبة وأبو جعفر في رواية بإسكان اللام والعين وضم التاء فعل أمر ، وعن أبي جعفر كذلك إلا أنه كسر اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(31/496)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾

أي أُعطيتَ سُؤْلك ، فُعْلٌ بمعنى مفعول كالخبز والأُكْل بمعنى المخبوز والمأكول ، والإيتاءُ عبارةٌ عن تعلق إرادتِه تعالى بوقوع تلك المطالبِ وحصولِها له عليه السلام البتةَ وتقديرِه إياها حتماً ، فكلُّها حاصلةٌ له عليه السلام وإن كان وقوعُ بعضها بالفعل مترقباً بعدُ كتيسير الأمر وشدِّ الأزْر ، وباعتباره قيل : سنشُدّ عضُدَك بأخيك ، وقولُه تعالى : ﴿ يا موسى ﴾ تشريفٌ له عليه السلام بشرف الخِطاب إثرَ تشريفِه بشرف قَبول الدعاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتقرير ما قبله وزيادةِ توطينِ نفس موسى عليه السلام بالقبولِ ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعمِ التامة من غير سابقةِ دعاءٍ منه وطلبٍ فلأن يُنعِم عليه بمثلها وهو طالبٌ له وداعٍ أَوْلى وأحرى ، وتصديرُه بالقسم لكمال الاعتناءِ بذلك أي وبالله لقد أنعمنا ﴿ مَرَّةً أخرى ﴾ أي في وقت غيرِ هذا الوقت لا أن ذلك مؤخّرٌ عن هذا فإن أخرى تأنيثُ آخَرَ بمعنى غير ، والمرةُ في الأصل اسمٌ للمرور الواحدِ ثم أُطلق على كل فَعْلة واحدةٍ من الفَعَلات متعدية كانت أو لازمة ، ثم شاع في كل فرد واحدٍ من أفراد ما له أفرادٌ متجددةٌ متعددة فصار علماً في ذلك حتى جُعل معياراً لما في معناه من سائر الأشياء ، فقيل : هذا بناء المرة ، ويقرب منها الكرّةُ والتارةُ والدفعةُ والمراد بها هاهنا الوقتُ الممتدّ الذي وقع فيه ما سيأتي ذكرُه من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمّكَ مَا يوحى ﴾ ظرفٌ لمننّا والمرادُ بالإيحاء إما الإيحاءُ على لسان نبيَ في وقتها كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ الآية ، وإما الإيحاءُ بواسطة المَلك لا على وجه النبوّة كما أوحيَ إلى مريم ، وإما الإلهامُ كما في قوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ وإما الإراءةُ في المنام والمرادُ بما يوحى ما سيأتي من

الأمر بقذفه في التابوت وقذْفه في البحر ، أُبهم أولاً تهويلاً له وتفخيماً لشأنه ثم فُسّر ليكون أقرَّ عند النفسِ ، وقيل : معناه ما ينبغي أن يوحى ولا يُخَلّ به لِعظم شأنه وفرْطِ الاهتمام به ، وقيل : ما لا يُعلم إلا بالوحي وفيه أنه لا يلائم المعنيين الأخيرين للوحي إذ لا تفخيمَ لشأنه في أن يكون مما لا يُعلم إلا بالإلهام أو بالإراءة في المنام .

(33/496)

وأنْ في قوله تعالى : ﴿ أَنِ اقذفيه فِى التابوت ﴾ مفسِّرةٌ لأن الوحيَ من باب القول أو مصدريةٌ حُذف منها الباء ، أي بأن اقذفيه ومعنى القذْفِ هاهنا الوضعُ وأما في قوله تعالى : ﴿ فاقذفيه فِى اليم ﴾ فالإلقاءُ ، وهذا التفصيلُ هو المرادُ بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ لا القذفُ بلا تابوت ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ لما كان إلقاءُ البحرِ إياه بالساحل أمراً واجبَ الوقوع لتعلق الإرادةِ الربانية به جُعل البحرُ كأنه ذو تمييزٍ مطيعٍ أُمر بذلك وأُخرج الجوابُ مُخرجَ الأمر والضمائرُ كلُّها لموسى عليه الصلاة والسلام ، والمقذوفُ في البحر والمُلقى بالساحل وإن كان هو التابوتَ أصالةً لكنْ لما كان المقصودُ بالذات ما فيه جُعل التابوتُ تبعاً له في ذلك ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لّى وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ جوابٌ للأمر بالإلقاء ، وتكريرُ العدو للمبالغة والتصريحِ بالأمر والإشعارِ بأن عداوتَه له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا

تضرُه ، بل تؤدي إلى المحبة فإن الأمر بما هو سبب للهلاك صورةً من قذفه في البحر ووقوعِه في يد عدو الله تعالى وعدوِّه مشعرٌ بأن هناك لُطفاً خفياً مندرجاً تحت قهرٍ صوريّ ، وقيل : الأولُ باعتبار الواقعِ والثاني باعتبار المتوقَّع وليس المرادُ بالساحل نفسَ الشاطىء بل ما يقابل الوسطَ وهو ما يلي الساحلَ من البحر بحيث يجري ماؤه إلى نهر فرعون ، لما روي أنها جَعلتْ في التابوت قُطناً ووضعتْه فيه ثم قيّرتْه وألقتْه في اليم وكان يشرَع منه إلى بستان فرعون نهرٌ صغير فدفعه الماءُ إليه فأتى به إلى بِركة في البستان ، وكان فرعونُ جالساً ثَمّةَ مع آسيةَ بنتِ مُزاحِم فأمر به فأُخرج ففُتح فإذا هو صبيٌّ أصبحُ الناس وجهاً ، فأحبه عدوُّ الله حباً شديداً لا يكاد يتمالك الصبرَ عنه وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مّنّى ﴾ كلمةُ مِنْ متعلقةٌ بمحذوف هو صفةٌ لمحبةً مؤكدةٌ

(34/496)

لما في تنكيرها من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافية ، أي محبةً عظيمة كائنةً مني قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدوُّ الله وآلُه . وقيل : هي متعلقةٌ بألقيت أي أحببتُك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوبُ لا محالة وقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ متعلقٌ بألقيتُ معطوفٌ على علة له مُضمَرة ، أي ليتعطّف عليك

ولتربى بالحنوّ والشفقة بمراقبتي وحِفظي ، أو بمضمر مؤخّرٍ هو عبارةٌ عما قبله من إلقاء المحبةِ ، والجملةُ مبتدأةٌ أي ولتصنع على عيني فعلتُ ذلك ، وقرىء وِلتُصْنعْ على صيغة الأمر بسكون اللام وكسرها وقرىء بفتح التاء والنصب أي وليكونَ عملُك على عين مني لئلا يخالَفَ به عن أمري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(35/496)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

أي قد أعطيت سؤلك ففعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول ، والإيتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديهر تعالى إياها حتماً فكلها حاصلة له عليه السلام وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتباً بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] وظاهر بعض الآثار يقتضي أن شركة هرون عليه السلام في النبوة أي استنبائه كموسى عليه السلام وقعت في ذلك المقام وإن لم يكن عليه السلام فيه مع أخيه ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في قوله : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ [طه : 32] نبىء

هرون ساعتئذ حين نبىء موسى عليهما السلام ، ونداؤه عليه السلام تشريف له بالخطاب إثر تشريف .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين لنفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليك بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء وطلب منه فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى .

وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا ﴿ مَرَّةً أخرى ﴾ أي في وقت غير هذا الوقت على أن أخرى تأنيث آخر بمعنى مغايرة .

و ﴿ مَرَّةٍ ﴾ ظرف زمان والمراد به الوقت الممتد الذي وقع فيه ما سيأتي إن شاء الله تعالى ذكره في المنن العظيمة الكثيرة .

وهو في الأصل اسم لمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة متعدية كانت أو لازمة ثم شاع في كل فرد واحد من أفراد ماله أفراد متجددة فصار علماً في ذلك حتى جعل معياراً لما في معناه من سائر الأشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منه الكرة والتارة والدفعة .

وقال أبو حيان : المراد منه غير هذه المنة وليست ﴿ أخرى ﴾ تأنيث آخر بكسر الخاء لتكون مقابلة للأولى .

وتوهم ذلك بعضهم فقال : سماها سبحانه أخرى وهي أولى لأنها أخرى في الذكر .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ مَا يوحى ﴾ ظرف لمننا سواء كان بدلاً من ﴿ مرة ﴾ [طه : 37] أم لا ، وقيل : تعليل وهو خلاف الظاهر ، والمراد بالإيحاء عند الجمهور ما كان بالهام كما في قوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وتعقب بأنه بعيد لأنه قال تعالى في سورة القصص : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] ومثله لا يعلم بالإلهام وليس بشيء لأنها قد تكون شاهدت منه عليه السلام ما يدل على نبوته وأنه تعالى لا يضيعه ، والهام الأنفس القدسية مثل ذلك لا بعد فيه فإنه نوع من "الكشف" ألا ترى قول عبد المطلب وقد سمى نبينا صلى الله عليه وسلم محمداً فقيل له : لم سميت ولدك محمداً وليس في أسماء آبائك ؟ : إنه سيحمد ، وفي رواية رجوت أن يحمد في السماء والأرض مع أن كون ذلك داخلاً في الملهم ليس بلازم .

واستظهر أبو حيان أنه كان ببعث ملك إليها لا على جهة النبوة كما بعث إلى مريم وهو مبني على أن الملك يبعث إلى غير الأنبياء عليهم السلام وهو الصحيح لكن قيل : عليه أنه حينئذ ينتقض تعريف النبي بأنه من أوحى إليه ، ولو قيل : من أوحي إليه على وجه النبوة دار التعريف وأجيب بأنه لا يتعين ذلك .

ولو قيل : من أوحى إليه بأحكام شرعية لكنه لم يؤمر بتبليغها لم يلزم محذور .

وقال الجبائي : إنه كان بالإراءة منا ما .

وقيل : كان على لسان نبي في وقتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ [المائدة : 111] وتعقب بأنه خلاف الظاهر فإنه لم ينقل إنه كان نبي في مصر زمن فرعون قبل موسى عليه السلام .

(37/496)

وأجيب بأن ذلك لا يتوقف على كون النبي في مصر ، وقد كان شعيب عليه السلام نبياً في زمن فرعون في مدين فيمكن أن يكون أخبرها بذلك على أن كثرة أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام مما شاع وذاع ، والحق أن إنكار كون ذلك خلاف الظاهر مكابرة .

واختلف في اسم أمه عليه السلام مما شاع وذاع ، والحق أن إنكار كون ذلك خلاف الظاهرة مكابرة .

واختلف في اسم أمه عليه السلام والمشهور أنه يوحانذ ، وفي الاتقان هي محيانة بنت يصهر بن لاوى ، وقيل : بارخا ، وقيل : بازخت وما اشتهر من خاصية فتح الاقفال به بعد رياضة مخصوصة له مما لم نجد فيه أثراً ولعله حديث خرافة ، والمراد بما يوحى ما قصه الله تعالى فيما بعد من الأمر بقذفه في التابوت .

وقدفه في "البحر" أبهم أولاً تهويلاً له وتفخيماً لشأنه ، ثم فسر ليكون أقر عند النفس ، وقيل : معناه ما ينبغي أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به كما يقال هذا مما يكتب ، وقيل : ما لا يعلم إلا بالوحي ، والأول أوفق بكل من المعاني السابقة المرادة بالإيحاء إلا أنه قيل : عليه إنه لو كان المراد منه التفخيم والتهويل لقيل إذ أوحينا إلى أمك ما أوحينا كما قال سبحانه ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [النجم : 10] ، وقال تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] فإن تم هذا فما قيل في معناه ثانياً أولى فتدبر .

﴿ أَنِ اقذفيه فِى التابوت ﴾

(38/496)

مفسرة لأن الوحي من باب القول أو مصدرية حذف عنها الباء بأن اقذفيه ، وقال ابن عطية : ﴿ إن ﴾ وما بعدها في تأويل مصدر بدل من ما ، وتقديم الكلام في وصل أن المصدرية بفعل الأمر ، والمراد بالقذف هنها الوضع ، وأما في قوله تعالى : ﴿ فاقذفيه فِى اليم ﴾ فالمراد به الإلقاء والطرح ، ويجوز أن يكون المراد به الوضع في الموضعين ، و ﴿ أَليمُ ﴾ البحر لا يكسر ولا يجمع جمع سلامة ، وفي "البحر" هو اسم للبحر العذب ، وقيل : اسم للنيل خاصة وليس بصحيح ، وهذا التفصيل هنا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا

خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ [القصص : 7] لا القذف بلا تابوت ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ أي بشاطئه وهو الجانب الخالي عن الماء مأخوذ من سحل الحديد أي برده وقشره وهو فاعل بمعنى مفعول لأن الماء يسحله أي يقسره أو هو للنبس أي ذو سحل يعود الأمر إلى مسحود ، وقيل : هو على ظاهره على معنى أنه يسحل الماء أي يفرقه ويضيعه ؛ وقيل : هو من السحيل وهو النهيق لأنه يسمع منه صوت ، والمراد به هنا ما يقابل الوسط وهو ما يلي الساحل من البحر حيث يجري ماؤه إلى نهر فرعون .

وقيل : المراد بالساحل الجانب والطرف مطلقاً والمراد من الأمر الخبر واختير للمبالغة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " قوموا فلأصول لكم " ولإخراج ذلك مخرج الأمر حسن الجواب فيما بعد ، وقال غير واحد : إنه لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك ، وأخرج الجوا بمخرج الأمر ففي اليم استعارة بالكناية وإثبات الأمر تخييل ، وقيل : إن في قوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ استعارة تصريحية تبعية والضمائر كلها لموسى عليه السلام إذ هو المحدث عنه والمقذوف في البحر والملقى بالساحل وإن كان هو التابوت أصالة لكن لما كان المقصود

بالذات ما فيه جعل التابوت تبعاً له في ذلك ، وقيل : الضمير الأول لموسى عليه السلام والضميران الأخيران للتابوت ، ومتى كان الضمير صالحاً لأن يعود على الأقرب وعلى الأبعد كان عوده على الأقرب راجحاً كما نص عليه النحويون ، وبهذا رد على أبي محمد بن في دعواه عود الضمير في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ [الأنعام : 145] على لحم لأنه المحدث عنه لا على خنزير فيحل شحمه وغضروفه وعظمه وجلده عنده لذلك ، والحق أن عدم التفكيك فيما نحن فيه أولى ، وما ذكره النحويون ليس على إطلاقه كما لا يخفى ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ جواب للأمر بالإلقاء وتكرير العدو للمبالغة من حيث أنه يدل على أن عداوته كثيرة لا واحدة ، وقيل : إن الأول للواقع والثاني للمتوقع وليس من التكرير للمبالغة في شيء لأن ذلك فرع جواز أن يقال : عدو لي وله وهو لا يجوز إلا عند القائلين بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وأجيب بأن ذلك جائز وليس فيه الجمع المذكور فإن فرعون وقت الأخذ متصف بالعداوة لله تعالى وله في الواقع أما اتصافه بعداوة الله تعالى فظاهر ؛ وأما اتصافه بعداوة موسى فمن حيث أنه يبغض كل مولود في تلك السنة ، ولو قلنا بعدم الاتصاف بعداوة

موسى عليه السلام إذ ذاك يجوز أن يقال ذلك أيضاً ويعتبر عموم المجاز وهو المخلص عن الجمع بين الحقيقة والمجاز فيما يدعى فيه ذلك .

وقال الخفاجي : إنه لا يلزم الجمع لأن ﴿ عَدُوٌّ ﴾ صفة مشبهة دالة على الثبوت الشامل للواقع والمتوقع .

ولا يخفى أن هذا قول بأن الثبوت في الصة المشبهة بمعنى الدوام ، وقد قال هو في الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء : 37] : إن معنى دلالتها على الثبوت أنها لا تدل على تجدد وحدوث لا أنها تدل على الدوام كما ذكر النحاة ، فما يقال : إن ﴿ مَرَحاً ﴾ صفة مشبهة تدل على الثبوت ونفيه لا يقتضي نفي أصله مغالطة نشأت من عدم فهم معنى الثبوت فيها انتهى ، على أن كلامه هنا بعد الاغماض عن منافاته لما ذكره قبل لا يخلو عن شيء .

ومما ذكره فيما تقدم من تفسير معنى الثبوت يعلم أن الاستدلال بهذه الآية على أن فرعون لم يقبل إيمانه ومات كافراً كما هو الحق ليس بصحيح وكم له من دليل صحيح .

والظاهر أنه تعالى أبهم لها هذا العدو ولم يعلمها باسمه وإلا لما قالت لأخته ﴿ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : 11] .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ كلمة ﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف مؤكدة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي محبة عظيمة كائنة مني قد

زرعتها في القلوب فكل من رآك أحبك بحيث لا يصبر عنك ، قال مقاتل : كان في عينيه ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه ، وقال ابن عطية : جعلت عليه مسحة جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه ، روى أن أمه عليه السلام أوحي إليها ما أوحى جعلته في تابوت من خشب ، وقيل : من بردى عمله مؤمن آل فرعون وسدت خروقه وفرشت فيه نطعاً ، وقيل : قطنا محلوجاً وسدت فمه وجصصته وقيرته والقتة في اليم فبينما فرعون في موضع يشرف على النيل وامرأته معه إذ رأى التابوت عند الساحل فأمر به ففتح فإذا صبى أصبح الناس وجهاً فأحبه هو امرأته حباً شديداً .

(41/496)

وقيل : إن التابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كانت جواري امرأة فرعون يستقين منها الماء فأخذن التابوت وجئن به إليها وهن يحسبن أن فيه مالاً فلما فتحته رأته عليه السلام فأحبته وأعلمت فرعون طلبت منه أن يتخذه ولداً ، وقال : قرة عين لي ولك لا تقتلوه ، فقال لها : يكون لك وأما وأنا فلا حاجة لي فيه .

ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رواه النسائي وجماعة عن ابن عباس : " والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له كما قالت امرأته لهداه الله تعالى به كما

هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك" وقيل: إن فرعون كان جالساً على رأس بركة له في بستان ومعه امرأته فرأى التابوت وقد دفعه الماء إلى البركة من نهر يشرع من اليمن فأمر بإخراجه فأخرج ففتح فإذا صبي أجمل الناس وجهاً فأحبه حتى لا يكاد يصبر عنه، وروى أنه كان بحضرته حين رأى التابوت أربعمائة غلام وجار فحين أشار بأخذه وعد من يسبق إلى ذلك بالاعتاق فتسابقوا جميعاً ولم يظفر بأخذه إلا واحد منهم فأعتق الكل، وفي هذا ما يطمع المقصر في العمل من المؤمنين برحمة الله تعالى فإنه سبحانه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، وقيل: كلمة من متعلقة بألقيت فالمحبة الملقاة بحسب الذوق هي محبة الله تعالى له أي أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لا محالة، واعترض القاضي على هذا بأن في الصغر لا يوصف الشخص بمحبة الله تعالى إياه فإنها ترجع إلى إيصال الثواب وهو إنما يكون للمكلف.

ورد بأن محبة الله تعالى عند المؤولين عبارة عن إرادة الخير والنفع وهو أعم من أن يكون جزاء على عمل أو لا يكون والرد عند من لا يؤول أظهر، وجوز بعضهم إرادة المعنى الثاني على القول الأول في التعلق وإرادة المعنى الأول على القول الثاني فيه، وزعم أن وجه التخصيص غير ظاهر وهو لا يخفى على ذي ذهن مستقيم وذوق سليم.

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ متعلق بالقيت على أنه عطف على علة مضمرة أي ليتعطف عليك ولتصنع أو متعلق بفعل مضمر مؤخر أي ولتصنع الخ فعلت ذلك أي إلقاء المحبة عليك ، وزعم أنه متعلق بألقيت على أن الواو مقحمة ليس بشيء وعلى عيني أي بمراي مني متعلق بمحذوف وقع حالاً من المستتر في ﴿ تصنع ﴾ وهو استعارة تمثيلية للحفظ والصون فإن المصون يجعل بمرأى والصنع الإحسان ، قال النحاس : يقال صنعت الفرس إذا أحسنت إليه .

والمعنى وليفعل بك الصنيعة والإحسان وتربى بالحنو والشفقة وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به .

ويجعل ذلك تمثيلاً يندفع ما قاله الواحدي من أن تفسير ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ بما تقدم صحيح ولكن لا يكون في ذلك تخصيص لموسى عليه السلام فإن جميع الأشياء بمرأى من الله تعالى على أنه قد يقال : هذا الاختصاص للتشريف كاختصاص عيسى عليه السلام بكلمة الله تعالى والكعبة ببيت الله تعالى مع أن الكل موجود بكن وكل البيوت بيت الله سبحانه ، وقال قتادة : المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي وهو اختيار أبي عبيدة .

وابن الانباري وزعم الواحدي أنه الصحيح .

وقرأ الحسن .

وأبو نهيك "ولتصنع" بفتح التاء ، قال ثعلب : المعنى لتكون حركتك وتصرفك على عين مني لئلا تخالف أمرى .

وقرأ أبو جعفر في رواية ﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ بكسر اللام وجزم الفعل بها لأنها لام الأمر وأمر المخاطب باللام شاذ لكن لما كان الفعل مبنياً للمفعول هنا وكان أصله مسنداً للغائب ولا كلام في أمره باللام استصحب ذلك بعد نقله إلى المفعول للاختصار ، والظاهر أن العطف على قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ إلا أن فيه عطف الإنشاء على الخبر وفيه كلام مشهور لكن قيل هنا : إنه هون أمره كون الأمر في معنى الخبر .

وقال "صاحب اللوامح" : إن العطف على قوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ فلا عطف فيه للإنشاء على الخبر .

وقرأ شيبة .

(43/496)

وأبو جعفر في رواية أخرى كذلك إلا أنه سكن اللام وهي لام الأمر أيضاً وبقية الكلام نحو ما مر .

ويحتمل أن تكون لام كي سكنت تخفيفاً ولم يظهر فتح العين للإدغام، قال الخفاجي: وهذا حسن جداً. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(44/496)

وقال القاسمى:

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا ﴾

أي: ألقينا بطريق الإلهام: ﴿ إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ أي: الصندوق: ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أي: البحر، متوكلةً على خالقه: ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي ﴾ لدعواه الألوهية: ﴿ وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ لدعوته إلى نبذ ما يدعيه.

قال الزمخشريّ: لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته - أن لا تخطئ جرية اليم، الوصولَ به إلى الساحل، وإلقاءه إليه - سلك في ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أُمر بذلك، ليطيع الأمر ويمتثل رسمه. فقيل: ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أي: على سبيل الاستعارة بالكناية. بتشبيه اليم بمأمور منقاد. وإثبات الأمر تخييل، وقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أي: واقعة مني، زرعتها في قلب من يراك. ولذلك أحبك فرعون: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ أي: ولتربّى بيد العدوّ على نظري بالحفظ والعناية. فعلى

عيني استعارة تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى . قيل : وعلى بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى مني، في الأصل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 131 . 132 ﴾

(45/496)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة . أنه منّ على موسى مرة أخرى قبل مَنّه عليه بالرسالة ورسالة أخيه معه، وذلك بإنجائه من فرعون وهو صغير، إذ أوحى إلى أمه أي ألهمها وقذف في قلبها ، وقال بعضهم : هي رؤيا منام . وقال بعضهم : أوحى إليها ذلك بواسطة ملك كلمها بذلك . ولا يلزم من الإيحاء في أمر خاص أن يكون الموحى إليه نبياً ، و« أن » في قوله ﴿ أَنِ اقذفيه ﴾ هي المفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه . والتعبير بالموصول في قوله ﴿ مَا يوحى ﴾ للدلالة على تعظيم شأن الأمر المذكور، كقوله : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] ، وقوله ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَآ أوحى ﴾ [النجم : 10] والتابوت : الصندوق . واليم : البحر . والساحل : شاطئ البحر . والبحر

المذكور : نيل مصر . والقذف : الإلقاء والوضع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ [الأحزاب : 26] ومعنى ﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت ﴾ أي ضعيه في الصندوق . والضمير في قوله ﴿ أَنِ اقذفيه ﴾ راجع إلى موسى بلا خلاف . وأما الضمير في قوله ﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ وقوله ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ فقيل : راجع إلى التابوت . والصواب رجوعه إلى موسى في داخل التابوت ، لأن تفريق الضمائر غير حسن ، وقوله ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ هو فرعون ، وصيغة الأمر في قوله ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ فيها وجهان معروفان عند العلماء :

(46/496)

أحدهما أن صيغة الأمر معناها الخبر ، قال أبو حيان في البحر المحيط : و﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها .

الوجه الثاني أن صيغة الأمر في قوله ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ أريد بها الأمر الكوني القدري ، كقوله ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله أمره بذلك كوناً وقدراً . وقد قدمنا ما يشبه هذين الوجهين في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآيات أوضحه في غير هذا الموضع ، كقوله في « القصص » :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : 7 – 8] وقد بين تعالى شدة جزع أمه عليه لما ألقته في البحر ، وألقاه في اليم بالساحل ، وأخذه عدوه فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : 10] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ يَأْخُذْهُ ﴾ مجزوم في جواب الطلب الذي هو ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ وعلى أنه بمعنى الأمر الكوني فالأمر واضح . وعلى أنه بمعنى الخبر فالجزم مراعاة لصيغة اللفظ . والعلم عند الله تعالى .

(47/496)

وذكر في قصتها أنها صنعت له التابوت وطلته بالقار وهو الزفت لئلا يتسرب منه الماء إلى موسى في داخل التابوت ، وحشته قطناً محلوجاً . وقيل : إن التابوت المذكور من شجر الجميز ، وأن الذي نجره لها هو مؤمن آل فرعون ، قيل : واسمه حزقيل . وكانت عقدت في التابوت حبلاً فإذا خافت على موسى من عيون فرعون أرسلته في البحر وأمسكت طرف

الحبل عندها ، فإذا أمنت جذبته إليها بالحبل . فذهبت مرة لتشد الحبل في منزلها فانفلت منها وذهب البحر بالتابوت الذي فيه موسى فحصل لها بذلك من الغم والهم ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ [القصص : 10] الآية .

وما ذكره جلا وعلا في هذه الآية الكريمة من مننه المتابعة على موسى حيث قال ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 37] أشار إلى ما يشبهه في قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا على موسى وَهَارُونَ ﴾ [الصافات : 114] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ .

من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى وعليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما ذكره جل وعلا في « القصص » في قوله : ﴿ وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص : 9] الآية ، قال ابن عباس ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ : أي أحبه الله وحببه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مسحة من جمال . لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتادة : كانت في عيني موسى ملاحة ، ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه . قاله القرطبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(48/496)

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾

وعد له بالإجابة ، وتصديق له فيما توسمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه .

والسُؤْلُ بمعنى المسؤول .

وهو وزن فُعْل بمعنى مفعول كالخُبز بمعنى المخبوز ، والأُكْل بمعنى المأكول .

وهذا يدل على أن العقدة زالت عن لسانه ، ولذلك لم يحك فيما بعد أنّه أقام هارون بمجادلة فرعون .

ووقع في التّوراة في الإصحاح السابع من سفر الخروج : "فقال الرب لموسى أنت تتكلّم بكلّ ما أمرك به وهارون أخوك يكلّم فرعون" .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) ﴾

جملة ولقد مَنَنَا عليكولَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قد أوتيتَ سُؤْلك ﴾ [طه : 36] لأنّ جملة ﴿ قد أوتيت سؤلك تتضمن منّة عليه ، فعطف عليها تذكير بمنّة عليه أخرى في وقت ازدياده ليعلم أنّه لما كان بمحل العناية من ربّه من أوّل أوقات وجوده فابتداؤه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعدَ سؤاله أحْرى ، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة ، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه .

فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيّداً في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد: ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضحى: 8 5].

وتأكيد الخبر بلام القسم و(قد) لتحقيق الخبر، لأنّ موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى: ﴿ قد أوتيت سؤلك ﴾ [طه: 36].

والمَرّة: فَعلة من المرور، غلبت على معنى الفَعلة الواحدة من عمل معيّن يعرف بالإضافة أو بدلالة المقام.

(49/496)

وقد تقدمت عند قوله تعالى: ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ في سورة براءة (13).

وانتصاب ﴿ مَرَّةً ﴾ هنا على المفعولية المطلقة لفعل ﴿ مَنَنَّا ﴾، أي مرّة من المنّ.

ووصفها بأخرى هنا باعتبار أنها غير هذه المنّة.

و﴿ إذْ ﴾ ظرف للمنّة.

والوحي، هنا: وحي الإلهام الصادق.

وهو إيقاع معنى في النفس ينثلج له نفس الملقى إليه بحيث يجزم بنجاحه فيه وذلك من توفيق الله تعالى.

وقد يكون بطريق الرؤيا الصالحة التي يقذف في نفس الرائي أنها صدق.

و﴿ ما يوحى ﴾ موصول مفيد أهمية ما أوحي إليها.

ومفيد تأكيد كونه إلهاماً من قبل الحق.

و﴿ أنِ ﴾ تفسير لفعل ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ لأنه معنى القول دون حروفه أو تفسير ليوحى.

والقذف: أصله الرمي، وأطلق هنا على الوضع في التابوت، تمثيلاً لهيئة المُخفى عمله، فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجراً ونحوه.

والتابوت: الصندوق.

وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ﴾ في سورة البقرة (248).

واليمّ: البحر، والمراد به نهر النّيل.

والساحل: الشاطئ، ولام الأمر في قوله فَلْيُلْقِهِ ﴾ دالة على أمر التكوين، أي سخرنا اليَمّ لأن يلقيه بالساحل، ولا يبتعد به إلى مكان بعيد، والمراد ساحل معهود، وهو الذي يقصده آل فرعون للسباحة.

والضمائر الثلاثة المنصوبة يجوز أن تكون عائدة إلى موسى لأنّه المقصود وهو حاضر في ذهن أمّه الموحى إليها، وقَذفه في التّابوت وفي اليَمّ وإلقاؤه في الساحل كلها أفعال متعلّقة

بضميره ، إذ لا فرق في فعل الإلقاء بين كونه مباشراً أو في ضمن غيره ، لأنه هو المقصود بالأفعال الثلاثة .

ويجوز جعل الضميرين الأخيرين عائدين إلى التابوت ولا لبس في ذلك .

وجزم ﴿ يَأْخُذْهُ ﴾ في جواب الأمر على طريقة جزم قوله ﴿ يفقهوا قولي ﴾ [طه : 28] المتقدم آنفاً .

(50/496)

والعدوّ : فرعون ، فهو عدوّ الله لأنه انتحل لنفسه الإلهية ، وعدوّ موسى تقديراً في المستقبل ، وهو عدوّه لو علم أنه من غلمان إسرائيل لأنّه اعتزم على قتل أبنائهم .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾

عطف على جملة ﴿ أوحينا أي حين أوحينا إلى أمّك ما كان به سلامتك من الموت ، وحين ألقيت عليك محبّة لتحصل الرقّة لواجده في اليَمّ ، فيحرص على حياته ونمائه ويتخذه ولداً كما جاء في الآية الأخرى ﴿ وقالت امرأة فرعون قرّة عينٍ لي ولك لا تقتلوه ﴾ [القصص : 9] ؛ لأنّ فرعون قد غلب على ظنه أنّه من غلمان إسرائيل وليس من أبناء القبط ، أو لأنه يخطر بباله الأخذ بالاحتياط .

وإلقاء المحبة مجاز في تعلّق المحبة به، أي خلق المحبّة في قلب المحبّ بدون سبب عاديّ حتى كأنه وضعٌ باليد لا مقتضي له في العادة.

ووصف المحبّة بأنها من الله للدّلالة على أنها محبّة خارقة للعادة لعدم ابتداء أسباب المحبّة العرفيّة من الإلف والانتفاع، ألا ترى قول امرأة فرعون: ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ [القصص: 9] مع قولها: ﴿ قرّة عين لي ولك ﴾ [القصص: 9]، فكان قرة عين لها قبل أن ينفعها وقبل اتخاذه ولداً.

جملة ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عينى * إذْ تمشى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ فرجعناك إلى أُمِّكَ كَى تَقَرَّ عَيْنُها وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فنجيناك ﴾ عطف على جملة ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ﴾ الخ.

جُعل الأمران إتماماً لمنّة واحدة لأن إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلاّ إذا أنجاه من الموت بالذبول لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا ولي تربيته من لا يشفق عليه الشفقة الجبليّة.

والتقدير: وإذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله لأجل أن تُصنع على عيني.

والصنع: مستعار للتربية والتنمية، تشبيهاً لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعة فلان.

وأخت موسى : مريم ابنة عمران .

وفي التّوراة : أنّها كانت نبيئة كما في الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج.

وتوفيت مريم سنة ثلاث من خروج بني إسرائيل من مصر في برية صِين كما في الإصحاح التاسع عشر من سفر العدد .

وذلك سنة 1417 قبل المسيح .

وقرأه الجمهور بكسر اللام على أنها لام كي وبنصب فعل تُصنَعَ .

وقرأه أبو جعفر بسكون اللاّم على أنها لام الأمر وبجزم الفعل على أنّه أمر تكويني ، أي وقلنا : لتصنع .

وقوله على عيني ﴾ (على) منه للاستعلاء المجازي ، أي المصاحبة المتمكنة ، فعلى هنا بمعنى باء المصاحبة قال تعالى : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

والعَين : مجاز في المراعاة والمراقبة كقوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ [هود : 37] ، وقول النابغة:

عهدتك ترعاني بعينٍ بصيرة . . .

وتبعثُ حُراساً عليّ وناظِرا

ووقع اختصار في حكاية قصة مشي أخته، وفصّلت في سورة القصص. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(52/496)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

سُؤْل : أي : الشيء المسئول مثل (خُبز) أي : مخبوز، فالمراد : أعطيناك ما سألتَ، بل وأعطيناك قبل أن تسأل، بل وقبل أن تعرف كيف تسأل : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾

(مّننا) من المنة، وهي العطاء بلا مقابل على خلاف الجزاء، وهو العطاء مقابل عمل ﴿ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 37] إذن : هناك مرة أولى، لكن المراد بالمنّة هنا ما حدث من الوحي إلى أم موسى وهو صغير، فهي في الحقيقة المنّة الأولى إنما قال هنا ﴿ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 37] هذا ترتيب ذكري حَسْب ذِكْر الأحداث.

فمتى كانت هذه المنّة ؟

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) ﴾

إذ : يعني وقت أنْ أوحينا إلى أمك ما يُوحَى . فكانت هذه هي المنة الأولى عليك حين وُلدت في عام ، يقتل فيه فرعون الذكور ، فمنّنا عليك لما قلنا لأمك : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] .

ومعنى ﴿ مَا يوحى ﴾ [طه : 38] أي : أمراً عظيماً لك أن تقدره أنت فتذهب فيها نفسك كل مذهب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] ويُفصِّل الحق سبحانه هذا الوحي لأم موسى ، فيقول تعالى : ﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت ﴾

هذا ما أوحينا به إلى أم موسى .

واليمُّ : البحر الكبير ، سواء أكان مالحاً أم عَذْباً ، فلما تكلّم الحق سبحانه عن فرعون قال : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ [الأعراف : 136] والمراد : البحر الأحمر ، أما موسى فقد وُلِد في مصر وأُلْقِي تابوته في النيل ، وكان على النيل قصر فرعون .

وبالله . . أي أم هذه التي تُصدّق هذه الكلام : إنْ خِفْتِ على ولدك فألقيه في اليم ؟ وكيف يمكن لها أن تنقذه من هلاك مظنون وترمي به في هلاك مُتيقّن ؟

ومع ذلك لم تتردد أم موسى لحظة في تنفيذ أمر الله ، ولم تتراجع ، وهذا هو الفرق بين وارد الرحمن ووارد الشيطان ، وارد الرحمن لا تجد النفس له ردّاً ، بل تتلقاه على أنه قضية مُسلَّمة ، فوارد الشيطان لا يجرؤ أن يزاحم وارد الرحمن ، فأخذتْ الأم الوليد وأَلْقَتْه كما أوحى إليها ربها .

وتلحظ في هذه الآيات أن آية القصص لم تذكر شيئاً عن مسألة التابوت : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم ﴾ [القصص : 7] هكذا مباشرة .

قالوا : لأن الحق سبحانه تكلم عن الغاية التي تخيف ، وهي الرَّمي في اليم ، وطبيعي في حنان الأم أنْ تحتال لولدها وتعمل على نجاته ، فتصنع له مثل هذا التابوت ، وتُعِدّه إعداداً مناسباً للطفْو على صفحة الماء .

فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة ، وفَرْق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة والخطاب حين الحادثة ، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة ، صنعتْ له صندوقاً جعلت فيه مَهْداً لَيِّناً واحتاطتْ للأمر ، ثم يطمئنها الحق سبحانه على ولدها : ﴿ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني ﴾ [القصص : 7] فسوف نُنجيه ؛ لأن له مهمة عندي ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] .

فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر في عبارات سريعة متلاحقة : ﴿ أَنِ اقذفيه فِي

التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ [طه : 39] .

لذلك ، تجد السياق في الآية الأولى هادئاً رتيباً يناسب مرحلة الإعداد ، أما في التنفيذ فقد جاء السياق سريعاً متلاحقاً يناسب سرعة التنفيذ ، فكأن الحق سبحانه أوحى إليها : أسرعي إلى الأمر الذي سبق أنْ أوحيته إليك ، هذا الكلام في الحبْكة الأخيرة لهذه المسألة

.

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ [طه : 39] أي : تحمله الأمواج وتسير به ، وكأن لديها أوامر أن تُدخِله في المجرى الموصِّل لقصر فرعون .

(54/496)

فعندنا إذن لموسى ثلاثة إلقاءات : إلقاء الرحمة والحنان في التابوت ، وإلقاء التابوت في اليم تنفيذاً لأمر الله ، وإلقاء اليَمّ للتابوت عند قصر فرعون .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] (عَدُوِلي) أي : لله تعالى ؛ لأن فرعون ادعى الألوهية ، (وَعَدُوٌّ لَّهُ) أي : لموسى ؛ لأنه سيقف في وجهه ويُوقفه عند حَدّه .

وفي الآية إشارة إلى إنفاذ إرادته سبحانه ، فإذا أراد شيئاً قضاه ، ولو حتى على يد أعدائه

وهم غافلون ، فمَنْ يتصور أو يصدق أن فرعون في جبروته وعُتوه وتقتيله للذكور من أولاد بني إسرائيل هو الذي يضم إليه موسى ويرعاه في بيته ، بل ويُحبه ويجد له قبولاً في نفسه .

وهل التقطه فرعون بداية ليكون له عدواً ؟ أم التقطه ليكون ابناً ؟ كما قالت زوجته آسية : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : 9] .

إذن : كانت محبة ، إلا أنها آلتْ إلى العداوة فيما بعد ، آلتْ إلى أن يكون موسى هو العدو الذي ستُربيه بنفسك وتحافظ عليه ليكون تقويضُ ملكك على يديه ؛ لذلك سيقول فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] .

ومسألة العداوة هذه استغلها المشككون في القرآن واتهموه بالتكرار في قوله تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] ثم قال في آية أخرى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

والمتأمل في الآيتين يجد أن العداوة في الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى ، أما العداوة في الآية الثانية فمن جانب موسى لفرعون ، وهكذا تكون العداوة متبادلة ، وهذا يضمن شراستها واستمرارها ، وهذا مُراد في هذه القصة .

أمّا إنْ كانت العداوة من جانب واحد ، فلربما تسامح غير العدو وخَجِل العدو فتكون المصالحة . والعداوة بين موسى وفرعون ينبغي أن تكونَ شرسة ؛ لأنها عداوة في قضية القِمَّة ، وهي التوحيد .

ولكن ، لماذا لم يُلفِت مجيء موسى على هذه الحالة انتباه فرعون فيسأل عن حكايته ويبحث في أمره ؟ إنها إرادة الله التي لا يُعجِزها شيء ، فتحبه زوجة فرعون ، وتقول : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعدها : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] .

فأحبته آسية امرأة فرعون لما رأته ، وأحبَّه فرعون لما رآه ، وهذه محبة من الله بلا سبب للمحبة ؛ لأن المحبة لها أسباب بين الناس ، فتحب شخصاً لأنك تودّه ، أو لأنه قريب لك أو صديق ، أو أسْدى لك معروفاً ، وقد يكون الحب من الله دون سبب من هذه الأسباب ، فلا سببَ له إلا إرادة الله .

فمعنى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] وليس فيك ما يُوجب المحبة ، وليس لديك أسبابها ، خاصة وقد كان موسى عليه السلام أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أكتف ، وكأن هذه الخِلْقة جاءت تمهيداً لهذه المحبة ، وإثباتاً لإرادة الله التي طوّعَتْ فرعون لمحبة موسى ، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ ﴾

[الأنفال : 24] .

وهكذا ، حوَّل الله قلب فرعون ، وأدخل فيه محبة موسى لِيُمرِّر هذه المسألة على هذا المغفل الكبير ، فجعله يأخذ عدوه ويُربِّيه في بيته ، ولم يكن في موسى الوسامة والجمال الذي يجذب إليه القلوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] أي : تُربَّى على عَيْن الله وفي رعايته ، وإنْ كان الواقع أنه يُربّى في بيت فرعون ، فالحق تبارك وتعالى يرعاه ، فإنْ تعرَّض لشيء في التربية تدخّل ربُّه عز وجل ليعلمه ويُربّيه .

(56/496)

ومن هذه المواقف أن فرعون كان يجلس وزوجته آسية ، ومعهما موسى صغير يلعب ، فإذا به يمسك بلحية فرعون ويجذبها بشدة أغاظته ، فأمر بقتله ، فتدخّلت امرأته قائلة : إنه ما يزال صغيراً لا يفقه شيئاً ، إنه لا يعرف التمرة من الجمرة .

فأتوا له بتمرة وجمرة ليمتحنوه ، فأزاح الله يده عن التمرة إلى الجمرة لِيُفوّت المسألة على هذا المغفل الكبير ، بل وأكثر من هذا ، فأخذها موسى رغم حرارتها حتى وضعها في فمه ، فلدغتْ لسانه ، وسبَّبت له هذه العُقْدة في لسانه التي اشتكى منها فيما بعد .

وكأن الحق تبارك وتعالى يُطمِئن نبيه موسى عليه السلام : لا تخف ، فأنت تحت عيني وفي رعايتي ، وإنْ فعلوا بك شيئاً سأتدخل ، وفي آية أخرى قال : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ [طه : 41] فأنا أرعاك وأحافظ عليك ؛ لأن لك مهمة عندي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(57/496)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

قوله : ﴿ سُؤْلَكَ ﴾ : فعل هنا بمعنى مَفْعول نحو : أُكْل بمعنى مَأْكول ، وخُبْر بمعنى مَخْبور . ولا ينقاس .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) ﴾

و " مرة " مصدرٌ . و " أخرى " تأنيث أخَر بمعنى غير . وزعم بعضُهم أنها بمعنى آخِرَة ، فتكونُ مقابِلةً للأولى ، وتحيَّل لذلك بأن قال : " سَمَّاها أخرى وهي أولى لأنها أخرى في الذِّكْر " .

قوله: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا ﴾: العاملُ في "إذ" "مَنَنَّا" أي: مَنَنَّا عليك في وقتِ إلجائنا إلى أمِّك، وأُبْهِم في قوله ﴿ مَا يوحى ﴾ للتعظيم كقوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه: 78].

قوله: ﴿ أَنِ اقذفيه ﴾: يجوز أن تكون "أنْ" مفسرةً؛ لأنَّ الوَحْيَ بمعنى القول، ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَه، وجوَّز غيرُه أن تكونَ مصدريةً. ومحلُّها حينئذٍ النصبُ بدلاً مِنْ "ما يوحى" والضمائرُ في قوله ﴿ أَنِ اقذفيه ﴾ إلى آخرها عائدةٌ على موسى عليه السلام لأنه المُحَدَّثُ عنه. وجوَّز بعضُهم أن يعودَ الضميرُ في قوله ﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ للتابوت، وما بعده وما قبله لموسى عليه السلام. وعابَه الزمخشريّ وجعله تنافراً أو مُخْرِجاً للقرآن عن إعجازه فإنه قال: "والضمائرُ كلُّها راجعةٌ إلى موسى، ورجوعُ بعضها إليه وبعضِها إلى التابوت فيه هُجْنَةٌ لِما يُؤَدِّي إليه من تنافرِ النَّظْم. فإنْ قلت: المقذوفُ في البحر هو التابوتُ وكذلك المُلْقى إلى الساحل. قلت: ما ضرَّك لو جعَلْتَ المقذوفَ والمُلْقى به إلى الساحل هو موسى في جوفِ التابوت حتى لا تُفَرِّقَ الضمائرُ فيتنافرَ عليك النظمُ الذي هو أمُّ إعجاز القرآن والقانونُ الذي وقع عليه التحدِّي، ومراعاتُه أهمُّ ما يجب على المفسِّر".

قال الشيخ : " ولقائلٍ أن يقولَ : إن الضمير إذا كان صالحاً لأَنْ يعودَ على الأقربِ وعلى الأبعدِ كان عودُه على الأقربِ راجحاً وقد نَصَّ النحويون على هذا فَعَوْدُه على التابوتِ في قولِه ﴿ فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم ﴾ راجحٌ . والجواب : أنَّ أحدَهما إذا كان مُحَدَّثاً عنه والآخرُ فضلةً ، كان عودُه على المحدَّثِ عنه أرجحَ . ولا يُلْتَفَتُ إلى القُرْبِ ؛ ولهذا رَدَدْنا على أبي محمد ابن حزم في دَعْواه : أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ [الأنعام : 145] عائدٌ على " خنزير " لا على " لحم " لكونه أقربَ مذكورٍ ، فَيَحْرُمُ بذلك شحمُه وغُضْرُوْفُه وعظمُه وجِلْدُه ، فإن المحدَّث عنه هو " لحمَ خنزيرٍ " لا خنزير " . قلت : قد تقدَّمَتْ هذه المسألةُ في الأنعام وما تكلَّم الناسُ فيها .

قوله : ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم ﴾ هذا أمرٌ معناه الخبرُ ، ولكنه أمراً لفظاً جُزِم جوابُه في قوله : ﴿ يَأْخُذْهُ ﴾ . وإنما خَرَجَ بصيغة الأمر مبالغةً ؛ إذ الأمرُ أقطعُ الأفعالِ وآكدُها . وقال الزمخشري : " لَمَّا كانَتْ مشيئةُ اللهِ وإرادتُه أَنْ لا تُخْطِىءَ جَرْيَةُ ماءِ اليَمِّ الوصولَ به إلى الساحل ، وألقاه إليه ، سلك في ذلك سبيلَ المجاز ، وجعل اليَمَّ كأنه ذو تمييزٍ ، أمر بذلك ليطيع الأمرَ ويَمْتَثِلَ رَسْمَه " .

و" بالساحل " يحتمل أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أن الباءَ للحالِ أي : ملتبساً بالساحل ، وأَنْ يتعلَّقَ بنفسِ الفعل على أنَّ الباءَ ظرفيةٌ بمعنى " في " .

قوله : ﴿ مِّنِّي ﴾ فيه وجهان . قال الزمخشري : " لا يَخْلُو : إمَّا أَنْ يتعلقَ ب " أَلْقَيْتُ "

فيكون المعنى : على أني أَحْبَبْتُك ، ومَنْ أحبَّه الله أُحبَّتْه القلوبُ ، وإمّا أن يتعلقَ بمحذوفٍ هو صفةٌ ل " محبةً " أي : محبةً حاصلةً ، أو واقعةً مني ، قد رَكَزْتُها أنا في القلوب وزرَعْتُها فيها " .

(59/496)

قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ قرأ العامَّةُ بكسر اللام وضم التاء وفتحِ النون على البناءِ للمفعول ، ونصبِ الفعلِ بإضمارِ أَنْ بعد لام . وفيه وجهان ، أحدهما : أن هذه العلةَ معطوفةٌ على علةٍ مقدرة قبلها . والتقديرُ : ليتلطَّفَ بك ولتُصْنَعَ ، أو ليعطفَ عليك وتُرامَ ولتصنعَ . وتلك العلةُ المقدرةُ متعلقةٌ بقوله : " وألقيتُ " أي : ألقيتُ عليكم المحبةَ ليَعْطفَ عليك ولتُصْنَعَ . ففي الحقيقة هو متعلقٌ بما قبله من إلقاءِ المحبة .

والثاني : أن هذه اللامَ تتعلقُ بمضمر / بعدها تقديرُه : ولتُصْنَعَ على عيني فعلتُ ذلك ، أو كان كيت وكيت . ومعنى لتُصْنَعَ أي : لتربى ويُحْسَنَ إليك ، وأنا مراعِيْكَ ومراقبُكَ كما يراعي الإِنسانُ الشيءَ بعينِه إذا اعتنى به . قاله الزمخشري .

وقرأ الحسن وأبو نهيك " وِلتَصْنَعَ " بفتح التاء . قال ثعلب : " معناه لتكون حركتُك وتصرُّفُك على عينٍ مني . وقال قريباً منه الزمخشري . وقال أبو البقاء : " أي لتفعلَ ما آمُرك

بمرأى مني " .

وقرأ أبو جعفر وشَيْبَةُ " ولْتُصْنَعْ " بسكون اللام والعين وضم التاء وهو أمرٌ معناه : لِيُرَبَّ ولِيُحْسَنَ إليك . وروي عن أبي جعفر في هذه القراءةِ كسرُ لامِ الأمر . قلت : ويحتمل مع كسرِ اللامِ أو سكونِها حالةً تسكينِ العينِ أن تكونَ لامَ كي ، وإنم سُكِّنَتْ تشبيهاً بكَتْف وكَبْد ، والفعل منصوب . والتسكينُ في العينِ لأجلِ الإدغامِ لا يُقْرأ في الوصلِ إلاَّ بالإِدغام فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 34.37 ﴾

(60/496)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

أعطيناك ما سألتَ ، وتناسيت ابتداءَ حالِكَ حين حفظناك في اليمّ ونجّيْنا امّكَ من ذلك الغمِّ ، وربَّيْناك في حِجْرِ العَدُوّ . . . فأين – حينذاك – كان سؤالُكَ واختيارُكَ ودعاؤُك ؟

وأثبتنا في قلب امرأة فرعون شفقتك ، وألقينا عليكَ المحبةَ حتى أحبّكَ عدوُّك ، وربَّاكَ

حتى قَتَلَ بِسَبَبِكَ ما لا يُحْصَى من الولدان ، والذي بَدَأَك بهذه المِنَنِ هو الذي آتاك سُؤْلَكَ ، وحقَّقَ لك ما أمولَكَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لَّهُ ﴾ .

كان ذلك وحيَ إلهامٍ ؛ ألقى اللَّهُ في قلبها أن تجعله في تابوت ، وتلقيه في اليم يعني نهر النيل ، ففعَلَتْ ، فألقاه النهر على الساحل ، فَحُمِلَ إلى فرعون . فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ امرأةِ فرعون عليه باشر حبُّه قلبَها ، وكذلك وقعت محبتُه في قلب فرعون ، ولكنها كانت أضعفَ قلباً ، فسبقت بقولها : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ . . . . ﴾ [القصص : 9] ، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تقل : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] .

قوله : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ : ربّاه في حِجْرِ العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الوالدان . . . ولكنْ مِنْ مَأمنِه يُؤْتى الحَذِرُ ! وبلاءُ كلِّ أحدٍ كان بَعْدَه إلا بلاءَ موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين ؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في حِجْرِه كان قد أمر بقتل كثير من الولدان ، ثم إنه ربّاه ليكونَ إهلاكُ مُلْكِهِ على يده . . . لِيُعْلَمَ أَنَّ أسرارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبارُ .

يقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه – ولم يكن . وكان يقال لأُمِّ موسى ظئر موسى – ولم تكن ؛ فَمِنْ حيثُ الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . . هكذا الحديث والقصة .

ولقد جاء في القصة أنّ موسى لمَّا وَضِعَ في حِجْر فرعون لَطَمَ وجهه فقال : إنّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أَنْ يُقْتَلَ ، فقالت امرأتُه : إنه صبيٌّ لا تمييزَ له ، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدّق زوجُها قالتَها ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمدّ يَدَه إلى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصرَفَها إلى إلى النار فأخَذَ جَمْرةً بيده ، وقرّبها مِنْ فيه فاحترقَ لِسانُه – ويقال إنَّ العقدةَ التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق – فعند ذلك قالت امرأةُ فرعون : ها قد تبيَّنَ أن هذا لا تمييزَ له ، فقد أخذ الجمرة إلى فيه . وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطْمِ فرعون .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أَخْذِ الجمرة وهو صبيٌّ رضيع ، ثم احترق لسانه ، فعلم الكلُّ أن هذا الأمر ليس بالقياس . فإنه سبحانه فعّال لما يريد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنّى ﴾ .

أي أحببتك . ويقال في لفظ الناس : فلانٌ ألقى محبته على فلان أي أَحَبَّه . ويقال : ﴿

ألقيت عليك محبة مني ﴾ : أي طَرَحْتُ في قلوب الناس محبةً لك ، فالحقُّ إذا أحبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أحبَّه . ويقال لملاحةٍ في عينيه ؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أَحبَّه .

ويقال : ﴿ ألقيت عليك محبةً مني ﴾ : أي أثْبَتُّ في قلبك محبتي ؛ فإن محبةَ العبدِ لله لا تكون إلا بإثباتِ الحق – سبحانه – ذلك في قلبه ، وفي معناه أنشدوا :

إنَّ المحبةَ أَمْرُها عَجَبٌ . . . تُلْقَى عليكَ وما هلا سَبَبُ .

(62/496)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وِلتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ .

أي بمرأىً مني ، ويقال لا أُمكِّن غيري بأَنْ يستَبْعِدَك عني .

ويقال أحفظك من كل غَيْرٍ ، ومن كلِ حديثٍ سوى حديثنا . ويقال ما وَكَلْنا حِفْظَكَ إلى أحدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 454 . 456 ﴾

(63/496)

قوله تعالى ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم ذكر ظرف الصنع فقال : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ تمشي أختك ﴾ أي في الموضع الذي وضعوك به لينظروا لك مرضعة ﴿ فتقول ﴾ بعد إذ رأتك ، لآل فرعون : ﴿ هل أدلكم على من يكفله ﴾ أي يقوم بمصالحه من الرضاع والخدمة ، ناصحاً له ، فقالوا : نعم ! فجاءت بأمك فقبلت ثديها ﴿ فرجعناك ﴾ أي فتسبب عن قولها هذا أن رجعناك ﴿ إلى أمك ﴾ حين دلتهم عليها ﴿ كي تقر ﴾ أي تبرد وتسكن ﴿ عينها ﴾ وتربيك آمنة عليك غير خائفة ، ظاهرة غير مستخفية ﴿ ولا تحزن ﴾ بفراقك أو بعدم تربيتها لك وبذلها الجهد في نفعك ﴿ وقتلت نفساً ﴾ أي بعد أن صرت رجلاً من القبط دفعاً عن رجل من قومك فطلبت بها وأرادوا قتلك ﴿ فنجيناك ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ من الغم ﴾ الذي كان قد نالك بقتله خوفاً من جريرته ، بأن أخرجناك مهاجراً لديارهم نحو مدين ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ أي خلصناك من محنة بعد محنة مرة بعد مرة ، على أنه جمع فتن أو فتنة ، على ترك الاعتداد بالتاء ، ويجوز أن يكون مصدراً كالشكور ، إذن الفتون ولادته عام الذبح وإبقاؤه

في البحر ثم منعه الرضاع من غير ثدي أمه ثم جره لحية فرعون ، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة ، ثم قتله القبطي ، ثم خروجه إلى مدين في الطريق الهيع خائفاً يترقب ، ثم إيجار نفسه عشر سنين ، ثم إضلاله الطريق ، ثم تفرق غنمه في ليلة مظلمة ﴿ فلبثت سنين ﴾ أي كثيرة ﴿ في أهل مدين ﴾ مقيماً عند نبينا شعيب عليه السلام يربيك بآدابه ، وصاهرته على ابنته ﴿ ثم جئت ﴾ أي الآن ﴿ على قدر ﴾ أي وقت قدّرته في الأزل لتكليمي لك ، وهو بلوغ الأشد والاستواء ، وإرسالك إلى فرعون لأمضي فيه قدري الذي ذبح أبناء بني اسرائيل خوفاً منه ، فجئت غير مستقدم ولا مستأخر ﴿ يا موسى واصطنعتك ﴾ أي ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق ﴿ لنفسي ﴾ أي لتفعل من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك ، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 19.20 ﴾

(64/496)

فصل

قال الفخر :

المنة الرابعة : قوله : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ واعلم أن العامل في إذ تمشى ألقيت أو تصنع ، يروى أنه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل وكان لا يرتضع من ثدي كل امرأة يؤتى بها لأن الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا إلى تتبع النساء فلما رأت ذلك أخت موسى جاءت إليهم متنكرة فقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ [القصص : 12] ثم جاءت بالأم فقبل ثديها فرجع إلى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير .

أما قوله تعالى : ﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ أي رددناك ، وقال في موضع آخر : ﴿ فرددناه إلى أُمّهِ ﴾ [القصص : 13] وهو كقوله : ﴿ قَالَ رَبّ ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] أي ردوني إلى الدنيا ، أما قوله : ﴿ كَي تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ ﴾ فالمراد أن المقصود من ردك إليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها ، فإن قيل : لو قال كي لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيداً لأنه لا يلزم من نفي الحزن حصول السرور لها ، وأما لما قال أولاً كي تقر عينها كان قوله بعد ذلك : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ فضلاً لأنه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة ، قلنا : المراد أنه تقر عينها بسبب وصولك إليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك .

والمنة الخامسة : قوله : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فنجيناك مِنَ الغم ﴾ فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفساً وهو الرجل الذي قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الإسرائيلي عليه وكان قبطياً

فحصل له الغم من وجهين ، أحدهما : من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه ما حكى الله تعالى عنه : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى المدينة خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : 18] والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين ، أما من فرعون فحين وفق له المهاجرة إلى مدين وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له ذلك .

(65/496)

المنة السادسة : قوله : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : في قوله : ﴿ فُتُوناً ﴾ وجهان : أحدهما : أنه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقاً وذلك على مذهبهم في تأكيد الأخبار بالمصادر كقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] ، والثاني : أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجزة وبدرة أي فتناك ضروباً من الفتن وههنا سؤالان .

السؤال الأول : إن الله تعالى عدد أنواع مننه على موسى عليه السلام في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ .

الجواب عنه من وجهين : أحدهما : أن الفتنة تشديد المحنة ، يقال فتن فلان عن دينه إذا

اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : 10] وقال تعالى : ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : 31] وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 214] فالزلزلة المذكورة في الآية ومس البأساء والضراء هي الفتنة والفتون ، ولما كان التشديد في المحنة مما يوجب كثرة الثواب لا جرم عده الله تعالى من جملة النعم .

وثانيها : ﴿ فتناك فُتُوناً ﴾ أي خلصناك تخليصاً من قولهم : فتنت الذهب من الفضة إذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال : نستأنف له نهاراً يا ابن جبير .

(66/496)

ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني إسرائيل ثم قصة إلقاء موسى عليه السلام في اليم

والتقاط آل فرعون إياه وامتناعه من الإرتضاع من الأجانب ، ثم قصة أن موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة في فيه ، ثم قصة قتل القبطي ، ثم هربه إلى مدين وصيرورته أجيراً لشعيب عليه السلام ، ثم عوده إلى مصر وأنه أخطأ الطريق في الليلة المظلمة واستئناسة بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير .

السؤال الثاني : هل يصح إطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقاً من قوله : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ والجواب لا لأنه صفة ذم في العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغي .

(67/496)

المنة السابعة : قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى ﴾ واعلم أن التقدير : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ فخرجت خائفاً إلى أهل مدين فلبثت سنين فيهم ، أما مدة اللبث فقال أبو مسلم : إنها مشروحة في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 22] إلى قوله ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ [القصص : 29] وهي إما عشرة وإما ثمان لقوله تعالى : ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ

عِندِكَ ﴾ [القصص : 27] وقال وهب : لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانياً وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته ، والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر ، واعلم أن قوله : ﴿ فَلَبِثَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ بعد قوله : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ كالدلالة على أن لبثه في مدين من الفتون وكذلك كان ، فإنه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محناً كثيرة ، واحتاج إلى أن آجر نفسه ، أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا موسى ﴾ فلا بد من حذف في الكلام لأنه على قدر أمر من الأمور ، وذكروا في ذلك المحذوف وجوهاً .

أحدها : أنه سبق في قضائي وقدري أن أجعلك رسولاً لي في وقت معين عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر لا قبله ولا بعده ، ومنه قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ، وثانيها : على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة .

وثالثها : أن القدر هو الموعد فإن ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ، ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد ، فإن قيل : كيف ذكر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام في ذلك الوقت من جملة مننه عليه ، قلنا : لأنه لولا توفيقه له لما تهيأ شيء من ذلك .

المنة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ والاصطناع اتخاذ الصنعة ، وهي افتعال من الصنع .

يقال : اصطنع فلان فلاناً أي اتخذه صنيعه ، فإن قيل : إنه تعالى غني عن الكل فما معنى قوله لنفسي .

والجواب عنه من وجوه : الأول : أن هذا تمثيل لأنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلاً لأن يكون أقرب الناس منزلة إليه وأشدهم قرباً منه .

وثانيها : قالت المعتزلة : إنه سبحانه وتعالى إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الألطاف ما لا يعلم إلا سمعاً فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقي في عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في أداء ما وجب على الله تعالى ، فصح أن يقول : واصطنعتك لنفسي ، قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال : هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسي : أي لأصرفك في أوامري لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 48 . 50 ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفَتَنَّاك فُتُونًا ﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْر : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْله تعالى : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ فَقَالَ : " اسْتَأْنِفْ لَهَا نَهَارًا يَا ابْنَ جُبَيْر " ثُمَّ ذَكَرَ فِي مَعْنَاهُ وُقُوعَهُ فِي مِحْنَةٍ بَعْدَ مِحْنَةٍ خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنْهَا ، أَوَّلُهَا أَنَّهَا حَمَلَتْهُ فِي السَّنَةِ الَّتِي كَانَ فِرْعَوْنُ يَذْبَحُ الْأَطْفَال ، ثُمَّ إلْقَاؤُهُ فِي الْيَمِّ ، ثُمَّ مَنْعُهُ الرَّضَاعَ إلَّا مِنْ ثَدْيِ أُمِّهِ ، ثُمَّ جَرُّهُ لِحْيَةَ فِرْعَوْنَ حَتَّى هَمَّ بِقَتْلِهِ ، ثُمَّ تَنَاوُلُهُ الْجَمْرَةَ بَدَلَ الدُّرَّةِ فَدَرَأَ ذَلِكَ عَنْهُ قَتْلَ فِرْعَوْنَ ، ثُمَّ مَجِيءُ رَجُلٍ مِنْ شِيعَتِهِ يَسْعَى لِيُخْبِرَهُ عَمَّا عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِهِ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ مَعْنَاهُ : خَلَّصْنَاكَ خَلَاصًا .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ فَإِنَّ الِاصْطِنَاعَ الْإِخْلَاصُ بِالْأَلْطَافِ .

وَمَعْنَى : ﴿ لِنَفْسِي ﴾ لِتُصْرَفَ عَلَى إرَادَتِي وَمَحَبَّتِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحزَنَ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : تقر عينها بسلامتك ولا تحزن بفراقك .

الثاني : تقر بكفالتك ولا تحزن بنفقتك .

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ يعني القبطي .

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : سلمناك من القَوَد .

الثاني : أمناك من الخوف .

﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أخبرناك حتى صلحت للرسالة .

الثاني : بلوناك بلاء بعد بلاء ، قاله قتادة .

الثالث : خلصناك تخليصاً محنة بعد محنة ، أولها أنها حملته في السنة التي كان يذبح فرعون فيها الأطفال ثم إلقاؤه في اليم ، ومنعه الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم جره بلحية فرعون حتى همّ بقتله ، ثم تناوله الجمرة بدل التمرة ، فدرأ ذلك عنه قتل فرعون ، ثم مجيىء رجل من

شيعته يسعى بما عزموا عليه من قتله قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : أخلصناك إخلاصاً .

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على قدر الرسالة والنبوة ، قاله قاله قتادة .

الثاني : على موعدة ، قاله قتادة ، ومجاهد .

ويحتمل ثالثاً : جئت على مقدار في الشدة وتقدير المدة ، قال الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قدراً . . . كما أتى ربه موسى على قدر

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾

يحتمل وجهان :

أحدهما : خلقتك ، مأخوذ من الصنعة .

الثاني : اخترتك ، مأخوذ من الصنيعة . ﴿ لِنَفْسِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لمحبتي .

الثاني : لرسالتي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾

العامل في ﴿ إذ ﴾ فعل مضمر تقديره ومننا إذ ، وتقدم تفسير هذه الآية في القصص المذكور آنفاً . وقرأت فرقة " تقَر " بفتح القاف ، وقرأت فرقة بكسر القاف والنفس هي نفس القطبي الذي كان يقاتل الإسرائيلي فوكزه موسى فقضى عليه ، و ﴿ الغم ﴾ هم النفس وكان هم موسى بأمر من طلبه ليثأر به . وقوله ﴿ فتناك فتوناً ﴾ معناه خلصناك تخليصاً . هذا قول جمهور المفسرين . وقالت فرقة معناه اختبرناك وعلى هذا التأويل لا يراد إلا ما اختبر به موسى بعد بلوغه وتكليفه وما كان قبل ذلك فلا يدخل في اختبار موسى وعده سنيه ﴿ في أهل مدين ﴾ عشرة أعوام لأنه إنما قضى أوفى الأجلين وقوله ﴿ على قدر ﴾ أي بميقات محدودة للنبوة التي قد أرداها الله بك ومنه قول الشاعر : [البسيط]

نال الخلافة إذ كانت له قدراً . . . كما أتى ربه موسى على قدر

﴿ واصطنعتك ﴾ معناه جعلتك موضع الصنيعة ومقر الإجمال والإحسان ، وقوله ﴿ لنفسي ﴾ إضافة تشريف ، وهكذا كما تقول بيت الله ونحوه والصيام لي وعبر ب " النفس " عن شدة القرب وقوة الاختصاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ ﴾

فأما أُخته ، فقال مقاتل : اسمها مريم .

قال الفراء : وإنما اقتصر على ذِكْر المشي ، ولم يذكر أنها مشت حتى دخلت على آل فرعون فدلَّتهم على الظِّئر ، لأن العرب تجتزىء بحذف كثير من الكلام ، وبقليله ، إذا كان المعنى معروفاً ، ومثله قوله :

﴿ أنا أُنبِّئكم بتأويله فأرسلون ﴾ [يوسف : 45] ، ولم يقل : فأُرسل حتى دخل على يوسف .

قال المفسرون : سبب مشي أُخته أن أُمَّه قالت لها : قُصِّيه ، فاتَّبعت موسى على أثر الماء ، فلما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة ، فقالت لهم أُخته : "هل أَدُلُّكم على من يَكْفُلُه" أي : يُرْضِعه ويضمه إِليه ، فقيل لها : ومن هي ؟ فقالت : أُمي ، قالوا : وهل لها لبن ؟ قالت : لبن أخي هارون ، وكان هارون أسنَّ من موسى بثلاث سنين ، فأرسلوها ، فجاءت بالأم فقبل ثديها ، فذلك قوله : ﴿ فرجعناك إِلى أُمّك ﴾ أي : رددناك إِليها ﴿

كي تَقَرَّ عينها ﴾ بك وبرؤيتك .

﴿ وقتلتَ نَفْساً ﴾ يعني : القبطي الذي وكزه فقضى عليه ، وسيأتي ذِكْره إن شاء الله تعالى ﴿ فنجّيناك من الغمِّ ﴾ وكان مغموماً مخافة أن يُقْتَل به ، فنجّاه الله بأن هرب إلى مَدْيَن ، ﴿ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : اختبرناك اختبارا ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أخلصناك إخلاصاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث : ابتليناك ابتلاءً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

وقال الفراء : ابتليناك بغم القتيل ابتلاءً .

(73/496)

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الفتون : وقوعُه في محنة بعد محنة خلَّصه الله منها ، أولها أن أُمَّه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه في البحر ، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم جرُّه لحية فرعون حتى همَّ بقتله ، ثم تناوله الجمرة بدل الدُّرَّة ، ثم قتله القبطيّ ، ثم خروجه إلى مَدْيَن خائفاً ؛ وكان ابن عباس يقصُّ هذه القصص على سعيد بن جبير ، ويقول له عند كل ثلاثة : وهذا من الفُتون يا ابن جبير ؛ فعلى هذا

يكون "فتنَّاكَ" خلَّصناكَ من تلك المحن كما يُفْتَن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث .

والفتون : مصدر .

قوله تعالى : ﴿ فلبثتَ سنين ﴾ تقدير الكلام : فخرجتَ إِلى أهل مدين .

ومدين : بلد شعيب ، وكان على ثمان مراحل من مصر ، فهرب إِليه موسى .

وقيل مدين اسم رجل ، وقد سبق هذا [الأعراف : 86] .

وفي قدر لبثه هناك قولان .

أحدهما : عشر سنين ؛ قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : ثمان وعشرون سنة ، عشر منهنَّ مهر امرأته ، وثمان عشرة أقام حتى وُلد له ، قاله وهب .

قوله تعالى : ﴿ ثم جئتَ على قَدَر ﴾ أي : جئتَ لميقاتٍ قدَّرتُه لمجيئكَ قبل خَلْقِك ، وكان ذلك على رأس أربعين سنة ، وهو الوقت الذي يوحى فيه إِلى الأنبياء ، هذا قول الأكثرين .

وقال الفراء : "على قَدَرٍ" أي : على ما أراد الله به من تكليمه .

قوله تعالى : ﴿ واصطنعتُكَ لنفسي ﴾ أي : اصطفيتُك واختصصتك ، والاصطناع : اتخاذ الصنيعة ، وهو الخير تسديه إِلى إِنسان .

وقال ابن عباس : اصطفيتك لرسالتي ووحيي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(74/496)

وقال القرطبى :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾

العامل في "إِذ تمشِي" "أَلْقَيْتُ" أو "تصنع" .

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ ﴾ وأخته اسمها مريم .

﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة خبره ، وكان موسى لما وهبه فرعون من امرأته طلبت له المراضع ، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أخته ، فأخذته ووضعته في حجرها وناولته ثديها فمصه وفرح به .

فقالوا لها : تقيمين عندنا ؛ فقالت : إنه لا لبن لي ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون .

قالوا : ومن هي ؟ قالت : أمي .

فقالوا : لها لبنٌ ؟ قالت : لبن أخي هارون .

وكان هارون أكبر من موسى بسنة .

وقيل : بثلاث .

وقيل : بأربع ؛ وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين ، فولد هارون فيها ؛ قاله ابن عباس .

فجاءت الأم فقبل ثديها .

فذلك قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ وفي مصحف أبيّ "فرددناك" ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر "كَيْ تَقِرَّ عَيْنُهَا" بكسر القاف .

قال الجوهري : وقرِرتُ به عيناً وقرَرْتُ به قُرّة وقُروراً فيهما .

ورجل قرير العين ؛ وقد قرّت عينه تَقِرّ وتَقَرّ نقيض سخنت .

وأقرّ الله عينه أي أعطاه حتى تقرّ فلا تطمح إلى من هو فوقه ، ويقال : حتى تبرد ولا تسخن .

وللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارة .

وقد تقدم هذا المعنى في "مريم" .

﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي على فقدك .

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ قال ابن عباس : قتل قبطياً كافراً .

قال كعب : وكان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة .

في صحيح مسلم : وكان قتله خطأ ؛ على ما يأتي .

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم ﴾ أي آمناك من الخوف والقتل والحبس .

﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ أي اختبرناك اختباراً حتى صلحت للرسالة .

وقال قتادة : بلوناك بلاء .

مجاهد : أخلصناك إخلاصاً .

(75/496)

وقال ابن عباس : اختبرناك بأشياء قبل الرسالة ، أولها حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه في اليم ، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم جره بلحية فرعون ، ثم تناوله الجمرة بدل الدُّرّة ؛ فدرأ ذلك عنه قتل فرعون ، ثم قتله القبطي وخروجه خائفاً يترقب ، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق .

فيقال : إنه ندَّ له من الغنم جدْي فاتبعه أكثر النهار ، وأتعبه ، ثم أخذه فقبله وضمه إلى صدره ، وقال له : أتعبتني وأتعبت نفسك ؛ ولم يغضب عليه .

قال وهب بن منبه : ولهذا اتخذه الله تعالى كليماً ؛ وقد مضى في "النساء" .

قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ يريد عشر سنين أتمّ الأجلين .

وقال وهب : لبث عند شعيب ثماني وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته صفورا ابنة شعيب ، وثماني عشرة إقامة عنده حتى ولد له عنده .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقاً للنبوة والرسالة ؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة .

وقال مجاهد ومقاتل : "على قَدَرٍ" على وعد وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء فيه .

والمعنى واحد .

أي جئت في الوقت الذي أردنا إرسالك فيه .

وقال الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قَدَراً . . .

كما أَتى ربَّه موسى على قَدَرِ

قوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ قال ابن عباس : أي اصطفيتك لوحيي ورسالتي .

وقيل : ﴿ واصطنعتك ﴾ خلقتك ؛ مأخوذ من الصنعة .

وقيل : قوّيتك وعلمتك لتبلّغ عبادي أمري ونهيي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إذ تمشي أختك ﴾

قيل اسمها مريم سبب ذلك أن آسية عرضته للرضاع فلم يقبل امرأة ، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويطاف به ويعرض للمراضع فيأبى ، وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته بالتفتيش في المدينة لعلها تقع على خبره ، فبصرت به في طوافها فقالت ﴿ هل أدلكم على من يكفله لكم وهم له ناصحون ﴾ فتعلقوا بها وقالوا : أنت تعرفين هذا الصبيّ ؟ فقالت : لا ، ولكن أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرب إلى الملكة والجد في خدمتها ورضاها ، فتركوها وسألوها الدلالة فجاءت بأم موسى فلما قربته شرب ثديها فسرّت آسية وقالت لها : كوني معي في القصر ، فقالت : ما كنت لأدع بيتي وولدي ولكنه يكون عندي قالت : نعم ، فأحسنت إلى أهل ذلك البيت غاية الإحسان واعتز بنو إسرائيل بهذا الرضاع والنسب من الملكة ، ولما كمل رضاعه أرسلت آسية إليها أن جيئيني بولدي ليوم كذا ، وأمرت خدمها ومن لها أن يلقينه بالتحف والهدايا واللباس ، فوصل إليها على ذلك وهو بخير حال وأجمل شباب ، فسرّت به ودخلت به على فرعون

ليراه وليهبه فأعجبه وقرّبه ، فأخذ موسى بلحية فرعون وتقدم ما جرى له عند ذكر العقدة .

والعامل في ﴿ إذ ﴾ قال ابن عطية فعل مضمر تقديره ومننا إذ .

وقال الزمخشري العامل في ﴿ إذ تمشي ﴾ ﴿ ألقيت ﴾ أو تصنع ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ إذ أوحينا ﴾ فإن قلت : كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت : كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل لقيت فلاناً سنة كذا ، فتقول : وأنا لقيته إذ ذاك .

وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها انتهى .

(77/496)

وليس كما ذكر لأن السنة تقبل الاتساع فإذا وقع لقيهما فيها بخلاف هذين الطرفين فإن كل واحد منهما ضيق ليس بمتسع لتخصصيهما بما أضيفا إليه فلا يمكن أن يقع الثاني في الطرف الذي وقع فيه الأول ، إذ الأول ليس متسعاً لوقوع الوحي فيه ووقوع مشي الأخت فليس وقت وقوع الوحي مشتملاً على أجزاء وقع في بعضها المشي بخلاف السنة .

وقال الحوفي : ﴿ إذ ﴾ متعلقة بتصنع ، ولك أن تنصب ﴿ إذ ﴾ بفعل مضمر تقديره

واذكر .

وقرأ الجمهور ﴿ كي تَقَرَّ ﴾ بفتح التاء والقاف .

وقرأت فرقة بكسر القاف ، وتقدم أنهما لغتان في قوله ﴿ وقري عيناً ﴾ وقرأ جناح بن حبيش بضم التاء وفتح القاف مبنياً للمفعول .

و ﴿ قتلت نفساً ﴾ هو القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، واغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب الله ومن اقتصاص فرعون ، فغفر الله له باستغفاره حين قال ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ ونجاه من فرعون حين هاجر به إلى مدين والغمّ ما يغمّ على القلب بسبب خوف أو فوات مقصود ، والغمّ بلغة قريش القتل ، وقيل : من غم التابوت .

وقيل : من غم البحر ، والظاهر أنه من غم القتل حين ذهبنا بك من مصر إلى مدين .

والفتون مصدر جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز وبدور في حجزة وبدرة أي ﴿ فتناك ﴾ ضروباً من الفتن ، والفتنة المحنة وما يشق على الإنسان .

وعن ابن عباس خلصناك من محنة بعد محنة .

ولد في عام كان يقتل فيه الولدان ، وألقته أمه في البحر وهمّ فرعون بقتله ، وقتل قبطياً وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة انتهى .

وهذه الفتون اختبره بها وخلصه حتى صلح للنبوة وسلم لها والسنون التي لبثها في مدين عشر سنين.

(78/496)

وقال وهب: ثمان وعشرون سنة منها مهر ابنته وبين مصر ومدين ثمان مراحل وفي الكلام حذف والتقدير ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ فخرجت خائفاً إلى ﴿ أهل مدين ﴾ فلبثت سنين وكان عمره حين ذهب إلى مدين اثني عشر عاماً وأقام عشرة أعوام في رعي غنم شعيب، ثم ثمانية عشر عاماً بعد بنائه بامرأته بنت شعيب، وولد له فيها فكمل له أربعون سنة وهي المدة التي عادة الله إرسال الأنبياء على رأسها.

﴿ ثم جئت ﴾ إلى المكان الذي ناجيتك فيه وكلمتك واستنبأتك.

﴿ على قدر ﴾ أي وقت معين قدّرته لم تتقدمه ولم تتأخر عنه.

وقيل على مقدار من الزمان يوحى إلى الأنبياء فيه وهو الأربعون.

وقال الشاعر:

نال الخلافة أو جاءت على قدر . . .

كما أتى ربه موسى على قدر

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ أي جعلتك موضع الصنيعة ومقر الإكمال والإحسان ، وأخلصتك بالألطاف واخترتك لمحبتي يقال : اصطنع فلان فلاناً اتخذه صنيعة وهو افتعال من الصنع وهو الإحسان إلى الشخص حتى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان .

وقال الزمخشري : هذا تمثيل لما خوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه الملوك بجميع خصال فيه وخصائص أهلاً لأن يكون أقرب منزلة إليه وألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلصه لنفسه انتهى .

ومعنى ﴿ لنفسي ﴾ أي لأوامري وإقامة حججي وتبليغ رسالتي ، فحركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لأحد غيرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(79/496)

وقال أبو السعود :

﴿ إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ ﴾

ظرفٌ لتُصنعَ على أن المراد به وقتٌ وقع فيه مشيُها إلى بيت فرعونَ وما ترتب عليه من القول والرجْعِ إلى أمها وتربيتِها له بالبر والحُنوّ وهو المِصداق لقوله تعالى :

﴿ ولِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ إذ لا شفقةَ أعظمُ من شفقة الأم وصنعُها على موجب مراعاتِه

تعالى ، وقيل : هو بدلٌ من إذ أوحينا على أن المراد به زمانٌ متّسعٌ متباعدُ الأطراف وهو الأنسب بما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ فنجيناك مِنَ الغم ﴾ الخ ، فإن جميع ذلك من المنن الإلهية ولا تعلق لشيء منها بالصنع المذكور ، وأما كونُه ظرفاً لألقيت كما جُوّز فربما يوهم أن إلقاءَ المحبة لم يحصُل قبل ذلك ، ولا ريب في أن معظمَ آثارِ إلقائِها ظهر عند فتحِ التابوت ﴿ فَتَقُولُ ﴾ أي لفرعون وآسيةَ حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعةً يقبل ثديَها وكان لا يقبل ثدياً ، وصيغةُ المضارِعِ في الفعلين لحكايةِ الحالِ الماضية ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربّيه وذلك إنما يكون بقَبوله ثديَها .

يروى أنه فشا الخبر بمصر أن آلَ فرعون أخذوا غلاماً من النيل لا يرتضع ثديَ امرأة واضطُروا إلى تتبّع النساء ، فخرجت أختُه مريمُ لتعرِف خبرَه فجاءتهم متنكّرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا ، فجاءت بأمه فقبل ثديَها ، فالفاء قوله تعالى : ﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ فصيحةٌ معربةٌ عن محذوف قبلها يُعطَف عليه ما بعدها ، أي فقالوا : دُلّينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك إليها ﴿ كَى تَقَرَّ عَيْنُها ﴾ بلقائك ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ أي يطرأ عليها الحزنُ بفراقك بعد ذلك ، وإلا فزوالُ الحزن مقدمٌ على السرور المعبَّر عنه بقُرّة العين فإن التخليةَ متقدمةٌ على التحلية ، وقيل : ولا تحزنَ أنت بفقد إشفاقها ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ هي نفس القِبْطيّ الذي استغاثه الإسرائيليُّ عليه .

﴿ فنجيناكَ مِنَ الغم ﴾ أي غمِّ قَتْلِه خوفاً من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعونَ بالإنجاء منه بالمهاجَرة إلى مدين ﴿ وفتناكَ فُتُوناً ﴾ أي ابتليناكَ ابتلاءً أو فتوناً من الابتلاء على أنه جمعُ فتن ، أو فتنة على ترك الاعتداء بالتاء كحُجوز في حجزة وبُدور في بَدْرة أي خلّصناكَ مرة بعد أخرى وهو إجمالُ ما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقةِ الأُلّاف والمشْي راجلاً وفقْدِ الزاد ، وقد روي أن سعيدَ بنَ جبير سأل عنه ابنَ عباس رضي الله عنهما ، فقال : خلّصناكَ من محنة بعد محنة ولد في عام كان يُقتل فيه الوِلْدانُ فهذه فتنةٌ يا ابنَ جبير ، وألقَتْه أمُّه في البحر وهمّ فرعونُ بقتله وقتلِ قِبْطياً وآجَرَ نفسه عشر سنين وضلّ الطريقَ وتفرّقت غنمُه في ليلة مظلمة ، وكان يقول عند كلِ واحدةٍ : فهذه فتنةٌ يا ابنَ جبير . ولكن الذي يقتضيه النظمُ الكريم أن لا تُعدَّ إجارةُ نفسه وما بعدها من تلك الفُتون ضرورةَ أن المرادَ بها ما وقع قبل وصولِه عليه السلام إلى مدينَ بقضية الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ إذ لا ريب في أن الإجارةَ المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصولِ إليهم ، وقد أشير بذكر لُبثه عليه السلام فيهم دون وصولِه إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنينَ العشْر من فنون الشدائد والمكاره التي كلُّ واحد منها فتنةٌ وأيُّ فتنة .

ومدينُ بلدةُ شعيبٍ عليه الصلاة والسلام على ثماني مراحلَ من مصرَ ﴿ ثُمَّ جِئْتَ ﴾ إلى المكان الذي أُونس فيه النارُ ووقع فيه النداءُ والجُؤار ، وفي كلمة التراخي إيذانٌ بأن مجيئَه عليه السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرُّقِ الغنم في الليلة المظلمةِ الشاتية وغيرِ ذلك ﴿ على قَدَرٍ ﴾ أي تقديرٍ قدّرتُه لأن أكلّمَك وأستنبئَك في وقت قد عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدَرِ غيرَ مستقدِمٍ ولا مستأخِر ، وقيل : على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأسُ أربعين سنةً وقوله تعالى : ﴿ يا موسى ﴾ تشريفٌ له عليه الصلاة والسلام وتنبيهٌ على انتهاء الحكايةِ التي هي تفصيلُ المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكيةِ أولاً .

وقوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾

تذكيرٌ لقوله تعالى : ﴿ أَنَاْ اخترتك ﴾ وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيّداً بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكيرِ المِنن السابغةِ تأكيداً لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرِها اللاحقة ، وهذا تمثيلٌ لما خوّله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملِك بعضَ خواصّه واصطناعِه لنفسه وترشيحِه لبعض أمورِه الجليلة ، والعدولُ عن نون العظمة الواقعة في قوله

تعالى : ﴿ وفتناك ﴾ ونظيرَيه السابقين تمهيدٌ لإفراد لفظِ النفسِ اللائقِ بالمقام فإنه أدخلُ في تحقيق معنى الاصطناعِ والاستخلاص ، أي اصطفيتُك برسالاتي وبكلامي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(82/496)

وقال الآلوسي :

﴿ إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ ﴾

ظرف لتصنع كما قال الحوفي وغيره على أن المراد به وقت وقع فيه مشي الأخت وما ترتب عليه من القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالحنو وهو المصداق لقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ [طه : 39] إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم وصنيعها على موجب مراعاته تعالى .

وجوز أن يكون ظرفاً لألقيت وأن يكون بدلاً من ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا ﴾ [طه : 38] على أن المراد بها وقت متسع فيتحد الظرفان وتصح البدلية ولا يكون من إبدال أحد المتغايرين الذي لا يقع في فصيح الكلام .

ورجح هذا "صاحب الكشف" فقال : هو الأوفق لمقام الامتنان لما فيه من تعداد المنة

على وجه أبلغ ولما في تخصيص الإلقاء أو التربية بزمان مشى الأخت من العدول إلى الظاهر فقبله كان عليه السلام محبوباً محفوظاً ، ثم أولى الوجهين جعله ظرفاً ﴿ لتصنع ﴾ وأما النصب بإضمار اذكر فضعيف اه .

وأنت تعلم أن الظاهر كونه ظرفاً لتصنع والتقييد بعلى عيني يسقط التربية قبل في غير حجر الأم عن العين .

واعترض أبو حيان وجه البدلية بأن كلاً من الظرفين ضيق ليس بمتسع بتخصيصه بما أضيف إليه وليس ذلك كالسنة في الامتداد وفيه تأمل ، واسم أخته عليه السلام مريم ، وقيل : كلثوم وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، وكذا يقال في قوله تعالى : ﴿ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه .

﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ الفاء فصيحة أي فقالوا : دلينا على ذلك فجاءت بأمك فرجعناك إليها ﴿ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بلقائك .

وقرىء ﴿ تَقَرَّ ﴾ بكسر القاف .

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ تَقَرَّ ﴾ بالبناء للمفعول ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فإن التخلية مقدمة على التحلية .

وقيل : الضمير المستتر في ﴿ تحزن ﴾ لموسى عليه السلام أي ولا تحزن أنت بفقد إشفاقها ، وهذا وإن لم يأبه النظم الكريم إلا أن حزن الطفل غير ظاهر ، وما في سورة القصص يقتضي الأول والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

(84/496)

أخرج جماعة من خبر طويل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آسية حين أخرجت موسى عليه السلام من التابوت واستوهبته من فرعون فوهبه لها أرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار لها ظئراً فلم يقبل قدي واحدة منهن حتى أشفقت أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق مجمع الناس ترجوا أن تجد له ظئراً يأخذ ثديها فلم يفعل وأصبحت أمه والهة فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً أحي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت الذي كان وعدها الله تعالى فبصرت به عن جنب فقالت من الفرح : أنا أدلكم على أهل بيت يكلفونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : وما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه ؟ وشكوا في ذلك فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في رضا الملك والتقرب إليه فتركوها وسألوها الدلالة فانطلقت إلى أمه

فأخبرتها الخبر فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً

وانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها إنا قد وجدنا لابنك ظئراً فأرسلت إليها فأتيت

بها وبه فلما رأيت ما يصنع بها قالت لها : امكثي عندي ارضعي ابني هذا فإني لم أحب

حبه شيئاً قط قالت : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه

فاذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي فذكرت

أم موسى ما كان الله عز وجل وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك وأيقنت أن الله

عز وجل منجز وعده فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها فانبته الله تعالى نباتاً حسناً وحفظه

لما قد قضى فيه فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأمه : أريني ابني فوعدتها يوماً تزورها به

فيه فقالت لخزانها وقهارمتها : لا يبق منكم أحد إلا استقبل ابني بهدية وكرامة أرى ذلك

فيه وأنا باعثة أميناً يحصى ما صنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة

تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل عليها فلما دخل أكرمته ونحلته

وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم انطلقت به إلى فرعون لينحله وليكرمه فكان

ما تقدم من جذب لحيته ، ومن هذا الخبر يعلم أن المراد إذ تمشي أختك في الطريق لطلبك

وتحقيق أمرك فتقول : لمن أنت بأيديهم يطلبون لك ظئراً ترضعك هل أدلكم الخ .

وفي رواية أنه لما أخذ من التابوت فشا الخبر بأن آل فرعون وجدوا غلاماً في النيل لا يرتضع ثدي امرأة واضطروا إلى تتبع النساء فخرجت أخته لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا ، فالمراد على هذا إذ تمشي أختك إلى بيت فرعون فتقول لفرعون وآسية أو لآسية ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ الخ .

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ هي نفس القبطي واسمه قانون الذي استغاثه عليه الإسرائيلي واسمه موسى بن ظفر وهو السامري ، وكان سنه عليه السلام حين قتل على ما في "البحر" اثنتي عشرة سنة ، وفي الخبر عن الحبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه السلام حين قتل القبطي كان من الرجال وكان قتله إياه بالوكز كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 15] وكان المراد وقتلت نفساً فأصابك غم ﴿ فنجيناك مِنَ الغم ﴾ وهو الغم الناشيء من القتل وقد حصل له من وجهين خوف عقاب الله تعالى حيث لم يقع القتل بأمره سبحانه وخوف اقتصاص فرعون وقد نجاه الله تعالى من ذلك بالمغفرة حين قال :

﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ﴾ [القصص : 16] وبالمهاجرة إلى مدين ، وقيل : هو غم التابوت ، وقيل : غم البحر وكلا القولين ليس بشيء ، والغم في الأصل ستر الشيء ومنه الغمام لستره ضوء الشمس ، ويقال : لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود ، وفرق بينه وبين الهم بأنه من أمر ماض والهم من أمر مستقبل ، وظاهر كلام كثير عدم الفرق وشمول كل لما يكون من أمر ماض وأمر مستقبل ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ أي ابتليناك ابتلاء على أن ﴿ فُتُوناً ﴾ مصدر على فعول في المتعدي كالثبور والشكور والكفور ، والأكثر في هذا الوزن أن يكون مصدر اللازم أو فتوناً من الابتلاء على أنه جمع فتن كالظنون جمع ظن أو جمع فتنة على ترك الاعتداد بالتاء لأنها في حكم الانفصال كما قالوا في حجوز جمع حجزة وبدور جمع بدرة ، ونظم الابتلاء في سلك المنن قيل : باعتبار أن المراد ابتليناك واختبرناك بإيقاعك في المحسن وتلخيصك منها ، وقيل : إن المعنى أوقعناك في المحنة وهو ما يشق على الإنسان ، ونظم ذلك في ذلك السلك باعتبار أنه موجب للثواب فيكون من قبيل النعم وليس بشيء ، وقيل : إن ﴿ فتناك ﴾ بمعنى خلصناك من قولهم : فتنت الذهب بالنار إذا خلصته بها من الغش ولا يخفى حسنه ، والمراد سواء اعتبر الفتون مصدراً أو جمعاً خلصناك مرة بعد أخرى وهو ظاهر على اعتبار الجمعية ، وأما على اعتبار المصدرية فلاقتضاء السياق ذلك ، وهذا إجمال ما ناله عليه السلام في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الآلاف والمشي راجلاً وفقد الزاد .

وقد روى جماعة أن سعيد بن جبير سأل ابن عباس عن الفتون فقال له : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها خبراً طويلاً فلما أصبح غدا عليه فأخذ ابن عباس يذكر ذلك فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني إسرائيل ثم قصة إلقاء موسى عليه الصلاة والسلام في اليم والتقاط آل فرعون إياه وامتناعه من الارتضاع من الأجانب وإرجاعه إلى أمه ثم قصة أخذه بلحية فرعون وغضب فرعون من ذلك وإرادته قتله ووضع الجمرة والجوهرة بين يديه وأخذه الجمرة ، ثم قصة قتله القبطي ثم هربه إلى مدين وصيرورته أجيراً لشعيب عليه السلام ثم عوده إلى مصر وإخطاء الطريق في الليلة المظلمة وتفرق غنمه فيها وكان رضي الله تعالى عنه عند تمام كل واحدة يقول هذه من الفتون يا ابن جبير ، ولكن قيل : الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا يعد إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين بقضية الفاء في قوله تعالى : ﴿ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ إذ لا ريب في أن الإجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول إليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام من فنون الفتون في تضاعيف مدة اللبث وهي فيما قيل عشر سنين ، وقال وهب : ثمان وعشرون

سنة أقام في عشر منها يرعى غنم شعيب عليه السلام مهراً لابنته وفي ثماني عشرة مع زوجته وولد له فيها وهو الأوفق بكونه عليه السلام نبىء على رأس الأربعين إذا قلنا بأن سنه عليه السلام حين خرج إلى مدين اثنتا عشرة سنة ، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر .

(88/496)

﴿ ثُمَّ جِئْتَ ﴾ أي إلى المكان الذي ناديتك فيه ، وفي كلمة التراخي إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك ﴿ على قَدَرٍ ﴾ أي تقدير والمراد به المقدر أي جئت على وفق الوقت الذي قدرته وعينته لتكليمك واستنبائك بلا تقدم ولا تأخر عنه ، وقيل : هو بمعنى المقدار أي جئت على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة .

وضعف بأن المعروف في هذا المعنى القدر بالسكون لا التحريك ، وقيل : المراد على موعد وعدناكه وروي ذلك عن مجاهد وهو يقتضي تقدم الوعد على لسان بعض الأنبياء عليهم السلام وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ تشريف له عليه السلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولاً ،

وقوله سبحانه :

﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾

(89/496)

تذكير لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ [طه : 13] وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابقة تأكيداً لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة ، ونظم ذلك الإمام في سلك المنن المحكية وظاهر توسيط النداء يؤيد ما تقدم ، والاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الصنيعة وهي الإحسان فمعنى اصطنعه جعله محل صنيعته وإحسانه ، وقال القفال : يقال اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال : هذا صنيع فلان وخريجه ، ومعنى ﴿ لِنَفْسِي ﴾ ما روي عن ابن عباس لوحيي ورسالتي ، وقيل : لمحبتي ، وعبر عنها بالنفس لأنها أخص شيء بها ، وقال الزجاج : المراد اخترتك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في التبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجبت عليهم ، وقال غير واحد من المحققين : هذا تمثيل لما خوله عز وجل من جعله نبياً مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم بتقريب الملك من يراه أهلاً لأن يقرب فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويجعله من خواص نفسه

وندمائه ، ولا يخفى حسن هذه الاستعارة وهي أوفق بكلامه تعالى وقوله تعالى : ﴿ لِنَفْسِي ﴾ عليها ظاهر .

وحاصل المعنى جعلتك من خواصي واصطفيتك برسالتي وبكلامي ، وفي العدول عن نون العظمة الواقعة في قوله سبحانه : ﴿ وفتناك ﴾ [طه : 40] ونظيريه السابقين تمهيد لإفراد النفس اللائق بالمقام فإنه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(90/496)

وقال القاسمى :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾

أي : يضمن حضانته ورضاعته .

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون ، عرضوا عليه المراضع فأباها كما قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ [القصص : 12] ، فجاءت أخته فقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص : 12] ،

فجاءت بأمه كما قال : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ أي : مع كونك بيد العدوّ : ﴿ كَيْ تَقَرَّ

عَيْنُهَا ﴾ أي : برؤيتك : ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي : بفراقك . فهذه منن زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى ما منّ عليه بالنجاة من القتل الذي لا يدفع بتلبيس ، بقوله : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ أي : من آل فرعون ، وهو القبطيّ الذي استغاثه عليه الإسرائيليّ ، إذ وكزه موسى فقضى عليه . أي : فاغتممت للقصاص : ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أي : غم القتل بأن صرفنا عنك ما تخشاه . وذلك أنه عليه السلام فرّ من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : 25] ، ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ أي : ابتليناك ابتلاءً . على أن الفتون مصدر كالشكور ، أو ضروباً من الفتن على أنه جمع فتنة أي : فجعلنا لك فرَجاً ومخرَجاً منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

(91/496)

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي : معزز الجانب مكفيّ المؤونة في عشرة أتقى رجل منهم وأصلحهم ، وهو نبيّهم عليه السلام : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ أي : بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ,جئت بأهلك على وفق ما

سبق في قضائي وقدري ؛ أن أكلمك وأستنبئك في وقت بعينه قد وقَّته لذلك . فما جئت إلا على ذلك القدر ، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى ﴾ تشريف له عليه الصلاة والسلام ، وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولاً . وقوله تعالى :

(92/496)

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ تذكير لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه والاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الصنيعة . يقال : اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أي : جعله محلاًّ لإكرامه باختيار وتقريبه منه ، بجعله من خواص نفسه وندمائه ، فاستعير استعارة تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه . وهو جعله نبيّاً مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والعدول عن نون الواقعة في قوله تعالى : ﴿ وَفَتَنَّاكَ ﴾ ونظيريه السابقين ، تمهيد لإفراد لفظ النفس اللائق

بالمقام، فإنه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 133.132 ﴾

(93/496)

وقال الشيخ الشنقيطى:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ ﴾.

اختلف في العامل الناصب للظرف الذي هو «إِذْ» من قوله ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ فقيل: هو «أَلْقَيْتُ» أي ألقيت عليك محبة مني حين تمشي أختك. وقيل: هو «تصنع» على عيني حين تمشي أختك. وقيل: هو بدل من «إذ» في قوله ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ ﴾ [طه: 38].

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت: كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا. فتقول: وأنا لقيتُه إذ ذاك. وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها.

وهذا الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من كون أخته مشت إليهم، وقالت لهم

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أوضحه جل وعلا في سورة « القصص » فبين أن أخته المذكورة مرسلة من قبل أمها لتتعرف خبره بعد ذهابه في البحر ، وأنها أبصرته من بعد وهم لا يشعرون بذلك . وأن الله حرم عليه المراضع غير أمه تحريماً كونياً قدرياً . فقالت لهم أخته ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أي على مرضع يقبل هو ثديها وتكفله لكم بنصح وأمانة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 11_13] فقوله تعالى في آية « القصص » هذه ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ ﴾ أي قالت أم موسى لأخته وهي ابنتها ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره ، وتطلبي خبره حتى تطَّلعي على حقيقة أمره .

(94/496)

وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ أي رأته من بعيد كالمعرضة عنه ، تنظر إليه وكأنها لا تريده ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بأنها أخته جاءت لتعرف خبره فوجدته ممتنعاً من أن يقبل ثدي مرضعة ، لأن الله يقول : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ أي تحريماً كونياً قدرياً ، أي

منعناه منها ليتيسر بذلك رجوعه إلى أمه ، لأنه لو قبل غيرها أعطوه لذلك الغير الذي قبله ليرضعه ويكفله فلم يرجع إلى أمه . وعن ابن عباس : أنه لما قالت لهم ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ أخذوها وشكّوا في أمرها وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ ! فقالت لهم : نصحهم له ، وشفقتهم عليه رغبة في سرور الملك ، ورجاء منفعته ، فأرسلوها . فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى ، وأحسنَتْ إليها ، فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى ، وأحسنَتْ إليها ، وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه قبل ثديها .

(95/496)

ثم سألتها « آسية » أن تقيم عندها فترضعه فأَبَتْ عليها وقالت : إن لي بعلاً وأولاداً ، ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلتُ فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجْرَتْ عليها النفقة والصِّلات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم

موسى بولدها قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عزّ وجاه ، ورزق دار (ا ه) من ابن كثير .

وقوله تعالى في آية « القصص » : ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص : 13] وعد الله المذكور هو قوله : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] والمؤرخون يقولون : إن أخت موسى المذكورة اسمها « مريم » وقوله ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ إن قلنا فيه : إن « كَيْ » حرف مصدري فاللام محذوفة ، أي لكي تقرّ . وإن قلنا : إنها تعليلية ، فالفعل منصوب بأن مضمرة . وقوله : ﴿ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ قيل : أصله من القرار . لأن ما يحبه الإنسان تسكن عينه عليه ، ولا تنظر إلى غيره : كما قال أبو الطيب :

وخصر تثبت الأبصار فيه . . . كأن عليه من حدق نطاقا

وقيل : أصله من القر بضم القاف وهو البرد ، تقول العرب : يومُ قر بالفتح أي بارد ، ومنه قول امرئ القيس :

تميم بن مر وأشياعها . . . وكندة حولي جميعاً صبر

إذا ركبوا الخيل واستلأموا . . . تحرقت الأرض واليوم قر

ومنه أيضاً قول حاتم الطائي الجواد :

أوقد فإن الليل ليل قر . . . والريح يا واقد ريح صر

عل يرى نارك من يمر . . . إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وعلى هذا القول : فقرة العين من بردها . لأن عين المسرور باردة ، ودمع البكاء من السرور

بارد جداً ، بخلاف عين المحزون فإنها حارة ، ودمع البكاء من الحزن حار جداً . ومن أمثال العرب : أحر من دمع المقلات . وهي التي لا يعيش لها ولد ، فيشتد حزنها لموت أولادها فتشتد حرارة دمعها لذلك .

(96/496)

قوله تعالى : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ .

لم يبين هنا جل وعلا في هذه الآية الكريمة سبب قلته لهذه النفس ، ولا ممن هي ، ولا يبين السبب الذي نجاه به من ذلك الغم ، ولا الفتون الذي فتنه ، ولكنه بين في سورة « القصص » خبر القتيل المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾

(97/496)

[القصص : 15-16] وأشار إلى القتيل المذكور في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص : 33] وهو المراد بالذنب في قوله تعالى عن موسى : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [العشراء : 13-14] وهو مراد فرعون بقوله لموسى فيما ذكره الله عنه : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء : 19] الآية . وقد أشار تعالى في « القصص » أيضا إلى غم موسى ، وإلى السبب الذي أنجاه الله به منه في قوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : 20-25] . وقوله : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ قال بعض أهل العلم : الفتون مصدر ، وربما جاء مصدر الثلاثي المتعدي على فعول في المتعدي كالثبور والشكور والكفور . وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداء بتاء

التأنيث كحجوز وبدور في حجزة وبدرة أي فتناك ضروباً من الفتن. وقد جاء في تفسير الفتون المذكور حديث معروف

(98/496)

عند أهل العلم بحديث «الفتون»، أخرجه النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وساقه ابن كثير في تفسيره عن النسائي بسنده. وهو حديث طويل يقتضي: أن الفتون يشمل كل ما جرى: على موسى من المحن من فرعون في صغره وكبره، كالخوف عليه من الذبح وهو صغير، ومن أجل ذلك أُلقي في التابوت وقذف في اليم فألقاه اليم بالساحل. وكخوفه وهو كبير من أن يقتله فرعون بالقبطي الذي قتله. وعلى هذا فالآيات التي ذكرت فيها تلك المحن مبينة للفتون على تفسير ابن عباس للفتون المذكور.

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن ساق حديث الفتون بطوله: هكذا رواه النسائي في السنن الكبرى. وأخرجه أبو جعفر بن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيريهما كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره. والله

أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّي يقول ذلك أيضاً اه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾.

(99/496)

السنين التي لبثها في مدين هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ [القصص: 27] وقد قدمنا في سورة «مريم» أنه أتم العشر، وبينا دليل ذلك من السنة. وبه تعلم أن الأجل في قوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ [القصص: 29] أنه عشر سنين لا ثمان. وقال بعض أهل العلم: لبث موسى في مدين ثمان وعشرين سنة، عشر منها مهر ابنة صهره، وثمان عشرة أقامها هو اختياراً، والله تعالى أعلم.

وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ أي جئت على القدر الذي قدرته وسبق في علمي أنك تجيء فيه فلم تتأخر عنه ولم تتقدم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49] وقال: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: 8]، وقال ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: 38]. وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز.

نال الخلافة أو كانت له قدراً . . . كما أتى ربه موسى على قدر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(100/496)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ

والاستفهام في ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ للعَرْض .

وأرادت بـ ﴿ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أمّه .

فلذلك قال ﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ .

وهذه منّة عليه لإكمال نمائه ، وعلى أمّه بنجاته فلم تفارق ابنها إلاّ ساعات قلائل ، أكرمها

الله بسبب ابنها .

وعطفُ نفي الحزن على قرّة العين لتوزيع المنّة ، لأنّ قرّة عينها برجوعه إليها .

وانتفاءَ حزنها بتحقق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى .

وتقديم قرّة العين على انتفاء الحزن مع أنها أخص فيغني ذكرها عن ذكر انتفاء الحزن ؛

روعي فيه مناسبة تعقيب ﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ بما فيه من الحكمة ، ثم أكمل بذكر

الحكمة في مشي أخته فتقول : ﴿ هل أدلكم على من يكفله في بيتها ، وكذلك كان شأن المراضع ذوات الأزواج كما جاء في حديث حليمة ، وكذلك ثبت في التّوراة في سفر الخروج .

جملة وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنجيناك مِنَ الغم وفتناك فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا موسى * واصطنعتك لِنَفْسِى ﴾ عطف على جملة ﴿ ولقد مننّا عليك مرة أخرى لأنّ المذكور في جملة وقتلت نفساً ﴾ منّة أخرى ثالثة .

وقدم ذكر قتله النفس على ذكر الإنجاء من الغم لتعظيم المنّة ، حيث افتتحت القصّة بذكر جناية عظيمة التبعة ، وهي قتل النّفس ليكون لقوله ﴿ فنجيناك ﴾ موقع عظيم من المنّة ، إذ أنجاه من عقوبة لا ينجو من مثلها مثلُه .

وهذه النفس هي نفس القبطيّ من قوم فرعون الذي اختصم مع رجل من بني إسرائيل في المدينة فاستغاث الإسرائيلي بموسى لينصره فوكز موسى القبطيّ فقضى عليه كما قصّ ذلك في سورة القصص .

والغمّ : الحزن .

والمعنيّ به ما خامر موسى من خوف الاقتصاص منه ، لأنّ فرعون لما بلغه الخبر أضمر الاقتصاص من موسى للقبطي إذ كان القبط سادة الإسرائيليين ، فليس اعتداء إسرائيلي على قبطي بهيّن بينهم .

ويظهر أنّ فرعون الذي تبنى موسى كان قد هلك قبل ذلك .

والفُتون : مصدر فَتَن ، كالخُروج ، والثُبور ، والشُكور ، وهو مفعول مطلق لتأكيد عامله وهو ﴿ فتنّاك ، وتنكيرُه للتعظيم ، أي فتونا قويّاً عظيماً .

والفتون كالفتنة : هو اضطراب حال المرء في مدّة من حياته .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ والفتنة أشدّ من القتل ﴾ في سورة البقرة (191) .

ويظهر أن الفتون أصل مصدر فتن بمعنى اختبر ، فيكون في الشرّ وفي الخير .

وأما الفتنة فلعلّها خاصة باختبار المضرّ .

ويظهر أن التنوين في فتوناً للتقليل ، وتكون جملة وفتناك فُتُوناً ﴾ كالاستدراك على قوله ﴿ فنجيناك مِنَ الغَمّ ﴾ ، أي نجيناك وحصل لك خوف ، كقوله ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ﴾ [القصص : 18] فذلك الفتون .

والمراد بهذا الفتون خوف موسى من عقاب فرعون وخروجه من البلد المذكور في قوله تعالى : ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب إلى قوله : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها

خائفاً يترّقب قال رب نجّني من القوم الظالمين ﴾ [القصص : 18 21] .

وذكر الفتون بين تعداد المنن إدماج للإعلام بأن الله لم يهمل دم القبطيّ الذي قتله موسى ، فإنه نفس معصومة الدم إذ لم يحصل ما يوجب قتله لأنّهم لم تَرِد إليهم دعوة إلهية حينئذ .

فحين أنجى الله موسى من المؤاخذة بدمه في شرع فرعون ابتَلى موسى بالخوف والغربة عتاباً له على إقدامه على قتل النفس ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ﴾ [القصص : 15 16] .

(102/496)

وعباد الله الذين أراد بهم خيراً ورعاهم بعنايته يجعل لهم من كلّ حالة كمالاً يكسبونه ، ويُسمى مثل ذلك بالابتلاء ، فكان من فتون موسى بقضيّة القبطيّ أن قدر له الخروج إلى أرض مدين ليكتسب رياضة نفس وتهيئةَ ضمير لتحمّل المصاعب ، ويتلقّى التهذيب من صهره الرسول شعيب عليه السلام .

ولهذا المعنى عقب ذكر الفتون بالتفريع في قوله ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسى ﴾ فبين له كيف كانت عاقبة الفتون .

أو يكون الفتون مشتركاً بين محمود العاقبة وضدّه مثل الابتلاء في قوله : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ [الأعراف : 168] ، أي واختبرناك اختباراً ، والاختبار : تمثيل لحال تكليفه بأمر التبليغ بحال من يختبر ، ولهذا اختير هنا دون الفتنة .

وأهل مدين : قوم شعيب .

ومَدْين : اسم أحد أبناء إبراهيم عليه السلام سكنت ذريته في مواطن تسمى الأيكة على شاطئ البحر الأحمر جنوب عقبة أيلة ، وغلب اسم القبيلة على الأرض وصار علماً للمكان فمن ثمّ أضيف إليه (أهل) .

وقد تقدم في سورة الأعراف .

ومعنى ﴿ جئْتَ ﴾ حضرتَ لدينا ، وهو حضوره بالواد المقدّس لتلقي الوحي .

و(على) للاستعلاء المجازي بمعنى التمكن ؛ جعل مجيئه في الوقت الصالح للخير بمنزلة المستعلي على ذلك الوقت المتمكن منه .

والقدَر : تقدير الشيء على مقدار مناسب لما يريد المقدّر بحيث لم يكن على سبيل المصادفة ، فيكون غير ملائم أو في ملاءَمِته خلَل ، قال النّابغة:

فريع قلبي وكانتْ نظرةٌ عرضت . . .

يوماً وتوفيق أقدار لأقدار

أي موافقة ما كنتُ أرغبه .

فقوله ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ يفيد أنّ ما حصل لموسى من الأحوال كان مقدّراً من الله تقديراً مناسباً متدرجاً ، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدّرها الله وحددها تحديداً منظماً لأجل اصطفائه وما أراد الله من إرساله ، فالقدر هنا كناية عن العناية بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير .

(103/496)

فهذا تقدير خاص ، وهو العناية بتدرج أحواله إلى أن بلغ الموضع الذي كلّمه الله منه .

وليس المراد القَدر العام الذي قدّره الله لتكوين جميع الكائنات ، فإن ذلك لا يُشعر بمزية لموسى عليه السلام .

وقد انتبَه إلى هذا المعنى جرير بذوقه السليم فقال في مدح عمر بن عبد العزيز :

أتى الخلافة إذْ كانت له قَدَراً . . .

كما أَتى ربّه موسى على قَدَر

ومن هنا ختم الامتنان بما هو الفذلكة ، وذلك جملة ﴿ واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ الذي هو بمنزلة ردّ العجز على الصدر على قوله ﴿ ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك الآية ، وهو تخلص بديع إلى الغرض المقصود وهو الخطاب بأعمال الرسالة المبتدأ من قوله : ﴿ وأنا

اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ [طه : 13] ومن قوله : ﴿ اذهب إلى فرعون إنّه طغى ﴾ [طه : 24] .

والاصطناع : صنع الشيء باعتناء .

واللام للأجْل ، أي لأجْل نفسي .

والكلام تمثيل لِهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئاً لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(104/496)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾

إذن : كان لأخت موسى دور في قصته ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : 11] .

والمراد : تتبعيه بعد أنْ علمتِ نجاته من اليمّ ، فتتبعته ، وعرفتْ أنه في بيت فرعون ، ثم حرَّم الله عليه المراضع ، فكان يعافُ المرضعات ، وهنا تدخلت أخته لتقول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ [طه : 40] وهذا الترتيب لا يقدر عليه إلا الله .

ويقول تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ [طه : 40] حين نستقرئ مادة (رجع) في القرآن نجدها تأتي مرة لازمة كما في : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 150]

وتأتي متعدية كما في : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ [طه : 40] وفي : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : 83] .

والفَرْق بين اللازم والمتعدّي أن اللازم رجع بذاته ، أمّا المتعدي فقد أرجعه غيره ، فالرجوع أن تصير إلى حال كنتَ عليها وتركتها ، فإنْ رجعت بنفسك دون دوافع حملتْك على الرجوع فالفعل لازم ، فإنْ كانت هناك أمور دفعتْك للرجوع فالفعل مُتعَدٍّ .

ومثل رجعك : أرجعك ، إلا أن رجعك : الرجوع في ظاهر الأمر منك من دون دوافع منك . وأرجعك : أي رَغْماً عن إرادتك .

وقوله : ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ [طه : 40] تقرُّ العين أي : تثبت ؛ لأن التطلعات إما أن تكون معنوية أو حِسِّية ، فالإنسان لديه أمانٍ يتطلع إلى تحقيقها ، فإذا ما تحققت تقول : لم يعُدْ يتطلع إلى شيء .

وكذلك في الشيء الحسّيِّ ، فالعرب يقولون للشيء الجميل : قيد النواظر . أي : يقيد العين فلا تتحول عنه ؛ لأن الإنسان لا يتحول عن الجميل إلا إذا رأى ما هو أجمل ، وهذا ما يسمونه قُرَّة العين . يعني الشيء الحسن الذي تستقر عنده العين ، ولا تطلب عليه مزيداً في الحُسْن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ [طه : 40] وهذه مِنَّة أخرى من مِنَن الله تعالى على موسى عليه السلام ، فمِنَنُ الله عليه كثيرة كما قال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 37] فهي مرة ، لكن هناك مرات .

ومسألة القتل هذه وردتْ في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 15] .

وخرج من المدينة خائفاً يترقب الناس لئلا يلحقوا به فيقتلوه ، وهذا معنى ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم ﴾ [طه : 40] أي : من القتل ، أو من الإمساك بك ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ [طه : 40] أي : عرّضناك لمحن كثيرة ، ثم نجيناك منها ، أولها : أنك وُلِدْت في عام يُقتل فيه الأطفال ، ثم رمتْكَ أمك في اليم ، ثم ما حدث منه مع فرعون لما جذبه من ذقنه .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ في أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى ﴾ [طه : 40] ذكر الله تعالى مدة مُكْثه في أهل مدين على أنها من مننه على موسى مع أنه كان فيها أجيراً

، وقال عن نفسه :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] .

(106/496)

وفي مدين تعرّف على شعيب عليه السلام ، وتزوج من ابنته وأنجب منها ولداً ، وموسى في هذا كله غريب عن وطنه ، بعيد عن أمه ، فلما أراد الله له الرسالة شوّقه إلى وطنه ورؤية أمه ، وقَدّر له العودة ؛ فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى ﴾ [طه : 40] .

أي : على قَدَر من اصطفائك ، فقَدَر الله هو الذي حرّك في قلبك الشوق للعودة ، وحملك على أنْ تمشي في الطريق غير المأهول ، وتتحمل مشقة البرد وعناء السفر ، قَدَر الله هو الذي حرّك فيك خاطر الشوق لأمك ، ففي طريق العودة وفي طُوىً أنت على موعد مع الاصطفاء والرسالة .

لذلك ، فإن الشاعر الذي مدح الخليفة قال له :

جاء الخِلاَفَةَ أوْ كانتْ لَهُ قَدَراً . . . كَما أتى ربَّه مُوسَى عَلَى قَدَرِ

ثم يقول الحق سبحانه لموسى : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾

أي : نجّيْتك وحافظت عليك ؛ لأنني أُعِدُّك لمهمة عندي ، هي إرسالك رسولاً بمنهجي إلى

فرعون وإلى قومك .

وقد حاول العلماء إحصاء المطالب التي طلبها موسى عليه السلام من ربه فوجدوها ثمانية : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه : 2534] .

(107/496)

ثم وجدوا أن الله تعالى أعطاه ثمانية أخرى دون سؤال منه : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ [طه : 3840] .

فإنْ كان موسى عليه السلام قد طلب من ربه ثمانية مطالب فقد أعطاه ربه عز وجل ثمانية أخرى دون أن يسألها موسى ؛ ليجمع له بين العطاء بالسؤال ، والعطاء تكرُّماً من غير

سؤال ؛ لأنك إنْ سألت الله فأعطاك دلَّ ذلك على قدرته تعالى في إجابة طلبك ، لكن إنْ أعطاك بدون سؤال منك دلَّ ذلك على محبته لك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(108/496)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِذْ تمشي ﴾ :

في عاملِ هذا الظرفِ أوجهٌ ، أحدها : أن العامل فيه " ألقيتُ " أي : ألقيتُ عليك محبةً مني في وقتِ مَشْيِ أختِك .

الثاني : أنه منصوبٌ بقولِه " ولتُصْنَعَ " أي : لتربى ويُحْسَنَ إليك في هذا الوقتِ . قال الزمخشري : " والعامل في " إذ تشمي " " ألقيتُ " أو " لتُصنع " . وقال أبو البقاء : " إذ تمشي " يجوز أَنْ يتعلَّقَ بأحد الفعلين " . قلت : يعني بالفعلين ما تقدَّم مِنْ ألقيتُ أو لتُصْنَعَ . وعلى هذا فيجوز أن تكونَ المسألةُ من بابِ التنازع ؛ لأنَّ كلاً من هذين العاملين يطلب هذا الظرفَ من حيث المعنى ، ويكونُ من إعمال الثاني للحذف من الأول . وهذا إنما يتجه كلَّ

الاتجاه إذا جعلْتَ " ولِتُصْنَعَ " معطوفاً على علةٍ محذوفةٍ متعلقةٍ ب " أَلْقَيْتُ " ، أمَّا إذا جعلته متعلقاً بفعلٍ مضمرٍ بعده فيبعدُ ذلك أو يمتنع ، لكونِ الثاني صار من جملةٍ أخرى .

الثالث : أن تكونَ " إذ تمشي " بدلاً من " إذ أَوْحَيْنا " . قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف يَصِحُّ البدل والوقتان مختلفان متباعدان ؟ قلت : كما يصحُّ وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل : لَقِيْت فلاناً سنةَ كذا فتقول : وأنا لقيته إذ ذاك ، وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها " . قال الشيخ : " وليس كما ذكر لأن السنةَ تقبل الاتساع ، فإذاً وقع لُقِيُّهما فيها ، بخلاف هذين الظَّرفين فإنّ كل واحدٍ منهما ضيقٌ ليس بمتسعٍ لتخصصهما بما أضيفا إليه ، فلا يمكن أن يقعَ الثاني في الظرف الذي وقع فيه الأول ؛ إذ الأول ليس متسعاً لوقوع الوحيِ فيه ووقوعِ مَشْيِ الأخت ، فليس وقتُ وقوعِ الفعل مشتملاً على أجزاءٍ وقع في بعضها المشي بخلاف السنة " . قلت : وهذا تحمُّلٌ منه عليه فإنّ زمنَ اللُّقِيِّ أيضاً ضيقٌ لا يَسَعُ فِعْلَيْهما ، وإنما ذلك مبنيٌّ على التساهل ؛ إذ المراد أن الزمانَ مشتملٌ على فعليهما .

وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكونَ بدلاً من " إذ " الأولى ، لأنَّ مَشْيَ أختِه كان مِنَّةً عليه " يعني أن قولَه " إذ أَوْحَيْنا " منصوبٌ بقوله : " مَنَنَّا " فإذا جُعِل " إذ تمشي " بدلاً منه كان

أيضاً مُمْتَنّاً به عليه .

الرابع : أن يكونَ العامل فيه مضمراً تقديره : اذكر إذ تمشي . وهو على هذا مفعولٌ به لفساد المعنى على الظرفية .

وقرأ العامَّة " كي تَقَرَّ " بفتح التاء والقاف . وقرأَتْ فرقة " تَقِرَّ " بكسر القاف ، وقد تقدم أنهما لغتان في سورة مريم . وقرأ جناح بن حبيش " تُقَرُّ " بضمِّ التاءِ وفتحِ القاف على البناء للمفعول .

" عينُها " رفعاً لِما لَمْ يُسَمَّ فاعلُه .

قوله : ﴿ فُتُوناً ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مصدرٌ على فُعُوْل كالقُعود والجُلُوس ، إلاَّ أنَّ فُعُولاً قليلٌ في المتعدّي . ومنه الشُّكُوْر والكُفور والثُّبور واللُّزوم . قال تعالى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] . والثاني : أنه جمعُ فَتْنٍ أو فِتْنَة على تَرْك الاعتداد بتاء التأنيث ك " حُجُور " و " بُدُوْر " في حَجْرة وبَدْرة أي : فَتَنَّاك ضُروباً من الفتن .

عن ابن عباس : أنه وُلِد في عامٍ يُقتل فيه الوِلْدَان ، وألْقَتْه أمُّه في البحر ، وقتل القبطيَّ وأَجَر نفسَه عشرَ سنين ، وضَلَّ عن الطريق ، وتفرَّقَتْ غنمُه في ليلةٍ مظلمة . ولَمَّا سأل سعيدُ بن جبير عن ذلك أجابه بما ذكرْتُه ، وصار يقول عند كل واحدة : فهذه فتنةٌ يا ابن جبير . قال معناه الزمخشري . وقال غيره : بفُتُوْنٍ من الفِتَنِ أي المِحَنِ تُخْتبر بها .

قوله : ﴿ على قَدَرٍ ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من فاعل " جئت " أي : جئتَ

موافقاً لِما قُدِّر لك . كذا قدّره أبو البقاء ، وهو تفسيرُ معنىً . والتفسير الصناعي : ثم جئت مستقراً أو كائناً على مقدار معين . كقول الآخر :

(110/496)

3288 نال الخلافةَ أو جاءَتْ على قَدَرٍ . . . كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) ﴾

ومعنى " اصْطَنَعْتُكَ " أي : أخْلَصْتُك . واصْطَفَيْتُكَ افتعال من الصُّنْع ، فأُبْدِلَتْ التاءُ طاءً لأجل حرف الاستعلاء ، وهذا مجازٌ عن قُرْبِ منزلِته ودُنُوِّه مِنْ ربه ؛ لأنَّ أحداً لا يَصْطَنع إلاَّ مَنْ يختاره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 37 . 40 ﴾

(111/496)

فصل فى فصل الوقت

قال ابن القيم :

فصل ومنها الوقت

قال صاحب المنازل. باب الوقت قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ الوقت اسم لظرف الكون وهو اسم في هذا الباب لثلاثة معان على ثلاث درجات المعنى الأول الوقت حين وجد صادق لأنياس ضياء فضل جذبه صفاء رجاء أو لعصمة جذبها صدق خوف أو لتلهب شوق جذبه اشتعال محبة وجه استشهاده بالآية أن الله سبحانه قدر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه فإن العرب تقول جاء فلان على قدر إذا جاء وقت الحاجة إليه قال جرير

نال الخلافة إذ كانت على قدر . . . كما أتى ربه موسى على قدر

وقال مجاهد على موعد وهذا فيه نظر لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء حتى يقال إنه أتى على ذلك الموعد ولكن وجه هذا أن المعنى جئت على الموعد الذي وعدنا أن ننجزه والقدر الذي قدرنا أن يكون في وقته وهذا كقوله تعالى إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا لأن الله سبحانه وتعالى وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نورا وهدى فلما سمعوا القرآن علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه كان أحسن وأنفع وأجدى كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى وجريانها في الخلق علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته وبعث عيسى كذلك وبعث محمد وعليهم أجمعين أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له أحوج ما كان إلى عمارته قوله الوقت ظرف الكون الوقت عبارة عن مقارنة حادث لحادث عند المتكلمين فهو نسبة بين حادثين فقوله ظرف الكون أي وعاء التكوين فهو الوعاء الزماني الذي يقع فيه التكوين كما أن ظرف المكان هو الوعاء المكاني الذي يحصل فيه الجسم ولكن الوقت في اصطلاح القوم أخص من ذلك قال أبو على الدقاق الوقت ما أنت فيه فإن كنت في الدنيا فوقتك الدنيا وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى وإن كنت بالسرور فوقتك السرور وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن يريد أن الوقت ما كان الغالب على الإنسان من حاله وقد يريد أن الوقت ما بين الزمانين الماضي والمستقبل وهو اصطلاح أكثر الطائفة ولهذا يقولون الصوفي والفقير ابن وقته يريدون أن همته لا تتعدى وظينة عمارته بما هو أولى الأشياء به وأنفعها له فهو قائم بما هو مطالب به في الحين والساعة الراهنة فهو لا

يهتم بماضي وقته وآتيه بل يهتم بوقته الذي هو فيه فإن الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الوقت الحاضر وكلما حضر وقت اشتغل عنه بالطرفين فتصير أوقاته كلها فوات .

(113/496)

قال الشافعى رضي الله عنه صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل قلت يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم وقد يريدون بالوقت ما هو أخص من هذا كله وهو ما يصادفهم في تصريف الحق لهم دون ما يختارونه لأنفسهم ويقولون فلان بحكم الوقت أي مستسلم لما يأتي من عند الله من غير اختيار وهذا يحسن في حال ويحرم في حال وينقص صاحبه في حال فيحسن في كل موضع ليس لله على العبد فيه أمر ولا نهي بل في موضع جريان الحكم الكوني الذي لا يتعلق به أمر ولا نهي كالفقر والمرض والغربة والجوع والألم والحر والبرد ونحو ذلك ويحرم في الحال التي يجري عليه فيها الأمر والنهي والقيام بحقوق الشرع فإن التضييع لذلك والاستسلام والاسترسال مع القدر انسلاخ من الدين بالكلية وينقص صاحبه في حال تقتضي قياما بالنوافل وأنواع البر والطاعة وإذا أراد الله بالعبد

خيرا أعانه بالوقت وجعل وقته مساعدا له وإذا أراد .

به شرا جعل وقته عليه وناكده وقته فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت والأول

كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده وقد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام

أصحاب السوابق وأصحاب العواقب وأصحاب الوقت وأصحاب الحق قال فأما

أصحاب السوابق فقلوبهم أبدا فيما سبق لهم من الله لعلمهم أن الحكم الأزلي لا يتغير

باكتساب العبد ويقولون من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل ففكرهم في هذا أبدا ومع ذلك

فهم يجدون في القيام بالأوامر واجتناب النواهي والتقرب إلى الله بأنواع القرب غير واثقين بها

ولا ملتفتين إليها ويقول قائلهم

من أين أرضيك إلا أن توفقني . . . هيهات هيهات ما التوفيق من قبلي

إن لم يكن لي في المقدور سابقة . . . فليس ينفع ما قدمت من عملي

وأما أصحاب العواقب فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم فإن الأمور بأواخرها والأعمال

بخواتيمها والعاقبة مستورة كما قيل

لا يغرنك صفا الأوقات

فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره وتفتحت أزهاره وزهت ثماره لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية فصار كما قال الله عز وجل ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله ﴿ تَفَكَّرُونَ ﴾

فكم من مريد كبا به جواد عزمه . . . فخر صريعا لليدين وللفم

وقيل لبعضهم وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه ما الذي أصابك فقال حجاب وقع وأنشد

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت . . . ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها . . . وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك . . . إنما العجب ممن نجا كيف نجا

تعجبين من سقمي . . . صحتي هي العجب

الناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة

خذ من الألف واحدا . . . واطرح الكل من بعده

وأما أصحاب الوقت فلم يشتغلوا بالسواق ولا بالعواقب بل اشتغلوا بمراعاة الوقت وما يلزمهم من أحكامه وقالوا العارف ابن وقته لا ماضي له ولا مستقبل ورأى بعضهم الصديق رضي الله عنه في منامه فقال له أوصني فقال هل كن ابن وقتك وأما أصحاب الحق فهم مع

صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات لا يتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان كما قيل

لست أدري أطال ليلي أم لا . . . كيف يدري بذاك من يتقلى

لو تفرغت لاستطالة ليلى . . . ولرعي النجوم كنت مخلى إن

للعاشقين عن قصر الليل ، وعن طوله من العشق

شغلا قال الجنيد دخلت على السرى يوما فقلت له كيف أصبحت فأنشأ يقول

ما في النهار ولا في الليل لي فرج . . . فلا أبالي أطال الليل أم قصرا

ثم قال ليس عند ربكم ليل ولا نهار يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات بل هو مع الذي يقدر الليل والنهار .

فصل قال صاحب المنازل الوقت اسم في هذا الباب لثلاث معان المعنى .

الأول حين وجد صادق أي وقت وجد صادق أي زمن من وجد يقوم بقلبه وهو صادق منه غير متكلف له ولا متعمل في تحصيله يكون متعلقه إيناس ضياء فضل أي رؤية ذلك والإيناس الرؤية .

قال الله تعالى فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا وليس هو مجرد الرؤية بل رؤية ما يأنس به القلب ويسكن إليه ولا يقال لمن رأى عدوه أو مخوفا آنسه ومقصوده أن هذا الوقت وقت وجد صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومنته عليه والفضل هو العطاء الذي لا يستحقه المعطى أو يعطى فوق استحقاقه فإذا آنس هذا الفضل وطالعه بقلبه أثار ذلك فيه وجدا آخر باعثا على محبة صاحب الفضل والشوق إلى لقائه فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها ودخلت يوما على بعض أصحابنا وقد حصل له وجد أبكاه فسألته عنه فقال ذكرت ما من الله به علي من السنة ومعرفتها والتخلص من شبه القوم وقواعدهم الباطلة وموافقة العقل الصريح والفطرة السليمة لما جاء به الرسول فسرني ذلك حتى أبكاني فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومنته قوله جذبه صفاء رجاء أي جذب ذلك الوجد أو الإيناس أو الفضل رجاء صاف غير مكدر والرجاء الصافي هو الذي لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك وأن عملك هو الذي بعثك على الرجاء فصفاء الرجاء يخرجه عن ذلك بل يكون رجاء محضا لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك والفضل كله له ومنه وفي يده أسبابه وغاياته ووسائله وشروطه وصرف موانعه كلها بيد الله لا يستطيع العبد أن ينال منه شيئا بدون توفيقه وإذنه ومشيئته وملخص ذلك أن الوقت في هذه الدرجة الأولى عبارة عن

وجد صادق سببه رؤية فضل الله على عبده لأن رجاءه كان صافيا من الأكدار قوله أو لعصمة جذبها صدق خوف اللام في قوله أو لعصمة.

(116/496)

معطوف على اللام في قوله أو لإيناس ضياء فضل أي وجد لعصمة جذبها صدق خوف فاللام ليست للتعليل بل هي على حدها في قولك ذوق لكذا ورؤية لكذا فمتعلق الوجد عصمة وهي منعة وحفظ ظاهر وباطن جذبها صدق خوف من الرب سبحانه والفرق بين الوجد في هذ الدرجة والتي قبلها أن الوجد في الأولى جذبه صدق الرجاء وفي الثانية جذبه صدق الخوف وفي الثالثة التي ستذكر جذبه صدق الحب فهو معنى قوله أو التلهب شوق جذبه اشتعال محبة وخدمته التورية في اللهيب والأشتعال والمحبة متى قويت اشتعلت نارها في القلب فحدث عنها لهيب الاشتياق إلى لقاء الحبيب وهذه الثلاثة التي تضمنتها هذه الدرجة وهي الحب والخوف والرجاء هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له وهي أساس السلوك والسير إلى الله وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية وعليها

دارت رحى الأعمال والله أعلم .

فصل قال والمعنى الثاني اسم لطريق سالك يسير بين تمكن وتلون ولكنه .

إلى التمكن ما هو يسلك الحال ويلتفت إلى العلم فالعلم يشغله في حين والحال يحمله في حين فبلاؤه بينهما يذيقه شهودا طورا ويكسوه عبدة طورا ويريه غيرة تفرق طورا هذا المعنى هو المعنى الثاني من المعاني الثلاثة من معاني الوقت عنده قوله اسم لطريق سالك هو على الإضافة أي لطريق عبد سالك .

قوله يسير بين تمكن وتلون أي ذلك العبد يسير بين تمكن وتلون والتمكن هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالشهود والحال والتلون في هذا الموضع خاصة هو الانقياد إلى أحكما العبودية بالعلم فالحال يجمعه بقوته وسلطانه فيعطيه تمكينا والعلم يلونه بحسب متعلقاته وأحكامه قوله لكنه إلى التمكن ما هو يسلك الحال ويلتفت إلى العلم يعني أن هذا العبد هو سالك إلى التمكن ما دام يسلك الحال ويلتفت إلى العلم فأما إن سلك العلم والتفت إلى الحال لم يكن سالكا إلى التمكن فالسالكون ضربان سالكون على الحال ملتفتون إلى العلم وهم إلى التمكن أقرب وسالكون على العلم ملتفتون إلى الحال وهم إلى التلون أقرب هذا حاصل

كلامه وهذه الثلاثة هي المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال حتى كأنهما غيران وحزبان وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه وهذا من تقصير الفريقين حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم وضعف الآخر عن الحال في العلم فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم فأخذ هؤلاء العلم وسعته ونوره ورجحوه وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ورجحوه وصار الصادق الضعيف من الفريقين يسير بأحدهما ملتفتا إلى الآخر فهذا مطيع للحال وهذا مطيع للعلم لكن المطيع للحال متى عصى به العلم كان منقطعا محجوبا وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعا منقوصا مشتغلا بالوسيلة عن الغاية وصاحب التمكين يتصرف علمه في حاله ويحكم عليه فينقاد لحكمه ويتصرف حاله في علمه فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم فيجيبه .

(118/496)

ويلبي دعوته فهذه حال الكمل من هذه الأمة ومن استقرأ أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم دخل عليهم النقص والخلل والله المستعان يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من

يشاء عقيما إنه عليم قدير فكذلك يهب لمن يشاء علما ولمن يشاء حالا ويجمع بينهما لمن يشاء ويخلي منهما من يشاء قوله فالعلم يشغله في حين أي يشغله عن السلوك إلى تمكن الحال لأن العلم متنوع التعلقات فهو يفرق والحال يجمع لأنه يدعوه إلى الفناء وهناك سلطان الحال قوله والحال يحمله في حين أي يغلب عليه الحال تارة فيصير محمولا بقوة الحال وسلطانه على السلوك فيشتد سيره بحكم الحال يعني وإذا غلبه العلم شغله عن السلوك وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين أن العلم عندهم يشغل عن السلوك ولهذا يعدون السالك من سلك على الحال ملتفتا عن العلم وأما على ما قررناه من أن العلم يعين على السلوك ويحمل عليه ويكون صاحبه سالكا به وفيه فلا يشغله العلم عن سلوكه وإن أضعف سيره على درب الفناء فلا ريب أن العلم لا يجامع الفناء فالفناء ليس هو غاية السالكين إلى الله بل ولا هو لازم من لوازم الطريق وإن كان عارضا من عوارضها يعرض لغير الكمل كما تقدم تقرير ذلك فبينا أن الفناء الكامل الذي هو الغاية المطلوبة هو الفناء عن محبة ما سوى الله وإرادته فيفنى بمحبة الله عن محبة ما سواه وبإرادته ورجائه والخوف منه والتوكل عليه والإنابة إليه عن إرادة ما سواه وخوفه ورجائه والتوكل عليه وهذا الفناء لا ينافي العلم بحال ولا يحول بين العبد وبينه بل قد يكون في .

أغلب الأحوال من أعظم أعوانه وهذا أمر غفل عنه أكثر المتأخرين بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه ولكن لم يخل الله الأرض من قائم به داع إليه قوله فبلاؤه بينهما أي عذابه وألمه بين داعي الحال وداعي العلم فإيمانه يحمله على إجابة داعي العلم وواردة يحمله على إجابة داعي الحال فيصير كالغريم بين مطالبين كل منهما يطالبه بحقه وليس بيده إلا ما يقضي أحدهما وقد عرفت أن هذا من الضيق وإلا فمع السعة يوفى كلا منهما حقه قوله يذيقه شهودا طورا أي ذلك البلاء الحاصل بين الداعيين يذيقه شهودا طورا وهو الطور الذي يكون الحاكم عليه فيه هو العلم قوله ويكسوه عبرة طورا الظاهر أنه عبرة بالباء الموحدة والعين أي اعتبارا بأفعاله واستدلالا عليه بها فإنه سبحانه دل على نفسه بأفعاله فالعلم يكسو صاحبه اعتبارا واستدلالا على الرب بأفعاله ويصح أن يكون غيرة بالغين المعجمة والياء المثناة من تحت ومعناه أن العلم يكسوه غيرة من حجابة عن مقام صاحب الحال فيغار من احتجابه عن الحال بالعلم وعن العيان بالاستدلال وعن الشهود الذي هو مقام الإحسان بالايمان الذي هو إيمان بالغيب قوله ويريه غيرة تفرق طورا هذا بالغين المعجمة ليس إلا أي ويريه العلم غيرة تفرقه في أوديته فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم وهو حال صحو وتمييز وكأن الشيخ يشير إلى أن صاحب هذا المقام تغار تفرقته من جمعيته على الله فنفسه

تفر من الجمعية على الله إلى تفرق العلم فإنه لا أشق على النفوس من جمعيتها على الله فهي تهرب من الله إلى الحال تارة وإلى العمل تارة وإلى العلم تارة هذه نفوس السالكين الصادقين .

(120/496)

وأما من ليس من أهل هذا الشأن فنفوسهم تفر من الله إلى الشهوات والراحات فأشق ما على النفوس جمعيتها على الله وهي تناشد صاحبها أن لا يوصلها إليه وأن يشغلها بما دونه فإن حبس النفس على الله شديد وأشد منه حبسها على أوامره وحبسها عن نواهيه فهي دائما ترضيك بالعلم عن العمل وبالعمل عن الحال وبالحال عن الله سبحانه وتعالى وهذا أمر لا يعرفه إلا من شد مئزر سيره إلى الله وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه وقد تضمن كلامه في هذه الدرجة ثلاث درجات كما أشار إليه درجة الحال ودرجة العلم ودرجة التفرقة بين الحال والعلم وهذه الثلاث الدرجات هي المختصة بالمعنى الثاني من معاني الوقت والله أعلم .

فصل قال والمعنى الثالث قالوا الوقت الحق أرادوا به استغراق رسم .

الوقت في وجود الحق وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندي لكنه هو اسم في هذا المعنى الثالث لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفا لا وجودا محضا وهو فوق البرق والوجد وهو

يشارف مقام الجمع لو دام وبقي ولا يبلغ وادي الوجود لكنه يكفي مؤنة المعاملة ويصفي عين المسامرة ويشم روائح الوجود هذا المعنى الثالث من معاني الوقت أخص مما قبله وأصعب تصورا وحصولا فإن الأول وقت سلوك يتلون وهذا وقت كشف يتمكن ولذلك أطلقوا عليه اسم الحق لغلبة حكمه على قلب صاحبه فلا يحس برسم الوقت بل يتلاشى ذكر وقته من قلبه لما قهره من نور الكشف فقوله قالوا الوقت هو الحق يعني أن بعضهم أطلق اسم الحق على الوقت ثم فسر مرادهم بذلك وأنهم عنوا به استغراق رسم الوقت في وجود الحق ومعنى هذا أن السالك بهذا المعنى الثالث للحق إذا اشتد استغراقه في وقته يتلاشى عنه وقته بالكلية .

(121/496)

وتقريب هذا إلى الفهم أنه إذا شهد استغراق وقته الحاضر في ماهية الزمان فقد استغرق الزمان رسم الوقت إلى ما هو جزء يسير جدا من أجزائه وانغمر فيه كما تنغمر القطرة في البحر ثم إن الزمان المحدود الطرفين يستغرق رسمه في وجود الدهر وهو ما بين الأزل والأبد ثم إن الدهر يستغرق رسمه في دوام الرب جل جلاله وذلك الدوام هو صفة الرب فهناك يضمحل الدهر والزمان والوقت ولا يبقى له نسبة إلى دوام الرب جل جلاله البتة فاضمحل

الزمان والدهر والوقت في الدوام الإلهي كما تضمحل الأنوار المخلوقة في نوره وكما يضمحل علم الخلق في علمه وقدرهم في قدرته وجمالهم في جماله وكلامهم في كلامه بحيث لا يبقى للمخلوق نسبة ما إلى صفات الرب جل جلاله والقوم إذا أطلق أهل الاستقامة منهم ما في الوجود إلا الله أو ما ثم موجود على الحقيقة إلا الله أو هناك يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ونحو ذلك من العبارات فهذا مرادهم لا سيما إذا حصل هذا الاستغراق في الشهود كما هو في الوجود وغلب سلطانه على سلطان العلم وكان العلم مغمورا بوارده وفي قوة التمييز ضعف وقد توارى العلم بالشهود وحكم الحال فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وتزل أقدام كثيرة إلى الحضيض الأدنى ولا ريب أن وجود الحق سبحانه ودوامه يستغرق وجود كل ما سواه ووقته وزمانه بحيث يصير كأنه لا وجود له ومن هنا غلط القائلون بوحدة الوجود وظنوا أنه ليس لغيره وجود البتة وغرهم كلمات مشتبهات جرت على ألسنة أهل الاستقامة من الطائفة فجعلوها عمدة لكفرهم وضلالهم وظنوا أن السالكين سيرجعون إليهم وتصير طريقة الناس واحدة ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

قوله وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندي يريد أن الحق سابق على الاسم الذي هو الوقت أي منزه عن أن يسمى بالوقت فلا ينبغي إطلاقه عليه لأن الأوقات حادثة قوله لكنه اسم في هذا المعنى الثالث لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفا لا وجودا محضا تلاشي الرسوم اضمحلالها وفناؤها والرسوم عندهم ما سوى الله وقد صرح الشيخ أنها إنما تتلاشى في وجود العبد الكشفي بحيث لا يبقى فيه سعة للإحساس بها لما استغرقه من الكشف فهذه عقيدة أهل الاستقامة من القوم وأما الملاحدة أهل وحدة الوجود فعندهم أنها لم تزل متلاشية في عين وجود الحق بل وجودها هو نفس وجوده وإنما كان الحس يفرق بين الوجودين فلما غاب عن حسه بكشفه تبين أن وجودها هو عين وجود الحق ولكن الشيخ كأنه عبر بالكشف والوجود عن المقامين اللذين ذكرهما في كتابه والكشف هو دون الوجود عنده فإن الكشف يكون مع بقاء بعض رسوم صاحبه فليس معه استغراق في الفناء والوجود لا يكون معه رسم باق ولذلك قال لا وجودا محضا فإن الوجود المحض عنده يفني الرسوم وبكل حال فهو يفنيها من وجود الواجد لا يفنيها في الخارج وسر المسألة أن الواصل إلى هذا المقام يصير له وجود آخر غير وجوده الطبيعي المشترك بين جميع الموجودات ويصير له نشأة أخرى لقلبه وروحه نسبة النشأة الحيوانية إليها كنسبة النشأة في بطن الأم إلى هذه النشأة المشاهدة في العالم وكنسبة هذه النشأة إلى النشأة الأخرى فللعبد أربع نشآت

نشأة في الرحم حيث لا بصر يدركه ولا يد تناله ونشأة في الدنيا ونشأة في البرزخ ونشأة في المعاد الثاني وكل نشأة أعظم من التي قبلها وهذه النشأة للروح والقلب أصلا وللبدن تبعا .

(123/496)

فللروح في هذا العالم نشأتان إحداهما النشأة الطبيعية المشتركة والثانية نشأة قلبية روحانية يولد بها قلبه وينفصل عن مشيمة طبعه كما ولد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن ومن لم يصدق بهذا فليضرب عن هذا صفحا وليشتغل بغيره وفي كتاب الزهد للإمام أحمد أن المسيح عليه السلام قال للحواريين إنكم لن تلجوا ملكوت السموات حتى تولدوا مرتين وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان وخروجها من عالم الطبيعة كما ولدت الأبدان من البدن وخرجت منه والولادة الأخرى هي الولادة المعروفة والله أعلم قوله وهو فوق البرق والوجد يعني أن هذا الكشف الذي تلاشت فيه الرسوم فوق منزلتي البرق والوجد فإنه أثبت وأدوم والوجود فوقه لأنه يشعر بالدوام قوله وهو يشارف مقام الجمع لو دام أي لو دام هذا الوقت لشارف مقام الجمع وهو ذهاب شعور القلب بغير الحق سبحانه وتعالى شغلا به عن غيره فهو جمع في الشهود وعند الملاحدة هو جمع في الوجود ومقصوده أنه لو دام الوقت بهذا المعنى الثالث لشارف حضرة

الجمع لكنه لا يدوم قوله ولا يبلغ وادي الوجود يعني أن الوقت المذكور لا يبلغ السالك فيه وادي الوجود حتى يقطعه ووادي الوجود هو حضرة الجمع قوله لكنه يلقى مؤنة المعاملة يعني أن الوقت المذكور وهو الكشف المشارف لحضرة الجمع يخفف عن العامل أثقال المعاملة مع قيامه بها أتم القيام بحيث تصير هي الحاملة له.

فإنه كان يعمل على الخبر فصار يعمل على العيان هذا مراد الشيخ وعند الملحد أنه يفنى عن المعاملات الجسمانية ويرد صاحبه إلى المعاملات القلبية وقد تقدم إشباع الكلام في هذا المعنى قوله ويصفى عن المسامرة المسامرة عند القوم هي الخطاب القلبي الروحي بين العبد وربه وقد تقدم أن تسميتها بالمناجاة أولى فهذا الكشف يخلص عن المسامرة من ذكر غير الحق سبحانه ومناجاته قوله ويشم روائح الوجود أي صاحب مقام هذا الوقت الخاص يشم روائح الوجود وهو حضرة الجمع فإنهم يسمونها بالجمع والوجود ويعنون بذلك ظهور وجود الحق سبحانه وفناء وجود ما سواه وقد عرفت أن فناء وجود ما سوله بأحد اعتبارين إما سواه بأحد اعتبارين إما فناؤه من شهود العبد فلا يشهده وإما اضمحلاله

وتلاشيه بالنسبة إلى وجود الرب ولا تلتفت إلى غير هذين المعنيين فهو إلحاد وكفر والله

المستعان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 127. 141 ﴾

(125/496)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾.

البلاء على حَسَبِ قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أمُّ موسى ضعيفة فردَّ إليها وَلَدَها بعد أيام، وكان يعقوبُ أقوى في حاله فلم يُعِدْ إليه يوسفَ إلا بعد سنين طويلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾.

أجرى اللَّهُ عليه ما هو في صورةٍ كبيرةٍ من قَتْلِ النّفْسِ بغير حق، ثم بيَّن اللَّهُ أنه لا يضره ذلك، فليست العِبْرَةُ فعل العبد في قلّته وكثرته إنما العِبرةُ بعناية الحقّ بشأن أحدٍ أو عداوته.

ويقال قد لا يموت كثيرٌ من الخَلْقِ بفنون من العذابِ، وكم من أناس لا يموتون وقد ضُرِبُوا ألوفاً

من السياط! وصاحبُ موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزةٍ! إيش الذي أوجب وقاته لولا أنه أراد به فتنةً لموسى؟ وفي بعض الكتب أنه - سبحانه - أقام موسى كذا وكذا مقاماً، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر، وفي كل مرة كان يقول له: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾.

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ ﴾: أريناكَ عينَ الجمع حتى زال عنك ما داخَلَكَ من الغمِّ بصفة مقتضى التفرقة، فلمّا أريناك سِرَّ جريانِ التقديرِ نَجَّيْنَاكَ من الغم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾.

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا. ويقال جَنَّسْنَا عليك البلاءَ ونَوَّعْنَاه حتى جَرَّدْنَاكَ عن كل اختيارٍ وإرادة، ثم حينئذٍ رَقَّيْنَاكَ إلى ما استوجَبْتَه من العِلم الذي أَهَّلْنَاكَ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾.

وكنتَ عند الناسِ أنك أجيرٌ لشعيب، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك، وكان يكفي - عندهم - أن تكون خَتَناً لشعيب.

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ .

أي عَدَدْنا أيامَ كونك في مدين شعيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرَفَكَ ومحبَّتَكَ منتظرين لك ؛ فجئتَ على قَدَرٍ .

ويقال إنَّ الأَجَل إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تقديم ، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى :

بينما خاطرُ المنى بالتلاقي . . . سابحٌ في فؤاده وفؤادي

جمع اللَّهُ بيننا فالتقينا . . . هكذا بغتةً بلا ميعادِ

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) ﴾

استخلصتُكَ لي حتى لا تَصْلُحَ لأحدٍ غيري ، ولا يَتأَتَّى شيءٌ منك غير تبليغ رسالتي ، وما هو مرادي منك .

ويقال أفردْتُ سِرَّكَ لي ، وجعلتُ إقبالَكَ عليَّ دون غيري ، وحُلْتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دوني .

ويقال : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفسِى ﴾ : قَطَعَهُ بهذا عن كلّ أحدٍ ، ثم قال له : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 456. 458 ﴾

قوله تعالى ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تمهد ذلك كله بعد علم نتيجته ، أعادها في قوله : ﴿ اذهب أنت ﴾ كما تقدم أمري لك به ﴿ وأخوك ﴾ كما سألت ﴿ بآياتي ﴾ التي أريتك وغيرها مما أظهره على يديك ﴿ ولا تنيا ﴾ أي تفترا وتضعفا ﴿ في ذكري ﴾ الذي تقدم أنك جعلته غاية دعائك ، بل لتكن - مع كونه ظرفاً محيطاً بجميع أمرك - في غاية الاجتهاد فيه وإحضار القلب له ، وليكن أكثر ما يكون عند لقاء فرعون أن عبدي كل عبدي للذي يذكرني عند لقاء قرنه ، فإن ذلك أعون شيء على المراد ، ثم بين المذهوب إليه بقوله ، مؤكداً لنفس الذهاب لأنه لشدة الخطر لا يكاد طبع البشر يتحقق جزم الأمر به فقال : ﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ ثم علل الإرسال إليه بقوله ، مؤكداً لما مضى ، ولزيادة التعجيب من قلة عقله ، فكيف بمن تبعه

﴿ إنه طغى ﴾ ثم أمرهما بما ينبغي لكل آمر بالمعروف من الأخذ بالأحسن فالأحسن والأسهل فالأسهل ، فقال مسبباً عن الانتهاء إليه ومعقباً : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ لئلا يبقى له حجة ، ولا يقبل له معذرة ﴿ لعله يتذكر ﴾ ما مر له من تطوير الله له في أطوار مختلفة ، وحمله فيما يكره على ما لم يقدر على الخلاص منه بحيلة ، فيعلم بذلك أن الله ربه ، وأنه قادر على ما يريد منه ، فيرجع عن غيّه فيؤمن ﴿ أو يخشى ﴾ أي أو يصل إلى حال من يخاف عاقبة قولكما لتوهم الصدق فيكون قولكما تذكرة له فيرسل معكما بني إسرائيل ، ومعنى الترجي أن يكون حاله حال من يرجى منه ذلك ، لأنها من ثمرة اللين في الدعاء ، جرى الكلام في هذا وأمثاله على ما يتعارفه العباد في محاوراتهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون ، فالمراد : اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما ومبلغكما من العلم ، وليس لهما أكثر من ذا ما لم يعلما ، وأما علمه تعالى فقد أتى من وراء ما يكون - قاله سيبويه في باب من النكرة يجري مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء .

ولما كان فرعون في غاية الجبروت ، وكان حاله حال من يهلكهما إلا أن يمنعهما الله ، وأراد علم ما يكون من ذلك ﴿ قالا ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا .

ولما كان مضمون إخبارهما بالخوف مع كونهما من جهة الله - من شأنه أن لا يكون وأن ينكر ، أكد فقالا مبالغين فيه بإظهار النون الثالثة إبلاغاً في إظهار الشكوى ليأتي الجبر على قدر ما يظهر من الكسر : ﴿ إننا نخاف ﴾ لما هو فيه من المكنة ﴿ أن يفرط ﴾ أي يجعل ﴿ علينا ﴾ بالعقوبة قبل إتمام البلاغ عجلة من يطفر ويثب إلى الشيء ﴿ أو أن يطغى ﴾ فيتجاوز إلى أعظم مما هو فيه من الاستكبار ﴿ قال لا تخافا ﴾ ثم علل ذلك بما هو مناط النصرة والحيطة للولي والإهلاك للعدو ، فقال مؤكداً إشارة إلى عظم الخبر ، وتنبيهاً لمضمونه لأنه خارج عن العوائد ، وأثبت النون الثالثة على وزان تأكيدهما : ﴿ إنني معكما ﴾ لا أغيب كما تغيب الملوك إذا أرسلوا رسلهم ﴿ أسمع وأرى ﴾ أي لي هاتان الصفتان ، لا يخفى عليَّ شيء من حال رسولي ولا حال عدوه ، وأنتما تعلمان من قدرتي ما لا يعلمه غيركما .

ولما تمهد ذلك ، تسبب عنه تعليمهما ما يقولان ، فقال مؤكداً للذهاب أيضاً لما مضى : ﴿ فأتياه فقولا ﴾ أي له ؛ ولما كان فرعون ينكر ما تضمنه قولهما ، أكد سبحانه فقال : ﴿ إنا ﴾ ولما كان التنبيه على معنى المؤازرة هنا - كما تقدم مطلوباً ، ثنى فقال :

﴿ رسولا ربك ﴾ الذي رباك فأحسن تربيتك بعد أن أوجدك من العدم ، إشارة إلى تحقيره بأنه من جملة عبيد مرسلهما تكذيباً له في ادعائه الربوبية ، ثم سبب عن إرسالكما إليه قولكما : ﴿ فأرسل معنا ﴾ عبيده ﴿ بني إسرائيل ﴾ ليعبدوه ، فإنه لا يستحق العبادة غيره ﴿ ولا تعذبهم ﴾ بما تعذبهم به من الاستخدام والتذبيح ؛ ثم علل دعوى الرسالة بما يثبتها ، فقال مفتتحاً بالحرف التوقع لأن حال السامع لادعاء الرسالة أن يتوقع دلالة على الإرسال : ﴿ قد جئناك بآية ﴾ أي علامة عظيمة وحجة وبرهان ﴿ من ربك ﴾ الذي لا إحسان عليك إلا منه ، موجبة لقبول ما ادعيناه من العصا واليد وغيرهما ، فأسلم تسلم ، وفي تكرير مخاطبته بذلك تأكيد لتبكيته في ادعاء الربوبية ، ونسبته إلى كفران الإحسان ، فسلام عليك خاصة إن قبلت هدى الله ﴿ والسلام ﴾ أي جنسه ﴿ على ﴾ جميع ﴿ من اتبع ﴾ بغاية جهده ﴿ الهدى ﴾ عامة ، وإذا كان هذا الجنس عليهم كان من المعلوم أن العطب على غيرهم ، فالمعنى : وإن أبيت عذبت ﴿ إنا ﴾ أي لأنا ﴿ قد أوحي إلينا ﴾ من ربنا ﴿ أن العذاب ﴾ أي كله ، لأن اللام للاستغراق أو الماهية ، وعلى التقديرين يقتضي قدر ثبوت هذا الجنس ودوامه لما تفهمه الاسمية ﴿ على ﴾ كل ﴿ من كذب وتولى ﴾ أي أوقع التكذيب والإعراض ، وذلك يقتضي أنه إن كان منه شيء على مصدق منقضياً ، وإذا انقضى كان كأن لم يوجد ، وفي صرف الكلام

عنه تنبيه على أنه ضال مكذب وتعليم للأدب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 22.20 ﴾

(130/496)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية في مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمراً ونهياً ، أما الأمر فهو أنه سبحانه وتعالى أعاد الأمر بالأول فقال : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ عقبه بذكر ماله اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

الباء ههنا بمعنى مع وذلك لأنهما لو ذهبا إليه بدون آية معهما لم يلزمه الإيمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد .

المسألة الثانية :

اختلفوا في الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال : أحدها : أنها اليد والعصا لأنهما اللذان

جرى ذكرهما في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فإنه تعالى لم يذكر في شيء منها أنه عليه السلام قد أوتي قبل مجيئه إلى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقي فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء : 31 33] وقال : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص : 32] فإذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه : الأول : أن العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فإن انقلاب العصا حيواناً آية ثم إنها في أول الأمر كانت صغيرة لقوله تعالى :

﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [النمل : 10] ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ، ثم كانت تصير ثعباناً وهذه آية أخرى .

ثم إن موسى عليه السلام كان يدخل يده في فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى ، وكذلك اليد فإن بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح أنهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان .

الثاني : هب أن العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لأن انقلابها حية يدل على وجود إله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيواناً فهذه آيات كثيرة ولذلك قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ [آل عمران : 96] إلى قوله : ﴿ فِيهِ ءايات بينات مَّقَامُ إبراهيم ﴾ [آل عمران : 97] فإذا وصف الشيء الواحد بأن فيه آيات فالشيئان أولى بذلك .

الثالث : من الناس من قال : أقل الجمع اثنان على ما عرفت في أصول الفقه .

القول الثاني : أن قوله : ﴿ اذهبا بِآيَاتِي ﴾ معناه أني أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فإن آياتي معكما كما يقال اذهب فإن جندي معك أي أني أمدك بهم متى احتجت .

القول الثالث : أن الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضاً معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الأمر أما النهي فهو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنِيَا فِى ذِكْرِي ﴾ الوني الفتور والتقصير وقرىء ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع ثم قيل فيه أقوال : أحدها : المعنى لا تنيا بل اتخذا ذكرى آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري والحكمة فيه أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحداً ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود ، ولأن ذاكر الله تعالى لا بد

وأن يكون ذاكراً لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره .

وثانيها : المراد بالذكر تبليغ الرسالة فإن الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر .

وثالثها : قوله : ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِي ﴾ عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

(132/496)

ورابعها : أن يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع إحسانه إليه ثم قال بعد ذلك : ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ وفيه سؤالان : الأول : ما الفائدة في ذلك بعد قوله : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بآياتي ﴾ قال القفال فيه وجهان .

أحدهما : أن قوله : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بآياتي ﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأموراً بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعاً لا أن ينفرد به هرون دون موسى .

والثاني : أن قوله : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بآياتي ﴾ أمر بالذهاب إلى كل الناس من بني

إسرائيل وقوم فرعون ، ثم إن قوله : ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ أمر بالذهاب إلى فرعون وحده .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ خطاب مع موسى وهارون عليهما السلام وهذا مشكل لأن هارون عليه السلام لم يكن حاضراً هناك وكذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يطغى ﴾ [طه : 45] أجاب القفال عنه من وجوه .

أحدها : أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه كان متبوع هارون فجعل الخطاب معه خطاباً مع هارون وكلام هارون على سبيل التقدير فالخطاب في تلك الحالة وإن كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه تعالى أضافه إليهما كما في قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ [البقرة : 72] وقوله : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] وحكي أن القائل هو عبد الله بن أبي وحده .

وثانيها : يحتمل أن الله تعالى لما قال : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ سكت حتى لقي أخاه ، ثم إن الله تعالى خاطبهما بقوله : ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ .

وثالثها : أنه حكى أنه في مصحف ابن مسعود وحفصة : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ أي قال موسى : أنا وأخي نخاف فرعون أما قوله تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد .

الجواب لوجهين : الأول : أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين .

الثاني : أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتواً وتكبراً ، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق .

السؤال الثاني : كيف كان ذلك الكلام اللين .

الجواب : ذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : ما حكى الله تعالى بعضه فقال : ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تزكى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبّكَ فتخشى ﴾ [النازعات : 18 ، 19] وذكر أيضاً في هذه السورة بعض ذلك فقال : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾ [طه : 47] إلى قوله : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] .

وثانيها : أن تعداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته .

وثالثها : كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة .

ورابعها : حكي عن عمرو بن دينار قال : بلغني أن فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين

فقال له موسى عليه السلام : إن أطعتني عمرت مثل ما عمرت فإذا مت فلك الجنة

واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة .

أما الأول : فقيل لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف .

وأما الثاني : فلأن خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد .

وأما الثالث : فالاعتراض عليه كما في الأول أما قوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ فاعلم أنه ليس المراد أنه تعالى كان شاكاً في ذلك لأن ذلك محال عليه تعالى وإنما المراد : فقولا له قولاً ليناً ، على أن تكونا راجيين لأن يتذكر هو أو يخشى .

واعلم أن أحوال القلب ثلاثة .

أحدها : الإصرار على الحق .

وثانيها : الإصرار على الباطل .

وثالثها : التوقف في الأمرين ، وأن فرعون كان مصراً على الباطل وهذا القسم أردأ الأقسام

فقال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ فيرجع من إنكاره إلى الإقرار بالحق وإن لم ينتقل من الإنكار إلى الإقرار لكنه يحصل في قلبه الخوف فيترك الإنكار وإن كان لا ينتقل إلى الإقرار فإن هذا خير من الإصرار على الإنكار واعلم أن هذا التكليف لا يعلم سره إلا الله تعالى لأنه تعالى لما علم أنه لا يؤمن قط كان إيمانه ضداً لذلك العلم الذي يمتنع زواله فيكون سبحانه عالماً بامتناع ذلك الإيمان وإذا كان عالماً بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ في ذلك الأمر بتلطيف دعوته إلى الله تعالى مع علمه استحالة حصول ذلك منه ؟ ثم هب أن المعتزلة ينازعون في هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة في هذا السؤال ولكنهم سلموا أنه كان عالماً بأنه لايحصل ذلك الإيمان وسلموا أن فرعون لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام إلا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكيناً إلى من علم قطعاً أنه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول : إني ما أردت بدفع السكين إليه إلا الإحسان إليه ؟ يا أخي العقول قاصرة عن معرفة هذه الأسرار ولا سبيل فيها إلا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان ، ويروى عن كعب أنه قال : والذي يحلف به كعب إنه لمكتوب في التوراة : فقولا له قولاً ليناً وسأقسي قلبه فلا يؤمن .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ فيه أسئلة:

السؤال الأول: قوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ﴾ يدل على أن المتكلم بذلك موسى وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضراً هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم.

السؤال الثاني: أن موسى عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: 25] فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى ﴾ [طه: 36] وهذا يدل على أنه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ فإن حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر.

والجواب: أن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الأوامر والنواحي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليه السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف.

السؤال الثالث: أما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة أنه تعالى يؤمنهما من القتل الذي هو مقطعة عن الأداء.

الجواب: قد أمنا ذلك وإن جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الأداء أو بعده وأيضاً فإنهما استظهرا بأن سألا ربهما ما يزيد في ثبات قلبهما على دعائه وذلك بأن ينضاف الدليل

النقلي إلى العقلي زيادة في الطمأنينة كما قال : ﴿ ولكن لِّيطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : 260].

السؤال الرابع : لما تكرر الأمر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية.

الجواب : لو اقتضى الأمر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لا سيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وإزالة الغم ولكن ليس الأمر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أن الأمر لا يقتضي الفور إذا ضممت إليه ما يدل على أن المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى : ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يطغى ﴾ فاعلم أن في : ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾ وجوهاً.

(136/496)

أحدها : فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة.

وثانيها : أنه مأخوذ من أفرط غيره إذا حمله على العجلة فكان موسى وهارون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو إما الشيطان أو

إدعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم : ﴿ قَالَ المَلاُ مِن قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 60] .

وثالثها : يفرط من الإفراط في الأذية أما قوله : ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ فالمعنى يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته عليك واعلم أن من أمر بشيء فحاول دفعه بأعذار يذكرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الأقوى وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

[النمل : 24] فكذا ههنا بدأ موسى بقوله : ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ وختم بقوله : ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ لما أن طغيانه في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون عليهما السلام .

(137/496)

أما قوله : ﴿ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ فالمراد لا تخافا مما عرض في قلبكما من الإفراط والطغيان لأن ذلك هو المفهوم من الكلام يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال : الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله :

﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ فإن من يكون مع الغير وناصراً له وحافظاً يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وإنما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم في جميع ما ينالهما وذلك هو النهاية في إزالة الخوف قال القفال قوله : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ يحتمل أن يكون مقابلاً لقوله : ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يطغى ﴾ والمعنى : ﴿ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ بأن لا يسمع منا : ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ بأن يقتلنا فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعاً وبصيراً صفتان زائدتان على العلم لأن قوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ دل على العلم فقوله : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ لو دل على العلم لكان ذلك تكريراً وهو خلاف الأصل ثم إنه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال : ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ لأنه سبحانه وتعالى قال في المرة الأولى : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى * اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ [طه : 23 ، 24] وفي الثانية : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ [طه : 42] وفي الثالثة : قال : ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ [طه : 43] وفي الرابعة قال ههنا فأتياه فإن قيل إنه تعالى أمرهما في المرة الثانية بأن يقولا له : ﴿ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ [طه : 44] وفي هذه المرة الرابعة أمرهما أن يقولاَ : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل ﴾ وفيه تغليظ من وجوه : أحدها : أن قوله : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾

فيه أبحاث :

البحث الأول : انقياده إليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع .

البحث الثاني : قوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسرائيل ﴾ فيه إدخال النقص على ملكه لأنه كان محتاجاً إليهم فيما يريده من الأعمال من بناء أو غيره .

البحث الثالث : قوله : ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ .

البحث الرابع : قوله : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فما الفائدة في التليين أولاً والتغليظ ثانياً ؟ قلنا : لأن الإنسان إذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ فإن قيل : أليس كان من الواجب أن يقولا إنا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، لأن ذكر المعجز مقروناً بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه ؟ قلنا : بل هذا أولى من تأخيره عنه لأنهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة ، أما قوله : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ففيه سؤال وهو أنه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال :

﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتي ﴾ [طه : 42] وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا :
﴿ جئناك بِآيَةٍ ﴾ وهذا يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع ؟ أجاب القفال بأن
معنى الآية الإشارة إلى جنس الآيات كأنه قال : قد جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز أن
يكون ذلك حجة واحدة أو حججاً كثيرة ، وأما قوله : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾
فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال : فقولا إنا رسولا ربك ، وقولا له : والسلام
على من اتبع الهدى ، وقال آخرون بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله : ﴿ قَدْ جئناك بِآيَةٍ مّن
رَّبّكَ ﴾ فقوله بعد ذلك : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ وعد من قبلهما لمن آمن
وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة ، والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع
ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال ﴿ لَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ [الرعد
: 25] على معنى عليهم وقال تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ [
فصلت : 46] وفي موضع آخر : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [
الإسراء : 7] ، أما قوله : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ فاعلم
أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لأن الألف واللام في قوله :
﴿ العذاب ﴾ تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية وعلى التقديرين يقتضي انحصار هذا
الجنس فيمن كذب وتولى فوجب في غير المكذب المتولي أن لا يحصل هذا الجنس أصلاً ،
وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحداً من المؤمنين بترك العمل به في بعض

الأوقات فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام لأن العقاب المتناهي إذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال : إنه لا عقاب ، وأيضاً فقوله : ﴿ والسلام على مَن اتبع الهدى ﴾ ، وقد فسرنا السلام

بالسلامة فظاهره يقتضي حصول السلامة لكل من اتبع الهدى ، والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 50.54 ﴾

(140/496)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اذْهَبَا إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : يَجُوزُ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولَيْنِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذِكْرَ قَاضِيَيْنِ وَأَمِيرَيْنِ ، وَالرِّسَالَةُ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهَا تَبْلِيغٌ عَنْ اللَّهِ ، فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنْ كَانَ الْقَضَاءُ وَقُلْنَا لَا يَجُوزُ

لِنَبِيٍّ أَنْ يُشَرِّعَ إِلَّا بِوَحْيٍ جَازَ أَنْ يَحْكُمَا مَعًا ، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَجْتَهِدَ النَّبِيُّ لَمْ يَحْكُمْ إِلَّا أَحَدُهُمَا ، وَهَذَا يَتِمُّ بَيَانُهُ فِي قِصَّةِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي جَوَازِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ بِاللِّينِ لِمَنْ مَعَهُ الْقُوَّةُ ، وَضُمِنَتْ لَهُ الْعِصْمَةُ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ لَهُمَا : فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ، وَلَا تَخَافَا إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى .

فَفِي الإسرائيليات أَنَّ مُوسَى أَقَامَ عَلَى بَابِ فِرْعَوْنَ سَنَةً لَا يَجِدُ رَسُولًا يُبَلِّغُ كَلَامًا ، حَتَّى لَقِيَهُ حِينَ خَرَجَ فَجَرَى لَهُ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ تَسْلِيَةً لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي سِيرَتِهِمْ مَعَ الظَّالِمِينَ .

وَرَبُّك أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(141/496)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : لا تفترا في ذكري ، قال الشاعر :

فما ونى محمد مذ أن غفر . . . له الإله ما مضى وما غبر

الثاني : لا تضعفا في رسالتي ، قاله قتادة .

الثالث : لا تبطنا ، قاله ابن عباس .

الرابع : لا تزالا ، حكاه أبان واستشهد بقول طرفة :

كأن القدور الراسيات أمامهم . . . قباب بنوها لا تني أبداً تغلي

قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لطيفاً رقيقاً .

الثاني : كنّياه ، قاله السدي وقيل إن كنية فرعون أبو مرة ، وقيل أبو الوليد .

ويحتمل ثالثاً : أن يبدأه بالرغبة قبل الرهبة ، ليلين بها فيتوطأ بعدها من رهبة ووعيد قال بعض المتصوفة : يا رب هذا رفقك لمن عاداك ، فكيف رفقك بمن والاك ؟

وقيل إن فرعون كان يحسن لموسى حين رباه ، فأراد أن يجعل رفقه به مكافأة له حين عجز موسى عن مكافأته .

قوله تعالى : ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنآ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن يعجل علينا ، قال الراجز : قد أفرط العلج علينا وعجل .

الثاني : يعذبنا عذاب الفارط في الذنب ، وهو المتقدم فيه ، قاله المبرد ويقال لمن أكثر في

الشيء أفرط ، ولمن نقص منه فرّط .

﴿ أَوْ أَن يَطْغَى ﴾ أي يقتلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(142/496)

وقال ابن عطية :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) ﴾

أمر الله تعالى موسى وهارون في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون وخاطب موسى وحده تشريفاً له ويحتمل أن هارون أوحي إليه مع ملك أن ينفذ ، و﴿ بآياتي ﴾ معناه بعلاماتي التي أعطيتكموها من معجزة وآية ووحي وأمر ونهي كالتوراة ، و﴿ تنيا ﴾ معناه تضعفا وتبطيا تقول ونَا فلان في أمر كذا إذا تباطأ فيه عن ضعف ومنه قول الشاعر : [المضارع]

فما أنا بالواني . . . ولا الضرع الغمر

والونى الكلال والفتور والفشل في البهائم والإنس ، وفي مصحف ابن مسعود " ولا تهنا في ذكري " معناه ولا تلينا من قولك هين لين والقول اللين قالت فرقة : معناه كنياه وقالت فرقة بل أمرهما بتحسين الكلمة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو الوجه ، وذلك أن كل من يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه

فإنما الوجه أن يحرر في عبارته الذي يريد حتى لا يخل به ولا يخز منه ، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارة لطيفة ومقابلته لينة وذلك أجلب للمراد فأمر الله تعالى موسى وهارون أن يسلكا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول . وقوله ﴿ لعله ﴾ معناه على رجائكما وطمعكما فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر وقرأ الجمهور "يَفرُط" بفتح الياء وضم الراء ومعناه يعجل ويسرع بمكروه فينا ومنه فارط في الماء وهو الذي يتقدم القوم إليه قال الشاعر القطامي عمير بن شييم : [البسيط]

واستعجلوا وكانوا من صحابتنا . . . كما تعجَّل فرّاط لورّاد

وقالت فرقة ﴿ يُفرِط ﴾ بضم الياء وكسر الراء ومعناه يشتط في إذايتنا ، وقرأ ابن محيص "يُفرَط" بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا .

قوله عز وجل : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ . يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون ، وهذا كما تقول الأمير مع فلان إذا أردت أنه يحميه و﴿ أسمع وأرى ﴾ عبارتان عن الإدراك لا تخفى معه خافية تبارك الله رب العالمين .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾

المعنى ﴿ فأتيا ﴾ فرعون فأعلماه أنكما رسولاي إليه وعبر بفرعون تحقيراً له إذ كان هو يدعي الربوبية ثم أمر بدعوته إلى أن يبعث معهما بني إسرائيل ويخرجهم من غل خدمة القبط وقد تقدم في هذه الآية دعاؤه إلى الإيمان وهذه جملة ما دعي إليه فرعون والإيمان وإرسال بني إسرائيل ، والظاهر أن رسالته إليه ليست على حد إرساله إلى بني إسرائيل ، وتعذيب بني إسرائيل كان ذبح أولادهم وتسخيرهم وإذلالهم والآية التي أحالا عليها هي العصا واليد وقالا ﴿ جئناك ﴾ والجائي بها موسى تجوزاً من حيث كانا مشتركين وقوله عليه السلام ﴿ من اتبع الهدى ﴾ يحتمل أن يكون آخر كلام وفصله فيقوى أن يكون السلام بمعنى التحية كأنهما رغباً بها عنه وجريا على العرف في التسليم عند الفراغ من القول فسلما على متبع الهدى وفي هذا توبيخ له ع : وعلى هذه الجهة استعمل الناس هذه الآية في مخاطبتهم ومحاوراتهم ويحتمل أن يكون في درج القول متصلاً بقوله ﴿ إنا قد أوحي إلينا ﴾ فيقوى على هذا أن يكون خبراً بأن السلامة للمهتدين ، وهذان المعنيان قالت كل واحد منهما فرقة ، لكن دون هذا التلخيص ، وقالوا ﴿ السلام ﴾ بمعنى السلامة وعلى بمعنى اللام أي السلام ل ﴿ من اتبع الهدى ﴾ ولما فرغا من المقالة التي أمر بها عن قوله ﴿ وتولى ﴾ خاطبهما فرعون ، وفي سرد هذه الآية حذف يدل عليه ظاهر الكلام تقديره فأتياه

فلما قالا جميع ما أمرا به قال لهما فرعون ﴿ فمن ربكما ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(144/496)

فائدة

قال الإمام السبكي :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : كُنْت أَتْلُو فِي سُورَةِ طَه ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ فَقَالَ لِي ابْنِي أَحْمَدُ لِمَ جَاءَ هَذَا فِي وَسَطِ الْكَلَامِ ؛ وَفِي كِتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى هِرَقْلَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ ؟ وَالْجَوَابُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الصُّورَةِ قَالَ ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ فَهَذَا هُوَ أَوَّلُ مُخَاطَبَتِهِمَا لِفِرْعَوْنَ وَلَعَلَّهُمَا قَالَا فِيهَا سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى .

أَوْ أَلْيَنُ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ ﴿ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ مِنْهُمْ عَدَمُ السَّلَامِ عَلَى غَيْرِهِ وَذَلِكَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى هِرَقْلَ بَعْدَ مُضِيِّ إحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ نُبُوَّتِهِ يَعْلَمُ مِنْهُ ذَلِكَ وَلَيْسَ مِثْلَ أَوَّلِ قُدُومِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَى فِرْعَوْنَ فَقَدْ لَا يَحْتَمِلُ مُفَاجَأَتَهُمَا بِذَلِكَ وَاكْتَفَى بِأَمْرِهِمَا بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ وَهُمَا يَعْلَمَانِ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ ، أَلَا تَرَى إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ قَالَ لِأَبِيهِ ﴿ سَلَامٌ عَلَيْك ﴾ لِحَقِّ الْأُبُوَّةِ ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ حَقُّ التَّرْبِيَةِ فَلَا يُسْتَبْعَدُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ أَنْ يُلَاطِفَهُ ؛ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ لِهِرَقْلَ وَلَا لِأَمْثَالِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ ، وَلَمَّا أَمَرَهُمَا اللَّهُ فِي الْكَلَامِ الْأَوَّلِ بِالْمُلَايَنَةِ أَخَذَ فِي الْكَلَامِ الثَّانِي يُعَلِّمُهُمَا مَقْصُودَ الرِّسَالَةِ وَخَتَمَهُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ فَجَاءَ بَعْدَ الْكَلَامِ الْمَقْصُودِ بِالرِّسَالَةِ لَمَّا أُمِرَا أَنْ يَقُولَا الْقَوْلَ اللَّيِّنَ وَفَرَغَا مِنْهُ قِيلَ لَهُمَا أَنْ يَقُولَا مَا هُوَ مَقْصُودُ الرِّسَالَةِ مِنْ أَنَّهُمَا رَسُولَا رَبِّهِ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يُعَذِّبْهُمْ ، وَمَجِيئُهُمَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ .

فَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الرِّسَالَةِ .

وَخَتَمَاهُ بِالسَّلَامِ مُعَرَّفًا عَلَى عَادَةِ السَّلَامِ فِي آخِرِ الرَّسَائِلِ فَهُوَ سَلَامُ دُعَاءٍ لَا سَلَامُ تَحِيَّةٍ .

(145/496)

وَالسَّلَامُ التَّحِيَّةُ يَكُونُ فِي صَدْرِ الرِّسَالَةِ مُنَكَّرًا وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ فِي ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ عَاطِفَةً لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى تَعْلِيمًا لَهُمَا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمَا فِي كُلِّ وِرْدٍ وَصَدْرٍ أَوَّلَ الْكَلَامِ وَآخِرَهُ .

وَكَانَ تَقْدِيمُ ذَلِكَ عَلَى قَوْلِهِمَا ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ مُتَعَيِّنًا لِأَنَّهُ فِي تَقْدِيرِ الْمُعَلَّقِ كَأَنَّهُ قِيلَ وَالْعَذَابُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ الْهُدَى ، وَلِأَنَّهُ وَعِيدٌ عَلَى عَدَمِ الِانْقِيَادِ لِمَا أُرْسِلَا بِهِ .

فَلَيْسَ مَقْصُودًا آخَرَ زَائِدًا عَلَى مَضْمُونِ الرِّسَالَةِ بَلْ هُوَ مِنْ آثَارِهَا .

وَمَضْمُونُ الرِّسَالَةِ قَدْ كَمُلَ أَدَاؤُهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 69 . 70 ﴾

(146/496)

وقال ابن الجوزى :

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾

وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها العصا واليد .

وقد يُذْكَر الاثنان بلفظ الجمع .

والثاني : العصا واليد وحَلّ العُقدة التي ما زال فرعون وقومه يعرفونها ، ذكرهما ابن الأنباري .

والثالث : الآيات التسع .

والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَنِيا ﴾ قال ابن قتيبة : لا تَضْعُفا ولا تفْتُرا ؛ يقال : ونَى يني في الأمر ؛

وفيه لغة أخرى : وَنَيَ ، يونى .

وفي المراد بالذِّكْر هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الرسالة إِلى فرعون .

والثاني : أنه القيام بالفرائض والتسبيحُ والتهليل .

قوله تعالى : ﴿ اذهبا إِلى فرعون ﴾

فائدة تكرار الأمر بالذهاب ، التوكيد .

وقد فسرنا قوله : ﴿ إِنه طغى ﴾ [طه : 24] .

قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليِّناً ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : "ليْنا" باسكان الياء ، أي : لطفياً رفيقاً .

وللمفسرين فيه خمسة أقوال .

أحدها : قولا له : قل : "لا إِله إِلا الله وحده لا شريك له" ، رواه خالد ابن معدان عن معاذ ، والضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه قوله : ﴿ هل لك إِلى أن تزَكَّى .

وأَهْدِيَكَ إِلى ربِّك فتخشى ﴾ [النازعات : 18 ، 19] ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثالث : كنِّيَاه ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السدي .

فأما اسمه، فقد ذكرناه في [البقرة : 49] .

وفي كنيته أربعة أقوال .

أحدها : أبو مُرَّة، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أبو مصعب، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : أبو العباس .

والرابع : أبو الوليد ، حكاهما الثعلبي .

والقول الرابع : قولا له : إِن لكَ ربّاً ، وإِن لكَ مَعَاداً ، وإِن بين يديكَ جَنَّة وناراً ، قاله الحسن .

والخامس : أن القول اللين : أن موسى أتاه، فقال له : تؤمن بما جئتُ به وتعبد ربَّ العالمين، على أن لكَ شبابك فلا تهرم، وتكون مَلِكاً لا يُنزع منك حتى تموت، فإذا متَّ دخلتَ الجنة، فأعجبه ذلك؛ فلما جاء هامان، أخبره بما قال موسى، فقال : قد كنتُ أرى أن لكَ رأياً ، أنت ربٌّ أردتَ أن تكون مربوباً ؟! فقلبه عن رأيه، قاله السدي .

وحكي عن يحيى بن معاذ أنه قرأ هذه الآية، فقال : إِلهي هذا رِفقك بمن يقول : أنا إله، فكيف رِفقك بمن يقول : أنت إِله .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّه يتذكر أو يخشى ﴾ قال الزجاج : "لَعَلَّ" في اللغة : ترجٍّ وطمع ، تقول : لَعَلِّي أصير إلى خير ، فخاطب الله عز وجل العباد بما يعقلون .

والمعنى عند سيبويه : اذهبا على رجائكما وطمعكما .

والعلم من الله تعالى من وراء ما يكون ، وقد عَلِم أنه لا يتذكر ولا يخشى ، إلا أن الحُجَّة إنما تجب عليه بالآية والبرهان ، وإنما تُبعث الرسل وهي لا تعلم الغيب ولا تدري أيُقبل منها ، أم لا ، وهم يرجون ويطمعون أن يُقبل منهم ، ومعنى "لعلَّ" متصوَّر في أنفسهم ، وعلى تصوُّر ذلك تقوم الحُجَّة .

قال ابن الأنباري : ومذهب الفراء في هذا : كي يتذكَّر .

وروى خالد بن معدان عن معاذ قال : والله ما كان فرعون ليخرج من الدنيا حتى يتذكَّر أو يَخْشى ، لهذه الآية ، وإنَّه تذكَّر وخشي لمَّا أدركه الغرق .

وقال كعب : والذي يحلِفُ به كعب ، إنه لمكتوب في التوراة : فقولا له قولاً ليِّناً ، وسأقسِّي قلبه فلا يؤمن .

قال المفسرون : كان هارون يؤمئذ غائباً بمصر ، فأوحى الله تعالى إلى هارون أن يتلقَّى موسى ، فتلقَّاه على مرحلة ، فقال له موسى : إن الله تعالى أمرني أن آتيَ فرعون ، فسألتُه أن يجعلكَ معي ؛ فعلى هذا يحتمل أن يكونا حين التقيا قالا : ربَّنا إننا نخاف .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون القائل لذلك موسى وحده ، واخبر الله عنه بالتثنية لَمَّا ضم إِليه هارون ، فإن العرب قد تُوقع التثنية على الواحد ، فتقول : يا زيد قوما ، يا حرسيُّ اضربا عنقه .

قوله تعالى : ﴿ أن يَفْرُط علينا ﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن السميفع ، وابن يعمر ، وأبو العالية : "أن يُفْرِط" برفع الياء وكسر الراء .

وقرأ عكرمة ، وإِبراهيم النخعي : "أن يَفْرَط" بفتح الياء والراء .

وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وابن محيصن : "أن يُفْرَط" برفع الياء وفتح الراء .

قال الزجاج : المعنى ، أن يبادر بعقوبتنا ، يقال : قد فَرَط منه أمر ، أي : قد بَدَر ؛ وقد أفرط في الشيء : إِذا اشتطَّ فيه ؛ وفرَّط في الشيء : إِذا قصَّر ؛ ومعناه كلُّه : التقدم في الشيء ، لأن الفَرَط في اللغة : المتقدِّم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "أنا فَرَطُكم على الحوض" .

قوله تعالى : ﴿ أو أن يطغى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يستعصي ، قاله مقاتل .

والثاني : يجاوز الحدَّ في الإِساءة إِلينا .

قال ابن زيد : نخاف أن يعجِّل علينا قبل أن نبلِّغه كلامك وأمرك .

قوله تعالى : ﴿ إِنني معكما ﴾ أي : بالنصرة والعون ﴿ أسمع ﴾ أقوالكم ﴿ وأرى ﴾ أفعالكم .

قال الكلبي : أسمعُ جوابَه لكما ، وأرى ما يفعل بكما .

قوله تعالى : ﴿ فأَرسِلْ معنا بني إِسرائيل ﴾ أي : خلِّ عنهم ﴿ ولا تعذِّبهم ﴾ وكان يستعملهم في الأعمال الشاقَّة ، ﴿ قد جئناكَ بآية من ربِّك ﴾ قال ابن عباس : هي العصا .

قال مقاتل : أظهر اليد في مقام ، والعصا في مقام .

قوله تعالى : ﴿ والسلامُ على من اتَّبع الهُدى ﴾ قال مقاتل : على مَنْ آمن بالله .

قال الزجاج : وليس يعني به التحيَّة ، وإِنما معناه : أن مَن اتَّبع الهُدى ، سَلِم من عذاب الله وسخطه ، والدليل على أنه ليس بسلام ، أنه ليس بابتداء لقاءٍ وخطاب .

قوله تعالى : ﴿ على مَنْ كَذَّب ﴾ أي : بما جئنا به وأعرض عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾

قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التي أنزلت عليه .

﴿ وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس : تضعفا أي في أمر الرسالة ؛ وقاله قتادة .

وقيل : تفترا .

قال الشاعر :

فَمَا وَنَى محمدٌ مُذ انْ غَفَرْ . . .

له الإلهُ ما مَضَى وما غَبر

والْوَنَى الضَّعف والفتور ، والكَلال والإعياء وكلّه مراد في الآية .

وقال امرؤ القيس :

مِسَحّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى . . .

أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المركَّلِ

ويقال : ونيت في الأمر أَنِي وَنًى وونْياً أي ضَعُفت ، فأنا وانٍ وناقة وانِية وأونيتها أنا أضعفتها وأتعبتها .

وفلان لا يَني كذا ، أي لا يزال ، وبه فَسَّر أبان معنى الآية واستشهد بقول طَرَفة :

كأنّ القُدُورَ الراسياتِ أَمامَهُمْ . . .

قبابٌ بَنَوْها لا تَنِي أبداً تَغْلِي

وعن ابن عباس أيضاً : لا تبطئا .

وفي قراءة ابن مسعود "وَلاَ تَهِنا فِي ذِكري" وتحميدي وتمجيدي وتبليغ رسالتي .

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اذهبا ﴾ قال في أول الآية : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾

وقال هنا : "اذهبا" فقيل : أمر الله تعالى موسى وهارون في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون ، وخاطب أولاً موسى وحده تشريفاً له ؛ ثم كرر للتأكيد .

وقيل : بَيّن بهذا أنه لا يكفي ذهاب أحدهما .

وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس ، والثاني بالذهاب إلى فرعون .

الثانية : في قوله تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة ، وضمنت له العصمة ، ألا تراه قال : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ .

وقال : ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ فكيف بنا فنحن أولى بذلك .

وحينئذٍ يحصل الآمر أو الناهي على مرغوبه ، ويظفر بمطلوبه ؛ وهذا واضح .

الثالثة : واختلف الناس في معنى قوله "لَيِّناً" فقالت فرقة منهم الكلبي وعكرمة : معناه كَنِّياه ؛ وقاله ابن عباس ومجاهد والسدي .

ثم قيل : وكنيته أبو العباس .

وقيل : أبو الوليد .

وقيل : أبو مرة ؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيهاً ذا شرف وطُمِع بإسلامه .

وقد يجوز ذلك وإن لم يُطمَع بإسلامه ؛ لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملاً .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه " ولم يقل وإن طمعتم في إسلامه ، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية : " انزل أبا وهب " فكناه .

وقال لسعد : " ألم تسمع ما يقوله أبو حُبَاب " يعني عبد الله بن أبيّ .

وروي في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة ، لا يجد رسولاً يبلغ كلاماً حتى خرج .

فجرى له ما قصّ الله علينا من ذلك ، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم

مع الظالمين ، وربك أعلم بالمهتدين .

وقيل قال له موسى : تؤمن بما جئتُ به ، وتعبد ربّ العالمين ؛ على أن لك شبابا لا يَهْرَم إلى الموت ، وملكا لا ينزع منك إلى الموت ، وينسأ في أجلك أربعمائة سنة ، فإذا متّ دخلت الجنة .

فهذا القول اللين .

وقال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات : 18 19] .

وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يا فرعون إنا رسولا ربك ربّ العالمين .

فسماه بهذا الاسم لأنه كان أحب إليه مما سواه مما قيل له ، كما يسمى عندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللَّين هو القول الذي لا خشونة فيه ؛ يقال : لان الشيء يَلين لَيْناً ؛ وشيء ليِّن ولَيْن مخفّف منه ؛ والجمع اِليناء .

(151/496)

فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولاً ليناً ، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه ، وأمره بالمعروف في كلامه .

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: 83].

على ما تقدم في "البقرة" بيانه والحمد لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ معناه: على رجائكما وطمعكما؛

فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر؛ قاله كبراء النحويين: سيبويه وغيره.

وقد تقدم في أول "البقرة".

قال الزجاج: "لعل" لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون.

وقيل: "لعل" هاهنا بمعنى الاستفهام، والمعنى فانظر هل يتذكر.

وقيل: هي بمعنى كي.

وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن قول هارون لموسى لعله يتذكر أو يخشى؛ قاله الحسن.

وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع.

وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس: 90].

ولكن لم ينفعه ذلك؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره.

وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية؛ هذا رِفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟! وقد قيل: إن فرعون ركَنَ إلى قول موسى لما دعاه، وشاور امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان فقال: لا تفعل؛ بعد أن كنت مالكاً تصير مملوكاً،

وبعد أن كنت رباً تصير مربوباً .

وقال له : أنا أردّك شاباً ؛ فخضب لحيته بالسواد فهو أول من خضب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى ﴾

قال الضحاك : ﴿ يَفْرُطَ ﴾ يَعْجَل .

قال : و﴿ يطغى ﴾ يعتدي .

النحاس : التقدير نخاف أن يفرط علينا منه أمر ، قال الفراء : فَرَط منه أمرٌ أي بدر ؛ قال :

وأفرط أسرف .

قال : وفَرَّط ترك .

وقراءة الجمهور "يَفْرُطَ" بفتح الياء وضم الراء ، ومعناه يَعْجَل ويبادر بعقوبتنا .

(152/496)

يقال : فَرَط مني أمرٌ أي بدر ؛ ومنه الفارط في الماء الذي يتقدم القوم إلى الماء .

أي يعذّبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه ؛ قاله المبرّد .

وقرأت فرقة منهم ابن محيصن "يَفْرَطُ" بفتح الياء والراء ؛ قال المهدوي : ولعلها لغة .

وعنه أيضاً بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا .

وقرأت طائفة "يُفْرِط" بضم الياء وكسر الراء ؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصن أيضاً .

ومعناه يشطط في أذيتنا ؛ قال الراجز :

قد أَفرطَ العِلْجُ علينا وعَجَل . . .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قال العلماء : لمّا لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرّفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه .

وهذه الآية تردّ على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم .

ولقد أحسن البصري رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فحال الأسد بينهم وبين الماء ، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته ، فقيل له : فقد خاطرت بنفسك .

فقال : لأَن تختلف الأسنَّة في جوْفي أحبّ إليّ من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه : قد خاف من كان خيراً من عامر ؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له الرجل : ﴿ إِنَّ الملأ يأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلوكَ فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ

نَجِّنِي مِنَ القومِ الظالمين ﴾ [القصص : 20 21] وقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : 18] وقال حين ألقى السحرةُ حبالهم وعصيّهم : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ [طه : 67 68] .

(153/496)

قلت : ومنه حَفْر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصيناً للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم ، مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة ؛ تخوفاً على أنفسهم من مشركي مكة ؛ وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم .

وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبت يا عمر ؛ كلاّ والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُطعِم جائعكم ، ويَعظ جاهلكم ، وكنا في دار أو أرض البُعداء البُغضاء في الحبشة ؛ وذلك في الله وفي رسوله ؛ وأيمُ اللهِ لا أَطْعَم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف .

الحديث بطوله خرجه مسلم .

قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم (عليه) كاذب ؛ وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها .

قالوا : ولا ضار أضرّ من سبع عادٍ في فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه ، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون .

وهذا كما تقول : الأمير مع فلان إذا أردت أنه يحميه .

وقوله : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية ، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾

في الكلام حذف ، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ أي خلِّ عنهم .

﴿ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي بالسّخرة والتعب في العمل ، وكان بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد ؛ يذبّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، ويكلّفهم من العمل في الطّين واللَّبِن وبناء المدائن ما لا يطيقونه .

﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يريد العصا واليد .

وقيل : إن فرعون قال له : وما هي ؟ فأدخل يده في جيب قميصه ، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع مثل شعاع الشمس ، غلب نورها على نور الشمس فعجب منها .

ولم يره العصا إلا يوم الزّينة .

﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ قال الزجاج : أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه .

قال : وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس با بتداء لِقاءٍ ولا خطاب .

الفراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء .

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب ﴾ يعني الهلاك والدّمار في الدنيا والخلود في جهنم في الآخرة ﴿ على مَن كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿ وتولى ﴾ أعرض عن الإيمان .

وقال ابن عباس : هذه أَرجى آية للموحِّدين لأنهم لم يكذِّبوا ولم يتولّوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى جـ 11 ص ﴾

(155/496)

وقال أبو حيان :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) ﴾

الونى : الفتور ، يقال : ونى يني وهو فعل لازم ، وإذا عُدِّيَ فبعن وبفي وزعم بعض البغداديين أنه يأتي فعلاً ناقصاً من أخوات ما زال وبمعناها ، واختاره ابن مالك وأنشد :

لا يني الخب شيمة الحب . . .

ما دام فلا تحسبنه ذا ارعواء

وقالوا : امرأة أناءة أي فاترة عن النهوض ، أبدلوا من واوها همزة على غير قياس .

قال الشاعر :

فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر . . .

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى فائتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون فلما دعا ربه وطلب منه أشياء كان فيها أن يشرك أخاه هارون فذكر الله أنه آتاه

سؤله وكان منه إشراك أخيه ، فأمره هنا وأخاه بالذهاب و ﴿ أخوك ﴾ معطوف على الضمير المستكن في ﴿ اذهب أنت وربك ﴾ في سورة المائدة وقول بعض النحاة ، أن ﴿ وربك ﴾ مرفوع على إضمار فعل ، أي وليذهب ربك وذلك البحث جار هنا .

وروي أن الله أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى .

وقيل : سمع بمقدمه .

وقيل : ألهم ذلك وظاهر ﴿ بآياتي ﴾ الجمع .

فقيل : هي العصا ، واليد ، وعقدة لسانه .

وقيل : اليد ، والعصا .

وقد يطلق الجمع على المثنى وهما اللتان تقدم ذكرهما ولذلك لما قال : فائت بآية ألقى العصا ونزع اليد ، وقال : فذانك برهانان .

وقيل العصا مشتملة على آيات انقلابها حيواناً ، ثم في أول الأمر كانت صغيرة ثم عظمت حتى صارت ثعباناً ، ثم إدخال موسى يده في فمها فلا تضرّه .

وقيل : ما أعطي من معجزة ووحي .

﴿ ولا تنيا ﴾ أي لا تضعفا ولا تقصرا .

وقيل : تنسياني ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما ، ويجوز أن يراد بالذكر تبليغ الرسالة فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها ، فكان جديراً أن يطلق عليه اسم الذكر .

وقرأ ابن وثاب : ولا تِنَيَا بكسر التاء اتّباعاً لحركة النون .

وفي مصحف عبد الله ولا تهنا أي ولا تلنا من قولهم هين لين ، ولما حذف من يذهب إليه في الأمر قبله نص عليه في هذا الأمر الثاني .

فقيل : ﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ أي بالرسالة وأبعد من ذهب إلى أنهما أمرا بالذهاب أولاً إلى الناس وثانياً إلى فرعون ، فكرر الأمر بالذهاب لاختلاف المتعلق ، ونبه على سبب الذهاب إليه بالرسالة من عنده بقوله ﴿ إنه طغى ﴾ أي تجاوز الحد في الفساد ودعواه الربوبية والإلهية من دون الله .

والقول اللين هو مثل ما في النازعات ﴿ هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ وهذا من لطيف الكلام إذ أبرز ذلك في صورة الاستفهام والمشورة والعرض لما فيه من الفوز العظيم .

وقيل : عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته .

وقيل : لا تجبهاه بما يكره وألطفا له في القول لما له من حق تربية موسى .

وقيل : كنياه وهو ذو الكنى الأربع أبو مرة ، وأبو مصعب ، وأبو الوليد ، وأبو العباس .

وقيل : القول اللين لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولِينها خفتها على اللسان .

وقال الحسن : هو قولهما إن لك ربًّا وإن لك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً فآمن بالله يدخلك الجنة يقِكَ عذاب النار .

وقيل : أمرهما تعالى أن يقدما المواعيد على الوعيد كما قال الشاعر :

أقدم بالوعد قبل الوعيد . . .

لينهى القبائل جهالها

وقيل : حين عرض عليه موسى وهارون عليهما السلام ما عرضا شاور آسية فقالت : ما ينبغي لأحد أن يرد هذا فشاور هامان وكان لا يبت أمراً دون رأيه ، فقال له : كنت أعتقد أنك ذو عقل تكون مالكاً فتصير مملوكاً ورباً فتصير مربوباً فامتنع من قبول ما عرض عليه موسى ، والترجي بالنسبة لهما إذ هو مستحيل وقوعه من الله تعالى أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ،

وفائدة إرسالهما مع علمه تعالى أنه لا يؤمن إقامة الحجة عليه وإزالة المعذرة كما قال تعالى : ﴿ ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ الآية .

وقيل : القول اللين ما حكاه الله هنا وهو ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ﴾ -إلى قوله- ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ وقال أبو معاذ : ﴿ قولاً ليناً ﴾ وقال الفراء لعل هنا بمعنى كي أي كي يتذكر أو يخشى كما تقول : اعمل لعلك تأخذ أجرك ، أي كي تأخذ أجرك .

وقيل : لعل هنا استفهام أي هل يتذكر أو يخشى ، والصحيح أنها على بابها من الترجِّي وذلك بالنسبة إلى البشر وفي قوله ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ دلالة على أنه لم يكن شاكاً في الله .

وقيل : ﴿ يتذكر ﴾ حاله حين احتبس النيل فسار إلى شاطئه وأبعد وخرّ ساجداً لله راغباً أن لا يخجله ثم ركب فأخذ النيل يتبع حافر فرسه فرجاً أن يتذكر حلم الله وكرمه وأن يحذر من عذاب الله .

وقال الزمخشري : أي ﴿ يتذكر ﴾ ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذغان للحق ﴿ أو يخشى ﴾ أن يكون الأمر كما يصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة .

فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة وفرس فرط تسبق الخيل انتهى .

وقال الشاعر :

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا . . .

كما تقدم فارط الوراد

وفي الحديث : "أنا فرطكم على الحوض "أي متقدمكم وسابقكم ، والمعنى إننا نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها .

(158/496)

وقرأ يحيى وأبو نوفل وابن محيصن في روايته ﴿ أن يفرط ﴾ مبنياً للمفعول أي يسبق في العقوبة ويسرع بها ، ويجوز أن يكون من الإفراط ومجاوزة الحد في العقوبة خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعذاب من شيطان ، أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية ، أو من حبه الرياسة ، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين قال الله فيهم ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ ﴿ وقال الملأ من قومه ﴾ وقرأت فرقة والزعفراني عن ابن محيصن ﴿ يُفْرِط ﴾ بضم الياء وكسر الراء من الإفراط في الأذية ﴿ أو أن يطغى ﴾ في التخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي تجرئة عليك وقسوة قلبه ، وفي المجيء به هكذا على سبيل الإطلاق والرمز باب من حسن الأدب والتجافي عن التفوه بالعظيمة .

والمعية هنا بالنصرة والعون أسمع أقوالكما وأرى أفعالكما .

وقال ابن عباس ﴿ أسمع ﴾ جوابه لكما ﴿ وأرى ﴾ ما يفعل بكما وهما كناية عن العلم

﴿ فأتياه ﴾ كرر الأمر بالإتيان ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ وخاطباه بقولهما ﴿ ربك

﴾ تحقيراً له وإعلاماً أنه مربوب مملوك إذ كان هو يدَّعي الربوبية .

وأُمرا بدعوته إلى أن يبعث معهما بني إسرائيل ويخرجهم من ذل خدمة القبط وكانوا

يعذبونهم بتكليف الأعمال الشاقة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع

قتل الولدان واستخدام النساء .

وقد ذكر في غير هذه الآية دعاؤه إلى الإيمان فجملة ما دعى إليه فرعون الإيمان وإرسال بني

إسرائيل .

ثم ذكرا ما يدل على صدقهما في إرسالهما إليه فقالا ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾

وتكرر أيضاً قولهما ﴿ من ربك ﴾ على سبيل التوكيد بأنه مربوب مقهور ، والآية التي

أحالا عليها هي العصا واليد ، ولما كانا مشتركين في الرسالة صح نسبة المجيء بالآية إليهما

وإن كانت صادرة من أحدهما .

وقال الزمخشري : ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ جارية من الجملة الأولى وهي ﴿ إنّا رسولا ربك ﴾ مجرى البيان والتفسير ، لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية ، وإنما وحد بآية ولم يثن ومعه آيتان لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال : قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة وكذلك ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ ﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ انتهى .

وقيل : الآية اليد .

وقيل : العصا ، والمعنى بآية تشهد لنا بأنا رسولا ربك .

والظاهر أن قوله ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ فصل للكلام ، فالسلام بمعنى التحية رغباً به عنه وجرياً على العادة في التسليم عند الفراغ من القول ، فسلما على متبعي الهدى وفي هذا توبيخ له .

وفي هذا المعنى استعمل الناس هذه الآية في مخاطباتهم ومحاوراتهم .

وقيل : هو مدرج متصل بقوله ﴿ إنا قد أوحي إلينا ﴾ فيكون إذ ذاك خبراً بسلامة المهتدين من العذاب .

وقيل ﴿ على ﴾ بمعنى اللام أي والسلامة لمن ﴿ اتبع الهدى ﴾ .

وقال الزمخشري : وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين ، وتوبيخ خزَنة النار

والعذاب على المكذبين انتهى .

وهو تفسير غريب .

وقد يقال : السلام هنا السلامة من العذاب بدليل قوله ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ وبنى ﴿ أُوحِي ﴾ لما لم يسم فاعله ، ولم يذكر الموحى لأن فرعون كانت له بادرة فربما صدر منه في حق الموحى ما لا يليق به ، والمعنى على من كذب الأنبياء وتولى عن الإيمان .

وقال ابن عباس هذه أرجى آية في القرآن لأن المؤمن ما كذب وتولى فلا يناله شيء من العذاب .

وفي الكلام حذف تقديره فأتيا فرعون وقالا له ما أمرهما الله أن يبلغاه . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(160/496)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾

أي وليذهبْ أخوك حسبما استدعيتَ ، استئنافٌ مَسوق لبيان ما هو المقصودُ

بالاصطناع ﴿ بآياتي ﴾ أي بمعجزاتي التي أريتُكَها من اليد والعصا فإنهما وإن كانتا اثنتين لكن في كل منهما آياتٌ شتى كما في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ءايات بينات مَّقَامُ إبراهيم ﴾ فإن انقلاب العصا حيوانا آيةٌ ، وكونَها ثعباناً عظيماً لا يقادَر قدرُه آيةٌ أخرى ، وسرعةَ حركتِه مع عِظم جِرْمه آيةٌ أخرى ، وكونَه مع ذلك مسخراً له عليه السلام بحيث كان يُدخل يده في فمه فلا يضره آيةٌ أخرى ، ثم انقلابُها عصاً آيةٌ أخرى ، وكذلك اليدُ فإن بياضها في نفسه آيةٌ وشعاعَها آيةٌ ، ثم رجوعُها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى . والباء للمصاحبة لا للتعدية إذ المراد ذهابُهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسّكين بها في إجراء أحكامِ الرسالة وإكمالِ أمر الدعوة لا مجردُ إذهابِها وإيصالها إليه ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ لا تفتُرا ولا تقصّرا ، وقرىء لا تِنيا بكسر التاء للاتباع ﴿ فِى ذِكْرِى ﴾ أي بما يليق بي من الصفات الجليلةِ والأفعال الجميلة عند تبليغِ رسالتي والدعاءِ إليّ ، وقيل : المعنى لا تنيا في تبليغ رسالتي فإن الذكرَ يقع على جميع العبادات وهو أجلُّها وأعظمُها ، وقيل : لا تنسَياني حيثما تقلبتما واستمِدّا بذكري العونَ والتأييدَ واعلما أن أمراً من الأمور لا يتأتى ولا يتسنّى إلا بذكري .

﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ جمعهما في صيغة أمر الحاضرِ مع غَيبة هارون إذ ذاك للتغليب ، وكذا الحالُ في صيغة النهي . روي أنه أوحي إلى هارونَ وهو بمصر أن يتلقّى موسى عليهما السلام ، وقيل : سمِع بإقباله فتلقاه ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ تعليلٌ لموجب الأمر .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه فإن تليينَ القولِ مما يكسِر سَوْرةَ عنادِ العُتاة ويُلين عريكةَ الطغاة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تُعنّفا في قولكما ، وقيل : القولُ اللين مثل : ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى * وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ ﴾ فإنها دعوةٌ في صورة عَرْض ومَشورة ، ويرده ما سيجيء من قوله تعالى : ﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ الآيتين ، وقيل : كنّياه وكان له ثلاثُ كُنًى : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرّة ، وقيل : عِداه شبابا لا يهرَم ويبقى له لذةُ المطعم والمشرب والمنكِح ومُلكاً لا يزول إلا بالموت ، وقرىء لَيْنا ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ بما بلغتُماه من ذكري ويرغب فيما رغّبتماه فيه ﴿ أَوْ يخشى ﴾ عقابي ، ومحلُّ الجملة النصبُ على الحال من ضمير التثنية ، أي فقولا له قولاً لينا راجين أن يتذكر أو يخشى ، وكلمةُ أو لمنع الخلوّ أي باشِرا الأمرَ مباشرةَ مَنْ يرجو ويطمع في أن يُثمر عملُه ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصى وُسْعه . وجدوى إرسالِهما إليه مع العلم بحاله إلزامُ الحجة وقطعُ المعذرة .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ﴾ أُسند القولُ إليهما مع أن القائلَ حقيقةً هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب إيذاناً بأصالته في كل قولٍ وفعلٍ وتبعيّةِ هارونَ عليه السلام له في كل ما يأتي ويذر ، ويجوز أن يكون هارونُ قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحَكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزولِ الآية كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَعِينٍ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ فإن هذا الخطابَ قد حُكي لنا بصيغة الجمع مع أن كلاًّ من المخاطَبين لم يخاطَب إلا بطريق الانفرادِ ضرورةَ استحالةِ اجتماعِهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أي يعجَل علينا بالعقوبة ولا يصبِرَ إلى إتمام الدعوةِ وإظهارِ المعجزة من فرَط إذا تقدّم ومنه الفارِط وفرسٌ فارِطٌ يسبِق الخيلَ ، وقرىء يُفرِطَ من أفرطه إذا حمله على العجلة ، أي نخاف أن يحمِله حاملٌ من الاستكبار أو الخوف على المُلك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ أي يزداد طغياناً إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جراءتِه وقساوته ، وإطلاقُه من حسن الأدب ، وإظهارُ كلمةِ أن مع سَداد المعنى بدونه لإظهار كمالِ الاعتناء بالأمرِ والإشعارِ بتحقق الخوفِ من كل منهما .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على السؤال الناشىءِ من النظم الكريم ، ولعل الفعلَ إسنادُ إلى ضمير الغَيبة للإشعار بانتقال الكلامِ من مَساق إلى مساقٍ آخرَ ، فإن ما قبله من الأفعال الواردةِ على صيغة التكلم حكايةٌ لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الاعلى ﴾ فإن ما قبله أيضاً واردٌ بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل : فماذا قال لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه ؟ فقيل : قال : ﴿ لَا تَخَافَا ﴾ ما توهمتما من الأمرين وقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ تعليلٌ لموجب النهي ومزيدُ تسليةٍ لهما ، والمرادُ بالمعية كمالُ الحفظ والنُّصرة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ أي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعلٍ فأفعلُ في كل حال ما يليق بها من دفع ضُرّ وشر وجلب نفعٍ وخير . ويجوز أن لا يُقدَّر شيءٌ ، على معنى أنني حافظُكما سميعاً بصيراً والحافظ الناصرُ إذا كان كذلك فقد تم وبلغت النُّصرةُ غايتها ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ أُمِرا بإتيانه الذي هو عبارةٌ عن الوصول إليه بعد ما أمرا بالذهاب إليه فلا تكرار ، وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليلِه بما بعده ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أُمرا بذلك تحقيقاً للحق من أول الأمر ليعرِف الطاغيةُ شأنَهما ويبني جوابُه عليه ، وكذا التعرّضُ لربوبيته تعالى له والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن كونَهما رسوليْ ربِّه مما يوجب إرسالَهم معهما ، والمرادُ بالإرسال إطلاقُهم من الأسر والقسر وإخراجُهم من تحت يدِه العاديَةِ لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبىء

عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت مَلَكَة القِبْط يستخدمونهم في الأعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقْلِ الأحجار وغيرهما من

(164/496)

الأمور الشاقةِ ، ويقتُلون ذكورَ أولادِهم عاماً دون عام ويستخدمون نساءَهم ، وتوسيطُ حكمِ الإرسال بين بيان رسالتِهما وبين ذكرِ المجيء بآية دالةٍ على صحتها لإظهار الاعتناءِ به مع ما فيه من تهوين الأمرِ على فرعون ، فإن إرسالَهم معهما من غير تعرّض لنفسه وقومِه بفنون التكاليف الشاقةِ كما هو حكمُ الرسالة عادةً ليس مما يشُقّ عليه كلَّ المشقة ، ولأن في بيان مجيءِ الآية نوعَ طولٍ كما ترى ، فتأخيرُ ذلك عنه مُخِلٌّ بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم ، وأما ما قيل من أن ذلك دليلٌ على أن تخليصَ المؤمنين من الكفرة أهمُّ من دعوتهم إلى الإيمان فكلاّ .

﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِـَٔايَةٍ مّن رَّبّكَ ﴾ تقريرٌ لما تضمنه الكلامُ السابق من دعوى الرسالةِ وتعليلٌ لوجوب الإرسال ، فإن مجيئَهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتَهما ويُقرّرها ويوجب الامتثالَ بأمرهما ، وإظهارُ اسمِ الربِّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطبِ

لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل ، وتوحيدُ الآيةِ مع تعدّدها لأن المرادَ إثباتُ الدعوى ببرهانها لا بيانُ تعدّد الحجةِ وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيء مُّبِينٍ ﴾ وأما قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ ﴾ فالظاهرُ أن المرادَ بها آيةٌ من الآيات ﴿ والسلام ﴾ المستتبعُ لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكةِ وغيرهم من المسلمين ﴿ على مَنِ اتبع الهدى ﴾ بتصديق آياتِ الله تعالى الهاديةِ إلى الحق ، وفيه من ترغيبه في اتباعهما على ألطف وجهٍ ما لا يخفى .

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا ﴾ من جهة ربنا ﴿ أَنَّ العذاب ﴾ الدنيويَّ والأخروي ﴿ على مَن كَذَّبَ ﴾ أي بآياته تعالى ﴿ وتولى ﴾ أي أعرض عن قَبولها ، وفيه من التلطيف في الوعيد حيث لم يصرِّحْ بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(165/496)

وقال الآلوسى :

﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾

استئناف مسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع ، ﴿ وَأَخُوكَ ﴾ فاعل بفعل مضمر أي

وليذهب أخوك حسبما استدعيت ، وقيل : معطوف على الضمير المستتر المؤكد بالضمير البارز ، ورب شيء يصح تبعاً ولا يصح استقلالاً .

والآيات المعجزات ، والمراد بها في قول اليد والعصا وحل العقدة ، وعن ابن عباس الآيات التسع ، وقيل : الأولان فقط وإطلاق الجمع على الاثنين شائع ؛ ويؤيد ذلك أن فرعون لما قال له عليه السلام : فأت بآية ألقى العصا ونزع اليد ، وقال : ﴿ فَذَانِكَ برهانان ﴾ وقال بعضهم : إنهما وإن كانتا اثنتين لكن في كل منهما آيات شتى كما في قوله تعالى : ﴿ آيات بينات مَّقَامُ إبراهيم وَمَن ﴾ [آل عمران : 97] فإن انقلاب العصا حيواناً آية .

وكونها ثعباناً عظيماً لا يقادر قدره آية أخرى .

وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى .

وكونه مع ذلك مسخراً له عليه السلام بحيث يده في فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا كما كانت آية أخرى وكذلك اليد البيضاء فإن بياضها في نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى .

وقيل : المراد بها ما أعطى عليه السلام من معجزة ووحي ، والذي يميل إليه القلب أنها العصا واليد لما سمعت من المؤيد مع ما تقدم من أنه تعالى بعد ما أمره بإلقاء العصا وأخذها بعد انقلابها حية قال سبحانه : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ [طه : 22] آية أخرى ثم قال سبحانه : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه :

24] من غير تنصيص على غير تلك الآيتين ولا تعرض لوصف حل العقدة ولا غيره بكونه آية ، ثم إن الباء للمصاحبة لا للتعدية إذ المراد ذهابهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها في إجراء أحكام الرسالة وإكمال الدعوة لا مجرد إذهابها وإيصالها إليه وهذا ظاهر في تحقق الآيات إذ ذاك وأكثر التسع لم يتحقق بعد .

(166/496)

﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ من الونى بمعنى الفتور وهو فعل لازم وإذا عدى عدي بفي وبعن ، وزعم بعض البغداديين أنه فعل ناقص من أخوات زال وبمعناهما واختاره ابن مالك ، وفي "الصحاح" فلان لا يني يفعل كذا أي لا يزال يفعل كذا وكذا هذا المعنى مأخوذ من نفي الفتور ، وقرأ ابن وثاب ﴿ وَلاَ تِنِيَا ﴾ بكسر التاء اتباعاً لحركة النون .

وفي مصحف عبد الله ﴿ لا ﴾ وحاصله أيضاً لا تفترا ﴿ فِى ذِكْرِى ﴾ بما يليق بي من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء إلى عبادتي ، وقيل : المعنى لا تنيا في تبليغ رسالتي فإن الذكر يقع مجازاً على جميع العبادات وهو من أجلها وأعظمها .

وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : لا تنسياني حيثما تقلبتما واستمدا به العون والتأييد واعلما أن أمراً من الأمور لا يتأتى ولا يتسنى إلا بذكري .

وجمع هارون مع موسى عليه السلام في صيغة نهي الحاضر بناءً على القول بغيبته إذ ذاك للتغليب ولا بعد في ذلك كما لا يخفى ، وكذا جمعه في صيغة أمر الحاضر بناءً على ذلك أيضاً في قوله تعالى :

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾

وروي أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام ، وقيل : ألهم ذلك ، وقيل : سمع بإقباله فتلقاه ، ويحتمل أنه ذهب إلى الطور واجتمعا هناك فخوطبا معاً ، ويحتمل أن هذا الأمر بعد إقبال موسى عليه السلام من الطور إلى مصر واجتماعه بهارون عليه السلام مقبلاً إليه من مصر ، وفرق بعضهم بين هذا ، وقوله تعالى : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ [طه : 42] بأنه لم يبين هناك من يذهب إليه وبين هنا ، وبعض آخر بأنه أمرا هنا بالذهاب إلى فرعون وكان الأمر هناك بالذهاب إلى عموم أهل الدعوة ، وبعض آخر بأنه لم يخاطب هارون هناك وخوطب هنا ، وبعض آخر بأن الأمر هناك بذهاب كل منهما على الانفراد نصاً أو احتمالاً والأمر هنا بالذهاب على الاجتماع نصاً ، ولا يخفى ما في بعض هذه الفروق من النظر ، والفرق ظاهر بين هذا الأمر والأمر في قوله تعالى أولاً خطاباً

لموسى عليه السلام ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى .

﴾

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾

قرأ أبو معاذ ﴿ لَّينًا ﴾ بالتخفيف ، والفاء لترتيب ما بعدها على طغيانه فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين قسوة الطغاة ، ويعلم من ذلك أن الأمر بإلانة القول ليس لحق التربية كما قيل ، والمعنى كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لا تعنفاه في قولكما وارفقا به في الدعاء ويتحقق ذلك بعبارات شتى منها ما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً وهو ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] الخ ومنها ما في النازعات وهو ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فتخشى ﴾ [النازعات : 18 ، 19] وهذا ظاهر غاية الظهور في الرفق في الدعاء فإنه في صورة العرض والمشورة ، وقيل : كنياه ، واستدل به على جواز تكنية الكافر ، وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً .

وسفيان الثوري ، وله كنى أربع أبو الوليد .

وأبو مصعب .

وأبو العباس .

وأبو مرة ، وقيل : عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته ، وعن الحسن قولا له : إن لك رباً وإن لك معاداً وإن بين يديك جنة ونارا فآمن بالله تعالى يدخلك الجنة ويقك عذاب النار ، وقيل : أمرهما سبحانه بأنه يقدما له الوعد على الوعيد من غير تعيين قول كما قيل :

أقدم بالوعد قبل الوعيد . . .

لينهى القبائل جهالها

وروي عن عكرمة أن القول اللين لا إله إلا الله ولينه خفته على اللسان ، وهذا أبعد الأقوال وأقربها الأول ، وكان الفضل بن عيسى الرقاشي إذا تلا هذه الآية قال : يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه ؛ وقرأت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال : إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الله ؟ وفيها دليل على استحباب إلانة القول للظالم عند وعظه ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ ويتأمل فيبدل النصفة من نفسه والإذعان للحق فيدعوه ذلك إلى الإيمان ﴿ أَوْ يخشى ﴾ أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة وذلك يدعوه إلى الإيمان أيضاً إلا أن الأول للراسخين ولذا قدم ، وقيل : يتذكر حاله حين احتبس النيل فسار إلى شاطئه وأبعد وخر لله تعالى ساجداً راغباً أن لا يخجله ثم ركب فأخذ النيل يتبع حافر فرسه فيستدل بذلك على عظيم حلم الله تعالى وكرمه أو

يخشى ويحذر من بطش الله تعالى وعذابه سبحانه ، والمعول على ما تقدم .

ولعل للترجي وهو راجع للمخاطبين ، والجملة في محل النصب حال من ضميرهما في ﴿ قَوْلاً ﴾ أي فقولا له قولاً ليناً راجيين أن يتذكر أو يخشى ، وكلمة أو لمنع الخلو .

وحاصل الكلام باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوعه ويحتشد بأقصى وسعه ، وقيل : حال من ضميرهما في ﴿ اذهبا ﴾ [طه : 43] والأول أولى ، وقيل : لعل هنا للاستفهام أي هل يتذكر أو يخشى .

وأخرج ذلك ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قيل : وهو القول اللين ، وأخرج ذلك مخرج قولك : قل لزيد هل يقوم .

وقال الفراء : هي هنا بمعنى كي التعليلية وهي أحد معانيها كما ذهب إليه جماعة منهم الأخفش .

والكسائي بل حكى البغوي عن الواقدي أن جميع ما في القرآن من لعل فإنها للتعليل إلا قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ فإنها للتشبيه كما في "صحيح البخاري" .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال : لعل في القرآن بمعنى كي غير آية في الشعراء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : 129] فإن المعنى كأنكم تخلدون ، وأخرج عن قتادة أنه قال : قرىء كذلك ، ولا يخفى أن كونها للتشبيه غريب لم يذكره النحاة ، وحملها على الاستفهام هنا بعيد ، ولعل التعليل أسبق إلى كثير من الأذهان من الترجي لكن الصحيح كما في "البحر" أنها للترجي وهو المشهور من معانيها ، وقيل : إن الترجي مجاز عن مطلق الطلب وهو راجع إليه عز وجل ، والذي لا يصح منه سبحانه هو الترجي حقيقة ، والمحققون على الأول ، والفائدة في إرسالهما عليهما السلام إليه مع العلم بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة .

وزعم الإمام أنه لا يعلم سر الإرسال إليه مع علمه تعالى بامتناع حصول الإيمان منه إلا الله عز وجل ولا سبيل في أمثال هذا المقام لغير التسليم وترك الاعتراض .

واستدل بعض المتبعين لمن قال بنجاة فرعون بهذه الآية فقال : إن لعل كذا من الله تعالى واجب الوقوع فتدل الآية على أن أحد الأمرين التذكر والخشية واقع وهو مدار النجاة ، وقد تقدم لك ما يعلم منه فساد هذا الاستدلال ، ولا حاجة بنا إلى ما قيل من أنه تذكر وخشي لكن حيث لم ينفعه ذلك وهو حين الغرق بل لا يصح حمل التذكر والخشية هنا على ما يشمل التذكر والخشية اللذين زعم القائل حصولهما لفرعون فتذكر .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾

﴿ قَالاَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قالا حين أمرا بما أمرا ؟ فقيل : ﴿ قَالاَ ﴾ الخ ، وأسند القول إليهما مع أن القائل هو موسى عليه السلام على القول بغيبة هارون عليه السلام للتغليب كما مر .

ويجوز أن يكون هارون عليه السلام قد قال ذلك بعد اجتماعه مع موسى عليه السلام فحكى قوله مع قول موسى عند نزول الآية كما في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلاًّ من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ، وجوز كونهما مجتمعين عند الطور وقالا جميعاً ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أي أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة من فرط إذا تقدم ، ومنه الفارط المتقدم للمورد والمنزل ، وفرس فارط يسبق الخيل ، وفاعل ﴿ يَفْرُطَ ﴾ على هذا فرعون ، وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون التقدير أن يفرط علينا منه قول فاضمر القول كما تقول فرط مني قول وهو خلاف الظاهر .

وقرأ يحيى .

وأبو نوفل .

وابن محيصن في رواية ﴿ يَفْرُطَ ﴾ بضم الياء وفتح الراء من أفرطته إذا حملته على العجلة أي نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب.

وقرأت فرقة.

والزعفراني عن ابن محيصن ﴿ يَفْرُطَ ﴾ بضم الياء وكسر الراء من الإفراط في الأذية.

واستشكل هذا القول مع قوله تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا فَلاَيَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ [القصص: 35] فإنه مذكور قبل قولهما هذا بدلالة ﴿ سَنَشُدُّ ﴾ وقد دل على أنهما محفوظان من عقوبته وأذاه فكيف يخافان من ذلك.

(171/496)

وأجيب: بأنه لا يتعين أن يكون المعنى لا يصلون بالعقوبة لجواز أن يراد لا يصلون إلى إلزامكما بالحجة مع أن التقدم غير معلوم ولو قدم في الحكاية لا سيما والواو لا تدل على ترتيب، والتفسير المذكور مأثور عن كثير من السلف منهم ابن عباس.

ومجاهد وهو الذي يقتضيه الظاهر، وزعم الإمام أنهما قد أمنا وقوع ما يقطعهما عن الأداء بالدليل العقلي إلا أنهما طلبا بما ذكر ما يزيد في ثبات قلوبهما بأن ينضاف الدليل النقلي إلى

الدليل العقلي وذلك نظير ما وقع لإبراهيم عليه السلام من قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الموتى ﴾ [البقرة : 260] ولا يخفى أن في دعوى علمهما بالدليل العقلي عدم وقوع ما يقطعهما عن الأداء جدًا .

واستشكل أيضاً حصول الخوف لموسى عليه السلام بأنه يمنع عن حصول شرح الصدر له الدال على تحققه قوله تعالى بعد سؤاله إياه ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى موسى ﴾ [طه : 36] .

وأجاب الإمام بأن شرح الصدر عبارة عن قوته على ضبط تلك الأوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف .

وأنت تعلم أن كثيراً من المفسرين ذهبوا إلى أن شرح الصدر هنا عبارة عن توسيعه وهو عبارة عن عدم الضجر والقلق القلبي مما يرد من المشاق في طريق التبليغ وتلقي ذلك بجميل الصبر وحسن الثبات .

وأجيب على هذا بأنه لا منافاة بين الخوف من شيء والصبر عليه وعدم الضجر منه إذا وقع ألا ترى كثيراً من الكاملين يخافون من البلاء ويسألون الله تعالى الحفظ منه وإذا نزل بهم استقبلوه بصدر واسع وصبروا عليه ولم يضجروا منه .

وقيل : إنهما عليهما السلام لم يخافا من العقوبة إلا لقطعها الأداء المرجو به الهداية فخوفهما

في الحقيقة ليس إلا من القطع وعدم إتمام التبليغ ولم يسأل موسى عليه السلام شرح الصدر لتحمل ذلك .

(172/496)

واستشكل بأن موسى عليه السلام كان قد سأل وأوتي تيسير أمره بتوفيق الأسباب ورفع الموانع فكيف يخاف قطع الأداء بالعقوبة .

وأجيب : بأن هذا تنصيص على طلب رفع المانع الخاص بعد طلب رفع المانع العام وطلب للتنصيص على رفعه لمزيد الاهتمام بذلك .

وقيل : إن في الآية تغليباً منه لأخيه هارون على نفسه عليهما السلام ولم يتقدم ما يدل على أمنه عليه فتأمل ، واستشكل أيضاً عدم الذهاب والتعلل بالخوف مع تكرر الأمر بأنه يدل على المعصية وهي غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام على الصحيح .

وأجاب الإمام بأن الدلالة مسلمة لو دل الأمر على الفور وليس فليس ، ثم قال : وهذا من أقوى الدلائل على أن الأمر لا يقتضي الفور إذا ضممت إليه ما يدل على أن المعصية غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام ، و﴿ أَوْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ لمنع الخلو ، والمراد أو أن يزداد طغياناً إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جراءته وقساوته

وإطلاقه من حسن الأدب ، وفيه استنزال لرحمته تعالى وإظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر وازشعار بتحقق الخوف من كل من المعاطفين .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر ، ولعل إسناد الفعل إلى ضمير الغيبة كما قيل للإشعار بانتقال الكلام من مساق إلى مساق آخر فإن ما قبله من الأفعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي إن شاء الله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ [طه : 68] فإن ما قبله أيضاً وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل : فما ذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه سبحانه ؟ فقيل : قال أي لهما ﴿ لَا تَخَافَا ﴾ مما ذكرتما .

(173/496)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما ، والمراد بمعيته سبحانه كمال الحفظ والنصرة كما يقال : الله تعالى معك على سبيل الدعاء وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ وهو بتقدير المفعول أي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل في كل حال ما يليق بها من دفع شر وجلب خير .

وقال القفال : يحتمل أن يكون هذا في مقابلة القول السابق ويكونان قد عنيا أننا نخاف أن يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا فأجابهم سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ ﴾ أي كلامكما فاسخره للاستماه ﴿ وأرى ﴾ أفعاله فلا أتركه يفعل بكما ما تكرهانه فقدر المفعول أيضاً لكنه كما ترى ، وقال الزمخشري : جائز أن لا يقدر شيء ، وكأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ ، وهو يدل على أنه لا نظر إلى المفعول وقد نزل الفعل المتعدي منزلة اللازم لأنه أريد تتميم ما يستقل به الحفظ والنصرة وليس من باب قول المتنبي :

شجو حساده وغيظ عداه . . .

أن يرى مبصر ويسمع واع

على ما زعم الطيبي ، واستدل بالآية على أن السمع والبصر صفتان زائدتان على العلم بناءً على أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ دال على العلم ولو دل ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ عليه أيضاً لزم التكرار وهو خلاف الأصل .

﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ أمر بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد ما أمرا بالذهاب إليه فلا تكرار وهو عطف على ﴿ لا تَخَافَا ﴾ [طه : 46] باعتبار تعليله بما بعده ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أمرا بذلك تحقيقاً للحق من أول الأمر ليعرف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره من اللطف ما لا يخفى وإن رأى اللعين أن في ذلك تحقيراً له حيث أنه يدعى الربوبية لنفسه ولا يعد ذلك من الإغلاظ في القول ، وكذا قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسرائيل ﴾ إلى آخره خلافاً للإمام ، والفاء في ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن كونهما عليهما السلام رسولي ربه تعالى مما يوجب إرسالهم معهما والمراد بالإرسال إطلاقهم من الأسر وإخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبىء عنه قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم في الأعمال الشاقة كالحفر والبناء ونقل الأحجار وكانوا يقتلون أبناءهم عاماً دون عام ويستخدمون نساءهم ولعلهما إنما بدأا بطلب إرسال بني إسرائيل دون دعوة الطاغية وقومه إلى الإيمان للتدريج في الدعوة فإن إطلاق الأسرى دون تبديل الاعتقاد ، وقيل : لأن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ، وهذا بعد تسليمه مبني على أن بني إسرائيل كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام في الباطن أو كانوا مؤمنين بغيره من الأنبياء عليهم

السلام ولا بد لذلك من دليل ، وقيل : إنما بدأا بطلب إرسالهم لما فيه من إزالة المانع عن دعوتهم واتباعهم وهي أهم من دعوة القبط .

وتعقب بأن السياق هنا لدعوة فرعون ودفع طغيانه فهي الأهم دون دعوة بني إسرائيل ، وقيل : إنه أول ما طلبا منه الإيمان كما ينبىء عن ذلك آية النازعات إلا أنه لم يصرح به هنا اكتفاءً بما هناك كما أنه لم يصرح هناك بهذا الطلب اكتفاءً بما هنا ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ استئناف بياني وفيه تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الإرسال فإن مجيئهما بآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بأمرهما ، وإظهار اسم الرب في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل ، وجيء بقد للتحقيق والتأكيد أيضاً ، وتكلف لإفادتها التوقع وتوحيد الآية مع تعددها لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة فكأنه قيل : قد جئناك بما يثبت مدعانا ، وقيل : المراد بالآية اليد ، وقيل : العصا والقولان كما ترى .

﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ أي السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع ذلك

بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق ، فالسلام مصدر بمعنى السلامة كالرضاع والرضاعة ، وعلى بمعنى اللام كما ورد عكسه في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ اللعنة ﴾ [طه : 25] وحروف الجر كثيراً ما تتقارض ، وقد حسن ذلك هنا المشاكلة حيث جيء بعلى في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا ﴾

من جهة ربنا ﴿ أَنَّ العذاب ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿ على مَن كَذَّبَ ﴾ بآياته عز وجل ﴿ وتولى ﴾ أي أعرض عن قبولها ، وقال الزمخشري : أي وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين .

وتحقيقه على ما قيل أنه جعل السلام تحية خزنة الجنة للمهتدين المتضمنة لوعدهم بالجنة .

(176/496)

وفيه تعريض لغيرهم بتوبيخ خزنة النار المتضمن لوعيدهم بعذابها لأن المقام للترغيب فيما هو حسن العاقبة وهو تصديق الرسل عليهم السلام والتنفير عن خلافه فلو جعل السلام بمعنى السلامة لم يفد أن ذلك في العاقبة .

فما قيل : إنه لا إشعار في اللفظ بهذا التخصيص غير مسلم ، والقول بأنه ليس بتحية حيث

لم يكن في ابتداء اللقاء يرده أنه لم يجعل تحية الأخوين عليهما السلام بل تحية الملائكة عليهم السلام ، وأنت تعلم أن هذا التفسير خلاف الظاهر جداً وإنكار ذلك مكابرة .

وفي "البحر" هو تفسير غريب وأنه إذا أريد من العذاب العذاب في الدارين ، ومن السلام السلامة من ذلك العذاب حصل الترغيب في التصديق والتنفير عن خلافه على أتم وجه ، وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ والسلام ﴾ [طه : 47] الخ فصل للكلام والسلام فيه بمعنى التحية ، وجاء ذلك على ما هو العادة من التسليم عند الفراغ من القول إلا أنهما عليهما السلام رغبا بذلك عن فرعون وخصا به متبعي الهدى ترغيباً له بالانتظام في سلكهم ، واستدل به على منع السلام على الكفار وإذا احتيج إليه في خطاب أو كتاب جيء بهذه الصيغة .

وفي "الصحيحين" " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى " وأخرج عبد الرزاق في "المصنف" . والبيهقي في "الشعب" عن قتادة قال : التسليم على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول : السلام على من اتبع الهدى ، ولا يخفى أن الاستظهار المذكور غير بعيد لو كان كلامهما عليهما السلام قد انقطع بهذا السلام لكنه لم ينقطع به بل قالا بعده ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا ﴾ الخ ، وكأن هذه الجملة على جميع التفاسير استئناف للتعليل ، وقد يستدل به على صحة القول بالمفهوم فتأمل ، والظاهر أن كلتا الجملتين من جملة المقول الملقن .

(177/496)

وزعم بعضهم أن المقول الملقن قد تم عند قوله تعالى : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه : 47] وما بعد كلام من قبلهما عليهما السلام أتيا به للوعد والوعيد .

واستدل المرجئة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ ﴾ الخ على أن غير الكفرة لا يعذبون أصلاً .

وأجيب بأنه إنما يتم إذا كان تعريف العذاب للجنس أو الاستغراق ، أما إذا كان للعهد أي العذاب الناشىء عن شدة الغضب أو الدائم مثلاً فلا ، وكذا إذا أريد الجنس أو الاستغراق الادعائي مبالغة وجعل العذاب المتناهي الذي يعقبه السلامة الغير المتناهية كلا عذاب لم يلزم أن لا يعذب المؤمن المقصر في العمل أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(178/496)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾

قال بعض أهل العلم : المراد بالآيات في قوله هنا : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] الآية ، وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ [النمل : 12] الآية . والآيات التسع المذكورة هي : العصا واليد البيضاء . . . إلى آخرها . وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة « بني إسرائيل » .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾

أصل الطغيان : مجاوزة الحد ، ومنه : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ [الحاقة : 11] وقد بين الله تعالى شدة طغيان فرعون ومجاوزته الحد في قوله عند : ﴿ فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ، وقوله عنه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ، وقوله عنه أيضاً : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ، ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ مضارع ونى ينى ، على أحد قول ابن مالك في الخلاصة :

فا أمراً ومضارع من كوعد . . . احذف وفي كعدة ذاك اطرد

والونى في اللغة: الضعف، والفتور، والكلال والإعياء، ومنه قول امرئ القيس في معلقته:

مسح إذا ما السابحات على الونى . . . أثرن غباراً بالكديد المركل

وقول العجاج:

فما ونى محمد مذ أن غفر . . . له الإله ما مضى وما غبر

(179/496)

فقوله: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكري. وقد أثنى الله على من يذكره في جميع حالاته في قوله: ﴿ الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: 191]، وأمر بذكر الله عند لقاء العدو في قوله: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً ﴾ [الأنفال: 45] كما تقدم إيضاحه.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية الكريمة: والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله في حال مواجهة فرعون. ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مُناجز قِرْنه» اهـ منه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ لا تزالا في ذكري. واستشهد لذلك بقول طرفة:

كأن القدور الراسيات أمامهم . . . قباب بنوها لا تني أبداً تغلي

أي لا تزال تغلي . ومعناه راجع إلى ما ذكرنا . والعلم عند الله تعالى .

(180/496)

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

أمر الله جل وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام : أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه « قَوْلاً لَّيِّناً » أي كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً ، ليس فيه ما يغضب وينفر . وقد بين جل وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ [النازعات : 17–19] وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى . وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع ، كقوله ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

مسألة

يؤخذ من هذه الآية الكريمة : أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرِّفق واللِّين . لا بالقسوة والشدة والعنف . كما بيناه في سورة « المائدة » في الكلام على قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ

أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: 105] الآية.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال يزيد الرقاشي عند قوله ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكشف بمن يتولاه ويناديه؟! ه ولقد صدق من قال:

ولو أن فرعون لما طغى... وقال على الله إفكا وزورا

أناب إلى الله مستغفراً... لما وجد الله إلا غفوراً

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ قد قدمنا قول بعض العلماء: إن «لَعَلَّ» في القرآن بمعنى التعليل، إلا التي في سورة «الشعراء»: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: 129] فهي بمعنى كأنكم. وقد قدمنا أيضاً أن «لعل» تأتي في العربية للتعليل. ومنه قوله:

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا... نكف ووثقتم لنا كل موثقى

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم... كشبه سراب بالملا متألق

فقوله: «لعلنا نكف» أي لأجل أن نكف.

وقال بعض أهل العلم: ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ معناه على رجائكما وطمعكما، فالترجي والتوقع المدلول عليه بلعل راجع إلى جهة البشر. وعزا القرطبي هذا القول لكبراء النحويين كسيبويه وغيره.

(182/496)

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)

ألف الاثنين في قوله «فَأْتِياه» راجعة إلى موسى وهارون. والهاء راجعة إلى فرعون. أي فأتيا فرعون «فقولا» له: «إنا رسولان إليك من ربك فأرسل معنا بني إسرائيل» أي خل عنهم وأطلقهم لنا يذهبون معنا حيث شاؤوا، ولا تعذبهم.

العذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل: هو المذكور في سورة «البقرة» في قوله ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: 49]، وفي سورة «إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [ابراهيم: 6] الآية،

وفي سورة « الأعراف » في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [الأعراف : 141] الآية . وفي سورة « الدخان » في قوله : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب المهين من فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ [الدخان : 30–31] وفي سورة « الشعراء » في قوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 22] الآية .

(183/496)

وما أمر به الله موسى وهارون في آية « طه » هذه من أنهما يقولان لفرعون إنهما رسولا ربه إليه ، وأنه يأمره بإرسال بني إسرائيل ولا يعذبهم أشار إليه تعالى في غير هذا الموضع ، كقوله في سورة « الشعراء » : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 16–17] .

تنبيه

فإن قيل ، ما وجه الإفراد في قوله ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ في « الشعراء » ؟ مع أنهما رسولان ؟ كما جاء الرسول مثنى في « طه » فما وجه التثنية في « طه » والإفراد في « الشعراء » ، وكل واحد من اللفظين : المثنى والمفرد يراد به موسى وهارون ؟

فالذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن لفظ الرسول أصله مصدر وصف به ، والمصدر إذا وصف به ذكر وأفرد كما قدمنا مرارا ً. فالإفراد في « الشعراء » نظراً إلى أن أصل الرسول مصدر . والتثنية في « طه » اعتداداً بالوصفية العارضة وإعراضاً عن الأصل ، ولهذا يجمع الرسول اعتداداً بوصفيته العارضة ، ويفرد مراداً به الجمع نظراً إلى أن أصله مصدر .

ومثال جمعه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرسل ﴾ [البقرة : 253] الآية ، وأمثالها في القرآن .

ومثال إفراده مراداً به الجمع قول أبي ذؤيب الهذلي :

ألكني إليها وخير الرسول . . . أعلمهم بنواحي الخبر

ومن إطلاق الرسول مراداً به المصدر على الأصل قوله :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم . . . بقول ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة . وقول الآخر :

ألا بلغ بني عصم رسولا . . . بأني عن فتاحتكم غني

يعني أبلغهم رسالة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ ﴾ يراد به جنس الآية الصادق بالعصا واليد وغيرهما . لدلالة آيات آخر على ذلك .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ يدخل فيه السلام على فرعون إن اتبع الهدى . ويفهم من الآية : أن من لم يتبع الهدى لا سلام عليه ، وهو كذلك . ولذا كان في أول الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام » إلى آخر كتابه صلى الله عليه وسلم .

(185/496)

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن موسى وهارون . أن الله أوحى إليهما أن العذاب على من كذب وتولى أشير إلى نحوه في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى . كقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى وَآثَرَ الحياة الدنيا فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 37-39] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأشقى الذي كَذَّبَ وتولى ﴾ [الليل :

14_16] . وقوله تعالى : ﴿ فَلاَصَدَّقَ وَلاَ صلى ولكن كَذَّبَ وتولى ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى أولى لَكَ فأولى ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ [القيامة : 31-35] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(186/496)

وقال ابن عاشور :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) ﴾

رجوع إلى المقصد بعد المحاورة ، فالجملة بيان لجملة : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ ، أو هي استئناف بياني لأن قوله : ﴿ واصطنعتُك لنفسي ﴾ [طه : 41] يؤذن بأنه اختاره وأعدّه لأمر عظيم ، لأنّ الحكيم لا يتّخذ شيئاً لنفسه إلاّ مريداً جعلَه مظهراً لحكمته ، فيترقب المخاطب تعيينها ، وقد أمره هنا بالذهاب إلى فرعون وأن يذهب أخوه معه .

ومعنى ذلك أنه يبلّغ أخاه أن الله أمره بمرافقته ، لأنّ هارون لم يكن حاضراً حين كلّم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة .

ولأنه لم يكن الوقت وقت الشروع في الذهاب إلى فرعون ، فتعيّن أن الأمر لطلب حصول

الذهاب المستقبل عند الوصول إلى مصر بلد فرعون وعند لقائه أخاه هارون وإبلاغه أمر الله إياه ، فقرينة عدم إرادة الفور هنا قائمة .

والباء للمصاحبة لقصد تطمين موسى بأنّه سيكون مصاحباً لآيات الله ، أي الدلائل التي تدلّ على صدقه لدى فرعون .

ومعنى ﴿ ولا تَنِيَا ﴾ لا تضعُفا .

يقال : ونَى يني ونًى ، أي ضعف في العمل ، أي لا تنِ أنت وأبلغ هارون أن لا يني ، فصيغة النهي مستعملة في حقيقتها ومجازها .

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) ﴾

يجوز أن يكون انتقال إلى خطاب موسى وهارون .

فيقتضي أن هارون كان حاضراً لهذا الخطاب ، وهو ظاهر قوله بعده ﴿ قالا ربنا إننا نخاف ﴾ [طه : 45] ، وكان حضور هارون عند موسى بوحي من الله أوحاه إلى هارون في أرض "جاسان" حيث منازل بني إسرائيل من أرض قرب (طِيبة) .

قال في التّوراة في الإصحاح الرابع من سفر الخروج "وقال (أي الله) ها هو هارون خارجاً لاستقبالك فتكلمه أيضاً" .

وفيه أيضاً "وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى فذهب والتقيا في جبل الله" أي جبل حُوريب ، فيكون قد طُوي ما حدث بين تكليم الله تعالى موسى في الوادي عند النار وما بين وصول موسى مع أهله إلى جبل (حوريب) في طريقِه إلى أرض مصر ، ويكون قوله ﴿ قالا ربنا إننا نخاف ﴾ الخ ، جواباً عن قول الله تعالى لهما : ﴿ اذهب إلى فرعون الخ .

ويكون فصل جملة قالا ربنا إننا نخاف الخ لوقُوعها في أسلوب المحاورة .

ويجوز أن تكون جملة اذْهَبَا إلى فِرْعَونَ ﴾ بدلاً من جملة ﴿ اذْهَب أنتَ وأخوك ﴾ [طه : 42] ، فيكون قوله ﴿ اذهبا أمراً لموسى بأن يذهب وأن يأمر أخاه بالذهاب معه وهارون غائب ، وهذا أنسب لسياق الجُمل ، وتكون جملة قالا ربنا إننا نخاف مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، وقد طوي ما بين خطاب الله موسى وما بين حكاية قالا ربنا إننا نخاف الخ .

والتقدير : فذهب موسى ولقي أخاه هارون ، وأبلغه أمر الله له بما أمره ، فقالا ربّنا إننا نخاف الخ .

وجملة إنَّهُ طغى ﴾ تعليل للأمر بأن يذهبا إليه .

فعُلم أنه لقصد كفّه عن طغيانه .

وفعل ﴿ طغى ﴾ رسم في المصحف آخره ألفاً مُمالة ، أي بصورة الياء للإشارة إلى أنّه من طَغِي مثل رَضي .

ويجوز فيه الواو فيقال : يطغو مثل يدعو .

والقول الليّنُ : الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال ، بأن يظهر المتكلّم للمخاطب أنّ له من سداد الرأي ما يتقبّل به الحق ويميّز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله .

فشبه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء الليّنِ .

واللين ، حقيقة من صفات الأجسام ، وهو : رطوبة ملمس الجسم وسهولة ليّه ، وضد الليّن الخشونة .

ويستعار الليّن لسهولة المعاملة والصفح .

وقال عمرو بن كلثوم:

فإن قناتنا يا عَمْرو أعيَت . . .

على الأعداءِ قبلَكَ أن تلينا

واللين من شعار الدعوة إلى الحق ، قال تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : 125] وقال : ﴿ فبما رحمة من الله لِنتَ لهم ﴾ [آل عمران : 159] .

ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تَزّكى وأهديَك إلى ربك فتخشى ﴾ [النازعات : 18 ، 19] وقوله : ﴿ والسلام على من اتبّع الهدى ﴾ [الكهف : 47] ، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلاظة القول بدون جدوى .

فإذا لم ينفع اللين مع المدعوّ وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه ، قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم ﴾ [العنكبوت : 46] ، وقال تعالى عن موسى : ﴿ إنّا قد أوحي إلينا أن العَذاب على من كذّب وتولّى ﴾ [طه : 48] .

والتّرجي المستفاد من (لعلّ) إما تمثيل لشأن الله في دعوة فرعون بشأن الراجي ، وإما أن يكون إعلاماً لموسى وفرعون بأن يرجوَا ذلك ، فكان النطق بحرف الترجي على لسانهما ، كما تقول للشخص إذا أشرت عليه بشيء : فلعلّه يصادفك تيْسير ، وأنت لا تريد أنّك ترجو ذلك ولكن بطلب رجاء من المخاطب .

وقد تقدمت نظائره في القرآن غير مرّة .

والتذكّر : من الذُّكر بضم الذال أي النظر ، أي لعلّه ينظر نظر المتبصّر فيعرف الحق أو يخشى

حلولَ العقاب به فيُطيع عن خشية لا عن تبصر .

وكان فرعون من أهل الطغيان واعتقاد أنه على الحق ، فالتذكر : أن يعرف أنه على الباطل ، والخشيةُ : أن يتردد في ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى .

وهنا انتهى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾

(189/496)

فصلت الجملتان لوقوعهما موقع المحاورة بين موسى مع أخيه وبين الله تعالى على كلا الوجهين اللذين ذكرناهما آنفاً ، أي جمعا أمرهما وعزم موسى وهارون على الذهاب إلى فرعون فناجيا ربّهما ﴿ قَالا رَبَّنَا إِننا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أو أن يطغى ﴾ ، لأنّ غالب التفكير في العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل ، والأخذِ في التهيُّؤ له ، ولذلك أُعيد أمرهما بقوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ .

و﴿ يَفْرُطَ ﴾ معناه يعجّل ويسبق ، يقال : فَرط يفرُط من باب نصر .

والفارط : الذي يسبق الواردة إلى الحوض للشرب .

والمعنى : نخاف أن يعجّل بعِقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلُغه ونحجّه .

والطغيان : التظاهر بالتكبر .

وتقدم آنفاً عند قوله ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : 24] ، أي نخاف أن يُخامره كبره فيعدّ ذكرنا إلهاً دونه تنقيصاً له وطعْناً في دعواه الإلهية فيطغى ، أي يصدر منه ما هو أثر الكبر من التحقير والإهانة .

فذكر الطغيان بعد الفَرط إشارة إلى أنّهما لا يطيقان ذلك ، فهو انتقال من الأشدّ إلى الأضعف لأن ﴿ نخاف يؤول إلى معنى النفي .

وفي النفي يذكر الأضعف بعد الأقوى بعكس الإثبات ما لم يوجد ما يقتضي عكس ذلك .

وحذف متعلّق يطغى ﴾ فيحتمل أن حذفه لدلالة نظيره عليه ، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل .

والتقدير : أو أن يطغى علينا .

ويحتمل أن متعلّقه ليس نظير المذكور قبله بل هو متعلّق آخر لكون التقسيم التقديري دليلاً عليه ، لأنهما لما ذكر متعلّق ﴿ يفرط علينا وكان الفَرْط شاملاً لأنواع العقوبات حتى الإهانة بالشتم لزم أن يكون التقسيم بأو منظوراً فيه إلى حالة أخرى وهي طغيانه على من لا يناله عقابه ، أي أن يطغى على الله بالتنقيص كقوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [

القصص : 38] وقوله : ﴿ لعليّ اطّلِعُ إلى إله موسى ﴾ [القصص : 38] ، فحذف متعلق ﴿ يطغى حينئذ لتنزيهه عن التصريح به في هذا المقام .

(190/496)

والتقدير : أو أن يطغى عليك فيتصلّب في كفره ويعسر صرفه عنه .

وفي التحرز من ذلك غيرة على جانب الله تعالى ، وفيه أيضاً تحرز من رسوخ عقيدة الكفر في نفس الطاغي فيصير الرجاء في إيمانه بعد ذلك أضعف منه فيما قبل ، وتلك مفسدة في نظر الدّين .

وحصلت مع ذلك رعاية الفاصلة .

قال الله لَا تَخَافَا ﴾ ، أي لا تخافا حصول شيء من الأمرين ، وهو نهي مكنى به عن نفي وقوع المنهي عنه .

وجملة ﴿ إِنّنِي مَعَكُمَا ﴾ تعليل للنهي عن الخوف الذي هو في معنى النفي ، والمعيّة معيّة حفظ .

و ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ حالان من ضمير المتكلم ، أي أنا حافظكما من كل ما تخافانه ، وأنا أعلم الأقوال والأعمال فلا أدَعُ عملاً أو قولاً تخافانه .

ونزل فعلاَ ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ منزلة اللازمين إذ لا غرض لبيان مفعولهما بل المقصود : أني لا يخفى عليّ شيء .

وفرع عليه إعادة الأمر بالذهاب إلى فرعون .

والإتيان : الوُصول والحلول ، أي فحُلاّ عنده ، لأنّ الإتيان أثر الذهاب المأمور به في الخطاب السابق ، وكانا قد اقتربا من مكان فرعون لأنهما في مدينته ، فلذا أُمِرا بإتيانه ودعوته .

وجاءت تثنية رسول على الأصل في مطابقة الوصف الذي يجري عليه في الإفراد وغيره .

وفَعول الذي بمعنى مفعول تجوز فيه المطابقة ، كقولهم ناقة طروقة الفَحل ، وعدم المطابقة كقولهم : وَحشية خلوج ، أي اختُلج ولدُها .

وجاء الوجهان في نحو (رسول) وهما وجهان مستويان .

ومن مجيئه غير مطابق قوله تعالى في سورة الشعراء (16) : ﴿ فأتِيا فرعون فقولا إنا رسولُ ربّ العالمين ﴾ وسيجيء تحقيق ذلك هنالك إن شاء الله .

وأدخل فاء التفريع على طَلب إطلاق بني إسرائيل لأنّه جعل طلب إطلاقهم كالمستقرّ المعلوم عند فرعون ؛ إما لأنّه سبقت إشاعَة عزمهما على الحضور عند فرعون لذلك المطلب ، وإما لأنه جعله لأهميته كالمقرّر .

وتفريع ذلك على كونهما مرسلَيْن من الله ظاهر ، لأنّ المرسل من الله تجب طاعته .

وخصّا الربّ بالإضافة إلى ضمير فرعون قصداً لأقصى الدعوة ، لأنّ كون الله ربّهما معلوم من قولهما ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ وكونه ربّ الناس معلوم بالأحرى لأنّ فرعون علّمهم أنه هو الرب .

والتعذيب الذي سألاه الكفّ عنه هو ما كان فرعون يسخّر له بني إسرائيل من الأعمال الشاقّة في الخدمة ، لأنه كان يعُدّ بني إسرائيل كالعبيد والخول جزاء إحلالهم بأرضه .

وجملة ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِن رَبِّكَ ﴾ فيها بيان لجملة ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ فكانت الأولى إجمالاً والثانية بياناً .

وفيها معنى التعليل لتحقيق كونهما مرسلَيْن من الله بما يظهره الله على يد أحدهما من دلائل الصدق .

وكلا الغرضين يوجب فصل الجملة عن التي قبلها .

واقتصر على أنهما مصاحبان لآيةٍ إظهاراً لكونهما مستعدّيْن لإظهار الآية إذا أراد فرعون ذلك .

فأما إن آمن بدون احتياج إلى إظهار الآية يكن إيمانه أكمل ، ولذلك حكي في سورة الأعراف (16) قول فرعون : ﴿ قال إن كنت جئت بآية فإت بها إن كنت من الصادقين ﴾ وهذه الآية هي انقلاب العصا حيّة ، وقد تبعتها آيات أخرى .

والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدلّ على أن موسى أُرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمّة مستقلّة ؛ بأن يبثّ فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم ، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرانيه .

وأيضاً لأنّ ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بني إسرائيل .

وهذا يؤخذ مما في هذه الآية وما في آية سورة الإسراء وما في آية سورة النازعات والآيات الأخرى .

والسّلام : السلامة والإكرام .

وليس المراد به هنا التحيّة ، إذ ليس ثَمّ معيّن يقصد بالتحيّة .

ولا يراد تحيّة فرعون لأنها إنما تكون في ابتداء المواجهة لا في أثناء الكلام ، وهذا كقول النبي في كتابه إلى هرقل وغيره : أسلمْ تَسْلَمْ .

و (على) للتمكّن ، أي سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريب .

وهذا احتراس ومقدمة للإنذار الذي في قوله إنّا قد أُوحِي إلينا أنّ العَذابَ على مَن كَذّبَ

وتولَّى ﴾ ، فقوله : ﴿ والسلام على من اتّبع الهدى ﴾ [طه : 47] تعريض بأن يطلب فرعون الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام .

وقوله ﴿ إنَّا قد أُوْحِيَ إلينا ﴾ تعريض لإنذاره على التكذيب قبل حصوله منه ليبلغ الرسالة على أتمّ وجه قبل ظهور رأي فرعون في ذلك حتى لا يجابهه بعد ظهور رأيِه بتصريح توجيه الإنذار إليه .

وهذا من أسلوب القول اللّين الذي أمرهما الله به .

وتعريف العَذَابَ تعريف الجنس ، فالمعرّف بمنزلة النكرة ، كأنّه قيل : إنّ عذاباً على من كذّب .

وإطلاق السّلام والعذاب دون تقييد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشارة والنذارة ، قال تعالى في سورة النازعات (25 ، 26) : ﴿ فأخذه الله نكالَ الآخرة والأولى ﴾ إنّ في ذلك لعبرةً لمن يخشى .

وهذا كلّه كلام الله الذي أمرهما بتبليغه إلى فرعون ، كما يدلّ لذلك تعقيبه بقوله تعالى : ﴿ قال فمَن ربُّكما يا موسى ﴾ [طه : 49] على أسلوب حكاية المحاورات .

وما ذكر من أول القصة إلى هنا لم يتقدّم في السور الماضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) ﴾

﴿ بِآيَاتِي ﴾ [طه : 42] الآيات هنا هي المعجزات الباهرات التي تبهر فرعون ، فلن تذهبا مُجرَّدَيْن ، بل معكما دليل على صِدْق الرسالة التي تحملونها إليه : ﴿ لاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه : 42] من التَّواني أي : الفتور أو التقصير ؛ لأنني أعددتكما الإعداد المناسب لهذه المهمة الشاقة ، فإياكم والتهاون فيها ، فإنْ حدث منكما تقصير فهو تقصير في الأداء ، لا في الإعداد .

ومعنى : ﴿ فِي ذِكْرِي ﴾ [طه : 42] أي : لأكُنْ دائماً على بالكما ، فأنا الذي أرسلتُ ، وأنا الذي أيدتُ بالمعجزات ، وأنا الذي أرعاكما وأرقبكما ، وأنا الذي سأجازيكما فلا يَغبْ ذلك عنكما .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ ﴾

وهل هناك طغيان فوق ادعاء أنه ربٌّ؟ وقد قال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ [يونس : 83] والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود ، وهو قد تجاوز في إسرافه وادّعى الألوهية ، فعلاَ في الأرض علوّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾

هذا لفرعون بعد أنْ طغى ، ومن الذي حكم عليه بالطغيان ؟ حين تحكم أنت عليه بالطغيان فهو طغيان يناسب قدرات وإمكانات البشر ، أمّا أن يقول عنه الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 43] فلا بُدَّ أنه تجاوز كل الحدود ، وبلغ قمة الطغيان ، فربُّما هو الذي يقول .

فقوله : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ [طه : 44] فلا بُدَّ أنْ تعطيه فُسْحة كي يرى حُجَجك وآياتك ، ولا تبادره بعنف وغِلْظة ، وقالوا : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، ولا تجمع على المنصوح شدتين : أنْ تُخرِجه مما ألف بما يكره ، بل تُخرِجه مما ألِف بما يحب .

(194/496)

وهذا منهج في الدعوة واضح وثابت ، كما في قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] .

لأنك تخلعه مما اعتاد وألف ، وتُخرجه عَمّاَ أحبَّ من حرية واستهتار في الشهوات والملذات ، ثم تُقيِّده بالمنهج ، فليكُنْ ذلك برفق ولُطْف .

وهذه سياسة يستخدمها البشر الآن في مجال الدواء ، فبعد أن كان الدواء مُرّاً يعافُه المرضى ، توصلوا الآن إلى برشمة الدواء المر وتغليفه بطبقة حلوة المذاق حتى تتم علمية البَلْع ، ويتجاوز الدواء منطقة المذاق .

وكذلك الحال في مرارة الحق والنصيحة ، عليك أنْ تُغلِّفها بالقول اللين اللطيف .

وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] لعل : رجاء ، فكيف يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] وفي عِلْمه تعالى أنه لن يتذكّر ولن يخشى ، وسيموت كافراً غريقاً ؟

قالوا : لأن الحق سبحانه يريد لموسى أن يدخل على فرعون دخول الواثق من أنه سيهتدي ، لا دخولَ اليائس من هدايته ، لتكون لديه الطاقة الكافية لمناقشته وعَرْض الحجج عليه ، أمّا لو دخل وهو يعلم هذه النتيجة لكان محبطاً لا يرى من كلامه فائدة ، كما يقولون (ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه) .

فالحق سبحانه يعلم ما سيكون من أمر فرعون ، لكنْ يريد أنْ يقيمَ الحجة عليه ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] .

وقوله : ﴿ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] كأن الإنسان إذا ما ترك شراسة تفكيره ، وغُمة شهواته في نفسه ، لا بُدَّ أنْ يهتدي بفطرته إلى وجود الله أو (يتذكر) عالم الذَّر ،

والعهد الذي أخذه الله عليه يوم أنْ قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف : 172] .

(195/496)

والذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : "كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه " .

فلو تذكّر الإنسان ، وجرَّد نفسه من هواها لا بُدَّ له أنْ يهتدي إلى وجود الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للغفلة مجالاً ، وأرسل الرسل للتذكير ؛ لذلك قال : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء : 165] ولم يقل : بادئين .

أمّا مسألة الإيمان بالله فكان ينبغي أن تكون واضحة معروفة للناس أن هناك إيماناً بإله خالق قادر فقط ينتظرون ما يطلبه منهم وما يتعبّدهم به .

ماذا تفعل ؟ وماذا تترك ؟ وهذه هي مهمة الرسل .

وسبق أن ضربنا مثلاً برجل انقطعت به السُّبل في صحراء دَوِّيَة ، لا يجد ماءً ولا طعاماً ، حتى أشرف على الهلاك ، ثم غلبه النوم فنام ، فلما استيقظ إذا بمائدة عليها ألوان الطعام والشراب . بالله قبل أنْ يمد يده للطعام ، ألا يسأل : مَنْ أتى إليه به ؟

وهكذا الإنسان، طرأ على كون مُعَدٍّ لاستقباله: أرض، وسماء، وشمس، وقمر، وزرع، ومياه، وهواء. أليس جديراً به أن يسأل: من الذي خلق هذا الكون البديع؟ فلو تذكرتَ ما طرأتَ عليه من الخير في الدنيا لانتهيتَ إلى الإيمان.

فمعنى: ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾ [طه: 44] أي: النعم السابقة فيؤمن بالمنعم ﴿ أَوْ يخشى ﴾ [طه: 44] يخاف العقوبة اللاحقة، فيؤمن بالله الذي تصير إليه الأمور في الآخرة.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى عنهما: ﴿ قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾

الخوف: شعور في النفس يُحرِّك فيك المهابة من شيء، ومِمَّ يخافان؟ ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ [طه: 45] يفرط: أي: يتجاوز الحد. ومضادها: فرَّط يعني: قصَّر في الأمر؛ لذلك يقولون: الوسط فضيلة بين إفراط وتفريط.

(196/496)

ومَنْ أفرط يقولون: فَرَس فارط عندما يسبق في المضمار. ويقولون: حاز قَصَب السبق، وكانوا يضعون في نهاية المضمار قصبة يركزونها في الأرض، والفارس الذي يلتقطها أولاً هو الفائز، والفرس فارط يعني: سبق الحدّ المعمول له، لا مجرد أن يسبق غيره.

لذلك عندما يُحدِّثنا القرآن عن الحدود، يقول مرة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [

البقرة: 229] أي: إياك أن تسبق الحد الذي وُضِع لك ومرة أخرى يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: 187] ففي المحلّلات قال ﴿ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: 229] قِفُوا على الحدِّ لا تسبقوه، وفي المحرمات قال ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: 187] لأنك لو اقتربتَ منها وقعتَ فيها .

فالمعنى إذن ﴿ يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ [طه: 45] يتجاوز الحدّ، وربما عاجلنا بالقتل قبل أن نقول شيئاً فيسبق قتلُه لنا كلامنا له .

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ [طه: 45] فلا يكتفي بقتلنا، بل ويخوض في حقِّ ربنا، أو يقول كلاماً لا يليق، كما سبق له أن ادّعى الألوهية .

ومن واجب الدعاة ألاَّ يَصِلوا مع المدعوين إلى درجة أن يخوضوا في حقِّ الله تبارك وتعالى؛ لذلك فالحق سبحانه يُؤدِّب المؤمنين به بأدب الدعوة في مجابهة هؤلاء فيقول: ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: 108] .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾

أي: لن أسلمكما ولن أترككما، وأنا معكما أسمع وأرى؛ لأن الحركة إما قول يُسمع، أو فعل يُرى، فاطمئنّا، لأننا سنحفظكما، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات: 171173] .

وهذه سُنة من سُنَن الله تعالى ، فإنْ رأيتَ جنداً من الجنود منسوبين لله تعالى وهُزِمُوا ، فاعلم أنهم انحلوا عن الجندية لله ، وإلا فوعْد الله لجنوده لا يمكن أن يتخلف أبداً .

والدليل على ذلك ما حدث للمسلمين في أُحُد ، صحيح أن المسلمين هُزِموا في هذه الغزوة ؛ لأنهم انحرفوا عن أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالفوه عندما قال للرماة : " لاتتركوا أماكنكم على أيّ حال من الأحوال " لكن بمجرد أنْ رأوا بوادر النصر تركوا أماكنهم ، ونزلوا لجَمْع الغنائم ، فالتف من خلفهم خالد بن الوليد وألحق بهم الهزيمة ، وإن انهزم المسلمون فقد انتصر الإسلام ؛ لأنهم لما خالفوا أوامر رسولهم انهزموا ، وبالله لو انتصروا مع المخالفة أكان يستقيم لرسول الله أمر بعد ذلك ؟

ففي الآية التي معنا يطمئنهم الحق تبارك وتعالى حتى لا يخافا ، فقدرة الله ستحفظهما ، وسوف تتدخل إنْ لزمَ الأمر كما تدخلْت في مسألة التمرة والجمرة ، وهو صغير في بيت فرعون .

ثم يقول لهما الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾

ونلحظ هنا أنهما لم يواجهاه بما ادعاه من الألوهية مرة واحدة ، إنما أشارا إلى مقام الربوبية

﴿ رَسُولاَ ربِّكَ ﴾ [طه : 47] وهذه هِزّة قوية تزلزل فرعون ، ثم تحوّلا إلى مسألة أخرى ، وهي قضية بني إسرائيل ، وكان فرعون يُسخِّرهم في خدمته ويُعذِّبهم ويشقّ عليهم .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [طه : 47] فقد جئنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ ﴾ [طه : 47] أي : معجزة ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه : 47] فأعادوا عليه هذه الكلمة مرة أخرى .

وقد علّمهما الحق سبحانه كيف يدخلون على فرعون ؟ وكيف يتحدثون معه في أمر لا يمسّ كبرياءه وألوهيته .

(198/496)

وبنو إسرائيل هم البقية الباقية من يوسف عليه السلام وإخوته ، لما جاءوا إلى مصر في أيام العزيز الذي قرّب يوسف وجعله على خزائن الأرض ، كما قال تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجعلني على خَزَآئِنِ الأرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 5455] .

وقوله : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه : 47] وهذه ليست تحية ؛ لأنك تُحيي مَنْ كان مُتبعاً للهدى ، وتدعوه بالسلام ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهي نهاية للكلام .

لذلك كان يكتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبه إلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى هرقل عظيم الروم ، يقول : " اسلم تسلم ، يؤتِكَ الله أجرك مرتين ، فإنْ توليت فإنما عليك إثم الأريسيين والسلام على مَنِ اتبع الهدى " .

قال موسى وهارون لفرعون : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ ﴾

فأعطاه هنا القضية النهائية : جاءنا في الوحي أن مَنْ كذّب وتولّى فله العذاب ، ومعنى ﴿ أُوحِيَ إِلَيْنَآ ﴾ [طه : 48] أي : من ربك .

فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أنْ يدخل معهما في متاهات يشغلهم بها ، ويطيل الجدل ليُرتّب أفكاره ، وينظر ما يقول : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(199/496)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (طه : 47) ، وفي سورة الشعراء : (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

) (الشعراء : 16-17) ، ففي الأولى : (فَأْتِيَاهُ) وفي الثانية : (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ) ، وفي الأولى : (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) بالتثنية والإضافة إلى ضمير الخطاب وفي الثانية : (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، فورد هنا (رسول) بلفظ الإفراد وإضافة رب (إلى) العالمين ، والظاهر أن أمر موس وهارون ، عليهما السلام ، في الآيتين كان أول أمر أُمرا به في إرسالهما إلى فرعون ، وأن أمرهما معاً بهذا لم يتكرر ، وقد تقدم في سورة طه أمر موسى ، عليه لاسلام منفرداً عن أخيه هارون في أول تكليم الله تعالى ، وأمره بخلع نعليه ، وإعطائه آيتي العصا واليد ، وأمره بالذهاب إلى فرعون ، وطلبه شرح صدره ، إلى طلبه المعونة بأخيه هارون ، وبعد ذلك أُمرا معاً بما في هاتين الآيتين ، ثم لم يتكرر حسبما ذكرناه بمقتضى الظاهر ، فللسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيهما ؟ ووجه اختصاص كل سورة بما ورد فيها ؟

والجواب عن الأول : ما تقدم من أن الإخبار عن ذلك كله في كتابنا معتمد فيه المعنى ، وقد تقدم بيان ذلك مستوفى ، وأما وجه التخصيص ، فإن ورود اسم فرعون مضمراً في قوله : (فأتياه) إنما ذلك لتقدم ذكره في قوله : (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ ﴿طه : 43-44﴾ ، فلم تكن إعاجى اسمه ظاهراً مع الاتصال والقرب ، إذ لم يفصل بين ظاهره ومضمره إلا كلمتان . أما آية الشعراء فقد اجتمع فيها أمران : أحداهما الفصل بين مضمر الاسم وظاهره ، مع إتيان الظاهر مضافاً إليه فضلة إلى ما ذكر إليه من الفصل ببضع وعشرين كلمة ، والثاني أن أمر موسى ، عليه السلام ، أولاً إنما ورد بإتيان قوم فرعون ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿الشعراء : 10-11﴾ ، فقد يتوهم أن الجاري على هذا أن لو قيل عوض قوله : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ فأتياه ، إلا أنه لم يقصد إلا ذكر متبوعهم ، فلم يكن بد من الإفصاح باسمه غير مضمر .

وأما قوله تعالى في الأولى : ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ﴿طه : 47﴾ بتثنية لف الرسول فوارد على اللغة الشهيرة ، أما قوله في الثانية : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الشعراء : 16﴾ فعلى لغة من يقول رسول للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وعلى ذلك قول الهذلي :

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبرَ

فورد ﴿الأول﴾ في الترتيب على اللغة الشهيرة ، والثاني على اللغة الأخرى على ما تقدم في مثل هذا ، وعكس الوارد مخالف للترتيب ولا يناسب .

وأما قوله : (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) بإضافة اسمه تعالى إلى ضمير الخطاب ، فإنه يناسب من حيث ما فيه من (التلطف) والرفق لما تقدمه من قوله تعالى (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) (طه : 44) ، وقد تفسر هذا القول وتبين ما فيه من التلطف بقوله تعالى في سورة النازعات : (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) (النازعات : 18-19) ، وناسب هذا ما بنيت عليه سورة طه من تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم وتأميس موسى كليمه صلى الله عليه وسلم بقوله : (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) (طه : 13) وما بعد إلى قوله تعالى : (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) (طه : 36) وما بعد ، فلما كان بناء هذه السورة بجملتها على التلطف (والتأنيس ناسب ذلك ما أمر به موسى ، عليه السلام ، من دعاء فرعون آنسه وألطفه) ، وأمر موسى ، عليه السلام ، وأخوه هارون بذلك فقيل لهما : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) ، وجرى على ذلك (قوله) : (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) ، فأشعرت هذه الإضافة بالتلطف الرباني ، ولما لم تكن سورة الشعراء مبنية على ما ذكر ، وإنما تضمنت تعنيف فرعون وملئه وإغراقهم وأخذ المكذبين للرسل بتكذيبهم ، وهذا في طرف من التلطف ، ورد فيها : (فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بإضافة اسمه سبحانه (إلى العالمين) ليحصل منه أنه مالك الكل وأنهم تحت قهره تعالى وفي قبضته ، وعدل عن الإضافة إلى ضمير الخطاب إذ لم يقصد هنا ما تقدم من

التلطف ، ونظير الوارد في هاتين الآيتين قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (الأنعام : 137) ، فقف على ذلك في سورة الأنعام ، وقد تبين جليل النظم وعلي التناسب في كل ما تقدم ، وأن عكس الوارد في هذه الآي لا يناسب ، والله سبحانه أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 338. 340 ﴾

(202/496)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ .

الآية.

يدل على أنهما رسولان وهما موسى وهارون وقوله تعالى: ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، يوهم كون الرسول واحد .

والجواب من وجهين:

الأول: أن معنى قوله: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي كل واحد منا رسول رب العالمين كقول البرجمي: فإني وقياراً بها لغريب .

وإنما ساغ هذا لظهور المراد من سياق الكلام .

الوجه الثاني : أن أصل الرسول مصدر كالقبول والولوع فاستعمل في الاسم فجاز جمعه وتثنيته نظرا إلى كونه بمعنى الوصف وساغ إفراده مع إرادة المثنى أو الجمع نظرا إلى الأصل من كونه مصدرا ومن إطلاق الرسول على غير المفرد قول الشاعر :

ألكنى إليها وخير الرسول

أعلمهم بنواحي الخبر

يعني وخير الرسل, وإطلاق الرسول مرادا به المصدر كثير ومنه قوله:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم

بقول ولا أرسلتهم برسول

يعني برسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 200. 201 ﴾

(203/496)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) ﴾

أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر ، عن أسماء بنت عميس قال : رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإزاء ثبير وهو يقول : " أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي أمري وأن تحل عقدة من لساني ﴿ يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً ﴾ .

وأخرج السلفي في الطيوريات بسند واه ، عن أبي حعفر محمد بن علي قال : " لما نزلت ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي اشدد به أزري ﴾ كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على جبل ، ثم دعا ربه وقال " اللهم اشدد أزري بأخي علي " فأجابه إلى ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ قال : عجمة بجمرة نار أدخلها في فيه ، عن أمر امرأة فرعون تدرأ به عنه عقوبة فرعون حين أخذ موسى بلحيته ، وهو لا يعقل . قال : هذا عدوّ لي ، فقالت امرأته : إنه لا يعقل .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ﴾ قال : كان أكبر من موسى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطية في قوله : ﴿ اشدد به أزري ﴾ قال ظهري .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ اشدد به أزري ﴾ يقول : اشدد به أمري وقوّني به ، فإن لي به قوّة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأشركه في أمري ﴾ قال : نُبِئَ هرون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عروة أن عائشة سمعت رجلاً يقول : إني لأدري أي أخ في الدنيا كان أنفع لأخيه : موسى حين سأل لأخيه النبوّة . فقالت : صدق والله .

(204/496)

وأخرج الحاكم ، عن وهب قال : كان هرون فصيحاً بين النطق يتكلم في تؤدة ويقول بعلم وحلم ، وكان أطول من موسى طولاً ، وأكبرهما في السن ، وأكثرهما لحماً ، وأبيضهما جسماً ، وأعظمهما ألواحاً ، وكان موسى جعداً آدم طوالاً ، كأنه من رجال شنوأة ، ولم يبعث الله نبياً إلا وقد كان عليه شامة النبوّة في يده اليمنى ، إلا أن يكون نبينا – صلى الله عليه وسلم – فإن شامة النبوّة كانت بين كتفيه .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم بن أبي النجود أنه قرأ ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً ﴾ بنصب الكاف الأولى في كلهن .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش : أنه كان يجزم هذه الكافات كلها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ فاقذفيه في اليم ﴾ قال هو النيل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال : كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سلمة بن كهيل - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال : حببتك إلى عبادي .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة في قوله : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال : حيث نظرت آسية وجه موسى ، فرأت حسناً وملاحة ، فعندها قالت لفرعون : ﴿ قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ [القصص : 9] .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن أبي رجاء في قوله : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال : الملاحة والحلاوة .

وأخرج ابن عساكر ، عن قتادة في قوله : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال : حلاوة في عيني موسى ، لم ينظر إليه خلق إلا أحبه .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : كنت مع عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - فتلقاه الناس يسلمون عليه ويحيونه ويثنون عليه ويدعون له - فيضحك

ابن عمر - فإذا انصرفوا عنه ، أقبل علي فقال : إن الناس ليجيئون حتى لو كنت أعطيهم الذهب والفضة ما زادوا عليه ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ .

(205/496)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي نهيك - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ قال : ولتعمل على عيني .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ قال : تربى بعين الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ قال : ولتغذى على عيني .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في الآية يقول : أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت ثم في البحر ﴿ إذ تمشي أختك ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب ، عن ابن عمر : "سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ . يقول الله : ﴿ وقتلت نفساً فنجيناك من الغم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ قال: من قتل النفس ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال: أخلصناك إخلاصاً.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال: ابتليناك إبتلاء.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال: ابتليناك ببلاء نعمة.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال: اختبرناك اختباراً.

وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد في قوله: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال: بلاء إلقاؤه في التابوت، ثم في اليم، ثم التقاط آل فرعون إياه، ثم خروجه خائفاً يترقب.

(206/496)

وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده، وعبد بن حميد، والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ فسألت عن الفتون

ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثاً طويلاً ، فلما أصبحت غدوت على ابن عباس ، لأتنجز ما وعدني من حديث الفتون فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل – وعد إبراهيم عليه السلام – من أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً . فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه ، ولقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هذا كان وعد الله إبراهيم . قال فرعون : فكيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم ، على أن يبعث رجالاً – معه الشفار – يطوفون في بني إسرائيل : فلا يجدون مولوداً إلا ذبحوه ، ففعلوا فلما رأوا أن الكبار يموتون بآجالهم ، وإن الصغار يذبحون قالوا : يوشك أن يفني بنو إسرائيل ، فتصيروا تباشروا الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر ، فتقل أبناؤهم . ودعوا عاماً لا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ؛ فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون فتحتاجون إليهم ، فاجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهرون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان ، فولدت علانية آمنة ، حتى إذا كان في قابل حملت بموسى ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، فذلك من الفتون يا ابن جبير ، لما دخل عليه في بطن أمه ما يراد به ، فأوحى الله إليها : أن : ﴿ لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ [القصص : 7] وأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ، ثم تلقيه في اليم ، فلما

ولدت فعلت ما أمرت به ، حتى إذا توارى عنها ابنها – أتاها الشيطان – وقالت في نفسها : ما فعلت بابني ؟ ! لو ذبح عندي فواريته

(207/496)

وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه . فانطلق به الماء حتى أوفى به عند مستقى جواري امرأة فرعون ، فرأينه فأخذنه فهممن أن يفتحن الباب ، فقال بعضهن لبعض : إن في هذا لمالاً ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه بهيئته لم يحركن منه شيئاً ، حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه الغلام ، فألقي عليها محبة لم تلق منها على أحد من البشر قط ، ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ [القصص : 10] من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذباحون بأمره ، أقبلوا إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فقالت للذباحين : إن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ، وإني آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه لي فقد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم ، فلما أتت به فرعون قالت :

(208/496)

﴿ قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ [القصص : 9] قال فرعون : يكون لك ، وأمّا لي فلا حاجة لي فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي يحلف به ، لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له ، كما قالت امرأته لهداه الله به ، كما هدى به امرأته ولكن الله – عز وجل – حرمه ذلك ، فأرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً ، فكلما أخذته امرأة منهن لترضعه ، لم يقبل ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن ، فيموت فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ، ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً يأخذ منها ، فلم يفعل ، وأصبحت أم موسى والهاً ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً ؟ أحي أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت الذي كان وعد الله ﴿ فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه ، وهو لا يشعر به (فقالت) – من الفرح حين أعياهم الظوائر – ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ فأخذوها ، فقالوا : وما يدريك ما نصحهم له ؟ هل يعرفونه حتى شكوا في ذلك ؟ وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في جانب الملك رجاء شفقته . فتركوها فانطلقت إلى أمه فأخبرتها الخبر فجاءت ، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا ، وانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها : إنا قد وجدنا لابنك ظئراً . فأرسلت

إليها فأتيت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع قالت لها : امكثي عندي أرضعي ابني هذا - فإني لم أحب حبه شيئاً قط - قالت : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه ؟ فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت ، وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي . فذكرت أم موسى ما كان الله عز وجل وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك ، وأيقنت أن الله عز وجل منجز وعده . فرجعت بابنها من يومها ، فأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما

(209/496)

قد قضى فيه ، فلم يزل بنو إسرائيل - وهم يجتمعون في ناحية القرية - يمتنعون به من الظلم والسخرة منذ كان فيهم ، فلما ترعرع ، قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريد أن تريني ابني ، فوعدتها يوماً تزورها فيه به .

(210/496)

فقالت لخزانها وجواريها وقهارمتها : لا يبقى منكم اليوم واحد إلا استقبل ابني بهدية وكرامة أرى ذلك فيه ، وأنا باعثة أميناً يحضر ما صنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل عليها ، فلما دخل عليها أكرمته ونحلته وفرحت به وأعجبها ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ، ثم قالت لأنطلقن به إلى فرعون فلينحلنه وليكرمنه . فلما دخلت به عليه وجعلته في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقالت له الغواة – من أعداء الله – : ألا ترى إلى ما وعد الله إبراهيم ؟ إنه يرثك ويصرعك ويعلوك . فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يا ابن جبير ، بعد كل بلاء ابتلي به ، وأريد به فتوناً . فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون ، فقالت : ما بدا لك في هذا الصبي الذي وهبته لي ؟ قال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني ! ؟ قالت له : اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ؛ ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين علمت أن يعقل ، وإن هو تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين ، فاعلم أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل . فلما قرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين أخذ الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا بدنه . فقال للمرأة : لا يذبح . وصرفه الله عنه بعد أن كان هم به ، وكان الله بالغ أمره فيه ، فلما بلغ أشده – وكان من الرجال – لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ، ولا بسخرة حتى امتنعوا كل الإمتناع . فبينما هو يمشي في ناحية المدينة ، إذا هو

برجلين يقتتلان – أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون – فاستغاثة الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى واشتد غضبه ، لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل ، وحفظه لهم : لا يعلم إلا أن ذلك من الرضاع من أم موسى ، إلا أن يكون الله تعالى أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع غيره عليه ،

فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله ، وموسى والإسرائيلي . (فقال) موسى : حين قتل الرجل ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ [القصص : 15] ثم ﴿ قال ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ، وأصبح في المدينة خائفاً يترقب ﴾ [القصص : 17] الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم . فقال ائتوني به ومن شهد عليه ، فإن الملك – وإن كان صفوه مع قومه لا يستقيم له ، أن يقيد بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا علم ذلك آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون فلا يجدون بينة ولا ثبتاً ، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونيا آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فصادف موسى قد ندم على ما كان من وكزه الذي رأى ، فغضب من الإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم وقال :

﴿ إنك لغوي مبين ﴾ [القصص : 18] فنظر الإسرائيلي إلى موسى حين قال له ما قال - فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس - فخاف بعدما قال له : ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ [القصص : 18] أن يكون إياه أراد ، وإنما الفرعوني ﴿ فقال يا موسى ، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ [القصص : 19] وإنما قال ذلك مخافة أن يكون إياه أراد موسى ؛ فليقتله فيتداركا ، فانطلق الفرعوني إلى قومه ، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي حين يقول : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ [القصص : 19] فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم (وجاء رجل) من شيعة موسى ﴿ من أقصى المدينة ﴾ [القصص : 20] فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ، لم يلق بلاء مثل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه ، فإنه ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ [القصص : 22] ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ [القصص : 23] يعني فلم تسقيا غنمهما قال : ﴿ ما

خطبكما ﴾ [القصص : 23] معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليست لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما ننتظر فضول حياضهم ﴿ فسقى لهما ﴾ [القصص : 24] فجعل يغرف في الدلو ماءً كثيراً حتى كانتا أول الرعاة فراغاً - فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما ، وانصرف موسى إلى شجرة فاستظل بها ﴿ فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ فاستنكر أبو الجاريتين سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً وقال : إن لكما اليوم لشأناً : فحدثتاه بما صنع موسى . فأمر إحداهما أن تدعوه له ، فأتته فدعته . فلما كلمه ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ، ولسنا في مملكته . قالت ابنته : ﴿ يا أبت استأجره إن

خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص : 26] فحملته الغيرة أن قال : وما يدريك ما قوته ؟ وما أمانته ؟ قالت : أما قوته : فما رأيت منه حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه حين سقى لنا . وأمانته : فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة ، صوب رأسه ولم يرفعه ، ولم ينظر إليّ حين أقبلت إليه ، حتى بلغته رسالتك . فقال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يقل هذا إلا وهو أمين ، فسري

عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت . فقال : هل لك ﴿ أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ﴾ [القصص : 27] ففعل وكانت على موسى ثماني حجج واجبة ، وكانت سنتان عدة منه ، فقضى الله عدته فأتمها عشراً .

(214/496)

قال سعيد : فسألني رجل من أهل النصرانية من علمائهم : هل تدري أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا . وأنا يومئذ لا أعلم . فلقيت ابن عباس ، فذكرت له الذي قال النصراني فقال : أما كنت تعلم أن ثمانياً واجبة ؟ لم يكن موسى لينتقص منها ، وتعلم أن الله تعالى كان قاضياً عن موسى عدته التي وعد ؟ فإنه قضى عشراً ، فأخبرت النصراني فقال : الذي أخبرك بهذا هو أعلم منك . قلت ؛ أجل وأولى ! (سار موسى بأهله) ورأى من أمر النار ما قص الله عليك في القرآن ، وأمر العصا ويده فشكا إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل ، وعقدة لسانه – فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام – فسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ؛ ليكون له رداءاً ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به ، فأتاه الله سؤاله فحل عقدة من لسانه ، وأوحى إلى هارون ، وأمره أن يلقى موسى ، فاندفع

موسى بالعصا ، ولقي هارون فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما ببابه حيناً لا يؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ فقال : ﴿ ومن ربكما يا موسى ﴾ فأخبراه بالذي قص الله في القرآن . قال : فما تريدان ؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل . فأبى عليه ذلك . وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه ، فتحوّلت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، - فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه - خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى : (أن يكفها عنه ففعل ، وأخرج يده من جيبه بيضاء من غير سوء) يعني برص ، ثم أعادها إلى كمه فصارت إلى لونها الأول . فاستشار الملأ فيما رأى ، فقالوا له : ﴿ هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ يعنون ملكهم الذي هم فيه ، والعيش ، فأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب . وقالوا له : اجمع لهم السحرة - فإنهم بأرضنا كثير - حتى تغلب بسحرهم سحرهما ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾]

الشعراء : 54] فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بم يعمل هذا الساحر . قالوا : يعمل بالحيات والحبال . وقالوا : فلا والله ، ما في الأرض قوم يعملون بالحيات والحبال والعصي بالسحر ما نعمل به ! فما أجرنا إن غلبناه ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع بكم كل شيء أحببتم ، فتواعدوا ليوم الزينة ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ قال سعيد : فحدثني ابن عباس : أن يوم الزينة – اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة – وهو يوم عاشوراء ، فلما اجتمعوا في صعيد واحد . قال الناس بعضهم لبعض : اذهبوا بنا فلنحضر هذا الأمر و ﴿ نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾

[الشعراء : 40] – يعنون بذلك موسى وهارون استهزاء بهما – فقالوا : يا موسى – لقدرتهم بسحرهم – ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ [الأعراف : 115] قال : ألقوا ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ [الأعراف : 44] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس منه خيفة . فأوحى الله إليه ﴿ أن ألق عصاك ﴾ [القصص : 31] فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاها ، فجعل

العصا بدعوة موسى تلتبس بالحبال ، حتى صارت [ ] جرداً إلى الثعبان ، حتى تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً إلا ابتلعته ، فلما عاين السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم تبتلع من سحرنا كل هذا ! ولكن هذا من أمر الله عز وجل . فآمنا بالله ، وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله عز وجل مما كنا فيه ، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، فظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ [الأعراف : 119] وامرأة فرعون بارزة متبذلة – تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون – فمن رآها – من آل فرعون ظن أنها تبذلت شفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى . فلما طال مكث موسى لمواعد فرعون الكاذبة ، كلما جاء بآية وعد عندها أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا كشف ذلك عنه ، نكث عهده واختلف وعده ، حتى أمر موسى بقومه ، فخرج بهم ليلاً . فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا بعث في المدينة وحولها حاشرين ، فتبعهم جنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك عبدي موسى فانفرق له اثني عشر فرقاً ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق بعد على من بقي من قوم فرعون وأشياعه . فنسي موسى أن يضرب بعصاه ، فدفع إلى البحر وله قصيف ؛ مخافة أن يضربه بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ وتقاربا ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ [الشعراء : 61] فافعل ما أمرك به ربك فإنك لم تكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربي إذا انتهيت إلى البحر

(217/496)

أن ينفرق لي حتى أجوز ، ثم ذكر بعد ذلك العصا ، فضرب البحر – حين دنا أوائل جند فرعون – من أواخر جند موسى فانفرق البحر – كما أمره الله وكما وعد موسى ، فلما جاز أصحاب موسى كلهم ، ودخل أصحاب فرعون كلهم ، التقى البحر عليهم كما أمره الله عز وجل ، فما أن جاوز البحر ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ [الشعراء : 61] إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نأمن هلاكه ! فدعا ربه فأخرجه له ببدنه من البحر ، حتى استيقنوا . ثم مروا بعد ذلك ﴿ على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف : 138] قد رأيتم من العبر ما يكفيكم وسمعتم به ، فمضى حتى أنزلهم منزلاً ، ثم قال لهم : أطيعوا هارون فإني قد استخلفته عليكم ، وإني ذاهب إلى ربي ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً – فصامهن ليلهن ونهارهن – كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه .

(218/496)

فقال له ربه : - حين أتاه - لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان . قال : يا رب ، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح . قال : وما علمت يا موسى ، أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! ارجع حتى تصوم عشرة أيام ثم ائتني . ففعل موسى الذي أمره الله به ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يأتهم للأجل ساءهم ذلك . وقد كان هارون خطبهم وقال له : إنكم خرجتم من مصر وعندكم ودائع لقوم فرعون وعوار ، ولكم فيهم مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا ما كان لكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها أو عارية ، ولسنا نرى أداء شيء من ذلك إليهم ، ولا مُمْسِكيه . فحفر حفرة وأمر كل قوم عندهم شيء من ذلك من متاع أو حلية بأن يدفنوه في الحفرة ، ثم أوقد عليه النار فأحرقه وقال : لا يكون لنا ولا لهم . وكان السامري رجلاً من قوم يعبدون البقر ، ليس من بني إسرائيل ، جار لهم ، فاحتمل مع بني إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثر الفرس ، فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون : يا سامري . ألا تلقي ما في يديك ؟ - وهو قابض عليه لا يراه أحد [ ] طوال ذلك - فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، فلا ألقيها لشيء ، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها ، أن يكون ما أريد . قال : فألقاها ودعا له هارون . فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع : نحاس أو حديد أو حلى ، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح له خوار . فقال ابن عباس : والله ما كان له صوت ،

ولكن الريح كانت تدخل في دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك . فتفرق بنو إسرائيل فقالت فرقة : يا سامري ، ما هذا فإنك أنت أعلم به ؟ فقال : هذا ربكم ، ولكن موسى أخطأ الطريق . فقالوا : لا نكذب بهذا ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ [طه : 91] فإن يك ربنا لم يكن ضيعنا وعجزنا حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى . وقال فرقة : هذا من عمل الشيطان ، وليس ربنا ولا نصدق به ولا نؤمن به . وأشرب فرقة

(219/496)

في قلوبهم التصديق بما قال السامري في العجل : وأعلنوا التكذيب و ﴿ قال لهم هارون يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ﴾ وليس بهكذا .

(220/496)

قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين ليلة ، ثم أخلفنا فهذه أربعون ليلة : فقال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه ، فلما كلم الله موسى وقال ما قال له ، وأخبره بما لقي قومه من بعده ، ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ [الأعراف : 150] فقال لهم ما

سمعتم في القرآن ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ [الأعراف : 150] من الغضب غير أنه عذر أخاه ، واستغفر ربه ، ثم انصرف إلى السامري فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ﴿ قبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ وفطنت وعميت عليكم ﴿ فقذفتها وكذلك سوّلت لي نفسي ﴾ ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ إلى قوله : ﴿ في اليم نسفاً ﴾ ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك ! فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم رأي هارون ، فقالوا : يا موسى ، سل ربك أن يفتح لنا باب توبة نعملها ونكفر عنا ما عملنا ﴿ فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً ﴾ [الأعراف : 155] لذلك لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل ، ومن لم يشرك في العجل ، فانطلق بهم ليسأل ربهم التوبة ، فرجفت الأرض بهم فاستحيا موسى عليه السلام من قومه ، ووفده حين فعل بهم ذلك فقال : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء ﴾ [الأعراف : 155] الآية . ومنهم من قد اطلع الله منه على ما أشرب قلبه العجل والإيمان به ؛ فلذلك رجفت بهم الأرض . فقال : ﴿ رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ [الأعراف : 155] إلى قوله : ﴿ والإنجيل ﴾ [الأعراف : 156] فقال : رب سألتك التوبة لقومي فقلت : إن رحمتك كتبتها لقوم غير قومي ، فليتك أخرتني حتى أخرج في أمة ذلك الرجل المرحومة . قال الله عز وجل : فإن توبتهم ، أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد أو ولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قبل ذلك الموطن

فتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ، وما اطلع الله عليهم من ذنوبهم فاعترفوا بها . وفعلوا ما أمروا به فغفر

الله للقاتل والمقتول ، ثم سار بهم موسى متوجهاً نحو الأرض المقدسة ، فأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمره الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها ، حتى نتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون الأرض ، والكتاب الذي أخذوه بأيديهم ، وهم ينظرون إلى الجبل مخافة أن يقع عليهم ، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا فيها مدينة جبارين ، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها !

فقالوا : يا موسى ﴿ إن فيها قوماً جبارين ﴾ [المائدة : 22] لا طاقة لنا اليوم بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿ فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ قال رجلان من الجبارين : آمنا بموسى ، فخرجا إليه فقالا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم ليس لهم قلوب ولا منعة عندهم ،

﴿ فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ [المائدة : 23] ويقول أناس إنهما من قوم موسى ، وزعم سعيد أنهما من الجبارين ، آمنا بموسى . يقول : ﴿ من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ [المائدة : 33] وإنما يعني بذلك الذين يخافهم بنو إسرائيل . فقالوا : ﴿ يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] فأغضبوا موسى فدعا عليهم ، فسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك ، لما رأى فيهم من المعصية وإساءتهم - حتى كان يومئذ - فدعا عليهم فاستجاب الله له ، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ﴿ فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ [المائدة : 26] يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ [البقرة : 60] في كل ناحية ثلاث عيون ، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها ، لا يرتحلون بها من مرحلة إلا وجدوا ذلك الحجر منهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأوّل . رفع الحديث ابن عباس ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وصدق ذلك عندي : أن معاوية بن أبي سفيان سمع من ابن عباس هذا الحديث ، فأنكر عليه : أن يكون الفرعوني هو الذي أفشى على موسى أمر القتيل . وقال : إنما أفشى عليه الإسرائيلي

، فأخذ ابن عباس بيده فانطلق إلى سعد بن مالك الزهري فقال : أرأيت يوم حدثنا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن قتيل موسى من آل فرعون ، من أفشى عليه ؟ الإسرائيلي أو الفرعوني ؟ قال : أفشى عليه الفرعوني ، بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ﴾ [طه : 40] قال : عشر سنين ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ [طه : 40] قال على موعد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ثم جئت على قدر ﴾ قال : الميقات .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ثم جئت على قدر ﴾ قال : على موعد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ قال لا تضعفا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة – رضي الله عنه – مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد – رضي الله عنه – مثله .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله – عز وجل – ﴿ ولا تنيا عن ذكري ﴾ قال : ولا تضعفا عن أمري .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر وهو يقول :

إني وجدك ما ونيت وإنني . . . أبغي الفكاك له بكل سبيل

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تنيا ﴾ قال : لا تبطئا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن علي رضي الله عنه في قوله : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ قال : كنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ قال : كنّياه .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سفيان الثوري : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ قال : كنياه يا أبا مرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ قال اعذرا إليه ، وقولا له : إن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الفضل بن عيسى الرقاشي أنه تلا هذه الآية ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ فقال: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولى ويناديه؟.

(224/496)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ لعله يتذكر ﴾ قال: هل يتذكر.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إنا نخاف أن يفرط علينا ﴾ قال: يعجل ﴿ أو أن يطغى ﴾ قال: يعتدي.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ قال: عقوبة منه.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله: ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ قال: أسمع ما يقول ﴿ وأرى ﴾ ما يجاوبكما، فأوحي إليكما فتجاوباه.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم بسند جيد، عن ابن مسعود قال: لما بعث الله موسى إلى فرعون، قال: رب، أي شيء أقول؟ قال: قل أهيا شراً هيا. قال الأعمش: تفسير ذلك، الحي قبل كل شيء، والحي بعد كل شيء.

وأخرج أحمد في الزهد ، عن ابن عباس قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : " لا يغرنكما لباسه الذي ألبسته ، فإن ناصيته بيدي ، فلا ينطق ولا يطرف إلا بإذني ، ولا يغرنكما ما متع به من زهرة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما من زينة الدنيا بشيء ، يعرف فرعون أن قدرته تعجز عن ذلك لفعلت ، وليس ذلك لهوانكما علي ، ولكني ألبستكما نصيبكما من الكرامة على أن لا تنقصكما الدنيا شيئاً ، وإني لأذود أوليائي عن الدنيا ، كما يذود الراعي إبله عن مبارك الغيرة ، وإني لأجنبهم كما يجنب الراعي إبله عن مراتع الهلكة ، أريد أن أنور بذلك صدورهم ، وأطهر بذلك قلوبهم فيَّ ، سيماهم الذين يعرفون وأمرهم الذي يفتخرون به ، وأعلم : أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني ، وأنا الثائر لأوليائي يوم القيامة " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبخاري ومسلم وابن مردويه من طريق ابن عباس ، عن أبي سفيان بن حرب أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتب إلى هرقل " من محمد رسول الله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في الشعب، عن قتادة قال: التسليم على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتبع الهدى. انتهى. ا هـ

﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(226/496)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

قوله: ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾:

يقال: ونى يَني وَنْياً كوَعَدَ/يَعِد وَعْداً إذا فَتَر . . . والوَنْيُ الفُتور. ومنه امرأةٌ أَناة، وصفوها بفُتُور القيام كناية عن ضَخامتها قال:

3289 مِنَّا الأَناةُ وبعضُ القومِ يَحْسَبُنا . . . أنَّا بِطاءٌ وفي إبطائِنا سَرَعُ

والأصل وَناة. فأبدلوا الهمزة من الواو كأَحَد في وَحَد. وليس بالقياس، وفي الحديث: " إن فيك لخَصْلتَيْن يحبهما الله: الحِلْمُ والأناة ".

والواني: المقصِّرُ في أمره. قال الشاعر:

3290 . . . . فما أنا بالواني ولا الضَّرِعِ

الغُمْرِ

وونى فعلٌ لازمٌ لا يتعدى ، وزعم بعضهم أنه يكون مِنْ أخواتِ زَال وانفك فيعمل بشرط النفيِ أو شبهِه عَمَلَ كان فيقال : " ما وَنى زيدٌ قائماً " أي : مازال قائماً . وأنشد الشيخُ جمالُ الدين بنُ مالكٍ شاهداً على ذلك قول الشاعر :

3291 لا يَنِيْ الحُبُّ شِيْمةَ الحِبِّ ما دا . . . مَ فلا تَحْسَبَنَّه ذا ارْعِواءِ

أي لا يزال الحُبُّ أي بضم الحاء شيمةَ الحِبِّ أي بكسرِها وهو المُحِبُّ . ومَنْ منع ذلك يتأوَّلُ البيتَ على حَذْفِ حرفِ الجرِّ ؛ فإنَّ هذا الفعلَ يتعدى تارةً ب عَنْ وتارة ب في . يُقال : ما وَنَيْتُ عن حاجتك أو في حاجتك . فالتقدير : لا يَفْتُرُ الحُبُّ في شِيمة المُحِبِّ وفيه مجازٌ بليغ . وقد عُدِّيَ في الآيةِ الكريمة ب في .

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب " ولا تِنِيا " بكسر التاء إتباعاً لحركةِ النون . وسَكَّن الياءَ مِنْ " ذِكْرِي "

. . . .

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) ﴾

وذكَرَ المذهوبَ إليه في قوله : ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ وحَذَفه في الأول في قوله : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ اختصاراً في الكلام . وقيل : أُمِرا أولاً بالذهابِ لعمومِ الناسِ ثم ثانياً لفرعونَ بخصوصه ، وفيه بُعد ؛ بل الذهابان متوجّهان لشيءٍ واحدٍ وهو فرعونَ بخصوصه ، وفيه بُعد ؛ بل الذهابان متوجّهان لشيءٍ واحدٍ وهو فرعونُ ، وقد حَذَفَ من كلٍ من الذهابين ما أثبته في الآخر : وذلك أنه حذف المذهوبَ إليه من الأول وأثبته في الثاني ، وحَذَفَ المذهوبَ به وهو " بآياتي " من الثاني وأثبته في الأول .

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾

وقرأ أبو معاذٍ " قولاً لَيْناً " وهو تخفيف مِنْ لَيِّن كمَيْت في مَيِّت .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ " لعلَّ " على بابها من التَّرَجِّي : وذلك بالنسبة إلى المُرْسَل ، وهو موسى وهارون أي : اذهبا على رجائِكما وطَمَعِكما في إيمانه ، اذهبا مُتَرَجِّيَيْن طامِعَيْن ، وهذا معنى قولِ الزمخشري ، ولا يَسْتقيمُ أن يَردَ ذلك في حق الله تعالى إذ هو عالمٌ بعواقب الأمور ، وعن سيبويه : "كلُّ ما وَرَدَ في القرآن مِنْ لعلَّ وعسى فهو من الله واجبٌ " ، يعني أنه مستحيلٌ بقاءُ معناه في حق الله تعالى . والثاني : أنَّ لعلَّ بمعنى كي فتفيد العلةَ . وهذا قول الفراء ، قال : "كما تقول : اعمل لعلك تأخذ أُجْرَكَ أي : كي تأخذ " . والثالث : أنها استفهاميةٌ أي : هل يتذكَّر أو يخشى ؟ وهذا قولٌ ساقط ؛ وذلك أنه يَسْتحيل الاستفهامُ في حق الله تعالى كما يستحيل الترجِّي . فإذا كان لا بُدَّ من التأويل

فَجَعْلُ اللفظِ على مدلولِه باقياً أولى مِنْ إخراجه عنه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾

(228/496)

قوله : ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾ : " أَنْ يَفْرُطَ " مفعولُ " نخاف " . ويقال : فَرَطَ يَفْرُط : سَبَقَ وتَقَدَّم ، ومنه الفارِطُ . وهو الذي يتقدَّم الوارِدَةَ إلى الماء وفَرَسٌ فَرَطٌ : يسبقُ الخيلَ ، أي : نخافُ أَنْ يُعَجِّلَ علينا بالعقوبةِ ويبادِرَنا بها ، قاله الزمخشري ، ومِنْ وُرودِ الفارط بمعنى المتقدِّم على الواردة قولُ الشاعر :

3292 واسْتعجلونا وكانوا مِنْ صحابَتِنا . . . كما تَقَدَّمَ فُرَّاطٌ لوُرَّادِ

وفي الحديث : " أنا فَرَطُكم على الحَوْضِ " أي : سابقُكم ومتقدِّمُكم .

وقرأ يحيى بن وثاب وابنُ محيصن وأبو نَوْفَلٍ " يُفْرَطَ " بضمِّ حرف المضارعة وفتح الراء على البناء للمفعول ، والمعنى : خافا أن يُسْبَقَ في العقوبةِ . أي : يحمِلُه حامِلٌ عليها وعلى المعاجلة بها : إمَّا قومُه وإمَّا حُبُّ الرئاسةِ ، وإمَّا ادّعاؤه الإِلَهية .

وقرأ ابن محيصن في روايةٍ والزعفراني " أَنْ يُفْرِطَ " بضمِّ حرفِ المضارَعَةِ وكسر الراء مِنْ أفرط . قال الزمخشري : " مِنْ أَفْرَطَه غيرُه إذا حمله على العَجَلة ، خافا أَنْ يَحْمِلَه حاملٌ

على المُعاجلة بالعقاب " . قال كعب ابن زهير .

3293 تَنْفِي الرياحُ القذى عنه وأَفْرَطَه . . . مِنْ صَوْبِ سارِيةٍ بِيْضٌ يَعالِيْلُ

أي : سَبَقَتْ إليه هذه البِيْضُ لتملأَه . وفاعل "يُفْرُط" ضميرُ فرعون . وهذا هو الظاهر الذي ينبغي أَنْ لا يُعْدَلَ عنه . وجعله أبو البقاء مضمراً لدلالة الكلامِ عليه فقال " فيجوز أن يكون التقدير : أن يَفْرط علينا منه قولٌ ، فأضمر القولَ لدلالة الحالِ عليه كما تقول : فَرَطَ مني قول ، وأن يكونَ الفاعلُ ضميرَ فرعون كما كان في " يطغى " .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) ﴾

(229/496)

ومفعولُ ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ محذوفٌ فقيل : تقديره : أسمع أقوالكما وأرى أفعالَكما ، وعن ابن عباس : أسمعُ جوابَه لكما وأرى ما يَفْعل بكما ، أو يكون مِنْ حَذْفِ الاقتصار نحو : ﴿ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ [آل عمران : 156] .

قوله : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ :

قال الزمخشري : هذه الجملةُ جاريةٌ من الجملة الأولى وهي : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ مَجْرى البيانِ والتفسير؛ لأنَّ دعوى الرسالةِ لا تَثْبُتُ إلاَّ بِبَيِّنَتِها التي هي مجيءُ الآيةِ . وإنما وَحَّدَ

ب "آية" ولم تُثَنَّ ومعه آيتان ؛ لأنَّ المرادَ في هذا الموضعِ تثبيتُ الدعوى ببرهانها ، فكأنه قيل : قد جِئْناك بمعجزةٍ وبرهانٍ وحجة على ما ادَّعَيْناه/ من الرسالة ، وكذلك قال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 105] ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الشعراء : 154] ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 30] .

و﴿ على مَنِ اتبع الهدى ﴾ يحتمل أَنْ يكونَ مأموراً بقوله : فيكونَ منصوبَ المَحَلِّ كأنه قيل : فَقُولا أيضاً : والسلامُ على مَنْ اتَّبع الهدى ، ويحتمل أَنْ يكونَ تسليما منهما لم يُؤْمَرا بقوله ، فتكون الجملةُ مستأنفةً لا محل لها من الإعراب . وزعم بعضُهم أن "على" بمعنى اللام أي : والسلام لِمَنْ اتَّبع الهدى . وهذا لا حاجةَ إليه .

قوله : ﴿ أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ ﴾ :

"أنَّ" وما في حَيِّزها في محل الرفع لقيامِها مَقامَ الفاعل الذي حُذِف في ﴿ أُوحِيَ إِلَيْنَآ ﴾ . وسببُ بنائِه للمفعول خوفاً أن يَبْدُرَ مِنْ فرعونَ بادرةٌ لِمَنْ أوحى لو سَمَّياه ، فَطَوَيا ذِكْرَه تَعظيماً له واستهانَةً بالمخاطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 40.

46﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) ﴾

تعلّلَ موسى عليه السلام لمَّا أرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوهٍ من العِلل مثل قوله : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ [القصص : 13] ، ﴿ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص : 33] . . إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفعه ذلك ، وقال الله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : 46] ، فاستقل موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أُبالي بعد ما أنت معي .

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾

إنما أمرهما بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين ، وفي حال الدعوة يجب اللّين ؛ فإنه وقت المُهلةِ ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَجَدِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] : وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ : 46] .

ثم إذا ظهر من الخَصمِ التمرّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابَلُ بالغلظة والحتف .

ويقال علّمهما خطابَ الأكابرِ ذوي الحشمة ؛ ففرعونُ – وإن كان كافراً – إلا أنه كان

سلطانَ وقتِه، والمتسلِّطَ على عبادِ الله.

ويقال إذا كان الأمرُ في مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة. . . فكيف مع المؤمن في السؤال؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال الملَكَيْن في القبر للمؤمن.

ويقال إذا كان رِفْقُه بمَنْ جَحَدَه فكيف رِفْقُه بمَنْ وَحَدَه؟

ويقال إذا كان رِفْقُه بالكفَّارِ فكيف رفقه بالأبرار؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال: أنا. . . فكيف رفقه بمن قال: أنت؟

(231/496)

ويقال إنه أَحْسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام؛ فأراده أن يرفق به اليومَ في الدنيا على جهة المكافأة.

وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ [النازعات: 18].

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾: أي كُونا على رجاء أن يُؤْمِنَ. ولم يخبرهما أنه لا يؤمن لئلا تتداخلَهما فَتْرَةٌ في تبليغ الرسالة عِلْماً منه بأنه لا يؤمن ولا يقبل.

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾

في الآية دليلٌ على أنّ الخوفَ الذي تقتضيه جِبْلَةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبُه عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ .

ثم إنَّه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعد النصرة لهما .

ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهما شفقةً عليهما ، ولكن قالا : إننا نخاف أن تحل بنا مكيدةٌ من جهته ، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرك ، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقِ الله لا لأَجْلِ حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأَدّبا في الخطاب .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) ﴾

تَلَطَّفَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ بقولهما : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ وإلا فأنّي بالخوف لِمَنْ هو مخصوصٌ بالنبُوّةِ ؟ !

ويقال سَكَّنَ فيهما الخوف بقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ ، فَقَوِيا على الذهاب إليه ؛ إذ مِنْ شَرْطِ التكليف التمكين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَآءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ .

طالَ البلاءُ ببني إسرائيل من جهة فرعون ، فتداراكَهم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين ، بذلك أجرى سُنَّتَهُ أنه يُرخي عِنَانَ الظالم ، ولكن إذا أَخَذَهُ فإِنَّ أَخْذَهُ أليمٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

من شَرْطِ التكليفِ التمكينُ بالبيِّنة والآيةِ للرسولِ حتي يَتَّضِحَ ما يَدُلُّ على صِدْقِه فيما يدعو إليه من النبوة . ثم إن تلك الآية وتلك البيِّنة ما نفعتهم ، وإنا تأكدتْ بهما عليهم الحُجَّةُ ؛ فإذا عَمِيَ بَصَرُ القلبِ فأَنَّى تنفع بصيرةُ الحجة ؟ وفي معناه قالوا :

وفي نَظَرِ الصادي إلى الماء حَسْرَةٌ . . . إذا كان ممنوعاً سبيل الموارِدِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ .

إنما يَتّبع الهُدَى مَنْ كَحَّلَ قلبَه بنور العرفان ، فأما من كانت على قلبِه غشاوة الجهل . . . فمتى يستمع إلى الهُدَى ؟

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) ﴾

ما بعث اللَّهُ نبياً إلاَّ وقد أَنْذَرَ قومه بالعذاب على تركِ الأمر ، وبَشَّرَهُم بالثواب على حِفظِ الأمر . والعذابُ مُعجَّلٌ . ومؤجَّلٌ ؛ فمؤجَّلُه لا يُوقَفُ على تفصيله الأعداءُ وكذلك مُؤَجَّلُ الثوابُ ، قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] .

وأما مُعَجَّلُ العقوبةِ فأنواع ، وعلى حسبت مقام المرءِ تَتَوجَّهُ عليه المُطَالَبَاتُ ، والزيادةُ في

العقوبةِ تَدُلُّ على زيادةِ استحقاقِ الرّتْبَةِ ؛ كالحرّ والعَبْدِ في الحَدّ . وقسوةُ القلب نوعُ عقوبة ، وما يتداخل الطاعة نوعُ عقوبة ، وخسرانُ نصيبٍ في المالِ والأُنْفُس نوعُ عقوبة . . . إلى غير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 458 . 461 ﴾

فَصْلٌ : " فِي طَرِيقَتَيْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ "

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وَقَالَ فِي السُّورَةِ بِعَيْنِهَا ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ . فَذَكَرَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ الرِّسَالَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ - رِسَالَةِ مُوسَى وَرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ - أَنَّ ذَلِكَ لِأَجْلِ التَّذَكُّرِ أَوْ الْخَشْيَةِ وَلَمْ يَقُلْ : لِيَتَذَكَّرَ وَيَخْشَى وَلَا قَالَ : لِيَتَّقُونَ وَيُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ؛ بَلْ جَعَلَ الْمَطْلُوبَ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَهَذَا مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِعْمَ الْعَبْدُ صهيب لَوْ لَمْ يَخَفْ اللَّهَ لَمْ يَعْصِهِ وَذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى تَحْقِيقِ قَوْلِهِ : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ الْآيَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ إمَّا بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ جَمِيعًا صَلَاحُ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ : الْعِلْمُ وَالْإِرَادَةُ . وَالْعِلْمُ أَصْلُ الْعَمَلِ وَأَصْلُ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لَهُ مَا لَمْ يَحْصُلْ مُعَارِضٌ مَانِعٌ . فَالْعِلْمُ بِالْحَقِّ يُوجِبُ اتِّبَاعَهُ إلَّا لِمُعَارِضٍ رَاجِحٍ : مِثْلَ اتِّبَاعِ الْهَوَى بِالِاسْتِكْبَارِ وَنَحْوِهِ كَحَالِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَا دَاوُدُ

(235/496)

إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ . فَإِنَّ أَصْلَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسُ عَلَيْهَا إذَا سَلِمَتْ مِنْ الْفَسَادِ إذَا رَأَتْ الْحَقَّ اتَّبَعَتْهُ وَأَحَبَّتْهُ . إذْ الْحَقُّ نَوْعَانِ : حَقٌّ مَوْجُودٌ فَالْوَاجِبُ مَعْرِفَتُهُ وَالصِّدْقُ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ وَضِدُّ ذَلِكَ الْجَهْلُ وَالْكَذِبُ . وَحَقٌّ مَقْصُودٌ وَهُوَ النَّافِعُ لِلْإِنْسَانِ فَالْوَاجِبُ إرَادَتُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ وَضِدُّ ذَلِكَ إرَادَةُ الْبَاطِلِ وَاتِّبَاعُهُ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي النُّفُوسِ مَحَبَّةَ الْعِلْمِ دُونَ الْجَهْلِ وَمَحَبَّةَ الصِّدْقِ دُونَ الْكَذِبِ وَمَحَبَّةَ النَّافِعِ دُونَ الضَّارِّ وَحَيْثُ دَخَلَ ضِدُّ ذَلِكَ فَلِمُعَارِضِ مِنْ هَوًى وَكِبْرٍ وَحَسَدٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ كَمَا أَنَّهُ فِي صَالِحِ الْجَسَدِ خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ مَحَبَّةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْمُلَائِمِ لَهُ دُونَ الضَّارِّ فَإِذَا اشْتَهَى مَا يَضُرُّهُ أَوْ كَرِهَ مَا يَنْفَعُهُ فَلِمَرَضِ فِي الْجَسَدِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا إذَا انْدَفَعَ عَنْ النَّفْسِ الْمُعَارِضُ مِنْ الْهَوَى وَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ : أَحَبَّ الْقَلْبُ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا أَنَّ

(236/496)

الْجَسَدَ إذَا انْدَفَعَ عَنْهُ الْمَرَضُ أَحَبَّ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ وُجُودِ الْمُقْتَضِي وَعَدَمِ الدَّافِعِ : سَبَبٌ لِلْآخَرِ وَذَلِكَ سَبَبٌ لِصَلَاحِ حَالِ الْإِنْسَانِ وَضِدُّهُمَا سَبَبٌ لِضِدِّ ذَلِكَ فَإِذَا ضَعُفَ الْعِلْمُ غَلَبَ (1) الْهَوَى الْإِنْسَانَ ، وَإِنْ وُجِدَ الْعِلْمُ وَالْهَوَى وَهُمَا الْمُقْتَضِي وَالدَّافِعُ فَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَصَلَاحُ بَنِي آدَمَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ وَلَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ ذَلِكَ إلَّا شَيْئَانِ : أَحَدُهُمَا : الْجَهْلُ الْمُضَادُّ لِلْعِلْمِ فَيَكُونُونَ ضُلَّالًا وَالثَّانِي اتِّبَاعُ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ اللَّذَيْنِ فِي النَّفْسِ فَيَكُونُونَ غُوَاةً مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَالنَّجْمِ إذَا هَوَى ﴾ ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ﴾ فَوَصَفَهُمْ بِالرُّشْدِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْغَيِّ وَبِالْهُدَى الَّذِي هُوَ خِلَافُ الضَّلَالِ وَبِهِمَا يَصْلُحُ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ جَمِيعًا وَيَصِيرُ الْإِنْسَانُ عَالِمًا عَادِلًا لَا جَاهِلًا وَلَا ظَالِمًا .

وَهُمْ فِي الصَّلَاحِ عَلَى ضَرْبَيْنِ : تَارَةً يَكُونُ الْعَبْدُ إذَا عَرَفَ الْحَقَّ وَتَبَيَّنَ لَهُ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُدْعَى بِالْحِكْمَةِ وَهُوَ الَّذِي يَتَذَكَّرُ وَهُوَ الَّذِي يُحْدِثُ لَهُ الْقُرْآنُ ذِكْرًا . وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ الْهَوَى وَالْمُعَارِضِ مَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إلَى الْخَوْفِ الَّذِي يَنْهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى ؛

فَهَذَا يُدْعَى بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَهَذَا هُوَ الْقِسْمُ الثَّانِي الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ وَفِي قَوْلِهِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وَقَدْ قَالَ فِي السُّورَةِ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ فَجَمَعَ بَيْنَ التَّزَكِّي وَالْهُدَى وَالْخَشْيَةِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْخَشْيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . ﴾ وَذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ التَّذَكُّرُ وَالذِّكْرُ الَّذِي يُحْدِثُهُ الْقُرْآنُ وَمِنْ الْخَشْيَةِ الْمَانِعَةِ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى سَبَبٌ لِصَلَاحِ حَالِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْآخَرِ إذَا قَوِيَ عَلَى

ضِدِّهِ فَإِذَا قَوِيَ الْعِلْمُ وَالتَّذَكُّرُ دَفَعَ الْهَوَى ؛ وَإِذَا انْدَفَعَ الْهَوَى بِالْخَشْيَةِ أَبْصَرَ الْقَلْبُ وَعَلِمَ . وَهَاتَانِ هُمَا الطَّرِيقَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ كُلٌّ مِنْهُمَا إذَا صَحَّتْ تَسْتَلْزِمُ مَا تَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ الْأُخْرَى وَصَلَاحُ الْعَبْدِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا جَمِيعًا ؛ وَلِهَذَا كَانَ فَسَادُهُ بِانْتِفَاءِ

كُلٍّ مِنْهُمَا . فَإِذَا انْتَفَى الْعِلْمُ الْحَقُّ كَانَ ضَالًّا غَيْرَ مُهْتَدٍ وَإِذَا انْتَفَى اتِّبَاعُهُ كَانَ غَاوِيًا مَغْضُوبًا عَلَيْهِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالنَّجْمِ إذَا هَوَى ﴾ ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ ﴿ إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وَقَالَ فِي ضِدِّ ذَلِكَ : ﴿ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ وَقَالَ فِي ضِدِّهِ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَقَالَ فِي ضِدِّهِ : ﴿ إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ " . فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْهُدَى

وَالسَّعَادَةِ وَبَيْنَ الضَّلَالِ وَالشَّقَاوَةِ

بَيْنَ حَسَنَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَسَيِّئَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَقْرِنُ بَيْنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَيْنَ الْعِلْمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا يَقْرِنُ بَيْنَ ضِدَّيْهِمَا وَهُوَ " الضَّلَالُ " و " الْغَيُّ " : اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَالْقَرِينَانِ مُتَلَازِمَانِ عِنْدَ الصِّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ الْمُعَارِضِ وَقَدْ يَتَخَلَّفُ أَحَدُهُمَا عَنْ الْآخَرِ عِنْدَ الْمُعَارِضِ الرَّاجِحِ . فَلِهَذَا إذَا كَانَ فِي مَقَامِ الذَّمِّ وَالنَّهْيِ

وَالِاسْتِعَاذَةِ كَانَ الذَّمُّ وَالنَّهْيُ لِكُلِّ مِنْهُمَا : مِنْ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ : مِنْ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ : مِنْ الضَّلَالِ وَالْغَضَبِ وَلِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا صَارَ مَكْرُوهًا مَطْلُوبَ الْعَدَمِ لَا سِيَّمَا وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْآخَرِ وَأَمَّا فِي مَقَامِ الْحَمْدِ وَالطَّلَبِ وَمِنَّةِ اللَّهِ فَقَدْ يُطْلَبُ أَحَدُهُمَا وَقَدْ يُطْلَبُ كُلٌّ مِنْهُمَا وَقَدْ يُحْمَدُ أَحَدُهُمَا وَقَدْ يُحْمَدُ كُلٌّ مِنْهُمَا لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا خَيْرٌ مَطْلُوبٌ مَحْمُودٌ وَهُوَ سَبَبٌ لِحُصُولِ الْآخَرِ ؛ لَكِنَّ كَمَالَ الصَّلَاحِ يَكُونُ بِوُجُودِهِمَا جَمِيعًا وَهَذَا قَدْ يَحْصُلُ لَهُ إذَا حَصَلَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُعَارِضْهُ مُعَارِضٌ وَالدَّاعِي لِلْخَلْقِ الْآمِرُ لَهُمْ يَسْلُك بِذَلِكَ طَرِيقَ الرِّفْقِ وَاللِّينِ فَيَطْلُبُ أَحَدَهُمَا لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ سَبَبٌ لِلْآخَرِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَرْفَقُ مِنْ أَنْ يَأْمُرَ الْعَبْدَ بِهِمَا جَمِيعًا فَقَدْ يَثْقُلُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَالْأَمْرُ بِنَاءٌ وَالنَّهْيُ هَدْمٌ وَالْأَمْرُ هُوَ يُحَصِّلُ الْعَافِيَةَ بِتَنَاوُلِ الْأَدْوِيَةِ وَالنَّهْيُ مِنْ بَابِ الْحِمْيَةِ

وَالْبِنَاءُ وَالْعَافِيَةُ تَأْتِي شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وَأَمَّا الْهَدْمُ فَهُوَ أَعْجَلُ وَالْحِمْيَةُ أَعَمُّ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَحْصُلُ فِيهِمَا

(241/496)

تَرْتِيبٌ أَيْضًا فَكَيْفَ إذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْأَمْرَيْنِ سَبَبًا وَطَرِيقًا إلَى حُصُولِ الْمَقْصُودِ مَعَ حُصُولِ الْآخَرِ . فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طَلَبَ وُجُودَ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَجَاءَ بِصِيغَةِ : (لَعَلَّ تَسْهِيلًا لِلْأَمْرِ وَرِفْقًا وَبَيَانًا لِأَنَّ حُصُولَ أَحَدِهِمَا طَرِيقٌ إلَى حُصُولِ الْمَقْصُودِ فَلَا يُطْلَبَانِ جَمِيعًا فِي الِابْتِدَاءِ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : ﴿ إنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا وَإِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا ﴾ لَا سِيَّمَا أُصُولُ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ سَائِرَهَا مِثْلَ الصِّدْقِ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْخَيْرِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا . ﴾ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ

﴿ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وَلِهَذَا يُذْكَرُ أَنَّ

(242/496)

بَعْضَ الْمَشَايِخِ أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّبَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ فَقَالَ : يَا بُنَيَّ : أَنَا آمُرُك بِخَصْلَةِ وَاحِدَةٍ فَاحْفَظْهَا لِي ؛ وَلَا آمُرُك السَّاعَةَ بِغَيْرِهَا الْتَزِمْ الصِّدْقَ وَإِيَّاكَ وَالْكَذِبَ وَتَوَعَّدَهُ عَلَى الْكَذِبِ بِوَعِيدِ شَدِيدٍ فَلَمَّا الْتَزَمَ ذَلِكَ الصِّدْقَ دَعَاهُ إلَى بَقِيَّةِ الْخَيْرِ وَنَهَاهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْفَاجِرَ لَا حَدَّ لَهُ فِي الْكَذِبِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15صـ 239. 247 ﴾

(243/496)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحاوى فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 49 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك – إلى آخر ما أمر به ، وتضمن قولهما أن لمرسلهما القدرة التامة والعلم الشامل ، فتسبب عنه سؤاله عن تعيينه ، أستأنف الإخبار عن جوابه بقوله : ﴿ قال ﴾ أي فرعون مدافعاً لهما بالمناظرة لا بالبطش ، لئلا ينسب إلى السفه والجهل : ﴿ فمن ﴾ أي تسبب عن كلامكما هذا الذي لا يجترىء على مواجهتي به أحد من أهل الأرض أن أسألكما : من ﴿ ربكما ﴾ الذي أرسلكما ، ولم يقل : ربي ، حيدة عن سواء النظر وصرفاً للكلام على الوجه الموضح لخزيه .

ولما كان موسى عليه السلام هو الأصل في ذلك ، وكان ربما طمع فرعون بمكره وسوء طريقه في حبسه تحصل في لسانه ، أفرده بقوله : ﴿ يا موسى قال ﴾ له موسى على الفور :

﴿ ربنا ﴾ أي موجدنا ومربينا ومولانا ﴿ الذي أعطى كل شيء ﴾ مما تراه في الوجود ﴿ خلقه ﴾ أي ما هو عليه مما هو به أليق في المنافع المنوطة به ، والآثار التي تتأثر عنه من الصورة والشكل والمقدار واللون والطبع وغير ذلك مما يفوت الحصر ، ويجل عن الوصف .

(5/497)

ولما كان في إفاضة الروح من الجلالة والعظم ما يضمحل عنده غيره من المفاوتة ، أشار إلى ذلك بحرف التراخي فقال : ﴿ ثم هدى ﴾ أي كل حيوان منه مع أن فيها العاقل وغيره إلى جميع منافعه فيسعى لها ، ومضاره فيحذرها ، فثبت بهذه المفاوتة والمفاصلة مع اتحاد نسبة الكل إلى الفاعل أنه واحد مختار ، وأن ذلك لو كان بالطبيعة المستندة إلى النجوم أو غيرها كما كان يعتقده فرعون وغيره لم يكن هذا التفاوت .

ولما لم يكن لأحد بالطعن في هذا الجواب قبل لأنه لا زلل فيه ولا خلل مع رشاقته واختصاره وسبقه بالجمع إلى غاية مضماره - صرف الكلام بسرعة خوف من الاتضاح ، بزيادة موسى عليه السلام في الإيضاح ، فيظهر الفساد من الصلاح ، إلى شيء يتسع فيه المجال ، ولا يقوم عليه دليل ، فيمكن فيه الرد ، فأخبر عنه سبحانه على طريق الاستئناف بقوله : ﴿ قال فما ﴾ أي تسبب عما تضمن هذا من نسبة ربك إلى العلم بكل موجود أني أقول لك

: فما ﴿ بال ﴾ أي خبر ﴿ القرون الأولى ﴾ الذي هو في العظمة بحيث إنه ما خالط أحداً إلى أحاله وأماله ، وهو وأن كان حيدة ، هو من أمارات الانقطاع ، غير أنه فعل راسخ القدم في المكر والخداع .

ولما فهم عنه موسى عليه السلام ما أراد أن ترتب على الخوض في ذلك مما لا طائل تحته من الرد والمطاولة ، ولم تكن التوراة نزلت عليه إذ ذاك ، وإنما نزلت بعد هلاك فرعون لم يمش معه في ذلك ﴿ قال ﴾ قاطعاً له عنه : ﴿ علمها عند ربي ﴾ أي المحسن إليّ بإرسالي وتلقيني الحجاج .

ولما كانت عادة المخلوقين إثبات الأخبار في الكتب ، وكان تعالى قد وكل بعباده من ملائكته من يضبط ذلك ، قال مخاطباً له بما يعرفون من أحوالهم : ﴿ في كتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ .

(6/497)

ولما كان ربما وقع في وهم واهم أن الكتاب لا يكون إلا خوفاً من نسيان الشيء أو الجهل بالتوصل إليه مع ذكر عينه ، نفى ذلك بقوله : ﴿ لا يضل ربي ﴾ أي الذي رباني كما علمت ونجاني من جميع ما قصدتموه لي من الهلاك ولم يضل عن وجه من وجوهه ، ولا نسي وجهاً

يدخل منه شيء من خلل ﴿ ولا ينسى ﴾ أي لا يقع منه نسيان لشيء أصلاً من أخباره ولا لغيرهم ، وفي ذلك إشارة إلى تبكيت اليهود بأن ثبوت النبوة إن كان يتوقف على أن يخبر النبي عن كل ما يسأل عنه لزم أن يتوقفوا في نبوة نبيهم عليه السلام لأنه لم يخبر فرعون عما سأله عنه من أمر القرون ؛ ثم وصل بذلك ما كان فيه قبل من الدليل العقلي على وحدة الصانع واختياره فقال : ﴿ الذي جعل لكم ﴾ أيها الخلائق ﴿ الأرض ﴾ أي أكثرها ﴿ مهداً ﴾ تفترشونها ، وجعل بعضها جبالاً لا يمكن القرار عليها ، وبعضها رخواً تسرح فيه الأقدام وبعضها جلداً - إلى غير ذلك مما تشاهدون فيها من الاختلاف ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي سهّل طرقاً تسلكونها في أراضي سهلة وحزنة وسطها بين الجبال والأودية والرمال ، وهيأ لكم فيها من المنافع من المياه والمراعي ما يسهل ذلك ، وجعل فيها ما لا يمكن استطراقه أصلاً ، من أن نسبة الكل إلى الطبيعة واحدة ، فلولا أن الفاعل واحد مختار لم يكن هذا التفاوت وعلى هذا النظام البديع ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ تشاهدونه واحداً في اللون والطعم .

ولما كان ما ينشأ عنه أدل على العظمة وأجلى للناظر وأظهر للعقول .

استغرق -صلى الله عليه وسلم- في بحار الجلال ، فاستحضر أن الآمر له بهذا الكلام هو المتكلم به في الحقيقة فانياً عن نفسه وعن جميع الأكوان ، فعبر عن ذلك ، عادلاً عن الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع بما له من العظمة بقوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي تنقاد لها الأشياء المختلفة ﴿ به أزواجاً ﴾ أي أصنافاً متشاكلة ليس فيها شيء يكون واحداً لا شبيه له ﴿ من نبات شتى ﴾ أي مختلفة جداً في الألوان والمقادير والمنافع والطبائع والطعوم ؛ ثم أشار إلى تفصيل ما فيها من الحكمة بقوله حالاً من فاعل ﴿ أخرجنا ﴾ : ﴿ كلوا ﴾ أي ما دبره لكم بحكمته منها ﴿ وارعوا ﴾ أي سرحوا في المراعي ﴿ أنعامكم ﴾ ما أحكمه لها ولا يصلح لكم ، فكان من متقن تدبيره أن جعل أرزاق العباد بعملها تنعيماً لهم ، وجعل علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يقدرون على أكله ، وقد دلت هذه الأوصاف على تحققه سبحانه قطعاً بأنه لا يضل ولا ينسى من حيث إنه تعالى أبدع هذا العالم شاملاً لكل ما يحتاجه من فيه لما خلقهم له من السفر إليه والعرض عليه في جميع تقلباتهم على اختلافها ، وتباين أصنافها ، وتباعد أوصافها ، وعلى كثرتهم ، وتنائي أمزجتهم ، ولم يدعه ناقصاً من شيء من ذلك بخلاف غيره ، فإنه لو عمل شيئاً واجتهد كل الاجتهاد في تكميله فلا بد أن يظهر له فيه نقص ويصير يسعى في إزالته وقتاً بعد وقت .

ولما كمل هذا البرهان القويم ، دالاً على العليم الحكيم ، قال منبهاً على انتشار أنواره ،

وجلالة مقداره ، مؤكداً لأجل إنكار المنكرين : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الإنشاء هذه الوجوه المختلفة ﴿ لآيات ﴾ على منشئه ﴿ لأولي النهى ﴾ العقول التي من شأنها أن تنهى صاحبها عن الغيّ ، ومن عمي عن ذلك فلا عقل له أصلاً لأن عقله لم ينفعه ، وما لا ينفع في حكم العدم ، وذكر ابن كثير هنا ما عزاه ابن إسحاق في السيرة لزيد بن عمرو بن نفيل ، وابن هشام لأمية بن أبي الصلت :

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة . . .

(8/497)

بعثت إلى موسى رسولاً منادياً

فقلت ألا يا اذهب وهارون فادعوا . . .

إلى الله فرعون الذي كان باغيا

فقولا له آأنت سويت هذه . . .

بلا وتد حتى استقلت كما هيا

وقولا له آأنت رفعت هذه . . .

بلا عمد أرفق إذن بك بانيا

وقولا له آأنت سويت وسطها . . .

منيراً إذا ما جنه الليل هاديا

وقولا له من يخرج الشمس بكرة . . .

فيصبح ما مست من الزرع ضاحيا

وقولا له من ينبت الحب في الثرى . . .

فيخرج منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه . . .

وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

(9/497)

ولما أخبر سبحانه وتعالى عما خلق في الأرض من المنافع الدالة على تمام علمه وباهر قدرته

، على وجه دالّ على خصوص القدرة على البعث ، وكان من الفلاسفة تناسخيتهم

وغيرهم من يقر الله بالوحدانية ولا يقر بقول أهل الإسلام : إن الروح جسم لطيف سار في

الجسم سريان النار في الفحم ، بل يقول : إنها ليست بجسم ولا قوة في جسم ولا صورة

لجسم وليست متصلة به اتصال انطباع ولا حلول فيه ، بل اتصال تدبير وتصرف ، وأنها إذا

فارقت البدن اتصلت بالروحانيين من العالم العقلي الذي هو عالم المجردات وانخرطت في سلك الملائكة المقربين ، أو اتصلت ببعض الأجرام السماوية من كوكب أو غيره كاتصالها بالبدن الأول وانقطع تعلقها به فلم تعد إليه حتى ولا يوم البعث عند من يقول منهم بالحشر ، وصل بذلك قوله تعالى ، يرد عليهم ، معبراً بالضمير الذي يعبر به الهيكل المجتمع من البدن والنفس : ﴿ منها ﴾ أي الأرض لا من غيرها ﴿ خلقناكم ﴾ إذ أخرجناكم منها بالعظمة الباهرة في النشأة الأولى بخلق أبيكم آدم عليه السلام ﴿ وفيها ﴾ لا في غيرها كما أنتم كذلك تشاهدون ﴿ نعيدكم ﴾ بالموت كذلك أجساماً وأرواحاً ، فتصيرون تراباً كما كنتم ، وللروح مع ذلك وأن كانت في عليين تعلق ببدنها بوجه ما ، يدرك البدن به اللذة بالتذاذها والألم بتألمها ، وقد صح أن الميت يقعد في قبره ويجيب سؤال الملكين عليهما السلام ، لا يقدر أحد منكم أن يخلص من تلك العظمة المحيطة بجليل عظمته ولا بدقيق حكمته ﴿ ومنها ﴾ لا من غيرها ﴿ نخرجكم ﴾ يوم البعث بتلك العظمة بعينها ﴿ تارة أخرى ﴾ كما بدأناكم أول مرة مثل ما فعلنا في النبات سواء ، فقد علم أن هذا فعل الواحد المختار ، لا فعل الطبائع ، فمرة جعلكم أحياء من شيء ليس له أصل في الحيوانية أصلاً ، وكرة ردكم إلى ما كنتم عليه قبل الحياة تراباً لا روح فيه ولا ما يشبهها ، فلا ريب أن فاعل ذلك قادر على أن يخرجكم منها أحياء كما ابتدأ ذلك ، بل الإعادة أهون في مجاري العادة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 22 . 25 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) ﴾

اعلم أنهما عليهما السلام لما قالا : إنا رسولا ربك قال لهما : فمن ربكما يا موسى ، فيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء بل خرج معه في المناظرة لما أنه لو شرع أولاً في الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولاً في المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الإسلام والعلم ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل بإقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضاً على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الإله من قول

الرسول لأن موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة.

المسألة الثانية:

تدل الآية على أنه يجوز حكاية كلام المبطل لأنه تعالى حكى كلام فرعون في إنكاره الإله وحكى شبهات منكري النبوة وشبهات منكري الحشر، إلا أنه يجب أنك متى أوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى في هذه المواضع.

المسألة الثالثة:

دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله في قوله:

﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل: 125] وقال: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ﴾ [التوبة: 6].

المسألة الرابعة:

اختلف الناس في أن فرعون هل كان عارفاً بالله تعالى فقيل إنه كان عارفاً إلا أنه كان يظهر الإنكار تكبراً وتجبراً وزوراً وبهتاناً ، واحتجوا عليه بستة أوجه .

أحدها : قوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ [الإسراء : 102] فمتى نصبت التاء في علمت كان ذلك خطاباً من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على أن فرعون كان عالماً بذلك وكذا قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

وثانيها : أنه كان عاقلاً وإلا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلاً قد علم بالضرورة أنه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر إلى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر .

وثالثها : قول موسى عليه السلام ههنا : ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ وكلمة الذي تقتضي وصف المعرفة بجملة معلومة فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له .

ورابعها : قوله في سورة القصص في صفة فرعون وقومه وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بالمبدأ إلا أنهم كانوا منكرين للمعاد .

وخامسها : أن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام إلى مدين قال له شعيب : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] فمع هذا كيف يعتقد أنه إله العالم ؟ وسادسها : أنه لما قال : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء : 24] قال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] يعني أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى في الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه بأصل الوجود ، ومن الناس من قال إنه كان جاهلاً بربه واتفقوا على أن العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنه خالق هذه السموات والأرضين والشمس والقمر وأنه خالق نفسه لأنه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة أنها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضروري بأنه ليس موجوداً لها ولا خالقاً لها ، واختلفوا في كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل أنه كان دهرياً نافياً للمؤثر أصلاً ، ويحتمل أنه كان فلسفياً قائلاً بالعلة لموجبه ، ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب ، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة .

وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره .

المسألة الخامسة :

أنه سبحانه حكى عنه في هذه السورة أنه قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ وقال في سورة الشعراء : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفي سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والأقرب أن يقال سؤال من كان مقدماً على سؤال ما لأنه كان يقول إني أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل إلى المقام الثاني وهو طلب الماهية وهذا أيضاً مما ينبه على أنه كان عالماً بالله لأنه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر .

المسألة السادسة :

إنما قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ ولم يقل فمن إلهكما لأنه أثبت نفسه رباً في قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له أنا ربك فلم تدعى رباً آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال : ﴿ رَبِّيَ الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] قال نمروذ له :

﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ [البقرة : 258] ولم يكن الإحياء والإماتة التي ذكرهما إبراهيم عليه السلام هما الذي عارضه بهما نمروذ إلا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده أني أنا الرب لأني ربيتك ومعلوم أن الربوبية التي ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية في المعنى وأنه لا مشاركة بينهما إلا في اللفظ .

المسألة السابعة :

(14/497)

اعلم أن موسى عليه السلام استدل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله : ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ وهذه الدلالة هي التي ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبّكَ الأعلى * الذي خَلَقَ فسوى * والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 31] قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمور يعول على دلائل إبراهيم عليه السلام وسيأتي تقرير ذلك في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان والهداية عبارة عن إبداع القوى

المدركة والمحركة في تلك الأجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدماً على الهداية ولذلك قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : 29] فالتسوية راجعة إلى القالب ونفخ الروح إشارة إلى إبداع القوى وقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] إلى أن قال : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] فظهر أن الخلق مقدم على الهداية ، والشروع في بيان عجائب حكمة الله تعالى في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له .

ولنذكر منه أمثلة قريبة إلى الأفهام .

أحدها : أن الطبيعي يقول : الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الأشياء ثقلاً الأرض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والأرض أسفلها ، ثم إنه سبحانه قلب هذا الترتيب في خلقة الإنسان فجعل أعلى الأشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما في البدن وهما بمنزلة الأرض ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذي هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب التي هي بمنزلة النار فجعل مكان الأرض من البدن الأعلى وجعل مكان النار من

البدن الأسفل ليعرف أن ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة .

وثانيها : إنك إذا نظرت إلى عجائب النحل في تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض في اهتدائها إلى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لا يمكن إلا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات .

وثالثها : أنه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار ويركبون الأدوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الأشياء المختلفة فيستخرجون لذات الأطعمة فثبت أنه سبحانه هو الذي خلق كل الأشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون إلى كيفية الانتفاع بها ، وهذا غير مختص بالإنسان بل عام في جميع الحيوانات فأعطى الإنسان إنسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الأولاد لثدي الأمهات ، بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل في أعضائها فإنه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الأخذ وخلق الرجل على تركيب خاص وأودع فيها قوة المشي وكذا العين والأذن وجميع الأعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد ، وهو الإنسان .

وإنما دلت هذه الأشياء على وجود الصانع سبحانه لأن اتصاف كل جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة أعني التركيب والقوة والهداية ، إما أن يكون واجباً أو جائزاً والأول باطل لأنا نشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على أن ذلك جائز ، والجائز لا بد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الإنسان ولا أبواه لأن فعل ذلك يستدعي قدرة عليه وعلماً بما فيه من المصالح والمفاسد ، والأمران نائيان عن الإنسان لأنه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة ، وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الأعضاء ومصالحها إلا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولي لتدبيرها وترتيبها موجوداً آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسماً لأن الأجسام متساوية في الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزاً وإن كان جائزاً افتقر إلى سبب آخر والدور والتسلسل محالان ، فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة إلى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني ثم تأثير ذلك المؤثر إما أن يكون بالذات أو بالاختيار ، والأول محال لأن الموجب لا يميز مثلاً عن مثل وهذه الأجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية ؟ فثبت أن المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الأفعال العجيبة إلا إذا كان عالماً ، ثم إن هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لا

بد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته وإلا لافتقر إلى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال ، وإذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب [أن] يكون عالماً بكل ما صح أن يكون معلوماً وقادراً على كل ما صح أن يكون مقدوراً فظهر بهذه الدلالة التي تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم إلى مدبر ليس بجسم ولا جسماني وهو واجب الوجود في ذاته وفي

(17/497)

صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى .

المسألة الثامنة :

أن فرعون خاطب الاثنين بقوله : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ ثم وجه النداء إلى أحدهما وهو موسى عليه السلام لأنه الأصل في النبوة وهرون وزيره وتابعه ، وإما لأن فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي في لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التي في لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] .

المسألة التاسعة :

في قوله : ﴿ الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ وجهان : أحدهما : التقديم والتأخير أي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به .

وثانيهما : أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال : أعطى كل شيء الشكل الذي يطابق منفعته ومصلحته ، وقرىء خلقه صفة للمضاف أو المضاف إليه ، والمعنى أن كل شيء خلقه الله لم يخله من إعطائه وإنعامه ، وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ فاعلم أن في ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوهاً .

أحدها : أن موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدأ والمعاد قال فرعون : إن كان إثبات المبدأ في هذا الحد من الظهور : ﴿ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ ما أثبتوه وتركوه ؟ فكان موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على إثبات الصانع قدح فرعون في تلك الدلالة بقوله إن كان الأمر في قوة هذه الدلالة على ما ذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد .

(18/497)

وثانيها : أن موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولاً في قوله : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] فقال فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ فإنها كذبت ثم إنهم ما عذبوا ؟ وثالثها : وهو الأظهر أن فرعون لما قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ فذكر موسى عليه السلام دليلاً ظاهراً وبرهاناً باهراً على هذا المطلوب فقال : ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ فخاف فرعون أن يزيد في تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال : ﴿ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ فلم يلتفت موسى عليه السلام إلى ذلك الحديث بل قال : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبّي فِى كتاب ﴾ ولا يتعلق غرضي بأحوالهم فلا أشتغل بها ، ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول وإيراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال : ﴿ الذى خَلَقَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ وهذا الوجه هو المعتمد في صحة هذا النظم ، ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(19/497)

اختلفوا في قوله : ﴿ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِى كِتَاب ﴾ فإن العلم الذي يكون عند الرب كيف يكون في الكتاب ؟ وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشيء قائمة به ، فأما أن تكون صفة الشيء حاصلة في كتاب فذاك غير معقول فذكروا فيه وجهين : الأول : معناه أنه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ، ولقائل أن يقول قوله : ﴿ فِى كِتَاب ﴾ يوهم احتياجه سبحانه وتعالى في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب وهذا وإن كان غير واجب لا محالة ولكنه لا أقل من أنه يوهمه في أول الأمر لا سيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون في وقت الدعوة ؟ الوجه الثاني : أن تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات في علمه سبحانه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شيء منها عن علمه ، وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ .

المسألة الثانية :

اختلفوا في قوله : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أي لا يذهب عليه شيء ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والأكثرون على الفرق بينهما ، ثم ذكروا وجوهاً .

أحدها : وهو الأحسن ما قاله القفال لا يضل عن الأشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم

ينسه فاللفظ الأول إشارة إلى كونه عالماً بكل المعلومات واللفظ الثاني وهو قوله : ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو إشارة إلى نفي التغير .

وثانيها : قال مقاتل : لا يخطىء ذلك الكتاب ربي ولا ينسى ما فيه .

وثالثها : قال الحسن لا يخطىء وقت البعث ولا ينساه .

ورابعها : قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شيء ولا يغيب عنه شيء .

(20/497)

وخامسها : قال ابن جرير لا يخطىء في التدبير فيعتقد في غير الصواب كونه صواباً وإذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الأول .

المسألة الثالثة :

أنه لما سأله عن الإله وقال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ وكان ذلك مما سبيله الإستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى ، ولما سأله عن شأن القرون الأولى وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته في ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب ، واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الأولى وهي دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الإنسان

وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهي ثلاثة .

أولها : قوله تعالى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : قرأ أهل الكوفة ههنا وفي الزخرف ﴿ مهداً ﴾ والباقون قرؤوا مهاداً فيهما قال أبو عبيدة : الذي اختاره مهاداً وهو اسم والمهد اسم الفعل ، وقال غيره : المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش أجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل ، وقال المفضل هما مصدران لمهد إذا وطأ له فراشاً يقال مهد مهداً ومهاداً وفرش فرشاً وفراشاً .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" : ﴿ الذي جَعَلَ ﴾ مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو لأنه صفة لربي أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه ، واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبراً لمبتدأ محذوف إذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّن نبات شتى ﴾ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

البحث الثالث : المراد من كون الأرض مهداً أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَاء ﴾ [البقرة : 22] .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ قال صاحب "الكشاف" سلك من قوله : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [المدثر : 42] ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ [الشعراء : 200] أي جعل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري .

وثالثها : قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ والكلام فيه قد مر في سورة البقرة أما قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّن نبات شتى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ فيه وجوه .

أحدها : أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربي الذي جعل لكم كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجاً من نبات شتى .

وثانيها : أن عند قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلاً بالكلام الأول بقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ ثم يدل على هذا الاحتمال قوله : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ .

وثالثها : قال صاحب "الكشاف" انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للإيذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ومثله قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلّ شَيْء ﴾ [الأنعام : 99] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر : 27] ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ السماء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل : 60] واعلم أن قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والأول باطل لأن قوله بعد ذلك : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم إِنَّ فِى ذلك لآيات لأُوْلِى النهى مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ لا يليق بموسى عليه السلام وأيضاً فقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّن نبات شتى ﴾ لا يليق بموسى لأن أكثر ما في قدرة موسى عليه السلام صرف المياه إلى سقي الأراضي وأما إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت أن هذا كلام الله ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّن نبات شتى ﴾ لأن الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال : إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبّي وَلاَ يَنسَى ﴾ ثم ابتدىء كلام الله تعالى من قوله : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ ويكون التقدير هو الذي ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرض

مَهْداً ﴾ فيكون الذي خبر مبتدأ محذوف ويكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب التفاتاً .

المسألة الثانية :

(23/497)

ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه إنه يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء فيكون للماء فيه أثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح في شيء من أصول الإسلام لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه ألبتة .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ أزواجا ﴾ أي أصنافاً سميت بذلك لأنها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض ﴿ شتى ﴾ صفة للأزواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمي به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ فهو حال من الضمير في أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها .

وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أموالكم بَيْنَكُم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] وقوله : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً ﴾ [النساء : 10]

وقوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ أمر إباحة ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكرت من هذه النعم ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي لدلالات لذوي النهى أي العقول والنهية العقل .

قال أبو علي الفارسي : النهى يجوز أن يكون مصدراً كالهدى ويجوز أن يكون جمعاً أما قوله : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الأرض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لكونها وسائل إلى منافع الآخرة فقال : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ وفيه سؤالان :

السؤال الأول : ما معنى قوله : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ مع أنه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك في سائر الآيات .

والجواب من وجهين : الأول : أنه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال : ﴿ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾

[آل عمران : 59] لا جرم أطلق ذلك علينا .

الثاني : أن تولد الإنسان إنما هو من النطفة ودم الطمث وهما يتولدان من الأغذية ، والغذاء إما حيواني أو نباتي والحيواني ينتهي إلى النبات والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح أنه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة .

والثالث : ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام ﴾ [آل عمران : 6] خبر ابن مسعود أن الله يأمر ملك الأرحام أن يكتب الأجل والرزق والأرض التي يدفن فيها وأنه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم .

السؤال الثاني : ظاهر الآية يدل على أن الشيء قد يكون مخلوقاً من الشيء وظاهر قول المتكلمين يأباه .

والجواب : إن كان المراد من خلق الشيء من الشيء إزالة صفة الشيء الأول عن الذات وأحداث صفة الشيء الثاني فيه فذلك جائز لأنه لا منافاة فيه ، أما قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ فلا شبهة في أن المراد الإعادة إلى القبور حتى تكون الأرض مكاناً وظرفاً لكل من مات إلا من رفعه الله إلى السماء ، ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد إليها أيضاً بعد ذلك ، أما قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ ففيه وجوه : أحدها : وهو الأقرب : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ يوم الحشر والبعث .

وثانيها : ومنها نخرجكم تراباً وطيناً ثم نحييكم بعد الإخراج وهذا مذكور في بعض الأخبار .

وثالثها : المراد عذاب القبر عن البراء قال : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وأنه ترد روحه في جسده ويرد إلى الأرض وأنه تعالى يقول عند إعادتهم إلى الأرض إني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى " واعلم أن الله تعالى عدد في هذه الآيات منافع الأرض وهي أنه تعالى جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلف دوابهم وهي أصلهم الذي منه يتفرعون ثم هي كفاتهم إذا ماتوا ، ومن ثم قال عليه السلام : " بروا بالأرض فإنها بكم برة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 55.

61 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أعطى كل شيء زوجه من جنسه ، ثم هداه لنكاحه ، قاله ابن عباس والسدي .

الثاني : أعطى كل شيء صورته ، ثم هداه إلى معيشته ومطعمه ومشربه ، قاله مجاهد قال الشاعر :

وله في كل شيء خلقهُ . . . وكذلك الله ما شاء فعل

يعني بالخلقة الصورة .

الثالث : أعطى كلاً ما يصلحه ، ثم هداه له ، قاله قتادة .

ويحتمل رابعاً : أعطى كل شيءٍ ما ألهمه من علم أو صناعة وهداه إلى معرفته .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ وهي جمع قرن ، والقرن أهل كل عصر مأخوذ من قرانهم فيه .

وقال الزجاج : القرن أهل كل عصر وفيه نبي أو طبقة عالية في العلم ، فجعله من اقتران أهل العصر بأهل العلم ، فإذا كان زمان فيه فترة وغلبة جهل لم يكن قرناً .

واختلف في سؤال فرعون عن القرون على أربعة أوجه :

أحدها : أنه سأله عنها فيما دعاه إليه من الإيمان ، هل كانوا على مثل ما يدعو إليه أو بخلافه .

الثاني : أنه قال ذلك له قطعاً للاستدعاء ودفعاً عن الجواب .

الثالث : أنه سأله عن ذنبهم ومجازاتهم .

الرابع : أنه لما دعاه إلى الإقرار بالبعث قال : ما بال القرون الأولى لم تبعث .

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ فرد موسى علم ذلك إلى ربه .

﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي لم يجعل علم ذلك في كتاب لأنه يضل أو ينسى .

ويحتمل إثباته في الكتاب وجهين :

أحدهما : أن يكون له فضلاً له وحكماً به .

الثاني : ليعلم به ملائكته في وقته .

وفي قوله : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ وجهان :

أحدهما : لا يخطىء فيه ولا يتركه .

الثاني : لا يضل الكتاب عن ربي ، ولا ينسى ربي ما في الكتاب ، قاله ابن عباس .

قال مقاتل : ولم يكن في ذلك [الوقت] عند موسى علم القرون الأولى ، لأنه علمها من التوراة ، ولم تنزل عليه إلا بعد هلاك فرعون وغرقه .

(27/497)

قوله تعالى : ﴿ لِّأُوْلِي النُّهَى ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أولي الحكم .

الثاني : أولي العقل ، قاله السدي .

الثالث : أولي الورع .

وفي تسميتهم بذلك وجهان :

أحدهما : لأنهم ينهون النفس عن القبيح .

الثاني : لأنه ينتهي إلى آرائهم . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(28/497)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ بعد جمعه مع هارون في الضمير ، نداء بمعنى

التخصيص والتوقيف إذ كان صاحب عظم الرسالة ولزيم الآيات .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) ﴾

استبد موسى صلى الله عليه وسلم من حيث خصه في السؤال ثم أعلمه من صفات الله تعالى بأن لا شرك لفرعون فيه لا بوجه مجاز واختلف المفسرون في قوله ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ فقالت فرقة معناه أعطى الذكران من كل الحيوان نوعه وخلقته أنثى ﴿ ثم هدى ﴾ للإتيان ، وقالت فرقة بل المعنى أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته وصورته ، أي أكمل ذلك له وأتقنه ﴿ ثم هدى ﴾ أي يسر شيء لمنافعه ومرافقه .

(29/497)

قال القاضي أبو محمد : وهذا القول أشرف معنى وأعم في الموجودات ، وقرأت فرقة " خلَقه " بفتح اللام ويكون المفعول الثاني ب ﴿ أعطى ﴾ مقدراً تقديره كماله أو خلقته ، وقال فرعون ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ يحتمل أن يريد محاجته بحسب ما تقدم من القول ومناقضته فيه ، فليس يتجه على هذا أن يريد ما بال القرون الأولى ولم يوجد أمرك عندها ، فرد موسى عليه السلام علم ذلك إلى الله تعالى ، ويحتمل أن يريد فرعون قطع الكلام الأول والرجوع إلى سؤال موسى عن حالة من سلف من الناس روغاناً في الحجة وحيدة وقال "

البال " الحال فكأنه سألهم عن حالهم كما جاء في الحديث " يهديكم الله ويصلح بالكم " وقال النقاش إنما قال فرعون ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ لما سمع مؤمن آله يا قوم ﴿ إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ [غافر : 30] مثل دأب قوم نوح وعاد " الآية ورد موسى العلم إلى الله تعالى لأنه لم تأته التوراة بعد . وقوله ﴿ في كتاب ﴾ يريد في اللوح المحفوظ أو فيما كتبه الملائكة من أحوال البشر . وقرأت فرقة " لا يَضِل " بفتح الياء وكسر الضاد واختلف في معنى هذه القراءة فقالت فرقة هو ابتداء الكلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين وقد كان الكلام تم في قوله ﴿ في كتاب ﴾ و ﴿ يضل ﴾ معناه يتلف ويعمه ، وقالت فرقة بل قوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ من صفات الكتاب أي إن الكتاب لا يغيب عن الله تعالى ، تقول العرب ضلني الشيء إذا لم أجده وأضللته أنا ومنه قول النبي صلى الله عليه حكاية عن الإسرائيلي الذي طلب أن يحرق بعد موته " لعلي أضل الله " الحديث ، و ﴿ ينسى ﴾ أظهرها ما فيه أن يعود ضميره الى الله تعالى ويحتمل أن يعود إلى الكتاب في بعض التأويلات يصفه بأنه ﴿ لا ينسى ﴾ أي لا يدع شيئاً ، فالنسيان هنا استعارة كما قال في موضع آخر ﴿ إلا أحصاها ﴾ [الكهف : 49] فوصفه بالإحصاء من حيث حصرت فيه الحوادث .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

انظر إن هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام هي مما تقضي بداية العقول أن فرعون وكل بشير بعيد منها لأنه لو قال هو القادر الرازق المريد العالم ونحو هذا من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط فيقول أنا أفعل هذا كله فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكنه أن يقول إن ذلك له وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " مِهاداً " بكسر الميم وبألف ، والمهاد قيل هو جمع مهد ، وقيل اسم مفرد كفرش وفراش ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " جعل لكم الأرض مَهْداً " بفتح الميم وسكون الهاء ، وقوله ﴿ سلك ﴾ بمعنى نهج ولحب ، و" السبل " الطرق ، وقوله ﴿ فأخرجنا به ﴾ يحتمل أن يكون كلام موسى تم عند قوله ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ ثم وصل الله تعالى كلام موسى بإخباره لمحمد صلى الله عليه وسلم والمراد الخلق أجمع ، فهذه الآيات المنبهة عيلها ، و" الأزواج " هنا بمعنى الأنواع ، وقوله ﴿ شتى ﴾ نعت للأزواج أي مختلفات ، وقوله ﴿ كلوا وارعوا ﴾ بمعنى هي صالحة لأن يؤكل منها وترعى الغنم فيها فأخرج العبارة في صيغة الأمر لأنه أرجى الأفعال وأهدأها للنفوس ، و﴿ النهى ﴾ جمع نهية والنهية العقل الناهي عن القبائح ، وقوله تعالى ﴿ منها خلقناكم ﴾ يريد من الأرض ، وهذا حيث خلق آدم من تراب . وقوله ﴿ وفيها نعيدكم ﴾ يريد بالموت والدفن أو الفناء كيف كان وقوله ﴿ ومنها نخرجكم ﴾ يريد بالبعث ليوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال فَمَنْ ربُّكما ﴾

في الكلام محذوف معناه معلوم ، وتقديره : فأَتياه فأَدَّيا الرسالة .

قال الزجاج : وإِنما لم يقل : فأَتياه ، لأن في الكلام دليلاً على ذلك ، لأن قوله : "فمن ربُّكما" يدل على أنهما أتياه وقالا له .

قوله تعالى : ﴿ أعطى كُلَّ شيء خَلْقَه ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أعطى كُلَّ شيء صورته ، فخلق كُلَّ جنس من الحيوان على غير صورة جنسه ، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم ، وصورة البعير لا كصورة الفرس ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أعطى كل ذكر زوجَه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال السدي ، فيكون المعنى : أعطى كُلَّ حيوان ما يشاكله .

والثالث : أعطى كل شيء ما يُصْلِحه ، قاله قتادة .

وفي قوله : ﴿ ثم هدى ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : هدى كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير .

والثاني : هدى للمنكح والمطعم والمسكن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : هدى كل شيء إلى معيشته ، قاله مجاهد .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، والأعمش ، وابن السميفع ، ونصير عن الكسائي : "أعطى كُلَّ شيء خَلَقَهُ" بفتح اللام .

فإن قيل : ما وجه الاحتجاج على فرعون من هذا ؟

فالجواب : أنه قد ثبت وجود خَلْق وهداية ، فلا بد من خالقٍ وهادٍ .

قوله تعالى : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ اختلفوا فيما سأل عنه من حال القرون الأولى على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه سأله عن أخبارها وأحاديثها ، ولم يكن له بذلك عِلْم ، إذ التوراة إنما نزلت عليه بعد هلاك فرعون ، فقال : ﴿ عِلْمها عند ربّي ﴾ ، هذا مذهب مقاتل .

وقال غيره : أراد : إنّي رسول ، وأخبار الأمم عِلْم غيب ، فلا علم لي بالغيب .

والثاني : أن مراده من السؤال عنها : لم عُبدت الأصنامُ ، ولِمَ لم يُعبدِ اللهُ إن كان الحقُّ ما وصفتَ ؟!

والثالث : أن مراده : ما لها لا تُبعث ولا تُحاسَب ولا تجازى ؟ ! فقال : عِلْمها عند الله ، أي : عِلْم أعمالها .

وقيل : الهاء في "عِلْمُها" كناية عن القيامة ، لأنه سأله عن بعث الأمم ، فأجابه بذلك .

وقوله : ﴿ في كتاب ﴾ أراد : اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : ﴿ لا يضلُّ ربِّي ولا يَنْسى ﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعاصم الجحدري ، وقتادة ، وابن محيصن : "لا يُضِلُّ" بضم الياء وكسر الضاد ، أي : لا يضيِّعه .

وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : "لا يُضَل" بضم الياء وفتح الضاد .

وفي هذه الآية توكيد للجزاء على الأعمال ، والمعنى : لا يخطىء ربي ولا ينسى ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم .

وقيل : أراد : لم يجعل ذلك في كتاب لأنه يضل وينسى .

قوله تعالى : ﴿ الذي جعَل لكم الأرض مهاداً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "مهاداً" .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "مهداً" بغير ألف .

والمهاد : الفراش ، والمهد : الفرش .

﴿ وسلك لكم ﴾ أي : أدخل لأجْلكم في الأرض طُرُقاً تسلكونها ، ﴿ وأنزل من السماء

ماءً ﴾ يعني: المطر.

وهذا آخر الإِخبار عن موسى.

ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿ فأخرجنا به ﴾ يعني: بالماء ﴿ أزواجاً من نبات شتّى ﴾ أي: أصنافاً مختلفة في الألوان والطُّعوم، كل صنف منها زوج.

و"شتى" لا واحد له من لفظه.

﴿ كُلُوا ﴾ أي: مما أخرجنا لكم من الثمار ﴿ وارعَوْا أنعامكم ﴾ يقال: رعى الماشية، يرعاها: إِذا سرَّحها في المرعى.

ومعنى هذا الأمر: التذكير بالنِعم، ﴿ إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ ﴾ أي: لَعِبرًا في اختلاف الألوان والطعوم ﴿ لأولي النُّهى ﴾ قال الفراء: لذوي العقول، يقال للرجل: إِنه لذو نُهْيَةٍ: إِذا كان ذا عقل.

قال الزجاج: واحد النُّهى: نُهْيَة، يقال: فلان ذو نُهْيَة، أي: ذو عقل ينتهي به عن المقابح، ويدخل به في المحاسن؛ قال: وقال بعض أهل اللغة: ذو النُّهية: الذي يُنتهى إِلى رأيه وعقله، وهذا حسن أيضاً.

قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم ﴾ يعني : الأرض المذكورة في قوله : "جعل لكم الأرض مهاداً" .

والإِشارة بقوله : "خلقناكم" إِلى آدم ، والبشر كلُّهم منه .

﴿ وفيها نُعِيدكم ﴾ بعد الموت ﴿ ومنها نُخْرِجكم تارة ﴾ أي : مَرَّة ﴿ أُخرى ﴾ بعد البعث ، يعني : كما أخرجناكم منها أولاً عند خلق آدم من الأرض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(34/497)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾

ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي .

وقيل : خصّصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية .

وقيل : إنهما جميعاً بلّغا الرسالة وإن كان ساكتاً ؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلم واحد ، فإذا انقطع وازره الآخر وأيّده .

فصار لنا في هذا البناء فائدة علمٍ ؛ أن الاثنين إذا قُلِّدا أمراً فقام به أحدهما ، والآخر

شخصه هناك موجود مستغنى عنه في وقت دون وقت أنهما أديا الأمر الذي قُلِّدا وقاما به واستوجبا الثواب، لأن الله تعالى قال: ﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ وقال: ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ وقال: ﴿ فَقُولا لَهُ ﴾ فأمرهما جميعاً بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ أنه كان حاضراً مع موسى.

﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ أي أنه يُعرَف بصفاته، وليس له اسم عَلَم حتى يقال فلان، بل هو خالق العالم، وهو الذي خصّ كل مخلوق بهيئة وصورة، ولو كان الخطاب معهما لقالا: قالا ربنا.

"وخَلْقَهُ" أول مفعولي أعطى، أي أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به؛ على قول الضحاك على ما يأتي.

﴿ ثُمَّ هدى ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: أعطى كل شيء زوجه من جنسه، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه.

وعن ابن عباس: ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهَداه لما يصلحه.

وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورة؛ لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدّره تقديراً.

وقال الشاعر :

وله في كلِّ شيءٍ خِلْقَةٌ . . .

وكذاك الله ما شاء فعلْ

يعني بالخلقة الصورة ؛ وهو قول عطية ومقاتل .

(35/497)

وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلْقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له .

يعني اليد للبطش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع .

وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة .

وقال الفراء : خلق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للأنثى .

فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن عباس .

والآية بعمومها تتناول جميع الأقوال .

وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ "الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" بفتح اللام ؛ وهي قراءة ابن أبي إسحاق ورواها نصير عن الكسائي وغيره ؛ أي أعطى بني آدم كل شيء خلقه مما

يحتاجون إليه .

فالقراءتان متفقتان في المعنى .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ﴾ البال الحال ؛ أي ما حالها وما شأنها ، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه ، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله في اللوح المحفوظ .

وقيل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقروا بذلك .

أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك .

وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى ، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى ، ومحفوظة عنده في كتاب .

أي هي مكتوبة فسيجازيهم غداً بها وعليها .

وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ .

وقيل : هو كتاب مع بعض الملائكة .

الثانية : هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكَتْبها لئلا تُنْسى .

فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنّسيان .

وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه .

(36/497)

وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ؛ فقال : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلِب غضبي " وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث ويعجبه ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إني أسمع منك الحديث يعجبني ولا أحفظه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استعن بيمينك" وأومأ إلى الخطّ .

وهذا نصّ .

وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين ؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم

: بكَتْب الخطبة التي خطب بها في الحج لأبي شاه رجل من اليمن لما سأله كَتْبها .

أخرجه مسلم .

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قَيِّدُوا العلمَ بالكتابة " وقال معاوية بن قُرّة : من لم يكتب العلم لم يعد علمه علماً .

وقد ذهب قوم إلى المنع من الكَتْب ؛ فروى أبو نضرة قال : قيل لأبي سعيد : أنكتب حديثكم هذا ؟ قال : لم تجعلونه قرآناً ؟ ولكن احفظوا كما حفظنا .

وممن كان لا يكتب الشعبي ويونس بن عبيد وخالد الحذّاء قال خالد : ما كتبت شيئاً قط إلا حديثاً واحداً ، فلما حفظته محوته وابن عون والزهري .

وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضَمْرة .

وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثاً قطّ إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذّاء مثل هذا .

وحديث الأعماق خرجه مسلم في آخر الكتاب : " لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق " الحديث ذكره في كتاب الفتن .

وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن إدريس وهشيم وغيرهم .

وهذا احتياط على الحفظ .

والكُتْب أولى على الجملة ، وبه وردت الآي والأحاديث ؛ وهو مرويّ عن عمر وعلي وجابر وأنس رضي الله عنهم ، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير ، ومن بعدهم من أهل العلم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 145] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأَرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] .

وقال تعالى : ﴿ واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً ﴾ [الأعراف : 156] الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزبر * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر : 52 - 53] .

وقال : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ إلى غير هذا من الآي .

وأيضاً فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب ، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا ، وإنما كره الكَتْبَ من كره من الصدر الأوّل لقرب العهد ، وتقارب الإسناد لئلا يعتمده الكاتب فيهمله ، أو يرغب عن حفظه والعمل به

؛ فأما والوقت متباعد ، والإسناد غير متقارب ، والطرق مختلفة ، والنَّقَلة متشابهون ، وآفة النسيان معترضة ، والوهم غير مأمون ؛ فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى ، والدليل على وجوبه أقوى ؛ فإن احتج محتج بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحه " خرجه مسلم ؛ فالجواب أن ذلك كان متقدماً ؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة ، وإباحتها لأبي شاه وغيره .

وأيضاً كان ذلك لئلا يخلط بالقرآن ما ليس منه .

(38/497)

وكذا ما روي عن أبي سعيد أيضاً حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فأبى إن كان محفوظاً فهو قبل الهجرة ، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن .

الثالثة : قال أبو بكر الخطيب : ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد ؛ ثم الحبر خاصة دون المداد لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مر الدهور .

وهو آلة ذوي العلم ، وعدّة أهل المعرفة .

ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال : رآني الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي حبر وأنا أخفيه ؛ فقال : لم تخفيه وتستره ؟ إن الحبر على الثوب من المروءة لأن

صورته في الأبصار سواد ، وفي البصائر بياض .

وقال خالد بن يزيد : الحبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخَلُوق في ثوب العروس .

وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوي فقال :

مِدادُ المَحَابرِ طيبُ الرجال . . .

وطِيب النساءِ من الزّعفرانْ

فهذا يَليق بأثواب ذَا . . .

وهذا يليقُ بثوب الحَصَانْ

وذكر الماوردي أن عبد الله بن سليمان فيما حكى ؛ رأى على بعض ثيابه أثر صفرة ؛

فأخذ من مداد الدواة وطلاه به ؛ ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران ؛ وأنشد :

إنّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى . . .

ومِدادُ الدّويّ عِطرُ الرِّجالِ

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ اختلف في معناه على أقوال خمسة ؛

الأول : إنه ابتداء كلام ، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين .

وقد كان الكلام تم في قوله : "في كتاب" .

وكذا قال الزجاج ، وأن معنى "لا يضلّ" لا يهلك من قوله : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ [

السجدة : 10] .

"وَلاَ يَنْسَى" شيئاً ؛ نزّهه عن الهلاك والنّسيان .

القول الثاني : "لاَ يَضِلُّ" لا يخطىء ؛ قاله ابن عباس ؛ أي لا يخطىء في التدبير ، فمن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله .

القول الثالث : "لا يضل" لا يغيب .

قال ابن الأعرابي : أصل الضلال الغَيبوبة ؛ يقال : ضلّ الناسِي إذا غاب عنه حفظ الشيء .

(39/497)

قال : ومعنى ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء .

القول الرابع قاله الزجاج أيضاً وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ؛ والمعنى ؛ لا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما عِلمه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابي .

وقول خامس : إن ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ في موضع الصفة ل"كتاب" أي الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أي غير ذاهب عنه .

﴿ وَلاَ يَنسَى ﴾ أي غير ناسٍ له فهما نعتان ل"كتاب" .

وعلى هذا يكون الكلام متصلاً ، ولا يوقف على "كتاب" .

تقول العرب : ضلّني الشيء إذا لم أجده ، وأضللته أنا إذا تركته في موضع فلم تجده فيه .

وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وعاصم الجَحْدري وابن كثير فيما روى شبل عنه "لاَ يُضِلُّ" بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربّي ولا ينساه .

قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد ؛ يقال : ضلَّ عن الطريق ، وأضل الشيء إذا أضاعه .

ومنه قرأ من قرأ "لاَ يُضِلُّ رَبِّي" أي لا يُضيع ؛ هذا مذهب العرب .

قوله تعال ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مِهَاداً ﴾

"الذي" في موضع نعت "لربي" أي لا يضل ربي الذي جعل .

ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمر أي هو "الذي" .

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني .

وقرأ الكوفيون "مَهْداً" هنا وفي "الزخرف" بفتح الميم وإسكان الهاء .

الباقون "مِهَاداً" واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لاتفاقهم على قراءة "أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً" .

النحاس : والجمع أولى لأن "مهدا" مصدر وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف ؛ أي

ذات مهد .

المهدويّ : ومن قرأ "مَهْداً" جاز أن يكون مصدراً كالفَرْش أي مَهَد لكم الأرض مَهْداً ؛

وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف ؛ أي ذات مهد .

ومن قرأ "مِهَاداً" جاز أن يكون مفرداً كالفراش .

وجاز أن يكون جمع "مهدٍ" استعمل استعمال الأسماء فكسّر .

ومعنى "مِهَاداً" أي فراشاً وقراراً تستقرّون عليها .

﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي طرقاً .

نظيره : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : 19 20] .

وقال تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مِهَاداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 10] .

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ تقدم معناه .

وهذا آخر كلام موسى ، ثم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ .

وقيل : كله من كلام موسى ؛ والمعنى "فأخرجنا به" أي بالحرث والمعالجة ؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات .

ومعنى ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ ضروباً وأشباهاً ، أي أصنافاً من النبات المختلفة الأزواج والألوان .

وقال الأخفش : التقدير أزواجاً شتى من نبات .

قال : وقد يكون النبات شتى ؛ ف"شتى" يجوز أن يكون نعتاً لأزواج ، ويجوز أن يكون نعتاً للنبات .

و"شَتّى" مأخوذ من شتَّ الشيءُ أي تفرق .

يقال : أمر شَتٌّ أي متفرّق .

وشَتَّ الأمرُ شتّاً وشَتاتاً تفرق ؛ واشتتَّ مثله .

وكذلك التّشتت .

وشَتّته تَشْتِيتاً فرّقه .

وأَشتَّ بي قومي أي فرّقوا أمري .

والشَّتيت المتفرّق .

قال رُؤبة يصف إبلاً :

جَاءتْ مَعاً وَاطَّرَقتْ شَتِيتَا . . .

وهي تُثيرُ السَّاطِعَ السِّخْتِيتَا

وثَغْرٌ شَتَيت أي مُفَلَّج .

وقوم شَتَّى ، وأشياء شتَّى ، وتقول : جاءوا أشتاتاً ؛ أي متفرقين ؛ واحدهم شتٌّ ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ أمر إباحة .

﴿ وارعوا ﴾ من رعت الماشية الكلأ ، ورعاها صاحبها رعاية ؛ أي أسامها وسرحها ؛ لازم ومتعد ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى ﴾ أي العقول .

الواحدة نُهْية .

قال لهم ذلك ؛ لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم .

وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح .

(41/497)

وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ .

وبين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله .

قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ يعني آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض ؛ قاله أبو إسحاق الزجاج وغيره .

وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن .

وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما من مولود إلا وقد ذرَّ عليه من تراب حُفْرته " أخرجه أبو نعيم الحافظ في باب ابن سيرين ، وقال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا من حديث أبي عاصم النبيل ، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة .

وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورة "الأنعام" عن ابن مسعود .

وقال عطاء الخراساني : إذا وقعت النطفة في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق الله النّسمة من النّطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ .

وفي حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى تنتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل : "اكتبوا لعبدي كتاباً في عِلّيين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم

وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى" فتعاد روحه في جسده " وذكر الحديث.

وقد ذكرناه بتمامه في كتاب "التذكرة" وروي من حديث عليّ رضي الله عنه؛ ذكره الثعلبي.

ومعنى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي بعد الموت ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ أي للبعث والحساب.

(42/497)

﴿ تَارَةً أخرى ﴾ يرجع هذا إلى قوله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ لا إلى ﴿ نُعِيدُكُمْ ﴾.

وهو كقولك: اشتريت ناقة ودارا وناقة أخرى؛ فالمعنى: من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(43/497)

وقال أبو حيان:

قال ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾

خاطبهما معاً وأفرد بالنداء موسى .

قال ابن عطية : إذ كان صاحب عظم الرسالة وكريم الآيات .

وقال الزمخشري لأنه الأصل في النبوة وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه وذعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى ، ويدل عليه قوله ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ انتهى .

واستبد موسى عليه السلام بجواب فرعون من حيث خصه بالسؤال والنداء معاً ثم أعلمه من صفات الله تعالى بالصفة التي لا شرك لفرعون فيها ولا حيث خصه بالسؤال والنداء معاً ثم أعلمه من صفات الله تعالى بالصفة التي لا شرك لفرعون فيها ولا بوجه مجاز .

قال الزمخشري : ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق انتهى .

والمعنى أعطى كل ما خلق خلقته وصورته على ما يناسبه من الإتقان لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً .

وقال الشاعر :

وله في كل شيء خلقة . . .

وكذلك الله ما شاء فعل

وهذا قول مجاهد وعطية ومقاتل وقال الضحاك ﴿ خلقه ﴾ من المنفعة المنوطة به المطابقة له ﴿ ثم هدى ﴾ أي يسر كل شيء لمنافعه ومرافقه، فأعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه.

قال القشيري: والخلق المخلوق لأن البطش والمشي والرؤية والنطق معان مخلوقة أودعها الله للأعضاء، وعلى هذا مفعول ﴿ أعطى ﴾ الأول ﴿ كل شيء ﴾ والثاني ﴿ خلقه ﴾ وكذا في قول ابن عباس وابن جبير والسدّي وهو أن المعنى ﴿ أعطى كل شيء ﴾ مخلوقه من جنسه أي كل حيوان ذكر نظيره أنثى في الصورة.

فلم يزاوج منهما غير جنسه ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه.

(44/497)

وعن ابن عباس أنه هداه إلى إلفه والاجتماع به والمناكحة.

وقال الحسن وقتادة ﴿ أعطى كل شيء ﴾ صلاحه وهداه لما يصلحه.

وقيل ﴿ كل شيء ﴾ هو المفعول الثاني لأعطى و ﴿ خلقه ﴾ المفعول الأول أي ﴿

أعطى ﴾ خليقته ﴿ كل شيء ﴾ يحتاجون إليه ويرتفقون به .

وقرأ عبد الله وأناس من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو نهيك وابن أبي إسحاق والأعمش والحسن ونصير عن الكسائي وابن نوح عن قتيبة وسلام خَلَقَهُ بفتح اللام فعلاً ماضياً في موضع الصفة لكل شيء أو لشيء ، ومفعول ﴿ أعطى ﴾ الثاني حذف اقتصاراً أي ﴿ كل شيء خلقه ﴾ لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ ثم هدى ﴾ أي عرف كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل إليه .

وقيل : حذف اختصاراً لدلالة المعنى عليه ، أي ﴿ أعطى كل شيء خلقه ﴾ ما يحتاج إليه وقدره ابن عطية كماله أو مصلحته .

﴿ قال : فما بال القرون الأولى ﴾ لما أجابه موسى بجواب مسكت ، ولم يقدر فرعون على معارضته فيه انتقل إلى سؤال آخر وهو ما حال من هلك من القرون ، وذلك على سبيل الروغان عن الاعتراف بما قال موسى وما أجابه به ، والحيدة والمغالطة .

قيل : سأله عن أخبارها وأحاديثها ليختبر أهما نبيان أو هما من جملة القُصّاص الذين دارسوا قصص الأمم السالفة ، ولم يكن عنده عليه السلام علم بالتوراة إنما أنزلت عليه بعد هلاك فرعون فقال ﴿ علمها عند ربي ﴾ .

وقيل : مراده من السؤال عنها لم عبدت الأصنام ولم تعبد الله إن كان الحق ما وصفت ؟

وقيل : مراده ما لها لا تبعث ولا تحاسب ولا تُجَازَى فقال ﴿ علمها عند ربي ﴾ فأجابه

بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلاّ هو .

وقال النقاش : إنما سأل لما سمع وعظ مؤمن آل فرعون ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ الآية فرد علم ذلك إلى الله لأنه لم يكن نزلت عليه التوراة .

(45/497)

وقيل لما قال ﴿ إنّا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ قال فرعون ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ فإنها كذبت ثم إنهم ما عذبوا .

وقيل : لما قرر أمر المبدأ والدلالة القاطعة على إثبات الصانع قال فرعون : إن كان ما ذكرت في غاية الظهور فما بال القرون الأولى نسوه وتركوه ، فلو كانت الدلالة واضحة وجب على القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها .

فعارض الحجة النقلية ، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبيينه لكل معلوم فتعنت وقال : ما تقول في سوالف القرون وتمادي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم ، فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه وهو مثبت عنده ﴿ في كتاب ﴾ ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوز عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل ، أي ﴿ لا يضل ﴾ كما تضل أنت ﴿ ولا ينسى ﴾ كما تنسى يا

مدّعي الربوبية بالجهل والوقاحة قاله الزمخشري .

والظاهر عود الضمير في ﴿ علمها ﴾ إلى ﴿ القرون الأولى ﴾ أي مكتوب عند ربي في اللوح المحفوظ لا يجوز عليه أن يخطىء شيئاً أو ينساه ، يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه ، وضللته لغتان فلم يهتد إليه كقولك : ضللت الطريق والمنزل ولا يقال أضللته إلاّ إذا ضاع منك كالدابة إذا انفلتت وشبهها قاله الفراء .

وقال الزجاج : ضللته أضله إذا جعلته في مكان ولم تدر أين هو ، وأضللته والكتاب هنا اللوح المحفوظ .

وقيل ﴿ في كتاب ﴾ فيما كتبته الملائكة من أحوال البشر .

وقيل : الضمير في ﴿ علمها ﴾ عائد على القيامة لأنه سأله عن بعث الأمم .

وقال السدّي ﴿ لا يضل ﴾ لا يغفل .

وقال ابن عيسى ﴿ لا يضل ﴾ لا يذهب عليه تقول العرب ضل منزله بغير ألف .

وفي الحيوان أضل بعيره بالألف .

وقيل : التقدير ﴿ لا يضل ربي ﴾ الكتاب ﴿ ولا ينسى ﴾ ما فيه قاله مقاتل .

وقال القفال ﴿ لا يضلْ ﴾ عن معرفة الأشياء فيحيط بكل المعلومات ﴿ ولا ينسى ﴾ إشارة إلى بقاء ذلك العلم أبد الآباد على حاله لا يتغير .

وقال الحسن : لا يخطىء وقت البعث ولا ينساه .

وقال مجاهد : معنى الجملتين واحد وهو إشارة إلى أنه لا يعرض في علمه ما يغيره .

وقال ابن جرير : لا يخطىء في التدبير فيعتقد في غير الصواب صواباً وإذا عرفه لا ينساه ، وقال أبو عبد الله الرازي : علم الله صفة قائمة به ولا تكون حاصلة في الكتاب لأن ذلك لا يعقل ، فالمعنى أن بقاء تلك المعلومات في علمه كبقاء المكتوبات في الكتاب ، فالغرض التوكيد بأن أسرارها معلومة له لا يزول شيء منها ، ويتأكد هذا بقوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أو المعنى أنه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده يظهر للملائكة زيادة لهم في الاستدلال على أنه عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة انتهى .

وفيه بعض تلخيص .

وقرأ الحسن وقتادة والجحدري وحماد بن سلمة وابن محيصن وعيسى الثقفي لا يُضِلُّ بضم الياء أي ﴿ لا يضلّ ﴾ الله ذلك الكتاب فيضيع ﴿ ولا ينسى ﴾ ما أثبته فيه .

وقرأ السلمي لا يُضِلُّ ربِيَ ولا يُنْسَى مبنيتين للمفعول ، والظاهر أن الجملتين استئناف وإخبار عنه تعالى بانتفاء هاتين الصفتين عنه .

وقيل : هما في موضع وصف لقوله ﴿ في كتاب ﴾ والضمير العائد على الموصوف

محذوف أي لا يضله ربي ولا ينساه .

والظاهر أن الضمير في ﴿ ولا ينسى ﴾ عائد على الله .

وقيل : يحتمل أن يعود على ﴿ كتاب ﴾ أي لا يدع شيئاً فالنسيان استعارة كما قال ﴿ إلاّ أحصاها ﴾ فأسند الإحصاء إليه من حيث الحصر فيه ، وعن ابن عباس لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(47/497)

شت الأمر شتاً وشتاتاً تفرّق ، وأمر شتّ متفرّق ؛ وشتى فعلى من الشت وألفه للتأنيث جمع شتيت كمريض ومرضى ، ومعناه متفرقة ، وشتان اسم فاعل سحت : لغة الحجاز وأسحت لغة نجد وتميم ، وأصله استقصاء الحلق للشعر .

وقال الفرزدق وهو تميمي :

وعض زمان يا ابن مروان لم يك . . .

من المال إلا مسحت أو مجلق

ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب .

الخيبة : عدم الظفر بالمطلوب .

الصف : موضع المجمع قاله أبو عبيدة ، وسمي المصلى الصف وعن بعض العرب الفصحاء ما استطعت أن آتي الصف أي المصلى ، وقد يكون مصدراً ويقال جاؤوا صفاً أي مصطفين .

التخييل : إبداء أمر لا حقيقة له ، ومنه الخيال وهو الطيف الطارق في النوم .

قال الشاعر :

ألا يا لقومي للخيال المشوق . . .

وللدار تنأى بالحبيب ونلتقي

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم وأسروا النجوى قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً

وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ .

ولما ذكر موسى دلالته على ربوبية الله تعالى وتم كلامه عند قوله ﴿ ولا ينسى ﴾ ذكر تعالى ما نبه به على قدرته تعالى ووحدانيته ، فأخبر عن نفسه بأنه تعالى هو الذي صنع كيت وكيت ، وإنما ذهبنا إلى أن هذا هو من كلام الله تعالى لقوله تعالى ﴿ فأخرجنا ﴾ وقوله ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ .

(48/497)

وقوله ﴿ ولقد أريناه ﴾ فيكون قوله ﴿ فأخرجنا ﴾ و ﴿ أريناه ﴾ التفاتاً من الضمير الغائب في ﴿ جعل ﴾ وسلك إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه ، ولا يكون الالتفات من قائلين وأبعد من ذهب إلى أن الذي نعت لقوله ﴿ ربي ﴾ فيكون في موضع رفع أو يكون في موضع نصب على المدح وقالهما الحوفي والزمخشري لكونه كان يكون كلام موسى فلا يتأتى الالتفات في قوله ﴿ فأخرجنا ﴾ ﴿ ولقد أريناه ﴾ .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون ﴿ فأخرجنا ﴾ من كلام موسى حكاية عن الله تعالى على تقدير يقول عز وجل ﴿ فأخرجنا ﴾ ويحتمل أن يكون كلام موسى تم عند قوله ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ ثم وصل الله كلام موسى بإخباره لمحمد (صلى الله عليه وسلم)

والمراد بالخطاب في لكم الخلق أجمع نبههم على هذه الآيات .

وقرأ الأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ مَهْداً ﴾ بفتح الميم وإسكان الهاء ، وباقي السبعة مهاداً وكذا في الزخرف فقال المفضل : مصدران مهد مهداً ومهاداً .

وقال أبو عبيد : مهاد اسم ، ومهد الفعل يعني المصدر .

وقال آخر ﴿ مهداً ﴾ مفرد ومهاد جمعه ، ومعنى ذلك أنه تعالى جعلها لهم يتصرفون عليها في جميع أحوالهم ومنافعهم ، ونهج لكم فيها طرقاً لمقاصدكم حتى لا تتعذر عليكم مصالحكم .

والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الماء أي بسببه .

﴿ أزواجاً ﴾ أي أصنافاً وهذا الالتفات في أخرجنا كهو في قوله ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا ﴾ ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا ﴾ ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ وفي هذا الالتفات تخصيص أيضاً بأنا نحن نقدر على مثل هذا ، ولا يدخل تحت قدرة احد والأجود أن يكون ﴿ شتى ﴾ في موضع نصب نعتاً لقوله ﴿ أزواجاً ﴾ لأنها المحدث عنها .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون صفة للنبات ، والنبات مصدر سُمِّيَ به النابت كما سُمِّيَ بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع ، يعني أنها ﴿ شتى ﴾ مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم .

قالوا : من نعمته عز وجل أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أمر إباحة معمول لحال محذوفة أي ﴿ فأخرجنا ﴾ قائلين أي آذنين في الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها ، عُدِيّ هنا ﴿ وارعوا ﴾ ورعى يكون لازماً ومتعدياً تقول : رعت الدابة رعياً ، ورعاها صاحبها رعاية إذا سامها وسرحها وأراحها قاله الزجاج .

وأشار بقوله ﴿ إن في ذلك ﴾ للآيات السابقة من جعل الأرض مهداً وسلك سبلها وإنزال الماء وإخراج النبات .

وقالوا ﴿ النُّهى ﴾ جمع نهية وهو العقل سُمِّيَ بذلك لأنه ينهى عن القبائح ، وأجاز أبو علي أن يكون مصدراً كالهدى .

والضمير في ﴿ منها ﴾ يعود على الأرض ، وأراد خلق أصلهم آدم .

وقيل : ينطلق الملك إلى تربة المكان الذي يدفن فيه من يخلق فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً قاله عطاء الخراساني .

وقيل : من الأغذية التي تتولد من الأرض فيكون ذلك تنبيهاً على ما تولدت منها الأخلاط المتولد منها الإنسان فهو من باب مجاز المجاز ﴿ وفيها نعيدكم ﴾ أي بالدفن بها أو بالتمزيق عليها ﴿ ومنها نخرجكم تارة ﴾ بالبعث ﴿ تارة ﴾ مرة ﴿ أخرى ﴾ يؤلف أجزاءهم المتفرقة ويردّهم كما كانوا أحياء .

وقوله ﴿ أخرى ﴾ أي إخراجة أخرى لأن معنى قوله ﴿ منها خلقناكم ﴾ أخرجناكم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(50/497)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون بعد ما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به ، وإنما طُوي ذكرُه للإيجاز والإشعارِ بأنهما كما أُمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير تلعثم ، وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ لم يُضِف الربَّ إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جئْنَاكَ بِآيَةٍ مّن رَّبّكَ ﴾ لغاية عتوّه ونهاية طُغيانه بل أضافه إليهما لما أن المرسَل لا بد أن يكون رباً للرسول ، أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبّ العالمين ﴾ كما وقع في

سورة الشعراءِ ، والاقتصارُ ها هنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصودُ والفاءُ لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولَيْ ربِّهما ، أي إذا كنتما رسولَي ربِّكما فأخبِراني مَنْ ربُّكما الذي أرسلكما ، وتخصيصُ النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطابِ إليهما لما أنه الأصلُ في الرسالة وهارونُ وزيرُه ، وأما ما قيل من أن ذلك لأنه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رُتّةً فأراد أن يُفحِمه فيردُّه ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيانِ القاطعِ لذلك الطمعِ الفارغ ، وأما قوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ فمن غلوّه في الخُبث والدعارة كما مر .

(51/497)

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام مجيباً له : ﴿ رَبَّنَا ﴾ إما مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ﴾ خبرُه أو هو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والموصولُ صفتُه ، وأياً ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسَهما فقط حسبما أراد اللعينُ بل جميعَ المخلوقاتِ تحقيقاً للحق ورداً عليه كما يُفصح عنه ما في حيز الصلة ، أي هو ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيء من الأشياء خلقَه أي صورتَه وشكلَه اللائقَ بما نيط به من الخواصّ والمنافعِ ، أو أعطى مخلوقاتِه كلَّ شيء تحتاج هي إليه وترتفق به ، وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به ، أو

أعطى كلَّ حيوان نظيرَه في الخلق والصورة حيث زوّج الحصانَ بالحِجْر والبعيرَ بالناقة والرجلَ بالمرأة ولم يزوِّج شيئاً من ذلك بخلاف جنسِه ، وقرىء خَلَقه على صيغة الماضي على أن الجملة صفةٌ للمضاف أو المضافِ إليه ، وحَذفُ المفعولِ الثاني إما للاقتصار على الأول أي كلَّ شيء خلقه الله تعالى لم يحرِمْه من عطائه وإنعامِه ، أو للاختصار من كونه منوياً مدلولاً عليه بقرينة الحالِ أي أعطى كلَّ شيء خلقه الله تعالى ما يحتاج إليه .

(52/497)

﴿ ثُمَّ هدى ﴾ أي إلى طريق الانتفاعِ والارتفاق بما أعطاه وعرّفه كيف يَتوصّل إلى بقائه وكماله إما اختياراً كما في الحيوانات أو طبعاً كما في الجمادات والقُوى الطبيعية النباتية والحيوانية ، ولمّا كان الخلقُ الذي هو عبارةٌ عن تركيب الأجزاءِ وتسويةِ الأجسام متقدماً على الهداية التي هي عبارةٌ عن إيداع القُوى المحرِّكةِ والمدْرِكة في تلك الأجسامِ وُسِّط بينهما كلمةُ التراخي ، ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابَه على نمط رائقٍ وأسلوب لائقٍ حيث بيّن أنه تعالى عالمٌ قادرٌ بالذات خالقٌ لجميع الأشياء مُنعِمٌ عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضلِ ، وضمّنه أن إرسالَه تعالى إياه إلى الطاغية من جملة هداياته سبحانه إياه بعد أن

هداه إلى الحق بالهدايات التكوينيةِ حيث ركّب فيه العقلَ وسائرَ المشاعرِ والآلاتِ الظاهرةِ والباطنة .

(53/497)

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الاولى ﴾ لما شاهد اللعينُ ما نظمه عليه الصلاة والسلام في سلك الاستدلالِ من البرهان النيّر على الطراز الرائع خاف أن يُظهر للناس حقّيةَ مقالاتِه عليه الصلاة والسلام وبُطلانَ خرافات نفسِه ظهوراً بيّناً فأراد أن يصرِفه عليه الصلاة والسلام عن سَننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلّق لها بالرسالات من الحكايات ، ويشغَلَه عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوعُ غفلةٍ فيتسلق بذلك إلى أن يدّعيَ بين يدي قومه نوعَ معرفة ، فقال : ما حالُ القرونِ الماضية والأممِ الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصّلة ؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام : بأن العلمَ بأحوالهم مفصّلةً مما لا ملابسة له بمنصِب الرسالة وإنما علمُها عند الله عز وجل ، وأما ما قيل من أنه سأله عن حال مَنْ خلا من القرون وعن شقاء من شقيَ منهم وسعادةِ من سعِد فيأباه قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبّى ﴾ فإن معناه أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما أنا عبدٌ لا أعلم منها إلا ما علّمنيه من الأمور المتعلقة بما أُرسلت به ، ولو كان المسؤولُ عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادةِ لأجيب

ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلِم ومن تولى فقد عُذّب حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ والسلام ﴾ الآيتين ﴿ فِى كتاب ﴾ أي مُثْبتٌ في اللوح المحفوظِ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلاً لتمكنه وتقرّره في علم الله عز وجل بما استحفظه العالَم ، وقيده بالكَتَبة كما يلوح به قوله تعالى ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبّى وَلاَ يَنسَى ﴾ أي لا يُخطِىء ابتداءً ولا يذهب علمه بقاءً بل هو ثابتٌ أبداً فإنهما مُحالان عليه سبحانه ، وهو على الأول لبيان أن إثباتَه في اللوح ليس لحاجته تعالى إليه في العلم به ابتداءً أو بقاءً ، وإظهارُ ربي في موقع الإظمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقريرِ والإشعار بعلة الحُكم فإن الربوبيةَ مما يقتضي عدمَ الضلالِ والنسيانِ حتماً ، ولقد

(54/497)

أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجوا عبقري بديعٍ حيث كشف عن حقيقة الحقِّ حجابَها مع أنه لم يخرُجْ عما كان بصدده من بيان شؤونه تعالى ثم تخلّص إليه حيث قال بطريق الحكايةِ عن الله عز وجل لما سيأتي من الالتفات : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ على أن الموصولَ إما مرفوعٌ على المدح أو منصوبٌ عليه أو خبرُ مبتدأ محذوف ، أي جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذاتَ مهدٍ وهو مصدرٌ سُمّي به المفعولُ ، وقرىء مِهاداً

وهو اسمٌ لما يُمْهد كالفِراش أو جمعُ مهد أي جعل كلَّ موضع منها مهداً لكل واحد منكم ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي حصّل لكم طرقاً ووسّطها بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من قُطْر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها .

(55/497)

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ هو المطر ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماءِ وهو عطفٌ على أنزل داخلٌ تحت الحكاية ، وإنما التُفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدِلالة على كمال القدرةِ والحكمة ، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مُطاعٍ عظيمِ الشأن تنقاد لأمره وتُذعِن لمشيئته الأشياءُ المختلفة كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثمرات مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ السماء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ خلا أن ما قبل الالتفاتِ هناك صريحُ كلامِه تعالى وأما هاهنا فحكايةٌ عنه تعالى وجَعْلُ قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ هو المحكيَّ مع كون ما قبله كلامَ موسى عليه الصلاة والسلام خلافُ الظاهر مع أنه يفوّت حينئذ الالتفاتَ لعدم اتحادِ المتكلم ﴿ أزواجا ﴾ أصنافاً سميت بذلك لازدواجها واقترانِ بعضِها ببعض ﴿ مّن نبات ﴾ بيانٌ أو صفةٌ لأزواجاً أي كائنة من نبات وكذا قوله

تعالى : ﴿ شتى ﴾ أي متفرقة جمعُ شتيت ، ويجوز أن يكون صفةً لنبات لما أنه في الأصل مصدرٌ يستوي فيه الواحد والجمع ، يعني أنها شتّى مختلفةٌ في الطعم والرائحة والشكل والنفع ، بعضُها صالحٌ للناس على اختلاف وجوهِ الصلاح وبعضُها للبهائم ، فإن من تمام نعمته تعالى أن أرزاقَ عبادِه لما كان تحصّلها بعمل الأنعامِ جعل علَفها مما يفضُل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاماً لهم .

(56/497)

وقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أي أخرجنا منها أصنافَ النباتِ قائلين : كلوا وارعَوا أنعامَكم أي معدّيها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من شؤونه تعالى وأفعاله ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو رتبتِه وبُعْدِ منزلته في الكمال ، والتنكيرُ في قوله تعالى : ﴿ لآيَاتٍ ﴾ للتفخيم كماً وكيفاً أي لآياتٍ كثيرةً جليلةً واضحةَ الدِلالة على شؤون الله تعالى في ذاته وصفاتِه وأفعاله ، وعلى صحة نبوةِ موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ﴿ لأُوْلِى النهى ﴾ جمع نُهْية سمّي بها العقل لُنهيه عن اتباع الباطلِ وارتكاب القبائح كما سمّي بالعقل والحِجْر لعقله وحَجْره عن ذلك ، أي لذوي العقولِ الناهية عن الأباطيل التي من

جملتها ما يدّعيه الطاغية ويقبله منه فئتُه الباغية ، وتخصيصُ كونها آياتٍ بهم مع أنها آياتٌ للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها .

(57/497)

﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ أي في ضمن خلقِ أبيكم آدمَ عليه الصلاة والسلام منها فإن كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من خلقه عليه الصلاة والسلام إذ لم تكن فطرتُه البديعةُ مقصورةً على نفسه عليه الصلاة والسلام ، بل كانت أنموذَجاً منطوياً على فطرة سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجمالياً مستتبِعاً لجَريان آثارِهما على الكل فكان خلقُه عليه الصلاة والسلام منها خلقاً للكل منها ، وقيل : المعنى خلقنا أبدانَكم من النُطفة المتولدة من الأغذية المتولّدة من الأرض بوسائطَ ، وقيل : إن الملَك الموكلَ بالرحِم يأخذ من تربة المكان الذي يُدفن فيه المولود فيبدّدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بالإماتة وتفريقِ الأجزاء ، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدِلالة على الاستقرار المديدِ فيها ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتّتة المختلطةِ بالتراب على الهيئة السابقةِ وردِّ الأرواح إليها ، وكونُ هذا الإخراجِ تارةً أخرى باعتبار أن خلقَهم من الأرض إخراجٌ لهم منها وإن لم يكن على نهج التارةِ الثانيةِ ، والتارة في الأصل اسمٌ للتّوْر الواحد وهو الجرَيانُ ثم

أطلق على كل فَعْلة واحدة من الفَعَلات المتجددة كما مر في المرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(58/497)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون بعد ما أتياه وبلغاه ما أمرا به ، وإنما طوى ذكر ذلك للإيجاز والإشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير ريث وبان ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ، وجاء عن ابن عباس أنهما لما أمرا بإتيانه وقول ما ذكر له جاءا جميعاً إلى بابه فأقاما حينا لا يؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فدخلا وكان ما قص الله تعالى .

وأخرج أحمد .

وغيره عن وهب بن منبه أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بما أمر أقبل إلى فرعون في مدينة قد جعل حولها الأسد في غيضة قد غرسها والأسد فيها مع ساستها إذا أشلتها على أحد أكل وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة فأقبل موسى عليه السلام من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون فلما رأته الأسد صاحت صياح الثعالب فأنكر ذلك الساسة

وفرقوا من فرعون فأقبل حتى انتهى إلى الباب فقرعه بعصاه وعليه جبة صوف وسراويل فلما رآه البواب عجب من جرأته فتركه ولم يأذن له فقال : هل تدري باب من أنت تضرب إنما أنت تضرب باب سيدك ؟ قال : أنت وأنا وفرعون عبيد لربي فأنا ناصره فأخبر البواب الذي يليه من البوابين حتى بلغ ذلك أدناهم ودونه سبعون حاجباً كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله تعالى حتى خلص الخبر إلى فرعون فقال : ادخلوه علي فلما أتاه قال له فرعون : أعرفك ؟ قال : نعم قال : ألم نربك فينا وليداً فرد إليه موسى عليه السلام الذي رد قال فرعون .

(59/497)

خذوه فبادر عليه السلام فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت فقال : يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه قال موسى : لم أومر بذلك إنما أمرت بمناجزتك وإن أنت لم تخرج إلي دخلت عليك فأوحى الله تعالى إليه أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أنت اجعل ذلك فقال فرعون : أجعله إلى أربعين يوماً ففعل وكان لا يأتي الخلاء إلا في كل أربعين يوماً مرة فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة وخرج موسى عليه السلام

من المدينة فلما مر بالأسد خضعت له بأذنابها وسارت معه تشيعه ولا تهيجه ولا أحداً من بني إسرائيل ، والظاهر أن هارون كان معه حين الإتيان ، ولعله إنما لم يذكر في هذا الخبر اكتفاءً بموسى عليه السلام ، وقيل : إنهما حين عرضا عليهما السلام على فرعون ما عرضا شاور آسية فقالت : ما ينبغي لأحد أن يرد ما دعيا إليه فشاور هامان وكان لا يبت أمراً دون رأيه فقال له : كنت أعتقد أنك ذو عقل تكون مالكاً فتصير مملوكاً وربا فتصير مربوباً فامتنع من قبول ما عرض عليه موسى عليه السلام ، وظاهر هذا أن المشاورة قبل المقاولة ، ويحتمل أنها بعدها والأولى في أمثال هذه القصص الاكتفاء بما في المنزل وعدم الالتفات إلى غيره إلا أن يوثق بصحته أولاً يكون في المنزل ما يعكر عليه كالخبر السابق فإن كون فرعون جعل الأجل يعكر عليه ما سيأتي إن شاء الله تعالى من قول موسى عليه السلام حين طلب منه فرعون أن يجعل موعداً

﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ [طه : 59] ، والظاهر عدم تعدد الحادثة والجملة استئناف بياني كأنه قيل فماذا قال حين أتياه وقالا له ما قالا ؟ فقيل : قال ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى موسى ﴾ لم يضف الرب إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ

﴾ [طه : 47] وقوله سبحانه : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه : 47] لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه إليهما لما أن المرسل لا بد أن يكون رباً للرسول ، وقيل : لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ كما وقع في سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود ، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولي ربهما أي إذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبرا من ربكما الذي أرسلكما ، وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لما ظهر له من أنه الأصل في الرسالة وهارون وزيره ، ويحتمل أن يكون للتعريض بأنه ربه كما قال : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ [الشعراء : 18] ، قيل : وهذا أوفق بتلبيسه على الأسلوب الأحمق ، وقيل : لأنه قد عرف أن له عليه السلام رتة فأراد أن يسكته .

وهو مبني على ما عليه كثير من المفسرين من بقاء رتة في لسانه عليه السلام في الجملة وقد تقدم الكلام في ذلك .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام واستبد بالجواب من حيث أنه خص بالسؤال ﴿ رَبَّنَا ﴾ مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ الذى أعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ﴾ خبره ، وقيل : هو خبر مبتدأ

محذوف أي هو ربنا والموصول صفته، والظاهر أنه عليه السلام أراد بضمير المتكلم نفسه وأخاه عليهما السلام.

(61/497)

وقال بعض المحققين: أراد جميع المخلوقات تحقيقاً للحق ورداً على اللعين كما يفصح عنه ما في حيز الصلة و﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مفعول أول لأعطى و﴿ خَلَقَهُ ﴾ مفعوله الثاني وهو مصدر بمعنى اسم المفعول والضمير المجرور لشيء والعموم المستفاد من ﴿ كُلَّ ﴾ يعتبر بعد إرجاعه إليه لئلا يرد الاعتراض المشهور في مثل هذا التركيب، والظاهر أنه عموم الأفراد أي أعطى كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، وقيل: الخلق باق على مصدريته بمعنى الإيجاد أي أعطى كل شيء الإيجاد الذي استعد له أو اللائق به بمعنى أنه تعالى أوجد كل شيء حسب استعداده أو على الوجه اللائق به وهو كما ترى.

وحمل بعضهم العموم على عموم الأنواع دون عموم الأفراد ، وقيل : إن ذلك لئلا يلزم الخلف ويرد النقض بأن بعض الأفراد لم يكمل لعارض يعرض له ، والحق أن الله تعالى راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلاً ورحمة لا وجوباً وهذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة كما نقل "صاحب المواقف" و"عيون الجواهر" فكل شيء كامل في مرتبته حسن في حد ذاته فقد قال تعالى : ﴿ العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : 6 ، 7] وجعل العموم في هذا عموم الأنواع مما لا يكاد يقول به أحد ، وقال سبحانه : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ أي من حيث إضافته إلى الرحمن وخلقه إياه على طبق الحكمة بمقتضى الجودة والرحمة ، والتفاوت بين الأشياء إنما هو إذا أضيف بعضها إلى بعض فالعدول عما هو الظاهر من عموم الأفراد إلى عموم الأنواع لما ذكر ناشيء من قلة التحقيق ، وقيل : إن سبب العدول كون ﴿ أعطى ﴾ حقيقة في الماضي فلو حمل كل شيء على عموم الأفراد يلزم أن يكون جميعه قد وجد وأعطى مع أن منها بل أكثرها لم يوجد ولم يعط بعد بخلاف ما إذا حمل على عموم الأنواع فإنه لا محذور فيه إذ الأنواع جميعها قد وجد ولا يتجدد بعد ذلك نوع وإن كان ذلك ممكناً وفيه بحث ظاهر فليفهم .

وروى عن ابن عباس .

وابن جبير .

والسدي أن المعنى أعطى كل حيوان ذكر نظيره في الخلق والصورة أنثى وكأنهم جعلوا كلا للتكثير وإلا فالعموم مطلقاً باطل كما لا يخفى ، وعندي أن هذا المعنى من فروع المعنى السابق الذي ذكرناه ، ولعل مراد من قاله التمثيل وإلا فهو بعيد جداً ولا يكاد يقوله من نسب إليه .

(63/497)

وقيل : ﴿ خَلَقَهُ ﴾ هو المفعول الأول والمصدر بمعنى اسم المفعول أيضاً ، والضمير المجرور للموصول و ﴿ كُلَّ شَىْء ﴾ هو المفعول الثاني والمعنى أعطى مخلوقاته سبحانه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، وقدم المفعول الثاني للاهتمام به من حيث أن المقصود الامتنان به ونسب هذا القول إلى الجبائي ، والأول أظهر لفظاً ومعنى .

وقرأ عبد الله .

وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأبو نهيك .

وابن أبي إسحق .

والأعمش .

والحسن .

ونصري عن الكسائي .

وابن نوح عن قتيبة وسلام ﴿ خَلَقَهُ ﴾ على صيغة الماضي المعلوم على أن الجملة صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ ، وحذف المفعول الثاني اختصاراً لدلالة قرينة الحال عليه أي أعطى كل شيء خلقه تعالى ما يصلحه أو ما يحتاج إليه وجعل ذلك الزمخشري من باب يعطي ويمنع أي كل شيء خلقه سبحانه لم يخله من عطائه وإنعامه ، ورجحه في "الكشف" بأنه أبلغ وأظهر ، وقيل : الأول أحسن صناعة وموافقة للمقام وهو عندي أوفق بالمعنى الأولى للقراءة الأولى وفيما ذكره في "الكشف" تردد .

﴿ ثُمَّ هدى ﴾ أي أرشد ودل سبحانه بذلك على وجوده وجوده فإن من نظر في هذه المحدثات وما تضمنته من دقائق الحكمة علم أن لها صانعاً واجب الوجود عظيم العطاء والجود ، ومحصل الآية ربنا الذي خلق كل شيء حسب استعداده أو على الوجه اللائق به وجعله دليلاً عليه جل جلاله ، وهذا الجعل وإن كان متأخراً بالذات عن الخلق وليس بينهما تراخ في الزمان أصلاً لكنه جيء بكلمة ثم للتراخي بحسب الرتبة كما لا يخفى وجهه على المتأمل ، وفي إرشاد العقل السليم ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما

أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختياراً كما في الحيوانات أو طبعاً كما في الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية.

(64/497)

ولما كان الخلق هو تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدماً على الهداية التي هي عبارة عن إبداع القوى المحركة والمدركة في تلك الأجساد وسط بينهما كلمة التراخي انتهى، ولا يخفى عليك أن الخلق لغة أعم مما ذكره وأن القوى المحركة والمدركة داخلة في عموم ﴿ كُلَّ شَىْء ﴾ سواء كان عموم الأفراد أو عموم الأنواع وأنه لا بد من ارتكاب نوع من المجاز في ﴿ هُدًى ﴾ على تفسيره، وقيل: على التفسير المروي عن ابن عباس ومن معه ثم هداه إلى الاجتماع بألفه والمناكحة، وقيل غير ذلك، ولله تعالى در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالباً للحق، ومن هنا قيل: كان من الظاهر أن يقول عليه السلام: ربنا رب العالمين لكن سلك طريق الإرشاد والأسلوب الحكيم وأشار إلى حدوث الموجودات بأسرها واحتياجها إليه سبحانه واختلاف مراتبها وأنه تعالى هو القادر الحكيم الغني المنعم على الإطلاق.

(65/497)

واستدل بالآية على أن فرعون كان عارفاً بالله تعالى إلا أنه كان معانداً لأن جملة الصلة لا بد أن تكون معلومة ومتى كانت هذه الجملة معلومة له كان عارفاً به سبحانه ، وهذا مذهب البعض فيه عليه اللعنة ، واستدلوا له أيضاً بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض ﴾ [الإسراء : 102] وقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] وقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 93] فإنه ليس فيه إلا إنكار المعاد دون المبدأ وقوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23-27] إلى قوله سبحانه ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ فإنه عنى به أني أطلب منه شرح الماهية وهو يشرح الوجود فدل على أنه معترف بأصل الوجود وبأن ملكه لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ألا ترى أن موسى عليه السلام لما هرب إلى مدين قال له شعيب : ﴿ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ [القصص : 52] فكيف يعتقد أنه إله العالم وبأنه كان عاقلاً ضرورة أنه كان مكلفاً وكل عاقل يعلم بالضرورة أنه وجد بعد العدم ، ومن كان كذلك افتقر إلى مدبر فيكون قائلاً بالمدبر وبأنه سأل ههنا بمن طالباً للكيفية ، وفي الشعراء بما طالباً للماهية .

والظاهر أن السؤال بمن سابق فكأن موسى عليه السلام لما أقام الدلالة على الوجود ترك

المنازعة معه في هذا المقام لعلمه بظهوره وشرع في مقام أصعب لأن العلم بما هيته تعالى غير حاصلة للبشر .

(66/497)

ولا يخفى ما في هذه الأدلة من القيل والقال ، ومن الناس من قال : إنه كان جاهلاً بالله تعالى بعد اتفاقهم على أن العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنه خالق السموات والأرض وما فيهما واختلفوا في كيفية جهله فيحتمل أنه كان دهرياً نافياً للصانع أصلاً ولعله كان يقول بعدم احتياج الممكن في وجوده إلى مؤثر وإن وجود العالم اتفاقي كما نقل عن ديمقراطيس وأتباعه ، ويحتمل أنه كان فلسفياً قائلاً بالعلة الموجبة ، ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب .

ويحتمل أنه كان من عبدة الأصنام ، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب على من تحت يده طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال باطعة غيره ، واستدل بشروعه في المناظرة وطلب الحجة دون السفاهة والشغب مع كونه جباراً شديد البطش على الشغب والسفاخة مع من يدعو إلى الحق في غاية القبح فلا ينبغي لمن يدعي الإسلام والعلم أن يرتضي لنفسه ما لم يرتضه فرعون لنفسه .

وباشتغال موسى عليه السلام بإقامة الدليل على المطلوب على فساد التقليد في أمثال هذا

المطلب وفساد قول القائل: إن معرفة الله تعالى تستفاد من قول الرسول، وبحكاية كلام فرعون وجواب موسى عليه السلام على أنه يجوز حكاية كلام المبطل مقروناً بالجواب لئلا يبقى الشك، وعلى أن المحق يجب عليه استماع شبهة المبطل حتى يمكنه الاشتغال بحلها.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) ﴾

لما شاهد اللعين ما نظمه عليه السلام في سلك الجواب من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه السلام وبطلان خرافات نفسه ظهوراً بينا أراد أن يصرفه عليه السلام عن سننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلق لها في نفس الأمر بالرسالة من الحكايات موهماً أن لها تعلقاً بذلك ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك إلى أن يدعي بين يدي قومه نوع معرفة، فقال ﴿ فَمَا بَالُ ﴾ الخ.

(67/497)

وأصل البال الفكر يقال: خطر ببالي كذا ثم أطلق على الحال التي يعتني بها وهو المراد، ولا يثني ولا يجمع إلا شذوذاً في قولهم بالآت.

وكأن الفاء لتفريع ما بعدها على دعوى الرسالة أي إذا كنت رسولاً فأخبرني ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة.

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ أي إن ذلك من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما إنا عبد لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بالرسالة والعلم بأحوال القرون وما جرى عليهم على التفصيل مما لا ملابسة فيه بمنصب الرسالة كما زعمت.

وقيل: إنما سأله عن ذلك ليختبر أنه نبي أو هو من جملة القصاص الذين دارسوا قصص الأمم السالفة، وقال النقاش: إن اللعين لما سمع وعظ مؤمن آل فرعون ﴿ يا قوم إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مّثْلَ يَوْمِ الاحزاب ﴾ [غافر: 30] الآية سأل عن ذلك فرد عليه السلام علمه إلى الله تعالى لأنه لم يكن نزلت عليه التوراة فإنه كان نزولها بعد هلاك فرعون.

(68/497)

وقال بعضهم: إن السؤال مبني على قوله عليه السلام ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه: 47] الخ أي فما حال القرون السالفة بعد موتهم من السعادة والشقاوة والمراد بيان ذلك تفصيلاً كأنه قيل: إذا كان الأمر كما ذكرت ففصل لنا حال من مضى من السعادة والشقاوة ولذا رد عليه السلام العلم إلى الله عز وجل فاندفع ما قيل: إنه لو كان المسؤول

عند ما ذكر من السعادة والشقاوة لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ والسلام ﴾ [طه : 47] الخ ، وقيل : إنه متعلق بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ [طه : 48] الخ أي إذا كان الأمر كذلك فما بال القرون الأولى كذبوا ثم ما عذبوا ، وقيل : هو متعلق به والسؤال عن البعث والضمير في ﴿ عِلْمُهَا ﴾ للقيامة وكلا القولين كما ترى ؛ وعود الضمير على القيامة أدهى من أمر التعلق وأمر .

(69/497)

وقيل : إنه متعلق بجواب موسى عليه السلام اعتراضاً على ما تضمنه من علمه تعالى بتفاصيل الأشياء وجزئياتها المستتبع إحاطة قدرته جل وعلا بالأشياء كلها كأنه قيل : إذا كان علم الله تعالى كما أشرت فما تقول في القرون الخالية مع كثرتهم وتمادى مدتهم وتباعد أطرافهم كيف إحاطة علمه تعالى بهم وبأجزائهم وأحوالهم فأجاب بأن علمه تعالى محيط بذلك كله إلى رخر ما قص الله تعالى ، وتخصيص القرون الأولى على هذا بالذكر مع أولوية التعميم قيل لعلم فرعون ببعضها وبذلك يتمكن من معرفة صدق موسى عليه السلام : إن يبن أحوالها ، وقيل : إنه لالزام موسى عليه السلام وتبكيته عند قومه في أسرع وقت لزعمه

أنه لو عمم ربما اشتغل موسى عليه السلام بتفصيل علمه تعالى بالموجودات المحسوسة الظاهرة فتطول المدة ولا يتمشى ما أراده ، وأياً كان يسقط ما قيل : إنه يأبى هذا الوجه تخصيص القرون الأولى من بين الكائنات فإنه لو أخذها بجملتها كان أظهر وأقوى في تمشي ما أراد ، نعم بعد هذا الوجه مما لا ينبغي أن ينكر ، وقيل : إنه اعتراض عليه بوجه آخر كأنه قيل : إذا كان ما ذكرت من دليل إثبات المبدأ في هذه الغاية من الظهور فما بال القرون الأولى نسوه سبحانه ولم يؤمنوا به تعالى فلو كانت الدلالة واضحة وجب عليهم أن لا يكونوا غافلين عنها ومرله على ما قال الإمام معارضة الحجة بالتقليد ، وقريب منه ما يقال إنه متعلق بقوله :

﴿ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] على التفسير الأول كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فما بال القرون الأولى لم يستدلوا بذلك فلم يؤمنوا .

وحاصل الجواب على القولين أن ذلك من سر القدر وعلمه عند ربي جل شأنه ﴿ فِى كتاب ﴾ الظاهر أنه خبر ثان لعلمها والخبر الأول ﴿ عِندَ رَبّى ﴾ .

وجوز أن يكونا خبراً واحداً مثل هذا حلو حامض وأن يكون الخبر ﴿ عِندَ رَبّى ﴾ .

و﴿ فِى كتاب ﴾ في موضع الحال من الضمير المستتر في الظرف أو هو معمول له .

وأن يكون الخبر في كتاب ﴿ وَعِندَ رَبِّى ﴾ في موضع الحال من الضمير المستتر فيه والعامل والظرف وهو يعمل متأخراً على رأي الأخفش ، وقيل : يكون حالاً من المضاف إليه في ﴿ عِلْمُهَا ﴾ ، وقيل : يكون ظرفاً للظرف الثاني ، وقيل : هو ظرف للعلم ذكر جميع ذلك أبو البقاء ثم قال : ولا يجوز أن يكون ﴿ فِى كتاب ﴾ متعلقاً بعلمها و ﴿ عِندَ رَبِّى ﴾ الخبر لأن المصدر لا يعمل فيما بعد خبره .

وأنت تعلم أن أول الأوجه هو الأوجه وكأنه عنى عليه السلام بالكتاب اللوح المحفوظ أي علمها مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله وهذا من باب المجاز إذ المثبت حقيقة إنما هو النقوش الدالة على الألفاظ المتضمنة شرح أحوالهم المعلومة له تعالى ، وجوز أن يكون المراد بالكتاب الدفتر كما هو المعروف في اللغة ويكون ذلك تمثيلاً لتمكنه وتقرره في علمه عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بكتبته في جريده ولعله أولى ، ويلوح إليه قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ فإن عدم الضلال والنسيان أوفق باتقان العلم ، والظاهر أن فيه على الوجهين دفع توهم الاحتياج لأن الإثبات في الكتاب إنما يفعله من يفعله لخوف النسيان والله تعالى منزه عن ذلك ، والإثبات في اللوح المحفوظ لحكم ومصالح يعلم بعضها العالمون ، وقيل : إن هذه الجملة على الأول تكميل لدفع ما يتوهم من أن الإثبات في اللوح للاحتياج لاحتمال خطأ أو نسيان تعالى الله سبحانه عنه ، وعلى الثاني تذييل لتأكيد الجملة السابقة

، والمعنى لا يخطىء ربي ابتداء بأن لا يدخل شيء من الأشياء في واسع علمه فلا يكون علمه سبحانه محيطاً بالأشياء ولا يذهب عليه شيء بقاء أن يخرج عن دائرة علمه جل شأنه بعد أن دخل بل هو عز وجل محيط بكل شيء علماً أزلاً وأبداً وتفير الجملتين بما ذكر مما ذهب إليه القفال ووافقه بعض المحققين ولا يخفى حسنه .

وأخرج ابن المنذر .

(71/497)

وجماعة عن مجاهد أنهما بمعنى واحد وليس بذاك ، والفعلان قيل : منزلان منزلة اللازم ، وقيل : هما باقيان على تعديهما والمفعول محذوف أي لا يضل شيئاً من الأشياء ولا ينساه ، وقيل : شيئاً من أحوال القرون الأولى ، وعن الحسن لا يضل وقت البعث ولا ينساه وكأنه جعل السئال عن البعث وخصص لأجله المفعول وقد علمت حاله .

وعن ابن عباس أن المعنى لا يترك من كفر به حتى ينتق منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه وكأنه رضي الله تعالى عنه جعل السؤال عن حالهم من حيث السعادة والشقاوة والجواب عن ذلك على سبيل الإجمال فتدبر ولا تغفل .

وزعم بعضهم أن الجملة في موضع الصفة لكتاب والعائد إليه محذوف أي لا يضله ربي ولا

ينساه، وقيل: العائد ضمير مستتر في الفعل و﴿ رَبِّى ﴾ نصب على المفعول أي لا يضل الكتاب ربي أي عنه.

وفي ﴿ يَنسَى ﴾ ضمير عائد إليه أيضاً أي ولا ينسى الكتاب شيئاً أي لا يدعه على حد ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: 49].

والعجب كل العجب من العدول عن الظاهر إلى مثل هذه الأقوال، وإظهار ﴿ رَبِّى ﴾ في موقع الإضمار للتلذذ بذكره تعالى ولزيادة التقرير والإشعار بعلية الحكم فإن الربوبية مما تقتضي عدم الضلال والنسيان حتماً.

وقرأ الحسن.

وقتادة.

والجحدري.

وحماد بن سلمة.

وابن محيصن.

وعيسى الثقفي ﴿ لاَّ يَضِلُّ ﴾ بضم الياء من أضل وأضللت الشيء وضللته قيل بمعنى.

وفي "الصحاح" عن ابن السكيت يقال: أضللت بعيري إذا ذهب منك وضللت المسجد والزاد إذا لم تعرف موضعهما وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدي إليه، وحكى نحوه عن افراء.

وابن عيسى ، وذكر أبو البقاء في توجيه هذه القراءة وجهين جعل ﴿ رَبِّى ﴾ منصوباً على المفعولية ، والمعنى لا يضل أحد ربي عن علمه وجعله فاعلاً والمعنى لا يجد ربي الكتاب ضالاً أي ضائعاً ، وقرأ السلمي ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ ببناء الفعلين لما لم يسم فاعله .

(72/497)

﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ الخ

يحتمل أن يكون ابتداء كلام منه عز وجل وكلام موسى عليه السلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] فيكون الموصول خبر مبتدأ محذوف والجملة على ما قيل : مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه سبحانه لما حكى كلام موسى عليه السلام إلى قوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] سئل ما أراد موسى بقوله : ﴿ رَبِّى ﴾ فقال سبحانه : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ ﴾ الخ ، واختار هذا الإمام بل قال : يجب الجزم به ؛ ويحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام على أن يكون قد سمعه من الله عز وجل فأدرجه بعينه في كلامه ولذا قال ﴿ لَكُمْ ﴾ دون لنا وهو من قبيل الاقتباس فيكون الموصول إما مرفوع المحل على أنه صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف كما في الاحتمال السابق وإما

منصوب على المدح، واختار هذا الزمخشري، وعلى الاحتمالين يكون في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ التفات بلا اشتباه أو على أن موسى عليه السلام قال ذلك من عنده غير سامع له من الله عز وجل، وقال: فاخرج به بإسناد أخرج إلى ضمير الغبة إلا أن الله تعالى لما حكاه أسنده إلى ضمير المتكلم لأن الحاكي هو المكي عنه فمرجع الضميرين واحد، وظاهر كلام ابن المنير اختيار هذا حيث قال بعد تقريره: وهذا وجه حسن رقيق الحاشية وهو أقرب الوجوه إلى الالتفات.

وأنكر بعضم أن يكون فيه التفات أو على أنه عليه السلام قاله من عنده بهذا اللفظ غير مغير عند الحكاية، وقوله: ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ من باب قول خواص الملك أمرنا وعمرنا وفعلنا وإنما يريدون الملك أو هو مسند إلى ضمير الجماعة بإرادة أخرجنا نحن معاشر العباد بذلك الماء بالحراثة أزواجاً من نبات شتى على ما قيل، وليس في ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ على هذا وما قبله التفات.

(73/497)

ويحتمل أن يكون ذلك كلام موسى عليه السلام إلى قوله تعالى: ﴿ مَاء ﴾ وما بعده كلام الله عز وجل أوصله سبحانه بكلام موسى عليه السلام حين الحكاية لنبينا صلى الله عليه

وسلم ، والأولى عندي الاحتمال الأول بل يكاد يكون كالمتعين ثم الاحتمال الثاني ثم الاحتمال الثالث وسائر الاحتمالات ليس بشيء ووجه ذلك لا يكاد يخفي .

وسيأتي إن شاء الله تعالى في الزخرف نحو هذه الآية ، والمهد في الأصل مصدر ثم جعل اسم جنس لما يمهد للصبي .

ونصبه على أنه مفعول ثان لجعل إن كان بمعنى صير أو حال إن كان بمعنى خلق ، والمراد جعلها لكم كالمهد ، ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته غير منقول لما ذكر ، والمراد جعلها ذات مهد أو ممهدة أو نفس المهد مبالغة ، وجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر منلفظه أي مهدها مهداً بمعنى بسطها ووطأها ، والجملة حال من الفاعل أو المفعول ، وقرأ كثير ﴿ مهادا ﴾ وهو على ما قال المفضل .

كالمهد في المصدرية والنقل .

(74/497)

وقال أبو عبيد : المهاد اسم والمهد مصدر ، وقال بعضهم : وقال بعضهم : هو جمع مهد ككعب وكعاب ، والمشهور في جمعه مهود ، والمعنى على الجمع جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي حصل لكم طرقاً ووسطها بين الجبال

والأودية تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ، وللدلالة على أن الانتفاع مخصوص بالإنسان كرر ﴿ لَكُمْ ﴾ وذكره أولاً لبيان أن المقصود بالذات من ذلك الإنسان ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ من جهتها أو منها نفسها على ما في بعض الآثار ﴿ مَاء ﴾ هو المطر ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء وواسطته حيث أن الله تعالى أودع فيه ما أودع كما ذهب إلى ذلك الماتريدية وغيرهم من السلف الصالح لكنه لا يؤثر إلا بأذن الله تعالى كسائر الأسباب فلا ينافي كونه عز وجل هو المؤثر الحقيقي ، وإنما فعل ذلك سبحانه مع قدرته تعالى الكاملة على إيجاد ما شاء بلا توسيط شيء كما أوجد بعض الأشياء كذلك مراعاة للحكمة .

وقيل : ﴿ بِهِ ﴾ أي عنده وإليه ذهب الإشاعرة فالماء كالنار عندهم في أنه فيه قوة الري مثلاً والنار كالماء في أنها ليس فيها قوة الإحراق وإنما الفرق بينهما في أن الله تعالى قد جرت عادته أن يخلق الري عند شرب الماء والإحراق عند مسيس النار دون العكس .

وزعموا أن من قال : إن في شيء من الأسباب قوة تأثير أودعها الله تعالى فيه فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الايمان وهو لعمري من المجازفة بمكان .

والظاهر أن يقال : فأخرج إلا أنه التفت إلى التكلف للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة بواسطة أنه لا يسند إلى العظيم إلا أمر عظيم والإيذان بأنه لا

يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن ينقاد لأمره ويذعن لمشيئته الأشياء المختلفة فإن مثل هذا التعبير يعبر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم .

(75/497)

ويقوي هذا الماضي الدال على التحقيق كالفاء الدالة على السرعة فإنها للتعقيب على ما نص عليه بعض المحققين وجعل الإنزال والإخراج عبارتين عن إرادة النزول والخروج معللاً باستحالة مزاولة العمل في شأنه تعالى شأنه .

واعترض عليه بما فيه بحث ولا يضر في ذلك كونه تعقيباً عرفياً ولم تجعل للسببية لأنها معلومة من الباء .

وقال الخفاجي : لك أن تقول إن الفاء لسببية الإرادة عن الإنزال والباء لسببية النبات عن الماء فلا تكرار كما في قوله تعالى : ﴿ لِّنُحْيِـيَ بِهِ ﴾ [الفرقان : 49] ولعل هذا أقرب انتهى .

وأنت تعلم أن التعقيب أظهر وأبلغ .

وقد ورد على هذا النمط من الالتفات للنكتة المذكورة قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر : 27] وقوله تعالى : ﴿

أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السماء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل : 60] وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ [الأنعام : 99] ﴿ أزواجا ﴾ أي أصنافاً أطلق عليها ذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض .

﴿ مّن نبات ﴾ بيان وصفة لأزواجا .

وكذا قوله تعالى : ﴿ شتى ﴾ أي متفرقة جمع شتيت كمريض ومرض وألفه للتأنيث ، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لنبات لما أنه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم .

وقالوا : من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله تعالى علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله .

(76/497)

وقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ معمول قول محذوف وقع حالاً من ضمير ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ [طه : 53] أي أخرجنا أصناف النبات قائلين ﴿ كُلُواْ ﴾ الخ أي معديها

لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك ، وجوز أن يكون القول حالاً من المفعول أي أخرجنا أزواجاً مختلفة مقولاً فيها ذلك .

والأول أنسب وأولى .

ورعى كما قال الزجاج يستعمل لازماً ومتعدياً ، يقال : رعت الدابة رعياً ورعاها صاحبها رعاية إذا إسامها وسرحها وأراحها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شؤنه تعالى .

وأفعاله وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الكمال ، وقيل : لعدم ذكر المشار إليه بلفظه .

والتنكير في قوله سبحانه ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ للتفخيم كما وكيفما أي لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون الله تعالى في ذاته وصفاته ﴿ لِّأُوْلِى النهى ﴾ جمع نهية بضم النون سمي بها العقل نهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبيح كما سمي بالعقل .

والحجر لعقله وحجره عن ذلك .

ويجيء النهي مفرداً بمعنى العقل كما في "القاموس" وهو ظاهر ما روى عن ابن عباس هنا فإنه قال : أي لذوي العقل ، وفي رواية أخرى عنه أنه قال : لذوي التقى .

ولعله تفسير باللازم .

وأجاز أبو علي أن يكون مصدراً كالهدي والأكثرون على الجمع أي لذوي العقول الناهية

عن الأباطيل وتخصيص كونها آيات بهم لأن أوجه دلالتها على شؤنه تعالى لا يعلمها إلا العقلاء ولذا جعل نفعها عائداً إليهم في الحقيقة فقال سبحانه : ﴿ كُلُواْ وارعوا ﴾ دون كلوا أنتم والأنعام .

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) ﴾

﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الأرض .

(77/497)

﴿ خلقناكم ﴾ أي في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام منها فإن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذا لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه السلام بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام منها خلقاً للكل منها ، وقيل : المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض بوسائط .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه الشخص فيذره على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بالإماتة

وتفريق الأجزاء ، وهذا وكذا ما بعد مبني على الغالب بناء على أن من الناس من لا يبلي جسده كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإيثار كلمة في على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها ﴿ وَمِنْهَا يُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الأرواح من مقرها إليها ، وكون هذا الإخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية أو التارة في الأصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ، ثم أطلق على كل فعلة واحد من الفعلات المتجددة كما مر في المرة ، وما ألطف ذكر قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ الخ بعد ذكر النبات وإخراجه من الأرض فقد تضمن كل إخراج أجسام لطيفة من الترباء الكثيفة وخروج الأموات أشبه شيء بخروج النبات هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(78/497)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) ﴾

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ويجعل له

وزيراً من أهله أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء ، فقال : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ أي : أعطيت ما سألته ، والسؤل المسؤول ، أي المطلوب ، كقولك : خبر بمعنى مخبور ، وزيادة قوله : ﴿ يا موسى ﴾ لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل ، وجملة : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه ، والمنّ : الإحسان والإفضال ، والمعنى : ولقد أحسنا إليك مرّة أخرى قبل هذه المرّة ، وهي حفظ الله سبحانه له من شرّ الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا ، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمّكَ مَا يوحى ﴾ أي مننا ذلك الوقت وهو وقت الإيحاء ، فإذ ظرف للإيحاء ، والمراد بالإيحاء إليها : إما مجرّد الإلهام لها ، أو في النوم بأن أراها ذلك ، أو على لسان نبيّ ، أو على لسان ملك ، لا على طريق النبوّة كالوحي إلى مريم ، أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر إليها ، والمراد بما يوحى : ما سيأتي من الأمر لها ، أبهمه أوّلاً ، وفسّره ثانياً ؛ تفخيماً لشأنه ، وجملة : ﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت ﴾ مفسرة ؛ لأن الوحي فيه معنى القول ، أو مصدرية على تقدير بأن اقذفيه ، والقذف ها هنا : الطرح ، أي اطرحيه في التابوت وقد مرّ تفسير التابوت في البقرة في قصة طالوت ﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ أي اطرحيه في البحر ، واليم : البحر أو النهر الكبير .

قال الفراء : هذا أمر وفيه المجازاة ، أي اقذفيه يلقه اليم بالساحل ، والأمر للبحر مبني على

تنزيله منزلة من يفهم ويميز ، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمراً واجب الوقوع .

والساحل : هو شط البحر ، سمي ساحلاً ، لأن الماء سحله ، قاله ابن دريد .

(79/497)

والمراد هنا : ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل ، والضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت ، وإن كان قد ألقي معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له ، وجملة : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ جواب الأمر بالإلقاء ، والمراد بالعدوّ : فرعون ، فإن أمّ موسى لما ألقته في البحر ، وهو النيل المعروف ، وكان يخرج منه نهر إلى دار فرعون ، فساقه الله في ذلك النهر إلى داره ، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه ؛ وقيل : إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه .

وقيل : وجدته ابنة فرعون ، والأوّل أولى .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ أي ألقى الله على موسى محبة كائنة منه تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه .

وقيل : جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه .

وقال ابن جرير : المعنى وألقيت عليك رحمتي .

وقيل: كلمة "مِنْ" متعلقة ب ﴿ ألقيت ﴾ ، فيكون المعنى: ألقيت مني عليك محبة أي أحببتك ، ومن أحبه الله أحبه الناس.

﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ أي ولتربى وتغذى بمرأى مني ، يقال: صنع الرجل جاريته: إذا رباها ، وصنع فرسه: إذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير ﴿ على عَيْنِي ﴾ : بمرأى مني صحيح.

قال النحاس: وذلك معروف في اللغة ، ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى ، فإن جميع الأشياء بمرآى من الله.

وقال أبو عبيدة وابن الأنباري: إن المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي ، تقول: أتخذ الأشياء على عيني ، أي على محبتي.

قال ابن الأنباري: العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار ، من قول العرب: غدا فلان على عيني ، أي على المحبة مني.

قيل: واللام متعلقة بمحذوف ، أي فعلت ذلك لتصنع ، وقيل: متعلقة ب ﴿ ألقيت ﴾ ، وقيل: متعلقة بما بعده ، أي ولتصنع على عيني قدّرنا مشي أختك.

وقرأ ابن القعقاع: "ولتصنع" بإسكان اللام على الأمر ، وقرأ أبو نهيك بفتح التاء.

والمعنى : ولتكون حركتك وتصرّفك بمشيئتي ، وعلى عين مني .

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ ظرف لألقيت ، أو لتصنع ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا ﴾ وأخته اسمها مريم ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره ، فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة ، فقالت لهما هذا القول ، أي هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ؟ فقالا لها : ومن هو ؟ قالت : أمي ، فقالا : هل لها لبن ؟ قالت : نعم لبن أخي هارون ، وكان هارون أكبر من موسى بسنة .

وقيل : بأكثر ، فجاءت الأم فقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثدي مرضعة غيرها ، وهذا هو معنى : ﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ ﴾ وفي مصحف أبيّ : " فرددناك " ، والفاء فصيحة .

﴿ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ قرأ ابن عامر في رواية عبد الحميد عنه : "كي تقرّ" بكسر القاف ، وقرأ الباقون بفتحها .

قال الجوهري : قررت به عيناً قرّة وقروراً ، ورجل قرير العين ، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ ، نقيض سخنت ، والمراد بقرّة العين : السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته في البحر وعظم عليها فراقه .

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ أي لا يحصل لها ما يكدّر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذي قرّت عينها بزواله لقدّم نفي الحزن على قرّة العين ، فيحمل

هذا النفي للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال : إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين .

(81/497)

وقيل : المعنى : ولا تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها ، وهو تعسف ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ المراد بالنفس هنا : نفس القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه ، وكان قتله له خطأ ﴿ فنجيناك مِنَ الغم ﴾ أي الغمّ الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً ؛ وقيل : الغمّ هو القتل بلغة قريش ، وما أبعد هذا ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة ، وبمعنى الأمر الشاقّ ، وكل ما يبتلى به الإنسان .

والفتون يجوز أن يكون مصدراً كالثبور والشكور والكفور ، أي ابتليناك ابتلاءً ، واختبرناك اختباراً ، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور في حجرة وبدور في بدرة ، أي خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التي سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته .

ولعلّ المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو : الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له ، وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون

وبني إسرائيل ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ قال الفراء : تقدير الكلام : وفتناك فتوناً ، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين ، ومثل هذا الحذف كثير في التنزيل ، وكذا في كلام العرب فإنهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً .

ومدين هي بلد شعيب ، وكانت على ثماني مراحل من مصر ، هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين ، وهي أتمّ الأجلين .

وقيل : أقام عند شعيب ثمان وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثماني عشرة سنة بقي فيها عنده حتى ولد له ، والفاء في : ﴿ فَلَبِثْتَ ﴾ تدل على أن المراد بالمحن المذكورة : هي ما كان قبل لبثه في أهل مدين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا موسى ﴾ أي في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبياً ، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به .

(82/497)

قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدرا . . . كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة : " ثم " المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدّة ، وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرّق غنمه ونحو ذلك .

﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ الاصطناع : اتخاذ الصنعة ، وهي الخير تسديه إلى إنسان ، والمعنى : اصطنعتك لوحيي ورسالتي لتتصرّف على إرادتي .

قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامة حجتي ، وجعلتك بيني وبين خلقي ، وصرت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم .

قيل : وهو تمثيل لما خوّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه .

﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ أي وليذهب أخوك ، وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ، ومعنى ﴿ بآياتي ﴾ : بمعجزاتي التي جعلتها لك آية ، وهي التسع الآيات .

﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا ، يقال : ونى يني ونياً : إذا ضعف .

قال الشاعر :

فما ونى محمد مذ أن غفر . . . له الإله ما مضى وما غبر

وقال امرؤ القيس :

يسيح إذا ما السابحات على الوني . . . أثرن غباراً بالكديد الموكل

قال الفراء : في ذكري وعن ذكري سواء ، والمعنى : لا تقصرا عن ذكري بالإحسان إليكما

، والإنعام عليكما وذكر النعمة شكرها .

وقيل : معنى ﴿ لا تنيا ﴾ : لا تبطئا في تبليغ الرسالة ، وفي قراءة ابن مسعود " لا تَنِيَا فِي ذِكْرِي " .

﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب ، وموسى حاضر وهارون غائب تغليباً لموسى ؛ لأنه الأصل في أداء الرسالة ، وعلل الأمر بالذهاب بقوله : ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ أي جاوز الحدّ في الكفر والتمرّد ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدّم ، وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده ، وتأكيداً للأمر بالذهاب بالتكرير .

وقيل : إن في هذا دليلاً على أنه لا يكفي ذهاب أحدهما .

(83/497)

وقيل الأوّل : أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس ، والثاني : أمر لهما بالذهاب إلى فرعون . ثم مرهما سبحانه بإلانة القول له لما في ذلك من التأثير في الإجابة ، فإن التخشين بادىء [ذي] بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر ، والقول اللين : هو الذي لا خشونة فيه ، يقال : لان الشيء يلين ليناً ، والمراد : تركهما للتعنيف ، كقولهما : ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ [النازعات : 18] .

وقيل : القول اللين هو الكنية له ، وقيل : أن يعداه بنعيم الدنيا إن أجاب ، ثم علل الأمر بالإنة القول له بقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ أي باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع ، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين : سيبويه وغيره .

وقد تقدّم تحقيقه في غير موضع قال الزجاج : " لَعَلَّ " لفظة طمع وترج ، فخاطبهم بما يعقلون .

وقيل : لعلّ ها هنا بمعنى الاستفهام .

والمعنى : فانظرا هل يتذكر أو يخشى ؟ وقيل : بمعنى كي .

والتذكر : النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة ، والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما ، وكلمة " أو " لمنع الخلوّ دون الجمع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ قال : هو النيل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنّي ﴾ قال : كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبته .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل قال : حببتك إلى عبادي .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني في قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِي ﴾ قال : تربى بعين الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : لتغذى على عيني .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : يقول أنت بعيني ، إذ جعلتك أمك في التابوت ، ثم في البحر ، وإذ تمشي أختك .

(84/497)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والخطيب عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ " يقول الله سبحانه : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فنجيناك مِنَ الغم ﴾ قال : " من قتل النفس " ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ قال : " أخلصناك إخلاصاً "

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ قال : ابتليناك ابتلاءً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : اختبرناك اختباراً .

وقد أخرج عبد بن حميد ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً في تفسير الآية ، فمن أحبّ استيفاء ذلك فلينظره في كتاب التفسير من سنن النسائي .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ ﴾ قال : لميقات .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وقتادة ﴿ على قَدَرٍ ﴾ قال : موعد .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ قال : لا تبطئا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ في قوله : ﴿ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ قال : كنِّه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : كنياه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ قال : هل يتذكر ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(85/497)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ ﴾ أي : فرعون : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي : منح كل شيء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواه بها وعدّله ، ثم هداه بأن وهبه العقل الذي يميز بين الخير والشر . وهذه

الآية في معناها كآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 - 8] ، وآية : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : 10] .

(86/497)

﴿ قَالَ ﴾ أي : فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ أي : ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعني ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخطئة والتكذيب ، بالعناد واللجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ ، محصى غير منسي . ويجوز أن يكون : ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ تمثيلاً لتمكنه وتقريره في علم الله عزّ وجلّ ، بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة . قال في العناية : فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه في جريدته ، حتى لا يذهب أصلاً ، فيكون قوله : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ ترشيحاً للتمثيل ، واحتراساً أيضاً . لأن من

يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزه عنه .

فالكتاب على هذا بمعناه اللغويّ . وهو الدفتر ، لا اللوح المحفوظ .

(87/497)

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ﴾ أي : فراشاً : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ أي : أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، في الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزمخشري قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد . يصرّف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون : ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ ثم قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ فإما أن يجعل من قول موسى ، فيكون باب قول خواص الملك : أمرنا وعمرنا وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله : ﴿ وَلا يَنْسَى ﴾ ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته

بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب . وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وُقَيْفَة عند قوله : ﴿ وَلا يَنْسَى ﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجهاً آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة . فقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ فلما حكاه الله تعالى عنه , أسند الضمير إلى ذاته . لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى . فمرجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزمخشري لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر .

(88/497)

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ حال من ضمير فَأَخْرَجْنَا على إرادة القول : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى مِنْهَا ﴾ أي : من الأرض : ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي : خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، والمتولدة من الأرض بوسائط : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي : بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى

﴿ أي : بردّهم كما كانوا ، أحياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 137.135 ﴾

(89/497)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن موسى وهارون لما بلغا فرعون ما أُمرا إياه قال لهما : من ربكما الذي تزعمان أنه أرسلكما إلي ! ؟ زاعماً أنه لا يعرفه . وأنه لا يعلم لهما إلهاً غير نفسه ، كما قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ، وقال : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] . وبين جلا وعلا في غير هذا الموضع أن قوله ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ تجاهل عارف بأنه عبد مربوب لرب العالمين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء : 102] الآية ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 13-14]

كما تقدم إيضاحه. وسؤال فرعون عن رب موسى، وجواب موسى له جاء موضحاً في سورة «الشعراء» بأبسط مما هنا، وذلك في قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين قَالَ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بشَيءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء: 23-33] إلى آخر القصة.

(90/497)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ فيه للعلماء أوجه لا يكذب بعضها بعضاً، وكلها حق، ولا مانع من شمول الآية لجميعها. منها أن معنى ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ أنه أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً. وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً. فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هدى الجميع

لطريق المنكح الذي منه النسل والنماء، كيف يأتيه، وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق علي بن أبي طلحة، وعن السدي وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ أي هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال بعض أهل العلم ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ أي: أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه، وهذا مروي عن الحسن وقتادة.

وقال بعض أهل العلم ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾: أي أعطى كل شيء صورته المناسبة له. فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كل شيء على الشكل المناسب له فقدره تقديراً، كما قال الشاعر:

وله في كل شيء خلقة... وكذاك الله ما شاء فعل

يعني بالخلقة: الصورة، وهذا القول مروي عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبير ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ كل صنف إلى رزقه وإلى زوجه.

وقال بعض أهل العلم ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ : أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع . وكذلك الأنف والرجل واللسان وغيرها ، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه . وهذا القول روي عن الضحاك . وعلى جميع هذه الأقوال المذكورة فقوله تعالى ﴿ كُلَّ شَيءٍ ﴾ هو المفعول الأول ل « أَعْطَى » ، و« خلقه » هو المفعول الثاني .

وقال بعض أهل العلم : إن « خلقه » هو المفعول الأول ، و« كل شيء » هو المفعول الثاني . وعلى هذا القول فالمعنى : أنه تعالى أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه ، ثم هداهم إلى طريق استعماله . ومعلوم أن المفعول من مفعولي باب كسا ومنه « أَعْطَى » في الآية لا مانع من تأخيره وتقديم المفعول الأخير إن أمن اللبس ، ولم يحصل ما يوجب الجري على الأصل كما هو معلوم في علم النحو . وأشار له في الخلاصة بقوله :

ويلزم الأصل لموجب عسرا . . . وترك ذاك الأصل حتما قد يرى

قال مقيده عفا الله عنه : ولا مانع من شمول الآية الكريمة لجميع الأقوال المذكورة . لأنه لا شكّ أن الله أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا ، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به . ولا شكّ أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له ، وأعطى كل ذكر وأنثى

الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع. وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به فسبحانه جل وعلا؟ ما أعظم شأنه وأكمل قدرته؟!

(92/497)

وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى هذه الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه جلا وعلا رب كل شيء، وهو المعبود وحده جل وعلا: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: 88].

وقد حرر العلامة الشيخ تقي الدين أبو العباس بن تيمية رحمه الله في رسالته في علوم القرآن: أن مثل هذا الاختلاف من اختلاف السلف في معاني الآيات ليس اختلافاً متضادا يكذب بعضه بعضاً، ولكنه اختلاف تنوعي لا يكذب بعضه بعضاً، والآيات تشمل جميعه، فينبغي حملها على شمول ذلك كله، وأوضح أن ذلك هو الجاري على أصول الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، وعزاه لجماعة من خيار أهل المذاهب الأربعة. والعلم عند الله تعالى.

(93/497)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54)

قرأ هذا الحرف عاصم وحمزة والكسائي « مَهْداً » بفتح الميم وإسكان الهاء من غير ألف. وقرأ الباقون من السبعة بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف. والمهاد: الفراش. والمهد بمعناه. وكون أصله مصدراً لا ينافي أن يُسْتَعْمَل اسماً للفراش.

وقوله في هذه الآية: ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ﴾ في محل رفع نعت ل « رَبِّي » من قوله قبله ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه: 52] أي لا يضل ربي الذي جعل لكم الأرض مهداً. ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف. أي هو الذي جعل لكم الأرض. ويجوز أن ينصب على المدح، وهو أجود من أن يقدر عامل النصب لفظة أعني، كما أشار إلى هذه الأوجه من الإعراب في الخلاصة بقوله:

وارفع أو انصب إن قطعت مضمراً . . . مبتدأ أو ناصباً لن يظهرا

هكذا قال غير واحد من العلماء. والتحقيق أنه يتعين كونه خبر مبتدأ محذوف. لأنه كلام مستأنف من كلام الله. ولا يصح تعلقه بقول موسى ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي ﴾ لأن قوله ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ يعين أنه من كلام الله، كما نبه عليه أبو حيان في البحر، والعلم عند الله تعالى.

وقد بين جل وعلا في هاتين الآيتين أربع آيات من آياته الكبرى الدالة على أنه المعبود وحده.

ومع كونها من آيات على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده دون غيره فهي من النعم العظمى على بني آدم.

الأولى: فرشه الأرض على هذا النمط العجيب.

الثانية: جعله فيها سُبلاً يمر معها بنو آدم ويتوصلون بها من قطر إلى قطر.

الثالثة: إنزاله الماء من السماء على هذا النمط العجيب.

الرابعة: إخراجه أنواع النبات من الأرض.

(94/497)

أما الأولى التي هي جعله الأرض مهداً فقد ذكر الامتنان بها مع الاستدلال بها على أنه المعبود وحده في مواضع كثيرة من كتابه. كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ [الزخرف: 9-10] الآية، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً والجبال أَوْتَاداً ﴾ [النبأ: 6-7]، وقوله تعالى: ﴿ والأرض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الماهدون ﴾ [الذاريات: 48]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾ [الرعد: 3]

والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

وأما الثانية التي هي جعله فيها سبلاً فقد جاء الامتنان والاستدلال بها في آيات كثيرة .

كقوله في « الزخرف » : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 9-10] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 31] وقد قدمنا الآيات الدالّة على هذا في سورة « النحل » في الكلام على قوله :

(95/497)

﴿ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 15] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم . ونظيره في القرآن قوله تعالى في « الأنعام » : ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ [الأنعام : 99] الآية ، وقوله في « فاطر » ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر : 27] ، وقوله في « النمل » : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ

السماوات والأرض وأنزل لكم مّن السمآء مآءً فأنبتنا به حدآئق ذات بهجة ﴾ [النمل : 60] الآية .

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في إنبات النبات يدل على تعظيم شأن إنبات النبات لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئاً ليهلك الناس جوعاً وعطشاً . فهو يدل على عظمته جل وعلا ، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له جل وعلا .

(96/497)

وقوله في هذه الآية : ﴿ أزواجاً مّن نّبات شتى ﴾ أي أصنافاً مختلفة من أنواع النبات . فالأزواج : جمع زوج ، وهو هنا الصنف من النبات ، كما قال تعالى في سورة «الحج» : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذآ أنزلنا عليها المآء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [الحج : 5] أي من كل صنف حسن من أصناف النبات ، وقال تعالى في سورة «لقمان» : ﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دآبة وأنزلنا من السمآء مآءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ [لقمان : 10] أي من كل نوع حسن من أنواع النبات ، وقال تعالى في سورة «يس» : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج

كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله ﴿ شتى ﴾ نعت لقوله : ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ . ومعنى قوله : ﴿ شتى ﴾ جمع ل « نبات » أي نبات مختلف كما بينا . والأظهر الأول ، وقوله ﴿ شتى ﴾ جمع شتيت . كمريض ومرضى . والشتيت : المتفرِق . ومنه قول رؤبة يصف إبلاً جاءت مجتمعة ثم تَفَرَّقت ، وهي تثير غباراً مرتفعاً :

جاءت معاً وأطرقت شتيتا . . . وهي تثير الساطع السختيتا

وثغر شتيت : أي متفلج لأنه متفرِق الأسنان . أي ليس بعضها لاصقاً ببعض .

(97/497)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ قد قدمنا أن معنى السلك : الإدخال . وقوله ﴿ سَلَكَ ﴾ هنا معناه أنه جعل في داخل الأرض بين أوديتها وجبالها سبلاً فجاجاً يمر الخلق معها . وعبر عن ذلك هنا بقوله : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ وعبر في مواضع أخر عن ذلك بالجعل ، كقوله في « الأنبياء » : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 31] وقوله

في «الزخرف» : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ﴾ [الزخرف : 10] وعبر في بعض المواضع عن ذلك بالإلقاء كقوله في «النحل» :

(98/497)

﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ﴾ [النحل : 15] لأن عطف السنبل على الرواسي ظاهر في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ كلوا وارعوا ﴾ أي كلوا أيها الناس من الثمار والحبوب التي أخرجناها لكم من الأرض بالماء الذي أنزلنا من جميع ما هو غذاء لكم من الحبوب والفواكه ونحو ذلك، وارعوا أنعامكم. أي أسيموها وسرحوها في المرعى الذي يصلح لأكلها. تقول : رعت الماشية الكلأ، ورعاها صاحبها : أي أسلمها وسرّحها. يلزم ويتعدى. والأمر في قوله ﴿ كلوا وارعوا ﴾ للإباحة. ولا يخفى ما تضمنه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم بذلك العبادة وحده.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة : من الامتنان على بني آدم بأرزاقهم وأرزاق أنعامهم جاء موضحاً في مواضع أخر. كقوله في سورة «السجدة» : ﴿ فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ [السجدة : 27]، وقوله في «النازعات» : ﴿

أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 31-33] ، وقوله في « عبس » : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المَآءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : 25-32] وقوله في « النحل » : ﴿ هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مَّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : 10] ، إلى غير ذلك من الآيات .

(99/497)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لأُوْلِي النهى ﴾ أي لأصحاب العقول . فالنهى : جمع نهية بضم النون ، وهي العقل . لأنه ينهى صاحبه عمَّا لا يليق . تقول العرب : نهو الرجل بصيغة فعل بالضم : إذا كملت نهيته أي عقله . وأصله نهي بالياء فأبدلت الياء واواً لأنها لام فعل بعد ضم . كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وواواً إثر الضم رد اليا متى . . . ألفى لام فعل أو من قبل تا

(100/497)

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)

الضمير في قوله «مِنْهَا» معاً، وقوله ﴿ فِيهَا ﴾ راجع إلى «الأَرْضَ» المذكورة في قوله ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ .

وقد ذكر في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولى : أنه خلق بني آدم مِن الأرض .

الثانية : أنه يعيدهم فيها .

الثالثة : أنه يخرجهم منها مرة أخرى . وهذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية جاءت مُوضَحة في غير هذه المواضع .

أما خلقه إياهم من الأرض فقد ذكره في مواضع من كتابه . كقوله ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] ، الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم : 20] الآية ، وقوله في سورة «المؤمن» : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(101/497)

والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب أنه خلق أباهم آدم منها . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] الآية . ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعاً له في الخلق صدق عليهم أنهم خُلقوا من تراب . وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب أن النطفة إذا وقعت في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة والتراب معاً فهو خلاف التحقيق . لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة . فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما ب « ثُم » في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] : الآية ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [غافر : 67] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 6_8]

وكذلك ما يزعمه بعض المفسِّرين من أن معنى خلقهم من تراب أن المراد أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض فهو ظاهر السقوط كما ترى .

وأما المسألة الثانية فقد ذكرها تعالى أيضاً في غير هذا الموضع . وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ﴾ [المرسلات : 25-26] فقوله ﴿ كِفَاتاً ﴾

أي موضعهم الذي يكفتون فيه أي يضمون فيه: أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها .

وهو معنى قوله ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ .

(102/497)

وأما المسألة الثالثة وهي إخراجهم من الأرض أحياء يوم القيامة فقد جاءت موضحة في آيات كثيرة. كقوله: ﴿ وَيُحْيِي الأَرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: 19] أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾ [ق: 11] أي من القبور بالبعث يوم القيامة، وقوله تعالى:

(103/497)

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: 25]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 57]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: 43]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ

يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 42] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : 25] . والتارة في قوله ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ بمعنى المرة . وفي حديث السنن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة ، فلما أرادوا دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال : « منها خلقناكم » ثم أخذ أخرى وقال « وفيها نعيدكم » ثم أخرى وقال « ومنها نخرجكم تارة أخرى » . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(104/497)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) ﴾

هذا حكاية جواب فرعون عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون ، ففي الآية حذف جمل دلّ عليها السياق قصداً للإيجاز .

والتقدير : فأتَيَاه فقالا له ما أمِرا به ، فقال : فمن ربّكما ؟ .

ولذلك جاءت حكاية قول فرعون بجملة مفصولة على طريقة حكاية المحاورات التي

استقريناها من أسلوب القرآن وبَيّناها في سورة البقرة وغيرها .

ووجّه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك ، ثمّ خصّ موسى بالإقبال عليه بالنداء ، لعلمه بأنّ موسى هو الأصل بالرسالة وأنّ هارون تابع له ، وهذا وإن لم يحتوِ عليه كلامهما فقد تعيّن أن يكون فرعون عَلِمه من كيفيّة دخولهما عليه ومخاطبته ، ولأنّ موسى كان معروفاً في بلاط فرعون لأنه ربيُّه أو رَبِيّ أبيه فله سابقة اتصال بدار فرعون ، كما دلّ عليه قوله له المحكي في آية سورة الشعراء (18) : ﴿ قال ألم نربّك فينا وليداً ولبثتَ فينا من عمرك سنين ﴾ الآية .

ولعلّ موسى هو الذي تولى الكلام وهارون يصدقه بالقول أو بالإشارة .

وإضافته الرب إلى ضميرهما لأنّهما قالا له ﴿ إنّا رسولا ربّك ﴾ [طه : 47] .

وأعرض عن أن يقول : فمن ربي ؟ إلى قوله ﴿ فمن ربُّكما ﴾ إعراضاً عن الاعتراف بالمربوبية ولو بحكاية قولهما ، لئلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربّه ، أو أنه اعترف بأنّ له ربّاً .

وتولى موسى الجواب لأنّه خصّ بالسؤال بسبب النّداء له دون غيره .

وأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جرياً على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس ، فإن فرعون من جملة الأشياء ، فهو داخل في عموم ﴿ كل شيء ﴾ .

و﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مفعول أول ل ﴿ أعطى ﴾ .

و﴿ خَلْقَهُ ﴾ مفعوله الثاني .

والخلق : مصدر بمعنى الإيجاد .

(105/497)

وجيء بفعل الإعطاء للتنبيه على أنّ الخلق والتكوين نعمة ، فهو استدلال على الربوبية وتذكير بالنعمة معاً .

ويجوز أن يكون الخلق بالمعنى الأخصّ ، وهو الخَلق على شكل مخصوص ، فهو بمعنى الجَعْل ، أي الذي أعطى كل شيء من الموجودات شكله المختصّ به ، فكُونت بذلك الأجناسُ والأنواع والأصناف والأشخاص من آثار ذلك الخلق .

ويجوز أن يكون ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مفعولاً ثانياً ل ﴿ أعطى ﴾ ومفعوله الأول ﴿ خَلْقَهُ ﴾ ، أي أعطى خلقه ما يحتاجونه ، كقوله : ﴿ فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ [الأنعام : 99] .

فتركيب الجملة صالح للمعنيين .

والاستغراق المستفاد من (كلّ) عُرفي ، أي كل شيء من شأنه أن يعطاه أصنافُ الخلق

ويناسب المعطي، أو هو استغراق على قصد التوزيع بمقابلة الأشياء بالخلق، مثل: ركب القوم دوابّهم.

والمعنى: تأمل وانظر هل أنتَ أعطيت الخَلق أوْ لاَ؟ فلا شك أنه يعلم أنّه ما أعطى كلّ شيء خلقه، فإذا تأمل علم أن الرب هو الذي أفاض الوجود والنّعم على الموجودات كلّها، فآمن به بعنوان هذه الصفة وتلك المعرفة الموصّلة إلى الاعتقاد الحق.

و(ثُم) للترتيب بمعنييْه الزمني والرتبي، أي خلق الأشياء ثمّ هدى إلى ما خلقهم لأجله، وهداهم إلى الحق بعد أن خلقهم، وأفاض عليهم النّعم، على حد قوله تعالى: ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾ [البلد: 10 8] أي طريقي الخير والشرّ، أي فرّقنا بينهما بالدلائل الواضحة.

قال الزمخشري في "الكشاف": "ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق".

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) ﴾

والبال: كلمة دقيقة المعنى، تطلق على الحال المهمّ، ومصدره البالة بتخفيف اللاّم، قال تعالى: ﴿ كفّر عنهم سيّآتهم وأصلح بالهم ﴾ [محمد: 2]، أي حالهم.

وفي الحديث "كل أمر ذي بال...

" الخ ، وتطلق على الرأي يقال : خطر كذا ببالي .

ويقولون : ما ألقى له بالاً ، وإيثار هذه الكلمة هنا من دقيق الخصائص البلاغيّة .

أراد فرعون أن يحاجّ موسى بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا على ملّة فرعون ، أي قرون أهل مصر ، أي ما حالهم ، أفتزعم أنّهم اتفقوا على ضلالة .

وهذه شنشنة من لا يجد حجّة فيعمد إلى التشغيب بتخييل استبعاد كلام خصمه ، وهو في معنى قول فرعون وملئه في الآية الأخرى ﴿ قالوا أجِئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ [يونس : 78] .

ويجوز أن يكون المعنى أنّ فرعون أرَاد التشغيب على موسى حين نهضت حجّته بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى : هل هم في عذاب بمناسبة قول موسى : ﴿ أنّ العذاب على من كذّب وتولّى ﴾ [طه : 48] ، فإذا قال : إنّهم في عذاب ، ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا أعداء لموسى ، وإذا قال : هم في سلام ، نهضت حجّة فرعون لأنه متابع لدينهم ، ولأنّ موسى لمّا أعلمه بربّه وكان ذلك مشعراً بالخلق الأوّل خطر ببال فرعون أن يسأله عن الاعتقاد في مصير النّاس بعد الفناء ، فسأل : ما بال القرون الأولى ؟ ما شأنهم وما الخبر عنهم ؟ وهو سؤال تعجيز وتشغيب .

وقول موسى في جوابه ﴿ عِلْمُهَا عند رَبِّي فِي كتاب ﴾ صالحٌ للاحتمالين ، فعلى

الاحتمال الأول يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك الذي هو المتمحض لدعوة الأحياء لا البحث عن أحوال الأموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء ، وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وسلم لمّا سئل عن ذراري المشركين فقال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" .

وعلى الاحتمال الثاني يكون موسى قد عدل عن ذكر حالهم خيبة لمراد فرعون وعدولاً عن الاشتغال بغير الغرض الذي جاء لأجله .

والحاصل أنّ موسى تجنّب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله لأنّه لم يبعث بذلك .

(107/497)

وفي هذا الإعراض فوائد كثيرة وهو عالم بمجمل أحوال القرون الأولى وغير عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصهم .

وإضافة { عِلْمُهَا } من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وضمير { عِلْمُها } عائد إلى { القُرُونِ الأولى } لأنّ لفظ الجمع يجوز أن يؤنث ضميره .

وقوله ﴿ في كتاب ﴾ يحتمل أن يكون الكتاب مجازاً في تفصيل العلم تشبيهاً له بالأمور المكتوبة، وأن يكون كناية عن تحقيق العلم لأنّ الأشياء المكتوبة تكون محققة كقول الحارث بن حِلِّزَة:

وهل ينقض ما في المهارق الأهواء

ويؤكد هذا المعنى قوله ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبي ولا يَنسَى ﴾.

والضلال: الخطأ في العلم، شبّه بخطأ الطريق.

والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في ذهن العالم.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾

هذه جمل ثلاث معترضة في أثناء قصة موسى.

فالجملة الأولى منها مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنّن الأغراض لتجديد نشاط الأذهان.

ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله: ﴿ فأَخْرَجْنَا بِهِ أزواجاً ﴾.

فقوله ﴿ الذي جَعَلَ لكمُ الأرضَ مِهَاداً ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الذي جعل لكم الأرض مهاداً، والضمير عائد إلى الربّ المفهوم من ﴿ ربي ﴾ [طه: 52]، أي هو ربّ موسى.

وتعريف جزأي الجملة يُفيد الحصر ، أي الجاعل الأرض مهاداً فكيف تعبدون غيره .

وهذا قصر حقيقي غير مقصود به الرد على المشركين ولكنّه تذكير بالنّعمة وتعريض بأن غيره ليس حقيقاً بالإلهية .

وقرأ الجمهور ﴿ مِهاداً بكسر الميم وألفٍ بعد الهاء وهو اسم بمعنى الممُهود مثل الفراش واللّباس .

ويجوز أن يكون جمع مَهْد ، وهو اسم لما يمهد للصّبيّ ، أي يوضع عليه ويحمل فيه ، فيكون بوزن كِعاب جمعاً لكَعب .

ومعنى الجمع على اعتبار كثرة البقاع .

(108/497)

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف مَهْداً بفتح الميم وسكون الهاء ، أي كالمهد الذي يمهد للصبي ، وهو اسم بمصدر مَهدَه ، على أنّ المصدر بمعنى المفعول كالخَلْق بمعنى المخلوق ، ثمّ شاع ذلك فصار اسماً لما يمهد .

ومعنى القراءتين واحد ، أي جعل الأرض ممهودة مسهلة للسّير والجلوس والاضطجاع بحيث لا نُتوء فيها إلاّ نادراً يمكن تجنبه ، كقوله : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً

لتسلكوا منها سُبلاً فجاجاً ﴾ [نوح: 19 ، 20] .

﴿ وسَلَكَ ﴾ فعل مشتق من السُلوك والسّلْك الذي هو الدخول مجازاً وقاطعاً .

يقال : سلك طريقاً ، أي دخله مجتازاً .

ويستعمل مجازاً في السّير في الطريق تشبيهاً للسائر بالشيء الداخل في شيء آخر .

يقال : سلك طريقاً .

فحق هذا الفعل أن يتعدّى إلى مفعول واحد وهو المدخول فيه ، ويستعمل متعدياً بمعنى أسلك .

وحقه أن يكون تعديه بهمزة التعدية فيقال : أسلك المسمار في اللّوح ، أي جعله سالكاً إياه ، إلاّ أنّه كثر في الكلام تجريده من الهمزة كقوله تعالى : ﴿ نسلكه عذاباً صعداً ﴾ [الجنّ : 17] .

وكثر كون الاسم الذي كان مفعولاً ثانياً يصير مجروراً بـ (في) كقوله تعالى : ﴿ ما سَلَكَكُم في سَقَر ﴾ [المدثر : 42] بمعنى أسلككم سقر .

وقوله : ﴿ كذلك سلَكْنَاه في قلوب المجرمين ﴾ في سورة الشعراء (200) ، وقوله ﴿ ألم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماء فسَلَكه ينابيع في الأرض ﴾ في سورة الزمر (21) .

وقال الأعشى:

كما سلك السّكيّ في الباب فيْتَق . . .

أي أدخل المسمار في الباب نجارٌ ، فصار فعل سلك يستعمل قاصراً ومتعدياً .

فأما قوله هنا ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ فهو سلك المتعدي ، أي أسلك فيها سبلاً ، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض ، أي داخلة فيها ، أي متخللة .

وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض .

(109/497)

والمراد بالسبل : كلّ سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال ، أو كان من أثر فعل النّاس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابعُ الناس السير فيها .

ولما ذَكَر منّة خلق الأرض شفعها بمنّة إخراج النّبات منها بما ينزل عليها من السماء من ماء .

وتلك منّة تنبىء عن خلق السماوات حيث أجرى ذكرها لقصد ذلك التذكير ، ولذا لم يقل : وصببنا الماء على الأرض ، كما في آية : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقّاً ﴾ [عبس : 25 ، 26] .

وهذا إدماج بليغ .

والعدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكّلم في قوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ التفات .

وحسّنه هنا أنّه بعد أن حَجّ المشركين بحجّة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكّلم المطاع فإن الذي خلق الأرض وسخّر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر ، فهو يُخرج النّبات من الأرض بسبب ماء السماء ، فكان تسخير النبات أثراً لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض .

ولملاحظة هذه النكتة تكرر في القرآن مثل هذا الالتفات عند ذكر الإنبات كما في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ [الأنعام : 99] ، وقوله : ﴿ ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانُها ﴾ [فاطر : 35] ، وقوله : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجة ﴾ [النمل : 60] ومنها قوله في سورة الزخرف (11) : ﴿ والذي نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ وقد نبّه إلى ذلك في الكشاف ﴾ ، ولله درّه .

ونظائره كثيرة في القرآن .

والأزواج : جمع زوج .

وحقيقة الزوج أنه اسم لكلّ فرد من اثنين من صنف واحد .

فكلّ أحد منهما هو زوج باعتبار الآخر ، لأنه يصير بسبق الفرد الأول إياه زوجاً .

ثم غلب على الذكر والأنثى المقترنين من نوع الإنسان أو من الحيوان ، قال تعالى : ﴿ فاسلك فيها من كلّ زوجين اثنين ﴾ [المؤمنون : 27] ، وقال : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] وقال : ﴿ اسكن أنتَ وزوجُك الجنّة ﴾ [البقرة : 35] .

ولمّا شاعت فيه ملاحظة معنى اتّحاد النّوع تطرقوا من ذلك إلى استعمال لفظ الزوج في معنى النوع بغير قيد كونه ثانياً لآخر ، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق ، قال تعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تُنْبت الأرض ومن أنفسهم ومّما لا يعلمون ﴾ [يس : 36] ، ومنه قوله : ﴿ فأنبتنا فيها من كلّ زَوج كريم ﴾ [لقمان : 10] .

وفي الحديث : " من أنفق زوجين في سبيل الله ابتدرتهُ حجبة الجنّة . . .

" الحديثَ ، أي من أنفق نوعين مثل الطعام والكسوة ، ومثل الخَيل والرواحل .

وهذا الإطلاق هو المراد هنا ، أي فأنبتنا به أنواعاً من نبات .

وتقدّم في سورة الرعد .

والنّبات : مصدر سمي به النبات ، فلكونه مصدراً في الأصل استوى فيه الواحد والجمع .

وشتّى : جمع شتيت بوزن فَعلى ، مثل : مريض ومَرضى .

والشّتيت : المشتّت ، أي المبعّد .

وأريد به هنا التباعد في الصفات من الشكل واللّون والطعم ، وبعضها صالح للإنسان وبعضها للحيوان .

والجملة الثانية ﴿ كُلُوا وارْعوا أنعامكُم ﴾ مقول قول محذوف هو حال من ضمير ﴿ فأخرجنا .

والتقدير : قائلين : كُلوا وارعوا أنعامكم .

والأمر للإباحة مراد به المنّة .

والتقدير : كلوا منها وارعوا أنعامكم منها .

وهذا من مقابلة الجمع بالجمع لقصد التوزيع .

وفعل (رعى) يستعمل قاصراً ومتعدياً .

يقال : رعت الدابة ورعاها صاحبها .

وفرق بينهما في المصدر فمصدر القاصر : الرّعي ، ومصدر المتعدي : الرعاية .

ومنه قول النّابغة:

رأيتكَ ترعاني بعين بصيرة . . .

والجملة الثالثة إنَّ في ذلك لآياتٍ لأُولِى النهى ﴾ معترضة مؤكدة للاستدلال؛ فبعد أن أُشير إلى ما في المخلوقات المذكورة آنفاً من الدلالة على وجود الصانع ووحدانيته، والمنّة بها على الإنسان لمن تأمل، جُمعت في هذه الجملة وصرح بما في جميعها من الآيات الكثيرة.

وكلّ من الاعتراض والتوكيد مقتض لفصل الجملة.

وتأكيد الخبر بحرف (إنّ) لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين، لأنّهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقات على وحدانية الله، وهم يحسبون أنفسهم من أولي النّهى، فما كان عدم اهتدائهم بتلك الآيات إلاّ لأنهم لم يَعُدوها آيات.

لا جرم أنّ ذلك المذكور مشتمل على آيات جمّة يتفطن لها ذوو العقول بالتأمّل والتفكّر، وينتبهون لها بالتذكير.

والنُهى: اسم جمع نُهْية بضم النون وسكون الهاء، أي العقل، سمي نُهية لأنّه سبب انتهاء المتحلي به عن كثير من الأعمال المفسدة والمهلكة، ولذلك أيضاً سمّي بالعقل وسمي بالحِجْر.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) ﴾

مستأنفة استئنافاً ابتدائياً.

وهذا إدماج للتذكير بالخلق الأول ليكون دليلاً على إمكان الخلق الثاني بعد الموت.

والمناسبة متمكنة ؛ فإن ذكر خلق الأرض ومنافعها يستدعي إكمال ذكر المهم للنّاس من أحوالها ، فكان خلق أصل الإنسان من الأرض شبيهاً بخروج النبات منها .

وإخراج النّاس إلى الحشر شبيه بإخراج النبات من الأرض .

قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ [نوح : 17 ، 18].

وتقديم المجرورات الثلاثة على متعلقاتها ؛ فأما المجرور الأول والمجرور الثالث فللاهتمام بكون الأرض مبدأ الخلق الأول والخلق الثاني .

وأما تقديم ﴿ وفِيهَا نُعِيدكُم ﴾ فللمزاوجة مع نظيريه .

(112/497)

ودل قوله تعالى : ﴿ وفِيهَا نُعيدكُم ﴾ على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعيّة لمواراة الموتى سواء كان شقّاً في الأرض أو لحْداً ، لأن كليهما إعادة في الأرض ؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنّار ، أو إغراقهم في الماء ، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض ، فذلك مخالف لسنّة الله وفطرته .

لأنّ الفطرة اقتضت أنّ الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها .

وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتَل أحدُ ابني آدم أخَاه .

كما قال تعالى في سورة العقود (31) ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض لِيُرِيَه كيف يُوارِي سوْأة أخيه قال يا ويْلَتَى أعجَزت أن أكون مثل هذا الغراب فأُوَارِيَ سوأة أخي ﴾

فجاءت الشرائع الإلهيّة بوجوب الدفن في الأرض .

والتّارة : المرة ، وجمعها تارات .

وأصل ألفها الواو .

وقال ابن الأعرابي : أصل ألفها همزة فلمّا كثر استعمالهم لها تركوا الهمزة .

وقال بعضهم : ظهر الهمز في جمعها على فِعَل فقالوا : تِئَر بالهمز .

ويظهر أنّها اسم جامد ليس له أصل مشتق منه .

والإخراج : هو إخراجها إلى الحشر بعد إعادة هياكل الأجسام في داخل الأرض ، كما هو ظاهر قوله ومنها نُخْرِجُكُم ﴾ ، ولذلك جعل الإخراج تارة ثانية للخلق الأول من الأرض .

وفيه إيماء إلى أن إخراج الأجساد من الأرض بإعادة خلقها كما خلقت في المرّة الأولى ، قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نُعيده ﴾ [الأنبياء : 104] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) ﴾

ووجّه الخطاب إلى الرئيس الأصلي في هذه المهمة ، وهو موسى عليه السلام .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) ﴾

معنى ﴿ اأعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ [طه : 50] أي : كل ما في الوجود ، خلقه الله لمهمة ، فجاء خَلْقه مناسباً للمهمة التي خُلِق لها ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] أي : دلّ كل شيء على القيام بمهمته ويسّره لها .

والحق سبحانه أعطى كل شيء (خَلْقَهُ) الخَلْق يُطلَق ، ويُراد به المخلوق ، فالمخلوق شيء لا بُدَّ له من مادة ، لا بُدَّ أن يكون له صورة وشكل ، له لون ورائحة ، له عناصر ليؤدي مهمته .

فإذا أراد الله سبحانه خَلْق شيء يقْدِر له كل هذه الأشياء فأمدَّ العين كي تبصر ، والأنف كي يشم ، واللسان كي يتذوق ، ثم هدى كل شيء إلى الأمر المراد به لتمام مهمته ، بدون أي تدخّل فيه من أحد .

وإذا كان الإنسان ، وهو المقدور للقادر الأعلى يستطيع أن يصنع مثلاً القنبلة الزمنية ، ويضبطها على وقت ، فتؤدي مهمتها بعد ذلك تلقائياً دون اتصال الصانع بها .

فالحق سبحانه خلق كل شيء وأقدره على أنْ يُؤدِّي مهمته على الوجه الأكمل تأدية تلقائية غريزية، فالحيوانات التي نتهمها بالغباء، ونقول عنها: "بهائم" هي في الحقيقة ليست كذلك، وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى صورة لها في مسألة الغراب الذي بعثه الله ليُعلِّم ولد آدم كيف يواري سوءة أخيه كما قال سبحانه: ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ [المائدة: 31].

(114/497)

فكيف صنع الغراب هذا الصنيع؟ صنعة بالغريزة التي جعلها الله فيه، ولو تأملتَ الحمار الذي يضربون به المثل في الغباء حين تريده أنْ يتخطى (قناة) مثلاً، تراه ينظر إليها ويُقدِّر مسافتها، فإن استطاع أنْ يتخطاها قفز دون تردد، وإنْ كانت فوق إمكانياته تراجع، ولم يُقْدِم مهما ضربته أو أجبرته على تخطيها، هذه هي الغريزة الفِطْرية.

لذلك تجد المخلوقات غير المختارة لا تخطىء؛ لأنها محكومة بالغريزة، وليس لها عقل يدعو إلى هوىً، وليس لها اختيار بين البدائل مثل العقل الإلكتروني الذي يعطيك ما أودعته فيه لا يزيد عليه ولا ينقص، أما الإنسان فيمكن أنْ يُغيِّر الحقيقة، ويُخفِي ما تريده

منه ، لأن له عقلاً يفاضل : قُلْ هذه ، ولا تقُلْ هذه ، وهذا ما ميّز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات .

كذلك ، ترى الحيوان إذا شبع يتمنع عن الطعام ولا يمكن أن تؤكله عود برسيم واحد مهما حاولتَ ، إنما الإنسان صاحب العقل والهوى يقول لك : (أرها الألوان تريك الأركان) ، فلا مانع بعد أن أكل حتى التخمة من تذوُّق أصناف شتّى من الحلوى والفاكهة وخلافه .

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى أنه : ﴿ ا أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

خذ مثلاً الأذن ، وكيف هي محكمة التركيب مناسبة لتلقي الأصوات ، ففي الأذن من الخارج تجاعيد وتعاريج تتلقى الأصوات العالية ، فتُخفّف من حِدّتها حتى تصل إلى الطبلة الرقيقة هادئة ، وإلاَّ خرقتها الأصوات وأصمّتها ، وكذلك جعلها الله لِصدّ الرياح حتى إذا هبت لم تجد الأذن هكذا عارية فتؤذيها .

(115/497)

وكذلك العَيْن ، كم بها من آيات لله ، فقد خلقها الله بقدر ، من هذه الآيات أن حرارتها إنْ زادت عن 12 درجة تفسد ، وأرنبة الأنف إنْ زادت عن 9 درجات لا تؤدي مهمتها ، مع

أن في الجسم عضواً حرارته 40 درجة هو الكبد ، والحرارة الكلية للإنسان 37 درجة ، تكون ثابتة في المناطق الباردة حيث الجليد كما هي في المناطق الحارة ، لا ترتفع ولا تنخفض إلا لِعلَّة أو آفة في الجسم .

إذن : كل شيء في الوجود خلقه الله بقدر وحكمة وكيفية لأداء مهمته ، كما قال في آية أخرى : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 23] .

اللسان مثلاً جعل الله به حَلَمات متعددة ، كل واحدة منها تتذوّق طَعْماً معيناً ، فواحدة للحلو ، وواحدة للمُرِّ ، وواحدة للحريف ، وهكذا ، وجميعها في هذه المساحة الضيقة متجاورة ومتلاصقة بقَدْر دقيق ومُعْجز .

الأنف وما فيه من مادة مُخاطية عالقة لا تسيل منك ، وشعيرات دقيقة ، ذلك لكي يحدث لهواء الشهيق عملية تصفية وتكييف قبل أن يصل إلى الرئتين ؛ لذلك لا ينبغي أنْ نقصَّ الشعيرات التي بداخل الأنف ؛ لأن لها مهمة .

عضلة القلب وما تحتويه من أُذَيْن وبُطَيْن ، ومداخل للدم ، ومخارج محكمة دقيقة تعمل ميكانيكياً ، ولا تتوقف ولا تتعطل لمدة 140 أو 120 سنة ، تعمل تلقائياً حتى وأنت نائم ، فأيّ آلة يمكن أنْ تؤدِّي هذه المهمة ؟

والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بآية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أَخْذ بني إسرائيل ، وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت

المسألة الإيمانية تبعية، أما أصل مهمة موسى فكان: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: 47].

(116/497)

والحق سبحانه حين يعرض قضية الإيمان يعرضها مبدوءة بالدليل دليل البدء الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه: 50] لأن، فرعون الذي ادعى الألوهية لا بُدَّ أن يكون له مألوهون، وهم خَلْق مثله، وهو يعتزّ بملكه وماله من أرض مصر ونيلها وخيراتها حتى قال:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: 51].

فأراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يرد عليه: ألَكَ شيء في خَلْق هؤلاء المألوهين لك؟

وما أشبهَ موقف فرعون أمام هذه الحجة بموقف النمروذ أمام نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما قال له: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: 258].

فلم يجد النمروذ إلا الجدل والسفسطة، فلجأ إلى حيلة المفلسين، وجاء برجلين فقال: أنا أحكم على هذا بالموت وأعفو عن هذا؛ لذلك لما أحسَّ إبراهيم عليه السلام منه المراوغة والجدال نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً.

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : 258] .

إذن : فالردُّ إلى قضية الخلق الأول دليل لا يمكن لأحد ردُّه ، حتى فرعون ذاته لم يدَّعِ أنه خلق شيئاً ، إنما تجبّر وتكبّر وادّعى الألوهية فقط على مألوه لم يخلقه ، ولم يخلق نفسه ، ولم يخلق المُلْك الذي يعتز به .

ولما كان دليل الخلق الابتدائي هو الدليل المقنع ، لم يكن لفرعون ردُّ عليه ؛ لذلك لما سمع هذه المسألةَ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] لم يستطع أنْ ينقضَ هذا الدليل ، فأراد أنْ يُخرِجَ الحوار من دليل الجد إلى مسألة أخرى يهرب إليها ، مسألة فرعية لا قيمة لها : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾

(117/497)

أي : ما شأن الأمم السابقة ؟ لكن ما دَخْل القرون الأولى بما تتكلّم فيه ؟ كلمة البال : هو الفكر ، تقول : خطر ببالي . أي : بفكري ، ولا يأتي في الفكر وبُؤْرة الشعور إلا الأمر المهم .

لكن ، سرعان ما أحسَّ موسى بمراوغة فرعون ، ومحاولة الهرب من الموضوع الأساسي فسَدَّ عليه الباب .

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) ﴾

فهذه المسألة ليست من اختصاصي ؛ لأن الذي يُسأل عن القرون الأولى هو الذي يُجازيها ، وينبغي أنْ يعلم حالها ، وما هي عليه من الإيمان أو الكفر ؛ لِيُجازيها على ذلك ، إذن : هذا سؤال لا موضعَ له ، إنه مجرد هَزْل ومهاترة وهروب ، فلا يعلم حال القرون الأولى إلا الله ؛ لأن سبحانه هو الذي سَيُجازيها .

ومعنى ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ [طه : 52] أي : سجّلها في كتاب ، يطلع عليه الملائكة المدبرات أمراً ؛ ليمارسوا مهمتهم التي جعهلم الله لها ، وليس المقصود من الكتاب أن الله يطّلع عليه ويعلم ما فيه ؛ لأنه سبحانه ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] .

ثم أرجعه موسى إلى القضية الأولى قضية الخلق ، ولكن بصورة تفصيلية : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾

مَهْداً : من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته ، كما تفعل في فراشك قبل أن تنام ، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْداً ؛ لأنك تُمهِّده له وتُسوِّيه ، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر في مَهْده ويستريح .

ولا بُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة ؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت ، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور ، فيقوم بها بنفسه ؛ لذلك لزمك في هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به .

فمعنى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ [طه : 53] أي : سوّاها ومهّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها .

(118/497)

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية ، إنما سوّاها لمهمتها ، وإلا ففي الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها ، فتسويتها تقتضي إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض .

فمثلاً في الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة ، أما في المناطق الجبلية فهي مُتعرّجة مُلتوية ؛ لأنها لا تكون إلا كذلك ، ولها ميزة في التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة ، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذي نصنعه من الحديد ، فلو جعلناه مستقيماً ما أدّى مهمته ، إذن : فاستقامته في كَوْنه مُعْوجاً فنقول : سويته ليؤدي مهمته ، ولو كان مستقيماً ما جذب الشيء المراد جَذْبه به .

إذن : نقول التسوية : جَعْل الشيء صالحاً لمهمته ، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأَمْت أو بالاستقامة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : 53] أي : طرقاً ممهدة توصّلكم إلى مهماتكم بسهولة .

سلك : بمعنى دخل ، وتأتي متعدية ، تقول : سلك فلان الطريق . وقال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر : 42] فالمخاطبون مَسْلوكون في سقر يعني : داخلون ، وقال : ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [القصص : 32] أي : أدْخِلْها .

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيه ، فقوله : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : 53] متعدية للمدخول فيه أي : عديت المخاطب إلى المدخول فيه ، فأنتم دخلتم ، والسُّبل مدخول فيه . إذن : المفعول مرة يكون المسلوك ، ومرة يكون المسلوك فيه .

وحينما تسير في الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها ، فمنها الضيّق على قَدْر القدم للشخص الواحد ، ومنها المتسع الذي تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات ، فسلك لكم طرقاً مختلفة ومتنوعة على قَدْر المهمة التي تؤدونها .

(119/497)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ [طه : 53] .

وهذه أيضاً من مسألة الخَلْق التي لا يدعيها أحد ؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعيها ، فأنت يا مَنْ تدّعي الألوهية أخرِجْ لنا شيئاً من ذلك ، إرِنَا نوعاً من النبات فلن يقدر ، وبذلك لزمتْه الحجة .

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْي وخلافه ، لكن هذا العمل مستمد من الأسباب التي خلقها الله لك ؛ لذلك لما تكلم عن الماء قال (أَنْزَلَ) فلا دَخْل لأحد فيه ، ولما تكلم عن إخراج النبات قال (أَخْرَجْنَا) لأنه تتكاتف فيه صفات كثيرة ، تساعد في عملية إخراجه ، وكأن الحق تبارك وتعالى يحترم عملك السَّببي ويُقدِّره .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة : 6364] فأثبت لهم عملاً ، واحترم مجهودهم ، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور ؟ فإذا ما تتبعت سِلْسِلة البذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له . كما لو تتبعتَ سلسلة الإنسان لوجدتها تنتهي إلى أب ، لا أب له إلا مَنْ خلقه .

وأنت بعد أن ألقيتَ البذرة في الأرض وسقيْتها ، أَلَكَ حيلة في إنباتها ونُموّها يوماً بعد يوم ؟ أأمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو ؟ أم أنها قدرة القادر ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 23] .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة : 65] ، فإنْ كانت

هذه صنعتكم فحافظوا عليها .

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ [الزمر : 49

] .

فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم ، فلما خسف الله به وبداره

الأرض دَلَّ ذلك على كذبه في مقولته .

(120/497)

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة : 65] أنه مؤكد باللام ، لماذا ؟

لأن لك شبهة عمل في مسألة الزرع ، قد تُطمِعك وتجعلك مُتردّداً في القبول . إنما حينما

تكلم عن الماء قال :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ

أُجَاجاً ﴾ [الواقعة : 6870] .

هكذا بدون توكيد ؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ [طه : 53] لم يقل : نباتاً فقط . بل أزواجاً ؛

لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء ، والتكاثر لا بُدّ له من زوجين : ذكر وأنثى . وكما أن

الإنسان يتكاثر ، كذلك باقي المخلوقات ؛ لأن الحق تبارك وتعالى خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، ولا بُدَّ لهذه الأقوات أن تكفي كل مَنْ يعيش على هذه الأرض .

فإذا ضاقت الأرض ، ولم تُخرِج ما يكفينا ، وجاع الناس ، فلنعلم أن التقصير مِنّا نحن البشر من استصلاح الأرض وزراعتها ؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق في الغذاء خرجنا إلى الصحراء نستصلحها ، وقد بدأت الآن تُؤتي ثمارها ونرى خيرها ، والآن عرفنا أننا كنا في غفلة طوال المدة السابقة ، فتكاثرنا ولم نُكثِّر ما حولنا من الرقعة الزراعية .

والذكر والأنثى ليسا في النبات فحسْب ، بل في كل ما خلق الله : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] .

فالزوجية في كل شيء ، عَلِمته أو لم تعلمه ، حتى في الجمادات ، هناك السالب والموجب والألكترونيات والأيونات في الذرة ، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ [طه : 53] شتى مثل : مرضى جمع مريض فشتى جمع شتيت . يعني أشياء كثيرة مختلفة ومتفرقة ، ليست في الأنواع فقط ، بل في النوع الواحد هناك اختلاف .

فلو ذهبت مثلاً إلى سوق التمور في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد أنواعاً كثيرة ، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام ، كلها تحت مُسمّى واحد هو : التمر . وهكذا لو تأملتَ باقي الأنواع من المزروعات .

ثم يذكر الحق تبارك وتعالى العِلَّة في إخراج النبات : ﴿ كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾

(كُلُوا) : تدل على أن الخالق عز وجل خلق الحياة ، وخلق مقومات الحياة ، وأولها القوت من الطعام والشراب ، وهذه المقوّمات تناسبت فيها الملكية مع الأهمية ، فالقوت أولاً ، ثم الماء ، ثم الهواء .

فأنت تحتاج الطعام وتستطيع أن تصبر عليه شهراً على قَدْر ما يختزن في جسمك من شحم ولحم ، يتغذّى منها الجسم في حالة فقد الطعام ؛ لأنك حين تأكل تستهلك جزءاً من الطعام في حركتك ، ثم يُختزن الباقي في صورة دهون هي مخزن الغذاء في الجسم ، فإذا ما نفد الدُّهْن امتصّ الجسم غذاءه من اللحم ، ثم من العظم ، فهو آخر مخازن الغذاء في جسم الإنسان .

لذلك لما أراد سيدنا زكريا عليه السلام أن يعبر عن ضعفه ، قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ [مريم : 4] .

لذلك تجد كثيراً ما يُتملّك الغذاء ؛ لأنك تصبر عليه مدة طويلة تُمكّنك من الاحتيال في طلبه ، أو تُمكّن غيرك من مساعدتك حين يعلم أنك محصور جوعان .

أما الماء فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة ؛ لذلك قليلاً ما يُملّك الماء لأحد .

أما الهواء فلا تصبر عليه أكثر من نفَس واحد ، فمن رحمة الله بعباده ألاّ يُملّك الهواء لأحد ، وإلاّ لو غضب عليك صاحب الهواء ، فمنعه عنك لمتّ قبل أنْ يرضى عنك ، وليس هناك وقت تحتال في طلبه .

وقوله تعالى : ﴿ وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه : 54] لأنها تحتاج أيضاً إلى القُوت ، وقال تعالى في أية أخرى : ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 33] ثم يصبّ الجميع في أن يكون متاعاً للإنسان الذي سخّر الله له كل هذا الكون .

(122/497)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى ﴾ [طه : 54] .

آيات : عجائب . والنُّهَى : جمع نُهْية مثل قُرَب جمع : قُرْبة . والنُّهَى : العقول ، وقد سمّاها الله تعالى أيضاً الألباب ، وبها تتم عملية التدبير في الاختيارات .

والعقل من العقال الذي تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلَق لك كي تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك ، وتحكمها على قَدْر مهمتها في حياتك ، فغريزة الأكل مثلاً لبقاء الحياة ، وعلى قَدّر طاقة الجسم ، فإنْ زادت كانت شراهة مفسدة .

وقد جُعل حُبُّ الاستطلاع للنظر في الكون وكَشْف أسراره وآيات الله فيه ، فلا ينبغي أنْ

تتعدّى ذلك ، فتتجسس على خَلْق الله .

وسُمِّيَتْ العقول كذلك النُّهَى ، لأنها تنهي عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بد للإنسان من عقل يعقل غرائزه ، حتى لا تتعدى المهمة التي جُعلَتْ لها ، ويُوقفها عند حَدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدتْ في الكون ، لا بُدَّ للإنسان من نُهية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاّ فكيف تُطلِق العنان لشهواتك ، ولست وحدك في الكون ؟ وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم ؟

وسُمِّي العقل لُبّاً ، ليشير لك إلى حقائق الإشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعد نظراً . وأعمق فكراً في الأمور . فحين يأمرك أن تعطي شيئاً من فضل مالك للفقراء ، فسطحية التفكير تقول : لا كيف أتعب وأعرق في جمعه ، ثم أعطيه للفقير ؟ وهو لم يفعل شيئاً ؟ أما حين تتعمق في فَهْم الحكمة من هذا الأمر تجد أن الحق تبارك وتعالى قال لك : أعط المحتاجين الآن وأنت قادر حتى إذا ما احتجتَ تجد مَنْ يعطيك ، فقد يصبر الغني فقيراً ، أو الصحيح سقيماً ، أو القوي ضعيفاً ، فهذه سنة دائرة في الخَلْق متداولة عليهم .

وحين تنظر إلى تقييد الشرع لشهواتك ، فلا تنسَ أنه قيَّد غيرك أيضاً بنفس المنهج وبنفس التكاليف . فحين يقول لك : لا تنظر إلى محارم الناس وأنت فرد فهو في نفس الأمر يكون قد أمر الناس جميعاً ألاّ ينظروا إلى حرماتك .

وهكذا جعل الخالق عز وجل آلة العقل هذه ، لا لنعربد بها في الكون ، إنما لنضبط بها الغرائز والسلوك ، ونحرسها من شراسة الأهواء ، فيعتدل المجتمع ويسْلَم أفراده .

وإلاَّ فإذا سمحتَ لنفسك بالسرقة ، فاسمح للآخرين بالسرقة منك ! ! إذن : فمن مصلحتك أنت أنْ يوجد تقنين ينهاك ، ومنهج يُنظِّم حياتك وحياة الآخرين .

والحق سبحانه يقول : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾

نلحظ هنا أن موسى عليه السلام يعرض على فرعون قضايا لا تخصُّ فرعون وحده ، إنما تمنع أنْ يوجد فرعون آخر .

وقوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ [طه : 55] أي : من الأرض التي سبق أنْ قال عنها : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ [طه : 53] .

ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاث : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ [طه : 55] .

وفي آية أخرى يذكر مرحلة رابعة ، فيقول : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : 25] .

بذلك تكون المراحل أربعة : منها خلقناكم ، وفيها تحيَوْن ، وإليها تُرجعون بالموت ، ومنها نُخرجكم بالبعث .

فقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ [طه : 55] الخَلْق قِسْمان : خَلْق أولي ، وخَلْق ثانوي ، الخلق الأَوليّ في آدم عليه السلام ، وقد خُلِق من الطين أي : من الأرض . ثم الخَلْق الثاني ، وجاء من التناسل ، وإذا كان الخَلْق الأَوْلي من طين ، فكل ما ينشأ عنه يُعَدّ كذلك ؛ لأنه الأصل الأول .

(124/497)

ويمكن أن نُوجِّه الكلام توجيهاً آخر ، فنقول : التناسل يتولد من ميكروبات الذكورة وبويضات الأنوثة ، وهذه في الأصل من الطعام والشراب ، وأصله أيضاً من الأرض . إذن : فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة .

وإنْ كانت قضية الخَلْق هذه قضية غيبية ، فقد ترك الخالق في كونه عقولاً تبحث وتنظر في الكون ، وتعطينا الدليل على صِدْق هذه القضية ، فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهي بالمنجنيز ، وحين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها نفس العناصر الستة عشر ، ليثبتوا بذلك البحث التحليلي صِدْق

قضية الخَلْق التي أخبر عنها الخالق عز وجل .

وقوله : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه : 55] هذه مرحلة مشاهدة ، فكُلُّ مَنْ يموت مِنّا ندفنه في الأرض ؛ لذلك يقول الشاعر :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فَارْجِعْ إلَى . . . الأرْض تَنَمْ آمِناً مِنَ الأوْصَاب

هِيَ أُمٌّ أَحْنَى عَلَيْكَ مِنَ الأم . . . التي خَلَّفَتْكَ للإتْعَاب

فبعد أن تُنقض بنية الإنسان بالموت لا يسارع إلى مواراته التراب إلا أقرب الناس إليه ، فترى المرأة التي مات وحيدها ، وأحب الناس إليها ، والتي كانت لا تطيق فراقه ليلة واحدة ، لا تطيق وجوده الآن ، بل تسارع به إلى أمه الأصلية (الأرض) .

وذلك لأن الجسد بعد أنْ فارقته الروح سرعان ما يتحول إلى جيفة لا تطاق حتى من أمه وأقرب الناس إليه ، أما الأرض فإنها تحتضنه وتمتصّ كُل ما فيه من أذى .

ومن العجائب في نَقْض بنية الإنسان بالموت أنها تتم على عكس بنائه ، فعندما تكلم الخالق عز وجل عن الخلق الأول للإنسان قال : إنه خلق من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار . وقلنا : إن هذه كلها أطوار للمادة الواحدة ، ثم بعد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح ، فتدبّ فيه الحياة .

فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب ، كما أنك لو بنيتَ عمارة من عِدَّة أدوار ، فآخر الأدوار بناءً أولها هَدْماً .

كذلك الموت بالنسبة للإنسان يبدأ بنزع الروح التي وُضِعَتْ فيه آخراً ، ثم يتصلّب الجسد و(يشضب) كالصلصال ثم يرمّ ، ويُنتن كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل باقي العناصر ، فتصير إلى التراب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ [طه : 55] أي : مرة أخرى بالبعث يوم القيامة ، وهذا الإخراج له نظام خاصّ يختلف عن الإخراج الأول ؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ، ثم يكتمل لها الجسد .

هذه كلها قضايا كونية تُلْقَى على فرعون عَلَّها تُثنيه عَمَّا هو عليه من ادّعاء الألوهية ، والألوهية تقتضي مألوهاً ، فالإله معبود له عابد ، فكيف يَدّعي الألوهية ، وليس له في الربوبية شيء ؟ فلا يستحق الألوهية والعبادة إلا مَنْ له الربوبية أولاً ، وفي الأمثال : (اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) (طه : 53) ، وقال في سورة الزخرف : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الزخرف : 10) ، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف بين سلك وجعل ؟ ووجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيها ؟

والجواب عن ذلك : أن العبارتين في السورتين معناهما متقارب وهو ما هيأه سبحانه لعباده من المذكور في قوله : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) (الملك : 15) ، والمراد (بسلك) وجعل ما خلق وذلل سبحانه منها وهيأه لتصرفنا في معايشنا ومنافعها .

(127/497)

والجواب عن الثاني أن اختصاص كل واحدة من العبارتين بموضعها في آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله (عز وجل) على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون ، عليهما السلام ، في قوله : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) (طه : 44) ، فلما بني الكلام على هذا وأعقب

بقوله : (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) (طه : 53-54) ، - ولا إشكال في أن هذا من التلطف والرفق في الدعاء - ناسب ذلك العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل ولا طرق لمرافق العباد ومصالحهم ، وهي منبئة عما تعطيه جعل في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة ، فهي أنسب لما قصد في هذه السورة ، تقول : منهج سالك أي واضح ، ولو قلت مجعول لم يعط هذا المعنى من الوضوح. أما آية الزخرف فمبنية على توبيخ من كفر من العرب وترقيعهم ، ألا ترى قوله سبحانه : (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) (الزخرف : 5) ، وقوله إخباراً عن مكذبي الأمم : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الزخرف : 7) ، وقوله : (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا) (الزخرف : 8) أي من هؤلاء الذين

(128/497)

كذبوك يا محمد ، فهذا كله توبيخ للجاحدين والمعاندين ، وتأمل ما افتتحت به السورة من قوله : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف : 3) ، والتعقل لا يستلزم الاهتداء والإيمان ، ألا ترى قوله تعالى : (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة : 75) ، فأين موقع

قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ من قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ و ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ فتدبر ذلك يلح لك الفرق ، فناسب هذا ما ينبئ عن الخلق والاختراع من غير زيادة ، فعبر هنا بجعل .

وأيضاً فقد اكتنف لفظ جعل في الزخرف قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ الزخرف : 3 ﴾ ، وقوله بعدها : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ﴿ الزخرف : 12 ﴾ ، فناسب هذا ذكر الجعل ، ولم يناسب هنا هذه المناسبة لفظ سلك ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 340 . 341 ﴾

(129/497)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا ﴾ يقتضي أن المخاطب اثنان وقوله: ﴿ يَا مُوسَى ﴾ يقتضي أن المخاطب واحد والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن فرعون أراد خطاب موسى وحده والمخاطب أن اشترك معه في الكلام غير مخاطب غلب المخاطب على غيره كما لو خاطبت رجلا اشترك معه آخر في شأن والثاني غائب فإنك تقول للحاضر منهما ما بالكما فعلتما كذا والمخاطب واحد وهذا ظاهر .

الوجه الثاني: أنه خاطبهما معا وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة .

الثالث: أنه خاطبهما معا وخص موسى بالنداء لمطابقة رؤوس الآي مع ظهور المراد ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ ويجاب عنه بأن المرأة تبع لزوجها وبأن شقاء الكد والعمل يتولاه الرجال أكثر من النساء, وبأن الخطاب لآدم وحده والمرأة ذكرت فيما خوطب به آدم بدليل قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ فهي ذكرت فيما خوطب به آدم؛ والمخاطب هو وحده؛ ولذا قال: " فتشقى " لأن الخطاب لم يتوجه إليها هي ، والعلم عند الله تعالى .

عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 202.201 ﴾

(130/497)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ قال: من كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس في قوله: ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ قال: خلق لكل شيء روحه، ثم ﴿ هدى ﴾ قال: هداه لمنكحه، ومطعمه، ومشربه، ومسكنه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ أعطى كل شيء خلقه ﴾ يقول: مثله، أعطى الإنسان انسانة، والحمار حمارة، والشاة شاته: ﴿ ثم هدى ﴾ إلى الجماع.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، عن الحسن في قوله: ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ قال: أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه له.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله: ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ قال: سوى خلق كل دابة ثم هداها لما يصلحها وعلمها إياه، لم يجعل خلق الناس كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الناس، ولكن ﴿ خلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [الفرقان: 2].

وأخرج ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿ أعطى كل شيء خلقه ﴾ قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل الإنسان في خلق الدابة

، ولا الدابة في خلق الكلب ، ولا الكلب في خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح ، وهيأ كل شيء على ذلك ، ليس منها شيء يملك شيئاً في فعاله ، في الخلق والرزق والنكاح ﴿ ثم هدى ﴾ قال : هدى كل شيء إلى رزقه وإلى زوجته .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ﴾ قال : أعطى كل شيء صورته ﴿ ثم هدى ﴾ قال : لمعيشته .

(131/497)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ قال : ألم تر إلى البعير كيف يقوم لصاحبه ينتظره ! حتى يجيء هذا منه ! .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ ثم هدى ﴾ قال : كيف يأتي الذكر الأنثى .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن سابط قال : ما أبهمت البهائم ، فلم تبهم عن أربع : تعلم أن الله ربها ، ويأتي الذكر الأنثى ، وتهتدي لمعايشها ، وتخاف الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾

يقول: فما حال القرون.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ لا يضل ربي ﴾ قال: لا يخطئ.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ قال: هما شيء واحد.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ قال: ﴿ لا يضل ربي ﴾ الكتاب ﴿ ولا ينسى ﴾ ما فيه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أبي المليح قال: الناس يعيبون علينا الكتاب، وقال الله تعالى: ﴿ علمها عند ربي في كتاب ﴾.

وأخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أبي هلال قال: كنا عند قتادة فذكروا الكتاب وسألوه عن ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك. أليس الله الخبير يخبر؟ قال: ﴿ فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب ﴾.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

أخرج ابن المنذر، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ فأخرجنا به أزواجاً ﴾ يقول: أصنافاً فكل صنف من نبات الأرض أزواج. النخل زوج صنف، والأعناب زوج صنف، وكل شيء تنبته الأرض أزواج.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ من نبات شتى ﴾ قال: مختلف وفي قوله: ﴿ لأولي النهى ﴾ قال: لأولي التقى.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ لأولي النهى ﴾ قال: لذوي الحجا والعقول.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ لأولي النهى ﴾ قال: لأولي الورع.

وأخرج ابن المنذر، عن سفيان رضي الله عنه في قوله: ﴿ لأولي النهى ﴾ قال: الذين ينتهون عما نهوا عنه.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر، عن عطاء الخراساني قال: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه، فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة، وذلك قوله منها خلقناكم وفيها نعيدكم.

وأخرج أحمد والحاكم، عن أبي أمامة قال: " لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله - صلى

الله عليه وسلم – في القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ "بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله" " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ تارة أخرى ﴾ قال مرة أخرى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(133/497)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) ﴾

قوله : ﴿ يا موسى ﴾ : نادى موسى وحدَه بعد مخاطبته لهما معاً : إمَّا لأنَّ موسى هو الأصلُ في الرسالة ، وهارونُ تَبَعٌ ورِدْءٌ ووزيرٌ ، وإمَّا لأنَّ فرعونَ كان لِخُبْثِه يعلمُ الرُّتَّةَ التي في لسان موسى ، ويعلم فصاحةَ أخيه بدليل قوله ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص : 34] وقوله : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : 52] فأراد استنطاقَه دون أخيه ، وإمَّا لأنه حَذَفَ المعطوفَ للعلمِ به أي : يا موسى وهارون . قاله أبو البقاء ، وبدأ به ، ولا حاجةَ إليه ، وقد يُقال : حَسَّنَ الحذفَ كونَ موسى فاصلةً ، لا يُقال : كان يُغني في

ذلك أَنْ تُقَدِّمَ هارون وتؤخِّرَ موسى فيقال : يا هارونُ وموسى فتحصُلُ مجانسةُ الفواصلِ مِنْ غيرِ حَذْفٍ لأنَّ البَدْءَ بموسى أهمُّ فهو المبدوءُ به .

قوله : ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ : في هذه الآية وجهان : أحدهما : أن يكونَ "كلَّ شيءٍ " مفعولاً أول ، و" خَلْقَه " مفعولاً ثانياً على معنى : أعطى كلَّ شيءٍ شكلَه وصورَته ، الذي يطابقُ المنفعةَ المنوطةَ به ، كما أعطى العينَ الهيئةَ التي تطابق الإِبصارَ ، والأُذنَ الشكلَ الذي يطابقُ الاستماعَ ويوافقه ، وكذلك اليدُ والرِّجلُ واللسانُ ، أو أعطى كلَّ حيوانٍ نظيرَه في الخَلْق والصورةِ حيث جعل الحصانَ والحِجْر زوجين ، والناقةَ والبعيرَ ، والرجلَ والمرأةَ ، ولم يزاوِجْ شيءٌ منها غيرَ جنسِه ، ولا ما هو مخالفٌ لخَلْقِه . وقيل : المعنى : أعطى كلَّ شيءٍ مخلوقٍ خَلْقَه أي : هو الذي ابتدعه . وقيل : المعنى : أعطى كلَّ شيءٍ ممَّا خَلَقَ خِلْقَتَه وصورتَه على ما يناسبه من الإِتقانِ . لم يجعل خَلْقَ الإِنسانِ في خَلْقِ البهائم ، ولا بالعكس ، بل خَلَق كلَّ شيءٍ فَقدَّره تقديراً .

والثاني : أن يكونَ "كلَّ شيءٍ " مفعولاً ثانياً ، و" خَلْقَه " هو الأول ، فَقَدَّمَ الثاني عليه ، والمعنى : أعطى خليقته كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه ويَرْتفقون به .

وقرأ عبدُ الله والحسنُ والأعمشُ وأبو نهيكٍ وابنُ أبي إسحاق ونصير عن الكسائي وناسٌ من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم " خَلَقَه " بفتح اللام فِعْلاً ماضياً . وهذه الجملةُ في هذه القراءةِ تحتمل أَنْ تكونَ منصوبةً المحلِّ صفةً ل " كل " أو في محلِّ جَرٍ صفةً ل " شيء " ، وهذا معنى قولِ الزمخشري : " صفةٌ للمضاف يعني " كل " أو للمضافِ إليه " يعني " شيءٍ " . والمفعولُ الثاني على هذه القراءةِ محذوفٌ ، فيُحتمل أَنْ يكونَ حَذْفُه حَذْفَ اختصارٍ للدلالةِ عليه أي : أعطى كلَّ شيءٍ خَلَقَه ما يحتاج إليه ويُصْلحه أو كمالَه ، ويحتمل أن يكونَ حذفُه حَذْفَ اقتصارٍ ، والمعنى : أن كلَّ شيءٍ خَلَقه الله لم يُخْلِه من إنعامِه وعطائِه .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) ﴾

والبالُ : الفِكْرُ . يقال : خَطَر ببالِه كذا ، ولا يثنى ولا يُجْمَعُ ، وشَذَّ جمعُه على " بالات " . ويقال للحال المُكْتَرَثِ بها ، ولذلك يُقال : ما بالَيْتُ بالةً ، والأصل . . . . . . فحذف لامه تخفيفاً .

قوله : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾

في خبر هذا المبتدأ أوجهٌ ، أحدها : أنه " عند ربي " وعلى هذا فقولُه " في كتاب " متعلقٌ بما تعلق به الظرفُ من الاستقرار ، أو متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من الضمير المستتر في الظرف ، أو خبرٌ ثان .

الثاني: أنَّ الخبرَ قولُه "في كتاب" فعلى هذا قولُه "عند ربي" معمولٌ للاستقرار الذي تعلَّق به "في كتاب" كما تقدَّم في عكسه، أو يكون حالاً من الضمير المستتر في الجارِّ الواقعِ خبراً. وفيه خلاف أعني تقديمَ الحالِ على عاملها المعنوي. والأخفش يجيزه ويستدلُّ بقراءة ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: 67] وقوله:

3294 رَهْطُ ابنِ كوزٍ مُحقِبي أَدْراعِهِمْ ... فيهم ورَهْطُ رَبيعةَ بنِ حُذارِ

وقال بعضُ النحويين: إنه إذا كان العاملُ معنوياً، والحالُ ظرفٌ أو عديلُه، حَسُن التقديمُ عند الأخفشِ وغيرِه، وهذا منه. أو يكونُ ظرفاً للعلم نفسه، أو يكونُ حالاً من المضاف إليه وهو الضمير في "عليها". ولا يجوز أُن يكونَ "في كتاب" متعلِّقاً ب "عِلْمها" على قولِنا إنَّ "عند ربي" الخبر كما جاز تعلُّقُ "عند" به لئلا يلزمَ الفصلُ بين المصدر ومعموله بأجنبي، وقد تقدم أنه لا يُخْبَرُ عن الموصول إلاَّ بعد تمامِ صلته.

الثالث: أن يكونَ الظرفُ وحرفُ الجرِّ معاً خبرا واحداً في المعنى، فيكونَ بمنزلةِ "هذا حُلْوٌ حامِض" قاله أبو البقاء، وفيه نظرٌ؛ إذ كلٌّ منها يستقلُّ بفائدةِ الخبريةِ، بخلاف "هذا حلو حامِضٌ".

والضمير في " عِلْمُها " فيه وجهان ، أَظهرُهما : عَوْدُه على القرون . والثاني : عَوْدُه على القيامةِ للدلالةِ ذِكْرِ القرون على ذلك ؛ لأنه سأله عن بَعْثِ الأممِ ، والبعثُ يدلُّ على القيامة .

(136/497)

قوله : { لاَّ يَضِلُّ رَبِّي } في هذه الجملة وجهان ، أحدهما : أنها في محلِّ جرِّ صفةً ل " كتاب " ، والعائدُ محذوفٌ ، تقديرُه : في كتاب لا يَضِلُّه ربي ، أو لا يَضِلُّ حِفْظَه ربي ، ف " ربي " فاعل " يَضِلُّ " على هذا التقدير ، وقيل : تقديرُه : الكتابَ ربي . فيكون في " يَضِلُّ " ضميرٌ يعود على " كتاب " ، وربي منصوبٌ على التعظيمِ . وكان الأصلُ : عن ربي ، فحُذِفَ الحرفُ اتِّساعاً ، يُقال : ضَلَلْتُ كذا وضَلَلْتُه بفتح اللام وكسرها ، لغتان مشهورتان وشُهراهما الفتحُ . الثاني : أنها مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإِعراب ساقها تبارك وتعالى لمجرد الإِخبارِ بذلك حكايةً عن موسى .

وقرأ الحسنُ وقتادة والجحدريُّ وعيسى الثقفي وابن محيصن وحَمَّاد بن سلمة " لا يُضِلُّ " بضم الياء أي : لا يُضِلُّ ربي الكتابَ أي : لا يُضَيِّعه يقال : أَضْلَلْتُ الشيءَ أي : أضعتُه . ف " ربي " فاعلٌ على هذا التقدير . وقيل : تقديرُه : لا يُضِلُّ أحدٌ ربي عن علمه أي : عن

علم الكتاب ، فيكون الربُّ منصوباً على التعظيم .

وفرّق بعضهم بين ضَلَلْتُ وأَضْلَلت فقال : " ضَلَلْتُ منزلي " ، بغيرِ ألفٍ ، و " أَضْلَلْت بعيري " ونحوَه من الحيوان بالألفِ . نقل ذلك الرمانيُّ عن العرب ، وقال الفراء : " يقال : ضَلَلْتُ الشيءَ إذا أخطأْتَ في مكانه وضَلِلْتُ لغتان ، فلم تهتدِ له ، كقولك : ضَلَلْتُ الطريقَ والمنزلَ ولا يُقال : أَضْلَلْتُه إلاَّ إذا ضاع منك كالدَّابة انفلَتَتْ ، وشبهها .

قوله : ﴿ وَلاَ ينسى ﴾ في فاعل " ينسى " قولان ، أحدهما : أنه عائدٌ على " ربي " أي : ولا ينسى ربي ما أثْبَتَه في الكتاب . والثاني : أنَّ الفاعلَ ضميرٌ عائدٌ على الكتاب على سبيل المجاز ، كما أُسند إليه الإِحصاءُ مجازاً في قوله ﴿ إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] لمَّا كان مَحَلاًّ للإِحصاء .

قوله : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ ﴾ :

في هذا الموصولِ وجهان ، أحدُهما : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أو منصوبٌ بإضمار " أمدح " ، وهو على هذين التقديرين مِنْ كلامِ الله تعالى لا مِنْ كلامِ موسى ، وإنما احْتجنا إلى ذلك لأنَّ قوله ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ وقولَه ﴿ مِنْهَا

خَلَقْنَاكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ﴾ لا يَتَأَتَّى أن يكونَ مِنْ كلامِ موسى ؛ فلذلك جَعَلْناه من كلامِ الباري تعالى . ويكون فيه التفاتٌ من ضميرِ الغَيْبةِ إلى ضميرِ المتكلِّم المعظمِ نفسَه ، فإن قلتَ : أجعلهُ مِنْ كلامِ موسى ، يعني أنه وَصَفَ ربَّه تعالى بذلك ثم التفتَ إلى الإِخبار عن الله بلفظِ المتكلِّمِ . قيل : إنما جَعَلْناه التفاتاً في الوجهِ الأول ؛ لأنَّ المتكلمَ واحدٌ بخلاف هذا ، فإنه لا يتأتى فيه الالتفاتُ المذكورُ وأخواتُه من كلام الله .

والثاني : أنَّ " الذي " صفةٌل " ربي " فيكونُ في محلِّ رفعٍ أو نصبٍ على حَسَبِ ما تقدَّم من إعراب " ربي " . وفيه ما تقدَّم من الإِشكال في نظمِ الكلامِ مِنْ قوله " فأَخْرَجْنا " وأخواتِه من عدم جوازِ الالتفاتِ ، وإن كان قد قال بذلك الزمخشري والحوفي . وقال ابن عطية : " إن كلامَ موسى تَمَّ عند قوله ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ وإنَّ قوله " فأخرجْنا " إلى آخره مِنْ كلامِ الله تعالى " وفيه بُعْدٌ .

وقرأ الكوفيون " مَهْداً " بفتح الميم وسكونِ الهاء من غير ألفٍ . والباقون " مِهاداً " بكسرِ الميم وفتح الهاء وألفٍ بعدها . وفيه وجهان : أحدهما : أنهما مصدران بمعنى واحد يقال : مَهَدْته مَهْداً ومِهاداً ، والثاني : أنهما مختلفان ، فالمِهادُ هو الاسمُ والمَهْد هو الفعل ، أو أنَّ مِهاداً جمعُ مَهْد نحو : فَرْخ وفِراخ وكَعْب وكِعاب . ووَصْفُ الأرضِ بالمَهْدِ : إمَّا مبالغةً ، وإمَّا على حذف مضاف أي : ذات مَهْدٍ .

قوله ﴿ شتى ﴾ : " شَتَّى " فَعْلَى . وألفُه للتأنيث ، وهو جمعٌ لشَتِيْت نحو : مَرْضى في جمع مريض ، وجرحى في جمع جريح ، وقتلى في جمع قتيل . يقال : شَتَّ الأمر يَشِتُّ شَتّاً وشَتاتاً فهو شَتٌّ أي تفرَّق . وشَتَّان اسمُ فعلٍ ماضٍ بمعنى افترق ، ولذلك لا يُكتفى بواحد .

وفي " شَتَّى " أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها منصوبةٌ نعتاً ل " أَزْواجاً " أي : أزواجاً متفرقةً بمعنى : مختلفة الألوانِ والطُّعوم . والثاني : أنها منصوبةٌ على الحال مِنْ " أزواجاً " وجاز مجيءُ الحالِ من النكرة لتخصُّصِها بالصفةِ وهي " مِنْ نبات " . الثالث : أَنْ تنتصِبَ على الحال أيضاً مِنْ فاعل الجارِّ ؛ لأنه لَمَّا وقع وصفاً رفع ضميراً فاعِلاً . الرابع : أنَّه في محلِّ جر نعتاً ل " نبات " ، قال الزمخشري : " يجوز أن يكونَ صفةً لنبات ، ونبات مصدرٌ سُمِّيَ به النابت كما سُمِّي بالنَّبْت ، فاستوى فيه الواحدُ والجمع ، يعني أنها شَتَّى مختلفةُ النفعِ والطعمِ واللونِ والرائحةِ والشكلِ ، بعضُها يَصْلُح للناس ، وبعضُها للبهائم " ووافقه أبو البقاء أيضاً . ولكنَ الظاهرَ الأولُ .

قوله : ﴿ كُلُوْا ﴾ : منصوبٌ بقولٍ محذوف ، وذلك القولُ منصوبٌ على الحال مِنْ فاعل " أَخْرَجْنا " تقديره : فأخرجْنا كذا قائلين : كُلوا . وتَرَكَ مفعولَ الأكل على حدِّ تركِه في قولِه تعالى : ﴿ كلُوا واشربوا ﴾ [البقرة : 60] .

" وارْعَوْا " رعى يكون لازماً ومتعدّياً يقال : رعى دابّته/ رَعْياً فهو راعِيها . ورعَتِ الدابّةُ ترعى رَعْياً فيه راعيةٌ، وجاء في الآيةِ متعدّياً .

(139/497)

والنهى فيه قولان، أحدهما : أنه جَمْعُ نُهْيَة كغُرَف جمع غُرْفَة . والثاني : أنها اسمٌ مفردٌ وهو مصدرٌ كالهدى والسرى . قاله أبو عليّ . وكنت قد قدَّمْتُ أولَ هذا الموضوع أنهم قالوا : لم يأتِ مصدرٌ على فُعَل من المعتل اللام إلاّ سرى وهدى وبكى، وأنَّ بعضهم زادَ " لقى " وأنشدْتُ عليه بيتاً ثَمَّة، وهذا لفظٌ آخرُ فيكون خامساً . والنهى : العَقْلُ . قالوا : سُمِّي بذلك لأنه يَنْهى صاحبَه عن ارتكابِ القبائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 46.53﴾

(140/497)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) ﴾

﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ على التثنية، ثم قال: ﴿ يَا مُوسَى ﴾ فأفرده بالخطاب بعدما قال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ؟ ﴾ فيحتمل أن ذلك لمُشَاكَلَة رؤوس الآي، ويحتمل أن موسى كان مُقدَّماً على هارون فَخَصَّه بالنداء.

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فِعْلِه - سبحانه فقال: ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ليُعْلَمَ أنَّ الدليلَ على إثباته - سبحانه - ما دلَّتْ عليه أفعالُه.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) ﴾

لا يمكنني أن أُخْبِرَكم إلا بما أخبرني به ربي فَمَا عَرَّفَني عرَّفْتُ، وما ستره عليَّ وَقَفْتُ.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

جَعَلَ الأرضَ مستقراً لأبدانهم، وجعل أبدانَهم مستقراً لعبادته، وقلوبهم مستقراً لمعرفته، وأرواحَهم مستقراً لمحبته، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته.

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) ﴾

هيَّأَ لهم أسبابَ المعيشة، وكما نَظَرَ إليهم ورَزَقَهُم رزقَ دوابِّهم التي ينتفعون بها، وأَمَرَهُم أنْ يَتَقَوَّوْا بما تَصِلُ إليه أيديهم، وأنْ ينتفِعُوا - ما أمكنهم - بأَنْعَامِهِم ليَكْمُلَ لديهم إنْعَامُهم.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) ﴾

إذ خَلَقْنا آدمَ من التراب، وإذ أَخْرَجْناكم من صُلبه. . . فقد خَلَقْنَاكم من الترابِ أيضاً.

والأجسادُ قوالِبُ والأرواحُ ودائعُ ، والقوالب نسبتها التُّربة ، والودائع صفتها القُرْبة ،
فالقوالب يزّينها بأفضاله ، والودائع يحييها بكشف جلاله ولطف جماله . وللقوالب اليوم
اعتكافٌ على بِساط عبادته ، وللودائع اتصافٌ بدوام معرفته . انتهى انتهى . ا هـ
﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 462 . 463 ﴾

(141/497)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾

قرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي في رواية أبي بكر "طِهِ" بكسر الطاء والهاء ، وقرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص بنصب الطاء والهاء ، وقرأ نافع وسطاً بين النصب والكسر ، وقرأ أبو عمرو وابن العلاء بنصب الطاء وكسر الهاء .

قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية أبي صالح : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادة ، فاشتد عليه ، فجعل يصلي الليل كله حتى شق عليه ذلك ، ونحل جسمه ، وتغير لونه فقال أبو جهل

وأصحابه : إنك شقي فأتنا بآية أنه ليس مع إلهك إله ، فنزل ﴿ طه ﴾ يعني : يا رجل بلسان عك ، وعنى به النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال عكرمة والسدي : هو بالنبطية ، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : طه كقولك يا فلان ، ويقال : إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى رفع رجلاً ووضع أُخرى ، فنزل : ﴿ طه ﴾ يعني : طإ الأرض بقدميك جميعاً .

وقال مجاهد : ﴿ طه ﴾ فواتح السورة .

ويقال : طا طرب المؤمنين في الجنة وها هوأن الكافرين في النار .

ويقال : الطا طلب المؤمنين في الحرب والها : هرب الكافرين .

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ يعني : لتنصب نفسك وتتعبها ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لّمَن يخشى ﴾ يقول : لم ننزله إلا عظة لمن يسلم ، وقال القتبي : في الآية تقديم ، يقول : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى لا أن تشقى ، ثم قال : ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ يعني : تنزل به جبريل عليه السلام ﴿ مّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ يعني : نزل من عند خالق السموات والأرض ﴿ العلى ﴾ يعني : الرفيع .

وقال أهل اللغة : ﴿ العلى ﴾ جمع العليا ، تقول : السماء العليا والسموات العلى ثم قال ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ أي : حكمه ، ويقال : كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض ويقال : استوى استولى وملك كما يقال : استوى فلان على بلد كذا يعني : استولى عليها وملكها ، فالله تعالى يبين لخلقه قدرته وتمام ملكه أنه يملك العرش وله ما في السموات وما في الأرض ، فذلك قوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ يعني : ما تحت الأرض السابعة السفلى وروى أسباط عن السدي في قوله عز وجل : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ قال : الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء ، وهي سجين التي فيها كتاب الكفار ، ويقال : الثرى تراب رطب مقدار خمسمائة عام تحت الأرض ، ولولا ذلك لأحرقت النار الدنيا وما فيها .

وروي عن ابن عباس أنه قال : بسطت الأرض على الصخرة ، والصخرة بين قرني الثور ، والثور على الثرى وما يعلم ما تحت الثرى ، إلا الله عز وجل .

ثم قال : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول ﴾ يعني : تعلن بالقرآن ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ يعني : ما أسررت في نفسك ﴿ وَأَخْفَى ﴾ يعني : ما لم تحدث في نفسك ، وهذا قول الضحاك ، وقال ابن عباس هكذا ، وقال عكرمة : السر ما حدث الرجل به أهله وأخفى ما تكلمت به نفسك ، وروى منصور بن عمار عن بعض الصحابة قال : السر ما أسررت به في نفسك ، وأخفى من السر ما لم يطلع عليه أحد أنه كَائِنٌ ، ثم قال عز وجل : ﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾

يعني : هو الله الخالق الرزاق لا خالق ولا رازق غيره ﴿ لَهُ الاسماء الحسنى ﴾ يعني : الصفات العلى .

(143/497)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ يعني : خبر موسى عليه السلام في القرآن ثم أخبره فقال ﴿ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امكثوا ﴾ يعني : انزلوا مكانكم وقفوا ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ يعني : أبصرت ناراً وذلك حين رجع من مدين مع أهله أصابهم البرد فرأى موسى ناراً من البعد فقال لهم : ﴿ امكثوا إِنِّى ءانَسْتُ نَاراً ﴾ ﴿ لَّعَلِّى اتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ يعني : بشعلة وهو ما اقتبس من عود ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ يعني : هادياً يدلنا على الطريق وكان موسى عليه السلام ضل الطريق وكانت ليلة مظلمة ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعني : انتهى إلى النار ﴿ نُودِىَ ﴾ يعني : دعي ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ قال ابن عباس : لما أتى النار فإذا هي نار بيضاء تستوقد من شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وهي خضراء فجعل يتعجب منها ، وقال في رواية كعب : فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه ، فلما طال ذلك أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها ، فلما فعل ذلك مالت نحوه كأنها تريده ، فاستأخر عنها ، ثم عاد فطاف بها ، فنودي ﴿ واحدة فَإِذَا

هُم بالساهرة هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ يعني : المطهر ، قال مقاتل : طوى اسم الوادي ، وقال مجاهد : أي : طي الأرض حافياً .

قال عامة المفسرين : إنما أمره أن يخلع نعليه لأنهما كانا من جلد حمار ميت ، وقال بعضهم : أراد أن يصيب باطن قدميه من الوادي ليتبرك به ، وروي عن كعب الأحبار أنه كان جالساً في المسجد فجاء رجل يصلي فخلع نعليه ثم جاء آخر يصلي فخلع نعليه ، ثم جاء آخر فخلع نعليه ، فقال لهم كعب الأحبار : أنبيكم صلى الله عليه وسلم أمركم بهذا ؟ قالوا لا . قال : فلم تخلعون نعالكم إذا صليتم ؟ قالوا : سمعنا الله تعالى يقول : ﴿ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ قال : أتدرون من أي شيء كانتا نعلاه ؟ قالوا : لا .

(144/497)

قال : إنما كانتا من جلد حمار ميت ، فأمره الله تعالى أن يخلعهما ليمسه القدس كله .

وقال عكرمة : ﴿ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ قال : لكي يمس راحة قدميه الأرض الطيبة .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ بنصب الألف يعني : بأني أنا ربك على معنى البناء ، والباقون بكسر الهاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿ طُوًى ﴾ بنصب الواو

بغير تنوين وقرأ الباقون بالتنوين .

ثم قال : ﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ يعني : اصطفيتك للرسالة ، قرأ حمزة بكسر الألف وتشديد النون ﴿ وَأَنَّا ﴾ بالنون بلفظ الجماعة ، والباقون بنصب الألف وتخفيف النون و ﴿ أَنَاْ اخترتك ﴾ بالتاء ، قال أبو عبيدة : وبهذا نقرأ لموافقة الخط يعني : بخط عثمان ثم قال : ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ يعني : اعمل بما تؤمر وتنهى ، ثم قال : ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدنى ﴾ يعني : أطعني واستقم على توحيدي ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله ﴾ يعني : لتذكرني فيها ، ويقال : إن نسيت الصلاة فصلها إذا ذكرتها .

(145/497)

وروى الزهري عن سعيد بن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نام عن الصلاة حتى طلعت الشمس قال : " مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِذِكْرِى ﴾ " قال بعضهم : هذا خطاب لموسى وقال بعضهم : هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى قوله ﴿ واتبع هَوَاهُ فتردى ﴾ ثم رجع إلى قصة موسى بقوله : ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا واتبع هَوَاهُ فتردى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى موسى ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ

﴾ يعني : كائنة ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ يعني : أسرها عن نفسي فكيف أعلنها لكم يا أهل مكة ؟ هكذا روي عن جماعة من المتقدمين ، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح ، وقال القتبي كذلك في قراءة أبيّ أخفيها من نفسي ، وهكذا روى جماعة من المتقدمين ، وروى طلحة عن عطاء في قوله ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ عن نفسي ، وروي في إحدى الروايتين عن أبي بن كعب أنه كان يقول ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ بنصب الألف يعني : أكاد أظهرها ، وهي قراءة سعيد بن جبير قال أهل اللغة : خفى أي أظهر ، وقال امرؤ القيس :

خفاهن من انفاقهن كأنما

خفاهن ودق من عشيّ مجلب يذكر الفرس أنه استخرج الفأرة من جحرهن كالمطر ، ثم قال : ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ يعني : لتثاب كل نفس بما تعمل : ثم قال عز وجل : ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ يعني : لا يصرفنك عنها ، يعني : عن الإقرار بقيام الساعة ﴿ مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ يعني : من لا يصدق بقيام الساعة ﴿ واتبع هَوَاهُ فتردى ﴾ يعني : فتهلك ، ويقال : الردى الموت والهلاك ، ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام .

فقال عز وجل : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى موسى ﴾ يعني : أي الشيء الذي بيدك ، وكان عالماً بما في يده ولكن الحكمة في سؤاله لإزالة الوحشة عن موسى ، لأن موسى كان خائفاً مستوحشاً كرجل دخل على ملك وهو خائف فسأله عن أي شيء فتزول بعض الوحشة عنه بذلك ويستأنس بسؤاله ، وقال بعضهم : إنما سأله تقريراً له أن ما في يده عصاً لكيلا يخاف إذا صار ثعباناً ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا ﴾ يعني : أعتمد عليها إذا أعييت ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِى ﴾ يعني : أخبط بها ورق الشجر لغنمي ، فإن قيل إنما سأله عما في يده ولم يسأله عما يصنع بها فلم أجاب موسى عن شيء لم يسأله عنه ؟ قيل له : قد قال بعضهم : في الآية إضمار يعني : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى موسى قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ فقال وما تصنع بها قال ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ ﴾ وقال بعضهم : إنما خاف موسى بذلك لأنه أمره بأن يخلع نعليه ، فخاف أن يأمره بإلقاء عصاه ، فجعل يذكر منافع عصاه فقال : ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ ﴾ ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ يعني : حوائج أُخرى وواحدها مأربة ، وقال مقاتل : كان موسى يحمل زاده على عصاه إذا سار ، وكان يركزها في الأرض فيخرج الماء ، وتضيء له بالليل بغير قمر ، فيهتدي على غنمه .

وروى أسباط عن السدي قال : كانت عصا موسى من عود شجر آس من شجر الجنة ، وكان استودعها إياه ملك من الملائكة في صورة إنسان ، يعني : عند شعيب ، وقال علي بن

أبي طالب: كانت عصا موسى من عود ورد من شجر الجنة اثني عشر ذراعاً من ذراع موسى.

(147/497)

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى موسى ﴾ يعني: ألق عصاك من يدك فظن موسى أنه يأمره بإلقائها على وجه الرفض، فلم يجد بداً ﴿ فألقاها فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ يعني: تسرح وتسير على بطنها رافعة رأسها، فخاف موسى وولى هارباً ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لموسى: ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيَرَتَهَا الاولى ﴾ يعني: سنجعلها عصاً كما كانت أول مرة وأصل السيرة الطريقة كما يقال: فلان على سيرة فلان، أي على طريقته، وإنما صار نصباً لنزع الخافض، والمعنى: سنعيدها إلى حالها الأولى، فتناولها موسى فإذا هي عصاً كما كانت، ثم قال عز وجل: ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ قال الكلبي: الجناح أسفل الإبط، يعني: أدخل يدك تحت إبطك ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ لها شعاع يضي (كضوء) الشمس ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ يعني: من غير برص ﴿ أخرى لِنُرِيَكَ ﴾ يعني: علامة أُخرى مع العصا ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ يعني: العظمى، ومعناه: لنريك الكبرى من آياتنا ولهذا لم يقل الكبريات لأنه وقع المعنى على واحدة.

ثم قال تعالى : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ ، يعني : علا وتكبر وادعى الربوبية ، أي : اذهب إليه وادعه إلى الإسلام .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ ، يعني : يا رب وسع لي قلبي حتى لا أخاف منه ، ويقال : لين قلبي بالإسلام حتى أثبت عليه ، ﴿ وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ ؛ يعني : هون علي ما أمرتني به ، ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ ؛ يعني : ابسط العقدة أي : الرثة من لساني ﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ ، يعني : يفهموا كلامي .

(148/497)

وذلك أن موسى عليه السلام في حال صغره رفعه فرعون في حجره فلطمه موسى لطمة ، ويقال : أخذ بلحيته ومدها إلى الأرض ، فقال فرعون : هذا من أعدائي الذين كنت أتخوف به ، فقالت امرأته آسية بنت مزاحم : صبيّ جاهل ، لا عقل له ضع له طستاً من ذهب وطستاً من نار ، حتى نعلم ما يصنع .

فوضعوا له ذلك فجاء جبريل عليه السلام فأخذ يده وأهوى بها إلى النار ، فأخذ جمرة فوضعها في فيه فكانت الرثوثة من ذلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ .

﴿ واجعل لِّى وَزِيراً مِّنْ أَهْلِى هارون أَخِى ﴾ ، يعني : اجعل لي معيناً من أهلي أخي

هارون.

﴿ اشدد بِهِ أَزْرِى ﴾ ، حتى يكون قوة لي.

والأزر الظهر وجمعه أزر ويراد به القوة.

يقال: آزرت فلاناً على الأمر أي: قويته عليه، وإنما نصب ﴿ هارون ﴾ لوقوع الفعل عليه، والمعنى اجعل هارون أخي وزيراً، فصار الوزير المفعول الثاني.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ ، يعني: في نبوتي؛ قرأ ابن عامر ﴿ اشدد ﴾ بنصب الألف ﴿ وَأَشْرِكْهُ ﴾ بضم الألف على معنى الخبر عن نفسه، أي: أنا أفعل ذلك وإنما كان جزماً على الجزاء في الأمر، والباقون ﴿ اشدد ﴾ بضم الألف ﴿ وَأَشْرِكْهُ ﴾ بنصب الألف على معنى الدعاء، يعني: اللهم أشدد به أزري وأشركه في أمري، قال أبو عبيدة: بهذه القراءة نقرأ، ويكون حرف ابن مسعود شاهداً لها.

وكان يقرأ ﴿ هارون أَخِى واشدد بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ وفي حرف أُبَي ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى واشدد بِهِ أَزْرِى ﴾ قال كأنه دعا ثم قال: ﴿ كَىْ نُسَبّحَكَ كَثِيراً ﴾ ، يعني: نصلي لك كثيراً، ﴿ وَنَذْكُرَكَ ﴾ باللسان ﴿ كَثِيراً ﴾ ، يعني: على كل حال ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بَنَا بَصِيراً ﴾ ، أي: كنت عالماً بنا في الأحوال كلها ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى موسى ﴾ ، يعني: أعطيناك ما سألته.

﴿ ولقد مننّا عليك مرة أخرى ﴾ ، يعني : قد أكرمتك بكرامات قبل هذا من غير أن تسألني .

ثم بيّن له الكرامات والنعم فقال : ﴿ ﴾ ، يعني : قد أكرمتك بكرامات قبل هذا من غير أن تسألني .

ثم بيّن له الكرامات والنعم فقال : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ مَا يوحى ﴾ ، أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ، أي : ألهمنا أمك ما ألهمت ، ويقال : ﴿ مَا يوحى ﴾ على الحجر ، يعني : كان إلهاماً ولم يكن وحياً .

﴿ أَنِ اقذفيه فِى التابوت ﴾ ، يعني : اجعلي موسى في التابوت ، ثم ﴿ فاقذفيه فِى اليم ﴾ ، يعني : اطرحيه في البحر .

﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ ، يعني : شاطىء البحر .

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لّى وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ ، يعني : آل فرعون ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مّنّى ﴾ ، يعني : ألقيت محبتي عليك فكل من رآك أحبك .

﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ ، يقول ما يصنع بك على منظر مني وبعلمي وبإرادتي .

﴿ إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ ﴾ : لآل فرعون ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ ؟ يعني : أرشدكم على من يكفله ، يعني : يضمه ويحوطه ويرضعه .

﴿ فرجعناك إلى أُمّكَ كَى تَقرَّ عَيْنُها ﴾ ، يعني : رددناك إليها لتطيب نفسها .

﴿ ولَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فنجيناك مِنَ الغم ﴾ ، يعني : من القود ، ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ ؛

يعني : ابتليناك ببلاء بعد بلاء ويقال : بنعمة على إثر نعمة .

قال : أخبرني الثقة بإسناده ، عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس .

عن قوله تعالى لموسى : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف

النهار يا ابن جبير ، فإن له حديثاً طويلاً .

فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس ، ليخبرني ما وعدني من حديث الفتون ، فقال ابن

عباس : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته

أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل لينتظرون ذلك ما يشكون فيه .

قال فرعون : فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار ،

يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا ، فلما رأوا أن الكبار من بني

إسرائيل يموتون وأن الصغار يذبحون قالوا : يوشك أن يفني بني إسرائيل فتصيروا إلى أن

تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم ، فاقتلوا عاماً ودعوا ، أي : اتركوا عاماً لا

تقتلوا منهم أحداً فنشأ الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانيةً حتى إذا كان من قابل حملت بموسى ، فوقع في قلبها من الحزن والهم ما لا يعلم ، فذلك من الفتون يا ابن جبير .

فأدخل عليه في بطن أمه ما يراد به فأوحى الله تعالى إليها أنْ ﴿ لا تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ وأمرها إذا هي ولدته أن تجعله في التابوت ، ثم تلقيه في اليم .

فلما ولدته فعلت ما أُمرت به ، حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها : ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته ، كان أحب إلي من أن ألقيه بيدي إلى دواب البحر تأكله .

فانطلق به الماء حتى رقا به عند فرضة مستقى جواري امرأة فرعون ، فرأينه وأخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن لبعض : إن في هذا مالاً ، وإنَّا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه .

فحملنه كهيئته حتى دخلن به عليها فدفعنه إليها .

فلما فتحنه ونظرت ، فإذا فيه غلام فألقى عليه منها محبة لم يُلْقَ مثلها على أحد قط من البشر ، ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ من ذكر كل شيء إلا ذكر موسى ؛ فلما سمع

الذباحون بذكره ، أقبلوا إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير .

(151/497)

فقالت للذباحين : اصبروا عليّ ، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ولا ينقص ، حتى آتي فرعون فأستوهبه إياه ؛ فإن وهبه لي فقد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم أنهكم .

فلما أتت فرعون به قالت : قرة عين لي ولك لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً .

فقال فرعون : يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه .

فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ بِأَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ لَهَدَاهُ اللهُ تَعَالَى بِمُوسَى .

كَمَا هَدَى بِهِ امْرَأَتَهُ " .

قال : فأرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار له ظِئرًا ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل من ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ثم أمرت به فأخرج إلى السوق واجتمع الناس ترجوا أن تجد له ظئرًا تأخذه منها ، فلم تجد فأصبحت أم موسى والهاً ، فقالت لأخته قصي أثره فاطلبيه .

هل تسمعين له ذكراً أحيٌّ ابني ، أم قد أكلته الدواب في البحر ؟ فبصرت به عن جنب ، أي : عن بعد .

والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهي إلى جنبه لا يشعر بها فقالت : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ [القصص : 12] فقالوا وما يدريك ما نصحهم له ، وهل يعرفونه ؟ حتى شكوا في ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه ، لرغبتهم في الملك ورجاء منفعته .

فتركوها فانطلقت إلى أمها ، فأخبرتها بالخبر ، فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها ، فمصه حتى امتلأ جنباه ريّاً ، فانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها بأن قد وجدنا لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها فأتت به وبها .

فلما رأت ما تصنع به ، قالت لها : امكثي عندي ترضعين ابني ، فإني لم أحب مثل حبه شيئاً قط .

قالت : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي ، لا آلو خيراً .

إلا فعلت به ، فإن طابت نفسك ؛ وإلا فإني غير تاركةٍ بيتي وولدي .

فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها ، فأنجزها الله عز وجل وعده فأنبته الله نباتاً حسناً .

فلم تزل بنو إسرائيل تمتنع به من الظلم والسحرة .

فلما ترعرع أي : كبر ، قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريني ابني .

فواعدتها يوماً وقالت لخزانها وقهارمتها : لا يبقى منكم أحد إلا استقبل ابني بهدية وكرامة .

فلم تزل الهدايا والكرامة تستقبله من حيث خرج من بيت أمه إلى أن دخل إلى امرأة فرعون ، فلما دخل عليها بَجَّلَتْه وأكرمته وفرحت به وأعجبها ؛ وبَجَّلت أمه بحسن أثرها عليه .

ثم قالت : لأدخلن به على فرعون فليبجلنَّه وليكرمنَّه .

فلما دخلت به عليه جعلته في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون ومدها إلى الأرض ، فقالت له الغواة من أعداء الله تعالى : ألا ترى إلى ما وعد الله لإبراهيم ؟ إنه يريد أن يصرعك وينزع عنك ملكك ويهلكك ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت له : ما بدا لك في هذا الصبي الذي وهبته

لي ؟ فقال : ألا ترينه ، إنه سيصرعني ؟ فقالت له : اجعل بينك وبينه أمراً لتعرف فيه الحق .

ائت بجمرتين ولؤلؤتين ؛ فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين ، علمت أنه يعقل ؛ وإن تناول الجمرتين ، فاعلم بأنه لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل .

فقرب ذلك إليه ، فتناول الجمرتين فانتزعوهما منه مخافة أن يحرقا يديه .

فلما بلغ أشده وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم ولا بسخرة .

فبينما هو يمشي في ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان .

أحدهما من بني إسرائيل ، والآخر من آل فرعون فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى واشتد غضبه فوكزه فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي .

فأتى فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا .

فقال : ائتوني بقاتله والذي يشهد عليه آخذ لكم بحقكم .

فبينما هم يطوفون لا يجدون شيئاً ، وإذا موسى قد رأى من الغد الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني وقد ندم موسى على ما كان منه بالأمس ، وكره الذي رأى مثل ذلك ، فخاف الإسرائيلي من موسى وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فقال الإسرائيلي : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى المدينة خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الذى استنصره بالامس يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ موسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

[القصص : 18] فخاف الإسرائيلي وظن أنه يريده فقال : يا موسى ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالامس ﴾ [القصص : 19] ، فتتاركا فانطلق الفرعوني إلى قومه وأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر .

فأرسل فرعون إلى الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى ، وجاء رجل من شيعة موسى فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى ، فأخبره الخبر ؛ وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ، لم يلق بلاءً قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه تعالى ، فإنه قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عسى ربى أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السبيل ﴾ [القصص : 22] ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِى حتى يُصْدِرَ الرعآءَ وَأَبُونَا

شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] .

يعني : إنهما حابستان غنمهما .

(154/497)

فقال : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما ننتظر فضل حياضهم فنسقي ، فسقى لهما موسى فجعل يغدق في الدلو ماء كثيراً حتى لو كان أول الرعاة فراغاً ، فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما ، وانصرف موسى إلى شجرة فاستظل بها .

فاستنكر أبو الجاريتين سرعة صدورهما بغنمهما حُفلاً بطاناً فقال : إن لكما لشأناً اليوم .

فحدثاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتته فدعته .

فلما دخل على شعيب فأخبره بالقصة قال : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : 25] ، أي : ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

[القصص : 26] فاحتملته الغيرة وقال : وما يدريك ما أمانته وقوته ، فقالت : أما قوته لما سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى منه في ذلك السقي ؛ وأما أمانته فإنه ما نظرني حين أقبلت إليه صَوَّبَ رأسه ولم يرفعه ، ولم ينظر إلي حين بلغته رسالتك فقال لي : امشي خلفي وانعتي إلي الطريق ، يعني : صفي ودليني على الطريق ، فسري عن أبيها فقال له : ﴿ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ [القصص : 27].

(155/497)

فكان على موسى ثمان سنين واجبة بسنتين عدة منه ؛ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ؛ كان من أمره ما قصّ الله عليك في القرآن ، فشكا إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه عن كثير من الكلام ، فسأل ربه أن يعينه بأخيه ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به .

فأعطاه الله سؤاله وحلّ عقدة من لسانه ، فاندفع موسى بالعصا فلقي هارون ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما بعد بالدخول ، ثم أذن لهما بعد

حجاب شديد فقالا : إنَّا رسولا ربك .

قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذي قصّ الله تعالى في القرآن .

فقال : مَا تُرِيدَانِ ؟ فقال موسى : أريد أن تؤمن بالله وأن ترسل معنا بني إسرائيل .

فأبى عليه ذلك وقال : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِأَيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الشعراء : 154] .

فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة ، فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فاقتحم فرعون عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل وأخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، ثم أعادها إلى كمه فصارت إلى لونها الأول .

فاستشار الملأ فيما رأى فقالوا : اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير فأرسل فرعون في المدائن فحضر له كل ساحر متعالم .

فلما أتوا فرعون ، قالوا : بمَ يعمل هذان الساحران ؟ قال : يعملان بالحيات .

فقالوا : والله ما في الأرض أحد يعمل بالحيات التي نعمل .

فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

ويوم الزينة هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة ، وهو يوم عاشوراء ، فقال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر فنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، يعنون بذلك موسى وهارون استهزاءً بهما .

قالت السحرة لموسى ﴿ لِقُدْرَتِهِمْ بسحرهم ﴾ ﴿ قَالُواْ يا موسى إِمَّا أَن تلْقِىَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ [الأعراف : 115] .

قال لهم موسى : ألقوا .

(156/497)

فألقوا حبالهم وعصيهم فرأى موسى من سحرهم شيئاً عظيماً ، فأوجس في نفسه خيفة

فأوحى الله تعالى إليه : أن ألق عصاك .

فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاها ، فجعلت تلتقم العصي والحبال حتى ما

أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته .

فلما عرفت السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا ساحراً لم يبلغ من سحره كل هذا ، ولكن هذا

أمر من أمر الله تعالى .

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ، أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً

، فأصبح فرعون فبعث في المَدَائِن حَاشِرِين وتبعهم بجنود عظيمة فنسي موسى أن يضرب

بعصاه البحر ، فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال قوم موسى إنا لمدركون ، افعل ما أمرك الله

تعالى .

فذكر موسى ما وعده الله عز وجل ، فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر اثنتي عشرة فرقة .

فلما جاوز أصحاب موسى كلهم ودخل أصحاب فرعون كلهم ، التقم البحر عليهم ، فقال أصحاب موسى : إنا نخاف أن لا يكون فرعون .

فدعا موسى ربه فأخرجه حتى استيقنوا ، فمضوا حتى أنزلهم منزلاً ، ثم قال لهم : أطيعوا هارون فإني استخلفته عليكم ، وإني ذاهب إلى ربي .

وأجّلهم ثلاثين يوماً وصامهن .

وكره أن يكلمه ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم .

قال : يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح .

قال الله تعالى : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ارجع حتى تصوم عشرة أيام ، ثم ائتني .

ففعل موسى الذي أمره ربه تعالى ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يأتهم للأجل ، ساءهم ذلك .

وأخرج لهم السامري عجلاً جسداً ، له خوار من حلي آل فرعون فتفرقت بنو إسرائيل ، فقالت فرقة للسامري : ما هذا ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أخطأ الطريق .

فقالوا : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان ، وليس هذا بربنا .

(157/497)

وأسرت فرقة في قلوبهم التصديق ، وقال لهم هارون : إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن .

فلما كلم الله موسى ، أخبره بما لقي قومه بعده ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفاً ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه كما قصَّ الله عز وجل في هذه السورة ؛ وذلك من الفتون يا ابن جبير .

ويقال : ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ ، أي : اختبرناك اختباراً ، ويقال : أخلصناك إخلاصاً .

كما قال تعالى : ﴿ واذكر فِى الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 51] .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ، أي : عشر سنين عند شعيب ﴿ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى موسى ﴾ ؛ يعني : على وقت مقدور عليك يا موسى ، وهذا قول ابن عباس ، وقال مقاتل : على قدر ، أي : على ميقات ، ويقال : على موعد ، ويقال : على قدر من تكلمي إياك ، ويقال : على قضاء قضيته ، ويقال : على تمام الذي

يوحى للأنبياء أربعين سنة .

﴿ واصطنعتك لِنَفْسِى ﴾ ، يعني : اخترتك للرسالة والنبوة ولإقامة حجتي .

فقال موسى : يا رب حسبي حسبي فقد تمت كرامتي ، فقال الله تعالى : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بَـَٔايَاتِى ﴾ ، يعني : آياتي التسع ، ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ ؛ يعني : لا تفترا ولا تعجزا ولا تضعفا عن أداء رسالتي .

﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ ، يعني : تكبر وعلا .

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ ، يعني : كلاماً باللين والشفقة والرفق ، لأن الرؤساء بكلام اللين أقرب إلى الانقياد من الكلام العنيف .

أي : قولا له : أيها الملك ، ويقال : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ لوجوب حقه عليك بما رباك ، وإن كان كافراً .

وروى أسباط عن السدي قال : القول اللين أن موسى جاءه ، فقال له : تسلم وتؤمن بما جئت به وتعبد رب العالمين ، على أن لك شباباً لا تهرم أبداً ، ويكون لك ملك لا ينزع منك أبداً حتى تموت ، ولا ينزع منك لذة الطعام والشراب والجماع أبداً حتى تموت ؛ فإذا مت

دخلت الجنة .

قال : فكأنه أعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان ، وكان هامان غائباً فقال له فرعون : إن لي من أوامره وهو غائب حتى يقدم .

فلم يلبث أن قدم هامان فقال له فرعون : علمت بأن ذلك الرجل أتاني ؟ فقال هامان : ومن ذلك الرجل ؟ فقال فرعون : هو موسى .

قال : فما قال ؟ فأخبره بالذي دعاه إليه .

قال : فما قلت له ؟ قال : لقد دعاني إلى أمر أعجبني .

فقال له هامان : قد كنت أرى لك عقلاً وأن لك رأياً بينا أنت رب ، أفتريد أن تكون مربوباً ، وبينا أنت تعبد أفتريد أن تعبد غيرك ؟ فغلبه على رأيه فأبى .

ثم قال تعالى : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ ، يعني : يتعظ أو يسلم .

وقال الزجاج : لعل في اللغة للترجي والتطمع ، يقول : لعله يصير إلى خير .

والله سبحانه وتعالى خاطب العباد بما يعقلون ، والمعنى عند سيبويه اذهبا على رجائكما وطمعكما ، وقد علم الله تعالى أنه لا يتذكر ولا يخشى ؛ إلا أن الحجة إنما تجب بإبائه ؛ وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فعليك باللين لأنك لست بأفضل من موسى وهارون ، ولا الذي تأمره بالمعروف ليس بأسوأ من فرعون ؛ وقد أمرهما الله تعالى بأن يأمراه باللين ، فأنت أولى أن تأمر وتنهى باللين .

ثم قال عز وجل : ﴿ قَالاَ ﴾ ، أي : موسى وهارون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ ؛ يعني : أن يبادر بعقوبتنا .

يقال : قد فرط منه أمر ، أي : قد بدر منه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ " .

ويقال : أن يفرط علينا ، يعني : أن يضربنا .

(159/497)

﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ ، يعني : يقتلنا : قال : كان هذا القول من موسى وهارون حين رجع موسى إلى مصر ، وأوحى إليهما فقالا عند ذلك : إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ؛ وقال بعضهم : قد قال الله ذلك لموسى عند طور سيناء ؛ فأجابه موسى عن نفسه وعن هارون ، فأضاف القول إليهما جميعاً .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى : ﴿ لاَ تَخَافَا ﴾ ، أي : لا تخافا عقوبة فرعون عند أداء الرسالة .

﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ ، أي : معينكما .

﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ ، أي : أسمع ما يرد عليكما ، وأرى ما يصنع بكما ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ ، يعني : فاذهبا إلى فرعون ، ﴿ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾ .

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : في الآية دليل أنه يجوز رواية الأخبار بالمعنى ، وإنما العبرة للمعنى دون اللفظ ، لأن الله تعالى حكى معنى واحداً بألفاظ مختلفة ، وقال في آية أخرى ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] وقال هاهنا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ قالوا ءَامَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وهارون ﴾ [الأعراف : 122/121] ، وقال في موضع : ﴿ امَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل وَلَا تُعَذّبْهُمْ ﴾ ، يعني : لا تستعبدهم .

﴿ قَدْ جئناك بِئَايَةٍ مّن رَّبّكَ ﴾ ، يعني : باليد والعصا .

﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ ، أي : على من طلب الحق ورغب في الإسلام .

قال الزجاج : ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ معناه أن من اتبع الهدى ، فقد سلم من عذاب الله وسخطه ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب ﴾ في الآخرة بالدوام ﴿ على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ عن التوحيد ، والإيمان ولم يذكر في الآية أنهما فرعون ، لأن في الكلام دليلاً عليه حيث ذكر قول فرعون ، ومعناه أنهما أتيا فرعون وأديا إليه الرسالة وقالا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبّكَ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى موسى ﴾ ، ولم يقل من ربي تكبراً منه.

﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ﴾ ، يعني: شكله؛ ويقال: خلق لكل ذكر أنثى شبهه؛ ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ ، يعني: ألهمه الأكل والشرب والجماع، وقال القتبي: الإهداء أصله الإرشاد، كقوله ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عسى ربى أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السبيل ﴾ [القصص: 22].

ثم الإرشاد مرة يكون بالدعاء، ومرة بالبيان.

وقد ذكرناه في سورة الأعراف، ومرة بالإلهام كقوله: ﴿ أعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ﴾ أي: صورته ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ أي: ألهمه إتيان الإناث.

ويقال: ألهمه طلب المرعى وتوقي المهالك.

وقال الحسن: أعطى كل شيء من خلقه ما يصلح له، ثم هداه أن موسى أخبره بالبعث والجزاء وأمر الآخرة.

وقال فرعون: ﴿ فَمَا بَالُ القرون الاولى ﴾ ؟ يعني: ما حال القرون الماضية وما شأنها؟

﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبّى فِى كتاب ﴾ ، يعني: في اللوح المحفوظ.

﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبّى ﴾ يعني: لا يخفى على ربي، ﴿ وَلاَ يَنسَى ﴾ ما كان من أمرهم.

وقال مجاهد ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبّى ﴾ ، أي: لا يخفى على ربي شيء واحد.

قال السدي: أي: لا يغفل ولا يترك، وكان الحسن يقرأ ﴿ لاَّ يَضِلُّ ﴾ بضم الياء، يعني: لا

يضله الله ، يعني به الكتاب .

وإلى هذا الموضع حكاية كلام موسى .

ثم إن الله تبارك وتعالى قال لمشركي مكة : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ ، يعني : موضع القرار ، وهو الرب الذي ذكر موسى لفرعون ودعاه إلى عبادته .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿ مهادا ﴾ والباقون ﴿ مهادا ﴾ أي : فراشاً وبساطاً .

قال أبو عبيد : المهد الفعل ، يقال : مهدت مهداً ؛ والمهاد اسم الموضع .

(161/497)

﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ ، يعني : حصل لكم فيها طرقاً ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ ؛ يعني : المطر ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً ﴾ ؛ يعني : أنبتنا بالمطر أصنافاً وألواناً .

﴿ مّن نبات شتى ﴾ مختلف ألوانه .

﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ .

اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر ، يعني : لتأكلوا منه وترعوا أنعامكم .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ ، يعني : إن في اختلاف ألوانه ﴿ لآيَاتٍ ﴾ ، أي : لعبرات ﴿ لاِوْلِى النهى ﴾ ، يعني : لذوي العقول من الناس .

﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ ، يعني : آدم خلقناه من الأرض ، ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي : بعد موتكم ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ ؛ يعني : نحييكم ونخرجكم من الأرض ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 389. 402 ﴾

(162/497)

وقال الثعلبى :

قوله عزّ وجلّ ﴿ طه ﴾

قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء ، وقرأ أهل المدينة والشام بين الكسر والفتح فيهما ، وقرأ الأعمش وحمزه والكسائي بكسر الهاء والطاء ، وقرأ عاصم وابن كثير بالتفخيم فيهما وكلها لغات صحيحة .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن محمد بن عمر بن حميد الأزدي عن محمد بن الجهم السمري ، عن يحيى بن زياد الفرّاء عن عيسى بن الربيع عن زرّ بن حبيش قال : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود ﴿ طه ﴾ فقال له عبد الله : ﴿ طِه ﴾ فقال له الرجل : يا أبا عبد الرَّحْمن أليس أُمر أن يطأ قدميه ؟ فقال عبد الله : طِه ، هكذا أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واختلفوا في تفسيره، فروى عبد الله بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هو كقولك: افعل، وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك: معناه يا رجل، وقال عكرمة: هو كقولك: يا رجل بلسان الحبشة يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وقال قتادة: هو يا رجل بالسريانيّة، وقال سعيد بن جبير: يا رجل بالنبطية. وروى السدّي عن أبي مالك وعكرمة: طه، قالا: يا فلان، وقال الكلبي: هو بلغة عكّ: يا رجل، قال شاعرهم:

ان السفاهة طه في خلائقكم . . . لا قدّس الله أرواح الملاعين

وقال آخر:

هتفت بطه في القتال فلم يجب . . . فخفت لعمرك أن يكون موائلا

مقاتل بن حيان معناه: طئ الأرض بقدميك، يريد في التهجّد، وقال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله تعالى بطَوله وهدايته، وموضع القاسم قوله ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقرآنَ لتشقى ﴾.

وقال جعفر بن محمد الصادق (رضي الله عنه) : طه : طهارة أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم ثم ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] وقيل : الطاء شجرة طوبى ، والهاء هاويه . والعرب تعبّر ببعض الشيء عن كلّه فكأنّه أقسم بالجنة والنار .

وقال سعيد بن جبير : الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء افتتاح اسمه هادي .

وقيل : الطاء يا طامع الشفاعة للأُمة ، والهاء يا هادي الخلق إلى الملّة .

وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء : من الهداية ، وكأنه تعالى يقول لنبيّه صلى اللّه عليه وسلم : يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علاّم الغيوب ، وقيل : الطاء : طبول الغزاة ، والهاء : هيبتهم في قلوب الكفار ، قال الله تعالى ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ﴾ [آل عمران : 151] . وقال : وقذف في قلوبهم الرعب ، وقيل : الطاء : طرب أهل الجنة ، والهاء : هوان أهل النار في النار ، وقيل : الطاء تسعة في حساب [الجمل] والهاء خمسة ، أربعة عشر ، ومعناها يا أيها البدر ﴿ مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ قال مجاهد :

" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل ذلك بالفرض ، وأنزل الله تعالى هذه الآية " .

وقال الكلبي : " لمّا نزل على رسول الله الوحي بمكّة اجتهد في العبادة واشتدّت عبادته

فجعل يصلّي الليل كله ، فكان بعد نزول هذه الآية ينام ويصلّي " .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الهروي عن بشر بن موسى الحميدي عن سفيان بن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، وقيل له : يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم أفلا أكون عبداً شكوراً " .

(164/497)

وقال مقاتل : قال أبو جهل بن هشام والنصر بن الحرث للنبىّ صلى الله عليه وسلم إنّك لتسعى بترك ديننا وذلك لما رأوا من طول عبادته وشدّة اجتهاده فإننا نراه أنّه ليس لله وأنّك مبعوث إلينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل بعثت رحمة للعالمين ، قالوا : بل أنت شقيّ ، فأنزل الله تعالى ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ وأصل لكن أنزلناه عظة لمن يخشى .

قال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير مجازه : ما أنزلنا عليك القرآن إلّا تذكرة لمن يخشى ولئلاّ تشقى ، تنزيلاً بدل من قوله تذكرةً .

وقرأ أبو الشامي : تنزيل بالرفع يعني هذا ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾

يعني العالية الرفيعة وهو جمع العُليا كصغرى وصغر وكبرى وكبر ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى * لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ يعني التراب الذي تحت الأرضين وهو التراب الندي ، تقول العرب : شبر ندىً وسهر نديّ وسهر مرعىّ .

قال ابن عباس : الأرض على ظهر النون والنون على بحر وإنّ طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش على صخرة خضراء ، وخضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن في قصة لقمان ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ [لقمان : 16] الصخرة على قرن ثور ، والثور على الثرى ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ ، وذلك الثور فاتح فاهُ فإذا جعل الله عزّ وجلّ البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور ، فإذا وقعت في جوفه يبست .

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول ﴾ تُعلن ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا حامد أخبرنا بشر بن موسى عن عبد الله بن صالح العجلي ، حدّثنا أبو الأحوص عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ قال : وأخفى حديث نفسك نفسك .

وأخبرني عبد الله بن حامد عن أبي الطاهر محمد بن الحسن ، حدّثنا إبراهيم بن أبي طالب عن محمد بن النعمان بن مسيل ، حدّثنا يحيى بن أبي روق عن أبيه عن الضحاك عن ابن عباس قال : السرّ ما أسررت في نفسك ، وأخفى أخفى من السّر ، ما ستحدّث به نفسك ، ما لا تعلم أنّك تحدّث به نفسك .

وروى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير قال : السر ما تُسرّ في نفسك ، وأخفى من السرّ ما لم يكن وهو كائن ، قال : وأنت تعلم ما تسرّ اليوم ولا تعلم ما تسرّ غداً ، والله عزّ وجلّ يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّ غداً .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : السرّ ما أسرّ ابن آدم في نفسه ، وأخفى ما خفي على ابن آدم مّما هو فاعله قبل أن يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله ، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد ، وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة .

وقال مجاهد : السرّ العمل الذي يسرّون من الناس ، وأخفى الوسوسة ، وقال زيد بن أسلم : معناه يعلم أسرار العباد ، وأخفى سرّه فلا يعلم .

وقال الحسن : السرّ ما أسرّ الرجل إلى غيره ، وأخفى من ذلك ما أسرّه في نفسهِ .

ثم وحّد نفسه فقال : ﴿ الله لا إله إلاَّ هُوَ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ قال أهل المعاني : هو استفهام اثبات

مجازه: أليس قد أتاك؟ . وقال بعضهم: معناه: وقد أتاك، وقال: لم يكن قد أتاه ثم أخبره.

﴿ إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ ليلة الجمعة، وقال وهب بن منّبه: استأذن موسى شعيباً في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله، فولد له ابن في الطريق في ليلة شاتية مثلجة وقد جاد عن الطريق، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة، فبينا هو في مزاولة ذلك أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ ﴾ لامرأته ﴿ امكثوا ﴾ أقيموا مكانكم ﴿ إني آنَسْتُ ﴾ أبصرتُ ﴿ نَارا لعلي آتيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ يعني شعلة من النار، والقبس: ما اقتبس من خشب أو قصب أو غير ذلك ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ يعني من يدلّني على الطريق ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا ﴾ رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنّها نار بيضاء تتقدّم، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيما فخاف وتعّجب، فأُلقيت عليه السكينة ثمّ ﴿ نُودِيَ يا موسى * إني أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ وإنّما كرّر الكناية لتوكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة، ونظيره قوله للرسول عليه السلام ﴿ وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ﴾ [الحجر: 89].

﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ وكان السبب في أمره بخلع نعليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا أحمد بن يحيى العبيدي قال : حدّثنا أحمد بن نجدة قال : حدّثنا الحمّاني قال : حدّثنا عيسى بن يونس عن حميد بن عبد الله عن عبد الله بن الحرث العنبسي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ قال : كانتا من جلد حمار ميّت ، وفي بعض الأخبار : غير مدبوغ ، وقال الحسن : ما بال خلع النعلين في الصلاة وصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نعليه ؟ وإنّما أُمر موسى عليه السلام أن يخلع نعليه إنّهما كانتا من جلد حمار ، وقال أبو الأحوص : أتى عبد الله أبا موسى في داره فأُقيمت الصلاة فقال لعبد الله تقدّم ، فقال له عبد الله : تقدّم أنت في دارك فتقدّم فنزع نعليه ، فقال له عبد الله : أبالواد المقدّس أنت ؟ .

(167/497)

وقال عكرمة ومجاهد : إنّما قال له : اخلع نعليك كي تمسّ راحة قدميك الأرض الطيّبة وينالك بركتها لأنّها قدّست مرّتين .

وقال بعضهم : أُمر بذلك لأنّ الحفوة من أمارات التواضع ، وكذلك فعل السّلف حين طافوا بالبيت .

قال سعيد بن جبير: قيل له: طأ الأرض حافياً، كيما يدخل كعبه من بركة الوادي.

وقال أهل الاشارة: معناه: فرِّغ قلبك من شغل الأهل والولد.

قالوا: وكذلك هو في التعبير من رأى عليه نعلين تزوّج.

فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس ﴾ المطهّر ﴿ طُوًى ﴾ اسم الوادي، وقال الضحاك: مستدير عميق مثل الطوى في استدارته، وقيل: اراد به إنك تطوي الوادي، وقيل: هو الليل، يقال: أتيتك طوى من الليل، وقيل: طُويَت عليه البركة طيّاً، وقرأ عكرمة: طوى بكسر الطاء وهما لغتان، وقرأ أهل الكوفة والشام: طِوىً بالتنوين وإلاّ جرّاً لتذكيره وتحقيقه، الباقون من غير تنوين، قال: لأنّه معدول عن طاو أو مطوىّ، فلّما كان معدولاً عن وجهه كان مصروفاً عن إعرابه مثل عمر وزفر وقثم.

﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ اصطفيتك، وقرأ حمزة: وإنّا اخترناك بلفظ الجمع على التعظيم ﴿ فاستمع لِمَا يوحى * إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني ﴾ ولا تعبد غيري ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ قال مجاهد: أقم الصلاة لتذكرني فيها، وقال مقاتل: إذا تركت الصلاة ثمَّ ذكرتها فأقمها، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن يعقوب قال: حدَّثنا إبراهيم بن مرزوق قال: حدَّثنا سعيد بن عامر عن سعيد عن قتادة عن أنس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من نسي صلاة أو نام عنها فليصلّها إذا ذكرها، إنّ الله سبحانه يقول: ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ ".

وقيل: هو مردود على الوحي يعني فاستمع لما يوحى واستمع لذكري.

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ فأكاد صلة، كقول الشاعر:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه . . . فما أن يكاد قرنه يتنفس

يعني: فما يتنفس من خوفه، والفائدة في الإخفاء التخويف والتهويل، قال ابن عباس وأكثر المفسّرين: معناه أكاد أُخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف اُبي، وفي مصحف عبد الله: أكاد أُخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق؟.

وفي بعض القراءات فكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب: فإن قيل: كيف يخفي الله من نفسه وهو خلق الإخفاء؟ قلنا: إنّ الله سبحانه كلّم العرب بكلامهم الذي يعرفونه، ألا ترى أنّ الرجل يعذل أخاه فيقول له: أذعت سرّي، فيقول مجيباً له معتذراً إليه: والله لقد كتمت سرّك نفسي فكيف أذعته؟ معناه عندهم: أخفيته الإخفاء كله، وقال الشاعر:

أيام تُعجبني هند وأُخبرها . . . ما أكتم النّفس من حاجي وإسراري

فكيف يخبرها ما يكتم عن نفسه؟ فمجاز الآية على هذا.

وقرأ الحسن وسعيد بن جبير: أَخفيها بفتح الألف أي أُظهرها وأُبرزها يقال: خفيت

الشيء إذا أظهرته، وأخفيته إذا سترته، قال امرؤ القيس:

خفاهنّ من إنفاقهنّ كأنّما . . . خفاهنّ ودق من سحاب مركّب

أي اخرجهن.

﴿ لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ أي تعمل من خير وشرّ ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ يصرفنّك ﴿ عَنْهَا ﴾ يعني عن الإيمان بالساعة ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا واتبع هَوَاهُ ﴾ مراده ﴿ فتردى ﴾ فتهلك.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ وكانت لها شعبتان وفي أسفلها سنان واسمها نبعة في قول مقاتل ﴿ أَتَوَكَّأُ ﴾ اعتمد ﴿ عَلَيْهَا ﴾ إذا مشيت وإذا أعييت وعند الوثبة والطفرة. ﴿ وَأَهُشُّ ﴾ وأخبط ﴿ بِهَا ﴾ الشجر ليتناثر ورقها فتأكل غنمي، وقرأ عكرمة "وأهسّ" بالسين يعني وازجر بها الغنم، وذلك أن العرب تقول: هس هس، وقال النضر بن شميل: سألت الخليل عن قراءة عكرمة فقال: العرب تعاقب بين الشين والسين في كثير من الكلام، كقولهم: شمّت العاطس وسمّته، وشن عليه الدرع وسن، والروشم والروسم للختم.

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ حوائج ومنافع ، واحدتها مأرَبة ومَأرُبة بفتح الراء وضمّها ﴿ أخرى ﴾ ولم يقل أُخَر لرؤوس الآي .

قال ابن عباس : كان موسى عليه السلام يحمل عليها زاده وسقاءه ، فجعلت تماشيه وتحدّثه ، وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه ، ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء ، وكان يردّ بها غنمه ، وتقيه الهوام بإذن الله ، وإذا ظهر له عدّو حاربت وناضلت عنه ، وإذا أراد الإسقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقي ، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل تضيء له ويهتدي بها ، وإذا اشتهى ثمرة من الثمار ركزها في الأرض فتغصّنت غصن تلك الشجرة وأورقت ورقها وأثمرت ثمرها ، فهذه المآرب .

قال الله سبحانه ﴿ أَلْقِهَا يا موسى * فَأَلْقَاهَا ﴾ من يده ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسعى ﴾ تمشي مسرعة على بطنها .

قال ابن عباس : صارت حيّة صفراء لها عرف كعرف الفرس ، وجعلت تتورّم حتى صارت ثعباناً ، وهو أكبر ما يكون من الحيّات ، فلذلك قال في موضع ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [النمل : 10] وهو أصغر الحيّات ، وفي موضع ثعبان وهو أعظمها ، فالجانّ عبارة عن ابتداء حالها ، والثعبان إخبار عن انتهاء حالها ، وقيل : أراد أنّها في عظم الثعبان وسرعة الجانّ ، فأمّا الحيّة فإنها تجمع الصغر والكبر والذكر والأُنثى .

قال فرقد السخي : كان ما بين جنبيها أربعين ذراعاً فلما ظهر في موسى من الخوف ونفار الطبع لمّا رأى من الاعجوبة ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى له ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ﴾ أي إلى سيرتها وهيئتها ﴿ الْأُولَى ﴾ نردّها عصاً كما كانت ﴿ واضمم يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ يعني إبطك.

(170/497)

وقال الكلبي : أسفل من الإبط، وقال مجاهد : تحت عضدك، وقال مقاتل : يعني مع جناحك وهو عضده ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ برص ولا داء ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ سوى العصا، فأخرج يده من مدرعة له مضرّبة بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يغشي البصر ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ وكان من حقّه الكبر وإنّما قال : الكبرى وفاقاً لرؤس الآي، وقيل : فيه إضمار معناه ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ الآية الكبرى دليله قول ابن عباس : كانت يد موسى أكبر آياته.

﴿ اذهب إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ عصى وعلا وتكبّر وكفر، فادعه إلى عبادتي، واعلم بأنّي قد ربطت على قلبه، قال : فكيف تأمرني أن آتيه وقد ربطتَ على قلبه؟ فأتاه ملك من خزّان الريح فقال : انطلق، فإنّا اثنا عشر من خزّان الريح منذ خلقنا الله سبحانه نحن في

هذا فما علمناه ، فامض لأمر الله ، فقال موسى عند ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وسّع وليّن قلبي بالإيمان والنبوّة ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وسهّل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون ﴿ واحلل ﴾ وابسُط وافتح ﴿ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ .

(171/497)

قال ابن عباس : كانت في لسانه رُتّة ، وذلك أنّه كان في حجر فرعون ذات يوم فلطمه لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته : انّ هذا عدوّي ، فقالت آسية : على رسلك إنّه صبي لا يفرّق بين الأشياء ولا يميّز ، ثم جاءت بطستين فجعلت في أحدهما الجمر وفي الأُخرى الجوهر ووضعتهما بين يدي موسى ، فأخذ جبرئيل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه فتلك الرُّتة ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ كي يفهموا كلامي ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً ﴾ معيناً وظهيراً ﴿ مِّنْ أَهْلِي ﴾ ثمّ بين من هو فقال ﴿ هَارُونَ أَخِي * اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ قوّ به ظهري ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ يعني النبوّة وتبليغ الرسالة ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ نصلّي لك ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن عامر : اشدد به أزري بفتح الألف وأُشركه بضم الألف على الجزاء والجواب حكاية عن موسى أنّي أفعل ذلك ، قال الله سبحانه ﴿ قَالَ قَدْ

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ قد أُعطيت مرادك وسؤالك يا موسى .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ قبل هذا وهي ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلى أُمِّكَ ﴾ وحي إلهام مثل وحي النحل ﴿ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه ﴾ أن اجعليه ﴿ فِي التابوت ﴾ .

(172/497)

قال مقاتل : والمؤمن الذي صنع التابوت من آل فرعون اسمه خربيل ، وقيل : إنّه كان من بردي ﴿ فاقذفيه فِي اليم ﴾ يعني نهر النيل ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ يعني شاطئ النهر ، لفظه أمر ومعناه خبر مجازه : حتى يلقيه اليمّ بالساحل ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ يعني فرعون ، فاتّخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ، ووضعت فيه موسى ، وقيّرت رأسه وَخصَاصه يعني شقوقه ثمّ ألقته في النّيل ، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون ، فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذا بتابوت يجيء به الماء ، فلمّا رأى ذلك أمر الغلمان والجواري بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبيّ من أصبح الناس وجهاً ، فلمّا رآه فرعون أحبّه بحيث لم يتمالك ، فذلك قوله سبحانه ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبّه وحبّبه إلى خلقه ، قال عطيّة العوفي : جعل عليه مُسحة من جمال لا تكاد يصبر عنه مَن رآه ، قال قتادة : ملاحة كانت في عيني موسى ، ما رآه أحد إلاّ

عشقه .

﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ أي ولتربّى وتغذّى بمرأىً ومنظر منّي ﴿ إِذْ تَمْشي أُخْتُكَ ﴾ واسمها مريم متعرّفة خبره ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ يرضعه ويضمّه إليه ، وذلك أنّه كان لا يقبل ثدي امرأة ، فلمّا قالت لهم أُخته ذلك قالوا : نعم ، فجاءت بالأُمّ فقبل ثديها فذلك قوله ﴿ فَرَجَعْنَاكَ ﴾ فرددناك ﴿ إلى أُمّكَ ﴾ . وفي مصحف أُبي فرددناك إلى أُمّك ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها ﴾ بلقائك وبقائك ﴿ وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ قال ابن عباس : قتل قبطياً كافراً .

(173/497)

قال كعب الأحبار : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم ﴾ أي من غمّ القتل وكربته ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ . قال ابن عباس : اختبرناك اختباراً . وقال الضحّاك وقتادة ومقاتل ، ابتليناك ابتلاءً . وقال مجاهد : أخلصناك إخلاصاً ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ ﴾ يعني عشر سنين ﴿ في أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ وهي بلدة شعيب على ثلاث مراحل من مصر ، قال وهب : لبث عند شعيب ثمان وعشرين سنة ، عشر سنين منها مهر امرأته صفيرا بنت شعيب وثماني عشرة سنة أقام عنده حتى وُلد له .

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ . قال مقاتل : على موعد ، قال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذي قدّرت أنك تجيء .

قال عبد الرَّحْمن بن كيسان : على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحي فيه إلى الأنبياء ، قال الكلبي : وافق الكلام عند الشجرة .

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ اخترتك واصطفيتك واختصصتك بالرسالة أو النبوّة ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ اليد والعصا ﴿ وَلَا تَنِيَا ﴾ قال ابن عباس : لا تضعفا ، وقال السُدّي : لا تفترا ، وقال محمد بن كعب : لا تقصّرا .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لا تبطئا ، وفي قراءة ابن مسعود : ولا تهنا .

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ قال ابن عباس : لا تعنّفا في قولكما ولا تغلّظا ، وقال السدّي وعكرمة : كنّياه قولا له : يا أبا العباس ، وقيل : يا أبا الوليد .

وقال مقاتل : يعني بالقول اللين هل لك إلى أن تزكّى وأهديك إلى ربّك فتخشى .

وقال أهل المعاني : معناه الطُفا له في قولكما فإنّه ربّاك وأحسن تربيتك وله عليك حقّ الأُبوّة فلا تجبهه بمكروه في أوّل قدومك عليه ، يقال : وعده على قبول الإيمان شباباً لا يهرم وملكاً لا يُنزع عنه إلاّ بالموت ، ويبقى عليه لذّة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته .

قال المفسّرون : وكان هارون يومئذ بمصر فأمر الله عزّ وجلّ أن يأتي هو وهارون ، وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقّاه إلى مرحلة وأخبره بما أُوحي إليه فقال له موسى : إن الله سبحانه أمرني أن آتي فرعون فسألت ربّي عزّ وجلّ أن يجعلك معي .

وقوله ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ أي يسلم .

فإن قيل : كيف قال : لعله يتذكر أو يخشى وعلمه سابق في فرعون أنّه لا يتذكّر ولا يخشى ؟ .

قال الحسين بن الفضل : هو مصروف إلى غير فرعون ، ومجازه : لكي يتذكّر متذكّر أو يخشى خاش إذا رأى برّي وإلطافي بمن خلقته ورزقته ، وصححت جسمه وأنعمت عليه ثم ادّعى الربوبية دوني .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق : لعلّ ها هنا من الله واجب ، ولقد تذكّر فرعون حيث لم تنفعه الذكرى والخشية ، وذلك قوله حين ألجمهُ الغرق في البحر ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] .

سمعت أبا القاسم الحسنن بن محمد بن حبيب يقول : سمعت أبي يقول سمعت عليّ بن محمد الوراق يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول وقرأ هذه الآية : هذا رفقك بمن يقول : أنا الإله ، فكيف رفقك بمن يقول : أنت الإله ؟

قال أبو القاسم الحسين فبنيت عليه ألفاظاً اقتديت به فيها فقلت : هذا رفقك بمن ينافيك فكيف رفقك بمن يصافيك ؟

هذا رفقك بمن يعاديك فكيف رفقك بمن يواليك ؟

هذا رفقك بمن يسبّك فكيف رفقك بمن يحبّك ؟

هذا رفقك بمن يقول لك نِدّاً فكيف رفقك بمن يقول فرداً ؟

هذا رفقك بمن ضلّ فكيف رفقك بمن ذل هذا رفقك بمن اقترف فكيف رفقك بمن اعترف ؟

هذا رفقك بمن أصرّ فكيف رفقك بمن أقرّ ؟

هذا رفقك بمن استكبر فكيف رفقك بمن استغفر ؟

(175/497)

﴿ قَالَا ﴾ يعني موسى وهارون ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ . قال ابن عباس : يعجّل بالقتل والعقوبة ، وقال الضحّاك : تجاوز الحدّ ، وقيل : يغلبنا ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ يتكبّر ويستعصي علينا .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ بالدفع عنكما ﴿ أَسْمَعُ ﴾ قولكما وقوله ﴿ وأرى ﴾

فعله وفعلكما ﴿ فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي ولا تتعبهم في العمل ، وكانت بنو إسرائيل عند آل فرعون في عذاب شديد يقتل ابناءهم ويستخدم نساءهم ويكلفهم من العمل واللبن والطين وبناء المدائن ما لا يقدرون عليه .

قال موسى ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال فرعون : وما هي ؟ قال : فأدخل يده في جيب قميصه ثمّ أخرجها فإذا هي بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس ، غلبت نور الشمس ، فعجب منها ولم يُره العصا إلاّ بعد ذلك يوم الزينة .

﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ يعني من أسلم ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿ وتولى ﴾ أعرض عن الإيمان ، ورأيت في بعض التفاسير أنّ هذه أرجى آية للموحّدين في القرآن .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ يعني يا موسى وهارون فذكر موسى دون هارون لرؤوس الآي .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ قال الحسين وقتادة : أعطى كلّ شئ صلاحه وهداه لما يصلحه .

وقال مجاهد : لم يجعل الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ، ولكن خلق كلّ شي فقدّره تقديراً .

وقال عطيّة : أعطى كلّ شئ خلقه يعني صورته .

وقال الضحّاك: أعطى كلّ شيء خلقه، يعني اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للبصر والأُذن للسمع.

(176/497)

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا عبد الرَّحْمن بن محمد الزهري قال: حدّثنا أحمد ابن سعيد قال: حدّثنا سعيد بن سليمان عن إسماعيل بن زكريا عن إسماعيل بن أبي صالح، أعطى كل شي خلقه ﴿ثُمَّ هدى﴾ قال: هداه لمعيشته.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: ﴿أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ﴾ يعني شكله، للإنسان الزوجة وللبعير الناقة وللفرس الرمكة وللحمار الأتان ثمّ هدى أي عرّف وعلم وألهم كيف يأتي الذكر الأُنثى في النكاح. وقرأ نصير خلَقه بفتح اللام على الفعل.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ القرون الأولى﴾ وإنَما قال هذا فرعون لموسى حين قال موسى: ﴿إني أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: 30-31]، فقال فرعون حينئذ له: فما بال القرون الاولى التي ذكرت؟ فقال موسى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، وإنّما ردّ موسى علم ذلك إلى الله سبحانه لأنّه لم يعلم ذلك، وإنَما نزلت التوراة عليه بعد هلاك

فرعون وقومه ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي ﴾ أي لا يخطئ ﴿ وَلَا يَنسَى ﴾ فيتذكّر ، وقال مجاهد : هما شيء واحد .

﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ قرأه أهل الكوفة بغير ألف أي فرشاً ، وقرأ الباقون مهاداً أي فراشاً واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً ﴾ [النبأ : 6] ولم يختلفوا فيه أنّه بالألف .

﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي أدخل وبيّن وطرّق لكم فيها طرقاً . ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ مختلف الألوان والطعوم والمنافع من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر ، ووهب كلّ صنف زوجاً ، ومنها للدوابّ ومنها للناس ثمّ قال ﴿ كُلُواْ وارعوا ﴾ أي ارتعوا ﴿ أَنْعَامَكُمْ ﴾ يقول العرب : رعيتُ الغنم فرَعَتْ لازم ومتعدّ .

(177/497)

﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ الذي ذكرت ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى ﴾ أي لذوي العقول ، واحدها نُهية ، سُمّيت بذلك لأنّها تنهى صاحبها عن القبائح والفضائح وارتكاب المحظورات والمحرّمات .

وقال الضحّاك : ﴿ لِأُوْلِي النهى ﴾ يعني الذين ينتهون عمّا حُرِّمَ عليهم .

وقال قتادة : لذوي الورع ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لذوي التقى .

﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ يعني أباكم آدم . وقال عطاء الخراساني : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق من التراب ، ومن النطفة فذلك قوله سبحانه ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ .

﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي عند الموت والدفن ، قال عليّ : "إن المؤمن إذا قبض الملك روحه انتهى به إلى السماء ، وقال : يا ربِّ عبدك فلان قبضنا نفسه فيقول : ارجعوا فإنّي وعدتهُ : منها خلقناكم وفيها نعيدكم فإنّه يسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين" .

﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ مرّةً أُخرى بعد الموت عند البعث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 235 . 248 ﴾

(178/497)

وقال الزمخشري :

سورة طه

مكية [إلا آيتي 130 و 131 فمدنيتان] وهي 135 آية [نزلت بعد مريم] بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة طه (20) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (4)

طه أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها. وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوهما. وعن الحسن رضى الله عنه: طه، وفسر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه «1» معا، وأن الأصل طأ، فقلبت همزته هاء، أو قلبت ألفا في يطأ فيمن قال:

لا هناك المرتع «2»

ثم بنى عليه الأمر، والهاء للسكت. ويجوز أن يكتفى بشطرى الاسمين وهما الدالان بلفظهما

---

(1). أخرجه عبد بن حميد في تفسيره قال: حدثنا هاشم بن القاسم بن أبى جعفر عن الربيع بن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله طه يعنى طأ الأرض» وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن قطر بن خليفة عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية عن على «لما نزل يا أيها المزمل قام الليل كله حتى ورمت

قدماه فجعل يرفع رجلا ويضع الأخرى فهبط عليه جبريل ، فقال «طه طأ الأرض بقدميك يا محمد » وأخرجه البزار من وجه آخر عن على «كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» ومن طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى طه قال «إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأنزل اللّه طأها برجليك» وأخرجه البيهقي في الشعب الرابع عشر من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أول ما أنزل عليه الوحى كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى . فأنزل اللّه طه .

(2) نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع

راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة لا هناك المرتع

للفرزدق ، يهجو عمرو بن زهرة الفزاري ، وقد ولى العراق بعد عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان على البصرة ومحمد ابن عمرو بن الوليد بن عقبة ، وكان على الكوفة . يقول : ذهب ابن بشر وابن عمرو ، وأخو هراة أى صاحبها وواليها . وهراة من بلاد العراق أيضا . يتوقع : أى يترقب وينتظر مثل حاله من قبله . راحت ، وروى : مضت ، أى ذهبت البغال بمسلمة بن عبد الملك كما يفيد شرح المراح ، وكان يمنع بنى فزارة من الرعي في أرض العراق ، ففر إلى الشام وترك الملك ، فارعى يا فزارة ما شئت يخاطب القبيلة بذلك ، وإشارة إلى

أنه كان محرما عليهم، فأبيح بعد مسلمة. وأرعى: بفتح العين وسكون الياء لأن مضارعه مفتوح العين. ولا هناك المرتع: دعا عليهم. يقال:

هناك الطعام ومراك، بتخفيف الهمز: انهضم في بطنك وأراحك ونفعك، فإذا انفرد الثاني قلت: أمراك الطعام، وتخفيف الهمزة بقبلها ألفا: صرفه كما هنا شاذ، وقياس تخفيفها في مثل هذا جعلها بين بين لعدم سكون ما قبلها.

(179/497)

على المسميين، واللّه أعلم بصحة ما يقال: إن «طاها» في لغة عك «1» في معنى يا رجل، ولعل عكا تصرفوا في «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء، فقالوا في «يا»: «طا»، واختصروا هذا فاقتصروا على ها، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به:

إنّ السّفاهة طاها في خلائقكم لا قدّس اللّه أخلاق الملاعين «2»

والأقوال الثلاثة في الفواتح: أعنى التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل، هي التي يعوّل عليها الألباء المتقنون ما أَنْزَلْنا إن جعلت طه تعديدا لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام. وإن جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبرا عنها وهي

في موضع المبتدأ ، والْقُرْآنَ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن ، وأن يكون جوابا لها وهي قسم . وقرئ : ما نزل عليك القرآن لِتَشْقى لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ والشقاء يجيء في معنى التعب . ومنه المثل :

أشقى من رائض مهر ، أى ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة ، بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له : إنك شقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب في درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وروى أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمعدت «3» قدماه ، فقال له جبريل عليه السلام : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا «4» . أى : ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وكل واحد من لِتَشْقى وتَذْكِرَةً علة للفعل ، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية ، والثاني جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط . فإن قلت : أما يجوز أن تقول : ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى ، كقوله تعالى أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ ؟ قلت : بلى ولكنها نصبة طارئة ،

---

(1) . قوله «في لغة عك» في الصحاح عك بن عدنان أخو معد وهو اليوم في اليمن . (ع)

(2) . السفاهة : الجهل والحمق والخفة . و«طه» في لغة عك ، معناه يا هذا ، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا . قال الزمخشري : ولا يخفى التصنع في البيت . والخلائق : الطبائع ، ودعا عليهم بأن اللّه لا يطهر أرواحهم ، ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة الذم والتشنيع . وقيل : للدلالة على سبب الدعاء ، أى : فإنهم ملعونون ، ولعل معناه : فإنهم مستحقين للعن وفاعلون سببه .

(3) . قوله «حتى اسمغدت» بالغين المعجمة ، أى : تورمت . أفاده الصحاح . (ع)

(4) . لم أره هكذا . وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت «لما كانت ليلة النصف من شعبان - فذكر حديثا طويلا - وفيه : فما زال يصلى قائما وقاعدا حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه . فقمت أغمزها - الحديث - وليس فيه كلام جبريل .

(180/497)

كالنصبة في وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ وأما النصبة في تذكره فهي كالتي في ضربت زيدا ، لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها . فإن قلت : هل يجوز أن يكون تَذْكِرَةً بدلا من محل لِتَشْقى ؟ قلت : لا ، لاختلاف الجنسين ، ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي «إلا» فيه بمعنى «لكن» ويحتمل أن يكون المعنى : إنا أنزلنا عليك القرآن

لتحتمل «1» متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالا ومفعولا له لِمَنْ يَخْشى لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم اللّه منه أنه يبدل بالكفر إيمانا وبالقسوة خشية. في نصب تَنْزِيلًا وجوه: أن يكون بدلا من تذكرة إذا جعل حالا، لا إذا كان مفعولا له لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمرا، وأن ينصب بأنزلنا، لأن معنى: ما أنزلناه إلا تذكرة: أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص وأن ينصب بيخشى مفعولا به، أى: أنزله اللّه تذكرة لمن يخشى تنزيل اللّه، وهو معنى حسن وإعراب بين. وقرئ: تنزيل، بالرفع على خبر مبتدأ محذوف. ما بعد تَنْزِيلًا إلى قوله لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى تعظيم وتفخيم لشأن المنزل، لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته. ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تَنْزِيلًا نفسه فيقع صلة له، وإما محذوفا فيقع صفة له. فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة. ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة. ومنها أنه قال أولا أَنْزَلْنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع.

ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين: ويجوز أن يكون أَنْزَلْنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه.

وصف السموات بالعلى : دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها .

[سورة طه (20) : الآيات 5 إلى 6]

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (6)

قرئ الرَّحْمنُ مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن ، لأنه إما أن يكون رفعا على المدح على تقدير : هو الرحمن . وإما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه إلى من خلق . فإن قلت : الجملة التي هي

---

(1) . قال محمود : «ويحتمل أن يكون المعنى إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه الثاني بعد ، فان فيه إثبات كون الشقاء سببا في نزوله عكس الأول وإن لم تكن اللام سببية فكانت للصيرورة مثلا ولم يكن فيه ما جرت عادة اللّه تعالى به مع نبيه صلى اللّه عليه وسلم من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، وكان مضمون هذه الآية متباينا عن قوله تعالى فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ، فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ ولا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ وأمثاله كثيرة فالظاهر واللّه أعلم هو التأويل الأول

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ما محلها - إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟ قلت: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير وإن رفعت جاز أن تكون كذلك وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدإ. لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤدّاه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر.

ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، بمعنى أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أنّ من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد. ومنه قول اللّه عز وجل وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ أى هو بخيل، بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أى هو جواد، من غير تصوّر يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام وَما تَحْتَ الثَّرى ما تحت سبع الأرضين: عن محمد بن كعب وعن السدى: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

[سورة طه (20): الآيات 7 إلى 8]

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (7) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (8)

أي يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك ، أو ما أسررته في نفسك وَأَخْفى منه وهو ما ستسره فيها . وعن بعضهم : أن أخفى فعل «1» يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه ، هو كقوله تعالى يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً وليس بذاك . فإن قلت كيف طابق الجزاء الشرط ؟ قلت : معناه وإن تجهر بذكر اللّه من دعاء أو غيره فاعلم أنه غنى عن جهرك ، فإما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله تعالى وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ وإما تعليما للعباد أنّ الجهر ليس لإسماع اللّه وإنما هو لغرض آخر الْحُسْنى تأنيث الأحسن ، وصفت بها الأسماء لأنّ حكمها حكم المؤنث

---

(1) . قال محمود : «هو أفعل التفضيل ، ومنهم من قال إن أخفى فعل ماض . . . الخ» قال أحمد : لا يخفى أن جعله فعلا قاصر لفظا ومعنى : أما لفظا فانه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الاسمية إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى ، أو عطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الصغرى ، وكلاهما دون الأحسن . وأما معنى ، فان المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته من حيث أن اللّه تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه ، فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر . وأما إذا جعل فعلا فيخرج عن مقصود السياق وإن اشتمل على فائدة أخرى ، وليس هذا كقوله

تعالى يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً لأن بين السياقين اختلافا ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(182/497)

كقولك : الجماعة الحسنى ، ومثلها مَآرِبُ أُخْرى ، وِمنْ آياتِنَا الْكُبْرى . والذي فضلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء : دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية ، والأفعال التي هي النهاية في الحسن .

[سورة طه (20) : الآيات 9 إلى 10]

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (9) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (10)

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، حتى ينال عند اللّه الفوز والمقام المحمود . يجوز أن ينتصب إِذْ ظرفا للحديث ، لأنه حدث . أو لمضمر ، أى : حين رأى نارا كان كيت وكيت . أو مفعولا لا ذكر استأذن موسى شعيبا عليهما السلام في الخروج إلى أمه وخرج بأهله ، فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة ، وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته ولا ماء عنده ، وقدح

فصلد زنده «1» فرأى النار عند ذلك. قيل: كانت ليلة جمعة. امْكُثُوا أقيموا في مكانكم. الإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشيء، والإنس: لظهورهم، كما قيل الجنّ لاستتارهم وقيل هو إبصار ما يؤنس به. لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعا متيقنا، حققه لهم بكلمة «إنّ» ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين، بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال لَعَلِّي ولم يقطع فيقول: إنى آتِيكُمْ لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به. القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما. ومنه قيل: المقبسة، لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها هُدىً أى قوما يهدوننى الطريق أو ينفعوننى بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد وقتادة، وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل. والمعنى: ذوى هدى. أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى. ومعنى الاستعلاء في عَلَى النَّارِ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق بمكان يقرب من زيد. أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قياما وقعودا كانوا مشرفين عليها. ومنه قول الأعشى:

وبات على النّار النّدى والمحلّق «2»

---

(1). قوله «فصلد زنده» في الصحاح «صلد الزند» إذا صوت ولم يخرج نارا. (ع)

(2) لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع يخرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا تتفرق

للأعشى يمدح المحلق - بكسر اللام - سمى بذلك لأن بعيره عضه في وجهه فبقى أثر العضة مثل الحلقة ، وهو من نبى عكاظ ، كان فقيرا وله عشر بنات لا يرغب فيهن أحد لفقرهن ، فانعزل بهن إلى بعض المهامة فنزل به الأعشى فنحر له ناقته ولم يكن عنده غيرها وأحسن قراه . فعظم عند الأعشى ، فلما أصبح واستوى على راحلته قال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أن تسير بذكرى في بنى عكاظ ، لعل أحدا يرغب في بناتي فقد مسهن العنس . فمدحه في عكاظ فلم يلبث حتى خطبت بناته . ولاحت : لمحت وتشوفت ، واليفاع : المشرف من الأرض . يخرق : أي يخترق ذلك الضوء وينتشر في الأرض . ويروى : تحرق ، بالحاء المهملة ، والضمير للنار . وتشب . منى للمجهول ، يقال : شببت النار أشبها شبا وشبوبا : أوقدتها . والمقروران : اللذان أصابهما القر أي البرد ، وأراد بهما الندى والمحلق ، يعنى أنه هو وكرمه ملازمان لنار القرى ملازمة المقرور لنار التدفؤ ، وبين ذلك بقوله : وبات على النار الندى والمحلق .

ويجوز أن الأعشى أراد نفسه والمحلق ، لكل الأول أوقع في المدح . ومعنى كونهما عليها : أنهما على جانبيها ولأن المتدفئ يكون أعلى منها بحيث يمد يده فوقها . وعطف المحلق على الندى دلالة على أنهما متلازمان متقارنان ، وبين ذلك بقوله : رضيعي لبان ، وهو

حال منهما ، شبههما بالتوأمين دلالة على غاية التلازم حتى في الرحم بل وقبله .

واللبان : لبن المرأة خاصة ، وهو مضاف إلى ثدي أم ، وتنوينها للافراد وإضافته له لأنه منه .

ويجوز تنوينه .

فثدى : بدل منه . والأسحم : الأسود الداجي المظلم ، أى تحالفا كما هو رواية أيضا في ليل مظلم . أو في الرحم المظلم .

وعوض : ظرف مستقبل ، نصب بما بعده . لا نتفرق : جواب التحالف ، وكى بذلك كله عن شدة التلازم بينه وبين الكرم .

(183/497)

[سورة طه (20) : الآيات 11 إلى 14]

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14)

قرأ أبو عمرو وابن كثير إِنِّي بالفتح ، أى : نودي بأنى أَنَا رَبُّكَ وكسر الباقون ، أى : نودي فقيل يا موسى . أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته . تكرير الضمير في إِنِّي

أَنَّا رَبُّكَ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. روى أنه لما نودي يا مُوسى قال: من المتكلم؟ فقال له اللّه عز وجل: إِنِّي أَنَّا رَبُّكَ، وأن إبليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان. فقال: أنا عرفت أنه كلام اللّه بأنى أسمعه من جميع جهاتى الست، وأسمعه بجميع أعضائى. وروى أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد «1»، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نورا عظيما فخاف وبهت، فألقيت عليه السكينة ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة. وروى: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت.

وعن ابن إسحاق: لما دنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه، ثم كلم. قيل: أمر بخلع النعلين لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير

---

(1). قوله «كأنها نار بيضاء تتقد ... الخ» عبارة الخازن «أطافت بها نار ... الخ» وعبارة النسفي بدل قوله «رأى شجرة ... الخ»: «وجد نارا بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها وكانت شجرة العناب أو العوسج» (ع) [.....]

مدبوغ «1» عن السدى وقتادة. وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبركا به. وقيل: لأن الحفوة تواضع للّه، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلا تصدق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها. وروى أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي طُوىً بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة. وقيل: مرتين، نحو ثنى «2»، أى نودي نداءين أو قدس الوادي كرة بعد كرة وَأَنَا اخْتَرْتُكَ اصطفيتك للنبوة. وقرأ حمزة: وإنا اخترناك.

لِما يُوحى للذي يوحى. أو للوحى. تعلق اللام باستمع، أو باخترتك لِذِكْرِي لتذكرني فإن ذكرى أن أعبد ويصلى لي. أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد. أو:

لأنى ذكرتها في الكتب وأمرت بها. أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق. أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر. أو لتكون لي ذاكرا غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، كما قال لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. أو لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة، كقوله تعالى إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون. وقوله تعالى

يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها «3»» وكان حق العبارة أن يقال : لذكرها ، كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إذا ذكرها» ومن يتمحل له يقول : إذا ذكر الصلاة فقد ذكر اللّه . أو بتقدير حذف المضاف ، أى : لذكر صلاتي . أو لأن الذكر والنسيان من اللّه عز وجل في الحقيقة . وقرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : للذكرى .

[سورة طه (20) : آية 15]

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (15)

---

(1) . لم أره هكذا وفي الترمذي والحاكم عن عبد اللّه بن مسعود رفعه «يوم كلم اللّه موسى كان عليه جبة صوف ونعلان من جلد حمار ميت غير ذكى» .

(2) . قوله «و قيل مرتين نحو ثنى» في الصحاح : وقال يعنى بعضهم في قوله تعالى بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً طوى مرتين ، أى قدس . وفيه أيضا «الثني» مقصور : الأمر يعاد مرتين اه ، فلعل أصل عبارته أيضا : وقيل طوى مرتين يعنى قدس وطهر مرتين . وظاهر العبارة أن طوى مثل ثنى بمعنى مرتين ، أى : نودي موسى مرتين ، أو قدس الوادي مرتين فهو منصوب بنودى أو بالمقدس . (ع)

(3) . متفق عليه من حديث أبى هريرة في قصة النوم عن الصلاة . وفي آخره : من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فان اللّه تعالى قال أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي وفي رواية «لذكرى» وهو

أيضا متفق عليه من حديث أنس مرفوعا بلفظ «من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» زاد البخاري في رواية «أقم الصلاة لذكرى» .

(185/497)

أى أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية «1» لفرط إرادتى إخفاءها ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به . وقيل : معناه أكاد أخفيها من نفسي ، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطرح . والذي غرهم منه أن في مصحف أبى : أكاد أخفيها من نفسي . وفي بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير : أخفيها بالفتح ، من خفاه إذا أظهره ، أى : قرب إظهارها كقوله تعالى اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وقد جاء في بعض اللغات : أخفاه بمعنى خفاه . وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفنوا الدّاء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد «2»

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين لِتُجْزى متعلق بآتية بما تَسْعى بسعيها .

[سورة طه (20) : آية 16]

فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (16)

أى : لا يصدنك عن تصديقها والضمير للقيامة . ويجوز أن يكون للصلاة . فإن قلت : العبارة لنهى من لا يؤمن عن صدّ موسى ، والمقصود نهى موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب . فذكر السبب ليدل على المسبب . والثاني أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب ، كقولهم : لا أرينك هاهنا ، المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، وذلك سبب رؤيته إياه . فكان ذكر المسبب دليلا على السبب ، كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صليب المعجم «3» ، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ، يعنى : أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير

---

(1) . قال محمود : «معناه قاربت أن لا أقول هي آتية . . . الخ» قال أحمد : ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهوينا ، فانه بين الفساد ، وذلك أن خفاءها عن اللّه تعالى محال عقلا ، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع .

وأحسن ما في محامل الآية ما ذكره الأستاذ أبو على حيث قال : المراد أكاد أزيل خفاءها ، أى : أظهرها ، إذ الخفاء الغطاء ، وهو أيضا ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها ، ثم تقول العرب : أخفيته ، إذا أزلت خفاءه ، كما تقول أشكيته وأعتبته ، إذا أزلت شكايته وعتبه ، وحينئذ يلتئم القراءتان : أعنى فتح الهمزة وضمها ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(2) . يقال : خفاه ، إذا كتمه . وخفاه أيضا : أظهره ، وما هنا منه . والمعنى : إن تكتموا الضغائن التي بيننا نكتمها نحن أيضا ولا نظهرها . شبه الضغينة والعداوة بالداء بجامع نشأة الضرر عن كل على طريق التصريحية .

وشبه الحرب بحيوان على طريق المكنية ، والبعث تخييل . أو استعمل البعث في التسبب مجازا مرسلا أو استعارة تصريحية . والمعنى : وإن تظهروا البغضاء وتوقدوا الهيجاء نغلبكم كما تعلمون منا .

(3) . قوله «صليب المعجم» في الصحاح عجمت العود : إذا عضضته لتعلم صلابته من خوره . ورجل صلب المعجم :

إذا كان عزيز النفس . (ع)

(186/497)

إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيرا من البعث ، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم ، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك ، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه ، لا البرهان وتدبره . وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله .

[سورة طه (20) : الآيات 17 إلى 18]

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (17) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (18)

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى كقوله تعالى وَهذا بَعْلِي شَيْخاً في انتصاب الحال بمعنى الإشارة: ويجوز أن تكون تِلْكَ اسما موصولا صلته بِيَمِينِكَ إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة «1» وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد. قرأ ابن أبى إسحاق: عصىّ، على لغة هذيل.

ومثله يا بُشْرى أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه، فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن عَصايَ بكسر الياء لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة بِمُصْرِخِيَّ وعن ابن أبى إسحاق: سكون الياء أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة «2». هش الورق: خبطه، أى: أخبطه على رؤس غنمي تأكله. وعن لقمان ابن عاد: أكلت حقا وابن لبون وجذع. وهشة نخب وسيلا دفع، والحمد للّه من غير شبع، سمعته من غير واحد من العرب. ونخب: واد قريب من الطائف

كثير السدر . وفي قراءة النخعي : أهش ، وكلاهما من هش الخبز يهش : إذا كان ينكسر لهشاشته . وعن عكرمة : أهس بالسين ، أى : أنحى عليها زاجرا لها . والهس : زجر الغنم . ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا ، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال : ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان ، ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه . ويجوز أن يريد عزّ وجلّ أن يعدّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة ، كأنه يقول له : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتدّ بها وتحتفل

---

(1) . قوله «حية نضناضة» أى تحرك لسانها في فمها . أفاده الصحاح. (ع)

(2) . قوله «الطفرة» أى الوثبة . (ع)

بشأنها ، وقالوا : إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته . وقالوا : إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه ، وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل ، وقالوا : اسم العصا نبعة . وقيل في المآرب : كانت ذات شعبتين ومحجن ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ،

وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين «1» على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظلّ وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه. وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام.

[سورة طه (20): الآيات 19 إلى 20]

قالَ أَلْقِها يا مُوسى (19) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (20)

السعى: المشي بسرعة وخفة حركة. فإن قلت: كيف ذكرت بألفاظ مختلفة: بالحية، والجان، والثعبان؟ قلت: أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير. وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف، لأنّ الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق. وفي ذلك وجهان:

أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حيه تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا، فأريد بالجان أوّل حالها، وبالثعبان مآلها. الثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان. والدليل عليه قوله تعالى: فلما رآها تهتزّ كأنها

جانّ. وقيل كان لها عرف كعرف الفرس. وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا.

[سورة طه (20) : آية 21]

قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21)

لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف. وعن ابن عباس: انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر. وعن بعضهم: إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها. وقيل: لما قال له ربه لا تَخَفْ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها.

السيرة من السير: كالركبة من الركوب. يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة. وقيل: سير الأوّلين، فيجوز أن ينتصب على الظرف، أى: سنعيدها في طريقتها الأولى، أى: في حال ما كانت عصا، وأن يكون. أعاد» منقولا من «عاده» بمعنى عاد

---

(1) . قوله «عرض الزندين» في الصحاح «الزند» العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى والزند السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فإذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان، والجمع زناد وأزند وأزناد. ح

إليه. ومنه بيت زهير:

وعادك أن تلاقيها عداء «1»

فيتعدى إلى مفعولين. ووجه ثالث حسن: وهو أن يكون سَنُعِيدُها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها، بمعنى أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصا، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أوّلا. ونصب سيرتها بفعل مضمر، أى: تسير سيرتها الأولى: يعنى سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

[سورة طه (20): الآيات 22 إلى 23]

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (23)

قيل لكل ناحيتين: جناحان، كجناحى العسكر لمجنبتيه، وجناحا الإنسان: جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر. سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران. والمراد إلى جنبك تحت العضد، دل على ذلك قوله تَخْرُجْ. السوء: الرداءة والقبح في كل شيء، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة، وكان جذيمة صاحب الزباء «2» أبرص فكنوا عنه بالأبرش «3» والبرص أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة،

وأسماعهم لاسمه مجاجة ، فكان جديرا بأن يكنى عنه ، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه .

يروى أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر . بَيْضاءَ وَآيَةً حالان معا . وِمنْ غَيْرِ سُوءٍ من صلة لبيضاء ، كما تقول ابيضت من غير سوء ، وفي نصب آيَةً وجه آخر ، وهو أن يكون بإضمار نحو : خذ ، ودونك ، وما أشبه

---

(1) فصرم حبلها إذ صرمته وعادك أن تلاقيها عداء

لزهير . أى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك ، شبه المودة بالحبل على طريق الاستعارة التصريحية ، والتصريم ترشيح وتقوية للتشبيه . وعادك : يحتمل أنه من عاد إذا رجع ، فالمعنى : رجعك وردك ، يحتمل أنه مقلوب من عداه إذا صرفه ، كما في «ناء» مقلوب «نأى» فالمعنى صرفك . قال أبو عمير : وعادك بمعنى شغلك . وقال الأصمعى : بمعنى : عاد إليك ، وبمعنى صرفك . ومن المعلوم أن الفعل إذا كان لازما تعدى بالهمزة إلى المفعول قياسا ، وإذا تعدى بنفسه إلى مفعول واحد تعدى بدخول الهمزة عليه إلى مفعولين . واختلف هل هو قياس أو سماعي ؟

وأعاد منه ، فيجري فيه ما ذكر . وأما تعديته إلى أن تلاقيها أيضا فهو بإسقاط الخافض توسعا . والعداء : الشغل أو البعد : ويطلق على الجور ، من عدا عليه . قال الجوهري : العداء – بالفتح – الظلم ، ويجوز كسره بمعنى المانع ، لأن العداء هو ما يعدى به أى يصرف

به . كاللواذ لما يلاذ به . والرباط لما يربط به . والمعنى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك . وصرفك عن ملاقاتها صارف عظيم ، ونسبة الصرف إليه مجاز عقلى من قبيل الاسناد إلى السبب أو الآلة .

ويحتمل أن أصله «عدا» بالكسر والقصر جمع عدو . فمد للضرورة ، أى : منعك الأعداء عن لقائها فالاسناد حقيقى

(2) . قوله «وكان جذيمة صاحب الزباء» جذيمة ملك الحيرة والزباء ملكة الجزيرة كذا في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «فكنوا عنه بالأبرش» في الصحاح البرش في الفرس نقط صغار تخالف سائر لونه والفرس أبرش . (ع)

(189/497)

ذلك ، حذف لدلالة الكلام ، وقد تعلق بهذا المحذوف لِنُرِيَكَ أى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى . أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا . أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك .

[سورة طه (20) : الآيات 24 إلى 35]

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (24) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29) هارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (33)

وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (35)

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرا عظيما وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش «1» رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب. فإن قلت: لِي في قوله اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ما جدواه «2» والكلام بدونه مستتب «3»؟ قلت:

قد أبهم الكلام أولا فقيل: اشرح لي ويسر لي، فعلم أن ثم مشروحا وميسرا، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره، من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمرى على الإيضاح الساذج، لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقى الإجمال

---

(1). قوله «ذو جأش» في الصحاح يقال فلان رابط الجأش أى يربط نفسه عن الفرار

لشجاعته. (ع)

(2) . قال محمود: «إن قلت ما فائدة لي والكلام مستتب بدونها . . الخ، قال أحمد:

ويحتمل عندي والله أعلم أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه

وعائدة عليه، فان الله عز وجل لا ينتفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره، تعالى وتقدس

، على خلاف رسول الملك إذا طلب منه أن يريح عليه فإنما يطلب منه ما يعود نفعه على

مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم. [. . . . .]

(3) . قوله «مستتب» في الصحاح: استتب الأمر تهيأ واستقام. (ع)

(190/497)

والتفصيل. عن ابن عباس: كان في لسانه رتة «1» لما روى من حديث الجمرة «2» .

ويروى أن يده احترقت، وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ، ولما دعاه قال: إلى أى

رب تدعوني؟ قال:

إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها. وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون

في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة. واختلف في زوال العقدة بكمالها فقيل:

ذهب بعضها وبقي بعضها، لقوله تعالى وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً وقوله تعالى وَلا

يَكادُ يُبِينُ وكان في لسان الحسين بن على رضى اللّه عنهما رتة «3» فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

ورثها من عمه موسى . وقيل : زالت بكمالها لقوله تعالى قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى وفي تنكير العقدة - وإن لم يقل عقدة لساني - : أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا ، ولم يطلب الفصاحة الكاملة . ومِنْ لِسانِي صفة للعقدة كأنه قيل : عقدة من عقد لساني .

الوزير من الوزر ، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنة . أو من الوزر «4» ، لأن الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره . أو من المؤازرة وهي المعاونة . عن الأصمعى قال : وكان القياس أزيرا ، فقلبت الهمزة إلى الواو ، ووجه قلبها أنّ فعيلا جاء في معنى مفاعل مجيئا صالحا ، كقولهم : عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم ، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه ، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز ، ونظرا إلى يوازر وأخواته ، وإلى الموازرة . وَزِيراً وهارُونَ مفعولا قوله اجْعَلْ قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة . أولِي وَزِيراً مفعولاه ، وهرون عطف بيان للوزير . وأَخِي في الوجهين بدل من هرون ، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن .

قرءوا جميعا اشْدُدْ وَأَشْرِكْهُ على الدعاء . وابن عامر وحده : اشدد . وأشركه ، على الجواب .

---

(1) . قوله «كان في لسانه رتة» في الصحاح «الرتة» بالضم : العجمة في الكلام . وحديث الجمرة : أن موسى كان يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب ، فضرب به رأسه ، فغضب وهمّ بقتله ، فقالت له امرأته . إنه صبى لا يعقل وجربه إن شئت ، فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر ، فمد موسى يده إلى الجوهر ، فحولها جبريل إلى الجمر فوضع جمرة في فمه فاحترق لسانه . (ع)

(2) . لم أره هكذا ، وإنما وقع في حديث القنوت الطويل الذي أخرجه النسائي وغيره من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير «سألت ابن عباس رضى اللّه عنهما عن قوله تعالى وَفَتَنّاكَ فُتُوناً - فذكره بطوله في أربع ورقات - فذكر فيه قصة آسية وفرعون . وقولها : قرب إليه جمرتين ولؤلؤتين وأنه أخذ الجمرتين فانتزعتهما منه مخافة أن يحرقا يده . وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه . وهو أصح ما ورد في ذلك . وروى الحاكم من طريق وهب بن منبه فذكر قصة وفيها قالت : جربه . إن شئت اجعل في هذا جمرة وذهبا فانظر أيهما يقبض . قال : فأخذ الجمرة وألقاها في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها» ويقال : إن العقدة التي كانت في لسان موسى من أثر تلك الجمرة التي التقمها .

(3) . لم أجده .

(4) . قوله «الوزير من الوزر» أى الثقل . وقوله «أو من الوزر» أى الملجأ . أفاده الصحاح . (ع)

وفي مصحف ابن مسعود : أخى واشدد . وعن أبى بن كعب : أشركه في أمرى ، واشدد به أزرى .

ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر : أن يجعل أَخِي مرفوعا على الابتداء : واشْدُدْ بِهِ خبره ، ويوقف على هارُونَ . الأزر : القوة . وأزره : قواه ، أى : اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك ، فإن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً أى عالما بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا ، وأن هرون نعم المعين والشادّ لعضدى ، بأنه أكبر منى سنا وأفصح لسانا .

[سورة طه (20) : آية 36]

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (36)

السؤل : الطلبة ، فعل بمعنى مفعول ، كقولك : خبز ، بمعنى مخبوز . وأكل ، بمعنى مأكول .

[سورة طه (20) : الآيات 37 إلى 39]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

مَحَبَّةً مِنّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39)

الوحى إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبىّ في وقتها ، كقوله تعالى وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة ، كما بعث إلى مريم . أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه . أو يلهمها كقوله تعالى وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أى أوحينا إليها أمرا لا سبيل إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحي ، وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحى ولا يخل به ، أى : هو مما يوحى لا محالة وهو أمر عظيم ، مثله يحق بأن يوحى «أن» هي المفسرة لأن الوحى بمعنى القول . القذف مستعمل في معنى الإلقاء والوضع . ومنه قوله تعالى وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وكذلك الرمي قال :

غلام رماه اللّه بالحسن يافعا «1»

---

(1) رآني على ما بي عميلة فاشتكى إلى ماله حالى فواسى وما هجر

ولما رأى المجد استعيرت ثيابه تردى رداء سابغ الذيل واتزر

غلام رماه اللّه بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر

كأن الثريا علقت فوق نحره وفي أنفه الشعرا وفي خده القمر

لأسيد بن عنقاء الفزاري ، كان من أكبر أهل زمانه وأعلمهم بالأدب ، فطال به عمره ونكبه دهره ، فلقيه عميلة الفزاري فسلم عليه وقال : ما أصارك يا عم إلى ما أرى ؟ فقال : بخل مثلك بماله ، وصون وجهى عن مسألة الناس .

فقال : لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما بك ، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال . فقال :

ما هذا ؟ قالوا عميلة شطر ماله بينك وبينه ، فأنشأ يقول ذلك ، وشبه ماله بعاقر على طريق المكنية . والشكوى إليه تخييل . وضمير : واسى ، بمعنى أعطى لعميلة . ويجوز أنه للمال ، بناء على التشبيه السابق . وثياب المجد مجاز عن المكارم والإحسان على طريق التصريح ، واستعارتها ترشيح . ومعناه أخذها من أربابها وذهابها من أصحابها ، وذلك كله كناية عن بخل ذوى الأموال . وسابغ الذيل : طويله . واتزر : لبس الإزار . ويقرأ بتشديد التاء . ويجوز فتحها مع همزة ساكنة قبلها على الأصل والمجاز كما تقدم . وذلك كناية عن كثرة جوده . ويجوز أن المعنى لما رأى الناس تفتخر بمفاخر غيرهم فقط صنع هو المكارم بنفسه لنفسه ، ورماه الله بالحسن : وضعه فيه بكثرة ، كأنه قذفه فيه بغير حساب . واليافع : الشاب وهو حال . والسيمياء : العلامة لا تشق على البصر كناية عن ظهورها فلا تحتاج إلى تأمل ، كظهور الكواكب . والنحر : أعلى الصدر وأسفل العنق . والشعرا : نجم كثير الضوء . والبيت الثاني بيان للأول . وروى «حباء الله» وروى «علقت في جبينه» وروى : «وفي جيده القمر» وحباه : أعطاه . والجيد : العنق ، وهذه الرواية أقعد .

أى حصل فيه الحسن ووضعه فيه ، والضمائر كلها راجعة إلى موسى . ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت : فيه هجنة ، لما يؤدى إليه من تنافر النظم . فإن قلت : المقذوف في البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل . قلت : ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن . والقانون الذي وقع عليه التحدّى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر . لما كانت مشيئة اللّه تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه ، سلك في ذلك سبيل المجاز ، وجعل اليم كأنه ذو تمييز ، أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه ، فقيل فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ روى أنها جعلت في التابوت قطنا محلوجا ، فوضعته فيه وجصصته وقيرته ، ثم ألقته في اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير ، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت ، فأمر به فأخرج ففتح ، فإذا صبى أصبح الناس وجها ، فأحبه عدوّ اللّه حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه . وظاهر اللفظ أنّ البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه ، لأنّ الماء يسحله أى يقشره وقذف به ثمة فالتقط من الساحل ، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ، ثم أداه النهر إلى حيث البركة مِنِّي لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت ، فيكون المعنى على : أنى أحببتك ومن أحبه اللّه أحبته القلوب . وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة ، أى : محبة حاصلة أو

واقعة منى ، قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها ، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك .

روى أنه كانت على وجهه مسحة جمال ، وفي عينيه ملاحة ، لا يكاد يصبر عنه من رآه عَلى عَيْنِي لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك ، كما يراعى الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عينى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتي . ولتصنع :

معطوف على علة مضمرة ، مثل : ليتعطف عليك وترأم «1» ونحوه . أو حذف معلله ، أى :

---

(1) . قوله «و ترأم» أى تحب وتؤلف . أفاده الصحاح . (ع)

(193/497)

ولتصنع فعلت ذلك . وقرئ : ولتصنع ولتصنع ، بكسر اللام وسكونها . والجزم على أنه أمر .

وقرئ : ولتصنع ، بفتح التاء والنصب ، أى : وليكون عملك وتصرفك على عين منى .

[سورة طه (20) : الآيات 40 إلى 41]

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

العامل في إِذْ تَمْشِي «1» أَلْقَيْتُ أو لِتُصْنَعَ ويجوز أن يكون بدلا من إِذْ أَوْحَيْنا .

فإن قلت : كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت : كما يصح - وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه - أن يقول لك الرجل : لقيت فلانا سنة كذا ، فتقول : وأنا لقيته إذ ذاك . وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها . يروى أن أخته واسمها مريم جاءت متعرفه خبره ، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها ، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت : هل أدلكم فجاءت بالأمّ فقبل ثديها .

ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته ، وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع .

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلى . قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة : اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب اللّه ومن اقتصاص فرعون ، فغفر اللّه له باستغفاره حين قال رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى مدين فُتُوناً يجوز أن يكون مصدرا على فعول في المتعدّى ، كالثبور والشكور والكفور .

وجمع فتن أو فتنة ، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث ، كحجوز وبدور ، في حجزة وبدرة :

أي فتناك ضروبا من الفتن. سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضى الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة: ولد في عام كان يقتل فيه الولدان، فهذه فتنة يا ابن جبير. وألقته أمّه في البحر. وهمّ فرعون بقتله. وقتل قبطيا. وأجر نفسه عشر سنين. وضلّ الطريق وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير. والفتنة: المحنة، وكل ما يشق على الإنسان. وكل ما يبتلى الله به عباده: فتنة. قال وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً. مَدْيَنَ على

---

(1) . قال محمود: «العامل في إِذْ تَمْشِي ألقيت أو تصنع . . . الخ» قال أحمد: والمعنى يوجب عمل وَلِتُصْنَعَ فيه لأن معنى صنيعه على عين الله عز وجل: تربيته مكلوءا بكلاءته مصونا بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة: هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنانة. وأما إلقاء المحبة عليه، فقيل: ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثماني مراحل من مصر. وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة، منها مهر ابنته، وقضى أوفى الأجلين. أى سبق في قضائي وقدرى أن أكلمك وأستنبئك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر.

وقيل : على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة . هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم . مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص ، أهلا لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ، ولا ألطف محلا ، فيصطنعه بالكرامة والأثرة ، ويستخلصه لنفسه .

ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه ، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره «1» .

[سورة طه (20) : الآيات 42 إلى 44]

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44)

الونى . الفتور والتقصير . وقرئ : تنيا ، بكسر حرف المضارعة للإتباع ، أى : لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما ، واتخذا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى . ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها ، فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر . روى أن اللّه تعالى أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى . وقيل : سمع بمقبله . وقيل : ألهم ذلك . قرئ لَيِّناً بالتخفيف والقول اللين . نحو قوله تعالى هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى لأنّ ظاهره الاستفهام والمشورة ، وعرض ما فيه من الفوز العظيم . وقيل : عداه شبابا لا يهرم بعده ،

وملكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته .

وقيل : لا تجبهاه بما يكره ، والطفا له في القول «2» ، لما له من حق تربية موسى ، ولما ثبت له من مثل حق الأبوّة . وقيل :

كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرّة . والترجي لهما ، أى : اذهبا على رجائكما وطمعكما ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد «3» بأقصى وسعه . وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ

---

(1) . قوله «سواء ضميره» في الصحاح «سواء الشيء» : وسطه . (ع)

(2) . قوله «و قيل : لا تجبهاه بما يكره» في الصحاح «جبهته بالمكروه» إذا استقبلته به ، وفيه «الطف في العمل» الرفق به . (ع)

(3) . قوله «ويحتشد بأقصى وسعه» أى يستعد ويتأهب . أفاده الصحاح . (ع)

أى : يتذكر ويتأمّل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق أَوْ يَخْشى أن يكون الأمر كما تصفان ، فيجرّه إنكاره إلى الهلكة .

[سورة طه (20) : آية 45]

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (45)

فرط : سبق وتقدّم . ومنه الفارط : الذي يتقدّم الواردة . وفرس فرط : يسبق الخيل ، أى : نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها . وقرئ يَفْرُطَ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة . خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب «1» من شيطان ، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية . أو من حبه الرياسة ، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزّة قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ وقرئ : يفرط ، من الإفراط في الأذية ، أى : نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة . أو يجاوز الحدّ في معاقبتنا إن لم يعاجل ، بناء على ما عرفا وجرّبا من شرارته وعتوّه أَوْ أَنْ يَطْغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي ، لجرأته عليك وقسوة قلبه . وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز : باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة .

[سورة طه (20) : الآيات 46 إلى 48]

قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (46) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (47) إِنَّا قَدْ

أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

مَعَكُما أى حافظكما وناصركما أَسْمَعُ وَأَرى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم، وجائز أن لا يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر. وإذا كان الحافظ والناصر كذلك، تمّ الحفظ وصحت النصرة، وذهبت المبالاة بالعدّو. كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط، يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة: من الحفر والبناء ونقل الحجارة، والسخرة في كل شيء، مع قتل الولدان، واستخدام النساء قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ جملة جارية من الجملة الأولى

(1). قال محمود: «معنى يفرط علينا يعجل بعقوبتنا ... الخ» قال أحمد: وإذا روعي في الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجرورها، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف بتقلد منة اللّه عز وجلّ زيادة المجرور في قوله اشْرَحْ لِي صَدْرِي كما قدمته آنفا، واللّه أعلم.

(196/497)

وهي إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ مجرى البيان والتفسير لأنّ دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية، إنما وحد قوله بِآيَةٍ ولم يثن ومعه آيتان، لأنّ المراد في هذا الموضع تثبيت

الدعوى ببرهانها، فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، وكذلك قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

[سورة طه (20) : الآيات 49 إلى 50]

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (49) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (50)

خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه. ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته «1» على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى. ويدل عليه قوله أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ. خَلْقَهُ أول مفعولي أعطى، أى: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به. أو ثانيهما، أى: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة، غير ناب عنه. أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة، حيث جعل الحصان والحجر «2» زوجين، والبعير والناقة، والرجل والمرأة، فلم يزاوج منها شيئا غير جنسه وما هو على خلاف خلقه. وقرئ: خلقه، صفة للمضاف أو للمضاف

إليه ، أى : كل شيء خلقه اللّه لم يخله من عطائه وإنعامه ثُمَّ هَدى أى عرّف كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه . وللّه درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه ، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق .

[سورة طه (20) : الآيات 51 إلى 54]

قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (51) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (54)

---

(1) . قوله «يحمله خبثه ودعارته» أى فساده وفسقه . (ع)

(2) . قوله «والحجر» بكسر الحاء وسكون الجيم : الأنثى من الخيلى : اه مصححه .

[. . . . .]

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون ، وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد ، فأجابه بأنّ هذا سؤال عن الغيب ، وقد استأثر اللّه به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد

مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوب عند اللّه في اللوح المحفوظ ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئًا أو ينساه . يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له ، كقولك : ضللت الطريق والمنزل . وقرئ : يضل ، من أضله إذا ضيعه . وعن ابن عباس : لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ، ولا يترك من وحده حتى يجازيه . ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة اللّه بكل شيء وتبينه لكل معلوم ، فتعنت وقال : ما تقول في سوالف القرون ، وتمادى كثرتهم ، وتباعد أطراف عددهم ، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم ؟

فأجاب بأنّ كل كائن محيط به علمه ، وهو مثبت عنده في كتاب ، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان ، كما يجوز ان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل ، أى : لا يضل كما تضل أنت ، ولا ينسى كما تنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة الَّذِي جَعَلَ مرفوع صفة لربي . أو خبر مبتدإ محذوف أو منصوب على المدح ، وهذا من مظانه ومجازه مَهْداً قراءة أهل الكوفة ، أى : مهدها مهدا .

أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي وَسَلَكَ من قوله تعالى ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، سَلَكْناهُ ، نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى حصل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبراري فَأَخْرَجْنا انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع ، لما ذكرت من الافتنان «1» والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتذعن الأجناس

المتفاوتة لمشيئة، لا يمتنع شيء على إرادته. ومثله قوله تعالى وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها، أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ وفيه تخصيص أيضا بأنا نحن نقدر على مثل هذا،

---

(1). قال محمود «هذا من باب الالتفات... الخ» قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجوه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك، فان اللّه تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى ثم قوله الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً إلى قوله فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى إما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات. وإما أن يكون كلام موسى قد انتهي عند قوله وَلا يَنْسى ثم ابتدأ اللّه تعالى وصف ذاته بصفات العامة على خلقه، فليس التفاتا أيضا، وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله وَلا يَنْسى ليستقر بانتهاء الحكاية. ويحتمل وجها آخر: وهو أن موسى وصف اللّه تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة فقال الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى فلما حكاه اللّه تعالى عند أسند الضمير إلى ذاته، لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا

الوجه وجه حسن دقيق الحاشية ، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات ، لكن الزمخشري لم يعنه ، واللّه أعلم .

(198/497)

ولا يدخل تحت قدرة أحد أَزْواجاً أصنافا ، سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض شَتَّى صفة للأزواج ، جمع شتيت ، كمريض ومرضى . ويجوز أن يكون صفة للنبات ، والنبات مصدر سمى به النابت كما سمى بالنبت ، فاستوى فيه الواحد والجمع ، يعنى أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم . قالوا : من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام ، وقد جعل اللّه علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله ، أى قائلين كُلُوا وَارْعَوْا حال من الضمير في فَأَخْرَجْنا المعنى : أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها .

[سورة طه (20) : آية 55]

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (55)

أراد بخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم عليه السلام منها . وقيل إن الملك لينطلق

فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبدّدها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معا . وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ، ويردّهم كما كانوا أحياء ، ويخرجهم إلى المحشر يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً عدّد اللّه عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم ، حيث جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها ، وسوّى لهم فيها مسالك يتردّدون فيها كيف شاءوا ، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم ، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا ، وأمهم التي منها ولدوا ، ثم هي كفاتهم إذا ماتوا « 1 » . ومن ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «تمسحوا بالأرض فإنها بكم برّة» « 2 » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 49 . 69 ﴾

---

(1) . قوله «ثم هي كفاتهم إذا ماتوا» أى موضعهم الذي يضمون فيه . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه ابن أبى شيبة عن علية عن عوف عن ابن عثمان به مرسلا . وأخرجه الطبراني في الصغير من رواية الفرياني عن الثوري عن عوف . وصله بذكر سليمان قال ابن طاهر : المرسل أولى بالصواب .

وقال الخازن :

قوله ﴿ طه ﴾

قيل هو قسم أقسم الله بطوله وهدايته ، وقيل هو من أسماء الله فالطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هاد .

وقيل معناه يا رجل والمراد به النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وكذلك يا إنسان ، وقيل هو بالسريانية ، وقيل بالقبطية ، فعلى هذا يكون قد وافقت لغة العرب هذه اللغات في هذه الكلمة ، وقيل هو يا إنسان بلغة عك وعك قبيله من قبائل العرب ، وقيل معناه طا الأرض بقدميك يريد به في التهجد وذلك لما نزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة اجتهد في العبادة حتى يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه ، وكان يصلي الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك فنزلت ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ أي لتعنى وتتعب ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى وإنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم هم المنتفعون بها ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسموات العلية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمتها وعلوها إلا الله تعالى ﴿ الرحمن على العرش

استوى ﴾ تقدم الكلام عليه في سورة الأعراف مستوفى ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ﴾ يعني الهواء ﴿ وما تحت الثرى ﴾ أي إنه مالك لجميع ما في الأربعة الأقسام ، والثرى هو التراب الندي وقيل معناه ما وراء الثرى من شيء .

(200/497)

وقال ابن عباس : إن الأرضين على ظهور النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش ، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في قصة لقمان ، والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت ذلك الثرى إلا الله تعالى ، وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور فإذا وقعت في جوفه يبست .

قوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ أي تعلن به ﴿ فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ قال ابن عباس : السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك لا تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً والله يعلم ما أسررت به اليوم وما تسر به غداً ، وعنه أن السر ما أسر به ابن آدم في نفسه وأخفى ما هو فاعله قبل أن يعلمه ، وقيل السر ما أسره الرجل إلى غيره وأخفى من ذلك ما أسره في نفسه ، وقيل

السر هو العمل الذي يسر من الناس وأخفى هو الوسوسة ، وقيل السر أن يعلم الله تعالى أسرار العباد وأخفى هو سره من عباده فلا يعلم أحد سره ، وقيل : مقصود الآية زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والإخفاء على ما فيه ثواب أو عقاب ، فالسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها والإخفاء هو الذي يبلغ حد العزيمة ثم وحد نفسه فقال تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ تأنيث الأحسن والذي فضلت به أسماؤه في الحسن دون سائر الأسماء ، دلالتها على معنى التقديس والتحميد والتعظيم والربوبية ، والأفعال التي هي النهاية في الحسن .

(201/497)

قوله ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ أي وقد أتاك لما قدم ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قفاه بقصة موسى ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود ﴿ إذ رأى ناراً ﴾ وذلك أن موسى استأذن شعيباً في الرجوع من مدين إلى مصر ليزور والدته وأخاه فأذن له ، فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل

في شهرها لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً ، فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن ، وذلك في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما أراد الله من كرامته فأخذ امرأته الطلق فأخذ زنده فجعل يقدح فلا يورى فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ أي أقيموا ﴿ إني أنست ناراً ﴾ أي أبصرت ناراً ﴿ لعلي أتيكم منها بقبس ﴾ أي شعلة من نار في طرف عود ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ أي أجد عند النار من يدلني على الطريق ﴿ فلما أتاها ﴾ أي أتى النار ورأى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها أطافت بها ناراً بيضاء تتقد كأضوء ما يكون ، فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ، قيل كانت الشجرة ثمرة خضراء وقيل كانت من العوسج ، وقيل كانت من العليق وقيل كانت شجرة من العناب ، روي ذلك عن ابن عباس وقال أهل التفسير لم يكن الذي رآه موسى ناراً بل كان نوراً ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً .

قال ابن عباس : هو من نور الرب سبحانه وتعالى ، وقيل هي النار بعينها وهي إحدى حجب الرب تبارك وتعالى ، يدل عليه ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي (صلى

الله عليه وسلم) قال : " حجابه النار لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " أخرجه مسلم قيل إن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت عنه ، وإذا نأى دنت منه ، فوقف متحيراً وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة فعند ذلك ﴿ نودي يا موسى إني أنا ربك ﴾ قال وهب : نودي من الشجرة فقيل يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه فقال إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك منك فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله تعالى فأيقن به ، وقيل إنه سمعه بكل أجزائه حتى إن كل جارحة منه كانت أذناً وقوله ﴿ فاخلع نعليك ﴾ كان السبب فيه ما روي عن ابن مسعود مرفوعاً في قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت .

ويروى غير مدبوغ وإنما أمر بخلعها صيانة للوادي المقدس ، وقيل أمر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الأرض المقدسة لتناله بركتها فإنها قدست مرتين فخلعها موسى فألقاهما من وراء الوادي ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ أي المطهر ﴿ طوى ﴾ اسم للوادي الذي حصل فيه وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوي في استدارته ﴿ وأنا اخترتك ﴾ اصفيتك

برسالاتي وبكلامي ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ فيه نهاية الهيبة والجلال له فكأنه قال له لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له ﴿ إنني إنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ ولا تعبد غيري ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ أي لتذكرني فيها وقيل لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، وقيل لإخلاص ذكري وطلب وجهي ولا ترائي فيها ولا تقصد بها غرضاً آخر ، وقيل معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها ، (ق) عن أنس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك " وتلا قتادة ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وفي رواية : " إذا رقد أحدكم في الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله يقول ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ " .

﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق وكيف أظهرها لكم ، ذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في الكتمان للشيء يقولون كتمت سرك في نفسي أي أخفيته غاية الإخفاء ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء .

والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان لأنه إذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصي إلى أن يقرب من ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل

فيتخلص من عقاب المعاصي بتعريف وقت الموت ، وأنه إذا لم يعرف وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي أو يتوب منها في كل وقت مخافة معاجلة الأجل .

قوله تعالى ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي بما تعمل من خير وشر ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ﴾ أي فلا يصرفك عن الإيمان بالساعة ومجيئها من لا يؤمن بها ﴿ واتبع هواه ﴾ أي مراده وخالف أمر الله ﴿ فتردى ﴾ أي فتهلك .

قوله ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة ﴿ قال هي عصاي ﴾ قيل كان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة ﴿ أتوكأ عليها ﴾ أي أعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ أي أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ أي حاجة ومنافع أخرى ، وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا في السفر فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل ويستقي بها الماء من البئر ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها إذا قعد وروي عن ابن عباس أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه ، وكان يضرب بها الأرض

فيخرج له ما يأكل يومه ، ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء وكان إذا اشتهى ثمرة ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر ، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كدلو حتى يستقي وكانت تضيء بالليل كالسراج وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ ألقها يا موسى ﴾ أي انبذها واطرحها .

(205/497)

قال وهب : ظن موسى أنه يقول ارفضها ﴿ فألقاها ﴾ أي فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة ﴿ فإذا هي حية ﴾ صفراء من أعظم ما يكون من الحيات ﴿ تسعى ﴾ أي تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر كأنها جان ، وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة وقال في موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فإنها كانت حية على قدر العصا ، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعباناً وهو انتهاء حالها ، وقيل إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان ، قال محمد بن إسحاق : نظر موسى فإذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات ، وصارت شعبتاها شدقين لها ، والمحجن عنقاً

وعرفاً يهتز كالنيازك ، وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخفة من الإبل ، فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لأنيابها صريفاً عظيماً ، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبراً وهرب ، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودي موسى أقبل وارجع حيث كنت ، فرجع وهو شديد الخوف ﴿ قال خذها ﴾ يعني بيمينك ﴿ ولا تخف ﴾ قيل كان خوفه لما عرف ما لقي آدم من الحية ، وقيل لما قال له ربه لا تخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ أي إلى هيئتها فردها عصاً كما كانت ، وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خللها بعود فلما قال الله تعالى خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشفها .

وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أمر الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ ؟ قال : لا ولكني ضعيف من ضعف خلقت .

قال فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ .

قال المفسرون :

أراد الله تعالى أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون قوله تعالى ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ يعني إلى إبطك وقيل تحت عضدك ﴿ تخرج بيضاء ﴾ يعني نيرة مشرقة ﴿ من غير سوء ﴾ يعني من غير عيب والسوء ها هنا بمعنى البرص قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر ﴿ آية أخرى ﴾ أي دلالة أخر على صدقك سوى العصا ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ قال ابن عباس : كانت يد موسى أكبر آياته .

قوله : ﴿ أذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ يعني جاوز الحد في العصيان والتمرد وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى كان معبوثاً إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر متبوعاً فكان ذكره الأولى قال وهب : قال الله تعالى لموسى اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي وإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري وإني ألبسك حلة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري بعثتك بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي ﴿ وقولا له قولاً ليناً ﴾ لا يغتر بلباس الدنيا فإن ناصيته بيدي ولا يتنفس إلا بعلمي قال فسكت موسى فجاء ملك وقال له أجب ربك ﴿ قال ﴾ .

يعني موسى ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ يعني وسعه للحق ، قال ابن عباس : يريد حتى لا أخاف غيرك ، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفاً شديداً لشدة شوكته وكثرة جنوده ، فكان يضيق بما كلف من مقاومة فرعون وحده ، فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحداً لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله تعالى ، وإذ علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده ﴿ ويسر لي أمري ﴾ أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ وذلك أن موسى كان في حجرة فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته ، فقال فرعون لامرأته آسية إن هذا عدوي وأراد أن يقتله ، فقالت له آسية إنه صبي لا يعقل ، وقيل إن أم موسى لما فطمته ردته إلى فرعون فنشأ في حجره وحجر أمراته يربيانه واتخذاه ولداً ، فبينما هو يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب إذ رفعه فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير منه حتى همَّ بقتله ، فقالت آسية : أيها الملك إنه صبي لا يعقل جربه إن شئت ، فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فوضعها بين يدي موسى ، فاراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى فوضعها على الجمر فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت

فيه عقدة ﴿ يفقهوا قولي ﴾ يعني احلل العقدة كي يفهموا قولي ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ يعني معيناً وظهيراً ، والوزير من يوازرك ويحتمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال ﴿ هارون أخي ﴾ وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً وأجمل وأوسم وكان أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى جعداً ﴿ اشدد به أزري ﴾ يعني قو به ظهري ﴿ وأشركه في أمري ﴾ يعني في أمر النبوة وتبليغ الرسالة ﴿ كي نسبحك كثيراً ﴾ يعني نصلي كثيراً ﴿ ونذكرك كثيراً ﴾ يعني نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من جميل نعمك ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ يعني خبيراً عليماً ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أي أعطيت جميع ما سألته ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾

يعني قبل هذه المرة بين تلك المنة بقوله تعالى ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ يعني ما يلهم ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه فقال ﴿ أن اقذفيه في التابوت ﴾ يعني ألهمناها أن اجعليه في التابوت ﴿ فاقذفيه في اليم ﴾ يعني نهر النيل ﴿ فليلقه اليم بالساحل ﴾ يعني شاطىء البحر ﴿ يأخذه عدو لي وعدو له ﴾ يعني فرعون .

فأخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وشقوقه ثم ألقته في

النيل .

وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون .

فبينما فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية ، إذ هو بتابوت يجيء به الماء فأمر الغلمان والجواري بإخراجه ، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا بصبي من أصبح الناس وجهاً ، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك نفسه وعقله فذلك قوله تعالى ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال ابن عباس : أحبه وحببه إلى خلقه ، قيل ما رآه أحد إلا أحبه لملاحة كانت في عيني موسى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك مراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ونظر إليه ﴿ إذ تمشي أختك ﴾ واسمها مريم متعرفة خبره ﴿ فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾ أي على امرأة ترضعه وتضمه إليها ، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فلما قالت لهم أخته ذلك قالوا نعم .

فجاءت بالأم فقبل ثديها فذلك قوله تعالى ﴿ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ﴾ أي بلقائك ورؤيتك ﴿ ولا تحزن ﴾ أي وليذهب عنها الحزن ﴿ وقتلت نفساً ﴾ .

قال ابن عباس : كان قتل قبطياً كافراً قيل كان عمره إذ ذاك اثنتي عشر سنة ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ أي من غم القتل وكربه ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال ابن عباس : اختبرناك اختباراً وقيل ابتليناك ابتلاء ، قال ابن عباس : الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى ، منها أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت ، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم قتله ، ثم ناوله الجمرة بدل الجوهرة ، ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفاً ﴿ فلبثت ﴾ أي مكثت ﴿ سنين في أهل مدين ﴾ هي بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر ، هرب إليها موسى قال وهب : لبث موسى عند شعيب .

ثمانياً وعشرين سنة عشر سنين منها يرعى الغنم مهر زوجته صفوراء ابنة شعيب وثمان عشرة سنة أقام عنده بعد ذلك حتى ولد له وخرج من مصر ابن اثنتي عشرة سنة هارباً ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أي جئت على القدر الذي قدرت أن تجيء فيه .

قيل على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحى إلى الأنبياء فيه .

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ومحبتي .

وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته .

وقيل معناه اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني الذي

أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ أي بدلائلي .

قال ابن عباس : يعني الآيات التسع الذي بعث بها موسى عليه السلام ﴿ ولا تنيا ﴾ أي لا تضعفا وقيل لا تفترا ولا تقصرا ﴿ في ذكري ﴾ أي لا تقصرا في ذكري بالإحسان إليكما والإنعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً ﴾ أي دارياه وارفقا به .

(210/497)

قال ابن عباس : لا تعنفا في قولكما ، وقيل كنياه فقولا له يا أبا العباس وقيل يا أبا الوليد وقيل أراد بالقول اللين قوله ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ وقيل الآية إنما أمرهما باللطافة لما له من حق تربية موسى ، وقيل عداه على قبول الإيمان شباباً لا يهرم وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته ، وإذا مات دخل الجنة فلما أتاه موسى ووعده بذلك أعجبه وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى أن لك عقلاً ورأياً ، أنت رب تريد أن تكون مربوباً ، وأنت تعبد تريد أن تعبد ، فقال فرعون صواب ما قلت فغلبه على رأيه .

وكان هارون بمصر فأمر الله موسى أن يأتي هارون وأوحى الله إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحي إليه .

وقوله تعالى ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي يتعظ ويخاف ويسلم فإن قلت كيف قال لعله يتذكر وقد سبق في علمه أنه لا يتذكر ولا يسلم .

قلت معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما ، وقيل هو إلزام الحجة وقطع المعذرة كقوله تعالى ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ﴾ وقيل هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكراً ويخشى خاش إذا رأى بري وإلطافي بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية ، وقيل لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ الرازي ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ الآية فبكى يحيى وقال إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فيكف رفقك بمن يقول أنت الإله ﴿ قالا ﴾ يعني موسى وهارون ﴿ ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ﴾ .

قال ابن عباس : يعجل علينا بالقتل والعقوبة ﴿ أو أن يطغى ﴾ أي يجاوز الحد في الإساءة إلينا ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ قال ابن عباس : أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي خل عنهم وأطلقهم من أعمالك ﴿ ولا تعذبهم ﴾ أي لا تتعبهم في العمل ، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخور مع قتل الولدان وغير ذلك ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ قال فرعون وما هي فأخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس ، وقيل معناه قد جئناك بمعجزة وبرهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ ليس المراد منه سلام التحية بل إنما معناه سلم من العذاب من أسلم ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه .

(212/497)

﴿ قال ﴾ يعني فرعون ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ أي فمن إلهكما الذي أرسلكما ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ أي كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ،

وقيل أعطى كل شيء صلاحه وهداه ، وقيل أعطى كل شيء صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح ، وقيل يعني جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهي الحجرة والحمار الأتان ثم هدى ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى ﴿ قال ﴾ يعني فرعون ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ أي فما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث ، وإنما قال فرعون ذلك لموسى حين خوفهم مصارع الأمم الخالية فحينئذٍ قال فرعون فما بال القرون الأولى ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ علمها عند ربي ﴾ أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها ، وقيل إنما رد على موسى علم ذلك إلى الله تعالى لأنه لم يعلم ذلك لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه ﴿ في كتاب ﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿ لا يضل ربي ﴾ أي لا يخطىء وقيل لا يغيب عنه شيء ﴿ ولا ينسى ﴾ أي فيتذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حتى يجازيهم بها ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً وقيل مهدها لكم ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً وسهلها لكم لتسلكوها ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ يعني المطر ثم الأخبار عن موسى ثم قال الله تعالى ﴿ فأخرجنا به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ أزواجاً ﴾ أي أصنافاً ﴿ من نبات شتى ﴾ أي مختلف الألوان والطعوم والمنافع فمنها ما هو للناس ومنها ما هو للدواب ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي أخرجنا أصناف النبات

للانتفاع بالأكل والرعي ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الذي ذكر ﴿ لآيات لأولي النهى ﴾ أي لذوي العقول ، قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم ﴿ منها خلقناكم ﴾ أي من الأرض خلقنا آدم ، وقيل إن الملك ينطلق فيأخذ من

التراب الذي يدفن فيه فيذره في النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة ﴿ وفيها نعيدكم ﴾ أي عند الموت والدفن ﴿ ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ أي يوم القيامة للبعث والحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 262 . 272 ﴾

(213/497)

وقال ابن جزى :

قيل في ﴿ طه ﴾ : إنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : معناه يا رجل ، وانظر الكلام على حروف الهجاء في سورة البقرة : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى ﴾ قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم قام في الصلاة حتى تورّمت قدماه ، فنزلت الآية تخفيفاً عنه ، فالشقاء على هذا إفراط التعب في العبادة ، وقيل : المراد به التأسف على كفر الكفار ، واللفظ عام في ذلك كله ، والمعنى أنه نفى عنه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة ، لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب السعادة .

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ نصب على الاستثناء المنقطع ، وأجاز ابن عطية أن يكون بدلاً من موضع ﴿ لتشقى ﴾ إذ هو في موضع مفعول من أجله ، ومنع ذلك الزمخشري لاختلاف الجنسين ، ويصح أن ينتصب بفعل مضمر تقديره أنزلناه تذكرة .

﴿ تَنزِيلاً ﴾ نصب على المصدرية ، والعامل فيه مضمر وما أنزلنا وبدأ السورة بلفظ المتكلم في قوله ، ما أنزلنا ثم رجع إلى الغيبة في قوله ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض ﴾ الآية وذلك هو الالتفات ﴿ والسماوات العلى ﴾ جمع عُلْيا .

﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ تكلمنا عليه في [الأعراف : 53] ﴿ الثرى ﴾ هو في اللغة التراب النديّ ، والمراد به هنا الأرض .

﴿ وَإِن تَجْهَرْ ﴾ مطابقة هذا الشرط لجوابه كأنه يقول : إن جهرت أو أخفيت فإنه يعلم ذلك ، لأنه يعلم السرّ وأخفى ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ السر الكلام الخفيّ ، والأخفى ما في النفس ، وقيل : السر ما في نفوس البشر ، والأخفى ما انفرد الله بعلمه .

﴿ الأسمآء الحسنى ﴾ تكلمنا عليها في [الأعراف : 179] .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ﴾ لفظ استفهام والمراد به التنبيه ﴿ إِذْ رَأَى ﴾ العامل في إذ حديث لأن فيه معنى الفعل ، وكان من قصة موسى أنه رحل بأهله من مدين يريد مصر ، فسار بالليل واحتاج إلى النار ، فقدح بزناده فلم ينقدح ، فرأى ناراً فقصد إليها فناداه الله ، وأرسله إلى فرعون ﴿ إني آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي رأيت ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ هو الجذوة من النار تكون على رأس العود والقصبة ونحوها ﴿ بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ يعني هدى إلى الطريق من دليل أو غيره .

﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ قيل : إنما أمر بخلع نعليه ، لأنهما كانتا من جلد حمار ميت ، فأمر بخلع النجاسة ، واختار ابن عطية أن يكون أمر بخلعهما ليتأدب ، ويعظم البقعة المباركة ويتواضع في مقام مناجاة الله وهذا أحسن ﴿ بالواد المقدس ﴾ أي المطهر ﴿ طُوًى ﴾ في معناه قولان : أحدهما أنه اسم للوادي ، وإعرابه على هذا بدل ، ويجوز تنوينه على أنه مكان ، وترك صرفه على أنه بقعة ، والثاني : أن معناه مرتين ، فإعرابه على هذا مصدر : أي قدس الوادي مرة بعد مرة ، أو نودي موسى مرة بعد مرة .

﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾ قيل : المعنى لتذكرني فيها ، وقيل : لأذكرك بها ، فالمصدر على الأول مضاف للمفعول ، وعلى الثاني مضاف للفاعل ، وقيل : معنى لذكري : عند ذكري كقوله : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 178] أي عند دلوك الشمس ، وهذا أرجح ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم استدل بالآية : على وجوب

الصلاة على الناسي إذا ذكرها .

﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ اضطرب الناس في معناه ، فقيل أخفيها بمعنى أظهرها ، وأخفيت هذا من الأضداد .

وقال ابن عطية : هذا قول مختل ، وذلك أن المعروف في اللغة أن يقال : أخفى بالألف من الإخفاء ، وخفي بغير ألف بمعنى أظهر ، فلو كان بمعنى الظهور لقال : أخفيها بفتح همزة المضارع ، وقد قرىء بذلك من الشاذ ، وقال الزمخشري : قد جاء في بعض اللغات أخفى بمعنى خفي : أي أظهر ، فلا يكون هذا القول مختلاً على هذه اللغة ، وقيل : أكاد بمعنى أريد ، فالمعنى أريد أخفائها وقيل : إن المعنى إن الساعة آتية أكاد ، وتم هنا الكلام بمعنى أكاد أنفذها لقربها ، ثم استأنف الإخبار فقال أخفيها ، وقيل : المعنى أكاد أخفيها عن نفسي فكيف عنكم ، وهذه الأقوال ضعيفة ، وإنما الصحيح أن المعنى أن الله أبهم وقت الساعة فلم يطلع عليه أحداً ، حتى أنه كاد أن يخفي وقوعها لإبهام وقتها ، ولكنه لم يخفها إذا أخبر بوقوعها ، فالأخفى على معناه المعروف في اللغة ، وكاد على معناها من مقاربة الشيء دون وقوعه وهذا المعنى هو اختيار المحققين ﴿ لتجزى ﴾ يتعلق بآتية ﴿ بِمَا

تسعى ﴾ أي بما تعمل .

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ الضمير للساعة : أي لا يصدنك عن الإيمان بها والاستعداد لها ، وقيل الضمير للصلاة وهو بعيد ، والخطاب لموسى عليه السلام ، وقيل : لمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك بعيد ﴿ فتردى ﴾ معناه تهلك ، والردى هو الهلاك وهذا الفعل منصوب في جواب : لا يصدّنك .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ إنما سأله ليريه عظيم ما يفعله في العصا من قلبها حية ، فمعنى السؤال تقرير أنها عصا ؛ فيتبين له الفرق بين حالها قبل أن يقلبها ، وبعد أن قلبها ، وقيل : إنما سأله ليؤنسه ويبسطه بالكلام .

﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ معناه أضرب بها الشجر لينتشر الورق للغنم ﴿ مَآرِبُ ﴾ أي حوائج .

﴿ حَيَّةٌ تسعى ﴾ أي تمشي ﴿ سِيرَتَهَا الأولى ﴾ يعني أنه لما أخذها عادت كما كانت أول مرة ، وانتصب ﴿ سِيرَتَهَا ﴾ على أنه ظرف أو مفعول بإسقاط حرف الجر .

﴿ واضمم يدكَ إلى جنَاحِكَ ﴾ الجناح هنا الجنب أي تحت الإبط ، وهو استعارة من جناح الطائر ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ روي أن يده خرجت وهي بيضاء كالشمس ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ يريد من غير برص ولا عاهة .

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ الكبرى ﴾ مفعول ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ ، وأن تكون صفة للآيات ويختلف المعنى على ذلك .

﴿ اشرح لِي صَدْرِي ﴾ إن قيل : لم قال ﴿ اشرح لِي ﴾ ﴿ وَيَسِّرْ لِي ﴾ ، مع أن المعنى يصح دون قوله ﴿ لي ﴾ ؟ فالجواب : أن ذلك تأكيد وتحقيق للرغبة ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ العقدة هي التي اعترته بالجمرة حين جعلها في فيه وهو صغير ، حين أراد فرعون أن يجرّبه ، وإنما قال : ﴿ عُقْدَةً ﴾ بالتنكير لأنه طلب حلّ بعضها ليفقهوا قوله ، ولم يطلب الفصاحة الكاملة .

﴿ وَزِيراً ﴾ أي معيناً ، وإعراب هارون بدل أو مفعول أول .

﴿ أَزْرِي ﴾ أي ظهري والمراد القوة ومنه : فآزره أي قوّاه .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ أي قد أعطيناك كل ما طلبت من الأشياء المذكورة .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ ﴾ يحتمل أن يكون وحي كلام بواسطة ملك ، أو وحي إلهام كقوله : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 67] ﴿ مَا يوحى ﴾ إيهام يراد به تعظيم الأمر .

﴿ أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم ﴾ الضمير الأول لموسى ، والثاني للتابوت أو لموسى ﴿ اليم ﴾ البحر ، والمراد به هنا النيل ، وكان فرعون قد ذُكر له أن هلاكه وخراب ملكه على يد غلام من بني إسرائيل ، فأمر بذبح كل ولد ذكر يولد لهم ، فأوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه في التابوت وتلقي التابوت في البحر ففعلت ذلك ، وكان فرعون في موضع يشرف على النيل ، فرأى التابوت فأمر به فسيق ، إليه وامرأته معه ففتحه فأشفقت عليه امرأته ، وطلب أن تتخذه ولداً فأباح لها ذلك ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ هو فرعون ﴿ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أي أحببتك ، وقيل : أراد محبة الناس فيه إذ كان لا يراه أحد إلا أحبه ، وقيل : أراد محبة امرأة فرعون ورحمتها له ، وقوله ﴿ مِّنِّي ﴾ : يحتمل أن يتعلق بقوله ﴿ وَأَلْقَيْتُ ﴾ ، أو يكون صفة لمحبة فيتعلق بمحذوف ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ أي تربي ويحسن إليك بمرأى مني وحفظ ، والعامل في ﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ محذوف .

﴿ إِذْ تمشي أُخْتُكَ ﴾ العامل في إذ تصنع أو ألقيت ، أو فعل مضمر تقديره ومننا عليك ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ كان لا يقبل ثدي امرأة فطلبوا له مرضعة ، فقالت أخته ذلك ليرد إلى أمه ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه ﴿

فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم ﴾ يعني الخوف من أن يطلب بثأر المقتول ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ أي اختبرناك اختبارا حتى ظهر منك أنك تصلح للنبوة والرسالة ، وقيل : خلصناك من محنة بعد محنة ، لأن خلصه من الذبح ثم من البحر ، ثم من القصاص بالقتل ، والفتون : يحتمل أن يكون مصدرا أو جمع فتنة ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ ﴾ يعني الأعوام العشرة التي استأجره فيها شعيب ﴿ جِئْتَ على قَدَرٍ ﴾ أي بميقات محدود قدره الله لنبوتك .

﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ عبارة عن الكرامة والتقريب أي استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني .

﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ أي لا تضعفا ولا تقصرا ، والوني هو الضعف عن الأمور والتقصير فيها .

﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾ أي يعمل بالشر .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ أي سرحهم ، وكانوا تحت يد فرعون وقومه ، وكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وتسريح بني إسرائيل ﴿ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ﴾ كان يعذبهم بذبح أبنائهم وتسخيرهم في خدمته وإذلالهم .

﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ ﴾ يعني قلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء ، وإنما وحدّهما وهما

آيتان ، لأنه أراد إقامة البرهان وهو معنى واحد ، ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ يحتمل أن يريد التحية أو السلامة .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ أفرد موسى بالنداء بعد جمعه مع أخيه ، لأنه الأصل في النبوة وأخوة تابع له .

﴿ الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ المعنى أن الله أعطى خلْقه كل شيء يحتاجون إليه ، فخلقه على هذا بمعنى المخلوقين ، وإعرابه مفعول أول ، وكل شيء مفعول ثان ، وقيل : المعنى أعطى كل شيء خلقته وصورته : أي أكمل ذلك وأتقنه ، فالخلق على هذا بمعنى الخلقة وإعرابه مفعول ثان ، وكل شيء مفعول أول والمعنى الأول أحسن ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ أي هدى خلقه إلى التوصل لما أعطاهم ، وعلمهم كيف ينتفعون به .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ يحتمل أن يكون سؤاله عن القرون الأولى محاجة ومناقضة لموسى : أي ما بالها لم تبعث كما يزعم موسى ؟ أو ما بالها لم تكن على دين موسى أو ما بالها كذبت ولم يصبها عذاب كما زعم موسى في قوله : ﴿ أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] ، ويحتمل أن يكون قال ذلك قطعاً للكلام الأول ، وروَغاناً عنه وحيرة لما رأى أنه مغلوب بالحجة ولذلك أضرب موسى عن الكلام في شأنها ، فقال ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ ، ثم عاد إلى وصف الله رجوعاً إلى الكلام الأول ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ .

(219/497)

﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ أي فراشاً ، وانظر كيف وصف موسى ربه تعالى بأوصاف لا يمكن فرعون أن يتصف بها ، لا على وجه الحقيقة ولا على وجه المجاز ، ولو قال له هو القادر أو الرازق وشبه ذلك لأمكن فرعون أن يغالطه ويدعي ذلك لنفسه ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي نهج لكم فيها طرقاً تمشون فيها ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ يحتمل أن يكون من كلام موسى على تقدير يقول الله عز وجل ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ ، ويحتمل أن يكون كلام موسى ثم عند قوله ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ ثم ابتدأ كلام الله .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ أي أصنافاً مختلفة .

﴿ كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ المعنى أنها تصلح لأن تؤكل وترعاها الأنعام ، وعبر عن ذلك بصيغة الأمر ؛ لأنه أذن في ذلك فكأنه أمر به ﴿ لأُوْلِي النهى ﴾ أي العقول واحدها نهية .

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ الضمير للأرض يريد خلقه آدم من تراب ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ يعني بالدفن عند الموت ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ يعني عند البعث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 3 صـ 14.10 ﴾

(220/497)

وقال النسفى :

﴿ طه ﴾

فخم الطاء لاستعلائها وأمال الهاء ، أبو عمرو ، وأمالهما حمزة وعلي وخلف وأبو بكر ، وفخمهما على الأصل غيرهم .

وما رُوي عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم أن معناه يا رجل فإن صح فظاهر وإلا فالحق ما هو المذكور في سوة البقرة ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان ﴾ إن جعلت ﴿ طه ﴾ تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام ، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ ، و﴿ القرءان ﴾ ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جواباً لها وهي قسم ﴿ لتشقى ﴾ لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا ، أو بقيام الليل فإنه رُوي أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً أي ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً ﴾ استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة أو حال ﴿ لّمَن يخشى ﴾ لمن يخاف الله أو لمن يئول أمره إلى الخشية .

﴿ تَنْزِيلاً ﴾ بدل من ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ إذا جعل حالاً ويجوز أن ينتصب ب "نزل" مضمراً أو على المدح أو ب ﴿ يخشى ﴾ مفعولاً أي أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ﴿ مّمَّنْ

خَلَقَ الأرض والسماوات ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ يتعلق ب ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ صلة له ﴿ العلى ﴾ جمع العليا تأنيث الأعلى ووصف السماوات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها ﴿ الرحمن ﴾ رفع على المدح أي هو الرحمن ﴿ عَلَى العرش ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿ استوى ﴾ استولى.

عن الزجاج، ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره.

(221/497)

وقيل: لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقال استوى فلان على العرش أي ملك وإن لم يقعد على السرير ألبتة وهذا كقولك "يد فلان مبسوطة" أي جواد وإن لم يكن له يد رأساً، والمذهب قول علي رضي الله عنه: الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة لأنه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان.

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خبر ومبتدأ ومعطوف ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي ذلك كله ملكه ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ ما تحت سبع الأراضين أو هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول ﴾ ترفع صوتك ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر ﴾ ما أسررته إلى

غيرك ﴿ وَأَخْفَى ﴾ منه وهو ما أخطرته ببالك أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها

﴿ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ﴾ أي هو واحد بذاته وإن افترقت عبارات صفاته رد لقولهم إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى والحسنى تأنيث الأحسن.

﴿ وَهَلْ ﴾ أي وقد ﴿ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ خبره قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى.

﴿ إِذْ رَأَى ﴾ ظرف لمضمر أي حين رأى ﴿ نَارًا ﴾ كان كيت وكيت أو مفعول به لاذكر.

(222/497)

رُوي أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً في الخروج إلى أمه وخرج بأهله فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فرأى عند ذلك نارا في زعمه وكان نوراً ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ أقيموا في مكانكم ﴿ إِنِّي آنَسْتُ ﴾ أبصرت ﴿ نَارًا ﴾ والإيناس رؤية شيء يؤنس به ﴿ لَعَلِّي ءاتيكم منها ﴾ بنى الأمر على الرجاء لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ نار مقتبسة في رأس عود أو فتيله ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ ذوي هدى أو قوماً يهدونني

الطريق .

ومعنى الاستعلاء في ﴿ عَلَى النار ﴾ أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها .

﴿ فَلَمَّا أتاها ﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها ، وكانت شجرة العناب أو العوسج ولم يجد عندها أحداً .

ورُوي أنه كلما طلبها بعدت عنه فإذا تركها قربت منه فثم ﴿ نُودِىَ ﴾ موسى ﴿ يَا موسى إِنّى ﴾ بكسر الهمزة أي نود فقيل ﴿ يَا موسى إِنّى ﴾ أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته ، وبالفتح : مكي وأبو عمرو أي نودي بأني ﴿ أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ ﴿ أَنَاْ ﴾ مبتدأ أو تأكيد أو فصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة .

رُوي أنه لما نودي يا موسى قال : مَن المتكلم ؟ فقال الله عز وجل : ﴿ أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ .

فعرف أنه كلام الله عز وجل بأنه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع أعضائه .

﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدس ، أو لأنها كانت من جلد حمار ميت غير مدبوغ ، أو لأن الحفوة تواضع لله ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين ، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي

﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس ﴾ المطهر أو المبارك ﴿ طُوًى ﴾ حيث كان منوّن : شامي وكوفي لأنه اسم علم للوادي وهو بدل منه ، وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة .

وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين .

﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ اصطفيتك للنبوة ، ﴿ وإنا اخترناك ﴾ حمزة ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ إليك للذي يوحى أو للوحي ، واللام يتعلق ب ﴿ استمع ﴾ أو ب ﴿ اخترتك ﴾ ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدنى ﴾ وحدني وأطعني ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها ، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء ، أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس ، أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ [النساء : 103] وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها وذا يصح بتقدير حذف المضاف أي لذكر صلاتي ، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها .

﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ لا محالة ﴿ أَكَادُ ﴾ أريد عن الأخفش وقيل صلة ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ قيل : هو من الأضداد أي أظهرها أو أسترها عن العباد فلا أقول هي آتية لإرادتي إخفاءها ، ولولا ما في الأخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها في كل وقت لما أخبرت به ﴿ لتجزى ﴾ متعلق ب ﴿ ءاتِيَةٌ ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ بسعيها من خير أو شر ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ فلا يصرفنك عن العمل للساعة أو عن إقامة الصلاة أو عن الإيمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به

أمته ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ لا يصدق بها ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ في مخالفة أمره ﴿ فتردى ﴾ فتهلك ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ "ما" مبتدأ و ﴿ تِلْكَ ﴾ خبره وهي بمعنى هذه و ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ حال عمل فيها معنى الإشارة أي قارة أو مأخوذة بيمينك.

أو ﴿ تِلْكَ ﴾ موصول صلته ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت ، أو للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية ، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة.

(224/497)

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِى ﴾ أخبط ورق الشجر على غنمي لتأكل ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ ﴿ وَلِيَّ ﴾ حفص جمع مأربة بالحركات الثلاث وهي الحاجة ﴿ أخرى ﴾ والقياس أخر.

وإنما قال ﴿ أخرى ﴾ رداً إلى الجماعة أو لنسق الآي وكذا ﴿ الكبرى ﴾ ولما ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل ، أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد في الإكرام.

والمآرب الآخر أنها كانت تماشيه وتحدثه وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً وتكونان شمعتين بالليل وتحمل زاده ويركزها فتثمر ثمرة

يشتهيها ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام .

والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكراً ، أو لأنها جواب سؤال آخر لأنه لما قال ﴿ هِىَ عَصَايَ ﴾ قيل له : ما تصنع بها فأخذ يعدد منافعها .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ اطرح عصاك لتفزع مما تتكىء عليه فلا تسكن إلا بنا وترى فيها كنه ما فيها من المآرب فتعتمد علينا في المطالب ﴿ فألقاها ﴾ فطرحها ﴿ فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ تمشي سريعاً قيل انقلبت ثعباناً يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآها تبتلع كل شيء خاف .

وإنما وصفت بالحية هنا وبالثعبان وهو العظيم من الحيات وبالجان وهو الدقيق في غيرها لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير ، وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها ، أو لأنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان .

وقيل : كان بين لحييها أربعون ذراعاً .

ولما ﴿ قَالَ ﴾ له ربه ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها ﴿ سَنُعِيدُهَا ﴾ سنردها ﴿ سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ تأنيث الأول ، والسيرة : الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية كانت أو مكتسبة وهي في الأصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة .

وانتصبت على الظرف أي سنعيدها في طريقتها الأولى أي في حال ما كانت عصا .

والمعنى نردها عصاً كما كانت ، وأرى ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها إذا انقلبت حية عند فرعون ، ثم نبه على آية أخرى فقال .

﴿ واضمم يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ إلى جنبك تحت العضد وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران والمعنى أدخلها تحت عضدك ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ برص ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ لنبوتك بيضاء وآية حالان معاً ومن غير سوء صلة بيضاء كقولك "ابيضت من غير سوء" وجاز أن ينتصب ﴿ ءايَةً ﴾ بفعل محذوف يتعلق به الأمر .

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بها تين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى ، أو نريك بهما الكبرى من آياتنا أو المعنى فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى .

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية ، ولما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي وعرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح .

﴿ قَالَ رَبّ اشرح لِي صَدْرِى ﴾ وسعه ليحتمل الوحي والمشاق ورديء الأخلاق من فرعون وجنده ﴿ وَيَسّرْ لِى أَمْرِى ﴾ وسهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون .

(226/497)

واشرح لي صدري آكد من اشرح صدري لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل لأنه يقول اشرح لي ويسر لي علم أن ثمة مشروحاً وميسراً ثم رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر ﴿ واحلل ﴾ افتح ﴿ عُقْدَةً مّن لّسَانِي ﴾ وكان في لسانه رتة للجمرة التي وضعها على لسانه في صباه ، وذلك أن موسى أخذ لحية فرعون ولطمه لطمة شديدة في صغره فأراد قتله فقالت آسية : أيها الملك إنه صغير لا يعقل فجعلت في طشت ناراً وفي طشت يواقيت ووضعتهما لدى موسى فقصد اليواقيت فأمال الملك يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه فصار لكنة منها .

وروي أن يده احترقت واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال : إلى أي رب

تدعوني ؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها .

و ﴿ مِّن لِّسَانِي ﴾ صفة لعقدة كأنه قيل : عقدة من عقد لساني ، وهذا يشعر بأنه لم تزل العقدة بكمالها وأكثرهم على ذهاب جميعها ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ عند تبليغ الرسالة .

﴿ واجعل لِّي وَزِيراً ﴾ ظهيراً اعتمد عليه من الوزر الثقل لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته ، أو من الوزر الملجأ لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجىء إليه في أموره ، أو معيناً من الموازرة وهي المعاونة ف ﴿ وَزِيراً ﴾ مفعول أول ل ﴿ اجعَلَ ﴾ والثاني ﴿ مِّنْ أَهْلِي ﴾ أو ﴿ لِي ﴾ أَوْ ﴿ وَزِيراً ﴾ مفعولاه وقوله ﴿ هارون ﴾ عطف بيان ل ﴿ وَزِيراً ﴾ وقوله ﴿ أَخِي ﴾ بدل أو عطف بيان آخر و ﴿ وَزِيراً ﴾ و ﴿ هارون ﴾ مفعولاه وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِى ﴾ قو به ظهري وقيل الأزر القوة ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ اجعله شريكي في النبوة والرسالة .

(227/497)

﴿ اشدد ﴾ و ﴿ أشركه ﴾ على حكاية النفس شامي على الجواب ، والباقون على الدعاء والسؤال ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ ﴾ نصلي لك وننزهك تسبيحاً ﴿ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ في الصلوات وخارجها ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ عالماً بأحوالنا فأجابه الله تعالى

حيث ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى ﴾ أعطيت مسؤولك فالسؤل الطلبة فعل بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز .

﴿ سولك ﴾ بلا همز : أبو عمرو .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا ﴾ أنعمنا ﴿ عَلَيْكَ مَرَّةً ﴾ كرة ﴿ أخرى ﴾ قبل هذه ثم فسرها فقال ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ مَا يوحى ﴾ إلهاماً أو مناماً حين ولدت وكان فرعون يقتل أمثالك . و﴿ إِذْ ﴾ ظرف ل ﴿ مَنَنَّا ﴾ ثم فسر ما يوحى بقوله ﴿ أَنِ اقذفيه ﴾ ألقيه ﴿ فِى التابوت ﴾ و﴿ أن ﴾ مفسرة لأن الوحي بمعنى القول ﴿ فاقذفيه فِى اليم ﴾ النيل ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ الجانب وسمي ساحلاً لأن الماء يسحله أي يقشره ، والصيغة أمر ليناسب ما تقدم ومعناه الإخبار أي يلقيه اليم بالساحل ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ يعني فرعون والضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام ، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تنافر النظم والمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل وإن كان هو التابوت لكن موسى في جوف التابوت .

رُوي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وقيرته ثم ألقته في اليم ، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا بصبي أصبح الناس وجهاً فأحبه فرعون حباً شديداً فذلك قوله ﴿

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنّى ﴾ يتعلق ﴿ مِنّي ﴾ ب ﴿ ألقيت ﴾ يعني إني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد إلا أحبه .

(228/497)

قال قتادة : كان في عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه ﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ معطوف على محذوف تقديره وألقيت عليك محبة لتحب ولتصنع ﴿ على عَيْنِى ﴾ أي لتربى بمرأى مني وأصله من صنع الفرس أي أحسن القيام عليه يعني أنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ﴿ وَلَتُصْنَعَ ﴾ بسكون اللام والجزم : يزيد على أنه أمر منه .

﴿ إِذْ تَمْشِى ﴾ بدل من ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا ﴾ لأن مشي أخته كان منة عليه ﴿ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ﴾ رُوي أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدي امرأة فقالت : هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيربيه وأرادت بذلك المرضعة الأم .

وتذكير الفعل للفظ ﴿ مِنْ ﴾ ، فقالوا : نعم فجاء بالأم فقبل ثديها وذلك قوله ﴿ فرجعناك ﴾ فرددناك ﴿ إلى أُمِّكَ ﴾ كما وعدناها بقولنا ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [القصص : 7] ﴿ كَى تَقَرَّ عَيْنُها ﴾ بلقائك ﴿ وَلاَ تَحْزَنَ ﴾ على فراقك ﴿ وَقَتَلْتَ

نَفْساً ﴾ قبطياً كافراً ﴿ فنجيناك مِنَ الغم ﴾ من القود .

قيل الغم : القتل بلغة قريش وقيل : اغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغفر لى ﴾ [القصص : 16] ونجاه من فرعون بأن ذهب به من مصر إلى مدين ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ ابتليناك ابتلاء بإيقاعك في المحن وتخليصك منها ، والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة أي فتناك ضروباً من الفتن ، والفتنة المحنة وكل ما يبتلي الله به عباده فتنة .

﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ هي بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر .

قال وهب : لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة ، عشر منها مهر لصفوراء ، وأقام عنده ثمان عشرة سنة بعدها حتى ولد له أولاد .

(229/497)

﴿ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ يا موسى ﴾ أي موعد ومقدار للرسالة وهو أربعون سنة ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ اخترتك واصطفيتك لوحي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ومحبتي .

قال الزجاج : اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم .

﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِئَايَاتِى ﴾ بمعجزاتي ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ تفترا من الونى وهو الفتور والتقصير ﴿ فِى ذِكْرِى ﴾ أي اتخذا ذكري جناحاً تطيران به أو أريد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها ﴿ اذهبا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ كرر لأن الأول مطلق والثاني مقيد ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ جاوز الحد بإدعائه الربوبية ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيّناً ﴾ الطفا له في القول لما له من حق تربية موسى ، أو كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة .

أو عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع عنه إلا بالموت ، أو هو قوله ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبّكَ فتخشى ﴾ [النازعات : 19] أي يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة .

وإنما قال ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ مع علمه أنه لا يتذكر لأن الترجي لهما ، أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله .

وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة .

وقيل : معناه لعله يتذكر متذكر أو يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس .

وقيل : ﴿ لَعَلَّ ﴾ من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر .

وقيل : تذكر فرعون وخشي وأراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لا يقطع أمراً دونه .

وتليت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال : هذا رفقك بمن يقول أنا إله فكيف بمن قال أنت الإله ؟ وهذا رفقك بمن قال أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال سبحان ربي الأعلى .

(230/497)

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ يعجل علينا بالعقوبة ومنه الفارط يقال فرط عليه أي عجل ﴿ أَوْ أَنْ يطغى ﴾ يجاوز الحد في الإساءة إلينا ﴿ قَالَ لَا تخافا إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ أي حافظكما وناصركما ﴿ أَسْمَعُ ﴾ أقوالكما ﴿ وأرى ﴾ أفعالكما .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ أي فرعون ﴿ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾ إليك ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل ﴾ أي أطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق ﴿ وَلاَ تُعَذّبْهُمْ ﴾ بتكليف المشاق ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِئَايَةٍ مّن رَّبّكَ ﴾ بحجة على صدق ما ادعيناه ، وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى وهي ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ ﴾ مجرى البيان والتفسير والتفصيل لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها وهي المجيء بالآي فقال فرعون : وما هي ؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ أي سلم

من العذاب من أسلم وليس بتحية .

وقيل : وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين .

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب ﴾ في الدنيا والعقبى ﴿ على مَن كَذَّبَ ﴾ بالرسل ﴿ وتولى ﴾ أعرض عن الإيمان وهي أرجى آي القرآن لأنه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شيء ، فأتياه وأديا الرسالة وقالا له ما أمرا به .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ خاطبهما ثم نادى أحدهما لأن موسى هو الأصل في النبوة وهارون تابعه ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ﴾ ﴿ خَلَقَهُ ﴾ أول مفعولي ﴿ أعطى ﴾ أي أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، أو ثانيهما أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذا الأنف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها ، وقرأ نصير ﴿ خَلَقَهُ ﴾ صفة للمضاف أو للمضاف إليه أي أعطى كل شيء مخلوق عطاء ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة في الدنيا والسعادة في العقبى .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ فما حال الأمم الحالية والرمم البالية ، سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد ﴿ قَالَ ﴾ موسى مجيباً ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبّى ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ فِى كِتَاب ﴾ أي اللوح خبر ثانٍ أي هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبّى ﴾ أي لا يخطىء شيئاً يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له أي لا يخطىء في سعادة الناس وشقاوتهم ﴿ وَلاَ يَنسَى ﴾ ثوابهم وعقابهم .

وقيل : لا ينسى ما علم فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه .

﴿ الذى ﴾ مرفوع صفة ل ﴿ رَبّى ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ كوفي وغيرهم ﴿ مهادا ﴾ وهما لغتان لما يبسط ويفرش ﴿ وَسَلَكَ ﴾ أي جعل ﴿ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ طرقاً ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ أي مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء .

نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للافتنان .

وقيل : تم كلام موسى ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ وقيل : هذا كلام موسى أي فأخرجنا نحن بالحراثة والغرس ﴿ أزواجا ﴾ أصنافاً ﴿ مِّن نبات ﴾ هو مصدر سمي به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع ﴿ شتى ﴾ صفة للأزواج أو للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى أي إنها مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها للناس وبعضها للبهائم ، ومن نعمة الله تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجاتنا مما لا نقدر على أكله قائلين ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ حال من الضمير في ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ في الذي ذكرت ﴿ لآيَاتٍ ﴾ لدلالات ﴿ لأُوْلِي النهى ﴾ لذوي العقول واحدها نهية لأنها تنهى عن المحظور أو ينتهى إليها في الأمور ﴿ مِنْهَا ﴾ من الأرض ﴿ خلقناكم ﴾ أي أباكم آدم عليه السلام .

وقيل : يعجن كل نطفة بشيء من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معاً أو لأن النطفة من الأغذية وهي من الأرض ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ إذا متم فدفنتم ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ عند البعث ﴿ تَارَةً أخرى ﴾ مرة أخرى والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر ، عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها ، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا ، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم

وعلوفات بهائمهم وهي أصلهم الذي منه تفرعوا ، وأمهم التي منها ولدوا وهي كفانهم إذا ماتوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 56.48 ﴾

(233/497)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طه ﴾

فخمها قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل ، وفخم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون . وهما من أسماء الحروف . وقيل معناه يا رجل على لغة عك ، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار والاستشهاد بقوله :

إِنَّ السفاهَةَ طَاهَا في خَلاَئِقِكُمْ . . . لاَ قَدَّسَ اللهُ أَخْلاَقَ المَلاَعِين

ضعيف لجواز أن يكون قسماً كقوله حم لا ينصرون ، وقرىء ﴿ طه ﴾ على أنه أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الأرض بقدميه ، فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه وأن أصله طأ فقلبت همزته هاء أو قلبت في يطأ ألفاً كقوله : لا هناك المرتع . ثم بني

عليه الأمر وضم إليه هاء السكت وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل ﴿ طه ﴾ طأها والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية الأرض ، لكن يرد ذلك كتابتهما على صورة الحرف وكذا التفسير بيا رجل أو اكتفى بشطري الكلمتين وعبر عنهما باسمهما .

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى ﴾ خبر ﴿ طه ﴾ إن جعلته مبتدأ على أنه مؤول بالسورة ، أو ﴿ القرءان ﴾ والقرآن فيه واقع موقع العائد وجوابه إن جعلته مقسماً به ومنادى له إن جعلته نداء ، واستئناف إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساق . والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقى من رائض المهر ، وسيد القوم أشقاهم . ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد . وقيل رد وتكذيب للكفرة ، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أنزل عليك لتشقى به .

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ لكن تذكيراً ، وانتصابها على الاستثناء المنقطع ، ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل ﴿ لتشقى ﴾ لاختلاف الجنسين ولا مفعولاً له لـ ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ ، فإن الفعل الواحد

لا يتعدى إلى علتين. وقيل هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن ﴿ لتشقى ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿ لِّمَن يخشى ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة تتأثر بالإِنذار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به.

﴿ تَنْزِيلاً ﴾ نصب بإضمار فعله أو ب ﴿ يخشى ﴾، أو على المدح أو البدل من ﴿ تذكرة ﴾ إن جعل حالاً، وإن جعل مفعولاً له لفظاً أو معنى فلا لأن الشيء لا يعلل بنفسه ولا بنوعه. ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ مع ما بعده إلى قوله ﴿ لَهُ الاسماء الحسنى ﴾ تفخيم لشأن المنزل بفرط تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى، وهو جمع العليا تأنيث الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام والتقادير، وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقب ذلك بإحاطة علمه تعالى بجليات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهرك فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه ، وهو ضمير النفس . وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيما ليس لإِعلام الله بل لتصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجؤار ، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بين أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال :

﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ ومن في ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض ﴾ صلة ل ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ أو صفة ﴿ لَهُ ﴾ ، والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن ، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإِكرام والتنبيه على أنه واجب الإِيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام من هذا شأنه ، ويجوز أن يكون أنزلناه حكاية كلام جبريل والملائكة النازلين معه . وقرىء ﴿ الرحمن ﴾ على الجر صفة لمن خلق فيكون ﴿ عَلَى العرش استوى ﴾ خبر محذوف ، وكذا إن رفع ﴿ الرحمن ﴾ على المدح دون الإِبتداء ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ، والثرى الطبقة الترابية من الأرض وهي آخر طبقاتها ، و﴿ الحسنى ﴾ تأنيث الأحسن ، وفضل

أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ قفى تمهيد نبوته صلى الله عليه وسلم بقصة موسى ليأتم به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل .

(236/497)

﴿ إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ ظرف لل ﴿ حَدِيثُ ﴾ لأنه حدث أو مفعول لأذكر . قيل إنه استأذن شعيباً عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمه ، وخرج بأهله فلما وافى وادي طوى وفيه الطور ولد له ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة ، وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته إذا رأى من جانب الطور ناراً . ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا ﴾ أقيموا مكانكم . وقرأ حمزة "لأهله امكثوا ها هنا" ، وفي "القصص" بضم الهاء في الوصل والباقون بكسرها . ﴿ إِنّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ أبصرتها إبصاراً لا شبهة فيه ، وقيل الإيناس إبصار ما يؤنس به . ﴿ لَّعَلّي آتِيكُمْ مّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ بشعلة من النار وقيل جمرة . ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين ، فإن أفكار

الأبرار مائلة إليها في كل ما يعن لهم. ولما كان حصولهما مترتباً بني الأمر فيهما على الرجاء بخلاف الإيناس، فإنه كان محققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه، ومعنى الاستعلاء في ﴿ عَلَى النار ﴾ أن أهلها مشرفون عليها أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في: مررت بزيد إنه لصوق بمكان يقرب منه.

﴿ فَلَمَّا أتاها ﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء. ﴿ نُودِيَ يا موسى ﴾.

(237/497)

﴿ إِنّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ فتحه ابن كثير وأبو عمرو أي بأني وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكرير الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: من المتكلم قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة. ﴿ فاخلع نَعْلَيْكَ ﴾ أمره بذلك لأن الحفوة تواضع وأدب ولذلك طاف السلف حافين. وقيل لنجاسة نعليه فإنهما كانتا من جلد

حمار غير مدبوغ. وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال. ﴿ إِنَّكَ بالواد المقدس ﴾ تعليل للأمر باحترام البقعة والمقدس يحتمل المعنيين. ﴿ طُوًى ﴾ عطف بيان للوادي ونونه ابن عامر والكوفيون بتأويل المكان. وقيل هو كثني من الطي مصدر ل ﴿ نُودِىَ ﴾ أو ﴿ المقدس ﴾ أي: نودي نداءين أو قدس مرتين.

﴿ وَأَنَا اخترتك ﴾ اصطفيتك للنبوة وقرأ حمزة "وإنا اخترناك". ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ للذي يوحى إليك، أو للوحي واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

﴿ إِنَّنِى أَنَا الله لا إله إِلا أَنَاْ فاعبدنى ﴾ بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتها، وهو تذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره.

(238/497)

وقيل ﴿ لِذِكْرِى ﴾ لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالثناء، أو ﴿ لِذِكْرِى ﴾ خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتي. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال " من نام عن صلاة

أو نسيها فليقضها إذا ذكرها إن الله تعالى يقول أقم الصلاة لذكري " ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ كائنة لا محالة. ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الأخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أخبرت به، أو أكاد أظهرها من أخفاه إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح من خفاه إذا أظهره. ﴿ لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ متعلق ب ﴿ ءَاتِيَةٌ ﴾ أو ب ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ على المعنى الأخير.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ نهي الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيه أن يصد عنها كقولهم: لا أرينك ها هنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خليت بحالها لاختارها ولم يعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿ واتبع هَوَاهُ ﴾ ميل نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدجة فقصر نظره عن غيرها. ﴿ فتردى ﴾ فتهلك بالانصداد بصده.

﴿ وَمَا تِلْكَ ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يريه فيها من العجائب. ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلة ﴿ تِلْكَ ﴾. ﴿ يا موسى ﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ وقرئ "عصي" على لغة هذيل . ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع . ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي ، وقرئ ﴿ أهش ﴾ وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته ، وقرئ بالسين من الهس وهو زجر الغنم أي أنحى عليها زاجراً لها .

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ حاجات أخر مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته ، وعرض الزندين على شعبيتها وألقى عليها الكساء واستظل به ، وإذا قصر الرشاء وصله بها ، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها ، وكأنه صلى الله عليه وسلم فهم أن المقصود من السؤال أن يذكر حقيقتها وما يرى من منافعها ، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة مثل أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع ، وتصيران دلواً عند الاستقاء ، وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو ، وينبع الماء بركزها ، وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها ، على أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها ، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجملاً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى فألقاها فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء

بغلظ العصا ثم تورمت وعظمت فلذلك سماها جاناً تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى، وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجان ولذلك قال ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ . ﴾

(240/497)

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها. ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الخافض أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقتها أو على تقدير فعلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ إلى جنبك تحت العضد يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر، استعارة من جناحي الطائر سميا بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران.

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ كأنها مشعة. ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ من غير عاهة وقبح، كني به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿ ءَايَةً أخرى ﴾ معجزة

ثانية وهي حال من ضمير ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ أو من ضميرها ، أو مفعول بإضمار خذ أو دونك .

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ متعلق بهذا المضمر أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللنا بها ، أو فعلنا ذلك ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ و﴿ الكبرى ﴾ صفة ﴿ ءاياتنا ﴾ أو مفعول "نريك" و﴿ مِنْ ءاياتنا ﴾ حال منها .

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ بهاتين الآيتين وادعه إلى العبادة . ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ عصى وتكبر .

﴿ قَالَ رَبِّ اشرح لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ لما أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه ، والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع ، وفائدة لي إبهام المشروح والميسر أولاً ، ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة .

﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لّسَانِى يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ فإنما يحسن التبليغ من البليغ وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه ، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ونتفها ، فغضب وأمر بقتله

فقالت آسية : إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت ، فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه . ولعل تبييض يده كان لذلك . وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ ، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه . واختلف في زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ ومن لم يقل احتج بقوله ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنّى لِسَاناً ﴾ وقوله ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها وجعل يفقهوا جواب الأمر ، ومن لساني يحتمل أن يكون صفة عقدة وأن يكون صلة احلل .

﴿ واجعل لّى وَزِيراً مّنْ أَهْلِى هارون أَخِى ﴾ يعينني على ما كلفتني به ، واشتقاق الوزير إما من الوزير لأنه يحمل الثقل عن أميره ، أو من الوزر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجىء إليه في أموره ، ومنه الموازرة وقيل أصله أزير من الأزر بمعنى القوة ، فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر . ومفعولاً اجعل وزيراً ، و ﴿ هارون ﴾ قدم ثانيهما للعناية به و ﴿ لِى ﴾ صلة أو حال أو ﴿ لّى وَزِيراً ﴾ و ﴿ هارون ﴾ عطف بيان للوزير ، أو ﴿ وَزِيراً مّنْ أَهْلِى ﴾ و ﴿ لِى ﴾ تبيين كقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ . و ﴿ أَخِى ﴾ على الوجوه بدل من ﴿ هارون ﴾ أو مبتدأ خبره .

﴿ اشدد بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ على لفظ الأمر وقرأهما ابن عامر بلفظ الخبر

على أنهما جواب الأمر .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ فإن التعاون يهيج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده .

(242/497)

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ عالماً بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا ، وأن هرون نعم المعين لي فيما أمرتني به .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ أي مسؤولك ، فعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمِّكَ ﴾ بإلهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو ملك لا على وجه النبوة كما أوحي إلى مريم .

﴿ مَا يوحى ﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي ، أو مما ينبغي أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به .

﴿ أَنِ اقذفيه فِى التابوت ﴾ بأن اقذفيه ، أو أي اقذفيه لأن الوحي بمعنى القول . ﴾

فاقذفيه فِى اليم ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ وكذلك الرمي كقوله :

(243/497)

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بِالحُسْنِ يَافِعاً . . . ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة به ، وجعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمره بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر ، والأولى أن تجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم ، فالمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل وإن كان التابوت بالذات فموسى بالعرض . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ جواب ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ وتكرير ﴿ عَدُوٌّ ﴾ للمبالغة ، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع . قيل إنها جعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه ثم قيرته وألقته في اليم ، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر فدفعه الماء إليه فأداه إلى بركة في البستان ، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته آسية بنت مزاحم ، فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبي أصبح الناس وجهاً فأحبه حباً شديداً كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مّنّى ﴾ أي محبة كائنة مني قد زرعتها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك فلذلك أحبك فرعون ، ويجوز أن يتعلق ﴿ مِنّي ﴾ ب ﴿ ألقيت ﴾ أي

أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب ، وظاهر اللفظ أن اليم ألقاه بساحله وهو شاطئه لأن الماء يسحله فالتقط منه ، لكن لا يبعد أن يؤول الساحل بجنب فوهة نهره . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ لتربى ويحسن إليك وأنا راعيك وراقبك ، والعطف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك ، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك . وقرئ ﴿ وَلِتُصْنَعْ ﴾ بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر ﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ بالنصب وفتح التاء أي وليكن عملك على عين مني لئلا تخالف به عن أمري .

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ ظرف ل ﴿ ألقيت ﴾ أو ﴿ لتصنع ﴾ أو بدل من ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا ﴾ على أن المراد بها وقت متسع . ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك لأنه كان لا يقبل ثدي المراضع ، فجاءت أخته مريم متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها فقالت ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ فجاءت بأمه فقبل ثديها . ﴿ فرجعناك إلى أُمِّكَ ﴾ وفاء بقولنا ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بلقائك . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ هي بفراقك أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها . ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي . ﴿ فنجيناك مِنَ الغم ﴾ غم قتله خوفاً من عقاب الله

تعالى واقتصاص فرعون بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين . ﴿ وفتناك فُتُوناً ﴾ وابتليناك ابتلاء ، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز وبدور في حجزة وبدرة ، فخلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألّاف ، والمشي راجلاً على حذر وفقد الزاد وأجر نفسه إلى غير ذلك أوله ولما سبق ذكره . ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفى الأجلين ، ومدين على ثمان مراحل من مصر . ﴿ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ ﴾ قدرته لأن أكلمك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر ، أو على مقدار من السن يوحى فيه إلى الأنبياء . ﴿ يا موسى ﴾ كرره عقيب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك .

﴿ واصطنعتك لِنَفْسِى ﴾ واصطفيتك لمحبتي مثله فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه لنفسه .

﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بِأاياتى ﴾ بمعجزاتي . ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ ولا تفترا ولا تقصرا ، وقرىء ﴿ تِنيَا ﴾ بكسر التاء . ﴿ فِى ذِكْرِي ﴾ لا تنسياني حيثما تقلبتما . وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إليّ .

﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده وههنا إياه وأخاه فلا تكرير. قيل أوحى إلى هرون أن يتلقى موسى. وقيل سمع بمقبله فاستقبله.

﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ مثل ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ فإنه دعوة في صورة عرض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما؛ أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة. وقيل عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا يزول إلا بالموت. ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ متعلق ب ﴿ اذهبا ﴾ أو "قولا" أي: باشرا الأمر على رجائكما. وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما، فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف، والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى.

﴿ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة، من فرط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فرط يسبق الخيل. وقرىء ﴿ يَفْرُطَ ﴾ من أفرطته إذا حملته على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جني على المعالجة بالعقاب، و ﴿ يَفْرُطَ ﴾ من

الإفراط في الأذية. ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ أو أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ بالحفظ والنصر. ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأحدث في كل ما يصرف شره عنكما ويوجب نصرتي لكما، ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تم الحفظ.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل ﴾ أطلقهم. ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام، وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدريج في الدعوة. ﴿ قَدْ جئناك بئَايَةٍ مّن رَّبّكَ ﴾ جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وحد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها، وكذلك قوله: ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيّنَةٍ ﴾ ﴿ فائت بِئَايَةٍ ﴾ ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ

بِشَىء مُّبِينٍ ﴾ ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ أن عذاب المنزلين على المكذبين للرسل، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ أن بعد ما أتياه وقالا له ما أمرا به، ولعله حذف لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة، وإنما خاطب الإثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهرون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه ويدل عليه قوله ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ. ﴾

(247/497)

﴿ قَالَ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَيءٍ ﴾ من الأنواع ﴿ خَلْقَهُ ﴾ صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بيانه. وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً.

وقرئ ﴿ خَلَقَهُ ﴾ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم على الإِطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بهت الذي كفر وأفحم عن الدخل عليه فلم ير إِلاَّ صَرْفَ الكلام عنه.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة.

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو وإنما أنا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿ فِى كتاب ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة ويؤيده. ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ والضلال أن تخطئ الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات، ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها وتخصيصه ابعاضها بالصور والخواص المختلفة، بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها، والقرون الخالية مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمه بهم وبأجزائهم وأحوالهم فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى.

﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ مرفوع صفة ل ﴿ رَبِّى ﴾ أو خبر لمحذوف أو منصوب على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي "الزخرف" ﴿ مهداً ﴾ أي كالمهد تتمدونها ، وهو مصدر سمي به ، والباقون مهاداً وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد ولم يختلفوا في الذي في "النبأ" . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ سُبُلاً ﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها . ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً ﴾ مطراً . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى ، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته ، وعلى هذا نظائره كقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السماء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ الآية . ﴿ أزواجا ﴾ أصنافاً سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض . ﴿ مّن نبات ﴾ بيان أو صفة لأزواجاً وكذلك : ﴿ شتى ﴾ ويحتمل أن يكون صفة ل ﴿ نَبَاتُ ﴾ فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع ، وهو جمع شتيت كمريض ومرضى أي متفرقات في الصور والأغراض

والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال :

﴿ كُلُوا وارعوا أنعامكم ﴾ وهو حال من ضمير ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ على إرادة القول أي أخرجنا أصناف النبات قائلين ﴿ كُلُوا وارعوا ﴾ ، والمعنى معديهما لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لأيات لأُوْلِى النهى ﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح جمع نهية .

(249/497)

﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم . ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء . ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 56.38 ﴾

(250/497)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة طه

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية وعدد كلماتها ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمة وعدد حروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً وعن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأوّل وأعطيت طه ويس والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتيح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة" .

﴿ بسم الله ﴾ الملك الحق المبين ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ نعمه على خلقه أجمعين ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بجنته عباده المؤمنين وقرأ

﴿ طه ﴾ شعبة وحمزة والكسائي بإمالة الطاء والهاء ووافقهم ورش وأبو عمرو على إمالة الهاء محضة ولم يمل ورش محضة إلا هذه الهاء وقد تقدّم الكلام في الحروف المقطعة في أوّل سورة البقرة وفي هذه ههنا قولان : الصحيح أنها من تلك وقيل : إنها كلمة مفيدة أما على القول الأوّل فقد تقدّم الكلام فيه في أوّل سورة البقرة والذي زادوه هنا أمور :

أحدها : قال الثعالبي : الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار .

ثانيها : يحكى عن جعفر الصادق الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم .

ثالثها : قال سعيد بن جبير : هذا افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي .

رابعها : مطمع الشفاعة للأمة وهادي الخلق إلى الملة .

خامسها : الطاء من الطهارة والهاء من الهداية فكأنه قيل يا طاهراً من الذنوب يا هادياً إلى علام الغيوب .

سادسها : الطاء طول القراءة والهاء هيبتهم في قلوب الكفار قال تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ (آل عمران ،)

(251/497)

سابعها : الطاء بتسعة في الحساب والهاء بخمسة تكون أربعة عشر ومعناها يا أيها البدر

وأمّا على القول الثاني فقيل : معنى طه يا رجل وهو يروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي ، ثم قال سعيد بن جبير بالنبطية ، وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبي بلغة عك وهو بتشديد الكاف ابن عدنان أخو معد ، وحكى الكلبي أنك لو قلت في عك يا رجل لم تجب حتى تقول طه ، وقال السدّي : معناه يا فلان وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فؤمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً وقال الكلبيّ : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان

يصلي الليل كله فأنزل الله عليه هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى:

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ أي: لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل أي: خفف عن نفسك فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فإنّ لها عليك حقاً ما أنزلناه لتهلك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة وروى أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل: لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك أي: لتتعنى وتتعب وما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك فنزلت، وأصل الشقاء في اللغة العناء وقيل: المعنى أنك لا تلام على كفر قومك، كقوله تعالى: ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ (الغاشية،)

وقوله تعالى: ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (الأنعام،)

(252/497)

أي: أنك لا تؤاخذ بذنبهم وقيل: إنّ هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت مقهوراً تحت ذل الأعداء فكأنه تعالى قال لا تظنّ أنك تبقى أبداً على هذه الحالة بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فإنا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقياً

فيما بينهم بل لتصير معظماً مكرّماً . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة وأبو عمرو بين بين وورش بين اللفظين والفتح عنده ضعيف جدّاً ، وكذلك جميع رؤوس آي هذه السورة من ذوات الياء وقوله تعالى:

﴿ إلا تذكرة ﴾ استثناء منقطع أي : لكن أنزلناه تذكرة . قال الزمخشري : فإن قلت هل يجوز أن يكون تذكرة بدلاً من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى لكن ﴿ لمن يخشى ﴾ أي : لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار أو لمن علم الله تعالى منه أن يخشى بالتخويف منه ، فإنه المنتفع به وقوله تعالى:

﴿ تنزيلاً ﴾ بدل من اللفظ بفعله الناصب له ﴿ ممن خلق الأرض ﴾ أي : من الله الذي خلق الأرض ﴿ والسموات العلى ﴾ أي : العالية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمها غير الله تعالى والعلي جمع علياً كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر وقدّم الأرض على السموات لأنها أقرب إلى الجنس وأظهر عنده من السموات ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش وأجرى منه الأحكام والتقادير وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال تعالى:

﴿ الرحمن على العرش ﴾ وهو سرير الملك ﴿ استوى ﴾ أي : استواء يليق به فإنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان وإذا خلق الله الخلق لا يحتاج إلى مكان فهو بالصفة

التي كان لم يزل عليها وتقدّم الكلام على ذلك في سورة الأعراف مستوفي فراجعه ، ثم استدل سبحانه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى:

﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ فهو مالك لما في السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما في الأرض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى وهو التراب الندي والمراد الأرضون السبع لأنها تحته وقال ابن عباس : إنّ الأرضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكر الله تعالى في قصة لقمان ﴿ فتكن في صخرة ﴾ (لقمان ،)

والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى لا يعلمه إلا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله تعالى البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور فإذا وقعت في جوفه يبست .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة وورش بين اللفظين وكذا جميع رؤوس أي السورة من ذوات الراء . ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقب ذلك

بإحاطة علمه تعالى بجليات الأمور وخفياتها على حدّ سواء فقال تعالى:

﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ أي: تعلن بالقول في ذكر أو دعاء فالله تعالى غنيّ عن الجهر به ﴿ فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ قال الحسن: في السر ما أسرّ الرجل إلى غيره وأخفى من ذلك ما أسرّ في نفسه، وعن ابن عباس السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله تعالى في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر غداً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس السر ما أسر ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفى عليه مما هو فاعله قبل أن يعلمه، وقال مجاهد السر العمل الذي يسر من الناس وأخفى الوسوسة، وقيل: السرّ هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه، وقال زيد بن أسلم: يعلم أسرار العباد وأخفى سره من عباده فلا يعلمه. أحد ولما ذكر صفاته وحّد نفسه فقال تعالى:

﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ التسعة والتسعون الوارد بها الحديث والحسنى تأنيث الأحسن وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

روي أنّ لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها إلا هو وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة

وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة والأنبياء وأما الألف الرابعة فالمؤمنون يعلمونها فثلاثمائة في

التوراة وثلاثمائة في الإنجيل وثلاثمائة في الزبور ومائة في القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة

وواحد مكنون من أحصاها دخل الجنة وذكر في لا إله إلا الله فضائل كثيرة أذكر بعضها

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا ومحبينا من أهلها .

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين

والمؤمنات" .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تعالى خلق ملكاً من الملائكة قبل أن يخلق

السموات والأرض وهو يقول أشهد أن لا إله إلا الله ماداً بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها

ولا يتمها فإذا أتمها أمر إسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيماً لله" .

وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم "مازلت أشفع إلى ربي ويشفعني وأشفع إليه ويشفعني

حتى قلت يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله فقال يا محمد ليست لك ولا لأحد وعزتي

وجلالي لا أدع أحداً في النار قال لا إله إلا الله" .

وقال سفيان الثوري : سألت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحاء حلمه والميم ملكه

والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله عز وجل بحلمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي لا أعذب بالنار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(255/497)

روي عن موسى عليه السلام أنه قال : يا رب علمني شيئاً أذكرك به قال : قل لا إله إلا الله ، قال : إنما أردت شيئاً تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع ومن فوقهنّ في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهنّ لا إله إلا الله ، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ (إبراهيم ،)

أنها لا إله إلا الله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ (فاطر ،)

لا إله إلا الله ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ (العصر ،)

لا إله إلا الله ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ (سبأ ،)

لا إله إلا الله ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ (الصافات ،)

عن قول لا إله إلا الله ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ (الصافات ،)

هو لا إله إلا الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ (إبراهيم ،)

هو لا إله إلا الله ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ (إبراهيم ،)

عن قول لا إله إلا الله .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قال في السوق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتاً في الجنة" قال الرازي وفي النكت ينبغي لأهل لا إله إلا الله أن يخلصوا في أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله التصديق والتعظيم والجلالة والحرمة فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الجلالة فهو مراء ومن ليس له الحرمة فهو فاجر وكذاب .

وحكي أنّ بشراً الحافي رأى كاغداً فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك فرأى في النوم كأنه نودي يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة .

(256/497)

وذكر أنّ صياداً كان يصيد السمك وكانت ابنته تطرحها في الماء وتقول إنما وقعت في الشبكة لغفلتها إلهنا تلك الصبية كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة الشيطان وأخرجنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك

وخلصنا منه وألقنا في بحار رحمتك مرّة أخرى .

وعن محمد بن كعب القرظي قال : قال موسى : إلهي أي : خلقك أكرم عليك ؟ قال : الذي لا يزال لسانه رطباً من ذكري ، قال : فأي خلقك أعظم ؟ قال : الذي يلتمس إلى علمه علم غيره ، قال : فأيّ خلقك أعدل ؟ قال : الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس ، قال : وأيّ خلقك أعظم جرماً ؟ قال : الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قسمت له . إلهنا إنا لا نتهمك فإنّا نعلم أنّ كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما لا تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أفعالنا وأعمالنا .

وعن الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، ثم يقال : أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ ثم ينادي منادٍ أين : الحامدون الله كثيراً على كل حال ؟ ثم يكون الحساب على من بقي . إلهنا نحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار طاقتنا ومنتهى قدرتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، ولما عظّم الله تعالى حال القرآن وحال رسوله صلى الله عليه وسلم بما كلفه أتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الأنبياء تقوية لقلبه في الإبلاغ كقوله تعالى : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (هود ،)

وبدأ بموسى عليه السلام لأنّ فتنته كانت أعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويصبر على حمل المكاره ، فقال تعالى:

(257/497)

﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ وهذا محتمل لأن يكون هذا أوّل ما أخبر به من أمر موسى فقال : وهل أتاك أي : لم يأتك إلى الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ومحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال : أليس قد أتاك ؟ وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وإن كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في نفسه وهذه الصورة أبلغ في ذلك كقولك لصاحبك هل بلغك عني كذا ؟ فيتطلع السامع إلى معرفة ما يومئ إليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من قبل الله تعالى ، وقيل : إن هل بمعنى قد وجرى على ذلك الجلال المحلي تبعاً للبغوي وقوله تعالى:

﴿ إذ رأى ﴾ يجوز أن يكون منصوباً بالحديث وهو الظاهر ويجوز أن ينصب باذكر مقدراً أي : واذكر إذ رأى ﴿ ناراً ﴾ وذلك أنّ موسى عليه السلام استأذن شعيباً عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخيه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام

شتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل في شهرها لا تدري ليلاً تضع أو نهاراً فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد .

قيل : كانت ليلة جمعة وأخذت امرأته في الطلق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وجعل يقدح زنده فلا يوري فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ أي : أقيموا في مكانكم والخطاب لامرأته وولدها والخادم ويجوز أن يكون للمرأة وحدها خرج على ظاهر لفظ الأهل فإنّ الأهل يقع على الجمع وأيضاً قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيماً وقرأ حمزة بضم الهاء في الوصل والباقون بالكسر ﴿ إني آنست ﴾ أي : أبصرت ﴿ ناراً ﴾ والإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشيء والإنس لظهورهم كما قيل الجنّ لاستتارهم .

وقيل : إبصار ما يؤنس به ولما وجد منه الإيناس وكان متيقناً حققه لهم بكلمة إني ليوطن أنفسهم . ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع فقال : ﴿ لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ أي : شعلة في رأس فتيلة أو عود أو

نحو ذلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء في إني ولعلي الآتية والباقون بالسكون إلا ابن عامر ففتح لعلى مع من ذكروهم على مراتبهم في المدّ ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ أي : هاديا ً يدلني على الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد إنه لصوق بمكان يقرب من زيد أو لأنّ المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها .

وقال بعضهم : النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهي التي في الشجر الأخضر كما قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ً ﴾ (يس ،)

ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام .

وقيل أيضا ً : النار أربعة ؛ أحدها : نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام ، ثانيها : لها حرقة بلا نور وهي نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها ، ثالثها : لها الحرقة والنور وهي نار الدنيا ، رابعها : لا حرقة ولا نور وهي نار الأشجار

تنبيه : إن وصلت هدى ب ﴿ فلما ﴾ فليس فيها إلا التنوين للجميع وإن وقف عليها فهم على أصولهم في الفتح والإمالة وبين اللفظين

﴿ فلما أتاها ﴾ أي : النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجباً من شدّة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة مثمرة خضراء وقال مقاتل وقتادة والكلبي : كانت من العوسج ، وقال وهب : كانت من العليق ، وقيل : من العناب قال أكثر المفسرين : إنّ الذي رآه موسى لم يكن ناراً بل كان من نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لأنّ موسى عليه السلام حسبه ناراً فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً قال وهب ظنّ موسى أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس ليقتبس من لهبها فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن بأسرع من خمودها كأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره إلى فروعها فإذا خضرتها ساطعة في السماء وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكلّ عنه الأبصار فلما رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يديه على عينيه وألقيت عليه السكينة ﴿ نودي يا موسى ﴾ .

﴿ إني أنا ربك ﴾ قال وهب نودي من الشجرة فقيل : يا موسى فأجاب سريعاً ولم يدر من دعاه فقال إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت فقال أنا فوقك ومعك وأمامك

وخلفك وأقرب إليك منك فعلم أنّ ذلك لا ينبغي إلا لله تعالى فأيقن به.

وقيل: إنه سمع بكل أجزائه حتى أنّ كل جارحة منه كانت أذناً وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة من إني على تقدير الباء أي: بأني لأنّ النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وأنشد الفارسي قول الشاعر:

*ناديت باسم ربيعة بن مكدّم

**أنّ المنوه باسمه الموثوق

(260/497)

وجوّز ابن عطية أن تكون بمعنى لأجل وليس بظاهر والباقون بالكسر إمّا على إضمار القول كما هو رأي البصريين أي: فقيل: وإما لأنّ النداء في معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى أنا يجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن ويجوز أن يكون توكيد للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلاً.

وروى ابن مسعود مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿فاخلع نعليك﴾ إنهما كانا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فأمر بخلعهما صيانة للوادي المقدّس وقال عكرمة ومجاهد: إنما أمر بذلك ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدّسة فيناله بركتها ويدل لذلك أنه قال تعالى عقبه

: ﴿ إنك بالوادي المقدّس ﴾ أي : المطهر أو المبارك فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي هذا ما قاله أهل التفسير .

وذكر أهل الإشارة في ذلك وجوهاً :

أحدها : أنّ النعل في النوم يعبر بالزوجة وقوله فاخلع نعليك إشارة إلى أنه لا يلتفت بخاطره إلى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما .

ثانيها : المراد بخلع النعلين ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة كأنه أمره أن يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى فلا يلتفت إلى المخلوقات .

ثالثها : أن الإنسان حال الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه أن يتوصل إليه إلا بمقدمتين مثل أن يقول العالم المحسوس محدث وكل ما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان شبيهتان بالنعلين لأنّ بهما يتوصل العقل إلى المقصود وينتقل من النظر في الخلق إلى معرفة الخالق ثم بعد الوصول إلى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتاً إلى تلك المقدمتين ، فكأنه قيل : لا تكن مشتغل الخاطر بتلك المقدّمتين فإنك وصلت إلى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى : وقوله تعالى : ﴿ طوى ﴾ بدل أو عطف بيان وقرأه هنا وفي

النازعات نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل: لأنه معدول عن طاو فهو مثل عمر للعدل عن عامر وقيل: إنه اسم أعجمي ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس بأعجميّ وقوله تعالى:

﴿ وأنا اخترتك ﴾ أي: اصطفيتك للرسالة من قومك قرأ حمزة بتشديد النون من أنا وقرأ اخترناك بنون بعدها ألف بلفظ الجمع والباقون بتاء مضمومة وقوله تعالى: ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ أي: إليك مني فيه نهاية الهيبة والجلالة كأنه تعالى قال: لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه وفي قوله تعالى وأنا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الأوّل نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف.

تنبيه: يجوز في لام لما أن تتعلق فاستمع وهو أولى وأن تكون مزيدة في المفعول على حد قوله تعالى: ﴿ ردف لكم ﴾ (النحل،)

وجوّز الزمخشريّ أن يكون ذلك من باب التنازع ونازعه أبو حيان بأنه لو كان كذلك لأعاد الضمير مع الثاني فكان يقول فاستمع له لما يوحى، وأجيب عنه بأنّ مراده التعلق المعنوي من حيث الصلاحية وأما تقدير الصناعة فلم يعنه.

وقوله تعالى:

﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل وفي هذه الآية دلالة على أنّ علم أصول الدين مقدّم على علم الفروع ، وأيضاً فالفاء في قوله تعالى فاعبدني تدل على أنّ عبادته إنما لزمت لآلهيته لأن التوحيد من علم الأصول والعبادة من علم الفروع وخص الصلاة بالذكر وأفردها في قوله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ للعلة التي أناط بها إقامتها وهو تذكير المعبود وشغل القلب واللسان بذكره .

وقيل : لذكرى لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها وقيل : لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتي لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها إنّ الله يقول وأقم الصلاة لذكري" وقيل : لأنّ أذكرك بالثناء والمدح واجعل لك عليها لسان صدق علياً وقيل : لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري .

ولما خاطب تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ أتبعه بقوله تعالى:

﴿ إنّ الساعة آتية ﴾ أي : كائنة ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال أكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها غيري من الخلق وكيف أظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء يقول الرجل كتمت سري من نفسي أي : أخفيته غاية الإخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شيء والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت لأنّ الله تعالى وعد قبول التوبة فإذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصي إلى أن يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي بتعريف وقت موته فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل المعصية فإذا لم يعلم وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي أو يتوب منها في كل وقت خوف معاجلة الأجل . وقال أبو مسلم : أكاد بمعنى أريد وهو كقوله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (يوسف ،)

ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد أي : لا أريد أن أفعله وقال الحسن : إن أكاد من الله واجب فمعنى قوله تعالى : أكاد أخفيها أي : أنا أخفيها عن الخلق كقوله تعالى :

﴿ عسى أن يكون قريباً ﴾ (الإسراء ،)

أي : هو قريب وقيل : أكاد صلة في الكلام والمعنى أنّ الساعة آتية أخفيها . قال زيد الخيل :

*سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه

** فما أن يكاد قرنه يتنفس

أي فما أن يتنفس قرنه وقوله تعالى : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي : تعمل من خير أو شرّ متعلق بآتية ، واختلف في المخاطب بقوله تعالى:

﴿ فلا يصدّنك ﴾ أي : يصرفنك ﴿ عنها من لا يؤمن بها ﴾ فقيل : وهو الأقرب كما قاله الرازي أنه موسى عليه السلام لأنّ الكلام أجمع خطاب له ، وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف أيضاً في عود هذين الضميرين على وجهين:

(264/497)

أحدهما : قال أبو مسلم لا يصدّنك : عنها أي : عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها أي : بالساعة فالضمير الأوّل عائد إلى الصلاة والثاني إلى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليردّ السامع إلى كل خبر حقه .

ثانيهما : قال ابن عباس : فلا يصدنك عن الساعة أي : عن الإيمان بها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان إلى يوم القيامة وهذا أولى لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات وههنا الأقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم إنما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا .

تنبيه : المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صدّ موسى وفيه وجهان:

أحدهما : أنّ صدّ الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على حمله على المسبب .

الثاني : أنّ صدّ الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك ههنا المراد نهي المخاطب عن حضوره له لا أن يراه هو فالرؤية مسببة عن الحضور كما أنّ صدّ الكافر مسبب عن الرخاوة والضعف في الدين فقيل : لا تكن رخواً بل كن شديداً صلباً حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ﴿ واتبع هواه ﴾ أي : ميل نفسه إلى اللذات المحبوبة المخدجة لقصر نظره عن غيرها وخالف أمر الله ﴿ فتردى ﴾ أي : فتهلك إن انصددت عنها وما في قوله تعالى: ﴿ وما تلك بيمينك ﴾ مبتدأ استفهامية وتلك خبره وبيمينك حال من معنى الإشارة وقوله تعالى : ﴿ يا موسى ﴾ تكرير لأنه ذكره قبل في قوله تعالى : ﴿ نودي يا موسى ﴾ وبعد في مواضع كألفها يا موسى لزيادة الاستئناس والتنبيه .

فإن قيل : السؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة في ذلك ؟

أجيب : بأنّ في ذلك فوائد ؛ الأولى : توقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا ؟ وهو لا يشك أنه يعرفه ويريد أن يضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه . الثانية : أن يقرّر عنده أنها خشبة حتى إذا قلبها ثعباناً لا يخافها . الثالثة : أنه تعالى لما أراه تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء وأسمعه كلام نفسه ثم أورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد العظيم فتحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك يا موسى ؟ وتكلم معه بكلام البشر إزالةً لتلك الدهشة والحيرة .

فإن قيل : هذا خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم أجيب : بالمنع فقد خاطبه في قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ (النجم ،)

إلا أنّ الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه إلى الخلق والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سراً لم يؤهل له أحد من الخلق وأيضاً إن كان موسى تكلم معه فأمة محمد يخاطبون الله تعالى في كل يوم مراراً على ما قاله صلى الله عليه وسلم "المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ (يس ،)

تنبيه : قوله تعالى : وما تلك إشارة إلى العصا وقوله تعالى بيمينك إشارة إلى اليد وفي هذا نكت ذكرها الرازي رحمه الله تعالى الأولى : أنه تعالى لما أشار إليهما جعل كل واحدة منهما معجزة قاهرة وبرهاناً ساطعاً ونقله من حدّ الجمادية إلى مقام الكرامة ، فإذا صار الجماد بالنظر الواحد حيواناً صار الجسم الكثيف نورانياً لطيفاً ثم إنه تعالى ينظر كل يوم ثلاثمائة وستين مرّة إلى قلب العبد فأيّ عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان إلى السعادة بالطاعة ونور المعرفة . ثانيها : أنّ بالنظر الأول الواحد صار الجماد ثعباناً فبلغ سحر النفس الأمارة بالسوء . ثالثها : أن العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعباناً فبلع سحر السحرة فأيّ عجب لو صار القلب ثعباناً وبرهاناً وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فإذا حصلت ليد موسى عليه السلام هذه المنزلة فأي عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب أصبعي الرحمن من ظلمة المعصية إلى نور العبودية .

ولما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك أجاب بأربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الإجمال أوّلها :

﴿ قال هي عصاي ﴾ وقد تم الجواب بذلك إلا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الأخر لأنه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض . ثانيها : قوله :

﴿ أتوكأ ﴾ أي : أعتمد ﴿ عليها ﴾ إذا مشيت وإذا عييت وإذا وقفت على رأس

القطيع وعند الطفرة. ثالثها : قوله : ﴿ وأهش ﴾ أي : أخبط ورق الشجر ﴿ بها ﴾ ليسقط ﴿ على غنمي ﴾ لتأكله فبدأ عليه السلام أولاً بمصالح نفسه في قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته في قوله : أهش بها على غنمي وكذلك في القيامة يقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في الدنيا إلا بإصلاح أمر الأمّة ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (الأنفال ،)

"اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون" فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضاً بأمّته فيقول : أمّتي أمّتي رابعها قوله ﴿ ولي فيها مآرب ﴾ جمع مأربة بتثلث الراء حوائج ومنافع ﴿ أخرى ﴾ كحمل الزاد والسقي وطرد الهوام وإنما أجمل في المآرب رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرّة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك وقيل : انقطع لسانه بالهيبة فاجمل وقيل : اسم العصا نبعة وقيل : في المآرب كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناء بالمحجن وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أداوته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل والزندين بفتح الزاي تثنية زند وزندة

والزند العود الأعلى الذي تقدح به النار والزندة السفلى فيها ثقب فإذا اجتمعا قيل : زندان ولم نقل زندتان وإذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً ويكونان شمعتين بالليل وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروي عن ابن عباس أنها كانت تماشيه وتحدّثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه

﴿ قال ﴾ له ﴿ ألقها ﴾ أي : أنبذها ﴿ يا موسى ﴾ ﴿ فألقاها فإذا هي حية ﴾ أي : ثعبان عظيم ﴿ تسعى ﴾ أي : تمشي على بطنها سريعاً وهنا نكت خفية.

إحداها : أنه عليه السلام لما قال ولي فيها مآرب أخرى أراد الله تعالى أن يعرفه أنّ فيها مآرب لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائرها وأربى.

ثانيها : كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب ، فقال أوّلاً : فاخلع نعليك إشارة إلى ترك الهرب ، ثم قال : ألقها وهو إشارة إلى ترك

الطلب ، كأنه تعالى قال : إنك ما دمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلاً بنفسك طالباً لحظك فلا تكن خالصاً لمعرفتي ، فكن تاركاً للهرب والطلب تكن خالصاً لي .

ثالثها : أنّ موسى عليه السلام مع علوّ درجته وكمال صفته لما وصل إلى الحضرة ولم يكن معه إلا النعلان والعصا أمره بإلقائها حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة فأنت في ألف وقر من المعاصي فكيف يمكنك الوصول إلى جنابه ؟ فإن قيل : كيف قال هنا حية وفي موضع آخر جان وهي الحية الخفيفة الصغيرة وقال في موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ؟

أجيب : بأنّ الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف لأنّ الثعبان العظيم من الحيات كما مرّ والجان الدقيق وفي ذلك وجهان :

أحدهما : أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعباناً فأريد بالجان أوّل حالها وبالثعبان مآلها . الثاني : أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجانّ لقوله تعالى : ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جانّ ﴾ (النمل ،)

قال وهب : لما ألقى العصا على وجه الأرض نظر إليها فإذا هي حية تسعى صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تمشي بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعاً صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقاً وعرفاً يهتز وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الإبل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع

لأنيابها صريفاً عظيماً فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً وهرب ثم نودي يا موسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف

﴿ قال ﴾ تعالى له ﴿ خذها ﴾ أي : بيمينك ﴿ ولا تخف ﴾ وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله أن يكشف يده ، وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له الملك أرأيت إن أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً قال : لا ولكنني ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ عليها كما قال تعالى : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ وقد أظهر الله تعالى في هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام منها انقلاب العصا حية ومنها وضع يده في فمها من غير ضرر ومنها انقلابها خشبة مع الأمارات التي تقدّمت

تنبيه : في نصب سيرتها أوجه:

أحدها : أن تكون منصوبة على الظرف أي : في سيرتها أي : طريقتها :

ثانيها : على البدل من هاء سنعيدها بدل اشتمال لأنّ السيرة الصفة أي : سنعيدها

صفتها وشكلها .

ثالثها : على إسقاط الخافض أي : إلى سيرتها وقيل غير ذلك . فإن قيل : لما نودي يا موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى إلى الخلق فلماذا خاف ؟

أجيب عن ذلك بأوجه أحدها : أنّ ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وهذا معلوم بدلائل العقول ثانيها : إنما خافها لأنه عليه السلام عرف ما لقي آدم عليه السلام منها . ثالثها : أنّ مجرد قوله ولا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى : ﴿ ولا تطع الكافرين ﴾ (الأحزاب ،)

لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله : ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولى مدبراً ﴾

(النمل ،)

يدل عليه ولكن ذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فما أظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار وقوله تعالى:

﴿ واضمم يدك ﴾ أي : اليمنى ﴿ إلى جناحك ﴾ أي : جنبك الأيسر تحت العضد في الإبط ﴿ تخرج بيضاء ﴾ أي : نيرة مشرقة تضيء كشعاع الشمس تعشى البصر لا بدّ فيه من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم وأخرجها تخرج فحذف من الأوّل والثاني وأبقى مقابليهما ليدلا على ذلك إيجازاً واختصاراً وإنما احتيج إلى هذا لأنه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج وقوله تعالى : ﴿ من غير سوء ﴾ متعلق بتخرج وروي عن ابن عباس إلى جناحك إلى صدرك والأوّل أولى كما قال الرازي لأنه يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جانباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر سميا بذلك لأنه يجنحهما أي : يميلهما عند الطيران وجناحا الإنسان عضداه فعضداه يشبهان جناحي الطير ، ولأنه قال : تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة . والبرص أبغض شيء إلى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة وإسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديراً بأن يكنى عنه ولا ترى أحسن ولا أظرف ولا أخف للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه .

يروى أنّ موسى عليه السلام كان شديد الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه فأدخلها في إبطه الأيسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير مرض

ثم إذا أردّها عادت إلى لونها الأوّل من غير نور وقوله تعالى : ﴿ آية أخرى ﴾ أي : معجزة ثابتة حال من ضمير تخرج كبيضاء وقوله تعالى:

(271/497)

﴿ لنريك ﴾ متعلق بما دل عليه آية أي : دللنا بها لنريك وقوله تعالى : ﴿ من آياتنا الكبرى ﴾ أي : العظمى على رسالتك متعلق بمحذوف على أنه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك الكبرى حال كونها من آياتنا أي : بعض آياتنا واختلف أيّ الآيتين أعظم في الإعجاز فقال الحسن : اليد لأنه تعالى قال : لنريك من آياتنا الكبرى والذي عليه الأكثر أنّ العصا أعظم إذ ليس في اليد إلا تغير اللون وأمّا العصا ففيها تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم إعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير في كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم وأما قوله تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ فقد ثبت أنه عائد إلى الكلام وأنه غير مختص باليد ،

فإن قيل : لم لم يقل تعالى من آياتنا الكبر ؟

أجيب : بأنّ ذلك ذكر لرؤوس الآي وقيل فيه إضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى

وهذا التقدير يقوّي قول القائل بأنّ اليد أعظم آية. ولما أظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه الآيات عقبها بأمره بالذهاب إلى فرعون بقوله تعالى:

(272/497)

﴿ اذهب ﴾ أي: رسولاً ﴿ إلى فرعون ﴾ وبيّن تعالى العلة في ذلك بقوله تعالى: ﴿ إنه طغى ﴾ أي: جاوز الحد في كفره إلى أن ادّعى الإلهية ولهذا خصه الله تعالى بالذكر مع أنه عليه السلام مبعوث إلى الكل قال وهب: قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي وإنّ معك يدي ونصري وإني ألبسك جبة من سلطاني تستكمل بها القوّة في أمرك أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرّته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، أقسم بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان عليّ وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولاً لينا لا يغترّ بلباس الدنيا فإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك فعند ذلك

﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ أي: وسعه لتحمل الرسالة، قال ابن عباس: يريد حتى

لا أخاف غيرك والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر بقوله :

﴿ قال ربّ إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ﴾ (الشعراء : ،)

وذلك أنّ موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفاً شديداً لشدّة شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدراً بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه حتى يعلم أنّ أحداً لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله تعالى وإذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدّة شوكته وكثرة جنوده ، وقيل : اشرح لي صدري بالفهم عنك ما أنزلت عليّ من الوحي

﴿ ويسر ﴾ أي : سهّل ﴿ لي أمري ﴾ أي : ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون وذلك لأنّ كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له ، فإن قيل : قوله لي في اشرح لي صدري ويسر لي أمري ما جدواه والأمر مستتم مستتب بدونه ؟

أجيب : بأنه قد أبهم الكلام أوّلاً فقال اشرح لي ويسر لي فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً ثم بيّن ورفع الإبهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لأمره من أن يقول :

اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل

﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ قال ابن عباس كان في لسانه عليه السلام رته وذلك أنّ موسى عليه السلام كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته إنّ هذا عدوّي وأراد أن يقتله فقالت له آسية : إنه صبي لا يعقل ولا يميز وفي رواية أنّ أمّ موسى لما فطمته ردّته إلى فرعون فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولداً فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه وهمّ بقتله فقالت آسية : أيها الملك إنه صغير لا يعقل جربه إن شئت فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فأراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى عليه السلام فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة .

وقيل : قربا إليه تمرة وجمرة فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فاحترق لسانه ، ويروى أنّ يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال إلى أي : رب تدعوني قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها وعن بعضهم أنها لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة .

وقيل : كان ذلك التعقد خلقة فسأل الله تعالى إزالته واختلفوا في أنه لم طلب حل تلك العقدة ؟ فقيل : لئلا يقع خلل في أداء الوحي وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا إليه وقيل : لإظهار المعجزة كما أنّ حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزاً في حقه فكذا إطلاق لسان موسى معجز في حقه واختلفوا في زوال العقدة بكمالها فقيل : بقي بعضها لقوله : ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ (القصص ،) وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان في لسان الحسين بن عليّ رضى الله تعالى عنهما رته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ورثها من عمه موسى" وقال الحسن : زالت بالكلية لقوله تعالى : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ (طه ،)

وضعف هذا الرازي بأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقد من لساني بل قال واحلل عقدة من لساني فإذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله قال والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء وقال الزمخشري وفي تنكير العقدة ولم يقل واحلل عقدة لساني أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهماً جيداً أي : ولذا قال:

﴿ يفقهوا ﴾ أي : يفهموا ﴿ قولي ﴾ عند تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لساني صفة للعقدة كأنه قيل : عقدة من عقد لساني

تنبيه : استدل على أنّ في النطق فضيلة عظيمة بوجوه : أوّلها : قوله تعالى : ﴿ خلق

الإنسان علمه البيان ﴾ (الرحمن ،)

فماهية الإنسان هي الحيوان الناطق . ثانيها : اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير:

*لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

** فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(275/497)

وقالوا ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مرسلة أي : لو ذهب النطق اللساني لم يبق من الإنسان إلا القدر الحاصل في البهائم ، وقالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه . ثالثها : أنّ في مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال : ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ﴾ (البقرة :)

ولما رأى موسى عليه السلام أنّ التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الودّ وزوال التهمة قربة عظيمة في الدعاء إلى الله تعالى طلب المعاونة على ذلك بقوله:

﴿ واجعل لي وزيراً ﴾ أي : معيناً على الرسالة ولذلك قال عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ (آل عمران ،)

وقال محمد صلى الله عليه وسلم "إنّ لي في السماء وزيرين وفي الأرض وزيرين فاللذان في السماء جبريل وميكائيل واللذان في الأرض أبو بكر وعمر" وقال صلى الله عليه وسلم "إذا أراد الله تعالى بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن نوى خيراً أعانه وإن أراد شرّاً كفه" وقال أنوشروان : لا يستغني أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير . ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة أراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله فقال : ﴿ من أهلي ﴾ أي : أقاربي وقوله:

﴿ هارون ﴾ قال الجلال المحلي : مفعول ثان وقوله : ﴿ أخي ﴾ عطف بيان وذكر غيره أعاريب غير ذلك لا حاجة لنا بذكرها .

تنبيه : الوزير مشتق من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه ، أو من الوزر لأنّ الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره ، أو من الموازرة وهي المعاونة . قال الرازي : وكان هارون مخصوصاً بأمور منها الفصاحة لقول موسى : ﴿ هو أفصح مني لساناً ﴾ (القصص ،) ومنها الرفق لقول هارون : ﴿ يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ (طه ،)

أنه كان أكبر سناً منه وقال ابن عادل كان أكبر سناً من موسى بأربع سنين وكان أفصح لساناً منه وأجمل وأوسم أبيض اللون وكان موس آدم اللون أقنى جعدا .

ولما طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يجعل هارون وزيراً له طلب منه أن يشد أزراره بقوله : ﴿ اشدد به أزري ﴾ أي : أقوّي به ظهري

﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي : في النبوّة والرسالة ، وقرأ ابن عامر بسكون الياء من أخي وهمزة مفتوحة من أشدد وهو على مرتبته في المدّ وهمزة مضمومة من أشركه وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من أخي وهمزة وصل من اشدد وأشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون الياء من أخي وهمزة وصل من أشدد وفتح الهمزة من أشركه ثم إنه تعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال:

﴿ كي نسبحك ﴾ تسبيحاً ﴿ كثيراً ﴾ قال الكلبي : نصلي لك كثيراً نحمدك ونثني عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته عما لا يليق به .

﴿ ونذكرك ﴾ ذكراً ﴿ كثيراً ﴾ أي : نصفك بصفات الكمال والجلال والكبرياء وجوّز أبو البقاء أن يكون كثيراً نعتاً لزمان محذوف أي : زماناً كثيراً .

﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أي : عالماً بأنّا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك أو بصيراً بأنّ الاستعانة بهذه الأشياء لأجل حاجتي في النبوّة إليها أو بصيراً بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو الأصلح لنا . ولما سأل موسى عليه السلام ربه تلك الأمور المتقدّمة وكان من

المعلوم أنّ قيامه بما كلف به لا يتم إلا بإجابته إليها لا جرم

﴿ قال ﴾ الله تعالى : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أي : أعطيت جميع ما سألته منا عليك لما فيه من وجوه المصالح

(277/497)

﴿ ولقد مننا عليك مرّة أخرى ﴾ أي : أنعمنا عليك في وقت آخر وفي ذلك تنبيه على أمور أحدها : كأنه تعالى قال : إني راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها : إني كنت ربيتك فلو منعتك الآن كان ذلك ردّاً بعد القبول وإساءة بعد الإحسان فكيف يليق بكرمي ثالثها : إنّا أعطيناك في الأزمنة السالفة كل ما احتجت إليه ورقيناك الدرجة العالية وهي منصب النبوّة فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب فإن قيل : لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أنّ هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام تلطف ؟

أجيب : بأنه إنما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أنّ هذه النعم التي وصل إليها ما كان مستحقاً لشيء منها بل إنما خصه الله تعالى بها لمحض فضله وإحسانه ، فإن قيل : لم قال مرّة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة ؟

أجيب : بأنه لم يعن بمرّة أخرى واحدة من المنن لأنّ ذلك قد يقال في القليل والكثير ، ثم بيّن

تلك المنة وهي ثمانية أولها قوله تعالى:

﴿ إذ أوحينا إلى أمّك ﴾ وحياً لا على وجه النبوّة إذ المرأة لا تصلح للقضاء ولا للإمامة ولا تلي عند أكثر العلماء تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوّة ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ﴾ (النحل ،)

والوحي جاء لا بمعنى النبوّة في القرآن كثيراً قال تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (النحل ،)

﴿ وإذا أوحيت إلى الحواريين ﴾ (المائدة ،)

ثم اختلفوا في المراد بهذا الوحي على وجوه:

أحدها : أنه رؤيا رأتها أمّ موسى وكان تأويلها وضع موسى في التابوت وقذفه في البحر وأنّ الله تعالى يردّه عليها .

ثانيها : أنه عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة .

ثالثها : المراد خطور البال وغلبته على القلب ، فإن قيل : هذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأنّ الإلقاء في البحر قريب من الإهلاك وهو مساوٍ للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الإقدام على أحدهما لأجل الصيانة عن الثاني ؟

أجيب : بأنها لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان الإلقاء في البحر إلى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون .

رابعها : لعله أوحى إلى بعض الأنبياء في ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم إنّ ذلك النبيّ عرفها إمّا مشافهة أو مراسلة واعترض على هذا بأنّ الأمر لو كان كذلك لما لحقها الخوف . وأجيب : بأنّ ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أنّ موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أنّ الله تعالى كان أمره بالذهاب إليه مراراً .

خامسها : لعل بعض الأنبياء المتقدّمين كإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر إلى أمّه .

سادسها : لعلّ الله تعالى بعث إليها ملكاً لا على وجه النبوّة كما بعث إلى مريم في قوله :

﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ (مريم ،)

وأمّا قوله تعالى : ﴿ ما يوحى ﴾ فمعناه ما لا يعلم إلا بالوحي أو ما ينبغي أن يوحى ولا يخلّ به لعظم شأنه وفرط الاهتمام ويبدل منه

﴿ أن اقذفيه ﴾ أي : ألقيه ﴿ في التابوت ﴾ أي : ألهمناها أن اجعليه في التابوت

﴿ فاقذفيه ﴾ أي : موسى بالتابوت ﴿ في اليمّ ﴾ أي : نهر النيل ﴿ فليلقه اليمّ بالساحل ﴾ أي : شاطئه والأمر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى فالمقذوف في البحر

والملقى إلى الساحل هو موسى في جوف التابوت حتى لا تفرّق الضمائر فيتنافر النظم الذي
هو أمّ إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر

تنبيه : اليمّ البحر والمراد به هنا نيل مصر في قول الجميع واليمّ اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكسائي والساحل فاعل بمعنى مفعول سمي بذلك لأن الماء يسحله أي : يحسره إذا علاه وقوله تعالى : ﴿ يأخذه عدوّ لي وعدوّ له ﴾ أي : فرعون جواب فليلقه وتكرير عدوّ للمبالغة أو لأنّ الأوّل باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع أي : سيصير عدوّاً له بعد ذلك فإنه لم يكن في ذلك الوقت بحيث يعادى ، روي أنها اتخذت تابوتاً قال مقاتل : إنّ الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون وجعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليمّ وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية بنت مزاحم إذا بتابوت يجري به الماء فأمر فرعون الغلمان والجواري بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبيّ أصبح الناس وجهاً فأحبه عدوّ الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه كما قال تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ وهذه هي المنة الثانية قال الزمخشري : مني لا يخلو إمّا أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على

أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإمّا أن يتعلق بمحذوف وهو صفة لمحبة أي محبة خالصة أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها فلذلك أحبك فرعون وآسية حتى قالت قرّة عين لي ولك لا تقتلوه. روي أنه كان على وجهه مسحة جمال وفي عينه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من يراه وهو كقوله تعالى: ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ (مريم،)

المنة الثالثة قوله تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي: تربى على رعايتي وحفظي لك فأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ويقول للصانع اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي.

تنبيه: ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك، وقرأ بفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون. المنة الرابعة قوله تعالى:

﴿ إذ تمشي أختك ﴾ والعامل في إذ ألقيت أو تصنع ويجوز أن يكون بدلاً من إذ أوحينا واستشكل بأنّ الوقتين مختلفان متباعدان وأجيب: بأنه يصح مع اتساع الوقت كما يصح

أن يقول لك الرجل لقيت فلاناً سنة كذا فتقول وأنا لقيته إذ ذاك وربما لقيه هو في أوّلها وأنت في آخرها ﴿ فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾ يروى أنّ أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالأمّ فقبل ثديها فذلك قوله تعالى : ﴿ فرجعناك إلى أمّك كي تقرّ عينها ﴾ بلقائك ورؤيتك ﴿ ولا تحزن ﴾ أي : هي بفراقك أو أنت بفراقها وفقد إشفاقها ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع .

المنة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وقتلت نفساً ﴾ قال ابن عباس : هو الرجل القبطي الذي قتله خطأً بأن وكزه حين استغاثه الإسرائيلي إليه قال الكسائي : كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ﴿ فنجيناك من الغمّ ﴾ أي : من غم قتله خوفاً من اقتصاص فرعون كما قال تعالى في آية : ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ﴾ (القصص ،)

بالمهاجرة إلى مدين .

المنة السادسة : قوله تعالى : ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ قال ابن عباس : اختبرناك اختباراً وقيل : ابتليناك ابتلاءً ، قال ابن عباس : الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها أوّلها أنّ أمّه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاؤه في البحر في التابوت

ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمّه ثم أخذه بلحية فرعون حتى همّ بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفاً .

(281/497)

فإن قيل : إنه تعالى عدد أنواع مننه على موسى في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا ؟

أجيب : بجوابين الأوّل : فتناك أي : خلصناك تخليصاً من قولهم فتنت الذهب إذا أردت تخليصه من الفضة أو نحوها . الثاني : أنّ الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه إذا اشتدّت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى : ﴿ فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ (العنكبوت ،)

وقال تعالى : ﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ﴾ (العنكبوت : ،)

ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عده الله تعالى من جملة النعم وتقدّم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك ، فإن قيل : هل يصح إطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقاً من قوله تعالى : وفتناك فتونا ؟

أجيب : بأنه لا يصح لأنه صفة ذم في العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغي .

المنة السابعة : قوله تعالى : ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ﴾ والتقدير وفتناك فخرجت خائفاً إلى أهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه السلام وتزوّجت بابنته وهي إمّا عشر أو ثمان لقوله : ﴿ على أن تأجرني ثمان حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ (القصص ،)

وقال وهب : لبث موسى عند شعيب عليه السلام ثماناً وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته فإنه قضى أوفى الأجلين والآية دالة على أنه لبث عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر كما قاله الرازي وإن قال ابن عادل يرده قوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ (القصص ،)

(282/497)

أي : الأجل المشروط عليه في تزويجه وسار بأهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر ﴿ ثم جئت على قدر ﴾ أي : على القدر الذي قدّرت أنك تجي فيه لأن أكلمك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على رأس

أربعين سنة وهو القدر الذي يوحي فيه للأنبياء وهذا قول أكثر المفسرين أي : على الموعد الذي وعد الله وقدّر أنه يوحي إليه بالرسالة وهو أربعون سنة وكرّر تعالى قوله : ﴿ يا موسى ﴾ عقب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك . المنة الثامنة : قوله تعالى:

﴿ واصطنعتك ﴾ أي : اخترتك ﴿ لنفسي ﴾ لأصرّفك في أوامري لئلا تشتغل إلا بما أمرتك به وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك ثم بيّن تعالى ماله اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء بقوله تعالى:

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ أي : بمعجزاتي وقال ابن عباس : الآيات التسع التي بعث بها موسى وقيل : إنها العصا واليد لأنهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع ولم يذكر أنه عليه السلام أوتي قبل مجيئه إلى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقي فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ (الأعراف : ،)

وقال تعالى : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾ (القصص ،)

فإن قيل : كيف أطلق لفظ الجمع على الاثنين ؟

أجيب : بأنّ العصا كانت آيات انقلابها حيواناً ثم إنها في أوّل الأمر كانت صغيرة لقوله تعالى : تهتز كأنها جانّ ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعباناً وهذه آية أخرى ثم

إنه عليه السلام كان يدخل يده في فمها فما كانت تضرّه فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فإنّ بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالها بعد ذلك آية أخرى فدل ذلك على أنها كانت آيات كثيرة.

(283/497)

وقيل: الآيات العصا واليد وحلّ عقدة لسانه وقيل: معناه أمدّكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه ﴿ ولا تنيا ﴾ أي: لا تفترا ولا تقصرا ﴿ في ذكري ﴾ أي: بتسبيح وغيره فإنّ من ذكر جلال الله استخف غيره فلا يخاف أحداً وتقوى روحه بذلك الذكر فلا تضعف في مقصوده، ومن ذكر الله لا بدّ وأن يكون ذاكر إحسانه، وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره وقيل: لا تنيا في ذكرى عند فرعون بأن تذكرا لفرعون وقومه أنّ الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل: المراد بالذكر تبليغ الرسالة

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي: بادّعاء الربوبية

تنبيه: ذكر الله تعالى المذهوب إليه هنا وهو فرعون وحذفه في قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي اختصاراً في الكلام وقال القفال فيه وجهان؛ أحدهما: أنّ قوله اذهب أنت وأخوك

بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأموراً بالذهاب على الانفراد فقيل مرّة أخرى

اذهبا لتعرفا أنّ المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعاً لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر والثاني

: أنّ قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب إلى كل الناس من بني إسرائيل وقوم فرعون

ثم إن قوله تعالى : اذهبا إلى فرعون أمر بالذهاب إلى فرعون وحده واستبعد هذا بل

الذهابان متوجهان لشيء واحد وقد حذف من كل من الذهابين ما أثبته في الآخر وقيل :

إنه حذف المذهوب إليه من الأوّل وأثبته في الثاني ، وحذف المذهوب به وهو بآياتي من

الثاني وأثبته في الأوّل .

﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أي : مثل ﴿ هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾

(النازعات : ،)

فإنه دعوة في صورة عرض ومشورة ، فإن قيل : لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد ؟

(284/497)

أجيب : بأنّ عادة الجبار إذا أغلظ عليه في الوعظ يزداد عتوّاً وتكبراً فأمر باللين حذراً من

أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليهما واحتراماً لما له من حق التربية وقيل : كنياه وكان له

ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرّة وقيل : عداه شباباً لا هرم بعده وملكاً لا يزول إلا

بالموت وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته وإذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى أنّ لك عقلاً ورأياً أنت رب تريد أن تكون مربوباً وأنت تعبد تريد أن تعبد فغلبه على رأيه وقوله تعالى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ متعلق باذهبا أو قولا أي : باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ويسعى بأقصى وسعه ، قال الزمخشري : ولا يستقيم أن يراد ذلك في حق الله تعالى إذ هو عالم بعواقب الأمور ، وعن سيبويه كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب بمعنى أنه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى وقال الفرّاء : إن لعلّ بمعنى كي فتفيد العلية كما تقول اعمل لعلك تأخذ أجرتك .

فائدة : قرأ رجل عند يحيى بن معاذ ﴿ فقولا له قولاً لينا ﴾ فبكى يحيى وقال إلهي هذا برك بمن يقول أنا الإله فكيف برك بمن يقول أنت الإله فإن قيل : ما الفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن ؟

أجيب : بأنّ ذلك الإلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدّم الأوّل أي : إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى . ويروى عن كعب أنه قال : والذي يحلف به كعب إنه لمكتوب في التوراة فقولا له قولاً ليناً وسأقسي قلبه فلا يؤمن ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية ، وذلك حين ألجمه الغرق قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (يونس ،)

ثم إنّ موسى وهارون .

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط ﴾ أي : يعجل ﴿ علينا ﴾ بالعقوبة ﴿ أو أن يطغى ﴾ أي : يتجاوز الحد في الإساءة علينا ، فإن قيل : لما تكرّر الأمر من الله تعالى بالذهاب ، فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على معصية ؟

أجيب : بأنّ الأمر ليس على الفور فسقط السؤال وهذا من أقوى الدلائل على أنّ الأمر لا يقتضي الفور ، فإن قيل : قوله تعالى : قالا ربنا يدل على أنّ المتكلم موسى وهارون ولم يكن هارون هناك حاضراً ؟

أجيب : بأنّ الكلام كان مع موسى إلا أنه كان متبوع هارون فجعل الخطاب معه خطاباً مع هارون وكلام هارون على سبيل التقدير في تلك الحالة وإن كان موسى وحده إلا أنه تعالى أضافه إليهما كما في قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها ﴾ (البقرة ،)

وقوله : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ﴾ (المنافقون ،)

روي أنّ القائل عبد الله بن أبيّ وحده ، فإن قيل : إنّ موسى عليه السلام قال : ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ (طه ،)

فأجابه الله تعالى بقوله : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ (طه ،)

وهذا يدل على أنه تعالى قد شرح صدره ويسر له ذلك الأمر . u

فكيف قال بعده إنا نخاف فإنّ حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر ؟

أجيب : بأنّ شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الأوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليها السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير الخوف

(286/497)

﴿ قال ﴾ الله تعالى لهما ﴿ لا تخافا إنني معكما ﴾ حافظكما وناصركما ﴿ أسمع وأرى ﴾ أي : ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصري ، وقال ابن عباس : أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما ، وقال القفال : قوله تعالى : ﴿ أسمع وأرى ﴾ يحتمل أن يكون مقابلاً لقوله تعالى ﴿ يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ ؛ يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا ، قال

تعالى : إنني معكما أسمع كلامكما فأسخره للاستماع منكما ، وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ثم إنه سبحانه وتعالى أعاد ذلك التكليف فقال:

﴿ فأتياه ﴾ لأنه سبحانه وتعالى قال في المرّة الأولى : ﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ (طه ،)

وفي الثانية قال : ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ (طه ،)

وفي الثالثة قال : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ (طه ،)

وفي الرابعة قال ههنا : فأتياه ، فإن قيل : إنه تعالى أمرهما في الثانية بأن يقولا له قولاً ليناً ، وههنا أمرهما بقوله تعالى : ﴿ فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي : إلى الشام ﴿ ولا تعذبهم ﴾ أي : خل عنهم من استعمالك إياهم في أشغالك الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وقطع الصخور وكان فرعون يستعملهم في ذلك مع قتل الأولاد وفي هذا تغليظ من وجوه ؛ الأول : قوله : إنا رسولا ربك ، وهذا يقتضي انقياده لهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع . الثاني : قولهما : فأرسل معنا بني إسرائيل فيه إدخال النقص على ملكه لأنه كان محتاجاً إليهم فيما يريده من الأعمال أيضاً . الثالث : قولهما : ولا تعذبهم . الرابع : قولهما ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ فما الفائدة في التليين أوّلاً والتغليظ ثانياً ؟

أجيب : بأنّ الإنسان إذا ظهر لجاجه فلا بدّ له من التغليظ حيث لم ينفع التليين .

فإن قيل : أليس الأولى أن يقول إنا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم لأن ذكر المعجز مقروناً بالدعاء للرسالة أولى من تأخيره عنه ؟ .

أجيب : بأنّ هذا أولى لأنهما ذكرا مجموع الدعاوي ثم استدلا على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما : قد جئناك بآية من ربك قال الزمخشري : هذه الجملة جارية من الجملة الأولى وهي أنا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لأنّ دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتهما التي هي مجيء الآية .

فإن قيل : إنّ الله تعالى قد أعطاهما آيتين هما العصا واليد ثم قال تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ ، وذلك يدل على ثلاث آيات وقالا هنا قد جئناك بآية من ربك وذلك يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع ؟ أجاب القفال : بأنّ معنى الآية الإشارة إلى جنس الآيات كأنهما قالا قد جئناك ببينات من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججاً كثيرة وتقدّم الجواب عن التثنية والجمع وأنّ في العصا واليد آيات .

وقوله تعالى : ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى كأنه تعالى قال : فقولا إنا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل أن يكون كلام

الله قد تمّ عند قوله قد جئناك بآية من ربك ، وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدّق بالسلامة له من عقوبات الله في الدنيا والآخرة أو أنّ سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين ، وقال بعضهم : إن على بمعنى اللام أي : والسلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ (فصلت ،) وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ (الإسراء ،)

نا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب ما جئنا به ﴿ وتولى ﴾ أعرض عنه ، قال البيضاوي : ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأنّ التهديد في أوّل الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق . ولما أتياه وقالا : إنا رسولا ربك وبلغاه ما أمرا به

(288/497)

﴿ قال ﴾ لهما ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ إنما نادى موسى وحده بعد مخاطبته لهما معاً إما لأنّ موسى هو الأصل في الرسالة وهارون تبع ورده ووزير وإما لأن فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي كانت في لسان موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم فصاحة أخيه بدليل قوله : ﴿ هو أفصح مني لساناً ﴾ (القصص ،)

فأراد أن يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد يبين وإمّا لأنه حذف المعطوف للعلم به أي : يا موسى وهارون قاله أبو البقاء ، ثم إنّ فرعون لم يشتغل مع موسى بالبطش والإيذاء لما دعاه إلى الله تعالى مع أنه كان شديد القوّة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج معه في المناظرة لأنه لو أذاه لنسب إلى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع في المناظرة وذلك يدل على أنّ السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدّعي الإسلام والعلم

تنبيه : قال ههنا ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ وقال في سورة الشعراء : ﴿ وما ربّ العالمين ﴾ (الشعراء ،)

وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة قال ابن عادل والأقرب أن يقال سؤال من كان مقدّماً على سؤال ما لأنه كان يقول : إني أنا الله والرب فقال : فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل إلى طلب الماهية لأنّ العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر .

فإن قيل : لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن إلهكما ؟

أجيب : بأنه أثبت نفسه رباً في قوله : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ (الشعراء ،)

فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال أنا ربك فلم تدع رباً آخر وهذا يشبه كلام نمروذ حين قال له إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال له نمروذ أنا أحيي وأميت فلم تكن الإماتة التي ذكرها إبراهيم هي الإماتة مع الإحياء التي عارضه نمروذ بها إلا فيّ اللفظ فكذا ههنا لما ادّعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام أي : أنا الرب الذي ربيتك ومعلوم أنّ الربوبية التي ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية في المعنى وأنه لا مشاركة بينهما ، ثم كأنه قيل : فما أجاب به موسى فقيل:

﴿ قال ﴾ مستدلاً على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء ﴾ أي : من الأنواع ﴿ خلقه ﴾ أي : صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكل الذي يوافق الإسماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناء عنه أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل والمرأة كذلك فلم يزاوج منهما شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه ﴿ ثم هدى ﴾ أي : ثم عرّف الله تعالى الحيوان الكائن من المخلوق كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل إليه . قال الزمخشريّ : ولله در هذا الجواب ما أحضره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظره بين الأنصاف وكان طالباً للحق ولما خاف فرعون أن يزيد

موسى في إظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه

﴿ قال ﴾ لموسى ﴿ فما بال ﴾ أي : حال ﴿ القرون ﴾ أي : الأمم ﴿ الأولى ﴾ كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الأوثان فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث فمن شقي منهم ومن سعد أراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت إليه فلذلك

(290/497)

﴿ قال علمها عند ربي ﴾ استأثر به لا يعلمه إلا هو وما أنا إلا عبد مثلكم لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب وعلم أحوال هذه القرون مثبت عند ربي ﴿ في كتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ ويجوز أن يكون ذلك تمثيلاً لتمكنه في علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده قوله ﴿ لا يضلّ ربي ولا ينسى ﴾ والضلال أن يخطئ الشيء في مكانه فلم يهتد إليه ، والنسيان أن يذهب عنه بحيث لا يخطر بباله ، وهما محالان على علام الغيوب بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل أي : لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضلّ أنت وتنسى يا مدّعي الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد إلى تتميم كلامه الأوّل وإبراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال

﴿ الذي جعل لكم ﴾ في جملة الخلق ﴿ الأرض مهداً ﴾ أي : فراشاً

تنبيه : هذا الموصول في محل رفع صفة لربي وخبره محذوف تقديره هو ، أو منصوب على المدح. وقرأ عاصم وحمزة هنا وفي سورة الزخرف مهداً بفتح الميم وسكون الهاء أي : مهدها مهداً أو تمهدونها فهي لهم كالمهاد وهو ما يمهد للصبيّ ، وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد ﴿ وسلك ﴾ أي : سهل ﴿ لكم فيها سبلاً ﴾ أي : طرقاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها ﴿ وأنزل من السماء ماءً ﴾ أي : مطراً وعدل بقوله ﴿ فأخرجنا به ﴾ عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال قدرته والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ (فاطر ،)

﴿ أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ﴾ (النحل ،)

﴿ أزواجاً ﴾ أي: أصنافاً سميت بذلك لأنها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى ﴿ من نبات ﴾ بيان وصفة لا زواجاً وكذلك ﴿ شتى ﴾ وهو جمع شتيت من شت الأمر تفرّق نحو مرضى جمع مريض وجرحى جمع جريح فألفه للتأنيث أي: أزواجاً متفرّقة ويجوز أن يكون صفة للنبات فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع أي: أنها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى:

﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ والأنعام جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم يقال رعت الأنعام ورعيتها والأمر للإباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أي: مبيحين لكم الأكل ورعي الأنعام أي: وبقية الحيوانات ﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي: فيما ذكرت من هذه النعم ﴿ لآيات ﴾ أي: لعبراً ﴿ لأولي النهى ﴾ أي: أصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمي به العقل لأنه ينهي صاحبه عن ارتكاب القبائح. ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الأرض والسماء بيّن أنها غير مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لكونها وسائل إلى منافع الآخرة فقال:

﴿ منها ﴾ أي: الأرض ﴿ خلقناكم ﴾ فإن قيل: إنما خلقنا من النطفة على ما بيّن في سائر الآيات؟

أجيب: بأوجه.

أحدها : أنه لما خلق أصلنا آدم عليه السلام من تراب كما قال تعالى : ﴿كمثل آدم خلقه من تراب﴾ (آل عمران ،)

حسن إطلاق ذلك علينا .

ثانيها : أن تولد الإنسان إنما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الأغذية والغذاء إمّا حيواني أو نباتي ، والحيواني ينتهي إلى النباتي والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح أنه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة .

(292/497)

ثالثها : روى ابن مسعود أنّ ملك الأرحام يأتي إلى الرحم حين يكتب أجل المولود ورزقه والأرض التي يدفن فيها فإنه يأخذ من تراب تلك البقعة وينثره على النطفة ثم يدخلها في الرحم وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : إنّ الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذرّه على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة ﴿ وفيها نعيدكم﴾ أي : مقبورين بعد الموت ﴿ومنها نخرجكم﴾ أي : عند البعث ﴿تارة﴾ أي : مرّة ﴿أخرى﴾ أي : بتألف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب ونردّهم كما كانوا أحياء

ونخرجهم إلى المحشر يوم يخرجون من الأجداث سراعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 177.147 ﴾

(293/497)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾

مطلع رخي ندي . يبدأ بالحروف المقطعة : ﴿ طا . ها ﴾ للتنبيه إلى أن هذه السورة . كهذا القرآن مؤلفة من مثل هذه الحروف على نحو ما أوردنا في مطالع السور . ويختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك .

يتلو هذين الحرفين حديث عن القرآن كما هو الحال في السور التي تبدأ بالحروف المقطعة في صورة خطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ . . ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدي إلى شقائك به أو بسببه . ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ، ويشق عليك ؛ فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا ما في وسعك ، ولا يفرض عليك إلا ما في طوقك والتعبد به في حدود الطاقة نعمة لا شقوة ، وفرصة للاتصال بالملأ

الأعلى ، واستمداد القوة والطمأنينة ، والشعور بالرضى والأنس والوصول . .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به . فلست مكلفاً أن تحملهم على الإيمان حملاً ؛ ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار :

﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ .

والذي يخشى يتذكر حين يُذكر ، ويتقي ربه فيستغفر . وعند هذا تنتهي وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم - فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس . إنما ذلك إلى الله الذي أنزل هذا القرآن . وهو المهيمن على الكون كله ، المحيط بخفايا القلوب والأسرار :

﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ . .

فالذي نزل هذا القرآن هو الذي خلق الأرض والسماوات . . السماوات العلى . . فالقرآن ظاهرة كونية كالأرض والسماوات . تنزلت من الملأ الأعلى . ويربط السياق بين النواميس التي تحكم الكون والتي ينزل بها القرآن ؛ كما ينسق ظل السماوات العلى مع الأرض ، وظل

القرآن الذي ينزل من الملأ الأعلى إلى الأرض . .

والذي نزل القرآن من الملأ الأعلى ، وخلق الأرض والسماوات العلى ، هو ﴿ الرحمن ﴾ فما نزله على عبده ليشقى . وصفة الرحمة هي التي تبرز هنا للإلمام بهذا المعنى . وهو المهيمن على الكون كله . ﴿ على العرش استوى ﴾ والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء . فأمر الناس إذن إليه وما على الرسول إلا التذكرة لمن يخشى .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة :

﴿ له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ .

.

والمشاهد الكونية تستخدم في التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة في صورة يدركها التصور البشري . والأمر اكبر من ذلك جداً . ولله ما في الوجود كله وهو أكبر مما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه :

﴿ وأن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ . .

وينسق التعبير بين الظل الذي تلقيه الآية : ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ . والظل الذي تلقيه الآية بعدها : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ ينسق بين الظاهر الجاهر في الكون ، والظاهر الجاهر من القول . وبين المستور

المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء في الصدور: السر وأخفى. على طريقة التنسيق في التصوير. والسر خاف. وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار. كما هو الحال تحت أطباق الثرى..

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن، ويواجه الكافرين بلا سند، فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السر وأخفى. والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسره ونجواه، يطمئن ويرضى؛ ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين؛ ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له في العقيدة والشعور.

ويختم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه:

﴿ الله لا إله إلا هو. له الأسماء الحسنى ﴾..

و﴿ الحسنى ﴾ تشارك في تنسيق الإيقاع، كما تشارك في تنسيق الظلال. ظلال الرحمة والقرب والرعاية، التي تغمر جو هذا المطلع وجو السورة كله.

ثم يقص الله على رسوله حديث موسى، نموذجاً لرعايته للمختارين لحمل دعوته: وقصة

موسى هي أكثر قصص المرسلين وروداً في القرآن . وهي تعرض في حلقات تناسب موضوع السورة التي تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة . وسورة المائدة . وسورة الأعراف . وسورة يونس . وسورة الإسراء . وسورة الكهف . . وذلك غير الإشارات إليها في سور أخرى .

وما جاء منها في المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين . وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة : حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة . .

فأما في البقرة والأعراف ويونس وفي هذه السورة طه فقد وردت منها حلقات كثيرة . ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة ، كما يختلف الجانب الذي تعرض منه تنسيقاً له مع اتجاه السورة التي يعرض فيها .

في البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملأ الأعلى ، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له . . فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيراً لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه .

واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم وإطعامهم المن والسلوى ، وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده ، ثم غفرانه لهم . وعهده إليهم تحت الجبل . ثم عدوانهم في السبت . وقصة البقرة .

وفي الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة ، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل . وخاتمة فرعون وملئه المكذبين . ثم ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى . وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبي الأمي .

وفي يونس سبقها عرض مصارع المكذبين . فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة ، وعرض مشهد السحرة ، ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل .

أما هنا في طه . فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته . فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ؛ وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام وتثبيته وتأييده ؛ وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة ، فقد كانت ترافقه في طفولته ، فتحرسه وتتعهده : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ . .

فلنأخذ في تتبع حلقات القصة كما وردت في السياق .

﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله : امكثوا إني آنست ناراً ، لعلي آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى ﴾ . .

﴿ وهل أتاك حديث موسى ؟ ﴾ . . وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداه لمن اصطفاه ؟ . .

فها هو ذا موسى عليه السلام في الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبي الله شعيب ، على أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل ان يخدمه ثماني سنوات أو عشراً . والأرجح انه وفَّى عشرا ؛ ثم خطر له أن يفارق شعيباً وأن يستقل بنفسه وبزوجه ، ويعود إلى البلد الذي نشأ فيه ، والذي فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره .

لماذا عاد . وقد خرج من مصر طريداً . قتل قبطياً فيها حين رآه يقتتل مع إسرائيلي ، وغادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألواناً ؟ حيث وجد الأمن والمطأنينة في مدين إلى جوار شعيب صهره الذي آواه وزوجه إحدى ابنتيه ؟

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستاراً لما تهيئه لموسى من أدوار . . وهكذا

نحن في هذه الحياة نتحرك. تحركنا أشواق وهواتف، ومطامح ومطامع، وآلام وآمال..

وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة، والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار. يد المدبر المهيمن العزيز القهار..

وهكذا عاد موسى.

وهكذا ضل طريقه في الصحراء ومعه زوجه وقد يكون معهما خادم. ضل طريقه والليل مظلم، والمتاهة واسعة. نعرف هذا من قوله لأهله: ﴿ امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾.. فأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض، ليراها الساري في الصحراء، فتكشف له عن الطريق، أو يجد عندها القرى والضيافة ومن يهديه إلى الطريق.

ولقد رأى موسى النار في الفلاة. فاستبشر. وذهب ليأتي منها بقبس يستدفئ به أهله، فالليلة باردة وليالي الصحراء باردة قارة. أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق؛ أو يهتدي على ضوئها إلى الطريق.

لقد ذهب يطلب قبساً من النار ؛ ويطلب هادياً في السرى . . ولكنه وجد المفاجأة الكبرى . إنها النار التي تدفئ . لا الأجسام ولكن الأرواح. النار التي تهدي لا في السرى ولكن في الرحلة الكبرى :

﴿ فلما أتاها نودي : يا موسى إني أنا ربك . فاخلع نعليك . إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ . .

إن القلب ليجفُ ، وإن الكيان ليرتجف . وهو يتصور مجرد تصور ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة . والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخيم . وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور . ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء : ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك . إنك بالوادِ المقدس طوى وأنا اخترتك . . ﴾ .

إن تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذي لا تدركه الأبصار . الجلال الذي تتضاءل في ظله الأرض والسماوات . ويتلقى . يتلقى ذلك النداء العلوي بالكيان البشري . . فكيف ؟ كيف لولا لطف الله ؟

إنها لحظة ترتفع فيها البشرية كلها وتكبر ممثلة في موسى عليه السلام فبحسب الكيان البشري أن يطيق التلقي من ذلك الفيض لحظة . وبحسب البشرية أن يكون فيها الاستعداد

لمثل هذا الاتصال على نحو من الأنحاء . . كيف ؟ لا ندري كيف ! فالعقل البشري ليس هنا ليدرك ويحكم ، إنما قصاراه أن يقف مبهوتاً يشهد ويؤمن !

﴿ فلما أتاها نودي يا موسى : إني أنا ربك . . ﴾ نودي بهذا البناء للمجهول ؟ فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه . ولا تعيين صورته ولا كيفيته . ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه . . نودي بطريقة ما فتلقى بطريقة ما . فذلك من أمر الله الذي نؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عن كيفيته ، لأن كيفيته وراء مدارك البشر وتصورات الإنسان .

(299/497)

﴿ يا موسى إني انا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس طوى ﴾ . . إنك في الحضرة العلوية . فتجرد بقدميك . وفي الوادي الذي تتجلى عليه الطلعة المقدسة ، فلا تطأه بنعليك .

﴿ وأنا اخترتك ﴾ . . فيا للتكريم ! يا للتكريم ان يكون الله بذاته هو الذي يختار . يختار عبداً من العبيد هو فرد من جموع الجموع . . تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرة في مجموعة . المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله : كن . . فكان ! ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان !

وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار ، والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه ، ويجيء التنبيه للتلقي :

﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ . .

ويلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة ؛ وهي أسس رسالة الله الواحدة :

﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ . .

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة . والله في ندائه لموسى عليه السلام يؤكدها بكل المؤكدات : بالإثبات المؤكد . ﴿ إنني أنا الله ﴾ وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لنفيها عن سواه . . وعلى الألوهية تترتب العبادة ؛ والعبادة تشمل التوجه لله في كل نشاط الحياة ؛ ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ، لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى ؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله .

فأما الساعة فهي الوعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ؛ وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق . . والله سبحانه يؤكد مجيئها : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . . والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي ، فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم وهم بهذه الفطرة لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم . فوراء المجهول يجرون . فيحذرون ويأملون ، ويجربون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم ؛ ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق ؛ ويبدعون في الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا . . وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد ، يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحت فطرته واستقام . فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى :

﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ . .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشئ التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ؛ وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال .

هذه هي الوهلة الأولى للنداء العلوي الذي تجاوبت به جنبات الوجود ؛ وأنهى الله سبحانه إلى عبده المختار قواعد التوحيد . ولا بد أن موسى قد نسي نفسه ونسي ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه ؛ وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه .

وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه ، إذا هو يتلقى سؤالاً لا يحتاج منه إلى جواب :

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ؟ ﴾ . .

إنها عصاه . ولكن أين هو من عصاه ؟ إنما يتذكر فيجيب :

﴿ قال : هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴾ . .

والسؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده . إنما كان عما في يمينه . ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهي واضحة ، إنما عن وظيفتها معه . فأجاب . .

ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا : أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم وقد كان يرعى الغنم لشعيب . وقيل : إنه ساق معه في عودته قطيعاً منها كان من نصيبه . وأن يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها

لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هي ذي القدرة القادرة تصنع بتلك العصا في يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيداً لتكليفه بالمهمة الكبرى :

﴿ قال : ألقها يا موسى . فألقاها . فإذا هي حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ :

ووقعت المعجزة الخارقة التي تقع في كل لحظة ؛ ولكن الناس لا ينتبهون إليها . وقعت معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ؛ ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره ان تتحول عصا موسى حية تسعى ! ذلك أن الإنسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه ، فلا يبعد كثيراً في تصوراته عما تدركه حواسه . وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى ، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها في حسه ، فيمر عليها غافلاً أو ناسياً .

وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف : ﴿ قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ ونردها عصا .

والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولى مدبراً ولم يعقب . إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى عليه السلام من خوف : ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة ، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيدا .

واطمأن موسى والتقط الحية ، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا ! . . ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى . صورة سلب الحياة من الحي ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان قبل أن تدركه المعجزة الأولى . .

وصدر الأمر العلوي مرة أخرى إلى عبده موسى :

﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ . .

ووضع موسى يده تحت إبطه . . والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة وخفة في هذا الموقف المجنح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة . ولكن : ﴿ آية أخرى ﴾ مع آية العصا . ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ فتشهد وقوعها بنفسك تحت بصرك وحسك . فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى :

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ . .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم انه منتدب لهذه المهمة الضخمة . . وإنه ليعرف من هو فرعون :

فقد ربي في قصره . وشهد طغيانه وجبروته . وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ونكال . . وهو اللحظة في حضرة ربه . يحس الرضى والتكريم والحفاوة . فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ؛ ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة :

﴿ قال : رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي . اشدد به أزري ، وأشركه في أمري . كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيراً ﴾ . .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره . . وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة ؛ ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة .

(303/497)

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره . . وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح . وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير ؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ؟ ! .

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله . . وقد روي أنه كانت بلسانه حبسة والأرجح أن هذا هو الذي عناه . ويؤيده ما ورد في سورة أخرى من قوله : ﴿ وأخي

هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ . وقد دعا ربه في أول الأمر دعاء شاملاً بشرح الصدر وتيسير الأمر . ثم أخذ يحدد ويفصل بعض ما يعينه على أمره وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله . هارون أخيه . فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، وكان موسى عليه السلام انفعالياً حاد الطبع سريع الانفعال . فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذي هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الكثير والذكر الكثير والاتصال الكثير . فموسى عليه السلام يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ويحل عقدة من لسانه ويعينه بوزير من أهله .

. كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ؛ ولكن ليتخذ ذلك كله مساعداً له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير والتلقي الكثير من السميع البصير . . ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ . . تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير . .

لقد أطال موسى سؤله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير . وربه يسمع له ، وهو ضعيف في حضرته ، ناداه وناجاه . فها هو ذا

الكريم المنان لا يخجل ضيفه، ولا يرد سائله، ولا يبطئ عليه بالإجابة الكاملة:

﴿ قال: قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾:

(304/497)

هكذا مرة واحدة، في كلمة واحدة. فيها إجمال يغني عن التفصيل. وفيها إنجاز لا وعد ولا تأجيل.. كل ما سألته أعطيته. أعطيته فعلاً. لا تعطاه ولا ستعطاه؟ وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه: ﴿ يا موسى ﴾ وأي تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد؟

وإلى هنا كفاية وفضل من التكريم والعطف والإيناس. وقد طال التجلي؛ وطال النجاء؛ وأجيب السؤل وقضيت الحاجة.. ولكن فضل الله لا خازن له، ورحمة الله لا ممسك لها. فهو يغمر عبده بمزيد من فضله وفيض من رضاه، فيستبقيه في حضرته، ويمد في نجائه وهو يذكره بسابق نعمته، ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته. وكل لحظة تمر وهو في هذا المقام الوضيء هي متاع ونعمى وزاد ورصيد.

﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى. إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم. فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لي وعدو له. وألقيت عليك محبة مني

، ولتصنع على عيني . إذ تمشي أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلبثت سنين في أهل مدين . ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسي . . . ﴾ .

(305/497)

إن موسى عليه السلام ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار . إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان . إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ؛ ثم مع قومه بني إسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، وأضعف استعدادهم للمهمة التي هم منتدبون لها بعد الخلاص . فربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد . وأنه لم يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد . وأنه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرب على المشاق وهو طفل رضيع . ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف . وكان تحت سلطان فرعون وفي متناوله وهو مجرد من كل عدة ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون ، لأن يد القدرة كانت تسنده ، وعين القدرة كانت ترعاه .

في كل خطاه . فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده . وربه معه . قد اصطنعه لنفسه ،

واستخلصه واصطفاه.

﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ . . فالمنة قديمة ممتدة مطردة، سائرة في طريقها معك منذ زمان. فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف الآن.

لقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، وألهمناها ما يلهم في مثل حالها . . ذلك الإلهام:

﴿ أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل ﴾ . .

حركات كلها عنف وكلها خشونة. . قذف في التابوت بالطفل. وقذف في اليم بالتابوت. وإلقاء للتابوت على الساحل. . ثم ماذا؟ أين يذهب التابوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف في اليم الملقى به على الساحل. من يتسلمه؟ ﴿ عدو لي وعدو له ﴾ .

وفي زحمة هذه المخاوف كلها. وبعد تلك الصدمات كلها. ماذا؟ ما الذي حدث للطفل الضعيف المجرد من كل قوة؟ ما الذي جرى للتابوت الصغير المجرد من كل وقاية؟

﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ ! ! !

يا للقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعاً تتكسر عليها الضربات وتتحطم عليه الأمواج. وتعجز قوى الشر والطغيان كلها أن تمس حاملها بسوء؛ ولو كان طفلاً رضيعاً لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول..

إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد. مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التي تتربص بالطفل الصغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف.. والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف، وتقيه من الشدائد وتلفه من الخشونة، ممثلة في المحبة لا في صيال أو نزال: ﴿ ولتصنع على عيني ﴾.. وما من شرح يمكن ان يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب: ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ وكيف يصف لسان بشري، خلقاً يصنع على عين الله؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه.. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية. فكيف بمن يصنع صنعاً على عين الله؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه.

ولتصنع على عيني. تحت عين فرعون عدوك وعدوي وفي متناول يده بلا حارس ولا مانع ولا مدافع. ولكن عينه لا تمتد إليك بالشر لأني القيت عليك محبة مني. ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عيني.

ولم أحطك في قصر فرعون، بالرعاية والحماية وأدع أمك في بيتها للقلق والخوف. بل

جمعتك بها وجمعتها بك :

﴿ إذ تمشي أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ . .

وكان ذلك من تدبير الله . إذ جعل الطفل لا يقبل ثدي المرضعات . وفرعون وزوجه وقد تبنيا الطفل الذي ألقاه اليم بالساحل مما لا يفصله السياق كما يفصله في موضع آخر يبحثان له عن موضع .

فيتسامع الناس وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم : هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها . وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التي سمعت الإلهام فقذفت بفلذة كبدها في التابوت ، وقذفت بالتابوت في اليم ، فألقاه اليم بالساحل . ليأخذه عدو لله وله ، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف ، وتكون النجاة من فرعون الذي كان يذبح أطفال بني إسرائيل . بإلقائه بين يدي فرعون بلا حارس ولا معين !

ومنة أخرى : ﴿ وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسي ﴾ . .

ذلك حين كبر وشب في قصر فرعون ، ثم نزل المدينة يوماً فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر مصري ، فاستعانه الإسرائيلي فوكز المصري بيده فخر صريعاً . ولم يكن ينوي قتله إنما كان ينوي دفعه . فامتلأت نفسه بالغم على هذه الفعلة وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته ؛ وتحرج ضميره وتأثم من اندفاعه . . فربه يذكره هنا بنعمته عليه ، إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم . ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد ؛ فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص ؟ وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن ؛ وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم ، وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض ، وأكثرهم ترفاً ومتاعاً وزينة . .

وفي الوقت المقدر . عندما نضج واستعد ، وابتلي فثبت وصبر ؛ وامتحن فجاز الامتحان . وتهيأت الظروف كذلك والأحوال في مصر ، وبلغ العذاب ببني إسرائيل مداه . .

في ذلك الوقت المقدر في علم الله جيء بموسى من أرض مدين ، وهو يظن أنه هو جاء : ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ .

جئت في الوقت الذي قدرته لمجيئك . . ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ خالصاً مستخلصاً ممحضاً لي ولرسالتي ودعوتي . . ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا . إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها واصطنعتك لتؤديها . فما لك في نفسك شيء . وما لأهلك منك شيء ، وما لأحد فيك شيء . فامض لما اصطنعتك له :

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له : قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ . .

اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتي وقد شهد منها آية العصا وآية اليد ولا تنيا في ذكري فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد . . اذهبا إلى فرعون . وقد حفظتك من شره من قبل . وأنت طفل وقد قذفت في التابوت ، فقذف التابوت في اليم ، فألقاه اليم بالساحل ، فلم تضرك هذه الخشونة ، ولم تؤذك هذه المخاوف . فالآن أنت معد مهيأ ، ومعك أخوك .

فلا عليك وقد نجوت مما هو أشد ، في ظروف أسوأ وأعنف .

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة . ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان .

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته ، راجيين أن يتذكر ويخشى . فالداعية الذي ييأس من

اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار.

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون. ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه. والله يحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم. وهو عالم بأنه سيكون. فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء.

وإلى هنا كان الخطاب لموسى عليه السلام وكان المشهد هو مشهد المناجاة في الفلاة. وهنا يطوي السياق المسافات والأبعاد والأزمان، فإذا هارون مع موسى. وإذا هما معاً يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون، ومن التسرع في أذاه، ومن طغيانه إذا دعواه:

(309/497)

﴿ قالا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى. فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم. قد جئناك بآية من ربك. والسلام على من اتبع الهدى. إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾.

وهارون لم يكن مع موسى قطعاً في موقف المناجاة الطويل الذي تفضل المنعم فيه على عبده

، فأطال له فيه النجاء ، وبسط له في القول ، وأوسع له في السؤال والجواب فردهما معا بقولهما : ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ لم يكن في موقف المناجاة . إنما هو السياق القرآني يطوي الزمان والمكان ، ويترك فجوات بين مشاهد القصص ، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس .

ولقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور . وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم هاهما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما : ﴿ قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ . .

والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى ، والطغيان اشمل من التسرع وأشمل من الأذى . وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما .

هنا يجيئهما الرد الحاسم الذي لا خوف بعده ، ولا خشية معه :

﴿ قال : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ . .

إنني معكما . . إنه القوي الجبار الكبير المتعال . إنه الله القاهر فوق عباده . إنه موجد الأكوان والحيوات والأفراد والأشياء بقولة : كن .

ولا زيادة . . إنه معهما . . وكان هذا الإجمال يكفي . ولكنه يزيدهما طمأنينة ، ولمسا

بالحس للمعونة : ﴿ أسمع وأرى . . ﴾ فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى ؟ والله معهما يسمع ويرى ؟

ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال :

﴿ فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك . فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ . .

إنه البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه . وهو رب الناس . فليس هو إلهاً خاصاً بموسى وهارون أو ببني إسرائيل ، كما كان سائداً في خرافات الوثنية يومذاك ان لكل قوم إلهاً أو آلهة ؛ ولكل قبيل إلهاً أو آلهة . أو كما كان سائداً في بعض العصور من أن فرعون مصر إله يعبد فيها لأنه من نسل الآلهة .

ثم إيضاح لموضوع رسالتهما : ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ . . ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون . لاستنقاذ بني إسرائيل ، والعودة بهم إلى عقيدة

التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ان يسكنوها (إلى أن يفسدوا فيها ، فيدمرهم تدميراً) .

ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة : ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك ، في هذه المهمة التي حددناها .

ثم ترغيب واستمالة : ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ : فلعله منهم يتلقى السلام ويتبع الهدى .

ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطغيانه : ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ . . فلعله لا يكون ممن كذب وتولى !

هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون . وهكذا رسم لهما الطريق . ودبر لهما الأمر . ليمضيا آمنين عارفين هاديين .

وهنا يسدل الستار ليرفع . فإذا هما أمام الطاغية في حوار وجدال .

لقد أتيا فرعون والسياق لا يذكر كيف وصلا إليه اتياه وربهما معهما يسمع ويرى . فأية قوة وأي سلطان هذا الذي يتكلم به موسى وهارون ، كائناً فرعون ما كان ؛ ولقد أبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه . والمشهد هنا يبدأ بما دار بينه وبين موسى عليه السلام من حوار :

﴿ قال : فمن ربكما يا موسى ! قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ . .

إنه لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه ، كما قالا له : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ فهو يسأل موجهاً الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : ﴿ فما ربكما يا موسى ؟ ﴾ من ربكما الذي تتكلمان باسمه وتطلبان اطلاق بني إسرائيل ؟

فأما موسى عليه السلام فيرد بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى : ﴿ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .

. ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ؛ وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . وثم هنا ليست للتراخي الزمني . فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها ، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته . إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته ؛ فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلاً . .

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود . . وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها . وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها . . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - في حدود ما يطيق - في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة

المدبرة في كل كائن صغير أو كبير . من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان .

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا ، والخلائق والأحياء ؛ وكل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حي فيه يتحرك ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى . . وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات !

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها ، داخل حدود الناموس العام ، في توافق وانتظام .

وكل كائن بمفرده ودعك من الكون الكبير يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه . دراستها مجرد دراسة لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها ، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان . وهو خلق من خلق الله . . وهبه وجوده ، على الهيئة التي وجد بها ؟ للوظيفة التي خلق لها ، كأي شيء من هاته الأشياء !

إلا أنه للإله الواحد . . ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . .

وثنى فرعون بسؤال آخر :

﴿ قال : فما بال القرون الأولى ؟ ﴾ .

ما شأن القرون التي مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا ؟

﴿ قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ . .

بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان . الخافي عن العيان ، إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء ولا ينسى شيئاً . فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله . في ماضيها وفي مستقبلها .

والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله .

ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان . فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون ، المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزروع والأنعام :

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ . .

والأرض كلها مهد للبشر في كل مكان وزمان . مهد كمهد الطفل . وما البشر إلا أطفال هذه الأرض . يضمهم حضنها ويغذوهم درها ! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة . جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شيء خلقه . فأعطى هذه الأرض خلقها على الهيئة التي خلقت بها صالحة للحياة التي قدرها فيها ؛ وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التي خلقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مهدها لهم وجعلها مهدهم . . المعنيان متقاربان متصلان .

وصورة المهد وصفة التمهيد لا تبدو في بقعة من الأرض كما تبدو في مصر . ذلك الوادي الخصيب الأخضر السهل الممهد الذي لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الكد في زرعه وجناه . وكأنما هو المهد الحاني على الطفل يضمه ويرعاه

والخالق المدبر الذي جعل الأرض مهداً ، شق للبشر فيها طرقاً وأنزل من السماء ماء . ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض ومنها نهر النيل القريب من فرعون فيخرج النبات أزواجاً من أجناس كثيرة . ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعي الحيوان .

وقد شاء الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء . وهي ظاهرة مطردة في الأحياء كلها . والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث في النبتة الواحدة وأحياناً يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية . وبذلك يتم

التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع . . ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ . . وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . .

ويكمل السياق حكاية قول موسى بقول مباشر من الله جل وعلا :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ .

(314/497)

من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهداً وسلكنا لكم فيها سبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجاً من نبات شتى ، للأكل والمرعى . . من هذه الأرض خلقناكم ، وفي هذه الأرض نعيدكم ، ومنها نخرجكم بعد موتكم .

والإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض . عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً . ومن زرعها يأكل ، ومن مائها يشرب ، ومن هوائها يتنفس . وهو ابنها وهي له مهد .

وإليها يعود جثة تطويها الأرض ، ورفاتاً يختلط بترابها ، وغازاً يختلط بهوائها ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى ، كما خلق في النشأة الأولى .

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر ، الذي يتسامى إلى مقام الربوبية ؛ وهو من هذه الأرض وإليها ؛ وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2327 . 2339 ﴾

(315/497)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

من باب الإشارة في الآيات : ﴿ طه ﴾ [طه : 1] يا ظاهراً بنا هادياً إلينا أو يا طائف كعبة الأحدية في حرم الهوية وهادي الأنفس الزكية إلى المقامات العلية ، وقيل : إن ط لكونه بحساب الجمل تسعة وإذا جمع ما انطوت عليه من الاعداد أعني الواحد والإثنين والثلاثة وهكذا إلى التسعة بلغ خمسة وأربعين إشارة إلى آدم لأن أعداد حروفه كذلك ، وه لكونها بحساب الجمل خمسة وما انطوت عليه من الأعداد يبلغ خمسة عشر إشارة إلى حوا بلا همز ، والإشارة بمجموع الأمرين إلى أنه صلى الله عليه وسلم أبو الخليقة وأمها فكأنه قيل : يا من تكونت منه الخليقة ، وقد أشار إلى ذلك العارف بن الفارض قدس سره بقوله على لسان

الحقيقة المحمدية :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة . . .

فلي منه معنى شاهد بابوتي

وقال في ذلك الشيخ عبد الغني النابلسي عليه الرحمة :

طه النبي تكونت من نوره كل البرية ثم لو ترك القطا . . .

وقيل : ﴿ طه ﴾ في الحساب أربعة عشر وهو إشارة إلى مرتبة البدرية فكأنه قيل : يا بدر سماء عالم الإمكان

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان لتشقى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ﴾ [طه : 2 ، 3] أي إلا لتذكر من يخشى أيام الوصال التي كانت قبل تعلق الأرواح بالأبدان وتخبرهم بأنها يحصل نحوها لهم لتطيب أنفسهم وترتاح أرواحهم أو لتذكرهم إياها ليشتاقوا إليها وتجري دموعهم عليها ويجتهدوا في تحصيل ما يكون سبباً لعودها ولله تعالى در من قال :

سقى الله أياماً لنا ولياليا . . .

مضت فجرت من ذكرهن دموع

فيا هل لها يوماً من الدهر أوبة . . .

وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع

وقيل: من يخشى هم العلماء لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر: 28].

(316/497)

ولما كان العلم مظنة العجب والفخر ونحوهما ناسب أن يذكر صاحبه عظمة الله عز وجل ليكون ذلك سوراً له مانعاً من تطرق شيء مما ذكر "الرحمن على العرش استوى" العرش جسم عظيم خلقه الله تعالى كما قيل من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط الذي هو مشرق أنوار القدم وشرفه بنسبة الاستواء الذي لا يكتنه، وقيل: خلق من أنوار أربعة مختلفة الألوان وهي أنوار سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولذا قيل له الأطلس، وإلى هذا ذهبت الطائفة الحادثة في زماننا المسماة بالكشفية.

(317/497)

وذكر بعض الصوفية أن العرش إشارة إلى قلب المؤمن الذي نسبة العرش المشهور إليه كنسبة الخردلة إلى الفلاة بل كنسبة القطرة إلى البحر المحيط وهو محل نظر الحق ومنصة تجليه

ومهبط أمره ومنزل تدليه ، وفي إحياء العلوم لحجة الإسلام الغزالي قال الله تعالى : "لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع" أي الساكن المطمئن ، وفي الرشدة لصدر الدين القونوي قدس سره بلفظ "ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقى النقى الوادع" وليس هذا القلب عبارة عن البضعة الصنوبرية فإنها عند كل عاقل أحقر من حيث الصورة أن تكون محل سره جل وعلا فضلاً عن أن تسعة سبحانه وتكون مطموح نظره الأعلى ومستواه عز شأنه وهي وأن سميت قلبا فإنما تلك التسمية على سبيل المجاز ، وتسمية الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول بل القلب الإنساني عبارة عن الحقيقة الجامعة بين الأوصاف والشؤون الربانية وبين الخصائص والأحوال الكوفية الرومانية منها والطبيعية وتلك الحقيقة تنشىء من بين الهيئة الاجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الإلهية والكونية وما يشتمل عليه هذان الأصلان من الأخلاق والصفات اللازمة وما يتولد من بينهما بعد الارتياض والتزكية ، والقلب الصنوبري منزل تدلي الصورة الظاهرة من بين ما ذكرنا التي هي صورة الحقيقة القلبية ، ومعنى وسع ذلك للحق جل وعلا على ما في مسلك الوسط الداني كونه مظهراً جامعاً للأسماء والصفات على وجه لا ينافي تنزيه الحق سبحانه من الحلول والاتحاد والتجزئة وقيام القديم بالحادث ونحو ذلك من الأمور المستحيلة عليه تعالى شأنه ، هذا لكن ينبغي أن يعلم أن هذا الخبر

وإن استفاض عند الصوفية قدست أسرارهم إلا أنه قد تعقبه المحدثون ، فقال العراقي : لم أر له أصلاً .

(318/497)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنه أشار بما في الإسرائيليات إلى ما أخرجه الإمام أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى فتح السموات لحزقيل حتى نظر إلى العرش فقال حزقيل : سبحانك ما أعظمك يا رب فقال الله تعالى : إن السموات والأرض ضعفن من أن يسعنني ووسعني قلب عبدي المؤمن الوادع اللين .

نعم لذلك ما يشهد له فقد قال العلامة الشمس ابن القيم في شفاء العليل ما نصه ، وفي المسند وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم : " القلوب آنية الله تعالى في أرضه فاحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها " انتهى .

وروى الطبراني من حديث أبي عنبسة الخولاني رفعه " إن لله تعالى آنية من الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينا وأرقها " وهذا الحديث وإن كان في سنده بقية بن الوليد وهو مدلس إلا أنه صرح فيه بالتحديث ؛ ويعلم من مجموع الحديثين أربع

صفات للقلب الأحب إليه تعالى اللين وهو لقبول الحق والصلابة وهي لحفظه فالمراد بها صفة تجامع اللين والصفاء والرقة وهما لرؤيته ، واستواؤه تعالى على العرش بصفة الرحمانية دون الرحيمية للإشارة إلى أن لكل أحد نصيباً من واسع رحمته جل وعلا ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] قيل : السر أمر كامن في القلب كمون النار في السجر الرطب حتى تثيره الإرادة لا يطلع عليه الملك ولا الشيطان ولا تحس به النفس ولا يشعر به العقل والإلا خفي ما في باطن ذلك .

وعند بعض الصوفية السر لطيفة بين القلب والروح وهو معدن الأسرار الروحانية والخفي لطيفة بين الروح والحضرة الإلهية وهو مهبط الأنوار الربانية وتفصيل ذلك في محله .

(319/497)

وقد استدل بعض الناس بهذه الآية على عدم مشروعية الجهر بالذكر والحق أنه مشروع بشرطه ، واختلفوا في أنه هل هو أفضل من الذكر الخفي أو الذكر الخفي أفضل منه والحق فيما لم يرد نص على طلب الجهر فيه وما لم يرد نص على طلب الإخفاء فيه أنه يختلف الأفضل فيه باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان فيكون الجهر أفضل من الإخفاء تارة والإخفاء أفضل أخرى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ رَأَى نَاراً ﴾ [طه : 9 ، 10]

قال الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة في تنبيه العقول : إن تلك النار كانت مجلى الله عز وجل وتجليه سبحانه فيها مراعاة للحكمة من حيث أنها كانت مطلوب موسى عليه السلام ، واحتج على ذلك بحديث رواه عن ابن عباس رضي الله عنه وسنذكره إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] الآية "فاخلع نعليك" أترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة وسر مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى ولا تلتفت إلى ما سواه سبحانه : ﴿ إنك بالوادي المقدس طوى ﴾ [طه : 12] وهو وادي قدس جلال الله تعالى وتنزع عزته عز وجل ، وقيل : النعلان إشارة إلى المقدمتين اللتين يتركب منهما الدليل لأنهما يتوصل بهما العقل إلى المقصود كالنعلين يلبسهما الانسان فيتوصل بالمشي بهما إلى مقصوده كأنه قيل : لا تلتفت إلى المقدمتين ودع الاستدلال فإنك في وادي معرفة الله تعالى المفعم بآثار ألوهيته سبحانه ﴿ فاعبدنى ﴾ قدم هذا الأمر للإشارة إلى عظم شرف العبودية ، وثنى بقوله سبحانه ﴿ وأقم الصلاةَ لِذِكْرِى ﴾ [طه : 14] لأن الصلاة من أعلام العبودية ومعارج الحضرة القدسية .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى موسى ﴾ [طه : 17] ايناس منه تعالى له عليه السلام فإنه عليه السلام دهش لما تكلم سبحانه معه بما يتعلق بالألوهية فسأله عن شيء بيده ولا يكاد يغلط فيه ليتكلم ويجيب فتزول دهشته ، قيل وكذلك يعامل المؤمن بعد موته وذلك أنه إذا مات وصل إلى حضرة ذي الجلال فيعتريه ما يعتريه فيسأه عن الإيمان الذي كان بيده في الدنيا ولا يكاد يغلط فيه فإذا ذكره زال عنه ما اعتراه ، وقيل : إن الله تعالى لما عرفه كمال الألوهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى أن فيها ما هو أعظم نفعاً مما ذكره تنبيهاً على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات الشيء الحاضر فلولا التوفيق كيف يمكنه الوصول إلى معرفة أجل الأشياء وأعظمها ﴿ فألقاها فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 20] فيه إشارة إلى ظهور أثر الجلال ولذلك خاف موسى عليه السلام فقال سبحانه : "خذها ولا تخف" فهذا الخوف من كمال المعرفة لأنه لم يأمن مكر الله تعالى ولو سبق منه سبحانه الايناس ، وفي بعض الآثار "يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوز الصراط" .

وقيل : كان خوفه من فوات المنافع المعدودة ولذا علل النهي بقوله تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيَرتَهَا الاولى ﴾ [طه : 21] وهذا جهل بمقام موسى عليه السلام .

وكذا ما قيل : إنه لما رأى الأمر الهائل فر حيث لم يبلغ مقام ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ [الذاريات : 50] ولو بلغه لم يفر .

وما قيل : أيضاً لعله لما حصل له مقام المكالمة بقي في قلبه عجب فأراه الله تعالى أنه بعد في النقص الإمكاني ولم يفارق عالم البشرية وما النصر والتثبيت إلا من عند الله تعالى وحده .

﴿ واضمم يَدكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ [طه : 22] أراد سبحانه أن يريه أية نفسية بعد أن أراه عليه السلام آية آفاقية كما قال سبحانه :

(321/497)

﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الافاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] وهذا من نهاية عنايته جل جلاله : وقد ذكروا في هذه القصة نكات وإشارات .

منها أنه سبحانه لما أشار إلى العصا واليمين بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ [طه : 17] حصل في كل منهما برهان باهر ومعجز قاهر فصار أحدهما وهو الجماد حيواناً والآخر وهو الكثيف نورانياً لطيفاً .

ثم أنه تعالى ينظر في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد فأي عجب أن ينقلب قلبه الجامد المظلم حياً مستنيراً ، ومنها أن العصا قد استعدت بيمين يمين موسى عليه السلام للحياة وصارت حية فيكق لا يستعد قلب المؤمن الذي هو بين أصبعين من أصابع الرحمن للحياة ويصير حيا .

ومنها إن العصا بإشارة واحدة صارت بحيث ابتلعت سحر السحرة فقلب المؤمن أولى أن يصير بمدد نظر الرب في كل يوم مرات بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء ، ومنها أن قوله تعالى أولاً : ﴿ اخلع نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : 12] إشارة إلى التخلية وتطهير لوح الضمير من الاغيار وما بعده إشارات إلى التحلية وتحصيل ما ينبغي تحصيله .

(322/497)

وأشار سبحانه إلى علم المبتدأ بقوله تعالى : ﴿ إِنِّنِى أَنَّا اللهُ ﴾ وإلى علم الوسط بقوله عز وجل ﴿ فاعْبُدْنِى وَأَقِم الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾ [طه : 14] وفيه إشارة إلى الأعمال الجسمانية والروحانية وإلى علم المعاد بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ [طه : 15] ومنها أنه تعالى افتتح الخطاب بقوله عز قائلاً : ﴿ وَأَنَّا اخترتك ﴾ [طه : 13] وهو غاية اللطف وختم الكلام بقوله جل وعلا : ﴿ فَلاَ يَصدّنكَ عَنْهَا ﴾ – إلى – ﴿ فتردى ﴾ [طه : 16] وهو قهر تنبيها على أن رحمته سبقت غضبه وأن العبد لا بد أن يكون سلوكه على قدمي الرجاء والخوف ، ومنها أن موسى عليه السلام كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فأمر بترك ما فيهما تنبيها على أن السالك ما دام في مقام الطلب والهرب كان مشتغلاً بنفسه وطالباً لحظه فلا

يحصل له كمال الاستغراق في بحر العرفان وفيه أن موسى عليه السلام مع جلالة منصبه وعلو شأنه لم يمكن لو الوصول إلى حضرة الجلال حتى خلع النعل وألقى العصا فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه وحضرته جل جلاله .

واستشكلت هذه الآية من حيث أنها تدل على أن الله تعالى خاطب موسى عليه السلام بلا واسطة وقد خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام فيلزم مزيه الكليم على الحبيب عليهما الصلاة والسلام .

والجواب أنه تعالى شأنه قد خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم أيضاً بلا واسطة ليلة المعراج غاية ما في البال أنه تعالى خاطب موسى عليه السلام في مبدأ رسالته بلا واسطة وخاطب حبيبه عليه الصلاة والسلام في مبدأ رسالته بواسطة ولا يثبت بمجرد ذلك المزية على أن خطابه لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم بلا واسطة كان مع كشف الحجاب ورؤيته عليه الصلاة والسلام إياه على وجه لم يحصل لموسى عليه السلام وبذلك يجبر ما يتوهم في تأخير الخطاب بلا واسطة عن مبدى الرسالة .

وانظر إلى الفرق بين قوله تعالى : عن نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم : 17] وقوله عن موسى عليه السلام : ﴿ قال هي عصاي ﴾ [طه : 18] الخ ترى الفرق واضحاً بين الحبيب والكليم مع أن لكل رتبة التكريم صلى الله عليه وسلم .

وذكر بعضهم أن في الآيات ما يشعر بالفرق بينهما أيضاً عليهما الصلاة والسلام من وجه آخر وذلك أن موسى عليه السلام كان يتوكأ على العصا والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتكل على فضل الله تعالى ورحمته قائلاً مع أمته وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولذا ورد في حقه ﴿ حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] على معنى وحسب من اتبعك . وأيضاً إنه عليه السلام بدأ بمصالح نفسه في قوله : ﴿ قَالَ هِىَ ﴾ ثم مصالح رعيته بقوله : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِى ﴾ [طه : 18] والنبي صلى الله عليه وسلم لم يشتغل إلا باصلاح أمر أمته اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون ، فلا جرم يقول موسى عليه السلام يوم القيامة .

نفسي نفسي والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : "أمتي أمتي" انتهى ، وهو مأخوذ من كلام الإمام بل لا فرق إلا بيسير جداً .

ولعمري أنه لا ينبغي أن يقتدي به في مثل هذا الكلام كما لا يخفى على ذوي الأفهام .

وإنما نقلته لأنبه على عدم الاغترار به نعوذ بالله تعالى من الخذلان ﴿ رَبِّ اشرح لِى صَدْرِى

﴾ [طه : 25] لم يذكر عليه السلام بم يشرح صدره وفيه احتمالات .

قال بعض الناس : إنه تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور .

(324/497)

الأول ذاته جل شأنه ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] الثاني الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ مّنَ اللهِ نُورٌ وكتاب ﴾ [المائدة : 15] ، الثالث الكتاب ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : 157] ، الرابع الإيمان : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ ﴾ [التوبة : 32] الخامس عدل الله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبّهَا ﴾ [الزمر : 69] السادس القمر ﴿ وَجَعَلَ القمر نُوراً ﴾ [النوح : 16] السابع النهار ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

الثامن البينات ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : 44] .

التاسع الأنبياء عليهم السلام ﴿ نور على نور ﴾ [النور : 35] ؛ العاشر المعرفة ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ [النور : 35] فكان موسى عليه السلام قال أولاً ﴿ رَبّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ [طه : 25] بمعرفة أنوار جلال كبريائك ، وثانياً ﴿ رَبّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ بالتخلق بأخرق رسلك وأنبيائك ، وثالثاً ﴿ رَبّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ باتباع

وحبيك وامتثال أمرك ونهيك ، ورابعاً ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ بنور الإيمان والايقان بالهيتك ، وخامساً ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ بالاطلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك .

وسادسا ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام ، وسابعا ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل قهرك ، وثامنا "رب اشرح لي صدري" بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك في أرضك وسمواتك ، وتاسعا ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ في أن أكون خلف صدق للأنبياء المتقدمين ومشابهاً لهم في الانقياد لحكم رب العالمين ، وعاشراً ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ بأن يجعل سراج الإيمان كالمشكاة التي فيها المصباح انتهى .

(325/497)

ولا يخفى ما بين أكثر ما ذكر من التلازم واغناء بعضه عن بعض ، وقال أيضاً : إن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير كالسراج ، ولا يخفى أن مستوقد السراج محتاج إلى سبعة أشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن ، فالزند زند

المجاهدة ﴿ والذين جاهدوا ﴾ [العنكبوت : 69] والحجر حجر التضرع ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 55] والمسرجة الصبر ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] والفتيلة الشكر و ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم 7) والدهن الرضا ﴿ واصبر لِحُكْمِ رَبّكَ ﴾ [الطور : 48] أي ارض بقضائه ، ثم إذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن تطلب المقصود من حضرة ربك جل وعلا قائلاً : ﴿ رَبّ اشرح لِى صَدْرِى ﴾ فهنالك تسمع ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى موسى ﴾ [طه : 36] ثم إن هذا النور الروحاني أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه ، الأول أن الشمس يحجبها الغيم وشمس المعرفة لا تحجبها السموات السبع ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] .

الثاني الشمس تغيب ليلاً وشمس المعرفة لا تغيب ليلاً : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِىَ أَشَدُّ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : 6] ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] ﴿ سبحان الذي أسري بعبده ليلاً ﴾ [الإسراء : 1] .

الليل للعاشقين ستر . . .

يا ليت أوقاته تدوم

الثالث الشمس تفنى ﴿ إِذَا الشمس كُوّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] والمعرفة لا تفنى .

﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ [إبراهيم : 24] ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ يس : 58) ، الرابع الشمس إذا قابلها القمر انكسفت ، وشمس المعرفة وهي ﴿ أُشْهِدُ أَن لاَّ إله إِلاَّ الله ﴾ إذا لم تقرن بقمر النبوة وهي أشهد أن محمداً رسول الله لم يصل النور إلى عالم الجوارح ، الخامس الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيض الوجوه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] ، السادس الشمس تصدع والمعرفة تصعد .

السابع الشمس تحرق والمعرفة تمنع من الاحراق ﴿ جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي ﴾ الثامن الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في الدارين ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] التاسع الشمس فوقانية الصورة تحتانية المعنى والمعارف الإلهية بالعكس ، العاشر الشمس تقع على الولي والعدو والمعرفة لا تحصل إلا للولي ، الحادس عشر الشمس ترعف أحوال الخلق والمعرفة توصل القلب إلى الخالق ، ولما كان شرح الصدر الذي هو أول مراتب الروحانيات أشرف من أعلى مراتب الجسمانيات بدأ موسى عليه السلام بطلبه قائلاً ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ وعلامة شرح الصدر ودخول النور الإلهي فيه التجافي عن دار الغرور والرغبة في دار الخلود وشبهوا الصدر بقلعة وجعلوا الأول كالخندق لها والثاني كالسور فمتى كان الخندق عظيماً والسور محكماً عجز عسكر الشيطان من الهوى والكبر والعجب والبخل وسوء

الظن بالله تعالى وسائر الخصال الذميمة ومتى لم يكونا كذلك دخل العسكر وحينئذ ينحصر الملك في قصر القلب ويضيق الأمر عليه.

(327/497)

وفرقوا بين الصدر والقلب والفؤاد واللب بأن الصدر مقر الإسلام ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ [الزمر: 22] والقلب مقر الإيمان ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمان وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 7] ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ [المجادلة: 22] والفؤاد مقر المشاهدة ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ [النجم: 11] واللب مقام التوحيد ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [الرعد: 19] أي الذين خرجوا من قشر الوجود المجازي وبقوا بلب الوجود الحقيقي؛ وإنما سأل موسى عليه السلام شرح الصدر دون القلب لأن انشراح الصدر يستلزم انشراح القلب دون العكس وأيضاً شرح الصدر كالمقدمة لشرح القلب والحر تكفيه الإشارة، فإذا علم المولى سبحانه أنه طالب للمقدمة فلا يليق بكرمه أن يمنعه النتيجة.

وأيضاً أنه عليه السلام راعي الأدب في الطلب فاقتصر على طلب الأدنى فلا جرم أعطى المقصود فقيل: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى موسى ﴾ [طه: 6] ولما اجترأ في طلب

الرؤية، قيل له: ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ [الأعراف: 143]، ولا يخفى ما بين قول موسى عليه السلام لربه عز وجل ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ [طه: 25] وقول الرب لحبيبه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: 1] ويعلم منه أن الكليم عليه السلام مريد والحبيب صلى الله عليه وسلم مراد والفرق مثل الصبح ظاهر.

(328/497)

ويزيد الفرق ظهوراً أن موسى عليه السلام في الحضرة الإلهية طلب لنفسه ونبينا صلى الله عليه وسلم حين قيل له هناك السلام عليك أيها النبي قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقد أطال الإمام الكلام في هذه الآية بما هو من هذا النمط فارجع إليه إن أردته ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه: 27، 28] كأنه عليه السلام طلب قدرة التعبير عن الحقائق الإلهية بعبارة واضحة فإن المطلب وعر لا يكاد توجد له عبارة تسهله حتى يأمن سامعه عن العثار.

ولذا ترى كثيراً من الناس ضلوا بعبارات بعض الأكابر من الصوفية في "شرح الأسرار الألهية" وقيل: إنه عليه السلام سأل حل عقدة الحياء فإنه استحيا أن يخاطب عدو الله تعالى بلسان به خاطب الحق جل وعلا.

ولعله أراد من القول المضاف القول الذي به ارشاد للعباد فإن همة العارفين لا تطلب النطق والمكالمة مع الناس فيما لا يحصل به ارشاد لهم نعم النطق من حيث هو فضيلة عظيمة وموهبة جسيمة ولهذا قال سبحانه : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ﴾

[الرحمن : 41] من غير توسيط عاطف .

وعن علي كرم الله تعالى وجهه ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة مصورة أو بهيمة مهملة ، وقال رضي الله عنه : المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه ، وقال رضي الله تعالى عنه : المرء باصغريه قلبه ولسانه ، وقال زهير :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده . . .

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومن الناس من مدح الصمت لأنه أسلم .

يموت الفتى من عثرة بلسانه . . .

وليس يموت المرء من عثرة الرجل

وفي نوابغ الكلم ق فاك لا يقرع قفاك ، والإنصاف أن الصمت في نفسه ليس بفضيلة لأنه أمر عدمي والمنطق في نفسه فضيلة لكن قد يصير رذيلة لأسباب عرضية ، فالحق ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله : " رحم الله تعالى امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم " .

وذكر في وجه عدم طلبه عليه السلام الفصاحة الكاملة أنها نصيب الحبيب عليه الصلاة والسلام ، فقد كان صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد فما كان له أن يطلب ما كان له ﴿ واجعل لّى وَزِيرا مّنْ أَهْلِى هارون أَخِى اشدد بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ [طه : 29-32] فيه إشارة إلى فضيلة التعاون في الدين فإنه من أخلاق المرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين ، والوزارة المتعارفة بين الناس ممدوحة إن زرع الوزير في أرضها ما لا يندم عليه وقت حصاده بين يدي ملك الملوك ، وفيه إشارة أيضاً إلى فضيلة التوسط بالخير للمستحقين لا سيما إذا كانوا من ذوي القرابة :

ومن منع المستوجبين فقد ظلم . . .

وفي تقديم موسى عليه السلام مع أنه أصغر سناً على هارون عليه السلام مع أنه الأكبر دليل على أن الفضل غير تابع للسن فالله تعالى يختص بفضله من يشاء ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ [طه : 35] في ختم الأدعية بذلك من حسن الأدب مع الله تعالى ما لا يخفى ، وهو من أحسن الوسائل عند الله عز وجل .

ومن آثار ذلك استجابة الدعاء ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 37] تذكير له

عليه السلام بما يزيد إيقانه ، وفيه إشارة إلى أنه تعالى لا يريد بعد القبول ولا يحرم بعد الإحسان ، ومن هنا قيل : إذا دخل الإيمان القلب أمن السلب وما رجع من رجع إلا من الطريق ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ [طه : 14] أفردتك لي بالتجريد فلا يشغلك عني شيء فلبثت سنين في أهل مدين أشير بذلك إلى خدمته لشعيب عليه السلام وذلك تربية منه تعالى له بصحبة المرسلين ليكون متخلقاً بأخلاقهم متحلياً بآدابهم صالحاً للحضرة .

ولصحبة الأخيار نفع عظيم عند الصوفية وبعكس ذلك صحبة الأشرار ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا موسى موسى ﴾ [طه : 40] وذلك زمان كمال الاستعداد ووقت بعثة الأنبياء عليهم السلام وهو زمن بلوغهم أربعين سنة ، ومن بلغ الأربعين ولم يغلب خيره على شره فلينح على نفسه وليتجهز إلى النار

﴿ اذهبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 43] جاوز الحد في المعصية حتى ادعى الربوبية وذلك أثر سكر القهر الذي هو وصف النفس الأمارة ويقابله سكر اللطف وهو وصف الروح ومنه ينشأ الشطح ودعوى الأنانية قالوا : وصاحبه معذور وإلا لم يكن فرق بين الحلاج مثلا وفرعون .

وأهل الغيره بالله تعالى يقولون : لا فرق ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] فيه إشارة إلى تعليم كيفية الإرشاد ، وقال النهرجوري : إن الأمر بذلك لأنه أحسن إلى موسى عليه السلام في ابتداء الأمر ولم يكافئه ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ [طه : 55] إشارة إلى الهياكل وأقفاص بلابل الأرواح وإلا فالأرواح أنفسها من عالم الملكوت ، وقد أشرقت على هذه الأشباح ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : 96] والله تعالى أعلم .

وقد تأول بعض أهل التأويل هذه القصة والآيات على ما في الأنفس وهو مشرب قد تركناه إلا قليلاً .

والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(331/497)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 56 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 69 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما ذكر مما علق بالأرض من المرافق وغيره على غاية من الوضوح ، ليس وراءها مطمح ، فكان المعنى : أرينا فرعون هذا الذي ذكرنا لكم من آياتنا وغيره ، وكان المقام لتعظيم القدرة ، عطف عليه قوله : ﴿ ولقد أريناه ﴾ أي بالعصا واليد وغيرهما مما تقدم من مقتضى عظمتنا ﴿ آياتنا ﴾ أي التي عظمتها من عظمتنا ﴿ كلها ﴾ بالعين والقلب لأن من قدر على مثل ذلك فهو قادر على غيره من أمثاله من خوارق العادات ، لأن الممكنات بالنسبة إلى قدرته على حد سواء ، لا سيما والذي ذكر أمهات الآيات كما سيومأ إليه إن شاء الله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ فكذب ﴾ أي بها ﴿ وأبى ﴾ أي أن يرسل بني إسرائيل ؛ وهذا أبلغ من تعديد ما ذكر في الأعراف ، فكأنه قيل : كيف صنع في تكذيبه وإبائه ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ حين لم يجد مطعناً مخيلاً للقبط بما يثيرهم حمية لأنفسهم لأنه علم حقية ما جاء به موسى وظهوره ، وتقبل العقول له ، فخاف أن يتبعه الناس ويتركوه ، ووهن في نفسه

وهناً عظيماً بتأمل كلماته مفردة ومركبة يعرف مقداره : ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ﴾ هذه التي نحن مالكوها ﴿ بسحرك يا موسى ﴾ فخيل إلى أتباعه أن ذلك سحر ، فكان ذلك - مع ما ألفوه من عادتهم في الضلال - صارفاً لهم عن اتباع ما رأوا من البيان ، ثم وصل بالفاء السببية قوله مؤكداً إيذاناً بعلمه أن ما أتى به موسى ينكر كل من يراه أن يقدر غيره على معارضته : ﴿ فلنأتينك ﴾ أي والإله الأعظم ! بوعد لا خلف فيه ﴿ بسحر مثله ﴾ تأكيداً لما خيل به ؛ ثم أظهر النصفة والعدل إيثاقاً لربط قومه فقال : ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ أي من الزمان والمكان ﴿ لا نخلفه ﴾ أي لا نجعله خلفنا ﴿ نحن ولا أنت ﴾ بأن نقعد عن إتيانه .

(5/498)

ولما كان من الزمان والمكان لا ينفك عن الآخر قال : ﴿ مكاناً ﴾ وآثر ذكر المكان لأجل وصفه بقوله : ﴿ سوى ﴾ أي عدلاً بيننا ، لا حرج على واحد منا في قصده أزيد من حرج الآخر ، فانظر هذا الكلام الذي زوقه وصنعه ونمقه فأوقف به قومه عن السعادة واستمر يقودهم بأمثاله حتى أوردهم البحر فأغرقهم ، ثم في غمرات النار أحرقهم ، فعلى الكيس

الفطن أن ينقد الأقوال والأفعال ، والخواطر والأحول ، ويعرضها على محك الشرع : الكتاب والسنة ، فما وافق لزمه وما لا تركه .

(6/498)

ولما كان مجتمع سرورهم الذي اعتادوه حاوياً لهذه الأغراض زماناً ومكاناً وغيرهما ، اختاره عليه السلام لذلك ، فاستؤنف الخبر عنه في قوله تعالى : { قال موعدكم } أي الموصوف { يوم الزينة } أي عيدكم الذي اعدتم الاجتماع فيه في المكان الذي اعتدتموه ، فآثر هنا ذكر الزمان وإن كان يتضمن المكان لما فيه من عادة الجمع كما آثر فيما تقدم المكان لوصفه بالعدل { وأن يحشر } بناه للمفعول لأن القصد الجمع ، لا كونه من معين { الناس } أي إغراء ولو بكره { ضحى } ليستقبل النهار من أوله ، فيكون أظهر لما يعمل وأجلى ، ولا يأتي الليل إلا وقد قضي الأمر ، وعرف المحق من المبطل ، وأنتم أجمع ما تكونون وأفرغ ، فيكل حد المبطلين وأشياعهم ، والمتكبرين على الحق وأتباعهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر { فتولى فرعون } عن موسى إلى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لأمر الله { فجمع كيده } أي مكره وحيلته وخداعه ، الذي دبره على موسى بجمع من يحصل بهم الكيد ،

وهم السحرة ، حشرهم من كل أوب ، وكان أهل مصر أسحر أهل الأرض وأكثرهم ساحراً ، وكانوا في ذلك الزمان أشد اعتناء بالسحر وأمهر ما كانوا وأكثر ﴿ ثم أتى ﴾ للميعاد الذي وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس ، مع توفر الدواعي على الإتيان للعيد ، والنظر إلى تلك المغالبة التي لم يكن مثلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 25 . 27 ﴾

(7/498)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) ﴾

(8/498)

اعلم أنه تعالى بين أنه أرى فرعون الآيات كلها ثم إنه لم يقبلها واختلفوا في المراد بالآيات ، فقال بعضهم أراد كل الأدلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة ، أما التوحيد فما ذكر في هذه

السورة من قوله : ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] وقوله : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ [طه : 53] الآية ، وما ذكر في سورة الشعراء : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ؟ * قَالَ رَبُّ السموات والأرض ﴾ [الشعراء : 23 ، 24] الآيات ، وأما النبوة فهي الآيات التسع التي خص الله بها موسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ، ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهي هذه المعجزات ، وإنما أضاف الآيات إلى نفسه سبحانه وتعالى مع أن المظهر لها موسى عليه السلام لأنه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح إلى نفسه فقال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 91] مع أن النفخ كان من جبريل عليه السلام ، فإن قيل قوله : كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لأن من جملة الآيات ما أظهرها على الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا : لفظ الكل وإن كان للعموم لكن قد يستعمل في الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شيء أو يقال إن موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الأنبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه أنه كذب وأبى قال القاضي : الإباء الامتناع وإنه لا يوصف به إلا من يتمكن من الفعل

والترك ولأن الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح ، واعلم أن هذا

(9/498)

السؤال مر في سورة البقرة في قوله : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى واستكبر ﴾ [البقرة : 34] والجواب مذكور هناك ، ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى ﴾ وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لأنه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جداً وهو قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساوياً للقتل في قوله : ﴿ أَنِ اقتلوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخرجوا مِن دياركم ﴾ [النساء : 66] ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته عليه السلام وهي أن ما جئتنا به سحر لا معجز ، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مّثْلِهِ ﴾ أما قوله تعالى : ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ﴾ فاعلم أن الموعد يجوز أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون اسماً لمكان الوعد كقوله :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 43] وأن يكون اسماً لزمان الوعد كقوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ [هود : 81] والذي في هذه الآية بمعنى المصدر أي اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه لأن الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف .

أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ، ومما يؤكد ذلك أن الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان وإنما نصب مكاناً لأنه هو المفعول الثاني للجعل والتقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكاناً سوى .

(10/498)

أما قوله : ﴿ سُوًى ﴾ فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر ﴿ سُوًى ﴾ بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى ، وقرىء أيضاً منوناً وغير منون ، وذكروا في معناه وجوهاً : أحدها : قال أبو علي مكاناً تستوي مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفاً بيننا .

وثانيها : قال ابن زيد : ﴿ سُوًى ﴾ أي مستوياً لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الأول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعاً مستوياً لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل

الحاضرين كل ما يجري .

وثالثها : مكاناً يستوي حالنا في الرضاء به .

ورابعها : قال الكلبي : مكاناً سوى هذا المكان الذي نحن فيه الآن .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

يحتمل أن قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ ﴾ أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام ، قال القاضي والأول أظهر لأنه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام ، وعندي الأظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه .

أحدها : أنه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعداً .

وثانيها : وهو أن تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه إنما يليق بالمحق الذي يعرف أن اليد له لا المبطل الذي يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس .

وثالثها : أن قوله : موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون إلى موسى وهرون لزم إما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على أن أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه استقام الكلام .

المسألة الثانية :

يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج : إذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع أن يكون رفعاً ويجوز فيه الخفض عطفاً على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فإن قيل ألستم قلتم في تفسير قوله : ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ [طه : 58] إن التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكاناً سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان ؟ قلنا هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهود باجتماع الناس في ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان .

المسألة الثالثة :

ذكر المفسرون في يوم الزينة وجوهاً .

أحدها : أنه يوم عيد لهم يتزينون فيه .

وثانيها : قال مقاتل يوم النيروز .

وثالثها : قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم .

ورابعها : قال ابن عباس يوم عاشوراء ، وإنما قال يحشر فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم ، وقرىء وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يا فرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة ، إما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ ﴾ وجعل ضمير يحشر لفرعون وإنما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الأمر العجيب في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر ، قال القاضي : إنه عين اليوم بقوله : ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ ثم عين من اليوم وقتاً معيناً بقوله : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ وأما قوله : ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أتى ﴾ فاعلم أن التولي قد يكون إعراضاً وقد يكون انصرافاً والظاهر ههنا أنه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذي تواعدوا للاجتماع [فيه] ، قال مقاتل : فتولى أي أعرض وثبت على إعراضه عن الحق ودخل تحت قوله : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ دخل تحت أتى الموضع بالسحرة وبالقوم

وبالآلات

قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر إليهم وكان طول القبة سبعين ذراعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 64.62 ﴾

(13/498)

وقال الماوردى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : حجج الله الدالة على توحيده .

الثاني : المعجزات الدالة على نبوة موسى ، يعني التي أتاها موسى ، وإلا فجميع الآيات لم يرها .

﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ يعني فكذب الخبر وأبى الطاعة .

ويحتمل وجهاً آخر : يعني فجحد الدليل وأبى القبول .

قوله تعالى : ﴿ مَكَاناً سُوىً ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : منصفاً بينهم .

الثاني : عدلاً بيننا وبينك ، قاله قتادة والسدي .

الثالث : عدلاً وسطاً ، قاله أبو عبيدة وأنشد :

وإن أبانا كان حَلّ ببلدة . . . سوى بين قيس قيس عيلان والغزر

الرابع : مكاناً مستوياً يتبين للناس ما بيناه فيه ، قاله ابن زيد .

ويقرأ سُوى بضم السين وكسرها ، وفيهما وجهان :

أحدهما : أن : معناهما واحد وإن اختلف لفظهما .

والثاني : أن معناهما ، فهو بالضم المنصف ، وبالكسر العدل .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه يوم عيد كان لهم ، قاله مجاهد وابن جريج والسدي وابن زيد وابن إسحاق .

الثاني : يوم السبت ، قاله الضحاك .

الثالث : عاشوراء ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه يوم سوق كانوا يتزينون فيها ، قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ولقد أريناه ﴾

إخبار لمحمد صلى الله عليه وسلم عن فرعون ، وهذا يؤيد أن الكلام من قوله ﴿ فأخرجنا ﴾ إنما هو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ كلها ﴾ عائد على الآيات التي رآها لا أنه رأى كل آية لله ، وإنما المعنى أن الله تعالى أراه آيات ، ما بكما لها فأضاف الآيات إلى ضمير العظمة تشريفاً لها ، وقوله تعالى : ﴿ وأبى ﴾ يقتضي تكسب فرعون وهذا هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) ﴾

هذه المقاولة من فرعون تدل على أن أمر موسى قد كان قوي وكثر متبعوه من بني إسرائيل ووقع أمره في نفوس الناس ، وذلك أنها مقاولة من يحتاج إلى الحجة لا من يصدع بأمر نفسه ، وأرضهم هي أرض مصر ، وقرأت فرقة " لا نخلفُه " بالرفع ، وقرأت فرقة " لا نخلفْه " بالجزم على جواب الأمر ، و﴿ نحن ﴾ تأكيد للضمير من حيث احتاج الكلام إلى العطف عليه أكد ، و﴿ موعداً ﴾ مفعول أول ل ﴿ فاجعل ﴾ ، و﴿ مكاناً ﴾ مفعول ثان هذا الذي اختار أبو علي ومنع أن يكون ﴿ مكاناً ﴾ معمولاً لقوله ﴿ موعداً ﴾ لأنه قد وصف وهذه الأسماء العاملة عمل الفعل إذا نعتت أو عطف عليها أو أخبر عنها أو صغرت أو

جمعت وتوغلت في الاسمية بمثل هذا لم تعمل ولا تعلق بها شيء هو منها ، وقد يتوسع في الظروف فتعلق بعد ما ذكرنا كقوله عز وجل : ﴿ ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون ﴾ [غافر : 10] فقوله ﴿ إذ ﴾ [غافر : 10] معلق بقوله ﴿ لمقت الله ﴾ [غافر : 10] وهو قد أخبر عنه وإنما جاز هذا في الظروف خاصة ، وكذلك منع أبو علي أن يكون قوله ﴿ مكاناً ﴾ قصياً على الظرف الساد مسد المفعول .

(15/498)

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ومنع قوم أن يكون ﴿ مكاناً ﴾ نصب على المفعول الثاني بتخلفه ، وجوزه جماعة من النحاة ووجهه أن يتسع في أن يخلف الوعد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائي "سِوى" بكسر السين ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة "سُوى" بضمها ، والجمهور نون الواو ، وقال أبو الفتح ترك الصرف هنا مشكل والذي ينبغي أن يكون محمولاً على الوقف ، وقرأت فرقة "سوى" ذكره أبو عمرو عن ابن أبي عبلة ومعنى "سوى" أي عدلاً ونصفة قال أبو علي : فكأنه قال "مكاناً" قربه منكم قربه منا (ع) إنما أراد أن حالنا فيه مستوية فيعم ذلك القرب وأن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق أي لا يعترضكم فيه الرياسة وإنما تقصد الحجة . و﴿ سوى ﴾ لغة في سوى ومن

هذه اللفظة قول الشاعر [موسى ابن جابر الحنفي] [الطويل]

وإن أباناً كان حل ببلدة . . . سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

وقالت فرقة مستوياً من الأرض لا وهد فيه ولا نشز ، وقالت فرقة معناه سوى مكاناً هذا فقال موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ اتسع في الظرف من قرأه برفع " يومُ " فجعله خبراً وقرأ الحسن والأعمش والثقفي " يومَ " بالنصب على الظرف والخبر مقدر ، وروي أن ﴿ يوم الزينة ﴾ كان عيداً لهم ويوماً مشهوراً وصادف يوم عاشوراء وكان يوم سبت وقيل هو يوم كسر الخليج الباقي إلى اليوم . وقوله ﴿ وأن يحشر الناس ﴾ عطف على ﴿ الزينة ﴾ فهو في موضع خفض ، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على تقدير وموعدكم أن يحشر الناس ، ويقلق عطفه على " اليوم " وفيه نظر ، وقرأ الجمهور " حُشر الناسُ " رفعاً وقرأ ابن مسعود والخدري وجماعة "يَحشُر الناسَ" بفتح الياء وضم الشين ونصب " الناسَ " وقرأت فرقة " نحشر الناس " بالنون . والحشر الجمع ومعناه نحشر الناس لمشاهده المعارضة والتهيؤ لقبول الحق حيث كان .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) ﴾

المعنى " فجمع " السحرة ووعدهم وأمرهم بالإعداد لموسى ، وروي أمرهم ، فهذا هو ﴿ كيده ﴾ ، ﴿ ثم أتى ﴾ فرعون بجمعه وأهل دولته والسحرة معه وكانت عصابة لم يخلق الله أسحر منها وجاء أيضاً موسى عليه السلام ببني إسرائيل معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/498)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد أريناه ﴾

يعني : فرعون ﴿ آياتِنا كُلَّها ﴾ يعني : التسع الآيات ، ولم ير كلّ آية لله ، لأنها لا تُحصى ، ﴿ فكذَّب ﴾ أي : نسب الآيات إِلى الكذب ، وقال : هذا سِحْر ﴿ وأبى ﴾ أن يؤمن ﴿ قال أجئتَنا لتُخرجنا من أرضنا ﴾ يعني : مصر ﴿ بسِحْرك ﴾ أي : تريد أن تغلب على ديارنا بسحرك فتملكها وتخرجنا منها ﴿ فلنأْتينَّك بسِحْرٍ مثِله ﴾ أي : فلنقابلنّ ما جئتَ به من السّحر بمثله ﴿ فاجعل بيننا وبينكَ موعداً ﴾ أي : اضرب بيننا وبينكَ أجَلاً وميقاتاً ﴿ لا نُخْلِفُه ﴾ أي : لا نجاوزه ﴿ نحنُ ولا أنتَ مكاناً ﴾ وقيل : المعنى : اجعل بيننا وبينكَ موعداً مكاناً نتواعد لحضورنا ذلك المكان ، ولا يقع مِنّا خلاف في

حضوره .

﴿ سوىً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي بكسر السين .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، وخلف ، ويعقوب : "سُوىً" بضمها .

وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وابن أبي عبلة : "مكاناً سَواءً" بالمد والهمز والنصب والتنوين وفتح السين .

وقرأ ابن مسعود مثله ، إلا أنه كسر السين .

قال أبو عبيدة : هو اسم للمكان النصف فيما بين الفريقين ، والمعنى : مكاناً تستوي مسافته على الفريقين ، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر .

﴿ قال موعدكم يومُ الزينة ﴾ قرأ الجمهور برفع الميم .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، [وقتادة] ، وابن أبي عبلة ، وهبيرة عن حفص بنصب الميم .

وفي هذا اليوم أربعة أقوال .

أحدها : يوم عيد لهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، والسدي عن أشياخه ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : يوم عاشوراء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : يوم النيروز ، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة ، رواه الضحاك عن ابن

عباس .

والرابع : يوم سوق لهم ، قاله سعيد بن جبير .

(18/498)

وأما رفع اليوم ، فقال البصريون : التقدير : وقتُ موعدكم يومُ الزينة ، فناب الموعد عن الوقت ، وارتفع به ما كان يرتفع بالوقت إِذا ظهر .

فأما نصبه ، فقال الزجاج : المعنى : موعدكم يقع يوم الزينة ، ﴿ وأن يُحْشَرَ الناس ﴾ موضع "أن" رفع ، المعنى : موعدكم حشر الناس ﴿ ضحى ﴾ أي : إِذا رأيتم الناس قد حُشروا ضحى .

ويجوز أن تكون "أن" في موضع خفض عطفاً على الزينة ، المعنى : موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس ضحىً .

وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : "وأن تَحْشُرَ" بتاء مفتوحة ورفع الشين ونصب "الناسَ" .

وعن ابن مسعود ، والنخعي : "وأن يَحشُر" بالياء المفتوحة ورفع الشين ونصب "الناسَ" .

قال المفسرون : أراد بالناس : أهلَ مصر ، وبالضحى : ضحى اليوم ، وإِنما علَّقه بالضحى

، ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس ، فيكون أبلغَ في الحجة وأبعدَ من الريبة .

﴿ فتولَّى فرعون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : تولّى عن الحق الذي أُمِر به .

والثاني : أنه انصرف إلى منزله لاستعداد ما يلقى به موسى ، ﴿ فجمع كيده ﴾ أي : مكره وحيلته ﴿ ثم أتى ﴾ أي : حضر الموعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(19/498)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾

أي المعجزات الدالة على نبوّة موسى .

وقيل : حجج الله الدالة على توحيده .

﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أي لم يؤمن .

وهذا يدل على أنه كفر عِناداً ، لأنه رأى الآيات عِياناً لا خبراً .

نظيره ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا موسى ﴾ لما رأى الآيات التي أتاه بها موسى قال : إنها سحر ؛ والمعنى : جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك ، حتى تغلب على أرضنا وعلينا .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي لنعارضنك بمثل ما جئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله .

﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ هو مصدر ؛ أي وعداً .

وقيل : الموعد اسم لمكان الوعد ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 43] فالموعد هاهنا مكان .

وقيل : الموعد اسم لزمان الوعد ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ [هود : 81] فالمعنى : اجعل لنا يوماً معلوماً ، أو مكاناً معروفاً .

قال القشيري : والأظهر أنه مصدر ولهذا قال : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ، والإخلاف أن يعد شيئاً ولا ينجزه .

وقال الجوهري : والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك المَوْعِد .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج "لاَ نُخْلِفْهُ" بالجزم جواباً لقوله "اجْعَلْ" .

ومن رفع فهو نعت لـ"موعد" والتقدير .

موعداً غير مخلف .

﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة "سُوًى" بضم السين.

الباقون بكسرها؛ وهما لغتان مثل عُداً وعِداً وطُوًى وطِوًى.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة.

وقال النحاس: والكسر أعرف وأشهر.

(20/498)

وكلهم نوّنوا الواو، وقد روي عن الحسن، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين.

واختلف في معناه فقيل: سوى هذا المكان؛ قاله الكلبي.

وقيل: مكاناً مستوياً يتبيّن للناس ما بيّناه فيه؛ قاله ابن زيد.

ابن عباس: نصفاً.

مجاهد: منصفاً؛ وعنه أيضاً وقتادة عَدلاً بيننا وبينك.

وقال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى "سُوًى" نَصَف وعَدْل وهو قول حسن؛ قال سيبويه يقال: سِوى وسُوًى أي عَدْل؛ يعني مكاناً عَدْلاً بين المكانين فيه النَّصَفة؛ وأصله من قولك: جلس في سَواء الدار بالمدّ أي في وسطها؛ ووسط كل شيء أعدله؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة:

143] أي عدلاً ، وقال زهير :

أَرُونَا خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيها . . .

يُسَوِّي بيننا فيها السَّوَاءُ

وقال أبو عبيدة والقتبي : وسطا بين الفريقين ؛ وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي :

وإنَّ أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ . . .

سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلاَنَ والفِزْرِ

والفِزْر : سعد بن زيد مَناة بن تميم .

وقال الأخفش : "سِوًى" إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل يكون فيه ثلاث لغات : إن ضممت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعاً .

وإن فتحت مددت ، تقول : مكان سِوًى وسُوًى وسَواء ؛ أي عدل ووسط فيما بين الفريقين .

قال موسى بن جابر :

وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ . . .

البيت .

وقيل : "مكاناً سوى" أي قصداً ؛ وأنشد صاحب هذا القول :

لو تَمنَّتْ حَبِيبتي ما عَدَتْني . . .

أو تَمَنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها

وتقول: مررت برجل سِواك وسُوَاك وسَوَائِك أي غيرك.

وهما في هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان.

وهم سواء للجميع وهم أسواء؛ وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس.

وانتصب "مكاناً" على المفعول الثاني ل"جعل".

(21/498)

ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه مفعول أو ظرف له؛ لأن الموعد قد وصف، والأسماء التي تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغِّرت لم ينبغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثاني؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجره العرب مجرى المصادر مع الظروف، لكنهم يتسعون فيه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ [هود: 81] و﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾.

واختلف في يوم الزينة، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزيّنون ويجتمعون فيه؛ قاله قتادة والسدي وغيرهما.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم عاشوراء.

وقال سعيد بن المسيّب : يوم سوق كان لهم يتزَيَّنون فيها ؛ وقاله قتادة أيضاً .

وقال الضحاك : يوم السبت .

وقيل : يوم النيروز ؛ ذكره الثعلبي .

وقيل : يومٌ يكسر فيه الخليج ؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون ؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبل النيل .

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسُّلَمي وهبيرة عن حفص "يَوْمَ الزِّينَةِ" بالنصب .

ورويت عن أبي عمرو ؛ أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا .

والباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء .

﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ أي وجمع الناس ؛ ف"أَنْ" في موضع رفع على قراءة من قرأ "يَوْمُ" بالرفع .

وعطف ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ﴾ يقوّي قراءة الرفع ؛ لأن "أَنْ" لا تكون ظرفاً ، وإن كان المصدر الصريح يكون ظرفاً كمقدم الحاج ؛ لأن من قال : آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم الحاج .

النحاس : وأولى من هذا أن يكون في موضع خفض عطفاً على الزينة .

والضحا مؤنثة تصغرها العرب بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة ؛ قاله النحاس .

وقال الجوهري : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ، ثم بعده الضُّحَا وهي حين تُشرق الشمس ؛ مقصورة تؤنث وتذكّر ؛ فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة ؛ ومن ذكّر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل مثل صُرَد ونُغَر ؛ وهو ظرف غير متمكن مثل سحر ؛ تقول : لقيته ضُحاً ؛ وضُحَا إذا أردت به ضُحَا يومك لم تنوّنه ، ثم بعده الضَّحاء ممدود مذكر ، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى .

وخصّ الضُّحا لأنه أول النهار ، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان في النهار متَّسع .

وروي عن ابن مسعود والجحدري وغيرهما وأن "يَحْشُرَ النَّاسَ" على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه .

وعن بعض القراء "وَأَنْ تَحْشُرَ الناس" والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس .

وعن الجحدري أيضاً "وَأَنْ نَحْشُرَ" بالنون .

وإنما واعدهم ذلك اليوم ؛ ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد ، وفي المجمع الغاصّ لتقوى رغبة من رغب في الحقّ ، ويكلّ حدّ المبطلين وأشياعهم ، ويُكثر المحدّثُ بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ، ويشيع في جمع

أهل الوَبَر والمدَر .

قوله تعالى : ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي حِيَله وسحره ؛ والمراد جَمْع السّحرة .

قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً ، مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ .

وقيل : كانوا أربعمائة .

وقيل : كانوا اثني عشر ألفاً .

وقيل : أربعة عشر ألفاً .

وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفاً .

وقيل : كانوا مجتمعين على رئيس يقال له شمعون .

وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيباً ، مع كل نقيب عشرون عريفاً ، مع كل عريف ألف ساحر .

وقيل : كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم ، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلاثمائة ألف ساحر من الريف ، فصاروا تسعمائة ألف ، وكان رئيسهم أعمى .

﴿ ثُمَّ أتى ﴾ أي أتى الميعاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾

هذا إخبار من الله تعالى لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا يدل على أن قوله ﴿ فأخرجنا ﴾ إنما هو خطاب له عليه السلام ﴿ أريناه آياتنا ﴾ هي المنقولة من رأي البصرية ، ولذلك تعدت إلى اثنين بهمزة النقل و ﴿ آياتنا ﴾ ليس عاماً إذ لم يره تعالى جميع الآيات ، وإنما المعنى آياتنا التي رآها ، فكانت الإضافة تفيد ما تفيده الألف واللام من العهد .

وإنما رأى العصا واليد والطمسة وغير ذلك مما رآه فجاء التوكيد بالنسبة لهذه الآيات المعهودة .

وقيل : المعنى آيات بكمالها وأضاف الآيات إليه على حسب التشريف كأنه قال آيات لنا .

وقيل : يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم ، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به ﴿ فكذب بها ﴾ جميعاً ﴿ وأبى ﴾ أن يقبل شيئاً منها انتهى .

وقاله الزمخشري وفيه بعد لأن الإخبار بالشيء لا يسمى رؤية إلا بمجاز بعيد .

وقيل : ﴿ أريناه ﴾ هنا من رؤية القلب لا من رؤية العين ، لأنه ما كان أراه في ذلك الوقت إلا العصا واليد البيضاء أي ولقد أعلمنا ﴿ آياتنا كلها ﴾ هي الآيات التسع .

قيل : ويجوز أن يكون أراد بالآيات آيات توحيده التي أظهرها لنا في ملكوت السموات والأرض فيكون من رؤية العين .

وقال ابن عطية وأُبيّ : يقتضي كسب فرعون وهذا الذي يتعلق به الثواب والعقاب ، ومتعلق التكذيب محذوف فالظاهر أنه الآيات واحتمل أن يكون التقدير ﴿ فكذب ﴾ موسى ﴿ وأَبى ﴾ أن يقبل ما ألقاه إليه من رسالته .

قيل : ويجوز أن يكون أراد وكذب أنها من آيات الله وقال : من سحر ، ولهذا ﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ ويبعد هذا القول قوله ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاّ رب السموات والأرض بصائر ﴾ وقوله ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ فيظهر أنه كذب لظلمه لا أنه التبس عليه أنها آيات سحر .

(24/498)

وفي قوله ﴿ أجئتنا لتخرجنا ﴾ وهن ظهر منه كثير واضطراب لما جاء به موسى إذ علم أنه على الحق وأنه غالبه على ملكه لا محالة ، وذكر علة المجيء وهي إخراجهم وألقاها في مسامع قومه ليصيروا مبغضين له جداً إذ الإخراج من الموطن مما يشق وجعله الله مساوياً للقتل في قوله ﴿ أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ﴾ وقوله ﴿ بسحرك ﴾ تعلل

وتحير لأنه لا يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر ، وأورد ذلك على سبيل الشبهة الطاعنة في النبوة ، وأن المعجز إنما يتميز عن السحر بكون المعجز مما تتعذر معارضته فقال ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ ويدل على أن أمر موسى عليه السلام كان قد قَوِيَ وكثر منعته من بني إسرائيل ووقع أمره في نفوس الناس ، إذ هي مقالة من يحتاج إلى الحجة لا من يصدع بأمر نفسه ، وأرضهم هي أرض مصر وخاطبه بقوله ﴿ بسحرك ﴾ لأن الكلام كان معه والعصا واليد إنما ظهرتا من قبله ﴿ فلنأتينك ﴾ جواب لقسم محذوف ، أوهم الناس أن ما جاء به موسى إنما هو من باب السحر وأن عنده من يقاومه في ذلك ، فطلب ضرب موعد للمناظرة بالسحر .

والظاهر أن ﴿ موعداً ﴾ هنا هو زمان أي فعين لنا وقت اجتماع ولذلك أجاب بقوله ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ ومعنى ﴿ لا نخلفه ﴾ أي لا نخلف ذلك الوقت في الاجتماع فيه وقدره بعضهم مكاناً معلوماً وينبوعه قوله ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ .

وقال القشيري : الأظهر أنه مصدر ولذلك قال ﴿ لا نخلفه ﴾ أي ذلك الموعد والإخلاف أن يعد شيئاً ولا ينجزه .

وقال الزمخشري : إن جعلته زماناً نظراً في قوله ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ مطابق له لزمك شيئان أن نجعل الزمان مخلفاً وأن يعضل عليك ناصب ﴿ مكاناً ﴾ وإن جعلته مكاناً لقوله ﴿ مكاناً سُوى ﴾ لزمك أيضاً أن يقع الإخلاف على المكان وأن لا يطابق قوله ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وقراءة الحسن غير مطابقة له ﴿ مكاناً ﴾ جميعاً لأنه قرأ ﴿ يوم الزينة ﴾ بالنصب فبقي أن يجعل مصدراً بمعنى الوعد ، ويقدر مضاف محذوف أي مكان موعد .

ويجعل الضمير في ﴿ نخلفه ﴾ و ﴿ مكاناً ﴾ بدل من المكان المحذوف .

فإن قلت : كيف طابقته قوله ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ ولا بد من أن تجعله زماناً والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان ؟ قلت : هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً لأنه لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهراً باجتماعهم فيه في ذلك اليوم ، فبذكر الزمان علم المكان .

وأما قراءة الحسن فالموعد فيها مصدر لا غير ، والمعنى إنجاز وعدكم يوم الزينة وطابق هذا أيضاً من طريق المعنى ، ويجوز أن يقدر مضاف محذوف ويكون المعنى اجعل ﴿ بيننا وبينك ﴾ وعداً ﴿ لا نخلفه ﴾ فإن قلت : فبم ينتصب ﴿ مكاناً ﴾ ؟ قلت : بالمصدر أو بفعل يدل عليه المصدر ، فإن قلت : كيف يطابقه الجواب ؟ قلت : أما على قراءة الحسن فظاهر ، وأما على قراءة العامة فعلى تقدير وعدكم وعد يوم الزينة .

ويجوز على قراءة الحسن أن يكون ﴿ موعدكم ﴾ مبتدأ بمعنى الوقت و﴿ ضحى ﴾ خبره على نية التعريف فيه لأنه قد وصف قبل العمل بقوله ﴿ لا نخلفه ﴾ وهو موصول ، والمصدر إذا وصف قبل العمل لم يجز أن يعمل عندهم .

وقوله و﴿ ضحى ﴾ خبره على نية التعريف فيه ، لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه ، هو وإن كان ضحى ذلك اليوم بعينه ليس على نية التعريف بل هو نكرة ، وإن كان من يوم بعينه لأنه ليس معدولاً عن الألف واللام كسحر ولا هو معرف بالإضافة .

ولو قلت : جئت يوم الجمعة بكراً لم ندع أن بكراً معرفة وإن كنا نعلم أنه من يوم بعينه .

(26/498)

وقرأ أبو جعفر وشيبة لا نَخلفْهُ بجزم الفاء على أنه جواب الأمر .

وقرأ الجمهور برفعها صفة لموعد .

وقال الحوفي ﴿ موعداً ﴾ مفعول اجعل ﴿ مكاناً ﴾ ظرف العامل فيه اجعل .

وقال أبو علي ﴿ موعداً ﴾ مفعول أولا لاجعل و﴿ مكاناً ﴾ مفعول ثان ، ومنع أن يكون ﴿ مكاناً ﴾ معمولاً لقوله ﴿ موعداً ﴾ لأنه قد وصف .

قال ابن عطية : وهذه الأسماء العاملة عمل الفعل إذا نعتت أو عطف عليها أو أخبر عنها

أو صغرت أو جمعت وتوغلت في الأسماء كمثل هذا لم تعمل ولا يعلق بها شيء هو منها ،

وقد يتوسع في الظروف فيعلق بعد ما ذكرنا لقوله عز وجل ﴿ ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان ﴾ فقوله إذ متعلق بقوله لمقت .

وهو قد أخبر عنه وإنما جاز هذا في الظروف خاصة ومنع قوم أن يكون ﴿ مكاناً ﴾ نصباً على المفعول الثاني لنخلفه ، وجوزه جماعة من النحاة ووجهه أن يتسع في أن يخلف الموعد انتهى .

وقوله إذا نعت هذا ليس مجمعاً عليه في كل عامل عمل الفعل ، ألا ترى اسم الفاعل العاري عن أل إذا وصف قبل العمل في إعماله خلاف البصريون يمنعون والكوفيون يجوزون ، وكذلك أيضاً إذا صغر في إعماله خلاف ، وأما إذا جمع فلا يعلم خلاف في جواز إعماله ، وأما المصدر إذا جمع ففي جواز إعماله خلاف ، وأما استثناؤه من المعمولات الظروف فغيره يذهب إلى منع ذلك مطلقاً في المصدر ، وينصب إذ بفعل يقدر بما قبله أي مقتكم إذ تدعون .

﴿ ولا أنت ﴾ معطوف على الضمير المستكن في ﴿ نخلفه ﴾ المؤكد بقوله ﴿ نحن ﴾ .

وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب والحسن وقتادة وطلحة والأعمش وابن أبي ليلى وأبو حاتم وابن جرير ﴿ سُوًى ﴾ بضم السين منوناً في الوصل .

وقرأ باقي السبعة بكسرها منوناً في الوصل .

وقرأ الحسن أيضاً ﴿ سُوى ﴾ بضم السين من غير تنوين في الحالين أجرى الوصل مجرى الوقف لا أنه منعه الصرف لأن فعلاً من الصفات متصرف كحطم ولبد .

(27/498)

وقرأ عيسى سِوَى بكسر السين من غير تنوين في الحالين أجرى الوصل أيضاً مجرى الوقف ، ومعنى ﴿ سُوًى ﴾ أي عدلاً ونصفة .

قال أبو علي : كأنه قال قربه منكم قربه منا .

وقال غيره : إنما أراد أن حالنا فيه مستوية فيعم ذلك القرآن ، وأن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق لا تعترضكم فيه الرئاسة وإنما يقصد الحجة .

وعن مجاهد وهو من الاستواء لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها ، وهذا معنى ما تقدم من قول أبي عليّ قربه منكم قربه منا .

وقال الأخفش ﴿ سوى ﴾ مقصور إن كسرت سينه أو ضممت ، وممدود إن فتحتها ثلاث لغات ويكون فيها جميعاً بمعنى غير وبمعنى عدل ، ووسط بين الفريقين .

وقال الشاعر :

وإن أبانا كان حل بأهله سوى . . .

بين قيس قيس غيلان والفزر

قال : وتقول مررت برجل سواك وسواك وسواك أي غيرك ، ويكون للجميع وأعلى هذه اللغات الكسر قاله النحاس .

وقالت فرقة : معنى ﴿ مكاناً سُوًى ﴾ مستوياً من الأرض أي لا وَعر فيه ، ولا جبل ، ولا أكمة ، ولا مطمئن من الأرض بحيث يسير ناظر أحد فلا يرى مكان موسى والسحرة وما يصدر عنهما ، قال ذلك واثقاً من غلبة السحرة لموسى فإذا شاهدوا غلبهم إياه رجعوا عما كانوا اعتقدوا فيه .

وقالت فرقة : معناه مكاناً سوى : مكاننا هذا وليس بشيء لأن سوى إذا كانت بمعنى غير لا تستعمل إلا مضافة لفظاً ولا تقطع عن الإضافة .

وقرأ الحسن والأعمش وعاصم في رواية وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقتادة والجحدري وهبيرة والزعفراني يوم الزينة بنصب الميم وتقدم تخريج هذه القراءة في كلام الزمخشري

وروي أن ﴿ يوم الزينة ﴾ كان عيداً لهم ويوماً مشهوداً وصادف يوم عاشوراء ، وكان يوم سبت .

وقيل : هو يوم كسر الخليج الباقي إلى اليوم .

وقيل : يوم النيروز وكان رأس سنتهم .

وقيل : يوم السبت فإنه يوم راحة ودعة .

وقيل : يوم سوق لهم .

وقيل : يوم عاشوراء .

(28/498)

وقرأ ابن مسعود والجحدري وأبو عمران الجوني وأبو نهيك وعمرو بن فائد وأن تحشر بتاء الخطاب أي يا فرعون وروي عنهم بالياء على الغيبة ، والناس نصب في كلتا القراءتين .

قال صاحب اللوامح ﴿ وأن يحشر ﴾ الحاشر ﴿ الناس ضحى ﴾ فحذف الفاعل للعلم به انتهى .

وحذف الفاعل في مثل هذا لا يجوز عند البصريين .

وقال غيره ﴿ وأن يحشر ﴾ القوم قال ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة ، إما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم لقوله ﴿ موعدكم ﴾ وجعل ﴿ يحشر ﴾ لفرعون ويجوز أن يكون ﴿ وأن يحشرْ ﴾ في موضع رفع عطفاً على ﴿ يوم الزينة ﴾ وأن يكون في موضع جر عطفاً على ﴿ الزينة ﴾ وانتصب ﴿ ضحًى ﴾ على الظرف وهو ارتفاع النهار ، ويؤنث ويذكر والضحاء بفتح الضاد ممدود مذكر وهو عند

ارتباع النهار الأعلى ، وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد ، وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

والظاهر أن قوله ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ من كلام موسى عليه السلام لأنه جواب لقول فرعون ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ ولأن تعيين اليوم إنما يليق بالمحق الذي يعرف اليد له لا المبطل الذي يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس .

ولقوله ﴿ موعدكم ﴾ وهو خطاب للجميع ، وأبعد من ذهب إلى أنه من كلام فرعون .

﴿ فتولى فرعون ﴾ أي معرضاً عن قبول الحق أو ﴿ تولّى ﴾ ذلك الأمر بنفسه أو فرجع إلى أهله لاستعداد مكائده ، أو أدبر على عادة المتواعدين أن يولي كل واحد منهما صاحبه ظهره إذا افترقا .

أقوال ﴿ فجمع كيده ﴾ أي ذوي كيده وهم السحرة .

وكانوا عصابة لم يخلق الله أسحر منها ﴿ ثم أتى ﴾ للموعد الذي كانوا تواعدوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أريناه ﴾

حكايةٌ إجماليةٌ لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعونَ إثرَ حكايةِ ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نَعمائِه الداعيةِ له إلى قَبول الحقِ والانقيادِ له ، وتصديرُها بالقسم لإبراز كمالِ العنايةِ بمضمونها وإسنادُ الإراءةِ إلى نون العظمةِ نظراً إلى الحقيقة لا إلى موسى نظراً إلى الظاهر لتهويل أمرِ الآياتِ وتفخيمِ شأنها وإظهارِ كمالِ شناعةِ اللعين وتماديه في المكابرة والعناد ، أي وبالله لقد بصّرنا فرعونَ أو عرّفناه ﴿ ءاياتنا ﴾ حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام :

(30/498)

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِئَايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ فَأَلقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ للناظرين ﴾ وصيغةُ الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائعِ الأمور التي كلٌّ منها آيةٌ بينةٌ لقومٍ يعقلون حسبما بين في تفسير قوله تعالى : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بئاياتى ﴾ وقد ظهر عند فرعونَ أمورٌ أُخرُ كلٌّ واحد منها داهيةٌ دهياءُ ،

فإنه روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلب ثعباناً أشعَرَ فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً وضع لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سور القصر وتوجه نحوَ فرعون، فهرب وأحدث وانهزم الناسُ مزدحِمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه، فصاح فرعونُ: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذتَه فأخذه فعاد عصاً، وروي أنها انقلبت حيةً فارتفعت في السماء قدرَ ميلٍ ثم انحطت مُقبلةً نحو فرعون وجعلت تقول: يا موسى مُرْني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك الخ، ونزع يدَه من جيبه فإذا هي بيضاءُ بياضاً نورانياً خارجاً عن حدود العادات قد غلب شعاعُه شعاعَ الشمس يجتمع عليه النظّارة تعجباً من أمره، ففي تضاعيف كلَ من الآيتين آياتٌ جمّةٌ لكنها لما كانت غيرَ مذكورةٍ صراحة أُكدتْ بقوله تعالى: ﴿ كُلَّهَا ﴾ كأنه قيل: أريناه آيَتَيْنا بجميع مُستتبَعاتِهما وتفاصيلِهما قصداً إلى بيان إنه لم يبقَ له في ذلك عذرٌ ولا مساغَ لعد بقية الآياتِ التسع منها لما أنها إما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرةَ على مهل في نحو من عشرين سنةً كما مر في تفسير سورة الأعراف، ولا ريب في أن أمرَ السحرةِ مترقَّبٌ بعدُ، وأبعدُ من ذلك أن يُعدَّ منها ما جُعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلْق البحرِ وما ظهر بعد مهلِكه من الآيات الظاهرة لبني إسرائيل، من نتْق الجبل والحجر سواءٌ أريد به الحجرُ الذي فرَّ بثوبه أو

الذي انفجرت منه العيون ، وكذا أن يُعدّ منها الآياتُ الظاهرةُ على يد الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام بناءً على أن حكايتَه عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون في حكم إظهارِها بين يديه وإراءتِه إياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام ، فإن حكايتَه عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون مما لم يجْرِ ذكرُه هاهنا على أن ما سيأتي من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدي للمعارضة بالمثل يأباه إباءً بيّناً ، وينطِق بأن المرادَ بها ما ذكرناه قطعاً ولولا ذلك لجاز جعلُ ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالةِ على اختصاصه بالربوبية وأحكامِها من جملة الآيات ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردّد وتأخُّر مع ما شاهده في يده من الشواهد الناطقةِ بصدقه جحوداً وعِناداً ﴿ وأبى ﴾ الإيمانَ والطاعةَ لعتوّه واستكبارِه ، وقيل : كذب بالآيات جميعاً وأبى أن يقبل شيئاً منها أو أبى قبولَ الحق

(32/498)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى ﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية تكذيبه وإبائِه ، والهمزةُ لإنكار الواقعِ واستقباحِه وادعاءِ أنه أمرٌ مُحال ، والمجيءُ

إما على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له ، أي أجئتنا من مكانك الذي كنتَ فيه بعد ما غِبت عنا ، أو أقبلت علينا لتُخرجنا من مصرَ بما أظهرْته من السحر فإن ذلك مما لا يصدرُ عن العاقل لكونه من باب محاولة المُحال ، وإنما قاله لحمل قومِه على غاية المقْت لموسى عليه الصلاة والسلام بإبراز أن مرادَه عليه الصلاة والسلام ليس مجردَ إنجاءِ بني إسرائيلَ من أيديهم بل إخراجُ القِبط من وطنهم وحيازةُ أموالِهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجّهَ إلى اتباعه أحدٌ ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة ، وسمي ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحراً لتجسيرهم على المقابلة ثم ادّعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ الفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللامُ جوابُ قسمٍ محذوف كأنه ، قيل : إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثلِ سحرِك ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ أي وعداً كما ينبىء عنه وصفُه بقوله تعالى : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ فإنه المناسبُ لا المكانُ والزمانُ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ﴾ وإنما فوّض اللعينُ أمرَ الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب وضيقِ المجال وإظهارِ الجلادة وإراءة أنه متمكّنٌ من تهيئه أسباب المعارضةِ وترتيبِ آلاتِ المغالبة طال الأمدُ أم قصُر ، كما أن تقديمَ ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيطَ كلمةِ النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم

الإخلافِ وأن عدم إخلافِه لا يوجب إخلافَه عليه الصلاة والسلام ، ولذلك أُكّد النفيُ بتكرير حرفِه ، وانتصابُ ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾

(33/498)

بفعل يدل عليه المصدرُ لا به فإنه موصوفٌ أو بأنه بدلٌ من موعداً على تقدير مكان مضاف إليه فحينئذ تكون مطابقةُ الجواب في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ من حيث المعنى فإن يومِ الزينة يدلّ على مكان مشتهرٍ باجتماع الناس فيه يؤمئذ ، أو بإضمار مثلَ مكانِ موعدِكم مكانَ يوم الزينة كما هو على الأول ، أو وعدُكم وعدُ يوم الزينة ، وقرىء يومَ بالنصب وهو ظاهرٌ في أن المراد به المصدرُ ، ومعنى سُوى مُنتصَفاً تستوي مسافته إلينا وإليك وهو في النعت كقولهم : قوم عدي في الشذوذ وقرىء بكسر السين . وقيل : يومُ الزينة يومُ عاشوراءَ أو يومُ النّيْروز أو يومُ عيد كان لهم في كل عام وإنما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لإظهار كمالِ قوتِه وكونِه على ثقة من أمره وعدمِ مبالاته بهم لما أن ذلك اليومَ وقتُ ظهورِ غاية شوكتِهم ، وليكون ظهورُ الحق وزهوقُ الباطلِ في يوم مشهود على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضرٍ وبادٍ ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ عطفٌ على يومُ أو الزينةِ ، وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعونَ وبالياء على أن

الضمير له على سنن الملوك أو لليوم .

﴿ فتولى فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي ما يكاد به من السحرة وأدواتِهم ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ أي الموعدَ ومعه ما جمعه من كيده ، وفي كلمة التراخي إيماءٌ إلى أنه لم يسارعْ إليه بل أتاه بعد لأْيٍ وتلعثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(34/498)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أريناه ﴾

حكاية أخرى إجمالية لما جري بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة .

وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها .

والاراءة من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد وقد تعدت إلى ثان بالهمزة أو من الرؤية القلبية بمعنى المعرفة وهي أيضاً متعدية إلى مفعول واحد بنفسها وإلى آخر بالهمزة ، ولا يجوز أن تكون من الرؤية بمعنى العلم المتعدي إلى اثنين بنفسه وإلى ثالث بالهمزة لما يلزمه من حذف المفعول الثالث من الأعلام وهو غير جائز .

وإسناد الاراءة إلى ضمير العظمة نظراً إلى الحقيقة لا إلى موسى عليه السلام نظراً إلى

الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في الطغيان .

وهذا الإسناد يقوي كون ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ الذى ﴾ [طه : 53] الخ من كلامه عز وجل أي بالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه ﴿ ءاياتنا ﴾ حين قال لموسى عليه السلام : ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ [الأعراف : 106-108] .

وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين إما لأن إطلاق الجمع على الاثنين شائع على ما قيل أو باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل منها داهية دهياء .

فإنه روي أنه عليه السلام لما ألقاها انقلبت ثعباناً أشعر فاغرافاه بين لحييه ثمانون ذراعاً وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه فصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا .

وقد تقدم نحوه عن وهب بن منبه ، وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول : يا موسى مرني بما شئت ويقول فرعون : أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين بياضاً نورانياً خارجاً عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمره ففي تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صريحاً أكدت بقوله تعالى : ﴿ كُلَّهَا ﴾ كأنه قيل : أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها قصدا إلى بيان أنه لم يبق في ذلك عذر ما .

والإضافة على ما قرر للعهد .

وأدرج بعضهم فيها حل العقدة كما أدرجه فيها في قوله تعالى : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بئاياتى ﴾ [طه : 42] وقيل : المراد بها آيات موسى عليه السلام التسع كما روي عن ابن عباس فيما تقدم والإضافة للعهد أيضاً .

وفيه أن أكثرها إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة .

ولا ريب في أن أمر السحرة مترقب بعد ، وعد بعضهم منها ما جعل لآهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر وما ظهر من بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبني اسرائيل من نتق الجبل والحجر الذي انفجرت منه العيون .

وعد آخرون منها الآيات الظاهرة على أيدي الأنبياء عليه السلام وحملوا الإضافة على

استغراق الأفراد .

وبنى الفريقان ذلك على أنه عليه السلام قد حكى جميع ما ذكر لفرعون وتلك الحكاية في حكم الإظهار والإراءة لاستحالة الكذب عليه عليه السلام .

ولا يخفى أن حكايته عليه السلام تلك الآيات مما لم يجر لها ذكر ههنا مع أن ما سيأتي إن شاء الله تعالى من حمل ما أظهره عليه السلام على السحر والتصدي للمعارضة بالمثل مما يبعد ذلك جداً .

(36/498)

وأبعد من ذلك كله ادراج ما فصله عليه السلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه سبحانه بالربوبية وأحكامها في الآيات ، وقيل : الإضافة لاستغراق الأنواع و ﴿ كُلَّهَا ﴾ تأكيد له أي أريناه أنواع آياتنا كلها ، والمراد بالآيات المعجزات وأنواعها وهي كما قال السخاوي : ترجع إلى إيجاد معدوم أو اعدام موجود أو تغييره مع بقائه وقد أرى اللعين جميع ذلك في العصا واليد وفي الانحصار نظر ومع الاغماض عنه لا يخلو ذلك عن بعد ، وزعمت الكشفية أن المراد من الآيات علي كرم الله تعالى وجهه أظهره الله تعالى لفرعون راكباً على فرس وذكروا من صفتها ما ذكروا .

والجمع كما في قوله تعالى: ﴿ آيات بينات مَّقَامُ إبراهيم ﴾ [آل عمران: 97] وظهور بطلانه يغني عن التعرض لرده.

والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ للتعقيب والمفعول محذوف أي فكذب الآيات أو موسى عليه السلام من غير تردد وتأخير ﴿ وأبى ﴾ أي قبول الآيات أو الحق أو الإيمان والطاعة أي امتنع عن ذلك غاية الامتناع وكان تكذيبه وإبائه عند الأكثرين جحوداً واستكباراً وهو اوفق بالذم.

ومن فسر أرينا بعرفنا وقدر مضافاً أي صحة آياتنا وقال: إن التعريف يوجب حصول المعرفة قال بذلك لا محالة.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) ﴾

استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه.

(37/498)

والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وزعم أنه أمر محال والمجيء إما على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له أي أجيتنا من مكانك الذي كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر وهذا مما لا يصدر عن عاقل لكونه

من باب محاولة المحال ، وإنما قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة إذ الإخراج من الوطن أخو القتل كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقتلوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخرجوا مِن دياركم ﴾ [النساء : 66] وسمى ما أظهره الله تعالى من المعجزة الباهرة سحراً لتجسيرهم على المقابلة .

ثم ادعى أنه يعارضه بمثله فقال :

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام واقعة في جواب قسم محذوف كأنه قيل : إذا كان كذلك فوالله لنا تينك بسحر مثل سحرك ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ أي وعدا على أنه مصدر ميمي وليس باسم زمان ولا مكان لأن الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ صفة له والضمير المنصوب عائد إليه .

(38/498)

ومتى كان زماناً أو مكاناً لزم تعلق الاخلاف بالزمان أو المكان وهو إنما يتعلق بالوعد يقال :

أخلف وعده لا زمان وعده ولا مكانه أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنتَ ﴾ وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب وضيق الحال وإظهار الجلادة وإراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام وتوسيط كلمة النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف وإن عدم إخلافه لا يوجب عدم إخلافه عليه السلام ولذلك أكد النفي بتكرير حرفه .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة ﴿ لَّا نُخْلِفُهُ ﴾ بالجزم على أنه جواب للأمر أي إن جعلت ذلك لا نخلفه ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ أي منصفاً بيننا وبينك كما روي عن مجاهد .

وقتادة أي محلاً واقعاً على نصف المسافة بيننا سواء بسواء ، وهذا معنى قول أبي علي

قربه .

منكم كقربه منا ، وعلى ذلك قول الشاعر :

وإن أبانا كان حل بأهله . . .

سوى بين قيس قيس غيلان والفزر

أو محل نصف أي عدل كما روي عن السدي لأن المكان إذا لم يترجح قربه من جانب على

آخر كان معدلاً بين الجانبين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال : أي مكاناً مستوياً من الأرض لا وعر فيه ولا جبل ولا أكمة ولا مطمئن بحيث يستر الحاضرين فيه بعضهم عن بعض ومراده مكاناً يتبين الواقفون فيه ولا يكون فيه ما يستر أحداً منهم ليرى كل ما يصدر منك ومن السحرة .

وفيه من إظهار الجلادة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه ، وهذا المعنى عندي حسن جداً وإليه ذهب جماعة ، وقيل : المعنى مكاناً تستوي حالنا فيه وتكون المنازل فيه واحدة لا تعتبر فيه رياسة ولا تؤدي سياسة بل يتحد هناك الرئيس والمرؤوس والسائس والمسوس ولا يخلو عن حسن ، وربما يرجع إلى معنى منصفاً أي محل نصف وعدل .

وقيل : ﴿ سُوًى ﴾ بمعنى غير والمراد مكاناً غير هذا المكان وليس بشيء لأن سوى بهذا المعنى لا تستعمل إلا مضافة لفظاً ولا تقطع عن الإضافة ، وانتصاب ﴿ مَكَاناً ﴾ على أنه مفعول به لفعل مقدر يدل عليه ﴿ مَّوْعِدًا ﴾ أي عد مكاناً لا لموعداً لأنه كما قال ابن الحاجب : مصدر قد وصف والمنصوب بالمصدر من تتمته ولا يوصف الشيء إلا بعد تمامه فكان كوصف الموصول قبل تمام صلته وهو غير سائغ .

وعن بعض النحاة أنه يجوز وصف المصدر قبل العمل مطلقاً وهو ضعيف ، وقال ابن عطية : يجوز وصفه قبل العمل إذا كان المعمول ظرفاً لتوسعهم فيه ما لم يتوسعوا في غيره ، ومن هنا جوز بعضهم أن يكون ﴿ مَكَانًا ﴾ منصوباً على الظرفية بموعداً .

ورد بأن شرط النصب على الظرفية مفقود فيه ، فقد قال الرضي : يشترط في نصب ﴿ مَكَانًا ﴾ على الظرفية أن يكون في عامله معنى الاستقرار في الظرف كقمت وقعدت وتحركت مكانك فلا يجوز نحو كتبت الكتابة مكانك وقتلته وشتمته مكانك ، وتعقب بأن ما ذكره الرضي غير مسلم إذ لا مانع من قولك لمن أراد التقرب منك ليكلمك : تكلم مكانك ، نعم لا يطرد حسن ذلك في كل مكان ، ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله تعالى : ﴿ لَّا نُخْلِفُهُ ﴾ على أنه مضمن معنى المجيء أو الإتيان ، وجوز أن يكون ظرفاً لمحذوف وقع حالاً من فاعل ﴿ نُخْلِفُهُ ﴾ ويقدر كوناً خاصاً لظهور القرينة أي آتين أو جائين مكاناً .

وقرأ أبو جعفر .

ونافع .

وابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ سُوًى ﴾ بكسر السين والتنوين وصلاً ، وقرأ باقي السبعة بالضم والتنوين كذلك ، ووقف أبو بكر .

وحمزة .

والكسائي بالإمالة .

وورش .

وأبو عمرو بين بين .

وقرأ الحسن في رواية كباقي السبعة إلا أنه لم ينون وقفاً ووصلاً ، وقرأ عيسى كالأولين إلا أنه لم ينون وقفاً ووصلاً أيضاً ، ووجه عدم التنوين في الوصل إجراؤه مجرى الوقف في حذف التنوين والضم والكسر كما قال محيي السنة .

وغيره لغتان في سوى مثل عدي وعدي .

وذكر بعض أهل اللغة أن فعلاً بكسر الفاء مختص بالأسماء الجامدة كعنب ولم يأت منه في الصفة إلا عدا جمع عدو ، وزاد الزمخشري سوى .

وغيره روي بمعنى مرو ، وقال الأخفش : سوى مقصور إن كسرت سينه أو ضممت وممدود إن فتحت ففيه ثلاث لغات ويكون فيها جميعاً بمعنى غير وبمعنى عدل ووسط بين الفريقين ، وأعلى اللغات على ما قال النحاس سوى بالكسر .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ، قال في "البحر" : وأبعد من قال إن القائل فرعون ولعمري أنه لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وكأن الذي اضطر قائله الخبر السابق عن وهب بن منبه فليتذكر ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ هو يوم عيد كان لهم في كل عام يتزينون فيه ويزينون أسواقهم كما روي عن مجاهد .

وقتادة ، وقيل : يوم النيروز وكان رأس سنتهم .

وأخرج سعيد بن منصور .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه يوم عاشوراء وبذلك فسر في قوله صلى الله عليه وسلم : " من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة ومن تصدق يومئذٍ بصدقة أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة " وقيل : يوم كسر الخليج ، وفي "البحر" أنه باق إلى اليوم ، وقيل : يوم سوق لهم ، وقيل : يوم السبت وكان يوم راحة ودعة فيما بينهم كما هو اليوم كذلك بين اليهود ، وظاهر صنيع أبي حيان اختيار أنه يوم عيد صادف يوم عاشوراء ، وكان يوم سبت .

والظاهر أن الموعد ههنا اسم زمان للإخبار عنه بيوم الزينة أي زمان وعدكم اليوم المشتهر فيما بينكم ، وإنما لم يصرح عليه السلام بالوعد بل صرح بزمانه مع أنه أول ما طلبه اللعين منه عليه السلام للإشارة إلى أنه عليه السلام أرغب منه فيه لما يترتب عليه من قطع الشبهة وإقامة الحجة حتى كأنه وقع منه عليه السلام قبل طلبه إياه فلا ينبغي له طلبه ، وفيه إيذان بكمال وثوقه من أمره ، ولذا خص عليه السلام من بين الأزمنة يوم الزينة الذي هو يوم مشهود وللاجتماع معدود ، ولم يذكر عليه السلام المكان الذي ذكره اللعين لأنه بناءً على المعنى الأول والثالث فيه إنما ذكره اللعين إيهاماً للتفضل عليه عليه السلام يريد بذلك إظهار الجلادة فاعرض عليه السلام عن ذكره مكتفياً بذكر الزمان المخصوص للإشارة إلى استغنائه عن ذلك وأن كل الأمكنة بعد حصول الاجتماع بالنسبة إليه سواء .

وأما على المعنى الثاني فيحتمل أنه عليه السلام اكتفى عن ذلك بما يستدعيه يوم الزينة فإن من عادة الناس في الأعياد في كل وقت وكل بلد الخروج إلى الأمكنة المستوية والاجتماع في الأرض السهلة التي لا يمنع فيها شيء عن رؤية بعضهم بعضاً ، وبالجملة قد أخرج عليه الصلاة والتسليم جوابه على الأسلوب الحكيم ، ولله تعالى در الكليم ودره النظيم ، وقيل : الموعد ههنا مصدر أيضاً ويقدر مضاف لصحة الأخبار أي وعدكم وعد يوم الزينة ، ويكتفي عن ذكر المكان بدلالة يوم الزينة عليه ، وقيل : الموعد في السؤال اسم مكان وجعله مخلفاً على التوسع كما في قوله : ويوماً شهدنا أو الضمير في

﴿ لَّا نُخْلِفُهُ ﴾ [طه : 58] للوعد الذي تضمنه اسم المكان على حد ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] أو للموعد بمعنى الوعد على طريق الاستخدام ، والجملة في الاحتمالين معترضة .

(42/498)

ولا يجوز أن تكون صفة إذ لا بد في جملة الصفة من ضمير يعود على الموصوف بعينه ، والقول بحذفه ليس بشيء ﴿ ومكاناً ﴾ على ما قال أبو علي مفعول ثان لِ ﴿ أجعل ﴾ [طه : 58] ، وقيل : بدل أو عطف بيان ، والموعد في الجواب اسم زمان ومطابقة الجواب من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس يومئذٍ فيه أو هو اسم مكان أيضاً ومعناه مكان وقوع الموعود به لا مكان لفظ الوعد كما توهم ويقدر مضاف لصحة الإخبار أي مكان يوم الزينة والمطابقة ظاهرة ، وقيل : الموعد في الأول مصدر إلا أنه حذف منه المضاف أعني مكان وأقيم هو مقامه ويجعل ﴿ مَكَاناً ﴾ [طه : 58] تابعاً للمقدر أو مفعولاً ثانياً ؛ وفي الثاني إما اسم زمان ومعناه زمان وقوع الموعود به لا لفظ الوعد كما يرشد إليه قوله :

قالوا الفراق فقلت موعده غد . . .

والمطابقة معنوية وإما اسم مكان ، ويقدر مضاف في الخبر والمطابقة ظاهرة كما سمعت ، وإما مصدر أيضاً ويقدر مضافان أحدهما في جانب المبتدأ والآخر في جانب الخبر أي مكان وعدكم مكان يوم الزينة وأمر المطابقة لا يخفى ، وقيل : يقدر في الأول مضافان أي مكان إنجاز وعدكم أو مضاف واحد لكن تصير الإضافة لأدنى ملابسة ، والأظهر تأويل المصدر بالمفعول وتقدير مضاف في الثاني أي موعودكم مكان يوم الزينة وهو مبني على توهم باطل أشرنا إليه ، وقيل : هو في الأول والثاني اسم زمان و ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ [طه : 58] من باب الحذف والإيصال والأصل لا نخلف فيه و ﴿ مَكَاناً ﴾ [طه : 58] ظرف لِ ﴿ اجعل ﴾ [طه : 58] وإلى هذا أشار في "الكشف" فقال : لعل الأقرب مأخذاً أن يجعل المكان مخلفاً على الاتساع والطباق من حيث المعنى أو المعنى اجعل بيننا وبينك في مكان سوى منصف زمان وعد لا نخلف فيه فالمطابقة حاصلة لفظاً ومعنى و ﴿ مَكَاناً ﴾ ظرف لغو انتهى .

واعترض بما لا يخفى رده على من أحاط خبراً بأطراف كلامنا .

(43/498)

وأنت تعلم أن الاحتمالات في هذه الآية كثيرة جداً والأولى منها ما هو أوفق بجزالة التنزيل مع قلة الحذف والخلو عن نزع الخف قبل الوصول إلى الماء فتأمل .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وعاصم في رواية .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وقتادة .

والجحدري ، وهبيرة .

والزعفراني ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ بنصب ﴿ يَوْمٍ ﴾ وهو ظاهر في أن المراد بالموعد المصدر لأن المكان والزمان لا يقعان في زمان بخلاف الحدث ، أما الأول فلأنه لا فائدة فيه لحصوله في جميع الأزمنة ؛ وأما الثاني فلأن الزمان لا يكون ظرفاً للزمان ظرفية حقيقية لأنه يلزم حلول الشيء في نفسه ، وأما مثل ضحى اليوم في اليوم فهو من ظرفية الكل لأجزائه وهي ظرفية مجازية وما نحن فيه ليس من هذا القبيل كذا قيل وفيه منع ظاهر .

وقيل : إنه يستدل بظاهر ذلك على كون الموعد أولاً مصدراً أيضاً لأن الثاني عين الأول لإعادة النكرة معرفة ، وفي "الكشف" لعل الأقرب مأخذاً على هذه القراءة أن يجعل الأول

زماناً ، والثاني مصدراً أي وعدكم كائن يوم الزينة .

والجواب مطابق معنى دون تكلف إذ لا فرق بين زمان الوعد يوم كذا رفعاً وبين الوعد يوم كذا نصباً في الحاصل بل هو من الأسلوب الحكيم لاشتماله على زيادة ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَاس ضُحًى ﴾ عطف على الزينة ، وقيل : على يوم ، والأول أظهر لعدم احتياجه إلى التأويل ، وانتصب ﴿ ضُحًى ﴾ على الظرف وهو ارتفاع النهار ويؤنث ويذكر ، والضحاء بفتح الضاد ممدود مذكر ، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى .

(44/498)

وجوز على القراءة بنصب ﴿ يَوْمِ ﴾ أن يكون ﴿ مَوْعِدُكُمْ ﴾ مبتدأ بتقدير وقت مضاف إليه على أنه من باب أتيتك خفوق النجم ، والظرف متعلق به و ﴿ ضُحًى ﴾ خبره على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه ولو لم يعرف لم يكن مطابقاً لمطلبهم حيث سألوه عليه السلام موعداً معيناً لا يخلف وعده ، وقيل : يجوز أن يكون الموعد زماناً و ﴿ ضُحًى ﴾ خبره و ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ حالاً مقدماً وحينئذٍ يستغني عن تعريف ضحى وليس بشيء ثم إن هذا التعريف بمعنى التعيين معنى لا على معنى جعل ﴿ ضُحًى ﴾ أحد المعارف الاصطلاحية كما قد يتوهم .

وقال الطيبي : قال ابن جني : يجوز أن يكون ﴿ أَن يُحْشَرُواْ ﴾ عطفاً على الموعد كأنه قيل : إنجاز موعدكم وحشر الناس ضحى في يوم الزينة .

وكأنه جعل الموعد عبارة عما يتجدد في ذلك اليوم من الثواب والعقاب وغيرهما سوى الحشر ثم عطف الحشر عليه عطف الخاص على العام اه وهو كما ترى .

وقرأ ابن مسعود .

والجحدري .

وأبو عمران الجوني .

وأبو نهيك .

وعمرو بن قائد ﴿ بِرَبّ الناس ﴾ بتاء الخطاب ونصب ﴿ الناس ﴾ والمخاطب بذلك فرعون .

وروي عنهم أنهم قرأوا بياء الغيبة ونصب ﴿ الناس ﴾ والضمير في ﴿ يُحْشَرُ ﴾ على هذه القراءة إما لفرعون وجيء به غائباً على سنن الكلام مع الملوك ، وإما لليوم والإسناد مجازي كما في صام نهاره ، وقال صاحب اللوامح : الفاعل محذوف للعلم به أي وأن يحشر الحاشر الناس .

وأنت تعلم أن حذف الفاعل في مثل هذا لا يجوز عند البصريين ، نعم قيل في مثله : إن الفاعل ضمير يرجع إلى اسم الفاعل المفهوم من الفعل .

﴿ فتولى فِرْعَوْنُ ﴾

أي انصرف عن المجلس ، وقيل : تولى الأمر بنفسه وليس بذاك .

وقيل : أعرض عن قبول الحق وليس بشيء ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي ما يكاد به من السحرة وأدواتهم أو ذوي كيده ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه .

وفي كلمة التراخي إيماءً إلى أنه لم يسارع إليه بل أتاه بعد بطء وتلعثم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(45/498)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ أن يفرط ﴾ بفتح الياء وضم الراء ، ومعنى ذلك : أننا نخاف أن يعجل ويبادر بعقوبتنا ، يقال : فرط منه أمر ، أي بدر ، ومنه الفارط ، وهو الذي يتقدّم القوم إلى الماء ، أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب ، وهو المتقدّم فيه ، كذا قال المبرد ، وقال أيضاً : فرط منه أمر وأفرط : أسرف ، وفرط : ترك .

وقرأ ابن محيصن : "يُفرط" بضم الياء وفتح الراء ، أي يحمله حامل على التسرّع إلينا ،

وقرأت طائفة بضم الياء وكسر الراء ، ومنهم ابن عباس ومجاهد ، وعكرمة من الإفراط ، أي يشتطّ في أذيتنا .

قال الراجز :

قد أفرط العلج علينا وعجل . . . ومعنى ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ قد تقدّم قريباً ، وجملة : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، نهى لهما عن الخوف الذي حصل معهما من فرعون ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ أي بالنصر لهما ، والمعونة على فرعون ، ومعنى ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ : إدراك ما يجري بينهما وبينه ، بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية ، وليس بغافل عنهما ، ثم أمرهما بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرار .

﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ أرسلنا إليك ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسراءيل ﴾ أي خلّ عنهم وأطلقهم من الأسر ﴿ وَلاَ تُعَذّبْهُمْ ﴾ بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون في عذاب شديد : يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه ، ثم أمرهما سبحانه أن يقولا لفرعون : ﴿ قَدْ جئناك بِئَايَةٍ مّن رَّبّكَ ﴾ قيل : هي العصا واليد .

وقيل إن فرعون قال لهما : وما هي ؟ فأدخل موسى يده في جيب قميصه ، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة ﴿ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ أي السلامة .

قال الزجاج : أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجلّ ومن عذابه ، وليس بتحية ، قال : والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب .

قال الفراء : السلام على من اتبع الهدى ، ولمن اتبع الهدى سواء .

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من جهة الله سبحانه ﴿ أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ المراد بالعذاب : الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في النار .

والمراد بالتكذيب : التكذيب بآيات الله وبرسله .

والتولي : الإعراض عن قبولها والإيمان بها .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ أي قال فرعون لهما : فمن ربكما ؟ فأضاف الربّ إليهما ولم يضفه إلى نفسه ؛ لعدم تصديقه لهما ولجحده للربوبية .

وخص موسى بالنداء لكونه ؛ الأصل في الرسالة وقيل : لمطابقة رؤوس الآي .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ أي : قال موسى مجيباً له ، و﴿ ربنا ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ ربنا ﴾ خبر

مبتدأ محذوف ، وما بعده صفته .

قرأ الجمهور : ﴿ خلقه ﴾ بسكون اللام ، وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ : " خلقه " بفتح اللام على أنه فعل ، وهي قراءة ابن أبي إسحاق ، ورواها نصير عن الكسائي .

فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثاني مفعولي أعطى .

والمعنى : أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش ، والرجل للمشي واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره .

وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه .

وقال مجاهد : المعنى لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء فقدّره تقديراً ، ومنه قول الشاعر :

وله في كل شيء خِلْقُهُ . . . وكذاك الله ما شاء فعل

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث .

ويجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى ، أي أعطى خلقه كل

شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ومعنى ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ : أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له ، وأما على القراءة الآخرة ، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أي أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه ، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثاني محذوفاً ، أي أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه ، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القرون الاولى ﴾ لما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ، ولا بدّ لهما من خالق وهادٍ ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا ربّ غيره .

قال فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ فإنها لم تقرّ بالربّ الذي تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات ، ومعنى البال : الحال والشان ، أي ما حالهم وما شأنهم ؟ وقيل : إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة أي : ما حال القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث ؟ فأجابه موسى ، فقال ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبّى ﴾ أي إن هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدده ، بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا .

وعلى التفسير الأوّل يكون معنى ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبّي ﴾ : أن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله في كتابه سيجازيهم عليها ، ومعنى كونها في كتاب : أنها

مثبتة في اللوح المحفوظ.

قال الزجاج: المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها، والتقدير: علم أعمالها عند ربي في كتاب.

(48/498)

وقد اختلف في معنى ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ على أقوال: الأوّل: أنه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين.

وقد تمّ الكلام عند قوله: ﴿ في كتاب ﴾ كذا قال الزجاج، قال: ومعنى ﴿ لَّا يَضِلُّ ﴾: لا يهلك من قوله: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ [السجدة: 10] ﴿ وَلَا يَنسَى ﴾ شيئاً من الأشياء، فقد نزّهه عن الهلاك والنسيان.

القول الثاني: أن معنى ﴿ لَّا يَضِلُّ ﴾: لا يخطىء.

القول الثالث: أن معناه لا يغيب.

قال ابن الأعرابي: أصل الضلال الغيبوبة.

القول الرابع: أن المعنى: لا يحتاج إلى كتاب، ولا يضلّ عنه علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها، حكي هذا عن الزجاج أيضاً.

قال النحاس : وهو أشبهها بالمعنى .

ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابي .

القول الخامس : أن هاتين الجملتين صفة لكتاب ، والمعنى : أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له .

﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مهادا ﴾ الموصول محل رفع على أنه صفة لربي متضمنة لزيادة البيان ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أو في محل نصب على المدح .

قرأ الكوفيون ﴿ مهداً ﴾ على أنه مصدر لفعل مقدّر ، أي مهدها مهداً ، أو على تقدير مضاف محذوف ، أي ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش .

وقرأ الباقون : ﴿ مهاداً ﴾ واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالا : لاتفاقهم على قراءة : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا ﴾ [النبأ : 6] .

قال النحاس : والجمع أولى من المصدر ؛ لأن هذا الموضع ليس وضع المصدر إلا على حذف المضاف .

قيل : يجوز أن يكون مهاداً مفرداً كالفراش ، ويجوز أن يكون جمعاً .

ومعنى الهاد : الفراش ، فالمهاد جمع المهد ، أي جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم .

﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ السلك : إدخال الشيء في الشيء .

والمعنى : أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم .

(49/498)

وفي الآية الأخرى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مهادا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 10] .

ثم قال سبحانه ممتناً على عباده : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ هو ماء المطر .

قيل : إلى هنا انتهى كلام موسى ، وما بعده هو : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّن نبات شتى ﴾ من كلام الله سبحانه .

وقيل : هو من الكلام المحكيّ عن موسى معطوف على أنزل ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه إلى ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة .

ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه : بأن الكلام كله محكيّ عن واحد هو موسى ، والحاكي للجميع هو الله سبحانه

والمعنى : فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة أزواجاً ، أي ضروباً وأشباهاً من أصناف النبات المختلفة .

وقوله ﴿ من نبات ﴾ صفة ل ﴿ أزواجاً ﴾ أو بيان له ، وكذا ﴿ شتى ﴾ صفة أخرى له ، أي متفرّقة جمع شتيت .

وقال الأخفش : التقدير : أزواجاً شتى من نبات .

قال : وقد يكون النبات شتى ، فيجوز أن يكون شتى ﴿ نعتاً ﴾ ل ﴿ أزواجاً ﴾ ويجوز أن يكون نعتاً للنبات ، يقال : أمر شَتٌّ أي متفرّق ، وشتّ الأمر شتاً وشتاتاً تفرّق ، واستشتّ مثله ، والشتيت المتفرّق .

قال رؤبة :

جاءت معاً وأطّرقتْ شتيتاً . . . وجملة : ﴿ كُلُواْ وارعوا ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول ، أي قائلين لهم ذلك ، والأمر للإباحة ، يقال : رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية ، أي أسامها وسرّحها يجيء لازماً ومتعدّياً .

والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لأُوْلِى النهى ﴾ إلى ما تقدّم ذكره في هذه الآيات ، والنهى : العقول جمع نهية ، وخص ذوي النهى ؛ لأنهم الذين يُنتهى إلى رأيهم .

وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح ، وهذا كله من موسى ، احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ والضمير في : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ وما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقاً .

قال الزجاج وغيره : يعني أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه .

وقيل : المعنى أن كل نطفة مخلوقة من التراب في ضمن خلق آدم ؛ لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه ﴿ وَفِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ نُعِيدُكُمْ ﴾ بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرّق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بفي دون إلى ؛ للدلالة على الاستقرار ﴿ وَمِنْهَا ﴾ أي من الأرض ﴿ نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ﴾ أي بالبعث والنشور وتأليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت ، والتارة كالمرّة .

﴿ وَلَقَدْ أريناه ءاياتنا كُلَّهَا ﴾ أي أرينا فرعون وعرفناه آياتنا كلها ، والمراد بالآيات هي : الآيات التسع المذكورة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات ﴾ [الإسراء : 101] .

على أن الإضافة للعهد .

وقيل : المراد : جميع الآيات التي جاء بها موسى ، والتي جاء بها غيره من الأنبياء ، وأن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء ، والأوّل أولى ، وقيل : المراد بالآيات : حجج الله سبحانه الدالة على توحيده .

﴿ فَكَذَّبَ وأبى ﴾ أي كذب فرعون موسى وأبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد ؛ لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

(51/498)

وجملة : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال فرعون بعد هذا ؟ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات ، أي جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبيّ يجب عليهم اتباعك ، والإيمان بما جئت به ، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذي هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها .

وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض ؛ لتنفير قومه عن إجابة موسى ، فإنه إذا وقع في أذهانهم وتقرّر في أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مّثْلِهِ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام هي الموطئة للقسم ، أي والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر ، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به

سحر يقدر على مثله الساحر .

﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ هو مصدر ، أي وعداً .

وقيل : اسم مكان ، أي اجعل لنا يوماً معلوماً ، أو مكاناً معلوماً لا نخلفه .

قال القشيري : والأظهر أنه مصدر ، ولهذا قال : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد .

والإخلاف أن تعد شيئاً ولا تنجزه .

قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع ، وكذلك الموعد .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج : "لاَّ نُخْلِفْهُ" بالجزم على أنه جواب لقوله : ﴿ اجعل ﴾ .

وقرأ الباقون بالرفع على أنه صفة لموعداً ، أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلا أَنتَ ﴾ وفوّض تعيين الموعد إلى موسى ؛ إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى .

وانتصاب : ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه المصدر ، أو على أنه بدل من موعد .

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة : "سوى" بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها وهما لغتان .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين، لأنها اللغة العالية الفصيحة، والمراد: مكاناً مستوياً.

وقيل: مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك.

قال سيبويه: يقال: سِوًى وسُوًى، أي عدل، يعني عدلاً بين المكانين.

قال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها . . . يسوّى بيننا فيها السواء

قال أبو عبيدة والقتيبي: معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وجدنا أبانا كان حلّ ببلدة . . . سوًى بين قيس غيلان والفزر

والفزر: سعد بن زيد مناة.

ثم واعده موسى بوقت معلوم فقال ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسديّ: كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه.

وقال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء.

وقال الضحاك: يوم السبت.

وقيل: يوم النيروز.

وقيل : يوم كسر الخليج .

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسلمي وهبيرة عن حفص : " يوم الزينة " بالنصب ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ، أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا ، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدكم ، وإنما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى ؛ لأن يوم الزينة يدلّ على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، أو على تقدير مضاف محذوف ، أي موعدكم مكان يوم الزينة .

﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ معطوف على ﴿ يوم الزينة ﴾ فيكون في محل رفع ، أو على ﴿ الزينة ﴾ فيكون في محل جرّ ، يعني ضحى ذلك اليوم .

والمراد بالناس : أهل مصر .

والمعنى : يحشرون إلى العيد وقت الضحى ، وينظرون في أمر موسى وفرعون .

قال الفراء : المعنى إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد .

قال : وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم .

والضحى قال الجوهري : ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى ، وهو حين تشرق الشمس .

وخص الضحى ؛ لأنه أوّل النهار ، فإذا امتدّ الأمر بينهما كان في النهار متسع .

وقرأ ابن مسعود والجحدري : " وأن يحشر " على البناء للفاعل ، أي وأن يحشر الله الناس ضحى .

وروي عن الجحدري أنه قرأ : " وأن نحشر " بالنون وقرأ بعض القرّاء بالتاء الفوقية ، أي وأن تحشر أنت يا فرعون ، وقرأ الباقون بالتحتية على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إننا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ قال : يعجل ﴿ أَوْ أَن يطغى ﴾ قال : يعتدي .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ أَسْمَعُ وأرى ﴾ قال : أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به ، فأوحي إليكما فتجاوبانه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : ربّ أي شيء أقول ؟ قال : قل أهيا شراهيا .

قال الأعمش : تفسير ذلك الحيّ قبل كل شيء ، والحيّ بعد كل شيء .

وجوّد السيوطي إسناده ، وسبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير في تفسيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ قال : كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله :

﴿ أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ﴾ قال : خلق لكل شيء زوجه ﴿ ثُمَّ هدى ﴾ قال : هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي ﴾ قال : لا يخطىء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مّن نبات شتى ﴾ قال : مختلف .

وفي قوله : ﴿ لأُوْلِي النهى ﴾ قال : لأولي التقى .

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ لأُوْلِي النهى ﴾ قال : لأولي الحجا والعقل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله : ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ .

(54/498)

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي أمامة قال : لما وضعت أمّ كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا

نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ بسم الله ، وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله "

وفي حديث في السنن : " نه أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ ثم أخرى وقال : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ " وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ قال : يوم عاشوراء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(55/498)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) ﴾

أظهر القولين أن الإضافة في قوله ﴿ آيَاتِنَا ﴾ مضمنة معنى العهد كالألف واللام . والمراد بآياتنا المعهودة لموسى كلها وهي التسع المذكورة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ [النمل : 12] الآية . وقال بعضهم : الآيات التسع المذكورة هي : العصا ، واليد البيضاء ، وفلق البحر ، والحجر الذي

انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة . وقد قدمنا كلام أهل العلم في الآيات التسع في سورة « الإسراء » . وقال بعض أهل العلم : العموم على ظاهره ، وإن الله أرى فرعون جميع الآيات التي جاء بها موسى ، والتي جاء بها غيره من الأنبياء ، وذلك بأن عرفه موسى جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء . والأول هو الظاهر .

وقد بين جل وعلا في غير هذا الموضع : أن الآيات التي أراها فرعون وقومه بعضها أعظم من بعض ، كما قال تعالى في سورة « الزخرف » : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف : 48] ، وقوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾ [النازعات : 20] لأن الكبرى في الموضعين تأنيث الأكبر ، وهي صيغة تفضيل تدل على أنها أكبر من غيرها .

(56/498)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَكَذَّبَ وأبى ﴾ يعني أنه مع ما أراه الله من الآيات المعجزات الدالة على صدق نبيه موسى ، كذب رسول ربه موسى ، وأبى عن قبول الحق .

وقد أوضح جل وعلا في غير هذا الموضع شدة إبائه وعناده وتكبره على موسى في مواضع

كثيرة من كتابه . كقوله : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 132] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف : 47] وقوله : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : 29] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 51-53] .

ومقصوده بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى ، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول .

وقد بين جل وعلا : أن فرعون كذب وأبى ، وهو عالم بأن ما جاء به موسى حق . وأن الآيات التي كذب بها وأبى عن قبولها ما أنزلها إلا الله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] . وقوله : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ [الإسراء : 102] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله : ﴿ أَرَيْنَاهُ ﴾ أصله من رأى البصرية على الصحيح .

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لما رأى فرعون آياته على يد نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال: إن الآيات التي جاء بها موسى سحر، وأنه يريد بها إخراج فرعون وقومه من أرضهم.

أما دعواه هو وقومه أن موسى ساحر فقد ذكره الله جل وعلا في مواضع كثيرة من كتابه. كقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: 76]، وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ [طه: 71]، وقوله: ﴿ وَقَالُواْ يا أيها الساحر ادع لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الزخرف: 49] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ادعاؤهم أنه يريد إخراجهم من أرضهم بالسحر فقد ذكره الله جل وعلا أيضاً في مواضع من كتابه. كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى ﴾ [طه: 57]، وقوله في «الأعراف»: ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: 109-110]، وقوله في «الشعراء»: ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: 34-35]، وقوله في «يونس»: ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء فِي الأرض

﴾ [يونس : 78] الآية ، وقال سحرة فرعون : ﴿ قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ [طه : 63] .

(58/498)

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن فرعون لعنه الله ، لما رأى آيات الله ومعجزاته الباهرة ، وادعى أنها سحر أقسم ليأتين موسى بسحر مثل آيات الله التي يزعم هو أنها سحر . وقد بين في غير هذا الموضع : أن إتيانهم بالسحر وجمعهم السحرة كان عن اتفاق ملئهم على ذلك . كقوله في « الأعراف » : ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف : 109-112] . وقوله في « الشعراء » : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 34-37] ، لأن قوله ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ في الموضعين يدل على أن قول فرعون ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ وقع بعد مشاورة واتفاق الملأ منهم على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ .

(59/498)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن فرعون لما وعد موسى بأنه يأتي بسحر مثل ما جاء به موسى في زعمه قال لموسى ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ ﴾ والإخلاف : عدم إنجاز الوعد . وقرر أن يكون مكان الاجتماع للمناظرة وللمغالبة في السحر في زعمه مكاناً سُوىً . وأصح الأقوال في قوله ﴿ سُوًى ﴾ أصله من الاستواء . لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين لا تفاوت فيها بل هي مستوية . وقوله ﴿ سُوًى ﴾ فيه ثلاث لغات : الضم ، والكسر مع القصر ، وفتح السين مع المد . والقراءة بالأولين دون الثالثة هنا ومن القراءة بالثالثة ﴿ تَعَالَوْاْ إلى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران : 64] ومن إطلاق العرب ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ على المكان المتوسط بين الفريقين قول موسى بن جابر الحنفي ، وقد أنشده أبو عبيدة شاهداً لذلك :

وإن أبانا كان حل ببلدة . . . سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

والفزر : سعد بن زيد مناة بن تميم . يعني حل ببلدة مستوية مسافتها بين قيس عيلان

والفزر . وأن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أجاب فرعون إلى ما طلب منه من الموعد ، وقرر أن يكون وقت ذلك يوم الزينة . وأقوال أهل العلم في يوم الزينة راجعة إلى أنه يوم معروف لهم ، يجتمعون فيه ويتنزينون . سواء قلنا : إنه يوم عيد لهم ، أو يوم عاشوراء ، أو يوم النيروز ، أو يوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون فيه بأنواع الزينة .

قال الزمخشري : وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهر دينه ، وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص لتوي رغبة من رغب في اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر .

(60/498)

لُيعلم في كل بَدْو وحَضَر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والحضرا ه منه . والمصدر المنسبك من «أَنْ» وصلتها في قوله ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَاس ضُحًى ﴾ في محل جر عطفاً على ﴿ الزينة ﴾ أي موعدكم يوم الزينة وحشر الناس ، أو في محل رفع عطفاً على قوله ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ على قراءة الجمهور بالرفع . والحشر : الجمع والضحى : من أول النهار حين تشرق الشمس . والضحى يذكّر ويؤنث . فمن أنثه ذهب إلى أنه جمع ضحوة . ومن ذكّره ذهب إلى أنه اسم مفرد جاء على فعل بضم ففتح كصرد وزفر . وهو منصرف إذا لم ترد ضحى

يوم معين بلا خلاف . وإن أردت ضحى يومك المعين فقيل يمنع من الصرف كسحر . وقيل لا .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من كون المناظرة بين موسى والسحرة عين لوقتها يوم معلوم يجتمع الناس فيه . ليعرفوا الغالب من المغلوب أشير له في غير هذا الموضع . كقوله تعالى في « الشعراء » : ﴿ فَجُمِعَ السحرة لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السحرة إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ﴾ [الشعراء : 38-40] .

فقوله تعالى : ﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

اليوم المعلوم : هو يوم الزينة المذكور هنا . وميقاته وقت الضحى منه المذكور في قوله ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ .

تنبيه

اعلم أن في تفسير هذه الآية الكريمة أنواعاً من الإشكال معروفة عند العلماء ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أوجه الإشكال فيها ، ونبين إزالة الإشكال عنها .

اعلم أولاً أن الفعل الثلاثي إن كان مثالاً أعني واوي الفاء كوعد ووصل ، فالقياس في مصدره الميمي واسم مكانه وزمانه كلها المفعل (بفتح الميم وكسر العين) ما لم يكن معتل اللام . فإن كان معتلها فالقياس فيه المفعل (بفتح الميم والعين) كما هو معروف في فن الصرف .

فإذا علمت ذلك ، فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ صالح بمقتضى القياس الصرفي لأن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الوعد ، وأن يكون اسم زمان يُراد به وقت الوعد ، وأن يكون اسم مكان يراد به مكان الوعد . ومن إطلاق الموعد في القرآن اسم زمان قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 43] أي مكان وعدهم بالعذاب .

وأوجه الإشكال في هذا أن قوله : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ﴾ يدل على أن الموعد مصدر . لأن الذي يقع عليه الإخلاف هو الوعد لا زمانه ولا مكانه .

وقوله تعالى : ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ .

يدل على أن الموعد في الآية اسم مكان .

وقوله : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ يدل على أن الموعد في الآية اسم زمان . فإن قلنا إن الموعد في الآية مصدر أشكل على ذلك ذكر المكان في قوله ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ لأن نفس المكان لا يخلف وإنما يخلف الوعد ، وأشكل عليه أيضاً قوله : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ .

(62/498)

وإن قلنا : إن الموعد اسم زمان أشكل عليه أيضاً قوله : ﴿ لَّا نُخْلِفُهُ ﴾ ، وقوله ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ هذه هي أوجه الإشكال في هذه الآية الكريمة . وللعلماء عن هذا أجوبة منها ما ذكره الزمخشري في الكشاف قال : لا يخلو الموعد في قوله ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدراً . فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ إلى أن قال : فبقي أن يُجعل مصدراً بمعنى الوعد ويُقدر مضاف محذوف ، أي مكان الوعد ، ويجعل الضمير في ﴿ نُخْلِفُهُ ﴾ للموعد و﴿ مَكَاناً ﴾ بدل من المكان المحذوف .

فإن قلت : كيف طابقه قوله ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ ولا بد من أن تجعله زماناً والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان ؟

قلت : هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً . لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم . فبذكر الزمان عُلم المكان . انتهى محل الغرض منه . ولا يخفى ما في جوابه هذا من التعسف والحذف والإبدال من المحذوف .

(63/498)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر ما أُجيب به عما ذكرنا من الإشكال عندي في هذه الآية الكريمة أن فرعون طلب من موسى تعيين مكان الموعد ، وأنه يكون مكاناً سُوًى . أي وسطاً بين أطراف البلد كما بينا . وأن موسى وافق على ذلك وعين زمان الوعد وأنه يوم الزينة ضُحى . لأن الوعد لا بد له من مكان وزمان . فإذا علمت ذلك فاعلم أن الذي يترجح عندي المصير إليه هو قول من قال في قوله ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ إنه اسم مكان أي مكان الوعد ، وقوله ﴿ مَكَاناً ﴾ بدل من قوله موعداً . لأن الموعد إذا كان اسم مكان صار هو نفس المكان فاتضح كون ﴿ مَكَاناً ﴾ بدلاً . ولا إشكال في ضمير ﴿ نُخْلِفُهُ ﴾ على هذا . ووجه إزالة الإشكال عنه أن المعروف في فن الصرف : أن اسم المكان مشتق من المصدر كاشتقاق الفعل منه ، فاسم المكان ينحل عن مصدر ومكان . فالمنزل مثلاً مكان النزول ، والمجلس مكان الجلوس ، والموعد مكان الوعد . فإذا اتضح لك أن المصدر كامن في مفهوم اسم المكان فالضمير في قوله ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ راجع للمصدر ، و﴿ مَكَاناً ﴾ منصوب بفعل دل عليه الموعد . أي عدنا مكاناً سوى . ونصب المكان بأنه مفعول المصدر الذي هو ﴿ مَوْعِداً ﴾ أو أحد مفعولي ﴿ فاجعل ﴾ غير صواب فيما يظهر لي والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة « سوى » بضم السين والباقون بكسرها . ومعنى القراءتين واحد كما تقدم .

(64/498)

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ ﴾ قال بعض العلماء : معناه فتولى فرعون ، انصرف مدبراً من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه هو وموسى . ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة « النازعات » في القصة بعينها ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى فَحَشَرَ فنادى ﴾ [النازعات : 22-23] وقوله ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي جمع السحرة .

وقال بعض العلماء : معنى قوله ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ ﴾ أي أعرض عن الحق الذي جاء به موسى . ومن معنى هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته ، ويدل على هذا أمران : أحدهما تسمية السحر في القرآن كيداً . كقوله ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ [طه : 69] الآية ، وقوله تعالى عن السحرة : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ [طه : 64]

وكيدهم سحرهم . الثاني أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله . كقوله تعالى في « الأعراف » : ﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف : 111-112] . وقوله ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ أي جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته ، وقوله في « الشعراء » : ﴿ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السحرة لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 36-38] وقوله في « يونس » : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائتوني بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس : 79] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ أي جاء فرعون بسحرته للميعاد ليغلب نبي الله موسى بسحره في زعمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(65/498)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) ﴾

رجوع إلى قصص موسى عليه السلام مع فرعون .

وهذه الجملة بين الجمل التي حكت محاورة موسى وفرعون وقعت هذه كالمقدمة لإعادة سوق ما جرى بين موسى وفرعون من المحاورة .

فيجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ [طه : 49] باعتبار ما يقدّر قبل المعطوف عليها من كلام حذف اختصاراً ، تقديره : فأتيَاهُ فقالاَ ما أمرناهما أن يقولاه قال فمن ربّكما الخ .

المعنى : فأتياه وقالا ما أمرناهما وأريناه آياتنا كلها على يد موسى عليه السلام .

ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين ما قبلها ، والواو اعتراضيّة .

وتأكيد الكلام بلام القسم و(قد) مستعمل في التعجيب من تصلّب فرعون في عناده ، وقصد منها بيان شِدّته في كفره وبيان أن لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون فلم تُجْد في إيمانه .

وأجملت وعُممت فلم تفصل ، لأنّ المقصود هنا بيان شدّة تصلبه في كفره بخلاف آية سورة الأعراف التي قصد منها بيان تعاقب الآيات ونصرتها .

وإراءة الله إياه الآيات : إظهارها له بحيث شاهدها .

وإضافة (آيات) إلى ضمير الجلالة هنا يفيد تعريفاً لآيات معهودة ، فإن تعريف الجمع بالإضافة يأتي لما يأتي له التعريف باللاّم يكون للعهد ويكون للاستغراق ، والمقصود هنا الأول ، أي أرينا فرعون آياتنا التي جرت على يد موسى ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ في تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ [النمل : 12] .

وهي انقلاب العصا حيّة ، وتبدّل لون اليد بيضاء ، وسِنُو القحط ، والجراد ، والقُمَّل ،

والضفادع، والدم، والطوفان، وانفلاق البحر.

وقد استمر تكذيبه بعد جميعها حتى لما رأى انفلاق البحر اقتحمه طمعاً للظفر ببني إسرائيل.

وتأكيد الآيات بأداة التوكيد ﴿ كُلَّهَا ﴾ لزيادة التعجيب من عناده.

(66/498)

ونظيره قوله تعالى: ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها ﴾ في سورة القمر (41، 42).

وظاهر صنيع المفسرين أنهم جعلوا جملة ولَقَدْ أريناهُ ءاياتنا ﴾ عطفاً على جملة ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ [طه: 49]، وجملة ﴿ قال فمن ربكما بياناً لجملة فَكَذَّبَ وأبى ﴾.

فيستلزم ذلك أن يكون عزم فرعون على إحضار السحرة متأخّراً عن إرادة الآيات كلها فوقعوا في إشكال صحة التعميم في قوله تعالى: ﴿ آياتِنَا كُلَّهَا.

﴾ وكيف يكون ذلك قبل اعتراف السحرة بأنهم غلبوا مع أن كثيراً من الآيات إنما ظهر بعد زمن طويل مثل: سني القحط، والدم، وانفلاق البحر.

وهذا الحمل لا داعي إليه لأنّ العطف بالواو لا يقتضي ترتيباً .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) ﴾

هذه الجملة متصلة بجملة ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ [طه : 51] وجواب موسى عنها .

وافتتاحُها بفعل ﴿ قَالَ ﴾ وعدم عطفه لا يترك شكّاً في أن هذا من تمام المحاورة .

وقوله ﴿ أجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا من أرْضِنَا بِسِحْرِكَ ﴾ يقتضي أنه أراه آية انقلاب العصا حيّة ، وانقلاب يَده بيضاء .

وذلك ما سمّاه فرعون سِحراً .

وقد صُرح بهذا المقتضى في قوله تعالى حكاية عنهما : ﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره . . .

﴾ الآية في سورة [الشعراء : 29 - 35] .

وقد استغنى عن ذكره هنا بما في جملة ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ [طه : 56] من العموم الشامل لآية انقلاب العصا حيّة .

وإضافته السحرَ إلى ضمير موسى قُصد منها تحقير شأن هذا الذي سمّاه سحراً .

وأسنَدَ الإتيان بسحرٍ مثله إلى ضمير نفسه تعظيماً لشأنه .

(67/498)

ومعنى إتيانه بالسحر : إحضار السحرة بين يديه ، أي فلنأتينك بسحر ممنْ شأنهم أن يأتوا بالسحر ، إذ السحر لا بد له من ساحر .

والمماثلة في قوله ﴿ مِثْلِهِ ﴾ مماثلة في جنس السحر لا في قوته .

وإنما جعل فرعون العلّة في مجيء موسى إليه : أنها قصده أن يخرجهم من أرضهم قياساً منه على الذين يقومون بدعوة ضد الملوك أنهم إنما يبغون بذلك إزالتهم عن الملك وحلولَهم محلّهم ، يعني أن موسى غرّته نفسه فحسب أنه يستطيع اقتلاع فرعون من ملكه ، أي حسبتَ أنّ إظهار الخوارق يطوّع لك الأمة فيجعلونك ملكاً عليهم وتخرجني من أرضي .

فضمير المتكلم المشارك مستعمل في التعظيم لا في المشاركة ، لأنّ موسى لم يصدر عنه ما يشمّ منه إخراجهم من أرضهم .

ويجوز أن يكون ضمير المتكلم المشارك مستعملاً في الجماعة تغليباً ، ونزّل فرعون نفسه واحداً منها .

وأراد بالجماعة جماعة بني إسرائيل حيث قال له موسى ﴿ فأرسِلْ معنا بني إسرائيل ﴾ [طه : 47] ، أي جئت لتخرج بعض الأمة من أرضنا وتطمع أن يتبعك جميع الأمّة بما تظهر لهم من سحرك .

والاستفهام في ﴿ أجِئْتَنَا ﴾ إنكاري ، ولذلك فرّع عليه القسم على أن يأتيه بسحر مثله ، والقسم من أساليب إظهار الغضب .

واللام لام القسم ، والنون لتوكيده .

وقصد فرعون من مقابلة عمل موسى بمثله أن يزيل ما يخالج نفوس الناس من تصديق موسى وكونه على الحق ، لعلّ ذلك يفضي بهم إلى الثورة على فرعون وإزالته من ملك مصر .

وفرّع على ذلك طلب تعيين موعد بينه وبين موسى ليُحضر له فيه القائمين بسحر مثل سحره .

والموعد هنا يجوز أن يراد به المصدر الميمي ، أي الوعد وأن يراد به مكان الوعد ، وهذا إيجاز في الكلام .

وقوله ﴿ مكاناً ﴾ بدل اشتمال من ﴿ موعداً ﴾ بأحد معنييه ، لأنّ الفعل يقتضي مكاناً وزماناً فأبدل منه مكانُه .

وقوله ﴿ لا نُخْلِفُهُ ﴾ في قراءة الجمهور برفع الفعل صفةً ل ﴿ موعداً ﴾ باعتبار معناه المصدري .

وقرأه أبو جعفر بجزم الفاء من (نخلفْه) على أن (لا) ناهية .

والنهي تحذير من إخلافه .

و ﴿ سِوىً ﴾ قرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي بكسر السين .

وقرأه عاصم ، وحمزة ، وابن عامر ، ويعقوب ، وخلف بضم السين وهما لغتان ، فالكسر بوزن فِعَل ، قال أبو عليّ : وزن فِعَل يقلُّ في الصفات ، نحو : قوم عِدىً .

وقال أبو عبيدة ، وأبو حاتم ، والنحاس : كسر السين هو اللغة العالية الفصيحة ، وهو اسم وصف مشتق من الاستواء : فيجوز أن يكون الاستواء استواء التوسط بين جهتين .

وأنشد أبو عبيدة لموسى ابن جابر الحنفي:

وإن أبانا كان َحلّ ببلدة . . .

سِوىً بين قيسسٍ قيس عيلان والفِزْر

(الفِزر : لقب لسعد بن زيد مناةَ بن تميم هو بكسر الفاء) .

والمعنى : قال مجاهد : إنه مكان نصف ، وكأنّ المرادَ أنّه نصف من المدينة لئلا يشق الحضور فيه على أهل أطراف المدينة .

وعن ابن زيد : المعنى مكاناً مستوياً ، أي ليس فيه مرتفعات تحجب العين ، أراد مكاناً منكشفاً للناظرين ليشهدوا أعمال موسى وأعمال السحرة .

ثم تعيين الموعد غيرِ المخلَف يقتضي تعيين زمانه لا محالة ، إذ لا يتصوّر الإخلاف إلاّ إذا كان للوعد وقت معيّن ومكان معيّن ، فمن ثم طابقه جواب موسى بقوله ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً ﴾ .

فيقتضي أن محشر الناس في يوم الزينة كان مكاناً معروفاً .

ولعلّه كان بساحة قصر فرعون ، لأنّهم يجتمعون بزينتهم ولهوهم بمرأى منه ومن أهله على عادة الملوك في المواسم .

فقوله ﴿ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ تعيين للوقت ، وقوله ﴿ وأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ تعيين للمكان ، وقوله ﴿ ضُحىً ﴾ تقييد لمطلق الوقت .

والضحى : وقت ابتداء حرارة الشمس بعد طلوعها .

(69/498)

ويوم الزينة كان يوم عيد عظيم عند القبط ، وهو يوم كسر الخليج أو الخِلجان ، وهي المنافذ والترع المجعولة على النيل لإرسال الزائد من مياهه إلى الأرضين البعيدة عن مجراه للسقي ،

فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها ويزرعون عليها .

وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطيّة ، وذلك هو أول يوم من شهر (توت) القبطي ، وهو (أيلول) بحسب التاريخ الإسكندري ، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يوماً ، أي قبل فصل الخريف بثمانية عشر يوماً ، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين (سبتمبر) .

وأول أيام شهر (توت) هو يوم النيروز عند الفرس ، وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل لا على حساب بروج الشمس .

واختار موسى هذا الوقت وهذا المكان لأنه يعلم أن سيكون الفَلَجُ له ، فأحبّ أن يكون ذلك في وقت أكثَرَ مشاهِداً وأوضح رؤيةً .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) ﴾

تفريع التولّي وجمع الكيد على تعيين موسى للموعد إشارة إلى أن فرعون بادر بالاستعداد لهذا الموعد ولم يُضعِ الوقت للتهيئة له .

والتولّي : الانصراف ، وهو هنا مستعمل في حقيقته ، أي انصرف عن ذلك المجلس إلى حيثُ يُرسل الرسل إلى المدائن لجمع من عُرفوا بعلم السحر ، وهذا كقوله تعالى في سورة النازعات (22 ، 23) ﴿ ثم أدبر يسعى فحشر فنادى ﴾

ومعنى جمع الكيد : تدبير أسلوب مناظرة موسى ، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة

عليه، وإقناع الحاضرين بأنّ موسى ليس على شيء.

وهذا أسلوب قديم في المناظرات: أن يسعى المناظر جهده للتشهير ببطلان حجّة خصمه بكلّ وسائل التلبيس والتشنيع والتشهير، ومباداته بما يفتّ في عضده ويشوش رأيه حتّى يذهب منه تدبيره.

فالجمع هنا مستعمل في معنى إعداد الرأي.

واستقصاء ترتيب الأمر، كقوله ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ [يونس: 71]، أي جمع رأيه وتدبيره الذي يكيد به موسى.

(70/498)

ويجوز أن يكون المعنى فجمع أهل كيده، أي جمع السحرة، على حد قوله تعالى: ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ [الشعراء: 38].

والكَيْد: إخفاء ما به الضر إلى وقت فعله.

وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ إن كيدي متين ﴾ في سورة الأعراف (183).

ومعنى ثُمَّ أتى ﴾ ثمّ حضر الموعدَ، وثم للمهلة الحقيقية والرتبية معاً، لأن حضوره للموعد كان بعد مضي مهلة الاستعداد، ولأن ذلك الحضور بعد جمع كيده أهمّ من جمع الكيد،

لأنّ فيه ظهور أثر ما أعدّه .

وجملة ﴿ قَالَ لَهُم موسى ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأنّ قوله ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ يثير سؤالاً في نفس السامع أن يقول : فماذا حصل حين أتى فرعون ميقات الموعد .

وأراد موسى مفاتحة السحرة بالموعظة .

وضمير ﴿ لَهُم ﴾ عائد إلى معلوم من قوله ﴿ فلنأتينك بسحر مثله أي بأهل سحر ، أو يكون الخطاب للجميع ، لأنّ ذلك المحضر كان بمرأى ومسمع من فرعون وحاشيته ، فيكون معاد الضمير ما دلّ عليه قوله فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أتى ﴾ ، أي جمع رجال كيده . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(71/498)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) ﴾

الآيات : الأمور العجيبة ، كما تقول : فلان آية في الذكاء ، آية في الحسن ، آية في الكرم . يعني : عجيب في بابه ، وسبق أنْ قسّمنا آيات الله إلى : آيات كونية كالشمس والقمر ، وآيات لإثبات صِدْق الرسُل ، وهي المعجزات وآيات القرآن الكريم ، والتي تسمى حاملة الأحكام

.

لكن آيات الله عز وجل كثيرة ولا تُحصى ، فهل المراد هنا أن فرعون رأى كل آيات الله ؟ لا ؛ لأن المراد هنا الآيات الإضافية ، وهي الآيات التسعة التي جعلها الله حُجّة لموسى وهارون ، ودليلاً على صِدْقهما ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] .

وهي : العصا واليد والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم والسنين والنقص من الثمرات . تلك هي الآيات التي أراها الله لفرعون .

والكلية في قوله : ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ [طه : 56] كلية إضافية . أي : كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك (لقد أحضرتُ لك كل شي) وليس المقصود أنك أتيتَ له بكل ما في الوجود ، إنما هي كلية إضافية تعني كل شيء تحتاج إليه .

ومع ذلك كانت النتيجة ﴿ فَكَذَّبَ وأبى ﴾ [طه : 56] كذَّب : يعني نسبها إلى الكذب ، والكذب قَوْل لا واقعَ له ، وكان تكذيبه لموسى عِلّة إبائه ﴿ وأبى ﴾ [طه : 56] امتنعَ عن الإيمان بما جاء به موسى .

ولو ناقشنا فرعون في تكذيبه لموسى عندما قال : ﴿ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

لما كذبتَ يا فرعون ؟ الحق سبحانه قال : خلقتُ هذا الكون بما فيه ، ولم يَأْتِ أحد لينقضَ

هذا القول، أو يدَّعيه لنفسه، حتى أنت يا مَنْ ادعيْتَ الألوهية لم تدَّعِ خَلْق شيء، فهي إذن قضية مُسلَّم بها للخالق عز وجل لم ينازعه فيها أحد، فأنت إذن كاذب في تكذيبك لموسى، وفي إبائك الإيمان به.

(72/498)

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾

عاش المصريون قديماً على ضفاف النيل؛ لذلك يقولون: مصر هِبَة النيل، حتى إذا ما انحسر الماء بذروا البذور وانتظروها طوال العام، ليس لهم عمل ينشغلون به، وهذه الحياة الرتيبة عوَّدتهم على شيء من الكسل، إلا أنهم أحبُّوا هذا المكان، ولو قلت لواحد منهم: اترك هذه الأرض لمدة يوم أو يومين يثور عليك ويغضب.

لذلك استغلّ فرعون ارتباط قومه بأرض مصر، وحاول أن يستعدي هؤلاء الذين يمثّل عليهم أنه إله، يستعديهم على موسى وهارون فقال مقولته هذه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا موسى ﴾ [طه: 57].

وهنا ثار القوم، لا لألوهية فرعون المهددة، إنما دفاعاً عن مصلحتهم الاقتصادية، وما ينتفعون به على ضفاف هذا النيل المبارك، الذي لا يضنّ عليهم في فيضانه ولا في انحساره

، فكان القوم يسمونه : ميمون الغَدَوات والروحَات ، ويجري بالزيادة والنقصان كجرْي الشمس والقمر ، له أوان .

وهكذا نقل فرعون مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته ، فأصبحت المسألة بين موسى وهارون وبين رعية فرعون ؛ لأنه خاف من كلام موسى ومِمّا يعرضه من قضايا إنْ فهمها القوم كشفوا زَيْفه ، وتنمَّروا عليه ، وثاروا على حكمه ، ورفضوا ألوهيته لهم ، فأدخلهم طرفاً في هذا الخلاف .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾

فسمَّى فرعون ما جاء به موسى سِحْراً ؛ لذلك قال ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ [طه : 58] وهذه التسمية خاطئة في حق موسى ، وإنْ كانت صحيحة بالنسبة لقوم فرعون .

فما الفرق إذن بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون ؟

(73/498)

السحر لا يقلب حقيقة الشيء ، بل يظل الشيء على حقيقته ، ويكون السحر للرائي ، فيرى الأشياء على غير حقيقتها ، كما قال تعالى : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] فلما ألقى السحرةُ حبالهم كانت حبالاً في الحقيقة ، وإنْ رآها الناظر حيّات

وثعابين تسعى ، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية ، بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها .

وقوله : ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ﴾ [طه : 58] أي : نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ [طه : 58] أي : مُسْتوياً ؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً فتستوي فيه مرائي النظارة ، بحيث لا تحجب الرؤية عن أحد . أو (سُوىً) يعني : سواء بالنسبة لنا ولك ، كما نقول : نلتقي في منتصف الطريق ، لا أنا أتعب ولا أنت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾

معلوم أن الحدث يحتاج إلى مُحدِث له ، ويحتاج إلى مكان يقع عليه ، ويحتاج إلى زمان يحدث فيه ، وقد عرفنا المحدِث لهذا اللقاء ، وهما موسى وهارون من ناحية ، وفرعون وسحرته من ناحية .

وقد حدد فرعون المكان ، فقال ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ [طه : 58] بقي الزمان لإتمام الحدث ؛ لذلك حدده موسى ، فقال : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ [طه : 59] ؛ لأن الحدث لا يتم إلا في زمان ومكان .

لذلك لا نقول : متى الله ولا : أين الله ؟ فالحق تبارك وتعالى ليس حَدَثاً ، ومتى وأين مخلوقة لله تعالى ، فكيف يحدُّه الزمان أو المكان ؟

وقول موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ [طه : 59] ولم يقُلْ : يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلاً ، ويوم الزينة يوم يجتمع فيه كل سُكَّان مصر ، يظهر أنه يوم وفاء النيل ، فيخرجون في زينتهم مسرورين بفيضان النيل وكثرة خيره وبركاته ، وما زالت مصر تحتفل بهذا اليوم .

(74/498)

وكان القاضي لا يقضي بأمر الخراج إلا بعد أنْ يطّلع على مقياس النيل ، فإنْ رآه يُوفي بريّ البلاد حدَّد الخراج وإلاَّ فلا .

لكن ، لماذا اختار موسى هذه اليوم بالذات ؟ لماذا لم يحدد أي يوم آخر ؟ ذلك ؛ لأن موسى عليه السلام كان على ثقة تامة بنصر الله له ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون على هذا الملأ ، ووسط هذه الجمع ، فمِثْل هذا التجمع فرصة لا يضيعها موسى ؛ لأن النفس في هذا اليوم تكون مسرورة منبسطة ، فهي أقرب في السرور لقبول الحق من أيّ وقت آخر .

وقوله : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه : 59] أي : ضاحين ، ويوم الزينة يمكن أن يكون في الصباح الباكر ، أو في آخر النهار ، لكن موسى متمكّن واثق من الفوز ، يريد أن يتم هذا اللقاء في وضح النهار ، حتى يشهده الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ ﴾

تولى : أي : ترك موسى وانصرف ليُدبِّر شأنه ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ [طه : 60] الكيد : التدبير الخفي للخَصْم ، والتدبير الخفيّ هنا ليس دليلَ قوة ، بل دليل ضَعْف ؛ لأنه قوة له على المجابهة الواضحة ، مثل الذي يدسّ السُّم للآخر لعدم قدرته على مواجهته .

إذن : الكيد دليل ضَعْف ؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة ، إنما دليلٌ على ضعفها ، فكما أن كيدهُنّ عظيم ، فكذلك ضعفُهن عظيم .

فمعنى ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ [طه : 60] أدار فِكْره على ألوان الكَيْد المختلفة ، ليختار منها ما هو أنكى لخَصْمه ، كما جاء في آية أخرى في شأْن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ ﴾ [يونس : 71] .

وكأن الأمر الذي هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة : نفعل كذا ، أو نفعل كذا ؟ ثم ينتهي من هذه المشاورة إلى رأْي يجمع كل الاحتمالات ، بحيث لا يفاجئه شيء بعد أنْ احتاط لكل الوجوه .

فالمعنى : اتِفقُوا على الخطة الواضحة التي تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غيابت الجب ﴾ [يوسف : 15] . أي : اتفقوا على هذا الرأي ، وأجمعوا عليه ، بعد أن قال أحدهم ﴿ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً ﴾ [يوسف : 9] ، فكان الرأي النهائي أنْ يجعلوه في غيابة الجب .

فهُمْ على آية حال سلالة نُبوة ، لم يتأصل الشرُّ في طباعهم ؛ لذلك يتضاءل شرُّهم من القتل إلى الإلقاء في متاهات الأرض إلى أهْوَن هذه الأخطار ، أنْ يُلْقوه في الجُبِّ ، وهذه صفة الأخيار ، أما الأشرار الذين تأصل الشر في نفوسهم وتعمّق ، فشرُّهم يتزايد ويتنامى ، فيقول أحدهم : أريد أنْ أقابل فلاناً ، فأبصق في وجهه ، أو أضربه ، أو أُقطّعه ، بل رصاصة تقضي عليه فيُصعِّد ما عنده من الشر .

وبعد ذلك يرجُونَ له النجاة ، فيقولون : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ [يوسف : 10] .

ثم يقول تعالى في شأن فرعون : ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ [طه : 60] أي : أتى الموعد الذي سبق تحديده ، مكاناً وزماناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/498)

"فصل"

قال السيوطى :

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ مكاناً سوى ﴾ قال : منصفاً بينهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ مكاناً سوى ﴾ قال : نصفاً بيني وبينك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ مكاناً سوى ﴾ قال : عدلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ مكاناً سوى ﴾ قال : مكاناً مستوياً يتبين الناس سواء فيه . لا يكون صوت ، ولا شيء يتغيب بعض ذلك ، عن بعض مستوحين يرى .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ قال : يوم عاشوراء .

وأخرج ابن المنذر ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة ، ومن تصدق يومئذ بصدقة أدرك ما

فاته من صدقة تلك السنة " يعني يوم عاشوراء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ قال : هو يوم عيد كان لهم .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ قال : هو عيدهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ قال : يوم السوق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه قال : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ قال : يوم العيد : يوم يتفرغ الناس من الأعمال ، ويشهدون ويحضرون ويرون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ قال : يجتمعون لذلك الميعاد الذي واعدوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي نهيك أنه قرأ " وأن تحشر الناس ضحى " بالتاء وأن تشحر الناس أنت قال : فرعون يحشر قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ :

هي مِنْ " رأى " البصَريةِ فَلَمَّا دخلَتْ همزةُ النقل تَعدتْ بها إلى اثنين أولُهما الهاء ، والثاني " آياتِنا " ، والمعنى : أَبْصرْناه . والإضافةُ هنا قائمةٌ مقامَ التعريفِ العَهْدي أي : الآياتِ المعروفةَ كالعصا واليد ونحوهما ، وإلاَّ فلم يُرِ اللهُ تعالى فرعونَ جميعَ آياتِه . وجوَّزَ الزمخشري أن يُرادَ بها الآياتُ على العموم بمعنى : أنَّ موسى عليه السلام أراه الآياتِ التي بُعِث بها وعَدَّد عليه الآياتِ التي جاءَتْ بها الرسل قبله عليهم السلام ، وهو نبيٌّ صادقٌ ، لا فرقَ بين ما يُخْبِرُ عنه وبين ما يُشاهَدُ به " .

قال الشيخ : " وفيه بُعْدٌ ؛ لأنَّ الإخبارَ بالشيءِ لا يُسَمَّى رؤيةً له إلاَّ بمجاز بعيد . وقيل : بل الرؤيةُ هنا رؤيةٌ قلبيةٌ ، فالمعنى : أَعْلَمْناه " وأَيد ذلك : بأنه لم يكن أراه إلاَّ اليدَ والعصا فقط . ومَنْ جوَّزَ استعمالَ اللفظِ في حقيقتِه ومجازه أو إعمالَ المشتركِ في معنَيَيْه يجيزُ يُرادَ المعنيان جميعاً . وتأكيدُه للآيات ب "كلّها " يدل على إرادةِ العمومِ لأنَّهم قالوا : فائدةُ التوكيدِ ب "كل " وأخواتِها رَفْعُ توَهُّمِ وَضْعِ الأخصّ مَوْضعَ الأعمّ ، فلا يُدَّعَى أنه أراد بالآياتِ آياتٍ مخصوصةً ، وهذا يتمشى على أن الرؤيةَ قلبيةٌ ، ويُراد بالآيات ما يَدُلُّ على وَحْدانيةِ اللهِ وصِدْقِ المبلِّغ . ولم يذكر معفولَ التكذيب والإِباءِ تعظيماً له ، وهو معلومٌ .

قوله : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ ﴾ :

جوابُ قسمٍ محذوفٍ تقديرُه : واللهِ لَنَأْتِيَنَّك . وقوله : " بسِحْرٍ " يجوز أن يتعلَّقَ بالإِتيان ، وهذا هو الظاهرُ ، ويجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ فاعلِ الإِتيان أي : ملتبسين بسِحْرٍ .

(78/498)

قوله : ﴿ مَوْعِداً ﴾ يجوز أن يكونَ زماناً . ويُرَجِّحه قولُه : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يومُ الزينة ﴾ والمعنى : عَيِّن لنا وقتَ اجتماعٍ ؛ ولذلك أجابهم بقوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ . وضعَّفوا هذا : بأنه يَنْبُوا عنه قوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ﴾ ، وبقوله : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ . وأجاب عن قوله : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ بأنَّ المعنى : لا نُخْلِفُ الوقتَ في الاجتماع . ويجوز أن يكون مكاناً . والمعنى : بَيِّنْ لنا مكاناً معلوماً نعرفه نحن وأنت . . . ويُؤَيِّدُ بقوله : ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ قال : فهذا يَدُلُّ على أنه مكانٌ ، وهذا يَنْبُوْعه قوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ .

ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً ، ويؤيِّد هذا قولُه : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ﴾ لأنَّ المواعدةَ

تُوْصَفُ بالخُلْفِ وعدمِه . وإلى هذا نحا جماعةٌ مختارين له . ورُدَّ عليهم بقولِه : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ فإنه لا يطابقه .

(79/498)

وقال الزمخشري : " إنْ جَعَلْتَه زمانا نظراً في أن قولَه : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ مطابقٌ له لَزِمك شيئان : أن تجعلَ الزمانَ مُخْلَفاً ، وأن يَعْضُلَ عليك ناصبُ " مكاناً " ، وإن جَعَلْتَه مكاناً لقوله : ﴿ مَكَاناً سُوى ﴾ لَزِمك أيضاً أَنْ تُوْقِعَ الإِخلافَ على المكان ، وأن لا يطابِقَ قولَه موعدكم يومُ الزينة ، وقرءةُ الحسن غيرُ مطابقةٍ له زماناً ومكاناً جميعاً لأنَّه قرأ " يومَ الزينة " بالنصب ، فبقي أن يُجْعل مصدراً بمعنى الوَعْدِ ، ويقدَّرَ مضافٌ محذوفٌ أي : مكان الوعد ، ويُجْعلَ ضميرُ في " نُخْلِفُه " للموعِد ، و" مكاناً " ، بدل من المكان المحذوف . فإن قلت : فكيف طابقه قولُه : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ ، ولا بُدَّ من أن تجعلَه زماناً ، والسؤالُ واقعٌ عن المكان لا عن الزمان؟ قلت : هو مطابقٌ معنىً ، وإن لم يطابِقْه لفظاً ؛ لأنهم لا بُدَّ لهم أن يجتمعوا يومَ الزينة في مكانٍ بعينه مُشْتَهِرٍ باجتماعِهم فيه في ذلك الزمان . فبذِكْرِ الزمانِ عُلِمَ المكانُ . وأما قراءةُ الحسنِ فالموعدُ فيها مصدرٌ لا غيرَ . والمعنى : إنجازُ وعدِكم يومَ الزينة ، وطابقَ هذا أيضاً من طريق المعنى . ويجوز أن لا يُقَدَّرَ مضافٌ

محذوف ، ويكون المعنى : اجعل بيننا وبينك وعداً لا نُخْلفه " .

وقال أبو البقاء : " هو هنا مصدر لقوله : ﴿ لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ ﴾ .

(80/498)

والجَعْل هنا بمعنى التصيير . ومَوْعِداً مفعول أول والظرفُ هو الثاني . والجملةُ مِنْ قوله : " لا نُخْلِفُه " صفةٌ لموعداً . و " نحن " توكيدٌ مُصَحِّحٌ للعطفِ على الضميرِ المرفوعِ المستترِ في " نُخْلفه " و " مكاناً " بدلٌ من المكان المحذوف كما قرره الزمخشري . وجَوَّز أبو علي الفارسي وأبو البقاء أن ينتصِبَ " مكاناً " على المفعول الثاني ل " اجعَلْ " قال : " ومَوْعداً على هذا مكانٌ أيضاً ، ولا ينتصِبُ ب مَوْعد لأنه / مصدرٌ قد وُصِف " يعني أنه يَصِحُّ نصبُه مفعولاً ثانياً ، ولكنْ بشرطِ أن يكونَ المَوْعِدُ بمعنى المكان ؛ ليتطابقَ المبتدأُ أو الخبرُ في الأصل .

وقوله : " ولا ينتصِبُ بالمصدر " يعني أنه لا يجوز أن يُدَّعَى انتصابُ " مكاناً " ب مَوْعد . والمرادُ بالموعد المصدرُ وإنْ كان جائزاً مِنْ جهة المعنى ؛ لأنَّ الصناعةَ تَأْباه وهو وصفُ المصدرِ ، والمصدرُ شرطُ إعمالِه عَدَمُ وصفِه قبل العمل عند الجمهور .

وهذا الذي منعه الفارسيُّ وأبو البقاء ، جَوَّزه الزمخشريُّ وبدأ به فقال : " فإن قلتَ : فبمَ

ينتَصِبُ مكاناً ؟ قلت : بالمصدرِ ، أو بما يَدُلُّ عليه المصدر . فإنْ قلت : كيف يطابقُه الجوابُ ؟ قلت : أمَّا على قراءةِ الحسن فظاهرٌ ، وأمَّا على قراءةِ العامَّةِ فعلى تقدير : وَعْدُكم وَعْدُ يومِ الزينة " .

قال الشيخ : " وقوله : إنَّ مكاناً ينتصب بالمصدر ليس بجائزٍ ؛ لأنه قد وُصِف قبل العملِ بقوله : " لا نُخْلِفُه " وهو موصولٌ ، والمصدر إذا وُصِفَ قبل العملِ لم يَجُزْ أَنْ يعملَ عندهم " . قلت : الظروفَ والمجروراتُ يُتَّسعُ فيها ما لم يُتَّسَعْ في غيرِها . وفي المسألة خلافٌ مشهورٌ وأبو القاسم نحا إلى جواز ذلك .

(81/498)

وجعل الحوفيُّ انتصابَ " مكاناً " على الظرف ، وانتصابَه ب " اجعل " . فتحصَّلَ في نصبِ " مكاناً " خمسةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه بدلٌ مِنْ " مكاناً " المحذوفِ . الثاني : أنه مفعولٌ ثانٍ للجَعْل . الثالث : أنه نُصِب بإضمار فعل . الرابع : أنه منصوبٌ بنفس المصدر . الخامس : أنه منصوبٌ على الظرف بنفس " اجْعَلْ " .

وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ " لا نُخْلِفْه " بالجزم على جوابِ الأمر ، والعامَّةُ بالرفع على الصفةِ لِمَوْعِد ، كما تقدَّم .

وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم والحسن "سُوَىً" بضم السينِ منوناً وصلاً . والباقون بكسرِها . فالكسرُ والضمُّ على أنها صفةٌ بمعنى مكانٍ عَدْلٍ ، إلا أنَّ الصفةَ على فُعَلٍ كثيرةٌ نحو : لُبَد وحُطَم ، وقليلةٌ على فِعَل . وحكى سيبويه "لحم زِيَم" ولم يُنَوِّن الحسنُ "سوى" أجرى الوصلَ مُجْرى الوقف . ولا جائزٌ أَنْ يكونَ مَنَعَ صَرْفَه للعَدْل على فُعَلٍ كعُمَر لأن ذلك في الأعلام . وأمَّا فُعَل في الصفاتِ فمصروفةٌ نحو : حُطَم ولُبَد .

وقرأ عيسى بن عمر "سِوى" بالكسر من غيرِ تنوين . وهي كقراءة الحسنِ في التأويل .

وسوى معناه "عَدْلاً ونَصَفَة" . قال الفارسي : "كأنه قال : قُرْبُه منكم قُرْبُه مِنَّا" . قال الأخفش : "سوى" مقصورٌ إنْ كَسَرْتَ سينَه أو ضَمَمْتَ ، وممدودٌ إنْ فَتَحْتَها ، ثلاثُ لغات ، ويكون فيها جميعها بمعنى غير ، وبمعنى عَدْلٍ ووسط بين الفريقين . قال الشاعر :

3295 وإنَّ أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ . . . سِوَىً بين قَيْسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

قال : "وتقول : مررتُ برجلٍ سِواك وسُواك وسَوائِك أي : غيرِك ويكون للجميع" وأعلى هذه اللغاتِ الكسرُ ، قاله النحاس . وزعم بعضُ أهلِ اللغة والتفسير أنَّ معنى مكاناً سوى : مستوٍ من الأرض ، لا وَعْرَ فيه ولا حُزُونَة .

قوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ :

العامَّةُ على رفع " يومُ الزينة " خبراً ل " موعدكم " . فإنْ جَعَلْتَ " موعدكم " زماناً لم تَحتجْ إلى حَذْفِ مضاف ؛ إذ التقديرُ : زمانُ الوعدِ يومُ الزينة ، وإن جعلتَه مصدراً احتجْتَ إلى حَذْفِ مضافٍ تقديرُه : وَعْدُكم وَعْدُ يومِ الزينة .

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى وعاصم في بعض طُرُقه وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقتادة والجحدري وهبيرة " يومَ " بالنصب . وفيه أوجهُ ، أحدها : أن يكونَ خبراً ل " موعدكم " على أنَّ المرادَ بالموعد المصدرُ أي : وعْدُكم كائن في يوم الزينة كقولِك : القتالُ يومَ كذا والسفر غداً .

الثاني : أن يكونَ " موعدُكم " مبتدأً ، والمرادُ به الزمان ، و " ضُحَى " خبرُه على نيةِ التعريفِ فيه ؛ لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه ، قاله الزمخشري ، ولم يُبَيِّنْ ما الناصبُ ل " يومَ الزينة " ؟ ولا يجوز أن يكونَ منصوباً ، ب " موعدكم " على هذا التقديرِ ؛ لأنَّ مَفْعِلاً مراداً به الزمانُ أو المكانُ لا يعمل وإنْ كان مشتقاً ، فيكونُ الناصبُ له فعلاً مقدَّراً . وواخذه الشيخ في قوله " على نيةِ التعريف " قال : " لأنَّه وإن كان ضُحى ذلك اليومِ بعينه فليس على نية التعريفِ ، بل هو نكرةٌ ، وإن كان من يومٍ بعينه ؛ لأنه ليس معدولاً عن الألفِ واللام كسَحَر ولا هو معرَّفٌ بالإِضافةِ ولو قلت : " جئت يوم الجمعة بَكَراً " لم نَدَّعِ أن بَكَراً معرفةٌ وإن كنت تعلمُ أنه من يومٍ بعينه " .

الثالث: أن يكونَ "موعدُكم" مبتدأً، والمرادُ به المصدرُ و"يومَ الزينةِ" ظرفٌ له. "وضحى" منصوبٌ على الظرفِ خبراً للموعد، كما أخبر عنه في الوجهِ الأول بيوم الزينة نحو: القتالُ يومَ كذا".

(83/498)

قوله: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ﴾ في محلِّه وجهان، أحدُهما: الجرُّ نَسَقاً على الزينة أي: موعدُكم يومُ الزينة ويومُ أن يُحْشر. أي: ويوم حَشْرِ الناس. والثاني: الرفعُ: نَسَقاً على "يومُ" التقديرُ: موعدُكم يومُ كذا، وموعدكم أَنْ يُحْشَرَ الناسُ أي: حَشْرُهم.

وقرأ ابن مسعود والجحدري وأبو نهيك وعمرو بن فائد "وأن تَحْشُرَ الناسَ" بتاء الخطاب في "تَحْشُرَ"، ورُوي/عنهم "يَحْشُرَ" بياء الغَيْبة. و"الناسَ" نصبٌ في كلتا القراءتين على المفعوليَّة. والضميرُ في القراءتين لفرعونَ أي: وأَنْ تَحْشُرَ أنت يا فرعونُ، أو وأن يَحْشُرَ فرعونُ. وجوَّز بعضهم أَنْ يكونَ الفاعلُ ضميرَ اليوم في قراءة الغَيْبة؛ وذلك مجازٌ لَمَّا كان الحشرُ واقعاً فيه نُسِبَ إليه نحو: نهارُه صائمٌ وليلُه قائمٌ.

و"ضُحَىً" نصبٌ على الظرف، العاملُ فيه "يُحْشَرَ" وتُذَكَّر وتؤنَّث. والضَّحاء بالمد وفتح الضاد فوق الضحى؛ لأن الضُّحى ارتفاعُ النهارِ، والضَّحاء بعد ذلك، وهو مذكَّرٌ لا

غير .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) ﴾

قوله : ﴿ كَيْدَهُ ﴾ : فيه حَذْفُ مضافٍ أي : ذوي كيدِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 53 . 60 ﴾

(84/498)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) ﴾

امره بجهره ، وأعماه عن شهود ذلك بِسِره ، فما نَجَعَ فيه كلامهُ ، وما انتفعَ بما حذّره من انتقامه ، ويسَّرَ من إنعامه .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) ﴾

دعاهم موسى إلى الله ، وخاطَبَهُم في حديث الآخرة من تبشيرٍ بثواب ، وإنذارٍ بعذاب فلم يُجيبُوا إلاَّ من حيث الدنيا ، وما زادهم تذكيراً إلا ازدادوا غفلة وجهالة .

كذلك صفة مَنْ وَسَمه الحقُّ بالإبعاد ، لم يكن له عرفان ، ولا بما يقال إيمان ، ولا يتأسَّفُ

على ما يفوته، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده.

قوله: ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ... ﴾ تأهَّبوا لِمُناصبَةِ الحقيقة، وتَشَمَّرُوا للمُخَالَفة، فَقَصَمْتُهم المشيئةُ؛ وكَبَسَتْهم؛ القدرة، وما قيل:

استقبلني وسيفُه مسلول... وقال لي واحدنا معذول.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) ﴾

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾.

كادَ فرعونَ فَكِيد له، وأراد فارتدّ إليه، ودعا للاستعداد فأُذِلَّ وأُذِيقَ البأسَ. ولم يَدَعْ موسى شيئاً من الوعظ والرِّفْقِ، ولم يغادِرْ فرعونَ شيئاً من البَلَهِ والحُمْقِ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 463. 464﴾

(85/498)

قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا

كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تشوف السامع إلى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك ، استأنف سبحانه الخبر عنه بقوله : ﴿ قال لهم ﴾ أي لأهل الكيد وهم السحرة وغيرهم ﴿ موسى ﴾ حين رأى اجتماعهم ناصحاً لهم : ﴿ ويلكم ﴾ يا أيها الناس الذين خلقهم الله لعبادته ﴿ لا تفتروا ﴾ أي لا تتعمدوا أن تصنعوا استعلاء ﴿ على الله كذباً ﴾ بجعلكم آياته العظام الثابتة سحراً لا حقيقة له ، وادعائكم أن ما تخيلون به حق وليس بخيال ، وإشراككم به ؛ وسبب عنه قوله : ﴿ فيسحتكم ﴾ أي يهلككم ؛

(86/498)

قال الرازي : وأصله الاستئصال ﴿ بعذاب ﴾ أي عظيم تظهر به خيبتكم ﴿ وقد خاب ﴾ كل ﴿ من افترى ﴾ أي تعمد كذباً على الله أو على غيره ﴿ فتنازعوا ﴾ أي تجاذب السحرة ﴿ أمرهم بينهم ﴾ لما سمعوا هذا الكلام ، علماً منهم بأنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثله في جميع جنوده وأتباعه لم يسلم منه إلا من الله معه ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أي

كلامهم الذي تناجوا به وبالغوا في إخفائه ، فإن النجوى الإسرار ، لئلا يظهر فرعون وأتباعه على عوارهم في اختلافهم الذي اقتضاه لفظ التنازع ، فكأنه قيل : ما قالوا حين انتهى تنازعهم ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ أي السحرة بعد النظر وإجالة الرأي ما خيلهم به فرعون تلقناً منه وتقرباً إليه بما ينفر الناس عن موسى وهارون عليهما السلام ويثبطهم عن اتباعهما وإن غلبا ، لأنه لا ينكر غلبة ساحر على ساحر آخر : ﴿ إن هذان ﴾ أي موسى وهارون وقرىء : هاذان - بالألف ، على لغة من يجعل ألف المثنى لازمة في كل حال ؛ قال أبو حيان : وهي لغة لطوائف من العرب لبني الحارث بن كعب وبعض كنانة خثعم وزبيد وبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذره .

﴿ لساحران ﴾ لا شك في ذلك منهما ﴿ يريدان ﴾ أي بما يقولان من دعوى الرسالة وغيرها ﴿ أن يخرجاكم ﴾ أيها الناس ﴿ من أرضكم ﴾ هذه التي ألفتموها ، وهي وطنكم خلفاً عن سلف ﴿ بسحرهما ﴾ الذي أظهراه لكم وغيره .

(87/498)

ولما كان كل حزب بما لديهم فرحون قالوا : ﴿ ويذهبا بطريقتكم ﴾ هذه السحرية التي تعبتم في تمهيدها ، وأفنى فيها أسلافكم أعمارهم ، حتى بلغ أمرها الغاية ، وبدينكم الذي

به قوامكم ﴿ المثلى ﴾ أي التي هي أمثل الطرق ، فيكونا آثر بما يظهرانه منها عند الناس منكم ، ويصرفان وجوه الناس إليها عنكم ، ويبطل ما لكم بذلك من الارزاق والعظمة عند الخاص والعام وغير ذلك من الأغراض ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أي لا تدعوا منه شيئاً إلا جئتم به ولا تختلفوا تضعفوا ﴿ ثم ائتوا ﴾ إلى لقاء موسى وهارون لمباراتهما ﴿ صفاً ﴾ أي متسابقين متساوين في السباق ليستعلي أمركم عليهما فتفلحوا ، والاصطفاف أهيب في صدور الرائين .

ولما كان التقدير : فمن أتى كذلك فقد استعلى ، عطف عليه قولهم محققاً : ﴿ وقد أفلح اليوم ﴾ في هذا الجمع الذي ما اجتمع مثله قط ﴿ من استعلى ﴾ أي غلب ووجد علوه ، أي ففعلوا ما تقدم وأتوا صفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 27 ـ 28 ﴾

(88/498)

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شيء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال : ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن تزعموا بأن الذي جئت به ليس بحق

وأنه سحر فيمكنكم معارضتي، قال الزجاج: يجوز في انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا إن افتروا على الله كذبا ويجوز على النداء كقوله:

﴿ يا ويلتى ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ [هود: 72]، ﴿ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس: 52] وقوله: ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أي يعذبكم عذاباً مهلكاً مستأصلاً وقرأ حمزة وعاصم والكسائي برفع الياء من الإسحات والباقون بفتحها من السحت والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال: من افترى على الله كذباً حصل له أمران: أحدهما: عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة وهو المراد من قوله: ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾.

والثاني: الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى أنه لم قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله: ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ وفي تنازعوا قولان: أحدهما: تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شيء واحد.

والثاني: قال مقاتل: اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم: دخل في التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول: بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس في الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا في قوله: ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ وجوهاً.

أحدها: أنهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه.

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما إن نجواهم قالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه.

والثاني : قال قتادة إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر .

الثالث : قال وهب لما قال : ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ الآية قالوا ما هذا بقول ساحر .

(89/498)

القول الثاني : أنهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم : ﴿ إِنْ هاذان لساحران يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [طه : 63] وهو قول السدي .

الوجه الثالث : أنهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضاً وكان نجواهم أنهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصي وعلى أي وجه يجب إظهارها فيكون أوقع في القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك .

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

القراءة المشهورة : ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوهاً أخر .

أحدها : قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر : (إن هذين لساحران) قالوا : هي قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضي الله تعالى عنه واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سئلت عن قوله : ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ وعن قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئون والنصارى ﴾ [المائدة : 69] في المائدة ، وعن قوله : ﴿ لكن الراسخون فِى العلم مِنْهُمْ ﴾ [النساء : 162] إِلى قوله ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكواة ﴾ [النساء : 162] فقالت يا ابن أخي هذا خطأ من الكاتب ، وروي عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال : أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها ، وعن أبي عمرو أنه قال : إني لأستحي أن أقرأ : ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ ، وثانيها : قرأ ابن كثير : (إن هذان) بتخفيف إن وتشديد نون هذان .

وثالثها : قرأ حفص عن عاصم إن هذان بتخفيف النونين .

ورابعها : قرأ عبد الله بن مسعود : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى أَنْ هاذان ﴾ بفتح الألف وجزم نونه (و) ساحران بغير لام .

(90/498)

وخامسها : عن الأخفش : ﴿ إنْ هاذان لساحران ﴾ خفيفة في معنى ثقيلة وهي لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى ما .

وسادسها : روى عن أبي بن كعب : (ما هذان إلا ساحران) وروي عنه أيضاً : (إن هذان لساحران) وعن الخليل مثل ذلك ، وعن أبي أيضاً : (إن ذان لساحران) فهذه هي القراءات الشاذة المذكورة في هذه الآية ، واعلم أن المحققين قالوا : هذه القراءات لا يجوز تصحيحها لأنها منقولة بطريق الآحاد ، والقرآن يجب أن يكون منقولاً بالتواتر إذ لو جوزنا إثبات زيادة في القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذي هو عندنا كل القرآن لأنه لما جاز في هذه القراءات أنها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز في غيرها ذلك ، فثبت أن تجويز كون هذه القراءات من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير إلى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلاً فكذلك ما أدى إليه ، وأما الطعن في القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه : أحدها : أنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن وذلك يفضي إلى القدح في التواتر وإلى القدح في كل القرآن وأنه باطل ، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضاً بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة .

وثانيها : أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحناً وغلطاً فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما أن فيه لحناً

وغلطاً .

وثالثها : قال ابن الأنباري إن الصحابة هم الأئمة والقدوة فلو وجدوا في المصحف لحناً لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الإبتداع وترغيبهم في الاتباع ، حتى قال بعضهم : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم .

فثبت أنه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة .

(91/498)

واختلف النحويون فيه وذكروا وجوهاً : الوجه الأول : وهو الأقوى أن هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هي لغة بلحارث بن كعب ، والزجاج نسبها إلى كنانة وقطرب نسبها إلى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بني عذرة ، ونسبها ابن جني إلى بعض بني ربيعة أيضاً وأنشد الفراء على هذه اللغة :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى . . مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وأنشد غيره :

تزود منا بين أذناه ضربة . . دعته إلى هابي التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بني أسد أنه قال هذا خط يدا أخي أعرفه .

وقال قطرب هؤلاء يقولون : رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بني ضبة جاهلي :

أعرف منها الجيد والعينانا . . ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء .

وقال آخر :

طاروا علاهن فطر علاها . . واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر :

كأن صريف ناباه إذا ما . . أمرهما صرير الأخطبان

قال بعضهم : الأخطبان ذكر الصردان ، فصيرهما واحداً فبقي الاستدلال بقوله صريف

ناباه ، قال : وأنشدني يونس لبعض بني الحرث :

كأن يميناً سحبل ومصيفه . . مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضاً :

إن أباها وأبا أباها . . قد بلغا في المجد غايتاها

وقال ابن جني روينا عن قطرب :

هناك أن تبكي بشعشعان . . رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وإن كان قليلاً أقيس لأن ما قبل حرف التثنية مفتوح ، فينبغي أن يكون

ما بعده ألفاً ولو كان ما بعده ياء ينبغي أن تنقلب ألفاً لانفتاح ما قبلها وقطرب ذكر أنهم

يفعلون ذلك فراراً إلى الألف التي هي أخف حروف المد هذا أقوى الوجوه في هذه الآية ويمكن أن يقال أيضاً : الألف في هذا من جوهر الكلمة والحرف الذي يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لأن ما بالذات لا يزول بالعرض فهذا الدليل يقتضي أن لا يجوز أن يقال : (إن هذين) فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال إن هذان .

(92/498)

الوجه الثاني : في الجواب أن يقال إن ههنا بمعنى نعم قال الشاعر :

ويقلن شيب قد علا . . ك وقد كبرت فقلت إنه

أي فقلت نعم فالهاء في إنه هاء السكت كما في قوله تعالى : ﴿ هَلَكَ عَنّي سلطانيه ﴾ [الحاقة : 29] وقال أبو ذؤيب :

شاب المفارق إن إن من البلى . . شيب القذال مع العذار الواصل

أي نعم إن من البلى فصار إن كأنه قال نعم هذان لساحران ، واعترضوا عليه فقالوا : اللام لا تدخل في الخبر على الاستحسان إلا إذا كانت إن داخلة في المبتدأ ، فأما إذا لم تدخل أن على المبتدأ فمحل اللام المبتدأ إذ يقال لزيد اعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو ،

وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين، الأول: لا نسلم أن اللام لا يحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله:

أم الحليس لعجوز شهر به . . ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر:

خالي لأنت ومن جرير خاله . . ينل العلاء ويكرم الأخوالا

وأنشد قطرب:

ألم تكن حلفت بالله العلي . . أن مطاياك لمن خير المطي

وإن رويت إن بالكسر لم يبق الاستدلال إلا أن قطرباً قال: سمعناه مفتوح الهمزة وأيضاً فقد أدخلت اللام في خبر أمسى، قال ابن جني أنشدنا أبو علي:

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم . . فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول: أراك المسالمي وإني رأيته لشيخاً وزيد والله لواثق بك وقال كثير:

وما زلت من ليلى لدن أن عرفتها . . لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر:

ولكنني من حبها لعميد . . وقال المعترض هذه الأشعار من الشواذ وإنما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى عن الضرورة وإنما تقرر هذا الكلام إذا بينا أن المبتدأ إذا لم يدخل عليه إن وجب إدخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه أن اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدأ لأن العلة الموجبة لحكم في محل لا بد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما إذا دخلت إن على المبتدأ فإن ههنا يجب إدخال اللام على الخبر مع أن ما ذكرتموه حاصل فيه لأنا نقول ذلك لأجل الضرورة وذلك لأن كلمة إن للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا : إن لزيداً قائم لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر إدخالها على المبتدأ لا جرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة ، وأما إذا لم يدخل حرف إن على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة فوجب إدخال اللام على المبتدأ لا يقال إذا جاز إدخال حرف النفي على حرف النفي في قوله :

ما إن رأيت ولا سمعت به . . كاليوم طالبني أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفي فلم لا يجوز إدخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الإثبات لأنا نقول الفرق بين البابين أن قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فإذا قلت إن زيداً قائم فكلمة إن تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكداً آخر مع

كلمة إن صار عبثاً ، أما لو قلت : رأيت فلاناً فهذا للثبوت فإذا أدخلت عليه حرف النفي أفاد حرف النفي معنى النفي ولا يفيد التأكيد لأنه مستقل بإفادة الأصل فكيف يفيد الزيادة فإذا ضممت إليه حرف نفي آخر صار الحرف الثاني مؤكداً للأول فلا يكون عبثاً فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندي ضعيف ، لأن الكل اتفقوا على أنه إذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ، ولأن هذه العلل في نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر .

الوجه الثاني : في الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر إلا إذا دخلت كلمة إن على المبتدأ كما ذكره الزجاج فقال : إن وقعت موقع نعم واللام في موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخبر .

قال : وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى إسماعيل بن إسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذا .

قال ابن جنى : هذا القول غير صحيح لوجوه : الوجه الأول : أن الأصل أن المبتدأ إنما يجوز حذفه لو كان أمراً معلوماً جلياً ولولا ذلك لكان في حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف

علم الغيب للمخاطب وإذا كان معروفاً فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لأن التأكيد إنما يحتاج إليه حيث لم يكن العلم به حاصلاً .

الوجه الثاني : أن الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الإطناب فالجمع بينهما غير جائز ولأن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن في العقول من العكس .

الوجه الثالث : امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ في نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيداً للهاء المؤكدة المقدرة في ضربت أي ضربته لأن الحذف لا يكون إلا بعد التحقيق والعلم به ، وإذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا .

الوجه الرابع : أن جميع النحويين حملوا قول الشاعر : أم الحليس لعجوز شهر به .

على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ما ذهب إليه الزجاج جائزاً لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الإضطرار إذا وجدوا له وجهاً ظاهراً ، ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه إنما حسن حذف المبتدأ لأن في اللفظ ما يدل عليه وهو قوله : هذان أما لو حذف التأكيد فليس في اللفظ ما يدل عليه فلا جرم كان حذف المبتدأ

أولى من حذف التأكيد ، وأما امتناعهم من تأكيد الضمير في قولهم : زيد ضربت نفسه فذاك إنما كان لأن إسناد الفعل إلى المظهر أولى من إسناده إلى المضمر فإذا قال زيد : ضربت نفسه كان قوله نفسه مفعولاً فلا يمكن جعله تأكيداً للضمير فتأكيد المحذوف إنما امتنع ههنا لهذه العلة لا لأن تأكيد المحذوف مطلقاً ممتنع وأما قوله : النحويون حملوا قول الشاعر : أم الحليس لعجوز شهر به .

على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون ، فهذا اعتراض في نهاية السقوط لأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضي كونه باطلاً فما أكثر ما ذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام في شرح هذا .

الوجه الثالث : في الجواب أن كلمة إن ضعيفة في العمل لأنها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة في العمل وإذا ضعفت جاز بقاء المبتدأ على إعرابه الأصلي وهو الرفع .

المقدمة الأولى : أنها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة في اللفظ والمعنى .

أما اللفظ فلأنها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الأسماء كالأفعال ، وأما المعنى فلأنها تفيد حصول معنى في الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما أنك إذا قلت : قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى في الاسم .

المقدمة الثانية : أنها لما أشبهت الأفعال وجب أن تشبهها في العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران .

(96/498)

المقدمة الثالثة : أنها لم تنصب الاسم وترفع الخبر فتقريره أن يقال : إنها لما صارت عاملة فإما أن ترفع المبتدأ والخبر معاً أو تنصبهما معاً أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر أو بالعكس والأول باطل لأن المبتدأ والخبر كانا قبل دخول إن عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له أثر ألبتة ولأنها أعطيت عمل الفعل ، والفعل لا يرفع الإسمين فلا معنى للاشتراك .

والقسم الثاني : أيضاً باطل لأن هذا أيضاً مخالف لعمل الفعل لأن الفعل لا ينصب شيئاً مع خلوه عما يرفعه .

والقسم الثالث : أيضاً باطل لأنه يؤدي إلى التسوية بين الأصل والفرع فإن الفعل يكون عمله في الفاعل أولاً بالرفع وفي المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع ، ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين .

القسم الرابع : وهو أنها تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف

دخيلة في العمل لا أصيلة لأن تقديم المنصوب على المرفوع في باب العمل عدول عن الأصل فذلك يدل على أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الأصالة بل بطريق عارض .

المقدمة الرابعة : لما ثبت أن تأثيرها في نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضاً ، وذلك لأن كون الاسم مبتدأ يقتضي الرفع ودخول إن على المبتدأ لا يزيل عنه وصف كونه مبتدأ لأنه يفيد تأكيد ما كان لا زوال ما كان إذا ثبت هذا فنقول : وصف كونه مبتدأ يقتضي الرفع وحرف إن يقتضي النصب ولكن المقتضى الأول أولى بالاقتضاء من وجهين : أحدهما : أن وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدأ ودخول إن عليه صفة عرضية والأصل راجح على العارض .

والثاني : أن اقتضاء وصف المبتدأ للرفع أصلي واقتضاء حرف إن للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الأول أولى فثبت بمجموع ما قررنا أن الرفع أولى من النصب فإن لم تحصل الأولوية فلا أقل من أصل الجواز ولهذا السبب إذا جئت بخبر إن ثم عطفت على الاسم إسماً آخر جاز فيه الرفع والنصب معاً .

الوجه الرابع : في الجواب قال الفراء : هذا أصله ذا زيدت الهاء لأن ذا كلمة منقوصة

فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت ألفاً للتثنية فصارت هذا إن فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج إلى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الأصل لأن أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لأن النون يدل عليه فلا جرم لم تعمل إن لأن عملها في ألف التثنية ، وقال آخرون : الألف الباقي إما ألف الأصل أو ألف التثنية .

فإن كان الباقي ألف الأصل لم يجز حذفها لأن العامل الخارجي لا يتصرف في ذات الكلمة ، وإن كان الباقي ألف التثنية فلا شك أنهم أنابوها مناب ألف الأصل ، وعوض الأصل أصل لا محالة فهذا الألف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا إلى الجواب الأول .

الوجه الخامس : في الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين أن الهاء ههنا مضمرة والتقدير إنه هذان لساحران ، وهذه الهاء كناية عن الأمر والشأن ، فهذا ما قيل في هذا الموضع ، فأما من خفف فقرأ إن هذان لساحران فهو حسن فإن ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها في الخبر لازمة واجبة وإن كانت في إن الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين إن المؤكدة وإن النافية .

قال الشاعر :

وإن مالك للمرتجى إن تضعضعت . . رحا الحرب أو دارت على خطوب

وقال آخر :

إن القوم والحي الذي أنا منهم . . لأهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ، ثم من العرب من يعمل إن ناقصة كما يعملها تامة اعتباراً بكان فإنها تعمل وإن نقصت في قولك : لم يكن لبقاء معنى التأكيد ، وإن زال الشبه اللفظي بالفعل لأن العبرة للمعنى ، وهذه اللغة تدل على أن العبرة في باب الإعمال الشبه المعنوي بالفعل وهو إثبات التوكيد دون الشبه اللفظي كما أن التعويل في باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلاً محضاً ، وأما اللغة الظاهرة وهي ترك إعمال إن الخفيفة دالة على أن الشبه اللفظي في إن الثقيلة أحد جزأي العلة في حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف السكون فإنه عامل بمعناه لكونه فعلاً محضاً ولا عبرة للفظه .

المسألة الثانية :

أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه .

فأحدها : قولهم : ﴿ هذان لساحران ﴾ وهذا طعن منهم في معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة في التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ، ومن حيث إن الإنسان يعلم أن السحر لا بقاء له فإذا اعتقدوا فيه السحر قالوا :

كيف نتبعه فإنه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه .

وثانيها : قوله : ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ وهذا في نهاية التنفير لأن المفارقة عن المنشأ ، والمولد شديدة على القلوب ، وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى ﴾ [طه : 57] وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها .

وثالثها : قوله : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ وهذا أيضاً له تأثير شديد في القلب فإن العدو إذا جاء واستولى على جميع المناصب والأشياء التي يرغب فيها فذلك يكون في نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب في دفعه وإبطال أمره وههنا بحثان :

البحث الأول : قال الفراء : الطريقة الرجال الأشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ، ويقال للواحد أيضاً : هو طريقة قومه ، وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أي ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، وعلى التقديرين ، فالمراد أنهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهارون عليهما السلام يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم

بنوا اسرائيل لقول موسى عليه السلام : ﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسرائيل ﴾ [الشعراء : 17] وإنما سموا بني إسرائيل بذلك لأنهم كانوا أكثر القوم يومئذ عدداً وأموالاً ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالدين سموا دينهم بالطريقة المثلى : ﴿ وَكُلُّ حِزْبِ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : 32] ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة .

البحث الثاني : ﴿ المثلى ﴾ مؤنثة لتأنيث الطريقة ، واختلفوا في أنه لم سمى الأفضل بالأمثل فقال بعضهم : الأمثل : الأشبه بالحق ، وقيل : الأمثل الأوضح والأظهر ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم في التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب في إبطال أمره حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ قرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم من أجمعوا يعني لا تدعوا شيئاً من كيدهم إلا جئتم به دليله قوله : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ وقرأ الباقون بقطع الألف وكسر الميم وله وجهان : أحدهما : قال الفراء : الإجماع الأحكام والعزيمة على الشيء ، يقال : أجمعت على الخروج مثل أزمعت .

والثاني : بمعنى الجمع وقد مضى الكلام في هذا عند قوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ [يونس : 71] قال الزجاج : ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعاً عليه لا تختلفوا ثم ائتوا صفاً ، ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين : أحدهما : أن الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، والمعنى : ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علماً للمصلى بعينه فأمروا بأن يأتوه .

(100/498)

والثاني : أن يكون الصف مصدراً والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكي يكون أنظم لأمركم وأشد لهيبتكم ، وهذا قول عامة المفسرين ، وقوله : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ اعتراض ، يعني : وقد فاز من غلب فكانوا يقرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من إظهار ما يظهرونه من السحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 70.64 ﴾

(101/498)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : لا تفتروا على الله كذباً بسحركم .

الثاني : بتكذيبي وقولكم جئت به سحر .

﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ فيهلككم ويستأصلكم ، قال الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع . . . من المال إلا مسحتاً أو مُجَلَّف

فالمسحت : المستأصل ،

والمجلف : المهلك .

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فيما هيؤوه من الحبال والعصي ، قاله الضحاك .

والثاني : فيمن يبتدىء بالإلقاء .

﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن النجوى التي أسروها أن قالوا : إن كان هذا سحراً فسنغلبه ، وإن كان من السماء فله أمره ، قاله قتادة .

الثاني : أنه لما قال لهم ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ الآية . قالوا : ما هذا بقول ساحر ، قاله ابن منبه .

الثالث : أنه أسروا النجوى دون موسى وهارون بقولهم ، ﴿ إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ . . . ﴾ الآيات ، قاله مقاتل والسدي .

الرابع : أنهم أسرواْ النجوى . إن غَلَبَنَا موسى اتبعناه ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ هذه قراءة أبي عمرو وهي موافقة للإعراب مخالفة للمصحف . وقرأ الأكثرون : إن هذان الساحران ، فوافقوا المصحف فيها ، ثم

اختلفوا في تشديد إنّ فخففها ابن كثير وحفص فسلما بتخفيف إن من مخالفة المصحف ومن فساد الإِعراب، ويكون معناها: ما هذان إلا ساحران. وقرأ أُبَيّ: إن ذان إلا ساحران، وقرأ باقي القراء بالتشديد: إنَّ هذان لساحران. فوافقوا المصحف وخالفوا ظاهر الإِعراب. واختلف من قرأ بذلك في إعرابه على أربعة أقاويل:

أحدها: أن هذا على لغة بلحارث بن كعب وكنانة بن زيد يجعلون رفع الإِثنين ونصبه وخفضه بالألف، وينشدون:

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى... مساغاً لِنا باهُ الشجاع لصمّما

(102/498)

والوجه الثاني: لا يجوز أن يحمل القرآن على ما اعتل من اللغات ويعدل به عن أفصحها وأصحها، ولكن في "إن" هاء مضمرة تقديرها إنّه هذان لساحران، وهو قول متقدمي النحويين.

الثالث: أنه بَنَى "هذان" على بناء لا يتغير في الإِعراب كما بَنَى الذين على هذه الصيغة في النصب والرفع.

الرابع: أن "إن" المشددة في هذا الموضع بمعنى نعم، كما قال رجل لابن الزبير: لعن الله ناقة

حملتني إليك ، فقال ابن الزبير : إنّ وصاحبها . وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

بكى العواذل في الصبا . . . ح يلمنني وألومُهُنّة

ويقلن شيب قد علا . . . ك وقد كبرت فقلت إنْه

أي نعم

﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ في قائل هذه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه قول السحرة .

الثاني : أنه قول قوم فرعون .

الثالث : قول فرعون من بين قومه ، وإن أشير به إلى جماعتهم .

وفي تأويله خمسة أوجه :

أحدها : ويذهبا بأهل العقل والشرف . قاله مجاهد .

الثاني : ببني إسرائيل ، وكانوا أولي عدد ويسار ، قاله قتادة .

الثالث : ويذهبا بالطريقة التي أنتم عليها في السيرة قاله ابن زيد .

الرابع : ويذهبا بدينكم وعبادتكم لفرعون ، قاله الضحاك .

الخامس : ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، [والمثلى مؤنث] الأمثل والمراد بالأمثل الأفضل ، قال أبو طالب :

وإنا لعمرو الله إن جدّ ما أرى . . . لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جماعتكم على أمرهم في كيد موسى وهارون .

الثاني : معناه أحكموا أمركم ، قال الراجز :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع . . . هل أغدوا يوما وأمري مجمع

أي محكم .

﴿ ثُمَّ ائْتُواْ صَفّاً ﴾ أي اصطفوا ولا تختلطوا .

﴿ . . . مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ أي غلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(103/498)

وقال ابن عطية :

فقال موسى للسحرة ﴿ ويلكم ﴾ وهذه مخاطبة محذرة ندبهم في هذه الآية إلى قول الحق

إذا رأوه وأن لا يباهتوا بكذب وقرأ ابن عباس ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر "

فيَسحتكم " بفتح الياء ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " فيُسحتكم " بضم

الياء وهما لغتان بمعنى يقال سحت وأسحب إذا أهلك وأذهب ومنه قول الفرزدق : [

الطويل]

وعض زماني يا ابن مروان لم يدع . . . من المال إلا مسحتاً أو مجلف

(104/498)

فهذا من أسحت فلما سمع السحرة هذه المقالة هالهم هذا المنزع ووقع في نفوسهم من مهابته أمر شديد ﴿ فتنازعوا ﴾ والتنازع يقتضي اختلافاً كان بينهم في السر أي قال بعضهم لبعض هو محق ، وقال بعضهم هو مبطل ، وقال بعضهم إن كان من عند الله فسيغلبنا ونحو هذا من الأقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا ، ومعلوم أن جميع تناجيهم إنما كان في أمر موسى . وقالت فرقة إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا ﴿ إن هذان لساحران ﴾ع والأظهر أن تلك قيلت علانية ولو كان تناجيهم ذلك لم يكن ثم تنازع ، و﴿ النجوى ﴾ السرار والمساررة أي كان كل رجل يناجي من يليه ، ثم جعلوا ذلك سراً مخافة فرعون أن يتبين فيهم ضعفاً لأنهم لم يكونوا حينئذ مصممين على غلبة موسى بل كان ظناً من بعضهم ، وقوله تعالى : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ الآية ، قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي " إنّ " مشددة النون " هذان " بألف ونون مخففة للتثنية . وقرأ أبو عمرو وحده " إن هذين لساحران " وقرأ ابن كثير " إن هذان " بتخفيف نون " إنْ "

" وتشديد نون " هذان لسحران " وقرأ حفص عن عاصم " إن " بالتخفيف " هذان " خفيفة أيضاً " لساحران " وقرأت فرقة " إن هذان إلا ساحران " ، وقرأت فرقة " إن ذان لساحران " ، وقرأت فرقة " ما هذان إلا ساحران " ، وقرأت فرقة " إن هذان " بتشديد النون من " هذان " . فأما القراءة الأولى فقالت فرقة قوله " إن " بمعنى نعم كما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال في خطبته : " إن الحمدُ لله " فرفع الحمد وقال ابن الزبير إن وراكبها حين قال له الرجل فأبعد الله ناقة حملتني إليك ويلحق هذا التأويل أن اللام لا تدخل في خبر الإبتداء وهو مما يجوز في الشعر ومنه قول الشاعر : [الرجز]

أم الحليس لعجوز شهربه . . . ترضى من اللحم بعظم الرقبة

(105/498)

وذهبت فرقة إلى أن هذه الآية على لغة بلحارث وهو إبقاء ألف التثنية في حال النصب والخفض فمن ذلك قول الشاعر [هوبر الحارثي] : [الطويل]

تزود منها بين أذناه ضربة . . . دعته إلى هابي التراب عقيم

وقال الآخر : [الطويل]

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى . . . مساغاً لنا باه الشجاع لصمما

وتعزى هذه اللغة لكنانة وتعزى لخثعم وقال الفراء الألف في " هذان " دعامة وليست بمجلوبة للتثنية وإنما هي ألف هذا تركبت في حال التثنية كما تقول الذي ثم تزيد في الجمع نوناً وتترك الياء في حال الرفع والنصب والخفض وقال الزجاج في الكلام ضمير تقديره إنه هذان لساحران .

(106/498)

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا التأويل دخول اللام في الخبر وقال بعض النحاة ألف " هذان " مشبهة هنا بألف تفعلان وقال ابن كيسان لما كان هذا بحال واحدة في رفعه ونصبه وخفضه تركت تثنيته هنا كذلك ، وقال جماعة ، منهم عائشة رضي الله عنها وأبو بكر ، هذا مما لحن الكاتب فيه وأقيم بالصواب وهو تخفيف النون من أنع وهذه الأقوال معترضة إلا ما قيل من أنها لغة ، و" إن " بمعنى أجل ونعم أو " إن " في الكلام ضميراً وأما من قرأ " إن " خفيفة فهي عن سيبويه المخففة من الثقيلة ويرتفع بعدها الأسم ويقول الفراء هي بمعنى ما واللام بمعنى إلا ووجه سائر القراءات بيّن . وعبر كثير عن المفسرين عن " الطريقة " بالسادة وأنها يراد بها أهل العقل والسن والحجى وحكوا أن العرب تقول فلان طريقة قومه أي سيدهم والأظهر في " الطريقة " هنا أنها السيرة والمملكة والحال التي هي عليها ، و﴿

المثلى ﴾ تأنيث أمثل أي الفاضلة الحسنة . وقرأ جمهور القراء " فأجمعوا " بقطع الألف وكسر الميم على معنى أنفذوا وأعزموا ، وقرأ ابو عمرو وحده " فاجمعوا " من جمع أي ضموا سحركم بعضه إلى بعض ، وقرأ ابن كثير " ثمّ " بفتح الميم " أيْتوا " بسكون الياء ، وقرأ أيضاً في رواية شبل عنه بكسر الميم " ثمِ ايتوا " قال أبو علي وهذا غلط ولا وجه لكسر الميم من " ثم " وقرأ الجمهور " ثم ائتوا " بفتح الميم وبهمزة بعد الألف ، قوله ﴿ صفاً ﴾ حال أي مصطفين وتداعوا إلى هذا لأنه أهيب وأظهر لهم ، و﴿ أفلح ﴾ معناه ظفر ببغيته و﴿ استعلى ﴾ معناه طلب العلو في أمره وسعى سعيه . انتهى انتهى . اهـ

﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(107/498)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قال لهم موسى ﴾ أي : للسحرة .

وقد ذكرنا عددهم في [الأعراف : 114] .

قوله تعالى : ﴿ ويلكم ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على "ألزمكم الله ويلاً" ويجوز أن يكون على النداء ، كقوله تعالى : ﴿ يا ويلنا مَن بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : 52] .

قوله تعالى : ﴿ لا تفتروا على الله كذباً ﴾ قال ابن عباس : لا تشركوا معه أحداً .

قوله تعالى : ﴿ فيسحتَكم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "فيَسحَتَكم" بفتح الياء ، من "سحت" .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "فيُسحِتكم" بضم الياء ، من "أسحت" .

قال الفراء : ويُسحت أكثر ، وهو الاستئصال ، والعرب تقول : سحته الله ، وأسحته ، قال الفرزدق :

وَعَضّ زَمانٍ يابْنَ مَرْوانَ لَمْ يدَعْ . . .

مِنَ المَالِ إلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ

هكذا أنشد البيت الفراء ، والزجاج.

ورواه أبو عبيدة : "إلاَّ مُسْحَتٌ أو مُجَلَّفُ" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ يعني : السحرة تناظروا فيما بينهم في أمر موسى ، وتشاوروا ﴿ وأسرُّوا النجوى ﴾ أي : أَخْفَوْا كلامهم من فرعون وقومه .

وقيل : من موسى وهارون .

وقيل : "أسرُّوا" هاهنا بمعنى "أظهروا" .

وفي ذلك الكلام الذي جرى بينهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا : إن كان هذا ساحراً ، فإنا سنغلبه ، وإن يكن من السماء كما زعمتم

، فله أمره ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم لما سمعوا كلام موسى قالوا : ما هذا بقول ساحر ، ولكن هذا كلام الرب الأعلى ، فعرفوا الحقَّ ، ثم نظروا إِلى فرعون وسلطانه ، وإِلى موسى وعصاه ، فنُكسوا على رؤوسهم ، وقالوا إِن هذان لساحران ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

والثالث : أنهم ﴿ قالوا إِنْ هذان لساحران . . .

﴾ الآيات ، قاله السدي .

(108/498)

واختلف القراء في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هذان لساحران ﴾ فقرأ أبو عمرو بن العلاء : "إِنَّ هذين" على إِعمال "إِنَّ" وقال : إِني لأستحيي من الله أن أقرأ "إِنْ هذان" .

وقرأ ابن كثير : "إِنْ" خفيفه "هذانّ" بتشديد النون .

وقرأ عاصم في رواية حفص : "إِنْ" خفيفة "هذان" خفيفة أيضاً .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "إِنّ" بالتشديد "هاذان" بألف ونون خفيفة .

فأما قراءة أبي عمرو ، فاحتجاجه في مخالفة المصحف بما روى عن عثمان وعائشة ، أن هذا من غلط الكاتب على ما حكيناه في قوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ في سورة [

النساء : 162] .

وأما قراءة عاصم ، فمعناها : ما هذان إلا ساحران ،

كقوله تعالى : ﴿ وإنْ نظنُّك لمن الكاذبين ﴾ [الشعراء : 186] أي : ما نظنك إلا من الكاذبين ، وأنشدوا في ذلك :

ثكلتْك أمُّك إن قتلتَ لَمُسْلِماً . . .

حلّت عَليه عُقوبة المُتَعمّدِ

أي : ما قتلت إلا مسلماً .

قال الزجاج : ويشهد لهذه القراءة ، ما روي عن أُبيّ ابن كعبٍ أنه قرأ "ما هذان إلا ساحران" ، وروي عنه : "إن هذان إلا ساحران" ، ورويت عن الخليل "إنْ هذان" بالتخفيف ، والإجماع على أنه لم يكن أحدٌ أعلمَ بالنحو من الخليل .

فأما قراءة الأكثرين بتشديد "إنَّ" وإثبات الألف في قوله : "هاذان" فروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : هي لغة بلحارث بن كعب .

وقال ابن الأنباري : هي لغة لبني الحارث بن كعب ، وافقتها لغة قريش .

قال الزجاج : وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب ، وهو رأس من رؤوس الرواة : أنها لغة لكنانة ، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، يقولون : أتاني الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان ، وأنشدوا :

فأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشّجاعِ وَلَوْ رَأى . . .

مَسَاغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

ويقول هؤلاء : ضربته بين أُذناه .

وقال النحويون القدماء : هاهنا هاء مضمرة ، المعنى : إِنه هذان لساحران .

(109/498)

وقالوا أيضاً : إِن معنى "إِنَّ" : نعم "هذان لساحران" ، وينشدون :

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلاَ . . .

كَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إِنَّهْ

قال الزجاج : والذي عندي ، وكنتُ عرضتُه على عالمنا محمد بن يزيد ، وعلى إِسماعيل بن إِسحاق ابن حماد بن زيد ، فقبلاه ، وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذا ، وهو أن "إِنَّ" قد وقعت موقع "نعم" ، والمعنى : نعم هذان لهما الساحران ، ويلي هذا في الجودة مذهب بني كنانة .

وأستحسن هذه القراءة ، لأنها مذهب أكثر القراء ، وبها يُقرأ .

وأستحسن قراءة عاصم ، والخليل ، لأنهما إِمامان ، ولأنهما وافقا أُبَيَّ بن كعب في

المعنى .

ولا أجيز قراءة أبي عمرو لخلاف المصحف .

وحكى ابن الأنباري عن الفراء قال : "ألف" "هذان" هي ألف "هذا" والنون فرَّقتْ بين الواحد والتثنية ، كما فرقت نون "الذين" بين الواحد والجمع .

قوله تعالى : ﴿ ويذهبا بطريقتكم ﴾ وقرأ أبان عن عاصم : "وِيُذهِبا" بضم الياء وكسر الهاء .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبَيٌّ بن كعب ، وعبد الله بن عمرو ، وأبو رجاء العطاردي : "ويذهبا بالطريقة" بألف ولام ، مع حذف الكاف والميم .

وفي الطريقة قولان .

أحدهما : بدينكم المستقيم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

وقال أبو عبيدة : بسُنَّتِكم ودِينِكم وما أنتم عليه ، يقال : فلان حسن الطريقة .

والثاني : بأمثلكم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال مجاهد : بأُولي العقل ، والأشراف ، والأسنان .

وقال الشعبي : يصرفان وجوه الناس إليهما .

قال الفراء : الطريقة : الرجال الأشراف ، تقول العرب للقوم الأشراف : هؤلاء طريقة قومهم ، وطرائق قومهم .

فأما "المثلى" فقال أبو عبيدة : هي تأنيث الأمثل .

تقول في الإِناث : خذ المثلى منهما ، وفي الذكور : خذ الأمثل .

(110/498)

وقال الزجاج : ومعنى المثلى والأمثل : ذو الفضل الذي به يستحق أن يقال : هذا أمثل قومه ؛ قال : والذي عندي أن في الكلام محذوفاً ، والمعنى : يذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، وقول العرب : هذا طريقة قومه ، أي : صاحب طريقتهم .

قوله تعالى : ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ قرأ الأكثرون : "فأَجمِعوا" بقطع الألف من "أجمعت" .

والمعنى : ليكن عزمكم مجمعاً عليه ، لا تختلفوا فيختلّ أمركم .

قال الفراء : والإِجماع : الإِحكام والعزيمة على الشيء ، تقول : أجمعت على الخروج ، وأجمعت الخروج ، تريد : أزمعت ، قال الشاعر :

يا لَيْتَ شِعْرِي والمُنَى لا تَنْفَعُ . . .

هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْماً وأَمْرِي مُجْمَعُ

يريد : قد أُحكم وعُزم عليه .

وقرأ أبو عمرو : "فاجمَعوا" بفتح الميم من "جمعت" ، يريد : لا تَدَعوا من كيدكم شيئاً إِلا

جئتم به.

فأما كيدهم، فالمراد به: سحرهم ومكرهم.

قوله تعالى: ﴿ ثم ائتُوا صَفّاً ﴾ أي: مُصْطَفّين مجتمعين، ليكون أنظم لأموركم، وأشدَّ لهيبتكم.

قال أبو عبيدة: "صفاً" أي: صفوفاً.

وقال ابن قتيبة: "صفاً" بمعنى: جمعاً.

قال الحسن: كانوا خمسة وعشرين صفاً، كلُّ ألف ساحر صفٌّ.

قوله تعالى: ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ قال ابن عباس: فاز من غلب. انتهى

انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(111/498)

وقال القرطبى:

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾

أي قال لفرعون والسحرة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء عليهم بالويل.

وهو بمعنى المصدر.

وقال أبو إسحاق الزجاج : هو منصوب بمعنى ألزمهم الله وَيْلاً .

قال : ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى : ﴿ ياويلنا مَن بَعَثَنَا ﴾ [ياس : 52] .

﴿ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي لا تختلقوا عليه الكذب ، ولا تشركوا به ، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر .

﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ مِن عِندِه أي يستأصلكم بالإهلاك .

يقال فيه : سَحَت وأَسْحت بمعنًى .

وأصله من استقصاء الشّعْر .

وقرأ الكوفيون "فَيُسْحِتَكُمْ" من أسْحَت ، الباقون "فَيَسْحَتَكُمْ" من سَحَت وهذه لغة أهل الحجاز و(الأولى لغة) بني تميم .

وانتصب على جواب النهي .

وقال الفرزدق :

وعَضّ زمانٍ يا ابن مَرْوانَ لم يَدعْ . . .
من المال إلاَّ مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ

الزمخشري : وهذا بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ أي خسر وهلك ، وخاب من الرحمة والثواب من ادعى على الله ما لم يأذن به .

قوله تعالى : ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾

أي تشاوروا ؛ يريد السّحرة .

﴿ وَأَسَرُّوا النجوى ﴾ قال قتادة ﴿ قالوا ﴾ : إن كان ما جاء به سحراً فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر ؛ وهذا الذي أسروه .

وقيل الذي أسروا قولهم : ﴿ إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ الآيات ، قاله السدي ومقاتل .

وقيل الذي أسروا قولهم : إن غَلَبنا اتبعناه ؛ قاله الكلبي دليله ما ظهر من عاقبة أمرهم .

وقيل : كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ [طه : 61] : ما هذا بقول ساحر .

و"النجوى" المناجاة يكون اسماً ومصدراً ؛ وقد تقدم في "النساء" بيانه .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ أبو عمرو "إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ" .

ورويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة ؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعيّ وغيرهم من التابعين ؛ ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدري ؛ فيما ذكر النحاس .

وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف .

وقرأ الزهريّ والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه "إِنْ هَذَانِ" بتخفيف "إن" "لساحران" وابن كثير يشدّد نون "هذانّ" .

وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران .

وقرأ المدنيون والكوفيون "إِنَّ هَذَانِ" بتشديد "إنّ" "لساحران" فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب .

قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة ، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ "إِنْ هذان إِلاّ ساحِرَانِ" وقال الكسائي في قراءة عبد الله : "إِنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ" بغير لام ؛ وقال الفراء في حرف أبيّ "إِنْ ذَانِ إِلاَّ سَاحِرَانِ" فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف .

قلت : وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب الردّ له ، والنحاس في إعرابه ، والمهدوي في تفسيره ، وغيرهم أدخل كلام بعضهم في بعض . وقد خطأهم قوم حتى قال أبو عمرو : إني لأستحي من الله تعالى أن أقرأ "إِنَّ هَذَانِ" :

وروى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى : ﴿ لكن الراسخون فِي العلم ﴾ [النساء : 162] ثم قال : "والمقِيمِين" وفي "المائدة" ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ

والذين هَادُواْ والصَّابِئُونَ ﴾ [البقرة : 62] و"إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ" فقالت : يا ابن أختي هذا خطأ من الكاتب .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : في المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم .

(113/498)

وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبي عثمان بن عفان ، فقال : لحن وخطأ ؛ فقال له قائل : ألا تغيّروه ؟ فقال : دَعُوه فإنه لا يحرّم حلالاً ولا يحلّل حراماً .

القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بني الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف ؛ يقولون : جاء الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ [يونس : 16] على ما تقدّم .

وأنشد الفراء لرجل من بني أسد قال : وما رأيت أفصح منه :

فأَطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى . . .

مَساغاً لِنَاباهُ الشُّجاعُ لَصَمَّمَا

ويقولون : كسرت يداه وركبت عَلاَه ؛ بمعنى يديه وعليه ؛ قال شاعرهم :

تَزَوَّدَ مِنّا بين أُذْنَاه ضَرْبَةً . . .

دعته إلى هابِي التُّرابِ عَقِيم

وقال آخر :

طَارُوا عَلاَهُنَّ فَطِرْ عَلاَهَا . . . .

أي عليهنّ وعليها وقال آخر :

إنّ أَبَاهَا وأَبَا أباهَا . . .

قد بَلَغَا في المجدِ غايتاها

أي إن أبا أبيها وغايتيها .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ؛ إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته ؛ منهم أبو زيد الأنصاري ، وهو الذي يقول : إذا قال سيبويه حدّثني من أثق به فإنما يعنيني ؛ وأبو الخطاب الأخفش وهو رئيس من رؤساء اللغة ، والكسائي والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بني الحارث بن كعب .

وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أن هذه لغة بني كنانة .

المهدوي : وحكى غيره أنها لغة لخثعم .

قال النحاس ومن أبين ما في هذا قول سيبويه : واعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين ، الأولى منهما حرف مدّ ولين وهو حرف الإعراب ؛ قال أبو جعفر فقول سيبويه : وهو حرف الإعراب ، يوجب أن الأصل ألا يتغير ، فيكون "إِنَّ هَذَانِ" جاء على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال تعالى : ﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ [المجادلة : 19] ولم يقل استحاذ ؛ فجاء هذا ليدل على الأصل ، وكذلك ﴿ إِنْ هذان ﴾ ولا يفكر في إنكار من أنكر هذه اللغة إذْ كان الأئمة قد رووها .

القول الثاني : أن يكون "إنّ" بمعنى نعم ؛ كما حكى الكسائي عن عاصم قال : العرب تأتي ب"إنّ" بمعنى نعم ، وحكى سيبويه أن "إنّ" تأتي بمعنى أَجَلْ ، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي يذهبان ؛ قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق الزجاج وعلي بن سليمان يذهبان إليه .

الزمخشري : وقد أعجب به أبو إسحاق .

النحاس : وحدّثنا عليّ بن سليمان ، قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابوريّ ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد (هذا) فحدّثني ، قال : حدّثني عمير بن المتوكل ، قال : حدّثنا محمد بن موسى النوفلي من ولد حارث بن عبد المطلب ، قال : حدّثنا عمرو بن جميع الكوفي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عليّ وهو ابن الحسين عن أبيه عن عليّ بن

أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : لا أحصي كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره : " إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه " ثم يقول : " أنا أفصح قريش كلها وأفصحها بعدي أبان بن سعيد بن العاص "

قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو "إنَّ الحمد لله" بالنصب إلا أن العرب تجعل "إنّ" في معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم نعم الحمد لله ؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خطبها بنعم .

وقال الشاعر في معنى نعم :

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنّ وربّمَا . . .

نَالَ العُلاَ وشَفَى الغَليلَ الغادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات :

بَكَرَ العواذلُ في الصَّبا . . .

حِ يَلُمْنَني وأَلُومُهُنَّهْ

ويَقُلْنَ شيبٌ قد عَلاَ . . .

لَكَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إنَّهْ

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : "إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ" بمعنى نعم ولا تنصب .

قال النحاس : أنشدني داود بن الهيثم ، قال أنشدني ثعلب :

ليت شعري هل للمحبِّ شفاء . . .

من جوَى حبّهن إنَّ اللقاءُ

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئاً لأنه إنما يقال : نعم زيد خارج ، ولا تكاد تقع اللام هاهنا ، وإن كان النحويون قد تكلموا في ذلك فقالوا : اللام ينوى بها التقديم ؛ كما قال :

خالِي لأنتَ ومَنْ جريرٌ خالُه . . .

يَنلِ العَلاَءَ ويُكْرِمِ الأَخوالاَ

قال آخر :

أُمُّ الْحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ . . .

تَرْضَى من الشَّاةِ بعَظْمِ الرَّقَبَهْ

أي لخالي ولأمّ الحليس ؛ وقال الزجاج : والمعنى في الآية إن هذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ .

المهدوي : وأنكره أبو عليّ وأبو الفتح بن جنيّ .

قال أبو الفتح : "هما" المحذوف لم يحذف إلا بعد أن عُرِف ، وإذا كان معروفاً فقد استغنى

بمعرفته عن تأكيده باللام ، ويقبح أن تحذف المؤكَّد وتترك المؤكِّد .

القول الثالث قاله الفراء أيضاً : وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل ، فزدت عليها نوناً ولم أغيرها ، كما قلت : "الذي" ثم زدت عليه نوناً فقلت : جاءني الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، ومررت بالذين عندك .

القول الرابع قاله بعض الكوفيين ؛ قال : الألف في "هذان" مشبهة بالألف في يفعلان ؛ فلم تغير .

القول الخامس : قال أبو إسحاق : النحويون القدماء يقولون الهاء هاهنا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ؛ قال ابن الأنباري : فأضمرت الهاء التي هي منصوب "إن" و"هذان" خبر "إن" و"ساحران" يرفعها "هما" المضمر (والتقدير) إنه هذان لهما ساحران .

والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم "إن" و"هذان" رفع بالابتداء وما بعده خبر الابتداء .

القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ، فقال : إن شئت أجبتك بجواب النحويين ، وإن شئت أجبتك بقولي ؛ فقلت : بقولك ؛ فقال :

سألني إسماعيل بن إسحاق عنها فقلت : القول عندي أنه لما كان يقال "هذا" في موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحد ؛ فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ؛ قال ابن كيسان : فقلت له : فيقول القاضي به حتى يؤنس به ؛ فتبسم .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ هذا من قول فِرعون للسحرة ؛ أي غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه ؛ كما قال فرعون :

﴿ إني أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأرض الفساد ﴾ [غافر : 26] .

ويقال : فلان حسن الطريقة أي حسن المذهب .

وقيل : طريقة القوم أفضل القول ؛ وهذا الذي ينبغي أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به ؛ فالمعنى : ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم ؛ استمالة لهم .

أو يذهبا ببني إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولاً لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء .

أو يذهبا بأهل طريقتكم فحذف المضاف .

و"المثلى" تأنيث الأمثل ؛ كما يقال الأفضل والفضلى .

وأنث الطريقة على اللفظ ، وإن كان يراد بها الرجال .

ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة.

وقال الكسائي: "بطريقتكم" بسنتكم وسمتكم.

و"المثلى" نعت كقولك امرأة كبرى.

تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشيء.

تقول: أجمعت الخروج وعلى الخروج أي عزمت.

وقراءة كل الأمصار "فَأَجْمِعُوا" إلا أبا عمرو فإنه قرأ "فَاجْمَعُوا" بالوصل وفتح الميم.

واحتج بقوله: تعالى ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه: 60].

قال النحاس وفيما حُكي لي عن محمد بن يزيد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ

بخلاف قراءته هذه، وهي القراءة التي عليها أكثر الناس.

قال: لأنه احتج ب"جمع" وقوله عز وجل: "فجمع كيده" قد ثبت هذا فيبعد أن يكون

بعده "فَاجْمَعُوا" ويقرب أن يكون بعده "فَأَجْمِعُوا" أي اعزموا وجدّوا؛ ولما تقدم ذلك

وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال: أمر مجمع ومُجمَع عليه.

قال النحاس : ويصحح قراءة أبي عمرو "فَاجْمَعُوا" أي اجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضمُّوه مع أخيه .

وقاله أبو إسحاق .

الثعلبي : القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان : أحدهما : بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد ، وفي الصحاح : وأجمعت الشيء جعلته جميعاً ؛ قال أبو ذؤيب يصف حُمُراً :

فكأنَّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبَايعٍ . . .

وأولاتِ ذي العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجمَعُ

أي مجموع .

والثاني : أنه بمعنى العزم والإحكام ؛ قال الشاعر :

يا ليت شِعري والمُنَى لا تَنفعُ . . .

هل أغدُوَن يوماً وأمرِي مُجمَعُ

أي مُحكَم .

﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ قال مقاتل والكلبي : جميعاً .

وقيل : صفوفاً ليكون أشد لهيبتكم .

وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبي عبيدة ؛ قال يقال : أتيت الصّف يعني المصلَّى

؛ فالمعنى عنده ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه يوم العيد .

وحكي عن بعض فصحاء العرب : ما قدرت أن آتي الصفّ ؛ يعني المصلَّى .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون ؛ فيكون على هذا مصدراً في موضع الحال .

ولذلك لم يجمع .

وقرىء "ثُمَّ إِيْتُوا" بكسر الميم وياء .

ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفاً .

﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليومَ مَنِ استعلى ﴾ أي من غلب .

وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض .

وقيل : من قول فرعون لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(118/498)

وقال أبو حيان :

قال لهم موسى ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾

وتقدم تفسير ويل في سورة البقرة ، خاطبهم خطاب محذر وندبهم إلى قول الحق إذ رأوه وأن

لا يباهتوا بكذب .

وعن وهب لما قال للسحرة ﴿ ويلكم ﴾ قالوا ما هذا بقول ساحر ﴿ فيسحتكم ﴾ يهلككم ويستأصلكم ، وفيه دلالة على عظم الافتراء وأنه يترتب عليه هلاك الاستئصال ، ثم ذكر أنه لا يظفر بالبغية ولا ينجح طلبه ﴿ من افترى ﴾ على الله الكذب .

ولما سمع السحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعت في نفوسهم مهابته ﴿ فتنازعوا أمرهم ﴾ أي تجاذبوه والتنازع يقتضي الاختلاف .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص والأعمش وطلحة وابن جرير ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ بضم الياء وكسر الحاء من أسحت رباعياً .

وقرأ باقي السبعة ورويس وابن عباعي بفتحهما من سحت ثلاثياً .

وإسرارهم النجوى خيفة من فرعون أن يتبين فيهم ضعفاً لأنهم لم يكونوا مصممين على غلبة موسى بل كان ظناً من بعضهم .

وعن ابن عباس أن نجواهم إن غلبنا موسى اتبعناه ، وعن قتادة إن كان ساحراً فسنغلبه ، وإن كان من السماء فله أمر .

وقال الزمخشري : والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول ، ثم ﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبتهما وتثبيطاً للناس من اتباعهما انتهى .

وحكى ابن عطية قريباً من هذا القول عن فرقة قالوا : إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا ﴿ إن هذان لساحران ﴾ والأظهر أن تلك قيلت علانية ، ولو كان تناجيهم ذلك لم يكن ثم تنازع .

وقرأ أبو جعفر والحسن وشيبة والأعمش وطلحة وحميد وأيوب وخلف في اختياره وأبو عبيد وأبو حاتم وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير وابن جبير الأنطاكي والأخوان والصاحبان من السبعة إنّ بتشديد النون ﴿ هذان ﴾ بألف ونون خفيفة ﴿ لساحران ﴾ واختلف في تخريج هذه القراءة .

(119/498)

فقال القدماء من النحاة إنه على حذف ضمير الشأن والتقدير إنه هذان لساحران ، وخبر ﴿ إن ﴾ الجملة من قوله ﴿ هذان لساحران ﴾ واللام في ﴿ لساحران ﴾ داخلة على خبر المبتدأ ، وضعف هذا القول بأن حذف هذا الضمير لا يجيء إلا في الشعر وبأن دخول اللام في الخبر شاذ .

وقال الزجاج : اللام لم تدخل على الخبر بل التقدير لهما ساحران فدخلت على المبتدأ المحذوف ، واستحسن هذا القول شيخه أبو العباس المبرد والقاضي إسماعيل بن إسحاق

بن حماد بن زيد .

وقيل : ها ضمير القصة وليس محذوفاً ، وكان يناسب على هذا أن تكون متصلة في الخط فكانت كتابتها ﴿ إن هذان لساحران ﴾ وضعف ذلك من جهة مخالفته خط المصحف .

وقيل ﴿ إنْ ﴾ بمعنى نعم ، وثبت ذلك في اللغة فتحمل الآية عليه و ﴿ هذان لساحران ﴾ مبتدأ وخبر واللام في ﴿ لساحران ﴾ على ذينك التقديرين في هذا التخريج ، والتخريج الذي قبله وإلى هذا ذهب المبرد وإسماعيل بن إسحاق وأبو الحسن الأخفش الصغير ، والذي نختاره في تخريج هذه القراءة أنها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دائماً وهي لغة لكنانة حكى ذلك أبو الخطاب ، ولبني الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وأهل تلك الناحية حُكِي ذلك عن الكسائي ، ولبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذرة .

وقال أبو زيد : سمعت من العرب من يقلب كل ياء ينفتح ما قبلها ألفاً .

وقرأ أبو بحرية وأبو حيوة والزهري وابن محيصن وحميد وابن سعدان وحفص وابن كثير ﴿ إنْ ﴾ بتخفيف النون هذا بالألف وشدد نون ﴿ هذان ﴾ ابن كثير ، وتخريج هذه القراءة واضح وهو على أن أن هي المخففة من الثقيلة و ﴿ هذان ﴾ مبتدأ و ﴿

لساحران ﴾ الخبر واللام للفرق بين إن النافية وإن المخففة من الثقيلة على رأي البصريين والكوفيين ، يزعمون أن إن نافية واللام بمعنى إلاّ .

(120/498)

وقرأت فرقة إن ذان لساحران وتخريجها كتخريج القراءة التي قبلها ، وقرأت عائشة والحسن والنخعي والجحدري والأعمش وابن جبير وابن عبيد وأبو عمرو إن هذين بتشديد نون إنّ وبالياء في هذين بدل الألف ، وإعراب هذا واضح إذ جاء على المهيع المعروف في التثنية لقوله ﴿ فذانك برهانان ﴾ ﴿ إحدى ابنتي هاتين ﴾ بالألف رفعاً والياء نصباً وجراً .

وقال الزجاج : لا أجيز قراءة أبي عمرو لأنها خلاف المصحف .

وقال أبو عبيد : رأيتها في الإمام مصحف عثمان هذن ليس فيها ألف ، وهكذا رأيت رفع الاثنين في ذلك المصحف بإسقاط الألف ، وإذا كتبوا النصب والخفض كتبوه بالياء ولا يسقطونها ، وقالت جماعة منهم عائشة وأبو عمرو : هذا مما لحن الكاتب فيه وأقيم بالصواب .

وقرأ عبد الله إن ذان إلا ساحران قاله ابن خالويه وعزاها الزمخشري لأُبيّ .

وقال ابن مسعود : إن هذان ساحران بفتح أن وبغير لام بدل من ﴿ النجوى ﴾ انتهى .

وقرأت فرقة ما هذا إلاّ ساحران وقولهم ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ﴾ تبعوا فيه مقالة فرعون ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ﴾ ونسبوا السحر أيضاً لهارون لما كان مشتركاً معه في الرسالة وسالكاً طريقته ، وعلقوا الحكم على الإرادة وهم لا اطلاع لهم عليها تنقيصاً لهما وحطاً من قدرهما ، وقد كان ظهر لهم من أمر اليد والعصا ما يدل على صدقهما ، وعلموا أنه ليس في قدرة الساحر أن يأتي بمثل ذلك ، والظاهر أن الضمير في ﴿ قالوا ﴾ عائد على السحرة خاطب بعضهم بعضاً .

وقيل : خاطبوا فرعون مخاطبة التعظيم ، والطريقة السيرة والمملكة والحال التي هم عليها .

و﴿ المثلى ﴾ تأنيث الأمثل أي الفضلى الحسنى .

وقيل : عبر عن السيرة بالطريقة وأنه يراد بها أهل العقل والسن والحجى ، وحكوا أن العرب تقول فلان طريقة قومه أي سيدهم ، وعن علي نحو ذلك قال : وتصرفات وجوه الناس إليهما .

وقيل : هو على حذف مضاف أي ﴿ ويذهبا ﴾ بأهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل لقول موسى ﴿ أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ بالغوا في التنفير عنهما بنسبتهما إلى السحر ،

وبالطبع ينفر عن السحر وعن رؤية الساحر ثم بإرادة الإخراج من أرضهم ثم بتغيير حالتهم من المناصب والرتب المرغوب فيها .

وحكى تعالى عنهم في متابعة فرعون في قوله ﴿ فجمع كيده ﴾ قوله ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ وقيل : هو من كلام فرعون ، والظاهر أنه من كلام السحرة بعضهم لبعض .

وقرأ الجمهور ﴿ فأجمعوا ﴾ بقطع الهمزة وكسر الميم من أجمع رباعياً أي اعزموا واجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا ولا يتخلف واحد منكم كالمسألة المجمع عليها .

وقرأ الزهري وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب في رواية وأبو حاتم بوصل الألف وفتح الميم موافقاً لقوله ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾ وتقدم الكلام في جمع وأجمع في سورة يونس في قصة نوح عليه السلام .

وتداعوا إلى الإتيان ﴿ صفاً ﴾ لأنه أهيب في عيون الرائين ، وأظهر في التمويه وانتصب ﴿ صفاً ﴾ على الحال أي مصطفين أو مفعولاً به إذ هو المكان الذي يجتمعون فيه لعيدهم وصلواتهم .

وقرأ شبل بن عباد وابن كثير في رواية شبل عنه ثم ايتوا بكسر الميم وإبدال الهمزة ياء تخفيفاً .

قال أبو علي وهذا غلط ولا وجه لكسر الميم من ثم .

وقال صاحب اللوامح : وذلك لالتقاء الساكنين كما كانت الفتحة في العامة كذلك ﴿ وقد

أفلح اليوم ﴾ أي ظفر وفاز ببغيته من طلب العلوّ في أمره وسعى سعيه ، واختلفوا في عدد السحرة اختلافاً مضطرباً جداً فأقل ما قيل أنهم كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر عصي وحبال ، وأكثر ما قيل تسعمائة ألف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(122/498)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾ الخ ،

بطريق الاستئنافِ المبنيّ على السؤال يقضي بأن المترقَّبَ عن أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاجَ إلى السؤال والبيانِ ليس إلا ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام ، وأما إتيانُه أولاً فأمرٌ محققٌ غنيٌّ عن التصريح به كأنه قيل : فماذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند إتيانِ فرعونَ بمن جمعه من السحرة ؟ فقيل : قال لهم بطريق النصيحة : ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن تدْعوا آياتِه التي ستظهر على يدي سِحراً كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ أي يستأصلكم بسببه ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ هائل لا يقادَر قدرُه ، وقرىء يَسحَتكم من الثلاثي على لغة أهلِ الحجاز ، والإسحاتُ لغةُ بني تميم ونجد ﴿ وَقَدْ

خَابَ مَنِ افترى ﴾ أي على الله كائناً من كان بأي وجهٍ كان فيدخل فيه الافتراءُ المنهيُّ عنه دخولاً أولياً ، وقد خاب فرعونُ المفتري فلا تكونوا مثلَه في الخَيبة ، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها .

﴿ فتنازعوا ﴾ أي السحرةُ حين سمعوا كلامَه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿ أَمَرَهُمْ ﴾ الذي أريد منهم مِنْ مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ في كيفية المعارضةِ وتجاذبوا أهدابَ القول في ذلك ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ أي من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقِفَ عليه فيدافعَه وكان نجواهم ما نطَق به قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ﴾ أي بطريق التناجي والإسرار :

(123/498)

﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ الخ ، فإنه تفسيرٌ له ونتيجةٌ لتنازعهم وخلاصةُ ما استقرت عليه آراؤُهم بعد التناظرِ والتشاور ، وإنْ مخففةٌ من إنّ قد أهملت عن العمل واللامُ فارقةٌ ، وقرىء بتشديد نون هذان ، وقيل : هي نافيةٌ واللامُ بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران ، وقرىء إنّ بالتشديد وهذان اسمُها على لغة بلحارث بن كعب فإنهم يُعربون التثنيةَ تقديراً ، وقيل : اسمُها ضميرُ الشأن المحذوفُ وهذان لساحران خبرُها ، وقيل : إن بمعنى نعم وما

بعدها جملةٌ من مبتدأ وخبر وفيهما أن اللامَ لا تدخُل خبرَ المبتدأ ، وقيل : أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكدَ باللام لا يليق به الحذفُ ، وقرىء إن هذين لساحران وهي قراءةٌ واضحة ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي أرض مصرَ بالاستيلاء عليها ﴿ بِسِحْرِهِمَا ﴾ الذي أظهراه من قبل ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضلُ المذاهب وأمثلُها بإظهار مذهبهما وإعلاءِ دينهما يريدون به ما كان عليه قومُ فرعون لا طريقةَ السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه ديناً ، وقيل : أرادوا أهلَ طريقتكم وهم بنو إسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام : أرسل معنا بني إسرائيلَ وكانوا أربابَ علمٍ فيما بينهم ، ويأباه أن إخراجَهم من أرضهم إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكناً وتصرفاً فكيف يتصور حينئذ نقلُ بني إسرائيلَ إلى الشام ؟ وحملُ الإخراج على أخراج بني إسرائيلَ منها مع بقاء قومِ فرعون على حالهم مما يجب تنزيهُ التنزيلِ عن أمثاله على أن هذه المقالةَ منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمامِ بالمناصبة فلا بد أن يكون الإنذارُ والتحذيرُ بأشد المكاره وأشقِّها عليهم ، ولا ريب في أن إخراجَ بني إسرائيلَ من بينهم والذهابَ بهم إلى الشام وهو آمنون في ديارهم ليس فيه كثيرُ محذورٍ ، وقيل : الطريقةُ اسمٌ لوجوه القوم وأشرافِهم لما أنهم قدوةٌ لغيرهم ولا يخفى

أن تخصيصَ الإذهاب بهم مما لا مزيةَ فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾

(125/498)

تصريحٌ بالمطلوب إثرَ تمهيدِ المقدّمات والفاءُ فصيحةٌ ، أي إذ كان الأمرُ كما ذُكر من كونهما ساحرَين يريدان بكم ما ذُكر من الإخراج والإذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مُجمَعاً عليه بحيث لا يتخلّف عنه واحدٌ منكم وارمُوا عن قوس واحدةٍ ، وقرىء فاجْمَعوا من الجمع ويعضدُه قوله تعالى : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي فاجْمَعو أدواتِ سحركم ورتّبوها كما ينبغي ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ أي مصطفّين ، أُمروا بذلك لأنه أهْيبُ في صدور الرائين وأدخلُ في استجلاب الرهبة من المشاهِدين ، قيل : كانوا سبعين ألفاً مع كل منهم حبلٌ وعصاً وأقبلوا عليه إقبالةً واحدة ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان من القِبط والباقي من بني إسرائيلَ ، وقيل : تِسعَمائة : ثلاثُمائةٍ من الفرس ، وثلاثُمائةٍ من الروم ، وثلاثمائة من الإسكندرية ، وقيل : خمسةَ عشرَ ألفاً ، وقيل : بضعةً وثلاثين ألفاً والله أعلم . ولعل الموعدَ كان مكاناً متسعاً خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذُكر في قُطر من أقطاره

وتنازعوا أمرهم في قُطر آخرَ منه ، ثم أُمروا بأن يأتوا وسَطَه على الوجه المذكور ، وقد فُسّر الصفُّ بالمصلّى لاجتماع الناسِ فيه في الأعياد والصلواتِ ووجهُ صِحّتِه أن يكون علماً لموضع معّينٍ من المكان الموعود ، وأما إرادةُ مصلّىً من المصلّيات بعد تعين المكان الموعودِ فلا مساغ لها قطعاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من قِبلهم مؤكدٌ لما قبله من الأمرين ، أي قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب : ما وعدهم فرعونُ من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ وبمن غلب : أنفسَهم جميعاً على طريقة قولهم : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ أو مَنْ غلب منهم حثاً لهم على بذل المجهودِ في المغالبة ، هذا هو اللائقُ بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم ، وقد قيل :

كان نجواهم أن قالوا حين سِمعوا مقالةَ موسى عليه الصلاة والسلام : ما هذا بقول ساحر ، وقيل : كان ذلك أن قالوا : إن غلَبنا موسى اتّبعناه ، وقيل : كان ذلك قولَهم : إن كان ساحراً فسنغلِبه وإن كان من السماء فله أمرٌ ، فيكون إسرارُهم حينئذ من فرعون ومَلِئه ويُحمل قولُهم : إن هذان لساحران الخ ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل

المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازعِ والتناظُر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبَوْا إلا المناصبةَ للمعارضة ، وأما جعلُ ضمير قالوا لفرعون وملِئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة رداً لهم عن الاختلاف وأمروهم بالإجماع والإزماعِ ، وإظهارِ الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفافِ فمُخِلٌّ بجزالة النظمِ الكريم كما يشهد به الذوقُ السليم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(127/498)

وقال الآلوسى :

ولم يذكر سبحانه إتيان موسى عليه السلام بل قال جل وعلا :

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾

للإيذان بأنه أمر محقق غني عن التصريح به ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل :

فماذا صنع موسى عليه السلام عند إتيان فرعون بمن جمعه من السحرة .

فقيل : قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن تدعوا آياته التي ستظهر على يدي سحراً كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ أي يستأصلكم بسبب ذلك .

﴿ بِعَذَابٍ ﴾ هائل لا يقادر قدره.

وقرأ جماعة من السبعة.

وابن عباس ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ بفتح الياء والحاء من الثلاثي على لغة أهل الحجاز والإسحات لغة نجد وتميم، وأصل ذلك استقصاء الحلق للشعر ثم استعمل في الإهلاك والاستئصال مطلقاً ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ أي على الله تعالى كائناً من كان بأي وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهي عنه دخولاً أولياً أو قد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله في الخيبة وعدم نجح الطلبة، والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها.

﴿ فتنازعوا ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه عليه السلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ الذي أريد منهم من مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ في كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول في ذلك ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ بالغوا في إخفاء كلامهم عن موسى وأخيه عليهما السلام لئلا يقفا عليه فيدافعاه، وكان نجواهم على ما قاله جماعة منهم الجبائي.

وأبو مسلم ما نطق به قوله تعالى:

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ أي بطريق التناجي والإسرار ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ الخ فإنه تفسير لذلك ونتيجة التنازع وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور.

وقيل : كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه السلام ما هذا بقول ساحر ، وروي ذلك عن محمد بن إسحاق .

(128/498)

وقيل : كان ذلك أن قالوا : إن غلبنا موسى اتبعناه ، ونقل ذلك عن الفراء . والزجاج.

وقيل : كان ذلك أن قالوا : إن كان هذا ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر ، وروي ذلك عن قتادة ، وعلى هذه الأقوال يكون المراد من ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ [طه : 62] أمر موسى عليه السلام وإضافته إليهم لأدنى ملابسة لوقوعه فيما بينهم واهتمامهم به ويكون إسرارهم من فرعون وملئه ، ويحمل قولهم : ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم من الأقاويل المذكورة ثم استقرت آراؤهم على ذلك وأبوا إلا المناصبة للمعارضة وهو كلام مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل : فماذا قالوا للناس بعد تمام التنازع فقبل : ﴿ قَالُواْ إِنْ هاذان ﴾ الخ.

وجعل الضمير في ﴿ قَالُواْ ﴾ : لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة رداً لهم عن الاختلاف وأمراً بالإجماع والإزماع وإظهار الجلادة مخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به

الذوق السليم ، نعم لو جعل ضمير ﴿ تنازعوا ﴾ والضمائر الذي بعده لهم كما ذهب إليه أكثر المفسرين أيضاً لم يكن فيه ذلك الإخلال وإن مخففة من إن وقد أهملت عن العمل واللام فارقة .

وقرأ ابن كثير بتشديد نون ﴿ هذان ﴾ وهو على خلاف القياس للفرق بين الأسماء المتمكنة وغيرها .

وقال الكوفيون : إن نافية واللام واللام بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران .

ويؤيده أنه قرىء كذلك .

وفي رواية عن أبي أنه قرأ ﴿ إِنْ هاذان إِلا ﴾ .

وقرىء ﴿ إن ﴾ بدون هاء التنبيه ﴿ إِلا ﴾ .

وعزاها ابن خالويه إلى عبد الله .

وبعضهم إلى أبي وهي تؤيد ذلك أيضاً .

وقرىء ﴿ إن هاذان لساحران ﴾ بإسقاط هاء التنبيه فقط .

وقرأ أبو جعفر .

والحسن .

وشيبة .

والأعمش .

وطلحة .

وحميد .

وأيوب .

وخلف في اختياره .

وأبو عبيد .

وأبو حاتم .

وابن عيسى الأصبهاني .

وابن جرير : وابن جبير الأنطاكي .

والأخوان .

(129/498)

والصاحبان من السبعة ﴿ إن ﴾ بتشديد النون ﴿ هذان ﴾ بألف ونون خفيفة ، واستشكلت هذه القراءة حتى قيل : إنها لحن وخطأ بناءً على ما أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن هشام بن عروة عن أبيه قال : سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن لحن القرآن عن قوله تعالى : ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ .

وعن قوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكواة ﴾ [النساء : 162] وعن قوله تعالى : ﴿ والذين هَادُواْ والصابئون ﴾ [المائدة : 69] فقالت : يا ابن أخي هذا عمل الكتاب أخطؤا في الكتاب ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال الجلال السيوطي .

وهذا مشكل جداً إذ كيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد ، ثم كيف يظن بهم ثانياً الغلط في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم كما أنزل ولم يألوا جهداً في حفظه وضبطه وإتقانه ، ثم كيف يظهر بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ، ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه ، ثم كيف يظن خامساً الاستمرار على الخطأ وهو مروى بالتواتر خلفاً عن سلف ولو ساغ مثل ذلك لارتفع الوثوق بالقرآن .

وقد خرجت هذه القراءة على وجوه ، الأول أن ﴿ إن ﴾ بمعنى نعم وإلى ذلك ذهب جماعة منهم المبرد والأخفش الصغير وأنشدوا قوله :

بكر العواذل في الصبو . . .

ح يلمنني وألومهنه

ويقلن شيب قد علا . . .

ك وقد كبرت فقلت إنه

والجيد الاستدلال بقول ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما لمن قال له : لعن الله ناقة حملتني إليك إن وراكبها إذ قد قيل : في البيت إنا لا نسلم أن إن فيه بمعنى نعم والهاء للسكت بل هي الناصبة والهاء ضمير منصوب بها والخبر محذوف أي إنه كذلك ولا يصح أن يقال : إنها في الخبر كذلك وحذف الجزءان لأن حذف الجزأين جميعاً لا يجوز .

وضعف هذا الوجه بأن كونها بمعنى نعم لم يثبت ، أو هو نادر .

وعلى تقدير الثبوت من غير ندرة ليس قبلها ما يقتضي جواباً حتى تقع نعم في جوابه .

والقول بأنه يفهم من صدر الكلام أن منهم من قال : هما ساحران فصدق وقيل : نعم بعيد .

ومثله القول بأن ذلك تصديق لما يفهم من قول فرعون : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى موسى ﴾ [طه : 57] وأيضاً إن لام الابتداء لا تدخل على خبر المبتدأ .

وأجيب عن هذا بأن اللام زائدة وليست للابتداء كما في قوله :

أم الحليس لعجوز شهربه . . .

ترضى من اللحم بعظم الرقبة

أو بأنها داخلة على مبتدأ محذوف أي لهما ساحران ، كما اختاره الزجاج وقال :

عرضته على عالمنا وشيخنا وأستاذنا محمد بن زيد يعني المبرد .

والقاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد فقبلاه ، وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذا أو بأنها دخلت بعد إن هذه لشبهها بأن المؤكدة لفظاً كما زيدت أن بعد ما المصدرية لمشابهتها للنافية في قوله :

ورج الفتى للخير ما إن رأيته . . .

على السن خيراً لا يزال يزيد

ورد الأول : بأن زيادتها في الخبر خاصة بالشعر وما هنا محل النزاع فلا يصح الاحتجاج به كما توهم النيسابوري .

وزيف الثاني أبو علي في الإغفال بما خلاصته أن التأكيد فيما خيف لبسه فإذا بلغ به الشهرة الحذف استغنى لذلك عن التأكيد ، ولو كان ما ذكر وجهاً لم يحمل نحو لعجوز شهربة على الضرورة ولا تقاس على أن حيث حذف معها الخبر في :

إن محلا وإن مرتحلا . . .

وإن اجتمعا في التأكيد لأنها مشبهة بلا وحمل النقيض على النقيض شائع ، وابن جني بأن الحذف من باب الإيجاز والتأكيد من باب الأطناب والجمع بينهما محال للتنافي .

وأجيب : بأن الحذف لقيام القرينة والاستغناء غير مسلم والتأكيد لمضمون الجملة لا

للمحذوف والحمل في البيت ممكن أيضاً واقتصارهم فيه على الضرورة ذهول وكم ترك الأول للآخر واجتماع ألا يجازوا الأطناب مع اختلاف الوجه غير محال .

وأصدق شاهد على دخول اللام في مثل هذا الكلام ما رواه الترمذي .

وأحمد .

وابن ماجه ﴿ أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ﴾ نعم لا نزاع في شذوذ هذا الحذف استعمالاً وقياساً .

الثاني : أن إن من الحروف الناصبة واسمها ضمير الشأن وما بعد مبتدأ وخبر والجملة خبرها ، وإلى ذلك ذهب قدماء النحاة .

وضعف بأن ضمير الشان موضوع لتقوية الكلام وما كان كذلك لا يناسبه الحذف والمسموع من حذفه كما في قوله :

إن من لام في بني بنت حسا . . .

ن ألمه وأعصه في الخطوب

وقوله :

إن من يدخل الكنيسة يوما . . .

يلق فيها جآذرا وظباء

ضرورة أو شاذ إلا في باب إن المفتوحة إذا خففت فاستسهلوه لوروده في كلام بني على التخفيف فحذف تبعاً لحذف النون ولأنه لو ذكر لوجب التشديد إذ الضمائر ترد الأشياء إلى أصولها ، ثم يرد بحث دخول اللام في الخبر ، وإن التزم تقدير مبتدأ داخلة هي عليه فقد سمعت ما فيه من الجرح والتعديل ، الثالث : أنها الناصبة وهاء ضمير القصة اسمها وجلمة ﴿ هاذان لساحران ﴾ خبرها ، وضعف بأنه يقتضي وصل ها بإن من إثبات الألف وفصل ها من ﴿ ذان ﴾ في الرسم وما في المصحف ليس كذلك ، ومع ذلك يرد بحث دخول اللام .

الرابع : أن إن ملغاة وإن كانت مشددة حملا لها على المخففة وذلك كما أعملت المخففة حملا لها عليها في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ [هود : 111] أو حطاً لرتبتها عن الفعل لأن عملها ليس بالأصالة بل بالشبه له وما بعدها مبتدأ وخبر وإلى ذلك ذهب علي بن عيسى .

وفيه أن هذا الإلغاء لم ير في غير هذا الموضع وهو محل النزاع وبحث اللام فيه بحالة .

الخامس : وهو أجود الوجوه وأوجهها .

واختاره أبو حيان .

وابن مالك .

والأخفش .

وأبو علي الفارسي .

وجماعة أنها الناصبة .

واسم الإشارة اسمها : واللام لام الابتداء و﴿ ساحران ﴾ خبرها ؛ ومجيء اسم الإشارة بالألف مع أنه منصوب جار على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دائماً قال شاعرهم :

واها لريا ثم واها واها . . .

يا ليت عيناها لنا وفاها

(132/498)

وموضع الخلخال من رجلاها . . .

بثمن نرضى به أباها

وقال الآخر :

وأطرق إطراق الشجاع ولو يرى . . .

مساغاً لنا باه الشجاع لصمما

وقالوا : ضربته بين أذناه ومن يشتري الخفان وهي لغة الكنانة حكى ذلك أبو الخطاب ولبني الحرث بن كعب .

وخثعم .

وزبيد .

وأهل تلك الناحية حكى ذلك الكسائي .

ولبني العنبر .

وبني الهيجم .

ومراد وعذرة .

وقال أبو زيد : سمعت من العرب من يقلب كل ياء ينفتح ما قبلها ألفاً ، وابن الحاجب يقول : إن ﴿ يَشَاء هذان ﴾ مبني لدلالته على معنى الإشارة .

وإن قول الأكثرين هذين جراً ونصباً ليس إعراباً أيضاً .

قال ابن هشام : وعلى هذا فقراءة هذان أقيس إذ الأصل في المبنى أن لا تختلف صيغته مع أن فيها مناسبة لألف ﴿ ساحران ﴾ اه .

وأما الخبر السابق عن عائشة فقد أجاب عنه ابن أشته وتبعه ابن جبارة في شرح الرائية بأن قولها : اخطؤا على معنى أخطؤا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه لا

أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز فإن ما لا يجوز من كل شيء مردود بالإجماع وإن طالت مدة وقوعه وبنحو هذا يجاب عن أخبار رويت عنها أيضاً .

وعن ابن عباس في هذا الباب تشكل ظواهرها .

ثم أخرج عن إبراهيم النخعي أنه قال : إن هذان لساحران وإن هذين لساحران سواء لعلهم كتبوا الألف مكان الياء يعني أنه من إبدال حرف في الكتابة بحرف كما وقع في صلاة وزكاة وحياة .

ويرد على هذا أنه إنما يحسن لو كانت القراءة بالياء في ذلك .

ثم أنت تعلم أن الجواب المذكور لا يحسم مادة الإشكال لبقاء تسمية عروة ذلك في السؤال لحناً اللهم إلا أن يقال : أراد باللحن اللغة كما قال ذلك ابن اشته في قول ابن جبير المروي عنه بطرق في ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ [النساء : 162] هو لحن من الكاتب أو يقال : أراد به اللحن بحسب بادىء الرأي : وابن الأنباري جنح إلى تضعيف الروايات في هذا الباب ومعارضتها بروايات أخر عن ابن عباس .

وغيره تدل على ثبوت الأحرف التي قيل فيها ما قيل في القراءة .

ولعل الخبر السابق الذي ذكر أنه صحيح الإسناد على شرط الشيخين داخل في ذلك لكن قال الجلال السيوطي : إن الجواب الأول الذي ذكره ابن اشته أولى وأقعد .

وقال العلاء فيما أخرجه ابن الأنباري وغيره عن عكرمة قال : لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال : ستقرؤها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف إن ذلك لا يصح عن عثمان فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع .

والذي أجنح أنا إليه والعاصم هو الله تعالى تضعيف جميع ما ورد مما فيه طعن بالمتواتر ولم يقبل تأويلاً ينشرح له الصدر ويقبله الذوق وإن صححه من صححه .

والطعن في الرواة أهون بكثير من الطعن بالأئمة الذين تلقوا القرآن العظيم الذي وصل إلينا بالتواتر من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يألوا جهداً في إتقانه وحفظه .

وقد ذكر أهل المصطلح أن مما يدرك به وضع الخبر ما يؤخذ من حال المروى كان يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل أو لم يحتمل سقوط شيء منه يزول به المحذور فلو قال قائل بوضع بعض هاتيك الأخبار لم يبعد والله تعالى أعلم .

وقرأ أبو عمرو ﴿ إن ﴾ بتشديد نون ﴿ إن ﴾ وبالياء في ﴿ هذين ﴾ .

وروي ذلك عن عائشة .

والحسن .

والأعمش .

والنخعي .

والجحدري .

وابن جبير .

وابن عبيد .

وإعراب ذلك واضح إذ جاء على المهيع المعروف في مثله لكن في "الدر المصون" قد استشكلت هذه القراءة بأنها مخالفة لرسم الإمام فإن اسم الإشارة فيه بدون ألف وياء فإثبات الياء زيادة عليه .

ولذا قال الزجاج : أنا لا أجيزها وليس بشيء لأنه مشترك الإلزام ولو سلم فكم في القراءات ما خالف رسمه القياس مع أن حذف الألف ليس على القياس أيضاً .

﴿ لساحران يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بِسِحْرِهِمَا ﴾ الذي أظهراه من قبل ، ونسبة ذلك لهارون لما أنهم رأوه مع موسى عليهما

السلام سالكاً طريقته .

وهذه الجملة صفة أو خبر بعد خبر .

﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه ديناً .

وقيل : أرادوا أهل طريقتكم فالكلام على تقدير مضاف .

والمراد بهم بنو إسرائيل لقول موسى عليه السلام : ﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل ﴾ [طه : 47] وكانوا أرباب علم فيما بينهم .

وأخرج ذلك ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

وتعقب بأن إخراجهم من أرضهم إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكناً وتصرفاً فكيف يتصور حينئذٍ نقل بني إسرائيل إلى الشام .

وحمل الإخراج على إخراج بني إسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله ، على أن هذه المقالة منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلا بد أن يكون الإنذار والتحذير بأشد المكاره وأشقها عليهم ، ولا ريب في أن إخراج بني إسرائيل من بينهم والذهاب بهم إلى الشام وهم آمنون في ديارهم ليس فيه كثير

محذور وهو كلام يلوح عليه مخايل القبول فلعل الخبر عن الحبر لا يصح .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم أيضاً عن مجاهد أن الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم .

وحكى فلان طريقة قومه أي سيدهم ، وكأن إطلاق ذلك على الوجوه مجاز لاتباعهم كما يتبع الطريق .

(135/498)

وأخرجا عن علي كرم الله تعالى وجهه أن إطلاق ذلك عليهم بالسريانية ، وكأنهم أرادوا بهؤلاء الوجوه الوجوه من قوم فرعون أرباب المناصب وأصحاب التصرف والمراتب فيكونوا قد حذروهم بالإخراج من أوطانهم وفصل ذوي المناصب منهم عن مناصبهم وفي ذلك غاية الذل والهوان ونهاية حوادث الزمان ، فما قيل : إن تخصيص الإذهاب بهم مما لا مزية فيه ليس بشيء ، وقيل : إنهم أرادوا بهم بني إسرائيل أيضاً لأنهم كانوا أكثر منهم نشباً وأشرف نسباً وفيه ما مر آنفاً ، واعترض أيضاً بأنه ينافيه استعبادهم واستخدامهم وقتل أولادهم وسومهم العذاب .

وأجيب بالمنع فكم من متبوع مقهور وشريف بأيدي الأنذال مأسور وهو كما ترى .

﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾

تصريح بالمطلوب إثر تمهيد المقدمات .

والفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ما يريدان فازمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه منكم أحد وارموا عن قوس واحدة .

وقرأ الزهري .

وابن محيصن .

وأبو عمرو .

ويعقوب في رواية .

وأبو حاتم ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ بوصل الهمزة وفتح الميم من الجمع .

ويعضده قوله تعالى : ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ [طه : 60] وفي الفرق بين جمع وأجمع كلام للعلماء .

قال ابن هشام : إن أجمع يتعلق بالمعاني فقط وجمع مشترك بين المعاني والذوات .

وفي عمدة الحفاظ حكاية القول بأن أجمع أكثر ما يقال في المعاني وجمع في الأعيان فيقال : أجمعت أمري وجمعت قومي وقد يقال بالعكس .

وفي المحكم أنه يقال : جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعاً وأجمعه فلم يفرق بينهما ، وقال الفراء : إذا أردت جمع المتفرق قلت : جمعت القوم فهم مجموعون وإذا أردت جمع المال قلت جمعت بالتشديد ويجوز تخفيفه والإجماع الأحكام والعزيمة على الشيء ويتعدى بنفسه وبعلى تقول : أجمعت الخروج وأجمعت على الخروج ، وقال الأصمعي : يقال جمعت الشيء إذا جئت به من هنا ومن هنا وأجمعته إذا صيرته جميعاً ، وقال أبو الهيثم : أجمع أمره أي جعله جميعاً وعزم عليه بعد ما كان متفرقاً وتفرقته أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا والجمع أن يجمع شيئاً إلى شيء ، وقال الفراء : في هذه الآية على القراءة الأولى أي لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ أي مصطفين أمروا بذلك لأن أهيب في صدور الرائين وأدخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين .

قيل : كانوا سبعين ألفاً مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه عليه السلام إقبالة واحدة ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان من القبط والباقي من بني إسرائيل ، وقيل : تسعمائة ثلاثمائة من الفرس وثلاثمائة من الروم وثلاثمائة من الإسكندرية ، وقيل : خمسة عشر ألفاً ، وقيل بضعة وثلاثين ألفاً ، ولا يخفى حال الإخبار في ذلك والقلب لا يميل إلى المبالغة والله تعالى أعلم ، ولعل الموعد كان مكاناً متسعاً خاطبهم موسى عليه السلام بما ذكر في قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم في قطر آخر منه ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الحال

المذكورة ، وقد فسر أبو عبيدة الصف بالمكان الذي يجتمعون فيه لعيدهم وصلواتهم وفيه بعد ، وكأنه علم لموضع معين من مكان يوم الزينة ، وعلى هذا التفسير يكون ﴿ صَفًّا ﴾ مفعولاً به .

وقرأ شبل بن عباد .

وابن كثير في رواية شبل عنه ﴿ ثُمَّ ﴾ بكسر الميم وإبدال الهمزة ياء .

(137/498)

قال أبو علي : وهذا غلط ولا وجه لكسر الميم من ثم ، وقال صاحب اللوامح : إن ذلك لالتقاء الساكنين كما كانت الفتحة في قراءة العامة كذلك ﴿ صَفًّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ اعتراض تذييلي من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أي قد فاز بالمطلوب من غلب .

فاستفعل بمعنى فعل كما في "الصحاح" أو من طلب العلو والغلب وسعى سعيه على ما في "البحر" .

فاستفعل على بابه ، ولعله أبلغ في التحريض حيث جعلوا الفوز لمن طلب الغلب فضلاً عمن غلب بالفعل وأرادوا بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله

تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ [الأعراف : 114] وبمن استعلى أنفسهم جميعاً على طريقة قولهم ﴿ بعزة فرعون إنا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ [الشعراء : 44] أو من استعلى منهم حثاً على بذل المجهود في المغالبة .

وقال الراغب : الاستعلاء قد يكون لطلب العلو المذوم وقد يكون لغيره وهو ههنا يحتملهما فلهذا جاز أن يكون هذا الكلام محكياً عن هؤلاء القائلين للتحريض على إجماعهم واهتمامهم وأن يكون من كلام الله عز وجل فالمستعلى موسى .

وهارون عليهما السلام ولا تحريض فيه .

وأنت تعلم أن الظاهر هو الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(138/498)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾

أي : مقدماً لهم النصح والإنذار ، لينقطع عذرهم : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي : لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتم على الله تعالى : ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ أي : يستأصلكم : ﴿ بِعَذَابٍ

﴾ أي : هائل لغضبه عليكم : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا ﴾ أي : بطريق التناجي والإسرار : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ أي : بمذهبكم الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهارون هو عزل فرعون عن ملكه ، بجعله عبداً لغيره ، واستقرارهما في مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقتكم بسحرهما الذي يريدان إعجازكم به . و: ﴿ الْمُثْلَى ﴾ تأنيث الأمثل ، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطيفة :

في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ قراءات :

الأولى : ﴿ إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ ﴾ بتشديد النون من إنَّ وهذَيْنِ بالياء وهي قراءة أبي عَمْرو ، وهي جارية على السَّنَنِ المشهور في عمل إنَّ .

الثانية : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ بتخفيف إنَّ وإهمالها عن العمل ، كما هو الأكثر فيها إذا خففت . وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية

. ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى إِلاّ وإِنْ قبلها نافية ، واستدلوا على مجيء اللام

للاستثناء بقوله :

~أمس أبانُ ذليلاً بعد عِزّتِهِ وما أبانُ لَمِنْ أعلاجِ سُودَانِ

والثالثة : ﴿ إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ بتشديد إِنَّ وهذان بالألف . وخرّجت على أوجه

:

أحدها : موافقة لغة من يأتي في المثنى بالألف في أحواله الثلاث . وهم بنو الحارث بن كعب

وخثعم وزُبَيْد وكنانة وآخرون . قال قائلهم :

~تزوّدَ مِنّا بين أُذْناهُ طَعْنَةً

وقال آخر :

~إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بلغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

وثانيها : إِنَّ إِنَّ بمعنى نعم حكاه المبرد . واستدل بقول الراجز :

~يا عمر الخيرِ جُزيتَ الجَنّهْ اكسُ بُنَيّاتِي وأُمّهُنّهْ

~وقُلْ لَهُنَّ : إِنَّ أَنَّ إِنّهْ أُقْسِمُ بالله لَتَفْعَلَنّهْ

وقول عبد الله بن قيس الرُّقَيّات :

~ويَقُلْنَ شيب قد علاك وقد كَبِرْتَ فقلتُ إِنَّهُ

وردّ على المبرد أبو علي الفارسي ، بأنه لم يتقدم ما يجاب بنعم وأجاب الشمنّي ، بأن التنازع فيما بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب للاستخبار الضمنيّ . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس في الاستخبار عن كونهما ساحرين ، بل هم جزموا بالسحر فقالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ﴾ [57] ، ثم أسروا النجوى فيما يغلبان به موسى . إلا أن يقال : محطّ الجواب قوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الخ ، وما قبله توطئة . وقد رد في " المغني " هذا التخريج ؛ بأن مجيء نعم شاذ حتى نفاه بعضهم . ومنعه الدمامينيّ ؛ بأن سيبويه والحذّاق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام في : ﴿ لَسَاحِرَانِ ﴾ لام الابتداء ، زحلقت للخبر . وأبى البصريون دخولها على الخبر . وزعموا أنها في مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع إن التي بمعنى نعم لشبهها بالمؤكدة لفظاً .

وأقول : فيه تكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

وثالثها : أنه لما كان الإعراب لا يظهر في الواحد ، وهو هذا جعل كذلك في التثنية ، ليكون المثنى كالمفرد . لأنه فرع عليه . واختار هذا القول الإمام العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، وزعم أن بناء المثنى ، إذا كان مفرده مبنيّاً ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفطن لذلك غير واحد من حذاق النحاة . ثم اعترض بأمرين :

أحدهما : أن السبعة أجمعوا عل الياء في قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [القصص : 27] ، مع أن هاتين تثنية هاتا وهو مبني .

(141/498)

والثاني : أن الذي مبني وقد قالوا في تثنيته اللّذَيْنِ في الجر والنصب . وهي لغة القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ [فصلت : 29] ، وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء هاتين بالياء على لغة الإعراب لمناسبة ابنتيّ قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء في : ﴿ إِنّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ أفصح من الإعراب لمناسبة الألف في هذان للألف في ساحران . وأجاب عن الثاني بالفرق بين اللذان وهذان بأن اللّذان تثنية اسم ثلاثي ، فهو شبيه بالزيدان وهذان تثنية اسم على حرفين . فهو عريق في البناء لشبهه بالحروف . قال رحمه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ إنّ هذان لحن وإن عثمان رضي الله عنه قال : إن في المصحف لحناً وستقيمه العرب بألسنتها . وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه .

أحدها : إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن في القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته ؟ .

والثاني : أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام , فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف ؟ .

والثالث : أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي .

والرابع : أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب التابوت بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ : عَتَّى حين ، على لغة هذيل ، أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقي الدين مخلصاً .

هذا حاصل ما في " المغني " و " الشذور " و " حواشيهما " وفي الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أي إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج ، والإذهاب ،

فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم. أفاده أبو السعود. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً ﴾ أي: مصطفين، ليكون أهيب في صدور الرائين: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي: فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملئه: ﴿ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ أي: علا وغلب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 138. 141 ﴾

(143/498)

وقال ابن عاشور:

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾

والخطاب بقوله ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ يجوز أن يكون أراد به حقيقة الدعاء، فيكون غير جار على ما أمر به من إلانة القول لفرعون: إما لأن الخطاب بذلك لم يكن مواجهاً به فرعون بل واجه به السحرةَ خاصة الذين اقتضاهم قوله تعالى: ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾، أي قال موسى لأهل كيد فرعون؛ وإما لأنه لما رأى أن إلانة القول له غير نافعة، إذ لم يزل على تصميمه على الكفر، أغلظ القول زجراً له بأمر خاص من الله في تلك الساعة تقييداً لمطلق الأمر بإلانة القول، كما أذن لمحمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ الآيات في

سورة الحج (39) ؛ وإما لأنه لما رأى تمويههم على الحاضرين أنّ سحرهم معجزة لهم من آلهتهم ومن فرعون ربّهم الأعلى وقالوا : ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ [الشعراء : 44] رأى واجباً عليه تغيير المنكر بلسانه بأقصى ما يستطيع ، لأن ذلك التغيير هو المناسب لمقام الرسالة .

ويجوز أن تكون كلمة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ مستعملة في التعجب من حال غريبة ، أي أعجبُ منكم وأحذركم ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بصير : "ويل أُمُهُ مسعر حرب" فحكى تعجب موسى باللفظ العربي الدال على العجب الشديد .

والويل : اسم للعذاب والشر ، وليس له فعل .

وانتصب ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ إما على إضمار فعل على التحذير أو الإغراء ، أي الزموا ويلكم ، أو احذروا ويلكم ؛ وإما على إضمار حرف النداء فإنهم يقولون : يا ويلنا ، ويا ويلتنا . وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة البقرة (79) .

والإفتراء : اختلاق الكذب .

والجمع بينه وبين كَذِباً ﴾ للتأكيد ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة المائدة (103) .

والافتراء الذي عناه موسى هو ما يخيّلونه للناس من الشعوذة، ويقولون لهم: انظروا كيف تحرّك الحبل فصار ثعباناً، ونحو ذلك من توجيه التخيّلات بتمويه أنها حقائق، أو قولهم: ما نفعله تأييد من الله لنا، أو قولهم: إن موسى كاذب وساحر، أو قولهم: إن فرعون إلههم، أو آلهة فرعون آلهة.

وقد كانت مقالات كفرهم أشتاتاً.

وقرأ الجمهور ﴿ فَيَسْحَتَكُم ﴾ بفتح الياء مضارع سَحَتَه: إذا استأصله، وهي لغة أهل الحجاز.

وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخَلَف، ورويسٌ عن يعقوب بضم الياء التحتية من أسحته، وهي لغة نجد وبني تميم، وكلتا اللغتين فصحى.

وجملة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ لاَ تَفْتَرُوا ﴾ وهي مسوقة مساق التعليل للنهي، أي اجتنبوا الكذب على الله فقد خاب من افترى عليه من قبلُ.

بعد أن وعظهم فنهاهم عن الكذب على الله وأنذرهم عذابه ضرب لهم مثلاً بالأمم البائدة الذين افتروا الكذب على الله فلم ينجحوا فيما افتَرَوْا لأجله.

و﴿ منْ ﴾ الموصولة للعموم.

وموقع هذه الجملة بعد التي قبلها كموقع القضية الكبرى من القياس الاقتراني .

وفي كلام موسى إعلان بأنه لا يتقول على الله ما لم يأمره به لأنه يعلم أنه يستأصله بعذاب ويعلم خيبة من افترى على الله ؛ ومن كان يعلم ذلك لا يُقدم عليه .

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) ﴾

أي تفرع على موعظة موسى تنازُعهم الأمرَ بينهم ، وهذا يؤذن بأن منهم من تركتْ فيه الموعظة بعضَ الأثر ، ومنهم من خشي الانخذال ، فلذلك دعا بعضهم بعضاً للتشاور فيما ذا يصنعون .

والتنازل : تفاعل من النزع ، وهو الجَذْب من البئر ، وجَذْب الثوب من الجسد ، وهو مستعمل تمثيلاً في اختلاف الرأي ومحاولة كل صاحب رأي أن يقنع المخالف له بأن رأيه هو الصواب ، فالتنازع : التخالف .

والنّجوى : الحديث السريّ ، أي اختَلَوْا وتحادثوا سِرّاً لِيَصدروا عن رأي لا يطّلع عليه غيرهم ، فجَعْلُ النجوى معمولاً ل ﴿ أسرّوا ﴾ يفيد المبالغة في الكتمان ، كأنه قيل : أسرّوا سرّهم ، كما يقال : شعر شاعر .

وزادهُ مبالغة قوله ﴿ بَيْنَهُم ﴾ المقتضي أنّ النجوى بين طائفة خاصة لا يشترك معهم فيها غيرهم .

وجملة ﴿ قَالُوا إنْ هذان لساحران ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ وأَسَرُّوا النجوى ﴾ ، لأن إسرار النجوى يشتمل على أقوال كثيرة ذُكر منها هذا القول ، لأنّه القول الفصل بينهم والرأي الذي أرسوا عليه ، فهو زبدة مخيض النجوى .

وذلك شأن التشاور وتنازع الآراء أن يسفر عن رأي يصدر الجميع عنه .

وإسناد القول إلى ضمير جمعهم على معنى : قال بعضهم : هذان لساحران ، فقال جميعهم : نعم هذان لسَاحران ، فأسند هذا القول إلى جميعهم ، أي مقالة تداولوا الخوض في شأنها فأرسوا عليها .

وقال بعضهم لبعض : نعم هو كذلك ، ونطقوا بالكلام الذي استقرّ عليه رأيهم ، وهو تحققهم أنّ موسى وأخاه ساحران .

واعلم أنّ جميع القراء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة من قوله "هاذان" ما عدا أبا عمرو من العشرة وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر .

وذلك يوجب اليقين بأن إثبات الألف في لفظ (هذانِ) أكثر تواتراً بقطع النظر عن كيفيّة النطق بكلمة (إنّ) مشدّدة أو مخفّفة ، وأن أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد نون (إنّ) ما عدا ابنَ كثير وحفصاً عن عاصم فهما قرءَا (إنْ) بسكون النون على أنها

مخففة من الثقيلة .

وإن المصحف الإمام ما رسمُوه إلاّ اتّباعاً لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقرّاء أصحابه ، فإن حفظ القرآن في صدور القرّاء أقدم من كتابته في المصاحف ، وما كتب في أصول المصاحف إلاّ من حفظ الكاتِبين ، وما كُتب المصحف الإمام إلا من مجموع محفوظ الحُفاظ وما كتبه كتاب الوحي في مدة نزول الوحي .

(146/498)

فأما قراءة الجمهور ﴿ إنّ هذان لساحران بتشديد نون (إنّ) وبالألف في هذان وكذلك في لساحران ، فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستّة .

وأظهرها أن تكون (إنّ) حرف جواب مثل : نعم وأجَل ، وهو استعمال من استعمالات (إنّ) ، أي اتبعوا لما استقر عليه أمرهم بعد النّجوى كقول عبد الله بن قيس الرقيّات:

ويقلْن شيب قد عَلا . . .

كَ وقد كبرت فقلت إنّه

أي أجل أو نعم ، والهاء في البيت هاءُ السّكْتِ ، وقول عبد الله بن الزُبير لأعرابي استجداه فلم يعطه ، فقال الأعرابي : لعَن الله ناقة حملتني إليك .

قال ابن الزّبير : إنّ وراكِبَها .

وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الزجاج ذكره في تفسيره ﴿ .

وقال : عرضته على عالمينا وشيْخينا وأستاذيْنا محمد بن يزيد (يعني المبرد) ، وإسماعيل بن إسحاق بن حمّاد (يعني القاضي الشهير) فقبلاه وذكرا أنه أجود ما سمعاه في هذا .

وقلت : لقد صدقا وحقّقا ، وما أورده ابن جنّي عليه من الرد فيه نظر .

وفي "التفسير الوجيز" للواحدي سأل إسماعيل القاضي (هو ابن إسحاق بن حمّاد) ابنَ كيسان عن هذه المسألة ، فقال ابنُ كيسان : لما لم يظهر في المبهم إعرابٌ في الواحد ولا في الجمع (أي في قولهم هذا وهؤلاء إذ هما مبنيان) جرت التثنية مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغيّر .

فقال له إسماعيل : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يُؤْنس به فقال له ابنُ كيسان : فليقل به القاضي حتى يؤنس به ، فتبسم .

وعلى هذا التوجيه يكون قوله تعالى : ﴿ إنّ هَذانِ لسَاحِرانِ ﴾ حكايةً لمقال فريق من المتنازعين ، وهو الفريق الذي قبِل هذا الرأي لأنّ حرف الجواب يقتضي كلاماً سبقه .

ودخلت اللاّم على الخبر : إما على تقدير كون الخبر جملة حذف مبتدأها وهو مدخول اللام في التقدير ، ووجودُ اللاّم ينبىء بأن الجملة التي وقعت خبراً عن اسم الإشارة جملة قسميّة ؛ وإما على رأي من يجيز دخول اللام على خبر المبتدأ في غير الضرورة .

ووجهت هذه القراءة أيضاً بجعل (إنّ) حرف توكيد وإعراب اسمها المثنّى جَرى على لغة كنانة وبِلْحارث بن كعب الذين يجعلون علامة إعراب المثنى الألفَ في أحوال الإعراب كلها ، وهي لغة مشهورة في الأدب العربي ولها شواهد كثيرة منها قول المتلمّس:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاع ولو درى . . .

مساغاً لِنَاْبَاهُ الشجاعُ لصمّما

وقرأه حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون (إنْ) مسكنة على أنها مخففة (إنّ) المشددة .

ووجه ذلك أن يكون اسم (إنْ) المخففة ضمير شأن محذوفاً على المشهور .

وتكون اللاّم في ﴿ لساحران ﴾ اللاّم الفارقة بين (إنْ) المخففة وبين (إن) النافية .

وقرأ ابن كثير بسكون نون (إنْ) على أنها مخففة من الثقيلة وبإثبات الألف في "هذان" وبتشديد نون (هاذانّ) .

وأما قراءة أبي عمرو وحده ﴿ إنّ هذَيْن بتشديد نون (إنّ) وبالياء بعد ذال هذين .

فقال القرطبي : هي مخالفة للمصحف .

وأقل : ذلك لا يطعن فيها لأنّها رواية صحيحة ووافقت وجهاً مقبولاً في العربيّة .

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متحدة المقصود .

فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة إن هاذان خطأ من كاتب المصحف ، وروايتهم ذلك عن أبانَ بن عثمان بن عفّان عن أبيه ، وعن عروة بن الزبير عن عائشة ، وليس في ذلك سند صحيح .

حسبوا أنّ المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تغفّل ، فإن المصحف ما كتب إلاّ بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيّفاً وعشرين سنة في أقطار الإسلام ، وما كتبت المصاحف إلاّ من حفظ الحفّاظ ، وما أخذ المسلمون القرآن إلاّ من أفواه حُفّاظه قبل أن تكتب المصاحف ، وبعد ذلك إلى اليوم فلو كان في بعضها خطأ في الخطّ لما تبعه القراء ، ولكان بمنزلة ما تُرك من الألفات في كلمات كثيرة وبمنزلة كتابة ألف الصلاة ، والزكاة ، والحياة ، والرّبا بالواو في موضع الألف وما قرأوها إلاّ بألفاتها .

وتأكيد السحرة كونَ موسى وهارون ساحرين بحرف (إنّ) لتحقيق ذلك عند من يخامره الشكّ في صحّة دعوتهما .

وجعل ما أظهره موسى من المعجزة بين يدي فرعون سحراً لأنّهم يطلقون السحر عندهم على خوارق العادات، كما قالت المرأة الّتي شاهدت نبع الماء من بين أصابع النبي لقومها: جئتكم من عندِ أسْحر النّاس، وهو في كتاب المغازي من صحيح البخاري ﴿ .

والقائلون: قد يكون بعضهم ممن شاهد ما أتى به موسى في مجلس فرعون، أو ممن بلغهم ذلك بالتسامع والاستفاضة.

والخطاب في قوله ﴿ أن يُخْرِجَاكُم ﴾ لملئهم.

ووجه اتهامهما بذلك هو ما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ [طه: 57].

ونزيد هنا أن يكون هذا من النجوى بين السحرة، أي يريدانِ الاستئثار بصناعة السحر في أرضكم فتخرجوا من الأرض بإهمال الناس لكم وإقبالهم على سحر موسى وهارون.

والطريقة: السُّنّة والعادة؛ شبهت بالطريق الذي يسير فيه السائر، بجامع الملازمة.

والمثلى: مؤنّث الأمثل.

وهو اسم تفضيل مشتقّ من المَثَالة، وهي حسن الحالة يقال: فلان أمثل قومِه، أي أقربهم إلى الخير وأحسنهم حالاً.

وأرادوا من هذا إثارة حمية بعضهم غيرة على عوائدهم، فإن لكلّ أمّة غيرة على عوائدها وشرائعها وأخلاقها.

ولذا فرّعوا على ذلك أمرهم بأن يجمعوا حيلهم وكل ما في وسعهم أن يغلبوا به موسى .

والباء في ﴿ بطريقتكم ﴾ لتعدية فعل ﴿ يذهبا .

والمعنى : يُذهبانها ، وهو أبلغ في تعلّق الفعل بالمفعول من نصب المفعول .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ في سورة البقرة (17) .

وقرأ الجمهور فأجمِعوا ﴾ بهمزة قطع وكسر الميم أمراً من : أجمع أمره ، إذا جعله متفقاً عليه لا يختلف فيه .

وقرأ أبو عمرو ﴿ فاجمَعوا ﴾ بهمزة وصل وبفتح الميم أمراً من جمع ، كقوله فيما مضى ﴿ فجَمَع كَيْدَه ﴾ [طه : 60] .

(149/498)

أطلق الجمع على التعاضد والتعاون ، تشبيهاً للشيء المختلف بالمتفرّق ، وهو مقابل قوله ﴿ فتنازعوا أمرهم ﴾ .

وسموا عملهم كيداً لأنهم تواطئوا على أن يظهروا للعامة أن ما جاء به موسى ليس بعجيب ، فهم يأتون بمثله أو أشدّ منه ليصرفوا الناس عن سماع دعوته فيكيدوا له بإبطال خصيصية ما أتى به .

والظاهر أنّ عامة الناس تسامعوا بدعوة موسى ، وما أظهره الله على يديه من المعجزة ، وأصبحوا متحيّرين في شأنه ؛ فمن أجل ذلك اهتمّ السحرة بالكيد له ، وهو ما حكاه قوله تعالى : في آية سورة الشعراء (38 40):

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾

ودبروا لإرهاب الناس وإرهاب موسى وهارون بالاتفاق على أن يأتوا حين يتقدمون لإلقاء سحرهم مصطفين لأن ذلك أهيبُ لهم .

ولم يزل الذين يرومون إقناع العموم بأنفسهم يتخيّرون لذلك بَهاء الهيبة وحسن السمت وجلال المظهر .

فكان من ذلك جلوس الملوك على جلود الأسود ، وربما لبس الأبطال جلود النمور في الحرب .

وقد فسر به فعل تنمّروا في قول ابن معد يكرب:

قوم إذا لبِسوا الحديد . . .

تنَمروا حَلَقاً وقَدّاً

وقيل : إن ذلك المراد من قولهم الجاري مجرى المثل لبس لي فلان جلد النمر .

وثبت في التاريخ المستند للآثار أنّ كهنة القبط في مصر كانوا يلبسون جلود النمور .

والصفّ: مصدر بمعنى الفاعل أو المفعول، أي صافّين أو مصفوفين، إذا ترتبوا واحد حذو الآخر بانتظام بحيث لا يكونون مختلطين، لأنهم إذا كانوا الواحد حذو الآخر وكان الصف منهم تلو الآخر كانوا أبهر منظراً، قال تعالى: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ [الصفّ: 4].

وكان جميع سحرة البلاد المصريّة قد أحضروا بأمر فرعون فكانوا عدداً كثيراً.

(150/498)

فالصفّ هنا مراد به الجنس لا الواحدة، أي ثم ائتوا صفوفاً، فهو كقوله تعالى: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [النبأ: 38] وقال: ﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر: 22].

وانتصب ﴿ صَفّاً ﴾ على الحال من فاعل ﴿ ائتُوا ﴾ والمقصود الإتيان إلى موضع إلقاء سحرهم وشعوذتهم، لأنّ التناجي والتآمر كان في ذلك اليوم بقرينة قولهم ﴿ وقَدْ أفْلَحَ اليَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾.

وجملة ﴿ وقَدْ أفلحَ اليومَ مَنِ استَعْلَى ﴾ تذييل للكلام يجمع ما قصدوه من تآمرهم بأن الفلاح يكون لمن غلب وظهر في ذلك الجمع.

ف ﴿ استعلى ﴾ مبالغة في عَلا ، أي علا صاحبَه وقهره ، فالسين والتاء للتأكيد مثل استأخر .

وأرادوا الفلاح في الدنيا لأنّهم لم يكونوا يؤمنون بأنّ أمثال هذه المواقف مما يؤثر في حال الحياة الأبديّة وإن كانوا يؤمنون بالحياة الثانية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(151/498)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

لما رأى موسى السحرة أراد أنْ يُحذِّرهم مِمَّا هم مُقبلون عليه ، وأنْ يعطيهم المناهي التي تمنعهم ، فذكَّرهم بأن لهم رباً سيحاسبهم كما تقول لشخص ، تراه مُقْدِماً على جريمة ، لو فعلتَ كذا سأُبلغ عنك الشرطة ، وستُعاقب بكذا وكذا ، وتُذكّره بعاقبة جريمته .

﴿ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً ﴾ [طه : 61] افترى أي : جاء بالفِرْية ، وهي تعمُّد الكذب ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ [طه : 61] يعني : يستأصلكم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ [طه : 61] أي : خسر .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾

يبدو أن تخويفَ موسى لهم بقوله: ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ [طه: 61] قد أَثَّر فيهم وأخافهم ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ ﴾ [طه: 62] أخذوا يتساومون القَوْل ويتبادلون الآراء.

﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ [طه: 62] تحدثوا سِراً، وهذا دليل خوفهم من كلام موسى، ودليل ما فيهم من استعداد للخير، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار في الشوط إلى آخره.

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴾

توقف العلماء طويلاً حول هذه الآية، لأن فيها قراءتين (إنْ هذان) بسكون (إنْ) والأخرى (إنَّ هذان) بالتشديد.

والقراءة التي نحن عليها قراءة حفص ﴿ إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه: 63] و(إنْ) شرطية إنْ دخلت على الفعل، كما نقول: إنْ زارني زيد أكرمته، وتأتي نافية بمعنى ما، كما في قوله تعالى: ﴿ الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة: 2].

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائي وَلَدْنهم . كذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه : 63] فالمعنى : ما هذان إلا ساحران ، فتكون اللام في ﴿ لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه : 63] بمعنى إلا . كأنك قُلْتَ : ما هذان إلا ساحران .

وتأتي اللام بمعنى إلا ، إذا اختلفنا مثلاً على شيء ، كل واحد مِنّا يدَّعيه لنفسه ، فيأتي الحكم يقول : لَزَيدُ أحقُّ به ، كأنه قال : ما هذا الشيء إلا لزيد . إذن : اللام تأتي بمعنى إلا .

وعلى القراءة الثانية بالتشديد (إنَّ هذان لساحران) فإنَّ حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، تقول : إنَّ زيداً مجتهدٌ ، أما في الآية بهذه القراءة : (إنّ هذان لساحران) جاء اسم إنَّ هذان بالرفع بالألف ؛ لأنه مثنى ، والقاعدة تقتضي أن نقول (هذين) .

فكيف يتم توجيه إنَّ المشددة الناسخة وبعدها الاسم مرفوع ؟

قالوا : هذه لغة كنانة إحدى قبائل العرب ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة ولغتها المشهورة فيقولون : جعجعة خزاعة ، وطُمْطُمانيّة حِمْيَر ، وتَلْتَلة بَهْراء ، وفحفحة هذيل . . الخ .

ولما نزل القرآن نزل على جمهرة اللغة القرشية ؛ لأن لغات العرب جميعها كانت تصبُّ في لغة قريش في مواسم الحج والشعر والتجارة وغيرها ، فكانت لغة قريش هي السائدة بين لغات كل هذه القبائل ؛ لذلك نزل بها القرآن ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يكون للقبائل الأخرى نصيب ، فجاءت بعض ألفاض القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن

القرآن ليس لقريش وحدها ، ليجعل لها السيادة على العرب ، وإنما جاء للجميع .

ومن لهجات القبائل التي نزل بها القرآن لهجة كنانة التي تلزم المثنى الألف في كل أحواله رَفْعاً ونَصْباً وجراً . وشاهدهم في كتب النحو قول شاعرهم :

وَاهاً لِسَلْمى ثُمَّ وَاهَا وَاهَا . . . يَا لَيْتَ عَيْنَاها لَنَا وَفَاهَا

هِيَ الْمُنَى لَوْ أَنَّنَا نِلْنَاهَا . . . ومَوْضِع الخُلْخَال من قَدَمَاهَا

(153/498)

إنَّ أَبَاهَا وأَبَا أَبَاهَا . . . قَدْ بلغَا فِي المجْدِ غَايَتَاهَا

فقال : إنَّ أباها . ولم يقل : إنَّ أبيها ؛ لأنه يُلزِم المثنى الألف .

إذن : لم ينزل القرآن بلغة قريش على أنها لغة سيادة ، وإنما لأنها تنطوي على زُبْدة فصاحات لغات الجزيرة كلها ، وكانت لغة قريش تصفَّى في مواسم الشعر والأدب في عكاظ وذى المجنّة وغيرها .

نعود إلى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قالوا إنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴾ [طه : 63] ويبدو أن استعداء فرعون لقومه على موسى وهارون جاء بنتيجة ونالتْ حيلته من نفوسهم ؛ لذلك يُردِّدون نفس كلام المعلم الكبير

فرعون، فيتهمون موسى وهارون بالسحر .

وقولهم : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ [طه : 63] طريقتهم المثلى . أي : ما ارتضاه القوم للعيش عليه، والمذهب والطريق الذي سلكوه . والمراد بالطريقة المثلى التي ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمر، تلك هي الطريقة المثلى ! !

والمثلى : أي الفاضلة مُذكّرها أمثل .

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) ﴾

أي : تنبهوا واشحذوا كل أذهانكم، وكل فنونكم، وحركاتكم في السحر حتى لا يتمكنا من هذين الأمرين : إخراجكم من أرضكم، والقضاء على طريقتكم المثلى .

وهذا قَوْل بعضهم لبعض ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ [طه : 64] فلا يُخفِي أحد فناً من فنون السحر، وليُقدّم كُلٌّ مِنّا ما عنده؛ لأن عادة أهل الحِرَف أن يوجد بينهم تحاسد، فلا يُظهر الواحد منهم كل ما عنده مرة واحدة، أو يحاول أنْ يُخفي ما عنده حتى لا يطلع عليه الآخر، لكن في مثل هذا الموقف لا بُدّ لهم من تضافر الجهود فالموقف حرِج ستعمُّ بلواه الجميع إنْ فشلنا في هذه المهمة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ [طه : 64] يعني : مجتمعين كأنكم يد واحدة ، فهذا أهْيَبُ لكم وأدْخَل للرعب في قلوب خصمكم ، كما أننا إذا جِئْنَا سوياً لم يتمكن أحد من التراجع ، فيكون بعضنا رقيباً على بعض .

﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ [طه : 64] أفلح : فاز ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وهذا اللفظ مأخوذ من فلح الأرض ومنه الفلاحة ؛ لأن الفلاح إذا شقَّ الأرض أو حرثَها ورعاها تعطيه خيرها ، فحركتُه فيها حركة ميمونة مباركة .

لذلك ، لما أراد الحق تبارك وتعالى أن يُبيِّن لنا مضاعفة الأجر والثواب على الصدقة وعلى فعل الخير ضرب لنا مثلاً بالزرع ، فقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 261] .

فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعالى تعطي كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء الخالق لهذه الأرض ؟ لذلك عقب المثل بقوله تعالى : ﴿ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 261] .

ثم أُخِذَتْ كلمة الفلاح عَلماً على كل فلاح ، ولو لم يكن فيه صِلَة بالأرض ؛ لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نَوْعه بالأكل ، والأرض مصدر هذا كله ، فكانت

لذلك مصدراً للفوز .

وقوله : ﴿ مَنِ استعلى ﴾ [طه : 64] أي : طلب العُلو على خَصْمه . لكن هل الفلاَح يكون لمن طلب العلو أم لمن علا بالفعل ؟ طبعاً يكون لمن علا ، إذن : مَنْ عَلاَ بالفعل لا بُدَّ أنْ يشحذَ ذِهْنه على أن يطلب العلو على خصمه ، فمهما علا الخصم استعلى عليه أي : طلب العُلو ، إذن : قبل علا استعلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(155/498)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) ﴾

قوله : ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ : قرأ الأخوان وحفص عن عصام " فيُسْحِتكم " بضم الياء وكسر الحاء . والباقون بفتحهما . فقراءة الأخوين مِنْ أَسْحَتَ رباعياً وهي لغة نُجدٍ وتميم . قال الفرزدق التميمي :

3296 وعَضُّ زمانٍ يا بنَ مروانَ لم يَدَعْ . . . من المالِ إلاَّ مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ

وقراءةُ الباقين مِنْ سَحَتَه ثلاثياً وهي لغةُ الحجاز . وأصلُ هذه المادةِ الدلالةُ على الاستقصاءِ والنَّفاد . ومنه سَحَتَ الحالقُ الشَّعْرَ أي : استقصاه فلم يتركْ منه شيئاً ، ويستعملُ في الإِهلاك والإِذهاب . ونصبُه بإضمار " أَنْ " في جواب النهي . ولَمَّا أنشد الزمخشريُّ قولَ الفرزدق " إلاَّ مُسْحَتاً أو مُجْلَّفُ " قال بعد ذلك : " في بيتٍ لم تَزَلِ الرُّكَبُ تَصْطَكُّ في تسويةِ إعرابه " .

قلت : يعني أن هذا البيتَ صعبُ الإِعرابِ ، وإذ قد ذَكَرَ فَلأَذْكُرْ ما ورد في هذا البيتِ من الروايات ، وما قال الناس في ذلك على حسب ما يليق بهذا الموضوعِ ، فأقولُ وبالله الحَوْلُ : رُوي هذا البيتُ بثلاثِ روايات ، كل واحدة لا تَخْلو من ضرورةٍ : الأُولى " لم يَدَعْ " بفتح الياءِ والدال ونصب " مُسْحَت " . وفي هذه خمسةُ أوجه :

الأول : أنَّ معنى لم يَدَعْ من المال إلاَّ مُسْحتاً : لم يَبْقَ إلاَّ مُسْحَت ، فلما كان هذا في قوة الفاعل عَطَفَ عليه قوله : " أو مُجَلَّفُ " بالرفع . وبهذا البيتِ استشهد الزمخشريُّ على قراءة أُبَيّ والأعمش " فَشَربوا منه إلاَّ قليلٌ " برفع " قليل " وقد تقدَّم ذلك . الثاني : أنه مرفوعٌ بفعلٍ مقدرٍ دَلَّ عليه لم يَدَعْ ، والتقدير : أو بقي مُجَلَّفٌ . الثالث : " أن " مُجَلَّفُ "

مبتدأ ، وخبرُه مضمرٌ تقديره : أو مُجَلَّف كذلك وهو تخريج الفراء . الرابع : أنه معطوفٌ على الضميرِ المستترفي "مُسْحتاً" ، وكان مِنْ حقّ هذا أن يَفْصِل بينهما بتأكيدٍ أو فاصلٍ ما . إلاَّ أنَّ القائلَ بذلك لا يَشْتَرط وهو الكسائيُّ . وأيضاً فهو جائزٌ في الضرورة عند الكل . الخامس : أن يكونَ "مُجَلَّف" مصدراً بزنة اسم المفعول كقوله تعالى : ﴿ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : 19] أي : تَجْليف وتمزيق ، وعلى هذا فهو نَسَقٌ علت "عَضُّ زمانٍ" إذ التقدير : رَمَتْ بنا همومُ المُنَى وعَضُّ زمانٍ أو تجليف ، فهو فاعلٌ لعطفِه على الفاعل ، وهو قولُ الفارسيِّ . وهو عندي أحسنُها .

الروايةُ الثانية : فتحُ الياءِ وكسرُ الدال ورفعُ مُسْحت . وتخريجُها واضحٌ : وهو أن تكون مِنْ وَدَع في بيته يَدِع فهو وادع ، بمعنى : بقي يبقى فهو باقٍ ، فيرتفع مُسْحَتٌ بالفاعلية ، ويُرْفَعُ "مُجَلَّفُ" بالعطفِ عليه . ولا بُدَّ حينئذٍ من ضميرٍ محذوفٍ وتقديرُه : مِنْ أجله أو بسببه . . . . الكلام .

الرواية الثالثة : "يُدعْ" بضمِّ الياء وفتح الدال على ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، و"مُسْحَت" بالرفع لقيامِه مَقام الفاعلِ ، و"مُجَلَّف" عطفٌ عليه . وكان مِنْ حقِّ الواو أن لا تُحْذف ، بل

تَثْبُتُ لأنها لم تقع بين ياءٍ وكسرة ، وإنما حُذِفَتْ حملاً للمبني للمفعول على المبني للفاعل .

وفي البيت كلامٌ أطولُ من هذا تركتُه اختصاراً وهذا لُبُّه . وقد ذكرته في البقرة وفَسَّرْت معناه ولغتَه ، ووَصَلْتُه بما قبله فعليك بالالتفاتِ إليه .

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) ﴾

قوله : ﴿ إِنْ هذان ﴾ : اختلف القُرَّاءُ في هذه الآيةِ الكريمة : فقرأ ابن كثيرٍ وحدَه " إنْ هذانِّ " بتخفيف إنْ ، والألفِ ، وتشديدِ النون . وحفصٌ كذلك إلاَّ أنه خَفَّف نونَ " هذانِ " . وقرأ أبو عمرو " إنَّ " بالتشديد " هذين " بالياء وتخفيفِ النون . والباقون كذلك إلاَّ أنهم قرؤوا / " هذان " بالألف .

فأمَّا القراءةُ الأولى وهي قراءةُ ابنِ كثير وحفص فأوضحُ القراءاتِ معنىً ولفظاً وخَطَّاً ؛ وذلك أنهما جعلا " إنْ " المخففةَ من الثقيلة فَأُهْمِلَتْ ، ولَمَّا أُهمِلَتْ كما هو الأفصحُ مِنْ وجهيها خِيْفَ التباسُها بالنافية فجيْء باللامِ فارقةً في الخبر . ف " هذان " مبتدأٌ ، و" لَساحران " خبرُه ، ووافَقَتْ خَطَّ المصحفِ ؛ فإن الرسم " هذن " بدونِ ألفٍ ولا ياءٍ وسيأتي بيانُ ذلك .

وأمَّا تشديدُ نونِ " هذان " فعلى ما تقدَّم في سورةِ النساءِ ، وقد أُتْقِنَتُ ذلك هناك .

وأمّا الكوفيون فيزعمون أنّ " إنْ " نافيةٌ بمعنى ما ، واللامُ بمعنى إلاَّ ، وهو خلافٌ مشهورٌ وقد وافقَ تخريجُهم هنا قراءةَ بعضِهم " ما هذانِ إلاَّ ساحران " .

وأمّا قراءةُ أبي عمروٍ فواضحةٌ من حيث الإِعرابُ والمعنى . أمّا الإِعرابُ ف " هذَيْن " اسمُ " إنَّ " وعلامةُ نصبِه الياءُ . و " لَساحِران " خبرُها ، ودخلَتِ اللام توكيداً . وأمّا مِنْ حيث المعنى : فإنَّهم أَثْبتوا لهما السحرَ بطريق تأكيديٍّ من طرفيه ، ولكنهم استشكلُوها من حيث خَطِّ المصحفِ ؛ وذلك أنَّ رَسْمَه " هذن " بدونِ ألفٍ ولا ياءٍ ، فإثباتُه بالياءِ زيادةٌ على خطِ المصحفِ . قال أبو إسحاق : " لا أُجيز قراءةَ أبي عمروٍ لأنَّها خلافُ المصحفِ " . وقال أبو عبيد : " رأيتُهما في الإِمام مصحفِ عثمان " هذن " ليس فيها ألفٌ ، وهكذا رأيتُ رفعَ الاثنين في ذلك المصحفِ بإسقاط الألفِ ، وإذا كتبوا النصبَ والخفضَ كَتُبوه بالياء ، ولا يُسْقِطونها " .

قلت : وهذا لا ينبغي أَنْ يُرَدَّ به على أبي عمرو ، وكم جاء في الرسم أشياءُ خارجةٌ عن القياسِ ، وقد نَصُّوا هم أنه لا يجوز القراءةُ بها فليكنْ هذا منها ، أعني مِمَّا خَرَجَ عن القياس . فإن قلتَ : ما نَقَلْتَه عن أبي عبيد مشتركُ الإِلزامِ بين أبي عمروٍ وغيرِه ، فإنهم كما

اعترضوا عليه بزيادةِ الياء يُعْترض عليهم بزيادةِ الألفِ : فإنَّ الألفَ ثابتةٌ في قراءتِهم ، ساقطةٌ من خَطِّ المصحفِ . فالجواب ما تقدَّم مِنْ قولِ أبي عبيدٍ أنهم رآهم يُسْقِطون الألفَ مِنْ رفع الاثنين ، فإذا كَتَبوا النصبَ والخفضَ كتبُوه بالياء .

وذهب جماعةٌ منهم عائشةُ رضي الله عنها وأبو عمروٍ إلى أن هذا ممَّا لَحَنَ فيه الكاتبُ وأُقيم بالصواب .

يَعْنُون أنه كان مِنْ حقه أن يكتبَه بالياءِ فلم يفعلْ ، فلم يقرأْه الناسُ إلَّا بالياءِ على الصوابِ .

وأمَّا قراءةُ الباقين ففيها أوجه ، أحدُها : أن " إنَّ " بمعنى نَعَمْ ، و" هذان " مبتدأٌ ، و" لَساحران " خبرُه ، وكَثُرَ ورودُ " إنَّ " بمعنى نعم وأنشدوا :

3297 بَكَرَ العَواذِلُ في المَشِيْ ... بِ يَلُمْنَني وأَلُومُهُنَّهْ

(159/498)

ويَقُلْن شَيْبٌ قد عَلا ... كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ

أي : فقلت : نَعَمْ . والهاءُ للسَّكْتِ . وقال رجلٌ لابن الزبير : لَعَنَ اللهُ ناقةً حَمَلَتْني إليك . فقال : " إنَّ وصاحبَها " أي : نعم . ولَعَنَ صاحبَها . وهذا رأيُ المبردِ وعلي بن سليمان في آخرين . وهو مردودٌ من وجهين ، أحدهما : عدمُ ثبوتِ " إنَّ " بمعنى نعم ، وما أوردَه

مُؤَوَّلٌ : أمّا البيتُ فإنّ الهاءَ اسْمُها ، والخبرَ محذوفٌ لفهمِ المعنى تقديرُه : إنه كذلك . وأمّا قولُ ابنِ الزبير فذلك مِنْ حَذْفِ المعطوفِ عليه وإبقاءِ المعطوف وحَذْفِ خبر " إنَّ " للدلالةِ عليه ، تقديره : إنَّها وصاحبَها ملعونان ، وفيه تكلُّفٌ لا يَخْفَى والثاني : دخولُ اللامِ على خبرِ المبتدأ غيرِ المؤكَّد ب " إنَّ " المكسورةِ ، لأَنَّ مثلَه لا يقعُ إلاَّ ضرورةً كقولِه :

3298 أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوْزٌ شَهْرَبَهْ . . . تَرْضَى من اللحمِ بعظمِ الرَّقَبَهْ

وقد يُجاب عنه : بأنَّ " لَساحِران " يجوزُ أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ دَخَلَتْ عليه هذه اللامُ تقديرُه : لهما ساحران . وقد فعل ذلك الزجاج كما ستأتي حكايتُه عنه .

الثاني : أنَّ اسمَها ضميرُ القصةِ وهو " ها " التي قبل " ذان " وليست ب " ها " التي للتنبيهِ الداخلةِ على أسماءِ الإِشارةِ ، والتقدير : إنَّ القصةَ ذان لساحران . وقد رَدُّوا هذا من وجهين ، أحدهما : من جهةِ الخَطِّ ، وهو أنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن تُكْتَبَ " إنها " فيصِلوا الضميرَ بالحرفِ قبلَه كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ [الحج : 46] فكَتْبُهم إياها مفصولةً من " إنَّ " متصلةً باسمِ الإِشارة يمنع كونَها ضميراً ، وهو واضح . الثاني : أنَّه يؤدِّي إلى دخولِ لامِ الابتداءِ في الخبرِ غيرِ المنسوخِ . وقد يُجاب عنه بما تقدَّم .

الثالث : أنَّ اسمَها ضميرُ الشأنِ محذوفٌ ، والجملةُ من المبتدأ والخبرِ بعدَه في محلِّ رفعٍ خبراً لـ " إنَّ " ، التقديرُ : إنَّه ، أي : الأمرُ والشأنُ . وقد ضُعِّفَ هذا بوجهين ، أحدهما : حَذْفُ اسمِ " إن " ، وهو غيرُ جائزٍ إلاَّ في شعرٍ ، بشرطِ أَنْ لا تباشرَ " إنَّ " فعلاً كقولِه :

3299 إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الكنيسةَ يوماً . . . يَلْقَ فيها جآذِراً وظِباءَ

/ والثاني : دخولُ اللامِ في الخبرِ .

وقد أجابَ الزجَّاج بأنها داخلةٌ على مبتدأ محذوفٍ تقديرُه : لهما ساحران . وهذا قد استحسنه شيخُه المبردُ ، أعني جوابَه بذلك .

الرابع : أنَّ " هذان " اسمُها ، و " لَساحران " خبرُها . وقد رُدَّ هذا بأنه كان ينبغي أَنْ يكونَ " هذين " بالياءِ كقراءةِ أبي عمرو .

وقد أُجيب عن ذلك : بأنه على لغةِ بني الحارثِ وبين الهُجَيْم وبني العَنْبر وزُبَيْد وعُذْرَة ومُراد وخَثْعَم . وحكى هذه اللغةَ الأئمةُ الكبارُ كأبي الخَطَّاب وأبي زيد الأنصاري والكسائي . قال أبو زيد : " سمعتُ من العربِ مَنْ يَقْلِبُ كلَّ ياءٍ ينفتح ما قبلها ألفاً " ، يجعلون المثنى كالمقصورِ فيُثْبِتون ألفاً في جميع أحواله ، ويُقَدِّرون إعرابَه بالحركاتِ ، وأنشدوا قولَه :

3300 فأَطْرَقَ إطْراقَ الشُّجاعِ ولو يرى . . . مَساغاً لِناباه الشُّجاعُ لَصَمَّما

أي : لنابَيْه . وقولَه :

3301 إنّ أباها وأبا أباها . . . قد بَلَغا في المجدِ غايتاها

أي : غايتيهما ، إلى غير ذلك من الشواهد .

(161/498)

وقرأ ابن مسعود : " أنْ هذان ساحِران " بفتح " أَنْ " وإسقاط اللامِ : على أنها وما في حَيِّزها بدلٌ من " النجوى " كذا قاله الزمخشري ، وتبعه الشيخ ولم ينكره . وفيه نظرٌ : لأنَّ الاعتراضَ بالجملة القولية بين البدلِ والمبدلِ منه لا يَصِحُّ . وأيضاً فإنَّ الجملةَ القوليةَ مفسرةٌ للنجوى في قراءةِ العامَّة ، وكذا قاله الزمخشريُّ أولاً فكيف يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ " أنْ هذان ساحران " بدلاً من " النجوى " ؟ .

قوله : { بِطَرِيقَتِكُمُ } الباءُ في " بطريقتكم " مُعَدِّيَةٌ كالهمزة . والمعنى : بأهلِ طريقتكم . وقيل : الطريقةُ عبارةُ عن السَّادة فلا حَذْفَ .

قوله : { فَأَجْمِعُواْ } : قرأ أبو عمرو " فاجْمَعُوا " بوصل الألِف وفتحِ الميم . والباقون بقطعِها مفتوحةً وكسرِ الميمِ . وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في سورة يونس ، وما قاله الناسُ في الفرقِ بين الثلاثي والرباعي .

و" كيدكم " مفعولٌ به . وقيل : هو على إسقاطِ الخافض أي : على كَيْدكم . وليس بشيءٍ

.

قوله : ﴿ صَفّاً ﴾ يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعل " ائتُوا " أي : ائتُوا مُصْطَفّين أي : ذوي صفٍّ فهو مصدرٌ في الأصل . وقيل : هو مفعولٌ به أي : ائتوا قوماً صَفّاً ، وفيه التسميةُ بالمصدر ، أو هو على حذفِ المضاف أي : ذوي صف .

قوله : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ﴾ قال الزمخشري : " اعتراضٌ يعني : وقد فازَ مَنْ غلب " . قلت : يعني بالاعتراض أنه جيء بهذه الجملة أجنبيةً بين كلامِهم ومقولهم ، لأنَّ من جملة قولهم " قالوا يا موسى : إمَّا أَنْ تُلْقي " وهذه الجملة أُعني قولَه وقد أفلَح مِنْ كلامِ الله تعالى فهي اعتراضٌ . بهذا الاعتبارِ . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ الظاهرَ أنها مِنْ مقولاتِهم ، قالوا ذلك تحريضاً لقومِهم على القتالِ ، وحينئذٍ فلا اعتراضَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 69.60 ﴾

(162/498)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُم وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ .

اعلموا أنه لا طاقة لأحدٍ مع الله – سبحانه – إذا عذَّبه ، فحملوا مقالته على الإفك ، ورَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا : ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ .

هما في دعواهما كاذبان يَقْصِدان إلى إخراجكم من بَلَدِكم ، والتشويشِ عليكم في مُعْتَقَدِكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 464 . 465 ﴾

(163/498)

فصل نفيس

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَد بْنُ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – :

فَصْلٌ :

فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ . فَإِنَّ هَذَا مِمَّا أَشْكَلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فَإِنَّ الَّذِي فِي مَصَاحِفِ الْمُسْلِمِينَ ﴿ إنْ هَذَانِ ﴾ بِالْأَلِفِ وَبِهَذَا قَرَأَ جَمَاهِيرُ الْقُرَّاءِ وَأَكْثَرُهُمْ يَقْرَأُ (إنْ) مُشَدَّدَةً وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ (إنْ) مُخَفَّفَةً لَكِنْ ابْنُ كَثِيرٍ يُشَدِّدُ نُونَ

(هذَان) دُونَ حَفْصٍ وَالْإِشْكَالُ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَابْنِ عَامِرٍ وَحَمْزَةَ وَالْكِسَائِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ وَجُمْهُورُ الْقُرَّاءِ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصَحُّ الْقِرَاءَاتِ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْكَلَامِ عَلَى مَا قِيلَ فِيهَا . فَإِنَّ مَنْشَأَ الْإِشْكَالِ : أَنَّ الِاسْمَ الْمُثَنَّى يُعْرَبُ فِي حَالِ النَّصْبِ وَالْخَفْضِ بِالْيَاءِ وَفِي حَالِ الرَّفْعِ بِالْأَلِفِ وَهَذَا مُتَوَاتِرٌ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ :

(164/498)

لُغَةِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا فِي الْأَسْمَاءِ الْمَبْنِيَّةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : الْكَعْبَانِ وَقَالَ : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ إذْ أَرْسَلْنَا إلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : اثْنَانِ وَقَالَ : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : اثْنَانِ وَلَا الذَّكَرَانِ وَالْأُنْثَيَانِ وَقَالَ : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : زَوْجَانِ وَقَالَ : ﴿ فَإِنْ كُنَّ

نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : اثْنَتَانِ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ فِي الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ . فَظَنَّ النُّحَاةُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْمُبْهَمَةَ الْمَبْنِيَّةَ مِثْلَ هَذَيْنِ وَاللَّذَيْنِ تَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى وَأَنَّ الْمَبْنِيَّ فِي حَالِ الرَّفْعِ يَكُونُ بِالْأَلِفِ وَمِنْ هُنَا نَشَأَ الْإِشْكَالُ . وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو إمَامًا فِي الْعَرَبِيَّةِ فَقَرَأَ بِمَا يَعْرِفُ مِنْ الْعَرَبِيَّةِ : إنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ . وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ لَهُ سَلَفًا فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَهُوَ الظَّنُّ

بِهِ : أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ إلَّا بِمَا يَرْوِيهِ لَا بِمُجَرَّدِ مَا يَرَاهُ وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنْ اللَّهِ أَنْ أَقْرَأَ : ﴿ إنْ هَذَانِ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ لَهَا وَجْهًا مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ خَطَّأَ أَبَا عَمْرٍو فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَمِنْهُمْ الزَّجَّاجُ قَالَ : لَا أُجِيزُ قِرَاءَةَ أَبِي عَمْرٍو خِلَافَ الْمُصْحَفِ . وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ الْمُوَافِقَةُ لِرَسْمِ الْمُصْحَفِ فَاحْتَجَّ لَهَا كَثِيرٌ مِنْ النُّحَاةِ بِأَنَّ هَذِهِ لُغَةُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ وَقَدْ حَكَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ . قَالَ المهدوي : بَنُو الْحَارِثِ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُونَ : ضَرَبْت الزَّيْدَانِ وَمَرَرْت بِالزَّيْدَانِ كَمَا تَقُولُ : جَاءَنِي الزَّيْدَانِ : قَالَ المهدوي : حَكَى ذَلِكَ أَبُو زَيْدٍ وَالْأَخْفَشُ وَالْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ وَحَكَى أَبُو الْخَطَّابِ أَنَّهَا لُغَةُ بَنِي كِنَانَةَ وَحَكَى غَيْرُهُ أَنَّهَا لُغَةٌ لخثعم وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذْنَاهُ ضَرْبَةً * * دَعَتْهُ إلَى هَاوِي التُّرَابِ عَقِيمُ

وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: هِيَ لُغَةٌ لِبَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ وَقُرَيْشٍ قَالَ الزَّجَّاجُ: وَحَكَى أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِي الْخَطَّابِ - وَهُوَ رَأْسٌ مِنْ رُءُوسِ الرُّوَاةِ - أَنَّهَا لُغَةٌ لِكِنَانَةَ يَجْعَلُونَ أَلِفَ الِاثْنَيْنِ فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْخَفْضِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَأَنْشَدُوا:

فَأَطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَجِدْ ** مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

وَقَالَ: وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ: ضَرَبْته بَيْنَ أُذُنَاهُ. قُلْت بَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ هُمْ أَهْلُ نَجْرَانَ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ بِهَذِهِ اللُّغَةِ بَلْ الْمُثَنَّى مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمَبْنِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ هُوَ بِالْيَاءِ فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ كَمَا تَقَدَّمَتْ شَوَاهِدُهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عُثْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: إنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ وَقَالَ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الَّذِينَ كَتَبُوا الْمُصْحَفَ هُمْ وَزَيْدٌ: إذَا اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ فَاكْتُبُوهُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا إلَّا فِي حَرْفٍ وَهُوَ (التَّابُوتُ) فَرَفَعُوهُ إلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ. وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأَرْسَلَ إلَى

حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ : إذَا اخْتَلَفْتُمْ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ

مِنْ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ

فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى إذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إلَى حَفْصَةَ فَأَرْسَلَ إلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفِ مِمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنْ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ . وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ عِنْدِ حَفْصَةَ هِيَ الَّتِي أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ فِيهَا لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَحَدِيثُهُ مَعْرُوفٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا وَكَانَتْ بِخَطِّهِ ؛ فَلِهَذَا أَمَرَ عُثْمَانُ أَنْ يَكُونَ هُوَ أَحَدَ مَنْ يَنْسَخُ الْمَصَاحِفَ مِنْ

تِلْكَ الصُّحُفِ وَلَكِنْ جَعَلَ مَعَهُ ثَلَاثَةً مِنْ قُرَيْشٍ لِيُكْتَبَ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ لِسَانُ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارُ إلَّا فِي لَفْظِ (التابوه) و (التَّابُوتِ) فَكَتَبُوهُ (التَّابُوتَ) بِلُغَةِ قُرَيْشٍ. وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَصَاحِفَ الَّتِي نُسِخَتْ كَانَتْ مَصَاحِفَ مُتَعَدِّدَةً وَهَذَا مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ غَلَطَ مَنْ قَالَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: إنَّهُ غَلَطٌ مِنْ الْكَاتِبِ أَوْ نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ عُثْمَانَ؛ فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ لِوُجُوهِ. مِنْهَا: تَعَدُّدُ الْمَصَاحِفِ وَاجْتِمَاعُ جَمَاعَةٍ عَلَى كُلِّ مُصْحَفٍ ثُمَّ وُصُولُ كُلِّ مُصْحَفٍ إلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحِفْظِهِمْ وَالْإِنْسَانُ إذَا نَسَخَ مُصْحَفًا غَلِطَ فِي بَعْضِهِ عُرِفَ غَلَطُهُ بِمُخَالَفَةِ حِفْظِهِ الْقُرْآنَ وَسَائِرَ الْمَصَاحِفِ فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ

كَتَبَ كَاتِبٌ مُصْحَفًا ثُمَّ نَسَخَ سَائِرُ النَّاسِ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِلْأَوَّلِ وَالثَّانِي أَمْكَنَ وُقُوعُ الْغَلَطِ فِي هَذَا وَهُنَا كُلُّ مُصْحَفٍ إنَّمَا كَتَبَهُ جَمَاعَةٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِ خَلْقٌ عَظِيمٌ مِمَّنْ يَحْصُلُ التَّوَاتُرُ بِأَقَلَّ مِنْهُمْ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الصَّحِيفَةَ كَانَ فِيهَا لَحْنٌ فَقَدْ كُتِبَ مِنْهَا جَمَاعَةٌ لَا يَكْتُبُونَ إلَّا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَلَمْ يَكُنْ لَحْنًا فَامْتَنَعُوا أَنْ يَكْتُبُوهُ إلَّا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَكَيْفَ يَتَّفِقُونَ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَكْتُبُوا: ﴿ إنْ هَذَانِ ﴾ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَحْنٌ لَا يَجُوزُ فِي شَيْءٍ مِنْ لُغَاتِهِمْ أَوْ: ﴿

الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَحْنٌ كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ . قَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ خَطَأٌ - بَعِيدٌ جِدًّا ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ هُمْ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالْقُدْوَةُ فَكَيْفَ يَتْرُكُونَ شَيْئًا يُصْلِحُهُ غَيْرُهُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْسَبَ هَذَا إلَيْهِمْ وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : حَدِيثُ عُثْمَانَ لَا يَصِحُّ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُتَّصِلٍ وَمُحَالٌ أَنْ يُؤَخِّرَ عُثْمَانُ شَيْئًا لِيُصْلِحَهُ مَنْ بَعْدَهُ . قُلْت : وَمِمَّا يُبَيِّنُ كَذِبَ ذَلِكَ : أَنَّ عُثْمَانَ لَوْ قُدِّرَ ذَلِكَ فِيهِ فَإِنَّمَا رَأَى ذَلِكَ فِي نُسْخَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ الْمَصَاحِفِ اتَّفَقَتْ عَلَى الْغَلَطِ وَعُثْمَانُ قَدْ رَآهُ فِي جَمِيعِهَا وَسَكَتَ : فَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَادَةً وَشَرْعًا : مِنْ الَّذِينَ كَتَبُوا وَمِنْ عُثْمَانَ ثُمَّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ وَصَلَتْ إلَيْهِمْ الْمَصَاحِفُ وَرَأَوْا مَا

(170/498)

فِيهَا وَهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ فِيهِ لَحْنًا

(171/498)

لَا يَجُوزُ فِي اللُّغَةِ فَضْلًا عَنْ التِّلَاوَةِ وَكُلُّهُمْ يَقْرَأُ هَذَا الْمُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُهُ أَحَدٌ فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ عَادَةً وَيُعْلَمُ مِنْ دِينِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالَةٍ ؛ بَلْ يَأْمُرُونَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَيَنْهَوْنَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ أَنْ يَدْعُوا فِي كِتَابِ اللَّهِ مُنْكَرًا لَا يُغَيِّرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ لَا غَرَضَ لِأَحَدِ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَوْ قِيلَ لِعُثْمَانَ : مُرْ الْكَاتِبَ أَنْ يُغَيِّرَهُ لَكَانَ تَغْيِيرُهُ مِنْ أَسْهَلِ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِ . فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُوجِبُ الْقَطْعَ بِخَطَأِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي الْمُصْحَفِ لَحْنًا أَوْ غَلَطًا وَإِنْ نُقِلَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ مِمَّنْ لَيْسَ قَوْلُهُ حُجَّةً فَالْخَطَأُ جَائِزٌ عَلَيْهِ فِيمَا قَالَهُ ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ نَقَلُوا مَا فِي الْمُصْحَفِ وَكَتَبُوهُ وَقَرَءُوهُ فَإِنَّ الْغَلَطَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَكَمَا قَالَ عُثْمَانُ : إذَا اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ فَاكْتُبُوهُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ وَكَذَلِكَ قَالَ عُمَرُ لِابْنِ مَسْعُودٍ أَقْرِئْ النَّاسَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ وَلَا تُقْرِئْهُمْ بِلُغَةِ هُذَيْلٍ ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ بِلُغَةِ هُذَيْلٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ قَوْمَهُ هُمْ قُرَيْشٌ كَمَا قَالَ : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ . وَأَمَّا كِنَانَةُ فَهُمْ جِيرَانُ قُرَيْشٍ وَالنَّاقِلُ عَنْهُمْ ثِقَةٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَنْقُلُ بِنَقْلِ مَا سَمِعَ وَقَدْ يَكُونُ سَمِعَ ذَلِكَ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُبْهَمَةِ الْمَبْنِيَّةِ فَظَنَّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي

سَائِرِ الْأَسْمَاءِ ؛ بِخِلَافِ مَنْ سَمِعَ "بَيْنَ أُذُنَاهُ" و "لَنَا بَاهُ" فَإِنَّ هَذَا صَرِيحٌ فِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَيْسَتْ مُبْهَمَةً .

(173/498)

وَحِينَئِذٍ فَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ لُغَةُ قُرَيْشٍ ؛ بَلْ وَلَا لُغَةُ سَائِرِ الْعَرَبِ : أَنَّهُمْ يَنْطِقُونَ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُبْهَمَةِ إذَا ثُنِّيَتْ بِالْيَاءِ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَنْ قَالَهُ مِنْ النُّحَاةِ قِيَاسًا جَعَلُوا بَابَ التَّثْنِيَةِ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُبْهَمَةِ كَمَا هُوَ فِي سَائِرِ الْأَسْمَاءِ وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَاهِدٌ يَدُلُّ عَلَى مَا قَالُوهُ وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ اسْمٌ مُبْهَمٌ مَبْنِيٌّ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ أَوْ خَفْضٍ إلَّا هَذَا وَلَفْظُهُ (هَذَانِ فَهَذَا نَقْلٌ ثَابِتٌ مُتَوَاتِرٌ لَفْظًا وَرَسْمًا . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْكَاتِبَ غَلِطَ فَهُوَ الْغَالِطُ غَلَطًا مُنْكَرًا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : فَإِنَّ الْمُصْحَفَ مَنْقُولٌ بِالتَّوَاتُرِ وَقَدْ كُتِبَتْ عِدَّةُ مَصَاحِفَ وَكُلُّهَا مَكْتُوبَةٌ بِالْأَلِفِ فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ فِي هَذَا غَلَطٌ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقُرَّاءَ إنَّمَا قَرَءُوا بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَالْمُسْلِمُونَ كَانُوا يَقْرَءُونَ (سُورَةَ طه) عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَهِيَ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ بَنُو إسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطَه وَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ . وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ وَغَيْرُهُ : هِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعِهِمْ

؛ بَلْ هِيَ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ وَقَدْ رُوِيَ : أَنَّهَا كَانَتْ مَكْتُوبَةً عِنْدَ أُخْتِ عُمَرَ وَأَنَّ سَبَبَ إسْلَامِ عُمَرَ كَانَ لَمَّا بَلَغَهُ إسْلَامُ

أُخْتِهِ وَكَانَتْ السُّورَةُ تُقْرَأُ عِنْدَهَا .

فَالصَّحَابَةُ لَا بُدَّ أَنْ قَدْ قَرَءُوا هَذَا الْحَرْفَ وَمِنْ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ قَرَءُوهُ بِالْيَاءِ كَأَبِي عَمْرٍو فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَقْرَأْهَا أَحَدٌ إلَّا بِالْيَاءِ وَلَمْ تُكْتَبْ إلَّا بِالْيَاءِ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ أَوْ غَالِبَهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَهَا بِالْأَلِفِ كَمَا قَرَأَهَا الْجُمْهُورُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالشَّامِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ يَقْرَءُونَ هَذِهِ السُّورَةَ فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجَ الصَّلَاةِ وَمِنْهُمْ سَمِعَهَا التَّابِعُونَ وَمِنْ التَّابِعِينَ سَمِعَهَا تَابِعُوهُمْ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ قَرَءُوهَا بِالْيَاءِ مَعَ أَنَّ جُمْهُورَ الْقُرَّاءِ لَمْ يَقْرَءُوهَا إلَّا بِالْأَلِفِ وَهُمْ أَخَذُوا قِرَاءَتَهُمْ عَنْ الصَّحَابَةِ أَوْ عَنْ التَّابِعِينَ عَنْ الصَّحَابَةِ فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ قَطْعًا أَنَّ عَامَّةَ الصَّحَابَةِ إنَّمَا قَرَءُوهَا بِالْأَلِفِ كَمَا قَرَأَ الْجُمْهُورُ وَكَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ

. وَحِينَئِذٍ فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ إِنَّمَا قَرَءُوا كَمَا عَلَّمَهُمْ الرَّسُولُ وَكَمَا هُوَ لُغَةٌ لِلْعَرَبِ ثُمَّ لُغَةُ قُرَيْشٍ فَعُلِمَ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ الْفَصِيحَةَ الْمَعْرُوفَةَ عِنْدَهُمْ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُبْهَمَةِ تَقُولُ : إنْ هَذَانِ وَمَرَرْت بِهَذَانِ : تَقُولُهَا فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْخَفْضِ بِالْأَلِفِ وَمَنْ قَالَ إنَّ لُغَتَهُمْ أَنَّهَا تَكُونُ فِي الرَّفْعِ بِالْأَلِفِ طُولِبَ بِالشَّاهِدِ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّقْلِ عَنْ لُغَتِهِمْ الْمَسْمُوعَةِ مِنْهُمْ نَثْرًا وَنَظْمًا وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَشْهَدُ لَهُ وَلَكِنْ عُمْدَتُهُ الْقِيَاسُ . وَحِينَئِذٍ فَنَقُولُ :

(176/498)

قِيَاسُ هَذَا بِغَيْرِهَا مِنْ الْأَسْمَاءِ غَلَطٌ فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ثَابِتٌ عَقْلًا وَسَمَاعًا : أَمَّا النَّقْلُ وَالسَّمَاعُ فَكَمَا ذَكَرْنَاهُ وَأَمَّا الْعَقْلُ وَالْقِيَاسُ فَقَدْ تَفَطَّنَ لِلْفَرْقِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ حُذَّاقِ النُّحَاةِ فَحَكَى ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ وَغَيْرُهُ عَنْ الْفَرَّاءِ قَالَ : أَلِفُ التَّثْنِيَةِ فِي " هَذَانِ " هِيَ أَلِفُ هَذَا وَالنُّونُ فَرَّقَتْ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ كَمَا فَرَّقَتْ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ نُونُ الَّذِينَ وَحَكَاهُ المهدوي وَغَيْرُهُ عَنْ الْفَرَّاءِ وَلَفْظُهُ قَالَ : إنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ الْأَلِفَ لَيْسَتْ عَلَامَةَ التَّثْنِيَةِ بَلْ هِيَ أَلِفُ هَذَا فَزِدْت عَلَيْهَا نُونًا وَلَمْ أُغَيِّرْهَا كَمَا زِدْت عَلَى الْيَاءِ مِنْ الَّذِي فَقُلْت الَّذِينَ فِي كُلِّ حَالٍ قَالَ وَقَالَ بَعْضُ الْكُوفِيِّينَ : الْأَلِفُ فِي هَذَا مُشْبِهَةٌ يَفْعَلَانِ فَلَمْ تُغَيَّرْ كَمَا لَمْ تُغَيَّرْ . قَالَ : وَقَالَ الجرجاني : لَمَّا كَانَ اسْمًا عَلَى حَرْفَيْنِ أَحَدُهُمَا حَرْفُ مَدٍّ وَلِينٍ وَهُوَ كَالْحَرَكَةِ ووجب

حذفُ إحدَى الْأَلِفَيْنِ فِي التَّثْنِيَةِ لَمْ يَحْسُنْ حذفُ الْأُولَى ؛ لِئَلَّا يَبْقَى الِاسْمُ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ فَحَذَفَ عَلَمَ التَّثْنِيَةِ وَكَانَ النُّونُ يَدُلُّ عَلَى التَّثْنِيَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَغْيِيرِ النُّونِ الْأَصْلِيَّةِ الْأَلِفِ وَجْهٌ فَثَبَتَ فِي كُلِّ حَالٍ كَمَا يَثْبُتُ فِي الْوَاحِدِ . قَالَ المهدوي : وَسَأَلَ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي ابْنَ كيسان عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَقَالَ : لَمَّا لَمْ يَظْهَرْ فِي الْمُبْهَمِ إِعْرَابٌ فِي الْوَاحِدِ وَلَا فِي الْجَمْعِ جَرَتْ التَّثْنِيَةُ عَلَى ذَلِكَ مَجْرَى الْوَاحِدِ إِذْ التَّثْنِيَةُ يَجِبُ أَنْ

(177/498)

لَا تُغَيَّرَ فَقَالَ إِسْمَاعِيلُ : مَا أَحْسَنَ مَا قُلْتَ لَوْ تَقَدَّمَكَ أَحَدٌ بِالْقَوْلِ فِيهِ حَتَّى يُؤْنَسَ بِهِ فَقَالَ لَهُ ابْنُ كيسان : فَلْيَقُلْ الْقَاضِي

(178/498)

حَتَّى يُؤْنَسَ بِهِ فَتَبَسَّمَ . قُلْت : بَلْ تَقَدَّمَهُ الْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُ وَالْفَرَّاءُ فِي الْكُوفِيِّينَ مِثْلُ سِيبَوَيْهِ فِي الْبَصْرِيِّينَ ؛ لَكِنَّ إِسْمَاعِيلَ كَانَ اعْتِمَادُهُ عَلَى نَحْوِ الْبَصْرِيِّينَ وَالْمُبَرِّدُ كَانَ خَصِيصًا بِهِ .

وَبَيَانُ هَذَا الْقَوْلِ : أَنَّ الْمُفْرَدَ " ذَا " فَلَوْ جَعَلُوهُ كَسَائِرِ الْأَسْمَاءِ لَقَالُوا فِي التَّثْنِيَةِ : " ذوان "

وَلَمْ يَقُولُوا : " ذان " كَمَا قَالُوا عَصَوَانِ وَرَجَوَانِ وَنَحْوَهُمَا مِنْ الْأَسْمَاءِ الثُّلَاثِيَّةِ " وَهَا " حَرْفُ تَنْبِيهٍ وَقَدْ قَالُوا فِيمَا حَذَفُوا لَامَهُ : أَبَوَانِ فَرَدَّتْهُ التَّثْنِيَةُ إلَى أَصْلِهِ وَقَالُوا فِي غَيْرِ هَذَا . . . (1) وَيَدَانِ وَأَمَّا " ذَا " فَلَمْ يَقُولُوا " ذوان " بَلْ قَالُوا كَمَا فَعَلُوا فِي " ذُو " وَ " ذَاتِ " الَّتِي بِمَعْنَى صَاحِبٍ فَقَالُوا : هُوَ ذُو عِلْمٍ وَهُمَا ذَوَا عِلْمٍ كَمَا قَالَ : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ وَفِي اسْمِ الْإِشَارَةِ قَالُوا : " ذان " وَ " تان " كَمَا قَالَ : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فَإِنَّ " ذَا " بِمَعْنَى صَاحِبٍ هُوَ اسْمٌ مُعْرَبٌ فَتَغَيَّرَ إعْرَابُهُ فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْجَرِّ فَقِيلَ : ذُو وَذَا وَذِي . وَأَمَّا الْمُسْتَعْمَلُ فِي الْإِشَارَةِ وَالْأَسْمَاءِ الْمَوْصُولَةِ وَالْمُضْمَرَاتِ هِيَ مَبْنِيَّةٌ ؛

(179/498)

لَكِنَّ أَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ لَمْ تُفَرِّقْ لَا فِي وَاحِدِهِ وَلَا فِي جَمْعِهِ بَيْنَ حَالِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْخَفْضِ فَكَذَلِكَ فِي تَثْنِيَتِهِ ؛ بَلْ قَالُوا : قَامَ هَذَا وَأَكْرَمْت هَذَا وَمَرَرْت بِهَذَا وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ فِي الْجَمْعِ فَكَذَلِكَ الْمُثَنَّى قَالَ : هَذَانِ وَأَكْرَمْت هَذَانِ وَمَرَرْت بِهَذَانِ فَهَذَا هُوَ الْقِيَاسُ فِيهِ أَنْ يُلْحَقَ مُثَنَّاهُ بِمُفْرَدِهِ وَبِمَجْمُوعِهِ لَا يُلْحَقُ بِمُثَنَّى غَيْرِهِ الَّذِي هُوَ أَيْضًا مُعْتَبَرٌ بِمُفْرَدِهِ وَمَجْمُوعِهِ . فَالْأَسْمَاءُ الْمُعْرَبَةُ أُلْحِقَ مُثَنَّاهَا بِمُفْرَدِهَا وَمَجْمُوعِهَا تَقُولُ : رَجُلٌ وَرَجُلَانِ وَرِجَالٌ فَهُوَ مُعْرَبٌ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ : يَظْهَرُ الْإِعْرَابُ فِي مُثَنَّاهُ كَمَا ظَهَرَ فِي مُفْرَدِهِ وَمَجْمُوعِهِ . فَتَبَيَّنَ

أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ مُقْتَضَى الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ هَذَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمْ بِذَلِكَ نَقْلٌ عَنْ اللُّغَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْقُرْآنِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ ؛ بَلْ هِيَ أَنْ يَكُونَ الْمُثَنَّى مِنْ أَسْمَاءِ الْإِشَارَةِ مَبْنِيًّا فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ كَمُفْرَدِ أَسْمَاءِ الْإِشَارَةِ وَمَجْمُوعِهَا . وَحِينَئِذٍ فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْأَلِفَ هِيَ أَلِفُ الْمُفْرَدِ زِيدَ عَلَيْهَا النُّونُ أَوْ قِيلَ : هِيَ عَلَمٌ لِلتَّثْنِيَةِ وَتِلْكَ حُذِفَتْ أَوْ قِيلَ بَلْ هَذِهِ الْأَلِفُ تَجْمَعُ هَذَا وَهَذَا مَعْنًى جَوَابُ ابْنِ كيسان وَقَوْلُ الْفَرَّاءِ مِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْجُرْجَانِي وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّ الْأَلِفَ فِيهِ تُشْبِهُ أَلِفَ يَفْعَلَانِ .

(180/498)

ثُمَّ يُقَالُ : قَدْ يَكُونُ الْمَوْصُولُ كَذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ ﴾ فَإِنْ ثَبَتَ أَنَّ لُغَةَ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ رَأَيْت الذين فَعَلَا وَمَرَرْت بِاَللَّذَيْنِ فَعَلَا وَإِلَّا فَقَدْ يُقَالُ : هُوَ بِالْأَلِفِ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ مَبْنِيٌّ وَالْأَلِفُ فِيهِ بَدَلُ الْيَاءِ فِي الَّذِينَ وَمَا ذَكَرَهُ الْفَرَّاءُ وَابْنُ كيسان وَغَيْرُهُمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا ؛ فَإِنَّ الْفَرَّاءَ شَبَّهَ هَذَا بالذين وَتَشْبِيهُ اللَّذَانِ بِهِ أَوْلَى وَابْنُ كيسان عَلَّلَ بِأَنَّ الْمُبْهَمَ مَبْنِيٌّ لَا يَظْهَرُ فِيهِ الْإِعْرَابُ فَجَعَلَ مُثَنَّاهُ كَمُفْرَدِهِ وَمَجْمُوعِهِ وَهَذَا الْعِلْمُ يَأْتِي فِي الْمَوْصُولِ . يُؤَيِّدُ ذَلِكَ : أَنَّ الْمُضْمَرَاتِ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَالْمَرْفُوعَ وَالْمَنْصُوبَ لَهُمَا ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ وَمُنْفَصِلٌ ؛ بِخِلَافِ الْمَجْرُورِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ إلَّا مُتَّصِلٌ ؛ لِأَنَّ الْمَجْرُورَ لَا يَكُونُ إلَّا

بِحَرْفٍ أَوْ مُضَافٍ لَا يُقَدَّمُ عَلَى عَامِلِهِ فَلَا يَنْفَصِلُ عَنْهُ فَالضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ فِي الْوَاحِدِ الْكَافُ مِنْ أَكْرَمْتُكَ وَمَرَرْتُ بِكَ وَفِي الْجَمْعِ أَكْرَمْتُكُمْ وَمَرَرْتُ بِكُمْ وَفِي التَّثْنِيَةِ زِيدَتْ الْأَلِفُ فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ فَيُقَالُ : أَكْرَمْتُكُمَا وَمَرَرْتُ بِكُمَا كَمَا تَقُولُ فِي الرَّفْعِ فَفِي الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ فَعَلْتَ وَفَعَلْتُمْ وَفِي التَّثْنِيَةِ فَعَلْتُمَا بِالْأَلِفِ وَحْدَهَا زِيدَتْ عَلَمًا عَلَى التَّثْنِيَةِ فِي حَالِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْجَرِّ كَمَا زِيدَتْ فِي الْمُنْفَصِلِ فِي قَوْلِهِ " إيَّاكُمَا " و " أَنْتُمَا " . فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ لَفْظَ الْمُثَنَّى فِي

(181/498)

الْأَسْمَاءِ الْمَبْنِيَّةِ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ نَوْعٌ وَاحِدٌ : لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَرْفُوعِهِ وَبَيْنَ مَنْصُوبِهِ وَمَجْرُورِهِ

(182/498)

كَمَا فَعَلُوا ذَلِكَ فِي الْأَسْمَاءِ الْمُعْرَبَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ فِي الْمُثَنَّى أَبْلَغُ مِنْهُ فِي لَفْظِ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ إذْ كَانُوا فِي الضَّمَائِرِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ ضَمِيرِ الْمَنْصُوبِ وَالْمَجْرُورِ وَبَيْنَ ضَمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي الْوَاحِدِ

وَالْمُثَنَّى وَلَا يُفَرِّقُونَ فِي الْمُثَنَّى وَفِي لَفْظِ الْإِشَارَةِ وَالْمَوْصُولِ وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَبَيْنَ الْمَرْفُوعِ وَغَيْرِهِ فَفِي الْمُثَنَّى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا . ذَكَرَ شَيْخُنَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَذَكَرَ فِيهَا هَذَا الِاعْتِرَاضَ :

فَصْلٌ :

وَقَدْ يُعْتَرَضُ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ أَوَّلًا بِأَنَّهُ جَاءَ أَيْضًا فِي غَيْرِ الرَّفْعِ بِالْيَاءِ كَسَائِرِ الْأَسْمَاءِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " اللَّذَانِ أَضَلَّانَا " كَمَا قِيلَ فِي الَّذِينَ إنَّهُ بِالْيَاءِ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى : ﴿ إنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " هَاتَانِ " و " هَاتَانِ " تَبَعٌ لِابْنَتَيَّ وَقَدْ يُسَمَّى عَطْفَ بَيَانٍ وَهُوَ يُشْبِهُ الصِّفَةَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ لَكِنَّ الصِّفَةَ تَكُونُ مُشْتَقَّةً أَوْ فِي مَعْنَى الْمُشْتَقِّ وَعَطْفُ

الْبَيَانِ يَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَأَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ وَأَسْمَاءِ الْإِشَارَةِ وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ فَقَدْ يُفَرَّقُ بَيْنَ اسْمِ الْإِشَارَةِ

وَالْمَوْصُولِ بِأَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ عَلَى حَرْفَيْنِ ؛ بِخِلَافِ الْمَوْصُولِ ؛ فَإِنَّ الِاسْمَ هُوَ " اللذا " عِدَّةُ حُرُوفٍ وَبَعْدَهُ يُزَادُ عَلَمُ الْجَمْعِ فَتُكْسَرُ الذَّالُ وَتُفْتَحُ النُّونُ وَعَلَمُ التَّثْنِيَةِ فَتُفْتَحُ الذَّالُ وَتُكْسَرُ النُّونُ وَالْأَلِفُ فَقُلْتُ . . . (1) فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ ؛ لِأَنَّ الِاسْمَ الصَّحِيحَ إذَا جُمِعَ جَمْعَ التَّصْحِيحِ كُسِرَ آخِرُهُ فِي النَّصْبِ وَفِي الْجَرِّ وَفُتِحَتْ نُونُهُ وَإِذَا ثُنِّيَ فُتِحَ آخِرُهُ وَكُسِرَتْ نُونُهُ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ . وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَصْلَ فِي التَّثْنِيَةِ هِيَ الْأَلِفُ وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي إعْرَابِهِ لُغَتَانِ جَاءَ بِهِمَا الْقُرْآنُ : تَارَةً يُجْعَلُ كَاللَّذَانِ وَتَارَةً يُجْعَلُ كَاللَّذَيْنِ ؛ وَلَكِنْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ كَانَ هَذَا أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِهِ " هَاتَانِ " لِمَا فِيهِ مِنْ اتِّبَاعِ لَفْظِ الْمُثَنَّى بِالْيَاءِ فِيهِمَا وَلَوْ قِيلَ هَاتَانِ لَأَشْبَهَ . . . (2) ، كَمَا لَوْ قِيلَ : " إنَّ ابْنَتَيَّ هَاتَانِ " فَإِذَا جُعِلَ بِالْيَاءِ عَلِمَ تَابِعٌ مُبَيِّنٌ عَطْفَ بَيَانٍ لِتَمَامِ مَعْنَى الِاسْمِ ؛ لَا خَبَرٌ تَتِمُّ بِهِ الْجُمْلَةُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ فَجَاءَ اسْمًا مُبْتَدَأً : اسْمُ (إنَّ)

وَكَانَ مَجِيئُهُ بِالْأَلِفِ أَحْسَنَ فِي اللَّفْظِ مِنْ قَوْلِنَا : " إنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ " لِأَنَّ الْأَلِفَ أَخَفُّ مِنْ الْيَاءِ ؛ وَلِأَنَّ الْخَبَرَ بِالْأَلِفِ فَإِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْ الِاسْمِ وَالْخَبَرِ بِالْأَلِفِ كَانَ أَتَمَّ مُنَاسَبَةً وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا يُشْبِهُ هَذَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَهُوَ بِالْيَاءِ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا

الْمَسْمُوعِ وَالْمُتَوَاتِرِ لَيْسَ فِي الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ مَا يُنَاقِضُهُ لَكِنْ بَيْنَهُمَا فُرُوقٌ دَقِيقَةٌ وَالَّذِينَ اسْتَشْكَلُوا هَذَا إنَّمَا اسْتَشْكَلُوهُ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ ؛ لَا مِنْ جِهَةِ السَّمَاعِ وَمَعَ ظُهُورِ الْفَرْقِ يُعْرَفُ ضَعْفُ الْقِيَاسِ . وَقَدْ يُجِيبُ مَنْ يَعْتَبِرُ كَوْنَ الْأَلِفِ فِي هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ بِأَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ إنْ هَذَانِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ أَنَّ هَذَا تَثْنِيَةُ مُؤَنَّثٍ وَذَاكَ تَثْنِيَةُ مُذَكَّرٍ وَالْمُذَكَّرُ الْمُفْرَدُ مِنْهُ " ذَا " بِالْأَلِفِ فَزِيدَتْ فَوْقَ نُونِ التَّثْنِيَةِ وَأَمَّا الْمُؤَنَّثُ فَمُفْرَدُهُ " ذِي " أَوْ " ذِهْ " أَوْ " تِهْ " . وَقَوْلُهُ : ﴿ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ تَثْنِيَةُ " تِي " بِالْيَاءِ فَكَانَ جَعْلُهَا بِالْيَاءِ فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ أَشْبَهَ بِالْمُفْرَدِ ؛ بِخِلَافِ تَثْنِيَةِ الْمُذَكَّرِ وَهُوَ " ذَا " فَإِنَّهُ بِالْأَلِفِ فَإِقْرَارُهُ بِالْأَلِفِ أَنْسَبُ وَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ تَثْنِيَةِ الْمُؤَنَّثِ وَتَثْنِيَةِ الْمُذَكَّرِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّذَيْنِ قَدْ تَقَدَّمَ . وَحِينَئِذٍ فَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْمُوَافِقَةُ لِلسَّمَاعِ وَالْقِيَاسِ وَلَمْ يَشْتَهِرْ

مَا يُعَارِضُهَا مِنْ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ هُوَ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ أَكَلَ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الْآدَمِيُّونَ ﴾ وَمِثْلُهُ فِي الْمَوْصُولِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِعُمَرِ : أَخْبِرْنِي عَنْ الْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ فِيهِمَا : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ

مَوْلَاهُ ﴾ الْآيَةُ . آخِرُهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15صـ 264.248 ﴾

(186/498)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما أتوا وكانوا خبيرين بأن يقولوا ما ينفعهم في مناصبة موسى عليه السلام ، استؤنف الإخبار عنه بقوله تعالى : ﴿ قالوا ﴾ أي السحرة منادين ، لأن لين القول مع الخصم إن لم ينفع لم يضر : ﴿ يا موسى إما أن تلقي ﴾ ما معك مما تناظرنا به أولاً ﴿ وإما أن نكون ﴾ أي نحن ﴿ أول من ألقى ﴾ ما معه ﴿ قال ﴾ أي موسى مقابلاً لأدبهم بأحسن منه ولأنه فهم أن مرادهم الابتداء ، وليكون هو الآخر فيكون العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا

يكون بعدها شك : لا ألقي أنا أولاً ﴿ بل ألقوا ﴾ أنتم أولاً ، فانتهزوا الفرصة ، لأن ذلك كان مرادهم بما أفهموه من تعبير السياق والتصريح بالأول ، فألقوا ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم ﴾ التي ألقوها ﴿ يخيل إليه ﴾ وهو صفينا تخييلاً مبتدئاً ﴿ من سحرهم ﴾ الذي كانوا قد فاقوا به أهل الأرض ﴿ أنها ﴾ لشدة اضطربها ﴿ تسعى ﴾ سعياً ، وإذا كان هذا حاله مع أنه أثبت الناس بصراً وأنفذهم بصيرة فما ظنك بغيرة ! ﴿ فأوجس ﴾ أي أضمر بسبب ذلك ، وحقيقته : أوقع واجساً أي خاطراً وضميراً .

ولما كان المقام لإظهار الخوارق على يديه ، فكان ربما فهم أنه أوقعه في نفس أحد غيره ، كان المقام للاهتمام بتقديم المتعلق ، فقال لذلك لا لمراعاة الفواصل : ﴿ في نفسه ﴾ أي خاصة ، وقدم ما المقام له والاهتمام به فقال : ﴿ خيفة موسى ﴾ مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك على ما هو طبع البشر ، وللنظر إلى الطبع عبر بالنفس لا القلب مثلاً .

ولما كان ذلك ، وكان المعلوم أن الله معه ، وأنه جدير بإبطال سحرهم ، استأنف الخبر عنه بقوله : ﴿ قلنا ﴾ بما لنا من العظمة : ﴿ لا تخف ﴾ من شيء من أمرهم ولا غيره ، ثم علل ذلك بقوله ، وأكده أنواعاً من التأكيد لاقتضاء الحال إنكار أن يغلب أحد ما أظهروا من

سحرهم لعظمه : ﴿ إنك أنت ﴾ أي خاصة ﴿ الأعلى ﴾ أي الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها ﴿ وألق ﴾ وأشار إلى يمن العصا وبركتها بقوله : ﴿ ما في يمينك ﴾ أي من هذه العصا التي قلنا لك أول ما شرفناك بالمناجاة ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ ثم أريناك منها ما أريناك ﴿ تلقف ﴾ بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك - بما أشار إليه حذف التاء ﴿ ما صنعوا ﴾ أي فعلوه بعد تدرب كبير عليه وممارسة طويلة ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنما ﴾ أي أن الذي ﴿ صنعوا ﴾ أي أن صنعهم مما رأيته وهالنا أُمُره .

ولما كان المقصود تحقير هذا الجيش أفرد ونكر لتنكير المضاف وتحقيره فقال : ﴿ كيد ساحر ﴾ أي كيد سحري لا حقيقة له ولا ثبات ، سواء كان واحداً أو جمعاً ، ولو جمع لخيل أن المقصود العدد ، ولما كان التقدير : فهم لا يفلحون ، عطف عليه قوله : ﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ أي هذا الجنس ﴿ حيث أتى ﴾ أي كيف ما سار وأيه ﴿ سلك ﴾ فإنه إنما يفعل ما لا حقيقة له ، فامتثل ما أمره به ربه من إلقاء عصاه ، فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها لما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة في ثخن ولا غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيئاً كثيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 28 . 29 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم أيضاً قوله : ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ [طه : 64] صار ذلك مغنياً عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ لدلالة ما تقدم عليه وقوله : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِىَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ معناه إما أن تلقى ما معك قبلنا ، وإما أن نلقى ما معنا قبلك ، وهذا التخيير مع تقديمه في الذكر حسن أدب منهم وتواضع له ، فلا جرم رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته ، ثم إن موسى عليه السلام قابل أدبهم بأدب فقال : ﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ أما قوله : ﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام : ﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ فيأمرهم بما هو سحر وكفر لأنهم إذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفراً .

والجواب من وجوه : أحدها : لا نسلم أن نفس الإلقاء كفر ومعصية لأنهم إذا ألقوا وكان غرضهم أن يظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الإلقاء إيماناً وإنما الكفر هو القصد إلى تكذيب موسى وهو عليه السلام إنما أمر بالإلقاء لا بالقصد إلى التكذيب فزال السؤال .

وثانيها : ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما في قوله

تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [البقرة : 23] أي إن كنتم قادرين .

وثالثها : أنه لما تعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة صار ذلك جائزاً .

(189/498)

وهذا كالمحق إذا علم أن في قلب واحد شبهة وأنه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة في قلبه ، ويخرج بسببها عن الدين فإن للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك أن يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فمطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا .

ورابعها : أن لا يكون ذلك أمراً بل يكون معناه إنكم إن أردتم فعله فلا مانع منه حساً لكي ينكشف الحق .

وخامسها : أن موسى عليه السلام لا شك أنه كان كارهاً لذلك ولا شك أنه نهاهم عن ذلك بقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ [طه : 61] وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون قوله أمراً لهم بذلك لأن الجمع بين كونه ناهياً وآمراً بالفعل الواحد محال ، فعلمنا أن قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الإشكال .

السؤال الثاني : لم قدمهم في الإلقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع

الحجة غير جائز فكذا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لإدراك الحجة بعده فيبقى حينئذ في الكفر والضلال وليس لأحد أن يقول إن ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيما يرجع إلى حظ النفس ، فأما ما يرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز .

والجواب أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة إلى إظهارها مرة أخرى والقوم إنما جاؤوا لمعارضته فقال عليه السلام : لو أني بدأت بإظهار المعجزة أولاً لكنت كالسبب في إقدامهم على إظهار السحر وقصد إبطال المعجزة وذلك غير جائز ، ولكني أفوض الأمر إليهم حتى أنهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذي يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سبباً لإزالة الشبهة ، وأما على التقدير الأول فإنه يكون سبباً لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى .

أما قوله : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ أَلْقَوْا حبالهم وَعِصِيَّهُمْ ﴾ ميلاً من هذا الجانب وميلاً من هذا الجانب فخيل إلى موسى عليه السلام أن الأرض كلها حيات وأنها تسعى فخاف فلما قيل له : ﴿ أَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ ألقى موسى عصاه فإذا هي أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظماً حتى ملأت الوادي ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا في الميلين والناس ينظرون إليها لا يحسبون إلا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعاً فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فإذا هي عصى كما كانت ونظرت السحرة فإذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئاً إلا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا لو لم تكن سحراً لبقيت (1) فخروا سجداً وقالوا : ﴿ آمنا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وهارون ﴾ [الأعراف : 121 ، 122] .

المسألة الثانية :

اختلفوا في عدد السحرة قال القاسم بن سلام : كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل .

---

(1) الضمير في قوله : (تكن) و(بقيت) لا يعود على عصى موسى وإنما يعود على حبال السحرة وعصيهم . (الصاوي) .

وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفاً مع كل واحد عصا وحبل ، وقال وهب : كانوا خمسة عشر ألفاً ، وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة : ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية .

وقال الكلبي : كانوا اثنين وسبعين ساحراً اثنان منهم من القبط وسبعون من بني إسرائيل أكرههم فرعون على ذلك ، واعلم أن الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شيء منه والأقوال إذا تعارضت تساقطت .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : يقال في إذا هذه إذا المفاجأة والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن تكون ناصباً فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل ، والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي اه .

المسألة الرابعة :

قرئ عصيهم بالضم وهو الأصل والكسر إتباع نحو دلي ودلي وقسي وقسي وقرئ تخيل بالتاء المنقوطة من فوق بإسناد الفعل إلى الحبال والعصي وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت بإسناد الفعل إلى الكيد والسحر وقال الفراء أي يخيل إليه سعيها .

المسألة الخامسة :

الهاء في قوله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ كناية عن موسى عليه السلام والمراد أنهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعي ما يكون حياً من الحيات لا أنها كانت حية في الحقيقة ويقال إنهم حشوها بما إذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك .

(192/498)

ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن أنها تسعى ، فأما ما روي عن وهب أنهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] وبقوله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ فهذا غير جائز لأن ذلك الوقت وقت إظهار المعجزة والأدلة وإزالة الشبهة فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من إظهار المعجزة

فحينئذ يفسد المقصود ، فإذن المراد أنه شاهد شيئاً لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى ، أما قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ فالإيجاس استشعار الخوف أي وجد في نفسه خوفاً ، فإن قيل : إنه لا مزيد في إزالة الخوف على ما فعله الله تعالى في حق موسى عليه السلام فإنه كلمه أولاً وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ، ثم إنه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كأعظم ثعبان ، ثم إنه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف في قلبه والجواب عنه من وجوه .

أحدها : أن ذلك الخوف إنما كان لما طبع الآدمي عليه من ضعف القلب وإن كان قد علم موسى عليه السلام أنهم لا يصلون إليه وأن الله ناصره وهذا قول الحسن .

وثانيها : أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ وهذا قول مقاتل .

وثالثها : أنه خاف حيث بدأوا وتأخر إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل .

ورابعها : لعله عليه السلام كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل الوحي في ذلك الوقت فيبقى في الخجالة .

وخامسها : لعله عليه السلام خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد أقواماً آخرين فيأتيه بهم فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم وهكذا من غير أن يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الأمر ولا يحصل المقصود ، ثم إنه تعالى أزال ذلك الخوف بالإجمال أولاً وبالتفصيل ثانياً ، أما الإجمال فقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴾ ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمره لا يظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴾ وفيه أنواع من المبالغة .

أحدها : ذكر كلمة التأكيد وهي إن .

وثانيها : تكرير الضمير .

وثالثها : لام التعريف .

ورابعها : لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ وفيه سؤال ، وهو أنه لم يقل وألق عصاك .

والجواب : جاز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي بيمينك فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكثيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شيء عندها فألقه يتلقفها بإذن الله تعالى ويمحقها ، أما قوله : ﴿ تَلْقَفْ ﴾ أي فإنك إذا ألقيتها فإنها تلقف ما صنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أي فألقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أي ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف ، وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أي تأخذ بفيها ابتلاعاً بسرعة واللقف والتلقف جميعاً يرجعان إلى هذا المعنى ، وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول في الكذب : هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله : ﴿ تَلْقَفْ ﴾ أنه إذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ما صنعوا وفي قوله : ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾ [طه : 70] دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ما صنعوه وفي التلقف دلالة على أن جميع ما ألقوه تلقفته وذلك لا يكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها .

وقد حكى عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه : أحدها : ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة .

وثانيها : زيادة عظمه (1) على وجه لا يتم ذلك بالحيلة .

وثالثها : ظهور الأعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة .

ورابعها : تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة .

وخامسها : عوده خشبة صغيرة كما كانت وشيء من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى أن ما صنعوا كيد ساحر والمعنى أن الذي معك يا موسى معجزة إلهية والذي معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض .

---

(1) الصواب (عظمها) و(عليها) و(عودها) لأن العصي مؤنثة وقد وردت في القرآن كذلك مؤنثة . قال تعالى :

تَلْقَفْ وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ . . . قالَ هِيَ . . . أَهُشُّ بِها . . . وَلِيَ فِيها . . . قالَ أَلْقِها

وعلى فرض عود الضمير على (ما) في قوله تعالى : ما فِي يَمِينِكَ فإن التأنيث أولى . (الصاوي) .

وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى أن ما موصولة ومن نصب فعلى أنها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذي سحر أو ذوي سحر أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم

السحر بعينه وبذاته أو يبين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر ، كما يبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو ، بقي سؤالات :

السؤال الأول : لم وحد الساحر ، ولم يجمع .

الجواب : لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد فلو جمع تخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ أي هذا الجنس .

السؤال الثاني : لم نكر أولاً ثم عرف ثانياً .

الجواب : كأنه قال : هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ .

السؤال الثالث : قوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ يدل على أن الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيراً كان أو شراً وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية .

الجواب : الكلام في السحر وحقيقته قد تقدم في سورة البقرة فلا وجه للإعادة ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 74.71 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ . . . ﴾ الآية .

في أمر موسى للسحرة بالإلقاء – وإن كان ذلك كفراً لا يجوز أن يأمر به – وجهان :

أحدهما : إن اللفظ على صفة الأمر ، ومعناه معنى الخبر ، وتقديره : إن كان إلقاؤكم عندكم حجة فألقواْ .

الثاني : إن ذلك منه على وجه الاعتبار ليظهر لهم صحة نبوته ووضوح محبته ، وأن ما أبطل السحر لم يكن سحراً .

وختلفوا في عدد السحرة فحكي عن القاسم بن أبي بزة أنهم كانواْ سبعين ألف ساحر ، وحكي عن ابن جريج أنهم كانواْ تسعمائة ساحر ، ثلاثمائة من العريش ، وثلاثمائة من الفيوم ، ويشكون في الثلاثمائة من الإسكندرية ، وحكى أبو صالح عن ابن عباس أنهم كانواْ اثنين وسبعين ساحراً ، منهم اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل ، كانواْ في أول النهار سحرة وفي آخرة شهداء .

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه يخيل ذلك لفرعون .

الثاني : لموسى كذلك .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ وفي خوف وجهان :

أحدهما : أنه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم فيتوهموا أنهم فعلوا مثل فعله وأنه من جنسه .

الثاني : لما هو مركوز في الطباع من الحذر . وأوجس : بمعنى أسر .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ . . . ﴾ الآية . تثبيتاً لنفسه ، وإزالة لخوفه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ أي تأخذه بفيها ابتلاعاً بسرعة ، فقيل إنها ابتلعت حمل ثلاثمائة بعير من الحبال والعصي ، ثم أخذها موسى ورجعت عصا كما كانت .

وفيها قولان :

أحدهما : أنها كانت من عوسج ، قاله وهب .

الثاني : من الجنة ، قاله ابن عباس ، قال : وبها قتل موسى عوج بن عناق . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(197/498)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

خير السحرة موسى عليه السلام في أن يبتدئ بالإلقاء أو يتأخر بعدهم ، وروي أنهم كانوا سبعين ألف ساحر ، وروي أنهم كانوا ثلاثين ألف ساحر ، وروي أنهم كانوا خمسة عشر ألف ، وروي أنهم كانوا تسعمائة ، ثلاثمائة من الفيوم وثلاثمائة من الفرما وثلاثمائة من الإسكندرية وكان مع كل رجل منهم حبل وعصى قد استعمل فيها السحر ، وقوله ﴿ فإذا ﴾ هي للمفاجأة كما تقول خرجت فإذا زيد ، وهي التي تليها الأسماء ، وقرأت فرقة "عِصيهم" بكسر العين ، وقرأت فرقة "عُصيهم" بضمها ، وقرأت فرقة "يُخيل" على بناء الفعل للمفعول فقوله ﴿ أنها ﴾ في موضع رفع على ما لم يسم فاعله ، وقرأ الحسن والثقفي "تُخِيل" بضم التاء المنقوطة وكسر الياء وإسناد الفعل إلى الحبال والعصي ، فقوله ﴿ أنها ﴾ مفعول من أجله والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تنتقل بحبل السحر وبدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان ، وهو السعي فإنه لا يوصف بالسعي إلا من يمشي من الحيوان ، وذهب قوم إلى أنها ما لم تكن تتحرك لكنهم سحروا أعين الناس وكان الناظر يخيل إليه أنها تتحرك وتنتقلع وهذا يحتمل والله أعلم أي ذلك كان ، وقوله تعالى : ﴿ فأوجس ﴾

عبارة عما يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنه في أمر على شيء يسوءه ، وظاهر الأمر كله الصلاح ، فهذا العمل من أفعال النفس يسمى الوجيس وعبر المفسرون عن أوجس بأضمر وهذه العبارة أعم من الوجيس بكثير . و ﴿ خفية ﴾ يصح أن يكون أصلها خوفة قبلت الواو ياء للتناسب ، وخوف موسى عليه السلام إنما كان على الناس أن يضلوا لهول ما رأى والأول أصوب أنه أوجس على الجملة وبقي ينتظر الفرج ، وقوله ﴿ أنت الأعلى ﴾ أي الغالب لمن ناوأك في هذا المقام ، وقرأ جمهور القراء " تلقّفْ " بالجزم على جواب الأمر وبشد القاف ، وقرأ ابن عامر وحده " تلقف " وهو في موضع الحال ويصح أن يكون من الملقى على اتساع ويصح

(199/498)

أن يكون من الملقى وهي العصا وهذه حال ، وإن كانت لم تقع بعد كقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] وهذا كثير . وقرأ حفص عن عاصم " تلْقف " بسكون اللام وتخفيف القاف وأنث الفعل وهو مسند الى ما في اليمين من حيث كانت العصا مرادة بذلك ، وروى البزي عن ابن كثير أنه كان يشدد التاء من " تلقف " كأنه أراد تتلقف فأدغم ، وأنكر أبو علي هذه القراءة ويشبه أن قارئها إنما يلتزمها في الوصل حيث يستغنى عن

جلب ألف ، وقرأ الجمهور "كيدُ ساحر " برفع الكيد ، وقرأ حمزة والكسائي "كيد السحر " ، وقرأت فرقة "كيدَ" بالنصب "سحر " وهذا على أن "ما "كافة و"كيدَ " منصوب ب ﴿ صنعوا ﴾ ، ورفع "كيدُ " على أن " ما " بمعنى الذي .

و﴿ يفلح ﴾ معناه يبقى ويظفر ببغيته ، وقالت فرقة معناه أن الساحر يقتل حيث ثقفع وهذا جزاء من عدم الفلاح ، وقرأت فرقة " أين أتى " والمعنى بهما متقارب ، وروي من قصص هذه الآية أن فرعون ، لعنه الله ، جلس في علية له طولها ثمانون ذراعاً والناس تحته في بسيط وجاء سبعون ألف ساحر فألقوا من حبالهم وعصيهم ما فيه وقر ثلاثمائة بعير فهال الأمر .

ثم إن موسى عليه السلام ألقى عصاه من يده فاستحالت ثعباناً وجعلت تنمو حتى روي أنها عبرت النهر بذنبها ، وقيل البحر ، وفرعون في هذا يضحك ويرى أن الاستواء حاصل ، ثم أقبلت تأكل الحبال والعصي حتى أفنتها ففرت نحو فرعون ففزع عند ذلك وقال يا موسى فمد موسى يده إليها فرجعت عصى كما كانت فنظر السحرة وعلموا الحق ورأوا الحبال والعصي فآمنوا رضي الله عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ بل ألقوا ﴾

قال ابن الأنباري : دخلت "بل" لمعنى : جحد في الآية الأولى ، لأن الآية الأولى إذا تُؤمِّلتْ وُجِدتْ مشتملة على : إما أن تلقي ، وإما أن لا تلقي .

قوله تعالى : ﴿ وعِصِيُّهم ﴾ قرأ الحسن ، وأبو رجاء العطاردي ، وأبو عمران الجوني ، وأبو الجوزاء : "وعُصيُّهم" برفع العين .

قوله تعالى : ﴿ يُخيَّل إليه ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي ، والحسن ، وقتادة ، والزهري ، وابن أبي عبلة : "تُخيَّلُ" بالتاء ، "إليه" أي : إلى موسى .

يقال : خُيِّل إليه : إذا شُبِّه له .

وقد استدل قوم بهذه الآية على أن السحر ليس بشيء .

وقال : إنما خيِّل إلى موسى ، فالجواب : أنا لا ننكر أن يكون ما رآه موسى تخييلاً ، وليس بحقيقة ، فإنه من الجائز أن يكونوا تركوا الزئبق في سلوخ الحيات حتى جرت ، وليس ذلك بحيَّات ، فأما السحر ، فإنه يؤثِّر ، وهو أنواع .

وقد سُحِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى أثر فيه ، ولعن العاضهة ، وهي الساحرة .

قوله تعالى : ﴿ فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾

قال ابن قتيبة : أضمر في نفسه خوفاً .

وقال الزجاج : أصلها "خِوفة" ولكن الواو قلبت ياءً لانكسار ما قبلها .

وفي خوفه قولان .

أحدهما : أنه خوف الطبع البشري .

والثاني : أنه لما رأى سحرهم من جنس ما أراهم في العصى ، خاف أن يلتبس على الناس أمره ، ولا يؤمنوا ، فقيل له : ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ عليهم بالظَّفَر والغَلَبة .

وهذا أصح من الأول .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ ما في يمينك ﴾ يعني : العصا ﴿ تلقفْ ﴾ وقرأ ابن عامر : "تلقَّفُ ما" برفع الفاء وتشديد القاف .

وروى حفص عن عاصم : "تلقف" خفيفة .

وكان ابن كثير يشدِّد التاء من "تلقف" يريد : "تتلقف" .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء : "تلقم" بالميم .

وقد شرحناها في [الأعراف : 117] ، ﴿ إِنما صنعوا كيدُ ساحر ﴾ قرأ حمزة ، والكسائى ، وخلف : "كيد سحر" .

وقرأ الباقون : "كيد ساحر" بألف ، والمعنى : إِن الذي صنعوا كيد ساحر ، أي : عمل ساحر .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : "إِنما صنعوا كيدَ" بنصب الدال .

﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ قال ابن عباس : لا يسعد حيثما كان .

وقيل : لا يفوز .

وروى جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ، ثم قرأ ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ ، قال : لا يأمن حيث وجد " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(202/498)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يا موسى ﴾ يريد السحرة .

﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ﴾ تأدبوا مع موسى

فكان ذلك سبب إيمانهم .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ في الكلام حذف ، أي فألقوا ؛ دل عليه المعنى .

وقرأ الحسن "وَعُصِيُّهُمْ" بضم العين .

قال هارون القارىء : لغة بني تميم "وعُصِيُّهُمْ" وبها يأخذ الحسن .

الباقون بالكسر اتباعاً لكسرة الصاد .

ونحوه دُلِيّ ودِلِيّ وقُسي وقِسي .

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ .

وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب "تُخَيَّلُ" بالتاء ؛ وردّوه إلى العصيّ والحبال إذ هي مؤنثة .

وذلك أنهم لطخوا العصيّ بالزئبق ، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزّت .

قال الكلبي : خُيّل إلى موسى أن الأرض حيّات وأنها تسعى على بطنها .

وقرىء "تَخَيَّلُ" بمعنى تتخيل وطريقه طريق "تُخَيَّلُ" ومن قرأ "يُخَيَّلُ" بالياء رده إلى الكيد .

وقرىء "نُخَيِّل" بالنون على أن الله هو المخيِّل للمحنة والابتلاء .

وقيل : الفاعل "أَنَّهَا تَسْعَى" ف"أنّ" في موضع رفع ؛ أي يخيّل إليه سعيها ؛ قاله الزجاج .

وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب ؛ أي بأنها ثم حذف الباء .

والمعنى في الوجه الأوّل: تشبّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى.

وقال الزجاج: ومن قرأ بالتاء جعل "أنّ" في موضع نصب أي تَخيّل إليه ذات َسعي.

قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع بدلاً من الضمير في "تخيّل" وهو عائد على الحبال والعصيّ، والبدل فيه بدل اشتمال.

و"تسعى" معناه تمشي.

قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ أي أضمر.

وقيل: وجد.

وقيل: أحسّ.

أي من الحيات وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم.

وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه.

وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا.

(203/498)

وقال بعض أهل الحقائق: إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ [طه: 61] التفت فإذا

جبريل على يمينه فقال له يا موسى تَرَفَّق بأولياء الله .

فقال موسى : يا جبريل هؤلاء سحرة جاؤوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة ، وينصروا دين فرعون ، ويردّوا دين الله ، تقول : تَرَفَّق بأولياء الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر في الجنة .

فلما قال له ذلك ، أُوجس في نفس موسى ، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْم الله فيّ ، فلعلّي أكون الآن في حالة ، وعِلْم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء .

فلمّا علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعلى ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا ، وفي الدرجات العلا في الجنة ؛ للنبوّة والاصطفاء الذي آتاك الله به .

وأصل "خِيفة" خِوْفة فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا ﴾ ولم يقل وألق عصاك ، فجائز أن تكون تصغيراً لها ؛ أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيّهم ، وألق العُوَيد الفَرْد الصغير الجِرْم الذي في يمينك ، فإنه بقدرة الله يتلقّفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها .

وجائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها ؛ فألقه يتلقّفها بإذن الله ويمحقها .

و"تَلَقَّفْ" بالجزم جواب الأمر ؛ كأنه قال : إن تلقه تتلقّف ؛ أي تأخذ وتبتلع .

وقرأ السُّلَميّ وحفص "تَلْقَفْ" ساكنة اللام من لَقِف يَلْقَف لَقْفًا .

وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحرث "تَلْقَفُ" بحذف التاء ورفع الفاء ، على معنى فإنها تتلقف .

والخطاب لموسى .

وقيل : للعصا .

واللقْف الأخذ بسرعة .

(204/498)

يقال : لَقفتُ الشيء (بالكسر) ألقَفه لَقْفًا ، وتلقّفته أيضا أي تناولته بسرعة .

عن يعقوب : يقال رجل لَقِف ثَقِف أي خفيف حاذق .

واللَّقَف (بالتحريك) سقوط الحائط .

ولقد لقِف الحوضُ لَقَفًا أي تَهوّر من أسفله واتسع .

وتَلْقف وتَلَقَم وتَلَهم بمعنى .

وقد مضى في "الأعراف" .

لقِمت اللُّقمة (بالكسر) لَقْما ، وتَلَقّمتها إذا ابتلعتها في مهلة .

وكذلك لَهِمه (بالكسر) إذا ابتلعه .

﴿ مَا صنعوا ﴾ أي الذي صنعوه وكذا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ أي إن الذي صنعوه .

﴿ كَيْدُ ﴾ بالرفع "سِحْرٍ" بكسر السين وإسكان الحاء ؛ وهي قراءة الكوفيين إلا عاصماً .

وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون الكيد مضافاً إلى السحر على الإتباع من غير تقدير حذف .

والثاني : أن يكون في الكلام حذف أي كيد ذي سحر .

وقرأ الباقون "كَيْدَ" بالنصب بوقوع الصنع عليه ، و"ما" كافة ولا تضمر هاءً "ساحِرٍ" بالإضافة .

والكيد في الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر .

ويجوز فتح "أنّ" على معنى لأن ما صنعوا كيد ساحر .

﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض .

وقيل : حيث احتال .

وقد مضى في "البقرة" حكم الساحر ومعنى السحر فتأمله هناك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

في الكلام حذف تقديره فجاؤوا مصطفين إلى مكان الموعد ، وبيد كل واحد منهم عصا وحبل ، وجاء موسى وأخوه ومعه عصاه فوقفوا و ﴿ قالوا : يا موسى إما أن تلقي ﴾ وذكروا الإلقاء لأنهم علموا أن آية موسى في إلقاء العصا .

قيل : خيروه ثقة منهم بالغلب لموسى ، وكانوا يعتقدون أن أحداً لا يقاومهم في السحر .

وقال الزمخشري : وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وتواضع له وخفض جناح ، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم ، وكان الله عز وجل ألهمهم ذلك وعلم موسى عليه السلام اختيار إلقائهم أولاً مع ما فيه من مقابلة الأدب بأدب حتى يبرزوا ما معهم من مكائد السحر ويستنفذوا أقصى طرقهم ومجهودهم ، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية بينة للناظرين بينة للمعتبرين انتهى .

وهو تكثير وخطابة وإن ما بعده ينسبك بمصدر فإما أن يكون مرفوعاً وإما أن يكون منصوباً والمعنى أنك تختار أحد الأمرين ، وقدّر الزمخشري الرفع الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا فجعله خبر المبتدأ محذوف ، واختار أن يكون مبتدأ والخبر محذوف تقديره إلقاؤك أول

ويدل عليه قوله ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ فتحسن المقابلة من حيث المعنى وإن كان من حيث التركيب اللفظي لم تحصل المقابلة لأنا قدّرنا إلقاؤك أول ، ومقابلة كونهم يكونون أول من يلقي لكنه يلزم من ذلك أن يكون إلقاؤهم أول فهي مقابلة معنوية .

وفي تقدير الزمخشري الأمر إلقاؤك لا مقابلة فيه .

وقدّر الزمخشري النصب اختر أحد الأمرين وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب ، وتفسير الإعراب ﴿ إما ﴾ نختار ﴿ أن تلقي ﴾ وتقدم نحو هذا التركيب في الأعراف .

(206/498)

﴿ قال بل ألقوا ﴾ لا يكون الأمر بالإلقاء من باب تجويز السحر والأمر به لأن الغرض في ذلك الفرق بين إلقائهم والمعجزة ، وتعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة إذ الأمر مقرون بشرط أي ألقوا إن كنتم محقين لقوله ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ثم قال ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وفي الكلام حذف تقديره فألقوا فإذا .

قال أبو البقاء : ﴿ فإذا حبالهم ﴾ الفاء جواب ما حذف وتقديره فألقوا وإذا في هذا ظرف مكان ، والعامل فيه ألقوا انتهى .

فقوله ﴿ فإذا ﴾ الفاء جواب ما حذف وتقديره فألقوا ليست هذه فاء جواب لأن فألقوا

لا تجاب ، وإنما هي للعطف عطفت جملة المفاجأة على ذلك المحذوف .

وقوله وإذا في هذا ظرف مكان يعني أن إذا التي للمفاجأة ظرف مكان وهو مذهب المبرد وظاهر كلام سيبويه ، وقوله : والعامل فيه ألقوا ليس بشيء لأن الفاء تمنع من العمل ولأن إذا هذه إنما هي معمولة لخبر المبتدأ الذي هو ﴿ حبالهم وعصيهم ﴾ إن لم يجعلها هي في موضع الخبر ، لأنه يجوز أن يكون الخبر يخيل ، ويجوز أن تكون إذا ويخيل في موضع الحال ، وهذا نظير : خرجت فإذا الأسد رابض ورابضاً فإذا رفعنا رابضاً كانت إذا معمولة ، والتقدير فبالحضرة الأسد رابض أو في المكان ، وإذا نصبتا كانت خبراً ولذلك تكتفي بها ، وبالمرفوع بعدها كلاماً نحو خرجت فإذا الأسد .

وقال الزمخشري : يقال في إذا هذه إذا المفاجأة والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة ، والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم ﴾ ففاجأ موسى وقت تخييل حبالهم وعصيهم ، وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي انتهى .

فقوله : والتحقيق فيها إذا كانت الكائنة بمعنى الوقت هذا مذهب الرياشي أن إذا الفجائية ظرف زمان وهو قول مرجوح ، وقول الكوفيين أنها حرف قول مرجوح أيضاً وقوله الطالبة ناصباً لها صحيح ، وقوله : وجملة تضاف إليها هذا عند أصحابنا ليس بصحيح لأنها إما أن تكون هي خبر المبتدأ وإما معمولة لخبر المبتدأ ، وإذا كان كذلك استحال أن تضاف إلى الجملة لأنها إما أن تكون بعض لجملة أو معمولة لبعضها ، فلا تمكن الإضافة .

وقوله خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة قد بينا الناصب لها ، وقوله والجملة ابتدائية لا غير هذا الحصر ليس بصحيح بل قد نص الأخفش في الأوسط على أن الجملة المصحوبة بقد تليها وهي فعلية تقول : خرجت فإذا قد ضرب زيد عمراً وبنى على ذلك سأله الاشتغال خرجت فإذا زيد قد ضربه عمرو ، برفع زيد ونصبه ، وأما قوله : والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي فهذا بعكس ما قدّر بل المعنى على مفاجأة حبالهم وعصيهم إياه .

فإذا قلت : خرجت فإذا السبع ، فالمعنى أنه فاجأني السبع وهجم ظهوره .

وقرأ الحسن وعيسى عُصِيُهُم بضم العين حيث كان وهو الأصل لأن الكسر اتباع لحركة الصاد وحركة الصاد لأجل الياء .

وفي كتاب اللوامح الحسن وعُصْيهم بضم العين وإسكان الصاد وتخفيف الياء مع الرفع فهو أيضاً جمع كالعامّة لكنه على فعل .

وقرأ الزهري والحسن وعيسى وأبو حيوة وقتادة والجحدري وروح والوليدان وابن ذكوان تخيل بالتاء مبنياً للمفعول وفيه ضمير الحبال والعصي و﴿ أنها تسعى ﴾ بدل اشتمال من ذلك الضمير.

وقرأ أبو السماك تخيل بفتح التاء أي تتخيل وفيها أيضاً ضمير ما ذكر و﴿ أنها تسعى ﴾ بدل اشتمال أيضاً من ذلك الضمير لكنه فاعل من جهة المعنى.

وقال ابن عطية: إنها مفعول من أجله.

وقال أبو القاسم بن حبارة الهذلي الأندلسي في كتاب الكامل من تأليفه عن أبي السماك أنه قرأ تخيل بالتاء من فوق المضمومة وكسر الياء والضمير فيه فاعل، و﴿ أنها تسعى ﴾ في موضع نصب على المفعول به.

ونسب ابن عطية هذه القراءة إلى الحسن والثقفي يعني عيسى، ومن بني تخيل للمفعول فالمخيل لهم ذلك هو الله للمحنة والابتلاء وروى الحسن بن أيمن عن أبي حيوة نخيل بالنون وكسر الياء، فالمخيل لهم ذلك هو الله والضمير في ﴿ إليه ﴾ الظاهر أنه يعود على موسى لقوله قبل ﴿ قال بل ألقوا ﴾ ولقوله بعد ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ وقيل:

يعود على فرعون ، والظاهر من القصص أن الحبال والعصي كانت تتحرك وتنتقل الانتقال الذي يشبه انتقال من قامت به الحياة ، ولذلك ذكر السعي وهو وصف من يمشي من الحيوان ، فروى أنهم جعلوا في الحبال زئبقاً وألقوها في الشمس فأصاب الزئبق حرارة الشمس فتحرك فتحركت العصي والحبال معه .

وقيل : حفروا الأرض وجعلوا تحتها ناراً وكانت العصي والحبال مملوءة بزئبق ، فلما أصابتها حرارة الأرض تحركت وكان هذا من باب الدّرك .

وقيل : إنها لم تتحرك وكان ذلك من سحر العيون وقد صرح تعالى بهذا فقالوا ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ فكان الناظر يخيل إليه أنها تنتقل .

وتقدم شرح أوجس .

وقال الزمخشري : كان ذلك لطبع الجبلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله وهو قول الحسن .

وقيل : كان خوفه على الناس أن يفتتنوا لهول ما رأى قبل أن يلقي عصاه وهو قول مقاتل ، والإيجاس هو من الهاجس الذي يخطر بالبال وليس يتمكن و ﴿ خيفة ﴾ أصله خوفة قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها .

وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون خوفه بفتح الخاء قلبت الواو ياء ثم كسرت الخاء للتناسب .

﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ تقرير لغلبته وقهره وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التوكيد وبتكرير الضمير وبلام التعريف ، وبالأعلوية الدالة على التفضيل ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ لم يأت التركيب وألق عصاك لما في لفظ اليمين من معنى اليمن والبركة .

قال الزمخشري : وقوله ﴿ ما في يمينك ﴾ ولم يقل عصاك جائز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبالِ بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العُوَيد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدرة الله يتلقفها على حدته وكثرتها وصغره وعظمها ، وجائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها ، فألقه تتلقفها بإذن الله وتمحقها انتهى .

وهو تكثير وخطابه لا طائل في ذلك .

وفي قوله ﴿ تلقف ﴾ جمل على معنى ما لا على لفظها إذ أطلقت ما على العصا والعصا مؤنثة ، ولو حمل على اللفظ لكان بالياء .

وقرأ الجمهور تَلَقَّف بفتح اللام وتشديد القاف مجزوماً على جواب الأمر .

وقرأ ابن عامر كذلك وبرفع الفاء على الاستئناف أو على الحال من الملقى .

وقرأ أبو جعفر وحفص وعصمة عن عاصم ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بإسكان اللام والفاء وتخفيف القاف وعن قنبل أنه كان يشدد من تلقّف يريد يتلقف .

وقرأ الجمهور ﴿ كيد ﴾ بالرّفع على أن ﴿ ما ﴾ موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية أي أن صنعتم كيد ، ومعنى ﴿ صنعوا ﴾ هنا زوّروا وافتعلوا كقوله ﴿ تلقف ما يأفكون ﴾ وقرأ مجاهد وحميد وزيد بن عليّ ﴿ كيد سحر ﴾ بالنصب مفعولاً لصنعوا وما مهيِّئة .

وقرأ أبو بحرية والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وخلف في اختياره وابن عيسى الأصبهاني وابن جبير الأنطاكي وابن جرير وحمزة والكسائي سِحْر بكسر السين وإسكان الحاء بمعنى ذي سحر أو ذوي سحر ، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه أو بذاته ، أو بين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر كما تبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو .

(210/498)

وقرأ الجمهور ساحر اسم فاعل من سحر ، وأفرد ساحر من حيث إن فعل الجميع نوع واحد من السحر ، وذلك الحبال والعصي فكأنه صدر من ساحر واحد لعدم اختلاف أنواعه .

وقال الزمخشري : لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد ، فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى أن قوله ﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ أي هذا الجنس انتهى .

وعرف في قوله ﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ لأنه عاد على ساحر النكرة قبله كقوله ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ وقال الزمخشري : إنما نكر يعني أولاً من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العجاج :

في سعي دنيا طال ما قد مدت . . .

وفي حديث عمر رضي الله عنه : لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة المراد تنكير الأمر كأنه قال : إنما صنعوا كيد سحري وفي سعي دنياوي وأمر دنياوي وأخراوي انتهى .

وقول العجاج .

في سعي دنيا ، محمول على الضرورة إذ دنيا تأنيث الأدنى ، ولا يستعمل تأنيثه إلاّ بالألف واللام أو بالإضافة وأما قول عمر فيحتمل أن يكون من تحريف الرواة .

ومعنى ﴿ ولا يفلح ﴾ لا يظفر ببغيته ﴿ حيث أتى ﴾ أي حيث توجه وسلك .

وقالت فرقة معناه أن الساحر يقتل حيث ثقف وهذا جزاء من عدم الفلاح .

وقرأت فرقة أين أتى وبعد هذا جمل محذوفة ، والتقدير فزال إيجاس الخيفة وألقى ما في يمينه وتلقفت حبالهم وعصيهم ثم انقلبت عصا ، وفقدوا الحبال والعصي وعلموا أن ذلك معجز ليس في طوق البشر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌ على سؤال ناشىءٍ من حكاية ما جرى بين السحرة من المقارنة ، كأنه قيل : فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا ؟ فقيل : قالوا : ﴿ يا موسى ﴾ وإنما لم يتعرض لإجماعهم وإتيانِهم بطريق الاصطفافِ إشعارا ًبظهور أمرِهما وغناهما عن البيان ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ أي ما تُلقيه أولاً على أن المفعولَ محذوفٌ لظهوره أو تفعل الإلقاءَ أولاً على أن الفعلَ منزّلٌ منزلةَ اللازم ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ ما يُلقيه أو أولَ من يفعل الإلقاءَ ، خيّروه عليه الصلاة والسلام بما ذُكر مراعاةً للأدب لِما رأَوا منه عليه الصلاة والسلام ما رأَوا من مخايل الخيرِ ورزانةِ الرأْي وإظهاراً للجلادة بإراءة أنه لا يختلف حالُهم بالتقديم والتأخير ، وأنْ مع ما في حيزها منصوبٌ بفعل مضمر أو مرفوعٌ بخبرية مبتدأ محذوفٍ أي اخترْ إلقاءَك أولاً أو إلقاءَنا ، أو الأمرُ إما إلقاؤُك أو إلقاؤنا .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ كما سلف ناشىءٌ من حكاية تخييرِ السحرةِ إياه عليه الصلاة والسلام ، كأنه قيل : فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ فقيل : قال : ﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ أنتم أولاً مقابلةً للأدب بأحسنَ مِنْ أدبهم حيث بتّ القولَ بإلقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاةِ

بسحرهم ومساعدةً لما أوهموا من الميل إلى البدء وليبُرِزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جُهدِهم ويستنفدوا قُصارى وُسعِهم ، ثم يظهر الله عز وجل سلطانَه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لمّا علم أن ما سيظهر بيده سيلقَف ما يصنعون من مكايد السحر .

(212/498)

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ الفاءُ فصيحة معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أي فألقَوا فإذا حبالُهم وهي للمفاجأة والتحقيقُ أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلّقاً ينصِبها وجملةً تضاف إليها ، ولكنها خُصت بكون متعلَّقِها فعلَ المفاجأة والجملةُ ابتدائيةٌ ، والمعنى فألقَوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يُخيَّلَ إليه سعيُ حبالِهم وعِصِيّهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطّخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمسُ اضطربت واهتزت فخُيل إليه أنها تتحرك ، وقرىء تُخيل بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعِصِيّ وإبدالِ (أنها تسعى) منه بدلَ اشتمال ، وقرىء يُخيّل بإسناده إليه تعالى ، وقرىء تَخَيَّل بحذف إحدى التاءين من تتخيل ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ أي أضمر فيها بعضَ خوفٍ من مفاجأته بمقتضى البشريةِ المجبولةِ على النفْرة من الحيّات والاحترازِ من ضررها

المعتاد من اللسْع ونحوه، وقيل: من أن يخالج الناسَ شكٌّ فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه، وتأخيرُ الفاعل لمراعاة الفواصل.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ أي ما توهمتَ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴾ تعليلٌ لما يوجبه النهيُ من الانتهاء عن الخوف وتقريرٌ لغلبته على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كما يُعرب عنه الاستئنافُ، وحرفُ التحقيق وتكريرُ الضمير وتعريفُ الخبر ولفظُ العلوّ المنبىءِ على الغلَبة الظاهرة وصيغةُ التفضيل.

(213/498)

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ أي عصاك كما وقع في سورة الأعراف، وإنما أُوثر الإبهامُ تهويلاً لأمرها وتفخيماً لشأنها وإيذاناً بأنها ليست من جنس العِصِيّ المعهودة المستتبعةِ للآثار المعتادة، بل خارجةٌ عن حدود سائرِ أفراد الجنسِ مبهمةُ الكُنْه مستتبعةٌ لآثار غريبةٍ. وعدمُ مراعاة هذه النُّكتةِ عند حكايةِ الأمر في موضع آخرَ لا يستدعي عدمَ مراعاتها عند وقوع المحكيّ. هذا وحملُ الإبهامِ على التحقير بأن يراد لا تُبالِ بكثرة حبالِهم وعصيّهم وألقِ العُوَيدَ الذي في يدك فإنه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وَحدته وكثرتها وصِغره وعِظَمها يأباه ظهورُ حالها فيما مر مرتين، على أن ذلك المعنى إنما يليق بما لو فعلتْ العصا ما فعلتْ وهي

على هيئتها الأصليةِ وقد كان منها ما كان وقوله تعالى : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ بالجزم جواباً للأمر من لقِفه إذا ابتلعه والتقمه بسرعة ، والتأنيثُ لكون (ما) عبارةً عن العصا أي تبتلع ما صنعوه من الحبال والعِصِيّ التي خُيّل إليك سعيُها وخِفّتُها ، والتعبيرُ عنها بما صنعوا للتحقير والإيذانِ بالتمويه والتزوير ، وقرىء تَلَقّف بتشديد القاف وإسقاطِ إحدى التاءين من تتلقف ، وقرىء بالرفع على الحال أو الاستئنافِ والجملةُ الأمرية معطوفةٌ على النهي متمّمةٌ بما في حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفيةِ غلبتِه عليه الصلاة والسلام وعلوّه ، فإن ابتلاعَ عصاه لأباطيلهم التي منها أوجسَ في نفسه ما أوجس مما يقلع مادّته بالكلية ، وهذا كما ترى صريحٌ في أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشكّ للناس وعدمِ اتّباعِهم له عليه الصلاة السلام وإلا لعُلّل بما يُزيله من الوعد بما يوجب إيمانَهم واتباعَهم له عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ الخ ، تعليلٌ لقوله تعالى : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ وما إما موصولةٌ أو موصوفةٌ أي إن الذي صنعوه أو إن

شيئاً صنعوه ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ بالرفع على أنه خبرٌ لأن أن كيدُ جنسِ الساحر ، وتنكيرُه للتوسل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير ، وقرىء بالنصب على أنه مفعولُ صنعوا و(ما

) كافةٌ ، وقرىء كيدُ سحرٍ على أن الإضافةَ للبيان كما في علمُ فقةٍ أو على معنى ذي سحر أو على تسمية الساحر سحراً مبالغةً وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر ﴾ أي هذا الجنسُ ﴿ حَيْثُ أتى ﴾ أي حيث كان وأين أقبل ، من تمام التعليل ، وعدمُ التعرض لشأن العصا وكونِها معجزةً إلهية مع ما في ذلك من تقوية التعليلِ للإيذان بظهور أمرِها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(215/498)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا فعلوا بعد ما قالوا ذلك ؟ فقيل قالوا : ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ وإنما لم يتعرض لإجماعهم وإتيانهم مصطفين إشعاراً بظهور أمرهما وغنائهما عن البيان ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِىَ ﴾ أي ما تلقيه أولاً على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الإلقاء أولاً على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ﴾ ما يلقيه أو أول من يفعل الإلقاء خيروه عليه السلام وقدموه على أنفسهم إظهاراً للثقة بأمرهم ، وقيل : مراعاة للأدب معه عليه السلام .

وأن مع ما في حيزها منصوب بفعل مضمر أي إما تختار القاءك أو تختار كوننا أول من ألقى أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر إما القاؤك أو كوننا أول من القى.

واختار أبو حيان كونه مبتدأ محذوف الخبر أي القاؤك أول بقرينة ﴿ أَوْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ وبه تتم المقابلة لكنها معنوية.

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ فقيل قال: ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أنتم أولاً إظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم وإسعافاً لما أوهموا من الميل إلى البدء في شقهم حيث غيروا النظم إلى وجه أبلغ إذ كان الظاهر أن يقولوا: وإما أن نلقى وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا جهدهم ويستنفذوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله تعالى شأنه سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه.

قيل وفي ذلك أيضاً مقابلة أدب بأدب، واستشكل بعضهم هذا الأمر ظناً منه أنه يستلزم تجويز السحر فحمله دفعاً لذلك على الوعيد على السحر كما يقال للعبد العاصي: إفعل ما أردت، وقال أبو حيان: هو مقرون بشرط مقدر أي ألقوا إن كنتم محقين.

وفيه أنه عليه السلام يعلم عدم إحقاقهم فلا يجدي التقدير يريدون ملاحظة غيره .

وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى ذلك ولا إشكال فإن هذا كالأمر بذكر الشبهة لتنكشف .

والقول بأن تقديم سماع الشبهة على الحجة غير جائز لجواز أن لا يتفرغ لإدراك الحجة بعد ذلك فتبقى مما لا يلتفت إليه .

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر فانفلق ﴾ [البقرة : 60] أي فالقوا فإذا حبالهم الخ .

وهي في الحقيقة عاطفة لجملة المفاجأة على الجملة المحذوفة .

وإذا فجائية وهي عند الكوفيين حرف وهو مذهب مرجوح عند أبي حيان وظرف زمان عند الرياشي وهو كذلك عنده أيضاً وظرف مكان عند المبرد وهو ظاهر كلام سيبويه ومختار أبي حيان والعامل فيها هنا ﴿ أَلْقَوْاْ ﴾ عند أبي البقاء .

ورد بأن الفاء تمنع من العمل ، وفي "البحر" إنما هي معمولة لخبر المبتدأ الذي هو ﴿ حبالهم وَعِصِيِّهُمْ ﴾ إن لم يجعلها هي في موضع الخبر بل جعلنا الخبر جملة ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ وإذا جعلناها في موضع الخبر وجعلنا الجملة في موضع الحال فالأمر واضح .

وهذا نظير خرجت فإذا الأسد رابض ورابضاً .

ولصحة وقوعها خبراً يكتفي بها وبالمرفوع بعدها كلاماً فيقال : خرجت فإذا الأسد .

ونص الأخفش في الأوسط على أنها قد يليها جملة فعلية مصحوبة بقد فيقال : خرجت فإذا قد ضرب زيد عمراً ، وفي "الكشاف" التحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة ، والجملة ابتدائية لا غير فتقدير الآية ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل ، والمعنى على مفاجأة حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي انتهى ، وفيه من المخالفة لما قدمنا ما فيه لكن أمر العطف عليه أوفق كما لا يخفى ، وعنى بقوله : هذا تمثيل أنه تصوير للإعراب وأن إذا وقتية أوقع عليها فعل المفاجأة توسعاً لأنها سدت مسد الفعل والمفعول ولأن مفاجأة الوقت يتضمن مفاجأة ما فيه بوجه أبلغ ، وما قيل : إنه أراد الاستعارة التمثيلية فيحتاج إلى تكلف لتحصيلها .

وضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ الظاهر أنه لموسى عليه السلام بل هو كالمتعين ، وقيل : لفرعون وليس بشيء ، وأن وما في حيزها نائب فاعل ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ أي يخيل إليه بسبب سحرهم سعيها وكأن ذلك من باب السيمياء وهي علم يقتدر به على إراء الصورة الذهنية لكن يشترط غالباً أن يكون لها مادة في الخارج في الجملة ويكون ذلك على ما ذكره الشيخ محمد عمر

البغدادي في حاشيته على رسالة الشيخ عبد الغني النابلسي في وحدة الوجود بواسطة أسماء وغيرها .

وذكر العلامة البيضاوي في بعض رسائله أن علم السيمياء حاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس ويطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحس وتكون صوراً في جوهر الهواء وهي سريعة الزوال بسبب سرعة تغير جوهره ولفظ سيمياء معرب شيم يه ومعناه اسم الله تعالى انتهى .

وما ذكره من سرعة الزوال لا يسلم كلياً وهو عندي بعض من علم السحر .

وعرفه البيضاوي بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية ثم قال : والسحر منه حقيقي .

ومنه غير حقيقي ؛ ويقال له : الأخذ بالعيون وسحرة فرعون أتوا بمجموع الأمرين انتهى ، والمشهور أن هؤلاء السحرة جعلوا في الحبال والعصي زئبقاً فلما أصابتها حرارة الشمس اضطربت واهتزت فخيل إليه عليه السلام أنها تتحرك وتمشي كشيء فيه حياة .

ويروى أنه عليه السلام رآها كأنها حيات وقد أخذت ميلاً في ميل ؛ وقيل : حفروا الأرض

وجعلوا فيها ناراً ووضعوا فوقها تلك الحبال والعصي فلما أصابتها حرارة النار تحركت ومشت .

وفي القلب من صحة كلا القولين شيء .

والظاهر أن التخيل من موسى عليه السلام قد حصل حقيقة بواسطة سحرهم ، وروي ذلك عن وهب .

وقيل : لم يحصل .

والمراد من الآية أنه عليه السلام شاهد شيئاً لولا علمه بأنه لا حقيقة له لظن فيها أنها تسعى فيكون تمثيلاً وهو خلاف الظاهر جداً ، وقرأ الحسن وعيسى ﴿ عصيهم ﴾ بضم العين وإسكان الصاد وتخفيف الياء مع الرفع وهو جمع كما في القراءة المشهور وقرأ الزهري .

والحسن .

وعيسى .

وأبو حيوة .

وقتادة .

والجحدري .

وروح .

وابن ذكوان .

وغيرهم ﴿ تخيل ﴾ بالتاء الفوقانية مبنياً للمفعول وفيه ضمير الحبال والعصي .

و﴿ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ بدل اشتمال من ذلك الضمير ولا يضر الإبدال منه في كونه رابطاً لكونه ليس ساقطاً من كل الوجوه .

وقرأ أبو السمال ﴿ تخيل ﴾ بفتح التاء أي تتخيل وفيه أيضاً ضمير ما ذكر و﴿ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ بدل منه أيضاً ، وقال ابن عطية : هو مفعول من أجله ، وقال أبو القاسم بن حبارة الهذلي الأندلسي في كتاب الكامل : عن أبي السمال أنه قرىء ﴿ تخيل ﴾ بالتاء من فوق المضمومة وكسر الياء والضمير فيه فاعل و﴿ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ نصب على المفعول به .

ونسب ابن عطية هذه القراءة إلى الحسن .

وعيسى الثقفي ومن بني ﴿ تخيل ﴾ للمفعول فالمخيل لهم ذلك هو الله تعالى للمحنة والابتلاء .

وروي الحسن بن يمن عن أبي حيوة ﴿ مّن نَّخِيلٍ ﴾ بالنون وكسر الياء فالفاعل ضميره تعالى و﴿ أَنَّهَا تسعى ﴾ مفعول به .

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾

الإيجاس الإخفاء .

والخيفة الخوف وأصله خوفة قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون خوفة بفتح الخاء قلبت الواو ياء ثم كسرت الخاء للتناسب والأول أولى .

والتنوين للتحقير أي أخفى فيها بعض خوف من مفاجأة ذلك بمقتضى طبع الجبلة البشرية عند رؤية الأمر المهول وهو قول الحسن ، وقال مقاتل : خاف عليه السلام من أن يعرض للناس ويختلج في خواطرهم شك وشبهة في معجزة العصا لما رأوا من عصيهم .

وإضمار خوفه عليه السلام من ذلك لئلا تقوى نفوسهم إذا ظهر لهم فيؤدي إلى عدم اتباعهم ، وقيل : التنوين للتعظيم أي أخفى فيها خوفاً عظيماً ، وقال بعضهم : إن الصيغة لكونها فعلة وهي دالة على الهيئة والحالة اللازمة تشعر بذلك ولذا اختيرت على الخوف في قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرغد : 13] ولا يأباه الإيجاس ، وقيل : يأباه والأول هو الأنسب بحال موسى عليه السلام إن كان خوفه مما قاله الحسن والثاني هو الأنسب بحاله عليه السلام إن كان خوفه مما قاله مقاتل ، وقيل : إنه أنسب أيضاً بوصف السحر بالعظم في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 116] وأيد بعضهم كون التنوين لذلك بإظهار موسى وعدم إضماره فتأمل ، وقيل : إنه عليه السلام سمع لما قالوا ﴿ إما أن تلقى ﴾ [طه : 65] الخ القوا يا أولياء الله

تعالى فخاف لذلك حيث يعلم أن أولياء الله تعالى لا يغلبون ولا يكاد يصح والنظم الكريم يأباه .

وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾

أي لا تستمر على خوفك مما توهمت وادفع عن نفسك ما اعتراك فالنهي على حقيقته ، وقيل : حرج عن ذلك للتشجيع وتقوية القلب ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الاعلى ﴾ تعليل لما يوجبه النهي من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عن ذلك الاستئناف البياني وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبىء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل كما قاله غير واحد .

والذي أميل إليه أن الصيغة المذكورة لمجرد الزيادة فإن كونها للمشاركة والزيادة يقتضي أن يكون للسحرة علو وغلبة ظاهرة أيضاً مع أنه ليس كذلك وإثبات ذلك لهم بالنسبة إلى العامة كما قيل ليس بشيء إذ لا مغالبة بينهم وبينهم .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾

أي عصاك كما وقع في سورة الأعراف .

وكأن التعبير عنها بذلك لتذكيره ما وقع وشاهده عليه السلام منها يوم قال سبحانه له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] ، وقال بعض المحققين : إنما أوثر الإبهام تهويلاً لأمرها وتفخيماً لشأنها وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصي المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة لكنها مستتبعة لآثار غريبة .

وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر في مواضع أخر لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المحكي انتهى .

وحاصله أن الإبهام للتفخيم كأن العصا لفخامة شأنها لا يحيط بها نطاق العلم نحو ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] ووقع حكاية الأمر في مواضع أخر بالمعنى والواقع نفسه ما تضمن هذه النكتة وإن لم يكن بلفظ عربي وإنما لم يعتبر العكس لأن المتضمن أوفق بمقام النهي عن الخوف وتشجيعه عليه السلام .

وقال أبو حيان : عبر بذلك دون عصاك لما في اليمين من معنى اليمن والبركة ، وفيه أن الخطاب لم يكن بلفظ عربي ، وقيل : الإبهام للتحقير بأن يراد لا تبالي بكثرة حبالهم

وعصيهم وألق العويد الذي في يدك فإنه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها .

وتعقب بأنه يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى إنما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهي على الهيئة الأصلية وقد كان منها ما كان ، وما يحتمل أن أن تكون موصوفة ويحتمل أن تكون موصولة على كل من الوجهين ، وقيل : الأنسب على الأول الأول وعلى الثاني الثاني ، وقوله تعالى : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ بالجزم جواب الأمر من لقفه ناله بالحذق باليد أو بالفم ، والمراد هنا الثاني والتأنيث بكون ما عبارة عن العصا أي تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصي التي خيل إليك سعيها ، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير .

وقرأ الأكثرون ﴿ تَلَقَّفْ ﴾ بفتح اللام وتشديد القاف وإسقاط إحدى التاءين من ﴿ تتلقف ﴾ .

وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه رفع الفعل على أن الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال مقدرة من فاعل ألق بناءً على تسببه أو من مفعوله أي متلقفاً أو متلقفة ؛ وجملة الأمر معطوفة على النهي متممة بما في حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية علوه وغلبه عليه السلام فإن ابتلاع عصاه عليه السلام لأباطيلهم التي منها أوجس في نفسه خيفة يقلع مادة الخوف بالكلية .

وزعم بعضهم إن هذا صريح في أن خوفه عليه السلام لم يكن من مخالجة الشك للناس في معجزة العصا وإلا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب إيمانهم وفيه تأمل .

(222/498)

وقوله تعالى : ﴿ صَنَعُواْ إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ الخ تعليل لقوله تعالى : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ وما إما موصولة أو موصوفة أو مصدرية أي إن الذي صنعوه أو إن شيئاً صنعوه أو إن صنعهم ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ بالرفع على أنه خبر إن أي كيد جنس الساحر ، وتنكيره للتوسل به إلى ما يقتضيه المقام من تنكير المضاف ولو عرف لكان المضاف إليه معرفة وليس مراداً .

واعترض بأنه يجوز أن يكون تعريفه الإضافي حينئذٍ للجنس وهو كالنكرة معنى وإنما الفرق بينهما حضوره في الذهن .

وأجيب بأنه لا حاجة إلى تعيين جنسه فإنه مما علم من قوله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ [طه : 66] الخ وإنما الغرض بعد تعيينه أن يذكر أنه أمر مموه لا حقيقة له وهذا مما يعرف بالذوق ، وقيل : نكر ليتوسل به إلى تحقير المضاف .

وتعقب بأنه بعد تسليم إفادة ذلك تحقير المضاف لا يناسب المقام ولأنه يفيد انقسام السحر

إلى حقير وعظيم وليس بمقصود .

وأيضاً ينافي ذلك قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 116] إلا أن يقال عظمه من وجه لا ينافي حقارته في نفسه وهو المراد من تحقيره .

وقيل : إنما نكر لئلا يذهب الذهن إلى أن المراد ساحر معروف فتدبر .

وقرأ مجاهد .

وحميد .

وزيد بن علي عليهم الرحمة ﴿ كَيْدَ ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿ صَنَعُواْ ﴾ وما كافة .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وأبو بحرية .

والأعمش .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وخلف في اختياره .

وابن عيسى الأصبهاني .

وابن جبير الأنطاكي .

وابن جرير ﴿ ساحر ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء على معنى ذي سحر أو على تسمية الساحر سحراً مبالغة كأنه لتوغله في السحر صار نفس السحر .

وقيل : على أن الإضافة لبيان أن الكيد من جنس السحر .

وهذه الإضافة من إضافة العام إلى الخاص .

وهي على معنى اللام عند شارح الهادي وعلى معنى من على ما يفهم من ظاهر كلام الشريف في أول شرح المفتاح وتسمى إضافة بيانية .

ويحمل فيما وجدت فيه المضاف إليه على المضاف .

(223/498)

ولا يشترط أن يكون بين المتضايفين عموم وخصوص من وجه وبعضهم شرط ذلك .

وقوله تعالى شأنه : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ أي هذا الجنس ﴿ حَيْثُ أَتَى ﴾ حيث كان وأين أقبل فحيث ظرف مكان أريد به التعميم من تمام التعليل .

ولم يتعرض لشأن العصا وكونه معجزة إلهية مع ما في ذلك من تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ثم قرأ : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ قال : لا يؤمن حيث وجد " وقرأت فرقة ﴿ أَيْنَ أتى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(224/498)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن السحرة لما جمعهم فرعون واجتمعوا مع موسى للمغالبة قالوا له متأدبين معه : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ﴾ وقد بين تعالى مقالتهم هذه في غير هذا الموضع . كقوله في « الأعراف » : ﴿ قَالُواْ يا موسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الملقين ﴾ [الأعراف : 115] . وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يحذف مفعول ﴿ تُلْقِيَ ﴾ ، ومفعول أول من ﴿ ألقى ﴾ وقد بين تعالى في مواضع أخر أن مفعول إلقاء موسى هو عصاه وذلك في قوله في « الأعراف » : ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف : 117] ،

وقوله في «الشعراء» : ﴿ فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء : 45] ، وقوله هنا : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا ﴾ [طه : 69] الآية . وما في يمينه هو عصاه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه : 17–18] الآية .

(225/498)

وقد بين تعالى أيضاً في موضع آخر : أن مفعول إلقائهم هو حبالهم وعصيهم ، وذلك في قوله في «الشعراء» : ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ [الشعراء : 44] . وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً بقوله هنا ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] ، لأن في الكلام حذفاً دل المقام عليه ، والتقدير : قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله ﴿ أَن تُلْقِيَ ﴾ وفي قوله ﴿ أَن نَّكُونَ ﴾ فيه وجهان من الإعراب : الأول أنه في محل نصب بفعل محذوف دل المقام عليه ، والتقدير : إما أن تختار أن تلقي أي تختار إلقاءك أولاً ، أو تختار إلقاءنا أولاً . وتقدير المصدر الثاني : وإما أن تختار أن نكون أي كوننا أول من ألقى ، والثاني أنه في

محل رفع، وعليه فقيل هو مبتدأ والتقدير إما إلقاؤك أول، أو إلقاؤنا أول. وقيل خبر مبتدأ محذوف، أي إما الأمر إلقاؤنا أو إلقاؤك.

(226/498)

قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما خيره سحرة فرعون أن يلقي قبلهم أو يلقوا قبله قال لهم: ﴿ أَلْقُواْ ﴾ يعني ألقوا ما أنتم ملقون كما صرح به في «الشعراء» في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ [الشعراء: 43] وذلك هو المراد أيضاً بقوله في «الأعراف» ﴿ قَالَ أَلْقَوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف: 116] الآية.

تنبيه

قول موسى للسحرة: ألقوا المذكور في «الأعراف»، وطه، والشعراء «فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف قال هذا النَّبي الكريم للسحرة ألقوا. أي ألقوا حبالكم وعصيكم، يعني اعملوا السحر وعارضوا به معجزة الله التي أيد بها رسوله، وهذا أمر بمنكر؟ والجواب هو أن قصد موسى بذلك قصد حسن يستوجبه المقام، لأن إلقاءهم قبله

يستلزم إبراز ما معهم من مكائد السحر ، واستنفاد أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك وابتلاعها لجميع ما ألقوا من إظهار الحق وإبطال الباطل ما لا جدال بعده في الحق لأدنى عاقل . ولأجل هذا قال لهم : ألقوا ، فلو ألقى قبلهم وألقوا بعده لم يحصل ما ذكرنا ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ .

قرأ هذا الحرف ابن ذكوان عن ابن عامر « تخيَّل » بالتاء ، أي تخيل هي أي الحبال والعصي أنها تسعى . والمصدر في « أنها تسعى » بدل من ضمير الحبال والعصي الذي هو نائب فاعل « تخيل » بدل اشتمال . وقرأ الباقون بالياء التحتية . والمصدر في ﴿ أَنَّهَا تسعى ﴾ نائب فاعل ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ .

(227/498)

وفي هذه الآية الكريمة حذف دل المقام عليه ، والتقدير : قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . وبه تعلم أن الفاء في قوله ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ عاطفة على محذوف كما أشار لنحو ذلك ابن مالك في الخلاصة بقوله :

وحذف متبوع بدا هنا استبح

و» إذا « هي الفجائية ، وقد قدمنا كلام العلماء فيها فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

والحبال : جمع حبل ، وهو معروف . و» العصي « جمع عصا ، وألف العصا منقلبة عن واو ، ولذا ترد إلى أصلها في التثنية : ومنه قول غيلان ذي الرمة :

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصويها سابري مشبرق

وأصل العصي عصوو على وزن فعول جمع عصا . فأعل بإبدال الواو التي في موضع اللام ياء فصار عصوياً ، فأبدلت الواو باء وأدغمت في الياء ، فالياءان أصلهما واوان . وإلى جواز هذا النوع من الإعلال في واوي اللام مما جاء على فعول أشار في الخلاصة بقوله :

(228/498)

كذاك ذا وجهين جا الفعول من . . . ذي الواو لام جمع أو فرد يعن

وضمه الصاد في ﴿ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ أبدلت كسرة لمجانسة الياء ، وضمة عين « عِصِيّهمْ » أبدلت كسرة لإتباع كسرة الصاد . والتخيل في قوله ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ هو إبداء أمر لا حقيقة له ، ومنه الخيال . وهو الطيف الطارق في النوم . قال الشاعر :

ألا يا لقومي للخيال المشوق . . . وللدار تنأى بالحبيب ونلتقي

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ يدل على أن السحر الذي جاء به سحرة فرعون تخييل لا حقيقة له في نفس الأمر. وهذا الذي دلت عليه آية «طه» هذه دلت عليه آية «الأعراف» وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف: 116] الآية، لأن قوله: ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ يدل على أنهم خيلوا لأعين الناظرين أمراً لا حقيقة له. وبهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السحر خيال لا حقيقة له.

(229/498)

والتحقيق الذي عليه عليه جماهير العلماء من المسلمين: أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخييل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما له حقيقة قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة: 102] فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته وقد عبر الله عنه بما الموصولة وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي. ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ﴾ [الفلق: 4] يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن. فلولا أن السحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه. وسيأتي إن شاء

الله أن السحر أنواع : منها ما هو أمر له حقيقة ، ومنها ما هو تخييل لا حقيقة له . وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدالة على أن له حقيقة ، والآيات الدالة على أنه خيال .

فإن قيل : قوله في « طه » : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ الآية ، وقوله في « الأعراف » : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] الدالان على أن سحر سحرة فرعون خيال لا حقيقة له ، يعارضهما قوله في « الأعراف » : ﴿ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : 116] لأن وصف سحرهم بالعظم يدل على أنه غير خيال .

فالذي يظهر في الجواب والله أعلم أنهم أخذوا كثيراً من الحبال والعصي ، وخيلوا بسحرهم لأعين الناس أن الحبال والعصي تسعى وهي كثيرة . فظن الناظرون أن الأرض ملئت حيات تسعى ، لكثرة ما ألقوا من البحال والعصي فخافوا من كثرتها ، وبتخييل سعي ذلك العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم . وهذا ظاهر لا إشكال فيه . وقد قال غير واحد : إنهم جعلوا الزئبق على الحبال والعصي ، فلما أصابها حر الشمس تحرك الزئبق فحرك الحبال والعضي ، فخيل للناظرين أنها تسعى .

وعن ابن عباس : أنهم كانوا اثنين وسبعين ساحراً ، مع كل ساحر منهم حبال وعصي . وقيل : كانوا أربعمائة . وقيل كانوا اثني عشر ألفاً . وقيل أربعة عشر ألفاً . وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفاً . وقيل : كانوا مجمعين على رئيس يقال له شمعون . وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثني عشر نقيباً ، مع كل نقيب عشرون عريفاً ، مع كل عريف ألف ساحر . وقيل : كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم ، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد وثلاثمائة ألف ساحر من الريف فصاروا تسعمائة ألف ، وكن رئيسهم أعمى اه . وهذه الأقوال من الاسرائيليات ، ونحن نتجنبها دائماً ، ونقلل من ذكرها ، وربما ذكرنا قليلاً منها منبهين عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾

قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وقنبل عن ابن كثير ، وهشام عن ابن عامر ، وشعبة عن عاصم بتاء مفتوحة مخففة بعدها لام مفتوحة ثم قاف مفتوحة مشددة بعدها فاء ساكنة ، وهو مضارع تلقف وأصله تتلقف بتاءين فحذفت إحداهما تخفيفاً ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وما بتاءين ابتدى قد يقتصر . . . فيه على تا كتبيّن العبر

والمضارع مجزوم ، لأنه جزاء الطلب في قوله ﴿ وَأَلْقِ ﴾ وجمهور علماء العربية على أن الجزم في نحو ذلك بشرط مقدر دلت عليه صيغة الطلب ، وتقديره هنا : إن تلق ما في يمينك ما صنعوا . وقرأه البزي عن ابن كثير كالقراءة التي ذكرنا ، إلا أنه يشدد تاء تلقف وصلاً . ووجه تشديد التاء هو إدغام إحدى التاءين في الأخرى ، وهو جائز في كل فعل بتاءين كما هنا ، وأشار إليه في الخلاصة بقوله :

وحيي افكك وادغم دون حذر . . . كذاك نحو تتجلى واستتر

ومحل الشاهد منه قوله نحو « تتجلى » ومثاله في الماضي قوله :

تولى الضجيع إذا ما التذها خصراً . . . عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

(232/498)

أصله تتابع ، وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر كالقراءة المذكورة للجمهور إلا أنه يضم الفاء ، فالمضارع على قراءته مرفوع ، ووجه رفعه أن جملة الفعل حال ، أي ألق ما في يمينك في حال كونها متلقفة ما صنعوا . أو مستأنفة ، وعليه فهي خبر مبتدأ محذوف ، أي فهي تلقف ما صنعوا . وقرأ حفص عن عاصم ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بفتح التاء وسكون اللام وفتح

القاف مخففة مع الجزم، مضارع لقفه بالكسر يلقفه بالفتح ومعنى القراءتين واحد، لأن معنى تلقفه ولقفه إذا تناوله بسرعة، والمراد بقوله ﴿ تَلْقَفْ مَا صنعوا ﴾ على جميع القراءات أنها تبتلع كل ما زوروه وافتعلوه من الحبال والعصي التي خيلوا للناس أنها تسعى وصنعهم في قوله تعالى: ﴿ ما صَنَعُوا ﴾ واقع في الحقيقة على تخييلهم إلى الناس بسحرهم أن الحبال والعصي تسعى، لا على نفس الحبال والعصي لأنها من صنع الله تعالى. ومن المعلوم أن كل شيء كائناً ما كان بمشيئة تعالى الكونية القدرية.

وهذا المعنى الذي ذكره جل وعلا هنا في هذه الآية الكريمة: من كونه أ/ر نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يلقي ما في يمينه أي يده اليمنى، وهو عصاه فإذا هي تبتلع ما يأفكون من الحبال والعصي التي خيلوا إليه أنها تسعى أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف»: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فوقع الحق وبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وانقلبوا صَاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: 117-119]، وقوله تعالى في «الشعراء»:

﴿ فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء : 45] فذكر العصا في « الأعراف ، والشعراء » يوضح أن المراد بما في يمينه في « طه » أنه عصاه كما لا يخفى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي يختلقونه ويفترونه من الكذب ، وهو زعمهم أن الحبال والعصي تسعى حقيقة ، وأصله من قولهم : أفكه عن شيء يأفكه عنه (من باب ضرب) : إذا صرفه عنه وقلبه . فأصل الأفك بالفتح والقلب والصرف عن الشيء . ومنه قيل لقرى قوم لوط ﴿ والمؤتفكات ﴾ [التوبة : 70] . لأن الله أفكها أي قلبها . كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجر : 74] . ومنه قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : 9] أي يصرف عنه من صرف ، وقوله : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ [الأحقاف : 22] أي لتصرفنا عن عبادتها ، وقول عمرو بن أذينة :

إن تك عن أحسن المروءة مأ . . . فوكا ففي آخرين قد أفكوا

وأكثر استعمال هذه المادة في الكذب . لأنه صرف وقلب للأمر عن حقيقته بالكذب والافتراء . كما قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية : 7] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف : 28] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ « ما » موصولة وهي اسم « إن » ، و « كيد » خبرها ، والعائد إلى الموصول محذوف . على حد قوله في

الخلاصة :

. . . . والحذف عندهم كثير منجلي

في عائد متصل إن انتصب . . . بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

والتقدير : إن الذي صنعوه كيد ساحر . وأما على قراءة من قرأ ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ بالنصب ف « ما » كافة و « كيد » مفعول « صنعوا » وليست سبعية ، وعلى قراءة حمزة والكسائي « كيد سحر » بكسر السين وسكون الحاء ، فالظاهر أن الإضافة بيانية . لأن الكيد المضاف إلى السحر هو المراد بالسحر . وقد بسطنا الكلام في نحو ذلك في غير هذا الموضع . والكيد : هو المكر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ .

قد قدمنا في سورة « بني إسرائيل » أن الفعل في سياق النفي من صيغ العموم . لأنه ينحل عند بعض أهل العلم عن مصدر وزمان ، وعند بعضهم عن مصدر وزمان ونسبة . فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً ، وهذا المصدر الكامن في مفهوم الفعل في حكم النكرة فيرجع ذلك إلى النكرة في سياق النفي وهي صيغة عموم عند الجمهور . فظهر أن الفعل في

سياق النفي من صيغ العموم، وكذلك الفعل في سياق الشرط. لأن النكرة في سياق الشرط أيضاً صيغة عموم. وأكثر أهل العلم على ما ذكرنا من أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم، خلافاً لبعضهم فيما إذا لم يؤكد الفعل المذكور بمصدر. فإن أكد به فهو صيغة عموم بلا خلاف، كما أشار إلى ذلك في مراقي السعود بقوله عاطفاً على صيغ العموم:

ونحو لا شربت أو إن شربا . . . واتفقوا إن مصدر قد جلبا

والتحقيق في هذه المسألة: أنها لا تختص بالفعل المتعدي دون اللازم، خلافاً لمن زعم ذلك، وأنه لا فرق بين التأكيد بالمصدر وعدمه. لإجماع النحاة على أن ذكر المصدر بعد الفعل تأكيد للفعل، والتأكيد لا ينشأ به حكم، بل هو مطلق تقوية لشيء ثابت قبل ذلك كما هو معروف. وخلاف العلماء في عموم الفعل المذكور هل هو بدلالة المطابقة أو الالتزام معروف. وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِر ﴾ الآية يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿ حَيْثُ أَتَى ﴾ وذلك دليل على كفره. لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفياً عاماً إلا عمن لا خير

فيه وهو الكافر . ويدل على ما ذكرنا أمران :

الأول هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ [البقرة : 102] الآية . فقوله ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ يدل على أنه لو كان ساحراً وحاشاه من ذلك لكان كافراً . وقوله ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ صريح في كفر معلم السحر ، وقوله تعالى عن هاروت وماروت مقرراً له : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : 102] ، وقوله : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : 102] أي من نصيب ، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر عياذاً بالله تعالى . وهذه الآيات أدلة واضحة على أن من السحر ما هو كفر بواح ، وذلك مما لا شك فيه .

(236/498)

الأمر الثاني أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة ﴿ لاَ يُفْلِحُ ﴾ يراد بها الكافر ، كقوله تعالى في سورة « يونس » : ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغني لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذا أَتقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ

إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 68-70] ، وقوله في « يونس » أيضاً : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون ﴾ [يونس : 17] ، وقوله في « الأنعام » : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [الأنعام : 21] . إلى غير ذلك من الآيات .

ويفهم من مفهوم مخالفة الآيات المذكورة : أن من جانب تلك الصفات التي استوجبت نفي الفلاح عن السحرة والكفرة غيرهم أنه ينال الفلاح ، وهو كذلك ، كما بينه جل وعلا في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾

(237/498)

[البقرة : 5] ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

ووقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر ﴾ مضارع أفلح بمعنى نال الفلاح . والفلاح يطلق في العربية على الفوز بالمطلوب . ومنه قول لبيد :

فاعقلي إن كنت لما تعقلي . . . ولقد أفلح من كان عقل

فقوله « ولقد أفلح من كان عقل » يعني أن من رزقه الله العقل فاز بأكبر مطلوب . ويطلق الفلاح أيضاً على البقاء والدوام في النعيم . ومنه قول لبيد :

لو أن حيا مدرك الفلاح . . . لناله ملاعب الرماح

فقوله « مدرك الفلاح » يعني البقاء . وقول الأضبط بن قريع السعدي ، وقيل كعب بن زهير :

لكل هم من الهموم سعه . . . والمسى والصبح لا فلاح معه

يعني أنه ليس مع تعاقب الليل والنهار بقاء . وبكل واحد من المعنيين فسر بعض أهل العلم « حي على الفلاح » في الأذان والإقامة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ حَيْثُ أتى ﴾ حيث كلمة تدل على المكان ، كما تدل حين على الزمان ، ربما ضمنت معنى الشرط . فقوله : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ أي حيث توجه وسلك . وهذا أسلوب عربي . معروف يقصد به التعميم . كقولهم : فلان متصف بكذا حيث سير ، وأية سلك ، وأينما كان . ومن هذا القبيل قول زهير :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا . . . وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض . وقيل : حيث احتال . والمعنى في الآية هو ما بينا

والله تعالى أعلم .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى اعلم أن السحر يطلق في اللغة على كل شيء خفي سببه ولطف ودق .

ولذلك تقول العرب في الشيء الشديد الخفاء : أخفى من السحر . ومنه قول مسلم بن الوليد الأنصاري :

جعلت علامات المودة بيننا . . . مصائد لحظ من أخفى من السحر

فأعرف منها الوصل في لين طرفها . . . وأعرف منها الهجر في النظر الشزر

ولهذا قيل لملاحة العينين : سحر . لأنها تصيب القلوب بسهامها في خفاء . ومنه قول المرأة التي شببت بنصر بن حجاج السلمي :

وانظر إلى السحر يجري في لواحظه . . . وانظر إلى دعج في طرفه الساجي

المسألة الثانية اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع . لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته ، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها . ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً .

المسألة الثالثة اعلم أن الفخر الرازي في تفسيره قسم السحر إلى ثمانية أقسام :

القسم الأول سحر الكلدانيين والكسدائيين الذين كانوا في قديم الدهر يعبدون الكواكب ، ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور ، والسعادة والنحوسة ، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم وراداً عليهم .

وقد أطال الكلام في هذا النوع من السحر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومعلوم أن هذا النوع من السحر كفر بلا خلاف . لأنهم كانوا يتقربون فيه للكواكب كما يتقرب المسلمون إلى الله ، ويرجون الخير من قبل الكواكب ويخافون الشر من قبلها كما يرجوا المسلمون ربهم ويخافونه . فهم كفرة يتقربون إلى الكواكب في سحرهم بالكفر بالبواح.

النوع الثاني من السحر سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية . ثم استدل على تأثير الوهم بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض ، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه قال : وما ذاك إلا أن تخيل السقوط متى قوي أوجبه .

وقال : واجتمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر ، والمصروع عن

النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران . وما ذاك إلا أن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وخحكى صاحب الشفاء عن أرسطو في طبائع الحيوان : أن الدجاجة إذا تشبهت كثيراً بالديَكة في الصوت وفي الحراب مع الديَكة نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك ، قال : ثم قال صاحب الشفاء : وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية . قال : واجتمعت الأمم على أن الدعاء اللساني الخالي عن الطلب النفساني قليل العمل عديم الأثر . فدل ذلك على أن للهمم والنفوس آثاراً . . إلى آخر كلامه في هذا النوع من أنواع السحر ، وقد أطال فيه الكلام .

ومعلوم أن النفوس الخبيثة لها آثار بإذن الله تعالى ، ومن أصرح الأدلة الشرعية في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » وهذا الحديث الصحيح يدل على أن همة العائن وقوة نفسه في الشر جعلها الله سبباً للتأثير في المصاب بالعين .

وقال الرازي في هذا النوع من أنواع السحر : إذا عرفت هذا فنقول : النفوس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات ،

وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات . وتحقيقه : أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماء كانت كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم ، أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن . إلى آخر كلامه . ولا يخفى ما فيه على من نظره .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره في سورة « البقرة » بعد أن ساق كلام الرازي الذي ذكرناه آنفاً ما نصه : ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء والانقطاع عن الناس . قلت : وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال وهو على قسمين : تارة يكون حالاً صحيحة شرعية ، يتصرف بها فيما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويترك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم : فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى ، وكرامات للصالحين من هذه الأمة ، ولا يسمى هذا سحراً في الشرع .

وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يتصرف بها في ذلك . فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ، ولا يدل إعطاء

الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم . كما أن الدجال له من خوارق العادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة ، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله . وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى .

النوع الثالث من أنواع السحر المذكورة الاستعانة بالأرواح الأرضية ، يعني تسخير الجن واستخدامهم . قال :

واعلم أن القول بالجن مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة . أما أكابر الفلاسفة فلم ينكروا القول بها . إلا أنهم سموها بالأرواح الأرضية . والجن المذكورون قسمان : مؤمنون ، وكافرون وهم الشياطين .

قال الرازي في كلامه على هذا النوع من السحر : واتصال النفوس بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب . ثم إن أصحاب الصنعة وأصحاب التجربة شاهدوا بأن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة من الرقى والدخن والتجريد . وهذا النوع هو المسمى بالعزائم ، وعمل تسخير الجن . وقد أطال الرازي أيضاً الكلام في هذا النوع من أنواع السحر .

النوع الرابع من أنواع السحر هو التخيلات والأخذ بالعيون . ومبنى هذا النوع منه على أن القوة الباصرة قد ترى الشيء على خلاف ما هو عليه في الحقيقة لبعض الأسباب العارضة . ولأجل هذا كانت أغلاط البصر كثيرة . ألا ترى أن راكب السفينة إذا نظر إلى

الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً ، وذلك يدل على أن الساكن يرى متحركاً . والمتحرك ساكناً . والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً . إلى آخر كلام الرازي . وقد أطال الكلام أيضاً في هذا النوع.

(242/498)

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره في سورة « البقرة » مختصراً كلام الرازي المذكور : ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره . ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة ، وحينئذ ، يظهر لهم شيء غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه لفطن الناظرون لكل ما يفعله . قال : وكلما كانت الأحوال تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد ، كان العمل أحسن .

(243/498)

مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً أو مظلم ، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه. اه منه. ولا يخفى أن يكون سحر سحرة فرعون من هذا النوع. فهو تخييل وأخذ بالعيون كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه: 66] فإطلاق التخييل في الآية على سحرهم نص صريح في ذكل. وقد دل على ذلك أيضاً قوله في «الأعراف»: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف: 116] الآية. لأن إيقاع السحر على أعين الناس في الآية يدل على أن أعينهم تخيلت غير الحقيقة الواقعة، والعلم عند الله تعالى.

النوع الخامس من أنواع السحر الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية، كفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضربت بالبوق من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التي يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى إنهم يصورونها ضاحكة وباكية، حتى يفرق فيها بين ضحك السرور، وبين ضحك الخجل، وضحك الشامت.

فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل. قال الرازي: وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب. ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات. ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال، وهو أن يجر ثقيلاً عظيماً بآلة خفيفة سهلة، وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من

باب السحر لأن لها أسباباً معلومة نفيسة ، من اطلع عليها قدر عليها ، إلا أن الاطلاع عليها لما كان عسيراً عد أهل الظاهر ذلك من باب السحر لخفاء مأخذه اه .

وقد علمت أن الرازي يرى أن سحر سحرة فرعون من هذا النوع الأخير ، لأن السحرة جعلوا الزئبق على الحبال والعصي فحركته حرارة الشمس فتحركت الحبال والعصي فظنوا أنها حركة طبيعية حقيقة . والذي يظهر لنا أنه من النوع الذي قبله كما قدمنا ، ولا مانع من أن يتوارد نوعان على شيء واحد فيكون داخلاً في هذا وفي هذا . والله تعالى أعلم .

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر كلام الرازي الذي ذكرنا في هذا النوع من السحر . قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم إياه من الأنوار ، كقضية قمامة الكنيسة التي لهم ببيت المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم ، وأما الخواص منهم فمعترفون بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغاً لهم ،

وفيهم شبه من الجهلة الأغبياء من متعبدي الكرامية الذي يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب ، فيدخلون في عداد من قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم :

« من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وقوله : « حدثوا عني ولا تكذبوا علي ، فإنه من يكذب علي يلج النار » ثم ذكرها هنا يعني الرازي حكاية عن بعض الرهبان ، وهي أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ، ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور ترق له فتذهب في وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به ، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى أن جعله أجوف ، فإذا دخلته الريح سمع منه صوت كصوت ذلك الطائر . وانقطع في صومعة ابتناها ، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم ، وعلق ذلك الطائر في مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحيته فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضاً ، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه . ففتنهم بذلك وأوهمهم أن هذا من كرامات صاحب ذلك القبر ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة انتهى كلام ابن كثير .

وذكر الرازي في هذه المسألة التي نقلها عنه ابن كثير : أن ذلك الطائر المذكور يسمى البراصل ، وأن الذي عمل صورته يسمى أرجعيانوس الموسيقار ، وأنه جعل ذلك على هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه ، وأن الذي قام بعمارة ذلك الهيكل أولاً أسطرخس الناسك .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا النوع الخامس الذي عده من أنواع السحر ، الذي هو الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية . الخ لا ينبغي عده اليوم من أنواع السحر . لأن أسبابه صارت واضحة متعارفة عند الناس ، بسبب تقدم العلم المادي . والواضح الذي صار عادياً لا يدخل في حد السحر ، وقد كانت أمور كثيرة خفية الأسباب فصارت اليوم ظاهرتها جداً . والله تعالى أعلم .

النوع السادس من أنواع السحر الاستعانة بخواص الأدوية ، مثل أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل والدخن المسكرة نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلد عقله ، وقلت فطنته ، قاله الرازي . ثم قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص : فإن أثر المغناطيس مشاهد إلا أن الناس قد أكثروا فيه وخلطوا الصدق بالكذب ، والباطل بالحق

اهـ كلام الرازي .

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر هذا النوع من السحر نقلاً عن الرازي : قلت : يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعياً أنها أحوال له : من مخالطة النيران : ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحاولات انتهى كلام ابن كثير .

النوع السابع من أنواع السحر المذكور تعليق القلب ، وهو أن يدعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأحوال : فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق : وتعلق قلبه بذلك : حصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة : وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة : فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء .

قال الرازي : وإن من جرب الأمور وعرف أحوال أهل العلم علم أن لتعلق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار .

وقال ابن كثير بعد أن نقل هذا النوع من السحر عن الرازي : هذا النمط يقال له التنبلة ،

وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه . فإذا كان النَّبيل حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره .

النوع الثامن من أنواع السحر السعي بالنميمة والتضريب من وجوه لطيفة خفية وذلك شائع في الناس اهـ . والتضريب بين القوم : إغراء بعضهم على بعض .

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن نقل هذا النوع الأخير عن الرازي قلت : النميمة على قسمين : تارة تكون على وجه التحريش بين الناس ، وتفريق قلوب المؤمنين . فهذا حرام متفق عليه . فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس ، وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث « ليس الكذاب من ينم خيراً » أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة ، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث « الحرب خدعة » ، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة ، جاء إلى هؤلاء ونمى إليهم عن هؤلاء ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت . وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة . والله المستعان .

ثم قال الرازي : فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه .

قلت : وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها . لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ، ولهذا جاء في الحديث « إن من البيان لسحراً » وسمي السحور سحوراً لكونه يقع خفياً آخر الليل . والسحر : الرئة وهي محل الغذاء ، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه ، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة : انتفخ سحره ، أي انتفخت رئته من الخوف . وقالت عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري . وقال تعالى : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116] أي أخفوا عنهم عملهم انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى .

هذا هو حاصل الأقسام الثمانية التي ذكر الفخر الرازي في تفسيره في سورة « البقرة » انقسام السحر إليها . ولأهل العلم فيه فيه تقسيمات متعددة يرجع غالبها إلى هذه الأقسام المذكورة وقد قسمه الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي صاحب التآليف العديدة المفيدة في نظمه المسمى (رشد الغافل) وشرحه له ، الذي بين فيه أنواع علوم الشر لتتقى وتجتنب إلى أقسام متعددة :

(منها) قسم يسمى (بالهيماء) بسكر الهاء بعدها مثناة تحتية فميم فياء بعدها ألف التأنيث الممدودة ، على وزن كبرياء .

قال : وهو ما تركب من خواص سماوية تضاف لأحوال الأفلاك ، يحصل لمن عمل له شيء من ذلك أمور معلومة عند السحرة ، وقد يبقى له إدراك ، وقد يسلبه بالكلية فتصير أحواله كحالات النائم من غير فرق ، حتى يتخيل مرور السنين الكثيرة في الزمن اليسير . وحدوث الأولاد وانقضاء الأعمار وغير ذلك في ساعة ونحوها من الزمن اليسير . ومن لم يعمل له ذلك لا يجد شيئاً مما ذكر . وهذا تخييل لا حقيقة له اه .

(ومنها) نوع يسمى (بالسيمياء) بكسر السين المهملة وبقية حروفه كحروف ما قبله .

قال : وهو عبارة عما تركب من خواص أرضية كدهن خاص ، أو مائعات خاصة يبقى معها إدراك ، وقد يسلب بالكلية إلى آخر ما تقدم في الهيمياء .

(ومنها) نوع هو رقى ضارة . قال : كرقى الجاهلية وأهل الهند ، وربما كانت كفراً . قال : ولهذا نهى مالك رحمه الله عن الرقى بالعجمية . وقال ابن زكري في شرح (النصيحة) : ولا يقال لما يحدث ضرراً رقى ، بل ذلك يقال له سحر .

(ومنها) قسم يسمى خصائص بعض الحقائق التي لها تسلط على النفوس . كالمشط والمشاقة وجف طلع الذكر من النخل ، وقصة جعل اليهودي الذي سحر النَّبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر في سحره مشهورة . وسيأتي إيضاح ذلك إن شاء الله تعالى .

ومن أمثله هذا النوع عند أهله : أن بعض أنواع الكلاب من شأنه إذا رمي بحجر أن يعضه ،

فإذا رمي بسبع حجارة وعض كل واحدة منها وطرحت تلك الحجارة في ماء فمن شرب منه فإن السحرة يزعمون أنه تظهر فيه آثار مخصوصة معروفة عندهم. قبحهم الله تعالى.

(ومنها) نوع يسمى (بالطلاسم) وهو عبارة عن نقش أسماء خاصة لها تعلق بالأفلاك والكواكب على زعم أهلها في جسم من المعادن أو غيرها ، تحدث بها خاصية ربطت في مجاري العادات ، ولا بد مع ذلك من نفس صالحة لهذه الأعمال. فإن بعض النفوس لا تجري الخاصة المذكورة على يده.

(ومنها) نوع يسمى (بالعزائم) وهم يزعمون أن لكل نوع من الملائكة أسماء أمروا بتعظيمها ، ومتى أقسم عليهم بها أطاعوا وأجابوا وفعلوا ما طلب منهما ه ولا يخفى ما في هذا الزعم من الفساد.

(ومنها) نوع يسمونه الاستخدام للكواكب والجن. وأهل الاستخدامات يزعمون أن للكواكب إدراكات روحانية. فإذا قوبلت الكواكب ببخور خاص ولباس خاص على الذي يباشر البخور ، كانت روحانية فلك الكواكب مطيعة له ، متى ما أراد شيئًا فعلته له على زعمهم لعنهم الله تعالى.

وهذا النوع من سحر الكلدانيين المتقدم . وكذلك ملوك الجان يزعمون أنهم إذا عملوا لهم أشياء خاصة بكل ملك من ملوكهم أطاعوا وفعلوا لهم ما أرادوا . قال : وشروط هذه الأمور مستوعبة في كتبهم . وذكر رحمه الله من علوم الشر أنواعاً كثيرة : كالخط ، والأشكال ، والموالد ، والقرعة ، والفأل ، وعلم الكتف ، والموسيقى ، والرعدي ، والكهانة ، وغير ذلك .

والخط الرملي معروف . والأشكال جمع شكل ، ويسمى علمها علم الجداول وعلم الأوفاق ، وهي معروفة وهي من الباطل .

والموالد جمع مولد ، وهي أن يدعي من معرفة النجم الذي كان طالعاً عند ولادة الشخص أنه يكون سلطاناً أو عالماً ، أو غنياً أو فقيراً ، أو طويل العمر أو قصيره ، ونحو ذلك .

والقرعة ما يسمونه قرعة الأنبياء ، وحاصلها جدول مرسوم في بيوته أسماء الأنبياء وأسماء الطيور . وبعد الجدول تراجم لكل اسم ترجمة خاصة به ، ويذكر فيها أمور من المنافع والمضار ، يقال للشخص غمض عينيك وضع أصبعك في الجدول . فإذا وضعها على اسم قرئت له ترجمته ليعتقد أنه يكون له ذلك المذكور منها . قال : وقد عدها العلماء من باب

الاستفهام بالأزلام .

ومراده بالفأل : الفأل المكتسب . كأن يريد إنسان التزوج أو السفر مثلاً ، فيخرج ليسمع ما يفهم منه الإقدام أو الإحجام ، ويدخل فيه النظر في المصحف لذلك : ولا يخفى أن ذلك من نوع الاستقسام بالأزلام . أما ما يعرض من غير اكتساب كأن يسمع قائلاً يقول : ما مفلح ، فليس من هذا القبيل كما جاءت به الأحاديث الصحيحة .

وعلم الكتف : علم يزعم أهل الشر والضلال أن من علمه يكون إذا نظر في أكتاف الغنم اطلع على أمور من الغيب ، وربما زعم المشتغل به أن السلطان يموت في تاريخ كذا ، وأنه يطرأ رخص أو غلاء أو موت الأعيان كالعلماء والصالحين ، وقد يذكر شأن الكنوز أو الدفائن ، ونحو ذلك . والموسيقى معروفة ، وكلها من الباطل كما لا يخفى على من له إلمام بالشرع الكريم .

والرعديات : علم يزعم أهله أن الرعد إذا كان في وقت كذا من السنة والشهر فهو علامة على أمور غيبية من جدب وخصب ، وكثرة الرواج في الأسواق وقلته ، وكثرة الموت وهلاك الماشية ، وانقراض الملك ونحو ذلك . والفرق بين العرافة والكهانة معاً ، هما

يشتركان في دعوى الاطلاع على الغيب : أن العرافة مختصة بالأمور الماضية ، والكهانية مختصة بالأمور المستقبلة اه منه .

وعلوم الشر كثيرة ، وقصدنا بذكر ما ذكرنا منها التنبيه على خستها وقبحها شرعاً ، وأن منها ما هو كفر بواح ، ومنها ما يؤدي إلى الكفر ، وأقل درجاتها التحريم الشديد . وقد دل بعض الأحاديث والآثار على أن العيافة والطرق والطيرة من السحر . وقد قدمنا معنى ذلك في « الأنعام » وعنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه :

(253/498)

« من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » رواه أبو داود بإسناد صحيح . وللنسائي من حديث أبي هريرة « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه » .

المسألة الرابعة

اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو هو تخييل لا حقيقة له . والتحقيق أن منه ما هو حقيقة كما قدمنا ، ومنه ما هو تخييل كما تقدم إيضاحه . وهو مفهوم من أقسام السحر المتقدمة في كلام الرازي وغيره .

المسألة الخامسة

اختلف العلماء فيمن يعلم السحر ويستعمله فقال بعضهم : إنه يكفر بذلك ، وهو قول جمهور العلماء منهم مالك وأبو حنيفة وأصحاب أحمد وغيرهم . وعن أحمد ما يقتضي عدم كفره . وعن الشافعي أنه إذا تعلم السحر قيل له صف لنا سحرك . فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب ، وأنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر ، وإلا فلا . وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة معروفة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق في هذه المسألة هو التفصيل . فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع ، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة « البقرة » فإنه كفر بلا نزاع . كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ الناس السحر ﴾ [البقرة : 102] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : 102] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾

[البقرة : 102] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : 69] كما تقدم إيضاحه . وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر . هذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء .

المسألة السادسة

اعلم أن العلماء اختلفوا في الساحر هل يقتل بمجرد فعله للسحر واستعماله له أو لا ؟ قال ابن كثير في تفسيره : قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله له ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا . فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك . أو يقر بذلك في حق شخص معين . وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصاً .

وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل . وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل التوبة .

وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم . وقال مالك والشافعي وأحمد : لا يقتل . يعني لقصة لبيد بن الأعصم .

واختلفوا في المسلمة الساحرة . فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ، ولكن تحبس . وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل . وقال أبو بكر الخلال : أخبرنا أبو بكر المروزي قال : قرأ على أبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهري قال : يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله أنه قال في الذمي : يقتل إن قتل بسحره . وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر : إحداهما أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل : والثانية أنه يقتل وإن أسلم .

وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : 102] لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته . لأنه كالزنديق فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاء تائباً قبلناه . فإن قتل سحره قتل . قال الشافعي فإن قال لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى .

وقال النووي في شرح مسلم : وأما تعلمه وتعليمه فحرام ، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر وإلا فلا . وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر واستتيب منه ولا يقتل عندنا ، فإن تاب قبلت توبته . وقال مالك : الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ، ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله : والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق ، لأن الساحر عنده كافر كما ذكرنا ، وعندنا ليس بكافر ، وعندنا تقبل توبة المنافق والزنديق . وقال القاضي عياض : ويقول مالك قال أحمد بن حنبل ، وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين . قال أصحابنا : فإذا قتل الساحر بسحره إنساناً واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالباً لزمه القصاص . وإن قال مات به ولكنه قد يقتل وقد لا يقتل فلا قصاص ، وتجب الدية في ماله لا على عاقلته . لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني . وقال أصحابنا : ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة ، وإنما يتصور باعتراف الساحر ، والله أعلم . انتهى كلام النووي .

وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على قول البخاري رحمه الله : (باب السحر) وقول الله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ [البقرة : 102] : وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر ومتعلمه كافر ، وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها ، وهو التعبد للشياطين أو الكواكب . وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر من تعلمه أصلاً .

قال النووي : عمل السحر حرام ، وهو من الكبائر بالإجماع ، وقد عده النَّبي صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقات ، ومنه ما يكون كفراً . ومنه ما لا يكون كفراً ، بل معصية كبيرة . فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا . وأما تعلمه وتعليمه فحرام إلى آخر كلام النووي الذي ذكرناه عنه آنفاً . ثم إن ابن حجة لما نقله عنه قال : وفي المسألة اختلاف كبير وتفاصيل ليس هذا موضع بسطها اهـ .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق في هذه المسألة إن شاء الله تعالى أن السحر نوعان كما تقدم ؟ منه ما هو كفر ، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه الكفر ، فإن كان الساحر استعمل السحر الذي هو كفر فلا شك في أنه يقتل كفراً ؟ لقوله صلى الله عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » . وأظهر القولين عندي في استتابته أنه يستتاب ، فإن تاب قبلت توبته . وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة « آل عمران

» أن أظهر القولين دليلاً أن الزنديق تقبل توبته ؟ لأن الله لم يأمر نبيه ولا أمته صلى الله عليه وسلم بالتنقيب عن قلوب الناس ؟ بل بالاكتفاء بالظاهر . وما يخفونه في سرائرهم أمره إلى الله تعالى . خلافاً للإمام مالك رحمه الله وأصحابه القائلين بأن الساحر له حكم الزنديق . لأنه مستسرّ بالكفر والزنديق لا تقبل توبته عنده إلا إذا جاء تائباً قبل الاطلاع عليه . وأظهر القولين عندي : أن المرأة الساحرة حكمها حكم الرجل الساحر وأنها إ ، كفرت بسحرها قتلت كما يقتل الرجل . لأن لفظة « من » في قوله : « من بدل دينه فاقتلوه » تشمل الأنثى على أظهر القولين وأصحهما إن شاء الله تعالى . ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ﴾ [النساء : 124] الآية . فأدخل الأنثى في لفظة « من » ، وقوله تعالى : ﴿ يانسآء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 30] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ ﴾ [الأحزاب : 31] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وإلى هذه المسألة التي هي شمول لفظه « من » في الكتاب والسنة للأنثى أشار في مراقي السعود بقوله :

وما شمول من للأنثى جنف . . . وفي شبيه المسلمين اختلفوا

وأما إن كان الساحر عمل السحر الذي لا يبلغ بصاحبه الكفر ، فهذا هو محل الخلاف بين العلماء . فالذين قالوا يقتل ولو لم يكفر بسحره قال أكثرهم : يقتل حداً ولو قتل إنساناً بسحره ، وانفرد الشافعي في هذه الصورة بأنه يقتل قصاصاً لا حداً .

وهذه حجج الفريقين ومناقشتها :

أما الذين قالوا مطلقاً إذا عمل بسحره ولو لم يقتل به أحداً فاستدلّوا بآثار عن الصحابة رضي الله عنهم ، وبحديث جاء بذلك إلا أنه لم يصح .

(260/498)

فمن الآثار الدالة على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الجهاد في باب الجزية) : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان قال : سمعت عمراً قال : كنت جالساً مع جابر بن زيد وعمرو بن أوس فحدثهما بجالة سنة سبعين عام حج مصعب بن الزبير بأهل البصرة عند درج زمزم قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف ، فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة : اقتلوا كل ساحر ، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس قال : فقتلنا في يوم واحد ثلاث سواحر وفرقنا بين المحارم منهم . ورواه أيضاً أحمد وأبو داود . واعلم أن لفظة « اقتلوا كل ساحر » الخ في هذا الأثر ساقطة في بعض روايات البخاري ، ثابتة في

بعضها ، وهي ثابتة في رواية مسدد وأبي يعلى . قاله في الفتح . ومن الآثار الدالة على ذلك أيضاً ما رواه مالك في الموطأ عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها ، وقد كانت دبرتها فأمرت بها فقتلت . قال مالك : الساحر الذي يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره هو مثل الذي قال الله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : 102] فأرى أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه انتهى من الموطأ . ونحوه أخرجه عبد الرزاق . ومن الآثار الدالة على ذلك ما رواه البخاري في تاريخه الكبير : حدثنا إسحاق . حدثنا خالد الواسطي ، عن خالد الحذاء عن أبي عثمان : كان عند الوليد رجل يعلب فذبح إنساناً وأبان رأسه ، فجاء جندب الأزدي فقتله . حدثني عمرو بن محمد ، حدثنا هشيم عن خالد عن أبي عثمان عن جندب البجلي : أنه قتله . حدثنا موسى قال حدثنا عبد الواحد عن عاصم عن أبي عثمان : قتله جندب بن كعب . وفي (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد) للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى بعد أن أشار لكلام البخاري في التاريخ الذي ذكرنا ، ورواه البيهقي في الدلائل

مطولاً ، وفيه : فأمر به الوليد فسجن . فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة انتهى منه .

فهذه آثار عن ثلاثة من الصحابة في قتل الساحر : وهم عمر وابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنهم جميعاً ، وجندب ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة رضي الله عنهم . ويعتضد ذلك بما رواه الترمذي والدارقطني عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربه بالسيف » وضعف الترمذي إسناد هذا الحديث وقال : الصحيح عن جندب موقوف ، وتضعيفه بأن في إسناده إسماعيل بن مسلم المكي وهو يضعف في الحديث . وقال في (فتح المجيد) أيضاً في الكلام على حديث جندب المذكور : روى ابن السكن من حديث بريدة أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال :

« يضرب ضربة واحدة فيكون أمة وحده » اه منه .

وقال ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر تضعيفه بإسماعيل المذكور : قلت قد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً اه . وهذا يقويه كما ترى .

فهذه الآثار التي لم يعلم أن أحداً من الصحابة أنكرها على من عمل بها مع اعتضادها بالحديث المرفوع المذكور هي حجة من قال بقتله مطلقاً . والآثار المذكورة والحديث فيهما

الدلالة على أنه يقتل ولو لم يبلغ به سحره الكفر . لأن الساحر الذي قتله جندب رضي الله عنه كان سحره من نحو الشعوذة والأخذ بالعيون ، حتى إنه يخيل إليهم أنه أبان رأس الرجل ، والواقع بخلاف ذلك . وقول عمر « اقتلوا كل ساحر » يدل على ذلك لصيغة العموم . وممن قال بمقتضى هذه الآثار وهذا الحديث : مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد في أصح الروايتين ، وعمر ، وعثمان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس بن سعد ، وعمر بن عبد العزيز . وغيرهم ، كما نقله عنهم ابن قدامة في (المغني) خلافاً للشافعي ، وابن المنذر ومن وافقهما .

واحتج من قال : بأنه إن كان سحره لم يبلغ به الكفر لا يقتل بحديث ابن مسعود المتفق عليه « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث . . . » الحديث ، وقد قدمناه مراراً . وليس السحر الذي لم يكفر صاحبه من الثلاث المذكورة . قال القرطبي منتصراً لهذا القول : وهذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ، ولا يقين مع الاختلاف ، والله أعلم .

واحتجوا أيضاً بأن عائشة رضي الله عنها باعت مدبرة لها سحرتها ، ولو وجب قتلها لما حل بيعها . قاله ابن المنذر وغيره. وما حاوله بعضهم من الجمع بين الأدلة المذكورة بحمل السحر على الذي يقتضي الكفر في قول من قال بالقتل ، وحمله على الذي لا يقتضي الكفر في قول من قال بعدم القتل لا يصح . لأن الآثار الواردة في قتله جاءت بقتل الساحر الذي سحره من نوع الشعوذة كساحر جندب الذي قتله ، وليس ذلك مما يقتضي الكفر المخرج من ملة الإسلام ، كما تقدم إيضاحه. فالجمع غير ممكن . وعليه فيجب الترجيح ، فبعضهم يرجح عدم القتل بأن دماء المسلمين حرام إلا بيقين . وبعضهم يرجح القتل بأن أدلته خاصة ولا يتعارض عام وخاص . لأن الخاص يقضي على العام عند أكثر أهل الأصول كما هو مقرر في محله .

قال مقيده عفا الله عنه : والأظهر عندي أن الساحر الذي لم يبلغ به سحره الكفر ولم يقتل به إنساناً أنه لا يقتل . لدلالة النصوص القطعية ، والإجماع على عصمة دماء المسلمين عامة إلا بدليل واضح . وقتل الساحر الذي لم يكفر بسحره لم يثبت فيه شيء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، والتجرؤ على دم مسلم من غير دليل صحيح من كتاب أو سنة مرفوعة غير ظاهر عندي .

والعلم عند الله تعالى ، مع أن القول بقتله مطلقاً قوي جداً لفعل الصحابة له من غير نكير .

المسألة السابعة

اعلم أن الناس اختلفوا في تعلم السحر من غير عمل به . هل يجوز أو لا ؟ والتحقيق وهو الذي عليه الجمهور : هو أنه لا يجوز ، ومن أصرح الأدلة في ذلك تصريحه تعالى بأنه يضر ولا ينفع في قوله : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة : 102] وإذا أثبت الله أن السحر ضار ونفى أنه نافع فكيف يجوز تعلم ما هو ضرر محض لا نفع فيه ! ؟

وجزم الفخر الرازي في تفسيره في سورة « البقرة » بأنه جائز بل واجب قال ما نصه :

(265/498)

(المسألة الخامسة) في أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور ، اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف ، وأيضاً لعموم قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ، ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً ، وما يكون واجباص كيف يكون حراماً وقبيحاً .

انتهى منه بلفظه . ولا يخفى سقوط هذا الكلام وعدم صحته . وقد تعقبه ابن كثير رحمه الله في تفسيره بعد أن نقله عنه بلفظه الذي ذكرنا بما نصه : وهذا الكلام فيه نظر من وجوه :

أحدها قوله : « العلم بالسحر ليس بقبيح » إن عنى به ليس بقبيح عقلاً فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا ، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعاً ففي هذه الآية الكريمة يعني قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة : 102] تبشيع لعلم السحر . وفي السنن « من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد » ، وفي السنن « من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر » وقوله « ولا محظور ، اتفق المحققون على ذلك » كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث ، واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم . وأين نصوصهم على ذلك ! !

ثم إدخاله علم السحر في عموم قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] فيه نظر . لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي ، ولم قلت إن هذا منه ! ! ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به ضعيف بل فاسد . لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً .

(267/498)

ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ، ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم . انتهى .

ولا يخفى أن كلام ابن كثير هذا صواب ، وأن رده على الرازي واقع موقعه ، وأن تعلم السحر لا ينبغي أن يختلف في منعه . لقوله جل وعلا : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة : 102] . وقول ابن كثير في كلامه المذكور : وفي الصحيح « من أتى عرافاً أو كاهناً . . الخ » إن كان يعني أن الحديث بذلك صحيح فلا مانع ، وإن كان يعني أنه في الصحيحين أو أحدهما فليس كذلك . وبذلك كله تعلم أن قول ابن حجر في (فتح الباري) . وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأمرين : إما لتمييز ما فيه كفر من غيره . وإما لإزالته عمن وقع فيه . فأما الأول : فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد ، فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا تستلزم منعاً . كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان . لأن كيفية ما يعلمه الساحر إنما هي حكاية قول أو فعل ، بخلاف تعاطيه والعمل

به .

وأما الثاني فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلاً ، وإلا جاز للمعنى المذكورا ه خلاف التحقيق ، إذ ليس لأحد أن يبيح ما صرح الله بأنه يضر ولا ينفع ، مع أن تعلمه قد يكون ذريعة للعمل به ، والذريعة إلى الحرام يجب سدها كما قدمناه . قال في المراقي :

سد الذرائع إلى المحرم . . . حتم كفتحها إلى المنحتم

هذا هو الظاهر لنا . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثامنة

اعلم أن العلماء اختلفوا في حل السحر عن المسحور . فأجازه بعضهم ، ومنعه بعضهم . وممن أجازه سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى . قال البخاري في صحيحه (باب هل يستخرج السحر) : وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته ، أيحل عنه ، أو ينشر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح . فأما ما ينفع فلم ينه عنه ا ه . ومال إلى هذا المزني . وقال الشافعي : لا بأس بالنشرة . قاله القرطبي . وقال

أيضاً : قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه : أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل . فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله انتهى منه .

وممن أجاز النشرة وهي حل السحر عن المسحور : أبو جعفر الطبري ، وعامر الشعبي وغيرهما . وممن كره ذلك : الحسن . وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم لما سحره لبيد بن الأعصم : هل تنشرت ؟ فقال :

« أما الله فقد شفاني وكرهت أن أثير على الناس شراً » .

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة : أن استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين ، وآية الكرسي ونحو ذلك مما تجوز الرقيا به فلا مانع من ذلك . وإن كان بسحر أو بألفاظ عجمية ، أو بما لا يفهم معناه ، أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع . وهذا واضح وهو الصواب إن شاء الله تعالى كما ترى .

وقال ابن حجر في فتح الباري ما نصه : (تكميل) قال ابن القيم رحمه الله : من أنفع الأدوية

، وأقوى ما يوجد من النشرة مقاومة السحر الذي هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية : من الذكر ، والدعاء ، والقراءة ، فالقلب إذا كان ممتلئًا من الله ، معموراً بذكره ، وله ورد من الذكر والدعاء والتوجه ، لا يخل به كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له . وسلطان تأثير السحر هو في القلوب الضعيفة . ولهذا غالب ما يؤثر فيه النساء والصبيان والجهال . لأن الأرواح الخبيثة إنما تنشط على الأرواح ، تلقاها مستعدة لما يناسبها انتهى ملخصاً . ويعكر عليه حديث الباب ، وجواز السحر على النَّبي صلى الله عليه وسلم ، مع عظيم مقامه ، وصدق توجهه ، وملازمة ورده ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذي ذكره محمول على الغالب ، وإنما وقع به صلى الله عليه وسلم لبيان تجويز ذلك ، والله أعلم انتهى من فتح الباري .

المسألة التاسعة

اعلم أن العلماء اختلفوا في تحقيق القدر الذي يمكن أن يبلغه تأثير السحر في المسحور ، واعلم أن لهذه المسألة واسطة وطرفين : طرف لا خلاف في أن تأثير السحر يبلغه كالتفريق بين الرجل وامرأته ، وكالمرض الذي يصيب المسحور من السحر ونحو ذلك ، ودليل ذلك

القرآن والسنة الصحيحة. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة: 102] فصرح جل وعلا في هذه الآية الكريمة بأن من تأثير السحر التفريق بين المرء وزوجه. وأما السنة فما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها بألفاظ متعددة متقاربة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة؟ قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان» قالت: فأتى النَّبي صلى الله عليه وسلم البئر حتى استخرجه، فقال:

«هذه البئر التي رأيتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأنه نخلها رؤوس الشياطين، فاستخرج» قالت فقلت: أفلا أي تنشرت؟ فقال: «أما الله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» اهـ هذا لفظ البخاري في بعض رواياته لهذا الحديث. والقصة

مشهورة صحيحة. ففي هذا الحديث الصحيح: أن تأثير السحر فيه صلى الله عليه وسلم سبب له المرض. بدليل قوله «أما الله فقد شفاني» وفي بعض الروايات الثابتة في صحيح البخاري وغيره بلفظ: فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال مطبوب. أي مسحور. وهو تصريح بأن السحر سبب له وجعاً. ونفي بعض الناس لهذه القصة مستدلاً بأنها لا تجوز في حقه صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى عن الكفار منكراً عليهم. ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: 47] ساقط. لأن الروايات الصحيحة الثابتة لا يمكن ردها بمثل هذه الدعاوى. وسترى في آخر بحث هذه المسألة إن شاء الله تعالى إيضاح وجه ذلك. وطرف لا خلاف في أن تأثير السحر لا يمكن أن يبلغه. كإحياء الموتى. وفلق البحر ونحو ذلك.

قال القرطبي في تفسيره: أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع، وفلق البحر، وقلب العصا، وإحياء الموتى، وإنطاق العجماء، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون لا يفعله الله عند إرادة الساحر. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه انتهى كلام القرطبي.

وأما الواسطة فهي محل خلاف بين العلماء ، وهي هل يجوز أن ينقلب بالسحر الإنسان حماراً مثلاً ، والحمار إنساناً ؟ وهل يصح أن يطير الساحر في الهواء ، وأن يستدق جسمه حتى يدخل من كوة ضيقة . وينتصب على رأس قصبة ، ويجري على خيط مستدق ، ويمشي على الماء ، ويركب الكلب ونحو ذلك . فبعض الناس يجيز هذا . وجزم بجوازه الفخر الرازي في تفسيره ، وكذلك صاحب رشد الغافل وغيرهما . وبعضهم يمنع مثل هذا .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما بالنسبة إلى أن الله قادر على أن يفعل جميع ذلك ، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب وإن لم تكن هناك مناسبة عقلية بين السبب والمسبب كما قدمناه مستوفى في سورة « مريم » فلا مانع من ذلك ، والله جل وعلا يقول ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : 102] . وأما بالنسبة إلى ثبوت وقوع مثل ذلك بالفعل فلم يقم عليه دليل مقنع . لأن غالب ما يستدل عليه به قائله حكايات لم تثبت عن عدول ، ويجوز أن يكون ما وقع منها من جنس الشعوذة والأخذ بالعيون ، لا قلب الحقيقة مثلاً إلى حقيقة أخرى .

وهذا هو الأظهر عندي ، والله تعالى أعلم .

تنبيه

اعلم أن ما وقع من تأثير السحر في رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستلزم نقصاً ولا محالاً شرعياً حتى ترد بذلك الروايات الصحيحة . لأنه من نوع الأعراض البشرية ، كالأمراض المؤثرة في الأجسام ، ولم يؤثر البتة فيما يتعلق بالتبليغ . واستدلال من منع ذلك زاعماً أنه محال في حقه صلى الله عليه وسلم بآية ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء : 47] مردود كما سنوضحه إن شاء الله في آخر هذا البحث .

قال ابن حجر في الفتح : قال المازري : أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث ، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها . قالوا : وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل . وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع ، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه شيء . قال المازري : هذا كله مردود . لأن الدليل قد قام على صدق النَّبي صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن الله تعالى ، وعلى عصمته في التبليغ . والمعجزات شاهدات بتصديقه . فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل . وأما ما يتعلق ببعض أ/ور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ، ولا كانت الرسالة من أجلها ، فهو في ذلك عرضة لما يعتري البشر كالأمراض . فغير بعيد أن يخيل الله في أمر من أمور الدنيا

ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين . قال : وقد قال بعض الناس : إن المراد بالحديث : أنه كان صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطئهن وهذا كثيراً ما يقع تخيله للإنسان في المنام . فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة .

قلت : وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابن عيينة في الباب الذي يلي هذا ، ولفظه : « حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن » وفي رواية الحميدي « أنه يأتي أهله ولا يأتيهم » قال الداودي : « يرى » بضم أوله أي يظن . وقال ابن التين : ضبطت « يرى » بفتح أوله . قلت : وهو من الرأي لا من الرؤية فيرجع إلى معنى الظن .

وفي مرسل يحيى بن يعمر عند عبد الرزاق : سحر النّبي صلى الله عليه وسلم عن عائشة ، حتى أنكر بصره . وعنده في مرسل سعيد بن المسيب : حتى كاد ينكر بصره . قال عياض فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على تمييزه ومعتقده .

قلت : ووقع في مرسل عبد الرحمن بم كعب عند ابن سعد : فقالت أخت لبيد بن الأعصم : إن يكن نبيّاً فسيخبر ، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله : قلت : فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث الصحيح .

وقد قال بعض العلماء : لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك ، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت . فلا يبقى على هذا للملحد حجة .

وقال عياض : يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء ، فإذا دنا من المرأة فتر من ذلك كما هو شأن المعقود : ويكون قوله في الرواية الأخرى « حتى كاد ينكر بصره » أي صار كالذي أنكر بصره بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل إليه أنه على غير صفته . فإذا تأمله عرف حقيقته . ويؤيد جميع ما تقدم أنه لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به . وقال المهلب : صون النَّبي صلى الله عليه وسلم من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده ، فقد مضى في الصحيح : أن شيطاناً أراد أن يفسد عليه صلاته ، فأمكنه الله منه . فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصاً على ما يتعلق بالتبليغ ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض : من ضعف عن الكلام ، أو عجز عن بعض الفعل ، أو حدوث تخيل لا يستمر بل يزول . ويبطل الله كيد الشياطين .

واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث : « أما أنا فقد شفاني الله » وفي الاستدلال به نظر . لكن يؤيد المدعي أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل : فكان يدور ولا يدري ما وجعه . وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد : مرض النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ عن النساء والطعام والشراب . فهبط عليه ملكان . الحديث انتهى من (فتح الباري) .

وعلى كل حال فهو صلى الله عليه وسلم معصوم بالإجماع من كل ما يؤثر خللاً في التبليغ والتشريع . وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية : كأنواع الأمراض والآلام ، ونحو ذلك فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتريهم من ذلك ما يعتري البشر . لأنهم بشر كما قال تعالى عنهم : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : 11] ونحو ذلك من الآيات .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء : 47] فمعناه أنهم يزعمون أنه صلى الله عليه وسلم مسحور أو مطبوب ، قد خبله السحر فاختلط عقله فالتبس عليه أمره . يقولون ذلك لينفروا الناس عنه . وقال مجاهد : «

مسحوراً » أي مخدوعاً . مثل قوله ﴿ فأنى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 89] أي من أين تخدعون . ومعنى هذا راجع إلى ما قبله . لأن المخدوع مغلوب في عقله . وقال أبو عبيدة ﴿ مَّسْحُوراً ﴾ معناه أن له سحراً أي رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب ، فهو مثلكم وليس بملك .

(277/498)

كقولهم ﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام ويَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] ، وقوله عن الكفار ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 33-34] ونحو ذلك من الآيات . ويقال لكل من أكل أو شرب من آدمي أو غيره : مسحور ومسحر . ومنه قول لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا . . . عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب . . . ونسحر بالطعام وبالشراب

أي نغذى ونعلل .

وإذا علمت أن أقوال العلماء في قوله « مَّسْحُوراً » راجعة إلى دعواهم اختلال عقله

بالسحر أو الخديعة ، أو كونه بشراً علمت أنه لا دليل في الآية على منع بعض التأثيرات العرضية التي لا تعلق لها بالتبليغ والتشريع كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

وقد أشرنا فيما تقدم لحكم ساحر أهل الذمة ، واختلاف العلماء في قتله ، واستدلال من قال بأنه لا يقتل بعدم قتله صلى الله عليه وسلم لبيد بن الأعصم الذي سحره . والقول بأنه قتله ضعيف ، ولم يثبت أنه قتله . وأظهر الأقوال عندنا أنه لا يكون أشد حرمة من ساحر المسلمين ، بل يقتل كما يقتل ساحر المسلمين . وأما عدم قتله صلى الله عليه وسلم لابن الأعصم فقد بينت الروايات الصحيحة أنه ترك قلته اتقاء إثارة فتنة ، فدل على أنه لولا ذلك لقتله . وقد ترك المنافقين لئلا يقول الناس محمد يقتل أصحابه . فيكون في ذلك تنفير عن دين الإسلام مع اتفاق العلماء على قتل الزنديق وهو عبارة عن المنافق والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(278/498)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

تقدمت هذه القصة ومعانيها في سورة الأعراف سوى أن الأوليّة هنا مصرّح بها في أحد

الشقّين .

فكانت صريحة في أن التخيير يتسلط على الأولية في الإلقاء ، وسوى أنه صرّح هنا بأن السحر الذي ألقوْهُ كان بتخييل أن حبالهم وعصيّهم ثعابين تسعى لأنها لا يشبهها في شكلها من أنواع الحيوان سوى الحيات والثعابين .

والمفاجأة المستفادة من (إذا) دلّت على أنهم أعدّوها للإلقاء وكانوا يخشون أن يمرّ زمان تزول به خاصياتها فلذلك أسرعوا بإلقائها .

وقرأ الجمهور ﴿ يُخيّل بتحتيّة في أول الفعل على أن فاعله المصدر من قوله أنَّها تسعى ﴾ .

وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر ، ورَوحٌ عن يعقوب "تُخيّل" بفوقية في أوله على أنّ الفعل رافع لضمير ﴿ حِبَالُهُم وعِصِيُّهُم ﴾ ، أي هي تخيل إليه .

و ﴿ أَنَّها تسعى ﴾ بدل من الضمير المستتر بدل اشتمال .

وهذا التخييل الذي وجده موسى من سحر السحرة هو أثر عقاقير يُشرِبونها تلك الحبالَ والعصيّ ، وتكون الحبال من صنف خاص ، والعصيّ من أعواد خاصة فيها فاعلية لتلك العقاقير ، فإذا لاقت شعاع الشمس اضطربت تلك العقاقير فتحركت الحبال والعصيّ .

قيل : وضعوا فيها طِلاءَ الزئبق .

وليس التخييل لموسى من تأثير السحر في نفسه لأنّ نفس الرسول لا تتأثر بالأوهام ، ويجوز أن تتأثر بالمؤثرات التي يتأثر منها الجسد كالمرض ، ولذلك وجب تأويل ظاهر حديث

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في سحر النبي صلى الله عليه وسلم وأخبار الآحاد لا تنقض القواطع.

وليس هذا محلّ ذكره وقد حققته في كتابي المسمّى "النظر الفسيح" على صحيح البخاري.

و﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ مِن سِحْرِهِم ﴾ للسببيّة كما في قوله تعالى: ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ [نوح: 25].

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) ﴾

أوجس: أضمر واستشعر.

(279/498)

وانتصاب ﴿ خيفةً على المفعولية، أي وجد في نفسه.

وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى: ﴿ نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ في سورة هود (70).

وخِيفَةً ﴾ اسم هيئة من الخوف، أريد به مطلق المصدر، وأصله خِوْفة، فقلبت الواو ياء لوقوعها أثر كسرة.

وزيادة ﴿ فِي نَفْسِهِ ﴾ هنا للإشارة إلى أنها خيفةُ تفكُّرٍ لم يظهر أثرها على ملامحه.

وإنما خاف موسى من أن يظهر أمر السحرة فيساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعباناً، لأنه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاقوه بالكثرة، أو خشي أن يكون الله أراد استدراج السحرة مدّة فيملي لهم بظهور غلبهم عليه ومدّه لما تكون له العاقبة فخشي ذلك.

وهذا مقام الخوف، وهو مقام جَليل مِثْلُه مقام النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر إذ قال:

﴿ اللهم إني أسألك نصرك ووعدك اللّهم إن شئت لم تُعبد في الأرض ﴾

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعلى ﴾ فتأكيد الجملة بحرف التأكيد وتقويةُ تأكيدها بضمير الفصل وبالتعريف في ﴿ الأعلى ﴾ دليل على أن ما خامره من الخوف إنّما هو خوف ظهور السحرة عند العامة ولو في وقت ما.

وهو وإن كان موقناً بأن الله ينجز له ما أرسله لأجله لكنه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدّة قليلة لإظهار ثبات إيمان المؤمنين، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَغُرنك تقلُّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [آل عمران: 196، 197].

وعبّر عن العصا بـ ﴿ مَا ﴾ الموصولة تذكيراً له بيوم التكليم إذ قال له: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ [طه: 17] ليحصل له الاطمئنان بأنها صائرة إلى الحالة التي صارت إليها يومئذ، ولذلك لم يقل له: وألق عصاك.

والتّلقف: الابتلاع.

وقرأه الجمهور بجزم ﴿ تلقّفْ في جواب قوله وَأَلْقِ ﴾.

وقرأه ابن ذكوان برفع ﴿ تلقّف على الاستئناف.

وقرأ الجمهور تَلَقّف بفتح اللام وتشديد القاف.

وقرأه حفص بسكون اللاّم وفتح القاف من لِقف كفرِح.

وجملة إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحر ﴾ مستأنفة ابتدائية، وهي مركّبة من (إنّ) و(مَا)

الموصولة.

و﴿ كيد ساحر ﴾ خبر (إنّ).

والكلام إخبار بسيط لا قصر فيه.

وكتب (إنما) في المصحف موصولة (إنّ) بـ(ما) الموصولة كما توصل بـ(ما) الكافّة في

نحو ﴿ إنما حرّم عليكم الميتة ﴾ [البقرة: 173] ولم يكن المتقدمون يتوخّون الفروق في

رسم الخط.

وقرأ الجمهور ﴿ كيد ساحر بألف بعد السين.

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف كيد سِحر بكسر السين.

وجملة ولا يُفلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتى ﴾ من تمام الجملة التي قبلها، فهي معطوفة عليها وحال من ضمير ﴿ إنَّمَا صَنَعُوا ﴾، أي لا يَنجحُ الساحر حيث كان، لأن صنعته تنكشف بالتأمل وثبات النفس في عدم التأثّر بها.

وتعريف ﴿ الساحر تعريف الجنس لقصد الجنس المعروف، أي لا يفلح بها كلّ ساحر.

واختير فعل أتى ﴾ دون نحو: حيث كانَ، أو حَيث حلّ، لمراعاة كون معظم أولئك السحرة مجلوبون من جهات مصر، وللرعاية على فواصل الآيات الواقعة على حرف الألف المقصورة.

وتعميم ﴿ حَيْثُ أتى ﴾ لعموم الأمكنة التي يحضرها، أي بسحره.

وتعليق الحكم بوصف الساحر يقتضي أن نفي الفلاح عن الساحر في أمور السحر لا في تجارة أو غيرها.

وهذا تأكيد للعموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي، لأنّ عموم الأشياء يستلزم عموم الأمكنة التي تقع فيها. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

تُلْقي : ترمي . والمراد أن يرمي واحد منهم ما أعدّه من سحر ، فاختار موسى أنْ يُلْقُوا هم أولاً .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) ﴾

لأنهم إنْ ألقوا سِحْرهم كانت للعصا مهمة حين يلقيها موسى ، فأراد أن يكون للعصا حركة بعد أن تنقلب إلى ثعبان أو حية أو جان ، وإلا لو ألقى هو أولاً ، فماذا سيكون عملها ؟

وقد ألهم الله تعالى سحرة فرعون هذه الأدب في معركتهم مع موسى ، فخيّروه بين أنْ يلقي هو ، أو يلقوا هُمْ ، والله تبارك وتعالى يحُول بين المرء وقلبه ، فألهمهم ذلك مع أنهم خصومه ، وأنطقهم بما يؤيد صاحب المعجزة الخالدة ، فقالوا : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلقى ﴾ [طه : 65] .

وقد اختار موسى عليه السلام أنْ يُلقي أخيراً ؛ لأن التجربة التي مرّ بها في طوى مع ربه عز وجل لما قال له ربه : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ [طه : 19] .

فلما ألقى موسى عصاه انقلبتْ إلى حيَّة تسعى ورأى هو حركتها ، لكن لم يكُنْ بهذه التجربة شيء تلقفه العصا ، فإذا ألقى موسى أولاً وتحوَّلَتْ العصا حية أو ثعباناً ، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التي تحولتْ أمامهم إلى حيّات وثعابين ؟

إذن : لا بُدَّ من شيء يُميِّز عصا موسى كمعجزة عن سِحْر السحرة وشعوذتهم ؛ لذلك اختار موسى أنْ يُلقي هو آخراً بإلهام من الله حتى تلقف عصاه ما يأفكون ، فما يُلقَف لا بُدَّ أن يسبق ما يَلْقُف .

(282/498)

فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فَرْق بين عصا موسى وحبال السحرة وعِصِيهم ، فكلها تتحرك ، إنما تميزت عصا موسى بأنها تلقف ما يصنعون من السحر ، وتتتبع حبالهم وعِصيَّهم ، وتقفز هنا وهناك ، فلها إذن عَيْن تبصر ، ثم تلقف سحرهم في جوفها ، ومع ذلك تظل كما هي لا تنتفخ بطنها مثلاً ، وهذا هو موضع المعجزة في عصا موسى عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66] إذن : فحركة العِصِيّ والحبال ليستْ حركة حقيقية ، إنما هي تخيُّل ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ [طه : 66] فيراها تسعى ، وهي ليست كذلك .

وقد قال تعالى عن هؤلاء السحرة : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس ﴾ [الأعراف : 116]

فجاءوا بأعمال تخيُّلية خادعة بأيِّ وسيلة كانت ، فالبعض يقول مثلاً : إنهم وضعوا بها

الزئبق ، فلما حَمِيَتْ عليه الشمس تمدّد ، فصارتْ الأشياء تتلوّى وتتحرك ، فأياً كانت وسائلهم فهي مجرد تخيُّلات ، أمَّا الساحر نفسه فيراها حِبَالاً على حقيقتها ، وهذا هو الفرق بين سِحْر السحرة ، ومعجزة عصا موسى .

والسحر يختلف عن الحِيَل التي تعتمد على خِفَّة الحركة والألاعيب والخُدَع ، فالسحر أقرب ما يكون إلى الحقيقة في نظر الرائي ، كما قال تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر ﴾ [البقرة : 102] .

إذن : هو فَنٌّ يُتعلم ، يعطي التخييل بواسطة تسخير الجنِّ ، فهم الذين يقومون بكل هذه الحركات ، فهي إذن ليستْ حيلاً ولا خفة حركة ، إنما هي عملية لها أصول وقواعد تُدرَّس وتُتعلَّم .

والخالق عز وجل حينما يعرض علينا قضية السحر ، وأنه عبارة عن تَسخير الشياطين لخدمة الساحر ، ويجعل لكل منهما القدرة على مضرّة الآخرين : الساحر بالسحر ، والشياطين بما لديهم من قوة التشكّل في الأشكال المختلفة والنفاذ من الحواجز ؛ لأن الجن

خُلقوا من النار ، والنار لها شفافية تنفذ خلال الجدار مثلاً .

أما الإنسان فَخُلِق من الطين ، والطين له كثافة ، وضربنا مثلاً لنقرب هذه المسألة ، قلنا : هَبْ أنك تجلس خلف جدار ، ووراء هذا الجدار تفاحة مثلاً وهي من الطينية المتجمدة ، أيصل إليك من التفاحة شيء ؟ إنما لو خلف الجدار نار فسوف تشعر من خلال الجدار بحرارتها . هذه إذن خصوصيات جعلها الخالق عز وجل للشياطين فضلاً عن أنهم يرونكُم من حيث لا ترونهم .

لكن ، كان من لُطْف القدير بنا أن جعل لنا ما يحمينا من الشياطين ، فجعل الحق تبارك وتعالى حين يتشكَّلون في الأشكال المختلفة تحكمهم هذه الأشكال ، بمعنى لو أن الشيطان تشكّل لك في صورة إنسان فقد حكمتْه هذه الصورة ، فلو أطلقتَ عليه الرصاص في هذه اللحظة لقتلتَه فعلاً .

لذلك ؛ فالشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه ، ولا يظهرون لنا إلا ومضة ولمحة سريعة خَوْفاً أن يكون الرائي له على عِلْم بهذه المسألة فيمسك به وساعتها لن يفلت منك .

وقد أمسك النبي صلى الله عليه وسلم شيطاناً وقال : " لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ، يلعب به غلمان المدينة ، إلا أنني ذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ [ص : 35] " .

إذن : الحق سبحانه أعطاهم خصوصية التشكّل كما يحبون ، إنما قيدهم بما يشكّلون به ،

كأنه يقول له : إذا تركتَ طبيعتك وتشكَّلت بصورة أخرى فارْضَ بأنْ تحكمك هذه الصورة ، وأن يتحكم فيك الأضعف منك ، وإلا لَفزّعوا الناس وأرهبوهم ، ولم نسلم من شَرّهم .

وكذلك الحال مع الساحر نفسه ، فلديه بالسحر والطلاسم أن يُسخّر الجن يفعلون له ما يريد ، وهذه خصوصية تفوق بها قدرته قدرةَ الآخرين ، ولديه بالسحر فُرْصة لا تتوفر لغيره من عامة الناس ، فليس بينه وبين تكافؤ في الفُرص .

والله عز وجل يريد لخَلْقه أنْ تتكافأ فُرصهم في حركة الحياة فيقول الساحر : إياك أن تفهم أن ما يسَّرته لك من تسخير الأقوى منك ليقدر على ما لا تقدر عليه يفيدك بشيء . أو أنك أخذتَ بالسحر فرصةً على غيرك ، بل العكس هو الصحيح فلن تجنيَ من سِحْرك إلا الضرر والشقاء ، فالسحر فتنة للإنسان ، كما أنه فتنة للجن .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : 102] .

والفتنة هنا معناها أن نختبر استعماله لمدى مَا اعدَّه الله له ، أيستعمله في الخير أم في الشر ؟

فإنْ قُلْتَ : أتعلَّم السحر لأستعمله في الخير . نقول : هذا كلامك ساعة التحمُّل ، ولا

تضمن نفسك ساعة الأداء . كما قلنا سابقاً في تحمُّل الأمانة حين تقبلها ساعة التحمل ، وأنت واثق من قدرتك على أدائها في وقتها ، ومطمئنٌ إلى سلامة نيتك في تحمُّلها ، أما وقت الأداء فربما يطرأ عليك ما يُغيّر نيتك .

وكما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

فاخترْنَ التسخير على الاختيار وحَمْل الأمانة ؛ لأنهن لا يضمَنَّ القيام بها .

وقد أعذر الله تعالى إلى السحرة في قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : 102] .

(285/498)

كأن الساحر مآله إلى الكفر ؛ لأنه ابن أهواء وأغيار ، لا يستطيع أن يتحكّم في نفسه فيُسخِّر قوة السحر في الخير ، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُسخِّر القوى للخير : أيُسخِّر الطائع ؟ أم يُسخِّر العاصي ؟ سيُسخِّر الطائع ، والجن الطائع لا يرضى أبداً بهذه المسألة .

إذن : لن يستطيع الساحر إلا تسخير الجن العاصي ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطين

لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام: 121] .

لذلك تلاحظ أن كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب، وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشُؤْمها، ينفر منهم مَنْ رآهم، يعيشون في أضيق صور العيش، فترى الساحر يأخذ من هذا، ويأخذ من هذا، ويبتز الناس ويخدعهم، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش في ضيق، ويموت كافراً مُبْعَداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلمون من شُؤْمه، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن: 6] .

كما أن في حياة السحرة لفتة، يجب أن نلتفت إليها، وهي أن السحرة الذين يصنعون السحر للناس ويخدعونهم: من أين يرتزقون؟ من عامة الناس الذين لا يفهمون في السحر شيئاً، ولو أنه أفلح بالسحر لأغنى نفسه عن أنْ تمتد يده إلى هذا، فيأخذ منه عدة جنيهات، وإلى هذا يطلب منه أشياء غريبة يُوهمه أن مسألته لن تُحَلّ إلا بها .

ولماذا لم يستخدم سحره في سرقة خزينة مثلاً ويريح نفسه من هذا العناء، وإنْ قال: كيف وهي أموال الناس والسطو عليها سرقة، فليذهب إلى الرِّكاز وكنوز الأرض فليست مملوكة لأحد .

نعود إلى سحرة فرعون؛ أياً كان سحرهم أَمِنْ نوع الألاعيب وخِفّة الحركة وخداع

الناظرين ؟ أم من نوع السحر الذي علّمته الشياطين من زمن سليمان عليه السلام فهو سحر لن يقف أمام معجزة باهرة جاءت على يد موسى لإثبات صدقه .

(286/498)

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾

أوجس : من الإيجاس ، وهو تحرّك شيء مخيف في القلب لا يتعدّى إلى الجوارح ، فإنْ تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعي ، كأن يهرب أو يجري ، فالعمل النزوعي يأتي بعد الإحساس الوجداني ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ فِي نَفْسِهِ ﴾ [طه : 67] .

وقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعِصيّهم تتحول أمام النظارة إلى حيّات وثعابين ، وربما اكتفى المشاهدون بما رأَوْه فهرجوا عليه وأنهوا الموقف على هذا أنْ يتمكّن هو من عمل شيء . فإنْ قُلْت : فلماذا لم يُلْقِ عصاه وتنتهي المسألة ؟ نقول : لأن أوامره من الله أولاً بأول ، وهو معه يتتبعه سماعاً ورؤية ، فتأتيه التعاليم جديدة مباشرة .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) ﴾

هذا حكم الله عز وجل يأتي موسى على هيئة برقية مختصرة ﴿ أَنتَ الأعلى ﴾ [طه :

68] أنت المنصور الفائز فاطمئن، لكن تتحرك في موسى بشريته : منصور كيف ؟

وهنا يأتيه الأمر العملي التنفيذي بعد هذا الوعد النظري، وكأن الحق سبحانه متتبع لكل حركات نبيه موسى، ولم يتركه يباشر هذه المسألة وحده، إنما كان معه يسمع ويرى، فيردُّ على السماع بما يناسبه، ويردُّ على الرؤية بما يناسبها . ودائماً يرهف النبي سمعه وقلبه إلى ما يُلْقي عليه من توجيهات ربه عز وجل؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] .

فسيأتيك الرد المناسب في حينه . إذن : الحق سبحانه لم يخبر موسى بمهمته مع فرعون ثم تركه يباشرها بنفسه، وإنما تمَّتْ هذه المسألة بتوجيهات مباشرة من الله تعالى .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾

وهذا أصل المعجزة في عصا موسى، أن تلقف وتبتلع ما يأفكون من السحر وكلمة ﴿ تَلْقَفْ ﴾ [طه : 69] تعطيك الصورة الحركية السريعة التي تُشبه لمح البصر، تقول : تلقفتُه يعني أخذتُه بسرعة وشدة، وهذه هي العِلّة في العصا أن تلقف ما صنعوا من السحر ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ [طه : 69] والكَيْد : التدبير الخفيّ للتغلُّب على

الخَصْم ، لكن ماذا يفعل كَيْد الساحر وألاعيبه وتلفيقه أمام قدرة الرب تبارك وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ [طه : 69] سبق أنْ تكلّمنا في مسألة فَلاَح الساحر ، وأنه مهما أُوتِي من قدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس ، فلن يعطيه ذلك مَيْزةً على غيره ، ولن تكون له قدرة على شيء .

فإياكم أن تظنوا أن الله تعالى ملَّك مصالحكم لهؤلاء ، صحيح هو يفعل ، أما الإصابة والأذى فبإذن الله وتحت عنايته : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 102] وهذه القضية لا تنسحب على الساحر فحسب ، إنما على الوجود كله ، وإلى أنْ تقوم الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(288/498)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويذهبا

بطريقتكم المثلى ﴾ قالوا : أولو العقل والشرف والأسنان .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ووكيع في الغرور ، عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله :

﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ قال باشرافكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى

﴾ قال : يذهبا بالذي أنتم عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى

﴾ قال : من غلب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ تلقف ما

صنعوا ﴾ قال : ألقاها موسى فتحوّلت حية تأكل حبالهم وما صنعوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أخذتم الساحر فاقتلوه" ثم قرأ ﴿ ولا يفلح

الساحر حيث أتى ﴾ قال : لا يأمن حيث وجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5

صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) ﴾

قوله : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ تقديرُه : اخْتَرْ أحدَ الأمرين ، كذا قدَّره الزمخشري قال الشيخ : " وهذا تفسيرُ معنىً لا تفسيرُ إعرابٍ ، وتفسيرُ الإِعراب : " إمَّا تختارُ الإِلقاءَ " . والثاني : أنَّه مرفوعٌ على خبرِ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه : الأمرُ إمَّا إلقاؤُك إو إلقاؤُنا ، كذا قدَّره الزمخشريُّ . الثالث : أن يكونَ مبتدأً ، وخبرُه محذوفٌ تقديرُه : إلقاؤُك أولُ . ويَدُلُّ عليه قولُه : وإمَّا أَنْ نكونَ أول مَنْ أَلْقَى " .

واختار هذا الشيخُ ، وقال : " فَتَحْسُنُ المقابلةُ من حيث المعنى ، وإنْ لم تَحْصُلْ مقابلةٌ من حيث التركيبُ اللفظيُّ " . ثم قال : " وفي تقديرِ الزمخشريِّ " الأمرُ إلقاؤُك " لا مقابلةَ فيه " وهذا تَقَدَّمَ نظيرُه في الأعراف .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) ﴾

قوله : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ : هذه الفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ دَلَّ عليها السياقُ . والتقدير : فَأَلْقَوْا فإذا . و" إذا " هذه التي للمفاجَأة . وفيها ثلاثة أقوال تقدَّمت . أحدُها : أنها باقيةٌ على ظرفيةِ الزمان . الثاني : أنها ظرفُ مكانٍ . الثالث : أنها حرفٌ .

قال الزمخشري : " والتحقيق فيها أنها الكائنةُ بمعنى الوقتِ الطالبةُ ناصباً لها ، وجملةً تُضاف إليها خُصَّتْ في بعضِ المواضع بأن يكونَ الناصبُ لها فعلاً مخصوصاً ، وهو فعْلُ المفاجأةِ ، والجملةُ ابتدائيةٌ لا غير . فتقديرُ قولِه تعالى ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ : ففاجأ موسى وقتَ تخييلِ سَعْيِ حبالِهم وعِصِيّهم ، [وهذا تمثيل . والمعنى : على مفاجأته حبالَهم وعصيَهم مُخَيَّلَةً إليه السَّعْيَ " انتهى] .

قال الشيخ : " قوله " إنَّها زمانية " مرجوحٌ ، وهو مذهب الرِّياشي . وقوله " الطالبةُ ناصباً " صحيحٌ . وقوله : " وجملةٌ تضاف إليها " ليس صحيحاً عند بعض أصحابنا لأنها : إمَّا أَنْ تكونَ هي خبراً لمبتدأ ، وإمَّا أَنْ تكونَ معمولةً لخبر المبتدأ . وإذا كان كذلك استحال أَنْ تُضافَ إلى الجملةِ ؛ لأنها : إمَّا أَنْ تكونَ بعضَ الجملةِ ، أو معمولةً لبعضِها فلا يمكن الإضافةُ . وقوله : " خُصَّتْ في بعض المواضع إلى آخره " قد بَيَّنَّا الناصبَ لها . وقولُه : " والجملةُ بعدها ابتدائيةٌ لا غير " هذا الحَصْرُ ليس بصحيحٍ بل قد جوَّزَ الأخفشُ ، ونصَّ على أن الجملةَ الفعليةَ المقترنةَ ب " قد " تقع بعدَها نحو " خرجْتُ فإذا زيدٌ قد ضربه عمروٌ " برفعِ زيد " ونصبِه على الاشتغال . وقوله : " والمعنى : على مفاجأته حبالُهم وعِصِيُّهم مخيِّلةً إليه السَّعْيَ " فهذا عكسُ ما قُدِّر بل المعنى : على مفاجأةِ حبالِهم وعصيِّهم إياه . فإذا قيل : " خَرَجْتُ فإذا السَّبُعُ " فالمعنى : أنه فاجأني السَّبُعُ وهجم ظهورُه " انتهى ما رَدَّ به .

قوله وما رَدَّ به عليه غيرُ لازمٍ له، لأنه يَرُدُّ عليه بقولِ بعض النحاةِ، وهو لا يلتزم ذلك القولَ حتى يَرُدَّ عليه لا سيما إذا كان المشهورُ غيرَه، ومقصودُه تفسيرُ المعنى .

(291/498)

وقال أبو البقاء : الفاءُ جوابُ ما حُذِف، تقديرُه " فَأَلْقَوْا فإذا " ، ف " إذا " في هذا ظرفُ مكانٍ، العاملُ فيه " أَلْقَوْ " . وفي هذا نظر؛ لأنَّ " أَلْقَوْا " هذا المقدَّرَ لا يَطْلُبُ جواباً حتى يقول : الفاءُ جوابُه، بل كان ينبغي أَنْ يقولَ : الفاءُ عاطفةٌ هذه الجملةَ الفجائيةَ على جملةٍ أخرى مقدرةٍ . وقولُه " ظرف مكانٍ " ، هذا مذهبُ المبرِدِ، وظاهرُ قولِ سيبويه أيضاً، وإن كان المشهورَ بقاؤها على الزمان . وقوله : " إن العامل فيها " فألْقَوا " لا يجوز لأنَّ الفاءَ تمنع من ذلك .

هذا كلامُ الشيخ ثم قال بعده : " ولأنَّ " إذا " هذه إنما هي معمولةٌ لخبرِ المبتدأ الذي هو " حبالُهم وعِصِيُّهم " إن لم يجعَلْها هي في موضع الخبر؛ لأنه يجوز أن/ يكونَ الخبرُ " يُخَيَّل " ، ويجوز أَنْ تكونَ " إذا " و " يُخَيَّل " في موضعِ الحال .

وهذا نظير : " خرجْتُ فإذا الأسدُ رابضٌ ورابضاً " فإذا رَفَعْتَ " رابضاً " كانت " إذا "

معمولةً له، والتقدير: فالبحضرة الأسدُ رابضٌ، أو في المكان. وإذا نَصَبْتَ كانت "إذا" خبراً. ولذلك يُكْتفى بها وبالمرفوع بعدها كلاماً، نحو: "خَرَجْتُ فإذا الأسدُ".

(292/498)

قوله: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ قرأ العامَّة "يُخيَّل" بضمِّ الياء الأولى وفتحِ الثانية مبنياً للمفعول. و"أنَّها تَسْعى" مرفوعٌ بالفعلِ قبلَه لقيامِه مقامَ الفاعلِ تقديرُه: يُخيَّل إليه سَعْيُها. وجوَّز أبو البقاء فيه وجهين آخرين: أحدهما: أَنْ يكونَ القائمُ مَقامَ الفاعلِ ضميرَ الحبالِ والعِصِيّ، وإنما ذُكِّرَ ولم يَقُلْ "تُخيَّل" بالتاء مِنْ فوق؛ لأنَّ تأنيثَ الحبالِ غيرُ حقيقي. الثاني: أنَّ القائمَ مقامَ الفاعلِ ضميرٌ يعودُ على المُلْقى، ولذلك ذُكِّرَ. وعلى الوجهين ففي قولِه "أنها تسعى" وجهان، أحدُهما: أنَّه بدلُ اشتمالٍ من ذلك الضميرِ المستترِ في "يُخيَّل".

والثاني: أنه مصدرٌ في موضع نصبٍ على الحالِ من الضميرِ المستترِ أيضاً. والمعنى: يُخَيَّل إليه هي أنها ذاتُ سَعْيٍ. ولا حاجةَ إلى هذا، وأيضاً فقد نَصُّوا على أنَّ المصدرَ المؤولَ لا يقع موقعَ الحالِ. لو قلت: "جاء زيدٌ أَنْ يركضَ" تريد ركضاً، بمعنى ذا ركض، لم يَجُزْ. وقرأ ابن ذكوان "تُخَيَّلُ" بالتاء من فوق. وفيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنَّ الفعلَ مُسْنَدٌ لضميرِ الحبالِ والعِصِيِّ أي: تُخَيَّلُ الحبالُ والعِصِيُّ، و"أنَّها تَسْعَى" بدلُ اشتمالٍ من ذلك

الضميرِ . الثاني : كذلك إلاَّ أنَّ " أنَّها تَسْعى " حالٌ أي : ذات سعي كما تقدَّم تقريرُه قبل ذلك . الثالث : أن الفعلَ مسندٌ لقولِه " أَنَّها تَسْعى " كقراءةِ العامَّةِ في أحدِ الأوجهِ ، وإنما أَنَّث الفعلَ لاكتسابِ المرفوعِ التأنيثَ بالإِضافة ؛ إذا التقديرُ : تُخَيَّلُ إليه سعيُها فهو كقوله :

3302 . . . .

. . . . شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدمِ

[وقوله تعالى :] { فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام : 160] .

(293/498)

وقرأ أبو السَّمَّال " تَخَيَّلُ " بفتح التاءِ والياء مبنياً للفاعل ، والأصلُ : تَتَخَيَّلُ فحَذَفَ إحدى التاءَيْن نحو : { تَنَزَّلُ الملائكة } [القدر : 4] ، و" أَنَّها تسعى " بدلُ اشتمالٍ أيضاً من ذلك الضمير . وجوَّز ابنُ عطيةَ أيضاً أنه مفعولٌ مِنْ أجله . ونقل ابنُ جُبارة الهُذَلِيُّ قراءة أبي السمَّال " تُخَيِّل " بضمِّ التاء مِنْ فوق وكسر الياء ، فالفعلُ مسندٌ لضميرِ الحِبال ، و" أنها تسعى " مفعولٌ أي : تُخَيِّلُ الحبالُ سَعْيَها . ونَسَبَ ابنُ عطية هذه القراءةَ للحسنِ وعيسى الثقفيِّ .

وقرأ أبو حيوةَ " نُخَيِّل " بنونِ العظمة ، و" أنها تسعى " مفعولٌ به أيضاً على هذه القراءةِ .

وقرأ الحسنُ والثقفيُّ " عُصِيُّهم " بضم العين حيث وقع ، وهو الأصلُ . وإنما كُسِرَت العينُ إتباعاً للصادِ وكُسِرت الصادُ إتباعاً للياء . والأصل عُصُوْوٌ بواوين فَأُعِلَّ كما ترى بقَلْب الواوين ياءَيْن استثقالاً لهما ، فكُسِرَت الصادُ لتصِحَّ ، وكُسِرَتِ العينُ إتباعاً . ونقل صاحبُ " اللوامح " أنَّ قراءةَ الحسن " عُصْيُهم " بضم العين وسكون الصاد وتخفيف الياء مع الرفع ، وهو أيضاً جمع كالعامَّة ، إلاَّ أنه على فُعْلٍ كحُمُرٍ ، والأولُ على فُعُول كفُلُوس .

والجملةُ من " يُخَيَّل " يحتمل أَنْ تكونَ في محلِّ رفع خبراً ل " هي " على أن " إذا الفجائية " فَضْلَةٌ ، وأن تكونَ في محلِ نصبٍ على الحالِ ، على أنّ " إذا " الفجائية هي الخبر . والضميرُ في " إليه " الظاهرُ عَوْدُه على موسى . وقيل : يعود على فرعون ، ويَدُلُّ للأولِ قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾

(294/498)

قوله : ﴿ تَلْقَفْ ﴾ : قرأ العَامَّةُ بفتح اللام وتشديد القافِ وجزمِ الفاءِ على جواب الأمر . وقد تقدم أنّ حَفْصاً يقرأ " تَلْقَفْ " بسكون اللامِ وتخفيفِ القاف . وقرأ ابن ذكوان هنا " تَلَقَّفُ " بالرفع : إمّا على الحالِ ، وإمّا على الاستئناف . وأَنَّثَ الفعلَ في " تَلَقَّف " حَمْلاً

على معنى "ما "لأنَّ معناها العصا ، ولو ذُكّر ذهاباً إلى لفظِها لجاز ، ولمْ يُقرأ به .

[وقال أبو البقاء : "يجوز أَنْ يكونَ فاعلُ "تَلْقَفُ" ضميرَ موسى "فعلى هذا يجوز أَنْ يكونَ "تلقفُ" في قراءة الرفع حالاً من "موسى" . وفيه بُعْدٌ] .

قوله : ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ العامَّةُ على رَفْعِ "كَيْدُ" على أنه خبرُ "إنَّ" و"ما "موصولةٌ . و"صَنَعُوا "صلتُها ، والعائدُ محذوفٌ ، والموصولُ هو الاسمُ ، والتقدير : إنَّ الذي صنعوه كيدُ ساحرٍ . ويجوز أَنْ تكونَ "ما "مصدريةً فلا حاجةَ إلى العائد ، والإِعرابُ بحالِه . والتقدير : إنَّ صُنْعَهم كيدُ ساحرٍ .

وقرأ مجاهد وحميد وزيد بن علي "كَيْدَ" بالنصب على أنه مفعولٌ به ، و"ما "مزيدةٌ مُهَيِّئَةٌ .

وقرأ الأخَوان "كيدُ سِحْر "على أنَّ المعنى : كيدُ ذوي سِحْر ، أو جُعِلوا نفسَ السحر مبالغةً ، أو تبيينٌ للكيد ؛ لأنه يكون سِحْراً وغيرَ سحرٍ ، كما تُميِّزُ سائرُ الأعدادِ بما يُفَسِّرها نحو "مئة درهمٍ ، وألف دينار" . ومثلُه : علمُ فقه ، وعلمُ نحو . وقال أبو البقاء : "كيدُ ساحر "إضافةُ المصدر إلى الفاعلِ و"كيدُ سِحْر "إضافةُ الجنسِ إلى النوع" .

والباقون "ساحر" . وأفرد/ ساحراً ، وإنْ كان المرادُ به جماعةً . قال الزمخشري : "لأن القَصْدَ في هذا الكلامِ إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العددِ ، فلو جمع لخُيِّل أنَّ المقصودَ هو العددُ" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 69.76 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ .

أظهروا من أنفسهم التجلّدَ ظنّا بأنّ النصرةَ لهم ، وإخلاداً إلى ما كان السَّحَرَةُ يسوّلون لهم ، فَخَيَّروا موسى في الابتداء بناءً على ما توهموا من الإلقاء ، فقال لهم موسى : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم ، وليس ذلك إذْناً لهم في السحر ، ولكن أراد الحقُّ إظهارَ تمويههم ، فلمَّا خيَّلوا للناس بإلقاءِ الحِبال أنها حياتٌ ابتلَعَتْ عصا موسى جُمْلَةَ أوقار الحِبَال ، وصار الثعبانُ عَصاً كما كان ، فسجدوا لله مؤمنين ، وانقلب فرعونُ وقومُه خائِبين ، وتَوَعَّدَهم بالقتل والصَّلْب ، وفنونٍ من العذابِ الصعب ، وبعدما كانوا يقْسِمُون بِعِزَّةِ فرعونَ صاروا يَحْلِفُونَ بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 465 . 466 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والتسعون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والتسعون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 70 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 79 ﴾ من نفس السورة

(4/499)

قوله تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فعلم كل من رأى ذلك حقيته وبطلان ما فعل السحرة ، فبادر السحرة منهم إلى الخضوع لأمر الله ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ، ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر مكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه الصلاة والسلام وحذف ذكر الإلقاء وما سببه من التلقف لأن مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية : ﴿ فألقي السحرة ﴾ أي فألقاهم ما رأوا من أمر الله بغاية السرعة وبأيسر أمر ﴿ سجداً ﴾ على

وجوههم ؛ قال الأصبهاني : سبحان الله ! ما أعظم شأنهم ! ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة الشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين .

فكأن قائلاً قال : هذا فعلهم فما قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا آمنا ﴾ أي صدقنا .

ولما كان سياق هذه السورة مقتضياً لتقديم هارون عليه السلام قال : ﴿ برب هارون وموسى ﴾ بشارة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه سبحانه لا يشقيه بهذا القرآن بل يهدي الناس به ويذلهم له ، فيجعل العرب على شماختها أذل شيء لوزرائه وأنصاره وخلفائه وإن كانوا أضعف الناس ، وقبائلهم أقل القبائل ، مع ما في ذلك من الدليل على صدق إيمانهم وخلوص ادعائهم بتقديم الوزير المترجم ترقياً في درج المعرفة ممن أوصل ذلك إليهم إلى من أمره بذلك ثم إلى من أرسله شكراً للمنعمين بالتدريج

(5/499)

" لا يشكر الله من لم يشكر الناس " وهذا لما أوجب تقديمه هنا لا لهذا فقط ، وذكروا اسم الرب إشارة إلى أنه سبحانه أحسن إليهما بإعلاء شأنهما على السحرة ، وعلى من كانوا يقرون بالربوبية ، وهو فرعون الذي لم يغن عنهم شيئاً ، فكانوا أول النهار سحرة ، وآخر

شهداء بررة ، وهذه الآية في أمثالها من أي هذه السور وغيرها مما قدم فيه ما يتبادر أن حقه التأخير وبالعكس لأنحاء من المعاني دقيقة ، هي التي حملت بعض من لم يرسخ إلى أن يقول : إن القرآن يراعي الفواصل كما يتكلف بلغاء العرب السجع ، وتبعه جمع من المتأخرين تقليداً ، وقد عاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك حين قال : " سجع كسجع الجاهلية أو قال : الكهان " وقد علم مما ذكرته أن المعنى الذي بنيت عليه السورة ما كان ينتظم إلا بتقديم هارون ، ويؤيد ذلك أنه قال هنا ﴿ إنا رسولا ﴾ وفي الشعراء ﴿ رسول ﴾ ، وقد قال الإمام فخر الدين الرازي كما حكاه عنه الشيخ أبو حيان في سورة فاطر من النهر : لا يقال في شيء من القرآن : أنه قدم أو أخر لأجل السجع ، لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل فيه وفي المعنى ، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن : ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه ، ثم رد على المخالف بأن قال : والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع . وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ .

ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان إفادة السجع كإفادة غيره .

ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى ، ثم استدل على ذلك بأشياء نفيسة أطال فيها وأجاد - رحمه الله ، وقد تقدم في آخر سورة التوبة ما ينفع جداً في هذا المرام .

ولما كان موسى عليه السلام هو المقصود بالإرسال إلى فرعون ، استأنف تعالى الإخبار عن فرعون عندما فجئه ذلك فقال : ﴿ قال ﴾ أي فرعون للسحرة منكراً عليهم ، وأضمر اسمه هنا ولم يظهره كما في الأعراف لأن مقصود السورة الرفق بالمدعوين والحلم عنهم ، وهو غير متأهل لذكر اسمه في هذا المقام : ﴿ آمنتم ﴾ أي بالله ﴿ له ﴾ أي مصدقين أو متبعين لموسى ﴿ قبل أن ءاذن لكم ﴾ في ذلك ، إبهاماً بأنه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة إلى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الإذن ؛ ثم استأنف قوله معللاً مخيلاً لأتباعه صداً لهم عن الاقتداء بهم : ﴿ إنه لكبيركم ﴾ أي في العلم ﴿ الذي علمكم السحر ﴾ فلم تتبعوه لظهور الحق ، بل لإرادتكم شيئاً من المكر وافقتموه عليه قبل حضوركم في هذا الموطن ، وهذا على عادته في تخييل أتباعه فيما يوقفهم عن اتباع الحق .

ولما خيلهم ، شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة فقال : ﴿ فلأقطعن ﴾ أي سبب ما فعلتم

﴿ أيديكم ﴾ على سبيل التوزيع ﴿ وأرجلكم ﴾ أي من كلٍّ يداً ورجلاً ﴿ من خلاف ﴾ فإذا قطعت اليد اليمنى قطعت الرجل اليسرى ﴿ ولأصلبنكم ﴾ وعبر عن الاستعلاء بالظرف إشارة إلى تمكينهم من المصلوب فيه تمكين المظروف في ظرفه فقال : ﴿ في جذوع النخل ﴾ تبشيعاً لقتلكم ردعاً لأمثالكم ﴿ ولتعلمن أينا ﴾ أنا أورب موسى الذي قال : إنه أوحى إليه أن العذاب على من كذب وتولى ﴿ أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي من جهة العذاب ، أي أينا عذابه أشد وأطول زماناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 31.29 ﴾

(7/499)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) ﴾

اعلم أن في قوله : ﴿ فَأُلْقِىَ السحرة سُجَّدًا ﴾ دلالة على أنه ألقى ما في يمينه وصارحية تلقف ما صنعوا وظهر الأمر فخروا عند ذلك سجداً وذلك لأنهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا ما فعله موسى عليه السلام خارجاً عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من

السحر ألبتة ويقال : قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولاً صادقاً من عند الله تعالى ، فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية في الخضوع وهو السجود ، أما قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِىَ السحرة سُجَّداً ﴾ فليس المراد منه أنهم أجبروا على السجود إلا لما كانوا محمودين بل التأويل فيه ما قال الأخفش وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ، وقال صاحب "الكشاف" : ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود .

فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها .

وعن عكرمة : لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة .

قال القاضي : هذا بعيد لأنه تعالى لو أراهم عياناً لصاروا ملجئين ، وذلك لا يليق به قولهم : ﴿ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ [طه : 73] .

وجوابه : لما جاز لإبراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفوراً له أن يقول : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيَٓـَٔتِي ﴾ [الشعراء : 82] فلم لا يجوز مثله في حق السحرة ، واعلم أن هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الإلهي وقدره في جملة المحدثات ، وذلك لأن ظهور تلك الأدلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جلياً ظاهراً وهو أنه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضروري ، وذلك المؤثر إما الخلق ، وإما غيرهم .

والأول بديهي البطلان لأن كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أنه لا يقدر على إيجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت في العقل أفادت القطع بأنه لا بد من مدبر لهذا العالم ، فماذا يقول ألا ترى أن أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا في نهاية البعد ، لأنا بينا أن كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه وإذاً فقد عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لأنفسهم وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لأنفسهم ما أرى أن عاقلاً يرضى بذلك لنفسه قط ، فلم يبق إلا أن يقال : العقل والدليل لا يكفي بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات في القلوب ، ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى أنه متى فعل ذلك حصلت النتائج في القلوب وذلك يدل على أن الكل بقضائه

وقدره فإنه لا اعتماد على العقول والقلوب في مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر إلى أحوال نفسه في مجاري أفكاره وأنظاره ازداد وثوقاً بما ذكرناه.

(9/499)

أما قوله: ﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ فاعلم أن التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا: إنهم آمنوا بالله الذي عرفوه من قبل هارون وموسى فدل ذلك على أن معرفة الله لا تستفاد إلا من الإمام، وهذا القول ضعيف بل في قولهم: ﴿ امَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ فائدتان سوى ما ذكروه.

الفائدة الأولى: وهي أن فرعون ادعى الربوبية في قوله: ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات: 24] والإلهية في قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص: 38] فلو أنهم قالوا: آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول: إنهم آمنوا بي لا بغيري فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة، والدليل عليه أنهم قدموا ذكر هارون على موسى لأن فرعون كان يدعي ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه في قوله: ﴿ أَلَمْ نُرَبّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء: 18] فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لا جرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعاً لهذا الخيال.

الفائدة الثانية : وهي أنهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لا جرم قالوا : رب هارون وموسى لأجل ذلك ، ثم إن فرعون لما شاهد منهم السجود والإقرار خاف أن يصير ذلك سبباً لاقتداء سائر الناس بهم في الإيمان بالله تعالى وبرسوله ففي الحال ألقى شبهة أخرى في النبي فقال : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ وهذا الكلام مشتمل على شبهتين .

إحداهما : قوله : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لكم ﴾ وتقريره أن الاعتماد على الخاطر الأول غير جائز بل لا بد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر ، فلما لم تفعلوا شيئاً من ذلك بل في الحال : ﴿ آمنتم له ﴾ دل ذلك على أن إيمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر .

(10/499)

وثانيها : قوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ يعني أنكم تلامذته في السحر فاصطلحتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجاً لأمره وتفخيماً لشأنه ، ثم بعد إيراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيراً لهم عن الإيمان وتنفيراً لغيرهم عن الاقتداء بهم في ذلك فقال : ﴿ لأُقَطّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مّنْ خِلاَفٍ ﴾ قرىء لأقطعن ولأصلبن بالتخفيف .

والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين خلاف الآخر ، فإن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله : ﴿ مِّنْ خلاف ﴾ في محل النصب على الحال أي : لأقطعنها مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ فشبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه فلذلك قال في جذوع النخل والذي يقال في المشهور أن في بمعنى على فضعيف ثم قال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ أراد بقوله : ﴿ أَيُّنَا ﴾ نفسه لعنه الله لأن قوله : ﴿ أَيُّنَا ﴾ يشعر بأنه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله : ﴿ آمنتم له ﴾ وفيه تصالف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لأن موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب في شيء ، فإن قيل : إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التي شرحتموها وذكرتم أنها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الأمر إلى أن استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم إلى هذا الحد ويستهزىء بموسى عليه السلام في قوله :

﴿ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأبقى ﴾ قلنا لم لا يجوز أن يقال : إنه كان في أشد الخوف في قلبه إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجاً لأمره ، ومن استقرى أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء ، ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عذاب الله أشد من عذاب البشر ، ثم إنه أنكر ذلك ، وأيضاً فقد كان عالماً بكذبه في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ لأنه علم أن موسى عليه السلام ما خالطهم ألبتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته أن أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ، ثم إنه مع ذلك كان يقول هذه

الأشياء فثبت أن سبيله في كل ذلك ما ذكرناه وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخره شهداء" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 76.74 ﴾

(12/499)

وقال الماوردى :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ﴾

طاعة لله وتصديقاً لموسى .

﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ أي بالرب الذي دعا إليه هارون وموسى ، لأنه رب لنا ولجميع الخلق ، فقيل إنهم ، ما رفعوا رؤوسهم حتى رأواْ الجنة وثواب أهلها ، فعند ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/499)

وقال ابن عطية :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) ﴾

في خلال هذه الآيات تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول فالمقدر من ذلك هنا فألقى موسى عصاه فالتقمت كل ما جاؤوا به او نحو هذا ، وروي أن السحرة لما رأوا العصا لا أثر فيها للسحر ثم رأت انقلابها حية وأكلها للحبال والعصي ثم رجوعها إلى حالها وعدم الحبال والعصي أيقنوا بنبوءة موسى وأن الأمر من عند الله تعالى وقدم ﴿ هارون ﴾ قبل ﴿ موسى ﴾ لتستوي رؤوس آي السور فنقل معنى السحرة وهذا كقوله عز وجل : ﴿ أزواجاً من نبات شتى ﴾ [طه : 53] تأخر شتى إنما هو لتستوي رؤوس الآي ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم وورش عن نافع "آمنتم" على الخبر ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر " ءامنتم " بهمزة بعدها مدة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم "

أأمنتم " بهمزتين ، وقوله ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ مقاربة منه وبعض إذعان . وقوله ﴿ من خلاف ﴾ يريد قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى ، قوله ﴿ في جذوع النخل ﴾ اتساع من حيث هو مربوط في الجذع وليست على حد قولك ركبت على الفرس ، وقوله ﴿ أينا ﴾ يريد نفسه ورب موسى عليه السلام ، وقال الطبري يريد نفسه وموسى عليه السلام والأول أذهب مع مخرفة فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(14/499)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال آمنتم له ﴾

قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، وورش عن نافع : "آمنتم له" على لفظ الخبر .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "آمنتم له" بهمزة ممدودة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "أآمنتم له" بهمزتين الثانية ممدودة .

قوله تعالى : ﴿ إنه لكبيركم ﴾ قال ابن عباس : يريد معلِّمكم .

قال الكسائي : الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلِّمه ، قال : جئت من عند كبيري .

قوله تعالى : ﴿ ولأصلبنّكم في جذوع النخل ﴾ "في" بمعنى "على" ، ومثله : ﴿ أم لهم

سُلَّم يستمعون فيه ﴾ [الطور : 38] .

﴿ ولتعلمُنَّ ﴾ أيُّها السحرة ﴿ أيُّنا أشدُّ عذاباً ﴾ لكم ﴿ وأبقى ﴾ أي : أدوَم ، أنا على إيمانكم ، أو ربُّ موسى على تركهم الإِيمان به ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(15/499)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾

لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا ؛ فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصيّ ؛ وكانت حمل ثلاثمائة بعير ثم عادت عصاً لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصيّ إلا الله تعالى .

وقد مضى في "الأعراف" هذا المعنى وأمر العصا مستوفى .

﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى .

قَالَ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أي به ؛ يقال : آمن له وآمن به ؛ ومنه ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] وفي الأعراف ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ .

إنكار منه عليهم ؛ أي تعديتم وفعلتم ما لم آمركم به .

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ .

أي رئيسكم في التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم .

وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته .

﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ أي على جذوع النخل .

قال سويد بن أبي كاهل :

هُم صَلَبُوا العبديّ في جذع نخلةٍ . . .

فلا عَطَستْ شيبانُ إلا بأَجْدَعَا

فقطّع وصلّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى .

وقرأ ابن محيصن هنا وفي الأعراف "فَلأَقْطَعَنَّ" ، و"لأَصْلِبَنَّكُمْ" بفتح الألف والتخفيف من قَطَعَ وصَلَب .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ يعني أنا أم ربُّ موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سجداً ﴾

وجاء التركيب ﴿ فألقي السحرة ﴾ ولم يأت فسجدوا كأنه جاءهم أمر وأزعجهم وأخذهم فصنع بهم ذلك ، وهو عبارة عن سرعة ما تأثروا لذلك الخارق العظيم فلم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين .

وقدم موسى في الأعراف وأخر هارون لأجل الفواصل ولكون موسى هو المنسوب إليه العصا التي ظهر فيها ما ظهر من الإعجاز ، وأخر موسى لأجل الفواصل أيضاً كقوله ﴿ لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ وأزواجاً من نبات إذا كان شتى صفة لقوله أزواجاً ولا فرق بين قام زيد وعمرو وقام عمرو وزيد إذا لو أولا تقتضي ترتيباً على أنه يحتمل أن يكون القولان من قائلين نطقت طائفة بقولهم رب موسى وهارون ، وطائفة بقولهم : رب هارون وموسى ولما اشتركوا في المعنى صح نسبة كل من القولين إلى الجميع .

وقيل : قدم ﴿ هارون ﴾ هنا لأنه كان أكبر سناً من ﴿ موسى ﴾ .

وقيل لأن فرعون كان ربَّى موسى فبدؤوا بهارون ليزول تمويه فرعون أنه ربى موسى فيقول أنا ربيته .

وقالوا : رب هارون وموسى ولم يكتفوا بقولهم برب العالمين للنص على أنهم آمنوا ﴿ برب

﴿ هذين وكان فيما قبل يزعم أنه رب العالمين .

وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ آمنتم ﴾ وفي لأقطعن ولأصلبن في الأعراف .

وتفسير نظير هذه الآية فيها وجاء هناك آمنتم به وهنا له ، وآمن يوصل بالباء إذا كان بالله وباللام لغيره في الأكثر نحو ﴿ فما آمن لموسى ﴾ ﴿ لن نؤمن لك ﴾ ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ ﴿ فآمن له لوط ﴾ واحتمل الضمير في به أن يعود على موسى وأن يعود على الرب ، وأراد بالتقطيع والتصليب في الجذوع التمثيل بهم ، ولما كان الجذع مقراً للمصلوب واشتمل عليه اشتمال الظرف على المظروف عُدِّيَ الفعل بفي التي للوعاء .

وقيل في بمعنى على .

وقيل : نقر فرعون الخشب وصلبهم في داخله فصار ظرفاً لهم حقيقة حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ومن تعدية صلب بفي قول الشاعر :

وهم صلبوا العبدي في جذع نخلة . . .

فلا عطست شيبان إلاّ بأجدعا

وفرعون أول من صلب ، وأقسم فرعون على ذلك وهو فعل نفسه وعلى فعل غيره ، وهو

﴿ ولتعلمنّ أينا ﴾ أي أيي وأي من آمنتم به .

وقيل : أيي وأي موسى ، وقال ذلك على سبيل الاستهزاء لأن موسى لم يكن من أهل التعذيب وإلى هذا القول ذهب الزمخشري قال : بدليل قوله ﴿ آمنتم له ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ وفيه نفاحة باقتداره وقهره وما ألفه وضَرِيَ به من تعذيب الناس بأنواع العذاب ، وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف مع الهزء به انتهى .

وهو قول الطبري قال : يريد نفسه وموسى عليه السلام ، والقول الأول أذهب مع مخرقة فرعون ﴿ ولتعلمنّ ﴾ هنا معلق و﴿ أينا أشد ﴾ جملة استفهامية من مبتدإ وخبر في موضع نصب لقوله ﴿ ولتعلمنّ ﴾ سدّت مسد المفعولين أو في موضع مفعول واحد إن كان ﴿ لتعلمنّ ﴾ معدى تعدية عرف ، ويجوز على الوجه أن يكون ﴿ أينا ﴾ مفعولاً ﴿ لتعلمن ﴾ وهو مبني على رأي سيبويه و﴿ أشد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، و﴿ أينا ﴾ موصولة والجملة بعدها صلة والتقدير و﴿ لتعلمنّ ﴾ من هو ﴿ أشد عذاباً وأبقى ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾ كما سلف فصيحةٌ معربةٌ عن محذوفَين ينساق إليهما النظمُ الكريم غنيّين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردّدِ موسى عليه السلام في الامتثال بالأمر واستحالةِ عدمِ وقوعِ اللقْف الموعود ، أي فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فألقى السحرةُ سجّداً لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وإنما هي آيةٌ من آيات الله عز وجل .

روي أن رئيسَهم قال : كنا نغلِب الناسَ وكانت الآلاتُ تبقى علينا ، فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقَيناه من الآلاتِ ؟ فاستَدلّ بتغير أحوال الأجسامِ على الصانع القادرِ العالِم ، وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالتِه لا جرم ، ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتَوا بما هو غايةُ الخضوعِ ، قيل : لم يرفعوا رؤوسَهم حتى رأَوا الجنةَ والنارَ والثوابَ والعقاب ، وعن عِكرمة لما خرّوا سجداً أراهم الله تعالى في سجودهم منازلَهم في الجنة ولا ينافيه قولهم : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ الخ ، لأن كونَ تلك المنازلِ منازلَهم باعتبار صدورِ هذا القول عنهم ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ استئناف كما مر غيرَ مرة ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ تأخيرُ موسى عند حكايةِ كلامِهم لرعاية الفواصل وقد جُوّز أن يكون ترتيبُ كلامهم أيضاً هكذا ، إما لِكبَر سنّ هارون عليه الصلاة

والسلام وإما للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطلِ من جهة فرعونَ وقومِه ، حيث كان فرعونُ ربى موسى عليه الصلاة والسلام في صِغَره فلو قدّموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعينُ وقومُه من أول الأمر أن مرادَهم فرعونُ .

(19/499)

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعونُ للسحرة : ﴿ ءَامَنْتُم لَهُ ﴾ أي لموسى عليه الصلاة والسلام ، واللامُ لتضمين الفعلِ معنى الاتباعِ ، وقرىء على الاستفهام التوبيخي ﴿ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي من غير أن آذنَ لكم في الإيمان له كما في قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبّى ﴾ لا أن إذنَه لهم في ذلك واقعٌ بعده أو متوقَّع ﴿ أَنَّهُ ﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي في فنكم وأعلمُكم به وأستاذكُم ﴿ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلّمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم ، وهذه شُبهةٌ زوّرها اللعينُ وألقاها على قومه وأراهم أن أمرَ الإيمان منوطٌ بإذنه فلما كان إيمانُهم بغير إذنه لم يكن معتدّاً به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام ، فلا عبرةَ بما أظهره كما لا عبرةَ بما أظهروه وذلك لِما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الأيمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكّد حيث قال : ﴿ فَلأقَطّعَنّ ﴾ أي فوالله لأُقطعن ﴿ أَيدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ

﴿ أي اليدَ اليمنى والرجلَ اليسرى ، ومن ابتدائية كأن القطعَ ابتداءٌ من مخالفة العضو ، فإن المبتدِىءَ من المعروض مبتدِىءٌ من العارض أيضاً ، وهي مع مجرورها في حيّز النصبِ على الحالية أي لأقطعنّها مختلفاتٍ ، وتعيينُ تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعِه لا محالة بتعيين كيفيتِه المعهودة في باب السياسة لا لأنها أفظعُ من غيرها ﴿ وَلأصَلّبَنّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ أي عليها ، وإيثارُ كلمةِ (في) للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار المظروفِ المشتملِ عليه ، قالوا : وهو أولُ من صَلَب ، وصيغةُ التفعيل في الفعلَين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله : آمنتم له قبل أن آذَنَ لكم ، واللامُ

(20/499)

مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا إما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهُزْءِ به لأنه لم يكن من التعذيب في شيء ، وإما لإراءة أن إيمانَهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينةِ البرهان بل كان عن خوف من قِبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاعَ عصاه لحبالهم وعِصِيِّهم فخافوا على أنفسهم أيضاً ، وقيل : يريد به ربَّ

موسى الذي آمنوا به بقولهم: آمنا برب هارون وموسى ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وأبقى ﴾ أي أدوم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(21/499)

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِىَ السحرة سُجَّدًا ﴾

فصيحة معربة عن جمل غنية عن التصريح أي فزال الخوف وألقى ما في يمينه وصارت حية وتلقفت حبالهم وعصيهم وعلموا أن ذلك معجز فألقى السحرة على وجوههم سجداً لله تعالى تائبين مؤمنين به عز وجل وبرسالة موسى عليه السلام.

روي أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقينا فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القدير العليم وبظهور ذلك على يد موسى عليه السلام على صحة رسالته.

وكأن هاتيك الحبال والعصي صارت هباءً منبثاً وانعدامها بالكلية ممكن عندنا ، وفي التعبير بألقى دون فسجد إشارة إلى أنهم شاهدوا ما أزعجهم فلم يتمالكوا حتى وقعوا على وجوههم ساجدين ، وفيه إيقاظ السامع لإلطاف الله تعالى في نقله من شاء من عباده

من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد مع ما فيه من المشاكلة والتناسب ، والمراد أنهم أسرعوا إلى السجود ، قيل : إنهم لم يرفعوا رؤوسهم من السجود حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن عكرمة أنهم لما خروا سجداً أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم في الجنة .

واستبعد ذلك القاضي بأنه كالإلجاء إلى الإيمان وأنه ينافي التكليف .

وأجيب بأنه حيث كان الإيمان مقدماً على هذا الكشف فلا منافاة ولا الجاء ، وفي إرشاد العقل السليم أنه لا ينافيه قولهم : ﴿ إِنَّا ءامَنَّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ [طه : 73] الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم .

(22/499)

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿ ءامَنَّا بِرَبّ هارون وموسى ﴾ تأخير موسى عليه السلام عند حكاية كلامهم المذكورة في سورة الأعراف المقدم فيه موسى عليه السلام

لأنه أشرف من هارون والدعوة والرسالة إنما هي له أولاً وبالذات وظهور المعجزة على يده عليه السلام لرعاية الفواصل ، وجوز أن يكون كلامهم بهذا الترتيب وقدموا هارون عليه السلام لأنه أكبر سناً ، وقول السيد في "شرح المفتاح" : إن موسى أكبر من هارون عليهما السلام سهو .

وأما للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه السلام فلو قدموا موسى لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون وتقديمه في سورة الأعراف تقديم في الحكاية لتلك النكتة .

وجوز أبو حيان أن يكون ما هنا قول طائفة منهم وما هناك قول أخرى وراعى كل نكتة فيما فعل لكنه لما اشترك القول في المعنى صح نسبة كل منهما إلى الجميع .

واختيار هذا القول هنا لأنه أوفق بآيات هذه السورة .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون للسحرة ﴿ ءامَنتُمْ لَهُ ﴾ أي لموسى كما هو الظاهر .

والإيمان في الأصل متعد بنفسه ثم شاع تعديه بالباء لما فيه من التصديق حتى صار حقيقة .

وإنما عدى هنا باللام لتضمينه معنى الانقياد وهو يعدي بها يقال .

انقاد له لا الاتباع كما قيل : لأنه متعد بنفسه يقال : اتبعه ولا يقال : اتبع له ، وفي "البحر" إن

آمن يوصل بالباء إذا كان متعلقه الله عز اسمه وباللام إن كان متعلقه غيره تعالى في الأكثر نحو ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 61] .

﴿ فما آمن لموسى ﴾ [يونس : 83] الخ .

(23/499)

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ [البقرة : 55] ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف : 17] ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] ، وجوز أن تكون اللام تعليلية والتقدير آمنتم بالله تعالى لأجل موسى وما شاهدتم منه ، واختاره بعضهم ولا تفكيك فيه كما توهم ، وقيل : يحتمل أن يكون ضمير ﴿ لَهُ ﴾ للرب عز وجل ، وفي الآية حينئذٍ تفكيك ظاهر .

وقرأ الأكثر ﴿ أءمِنتُمْ ﴾ على الاستفهام التوبيخي .

والتوبيخ هو المراد من الجملة على القراءة الأولى أيضاً لا فائدة الخبر أو لازمها ﴿ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي من غير إذني لكم في الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبّى ﴾ [الكهف : 109] لا أن إذنه لهم في ذلك واقع بعد أو متوقع ، وفرق الطبرسي بين الإذن والأمر بأن الأمر يدل على إرادة الآمر الفعل المأمور به وليس في الإذن ذلك ﴿ أَنَّهُ ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ لعظيمكم في فنكم وأعلمكم به

وأستاذكم ﴿ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ كأن اللعين وبخهم أولاً على إيمانهم له عليه السلام من غير إذنه لهم ليرى قومه أن إيمانهم غير معتد به حيث كان بغير إذنه.

ثم استشعر أن يقولوا: أي حاجة إلى الإذن بعد أن صنعنا ما صنعنا وصدر منه عليه السلام ما صدر فأجاب عن ذلك بقوله: ﴿ أَنَّهُ ﴾ الخ أي ذلك غير معتد به أيضاً لأنه أستاذكم في السحر فتواطأتم معه على ما وقع أو علمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم فالجملة تعليل لمحذوف، وقيل: هي تعليل للمذكور قبل.

وبالجملة قال ذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان لموسى عليه السلام ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال: ﴿ فَلأقَطّعَنَّ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاقسم لأقطعن ﴿ أَيدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مّنْ خِلاَفٍ ﴾ أي اليد اليمنى والرجل اليسرى وعليه عامة المفسرين وهو تخصيص من خارج وإلا فيحتمل أن يراد غير ذلك.

(24/499)

و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية.

وقال الطبرسي: بمعنى عن أو على وليس بشيء.

والمراد من الخلاف الجانب المخالف أو الجهة المخالفة.

والجار والمجرور حسبما يظهر متعلق باقطعن، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة مصدر محذوف أي تقطيعه مبتدأ من جانب مخالف أو من جهة مخالفة وابتداء التقطيع من ذلك ظاهر، ويجوز أن يبقى الخلاف على حقيقته أعني المخالفة وجعله مبتدأ على التجوز فإنه عارض ما هو مبدأ حقيقة، وجعل بعضهم الجار والمجرور في حيز النصب على الحالية، والمراد لأقطعنها مختلفات فتأمل، وتعيين هذه الكيفية قيل للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة في باب السياسة.

ولعل اختيارها فيها دون القطع من وفاق لأن فيه إهلاكاً وتفويتاً للمنفعة، وزعم بعضهم أنها أفظع ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ أي عليها.

وإيثار كلمة في للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار الظرف في المظروف المشتمل عليه.

وعلى ذلك قوله:

وهم صلبوا العبدي في جذع نخلة . . .

فلا عطست شيبان إلا باجدعا

وفيه استعارة تبعية.

والكلام في ذلك شهير.

وقيل: لا استعارة أصلاً لأن فرعون نقر جذوع النخل وصلبهم في داخلها ليموتوا جوعاً

وعطشاً ولا يكاد يصح بل في أصل الصلب كلام.

فقال بعضهم: إنه أنفذ فيهم وعيده وصلبهم وهو أول من صلب.

ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص: 35] لأن المراد الغلبة بالحجة.

وقال الإمام: لم يثبت ذلك في الأخبار.

وأنت تعلم أن الظاهر السلامة.

وصيغة التفعيل في الفعلين للتكثير.

وقرىء بالتخفيف فيهما.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ يريد من ن نفسه وموسى عليه السلام بقرينة تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿ ءامَنتُمْ لَهُ ﴾ بناءً على الظاهر فيه.

واختار ذلك الطبري.

وجماعة.

وهذا إما لقصد توضيع موسى عليه السلام والهزء به لأنه عليه السلام لم يكن من التعذيب في شيء ، وإما لأن إيمانهم لم يكن بزعمه عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبله عليه السلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضاً ، واختار أبو حيان أن المراد من الغير الذي أشار إليه الضمير رب موسى عز وجل الذي آمنوا به بقولهم : ﴿ امَنَّا بِرَبِّ هارون موسى ﴾ [طه : 70] .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ هنا معلق و ﴿ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ﴾ جملة استفهامية من مبتدأ وخبر في موضع نصب سادة مسد مفعوليه إن كان العلم على بابه أو في موضع مفعول واحد له إن كان بمعنى المعرفة .

ويجوز على هذا الوجه أن يكون ﴿ أَيُّنَا ﴾ مفعولاً وهو مبني على رأي سيبويه و ﴿ أَشَدَّ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أشد .

والجملة صلة أي والعائد الصدر ، و ﴿ عَذَاباً ﴾ تمييز .

وقد استغنى بذكره مع ﴿ أَشَدَّ ﴾ عن ذكره مع ﴿ أبقى ﴾ وهو مراد أيضاً .

واشتقاق أبقى من البقاء بمعنى الدوام .

وقيل : لا يبعد والله تعالى أعلم أن يكون من البقاء بمعنى العطاء فإن اللعين كان يعطي لمن يرضاه العطايا فيكون للآية شبه بقول نمروذ ﴿ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] وهو في غاية البعد عند من له ذوق سليم .

ثم لا يخفى أن اللعين في غاية الوقاحة ونهاية الجلادة حيث أوعد وهدد وأبرق وأرعد مع قرب عهده بما شاهد من انقلاب العصا حية وما لها من الآثار الهائلة حتى أنها قصدت ابتلاع قبته فاستغاث بموسى عليه السلام ولا يبعد نحو ذلك من فاجر طاغ مثله. انتهى

انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(26/499)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) ﴾

قوله : ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف من ذلك المقام ليهيىء ما يحتاج إليه مما تواعدوا عليه وقيل : معنى : تولى أعرض عن الحق ، والأوّل أولى ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي جمع ما يكيد به من سحره وحيلته.

والمراد : أنه جمع السحرة.

قيل : كانوا اثنين وسبعين.

وقيل : أربعمائة.

وقيل : اثنا عشر ألفاً.

وقيل : أربعة عشر ألفاً .

وقال ابن المنذر : كانوا ثمانين ألفاً ﴿ ثُمَّ أَتى ﴾ أي أتى الموعد الذي تواعدا إليه مع جمعه الذي جمعه ، وجملة ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً ﴾ دعا عليهم بالويل ، ونهاهم عن افتراء الكذب .

قال الزجاج : هو منصوب بمحذوف ، والتقدير : ألزمهم الله ويلاً .

قال : ويجوز أن يكون نداء ، كقوله : ﴿ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [ياس : 52] .

﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ السحت : الاستئصال ، يقال : سحت وأسحت بمعنى ، وأصله استقصاء الشعر .

وقرأ الكوفيون إلا شعبة : ﴿ فيسحتكم ﴾ بضم حرف المضارعة من أسحت ، وهي لغة بني تميم ، وقرأ الباقون بفتحه من سحت ، وهي لغة الحجاز ، وانتصابه على أنه جواب للنهي ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ أي : خسر وهلك ، والمعنى : قد خسر من افترى على الله أي : كذب كان ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي السحرة لما سمعوا كلام موسى ، تناظروا وتشاوروا وتجاذبوا أطراف الكلام في ذلك ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ أي من موسى ، وكانت نجواهم هي قولهم : ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ .

وقيل : إنهم تناجوا فيما بينهم فقالوا : إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه ، وإن كان

من عند الله فسيكون له أمر .

وقيل : الذي أسروه : أنه إذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفرّاء والزجاج .

(27/499)

وقيل : الذي أسروه : أنهم لما سمعوا قول موسى : ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله ﴾ قالوا :

ما هذا بقول ساحر .

والنجوى : المناجاة يكون اسماً ومصدراً .

قرأ أبو عمرو : " إن هذين لساحران " بتشديد الحرف الداخل على الجملة وبالياء في اسم

الإشارة على إعمال إن عملها المعروف ، وهو نصب الاسم ورفع الخبر .

ورويت هذه القراءة عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن وسعيد

بن جبير والنخعي وغيرهم من التابعين ، وبها قرأ عاصم الجحدري وعيسى بن عمر كما

حكاه النحاس ، وهذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه

مكتوب بالألف .

وقرأ الزهري والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم في رواية

حفص عنه : " إن هذان " بتخفيف إن على أنها نافية ، وهذه القراءة موافقة لرسم

المصحف وللإعراب .

وقرأ ابن كثير مثل قراءتهم إلا أنه يشدّد النون من هذان .

وقرأ المدنيون والكوفيون وابن عامر : " إنّ هذان " بتشديد إن وبالألف ، فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر .

وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه قراءة المدنيين والكوفيين وابن عامر ، وقد استوفى ذكر ذلك ابن الأنباري والنحاس ، فقيل إنها لغة بني الحارث بن كعب وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف ، ومنه قول الشاعر :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى . . . مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقول الآخر :

تزوّد منا بين أذناه ضربة . . . وقول الآخر :

إن أباها وأبا أباها . . . قد بلغا في المجد غايتاها

ومما يؤيد هذا تصريح سيبويه والأخفش وأبي زيد والكسائي والفراء : إن هذه القراءة على لغة بني الحارث بن كعب وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أنها لغة بني كنانة .

وحكى غيره أنها لغة خثعم .

وقيل : إن " إنّ " بمعنى نعم ها هنا ، كما حكاه الكسائي عن عاصم ، وكذا حكاه سيبويه .

قال النحاس : رأيت الزجاج والأخفش يذهبان إليه ، فيكون التقدير : نعم هذان لساحران ، ومنه قول الشاعر :

(28/499)

ليت شعري هل للمحبّ شفاء . . . من جوى حبهنّ إنّ اللقاء

أي نعم اللقاء .

قال الزجاج : والمعنى في الآية : أن هذا لهما ساحران ، ثم حذف المبتدأ وهو هما .

وأنكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح بن جني ، وقيل : إن الألف في ﴿ هذان ﴾ مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير .

وقيل : إن الهاء مقدّرة ، أي إنه هذان لساحران ، حكاه الزجاج عن قدماء النحويين ، وكذا حكاه ابن الأنباري .

وقال ابن كيسان : إنه لما كان يقال : هذا بالألف في الرفع والنصب والجرّ على حال واحدة ، وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد فثبت الألف في الرفع والنصب والجر ، فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة توجيها تصح به وتخرج به عن الخطأ ، وبذلك يندفع ما روي عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف .

﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ وهي أرض مصر ﴿ بِسِحْرِهِمَا ﴾ الذي أظهراه ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ قال الكسائي : بطريقتكم : بسنّتكم .

و﴿ المثلى ﴾ نعت ، كقولك : امرأة كبرى ، تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى ، يعنون : على الهدى المستقيم .

قال الفراء : العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم ، والمثلى تأنيث الأمثل ، وهو الأفضل ، يقال : فلان أمثل قومه ، أي أفضلهم ، وهم الأماثل .

والمعنى : أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم ، أو يذهبا بمذهبكم الي هو أمثل المذاهب .

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع : الإحكام ، والعزم على الشيء قاله الفراء .

تقول : أجمعت على الخروج مثل أزمعت .

وقال الزجاج : معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعاً عليه .

وقد اتفق القراء على قطع الهمزة في أجمعوا إلا أبا عمرو ، فإنه قرأ بوصلها وفتح الميم من الجمع .

قال النحاس : وفيما حكي لي عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة ، وهي القراءة التي عليها أكثر الناس .

﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ أي مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمورهم وأشد لهيبتهم ، وهذا قول جمهور المفسرين .

وقال أبو عبيدة : الصف : موضع المجمع ويسمى المصلى الصف .

قال الزجاج : وعلى هذا معناه : ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال : أتيت الصف بمعنى : أتيت المصلى ، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب ﴿ صفاً ﴾ على الحال ، وعلى تفسير أبي عبيدة يكون انتصابه على المفعولية .

قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون ، فيكون على هذا مصدراً في موضع الحال ، ولذلك لم يجمع .

وقرئ بكسر الهمزة بعدها ياء ، ومن ترك الهمزة أبدل منها ألفاً ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ أي من غلب ، يقال : استعلى عليه : إذا غلبه ، وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض .

وقيل : من قول فرعون لهم .

وجملة : ﴿ قَالُواْ موسى إِمَا أَن تُلْقِيَ ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا ؟ فقيل : قالوا يا موسى ، إما أن تلقي ، وإن مع ما في حيزها في محل نصب بفعل مضمر ، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا ، ويجوز أن تكون في محل

رفع على أنها وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر إلقاؤك، أو إلقاؤنا، ومفعول تلقي محذوف، والتقدير: إما أن تلقي ما تلقيه أوّلاً ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ ﴾ نحن ﴿ أَوَّلَ مَنْ أَلقى ﴾ ما يلقيه، أو أوّل من يفعل الإلقاء.

والمراد: إلقاء العصيّ على الأرض، وكانت السحرة معهم عصيّ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول، فقال لهم موسى ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أمرهم بالإلقاء أوّلاً؛ لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: فألقوا فإذا حبالهم، والفاء فصيحة، وإذا للمفاجأة أو ظرفية.

(30/499)

والمعنى: فألقوا ففاجأ موسى وقت أن ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ سعي حبالهم وعصيهم، وقرأ الحسن "عصيهم" بضم العين وهي لغة بني تميم، وقرأ الباقون بكسرها اتباعاً لكسرة الصاد، وقرأ ابن عباس، وابن ذكوان وروح عن يعقوب: "تخيل" بالمثناة؛ لأن العصيّ والحبال مؤنثة، وذلك أنهم لطخوها بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت واهتزّت

، وقرىء : " نخيل " بالنون على أن الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرىء : " يخيل " بالياء التحتية مبنياً للفاعل ، على أن المخيل هو الكيد .

وقيل : المخيل هو أنها تسعى ، فأن في موضع رفع ، أي يخيل إليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج .

وقال الفراء : إنها في موضع نصب ، أي بأنها ثم حذف الباء .

قال الزجاج : ومن قرأ بالتاء : يعني : الفوقية جعل أنّ في موضع نصب ، أي تخيل إليه ذات سعي .

قال : ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلاً من الضمير في تخيل ، وهو عائد على الحبال والعصيّ ، والبدل فيه بدل اشتمال ، يقال : خيل إليه : إذا شبه له وأدخل عليه البهمة والشبهة .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ أي أحسّ .

وقيل : وجد .

وقيل : أضمر .

وقيل : خاف ، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه .

وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه .

وقيل : إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا ، فخاف أن

يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشّره به بقوله : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ أي : المستعلي عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهي عن الخوف .

(31/499)

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ يعني العصا ، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً ، وجزم ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ على أنه جواب الأمر ، قرىء بتشديد القاف ، والأصل تتلقف فحذف إحدى التاءين ، وقرىء : " تلقف " بكسر اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة ، وقرىء : " تلقف " بالرفع على تقدير فإنها تتلقف ، ومعنى ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ : الذي صنعوه من الحبال والعصيّ .

قال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال ، كأنه قال : ألقها متلقفة ، وجملة ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ تلقف ﴾ وارتفاع كيد على أنه خبر لإن ، وهي قراءة الكوفيين إلا عاصماً .

وقرأ هؤلاء : " ساحر " بكسر السين وسكون الحاء ، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذي سحر .

وقرأ الباقون: ﴿ كيد ساحر ﴾ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أي لا يفلح جنس الساحر حيث أتى وأين توجه، وهذا من تمام التعليل ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ أي فألقي ذلك الأمر الذي شاهدوه من موسى والعصا السحرة سجداً لله تعالى، وقد مرّ تحقيق هذا في سورة الأعراف.

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ إنما قدّم هارون على موسى في حكاية كلامهم؛ رعاية لفواصل الآي وعناية بتوافق رؤوسها.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ قال: يهلككم.

أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ قال: يستأصلكم.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: فيذبحكم.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عليّ: ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يقول: أمثلكم، وهم بنو إسرائيل.

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق في قوله : ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ ما يأفكون ، عن قتادة قال : ألقاها موسى فتحوّلت حية تأكل حبالهم وما صنعوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ؛ أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة ، فقالوا لفرعون : إن يكن هذان ساحرين فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا ، وإن كانا من ربّ العالمين فإنه لا طاقة لنا بربّ العالمين ، فلما كان من أمرهم أن خرّوا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون فعندها ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَاءَنَا مِنَ البينات ﴾ إلى قوله : ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(33/499)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن سحرة فرعون لما عاينوا عصا موسى تبتلع جميع حبالهم وعصيهم خروا سجداً لله تعالى قائلين : آمنا بالله الذي هو رب هارون وموسى .

فهداهم الله بذلك البرهان الإلهي ، هذه الهداية العظيمة . وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر . كقوله في « الأعراف » : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف : 117-117] ﴿ وَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : 120-122] ، وقوله في « الشعراء » : ﴿ فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : 45-48] ، وقوله : ﴿ فَأُلْقِيَ ﴾ يدل على قوة البرهان الذي عاينوه . كأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها . وذكر في قصتهم أنهم عاينوا منازلهم في الجنة في سجودهم . والظاهر ، ذلك من نوع الإسرائيليات ، وأطلق عليهم اسم السحرة في حال سجودهم لله مؤمنين به نظراً إلى حالهم الماضية . كقوله : ﴿ وَآتُوا اليتامى أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : 2] فأطلق عليهم اسم اليتم بعد البلوغ نظراً إلى الحال الماضية كما هو معروف في محله .

والظاهر أن تقديم هارون على موسى في هذه الآية لمراعاة فواصل الآيات .

واعلم أن علم السحر مع خسته ، وأن الله صرح بأنه يضر ولا ينفع ، قد كان سبباً لإيمان سحرة فرعون . لأنهم لمعرفتهم بالسحر عرفوا معجزة العصا خارجة عن طور السحر ، وأنها أمر إلهي فلم يداخلهم شك في ذلك . فكان ذلك سبباً لإيمانهم الراسخ الذي لا يزعزعه الوعيد والتهديد . ولو كانوا غير عالمين بالسحر جداً ، لأمكن أن يظنوا أن مسألة العصا من جنس الشعوذة . والعلم عند الله تعالى .

(35/499)

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكراً عليهم : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أي صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله ، وآمنتم بالله قبل أن آذن لكم . يعني أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم ، لأنه يزعم أنهم لا يحق لهم أن يفعلوا شيئاً إلا بعد إذنه هو لهم . وقال لهم أيضاً : إن موسى هو كبيرهم . أي كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر . ثم هددهم مقسماً على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف : يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلاً . لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة . لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل

صحيح ، بخلاف قطعهما من خلاف . فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد ، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم . وأنه يصلبهم في جذوع النخل ، وجذع النخلة هو أخشن جذع من جذوع الشجر ، والتصليب عليه أشد من التصليب على غيره من الجذوع كما هو معروف .

(36/499)

وما ذكره جل وعلا عنه هنا أوضحه في غير هذا الموضع أيضاً . كقوله في سورة « الشعراء » : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء : 49] . وذكر هذا أيضاً في سورة « الأعراف » وزاد فيها التصريح بفاعل قال : وادعاء فرعون أن موسى والسحرة تمالؤوا على أن يظهروا أنه غلبهم مكراً ليتعاونوا على إخراج فرعون وقومه من مصر . وذلك في قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المدينة لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 123_124] وقوله في « طه » : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ يبين أن التصليب في جذوع النخل هو مراده بقوله في « الأعراف ،

والشعراء » : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . أي في جذوع النخل وتعدية التصليب ب « في » أسلوب عربي معروف ، ومنه قول سويد بن أبي كاهل :

هم صلبوا العبدي في جذع نخلة . . . فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

ومعلوم عند علماء البلاغة : أن في مثل هذه الآية استعارة تبعية في معنى الحرف كما سيأتي إن شاء الله تعالى إيضاح كلامهم في ذلك ونحوه في سورة « القصص » . وقد أوضحنا في كتابنا المسمى (منع جواز المجاز في المنزل التعبد والإعجاز) . أن ما يسميه البلاغيون من أنواع المجاز مجازاً كلها أساليب عربية نطقت بها العرب في لغتها . وقد بينا وجه عدم جواز المجاز في القرآن وما يترتب على ذلك من المحذور .

(37/499)

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ قال بعض أهل العلم : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ ﴾ : يعني أنا ، أم رب موسى أشد عذاباً وأبقى .

واقتصر على هذا القرطبي . وعليه ففرعون يدعي أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله . وهذا كقوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ، وقوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ، وقوله : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] . وقال بعضهم : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ أنا ، أم موسى أشد عذاباً وأبقى . وعلى هذا فهو كالتهكم بموسى لاستضعافه له ، وأنه لا يقدر على أن يعذب من لم يطعمه . كقوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف : 52] الآية .

والله جل وعلا أعلم .

واعلم أن العلماء اختلفوا : هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به ، أو لم يفعله بهم ؟ فقال قوم : قتلهم وصلبهم . وقوم أنكروا ذلك ، وأظهرهما عندي : أنه لم يقتلهم ، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى . لأن الله يقول لموسى وهارون ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(38/499)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) ﴾

الفاء عاطفة على محذوف يدلّ عليه قوله ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ [طه : 69] .

والتقدير : فألقى فتلقفت ما صنعوا ، كقوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾

[الشعراء : 63] .

والإلقاء : الطرح على الأرض .

وأسند الفعل إلى المجهول لأنّهم لا ملقي لهم إلاّ أنفسهم ، فكأنّه قيل : فألقوا أنفسهم سُجّداً ،

فإنّ سجودهم كان إعلاناً باعترافهم أنّ موسى مرسل من الله .

ويجوز أن يكون سجودهم تعظيماً لله تعالى .

ويجوز أن يكون دلالة على تغلب موسى عليهم فسجدوا تعظيماً له .

ويجوز أن يريدوا به تعظيم فرعون ، جعلوه مقدمة لقولهم ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ حذراً من بطشه .

وسُجّد : جمع ساجد .

وجملة ﴿ قَالُوا ﴾ يصح أن تكون في موضع الحال ، أي ألقَوْا قائلين .

ويصح أن تكون بدل اشتمال من جملة ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ﴾ فإن سجودهم اشتمل على إيمانهم ، وأن تكون مستأنفة ابتدائية لافتتاح المحاورة بينهم وبين فرعون .

وإنما آمنوا بالله حينئذ لأنّهم أيقنوا أن ما جرى على يد موسى ليس من جنس السحر لأنّهم أئمّة السحر فعلموا أنّه آية من عند الله .

وتعبيرهم عن الرب بطريق الإضافة إلى هارون وموسى لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة لأن لهم أرباباً يعبدونها ويعبدها فرعون .

وتقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى في سورة الأعراف (121 ، 122) : ﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ لا دلالة فيه على تفضيل ولا غيره ، لأنّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه ، فهم عرفوا الله بأنه ربّ هذين الرجلين ؛ فحكي كلامهم بما يدلّ على ذلك ؛ ألا ترى أنه حكي في سورة الأعراف (121) قول السحرة ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ ، ولم يحك ذلك هنا ، لأن حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكي وإنما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة .

ووجه تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة ، فالتقديم وقع في الحكاية لا في المحكي ، إذ وقع في الآية الأخرى ﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ [الشعراء : 47 ، 48] .

ويجوز أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة ، فيكون صدر منهم قولان ، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتباراً بكبر سنّه ، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتباراً بفضله على هارون بالرسالة وكلام الله تعالى ، فاختلاف العبارتين باختلاف

الاعتبارين .

ويقال : آمن له ، أي حصل عنده الإيمانُ لأجله .

كما يقال : آمن به ، أي حصل الإيمان عنده بسببه .

وأصل الفعل أن يتعدى بنفسه لأنّ آمنه بمعنى صَدقه ، ولكنه كاد أن لا يستعمل في معنى التصديق إلاّ بأحد هذين الحرفين .

وقرأ قالون وورش من طريق الأزرق ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، وروحٌ عن يعقوب ﴿ ءامنتم بهمزة واحدة بعدها مَدّة وهي المدّة الناشئة عن تسهيل الهمزة الأصلية في فعل آمن ، على أنّ الكلام استفهام .

وقرأه ورش من طريق الأصفهاني ، وابن كثير ، وحفص عن عاصم ، ورويسٌ عن يعقوب بهمزة واحدة على أنّ الكلام خبر ، فهو خبر مستعمل في التوبيخ .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف بهمزتين على الاستفهام أيضاً .

ولما رأى فرعون إيمان السحرة تغيّظ ورام عقابهم ولكنه علم أنّ العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة فاختلق للتشفّي من الذين آمنوا علّة

إعلانهم الإيمان قبل استئذانِ فرعون ، فعدّ ذلك جرأة عليه ، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم ، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبلُ فأظهروا العجز عند مناظرته .

ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأنّ موسى لم يأت بما يعجز السحرة إدخالاً للشكّ على نفوس الذين شاهدوا الآيات .

وهذه شِنْشِنة من قديم الزمان اختلاق المغلوب بارد العذر .

ومن هذا القبيل اتهام المحكوم عليهم الحاكمين بالارتشاء ، واتهام الدول المغلوبة في الحروب قواد الجيوش بالخيانة .

وضمير ﴿ لَهُ ﴾ عائد إلى موسى مثل ضمير ﴿ إنه لكبيركُم ﴾ .

ومعنى ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُم ﴾ قبل أن أسوّغ لكم أن تؤمنوا به .

يقال : أذِن له ، إذ أباح له شيئاً .

والتقطيع : شدّة القطع .

ومرجع المبالغة إلى الكيفية ، وهي ما وصفه بقوله ﴿ مِن خِلاف ﴾ أي مختلفة ؛ بأن لا تقطع على جانب واحد بل من جانبين مختلفين ، أي تقطع اليد ثمّ الرجلُ من الجهة المخالفة لجهة اليد المقطوعة ثم اليد الأخرى ثم الرجل الأخرى .

والظاهر : أنّ القطع على هذه الكيفية كان شعاراً لقطع المجرمين ، فيكون ذكر هذه الصفة

حكاية للواقع لا للاحتراز عن قطع بشكل آخر ، إذ لا أثر لهذه الصفة في تفظيع ولا في شدّة إيلام إذا كان ذلك يقع متتابعاً .

وأما ما جاء في الإسلام في عقوبة المحارب فإنما هو قطع عضو واحد عند كل حرابة فهو من الرحمة في العقوبة لئلا يتعطّل انتفاع المقطوع بباقي أعضائه من جرّاء قطع يَد ثمّ رجل من جهة واحدة ، أو قطع يد بعد يد وبقاء الرجلين .

و(من) في قوله ﴿ مِنْ خلاف ﴾ للابتداء ، أي يبدأ القطع من مبدأ المخالفة بين المقطوع .

والمجرور في موضع الحال ، وقد تقدّم نظيره في سورة الأعراف وفي سورة المائدة .

(41/499)

والتصليب : مبالغة في الصلب .

والصلب : ربط الجسم على عود مُنتصب أو دَقُّهُ عليه بمسامير ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ في سورة النساء (157) .

والمبالغة راجعة إلى الكيفية أيضاً بشدّة الدقّ على الأعواد .

ولذلك عدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية تشبيهاً لشدّة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكن الشيء الواقع في وعائه .

والجذوع : جمع جذع بكسر الجيم وسكون الذال وهو عود النخلة .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ [مريم : 25] .

وتعدية فعل ﴿ ولأُصلّبَنّكم ﴾ بحرف (في) مع أنّ الصلب يكون فوق الجذع لا داخله ليدل على أنه صلب متمكن يُشبه حصول المظروف في الظرف ، فحرف (في) استعارة تبعيّة تابعة لاستعارة متعلّق معنى (في) لمتعلّق معنى (على) .

وأيّنا : استفهام عن مشتركيْن في شدّة التعذيب .

وفعل ﴿ لتعلمُن معلق عن العمل لوقوع الاستفهام في آخره .

وأراد بالمشتركين نفسَه وربّ موسى سبحانه لأنه علم من قولهم ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾ [الشعراء : 47] أن الذي حملهم على الإيمان به ما قدم لهم موسى من الموعظة حين قال لهم بمسمع من فرعون ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ﴾ [طه : 61] ، أي وستجدون عذابي أشد من العذاب الذي حُذرتموه .

وهذا من غروره .

ويدل على أن ذلك مراد فرعون ما قابل به المؤمنون قوله ﴿ أينا أشدّ عذاباً وأبقى بقولهم والله خير وأبقى ﴾ [طه : 73] ، أي خير منك وأبقى عملاً من عملك ، فثوابه خير من رضاك وعذابه أشد من عذابك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) ﴾

قال الزجاج في هذا الموقف : عجيب أمر هؤلاء ، فقد ألقوا حبالهم وعِصيّهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يُلْقُون أنفسهم للشكر والسجود .

نعم ، لقد دخلوا كافرين فجرة فخرجوا مؤمنين بررة ، لأنهم جاءوا بكل ما لديهم من الكَيْد ، وجمعوا صَفْوة السحر وأساتذته ممنْ يَعْلمون السحر جيداً ، ولا تنطلي عليهم حركات السحرة وألاعيبهم ، فلما رأوا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شكٌّ في أنها معجزة بعيدة عَمّا يصنعونه من السحر ؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون .

وهذا يدلُّنا على أن الفطرة الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا ما تيقظتْ الفطرة الإيمانية وأُزيلَتْ عنها الغشاوة سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ به .

لقد سارع السحرة إلى الإيمان ، وكان له هَوىً في نفوسهم ، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ [السحر : 73] فكانوا مكرهين ، كانوا أيضاً مُسخَّرين ، بدليل قولهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ [الأعراف : 113] .

كأنهم كانوا لا يأخذون على السحر أجراً ، فلما كانت هذه المهمة صعبة طلبوا عليها أجراً

، فهي معركة تتوقف عليها مكانته بين قومه، أما ممارستهم للسحر إرهاباً للناس وتخويفاً لمن تُسوِّل له نفسه الخروج والتمرد على فرعون، فكان سُخْرة، لا يتقاضَوْن عليه أجراً.

لذلك لم يعارض فرعون سحرته في طلبهم، بل زادهم منحة أخرى ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ [الأعراف: 114] فسوف تكونون سدنة الفرعونية، يريد أنْ يشحن هِمَمهم، ويشحذ عزائمهم، حتى لا يدخروا وُسْعاً في فَنِّ السحر في هذه المعركة.

(43/499)

إذن: فطباعهم وفطرتهم تأبى هذا الفعل، وتعلم أنه كذب وتلفيق، لكن مذا يفعلون وكبيرهم يأمرهم به، بل ويُكرههم عليه، ويلزمهم أنْ يُعلّموا غيرهم، لماذا؟ لأن السحر والشعوذة والتلفيق هي رأس ماله وبضاعته التي يسعى إلى ترويجها، فعليها يقوم مُلْكه وتُبْنى ألوهيته.

وقوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾ [طه: 70] فَرْق بين ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ [الشعراء: 44] وهذا منهم عمل اختياري، وبين ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾ [طه: 70]: يعني على غير اختيارهم وعلى غير إرادتهم، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا لله ساجدين، فالإلقاء هنا عمل تلقائي

دون تفكير منهم ودون شعور ، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى ، لأنها ليستْ سِحْرًا فهم أعلم الناس بالسحر .

ونلحظ في هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع ؛ أُلقى السحرةُ ، قالوا ، آمنا . لتدل على أنهم كانوا يَداً واحدة لم يشذْ منهم واحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مُسخَّرين .

كما أن إعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾ [طه : 70] ، ثم بالقول المسموع ﴿ قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] وفي آية أخرى : ﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : 4748] .

ونعلم أن موسى عليه السلام هو الأصل ، ثم أُرسِل معه أخوه هارون ، ولما عرضَ القرآن موقف السحرة مع موسى حكى قولهم : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] وقولهم : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : 4748] .

لذلك كانت هذه المسألة مثار جدل من خصوم الإسلام ، يقولون : ماذا قال السحرة بالضبط ؟ أقالوا الأولى أم الثانية ؟

(44/499)

ولك أن تتصور جمهرة السحرة الذين حضروا هذه المعركة، فكان رؤساؤهم وصفوتهم سبعين ساحراً، فما بالك بالمرؤوسين؟ إذن: هم كثيرون، فهل يُعقل مع هذه الكثرة وهذه الجمهرة أن يتحدوا في الحركة وفي القول؟ أم يكون لكل منهم انفعاله الخاص على حَسْب مداركه الإيمانية؟

لا شكَّ أنهم لم يتفقوا على قول واحد، فمنهم مَنْ قال ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه: 70] وآخرون قالوا: ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: 4748].

كذلك كان منهم سطحيّ العبارة، فقال ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: 4748] ولم يفطن إلى أن فرعون قد ادّعى الألوهية وقال أنا ربكم الأعلى فربما يُفهم من قوله ﴿ رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: 48] أنه فرعون، فهو الذي ربّى موسى وهو صغير.

وآخر قد فطن إلى هذه المسألة، فكان أدقَّ في التعبير، وأبعد موسى عن هذه الشبهة، فقال: ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه: 70] وجاء أولاً بهارُون الذي لا علاقة لفرعون بتربيته، ولا فضل له عليه، ثم جاء بعده بموسى.

إذن: هذه أقوال متعددة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيري لا تنضبط حركاته، ولا تتفق تعبيراته، وقد حكاها القرآن كما كانت فليس لأحد بعد ذلك أن يقول: إنْ كان القول

الأول صحيحاً ، فالقول الآخر خطأ أو العكس .

وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضية يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها ، تُرى أتتفق تعبيراتهم في وصف هذه المباراة ؟

نقول : إذن ، تعددت اللقطات وتعددت الأقوال للقصة الواحدة لينقل لنا القرآن كل ما حدث .

ثم يقص الحق سبحانه رد فعل فرعون على ما حدث ، فيقول : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . . . ﴾

(45/499)

طبيعي أن يشتاط فرعون غضباً بعدما سمعه من سحرته ، فقد جمعهم لينصروه فإذا بهم يخذلونه ، بل ويُقوِّضون عرشه من أساسه فيؤمنون بإله غيره ، ويا ليتهم لما خذلوه سكتوا ، إنما يعلنونها صريحة عالية مدوية : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [طه : 70] .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . . . ﴾ [طه : 71] فمع الخيبة التي مُنِي بها ما يزال يتمسك بفرعونيته وألوهيته ، ويهرب من الاستخزاء الذي حاق به ، يريد أن يعطي للقوم صورة المتماسك الذي لم تُؤثّر فيه هذه الأحداث ، فقال ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ

﴾ [طه : 71] فأنا كبيركم الذي علّمكم السحر ، وكان عليكم أنْ تحترموا أستاذيته ، وقد كنت سآذنُ لكم .

وكلمة (آمنتم) مادتها : أمِنَ . وقد أخذت حيزاً كبيراً في القرآن الكريم ، والأصل فيها : أمِنَ فلان آمناً يعني : اطمأن . فليس هناك ما يُخوّفه . لكن هذه المادة تأتي مرة ثلاثية (أَمِنَ) وتأتي مزيدة بالهمزة (آمن) .

وهذا الفعل يأتي متعدياً إلى المفعول مباشرة ، كما في قوله تعالى ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 34] يعني : آمن سكان مكة من الخوف .

وقد يتعدى بالباء كما في : آمنت بالله ، أو يتعدى باللام كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ [يونس : 83] وآمن له يعني : صدّقه فيما جاء به .

إذن : لدينا : آمَنَهُ يعني أعطاه الأمن ، وآمن به : يعني اعتقده ، وآمن له : يعني صَدّقه .

وقد تأتي أمن وآمن بمعنى واحد ، كما في قول سيدنا يعقوب : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 64] .

فلماذا اختلفت الصيغة من آمن إلى أمِن ؟

قالوا : لأن قوله ﴿ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 64] كانت تجربة أولى ، فجاء الفعل (أَمن) مُجرّداً على خلاف الحال في المرة الثانية ، فقد احتاجت إلى نوع من الاحتياط للأمر ، فقال ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [يوسف : 64] فزاد الهمزة للاحتياط .

فمعنى قول فرعون : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ [طه : 71] يعني أي : صدّقتموه .

وتأمل هنا بلاغة القرآن في هذا التعبير ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه : 71] ومَنِ الذي يقولها ؟ إنه فرعون الآمر الناهي في قومه يتحدث الآن عن الإذن . وفَرْق بين أمر وأذن ، أمر بالشيء يعني : أنه يحب ما أمر به ، ويجب عليك أنت التنفيذ . أما الإذن فقد يكون في أمر لا يحبه ولا يريده ، فهو الآن يأذن ؛ لأنه لا يقدر على الأمر .

وما دُمْتُم قد آمنتم له قبل أن آذن لكم فلا بُدَّ أن يكون هو كبيركم الذي علّمكم السحر ، فكان وفاؤكم له ، واحترمتم هذا الكِبَر وساعدتموه على الفوز .

وهذا من فرعون سوء تعليل لواقع الإيمان ، ففي نظره أن موسى تفوّق عليهم ، لا لأنه يُجيد فنَّ السحر أكثر منهم ، إنما تفوّق عليهم لأنهم جاملوه وتواطأوا معه ؛ لأنه كبيرهم ومُعلّمهم .

لذلك يتهدَّدهم قائلا : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

جاء هذا التهديد والوعيد جزاءً لهم ؛ لأنهم في نظره هزموه وخذوله في معركته الفاصلة

أمام موسى عليه السلام، ومعنى: ﴿ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ [طه: 71] الخِلاَف أن يأتي شيء على خلاف شيء آخر، والكلام هنا عن الأيدي والأرجل، فيكون المراد اليد اليمنى مع الرِّجْل اليسرى، أو اليد اليُسْرى مع الرِّجْل اليُمْنى.

(47/499)

وقوله: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه: 71] المعروف أن التَّصْليب يكون على الجذوع؛ لذلك حاول بعض المفسرين الخروج من هذا الإشكال فقالوا: (في) هنا بمعنى (على). لكن هذا تفسير لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان القرآنيّ، ويجب أن نتفق أولاً على معنى التصليب: وهو أن تأتي بالمصلوب عليه وهو الخشب أو الحديد مثلاً، ثم تأتي بالشخص المراد صَلْبه، وتربطه في هذا القائم رباطاً قوياً، ثم تشدّ عليه بقوة.

ولك أنْ تُجرِّب هذه المسألة، فتربط مثلاً عود كبريت على إصبعك، ثم تشدُّ عليه الرباط بقوة، وسوف تجد أن العود يدخل في اللحم، ساعتها تقول: العود في إصبعك، لا على إصبعك.

إذن قوله تعالى: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه: 71] (في) هنا على

معناها الأصلي للدلالة على المبالغة في الصَّلْب تصليباً قوياً ، بحيث يدخل المصلوب في المصلوب فيه ، كأنه ليس عليه ، بل داخل فيه .

ثم يقول : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأبقى ﴾ [طه : 71] أينا : المراد فرعون وموسى ، أو فرعون ورب موسى الذي أرسله ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وأبقى ﴾ [طه : 71] فجمع في العذاب شدته من حيث الكيفية ، ودوامه وبقاءه في الزمن . ولم يذكر القرآن شيئاً عن تهديد فرعون ، أفعله أم لا ؟ والأقرب أنه نفّذ ما هدد به .

وكان من المفروض في تهديد فرعون أن يأخذ من قلوب السَّحرة ويُرهبهم ، فيحاولون على الأقل الاعتذار عَمَّا حدث ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قالوا ما أهاجه أكثر : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(48/499)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾

قوله: ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ ﴾: قد تقدَّم نحوُ ذلك. و"مِنْ خِلافٍ" حالٌ أي: مختلفة. و"مِنْ" لابتداءِ الغاية، وقد تقدَّم أيضاً تحريرُ هذا وما قُرِىء به هناك.

قوله: ﴿ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ يُحتمل أن يكونَ حقيقةً، وفي التفسير: أنه نَقَرَ جذوعَ النخلِ حتى جوَّفَها، ووضعهم فيها، فماتوا جوعاً وعَطَشاً، وأن يكونَ مجازاً، وله وجهان، أحدهما: أنه وضعَ حرفاً مكانَ آخر. والأصلُ: على جذوعِ النخل كقول الآخر:

3303 بَطَلٌ كأنَّ ثيابَه في سَرْحَةٍ... يُحذى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوءَمِ

والثاني: أنه شَبَّه تمكُّنَهم بتمكُّنِ مَنْ حواه الجِذْعُ واشتمل عليه. ومِنْ تَعَدِّي "صَلَب" ب "في" قولُه:

3304 وقد صَلَبُوا العَبْدِيَّ في جِذْعِ نَخْلَةٍ... فلا عَطَسَتْ شَيْبانُ إلاَّ بأَجْدَعا

قوله: ﴿ أَيُّنَا أَشَدُّ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ. وهذه الجملةُ سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولَيْن إنْ كانت "عَلِمَ" على بابها، ومَسَدَّ واحدٍ إنْ كانَتْ عِرْفانية. ويجوز على جَعْلِها عِرفانيةً أن تكونَ "أيُّنا" موصولةً بمعنى الذي، وبُنِيَتْ لأنه قد أُضِيفَتْ، وحُذِفَ صدرُ صِلَتِها، و"أشَدُّ" خبرُ مبتدأ محذوفٍ. والجملةُ من ذلك المبتدأ وهذا الخبرِ صلةٌ ل "أيّ" و "أيّ" وما في حَيِّزها في محلِّ نصبٍ مفعولاً بها، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن

﴿ [مريم: 69] في أحدِ أوجهِه كما تقدم. انتهى انتهى. اهـ ﴾ الدر المصون حـ 8 صـ 77.76 ﴾

(49/499)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة:

باب دخول حروف الصّفات مكان بعض

"في" مكان "على"

قوله تعالى: وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ [طه: 71]، أي على جذوع النخل.

قال الشاعر "1":

وهم صلبوا العبديّ في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلّا بأجدعا

وقال عنترة "2":

بطل كأنّ ثيابه في سرحة يحذى نعال السّبت ليس بتوأم

أي على سرحه من طوله.

"الباء" مكان "عن"

قال الله تعالى : فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً [الفرقان : 59] ، أي عنه .

قال علقمة بن عبدة "3" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لسويد بن أبي كاهل في ملحق ديوانه ص 45 ، والأزهية ص 268 ، وشرح شواهد المغني 1/ 479 ، ولسان العرب (عبد) ، (شمس) ، ولامرأة من العرب في الخصائص 2/ 313 ، وشرح المفصل 8/ 21 ، ولسان العرب (فيا) ، وتاج العروس (فيا) ، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص 506 ، ورصف المباني ص 389 ، ومغني اللبيب 1/ 168 ، والمقتضب 2/ 319 ، وتفسير البحر المحيط 6/ 261 ، وتفسير الطبري 16/ 141 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 128 ، والكامل 2/ 71 .

(2) البيت من الكامل ، وهو في ديوان عنترة ص 212 ، وأدب الكاتب ص 506 ، والأزهية ص 267 ، وجمهرة اللغة ص 521 ، 1315 ، وخزانة الأدب 9/ 485 ، 490 ، وشرح شواهد المغني 1/ 479 ، والمنصف 3/ 17 ، ولسان العرب (سرح) ، وشرح القصائد العشر ص 199 ، والكامل 1/ 55 ، والعمدة 1/ 288 ، وأمالي المرتضى 2/ 15 ، والمعاني الكبير 1/ 488 ، وبلا نسبة في الخصائص 2/ 312 ، ورصف المباني ص 389 ، وشرح الأشموني 2/ 292 ، وشرح المفصل 8/ 21 ، ومغني اللبيب 1/ 169 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 258 .

(3) البيت من الطويل، وهو لعلقمة الفحل (علقمة بن عبدة) في ديوانه ص 35 ، وأدب الكاتب

(50/499)

فإن تسألوني بالنّساء فإنّني بصير بأدواء النّساء طبيب

أي عن النساء.

وقال ابن أحمر "1" :

تسائل بابن أحمر من رآه أعارت عينه أم لم تعارا

"عن" مكان "الباء"

قال اللّه تعالى: وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) [النجم: 3] ، أي بالهوى.

والعرب تقول: رميت عن القوس، أي رميت بالقوس.

"اللام" مكان "على"

قال اللّه تعالى: وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ [الحجرات: 2] أي لا تجهروا عليه بالقول.

والعرب تقول: سقط فلان لفيه، أي على فيه. قال الشاعر "2" :

ص 508 ، والأزهية ص 284 ، والجنى الداني ص 41 ، وحماسة البحتري ص 181

، والدرر 4/ 105 ، والمقاصد النحوية 3/ 16 ، 4/ 105 ، وهمع الهوامع 2/ 22 ،

وبلا نسبة في جواهر الأدب ص 49 ، ورصف المباني ص 144 .

(1) يروى البيت بلفظ :

وربّت سائل عنّي حفيّ أعارت عينه أم لم تعارا

والبيت من الوافر ، وهو لابن أحمر في ديوانه ص 76 ، وأدب الكاتب ص 508 ،

والأزهية ص 262 ، وجمهرة اللغة ص 68 ، وشرح شواهد الشافية ص 353 ، ولسان

العرب (عور) ، (غور) ، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص 382 ، وجمهرة اللغة ص 77 ،

1066 ، وخزانة الأدب 5/ 198 ، وشرح شافية ابن الحاجب 3/ 99 ، وشرح

المفصل 10/ 75 ، ولسان العرب (عور) ، والمنصف 1/ 260 ، 3/ 42 .

(2) صدر البيت :

تناوله سريعا بالرمح ثم انّثنى له

والبيت من الطويل ، وهو لجابر بن حني في شرح اختيارات المفضل ص 955 ، وشرح

شواهد المغني 2/ 562 ، وللأشعث الكندي في الأزهية ص 288 ، ولربيعة بن مكدم

في الأغاني 16/ 32 ، ولعصام بن المقشعر في معجم الشعراء ص 270 ، وبلا نسبة في

أدب الكاتب ص 511 ، والجنى الداني ص 101 ، ورصف المباني ص 221 ، وشرح الأشموني 2/ 291 ، ومغني اللبيب 1/ 212 ، وتفسير البحر المحيط 6/ 10 ، 88 .

(51/499)

فخرّ صريعا لليدين وللفم

قال الآخر "1" :

معرّس خمس وقّعت للجناجن

"إلى" مكان "مع"

قال اللّه تعالى : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ [النساء : 2] ، أي مع أموالكم . ومثله : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ [آل عمران : 52] ، أي مع اللّه .

والعرب تقول : الذّود إلى الذّود إبل "2" ، أي مع الذّود .

قال ابن مفرّغ "3" :

شدخت غرّة السّوابق فيهم في وجوه إلى اللّمام الجعاد

أراد مع اللّمام الجعاد .

"اللام" مكان "إلى"

قال اللّه تعالى : بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5) [الزلزلة : 5] ، أي أوحى إليها .

قال اللّه تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا [الأعراف : 43] ، أي إلى هذا .

يدلك على ذلك قوله في موضع آخر : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [النحل : 68] وقوله : وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل : 121] .

"على" مكان "من"

قال اللّه تعالى : إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) [المطففين : 2] ، أي مع الناس .

---

(1) صدر البيت : كأنّ مخوّاها على ثفناتها والبيت من الطويل ، وهو للطرماح في ديوانه ص 491 ، والاقتضاب في شرح أدب الكاتب ص 439 ، والمعاني الكبير 2/ 1190 ، وأمالي المرتضى 2/ 25 ، 4/ 3 ، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص 511 ، ورصف المباني ص 222 .

(2) انظر المثل في مجمع الأمثال 1/ 288 ، ولسان العرب (ذود) .

(3) البيت من الخفيف ، وهو ليزيد بن مفرغ في ديوانه ص 118 ، وأدب الكاتب ص 516 ، والأزهية ص 273 ، والإنصاف ص 266 ، ولسان العرب (شدخ) ، (لمم) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 578 . [. . . . .]

وقال صخر الغيّ "1" :

متى ما تنكروها تعرفوها على أقطارها علق نفيث

أي من أقطارها .

ومنه قوله تعالى : مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ [المائدة : 107] ، أي منهم .

"من" مكان "الباء"

قال اللّه تعالى : يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ [الرعد : 11] أي بأمر اللّه .

وقال تعالى : يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ [غافرة : 15] ، أي بأمره .

وقال : تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلامٌ [القدر : 4 ، 5] ، أي بكل أمر .

"الباء" مكان "من"

تقول العرب : شربت بماء كذا وكذا ، أي من ماء كذا .

قال اللّه تعالى : عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) [المطففين : 28] وعَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ [الإنسان : 6] . ويكون بمعنى يشربها عباد اللّه ويشرب منها .

قال الهذليّ وذكر السّحائب "2" :

شربن بماء البحر ثم ترفّعت متى لجج خضر لهنّ نئيج

أي شربن من ماء البحر .

---

(1) البيت من الوافر ، وهو لأبي المثلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 264 ، والأزهية ص 276 ، ولصخر الغي في خزانة الأدب 2/ 199 ، وتاج العروس (نفث) ، ولسان العرب (نفث) .

(

2) البيت من الطويل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في الأزهية ص 201 ، والأشباه والنظائر 4/ 287 ، وجواهر الأدب ص 99 ، وخزانة الأدب 7/ 97 - 99 ، والخصائص 2/ 85 ، والدرر 4/ 179 ، وسرّ صناعة الإعراب ص 135 ، 424 ، وشرح أشعار الهذليين 1/ 129 ، وشرح شواهد المغني ص 218 ، ولسان العرب (شرب) ، (مخر) ، (متى) ، والمحتسب 2/ 114 ، والمقاصد النحوية 3/ 249 ، وديوان الهذليين 1/ 51 ، والاقتضاب ص 447 ، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص 515 ، والأزهية ص 284 ، وأوضح المسالك 3/ 6 ، والجنى الداني ص 43 ، 505 ، وجواهر الأدب ص 47 ، 378 ، ورصف المباني ص 151 ، وشرح الأشموني ص 284 ، وشرح ابن عقيل ص 352 ، وشرح عمدة الحافظ ص 268 ، وشرح قطر الندى ص 250 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 175 ، ومغني اللبيب ص 105 ، وهمع الهوامع 2/ 34 .

وقال عنترة "1" :

شربت بماء الدّحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الدّيلم

وقال عز وجل : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ [هود : 14] ، أي من علم الله .

"من" مكان "في"

قال اللّه تعالى : أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ [فاطر : 40] ، أي في الأرض .

"من" مكان "على"

قال اللّه تعالى : وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ [الأنبياء : 77] ، أي على القوم .

"عن" مكان "من"

قال اللّه تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ [الشورى : 25] ، أي من عباده .

وتقول : أخذت هذا عنك ، أي منك .

"من" مكان "عن"

تقول : لهيت من فلان ، أي عنه . و : حدثني فلان من فلان .

أي عنه .

"على" بمعنى "عند"

قال اللّه تعالى : وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ [الشعراء : 14] ، أي عندي .

"الباء" مكان "اللام"

قال اللّه تعالى : ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان : 39] أي للحق .

)

1) البيت من الكامل ، وهو في ديوان عنترة ص 201 ، وأدب الكاتب ص 515 ، والأزهية ص 283 ، وجمهرة اللغة ص 872 ، 1170 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 134 ، ولسان العرب (نبت) ، (حرض) ، (وسع) ، (وشع) ، (ولم) ، والمحتسب 2/ 89 ، وتاج العروس (دلم) ، والبيت بلا نسبة في رصف المباني ص 151 ، وشرح المفصل 2/ 115 .

(54/499)

وجدت في آخر كتاب المشكل تفسير بعض ما فيه من الأحاديث والأمثال فألحقته به "1" .

1 - قول النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم : "النّاس كإبل مائة ليس فيها راحلة" "2" .

الإبل المائة : هي الرّاعية ، وإنما يجتمع منها في المرعى الواحد مائة ، فتقام المائة مقام القطيع . يقال : لفلان إبل مائة . وهي أيضا هنيدة "3" . وإذا كان الإبل مائة ليست فيها راحلة تشابهت في المناظر ، لأن الراحلة تتميز منها بالتمام وحسن المنظر .

فأراد : أنهم سواء في الأحكام وفي القصاص ، ليس لشريف فضل على غيره .

وهذا مثل

قوله عليه السلام : النّاس سواء كأسنان المشط "4" .

والعرب تقول في هذا المعنى : هم سواء كأسنان الحمار .

2 - وقوله : إنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يقتل حبطا أو يلمّ "5" .

فالحبط : أن تأكل الناقة في المرعي فتكثر حتى تنتفخ بطنها . ولذلك قيل لقوم من العرب : الحبطات ، لأن أباهم كان أكل صمغا حتى حبط بطنه فسمى : الحبط . وهو الحارث بن تميم .

وقوله : أو يلمّ ، يعني يقارب أن يقتل .

وإنما نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن الاستكثار من الدنيا ومن غضارتها وحسنها إذا كان في ذلك ما يهلك . فضرب استكثار البهيمة من العشب في الربيع حتى يقلتها حبطا مثلا لذلك .

3 -

وقوله للضّحّاك بن سفيان : إذا أتيتهم فاربض في دارهم ظبيا "6" .

يراد : أقم ولا تحدث شيئًا كأنك ظبي قد استقر في الكناس .

---

(1) هذا من قول ناسخ الكتاب ، بعد فراغه من نسخه في جمادى الأولى سنة 532 ه .

(2) تقدم الحديث مع تخريجه .

)

3) هنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة .

(4) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 7/ 57 ، وابن الجوزي في الموضوعات 3/ 80 ، وابن عدي في الكامل في الضعفاء 5/ 1099 ، وميزان الاعتدال 2/ 217 ، والعجلوني في كشف الخفاء 2/ 326 ، والدولابي في الكنى 1/ 168 .

(5) تقدم الحديث مع تخريجه .

(6) تقدم الحديث مع تخريجه .

---

4 - و قوله : الكاسيات العاريات لا يدخلن الجنّة "1" .

يعني النساء اللّواتي يلبسن رقاق الثّياب ، فهنّ كاسيات إذا لبسن ، عاريات إذا كن لا

يستزهنّ.

5 – و قوله في كتاب صلح : وإنّ بيننا وبينهم عيبة مكفوفة "2" .

يريد : صدرا نقيّا من الغلّ والعداوة ، منطويا على الوفاء . والعرب تسمي الصّدور : العياب. قال الشاعر "3" :

وكادت عياب الودّ منّا ومنكم وإن قيل أبناء العمومة تصفر

تصفر : تخلو من المحبة.

والمكفوفة : المشرجة : يقال : أشرج صدره على كذا ، أي طوى. قال الشّمّاخ "4" :

وكادت غداة البين ينطق طرفها بما تحت مكنون من الصّدر مشرج

6 – وقوله صلّى اللّه عليه وسلم : "أجد نفس ربّكم من قبل اليمن" "5" .

يريد : أجد الفرج يأتيني من قبل اليمن – فأتاه اللّه من جهة الأنصار .

وكذلك

قوله : لا تسبّوا الرّيح فإنها من نفس الرحمن "6" .

يريد : أن اللّه ينفّس بها ، ويفرّج بها . وقد فرّج اللّه بها عنه ليلة الأحزاب ، قال اللّه جل اسمه : فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها [الأحزاب : 9] .

وقال : اللهم نفّس عني الكرب ، ونفّس عني الأذى . كما قال : فرّج عني .

---

(1) تقدم الحديث مع تخريجه .

(2) تقدم الحديث مع تخريجه.

)

3) البيت من الطويل، وهو لبشر بن أبي خازم في أساس البلاغة (عيب)، وليس في ديوانه، وللكميت في ديوانه 1/ 169، والمعاني الكبير ص 527، وبلا نسبة في لسان العرب (عيب)، (كفف)، وتاج العروس (عيب)، (كفف)، وتهذيب اللغة 3/ 236، وكتاب العين 2/ 294.

(4) البيت من الطويل، وهو في ديوان الشماخ ص 8.

(5) تقدم الحديث مع تخريجه. [. . . . .]

(6) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 9/ 19، 10/ 217، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين 5/ 103، والسيوطي في الدر المنثور 1/ 165، وابن ماجه حديث 3727، والحاكم في المستدرك 2/ 272.

(56/499)

ومما يزيد ذلك وضوحا تقول عمر رضي اللّه عنه: الريح من روح اللّه فلا تسبّوها "1".

7 - وقول أبي بكر رضي اللّه عنه: نحن حفنة من حفنات اللّه "2".

يريد : نحن وإن كنا كثيرا في العدد قليل عند الله ، كالحفنة ، والحفنة : ما حفنه الرجل بيده فألقاه . يقال : حفن له من المال ، إذا أعطاه بكفّه .

8 - وقول عمر رضي اللّه عنه للعريف الذي أتاه بالمنبوذ : عسى الغوير أبؤسا "3" .

فقال بعضهم : هو تصغير غار . وهو مثل للعرب . ويقال : إن أول من قاله بيهس الذي يلقب بالنّعامة في حمقه ، وكان قد وجد قاتلي إخوته في غار فهجم عليهم في ذلك الغار فقتلهم ، فهو أحد من طلب بثأر فلحقه . وإنما عسى أن يكون الغوير أضمر لنا وأخفى أبؤسا ، وهو جمع بائس . ويقال : الغوير : ماء .

9 - وقول عليّ كرم اللّه وجه : من يطل هن أبيه ينتطق به "4" .

يريد : من كثر إخوته عزّبهم فامتنع . وضرب النّطاق مثلا لذلك ، لأنه يشدّ الظهر . ومثله قول الشاعر "5" :

فلو شاء ربي كان أير أبيكم طويلا كأير الحارث بن سدوس

والحارث بن سدوس من شيبان ، وكان له أحد وعشرون ذكرا .

10 - وقول عمر رضي اللّه عنه : أيّما رجل بايع عن غير مشاورة ، فلا يؤمّر واحد منهما تغرّة أن يقتلا "6" .

---

(1)

روي الحديث بلفظ : "الريح من روح اللّه تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوها " .

أخرجه أبو داود حديث 5097 ، وأحمد في المسند 2/ 268 ، 518 ، والبيهقي في السنن الكبرى 3/ 361 ، والحاكم في المستدرك 4/ 285 ، والهيثمي في موارد الظمآن 1989 ، والبغوي في شرح السنة 4/ 392 ، والتبريزي في مشكاة المصابيح 1516 ، والسيوطي في الدر المنثور 1/ 165 ، والشافعي في مسنده 82 ، والبخاري في التاريخ الكبير 2/ 167 .

(2) تقدم الحديث مع تخريجه .

(3) تقدم الحديث مع تخريجه .

(4) تقدم الحديث مع تخريجه .

(5) البيت من الطويل ، وهو للسرادق السدوسي في تاج العروس (أبر) ، وبلا نسبة في لسان العرب (أبر) ، (نطق) ، (هنا) ، وتهذيب اللغة 15/ 329 ، وثمار القلوب ص 143 ، وتاج العروس (نطق) .

(6) تقدم الحديث مع تخريجه .

يريد : إذا بايع الرجل رجلا عن غير مشاورة الناس ، يعني مبايعة الإمرة ، فلا يؤمّر واحد منهما ، لا المبايع ولا المبايع حتى يكون ذلك عن اجتماع ملإ من الناس ، لأنه لا يؤمن أن يقتلا جميعا .

وتغرّة هاهنا : مصدر غررت به تغرّة وتغريرا ، مثل علّلته تعلّة وتعليلا . وهذا قول أبي عبيدة .

11 - والعرب تقول : حور في محارة "1" .

والحور ، النّقصان . والمحارة : المنقصة ، وهذا كما يقول الناس : هذا نقصان في نقصان ، وخسران في خسران .

12 - وقولهم : جري المذكّيات غلاب "2" .

فالمذكّيات : الخيل المسانّ . والغلاء : أن تتغالى في الجري ، أي كأنها تتبارى في ذلك ، وليست كالصغيرة التي لا تتغالى . وقد يروى : "غلاب" مكان "غلاء" .

13 - وقوله : عيل ما هو عائله "3" ، مثل .

ومعنى عيل : أي أثقل . يقال : عالني الشيء أي أثقلني . كأنه قال : أثقل ما هو مثله . كأنه يدعى له ويدعى على الذي أثقله .

قال ابن مقبل يصف فرسا "4" :

خدى مثل خدي الفالجيّ ينوشني بخبط يديه عيل ما هو عائله

14 - وقولهم: وإنّه لشرّاب بأنقع "5".

قاله الحجّاج لأهل العراق: إنكم يا أهل العراق شاربون بأنقع.

وأصله في الطير، وذلك أن الطائر إذا كان حذرا منكرا لم يرد المياه التي يردها الناس - : لأن الأشراك تنصب عندها. - وورد النّقاع، والمناقع التي في الفلوات.

15 - وقولهم: عاط بغير أنواط "6".

---

(1) تقدم المثل مع تخريجه.

(2) تقدم المثل مع تخريجه.

(3) تقدم المثل مع تخريجه.

(4) البيت من الطويل، وهو في ديوان ابن مقبل ص 251، ولسان العرب (عول)، وتهذيب اللغة 3/ 195، والمخصص 12/ 206، وتاج العروس (عول).

(5) تقدم المثل مع تخريجه.

(6) تقدم المثل مع تخريجه.

العاطي : المتناول . ويقال عطوت : إذا تناولت ، أعطو . ومنه قول الشاعر في صفة الظبية "1" :

وتعطو بظلفيها إذا الغصن طالها

والأنواط : المعاليق ، واحد نوط . أراد أن هذا يصعب عليه ما يرومه كمن تناول بغير معلاق .

16 - وقوله : إلّا ده فلا ده "2" .

يريدون : إن لم يكن هذا الأمر لم يكن غيره . وهو مثل قول رؤبة "3" :

وقوّل إلّا ده فلا ده يروي أهل العربية أن الدال فيه مبدلة من ذال ، كأنهم أرادوا : إن لم تكن هذه لم تكن أخرى .

17 - وقولهم : النّفاض يقطّر الجلب "4" .

النّفاض : الفقر ، يقال : أنفض القوم وأنفدوا : إذا ذهب ما عندهم .

وقولهم : يقطّر الجلب ، يريدون : أنهم يجلبون من البادية إلى المصر ، ليبيعوها من فقرهم .

18 - وقولهم : به داء ظبي "5" .

يريدون : أنه صحيح لا داء به ، كما أن الظبي لا داء به .

19 - وقولهم : أراك بشر ما أحار مشفر "6" .

يريدون : بشرة البعير - ومشفره : سمته - تدلك على جودة أكله ، وأحار . ردّ إلى جوفه .

---

(1) الشطر من الطويل ، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي. [. . . . .]

(2) تقدم المثل مع تخريجه.

(3) الرجز لرؤبة في ديوانه ص 166 ، ولسان العرب (قول) ، (دهده) ، (دها) ، وتهذيب اللغة 5/ 355 ، 356 ، ومقاييس اللغة 2/ 262 ، وتاج العروس (قول) ، (دهده) .

(4) تقدم المثل مع تخريجه.

(5) تقدم المثل مع تخريجه.

(6) تقدم المثل مع تخريجه.

(59/499)

---

20 - وقولهم: أفلت فلان بجريعة الذّقن "1" .

يريدون: أنه أفلت نفسه فيه، كما قال الهذليّ "2" :

نجا سالم والنّفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا

21 - وقولهم: غبار ذيل المرأة الفاجرة يورث السّلّ "3" .

يريدون: من اتبع الفواجر ذهب ماله. ضرب السل في البدن مثلا لذهاب المال.

22 - وقولهم: كبارح الأرويّ "4" .

يريدون أنه مشؤوم من وجهتيه ، وذلك أن الأروي يتشاءم بها من حيث أتت . وإذا برحت كان أعظم لشؤمها .

23 - وقولهم : عبد وخلى في يديه "5" .

وهذا مثل يضرب للئيم البطر . والخلى : وهو "6" . . .

عندهم الكلأ خصبوا ، والعبد لئيم ، فإذا وقع في الخصب بطر وهذا مثل قوله "7" :

قوم إذا نبت الرّبيع لهم نبتت عداوتهم مع البقل

وقال آخر "8" :

يا ابن هشام أفسد النّاس اللّبن فكلّهم يمشي بقوس وقرن

24 - وقولهم : رمّدت الضّأن فربّق ربّق ، ورمدّت المعزى فرنّق رنّق "9" .

---

(1) تقدم المثل مع تخريجه .

(2) البيت من الطويل ، وهو لحذيفة بن أنس الهذلي في شرح أشعار الهذليين 2/ 558 ، والعقد الفريد 5/ 244 ، ولسان العرب (جفن) ، ولأبي خراش الهذلي في لسان العرب (نفس) ، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص 526 ، وجمهرة اللغة ص 1319 ، ورصف المباني ص 86 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 136 ، ولسان العرب (نجا) ، والمعاني الكبير ص 972 ، والمقرب 1/ 167 .

(3) تقدم المثل مع تخريجه .

(4) تقدم المثل مع تخريجه .

(5) تقدم المثل مع تخريجه .

(6) بياض بالأصل مقدار ثلاث كلمات .

(7) البيت من السريع ، وهو للحارث بن دوس الإيادي في المعاني الكبير 2/ 895 ، 996 ، ولسان العرب (بقل) .

(8) الرجز لرؤبة في كتاب الصناعتين ص 291 ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في لسان العرب (قرن) ، وتهذيب اللغة 9/ 90 ، وجمهرة اللغة ص 794 ، ومقاييس اللغة 5/ 76 ، والمخصص 10/ 179 ، وتاج العروس (قرن) ، وإصلاح المنطق ص 54 .

(9) تقدم المثل مع تخريجه . [. . . . . .]

(60/499)

الترميد : نزول اللّبن في الضّرع .

وقولهم في الضأن : أي هي الأرباق لأولادها .

والأرباق : عرا تجعل في حبال وتدخل في أعناق الصغار لئلا تتبع الأمهات في المرعى ، وهي الرّبق أيضا ، واحدها ربقة . ومنه قيل : من فعل كذا وكذا فقد خلع ربقة الإسلام من

عنقه.

وإنما أراد أن الضأن ترمّد، أي تنزل اللبن في ضروعها في وقت وضع الحمل.

والمعزى ترمّد في أول الحمل.

يقول: رنّق رنّق، أي انتظر، يقال: رنّق الطائر في الهواء: إذا دار في طيرانه ولم يجر ورنّقت السفينة: إذا دارت مكانها ولم تسر.

25 - وقولهم: أفواهها مجاسّها "1".

يريد: أنها إذا كانت كثيرة الأكل أغنتك بذلك عن أن تجسها فتعرف: كيف هي؟ لأن كثرة الأكل تدل على السّمن.

26 - وقولهم: نجارها نارها "2".

النار هاهنا: السّمة. ويقال لكل شيء وسم بالمكوى: نار.

قال الشاعر "3":

حتى سقوا آبالهم بالنّار والنار قد تشفي من الأوار

---

(1) تقدم المثل مع تخريجه.

(2) تقدم المثل مع تخريجه.

(3) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (أور)، (نور)، وشرح شواهد المغني 1/ 309،

316 ، ومغني اللبيب 1/ 103 ، وتاج العروس (نور) ، (ورى) ، ومقاييس اللغة 1/ 40 ، ومجمل اللغة 1/ 215 ، وتهذيب اللغة 15/ 231 .

(61/499)

الأوار : العطش . وسقيهم آبالهم النار تريد أنهم قدموها على هوا سمها في الشرب .

فقدموا الأعزّ منها فالأعزّ أربابا .

والنّجار : الطبيعة والجوهر ، فأراد أن سماتها تدلك على جواهرها .

تمّ كتاب مشكل القرآن وتفسير المشكل والأمثال التي فيه ، بحمد اللّه ومنّه وحسن توفيقه ،

سلخ جمادى الأولى من شهور .

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصلى اللّه على محمد وآله الطاهرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 298 . 309 ﴾

(62/499)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما علموا ما خيل به على عقول الضعفاء ، نبهوهم فأخبر تعالى عن ذلك بقوله مستأنفاً :

﴿ قالوا لن نؤثرك ﴾ أي نقدم أثرك بالاتباع لك لنسلم من عذابك الزائل ﴿ على ما جاءنا ﴾ به موسى عليه السلام ﴿ من البينات ﴾ التي عاينا ها وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مضاهاتها .

ولما بدؤوا بما يدل على الخالق من الفعل الخارق ، ترقوا إلى ذكره بعد معرفته بفعله ، إشارة إلى عليّ قدره فقالوا : ﴿ والذي ﴾ أي ولا نؤثرك بالاتباع على الذي ﴿ فطرنا ﴾ أي ابتدأ خلقنا ، إشارة إلى شمول ربوبيته سبحانه وتعالى لهم وله ولجميع الناس ، وتنبيهاً على عجز فرعون عند من استحقه ، وفي جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة وإشارة وتحقير فرعون أمر عظيم .

ولما تسبب عن ذلك أنهم لا يبالون به، علماً بأن ما فعله فهو بإذن الله، قالوا: ﴿ فاقض ما ﴾ أي فاصنع في حكمك الذي ﴿ أنت قاض ﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم: ﴿ إنما تقضي ﴾ أي تصنع بنا ما تريد أن قدرك الله عليه ﴿ هذه الحياة الدنيا ﴾ أي إنما حكمك في مدتها على الجسد خاصة، فهي ساعة تعقب راحة، ونحن لا نخاف إلا من يحكم على الروح وإن فني الجسد، فذاك هو الشديد العذاب، الدائم الجزاء بالثواب أو العقاب، ولعلهم أسقطوا الجار تنزلاً إلى أن حكمه لو فرض أنه يمتد إلى آخر الدنيا لكان أهلاً لأن لا يخشى لأنه زائل وعذاب الله باق.

ثم عللوا تعظيمهم لله واستهانتهم بفرعون بقولهم: ﴿ إنا ءامنا بربنا ﴾ أي المحسن إلينا طول أعمارنا مع إساءتنا بالكفر وغيره ﴿ ليغفر لنا ﴾ من غير نفع يلحقه بالفعل أو ضرر يدركه بالترك ﴿ خطايانا ﴾ التي قابلنا بها إحسانه: ثم خصوا بعد العموم فقالوا: ﴿ وما أكرهتنا عليه ﴾ وبينوا ذلك بقولهم: ﴿ من السحر ﴾ لتعارض به المعجزة، فإن كان الأكمل لنا عصيانك فيه لأن الله أحق بأن يتقى.

روي أن الذي كان من القبط من السحرة اثنان فقط، والباقون من بني إسرائيل أكرههم

فرعون على تعلم السحر ، وروي أنهم رأوا موسى عليه السلام نائماً وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون إن الساحر إذا نام بطل سحره ، فهذا لا يقدر على معارضته ، فأبى عليهم وأكرههم على المعارضة .

ولما كان التقدير : فربنا أهل التقوى وأهل المغفرة ، عطفوا عليه مستحضرين لكماله :

﴿ والله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ خير ﴾ جزاء منك فيما وعدتنا به ﴿ وأبقى ﴾ ثواباً وعقاباً ، والظاهر أن الله تعالى سلمهم من فرعون ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] – قاله أبو حيان .

(64/499)

وسيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في نجاتهم ؛ ثم عللوا هذا الختم بقولهم : ﴿ إنه من يأت ربه ﴾ أي الذي رباه وأحسن إليه بأن أوجده وجعل له جميع ما يصلحه ﴿ مجرماً ﴾ أي قاطعاً ما أمره به أن يوصل ﴿ فإن له جهنم ﴾ دار الإهانة ﴿ لا يموت فيها ﴾ أبداً مع شدة عذابها .

بخلاف عذابك الذي إن اشتد أمات فزال سريعاً ، وإن خف لم يُخِفْ وكان آخره الموت وإن طال ﴿ ولا يحيى ﴾ فيها حياة ينتفع بها ﴿ ومن يأته ﴾ أي ربه الذي أوجده ورباه

﴿ مؤمناً ﴾ أي مصدقاً به .

ولما قدم أن مجرد الكفر يوجب العذاب .

كان هذا محلاًّ يتوقع فيه الإخبار عن الإيمان بمثل ذلك فقال : ﴿ قد ﴾ أي ضم إلى ذلك تصديقاً لإيمانه أنه ﴿ عمل ﴾ أي في الدنيا ﴿ الصالحات ﴾ التي أمر بها فكأن صادق الإيمان مستلزم لصالح الأعمال ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ لهم ﴾ أي لتداعي ذواتهم بمقتضى الجبلة ﴿ الدرجات العلى ﴾ التي لا نسبة لدرجاتك التي وعدتنا بها منها ؛ ثم بينوها بقولهم : ﴿ جنات عدن ﴾ أي أعدت للإقامة وهيئت فيها أسبابها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من تحت غرفها وأسرتها وأرضها ؛ فلا يراد موضع منها لأن يجري فيه نهر إلا جرى ؛ ثم بين بقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ أن أهلها هيئوا أيضاً للإقامة .

ولما أرشد السياق والعطف على غير معطوفٍ عليه ظاهر إلى أن التقدير : ذلك الجزاء العظيم والنعيم المقيم جزاء الموصوفين ، لتزكيتهم أنفسهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وذلك جزاء ﴾ كل ﴿ من تزكى ﴾ أي طهر نفسه بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة ، وفي هذا تسلية للصحابة رضوان الله عليهم فيما كان يفعل بهم عند نزول هذه السورة إذ كانوا مستضعفين . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 31 . 33 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا لَنْ نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين ، فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَاءَنَا مِنَ البينات ﴾ وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ جواباً لما قاله وبينوا العلة وهي أن الذي جاءهم بينات وأدلة ، والذي يذكره فرعون محض الدنيا ، ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها ، أما قوله : ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن التقدير لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وعلى الذي فطرنا أي وعلى طاعة الذي فطرنا وعلى عبادته .

الوجه الثاني : يجوز أن يكون خفضاً على القسم .

واعلم أنهم لما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا :

﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ لا على معنى أنهم أمروه بذلك لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لا يزيلهم ألبتة عن إيمانهم وعما عرفوه من الحق علماً وعملاً ، ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم

احتمال ذلك فقالوا : ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ وقرىء : (تقضي هذه الحياة الدنيا) ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع في الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك : في صمت يوم الجمعة صيم والمعنى أن قضاءك وحكمك إنما يكون في هذه الحياة الدنيا وهي كيف كانت فانية وإنما مطلبنا سعادة الآخرة وهي باقية ، والعقل يقتضي تحمل الضرر الفاني المتوصل به إلى السعادة الباقية ثم قالوا : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ ولما كان أقرب خطاياهم عهداً ما أظهروه من السحر ، قالوا : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ وذكروا في ذلك الإكراه وجوهاً .

أحدها : أن الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثاً ليعلمهم ليكون في كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لأجل ذلك أي كنا في التعلم أولاً والتعليم ثانياً مكرهين قاله ابن عباس .

وثانيها : أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين ، اثنان من القبط ، والباقي من بني إسرائيل فقالوا لفرعون : أرنا موسى نائماً فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا : ما هذا بساحر ، الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه .

وثالثها : قال الحسن : إن السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين في الحضور وربما كانوا مكرهين أيضاً في إظهار السحر .

ورابعها : قال عمرو بن عبيد : دعوة السلطان إكراه وهذا ضعيف لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراهاً ، ثم قالوا : ﴿ واللهُ خَيْرٌ ﴾ ثواباً لمن أطاعه .

﴿ وأبقى ﴾ عقاباً لمن عصاه ، وهذا جواب لقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ [طه : 71] .

قال الحسن : سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفراً ثبت في قلوبهم الإيمان في طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا : ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ في ذات الله تعالى والله إن أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاماً ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير ، ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين في عرصة القيامة ، فقالوا في المجرمين : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الهاء في قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ ضمير الشأن يعني أن الأمر والشأن كذا وكذا .

المسألة الثانية :

استدلت المعتزلة بهذه الآية في القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا : صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فإن له جهنم لقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ وكلمة من في معرض الشرط تفيد العموم بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها والإستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام ، فقال : لا نسلم أن صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه أنه تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فإنه قال في هذه الآية : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين : 29] وأيضاً فإنه قال : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ والمؤمن صاحب الكبيرة وإن عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف ، وفي الخبر الصحيح : " يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان " واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة ، أما قوله : إن الله تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا إنما ينفع لو ثبت أن صاحب الكبيرة مؤمن ، ومذهب المعتزلة أنه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط ، قوله ثانياً : إنه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال في حقه : إن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، قلنا : لا نسلم فإن عذاب جهنم في غاية الشدة قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : 192] وأما الحديث فيقال : القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد .

ويمكن أن يقال : ثبت في أصول الفقه أنه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد وللخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع إليه في العمليات ، وهذه المسألة ليست من العمليات بل من الاعتقادات ، فلا يجوز المصير إليها ههنا .

(68/499)

فإن اعترض إنسان آخر ، وقال : أجمعنا على أن هذه الآية مشروطة بنفي التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطاً بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب ، وعندنا أن المجرم الذي لا يوجد في حقه العفو لا بد وأن يدخل جهنم ، واعلم أن هذا الاعتراض أيضاً ضعيف أما شرط نفي التوبة فلا حاجة إليه لأنه قال : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ أي حال كونه مجرماً والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرماً .

وأما صاحب الصغيرة فلأنه لا يسمى مجرماً لأن المجرم اسم للذم فلا يجوز إطلاقه على صاحب الصغيرة ، بل الاعتراض الصحيح أن نقول : عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ وكلامنا فيمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض

الكبائر .

فإن قيل : عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة ، قلنا : لم لا يجوز أن يقال : ثواب الإيمان يدفع عقاب المعصية فإن قالوا : لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لعنه وإقامة الحد عليه .

قلنا : أما اللعن الغير جائز عندنا ، وأما إقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما في حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل .

قالت المعتزلة قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نكالا مّنَ الله ﴾ [المائدة : 38] فالله تعالى نص على أنه يجب عليه إقامة الحد على سبيل التنكيل ، وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقاً للمدح والتعظيم ، وإذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا .

فدلنا ذلك على أن عقاب الكبيرة أولى بإزالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة .

(69/499)

هذا منتهى كلامهم في مسألة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع إلى أن النص الدال على إقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضاً للنصوص الدالة على كونه مستحقاً للثواب ،

فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لأن المؤمن كان ينقسم إلى السارق وغير السارق ، فالسارق ينقسم إلى المؤمن وإلى غير المؤمن فلم يكن لأحدهما مزية على الآخر في العموم والخصوص فإذا تعارضا تساقطا .

ثم نقول : لا نسلم أن كلمة من في إفادة العموم قطعية بل ظنية ومسألتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرته ، وتمام الكلام فيه مذكور في كتاب المحصول في الأصول .

المسألة الثالثة :

تمسكت المجسمة بقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ فقالوا : الجسم إنما يأتي ربه لو كان الرب في المكان .

وجوابه : أن الله تعالى جعل إتيانهم موضع الوعد إتياناً إلى الله مجازاً كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : 99] .

المسألة الرابعة :

الجسم الحي لا بد وأن يبقى إما حياً أو يصير ميتاً فخلوه عن الوصفين محال ، فمعناه في الآية أنه يكون في جهنم بأسوء حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة .

ثم ذكر حال المؤمنين فقال : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ واعلم أن قوله : ﴿ قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ يقتضي أن يكون آتياً بكل الصالحات . وذلك بالإتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغي أن يحمل ذلك على أداء الواجبات ، ثم ذكر أن

من أتى بالإيمان والأعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ، ثم فسرها فقال :
﴿ جنات عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وفي الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر لأنه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالإيمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات التي هي غير عالية لا بد وأن تكون لغيرهم .

(70/499)

ما هم إلا العصاة من أهل الإيمان ، أما قوله : ﴿ وذلك جَزَاء مَن تزكى ﴾ فقال ابن عباس : يريد من قال لا إله إلا الله ، وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هي جزاء من تزكى أي تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التي لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهي لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصي وعفا الله بفضله ورحمته عنهم ، واعلم أنه ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك في الأخبار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 77 . 79 ﴾

(71/499)

وقال الماوردى :

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾

وقيل إن امرأة فرعون كانت تسأل : من غلب؟ فقيل لها : موسى وهارون . فقالت :

آمنت برب موسى وهارون فأرسل إليها فرعون فقال : فخذوا أعظم صخرة فحذِّرُوها ،

فإن أقامت على قولها [فألقوها عليها] ، فنزع [الله] روحها ، فألقيت الصخرة على

جسدها وليس فيه روح .

﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه قسم .

الثاني : بمعنى [ولا] على الذي فطرنا .

﴿ فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فاصنع ما أنت صانع .

الثاني : فاحكم ما أنت حاكم .

﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إن التي تنقضي وتذهب هذه الحياة الدنيا ، وتبقى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : والله خير منك وأبقى ثواباً إن أُطيع ، وعقاباً إن عُصِي .

الثاني : خير منك ثواباً إن أطيع وأبقى منك عقاباً إن عُصِي .

قوله عز وجل : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾

حتمل وجهين :

أحدهما : لا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته ، كما قال الشاعر :

ألا من لنفسٍ لا تموت فينقضي . . . شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

الثاني : أن نفس الكافر معلقة بحنجرته كما أخبر الله عنه فلا يموت بفراقها . ولا يحيا باستقرارها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(72/499)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾

قال السحرة لفرعون لما تدعوهم ﴿ لن نؤثرك ﴾ أي نفضلك ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حجة الله تعالى وآياته ﴿ البينات ﴾ وعلى ﴿ الذي فطرنا ﴾ هذا على قول جماعة أن الواو في قوله ﴿ والذي فطرنا ﴾ عاطفة ، وقالت فرقة هي واو القسم ، و ﴿ فطرنا ﴾ معناه خلقنا واخترعنا فافعل يا فرعون ما شئت وإنما قضاؤك في هذه الحياة

الدنيا والآخرة من وراء ذلك لنا بالنعيم ولك بالعذاب وهؤلاء السحرة اختلف الناس هل نفذ فيهم وعيد فرعون فقالت طائفة صلبهم على الجذوع كما قال فأصبح القوم سحرة وأمسوا شهداء بلطف الله لهم وبرحمته ، وقالت فرقة إن فرعون لم يفعل ذلك وقد كان الله تعالى وعد موسى أنه ومن معه الغالبون .

قال القاضي ابو محمد : وهذا كله محتمل وصلب السحرة وقطعهم لا يدفع في أن موسى ومن معه غلب إلا بظاهر العموم والانفصال عن ذلك بين وقوله : ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ قالت فرقة أرادوا ما ضمهم اليه من معارضة موسى وحملهم عليه من ذلك ، وقالت فرقة بل كان فرعون قديماً يأخذ ولدان الناس بتعليم السحر ويجبرهم على ذلك فأشار السحرة إلى ذلك . وقولهم ﴿ خير وأبقى ﴾ رد على قوله ﴿ أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ [طه : 71] .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) ﴾

(73/499)

قالت فرقة هذه الآية بجملتها من كلام السحرة لفرعون على جهة الموعظة له والبيان فيما فعلوه ، وقالت فرقة بل هي من كلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم تنبيهاً على قبح

ما فعل فرعون وحسن ما فعل السحرة وتحذيراً قد ضمنت القصة المذكورة مثاله . و " المجرم " الذي اكتسب الخطايا والجرائم ، وقوله ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ مختص بالكافر فإنه معذب عذاباً ينتهي به إلى الموت ثم لا يجهز عليه فيستريح ، بل يعاد جلده ويجدد عذابه ، فهو لا يحيى حياة هنية ، وأما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة في غمرة قد قاربوا الموت ، إلا أنهم لا يجهز عليهم ولا يجدد عذابهم فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار . وفي الحديث الصحيح " أنهم يماتون إماتة " وهذا هو معناه لأنه لا يموت في الآخرة . و﴿ الدرجات العلى ﴾ هي القرب من الله تعالى و ﴿ تزكى ﴾ معناه أطاع الله تعالى وأخذ بأزكى الأمور وتأتل التكسب في لفظة ﴿ تزكى ﴾ فأنه بين . انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(74/499)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قالوا لن نؤثرك ﴾

أي : لن نختارك ﴿ على ما جاءنا من البينات ﴾ يعنون اليد والعصى .

فإن قيل : لم نسبوا الآيات إِلى أنفسهم بقولهم : "جاءنا" وإِنما جاءت عامة لهم ولغيرهم .

فالجواب : أنهم لما كانوا بأبواب السحر ومذاهب الاحتيال أعرف من غيرهم ، وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر ، كان ذلك في حق غيرهم أَبْيَن وأوضح ، وكانوا هم لمعرفته أخص .

وفي قوله تعالى : ﴿ والذي فطرنا ﴾ وجهان ذكرهما الفراء ، والزجاج.

أحدهما : أن المعنى : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، وعلى الذي فطرنا .

والثاني : أنه قسم ، تقديره : وحقِّ الذي فطرنا .

قوله تعالى : ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي : فاصنع ما أنت صانع .

وأصل القضاء : عمل باحكام ﴿ إِنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ قال الفراء : "إِنما" حرف واحد ، فلهذا نصب : "الحياة الدنيا" .

ولو قرأ قارئ برفع "الحياة" لجاز ، على أن يجعل "ما" في مذهب "الذي" ، كقولك : إِن الذي تقضي هذه الحياة الدنيا .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو المتوكل : "إِنما تُقضى" بضم التاء على ما لم يُسمَّ فاعله ، "الحياةُ" برفع التاء .

قال المفسرون : والمعنى : إِنما سلطانك وملكك في هذه الدنيا ، لا في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ ليغفر لنا ﴾ يعنون الشرك ﴿ وما أكرهتنا عليه ﴾ أي : والذي أكرهتنا عليه ، أي : ويغفر لنا إِكراهك إِيَّانا على السحر .

فإن قيل : كيف قالوا : أكرهتنا ، وقد قالوا : "أإن لنا لأجراً" ، وفي هذا دليل على أنهم فعلوا السحر غير مكرهين ؟ فعنه أربعة أجوبة .

أحدها : أن فرعون كان يكره الناس على تعلّم السِّحر ، قاله ابن عباس .

قال ابن الأنباري : كان يطالب بعض أهل مملكته بأن يعلّموا أولادهم السحر وهم لذلك كارهون ، وذلك لشغفه بالسحر ، ولما خامر قلبه من خوف موسى ، فالإِكراه على السحر ، هو الإِكراه على تعلُّمه في أول الأمر .

(75/499)

والثاني : أن السحرة لما شاهدوا موسى بعد قولهم : "أئن لنا لأجراً" ورأوا ذكَره الله تعالى وسلوكه منهاج المتقين ، جزعوا من ملاقاته بالسحر ، وحذروا أن يظهر عليهم فيطَّلع على ضعف صناعتهم ، فتفسد معيشتهم ، فلم يقنع فرعون منهم إِلا بمعارضة موسى ، فكان هذا هو الإِكراه على السحر .

والثالث : أنهم خافوا أن يُغلَبوا في ذلك الجمع ، فيقدح ذلك في صنعتهم عند الملوك والسُّوَق ، وأكرههم فرعون على فعل السحر .

والرابع : أن فرعون أكرههم على مفارقة أوطانهم ، وكان سبب ذلك السحر ، ذكره هذه

الأقوال ابن الأنباري.

قوله تعالى: ﴿ والله خير ﴾ أي: خير منك ثواباً إذا أُطيع ﴿ وأبقى ﴾ عقاباً إذا عُصي ، وهذا جواب قوله: "ولتعلمُنّ أيُّنا أشد عذاباً وأبقى"؛ وهذا آخر الإخبار عن السحرة.

قوله تعالى: ﴿ إنَّه من يأت ربه مجرماً ﴾

يعني: مشركاً ﴿ فإنَّ له جهنم لا يموت فيها ﴾ فيستريح ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة تنفعه.

[أنشد ابن الأنباري في مثل هذا المعنى قوله:

أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقَضِي . . .

شَقَاهَا وَلَا تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ

قوله تعالى: ﴿ قد عمل الصالحات ﴾ قال ابن عباس: قد أدّى الفرائض، ﴿ فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ يعني: درجات الجنة، وبعضها أعلى من بعض.

والعلى، جمع العليا، وهو تأنيث الأعلى.

قال ابن الأنباري: وإنما قال: "فأولئك"، لأن "مَن" تقع بلفظ التوحيد على تأويل الجمع.

فإذا غلب لفظها، وُحِّد الراجع إليها، وإذا بُيِّن تأويلها، جُمع المصروف إليها.

قوله تعالى: ﴿ وذلك ﴾ يعني الثواب ﴿ جزاءُ من تزكى ﴾ أي: تطهَّر من الكفر والمعاصي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني السحرة ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ أي لن نختارك ﴿ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ قال ابن عباس : يريد من اليقين والعلم .

وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة ؛ فلهذا قالوا : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ .

وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهارون ؛ فقالت : آمنت برب موسى وهارون .

فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فألقوها عليها ؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها في الجنة ، فمضت على قولها فانتزع روحها ، وألقيت الصخرة على جسدها وليس في جسدها روح .

وقيل : قال مقدّم السّحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوفت فتكون جنياً أو لم تتخوف فهي من صنعة الصانع الذي لا يعزب عليه مصنوع ؛ فقال : ما تخوفت ؛ فقال : آمنت برب هارون وموسى .

﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ قيل : هو معطوف على ﴿ مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ أي لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا أي خلقنا .

وقيل : هو قسم أي والله لن نؤثرك .

﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ التقدير ما أنت قاضيه .

وليست "ما" هاهنا التي تكون مع الفعل بمنزلة المصدر ؛ لأن تلك توصل بالأفعال ، وهذه موصولة بابتداء وخبر .

قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع .

وقيل : فاحكم ما أنت حاكم ؛ أي من القَطْع والصَّلْب .

وحذفت الياء من قاض في الوصل لسكونها وسكون التنوين .

واختار سيبويه إثباتها في الوقف لأنه قد زالت علة التقاء الساكنين .

﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ ﴾ أي إنما ينفذ أمرك فيها .

وهي منصوبة على الظرف ، والمعنى : إنما تقضي في متاع هذه الحياة الدنيا .

أو وقت هذه الحياة الدنيا ، فتقدر حذف المفعول .

ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضي أمور هذه الحياة الدنيا ، فتنتصب انتصاب المفعول و"ما" كافة لإنّ .

وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل "ما" بمعنى الذي وتحذف الهاء من تقضي ورفعت "هذه الحياة الدنيا".

﴿ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ أي صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ يريدون الشِّرْك الذي كانوا عليه.

﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ "ما" في موضع نصب معطوفة على الخطايا.

وقيل: لا موضع لها وهي نافية؛ أي ليغفر لنا خطايانا من السّحر وما أكرهتنا عليه.

النحاس: والأول أولى.

المهدوي: وفيه بعدٌ؛ لقولهم: ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ [الشعراء: 41] وليس هذا بقول مُكْرَهين؛ ولأن الإكراه ليس بذنب، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه صغاراً.

قال الحسن: كانوا يعلّمون السحر أطفالاً ثم عملوه مختارين بعد.

ويجوز أن تكون "ما" في موضع رفع بالابتداء ويضمر الخبر، والتقدير: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنّا.

و"من السحر" على هذا القول والقول الأوّل يتعلق ب"أكرهتنا".

وعلى أنّ "ما" نافية يتعلق ب"خطايانا".

﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف؛ قاله ابن عباس.

وقيل: الله خير لنا منك وأبقى عذاباً لنا من عذابك لنا .

وهو جواب قوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأبقى ﴾ [طه : 71] وقيل: الله خير لنا إن أطعناه، وأبقى عذاباً منك إن عصيناه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ قيل: هو من قول السحرة لما آمنوا .

وقيل: ابتداء كلام من الله عز وجل.

والكناية في "إنه" ترجع إلى الأمر والشأن.

ويجوز إنّ من يأت، ومنه قول الشاعر:

إنّ من يَدخلِ الكنيسة يوماً . . .

يلْقَ فيها جآذِراً وظبَاءَ

أراد إنه من يدخل؛ أي إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة.

والمجرم الكافر.

وقيل: الذي يقترف المعاصي ويكتسبها .

والأول أشبه ؛ لقوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يحيى ﴾ وهذه صفة الكافر المكذّب الجاحد على ما تقدم بيانه في سورة "النّساء" وغيرها فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته .

قال الشاعر :

ألا مَنْ لنفس لا تموت فينقضي . . .

شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

وقيل : نفس الكافر معلقة في حنجرته ؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها ، ولا يحيا باستقرارها .

ومعنى ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ من يأت موعد ربه .

ومعنى ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ أي يمت عليه ويوافيه مصدقاً به .

﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ أي وقد عمل ﴿ الصالحات ﴾ أي الطاعات وما أمر به ونهي عنه .

﴿ فأولئك لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ أي الرفيعة التي قصرت دونها الصفات .

ودل قوله : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ على أن المراد بالمجرم المشرك .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات وبدل منها ، والعَدْن الإقامة ؛ وقد تقدم بيانه .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ﴾ أي من تحت غرفها وسررها ﴿ الأنهار ﴾ من الخمر والعسل

واللبن والماء وقد تقدم .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين دائمين .

﴿ وذلك جَزَآءُ مَن تزكى ﴾ أي من تطهّر من الكفر والمعاصي .

ومن قال هذا من قول السّحرة قال : لعل السّحرة سمعوه من موسى ، أو من بني إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام ، وكان فيهم أيضاً المؤمن من آل فرعون .

قلت : ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا ؛ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(79/499)

وقال أبو حيان :

﴿ قالوا لن نؤثرك ﴾

أي لن نختار اتباعك وكوننا من حزبك وسلامتنا من عذابك ﴿ على ما جاءنا من البينات ﴾ وهي المعجزة التي أتتنا وعلمنا صحتها .

وفي قولهم هذا توهين له واستصغار لما هددهم به وعدم اكتراث بقوله .

وفي نسبة المجيء إليهم وإن كانت البينات جاءت لهم ولغيرهم لأنهم كانوا أعرف بالسحر

من غيرهم ، وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر فكانوا على جلية من العلم بالمعجز ، وغيرهم يقلدهم في ذلك وأيضاً فكانوا هم الذين حصل لهم النفع بها فكانت بينات واضحة في حقهم .

والواو في ﴿ والذي فطرنا ﴾ واو عطف على ﴿ ما جاءنا ﴾ أي وعلى ﴿ الذي فطرنا ﴾ لما لاحت لهم حجة الله في المعجزة بدؤوا بها ثم ترقوا إلى القادر على خرق العادة وهو الله تعالى وذكروا وصف الاختراع وهو قولهم ﴿ الذي فطرنا ﴾ تبييناً لعجز فرعون وتكذيبه في ادعاء ربوبيته وإلاهيته وهو عاجز عن صرف ذبابة فضلاً عن اختراعها .

وقيل : الواو للقسم وجوابه محذوف ، ولا يكون ﴿ لن نؤثرك ﴾ جواباً لأنه لا يجاب في النفي بلن إلاّ في شاذ من الشعر و ﴿ ما ﴾ موصولة بمعنى الذي وصلته ﴿ أنت قاض ﴾ والعائد محذوف أي ما أنت قاضيه .

قيل : ولا يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية لأن المصدرية توصل بالأفعال ، وهذه موصولة بابتداء وخبر انتهى .

وهذا ليس مجمعاً عليه بل قد ذهب ذاهبون من النحاة إلى أن ﴿ ما ﴾ المصدرية توصل بالجملة الاسمية .

وانتصب ﴿ هذه الحياة ﴾ على الظرف وما مهيئة ويحتمل أن تكون مصدرية أي إن

قضاءك كائن في ﴿ هذه الحياة الدنيا ﴾ لا في الآخرة ، بل في الآخرة لنا النعيم ولك العذاب .

وقرأ الجمهور ﴿ تقضي ﴾ مبنياً للفاعل خطاباً لفرعون .

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة تُقْضَى مبنياً للمفعول هذه الحياة بالرفع اتسع في الظرف فأُجْرِي مجرى المفعول به ، ثم بُني الفعل لذلك ورفع به كما تقول : صم يوم الجمعة وولد له ستون عاماً .

ولم يصرح في القرآن بأنه أنفذ فيهم وعيده ولا أنه قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، بل الظاهر أنه تعالى سلمهم منه ويدل على ذلك قوله ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ وقيل : أنفذ فيهم وعيده وصلبهم على الجذوع وإكراهه إياهم على السحر .

قيل : حملهم على معارضة موسى .

وقيل : كان يأخذ ولدان الناس ويجربهم على ذلك فأشارت السحرة إلى ذلك قاله الحسن ﴿ والله خير وأبقى ﴾ ردّ على قوله ﴿ أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي وثواب الله وما أعده لمن آمن به ، روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً ففعل فوجده ويحرسه عصاه ،

فقالوا : ما هذا بسحر الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ويظهر من قولهم أئن لنا لأجراً عدم الإكراه .

﴿ إنه من يأت ﴾ -إلى - ﴿ من تزكى ﴾ قيل هو حكاية لهم عظة لفرعون .

وقيل : خبر من الله لا على وجه الحكاية تنبيهاً على قبح ما فعل فرعون وحسن ما فعل السحرة موعظة وتحذيراً ، والمجرم هنا الكافر لذكر مقابله ﴿ ومن يأته مؤمناً ﴾ ولقوله ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ أي يعذب عذاباً ينتهي به إلى الموت ثم لا يجهز عليه فيستريح ، بل يعاد جلده ويجدد عذابه فهو لا يحيا حياة طيبة بخلاف المؤمن الذي يدخل النار فهم يقاربون الموت ولا يجهز عليهم فهذا فرق بين المؤمن والكافر .

وفي الحديث " إنهم يماتون إماتة " وهذا هو معناه لأنه لا يموت في الآخرة و ﴿ تَزَكَّى ﴾ تطهَّر من دنس الكفر .

وقيل : قال لا إله إلا الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(81/499)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك بالإيمان والاتّباع ﴿ على مَا

جَاءَنَا ﴾ من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ مِنَ البينات ﴾ من المعجزات الظاهرة فإن ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملاً على معجزات جمّة كما مر تحقيقه فيما سلف، فإنهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها ﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾ أي خلقنا وسائرَ المخلوقات وهو عطفٌ على ما جاءنا وتأخيرُه لأن ما في ضمنه آيةٌ عقليةٌ نظرية وما شاهدوه آيةٌ حسيةٌ ظاهرة، وإيرادُه تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للإشعار بعلة الحُكم فإن خالقيتَه لهم وكونَ فرعونَ من جملة مخلوقاته مما يوجب عدمَ إيثارِهم له عليه سبحانه وتعالى، وهذا جوابٌ منهم لتوبيخ فرعونَ بقوله: ﴿ قَالَ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ ﴾، وقيل: هو قسَمٌ محذوفُ الجواب لدِلالة المذكورِ عليه أي وحقِّ الذي فطرنا لا نؤثرك الخ، ولا مساغَ لكون المذكورِ جواباً له عند من يجوّز تقديمَ الجواب أيضاً لما أن القسمَ لا يجاب بلن إلا على شذوذ، وقوله تعالى: ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ جوابٌ عن تهديده بقوله: لأقطعن الخ، أي فاصنع ما أنت صانعُه أو فاحكم به وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا ﴾ مع ما بعده تعليلٌ لعدم المبالاة المستفادِ مما سبق من الأمر بالقضاء، أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الحياةِ الدنيا فحسبُ، وما لنا من رغبة في عذْبها ولا رهبةٍ من عذابها.

﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾

التي اقترفنا فيها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنَا بها في الدار الآخرة ، لا ليمتّعنا بتلك الحياةِ الفانية حتى نتأثرَ بما أوعدتَنا به من القطع والصلب ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ عطفٌ على خطايانا أي ويغفرَ لنا السحرَ الذي عمِلناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرِك إيانا من المدائن القاصية ، خصّوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته ، وذكرُ الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرَد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه ، وفيه نوعُ اعتذارٍ لاستجلاب المغفرة ، وقيل : أرادوا الإكراهَ على تعلم السحر حيث روي أن رؤساءَهم كانوا اثنين وسبعين : اثنان منهم من القِبط والباقي من بني إسرائيل ، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر ، وقيل : إنه أكرههم على المعارضة حيث روي أنهم قالوا لفرعون : أرِنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرُسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بسحر فإن الساحرَ إذا نام بطل سحرُه ، فأبى إلا أن يعارضوه ويأباه تصدّيهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يُعرب عنه قولُهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لاجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ وقولهم : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ ﴿ والله خَيْرٌ ﴾ أي في حد ذاتِه وهو ناظرٌ إلى قولهم : والذي فطرنا ﴿ وأبقى ﴾ أي جزاءً ، ثواباً كان أو عذاباً أو خيرٌ ثواباً وأبقى عذاباً .

وقوله تعالى :

﴿ أَنَّهُ ﴾ إلى آخر الشرطيتين تعليلٌ من جهتهم لكونه تعالى خيراً وأبقى جزاءً وتحقيقٌ له وإبطالٌ لما ادّعاه فرعون ، وتصديرُهما بضمير الشأنِ للتنبيه على فخامة مضمونِهما لأن مناطَ وضْع الضميرِ موضعَه ادّعاءُ شهرته المغْنيةِ عن ذكره مع ما فيه من زيادة التقريرِ فإن الضميرَ لا يفهم منه من أول الأمرِ إلا شأنٌ مبهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهنُ مترقّباً لما يعقُبه فيتمكن عند وروده له فضلُ تمكن ، كأنه قيل : إن الشأنَ الخطيرَ هذا أي قوله تعالى : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فينتهيَ عذابُه وهذا تحقيقٌ لكون عذابه أبقى ﴿ وَلاَ يَحْيَا ﴾ حياةً ينتفع بها .

﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التي من جملتها ما شاهدناه ﴿ قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ الصالحة كالحسنة جاريةٌ مجرى الاسم ولذلك لا تُذكر غالباً مع الموصوف وهي كلُّ ما استقام من الأعمال بدليل العقلِ والنقل ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ والجمعُ باعتبار معناها كما أن الإفراد في الفعلين السابقين باعتبار لفظِها ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعلوّ درجتِهم وبُعد منزلِتهم ، أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب إيمانِهم وأعمالِهم الصالحة ﴿ والدرجات العلى ﴾ أي

المنازلُ الرفيعةُ ، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبارِ الإيمان المجرد عن العمل الصالحِ في استتباع الثوابِ ، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوزُ بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقاً وهل التشاجرُ إلا فيه .

(84/499)

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدلٌ من الدرجات العلى أو بيان ، وقد مر أنّ عدْناً علمٌ لمعنى الإقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ حال من الجنات وقوله تعالى ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حالٌ من الضمير في لهم والعامل معنى الاستقرارِ أو الإشارةِ ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذُكر من الدرجات العُلى ، ومعنى البُعد لما مر من التفخيم ﴿ جَزَاء مَن تزكى ﴾ أي تطهر من دنس الكفرِ والمعاصي بما ذكر من الإيمان والأعمالِ الصالحة ، وهذا تحقيقٌ لكون ثوابه تعالى أبقى ، وتقديمُ ذكرِ حال المجرمِ للمسارعة إلى بيان أشدّية عذابه ودوامِه رداً على ما ادعاه فرعونُ بقوله : ﴿ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ هذا وقد قيل : هذه الآياتُ الثلاثُ ابتداءُ كلامٍ من الله عز وجل ، قالوا : ليس في القرآن أن فرعونَ فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبُت في الأخبار . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾

﴿ قَالُواْ ﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك بالإيمان والانقياد ﴿ على مَا جَاءنَا ﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ مِنَ البينات ﴾ من المعجزات الظاهرة التي اشتملت عليها العصا .

وإنما جعلوا المجيء إليهم وإن عم لأنهم المنتفعون بذلك والعارفون به على أتم وجه من غير تقليد .

وما موصولة وما بعدها صلتها والعائد الضمير المستتر في جاء .

وقيل العائد محذوف وضمير ﴿ جَاءنَا ﴾ لموسى عليه السلام أي على الذي جاءنا به موسى عليه السلام وفيه بعد .

وإن كان صنيع بعضهم اختياره مع أن في صحة حذف مثل هذا المجرور كلاماً .

﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾ أي أبدعنا وأوجدنا وسائر العلويات والسفليات .

وهو عطف على ﴿ مَا جَاءنَا ﴾ وتأخيره لأن ما في ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه

آية حسية ظاهرة .

وإيراده تعالى بعنوان الفاطرية لهم للإشعار بعلة الحكم فإن إبداعه تعالى لهم .

وكون فرعون من جملة مبدعاته سبحانه مما يوجب عدم إيثارهم إياه عليه عز وجل .

وفيه تكذيب للعين في دعواه الربوبية .

وقيل : الواو للقسم وجوابه محذوف لدلالة المذكور عليه أي وحق الذي فطرنا لن نؤثرك

الخ .

ولا مساغ لكون المذكور جواباً عند من يجوز تقديم الجواب أيضاً لما أن القسم لإيجاب كما

قال أبو حيان : بلن إلا في شاذ من الشعر .

وقولهم : هذا جواب لتوبيخ اللعين بقوله : ﴿ آمنتم ﴾ [طه : 71] الخ .

وقوله تعالى : ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ جواب عن تهديده بقوله : ﴿ لأقطعن ﴾ [طه

: 71] الخ أي فاصنع ما أنت بصدد صنعه أو فاحكم بما أنت بصدد الحكم به فالقضاء

إما بمعنى الإيجاد الإبداعي كما في قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [فصلت :

12] وأما بمعناه المعروف .

وعلى الوجهين ليس المراد من الأمر حقيقته ، وما موصولة والعائد محذوف .

وجوز أبو البقاء كونها مصدري وهو مبني على ما ذهب إليه بعض النحاة من جواز وصل المصدرية بالجملة الاسمية ومنع ذلك بعضهم ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هذه الحياة الدنيا ﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الأمر بالقضاء ، وما كافة و﴿ هذه الحياة ﴾ منصوب محلاً على الظرفية لتقضي والقضاء على ما مر ومفعوله محذوف أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا من رغبة في عذبها ولا رهبة من عذابها ، وجوز أن تكون ما مصدرية فهي وما في حيزها في تأويل مدر اسم أن وخبرها ﴿ هذه الحياة ﴾ أي أن قضاءك كائن في هذه الحياة ، وجوز أن ينزل الفعل منزلة اللازم فلا حذف .

وقرأ ابن حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى ﴾ بالبناء للمفعول ﴿ هذه الحياة ﴾ بالرفع على أنه اتسع في الظرف فجعل مفعولاً به ثم بنى الفعل له نحو صيم يوم الخميس .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾

التي اقترفناه من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بهذا في الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ عطف على ﴿ خطايانا ﴾ أي ويغفر

لنا السحر الذي عملناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته ، وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار مع صدوره عنهم بالإكراه ، وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة ، وقيل : إن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقي من بني إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر .

(87/499)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل فأمر أن يتعلموا السحر وقال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد من أهل الأرض وهم من الذين آمنوا بموسى عليه السلام وهو الذين قالوا : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ [طه : 37] ، وقال الحسن : كان يأخذ ولدان الناس ويجبرهم على تعلم السحر ، وقيل : إنه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا له : أرنا موسى نائم ففعل بوجوده تحرسه عصاه فقالوا : ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضو ولا ينافي ذلك قولهم : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ [الشعراء : 44] لأنكما أن قولهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لاجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ [الأعراف : 113] قبله كما

قيل : وزعم أبو عبيد أن مجرد أمر السلطان شخصاً إكراه وإن لم يتوعده وإلى ذلك ذهب ساداتنا الحنفية كما في عامة كتبهم لما في مخالفة أمره من توقع المكروه لا سيما إذا كان السلطان جباراً طاغياً ﴿ واللهُ خَيْرٌ ﴾ في حد ذاته تعالى ﴿ وأبقى ﴾ أي وأدوم جزاء ثواباً كان أو عقاباً أو خير ثواباً وأبقى عذاباً ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾

﴿ إِنَّهُ ﴾ إلى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى شأنه خير وأبقى وتحقيق له وإبطال لما ادعاه اللعين ، وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما ولزيادة تقرير له أي إن الشيطان الخطير هذا أي قوله تعالى : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي .

﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فينتهي عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه تعالى أبقى ﴿ وَلَا يَحيى ﴾ حياة ينفتع بها .

(88/499)

﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ به عز وجل وبما جاء من عنده من المعجزات التي من جملتها ما شاهدنا ﴿ قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ من الأعمال ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى ﴿ مِنْ ﴾

والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فيما تقدم باعتبار لفظها ، وما فيها من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أي فأولئك المؤمنون العاملون للأعمال الصالحات ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم ذلك ﴿ الدرجات العلى ﴾ أي المنازل الرفيعة .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ الدرجات العلى ﴾ [طه : 75] أو بيان وقد تقدم في عدن ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ حال من الجنات ، وقوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وهو حال من الضمير في ﴿ لهم ﴾ [طه : 75] ، والعامل فيه معنى الاستقرار في الظرف أو ما في ﴿ أولئك ﴾ [طه : 75] من معنى أشير والحال مقدرة ولا يجوز أن يكون ﴿ جنات ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي جنات لخلو الكلام حينئذ عن عامل في الحال ما ذكره أبو البقاء ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر ومعنى البعد لما أشير إليه من قرب من التفخيم ﴿ جَزَاء مَن تزكى ﴾ أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي بما ذكر فيمن الايمان والأعمال الصالحة .

وهذا تصريح بما أفادته الشرطية ، وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه عز وجل ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله : ﴿ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ [طه : 71] ، وقال بعضهم : إن الشرطيتين إلى هنا ابتداء كلام منه جل وعلا تنبيهاً على قبح ما فعل فرعون وحسن ما فعل السحرة والأول أولى خلافاً لما حسبه النيسابوري .

هذا واستدل المعتزلة بالشرطية الأولى على القطع بعذاب مرتكب الكبيرة قالوا : مرتكب الكبيرة مجرم لأن أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة ثم استعير لاكتساب المكروه وكل مجرم فإن له جهنم للآية فإن من الشرطية فيها عامة بدليل صحة الاستثناء فينتج مرتكب الكبيرة إن له جهنم وهو دال على القطع بالوعيد .

وأجاب أهل السنة بأنا لا نسلم الصغرى لجواز أن يراد بالمجرم الكافر فكثيراً ما جاء في القرآن بذلك المعنى كقوله تعالى : ﴿ يَتَسَاءلُونَ عَنِ المجرمين مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَكُنَّا نُكَذّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ [المدثر : 40 - 46] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين : 29] إلى آخر السورة ، وعلى تقدير تسليم هذه المقدمة لا نسلم الكبرى على إطلاقها وإنما هي كلية بشرط عدم العفو مع أنا لا نسلم أن من الشرطية قطعية في العموم كما قال الإمام وحينئذ لا يحصل القطع بالوعيد مطلقاً ، وعلى تقدير تسليم المقدمتين يقال يعارض ذلك الدليل عموم الوعد في قوله تعالى ومن يأته مؤمناً الخ ويجعل الكلام فيمن آمن وعمل الصالحات وارتكب الكبيرة وهو داخل في عموم ﴿ مِنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ [طه : 75] ولا يخرجه عن العموم ارتكابه الكبيرة ومتى كانت له الجنة فهي لمن آمن وارتكب الكبيرة ولم يعمل الأعمال الصالحة أيضاً إذ لا قائل بالفرق ، فإذا قالوا : مرتكب الكبيرة لا يقال له مؤمن كما لا يقال

كافر لإثباتهم المنزلة بين المنزلتين فلا يدخل ذلك في العموم أبطلنا ذلك وبرهنا على حصر المكلف في المؤمن والكافر ونفى المنزلة بين الايمان والكفر بما هو مذكور في محله .

(90/499)

وعلى تقدير تسليم أن ﴿ مِنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ [طه : 75] الخ لا يعم مرتكب الكبيرة يقال : إن قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ لهم الدرجات العلى ﴾ [طه : 75] يدل على حصول العفو لأصحاب الكبائر لأنه تعالى جعل الدرجات العلى وجنات عدن لمن أتى بالايمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات الغير العالية والجنات لا بد أن تكون لغيرهم وما هم إلا العصاة من أهل الايمان .

ولقد أخرج أبو داود .

وابن مردويه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم .

وأنعما " واستدل على شمول ﴿ مِنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ [طه : 75] صاحب الكبيرة بقوله تعالى : ﴿ وذلك جَزَاءَ مَن تزكى ﴾ بناء على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما من أن المراد بمن تزكى من قال لا إله إلا الله كأنه أراد من تطهر عن دنس الكفر والله تعالى أعلم.

ثم إن العاصي إذا دخل جهنم لا يكون حاله كحال المجرم الكافر إذا دخلها بل قيل: إنه يموت احتجاجاً بما أخرج مسلم.

وأحمد.

وابن أبي حاتم.

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه الآية أنه ﴿ مَن يَأْتِ ﴾ الخ فقال عليه الصلاة والسلام: أما أهلها يعني جهنم الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما تنبت القثاء بجميل السيل" وحمل ذلك القائل تميتهم فيه على الحقيقة وجعل المصدر تأكيداً لدفع توهم المجاز كما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء: 164]، وذكر أن فائدة بقائهم في النار بعد إماتتهم إلى حيث شاء الله تعالى حرمانهم من الجنة تلك المدة وذلك منضم إلى عذابهم بإحراق النار إياهم.

وقال بعضهم : إن تميتهم مجاز والمراد أنها تجعل حالهم قريبة من حال الموتى بأن لا يكون لهم شعور تام بالعذاب ، ولا يسلم أن ذكر المصدر ينافي في التجوز فيجوز أن يقال قتلت زيداً بالعصا قتلاً والمراد ضربته ضرباً شديداً ولا يصح أن يقال : المصدر لبيان النوع أي تميتهم نوعاً من الإماتة لأن الإماتة لا أنواع لها بل هي نوع واحد وهو إزهاق الروح ولهذا قلي :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . . .

تعددت الأسباب والموت واحد

واستدل المجسمة بقوله سبحانه ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ على ﴾ [طه : 74] ، وأجيب بأن المراد من إتيانه تعالى إتيان موضع وعده عز وجل أو نحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(92/499)

وقال الشوكانى :

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾

قوله : ﴿ قَالَ ءامَنتُمْ لَهُ ﴾ يقال : آمن له وآمن به ، فمن الأوّل : قوله : ﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾

[العنكبوت : 26] ، ومن الثاني : قوله في الأعراف : ﴿ ءامَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذن لكم ﴾ [الأعراف : 123] .

وقيل : إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع .

وقرىء على الاستفهام التوبيخي ، أي كيف آمنتم به من غير إذن مني لكم بذلك ؟ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ أي إن موسى لكبيركم ، أي أسحركم وأعلاكم درجة في صناعة السحر ، أو معلمكم وأستاذكم كما يدلّ عليه قوله : ﴿ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾

قال الكسائي : الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال : جئت من عند كبيري .

وقال محمد بن إسحاق : إنه لعظيم السحر .

قال الواحدي : والكبير في اللغة : الرئيس ، ولهذا يقال للمعلم : الكبير .

أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، ولا كان رئيساً لهم ، ولا بينه وبينهم مواصلة ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ أي : والله لأفعلنّ بكم ذلك .

والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، و" من " للابتداء ﴿ وَلأُصَلّبَنّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ أي على جذوعها كقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ [الطور : 38] أي عليه ، ومنه قول سويد بن أبي كاهل :

هم صلبوا العبديّ في جذع نخلة . . . فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

وإنما آثر كلمة "فِي" للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأبقى ﴾ أراد : لتعلمنّ هل أنا أشدّ عذابا لكم أم موسى ؟

ومعنى ﴿ أبقى ﴾ : أدوم ، وهو يريد بكلامه هذا : الاستهزاء بموسى ، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء ، ويمكن أن يريد : العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا .

وقيل : أراد بموسى ربّ موسى على حذف المضاف .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَاءنَا مِنَ البينات ﴾ أي لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله سبحانه كاليد والعصا .

وقيل : إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه في سجودهم من المنازل المعدّة لهم في الجنة ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ معطوف على ﴿ ما جاءنا ﴾ أي لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذي فطرنا ، أي خلقنا .

وقيل هو قسم ، أي والله الذي فطرنا لن نؤثرك ، أو لا نؤثرك ، وهذان الوجهان في تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم : ﴿ لأقطعنّ ﴾ إلخ ، والمعنى : فاصنع ما أنت صانع ، واحكم ما أنت حاكم ،

والتقدير : ما أنت صانعه ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها ، فاسم الإشارة في محل نصب على الظرفية أو على المفعولية و" ما "كافة ، وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذي ، أي أن الذي تقضيه هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ معطوف على ﴿ خطايانا ﴾ أي ويغفر لنا الذي أكرهتنا عليه من عمل السحر في معارضة موسى فما في محل نصب على المفعولية وقيل : هي نافية ، قال النحاس : والأوّل أولى .

(94/499)

قيل : ويجوز أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر مقدّر ، أي وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنا ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي خير منك ثواباً وأبقى منك عقاباً ، وهذا جواب قوله : ﴿ ولتعلمنّ أينا أشدّ عذاباً وأبقى ﴾ .

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصي ، ومعنى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ : أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة

تنفعه .

قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحي ، ويبلغ به حال الموت في المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ، والعرب تقول : فلان لا حيّ ولا ميت ، إذا كان غير منتفع بحياته ، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا :

ألا من لنفس لا تموت فينقضي . . . شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وهذه الآية من جملة ما حكاه الله سبحانه من قول السحرة .

وقيل : هو ابتداء كلام .

والضمير في : ﴿ إنه ﴾ على هذا الوجه للشأن ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ أي ومن يأت ربه مصدّقاً به قد عمل الصالحات ، أي الطاعات ، والموصوف محذوف ، والتقدير : الأعمال الصالحات ، وجملة : ﴿ قد عمل ﴾ في محل نصب على الحال وهكذا ﴿ مؤمناً ﴾ منتصب على الحال ، والإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ إلى من باعتبار معناه ﴿ لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ أي المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات أو بدل منها ، والعدن : الإقامة ، وقد تقدّم بيانه ، وجملة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ حال من الجنات ؛ لأنها مضافة إلى عدن ، وعدن علم للإقامة كما سبق .

وانتصاب ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ على الحال من ضمير الجماعة في لهم ، أي ماكثين دائمين ،

والإشارة ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم لهم من الأجر ، وهو مبتدأ ، و﴿ جَزَاء مَن تزكى ﴾ خبره ، أي جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي الموجبة للنار .

(95/499)

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفَرَما ، قال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض .

قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى ، وهم الذين قالوا : ﴿ آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ قال : خير منك إن أطيع ، وأبقى منك عذاباً إن عصى .

وأخرج أحمد ومسلم وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه الآية : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ، ثم يقوم الشفعاء

فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له : الحياة أو الحيوان ، فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل " وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدريّ في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما " ، وفي الصحيحين بلفظ : " إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(96/499)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾

أي : نختارك بالإيمان والاتباع : ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا ﴾ أي : من الله على يد موسى : ﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أي : وعلى الذي خلقنا . واختيارُ هذا الوصف للإشعار بعلة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه ، سبحانه وتعالى . وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ وقيل هو قسم محذوف الجواب : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أي : اصنع ما أنت صانعه . وهذا

جواب عن تهديده بقوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ ﴾ الخ: ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي: فيها وهي لا بقاء لها، ولا سلطان لك بعدها. وإنما البغية الآخرة.

(97/499)

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي: ثواباً.

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ أي: فينقضي عذابه: ﴿ وَلا يَحْيَى ﴾ أي: حياة طيبة.

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ أي: المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

(98/499)

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أي: تطهر من دنس الكفر والمعاصي، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة.

لطائف :

من " الكشاف " و " حواشيه للناصر " .

الأولى : في تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم ، استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له وخفض جناح . وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم . وكأن الله عزّ وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى – صلوات الله عليه – اختيار إلقائهم ، أوّلاً ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر ، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين . وعبرة بينة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم : ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ ﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه ، وكما ألهم الله عزّ وجلّ موسى ها هنا ، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ، ليكون إلقاؤه العصا ، بعدُ ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم .

الثانية : جوز في إيثار قوله تعالى : ﴿ مَا فِي يَمِينِكِ ﴾ على : ﴿ عَصَاكَ ﴾ وجهان :

أحدها : أن يكون تعظيماً لها . أي : لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن في يمينك

شيئاً أعظم منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها .

(99/499)

وثانيهما : أن يكون تصغيراً لها أي : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم . وألق العُوَيْد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك . فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة ، تحقير كيد السحرة بطريق الأوْلى . لأنها إذا كانت أعظم مُنَّةً وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق في علوّ المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين .

واعلم أنه لا بد من نكتة تناسب الأمرين – التعظيم والتحقير – وتلك ، والله أعلم ، هي إرادة المذكور مبهماً ، لأن : ﴿ مَا فِي يَمِينِكِ ﴾ أبهم مِنْ : ﴿ عَصَاكَ ﴾ وللعرب مذهب في التنكير والإبهام ، والإجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته ، وأنه عند

الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومره لتعظيم شأنه ، وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان ، يغني في الرمز والإِشارة . فهذا هو الوجه في إِسعاده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندي في الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو : أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سأله عنها بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ ؟ انتهى .

ولأبي حيان نكتة أخرى . وهي ما في اليمين من الإِشعار باليمن والبركة . ولا يقال جاء في سورة الأعراف : ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجي : فيما ذكروه نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربي أو مرادفٍ له ، يجري فيه ما يجري فيه . والأول خلاف الواقع . والثاني دونه خرط القتاد ، فتأمل .

أقول : إنما استبعد الثاني ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا في اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتعين الثاني . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف .

أهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 142.145 ﴾

(101/499)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾

أي لن نختار اتباعك وكوننا من حزبك ، وسلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البينات . كمعجزة العصا التي أتتنا وتيقنا صحتها . والواو في قوله ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ عاطفة على « ما » من قوله : ﴿ على مَا جَآءَنَا ﴾ أي لن نختارك ﴿ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ ولا على ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ أي خلقنا وأبرزنا من العدم إلى الوجود . وقيل : هي واو القسم والمقسم عليه محذوف دل عليه ما قبله . أي ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ لا نؤثرك ﴿ على

مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ ، ﴿ فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي اصنع ما أنت صانع . فلسنا راجعين عما نحن عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ ﴾ أي إنما ينفذ أمرك فيها . ف « هَذِهِ » منصوب على الظرف على الأصح . أي وليس فيها شيء يهم لسرعة زوالها وانقضائها .

وما ذكره جل وعلا عنهم في هذا الموضع : من ثباتهم على الإيمان ، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده رغبة فيما عند الله قد ذكره في غير هذا الموضع . كقوله في « الشعراء » عنهم في القصة بعينها : ﴿ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 50] . وقوله في « الأعراف » : ﴿ قالوا إِنَّآ إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : 125-126] . وقوله : ﴿ فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ عائد الصلة محذوف ، أي ما أنت قاضيه لأنه مخفوض بالوصف ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

كذاك حذف ما بوصف خفضا . . . كأنت قاض بعد أمر من قضى

ونظيره من كلام العرب قول سعد بن ناشب المازني :

ويصغر في عيني تلادي إذا انثنت . . . يميني بإدراك الذي كنت طالبا

أي طالبه .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن فرعون لعنة الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ يعنون ذنوبهم السالفة كالكفر وغيره من المعاصي ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ أي ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر.

وهذا الذي ذكره عنهم هنا أشار له في غير هذا الموضع. كقوله تعالى في «الشعراء» عنهم: ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ المؤمنين ﴾ [الشعراء: 50-51]، وقوله عنهم في «الأعراف»: ﴿ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 126]. وفي آية «طه» هذه سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ يدل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في «طه»: ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ [طه: 62-64]. فقولهم: ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ صريح في أنهم غير مكرهين. وكذلك قوله عنهم في «الشعراء»: ﴿ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً

إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَال نعَمْ وَإِنَّكُمْ إذاً لَمِنَ المقربين ﴾ [الشعراء : 41-42] ، وقوله في «الأعراف» : ﴿ قالوا إِنَّ لَنا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَال نَعَمْ وإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ﴾ [الأعراف : 113-114] فتلك الآيات تدل على أنهم غير مكرهين .

(103/499)

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة :

(منها) أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم ، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين ، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر ، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر ، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض ، ويدل لهذا قوله : ﴿ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء : 36] ، وقوله : ﴿ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ [الأعراف : 111] .

(ومنها) أنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر في حال صغرهم ، وأن ذلك هو مرادهم بإكراههم على السحر . ولا ينافي ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا من السحر بعد تعلمهم وكبرهم طائعين .

(ومنها) أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نائماً : ففعل فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما

هذا بسحر الساحر ! لأن الساحر إذا نام بطل سحره . فأبى إلا أن يعارض ، وألزمهم بذلك . فلما لم يجدوا بداً من ذلك فعلوه طائعين . وأظهرها عندي الأول ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله : في هذه الآية الكريمة ﴿ خَطَايَانَا ﴾ جمع خطيئة ، وهي الذنب العظيم . كالكفر ونحوه . والفعلية تجمع على فعائل ، والهمزة في فعائل مبدلة من الياء في فعيلة ، ومثلها الألف والواو ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

والمد زيد ثالثاً في الواحد . . . همزاً يرى في مثل كالقلائد

(104/499)

فأصل خطايا خطائي بياء مكسورة ، وهي ياء خطيئة ، وهمزة بعدها هي لام الكلمة . ثم أبدلت الياء همزة على حد الإبدال في صحائف ! فصارت خطائئي بهمزتين ، ثم أبدلت الثانية ياء للزوم إبدال الهمزة المتطرفة بعد الهمزة المكسورة ياء ، فصارت خطائي ، ثم فتحت الهمزة الأولى تخفيفاً فصار خطاءي ، ثم أبدلت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار خطاءاً بألفين بينهما همزة ، والهمزة تشبه الألف ، فاجتمع شبه ثلاثة ألفات ، فأبدلت الهمزة ياء فصار خطايا بعد خمسة أعمال ، وإلى ما ذكرنا أشار في الخلاصة بقوله

:

واقتح ورد الهمزة يا فيما أعل . . . لاما وفي مثل هراوة جعل

واوا . . . الخ .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ ظاهره المتبارد منه : أن المعنى خير من فرعون وأبقى منه . لأنه باق لا يزول ملكه ، ولا يذل ولا يموت ، ولا يعزل . كما أوضحنا هذا المعنى في سورة « النحل » في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ [النحل : 52] الآية . أي بخلاف فرعون وغيره من ملوك الدنيا فإنه لا يبقى ، بل يموت أو يعزل ، أو يذل بعد العز . وأكثر المفسرين على أن المعنى : أن ثوابه خير مما وعدهم فرعون في قوله : ﴿ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ [الشعراء : 41-42] . وأبقى : أي أدوم . لأن ما وعدهم به فرعون زائل ، وثواب الله باق . كما قال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى : 17] . وقال بعض العلماء : ﴿ وأبقى ﴾ أي أبقى عذاباً من عذابك ، وأدوم منه . وعليه فهو رد لقول فرعون ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ [طه : 71] ومعنى ﴿ أبقى ﴾ أكثر بقاء .

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74)

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الأمر والشأن ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿ مُجْرِماً ﴾ أي مرتكباً الجريمة في الدنيا حتى مات على ذلك كالكافر عياذاً بالله تعالى ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ عند الله ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ يعذب فيها ف ﴿ لاَ يَمُوتُ ﴾ فيستريح ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ حياة فيها راحة .

وهذا الذي ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع : كقوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر : 36] ، وقوله تعالى : ﴿ واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : 15-17] ، وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى الذى يَصْلَى النار الكبرى ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ [الأعلى : 11-13] ، وقوله تعالى : ﴿ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] إلى غير ذلك من الآيات . ونظير ذلك من كلام العرب قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن

مسعود أحد فقهاء المدينة السبعة :

ألا من لنفس لا تموت فينقضي . . . شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

(106/499)

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : «أن» ﴿ وَمَن يَأْتِهِ ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ أي في الدنيا حتى مات على ذلك ﴿ فأولئك لَهُمُ ﴾ عند الله ﴿ الدرجات العلى ﴾ والعلى : جمع عليا وهي تأنيث الأعلى . وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 21] ، وقوله : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأحقاف : 19] ونحو ذلك من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(107/499)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾

أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه ، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين ، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته .

ولنا في عمر بن الخطّاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مَثَلُ صدق .

والإيثار : التفضيل .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ في سورة يوسف (91) .

والتفضيل بين فرعون وما جاءهم من البيّنات مقتض حذف مضاف يناسب المقابلة بالبيّنات ، أي لن نؤثر طاعتك أو دينك على ما جاءنا من البيّنات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى ، وبذلك يلتئم عطف ﴿ والذي فَطَرَنا ﴾ ، أي لا نؤثرك في الربوبية على الذي فطرنا .

وجيء بالموصول للإيماء إلى التّعليل ، لأنّ الفاطر هو المستحق بالإيثار .

وأخر ﴿ الذي فطرنا عن ما جَاءَنَا مِنَ البينات ﴾ لأنّ البيّنات دليل على أنّ الذي خلقهم أراد منهم الإيمان بموسى ونبذ عبادة غير الله ، ولأنّ فيه تعريضاً بدعوة فرعون للإيمان بالله .

وصيغة الأمر في قوله ﴿ فَاقْضِ مَا أنتَ قَاضٍ ﴾ مستعملة في التسوية ، لأن ﴿ ما أنت قاض ﴾ مَا صدْقَهُ ما توعدهم به من تقطيع الأيدي والأرجل والصّلبِ ، أي سواء علينا ذلك بعضه أو كلّه أو عدم وقوعه ، فلا نطلب منك خلاصاً منه جزاء طاعتك فافعل ما أنت فاعل (والقضاء هنا التنفيذ والإنجاز) فإنّ عذابك لا يتجاوز هذه الحياة ونحن نرجو من ربنا الجزاء الخالد .

وانتصب ﴿ هذه الحياة ﴾ على النيابة عن المفعول فيه ، لأنّ المراد بالحياة مُدّتُها .

والقصر المستفاد من (إنما) قصر موصوف على صفة ، أي إنك مقصور على القضاء في هذه الحياة الدنيا لا يتجاوزه إلى القضاء في الآخرة ، فهو قصر حقيقيّ .

وجملة ﴿ إنَّا آمَنَّا بِرَبنا ﴾ في محلّ العلّة لما تضمنه كلامهم .

(108/499)

ومعنى ﴿ وما أكْرَهْتَنَا عليْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ أنه أكرههم على تحدّيهم موسى بسحرهم فعلموا أن فعلهم باطل وخطيئة لأنّه استعمل لإبطال إلهيّة الله ، فبذلك كان مستوجباً طلب المغفرة .

وجملة ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ في موضع الحال ، أو معترضة في آخر الكلام للتذييل .

والمعنى : أنّ الله خير لنا بأن نؤثره منك ، والمراد : رضى الله ، وهو أبقى منك ، أي جزاؤه في الخير والشرّ أبقى من جزائك فلا يهولنا قولك ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ [طه : 71] ، فذلك مقابلة لوعيده مقابلة تامة .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) ﴾

هذه الجمل معترضة بين حكاية قصة السحرة وبين ذكر قصّة خروج بني إسرائيل ، ساقها الله موعظة وتأييداً لمقالة المؤمنين من قوم فرعون .

وقيل : هي من كلام أولئك المؤمنين .

ويبعده أنه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصّة .

والمجرم : فاعل الجريمة ، وهي المعصية والفعل الخبيث .

والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ [المطففين : 29] .

واللام في ﴿ لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ لامُ الاستحقاق ، أي هو صائر إليها لا محالة ، ويكون عذابه متجدّداً فيها ؛ فلا هو ميت لأنّه يُحِس بالعذاب ولا هو حيّ لأنه في حَالةٍ الموتُ أهون منها ، فالحياة المنفية حياة خاصة وهي الحياة الخالصة من العذاب والآلام .

وبذلك لم يتناقض نفيها مع نفي الموت ، وهو كقول عبّاس بن مرداس:

وقد كنتُ في الحرب ذَا تُدْرَإٍ . . .

فلم أُعْطَ شيئًا ولم أُمنع

وليس هذا من قبيل قوله ﴿ إنها بقرة لا فارض ولا بكر ﴾ [البقرة : 68] ولا قوله ﴿ زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ [النور : 35] .

وأما خلود غير الكافرين في النّار من أهل الكبائر فإن قوله ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا ولا يحيى ﴾ جعلها غير مشمولة لهذه الآية .

(109/499)

ولها أدلّة أخرى اقتضت خلود الكافر وعدم خلود المؤمن العاصي .

ونازَعَنَا فيها المعتزلة والخوارج .

وليس هذا موضع ذكرها وقد ذكرناها في مواضعها من هذا التفسير .

والإتيان باسم الإشارة في قوله : ﴿ فأولئك لهم الدرجات ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق اسمَ الإشارة .

وتقدم معنى ﴿ عَدْن ﴾ وتفسير ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات

عدن ﴾ في سورة براءة [72] .

والتزكّي : التطهر من المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(110/499)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾

الإيثار : تفضيل شيء على شيء في مجال متساوٍ تقول : آثرتُ فلاناً على فلان ، وهما في منزلة واحدة ، أو أن معك شيئاً ليس معك غيره ، ثم جاءك فقير فآثَرْتَهُ على نفسك .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] .

فقولهم : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات والذي فَطَرَنَا . . . ﴾ [طه : 72] لأنه قال ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ [طه : 71] أنا أمْ موسى ؟ فالمعركة في نظره مع موسى ، فأرادوا أنْ يواجهوه بهذه الحقيقة التي اتضحتْ لهم جميعاً ، وهي أن المعركة ليستْ مع موسى ، بل مع آيات الله البينات التي أُرسِل بها موسى ، ولن نُفضّلك على آيات الله التي جاءتْنا واضحة بيّنة .

ولما رأى السحرة معجزة العصا كانوا هم أكثر القوم إيماناً ، وقد وَضَح عُمْق إيمانهم لما قالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [طه : 70] ولم يقولوا : آمنا بموسى وهارون ، إذن : فإيمانهم صحيح صادق من أول وَهْلة .

وقد تعرضنا لهذه المسألة في قصة سليمان مع ملكة سبأ ، حين قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 44] فأنا وهو مسلمان لله ، ولم تقل : أسلمت لسليمان ، فهناك رب أعلى ، الجميع مُسلِّم له .

إذن : فقول السَّحَرة لفرعون : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات والذي فَطَرَنَا ﴾ [طه : 72] تعبير دقيق وواعٍ وحكيم لا تلحظ فيه ذاتية موسى إنما تلحظُ البينة التي جاء بها موسى من الله .

(111/499)

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين مُنفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ [البينة : 1] ثم يبين عند مَنْ جاءت البينة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة : 2] .

فالارتقاء من الرسول إلى البينة إلى مَنْ أعطى له البينة ، فهذه مراحل ثلاث .

والبينات ، هي الأمور الواضحة التي تحسم كل جدَلٍ حولها ، فلا تقبل الجدل والمهاترات ؛

لأن حجتها جليّة واضحة .

وقولهم : ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ [طه : 72] أي : ولن نُؤثرك أيضاً على الله الذي فطرنا ، أو تكون ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ [طه : 72] قسم على ما يقولون ، كما تقول : لن أفعل كذا والذي خلقك ، فأنت تُقسِم ألاَّ تفعل هذا الشيء .

وهذه حيثية عدم الرجوع فيما قالوه وهو الإيمان بربّ هارون وموسى .

ثم لم يَفُتْهم الإشارة إلى مسألة التهديدات الفرعونية : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

لذلك يقولون : ﴿ فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه : 72] أي : نفِّذ ما حكمتَ به من تقطيع الأيدي والأرجل ، أو اقْضِ ما أنت قاض من أمور أخرى ، وافعل ما تريد فلم تعُدْ تخيفنا هذه التهديدات ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ ﴾ [طه : 72] .

فأنت إنسان يمكن أن تموتَ في أي وقت ، فما تقضي إلا مُدَّة حياتك ، وربما يأتي من بعدك مَنْ هو أفضل منك فلا يدّعي ما ادّعيْته من الألوهية .

وهَبْ أن مَنْ جاء بعدك كان على شاكلتك ، فحياته أيضاً منتهية ، وحتى لو ظَلَّ ما سننته للناس من ادعاء الألوهية إلى يوم القيامة ، وامتدّ طغيان غيرك من بعدك ، فالمسألة ستنتهي ، ولو حتى بقيام الساعة .

كما سبق أن قلْنا : إن نعيم الدنيا مهما بلغ فيتهدده أمران : إما أن تفوته أو يفوتك ، أما نعيم الآخرة فنعيم بَاقٍ دائم ، لا تفوته ولا يفوتك .

(112/499)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا . . . ﴾

فما دُمْنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رُشْدٌ في تفكيرنا لا يصح أنْ تلومنَا عليه ، ثم أوضحوا حيثية إيمانهم ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ [طه : 73] فالإيمان بالله سينفعنا ، وسيغفر لنا الخطايا وهي كثيرة ، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحر ، فقد صنعوا السحر مُكْرهين ، ومارسوه مُجْبَرين ، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم .

وما أكثر ما يُكْره الناس على أمور لا يرضونها ، وينفذون أوامر وهم غير مقتنعين بها ، خاصة في عصور الطُّغَاة والجبّارين ، وقد سمعنا كثيراً عن السَّجانين في المعتقلات ، فكان بعضهم تأتيه الأوامر بتعذيب فلان ، فلماذا يفعل وهو يعلم أنه بريء مظلوم ، ولا يطاوعه قلبه في تعذيبه ، فكان يدخل على المسجون ويقول له : اصرخ بأعلى صوتك ، ويُمثِّل أنه يضربه .

ثم يقولون : ﴿ واللهُ خَيْرٌ وأبقى ﴾ [طه : 73] فأنت ستزول ، بل دنياك كلها ستزول بِمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة ، ولن يبقى إلا الله ، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب في الدنيا ، أما في الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب . إنما بالمسبب عز وجل دون أسباب .

لذلك إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك ، وهذا نعيم الآخرة ، ولن تصل إليه حضارات الدنيا مهما بلغتْ من التطور .

لذلك في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [يونس : 24] ، فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شيء في دُنْياهم فهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصّلوا إليه .

(113/499)

إذن : اجعل الله تبارك وتعالى في بالك دائماً يكُنْ لك عِوَضاً عن فائت ، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه . وقد ورد في الحديث القدسي : "إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟ ! "

.

ولما سُئِل أحد العارفين : فيم أفنيت عمرك ؟ قال : في أربعة أشياء : علمت أني لا أخلو

من نظر الله تعالى طَرْفة عَيْن ، فاستحييتُ أن أعصيه ، وعلمتُّ أنَّ لي رِزْقاً لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعتُ به ، وعلمتُ أن عليَّ ديناً لا يُؤدِّيه عنِّي غيري فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لي أَجَلاً يبادرني فبادرته .

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع ، فقال : اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه .

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله .

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان ، فقالوا : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً . . . ﴾

قوله : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ [طه : 74] يعني مُجرِماً عمل الجريمة ، والجريمة أنْ تكسر قانوناً من قوانين الحق عز وجل كما يفعل البشر في قوانينهم ، فيضعون عقوبة لمَنْ يخرج عن هذه القوانين ، لكن ينبغي أن تُعيِّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس ، فإذا ما وقع أحد في الجريمة فقد أعذر من أنذر .

إذن : لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة ، ولا توجد جريمة إلا بنص .

وقوله : ﴿ يَأْتِ ﴾ أي : هو الذي سيأتي رغم إجرامه ، ورغم ما ينتظره من العذاب .

لكن لماذا خاطبوه بلفظ الإجرام ؟ لأنه قال : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ

وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] ولم يفعلوا أكثر من أنْ قالوا كلمة الحق ، فأيْنا إذنْ المجرم ؟

(114/499)

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] لأن الموت سيُريحهم من العذاب ؛ لذلك يتمنّوْنَ الموت ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] فيأتي رده ﴿ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] .

وفَرْقٌ بين عذاب وموت ، فالموت إنهاء للحياة ، وليس بعد الموت إيلام ، أمّا العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة ؛ لأنه إيلام حَيٍّ .

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى لما عرض لهذه المسألة في قصة سليمان عليه السلام والهدهد وأن سليمان قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَاْذبَحَنَّهُ ﴾ [النمل : 21] فالعذاب شيء ، والذبح شيء آخر ؛ لأنه إنهاء للحياة الحاسة .

ومعنى : ﴿ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] أن هناك مرحلة وحلقة بين الموت والحياة ، حيث لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياةً سالمة من العذاب ، فبقاؤهم في جهنم في هذه المرحلة ، التي لا هي موت ولا هي حياة .

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) ﴾

فكأنهم كانوا يشيرون بقولهم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ [طه : 74] إلى فرعون ، والآن يشيرون إلى أنفسهم ، وما سلكوه من طريق الإيمان ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ [طه : 75] .

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الإيمان هو الينبوع الوجداني الذي تصدر عنه الحركات النزوعية على وَفْق المنهج الذي آمنت به ، وإلا فما فائدة أنْ تؤمنَ بشيء ، ولا تعمل له ، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿ فأولئك لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ [طه : 75] الدرجات أي : درجات الجنة ، فالجنة درجات ، بعضها فوق بعض ، أما النار فدركات ، بعضها تحت بعض .

(115/499)

وقد جعل الحق تبارك وتعالى الجنة درجات ؛ لأن أهلها متفاوتون في الأعمال ، كما أنهم متفاوتون حتى في العمل الواحد ؛ لأن مناط الإخلاص في العمل متفاوت .

لذلك جاء في الأثر : " الناس على خطر إلا العالمون ، والعالمون على خطر إلا العاملون ، والعاملون على خطر إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم " .

والعُلاَ: جمع عُليا. فما الدرجات العُلاَ؟

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

عدن: أي إقامة. مِنْ عَدَنَ في المكان: أقام فيه، فالمراد جنات أُعِدَّتْ لإقامتك، وفرْق بين أنْ تُعِد المكان للإقامة وأنْ تُعِدَّ مكاناً لعابر، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حَسْب المُعِدْ وإمكاناته، فالإنسان العادي يُعِد مكاناً غير الذي يعده عظيم من العظماء، فما بالك إذنْ بمكان أعدّه لك ربك عز وجل بقدراته وإمكاناته؟

وقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [طه: 76].

نعلم أن الماء من أهم مقومات الحياة الدنيا، فبه تنبت الأرض النبات، وفيه تذوب العناصر الغذائية، وبدونه لا تقوم لنا حياة على وجه الأرض. والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يُنزِل مطراً من السماء قد لا ينتفع بالمطر مَنْ نزل عليه المطر، فربما نزل على جبل مثلاً، فالنيل الذي نحيا على مائه يأتي من أين؟ من الحبشة وغيرها.

لذلك جعل الخالق عز وجل كلمة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [طه: 76] رمزاً للخضرة وللنضارة وللنماء وللحياة السعيدة الهانئة، حتى الإنسان وإنْ لم يكُنْ محتاجاً للطعام بأنْ كان شبعان مثلاً، يجد لذة في النظر إلى الطبيعة الخضراء، وما فيها من زرع وورود وزهور، فليس الزرع للأكل فقط، بل للنظر أيضاً، وإنْ كنتَ تأكل في اليوم ثلاث

مرات ، والأكل غذاء للجسم ، فأنت تتمتع بالمنظر الجميل وتُسَرُّ به كلما نظرتَ إليه ، والنظر متعة للروح ، وسرور للنفس .

(116/499)

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا : لا تقصروا انتفاعكم بنعم الله على ما تملكون ، فتقول مثلاً : لا آكل هذه الفاكهة لأنها ليست مِلْكي ، لأن هناك متعةً أخرى : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام : 99] فقبل أن تأكل انظر ، فالنظر متعة ، وغذاء مستمر .

فقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [طه : 76] لأن ظاهرة جريان الأنهار في الدنيا وسيلة للخُضْرة والخِصْب والإيناع ، و ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ [طه : 76] أي : أن الماء ذاتيّ فيها ، ونابع منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ، ربما يُمنَع عنك أن تُحرم منه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ [التوبة : 100] فتحتها أنهار جارية ، لكن مصدرها ومنبعها من مكان آخر .

ونسب الجريان إلى النهر ، لا إلى الماء للمبالغة . فالنهر هو المجرى الذي يجري فيه الماء .

ثم يقول تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [طه : 76] وهذا هو التأمين الحقّ للنعيم ؛ لأن آفة النعم أنْ تزولَ ، إمّا بأن تفوتها أنت أو تفوتك هي ، أما نعيم الجنة فقد سلَّمه الله تعالى من

هذه الآفة ، فهو خالد بَاقٍ ، لا يزول ولا يُزال عنه .

﴿ وذلك جَزَآءُ مَن تزكى ﴾ [طه : 76] الزكاة : تُطلَق على الطهارة وعلى النماء ، فالطهارة : أن يكون الشيء في ذاته طاهراً ، والنماء : أنْ توجَد فيه خصوصية نمو فيزيد عَمَّا تراه أنت عليه .

كما ترى مثلاً الورد الصناعي والورد الطبيعي في البستان ، وفيه المائية والنضارة والرائحة الطيبة والألوان المختلفة والنمو ، وكلها صفات ذاتية في الوردة ، على خلاف الورد الصناعي فهو جامد على حالة واحدة .

وهذا هو الفرق بين صَنْعة البشر وصَنْعة الخالق للبشر ؛ لذلك كانت صنعة الله أخلد وأبقى ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

وتلحظ أنه لم يَضِنّ عليك بصفة الخَلْق ؛ لأنك استعملتَ الأسباب وأَعلمتَ الفكر ، فكان لك شيء من الخلق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين ؛ لأنك خلقتَ من باطن خِلْقته ، خلقتَ من موجود ، وهو سبحانه يخلق من عدم ، خلقتَ شيئاً جامداً لا حياة فيه ، وخلق

سبحانه شيئاً نامياً ، يتكاثر بذاته .

ومن هنا سُمِّي المال الذي تُخرجه للفقراء زكاةً ؛ لأنه يُطهِّر الباقي ويُنمِّيه . ومن العجائب أن الله تعالى سَمَّى ما يخرج من المال زكاة ونماءً ، وسَمَّى زيادة الربا مَحْقاً .

فمعنى : ﴿ وذلك جزآءُ من تزكى ﴾ [طه : 76] أي : تطهَّر من المعاصي ، ثم نَمَّى نفسه ، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن في درجات الوصول للحق ، فهو مؤمن بداية ، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقي يوماً بعد يوم ، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُرْبه من ربه ، وازدادت فيوضات الله عليه . والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة .

إذن : زكَّى نفسه : طهَّرها أولاً ، ثم يُنمِّيها ثانياً ، كمَنْ يريد التجارة ، فعليه أولاً أن يأتي برأس المال الطاهر من حلال ثم يُنمِّيه ، لكن لا تأتي برأس المال مُدنّساً ثم تُنمِّيه بما فيه من دَنَس .

وكلما نَمَّى الإنسانُ إيمانَهُ ارتقى في درجاته ، فكانت له الدرجات العُلاَ في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة : أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة فقالوا لفرعون : إن يكونا هذان ساحرين ، فإنا نغلبهم ، فإنه لا أسحر منا ، وإن كان من رب العالمين ، فلما كان من أمرهم ﴿ خروا سجداً ﴾ أراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون فعندها قالوا : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ إلى قوله : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن القاسم بن أبي بزة قال : لما وقعوا سجداً رأوا أهل النار ، وأهل الجنة وثواب أهليهما فقالوا : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالعوماء ، وقال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض . قال ابن عباس : فهم من الذين قالوا : ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ قال : خير منك أن أطيع وأبقى منك عذاباً إن عصي .

وأخرج مسلم وأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه الآية ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما أهلها الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا بأهلها، فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السبيل والله أعلم"".

(119/499)

وأخرج الطبراني، عن أبي الدرداء، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "ثلاث من كن فيه، لم ينل الدرجات العلى: من تكهن، أو استقسم، أو رده من سفره طيرة".

وأخرج الأصبهاني في الترغيب، عن أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان وصلة لأخيه إلى سلطان في مبلغ بر، أو مدفع مكروه، رفعه الله في الدرجات".

وأخرج ابن المبارك في الزهد وأبو نعيم في الحلية، عن عون بن عبد الله قال: إن الله ليدخل خلقاً الجنة فيعطيهم حتى يملوا، وفوقهم ناس في ﴿ الدرجات العلى ﴾ فإذا نظروا إليهم

عرفوهم فيقولون : يا ربنا إخواننا كنا معهم فبم فضلتهم علينا ؟ فيقال : هيهات . . ! إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمؤون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويستحصون حين تختصون .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن ابن عمير قال : إن الرجل وعبده يدخلان الجنة ، فيكون عبده أرفع درجة منه ، فيقول : يا رب هذا كان عبدي في الدنيا ؟ ! فيقال : إنه كان أكثر ذكراً لله تعالى منك .

وأخرج أبو داود وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الذري في أفق السماء ، وأن أبا بكر وعمر منهم وانعما " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(120/499)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

« فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى » .

وهكذا انتهت المعركة فى لحظة خاطفة . . فلا طعن ولا ضرب ، ولا كرّ ، ولا فرّ . . لقد أعطى السّحرة يدهم لموسى ، وآمنوا باللّه ربّ العالمين . .

إنها ضربة واحدة، انتهى بها كلّ شىء . . وإذا الحبال والعصىّ قد اختفت من الميدان . . إنها جميعا فى جوف الحية . . لم يبق منها فى مرأى العين رأس ولا ذنب ! .

وهكذا يشهد فرعون بعينه تلك الهزيمة المنكرة، التي حشد لها كل كيده، والتي جمع لها فى يوم الزينة الجموع الحاشدة لتشهد الضربة القاضية التي يضرب بها فرعون هذا الساحر الذي جرؤ على لقائه وتحديه . .

وهكذا يجىء تدبير اللّه فوق كل تدبير، وتعلو كلمته كل كلمة . .

وإذا هذه الجموع الحاشدة كأنما دعاها موسى، واستجلبها من كلّ مكان، لتعلن فى الناس هذه الضربة القاصمة التي تلقاها فرعون على ملأ من الناس ! .

ولا يجد فرعون ما يفثأ به غضبه، ويمسح فيه خزيه، إلّا السّحرة . .

وها هو ذا يضرب فى وجوههم ضربات مجنونة، ويرميهم بكل ما يين يديه . .

ثم يتوعدهم بالموت على أبشع صورة وأشنعها . .

(121/499)

الآيات : (76.71) [سورة طه (20) : الآيات 71 الى 76]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71) قالُوا لَنْ
نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ
الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى
(73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً
قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75)
جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

التفسير:

والتهمة التي يلقى بها فرعون فى وجه السحرة، ويتهددهم بها، هى أنهم قد تواطئوا مع موسى على هذا الأمر، وأن موسى ليس إلا واحدا منهم، بل إنه كبيرهم الذي علّمهم السحر! وإذن، فإن فرعون لم يغلب فى هذه المعركة، إلا لأنها كلها كانت جبهة واحدة، ولم يكن فرعون فى الجبهة المقابلة التي تلقى هذه الجبهة وتقاتلها، وتقضى عليها..!

إنها جميعا جبهة سحرة تآمروا عليه واتّحدوا ضده! وليس موسى إلا كبيرهم ومعلمهم!

..

«قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟».

هذه أول تهمة تدين السحرة عند فرعون.. إنهم آمنوا بموسى قبل أن يأخذوا إذن فرعون وإجازته!! حتى لكأنّ الإيمان بالله، عمل من أعمال السيادة التي فى يد الحاكم، لا

يمارسه الإنسان إلا بإذن من السلطان ، فهو أشبه بأملاك الدولة ، التي تحتاج إلى إذن خاص لتملكها والانتفاع بها . . ! !

(122/499)

وإذا كان للسلطان أن يملك من الناس ما يملكون من مال ومتاع ، ويتسلط على الكلمة ينطقون بها ، أو يأخذ عليهم السبيل إلى أي وجه يتجهون إليه . فهل يملك السلطان من الناس ، ما تكنّه السرائر وما تنطوي عليه القلوب ؟ .

هكذا خيل لفرعون أنه يملك من الناس كل شيء ، حتى خفقات قلوبهم ، وخلجات صدورهم ، فأنكر على السحرة أن يؤمنوا قبل أن يأذن لقلوبهم أن تستقبل أنوار الهدى ونفحات الإيمان ! ! .

« إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » . .

ولهذا تواطأتم معه ، وكدتم هذا الكيد ، الذي أخرجتم به الناس ليشهدوا تلك المعركة الخاسرة ! « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى » .

لقد اختلق فرعون التهمة ، ولفق الجريمة ، ثم حكم ، دون أن يسمع دفاعا ، أو يسمح لأحد

أن ينطق بكلمة ! وعلى تلك النية الشنعاء يعرض فرعون السحرة ، ويعدّ العدّة لتنفيذها فيهم . .

.وفى قول فرعون : « أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى » إشارة إلى ما تهدد به موسى السحرة ، قبل أن تبدأ المعركة ، وذلك فى قوله : « وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً . . فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى » .

فالعذاب الذي تهددهم به موسى ، هو عذاب مؤجل ليوم القيامة . . وهذا العذاب لا يدرك مداه إلا من يؤمنون باللّه وباليوم الآخر . .

وإذن فالذى وقع فى السحرة من هذا التهديد ، هو مجرد توقعات لهذا العذاب ، كما تصوره فرعون . .

أما العذاب الذي سيأخذهم به فرعون ، فهو عذاب حاضر واقع فى الحال ، وهو عذاب.

على تلك الصورة.فظيع مهول ! ولهذا وازن فرعون بين عذابه ، والعذاب الذي توعد موسى السحرة به ، وأراهم أن عذابه أشد : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً » أعذابي الحاضر ، أم العذاب الذي يهددكم به موسى ؟ وأنا ، أم موسى « أبقى » لكم ، وأملك

لأمركم ، وأقدر على التسلط عليكم ؟

« قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا . . فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ . . وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » . .

وهكذا الإيمان إذا جاء إلى الإنسان ، أو جاء إليه الإنسان عن طريق النظر ، والبحث ، والتحليل ، والتعليل . . إنه حينئذ إيمان يخالط المشاعر ، ويملك القلوب ، ويأسر العقول ، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف ، قوة هائلة ، تتحدى الجبابرة ، وتستخف بأعظم الأهوال ، وأشد الخطوب . .

وهل كان يقع فى الحسبان أن جماعة من رعايا فرعون ، وعابديه ، الذين ولدوا - كما ولد آباؤهم - فى ظل ربوبيته ، وسلطان ألوهيته - هل كان يقع فى الحسبان أن يجىء يوم يقف فيه هؤلاء « العباد » فى وجه هذا « الإله » موقف التحدّى ، بل والاستخفاف والسخرية ؟ ولكنه الإيمان ، يفعل المعجزات ، ويقلب الأوضاع والمواضعات !

وقولهم : « وَالَّذِي فَطَرَنَا » . . يمكن أن يكون معطوفا على قولهم : « لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ » أي لن نقدمك ونختارك على تلك البينات والدلائل التي كشفت لنا عن وجه الحق ، وأرتنا اللّه ربّ العالمين ، الذي فطرنا وأوجدنا ، والذي حجبتنا عن رؤيته

الضلالات والأباطيل التي كنا نعيش فيها . . ويمكن أن يكون هذا قسما منهم بالّله الذي عرفوه منذ الآن ، وآمنوا به . .

(124/499)

.وقولهم : « وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى » هو رد على قول فرعون لهم : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى » . .

قوله تعالى :

« إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى » . .

هذه الآيات ، هى تعقيب ، على هذا المشهد من مشاهد القصّه . .

وفى هذا التعقيب ، إلفات إلى مواقع الإيمان من قلوب المؤمنين ، وإلى ما يحصّله المؤمنون من ثمرات لهذا الإيمان . . كما يجد فيه المشاهدون لموقف فرعون من السحرة ، ما أعد الّله للمحرمين من عذاب ونكال . .

وإذن فالقضية هكذا :

«مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ . . لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى»

. . فهذا هو جزاء المجرمين، الذين يلقون اللّه بجرمهم، ولم يتطهروا منه بالإيمان والتوبة . .

إن لهم جهنم، لا شىء لهم غيرها . . وهم فيها بين الموت والحياة . .

«لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها . . » (36 : فاطر) .

وأما «مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى»

وتلك الدرجات هى «جَنَّاتُ عَدْنٍ» أي جنات خلود، «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ . .

خالِدِينَ فِيها» لا يبغون عنها حولا . . «وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى» وتطهر من ذنوبه وآثامه،

بالإيمان، والعمل الصالح، فأصبح أهلا لأن ينزل منازل الطهر والنور، فى جنات النعيم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 10 صـ 805.810 ﴾

(125/499)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين :

قوله : ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ :

فيه وجهان، أحدهما : أن الواوَ عاطفةٌ، عَطَفَتْ هذا الموصولَ على "ما جاءنا "أي : لن

نؤثرك على الذي جاءنا ، ولا على الذي فطرنا . وإنما أخَّروا ذِكْرَ البارِيْ تعالى لأنه من باب الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى . والثاني : أنها واوُ قسمٍ ، والموصول مُقسمٌ به . وجوابُ القسمِ محذوفٌ أي : وحَقِّ الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق . ولا يجوز أن يكونَ الجوابُ " لن نُؤْثِرك " عند مَنْ يُجَوِّز تقديمَ الجواب ؛ لأنه لا يُجاب القسمُ ب " لن " إلاَّ في شذوذٍ من الكلام .

قوله : ﴿ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ يجوز في " ما " وجهان ، أظهرُهما : أنها موصولةٌ بمعنى الذي ، و " أنت قاضٍ " صلتُها والعائدُ محذوفٌ ، اي : قاضِيه . وجاز حَذْفُه ، وإنْ كان مخفوضاً ، لأنه منصوب المحل . أي : فاقضِ الذي أنت قاضِيْه . والثاني : أنها مصدريةٌ ظرفيةٌ ، والتقدير : فاقضِ أمرك مدةَ ما أنتَ قاضٍ . ذكر ذلك أبو البقاء . وقد منع بعضُهم ذلك أعني جَعْلَها مصدريةً قال : لأنَّ : " ما " المصدريةَ لا تُوصَلُ بالجملة الاسمية . وهذا المَنْعُ ليس مجمعاً عليه ، بل جَوَّز ذلك جماعةٌ كثيرة . ونقل ابنُ مالك أنَّ ذلك يَكْثُر إذا دَلَّتْ " ما " على الظرفية . وأنشد :

3305 واصِلْ خليلَك ما التواصُل مُمْكِنٌ . . . فلأَنْتَ أَوْ هُوَ عن قليلٍ ذاهِبُ

ويَقِلُّ إنْ كانت غيرَ ظرفية . وأنشد :

3306 أحْلامُكُمْ لِسَقامِ الجَهْلِ شافيةٌ . . . كما دِماؤُكُمُ تَشْفي مِن الكَلَبِ

قوله: ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة ﴾ يجوز في "ما" هذه وجهان، أحدهما: أن تكونَ المهيئةَ لدخول "إنَّ" على الفعل و"الحياةَ الدنيا" ظرفٌ ل "تَقضي"، ومفعولُه محذوفٌ أي: تقضي غرضَك وأمرَك. ويجوز أن تكونَ "الحياةَ" مفعولاً به على الاتساع، ويدلُّ لذلك قراءةُ أبي حيوة "تُقضى هذه الحياةُ" ببناء الفعلِ للمفعول ورَفْعِ "الحياة" لقيامها مقام الفاعلِ؛ وذلك أنه اتُّسِع فيه فقام مقامَ الفاعلِ فرُفِعَ.

والثاني: أن تكونَ "ما" مصدريةً هي اسمُ "إنّ"، والخبرُ الظرفُ. والتقدير: إنَّ قضاءَكَ في هذه الحياةِ الدنيا، يعني: إن لك الدنيا فقط، ولنا الآخرةَ.

وقال أبو البقاء: "فإنْ كان قد قُرِيء بالرفع فهو خبرُ إنَّ". يعني لو قرىء برفعِ "الحياة" لكان خبراً ل "إنَّ" ويكون اسمُها حينئذٍ "ما"، وهي موصولةٌ بمعنى الذي، وعائدُها محذوفٌ تقديره: إنَّ تَقْضِيه هذه الحياةُ لا غيرُها.

قوله: ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا ﴾:

يجوز في "ما" هذه وجهان، أحدهما: أنها موصولةٌ بمعنى الذي. وفي محلها احتمالان، أحدهما: أنها منصوبةُ المحلِّ نَسَقاً على "خطايانا" اي: ليغفر لنا أيضاً الذي أكرهتنا.

والثاني من الاحتمالين: أنها مرفوعةُ المحلِّ على الابتداء والخبرُ محذوفٌ تقديرُه: والذي أكرَهْتَنا عليه مِنَ السحر محطوطٌ عنا، أو لا نؤاخَذُ به ونحوُه.

والوجه الثاني : أنها نافيةٌ . قال أبو البقاء : " وفي الكلامِ تقديمٌ ، تقديرُه : ليغفر لنا خطايانا من/السِّحرِ ، ولم تُكْرِهْنا عليه " وهذا بعيدٌ عن المعنى . والظاهرُ هو الأولُ .

و" من السحرِ " يجوز أَنْ يكونَ حالاً من الهاءِ في " عليه " أو من الموصولِ . ويجوز أن تكونَ لبيانِ الجنس .

قوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ ﴾ :

(127/499)

الهاءُ ضميرُ الشأنِ . والجملةُ الشرطيةُ خبرُها . و" مُجْرِماً " حالٌ مِنْ فاعلِ " يأْتِ " .

وقولُه : ﴿ لاَ يَمُوتُ ﴾ يجوز أن يكونَ حالاً مِنَ الهاءِ في " له " وأَنْ يكونَ حالاً من " جهنَّم " ؛ لأنَّ في الجملة ضميرَ كلٍ منهما .

[قوله : ﴿ جَنَّاتُ ﴾ : بدلٌ من " الدرجات " أو بيانٌ] . قال أبو البقاء : " ولا يجوزُ أن يكونَ التقديرُ : هي جناتُ ؛ لأن " خالدين " حالٌ . وعلى هذا التقديرِ لا يكونُ في الكلام ما يعملُ في الثاني ، وعلى الأولِ يكونُ العاملُ في الحال الاستقرارَ أو معنى الإِشارة " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 77 . 80﴾

(128/499)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾

أي بالله الذي فطرنا إنَّا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءَنا من البينات . ولما طلعت في أسرارهم شموسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء ، وتحملوا اللأواء ، فكانوا في الغَدَاةِ كُفَّاراً سَحَرَةً ، وأَمْسَوْا أَخياراً بَرَرَةً .

قوله : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ . . . ﴾ عَلِمُوا أَنَّ البَلاَءَ في لدنيا يَنْقَضي - وإنْ تمادى ، وينتهي وإن تناهى .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) ﴾

أَهمُّ الأشياء - على مَنْ عرفه - مغفرتُه لخطاياه ؛ فهذا آدمُ - عليه السلام - لما استكشف من حاله ، وحلَّ به ما حلَّ قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [القصص : 16] وقال لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [غافر : 55] .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة " ومَنَّ عليه بقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 200] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 466. 467 ﴾

(129/499)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) ﴾

(130/499)

التفسير : منّ عليه مناً أنعم ، ومنّ عليه منة أي امتن عليه كأن الله سبحانه قال لموسى : إني راعيت صلاحك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال ، أو كنت ربيتك من غير سابقة حق فلو منعتك الحال مطلوبك لكان ذلك رداً بعد القبول وحرماناً بعد الأحسان وذلك ينافي الكرم الذاتي . قالوا : المنة تهدم الصنيعة فهي نوع من الأذى . فقوله

﴿ ولقد مننا عليك ﴾ يكون من المن لا من المنة ، قلت : يحتمل أن لا تكون المنة من المنعم المطلق أذية وإنما تكون تنبهاً على لنعم وإيقاظاً من سنة الغفلة حتى يتلقى المكاف النعمة بالشكر والطاعة . وإنما قال ﴿ مرة أخرى ﴾ لأن الجملة قصة واحدة وإن كانت مشتملة على منن كثيرة ، والوحى إلى أم موسى إما أن يكون على لسان نبي في عصرها كشعيب مثلاً ، أو عن لسان ملك لا على طريق النبوّة كالوحي إلى مريم في قوله ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم ﴾ [آل عمران : 42] أو أراها في المنام أنه وضع ولدها في التابوت وقذف في البحر ثم رده الله إليها ، أو ألهمها بذلك ، أو لعل الأنياء المتقدمين كإبراهيم وإسحق ويعقوب أخبروا بذلك وانتهى خبرهم إليها . ومعنى ﴿ ما يوحى ﴾ ما يجب أن يوحى لما فيه من المصلحة الدينية ولأنه أمر عظيم ولأنه مما لا يعلم إلا بطريق الوحي . " وأن " هي المفسرة لأن الإيحاء في معنى القول ، والقذف يستعمل بمعنى الوضع أي ضعيه في التابوت وقد مر معناه في " البقرة " في قصة طالوت . قال جار الله : الضميران الباقيان في قوله ﴿ فاقذفيه في اليم فليلقه ﴾ عائدان إلى موسى أيضاً لئلا يؤدي إلى تنافر النظم ، فإن المقذوف والملقى إذا كان موسى وهو في جوف التابوت لزم أن يكون التابوت أيضاً مقذوفاً وملقى ويؤيده أن الضمير في قوله ﴿ عدوّ له ﴾ لموسى بالضرورة لأن عداوة التابوت غير معقولة .

وإذا كان الضمير الأول والضمير الأخير لموسى فالأنسب بإعجاز القرآن أن يكون الضمير المتوسط أيضاً له، لأن المعنى صحيح واللفظ متناسب فلا حاجة إلى العدول اعتماداً على القرينة. واليم هو البحر، والمراد ههنا نيل مصر والساحل شاطىء البحر. وأصل السحل القشر ولهذا قال ابن دريد: هو مقلوب لأن الماء سحله فهو مسحول. قال أهل الإشارة: من خصوصة انشراح الصدر بنور الوحي أن يقذف في قلبه قذف الولد الذي هو أعز الأشياء في تابوت التوكل وبحر التسليم حتى يلقيه اليم بساحل إرادة الله ومشيئته.

يروى أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينا هو جالس على رأس بركة مع اسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا صبي أصبح الناس وجهاً فأحبه عدوّ الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه. وظاهر اللفظ يدل على أن التابوت التقط من الساحل، فلعل اليم ألقاه بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون فأداه النهر إلى البركة. أما كون فرعون عدواً لله من جهة كفره وعتوه فظاهر، وأما كونه عدوّاً لموسى وهو صغير فباعتباره المآل، أو لأنه لو ظهر له حاله لقتله فسبحان من يربي حبيبه في حجر عدوّه. قالوا: كان بحضرة فرعون حينئذٍ أربعمائة غلام وجارية، فحين أشار بأخذ التابوت ووعد من يسبق إلى ذلك الإعتاق تسابقوا جميعاً ولم يظفر بأخذه إلا واحد منهم فأعتق الكل. والنكتة فيه أن عدوّ

الله لم يجوز من كرمه حرمان البعض إذ عزم الكل على الأخذ ، فأكرم الأكرمين كيف لا يعتبر عزائم المؤمنين على الطاعة والخير ؟ فالمرجو منه إعتاق الكل من النار وإن وقع لبعضهم تقصير في العمل . قوله ﴿ مني ﴾ إما أن يتعلق ب ﴿ ألقيت ﴾ أو يكون صفة للمحبة أي محبة حاصلة مني وعلى الوجهين فالمحبة إما محبة الله ومن أحبه الله أحبته القلوب ، وإما محبة الناس التي زرعها الله في قلوبهم ، فقد يروى أنه كانت على وجهه

مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه . قال القاضي . هذا الوجه أقرب لأنه في الصغر لا يوصف بمحبة الله التي يرجع معناها إلى إيصال الثواب . ورد بأن محبة الله عبارة عن إرادة الخير والنفع وهو أعم من أن يكون جزاء على العمل أو لا يكون ولهذا بين المحبة بقوله ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الشيء بالعينين إذا عني بحفظه ، ولما كان العالم بالشيء حارساً له عن الآفات كما أن الناظر إليه يحرسه أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه .

وأيضاً العين سبب الحراسة فأطلق السبب وأريد المسبب ، ويقال : عين الله عليك إذا دعي له بالحفظ والحياطة ، فالجار والمجرور في موضع الحال من ضمير المبني للمفعول في ﴿

لتصنع ﴾ وجوز في الكشاف أن يكون ﴿ إذ تمشي ﴾ ظرفاً ﴿ لتصنع ﴾ وليس بذلك وإنما هو ظرف ب ﴿ ألقيت ﴾ أو بدل من ﴿ إذ أوحينا ﴾ على الوقتين من زمان واحد واسع يقول الرجل : لقيت فلاناً سنة كذا ، ثم تقول وأنا لقيته إذ ذاك وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها .

يروى أنه لما فشا الخبر أن آل فرعون أخذو غلاماً في اليم وأنه لا يرتضع من ثدي امرأة كما قال سبحانه ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ [القصص : 12] جاءت أخت موسى عليه السلام واسمها مريم متنكرة فقالت ﴿ هل أدلكم على من يكفله ﴾ فجاءت بالأم فقبل ثديها وذلك قوله ﴿ فرجعناك إلى أمك ﴾ وقال في القصص ﴿ فرددناه إلى أمه ﴾ [القصص : 13] تصديقاً لقوله ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ [القصص : 7] ﴿ كي تقر عينها ﴾ بلقائك ﴿ ولا تحزن ﴾ بسبب وصول لبن غيرها إلى معدتك ﴿ وقتلت ﴾ وأنت ابن اثنتي عشرة سنة ﴿ نفساً ﴾ هو القبطي الذي يجيء ذكره في القصص ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ وهو اقتصاص فرعون منك . وقيل : الغم هو القتل بلغة قريش ، أو أراد بالغم خوف عقاب الله وذلك قوله ﴿ فاغفر لي فغفر له ﴾ [القصص : 16] ﴿ وفتناك فتوناً

﴾ مصدر على "فعول" في المتعدي كالشكور والكفور، أو جمع فتن كالظنون للظن، أو جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كبدور في بدرة، وحجوز في حجزة، والفتنة المحنة والابتلاء بخير أو شر قال تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء: 35] وفيها معنى التخليص من قولهم "فتنت الذهب" إذا أردت تخليصه. عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن الفتون فقال: أي خلصناك من محنة بعد محنة. ولد في عام كان يقتل فيه الولدان، وألقته أمه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجر نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير. قال العلماء: لا يجوز إطلاق اسم الفتان على الله تعالى وإن جاء ﴿ وفتناك ﴾ لأنه صفة ذم في العرف وستجيء قصة لبثة في أهل مدين وأنه على ثمان مراحل من مصر في سورة القصص إن شاء العزيز. قوله ﴿ على قدر ﴾ أي في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأستنبئك فيه، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء وهو رأس أربعين سنة، أو على موعد قد عرفته بأخبار شعيب أو

غيره. والصنع بالضم مصدر صنع إليه معروفاً قبيحاً أي فعل، والاصطناع "افتعال" منه واستعماله في الخير أكثر، واصطنع فلان فلاناً إذا اتخذه صنيعة، واصطنعت فلاناً لنفسي إذا اصطنعته وخرجته ومعناه أحسنت إليه حتى إنه يضاف إليّ.

وقوله ﴿ لنفسي ﴾ أي لأصرفن جوامع همتك في أوامري حتى لا تشتغل بغير ما أمرتك به من تبليغ الرسالة وإقامة الحجة. وقال جار الله: مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك أهلاً للتقريب والتكريم لخصائص فيه فيصطنعه بالكرامة ويستخلصه لنفسه فلا يبصر إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنه ولا يأتمن على مكنون سره سواه. وقال غيره من المعتزلة: إنه سبحانه إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم، ومن جملة الألطاف ما لا يعلم إلا سمعاً، فلو لم يصطنعه للرسالة لبقي في عهدة الواجب فهذا أمر فعله الله لأجل نفسه حتى يخرج عن عهدة ما يجب عليه.

ولما عد عليه المنن السابقة بإزاء الأدعية المذكورة رتب على ذكر ذلك أمراً ونهياً. أما الأمر فقوله ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ وفيه بيان ما لأجله اصطنعه وهو الإبلاغ وأداء الرسالة. ﴿ بآياتي ﴾ أي مع آياتي لأنهما لو ذهبا بدونها لم يلزمه الإيمان وهذا من أقوى

الدلائل على فساد التقليد . وما هذه الآيات غير العصا واليد لأنه لم يجر إلا ذكرهما فأطلق الجمع على الاثنين ، أو لأن كلاً منهما مشتملة على آيات أخر ، أو لأنه يستدل بكل منهما على وجود إله قادر على الكل عالم بالكل وعلى نبوة موسى وعلى جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيواناً والمظلم مستنيراً ومثله قوله ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾ [آل عمران : 97] وقيل : هما مع حل العقدة . وقيل : أراد اذهبا إني أمدكما بآياتي وأظهرها على أيديكما متى وقع الاحتياج إليها . وأما النهي فقوله ﴿ ولا تنيا ﴾ بكسر النون مثل تعدا وقرىء ﴿ تنيا ﴾ بكسر حرف المضارعة أيضاً للإتباع . والونى بفتحتين الضعف والفتور والكلال والإعياء ، والمعنى لا تنسياني بل اتخذا ذكري وسيلة في تحصيل المقاصد واعتقدا أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري فإن المداومة على ذكر الله توجب عدم الخوف من غيره . وأن يستحقر في نظره ما سواه لقوة نفسه واستنارة باطنه . وقيل : أراد بالذكر تبليغ الرسالة فإن الذكر يقع على كل العبادات فضلاً عن أعظمها فائدة وأتمها عائدة . وقيل اذكرني عند فرعون وقومه بأني لا أرضى بالكفر وأعاقب عليه وأثيب على الإيمان وأرتضيه ، وبالجملة كل ما يتعلق بالترهيب والترغيب . ما الفائدة في تكرير قوله ﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ ؟ والجواب بعد التقرير والتأكيد أمرهما أن يشتغلا بأداء الرسالة معاً لا أن ينفرد به موسى ، أو الأول أمر بالذهاب إلى كل بني إسرائيل والقبط ، والثاني مخصوص

بفرعون الطاغي . ثم إنه خوطب كلاهما وموسى حاضر فقط لأنه أصل ، أو هو كقوله ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ [البقرة : 72] والقاتل واحد منهم .

(136/499)

ويحتمل أن هارون قد حضر وقتئذ فقد روى أن الله عز وجلّ أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى .

وقيل : ألهم بذلك . وقيل : سمع بخبره فتلقاه .

(137/499)

سؤال : لم أمرا بتليين القول للعدوّ المعاند ؟ جوابه لأن من عادة الجبابرة إذا أغلظ لهم في الكلام أن يزدادوا عتواً وعلواً . وقيل : لما له من حق تربية موسى شبه حق الأبوة . وكيف ذلك القول اللين ؟ الأصح انه نحو قوله تعالى ﴿ هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ [النازعات : 18 ، 19] لأن ظاهره الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه صلاح الدارين . وقيل : أراد عداه شباباً لا يهرم بعده ، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت ، وأن

يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته . حكى عمرو بن دينار قال : بلغني أن فرعون عمر أربعمائة وتسعاً وستين سنة . فقال له موسى : إن أطعتني فلك مثل ما عمرت فإذا مت فلك الجنة . وقيل : أراد كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة . ويحتمل أن يكون أمر بالقول اللين لأنه كان في موسى حدة وخشونة . بحيث إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً فعالج حدته باللين ليكون حليماً في أداء الرسالة . ومعني الترجي في ﴿ لعله ﴾ يعود إلى موسى وأخيه أي اذهبا على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يثمر سعيه فعساه يتذكر بأن يرجع من الإنكار إلى الحق رجوعاً كلياً إذا تأمل فأنصف ﴿ أو يخشى ﴾ فيقل : إنكاره وإصراره . قالت المعتزلة : جدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن قطع المعذّرة وإلزامه الحجة . وقالت الأشاعرة : العقول قاصرة عن معرفة سر القدر ولا سبيل إلا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان . قالوا : إنه كمن يدفع سكيناً إلى من علم قطعاً أنه يمزق بطن نفسه ثم يقول : إني ما أردت بدفع السكين إليه إلا الإحسان . ويروى عن كعب أنه قال : والذي يحلف به كعب إنه مكتوب في التوراة ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ وسأقسي قلبه فلا يؤمن " ﴿ قالا ربنا ﴾ فيه دليل على أن هارون أيضاً كان حاضراً وقتئذ كما روينا . وسئل أن انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قالا ﴿ إننا نخاف ﴾ فإن حصول الخوف ينافي شرح الصدر ؟ وأجيب

بأن المراد من شرح الصدر ضبط الأوامر والنواهي وحفظ الشرائع والأحكام بحيث لا يتطرق إليها خلل وتحريف ، وهذا شيء آخر مغاير لزوال الخوف . قلت : لعلهما خافا أن لا يتمكنا من أداء الرسالة بدليل قوله ﴿ أن يفرط علينا ﴾ أي يسبق رسالتنا ويبادرنا بالعقوبة ﴿ وأن يطغى ﴾ أي يجاوز الحد بأن يقول فيك ما لا ينبغي أو يجاوز حد الاعتدال في معاقبتنا إن لم يعاجل بنا فلا نتمكن من إقامة وظائف الأداء . وأيضاً الدليل النقلي السمعي إذا انضاف إلى الدليل العقلي زاده إيقاناً وطمأنينة ولهذا ﴿ قال لا تخافا إنني معكما ﴾ أي بالنصرة والتأييد ﴿ أسمع وأرى ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل بكما ما يوجب عنايتي وحراستي ، فلا يذهب وهمكما إلى أن مواد كرامتي انقطعت عنكما إذا فارقتما مقام المكالمة فصار هذا الوهم سبب خوفكما .

ويجوز أن يكون الفعلان متروكي المفعول كأنه قيل : أنا سامع مبصر وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وكملت النصرة . قال بعض الأصوليين : في الآية دلالة على أن الأمر لا يقتضي الفور وإلا كان تعللهما بالخوف معصية وإنها غير جائزة على الرسل في

الأصح . وقال بعض المتكلمين : فيها دليل على أن السمع والبصر صفتان زائدتان عن العلم والإلزام التكرار فإن معيته هي بالعلم ولقائل أن يقول : الخاص يغاير العام ولكن لا يباينه .

(139/499)

ثم كرر الأمر قائلاً : ﴿ فأتياه فقولا ﴾ فسئل إنهما أمرا بأن يقولا له قولاً ليناً فكيف غلظاه أوّلاً بقوله ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ ففيه إيجاب انقياده لهما وإكراهه على طاعتهما وهذا مما يعظم على الجبار . وثانياً بقوله ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ﴾ وفيه إدخال النقص في ملكه لأنه كان يستخدمهم في الأعمال الشاقة . وثالثاً بقوله ﴿ ولا تعذبهم ﴾ وفيه منعه عما يريده بهم؟ وأجيب بأن هذا القدر من التغليظ ضروري في أداء الرسالة . قيل : أليس الأولى أن يقولا ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ ﴿ قد جئناك بآية من ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ﴾ فيكون ذكر المعجز مقروناً بادعاء الرسالة . والجواب أن قوله ﴿ فأرسل ﴾ من تتمة الدعوى ، وإنما وحد قوله ﴿ بآية ﴾ ومعه آيتان بل آيات لقوله ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ لأنه أراد الجنس كأنه قيل : قد جئناك ببيان من عند الله وبرهان . قال في الكشاف : قلت : وفيه أيضاً نوع من الأدب كما لو قلت : أنا رجل قد حصلت شيئاً من العلم ولعل عندك علوماً جمة على أن تخصيص عدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد عليه .

وأيضاً الأصل في معجزات موسى كان هي العصا ولهذا وقعت في معرض المعارضة كما أن الأصل في معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم كان هو القرآن فوقع لذلك في حيز التحدي ﴿ والسلام ﴾ أي جنس السلامة أو سلام خزنة الجنة ﴿ على من اتبع الهدى ﴾ يحتمل أن يكون هذا أيضاً مما أمر بأن يقولاه لفرعون ، ويحتمل أن تكون الرسالة قد تمت عند قوله ﴿ بآية من ربك ﴾ ويكون هذا وعداً بالسلامة من عقوبات الدارين لمن آمن وصدق.

قالت الأشاعرة : في قوله ﴿ أن العذاب ﴾ أي جنسه أو كل فرد منه ﴿ على من كذب وتولى ﴾ دليل على أنه لا يعاقب أحداً من المؤمنين ترك العمل به في بعض الأوقات ، فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام على أن العقاب المتناهي لا نسبة له إلى النعيم المقيم الذي لا نهاية له فكأنه لم يعاقب أصلاً .

وأيضاً العارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون من أهل السلامة ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ خاطب الاثنين ووجه النداء إلى موسى لأنه الأصل في ادعاء الرسالة وهارون وزيره ، ويجوز أنه خص موسى عليه السلام بالنداء لما عرف من فصاحة هارون والرتة التي كانت في لسان موسى . فأراد أن يعجز عن الجواب . قال أهل الأدب : إن فرعون كان

شديد البطش جباراً ومع ذلك لم يبدأ بالسفاهة والشغب بل شرع في المناظرة وطلب الحجة ، فدل على أن الشغب من غير حجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الإسلام والعلم ؟ ! وفي اشتغال موسى بإقامة الدلالة على المطلوب دليل على فساد التقليد وفساد قول القائل بأن معرفة الله تستفاد من قول الرسول ، وفيه جواز حكاية كلام المبطل مقروناً بالجواب لئلا يبقى الشك . وفيه أن المحق يجب عليه استماع شبهة المبطل حتى يمكنه الاشتغال بحلها . واعلم أن العلماء اختلفوا في كفر فرعون فقيل : كان عارفاً بالله إلا أنه كان معانداً بدليل قوله ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض ﴾ [الأسراء : 102] وقوله ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾ [النمل : 14] وقوله في سورة القصص ﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ [الآية : 39] وليس فيه إلا إنكار المعاد دون إنكار المبدأ . وقوله في الشعراء ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : 23] إلى قوله ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ [الشعراء : 27] يعني أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوجود فدل على أنه اعترف بأصل الوجود .

وأيضاً إن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام لأن موسى لما هرب إلى مدين قال له شعيب ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] فكيف يعتقد مثل هذا الشخص إنه إله العالم بل كل عاقل مكلف يعلم بالضرورة أنه وجد بعد العدم فلا يكون واجب الوجود . وأيضاً إنه سأل ههنا بمن طالبا للكيفية ، وفي " الشعراء " بما طالبا للماهية فكأن موسى لما أقام الدلالة على الوجود ترك المناظرة والمنازعة معه في هذا المقام لظهوره وشرع في مقام أصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر . وأيضاً إنه قال في الجواب ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ وصلة الذي لا بد أن تكون جملة معلومة الانتساب . ومن الناس من قال : إنه كان جاهلاً بالله بعد اتفاقهم على أن العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنه خالق السموات والأرض وما فيهما . فمنهم من قول : إنه كان دهرياً نافياً للمؤثر أصلاً . ومنهم من قال : إنه فلسفي قائل بالعلة الموجبة أو هو من عبدة الكواكب ، أو من الحلولية والمجسمة . وأم إدعاء الالهية والربوبية فبمعنى أنه يجب عليهم طاعته والانقياد لحكمه . قال بعض العلماء : إنما قال ﴿ فمن ربكما ﴾ [طه : 49] ولم يقل " فمن إلهكما " تعريضاً بأنه رب موسى كما قال

﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ [الشعراء : 18] قلت : يحتمل أن يكون تخصيص موسى بالنداء تنبيهاً على هذا المعنى . ولم يعلم الكافر أن الربوبية التي ادّعاها موسى لله في قوله ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ غير هذه في الحقيقة ولا مشاركة بينهما إلا في اللفظ ، وهذا كما عارض نمرود إبراهيم صلوات الرحمن عليه في قوله ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ [البقرة : 258] ولم يعلم أن إحياءه وإماتته ليسا من الإحياء والإماتة في شيء ثم شرع موسى في الدلالة على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات ، وفيه دلالة على أن موسى كان أصلاً في النبوة وأن هارون راعى الأدب فلم يشتغل بالجواب قبله لأن الأصل في النبوة هو موسى ، ولأن فرعون خصص موسى بالنداء . من قرأ ﴿ خلقه ﴾ بسكون اللام فإما بمعنى الخليقة والضمير المجرور لله وقدم المفعول الثاني ليتصل قوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ والخليقة أعطى الخلائق ما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ، ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها فيستخرجون الحديد من الجبال واللآلىء من البار ويركبون الأغذية والأدوية والأسلحة والأمتعة ونظير هذا الكلام قوله ﴿ الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى ﴾ [الأعلى : 2 ، 3] وقوله حكاية عن إبراهيم ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء : 78] وإما أن يكون الخلق بمعنى الصورة والشكل أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به فأعطى العين هيئتها التي تطابق الإبصار ، والأذن ما يوافق الاستماع ، والأنف للشم ، واليد للبطش ، بل أعطى رجل الآدمي شكلاً يوافق

سعيه ، ورجل الحيوانات الأخر شكلاً يطابق مشيها ، بل أعطى ذوات القرون رجلاً توافق حاجتهن ، وكذا الخف والحافر وذوات المخالب . وقيل : أراد وأعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة فجعل الحصان والحجر زوجين ، وكذا البعير والناقة والرجل والمرأة . ومن قرأ ﴿ خلقه ﴾ بفتح اللام صفة للمضاف أو المضاف إليه والمفعول الثاني متروك أي كل شيء خلقه الله لم يخله من

عطائه وإنعامه .

واعلم أن عجائب حكمة الله تعالى في مخلوقاته بحر لا ساحل له ، وقد دوّن العلماء طرفاً منها في كتب التشريح وخواص الأحجار والنبات والحيوان ، ولنذكر ههنا واحداً منها هي أن الطبيعي يقول : الثقيل هابط والخفيف صاعد ، فالماء لذلك فوق الأرض والهواء فوق الماء والنار فوق الكل . ثم إنه سبحانه جعل العظم والشعر أصلب الأعضاء على طبيعة الأرض وجعل مكانهما فوق البدن . وجعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذي هو الهواء ، وجعل تحته الحرارة الغريزية في القلب كالنار ليكون دليلاً على وجود الفاعل المختار خلاف ما يقوله الدهري والطبيعي وسائر الكفار . وأيضاً

اختصاص كل جسم بقوة وتركيب وهداية إما أن يكون واجباً أو جائزاً ، والأول محال وإلا لم يقع فيها تغير . والثاني يستدعي مرجحاً فإن كان ذلك المرجح واجب الوجود لذاته فهو المطلوب ، وإن كان جائز الوجود افتقر في اتصافه بالوجود إلى موجد ، ولا بد من الانتهاء إلى موجد يجب وجوده لذاته .

ثم إنه يستغني عن سمات النقص وشوائب الافتقار وليس إلا الله الواحد القهار .

(144/499)

قال أهل النظم : إن موسى عليه السلام لما قرر عليه أمر المبدأ ﴿ قال ﴾ فرعون إن كان وجود الواجب في هذه الحد من الظهور ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ لم يؤمنوا وجحدوا فعارض الحجة بالتقليد والبال الحال ؟ أو أنه لما هدده بالعذاب في قوله ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ قال فما بالهم كذبوا فما عذبوا ؟ فأجاب بأن هذا ما استأثر الله بعلمه وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما يخبرني به علام الغيوب . أو أنه سأله عن أحوال القرون الخالية وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد ليصرف موسى عن المقصود ويشغله بالحكايات خوفاً من أن يميل قلوب ملته إلى حجته الباهرة ودلائله الظاهرة ، فلم يلتفت موسى إلى حديثه بل ﴿ قال علمها عند ربي ﴾ ولا يتعلق غرضي بأحوالهم .

ويجوز أن يكون الكلام قد انجر ضمناً أو صريحاً إلى إحاطة الله سبحانه بكل شيء فنازعه الكافر قائلاً : ما بال سوالف القرون في تمادي كثرتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم ؟ فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوز عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل . وقوله ﴿ علمها عند ربي ﴾ مع قوله ﴿ في كتاب ﴾ لا يتنافيان ، بل المراد أنه تعالى عالم بجميع المغيبات مطلع على الكليات والجزئيات من أحوال الموجودات والمعدومات ، ومع ذلك فإن جميع الأحوال ثابتة في اللوح المحفوظ ثم كان لقائل أن يقول : لعلها أثبتت في اللوح لاحتمال الخطأ والنسيان فتدارك ذلك بقوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ قال مجاهد : هما واحد المراد أنه لا يذهب عنه شيء ولا يخفى عليه . والأكثرون على الفرق فقال القفال : الأول إشارة إلى كونه عالماً بالكل ، والثاني إشارة إلى بقاء ذلك العلم أي لا يضل عن معرفة الأشياء ، وما علم من ذلك لا ينساه ولا يتغير علمه ، يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له . وقال مقاتل : لا يخطىء ذلك الكتاب ربي ولا ينسى ما فيه . وقال الحسن : لا يخطىء

وقت البعث ولا ينساه . وقال أبو عمر : ولا يغيب عنه شيء ولا يغرب عنه شيء . وقال ابن جرير : لا يخطىء في التدبير فيعتقد غير الصواب صواباً وإذا عرفه لا ينساه والوجوه متقاربة . والتحقيق ما قاله القفال . وعن ابن عباس : لا يترك من كفر حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه .

ولما ذكر الدليل العام المتناول لجميع المخلوقات السمويات والأرضيات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النباتات والجمادات ذكر الدلائل الخاصة فقال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا ﴾ أي كالمهد وهو ما يمهد للصبي .

قال أبو عبيدة : الذي أختاره مهاد لأنه اسم لما يمهد والمهد مصدر . وقال غيره : المهد اسم والمهاد جمع . وقال المفضل : هما مصدران ﴿ وسلك ﴾ أي حصل ﴿ لكم فيها سبلاً ﴾ ووسطها بين الجبال والأودية والبراري . يقال : سلكت الشيء في الشيء سلكاً بالفتح أي أدخلته فيه ﴿ فأخرجنا به ﴾ أي بواسطة إنزال الماء . ومن المتكلمين الأقدمين من أنكر تأثير الوسائط رأساً و﴿ أزواجاً ﴾ أي أصنافاً فأسميت بذلك لأنها مزدوجة مقترن بعضها ببعض . و﴿ شتى ﴾ صفة للأزواج جمع شتيت كمريض ومرضى ، أو

صفة للنبات لا مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني أنها مختلفة النفع والطبع والطعم واللون والرائحة والشكل. ثم ههنا إضمار والتقدير وقلنا أو قائلين ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ وذلك أن بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم، وإباحة الأكل تتضمن إباحة سائر وجوه الانتفاع كقوله: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم ﴾ [البقرة: 188] ومن نعم الله تعالى أن أرزاق العباد إنما تتحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله. قال الجوهري: النهية بالضم واحدة النهى وهي العقول لأنها تنهى عن القبيح. وجوز أبو علي الفارسي أن يكون مصدراً كالهدى وخص أرباب العقول بذلك لأنهم هم المنتفعون بالنظر فيها والاستدلال بها على وجود صانعها. ﴿ ومنها خلقناكم ﴾ لأن آدم مخلوق من الأرض. أو لأن بني آدم خلقوا من النطفة ودم الطمث المتولدين من الأغذية المنتهية إلى العناصر الغالبة عليها الأرضية، أو لما ورد في الخبر أن الملك يأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه الآدمي فيذرّها على النطفة. ﴿ وفيها نعيدكم ﴾ لأن الجسد يصير تراباً فيختلط بالأرض إلا من رفعه الله إلى السماء، وهو أيضاً يحتمل أن يعاد إليها بعد ذلك. ﴿ ومنها يخرجكم تارة أخرى ﴾ بالحشر والبعث، أو بأن نخرجكم تراباً وطيناً ثم نحييكم بعد الإخراج، أو المراد الإحياء في القبر. وههنا

بحث وهو أن يكون قوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض ﴾ إلى ههنا من تتمة كلام موسى ، أو هو ابتداء كلام من الله تعالى . وعلى الأول يمكن أو يوجه قوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ بأن المراد فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة والزرع ﴿ أزواجاً من نبات شتى ﴾ إلا أن قوله : ﴿ كلوا وارعوا ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنها نخرجكم ﴾ لا يطابقه . وإن قيل : إن كلام موسى يتم عند قوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ لم يصلح قوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ ابتداء كلام من الله لمكان فاء التعقيب ، والصواب أن يتم كلام موسى عند قوله : ﴿ ولا ينسى ﴾ ثم إنه تعالى ابتداء فقال : ﴿ الذي ﴾ أي هو الذي جعل إلى آخره ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ من قبيل الالتفات علماً للكلام وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره تخصيصاً بأن مثل هذا لا يدرك تحت قدرة أحد سواه .

والحاصل أنه تعالى عدد عليهم ما علق بالأرض من المنافع حيث جعلها لهم فراشاً يتقلبون عليها عند الإقامة . وسوّى لهم فيها مسالك يتقلبون بها في أسفارهم ، وأنبت فيها أصناف النبات متاعاً لهم ولأنعامهم . ثم إن الأرض لهم كالأم التي منها انشئوا وهي التي تجمعهم وتضمهم إذا ماتوا . ثم يخرجون من الأجداث خروج الأجنة من الأرحام ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تمسحوا بالأرض " أي ارقدوا واسجدوا عليها من

غير حائل ، أو تيمموا بها فإنها بكم برة أي إنها لكم كالأم . ومنا خلقناكم وفيها معايشكم وهي بعد الموت كفاتكم .

(148/499)

قوله عز وعلا : ﴿ ولقد أريناه آياتنا ﴾ أي عرفناه صحتها . ثم إن كان التعريف يستلزم حصول المعرفة فيكون كفره كفر جحود وعناد كقوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] وإلا كان كفر جهالة وضلالة . سؤال الجمع المضاف يفيد العموم ولا سيما إذا أكد بالكل ، لكنه تعالى ما أراه جميع الآيات لأن من جملتها ما أظهرها على الأنبياء الأقدمين ولم يتفق لموسى مثلها . الجواب هذا التعريف الإضافي محذوّ به حذو التعريف العهدي لو قيل الآيات كلها وهي التي ذكرت في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ [الإسراء : 101] ولو سلم العموم فالمراد أنه أراه الآيات الدالة على التوحيد في قوله : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ وعلى النبوة بإظهار المعجزات القاهرة وعلى المعاد لأن تسليم القدرة على الإنشاء يستلزم تسليم القدرة على الإعادة بالطريق الأولى ، أو أراد أنه أراه آياته المختصة به وعدد عليه سائر آيات الأنبياء وإخبار النبي الصادق جارٍ مجرى العيان ، أو إراءة بعض الآيات كإراءة الكل كما أن تكذيب بعض

الآيات يستلزم تكذيب الكل كما قال : ﴿ فكذب ﴾ أي الآيات كلها ﴿ وأبى ﴾ قول الحق . قال القاضي : الإباء الامتناع وإنه لا يوصف به إلا من يتمكن من الفعل والترك وإلا لم يتوجه الذم . وجواب الأشاعرة أنه لا يسأل عما يفعل . ثم إن فرعون خاف أن تميل قلوب ملته إلى قول موسى فذكر ما يوجب نفار القوم عنه مع القدح في نبوته لادعاء إمكان معارضته قائلاً ﴿ أجئتنا لتخرجنا ﴾ فإن الإخراج من الديار قرينة القتل بدليل قوله : ﴿ أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ﴾ [النساء : 66] ثم طالب للمعارضة موعداً فإن جعلته زمان الوعد بدليل قوله : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ بالرفع كان الضمير في ﴿ لا نخلفه ﴾ عائداً إلى الوعد المعلوم من الموعد أو إلى زمان الوعد مجازاً . وانتصب ﴿ مكاناً ﴾ على أنه ظرف للوعد المقدر ، وإن جعلته مكان الوعد ليكون قوله : ﴿ مكاناً

(149/499)

﴾ بدلاً منه فوجه عود الضمير في ﴿ لا نخلفه ﴾ مثل ما قلنا ، ويكون قوله : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ مطابقاً له معنى ، لأنه لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان مشتهر عندهم وكأنه قيل : موعدكم مكان الاجتماع في يوم الزينة .

وإن جعلته مصدراً ليصح وصفه بعدم الإخلاف من غير ارتكاب إضمار ، أو تجوّز انتصب ﴿ مكاناً ﴾ على أنه ظرف .

ثم من قرأ ﴿ يوم الزينة ﴾ بالنصب فظاهر أي وعدكم أو انجاز وعدكم في يوم الزينة ، أو وقت وعدكم في يوم الزينة . وفي يوم ﴿ يحشر الناس ﴾ هو ضحى أي ضحى ذلك اليوم . ومن قرأ بالرفع فيقدر مضاف محذوف أي وعدكم وعد يوم الزينة ومعنى ﴿ سوى ﴾ بالكسر والضم عدلاً ووسطاً بين الفريقين . وهو معنى قول مجاهد . فوصف المكان بالاستواء باعتبار المسافة . وقال ابن زيد : أي مستوياً لا يحجب شيئاً بارتفاعه وانخفاضه ليسهل على كل الحاضرين ما يجري بين الفريقين . وقال الكلبي : ﴿ مكاناً سوى ﴾ هذا المكان الذي نحن فيه الآن . قال القاضي : الأظهر أن قوله : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ من قول فرعون لأنه الطالب للاجتماع . وقال الإمام فخر الدين الرازي : الأقرب أنه من كلام موسى ليكون الكلام مبنياً على السؤال والجواب ، ولأن تعيين يوم الزينة يقتضي إطلاع الكل على ما سيقع وهذا إنما يليق بالمحق الواثق بالغلبة لا بالمبطل المزور ، على أن موعدكم خطاب الجمع وليس هناك إلا موسى وهارون ، فإما أن يرتكب أن أقل الجمع اثنان وهو

مذهب مرجوح ، وإما أن يقال الجمع للتعظيم ولم يكن فرعون ليعظمهما ، ويوم الزينة يوم عيد لهم يتزينون فيه . وعن مقاتل يوم النيروز ، وعن سعيد بن جبير يوم سوق لهم . وعن ابن عباس : هو يوم عاشوراء . وإنما قال : ﴿ وأن يحشر ﴾ من غير تسمية الفاعل لأنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حشر لهم . ومحل ﴿ أن يحشر ﴾ رفع أو جر عطفاً على اليوم أو الزينة عين اليوم . ثم الساعة وهي ﴿ ضحى ﴾ ذلك اليوم . وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ، وليشيع أمره العجيب في الأقطار والأعصار والأطراف والأكناف ، ففي ذلك تقوية دين الحق وتكثير راغبيه وقلة شوكة المخالف وتوهين عزائمهم ﴿ فتولى فرعون ﴾ انصرف إلى مقام تهيئة الأسباب المعارضة فإن صاحب السحر يحتاج في تدبير الحسر إلى طول الزمان ولهذا

طلب الموعد وقال مقاتل : أعرض وثبت على إعراضه عن الحق ﴿ فجمع كيده ﴾ أي أسباب الكيد وأدوات الحيلة والتمويه من مهرة السحر وغير ذلك ﴿ ثم أتى ﴾ الموعد . عن ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد منهم حبل وعصا . وقيل :

أربعمائة. وقيل: أكثر من ذلك فضرب لفرعون قبة طولها سبعون ذراعاً فجلس فيها ينظر إليهم فبين الله تعالى أن موسى قدم قبل كل شيء الوعيد والتحذير على عادة الصالحين من أهل النصح والإشفاق، ولا سيما الأنبياء المبعوثين رحمة للأمم ﴿ ويلكم ﴾ نصب على المصدر الذي لا فعل له أو على النداء ﴿ لا تفتروا على الله كذباً ﴾ بأن تدعوا آياته ومعجزاته سحراً ﴿ فيسحتكم ﴾ السحت لغة أهل الحجاز والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم، ومعناه الاستئصال.

حذرهم أمرين: أحدهما عذاب الدارين والتنوين للتعظيم، والآخر الخيبة والحرمان عن المقصود فإن التمويه لا بقاء له ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ كقوله في الكهف: ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ [الكهف: 21] أي وقع التنازع بينهم ﴿ وأسروا النجوى ﴾ الضمير لفرعون وقومه. وقيل: للسحرة ويؤده ما روي عن ابن عباس أن نجواهم إن غلبنا موسى اتبعناه. وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر. وعن وهب: لما قال ﴿ ويلكم ﴾ الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر. والأكثرون على الأول وذلك أنهم تفاوضوا وتشاوروا حتى استقروا على شيء واحد وهو أنهم.

﴿ قالوا إنْ هذان ساحران ﴾ إلى آخر الآية : لا إشكال في قراءة أبي عمرو وكذا في قراءة ابن كثير وحفص ، لأنه كقولك " إن زيداً لمنطلق " واللام فارقة بين المخففة والنافية . وأما من قرأ " إن " بالتشديد و ﴿ هذان ﴾ بالألف فأورد عليه أن " إن " لم يعمل في المثنى . وأجيب بأنه على لغة الحرث بن كعب وخثعم وبعض بني عذرة ، ونسبها الزجاج إلى كنانة ، وابن جني إلى بعض بني ربيعة ، جعلوا التثنية كعصا وسعدى مما آخره ألف فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب . وقيل : " إن " بمعنى " نعم " واعترض أن ما بعده حينئذ يصير كقوله : أم الحليس لعجوز شهربة . . . ولا يجوز مثله إلا في ضرورة الشعر . وإنما موضع لام الابتداء في السعة هو المبتدأ . والجواب أن القرآن حجة على غيره ، وذكر الزجاج في جوابه أن التقدير لهما ساحران فاللام داخلة على صدر الجملة الصغرى . قال : وقد عرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلي وإسماعيل بن إسحاق فارتضاه كل منهم وذكروا أنه أجود ما سمعنا في هذا الباب ، وضعفه ابن جنى بأن المبتدأ إنما يجوز حذفه لو كان أمراً معلوماً جلياً وإلا كان تكليفاً بعلم الغيب للمخاطب ، وإذا كان معروفاً فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام . وأيضاً إن الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الإطناب ، فالجمع بينهما محال مع أن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن في العقول من العكس . وأيضاً امتنع البصريون من جعل النفس في قولك : " زيد ضرب نفسه " تأكيداً للمستكن فدل ذلك على أن تأكيد المنوي غير جائز . وأيضاً لو كان ما ذهب إليه الزجاج جائزاً لحمل النحويون قول

الشاعر على ذلك ولم يحملوه على الاضطرار ، ولمن تبصر قول الزجاج أن يجيب عن الأول بأن التأكيد إنما هو لنسبة الخبر إلى المبتدأ لا للمبتدأ وحده ، ولو سلم فذكر اللام يدل على المبتدأ المنوي وذكر المبتدأ لا يدل على التأكيد فكان حذف المبتدأ أولى .

(153/499)

وعن الثاني بأن الكلام قد يكون موجزاً من وجه مطنباً من وجه آخر فلا منافاة ، وإنما المنافاة إذا كانت الجهتان واحدة . وعن الثالث بأنهم امتنعوا من حمل النفس على التأكيد في المثال المذكور لأنهم رأوا أن إسناد الفعل إلى المظهر أولى من إسناده إلى المضمر ، لا لأن تأكيد المنوي ممتنع على أنا بينا أن المؤكد ليس بمحذوف في الآية مطلقاً فإن أحد طرفي الكلام مذكور . وعن الرابع بأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضي كونه باطلاً فكم ترك الأول للآخر .

(154/499)

ولنرجع إلى التفسير قال الفراء : الطريقة اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم . ويقال : هم طريقة قومهم وهو طريقة قومه ، قبح أمر موسى في أعين الحاضرين ونفرقهم بأنه ساحر ، والطباع نفور عن السحر وبأنه يقصد إخراجكم من دياركم - وهذا أيضاً مما يبغض القاصد إليهم - وبأنه يريد أن يذهب بأشراف قومكم وأكابركم قالوا وهم بنوا إسرائيل لقول موسى أرسل معنا بني إسرائيل وجعلها الزجاج من باب حذف المضاف أي بأهل طريقتكم المثلى وسموا مذهبهم الطريقة المثلى والسنة الفضلى لأن كل حزب بما لديهم فرحون . والمثلى تأنيث الأمثل أي الأشبه بالحق ، ومنهم من فسر الطريقة ههنا بالجاه والمنصب والرياسة وكان الأمر على ما يقال به . من قرأ ﴿ فأجمعوا ﴾ من الجمع فظاهر ، ومن قرأ من الإجماع فمعناه اجعلوا كيدكم مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا نظيره ما مر في سورة يونس ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ [الآية : 71] سماه كيداً لأنه علم أن السحر لا أصل له . وقال الزجاج : معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعاً عليه . ثم أمرهم بأن يأتوا صفاً أي مصطفين مجتمعين ليكون أهيب في الصدور وأوقع في النفوس . وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى أي مصلى من المصليات أو هو علم لمصلى بعينه لأن الناس يصطفون فيه لعيدهم وصلواتهم . ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ أي فاز من غلب وهو اعتراض . واعلم أن قصة السحرة أكثرها يشبه ما مر في "الأعراف" وقد فسرناها هنالك فنحن الآن نقتصر ونذكر ما هو المختص بهذه السورة . ﴿ إما أن تلقي ﴾ أي

اختر أحد الأمرين إلقاءك أو إلقاءنا ﴿ فإذا حبالهم ﴾ هي " إذا " المفاجأة وأصلها الوقت أي فاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم . قال وهب : سحروا أعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك . وقيل : أراد أنه شاهد شيئاً لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى فيكون تمثيلاً ﴿ فأوجس ﴾ أضمر ﴿ في نفسه خيفة ﴾ هو مفعول ﴿ أوجس ﴾ و ﴿ موسى ﴾ فاعله

(155/499)

أخر للفاصلة . وذلك الخوف إما من جبلة البشرية حين ذهل عن الدليل وهو قول الحسن ، وإما لأنه خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه قاله مقاتل ، أو خاف أن يتأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت ، أو خاف أن يتفرق بعض القوم قبل أن يشاهدوا غلبته ، أو خاف تمادي الأمر عليه وتكرره فأزال الله تعالى خوفه مجملاً بقوله ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ وفيه من أنواع التأكيد ما لا يخفى وهي الاستئناف والتصدير بأن ، والتوسيط بالفصل ، وكون الخبر معرفاً ولفظ العلو ومعناه الغلبة وصورة التفضيل ولا فضل لهم ومفصلاً بقوله ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ لم يقل عصاك لما علم في الأعراف ولما في هذه السورة ﴿ وما تلك بيمينك ﴾ وقال جار الله : هو تصغير لشأن العصا وتهوين لأمر السحرة أي ألق العويد الفرد

الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدرة الله يبتلع ﴿ ما صنعوا ﴾ أي زوّروا وافتعلوا على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها ، أو هو تعظيم لشأنها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة لأن في يمينك شيئاً أعظم شأناً من كلها ﴿ إنما صنعوا ﴾ إن الذي افتعلوه ﴿ كيد سحر ﴾ أي ذي سحر ، أو ذوي سحر ، أو هم في توغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه ، أو الإضافة للبيان أي كيد هو سحر كقولك " علم فقه " وإنما وجد ساحر فيمن قرأ على الوصف ليعلم أن المقصود هو الجنس كما قال .

(156/499)

﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ أي هذا الجنس ولو جمع لأوهم أن المراد هو العدد وإنما نكر أولاً لأن المراد تنكير الكيد كأنه قال : هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر أو من أفعال السحرة وجميع أقسام السحر ، وأفراد السحرة لا فلاح فيها ومن نظائره " إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللاً لا في أمر دنيا ولا في أمر آخره " . ومعنى سبهللاً أنه يجيء ويذهب في غير شيء . ومعنى ﴿ حيث أتى ﴾ أينما كان وأية سلك ﴿ فألقى السحرة سجداً ﴾ قال جار الله : سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر في السجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ! . وروي

أنهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار أو أثواب أهلها ، وعن عكرمة : لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة . واستبعده القاضي لأنه كالإلجاء إلى الإيمان وأنه ينافي التكليف . وقلت : إذا كان الإيمان مقدماً على هذا الكشف فلا منافاة ولا إلجاء . ثم إن فرعون لعب لعب الحجل وأنكر عليهم إيمانهم وألفى شبهته في البين أنه كبيرهم أي أسحرهم وأعلاهم درجة في الصناعة ، أو معلمهم وأستاذهم من قول أهل مكة للمعلم "أمرني كبيري" أي أستاذي في العلم أو غير ، وأوعدهم بقطع الأيدي والأرجل ﴿ من خلاف ﴾ قال في الكشاف : "من" لابتداء الغاية لأن القطع مبتدأ وناشيء من مخالفة العضو والعضو لا من وفاقه إياه .

(157/499)

قالت : الأولى أن يقال الخلاف ههنا بمعنى الجهة المخالفة حتى يصح معنى الابتداء أي لأقطعن أيديكم وأرجلكم مبتدأ من الجهتين المتخالفتين يميناً وشمالاً ، فيكون الجار والمجرور في موضع الحال أي لأقطعنها مختلفات الجهات . قيل ﴿ في جذوع النخل ﴾ أي عليها والأصوب أن يقال : هي على أصلها شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن المظروف في الظرف ﴿ أينا أشد ﴾ أراد نفسه وموسى وفيه صلف باقتداره وقهره وما ألفه من

تعذيب الناس واستخفاف بموسى مع الهزء به ، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء قاله في الكشاف . قلت : يحتمل أن يريد بقوله ﴿ أينا ﴾ الله تعالى ونفسه لتقدم ذكر رب هارون وموسى ، وقد سبق عذاب الله في قوله ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ وفي قوله ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ ويؤيده قول السحرة في جوابه ﴿ والله خير وأبقى ﴾ ﴿ لن نؤثرك ﴾ لن نختارك ﴿ على ما جاءنا من البينات ﴾ المعجزات الظاهرات ﴿ و ﴾ على ﴿ الذي فطرنا ﴾ أو الواو للقسم وعلى هذا يجوز أن يكون على ما جاءنا بمعنى فيما جاءنا أي لن نميل إليك والحالة هذه . وعلى الوجه الأول ففحوى الكلام لن نترك طاعة خالقنا والتصديق بمعجزات نبيه لأجل هواك ﴿ فاقض ما أنت قاضٍ ﴾ بما شئت من العذاب ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي في مدة الحياة العاجلة ، وقرىء ﴿ تقضي ﴾ مبنياً للمفعول هذه الحياة بالرفع إجراء للظرف مجرى المفعول به اتساعاً مثل صيم يوم الجمعة . والحاصل أن قضاءك وحكمك منحصر في مدة حياتنا الفانية . والإيمان وثمرته باقٍ لا يزول ، والعقل يقتضي تحمل الضرر الفاني للفوز بالسعادة الباقية وللخلاص من العقاب الأبدي وذلك قولهم ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ قال الحسن : سبحان الله قوم كفار ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا في ذات الله تعالى ﴿ فاقض ما أنت قاضٍ ﴾ والله إن أحدهم ليصحب القرآن ستين عاماً ثم ليبيع دينه بثمن غبن .

(158/499)

ولما كان أقرب خطاياهم عهداً ما أظهروه من السحر قالوا ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ وفي هذا الإكراه وجوه: عن ابن عباس أن الفراعنة كانوا يكرهون فتيانهم على تعلم السحر ليوم الحاجة فكانوا من ذلك القبيل. وروي أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل فوجده تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر لأن الساحر إذا نام بطل سحره فأبوا أن يعارضوه. وعن الحسن أنهم حشروا من المدائن مكرهين، وزعم عمر بن عبيد أن دعوة السلطان إكراه، وليس بقوي فلا إكراه إلا مع الخوف فحيثما وجد حكم بالإكراه وإلا فلا. وباقي الآيات ابتداء إخبار من الله أو هي من تتمة كلامهم فيه قولان، ولعل الأول أولى ﴿ إنه ﴾ أي الشأن ﴿ من يأت ربه ﴾ أي حيث لا حكم إلا هو فيسقط استدلال المجسمة حال كون الآتي ﴿ مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ﴾ موتة مريحة ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة ممتعة.

(159/499)

قالت المعتزلة : صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فإن له جهنم بالآية لعموم " من " الشرطية بدليل صحة الاستثناء فيحل القطع بوعيد أصحاب الكبائر . أجابت الأشاعرة بأن المجرم كثيراً ما يجيء في القرآن بمعنى الكافر كقوله ﴿ يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ﴾ [المدثر : 40-42] إلى قوله ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ [المدثر : 46] ولا ريب أن التكذيب بالبعث والجزاء كفر ، وكقوله ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ [المطففين : 29] إلى آخر السورة . فلم قلتم : إن المجرم ههنا ليس بمعنى الكافر فتبطل المقدمة الأولى ؟ سلمنا لكن المقدمة الثانية كليتها ممنوعة على الإطلاق وإنما هي كلية بشرط عدم العفو ، وحينئذٍ لا يحصل القطع بالوعيد على الإطلاق . سلمنا المقدمتين والنتيجة لكنه معارض بعموم الوعد في قوله ﴿ ومن يأته مؤمناً ﴾ فإن قيل : صاحب الكبيرة لم يأته مؤمناً عندنا . قلنا : يصدق عليه المؤمن لأن الإيمان صدر عنه في الزمان الماضي كالضارب على من قد ضرب أمس وليس بين الحال والزمان الماضي منافاة كلية ولهذا صح " جاءني زيد قد قام " بل صح قوله ﴿ قد عمل الصالحات ﴾ وأنه حال آخر فكأنه قيل : ومن يأته قد آمن قد عمل . ولئن قيل : إن عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة . قلنا : ممنوع بل العكس أولى لأن الدفع أسهل من الرفع وإقامة الحد على التائب في بعض الصور لأجل المحنة لا لأجل التنكيل . وقوله ﴿ نكالاً من الله ﴾ في حق من لم يتب بعد من السرقة سلمنا أن قوله ﴿ ومن يأته مؤمناً ﴾ لا يعم صاحب الكبيرة إلا أن قوله ﴿

فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ من الجنة لمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحات أي الواجبات ، لأن الزائدة عليها غير محصور فسائر الدرجات التي غير عالية لا بد أن تكون لغيرهم وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان . ثم عظم شأن المذكور بقوله ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ أي قال " لا إله لا إله الا الله " قاله ابن عباس . وفيه دليل على أن قوله ﴿ ومن يأته مؤمناً ﴾ يشمل صاحب الكبيرة ، وقال آخرون ﴿ تزكى ﴾ أي تطهر من دنس الذنوب وعلى هذا يقع صاحب الكبيرة خارجاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن جـ 4 صـ 543.560 ﴾

(160/499)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين سبحانه استكبار فرعون المدعى في قوله ﴿ فكذب وأبى ﴾ وختمه سبحانه بأنه

يهلك العاصي كائناً من كان ، وينجي الطائع ، أتبع ذلك شاهداً محسوساً عليه كفيلاً ببيان أنه لم يغن عن فرعون شيء من قوته ولا استكباره ، فقال عاطفاً على " ولقد أريناه آياتنا " : ﴿ ولقد أوحينا ﴾ أي بعظمتنا لتسهيل ما يأتي من الأمور الكبار ﴿ إلى موسى ﴾ غير مكترثين لشيء من أقوال فرعون ولا أفعاله ، وهذا الإيحاء بعد ما تقدم من أمر السحرة بمدة مديدة جرت فيها خطوب طوال كانت بسببها الآيات الكبار ، وكأنها حذفت لما تدل عليه من قساوة القلوب ، والمراد هنا الانتهاء لما تقدم من مقصود السورة ﴿ أن أسر ﴾ أي ليلاً ، لأن السري سير الليل ؛ وشرفهم بالإضافة إليه فقال : ﴿ بعبادي ﴾ أي بني إسرائيل الذين لفت قلب فرعون حتى أذن في مسيرهم بعد أن كان قد أبى أن يطلقهم أو يكف عنهم العذاب ، فاقصد بهم ناحية بحر القلزم ﴿ فاضرب لهم ﴾ أي اعمل بضرب البحر بعصاك ، ولذلك سماه ضرباً .

ولما كان ضرب البحر بالعصا سبباً لوجود الطريق الموصوفة ، أوقع الفعل عليها فقال : ﴿ طريقاً في البحر ﴾ ووصفها بالمصدر مبالغة فقال : ﴿ يبساً ﴾ حال كونها أو كونك ﴿ لا تخاف ﴾ والمراد بها الجنس ، فإنه كان لكل سبط طريقاً ﴿ دركاً ﴾ أي أن يدركك

شيء من طغيان البحر أو بأس العدو أو غير ذلك .

ولما كان الدرك مشتركاً بين اللحاق والتبعة ، أتبعه بقوله : ﴿ ولا تخشى ﴾ أي شيئاً غير ذلك أصلاً إنفاذاً لأمري وإنقاذاً لمن أرسلتك لاستنقاذهم ، وسوقه على هذا الوجه من إظهار القدرة والاستهانة بالمعاند مع كبريائه ومكنته استدلالاً شهودياً على ما قرر أول السورة من شمول القدرة وإحاطة العلم للبشارة بإظهار هذا الدين بكثرة الأتباع وإبارة الخصوم والإسعاد برد الأضداد وجعل بغضهم وداً ، وإن كانوا قوماً لداً ؛ ثم أتبع ذلك قوله عطفاً على ما تقديره : فبادر امتثال الأمر في الإسراء وغيره : ﴿ فأتبعهم ﴾ أي أوجد التبع والمسير وراء بني إسرائيل على ذلهم وضعفهم ﴿ فرعون بجنوده ﴾ على كثرتهم وقوتهم وعلوهم وعزتهم ، فكانوا كالتابع الذي لا معنى له بدون متبوعه ﴿ فغشيهم ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ من اليم ﴾ أي البحر الذي من شأنه أن يؤم ؛ وأوجز فهول فقال : ﴿ ما غشيهم ﴾ أي أمر لا تحتمل العقول وصفه حق وصفه ، فأهلك أولهم وآخرهم ؛ وقطع دابرهم ، لم يبق منهم أحداً ، وما شاكت أحداً من عبادنا المستضعفين شوكة ﴿ وأضل فرعون ﴾ على تحذلقه ﴿ قومه ﴾ مع ما لهم من قوة الأجساد ومعانيها .

ولما كان إثبات الفعل لا يفيد العموم ، نفى ضده ليفيده مع كونه أوكد وأوقع في النفس وأروع لها فقال : ﴿ وما هدى ﴾ أي ما وقع منه شيء من الهداية ، لا لنفسه ولا لأحد من قومه ،

فتم الدليل الشهودي على تمام القدرة على إنجاء الطائع وإهلاك العاصي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 33 . 34 ﴾

(162/499)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لا تخف دركاً ﴾ بالجزم : حمزة الباقون ﴿ لا تخاف ﴾ بالرفع ﴿ أنجيتكم ﴾ و ﴿ واعدتكم ﴾ و ﴿ رزقكم ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف ﴿ ووعدناكم ﴾ من الوعد . أبو عمرو وسهل ويعقوب ﴿ فيحل ﴾ ﴿ ومن يحلل ﴾ بالضم فيهما : عليّ . الآخرون بالكسر ﴿ بملكنا ﴾ بفتح الميم : أبو جعفر ونافع ، وعاصم غير المفضل بضمها حمزة ، وعلي وخلف بكسرها الباقون والمفضل ﴿ حملنا ﴾ بفتح الحاء والميم مخففة : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف سوى حفص . الآخرون بضم الحاء وكسر الميم مشددة ﴿ تتبعني ﴾ بالياء الساكنة في الحالين : ابن كثير وسهل ويعقوب وافق أبو عمرو ونافع غير إسماعيل في الوصل ، وقرأ يزيد وإسماعيل بفتح الياء . الباقون بحذفها . ﴿ يا ابن أم ﴾ بكسر الميم : ابن عامر وحمزة

وعلي وخلف وعاصم غير حفص . ﴿ لم تبصروا ﴾ بتاء الخطاب : حمزة وعلي وخلف الباقون على الغيبة ﴿ فنبذتها ﴾ مدغماً : أبو عمرو وحمزة وعلي وخلف ويزيد وهشام وسهل ﴿ لن تخلفه ﴾ بكسر اللام : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب . الآخرون بفتحها ﴿ لنحرقنه ﴾ بفتح النون وضم الراء : يزيد . الآخرون من التحريق . ﴿ فلا يخف ﴾ بالجزم على النهي : ابن كثير ﴿ أن نقضي ﴾ النون مبنياً للفاعل ﴿ وحيه ﴾ بالنصب : يعقوب الباقون بالياء مضمومة وبفتح الضاد ﴿ وحيه ﴾ بالرفع .

(163/499)

الوقوف : ﴿ يبسا ﴾ ج لأن قوله ﴿ لا تخاف ﴾ يصلح صفة للطريق مع حذف الضمير العائد أي لا تخاف فيه ، ويصلح مستأنفاً . ومن قرأ ﴿ لا تخف ﴾ فوقفه أجوز لعدم العاطف ووقوع الحائل مع تعقب النهي الأمر إلا أن يكون جواباً للأمر فلا يوقف ﴿ ولا تخشى ﴾ 5 ﴿ ما غشيهم ﴾ ط لأن التقدير وقد أضل من قبل على الحال الماضية دون العطف لأنه عندما عشيه لم يتفرغ للإضلال . ﴿ وما هدى ﴾ 5 ﴿ والسلوى ﴾ 5 ﴿ غضبي ﴾ ج ﴿ هوى ﴾ 5 ﴿ اهتدى ﴾ 5 ﴿ يا موسى ﴾ 5 ﴿ لترضى ﴾ 5 ﴿ السامري ﴾ 5 ﴿ أسفاً ﴾ ج لاتساق الماضي على الماضي بلا ناسق ﴿

حسناً ﴾ ط ﴿ موعدي ﴾ 5 ﴿ السامري ﴾ 5 لا ﴿ فنسي ﴾ 5 ط ﴿ قولاً ﴾
لا للعطف ﴿ ولا نفعاً ﴾ 5 ط ﴿ فتنتم به ﴾ ج للابتداء بأن مع اتصال العطف ﴿
أمري ﴾ ج ﴿ موسى ﴾ 5 ﴿ أن لا تتبعن ﴾ ط ﴿ أمري ﴾ 5 ﴿ برأسي ﴾ ج
للابتداء (بأن) مع اتصال المعنى واتحاد القائل ﴿ قولي ﴾ 5 ﴿ يا سامري ﴾ 5 ﴿
نفسي ﴾ 5 ﴿ لا مساس ﴾ ص ﴿ لن تخلفه ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ عاكفاً ﴾
ط للقسم المحذوف ﴿ نسفاً ﴾ 5 ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ علماً ﴾ 5 ﴿ سبق ﴾ ج
للإستئناف والحال ﴿ ذكرا ﴾ ج 5 لأن الشرطية تصلح صفة للذكر وتصلح مبتدأ بها
﴿ وزراً ﴾ 5 لا لأن قوله ﴿ خالدين ﴾ حال من الضمير في ﴿ يحمل ﴾ وهو عائد إلى
"من" ومن للجمع معنى ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ حملاً ﴾ 5 لا لأن ﴿ يوم ينفخ ﴾ بدل من يوم
القيامة. ﴿ زرقاً ﴾ 5 ج لأن ما بعده يصلح للصفة وللاستئناف ﴿ عشراً ﴾ 5 ﴿
يوماً ﴾ 5 ﴿ نسفاً ﴾ 5 لا ﴿ صفصفاً ﴾ 5 لا ﴿ أمتا ﴾ 5 ﴿ لا عوج له ﴾ ج
لاختلاف الجملتين ﴿ همساً ﴾ 5 ﴿ قولاً ﴾ 5 ﴿ علماً ﴾ 5 ﴿ القيوم ﴾ ط ﴿
ظلماً ﴾ 5 ﴿ هضماً ﴾ 5 ﴿ ذكراً ﴾ 5 ﴿ الحق ﴾ ج ﴿ وحيه ﴾ ز لعطف
الجملتين المتفقتين مع اعتراض الظرف وما أضيف إليه ﴿ علماً ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ
﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 561. 562 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾

واعلم أن في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ دلالة على أن موسى عليه السلام في تلك الحالة كثر مستجيبوه .

فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى إليه أن يسري بهم ليلاً ، والسري اسم لسير الليل والإسراء مثله ، فإن قيل : ما الحكمة في أن يسري بهم ليلاً ، قلنا لوجوه : أحدها : أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك .

وثانيها : ليكون عائقاً عن طلب فرعون ومتبعيه .

وثالثها : ليكون إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم ، أما قوله : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِى البحر يَبَساً ﴾ ففيه وجهان : الأول : أي فاجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهماً ، وضرب اللبن عمله .

والثاني : بين لهم طريقاً في البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق ، فعدى الضرب إلى الطريق .

والحاصل أنه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبساً ثم بين تعالى أن جميع أسباب الأمن كان حاصلاً في ذلك الطريق .

أحدها : أنه كان يبساً قرىء يابساً ويبساً بفتح الياء وتسكين الباء فمن قال : يابساً جعله بمعنى الطريق ومن قال يبساً بتحريك الباء فاليبس واليابس شيء واحد والمعنى طريقاً أيبس .

ومن قال : يبساً بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس ، والمراد أنه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلاً عن الماء .

وثانيها : قوله : ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ أي لا تخاف أن يدركك فرعون فإني أحول بينك وبينه بالتأخير ، قال سيبويه : قوله : ﴿ تَخَافُ ﴾ رفعه على وجهين : أحدهما : على الحال كقولك غير خائف ولا خاش .

والثاني : على الإبتداء أي أنت لا تخاف وهذا قول الفراء ، قال الأخفش والزجاج : المعنى لا تخاف فيه كقوله : ﴿ واتقوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ﴾ [البقرة : 48] أي لا تجزي فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان .

أحدهما : أنه نهي .

والثاني : قال أبو علي : جعله جواب الشرط على معنى إن تضرب لا تخف وعلى هذه القراءة ذكروا في قوله : ﴿ وَلَا تخشى ﴾ ثلاثة أوجه .

أحدهما : أن يستأنف كأنه قيل وأنت لا تخشى أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى .

وثانيها : أن لا تكون الألف هي الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى : ﴿ فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] ﴿ وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] .

وثالثها : أن يكون مثل قوله :

[وتضحك مني شيخة عبشمية] . . كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

وثالثها : قوله : ﴿ وَلَا تخشى ﴾ والمعنى أنك لا تخاف إدراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء أما قوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ قال أبو مسلم : زعم رواة اللغة أن أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى :

﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ [طه : 94] أسرى بعبده وقال الزجاج : قرىء : (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي ومعه جنوده وقرىء : ﴿ بِجُنُودِهِ ﴾ ومعناه ألحق جنوده بهم ويجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله : ﴿ فَغَشِيَهُمْ ﴾ فالمعنى : علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للأمر أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى وقرىء : (فغشاهم من اليم ما غشيهم) وفاعل غشاهم إما الله سبحانه وتعالى أو ما غشيهم أو فرعون لأنه الذي ورط جنوده وتسبب في هلاكهم أما قوله : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ فاحتج القاضي به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولأن الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقاً للكفر لأن من ذم غيره بشيء لا بد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل وإلا لاستحق ذلك الذم وقوله : ﴿ وَمَا هدى ﴾ تهكم به في قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] ولنذكر القصة وما فيها من المباحث .

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون إليه فخرج بهم ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد إليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا

بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز : احتكمي فقالت : أكون معك في الجنة .

وذكر ابن عباس أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم إلا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام " إذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فاته فلعل الله يرزقك منه خيراً ، فلما سمع بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم أتاه مع امرأته فقال : أتعرفني ؟ قال : نعم عرفتك فقال له : احتكم ، فقال : ثمانون ضانية فأعطاه إياها وقال له : أما إن عجوز بني إسرائيل خير منك " وخرج فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى إلى البحر قال : ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر : انفرق فأبى ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام : ادخلوا فيه فقالوا : كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا : نخاف الغرق في بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فأقبل فرعون إلى تلك الطرق فقال قومه له : إن موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على

فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدي فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة في الناس الحقوا الملك حتى إذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم ، فقالوا : ما هذا يا موسى ؟ قال : قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا : يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم ، فدعا فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم ، وذكر ابن عباس أن جبريل عليه السلام قال : يا محمد لو رأيتني وأنا أدس فرعون في الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ وفي القصة أبحاث .

(168/499)

البحث الأول : روي في الأخبار أن موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقاً يابساً يتهيأ طروقه وبقي الماء قائماً بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل .

فأخذ كل سبط من بني إسرائيل في طريق من هذه الطرق .

ومنهم من قال : بل حصل طريق واحد وحجة القول الأول الأخبار ومن القرآن قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 63] وذلك لا يحصل إلا إذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثاني ظاهر قوله : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِى البحر يَبَساً ﴾ وذلك يتناول الطريق الواحد وإن أمكن حمله على الطرق نظراً إلى الجنس .

البحث الثاني : روي أن بني إسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا : نريد أن يرى بعضنا بعضاً وهذا كالبعيد وذلك أن القوم لما أبصروا مجيء فرعون صاروا في نهاية الخوف والخائف إذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد .

البحث الثالث : أن فرعون كان عاقلاً بل كان في نهاية الدهاء فكيف اختار إلقاء نفسه إلى التهلكة فإنه كان يعلم من نفسه أن انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين .

أحدهما : أن جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ، ولقائل أن يقول : هذا بعيد لأنه يبعد أن يكون خوض الملك في أمثال هذه المواضع مقدماً على خوض جميع العسكر وما ذكروه إنما يتم إذا كان الأمر كذلك وأيضاً فلو كان الأمر على ما قالوه لكان فرعون في ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفاً ويحمله على الإمساك في أن لا يدخل وأيضاً فأي حاجة لجبريل عليه السلام إلى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه

ويرميه في الماء ابتداء ، بل الأولى أن يقال : إنه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى .

(169/499)

البحث الرابع : أن الذي نقل عن جبريل عليه السلام أنه كان يدسه في الماء والطين خوفاً من أن يؤمن فبعيد لأن المنع من الإيمان لا يليق بالملائكة والأنبياء عليهم السلام .

البحث الخامس : الذي روي أن موسى عليه السلام كلم البحر قال له : انفلق لي لأعبر عليك ، فقال البحر : لا يمر علي رجل عاص .

فهو غير ممتنع على أصولنا لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة وعند المعتزلة أن ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 80.82 ﴾

(170/499)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾

قال ابن جريج : قال أصحاب . موسى له : هذا فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر وقد غشينا ، فأنزل الله هذه الآية . أي لا تخاف دركاً من فرعون ولا تخشى من البحر غرقاً إن غشيك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(171/499)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

هذا استئناف إخبار عن موسى من أمر موسى وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدثت فيها لموسى وفرعون حوادث ، وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقوي أمره وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فأقام موسى على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه ، فبعث الله حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآيات الجراد والقمل إلى آخرها كلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف القول فإذا انكشف نكث حتى تأتي أخرى ، فلما كانت الآيات

أوحى الله تعالى إلى موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر في الليل هارباً ، و" السرى " سير الليل ، و﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن أسر ﴾ يجوز أن تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب كقوله عز وجل : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ [ص : 10] ويجوز أن تكون الناصبة للأفعال وتكون في موضع نصب ب ﴿ أوحينا ﴾ وقوله تعالى ﴿ بعبادي ﴾ إضافة تشريف لبني إسرائيل ، وكل الخلق عباد الله ، ولكن هذا كقوله تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر : 29] ، وروي من قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لما أشعرهم موسى عليه السلام بليلة الخروج استعاروا من معارفهم من القبط حلياً وثياباً وكل أحد ما اتفق له .

ويروى أن موسى أذن لهم في ذلك وقال لهم : " إن الله سينفلكموها " ، ويروى أنهم فعلوا ذلك دون إذنه عليه السلام وهو الأشبه به وسيأتي في جمع الحلي ما يؤيد ذلك ، ويروى أن بني إسرائيل عجنوا زادهم ليلة سراهم ووضعوه ليختمر فأعجلهم موسى عليه السلام في الخروج فطبخوه فطيراً في سنتهم في ذلك العام إلى هلم ، ويروى أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهو ستمائة ألف إنسان فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم واتصل الخبر

بفرعون فجمع جنوده وحشرهم ونهض وراءه فأوحي إلى موسى أن يقصد ﴿ البحر ﴾

فخرج بنو إسرائيل فرأوا أن العذاب من ورائهم والبحر من أمامهم وموسى يثق بصنع الله تعالى فلما رآهم فرعون قد هبطوا نحو البحر طمع فيهم ، وكان مقصدهم إلى موضع منقطع فيه الفحوص والطرق الواسعة ، واختلف الناس في عدد جند فرعون فقيل كان في خيله سبعون ألف أدهم ونسبة ذلك من سائر الألوان ، وقيل أكثر من هذا مما اختصرته لقلة صحته ، فلما وصل موسى البحر وقارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل أوحى الله تعالى إلى موسى ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ [الشعراء : 63] ، ويروى أن الوحي إليه بذلك كان متقدماً وهو ظاهر الآية ، ويروى أنه إنما أوحي إليه في موطن وقوعه واتصل الكلام في هذه الآية على جهة وصف الحال وضم بعض الأمور إلى بعض فضرب موسى عليه السلام البحر فانفلق اثني عشرة فرقة ، طرقاً واسعة بينها حيطان ماء واقف فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله تعالى ريح الصبا ، فجففت تلك الطرق حتى يبست ، ودخل بنو إسرائيل ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر فرأى الماء على تلك الحال فجزع قومه واستعظموا الأمر ، فقال لهم إنما انفلق لي من هيبتي ، وهاهنا كمل إضلاله لهم وحمله الله تعالى على الدخول وجاء جبريل عليه السلام راكباً على فرس أنثى فدخل ، فأتبعها فرس فرعون وتتابع الناس حتى تكاملوا في البحر فانطبق عليهم ، فسمع بنو إسرائيل انطباق البحر وهم

قد خرجوا بأجمعهم من البحر فعجبوا وأخبرهم موسى أن فرعون وقومه قد هلكوا فيه ، فطلبوا مصداق ذلك ، فلفظ البحر الناس وألقى الله تعالى فرعون على فجوة من الأرض بدرعه المعروفة له .

قال القاضي أبو محمد : فهذا اختصار قصص هذه الآية بحسب ألفاظها وقد مضى أمر غرق فرعون بأوعب من هذا في موضع اقتضاه . وقوله تعالى : ﴿ يبساً ﴾ مصدر وصف به ، وقرأ بعض الناس " يابساً " وأشار إلى ذكره الزجاج ، وقرأ حمزة وحده " لا تخف دركاً " وذلك إما على جواب الأمر وإما على نهي مستأنف ، وقرأ الجمهور " لا تخاف " وذلك على أن يكون " لا تخاف " حالاً من ﴿ موسى ﴾ عليه السلام ، ويحتمل أن يكون صفة الطريق بتقدير لا يخاف فيه أي يكون بهذه الصفة ومعنى هذا القول " لا تخاف دركاً " من فرعون وجنوده ﴿ ولا تخشى ﴾ غرقاً من البحر ، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه " فاتّبعهم " بتشديد التاء وتبع ، واتبع إنما يتعدى إلى مفعول واحد كقوله شويت واشتويت وحفرت واحتفرت وفديت وافتديت فقوله ﴿ بجنوده ﴾ إما أن تكون الباء مع ما جرته في موضع الحال كما تقول خرج زيد بسلاحه وإما أن تكون لتعدي الفعل إلى مفعول

ثان إذ لا يتعدى دون حرف جر إلا إلى واحد . وقرأ الجمهور " فأَتْبعهم " بسكون التاء وهذا يتعدى إلى مفعولين ، فالباء على هذا إما زائدة والتقدير " فأتبعهم فرعون جنده " وإما أن تكون بالحال ويكون المفعول الثاني مقدراً كأنك قلت رؤساءه أو عزمه ويجوز هذا ، والأول أظهر ، وقرأت فرقة " فغشيهم " ، وقرأت فرقة " فغشاهم الله " ، وقوله ﴿ ما غشيهم ﴾ إبهام أهول من النص على قدر " ما " ، وهذا كقوله ﴿ إذا يغشى السدرة ما يغشى ﴾ [النجم : 16] ﴿ وأضل فرعون قومه ﴾ يعني من أول أمره إلى هذه النهاية ، ثم أكد تعالى بقوله ﴿ وما هدى ﴾ [طه : 79] مقابلة لقول فرعون ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أن أَسْرِ بعبادي ﴾

أي : سِرْ بهم ليلاً من أرض مصر ﴿ فاضرب لهم طريقاً ﴾ أي : اجعل لهم طريقاً ﴿ في البحر يَبَساً ﴾ قرأ أبو المتوكل ، والحسن ، والنخعي : "يَبْساً" باسكان الباء .

وقرأ الشعبي ، وأبو رجاء ، وابن السميفع : "يابساً" بألف .

قال أبو عبيدة : اليبس ، متحرك الحروف ، بمعنى اليابس ، يقال : شاة يبس ، أي : يابسة ليس لها لبن .

وقال ابن قتيبة : يقال لليابس : يَبَس ، ويَبْس .

قوله تعالى : ﴿ لا تخاف ﴾ قرأ الأكثرون بألف .

وقرأ أبان ، وحمزة عن عاصم : "لا تخفْ" .

قال الزجاج : من قرأ "لا تخاف" ، فالمعنى : لست تخاف ، ومن قرأ : "لا تخفْ" ، فهو نهي عن الخوف .

قال الفراء : قرأ حمزة : "لا تخفْ" بالجزم ، ورفع "ولا تخشى" على الاستئناف ، كقوله تعالى : ﴿ يُولُّوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ [آل عمران : 111] استأنف ب "ثم" ، فهذا مثله ، ولو نوى حمزة بقوله : "ولا تخش" الجزم وإن كانت فيه الياء ، كان صواباً .

قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ دركاً ﴾ لحاقاً .

قال المفسرون : قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر بين أيدينا ، فأنزل الله على موسى ﴿ لا تخاف دركاً ﴾ أي : من فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ غرقاً في البحر .

قوله تعالى : ﴿ فأَتْبَعهم فرعون ﴾ قال ابن قتيبة : لحقهم .

وروى هارون عن أبي عمرو : "فاتَّبعهم" بالتشديد .

وقال الزجاج: تبع الرجل الشيء ، وأتبعه ، بمعنى واحد .

ومن قرأ بالتشديد ، ففيه دليل على أنه اتبعهم ومعه الجنود .

ومن قرأ "فأتبعهم" ، فمعناه : ألحق جنوده بهم ، وجائز أن يكون معهم على هذا اللفظ ، وجائز أن لا يكون ، إلا أنه قد كان معهم .

﴿ فغشيَهم من اليم ما غشيَهم ﴾ أي : فغشيهم من ماء البحر ما غرّقهم .

وقال ابن الأنباري : ويعني بقوله : "ما غشيهم" البعض الذي غشيهم ، لأنه لم يغشَهم كل مائِه .

(175/499)

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وأبو رجاء ، والأعمش : "فغشّاهم من اليم ما غشّاهم" بألف فيهما مع تشديد الشين وحذف الياء .

قوله تعالى : ﴿ وأضل فرعونُ قومَه ﴾ أي : دعاهم إلى عبادته ﴿ وما هدى ﴾ أي : [ما] أرشدهم حين أوردهم موارد الهلكة .

وهذا تكذيب له في قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر : 29] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ تقدم الكلام في هذا مستوفى .

﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ أي يابساً لا طين فيه ولا ماء ؛ وقد مضى في "البقرة" ضرب موسى البحر وكنيته إياه ، وإغراق فرعون فلا معنى للإعادة .

﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ أي لحاقاً من فرعون وجنوده .

﴿ وَلاَ تخشى ﴾ قال ابن جريج قال أصحاب موسى له : هذا فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر قد غشينا ، فأنزل الله تعالى ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾ أي لا تخاف دركاً من فرعون ولا تخشى غرقاً من البحر أن يمسّك إن غشيك .

وقرأ حمزة "لا تخف" على أنه جواب الأمر .

التقدير إن تضرب لهم طريقاً في البحر لا تخف .

و"لا تخشى" مستأنف على تقدير : ولا أنت تخشى .

أو يكون مجزوماً والألف مشبعة من فتحة ؛ كقوله : ﴿ فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] أو يكون على حدّ قول الشاعر :

كَأَنْ لَم تَرَى قَبْلي أَسِيرًا يَمانِيَا . . .

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح .

وهذا مذهب الفراء .

وقال آخر :

هَجوت زَبَّان ثم جئْتَ معتذراً . . .

من هجوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ

وقال آخر :

أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي . . .

بما لاَقَتْ لَبُون بَنِي زِيَادِ

قال النحاس : وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر ؛ وأيضاً فإن الذي جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئاً ؛ لأن الياء والواو مخالفتان للألف ؛ لأنهما تتحركان والألف لا تتحرك ، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم تحذف الحركة للجزم ، وهذا محال في الألف ؛ والقراءة الأولى أبين لأن بعده "وَلاَ تَخْشَى" مجمع عليه بلا جزم ؛ وفيها ثلاث تقديرات : الأول : أن يكون "لا تخاف" في موضع الحال من المخاطب ، التقدير فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسا غير خائف ولا خاشٍ .

الثاني : أن يكون في موضع النعت للطريق ؛ لأنه معطوف على يبس الذي هو صفة ، ويكون التقدير لا تخاف فيه ؛ فحذف الراجع من الصفة .

والثالث : أن يكون منقطعاً خبر ابتداء محذوف تقديره : وأنت لا تخاف .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أي أتبعهم ومعه جنوده ، وقرئ "فَاتَّبَعَهُمْ" بالتشديد فتكون الباء في ﴿ بِجُنُودِهِ ﴾ عدّت الفعل إلى المفعول الثاني ؛ لأن اتبع يتعدى إلى مفعول واحد .

أي تبعهم ليلحقهم بجنوده أي مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه .

ومن قطع "فأتبع" يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الباء زائدة ، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد .

يقال : تبعه وأتبعه ولحِقه وألحقه بمعنى واحد .

وقوله : "بِجنودِهِ" في موضع الحال ؛ كأنه قال : فأتبعهم سائقاً جنوده .

﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي أصابهم من البحر ما غرّقهم ، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ أي أضلّهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة ؛ لأنه قدّر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه ؛ لأن بين أيديهم البحر .

فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقاً ، وبين الطرق الماء قائماً كالجبال .

وفي سورة الشعراء ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : 63] أي الجبل الكبير ؛ فأخذ كل سِبْط طريقاً .

وأوحى الله إلى أطواد الماء أَنْ تَشَبَّكي فصارت شبكات يرى بعضهم بعضاً ، ويسمع بعضهم كلام بعض ، فكان هذا من أعظم المعجزات ، وأكبر الآيات ، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق في البحر والماء قائماً أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته ، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم .

وقيل إن قوله : ﴿ وَمَا هدى ﴾ تأكيد لإضلاله إياهم .

وقيل : هو جواب قول فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] فكذَّبه الله تعالى .

وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا هدى ﴾ أي ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

هذا استئناف إخبار عن شيء من أمر موسى عليه السلام وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان ، حدث فيها لموسى وفرعون حوادث ، وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقَوُيَ أمره وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، فأقام موسى على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه ، فبعث الله حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآيات الجراد والقمل إلى آخرها كلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب ، فإذا انكشف نكث حتى تأتي أخرى فلما كملت الآيات أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل في الليل سارياً والسَرْي مسير الليل .

ويحتمل أنْ ﴿ أن ﴾ تكون مفسرة وأن تكون الناصبة للمضارع و ﴿ بعبادي ﴾ إضافة تشريف لقوله ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ والظاهر أن الإيحاء إليه بذلك وبأن يضرب البحر كان متقدماً بمصر على وقت اتباع فرعون موسى وقومه بجنوده .

وقيل : كان الوحي بالضرب حين قارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل ، ويروى أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف إنسان ، فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم ، واتصل الخبر فرعون فجمع جنوده وحشرهم ونهض وراءه فأوحى الله إلى

موسى أن يقصد البحر فجزع بنو إسرائيل ، ورأوا أن العدو من ورائهم والبحر من أمامهم وموسى يثق بصنع الله ، فلما رآهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم وكان مقصدهم إلى موضع ينقطع فيه الفحوص والطرق الواسعة .

قيل : وكان في خيل فرعون سبعون ألف أدهم ونسبة ذلك من سائر الألوان .

وقيل : أكثر من هذا فضرب موسى عليه السلام البحر فانفرق اثنتي عشرة فرقة طرقاً واسعة بينها حيطان الماء واقفة ، ويدل عليه فكان كل فرق كالطود العظيم .

وقيل : بل هو طريق واحد لقوله ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ انتهى .

وقد يراد بقوله ﴿ طريقاً ﴾ الجنس فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله ريح الصبا فجففت تلك الطرق حتى يبست ودخل بنو إسرائيل ، ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر فرأى الماء على تلك الحال فجزع قومه واستعظموا الأمر فقال لهم : إنما انفلق من هيبتي وتقدم غرق فرعون وقومه في سورة يونس .

والظاهر أن لفظة اضرب هنا على حقيقتها من مس العصا البحر بقوّة ، وتحامل على العصا ويوضحه في آية أخرى ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ فالمعنى أن اضرب

بعصاك البحر لينفلق لهم فيصير طريقاً فتعدى إلى الطريق بدخول هذا المعنى لما كان الطريق متسبباً عن الضرب جعل كأنه المضروب .

وقال الزمخشري : ﴿ فاضرب لهم طريقاً ﴾ فاجعل لهم من قولهم : ضرب له في ماله سهماً ، وضرب اللبن عمله انتهى .

وفي الحديث : " اضربوا لي معكم بسهم " ولما لم يذكر المضروب حقيقة وهو البحر ، ولو كان صرّح بالمضروب حقيقة لكان التركيب طريقاً فيه ، فكان يعود على البحر المضروب و ﴿ يبساً ﴾ مصدر وصف به الطريق وصفه بما آل إليه إذ كان حالة الضرب لم يتصف باليبس بل مرت عليه الصبا فجففته كما روي ، ويقال : يبس يبساً ويبساً كالعدم والعدم ومن كونه مصدراً وصف به المؤنث قالوا : شاة يبس وناقة يبس إذا جف لبنها .

وقرأ الحسن يَبْساً بسكون الباء .

قال صاحب اللوامح : قد يكون مصدراً كالعامة وقد يكون بالإسكان المصدر وبالفتح الاسم كالنفض .

وقال الزمخشري : لا يخلو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس أو صفة على فعل أو جمع يابس كصاحب وصحب ، وصف به الواحد تأكيداً لقوله ومعاً جياعاً جعله لفرط جوعه كجماعة جياع انتهى .

وقرأ أبو حيوة : يابساً اسم فاعل .

وقرأ الجمهور : لا تخاف وهي جملة في موضع الحال من الضمير ﴿ فاضرب ﴾ وقيل في موضع الصفة للطريق ، وحذف العائد أي لا تخاف فيه .

وقرأ الأعمش : وحمزة وابن أبي ليلى ﴿ لا تخف ﴾ بالجزم على جواب الأمر أو على نهي مستأنف قاله الزجاج .

(180/499)

وقرأ أبو حيوة وطلحة والأعمش دَرْكاً بسكون الراء والجمهور بفتحها ، والدرك والدرك اسمان من الإدراك أي لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك ﴿ ولا تخشى ﴾ أنت ولا قومك غرقاً وعطفه على قراءة الجمهور لا تخاف ظاهر ، وأما على قراءة الجزم فخرج على أن الألف جيء بها لأجل أواخر الآي فاصلة نحو قوله ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ وعلى أنه إخبار مستأنف أي وأنت ﴿ لا تخشى ﴾ وعلى أنه مجزوم بحذف الحركة المقدرة على لغة من قال : ألم يأتيك وهي لغة قليلة .

وقال الشاعر :

إذا العجوز غضبت فطلق . . .

ولا ترضاها ولا تملق

وقرأ الجمهور : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ بسكون التاء ، وأتبع قد يكون بمعنى تبع فيتعدى إلى واحد كقوله ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ وقد يتعدى إلى اثنين كقوله : وأتبعناهم ذرياتهم فتكون التاء زائدة أي جنوده ، أو تكون للحال والمفعول الثاني محذوف أي رؤساؤه وحشمه .

وقرأ أبو عمرو في رواية والحسن فاتَّبعَهم بتشديد التاء وكذا عن الحسن في جميع ما في القرآن إلا ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ والباء في بجنوده في موضع الحال كما تقول : خرج زيد بسلاحه أو الباء للتعدي لمفعول ثان بحرف جر ، إذ لا يتعدى اتبع بنفسه إلا إلى حرف واحد .

وقرأ الجمهور ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ على وزن فعل مجرد من الزيادة .

وقرأت فرقة منهم الأعمش فغشاهم من اليم ما غشاهم بتضعيف العين فالفاعل في القراءة الأولى ﴿ ما ﴾ وفي الثانية الفاعل الله أي فغشاهم الله .

قال الزمخشري : أو فرعون لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم .

وقال ﴿ ما غشيهم ﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة ، أي ﴿ غشيهم ﴾ ما لا يعلم كُنَهَهُ إلاّ الله .

وقال ابن عطية : ﴿ ما غشيهم ﴾ إبهام أهول من النص على قدر ما ، وهو كقوله ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ والظاهر أن الضمير في ﴿ غشيهم ﴾ في الموضعين عائد على فرعون وقومه ، وقيل الأول على فرعون وقومه ، والثاني على موسى وقومه .

(181/499)

وفي الكلام حذف على هذا القول تقديره فنجا موسى وقومه ، وغرّق فرعون وقومه .

وقال الزجّاج : وقرىء وجنوده عطفاً على فرعون .

﴿ وأضل فرعون قومه ﴾ أي من أول مرة إلى هذه النهاية ويعني الضلال في الدين .

وقيل : أضلهم في البحر لأنهم غرقوا فيه ، واحتج به القاضي على مذهبه فقال : لو كان الضلال من خلق الله لما جاز أن يقال : ﴿ وأضل فرعون قومه ﴾ بل وجب أن يقال : الله أضلهم لأن الله تعالى ذمه بذلك فكيف يكون خالقاً للكفر لأن من ذم غيره بفعل شيء لا بد أن يكون المذموم فاعلاً لذلك الفعل وإلاّ استحق الذام الذم انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال ﴿ وما هدى ﴾ أي ما هداهم إلى الدين ، أو ما نجا من الغرق ، أو ما هتدى في نفسه لأن ﴿ هدى ﴾ قد يأتي بمعنى اهتدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(182/499)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى ﴾

حكايةٌ إجماليةٌ لما انتهى إليه أمرُ فرعونَ وقومِه ، وقد طُوِيَ في البين ذِكرُ ما جرى عليهم من الآياتِ المفصّلاتِ الظاهرةِ على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرةَ في نحو من عشرين سنةً حسبما فُصّل في سورة الأعراف ، وتصديرُها بالقسم لإبراز كمالِ العناية بمضمونها وأنْ في قوله : ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ إما مفسرةٌ لأن الوحيَ فيه معنى القول أو مصدريةٌ حذف عنها الجارُّ ، والتعبيرُ عنهم بعنوان كونِهم عباداً له تعالى لإظهار المرحمةِ والاعتناءِ بأمرهم والتنبيهِ على غاية قُبح صنيعِ فرعونَ بهم حيث استعبدهم وهم عبادُه عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل ، أي وبالله لقد أوحينا إليه عليه الصلاة والسلام أنْ أسرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم من مَلَكة فرعونَ ، أي سِرْ بهم من مصرَ ليلاً ﴿ فاضرب لَهُمْ ﴾ أي فاجعل أو فاتخذْ لهم ﴿ طَرِيقاً فِى البحر يَبَساً ﴾ أي يابساً على أنه مصدرٌ وصف به الفاعلُ مبالغةً ، وقرىء يَبْساً وهو إما مخففٌ منه أو وصفٌ كصعب ، أو جمعُ يابس كصحْب ، وُصف الواحد للمبالغة أو لتعدّده حسبَ تعدّدِ الأسباط ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ حالٌ من المأمور أي آمِناً من أن يُدرككَم العدوُّ أو صفةٌ أخرى لطريقاً والعائدُ محذوفٌ ، وقرىء لا تخَفْ جواباً للأمر ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ عطف على لا تخاف داخلٌ في حكمه أي ولا تخشى الغرقَ ، وعلى قراءة الجزم استئنافٌ أي وأنت

لا تخشى أو عطفٌ عليه والألفُ للإطلاق كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ وتقديمُ الخوفِ المذكورِ للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيمِ حيث قالوا : إنا لمدركون .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾

(183/499)

أي تبِعهم ومعه جنودُه حتى لحِقوهم ، يقال : أتْبعتُهم أي تبعتُهم وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتهم ، ويؤيده أنه قرىء فاتّبعهم من الافتعال ، وقيل : المعنى أتْبعهم فرعونُ نفسَه فحذف المفعولُ الثاني ، وقيل : الباءُ زائدةٌ والمعنى فأتبعهم فرعونُ جنودَه أي ساقهم خلفهم ، وأياً ما كان فالفاءُ فصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مُضمر قد طُوي ذكرُه ثقةً بغاية ظهورِه وإيذاناً بكمال مسارعةِ موسى عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بالأمر ، أي ففعل ما أُمر به من الإسراء بهم وضرْب الطريقِ وسلوكِه فأتبعهم فرعونُ وجنودُه براً وبحراً . روي أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أولَ الليل وكانوا ستّمائةٍ وسبعين ألفاً ، فأخبر فرعونُ بذلك فاتّبعهم بعساكره وكانت مقدمتُه سبعمائة ألفٍ فقفى أثرهم فلحِقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحرَ فانفلق على اثني عشر فرِقاً كلُّ فِرقٍ

كالطود الغظيم ، فعبَر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبِعهم فرعونُ بجنوده ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي علاهم منه وغمرَهم ما غمرهم من الأمر الهائلِ الذي لا يقادَر قدرُه ولا يُبلغ كنُهُه ، وقيل : غشِيهم ما سُمِعَت قِصتُه وليس بذاك ، فإن مدارَ التهويلِ والتفخيمِ خروجُه عن حدود الفهم والوصفِ لا سماعُ قصتِه ، وقرىء فغشّاهم من اليم ما غشاهم أي غطاهم ما غطاهم ، والفاعلُ هو الله عز وعلا أو ما غشاهم ، وقيل : فرعونُ لأنه الذي ورّطهم للهلكة ويأباه الإظهارُ في قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ أي سلك مسلَكاً أداهم إلى الخَيبة والخُسران في الدين والدنيا معاً حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائلِ الدنيويّ المتصل بالعذاب الخالدِ الأخروي ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هدى ﴾ أي ما أرشدهم قطُّ إلى طريق موصلٍ إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية ، تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له إذ رُبّ مضِلٍ قد يُرشد

من يُضِلّه إلى بعض مطالبه ، وفيه نوعُ تهكمٍ به في قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ فإن نفيَ الهدايةِ عن شخص مُشعرٌ بكونه ممن يُتصور منه الهدايةَ في الجملة وذلك إنما يُتصور في حقه بطريق التهكم ، وحملُ الإضلالِ والهداية على ما يختص بالديني منهما يأباه

مقامُ بيانِ سَوْقه بجنوده إلى مساق الهلاكِ الدنيوي ، وجعلُهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاءِ منه مما لا يقبله العقل السليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(185/499)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾

حكاية إجمالية لما انتهى إليه فرعون وقومه وقد طوى في البين ذكر ما جرى عليهم بعد أن غلبت السحرة من الآيات المفصلة الظاهرة على يد موسى عليه السلام في نحو من عشرين سنة حسبما فصل في سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءت آية وعد أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب حتى إذا انكشف نكث فلما كملت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها .

وأن إما مفسرة لما في الوحي من معنى القول ، وإما مصدرية حذف عنها الجار ، والتعبير عن بني إسرائيل بعنوان العبودية لله تعالى لإظهار الرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على

غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون

الظلم ولم يراقب فيهم مولاهم الحقيقي جل جلاله، والظاهر أن الإيحاء بما ذكر وكذا ما بعده

كان بمصر أي وبالله تعالى لقد أوحينا إليه عليه السلام أن سر بعبادي الذي أرسلتك

لانقاذهم من ملكة فرعون من مصر ليلاً ﴿ فاضرب لَهُمْ ﴾ بعصاك ﴿ طَرِيقاً فِى البحر

﴾ مفعول به لأضرب على الاتساع وهو مجاز عقلي والأصل اضرب البحر ليصير لهم

طريقاً ﴿ يَبَساً ﴾ أي يابساً وبذلك قرأ أبو حيوة على أنه مصدر جعل وصفاً لطريقاً

مبالغة وهو يستوي فيه الواحد المذكر وغيره.

وقرأ الحسن ﴿ يَبَساً ﴾ بسكون الباء وهو إما مخفف منه بحذف الحركة فيكون مصدراً

أيضاً أو صفة مشبهة كعصب أو جمع يابس كصحب وصاحب.

ووصف الواحد به للمبالغة وذلك أنه جعل الطريق لفرط يبسها كأشياء يابسة كما قيل في

قول القطامي:

كأن قتود رحلى حين ضمت . . .

حوالب غرزاً ومعي جياعا

أنه جعل المعي لفرط جوعه كجماعة جياع أو قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقاً يابساً كما قيل في ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : 2] وثوب أخلاق أو حيث أريد بالطريق الجنس وكان متعدداً حسب تعدد الأسباط لا طريق واحدة على الصحيح جاء وصفه جمعاً ، وقيل : يحتمل أن يكون اسم جمع ، والظاهر أنه لا فرق هنا بين اليبس بالتحريك واليبس بالتسكين معنى لأن الأصل توافق القراءتين ، وإن كانت إحداهما شاذة ، وفي "القاموس" اليبس بالإسكان ما كان أصله رطباً فجف وما أصله اليبوسة ولم يعهد رطباً يبس بالتحريك ، وأما طريق موسى عليه السلام في "البحر" فإنه لم يعهد طريقاً لا رطباً ولا يابساً إنما أظهره الله تعالى لهم حينئذ مخلوقاً على ذلك اه .

وهذا مخالف لما ذكره الراغب من أن اليبس بالتحريك ما كان فيه رطوبة فذهبت ، والمكان إذا كان فيه ماء فذهب ، وروى أن موسى عليه السلام لما ضرب البحر وإنفاق حتى صارت فيه طرق بعث الله تعالى ريح الصبا فجففت تلك الطرق حتى يبست .

وذهب غير واحد أن الضرب بمعنى الجعل من قولهم : ضرب له في ماله سهماً وضرب عليهم الخراج أو بمعنى الاتخاذ فينصب مفعولين أولهما ﴿ طَرِيقاً ﴾ وثانيهما ﴿ لَهُمْ ﴾ . واختار أبو حيان بقاءه على المعنى المشهور وهو أوفق بقوله تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63] ، وزعم أبو البقاء أن ﴿ طَرِيقاً ﴾ على هذا الوجه مفعول فيه ، وقال : التقدير ﴿ فاضرب لَهُمْ ﴾ موضع طريق ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ في موضع

الحال من ضمير ﴿ فاضرب ﴾ أو الصفة الأخرى لطريقاً والعائد محذوف أي فيها أو هو استئناف كما قال أبو البقاء وقدمه على سائر الاحتمالات .

وقرأ الأعمش .

وحمزة .

وابن أبي ليلى ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ بالجزم على جواب الأمر أعني ﴿ أَسَرِّ ﴾ ، ويحتمل أنه نهي مستأنف كما ذكره الزجاج .

وقرأ أبو حيوة .

وطلحة .

(187/499)

والأعمش ﴿ دَرَكاً ﴾ بسكون الراء وهو اسم من الإدراك أي اللحوق كالدرك بالتحريك ، وقال الراغب : الدرك بالتحريك في الآية ما يلحق الإنسان من تبعة أي لا تخاف تبعة ، والجمهور على الأول أي لا تخاف أن يدرككم فرعون وجنوده من خلفكم ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ أن يغرقكم البحر من قدامكم وهو عطف على ﴿ لاَّ تَخَافُ ﴾ ، وذلك ظاهر على الاحتمالات الثلاثة في قراءة الرفع ؛ وأما على قراءة الجزم فقيل هو استئناف أي وأنت لا

تخشى ، وقيل : عطف على الجزم والألف جيء بها للإطلاق مراعاة لأواخر الآي كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] ﴿ وتَظُنُّونَ بالله الظُّنونَا ﴾ [الأحزاب : 10] أو هو مجزوم بحذف الحركة المقدرة كما في قوله :

إذا العجوز غضبت فطلق . . .

ولا ترضاها ولا تملق

وهذا لغة قليلة عند قوم وضرورة عند آخرين فلا يجوز تخرجي التنزيل الجليل الشأن عليه أو لا يليق مع وجود مثل الاحتمالين السابقين أو الأول منهما .

والخشية أعظم الخوف وكأنه إنما اختيرت هنا لأن الغرق أعظم من إدراك فرعون وجنوده لما أن ذاك مظنة السلامة ، ولا ينافي ذلك أنهم إنما ذكروا أولاً ما يدل على خوفهم منه حيث قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] ولذا سورع في إزاحته بتقديم نفيه كما يظهر بالتأمل .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾

أي تبعهم ومعه جنوده على أن أتبع بمعنى تبع وهو متعد إلى واحد والباء للمصاحبة والجار والمجرور في موضع الحال ، ويؤيد ذلك أنه قرأ الحسن .

وأبو عمرو في رواية فاتبعهم بتشديد التاء ، وقرىء أيضاً ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ ، وقيل : أتبع متعد إلى اثنين هنا كما في قوله تعالى : ﴿ وأتبعناهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ [الطور : 21] والثاني مقدر أي فأتبعهم رؤساء دولته أو عقابه ، وقيل : نفسه والجار والمجرور في موضع الحال أيضاً ، وعن الأزهري أن المفعول الثاني جنوده والباء سيف خطيب أي أتبعهم فرعون جنوده وساقهم خلفهم فكان معهم يحثهم على اللحوق بهم ، وجوز أن يكون المفعول الثاني جنوده والباء للتعدية فيكون قد تعدى الفعل إلى واحد بنفسه وإلى الآخر بالحرف ، وأياً ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وإيذاناً بكمال مسارعة موسى عليه السلام إلى الامتثال بالأمر أي ففعل ما أمر به من الإسراء بعبادي وضرب الطريق لهم فاتبعهم فرعون بجنوده .

وزعم بعضهم أن الإيحاء بالضرب كان بعد أن أتبعهم فرعون وترائى الجمعان .

والظاهر الأول ، روى أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل يريد القلزم وكانوا قد استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون إليه وكانوا ستمائة ألف وثلاثة

آلاف ونيفاً ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين ، وفي رواية أنهن خرجوا وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً وأخرجوا معهم جسد يوسف عليه السلام لأنه كان عهد إليهم ذلك ودلتهم عجوز على موضعه فقال لها موسى عليه السلام : احتكمي فقالت : أكون معك في الجحنة فاتصل الخبر بفرعون فجمع جنوده وخرج بهم وكان في خيله سبعون ألف أدهم وكانت مقدمته فيما يحكي سبعمائة ألف فارس ، وقيل : ألف ألف وخمسمائة ألف فقص أثرهم حتى ترائى الجمعان فعظم فزع بني إسرائيل فضرب عليه السلام بعصاه البحر فانفق اثني عشر فرقاً كل فرق كالطود العظيم فدخلوا ووصل فرعون وجنوده إلى المدخل فرأوا البحر منفلقاً فاستعظموا الأمر فقال فرعون لهم : إنما انفلق من هيبتي فدخل على فرس حصان وبين يديه جبريل عليه السلام على فرس حجر وصاحت الملائكة عليهم اللاسم وكانوا ثلاثة وثلاثين ملكاً أن ادخلوا فدخلوا حتى إذا استكملوا دخولاً خرج موسى عليه السلام بمن معه من الأسباط سالمين ولم يخرج أحد من فرعون وجنوده ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه .

وقيل : غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فإن مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع القصة ، والظاهر أن ضميري الجمع لفرعون وجنوده ، وقيل : لجنوده فقط للقرب ولأنه ألقى بالساحل ولم يتغط بالبحر كما أشير إليه بقوله تعالى :

﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس : 92] وفيه أن الإنجاء بعدما غشيه ما غشى جنوده وشك بنو إسرائيل في هلاكه والقرب ليس بداع قوي ، وقيل : الضمير الأول لفرعون وجنوده والثاني لموسى عليه السلام وقومه وفي الكلام حذف أي فنجا موسى عليه السلام وقومه وغرق فرعون وجنوده انتهى وليس بشيء كما لا يخفى .

وقرأت فرقة منهم الأعمش ﴿ فغشاهم من اليم ما غشاهم ﴾ أي غطاهم ما غطاهم فالفعل ﴿ أُمَّةً واحدة ولكن لّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ﴾ أيضاً وترك المفعول زيادة في الإبهام ، وقيل : المفعول ﴿ مّنَ اليم ﴾ أي بعض اليم ، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى شأنه وما مفعول ؛ وقيل : هو ضمير فرعون والإسناد مجازي لأنه الذي ورطهم للهلكة ، ويبعده الإظهار في قوله تعالى :

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾

أي سلك بهم مسلكاً أداهم إلى الخسران في الدين والدنيا معاً حيث أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴿ وَمَا هدى ﴾ أي وما أرشدهم إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية والمراد بذلك التهكم به كما ذكر غير واحد ، واعترض بأن التهكم أن يؤتي بما

قصد به ضده استعارة ونحوها نحو ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] إذا كان الغرض الوصف بضد هذين الوصفين ، وكونه لم يهد أخبار عما هو كذلك في الواقع .

(191/499)

وأجيب بأن الآمر كذلك ولكن العرف في مثل ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالماً بطريق الهداية مهتدياً في نفسه ولكنه لم يهد عمراً وفرعون أضل الضالين في نفسه فكيف يتوهم أنه يهدي غيره ، ويحقق ذلك أن الجملة الأولى كافية في الاخبار عن عدم هدايته إياهم بل مع زيادة إضلاله إياهم فإن من لا يهدي قد لا يضل وإذا تحقق إغناؤها في الاخبار على أتم وجه تعين كون الثانية بمعنى سواه وهو التهكم ، وقال العلامة الطيبي : توضيح معنى التهكم أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا هدى ﴾ من باب التلميح وهو إشارة إلى إدعاء اللعين إرشاد القوم في قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] فهو كم ادعى دعوى وبالغ فيها فإذا حان وقتها ولم يأت بها قيل له لم تأت بما ادعيت تهكماً واستهزاء انتهى ، ويعلم مما ذكر المغايرة بين الجملتين وأنه لا تكرير ، وقيل : المراد وما هداهم في وقت ما ويحصل بذلك المغايرة لأنه لا دلالة في الجملة الأولى على هذا العموم والأول أولى ، وقيل : هدى بمعنى اهتدى أي أضلهم وما اهتدى في نفسه وفيه بعد ، وحمل بعضهم الإضلال

والهداية على ما يختص بالديني منهما ، ويأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوي .

وجعلهما عبارة عن الإضلال في البحر والإنجاء منه مما لا يقبله الطبع المستقيم .

واحتج القاضي بالآية على أنه تعالى ليس خالقاً للكفر لأنه تعالى شأنه قد ذم فيها فرعون بإضلاله ومن ذم أحداً بشيء يذم إذا فعله .

وأجيب بمنع إطراد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(192/499)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة . أنه أوحى إلى نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : أن يسري بعباده ، وهم بنو إسرائيل فيخرجهم من قبضة فرعون ليلاً ، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ، أي يابساً لا ماء فيه ولا بلل ، وأنه لا يخاف دركاً من فرعون وراءه أن يناله بسوء . ولا يخشى من البحر أمامه أن يغرق قومه . وقد أوضح هذه القصة في غير هذا الموضع ، كقوله في سورة « الشعراء » : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ

بعبادي إِنَّكُم مّتَّبعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدآئن حَاشِرِينَ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : 52–63] . فقوله في « الشعراء » : ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أي فضربه فانفلق يوضح معنى قوله : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ ، وقوله : ﴿ قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 61–62] الآية يوضح معنى قوله : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾ وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله في « الدخان » : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 22–24] إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة « البقرة » والقصة معروفة واضحة من القرآن العظيم . وقرأ نافع

وابن كثير ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ بهمزة وصل وكسر نون ﴿ أَنْ ﴾ لالتقاء الساكنين والباقون قرؤوا ﴿ أَن آسْرِ ﴾ بهمزة قطع مفتوحة مع إسكان نون «أَنْ» وقد قدمنا في سورة « هود » أن أسرى وسرى لغتان وبينا شواهد ذلك من العربية . وقرأ حمزة ﴿ لا تَخَفْ ﴾ بسكون الفاء بدون ألف بين الخاء والفاء ، وهو مجزوم بشرط محذوف تدل عليه صيغة الطلب ، أي أن تضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخف . وعلى قراءة الجمهور « لا تخاف » بالرفع ، فلا إشكال في قوله ﴿ وَلَا تخشى ﴾ إشكال معروف ، وهو أنه معطوف على مضارع مجزوم ، وذلك يقتضي جزمه ، ولو جزم لحذفت الألف من ﴿ تَخْشَى ﴾ على حد قوله في الخلاصة :

واحذف جازما . . . ثلاثهن تقض حكماً لازما

والألف لم تحذف فوقع الإشكال بسبب ذلك .

وأجيب عنه من ثلاثة أوجه :

الأول أن ﴿ وَلَا تخشى ﴾ متسأنف خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : وأنت لا تخشى ، أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى .

والثاني أن الفعل مجزوم ، والألف ليست هي الألف التي في موضع لام الكلمة ، ولكنها زيدت للاطلاق من أجل الفاصلة ، كقوله :

﴿ فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] ، وقوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] .

والثالث أن إشباع الحركة بحرف مد يناسبها أسلوب معروف من أساليب اللغة العربية ، كقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي :

وتضحك مني شيخة عبشمية . . . كأن لم ترا قبلي أسيرا يمانيا

وقول الراجز :

إذا العجوز غضبت فطلق . . . ولا ترضاها ولا تملق

وقول الآخر :

وقلت وقد خرت على الكلكال . . . يا ناقتي ما جلت من مجال

وقول عنترة في معلقته :

ينباع من ذفرى غضوب جسرة . . . زيافة مثل الفنيق المكدم

فالأصل في البيت الأول : كأن لم تر ، ولكن الفتحة أشبعت . والأصل في الثاني ولا ترضها ، ولكن الفتحة أشبعت . والأصل في الثالث على الكلكال يعني الصدر ، ولكن الفتحة أشبعت . والأصل في الرابع ينبع يعني أن العرق ينبع من عظم الذفرى من ناقته على التحقيق ، ولكن الفتحة أشبعت ، وإشباع الفتحة بألف في هذه الأبيات وأمثالها مما لم نذكره ليس

لضرورة للشعر لتصريح علماء العربية بأنه أسلوب عربي معروف . ويؤيد ذلك أنه مسموع في النثر ، كقولهم في النثر : كلكال ، وخاتام ، وداناق ، يعنون كلكلاً ، وخاتماً ، ودانقاً . وقد أوضحنا هذه المسألة ، وأكثرنا من شواهدها العربية في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة « البلد » في الكلام على قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] مع قوله : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : 3] وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً ﴾ : فاجعل لهم طريقاً ، من قولهم : ضرب له في ماله سهماً ، وضرب اللبن عمله اه . والتحقيق أن ﴿ يَبَساً ﴾ صفة مشبهة جاءت على فعل بفتحتين كبطل وحسن . وقال الزمخشري : اليبس مصدر وصف به . يقال : يبس يبساً ويبساً ، ونحوهما العدم والعدم ، ومن ثم وصف به المؤنث فقيل : شاتنا يبس ، وناقتنا يبس . إذا جف لبنها .

وقوله : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ الدرك : اسم مصدر بمعنى الإدراك ، أي لا يدركك فرعون وجنوده ، ولا يلحقونك من ورائك ، ولا تخشى من البحر أمامك . وعلى قراءة الجمهور ﴿ لاَّ تَخَافُ ﴾ فالجملة حال من الضمير في قوله ﴿ فاضرب ﴾ أي فاضرب لهم طريقاً في

حال كونك غير خائف دركاً ولا خاش . وقد تقرر في علم النحو أن الفعل المضارع المنفي بلا إذا كانت جملته حالية وجب الربط فيها بالضمير وامتنع بالواو . كقوله هنا : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً ﴾ أي في حال كونك لا تخاف دركاً ، وقوله ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ [النمل : 20] وقوله : ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بالله ﴾ [المائدة : 84] ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر :

ولو أن قوماً لارتفاع قبيله . . . دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

يعني دخلتها في حال كوني غير محجوب ، وبذلك تعلم أن قوله في الخلاصة :

وذات بدء بمضارع ثبت . . . حوت ضميرا ومن الواو خلت

في مفهومه تفصيل كما هو معلوم في علم النحو .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) ﴾

التحقيق أن أتبع واتبع بمعنى واحد . فقوله : ف ﴿ أَتْبَعَهُمْ ﴾ أي اتبعهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] ، وقوله : ف ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشيطان ﴾ [الأعراف : 175] الآية . والمعنى : أن موسى لما أسرى ببني إسرائيل ليلاً أتبعهم

فرعون وجنوده ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم ﴾ أي البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي أغرق الله فرعون وجنوده في البحر فهلكوا عن آخرهم. وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن فرعون أتبع بني إسرائيل هو وجنوده، وأن الله أغرقهم في البحر أوضحه في غير هذا الموضع. وقد بين تعالى أنهم اتبعوهم في أول النهار عند إشراق الشمس، فمن الآيات الدالة على اتباعه لهم قوله تعالى في «الشعراء»: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ ﴾ يعني سيتبعكم فرعون وجنوده. ثم بين كيفية اتباعه لهم فقال ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدآئن حَاشِرِينَ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 53-62]

(197/499)

وقوله في هذه الآية: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي أول النهار عند إشراق الشمس. ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى في «يونس»: ﴿ وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَائِيلَ البحر فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ [يونس: 90]، وقوله في «الدخان»: ﴿

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان : 23] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اتباعه لهم. وأما غرقه هو وجميع قومه المشار إليه قوله هنا : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ فقد أوضحه تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز . كقوله في « الشعراء » : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 63-67] الآية ، وقوله في « الأعراف » : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ [الأعراف : 136] الآية ، وقوله في « الزخرف » : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف : 55] ، وقوله في « البقرة » : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : 50] ، وقوله في « يونس » : ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] ، وقوله في « الدخان » : ﴿ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24] إلى غير ذلك من الآيات .

والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ يدل على تعظيم الأمر وتفخيم شأنه ، ونظيره في

القرآن قوله : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ [النجم : 16] ، وقوله : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] ﴿ فغشَّاهَا مَا غشى ﴾ [النجم : 54] ، وقوله : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا آوحى ﴾ [النجم : 10] . واليم : البحر . والمعنى : فأصابهم من البحر ما أصابهم وهو الغرق والهلاك المستأصل .

(199/499)

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) ﴾

يعني أن فرعون أضل قومه عن طريق الحق وما هداهم إليها . وهذه الآية الكريمة يبن الله فيها كذب فرعون في قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا آرى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ﴾ [هود : 96-98] والنكتة البلاغية في حذف المفعول في قوله ﴿ وَمَا هدى ﴾ ولم يقل وما هداهم ، هي مراعاة

فواصل الآيات ، ونظيره في القرآن قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(200/499)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِى البحر يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾

افتتاح الجملة بحرف التحقيق للاهتمام بالقصة ليلقي السامعون إليها أذهانهم .

وتغيير الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مؤذن بأن قصصاً طويت بين ذكر القصتين ، فلو اقتصر على حرف العطف لتوهّم أن حكاية القصة الأولى لم تزل متصلة فتُوهم أن الأمر بالخروج وقع موالياً لانتهاء مَحْضَر السحرة ، مع أن بين ذلك قصصاً كثيرة ذُكرت في سورة الأعراف وغيرها ، فإن الخروج وقع بعد ظهور آيات كثيرة لإرهاب فرعون كلما همّ بإطلاق بني إسرائيل للخروج .

ثمّ نكَل إلى أن أذن لهم بأخرَة فخرجوا ثمّ ندم على ذلك فأتبعهم .

فجملة ﴿ ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى ﴾ ابتدائية ، والواو عاطفة قصة على قصة وليست

عاطفة بعض أجزاء قصة على بعض آخر .

و﴿ اسْرِ أمرٌ من السُرَى بضم السين وفتح الراء وتقدّم في سورة الإسراء أنه يقال : سَرَى وأسرى .

وإنما أمره الله بذلك تجنّباً لنكول فرعون عليهم .

والإضافة في قوله بِعِبَادي ﴾ لتشريفهم وتقريبهم والإيماءِ إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسُوا عبيداً لفرعون .

والضرب : هنا بمعنى الجَعْل كقولهم : ضَرَبَ الذهبَ دنانير .

وفي الحديث : " واضربوا إليّ معكم بسهم " ، وليس هو كقوله ﴿ أن اضْرِب بعصاك البحر ﴾ [الشعراء : 63] لأنّ الضرب هنالك متعد إلى البحر وهنا نصَب طريقا .

واليَبَس بفتح المثناة والموحدة .

ويقال : بسكون الموحدة : وصف بمعنى اليابس .

وأصله مصدر كالعَدَم والعُدْم ، وصف به للمبالغة ولذلك لا يؤنث فقالوا : ناقة يَبَس إذا جفّ لبنها .

و﴿ لا تخافُ مرفوع في قراءة الجمهور ، وعدٌ لموسى اقتصر على وعده دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم ، فهو خبر مراد به البُشرى .

والجملة في موضع الحال .

وقرأ حمزة وحده لا تَخَفْ على جواب الأمر الذي في قوله فاضرب ، وكلمة تَخَفْ ﴿ مكتوبة في المصاحف بدون ألف لتكون قراءتها بالوجهين لكثرة نظائر هذه الكلمة ذات الألف في وسطها في رسم المصحف ويسميه المؤدبون "المحذوفَ" .

وأما قوله ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ فالإجماع على قراءته بألف في آخره .

فوجه قراءة حمزة فيها مع أنّه قرأ بجزم المعطوف عليه أن تكون الألف للإطلاق لأجل الفواصل مثل ألف ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] وألف ﴿ وتظنون بالله الظنُونا ﴾ [الأحزاب : 10] ، أو أن تكون الواو في قوله ﴿ ولا تخشى للاستئناف لا للعطف .

والدّرك بفتحتين اسم مصدر الإدراك ، أي لا تخاف أن يدركك فرعون .

والخشية : شدّة الخوف .

وحذف مفعوله لإفادة العموم ، أي لا تخشى شيئاً ، وهو عامّ مراد به الخصوص ، أي لا تخشى شيئاً مما يخشى من العدوّ ولا من الغرق .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) ﴾

الفاء فصيحة عاطفة على مقدر يدلّ عليه الكلام السابق ، أي فسرى بهم فأتبعهم فرعون ، فإن فرعون بعد أن رأى آيات غضب الله عليه وعلى قومه وأيقن أنّ ذلك كله تأييد لموسى أذن لموسى وهارون أن يخرجا بني إسرائيل ، وكان إذْن فرعون قد حصل ليلاً لحدوث موتان عظيم في القبط في ليلة الشهر السابع من أشهر القبط وهو شهر (برمهات) وهو الذي اتّخذه اليهود رأس سنتهم بإذن من الله وسمّوه (تِسّرِي) فخرجوا من مدينة (رعمسيس) قاصدين شاطىء البحر الأحمر .

وندم فرعون على إطلاقهم فأراد أن يلحقهم ليرجعهم إلى مدينته ، وخرج في مركبته ومعه ستمائة مركبة مختارة ومركبات أخرى تحمل جيشه .

وأَتْبَعَ : مرادف تَبِع .

والباء في ﴿ بِجُنُودِهِ ﴾ للمصاحبة .

واليمّ : البحر .

وغشيانه إياهم : تغطيته جُثَثَهم ، أي فغرِقوا .

وقوله ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ يفيد ما أفاده قوله ﴿ فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمّ ﴾ إذ من المعلوم أنهم غشيهم غاششٍ ، فتعيّن أن المقصود منه التهويل ، أي بلغ من هول ذلك الغرق أنّه لا يستطاع وصفه .

قال في "الكشاف" : "هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة" .

وهذا الجزء من القصة تقدم في سورة يونس .

وجملة ﴿ وأضلّ فرعونُ قومه ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ .

والإضلال : الإيقاع في الضلال ، وهو خطأ الطريق الموصّل .

ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعَمَل ما فيه ضرّ وهو المراد هنا .

والمعنى : أنّ فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بثّ فيهم من قلب الحقائق والجهل المركب ، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام .

وعَطْفُ ﴿ وما هدى ﴾ على ﴿ أضلّ ﴾ : إما من عطف الأعمّ على الأخص لأنّ عدم الهدى يصدق بترك الإرشاد من دون إضلال ؛ وإما أن يكون تأكيداً لفظياً بالمرادف مؤكداً لنفي الهدى عن فرعون لقومه فيكون قوله ﴿ وما هدى تأكيداً لأضلّ ﴾ بالمرادف كقوله تعالى : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ [النحل : 21] وقول الأعشى:

حفاة لا نعال لنا . . .

" من قوله:

إمّا تَرَيْنَا حُفَاةً لانِعال لنا . . .

إنّا كذلكِ ما نحفَى وننتعل

وفي "الكشاف" : إن نكتة ذكر ﴿ وما هدى ﴾ التهكم بفرعون في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد أ هـ .

يعني أن في قوله وما هدى ﴾ تلميحاً إلى قصة قوله المحكي في سورة غافر (29) : ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ وما في هذه من قوله ﴿ بطريقتكم المثلى ﴾ [طه : 63] ، أي هي هَدْي ، فيكون من التلميح إلى لفظ وقع في قصة مفضياً إلى التلميح إلى القصة كما في قول مُهلهل:

لو كُشِف المقابر عن كُليب . . .

فخُبِّر بالذّنائب أيَّ زير

يشير إلى قول كُليب له على وجه الملامة : أنت َزِير نساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(203/499)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

كان هذا الوحي لموسى عليه السلام بعد أن انتهت المعركة ، وانتصر فيها معسكر الإيمان ، أما فرعون فقد خسر سلاحاً من أهمّ أسلحته وجانباً كبيراً من سَطْوته وجبروته .

وهنا جمع موسى بني إسرائيل ، وهم بقايا ذرية آل يعقوب ليذهب بهم إلى أرض الميعاد ، وسرعان ما أعدّ فرعون جيشه وجمع جموعه ، وسار خلفهم يتبعهم إلى ساحل البحر ، فإذا بموسى وقومه مُحَاصرين : البحر من أمامهم ، وفرعون بجيشه من خلفهم ، وليس لهم مَخْرج من هذا المأزق .

هذا حُكْم القضايا البشرية المنعزلة عن ربّ البشر ، أما في نظر المؤمن فلها حَلٌّ ؛ لأن قضاياه ليست بمعزل عن ربه وخالقه ؛ لأنه مؤمن حين تصيبه مصيبة ، أو يمسه مكروه ينظر فإذا ربُّه يرعاه ، فيلجأ إليه ، ويرتاح في كَنَفِه .

لذلك يقولون : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، وما دام لي رب ألجأ إليه فليست هناك معضلة ، المعضلة فيمن ليس له رَبٌّ يلجأ إليه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى لو أن إنساناً معه في جيبه جنيه ، فسقط منه في الطريق ، فإذا لم يكُنْ عنده غيره يحزن أمّا إنْ كان لديه مال آخر فسوف يجد فيه عِوَضاً عَمّا ضاع منه ، هذا الرصيد الذي تحتفظ به هو إيمانك بالله .

وهنا جاء الأمر من الله تعالى لموسى عليه السلام ليُخرجه وقومه من هذا المأزق : ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ [طه : 77] .

أَسْرِ : من الإسراء ليلاً . أي : السير ؛ لأنه أستر للسائر .

وقوله : ﴿ بِعِبَادِي ﴾ [طه : 77] كلمة " عبد " تُجمع على " عبيد " و " عباد " والفَرْق بينهما أن كل مَنْ في الكون عبيد لله تعالى ؛ لأنهم وإنْ كانوا مختارين في أشياء ، فهم مقهورون في أشياء أخرى ، فالذي تعوّد باختياره على مخالفة منهج الله ، وله دُرْبة على ذلك ، فله قَهْريات مثل المرض أو الموت .

(204/499)

أما العباد فهم الصَّفْوة التي اختارت مراد الله على مرادها ، واختياره على اختيارها ، فإنْ خيَّرهم : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] خرجوا عن اختيارهم لاختيار ربهم .

لذلك نسبهم الله إليه فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : 42] وقال عنهم : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ [طه: 77] أي: يابساً جافاً وسط الماء.

والضرب: إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب، ومنه ضرَب العملة أي: سكَّها وختمها، فبعد أنْ كان قطعةَ معدن أصبح عملة متداولة.

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر وانحسر الماء عن طريق جافّ صالح للمشي بالأقدام، وهذه مسألة لا يتصورها قانون البشر؛ لذلك يُطمئنه ربه ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ [طه: 77] أي: من فرعون أنْ يُدرِكَكَ ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ [طه: 77] أي: غرقاً من البحر؛ لأن الطريق مضروب أي: مُعَد ومُمهّد وصالح لهذه المهمة.

وهذه معجزة أخرى لعصا موسى التي ألقاها، فصارت حية تسعى، وضرب بها البحر فانفلق فصار ما تحت العصا طريقاً يابساً، وما حولها جبالاً ﴿ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ [الشعراء: 63] وهي التي ضرب بها الحجر فانبجس منه الماء.

والسياق هنا لم يذكر شيئاً عن الحوار الذي دار بين موسى وقومه حينما وقعوا في هذه الضائقة، لكن جاء في لقطة أخرى من القصة حيث قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 6162].

وبتعدد اللقطات في القرآن تكتمل الصورة العامة للقصة، وليس في ذلك تكرار كما يتوهّم البعض .

(205/499)

فقبل أنْ يُوحِي إليه : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ [طه : 77] قال القوم : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فقال : (كَلاّ) . لكن كيف يقولها قَوْلة الواثق وما يخافون منه محتمل أنْ يقع بعد لحظة؟

نقول : لأنه لم يقل (كَلاّ) من عنده ، لم يَقُلها بقانون البشر ، إنما بقانون خالق البشر ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] فأنا لا أغالطكم ، ولسْتُ بمعزل عن السماء وتوجيه ربي .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ . . . ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] غشيهم يعني : غطّاهم الماء ، وقد أبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهَوْله ، وأنه فوق الحَصْر والوصف ، كأن تقول في الأمر الذي لا تقدر على تفصيله : حصل ما حصل .

وفي لقطة أخرى لهذه الحادثة يُبيِّن الحق تبارك وتعالى أن موسى عليه السلام بعد أن عبر

بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته فلا يتمكن فرعون من اللحاق به ، لكن توجيهات ربه لها شأن آخر . فأوحى الله إليه : ﴿ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24] .

أي : اتركه كما هو لا تُعِدْه إلى استطراق سيولته ، فكما أنجيتك بالماء سأتلف عدوك بالماء ، فسبحان مَنْ يُنجِي ويُهلك بالشيء الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾

وسبق أن قال فرعون لقومه . ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] .

فأين سبيل الرشاد الذي تحدّث عنه فرعون بعد أنْ أطبق الله عليهم البحر ؟ لقد سُقْتهم إلى الهلاك ، ولم تسلك بهم مناط النجاة والهداية . فأنت إذن كاذب في ادعاء سبيل الرشاد ؛ لأنك أضللتهم ما هديتهم ، وأهلكتهم ما نجّيتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(206/499)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

قوله : ﴿ طَرِيقاً ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ به ؛ وذلك على سبيلِ المجاز : وهو أنَّ الطريقَ مُتَسَبِّبٌ عن ضَرْب البحرِ ، إذ المعنى : اضربْ البحرَ لينغلقَ لهم فيصيرَ طريقاً ، فبهذا صَحَّ نسبةُ الضرب إلى الطريق . وقيل : " ضرب " هنا بمعنى جَعَلَ أي : اجعل لهم طريقاً وأَشْرِعْه فيه . والثاني : أنه منصوبٌ على الظرفِ . قال أبو البقاء : " التقدير : موضعَ طريقٍ ، فهو مفعولٌ به على الظاهر . ونظيرُه قولُه ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ [الشعراء : 63] وهو مثلُ " ضربْتُ زيداً " . وقيل : " ضرب " هنا بمعنى " جعل " و " شرع " مثلَ قولهم : ضربْتُ له بسَهْم " انتهى . فقولُه على الظاهر يعني أنه لولا التأويلُ لكان ظرفاً .

قوله : ﴿ يَبَساً ﴾ صفةٌ ل " طريقاً " وصَفَه بِلما يَؤُول إليه ؛ لأنه لم يكنْ يَبَساً بعدُ ، إنما مرَّت عليه الصَّبا فجففَّتْه ، كما يروى في التفسيرِ . وهل في الأصل مصدرٌ وُصِفَ به مبالغةً ، أو على حذفِ مضافٍ أو جمع يابس كخادم وخَدَم ، وُصِف به الواحدُ مبالغةً كقوِله :

3307 . . . .

. . . . ومِعَىً جياعاً

أي : كجماعةٍ جياع ، وَصَفَ به لفَرْط جوعه ؟

وقرأ الحسنُ " يَبْساً " بالسكونِ . وهو مصدرٌ أيضاً . وقيل : المفتوحُ اسمٌ ، والساكنُ

مصدرٌ . وقرأ أبو حيوة "يابساً" اسمُ فاعل .

قوله : ﴿ لاَّ تَخَافُ ﴾ العامَّةُ على "لا تَخاف" مرفوعاً ، وفيه أوجهٌ ، أحدها : أنه مستأنفٌ فلا محلَّ له من الإِعراب . الثاني : أنه في محلِّ نصب على الحالِ من فاعل "اضرِبْ" أي : اضرب غيرَ خائفٍ . والثالث : أنه صفةٌ ل "طريقاً" ، والعائدُ محذوفٌ أي لا تخافُ فيه .

(207/499)

[وقرأ] حمزةُ وحدَه من السبعة "لا تَخَفْ" بالجزم على النهي . وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أن يكونَ نَهْياً مستأنِفاً . الثاني : أنه نهيٌ أيضاً في محلِّ نصب على الحال من فاعل "اضرِبْ" أو صفةٌ لطريقاً ، كما تقدَّم في قراءةِ العامَّةِ ، إلاَّ أن ذلك يحتاج إلى إضمار قول أي : مقولاً لك ، أو طريقاً مقولاً فيها : لا تخف . كقوله :

3308 جاؤوا بمَذْقٍ هل رَأَيْتَ الذئبَ قطّ . . . الثالث : مجزومٌ على جوابِ الأمر أي : إن تضربْ طريقاً يَبَساً لا تَخَفْ .

قوله : ﴿ وَلاَ تَخْشَى ﴾ لم يُقرأ إلاَّ ثابتَ الألفِ . وكان مِنْ حَقِّ مَنْ قرأ "لا تَخَفْ" جزماً أن يَقْرأ "لا تَخْشَ" بحذفِها ، كذا قال بعضهم . وليس بشيءٍ لأنَّ القراءةَ سُنَّةٌ . وفيها

أوجه أحدها : أن تكونَ حالاً . وفيه إشكالٌ : وهو أنَّ المضارعَ المنفيَّ ب " لا " كالمُثْبَتِ في عدمِ مباشرةِ الواو له . وتأويلُه على حذف مبتدأ أي : وأنت لا تخشى كقولِه :

3309 . . . . نَجَوْتُ

وأَرْهَنُهم مالِكا

والثاني : أنه مستأنفٌ . أخبره تعالى أنه لا يَحْصُل له خوفٌ .

والثالث : أنه مجزومٌ بحذفِ الحركةِ تقديراً كقولِه :

3310 إذا العَجوْزُ غَضِبَتْ فطَلِّقِ . . . ولا تَرَضَّاها ولا تَمَلَّقِ

وقولِ الآخر :

3311 . . . . كأَنْ لم تَرَى

قبلي أسيراً يمانيا

(208/499)

ومنه { فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] في أحد القولين ، إجراءً لحرفِ العلة مُجْرى الحرفِ الصحيح . وقد تقدَّم لك من هذا جملةٌ صالحةٌ في سورةِ يوسف عند { مَن يَتَّقِ } [الآية : 90] . والرابع : أنه مجزومٌ أيضاً بحذفِ حرفِ العلةِ . وهذه الألفُ ليسَتْ تلك ،

أعني لامَ الكلمة، إنما هي ألفُ إشباعٍ أُتِيَ بها موافقةً للفواصلِ ورؤوسِ الآيِ، فهي كالألفِ في قولِه: ﴿ الرسولا ﴾ [الأحزاب: 66] و﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب: 67] و﴿ الظنونا ﴾ [الأحزاب: 10] وهذه الأوجهُ إنما يحتاجُ إليها في قراءةِ جزمِ "لا تَخَفْ".

وأمَّا من قرأه مرفوعاً فهذا معطوفٌ عليه.

وقرأ أبو حيوة "دَرْكاً" بسكون الراء. والدَّرَك والدَّرْك [اسمان] من الإِدراك أي: لا يُدركك فرعونُ وجنوده. وقد تقدَّم الكلامُ عليهما في سورة النساء، وإنَّ الكوفيين قرؤوه بالسكونِ كأبي حيوةَ هنا.

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) ﴾

قوله: ﴿ بِجُنُودِهِ ﴾: فيه أوجهٌ: أحدها: أن تكونَ الباءُ للحالِ: وذلك على أنَّ "أَتْبَعَ" متعدٍّ لاثنين حُذف ثانيهما. والتقدير: فأَتْبَعهم فرعونُ عقابَه. وقدَّره الشيخ: "رُؤَساءه وحَشَمه" والأول أحسن. والثاني: أنَّ الباءَ زائدةٌ في المفعولِ الثاني. والتقدير: فأَتْبَعهم فرعونُ جنودَه فهو كقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة: 195] [وقولِ الشاعر]:

3312 . . . .
. . . . لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

وأتبع قد جاء متعدِّياً لاثنين مُصَرَّحٍ بهما قال: "وَأَتْبَعْنَاهُم . . . ." . والثالث: أنها

مُعَدِّيَةٌ على أنّ "أَتْبَعَ" قد يتعدَّى لواحدٍ بمعنى مع ، ويجوزُ على هذا الوجه أن تكونَ الباءُ للحالِ أيضاً ، بل هو الأظهرُ .

وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ والحسنُ "فاتَّبَعُهُمْ" بالتشديد ، وكذلك قراءة الحسن في جميع القرآن/ إلاَّ في قولِه : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] .

قوله : ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ فاعل "غُشِيَهم" ، وهذا من باب الاختصار وجوامعِ الكَلِم التي يَقِلُّ لفظُها ويكثُر معناها أي : فغشِيَهم ما لا يَعْلم كُنْهَه إلاَّ اللهُ تعالى . وقرأ الأعمش : "فَغَشَّاهم" مضعَّفاً . وفي الفاعل حينئذٍ ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنه "ما غَشَّاهم" كالقراءةِ قبله . أي : غطَّاهم من اليَمّ ما غطَّاهم . والثاني : هو ضميرُ الباري تعالى أي : فَغَشَّاهم اللهُ . والثالث : هو ضميرُ فرعونَ لأنه السببُ في إهْلاكهم . وعلى هذين الوجهين ف "ما غَشَّاهم" في محلِّ نصبٍ مفعولاً ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 80. 85 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

لما عَبَرَ موسى ببني إسرائيل البحر ، وقرب منه فرعون ، ورأى البحرَ منفلقاً والطريقَ فيه يَبَساً عَيَّرَ قَوْمَه بتلبيسه فقال : " إنه بحشمتي انفلق ، فأنا ربُّكم الأعلى ! " وحصل - كما في القصة - من دخوله بعَسْكَرِه البحرَ حتى دخل آخرهم ، وهَمَّ أن يخرج أَوَّلُهم ، فأمر اللَّهُ البحرَ حتى التطمت أمواجه فغرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له اليأسُ ، ولم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه ، وقد أدركته الشقاوةُ التي سَبَقَتْ له من التقدير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 467 ﴾

(211/499)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخمسمائة

من الآية ﴿ 80 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا موجباً للتشوف إلى ما وقع لبني إسرائيل بعده ، قال تعالى شافياً لهذا الغليل ، أقبلنا على بني إسرائيل ممتنين بما مضى وما يأتي قائلين : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ معترفين لهم أنا نظرنا إلى السوابق فأكرمناهم لأجل أبيهم .

ولما كان درء المفاسد وإزالة الموانع قبل جلب المصالح واستدرار المنافع قال : ﴿ قد أنجيناكم ﴾ بقدرتنا الباهرة ﴿ من عدوكم ﴾ الذي كنتم أحقر شيء عنده .

ولما تفرغوا لإنفاذ ما يراد منهم من الطاعة قال : ﴿ وواعدناكم ﴾ أي كلكم - كما مضى في البقرة عن نص التوراة - للمثول بحضرتنا والاعتزاز بمواطن رحمتنا ﴿ جانب الطور الأيمن ﴾ أي الذي على أيمانكم في توجهكم هذا الذي وجوهكم فيه إلى بيت أبيكم إبراهيم عليه السلام ، وهو جانبه الذي يلي البحر وناحية مكة واليمن .

ولما بدأ بالمنفعة الدينية ، ثنى بالمنفعة الدنيوية فقال : ﴿ ونزلنا عليكم ﴾ بعد إنزال هذا الكتاب في هذه المواعدة لإنعاش أرواحكم ﴿ المن والسلوى ﴾ لإبقاء أشباحكم ، فبدأ بالإنجاء الممكن من العبادة ، ثم أتبعه بنعمة الكتاب الدال عليها ، ثم بالرزق المقوي ، ودل على نعمة الإذن فيه بقوله : ﴿ كلوا ﴾ ودل على سعته بقوله : ﴿ من طيبات ما ﴾ ودل على عظمته بقوله : ﴿ رزقناكم ﴾ من ذلك ومن غيره .

ولما كان الغنى والراحة سبب السماحة ، قال : ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ بالادخار إلى غد في غير يوم الجمعة ولا بغير ذلك من البطر وإغفال الشكر بصرفه في غير الطاعة ﴿ فيحل ﴾ أي ينزل ويجب في حينه الذي هو أولى الأوقات به - على قراءة الجماعة بالكسر ، ونزولاً عظيماً وبروكاً شديداً - على قراءة الكسائي بالضم ﴿ عليكم غضبي ﴾ فتهلكوا لذلك ﴿ و ﴾ كل ﴿ من يحلل عليه غضبي ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ فقد هوى ﴾ أي كان حاله حال من سقط من علو .

ولما كان الإنسان محل الزلل وإن اجتهد ، رجاه واستعطفه بقوله : ﴿ وإني لغفار ﴾ أي ستار بإسبال ذيل العفو ﴿ لمن تاب ﴾ أي رجع عن ذنوبه من الشرك وما يقاربه

﴿ وءامن ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿ وعمل صالحاً ﴾ تصديقاً لإيمانه .

ولما كانت رتبة الاستمرار على الاستقامة في غاية العلو ، عبر عنها بأداة التراخي فقال :

﴿ ثم اهتدى ﴾ أي استمر على العمل الصالح متحرياً به إيقاعه على حسب أمرنا وعلى أقرب الوجوه المرضية لنا ، له إلى ذلك غاية التوجه كما يدل عليه صيغة افتعل ، وكأنه لما رتب الله سبحانه منازل قوم موسى عليه السلام عامة والسبعين المختارين منهم خاصة في الجبل - كما مضى عن نص التوراة في سورة البقرة ، وواعده الكلام بعد ثلاثين ليلة ولم يعين له أولها ، وكأنه لاشتياقه إلى ما رأى من التعرف إليه بمقام الجمال لم يتوقف على خصوص إذن من الله تعالى في أول وقت الإتيان اكتفاء بمطلق الأمر السابق في الميعاد ، فتعجل بعشرة أيام عن الوقت الذي علم الله أن الكلام يقع فيه بعد الثلاثين التي ضربها لذلك ، وأمر موسى عليه السلام قومه عند نهوضه ، وتقدم إليهم في اتباعه والكون في أثره للحلول في الأماكن التي حدها الله لهم وأمر السبعين المختارة بمثل ذلك ، وكأنهم لما مضى تلبثوا لما رأوا من مقام الجلال ، فلما مضت الثلاثون بعد ذهاب موسى لم يكن أتى الوقت الذي أراد الله أن تكون المناجاة فيه ، فزاده عشراً فظن بنو اسرائيل الظنون في تلك العشرة ، ووقع لهم ما وقع من اتخاذ العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 34 . 36 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم إياها ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية ، فلهذا بدأ الله تعالى بقوله : ﴿ أنجيناكم مّنْ عَدُوّكُمْ ﴾ وهو إشارة إلى إزالة الضرر فإن فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب في الأعمال ، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله :

﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي قوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى * كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ ثم زجرهم عن العصيان بقوله : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولاً عند الله بقوله :

﴿ وَإِنّي لَغَفَّارٌ لّمَن تَابَ ﴾ وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي قد أنجيتكم ووعدتكم إلى قوله : ﴿ مِن طَيّبَاتِ مَا رزقناكم ﴾ كلها

بالتاء إلا قوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ فإنها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائي وواعدتكم .

المسألة الثانية :

قال الكلبي : لما جاوز موسى عليه السلام ببني إسرائيل البحر قالوا له : أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والأحكام .

(7/500)

قال بلى ، ثم تعجل موسى إلى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم أن يأتيهم إلى أربعين ليلة من يوم انطلق ، وإنما قال : ﴿ وواعدناكم ﴾ لأنه إنما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لأجلهم وقال مقاتل : إنما قال : واعدناكم لأن الخطاب له وللسبعين المختارة ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قال المفسرون : ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد أن طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام وقرىء الأيمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك إما لأن الله تعالى أنزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم ، وإما لأن الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ ليس أمر إيجاب بل أمر إباحة كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] .

المسألة الخامسة :

في الطيبات قولان : أحدهما : اللذائذ لأن المن والسلوى من لذائذ الأطعمة .

والثاني : وهو قول الكلبي ومقاتل الحلال لأنه شيء أنزله الله تعالى إليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لأن بين المعنيين معنى مشتركاً .

وتمام القول في هذه القصة تقدم في سورة البقرة .

المسألة السادسة :

في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾ فيه وجوه .

أحدها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تطغوا ، أي لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه .

وثانيها : قال مقاتل والضحاك : لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تتجاوزوا حد الإباحة .

وثالثها : قال الكلبي : لا تكفروا النعمة أي لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال إلى الحرام .

المسألة السابعة :

(8/500)

قرأ الأعمش والكسائي فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الأعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر في الكلمتين أما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى يَبْلُغَ الهدى مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] والمضموم في معنى النزول وقوله : ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ أي شقي وقيل فقد وقع في الهاوية ، يقال : هوى يهوي هوياً إذا سقط من علو إلى أسفل .

المسألة الثامنة :

اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفاراً ، وبأن له غفراناً ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر .

(9/500)

أما إنه وصف نفسه بكونه غافراً فقوله : ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ [غافر : 3] وأما كونه غفوراً فقوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة ﴾ [الكهف : 58] وأما كونه غفاراً فقوله : ﴿ وَإِنِّي

لغفار لمن تاب ﴾ وأما الغفران فقوله : ﴿ غفرانك ربنا ﴾ [البقرة : 285] وأما المغفرة فقوله : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس ﴾ [الرعد : 6] وأما صيغة الماضي فقوله : في حق داود عليه السلام ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ [ص : 25] وأما صيغة المستقبل فقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] وقوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ [الزمر : 53] وقوله في حق محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ ليغفر لك الله ﴾ [الفتح : 2] وأما لفظ الاستغفار فقوله : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] وفي حق نوح عليه السلام : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ [نوح : 10] وفي الملائكة : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] واعلم أن الأنبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال :

﴿ وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف : 23] ، وأما نوح عليه السلام فقال : ﴿ وإلا تغفر لي وترحمني ﴾ [هود : 47] ، وأما إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [الشعراء : 82] وطلبها لأبيه :

﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ [مريم : 47] وأما يوسف عليه السلام فقال في إخوته : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ [يوسف : 92] وأما موسى عليه السلام ففي قصة القبطي : ﴿ رب اغفر لي ولأخي ﴾ [الأعراف : 151] وأما داود عليه السلام :

﴿ فاستغفر ربه ﴾ [ص : 24] أما سليمان عليه

السلام : ﴿ رَبِّ اغفر لي وَهَبْ لِي مُلْكاً ﴾ [ص : 35] وأما عيسى عليه السلام :

﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقول :

﴿ واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] وأما الأمة فقوله : ﴿ والذين جَاؤوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا ﴾ [الحشر : 10] واعلم أن بسط الكلام ههنا أن نبين أولاً حقيقة المغفرة ثم نتكلم في كونه تعالى غافراً وغفوراً وغفاراً ثم نتكلم في أن مغفرته عامة ثم نبين أن مغفرته في حق الأنبياء عليهم السلام كيف تعقل مع أنه لا ذنب لهم ، ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا في إثبات العفو وتقريره أن الذنب إما أن يكون صغيراً أو كبيراً بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الأولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفراناً فتعين أن لا يتحقق الغفران إلا في القسم الثالث وهو المطلوب ، فإن قيل : هذا يناقض صريح الآية لأنه أثبت الغفران في حق من استجمع أموراً أربعة : التوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء ، قلنا : إن من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائباً ومؤمناً وآتياً بالعمل الصالح ، ومهتدياً

ومع ذلك يكون مذنباً فحينئذ يستقيم كلامنا ، وههنا نكتة ، وهي أن العبد له أسماء ثلاثة : الظالم والظلوم والظلام .

فالظالم : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : 32] والظلوم : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] والظلام إذا كثر ذلك منه ، ولله في مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسم فكأنه تعالى يقول : إن كنت ظالماً فأنا غافر وإن كنت ظلوماً فأنا غفور ، وإن كنت ظلاماً فأنا غفار : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ ﴾ [طه : 82] .

المسألة التاسعة :

(11/500)

كثير اختلاف المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ وسبب ذلك أن من تاب وآمن وعمل صالحاً فلا بد وأن يكون مهتدياً ، فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الأشياء ؟ والوجوه الملخصة فيه ثلاثة .

أحدها : المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة إذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] وكلمة ثم للتراخي في هذه الآية وليست لتباين

المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال : الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة في ذلك إنما الصعوبة في المداومة على ذلك والاستمرار عليه .

وثانيها : المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ أي علم أن ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقي مستعيناً بالله في إدامة ذلك من غير تقصير ، عن ابن عباس .

وثالثها : المراد من الإيمان الاعتقاد المبني على الدليل والعمل الصالح إشارة إلى أعمال الجوارح بقي بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة في لسان الصوفية ، ثم انكشاف حقائق الأشياء له وهو المسمى بالحقيقة في لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ .

المسألة العاشرة :

منهم من قال : تجب التوبة عن الكفر أولاً ثم الإتيان بالإيمان ثانياً واحتج عليه بهذه الآية فإنه تعالى قدم التوبة على الإيمان ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن العمل الصالح غير داخل في الإيمان لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الإيمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه .

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 82 . 85 ﴾

وقال الماوردي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾

وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تكفروا به .

الثاني : لا تدّخروا منه لأكثر من يوم وليلة ، قال ابن عباس : فدُوّد عليهم ما ادخروه ، ولولا ذلك ما دوّد طعام أبداً .

الثالث : لا تستعينوا برزقي على معصيتي .

﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ قرئ بضم الحاء وبكسرها ومعناه بالضم ينزل ، وبالكسر يجب .

﴿ فَقَدْ هَوَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فقد هوى في النار .

الثاني : فقد هلك في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ أي غفار لمن تاب من الشرك ﴿ وآمن ﴾ يعني بالله ورسوله و﴿ عمل صالحاً ﴾ يريد العمل بأوامره والوقوف عند نواهيه .

﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : ثم لم يشك في إيمانه ، قاله ابن عباس .

الثاني : لزم الإيمان حتى يموت ، قاله قتادة .

الثالث : ثم أخذ بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قاله الربيع بن أنس .

الرابع : ثم أصاب العمل ، قاله ابن زيد .

الخامس : ثم عرف جزاء عمله من خير بثواب ، أو شر بعقاب ، قاله الكلبي .

السادس : ثم اهتدى في ولاية أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ثابت . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/500)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾

ظاهر هذه الآية أن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذ عند حلول هذه النعم التي عدد الله تعالى عليهم ، وبين خروجهم من البحر وبين هذه المقالة مدة وحوادث ولكن يخص الله تعالى بالذكر ما يشاء من ذلك . ويحتمل أن تكون هذه المقالة خوطب بها معاصرو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المعنى هذا فعلنا بأسلافكم ويكون قوله تعالى : ﴿ كلوا ﴾

بتقدير قيل لهم كلوا ، وتكون الآية على هذا اعتراضاً في أثناء قصة موسى المقصد به توبيخ هؤلاء الحضور إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله تعالى ، والمعنى الأول أظهر وأبين . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " نجينا وواعدنا ونزلنا ورزقناكم " إلا أن أبا عمرو قرأ " وعدناكم " بغير ألف في كل القرآن ، وقرأ حمزة والكسائي " أنجيت وواعدت ونزلنا ورزقتكم " . وقوله ﴿ وواعدناكم ﴾ قيل هي لغة في وعد لا تقتضي فعل اثنين ع وإن حملت على المعهود فلأن التلقي والعزم على ذلك كالمواعدة ، وقصص هذه الآية أن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل وغرق فرعون وعد بني إسرائيل وموسى أن يصيروا إلى جانب طور سيناء ليكلم فيه موسى ويناجيه بما فيه صلاحهم بأوامرهم ونواهيم ، فلما أخذوا في السير تعجل موسى عليه السلام للقاء ربه حسبما يأتي ذكره ، وقالت فرقة هذا ﴿ الطور ﴾ هو الذي كلم فيه موسى اولاً حيث رأى النار وكان في طريقه من الشام إلى مصر ، وقالت فرقة ليس به و﴿ الطور ﴾ الجبل الذي لا شعرا فيه وقوله ﴿ الأيمن ﴾ إما أن يريد اليمن وإما ان يريد اليمين بالإضافة إلى ذي يمين إنسان أو غيره . و﴿ المن والسلوى ﴾ طعامهم ، وقد مضى في البقرة استيعاب تفسيرهما ، وقوله تعالى : ﴿ من طيبات ﴾ يريد الحلال الملذ لأن المعنى في هذا الموضع قد جمعهما واختلف الناس ما القصد الأول بلفظة الطيب في القرآن ، فقال مالك رحمه الله الحلال ، وقال الشافعي ما يطيب للنفوس ، وساق إلى هذا الخلاف تفقههم في الخشاش والمستقذر من الحيوان . و﴿ تطغوا ﴾

معناه تتعدون الحد وتتعسفون كالذي فعلواع . وقرأ جمهور الناس " فيحِل " بكسر الحاء " ومن يحِلل " بكسر اللام ، وقرأ الكسائي وحده " فيحُل " بضم الحاء " ومن يحلُل " بضم اللام فمعنى الأول فيجب ومعنى الثاني فيقع وينزل ، و ﴿ هوى ﴾ معناه سقط من علو إلى أسفل ومنه قول خنافر :

فهوى هوي العقاب . . . قال القاضي أبو محمد : وإن لم يكن سقوطاً فهو شبيه بالساقط والسقوط حقيقة قول الآخر : [الوافر]

هويّ الدلْو أسلمه الرشاء . . . ويشبه الذي وقع في طامة أو ورطة بعد أن كان بنجوة منها بالساقط فالآية من هذا أي " هوي " في جهنم وفي سخط الله ، وقيل أخذ الفعل من لفظ الهاوية وهو قعر جهنم ، ولما حذر الله تعالى غضبه والطغيان في نعمه فتح باب الرجاء للتائبين ، والتوبة فرض على جميع الناس بقوله تعالى في سورة النور :

﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون ﴾ [النور : 31] . والناس فيه على مراتب إما مواقع الذنب وقدرته على ذلك باقية فتوبته الندم على ما مضى والإقلاع التام عن مثله في المستقبل ، وإما الذي واقع الذنب ثم زالت قدرته عن مواقعته لشيخ أو آفة فتوبته الندم واعتقاد الترك أن لو كانت قدوة ، وأما لم يواقع ذنباً فتوبته العزم على ترك كل ذنب والتوبة من ذنب تصح مع الإقامة على غيره وهي توبة مقيدة ، وإذا تاب المرء ثم عاود الذنب بعد مدة فيحتمل عند حذاق أهل السنة أن لا يعيد الله تعالى عليه الذنب الأول لأن التوبة قد كانت مجبة ، ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يواف بها ، واضطرب الناس في قوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ من حيث وجدوا الهدى ضمن الإيمان والعمل ، فقالت فرقة معناه لم يشك في إيمانه ، وقالت فرقة معناه ثم استقام ، وقالت فرقة معناه ثم لزم الإسلام حتى يموت عليه ، وقالت فرقة ثم اخذ بسنة نبيه ، وقالت فرقة معناه أمر بسنته ، وقالت فرقة معناه والى أهل البيت ع وهذه كلها تخصيص واحد منها دون ما هو من نوعه بعيد ليس بالقوي ، والذي يقوى في معنى ﴿ ثم اهتدى ﴾ أن يكون ثم حفظ معتقداته من أن يخالف الحق في شيء من الأشياء فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل ، ورب مؤمن عمل صالحاً قد أوبقه عدم الاهتداء كالقدرية والمرجئة وسائر أهل البدع والخوارج فمعنى ﴿ ثم اهتدى ﴾ ثم مشى في عقائد الشرع على طريق قويم جعلنا الله منهم بمنه ع وفي حفظ المعتقدات ينحصر عظم أمر الشرع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وواعدناكم جانبَ الطورِ الأيمنَ ﴾

لأخذ التوراة .

وقد ذكرنا في [مريم : 52] معنى "الأيمن" ، وذكرنا في [البقرة : 57] "المن والسلوى" .

[قوله تعالى : ﴿ كلوا ﴾ أي : وقلنا لهم : كلوا] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تطغَوْا ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تبطروا في نعمي [فتظلموا] .

والثاني : لا تجحدوا نعمي فتكونوا طاغين .

والثالث : لا تدَّخروا منه لأكثر من يوم وليلة .

قوله تعالى : ﴿ فيحلَّ عليكم غضبي ﴾ أي : فتجب لكم عقوبتي .

والجمهور قرؤوا "فيحِل" بكسر الحاء ﴿ ومن يحلِل ﴾ بكسر اللام .

وقرأ الكسائي : "فيحُل" بضم الحاء "ومن يحلُل" بضم اللام .

قال الفراء : والكسر أحب إِليَّ ، لأن الضم من الحلول ، ومعناه : الوقوع ، و"يحل" بالكسر ،

يجب، وجاء التفسير بالوجوب، لا بالوقوع.

قوله تعالى: ﴿ فقد هوى ﴾ أي: هلك.

قوله تعالى: ﴿ وإِني لغفَّار ﴾ الغفار: الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أُخرى، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته، وأصل الغفر: الستر، وبه سمي [زِئْبَر] الثوب: غفراً، لأنه يستر سداه.

فالغفار: الستار لذنوب عباده، المسبل عليهم ثوب عطفه.

قوله تعالى: ﴿ لمن تاب ﴾ قال ابن عباس: لمن تاب من الشرك ﴿ وآمن ﴾ أي: وحّد الله وصدّقه، ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أدّى الفرائض.

وفي قوله تعالى: ﴿ ثم اهتدى ﴾ ثمانية أقوال.

أحدها: علم أن لعمله هذا ثواباً، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: لم يشكّك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: علم أن ذلك توفيق من الله [له]، رواه عطاء عن ابن عباس.

والرابع: لزم السنة والجماعة، قاله سعيد بن جبير.

والخامس: استقام، قاله الضحاك.

والسادس: لزم الإِسلام حتى يموت عليه، قاله قتادة.

والسابع: اهتدى كيف يعمل، قاله زيد بن أسلم.

والثامن : اهتدى إلى ولاية بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ثابت البناني . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(17/500)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا بني إِسْرَائِيل قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾

لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروه .

﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ "جانب" نصب على المفعول الثاني "لواعدنا" ولا يحسن أن ينتصب على الظرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم .

وإنما تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة .

قال مكيّ : هذا أصل لا خلاف فيه ؛ وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطُّور ؛ ثم حذف المضاف .

قال النحاس : أي أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام .

وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم .

وقرأ أبو عمرو "وَوَعَدْنَاكُمْ" بغير ألف واختاره أبو عبيد ؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ؛ وقد مضى في "البقرة" هذا المعنى .

و"الأَيمَنَ" نصب ؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل .

وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ أي في التِّيه وقد تقدّم القول فيه .

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي من لذيذ الرزق .

وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمي فتدخله شبهة .

﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز .

وقيل : المعنى ؛ أي لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر النعم ولا شكر المنعم بها عليكم .

وقيل : أي ولا تستبدلوا بها شيئاً آخر كما قال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : 61] .

وقيل : لا تدّخروا منه لأكثر من يوم وليلة ؛ قال ابن عباس : فيتدوّد عليهم ما ادخروه ؛ ولولا ذلك ما تدوّد طعام أبداً .

﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي يجب وينزل ، وهو منصوب بالفاء في جواب النهي من قوله : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ .

﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي "فَيَحُلَّ" بضم الحاء "وَمَنْ يَحْلُلْ" بضم اللام الأولى .

والباقون بالكسر وهما لغتان .

وحكى أبو عبيدة وغيره : أنه يقال : حَلَّ يحِلّ إذا وجب وحَلَّ يَحُلّ إذا نزل .

وكذا قال الفراء : الضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب .

والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى ؛ لأنهم قد أجمعوا على قوله : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : 39] .

وغضب الله عقابه ونقمته وعذابه .

﴿ فَقَدْ هوى ﴾ قال الزجاج : فقد هلك ؛ أي صار إلى الهاوية وهي قعر النار ، من هوى يهوي هوياً أي سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان أي مات .

وذكر ابن المبارك : أخبرنا إسماعيل بن عياش قال : حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شُفَيّ الأصبحيّ قال : إن في جهنم جبلاً يدعى صَعُوداً يطلع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يرقاه ؛ قال الله تعالى :

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودا ً ﴾ [المدثر : 17] وإن في جهنم قصرا ً يقال له هَوَى يُرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفا ً قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ﴾ وذكر الحديث ؛ وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ أي من الشرك .

﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ً ثُمَّ اهتدى ﴾ أي أقام على إيمانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثوري وقتادة وغيرهما .

وقال ابن عباس : أي لم يشكّ في إيمانه ؛ ذكره الماوردي والمهدوي .

وقال سهل بن عبد الله التُّستَريّ وابن عباس أيضا ً : أقام على السنّة والجماعة ؛ ذكره الثعلبي .

وقال أنس : أخذ بسنّة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكر المهدوي ، وحكاه الماوردي عن الربيع بن أنس .

وقول خامس : أصاب العمل ؛ قاله ابن زيد ؛ وعنه أيضا ً تعلم العلم ليهتدي كيف يفعل ؛ ذكر الأوّل المهدوي ، والثاني الثعلبيّ .

وقال الشعبيّ ومقاتل والكلبيّ : علم أن لذلك ثواباً وعليه عقاباً ؛ وقاله الفراء .

وقول ثامن : "ثم اهتدى" في ولاية أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ثابت البُنَانِي .

والقول الأول أحسن هذه الأقوال إن شاء الله وإليه يرجع سائرها .

قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع في قوله عز وجل : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ أي من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أي بعد الشرك ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ صلّى وصام ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ مات على ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(20/500)

وقال أبو حيان :

﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾

ذكرهم تعالى بأنواع نعمه وبدأ بإزالة ما كانوا فيه من الضرر من الإذلال والخراج والذبح وهي آكد أن تكون مقدمة على المنفعة الدنيوية لأن إزالة الضرر أعظم في النعمة من إيصال تلك المنفعة ، ثم أعقب ذلك بذكر المنفعة الدينية وهو قوله ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ إذ أنزل على نبيهم موسى كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ، ثم يذكر المنفعة الدنيوية

وهو قوله ﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ والظاهر أن الخطاب لمن نجا مع موسى بعد إغراق فرعون.

وقيل: لمعاصري الرسول (صلى الله عليه وسلم) اعتراضاً في أثناء قصة موسى توبيخاً لهم إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله فهو على حذف مضاف، أي أنجينا آباءكم من تعذيب آل فرعون.

وخاطب الجميع بواعدناكم وإن كان الموعودون هم السبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام لسماع كلام الله، لأن سماع أولئك السبعين تعود منفعته على جميعهم إذ تطمئن قلوبهم وتسكن وتقدم الكلام في ﴿ جانب الطور الأيمن ﴾ في سورة مريم، وعلى ﴿ وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى ﴾ في سورة البقرة.

وقرأ حمزة والكسائي وطلحة: قد أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء الضمير، وباقي السبعة بنون العظمة وحميد نجَّيناكم بتشديد الجيم من غير ألف قبلها وبنون العظمة وتقدم خلاف أبي عمرو وفي واعد في البقرة.

والطيبات هنا الحلال اللذيذ لأنه جمع الوصفين.

وقرىء ﴿ الأيمن ﴾ قال الزمخشري بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب انتهى.

وهذا من الشذوذ والقلة بحيث ينبغي أن لا تخرّج القراءة عليه، والصحيح أنه نعت للطور لما فيه من اليمن وأما لكونه على يمين من يستقبل الجبل، ونهاهم عن الطغيان فيما رزقهم

وهو أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والنعم عن القيام بشكرها ، وأن ينفقوها في المعاصي ويمنعوا الحقوق الواجبة عليهم فيها .

وقرأ زيد بن علي ولا تَطْغُوا فيه بضم الغين .

(21/500)

وعن ابن عباس ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه يعني بغير حق .

وعن الضحاك ومقاتل : لا تجاوزوا حدَّ الإباحة .

وعن الكلبي : لا تكفروا النعمة أي لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي .

وقرأ الجمهور ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ بكسر الحاء ﴿ ومن يحِلِلْ ﴾ بكسر اللام أي فيجب ويلحق .

وقرأ الكسائي بضم الحاء ولام يحلُل أي ينزل وهي قراءة قتادة وأبي حيوة والأعمش وطلحة ووافق ابن عتيبة في يحلل فضم ، وفي الإقناع لأبي علي الأهوازي ما نصه ابن غزوان عن طلحة لا يحلن عليكم ﴿ غضبي ﴾ بلام ونون مشددة وفتح اللام وكسر الحاء أي : لا تعرضوا للطغيان فيه فيحل عليكم غضبي من باب لا أرينك هنا وفي كتاب اللوامح قتادة وعبد الله بن مسلم بن يسار وابن وثاب والأعمش فَيُحَلّ بضم الياء وكسر الحاء من

الإحلال فهو متعد من حل بنفسه ، والفاعل فيه مقدر ترك لشهرته وتقديره فيحل به طغيانكم ﴿ غضبي ﴾ عليكم ودل على ذلك ﴿ ولا تطغوا ﴾ فيصير ﴿ غضبي ﴾ في موضع نصب مفعول به .

وقد يجوز أن يسند الفعل إلى ﴿ غضبي ﴾ فيصير في موضع رفع بفعله ، وقد حذف منه المفعول للدليل عليه وهو العذاب أو نحوه انتهى .

﴿ فقد هوى ﴾ كنى به عن الهلاك ، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك يقال هوى الرجل أي سقط ، ويشبه الذي يقع في ورطة بعد أن بنجوة منها بالساقط ، أو ﴿ هوى ﴾ في جهنم وفي سخط الله وغضب الله عقوباته ، ولذلك وصف بالنزول .

ولما حذر تعالى من الطغيان فيما رزق وحذر من حلول غضبه فتح باب الرجاء للتائبين وأتى بصيغة المبالغة وهي قوله ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ قال ابن عباس من الشرك ﴿ وآمن ﴾ أي وحد الله ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أدى الفرائض ﴿ ثم اهتدى ﴾ لزم الهداية وأدامها إلى الموافاة على الإسلام .

وقيل : معناه لم يشك في إيمانه .

وقيل : ثم استقام .

قال ابن عطية : والذي تقوى في معنى ﴿ ثمّ اهتدى ﴾ أن يكون ثم حفظ معتقداته من أن يخالف الحق في شيء من الأشياء ، فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل .

وقال الزمخشري : الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح ، ونحوه : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في جاءني زيد ثم عمر ، وأعني أن منزلة الاستقامة على الخبر مباينة لمنزلة الخبر نفسه لأنها أعلى منه وأفضل . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(23/500)

وقال أبو السعود :

﴿ يا بنى إسراءيل ﴾

حكايةٌ لما خاطبهم الله تعالى بعد إغراقِ فرعونَ وقومِه وإنجائِهم منهم لكن لا عَقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعمِ الدينية والدنيوية ما أفاض ، وقيل : هو إنشاءُ خطابٍ

للذين كانوا منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد منّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعاً ، ويردُّه ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ ﴾ الآية ، ضرورةَ استحالةِ حملِه على الإنشاء ، فالوجهُ هو الحكايةُ بتقدير قلنا عطفاً على أوحينا ، أي وقلنا : يا بني إسرائيل ﴿ قَدْ أنجيناكم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعونَ وقومِه حيث كانوا يبغونكم الغوائلَ ويسومونكم سوءَ العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وقرىء نجيناكم ونجيتُكم ﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ بالنصب على أنه صفةُ للمضاف ، وقرىء بالجرّ للجوار أي واعدناكم بواسطة نبيِّكم إتيانَ جانبِه الأيمنِ نظراً إلى السالك من مصرَ إلى الشام ، أي إتيانَ موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وإنزالَ التوراة عليه ، ونُسبت المواعيدُ إليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظراً إلى ملابستها إياهم وسِراية منفعتِها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقَّه كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ حيث نسَب الخلقَ والتصويرَ إلى المخاطبين مع أن المخلوقَ المصوّر بالذات هو آدمُ عليه الصلاة والسلام ، وقرىء واعدتُكم ووعدناكم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ أي الترنجبين والسمان حيث كان ينزل عليهم المنُّ وهو في التيه مثلَ الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاعٌ ، ويبعث الجنوبُ عليهم السمان فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مراراً .

﴿ كُلُواْ ﴾ جملةٌ مستأنفة مَسوقة لبيان إباحة ما ذكر لهم وإتماماً للنعمة عليهم ﴿ مِن طَيِّبَاتِ مَا رزقناكم ﴾ أي من لذائذه أو من حلالاته ، وقرىء رزقكم ، وفي البدء بنعمة الإنجاءِ ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظمِ ولطفِ الترتيب ما لا يخفى ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدّي لما حُدّ لكم فيه كالسرَف والبطَر والمنع من المستحِق ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ جواب للنهي أي فتلزمَكم عقوبتي وتجبَ لكم ، من حل الدّينُ إذا وجب أداؤه ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هوى ﴾ أي تردّى وهلك ، وقيل : وقع في الهاوية ، وقرىء فيحُلَّ بضم الحاء من حل يحُل إذا نزل .

﴿ وَإِنّى لَغَفَّارٌ لّمَن تَابَ ﴾ من الشرك والمعاصي التي من جملتها الطغيانُ فيما ذكر ﴿ وَءامَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً مستقيماً عند الشرع والعقل ، وفيه ترغيبٌ لمن وقع منه الطغيانُ فيما ذكر وحثٌّ على التوبة والإيمان وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ أي استقام على الهدى إشارةٌ إلى أن من لم يستمرَّ عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخي الرتبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

حكاية لما خاطبهم تعالى به بعد إغراق عدوهم وإنجائهم منه لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض .

وقيل : إنشاء خطاب اللذين كانوا منهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على معنى أنه تعالى قدمن عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعاً ، وتعقب بأنه يرده قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ ﴾ [طه : 83] الخ ضرورة استحالة حمله على الإنشاء وكذا السباق فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفاً على ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ [طه : 77] أي وقلنا يا بني إسرائيل ﴿ قَدْ أنجيناكم مّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وقومه حيث كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم .

وقرأ حميد ﴿ نجيناكم ﴾ بتشديد الجيم من غير همزة قبلها وبنون العظمة .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

والأعمش .

وطلحة ﴿ أنجيتكم ﴾ بتاء الضمير ﴿ عَدُوِّكُمْ وواعدناكم جَانِبَ الطور الايمن ﴾

بالنصب على أنه صفة المضاف .

وقرئ بالجر وخرجه الزمخشري على الجوار نحو هذا جحر ضب خرب .

وتعقبه أبو حيان بأن الجر المذكور من الشذوذ والقلة بحيث ينبغي أن لا تخرج القراءة عليه

وقال : الصحيح أنه نعت للطور لما فيه من اليمن ، وإما لكونه عن يمين من يستقبل الجبل اه .

والحق أن القلة لم تصل إلى حد منع تخريج القراءة لا سيما إذا كانت شاذة على ذلك وتوافق

القراءتين يقتضيه ، قوله : وإما لكونه الخ غير صحيح على تقدير أن يكون الطور هو الجبل

ولو قال : وإما لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام لكان صحيحاً ، ونصب ﴿

جَانِبَ ﴾ على الظرفية بناء على ما نقل الخفاجي عن الراغب .

وابن مالك في "شرح التسهيل" من أنه سمع نصب جنب وما بمعناه على الظرفية .

ومنع بعضهم ذلك لأنه محدود وجعله منصوباً على أنه مفعول واعدنا على الاتساع أو

بتقدير مضاف أي إتيان جانب الخ .

وإلى هذا ذهب أبو البقاء .

وإذا كان ظرفاً فالمفعول مقدراً أي وواعدناكم بواسطة نبيكم في ذلك الجانب إتيان موسى عليه السلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه ، ونسبة المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظراً إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم فكأنهم كلهم مواعدون فالمجاز في التسبة .

وفي ذلك إيفاء مقام الامتنان حقه ما فيه .

وقرأ حمزة والمذكورون معه آنفاً ﴿ وواعدتكم ﴾ بتاء الضمير أيضاً .

وقرئ ﴿ ووعدناكم ﴾ من الوعد .

﴿ الايمن وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ الترنجبين والسماني حيث كان ينزل عليهم المن وهم في التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السماني فيأخذ الواحد منهم ما يكفيه .

﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾

أي من لذائذه أو حلالاته على أن المراد بالطيب ما يستطيبه الطبع أو الشرع .

وجوز أن يراد بالطيبات ما جمعت وصفي اللذة والحل ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان إباحة ما ذكرهم وإتماماً للنعمة عليهم ، وقرأ من ذكر آنفاً ﴿ رزقتكم ﴾ وقدم سبحانه نعمة الانجاء من العدو لأنها من باب درء المضار وهو أهم من جلب المنافع ومن ذاق مرارة كيد الأعداء خذلهم الله تعالى ثم أنجاه الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم علم قدر هذه

النعمة ، نسأل الله تعالى أن يتم نعمه علينا وأن لا يجعل لعدو سبيلاً إلينا ، وثنى جلا وعلا بالنعمة الدينية لأنها الأنف في وجه المنافع ، وأخر عز وجل النعمة الدنيوية لكونها دون ذلك فتباً لمن يبيع الدين بالدنيا ﴿ رزقناكم وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ أي فميا رزقناكم بالإخلال بشكره وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على معاصي الله تعالى ومنع الحقوق الواجبة فيه ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أي لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه بغير حق ، وقيل : أي لا تدخروا .

(27/500)

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ بضم الغين ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ جواب للنهي أي فيلزمكم غضبي ويجب لكم من حل الدين يحل بكسر الحاء إذا وجب إداؤه وأصله من الحلو وهو في الأجسام ثم استعير لغيرها وشاع حتى صارت حقيقة فيه ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هوى ﴾ أي هلك وأصله الوقوع من علو كالجبل ثم استعمل في الهلاك للزومه له ، وقيل : أي وقع في الهاوية وإليه ذهب الزجاج . وفي بعض الآثار أن في جهنم قصراً يرمي الكافر من أعلاه فيهوى في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال فذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ فيكون بمعناه الأصلي إذا أريد به

فرد مخصوص منه لا بخصوصه .

وقرأ الكسائي ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ بضم الحاء ﴿ وَمَن يَحْلِلْ ﴾ بضم اللام الأولى وهي قراءة

قتادة .

وأبي حيوة والأعمش .

وطلحة .

ووافق ابن عتبة في ﴿ يَحْلِلْ ﴾ فضم ، وفي الاقناع لأبي على الأهوازي قرأ ابن غزوان

عن طلحة ﴿ لا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ﴾ بنون مشددة وفتح اللام وكسر الحاء وهو من باب لا أرينك

هنا ، وفي "كتاب اللوامح" قرأ قتادة .

وعبد الله بن مسلم بن يسار .

وابن وثاب .

والأعمش ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ بضم الياء وكسر الحاء من الاحلال ففاعله ضمير الطغيان و ﴿

غَضَبِى ﴾ مفعوله ، وجوز أن يكون هو الفاعل والمفعول محذوف أي العذاب أو نحوه ،

ومعنى يحل مضموم الحاء ينزل من حل بالبلد إذا نزل كما في "الكشاف" .

وفي المصباح حل العذاب يحل ويحل هذه وحدها بالكسر والضم والباقي بالكسر فقط ، والغضب في البشر ثوران دم القلب عند إرادة الانتقام ، وفي الحديث ﴿ اتقوا الغضب فَإِنَّهُ ﴾ وإذا وصف الله تعالى به لم يرد هذا المعنى قطعاً وأريد معنى لائق بشأنه عز شأنه ، وقد يراد به الانتقام والعقوبة أو إرادتهما نعوذ بالله تعالى من ذلك ، ووصف ذلك بالحلول حقيقة على بعض الاحتمالات ومجاز على بعض آخر ، وفي الانتصاف أن وصفه بالحلو لا يتأتى على تقدير أن يراد به إرادة العقوبة ويكون ذلك بمنزلة قوله صلى الله عليه وسلم : " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا " على التأويل المعروف أو عبر عن حلول أثر الإرادة بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثر كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات الله تعالى : انظر إلى قدرة الله تعالى يعني أثر القدرة لا نفسها ﴿ رزقناكم وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى وَإِنِّى لَغَفَّارٌ ﴾ كثير المغفرة ﴿ لِّمَن تَابَ ﴾ من الشرك على ما روى عن ابن عباس ، وقيل : منه ومن المعاصي التي من جملتها الطغيان فيما رزق ﴿ وَآمَنَ ﴾ بما يجب الايمان به .

واقتصر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيما يروى عنه على ذكر الايمان بالله تعالى ولعله من باب الاقتصادر على الأشرف وإلا فالأفيد إرادة العموم مع ذكر التوبة من الشرك ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي عملاً مستقيماً عند الشرع وهو بحسب الظاهر شامل للفرض والنسة ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير ذلك بإداء الفرائض ﴿ ثُمَّ اهتدى

﴿ أي لزم الهدى واستقام عليه إلى الموافاة وهو مروي عن الحبر .

والهدي يحتمل أن يراد به الايمان ، وقد صرح بحانه بمدح المستقيمين على ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] .

(29/500)

وقال الزمخشري : الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح وأياً ما كان فكلمة ثم إما للتراخي باعتبار الانتهاء لبعده عن أول الانتهاء أو للدلالة على بعد ما بين المرتبتين فإن المداومة أعلى وأعظم من الشروع كما قيل :

لكل إلى شاو العلى وثبات . . .

ولكن قليل في الرجال ثبات

وقيل : المراد ثم عمل بالسنة ، وأخرج سعيد بن منصور عن الحبر أن المراد من اهتدى علم أن لعمله ثواباً يجزي عليه ، وروي عنه غير ذلك ، وقيل : المراد طهر قلبه من الأخلاق الذميمة .

كالعجب والحسد .

والكبر وغيرها ، وقال ابن عطية : الذي يقوى في معنى ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ أن يكون ثم حفظ معتقداته من أن تخالف الحق في شيء من الأشياء فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل انتهى ، ولا يخفى عليك أن هذا يرجع إلى قولنا ثم استقام على الإيمان بما يجب الإيمان به على الوجه الصحيح ، وروى الإمامية من عدة طرق عن أبي جعفر الباقر رضي الله تعالى عنه أنه قال : ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت فوالله لو أن رجلاً عبد الله تعالى عمره بين الركن والمقام ثم مات ولا يجيء بولايتنا لأكبه الله تعالى في النار على وجهه .

وأنت تعلم أن ولايتهم وحبهم رضي الله عنهم مما لا كلام عندنا في وجوبه لكن حمل الاهتداء في الآية على ذلك مع كونها حكاية لما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام مما يستدعي القول بأنه عز وجل أعلم بني إسرائيل بأهل البيت وأوجب عليهم ولايتهم إذا ذاك ولم يثبت ذلك في "صحيح الأخبار" .

نعم روى الإمامية من خبر جارود بن المنذر العبدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له "يا جارود ليلة أسري بي إلى السماء أوحى الله عز وجل إلى أن سل من أرسلنا قبلك من

رسلنا علام بعثوا قلت : علام بعثوا ؟ قال : على نبوتك وولاية علي بن أبي طالب والأئمة منكما ثم عرفني الله تعالى بهم باسمائهم ثم ذكر صلى الله عليه وسلم أسماءهم واحداً بعد واحد إلى المهدي وهو خبر طويل يتفجر الكذب منه .

ولهم أخبار في هذا المطلب كلها من هذا القبيل فلا فائدة في ذكرها إلا التطويل .

والآية تدل على تحقق المغفرة لمن اتصف بمجموع الصفات المذكورة .

وقصارى ما يفهم منها عند القائلين بالمفهوم عدم تحقيقها لمن لم يتصف بالمجموع وعدم التحقق اعم من تحقق العدم فالآية بمعزل عن أن تكون دليلاً للمعتزلي على تحقق عدم المغفرة لمرتك الكبيرة إذا مات من غير توبة فافهم واحتج بها من قال تجب التوبة عن الكفر أولاً ثم الإتيان بالإيمان ثانياً لأنه قدم فيها التوبة على الإيمان ، واحتج بها أيضاً من قال بعدم دخول العمل الصالح في الإيمان للعطف المقتضى للمغايرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(31/500)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يا بني إِسْرَائِيل قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن

﴾ .

وذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: امتنانه على بني إسرائيل بإنجائه إياهم من عدوهم فرعون، وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، وأنه نزل عليهم المن والسلوى، وقال لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم. ولا تطغوا فيغضب عليكم ربكم. وما ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع. كقوله في امتنانه عليهم بإنجائهم من عدوهم فرعون في «سورة البقرة»: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: 49]، وقوله في «الأعراف»: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: 141]، وقوله في «الدخان»: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب المهين مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ [الدخان: 30–31]، وقوله في سورة «إبراهيم»: ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 6]، وقوله في «الشعراء» ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: 59] الآية، وقوله في «الدخان» ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ [الدخان: 28]، وقوله في «الأعراف»: ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف: 137]

الآية ، وقوله في « القصص » : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [القصص : 5] إلى قوله ﴿

(32/500)

يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : 6] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله هنا : ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ الأظهر أن ذلك الوعد هو المذكور في قوله : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف : 142] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة : 51] الآية ، وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ [طه : 86] وهو الوعد بإنزال التوراة . وقيل فيه غير ذلك .

وقوله هنا : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ قد أوضح امتنانه عليهم بذلك في غير هذا الموضع . كقوله في « البقرة » : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ [البقرة : 57] وقوله في « الأعراف » ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ﴾ [الأعراف : 160] وأكثر العلماء على أن المن : الترنجبين ، وهو شيء ينزل من السماء كنزول الندى ثم يتجمد ، وهو يشبه العسل الأبيض . والسلوى : طائر يشبه السماني . وقيل هو السماني . وهذا قول الجمهور في المن والسلوى . وقيل : السلوى

العسل . وأنكر بعضهم إطلاق السلوى على العسل . والتحقيق : أن « السلوى » يطلق على العسل لغة . ومنه قول خالد بن زهير الهذلي :

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألذ . . . من السلوى إذا ما نشورها

يعني ألذ من العسل إذا ما نستخرجها . لأن النشور : استخراج العسل . قال مؤرج بن عمر السدوسي : إطلاق السلوى على العسل لغة كنانة .

(33/500)

سمي به لأنه يسلي . قاله القرطبي . إلا أن أكثر العلماء على أن ذلك ليس هو المراد في الآية .

واختلفوا في السلوى . هل هو جمع أو مفرد ؟ فقال بعضهم : هو جمع ، واحده سلواة ، وأنشد الخليل لذلك قول الشاعر :

وإني لتعروني لذكراك هزة . . . كما انتفض السلواة من بلل القطر

ويروى هذا البيت :

كما انتفض العصفور بلله القطر . . . وعليه فلا شاهد في البيت . وقال الكسائي : السلوى مفرد وجمعه سلاوى . وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له من لفظه . مثل الخير والشر ، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته . كما قالوا : دفلى وسمانى وشكاعى في

الواحد والجمع. والدفلى كذكرى: شجر أخضر مر حسن المنظر، يكون في الأودية.

والشكاعى كحبارى وقد تفتح: نوع من دقيق النبات صغيراً أخضر، دقيق العيدان يتداوى به. والسمانى: طائر معروف.

قال مقيده عفا الله عنه: والأظهر عندي في المن: أنه اسم جامع لما يمن الله به على عبده من غير كد ولا تعب، فيدخل فيه الترنجبين الذي من الله به على بني إسرائيل في التيه. ويشمل غير ذلك مما يماثله. ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيحين: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين».

والأظهر عندي في السلوى: أنه طائر، سواء قلنا إنه السمانى، أو طائر يشبهه، لإطباق جمهور العلماء من السلف والخلف على ذلك. مع أن السلوى، يطلق لغة على العسل، كما بينا.

وقوله في آية «طه» هذه: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي من المن والسلوى، والأمر فيه للإباحة والامتنان.

وقد ذكر ذلك أيضاً في غير هذا الموضع ، كقوله في « البقرة » ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 57] ، وقوله في « الأعراف » : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 160] ، وقوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ في هذه الآيات مقول قول محذوف ، أي وقلنا لهم كلوا ، والضمير المجرور في قوله : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ راجع إلى الموصول الذي هو « ما » أي كلوا من طيبات الذي رزقناكم ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ أي فيما رزقناكم . ونهاهم عن الطغيان فيما رزقهم ، وهو أن يتعدوا حدود الله فيه بأن يكفروا نعمته به ، ويشغلهم اللهو والنعيم عن القيام بشكر نعمه ، وأن ينفقوا رزقه الذي أنعم عليهم به في المعاصي ، أو يستعينوا به على المعصية ، أو يمنعوا الحقوق الواجبة عليهم فيه ، ونحو ذلك .

وبين أن ذلك يسبب لهم أن يحل عليهم غضبه جل وعلا ، لأن الفاء في قوله ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ سببية ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها ، لأنه بعد النهي وهو طلب محض ، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله :

وبعد فالجواب نفي أو طلب . . . محضين أن وسترها حتم نصب

وقرأ هذا الحرف الكسائي ﴿ فَيَحُلَّ ﴾ بضم الحاء ﴿ وَمَن يَحِلْل ﴾ بضم اللام.

والباقون قرؤوا ﴿ يَحِلَّ ﴾ بكسر الحاء و﴿ يَحْلِلْ ﴾ بكسر اللام. وعلى قراءة الكسائي ﴿ فَيَحُلَّ ﴾ بالضم أي ينزل بكم غضبي. وعلى قراءة الجمهور فهو من حل يحل بالكسر: إذا وجب، ومنه حل دينه إذا وجب أداؤه. ومنه ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: 33]. وقوله: ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ أي هلك وصار إلى الهاوية، وأصله أن يسقط من جبل أو نحوه فيهوي إلى الأرض فيهلك، ومنه قول الشاعر:

هوى من رأس مرقبة . . . ففتت تحتها كبده

ويقولون: هوت أمه، أي سقط سقوطاً لا نهوض بعده. ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً . . . وماذا يرد الليل حين يؤوب

ونحو هذا هو أحد التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: 9] وعن شفى بن مانع الأصبحي قال: إن في جهنم جبلاً يدعى صعوداً يطلع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يرقاه. قال الله تعالى: ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر: 17] وإن في جهنم قصراً يقال له هوى، يرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفاً قبل أن يبلغ أصله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ﴾ قال القرطبي وابن كثير، والله تعالى أعلم.

(36/500)

واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته ، تظهر آثارها في المغضوب عليهم . نعوذ بالله من غضبه جل وعلا . ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت فتصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه ، ولا نكذب بشيء من ذلك . مع تنزيهنا التام له جل وعلا عن مشابهة المخلوقين سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة « الأعراف » وقرأ حمزة والكسائي في هذه الآية ﴿ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْتُكُم ﴾ بتاء المتكلم فيهما . وقرأه الباقون ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ وَأَنجَيْنَاكُم ﴾ بالنون الدالة على العظمة ، فصيغة الجمع في قراءة الجمهور للتعظيم . وقرأ أبو عمرو ﴿ وَوَعَدْنَاكُمْ ﴾ بلا ألف بعد الواو الثانية بصيغة الفعل المجرد ، من الوعد لا من المواعدة مع نون التعظيم .

(37/500)

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82) ﴾

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه غفار أي كثير المغفرة لمن تاب إليه من معاصيه وكفره ، وآمن به وعمل صالحاً ثم اهتدى . وقد أوضح هذا المعنى في مواضع متعددة من كتابه ، كقوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] الآية . وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 74] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر : 53–54] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا معنى التوبة والعمل الصالح .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ أي استقام وثبت على ما ذكر من التوبة والإيمان والعمل الصالح ولم ينكث . ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت : 30] ، وفي الحديث : « قل آمنت بالله ثم استقم » وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : 112] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾

هذه الجمل معترضة في أثناء القصة مثل ما تقدم آنفاً في قوله تعالى : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ الآية .

وهذا خطاب لليهود الذين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم تذكيراً لهم بنعم أخرى .

وقُدّمت عليها النعمة العظيمة ، وهي خلاصهم من استعباد الكفرة .

وقرأ الجمهور ﴿ قد أنجيناكم وواعدناكم بنون العظمة .

وقرأهما حمزة ، والكسائي ، وخلف قد أنجيتكم ووعدتكم بتاء المتكلّم .

وذكّرهم بنعمة نزول الشريعة وهو ما أشار إليه قوله وواعدناكم جَانِبَ الطُّورِ الأيمَنَ ﴾ .

والمواعدة : اتّعاد من جانبين ، أي أمرنا موسى بالحضور للمناجاة فذلك وعد من جانب الله بالمناجاة ، وامتثالُ موسى لذلك وعدٌ من جانبه ، فتم معنى المواعدة ، كما قال تعالى في سورة البقرة (52) : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾

ويظهر أنّ الآية تشير إلى ما جاء في الإصحاح 19 من سفر الخروج : في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر جاءوا إلى برّية سيناء هنالك نزل إسرائيل مقابل الجبل .

وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الربّ من الجبل قائلاً : هكذا نقول لبيت يعقوب أنتم رأيتم

ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النّسور ، إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة . . .

إلخ .

وذكر الطور تقدم في سورة البقرة .

وجانب الطور : سفحه .

ووصفه بالأيمن باعتبار جهة الشخص المستقبل مشرقَ الشمس ، وإلاّ فليس للجبل يمين وشمال معيّنان ، وإنما تعرَّف بمعرفة أصل الجهات وهو مطلع الشمس ، فهو الجانب القبلي باصطلاحنا .

وجُعل محلّ المواعدة الجانب القبلي وليس هو من الجانب الغربي الذي في سورة القصص (30) : ﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وقال فيها وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ [القصص : 44] فهو جانب غربي ، أي من جهة مغرب الشمس من الجبل ، وهو الذي آنس موسى منه ناراً .

وانتصب ﴿ جَانِبَ الطُّورِ ﴾ على الظرفية المكانية لأنّه لاتساعه بمنزلة المكان المبهم .

ومفعول المواعدة محذوف ، تقديره : المناجاة .

وتعدية ﴿ واعدناكم ﴾ إلى ضمير جماعة بني إسرائيل وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه باعتبار أنّ المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحاً للأمّة فكانت المواعدة مع أولئك كالمواعدة مع جميع الأمّة .

وقرأ الجميع ﴿ ونزّلنا عليكم الخ ؛ فباعتبار قراءة حمزة ، والكسائي ، وخلف قد أنجيتكم وواعدتكم بتاء المفرد تكون قراءة وأنزلنا بنون العظمة قريباً من الالتفات وليس عينه ، لأن نون العظمة تساوي تاء المتكلّم .

والسلوَى تقدم في سورة البقرة .

وكان ذلك في نصف الشهر الثاني من خروجهم من مصر كما في الإصحاح 16 من سفر الخروج .

وجملة كُلُوا ﴾ مقولٌ محذوف .

تقديره : وقلنا أو قائلين .

وتقدم نظيره في سورة البقرة .

وقرأ الجمهور ﴿ ما رزقناكم بنون العظمة .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف ما رزقتكم بتاء المفرد .

والطغيان : أشدّ الكِبر .

ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق : النهي عن ترك الشكر عليه وقلّة الاكتراث بعبادة المُنعِم .

وحرف (في) الظرفيّة استعارةٌ تبعية ؛ شبه ملابسة الطغيان للنّعمة بحلول الطغيان فيها تشبيهاً للنعمة الكثيرة بالوعاء المحيط بالمنعَم عليه على طريقة المكنية ، وحرف الظرفية قرينتها .

والحلول : النزول والإقامة بالمكان ؛ شبهت إصابة آثار الغضب إياهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم .

(40/500)

وقرأ الجمهور فيحِلّ عليكم بكسر الحاء وقرأوا ومن يحِلِل عليه غضبي بكسر اللاّم الأولى على أنهما فعلا حَلّ الدّيْن يقال : حلّ الديْن إذا آن أجل أدائه .

وقرأه الكسائي بالضمّ في الفعلين على أنّه من حلّ بالمكان يحُلّ إذا نزل به .

كذا في الكشاف ﴿ ولم يتعقبوه .

وهذا مما أهمله ابن مالك في "لامية الأفعال" ، ولم يستدركه شارحها بَحْرَق اليمني في "الشرح الكبير" .

ووقع في "المصباح" ما يخالفه ولا يعوّل عليه .

وظاهر "القاموس" أن حلّ بمعنى نزل يستعمل قاصراً ومتعدياً ، ولم أقف لهم على شاهد في ذلك .

وهوَى : سقط من علوّ ، وقد استعير هنا للهلاك الذي لا نهوض بعده ، كما قالوا : هوت أمّه ، دعاء عليه ، وكما يقال : ويل أمّه ، ومنه : ﴿ فأمه هاوية ﴾ [القارعة : 9] ، فأريد هويّ مخصوص ، وهو الهوي من جبل أو سطح بقرينة التهديد .

وجملة ﴿ وإنّي لغَفَّارٌ ﴾ إلى آخرها استطراد بعد التحذير من الطغيان في النعمة بالإرشاد إلى ما يتدارك به الطغيان إن وقع بالتوبة والعمل الصالح .

ومعنى ﴿ تَابَ ﴾ : ندم على كفره وآمن وعمل صالحاً .

وقوله ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ (ثم) فيه للتراخي في الرتبة ؛ استعيرت للدلالة على التباين بين الشيئين في المنزلة كما كانت للتباين بين الوقتين في الحدوث .

ومعنى ﴿ اهتدى : استمرّ على الهدى وثبت عليه ، فهو كقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [الأحقاف : 13] .

والآيات تشير إلى ما جاء في الإصحاح من سفر الخروج "الرب إله رحيم ورؤوف ، بطيء الغضب وكثير الإحسان غافر الإثم والخطيئة ولكنّه لن يبرئ إبراء" . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾

لله عز وجل على بني إسرائيل مِنَنٌ كثيرة ونِعَم لا تُعَدُّ ، كان مقتضى العبادية التي وصفهم بها ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ [طه : 77] أن يُنَفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذِكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمةً من نِعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء .

والحق تبارك وتعالى هنا يذكِّرهم ببعض نعمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء ﴿ يا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [طه : 80] وإسرائيل يعني عند الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب . . الورع ، فالحق يُذكِّرهم بأصلهم الطيب ، ينسبهم إلى نبي من أنبيائه . كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج . وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ [طه : 80] أي : من فرعون الذي استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحي نساءكم ويُسخِّرهم في الأعمال دون أجر ، وفعل

بكم الأفاعيل، ثم ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ [طه: 80] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة. إذن: خلَّصْناكم من أذى، وواعدناكم لنعمة.

﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ ﴾ [طه: 80] واعد: مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل: شارك وخاصم، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً: الله عز وجل وبني إسرائيل؟ الوَعْد كان من الله تعالى، لكن لم يقُلْ القرآن: وعدناكم. بل أشرك بني إسرائيل في الوعد، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشيء ووافقتَ، فكأنك دخلتَ في الوعد.

(42/500)

وجانب الطور الأيمن: مكان تلقِّي منهج السماء، وهو مكان بعيد في الصحراء، لا زرعَ فيه ولا ماء؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقِيتهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ [طه: 80].

المنّ: سائل أبيض يشبه العسل، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار، وفي الصباح يجمعونه كطعام حلو. وهذه النعمة ما زالت موجودة في العراق مثلاً، وتقوم عليها صناعة كبيرة هي صناعة المنّ.

والسَّلْوى: طائر يشبه طائر السِّمان.

وهكذا وفَّر لهم الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل، وطائر شهي دون تعب منهم، ودون مجهود، بل يرونَه بين أيديهم مُعَدّاً جاهزاً، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا:

﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: 61]

.

وفي سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التي صاحبتهم في جَدْب الصحراء نعمة أخرى، فقال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ [البقرة: 57] أي: حَمْيانكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون في هذه الصحراء.

ونلحظ اختلاف السياق هنا ﴿ نَزَّلْنَا ﴾، وفي البقرة قال: ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى يعالج الموضوع في لقطات مختلفة من جميع زواياه، فقوله ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ تدل على التعدِّي الأول للفعل، وقد يأتي لمرة واحدة، إنما ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ فتدلُّ على التوالي في الإنزال.

وأهل الريف في بلادنا يُطلِقون المنَّ على مادة تميل إلى الحمرة الداكنة، ثم تتحول إلى السواد، تسقط على النبات، لكنها ليست نعمةً، بل تُعَدُّ آفة من الآفات الضارة بالنبات.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . ﴾

الطعام والشراب والهواء مُقوّمات الحياة التي ضمنها الله عز وجل لنا، والأمر بالأكل هنا للإباحة، وليست فَرْضاً عليك أنْ تأكل إلا إذا أردتَ الإضراب عن الطعام إضراباً يضرُّ بحياتك فعندها تُجبر عليه.

وقوله: ﴿ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [طه: 81] خصَّ الطيبات؛ لأن الرزق: منه الطيب، ومنه غير الطيّب، فالرزق: كُلّ ما انتفعتَ به ولو كان حراماً. بمعنى أن ما نِلْتَه من الحرام هو أيضاً من رزقك إلا أنك تعجّلته بالحرام، ولو صبرْتَ عليه وعففْتَ نفسك عنه لَنِلْتَ أضعافه من الحلال.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [طه: 81] وفي آية البقرة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: 118] فكأن ظلمَ النفس عِلَّته أنهم طغَوْا في الأكل من الرزق.

والطغيان: من طغى الشيء إذا زاد عن حدّه المألوف الذي ينتفع به، ومنه طغيان الماء إذا زاد عن الحدّ الذي يزيل الشَّرق والعطش إلى حَدّ أنه يُغرق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا المَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: 11] أي: تجاوز الحد الذي ينتفع به إلى العَطَب

والهلاك .

وهكذا في أي حَدٍّ ، لكن كيف تتأتى مجاوزة الحد في الطعام والأقوات ؟

الحق تبارك وتعالى لما خلق الأرض قدّر فيها أقواتها إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت : 10] .

(44/500)

فاطمئنوا إلى هذه المسألة ، وإذا رأيتم الأرض لا تعطي فلا تتهموها ، إنما اتهموا أنفسكم بالتقصير والتكاسل عن عمارة الأرض وزراعتها ، كما أمركم الله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا ﴾ [هود : 61] .

وقد غفلنا زمناً عن هذه المسألة ، حتى فاجأتنا الأحداث بكثرة العدد وقِلّة المدد ، فكان الخروج إلى الصحراء وتعميرها .

وما دام أن الخالق عز وجل خلق لنا أرزاقنا ومُقوّمات حياتنا ، وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذي كرّمه وجعله خليفة له في الأرض ، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقوّمات حدوداً حدّها وبيّنها هي (الحلال) ، فلا ينبغي لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى في تناول طعامك وشرابك .

ونحن نرى حتى الآلات التي صنعها البشر ، لكل منها وقودها الخاص ، وإذا أعطيتها غيره لا تؤدي مهمتها ، فمثلاً لو وضعت للطائرة سولارا لا تتحرك ، فليس هو الوقود المناسب لطبيعتها .

إذن : حدودك في مُقوّمات حياتك الحلال ، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل في الأشياء أنها حلال ، والكثير هو المحلل لك ، أما المحرم عليك فهو القليل المحصور الذي يمكن تحديده .

لذلك يقول عز وجل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] ولم يقُلْ مثلاً في آية أخرى : تعالوا أَتْلُ ما أحل الله لكم ؛ لأنها مسألة تطول ولا تحصى .

إذن : ساعة أعطاك ربك قال لك : هذا رِزْقُك الحلال الخالص ، ومنه وقودك ومُقوّمات حياتك ، وبه بقاؤك ونشاط حركتك .

فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قِلَّته وانحصاره في عِدَّة أنواع ، بيَّنها لك وحذَّرك منها .

وبالغذاء تتم في الجسم عملية (الأَيض) يعني : الهدم والبناء ، وهي عملية مستمرة في كل لحظة من لحظاتك ، فإياك أنْ تبني ذرَّة من ذراتك من الحرام ؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تُشاغبك وتُلح عليك كي توقِعك في أصلها .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: 51] وقال: ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، ثم يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأَنَّى يُستجاب لذلك".

ذلك لأن ذرات بنائه غير منسجمة، لأنها نَمتْ على وقودٍ ما أحله الله له.

لذلك تسمع من بعض المتمحكين: ما دام أن الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه؟ نقول: لقد فهمتَ أن كل مخلوق خُلِق ليؤكل، وهذا غير صحيح، فالله خلق البترول الذي تعمل به الآلات، أتستطيع أن تشربه كالسيارة؟

إذن: فَرْق بين شيء مخلوق لشيء، وأنت توجهه لشيء آخر، هذه تسمى إحالة أي: تحويل الشيء إلى غير ما جُعِل له، وهذا هو الطغيان في القُوت؛ لأنك نقلتَ الحرام إلى الحلال.

وقد يأتي الطغيان في صورة أخرى، كأن تأكل ما أحلَّ الله من الطيبات، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسْب الحلال، فتأخذ مجهود غيرك

وتعيش عالةً عليه ، فإلى جانب أنك تتغذَّى على الحرام فأنت أيضاً تُزهّد غيرك في الحركة والإنتاج والمِلك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه ؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صُوراً متعددة في مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته : الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع مَن استأجرك إلى غير ذلك من أخْذ أموال الناس بالباطل ودون وَجْه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته .

فالخطف : أنْ تخطف مال غيرك دون أنْ يكون في متناول يد المخطوف منه ثم تَفِر منه ، فإنْ كان في متناول يده وأنت غالبته عليه ، وأخذته عُنْوةً فهو غَصْب مأخوذ من : غَصْب الجلد عن الشاة أي : سلخه عنها . فإنْ كان أخذ المال خُفْية وهو في حِرْزه فهي سرقة . وإن كنت مُؤتمناً على مال بين يديك فأخذتَ منه خفية فهو اختلاس . . الخ .

إذن : أحل الله لك أشياءً ، وحرّم عليك أخرى ، فإنْ كان الشيء في ذاته حلالاً فلا تأخذه إلا بحقّه حتى يحترم كل مِنّا عمل الآخر وحركته في الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بِنَا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسبِّب البلطجي

.

وللإسلام منهج قويم في القضاء على مسألة البطالة ، تأخذ منه بعض النظم الحديثة الآن ، وهو أن الشرع يأمر للقضاء على البطالة أن تحفر بئرًا وتطُمَّها : أي احفرها وأرْدِمها ثم اعْطِ الأجير فيها أجره . كيف هذا ؟ تحفر البئر ولا تستفيد منها وتردمها فما الفائدة ؟ ولماذا لم نعط الأجير أجره دون حفر ودون ردم ؟

قالوا : حتى لا يتعوَّد على الخمول والكسل ، وحتى لا يأكل إلاّ من عرقه وكَدِّه ، وإلا فسد المجتمع .

وللطغيان في القوت صورة أخرى ، هي أن تستخدم القوت الذي جعله الله طاقة لك في حركة الحياة النافعة ، فإذا بك تصرف هذه الطاقة التي أنعم الله بها عليك في معصيته .

وهكذا ، كان الطغيان هو علّة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ [النحل : 118] أي : بالعقوبة ﴿ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] أي : بالطغيان .

(47/500)

ثم يقول تعالى : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ [طه : 81] الفعل : حَلَّ ، يحلّ يأتي بمعنى : صار حلالاً ، كما تقول للسارق : حلال فيه السجن . وتأتي حلَّ يحل بمعنى : نزل في

المكان، تقول: حَلَّ بالمكان أي: نزل به. فيكون المعنى: ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ [طه: 81] أي: صار حلالاً، ووجب لكم، أو بمعنى: ينزل بكم. وقد يكون المعنى أعمَّ من هذا كله.

والغضب انفعال نفسيٌّ يُحدِث تغييراً في كيماوية الجسم، فترى الغاضب قد انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه، وتغيّرت ملامحه، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال. فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع؟

بالطبع لا؛ لأنه تعالى ليس عنده أغيار، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب، فما بالك إنْ كان الغضب من الله؟

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ﴾ [طه: 81] مادة: هَوَى لها استعمالان، الأول: هَوَى يهْوِي: يعني سقط من أَعْلى سقوطاً لا إرادةَ له في منعه، كأن يسقطَ فجأة من على السطح مثلاً، ومن ذلك قوله:

هُوِيّ الدلو أَسْلَمها الرِّشَاء ... إذا انقطع الحبل الذي يُخرِج الدَّلُو.

والآخر: هَوِيَ يَهْوَى: أي أحبَّ.

فيكون المعنى ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ [طه: 81] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة في الحياة، أو هَوَى في الدنيا، ويَهوي في الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: 9] فأمه ومصدر الحنان له هاوية، فكيف به إذا هوى في الهاوية؟

هذه كلها عِظَات ومواعظ للمؤمن، يُبيِّنها الحق سبحانه وتعالى له كي يبني حركة حياته على ضَوْئها وهُدَاها .

(48/500)

ولما كان الإنسان عُرْضة لأغيار لا يثبتُ على حال يتقلَّب بين عافية ومرض، بين غِنىً وفقرٍ، فكُلُّ ما فيه موهوب له لا ذاتيّ فيه، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شيء من النعمة ؛ لأنها لن تبقى ولن تدوم، وهَبْ أنك بلغتَ قمة النعيم، فماذا تنتظر إلا أنْ تزول، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَا نَقْصُه . . . تَرقَّبْ زوَالاً إذَا قِيل تَمّ

فإذا تَمَّلك الشيء، وأنت ابْنُ أغيار، ولا يدوم لك حال فلا بُدَّ لك أن تنحدر إلى الناحية الأخرى .

فكأن نقْصَ الإنسان في آماله في الحياة هي تميمة حراسة النِّعَم، وما فيه من نَقْص أو عيب يدفع عنه حَسَد الحاسد، كما قال الشاعر في المدح :

شَخَصَ الأَنَامُ إلى كَمَالِكَ . . . فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أعينهِمْ بعيْبٍ وَاحِدِ

أي : أن الأعين متطلعة إليك، فاصرفها عنك، ولو بعيب واحد يذكره الناس وينشغلون به

.

وفي الريف يعيش بعض الفلاحين على الفطرة ، فإنْ رُزِق أحدهم بولد جميل وسيم يُلفِت نظر الناس إليه . وتراهم يتعمدون إهمال شكله ونظافته ، أو يضعونَ له (فاسوخة) دَفْعاً للحسد وللعين .

لذلك فالمرأة التي دخلت على الخليفة ، فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته ، وأقرَّ عينك ، ففهم الحضور أنها تدعو له ، فلما خرجتْ قال الخليفة : أعرفتم ما قالت المرأة؟ قالوا : تدعو لك ، قال : بل تدعو عليَّ ، فقد أرادت بقولها : أتمَّ الله عليك نعمته تريد أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمت لم يَبْقَ لها إلا الزوال ، وقولها : أقَرَّ الله عينكَ تريد : أسكنها عن الحركة .

إذن : لا تغضَب إنْ قالوا عنك : ناقص في كذا ، فهذا النقص هو تميمة الكمال ، ويريدها الله لك لمصلحتك أنت .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فلا بُدَّ أنْ يغفل عن منهج الله ، فتكون له سَقَطات وهَفَوات تحتاج إلى غفران ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ . . . ﴾

غفار : صيغة مبالغة من غفر ، فإذا أثبت المبالغة فالترتيب اللغوي بالتالي يُثبتِ الأقلَّ وهو غافر ، هذا في الإثبات : وكذلك في النفي في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] فنفى المبالغة في الظلم ، فهل يعني ذلك أنه تعالى يمكن أن يكون ظالماً ؟ والشيء يُبالغ فيه لأمرين : الأول : أن تبالغ في نفس الحدث ، كأن تأكل رغيفاً في الوجبة أو رغيفين ، وآخر يأكل خمسة أرغفة ، فهذه منه مبالغة في نفس الحدث وهو الأكل ، والثاني : قد تكون المبالغة بتكرار الحدَث ، فالعادة أن نأكل ثلاث مرات ، وهناك مَنْ يأكل سِتّ وجبات ، ونسميه (أكول) أي : كثير الأكل ، لا في الوجبة الواحدة ، إنما في عدد الوجبات .

فمعنى (غَفَّارٌ) غافر لي ، وغافر لك ، وغافر لهذا وهذا . . غافر لكل الخَلْق ، فتكررت مغفرته عز وجل لخَلْقه .

وقد شرع الحق سبحانه وتعالى المغفرة والتوبة ليحمي المجتمعات من شرار الناس فيها ، فالشرير إذا ارتكب جريمة ولم يجد له فرصة للمغفرة والتوبة ، فإنه يستمرىء الجريمة ، بل ويبالغ فيها .

أما إذا فُتِح له باب التوبة والمغفرة فإن هذا يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والله عز وجل ليس غافراً للذنوب فحسب ، بل هو غفار لها ، وكلما عدت إليه غفر لك ، ولكن وَطِّن نفسك أنك إذا فعلت الذنب وتُبْتَ منه فلا تعد إليه ، ولا ترتب وتخطط

لمعصيتك على أمل أن تتوب ، فما يدريك أن تعيش إلى أن تتوب ؟

والمغفرة تكون ﴿ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ ﴾ [طه : 82] وما دام قال ﴿ تَابَ وَآمَنَ ﴾ [طه : 82] فلا بُدَّ أن التوبة هنا عن الكُفْر ، ثم أنشأ إيماناً بالله وبرسوله . والإيمان هو الينبوع الذي يصدر عنه السُّلوك البشري ، وهذا يقتضي أن تسمع كلامه وتُنفِّذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وهذا هو المراد بقوله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحَاً ﴾ [طه : 82] .

(50/500)

لكن ، أليس العمل الصالح هداية ؟ فلماذا قال بعدها ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ [طه : 82] قالوا : لأن الهداية أنْ تستمر على هذا العمل الصالح ، وأنْ تستزيدَ منه ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(51/500)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾

قوله : ﴿ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ : قرأ الأخوان " قد أَنْجَيْتُكم " و" واعَدْتُكم " و﴿ رَزَقْتُكم ﴾ بتاءِ المتكلم . والباقون " أَنْجَيْناكم " و" رَزَقْناكم " و" واعَدْناكم " بنونِ العظمة . واتفقوا على " ونَزَّلْنا " . وتقدَّم خلافُ أبي عمرو في " وَعَدْنا " في البقرة . وقرأ حميد " نَجَّيْناكم " بالتشديد .

وقُرِىء " الأَيْمَنِ " بالجرِ . قال الزمخشري : " خَفْضٌ على الجِوار ، كقولِهم : " جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ " وجعله الشيخ شاذاً ضعيفاً . وخرَّجه على أنه نعتٌ للطُّور قال : " وُصِفَ بذلك لما فيه من اليُمْن ، أو لكونِه على يمين مَنْ يستقبلُ الجَبَلَ " .

و" جانبَ " مفعولٌ ثانٍ على حَذْفِ مضاف أي : إتيانَ جانب . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ المفعولُ الثاني محذوفاً . و" جانب " ظرف للوعد . والتقدير : وواعَدْناكم التوراةَ في هذا المكانِ ؛ لأنه ظرفُ مكانٍ مختصّ ، لا يَصِلُ إليه الفعلُ بنفسِه ولو قيل : إنه تُوُسِّعَ في هذا الظرفِ فجُعِل مفعولاً به أي : جُعل نفسَ الموعود نحو : " سِيْرَ عليه فرسخان وبريدان " لجاز .

﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾

قوله : ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ : قرأ العامة " فيحِلُّ " بكسر الحاء ، واللام من " يَحْلِلْ " . والكسائيُّ في آخرين بضمّهما ، وابن عتيبة وافق العامَّة في الحاء ، والكسائيَّ في اللام . فقراءةُ العامَّةِ مِنْ حَلَّ عليه كذا أي : وَجَبَ ، مِنْ حَلَّ الدَّيْنُ يَحِلُّ أي : وَجَبَ قضاؤُه . ومنه قولُه : ﴿ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] ومنه أيضاً ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الزمر : 40] . وقراءةُ الكسائي مِنْ حَلَّ يَحُلُّ أي : نَزَل ، ومنه ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ [الرعد : 31] .

والمشهورُ أنَّ فاعلَ " يَحِلُّ " في القراءتين هو " غضبي " . وقال صاحب " اللوامح " : " إنه مفعولٌ به ، وإنَّ الفاعلَ تُرِكَ لشُهْرَته ، والتقدير : فيحِلُّ عليكم طُغْيانُكم غضبي ، ودَلَّ عليه " ولا تَطْغَوا " . ولا يجوز أن يُسْند إلى " غضبي " فيصيرَ في موضع رفعٍ بفعله " . ثم قال : " وقد يُحْذَفُ المفعولُ للدليلِ عليه ، وهو " العذابَ " ونحوه " . قلت : فعنده أنَّ حَلَّ متعدٍّ بنفسِه لأنه من الإِحلال كما صَرَّح هو به . وإذا كان من الإِحْلال تعدى لواحدٍ ، وذلك المتعدى إليه : إمَّا " غضبي " ، على أنَّ الفاعلَ ضميرٌ عائدٌ على الطغيانِ ، كما قَدَّره ، وإمَّا محذوفٌ ، والفاعل " غضبي " . وفي عبارته قَلَقٌ .

وقرأ طلحة " لا يَحِلَّنَّ عليكم " ب " لا " الناهيةِ وكسرِ الحاء ، وفتحِ اللامِ مِنْ يَحِلَّنَّ ، ونونِ التوكيد المشددة أي : لا تعرَّضوا للطُغْيان فيحقَّ عليكم غضبي ، وهو من باب " لا أُرَيَنَّك

ههنا " .

وقرأ زيدُ بن علي " ولا تَطْغُوا " بضم الغين مِنْ طغا يَطْغُوا ، كغَدا يَغْدو .

(53/500)

وقوله : ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ يجوز أن يكونَ مجزوماً عطفاً على " لا تَطْغَوا " كذا قال أبو البقاء ، وفيه نظر ؛ إذ المعنى ليس على نَهْيِ الغضبِ أن يَحِلَّ بهم . والثاني : أنَّه منصوبٌ بإضمارِ " أَنْ " في الجواب . وهو واضحٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 85. 87﴾

(54/500)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾

يُذَكِّرُهم آلاءَه ، ويعدُّ عليهم نعماءَه ، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكرِ لمَا أسبغ عليهم

من فنون النّعم ، ثم يذكرهم ما مَنَّ به على أسلافهم من إنزال المنّ والسلوى ، وضروب المِحَن وفنون البلوى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوا فِيهِ ﴾ الطيبُ ما كان حلالاً .

ويقال الطيب من الرزق ما لا يَعْصِي اللَّهَ مُكْتَسِبهُ . ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق . ويقال الطيب من الرزق ما حَصَل منه الشكرُ . ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبدُ من اللَّهِ ، فما لأهل الجنةِ مُؤَجّلٌ في عقباهم جهراً ، معجّلٌ لأصفيائه في دنياهم سِرّاً ، قال تعالى : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [الذاريات : 16] .

والأرزاقُ مختلفةٌ ؛ فلأقوام حظوظُ النفوس ولآخرين حقوقُ القلوب ، ولأقوام شهودُ الأسرار ؛ فرزق النفوس التوفيق ، ورزق القلوب التصديق ، ورزق الأرواح التحقيق .

قوله : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بمجاوزة الحلالِ إلى الحرام .

ويقال : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بالزيادة على الكفاف وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق .

ويقال : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ : بالأكل على الغفلة والنسيان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى ﴾ .

فيحل عليكم غضبي بالخذلان لمتابعة الزَّلَّة بعد الزَّلَّة .

ويقال فيحل عليكم غضبي لِفَقْدِكم التأسُّفَ على ما فاتكم .

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82) ﴾

(55/500)

الغفَّار كثيرُ المغفرة؛ فَمِنْك التوبةُ عن زلَّةٍ واحدةٍ ومنه المغفرة لذنوب كثيرةٍ، ومنه السِّرِّيةُ التي لا اطلاع لأحدٍ غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع. وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ، وهو يغفر لمنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة، وكما قالوا:

إني – على جَفَواتها – فبربِّها ... وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ

وأُحِبُّها وأُحِبَّ منزلَها الذي ... نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

قوله: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾: فلا تَصِحُّ التوبةُ إلا لمن يكون مؤمناً.

وقوله هنا: ﴿ وَءَامَنَ ﴾: أي آمن في المآل كما هو مؤمِنٌ في الحال.

ويقال آمن بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته، إنما نجاتُه برحمته.

ويقال ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ ﴾: مِنَ الزَّلَّة ﴿ وَءَامَنَ ﴾: فلم يَرَ أعماله من نَفْسه، وآمن بأن جميع الحوادثِ من الحقِّ – سبحانه – ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾: فلم يُخِلْ بالفرائض ثم اهتدى للسُّنَّةِ والجماعة.

ويقال ﴿ ثُمَّ ﴾ : للتراخي ؛ أي آمن في الحال " ثم " اهتدى في المآل .

ويقال مَنْ سَمِعَ منه ﴿ وَإِنِّي ﴾ لا يقول بعد ذلك : " إِنِّي " .

ويقال من شَغَلَه سماعُ قوله : ﴿ وإِنِّي ﴾ اسْتُهْلِكَ في استيلاءِ ما غَلَبَ عليه من ضياء القربة ، فإذا جاءت ﴿ لَغَفَّارٌ ﴾ صار فيه بعين المحو ، ولم يتعلق بذنوب أصحابه وأقاربه وكل من يعتني بشأنه .

ويقال ﴿ إني لغفار ﴾ كثير المغفرة لمن تاب مرةً ؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لم يَتُبْ منه سِرَّها وجَهْرِها ، صغيرها وكبيرِها ، وما يتذكر منها وما لا يتذكر . ولا ينبغي أَنْ يقولَ : علمت " عملاً صالحاً " : بل يلاحظ عَمَلَه بعينِ الاستصغار ، وحالته بغير الاستقرار .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ : أي اهتدى إلينا بنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 467 . 470﴾

(56/500)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

ثم رجع إلى قصة فرعون فقال : ﴿ وَلَقَدْ أريناه كُلَّهَا فَكَذَّبَ ﴾

يعني: العلامات والدلائل، ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بالآيات، ﴿ وأبى ﴾ أن يسلم.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون وقومه: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا موسى موسى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾، يعني: ميعاداً لا نخلفه ﴿ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَاناً سُوًى ﴾ أي: لا نجاوزه مكاناً سوى ذلك المكان، وهذه قراءة نافع؛ وأبي عمرو والكسائي وابن كثير يقرؤون بالكسر قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ سُوًى ﴾ بضم السين معناه الإنصاف، وقال بعضهم: سُوى وسِوَى لغتان، وقال مجاهد: مكاناً منصفاً بينهم، وقال السدي: أي: عدلاً بينهم وقال القتبي: أي: وسطاً بين الفريقين.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾، يعني: يوم عيد لهم وهو يوم النيروز؛ وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: هو يوم عاشوراء.

﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾، يعني: إذا حشر الناس واجتمعوا على وقت الضحى، ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ ﴾؛ يعني: رجع إلى أهله، ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾؛ يعني: سحرته، ﴿ ثُمَّ أتى ﴾؛ يعني: أتى الميعاد.

قرأ بعضهم: ﴿ يَوْمَ الزينة ﴾ بنصب الميم، والمعنى يقع في ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ وقراءة العامة يوم الزينة رفع على معنى خبر الابتداء.

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً ﴾، يعني: ضيّق الله عليكم الدنيا، لا تفتروا على الله كذباً قال الزجاج: ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ منصوب على أن ألزمهم الله ويلاً، ويجوز

أن يكون على النداء كما قال : ﴿ قَالَتْ يا ويلتا ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وهذا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود : 72] قوله ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ ، يعني : يأخذكم بعذاب ويهلككم .

(57/500)

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ بضم الياء وكسر الحاء ، والباقون ﴿ فَيَسْحَتَكُم ﴾ بالنصب ؛ وهما لغتان .

يقال : سحته وأسحته إذا استأصله وأهلكه .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ ، يعني : خسر من اختلق على الله كذباً .

﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : تناظروا أمرهم بينهم ، يعني : اختلفوا فيما بينهم سراً من فرعون وهم السحرة ، وقالوا فيما بينهم : إن كان ما يقول موسى حقاً واجباً فيكون الغلبة لموسى ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ ، يعني : تناظروا أمرهم بينهم .

فذلك قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ ، أي : أخفوا الكلام .

﴿ قَالُواْ إِنْ هاذان لساحران ﴾ ، يعني : موسى وهارون ، ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ

أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ لأن إن تنصب ما بعدها .

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص ﴿ إِنْ هاذان ﴾ بجزم إن وتشديد نون هذانّ عند ابن كثير خاصة ، والباقون إنَّ بالنصب والتشديد ﴿ هاذان لساحران ﴾ بالتخفيف .

وقال أبو عبيد : نقرأ بهذا ورأيت في مصحف عثمان ﴿ إن ﴾ بهذا الخط ليس فيه ألف ، وهكذا رأيت رفع الاثنين في جميع المصاحف بإسقاط الألف وإذا كتبوا بالنصب والخفض كتبوها بالياء .

وحكى الكسائي ، عن أبي الحارث بن كعب وخثعم وزيد وأهل تلك الناحية ، الرفع مكان النصب قال القائل :

أَي قلوص راكب تراها .

. . طاروا علاهن فطر علاها

وقال آخر :

إنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا .

. . قَدْ بَلَغَا فِي الْجدِّ غَايَتَاهَا

وقال آخر :

فَمَنْ يَكُ بِالْمَدِينَةِ أَمْسَى رَحْلُه .

.. فَإِنّي وَقَيّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

وروى وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم قالوا: كانوا يريدون أن الألف والياء في القراءة سواء ﴿ قَالُوا إِنْ هاذان لساحران ﴾ و﴿ إن ﴾ سواء.

وفي مصحف عبد الله ﴿ إِنْ هاذان ﴾ وفي مصحف أبي ﴿ إِنْ هاذان إلا ﴾.

(58/500)

ثم قال الله عز وجل: ﴿ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾، يقول برجالكم الأمثل، فالأمثل.

يقول: ليغلبا على الرجال من أهل العقول والشرف، وقال القتبي: يقال: هؤلاء طريقة القوم، أي: أشرافهم، ويقال: أراد سنتكم ودينكم، وقال الزجاج: معناه يذهبا بأهل طريقتكم، كما قال: ﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لصادقون ﴾ [يوسف: 82].

ثم قال عز وجل: ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾؛ قرأ أبو عمرو ﴿ فَأَجْمِعُوا ﴾ بجر الألف ونصب الميم، يعني: جيئوا بكل كيد تقدرون عليه، لا تبقوا منه شيئًا؛ وقرأ الباقون ﴿ فَأَجْمِعُوا ﴾ بقطع الألف وكسر الميم، ومعناه ليكن عزمكم كلكم على الكيد مجمعاً عليه

، ولا تختلفوا فتخذلوا ؛ وقال أبو عبيد : بهذا نقرأ ، لأن الناس عليها ولصحتها في العربية يقال : أجمعت الأمر واجتمعت عليه ؛ وإنما يقال : جمعت الشيء المتفرق فتجمّع .

﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ ، يعني : جميعاً .

قال أبو عبيد : الصف المصلى ؛ وقال الزجاج : ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم .

قال : ويجوز أن قوله ثم ائتوا مصطفين ، أي : مجتمعين ليكون أنظم لكم ولأمركم ، وأشد لهيبتكم .

﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ ، يعني : قد فاز ونجا اليوم من علا بالغلبة .

ثم جمع فرعون بينهم وبين موسى عليه السلام ﴿ قَالُواْ يا موسى ﴾ ، يعني : السحرة ، ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِىَ ﴾ ؛ يعني : أن تطرح عصاك على الأرض ، ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ﴾ إلى الأرض .

﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى : ﴿ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ ، فألقوا في الكلام مضمر .

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ ، يعني : تراءت إلى موسى ﴿ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ ، يعني : كأنها حيات .

وروي عن الحسن أنه كان يقرأ بالتاء ﴿ تُخَيَّلُ ﴾ لأن جمع العصي مؤنث ، وقراءة العامة بالياء يعني : سعيها .

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ ، يعني : أضمر في قلبه الخوف ، وخاف أن لا يظفر به إن صنع القوم مثل ما صنع ؛ ويقال : خاف من الحيات من جهة الطبع .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ ، يعني : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن لا تخف ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ يعني : الغالب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ ، يعني : اطرح ما في يمينك من العصا ، ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ ؛ يعني : تلقم ما عملوا .

﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ، يعني : عمل سحر .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بالجزم والتخفيف ؛ وقرأ ابن كثير في الروايتين ﴿ تَلْقَفْ ﴾ بالنصب والتشديد وضم الفاء ، وقرأ الباقون بجزم الفاء لأنه جواب الأمر ؛ وقرأ حمزة والكسائي ﴿ كَيْدَ سَاحر ﴾ بغير ألف ، وقرأ الباقون ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ، وقال أبو عبيد : بهذا نقرأ ، لأن إضافة الكيد إلى الرجل أولى من إضافته إلى السحر .

وقرأ بعضهم ﴿ كَيْدَ سَاحر ﴾ بنصب الدال جعله نصباً لوقوع الفعل عليه وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ؛ وهذا كقوله : إنما ضربت زيداً ؛ وقراءة العامة بالضم ،

لأنه خبر إن وما اسم ، ومعناه إن الذي صنعوه كيد سحار .

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ ، أي : حيثما عمل ؛ ويقال : لا يفوز حيثما كان وذهب .

قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ ، يعني : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وهذا قول الأخفش ؛ وقال الفراء والقتبي : وقعوا للسجود ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ يعني ، صدقنا به ﴿ قَالَ ﴾ لهم فرعون : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ ﴾ ، يعني : قبل أن آمركم ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ ، يعني : موسى لعالمكم .

﴿ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ؛ وإنما أراد به التلبيس على قومه ، لأنه علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، وإنما علموا السحر قبل قدوم موسى وقبل ولادته .

ثم قال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ ، اليد اليمنى والرجل اليسرى .

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ، يعني : على أصول النخل على شاطئ النيل ، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ ؛ يعني : وأدوم أنا أم رب موسى .

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ ، أي : لن نختار عبادتك وطاعتك ولن نتبع دينك ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا

مِنَ البينات ﴾ ، يعني : على دين الله بعدما جاءنا من العلامات ﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾ ، يعني : ولا عبادتك على عبادة الذي خلقنا ، ويقال : هو على معنى القسم ، أي : لن نختارك ودينك والذي فطرنا .

﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ ؛ يقول اصنع ما أنت صانع فاحكم فينا من القطع والصلب ما شئت .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا ﴾ ، يقول : لست بحاكم علينا ولا تملكنا إلا في الدنيا ما دام الروح فينا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا امَنَّا بِرَبّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ ، يعني : ما عملنا في حال الشرك ، ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ ؛ يعني : ليغفر لنا ما أجبرتنا عليه من السحر يروى أن فرعون أكرههم على تعلم السحر ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ ، يعني : الله خير لنا منك وأدوم ، وثواب الله عز وجل خير من عطائك وأبقى مما وعدتنا به من التعذيب .

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ أي : مشركاً ؛ والهاء للعباد وهذا قول الله تعالى عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم إنه من يأت ربه يوم القيامة كافراً ، ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ ، يعني : لا يموت فيستريح من العذاب ، ولا يحيى حياة تنفعه .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ ، يعني : يأتي يوم القيامة مؤمناً يعني : مصدقاً ، ﴿ قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ ؛ يعني : الطاعات .

﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ ، يعني : الفضائل في الجنة .

ثم قال : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ ، يعني : هي جنات عدن .

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ ، يعني : دائمين في الجنة .

﴿ وذلك جَزَاء مَن تزكى ﴾ ، يعني : ثواب من وحَّد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ ، يعني : سر بعبادي ليلاً ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً ﴾ ؛ يعني : بيِّن لهم طريقاً ﴿ فِى البحر يَبَساً ﴾ ، يعني : يابساً .

﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ يعني إدراك فرعون ، ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ الغرق .

قرأ حمزة : ﴿ لاَ تَخَفْ دَرَكاً ﴾ على معنى النهي ، يعني : لا تخف أن يدركك فرعون ؛ وقرأ الباقون ﴿ لاَّ تَخَافُ ﴾ بالألف ومعناه لست تخاف ؛ وقال أبو عبيد بهذا نقرأ ، لأن من قرأ بالجزم يلزم أن يخشى ، لأنه حرف معطوف على الذي قبله .

<p> ثم قال : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ ، يعني : لحقهم فرعون بجموعه ، ﴿ فَغَشِيَهُمْ مّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ؛ يعني : أصابهم من البحر ما أصابهم ؛ ويقال : علاهم من البحر ما علاهم حين التقى البحر عليهم ، ويقال : فغشيهم من البحر ما غرقهم .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ ، يعني : أهلكهم وما نجا بنفسه ، ويقال : أضلهم بحمله إياهم على الضلالة ، ﴿ وَمَا هدى ﴾ يعني : ما هداهم إلى الرشاد وهذا رد لقوله : ﴿ وَقَالَ الذى ءَامَنَ يا قوم اتبعون أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 38] ويقال : ﴿ وَمَا هدى ﴾ يعني : ما هداه إلى الصواب .

(62/500)

ثم ذكر نعمته على بني إسرائيل فقال عز وجل : ﴿ يا بنى إسراءيل قَدْ أنجيناكم مّنْ عَدُوّكُمْ ﴾ ، يعني : فرعون ، ﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ ؛ يعني : يمين موسى ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ حيث كانوا في التيه .

﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ ، يعني : قال لهم : كلوا من حلالات ما رزقناكم ، يعني : أعطيناكم .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ أَنجَيْتُكُمْ وَوَاعَدْتكُمْ مَا رَزَقْتُكُمْ ﴾ الثلاثة كلها بالتاء ؛ وقرأ ابن كثير وعاصم ونافع وابن عامر الثلاثة بالألف والنون ، وقرأ أبو عمرو بالتاء إلا قَوْلَهُ : ﴿ قَدْ أنجيناكم مّنْ عَدُوّكُمْ وواعدناكم ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ ، أي : لا ترفعوا منه شيئاً للغد ، ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى

﴾ ؛ يعني : فيجب وينزل عليكم عذابي .

﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى ﴾ ، يعني : يجب وينزل عليه غضبي ، ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ ؛

يعني : هلك وتردى في النار .

وقرأ الكسائي ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ بضم الحاء ومن ﴿ يَحْلِلْ ﴾ بضم اللام ، والباقون كلاهما

بالكسر .

فمن قرأ بالضم يعني : ينزل ، ومن قرأ بالكسر يعني : يجب .

﴿ وَإِنّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ ، يعني : رجع من الشرك والذنوب ﴿ وَامَنَ ﴾ يعني :

صدق بالله ورسله ، ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ ؛ يعني : خالصاً فيما بينه وبين ربه ، ﴿ ثُمَّ

اهتدى ﴾ ؛ يعني : علم أن لعمله ثواباً ؛ وهذا قول مقاتل .

وروى جويبر عن الضحاك في قوله ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ أي : ثم استقام ، وروى وكيع عن

سفيان قال ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ ، أي : مات على ذلك وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾

أي : مات على السنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 402.407 ﴾

(63/500)

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ﴾

يعني فرعون ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ يعني اليد والعصا والآيات التسع ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بها وزعم أنّها سحر ﴿ وأبى ﴾ أن يُسلم ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ يعني مصر ﴿ بِسِحْرِكَ يا موسى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ فاضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاتاً ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ لا نجاوزه ﴿ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوًى ﴾ مستوياً . قرأ الحسن وعاصم والأعمش وحمزة سُوى بضم السين ، الباقون : بكسر وهما لغتان مثل عُدي وعِدَي ، وطُوى وطِوى .

قال قتادة ومقاتل : مكاناً عدلاً بيننا وبينك ، وقال ابن عباس : صفاً ، وقال الكلبي : يعني سوى هذا المكان ، وقال أبو عبيد والقيسي : وسطاً بين الفريقين ، وقال موسى بن جابر الحنفي :

وإن أبانا كان حل ببلدة . . . سوىً بين قيس قيس عيلان والفزر

الفزر : سعد بن زيد مناة .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : يعني يوم عاشوراء .

وقال مقاتل والكلبي : يوم عيد لهم في كل سنة يتزّينون ويجتمعون فيه .

وروى جعفر عن سعيد قال : يوم سوق لهم ، وقيل : هو يوم النيروز .

وقرأ الحسن وهبيرة عن حفص يومَ الزينة بنصب الميم أي في يوم ، وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء والخبر.

﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ وقت الضحوة ، يجتمعون نهاراً جهاراً ليكون أبلغ في الحجة وأبعد من الريبة . ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ حِيلَه وسَحَرَتَه ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ الميعاد .

قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعون ساحراً مع كل واحد منهم حبل وعصا ، وقيل : كانوا أربعمائة.

﴿ قَالَ ﴾ موسى للسحرة ﴿ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم ﴾ قرأ أهل : الكوفة فيسُحِتكم بضم الياء وكسر الحاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء ، وهما لغتان : سحتَ وأسحت.

(64/500)

قال مقاتل والكلبي : فيهلككم ، وقال قتادة : فيستأصلكم ، وقال أبو صالح : يذبحكم ، قال الفرزدق :

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع . . . من المال إلاّ مسحت أو مجلف

﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ أي المناجاة تكون اسماً ومصدراً . ﴿ قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ عبد الله : واسرّوا النجوى إن هذان ساحران بفتح الألف وجزم نونه ساحران بغير لام ، وقرأ ابن كثير وحفص إن بكسر الالف وجزم النون هذان بالألف على معنى ما هذان إلاّ ساحران ، نظيره : قوله

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ [الشعراء : 186] قال الشاعر :

ثكلتك أُمكّ إن قتلتَ لمُسلماً . . . حلّت عليك عقوبة الرَّحْمن

يعني ما قتلت إلاّ مسلماً ، يدل على صحة هذه القراءة قراءة أُبي بن كعب : إن ذان إلاّ ساحران ، وقرأ عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمر بن علاء : إن هذين لساحران بالياء على الأصل ، قال أبو عمرو : واني لإستحي من الله أن أقرأ إنّ هذان ، وقرأ الباقون : إنّ بالتشديد هذان بالألف واختلفوا فيه ، فقال قوم بما أخبرنا أبو بكر بن عبدوس وعبد الله بن حامد قالا : حدّثنا أبو العباس الأصم قال : حدّثنا محمد بن الجهم السمري قال : حدّثنا الفرّاء قال : حدّثني أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها سئلت عن قوله سبحانه في النساء ﴿ لكن الراسخون ﴾ [النساء : 162] ﴿ والمقيمين ﴾ [النساء : 162] وعن قوله في المائدة ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئون ﴾ [المائدة : 69] وعن قوله ﴿ إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه : 63] فقالت : يا بن أخي هذا خطأ

من الكاتب .

وقال عثمان بن عفان : إنّ في المصحف لحناً وستقيمه العرب بألسنتهم .

(65/500)

وقال أبان : قرئت هذه الآية عند عثمان فقال : لحن وخطأ ، فقيل له : ألم تغيّره فقال : دَعُوه فإنّه لا يُحلّ حراماً ولا يحرّم حلالاً ، وقال آخرون : هذه لغة الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وكنانة يجعلون الأسين في رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف .

قال الفرّاء : أنشدني رجل من بني الأسد وما رأيت افصح منه .

وأطرق إطراق الشجاع ولو ترى . . . مساغاً لناباه الشجاع لصمما

ويقولون : كسرت يداه ، وركبت علاه ، بمعنى يديه وعليه . وقال الشاعر :

تزوّد منّا بين أُذناه ضربة . . . دعته إلى هابي التراب عقيم

أراد بين أُذنيه . وقال آخر :

أي قلوص راكب نراها . . . طاروا علاهنّ فطر علاها

أي عليهن وعليها . وقال آخر :

إنَّ أباها وأبا أباها . . . قد بلغا في المجد غايتاها

وروي أنّ أعرابياً سأل ابن الزبير شيئًا فحرّمه فقال : لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال ابن الزبير : إن وصاحبها ، يعني نعم . وقال الشاعر :

بكرتْ عليّ عواذلي يلحينني وألومهنّه . . . ويقلن شيبٌ قد علاك وقد كبرت فقلت إنّه

أي نعم ، وقال الفرّاء : وفيه وجه آخر : وهو أن يقول : وجدت الألف دعامة من هذا على حالها لا تزول في كل حال ، كما قالت العرب : الذي ثمّ زادوا نوناً يدلّ على الجمع فقالوا : الذين في رفعهم ونصبهم وخفضهم وكناية تقول : اللّذُونَ .

﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ مصر ﴿ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾

حدّث الشعبي عن عليّ قال : يصرفا وجوه الناس إليهما وهي بالسريانية .

وقال ابن عباس : يعني بسراة قومكم وأشرافكم وقال مقاتل والكلبي : يعني الأمثل فالأمثل من ذوي الرأي والعقول .

وقال عكرمة : يعني يذهب أخياركم .

وقال قتادة : طريقتكم المُثلى يومئذ ، بنو إسرائيل كانوا أكثر القوم عدداً يومئذ وأموالاً ، فقال عدو الله : إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما .

وقال الكسائي : بطريقتكم يعني بسنّتكم وهديكم وسمتكم ، والمثلى نعت للطريقة ، كقولك امرأة كبرى ، تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى يعني على الهدى المستقيم .

قال الشاعر :

فكم متفرقين منوا بجهل . . . حدى بهم إلى زيغ فراغوا

وزيغ بهم عن المثلى فتاهوا . . . وأورطهم مع الوصل الرداغُ

فزلّت فيه أقدام فصارت . . . إلى نار غلا منها الدماغ

والمثلى تأنيث الأمثل .

﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ قرأ أبو عمرو فاجمعوا بوصل الألف وفتح الميم ، من الجمع يعني لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به ، وتصديقه قوله : فجمع كيده ، وقرأ الباقون : فأجمعوا بقطع الألف وكسر الميم وله وجهان : أحدهما : بمعنى الجمع ، يقول العرب : أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد . قال أبو ذؤيب :

فكأنّه بالجزع جزع يتابع . . . وأولاه ذي العرجاء تهب مجمّع

والثاني : بمعنى العزم والأحكام ، يقول : أجمعت الأمر وأزمعته ، وأجمعت على الأمر وأزمعت عليه إذا عزمت عليه . قال الشاعر :

ياليت شعري والمنى لا تنفع . . . هل أغدونْ يوماً وأمري مجمع

أي محكم ، وقد عزم عليه كيدكم ومكركم وسحركم وعلمكم .

﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ قال مقاتل : والكلبي : جميعاً ، وقيل : صفوفاً ، وقال أبو عبيد : يعني المصلّى والمجتمع ، وحُكي عن بعض العرب الفصحاء : ما استطعت أن آتي الصفّ أمس ، يعني المصلّى .

﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليومَ مَنِ استعلى ﴾ يعني فاز من غلب .

(67/500)

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني السحرة ﴿ يا موسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلقى ﴾ عصاه ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ وهو جمع العصا ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ قرأ ابن عامر بالتاء ، ردّه إلى الحبال والعصيّ ، وقرأ الباقون : بالياء ردّوه إلى الكيد أو السحر ، ومعناه شبّه إليه من سحرهم حتى ظنّ ﴿ أَنَّهَا تسعى ﴾ أي تمشي ، وذلك أنّهم كانوا لطّخوا حبالهم وعصيّهم بالزئبق فلمّا أصابه حرّ الشمس ارتهشت واهتزت فظنّ موسى أنها تقصده ﴿ فَأَوْجَسَ ﴾ أي أحسَّ ووجد ، وقيل : أضمر ﴿ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ قال مقاتل : إنّما خاف موسى إذ صنع القوم مثل صنيعه ان يشكّوا فيه فلا يتبعوه ويشك فيه من تابعه .

﴿ قُلْنَا ﴾ لموسى ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ الغالب ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾

يعني العصا ﴿ تَلْقَفْ ﴾ تلتقم وتلتهم ﴿ مَا صنعوا إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ يعني إنّ الذي صنعوا ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ قرأ أهل الكوفة بكسر السين من غير ألف ، وقرأ الباقون : ساحر بالألف على فاعل ، واختاره أبو عبيد ، قال : لأنّ إضافة الكيد إلى الرجل أولى من إضافته إلى السّحر وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية .

﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى ﴾ من الأرض ، وقيل : معناه حيث احتال .

﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ يعني به كقوله ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ لرئيسكم ومعلّمكم ﴿ الذي عَلَّمَكُمُ السحر فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ يعني الرجل اليسرى واليد اليمنى ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ يعني جذوع النخل ، قال سويد بن أبي كاهل :

وهم صلبوا العبدي في جذع نخلة . . . فلا عطست شيبان إلاّ بأجدعا

(68/500)

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً ﴾ أنا أو ربّ موسى ﴿ وأبقى * قَالُواْ ﴾ يعني السحرة ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ قال مقاتل : يعني اليد والعصا .

وأخبرنا البيهقي والاصفهاني قالا : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا أبو الأزهر ، قال : حدّثنا روح قال : حدّثنا هشام بن أبي عبد الله عن القاسم بن أبي برزة قال : جمع فرعون سبعين ألف ساحر ، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل موسى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوحى الله سبحانه أن ألق عصاك ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغرفاه ، فابتلع حبالهم وعصيّهم وأُلقي السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها ، عند ذلك قالوا ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلى مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ يعني الجنة والنار وما رأوا من ثوابهم ودرجاتهم .

قال : وكانت امرأة فرعون تسأل : من غلب ؟ فيقال : غلب موسى ، فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها فأتوها فإنْ هي رجعت عن قولها فهي امرأته ، وإنْ هي مضت على قولها فألقوا عليها الصخرة ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها ، والقيت على جسد لا روح فيه .

﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ يعني وعلى الذي خلقنا ، وقيل : هو قسم ﴿ فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ فاحكم ما أنت حاكم ، واصنع ما أنت صانع من القطع والصلب ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ ﴾ يقول : إنّما تملكنا في الدنيا ليس لك علينا سلطان إلاّ في الدنيا ﴿ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ قال مقاتل : كانت السحرة اثنين وسبعين ساحراً ، اثنان منهم

من القبط وهما رأسا القوم ، وسبعون منهم من بني إسرائيل ، وكان فرعون أكره أُولئك السبعين الذين هم من بني إسرائيل على تعلّم السحر .

(69/500)

وقال عبد العزيز بن أبان : إنّ السحرة قالوا لفرعون : أرنا موسى إذا نام ، فأراهم موسى نائماً وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون : انَّ هذا ليس بسحر ، إنّ الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى عليهم إلاّ أن تعلموا فذلك قوله ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ منك لأنّك فان هالك ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ ﴾ في الآخرة ﴿ مُجْرِماً ﴾ مشركاً يعني بات على الشرك ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ حياةً تنفعه .

﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ مات على الإيمان ﴿ قَدْ عَمِلَ الصالحات فأولئك لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ الرفيعة في الجنة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك جَزَآءُ مَن تزكى ﴾ أي صلح ، وقيل : تطهّر من الكفر والمعاصي . وقال الكلبي : يعني أعطى زكاة نفسه وقال : لا إله إلاّ الله .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ أي سر بهم أول الليل من أرض مصر .

﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ يابساً ليس فيه ماء ولا طين ﴿ لاَّ تخَافُ دَرَكاً ﴾ من فرعون خلفك ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ غرقاً من البحر أمامك ، وقرأ حمزة : لا تخف بالجزم على النهي ، الباقون : بالألف على النفي ، واختاره أبو عبيد لقوله : ولا تخشى رفعاً ودليل قراءة حمزة قوله : "يولوكم الأدبار ثمّ لا تنصرون" فاستأنف ، قال الفرّاء : ولو نوى حمزه بقوله : ولا تخشى الجزم ، لكان صواباً . وقال الشاعر :

هجوت زماناً ثم ملت معتذراً . . . من سب زمان لم يهجُو ولم يذع

وقال آخر :

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبوت بني زياد

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ فلحقهم ﴿ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ ﴾ أصابهم ﴿ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ أي وما هداهم إلى مراشدهم ، وهذا جواب قول فرعون : ما أُريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم ألاّ سبيل الرشاد ، فكذّبه الله تعالى فقال : بل أضلهم وما هداهم .

قال وهب : استعار بنو إسرائيل حلياً كثيراً من القبط ثم خرج بهم موسى من أول الليل ،

وكانوا سبعين ألفاً فأخبر فرعون بذلك فركب في ستمائة ألف من القبط يقص أثر موسى ، فلمّا رأى قوم موسى رهج الخيل قالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فقال موسى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] فلمّا قربوا قالوا : يا موسى أين نمضي ؟ البحر أمامنا وفرعون خلفنا ، فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فصار فيه اثنتا عشرة طريقاً يابسة ، لكل سبط طريق ، وصار بين كل طريقين كالطود العظيم من الماء ، وكانوا يمرّون فيه وكلّهم بنو أعمام فلا يرى هذا السبط ذاك ولا ذاك هذا ، فاستوحشوا وخافوا فأوحى الله سبحانه إلى أطواد الماء أن تشبّكي ، فصارت شبكات يرى بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم كلام بعض .

فلمّا اتى فرعون الساحل وجد موسى وبني إسرائيل قد عبروا فقال للقبط : قد سحر البحر فمرّ ، فقالوا له : إن كنت ربّاً فادخل البحر كما دخل ، فجاء جبرئيل على رمكة وديق ، وكان فرعون على حصان ، وهو الذكر من الأفراس ، فأقحم جبرئيل الرمكة في الماء ، فلم يتمالك حصان فرعون واقتحم البحر على أثرها ودخل القبط عن آخرهم ، فلمّا تلجّجوا أوحى الله سبحانه إلى البحر أن غرّقهم ، فعلاهم الماء وغرّقهم .

قال كعب : فعرف السامري فرس جبرئيل ، فحمل من أثره تراباً وألقاه في العجل حين اتّخذه .

﴿ يا بني إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ وقد مرّ ذكره ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى * كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ هذه قراءة العامة بالنون والألف على التعظيم، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي: أنجيتكم ووعدتكم ورزقتكم من غير ألف على التوحيد والتفريد ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ ﴾ حلال ﴿ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ قال ابن عباس: ولا تظلموا، وقال مقاتل: ولا تعصوا، وقال الكلبي: ولا تكفروا النعمة، وقيل: ولا تحرّموا الحلال، وقيل: ولا تنفقوا في معصيتي، وقيل: ولا تدّخروا، وقيل: ولا تتقووا بنعمي على معاصيّ.

﴿ فَيَحِلَّ ﴾ يجب ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ ﴾ يجب ﴿ عَلَيْهِ غَضَبِي ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائي: فيُحل ومن يُحلل بضم الحاء واللام أي ينزل.

﴿ فَقَدْ هوى ﴾ هلك وتردّى في النار ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ من دينه ﴿ وَآمَنَ ﴾ بربّه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحَاً ﴾ فيما بينه وبين الله ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ .

قال قتادة وسفيان الثوري: يعني لزم الإسلام حتى مات عليه.

وقال زيد بن أسلم: تعلّم العلم ليهتدي كيف يعمل.

وقال الشعبي ومقاتل والكلبي: علم أنّ لذلك ثواباً.

وقال فضيل الناجي وسهل التستري : أقام على السنّة والجماعة .

وقال الضحاك : يعني استقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 249 . 256 ﴾

(72/500)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) ﴾

أَرَيْنَاهُ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها . وإنما كذب لظلمه ، كقوله تعالى وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً وقوله تعالى لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وفي قوله تعالى آياتنا كُلَّهَا وجهان ، أحدهما : أن يحذى بهذا التعريف الإضافى حذو التعريف باللام لو قيل الآيات كلها ، أعنى أنها كانت لا تعطى إلا تعريف العهد ، والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام : العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل . والثاني : أن يكون موسى قد أراه آياته وعدّد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من

آياتهم ومعجزاتهم ، وهو نبىّ صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به ، فكذبها جميعا وَأَبى أن يقبل شيئًا منها . وقيل :

(73/500)

فكذب الآيات وأبى قبول الحق .

[سورة طه (20) : آية 57]

قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (57)

يلوح من جيب قوله أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ أن فرائصه كانت ترعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام ، لعلمه وإيقانه أنه على الحق ، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لا محالة . وقوله بِسِحْرِكَ تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر .

[سورة طه (20) : الآيات 58 إلى 60]

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ

ثُمَّ أَتى (60)

لا يخلو الموعد في قوله فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً من أن يجعل زمانا أو مكانا أو مصدرا . فإن جعلته زمانا نظرا في أن قوله تعالى مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ مطابق له ، لزمك شيئان أن تجعل الزمان مخلفا ، وأن يعضل عليك ناصب مكانا : وإن جعلته مكانا لقوله تعالى مَكاناً سُوىً لزمك «1» . أيضا أن توقع الإخلاف على المكان ، وأن لا يطابق قوله مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ

---

(1) . قال محمود : «إن جعلت موعدا الأول اسم مكان ليطابق قوله مكانا سوى لزمك . . . الخ» قال أحمد :

وفي إعماله وقد وصف بقوله لا نُخْلِفُهُ بعد ، إلا أن تجعل الجملة معترضة ، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد ، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة يجيزها ، الشأن أن تكون صفة ، والله أعلم . ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم ، وهو أن يجعل موعدا اسم مكان فيطابق مكانا ، ويكون بدلا منه ، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره ، ويبقى عود الضمير ، فنقول : هو والحالة هذه عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان ، لأن حروفه فيه . والموعد إذا كان اسم مكان فحاصله مكان وعد ، كما إذا كان اسم زمان فحاصله زمان وعد . وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه وإن لم يكن منطوقا به بوجه ، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى . ومما يحقق ذلك أنهم قالوا : من صدق كان خيرا له . يعنون : كان الصدق خيرا له ، فأعادوا الضمير على المصدر وقدروه منطوقا به

للنطق بالفعل الذي هو مشتق منه . وإذا أوضح ذلك فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه ، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره والله أعلم . وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء لأنه سئل أن يواعدهم مكانا فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضا ، فأسلف الجواب عنه وضمنها جوابا مفردا ، ولقائل أن يقول : إن كان المسئول منه المواعدة على المكان فلم أجاب بالزمان الذي لم يسئل عنه صريحا ، وجعل جواب ما سئل عنه مضمنا . وجوابه – والله أعلم – أن يقال اكتفى بقرينة السؤال عن صريح الجواب . وأما ما لم يسئل عنه فلو ضمنه لم يفهم قصده إليه ، إذ لا قرينة تدل عليه والله أعلم .

(74/500)

وقراءة الحسن غير مطابقة له مكانا وزمانا جميعا ، لأنه قرأ يَوْمُ الزِّينَةِ بالنصب ، فبقى أن يجعل مصدرا بمعنى الوعد ، ويقدر مضاف محذوف ، أي : مكان موعد ، ويجعل الضمير في نُخْلِفُهُ للموعد ومَكَاناً بدل من المكان المحذوف . فإن قلت . فكيف طابقه قوله مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ولا بد من أن تجعله زمانا ، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان ؟ قلت :

هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظا ، لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه ، مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم ، فبذكر الزمان علم المكان . وأما قراءة الحسن فالموعد فيها مصدر لا غير . والمعنى : إنجاز وعدكم يوم الزينة . وطباق هذا أيضا من طريق المعنى . ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ، ويكون المعنى : اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه . فإن قلت :

فبم ينتصب مكانا ؟ قلت : بالمصدر . أو بفعل يدل عليه المصدر . فإن قلت : فكيف يطابقه الجواب ؟

قلت : أما على قراءة الحسن فظاهر . وأما على قراءة العامة فعلى تقدير : وعدكم وعد يوم الزينة .

ويجوز على قراءة الحسن أن يكون مَوْعِدُكُمْ مبتدأ ، بمعنى الوقت . وضُحًى خبره ، على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه . وقيل في يوم الزينة : يوم عاشوراء ، ويوم النيروز «1» ، ويوم عيد كان لهم في كل عام ، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم . قرئ نُخْلِفُهُ بالرفع على الوصف للموعد . وبالجزم على جواب الأمر . وقرئ سُوىً وسوى ، بالكسر والضم ، ومنونا وغير منون . ومعناه : منصفا بيننا «2» وبينك عن مجاهد ، وهو من الاستواء لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها . ومن لم ينون فوجهه أن يجرى الوصل مجرى الوقف . قرئ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ بالتاء والياء . يريد :

وأن تحشر يا فرعون . وأن يحشر اليوم . ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة إما على العادة التي يخاطب بها الملوك ، أو خاطب القوم بقوله مَوْعِدُكُمْ وجعل يُحْشَرَ لفرعون . ومحل أَنْ يُحْشَرَ الرفع أو الجرّ ، عطفا على اليوم أو الزينة : وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة اللّه وظهور دينه وكبت الكافر «3» وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق ، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

[سورة طه (20) : آية 61]

قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (61)

---

(1) . قوله «ويوم النيروذ» لعله النيروز بالزاي كعبارة غيره . (ع)

(2) . قوله «منصفا بيننا» أي وسطا ، كما في الصحاح. (ع)

(3) . قوله «وكبت الكافر» أي إذلاله . أفاده الصحاح. (ع)

لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا . قرئ فَيُسْحِتَكُمْ والسحت لغة أهل الحجاز . والإسحات : لغة أهل نجد وبنى تميم . ومنه قول الفرزدق :

. . . . . . إلّا مسحتا أو مجلّف

في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه «1» :

[سورة طه (20) : الآيات 62 إلى 64]

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (62) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (64)

عن ابن عباس : إن نجواهم : إن غلبنا موسى اتبعناه . وعن قتادة : إن كان ساحرا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر . وعن وهب لما قال وَيْلَكُمْ . . . الآية قالوا : ما هذا بقول ساحر .

والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول ، ثم قالوا : إن هذان لساحران . فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره ، خوفا من غلبتهما . وتثبيطا للناس عن اتباعهما . قرأ أبو عمرو إِنْ هذانِ لَساحِرانِ على الجهة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : إن هذان لساحران ، على قولك : إن زيد لمنطلق . واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة .

وقرأ أبيّ : إن ذان إلا ساحران . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران : بفتح أن وبغير لام ، بدل من النجوى . وقيل في القراءة المشهورة إِنْ هذانِ لَساحِرانِ هي لغة بلحرث بن كعب ، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف ، كعصا وسعدى ، فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب . وقال بعضهم : إِنْ بمعنى نعم . ولَساحِرانِ خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلة على الجملة تقديره : لهما ساحران . وقد أعجب به أبو إسحاق . سموا مذهبهم الطريقة الْمُثْلى والسنة الفضلى ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وقيل : أرادوا أهل طريقتهم المثلى ، وهم بنو إسرائيل ، لقول موسى فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وقيل «الطريقة» اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم . يقال : هم طريقة قومهم . ويقال للواحد أيضا : هو طريقة قومه فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ يعضده قوله فَجَمَعَ كَيْدَهُ وقرئ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ أى أزمعوه واجعلوه مجمعا عليه ، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم ، كالمسألة المجمع عليها . أمروا بأن يأتوا

---

(1) . قوله «في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه» هو قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

والمسحت : المهلك . والمجلف : الذي أخذ من جوانبه ، كما في الصحاح . (ع)

صفا لأنه أهيب في صدور الرائين. وروى أنهم كانوا سبعين ألفا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقد أقبلوا إقبالة واحدة. وعن أبى عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى، لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علما لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه. أو يراد.

ائتوا مصلى من المصليات وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى اعتراض. يعنى: وقد فاز من غلب.

[سورة طه (20) : الآيات 65 إلى 66]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (65) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (66)

أَنْ مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر. أو مرفوع بأنه خبر مبتدإ محذوف. معناه: اختر أحد الأمرين، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا. وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم «1»، وكأن اللّه عز وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات اللّه عليه اختيار إلقائهم أولا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر. ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا: أظهر اللّه سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين. يقال في

«إذا» هذه : إذا المفاجأة . والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت ، الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف إليها ، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة الجملة ابتدائية لا غير ، فتقدير قوله تعالى فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم . وهذا تمثيل . والمعنى :

على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى . وقرئ عِصِيُّهُمْ بالضم وهو الأصل ، والكسر إتباع ، ونحوه : دلىّ ودلىّ ، وقسىّ وقسىّ . وقرئ «تخيل» على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال قوله أَنَّها تَسْعى من الضمير بدل الاشتمال ، كقولك : أعجبنى زيد كرمه ، وتخيل على كون الحبال والعصىّ مخيلة سعيها . وتخيل . بمعنى تتخيل . وطريقه طريق تخيل . ونخيل : على أنّ اللّه تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء . يروى أنهم لطخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت ، فخيلت ذلك .

---

(1) . قال محمود : «لقد ألهمهم اللّه حسن الأدب مع موسى عليه السلام في تخييره وإعطاء النصفة من أنفسهم» قال أحمد : وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ ففوضوا ضرب الموعد إليه ، وكما ألهم اللّه عز وجل موسى هاهنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفا بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلج على رؤس الأشهاد ، فيكون أفصح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم ، واللّه أعلم

[سورة طه (20) : الآيات 76 إلى 69]

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (67) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (68) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (69)

إيجاس الخوف: إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأة يسيرة «1» منه، وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله. وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلوّ وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل. وقوله ما فِي يَمِينِكَ ولم يقل عصاك «2»: جائز أن يكون تصغيرا لها، أى: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك، فإنه بقدرة اللّه يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها. وجائز أن يكون تعظيما لها «3» أى: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة، فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن اللّه ويمحقها. وقرئ تَلْقَفْ بالرفع على الاستئناف. أو على الحال، أى:

ألقها متلقفة. وقرئ: تلقف، بالتخفيف «4». صَنَعُوا هاهنا بمعنى زوّروا وافتعلوا، كقوله

---

(1). قوله «نبأة يسيرة» في الصحاح «النبأة»: الصوت الخفي. (ع)

(2). قال محمود: «وقال ما في يمينك ولم يقل عصاك... الخ» قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة تحقير كيد السحرة بطريق الأولى لأنها إذا كانت أعظم منه وهي حقيرة في جانب قدرة اللّه تعالى، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة؟ ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه، فصغر اللّه أمر العصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

(3). عاد كلامه. قال محمود: «ويجوز أن يكون تعظيما لأمرها إذ فيه تثبيت لقلب موسى على النصر» قال أحمد:

وهاهنا لطيفة: وهو أنه تلقى من هذا النظم أولا قصد التحقير، وثانيا قصد التعظيم، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين وتلك - واللّه أعلم - هي إرادة المذكور مبهما، لأن ما في يمينك أبهم من عصاك. وللعرب مذهب في التنكير والإبهام والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرة لتعظيم شأنه وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان يعنى فيه الرمز والاشارة، فهذا هو الوجه في

إسعاده بهما جميعا .

وعندي في الآية وجه سوى قصد لتعظيم والتحقير واللّه أعلم ، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من اللّه تعالى عند ما سأله عنها بقوله تعالى وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها قال تعالى وألق ما في يمينك ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال اللّه تعالى له وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيها له وتأنيسا حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها ، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(4) . قوله «و قرئ تلقف بالتخفيف» عبارة النسفي : تلقف بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف : حفص .

وتلقف : ابن ذكوان . الباقون تلقف ، فليحرر . (ع)

(78/500)

تعالى تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قرئ كَيْدُ ساحِرٍ بالرفع والنصب . فمن رفع فعلى أنّ ما موصولة . ومن نصب فعلى أنها كافة . وقرئ : كيد سحر ، بمعنى : ذى سحر : أو ذوى سحر . أو

هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته. أو بين الكيد «1» ، لأنه يكون سحرا وغير سحر ، كما تبين المائة بدرهم. ونحوه: علم فقه ، وعلم نحو. فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت: لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد ، فلو جمع ، لخيل أنّ المقصود هو العدد.

ألا ترى إلى قوله وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ أى هذا الجنس. فإن قلت: فلم نكر أوّلا وعرف ثانيا؟

قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف ، لا من أجل تنكيره في نفسه ، كقول العجاج:

في سعى دنيا طالما قد مدّت «2»

وفي حديث عمر رضى اللّه عنه «لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة»»

المراد تنكير الأمر ، كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري. وفي سعى دنيوى. وأمر دنيوى وآخري حَيْثُ أَتى كقولهم:

حيث سير ، وأية سلك ، وأينما كان.

[سورة طه (20): آية 70]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (70)

سبحان اللّه ما أعجب أمرهم. قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! «4» وروى أنهم لم يرفعوا رؤسهم

---

(1) . قوله «أو بين الكيد» لعله بعده سقطا تقديره «بالسحر» . (ع) [. . . . .]

(2) الحمد للّه الذي استقلت باذنه السماء واطمأنت

باذنه الأرض وما تعنت أوحى لها القرار فاستقرت

وشدها بالراسيات الثبت والجاعل الغيث غياث الأمت

والجامع الناس ليوم البعث بعد الممات وهو محيى الموت

يوم ترى النفوس ما أعدت من نزل إذا الأمور غبت

في سعى دنيا طالما تعنت

استقلت : ارتفعت . واطمأنت : انخفضت . وفي الشعر التضمين . والتعنت : الاتعاب أو التأخر والتثاقل ، من العنا وهو التعب . وأوحى لها : ألهمها . واثبت : جمع ثابت ، والوقف على هاء التأنيث ، كالأمت بالتاء قليل .

والموت : جمع مائت . والنزل : ما يعد للضيف ، استعارة لما يقدمه الإنسان من الأعمال . وغبت : بلغت غبها وغايتها . وفي سعى : متعلق به ، أو بتعنت بعده ، أى : تعبت أو أتعبت . وضمن على المعنى الأول للنفوس ، وعلى الثاني للدنيا ، ونكرها لتنكير السعى دلالة على التقليل ، أى : في سعي دنيوى قليل .

(3) . ذكره صاحب النهاية بغير إسناد . وفي الباب عن ابن مسعود . وسيأتى في أَلَمْ نَشْرَحْ أتم من هذا .

(4) . قال محمود : «سبحان من فرق بين الالقاءين إلقائهم حبالهم وعصيهم . . . الخ»

قال أحمد : وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل : فسجد السحرة ، إيقاظ السامع لألطاف اللّه تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الايمان والسداد ، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين ، وهو يناسب ما قدمته آنفا في إيجاز الخطاب في قوله وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ ، وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ فتأمله فان الحق حسن متناسب ، واللّه الموفق .

(79/500)

حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجدا أراهم اللّه في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة .

[سورة طه (20) : آية 71]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71)

لَكَبِيرُكُمُ لعظيمكم ، يريد : أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم . أو لمعلمكم ، من قول أهل مكة للمعلم : أمرنى كبيرى ، وقال لي كبيرى : كذا يريدون معلمهم وأستاذهم في

القرآن وفي كل شيء . قرئ فَلَأَقْطَعَنَّ وَلَأُصَلِّبَنَّ . بالتخفيف . والقطع من خلاف : أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، لأنّ كل واحد من العضوين خالف الآخر ، بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال . و«من» لابتداء الغاية : لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو ، لا من وفاقه إياه . ومحل الجار والمجرور النصب على الحال ، أى : لأقطعنها مختلفات ، لأنها إذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف . شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه ، فلذلك قيل فِي جُذُوعِ النَّخْلِ . أَيُّنا يريد نفسه لعنه اللّه وموسى صلوات اللّه عليه بدليل قوله آمَنْتُمْ لَهُ واللام مع الإيمان في كتاب اللّه لغير اللّه تعالى ، كقوله تعالى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وفيه نفاجة «1» باقتداره وقهره ، وما ألفه وضرى به : من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع لموسى عليه السلام ، واستضعاف له مع الهزء به : لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء .

[سورة طه (20) : الآيات 72 إلى 76]

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

(1) . قوله «و فيه نفاجة» في الصحاح «رجل نفاج» إذا كان صاحب فخر وكبر. (ع)

(80/500)

وَالَّذِي فَطَرَنا عطف على ما جاءنا أو قسم. قرئ تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، كقولك في «صمت يوم الجمعة»: «صيم يوم الجمعة» وروى أن السحرة - يعنى رؤسهم - كانوا اثنين وسبعين: الاثنان من القبط، والسائر من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر. وروى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائما ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا:

ما هذا بسحر الساحر، لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه تَزَكَّى تطهر من أدناس الذنوب. وعن ابن عباس: قال لا إله إلا اللّه. قيل في هذه الآيات الثلاث: هي حكاية قولهم. وقيل: خبر من اللّه، لا على وجه الحكاية.

[سورة طه (20) : الآيات 77 إلى 79]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ

فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (79)

فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فاجعل لهم، من قولهم: ضرب له في ماله سهما. وضرب اللبن: عمله.

اليبس: مصدر وصف به. يقال: يبس يبسا ويبسا «1». ونحوهما: العدم والعدم. ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا يبس، وناقتنا يبس: إذا جف لبنها. وقرئ: يبسا، ويابسا.

ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففا عن اليبس. أو صفة على فعل. أو جمع يابس، كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيدا، كقوله:

...... ومعى جياعا «2»

---

(1). قال محمود: «قرئ بسكون الباء وبفتحها ... الخ» قال أحمد: ووجه آخر وهو أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقا، وقد كانت بهذه المثابة لأنها كانت اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق، والله أعلم.

(2) كأن قتود رحلي حين ضمت حوالب غرزا ومعى جياعا

على وحشية خذلت حلوج وكان لها طلا طفل فضاعا

فكرت تبتغيه فصادفته على دمه ومصرعه السباعا

للقطامى في مدح زفر بن الحرث الكلابي. والقتود: عيدان الرحل: جمع أقتاد: جمع قتد.

والحالبان. عرقان يكتنفان السرة. والغرز: جمع غارز - بتقديم الراء - قليلات اللبن، ضد الغزر بتقديم الزاى. والمعي: مجرى الطعام في البطن من الحوايا. وصفه بصورة الجمع - وهو جياعا - مبالغة. والمعنى: جائعا. وهذا كناية عن هزال الناقة من شدة السير. وفيه إيماء لفقره وفاقته. و«على وحشية» خبر كان. والوحشية: الظبية. وخذلت: صفتها، أى: تركها سرب الظباء. وخلوج: صفة أخرى. وخلج واختلج: اضطرب وذهب. وخلجه واختلجه: انتزعه واجتذبه. والخلوج: التي اختلج ولدها من الظباء أو الإبل. أو التي اختلج قلها لعدم رؤيته. والطلاء: ولد الظبية ونحوها من ذوات الظلف، طفل: أى صغير، فكرت: رجعت بسرعة تطلبه. والسباع: بدل إضرابى انتقالي من ضمير صادفته. أو نصب بمضمر دل عليه صادفته، أى: صادفت السباع واقفة على دمه ومصرعه، أى:

محل طرحه على الأرض. شبه النافة بها في تلك الحال لسرعتها ويقظتها.

(81/500)

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع لا تَخافُ حال من الضمير في فَاضْرِبْ وقرئ: لا تخف، على الجواب. وقرأ أبو حيوة دَرَكاً بالسكون. والدرك والدرك: اسمان من الإدراك، أى:

لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك. في وَلا تَخْشى إذا قرئ: لا تخف، ثلاثة أوجه: أن يستأنف، كأنه قيل وأنت لا تخشى، أى: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا وأن يكون مثله قوله:

كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا «1»

ما غَشِيَهُمْ من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أى: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله. وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم. والتغشية: التغطية.

وفاعل غشاهم: إما الله سبحانه. أو ما غشاهم. أو فرعون، لأنه الذي ورّط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله وَما هَدى تهكم به «2» في قوله وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ.

[سورة طه (20): الآيات 80 إلى 81]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (81)

---

(1) وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

وظل نساء الحي حولي ركدا يراودن منى ما تريد نسائيا

لعبد يغوث بن وقاص الحارثي ، أسر يوم الكلاب في بنى تميم ، فقال قصيدة يذكر فيها حاله منها ذلك. والشيخة :

العجوز. والعبشمية : المنسوبة لعبد شمس. وهو باب من النحت. وأثبت الألف في «ترى» مع أنه مجزوم لضرورة الوزن ، أو للاتساع. وقيل إنها عين الفعل. وأصله ترای حذفت لامه للجزم. ونقلت حركة الهمزة للراء ، وأبدلت الفاء. وحكى إعمال «لم» للنصب. وحكى أيضا إهمالها. وقياس النسبة إلى «يمن» : «يمنى» لكنهم حذفوا إحدى ياءى النسب وعوضوا عنها الألف ، وكان الذي يقوده صبيا ، فسألته : من أنت؟ فقال : سيد القوم ، فضحكت منه. والركد ـ كركع ـ : جمع راكدة ، أى مقيمة لا تذهب من عنده. والمراودة : مفاعلة من راد يرود إذا تعرف حال المكان متطلبا للخصب ، وهو قريب من معنى أراد يريد ، أى : يتطلبن منى بلطف واختبار :

هل أرضى أولا؟ الشيء الذي تريده نسائي منى ، وهو الجماع.

(2). قال محمود : «إنما قيل وما هدى تهكما به» قال أحمد : فان قلت : التهكم أن يأتى بعبارة والمقصود عكس مقتضاها ، كقولهم : إنك لأنت الحليم الرشيد ، وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين. وأما قوله تعالى وَما هَدى فمضمونه هو الواقع ، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه. قلت : هو كذلك ، ولكن العرف مثل ما هدى زيد عمرا ثبوت كون زيد عالما بطريق الهداية ، مهتديا في نفسه ، ولكنه لم يهد عمرا. وفرعون أضل

الضالين في نفسه ، فكيف يتوهم أنه يهدى غيره . وتحقيق ذلك : أن قوله تعالى وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ كاف في الاخبار بعدم هدايته لهم مع مزيد إضلاله إياهم ، فان من لا يهدى قد لا يضل ، فيكون كفافا . وإذا تحقق غناء الأول في الاخبار ، تعين كون الثاني لمعنى سواه ، وهو التهكم . واللّه أعلم .

(82/500)

يا بَنِي إِسْرائِيلَ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون . وقيل : هو للذين كانوا منهم في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منّ اللّه عليهم بما فعل بآبائهم والوجه هو الأوّل ، أى : قلنا يا بنى إسرائيل ، وحذف القول كثير في القرآن . وقرئ «أنجيتكم» إلى «رزقتكم» ، وعلى لفظ الوعد والمواعدة . وقرئ الْأَيْمَنَ بالجر على الجوار ، نحو «جحر ضب خرب» . ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى صلوات اللّه عليه من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة في الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا بستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه . طغيانهم في النعمة : أن يتعدّوا حدود اللّه فيها بأن يكفّروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها ، وأن

ينفقوها في المعاصي : وأن يزووا حقوق الفقراء فيها ، وأن يسرفوا في إنفاقها ، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا . قرئ فَيَحِلَّ وعن عبد اللّه : لا يحلن «1» وَمَنْ يَحْلِلْ المكسور في معنى الوجوب ، من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه . ومنه قوله تعالى حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ والمضموم في معنى النزول .

وغضب اللّه عقوباته «2» ولذلك وصف بالنزول هَوى هلك . وأصله أن يسقط من جبل فيهلك .

قالت :

هوى من رأس مرقبة ففتّت تحتها كبده «3»

---

(1) . قوله «قرئ فيحل وعن عبد اللّه . . . الخ» يفيد أن القراءة المشهورة : فيحل . ومن يحلل - بالكسر .

ولتحرر قراءة «لا يحلن» هل هي بالكسر أو بالضم . (ع)

(2) . قال محمود : «الغضب عقوبة اللّه تعالى لهم . . . الخ» قال أحمد : لا يسعه أن يحمل الغضب إلا على العقوبة لأنه ينفى صفة الارادة في جملة ما ينفونه من صفات الكمال . وأما على قاعدة السنة فيجوز أن يكون المراد من الغضب إرادة العقوبة ، فيكون من أوصاف الذات . ويحتمل أن يراد به معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهدا ، فيكون من صفات الأفعال . وأما وصفه بالحلول فلا يتأتى حمله على الارادة ، ويكون بمنزلة قوله عليه

الصلاة والسلام «تنزل ربنا إلى سماء الدنيا» على التأويل المعروف. أو عبر عن حلول أثر الارادة بحلولها تعبيرا عن الأثر بالمؤثر، كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات اللّه تعالى: انظر إلى قدرة اللّه يعنى أثر القدرة لا نفسها، واللّه أعلم.

(3) هوى ابني من على شرف يهول عقابه صعده

هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده

ألام على تبكيه وألمسه فلا أجده

وكيف يلام محزون كسير فاته ولده

لأعرابى» يقول: سقط ابني من فوق جبل عال. فعلى بمعنى فوق، ولو قرئ: على، بالضم -جمع علية- لجاز، أى: سقط عن ذرى جبل عال، فالشرف: مصدر مستعمل في الوصف مجاز، يهول: أى يخيف، عقابه: ارتفاعه.

وصعد -بالكسر- صعدا -بفتحتين وضمتين- صعودا: ارتفع، والضمير للعقاب أو للشرف، فهو من إضافة المصدر لفاعله. ويجوز أنه من اضافته لمفعوله، أى: صعوده عليه. وخص العقاب، لأنه أشد الطير صعودا، لا سيما عقاب ذلك الجبل العارف به.

وكرر «هوى» لإظهار التحزن، أى: سقط من رأس ثنية عالية يرقب فيها الرقيب، فمزقت كبده تحتها، أى: بجانبها، فكيف ببقية جسمه. ويروى: ففزت. بتشديد الزاى بمعنى فزعت.

وروى «ففرت» بتشديد الراء ، وأصله : فريت . وهذه لغة طيئ . يقولون : المرأة دعت في دعيت . والدار بنت في بنيت ، ثم قال : يلومني الناس على البكاء مع أننى ألمسه ، من بابى قتل وضرب ، أى : أريد لمسه فلا أجده ، وكيف يلام حزين هرم يئس من رجوع ولده إليه ، أو من أوان التوالد . وقيل : إن القائل أم القتيل ، لكن يروى بعد البيت الأول :

فلا أم فتبكيه ولا أخت فتفتقده

هوى عن صخرة صلد ففرت تحتها كبده

إلى آخره .

(83/500)

ويقولون : هوت أمّه . أو سقط سقوطا لا نهوض بعده .

[سورة طه (20) : آية 82]

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (82)

الاهتداء : هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح ، ونحوه قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في «جاءني زيد ثم عمرو» أعنى أنّ منزلة الاستقامة على الخير

مباينة لمنزلة الخير نفسه، لأنها أعلى منها وأفضل. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 69.80﴾

(84/500)

وقال الخازن:

قوله تعالى ﴿ولقد أريناه﴾

يعني فرعون ﴿آياتنا كلها﴾ يعني الآيات التسع التي أعطاها الله موسى ﴿فكذب وأبى﴾ يعني فرعون وزعم أنها سحر وأبى أن يسلم ﴿قال﴾ يعني فرعون ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا﴾ يعني مصر ﴿بسحرك يا موسى﴾ يريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها ﴿فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي اضراب أجلاً وميقاتاً ﴿لا نخلفه﴾ لا نجاوزه ﴿نحن ولا أنت مكاناً سوىً﴾ أي مكاناً عدلاً وقال ابن عباس: نصفاً تستوي مسافة الفريقين إليه وقيل معناه سوى هذا المكان ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ قيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس يوم عاشوراء ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ أي وقت الضحوة نهاراً جهاراً ليكون أبعد من الريبة ﴿فتولى فرعون

فجمع ﴿ يعني فرعون ﴿ كيده ﴾ يعني مكره وسحره وحيله ﴿ ثم أتى ﴾ يوم المعاد ﴿ قال لهم موسى ﴾ يعني للسحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل كانوا اثني عشر ألفاً ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ﴾ اي فيهلكنكم ويستأصلكم ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ أي خسر من ادعى مع الله إلهاً آخر وقيل معناه خسر من كذب على الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ أي تناظروا وتشاوروا ، يعني السحرة في أمر موسى سراً من فرعون وقالوا إن غلبنا موسى اتبعناه ، معناه لما قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً .

(85/500)

قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أي المناجاة ﴿ قالوا ﴾ قال بعضهم لبعض سراً ﴿ إن هذان لساحران ﴾ يعني موسى وهارون ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ يعني من مصر ﴿ بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ قال ابن عباس : يعني بسراة قومكم وأشرافكم وقيل معناه يصرفان وجوه الناس عنكم ، وقيل أراد أهل طريقتكم المثلى وهم بنو إسرائيل يعني يريد أن يذهبا بهم لأنفسهما ، وقيل معناه

يذهبا بسنتكم وبدينكم الذي أنتم عليه ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أي لا تدعو شيئاً من كيدكم إلا جئتم به ، وقيل معناه اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له ولا تختلفوا فيختل أمركم ﴿ ثم ائتوا صفاً ﴾ أي جمعاً مصطفين ليكون أشد لهيبتكم وقيل معناه ثم ائتوا المكان الموعود به ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ أي فاز من غلب .

﴿ قالوا ﴾ يعني السحرة ﴿ يا موسى إما أن تلقي ﴾ أي عصاك ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ أي عصينا ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ بل ألقوا ﴾ يعني أنتم أولاً ﴿ فإذا حبالهم ﴾ فيه إضمار أي فألقوا فإذا حبالهم ﴿ وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ قيل إنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس ، فرأى موسى كأن الأرض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلاً في ميل من كل جانب ورآها كأنها تسعى ﴿ فأوجس ﴾ أي أضمر وقيل وجد ﴿ في نفسه خيفة موسى ﴾ قيل هو طبع البشرية وذلك أنه ظن أنها تقصده ، وقيل خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعوه ﴿ قلنا لا تخف ﴾ أي قال الله تعالى لموسى لا تخف ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ أي الغالب عليهم ولك الغلبة عليهم والظفر ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ أي عصاك والمعنى لا يخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها ﴿ تلقف ﴾ أي تلقم وتبتلع ﴿ ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ أي حيلة ساحر ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ أي من الأرض .

وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان ﴿ فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ قال صاحب الكشاف سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقائين .

وقيل إنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وقيل إنهم لما سجدوا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة ﴿ قال ﴾ يعني فرعون ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم ﴾ أي لرئيسكم وعظيمكم يعني أنه أسحركم وأعلاكم في صناعة السحر ومعلمكم ﴿ الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ يعني على جذوع النخل ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً ﴾ يعني على إيمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الإيمان به ﴿ وأبقى ﴾ يعني أدوم ﴿ قالوا ﴾ يعني السحرة ﴿ لن نؤثرك ﴾ يعني لن نختارك ﴿ على ما جاءنا من البينات ﴾ يعني الدلالات الواضحات ، قيل هي اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحر فأين حبالنا وعصينا .

وقيل إنهم لما سجدوا رأوا الجنة والنار ورأوا منازلهم في الجنة فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴿ والذي فطرنا ﴾ قيل هو قسم ، وقيل معناه لن نؤثرك على الله الذي فطرنا ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ يعني فاصنع ما أنت صانع ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ يعني إنما أمرك وسلطانك في الدنيا سيزول عن قريب ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ فإن قلت كيف قالوا هذا وقد جاؤوا مختارين غير مكرهين .

قلت كان فرعون أكرههم في الابتداء على تعلمهم السحر لكي لا يذهب أصله .

وقيل كانت السحرة اثنين وسبعون اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل ، وكان فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلم السحر .

(87/500)

وقيل قال السحرة لفرعون أرنا موسى إذا هو نام فأراهم موسى نائماً وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره .

فأبى عليهم فأكرههم على أن يعملوا فذلك قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ والله خير وأبقى ﴾ يعني خير منك ثواباً وأبقى عقاباً وقيل خير منك إن أطيع وأبقى عذاباً إن

عصي وهذا جواب لقوله ﴿ ولتعلمن أينا اشد عذاباً وأبقى ﴾ ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل هو من تمام قول السحرة معناه من مات على الشرك ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ﴾ فيستريح ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة ينتفع بها ﴿ من يأته مؤمناً ﴾ يعني من مات على الإيمان ﴿ قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ يعني الرفيعة العلية.

فسر الدرجات بقوله ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ يعني تطهر من الذنوب، وقيل أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما" أخرجه الترمذي.

قوله وأنعما يقال أحسن فلان إلى فلان وأنعم يعني أفضل وزاد في الإحسان، والمعنى أنهما منهم وزادوا تناهياً إلى غايته.

قوله تعالى ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ﴾ يعني أسر بهم ليلاً من أرض مصر ﴿ فاضرب لهم طريقاً ﴾ يعني اجعل لهم طريقاً ﴿ في البحر ﴾ بالضرب بالعصا ﴿ يبساً ﴾ يعني يابساً ليس فيه ماء ولا طين وذلك أن الله تعالى أيبس لهم الطريق في البحر ﴿ لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ يعني لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك ﴿ فأتبعهم ﴾ يعني فلحقهم ﴿ فرعون بجنوده فغشيهم ﴾ يعني أصابهم ﴿ من اليم ما غشيهم ﴾ وهو الغرق وقيل علاهم وسترهم من اليم ما لم يعلم كنهه إلا الله تعالى فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ يعني وما أرشدهم وهو تكذيب لفرعون في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ قوله ﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ ذكرهم الله النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما وعد موسى من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح.

وإنما قال وواعدناكم لأنها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ، ورجعت منافعها إليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيها أفاض الله عليهم من سائر نعمه وأرزاقه ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه ﴾ قال ابن عباس لا تظلموا ، وقيل لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين ، وقيل لا تنفقوا بنعمتي على المعاصي ، وقيل لا تدخروا ﴿ فيحل عليكم غضبي ﴾ يعني يجب عليكم غضبي ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ يعني هلك وسقط في

النار ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ قال ابن عباس تاب عن الشرك ﴿ وآمن ﴾ يعني وحد الله وصدق رسوله ﴿ وعمل صالحاً ﴾ يعني أدى الفرائض ﴿ ثم اهتدى ﴾ قال ابن عباس علم أن ذلك توفيق من الله تعالى ، وقيل لزم الإسلام حتى مات عليه ، وقيل علم أن لذلك ثواباً ، وقيل أقام على السنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 272. 276 ﴾

(89/500)

وقال ابن جزى :

﴿ ولقد أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾

يعني الآيات التي رآها فرعون وهي تسع آيات ، وليس يريد جميع آيات الله على العموم ، فالإضافة في قوله ﴿ آيَاتِنَا ﴾ تجري مجرى التعريف بالعهد : أي آياتنا التي أعطينا موسى كلها ، وإنما أضافها الله إلى نفسه تشريفاً .

(90/500)

﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ﴾ يحتمل أن يكون الموعد اسم مصدر أو اسم زمان أو اسم مكان ، ويدل على أنه اسم مكان قوله ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ ، ولكن يضعف بقوله : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ ، لأنه أجاب بظرف الزمان ، ويدل على أن الموعد اسم زمان قوله : ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ ولكن يضعفه بقوله : ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ . ويدل على أنه اسم مصدر بمعنى الوعد قوله ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ ﴾ لأن الإخلاف إنما يوصف به الوعد لا الزمان ولا المكان . ولكن يضعف ذلك بقوله ﴿ مَكَاناً ﴾ وبقوله ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ ، فلا بد على كل وجه من تأويل أو إضمار ، ويختلف إعراب قوله : مكاناً باختلاف تلك الوجوه . فأما إن كان الموعد اسم مكان فيكون قوله ﴿ مَوْعِداً ﴾ و ﴿ مَكَاناً ﴾ مفعولين لقوله ﴿ فاجعل ﴾ ، ويطابقه قوله : ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ من طريق المعنى ، لا من طريق اللفظ ، وذلك أن الاجتماع في المكان يقتضي الزمان ضرورة ، وإن كان الموعد اسم زمان فينتصب قوله : ﴿ مَكَاناً ﴾ على أنه ظرف زمان ، والتقدير : موعداً كائناً في مكان وإن كان الموعد اسم مصدر فينتصب ﴿ مَكَاناً ﴾ على أنه مفعول بالمصدر وهو الموعد ، أو بفعل من معناه ، ويطابقه قوله : ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ على حذف مضاف تقديره موعدكم وعد يوم الزينة ، وقرأ الحسن يوم الزينة بالنصب وذلك يطابق أن يكون الموعد اسم مصدر من غير تقدير محذوف ﴿ مَكَاناً سُوًى ﴾ معناه : مستوٍ في القرب منا ومنكم ، وقيل : معناه مستوي الأرض ليس فيه انخفاض ولا ارتفاع ، وقرىء بكسر السين وضمها ، والمعنى متفق ﴿ يَوْمُ الزينة ﴾ يوم

عيد لهم وقيل يوم عاشوراء ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ﴾ عطف على الزينة ، فهو في موضع خفض أو على اليوم فهو في موضع رفع وقصد موسى أن يكون موعدكم عند اجتماع الناس على رؤوس الأشهاد لتظهر معجزته ويستبين الحق للناس .

(91/500)

﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ معناه يهلككم ، يقال سحت وأسحت ، وقد قرىء بفتح الياء وضمها ، والمعنى متفق .

﴿ قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ إن هذين بالياء ولا إشكال في ذلك ، وقرأ بتخفيف إنْ وهي مخففة من الثقيلة ، وارتفع بعدها هذان بالابتداء ، وأما قراءة نافع وغيره بتشديد إنّ ورفع هذان ، فقيل ﴿ إِنْ ﴾ هنا بمعنى نعم فلا تنصب ، ومنه ما روي في الحديث أن الحمد بالرفع ، وقيل : اسم إن ضمير الأمر والشأن تقديره : إن الأمر ، و ﴿ هذان لَسَاحِرَانِ ﴾ مبتدأ وخبر في موضع خبر إن .

وقيل : جاء القرآن في هذه الآية بلغة بني الحرث بن كعب وهو إبقاء التثنية بالألف حال النصب ، والخفض ، وقالت عائشة رضي الله عنها ، هذا مما لحن فيه كتاب المصحف ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ أي يذهب بسيرتكم الحسنة ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ أي

اعزموا وأنفذوه .

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ استدل بعضهم بهذه الآية على أن السحر تخييل لا حقيقة ، وقال بعضهم : إن حيلة السحرة في سعي الحبال والعصيّ هو أنهم حشوها بالزئبق ، وأوقدوا تحتها ناراً وغطوا النار لئلا يراها الناس ، ثم وضعوا عليها حبالهم وعصيهم ، وقيل : جعلوها للشمس ، فلما أحسّ الزئبق بحر النار أو الشمس سال ، وهو في حشو الحبال والعصيّ فحملها ، فتخيل للناس أنها تمشي ، فألقى موسى عصاه فصارت ثعباناً فابتلعتها .

﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ما هنا موصولة وهي اسم إن وكيد خبرها ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ قدم هارون لتعادل رؤوس الآي ﴿ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ أي قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ والذي فَطَرَنَا ﴾ معطوف على ﴿ مَا جَآءَنَا مِنَ البينات ﴾ ، وقيل : هي واو القسم ﴿ هذه الحياة ﴾ نصب على الظرفية : أي : إنما قضاؤك في هذه الدنيا .

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ قيل : إن هنا وما بعدها من كلام السحرة لفرعون على وجه الموعظة ، وقيل : هو من كلام الله .

﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ يعني ببني إسرائيل ، وأضافهم إلى نفسه تشريفاً لهم ، وكانوا فيما قيل ستمائة ألف ﴿ يَبَساً ﴾ أي يابساً ، وهو مصدر وصف به ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾ أي لا تخاف أن يدركك فرعون وقومه ، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ إبهام لقصد التهويل ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ إن قيل : إن قوله ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ يغني عن قوله ﴿ وَمَا هدى ﴾ ، فالجواب أنه مبالغة وتأكيد ، وقال الزمخشري : هو تهكم بفرعون في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] .

﴿ يابني إِسْرَائِيلَ ﴾ خطاب لهم بعد خروجهم من البحر ، وإغراق فرعون ، وقيل : هو خطاب لمن كان منهم في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أظهر ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ لما أهلك الله فرعون وجنوده أمر موسى وبني إسرائيل أن يسيروا إلى جانب طور سيناء ليكلم فيه ربه ، والطور هو الجبل ، واختلف هل هذا الطور هو الذي رأى فيه موسى النار في أول نبوّته ، أو هو غيره ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ ذكر في [البقرة : 57] ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ استعارة من السقوط من علو إلى سفل ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهتدى ﴾ المغفرة لمن تاب حاصلة

ولا بد ، والمغفرة للمؤمن الذي لم يتب في مشيئة الله عند أهل السنة ، وقالت المعتزلة : لا يغفر إلا لمن تاب ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ أي استقام ودام على الإيمان والتوبة والعمل الصالح ، ويحتمل أن يكون الهدى هنا عبارة عن نور وعلم ؛ يجعله الله في قلب من تاب وآمن وعمل صالحاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 16.14﴾

(93/500)

وقال النسفى :

﴿ قَالُواْ إِنْ هاذان لساحران ﴾

يعني موسى وهارون .

قرأ أبو عمرو ﴿ إن هَذينِ لساحران ﴾ وهو ظاهر ولكنه مخالف للإمام ، وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف بالنحو واللغة ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ بتخفيف ﴿ إن ﴾ مثل قولك "إن زيد لمنطلق" واللام هي الفارقة بين "إن" النافية والمخففة من الثقيلة .

وقيل : هي بمعنى "ما" واللام بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران دليله قراءة أبيّ ﴿ إن ذان إلا ساحران ﴾ وغيرهم ﴿ إِنْ هاذان لساحران ﴾ قيل هي لغة بلحارث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة فالتثنية في لغتهم بالألف أبداً فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب كعصا

وسعدى قال :

إن أباها وأبا أباها . . .

قد بلغا في المجد غاياتاها

وقال الزجاج : إن بمعنى نعم ، قال الشاعر :

ويقلن شيب قد علا . . .

ك وقد كبرت فقلت إنه

أي نعم والهاء للوقف .

و ﴿ هذان ﴾ مبتدأ و ﴿ ساحران ﴾ خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على المبتدأ المحذوف تقديره : هذان لهما ساحران فيكون دخولهما في موضعها الموضوع لها وهو الابتداء ، وقد يدخل اللام في الخبر كما يدخل في المبتدأ قال :

خالي لأنت ومن جرير خاله . . .

قال : فعرضته على المبرد فرضيه وقد زيفه أبو عليّ .

﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ مصر ﴿ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ﴾ بدينكم وشريعتكم ﴿ المثلى ﴾ الفضلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل ﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ فأحكموا أي اجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا .

﴿ فَأَجْمِعُواْ ﴾ أبو عمرو ويعضده ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ ﴿ كَيْدَكُمْ ﴾ هو ما يكاد به ﴿

ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ مصطفين حال أمروا بأن يأتوا صفاً لأنه أهيب في صدور الرائين ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ وقد فاز من غلب وهو اعتراض.

(94/500)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السحرة ﴿ يا موسى إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ عصاك أولاً ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلقى ﴾ ما معنا وموضع "أن" مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر، أو رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه اختر أحد الأمرين، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا.

وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت إليهم بركته وعلم موسى اختيار إلقائهم أولاً حتى ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ أنتم أولاً ليبرزوا ما معهم من مكايد السحر ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ يقال في ﴿ إِذَا ﴾ هذه: إذا المفاجأة والتحقيق أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها، وخصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير والتقدير: ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي ﴿

﴿ يُخَيَّلُ ﴾ وبالتاء : ابن ذكوان ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى موسى ﴿ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ رفع بدل اشتمال من الضمير في ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ أي يخيل الملقى .

رُوي أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك .

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ أضمر في نفسه خوفاً ظنّاً منه أنها تقصده للجبلة البشرية أو خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه ﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ الغالب القاهر .

وفي ذكر "إن" و"أنت" وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ ﴾ بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف : حفص و ﴿ تَلْقَفْ ﴾ : ابن ذكوان ، الباقون ﴿ تَلْقَفْ ﴾ ﴿ مَا صَنَعُواْ ﴾ زوراً وافتعلوا أي اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم .

ولم يقل عصاك تعظيماً لها أي لا تحتفل بما صنعوا فإن ما في يمينك أعظم منها ، أو تحقيراً أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الذي في يمينك فإنه بقدرتنا يتلقفها على وحدته وكثرتها ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ كوفي غير عاصم سحر بمعنى ذي سحر

أو ذوي سحر أو هم لتوغلهم في السحر كأنهم السحر ، و﴿ كَيْدَ ﴾ بالرفع على القراءتين و"ما" موصولة أو مصدرية .

وإنما وحد ﴿ ساحر ﴾ ولم يجمع لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد ، فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله ﴿ وَلا يُفْلِحُ الساحر ﴾ أي هذا الجنس ﴿ حَيْثُ أتى ﴾ أينما كان فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فلعظم ما رأوا من الآية وقعوا إلى السجود فذلك قوله ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّدًا ﴾ قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين . رُوي أنهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها في السجود فرفعوا رؤوسهم ثم ﴿ قَالُواْ امَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ وإنما قدم "هارون" هنا وأخر في الشعراء محافظة للفاصلة ولأن الواو لا توجب ترتيباً ﴿ قَالَ ءامَنتُمْ ﴾ بغير مد : حفص ، وبهمزة ممدودة : بصري وشامي وحجازي ، وبهمزتين : غيرهم ﴿ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي لموسى .

يقال : آمن له وآمن به ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ لعظيمكم أو لمعلمكم ، تقول أهل مكة للمعلم : أمرني كبيري ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال ، و"من" لابتداء الغاية لأن القطع مبتدأ وناشىء من مخالفة العضو ، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعني لأقطعنها مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف ، شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن المظروف في الظرف فلهذا قال ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ وخص النخل لطول جذوعها ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً ﴾ أنا على ترك إيمانكم بي أو رب موسى على ترك الإيمان به .

وقيل : يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله ﴿ آمنتم له ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله ﴿ يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 61] ﴿ وأبقى ﴾ أدوم .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك ﴿ على مَا جَاءنَا مِنَ البينات ﴾ القاطعة الدالة على صدق موسى ﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾ عطف على ﴿ مَا جَاءنَا ﴾ أي لن نختارك على الذي جاءنا ولا على الذي خلقنا ، أو قسم وجوابه ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ مقدم على القسم ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ فاصنع ما أنت صانع من القتل والصلب قال :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . .

أي صنعهما أو احكم ما أنت حاكم ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا فانتصب على الظرف أي إنما تحكم فينا مدة حياتنا .

(97/500)

﴿ أَنَّا ءامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ ﴾ "ما" موصولة منصوبة بالعطف على ﴿ خطايانا ﴾ ﴿ مِنَ السحر ﴾ حال من "ما" ، روي أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا : ما هذا بسحر الساحر إذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوف الفضيحة فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر وضر فرعون جهله به ونفعهم علمهم بالسحر فكيف بعلم الشرع ﴿ والله خَيْرٌ ﴾ ثواباً لمن أطاعه ﴿ وأبقى ﴾ عقاباً لمن عصاه وهو رد لقول فرعون ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ .

﴿ أَنَّهُ ﴾ هو ضمير الشأن ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ كافراً ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ للمجرم ﴿ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح بالموت ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ حياة ينتفع بها ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ مات على الإيمان ﴿ قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ بعد الإيمان ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدرجات

العلى ﴾ جمع العليا ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ الدرجات ﴾ ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ دائمين ﴿ وذلك جَزَاء مَن تزكى ﴾ تطهر من الشرك بقول لا إله إلا الله .

قيل : هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم .

وقيل : خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية وهو أظهر ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً ويأخذ بهم طريق البحر ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِى البحر ﴾ اجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهماً ﴿ يَبَساً ﴾ أي يابساً وهو مصدر وصف به يقال : يبس يَبَسا ويُبسا ﴿ لاَّ تخاف ﴾ حال من الضمير في ﴿ فاضرب ﴾ أي اضرب لهم طريقاً غير خائف .

(98/500)

﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ حمزة على الجواب ﴿ دَرَكاً ﴾ هو اسم من الإدراك أي لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ الغرق وعلى قراءة حمزة ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى أو يكون الألف للإطلاق كما في ﴿ وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ [

الأحزاب : 10] فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفاً وقد استعاروا حليهم فركب فرعون في ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم فذلك قوله ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ هو حال أي خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم ﴾ أصابهم من البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿ وَمَا هدى ﴾ وما أرشدهم إلى الحق والسداد وهذا رد لقوله

﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ [غافر : 29] .

ثم ذكر منته على بني إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر وأهلك فرعون وقومه بقوله ﴿ يا بنى إسراءيل ﴾ أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي وقلنا يا بني إسرائيل ﴿ قَدْ أنجيناكم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ أي فرعون ﴿ وواعدناكم ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿ جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ وذلك أن الله عز وجل وعد موسى أن يأتي هذا المكان ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة .

وإنما نسب إليهم المواعدة لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم ودينهم .

و﴿ الأيمن ﴾ نصب لأنه صفة ﴿ جَانِبِ ﴾ وقرىء بالجر على الجوار ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ في التيه وقلنا لكم .

(99/500)

﴿ كُلُواْ مِن طيبات ﴾ حلالات ﴿ مَا رزقناكم ﴾ ﴿ أنجيتكم ﴾ ﴿ وواعدتكم ﴾ ﴿ ورزقتكم ﴾ كوفي غير عاصم ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ ولا تعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم وتنفقوها في المعاصي أو لا يظلم بعضكم بعضاً ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ عقوبتي ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هوى ﴾ هلك أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك وتحقيقه سقط من شرف الإيمان إلى حفرة من حفر النيران.

قرأ علي ﴿ فَيَحِلَّ ﴾ ﴿ ويحلل ﴾ والباقون بكسرهما.

فالمكسور في معنى الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه، والمضموم في معنى النزول ﴿ وَإِنّى لَغَفَّارٌ لّمَن تَابَ ﴾ عن الشرك ﴿ وَءامَنَ ﴾ وحد الله تعالى وصدقه فيما أنزل ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أدى الفرائض ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ ثم استقام وثبت على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 61.56 ﴾

(100/500)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَقَدْ أريناه ءاياتنا ﴾

بصرناه إياها أو عرفناه صحتها . ﴿ كُلَّهَا ﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد ، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى ، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ موسى من فرط عناده .

﴿ وأبى ﴾ الإيمان والطاعة لعتوه .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أرض مصر . ﴿ بِسِحْرِكَ يا موسى ﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونه محقاً حتى خاف منه على ملكه ، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ مثل سحرك . ﴿ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَّوْعِدًا ﴾ وعداً لقوله : ﴿ لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ﴾ فإن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان وانتصاب . ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بفعل دل عليه المصدر لا به لأنه موصوف ، أو بأنه بدل من ﴿ مَّوْعِدًا ﴾ على تقدير مكان مضاف إليه وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم ، أو بإضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو

على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة، وقرىء ﴿ يوم ﴾ بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر، ومعنى سوى منتصفاً يستوي مسافته إلينا وإليك وهو في النعت كقولهم: قوم عدي في الشذوذ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب بالضم، وقيل في "يَوْمُ الزينة" يوم عاشوراء، أو يوم النيروز، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأقطار. ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ عطف على ال ﴿ يوم ﴾ أو ﴿ الزينة ﴾، وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون والياء على أن فيه ضمير ال ﴿ يوم ﴾ أو ضمير ﴿ فرعون ﴾ على أن الخطاب لقومه.

(101/500)

﴿ فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ ما يكاد به يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ ثُمَّ أتى ﴾ الموعد.

﴿ قَالَ لَهُمْ موسى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن تدعوا آياته سحراً. ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسحت لغة الحجاز. ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى الملك عليه فلم ينفعه.

﴿ فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه فقال بعضهم : ليس هذا من كلام السحرة . ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ بأن موسى إن غلبنا اتبعناه أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارضون به موسى وتشاوروا في السر . وقيل الضمير لفرعون وقومه وقوله :

(102/500)

﴿ قَالُواْ إِنْ هاذان لساحران ﴾ تفسير ل ﴿ أَسَرُّواْ النجوى ﴾ كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يغلبا فيتبعهما الناس ، و﴿ هذان ﴾ اسم إن على لغة بلحرث بن كعب فإنهم جعلوا الألف للتثنية وأعربوا المثنى تقديراً . وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف و ﴿ هاذان لساحران ﴾ خبرها . وقيل ﴿ إِن ﴾ بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما إن اللام لا تدخل خبر المبتدأ . وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف ، وقرأ أبو عمرو "أن هذين" وهو ظاهر ، وابن كثير وحفص ﴿ أَنْ هاذان ﴾ على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافية واللام بمعنى إلا . ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ بالاستيلاء عليها . ﴿ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى ﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما

لقوله ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى ﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسراءيل ﴾ وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم .

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ فأزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم . وقرأ أبو عمرو ﴿ فَأَجمعوا ﴾ ويعضده قوله ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ والضمير في ﴿ قَالُوا ﴾ إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض . ﴿ ثُمَّ ائتوا صَفّاً ﴾ مصطفين لأنه أهيب في صدور الرائين . قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل عصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة . ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ﴾ فاز بالمطلوب من غلب وهو اعتراض .

﴿ قَالُواْ يا موسى إِمَّا أَن تُلْقِىَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب و﴿ أن ﴾ بما بعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف ، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ مقابلة أدب بأدب وعدم مبالاة بسحرهم ، وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ ، ولأن يبرزوا ما معهم

ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه . ﴿

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم وعصيهم ، وهي للمفاجأة والتحقيق أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلقاً ينصبها وجملة تضاف إليها ، لكنها خصت بأن يكون المتعلق فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى : فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم ، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيل إليه أنها تتحرك . وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان وروح "تخيل" بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال ، والعصي وإبدال أنها ﴿ تسعى ﴾ منه بدل الاشتمال ، وقرىء ﴿ يخيل ﴾ بالياء على إسناده إلى الله تعالى ، و"تخيل" بمعنى تتخيل .

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلة البشرية ، أو من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه .

﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ ﴾ ما توهمت . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكداً بالاستئناف ، وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ أبهمه ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويدة التي في يدك ، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألقه . ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ ﴾ تبتلعه بقدرة الله تعالى ، وأصله تتلقف فحذفت إحدى التاءين ، وتاء المضارعة تحتمل التأنيث والخطاب على إسناد الفعل إلى المسبب . وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف ، وحفص بالجزم والتخفيف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته . ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا . ﴿ كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ وقرىء بالنصب على أن ما كافة وهو مفعول صنعوا . وقرأ حمزة والكسائي "سحر" بمعنى ذي سحر ، أو بتسمية الساحر سحراً على المبالغة ، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم : علم فقه ، وإنما وحد الساحر لأن المراد به الجنس المطلق ولذلك قال : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر ﴾ أي هذا الجنس وتنكير الأول لتنكير المضاف كقول العجاج :

يَوْمَ تَرَى النُّفُوسُ مَا أَعَدَّتَ . . . فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَما قَدْ مَدَّتْ

كأنه قيل إنما صنعوا كيد سحري . ﴿ حَيْثُ أتى ﴾ حيث كان وأين أقبل .

﴿ فَأُلْقِىَ السحرة سُجَّداً ﴾ أي فألقى فتلقفت فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته ، فألقاهم ذلك على وجوههم سجداً لله

توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآية ، أو لأن فرعون ربى موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستتباع . روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها .

(105/500)

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ ﴾ أي لموسى واللام لتضمن الفعل معنى الاتباع . وقرأ قنبل وحفص ﴿ آمنتم له ﴾ على الخبر والباقون على الاستفهام . ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ في الإيمان له . ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ لعظيمكم في فنكم وأعلمكم به أو لأستاذكم . ﴿ الذى عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم . ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ، ومن ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضو العضو وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال ، أي لأقطعنها مختلفات وقرىء "لأقطعن" "ولأصلبن" بالتخفيف . ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ شبه تمكن المصلوب بالجذع بتمكن المظروف بالظرف وهو أول من صلب . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ يريد نفسه وموسى لقوله ﴿ آمنتم له ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله أراد به توضيع موسى

والهزء به ، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء . وقيل رب موسى الذي آمنوا به . ﴿ أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ﴾ وأدوم عقاباً .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك . ﴿ على مَا جَاءَنَا ﴾ موسى به ، ويجوز أن يكون الضمير فيه لما . ﴿ مِنَ البينات ﴾ المعجزات الواضحات . ﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم . ﴿ فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به . ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هذه الحياة الدنيا ﴾ إنما تصنع ما تهواه ، أو تحكم ما تراه في هذه الدنيا ﴿ والأخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ فهو كالتعليل لما قبله والتمهيد لما بعده . وقرىء ﴿ تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ كقولك : صيم يوم الجمعة .

(106/500)

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا ﴾ من الكفر والمعاصي . ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر ﴾ من معارضة المعجزة . روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً فوجدوه تحرسه العصا فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه . ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ جزاء أو خير ثواباً وأبقى عقاباً .

﴿ إِنَّهُ ﴾ إن الأمر . ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ بأن يموت على كفره وعصيانه . ﴿ فَإِنَّ

لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح . ﴿ وَلاَ يَحْيَا ﴾ حياة مهنأة .

﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ في الدنيا . ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدرجات العلى ﴾ المنازل الرفيعة .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من الدرجات . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ حال والعامل فيها معنى الإِشارة أو الاستقرار . ﴿ وذلك جَزَاءُ مَن تزكى ﴾ تطهر من أدناس الكفار والمعاصي ، والآيات الثلاث يحتمل أن تكون من كلام السحرة وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ أي من مصر . ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً ﴾ فاجعل لهم ، من قولهم ضرب له في ماله سهماً أو فاتخذ من ضرب اللبن إذا عمله . ﴿ فِى البحر يَبَساً ﴾ يابساً مصدر وصف به يقال يبس يبساً ويبساً كسقم سقماً وسقماً ، ولذلك وصف به المؤنث فقيل شاة يبس للتي جف لبنها ، وقرىء ﴿ يبْسا ﴾ وهو إما مخفف منه أو وصف على فعل كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به الواحد مبالغة كقوله :

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّت . . . حَوَالِبَ غُرزاً وَمَعِي جِيَاعاً

أو لتعدده معنى فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً . ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً ﴾ حال من المأمور أي آمنا من أن يدرككم العدو ، أو صفة ثانية والعائد محذوف ، وقرأ حمزة "لا تخف" على أنه جواب الأمر . ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى ، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿ وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فَأُخْبِرَ فرعون بذلك فقص أثرهم ، والمعنى فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني . وقيل ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ بمعنى فأتبعهم ويؤيده القراءة به والباء للتعدية وقيل الباء مزيدة والمعنى : فاتبعهم جنوده وذادهم خلفهم . ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم ، وفيه مبالغة ووجازة أي : غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله . وقرىء "فغشاهم ما غشاهم" أي غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله تعالى أو ما غشاهم أو فرعون لأنه الذي ورطهم للهلاك .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم وهو تهكم به في قوله ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ أو أضلهم في البحر وما نجا .

﴿ يا بَنِى إسراءيل ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا

، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فعل بآبائهم. ﴿ قَدْ أنجيناكم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وقومه. ﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة، وإنما عد المواعدة إليهم وهي لموسى أو له وللسبعين المختارين للملابسة. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ يعني في التيه.

(108/500)

﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ لذائذه أو حلالاته، وقرأ حمزة والكسائي "أنجيتكم" "وواعدتكم" و"ما رزقتكم" على التاء. وقرىء "ووعدتكم" "ووعدناكم"، والأيمن بالجر على الجوار مثل: حجر ضب خرب. ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالسرف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه. ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هوى ﴾ فقد تردى وهلك. وقيل وقع في الهاوية، وقرأ الكسائي "يحل" و﴿ يُحْلِلْ ﴾ بالضم من حل يحل إذا نزل.

﴿ وَإِنّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ عن الشرك. ﴿ وَآمَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿ وَعَمِلَ

صالحا ثُمَّ اهتدى ﴾ ثم استقام على الهدى المذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 64.56 ﴾

(109/500)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى:

﴿ ولقد أريناه ﴾

أي : أبصرناه ﴿ آياتنا كلها ﴾ أي : التسع المختصة بموسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل ﴿ فكذب ﴾ بها وزعم أنها سحر ﴿ وأبى ﴾ أن يسلم ، فإن قيل : قوله تعالى : كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات فإنّ من جملة الآيات ما أظهرها على أيدي الأنبياء قبل موسى عليه السلام وبعده ؟

أجيب : بأنّ لفظ الكل وإن كان للعموم قد يستعمل في الخصوص مع القرينة كما يقال : دخلت السوق فاشتريت كل شيء أو يقال : إنّ موسى عليه السلام أراه آياته وعدّد عليه آيات غيره من الأنبياء فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي

تكذيب الكل فحكى سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم كأنه قيل : كيف صنع في تكذيبه وإبائه فقيل:

﴿ قال ﴾ حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهوره وخاف أن يتبعه الناس ويتركوه ووهن في نفسه وهناً عظيماً ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ﴾ أي : الأرض التي نحن مالكوها ويكون لك الملك فيها فصارت فرائصه ترعد خوفاً مما جاء به موسى لعلمه وإيقانه أنه على الحق وأنّ المحق لو أراد قود الجبال لانقادت له وإن مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وأنه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لأتباعه أن ذلك سحر بقوله ﴿ بسحرك يا موسى ﴾ فكان ذلك مع ما ألفوه من عادتهم في الضلال صارفاً لهم عن اتباع ما رأوه من البيان ثم أظهر لهم أنه يعارضه بمثل ما أتى به بقوله:

﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ أي : مثل سحرك يعارضه ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ أي : من الزمان والمكان ﴿ لا نخلفه ﴾ أي : لا نجعله خلفنا ﴿ نحن ولا أنت ﴾ أي : لا نجاوزه ولما كان كل من الزمان والمكان لا ينفك عن الآخر قال : ﴿ مكاناً ﴾ وآثر ذلك المكان لأجل وصفه بقوله ﴿ سوى ﴾ أي : عدلاً وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة

الفريقين إليه فانظر إلى هذا الكلام الذي زوّقه ونمقه وصنعه بما وقف به قومه عن السعادة واستمرّ يقودهم بعناده حتى أوردهم البحر فأغرقهم ثم في غمرات النار أحرقهم ، وقيل : معنى سوى أي : سوى هذا المكان ، وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها وأمال شعبة وحمزة والكسائي في الوقف محضة والباقون بالفتح ، وقيل : المراد بالموعد الوعد لأنّ الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان أي : بل الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف وعدمه وإلى هذا نحا جماعة مختارين له . وردّ عليهم بقوله:

﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾ فإنه لا يطابقه .

تنبيه : يحتمل أنّ قوله : قال موعدكم يوم الزينة أن يكون من قول فرعون فبين الوقت وأن يكون من قول موسى عليه السلام وهذا أظهر كما قال الرازي لوجوه ؛ الأوّل : أنه جواب لقول فرعون : ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ الثاني : وهو أن تعيين يوم الزينة يقتضي إطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه إنما يليق بالمحق الذي يعرف أنّ اليد له لا المبطل الذي يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس . ثالثها : أن قوله : موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون لموسى وهارون لزم إمّا أن نحمله على التعظيم أو أن أقل الجمع اثنان فالأوّل لا يليق بحال فرعون معهما والثاني غير جائز ، فإذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة : النيروز ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو

يوم عاشوراء ، وقيل : كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة ، وقيل : يوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم .

وبنى قوله : ﴿ وأن يحشروا ﴾ للمفعول ؛ لأن القصد الجمع لا كونه من معين ﴿ الناس ﴾ أي : يجتمعوا ﴿ ضحى ﴾ أي : وقت الضحوة ، فيكون أظهر لما يعمل ، وأجلى ، فلا يأتي الليل إلا وقد قضي الأمر ، وعرف المحق من المبطل ، ويكثر التحديث بذلك في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

﴿ فتولى ﴾ أي : أعرض ﴿ فرعون ﴾ عن موسى إلى تهيئة ما يريد من الكيد بعد توليه عن الانقياد لأمر الله تعالى ﴿ فجمع كيده ﴾ أي : مكره وحيلته وخداعه الذي دبره على موسى عليه السلام بجميع من يحصل بهم الكيد ، وهم السحرة حشرهم من كل فج ، وكان أهل مصر أسحر أهل الأرض وأكثرهم ساحراً ، وكانوا في ذلك الزمان أشد اعتناءً بالسحر ، وأمهر ما كانوا وأكثر ﴿ ثم أتى ﴾ للميعاد الذي وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس مع توفر الدواعي على الإتيان للعيد ، والنظر إلى تلك المغالبة التي لم يكن مثلها ، ولما تشوق السامع إلى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك

استأنف تعالى الخبر عنه بقوله تعالى:

﴿ قال لهم ﴾ أي: لأهل الكيد والعناد، وهم السحرة وغيرهم ﴿ موسى ﴾ حين رأى اجتماعهم ناصحاً لهم ﴿ ويلكم ﴾ يا أيها الناس الذين خلقكم الله تعالى لعبادته ﴿ لا تفتروا ﴾ أي: لا تتعمدوا ﴿ على الله كذباً ﴾ بإشراك أحد معه ﴿ فيسحتكم ﴾ قال مقاتل: يهلككم، وقال قتادة: يستأصلكم ﴿ بعذاب ﴾ من عنده، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء، وكسر الحاء من الإسحات، وهو لغة نجد وتميم، والباقون بفتحهما، والسحت لغة الحجاز ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى الملك له، فلم ينفعه.

(112/500)

﴿ فتنازعوا ﴾ أي: تجاذب السحرة ﴿ أمرهم بينهم ﴾ لما سمعوا هذا الكلام علماً منهم أنه لا يقدر أن يواجه فرعون بمثله في جمع جنوده وأتباعه، ثم يسلم منه إلا من الله تعالى معه ﴿ وأسرّوا النجوى ﴾ قال الكلبي: قالوا سراً: إن غلبنا موسى اتبعناه، وقال محمد بن إسحاق: لما قال لهم موسى: لا تفتروا على الله كذباً، قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر، وبالغوا في إخفاء ذلك، فإن النجوى الإسرار لئلا يظهر فرعون وأتباعه على ذلك

، فكأنه قيل : ما قالوا حين انتهى تنازعهم ؟ فقيل:

﴿ قالوا ﴾ أي السحرة : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ أي : موسى وهارون ، وقرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من إن ، وشدّدها الباقون ، وقرأ أبو عمرو بالياء بعد الذال ، والباقون بالألف على لغة من يجعل ألف المثنى لازماً في كل حال ، قال أبو حيان : وهي لغة لطوائف من العرب بني الحارث بن كعب ، وبعض كنانة وخثعم وزيد وبني النضر وبني الجهيم ومراد وعذرة ، وقال شاعرهم:

تزوّد مني بين أذناه ضربة

يريد أذنيه ، وقال آخر:

*إن أباها وأبا أباها ** قد بلغا في المجد غايتاها*

وقيل : تقدير الآية أنه هذان ، فحذف الهاء ، وذهب جماعة إلى أن حرف أن ههنا بمعنى نعم ، أي : نعم هذان ، روي أن أعرابياً سأل ابن الزبير شيئاً ، فحرمه ، فقال : لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال ابن الزبير : إنّ وصاحبها ، أي : نعم ، وشدّد ابن كثير النون ، فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام ، وتزويره خوفاً من غلبتهما ، وتثبيطاً للناس عن اتباع موسى

وهارون ﴿ يريدان ﴾ أي بما يقولان من دعوى الرسالة وغيرها ﴿ أن يخرجاكم ﴾ أيها الناس ﴿ من أرضكم ﴾ هذه التي ألفتموها ، وهي وطنكم خلفاً عن سلف ﴿ بسحرهما ﴾ الذي أظهراه لكم وغيره . ولما كان كل حزب بما لديهم فرحين قالوا : ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ مؤنث الأمثل ، وهو الأفضل ، أي : بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبه ، وإعلاء دينه لقوله تعالى : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ (غافر ،) ، وقيل : أراد أهل طريقتكم ، وهم بنو إسرائيل ، فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى : ﴿ أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ (الشعراء ،) ، وقيل : الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم .

﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أي : من السحر وغيره ، فلا تدعوا منه شيئاً إلا جئتم به ، وقرأ أبو عمرو بهمزة الوصل بين الفاء والجيم ، وفتح الميم ، والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم ﴿ ثم ائتوا ﴾ أي : للقاء موسى وهارون ﴿ صفاً ﴾ أي مصطفين ؛ لأنه أهيب في صدور الرائين .

تنبيه : اختلفوا في عدد السحرة ، فقال الكلبي : كانوا اثنين وسبعين ساحراً ؛ اثنان من القبط ، وسبعون من بني إسرائيل ، وقال عكرمة : كانوا تسعمائة ؛ ثلاثمائة من الفرس ، وثلاثمائة من الروم ، وثلاثمائة من الاسكندرية ، وقال وهب : خمسة عشرة ألفاً ، وقال السدي : بضعة وثلاثون ألفاً ، وقال القاسم بن سلام : كانوا سبعين ألفاً ، وقيل : اثني عشر

ألفاً مع كل منهم على كل قول حبل وعصا ، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة ، وظاهر القرآن لا يدل على شيء من هذه الأقوال . r

(114/500)

ولما كان التقدير : فمن أتى كذلك فقد استعلى عطف عليه قوله : ﴿ وقد أفلح اليوم ﴾ في هذا الجمع الذي ما اجتمع مثله قط ﴿ من استعلى ﴾ أي : فاز بالمطلوب من غلب ، فلما أتى السحرة موسى .

﴿ قالوا ﴾ له متأدبين ؛ لأنّ لين القول مع الخصم إن لم ينفع لم يضر ؛ بل نفعهم قال بعضهم : ولذلك رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته ﴿ يا موسى إما أن تلقي ﴾ أي : ما معك مما تناظرنا به أولاً ﴿ وإما أن نكون ﴾ نحن ﴿ أوّل من ألقى ﴾ ما معه

﴿ قال ﴾ لهم موسى عليه السلام مقابلاً لأدبهم بأحسن منه ، ولأنه فهم أن مرادهم الابتداء ، وليكون هو الآخر ، فتكون له العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم ، فلا يكون بعدها شك لا ألقي أنا أولاً ﴿ بل ألقوا ﴾ أنتم أولاً ، فانتهزوا الفرصة ؛ لأن ذلك كان مرادهم بما أفهموه من تغيير السياق والتصريح بالأول ، فألقوا ما معهم من الحبال والعصي ﴿ فإذا حبالهم وعصيّهم ﴾ أي : التي ألقوها قد فاجأت أنه ﴿ يخيل إليه ﴾ تخييلاً مبتدأً

﴿ من سحرهم ﴾ أي : الذي قد فاقوا به أهل الأرض ﴿ أنها ﴾ لشدة اضطرابها ﴿ تسعى ﴾ فإن قيل : كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام : بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر أجيب : بأن ذلك الأمر كان مشروطاً ، والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، أي : إن كنتم صادقين ، وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس ، فرأى موسى والقوم كأن الأرض امتلأت حيات ، وكانت قد أخذت ميلاً من كل جانب ، ورأوا أنها تسعى ، وقيل : لطخوها بالزئبق ، فلما وقعت عليها الشمس اضطربت ، فخيل إليهم أنها تتحرك ، وقرأ ابن ذكوان تخيل بالتاء الفوقية على التأنيث ، والباقون بالياء على إسناده إلى ضمير الحبال

﴿ فأوجس ﴾ أي : أحس ﴿ في نفسه خيفة موسى ﴾ عليه الصلاة والسلام فإن قيل : كيف استشعر الخوف ، وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصا واليد ، ثم إن الله تعالى قال له بعد ذلك : إنني معكما أسمع وأرى فكيف وقع الخوف في قلبه ؟

أجيب بأوجه أحدها : أنه خاف من جهة أن سحرهم من جنس معجزته أن يلتبس أمره على الناس ، فلا يؤمنوا به ، الثاني : أنه خوف طبع البشرية مثل ما خاف من عصاه أول ما

رآها كذلك ، الثالث : لعله كان مأموراً أن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي ، فلما تأخَّر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحي في ذلك الجمع ، فيبقى الخجل ؛ ثم إنه أزال ذلك الخوف بقوله تعالى:

﴿ قلنا لا تخف ﴾ من شيء من أمرهم ولا غيره ، ثم علل ذلك بقوله تعالى ، وأكده أنواعاً من التأكيد لاقتضاء الحال إنكار أن يغلب أحد ما أظهروا من سحرهم لعظمه ﴿ إنك أنت ﴾ خاصة ﴿ الأعلى ﴾ أي الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها ﴿ وألقِ ما في يمينك ﴾ أبهمه ، ولم يقل : عصاك تحقيراً لها ؛ أي : لا تبال بكثرة حبالهم ، وعصيهم ، وألقِ العويد الذي في يدك ، أو تعظيماً لها أي : لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها ، فإن في يمينك ما هو أعظم منها أي : العصا ، وهي التي قلنا لك أول ما شرّفناك بالمناجاة : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ (طه ،) ، ثم أريناك منها ما أريناك ﴿ تلقف ﴾ أي : تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك ﴿ ما صنعوا ﴾ أي : فعلوه بعد تدرّب كثير وممارسة طويلة ، فلما ألقاها صارت أعظم حية من حياتهم ، ثم أخذت تزداد عظماً حتى ملأت الوادي ، ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف الثنية ، ثم هبطت وأكلت كل ما عملوه في

الميلين والناس ينظرون إليها لا يحسبون إلا أنه سحر ، ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها نحو ثمانين ذراعاً ، فصاح بموسى ، فأخذها ، فإذا هي عصا كما كانت ، ونظرت السحرة ، فإذا هي لم تدع من حبالهم ، وعصيهم شيئاً إلا أكلته ، وعرفوا أنه ليس بسحر ، وأصل تلقف تتلقف حذفت إحدى التاءين ، وتاء المضارعة تحتمل التأنيث على إسناد الفعل إلى العصا ، والخطاب على إسناد الفعل إلى السبب ، وقرأ ابن ذكوان برفع الفاء على الحال أو الاستئناف ، والباقون بسكونها ، وحفص بسكون اللام وتخفيف القاف على أنه من لقفته بمعنى تلقفته ﴿ إنما ﴾ أي : الذي ﴿ صنعوا ﴾ أي : زوَّروا وافتعلوا وهالك أمره ﴿كيد ساحر ﴾ أي : كيد سحري لا حقيقة له ولا ثبات ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين ، وسكون الحاء بمعنى ذي سحر ، أو بتسمية الساحر سحراً على المبالغة ، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم : علم فقه ، والباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما .

فإن قيل : لم وحد الساحر ولم يجمع ؟

أجيب بأن القصد من هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد ، فلو جمع خيل أن المقصود هو العدد ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ أي هذا الجنس ﴿ حيث أتى ﴾ أي : كيفما سار ، وقال ابن عباس : لا يسعد حيث كان ، وقيل : معناه حيث احتال ، فإنه إنما يفعل ما لا حقيقة له .

فإن قيل : لم نكر أولاً ، ثم عرف ثانياً أجيب بأنه قال : هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر لا فائدة فيه ، ولا شك أن الكلام على هذا الوجه أبلغ ، ثم أنه امتثل ما أمره به ربه من إلقاء العصا ، فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها لما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة في ثخن ولا في غيره مع أن حبالهم وعصيهم كانت شيئاً كثيراً ، فعلم كل من رأى ذلك حقيته ، وبطلان ما فعل السحرة ، فبادر السحرة منهم إلى الخضوع لأمر الله تعالى ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه ملق على وجهه ، ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر مكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه السلام ، وحذف ذكر الإلقاء ، وما سببه من التلقف ؛ لأن مقصود السورة القدرة على تليين القلوب القاسية .

﴿ فألقي السحرة ﴾ أي : فألقاهم ما رأوا من أمر الله تعالى بغاية السرعة ، وبأيسر أمر ﴿ سجداً ﴾ على وجوههم لله تعالى توبة مما صنعوا وإغباناً لفرعون بسجودهم ، وتعظيماً لما رأوا ، وذلك لأنهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر ، فلما رأوا فعل موسى عليه السلام خارجاً عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من السحر البتة ، ويقال : قال رئيسهم : كنا نغلب الناس بالسحر ، وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحراً ، فأين الذي ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام على الصانع القادر ، وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولاً صادقاً من عند الله لا جرم تابوا وآمنوا ، وأتوا بما هو النهاية في الخضوع وهو السجود ؛ قال الأصبهاني : سبحان الله ما أعظم شأنهم ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، فكأن قائلاً قال هذا فعلهم ، فماذا قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا : آمنا برب هارون وموسى ﴾ ولم يقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لأن فرعون ادّعى الربوبية في قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (النازعات ،)

والإلهية في قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ (القصص ،) ، فلو أنهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول : إنهم آمنوا بي لا بغيري ، فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة ، والدليل على ذلك أنهم لم يقتصروا على موسى بل قدّموا هارون لأن فرعون ربى موسى في صغره ، فلو اقتصروا على موسى أو قدّموا ذكره فربما توهم أن المراد فرعون ، وذكر هارون

على الاستتباع وقيل : قدموه لكبر سنه ، أو لروي الآية ، فسبحان الله ما أعظم أمرهم كانوا أول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية ، وآخره شهداء بررة روي أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، ورأوا ثواب أهلها ، وعن عكرمة لما خرّوا سجداً أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة ، فكأنه قيل : ما قال لهم فرعون حينئذٍ ؟ فقيل:

(119/500)

﴿ قال ﴾ لهم : ﴿ آمنتم ﴾ أي : بالله ﴿ له ﴾ أي : مصدّقين أو متبعين لموسى ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ في ذلك ، قال ذلك إيهاماً بأنه سيأذن فيه ليقف الناس عن المبادرة إلى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء الإذن ، ثم استأنف قوله معلماً مخيلاً لاتباعه صداً لهم عن الاقتداء بالسحرة ﴿ إنه ﴾ أي : موسى ﴿ لكبيركم ﴾ أي : معلمكم ﴿ الذي علمكم السحر ﴾ أي : فلم تتبعوه لظهور الحق بل لإرادتهم شيئاً من المكر وافقتموه عليه قبل حضوركم في هذا الموطن ، وهذا على عادته في تخييل أتباعه بما يوقفهم عن اتباع الحق. ولما خيلهم شرع يزيدهم حيرة بتهديد السحرة ، فقال مقسماً ﴿ فلأقطعن ﴾ أي : بسبب ما فعلتم ﴿ أيديكم ﴾ على سبيل التوزيع ﴿ وأرجلكم ﴾ أي : من كل رجل يداً ورجلاً ،

وقوله : ﴿ من خلاف ﴾ حال يعني مختلفة ، أي : الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى ﴿ ولأصلبنكم ﴾ وعبر عن الاستعلاء بالظرف إشارة إلى تمكينهم في المصلوب عليه تمكين المظروف في ظرفه ، فقال : ﴿ في جذوع النخل ﴾ تشنيعاً لقتلكم وردعاً لأمثالكم ﴿ ولتعلمن أينا ﴾ يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام بدليل قوله : آمنتم له ، واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله ؛ كقوله : يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، وفيه تبجح باقتداره وقهره ، وما ألفه وضري به من تعذيب الناس بأنواع العذاب ، وتوضيع لموسى عليه السلام ، واستضعاف له مع الهزء به ؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء .

وقيل : يريد رب موسى الذي آمنوا به ﴿ أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي : أدوم على مخالفته فإن قيل : إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية ، وقصدها له وآل الأمر أن استغاث بموسى من شرها ، وعجزه عن دفعها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم إلى هذا الحد ، ويستهزىء بموسي في قوله : أينا أشد عذاباً وأبقى ؟

أجيب : بأنه كان في أشد الخوف في قلبه إلا أنه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجاً لأمره ، قال الرازي : ومن استقرىء أحوال العالم علم أن الفاجر قد يفعل أمثال هذه

الأشياء ، ومما يدل على معاندته قوله : إنه لكبيركم الذي علمكم السحر لأنه كان يعلم أن موسى ما خالطهم البتة ، وما لقيهم ، وكان يعلم من سحرته أستاذ كل واحد من هو ، وكيف حصل ذلك العلم ، ثم إنه كان يقول مع ذلك هذه الأشياء ، ثم كأنه قيل فما قالوا له ؟ فقيل:

﴿ قالوا ﴾ له : ﴿ لن نؤثرك ﴾ أي : نختارك ﴿ على ما جاءنا ﴾ على لسان موسى ﴿ من البينات ﴾ التي عايناها ، وعلمنا أنه لا يقدر أحد على مضادتها . ولما بدؤوا بما يدل على الخالق من الفعل ترقوا إلى ذكره بعد معرفته بفعله إشارة إلى علوّ قدره ، فقالوا : ﴿ والذي ﴾ أي : ولا نؤثرك بالإتباع على الذي فطرنا أي : ابتدأ خلقنا إشارة إلى شمول ربوبية الله تعالى لهم وله ولجميع الناس ، وتنبيهاً على عجز فرعون عند من استخفه ، وفي جميع أقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبارة وإشارة وتحقير فرعون أمر عظيم .

تنبيه : قد علم مما تقرر أن والذي معطوف على ما وإنما أخروا ذكر الباري تعالى ؛ لأنه من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، وقيل : الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف ، أي : وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق ، ولما تسبب عن ذلك أنهم لا يبالون به ، وعلموا أن ما يفعله بهم هو بإذن الله تعالى قالوا له : ﴿ فاقض ﴾ أي : فاصنع في حكمك الذي تمضيه ﴿ ما أنت قاض ﴾ أي : فاقض الذي أنت قاضيه ، ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنما تقضي ﴾ أي : تصنع بنا ما تريد إن قدّرك الله عليه ﴿ هذه الحياة

الدنيا ﴾ النصب على الاتساع أي : إنما حكمك فيها على الجسد خاصة ، فهي ساعة تعقبها راحة ، ونحن لا نخاف إلا من يحكم على الروح ، وإن في الجسد فذاك هو العذاب الشديد الدائم ، ثم عللوا تعظيم الله تعالى ، واستهانتهم بفرعون بقولهم:

(121/500)

﴿ إنا آمنا بربنا ﴾ أي : المحسن إلينا طول أعمارنا مع إساءتنا بالكفر وغيره ﴿ ليغفر لنا ﴾ من غير نفع يلحقه بالفعل ، أو ضرر يدركه بالترك ﴿ خطايانا ﴾ التي قابلنا بها إحسانه ، ثم خصوا بعد العموم فقالوا : ﴿ وما أكرهتنا عليه ﴾ وبينوا ذلك بقولهم : ﴿ من السحر ﴾ لنعارض المعجزة ، فإنه كان الأكمل لنا عصيانك فيه ؛ لأن الله تعالى أحق بأن يتقى .

فإن قيل : كيف قالوا ذلك وقد جاؤوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة ؟

أجيب : بأنه قد روي أن رؤوساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون من بني إسرائيل أكرههم فرعون على تعلم السحر ، وروي أنهم رأوا موسى عليه السلام نائماً ، وعصاه تحرسه ، فقالوا لفرعون : إن الساحر إذا نام بطل سحره ، فهذا لا نقدر على معارضته ، فأبى عليهم ، وأكرههم على المعارضة .

وقيل : إنَّ الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ، ويكلفونه تعلم السحر ، فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثاً ليعلمهم ليكون في كل وقت من يحسنه . ولما كان التقدير فربنا أهل التقوى وأهل المغفرة عطفوا عليه مستحضرين لكماله ﴿ والله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ خير ﴾ جزاء منك فيما وعدتنا به ﴿ وأبقى ﴾ ثواباً وعقاباً قال أبو حيان : والظاهر أن الله تعالى سلمهم من فرعون ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (القصص ،) ، وقال الرازي : ليس في القرآن أنَّ فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم ، ولم يثبت في الأخبار ،

وقال البقاعي : سيأتي في آخر الحديد ما هو صريح في نجاتهم ، ثم عللوا هذا الحكم بقولهم:

﴿ إنه ﴾ أي : الأمر والشأن ﴿ من يأت ربه ﴾ أي : الذي رباه وأحسن إليه بأن أوجده وجعل له جميع ما يصلحه ﴿ مجرماً ﴾ بأن يموت على كفره ﴿ فإن له جهنم ﴾ دار الإهانة ﴿ لا يموت فيها ﴾ فيستريح من عذابها بخلاف عذابك ، فإن آخره الموت وإن طال ﴿ ولا يحيى ﴾ فيها حياة مهنأة ، وبها يندفع ما قيل : إن الجسم الحيّ لا بد أن يبقى إمّا حياً أو ميّتاً

، فخلوه عن الوصفين محال ، وقال بعضهم : إن لنا حالة ثالثة ، وهي كحالة المذبوح قبل أن يهدأ ، فلا هو حي لأنه قد ذبح ذبحاً لا تبقى الحياة معه ، ولا هو ميت ؛ لأن الروح لم تفارقه بعد ، فهي حالة ثالثة

﴿ ومن يأته ﴾ أي : ربه الذي قد أوجده ورباه ﴿ مؤمناً ﴾ أي : مصدقاً به ﴿ قد ﴾ ضم إلى تصديق الإيمان أنه ﴿ عمل ﴾ أي : في الدنيا الصالحات أي : التي أمر بها ، فكان صادق الإيمان مستلزماً لصالح الأعمال ﴿ فأولئك ﴾ أي : العالوا الرتبة ﴿ لهم الدرجات العلى ﴾ جمع علياء مؤنث أعلى التي لا نسبة لدرجاتك التي أوعدتناها إليها ، ثم بينوها بقولهم:

﴿ جنات عدن ﴾ أي : أعدت للإقامة وهيئت فيها أسبابها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي : من تحت غرفها وأسرتها وأرضها ، فلا يراد موضع منها ؛ لأن يجري فيه نهر الأجرى ، وقولهم : ﴿ خالدين فيها ﴾ حال والعامل فيها معنى الإشارة أو الاستقرار ﴿ وذلك جزاء ﴾ كل ﴿ من تزكى ﴾ أي : تطهر من أدناس الكفر .

تنبيه : هذه الآيات الثلاث وهي من قوله أنه من يأت ربه مجرماً إلى هنا يحتمل أن تكون من كلام السحرة كما تقرر ، وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى ، وقوله تعالى:

عطف على قوله : ﴿ ولقد أريناه آياتنا ﴾ (طه ،)

وفيه دليل على أن موسى عليه السلام كثر مستجيبوه ، فأراد الله تعالى تمييزهم من طبقة فرعون وخلاصهم ، فأوحى إليه أن يسري بهم ليلاً ، والسري اسم لسير الليل ، والإسراء مثله ، والحكمة في السري بهم لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم ، أو ليكون ذلك عائقاً لفرعون عن طلبه وتتبعه ، أو ليكون إذا تقارب العسكر أن لا يرى عسكر موسى عليه الصلاة والسلام عسكر فرعون لعنه الله فلا يهابونهم .

وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى ، والباقون بسكون النون ، وهمزة قطع بعدها من أسرى لغتان أي أسر ببني إسرائيل من أرض مصر التي لينت قلب فرعون لهم حتى أذن لهم في مسيرهم بعد أن كان قد أبى أن يطلقهم ، أو يكف عنهم العذاب فأقصد بهم ناحية بحر القلزم ﴿ فاضرب ﴾ أي : اجعل ﴿ لهم ﴾ بالضرب بعصاك ﴿ طريقاً في البحر ﴾ والمراد بالطريق الجنس ، فإنه كان لكل سبط طريق ، وقوله ﴿ يبساً ﴾ صفة لطريق وصف به لما يؤول إليه ؛ لأنه لم يكن يبساً إلا بعد أن مرت عليه الصبا ، فجففته كما روي ، وقيل في الأصل مصدر وصف به مبالغة ، وقيل : جمع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة ، فلما امتثل ما أمر به ، وأيبس الله تعالى له الأرض ، وأراد المرور بها قال الله تعالى له : ﴿ لا تخاف دركاً ﴾ أي : أن يدركك فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ غرقاً وقرأ حمزة بجزم الفاء ولا ألف بينها وبين الخاء على أن يكون نهياً مستأنفاً ،

والباقون برفع الفاء ، وألف بينهما وبين الخاء على أنه مستأنف ، فلا محل له من الإعراب ، أو أنه في محل نصب على الحال من فاعل اضرب ، أي : اضرب غير خائف

﴿ فاتبعهم فرعون بجنوده ﴾ أي : وهو معهم على كثرتهم وعلوّهم ، وعزتهم ، فكانوا كالتابع الذي لا معنى له بدون متبوعه ، والمتبوع بنو إسرائيل ، وذلك أن موسى خرج بهم أول الليل ، فأخبر فرعون بذلك ، فقص أثرهم ، والمعنى : فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده ، فحذف المفعول الثاني ، وقيل : إن الباء زائدة ﴿ فغشيهم ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿ من اليم ﴾ أي : البحر ﴿ ما غشيهم ﴾ أي : أمر لا تحتمل العقول وصفه ، فأهلكهم ، وقطع دابرهم ، ولم يبق منهم أحداً وما شاك أحداً من عبادنا المستضعفين شوكة ﴿ وأضل فرعون قومه ﴾ أي : بدعائهم إلى عبادته ﴿ وما هدى ﴾ أي : ما أرشدهم ، وهذا تكذيب لفرعون وتهكم به في قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (غافر ،)

تنبيه : لا بأس بذكر شيء من هذه القصة ، فنقول : قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر ، وكان بنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلي والدوابّ لعيد يخرجون إليه ، فخرج بهم ليلاً ، وكان يوسف عليه الصلاة والسلام عهد إليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر ، فلم يعرفوا مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع العظم ، فأخذوه ، وقال موسى عليه السلام للعجوز : احتكمي ، أي : انظري لك شيئاً اطلبيه ، فقالت : أكون معك في الجنة ، فلما خرجوا تبعهم فرعون وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب ، فلما انتهى موسى إلى البحر قال : هنا أمرت ، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه ، فانفلق ، فقال لهم موسى : ادخلوا فيه ، فقالوا : كيف وهي رطبة ؟ فدعا ربه فهبت عليها الصبا ، فجفت ، فقالوا : نخاف الغرق في بعضنا ، فجعل بينهم كوى يرى بعضم بعضاً ، ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر ، وأقبل فرعون إلى تلك الطرق ، فقال له قومه : إن موسى قد سحر البحر كما ترى ، وكان على فرس حصان ، فأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة ، فسار جبريل بين يدي فرعون ، فأبصر الحصان الفرس ، فاقتحم بفرعون على أثرها ، فصاحت الملائكة في الناس : الحقوا حتى إذا لحق آخرهم ، وكاد أوّلهم أن يخرج التقى البحر عليهم ، فغرقوا ، فرجع بنو إسرائيل حتى ينظروا إليهم ، وقالوا : يا موسى ادع الله يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم ، فلفظهم البحر إلى الساحل ، وأصابوا من

سلاحهم ، وذكر ابن عباس أن جبريل قال : يا محمد لو رأيتني وأنا أدس في فرعون الماء والطين مخافة أن يتوب ، فهذا معنى قوله تعالى : فغشيهم من اليم ما غشيهم ، ولما أنعم الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكر أولادهم تلك النعم ، فناداهم بقوله تعالى:

﴿ يا بني إسرائيل ﴾ والمنادى من وجد من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما أنعم به على أجدادهم زمن موسى عليه السلام ، ولا شك أن إزالة الضرر يجب تقديمها على إيصال المنفعة ، وإيصال المنفعة الدينية أعظم من إيصال المنفعة الدنيوية ، فلهذا بدأ تعالى بإزالة الضرر بقوله : ﴿ قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ ، فإنّ فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيراً من القتل والإذلال والخراج والأعمال الشاقة ، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية بقوله تعالى : ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ أي : الذي على أيمانكم في توجهكم هذا الذي وجوهكم فيه إلى بيت أبيكم إبراهيم عليه السلام ، وهو جانبه الذي يلي البحر ، وناحية مكة واليمن ، ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك القرب عليهم كتاباً فيه بيان دينهم ، وشرح شريعتهم .

ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله : ﴿ ونزلنا عليكم ﴾ بعد إنزال هذا الكتاب في هذه المواعدة لإنعاش أرواحكم ﴿ المنّ ﴾ أي : الترنجبين ﴿ والسلوى ﴾ أي : الطير السماني بتخفيف الميم والقصر ، وقوله تعالى:

٧

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أمر إباحة أن فسر الطيب باللذيذ ؛ لأن المن والسلوى من لذائذ الأطعمة ، وإن فسر بالحلال ؛ لأن الله تعالى أنزله إليهم ، ولم تمسه يد الآدميين ، فهو أمر إيجاب ، وقرأ حمزة والكسائي قد أنجيناكم ووعدناكم ما رزقناكم بتاء مضمومة بعد التحتية من أنجينا ، وبعد الدال من وعدنا ، وبعد القاف من رزقنا ، ولا ألف في الثلاثة ، والباقون بالنون ، وألف بعدها في الثلاثة ، وأسقط أبو عمرو الألف قبل العين من وعدنا ، وأثبتها الباقون ، ثم زجرهم عن العصيان بقوله تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ أي : فيما رزقناكم بالإخلال بشكره ، والتعدي بما حد الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين ، وقرأ الكسائي ﴿ فيحل ﴾ بضم الحاء ، أي : ينزل ، والباقون بكسرها ، أي : يجب ﴿ عليكم غضبي ﴾ أي : عقوبتي ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ أي :

هلك، وقيل: شقي، وقيل: وقع في الهاوية، وقرأ الكسائي بضم اللام الأولى، وكسرها الباقون، ولما كان الإنسان محل الزلل، وإن اجتهد رجاه واستعطفه بقوله سبحانه:

﴿ وإني لغفار ﴾ أي: ستار بإسبال ذيل العفو ﴿ لمن تاب ﴾ أي: رجع عن ذنوبه من الشرك، وما يقاربه ﴿ وآمن ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿ وعمل صالحاً ﴾ تصديقاً لإيمانه ﴿ ثم اهتدى ﴾ باستمراره على ذلك إلى موته.

فائدة: اعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفاراً، وبأن له غفراناً ومغفرة، وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر، أمّا وصف كونه غافراً، فقوله تعالى ﴿ غافر الذنب ﴾ (غافر،)

وأما كونه غفوراً، فقوله تعالى: ﴿ وربك الغفور ﴾ (الكهف،)، وأما كونه غفاراً، فقوله تعالى: ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن ﴾، وأما الغفران، فقوله تعالى: ﴿ غفرانك ربنا ﴾ (البقرة،)، وأما المغفرة، فقوله تعالى: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس ﴾ (الرعد،)، وأما صيغة الماضي فقوله تعالى في حق داوود عليه السلام: ﴿ فغفرنا له ﴾ (ص،)، وأما صيغة المستقبل فقوله تعالى: ﴿ يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء،)، وقوله

تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح ،) ، وأما لفظ الاستغفار ، فقوله تعالى : ﴿ استغفروا ربكم ﴾ (هود ،) ،

﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ (الشورى ،)

﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (غافر ،)

وههنا نكتة لطيفة وهي أن العبد له أسماء ثلاثة : الظالم والظلوم والظلام إذا كثر منه الظلم ، ولله تعالى في مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسم ، فكأنه تعالى قال : إن كنت ظالماً فأنا غافر ، وإن كنت ظلوماً فأنا غفور ، وإن كنت ظلاماً فأنا غفار ، فيجب على كل من ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة أن يتوب منها لهذه الآية ، ودلت على أن العمل الصالح غير داخل في الإيمان ؛ لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الإيمان والمعطوف غاير المعطوف عليه . انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 177.189 ﴾

(129/500)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (4)

الإعراب:

(ما) نافية (عليك) متعلّق بـ (أنزلنا)، (اللام) للتعليل (تشقى) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف، والفاعل أنت.

والمصدر المؤوّل (أن تشقى) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا).

(إلّا) للاستثناء المنقطع بمعنى لكن (تذكرة) مفعول لأجله عامله مقدّر أي أنزلناه تذكرة "1"، (لمن) متعلّق بـ (تذكرة)، (تنزيلا) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نزّلناه (من) متعلّق بـ (تنزيل) لأنّه نائب عن فعله (العلا) نعت

---

(1) جاء هنا منصوبا لاتّفاق فاعله مع فاعل الفعل ويعود على اللّه، أمّا في (لتشقى) فاستعمل حرف الجرّ لاختلاف فاعل المصدر ويعود على الرسول مع فاعل الإنزال ويعود على اللّه.. ويجوز أن يكون (تذكرة) مفعولا مطلقا لفعل محذوف كما يجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي مذكّرا لمن يخشى.

للسموات منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة.

جملة : " ما أنزلنا . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " تشقى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يخشى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

الصرف :

(تشقى) ، فيه إعلال بالقلب أصله تشقي بالياء ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(تذكرة) ، مصدر سماعيّ لفعل ذكّر الرباعيّ ، وقياسه تذكير ، استعيض من الياء التاء المربوطة في آخره تخفيفا ، وزنه تفعلة .

(يخشى) ، فيه إعلال بالقلب أصله يخشي ، جاءت الياء متحركة بعد فتح قلبت ألفا .

(العلا) ، جمع عليا مؤنّث أعلى . . هو على صيغة التفضيل أفعل وقصد به الوصف المحض أي العالي ، ووزن عليا فعلى بضمّ فسكون ، ووزن العلا فعل بضمّ ففتح . هذا ويجوز رسم الألف قصيرة برسم الياء غير المنقوطة (العلى) لأن الثلاثيّ الواوي إذا جاءت فاؤه مضمومة صحّ في كتابة الألف فيه وجهان : الأول برسم الألف الطويلة بحسب القاعدة

العامّة، والثاني برسم الألف القصيرة على رأي الكوفيين والمعاجم.

الفوائد

1 - لفظ "طه" ليس سوى حرفين من أحرف الهجاء، وقد مرّ معنا عدة آراء حول الأحرف في أول السور، فلا حاجة لتكراره

2 - تأمل، يا عزيزي، هذه الموسيقا الصادرة عن أواخر هذه الآيات، وكيف أنها انتهت جميعها بالألف المقصورة، فهي أكثر ليونة من باقي الأحرف، وأدعى للتأثر والامتلاك، وهي "لتشقى، يخشى، العلى، استوى، الثرى، أخفى، الحسنى..!" والقرآن مليء بهذه الموسيقى التي تسحر وتأسر، وتدعو إلى الإعجاز والإيجاز..!

3 - الاستثناء المنقطع: هو استثناء الشيء من غير جنسه، فليست إلا للاستثناء على سبيل الأصل، وإنما هي بمعنى لكن. ومنه قوله تعالى: "ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى" فتذكرة مستثنى من المصدر المؤول من تشقى، أي ما أنزلنا القرآن لشقائك.

[سورة طه (20) : الآيات 5 إلى 6]

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (6)

الإعراب:

(الرحمن) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 1 " ، (على العرش) متعلّق بـ (استوى) .

جملة : " (هو) الرحمن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " استوى . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هو) .

6 - (له) متعلّق بخبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (ما) في المواضع الثلاثة معطوفة على

---

(1) أصله نعت للموصول (من) ، وحقّه الجرّ ، ولكن قطع عن المنعوت للمدح . . ويجوز أن يكون مبتدأ خبره جملة استوى . [. . . . .]

الموصول الأول في محلّ رفع (في الأرض) متعلّق بصلة ما الثاني (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بصلة ما الثالث (تحت) ظرف منصوب متعلّق بصلة ما الرابع (الثرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف .

جملة : " له ما في السموات . . . " في محلّ رفع خبر ثالث " 1 "

الصرف :

(الثرى) ، اسم للتراب النديّ وزنه فعل بفتحتين ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله الثري - بياء

في آخره - تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة طه (20) : آية 7]

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (بالقول) متعلّق بـ (تجهر) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط ، وفاعل (يعلم) ضمير على اللّه ، (أخفى) معطوف على السرّ منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف " 2 " ، جملة : " تجهر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه يعلم . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي إن تجهر . . فاللّه مستغن عن ذلك فإنّه يعلم السرّ " 3 " .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(2) أجاز بعضهم أن يكون فعلا ماضيا ومفعوله محذوف أي أخفى اللّه غيبه عن عباده .

(3) يجوز أن تكون الجملة جواب الشرط في محلّ جزم .

الصرف :

(أخفى) ، اسم تفضيل من خفي يخفى باب فرح ، وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله أخفي ، جاء الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة طه (20) : آية 8]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (8)

الإعراب :

(لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع بدل من الضمير المستتر في خبر لا المحذوف أي لا إله موجود إلّا هو " 1 " ، (له) متعلّق بخبر مقدّم (الأسماء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الحسنى) نعت للأسماء مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف .

جملة : " اللّه لا إله إلّا هو " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا إله إلّا هو " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " له الأسماء . . . " في محلّ رفع خبر ثان .

[سورة طه (20) : الآيات 9 إلى 10]

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (9) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ

مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (10)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (هل) حرف استفهام لتقرير الخبر.

جملة: "أتاك حديث... " لا محلّ لها استئنافيّة

---

(1) أو هو بدل من محلّ لا واسمها، ومحلّهما الرفع

(133/500)

10- (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (حديث)، (الفاء) عاطفة (لأهله) متعلّق بـ (قال)، (لعلّي) حرف مشبّه بالفعل للترجّي.. و(الياء) اسم لعلّ في محلّ نصب (آتيكم) خبر لعلّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء.. و(كم) ضمير مضاف إليه "1"، (منها) متعلّق بـ (آتيكم) "2"، (بقبس) متعلّق بـ (آتيكم)، (على النار) متعلّق بـ (أجد)، (هدى) مفعول به منصوب "3".

جملة: "رأى... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "قال... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة رأى.

وجملة: "امكثوا... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّي آنست ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "آنست نارا ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "لعلّي آتيكم ... " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "أجد ... " في محلّ رفع معطوفة على خبر لعلّ

الصرف:

(قبس)، اسم لجذوة النار، وزنه فعل بفتحتين.

(هدى) مصدر هدى يهدي باب ضرب وهو بمعنى الوصف أي هاديا، وزنه فعل بضمّ ففتح.. وفيه إعلال بالقلب أصله هدي تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا.

---

(1) يجوز أن يكون (آتيكم) فعلا مضارعا مرفوعا، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة.. و(كم) ضمير مفعول به في محلّ نصب والفاعل أنا.. وجملة آتيكم في محلّ رفع خبر لعلّ.

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من قبس.

(3) الفعل أجد متعدّ لواحد لأنّه بمعنى ألاقي.

البلاغة

-التشويق والحث على الإصغاء :

في قوله تعالى " وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى " .

[سورة طه (20) : الآيات 11 إلى 16]

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً

(12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ

الصَّلاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (15)

فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (16)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (نودي) وهو ماض مبنيّ للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب .

جملة : " أتاها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نودي . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " النداء : يا موسى . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

12 - (أنا) ضمير منفصل أستعير لمحلّ النصب توكيدا للياء " 1 " . (ربّك) خبر إنّ مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، وعلامة نصب (نعليك) الياء (بالواد) خبر إنّك ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف مناسبة لقراءة الوصل بإسقاط الياء لالتقاء الساكنين (طوى) عطف بيان - أو بدل من الوادي - مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف .

وجملة : " إنّي . . ربّك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اخلع . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وعيت ذلك فاخلع " 2 " .

جملة : " إنّك بالوادي . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

13 - (الواو) عاطفة (أنا) ضمير منفصل مبتدأ خبره جملة اخترتك (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لما) متعلّق بـ (استمع) ، (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، ونائب الفاعل هو وهو العائد .

وجملة : " أنا اخترتك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " اخترتك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

وجملة : " استمع . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عرفت قدرك فاستمع "

" 3 .

(1) يجوز أن يكون مبتدأ خبره ربّك . . والجملة الاسميّة خبر إنّ . . وأجاز العكبريّ أن يكون فصلا وهو بعيد .

(2) يجوز أن تكون الفاء عاطفة لمطلق السببيّة ، فالجملة معطوفة على مقدّر مسبّب عمّا قبله أي تنبّه فاخلع .

(3) أو هي معطوفة بالفاء على مقدّر أي تنبّه فاستمع .

(136/500)

وجملة : " يوحى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

14 - 15 - (إنّني أنا اللّه) مثل إنّي أنا ربّك " 1 " (لا إله إلّا أنا) مثل لا إله إلّا هو " 2 " ، (الفاء) رابطة المسبّب بالسبب (لذكري) متعلّق بـ (أقم) ، (أكاد) مضارع ناقص - ناسخ - مرفوع ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنا و(اللام) في (لتجزى) للتعليل و(تجزى) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف و(كلّ) نائب الفاعل مرفوع (بما) متعلّق بـ (تجزى) ، وما حرف مصدريّ " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أن تجزى . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أخفيها) " 4 " .

والمصدر المؤوّل (ما تسعى) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تجزى) .

وجملة : " إنّني أنا الله . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 5 " .

وجملة : " لا إله إلّا أنا . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) وجملة : " اعبدني . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي تنبّه فاعبدني " 6 " .

وجملة : " أقم الصلاة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اعبدني .

وجملة : " إنّ الساعة آتية . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أكاد أخفيها " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) "

.

---

(1) في الآية (12) من هذه السورة .

(2) في الآية (8) من هذه السورة .

(3) والمصدر المؤوّل على حذف مضاف أي تجزى بعقاب سعيها . . ويجوز أن يكون اسم موصول والعائد محذوف .

(4) أو متعلّق باسم الفاعل آتية . [. . . . .]

(5) أو هي تفسير للموحى به .

(6) أو هي في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن صدّقت ربوبيّتي فاعبدني .

(7) يجوز أن تكون اعتراضيّة بين اسم الفاعل ومعموله أي بين آتيه ومتعلّقه لتجزى ، فلا

محلّ لها .

الجدول ج 16 ، ص : 354

وجملة : " أخفيها . . . " في محلّ نصب خبر أكاد وجملة : " تجزى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تسعى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

---

16 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية (يصدّنّك) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . و(النون) نون التوكيد . . و(الكاف) ضمير مفعول به (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (لا) نافية (بها) متعلّق بـ (يؤمن) و(عنها) متعلّق بـ (يصدّنّك) ، (الفاء) فاء السببيّة (تردى) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف ، والفاعل أنت .

والمصدر المؤوّل (أن تردى . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر متصيّد من النهي السابق أي لا يكن صدّ من الكافر بالصلاة فرادى منك وجملة : " لا يصدّنّك . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أقمت الصلاة فلا يصدّنّك عنها من لا يؤمن بها وجملة : " لا يؤمن

بها . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة: "اتّبع . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة: "تردى . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف:

(نودي) ، فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول أصله (نادى) ، قلبت الألف الأولى واوا لضمّ ما قبلها ، وقلبت الألف الثانية ياء لانكسار ما قبلها .

(نعليك) ، الواحد نعل وهو اسم جامد لفردة الحذاء ، فيستعمل للحذاء الكامل مثنّى مثل كلمة زوج.

(طوى) ، اسم علم بالضمّ والتنوين - ويقرأ بغير تنوين للعلميّة والتأنيث بمعنى البقعة - وزنه فعل بضمّ ففتح .

(اخترتك) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، أصله اختارتك بسكون الألف والراء ، التقى ساكنان فحذفت الألف .

(تردى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تردي - بالياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

الفوائد

1 – طوى : اسم علم لواد في فلسطين من بلاد الشام ، وهو ممنوع من الصرف ، والمانع له العلمية والتأنيث ، باعتباره اسما مخصوصة من الأرض 2 – لتجزى كل نفس بما تسعى " اللام الجارة " اللام هنا للتعليل ، وهي واحدة من أقسام اللام الجارة . " واللام الجارة " لها نحو من ثلاثين معنى ، إليك أهم هذه المعاني .

أ – الملك : نحو " لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " .

ب – الزائدة : وهي لمجرد التوكيد كقول ابن ميادة :

وملكت ما بين العراق ويثرب ملكا أجار لمسلم ومعاهد

ه – القسم : نحو " لله لا يؤخر الأجل " أي تالله .

و – التعجب : نحو " لله درك " .

ز – الصيرورة : وتسمى " لام العاقبة " نحو :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

ج – البعدية : نحو ، " أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ " .

ط – بمعنى " على " : نحو " يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ " أي على الأذقان .

ي – لام الجحود ، نحو " وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ " . ويسميها سيبويه لام النفي ، وتسبق بكون منفي .

[سورة طه (20) : آية 17]

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (17)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ، وهي للتقرير (تلك) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع خبر (بيمينك) متعلّق بمحذوف حال عامله الإشارة.

جملة: «ما تلك ... » لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: «يا موسى ... » لا محلّ لها اعتراضيّة، أو استئنافيّة لتأكيد النداء.

[سورة طه (20) : آية 18]

قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (18)

الإعراب:

(عصاي) خبر المبتدأ (هي) مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف.. و(الياء) مضاف إليه (عليها) متعلّق ب (أتوكّأ)، (بها) متعلّق ب (أهشّ)، (على غنمي) متعلّق بحال

محذوفة من مفعول أهشّ أي ورق الشجر متساقطا على غنمي (الواو) عاطفة (لي) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (فيها) متعلّق بالخبر المحذوف (مآرب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أخرى) نعت لمآرب مرفوع مثله، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف.

جملة: "قال... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هي عصاي... " في محلّ نصب مقول القول وجملة: "أتوكّأ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 ".

---

(1) يجوز أن تكون خبرا ثانيا للضمير هي.. وأجاز العكبريّ جعلها حالا من العصا أو من الياء ولكن العامل فيها ضعيف.

وجملة: "أهشّ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتوكّأ.

وجملة: "لي فيها مآرب... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتوكّأ.

الصرف:

(مآرب)، جمع مأرب أو مأربة بفتح راء الأول وتثليث راء الثاني وهو الحاجة، وهو الاسم من أرب بالشيء كلف به أو أرب إليه احتاج، والفعل من الباب الرابع، ووزن مآرب

مفاعل بفتح الميم وكسر العين .

البلاغة

- الإطناب :

في قوله تعالى " قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي " كان يكفي أن يقول : " هِيَ عَصايَ " ، ولكنه توسع في الجواب ، تلذذا بالخطاب . ويمكن أن يقال أيضا إن هذا هو فن التلفيف ، وهو فن طريف من فنون البلاغة . وحدّه : أن يسأل السائل عن حكم ، هو نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها ، كلها أو أكثرها ، فيعدل المسؤول عن الجواب الخاص ، عما سئل عنه ، من تبيين ذلك النوع ، ويجيب بجواب عام يتضمن الإبانة على الحكم المسؤول عنه وعن غيره ، بدعاء الحاجة إلى بيانه . فقول موسى ، جوابا عن سؤال اللّه تعالى له : " هِيَ عَصايَ " هو الجواب الحقيقي للسؤال . ثم قال " أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى " فأجاب عن سؤال مقدّر ، كأنه توهم أن يقال له : وما تفعل بها ؟

فقال معددا منافعها .

الفوائد

- عصا موسى .

ذكر اللّه تعالى على لسان موسى بعض فوائد العصا ، ولم يستقص سائر فوائدها .

وللعرب كلام لطيف في " العصا " ، وحكم كثيرة ، مما دفع الجاحظ إلى تأليف

الجدول ج 16 ، ص : 358

كتاب كامل سماه "كتاب العصا " .

قال أبو نواس في شأن أهل مصر حين أوضعوا بالفتنة :

فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكفّ خصيب

وأورد الجاحظ قصة " عامر بن الظرب " حكيم العرب في الجاهلية ، أنه لما أسنّ ، وكانت له بنت من الحكمة بمكان ، حتى جاوزت حكمتها " صحر بنت لقمان ، وهند بنت الحسن ، وخمعة بنت حابس " .

فكان يطلب إلى بنته ، إذا سمعته جاوز في حكمه ، أن تقرع له بالعصا ، ليعدل عما هو فيه . وقال الحارث بن وعلة :

وزعمتم أن لا حلوم لنا إن العصا قرعت لذي حلم

وقال الفرزدق :

فإن كنت إنساني حلوم مجاشع فإن العصا كانت لذي الحلم تقرع

وقال المضرس الأسدي :

وألقت عصاها واستقر بها النوى

وقال سويد بن كراع الكلبي :

فمن مبلغ رأس العصا ان بيننا ضغائن لا تنسى وان قدم الدهر

(141/500)

]

سورة طه (20) : الآيات 19 إلى 20]

قالَ أَلْقِها يا مُوسى (19) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (20)

الإعراب :

(ألقها) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (الفاء) عاطفة في الموضعين (إذا) فجائية (تسعى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل هي .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ألقها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يا موسى . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " ألقاها . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: " هي حيّة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقاها .

وجملة: " تسعى " في محلّ رفع نعت لحيّة .

الصرف:

(حيّة) ، اسم جامد للحيوان المعروف ، وزنه فعلة بفتح الفاء ، وقد أدغمت عينه مع لامه .

[سورة طه (20) : الآيات 21 إلى 24]

قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (23) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (24)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة و(السين) حرف استقبال (سيرتها) منصوب على نزع الخافض " 1 " ، أي إلى سيرتها (الأولى) نعت لسيرة مجرور ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أجاز العكبريّ أن يكون بدلا من الضمير المنصوب في (سنعيدها) ، بدل اشتمال .

وجملة : " خذها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تخف . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذها .

وجملة : " سنعيدها . . . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

22 - (الواو) عاطفة (إلى جناحك) متعلّق بـ (اضمم) ، (تخرج) مضارع مجزوم جواب الطلب (بيضاء) حال منصوبة من فاعل تخرج ، ومنع من التنوين لأنّه منته بألف التّأنيث الممدودة (من غير) متعلّق بحال من الضمير في بيضاء " 1 " (آية) حال ثانية منصوبة (أخرى) نعت لآية منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

وجملة : " اضمم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذها .

وجملة : " تخرج . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية :

في قوله تعالى " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ " .

أصل الجناح للطائر ، ثم أستعير لجنب الإنسان ، لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر ،

فسميت الجهتان جناحين، بطريق الاستعارة.

2 - الاحتراس والكناية:

في قوله تعالى "تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ".

السوء: الرداءة والقبح في كل شيء، وكنى به عن البرص، كما كنى عن العورة بالسوأة، لما أن الطباع تنفر عنه والأسماع تمجه، وفائدة التعرض لنفي ذلك "الاحتراس" فإنه لو اقتصر على قوله تعالى "تَخْرُجْ بَيْضاءَ" لأوهم، ولو على بعد ذلك، من برص ويجوز أن يكون الاحتراس عن توهم عيب الخروج عن الخلقة

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بـ (تخرج).

الجدول ج 16، ص: 361

الأصلية، على أن المعنى، تخرج بيضاء من غير عيب وقبح في ذلك الخروج، أو عن توهم عيب مطلقا.

23 - (اللام) للتعليل (من آياتنا) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان "1".

والمصدر المؤوّل (أن نريك..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره آتيناك ذلك لنريك...

وجملة: "نريك..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

24 - (إلى فرعون) متعلّق بـ (اذهب)، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف..

وجملة: "اذهب . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "إنّه طغى . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) أو متعلّق بحال من الكبرى على أنّه المفعول الثاني وهو نعت لمنعوت محذوف أي: الآية الكبرى.

(143/500)

وجملة: "طغى . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(سيرة)، الاسم من سار يسير، أو بمعنى الهيئة والطريقة، وزنه فعلة بكسر فسكون.

(الكبرى)، اسم تفضيل وزنه فعلى بضمّ الفاء وسكون العين وهو مؤنّث أكبر . . مفرد وصف به الجمع وهو جائز ولو كانت في غير التنزيل جمعا لجاز أي كبر بضمّ ففتح أو كبريات.

(طغى)، فيه إعلال بالقلب أصله طغي، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا، ورسمت الألف برسم الياء غير المنقوطة لأنه ثلاثيّ أصل الألف فيه ياء.

[سورة طه (20): الآيات 25 إلى 35]

قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27)
يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29)
هارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً
(33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34)
إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (35)

الإعراب:

(ربّ) منادى مضاف منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف، و(الياء) مضاف إليه (لي) متعلّق ب (اشرح) فعل أمر دعائي..

جملة: "قال..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "النداء وجوابها..." في محلّ نصب مقول القول "1".

وجملة: "اشرح..." لا محلّ لها جواب النداء.

26 - (الواو) عاطفة (لي) الثاني متعلّق ب (يسّر).

وجملة: "يسّر..." معطوفة على جملة اشرح تأخذ إعرابها.

27 - (الواو) عاطفة (من لساني) متعلّق بنعت لعقدة.

وجملة: "احلل..." معطوفة على جملة اشرح.

28 - (يفقهوا) مضارع مجزوم جواب الطلب، وعلامة الجزم حذف النون..

و(الواو) فاعل.

---

(1) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضيّة للاسترحام والدعاء، وجملة اشرح مقول القول.

وجملة: "يفقهوا . . ." لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تحلل عقدة لساني يفقهوا قولي . .

29 - (الواو) عاطفة (لي) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (من أهلي) متعلّق بنعت لـ (وزيرا).

وجملة: "اجعل . . ." معطوفة على جملة اشرح.

30 - (هارون) بدل من (وزيرا) منصوب "1"، (أخي) عطف بيان لهارون منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و(الياء) مضاف إليه.

31 - (اشدد) فعل أمر والفاعل أنت (به) متعلّق بـ (اشدد).

وجملة: "اشدد . . ." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

32 - (الواو) عاطفة (أشركه) فعل أمر، والفاعل أنت " 2 "، (في أمري) متعلّق بـ (أشركه).

وجملة: " أشركه... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اشدد..

33 - (كي) حرف مصدريّ ونصب (كثيرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نعت له أي تسبيحا كثيرا. والمصدر المؤوّل (كي نسبّحك) في محلّ جرّ بلام مقدّرة متعلّق بـ (اجعل) " 3 ".

وجملة: " نسبّحك... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي).

---

(1) يجوز أن يكون (هارون) مفعولا أوّلا لفعل اجعل و(وزيرا) مفعولا ثانيا و(لي) متعلّق بـ (اجعل).

(2) يجوز أن يكون مضارعا مجزوما بجواب الطلب عطفا على أشدد المضارع المجزوم في قراءة سبعيّة.

(3) يجوز تعليقه بالفعلين اشدد، أشرك.

34 - (الواو) عاطفة (نذكرك) مضارع معطوف على نسبّحك منصوب . .

(كثيرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر . .

وجملة : " نذكرك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسبّحك .

35 - (بنا) متعلّق بـ (بصيرا) خبر كنت المنصوب .

وجملة : " إنّك كنت . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كنت بنا بصيرا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(وزيرا) ، صفة مشبّهة من وزر الثلاثيّ باب ضرب ، وزنه فعيل وهو إمّا من الوز وهو الثقل لأنّ الوزير يتحمل أعباء الملك ، أو من الوزر وهو الملجأ ، وقيل هو من المؤازرة وهي المعاونة .

(أزر) ، مصدر سماعيّ لفعل أزر فلانا يأزره باب ضرب أي قوّاه ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

-التنكير :

في قوله تعالى " وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي " .

حيث نكّر العقدة ، ليدل على أنه لا يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل حل عقدة تمنع الإفهام ، ولذلك نكرها ووصفها بقوله : " مِنْ لِسانِي " ، أي عقدة كائنة من عقد لساني ، وجعل قوله : "يَفْقَهُوا قَوْلِي " جواب الأمر ، وغرضا من الدعاء ، فبحلها يتحقق إيتاء سؤله عليه الصلاة والسلام .

الفوائد

-أقسام كي :

كي الناصبة قسمان :

أ- كي المصدرية : وهي التي تدخل عليها اللام لفظا ، نحو "لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ" وكي تكرمني .

ب- التعليلية : وهي لا تنصب بنفسها ، لأنها حرف جر ، وإنما تنصب الفعل بـ " أن مضمرة" لزوما في النثر ، وقد تظهر في الشعر نحو :

فقالت أكل الناس أصبحت مانحا لسانك كيما أن تغرّ وتخدعا

وإلى ذلك ذهب البصريون جميعا ، أما الكوفيون فيرون أن كي تنصب الفعل ، سواء تقدمها اللام أم لم يتقدمها .

وقيل بأنهم أجمعوا على جواز الفصل بينها وبين معمولها بـ " لا النافية وما الزائدة " دون سواهما .

[سورة طه (20) : الآيات 36 إلى 41]

(147/500)

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (40)

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

الإعراب :

(أوتيت) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل (التاء) (سؤلك) مفعول به منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد أوتيت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة النداء : " يا موسى " لا محلّ لها اعتراضيّة .

37 - (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (عليك) متعلّق بـ (مننّا) ، (مرّة) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو عدده أي منّا ثانيا (أخرى) نعت لمرّة منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

وجملة : " مننّا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة أوتيت .

38 - (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (مننّا) ، (إلى أمّك) متعلّق بـ (أوحينا) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ، عامله أوحينا (يوحى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، ونائب الفاعل هو العائد .

وجملة : " أوحينا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يوحى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

39 - (أن) تفسيرية " 1 " ، (اقذفيه) أمر مبنيّ على حذف النون . . و(الياء) ضمير في محلّ رفع فاعل ، و(الهاء) ضمير مفعول به (في التابوت) متعلّق بـ (اقذفيه) ، (الفاء) عاطفة (في اليمّ) متعلّق بـ (اقذفيه) الثاني (الفاء) عاطفة (اللام) لام الأمر ، وعلامة الجزم في (يلقه) حذف حرف العلّة (بالساحل)

---

(1) أو مصدريّة . . والمصدر المؤوّل في محلّ نصب بدل من اسم الموصول ما يوحى .

متعلّق بـ (يلقه) أي في الساحل " 1 " ، (يأخذه) مضارع مجزوم جواب الطلب (لي) متعلّق بنعت لـ (عدوّ) الأوّل (له) متعلّق بنعت لـ (عدوّ) الثاني (الواو) واو الحال - أو استئنافيّة - (عليك) متعلّق بـ (ألقيت) ، (منّي) متعلّق بنعت لـ (محبّة) " 2 " ، (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (تصنع) مضارع مبنيّ لمجهول منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، ونائب الفاعل أنت (على عيني) متعلّق بـ (تصنع) .

والمصدر المؤوّل (أن تصنع . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (ألقيت) وهو معطوف على مصدر مؤوّل مقدّر أي ألقيت عليك المحبّة ليتلطّف بك ولتصنع على عيني .

وجملة : " اقذفيه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة: " اقذفيه (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيرية.

وجملة: " يلقه اليمّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيرية " 3 " .

وجملة: " يأخذه عدوّ . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " ألقيت . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد – أو استئنافيّة – .

وجملة: " تصنع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

40 – (إذ) في تعليقه أوجه: الأول متعلّق بـ (ألقيت) ، الثاني متعلّق بـ (تصنع) على عيني ، الثالث بدل من إذ أوحينا ، الرابع هو اسم ظرفيّ مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (هل) حرف استفهام (على من) متعلّق بـ (أدلّكم) ، (الفاء) عاطفة (إلى أمّك) متعلّق بـ (رجعناك) ، (لا) نافية

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من ضمير المفعول أي ملتبسا بالساحل .

(2) أو متعلّق بـ (ألقيت) . [. . . . . .]

(3) هي جملة طلبيّة ولكن معناها خبر .

(تحزن) مضارع منصوب معطوف على تقرّ، والمصدر المؤوّل (كي تقرّ . .) في محلّ جرّ بلام مقدّرة متعلّق بـ (رجعناك) .

(الواو) استئنافيّة (الفاء) عاطفة (من الغمّ) متعلّق بـ (نجّيناك) ، (فتونا) مفعول مطلق منصوب " 1 " ، (الفاء) استئنافيّة (سنين) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لبثت) ، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (في أهل) متعلّق بـ (لبثت) ، ومنع (مدين) من الصرف للعلميّة والتأنيث (ثمّ) حرف عطف (على قدر) متعلّق بحال فاعل جئت أي موافقا لما قدّر لك أو كائنا على قدر معيّن .

وجملة : " تمشي أختك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تمشي .

وجملة : " أدلّكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكفله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " رجعناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي فأجيبت فجاءت أمّك فرجعناك إليها .

وجملة : " تقرّ عينها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي) .

وجملة : " لا تحزن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تقرّ عينها .

وجملة: " قتلت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول.

وجملة: " نجّيناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قتلت.

وجملة: " فتنّاك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجّيناك.

وجملة: " لبثت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول.

---

(1) أو هو منصوب على نزع الخافض إذا كان (فتونا) هو جمع فتنة أي فتنّاك بفتون كثيرة.

(151/500)

وجملة: " جئت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لبثت.

وجملة النداء: " يا موسى " لا محلّ لها اعتراضيّة.

41 - (الواو) عاطفة (لنفسي) متعلّق بـ (اصطنعتك).

(152/500)

وجملة: " اصطنعتك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جئت.

الصرف:

(سؤلك) ، اسم لما يسأل عنه أي بمعنى المسؤول ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(الساحل) اسم جامد بمعنى الشاطئ وهو على لفظ اسم الفاعل من سحل الثلاثيّ باب فتح .

(محبّة) ، مصدر ميميّ من حبّ الثلاثيّ ، وزنه مفعلة ، و(التاء) للمبالغة .

(فتونا) ، مصدر سماعيّ لفعل فتن الثلاثيّ باب ضرب ، وزنه فعول بضمّتين ، وثمّة مصدر آخر للفعل هو فتن بفتح فسكون . ويجوز أن يكون (فتونا) جمعا لفتنة فيكون اسما .

(اصطنع) ، فيه (إبدال) تاء الافتعال طاء لمجيئها بعد الصاد وأصله اصتنعتك .

البلاغة

1 - الإبهام :

في قوله تعالى " ما يُوحى " إبهام مجرد وهو كثير في القرآن الكريم .

2 - التنكير : في قوله تعالى " محبة " .

نكّر المحبة ، لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، أي محبة عظيمة كائنة مني قد زرعتها في القلوب فكل من رآك أحبك بحيث لا يصبر عنك .

3 - الاستعارة التمثيلية :

في قوله تعالى " وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي " .

تمثيل لشدة الرعاية ، وفرط الحفظ والكلاءة ، بمن يصنع بمرأى من الناظر ، لأن الحافظ

للشيء - في الغالب - يديم النظر إليه ، فمثّل لذلك بمن يصنع على عين الآخر .

4 - الاستعارة التبعية :

في قوله تعالى " وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي " .

لقد شبّه ما خوّله به من القرب والاصطفاء ، بحال من يراه الملك أهلا للكرامة وقرب المنزلة

، لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه ، ويختاره لخلّته ويصطفيه لأموره الجليلة ، واستعار

لفظ اصطنع لذلك .

الفوائد

1 - ولقد مننا عليك مرة أخرى .

فما هي المنن التي من الله بها على موسى ؟

والجواب أنها قد تبلغ الثمانية أو تزيد ، أ - قوله : إِذْ أَوْحَيْنا إلخ .

ب - وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي .

ج - قوله : وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي .

د - قوله : فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ .

ه - قوله : وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ .

و - وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً .

ز - قوله : فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، إلى قوله ، يا مُوسى .

ح - قوله : وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي .

2 - أن التفسيرية : وهي ما ترد بعد ما هو في معنى القول دون لفظه . نحو قوله تعالى : إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى أَنِ اقْذِفِيهِ . إلى قوله : " عَلى عَيْنِي " .

[سورة طه (20) : الآيات 42 إلى 44]

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44)

الإعراب :

(أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد للضمير المستتر الفاعل (أخوك) معطوف على الضمير الفاعل المستتر بالواو وعلامة الرفع الواو (بآياتي) متعلّق بمحذوف حال من المعطوف والمعطوف عليه ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء (لا) ناهية جازمة (تنيا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و(الألف) فاعل (في ذكري) متعلّق بـ (تنيا) ، و(في) بمعنى (عن) ، (إلى فرعون) متعلّق بـ (اذهبا) ، (له) متعلّق بـ (قولا) ، (قولا) مفعول به منصوب " 1 " أي كلاما ليّنا .

جملة: "اذهب ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا تنيا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف.

وجملة: "اذهبا ... "لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للأولى.

وجملة: "إنّه طغى ... "لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) أو هو مفعول مطلق، والمفعول به مقدّر أي قولا له ما يهديه قولا ليّنا.

(154/500)

وجملة: "طغى ... "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "قولا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة اذهبا.

وجملة: "لعلّه يتذكّر ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليلية.

وجملة: "يتذكّر ... "في محلّ رفع خبر لعلّ.

وجملة: "يخشى ... "في محلّ رفع معطوفة على جملة يتذكّر.

الصرف:

(تنيا)، فيه إعلال بالحذف، ماضيه ونى من باب وعد، حذفت فاؤه في المضارع فهو معتلّ مثال مكسور العين في المضارع، وزنه تعلا.

(ليّنا) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ لان يلين باب ضرب ، وزنه فيعل بفتح الفاء وكسر العين ، أدغمت الياء مع عين الكلمة وهي ياء .

الفوائد

- أوجه الرجاء في قوله تعالى :

" لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى " :

أ - أن يكون الرجاء على أصله ، فهما يرجوان إيمانه ، ويطمعان في هدايته ، وإذا صح الرجاء لدى العبد ، فهو محال عند اللّه تعالى :

ب - أن لعل تفيد التعليل بمثابة "كي " .

ج - ومنهم من اعتبرها استفهامية ، ويستحيل بحق اللّه الاستفهام .

ء - ويقول النحاة إن لعل للتوقع ، وهي تفيد الترجي ، كقوله تعالى : لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً . وكذلك الإشفاق نحو " فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ " أي أشفق على نفسك .

ه - وأفاد الأخفش والكسائي بأنها قد تفيد التعليل ، كقولك لصاحبك " افرغ من عملك لعلنا نتغدى " . ومنه " لعله يتزكى " أي يتذكر .

الجدول ج 16 ، ص : 373

[سورة طه (20) : آية 45]

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (45)

الإعراب:

(علينا) متعلّق بـ (يفرط).

والمصدر المؤوّل (أن يفرط..) في محلّ نصب مفعول به عامله نخاف.

والمصدر المؤوّل (أن يطغى) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل (أن يفرط..).

جملة: "قالا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ربّنا (الندائيّة)..." لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام.

وجملة: "إنّنا نخاف..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "نخاف..." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يفرط..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "يطغى..." لا محلّ لها صلة الموصول (أن) الثاني.

(155/500)

[سورة طه (20): آية 46]

قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (46)

الإعراب:

(لا) ناهية جازمة (معكما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر إنّ . . و(كما) ضمير مضاف إليه ، ومفعول كل من (أسمع ، أرى) مقدّر أي : أسمع ما يقول وأرى ما يصنع .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا تخافا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّني معكما . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أسمع . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) " 1 " .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . أو في محلّ نصب حال من اسم إنّ ، والعامل فيها معنى التوكيد (إنّ) .

[سورة طه (20) : الآيات 47 إلى 48]

فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (ائتياه) فعل مبنيّ على حذف النون . .

و(الألف) فاعل ، و(الهاء) مفعول به (الفاء) في (فأرسل) لربط المسبّب بالسبب (معنا) ظرف منصوب متعلّق بـ (أرسل) ، (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر ، ومنع (إسرائيل) من الصرف للعلميّة والعجمة (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (قد) حرف تحقيق (بآية) متعلّق بـ (جئناك) ، (من ربك) متعلّق بنعت لآية (الواو) استئنافيّة (على من) متعلّق بخبر المبتدأ (السلام) .

جملة : " ائتياه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تخافا " 1 " .

وجملة : " قولا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ائتياه .

وجملة : " إنّا رسولا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرسل . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه فأرسل .

وجملة : " لا تعذّبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسل .

وجملة : " قد جئناك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة .

وجملة : " السلام على من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّبع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) في الآية السابقة (46) .

48 - (أوحي) فعل ماض مبنيّ للمجهول، (إلينا) متعلّق بـ (أوحي)، (على من) متعلّق بمحذوف خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّ العذاب..) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل أوحي.

وجملة: "إنّا قد أوحي... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول" 1 "وجملة: "أوحي إلينا ... "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "كذّب... "لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة: "تولّى... "لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب.

الصرف:

(ائتيا)، حذف منه همزة الوصل لوجود الهمزة بعدها ودخول الفاء على الفعل فأصبح (فأتياه) حيث كتبت الهمزة على ألف بعد أن كانت مرسومة على نبرة.

[سورة طه (20): آية 49]

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (49)

الإعراب:

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره (ربّكما) .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: " من ربّكما . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أوحي إليكما فمن ربّكما . وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة: " يا موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة -

---

(1) وهو جملة السلام على من اتبع . . . فهو من قول موسى وهارون لفرعون . . أو قول اللّه لهما أن يقولا لفرعون ذلك .

(2) ويجوز أن تكون جملة الاستفهام معطوفة على مقدّر أي: قد سمعنا هذا فمن ربّكما ؟ والمقدّر هو مقول القول .

[سورة طه (20) : آية 50]

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (50)

الإعراب:

(ربّنا) مبتدأ مرفوع (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (خلقه) مفعول به ثان منصوب " 1 " .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " ربّنا الذي . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أعطى كلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " هدى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعطى . .

الصرف:

(خلقه) ، اسم بمعنى الهيئة والفطرة أي الخلقة بالكسر ، وإمّا بمعنى الناس فهو حينئذ اسم جمع ، وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة طه (20) : آية 51]

قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (51)

الإعراب:

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بال) خبر مرفوع . .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما بال . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن كان ربّك قد أعطى

وهدى فما بال . . . "2" ، وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) هذا على أنّ الخلق بمعنى الصورة أو الشكل ، أمّا إذا كان المعنى الخلائق والناس فهو المفعول الأول و(كلّ) هو المفعول الثاني .

(2) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدّر هو مقول القول كالآية (49) من هذه السورة .

الجدول ج 16 ، ص : 377

الصرف :

(الأولى) ، مؤنّث الأول ، اسم للعدد يدلّ على ترتيب ويطابق المعدود في التذكير والتأنيث ، وقد جاء مؤنّثا لأنّه وصف للقرون وهو جمع والجمع مؤنث . وزنه فعلى بضمّ فسكون .

[سورة طه (20) : الآيات 52 إلى 53]

قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53)

الإعراب :

(علمها) مبتدأ مرفوع، ومضاف إليه (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر " 1 "، (في كتاب) متعلّق بمحذوف الخبر (لا) نافية في الموضعين.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " علمها عند... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " لا يضلّ ربّي... " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 2 ".

وجملة: " لا ينسى... " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يضلّ ربّي.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الهاء في علمها، والخبر هو الجارّ والمجرور (في كتاب).. وثمّة تعليقات أخرى متكلّفة أوردها العكبريّ نقلا عن الأخفش وغيره.

(2) يجوز أن تكون الجملة نعتا لكتاب في محلّ جرّ، والرابط محذوف أي لا يضلّ حفظه ربّي.. وجملة لا ينسى المعطوفة تأخذ إعرابها.

(160/500)

---

53 - (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 1 "، (لكم) الأول متعلّق بـ (جعل) " 2 " (مهدا) مفعول به ثان منصوب (لكم) الثاني متعلّق بـ (سلك) " 3 "، (فيها) متعلّق بـ (سلك)، (من السماء) متعلّق بـ (أنزل) " 4 "، (الفاء) عاطفة (به)

متعلّق بـ (أخرجنا) و(الباء) للسببيّة (من نبات) متعلّق بنعت لـ (أزواجا) ، (شتّى) نعت ثان لـ (أزواجا) منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

وجملة : " (هو) الذي . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " سلك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أخرجنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل " 5 " .

الصرف :

(شتّى) جمع شتيت ، صفة مشبّهة من شتّ الأمر يشتّ باب ضرب وزنه فعيل ، ووزن شتّى فعلى مثل مريض ومرضى بفتح فسكون .

[سورة طه (20) : آية 54]

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (54)

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت لربّي .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من (مهدا) .

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من (سبلا) . [. . . . .]

(4) أو متعلّق بمحذوف حال من (ماء) .

(5) وفي الكلام التفات ، والمعنى فأخرج به أزواجا . . .

(161/500)

الإعراب :

(في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آيات) اسم أنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (لأولي) متعلّق بنعت لـ (لآيات) وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر . .

جملة : "كلوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 " .

وجملة : "ارعوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا .

وجملة : "إنّ في ذلك لآيات . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(ارعوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله ارعاوا ، التقى ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لام الكلمة ، وبقيت الفتحة على العين دلالة على الألف ، وزنه افعوا .

(النهى) ، قيل هو مصدر كالهدى والسري ، وزنه فعل بضمّ ففتح ، وقيل هو جمع نهية

كغرفة بضمّ فسكون وغرف ، سمّي بذلك لأنّه ينهى صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق ، وفيه إعلال بالقلب أصله نهي ، تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا .

[سورة طه (20) : آية 55]

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (55)

الإعراب :

(منها) الأول متعلّق بـ (خلقناكم) ، (فيها) متعلّق بـ (نعيدكم) ، (منها) الثاني متعلّق بـ (نخرجكم) (تارة) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي إخراجا آخر " 2 " ، (أخرى) نعت لتارة منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة .

جملة : " خلقناكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نعيدكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " نخرجكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

---

(1) أجازوا في الجملة أن تكون مقولا لحال محذوفة أي أخرجنا به أزواجا قائلين كلوا . . .

(2) يجوز أن يعرب ظرفا متعلّقا بـ (نخرجكم) ، أي نخرجكم في وقت ثان

.

الصرف :

(تارة) اسم بمعنى الحين والمرّة، فعله تأر، وقد حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، جمعه تارات وتير بكسر ففتح وتئر بالهمز .

البلاغة

-المقابلة :

في قوله تعالى " مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ " .

فقد حصلت المقابلة بين " منها " و " فيها " ، وبين " الخلق " و " الإعادة " . وهذا من المحسنات البديعية .

[سورة طه (20) : آية 56]

وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (56)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (آياتنا) مفعول به ثان منصوب، وعلامة النصب الكسرة . . و(نا) مضاف إليه (كلّها) توكيد للآيات منصوب (الفاء) عاطفة .

جملة : " أريناه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة: "كذّب... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أريناه.

وجملة: "أبي... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أريناه.

[سورة طه (20): الآيات 57 إلى 58]

قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام و(اللام) لام التعليل (تخرجنا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من أرضنا) متعلّق ب (تخرجنا)، (بسحرك) متعلّق ب (تخرجنا) و(الباء) سببيّة..

والمصدر المؤوّل (أن تخرجنا..) في محلّ جرّ باللام متعلّق ب (جئتنا).

جملة: "قال... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "جئتنا... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "تخرجنا... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة النداء: "يا موسى... "لا محلّ لها اعتراضيّة.

58 - (الفاء) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نأتينّك) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد ، و(الكاف) مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (بسحر) متعلّق بـ (نأتينّك) " 1 " ، (مثله) نعت لسحر مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بيننا) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (بينك) معطوف على الظرف الأول ، (موعدا) مفعول به أوّل منصوب (لا) نافية (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد لضمير الفاعل المستتر (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع معطوف على الضمير الفاعل وعلى رأي ابن مالك أنت ضمير منفصل في محل رفع فاعل لفعل محذوف تقديره تخلفه - إذ لما حذف الفعل انفصل الفاعل - فهو ليس توكيدا للفاعل المستتر في (نخلفه) . وحينئذ تعطف جملة تخلفه على جملة نخلفه في محل نصب . . ولكن الإعراب الأول معتمد على قاعدة : يغتفر في الأواخر ما لا يغتفر في الأوائل . (مكانا) بدل من (موعدا)

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل نأتينّك أي متلبّسين بسحر .

يكونه اسم مكان منصوب " 1 " ، (سوى) نعت لـ (مكانا) منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

وجملة : " نأتينّك . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " اجعل . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن قبلت اللقاء فاجعل . .

وجملة : " لا نخلفه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (موعدا) .

الصرف :

(موعدا) ، يحتمل أن يكون مصدرا ميميّا أو اسم زمان أو اسم مكان من فعل وعد ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين .

(سوى) ، اسم بمعنى الوسط ، وزنه فعل بضمّ ففتح ، ويقرأ سوى بكسر السين .

الفوائد

- " مَكاناً سُوىً " .

في إعراب " مكانا " خمسة أوجه وهي :

أ- بعضهم جعله بدل من " مكان " المحذوفة .

---

(1) أو هو مفعول به ثان لـ (اجعل) ، على أن يتعلّق الظرف (بين) بفعل اجعل ، وأن يكون الموعد اسم مكان . . أو هو ظرف مكان متعلّق بـ (اجعل) . . أمّا ما قرّره أبو البقاء وتبعه

في ذلك السيوطيّ من أنه منصوب على نزع الخافض فهو مردود لأن العامل متعدّ بنفسه وهو اجعل .

(165/500)

ب – وبعضهم اعتبره مفعولا ثانيا لـ " جعل " ، ومنهم أبو علي الفارسي وأبو البقاء .

ج – انه منصوب بنفس المصدر .

د – انه منصوب على الظرفية بالفعل " اجعل " .

ه – انه منصوب بإضمار فعل . وأما لفظة " موعد " ، فقيل : اسم زمان ، وقيل : اسم مكان . . وقيل : مصدر ميمي بمعنى الموعد ، وهو رأينا الذي نؤيده ونتبناه ، وهذا الرأي يقتضي تقدير مضاف محذوف أي " مكان الموعد " .

[سورة طه (20) : آية 59]

قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

الإعراب :

(موعدكم) مبتدأ مرفوع . . و(كم) مضاف إليه (يوم) خبر مرفوع (يحشر) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب بـ (أن) ، (الناس) نائب الفاعل مرفوع (ضحى) ظرف زمان منصوب

متعلّق بـ (يحشر) ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة .

والمصدر المؤوّل (أن يحشر . .) في محلّ رفع معطوف على يوم " 1 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " موعدكم يوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يحشر الناس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن)

[سورة طه (20) : آية 60]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (60)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة و(الفاء) الثانية عاطفة (كيده) فيه حذف مضاف أي ذوي كيده ،

مفعول به منصوب .

جملة : " تولّى فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جمع . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أتى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جمع .

---

(1) أو في محلّ جرّ معطوف على (الزينة) أي ويوم أن يحشر الناس ضحى .

[سورة طه (20) : آية 61]

قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (61)

الإعراب:

(لهم) متعلّق ب (قال) ، (ويلكم) مفعول مطلق لفعل محذوف غير موجود منصوب " 1 " ، (لا) ناهية جازمة (على الله) متعلّق ب (تفتروا) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 2 " ، (الفاء) فاء السببيّة (يسحتكم) ، (الواو) استئنافيّة (قد) حرف تحقيق..

والمصدر المؤوّل (أن يسحتكم..) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من الكلام المتقدّم أي: لا يكن منكم افتراء فسحت من الله بعذاب..

جملة: " قال موسى... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ويلكم... " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: " لا تفتروا... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يسحتكم... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " خاب من... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

[سورة طه (20) : آية 62]

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (62)

---

(1) لا يجوز إعرابه مفعولا به - كما أجاز بذلك الجمل - إذا كان (ويل) مضافا إلى الضمير ، وإنما يجوز ذلك إذا جاء غير مضاف (ويلا) ، فهو مفعول به لفعل محذوف تقديره ألزمك اللّه ويلا .

(2) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في المعنى أي لا تفتروا على اللّه افتراء أو لا تكذبوا كذبا .

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (تنازعوا) ، (الواو) عاطفة .

جملة: " تنازعوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " أسرّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تنازعوا .

[سورة طه (20) : الآيات 63 إلى 64]

قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (64)

الإعراب:

(إن) مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف " 1 "، (هذان) مبتدأ في محلّ رفع مبنيّ على الألف، (اللام) لام الابتداء (ساحران) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هما (يريدان) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون و(الألف) فاعل (يخرجاكم) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون، و(الألف) فاعل، و(كم) ضمير مفعول به (من أرضكم) متعلّق بـ (يخرجاكم)، (بسحرهما) متعلّق بـ (يخرجاكم) و(الباء) سببيّة.

والمصدر المؤوّل (أن يخرجاكم) في محلّ نصب مفعول به عامله يريدان.

(الواو) عاطفة (بطريقتكم) متعلّق بـ (يذهبا)، (المثلى) نعت لطريقتكم مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة.

جملة: " قالوا... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " إن (ه) هذان لساحران " في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) يجوز أن تكون مهملة فـ (هذان) مبتدأ (ساحران) خبر (اللام) هي الفارقة التي تشعر يكون (إن) مخفّفة . . وقالوا : (إن) نافية و(اللام) بمعنى إلّا ، وفيه بعد .

(169/500)

وجملة : " هذان لـ (هما) ساحران " في محلّ رفع خبر إن المخفّفة .

وجملة : " (هما) ساحران " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هذان) .

وجملة : " يريدان . . . " في محلّ رفع نعت لساحران .

وجملة : " يخرجاكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يذهبا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرجاكم .

64 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (صفّا) حال منصوبة أي مصطفّين (الواو) استئنافيّة (اليوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (أفلح) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل .

(170/500)

وجملة: "أجمعوا... " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردتم الغلبة فأجمعوا.

وجملة: "ائتوا... " معطوفة على جملة أجمعوا.

وجملة: "أفلح.. من استعلى " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "استعلى... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

الصرف:

(طريقة)، اسم بمعنى وجوه الناس وأشرافهم، وفي القاموس: الطريقة شريف القوم وأمثلهم للواحد والجمع، ويجمع على طرائق، وزنه فعيلة.

(المثلى)، اسم تفضيل وزنه فعلى بضمّ فسكون مؤنّث الأمثل زنة أفعل.

وقد جاء مفردا في الآية مراعاة للفظ لا للمعنى لأنّ اسم التفضيل المعرّف بـ (ال) يجب مطابقته مع الاسم المتقدّم.

(استعلى)، فيه إعلال بالقلب، فالألف منقلبة عن ياء مجرّده الثلاثيّ علا يعلو..

ورسمت ياء غير منقوطة لأنها سادسة، والياء في آخره قلبت ألفا لانفتاح ما قبلها، مضارعه يستعلي.

[سورة طه (20): آية 65]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (65)

والمصدر المؤوّل (أن تلقي..) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف " 1 ".

والمصدر المؤوّل (أن نكون . .) في محلّ رفع معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

(أوّل) خبر نكون منصوب (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (ألقى) ماض مبنيّ على الفتح المقدّر .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : " يا موسى . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة : " (إلقاؤك) أوّل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تلقي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " نكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ الثاني .

وجملة : " ألقى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

[سورة طه (20) : الآيات 66 إلى 67]

---

(1) أي إلقاؤك أوّل . . ويجوز أن يكون المصدر خبرا لمبتدأ محذوف والتقدير إمّا الأمر إلقاؤك . . .

(2) يجوز أن تكون اعتراضيّة لا محلّ لها ، وجملة : أن تلقي (أوّل) في محلّ نصب مقول القول .

قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (67)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (الفاء) عاطفة (إذا) فجائيّة (حبالهم) مبتدأ مرفوع (يخيّل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع ، (إليه) متعلّق

ب (يخيّل) ، (من سحرهم) متعلّق ب (يخيّل) و (من) سببيّة " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أنّها تسعى . .) في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ألقوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة ومقول القول مقدّر أي : قال لا ألقي أوّلا بل ألقوا .

وجملة : " حبالهم . . . يخيّل " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف أي فألقوا فإذا حبالهم . . .

وجملة : " يخيّل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ حبالهم .

وجملة : " تسعى . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

67 - (الفاء) عاطفة في نفسه (متعلّق) ب (أوجس) ، (خيفة) مفعول به منصوب .

وجملة: "أوجس... موسى" لا محلّ لها معطوفة على جملة حبالهم.. يخيّل.

الصرف:

(عصيّهم)، فيه إعلال بالقلب أصله عصوو زنة فعول بضمّتين.. ثمّ قلبت الواو الثانية ياء أوّلا إبعادا للثقل، ثم قلبت الواو الأولى ياء لمجيئها ساكنة أوّلا ثم أدغمت الياءان معا فأصبح عصيّ بضمّ العين والصاد ثمّ كسرت الصاد لمناسبة الياء، ثمّ كسرت العين للمجاورة فأصبح عصيّ بكسر العين والصاد وتشديد الياء.

---

(1) يجعل بعضهم الجارّ والمجرور مفعولا لأجله على سبيل المجاوزة.

(2) ومن يجعل نائب الفاعل ضميرا مستترا عائدا على الحبال والعصيّ يجعل المصدر المؤوّل بدل اشتمال من الضمير. [.....]

(خيفة)، مصدر خاف، وفيه إعلال بالقلب أصله خوفة بكسر الخاء وفتح الفاء بينهما واو ساكنة، ثمّ قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فأصبح خيفة وزنه فعلة بكسر فسكون.

[سورة طه (20) : الآيات 68 إلى 69]

قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (68) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (69)

الإعراب:

(لا) ناهية جازمة (أنت) ضمير منفصل أستعير لمحلّ النصب توكيدا للضمير المتّصل اسم إنّ " 1 " ، (الأعلى) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف.

جملة: " قلنا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا تخف ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " إنّك .. الأعلى " لا محلّ لها تعليليّة.

69 - (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (في يمينك) متعلّق بمحذوف صلة ما (تلقف) مضارع مجزوم جواب الطلب، والفاعل هي (ما) مثل الأول عامله تلقف، والعائد محذوف أي صنعوه (ما) موصول اسم إنّ " 2 " في محلّ نصب (كيد) خبر إنّ مرفوع (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (يفلح).

---

(1) يجوز أن يكون الضمير مبتدأ خبره الأعلى، والجملة الاسميّة أنت الأعلى خبر إنّ.

(2) (إنّما) رسمت في المصحف متّصلة وحقّها أن تكون منفصلة .. ويجوز أن تكون (ما) مصدرية، والإعراب نفسه للمصدر.

(173/500)

وجملة: " ألق ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: " تلقف ... " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي: إن تلق ما .. تلقف.

وجملة: " صنعوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: " إنّ ما صنعوا كيد ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " صنعوا (الثانية) ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: " لا يفلح الساحر ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ما صنعوا ..

وجملة: " أتى ... " في محلّ جرّ بإضافة (حيث) إليها.

البلاغة

1 - المؤكدات:

في قوله تعالى " إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى ".

لقد أكّد بعدة مؤكدات، وهي "إنّ" المفيدة للتأكيد، وتكرير الضمير "أنت"، وتعريف الخبر "الأعلى"، ولفظ العلو الدال على الغلبة، وصيغة التفضيل "الأعلى".

2 - الإبهام:

في قوله تعالى "وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ" أوثر الإبهام تهويلا لأمرها، وتفخيما لشأنها، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصي المعهودة، المستتبعة للآثار المعتادة، بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة، لكنها مستتبعة لآثار غريبة، وكأن العصا، لفخامة شأنها، لا يحيط بها نطاق العلم نحو "فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ".

الجدول ج 16، ص: 391

ويجوز أن يكون الإبهام للتحقير، بأن يراد لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العود الذي في يدك، فإنه بقدرة اللّه تعالى يلقفها، مع وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها.

[سورة طه (20): آية 70]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (70)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة (ألقي) فعل ماض مبنيّ للمجهول (السحرة) نائب الفاعل، مرفوع (سجّدا) حال منصوبة (بربّ) متعلّق بـ (آمنّا).

جملة: "ألقي السحرة ..." لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي:

فألقى موسى عصاه فتلقّفت كلّ ما صنعوا فألقي السحرة . . .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الفوائد

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حالا بتقدير (قد) .

كل همزة جاءت في أول الكلمة مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة ودخلت عليها همزة الاستفهام أو النداء ، كتبت همزة الكلمة التي توسطت تنزيلا حرفا من جنس حركتها نفسها . كما هو رأي الجمهور . تقول في الاستفهام مع المضموم الأول أ ألقي . وتقول في الاستفهام مع المفتوح أألقي . وتقول في الاستفهام مع المكسور أ ئلقاء . قال ابن مالك : إن الهمزة تكتب ألفا على أصلها في الاستفهام والنداء ، هكذا :

أأحمد . أألقي أإلقاء . لأنها بمقام الكلمة المستقلة وهو الأحسن ومذهب أغلب النحويين عليه .

ملاحظة رسم القرآن خاص به .

[سورة طه (20) : آية 71]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71)

الإعراب:

(له) متعلّق ب (آمنتم) ، (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (آمنتم) ، (لكم) متعلّق ب (آذن) والمصدر المؤول (أن آذن..) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(175/500)

(اللام) هي المزحلقة للتوكيد (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت لكبير (الفاء) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (أقطّعنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع.. و (النون) نون التوكيد ، والفاعل أنا (من خلاف) جارّ ومجرور حال من الأيدي والأرجل أي مختلفات (الواو) عاطفة (لأصلّبنّكم) مثل لأقطّعنّ (في جذوع) متعلّق ب (أصلبنّكم) ، (الواو) عاطفة (لتعلمنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال.. و (الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل و (النون) نون التوكيد (أينا) اسم موصول مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب مفعول به.. و (نا) مضاف إليه " 1 " ، (أشدّ) خبر

لمبتدأ محذوف تقديره هو (عذابا) تمييز منصوب (أبقى) معطوف على أشدّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة.

---

(1) يجوز أن يكون اسم استفهام مبتدأ مرفوع خبره أشدّ، والجملة مفعول لفعل العلم المعلّق بالاستفهام.

جملة: "قال ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمنتم له ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "آذن لكم ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "إنّه لكبيركم ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "علّمكم ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "أقطّعنّ ... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.. وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة.

وجملة: "أصلّبنّكم ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: "تعلمنّ ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة : " (هو) أشدّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (أيّ) .

الصرف :

(أبقى) ، اسم تفضيل من بقي وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب وأصله أبقي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

- التشبيه :

في قوله تعالى " وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ " .

حيث شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه ، فلذلك قيل (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) .

الفوائد

1 - " آذن " .

إذا اجتمعت همزتان في أول الكلمة ، تحولت الهمزة الثانية إلى مدة ، ابتغاء تسهيل النطق وهذه إحدى خصائص هذه اللغة التي تجنح في كل مواقفها إلى التسهيل حيثما وجد .

2 - كثرة المؤكدات ، في الكلام الذي أورده تعالى على لسان فرعون ، هو ضرب من ضروب البلاغة القرآنية ، فهو إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على تكبر وتجبر الفراعنة وإيغالهم في الكفر والربوبية ، نحو :

" إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ، فَلَأُقَطِّعَنَّ ، لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ، وَلَتَعْلَمُنَّ . . إلخ " .

[سورة طه (20) : الآيات 72 إلى 73]

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (73)

الإعراب :

(على ما) متعلّق بـ (نؤثرك) ، (من البيّنات) متعلّق بحال من الضمير (نا) ، (الواو) عاطفة - أو واو القسم - (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على الموصول ما " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (قاض) خبر أنت مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (إنّما) كافّة ومكفوفة ، (هذه) منصوب على نزع الخافض أي في هذه " 3 " ، (الحياة) بدل من اسم الإشارة منصوب - أو عطف بيان - (الدنيا) نعت للحياة منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

---

(1) أو في محلّ جرّ بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره نقسم.

(2) أجاز العكبريّ وجها آخر هو كونه حرفا ظرفيّا، والمفعول محذوف أي اقض أمرك.

(3) أو مفعول به عامله تقضي بحذف مضاف أي تقضي أمور هذه الحياة.. ويجوز أن يكون الإشارة ظرفا متعلّقا بـ (تقضي) ومفعوله محذوف أي أمرك أو غرضك.

جملة: "قالوا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لن نؤثرك... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "جاءنا... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "فطرنا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "اقض... " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت عقابنا فاقض.

وجملة: "أنت قاض... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "تقضي... " لا محلّ لها تعليليّة.

73 - (بربّنا) متعلّق بـ (آمنّا)، (اللام) للتعليل (يغفر) منصوب بأن مضمرة بعد اللام (لنا) متعلّق بـ (يغفر)، (الواو) عاطفة (ما) موصول في محلّ نصب معطوف على خطايا " 1 "،

(عليه) متعلّق بـ (أكرهتنا) ، (من السحر) حال من الهاء في (عليه) .

والمصدر المؤوّل (أن يغفر . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (آمنّا) .

(الواو) عاطفة (أبقى) معطوف على (خير) بالواو الثانية مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف .

وجملة : " إنّا آمنّا . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ آخر .

وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أكرهتنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اللّه خير . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

---

(1) أو هو مبتدأ خبره محذوف أي : ما أكرهتنا عليه محطوط عنّا .

الصرف :

(قاض) اسم فاعل من قضى الثلاثيّ ، وزنه فاع ، حذفت لامه الياء لالتقاء الساكنين ، سكون الياء وسكون التنوين .

[سورة طه (20) : الآيات 74 إلى 76]

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

الإعراب :

(إنّه) الهاء ضمير الشأن اسم إنّ (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يأت) مضارع فعل الشرط مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل هو (مجرما) حال منصوبة من فاعل يأت (الفاء) رابطة لجواب شرط (له) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (جهنّم) اسم إنّ مؤخّر منصوب (فيها) متعلّق ب (يموت) .

جملة : " إنّه من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " من يأت ربّه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يأت ربّه . . . " في محلّ خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " إنّ له جهنّم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) يجوز أن يكون استئنافا من اللّه تعالى ، ويجوز أن يكون استئنافا من قول السحرة لتأكيد تعليل إيمانهم بموسى .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

الجدول ج 16 ، ص : 397

وجملة : " لا يموت . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في له " 1 " .

وجملة : " لا يحيا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يموت .

75 - (الواو) عاطفة (من يأته مؤمنا) مثل من يأت ربّه مجرما (قد) حرف تحقيق (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (الدرجات) مبتدأ مؤخّر مرفوع .

وجملة : " من يأته . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة من يأت ربّه .

وجملة : " يأته مؤمنا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " قد عمل . . . " في محلّ نصب حال ثانية من فاعل يأت .

وجملة : " أولئك لهم الدرجات . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لهم الدرجات . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

76 - (جنّات) بدل من الدرجات مرفوع (من تحتها) متعلّق ب (تجري) " 2 " ، (خالدين) حال منصوبة من الضمير في (لهم) ، والعامل فيها الاستقرار أو معنى الإشارة (فيها) متعلّق ب (خالدين) (الواو) استئنافيّة (ذلك) مبتدأ (من) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ رفع نعت لجنّات .

وجملة : " ذلك جزاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تزكّى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(يحيا) ، رسم في المصحف برسم الياء (يحيى) ، والقاعدة

---

(1) والعامل فيها معنى التوكيد . . ويجوز أن تكون الجملة نعتا لجهنّم في محلّ نصب .

(2) أو بمحذوف حال من الأنهار .

الإملائيّة تقول برسم الألف الطويلة .

(تزكّى) ، فيه إعلال بالقلب أصله تزكّي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ،

وأصل اللام في الفعل واو لأنّه من زكا يزكو .

[سورة طه (20) : آية 77]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً

وَلا تَخْشى (77)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (إلى موسى) متعلّق ب

(أوحينا) ، (أن) للتفسير (بعبادي) متعلّق ب (أسر) ، (الفاء) عاطفة (لهم) متعلّق ب

(اضرب) " 1 " ، (في البحر) متعلّق بنعت لـ (طريقا) ، (يبسا) نعت ثان لـ (طريقا) منصوب.

جملة: "أوحينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم استئنافيّة لا محلّ لها .

وجملة: "أسر . . . " لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "اضرب . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة.

وجملة: "لا تخاف . . . " في محلّ نصب حال من فاعل اضرب " 2 " .

وجملة: "لا تخشى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تخاف.

الصرف:

(يبسا) ، هو مصدر يبس الثلاثيّ باب فرح ، وقد وصف به للمبالغة أو على حذف مضاف . . ويجوز أن يكون جمع يابس كخادم وخدم ، وصف به الواحد للمبالغة ، وزنه فعل بفتحتين.

(دركا) ، الاسم بمعنى الإدراك أي اللحاق . . وزنه فعل بفتحتين.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان بتضمين اضرب معنى اجعل.

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها . [. . . . .]

البلاغة

1 - المجاز العقلي :

في قوله تعالى " فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ " الأصل اضرب البحر ليصير لهم طريقا .

2 - المجاز المرسل :

في قوله تعالى " يَبَساً " .

لم يكن حين خاطبه اللّه تعالى " يبسا " ، ولكن باعتبار ما يؤول إليه كقوله تعالى " إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً " .

[سورة طه (20) : آية 78]

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (بجنوده) متعلّق بحال من فرعون " 1 " ، (الفاء) عاطفة (من اليمّ) متعلّق بـ (غشيهم) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل غشيهم ، وفاعل (غشيهم) الثاني ضمير يعود على ما .

جملة: "أتبعهم فرعون . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي ففعل موسى ما أمر به فأتبعهم فرعون . .

وجملة: "غشيهم . . . ما "لا محلّ لها معطوفة على جملة أتبعهم .

وجملة: "غشيهم (الثانية) . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

البلاغة

- التهويل:

في قوله تعالى "فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ":

أي علاهم منه، وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه فإن مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع القصة.

---

(1) أو متعلّق بـ (أتبعهم) ، والباء للتعدية.

[سورة طه (20) : آية 79]

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (79)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية.

جملة: "أضلّ فرعون... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما هدى... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

البلاغة

1 - التهكم في قوله تعالى "وَما هَدى" والتهكم: أن يأتي بعبارة والمقصود عكس مقتضاها كقولهم "إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ" وغرضه وضعه بضد هذين الوضعين.

وتوضيح معنى التهكم: قوله تعالى "وَما هَدى" من باب التلميح، وهو اشارة إلى ادعاء اللعين إرشاد القوم في قوله تعالى "وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ" فهو كمن ادعى دعوى وبالغ فيها، فإذا حان وقتها، ولم يأت بها قيل له: لم تأت بما ادعيت تهكما واستهزاء.

[سورة طه (20): الآيات 80 إلى 81]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (81)

الإعراب:

(بني) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه

الجدول ج 16، ص: 401

من الصرف (قد) حرف تحقيق (من عدوّكم) متعلّق بـ (أنجيناكم)، (جانب) مفعول به ثان منصوب بحذف مضاف أي إتيان جانب الطور "1"، (عليكم) متعلّق بـ (نزّلنا).

جملة النداء: "يا بني... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أنجيناكم... "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "واعدناكم... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: "نزّلنا... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

---

(1) أو هو ظرف لـ (واعدناكم)، والمفعول الثاني محذوف أي واعدناكم المجيء جانب الطور.

(183/500)

---

81 - (من طيّبات) متعلّق بـ (كلوا)، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه "1"، (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (فيه) متعلّق بـ (تطغوا)، (الفاء) فاء السببيّة (يحلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (عليكم) متعلّق بـ (يحلّ)، (غضبي) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء.

والمصدر المؤوّل (أن يحلّ . .) معطوف على مصدر متصيّد من النهي المتقدّم أي : لا يكن منكم طغيان في الرزق فحلول غضب من اللّه .

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عليه) متعلّق بـ (يحلل) فعل الشرط ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط .

وجملة : "كلوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " رزقناكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) وعائد الموصول محذوف أي به . . ويجوز أن يكون حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل مضاف إليه .

وجملة : "لا تطغوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا . .

وجملة : " يحلّ . . غضبي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " من يحلل عليه غضبي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحلل . . . غضبي " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة: " قد هوى . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف:

(هوى) ، مضارعه يهوي – بالياء في آخره – ففيه إعلال بالقلب ، أصله هوي – بياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

1 – المجاز العقلي:

في قوله تعالى " وَواعَدْناكُمْ " :

نسبة المواعدة إليهم ، مع كونها لموسى عليه السلام ، نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم ، فكأنهم كلهم مواعدون ، فالمجاز في النسبة . وفي ذلك من إيفاء مقام الامتنان حقه ما فيه .

2 – الاستعارة:

في قوله تعالى " فَقَدْ هَوى " :

استعار لفظ الهوى، وهو السقوط من علو إلى سفل، للهلاك والدمار

[سورة طه (20) : آية 82]

وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (82)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام المزحلقة للتوكيد (لمن) متعلّق بـ (غفّار) (صالحا) مفعول به منصوب.

جملة: "إنّي لغفّار..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تاب..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "آمن..." لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "عمل..." لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "اهتدى" لا محلّ لها معطوفة على جملة عمل صالحا.

الفوائد

- خروج بني إسرائيل من مصر:

"أفصح النهار، فتبين بنو إسرائيل الرشد من الغي، وانحازوا إلى رسول اللّه الكريم، وكيف لا تنفتح بصائرهم، وقد لمسوا آية الحق ناصعة مشرقة، فقرت بها عيونهم، والتمسوا الفرار من أرض القبط، طلبا للسلامة، وبعدا عن القوم الظالمين.

سار بهم موسى أول الليل حثيثا ، يدفعهم الخوف ، ويعصمهم الإيمان . حتى وقفوا أمام البحر ، فاستولى عليهم الجزع . فصاح يوشع بن نون : يا كليم اللّه ، البحر أمامنا والعدو وراءنا . فأوحى الله إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه ، فإذا اثنا عشر طريقا لاثني عشر سبطا .

وهذا مصداق قوله تعالى :

" فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى " .

أنساب الأسباط يهرعون إلى بر الأمان والسلام ، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطود العظيم ، حتى عبروا سالمين .

أقبل فرعون بجنوده ، فولجوا تلك الطرق في البحر ، حتى إذا أصبحوا في وسطه انطبق عليهم ، فأغرقهم أجمعين ، فصاروا مثلا للآخرين . في هذا الوقت العصيب آمن فرعون فقال : " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 16 صـ 345.404 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(20) سورة طه

مكيّة وآياتها خمس وثلاثون ومائة

[سورة طه (20) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (1) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (3) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (4)

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (7) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (8)

اللغة :

(الْعُلى) : ويجوز كتابتها بالياء والألف لأن الفعل علا يعلو وعلي يعلى وهي المرتبة والرفعة

وقال السيوطي وأبو البقاء : هي جمع عليا ككبرى وكبر فكتبت بالياء .

(اسْتَوى) : لها في اللغة معان كثيرة قال في القاموس : " استوى الشيء اعتدل واستقام يقال : سويت الشيء فاستوى واستوى الرجل :

استقام أمره وانتهى شبابه وبلغ أشده ، واستوى عليه : ظهر واستولى واستوى على ظهر

الدابة استقر ، يقال : استوى على سرير الملك كناية عن التملك واستوى إلى الشيء قصده واستوت به الأرض هلك ودفن فيها واستوى الطعام نضج . وأصل الفعل الثلاثي سوي يسوى سوى الرجل : استقام أمره .

وقال في الأساس : " استوى الشيئان وتساويا وساوى أحدهما صاحبه وفلان يساويك في العلم وساوى بين الشيئين وسوّى بينهما وساويت هذا بهذا وسويته قال الراعي :

بجرد عليهنّ الأجلّة سوّيت بضيف الشتاء والبنين الأصاغر

(187/500)

أي يصونها صيانة الضيوف والأطفال وسويت المعوج فاستوى ورزقك الله تعالى ولدا سويا لا داء به ولا عيب وهما على سوية من الأمر وسواء وفيه النصفة والسوية وهما سواء وهم سواسية في الشر وأنتما سيان وما هو بسيّ لك وفعل القوم كذا ولا سيما زيد ومكان سوى : وسط بين الحدين وجاءوا سوى فلان وسواءه " فرآه في سواء الجحيم " في وسطها وضرب سواءه وسطه وضربه على مستوى مفرقه قال بعض بني أزنم :

نحن من خير معدّ نسبا ولنا قدما على الناس المهل

إذ ضربنا الصّمة الخير على مستوى مفرقه حتى انجدل

ورجل سواء القدم : مستويها ليس لها أخمص ، ومن المجاز :

إذا صليت الفجر استويت إليك قصدا تك قصدا لا ألوي على شيء

" ثم استوى إلى السماء " واستوى على الدابة والفراش والسرير وانتهى شبابه واستوى

واستوى على البلد " وسيأتي المراد به في الآية في باب البلاغة .

(

الثَّرى) : في المصباح : " الثرى وزان الحصى ندى الأرض ، وأثرت الأرض بالألف كثر ثراها والثرى أيضا : التراب الندي فإن لم يكن نديا فهو تراب ولا يقال له حينئذ ثرى " وفيه أيضا : " نديت الأرض ندى من باب تعب فهي ندية مثل تعبة ويعدّى بالهمز والتضعيف وأصابها نداوة وندوة بالضم والتثقيل " وفي الأساس واللسان وغيرهما : " شهر ثرى ، وشهر ترى ، وشهر مرعى أي تكون الأرض ندية أولا ثم ترى الخضرة ثم يطول النبات حتى يصلح للراعية وثرى المطر التراب يثريه وهو مثري وثري التراب فهو ثرّ وثرّيت التراب نديته وثرّيت السويق " .

(وَأَخْفى) سيأتي الكلام فيها في باب الاعراب .

الاعراب :

(طه) تقدم القول في فواتح السور واعرابها . (ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى) ما نافية وأنزلنا

فعل وفاعل وعليك متعلقان بأنزلنا والقرآن مفعول به ولتشقى اللام للتعليل وتشقى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وسيأتي المراد بالشقاء في باب الفوائد .

(إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) إلا أداة حصر وتذكرة مفعول لأجله والاستثناء منقطع ، قال أبو البقاء ولا يجوز أن يكون مفعولا من أجله لأنزلنا المذكورة لأنها قد تعدت إلى مفعول له وهو لتشقى فلا تتعدى إلى آخر من جنسه ولا يصح أن يعمل فيها لتشقى لفساد المعنى ، وقيل تذكرة

مصدر في موضع الحال واختار الزمخشري أن تكون تذكرة مفعولا لأجله قال : " وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية والثاني جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماع الشرائط " وعلى هذا جرى معظم المعربين والمفسرين ، قال الكرخي في تعليقه على عبارة الجلال السيوطي : " أشار إلى أن الاستثناء منقطع وأن تذكرة مفعول من أجله والعامل أنزلناه المقدر لا المذكور وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة لقوله ما أنزلنا وتعدى في لتشقى باللام لاختلاف العامل لأن ضمير أنزلنا لله وضمير لتشقى للنبي فلم يتحد الفاعل واتحد في

تذكرة لأن المذكر هو اللّه تعالى وهو المنزل فنصب بغير لام " وأنكر أبو علي الفارسي أن يكون مفعولا لأجله أو بدلا من لتشقى قال وانما هو منصوب على المصدرية أي أنزلناه لتذكر به تذكرة ، وإنما أوردنا هذه الأقوال على تباينها وتدافعها لأننا لم نستطع الترجيح بينها .

(تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى) مفعول مطلق لفعل محذوف وتقديره نزلناه تنزيلا فحذف وجوبا على حد قول ابن مالك :

والحذف حتم مع آت بدلا من فعله كندلا اللذ كاندلا

وأجاز الزمخشري فيه وجوها كلها واردة فقال " في نصب تنزيلا وجوه : أن يكون بدلا من تذكرة إذا جعل حالا لا إذا كان مفعولا له لأن الشيء لا يعلل بنفسه وأن ينصب بنزل مضمرا وأن ينصب بأنزلنا لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة أنزلناه تذكرة ، وأن ينصب على المدح والاختصاص ، وأن ينصب بيخشى مفعولا به أي أنزله اللّه تذكرة لمن يخشى تنزيل اللّه وهو معنى حسن واعراب بين " وممن متعلقان بتنزيلا وجملة خلق الأرض والسموات صلة والعلى صفة . (الرَّحْمنُ

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى)

الرحمن خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أو مبتدأ وعلى العرش متعلقان باستوى وجملة استوى خبر ثان ل " هو " المقدرة أو خبر الرحمن وسيأتي معنى الاستواء على العرش في باب الفوائد .

(لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى) له خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات صلة وما في الأرض عطف على ما في السموات وما بينهما كذلك وما عطف على ما وتحت الثرى ظرف متعلق بمحذوف صلة ما . (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى) الواو استئنافية مسوقة لبيان شرع اللّه تعالى في دعائه وان شرطية وتجهر فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره أنت وبالقول جار ومجرور متعلقان بتجهر فإنه الفاء رابطة لأن الجواب جملة اسمية وان واسمها وجملة يعلم السر خبرها وأخفى عطف على السر أي أخفى منه فهو اسم تفضيل من خفي بمعنى استتر وغاب وأجاز بعضهم أن يكون فعلا ماضيا أي وأخفى اللّه عن عباده غيبه وعندنا أن ذلك غير جائز لأنه من جهة اللفظ يلزم منه عطف الفعلية على الاسمية إن كان المعطوف عليه هو الجملة الكبرى أو عطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الجملة الصغرى وكلاهما دون الأحسن ومن

جهة المعنى واضح أن المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته من حيث إن اللّه يعلم السر وما هو أخفى منه فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر وأما إذا جعل فعلا فيخرج عن مقصود السياق ، واعلم أنهم قد يحذفون من من افعل إذا أريد به التفضيل ومعنى الفعل وهم يريدونها فتكون كالمنطوق بها نحو زيد أكرم وأفضل فلم تأت بألف ولام كما لم تأت بها مع من لأن الموجود حكما كالموجود لفظا أي : يعلم السرّ وأخفى منه والذي يدل على ارادة من أن أخفى لا ينصرف كما لا ينصرف آخر من قولك مررت برجل آخر إذا أردت من معه وإن لم تذكره وانما

(191/500)

نكره للمبالغة في الخفاء . (اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) اللّه مبتدأ وجملة لا إله إلا هو الاسمية خبر وقد تقدم اعراب لا إله إلا هو مفصلا وله خبر مقدم والأسماء مبتدأ مؤخر والحسنى صفة للأسماء والجملة خبر ثان . ومعلوم أن جمع التكسير في غير العقلاء يعامل معاملة المؤنثة الواحدة .

الفوائد :

1- روى التاريخ : ان أبا جهل والنضر بن الحارث قالا له :

إنك شقي لأنك تركت دين آبائك فأريد رد ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلّم إلى نيل كل فوز والسبب في ادراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها وروي انه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدّت قدماه أي تورمت كما في الصحاح فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فإن لها عليك حقا ويحتمل أن يراد لا تتعب نفسك بفرط أسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا البلاغ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا بعد ان لم تفرط في أداء الرسالة وإسداء الموعظة الحسنة. والشقاء يجيء في معنى التعب قال ابن كيسان: " وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب ومنه قول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

2- الاستثناء المنقطع:

استثناء الشيء من غير جنسه لا معنى له ولا مورد من ذلك فليست فيه " إلا " للاستثناء على سبيل الأصل وانما هي بمعنى " لكن " وهو

ما يسونه " الاستثناء المنقطع " ومع ذلك فلا بد من الارتباط بين المستثنى منه والمستثنى ومن ذلك قوله تعالى " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى " أي لكن أنزلناه تذكرة فتذكرة مستثنى من المصدر المؤول من تشقى بأن المضمرة بعد لام التعليل لأن المعنى ما أنزلنا القرآن لشقائك.

[سورة طه (20) : الآيات 9 إلى 16]

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ
فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13)
إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى
(16)

اللغة :

(آنَسْتُ) : أبصرت والإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه إنسان العين لأنه يبصر به الأشياء وقال جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق اللّه إنسانا

وفي قوله إنسانا تورية بديعة .

(بِقَبَسٍ) : القبس : الجذوة من النار .

(طُوىً) : اسم علم للوادي ويقرأ بغير تنوين على أنه معرفة مؤنث علم للبقعة وقيل هو معدول وإن لم يعرف لفظ المعدول عنه فكأن أصله طاوي فهو في ذلك كجمع وكتع وقال في القاموس : " وطوى بالضم والكسر وينون واد بالشام " وقال علماء النحو : وأما طوى فمن منع صرفه فالمعتبر فيه التأنيث باعتبار البقعة لا العدل عن طاو ولأنه أي العدل قد أمكن غيره وهو التأنيث فلا وجه لتكلف العدل .

(أُخْفِيها) : سيأتي الكلام عنها في الاعراب .

(فَتَرْدى) : في المختار : ردى من باب صدى أي هلك وأرداه غيره وردى في البئر تردى يردي إذا سقط فيها أو تهور من جبل .

الاعراب :

)

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى) الواو للاستئناف والجملة استئنافية مسوقة لسرد قصة موسى ليتأسى به النبي صلى اللّه عليه وسلم في تحمل

أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ومعاناة الأهوال ، وأتاك فعل ومفعول به وحديث موسى فاعل والاستفهام للتقرير ومعناه أليس قد أتاك حديث موسى ؟ وقيل معناه : قد أتاك حديث موسى . (إِذْ رَأَى نارًا فَقالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نارًا) الظرف متعلق بالحديث لأنه حدث أو بمضمر تقديره اذكر وجملة رأى مضاف إليها الظرف ونارا مفعول به فقال عطف على رأى ولأهله متعلقان بقال وجملة امكثوا مقول القول وجملة إني تعليل للأمر بالمكوث وان واسمها وجملة آنست خبرها ونارا مفعول به . (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً) لعل واسمها وجملة آتيكم خبرها ومنها متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لقبس أو حرف عطف وأجد معطوف على آتيكم وفاعل أجد مستتر تقديره أنا وعلى النار جار ومجرور متعلقان بأجد وهي على مكانها للاستعلاء على حد قول الأعشى :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

أي أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد انه لصوق بمكان يقرب من زيد . وهدى مفعول به أي يهديني الطريق ويدلني عليها قال الفراء : أراد هاديا فذكره بلفظ المصدر أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أي ذا هدى .

)

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى) الفاء عاطفة على محذوف والتقدير فيمم شطر النار ولما ظرفية حينية أو رابطة وأتاها فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة نودي لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ويا موسى حرف نداء ومنادى . (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) إن واسمها وأنا تأكيد للضمير أو مبتدأ وربك خبر إني أو خبر أنا

(194/500)

والجملة خبر إن والأول أولى ، فاخلع الفاء الفصيحة واخلع فعل أمر وفاعل مستتر ونعليك مفعول به وجملة إنك تعليل للخلع وان واسمها وبالوادي خبرها والمقدس صفة وطوى بدل أو عطف بيان وقد تقدم القول في منعه من الصرف أو عدم منعه في باب اللغة . (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) الواو عاطفة وأنا مبتدأ وجملة اخترتك من الفعل والفاعل والمفعول به خبر ، فاستمع الفاء عاطفة واستمع فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت ولما متعلقان باستمع وجملة يوحى صلة ويوحى بالبناء للمجهول . (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) الجملة بدل من " ما " في لما يوحى وان واسمها وأنا تأكيد للضمير أو مبتدأ والله خبر إنني أو خبر أنا والجملة خبر إن وجملة لا إله إلا أنا خبر ثان

فاعبدني الفاء الفصيحة واعبدني فعل أمر وفاعل مستتر والنون للوقاية والياء مفعول وأقم الصلاة عطف على اعبدني ولذكري متعلقان بأقم وهو مصدر مضاف لمفعول أي لتذكرني فيها وقيل المصدر مضاف للفاعل أي لذكري إياك . (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) إن واسمها وخبرها وأكاد فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة واسمها مستتر تقديره أنا وجملة أخفيها خبر أي أريد إخفاء وقتها أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ويجوز أن يراد أكاد أظهرها وفعل أخفى من الأضداد وسيرد له مزيد بحث في باب البلاغة ، ولتجزى اللام للتعليل وتجزى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وهو متعلق بأخفيها أو بآتية وجملة أكاد أخفيها اعتراضية بينهما وكل نفس نائب فاعل وبما متعلقان بتجزى وجملة تسعى صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية أي بجزاء سعيها على حذف مضاف . (

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) الفاء الفصيحة ولا ناهية ويصدنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد

وهو في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعول به وعنها متعلقان بيصدنك ومن فاعل وجملة لا يؤمن صلة وبها متعلقان بيؤمن واتبع هواه فعل وفاعل مستتر ومفعول به فتردى الفاء فاء السببية وتردى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء بفتحة مقدرة على الألف .

البلاغة :

فن الإبهام :

في قوله تعالى "لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً" وهو فن رفيع ينطوي على الكثير من جلائل المعاني ودقائقها وهو ضد الإيجاز وضد الاطناب وحدّه أن يأتي المتكلم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل فيدل عليه باللفظ الكثير لا لقصد إفهام البليد وسماع البعيد ولا للتقرير والتوكيد ، بل للاتيان بمعنى يتشعب إلى عدة أمور كل واحد منها مستقل المفهومية فقد قال لعلي آتيكم منها بقبس ولم يبت في الأمر لئلا يعد ما ليس بمستيقن من الوفاء به وما أجملها حكمة تكون درسا للذين يكيلون الوعود جزافا ولا يفكرون في الوفاء بها ثم قال لعلي أجد على النار هدى وهذا يحتوي على معنى آخر ثم يتشعب فالهداية هي المعنى الرئيسي ثم ان الهداية قد تكون بالنار نفسها بخاصة الاضاءة الكامنة فيها وإما بواسطة القوم الذين يقومون بإيقادها ويفهم من هذا ضمنا أنه ضل مع أهله الذين يرافقونه وهم امرأته بنت شعيب وقد ولدت في الطريق ابنا في ليلة شاتية مظلمة باردة وقيل مثلجة فلما أسقط في يده آنس النار فقال ما قال ثم قد يقصد بالهداية معناها المجازي

الآخر أي لعلي أهتدي بنور العلم لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمم فتبارك قائل هذا الكلام .

وفي قوله تعالى : " إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى " إبهام وهو فن عجيب يقول فيه المتكلم كلاما يحتمل معنيين متغايرين لا يتميز أحدهما عن الآخر فكلمة أخفيها أولا تعني أمورا منها :

(196/500)

آ- أي أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

ب- أكاد أخفيها عن نفسي .

ثم انه جاء في بعض اللغات أخفاه بمعنى خفاه فهي من الأضداد أي أكاد أظهرها لقرب وقتها وبه فسر قول امرئ القيس :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أي إن تكتموا الضغائن التي بيننا نكتمها نحن أيضا ولا نظهرها .

على أن أحسن محامل الآية الكريمة هو أن يكون المراد أكاد أزيل خفاءها أي أظهرها إذ

الخفاء الغطاء وهو أيضا ما تجعله المرأة فوق نيابها يسترها ثم تقول العرب أخفيته إذا أزلت خفاءه كما تقول أشكيته وأعتبته إذا أزلت شكايته وعتبه .

قال أبو علي القالي : " وقال اللحياني : خفيت الشيء أخفيه خفيا وخفيا إذا استخرجته وأظهرته وأنشد لامرئ القيس :

خفاهنّ من أنفاقهنّ كأنما خفاهن ورق من سحاب مركب

قال أبو علي : وغيره يروي : من عشني مجلّب أي مصوت ويقال : اختفيت الشيء أي أظهرته وأهل الحجاز يسمون النباش

المختفي لأنه يستخرج أكفان الموتى وأخفيت الشيء أخفيه إخفاء إذا سترته قال اللّه عز وجل : " أَكَادُ أُخْفِيها " وهي قراءة العامة أي أظهرها وقال أبو عبيدة : أخفيت الشيء كتمته وأظهرته ويقال دعوت اللّه خفية وخفية أي في خفض .

مجموعة من الاضداد في اللغة :

هذا ومن الاضداد الجلل للعظيم وللهين فمن الأول قول الشاعر :

ولئن عفوت لا عفون جللا ولئن سطوت لأوهننّ عظمي

ومن الثاني قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جلل

ومنها : غابر للذاهب والآتي ، والجون للأبيض والأسود والبين للبعد والقرب ، والصريم :

الليل والنهار ، والناصع الأبيض والأسود ، والأمم للعظيم واليسير ، والناهل للريان والظمآن ، ووراء بمعنى قدام وخلف ، وبعت الشيء إذا بعته من غيرك وبعته اشتريته ، وشعبت الشيء :

(197/500)

أصلحته وشققته ، والصارخ للمستغيث والمغيث ، والهاجد للمصلي بالليل والنائم ، والوهدة : الارتفاع والانحدار ، والتعزير للاكرام والاهانة ، والتقريظ للمدح والذم ، وترب للغني والفقير ، والاهماد للسرعة في السير والاقامة ، وعسعس : إذا أقبل وإذا أدبر ، والقرء للحيض والطهر .

[سورة طه (20) : الآيات 17 إلى 23]

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (17) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (18) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (19) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (20)
قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (21)
وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (23)

اللغة :

(أَهُشُّ) : في المصباح : هشّ الرجل هشّا من باب رد : صال بعصاه وفي التنزيل " وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي " وهش الشجرة هشا ضربها ليتساقط ورقها وهش الشيء يهش من باب تعب هشاشة لان واسترخى فهو هش وهش العود يهشّ أيضا هشوشا صار هشا سريع الكسر وهش الرجل هشاشة إذا ابتسم من بابي تعب وضرب .

(جَناحِكَ) : سيأتي تفسيرها في باب البلاغة .

الاعراب :

(

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى) الواو عاطفة وما اسم استفهام للتقرير مبتدأ وتلك خبره وبيمينك متعلق بمحذوف حال وهي تشبه قوله تعالى " وَهذا بَعْلِي شَيْخاً " والعامل في الحال المقدرة اسم الاشارة ويا موسى نداء فما اسم نكرة في موضع رفع بالابتداء والتقدير أي شيء تلك بيمينك وهي مبنية لتضمنها همزة الاستفهام وإنما جيء بها لضرب من الاختصار وذلك أنك إذا قلت ما بيدك فكأنك قلت : أعصا بيدك أم سيف أم خنجر ونحو ذلك مما يكون بيده وليس عليه إجابتك

عما بيده إذا لم تأت على المقصود فجاءوا بما وهو اسم واقع على جميع ما لا يعقل مبهم فيه وضمنوه همزة الاستفهام فاقتضى الجواب من أول وهلة فكان فيه من الإيجاز ما ترى. (قالَ : هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي) هي مبتدأ وعصاي خبره وجملة أتوكأ عليها حالية وقيل مستأنفة وأهش بها على غنمي عطف على أتوكأ عليها وبها متعلقان بأهش وكذلك على غنمي وتعدية أهش بعلى يفيد معنى التهويل والتخويف للغنم. (وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى) هذا هو الجواب الرابع الذي أجاب به موسى عن سؤال واحد وسيأتي سر ذلك في باب البلاغة ولي خبر مقدم وفيها حال ومآرب جمع مأربة بتثليث الراء مبتدأ مؤخر وأخرى صفة لمآرب، وهذه المآرب الأخرى سيرد قسم كبير منها في باب البلاغة كما يرد تلخيص مفيد لكتاب العصا للجاحظ. (قالَ: أَلْقِها يا مُوسى) جملة ألقها مقول القول ويا موسى نداء. (فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى) ألقاها فعل وفاعل ومفعول به والفاء عاطفة وإذا للمفاجأة وهل هي ظرف أم حرف؟ تقدم بحث ذلك مفصلا، وهي مبتدأ وحية خبر وجملة تسعى حال أو خبر ثان وقد تقدم ذكر المسألة الزنبورية بين سيبويه والكسائي. (

قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى) جملة خذها مقول القول والواو حرف عطف ولا ناهية وتخف فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والسين حرف استقبال ونعيدها

فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره نحن وسيرتها منصوب بنزع الخافض أي إلى سيرتها وهذا أسهل الأعاريب وقيل هي ظرف قالوا " السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة وقيل سير الأولين فنصبت على الظرف أي سنعيدها في طريقتها الأولى " وأجاز آخرون كأبي البقاء وبه بدأ أن تكون بدل اشتمال من ضمير المفعول لأن معنى سيرتها صفتها وطريقتها

وأتي الزمخشري بإعراب آخر مهد له وحسنه قال " ووجه ثالث حسن وهو أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أولا ونصب سيرتها بفعل مضمر أي تسير سيرتها الأولى " والأولى صفة لسيرتها على كل حال . (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى) واضمم عطف على ألقها ويدك مفعول به والفاعل مستتر تقديره أنت والى جناحك جار ومجرور متعقان باضمم وتخرج جزم لأنه جواب الطلب وبيضاء حال ومن غير سوء متعلقان ببيضاء لما فيها من معنى الفعل نحو ابيضت من غير سوء وليكون الاحتراس كاملا كما سيأتي في باب البلاغة أو

متعلقان بتخرج وآية حال ثانية من فاعل تخرج أيضا وأخرى صفة لآية واختار الزمخشري وجها آخر لنصب آية وهو " بإضمار نحو خذ أو دونك وما أشبه ذلك " ولا نرى داعيا لذلك . (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)

اللام للتعليل ونريك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وهو تعليل لمحذوف متعلق به أي أمرناك بما ذكرنا لنريك بها أي بيدك ومن آياتنا متعلقان بمحذوف على أنه حال من الكبرى وتكون الكبرى على هذا مفعولا ثانيا لنريك أو صفة للمفعول الثاني على الأصح والتقدير لنريك الآية الكبرى من آياتنا أي حال كونها من آياتنا وقيل غير ذلك وما ذكرناه أولى فلا داعي لذكره .

البلاغة :

قد تستوعب هذه الآية أجلادا ضخمة لما انطوت عليه من ضروب البلاغة وذلك ما نهدف اليه من كتابنا ، ولكننا سنجتزئ بقدر الإمكان فنقول :

1- فن التلفيف :

في قوله تعالى " وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى " إلى آخر ما أجاب به موسى صلوات الله عليه من الأجوبة الأربعة فن طريف لم يرد ذكره حتى الآن وهو فن التلفيف ، وحدّه إخراج الكلم مخرج التعليم بحكم أو أدب لم يرد المتكلم ذكره وإنما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي صرح بتعليمه . وهذا التعريف المطول نعتقد أنه يحتاج إلى بيان وهو أن يسأل السائل عن حكم هو نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها كلها أو أكثرها فيعدل المسئول عن الجواب الخاص عما سئل عنه من تبيين ذلك النوع ويجيب بجواب عام يتضمن الإبانة على الحكم المسئول عنه وعن غيره بدعاء الحاجة إلى بيانه فقول موسى جوابا عن سؤال الله تعالى له " هِيَ عَصايَ " هو الجواب الحقيقي للسؤال ثم قال : " أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " فأجاب عن سؤال مقدر كأنه توهم أن يقال له : وما تفعل بها ؟ فقال معددا منافعها ولم يقع ذلك من موسى عليه السلام إلا لأمور ثلاثة :

آ- بغية الشكر لله تعالى الذي رزقه تلك العصا التي وجد فيها من المآرب ما لا يوجد في مثلها .

ب- ان المقام مقام خطاب الحبيب وهو يقتضي البسط والإسهاب .

ح- تعظيم مساءلة ربه له عن منافعها فابتدأه بالجواب عن السؤال المقدر قبل وقوعه أدبا مع ربه .

والواقع أن السؤال إذا كان واردا على شيء ظاهر فذلك السؤال إنما يتوجه إلى أمر يتعلق به بحسب مقتضى الحال وإلا كان عبثا لظهوره

كما إذا سألت شخصا عن لبس ثياب السفر بقولك : ما هذا الثوب ؟

فإنك لا تسأل عن نفس الثوب وما هيته بل إنما سألت عن سبب لبسه فكأنك قلت : ما سبب عزيمتك ؟ فجواب اللابس حينئذ أن يقول :

(201/500)

أريد سفر كذا ولو أجاب بأنه كتان مثلا عدّ لاغيا فكذلك هاهنا لما كان السؤال عن أمر ظاهر فيكون متوجها إلى ما يتعلق بالعصا من منافعها فكأنه قال : ما تفعل بما في يمينك يا موسى ؟ فلذلك قال : هي عصاي أتوكأ عليها . . . الآية فإن قلت : لو كان قوله تعالى : وما تلك بيمينك سؤالا عما لا يتعلق بالعصا فكان حقّ الجواب أن يقول : أريد أن أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولكان قوله : هي عصاي ضائعا غير مطابق للسؤال كما في السؤال عن نبس السفر .

قلت : هذا السؤال وإن كان عما يتعلق بالعصا لكنه تعالى لما علم أنه سيرد عليها الصورة الثعبانية عند سحر السحرة وكان ذلك مقام أن يخاف موسى بمشاهدة الصورة المنكرة

التي ليس يعهدها فأراد تثبيت ماهيتها وعوارضها في نفسه لئلا يدهش عند ورودها عليه

فلذلك قال : ما تلك ليجيب عن ماهيتها أيضا كما يجيب عن منافعها لزيادة التثبيت

فحاصل معنى الجواب حينئذ هي عصاي أعرفها بالذات والعوارض وإن صورتها مقررة

في نفسي لا تنفع إلا منافع أمثالها فإني قديما أتوكأ عليها وأهش بها على عنمي ولي فيها

مآرب أخرى .

واختار " تلك " مع قرب المشار اليه إما لتحقيره بالنسبة إلى جناب كبريائه أو للتعظيم

لاشتمالها على الأمور العجيبة والمنافع الكثيرة .

2- التقرير :

وفيها أيضا التقرير وهو بالاستفهام فإنه سبحانه عالم بما بيمينه وإنما أراد أن يقر موسى

ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بما يمنحه اللّه

في عصاه فلا يعتريه شك إذا قلبها اللّه ثعبانا بل يعرف أن ذلك كائن بقدرة اللّه وانه هين عليه

يسير .

عصا موسى وما فيها من أقوال :

هذا وقد صنف الجاحظ كتابا سماه كتاب العصا وهو جزيل الفائدة ونورد فيما يلي

أضاميم منه ، فقد جمع اللّه لموسى بن عمران في عصاه من البرهانات العظام والعلامات

الجسام ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدة من المرسلين قال اللّه تبارك وتعالى فيما يذكر في عصاه :

(202/500)

" إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما " إلى قوله " ولا يفلح الساحر حيث أتى " فلذلك قال الحسن بن هانئ - أبو نواس - في شأن خصيب وأهل مصر حين اضطربوا عليه :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب

ولا تثبوا وثب السفاه فتركبوا على حد حامي الظهر غير ركوب

فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب

ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصا ولا عارضهم موسى إلا بعصاه ، ألا ترى أنهم لما سحروا أعين الناس واسترهبوهم بالعصي والحبال لم يجعل اللّه للحبال من الفضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا ؟ وقدرة اللّه على تصريف الحبال في الوجوه كقدرته على تصريف العصا .

ثم تحدث الجاحظ بأسلوبه العذب السمح عن الشجر ومنافعها مما تأتي الاشارة إليه في حينه ، وأورد قصصا مأثورة عن الانتفاع بالعصا ، وما كان لها عند العرب من شأن فأورد قصة عامر بن الظرب العدواني – حكم العرب في الجاهلية – لما أسنّ واعتراه النسيان أمر بنته " عمرة " أن تقرع بالعصا إذا هو فهّ عن الحكم وجار عن القصد وكانت من حكيمات بنات العرب ، حتى جاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان ، وهند بنت الخس وخمعة بنت حابس وكان يقال لعامر ذو الحلم ولذلك قال الحارث بن وعلة :

وزعمتم أن لا حلوم لنا إن العصا قرعت لذي الحلم

وقال الفرزدق :

فإن كنت أنساني حلوم مجاشع فإن العصا كانت لذي الحلم تقرع

قلت :

قلت : هذا ما رواه الجاحظ بصدد قرع العصا ، وليس هذا القول حاسما ففي أول من قرعت له العصا خلاف طويل فقيل هو عامر

ابن الظرب كما ذكر الجاحظ وقيل هو قيس بن خالد ذو الجدين وقيل هو عمرو بن حممة الدوسي ولكن الأشهر ما رواه الجاحظ .

وذكر العصا عندهم يجري في معان كثيرة تقول العرب : " العصا من العصية ، والأفعى بنت حية " تريد أن الأمر الكبير يحدث عن الأمر الصغير ، ويقال : طارت عصا فلان شققا ويقال : فلان شق عصا المسلمين ولا يقال شق ثوبا ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق

وقال المضرّس الأسدي :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

ويقال لبني أسد " عبيد العصا " يعنى أنهم ينقادون لكل من حالفوا من الرؤساء وتسمي العرب كل صغير الرأس " العصا " وكان عمرو بن هبيرة صغير الرأس قال سويد بن كراع العكلي :

فمن مبلغ رأس العصا أن بيننا ضغائن لا تنسى وإن قدم الدهر

وكان والبة بن الحباب الأسدي أحد من أخذ عنهم أبو نواس وكان شاعرا ماجنا صغير الرأس فقال أبو العتاهية في رأس والبة ورؤوس قومه :

رؤوس عصي كنّ من عود أثلة لها قادح يفري وآخر مخرب

قلت :

قلت : هذا وكان والبة قد هاجى بشارا وأبا العتاهية فغلباه وفر إلى الكوفة منهما ومما قاله في أبي العتاهية :

كان فينا يكنى أبا اسحق وبها الركب سار في الآفاق

فتكنى معتها بعتاه يا لها كنية أتت باتفاق

حلق اللّه لحية لك لا تنفك معقودة بداء الحلاق ودخل عمرو بن سعد بن أبي وقاص على عمر بن الخطاب حين رجع اليه من عمل حمص وليس معه إلا جراب وإداوة وقصعة وعصا فقال له عمر : ما الذي أرى بك من سوء الحال ، أم ما تصنع ؟ فقال :

وما الذي تراني ؟ ألست تراني صحيح البدن ، معي الدنيا بجذافيرها ؟

قال : وما معك من الدنيا ؟ قال معي جرابي أحمل فيه زادي ، ومعي قصعتي أغسل فيها ثوبي ، ومعي إداوتي أحمل فيها مائي لشرابي ، ومعي عصاي إن لقيت عدوا قاتلته ، وإن لقيت حية قتلتها ، وما بقي من الدنيا تبع لما معي .

(204/500)

ومن جميل القول في العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق تفسير شعر غنيه الاعرابية في شأن ابنها وذلك انها كان لها ابن شديد العرامة كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر ، ودقة عظم ، فواثب مرة فتى من الأعراب فقطع الفتى أنفه وأخذت غنية دية أنفه فحسنت حالها بعد فقر مدقع ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال

وحسن الحال ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته فلما رأت

ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حسن رأيها فيه فذكرته

في أرجوزة لها تقول فيها :

أحلف بالمروة حقا والصفا أنك خير من تفاريق العصا

فقيل لابن الأعرابي : ما تفاريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساجورا وتقطع عصا الساجور

فتصير أوتادا ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظاظا فإن كان رأس الشظاظ كالعلكة صار

للبختي مهارا وهو العود الذي يدخل في أنف البختي (والبختي الجمل الخراساني) وإذا فرق

المهار جاءت منه تواد والسواجير تكون للكلاب والأسرى من الناس .

وسئل عن قوله " ولي فيها مآرب أخرى " قال : لست أحيط بجميع مآرب موسى عليه

السلام ولكني سأنبئكم جملا تدخل في باب الحاجة إلى العصا من ذلك : انها تحمل للحية

والعقرب والذئب والفحل الهائج ولعير العانة في زمن هيج الفحول وكذلك فحول الجحور في

المروج ويتوكأ عليها الكبير الدانف والسقيم المدنف والأقطع الرجل والأعرج فإنها تقوم

مقام رجل أخرى ، وقال أعرابي مقطوع الرجل :

الله يعلم أني من رجالهم وإن تخدّد عن متنيّ أطماري

وإن رزئت يدا كانت تجمّلني وإن مشيت على زج ومسمار

والعصا تنوب للأعمى عن قائده وهي للقصار والفاشكار والدباغ ومنها المفأد للملّة (أي

الخشبة يحرك بها الرماد الحار) والمحراك للتنور وهي لدق الجص والجبسين والسمسم ولخبط الشجر وللفيج (ساعي البريد والدولة) وللمكاري فانهما يتخذان المخاصر فإذا طال

(205/500)

الشوط وبعدت الغاية استعانا في حضرهما وهرولتهما في أضعاف ذلك بالاعتماد على وجه الأرض وهي تعدل من ميل المفلوج وتقيم من ارتعاش المبرسم (المصاب بمرض البرسام) ويتخذها الراعي لغنمه، وكل راكب لمركبه، ويدخل عصاه في عروة المزود ويمسك بيده الطرف الآخر وربما كان أحد طرفيها بيد رجل والطرف الآخر بيد صاحبه وعليها حمل ثقيل، وتكون - إن شئت - وتدا في حائط وإن شئت ركزتها في الفضاء وجعلتها قبلة وإن شئت جعلتها مظلة وإن جعلت فيها زجا كانت عنزة وإن زدت فيها شيئًا كانت عكازا، وإن زدت فيها شيئًا كانت مطردا وإن زدت فيها شيئًا كانت رمحا، والعصا تكون سوطا وسلاحا.

ونجتزئ بما تقدم من كتاب الجاحظ ونعود إلى مآرب موسى فقد ذكر في الكشاف " وقيل في المآرب كانت ذا شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا طلب كسره لواه

بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب

وغيرها وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء

واستظل ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غمه " .

3- الاستعارة المكنية :

في قوله " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ " الجناح معروف وقيل لكل ناحيتين جناحان كجناحي

العسكر ، وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين لأنه

يجنحهما عند الطيران أي يميلها والمراد إلى جنبك تحت العضد دل على ذلك قوله تخرج .

4- الاحتراس والكناية :

وفي قوله " تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ " فن الاحتراس وقد تقدم ذكره والسوء الرداءة

والقبح في كل شيء فكني به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوءة وكان جذيمة بن

الوضاح أبرص فكنوا عنه بالأبرش لأن البرص أبغض شيء إلى العرب وبهم عنه نفرة عنبسة

فكان جديرا أن يكنى عنه ولا أحسن ولا ألطف من كنايات القرآن كما يأتي ولو أنه لم يذكر

من غير سوء لتوهم أن البياض قد ازداد حتى صار برصا فأتى بقوله من غير سوء دفعا

لذلك التوهم .

[سورة طه (20) : الآيات 24 إلى 35]

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (24) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

(26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (29) هارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي

أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (33)

وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (35)

اللغة :

(

وَزِيراً) : مشتق من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره أي أثقاله فهو معين على أمر الملك

وقائم بأمره وقيل بل هو مشتق من الوزر بفتحتين وهو الملجأ ومنه قوله تعالى : "كَلَّا لا وَزَرَ"

وقيل بل

هو مشتق من المؤازرة وهي المعاونة وفي القاموس الأزر الإحاطة والقوة والضعف فهو من

الأضداد ، والتقوية والظهر .

الاعراب :

(اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى) اذهب فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت والى فرعون متعلقان باذهب وان واسمها وجملة طغى خبرها وجملة إنه طغى تعليلية لا محل لها . (قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة واشرح فعل دعاء ولي متعلقان باشرح وصدري مفعول به وذكر كلمة لي لفائدة ستَرِد في باب البلاغة . (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) عطف على اشرح لي صدري . (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي) عطف على اشرح وعقدة مفعول به ومن لساني متعلقان بمحذوف صفة لعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني وسيأتي ما قيل في العقدة في باب البلاغة .

(

يَفْقَهُوا قَوْلِي) يفقهوا فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والواو فاعل وقولي مفعول به .

(وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي) (هارُونَ أَخِي) الواو عاطفة واجعل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولي في محل نصب مفعول ثان ووزيرا مفعول به أول ومن أهلي صفة لوزيرا وهارون بدل من وزيرا وأخي بدل من هارون ويجوز أن يكون وزيرا مفعولا ثانيا وهارون مفعولا أول وقدم الثاني عليه اعتناء بأمر الوزارة ولي متعلقان بمحذوف حال أو بنفس الجعل ومن أهلي صفة ويجوز أن يكون وزيرا هو المفعول الاول ومن أهلي هو الثاني وجميع هذه الأوجه متساوية الرجحان . (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) اشدد فعل دعاء

وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وبه متعلقان باشدد وأزري مفعول به وأشركه عطف

على اشدد والهاء مفعول به وفي أمري

متعلقان باشركه وقرئ اشدد وأشركه مضارعين مجزومين بالطلب .

(208/500)

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً) (وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً) كي حرف مصدرية ونصب واستقبال وسيأتي بحثها في باب الفوائد ونسبحك فعل مضارع منصوب بكي وفاعل نسبحك ضمير مستتر تقديره نحن وكثيرا صفة لمصدر محذوف أو صفة لظرف محذوف فهي مفعول مطلق أو مفعول فيه ونذكرك كثيرا عطف على نسبحك كثيرا . (إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً) إن واسمها وجملة كنت خبر والتاء اسم كنت وبنا متعلقان ببصيرا وبصيرا خبر كنت .

البلاغة :

1- الزيادة :

زيادة " لي " في قوله تعالى " رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي " والكلام تام بدونها وقد ذكر الزمخشري سرا ونذكر الثاني فيما بعد قال : " فإن قلت " لي " من قوله اشرح لي صدري ويسر لي أمري ما جدواه والكلام مستتب بدونه ، قلت : قد أبهم الكلام أولا فقيل

اشرح لي ويسر لي فعلم أن ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره " أما السر الثاني فهو أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر وتيسير الأمر راجعة إليه وعائدة عليه فإن اللّه عز وجل لا ينتفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره تعالى وتقدس .

2- التنكير :

وفي تنكير العقدة من قوله تعالى " وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي " دلالة

على أنه لم يسأله حل جميع عقد لسانه بل حل بعضها الذي يمنع الافهام بدليل قوله " يفقهوا قولي " كأنه قال واحلل عقدة من عقد لساني وهذه العقدة ناشئة كما يروى عن جمرة وضعها في فمه وهو صغير وقصتها في المطولات .

الفوائد :

بحث كي :

(كَيْ) أحد أحرف النصب وهي قسمان :

1- المصدرية وهي الداخل عليها اللام لفظا نحو لكي لا تأسوا أو تقديرا نحو جئتك كي تكرمني إذا قدرت الأصل لكي وانك حذفت اللام استغناء عنها بنيتها فإن لم تقدر اللام فهي :

2- التعليلية ، فأما المصدرية فناصبة بنفسها وأما التعليلية فجارة والناصب بعدها أن مضمرة لزوما في النثر وقد تظهر في الشعر :

فقالت أكل الناس أصبحت مانحا لسانك كيما ان تغرّ وتخدعا

وهذا مذهب سيبويه والخليل وجمهور البصريين أما الكوفيون فيرون أن كي ناصبة دائما تقدمتها اللام أو لم تتقدمها .

قال أبو حيان : وأجمعوا على أنها يجوز الفصل بينها وبين معمولها بلا النافية وما الزائدة وأما الفصل بغير ما ذكر فلا يجوز عند البصريين .

[سورة طه (20) : الآيات 36 إلى 40]

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (37) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (40)

اللغة :

(السؤل) : الطلبة وهو فعل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز والأكل بمعنى المأكول .

(التَّابُوتِ) : الصندوق من خشب .

(الْيَمِّ) : البحر وأراد به نهر النيل .

الاعراب :

(قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى) جملة قد أوتيت مقول القول وأوتيت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وسؤلك مفعول

به ثان لأوتيت . (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ومننا فعل وفاعل وعليك متعلقان بمننا ومرة ظرف أو مفعول مطلق وأخرى صفة لمرة .

(إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى) إذ ظرف يفيد هنا التعليل وهو متعلق بمننا وجملة أوحينا مضافة إليها الظرف والى أمك متعلقان بأوحينا وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر هو مفعول مطلق أو موصولة فهي نائب فاعل وجملة يوحى صلة وهي تفيد الإبهام وسترد في باب البلاغة .

)

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) أن مفسرة لأن الوحي بمعنى القول واقذفيه فعل أمر وفاعل ومفعول به وفي التابوت متعلقان باقذفيه ، فاقذفيه في اليم عطف على فاقذفيه في التابوت ولم تختلف الضمائر لأن المقذوف هو موسى عليه السلام . (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ) الفاء عاطفة واللام لام الأمر ويلقه فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف حرف العلة والهاء مفعول به واليم فاعل وهذا أمر معناه الخبر ولكونه أمرا لفظا جزم جوابه في قوله يأخذه وسيأتي مزيد بيان له في باب البلاغة وبالساحل متعلقان بيلقه أو بمحذوف حال أي ملتبسا به ويأخذه جواب الطلب والهاء مفعول وعدو فاعل ولي صفة وعدو له عطف على عدو لي . (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) الواو حرف عطف وألقيت فعل وفاعل وعليك متعلقان بألقيت ومحبة مفعول به ومني صفة لمحبة أي محبة عظيمة كائنة مني فلا جرم أحبك كل من رآك ويجوز تعليق مني بألقيت ولتصنع عطف على علة مضمرة مفهومة من سياق الكلام أي لتحب من الناس ، ولتصنع : اللام للتعليل وتصنع فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلى عيني حال أي لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك وكالئك وسيأتي بحث المجاز المرسل هنا في

باب البلاغة . (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟) إذ ظرف للتعليل متعلق بألقيت أو بتصنع أو بمحذوف تقديره اذكر وجملة تمشي مضاف إليها الظرف وأختك فاعل فتقول عطف على تمشي وهل حرف استفهام وأدلكم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وعلى من متعلقان بأدلكم وجملة يكفله صلة .

(فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ)

الفاء عاطفة على محذوف للايجاز تقديره فأجيبت إلى طلبها فجاءت أمه فقبل موسى ثديها .

ورجعناك فعل وفاعل ومفعول به والى أمك متعلقان برجعناك وكي حرف ناصب وتقر منصوب بكي وعينها فاعل ولا تحزن عطف على كي تقر .

(وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً) وقتلت فعل وفاعل ونفسا مفعول قتل وقد قتل موسى القبطي بمصر واسمه قاب قان وكان طباخا لفرعون وكانت سن موسى إذ ذاك ثلاثين سنة ، فنجيناك الفاء عاطفة ونجيناك فعل وفاعل ومفعول به ومن الغم متعلقان بنجيناك وفتناك فعل وفاعل ومفعول به وفتونا مفعول مطلق إذا كان مصدرا وهو الأرجح كالقعود والجلوس والشكور والثبور واللزوم أو منصوب بنزع الخافض إذا كان جمع فتنة أي بضروب من الفتن والمعنى ابتليناك وامتحناك بأنواع من الشدائد . (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ

مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى) الفاء عاطفة ولبثت فعل وفاعل وسنين ظرف زمان متعلق بلبثت قيل مكث عند النبي شعيب في مدين عشر سنوات وتزوج خلالها ابنته وقيل ثمانيا وعشرين سنة منها مهر ابنته وهو عشر حجج حيث قضى أوفى الأجلين ، وفي أهل مدين متعلقان بلبثت ومدين مضاف لأهل ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ثم حرف عطف وجئت فعل وفاعل وعلى قدر حال أي موافقا لما قدر لك أو مستقرا على قدر معين

ويا موسى نداء ، وقد اقتبس هذا التركيب جرير بقوله مادحا عمر ابن عبد العزيز :

أتى الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

البلاغة :

فنون هذه الآيات البيانية كثيرة جدا نورد أهمها فيما يلي :

1- التفسير بعد الإبهام :

فأولها التفسير بعد الإبهام وهذا النوع يؤتى به لتفخيم أمر المبهم وإعظامه لأنه يطرق السمع بعد أن كان متعلقا بشيء مبهم فتترنح الجوارح ، ويذهب بلب السامع كل مذهب وعلى

هذا النحو جاء قوله تعالى " قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ، وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى "

فابهم الكلام وأتى به مجملا ليتعلق الذهن ، ويتطلع ما عسى أن يكون السؤال ؟ وما هي

المنة الأخرى ؟ وما عسى أن يردفها من منن وآلاء ؟

انه يتشوف للمعرفة ، ويحاول اكتناه الحقيقة فيأتي قوله بعد ذلك مفسرا ما أبهم ، فيقول " إذ

أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم " فإن قلت ما هي المنة

الأولى ؟ وما هي المنة الثانية ؟

وهل بعد ذلك من منن ؟ قلت ان مجموع المنن التي امتن الله بها على نبيه موسى ثماني منن :

آ- قوله إذ أوحينا إلى قوله " وعدو له " .

ب- قوله : " وألقيت عليك محبة مني " إلخ . .

ج- قوله : " ولتصنع على عيني " إلى قوله " من يكفله " .

د- قوله : " فرجعناك إلى أمك " إلى قوله " ولا تحزن " .

ه- قوله : " وقتلت نفسا فنجيناك من الغم " .

و- قوله : " وفتناك فتونا " .

ز- قوله : " فلبثت في أهل مدين " إلى قوله " يا موسى " .

ح- قوله : " واصنعتك لنفسي " .

2- الإبهام :

أما الإبهام المجرد فقوله " ما يوحى " وهو كثير شائع في القرآن الكريم ومثله في الشعر قول دريد بن الصمة في رثاء أخيه :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل : ابعد

وسيرد منه المزيد المطرب .

3- المجاز العقلي :

المجاز العقلي : في قوله تعالى " فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ " أسند الإلقاء إلى اليم وهو لا يعقل ولكنه يمثل مشيئة اللّه وإرادته التي لا تخطئ ولا يعزب عنها شيء ، أسند اليه الإفضاء المقرر في عالم الغيب ودنيا المشيئة كأنه ذو تمييز يطيع الأمر ويمتثل رسمه .

4- التنكير :

نكر المحبة وأسندها اليه سبحانه ، لأمرين هامين :

1- ما في التنكير من الفخامة الذاتية كأنها محبة تعلو على الحب المتعارف المتبادل بين المخلوقات .

2- ما في إسنادها اليه من الفخامة الاضافية أي محبة عظيمة مني وقد زرعتها في القلوب

وركزتها في السرائر ومنطويات الضمائر فسبحان المتكلم بهذا الكلام.

5- المجاز المرسل:

في قوله على عيني مجاز مرسل فقد أراد بالعين المحبة أي على المحبة مني لأن العين رائدها وسببها فالعلاقة السببية قال أبو عبيدة وابن الأنباري: إن المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي تقول أتخذ الأشياء على عيني أي على محبتي، قال ابن الأنباري: العين في هذه الآية يقصد بها قصد الارادة والاختيار، من قول العرب: فلان على عيني أي على المحبة مني قيل واللام متعلقة بمحذوف أي فعلت ذلك لتصنع وقيل متعلقة بألقيت.

[سورة طه (20): الآيات 41 إلى 47]

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (44) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (45)

قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (46) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (47)

اللغة:

(وَاصْطَنَعْتُكَ) : اخترتك لي من بين الناس جميعا ، وسيأتي المزيد من بحث المجاز في هذا التعبير الرشيق .

(

تَنِيا) : تفترا والونى الفتور والتقصير يقال ونى يني ونيا كوعد يعد وعدا إذا فتر والاسم الونى وهو الفتور وونى فعل لازم لا يتعدى وزعم بعض النحاة انه يكون من أخوات زال وانفك فيعمل عملهما بشرط النفي يقال : ما وني زيد قائما أي ما زال زيد قائما وفي المصباح : وني في الأمر ونيا من باب تعب ووعد ضعف وفتر فهو وان وفي التنزيل " ولا تنيا في ذكري " وتوانى في الأمر توانيا : لم يبادر إلى ضبطه ولم يهتم به فهو متوان أي غير مهتم ولا محتفل " وهو في الآية من باب وعد لأجل كسر النون إذ لو كان من باب تعب لكان بفتحها وقد أشار في الأساس إلى إمكان عمل هذا الفعل عمل لا يزال قال : " ولا يني يفعل : لا يزال يفعل وامرأة وناة : فيها فتور " وفي القاموس :

" الونى كفتى التعب والفترة ضد ويمد ونى يني ونيا وونيا ووناء وونية ونية وونى وأوناه وتوانى هو وناقة وانية : فاترة طليح وامرأة وناة وأناة وإنية : حليمة بطيئة القيام والقعود والمشي والمينا مرفأ السفينة ويمد وجوهر الزجاج والونية كاللؤلؤة كالوناة أو العقد من الدر " .

(يَفْرُطَ) : يقال فرط يفرط من باب قعد علينا فلان إذا عجل بمكروه.

الاعراب:

)

(215/500)

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) فعل ماض وفاعل ومفعول به ولنفسي متعلقان به. (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي) اذهب فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وأنت ضمير منفصل تأكيد للضمير المستتر والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير المراد بالاصطناع وأخوك عطف على الضمير المرفوع وعلامة رفعه الواو والكاف مضاف اليه وبآياتي حال لأن الباء للمصاحبة أي مصحوبين بآياتي ومعتصمين بها وليست للتعدية لأن المراد إظهار الآيات للناس لا مجرد الذهاب إلى فرعون والواو حرف عطف ولا ناهية وتنيا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والألف فاعل وفي ذكري متعلقان بتنيا، قيل "في" هنا بمعنى عن أي عن عبادتي ولم أره لأحد فالأولى أن تبقى على حقيقتها من الظرفية كأنه اشتمل على التقصير، لكن قال في المغني "والظاهر أن معنى ونى عن كذا جاوزه ولم يدخل فيه وونى فيه دخل فيه وفتر" وهذا يرجح انها للظرفية لا للمجاوزة. (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) اذهبا فعل

وفاعل والى فرعون متعلقان باذهبا وان واسمها وجملة طغى خبرها . (فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) الفاء عاطفة وقولا فعل أمر وفاعل وله متعلقان بقولا وقولا مفعول مطلق ولينا صفة ولعل واسمها وجملة يتذكر خبرها أو حرف عطف ويخشى عطف على يتذكر وسيأتي معنى الترجي هنا وبصورة عامة في باب الفوائد . (قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى) قالا فعل ماض وفاعل وربنا منادى مضاف وإن واسمها وجملة نخاف خبرها وأن وما في حيزها مفعول نخاف وعلينا متعلقان بيفرط أو حرف عطف أن يطغى عطف على أن يفرط .

(قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى) لا ناهية وتخافا فعل مضارع

(216/500)

مجزوم بلا والألف فاعل وجملة لا تخافا مقول القول وجملة إنني معكما تعليلية لعدم الخوف وان واسمها والظرف متعلق بمحذوف خبرها وجملة أسمع خبر ثان أو حالية وأرى عطف على أسمع . (فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ) فأتياه الفاء هي الفصيحة وأتياه فعل أمر وفاعل ومفعول به فقولا عطف على فأتياه وإن واسمها ورسولا خبرها وربك مضاف اليه .

(فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ) الفاء هي الفصيحة أيضا وأرسل فعل أمر والفاعل

مستتر تقديره أنت ومعنا ظرف مكان متعلق بأرسل وبني إسرائيل مفعول به ولا تعذبهم لا ناهية وتعذبهم مجزوم بلا والهاء مفعول به. (قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) جملة قد جئناك حالية جرت من جملة إنا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا مدعومة بالآيات والدلائل الظاهرة الدالة عليها وقد حرف تحقيق وجئناك فعل ماض وفاعل ومفعول به وبآية متعلقان بجئناك ومن ربك صفة لآية والواو استئنافية والسلام مبتدأ وعلى من اتبع الهدى خبر.

الفوائد:

اهتم العلماء اللغويون والنحاة بمعنى الرجاء في قوله تعالى "لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" وسنلخص الأوجه التي ذكرها هؤلاء لأن إيرادها بنصوصها لا يتسع له المجال، فالرجاء يحتمل الأمور التالية:

1- أن يكون الترجي هنا على بابه وذلك بالنسبة إلى المرسل وهو موسى وهارون أي اذهبا على رجائكما في إيمانه وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله فهو يفرغ جهده ويبذل ما في وسعه ويستحيل أن يرد ذلك في حق الله تعالى

إذ هو عالم بالعواقب والمغاب وعن سيبويه "كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب" وهذا صريح في أن الترجي يستحيل بقاؤه على معناه في حق الله تعالى.

2- ان لعل تفيد التعليل فهي بمثابة كي وهذا قول الفراء قال:

كما تقول : اعمل لعلك تأخذ أجرك أي كي تأخذ أجرك .

3- انها استفهامية أي هل يتذكر ويخشى وهذا قول مردود لأنه يستحيل الاستفهام في حق اللّه تعالى .

ما يقوله النحاة :

ويقول النحاة إن لعل للتوقع وعبر عنه قوم بالترجي في الشيء المحبوب نحو لعل الحبيب قادم ومنه قوله تعالى : "لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا " والإشفاق في الشيء المكروه نحو " فلعلك باخع نفسك " أي قاتل نفسك والمعنى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك وقد تقدم بحثه والإشفاق لغة الخوف يقال أشفقت عليه بمعنى خفت عليه وأشفقت منه بمعنى خفت منه وحذرته .

وقال الأخفش والكسائي : وتأتي لعل للتعليل نحو : ما يقول الرجل لصاحبه : افرغ من عملك لعلنا نتغدى واعمل عملك لعلك تأخذ أجرك أي لنتغدى ولتأخذ ، ومنه " لعله يتذكر " أي ليتذكر وقال في المغني : ومن لم يثبت ذلك يحمله على الرجاء ويصرفه للمخاطبين أي اذهبا على رجائكما .

[سورة طه (20) : الآيات 48 إلى 55]

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (49)

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (50) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (51)

قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (52)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ

أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (54)

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (55)

الإعراب:

)

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) إن واسمها وجملة قد أوحي خبر وإلينا متعلقان بأوحي وأن وما في حيزها في تأويل مصدر نائب فاعل لأوحى وأن واسمها وعلى من خبرها وجملة كذب صلة وتولى عطف على كذب. (قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى) أي فأتياه وقالا جميع ما ذكر، فالفاء عاطفة على مقدر ومن اسم استفهام مبتدأ وربكما خبر

والجملة مقول القول ولم يذكر هارون لأنه تبع وردء ووزير له وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

ربنا مبتدأ والذي خبره وجملة أعطى صلة وكل شيء مفعول به أول وخلقه مفعول به ثان وقيل خلقه أول مفعولي أعطى وكل شيء ثانيهما وقدم للاهتمام أي أعطى خليقته " وهي جمع الخلائق "كل شيء يحتاجون اليه وقرئ خلقه على أنه فعل والمفعول الثاني محذوف للعلم . ثم هدى عطف على أعطى أي أعطى كل شيء صورته وأفرغه في مسلاخه الخليق بما نيط به من خصائص ومنافع وهدى كل مخلوق إلى ما خلق له ، وفي هذا الإيجاز كلام طويل يطالعه القارئ في باب البلاغة . (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) الفاء عاطفة وما استفهام مبتدأ وبال خبر والقرون مضاف اليه والأولى صفة . (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) علمها مبتدأ وعند ربي الظرف متعلق بمحذوف خبر وفي كتاب حال أو في كتاب هو الخبر وعند ربي حال أو هما خبران أو هما خبر واحد على حد قولك الرمان حلو حامض أي مز وجملة لا يضل مستأنفة وقيل صفة لكتاب والعائد محذوف تقديره في كتاب لا يضله ربي أو لا يضل حفظه ربي ، وربي فاعل يضل ولا ينسى

عطف على لا يضل وسيأتي في باب الفوائد ما قاله العلماء في معنى هذه الآية. (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا) الذي خبر لمبتدأ محذوف أي هو وجملة جعل صلة ولكم حال لأنه كان صفة لمهادا والأرض مفعول به أول ومهادا مفعول به ثان وسلك فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ولكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان صفة لسبلا وفيها متعلقان بسلك وسبلا مفعول به. (

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى) وأنزل عطف على ما تقدم ومن السماء متعلقان بأنزل وماء مفعول به فأخرجنا الفاء عاطفة وأخرجنا فعل وفاعل وبه متعلقان بأخرجنا وأزواجا مفعول به ومن نبات صفة لأزواجا وشتى صفة لأزواجا أو حال منه لأنه وصف وأجاز الزمخشري

أن يكون صفة للنبات. (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى) كلوا فعل أمر وفاعل والجملة معمولة لحال محذوفة أي قائلين أو آذنين في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها وارعوا عطف على كلوا وأنعامكم مفعول به لارعوا وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر إن المقدم ولآيات اللام المزحلقة وآيات اسم إن المؤخر ولأولي

النهى صفة لآيات والنهى مضاف لأولي وهي جمع نهيه وقيل اسم مفرد . (مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى) منها متعلقان بخلقناكم وفيها متعلقان بنعيدكم ومنها متعلقان بنخرجكم وتارة ظرف متعلق بنخرجكم وأخرى صفة لتارة .

البلاغة :

1- الإيجاز :

في قوله تعالى " ثُمَّ هَدى " إيجاز بليغ لأنه حذف جملا لا يقع عليها الحصر لأنه ليس بالمتاح إحصاء المخلوقات الحية وغير الحية ، العاقلة وغير العاقلة التي خلقها اللّه ولكل منها عمله الميسر له على حد قوله صلى اللّه عليه وسلم "كل ميسر لما خلق له " فمن العسير بل من المستحيل أن يتحدث أحد عن المرتفقات العامة وإعطاء كل مرتفق إلى صاحبه المخلوق له الذي عرف كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل اليه ولهذا أحسن الزمخشري بقوله : " وللّه در هذا الجواب ما أحصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبا للحق " ثم إن للايجاز فائدة أخرى وهي أن فرعون أراد أن يصرف موسى عليه السلام بعد أن أوشك أن يفضحه ويبطل خرافاته ، إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات

والأساطير فأجابه موسى بأن ذلك ليس من خصائص الرسالة وانما علمه عند ربي فلما

سأله عن ربه أوجز الكلام على هذا الشكل البديع .

2- الالتفات :

(221/500)

من الغيبة إلى لفظ التكلم على الحكاية لكلام اللّه عز وجل والفائدة منه التنبيه على ظهور ما في الأرض من الدلالة على كمال القدرة الإلهية والحكمة التي لا تطيش وانقياد المخلوقات جميعا لمشيئته وقيل لا التفات في الكلام لأنه يشترط في الالتفات أن يكون في كلام المتكلم الواحد يصرف كلامه على وجوه شتى وما نحن فيه ليس من ذلك فإن اللّه تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ثم قوله : الذي جعل لكم الأرض مهادا إلى قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى فإما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك : أمرنا وعمرنا وانما يريدون الملك وليس هذا بالتفات وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله : ولا ينسى ثم ابتدأ اللّه تعالى وصف ذاته بصفات انعامه على خلقه فليس التفاتا أيضا وانما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب .

وقد يبدو هذا الرد وجيها لأول وهلة ولكن نذكر أن موسى وصف اللّه تعالى بهذه

الصفات على لفظ الغيبة فقال : الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى فلما حكاه اللّه تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى فمرجع الضميرين واحد وهذا الوجه دقيق وهو أقرب الوجوه إلى الالتفات .

الفوائد :

حول " لا يضل ربي ولا ينسى " :

أقرب ما يقال في نفي الضلال والنسيان عن اللّه تعالى وهو غني عن النفي لأنه علام الغيوب أن يقال هو من باب التعريض والمعنى : ان كل كائن محيط به علمه وهو مثبت عنده في كتاب ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوز عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل ، أي لا يضل كما تضل أنت يا مدعي الربوبية بالجهل والصلف والوقاحة .

وقال القفال : " هناك فرق بين يضل وينسى أي لا يضل عن الأشياء ومعرفتها وما علمه من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول إشارة إلى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثاني دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو اشارة إلى نفي التغير " .

هذا ، واختلف في معنى لا يضل ربي ولا ينسى على أقوال :

الاول : انه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين وقد تم الكلام عند قوله في كتاب .

الثاني : ان معنى لا يضل لا يخطئ .

الثالث : ان معناه لا يغيب .

الرابع : ان معناه لا يحتاج إلى كتاب ولا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا ينسى ما علمه منها .

الخامس : ان هاتين الجملتين صفة لكتاب والمعنى ان الكتاب غير ذاهب عن اللّه ولا هو ناس له .

[سورة طه (20) : الآيات 56 إلى 63]

وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (56) قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (58) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (60)

قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (61) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (62) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (63)

اللغة :

(ضُحًى) : الضحى : شروق الشمس بعد طلوعها وقد سمت العرب ساعات النهار بأسماء فالأولى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصبوب ثم الحدور ثم الغروب .

ويقال فيها : البكور ثم الشروق ثم الإشراق ثم الرأد ثم الضحى ثم المتوع ثم الزوال ثم الهاجرة ثم الأصيل ثم العصر ثم الطفل ثم الغروب .

(فَيُسْحِتَكُمْ) : يهلككم من أسحت الرباعي وهي لغة نجد وتميم أي أهلك ويقال سحت وهي لغة الحجاز وأصل هذه المادة تدل على الاستقصاء والنفاد ومنه سحت الحالق الشعر أي استقصاه فلم يترك منه شيئًا ويستعمل في الإهلاك والإذهاب وفي القاموس " سحت يسحت من باب فتح وسحّت بالتشديد اكتسب السحت أي المال الحرام وسحته أهلكه واستأصله وذبحه وسحت الشحم عن اللحم قشره وسحت وجه الأرض محاه وأسحت : أفسده وأهلكه واستأصله " .

الاعراب :

)

وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى) اللام جواب لقسم محذوف وقد حرف تحقيق وأريناه فعل ماض من رأى البصرية ولكنها تعدت إلى اثنين لدخول همزة النقل عليها ونا ضمير متصل في محل رفع فاعل والهاء مفعول به أول وآياتنا مفعول به ثان وكلها تأكيد لآياتنا فكذب وأبى عطف على أريناه وقد مرت آيات موسى التسع ثم الآيتان الأخيرتان وهما العصا ونزع اليد . (قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو أي فرعون وجملة أجئتنا مقول القول والهمزة للاستفهام الانكاري وجئتنا فعل وفاعل ومفعول به ولتخرجنا اللام للتعليل وتخرج فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ونا مفعول به ومن أرضنا متعلقان بتخرجنا وبسحرك متعلقان بتخرجنا . (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً) الفاء الفصيحة واللام جواب قسم محذوف تقديره والله لنأتينك وبسحر متعلقان بنأتينك ومثله صفة لسحر ويجوز أن يتعلق بسحر بمحذوف حال أي متلبسين بسحر مثله في الغرابة يعارضه ويدحضه ، فاجعل الفاء عاطفة واجعل فعل أمر

وفاعله أنت وبيننا ظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان وبينك عطف وموعدا مصدر ميمي مفعول به أول وجملة لا نخلفه صفة لموعدا ونحن تأكيد للضمير في نخلفه والواو عاطفة ولا نافية وأنت عطف على الضمير في نخلفه ومكانا بدل من موعدا بتقدير مضاف أي مكان موعد أو تعرب مكانا منصوبا بنزع الخافض أي في مكان أو تنصبه بالمصدر وهو موعد وسوى صفة أي وسطا وهو بضم الواو وكسرها وهذا وجه من أعاريب أخرى ستأتي في باب الفوائد. (قالَ: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) موعدكم مبتدأ ويوم الزينة خبر وان وما بعدها عطف على يوم الزينة إما على اليوم فيكون محل المصدر الرفع وإما على الزينة فيكون محله الجر والناس نائب فاعل وضحى ظرف متعلق بيحشر وسيأتي بحث يوم الزينة والعلة في اختياره. (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى) الفاء عاطفة وتولى فعل ماض وفرعون فاعل فجمع عطف على فتولى وكيده مفعول به على حذف مضاف أي ذوي كيده وهم السحرة ثم حرف عطف وأتى عطف على جمع وعبر بثم للدلالة على انه استغرق وقتا في جمع السحرة ورسم الخطط. (قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً) قال فعل ماض ولهم متعلقان به وموسى فاعل وويلكم مصدر للدعاء أمات العرب فعله فهو منصوب بفعل محذوف ولا ناهية وتفتروا فعل مضارع مجزوم بلا وعلى الله متعلقان بتفتروا وكذبا مفعول به.

)

فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى) الفاء فاء السببية ويسحتكم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية المسبوقة بالنهي وبعذاب متعلقان بيسحتكم وقد الواو حالية وقد حرف تحقيق وخاب فعل ماض ومن فاعل وجملة افترى صلة . (فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى) الفاء عاطفة وتنازعوا فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل وأمرهم مفعول به أو منصوب بنزع الخافض وبينهم ظرف متعلق بمحذوف حال وأسروا عطف على تنازعوا والنجوى مفعول به أي أخفوها أي انهم تشاوروا في السر . (قالُوا : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى) إن مخففة من الثقيلة ومهملة وهذان اسم اشارة للمثنى في محل رفع مبتدأ واللام الفارقة وساحران خبر هذان وجملة يريدان صفة لساحران وان وما في حيزها مفعول يريدان ومن أرضكم متعلقان بيخرجاكم بسحرهما حال أي متلبسين بسحرهما ويذهبا عطف على يخرجاكم وبطريقتكم متعلقان بيذهبا والمثلى صفة لطريقتكم .

البلاغة :

في قوله " لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى " فن رد العجز على الصدر وسماه المتأخرون التصدير وهو أخف على السمع وأليق بالمقام وقد تقدم البحث فيه ونضيف هنا أن ابن المعتز فسمه ثلاثة أقسام :

الأول ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول آخر كلمة في المصراع الثاني أو كانت مجانسة لها كقول بعضهم :

يلقى إذا ما كان يوم عرمرم في جيش رأي لا يفل عرمرم

والقسم الثاني ما وافق آخر كلمة في البيت أول كلمة منه كقول الآخر :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى بسريع

والقسم الثالث ما وافق آخر كلمة في البيت بعض كلمة في الصدر منه كقوله :

سقى الرمل صوب مستهل غمامه وما ذاك إلا حب من حل بالرمل

وقال الشيخ زكي الدين بن أبي الإصبع : " والذي يحسن أن يسمى القسم الأول تصدير التقفيه والثاني تصدير الطرفين والثالث تصدير الحشو " . والامثلة على ذلك كثيرة .

الفوائد :

كثر اختلاف المعربين في قوله تعالى " فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً " والحق انه من معضلات التراكيب وقد اخترنا في الاعراب أمثل الوجوه وأقربها إلى المنطق وأدناها إلى السهولة ، بقيت هناك أمور لا بد من إيضاحها :

موعدا : اختلف فيه على الأوجه التالية :

آ- اسم زمان ويرجحه قوله " قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ " والمعنى عيّن لنا وقت اجتماع ولذلك أجابهم بقوله : " موعدكم يوم الزينة " .

ب- اسم مكان ويرجحه قوله " مَكاناً سُوىً " والمعنى بيّن لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فنأتيه .

ج- مصدر ميمي بمعنى الوعد ويقدر مضاف محذوف أي مكان وعد ويؤيد هذا قوله " لا نخلفه نحن ولا أنت " لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه وهذا ما اخترناه .

فإن جعلته زمانا لزمك شيئان : أن تجعل الزمان مخلفا وأن يفضل عليك ناصب مكانا وان جعلته مكانا لزمك أيضا أن توقع

الأخلاف على المكان وأن لا يطابق قوله موعدكم يوم الزينة فبقى أن يجعل مصدرا بمعنى الوعد ويقدر مضاف محذوف أي مكان موعد ويجعل الضمير في نخلفه للموعد ومكانا بدل من المكان المحذوف .

وجوز أبو علي الفارسي وأبو البقاء أن ينتصب مكانا على المفعول الثاني لا جعل قالا

وموعدا على هذا مكان أيضا ولا ينتصب بموعدا لأنه مصدر قد وصف يعني أنه يصح مفعولا ثانيا ولكن بشرط أن يكون الموعد بمعنى المكان ليطابق الخبر.

وجعل الحوفي انتصاب مكانا على الظرف وانتصابه باجعل فتحصل في نصب مكانا خمسة أوجه:

1- أنه بدل من مكانا المحذوف.

2- انه مفعول ثان للجعل.

3- انه نصب بإضمار فعل.

4- انه منصوب بنفس المصدر.

5- انه منصوب على الظرف بنفس اجعل.

وانما أوردنا هذه الأقوال لأنها قريبة ولأن استيعابها مفيد للغاية فتدبر.

[سورة طه (20) : الآيات 64 إلى 70]

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (64) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (65) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ

أَنَّها تَسْعى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (67) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (68)

وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (70)

اللغة :

(فَأَجْمِعُوا) : أي ازمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه حتى لا تختلفوا كالمسألة المجمع عليها ويقال : اجمعوا الأمر واجمعوا عليه ، وفلانة بجمع أي عذراء وضربه بجمع كفه واستجمع لفلان أمره واستجمع السيل واستجمع الفرس جريا قال يصف السراب :

ومستجمع جريا وليس ببارح تباريه في ضاحي المتان سواعده

أي مجاريه واستجمع الوادي إذا لم يبق منه موضع إلا سال وعن بعض العرب : الرّمة وفلج لا يستجمعان إنما يسيلان في نواحيهما وأضواحهما ، واستجمع القوم ذهبوا كلهم وجمعوا لبني فلان إذا حشدوا لقتالهم " إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ " وأجمعت القدر غليا قال امرؤ القيس :

ونحشّ تحت القدر نوقدها بغضا الغريف فأجمعت تغلي

ومن الكناية : فلانة قد جمعت الثياب أي كبرت لأنها تلبس الدرع والخمار والملحفة .

(

(فَأَوْجَسَ) : الإيجاس : الإضمار وايجاس الخوف إضمار شيء منه وكذلك توجس الصوت تسمع نبأة يسيرة منه وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية .

(تَلْقَفْ) : تبتلع وأصله التناول بسرعة قال في القاموس : لقف يلقف من باب تعب لقفا والتقف الشيء تناوله بسرعة .

الاعراب :

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى) الفاء الفصيحة أي إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين إلخ فأجمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وأجمعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وكيدكم مفعول به إذا اعتبرت أجمعوا متعدية وبعضهم لم يعتبرها متعدية فيكون كيدكم منصوبا بنزع الخافض ثم ائتوا عطف على أجمعوا وصفا حال وانما أمرهم بذلك لإدخال الرهبة في صدور الرائين ، وقال أبو عبيدة :

الصف موضع المجمع ويسمى المصلى الصف قال الزجاج : وعلى هذا معناه ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم يقال أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى فعلى هذا

يكون انتصابه على المفعولية .

وقد الواو اعتراضية وقد حرف تحقيق وأفلح فعل ماض واليوم ظرف متعلق بأفلح ومن فاعل أفلح وجملة استعلى صلة . (قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى) إما حرف شرط وتفصيل ومعناها هنا التخيير ولا يكون إلا بعد الطلب ، وأن وما بعدها في

تأويل مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره اختر أحد الأمرين أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر القاؤك أو مبتدأ والخبر محذوف والتقدير إلقاؤك أول وإما أن تكون عطف على ما تقدم واسم نكون مضمر تقديره نحن وأول خبرها ومن مضاف اليه وجملة ألقى صلة . ويجوز أن تكون ان وما في حيزها في محل نصب بفعل مضمر أي اختر إلقاءك أولا أو القاءنا . (قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى) بل حرف إضراب وعطف وألقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل فإذا الفاء عاطفة على محذوف تقديره فألقوا فإذا وإذا هذه للمفاجأة وقد تقدم أنها حرف أو ظرف ثم اختلف أهو ظرف مكان أو زمان وسننقل قول الزمخشري فهو غاية الغايات قال :

" والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى " فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ " ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي " .

وحبالهم مبتدأ وعصيهم عطف عليه وجملة يخيل اليه خبر حبالهم وإذا جعلت إذا خبرا فتكون جملة يخيل إليه حال ومن سحرهم متعلقان بيخيل وأنها وأن واسمها وجملة تسعى خبر أن وأن وما بعدها في تأويل مصدر نائب فاعل ليخيل أي يخيل إليه سعيها وجعل الزمخشري المصدر بدل اشتمال من الضمير في حبالهم وعصيهم . (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى) الفاء عاطفة وأوجس فعل ماض ، وفي نفسه متعلقان بأوجس

(230/500)

و خيفة مفعول به وموسى فاعل . (قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى) قلنا فعل وفاعل وجملة لا تخف مقول القول ولا ناهية وتخف فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره أنت وجملة انك مستأنفة كتعليل للنهي عن الخوف الذي ساوره لطبع البشرية من ضعف القلب وان كان متيقنا من أن اللّه ناصره وأنهم لن يصلوا اليه بسوء وإن واسمها وأنت تأكيد

أو ضمير فصل أو مبتدأ والأعلى خبر إن أو خبر أنت والجملة خبر إن وسيأتي الكلام على المبالغة في هذا التعبير في باب البلاغة . (وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا) وألق الواو عاطفة وألق فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وما مفعول به وفي يمينك متعلقان بمحذوف صلة ما وسيأتي سر هذا الإبهام في باب البلاغة وتلقف جواب الطلب مجزوم وعلامة جزمه السكون وفاعل تلقف ضمير مستتر تقديره هي وما مفعول به وجملة صنعوا صلة أي ما زوّروه وكذبوا فيه . (إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى) تعليل لقوله تلقف وإن واسمها وجملة صنعوا صلة وكيد ساحر خبر إن ، وقد درج المصحف على كتابة ما متصلة بان ، ويجوز أن تكون ما مصدرية والاعراب واحد ولا الواو حالية أو عاطفة ولا نافية ويفلح الساحر فعل مضارع وفاعل وحيث ظرف مكان مبني على الضم متعلق بيفلح وجملة أتى مضافة إلى الظرف .

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى) الفاء عاطفة على جملة محذوفة تقديرها فألقى موسى عصاه فتلقفت كل ما صنعوه فألقي السحرة فعل ماض مبني للمجهول والسحرة نائب فاعل وسجدا حال من السحرة قالوا فعل وفاعل وجملة آمنا مقول القول وهو فعل وفاعل وبرب هارون وموسى متعلقان بآمنا .

البلاغة :

في هذه الآيات فنون من البيان تذهل العقول ، فأولها :

1- فن الاستدراج

(231/500)

و قد تقدم القول فيه وهو بالإضافة إلى ما فيه من البلاغة ينطوي على نكت دقيقة في استدراج الخصم واضطراره إلى الإذعان والتسليم فقد شاء السحرة في بادئ الأمر استدراج موسى ثقة منهم بأنهم فائزون عليه وكأنما ألهمهم اللّه حسن الأدب مع موسى في تخييره وإعطائه النصفة من أنفسهم عند ما قالوا " فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً " ففوضوا ضرب الموعد اليه ولكن موسى استدرجهم بإلهام من اللّه عز وجل أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لسترهم ولما استدرجوه إلى التخيير في الإلقاء أيكون هو البادئ أم يكونون هم البادئين استدرجهم هو إلى أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون القاؤه العصا بعد قذفا بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق فما أروع هذا الكلام .

2- فن توكيد الضميرين ،

وقد تتساءل وما علاقة البحث النحوي بالبلاغة ؟ والضمائر وتوكيد بعضها لبعض

مذكورة في كتب النحو ونقول ان المسألة أجلّ وأسمى من النحو ، والنحاة بمعزل عن هذا الفن الرفيع ونعني بتوكيد الضميرين أن يؤكد المتصل بالمنفصل كقولك إنك أنت أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله كقولك أنت أنت أو يؤكد المتصل بمتصل مثله كقولك إنك إنك لعالم وانما يؤتى بمثل ذلك في معرض المبالغة وهو من أسرار علم البيان ومن ذلك قوله تعالى " قَالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ " فإن إرادة السحرة

الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دلّ ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله إن كان قالوا : إما أن تلقي وإما أن نلقي لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم " وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ " استدل بهذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله ومنه أيضا قوله تعالى " فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى " فتوكيد الضميرين هاهنا في قوله إنك أنت الأعلى أنفى للخوف من قلب موسى وأثبت للغلبة والقهر ولو قال : لا تخف إنك الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي

الخوف ما لقوله " إنك أنت الأعلى " وفي هذه الكلمات الثلاث ست فوائد :

1- " إن " المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها وتأكيده وقد نص علماء المعاني على أن الخبر يكون مع إن طلبيا أو إنكاريا لا ابتدائيا كقولك زيد قائم ثم تقول : إن زيدا قائم ففي قولك إن زيدا قائم من الإثبات لقيام زيد ما ليس في قولك زيد قائم .

2- تكرير الضمير في قوله " إنك أنت " ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المثابة في التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره .

3- لام التعريف في قوله " الأعلى " ولم يقل أعلى أو عال لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره وكان صالحا لكل واحد من جنسه كقولك رجل فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال وإذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علما فيهم وكذلك جاء قوله " إنك أنت الأعلى " أي دون غيرك .

4- لفظ أفعل الذي من شأنه التفضيل ولم يقل العالي فهو أعلى من كل عال .

5- لفظ العلو الدال على أن الغلبة ثابتة له من جهة العلو ومعلوم أن الغرض من قوله " الأعلى " الغلبة إلا أن في الأعلى زيادة وهي كونها صادرة عن مكان عال .

6- الاستئناف وهو قوله تعالى : " لا تخف إنك أنت الأعلى " ولم يقل لأنك أنت الأعلى فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء وأثبت ذلك في قرارة نفسه بما لا يدع أي مجال للشك .

هذا وقد تقدم نوع من هذا الفن وسيرد غيره في حينه ومواضعه ان شاء اللّه ، بقي أن تتحدث عن اختيار موسى يوم الزينة فما هو هذا اليوم ؟

يوم الزينة :

قيل فيه يوم عاشوراء ، ويوم النيروز ، ويوم عيد كان لهم في كل عام وكانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ويظهرون فيه كل بهارجهم إذ يحشر فيه الناس منذ ضحوة النهار حتى المساء .

3- فن الإبهام :

وذلك في قوله " ما في يمينك " فقد أبهمها لأمرين متضادين أولهما استصغار أمرها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي بيدك فانه بقدرة اللّه تعالى يتلقفها على وحدته

وكثرتها وصغره وعظمها ، وثانيهما تعظيم أمرها أي لا تعبأ بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئا هو أعظم منها كلها فألقها تمحقها وتطح بها بإذن اللّه ، وقد يقول قائل كيف يحتقر العصا ؟

والجواب ان المقصود بتحقيرها في جنب القدرة الإلهية تحقير كيد السحرة بطريق الأولى

لأنها إذا كانت وهي الحقيرة الضئيلة التي لا يؤبه بها بالنسبة للقدرة الإلهية قد طاحت بما أتوا به من أضاليل مموّهة وأكاذيب مخترعة فما ظنك بكيدهم وأقل شيء يذهب به وهذا معنى دقيق قل من يتفطن له ، وقد رمق سماءه شاعر الخلود أبو الطيب المتنبي فقال من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار ويذكر الأسد وقد أعجله فضربه بسوطه :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولا ؟

والمعنى إذا كنت تلقى هذا الأسد وهو أقوى الحيوانات وأشجعها بسوطك فلمن خبأت صارمك المصقول ؟

ولأصحاب البلاغة أيضا طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه وقد رمق سماءه أبو الطيب إذ وصف جيش الروم الذي لاقاه سيف الدولة فبالغ في تعظيم أمره وتصوير عدده البالغة والغاية هي أن يتناهى في تعظيم أمر سيف الدولة وجيشه فقال في وصف جيش الروم :

أتوك يجرون الحديد كأنهم سروا بجياد ما لهن قوائم

إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم

جعل الروم يبرقون لكثرة ما عليهم من الحديد ولم يفرق بين سيوفهم وبينهم لأن على رءوسهم البيض والمغافر وثيابهم الدروع فهم كالسيوف وأشار بهذا الوصف إلى كثرة سلاح هذا الجيش تمهيدا للاشارة إلى قوته :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم

فلله وقت ذوب الغشّ ناره فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

وستأتي تتمة هذا الوصف البديع في موطن آخر من مواطن البلاغة التي رمق أبو الطيب سماء القرآن فيها .

نكتة أخرى في الإبهام :

وهناك نكتة أخرى سوى قصد التعظيم والتحقير وهي أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من اللّه تعالى عند ما سأله :

وما تلك بيمينك يا موسى ثم أظهر له تعالى آيتها فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها قال تعالى : وألق ما في يمينك ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال اللّه تعالى له " وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ " وقد أظهر له آيتها فيكون ذلك تنبيها له وتأنيسا حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت

ظهور آيتها وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت في موقف يزايل الوقار أشد النفوس قوة

ورباطة.

4- فن التكرير:

(235/500)

وقد تقدم كثيرا بحثه والاشارة اليه وذكر نماذج رائعة منه وسيأتي المزيد والأكثر وهنا في هذه الآيات تكرر لفظ الإلقاء ولكنه تكرر لم يطرد على وتيرة واحدة وانما هو لفظ واحد في معنيين متضادين متناقضين نقل بهما سبحانه عباده من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية الايمان والسداد فما أعظم الفرق بين الإلقاءين: لقد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود. ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود.

[سورة طه (20): الآيات 71 إلى 76]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (71) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً

قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (75)

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

الاعراب:

)

(236/500)

قال آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) جملة آمنتم مقول القول والقائل هو فرعون وآمنتم الهمزة للاستفهام والتقريع والتوبيخ حذفت الهمزة الأولى وسهلت الثانية وهو فعل ماض وفاعل وله متعلقان بآمنتم وقبل ظرف متعلق بآمنتم أيضا وأن آذن لكم المصدر المؤول مضاف لقبل. (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) ان واسمها واللام المزحلقة وكبيركم خبرها والذي صفة وجملة علمكم السحر صلة والسحر مفعول به ثان لعلمكم، أي أن موسى لكبيركم أي معلمكم وأستاذكم وأعلاكم درجة في صناعة السحر، قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبيري، وقال الواحدي: والكبير في اللغة الرئيس ولهذا يقال للمعلم الكبير، وأراد فرعون من ذلك إلقاء الشبهة على الناس وإدخالها في صدورهم ليستريبوا ولا يؤمنوا وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى

ولا كان رئيسا لهم ولا صلة بينه وبينهم . (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ) الفاء الفصيحة واللام موطئة للقسم وأقطعن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره أنا وأيديكم مفعول به وأرجلكم عطف على أيديكم ومن خلاف حال بمعنى مختلفة ومن ابتدائية كأن القطع ابتدئ من مخالفة العضو للعضو .

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) الواو حرف عطف ولأصلبنكم عطف على لأقطعن وفي الظرفية شبه تمكن المصلوب بالجذع بتمكن المظروف في الظرف وهو متعلق بأصلبنكم وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة .

)

(237/500)

وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى) ولتعلمن عطف على لأصلبنكم وأينا استفهامية مبتدأ وأشد خبر والجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي تعلمن لأن الفعل علق بأي الاستفهامية ويجوز أن تكون أي موصوليه وبنيت لأنها أضيفت وحذف صدر صلتها وقد تقدمت نظائرها كثيرا وعندئذ تكون هي المفعول به لتعلمن وأشد خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو وجملة أشد صلة الموصول وأبقى عطف على أشد .

(قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا) لن حرف نفي ونصب واستقبال ونؤثرك مضارع منصوب بلن والكاف مفعول به والفاعل مستتر تقديره نحن والجملة مقول قولهم وعلى ما متعلقان بنؤثرك وجملة جاءنا صلة ومن البينات متعلقان بمحذوف حال والذي عطف على ما وأخروا ذكر الباري من باب تقديم الأدنى على الأعلى وسيرد بحث التقديم والتأخير في باب البلاغة وقيل الواو للقسم والذي مجرور بواو القسم أي مقسم به وهو اللّه تعالى وفطرنا صلة والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وجواب القسم محذوف تقديره لا نؤثرك على الذي جاءنا من الحق. (فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا) الفاء الفصيحة واقض فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وما مفعول به وأنت مبتدأ وقاض خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين وجملة أنت قاض صلة والعائد محذوف أي قاضيه وانما كافة ومكفوفة على الأرجح وتقضي فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول تقضي محذوف تقديره لبانتك أو مأربك وهذه ظرف والحياة بدل والدنيا صفة والظرف متعلق بتقضي ويجوز أن تكون ما

موصولة أو مصدرية وهي اسم إن والخبر هو الظرف ويجوز اعراب هذه الحياة الدنيا مفعولا به على السعة . (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى) ان واسمها وجملة آمنا خبرها وبربنا متعلقان بآمنا واللام للتعليل ويغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولنا متعلقان بيغفر وما عطف على خطايانا أي ليغفر لنا خطايانا ويغفر لنا أيضا الذي أكرهتنا عليه ولك أن تجعل الواو ابتدائية وما مبتدأ وجملة أكرهتنا صلة والخبر محذوف أي مرفوع عنا وملقى عن كواهلنا وعليه متعلقان بأكرهتنا ومن السحر حال والله مبتدأ وخير خبر وأبقى عطف على خير (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى) إن واسمها ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويأت فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة وفاعل يأت مستتر تقديره هو وربه مفعول به والهاء مضاف اليه ومجرما حال من فاعل يأت فإن الفاء رابطة لجواب الشرط وان حرف مشبه بالفعل وله خبرها المقدم وجهنم اسمها المتأخر وجملة لا يموت فيها حالية من الهاء في له أو من جهنم وفيها متعلقان بيموت ولا يحيا عطف على يموت . (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى) ومن يأته مؤمنا تقدم إعراب نظيرها وجملة قد عمل الصالحات صفة لمؤمنا فأولئك الفاء رابطة وأولئك اسم اشارة مبتدأ ولهم خبر مقدم والدرجات مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من والعلى صفة

للدرجات . (

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى) جنات عدن بدل من الدرجات العلى أو خبر لمبتدأ محذوف وجملة تجري من تحتها الأنهار

(239/500)

صفة لجنات وخالدين فيها حال من " من " وفيها متعلقان بخالدين وذلك مبتدأ وجزاء خبر ومن مضاف اليه وجملة تزكى صلة .

البلاغة :

معنى لأصلبنكم في جذوع النخل :

قوله " وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ " في الكلام استعارة مكنية تبعية وتقريرها انه شبّه استعلاء المصلوب على الجذع بظرفية المقبور في قبره ثم استعمل في المشبه " في " الموضوعة للمشبه به أعني الظرفية فجرت الاستعارة في الاستعلاء والظرفية وبتبعيتها في على وفي واذن ، ففي على بابها من الظرفية وهذا أصح الأقوال فيها وقيل ان في بمعنى على فلا يكون في الكلام استعارة .

[سورة طه (20) : الآيات 77 إلى 82]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (79) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (81)

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (82)

اللغة :

)

(240/500)

يَبَساً) : بفتحتين قال في القاموس : يبس الشيء ييبس من بابي علم وحسب يبسا ويبسا واتّبس كان رطبا فجف فهو يبس ويبس ويابس ويبوس ويبيس وأيبس " وسمع بعض العرب : جمّرت الخبز كي يابس ظهره : جعلت عليه الجمر وقد يبست : إذا ذهب نداها وعود يابس وعيدان يبس والسفينة لا تجري على يبس " طريقا في البحر يبسا " وهي ترعى اليبس واليبيس : ما يبس من النبات فاستعمال العامة للنبات اليبيس ليطبخ في غير أوانه لا

غبار عليه ومن المجاز قد يبس ما بينهما : إذا تقاطعا ولا توبس الثرى بيني وبينك قال جرير

:

أتغلب أولي حلفة ما ذكرتكم بسوء ولكني عتبت على بكر

فلا توبسوا بيني وبينكم الثرى فإن الذي بيني وبينكم مثري

(دَرَكاً) : بفتحتين أي أن يدركك فرعون وجنوده والدرك والدرك بفتحتين وبفتح الدال

وسكون الراء اللحاق وادراك الحاجة وأقصى قعر الشيء يقال بلغ الغواص درك البحر

ويقال فرس درك الطريدة أي يدركها ومنه قولهم : ما لحقك من درك فعليّ خلاصه

فاستعمال رجال الدرك صحيح لا غبار عليه .

الاعراب :

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي) الواو عاطفة أو استئنافية واللام جواب للقسم

المحذوف وأوحينا فعل وفاعل والى موسى متعلقان بأوحينا وأن مفسرة وأسر بقطع الهمزة

من أسرى فعل

أمر مبني على حذف حرف العلة وبعبادي متعلقان بأسر أي سربهم ليلا .

)

فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى) فاضرب عطف على أسر أي اجعل ، من قولهم ضرب له في ماله سهما وضرب اللبن عمله فقول العامة : ضرب لبنا لا غبار عليه . ولهم متعلقان باضرب أي قائم مقام المفعول الثاني وطريقا مفعول به أول وفي البحر صفة ويبسا صفة ثانية وهو وصف لما يئول اليه كما سيأتي في باب البلاغة أو مصدر وصف به مبالغة كرجل عدل وصدق وجملة لا تخاف حالية من فاعل اضرب أي اضرب غير خائف أو صفة لطريقا والعائد محذوف أي لا تخاف فيه أو هي جملة مستأنفة والأول أظهر ولا نافية وتخاف فعل مضارع مرفوع وفاعله أنت ودركا مفعول به وجملة ولا تخشى عطف على لا تخاف . (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ) الفاء عاطفة واتبعهم فعل ماض متعد لاثنين حذف ثانيهما والتقدير فأتبعهم فرعون عقابه والهاء هو المفعول الأول وقيل الباء زائدة في المفعول الثاني والتقدير فأتبعهم فرعون جنوده فهو كقوله تعالى : " وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ " واتبع قد جاء متعديا إلى اثنين مصرح بهما قال " وَأَتْبَعْناهُمْ ذرياتهم " وقيل هو بمعنى تبع يتعدى لواحد فتكون بجنوده في محل نصب على الحال فغشيهم الفاء عاطفة وغشيهم فعل ماض والهاء مفعوله أي غمرهم وما فاعل وجملة عشيهم صلة وهو من الإبهام وسيأتي الكلام عنه مرة ثانية في باب البلاغة .

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى) الواو عاطفة مع تقديم وتأخير في الكلام لأن إضلاله قومه

كان قبل العرق طبعا وأضل فعل ماض وفرعون فاعل وقومه مفعول به وجملة وما هدى عطف على أضل وسيأتي الكلام عن هذا العطف في باب البلاغة والتهكم فيه . (يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ) يا حرف نداء وبني إسرائيل منادى مضاف وقد

حرف تحقيق وأنجيناكم فعل ماض وفاعل ومفعول به ومن عدوكم متعلقان بأنجيناكم . (وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى) وواعدناكم عطف على أنجيناكم وواعدناكم فعل وفاعل ومفعول به أول وجانب الطور مفعول به ثان على حذف مضاف أي إتيان جانب ولا يكون ظرفا لأنه محدود ، والأيمن صفة لجانب ونزلنا عطف على ما قبله لتتمة تعداد النعم الدنيوية والدينية المترادفة عليهم وعليكم متعلقان بنزلنا والمن مفعول به والسلوى عطف على المن وقد تقدم ذكرهما والنداء إما أن يكون لبني إسرائيل بعد انجائهم من البحر وإهلاك فرعون وجنوده وإما أن يكون موجها إلى اليهود في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، خوطبوا بما أنعم اللّه به على أجدادهم ومع ذلك كفروا بالنعمة وغمطوها وجحدوها فهم علة العلل في مختلف ظروف الزمان والمكان ، وهم أداة تعطيل السلام في كل آن .

)

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي) كلوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ومن طيبات متعلقان بكلوا وما مفعول به وجملة رزقناكم صلة ولا تطغوا الواو عاطفة ولا ناهية وتطغوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل وفيه متعلقان بتطغوا فيحل الفاء السببية ويحل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة لأنه وقع في جواب النهي وعليكم متعلقان بيحل وغضبي فاعل وقيل هو معطوف فيكون نهيا أيضا .

(وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى) الواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ ويحلل فعل الشرط وعليه متعلقان بيحلل وغضبي فاعل يحلل والفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق وهوى فعل ماض أي هلك والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من على التحقيق . (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة

وغفار خبر إن ولمن متعلقان بغفار وجملة تاب صلة وآمن وعمل عطف وصالحا مفعول به أو صفة لمصدر محذوف أي عمل عملا صالحا ثم اهتدى عطف متأخر باعتبار الانتهاء

لبعده عن أول الاهتداء أو للتفاوت بين المرتبتين فإن الاستمرار في التوبة والايمان والعمل الصالح هو الشرط الاساسي لقبول الأعمال.

البلاغة:

في هذه الآيات أفانين متنوعة من الفنون ندرجها فيما يلي:

1- المجاز المرسل:

وذلك في قوله يبسا لأنه لم يكن حين خاطبه اللّه تعالى يبسا ولكن باعتبار ما يئول اليه كقوله تعالى "إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً" وقد تقدم القول فيه مفصلا.

2- الإبهام:

وذلك في قوله "فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ" أي علاهم وغمرهم من الأمر الهائل الذي ليس في طوقهم احتماله ما لا يمكن ادراك كنهه ولا سبر غوره وهو من جوامع الكلم التي يقل لفظها ويتشعب القول في معناها.

3- التهكم:

تقدم القول فيه مرارا وهو هنا في قوله "وَما هَدى" والمعروف أن التهكم هو أن يأتي المتكلم بعبارة والمقصود عكس معناها كقوله "إنك لأنت الحليم الرشيد" وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين وأما قوله تعالى "وَما هَدى" فمضمونه هو الواقع فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه فأين التهكم؟ ولكن العرف في مثل ما هدى زيد عمرا بثبوت

الهداية لزيد في نفسه ولكنه يؤخذ عليه انه لم يهد عمرا ولكن فرعون ضال في نفسه بل ان الضلال مركوز في سليقته كامن فيه كمون الطبائع الاصيلة فكيف يتوهم انه يهدي غيره وإذن فهو جمع بين المثلبتين واكتنفه الشر من ناحيتين فحق لمثله وقد صار مهزأة ان يتهكم به ويكون أداة للتهكم .

4- المجاز العقلي :

وفي قوله تعالى " وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ " فإن لقائل أن يقول ان المواعدة كانت لموسى عليه السلام فكيف أضيفت إليهم ، وإيضاح الجواب الدقيق الذي لم أر من وفّاه حقه أنه مجاز عقلي أسند المواعدة إليهم من قبل الله كما تسند الأمور المدركة إلى من ليس له ادراك على حد المجاز العقلي وهذا من أسمى ما يصل اليه الأسلوب اللبق تقول لابن صديقك المتعسف المرتطم في حمأة الهوان لقد عرفتكم أهل حجا وتصون ، تريد أن تنسب اليه ما هو بعيد عنه بعد الأمور المدركة عن غير العقلاء حين تنسب إليهم على طريق المجاز العقلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 161 .

228 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى.رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأول بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الأول بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 83 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 97 ﴾ من نفس السورة

(4/501)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذلك - والله أعلم بما كان ، وكان أعظم ما مضى في آية الامتنان عليهم والتعرف بالنعم إليهم المواعدة لهدايتهم بالآيات المرئية والمسموعة ، وختم ذلك بالإشارة إلى الاجتهاد في الإقبال على الهدى ، أتبع ذلك ذكر ضلالهم بعد رؤية ما يبعد معه كل البعد إلمام من رآه بشيء من الضلال ، كل ذلك لإظهار القدرة التامة على التصرف في القلوب

بضد ما يظن بها ، وكان تنجز المواعيد ألذ شيء للقلوب وأشهاه إلى النفوس ، وكان السياق مرشداً حتماً إلى أن التقدير : فأتوا إلى الطور لميعادنا ، وتيمموا جانبه الأيمن بأمرنا ومرادنا ، وتعجل موسى صفينا الصعود فيه مبادراً لما عنده من الشوق إلى ذلك المقام الشريف وتأخر مجيء قومه عن الإتيان معه ، فقلنا : ما أخر قومك عن الأتيان معك ؟ فعطف عليه قوله : ﴿ وما أعجلك ﴾ أي أيّ شيء أوجب لك العجلة في المجيء ﴿ عن قومك ﴾ وإن كنت بادرت مبادرة المبالغ في الاسترضاء ، أما علمت أن حدود الملوك لا ينبغي تجاوزها بتقدم أو تأخر ؟ ﴿ يا موسى ﴾ فهلا أتيتم جمله وانتظرتم أمراً أمراً جديداً بخصوص الوقت الذي استحضركم فيه ﴿ قال ﴾ موسى ظناً منه أنهم أسرعوا وراءه : ﴿ هم ﴾ وأتى باسم الإشارة وأسقط منه هاء التنبيه لأنه لا يليق بخطاب الله ، قال ابن هبيرة : ولم أر أحداً من الأصفياء خاطب ربه بذلك ، وإنما خاطب به الكفار لغباوتهم

﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ [النحل : 86] في أمثالها وأما آخر الزخرف فقد ذكر التعبير بها في موضعه ﴿ أولاء ﴾ أي هم في القرب بحيث يسار إليهم ، كائنين ﴿ على أثري ﴾ أي ماشين على آثار مشيي قبل أن ينطمس لم أسبقهم إلا

بشيء جرت العادة في السبق بمثله بين الرفاق ، هذا بناء منه على ما كان عهد إليهم ، وأكد فيه عليهم : ثم اعتذر عن فعله فقال : ﴿ وعجلت ﴾ أنا بالمبادرة ﴿ إليك ﴾ وجرى على عادة أهل القرب كما يحق له فقال : ﴿ رب ﴾ أي أيها المسارع في إصلاح شأني والإصلاح إليّ ﴿ لترضى ﴾ عني رضاً أعظم مما كان ﴿ قال ﴾ الرب سبحانه :

﴿ فإنا ﴾ أي قد تسبب عن عجلتك عنهم أنا ﴿ قد فتنا ﴾ أي خالطنا بعظمتنا مخالطة مميلة محيلة ﴿ قومك ﴾ بتعجلك .

ولما كانت الفتنة لم تستغرق جميع الزمن الذي كان بعده ، وإنما كانت في بعضه ، أدخل الجارّ فقال : ﴿ من بعدك ﴾ أي خالطناهم بأمر من أمرنا مخالطة أحالتهم عما عهدتهم عليه ، وكان ذلك بعد تمام المدة التي ضربتها لهم ، وهي الثلاثون بالفعل وبالقوة فقط ، من أول ما فارقتهم بضربك لتلك المدة باعتبار أن أول إتيانك هو الذي كان سبب الفتنة لزيادة أيام الغيبة بسببه لأنا زدنا في آخر المدة بمقدار ما عجلت به في أولها ، فلما تأخر رجوعك إليهم حصل لهم الفتون بالفعل ، فظنوا مرجمات الظنون .

ولما عمتهم الفتنة إلا اثني عشر ألفاً من أكثر من ستمائة ألف ، أطلق الضلال على الكل فقال : ﴿ وأضلهم السامري ﴾ أي عن طريق الرشد بما سبب لهم ؟ روى النسائي في التفسير من سننه ، وأبو يعلى في مسنده وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما عن ابن عباس. رضى الله عنهما .في حديث الفتون أن موسى عليه السلام لما وعده ربه أن يكلمه استخلف على قومه أخاه هارون عليه السلام ، وأجلهم ثلاثين يوماً ، وذهب فصامها ليلها ونهارها ، ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه متغير ، فمضغ شيئاً من نبات الأرض فقال له ربه : أوما علمت أن ريح الصائم أطيب من ريح المسك ؟ ارجع فصم عشراً ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم خرجتم من مصر ، ولقوم فرعون عندكم عواريّ وودائع ، ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحسبوا ما لكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عاريّة ، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد النار فأحرقه فقال : لا يكون لنا ولا لهم ، وكان السامري من قوم يعبدون البقر ، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام : يا سامري ! ألا تلقي ما في يدك - وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك اليوم ، فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشيء إلا أن

تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلاً أجوف ليس فيه الروح ، له خوار ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : لا والله ! ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل في دبره فتخرج من فيه ، فكان ذلك

(7/501)

الصوت من ذلك ، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ، فقالت فرقة : يا سامري ! ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق ، فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى .

فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإنّا نتبع موسى ، وقالت فرقة : هذا عمل الشيطان ، وليس بربنا ، ولن نؤمن به ولن نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به – الحديث .

ثم سبب عن إخباره سبحانه له بذلك قوله : ﴿ فرجع موسى ﴾ أي لما أخبره ربه بذلك ﴿ إلى قومه ﴾ أي الذين لهم قوة عظيمة على ما يحاولونه ﴿ غضبان أسفاً ﴾ أي شديد الحزن أو الغضب ؛ واستأنف قوله : ﴿ قال ﴾ لقومه لما رجع إليهم مستعطفاً لهم : ﴿ يا

قوم ﴾ وأنكر عليهم بقوله : ﴿ ألم يعدكم ربكم ﴾ الذي طال إحسانه إليكم ﴿ وعداً حسناً ﴾ أي بأنه ينزل عليكم كتاباً حافظاً ، ويكفر عنكم خطاياكم ، وينصركم على أعدائكم - إلى غير ذلك من إكرامه .

ولما جرت العادة بأن طول الزمان ناقض للعزائم ، مغير للعهود ، كما قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري في هذا البيت :

لا أنسينك إن طال الزمان بنا . . .

وكم حبيب تمادى عهده فنسي

(8/501)

وكان عليه الصلاة والسلام قريب العهد بهم ، أنكر طول العهد بقوله ، مستأنفاً عما تقديره : هل ترك ربكم مواعيده لكم وقطع معروفه عنكم : ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي زمن لطفه بكم ، فتغيرتم عما فارقتكم عليه كما يعتري أهل الرذائل الانحلال في العزائم لضعف العقول وقلة التدبر ﴿ أم أردتم ﴾ بالنقض مع قرب العهد وذكر الميثاق ﴿ أن يحل عليكم ﴾ بسبب عبادة العجل ﴿ غضب من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم ، وكلا الأمرين لم يكن ، أما الأول فواضح ، وأما الثاني فلا يظن بأحد إرادته ، والحاصل أنه يقول : إنكم فعلتم ما لا

يفعله عاقل ﴿ فأخلفتم ﴾ أي فتسبب عن فعلكم ذلك أن أخلفتم ﴿ موعدي ﴾ في إجلال الله والإتيان إلى الموضع الذي ضربه لكم لكلامه لي وإنزال كتابه عليّ إحساناً إليكم وإقبالاً عليكم ، وكأنه أضاف الموعد إليه أدباً مع الله تعالى وإعظاماً له ، أو أنه لما كان إخلاف الموعد المؤكد المعين الذي لا شبهة فيه ، لما نصب عليه من الدلائل الباهرة ، وأوضحه من البراهين الظاهرة ، لا يكون إلا بنسيان لطول العهد ، أو عناد بسوء قصد ، وكان من أبلغ المقاصد وأوضح التقرير إلجاء الخصم بالسؤال إلى الاعتراف بالمراد ، سألهم عن تعيين أحد الأمرين مع أن طول العهد لا يمكن ادعاؤه ، فقال ما معناه : أطال عليكم العهد بزيادة عشرة أيام فنسيتم فلم يكن عليكم في الإخلاف جناح؟ أم أردتم أن يحل عليكم الغضب فعاندتم ؟ فكانت الآية من الاحتباك : ذكر طول العهد الموجب للنسيان أولاً دليل على حذف العناد ثانياً ، وذكر حلول الغضب ثانياً دليل على انتفاء الجناح أولاً ، وسر ذلك أن ذكر السبب الذي هو طول العهد أدل على النسيان الذي هو المسبب ، وإثبات الغضب – وهو المسبب – أنكأ من إثبات سببه الذي هو العناد . انتهى ا . هـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 36.38 ﴾

(9/501)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

اعلم أن في قوله : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾ دلالة على أنه قد تقدم قومه في المسير إلى المكان ويجب أن يكون المراد ما نبه عليه في قوله تعالى : ﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ [طه : 80] في هذه السورة ، وفي سائر السور كقوله : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : 142] يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات :

السؤال الأول : قوله : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ ﴾ استفهام وهو على الله محال .

الجواب أنه إنكار في صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه .

السؤال الثاني : أن موسى عليه السلام لا يخلو إما أن يقال إنه كان ممنوعاً عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعاً عنه ، فإن كان ممنوعاً كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء ، وإن قلنا إنه ما كان ممنوعاً كان ذلك الإنكار غير جائز من الله تعالى .

والجواب : لعله عليه السلام ما وجد نصاً في ذلك إلا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب .

السؤال الثالث : قال : ﴿ وَعَجِلْتُ ﴾ والعجلة مذمومة .

والجواب : إنها ممدوحة في الدين .

قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران : 133] .

السؤال الرابع : قوله : ﴿ لترضى ﴾ يدل على أنه عليه السلام إنما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين .

أحدهما : أنه يلزم تجدد صفة الله تعالى ، والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال : إنه تعالى ما كان راضياً عن موسى لأن تحصيل الحاصل محال ، ولما لم يكن راضياً عنه وجب أن يكون ساخطاً عليه ، وذلك لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام .

الجواب : المراد تحصيل دوام الرضا كما أن قوله : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ المراد دوام الاهتداء .

(10/501)

السؤال الخامس : قوله : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ﴾ يدل على أنه ذهب إلى الميعاد قبل الوقت الذي عينه الله تعالى له ، وإلا لم يكن ذلك تعجيلاً ثم ظن أن مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلاً عن كليم الله تعالى .

والجواب : ما ذكرنا أن ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه .

السؤال السادس : قوله : ﴿ إِلَيْكَ ﴾ يقتضي كون الله في الجهة لأن إلى لانتهاء الغاية .

الجواب : توافقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد إلى مكان وعدك .

السؤال السابع : ﴿ مَا أَعْجَلَكَ ﴾ سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول : طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك ، وأما قوله : ﴿ هُمْ أُوْلاءِ على أَثَرِى ﴾ فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين : الأول : أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين :

أحدهما : إنكار نفس العجلة .

والثاني : السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني فقال : لم يوجد مني إلا تقدم يسير لا يحتفل به في العادة وليس بيني وبين من سبقته إلا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ .

الثاني : أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام ، واعلم أن في قوله : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾ دلالة على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين ، واختلفوا في المراد بالقوم فقال بعضهم : هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقاً إلى ربه .

وقال آخرون : القوم جملة بني إسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هارون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال : ﴿ هُمْ أُوْلاءِ على أَثَرِى ﴾ يعني بالقرب مني ينتظرونني ، وعن أبي عمرو ويعقوب إثري بالكسر وعن عيسى بن عمر أثري بالضم ، وعنه أيضاً أولى بالقصر ، والأثر أفصح من الإثر .

وأما الأثر فمسموع في فرند السيف وهو بمعنى الأثر غريب .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال لموسى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ ﴾ [طه : 83] وقال موسى في جوابه : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبّ لترضى ﴾ [طه : 84] عرفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قالت المعتزلة : لا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين ، الوجه الأول : الدلائل العقلية الدالة على أنه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك .

الثاني : أنه قال : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ وأيضاً فلأن موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ

عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ما ذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضاً فقال : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله : ﴿ فَتَنَّا ﴾ معنى آخر وذلك لأن الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان .

(12/501)

يقال : فتنت الذهب بالنار إذا امتحنته بالنار لكي يتميز الجيد من الرديء فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لأن السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والأجسام على أن لها إلهاً ليس بجسم وحينئذ يعرفون أن العجل لا يصلح للإلهية فكان هذا التعبد تشديداً في التكليف فكان فتنة والتشديد في التكليف موجود قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] هذا تمام كلام المعتزلة قال الأصحاب : ليس في ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما في الشمس والقمر والدليل الذي ينفي كون الشمس والقمر إلهاً أولى بأن ينفي كون ذلك العجل إلهاً فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل

تشديداً في التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم ، قولهم : أضاف الإضلال إلى السامري قلنا : أليس أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها في الظاهر وإن كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضاً قرىء وأضلهم السامري أي وأشدهم ضلالاً السامري وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ، ثم الذي يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعي على ما سبق تقريره في هذا الكتاب مراراً كثيرة .

المسألة الثانية :

المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هارون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير أثني عشر ألفاً .

المسألة الثالثة :

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير : كان السامري علجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر والذي عليه الأكثرون أنه كان من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة ، قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس : بل كان رجلاً من القبط جاراً لموسى عليه السلام وقد آمن به .

المسألة الرابعة :

روى في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا : قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ من وجهين .

الأول : أنه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته .

الثاني : أن السامري شرع في تدبير الأمر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على إضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة .

المسألة الخامسة :

إنما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة .

المسألة السادسة :

ذكروا في الأسف وجوهاً .

أحدها : أنه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لأن قوله : غضبان يفيد أصل الغضب وقوله : أسفاً يفيد كماله .

وثانيها : قال الأكثرون حزناً وجزعاً يقال أسف يأسف أسفاً إذا حزن فهو آسف .

وثالثها : قال قوم : الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب إرادة الإضرار بالمغضوب عليه والغيظ

تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح إلا على الأجسام كالضحك والبكاء ثم إن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه عاتبهم بعد رجوعه إليهم قالت المعتزلة : وهذا يدل على أنه ليس المراد من قوله : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ أنه تعالى خلق الكفر فيهم وإلا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الأصحاب : وقد فعل ذلك بقوله : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] ومجموع تلك المعاتبات أمور .

أحدها : قوله : ﴿ يا قوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ وفيه سؤالان :

(14/501)

السؤال الأول : قوله : ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ هذا الكلام إنما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين بإله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا أنه لا إله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا هذا إلهكم وإله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام .

الجواب : أنهم كانوا معترفين بالإله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الأصنام .

السؤال الثاني : ما المراد بذلك الوعد الحسن .

الجواب : ذكروا وجوهاً .

أحدها : أن المراد ما وعدهم من إنزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والأحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذي ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله :

﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ [طه : 80] .

وثانيها : أن الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات .

وثالثها : الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ [طه : 81] إلى قوله : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ [طه : 82] والدليل عليه قوله بعد ذلك : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فكأنه قال : أفنسيتم ذلك الذي قال الله لكم ولا تطغوا فيه .

ورابعها : الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعداً حسناً في منافع الدين وأن يكون في منافع الدنيا ، أما منافع الدين فهو الوعد بإنزال الكتاب الشريف الهادي إلى الشرائع والأحكام والوعد بحصول الثواب العظيم في الآخرة .

(15/501)

وأما منافع الدنيا فهو أنه تعالى قبل إهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم ، وقد فعل ذلك ثم قال : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية ، واعلم أن طول العهد يحتمل أموراً : أحدها : أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من إنجائه إياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة في أوائل سورة البقرة وهذا كقوله : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : 16] .

وثانيها : يروى أنهم عرفوا أن الأجل أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بأزاء ليلة وردوه إلى عشرين .

قال القاضي : هذا ركيك لأن ذلك لا يكاد يشتبه على أحد .

وثالثها : أن موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد ، وأما قوله : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فهذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر لأن أحداً لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ، ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على أن الغضب من صفات الأفعال لا من صفات الذات لأن صفة ذات الله تعالى لا تنزل في شيء من الأجسام .

أما قوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِى ﴾ فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان : أحدهما : أن المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجيء على أثره .

والثاني : ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع إليهم من الطور ، فعند هذا قالوا :

﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 85 .

89 ﴾

(16/501)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن الأسف أشد الغضب .

الثاني : الحزين ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي .

الثالث : أنه الجزع ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه المتندم .

الخامس : أنه المتحسّر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعِدكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حسناً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه وعدكم النصر والظفر .

الثاني : أنه قوله : ﴿ وإِنّي لَغَفَّارٌ ﴾ الآية .

الثالث : التوراة فيها هدى ونور ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم .

الرابع : أنه ما وعدهم به في الآخرة على التمسك بدينه في الدنيا ، قاله الحسن .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(17/501)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾

(18/501)

قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما شرع في النهوض ببني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل رأى على جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادراً إلى أمر الله تعالى ، وحرصاً على القرب منه وشوقاً إلى مناجاته ، واستخلف هارون على بني إسرائيل وقال لهم موسى تسيرون إلى جانب الطور ، فلما انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه زاده في الأجل عشراً ، وحينئذ وقفه على معنى استعجاله دون القوم ليخبره موسى أنهم على الأثر فيقع الإعلام له بما صنعوا وقرأت فرقة " أولايَ " بياء مفتوحة . وقوله ﴿ على أثري ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع خبراً بعد خبر ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب في موضع الحال ، وقرأت فرقة " على أَثَري " بفتح الهمزة والثاء ، وقرأت فرقة " إثْري " بكسر الهمزة وسكون الثاء ، وأعمله موسى عليه السلام أنه إنما استعجل طلب الرضى فأعمله الله تعالى أنه قد فتن بني اسرائيل ، أي اختبرهم بما صنعه السامري . ويحتمل أن يريد ألقيناهم في فتنة ، أي في ميل مع الشهوات ووقوع في اختلاف كلمة ، و﴿ من بعدك ﴾ أي من بعد فراقك لهم ، وقرأت فرقة " وأضلَّهم السامري " على إسناد الفعل إلى ﴿ السامري ﴾ وقرأت فرقة " وأضلُّهم السامري " بضم اللام على الابتداء والإخبار عن ﴿ السامري ﴾ بأنه " أضلُّ " القوم ، والقراءة الأولى أكثر وأشد في تذنيب السامري و﴿ السامري ﴾ رجل من بني إسرائيل يقال إنه كان ابن خال موسى ، وقالت فرقة لم يكن من بني إسرائيل بل كان أصله من العجم

من أهل كرمان والأول أصح ، وكان قصص السامري أنه كان منافقاً عنده حيل وقبض القبضة من أثر جبريل عليه السلام وعلم ما أقدره الله عليه لفتنة القوم أنه يتهيأ له بتلك القبضة ما يريد مما يجوز على الله تعالى لأنه لو ادعى النبوءة مع ذلك العجل لما صح ولا جاز أن يخور ولا أن تتم الحيلة فيه ولكنه لما ادعى له الربوبية وعلامات كذبه قائمة لائحة صحت

(19/501)

الفتنة به وجاز ذلك على الله تعالى كقصة الدجال الذي تخرق له العادات لانه مدعي الربوبية ولو كان مدعي نبوءة لما صح شيء من ذلك . فلما رأى السامري مدعا ورأى سفه بني إسرائيل في طلبهم من موسى آلهة حين مروا على قوم يعبدون أصناماً على صفة البقر ، وقيل كانت بقراً حقيقة علم أنه سيفتنهم من هذه الطريق ، فيروى أنه قال لهم إن الحلي الذي عندكم من مال القبط قبيح بكم حبسه ولكن اجمعوه عندي حيث يحكم الله لكم فيه ، وقيل إن هارون عليه السلام أمرهم بجمعه ووضعه في حفرة حتى يجيء موسى ويستأذن فيه ربه ، وقيل بل كان المال الذي جمعوه للسامري مما لفظ البحر من أموال الغارقين مع فرعون ، فروي مع هذا الاختلاف أن الحلي اجتمع عند العجل وأنه صاغ العجل وألقى

القبضة فيه فخار ، وروي وهو الأصح الأكثر أنه ألقى الناس الحلي في حفرة أو نحوها وألقى هو عليه القبضة فتجسد العجل وهذا وجه فتنة الله تعالى لهم ، وعلى هذا تقول انخرقت السامري عادة وأما على أن يصوغه فلم تتخرق له عادة وإنما فتنوا حينئذ بخواره فقط وذلك الصوت قد تولد في الأجرام بالصنعة فلما أخبره الله تعالى رجع موسى ﴿ إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ عليهم من حيث له قدرة على تغيير منكرهم ﴿ أسفاً ﴾ أي حزيناً من حيث علم أنه موضع عقوبة مأموله فدفعها ولا بد منها ، والأسف في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب ، ومتى كان من الأقل على الأقوى فهو حزن ، وتأمل ذلك فهو مطرد إن شاء الله عز وجل .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾

(20/501)

وبخ موسى عليه السلام قومه بهذه المقالة و" الوعد الحسن " هو ما وعدهم من الوصول إلى جانب الطور الأيمن وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن وغير ذلك مما

وعد الله تعالى به أهل طاعته، وقوله ﴿ وعداً ﴾ إما أن يكون نصباً على المصدر والمفعول الثاني مقدراً، وإما أن يكون بمعنى الموعود ويكون هو المفعول الثاني بعينه، ثم وقفهم على أعذار لم تكن ولا تصح لهم وهي طول ﴿ العهد ﴾ حتى يتبين لهم خلف في الموعد أو إرادة غضب الله تعالى. وذلك كله لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتدين وسمي العذاب "غضباً" من حيث هو عن الغضب، والغضب إن جعل بمعنى الإرادة فهو صفة ذات وإن جعل ظهور النقمة والعقاب فهو صفة فعل فهو من المتردد بين الحالين. انتهى

انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(21/501)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾

قال المفسرون : لما نجَّى الله تعالى بني إِسرائيل وأغرق فرعون، قالوا : يا موسى، لو أتيتنا بكتاب من عند الله، فيه الحلال والحرام والفرائض، فأوحى الله [إِليه يَعِدُهُ] أنه ينزل عليه ذلك في الموضع الذي كلَّمه فيه، فاختار سبعين، فذهبوا معه إِلى الطور لأخذ التوراة، فعَجِل موسى من بينهم شوقاً إِلى ربه، وأمرهم بلحاقه، فقال الله تعالى له : ما الذي حملك

على العجلة عن قومك ، ﴿ قال هم أولاء ﴾ أي : هؤلاء ﴿ على أثري ﴾ ، وقرأ أبو رزين العقيلي ، وعاصم الجحدري : "على إِثْري" بكسر الهمزة وسكون الثاء .

وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر ، برفع الهمزة وسكون الثاء .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو العالية : بفتح الهمزة وسكون الثاء .

والمعنى : هم بالقرب مني يأتون بعدي ﴿ وعجلت إِليك ربِّ لترضى ﴾ أي : لتزداد رضىً ، ﴿ قال فإنّا قد فتنّا قومك ﴾ قال الزجاج : ألقيناهم في فتنة ومحنة ، واختبرناهم .

قوله تعالى : ﴿ من بعدك ﴾ أي : من بعد انطلاقك من بينهم ﴿ وأضلَّهم السامريّ ﴾ أي : كان سبباً لإِضلالهم .

وقرأ معاذ القارىء ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : "وأضلُّهم" برفع اللام .

وقد شرحنا في [البقرة : 52] سبب اتخاذ السامري العجل ، وشرحنا في [الأعراف : 150] معنى قوله تعالى : ﴿ غضبان أسفاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ألم يعدْكم ربكم وَعْداً حسناً ﴾ أي : صدقاً ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : إِعطاء التوراة .

والثاني : قوله : ﴿ لئن أقمتم الصلاة ﴾ إِلى قوله : ﴿ لأكفِّرن عنكم سيآتكم . . .

﴿ الآية : [المائدة : 13] ، وقوله : ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ [طه : 82] .

والثالث : النصر والظَّفَر .

(22/501)

قوله تعالى : ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي : مدة مفارقتي إياكم ﴿ أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربّكم ﴾ أن تصنعوا صنيعاً يكون سبباً لغضب ربكم ﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ أي : عهدي ، وكانوا قد عاهدوه أنه إن فكّهم الله من مَلَكَة آل فرعون ، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به ، ويقيموا الصلاة ، وينصروا الله ورسله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(23/501)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوِمِكَ يا موسى ﴾

أي ما حملك على أن تسبقهم .

قيل : عنى بالقوم جميع بني إسرائيل ؛ فعلى هذا قيل : استخلف هارون على بني إسرائيل ، وخرج معه بسبعين رجلاً للميقات .

فقوله : ﴿ هُمْ أولاء على أَثَرِي ﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه ، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم .

وقيل : لا بل كان أمر هارون بأن يتبع في بني إسرائيل أثره ويلتحقوا به .

وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله (عز وجل) .

وقيل : لما وفد إلى طورسينا بالوعد اشتاق إلى ربه ، وطالت عليه المسافة من شدّة الشوق إلى الله تعالى ، فضاق به الأمر حتى شقّ قميصه ، ثم لم يصبر حتى خلّفهم ومضى وحده ؛ فلما وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾ فبقي صلى الله عليه وسلم متحيراً عن الجواب لهذه الكلمة لمّا استقبله من صدق الشوق فأعرض عن الجواب وكنى عنه بقوله : ﴿ هُمْ أولاء على أَثَرِي ﴾ وإنما سأله عن السبب الذي أعجله بقوله : "ما" فأخبر عن مجيئهم بالأثر .

ثم قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ فكنى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا .

ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة في قوله : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ قال :

شوقاً .

وكانت عائشة رضي الله عنها إذا أوت إلى فراشها تقول : هاتوا المجيد .

فتؤتى بالمصحف فتأخذه في صدرها وتنام معه تتسلى بذلك ؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضي الله عنها .

(24/501)

" وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : "إنه حديث عهد بربّي" " فهذا من الرسول صلى الله عليه وسلم وممن بعده من قبيل الشوق ؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : " طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشوق " وقال ابن عباس : كان الله عالماً ولكن قال ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ ﴾ رحمة لموسى ، وإكراماً له بهذا القول ، وتسكيناً لقلبه ، ورقة عليه ؛ فقال مجيباً لربه : ﴿ هُمْ أولاء على أثَرِي ﴾ .

قال أبو حاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : "هُمْ أولَى" مقصورة مرسلة ، وأهل الحجاز يقولون "أولاءِ" ممدودة .

وحكى الفراء "هُمْ أولاَيَ عَلَى أثَرِي" وزعم أبو إسحاق الزجاج : أن هذا لا وجه له .

قال النحاس: وهو كما قال؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَايَ.

ولا يخلو من إحدى جهتين: إما أن يكون اسماً مبهماً فإضافته محال؛ وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضاً؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة.

وقرأ ابن أبي إسحاق ونصر ورويس عن يعقوب "على إِثْرِي" بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر؛ لغتان.

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أي عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عنّي.

يقال: رَجُلٌ عجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلاَنُ بين العَجَلة؛ والعَجَلة خلاف البطء.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ أي اختبرناهم وامتحنّاهم بأن يستدلوا على الله عز وجل.

﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ أي دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها.

وقيل: فتناهم ألقيناهم في الفتنة: أي زيّنا لهم عبادة العجل؛ ولهذا قال موسى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف: 155].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامريّ من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر.

وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه .

وقيل : كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام .

قال سعيد بن جبير : كان من أهل كرمان .

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ حال وقد مضى في "الأعراف" بيانه مستوفى .

﴿ قَالَ يا قوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم .

وقيل : وعدهم النصر والظفر .

وقيل : وعده قوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ ﴾ الآية .

﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ أي أفنسيتم ؛ كما قيل ؛ والشيء قد ينسى لطول العهد .

﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ "يحل" أي يجب وينزل .

والغضب العقوبة والنقمة .

والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحداً لا يطلب

غضب الله ، بل قد يرتكب ما يكون سبباً للغضب .

﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطّور .

وقيل : وعدهم على أثره للمقيات فتوقفوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(26/501)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

لما نهض موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل ، رأى على وجه الاجتهاد أن يقدم وحده مبادراً إلى أمر الله وحرصاً على القرب منه وشوقاً إلى مناجاته ، واستخلف هارون على بني إسرائيل وقال لهم موسى : تسيرون إلى جانب الطور فلما انتهى موسى عليه السلام وناجى ربه ، زاده في الأجل عشراً وحينئذ وقفه على استعجاله دون القوم ليخبره موسى أنهم على الأثر فيقع الإعلام له بما صنعوا ﴿ وما ﴾ استفهام أي أي شيء عجل بك

عنهم .

قال الزمخشري : وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وينجز ما وعد به بناء على اجتهاده ، وظن أن ذلك أقرب إلى رضا الله ، وزال عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة وعلماً بالمصالح المتعلقة بكل وقت ، فالمراد بالقوم النقباء انتهى .

والظاهر أن قوله عز وجل ﴿ عن قومك ﴾ يريد به جميع بني إسرائيل كما قد بيّنا قبل لا السبعين .

وقال الزمخشري : وليس يقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ما يأباه قوله ﴿ هم أولاء على أثري ﴾ انتهى .

﴿ وما أعجلك ﴾ سؤال عن سبب العجلة وأجاب بقوله ﴿ هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى ﴾ لأن قوله ﴿ وما أعجلك ﴾ تضمن تأخر قومه عنه ، فأجاب مشيراً إليهم لقربهم منه إنهم على أثره جائين للموعد ، وذلك على ما كان عهد إليهم أن يجيئوا للموعد .

ثم ذكر السبب الذي حمله على العجلة وهو ما تضمنه قوله ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ من طلبه رضا الله تعالى في السبق إلى ما وعده ربه ومعنى ﴿ إليك ﴾ إلى مكان وعدك و﴿ لترضى ﴾ أي ليدوم رضاك ويستمر ، لأنه تعالى كان عنه راضياً .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ ما أعجلك ﴾ سؤال عن سبب العجلة ، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك والشوق إلى كلامك وينجز موعدك وقوله ﴿ هم أولاء على أثري ﴾ كما ترى غير منطبق عليه .

قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين أحدهما إنكار العجلة في نفسها ، والثاني السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلاّ تقدم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به ، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ ولقائل أن يقول : حارَ لما وَرَد عليه من التهيب لعتاب الله فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام انتهى .

وفيه سوء أدب على الأنبياء عليهم السلام .

وقرأ الحسن وابن معاذ عن أبيه أولائي بياء مكسورة وابن وثاب وعيسى في رواية ﴿ أولاء ﴾ بالقصر .

وقرأت فرقة أولاي بياء مفتوحة .

وقرأ عيسى ويعقوب وعبد الوارث عن أبي عمرو وزيد بن علي إثري بكسر الهمزة وسكون الثاء .

وحكى الكسائي أُثْرِي بضم الهمزة وسكون الثاء وتروى عن عيسى .

وقرأ الجمهور ﴿ أولاء ﴾ بالمد والهمز على ﴿ أَثَرِي ﴾ بفتح الهمز والثاء و ﴿ على أثري ﴾ يحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، أو في موضع نصب على الحال .

قال : ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ أي اختبرناهم بما فعل السامري أو ألقيناهم في فتنة أي ميل مع الشهوات ووقوع في اختلاف ﴿ من بعدك ﴾ أي من بعد فراقك لهم .

(28/501)

وقال الزمخشري : أراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هارون ، وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل إلاّ اثنا عشر ألفاً فإن قلت : في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوا أربعين مع أيامها ، وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه ﴿ إنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ ؟

قلت : قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته ، وافترض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه .

وأخذ في تدبير ذلك فكان بدء الفتنة موجوداً انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأضلهم ﴾ فعلاً ماضياً .

وقرأ أبو معاذ وفرقة وأضَلُهم برفع اللام مبتدأ والسامري خبره وكان أشدهم ضلالاً لأنه ضال في نفسه مضل غيره .

وفي القراءة الشهري أسند الضلال إلى السامري لأنه كان السبب في ضلالهم ، وأسند الفتنة إليه تعالى لأنه هو الذي خلقها في قلوبهم .

و﴿ السامري ﴾ قيل اسمه موسى بن ظفر .

وقيل : منجا وهو ابن خالة موسى أو ابن عمه أو عظيم من بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة ، أو علج من كرمان ، أو من باجرما أو من اليهود أو من القبط آمن بموسى وخرج معه ، وكان جاره أو من عبّاد البقر وقع في مصر فدخل في بني إسرائيل بظاهره وفي قلبه عبادة البقر أقوال وتقدم في الأعراف كيفية اتخاذ العجل وقبل ذلك في البقرة فأغنى عن إعادته هنا .

﴿ فرجع موسى إلى قومه ﴾ وذلك بعدما استوفى الأربعين وانتصب ﴿ غضبان أسفاً ﴾ على الحال ، والأسف أشد الغضب .

وقيل : الحزن وغضبه من حيث له قدرة على تغيير منكرهم ، وأسفه وهو حزنه من حيث علم أنه موضع عقوبة لا يد له بدفعها ولا بد منها .

(29/501)

قال ابن عطية : والأسف في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب ، ومتى كان من الأقل على الأقوى فهو حزن ، وتأمل ذلك فهو مطرد ، ثم أخذ موسى عليه السلام يوبخهم على إضلالهم والوعد الحسن ما وعدهم من الوصول إلى جانب الطور الأيمن وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن وغير ذلك مما وعد الله أهل طاعته .

وقال الزمخشري : وعدهم الله بعدما استوفى الأربعين أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور ، ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل .

وقال الحسن : الوعد الحسن الجنة .

وقيل : أن يسمعهم كلامه والعهد الزمان ، يريد مفارقته لهم يقال طال عهدي بكذا أي طال زماني بسبب مفارقتك ، وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل انتهى .

وانتصب ﴿ وعداً ﴾ على المصدر والمفعول الثاني ليعدكم محذوف أو أطلق الوعد ويراد به الموعود فيكون هو المفعول الثاني وفي قوله ﴿ أفطال ﴾ إلى آخره توقيف على أعذار لم تكن ولا تصح لهم وهو طول العهد حتى يتبين لهم خلف في الموعد وإرادة حلول غضب الله ، وذلك كله لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتدبر .

وسُمِّي العذاب غضباً من حيث هو ناشىء عن الغضب فإن جعل بمعنى الإرادة فصفة ذات أو عن ظهور النقمة والعذاب فصفة فعل .

و﴿ موعدي ﴾ مصدر يحتمل أن يضاف إلى الفاعل أي أوجدتموني أخلفت ما وعدتكم من قول العرب : فلان أخلف وعد فلان إذا وجده وقع فيه الخلف قاله المفضل ، وأن يضاف إلى المفعول وكانوا وعدوه أن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام ولا يخالفوا أمر الله أبداً فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(30/501)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾

حكايةٌ لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداءِ موافاته الميقاتَ بموجب المواعدةِ المذكورة، أي قلنا له : أيُّ شيءٍ أعجلك منفرداً عن قومك؟ وهذا كما ترى سؤالٌ عن سبب تقدمه على النقباء مَسوقٌ لإنكار انفرادِه عنهم لما في ذلك بحسب الظاهر من مخايل إغفالهم وعدمِ الاعتداد بهم مع كونه مأموراً باستصحابهم وإحضارِهم معه، لا لإنكاره نفسَ العجلة الصادرةِ عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصةً منافية للحزم اللائقِ بأولي العزم، ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفي الانفرادِ المنافي للاستصحاب والمعية حيث ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلاء على أَثَرِى ﴾ يعني إنهم معي وإنما سبقتهم بخُطاً يسيرة ظننتُ أنها لا تُخِل بالمعية ولا تقدح في الاستصحاب، فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقةِ أصلاً، وبعد ما ذكرَ عليه الصلاة والسلام أن تقدّمَه ذلك ليس لأمر منكر ذكَر أنه لأمر مَرضيّ حيث قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبّ لترضى ﴾ عنّي بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء بعهدك، وزيادةُ ربِّ لمزيد الضراعةِ والابتهال رغبةً في قَبول العذر.

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السرُّ في وروده على صيغة الغائب، لا أنه التفاتٌ من التكلم إلى الغَيبة لما أن المقدرَ فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم، كأنه قيل من جهة السامعين: فماذا قال له ربه حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العِجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلّفهم مع هارونَ عليه الصلاة والسلام، وكانوا ستَّمائة ألفٍ ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشرَ ألفاً، والفاءُ لترتيب الإخبار بما ذكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجَلته لكن لا لأن الإخبارَ بها سببٌ موجبٌ للإخبار به، بل لما بينهما من المناسبة المصحّحة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث إن مدارَ الابتلاءِ المذكور عجَلةُ القوم، فإنه روي أنهم أقاموا على ما وصّى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلةً بعد ذهابه فحسَبوها مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العدةَ وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عينٌ ولا أثر ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ حيث كان هو المدبرَ في الفتنة فقال لهم: إنما أخلفَ موسى عليه الصلاة والسلام ميعادَكم لما معكم من حُلِيّ القوم وهو حرامٌ عليكم فكان من أمر العجل ما كان، فإخبارُه تعالى بوقوع هذه الفتنةِ عند قدومِه عليه الصلاة والسلام إما باعتبار تحققِها في علمه تعالى ومشيئَتِه، وإما بطريق التعبيرِ عن المتوقَّع بالواقع كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ ونظائرِه، أو لأن السامريّ كان قد عزم على إيقاع الفتنةِ عند ذهاب موسى عليه

الصلاة والسلام وتصدّى لترتيب مبانيها وتمهيدِ مباديها فكانت الفتنةُ واقعةً عند الإخبار بها ، وقرىء وأضلُّهم السامريُّ على صيغة التفضيلِ أي أشدُّهم ضلالاً لأنه ضالٌّ ومُضلٌّ ، والسامريُّ منسوبٌ إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها

(32/501)

السامرة ، وقيل : كان عِلْجاً من كَرْمان ، وقيل : من أهل باجرما واسمُه موسى بنُ ظفر وكان منافقاً قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر .

(33/501)

﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾ عند رجوعِه المعهود أي بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة لا عَقيبَ الإخبار بالفتنة ، فسببيةُ ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوعِ المستفاد من قوله تعالى : ﴿ غضبان أَسِفًا ﴾ لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلةً عليه حقيقةً فإن كونَ الرجوعِ بعد تمام الأربعين أمرٌ مقرّرٌ مشهورٌ لا يذهب الوهمُ إلى كونه عند الإخبار بالفتنة ، كما إذا قلتَ : شايعتُ الحُجاجَ ودعوتُ لهم بالسلامة فرجعوا

سالمين، فإن أحداً لا يرتاب في أن المراد رجوعُهم المعتادُ لا رجوعُهم إثرَ الدعاء وأن سببيةَ الدعاءِ باعتبار وصفِ السلامة لا باعتبار نفس الرجوعِ، والأسِفُ: الشديدُ الغضب، وقيل: الحزين ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال ناشىء من حكاية رجوعِه كذلك، كأنه قيل: فماذا فعَل بهم؟ فقيل: قال: ﴿ قَالَ يَاقومِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ بأن يُعطيَكم التوارةَ فيها ما فيها من النور والهدى، والهمزةُ لإنكار عدم الوعدِ ونفيِه وتقريرِ وجودِه على أبلغ وجه وآكَدِه، أي وعَدكم بحيث لا سبيلَ لكم إلى إنكاره، والفاء في قوله تعالى: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ أي الزمان للعطف على مقدر والهمزةُ لإنكار المعطوفِ ونفيه فقط، أي أوعدكم ذلك فطال زمانُ الإنجاز فأخطأتم بسببه ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ ﴾ أي يجبَ ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ ﴾ شديدٌ لا يقادرَ قدرُه كائنٌ ﴿ مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي من مالك أمرِكم على الإطلاق ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِى ﴾ أي وعْدَكم إياي بالثبات على ما أمرتُكم به إلى أن أرجِع من الميقات على إضافة المصدرِ إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيحِ حالِهم، فإن إخلافَهم الوعدَ الجاريَ فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافتُه إليه عليه السلام أشنعُ منه من حيث إضافتُه إليهم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على كل واحد من شِقَّي الترديد على سبيل البدلِ، كأنه قيل:

أنسيتم الوعدَ بطول العهد فأخلفتموه خطأً أم أردتم حلولَ الغضب عليكم فأخلفتموه عمْداً ؟ وأما جعلُ الموعدِ مضافاً إلى فاعله وحملُ إخلافه على معنى وجدانِ الخُلف فيه ، أي فوجدتم الخُلفَ في موعدي لكم بالعَود بعد الأربعين فما لا يساعده السباقُ ولا السياق أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(35/501)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة سابقاً أي وقلنا له أي شيء عجل بك عن قومك فتقدمت عليهم .

والمراد بهم هنا عند كثير ومنهم الزمخشري النقباء السبعون .

والمراد بالتعجيل تقدمه عليهم لا الإتيان قبل تمام الميعاد المضروب خلافاً لبعضهم والاستفهام للإنكار ويتضمن كما في الكشف إنكار السبب الحامل لوجود مانع في البين وهو

إيهام اغفال القوم وعدم الاعتداد بهم مع كونه عليه السلام مأموراً باستصحابهم واحضارهم معه وإنكار أصل الفعل لأن العجلة نقيصة في نفسها فكيف من أولي العزم اللائق بهم مزيد الحزم، وقوله تعالى:

﴿ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) ﴾

متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصله عرض الخطأ في الاجتهاد كأنه عليه السلام قال: إنهم لم يبعدوا عني وإن تقدمي عليهم بخطا يسيرة وظني أن مثل ذلك لا ينكر وقد حملني عليه استدامة رضاك أو حصول زيادته وظني أن مثل هذا الحامل يصلح للحمل على مثل ما ذكر ولم يخطر أن هناك مانعاً لينكر على.

ونحو هذا الإسراع المزيل للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلباً لأن يكون أداء هذا الركن مع الجماعة التي فيها رضا الرب تعالى فإنهم قالوا: إن ذلك غير مشروع، وقدم عليه السلام الاعتذار عن إنكار أصل الفعل لأنه أهم، وقال بعضهم: إن الاستفهام سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها لأنها في نفسها نقيصة انضم إليها الاغفال وإيهام التعظيم فأجاب عليه السلام عن السبب بأنه استدامة الرضا أو حصول زيادته وعن الإنكار بما محصله انهم لم يبعدوا عني وظننت أن التقدم اليسير لكونه معتاداً بين الناس لا ينكر ولا يعد نقيصة وعلل تقديم هذا الجواب بما مر.

واعترض بأن مساق كلامه بظاهره يدل على أن السؤال عن السبب على حقيقته وأنت خبير بأن حقيقة الاستفهام محال على الله تعالى فلا وجه لبناء الكلام عليه ، وأجيب بأن السؤال من علام الغيوم محال إن كان لاستدعاء المعرفة أما إذا كان لتعريف غيره أو لتبكيته أو تنبيهه فليس محالاً ، وتعقب بأنه لا يحسن هنا أن يكون السؤال لأحد المذكورات والمتبادر أن يكون للإنكار ، وفي الانتصاف أن المراد من سؤال موسى عليه السلام عن سبب العجلة وهو سبحانه أعلم أن يعلمه أدب السفر وهو أنه ينبغي تأخر رئيس القوم عنهم ليكون بصره بهم ومهيمناً عليهم وهذا المعنى لا يصحل مع التقدم ألا ترى كيف علم الله تعالى هذا الأدب لوطاً فقال سبحانه ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ فأمره عز وجل أن يكون آخرهم وموسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله تعالى ومسارعة إلى الميعاد وذلك شأن الموعود بما يسره يود لو ركب أجنحة الطير ولا أسر من مواعد الله تعالى له عليه الصلاة والسلام انتهى .

وأنت تعلم أن السؤال عن السبب ما لم يكن المراد منه انكار المسبب لا يتسنى هذا التعليم ، وقال بعضهم : الذي يلوح بالبال أن يكون المعنى أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك ، والإنكار بالذات للإنفراد عنهم فهو منصب على القيد كما عرف في أمثاله ، وإنكار العجلة ليس إلا لكونها وسيلة فاعتذر موسى عليه السلام عنه بأني أخطأت في الاجتهاد

وحسبت أن القدر اليسير من التقدم لا يخل بالمعية ولا يعد انفراداً ولا يقدح بالاستصحاب والحامل عليه طلب استدامة مرضاتك بالمبادرة إلى امتثال أمرك فالجواب هو قوله : ﴿ هُمْ أُوْلاء على أَثَرِى ﴾ ، وقوله : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبّ لترضى ﴾ كالتتميم له اه وهو عندي لا يخلو عن حسن .

(37/501)

وقيل : إن السؤال عن السبب والجواب إنما هو قوله : ﴿ وَعَجِلْتُ ﴾ الخ وما قبله تمهيد له وفيه نظر ، وعلى هذا وما قبله لم يكن جواب موسى عليه السلام عن أمرين ليجيء سؤال الترتيب فيجاب بما مر أو بما ذكره الزمخشري من أنه عليه السلام حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله عز وجل فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام لكن قال في البحر : إن في هذا الجواب إساءة الأدب مع الأنبياء عليهم السلام ، وذلك شأن الزمخشري معهم صلى الله عليه وسلم عليهم ، والمراد من ﴿ إِلَيْكَ ﴾ إلى مكان وعدك فلا يصلح دليلاً للمجسمة على إثبات مكان له عز وجل .

ونداؤه تعالى بعنوان الربوبية لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر و ﴿ أُوْلاء ﴾ اسم إشارة كما هو المشهور مرفوع المحل على الخبرية لهم و ﴿ على أَثَرِى ﴾ خبر بعد خبر

أو حال كما قال أبو حيان ؛ وجوز الطبرسي كون ﴿ أُوْلاء ﴾ بدل من ﴿ هُمْ ﴾ و ﴿ على أَثَرِى ﴾ هو الخبر ، وقال أبو البقاء : ﴿ أُوْلاء ﴾ اسم موصول و ﴿ على أَثَرِى ﴾ صلته وهو مذهب كوفي .

وقرأ الحسن .

وابن معاذ عن أبيه "أولاي" بياء مكسورة .

وابن وثاب .

وعيسى في رواية ﴿ أُوْلِى ﴾ بالقصر ، وقرأت فرقة "أولاي" بياء مفتوحة .

وقرأ عيسى .

ويعقوب .

وعبد الوارث عن أبي عمرو .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما "على إثرى" بكسر الهمزة وسكون الثاء ، وحكى الكسائي "أثرى" بضم الهمزة وسكون الثاء وتورى عن عيسى ، وفي الكشاف إن "الأثر" بفتحتين أفصح من "الأثر" بكسر فسكون ، وأما الأثر فمسموع في فرند السيف مدون في الأصوال يقال ؛ أثر السيف وأثره وهو بمعنى الأثر غريب .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه السلام وهو السر في وروده على صيغة الغائب لا أنه التفات من التكلم إلى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق على صيغة التكلم كأنه قيل من جهة السامعين : فماذا قال له ربه تعالى حينئذ ؟ فقيل : قال سبحانه ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾ أي اختبرناهم بما فعل السامري أو أوقعناهم في فتنة أي ميل مع الشهوات ووقوع في اختلاف ﴿ مِن بَعْدِكَ ﴾ من بعد فراقك لهم وذهابك من بينهم ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ حيث أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ودعاهم إلى عبادته .

وقيل : قال لهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة : إنه قد كملت الأربعون فجعل العشرين مع أيامها أربعين ليلة .

وليس من موسى عين ولا أثر وليس اخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فجمعوه وكان من أمر العجل ما كان .

والمراد بقومك هنا الذين خلفهم مع هارون عليه السلام ، وكانوا على ما قيل ستمائة ألف ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً فالمراد بهم غير المراد بقومك فيما تقدم ، ولذا لم يؤت بضميرهم ، وقيل : المراد بالقوم في الموضعين المتخلفين لتعين إرادتهم هنا ، والمعرفة المعادة عين الأولى .

ومعنى ﴿ هم أولاء على أثرى ﴾ [طه : 84] هم بالقرب مني ينتظرونني .

وتعقبه في الكشف بأنه غير ملائم للفظ الأثر ولا هو مطابق لتمهيد عذر العجلة ومن أين لصاحب هذا التأويل النقل بأنهم كانوا على القرب من الطور وحديث المعرفة المعادة إنما هو إذا لم يقم دليل التغاير وقد قام.

على أن لنا أن تقول: هي عين الأولى لأن المراد بالقوم الجنس في الموضعين لكن المقصود منه أولا النقباء وثانياً المتخلفون ومثله كثير في القرآن انتهى.

وما ذكره من نفي النقل الدال على القرب فيه مقال، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً من الأخبار ما يدل بظاهره على القرب إلا أنا لم نقف على تحصيحه أو تضعيفه.

(39/501)

وما ذكر من تفسير ﴿ هُمْ أُولاء على أَثَرِى ﴾ [طه: 84] على إرادة المتخلفين في الأول أيضاً نقله الطبرسي عن الحسن، ونقل عنه أيضاً تفسيره بأنهم على ديني ومنهاجي والأمر عليه أهون.

والفاء لتعليل ما يفهمه الكلام السابق كأنه قيل: لا ينبغي عجلتك عن قومك وتقدمك عليهم وإهمال أمرهم لوجه من الوجوه فانهم لحداثة عهدهم باتباعك ومزيد بلاهتهم وحماقتهم بمكان يحيق فيه مكر الشيطان ويتمكن من إضلالهم فإن القوم الذين خلفتهم مع

أخيك قد فتنوا وأضلهم السامري بخروجك من بينهم فكيف تأمن على هؤلاء الذي أغفلتهم وأهملت أمرهم .

وفي إرشاد العقل السليم إنها لترتيب الأخبار بما ذكر من الابتلاء على أخبار موسى عليه السلام بعجلته لكن لا لأن الأخبار بها سبب موجب للأخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث أن مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم وليس بذاك .

وأما قول الخفاجي : إنها للتعقيب من غير تعليل أي أقول لك عقب ما ذكر إنا قد فتنا إلى آخره ففيه سهو ظاهر لأن هذا المعنى إنما يتسنى لو كانت الفاء داخلة على القول لكنها داخلة على ما بعده وظاهر الآية يدل على أن الفتن وإضلال السامري إياهم قد تحققا ووقعا قبل الاخبار بهما إذ صيغة الماضي ظاهرة في ذلك ، والظاهر أيضاً على ما قررنا أن الأخبار كان عند مجيئه عليه السلام للطور لم يتقدمه إلا العتاب والأعتذار .

وفي الآثار ما يدل على أن وقوع ما ذكرنا كان بعد عشرين ليلة من ذهابه عليه السلام لجناب الطور ، وقيل : بعد ست وثلاثين يوماً وحينئذ يكون التعبير عن ذلك بصيغة الماضي لاعتبار تحققه في علم الله تعالى ومشيئته أو لأنه قريب الوقوع مترقبه أو لأن السامري كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام وتصدى لترتيب مباديها وتمهيد مبانيها فنزل مباشرة الأسباب منزلة الوقوع .

والسامري عند الأكثر كما قال الزجاج: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم إلى هذه الغاية في الشام يعرفون بالسامريين، وقيل: هو ابن خالة موسى عليه السلام، وقيل: ابن عمه، وقيل: كان علجاً من كرمان، وقيل: كان من أهل باجرما قرية قريبة من مصر أو قرية من قرى موصل، وقيل: كان من القبط وخرج مع موسى عليه السلام مظهراً الإيمان وكان جاره.

وقيل: كان من عباد البقر وقع في مصر فدخل في بني إسرائيل بظاهره وفي قلبه عبادة البقر.

واسمه قيل موسى بن ظفر، وقيل: منجا، والأول أشهر، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه فكان جبريل عليه السلام يأتيه فيغدوه باصابعه في واحدة لبنا وفي الأخرى عسلا، وفي الأخرى سمناً ولم يزل يغذوه حتى نشأ وعلى ذلك قوله من قال:

إذا المرء لم يخلق سعيداً تحيرت...

عقول مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر...

وموسى الذي رباه فرعون مرسل

وبالجملة كان عند الجمهور منافقاً يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، وقرأ معاذ ﴿ أضلهم ﴾ على أنه أفعل تفضيل أي أشدهم ضلالاً لأنه ضال ومضل .

﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾

عند رجوعه المعهود أي بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة وأخذ التوراة لا عقيب الأخبار المذكور فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى : ﴿ الحديث أَسَفاً ﴾ لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلة عليه حقيقة فإن كون الجروع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الأخبار المذكور كما إذا قلت : شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فإن أحداً لا يرتاب في أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم أثر الدعاء وإن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفسه الرجوع كذا في ارشاد العقل السليم وهو مما لا ينتطح فيه كبشان .

والأسف الحزين كما روي عن ابن عباس وكأن حزنه عليه السلام من حيث أن ما وقع فيه قومه مما يترتب عليه العقوبة ولا يد له بدفعها .

وقال غير واحد : هو شديد الغضب ، وقال الجبائي متلهفاً على ما فاته متحيراً في أمر قومه يخشى أن لا يمكنه تداركه وهذا معنى للأسف غير مشهور ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا فعل بهم لما رجع إليهم ؟ فقيل قال : ﴿ قَالَ يا قوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ الهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أي وعدكم ﴿ وَعْداً حَسَناً ﴾ لا سبيل لكم إلى إنكاره .

والمراد بذلك إعطاء التوراة التي فيها هدى ونور ، وقيل : هو ما وعدهم سبحانه من الوصول إلى جانب الطور الأيمن وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن وغير ذلك مما وعد الله تعالى أهل طاعته .

وعن الحسن أن الوعد الحسن الجنة التي وعدها من تمسك بدينه ، وقيل : هو أن يسمعهم جل وعلا كلامه عز شأنه ولعل الأول أولى ، ونصب ﴿ وَعْداً ﴾ يحتمل أن يكون على أنه مفعول ثان وهو بمعنى الموعود ويحتمل أن يكون على المصدرية والمفعول الثاني محذوف ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ لكم مّنَ الأرض وَلاَ تَيَمَّمُواْ الخبيث مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِأَخِذِيهِ إِلا أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ واعلموا أَنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشيطان يَعِدُكُمُ ﴾ لأنه بمعنى قد وعدكم ، واختار جمع الأول وأل في العهد له ، والمراد زمان الإنجاز ، وقيل : زمان

المفارقة أي أوعدكم سبحانه ذلك فطال زمان الإنجاز أو زمان المفارقة للإتيان به ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ ﴾ أي يجب ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ ﴾ شديد لا يقادر قدره كائن ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي من مالك أمركم على الإطلاق.

والمراد من إرادة ذلك فعل ما يكون مقتضياً له.

(42/501)

والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ لترتيب ما بعدها على كل من الشقين، والموعد مصدر مضاف إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم فإن اخلافهم الموعد الجاري فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافته إليه عليه السلام أشنع منه من حيث إضافته إليهم، والمعنى أفطال عليكم الزمان فنسيتم بسبب ذلك فاخلفتم وعدكم إياي بالثبات على ديني إلى أن أرجع من الميقات نسياناً أو تعمدتم فعل ما يكون سبباً لحلول غضب ربكم عليكم فاخلفتم وعدكم إياي بذلك عمداً، وحاصله أنسيتم فاخلفتم أو تعمدتم فاخلفتهم، ومنه يعلم التقابل بين الشقين.

وجوز المفضل أن يكون الموعد مصدراً مضافاً إلى الفاعل واخلافه بمعنى وجدان الخلف فيه يقال: أخلف وعد زيد بمعنى وجد الخلف فيه، ونظيره أحمدت زيداً أي فوجدتم

الخلف في موعدي إياكم بعد الأربعين ، وفيه أنه لا يساعده السياق ولا السباق أصلاً ، وقيل .

المصدر مضاف إلى المفعول إلا أن المراد منه وعدهم إياه عليه السلام باللحاق به والمجيء للطور على أثره وفيه ما فيه ، واستدلت المعتزلة بالآية على أن الله عز وجل ليس خالقاً للكفر وإلا لما قال سبحانه : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ [طه : 85] ولما كان لغضب موسى عليه السلام واسفه وجه ولا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(43/501)

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ أي : أي : شيء عجّل بك عنهم ، على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى معه النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور ، على الموعد المضروب ، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه .

(44/501)

﴿ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي ﴾ أي : قادمون ينزلون بالطور ، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير . ولذا قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أي : عني ، بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك . واعتنائي بالوفاء بعهدك . وزيادة ربّ لمزيد الضراعة والابتهال ، رغبةً في قبول العذر . أفاده أبو السعود .

فإن قيل : كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول : طلب زيادة رضاك أو الشوقُ إلى كلامك , فالجوابُ . أن هذا من الغفلة عن سرّ الإنكار . وذلك لأن الإنكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم . فهو منصبّ على القيد . كما عرف في أمثاله . فالسؤال في المعنى عن الانفصال الذي يتضمنه أعجلك المتعدي بمن . وإنكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب : ﴿ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي ﴾ . وقوله : ﴿ وَعَجِلْتُ ﴾ الخ تتميم . وقيل الجواب إنما هو قوله : ﴿ وَعَجِلْتُ ﴾ الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر : إنما أراد الله بسؤاله عن سبب العجلة ، وهو أعلم ، أن يعلم موسى أدب السفر . وهو أنه ينبغي تأَخُّرُ رئيس القوم عنهم في المسير ، ليكون نظره محيطاً بطائفته ، ونافذاً فيهم ، ومهيمناً عليهم . وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عزّ وجلّ كيف علم هذا الأدب ، لوطا ، فقال : ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ [الحجر : 65] ، فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى

رضاء الله عزَّ وجلَّ ، ومسارعة إلى الميعاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسَرَّ من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم . انتهى .

(45/501)

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أي : ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ يعني اليهوديّ الذي وسوس لهم أن يعبدوا عجلاً يتخذوه إلهاً ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . والسامري في لغة العرب ، بمعني اليهودي . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود في نابلس قليلة العدد تخالف بقية اليهود في جلّ عاداتها .

وقد تضمنت هذه الجملة - أعني إخباره تعالى لموسى بالفتنة - الأمر - برجوعه لقومه ، وإصلاحه ما فسد من حالهم ، كما قال تعالى :

(46/501)

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ أي: حزيناً: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ أي: بإنزال التوراة عليَّ، ورجوعي بها إليكم: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أي: زمان الإنجاز، أو مجيئي: ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ أي: وعدكم إياي بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات. انتهى انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 147.148 ﴾

(47/501)

وقال الشيخ الشنقيطي:

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

أشار جل وعلا في هذه الآية الكريمة إلى قصة مواعدته في مسوى أربعين ليلة وذهابه إلى الميقات، واستعجاله إليه قبل قومه. وذلك أنه لما واعده ربه ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ ﴾ الآية. وهذه القصة التي أجملها هنا أشار لها في غير هذا الموضع. كقوله في «الأعراف»: ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: 142-143] الآية.

وفي هذه الآية سؤال معروف : وهو أن جواب موسى ليس مطابقاً للسؤال الذي سأله ربه ، لأن السؤال عن السبب الذي أعجله عن قومه ، والجواب لم يأت مطابقاً لذلك . لأنه أجاب بقوله : ﴿ هُمْ أولاء على أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ﴾ الآية .

وأجيب عن ذلك بأجوبة : (منها) أن قوله : ﴿ هُمْ أولاء على أَثَرِي ﴾ يعني هم قريب وما تقدمتهم إلا بيسير يغتفر مثله ، فكأني لم أتقدمهم ولم أعجل عنهم لقرب ما بيني وبينهم .

(ومنها) أن الله جل وعلا لما خاطبه بقوله ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ ﴾ داخله من الهيبة والإجلال والتعظيم لله جل وعلا ما أذهله عن الجواب المطابق . والله أعلم .

وقوله : ﴿ هُمْ أولاء ﴾ المد فيه لغة الحجازيين . ورجحها ابن مالك في الخلاصة بقوله :

والمد أولى .

ولغة التميميين « أولا » بالقصر ، ويجوز دخول اللام على لغة التميميين في البعد ، ومنه قول الشاعر :

أولالك قومي لم يكونوا أشابة . . . وهل يعظ الضليل إلا أولا لكما

وأما على لغة الحجازيين بالمد فلا يجوز دخول اللام عليها .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) ﴾

الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل . فهي فتنة إضلال . كقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأعراف : 155] . وهذه الفتنة بعبادة العجل جاءت مبينة في آيات متعددة . كقوله : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة : 51] ونحو ذلك من الآيات .

(49/501)

قوله هنا : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ إلى قوله ﴿ اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 148] أي اتخذوه إلهاً وقد صنعه السامري لهم من حلي القبط فأضلهم بعبادته . وقوله هنا ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هاذآ إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ [طه : 87_88] والسامري : قيل اسمه هارون ، وقيل اسمه موسى بن ظفر ، وعن ابن عباس : أنه من قوم كانوا يعبدون البقر . وقيل : كان رجلاً من القبط . وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن

جبير: كان من أهل كرمان. والفتنة أصلها في اللغة: وضع الذهب في النار ليتبين أهو خالص أم زائف. وقد أطلقت في القرآن إطلاقات متعددة: (منها) الوضع في النار، كقوله ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: 13] أي يحرقون بها، وقوله ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج: 10] الآية. أي أحرقوهم بنار الأخدود. (ومنها) الاختبار وهو الأغلب في استعمال الفتنة. كقوله ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: 28] الآية، وقوله ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: 16-17]. (ومنها) نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة. ومن هنا أطلقت الفتنة على الشرك، كقوله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة: 193]، وقوله هنا ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾ الآية. (ومنها) الحجة، كقوله ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:

(50/501)

23] أي لم تكن حجتهم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ أسند إضلالهم إليه، لأنه هو الذي تسبب فيه بصياغته لهم العجل من حلي القبط ورميه عليه التراب الذي مسه حافر الفرس

التي جاء عليها جبريل، فجعله الله بسبب ذلك عجلاً جسداً له خوار، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [طه: 87-88]، وقال في «الأعراف» ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: 148] الآية. والخوار: صوت البقر. قال بعض العلماء: جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسداً من لحم ودم، وهذا هو ظاهر قوله ﴿ عِجْلاً جَسَداً ﴾. وقال بعض العلماء: لم تكن تلك الصورة لحماً ولا دماً، ولكن إذا دخلت فيها لاريح صوتت كخوار العجل. والأول أقرب لظاهر الآية، والله تعالى قادر على أن يجعل الجماد لحماً ودماً، كما جعل آدم لحماً ودماً وكان طيناً.

(51/501)

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن موسى رجع إلى قومه بعد مجيئه للميقات في حال كونه في ذلك الرجوع غضبان أسفاً على قومه من أجل عبادتهم العجل.

وقوله: ﴿ أَسِفاً ﴾ أي شديد الغضب. فالأسف هنا: شدة الغضب. وعلى هذا فقوله: ﴿ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ أي غضبان شديد الغضب. ومن إطلاق الأسف على

الغضب في القرآن قوله تعالى في «الزخرف» ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: 55] أي فلما أغضبونا بتماديهم في الكفر مع توالي الآيات عليهم انتقمنا منهم. وقال بعض العلماء: الأسف هنا الحزن والجزع. أي رجع موسى في حال كونه غضبان حزيناً جزعاً لكفر قومه بعبادتهم للعجل. وقيل: أسفاً أي مغتاظاً. وقائل هذا يقول: الفرقي بين الغضب والغيظ: أن الله وصف نفسه بالغضب، ولم يجز وصفه بالغيظ. حكاه الفخر الرازي. ولا يخفى عدم اتجاهه في تفسير هذه الآية، لأنه راجع إلى القول الأول، ولا حاجة في ذلك إلى التفصيل المذكور.

وقوله ﴿ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ حالان. وقد قدمنا فيما مضى أن التحقيق جواز تعدد الحال من صاحب واحد مع كون العامل واحداً. كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والحال قد يجيء ذا تعدد ... لمفرد فاعلم وغير مفرد

(52/501)

وما ذكره جل وعلا في آية «طه» هذه من كون موسى رجع إلى قومه ﴿ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ ذكره في غير هذا الموضع، وذكر أشياء من آثار غضبه المذكور، كقوله في «الأعراف»:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي ﴾ [

الأعراف : 150] الآية . وقد بين تعالى أن من آثار غضب موسى إلقاءه الألواح التي فيها التوراة ، وأخذه برأس أخيه يجره إليه ، كما قال في « الأعراف » : ﴿ وَأَلْقَى الألواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : 150] ، وقال في « طه » مشيراً لأخذه برأس أخيه : ﴿ قَالَ يا بنأم لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94] . وهذه الآيات فيها الدلالة على أن الخبر ليس كالعيان ، لأن الله لما أخبر موسى بكفر قومه بعبادتهم العجل كما بينه في قوله : ﴿ قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ [طه : 85] وهذا خبر من الله يقين لا شك فيه لم يلق الألواح ، ولكنه لما عاين قومه حول العجل يعبدونه أثرت فيه معاينة ذلك أثراً لم يؤثره فيه الخبر اليقين بذلك ، فألقى الألواح حتى تكسرت ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما أصابه من شدة الغضب من انتهاك حرمات الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره في سورة « الأعراف » : وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾.

ذكر جل في هذه الآية الكريمة: أن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما رجع إلى قومه، ووجدهم قد عبدوا العجل من بعده قال لهم: ﴿ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾.

وأظهر الأقوال عندي في المراد بهذا الوعد الحسن: أنه وعدهم أن ينزل على نبيهم كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه من خير الدنيا والآخرة. وهذا الوعد الحسن المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ [طه: 80] الآية، وفيه أقوال غير ذلك.

وقوله: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ الاستفهام فيه للإنكار، يعني لم يطل العهد. كما يقال في المثل: (وما بالعهد من قدم). لأن طول العهد مظنة النسيان، والعهد قريب لم يطل فكيف نسيتم؟

وقوله: ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ قال بعض العلماء: «أم» هنا هي المنقطعة، والمعنى: بل أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، ومعنى إرادتهم حلول

الغضب : أنهم فعلوا ما يستوجب غضب ربهم بإرادتهم . فكأنهم أرادوا الغضب لما أرادوا سببه ، وهو الكفر بعبادة العجل .

وقوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ كانوا وعدوه أن يتبعوه لما تقدمهم إلى الميقات ، وأن يثبتوا على طاعة الله تعالى . فعبدوا العجل وعكفوا عليه ولم يتبعوا موسى . فأخلفوا موعده بالكفر وعدم الذهاب في أثره . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(54/501)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

عطفٌ على جملة ﴿ اسْرِ بعبادي ﴾ [طه : 77] الواقعة تفسيراً لفعل ﴿ أوحينا إلى موسى ﴾ [طه : 77] ، فقوله ﴿ ومَا أعْجَلَكَ عَن قومِكَ ﴾ هو مما أوحى الله به إلى موسى .

والتقدير : وأنْ : ما أعجلك الخ .

وهو إشارة إلى ما وقع لهم أيام مناجاة موسى في الطور في الشهر الثالث لخروجهم من مصر .

وهذا الجزء من القصة لم يذكر في سورة الأعراف .

والإعجال: جعْل الشيء عاجلاً.

والاستفهام مستعمل في اللّوْم.

والذي يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية: أنّ موسى تعجّل مفارقة قَومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبّان الذي عيّنه الله له، اجتهاداً منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحفّ بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذّرهم مكر من يتوسّم فيه مكراً، فكان في ذلك بمنزلة أبي بكر حين دخل المسجد فوجد النبي صلى الله عليه وسلم راكعاً فركع ودَبّ إلى الصف فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "زادك الله حرصاً ولا تَعُدْ"

وقريبٌ من تصرّف موسى عليه السلام أخذُ المجتهد بالدليل الذي له معارض دون علم بمعارضة، وكان ذلك سبب افتتان قومه بصنع صنم يعبدونه.

وليس في كتاب التّوراة ما يشير إلى أكثر من صنع بني إسرائيل العجل من ذهب اتخذوه إلهاً في مدّة مغيب موسى، وأن سبب ذلك استبطاؤهم رجوع موسى ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ [طه: 91].

وقوله هنا ﴿هُمْ أُوْلاءِ على أَثَرِي﴾ يدل على أنّهم كانوا سائرين خلفه وأنه سبقهم إلى المناجاة.

واعتذر عن تعجّله بأنه عجّل إلى استجابة أمر الله مبالغة في إرضائه ، فقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ فيه ضرب من المَلام على التعجل بأنّه تسبب عليه حدوث فتنة في قومه ليعلمه أن لا يتجاوز ما وُقت له ولو كان لرغبة في ازدياد من الخير .

والأَثَر بفتحتين : ما يتركه الماشي على الأرض من علامات قدَم أو حافر أو خفّ .

ويقال : إِثْر بكسر الهمزة وسكون الثاء وهما لغتان فصيحتان كما ذكر ثعلب .

فمعنى قولهم : جاء على إثره ، جاء مواليا له بقرب مجيئه ، شبه الجائي الموالي بالذي يمشي على علامات أقدام مَن مشى قبله قبل أن يتغيّر ذلك الأثرُ بأقدام أخرى ، ووجه الشبه هو موالاته وأنه لم يسبقه غيره .

والمعنى : هم أولاء سائرون على مواقع أقدامي ، أي موالون لي في الوصول .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدَمِي " ، تقديره : يحشرون سائرين على آثار قدمي .

وقرأ الجمهور ﴿ على أَثَري ﴾ بفتحتين .

وقرأه رويس عن يعقوب بكسر الهمزة وسكون الثاء .

واستعمل تركيب ﴿ هُمْ أُولَاءِ ﴾ مجرّداً عن حرف التنبيه في أول اسم الإشارة خلافاً

لقوله في سورة النساء (109) : ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم ﴾ ، وتجريد اسم الإشارة من

هاء التنبيه استعمال جائز وأقل منه استعماله بحرف التنبيه مع الضمير دون اسم الإشارة ،

نحو قول عبد بني الحسحاس:

هَا أنا دُون الحبييب ِيا وَجع . . .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ﴾ في سورة آل عمران (119) .

وإسناد الفتن إلى الله باعتبار أنه مُقدّره وخالقُ أسبابه البعيدة .

وأمّا إسناده الحقيقي فهو الذي في قوله ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ لأنه السبب المباشر

لضلالهم المسبب لفتنتهم .

و﴿ السَّامِرِيُّ ﴾ يظهر أن ياءه ياء نسبة ، وأن تعريفه باللاّم للعهد .

(56/501)

فأما النسبة فأصلها في الكلام العربي أن تكون إلى القبائل والعشائر ؛ فالسامريّ نسب إلى

اسم أبي قبيلة من بني إسرائيل أو غيرهم يقارب اسمه لفظ سَامِر ، وقد كان من الأسماء

القديمة (شُومر) و(شامر) وهما يقاربان اسم سامر لا سيما مع التعريب .

وفي "أنوار التنزيل" : "السامريّ نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة" أهـ .

أخذنا من كلام البيضاوي أن السامريّ منسوب إلى قبيلة وأما قوله "من بني إسرائيل" فليس بصحيح .

لأنّ السامرة أمّة من سكان فلسطين في جهة نَابلس في عهد الدولة الروميّة (البيزنطية) وكانوا في فلسطين قبل مصير فلسطين بيد بني إسرائيل ثمّ امتزجوا بالإسرائيليين واتبعوا شريعة موسى عليه السلام مع تخالف في طريقتهم عن طريقة اليهود .

فليس هو منسوباً إلى مدينة السامرة القريبة من نابلس لأنّ مدينة السامرة بناها الملك (عَمْري) ملك مملكة إسرائيل سنة 925 قبل المسيح .

وجعلها قصبة مملكته ، وسماها (شوميرون) لأنّه بناها على جبل اشتراه من رجل اسمه (شَامر) بوَزْنَتَين من الفضة ، فعُرّبت في العربية إلى سامرة ، وكان اليهود يَعُدونها مدينة كفر وجور ، لأنّ (عمري) بانيها وابنه (آخاب) قد أفسدا ديانة التّوراة وعبدا الأصنام الكنعانية .

وأمر الله النبي إلياس بتوبيخهما والتثوير عليهما ، فلا جرم لم تكن موجودة زمن موسى ولا كانت ناحيتها من أرض بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام .

ويحتمل أن يكون السامريّ نسباً إلى قرية اسمها السامرة من قرى مصر ، كما قال بعض أهل التفسير ، فيكون فتى قبطياً اندس في بني إسرائيل لتعلّقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها

لهم .

وعن سعيد بن جبير : كان السامريّ من أهل (كرمان) ، وهذا يقرّب أن يكون السامريّ تعريبَ كرماني بتبديل بعض الحروف وذلك كثير في التعريب .

(57/501)

ويجوز أن تكون الياء من السامريّ غير ياء نسب بل حرفاً من اسم مثل : ياء عليّ وكرسيّ ، فيكون اسماً أصلياً أو منقولاً في العبرانية ، وتكون اللاّم في أوّله زائدة .

وذكر الزمخشري والقرطبي خليطاً من القصة : أن السامريّ اسمه موسى بن ظَفَر بفتح الظاء المعجمة وفتح الفاء وأنه ابن خالة موسى عليه السلام أو ابن خَاله ، وأنه كفَر بدين موسى بعد أن كان مؤمناً به ، وزاد بعضهم على بعض تفاصيل تشمئزّ النفس منها .

واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود يقال لهم أيضاً السامرة ، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهوديّة في أصول الدّين ، فهم لا يعظمون بيت المقدس وينكرون نبوءة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع ، وما كانت هذه الشذوذات فيهم إلاّ من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقونها في مدينة السامرة المبنيّة على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخص في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصْهار ملوكهم ،

ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام ففي إنجيل متى إصحاح 10 وفي إنجيل لوقا إصحاح 9 ما يقتضي أن بلدة السامريين كانت منحرفة على اتباع المسيح ، وأنه نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم .

ووقعت في كتاب الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين زلّة كبرى ، إذ زعموا أنّ هارون صنع العجل لهم لمّا قالوا له : "اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأنا لا نعلم ماذا أصاب موسى في الجبل فصنَع لهم عجلاً من ذهب" .

وأحسب أنّ هذا من آثار تلاشي التّوراة الأصلية بعد الأسر البابلي ، وأن الذي أعاد كتبها لم يحسن تحرير هذه القصة .

ومما نقطع به أنّ هارون معصوم من ذلك لأنه رسول .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾

الغضب : انفعال للنفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسوؤها ويسخطها دون خوف ، والوصف منه غَضبان .

والأسف : انفعال للنفس ينشأ من إدراك ما يحزنها وما تكرهه مع انكسار الخاطر . والوصف منه أسِف .

وقد اجتمع الانفعالان في نفس موسى لأنه يسوؤه وقوع ذلك في أمته وهو لا يخافهم ، فانفعاله المتعلّق بحالهم غضب ، وهو أيضاً يحزنه وقوع ذلك وهو في مناجاة الله تعالى التي كان يأمل أن تكون سبب رضى الله عن قومه فإذا بهم أتوا بما لا يرضي الله فقد انكسر خاطره بين يديه ربّه .

وهذا ابتداء وصف قيام موسى في جماعة قومه وفيهم هارون وفيهم السامريّ ، وهو يقرع أسماعهم بزواجر وعظه ، فابتدأ بخطاب قومه كلهم ، وقد علم أن هارون لا يكون مشايعاً لهم ، فلذلك ابتدأ بخطاب قومه ثمّ وجّه الخطاب إلى هارون بقوله ﴿ قال يا هارون ما منعك ﴾ [طه : 92] .

وجملة ﴿ قَالَ يَاقومِ أَلَمْ ﴾ مستأنفة بيانية .

وافتتاح الخطاب بـ ﴿ ياقوم ﴾ تمهيدٌ لِلّوم لأن انجرار الأذى للرجل من قومه أحق في توجيه الملام عليهم ، وذلك قوله ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ .

والاستفهام في ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ إنكاري ؛ نزّلوا منزلة من زعم أن الله لم يعدهم وعداً حسناً لأنّهم أجروا أعمالهم على حال من يزعم ذلك فأنكر عليهم زعمهم .

ويجوز أن يكون تقريرياً ، وشأنه أن يكون على فرض النّفي كما تقدم غير مرّة .

والوعْدُ الحسن هو : وعده مُوسى بإنزال التّوارة ، ومواعدته ثلاثين ليلةً للمناجاة ، وقد

أعلمهم بذلك ، فهو وعد لقومه لأنّ ذلك لصلاحهم ، ولأنّ الله وعدهم بأن يكون ناصراً لهم على عدوّهم وهادياً لهم في طريقهم ، وهو المحكي في قوله ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ [طه : 80] .

والاستفهام في ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُم العَهدُ ﴾ مُفرّع على قوله ﴿ أَلَمْ يَعِدكُم ربُّكُمْ ﴾ ، وهو استفهام إنكاري ، أي ليس العهد بوعد الله إياكم بعيداً .

(59/501)

والمراد بطول العهد طول المدّة ، أي بُعدها ، أي لم يبعد زمن وعد ربّكم إياكم حتى يكون لكم يأس من الوفاء فتكفروا وتكذّبوا مَن بلغكم الوعد وتعبدوا رباً غير الذي دعاكم إليه مَن بلغكم الوعد فتكون لكم شبهة عذر في الإعْراض عن عبادة الله ونسيان عهده .

والعهد : معرفة الشيء وتذكره ، وهو مصدر يجوز أن يكون أطلق على المفعول كإطلاق الخلق على المخلوق ، أي طال المعهود لكم وبعُد زمنه حتى نسيتموه وعملتم بخلافه .

ويجوز أن يبقى على أصل المصدر وهو عهدهم الله على الامتثال والعمل بالشريعة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ وقوله ﴿ وأوفوا بعهدي ﴾ في [سورة البقرة : 27 و40] .

و﴿ أَم ﴾ إضراب إبطالي.

والاستفهام المقدّر بعد ﴿ أَمْ ﴾ في قوله ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ [طه: 86] إنكاري أيضاً، إذ التقدير: بل أردتم أن يحل عليكم غضب، فلا يكون كفركم إذن إلا إلقاءً بأنفسكم في غضب الله كحال من يحب أن يحِل عليه غضب من الله.

ففي قوله ﴿ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ استعارة تمثيلية، إذ شبه حالهم في ارتكابهم أسباب حلول غضب الله عليهم بدون داعٍ إلى ذلك بحال من يحبّ حلول غضب الله عليه؛ إذ الحب لا سبب له.

وقوله ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ تفريع على الاستفهام الإنكاري الثاني.

ومعنى ﴿ مَوْعِدِي ﴾ هو وعد الله على لسانه، فإضافته إلى ضميره لأنه الواسطة فيه.

انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(60/501)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

نقول: ما أعجلك؟ يعني: ما أسرع بك؟ لماذا جئتَ قبل موعدك؟ وكان موسى عليه

السلام على موعد مع ربه عز وجل ليتلقى عنه المنهج ، والمفروض في هذا اللقاء أنْ يأتيَ معه مجموعة من صَفْوة قومه ورؤسائهم ، فتعجل موسى موعد ربه ، وذهب دون قومه ، فقال له : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يا موسى ﴾ [طه : 83] أي : أسرعتَ وتعجَّلْتَ وجِئْتَ بدونهم .

فقال موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ هُمْ أولاء على أَثَرِي . . . ﴾

أي : قادمين خلفي وسيتبعونني ، أما أنا فقد ﴿ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ [طه : 84] تعجَّلْتُ في المثول بين يديك لترضى .

وقد تعجَّل موسى إلى ميقات ربه ، وسبق قومه لحكمة ، فالإنسان حين يأمر غيره بأمر فيه مشقّة على النفس وتقييد لشهواتها ، لا بُدَّ أن يبدأ بنفسه يقول : أنا لست بنجْوَةٍ عن هذا الأمر ، بل أنا أول مَنْ أُنفِّذ ما آمركم به ، وسوف أسبقكم إليه .

لذلك يقول القائد الفاتح طارق بن زياد لجنوده : " واعلموا أني إذا التقى الفريقان مُقبِل بنفسي على طاغية القوم لزريق فقاتله إن شاء الله ، فإن قتلته فقد كُفيتم أمره " وهكذا تكون القيادة قدوة ومثَلاً كما يقولون في الأمثال (اعمل كذا وإيدي في إيدك) وهنا يقول : يدي قبل يدك .

فموسى عليه السلام يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ [طه : 84] ترضى أن منهجك يُطبِّق من جهتي كرسول مؤتمن عليه ، ومن جهة قومي ؛ لأنهم حين يرونني قد

تعجلت للقائك في الموعد يعلمون أن في ذلك خيراً لهم ، وإلا ما سبقتهم إليه . وبذلك يسود منهج الله ويُمكَّن في الأرض ، وإذا ساد منهج الله رضي الله . عن خليفته في الأرض .

ثم يُخبر الحق تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام بما كان من قومه بعد مفارقته لهم من مسألة عبادة العجل .

(61/501)

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) ﴾

الفتنة : ليست مذمومة في ذاتها ؛ لأن الفتنة تعني الاختبار ، ونتيجته هي التي تُحمَد أو تُذمّ ، كما لو دخل التلميذ الامتحان فإنْ وُفّق فهذا خير له ، وإنْ أخفق فهذا خير للناس ، كيف ؟

قالوا : لأن هناك أشياءَ إنْ تحققتْ مصلحة الفرد فيها انهدمتْ مصلحة الجماعة . فلو تمكَّن التلميذ المهمل الكَسُول من النجاح دون مذاكرة ودون مجهود ، فقد نال انتفاعاً شخصياً ، وإنْ كان انتفاعاً أحمق ، إلا أنه سيعطي الآخرين إشارة ، ويُوحِي لهم بعدم المسئولية ، ويفرز في المجتمع الإحباط والخمول ، وكفى بهذا خسارة للمجتمع .

وقد جاءتْ الفتنة بهذا المعنى في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ

يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] .

إذن : لا بد من الاختبار لكي يعطي كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم ؟ نقول : بل ليعلم الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط في معاملتهم .

إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .

أو : لأن الاختبار من الله لِقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول : لو أعطاني الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضِع في الاختبار الحقيقي وأُعطِى المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندي كنتُ فعلت كذا وكذا .

فهناك عِلْم واقع من الله ، أو علم من خَلْق الله لكل مَنْ يفتن ، فإنْ كان مُحْسِناً يقتدون به ، ويقبلون عليه ، ويحبونه ويستمعون إليه ، وإلاَّ انصرفوا عنه . فالاختبار إذن قَصْده المجتمع وسلامته .

(62/501)

وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بني إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة، ثم نسبها إلى نفسه ﴿ فَتَنَّا ﴾ [طه: 85] أي: اختبرنا.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ [طه: 85] أضلهم: سلك بهم غير طريق الحق، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط، وقد تتعدّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال، فيحمل وزره ووِزْر غيره مِمَّنْ أضلّهم.

وفي هذه المسألة يقول تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ [النحل: 25].

مع أن الله تعالى قال في أية أخرى: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [فاطر: 18].

وهذه من المسائل التي توقَّف عندها بعض المستشرقين، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض، وما ذلك منهم إلا لعدم فَهْمهم للغة القرآن واتخاذها صناعة لا مَلَكة، ولو فَهِموا القرآن لَعَلِموا الفرق بين أن يضل الإنسان في ذاته، وبين أن يتسبب في إضلال غيره.

والسامري: اسمه موسى السامري، ويُرْوَى أن أمه وضعته في صحراء لا حياة فيها، ثم ماتت في نفاسها، فظل الولد بدون أم ترعاه، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربّيه إلى أن شبَّ.

وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى

السامري، فقال:

إذا لَمْ تُصادِفْ فِي بَنِيكَ عِنَايةً . . . فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِي وخَابَ المؤمّل

فَمُوسَى الذِي ربَّاهُ جبْريل كَافِرٌ . . . ومُوسَى الذِي ربَّاه فِرْعوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ . . . ﴾

رَجَع: تُستعمل لازمة. مثل: رجع فلان إلى الحق. ومُتعدِّية مثل ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ ﴾ [التوبة: 83] والمعنى فيهما مختلف.

(63/501)

هنا رجع موسى أي: حين سمع ما حدث لقومه من فتنة السامري ﴿ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ [طه: 86] أي: شديد الحزن على ما حدث ﴿ قَالَ ياقوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ [طه: 86] الوعْد الحسن أن الله يعطيهم التوراة، وفيها أصول حركة الحياة، وبها تَحسُن حياتنا في الدنيا، ويحسُن ثوابنا في الآخرة.

وقوله: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ [طه: 86].

يعني: أطال عهدي بكم، وأصبح بعيداً لدرجة أنْ تنسَوْه ولم أَغبْ عنكم إلا مُدَّة يسيرة.

قال الله عنها: ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف: 142]

.

ثم يقول: ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ [طه : 86]

.

وما دام أن عهدي بكم قريب لا يحدث فيه النسيان ، فلا بُدَّ أنكم تريدون العصيان ، وتبغُون غضب الله ، وإلاّ فالمسألة لا تستحق ، فبمجرد أنْ أغيبَ عنكم تنتكسون هذه النكسة ، وإن كان هذا حال القوم ورسولُهم ما زال بين أظهرهم ، فما بالهم بعد موته ؟ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أذلك وأنا بين ظَهْرانيكم ؟ " .

أي : ما هذا الذي يحدث منكم ، وأنا ما زلت موجوداً بينكم ؟

وقوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ [طه : 86] وفي آية أخرى قال : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي ﴾ [الأعراف : 150] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذي سيخلفه من بعده في قومه ، وهو شريكه في الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذي أخلفوه مع نبيهم موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ ﴾ :

مبتدأٌ وخبرٌ و " ما " استفهاميةٌ عن سببِ التقدُّم على قومِه . قال الزمخشري : " فإن قلت : " ما أَعْجلك " سؤالٌ عن سببِ العَجَلة ، فكان الذي ينطبقُ عليه من الجواب أَنْ يُقَالَ : طَلَبُ زيادةِ رضاك والشوقِ إلى كلامِك وتَنَجُّزِ مَوْعِدك . وقوله : ﴿ هُمْ أولاء على أَثَرِي ﴾ كما ترى غيرُ منطبقٍ عليه . قلت : قد تَضَمَّنَ ما واجَهَه به ربُّ العزة شيئين ، أحدهما : إنكارُ العَجَلة في نفسها . والثاني : السؤالُ عن سببِ المُسْتَنْكَر والحاملِ عليه ، فكان أهمُّ الأمرَيْن إلى موسى بَسْطَ العُذْرِ وتمهيدَ العلةِ في نفس ما أُنْكر عليه ، فاعتَلَّ بأنه لم يوجَدْ مني إلاَّ تقدُّمٌ يسيرٌ ، مثلُه لا يُعْتَدُّ به في العادةِ ولا يُحتفل به ، وليس بيني وبين مَنْ سبقتُه إلاَّ مسافةٌ قريبةٌ ، يتقدَّمُ بمثلِها الوفدَ رأسُهم ومقدمتُهم . ثم عَقَّبه بجوابِ السؤالِ عن السبب فقال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ .

قوله : ﴿ هُمْ أولاء على أَثَرِي ﴾ :

كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : 85] و " على أَثَري " يجوز أن يكونَ خبراً ثانياً ، وأن يكون حالاً .

وقرأ الجمهور "أُوْلاء" بهمزةٍ مكسورة . والحسن وابن معاذ بياء مكسورة ، أبدال الهمزةَ ياءً تخفيفاً . وابن وثاب "أُوْلاَ" بالقصرِ دونَ همزةٍ . وقرأَتْ طائفةٌ "أولايَ" بياءٍ مفتوحةٍ ، وهي قريبةٌ من الغَلَط .

والجمهورُ على أَثَري" بفتح الهمزة ، والياء . وأبو عمروٍ في روايةِ عبد الوارث وزيدُ بن علي "إثْري" بكسر الهمزةِ وسكونِ الياء . وعيسى بضمِّها وسكون الياء ، وحكاها الكسائيُّ لُغةً .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) ﴾

(65/501)

قوله : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ﴾ : العامَّةُ على أنَّه فعلٌ ماضٍ مسندٌ إلى السامريّ . وقرأ أبو معاذ في آخرين "وأَضَلُّهم" مرفوعاً بالابتداءِ ، وهو أفعلُ تفضيلٍ . و"السامريُّ" خبره .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾

قوله : ﴿ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ : حالان . وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في سورة الأعراف .

قوله : ﴿ وَعْداً حَسَناً ﴾ / يجوزُ أَنْ يكونَ مصدراً مؤكداً ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ تقديرُه : يَعِدُكم بالكتاب وبالهداية ، أو يُترك المفعولُ الثاني ليعُمَّ . ويجوز أن يكونَ الوعدُ

بمعنى الموعود فيكونَ هو المفعولَ الثاني .

قوله : ﴿ مَّوْعِدِي ﴾ مصدرٌ . ويجوز أَنْ يكونَ مضافاً لفاعِله بمعنى : أَوَجَدْتُمُوني أخلَفْتُكم ما وعدْتُكم . وأن يكونَ مضافاً لمفعوله ، بمعنى : أنهم وَعَدُوْه أن يتمسَّكوا بدينه وشيعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 87 . 89 ﴾

(66/501)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى العجل)

العَجَل والعَجَلة : السّرعة ، وهو عَجِلٌ ، وعَجُلٌ ، وعَجْلانٌ ، وعَاجِلٌ ، وعَجيلٌ من عَجَالَى وعُجالَى وعِجَال .

وقد عَجِل -كفرح- وعَجَّل وتعجَّل بمعنى .

واستعجله : حثَّه وأَمره أَن يَعْجَل .

ومرّ يستعجل أَى طالباً [ذلك] من نفسه متكلّفاً إِيّاه .

والعجَلَة من مقتضيَات الشهوة ؛ فلذلك ذُمّت فى جميع القرآن حتى قيل : العجلة من

الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ ذُكر أنّ عجلته وإن كانت مذمومة فالذى دعا إليها أمر محمود وهو طلب رضا الله.

وقال تعالى ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾.

وقوله: ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾، قال بعضهم: من حمَإٍ وليس بشىءٍ، بل تنبيه على أنه لا يتعرّى من ذلك؛ فإن ذلك أحد القُوَى الّتى رُكّبَ عليها.

وقوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ﴾ أى نعطيه ذلك.

والعاجل: نقيض الآجل.

والعُجالة والعِجالة / والعُجْل والعُجْلة والعُجَيْل: ما تعجّلته من شىءٍ كاللُّهْنة قال الشاعر:

*لا تعجلنّ فربّما * عجل الفتى فيما يضرّه*

*ولربّما كره الفتى * أمراً عواقبه تسرّه*

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ يا محمّد امنعهم من الاستعجال بالعذاب؛ فإنّه محيط بهم.

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ فلا يستعجلون.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴾، ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾، ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ

لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا مُوسَى ﴾ .

والعِجْل ، والعِجَّوْل كسِنَّوْر : ابن البقرة ، والجمع : عُجُول وعجاجيل .

وبقرة مُعْجِل : ذات عِجْل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 23.

24 ﴾

(67/501)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

أخرَجْهُمْ مع نَفْسِه لَمَّا استصحبهم ، ثم تقدَّمَهم بخطواطِ فتأخروا عنه ، فقيل له في ذلك مراعاةُ لحقِّ صحبتهم .

ويقال قومٌ يعاتبون لتأخرهم وآخرون لتقدمهم . . . فشتان ما هما !

﴿ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) ﴾

أي عَجِلْتُ إليكَ شوقاً إليك ، فاستخرج منه هذا الخطاب ، ولولا أنه استنطقه لما أخبر به موسى .

قوله : ﴿ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَى أَثَرِى ﴾ أي ما خَلَّفْتُهم لتضييعي أيامي ، ولكني عَجِلْتُ إليك لترضى . يا موسى إنَّ رضائي في أن تكون مَعهم وألاَّ تَسْبِقَهم ، فكونُكَ مع الضعفاءِ الذين استصحبتَهم - في معاني حصول رضائي - أبلغ مِنْ تقدُّمِكَ عليهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ .

فَتَّنا قومَك فضَلُّوا وعبدوا العِجْلَ ؛ فأخبر الحقُّ - سبحانه - أنَّ ذلك منه تقدير ، وفي هذا تكذيبٌ لِمَنْ جَحَدَ القولَ بالقَدَرِ .

ويقال طَلَبَ موسى - عليه السلام - رِضَاءَ الحق ، وقدَّر الحقُّ - سبحانه - فتنةَ قَوْمِه فقال : ﴿ إنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ ، ثم الحُكْمُ لله ، ولم يكن بُدٌّ لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله - فلا اعتراضَ على الله - ومِنَ العلم بحقِ اللَّهِ في أنْ يفعلَ ما يشاء ، وأنشدوا :

أُريد وِصَالَه ويريد هجري . . . فأترك ما أُريد لما يُريد

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ .

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل ، وهو نوع من التعزير ، وحصل ما حصل ، وظهر ما ظهر من (. . .) .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ .

ورجع نبيُّنا – صلى الله عليه وسلم – من المعراج بنعت البسط ، وجاء بالنجوى لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة ، وأكرمهم به من القربة بالزلفة . . فشتان ما هما !

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف ، وخاطبهم ببيان العتاب :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ .

ظنوا بنبيّهم ظنَّ السَّوْءِ في خلقه الوعد ، فَلَحِقَهُمْ شؤمُ ذلك حتى زاغوا عن العهد ، وأشركوا في العقد . . . وكذلك يكون الأمر إذا لم يفِ المرء بعقده ، فإنه ينخرط في هذا السِّلْكِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 470 . 471 ﴾

(69/501)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ

قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تشوف السامع إلى جوابهم ، استأنف ذكره فقال : ﴿ قالوا ﴾ : لم يكن شيء من ذلك .

ولما كان المقصود من هذا السياق كله إظهار عظيم القدرة ، عبر عن ذلك بقوله ، حكاية عنهم للاعتراف بما قررهم موسى عليه السلام به من العناد معتذرين عنه بالقدرة ، والاعتذار به لا يدفع العقوبة المرتبة على الذنب : ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي لقد صدقت فيما قلت ، ولكنا لم نفعل ذلك ونحن بملك أمرنا – هذا على قراءة الجماعة بالكسر ، وعلى قراءة نافع وعاصم بالفتح المعنى : ولنا ملكة تتصرف بها في أنفسنا ، وعلى قراءة حمزة والكسائي بالضم كأنهم قالوا : ولنا سلطان قاهر لأمورنا – على أنهم قد ذكروا أن القراءات الثلاث لغات لمعنى واحد ، قال في القاموس : ملكه يملكه ملكاً مثلثة : احتواه قادراً على الاستبداد به ، والمعنى أن السامري زين لهم ذلك ، ووسوس به الشيطان فما دوروا إلا وقد تبعوه حتى كانوا كأنهم يقادون إليه بالسلاسل ، وقيل هذا كلام من لم يعبده ، اعتذروا بأنهم كانوا قليلاً ، لا قدرة لهم على مقاومة من عبده ، وهذا كله

إشارة إلى أنه تعالى هو المتصرف في القلوب ، فهو قادر على أن يرد كفار قريش والعرب من بعد عنادهم ، ولددهم وفسادهم ﴿ ولكنا ﴾ كنا ﴿ حملنا أوزاراً ﴾ أي أثقالاً من النقدين هي أسباب الآثام ، كما تقدم في الأعراف أن الله أمرهم في التوراة أن يستعيروها من القبط فخربوهم بها ، وكأن هذا ما كان خيانة في ذلك الشرع ، أو أن الله تعالى أباح لهم ذلك في القبط خاصة ﴿ من زينة القوم ﴾ الذين لم نكن نعرف قوماً غيرهم ، وغيرهم ليس حقيقاً بإطلاق هذا اللفظ عليه وهم القبط ، فقضى لنا أن نقذفها في النار ، وتوفرت الدواعي على ذلك واشتدت بحيث لم نتمالك ﴿ فقذفناها فكذلك ﴾ أي فتعقب هذا أنه مثل ذلك الإلقاء ﴿ ألقى السامري ﴾ وهو لصيق انضم إليهم من قبط مصر ، ألقى ما كان معه ، أما من المال وإما من أثر الرسول ، كما مضى ويأتي ، وكأن إلقاءه كان آخراً .

(70/501)

ولما كان خروج التمثال عقب إلقاءه ، جعل كأنه المتسبب في ذلك ، فقيل مع العدول عن أسلوب التكلم استهجاناً لنسبة أمر العجل إلى المتكلم : ﴿ فأخرج لهم ﴾ أي لمن شربه وعبده ، وجعل الضمير للغيبة يؤيد قول من جعل هذا كلام من لم يعبد العجل ، والمعنى عند من جعله من كلام العابدين أنهم دلوا بذلك على البراءة منه والاستقذار له .

ولما كان شديد الشبه للعجول، قيل: ﴿عجلاً﴾ وقدم قوله: ﴿جسداً﴾ لنعرف أن عجليته صورة لا معنى - على قوله: ﴿له خوار﴾ لئلا يسبق إلى وهم أنه حي، فتمر عليه لمحة على اعتقاد الباطل ﴿فقالوا﴾ أي فتسبب عن ذلك أن السامري قال فتابعه عليه من أسرع في الفتنة أول ما رآه: ﴿هذا﴾ مشرين إلى العجل الذي هو على صورة ما هو مثل في الغباوة ﴿إلهكم وإله موسى فنسى﴾ أي فتسبب عن أنه إلهكم أن موسى نسي - بعدوله عن هذا المكان - موضعه فذهب يطلبه في مكان غيره، أو نسي أن يذكره لكم.

ولما كان هذا سبباً للإنكار على من قال هذا، قال: ﴿أفلا يرون﴾ أي أقالوا ذلك؟ فتسبب قولهم عن عماهم عن رؤية ﴿أن﴾ أي أنه ﴿لا يرجع إليهم قولاً﴾ والإله لا يكون أبكم ﴿ولا يملك لهم ضراً﴾ فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولوا ذلك خوفاً من ضره ﴿ولا نفعاً﴾ فيقولوا ذلك رجاء له.

ولما كان الذنب مع العلم أبشع، والضلال بعد البيان أشنع، قال عاطفاً على قوله ﴿قال يا قوم ألم يعدكم﴾ أو على قوله " قالوا ما أخلفنا ": ﴿ولقد قال لهم هارون﴾ أي مع أن من لم يعبده لم يملكوا رد من عبده.

ولما كان قولهم في بعض ذلك الزمان، قال: ﴿من قبل﴾ أي من قبل رجوع موسى، مستعطفاً لهم: ﴿يا قوم﴾ ثم حصر أمرهم ليجتمع فكرهم ونظرهم فقال: ﴿إنما

فتنتم ﴾ أي وقع اختباركم فاختبرتم في صحة إيمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه ﴿ به ﴾ أي بهذا التمثال في إخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة .

(71/501)

وأكد لأجل إنكارهم فقال : ﴿ وإن ربكم ﴾ أي الذي أخرجكم من العدم ورباكم بالإحسان ﴿ الرحمن ﴾ وحده الذي فضله عام ونعمه شاملة ، فليس على البر ولا فاجر نعمة إلا وهي منه قبل أن يوجد العجل ، وهو كذلك بعده .

ومن رحمته قبول التوبة ، فخافوا نزع نعمه بمعصيته ، وارجوا إسباغها بطاعته ﴿ فاتبعوني ﴾ بغاية جهدكم في الرجوع إليه ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ في دوام الشرف بالخضوع لديه ، ودوام الإقبال عليه ، بدفع عنكم ضيره ، ويفض عليكم خيره .

ولما كان هذا موضع أن يسأل من جوابهم لهذا الأمر الواضح الذي لا غبار عليه ، قيل : ﴿ قالوا ﴾ بفظاظة وجمود : ﴿ لن نبرح عليه ﴾ أي على هذا العجل ﴿ عاكفين ﴾ أي مقيمين مستديرين مجتمعين وإن حاربنا في ذلك ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ فدافعهم ، فهمّوا به ، وكان معظمهم قد ضل ، فلم يكن معه من يقوى بهم ، فخاف أن يجاهد بهم الكافرين فلا يفيد ذلك شيئاً ، ويقتل بعضهم فيحمى له آخرون من ذوي رحمة الأقربين ،

فيصير بين بني إسرائيل فرقة بعد ضم شتاتها وتلافي دهمائها ، وكانوا قد غيوا الرجوع برجوع موسى عليه السلام مع أنه لم يأمره بجهاد من ضل ، إنما قال له ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] فرأى من الإصلاح اعتزالهم إلى أن يأتي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 39 . 41 ﴾

(72/501)

فصل

قال الفخر :

﴿ قالوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ .

وفيمن قائل هذا الجواب من هو وجهان : الأول : أنهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا : إنا ما أخلفنا موعدك بملكنا أي بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه إلى نفسه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر ﴾ [البقرة : 50] ، ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ [البقرة : 72] وإن كان الفاعل لذلك آباءهم لا هم فكأنهم قالوا : الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضاً على مفارقتهم لأنا خفنا أن يصير ذلك سبباً لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة .

الوجه الثاني : أن هذا قول عبدة العجل والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة في قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذي أوقع الشبهة فإنه كان كالمالك لنا .

فإن قيل : كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف إنسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة إلى عبادة العجل الذي يعرف فسادها بالضرورة ، ثم إن مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده إليهم ، قلنا : هذا غير ممتنع في حق البله من الناس ، واعلم أن في بملكنا ثلاث قراءات ، قرأ حمزة والكسائي بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر ، أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل .

وأما الضم فهو السلطان ، ثم إن القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا : ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن عامر : حملنا مشددة ، فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه :

أحدها : أن موسى عليه السلام حملهم على ذلك أي أمرهم باستعارة الحلي والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك .

وثانيها : جعلنا كالضامن لها إلى أن نؤديها إلى حيث يأمرنا الله .

وثالثها : أن الله تعالى حملهم ذلك على معنى أنه ألزمهم فيه حكم المغنم ، أما الأوزار فهي الأثقال ومن ذلك سمي الذنب وزراً لأنه ثقل ثم فيه احتمالات .

أحدها : أنه لكثرتها كانت أثقالاً .

وثانيها : أن المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالاً .

وثالثها : المراد بالأوزار الآثام والمعنى حملنا آثاماً ، روي في الخبر أن هارون عليه السلام قال : إنها نجسة فتطهروا منها ، وقال السامري : إن موسى عليه السلام إنما احتبس عقوبة بالحلي فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول .

وقد يقول الإنسان للشيء الذي يلزمه رده هذا كله إثم وذنب .

ورابعها : أن ذلك الحلي كان القبط يتزينون به في مجامع لهم يجري فيها الكفر لا جرم أنها وصفت بكونها أوزاراً كما يقال مثله في آلات المعاصي .

أما قوله : ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ فذكروا فيه وجوهاً في أنهم أين قذفوها ؟ الوجه الأول : قذفوها في حفرة كان هارون عليه السلام أمرهم بجمع الحلي فيها انتظاراً لعود موسى عليه السلام .

والوجه الثاني : قذفوها في موضع أمرهم السامري بذلك .

الوجه الثالث : في موضع جمع فيه النار ثم قالوا : فكذلك ألقى السامري أي فعل السامري مثل ما فعلنا ، أما قوله : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ فاختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حياً أم لا ؟ فالقول الأول : لا لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد الضال بل السامري صور صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل .

والقول الثاني : أنه صار حياً وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه : أحدها : قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ [طه : 96] ولو لم يصر حياً لما بقي لهذا الكلام فائدة .

وثانيها : أنه تعالى سماه عجلاً والعجل حقيقة في الحيوان وسماه جسداً وهو إنما يتناول الحي .

(74/501)

وثالثها : أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعي الإلهية جائز لأنه لا يحصل الإلتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع ، وروى عكرمة عن

ابن عباس أن هارون عليه السلام مر بالسامري وهو يصنع العجل فقال : ما تصنع ؟ فقال : أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي فقال : اللهم أعطه ما سأل فلما مضى هارون قال السامري : اللهم إني أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجزاً للنبي ، أما قوله : ﴿ فَقَالُواْ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ففيه إشكال وهو أن القوم إن كانوا في الجهالة بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل المعمول في تلك الساعة هو الخالق للسموات والأرض فهم مجانين وليسوا بمكلفين ولأن مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وإن لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا : هذا إلهكم وإله موسى ، وجوابه : لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الإله أو حلول صفة من صفاته في ذلك الجسم ، وإن كان ذلك أيضاً في غاية البعد لأن ظهور الخوار لا يناسب الإلهية ، ولكن لعل القوم كانوا في نهاية البلادة والجلافة ، وأما قوله : فنسي ففيه وجوه .

الأول : أنه كلام الله تعالى كأنه أخبر عن السامري أنه نسي الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء ثم إنه سبحانه بين المعنى الذي يجب الاستدلال به وهو قوله : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نفعاً ﴾ أي لم يخطر ببالهم أن من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون إلهاً ولا يكون للإله تعلق به في الحالية والمحلية .

الوجه الثاني : أن هذا قول السامري وصف به موسى عليه السلام والمعنى أن هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن هذا هو الإله فذهب يطلبه في موضع آخر وهو قول الأكثرين .

(75/501)

الوجه الثالث : فنسي وقت الموعد في الرجوع أما قوله : ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ فهذا استدلال على عدم إلهيتها بأنها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على أن الإله لا بد وأن يكون موصوفاً بهذه الصفات وهو كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمر لا يعول إلا على دلائل إبراهيم عليه السلام بقي ههنا بحثان .

البحث الأول : قال الزجاج : الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله :

﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ﴾ [المائدة : 71] بمعنى أنه لا تكون وقرىء بالنصب أيضاً على أن هذه هي الناصبة للأفعال .

البحث الثاني : هذه الآية تدل على وجوب النظر في معرفة الله تعالى وقال في آية أخرى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : 148] وهو قريب في المعنى

من قوله في ذم عبدة الأصنام : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] وليس المقصود من هذا أن العجل لو كان يكلمهم لكان إلهاً لأن الشيء يجوز أن يكون مشروطاً بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضي فوات المشروط ، ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضي حصول المشروط .

الثالث : قال بعض اليهود لعلي عليه السلام : ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم ؟ فقال : إنما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه ، وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟

(76/501)

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) ﴾

اعلم أن هارون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلأنه كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان مأموراً من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله : ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] فلو لم يشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان

مخالفاً لأمر الله تعالى ولأمر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز ، أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم ، فقال : يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ فقال : إنهم لم يغضبوا لغضبي .

وقال ثابت البناني قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله في شيء ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم " .

وعن الشعبي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " وقال أبو علي الحسن الغوري : كنت في بعض المواضع فرأيت زورقاً فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح : إيش هذا فقال : أنت صوفي فضولي وهذه خمور المعتضد ، فقلت له : أعطني ذلك المدرى ، فقال لغلامه : اعطه حتى نبصر إيش يعمل ، فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنا دنا والملاح يصيح حتى بقي واحد فأمسكت فجاء صاحب السفينة فأخذني وحملني إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره علي قال من أنت ؟ قلت المحتسب ، قال من ولاك الحسبة ؟ قلت : الذي ولاك الخلافة .

قال : لم كسرت هذه الدنان ؟ قلت شفقة عليك إذا لم تصل يدي إلى دفع مكروه عنك .

قال : فلم أبقيت هذا الواحد قلت إني لما كسرت هذه الدنان فإني إنما كسرتها حمية في دين الله فلما وصلت إلى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته ، فقال : اخرج يا شيخ فقد وليتك الحسبة ، فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطياً .

وأما الشفقة على المسلمين فلأن الإنسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه وأي شفقة أعظم من أن يرى جمعاً يتهافتون على النار فيمنعهم منها ، وعن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام : " يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم فإن فيهم غضبي " ، وعن عبد الله بن أبي أوفى قال : "خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أبو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر : ضم الصبي إليك فإنه ضال فأخذه عمر فإذا امرأة تولول كاشفة رأسها جزعاً على ابنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أدرك المرأة " فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك : " أترون هذه رحيمة بولدها ؟ " قالوا : يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال " والذي نفسي بيده إن الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها " ويروى : " أنه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه إذ نظر إلى شاب على باب المسجد فقال : " من أراد أن ينظر

إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا " فسمع الشاب ذلك فولى ، فقال : إلهي وسيدي هذا رسولك يشهد علي بأني من أهل النار وأنا اعلم أنه صادق ، فإذا كان الأمر كذلك فأسألك أن تجعلني فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشعل النار بي حتى تبر يمينه ولا تشعل النار بأحد آخر ، فهبط جبريل عليه السلام وقال : "يا محمد بشر الشاب بأني قد أنقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق " .

(78/501)

إذا ثبت ذلك فاعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب .

ثم إن هارون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال : ﴿ ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ الآية وههنا دقيقة وهي أن الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلي : " أنت مني بمنزلة هرون من موسى " ثم إن هرون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره ، فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هارون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول : ﴿ فاتبعونى وَأَطِيعُواْ أَمْرِى ﴾ فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب ، واعلم

أن هرون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله : ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ ثم دعاها ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله : ﴿ فاتبعونى ﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِى ﴾ وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة ، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه ، وإنما قال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ فخص هذا الموضع باسم الرحمن لأنه كان ينبهُهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن الرحيم ، ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 92.89 ﴾

(79/501)

وقال الماوردى :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بطاقتنا ، قاله قتادة والسدي .

الثاني : لم نملك أنفسنا عند ذلك للبلية التي وقعت بنا ، قاله ابن زيد .

الثالث : لم يملك المؤمنون منع السفهاء من ذلك والموعد الذي أخلفوه أن وعدهم أربعين فعدّوا الأربعين عشرين يوماً ليلة وظنوا أنهم قد استكملوا الميعاد ، وأسعدهم السامري أنهم قد استكملوه .

﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أي حملنا من حلي آل فرعون ، لأن موسى أمرهم أن يستعيروا من حليهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي . وقيل : جعِلت حملاً .

والأوزار : الأثقال ، فاحتمل ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يراد بها أثقال الذنوب لأنهم قد كان عندهم غلول .

الثاني : أن يراد أثقال الحمل لأنه أثقلهم وأثقل أرجلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ الآية . قال قتادة . أن السامري قال لهم حين استبطأ القومُ موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلي ، فجمعوه ورفعوه للسامري ، فصاغ منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة قبضها من أثر الرسول وهو جبريل ، وقال معمر : الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة فلما ألقى القبضة عيه صار عجلاً جَسَداً له خوار .

والخوار صوت الثور ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه صوت حياة خلقه ، لأن العجل المُصَاغ انقلب بالقبضة التي من أثر الرسول

فصار حيواناً حياً ، قاله الحسن ، وقتادة ، والسدي ، وقال ابن عباس : خار العجل خورة واحدة لم يتبعها مثلها .

الثاني : أن خواره وصوته كان بالريح ، لأنه عمل فيه خروقاً فإذا دخلت الريح فيه خار ولم يكن فيه حياة ، قاله مجاهد .

﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ﴾ يعني أن السامري قال لقوم موسى بعد فراغه من العجل : هذا إلهكم وإله موسى ، يعني ليسرعوا إلى عبادته .

﴿ فَنَسِيَ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : فنسي السامري إسلامه وإيمانه ، قاله ابن عباس .

(80/501)

الثاني : فنسي السامري قال لهم : قد نسي موسى إلهه عندكم ، قاله قتادة ، والضحاك .

الثالث : فنسي أن قومه لا يصدقونه في عبادة عجل لا يضر ولا ينفع ، قاله ابن بحر .

الرابع : أن موسى نسي أن قومه قد عبدوه العجل بعده ، قاله مجاهد .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ يعني أفلا يرى بنو إسرائيل أن العجل الذي عبدوه لا يرد عليهم جواباً .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ؟ فكيف يكون إلهاً .

قال مقاتل : لما مضى من موعد موسى خمسة وثلاثون يوماً أمر السامري بني إسرائيل أن يجمعوا ما استعاروه من حلي آل فرعون ، وصاغه عجلاً في السادس والثلاثين والسابع والثامن ودعاهم إلى عبادة العجل في التاسع فأجابوه ، وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(81/501)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾

وقرأ نافع وعاصم " بمَلكنا " بفتح الميم ، وقرأ حمزة والكسائي " بمُلكنا " بضمة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " بمِلكنا " بكسرة ، قال أبو علي هذه لغات ع ظاهر هذا الكلام أنها بمعنى واحد ولكن إن أبا علي وغيره قد فرق بين معانيها فأما ضم الميم فمعناه على قول أبي علي لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك بقوته وسلطانه وإنما أخلفناه بنظر أدى إليه ما فعل السامري وليس المعنى أن لهم ملكاً وإنما هذا كقول ذي الرمة : [البسيط]

لا يشتكي سقط منها وقد رقصت . . . بها المفاوز حتى ظهرها حدب

إذ لا تكون منها سقطة فتشتكي ، قال وهذا كقوله تعالى : ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ [البقرة : 273] أي ليس منهم سؤال فيكون منهم إلحاف ع وهذا كله في هذه الأمثلة غير متيقن من قول أبي علي وإنما مشى في ذلك على أثر الزجاج دون تعقب وقد شرحت هذا المعنى في سورة البقرة في تفسير ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ [البقرة : 273] وبين أن هذه ليست كهذه الأمثلة لأنهم لم يرفعوا الإخلاف فيها والأمثلة فيها رفع الوجهين ، وأما فتح الميم فهو مصدر من ملك والمعنى ما فعلنا ذلك بأنا ملكنا الصواب ولا وفقنا له بل غلبتنا أنفسنا ، وأما كسر الميم فقط كثر استعماله فيما تحوزه اليد ولكنه يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان ومعناها كمعنى التي قبلها والمصدر مضاف في الوجهين إلى الفاعل والمفعول مقدر أي " بملكنا الصواب " ، وهذا كما قد يضاف أحياناً إلى المفعول والفاعل مقدر كقوله تعالى : ﴿ بسؤال نعجتك ﴾ [ص : 24] ومن دعاء الخير ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم " حُمِّلنا " بضم الحاء وشد الميم ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي " حَمَلنا " بفتح الحاء والميم . و" الأوزار " الأثقال ، وتحتمل هذه التسمية أن تكون من حيث هي ثقيلة الأجرام ، ويحتمل أن يكون من حيث آمنوا في قذفها وظهر لهم أن

ذلك هو الحق فكانت آثاماً لمن حملها . وقوله ﴿ فكذلك ألقى ﴾ أي فكما قذفنا نحن ﴿ فكذلك ﴾ أيضاً ﴿ ألقى السامري ﴾ ما كان بيده وهذه الألفاظ تقتضي أن العجل لم يصغه السامري ، ثم أخبر الله تعالى عن فعل السامري بقوله تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً ﴾ ، ومعنى قوله ﴿ جسداً ﴾ أي شخصاً لا روح فيه ، وقيل معنى ﴿ جسداً ﴾ لا يتغذى . و" الخوار " صوت البقر ، وقالت فرقة كان هذا العجل يخور ويمشي وهكذا تكون الفتنة من قبل الله تعالى قاله ابن عباس ، وقالت فرقة إنما خار مرة واحدة . ثم لم يعد وقالت فرقة إنما كان خواره بالريح كانت تدخل من دبره وتخرج من فيه

فيصوت لذلك .

﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾

الضمير في قوله ﴿ فقالوا ﴾ لبني إسرائيل ، أي قالوا حين قال كبارهم لصغارهم وهذا إشارة إلى العجل .

قوله تعالى ﴿ فنسي ﴾ يحتمل أن يكون من كلام بني إسرائيل أي فنسي موسى ربه وإلهه فذهب يطلبه في غير موضعه ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ فنسي ﴾ إخباراً من الله تعالى عن السامري ، أي نسي دينه وطريق الحق ع فالنسيان في التأويل الأول بمعنى الذهول ، وفي الثاني بمعنى الترك ، ثم قرن تعالى مواضع خطاهم بقوله تعالى : ﴿ أفلا يرون ﴾ المعنى أفلم يتبين هؤلاء الذين ضلوا أن هذا العجل إنما هو جماد لا يتكلم ولا يرجع قولاً ولا يضر ولا ينفع ، وهذه خلال لا يخفى معها الحدوث والعجز لا أن هذه الخلال لو حصلت له أوجبت كونه إلهاً وقرأت فرقة " أن لا يرجعُ " برفع العين ، " وأن " على هذه القراءة المخففة من الثقيلة والتقدير أنه لا يرجع ، وقرأت فرقة " أن لا يرجع " " وأن " على هذه القراءة هي الناصبة ، وأخبر عز وجل أن ﴿ هارون ﴾ قد كان لهم في أول حال العجل ﴿ يا قوم ﴾ إنما هي فتنة وبلاء وتمويه من السامري وإنما ﴿ ربكم الرحمن ﴾ الذي له القدرة والعلم والخلق والاختراع ﴿ فاتبعوني ﴾ إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ في ما ذكرته لكم وقرأت فرقة " إنما وإن ربكم الرحمن " بكسر الهمزتين ، وقرأت

فرقة " إنما " بالكسر " وأن " بالفتح ، والقراءة الوسطى ضعيفة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(85/501)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : بكسر الميم ، وقرأ نافع ، وعاصم : بفتح الميم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : بضم الميم .

قال أبو علي : وهذه لغات .

وقال الزجاج : المُلْك ، بالضم : السلطان والقدرة .

والمِلْك ، بالكسر : ما حوته اليد .

والمَلْك ، بالفتح : المصدر ، يقال : ملكت الشيء أملكه ملكاً .

وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : ما كنا نملك الذي اتُّخذ منه العجلُ ، ولكنها كانت زينة آل فرعون ، فقذفناها ،

قاله ابن عباس .

والثاني : بطاقتِنا ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : لم نملك أنفسنا عند الوقوع في البليَّة ، قاله ابن زيد .

والرابع : لم يملك مؤمنونا سفهاءنا ، ذكره الماوردي .

فيخرَّج فيمن قال هذا لموسى قولان .

أحدهما : أنهم الذين لم يعبُدوا العجل .

والثاني : عابدوه .

قوله تعالى : ﴿ ولكنَّا حُمّلنا أوزاراً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : "حُمِّلْنا" بضم الحاء وتشديد الميم .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "حملنا" خفيفة .

والأوزار : الاثقال .

والمراد بها : حلي آل فرعون الذي كانوا استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر .

فمن قرأ "حُمِّلنا" بالتشديد ، فالمعنى : حَمَّلَنا [ها] موسى ، أمَرَنا باستعارتها من آل فرعون ، ﴿ فقذفناها ﴾ أي : طرحناها في الحفيرة .

وقد ذكرنا سبب قذفهم إياها في سورة [البقرة : 52] .

قوله تعالى : ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه ألقى حلياً كما ألقَوْا .

والثاني : ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل .

وقد سبق شرح القصة في [البقرة : 52] ، وذكرنا في [الأعراف : 148] معنى قوله تعالى : ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا هذ إِلهكم ﴾ هذا قول السامري ومن وافقه من الذين افتُتنوا .

قوله تعالى : ﴿ فنسي ﴾ في المشار إِليه بالنسيان قولان .

أحدهما : أنه موسى .

(86/501)

ثم في المعنى ثلاثة أقوال .

أحدها : هذا إِلهكم وإِله موسى فنسي موسى أن يخبركم أن هذا إِلهه ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : فنسي موسى الطريق إِلى ربه ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : فنسي موسى إِلهه عندكم ، وخالفه في طريق آخر ، قاله قتادة .

والثاني : أنه السامري ، والمعنى : فنسي السامريُّ إِيمانه وإِسلامه ، قاله ابن عباس .

وقال مكحول : فنسي ، أي : فترك السامريُّ ما كان عليه من الدين .

وقيل : فنسي أن العجل لا يرجع إِليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

فعلى هذا القول ، يكون قوله تعالى : ﴿ فنسي ﴾ من إِخبار الله عز وجل عن السامري .

وعلى ما قبله ، فيمن قاله قولان .

أحدهما : أنه السامريُّ .

والثاني : بنو إِسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يرون ألاَّ يرجعُ ﴾ قال الزجاج : المعنى : أفلا يرون أنه لا يرجع "إِليهم قولاً" .

قوله تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾

أي : من قبل أن يأتي موسى ﴿ يا قومِ إنما فتنتم به ﴾ أي : ابتليتم ﴿ وإِن ربّكم الرحمنُ ﴾ لا العجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(87/501)

وقال القرطبى :

﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾

بفتح الميم ، وهي قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر .

قال مجاهد والسدي : ومعناه بطاقتنا .

ابن زيد : لم نملك أنفسنا أي كنا مضطرين .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر "بِمِلْكِنَا" بكسر الميم .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها اللغة العالية .

وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملْكا .

والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ؛ كأنه قال : بِملْكنا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ .

وقرأ حمزة والكسائي "بِمُلْكنا" بضم الميم والمعنى بسلطاننا .

أي لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك .

ثم قيل قوله : "قَالُوا" عام يراد به الخاص ؛ أي قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ وكانوا اثني عشر ألفا ، وكان جميع بني إسرائيل ستمائة ألف .

﴿ ولكنا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة ؛ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس .

الباقون بفتح الحرفين خفيفة .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنهم حملوا حُلي القوم معهم وما حملوه كرهاً .

﴿ أَوْزَاراً ﴾ أي أثقالاً ﴿ مِّن زِينَةِ القوم ﴾ أي من حليّهم؛ وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة.

وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون، لما قذفهم البحر إلى الساحل.

وسميت أوزاراً بسبب أنها كانت آثاماً.

أي لم يحلّ لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم، وأيضاً فالأوزار هي الأثقال في اللغة.

﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحليّ فقذفناه في النار ليذوب، أي طرحناه فيها.

وقيل: طرحناه إلى السامريّ لترجع فترى فيها رأيك.

(88/501)

قال قتادة: إن السامري قال لهم حين استبطأ القومُ موسى: إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحليّ؛ فجمعوه ودفعوه إلى السامريّ فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام.

وقال معمر: الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضة صار عجلاً جسداً له خُوار.

والخُوار صوت البقر .

وقال ابن عباس : لما انسكبت الحليّ في النار ، جاء السامريّ وقال لهارون : يا نبيّ الله أؤلقي ما في يدي وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحليّ فقذف التراب فيه ، وقال : كن عجلاً جسداً له خُوار ، فكان كما قال ؛ للبلاء والفتنة ؛ فخار خَورة واحدة لم يُتبعها مثلها .

وقيل : خُواره وصوته كان بالريح ؛ لأنه كان عمل فيه خروقاً فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم تكن فيه حياة .

وهذا قول مجاهد .

وعلى القول الأوّل كان عجلاً من لحم ودم ، وهو قول الحسن وقتادة والسديّ .

وروى حماد عن سِماك عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : مرّ هارون بالسامريّ وهو يصنع العجل ، فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر ؛ فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه ؛ فقال : اللهم إني أسألك أن يخور .

وكان إذا خار سجدوا ، وكان الخوار من أجل دعوة هارون .

قال ابن عباس : خار كما يخور الحيّ من العجول .

وروي أن موسى قال : يا رب هذا السامريّ أخرج لهم عجلاً جسداً له خُوار من حليّهم ، فمن جعل الجسد والخوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا .

قال موسى صلى الله عليه وسلم : وعزتك وجلالك وارتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلّهم غيرُك .

قال : صدقت يا حكيم الحكماء .

وقد تقدّم هذا كله في سورة "الأعراف" .

﴿ فَقَالُواْ هاذا آلهكم وإله موسى ﴾ أي قال السامريّ ومن تبعه وكانوا ميالين إلى التّشبيه ؛ إذ قالوا : ﴿ اجعل لّنَا آلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] .

(89/501)

﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي فضلّ موسى (وذهب) يطلبه فلم يعلم مكانه ، وأخطأ الطريق إلى ربه .

وقيل : معناه : فتركه موسى هنا وخرج يطلبه .

أي ترك موسى إلهه هنا .

وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أي فنسي موسى أن يذكر لكم أنه إلهه .

وقيل : الخطاب خبر عن السامريّ .

أي ترك السامريّ ما أمره به موسى من الإيمان فضل ؛ قاله ابن الأعرابيّ .

فقال الله تعالى محتجاً عليهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي يعتبرون ويتفكرون في ﴿ أن ﴾ ه ﴿ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ أي لا يكلمهم .

وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾

فكيف يكون إلها ؟ ! والذي يعبده موسى صلى الله عليه وسلم يضر وينفع ويثيب ويعطي ويمنع .

"أَنْ لَا يَرْجِعُ" تقديره أنه لا يرجع فلذلك ارتفع الفعل فخففت "أن" وحذف الضمير .

وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن .

قال :

في فتيةٍ من سيوف الهند قد علموا . . .

أَنْ هالكٌ كلُّ من يَحْفَى ويَنْتَعِلُ

وقد يحذف مع التشديد ؛ قال :

فلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتي . . .

ولكنَّ زنجيٌّ عظيمُ المشافِرِ

أي ولكنك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ﴿

يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ أي ابتليتم وأضللتم به ؛ أي بالعجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ لا العجل ﴿ فاتبعوني ﴾ في عبادته ﴿ وأطيعوا أَمْرِي ﴾ لا أمر السامريّ.

أو فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل ؛ فعصوه و ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(90/501)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾

وقرأ الأخوان والحسن والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وقعنب بِمُلْكِنا بضم الميم .

وقرأ زيد بن عليّ ونافع وعاصم وأبو جعفر وشيبة وابن سعدان بفتحها وباقي السبعة بكسرها .

وقرأ عمر رضي الله عنه بِمَلَكِنا بفتح الميم واللام وحقيقته بسلطاننا ، فالملك والملك بمنزلة النقض والنقض .

والظاهر أنها لغات والمعنى واحد وفرق أبو عليّ وغيره بين معانيها فمعنى الضم أنه لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك بسلطانه وإنما أخلفناه بنظر أدّى إليه ما فعل السامري ، فليس

المعنى أن لهم ملكاً وإنما هذا كقول ذي الرّمة :

لا يشتكي سقط منها وقد رقصت . . .

بها المفاوز حتى ظهرها حدب

أي لا يكون منها سقطة فتشتكي ، وفتح الميم مصدر من ملك والمعنى ما فعلنا ذلك بأنا ملكنا الصواب ولا وفقنا له ، بل غلبتنا أنفسننا وكسر الميم كثر استعماله فيما تحوزه اليد ولكنه يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان ومعناها كمعنى التي قبلها .

والمصدر في هذين الوجهين مضاف إلى الفاعل والمفعول مقدر أي ﴿ بملكنا ﴾ الصواب .

وقال الزمخشري ؛ أي ﴿ ما أخلفنا موعدك ﴾ بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفناه ، ولكن غُلبنا من جهة السامري وكيده .

وقرأ الأخوان وأبو عمرو وابن محيصن بفتح الحاء والميم وأبو رجاء بضم الحاء وكسر الميم .

وقرأ باقي السبعة وأبو جعفر وشيبة وحميد ويعقوب غير روح كذلك إلا أنهم شدّدوا الميم ، والأوزار الأثقال أطلق على ما كانوا استعاروا من لقيط برسم التزين أوزاراً لثقلها ، أو لسبب أنهم أثموا في ذلك فسميت أوزاراً لما حصلت الأوزار التي هي الآثام بسببها .

والقوم هنا القبط .

وقيل : أمرهم بالاستعارة موسى .

وقيل : أمر الله موسى بذلك .

وقيل : هو ما ألقاه البحر مما كان على الذين غرقوا .

(91/501)

وقيل : الأوزار التي هي الآثام من جهة أنهم لم يردوها إلى أصحابها ، ومعنى أنهم حملوا الآثام وقذفوها على ظهورهم كما جاؤهم يحملون أوزارهم على ظهورهم .

وقيل معنى ﴿ فقذفناها ﴾ أي الحليّ على أنفسنا وأولادنا .

وقيل ﴿ فقذفناها ﴾ في النار أي ذلك الحليّ ، وكان أشار عليهم بذلك السامري فحفرت حفرة وسجرت فيها النار وقذف كل من معه شيء ما عنده من ذلك في النار .

وقذف السامري ما معه .

ومعنى ﴿ فكذلك ﴾ أي مثل قذفنا إياها ﴿ ألقى السامري ﴾ ما كان معه .

وظاهر هذه الألفاظ أن العجل لم يصنعه السامري .

وقال الزمخشري : ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ أراهم أنه يلقي حلياً في يده مثل ما ألقوا وإنما ألقى التربة التي أخدها من موطىء حيزوم فرس جبريل عليه السلام ، أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتاً صار حيواناً فأخرج لهم السامري من الحفرة عجلاً خلقه

الله من الحلي التي سبكتها النار تخور كخور العجاجيل .

والمراد بقوله ﴿ إنا قد فتنا قومك ﴾ هو خلق العجل للامتحان أي امتحناهم بخلق العجل وحملهم السامري على الضلال وأوقعهم فيه حين قال لهم ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ انتهى .

وقيل : معنى ﴿ جسداً ﴾ شخصاً .

وقيل : لا يتغذى ، وتقدم الكلام على قوله ﴿ له خوار ﴾ في الأعراف .

والضمير في ﴿ فقالوا ﴾ لبني إسرائيل أي ضلوا حين قال كبارهم لصغارهم و ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى العجل .

وقيل : الضمير في ﴿ فقالوا ﴾ عائد على السامري أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً لجرمه .

وقيل : عليه وعلى تابعيه .

(92/501)

وقرأ الأعمش فنَسِيْ بسكون الياء ، والظاهر أن الضمير في ﴿ فَنَسِيَ ﴾ عائد على السامري أي ﴿ فنسي ﴾ إسلامه وإيمانه قاله ابن عباس ، أو فترك ما كان عليه من الدين قاله مكحول ، وهو كقول ابن عباس أو ﴿ فنسي ﴾ أن العجل ﴿ لا يرجع إليهم قولاً ولا

يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ و ﴿ فنسي ﴾ الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء وعلى هذه الأقوال يكون ﴿ فنسي ﴾ إخباراً من الله عن السامري.

وقيل: الضمير عائد على موسى عليه السلام أي ﴿ فنسي ﴾ موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهكم أو ﴿ فنسي ﴾ الطريق إلى ربه، وكلا هذين القولين عن ابن عباس.

أو ﴿ فنسي ﴾ موسى إلهه عندكم وخالفه في طريق آخر قاله قتادة، وعلى هذه الأقوال يكون من كلام السامري.

ثم بيَّن تعالى فساد اعتقادهم بأن الألوهية لا تصلح لمن سلبت عنه هذه الصفات فقال: ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ وهذا كقول إبراهيم لأبيه ﴿ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ﴾ والرؤية هنا بمعنى العلم، ولذلك جاء بعدها أن المخففة من الثقيلة كما جاء ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ بأن الثقيلة وبرفع يرجع قرأ الجمهور.

وقرأ أبو حيوة ﴿ أن لا يرجع ﴾ بنصب العين قاله ابن خالويه.

وفي الكامل ووافقه على ذلك وعلى نصب ﴿ ولا يملك ﴾ الزعفراني وابن صبيح وأبان والشافعي محمد بن إدريس الإمام المطلبي جعلوها أن الناصبة للمضارع وتكون الرؤية من الإبصار.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾

اللحية معروفة وتجمع على لِحَى بكسر اللام وضمها .

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ﴾ .

(93/501)

أشفق هارون على نفسه وعليهم وبذل لهم النصيحة ، وبيّن أن ما ذهبوا إليه من أمر العجل إنما هو فتنة إذ كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن أخيه موسى عليه السلام ﴿ اخلفني في قومي ﴾ الآية ولا يمكنه أن يخالف أمر الله وأمر أخيه . وروي أن الله أوحى إلى يوشع إني مهلك من قومك أربعين ألفاً فقال : يا رب فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم تغضبوا لغضبي ، والمضاف إليه المقطوع عنه من قبل قدره الزمخشري من قبل أن يقول لهم السامري ما قال ، كأنهم أول ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه قبل أن ينطق السامري بادر هارون عليه السلام بقوله ﴿ إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ﴾ .

وقال ابن عطية : أخبر عز وجل أن هارون قد كان قال لهم في أول حال العجل إنما هي فتنة وبلاء وتمويه من السامري ، وإنما ربكم الرحمن الذي له القدرة والعلم والخلق والاختراع ﴿

فاتبعوني ﴾ إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ فيما ذكرته لكم انتهى.

والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على العجل، زجرهم أولاً هارون عن الباطل وإزالة الشبهة بقوله ﴿ إنما فتنتم به ﴾ ثم نبههم على معرفة ربهم وذكر وصف الرحمة تنبيهاً على أنهم متى تابوا قبلهم وتذكيراً لتخليصهم من فرعون زمان لم يوجد العجل، ثم أمرهم باتباعه تنبيهاً على أنه نبيّ يجب أن يتبع ويطاع أمره.

وقرأ الحسن وعيسى وأبو عمرو في رواية وأن ربكم بفتح الهمزة والجمهور بكسرها، والمصدر المنسبك منها في موضع خبر مبتدأ محذوف تقديره والأمر ﴿ إن ربكم الرحمن ﴾ فهو من عطف جملة على جملة، وقدره أبو حاتم ولأن ربكم الرحمن.

وقرأت فرقة أنما وأن ربكم بفتح الهمزتين وتخريج هذه القراءة على لغة سليم حيث يفتحون أن بعد القول مطلقاً. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(94/501)

وقال أبو السعود:

﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾

أي وعدَنا إياك الثباتَ على ما أمرتَنا به ، وإيثارُه على أن يقال : موعدَنا على إضافة المصدرِ إلى فاعله لما مر آنفاً ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ أي بأن ملَكنا أمورَنا يعنون أنا لو خُلّينا وأمورَنا ولم يسوّل لنا السامريُّ ما سوله مع مساعدة بعضِ الأحوال لما أخلفناه ، وقرىء بمُلْكنا بكسر الميم وضمّها والكلُّ لغاتٌ في مصدر ملَكتُ الشيءَ ﴿ ولكنا حُمّلْنَا أَوْزَاراً مّن زِينَةِ القوم ﴾ استدراكٌ عما سبق واعتذارٌ عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ، وقرىء حَمَلنا بالتخفيف أي حمَلْنا أحمالاً من حُليّ القِبْط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصرَ باسم العُرس ، وقيل : كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردّوها إليهم عند الخروجِ مخافةَ أن يقفوا على أمرهم ، وقيل : هي ما ألقاه البحرُ على الساحل بعد إغراقهم فأخذوها ، ولعل تسميتهم لها أوزاراً لأنها تبعاتٌ وآثامٌ حيث لم تكن الغنائمُ تحِلّ حينئذ ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي في النار رجاءً للخلاص عن ذنبها ﴿ فَكَذَلِكَ ﴾ أي فمثلَ ذلك القذف ﴿ أَلْقَى السامرى ﴾ أي ما كان معه منها وقد كان أراهم أنه أيضاً يُلقي ما كان معه من الحُليّ فقالوا ما قالوا على زعمهم ، وإنما كان الذي ألقاه التربةَ التي أخذها من أثر الرسولِ كما سيأتي ، روي أنه قال لهم : إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من الأوزار فالرأي أن نحفِرَ حفيرةً ونسجّر فيها ناراً ونقذفَ فيها كلَّ ما معنا ففعلوا .

﴿ فَأَخْرَجَ ﴾ أي السامريُّ ﴿ لَهُمْ ﴾ للقائلين ﴿ عِجْلاً ﴾ من تلك الحُلِيّ المُذابة ، وتأخيرُه مع كونه مفعولاً صريحاً عن الجار والمجرور لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظمِ الكريم فإن قوله تعالى ﴿ جَسَداً ﴾ أي جُثةً ذا دم ولحمٍ ، أو جسداً من ذهب لا روحَ له بدلٌ منه وقوله تعالى : ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ أي صوتُ عجلٍ ، نعتٌ له ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي السامريُّ ومن افتُتن به أولَ ما رآه ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ أي غفَل عنه وذهب يطلُبه في الطور ، وهذا حكايةٌ لنتيجة فتنةِ السامريّ فعلاً وقولاً من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرِها ، ثم ترتيبِ الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل : فأخرج لنا ، والحملُ على أن عدولَهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الإخراجَ والقولَ المذكورَيْن للكل لا للعبَدة فقط خلافُ الظاهر مع أنه مُخلٌّ باعتذارهم ، فإن مخالفةَ بعضِهم للسامري وعدَم افتتانِهم بتسويله مع كون الإخراجِ والخطاب لهم مما يهوّن مخالفتَه للمعتذرين ، فافتتانُهم بعد ذلك أعظمُ جنايةً وأكثر شناعةً . وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبُدوا العجلَ وأن نسبة الإخلافِ فيما بيننا بأمر كنا نملكه ، بل تمكنت الشبهةُ في قلوب العبَدةِ حيث فعل السامريُّ ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال ، فلم نقدِرْ على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافةَ ازديادِ الفتنة فيقضي بفساده سباقِ النظمِ الكريم وسياقه وقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ الخ ، إنكار وتقبيحٌ من جهته تعالى لحال الضالّين والمُضلّين جميعاً وتسفيهٌ لهم فيما أقدموا عليه من المنكَر الذي لا يشتبه بطلانُه واستحالتُه على أحد وهو اتخاذُه إلها ، والفاءُ للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ ، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿ أَن لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أي أنه لا يرجِعُ إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً ، فكيف يتوهّمون أنه إله ؟ وقرىء يرجَعَ بالنصب ، قالوا : فالرؤية حينئذ بصريةٌ فإن أن الناصبةَ لا تقع بعد أفعالِ اليقين أي ألا ينظرون فلا يُبصرون عدمَ رجْعِه إليهم قولاً من الأقوال ، وتعليقُ الإبصار بما ذُكر مع كونه أمراً عدمياً للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ عطف على لا يرجعُ داخلٌ معه في حيز الرؤية ، أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفعَ عنهم ضرّاً أو يجلُبَ لهم نفعاً ، أو لا يقدر على أن يضرّهم إن لم يعبدوه أو ينفعَهم إن عبدوه ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هارون مِن قَبْلُ ﴾ جملةٌ قسميةٌ مؤكدة لما قبلها من الإنكار والتشنيع ببيان عُتوِهم واستعصائِهم على الرسول إثرَ بيانِ مكابرتهم لقضية العقولِ ، أي وبالله لقد نصح لهم هارونُ ونبّههم على كُنه الأمرِ من قبل رجوعِ موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وخطابِه إياهم بما ذكر من المقالات ، وقيل :

من قبل قولِ السامري كأنه عليه السلام أو وما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتانَ به فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم : ﴿ يا قومِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ أي أُوقِعتم في الفتنة بالعجل أو أُضللتم به على توجيه القصر المستفادِ من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدّعيه القومُ ، لا إلى قيده المذكورِ بالقياش إلى قيد آخرَ على معنى إنما فُعل بكم للفتنةُ لا الإرشادُ إلى الحق ، لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره

(97/501)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ بكسر إن عطفاً على إنما ، إرشادٌ لهم إلى الحق إثرَ زجرهم عن الباطل ، والتعرّضُ لعنوان الربوبيةِ والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق كما أن التعرضَ لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل ، أي إن ربكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا غيرُ ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاتبعونى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين ، أي إذا كان الأمرُ كذلك فاتبعوني في الثبات على الدين ﴿ وَأَطِيعُواْ أَمْرِى ﴾ هذا واتركوا عبادةَ ما عرفتم شأنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(98/501)

وقال الآلوسي :

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾

أي وعدنا إياك الثبات على دينك ، وإيثار على أن يقال موعدنا على إضافة المصدر إلى فاعله لما مر آنفاً .

﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ بأن ملكنا أمرنا يعنون إنا ولو خلينا وأنفسنا ولم يسول لنا السامري ما سوله مع مساعدة بعض الأحوال لما أخلفناه .

وقرأ بعض السبعة ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ الميم .

وقرأ الاخوان .

والحسن .

والأعمش وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وقعنب بضمها .

وقرأ عمر رضي الله عنه ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم واللام قال في البحر : أي بسلطاننا ، واستظهر أن الملك بالضم والفتح والكسر بمعنى .

وفرق أبو علي فقال : معنى المضمون أنه لم يكن لما ملك فنخلف موعدك بسلطانه وإنما

أخلفناه بنظر أدى إليه ما فعل السامري ، والكلام على حد قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسألونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ [البقرة : 273] وقول ذي الرمة :

لا تشتكي سقطة منها وقد رقصت . . .

بها المفاوز حتى ظهرها حدب

ومفتوح الميم مصدر ملك ، والمعنى ما فعلنا ذلك بأن ملكنا الصواب ووفقنا له بل غلبتنا انفسنا ومكسور الميم كثر استعماله فيما تحوزه اليد ولكنه يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان ، والمعنى عليه كالمعنى على المفتوح الميم ، والمصدر في هذين الوجهين مضاف إلى الفاعل والمفعول مقدر أي بملكنا الصواب ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مّن زِينَةِ القوم ﴾ استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ، والمراد بالقوم القبط والأوزار الأحمال وتسمى بها الآثام .

وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلى برسم التزين في عيد لهم قبيل الخروج من مصر كما أسلفنا .

وقيل : استعاروه باسم العرس .

وقيل : هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا ، ولعلهم أطلقوا على ذلك الأوزار مراداً بها الآثام من حيث أن الحلى سبب لها غالباً لما أنه يلبس في الأكثر للفخر والخيلاء والترفع على الفقراء ، وقيل : من حيث أنهم أثموا بسببه وعبدوا العجل المصوغ منه ، وقيل من حيث أن ذلك الحلى صار بعد هلاك أصحابه في حكم الغنيمة ولم يكن مثل هذه الغنيمة حلالاً لهم بل ظاهر الأحاديث الصحيحة أن الغنائم سواء كانت من المنقولات أم لا لم تحل لأحد قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، والرواية السابقة في كيفية الاضلال توافق هذا التوجيه إلا أنه يشكل على ذلك ما روي من أن موسى عليه السلام هو الذي أمرهم بالاستعارة حتى قيل : إن فاعل التحميل في قولهم ﴿ حُمِّلْنَا ﴾ هو موسى عليه السلام حيث الزمهم ذلك بأمرهم بالاستعارة وقد أبقاه في أيديهم بعد هلاك أصحابه وأقرهم على استعماله فإذا لم يكن حلالاً فكيف يقرهم ، وكذا يقال على القول بأن المراد به ما ألقاه البحر على الساحل ، واحتمال أن موسى عليه السلام نهى عن ذلك وظن الامتثال ولم يطلع على عدمه لإخفاء الحال عنه عليه السلام مما لا يكاد يلتفت إلى مثله أصلاً لا سيما على رواية أنهم أمروا باستعارة دواب من القوم أيضاً فاستعاروها وخرجوا بها .

وقد يقال : إن أموال القبط مطلقاً بعد هلاكهم كانت حلالاً عليهم كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى : ﴿ فأخرجناهم مّن جنات وَعُيُونٍ وكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وأورثناها بَنِى إسرائيل ﴾ [الشعراء : 57 59] وقد أضاف سبحانه الحلى إليهم في قوله تعالى : ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيّهِمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ [الأعراف : 148] وذلك يقتضي بظاهره أن الحلى ملك لهم ويدعي اختصاص الحل فيما كان الرد فيه متعذراً لهلاك صاحبه ومن يقوم مقامه ، ولا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي " لجواز أن يكون المراد به أحلت لي الغنائم على أي وجه كانت ولم تحل كذلك لأحد قبلي ويكون تسميتهم ذلك أوزاراً إما لما تقدم من الوجه الأول والثاني وإما لظنهم الحرمة لجهلهم في أنفسهم أو لالقاء السامري الشبهة عليهم ، وقيل : إن موسى عليه السلام أمره الله تعالى أن يأمرهم بالاستعارة فأمرهم وأبقى ما استعاروه بأيديهم بعد هلاك أصحابه بحكم ذلك الأمر منتظراً ما يأمر الله تعالى به بعد .

وقد جاء في بعض الأخبار ما يدل على أن الله سبحانه بين حكمه على لسان هارون عليه السلام بعد ذهاب موسى عليه السلام للميقات كما سنذكره قريباً إن شاء الله تعالى فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك .

والجار والمجرور يحتمل أن يكون متعلقاً بحملنا وأن يكون متعلقاً بمحذوف وقع صفة لأوزاراً ، ولا يتعين ذلك بناء على قولهم : إن الجمل والظروف بعد النكرات صفات وبعد المعارف

أحوال لأن ليس على إطلاقه .

وقرأ الأخوان .

وأبو عمرو .

وابن محيصن ﴿ حُمِّلْنَا ﴾ بفتح الحاء والميم .

(101/501)

وأبو رجاء ﴿ حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وكسر الميم من غير تشديد ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي طرحناها في النار كما تدل عليه الأخبار ، وقيل : أي ألقيناها على أنفسنا وأولادنا وليس بشيء أصلاً ﴿ فَكَذَلِكَ ﴾ أي فمثل ذلك ﴿ أَلْقَى السامرى ﴾ أي ما كان معه منها قيل كأنه أراهم أنه أيضاً يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وإنما كان الذي ألقاه التربة التي أخذها من أثر الرسول كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقيل : إنه ألقى ما معه من الحلى والقي مع ذلك ما أخذه من أثر الرسول كأنهم لم يريدوا إلا أنه ألقى ما معه من الحلى ، وقيل : أرادوا القي التربة ، وأيده بعضهم بتغيير الأسلوب إذ لم يعبر بالقذف المتبادر منه أن ما رماه جرم مجتمع وفيه نظر ، وقد يقال : المعنى فمثل ذلك الذي ذكرناه لك ألقى السامري إلينا وقرره علينا وفيه بعد وإن ذركه أنه قال لهم : إنما تأخر موسى

عليه السلام عنكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف فيها ما معنا منه ففعلوا وكان صنع في الحفيرة قالب عجل، وقد أخرج ابن اسحق.

وابن جرير.

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لما فصل موسى عليه السلام إلى ربه سبحانه قال لهم هارون عليه السلام: إنكم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم إلى فرعون وأمتعة وحلياً فتطهروا منها فإنها رجس وأوقد لهم ناراً فقال لهم: اقذفوا ما معكم من ذلك فيها فجعلوا يأتون بما معهم فيقذفونه فيها فجاء السامري ومعهم تراب من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام وأقبل إلى النار فقال لها رون عليه السلام: يا نبي الله أألقي ما في يدي؟ فقال: نعم ولا يظن هارون عليه السلام إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من ذلك الحلى والأمتعة فقذفه فيها فقال: كن عجلاً جسداً له خوار فكان للبلاء والفتنة.

وأخرج عبد بن حميد.

وابن أبي حاتم عنه أيضاً أن بني إسرائيل استعاروا حلياً من القبط فخرجوا به معهم فقال لهم هارون بعد أن ذهب موسى عليهما السلام : اجمعوا هذا الحلى حتى يجيء موسى فيقضي فيه ما يقضي فجمع ثم أذيب فألقى السامري عليه القبضة .

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾

﴿ فأخرج ﴾ أي السامري ﴿ لَهُمْ ﴾ للقائلين المذكورين ﴿ عِجْلاً ﴾ من تلك الأوزار التي قذفوها ، وتأخيره مع كونه مفعولاً صريحاً عن الجار والمجرور لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب النظم الكريم فإن قوله : ﴿ جَسَداً ﴾ أي جثة ذا لحم ودم أو جسداً من ذهب لا روح فيه بدل منه ، وقيل : هو نعت له على أن معناه أحمر كالجسد ، وكذا قوله تعالى : ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ نعت له ، والخوار صوت العجل ، وهذا الصوت إما لأنه نفخ فيه الروح بناء على ما أخرجه ابن مردويه عن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى لما وعد موسى عليه السلام أن يكلمه خرج للوقت الذي وعده فبينما هو يناجي ربه إذ سمع خلفه صوتاً فقال : إلهي إني أسمع خلفي صوتاً قال : لعل قومك ضلوا قال : إلهي من أضلهم ؟ قال : أضلهم السامري قال : فيم أضلهم ؟ قال : صاغ لهم عجلاً جسداً له خوار قال : إلهي هذا السامري صاغ لهم العجل فمن فيه الروح حتي صار له خوار ؟ قال : أنا يا موسى

قال : فوعزتك ما أضل قومي أحد غيرك قال : صدقت يا حكيم الحكماء لا ينبغي لحكيم أن يكون أحكم منك " .

(103/501)

وجاء في رواية أخرى عن راشد بن سعد أنه سبحانه قال له : يا موسى إن قومك قد افتتنوا من بعدك قال : يا رب كيف يفتتنون وقد نجيتهم من فرعون ونجيتهم من البحر وأنعمت عليهم وفعلت بهم قال : يا موى إنهم اتخذوا من بعدك عجلاً له خوار قال : يا رب فمن جعل فيه الروح؟ قال : أنا قال : فأنت يا رب أضللتهم قال : يا موسى يا رأس النبيين ويا أبا الحكماء إني رأيت ذلك في قلوبهم فيسرته لهم ، وإما لأنه تدخل فيه الريح فيصوت بناء على ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بني إسرائيل تأثموا من حلى آل فرعون الذي معهم فأخرجوه لتنزل النار فتأكله فلما جمعوه ألقى السامري القبض وقال : كن عجلاً جسداً له خوار فصار كذلك وكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه فيسمع له صوت ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي السامري ومن افتتن به أول ما رآه ، وقيل : الضمير للسامري ، وجيء به ضمير جمع تعظيماً لجرمه ، وفيه بعد .

﴿ هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ أي فغفل عنه موسى وذهب يطلبه في الطور ،

فضمير نسى لموسى عليه السلام كما روي عن ابن عباس .

وقتادة .

والفاء فصيحة أي فاعبدوه والزموا عبادته فقد نسي موسى عليه السلام ، وعن ابن عباس أيضاً .

ومكحول أن الضمير للسامري والنسيان مجاز عن الترك والفاء فصيحة أيضاً أي فأظهر السامري النفاق فترك ما كان فيه من أسرار الكفر ، والأخبار بذلك على هذا منه تعالى وليس داخلاً في حيز القول بخلافه على الوجه الأول .

(104/501)

وصنيع بعض المحققين يشعر باختيار الأول ، ولا يخفى ما في الإتيان باسم الإشارة والمشار إليه بمرأى منهم وتكريراً له ، وتخصيص موسى عليه السلام بالذكر وإتيان الفاء من المبالغة في الضلال ؛ والاخبار بالاخراج وما بعده حكاية نتيجة فتنة السامري فعلا وقولاً من جهته سبحانه قصداً إلى زيادة تقريرها ثم الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل فاخرج لنا ، والحمل على أن عدولهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فإن مخالفة بعضهم للسامري وعدم افتتانهم

بتسويله مع كون الإخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد أعظم جناية وأكثر سناعة ، وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الاخلاف إلى أنفسهم وهم برآء منه من قيل قولهم بنو فلان قتلوا فلاناً مع أن القاتل واحد منهم كانوا قالوا : ما وجدنا الاخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة في قلوب العبدة حيث فعل بهم السامري ما فعل فاخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فقد قال شيخ الإسلام : إن سياق النظم الكريم وسباقه يقضيان بفساده ، وذهب أبو مسلم إلى أن كلام المعتذرين ثم عند قولهم فقذفناها وما بعده من قوله تعالى : ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السامرى ﴾ [طه : 87] إلى آخره أخبار من جهته سبحانه أن السامري فعل كام فعلوا فأخرج لهم الخ وهو خلاف الظاهر . هذا وقرأ الأعمش ﴿ فَنَسِيَ ﴾ بسكون الياء ، وقوله تعالى :

(105/501)

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ إلى آخره إنكار وتقبيح من جهته تعالى الضالين والمضلين جميعاً وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذ ذلك العجل الها ، ولعمري لو لم يكونوا في البلادة كالبقر لما عبدوه ، والفاء للعطف

على مقدر يقتضيه المقام أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أي إنه لا يرجع اليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً بل يخور كسائر العجاجيل فمن هذا شأنه كيف يتوهم أنه اله.

وقرأ الإمام الشافعي.

وأبو حيوة.

وأبان.

وابن صبيح.

والزعفراني ﴿ يُرْجَعُ ﴾ بالنصب على أن أن هي الناصبة لا المخففة من الثقيلة، والرؤية حينئذ بمعنى الأبصار لا العلم بناء على ما ذكره الرضي.

وجماعة من أن الناصبة لا تقع بعد إفعال القلوب مما يدل على يقين أو ظن غالب لأنها لكونها للاستقبال تدخل على ما ليس بثابت مستقر فلا يناسب وقوعها بعد ما يدل على يقين ونحوه، والعطف أيضاً كما سبق أي ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولاً من الأقوال، وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه أمراً عدمياً للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم، وقيل: إن الناصبة لا تقع بعد رأي البصرية أيضاً لأنها تفيد العلم بواسطة إحساس البصر كما في إيضاح المفصل.

وأجاز الفراء.

وابن الأنباري وقوعها بعد إفعال العلم فضلاً عن أفعال البصر ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ عطف على ﴿ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ داخل معه في حيز الرؤية أي فلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا ويجلب لهم نفعاً أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه أو ينفعهم إن عبدوه .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾

(106/501)

مع ما بعد جملة قسمية مؤكدة لما سبق من الإنكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أي وبالله لقد نصح لهم هارون ونبههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات ، وإلى اعتبار المضاف إليه قبل ما ذكر ذهب الواحدي ، وقيل : من قبل قول السامري ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة تفرس فيهم الافتتان فسارع إلى تحذيرهم ، واختاره صاحب الكشف تبعاً لشيخه وقال : هو أبلغ وأدل على توبيخهم بالإعراض عن دليل العقل والسمع في ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ [طه : 89] واختار بعضهم الأول وادعى أن الجواب يؤيده ، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في

ذلك .

وجوز العلامة الطيبي في هذه الجملة وجهين كونها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ [طه : 89] وقال : إن في إيثار المضارع فيه دلالة على استحضار تلك الحالة الفظيعة في ذهن السامع واستدعاء الإنكار عليهم ، وكونها في موضع الحال من فاعل ﴿ يَرَوْنَ ﴾ [طه : 89] مقررة لجهة الإنكار أي أفلا يرون والحال أن هارون نبههم قبل ذلك على كنه الأمر ، وقال لهم : ﴿ قَبْلُ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ أي أوقعتم في الفتنة بالعجل أو أضللتم على توجيه القصر المستفاد من كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ في أغلب استعمالاتها إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الإرشاد إلى الحق لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ بكسر همزة ﴿ إن ﴾ عطفاً على ﴿ إِنَّمَا ﴾ الخ إرشاد لهم إلى الحق أثر زجرهم عن الباطل .

والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق .

وفي ذلك تذكير لتخليصهم من فرعون زمان لم يوجد العجل .

وكذا على ما قيل تنبيه على أنهم متى تابوا قبلهم .

وتعريف الطرفين لإفادة الحصر أي وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير .

وقرأ الحسن .

وعيسى .

وأبو عمرو في رواية ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ﴾ بفتح الهمزة ، وخرج على أن المصدر المنسبك خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أن ربكم الرحمن ، والجملة معطوفة على ما مر ، وقال أبو حاتم : التقدير ولأن ربكم الخ وجعل الجار والمجرور متعلقاً باتبعوني .

وقرأ فرقة ﴿ إِنَّمَا وَإِنَّ رَبَّكُمُ ﴾ بفتح الهمزتين ، وخرج على لغة سليم حيث يفتحون همزة إن بعد القول مطلقاً .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاتبعونى وَأَطِيعُواْ أَمْرِى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أي إذا كان الأمر كذلك فاتبعوني وأطيعوا أمري في الثبات على الدين .

وقال ابن عطية : أي فاتبعوني إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه ، وفيه أنه عليه السلام لم يكن بصدد الذهاب إلى الطور ولم يكن مأموراً به وما واعد الله سبحانه أولئك المفتونين بذهابهم أنفسهم إليه ، وقيل : ولا يخلو عن حسن أي فاتبعوني في الثبات على الحق وأطيعوا أمري هذا وأعرضوا عن التعرض لعبادة ما عرفتم أمره أو كفوا أنفسكم عن اعتقاد الوهيته وعبادته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) ﴾

هذا شروع في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوّهم ، وقد تقدّم في البقرة ، وفي الأعراف ، وفي يونس واللام في : ﴿ لقد ﴾ هي الموطئة للقسم ، وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى ، و" أن "في : ﴿ أن أسر بعبادي ﴾ إما المفسرة لأن في الوحي معنى القول ، أو مصدرية ، أي بأن أسر ، أي أسر بهم من مصر .

وقد تقدّم هذا مستوفى .

﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ أي اجعل لهم طريقاً ، ومعنى ﴿ يبساً ﴾ : يابساً ، وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين .

وقرىء : " يبسا " بسكون الباء .

على أنه مخفف من يبسا المحرك ، أو جمع يابس كصحب في صاحب .

وجملة ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكاً ﴾ في محل نصب على الحال ، أي آمنا من أن يدرككم العدوّ ، أو صفة أخرى لطريق ، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده .

وقرأ حمزة : " لا تخف " على أنه جواب الأمر ، والتقدير : إن تضرب لا تخف ، و ﴿ لا تخشى ﴾ على هذه القراءة مستأنف ، أي ولا أنت تخشى من فرعون أو من البحر .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا تخاف ﴾ وهي أرجح لعدم الجزم في : ﴿ تخشى ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق ، أي لا تخاف منه ولا تخشى منه .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أتبع هنا مطاوع تبع ، يقال : أتبعتهم : إذا تبعتهم ، وذلك إذا سبقوك فلحقتهم ، فالمعنى : تبعهم فرعون ومعه جنوده .

(109/501)

وقيل : الباء زائدة والأصل أتبعهم جنوده ، أي أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه ، وقرىء " فاتبعهم " بالتشديد أي لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال : ركب الأمير بسيفه ، أي معه سيفه ، ومحل بجنوده النصب على الحال ، أي : سائقاً جنوده معه ﴿ فَغَشِيَهُمْ مّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي علاهم وأصابهم ما علاهم وأصابهم ، والتكرير للتعظيم والتهويل كما في قوله : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 21] .

وقيل : غشيهم ما سمعت قصته .

وقال ابن الأنباري : غشيهم البعض الذي غشيهم ؛ لأنه لم يغشهم كل ماء البحر ، بل الذي غشيهم بعضه .

فهذه العبارة للدلالة على أن الذي غرقهم بعض الماء ، والأوّل أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم .

وقرىء : " فغشاهم من اليمّ ما غشاهم " أي : غطاهم ما غطاهم .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ أي أضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى طريق النجاة ، لأنه قدّر أن موسى ومن معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة ، وبين أيديهم البحر ، وفي قوله : ﴿ وَمَا هدى ﴾ تأكيد لإضلاله ؛ لأن المضل قد يرشد من يضله في بعض الأمور .

﴿ هدى يابنى إسراءيل قَدْ أنجيناكم مّنْ عَدُوّكُمْ ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بني إسرائيل بعد إنجائهم ، والتقدير قلنا لهم بعد إنجائهم : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء .

والمراد بعدوّهم هنا : فرعون وجنوده ، وذلك بإغراقه وإغراق قومه في البحر بمرأى من بني إسرائيل .

﴿ وواعدناكم جَانِبَ الطور الأيمن ﴾ انتصاب ﴿ جانب ﴾ على أنه مفعول به ، لا على الظرفية ؛ لأنه مكان معين غير مبهم ، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة .

قال مكي : وهذا أصل لا خلاف فيه .

قال النحاس : والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام .

(110/501)

وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور ، فالوعد كان لموسى ، وإنما خوطبوا به ؛ لأن الوعد كان لأجلهم .

وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب : " ووعدناكم " بغير ألف ، واختاره أبو عبيدة ؛ لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ، وقد قدّمنا في البقرة هذا المعنى .

و﴿ الأيمن ﴾ منصوب على أنه صفة للجانب ، والمراد : يمين الشخص ؛ لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمعناه : عن يمينك من الجبل .

وقرىء بجرّ الأيمن على أنه صفة للمضاف إليه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ﴾ قد تقدّم

تفسير المنّ بالترنجبين والسلوى بالسماني وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وإنزال ذلك عليهم كان في التيه .

﴿ كُلُواْ مِن طيبات مَا رزقناكم ﴾ أي وقلنا لهم : كلوا والمراد بالطيبات : المستلذات .

وقيل : الحلال ، على الخلاف المشهور في ذلك .

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش : " قد أنجيتكم من عدوّكم ووعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتكم " بتاء المتكلم في الثلاثة .

وقرأ الباقون بنون العظمة فيها .

﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ الطغيان : التجاوز ، أي لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز .

وقيل : المعنى : لا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين .

وقيل : لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها ، وقيل : لا تعصوا المنعم ، أي لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ، ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني ، فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ هذا جواب النهي ، أي يلزمكم غضبي وينزل بكم ، وهو مأخوذ من حلول الدّين ، أي حضور وقت أدائه ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائي : " فيحل " بضم الحاء ، وكذلك قرؤوا " يحلل " بضم اللام الأولى ، وقرأ الباقون بالكسر فيهما وهما لغتان .

قال الفراء : والكسر أحبّ إليّ من الضم ؛ لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع .

ويحل بالكسر : يجب ، وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع ، وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره .

ومعنى ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ : فقد هلك .

قال الزجاج : ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ أي صار إلى الهاوية ، وهي قعر النار من هوى يهوي هوياً ، أي سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان ، أي مات .

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي لمن تاب من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله ، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسنه ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ أي استقام على ذلك حتى يموت كذا قال الزجاج وغيره .

وقيل : لم يشكّ في إيمانه .

وقيل : أقام على السنّة والجماعة ، وقيل : تعلم العلم ليهتدي به .

وقيل : علم أن لذلك ثواباً وعلى تركه عقاباً ، والأوّل أرجح مما بعده .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾ هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات .

قال المفسرون : وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه .

فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقاً إلى ربه ، فقال الله له : ما أعجلك ؟ أي ما الذي حملك على العجلة ، حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ، فأجاب موسى عن ذلك : ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلاء على أَثَرِي ﴾ أي هم بالقرب مني ، تابعون لأثرى واصلون بعدي .

وقيل : لم يرد أنهم يسيرون خلفه ، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم .

ثم قال مصرحاً بسبب ما سأله الله عنه فقال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ أي لترضى عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك .

قال أبو حاتم : قال عيسى بن عمر : بنو تميم يقولون : " أولى " مقصورة ، وأهل الحجاز يقولون : " أولاء " ممدودة .

وقرأ ابن أبي إسحاق ونصر ، ورويس عن يعقوب : " على إثري " بكسر الهمزة وإسكان الثاء ، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان .

ومعنى ﴿ عجلت إليك ﴾ : عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني .

يقال : رجل عجل وعجول وعجلان : بين العجلة .

والعجلة خلاف البطء .

وجملة : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل فماذا قال الله له ؟ فقيل : قال : إنا قد فتنا قومك من بعدك ، أي ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم في فتنة ومحنة .

قال ابن الأنباري : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ أي دعاهم إلى الضلالة ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر ، وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقال لمن معه من بني إسرائيل : إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحليّ ، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في النار ، فكان من أمر العجل ما كان .

﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفاً ﴾ قيل : وكان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوماً : ذا القعدة ، وعشر ذي الحجة ، والأسف : الشديد الغضب .

وقيل : الحزين ، وقد مضى في الأعراف بيان هذا مستوفى .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والوعد الحسن : وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أن يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها ، فيستحقوا ثواب عملهم ، وقيل : وعدهم النصر

والظفر .

وقيل هو قوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ الآية .

﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ الفاء للعطف على مقدّر ، أي أوعدكم ذلك ، فطال عليكم الزمان فنسيتم ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي يلزمكم وينزل بكم ، والغضب : العقوبة والنقمة .

(113/501)

والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾ أي : موعدكم إياي ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ؛ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عزّ وجلّ إلى أن يرجع إليهم من الطور .

وقيل : وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات ، فتوقفوا فأجابوه ، و ﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ الذي وعدناك ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم ، وهي قراءة نافع وأبي جعفر وعاصم وعيسى بن عمر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر الميم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً ، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، أي بملكنا أمورنا ، أو بملكنا

الصواب ، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين إلى الخطأ ، وقرأ حمزة والكسائي : " بملكنا " بضمّ الميم ، والمعنى بسلطاننا ، أي لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك .

وقيل : إنّ الفتح والكسر والضم في : " بملكنا " كلها لغات في مصدر ملكت الشيء .

﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويسك : " حملنا " بضم الحاء وتشديد الميم ، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم ، وما حملوها كرهاً ، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى ، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة .

وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل ، وسميت أوزاراً ، أي آثاماً ؛ لأنه لا يحلّ لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم في شريعتهم والأوزار في الأصل : الأثقال ، كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا : الحليّ ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي : طرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها .

وقيل : المعنى طرحناها إلى السامريّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري ﴾ أي فمثل ذلك القذف ألقاها السامريّ .

قيل : إن السامريّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى : إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحليّ ، فجمعوه ودفعوه إليه ، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل ، فصار ﴿ عِجلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ أي يخور كما يخور الحيّ من العجول ، والخوار : صوت البقر .

وقيل : خواره كان بالريح ؛ لأنه كان عمل فيه خروقاً .

فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم يكن فيه حياة ﴿ فَقَالُواْ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ أي قال السامريّ ومن وافقه هذه المقالة ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي فضلّ موسى ولم يعلم مكان إلهه هذا ، وذهب يطلبه في الطور .

وقيل : المعنى : فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم .

وقيل : الناسي هو السامريّ ، أي ترك السامريّ ما أمر به موسى من الإيمان وضلّ ، كذا قال ابن الأعرابي .

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ أي أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرجع إليهم قولاً ، أي لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يكلمهم إذا كلموه ، فكيف يتوهمون أنه إله وهو عاجز عن المكالمة ، فأن في : " ألا يرجع " هي المخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير مقدّر

يرجع إلى العجل ، ولهذا ارتفع الفعل بعدها ، ومنه قول الشاعر :

في فتية من سيوف الهند قد علموا . . . أن هالك كل من يَحْفى ويَنْتَعِلُ

أي أنه هالك .

وقرىء بنصب الفعل على أنها الناصبة ، وجملة : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾

معطوفة على جملة : ﴿ لا يرجع ﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرّاً ولا

يجلب إليهم نفعاً .

(115/501)

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هارون مِن قَبْلُ ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مؤكدة لما تضمنته

الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ ، لهم أي ولقد قال لهم هارون من قبل أن يأتي

موسى ويرجع إليهم ﴿ ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ أي وقعتم في الفتنة بسبب العجل ، وابتليتم به

وضللتم عن طريق الحق لأجله .

قيل : ومعنى القصر المستفاد من إنما هو : أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم وليس

معناه : أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن فاتبعوني وَأَطِيعُواْ أَمْرِي ﴾ أي

ربكم الرحمن لا العجل ، فاتبعوني في أمري لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامريّ في أمره لكم

بعبادة العجل ، وأطيعوا أمري لا أمره .

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ أجابوا هارون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه ، وعدم قبول ما دعاهم إليه من الخير وحذرهم عنه من الشرّ ، أي لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ، حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر : هل يقرّرنا على عبادته أو ينهانا عنها ؟ فعند ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من المنكرين لما فعله السامريّ .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ يَبَساً ﴾ قال : يابساً ليس فيه ماء ولا طين .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لاَ تخاف دَرَكاً ﴾ من آل فرعون ﴿ وَلاَ تخشى ﴾ من البحر غرقاً .

وأخرجا عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَقَدْ هوى ﴾ شقي .

وأخرجا عنه أيضاً : ﴿ وَإِنّي لغفار لّمَن تَابَ ﴾ قال : من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ قال : وحد الله ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ قال : أدّى الفرائض ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ قال : لم يشك .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عنه أيضاً : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ قال : من تاب من الذنب ، وآمن من الشرك ، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ ثُمَّ اهتدى ﴾ قال : ثم استقام ، لزم السنّة والجماعة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعجل موسى إلى ربه ، فقال الله : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوِمِكَ يا موسى ﴾ الآية ، قال : فرأى في ظلّ العرش رجلاً فعجب له ، فقال : من هذا يا ربّ ؟ قال : لا أحدثك من هو ، لكن سأخبرك بثلاث فيه : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعقّ والديه ، ولا يمشي بالنميمة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن عليّ قال : لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامريّ فجمع ما قدر عليه من حليّ بني إسرائيل فضربه عجلاً ، ثم ألقى القبضة في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار ، فقال لهم السامريّ : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ، فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه ، فقال له هارون ما قال ، فقال موسى

للسامريّ: ما خطبك؟ قال: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ فعمد موسى إلى العجل، فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم، فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي.

والحكايات لهذه القصة كثيرة جدّاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ قال: بأمرنا.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة: ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ قال: بطاقتنا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ مثله.

وأخرج أيضاً عن الحسن قال: بسلطاننا.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ هذا

إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ قال : فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(118/501)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾

قرأه نافع وعاصم « بِملْكِنا » بفتح الميم . وقرأه حمزة والكسائي « بِملْكَنَا » بضم الميم ، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « بملكنا » بكسر الميم . والمعنى على جميع القراءات : ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا ، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعدك . وهو اعتذار منهم بأنهم ما أخلفوا الموعد باختيارهم ، ولكنهم مغلوبون على أمرهم من جهة السامري وكيده . وهو اعتذار بارد ساقط كما ترى ! ! ولقد صدق من قال :

إذا كان وجه العذر ليس ببين . . . فإن اطراح العذر خير من العذر

وأما على قول من قال : إن الذين قالوا لموسى : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ هم الذين لم يعبدوا العجل . لأنهم وعدوه أن يتبعوه ، ولما وقع ما وقع من عبادة أكثرهم للعجل تأخروا عن اتباع موسى بسبب ذلك ، ولم يتجرؤوا على مفارقتهم خوفاً من الفرقة فالعذر له وجه

في الجملة ، كما يشير إليه قوله تعالى في القصة في هذه السورة الكريمة ﴿ قَالَ يَا هَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا بْنَأُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(119/501)

[طه : 92-94] . والمصدر في قوله ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ مضاف إلى فاعله ومفعوله محذوف ، أي بملكنا أمرنا . وقال القرطبي : كأنه قال بمكلنا الصواب بل أخطأنا . فهو اعتراف منهم بالخطأ . وقال الزمخشري : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ : الزمان ، يريد مدة مفارقته لهم .

تنبيه

كل فعل مضارع في القرآن مجزوم ب « لم » إذا تقدمتها همزة استفهام . كقوله هنا : ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء :

الأول أن مضارعته تنقلب ماضوية ، ونفيه ينقلب إثباتاً . فيصير قوله : ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ ﴾ بمعنى وعدكم ، وقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] بمعنى شرحنا ، وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ [البلد : 6] جعلنا له عينين . وهكذا . ووجه انقلاب المضارعة ماضوية ظاهر ، لأن « لم » حرف قلب تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى

معنى المضي كما هو معروف . ووجه انقلاب النفي إثباتاً أن الهمزة إنكارية ، فهي مضمنة معنى النفي ، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في « لم » فينفيه ، ونفي النفي إثبات فيؤول إلى معنى الإثبات .

الوجه الثاني أن الاستفهام في ذلك التقرير ، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول « بلى » وعليه فالمراد من قوله ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ حملهم على أن يقروا بذلك فيقولوا بلى هكذا . ونظير هذا من كلام العرب قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العالمين بطون راح

(120/501)

فإذا عرفت أن قوله هنا ﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ إلى قوله ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ قد بين الله فيه أن موسى لما رجع إليهم في شدة غضب مما فعلوا وعاتبهم قال لهم في ذلك العتاب ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ الآية فاعلم أن بعض عتابه لهم لم يبينه هنا ، وكذلك بعض فعله ، ولكنه بينه في غير هذا الموضع . كقوله في « الأعراف » في القصة بعينها ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 150] ، وبين بعض ما فعل بقوله

في « الأعراف » : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : 150] ، وقد أشار إلى هنا في « طه » في قوله : ﴿ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94] .

قوله تعالى : ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هاذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف أبو عمرو وشعبة عن عاصم ، وحمزة والكسائي ﴿ حَمَلْنَا ﴾ بفتح الحاء والميم المخففة مبيناً للفاعل مجرداً . وقرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عصام « حملنا » بضم الحاء وكسر الميم المشددة مبيناً للمفعول . و« ن » على القراءة الأولى فاعل « حمل » وعلى الثانية نائب فاعل « حمل » بالتضعيف .

(121/501)

والأوزار في قوله ﴿ أَوْزَاراً ﴾ قال بعض العلماء : معناها الأثقال . وقال بعض العلماء : معناها الآثام . ووجه القول الأول أنها أحمال من حلي القبط الذي استعاروه منهم . ووجه الثاني أنها آثام وتبعات . لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب ، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي ، ولأن الغنائم لم تكن تحل لهم . والتعليل الأخير أقوى .

وقوله: ﴿ مِّن زِينَةِ القوم ﴾ المراد بالزينة الحلي، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿ واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: 148] فقذفناها أي ألقيناها وطرحناها في النار التي أوقدها السامري في الحفرة، وأمرنا أن نطرح الحلي فيها.

وأظهر الأقوال عندي في ذلك: هو أنهم جعلوا جميع الحلي في النار ليذوب فيصير قطعة واحدة. لأن ذلك أسهل لحفظه حتى يرى نبي الله موسى فيه رأيه. والسامري يريد تدبير خطة لم يطلعوا عليها. وذلك أنه لما جاء جبريل ليذهب بموسى إلى الميقات وكان على فرس، أخذ السامري ترابا ًمسه حافر تلك الفرس، ويزعمون في القصة أنه عاين موضع أثرها ينبت فيه النبات، فتفرس أن الله جعل فيها خاصية الحياة، فأخذ تلك القبضة من التراب واحتفظ بها، فلما أرادوا أن يطرحوا الحلي في النار ليجعلوه قطعة واحدة أو لغير ذلك من الأسباب وجعلوه فيها، ألقى السامري عليه تلك القبضة من التراب المذكورة، وقال له: كن عجلاً جسداً له خوار. فجعله الله عجلاً جسداً له خوار. فقال لهم: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى عن موسى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: 95-96].

وقوله في هذه الآية : ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ هو من بقية اعتذارهم الفاسد البارد ، وهو يدل على أن ذلك الاعتذار من الذين عبدوا العجل لا من غيرهم ، ولا يبعد معه احتمال أنه من غيرهم . لأنه ليس فيه ما يعين كون الاعتذار منهم تعيناً غير محتمل . ومعلوم أن هذا العذر عذر لا وجه له على كل حال .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي نسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في محل آخر . قاله ابن عباس في حديث الفتون . وهو قول مجاهد . وعن ابن عباس أيضاً من طريق عكرمة ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي نسي أن يذكركم به . وعن ابن عباس أيضاً ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي السامري ما كان عليه من الإسلام ، وصار كافراً بادعاء ألوهية العجل وعبادته .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) ﴾

بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل ، وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سأله ، ولا يملك نفعاً لمن عبده ، ولا ضراً لمن عصاه . وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزاً عن النفع والضرر ورد الجواب . وقد بين هذا

المعنى في غير هذا الموضع. كقوله في «الأعراف» في القصة بعينها : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 148] ولا شك أن من اتخذ من لا يكلمه ولا يهديه سبيلاً إلهاً أنه من أظلم الظالمين. ونظير ذلك قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42]، وقوله تعالى عنه أيضاً : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : 72_73]، وقوله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 195] وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5-6]، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : 13-14]. وقد قدمنا الكلام مستوفى في همزة الاستفهام التي بعدها أداة عطف كالفاء والواو، كقوله هنا : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾

فأغنى ذلك عن إعادته هنا . وقرأ هذا الحرف جماهير القراء ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ ﴾ بالرفع لأن «أن» مخففة من الثقيلة . والدليل على أنها مخففة من الثقيلة تصريحه تعالى بالثقيلة في قوله في المسألة بعينها في «الأعراف» : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف : 148] الآية ، ورأى في آية «طه ، والأعراف» علمية على التحقيق ، لأنهم يعلمون علماً يقيناً أن ذلك العجل المصوغ من الحلي لا ينفع ولا يضر ولا يتكلم .

واعلم أن المقرر في علم النحو أن : «أن» لها ثلاث حالات : الأولى أن تكون مخففة من الثقيلة قولاً واحداً . ولا يحتمل أن تكون «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع .

وضابط هذه : أن تكون بعد فعل العلم وما جرى مجراه من الأفعال الدالة على اليقين . كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى ﴾ [المزمل : 20] ، وقوله : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن : 28] الآية ، ونحو ذلك من الآيات ، وقول الشاعر :

واعلم فعلم المرء ينفعه . . . أن سوف يأتي كل ما قدرا

وقول الآخر :

في فتية كسيوف الهند قد علموا . . . أن هالك كل ما يحفى وينتعل

وإذا جاء بعد هذه المخففة من الثقيلة فعل مضارع فإنه يرفع ولا ينصب كقوله :

علموا أن يؤملون فجادوا . . . قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

و« أن » هذه المخففة من الثقيلة يكون اسمها مستكناً غالباً ، والأغلب أن يكون ضمير الشأن . وقيل لا يكون إلا ضمير الشأن ، وخبرها الجملة التي بعدها ، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله :

وإن تخفف أن فاسمها استكن . . . والخبر اجعل جملة من بعد أن

وما سمع في شعر العرب من بروز اسمها في حال كونه غير ضمير الشأن فمن ضرورة الشعر .

كقول جنوب أخت عمرو ذي الكلب :

لقد علم الضيف والمرملون . . . إذا اغبر أفق وهبت شمالا

بأنك ربيع وغيث مربع . . . وأنك هناك تكون الثمالا

وقول الآخر :

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني . . . طلاقك لم أبخل وأنت صديق@_

الحالة الثانية أن تكون محتملة لكونها المصدرية الناصبة للمضارع . ومحتملة لأن تكون هي المخففة من الثقيلة . وإن جاء بعدها فعل مضارع جاز نصبه للاحتمال الأول ، ورفعه للاحتمال الثاني ، وعليه القراءتان السبعيتان في قوله ﴿ وحسبوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [المائدة : 71] بنصب « تكون » ورفعه ، وضابط « أن » هذه أن تكون بعد فعل يقتضي

الظن ونحوه من أفعال الرجحان . وإذا لم يفصل بينها وبين الفعل فاصل فالنصب أرجح ، ولذا اتفق القراء على النصب في قوله تعالى ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا ﴾ [العنكبوت : 2] الآية . وقيل : إن « أن » الواقعة بعد الشك ليس فيها إلا النصب . نقله الصبان في حاشيته عن أبي حيان بواسطة نقل السيوطي .

الحالة الثالثة أن تكون « أن » ليست بعد ما يقتضي اليقين ولا الظن ولم يجر مجراهما ، فهي المصدرية الناصبة للفعل المضارع قولاً واحداً . وإلى الحالات الثلاث المذكورة أشار بوقله في الخلاصة :

وبأن انصبه وكى كذا بأن . . . لا بعد علم والتي من بعد ظن

فانصب بها والرفع صحح واعتقد . . . تخفيفها من أن فهو مطرد

تنبيه

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة : وليس المقصود من هذا أن العجل لو كان يكلمهم لكان إلهاً . لأن الشيء يجوز أن يكون مشروطاً بشروط كثيرة ، ففوات واحد منها يقتضي فوات المشروط ، ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضي حصول المشروط انتهى

كلامه. وما ذكره مقرر في الأصول. فكل ما توقف على شرطين فصاعداً لا يحصل إلا بحصول جميع الشروط. فلو قلت لعبدك: إن صام زيد وصلى وحج فأعطه ديناراً. لم يجز له إعطاؤه الدينار إلا بالشروط الثلاثة. ومحل هذا ما لم يكن تعليق الشروط على سبيل البدل فإنه يكفي فيه واحد. فلو قلت لعبدك: إن صام زيد أو صلى فأعطه درهماً. فإنه يستوجب إعطاء الدرهم بأحد الأمرين. وإلى هذه المسألة أشار في مراقي السعود في مبحث المخصصات المتصلة بقوله:

وإن تعلق على شرطين... شيء فبالحصول للشرطين

وما على البدل قد تعلقا... فبحصول واحد تحققا

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: وقد تقدم في حديث الفتون عن الحسن البصري: أن هذا العجل اسمه يهموت. وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة: أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب. يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما:

انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يعني الحسين رضي الله عنه) وهم يسألون عن دم البعوضة انتهى منه .

(128/501)

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) ﴾

بين جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين : أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل ، نصحهم نبي الله هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وبين لهم عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها . أي كفر وضلال ارتكبوه بذلك ، وبين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء جل وعلا ، وأن عجلاً مصطنعاً من حلي لا يعبده إلا مفتون ضال كافر . وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى ، الوفاء بموعد موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وأن يطيعوه في ذلك . فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى . وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته ، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه .

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع ، كقوله في « الأعراف » : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ

القوم استضعفوني وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعداء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأعراف : 150] . فقوله عنهم في خطابهم له ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ يدل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في « الأعراف » كطما بينا . وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمات ما نصه . وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله : ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية ؟ واعلم حرس الله مدته : أنه اجتمع جماعة من رجال فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ، ويحضرون شيئاً يأكلونه . هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفتونا مأجورين . وهذا القول الذي يذكرونه .

يا شيخ كف عن الذنوب . . . قبل التفرق والزلل

واعمل لنفسك صالحاً ما دام ينفعك العمل

أما الشباب فقد مضى ومشيب رأسك قد نزل

وفي مثل هذا ونحوه الجواب يرحمك الله : مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما

الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وأما الرقص والتواجد : فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار ، قاموا يرقصون حواليه ، ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما القضيب : فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى . وإنما كان يجلس النَّبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار . فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من حضور المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا أن يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق انتهى منه بلفظه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد قدمنا في سورة « مريم » ما يدل على أن بعض الصوفية على الحق .

ولا شك أن منهم ما هو على الطريق المستقيم من العمل بكتاب الله وسنة ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك عالجوا أمراض قلوبهم وحرسوها ، وراقبوها وعرفوا أحوالها ، وتكلموا على أحوال القلوب كلاماً مفصلاً كما هو معلوم ، كعبد الرحمن بن عطية ، أو ابن

أحمد بن عطية ، أو ابن عسكر أعني أبا سليمان الداراني ، وكعون بن عبد الله الذي كان يقال له حكيم الأمة ، وأضرابهما ، وكسهل بن عبد الله التستري ، أبي طالب المكي ، وأبي عثمان النيسابوري ، ويحيى بن معاذ الرازي ، والجنيد بن محمد ، ومن سار على منوالهم ، لأنهم عالجوا أمراض أنفسهم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا يحيدون عن العمل بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً ، ولم تظهر منهم أشياء تخالف الشرع . فالحكم بالضلال على جميع الصوفية لا ينبغي ولا يصح على إطلاقه ، والميزان الفارق بين الحق والباطل في ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله لعيه وسلم . فمن كان منهم متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله ، وهديه وسمته ، كمن ذكرنا وأمثالهم ، فإنهم من جملة العلماء العاملين ، ولا يجوز الحكم عليهم بالضلال . وأما من كان على خلاف ذلك فهو الضال .

نعم ، صار المعروف في الآونة الأخيرة ، وأزمنة كثيرة قبلها بالاستقراء ، أن عامّة الذين يدعون التصوف .

في أقطار الدنيا إلا من شاء الله منهم دجاجلة يتظاهرون بالدين ليضلوا العوام الجهلة وضعاف العقول من طلبة العلم ، ليتخذوا بذلك أتباعاً وخدماً ، وأموالاً وجاهاً ، وهم بمعزل عن مذهب الصوفية الحق ، لا يعلمون بكتاب الله ولا بسنة نبيه ، واستعمارهم لأفكار ضعاف العقول أشد من استعمار كل طوائف المستعمرين . فيجب التباعد عنهم ،

والاعتصام من ضلالتهم بكتاب الله وسنة نبيه ، ولو ظهر على أيديهم بعض الخوارق ، ولقد صدق من قال :

إذا رأيت رجلاً يطير . . . وفوق ماء البحر قد يسير

ولم يقف عند حدود الشرع . . . فإنه مستدرج أو بدعي

(131/501)

والقول الفصل في ذلك هو قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء : 123-125] ، فمن كان عمله مخالفاً للشرع كمتصوفة آخر الزمان فهو الضال . ومن كان عمله موافقاً لما جاء به نبينا عليه الصلاة والسلام فهو المهتدي . نرجو الله تعالى أن يهدينا وإخواننا المؤمنين ، وألا يزيغنا ولا يضلنا عن العمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم التي هي محجّة بيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(132/501)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولكنا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم فَقَذَفْنَاهَا ﴾

وقعت جملة ﴿ قَالُوا ﴾ غير معطوفة لأنها جرت في المحاورة جواباً عن كلام موسى عليه السلام.

وضمير ﴿ قَالُوا ﴾ عائد إلى القوم وإنما القائل بعضهم ، تصدّوا مجيبين عن القوم كلّهم وهم كبراء القوم وأهل الصلاح منهم .

وقوله ﴿ بِمَلْكِنَا قرأه نافع ، وعاصم ، وأبو جعفر بفتح الميم .

وقرأه ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، ويعقوب بكسر الميم .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف بضم الميم .

وهي وجوه ثلاثة في هذه الكلمة ، ومعناها : بإرادتنا واختيارنا ، أي لإخلاف موعدك ، أي ما تجرّأنا ولكن غرّهم السامريّ وغلبهم دهماء القوم .

وهذا إقرار من المجيبين بما فعله دهماؤهم .

والاستداك راجع إلى ما أفاده نفيُ أن يكون إخلافهم العهدَ عن قصد للضلال .

والجملة الواقعة بعده وقعت بإيجاز عن حُصول المقصود من التنصّل من تبعة نكث العهد .

ومحل الاستدراك هو قوله فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ﴾ وما قبله تمهيد له ، فعطفت

الجمل قبله بحرف الفاء واعتذروا بأنهم غُلبوا على رأيهم بتضليل السامريّ .

فأُدمجت في هذا الاعتذار الإشارة إلى قضية صوغ العجل الذي عبدوه واغتروا بما مُوّه لهم من أنه إلهم المنشود من كثرة ما سمعوا من رسولهم أن الله معهم أو أمامهم ، ومما جاش في خواطرهم من الطمع في رؤيته تعالى .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ، ورويس عن يعقوب ﴿ حُمّلنا بضمّ الحاء وتشديد الميم مكسورة ، أي حَمّلنَا منْ حَمّلَنا ، أو حَمّلْنا أنفسنا .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وحمزة ، وأبو عمرو ، والكسائي ، ورَوحٌ عن يعقوب بفتح الحاء وفتح الميم مخففة .

والأوزار : الأثقال .

والزينة : الحلي والمصوغ .

(133/501)

وقد كان بنو إسرائيل حين أزمعوا الخروج قد احتالوا على القبط فاستعار كلّ واحد من جاره القبطي حَلياً فضةً وذهباً وأثاثاً ، كما في الإصحاح 12 من سفر الخروج .

والمعنى : أنهم خشُوا تلاشي تلك الزينة فارتأوا أن يصوغوها قطعة واحدة أو قطعتين

ليتأتى لهم حفظها في موضع مأمون .

والقذف : الإلقاء .

وأُريد به هنا الإلقاء في نار السامريّ للصوغ ، كما يومىء إليه الإصحاح 32 من سفر الخروج.

فهذا حكاية جوابهم لموسى عليه السلام مجملاً مختصراً شأنَ المعتذر بعذر واهٍ أن يكون خجلان من عذره فيختصر الكلام .

ظاهر حال الفاء التفريعية أن يكون ما بعدها صادراً من قائل الكلام المفرّع عليه .

والمعنى : فمثلَ قذفنا زينةَ القوم ، أي في النّار ، ألقى السامريّ شيئاً من زينة القوم فأخرج لهم عجلاً .

والمقصود من هذا التشبيه التخلّصُ إلى قصة صوغ العجل الذي عبدوه .

وضميرا الغيبة في قوله فَأَخْرَجَ لَهُمْفَكَذَلِكَ أَلْقَى السامرى * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هاذآ إلهكم وإله موسى فَنَسِىَ ﴾ وقوله : ﴿ فَقَالُوا ﴾ عائدان إلى غير المتكلمين .

علّق المتكلمون الإخراجَ والقولَ بالغائبين للدلالة على أن المتكلمين مع موسى لم يكونوا ممن اعتقد إلهية العجل ولكنهم صانعوا دهماء القوم ، فيكون هذا من حكاية قول القوم لموسى .

وعلى هذا درج جمهور المفسرين ، فيكون من تمام المعذرة التي اعتذر بها المجيبون لموسى ،

ويكون ضمير ﴿ فأخرج لهم ﴾ التفاتاً قصد القائلون به التبرّي من أن يكون إخراج العجل لأجلهم ، أي أخرجَه لمن رغِبوا في ذلك .

وجعل بعض المفسرين هذا الكلام كلّه من جانب الله ، وهو اختيار أبي مسلم ، فيكون اعتراضاً وإخباراً للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمّة .

وموقع الفاء يناكد هذا لأنّ الفاء لا ترِد للاستئناف على التحقيق ، فتكون الفاء للتفريع تفريعَ أخبار على أخبار .

والمعنى : فمثل ذلك القذف الذي قذفنا ما بأيدينا من زينة القوم ألقى السامريّ ما بيده من النّار ليَذوب ويصوغها فأخرج لهم من ذلك عجلاً جسداً .

فإنّ فعل (ألقى) يحكي حالة مشبهة بحالة قَذفهم مصوغَ القبط .

والقذف والإلقاء مترادفان ، شبه أحدهما بالآخر .

والجسد : الجسم ذو الأعضاء سواء كان حياً أم لا ؛ لقوله تعالى : ﴿ وألْقينا على كرسيه جسداً ﴾ [ص : 34] .

قيل : هو شِق طفل ولدتْه إحدى نسائه كما ورد في الحديث .

قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يَعقل ولا يميّز إنما هو الجثّة، أي أخرج لهم صورة عجل مجسّدة بشكله وقوائمه وجوانبه، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب.

وفي سفر الخروج أنّه كان من ذهب.

والإخْراج: إظهار ما كان محجوباً.

والتعبير بالإخراج إشارة إلى أنّه صنعه بحيلة مستورة عنهم حتى أتمّه.

والخُوار: صوت البقر.

وكان الذي صنع لهم العجل عارفاً بصناعة الحِيل التي كانوا يصنعون بها الأصنام ويجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ كالزمارات تخرج منها أصوات إذا أطلقت عندها رياح بالكير ونحوه.

وصنع لهم السامريّ صنماً على صورة عجل لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل "ابيبس"، فلما رأوا ما صاغه السامريّ في صورة معبود عرَفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خواراً، رسخ في أوهامهم الآفنة أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبّروا عنه بقولهم ﴿ هذا إلهكم وإله موسى، لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنّه أفضل من العجل (إبيبس).

وإذ قد كانوا يثبتون إلهاً محجوباً عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا لموسى: ﴿ أرنا

اللهَ جهرة ﴾ [النساء : 153] ، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة .

وقصة اتخاذهم العجل في كتاب التّوراة غير ملائمة للنظر السليم .

وتفريع ﴿ فَنَسِى ﴾ يحتمل أن يكون تفريعاً على ﴿ فقال هذا إلهكم تفريعَ علة على معلول ، فالضمير عائد إلى السامريّ ، أي قال السامري ذلك لأنه نسي ما كان تلقّاه من هدي ؛ أو تفريعَ معلول على علّة ، أي قال ذلك ، فكان قوله سبباً في نسيانه ما كان عليه من هَدي إذ طبع الله على قلبه بقوله ذلك فحرمه التوفيق من بعدُ .

والنسيان : مستعمل في الإضاعة ، كقوله تعالى : ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ [طه : 126] وقوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ [الماعون : 5] .

وعلى هذا يكون قوله ﴿ فَنَسِيَ ﴾ من الحكاية لا من المحكي ، والضمير عائد إلى السامريّ فينبغي على هذا أن يتصل بقوله ﴿ أفلا يرون ﴾ [طه : 89] ويكون اعتراضاً .

وجعله جمع من المفسرين عائداً إلى موسى ، أي فنسي موسى إلهكم وإلهه ، أي غفل عنه ، وذهب إلى الطور يفتّش عليه وهو بين أيديكم ، وموقع فاء التفريع يبعد هذا التفسير .

والنسيان : يكون مستعملاً مجازاً في الغفلة .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) ﴾

يجوز أن يكون اعتراضاً وليس من حكاية كلام القوم ، فهو معترض بين جملة ﴿ فكذلك ألقى السامريّ ﴾ [طه : 87] وجملة ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتبعن ﴾ [طه : 92 ، 93] الخ ، فتكون الفاء لتفريع كلامِ متكلمٍ على كلام غيره ، أي لتفريع الإخبار لا لتفريع المخبَر به ، والمخبِر متعدد .

ويجوز أن يكون من حكاية كلام الذين تصدّوا لخطاب موسى عليه السلام من بين قومه وهم كبراؤهم وصلحاؤهم ليعلم أنهم على بصيرة من التوحيد .

والاستفهام : إنكاري ، نزلوا منزلة من لا يرى العجل لعدم جَرْيهم على موجَب البصر ، فأُنكر عليهم عدم رؤيتهم ذلك مع ظهوره ، أي كيف يدّعون الإلهية للعجل وهم يرون أنه لا يتكلم ولا يستطيع نفعاً ولا ضراً .

والرؤية هنا بصرية مكنى بها أو مستعملةً في مطلق الإدراك فآلت إلى معنى الاعتقاد والعلم ، ولا سيما بالنسبة لجملة ﴿ ولا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرَاً ولا نَفْعاً ﴾ فإن ذلك لا يُرى بالبصر

بخلاف ﴿ لا يرجع إليهم قولاً .

ورؤية انتفاء الأمرين مراد بها رؤية أثر انتفائهما بدوام عدم التكّلم وانتفاءِ عدم نفعهم وضرهم ، لأنّ الإنكار مسلّط على اعتقادهم أنه إلههم فيقتضي أن يملكَ لهم ضرّاً ونفعاً .

ومعنى يَرْجِعُ ﴾ يَرُدّ ، أي يجيب القول ، لأن ذلك محل العبرة من فقدانه صفات العاقل لأنهم يَدْعُونه ويُثنون عليه ويمجدونه وهو ساكت لا يشكر لهم ولا يَعِدهم باستجابة ، وشأن الكامل إذا سمع ثناء أو تلقّى طِلبة أن يجيب .

ولا شك أن في ذلك الجمع العظيم من هو بحاجة إلى جلب نفع أو دفع ضرّ ، وأنهم يسألونه ذلك فلم يجدوا ما فيه نفعهم أو دفع ضر عنهم مثل ضر عدّو أو مرض .

فهم قد شاهدوا عدم غنائه عنهم ، ولأن شواهد حاله من عدم التحرك شاهدة بأنه عاجز عن أن ينفع أو يضر ، فلذلك سلط الإنكار على عدم الرؤية لأنّ حاله مما يُرى .

ولامَ ﴿ لَهُمْ ﴾ متعلّق بـ ﴿ يَمْلِكُ ﴾ الذي هو في معنى يستطيع كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعاً ﴾ في سورة العقود .

. [76]

وقدم الضرّ على النفع قطعاً لعُذرهم في اعتقاد إلهيته ، لأن عذر الخائف من الضرّ أقوى من عذر الراغب في النفع .

و(أنْ) في قوله ألاَّ يَرْجِعُ ﴾ مخفّفة من (أنّ) المفتوحة المشددة واسمها ضمير شأن

محذوف، والجملة المذكورة بعدها هي الخبر، ف ﴿ يرجعُ مرفوع باتفاق القراءات ما عدا قراءات شاذة.

وليست (أنْ) مصدرية لأن (أن) المصدرية لا تقع بعد أفعال العلم ولا بعد أفعال الإدراك.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾

(137/501)

الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ أفلا يرون ﴾ [طه: 89] على كلا الاحتمالين، أي كيف لا يستدِّلون على عدم استحقاق العجل الإلهيّة، بأنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً فيقلعون عن عبادة العجل، وتلك دلالة عقلية، في حال أنّ هارون قد وعظهم ونبههم إلى ذلك إذ ذكّرهم بأنه فتنة فتنهم بها السامريّ، وأن ربّهم هو الرحمان لا ما لا يملك لهم نفعاً فضلاً عن الرحمة، وأمرهم بأن يتبعوا أمره، وتلك دلالة سمعيّة.

وتأكيد الخبر بحرف التحقيق ولام القسم لتحقيق إبطال ما في كتاب اليهود من أن هارون هو الذي صنَع لهم العِجل، وأنه لم ينكر عليهم عبادته.

وغاية الأمر أنه كان يستهزىء بهم في نفسه، وذلك إفك عظيم في كتابهم.

والمضاف إليه (قبلُ) محذوف دل عليه المقام ، أي من قبلِ أن يرجعَ إليهم موسى وينكر عليهم .

وافتتاح خطابه بـ ﴿ يا قوم تمهيد لمقام النصيحة .

ومعنى إِنَّمَا فُتِنْتُم بِهِ ﴾ : ما هو إلاّ فتنة لكم وليس ربّاً ، وإن ربّكم الرحمان الذي يرحمكم في سائر الأحوال ، فأجابوه بأنّهم لا يزالون عاكفين على عبادته حتى يرجع موسى فيصرّح لهم بأن ذلك العجل ليس هو ربّهم .

ورتب هارون خطابه على حسب الترتيب الطبيعي لأنه ابتدأه بزجرهم عن الباطل وعن عبادة ما ليس برب ، ثمّ دعاهم إلى معرفة الرب الحق ، ثمّ دعاهم إلى اتباع الرسول إذ كان رسولاً بينهم ، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع ، فما كان منهم إلاّ التصميم على استمرار عبادتهم العجل فأجابوا هارون جواباً جازماً .

و﴿ عَلَيهِ ﴾ متعلّق بـ ﴿ عاكفين ﴾ قدم على متعلقه لتقوية الحكم ، أو أرادوا : لن نبرح نخصه بالعكوف لا نعكف على غيره .

والعكوف : الملازمة بقصد القربة والتعبد ، وكان عبَدة الأصنام يَلزمونها ويطوفون بها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾

مادة " ملك " لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدَّعِي البعض ، فتأتي مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعني تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر مِمَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعنى واحد . فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ [طه : 87] أي : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم ؟

قالوا : ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ [طه : 87] (أَوْزَاراً) جمع وِزْر ، وهو الشيء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم ؛ لأنه ثقيل على النفس ثقلاً يتعدى إلى الآخرة أيضاً ، حيث لا ينتهي ألم الحمْل فيها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ [طه : 101] .

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أي : قوم فرعون . وقالوا إنهم كانوا في أعيادهم

يستعيرون الحُليّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذي واعدهم عليه؟

قالوا: لأنهم أرادوا أنْ يُسِرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم، وصدُّوهم عن الخروج فأعجلوا عن ردِّها .

وقال قوم: إن هذه الزينات والحليّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه، ولكن هذا القول مردود؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ ألْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى: ﴿ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري ﴾ [طه: 87] .

(139/501)

إذا أُطلِقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب، والقَذْف هو الرَّمْي بشدة، وكأن الرامي يتأفف أنْ يحمل المرمىّ، وفي ذلك دلالة على أن بني إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامري من هذه الناحية، فأفهمهم: إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة في النار، وهو يقصد شيئاً آخر، هو أنْ ينصهر الذهب، ويُخرِج ما

فيه من الشوائب ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السامري ﴾ [طه : 87] أي : ألقى ما معه من الحليّ ، لكن فَرْق بين القَذْف والإلقاء ، الإلقاء فيه لُطْف وتمهُّل ، فهو كبيرهم ومُعلّمهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ . . . ﴾

أي : أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر ﴿ عِجْلاً جَسَدًا ﴾ [طه : 88] كلمة جسد وردتْ أيضاً في القرآن في قصة سليمان عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص : 34] .

وقد أعطى الله سليمان مُلْكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، فسخَّر له الطير والجنّ والإنس والريح يأتمرون بأمره ، ويبدو أنه أخذه شيء من الزَّهْو أو الغرور ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى مانح هذا المُلْك ويُذكّره بأن هذا المُلْك لا يقوم بذاته ، إنما بأمر الله القادر على أن يُقعِدك على كُرسيّك جسداً ، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته .

كما ترى الرجل والعياذ بالله قد أصابه شلل كُلّيٌّ أقعده جسداً ، لا حركة فيه ، ولا إرادةَ على جوارحه ، فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه ، أفتكون له إرادة على الخارج عنه من طير أو إنس أو جن ؟

فلا تغتر بأنْ جعل الله لك إمْرة على كل الأجناس ؛ لأنه قادر أنْ يسلبكَ هذا كله .

ويُروَى أن سليمان عليه السلام ركب بساط الريح يحمله إلى حيث يريد ، كما قال تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] فَداخلَه شيء من الفخر والزَّهْو ، فسمع من تحته مَنْ يقول : يا سليمان هكذا دون ألقاب أُمِرْنا أنْ نطيعك ما أطعتَ اللهَ ، ثم رَدَّه حيث كان .

لذلك استغفر سليمان عليه السلام وأناب .

وكذلك نرى الإنسان ساعة أن يموتَ أولَ ما يُنسَى منه اسمه ، فيقولون : الجثة : الجثة هنا ، ماذا فعلتم بالجثة ، ثم تُنسَى هذه أيضاً بمجرد أن يُوضَع في نعشه فيقولون الخشبة : أين الخشبة الآن ، انتظروا الخشبة . سبحان الله بمجرد أنْ يأخذ الخالق عز وجل سِرَّه من العبد صار جثة ، وصار خشبة ، فما هذه الدنيا التي تكون نهايتها هكذا ؟

ففي قوله تعالى ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [طه : 88] أي : لا حركة فيه ، فهو مجرد تمثال . صُنِع على هيئة معينة ، بحيث يستقبل الريح ، فيحدث فيه صفيراً يشبه الخوار أي : صوت البقر .

لكن ، لماذا فكَّر السامري هذا التفكير ، واختار مسألة العجل هذه ؟

قالوا : لأن السامري استغلَّ تشوُّق بني إسرائيل ، وميلهم إلى الصنمية والوثنية ، وأنها متأصلة فيهم . ألم يقولوا لنبيهم عليه السلام وما زالت أقدامهم مُبتلة من البحر بعد أن

أنجاهم الله من فرعون، وكان جديراً بهم شكر الله، فإذا بهم يقولون وقد أَتَوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿ يا موسى اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: 138].

فجاءهم بهذا العجل، وقد ترقَّى به من الصنمية، فجعله جسداً، وجعل له خواراً وصَوْتاً مسموعاً.

(141/501)

ثم يقول تعالى: ﴿ فَقَالُواْ هاذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ [طه: 88] أي: نسي السامري خميرة الإيمان في نفسه، ونسي أن هذا العمل خروجٌ عن الإيمان إلى الكفر، ولَيْتَه يكفر في ذاته، إنما هو يكفر ويُكفّر الناس. لا بُدَّ أنه نسي، فلو كان على ذُكْر من الإيمان ومن عاقبه عمله وخيبة ما أقدم عليه ما فعل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ ﴾

أي: كيف يعبدون هذا العجل، وهو لا يردّ عليهم جواباً، ولا يملك له شيئاً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [

الشعراء : 6973] .

فَمنْ كان لديه ذرة من عقل لا يُقدم على هذه المسألة ؛ لذلك فالحق سبحانه يناقش هؤلاء :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ﴾ [البقرة : 28] .

أي : أخبرونا بالطريق الذي يحملكم على الكفر ، كأنها مسألة عجيبة لا يقبلها العقل ولا يُقرُّها . ألم يخطر ببال هؤلاء الذين عبدوا العجل أنه لا يردّ عليهم إنْ سألوه ، ولا يملك لهم ضَرّاً إنْ كفروا به ، ولا نفعاً إن آمنوا به وعبدوه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ﴾

وكان هارون عليه السلام خليفة لأخيه في غَيْبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] .

اخْلُفْنِي واعمل الصالح ، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضي في القوم بما يراه مناسباً ، وأنْ يُقدِّر المصلحة كما يرى . وقد شُفِع هذا التفويض لهارون أمام أخيه بعد ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ [طه : 90] .

وهكذا وعظهم هارون على قَدْر استطاعته ، وبيّن لهم أن مسألة العِجْل هذه اختبار من الله . وكان تقديره في هذه القضية ألاَّ يدخل مع هؤلاء في معركة ؛ لأن القومَ كانوا جميعاً ثلاثمائة ألف ، عبد العجل منهم أثنا عشر ألفاً ، ولو جعلها هارون عليه السلام معركة لأفْنى كل هذا العدد .

لذلك اكتفى بالوعظ ﴿ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أَمْرِي ﴾ [طه : 90] كما أخذتم العهد عند موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(143/501)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ :

قرأ الأخَوان بضم الميم . ونافع وعاصم بفتحها ، والباقون بكسرها : فقيل : لغاتٌ بمعنى واحدٍ كالنَّقْض والنِّقْض . ومعناها : القُدْرَةُ والتسلُّط . وفرَّق الفارسيُّ وغيرُه بينها فقال : " المضمومُ معناه : لم يكنْ [لنا] مُلْكٌ فَنُخْلِفَ موعدَك بسُلْطَانه ، وإنما فَعَلْناه بنظرٍ

واجتهادٍ ، فالمعنى على : أَنْ ليس لهم مُلْكٌ .

كقول ذي الرمة :

3313 لا تُشْتكى سَقْطَةٌ منها وقد رَقَصَتْ . . . بها المفاوزُ حتى ظهرُها حَدِبُ

أي : لا يقع منها سَقْطَةٌ فتشتكى " . وفتحُ الميمِ مصدرٌ مِنْ مَلَكَ أمرَه . والمعنى : ما فعلناه بأَنَّا مَلَكْنا الصوابَ ، بل غَلَبَتْنا أنفسُنا . وكسرُ الميمِ كَثُر فيما تَحُوْزه اليدُ وتحويه ، ولكنه يُسْتعمل في الأمورِ التي يُبْرِمُها الإِنسانُ ومعناها كمعنى التي قبلها . والمصدرُ في هذين الوجهين مضافٌ لفاعِله ، والمفعولُ محذوفٌ أي : بملكِنا الصوابَ .

قوله : ﴿ حُمِّلْنَآ ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامر وحفصٌ بضم الحاء وكسر الميم مشددة . وأبو جعفرٍ كذلك إلاَّ أنه خَفَّف الميم ، والباقون بفتحِهما خفيفةَ الميمِ . فالقراءةُ الأولى والثانية نَسَبوا فيهما الفعلَ إلى غيرِهم ، وفي الثالثةِ نَسَبُوه إلى أنفسهم .

و﴿ أَوْزَاراً ﴾ مفعولٌ ثانٍ على غيرِ القراءة الثالثة . و﴿ مِّن زِينَةِ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ متعلقاً ب " حُمِّلْنا " ، وأن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل " أَوْزار " .

وقوله : ﴿ فَكَذَلِكَ ﴾ نعتٌ لمصدرٍ ، أو حالٌ من ضميره عند سيبويه أي : إلقاءً مثلَ إلقائِنا ألقى السامريُّ .

قوله : ﴿ أَلاَّ يَرْجِعُ ﴾ : العامَّةُ على " يرجعُ " لأنها المخففةُ من الثقيلة . ويدلُّ على ذلك وقوعُ أصلِها وهو المشدَّدةُ في قوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الأعراف : 148] .

وقرأ أبو حيوةَ والشافعيُّ وأبانُ بنصبه . جعلوها الناصبةَ . والرؤيةُ على الأولى يقينيةٌ ، وعلى الثانية بَصَرية . وقد تقدَّم تحقيقُ هذين القولين في سورة المائدة .

والسامريُّ : منسوبٌ لقبيلةٍ يُقال لها : سامرة .

وقرأ الأعمشُ " فنسْي " بسكون السين وهي لغة فصيحة . والضميرُ في " نسي " يجوز أن يعود على السامِرِيّ ، وعلى هذا فهو مِنْ كلامِ الله تعالى ، ويجوز أن يعودَ على موسى صلَّى الله عليه وسلَّم . وعلى هذا فهو من كلامِ السامريِّ أي : نَسِي إلهه . والقولان منقولان لأهل التفسير .

وقرأ العامَّةُ : " إنما فُتِنْتُم " و " إنَّ ربَّكم الرحمنُ " بالكسر فيهما ، لأنهما بعد القول لا بمعنى الظن . وقرأت فرقة بفتحِهما وخُرِّجت على لغة سُلَيْم : وهو أنهم يفتحون " أنَّ " بعد القول مطلقاً . وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ ، والحسن وعيسى بن عمر بفتح " أنَّ ربَّكم " فقط .

وخُرِّجَتْ على وجهين ، أحدهما : أنها وما بعدها بتأويل مصدرٍ في محل رفع خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : والأمرُ أنْ ربَّكم الرحمنُ فهو مِنْ عطفِ الجمل لا مِنْ عطفِ المفرداتِ .

والثاني : أنها مجرورةٌ بحرفٍ مقدَّرٍ أي : لأنَّ ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعوني . وقد تقدَّم القولُ في

نظيرِ ذلك بالنسبة إلى هذه الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 89 .
92 ﴾

(145/501)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾

قالوا لم نكن في ابتداءِ حالِنا قاصدين إلى ما حَصَلَ مِنَّا ، ولا عالمين بما آلتْ إليه عاقبةُ حالِنَا ، وإن الذي حملنا من حُلِيِّ القبط صاغَ السامريُّ منه العجلَ . . . وكذلك الحرامُ من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم أثره . فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين حراماً عليهم ، فاستعاروا الحليَّ من القبط ، وآل إليهم ما كان في أيديهم من الملْكِ ، فكان سبب عبادتهم العِجْل . . .
كذلك مَنْ انهمك في طلب الدنيا من غير وجهِ حلالٍ يكون على خَطَرٍ من رِقَّةِ دينه ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] .
﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾

يقال إنهم لمَّا مَرُّوا على قوم يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ،

وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مَيْلُهم إلى عبادته مُسْتَكِنّاً في قلوبهم ، فصاغ السامريُّ العجل على تلك الصورة . وفي هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكنَّت في القلب فمَا لم يُنْقَش ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أن يَلْقى صاحبه (. . .) .

ويقال إن موسى - عليه السلام - خرج من بين أمته أربعين يوماً برَضِيَ قومهُ بعبادة العجل ، ونبيُّنا - عليه السلام - خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص مِنْ أمته في التوحيدِ حديثاً في التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها مَخْلَصٌ .

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدّلوه تبديلاً ، بينما ضمَنَ الحقُّ - سبحانه - إعزازَ هذا الكتاب بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

وقال : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [الفتح : 28] .

(146/501)

قوله : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا . . . ﴾ بَيَّنَ أَنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم ، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العبادة ، وفيه ردٌّ على مَنْ لم يُثْبِتْ له في الأَزَل القول ، ولم يَصِفْه بالقدرة على الخير والشر :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً يحفظ كيف أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فمَنْ تركَ أَمْرًا الحقّ . . . كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخَ وأكلَ الناس ؟ لهذا قيل : لا حُرْمَةَ لفاسق ؛ لأنه إذا تَرَكَ حقّ الحقّ فمتى يحفظ حَقّ الخَلْقِ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 471 . 473 ﴾

(147/501)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما ذكر ما قال هارون عليه السلام، التفتت النفس إلى علم ما قال له موسى عليه السلام لأنه خليفته عليهم، مع كونه راساً في نفسه، فدفع هذا العناء بقوله، مسقطاً أخذه برأس أخيه لما تقدم من ذكره ويأتي هنا من الدلالة عليه، ولم تدع إليه ضرورة في هذه السورة التي من أعظم مقاصدها الدلالة على تليين القلوب: ﴿ قال ﴾ أي موسى: ﴿ يا هارون ﴾ أنت نبي الله وأخي ووزيري وخليفتي فأنت أولى الناس بأن ألومه، وأحقهم بأن أعاتبه ﴿ ما منعك إذ ﴾ أي حين ﴿ رأيتهم ضلوا ﴾ عن طريق الهدى، واتبعوا سبيل الردى، من اتباعي في سيرتي فيهم من الأخذ على يد الظالم طوعاً أو كرهاً، اتباعاً لا تزيغ فيه عما نهجته لك بوجه من الوجوه شيئاً من زيغ، وعبر عن هذا التأكيد بزيادة "لا" في قوله: ﴿ ألاَّ تتبعن ﴾ كما تقدم غير مرة أن النافي إذا زيد في الكلام كان نافياً لضد مضمونه فيفيد إثباتاً للمضون ونفياً لضده، فيكون ذلك في غاية التأكيد ﴿ أفعصيت ﴾ أي أتكبرت عن اتباعي فتسبب عن ذلك أنك عصيت ﴿ أمري ﴾ وأخذ بلحيته وبرأسه يجره إليه غضباً لله تعالى، فكأنه قيل: ما قال له؟ فقيل: ﴿ قال ﴾ مجيباً له مستعطفاً بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ما له من الرقة والشفقة: ﴿ يبنؤم ﴾ فذكره بها خاصة وإن كان شقيقه لأنه يسوءها ما يسوءه، وهي أرق من الأب ﴿ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ أي بشعره؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إني خشيت أن تقول ﴾ إن اشتددت عليهم حتى يصل الأمر إلى القتال ﴿ فرقت بين بني إسرائيل ﴾ بفعلك هذا الذي لم يُجْدِ شيئاً لقلة من كان

معك وضعفكم عن ردهم ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ولم تقل واردد هم ولو أدى الأمر إلى السيف ، وهذا كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- مأموراً بالصفح والحلم والمدافعة باللين عند ضعف الناصر وقلة المعين .

(148/501)

ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس إليه وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى إذ كان رأس الهداة ، تشوف السامع إلى ما كان من غيره ، فاستأنف تعالى ذكره بقوله : ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضاً عن أخيه بعد قبول عذره .

جاعلاً ما نسب إليه سبباً لسؤاله عن الحامل له عليه : ﴿ فما خطبك ﴾ أي أمرك هذا العجيب العظيم الذي حملك على ما صنعت وأخبرني العزيز العليم أنك أنت أضللتهم به ﴿ يا سامري قال ﴾ السامري مجيباً له : ﴿ بصرت ﴾ من البصر والبصيرة ﴿ بما لم يبصروا به ﴾ من أمر الرسول الذي أجاز بنا البحر ﴿ فقبضت ﴾ أي فكان ذلك سبباً لأن قبضت ﴿ قبضة ﴾ أي مرة من القبض ، أطلقها على المقبوض تسمية للمفعول بالمصدر ﴿ من أثر ﴾ فرس ذلك ﴿ الرسول ﴾ أي المعهود ﴿ فنبذتها ﴾ في الحلي الملقى في النار ، أو في العجل ﴿ وكذلك ﴾ أي وكما سولت لي نفسي أخذ اثره ﴿ سولت ﴾ أي

حسنت وزينت ﴿ لي نفسي ﴾ نبذها في الحلي فنبذتها ، فكان منها ما كان ، ولم يدعني إلى ذلك داع ولا حملني عليه حامل غير التسويل .

(149/501)

ولما كان فعله هذا مفرقاً لبني إسرائيل عن طريق الحق التي كانوا عليها ، وجامعاً لهم على تمثال حيوان هو من أخس الحيوانات ، وعلى نفسه بكونه صار متبوعاً في ذلك الضلال ، لكونه كان سببه ، عوقب بالنفرة من الإنسان الذي هو أشرف الحيوان ، ليكون ذلك سبباً لضد ما تسبب عن فعله ، فيعاقب بالدنيا بعقوبة لا شيء أشد منها وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً فلا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد ، بل يكون وحيداً طريداً ما دام حياً ، فلذلك استؤنف الإخبار عن هذا بقوله تعالى : ﴿ قال ﴾ أي له موسى عليه السلام : ﴿ فاذهب ﴾ أي تسبب عن فعلك أني أقول لك : اذهب من بيننا ، أو حيث ذهبت ﴿ فإن لك في الحياة ﴾ أي ما دمت حياً ﴿ أن تقول ﴾ لكل من رأيته : ﴿ لا مساس ﴾ أي لا تمسني ولا أمسك ، فلا تقدر أن تنفك عن ذلك لإرادة الإله الحق ذلك بك وترغيبك فيه - بما أفادته اللام ، لتعلم أنت ومن تبعك أنكم كنتم على أعظم ضلال في ترك القادر على كل شيء ، واتباع ما لا قدرة له على شيء ﴿ وإن لك ﴾ بعد الممات ﴿ موعداً ﴾

للثواب إن تبت ، وللعقاب إن أبيت ﴿ لن تخلفه ﴾ مبنياً للفاعل وللمفعول ، أي لا يكون خلفك ولا تكون أنت خلفه ، بل يكون كل منكما مواجهاً لصاحبه ، لا انفكاك له عنه ، كما أنك في الحياة لا تقدر أن تنفك عن النفرة من الناس ، فاختر لنفسك ما يحلو .

(150/501)

ولما ذكر ما للإله الحق من القدرة التامة في الدارين ، أتبعه عجز العجل فقال : ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ أي بزعمك ﴿ الذي ظلت ﴾ أي دمت في مدة يسيرة جداً بما أشار إليه تخفيف التضعيف ﴿ عليه عاكفاً ﴾ أي مقبلاً مقارباً مواظباً جهاراً ﴿ لنحرقنه ﴾ أي بالنار وبالمبرد - كما سلف عن نص التوراة ، وكان معنى ذلك أنه أحماه حتى لان فهان على المبارد ﴿ ثم لننسفنه ﴾ أي لنذرينه إذا صار سحالة ﴿ في اليم ﴾ أي البحر الذي أغرق الله فيه آل فرعون وهو أهل لأن يقصد فيجمع الله سحالته التي هي من حيلهم وأموالهم فيحميها في نار جهنم ويكويهم ويجعلها من أشد العذاب عليهم ، وأكد الفعل إظهاراً لعظمة الله الذي أمره بذلك ، وتحقيقاً للصدق في الوعد فقال : ﴿ نسفاً ﴾ . انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 41 . 43 ﴾

(151/501)

فصل

قال الفخر :

ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا : ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ كأنهم قالوا : لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس إلا ذاك .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) ﴾

اعلم أن الطاعنين في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه .

أحدها : أن موسى عليه السلام إما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أو لم يأمره ، فإن أمره به فإما أن يكون هرون قد اتبعه أو لم يتبعه ، فإن اتبعه كانت ملامة موسى لهارون معصية وذنباً لأن ملامة غير المجرم معصية .

وإن لم يتبعه كان هارون تاركاً للواجب فكان فاعلاً للمعصية ، وأما إن قلنا : إن موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته إياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم إسناد المعصية إما إلى موسى أو إلى هرون .

وثانيها : قول موسى عليه السلام : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ استفهام على سبيل الإنكار فوجب أن يكون هارون قد عصاه ، وأن يكون ذلك العصيان منكراً ، وإلا لكان موسى

عليه السلام كاذباً وهو معصية ، فإذا فعل هارون ذلك فقد فعل المعصية .

وثالثها : قوله : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ وهذا معصية لأن هارون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر ، فإن كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة ، وبعد أن علم أن هرون قد فعل ما قدر عليه كان الأخذ برأسه ولحيته معصية وإن فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضاً معصية .

(152/501)

ورابعها : إن هارون عليه السلام قال : ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ فإن كان الأخذ بلحيته وبرأسه جائزاً كان قول هارون لا تأخذ منعاً له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية ، وإن لم يكن ذلك الأخذ جائزاً كان موسى عليه السلام فاعلاً للمعصية فهذه أمثلة لطيفة في هذا الباب .

والجواب عن الكل : أنا بينا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا ﴾ [البقرة : 36] أنواعاً من الدلائل الجلية في أنه لا يجوز صدور المعصية من الأنبياء ، وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع إليه التأويل غير جائز ، إذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا في الجواب عن هذه

الإشكالات وجوهاً .

أحدها : أنا وإن اختلفنا في جواز المعصية على الأنبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الأولى عليهم ، وإن كان كذلك فالفعل الذي يفعله أحدهما ويمنعه الآخر أعني بهما موسى وهارون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الأولى فلذلك فعَله أحدهما وتركه الآخر ، فإن قيل هذا التأويل غير جائز لأن كل واحد منهما كان جازماً فيما يأتي به فعلاً كان أو تركاً وفعل المندوب وتركه لا يجزم به ، قلنا : تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع ، فنحن نحمل ذلك الجزم في الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه إن كنت تريد الأصلح ، وقد يترك ذلك الشرط إذا كان تواطؤهما على رعايته معلوماً متقرراً .

وثانيها : أن موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فإن الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل أصابعه ويقبض لحيته فأجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لأنه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب فأما قوله : ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو

إسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ، ثم أخذ في شرح القصة فقال :

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ ، وثالثها : أن بني إسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى أن هارون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، فلما واعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له في الألواح من كل شيء ثم رجع فرآى في قومه ما رآى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هارون عليه السلام أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له فقال إشفاقاً على موسى : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي لئلا يظن القوم ما لا يليق بك .

ورابعها : قال صاحب "الكشاف" : كان موسى عليه السلام رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رآى قومه يعبدون عجلاً من دون الله تعالى من بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضباً لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه إقبال العدو المكاشر ، واعلم أن هذا الجواب ساقط لأنه يقال : هب أنه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلاً مكلفاً أم لا ؟ فإن بقي عاقلاً مكلفاً فالأسئلة باقية بتمامها أكثر ما في الباب أنك ذكرت أنه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصي فقد زدت إشكالاً آخر .

فإن قلتم بأنه في ذلك الغضب لم يبق عاقلاً ولا مكلفاً فهذا مما لا يرتضيه مسلم ألبتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك في سقوط السؤال ، والله أعلم .

أما قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن لا صلة والمراد ما منعك أن تتبعني .

والثاني : أن يكون المراد ما دعاك إلى أن لا تتبعني فأقام منعك مقام دعاك وفي الاتباع قولان : أحدهما : ما منعك من اتباعي بمن أطاعك واللحوق بي وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء .

(155/501)

والثاني : أن تتبعني في وصيتي إذ قلت لك : ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ ومعناه ظاهر وهذا يدل على أن تارك المأمور به عاص والعاصي مستحق للعقاب لقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ [الجن : 23] ولقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خالدا فِيهَا ﴾ [

النساء : 14] فمجموع الآيتين يدل على أن الأمر للوجوب ، فأجاب هارون عليه السلام وقال : ﴿ يبنؤم ﴾ قيل : إنما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه ، وقيل : كان أخاه لأمه : ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ واعلم أنه ليس في القرآن دلالة على أنه فعل ذلك ، فإن النهي عن الشيء لا يدل على كون المنهي فاعلاً للمنهى عنه كقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 48] وقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] والذي فيه أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الأغراض على ما بيناه ، ومن الناس من يقول إنه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ ولقائل أن يقول : إن قول موسى عليه السلام : (ما منعك أن لا تتبعن أفعصيت أمري) يدل على أنه أمره بشيء فكيف يحسن في جوابه أن يقال : إنما لم أمتثل قولك خوفاً من أن تقول : ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل .

والجواب : لعل موسى عليه السلام إنما أمره بالذهاب إليه بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى فساد في القوم فلما قال موسى : (ما منعك أن لا تتبعن) قال لأنك إنما أمرتني باتباعك إذا لم يحصل

الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقباً لقولك .

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري : الهداية أنفع من الدلالة فإن السحرة كانوا أجانب عن الإيمان وما رأوا إلا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد في الدنيا ولم يرجعوا عن الإيمان ، وأما قومه فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وأنه أمر إلهي ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر إثني عشر طريقاً وأن الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ، ثم إن هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات لما خرجوا من البحر ورأوا قوماً يعبدون البقر قالوا : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ولما سمعوا صوتاً من عجل عكفوا على عبادته ، وذلك يدل على أنه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية ، قرأ حمزة والكسائي : (يا ابن أم) بكسر الميم والإضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره يا ابن أماه ، والله أعلم .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هارون عليه السلام وعرف العذر له في التأخير أقبل على السامري ويجوز أن يكون قد كان حاضراً مع هارون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هارون أخذ في التكلم مع السامري ، ويجوز أن يكون بعيداً ثم حضر السامري من بعد أو ذهب إليه موسى ليخاطبه ، فقال موسى عليه السلام : ﴿ مَا خَطْبُكَ

يا سامري ﴾ والخطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً ما خطبك ؟ معناه ما طلبك له والغرض منه الإنكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامري عذره في ذلك فقال : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ وفيه مسألتان :

(157/501)

المسألة الأولى :

قرئ ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ بالكسر وقرأ حمزة والكسائي بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أي بما لم يبصر به بنو إسرائيل .

المسألة الثانية :

في الإبصار قولان : قال أبو عبيدة : علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم : رجل بصير أي عالم وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال الزجاج في تقريره : أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيراً عالماً .

وقال آخرون : رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد أنه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهي اسم للمقبوض كالغرفة والضفة وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرئ أيضاً فقبصت قبصة بالضاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه .

قرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول .

المسألة الثانية :

عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا أنه متى رآه فقال الأكثرون : إنما رآه يوم فلق البحر .

وعن علي عليه السلام أن جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام إلى الطور أبصره السامري من بين الناس ، واختلفوا في أن السامري كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي : إنما عرفه لأنه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني إسرائيل ، فكانت

المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامري ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه ، فلما رآه عرفه ، قال ابن جريج : فعلى هذا قوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ بمعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت أن تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الإحياء ، قال أبو مسلم الأصفهاني : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسئلة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل ، فقال : بصرت بما لم يبصروا به ، أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أي شيئاً من سنتك ودينك فقذفته أي طرحته ، فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة ، وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الأمير في كذا وبماذا يأمر الأمير ، وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله عنه قوله :

﴿ يا أيها الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] وإن لم يؤمنوا بالإنزال .

واعلم أن هذا القول الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه .

أحدها : أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه فإطلاق لفظ الرسول لإرادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب .

وثانيها : أنه لا بد فيه من الإضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والإضمار خلاف الأصل .

وثالثها : أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر والذي ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذي رباه فبعيد ، لأن السامري إن عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبي صادق فكيف يحاول الإضلال وإن كان ما عرفه حال البلوغ فأي منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له في الطفولية في حصول تلك المعرفة .

ورابعها : أنه لو جاز إطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول : فلعل

موسى عليه السلام اطلع على شيء آخر يشبه ذلك فلأجله أتى بالمعجزات ويرجع حاصله إلى سؤال من يطعن في المعجزات ويقول : لم لا يجوز أن يقال إنهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الأدوية التي لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة ، أتوا بتلك المعجزة ، وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية .

(160/501)

أما قوله : ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ فالمعنى فعلت ما دعتني إليه نفسي وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يدعني إلى ما فعلته أحد غيري بل اتبعت هواي فيه ، ثم إن موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامري أجابه بأن بين حاله في الدنيا والآخرة وبين حال إلهه أما حاله في الدنيا فقوله : ﴿ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أن المراد : أني لا أمس ولا أمس قالوا : وإذا مسه أحد حم الماس والمسوس فكان إذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفاً من الحمى وقال لا مساس .

وثانيها : أن المراد بقوله : ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد وقال مقاتل : إن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بني إسرائيل وقال له : اخرج أنت وأهلك فخرج طريداً إلى البراري ، اعترض الواحدي عليه فقال الرجل : إذا صار مهجوراً فلا يقول

هو لا مساس وإنما يقال له ذلك ، وهذا الاعتراض ضعيف لأن الرجل إذا بقي طريداً فريداً فإذا قيل له : كيف حالك فله أن يقول لا مساس أي لا يماسني أحد ولا أماس أحداً ، والمعنى إني أجعلك يا سامري في المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل إلا أنه لا مساس وهذا الوجه أحسن وأقرب إلى نظم الكلام من الأول .

(161/501)

وثالثها : ما ذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز في حمله ما أريد مسي النساء فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] وقرىء لا مساس بوزن فجاز وهو إسم علم للمرة الواحدة من المس ، وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ والموعد بمعنى الوعد أي هذه عقوبتك في الدنيا ثم لك الوعد بالمصير إلى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، قرأ أهل المدينة والكوفة : لن تخلفه بفتح اللام أي لن تخلف ذلك الوعد أي سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أي تجيء إليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال : موعداً حقاً لا خلف فيه وعن ابن

مسعود : لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه في قوله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ [مريم : 19] وأما شرح حال إلهه فهو قوله : ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ قال المفضل في ظلت : إنه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : 65] وأصله ظللت فحذفت اللام الأولى وذلك إنما يكون إذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الأولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة إليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون في المضاعف يقولون : مسته ومسسته ثم قال : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى اليم نَسْفاً ﴾ وفي قوله : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ وجهان .

(162/501)

أحدهما : المراد إحراقه بالنار وهذا أحد ما يدل على أنه صار لحماً ودماً ، لأن الذهب لا يمكن إحراقه بالنار ، وقال السدي : أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفي حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه وثانيهما لنحرقنه أي لنبردنه بالمبرد ، يقال : حرقه يحرقه إذا برده وهذه القراءة تدل على أنه لم ينقلب لحماً ولا دماً فإن ذلك لا يصح أن يبرد بالمبرد ، ويمكن أن يقال : إنه صار لحماً فذبح ثم بردت عظامه

بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها ، قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار ، وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعني لنبردنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 92.98﴾

(163/501)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا هارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ ﴾

يعني بعبادة العجل .

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ألا تتبعني في الخروج ولا تقم مع من ضل .

الثاني : ألا تتبع عادتي في منعهم والإنكار عليهم ، قاله مقاتل .

﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ وقال موسى لأخيه هارون : أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلمّا أقام معهم ولم يبالغ في منعهم والإنكار عليهم نسبه إلى العصيان ومخالفة أمره .

﴿ قَالَ يَا بْنَ أُمَّ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لأنه كان أخاه لأبيه وأمه .

الثاني : أنه كان أخاه لأبيه دون أمه ، وإنما قال يا ابن أم ترفيقاً له واستعطافاً .

﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أخذ شعره بيمينه ، ولحيته بيسراه ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه أخذ بأذنه ولحيته ، فعبر عن الأذن بالرأس ، وهو قول من جعل الأذن من الرأس .

واختلف في سبب أخذه بلحيته ورأسه على ثلاثة أقوال :

أحدها : ليسر إليه نزول الألواح عليه ، لأنها نزلت عليه في هذه المناجاة . وأراد أن يخفيها عن بني إسرائيل قبل التوبة ، فقال له هارون : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ليشتبه سراره على بني إسرائيل .

الثاني : فعل ذلك لأنه وقع في نفسه أن هارون مائل إلى بني إسرئيل فيما فعلوه من أمر العجل ، ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الثالث : وهو الأشبه – أنه فعل ذلك لإمساكه عن الإنكار على بني إسرئيل الذين عبدوا العجل ومقامه بينهم على معاصيهم .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ وهذا جواب هارون عن قوله : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : فرقت بينهم بما وقع من اختلاف معتقدهم .

الثاني : [فرقت] بينهم بقتال مَنْ عَبَدَ العجل منهم .

وقيل : إنهم عبدوه جميعاً إلا اثني عشر ألفاً بقوا مع هارون لم يعبدوه .

﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ فيه وجهان :

(164/501)

أحدهما : لم تعمل بوصيتي ، قاله مقاتل .

الثاني : لم تنتظر عهدي ، قاله أبو عبيدة .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾

الخطب ما يحدث من الأمور الجليلة التي يخاطب عليها ، قال الشاعر :

آذنت جارتي بوشك رحيل . . . بكرا جاهرت بخطب جليل

وفي السامري قولان :

أحدهما أنه كان رجلاً من أهل كرمان ، تبع موسى من بني إسرائيل ، قاله الطبري ، وكان

اسمه موسى بن ظفر .

أحدهما : أنه كان رجلاً من أهل كرمان ، تبع موسى من بني إسرئيل ، قاله الطبري ، وكان

اسمه موسى بن ظفر . وفي تسميته بالسامري قولان :

أحدهما : أنه كان من قبيلة يقال لها سامرة ، قاله قتادة .

الثاني : لأنه كان من قرية تسمى سامرة .

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نظرت ما لم ينظروه ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : بما لم يفطنواْ له ، قاله مقاتل .

وفي بصرت وأبصرت وجهان :

أحدهما : أنَّ معناهما واحد .

الثاني : أن معناها مختلف ، بأبصرت بمعنى نظرت ، وبَصُرت بمعنى فطنت .

﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ قرأه الجماعة بالضاد المعجمة ، وقرأ الحسن بصاد غير معجمة ، والفرق بينهما أن القبضة بالضاد المعجمة ، بجميع الكف ، وبصاد غير معجمة : بأطراف الأصابع ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الرسول جبريل .

وفي معرفته قولان :

أحدهما : لأنه رآه يوم فلق البحر فعرفه .

الثاني : أن حين ولدته أمه [جعلته في غار] – حذراً عليه من فرعون حين كان يقتل بني

إسرائيل وكان جبريل يغذوه صغيراً لأجل البلوى ، فعرفه حين كبر ، فأخذ قبضة تراب من حافر فرسه وشدها في ثوبه ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ يعني فألقيتها ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه ألقاها فيما سبكه من الحلي بصياغة العجل حتى خار بعد صياغته .

الثاني : أنه ألقاها في جوف العجل بعد صياغته حتى ظهر خواره ، فهذا تفسيره على قول من جعل الرسول جبريل .

(165/501)

والقول الثاني : أن الرسول موسى ، وأن أثره شريعته التي شرعها وسنته التي سنها ، وأن قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي طرحت شريعة موسى ونبذت سنته ، ثم اتخذت العجل جسداً له خوار .

﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حدثتني نفسي . قاله ابن زيد .

الثاني : زينت لي نفسي ، قاله الأخفش .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن قوله : ﴿ فَاذْهَبْ ﴾ وعيد من موسى ، ولذا [فإن] السامري خاف

فهرب فجعل يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا يجد أحداً من الناس يمسه، حتى صار كالقائل لا مساس، لبعده عن الناس وبعد الناس منه. قالت الشاعرة:

حمال رايات بها قنعاسا . . . حتى يقول الأزد لا مساسا

القول الثاني: أن هذا القول من موسى [كان] تحريماً للسامري، وأن موسى أمر بني إسرائيل ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه، فكان لا يَمَسُّ ولاَ يُمَسُّ، قال الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله . . . ألا لا يريد السامري مساسا

أي لا يُخَالِطُونَ ولاَ يُخَالَطُون.

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: في الإمهال لن يقدم.

الثاني: في العذاب لن يؤخر. انتهى انتهى. اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(166/501)

وقال ابن عطية:

قال بنو إسرائيل حين وعظهم هارون وندبهم إلى الحق ﴿ لن نبرح ﴾ عابدين لهذا الإله، ﴿ عاكفين ﴾ عليه أي لازمين له والعكوف الانحناء على الشيء من شدة ملازمته ومنه

قول الراجز : [الرجز]

عكف النبيط يلعبون الفنزجا . . .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) ﴾

(167/501)

في سرد القصص اقتضاب يدل عليه ما ذكره تقديره فرجع موسى فوجد الامر كما ذكره الله تعالى له فجعل يؤنب هارون بهذه المقالة ، وقرأ الجمهور " تتبعن " بحذف الياء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وبإثباتها في الوصل ويقف ابن كثير بالياء وأبو عمرو بغير الياء . ويحتمل قوله ﴿ ألا تتبعن ﴾ أي بني إسرائيل نحو جبل الطور فيجيء اعتذار هارون أي لو فعلت ذلك مشت معي طائفة وأقامت طائفة على عبادة العجل فيتفرق الجمع فخفت لومك على التفرق ، ويحتمل قوله ﴿ ألا تتبعن ﴾ أي لا تسير بسيري وعلى طريقتي في الإصلاح والتسديد ويجيء اعتذار هارون بمعنى أن الأمر كان متفاقماً فلو تقويت عليه وقع القتال واختلاف الكلمة فكان تفريقاً بين بني إسرائيل وإنما لاينت جهدي . وقوله تعالى : ﴿ ألا تتبعن ﴾ بمعنى ما منعك أن تتبعني ، واختلف الناس في وجه دخول " لا " فقالت فرقة هي زائدة ، وذهب حذاق النحاة إلى أنها مؤكدة وأن في الكلام فعلاً مقدراً كأنه قال ما منعك

ذلك أو حضك أو نحو هذا على " أن لا تتبعن " وما قبل وما بعد يدل على هذا ويقتضيه .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم " يبنؤم " يحتمل ان يريد يا بن أما فحذف الألف تخفيفاً ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً وبناه كخمسة عشر ، وقرأ ابن كثير عن عاصم وحمزة والكسائي " يا بن أمِ " بالكسر على حذف الياء تخفيفاً وهو شاذ لأنها ليست كالياء في قولك يا غلامي وإنما هي كالياء في قولك يا غلام غلامي وهذه ياء لا تحذف ، ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً ثم أضاف إلى نفسه فحذف الياء كما تحذف من الأسماء المفردة إذا أضيفت نحو يا غلام ، وقالت فرقة لم يكن هارون أخا موسى إلا من أمه وهذا ضعيف ، وقالت فرقة كان شقيقه وإنما دعاه بالأم لأن التداعي بالأم أشفق وأشد استرحاماً ، وأخذ موسى عليه السلام بلحية هارون غضباً وكان حديد الخلق عليه السلام .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) ﴾

(168/501)

المعنى قال موسى مخاطباً للسامري ﴿ فما خطبك يا سامري ﴾ ، وقوله ﴿ ما خطبك ﴾ كما تقول ما شأنك وما أمرك ، لكن لفظة الخطب تقتضي انتهازاً لأن الخطب مستعمل

في المكارة فكأنه قال ما نحسك وما شؤمك وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك ، و " السامري " قيل هو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل ، وقيل هو منسوب إلى قرية يقال لها سامرةع وهي معروفة اليوم ببلاد مصر ، وقيل اسمه موسى بن ظفر . وقرأت فرقة " بصُرت " بضم الصاد على معنى صارت بصيرتي بصورة ما فهو كظرفت وشرفت ، وقرأت فرقة " بصِرت " بكسر الصاد ، فيحتمل أن يراد من البصيرة ويحتمل أن يراد من البصر وذلك أن في أمر السامري ما زاده على الناس بالبصر وهو وجه جبريل عليه السلام وفرسه وبالبصيرة وهو ما علمه من أن القبضة اذا نبذها مع الحلي جاءه من ذلك ما يريد ، وقرأ الجمهور " يبصروا " بالياء يريد بني إسرائيل ، وقرأ حمزة والكسائي " تبصروا " بالتاء من فوق يريد موسى مع بني إسرائيل ، وقرأ الجمهور " فقبضت قبضة " بالضاد منقوطة بمعنى أخذت بكفي مع الأصابع ، وقرأ ابن مسعود وابن الزبير وأبي بن كعب وغيرهم ، " فقبصت قبصة " بالصاد غير منقوطة بمعنى أخذت بأصابعي فقط ، وقرأ الحسن بخلاف عنه " قُبضة " بضم القاف . و﴿ الرسول ﴾ جبريل عليه السلام ، و" الأثر " هو تراب تحت حافر فرسه ، وسبب معرفة السامري بجبريل وميزه له فيما روي أن السامري ولدته أمه عام الذبح فطرحته في مغارة فكان جبريل عليه السلام يغذوه ويحميه حتى كبر وشب فميزه بذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف . وقوله ﴿ فنبذتها ﴾ أي على الحلي فكان منها ما تراه وهذا محذوف من اللفظ تقتضيه الحال والمخاطبة . ثم قال ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أي وكما حدث ووقع قويت لي نفسي وجعلته لي سولاً وإرباً حتى فعلته ، وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في حد أو وحي فعاقبه باجتهاد نفسه بأن أبعده ونحاه عن الناس وأمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته وأن لا يواكلوا ولا يناكحوا ونحو هذا ، وعلمه مع ذلك وجعل له أن يقول مدة حياته ﴿ لا مساس ﴾ أي لا مماسة ولا إذاية . وقرأ الجمهور "لا مِسَاسَ" بكسر الميم وفتح السين على النصب بالتبرئة وهو اسم يتصرف ومنه قول النابغة : [المتقارب]

فأصبح من ذاك كالسامري ، . . . إذ قال موسى له لا مساسا

ومنه قول رؤبة : [الرجز]

حتى يقول الأزد لا مساسا . . . واستعماله على هذا كثير . وقرأ أبو حيوة "لا مَساسِ" بفتح الميم وكسر السين وهو معدول عن المصدر كفجار ونحوه ، وشبهه أبو عبيدة وغيره بنزال ودراك ونحوه والشبه صحيح من حيث هي معدولات وفارقة في أن هذه عدلت عن الأمر ، ومساس وفجار عدلت عن المصدر ومن هذا قول الشاعر :

تميم كرهط السامري . . . وقوله : [الطويل]

ألا لا يريد السامري مساس . . . وقرأ الجمهور " تخلَفه " بفتح اللام على معنى لن يقع فيه خلف ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " لن تخلِفه " بكسر اللام على معنى لن تستطيع الروغان عنه والحيدة فتزول عن موعد العذاب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بخلاف " لن نخلفه " بالنون ، قال أبو الفتح المعنى لن نصادفه مخلفاً ع وكلها بمعنى الوعيد والتهديد . ثم وبخه عليه السلام بقوله : ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ﴾ أي انظر صنيعك وتغيرنا له وردنا الأمر فيه إلى الواجب . وقرأت فرقة " ظَلت " بفتح الظاء على حذف اللام الواحدة ، وقرأت فرقة " ظِلت " بكسر الظاء على نقل حركة اللام إلى الظاء ثم حذفها بعد ذلك نحو قول الشاعر : [أبو زبيد الطائي] [الوافر]

خَيلاان العِتاقَ من المطايا . . . أَحَسْنَ به فهن إليه شُوسُ

أراد احْسَسْنَ فنقلت حركة السين إلى الحاء ثم حذفت تخفيفاً ، وفي بعض الروايات حسين ، وقرأت فرقة " ظللت " ، وظل معناه أقام يفعل الشيء نهاراً ، ولكنها قد تستعمل في الدائب ليلاً ونهاراً بمثابة طفق . و﴿ عاكفاً ﴾ معناه ملازماً حدباً . وقرأت فرقة " لنحرِقنه " بتخفيف الراء بمعنى النار ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس " لنحرُقنَّه " بضم الراء وفتح النون بمعنى لنبردنه بالمبرد ، وقرأ نافع وغيره " لَنُحرّقنه " بضم النون وكسر الراء وشدها وهذا تضعيف مبالغة لا تعدية وهي قراءة تحتمل الحرق بالنار وتحتمل بالمبرد ، وفي مصحف أبي وعبد الله بن مسعود " لنذبحنه ثم لنحرقنه ثم لننسفنه " ، وهذه القراءة مع رواية من روى أن العجل صار لحماً ودماً ، وعلى هذه الرواية يترکب أن يكون هناك حرق بنار وإلا فإذا كان جماداً من ذهب فإنما هو حرق بمبرد اللهم إلا أن تكون إذابة ويكون النسف مستعاراً لتفريقه في اليم مذاباً . وقرات فرقة " لننسِفنه " بكسر السين ، وقرأت فرقة " لننسُفنه " بضم السين . و" النسف " تفريق الريح الغبار وكل ما هو مثله كتفريق الغربال ونحوه فهو نسف . . و﴿ اليم ﴾ غمر الماء من بحر وغيره وكل ما غمر الإنسان من الماء فهو يم ، و﴿ نسفاً ﴾ تأكيد بالمصدر . واللام في قوله : ﴿ لنحرقنه ﴾ لام القسم ، وفي هذه الآية من القصص أن موسى عليه السلام برد العجل حتى رجع كالغبار ثم ذراه في البحر ثم أمر بني إسرائيل أن يشرب جميعهم من الماء فكلما شرب من كان في قلبه حب العجل خرج على شاربه من الذهب فضيحة له ، وقال مكي رحمه الله وأسند أن

موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة وحينئذ وقع أمر العجل وان الله تعالى أعلم موسى بذلك فكلمه موسى عنهم وجاء بهم حتى سمع لفظ بني إسرائيل حول العجل فحينذ أعلمهم موسى ع وهذه رواية ، الجمهور على خلافها وإنما تعجل موسى عليه السلام وحده فوقع أمر العجل ثم جاءه موسى وصنع ما صنع بالعجل ثم خرج

بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة فكان لموسى عليه السلام نهضتان والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(172/501)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين ﴾

أي : لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿ حتى يرجع إِلينا موسى ﴾ فلما رجع موسى ﴿ قال يا هارون ما منعك إِذ رأيتهم ضلُّوا ﴾ بعبادة العجل ﴿ ألا تتَّبعني ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "ألا تتبعني" بياء في الوصل ساكنة ، ويقف ابن كثير بالياء ، وأبو عمرو بغير ياء .

وروى إسماعيل بن جعفر عن نافع : "ألا تتبعنيَ أفعصيت" بياء منصوبة .

وروى قالون عن نافع مثل أبي عمرو سواء .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بغير ياء في الوصل ، والوقف .

والمعنى : ما منعك من اتباعي .

و"لا" كلمة زائدة .

وفي المعنى ثلاثة أقوال .

أحدها : تسير ورائي بمن معك من المؤمنين ، وتفارقهم .

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أن تناجزهم القتال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : في الإنكار عليهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ أفعصيت أمري ﴾ وهو قوله في وصيته إياه "اخلفني في قومي وأصلح" .

قال المفسرون : ثم أخذ برأس أخيه ولحيته غضباً منه عليه .

وهذا وإن لم يذكر هاهنا ، فقد ذكر في [الأعراف : 150] فاكتُفي بذلك ، وقد شرحنا

هناك معنى "يا ابن أم" واختلاف القراء فيها .

قوله تعالى : ﴿ ولا برأسي ﴾ أي : بشعر رأسي .

وهذا الغضب كان لله عز وجل ، لا لنفسه ، لأنه وقع في نفسه أن هارون عصى الله بترك

اتِّباع موسى .

قوله تعالى : ﴿ إِني خشيتُ ﴾ أي : إِن فارقتُهم واتبعتك ﴿ أن تقول فرَّقت بين بني إسرائيل ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : باتباعي إِياك ومن معي من المؤمنين .

والثاني : بقتالي لبعضهم ببعض .

وفي قوله تعالى : ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ قولان .

أحدهما : لم ترقب قولي لك : "اخلفني في قومي وأصلح" .

والثاني : لم تنتظر أمري فيهم .

قوله تعالى : ﴿ فما خطبك يا سامري ﴾

أي : ما أمرك وشأنك الذي دعاك إِلى ما صنعت ؟ ! قال ابن الأنباري : وبعض اللغويين يقول : الخطب مشتق من الخطاب .

المعنى : ما أمرُك الذي تخاطب فيه ؟ !

واختلفوا في اسم السامري على قولين.

أحدهما: موسى أيضاً، قاله وهب بن منبه، وقال: كان ابن عم موسى بن عمران.

والثاني: ميخا، قاله ابن السائب.

وهل كان من بني إِسرائيل، أم لا؟ فيه قولان.

أحدهما: لم يكن منهم، قاله ابن عباس.

والثاني: كان من عظمائهم، وكان من قبيلة تسمى "سامرة"، قاله قتادة.

وفي بلده قولان.

أحدهما: كرمان، قاله سعيد بن جبير.

والثاني: باجرما، قاله وهب.

قوله تعالى: ﴿ بَصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: "تَبصروا"، بالتاء.

فعلى قراءة الجمهور أشار إِلى بني إِسرائيل، وعلى هذه القراءة خاطب الجميع.

قال أبو عبيدة: علمت ما لم تعلموا.

قال: وقوم يقولون: بصرت، وأبصرت سواء، بمنزلة أسرعت، وسَرُعت.

وقال الزجاج: يقال: بصُر الرجل يبصُر: إِذا صار عليماً بالشيء، وأبصر يبصر: إِذا نظر.

قال المفسرون: فقال له موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس، فأُلقي في نفسي

: أن اقبض من أثرها ﴿ فقبضت قبضة ﴾ ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب ، والحسن ، ومعاذ القارىء : "قبصة" بالصاد .

وقال الفراء : والقبضة بالكفِّ كلِّها ، والقبصة بالصاد بأطراف الأصابع .

قال ابن قتيبه : ومثل هذا : الخضم بالفم كله ، والقضم بأطراف الأسنان ، والنضخ أكثر من النضح ، والرجز : العذاب ، والرجس : النتن ، والهُلاس في البدن ، والسُّلاس في العقل ، والغلط في الكلام ، والغلت في الحساب ، والخصر : الذي يجد البرد ، والخرص : الذي يجد البرد والجوع ، والنار الخامدة : التي قد سكن لَهَبها ولم يطفأ جمرها ، والهامدة : التي طفئت فذهبت البتَّة ، والشُّكْد : العطاء ابتداءً ، فإن كان جزاءً فهو شُكْم ، والمائح : الذي يدخل البئر فيملأ الدلو ، والماتح : الذي ينزعها .

قوله تعالى : ﴿ فنبذتها ﴾ أي : فقذفتها في العجل .

(174/501)

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : "فنبذتها" بالإدغام ﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما حدثتك ﴿ سوّلتْ لي نفسي ﴾ أي : زيّنتْ لي ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ اذهب ﴾ أي : من بيننا ﴿ فإن لك في الحياة ﴾ أي : ما دمت حياً ﴿ أن تقول لا مساس ﴾ أي : لا

أَمسُّ ولا أُمَسُّ ، فصار السامريُّ يهيم في البرِّيَة مع الوحش والسباع ، لا يمسَّ أحداً ، ولاَ يمَسُّه أحدٌ ، عاقبه الله بذلك ، وألهمه أن يقول : "لا مساس" ، وكان إِذا لقيَ أحداً يقول : لا مساس ، أي : لا تقربني ، ولا تمسني ، وصار ذلك عقوبة لولده ، حتى إِن بقاياهم اليوم ، فيما ذكر أهل التفسير ، بأرض الشام يقولون ذلك .

وحكي أنه إِن مس واحدٌ من غيرهم واحداً منهم ، أخذتهما الحمَّى في الحال .

قوله تعالى : ﴿ وإِن لك موعداً ﴾ أي : لعذابك يوم القيامة ﴿ لن تُخلَفَه ﴾ أي : لن يتأخر عنك .

ومن كسر لام "تخلف" أراد : لن تغيب عنه .

قوله تعالى : ﴿ وانظر إِلى إِلهك ﴾ يعني : العجل ﴿ الذي ظَلْت ﴾ قال ابن عباس : معناه : أقمت عليه .

وقال الفراء : معنى "ظلت" : فعلته نهاراً .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر : "ظُلت" برفع الظاء .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : "ظِلت" بكسر الظاء .

وقال الزجاج : "ظَلت" و"ظلت" بفتح الظاء ، وكسرها ، فمن فتح ، فالأصل فيه : "ظللت" ولكن اللام حذفت لثقل التضعيف والكسر ، وبقيت الظاء على فتحها ، ومن قرأ : "ظِلت" بالكسر ، حوّل كسرة اللام على الظاء .

ومعنى ﴿ عاكفاً ﴾ مقيماً ، ﴿ لنحرِّقنّه ﴾ قرأ الجمهور "لنحرقنَّه" بضم النون وفتح الحاء وتشديد الراء .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، وابن معمر : "لَنَحْرقنه" بفتح النون وسكون الحاء ورفع الراء مخففة .

وقرأ أبو هريرة ، والحسن ، وقتادة : "لنحرقنه" برفع النون وإِسكان الحاء وكسر الراء مخففة .

قال الزجاج : إِذا شدد ، فالمعنى : نحرقه مرة بعد مرة .

(175/501)

وتأويل "لنحرقنَّه" : لنبردنَّه ، يقال : حرقت أحرُق وأحرِق : إِذا بردت الشيء .

والنسف : التذرية .

وجاء في التفسير : أن موسى أخذ العجل فذبحه .

فسال منه دم ، لأنه كان قد صار لحماً ودماً ، ثم أحرقه بالنار ، ثم ذراه في البحر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(176/501)

وقال القرطبي :

﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ .

أي لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ فننظر هل يعبده كما عبدناه ؛ فتوهموا أن موسى يعبد العجل ، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه : هذا صوت الفتنة ؛ فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضباً و﴿ قَالَ يا هرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا ﴾ أي أخطأوا الطريق وكفروا .

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ "لا" زائدة أي أن تتبع أمري ووصيتي .

وقيل : ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم .

وقيل : معناه هلاّ قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم .

وقيل : ما منعك من اللحوق بي لما فُتنوا .

﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : معناه هلاّ فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعاً لهم وزجراً .

ومعنى ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ قيل : إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه ﴿ وَقَالَ موسى

لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142

] فلما أقام معهم ، ولم يبالغ في منعهم ، والإنكار عليهم ، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

مسألة : وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتغييره ومفارقة أهله ، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضياً حكمه كحكمهم .

وقد مضى هذا المعنى في آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال .

(177/501)

وسئل الإمام أبو بكر الطُّرْطوشي رحمه الله : ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية ؟ وأُعلِم حرس الله مدته أنه اجتمع جماعة من رجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ، ويحضرون شيئاً يأكلونه .

هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفتونا مأجورين ، وهذا القول الذي يذكرونه :

يا شيخُ كُفَّ عن الذُّنوبْ . . .

قبلَ التَّفرُّق والزَّلَلْ

واعْمَلْ لنفسكَ صالحاً . . .

ما دام ينفعك العَملْ

أمّا الشبابُ فقد مَضَى . . .

ومَشيبُ رأسكَ قد نَزَلْ

وفي مثل هذا ونحوه .

الجواب : يرحمك الله مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامريّ ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل ؛ وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ؛ وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ؛ ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَحضُر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾

ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره ؛ لأن الغيرة في الله ملكته ؛ أي لا تفعل هذا فيتوهموا أنه منك استخفاف أو عقوبة .

وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ

الإنسان بلحية نفسه.

وقد مضى هذا في "الأعراف" مستوفٍ.

والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام.

(178/501)

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم، فلو خرجت لاتبعني قوم ويتخلف مع العجل قوم؛ وربما أدّى الأمر إلى سفك الدماء؛ وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلومني على ذلك.

وهذا جواب هارون لموسى عليه السلام عن قوله: ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ وفي الأعراف ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾ [الأعراف: 150] لأنك أمرتني أن أكون معهم.

وقد تقدم.

ومعنى ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ لم تعمل بوصيتي في حفظهم لأنك أمرتني أن أكون معهم؛ قاله مقاتل.

وقال أبو عبيدة: لم تنتظر عهدي وقدومي.

فتركه موسى ثم أقبل على السامريّ ف ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أي ، ما أمرك وشأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامريّ عظيماً في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرّت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] فاغتنمها السامريّ وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل .

ف ﴿ قَالَ ﴾ السامريّ مجيباً لموسى : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ يعني : رأيت ما لم يروا ؛ رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة ، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم ؛ فلما سألوك أن تجعل لهم إلها زَيَّنَتْ لي نفسي ذلك .

وقال عليّ رضي الله عنه : لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام إلى السماء ، أبصره السامريّ من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس .

وقيل قال السامري : رأيت جبريل على الفرس وهي تلقي خطوها مدّ البصر ، فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ودم .

وقيل : رأى جبريل يوم نزل على رَمَكَة وَدِيق ، فتقدم خيل فرعون في ورود البحر .

ويقال : إن أم السامريّ جعلته حين وضعته في غارٍ خوفاً من أن يقتله فرعون ؛ فجاءه جبريل عليه السلام ، فجعل كفَّ السامري في فم السامريّ ، فرضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذٍ .

وقد تقدم هذا المعنى في "الأعراف" .

ويقال : إن السامريّ سمع كلام موسى عليه السلام ، حيث عمل تمثالين من شمع أحدهما ثور والآخر فرس فألقاهما في النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر في النيل ، فأتى به الثور على قرنه ، فتكلم السامريّ بذلك الكلام الذي سمعه من موسى ، وألقى القبضة في جوف العجل فخار .

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وخلف "بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا" بالتاء على الخطاب .

الباقون بالياء على الخبر .

وقرأ أُبيّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة "فَقَبَصْتُ قَبصَةً" بصاد غير معجمة .

وروي عن الحسن ضم القاف من "قبصة" والصاد غير معجمة .

الباقون ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ بالضاد المعجمة .

والفرق بينهما أن القبض بجميع الكفّ ، والقبص بأطراف الأصابع ، ونحوهما الخَضْم

والقَضْم ، والقُبْضة بضم القاف القدر المقبوض ؛ ذكره المهدوي .

ولم يذكر الجوهري "قُبْصة" بضم القاف والصاد غير معجمة ، وإنما ذكر "القُبْضة" بضم القاف والضاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شيء ؛ يقال : أعطاه قُبْضة من سَويق أو تمر أي كفاً منه ، وربما جاء بالفتح .

قال : والقِبصُ بكسر القاف والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس ؛ قال الكميت :

لكم مسجدا اللّهِ المُزوران والحَصَى . . .

لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى

﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي طرحتها في العجل .

﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي زينته ؛ قاله الأخفش .

وقال ابن زيد : حدثتني نفسي .

والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فاذهب ﴾ أي قال له موسى فاذهب أي من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ أي لا أُمس ولا أَمس طول الحياة .

فنفاه موسى عن قومه وأمر بني إسرائيل ألاّ يخالطوه ولا يَقربوه ولا يكلّموه عقوبة له والله أعلم.

قال الشاعر:

تَميمُ كرهط السّامريّ وقوله . . .

ألاَ لا يريدُ السامريّ مِساسَا

قال الحسن: جعل الله عقوبة السامريّ ألا يماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة؛ وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة، بأن جعله لا يماسّ أحداً ولا يمكّن من أن يمسّه أحد، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا.

ويقال: ابتلي بالوسواس؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت.

وقال قتادة: بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك لا مساس وإن مسّ واحد من غيرهم أحدا منهم حُمّ كلاهما في الوقت.

ويقال: إن موسى هَمَّ بقتل السامريّ، فقال الله تعالى له: لا تقتله فإنه سخيّ.

ويقال لما قال له موسى: ﴿ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِي الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش، لا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه؛ كما قال الشاعر:

حَمَّالُ راياتٍ بها قَنَاعِسَا . . .

حتى تقولَ الأزدُ لا مسا بسَا

مسألة : هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلّفوا .

ومن التجأ إلى الحرم وعليه قَتلٌ لا يُقتَل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، وهو إرهاق إلى الخروج.

ومن هذا القبيل التغريب في حدّ الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله في موضعه ، فلا معنى لإعادته .

والحمد لله وحده .

وقال هارون القارىء : ولغة العرب لا مَساسِ بكسر السين وفتح الميم ، وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيبويه : هو مبني على الكسر كما يقال اضربِ الرجل .

(181/501)

وقال أبو إسحاق : لا مساسِ نفي وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : فعلتِ يا امرأة .

قال النحاس : وسمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : إذا اعتل الشيء

من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء ؛ فمساسِ ودراكِ اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : اضرب الرّجلَ .

ورأيت أبا إسحاق يذهب إلى أن هذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سمى آمرة بفرعون يبنيه ، وهذا لا يقوله أحد .

وقال الجوهري في الصحاح : وأما قول العرب لا مَساسِ مثال قَطامِ فإنما بني على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المسّ .

وقرأ أبو حيوة "لا مَسَاس" .

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ ﴾ يعني يوم القيامة .

والموعد مصدر ؛ أي إن لك وعداً لعذابك .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "تُخْلِفَهُ" بكسر اللام وله معنيان : أحدهما : ستأتيه ولن تجده مخلّفاً ؛ كما تقول : أحمدته أي وجدته محموداً .

والثاني : على التهديد أي لا بد لك من أن تصير إليه .

الباقون بفتح اللام ؛ بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي دمت وأقمت عليه .

﴿ عَاكِفاً ﴾ أي ملازماً ؛ وأصله ظللت ؛ قال :

خلاَ أنّ العِتاقَ من المطايا . . .

أَحَسْنَ به فهنّ إليه شُوسُ

أي أَحْسَسْن .

وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل .

وفي قراءة ابن مسعود "ظِلْتَ" بكسر الظاء .

يقال : ظَللت أفعل كذا إذا فعلته نهاراً وظَلْت وظِلْت ؛ فمن قال : ظَلْت حذف اللام الأولى تخفيفاً ؛ ومن قال : ظِلْت ألقى حركة اللام على الظاء .

و ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء من حَرَّق يحرِّق.

وقرأ الحسن وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء ، من أحرقه يُحرقه .

(182/501)

وقرأ عليّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلي "لَنَحْرُقَنَّهُ" بفتح النون وضم الراء خفيفة ، من حرقت الشيء أحرقه حرقاً بَردَته وحككت بعضه ببعض ، ومنه قولهم : حَرَق نابه يَحرِقه ويَحرُقه أي سحقه حتى سُمع له صَرِيف ؛ فمعنى هذه القراءة

لنبردّنه بالمبارد ، ويقال للمِبرد المِحْرَق .

والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار .

وقد يمكن جمع ذلك فيه ؛ قال السدي : ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح

، ثم بَرَد عظامه بالمِبرد وحَرَقه .

وفي حرف ابن مسعود "لنذبحنه ثم لنحرقنه" واللحم والدم إذا أحرقا صارا رماداً فيمكن

تذريته في اليمّ ؛ فأما الذهب فلا يصير رماداً .

وقيل : عرف موسى ما صير به الذهب رماداً ، وكان ذلك من آياته .

ومعنى ﴿ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ لنطيّرنه .

وقرأ أبو رجاء "لَنَنْسُفَنَّهُ" بضم السين لغتان ، والنّسف نفض الشيء ليذهب به الريح وهو

التذرية ، والمِنْسف ما يُنسف به الطعام ؛ وهو شيء متصوِّب الصدر أعلاه مرتفع ،

والنُّسَافة ما يسقط منه ؛ يقال : اعزل النُّسَافة وكُلْ الخالص .

ويقال : أتانا فلان كأنّ لحيته مِنْسف ؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم .

والمِنْسفة آلة يُقلع بها البناء .

ونسفتُ البناء نسفاً قلعته ، ونَسفَ البعيرُ الكلأ يَنْسِفه بالكسر إذا اقتلعه بأصله ،

وانتسفت الشيء اقتلعته ؛ عن أبي زيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ

﴾

وقال أبو حيان :

ولما وعظهم هارون ونبههم على ما فيه رشدهم اتبعوا سبيل الغي و ﴿ قالوا لن نبرح ﴾ على عبادته مقيمين ملازمين له ، وغيوا ذلك برجوع موسى وفي قولهم ذلك دليل على عدم رجوعهم إلى الاستدلال وأخذ بتقليدهم السامري ودلالة على أن ﴿ لن ﴾ لا تقتضي التأبيد خلافاً للزمخشري إذ لو كان من موضوعها التأبيد لما جازت التغيية بحتى لأن التغيية لا تكون إلا حيث يكون الشيء محتملاً فيزيل ذلك الاحتمال بالتغيية .

وقبل قوله ﴿ قال يا هارون ﴾ كلام محذوف تقديره فرجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل ﴿ قال يا هارون ﴾ وكان ظهور العجل في سادس وثلاثين يوماً وعبدوه وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين ، فعتب موسى على عدم اتباعه لما رآهم قد ضلوا و ﴿ لا ﴾ زائدة كهي في قوله ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ وقال عليّ بن عيسى دخلت ﴿ لا ﴾ هنا لأن المعنى ما دعاك إلى أن لا تتبعني ، وما حملك على أن لا تتبعني بمن معك من المؤمنين ﴿ أفعصيت أمري ﴾ يريد قوله ﴿ اخلفني ﴾ الآية .

وقال الزمخشري : ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدّة الزجر على الكفر والمعاصي ،

وهلا قاتلت من كفر بمن آمن وما لك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ، أو ما لك لم تلحقني .

وفي ذلك تحميل للفظ ما لا يحتمله وتكثير ولما كان قوله تتبعني لم يذكر متعلقه كان الظاهر أن لا تتبعني إلى جبل الطور ببني إسرائيل فيجيء اعتذار هارون بقوله ﴿ إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ﴾ إذ كان لا يتبعه إلاّ المؤمنون ويبقى عباد العجل عاكفين عليه كما قالوا ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى تتبعني تسير بسيري في الإصلاح والتسديد ، فيجيء اعتذاره أن الأمر تفاقم فلو تقويت عليه تقاتلوا واختلفوا فكان تفريقاً بينهم وإنما لاينت جهدي .

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي بِلَحْيَتي بفتح اللام وهي لغة أهل الحجاز .

(184/501)

وكان موسى عليه السلام شديد الغضب لله ولدينه ، ولما رأى قومه عبدوا عجلاً من دون الله بعد ما شاهدوا من الآيات العظام لم يتمالك أن أقبل على أخيه قابضاً على شعر رأسه ، وكان كثير الشعر وعلى شعر وجهه يجره إليه فأبدى عذره فإنه لو قاتل بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا ، فانتظرتك لتكون المتدارك لهم ، وخشيت عتابك على اطراح ما وصيتني

به والعمل بموجبها .

وتقدّم الكلام على ﴿ ابن أم ﴾ قراءة وإعراباً وغير ذلك .

وقرأ أبو جعفر ولم تُرْقِبْ بضم التاء وكسر القاف مضارع أرقب .

ولما اعتذر له أخوه رجع إلى مخاطبة الذي أوقعهم في الضلال وهو السامري وتقدّم الكلام في الخطب في سورة يوسف .

وقال ابن عطية ﴿ ما خطبك ﴾ كما تقول ما شأنك وما أمرك ، لكن لفظة الخطب تقتضي انتهاراً لأن الخطب مستعمل في المكاره فكأنه قال : ما نحسك وما شؤمك ، وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك انتهى .

وهذا ليس كما ذكر ألا ترى إلى قوله قال ﴿ فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ وهو قول إبراهيم لملائكة الله فليس هذا يقتضي انتهاراً ولا شيئاً مما ذكر .

وقال الزمخشري : خطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً ما خطبك ، فمعناه ما طلبك له انتهى .

ومنه خطبة النكاح وهو طلبه .

وقيل : هو مشتق من الخطاب كأنه قال له : ما حملك على أن خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت وفعلت معهم ما فعلت ﴿ قال : بصرت بما لم يبصروا به ﴾ .

قال أبو عبيدة : علمت ما لم يعلموا .

وقال الزجاج : بصر بالشيء إذا علمه وأبصر إذا نظر .

وقيل : بصر به وأبصره بمعنى واحد .

وقرأ الأعمش وأبو السماك : بَصِرْتُ بكسر الصاد بما لم تَبْصَرَوا بفتح الصاد .

وقرأ عمرو بن عبيد بُصُرْتُ بضم الباء وضم الصاد بما لم تُبْصَروا بضم التاء وفتح الصاد مبنياً للمفعول فيهما .

وقرأ الجمهور ﴿ بَصُرْتُ ﴾ بضم الصاد وحمزة والكسائي وأبو بحرية والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وابن مناذر وابن سعدان وقعنب تبصروا بتاء الخطاب لموسى وبني إسرائيل وباقي السبعة ﴿ يبصروا ﴾ بياء الغيبة .

وقرأ الجمهور ﴿ فقبضت قبضة ﴾ بالضاد المعجمة فيهما أي أخذت بكفي مع الأصابع .

وقرأ عبد الله وأبي وابن الزبير وحميد والحسن بالصاد فيهما ، وهو الأخذ بأطراف الأصابع .

وقرأ الحسن بخلاف عنه وقتادة ونصر بن عاصم بضم القاف والصاد المهملة ، وأدغم ابن محيصن الضاد المنقوطة في تاء المتكلم وأبقى الإطباق مع تشديد التاء .

وقال المفسرون ﴿ الرسول ﴾ هنا جبريل عليه السلام ، وتقديره من ﴿ أثر ﴾ فرس ﴿ الرسول ﴾ وكذا قرأ عبد الله ، والأثر التراب الذي تحت حافره ﴿ فنبذتها ﴾ أي ألقيتها على الحليّ الذي تصور منه العجل فكان منها ما رأيت .

وقال الأكثرون رأى السامري جبريل يوم فلق البحر ، وعن عليّ رآه حين ذهب موسى إلى الطور وجاءه جبريل فأبصره دون الناس .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لِمَ سماه ﴿ الرسول ﴾ دون جبريل وروح القدس ؟ قلت : حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامري فقال : إن لهذا لشأناً فقبض القبضة من تربة موطئه ، فلما سأله موسى عن قصته قال قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ، ولعله لم يعرف أنه جبريل انتهى .

وهو قول عليّ مع زيادة .

وقال أبو مسلم الأصبهاني : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون ، وهنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام ، وأثره سنته ورسمه الذي أمر به ،

فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير أن موسى لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القول في العجل ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أي شيئاً من دينك ﴿ فنبذتها ﴾ أي طرحتها .

فعند ذلك أعلم موسى بما له من العذاب في الدنيا والآخرة وإنما أراد لفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير في كذا أو بماذا يأمر الأمير ، وتسميته رسولاً مع جحده وكفره ، فعلى مذهب من حكى الله عنه قوله ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ فإن لم يؤمنوا بالإنزال قيل : وما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق إلاّ أن فيه مخالفة المفسرين .

قيل : ويبعد ما قالوه أن جبريل ليس معهوداً باسم رسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تكون اللام في الرسول لسابق في الذكر ، ولأن ما قالوه لا بد من إضمار أي من أثر حافر فرس الرسول والإضمار خلاف الأصل ، ولأن اختصاص السامري برؤية جبريل ومعرفته من بين الناس يبعد جداً ، وكيف عرف أن حافر فرسه يؤثر هذا الأثر الغريب العجيب من إحياء الجماد به وصيرورته لحماً ودماً ؟ وكيف عرف جبريل يتردّد إلى نبيّ وقد عرف نبوّته وصحت عنده فحاول الإضلال ؟ ويكف اطلع كافر على تراب هذا شأنه ؟ فلقائل أن يقول : لعل موسى اطلع على شيء آخر يشبه هذا فلأجله أتى بالمعجزات ، فيصير ذلك

قادحاً فيما أتوا به من الخوارق انتهى .

ما رجح به هذا القائل قول أبي مسلم الأصبهاني .

(187/501)

﴿ وكذلك سوّلت لي نفسي ﴾ أي كما حدث ووقع قربت لي نفسي وجعلته لي سولاً وإرباً حتى فعلته ، وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في حد أو وحي ، فعاقبه باجتهاد نفسه بأن أبعده ونحاه عن الناس وأمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته وأن لا يواكلوا ولا يناكحوا ، وجعل له أن يقول مدة حياته ﴿ لا مساس ﴾ أي لا مماسّة ولا إذاية .

وقال الزمخشري : عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً ، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة حمّ الماسّ والممسوس فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح ﴿ لا مساس ﴾ ويقال إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم انتهى .

وكون الحمى تأخذ الماس والممسوس قول قتادة والأمر بالذهاب حقيقة ، ودخلت الفاء

للتعقيب إثر المحاورة وطرده بلا مهلة زمانية ، وعبر بالمماسة عن المخالطة لأنها أدنى أسباب المخالطة فنبه بالأدنى على الأعلى ، والمعنى لا مخالطة بينك وبين الناس فنفر من الناس ولزم البرية وهجر البرية وبقي مع الوحوش إلى أن استوحش وصار إذا رأى أحداً يقول ﴿ لا مساس ﴾ أي لا تمسني ولا أمسك .

وقيل : ابتلي بعذاب قيل له ﴿ لا مساس ﴾ بالوسواس وهو الذي عناه الشاعر بقوله :

فأصبح ذلك كالسامري . . .

إذ قال موسى له لا مساسا

ومنه قول رؤبة :

حتى تقول الأزد لا مساسا . . .

وقيل : أراد موسى قتله فمنعه الله من قتله لأنه كان شيخاً .

قال بعض شيوخنا وقد وقع مثل هذا في شرعنا في قصة الثلاثة الذين خلفوا أمر الرسول عليه السلام أن لا يكلموا ولا يخالطوا وأن يعتزلوا نساءهم حتى تاب الله عليهم .

وقرأ الجمهور ﴿ لا مِسَاس ﴾ بفتح السين والميم المكسورة و﴿ مساس ﴾ مصدر ماس كقتال من قاتل ، وهو منفي بلا التي لنفي الجنس ، وهو نفي أريد به النهي أي لا تمسني ولا أمسك .

وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعنب بفتح الميم وكسر السين .

فقال صاحب اللوامح : هو على صورة نزال ونظار من أسماء الأفعال بمعنى أنزل وأنظر ، فهذه الأسماء التي بهذه الصيغة معارف ولا تدخل عليها لا النافية التي تنصب النكرات نحو لا مال لك ، لكنه فيه نفي الفعل فتقديره لا يكون منك مساس ، ولا أقول مساس ومعناه النهي أي لا تمسني انتهى .

وظاهر هذا أن مساس اسم فعل .

وقال الزمخشري ﴿ لا مساس ﴾ بوزن فجار ونحوه قولهم في الظباء :

إن وردن الماء فلا عباب . . .

وإن فقدنه فلا إباب

وهي أعلام للمسة والعبة والأبة وهي المرة من الأب وهو الطلب .

وقال ابن عطية ﴿ لا مساس ﴾ هو معدول عن المصدر كفجار ونحوه ، وشبهه أبو عبيدة وغيره بنزال ودراك ونحوه ، والشبه صحح من حيث هي معدولات ، وفارقه في أن هذه عدلت عن الأمر ومساس وفجار عدلت عن المصدر .

ومن هذا قول الشاعر :

تميم كرهط السامري وقوله . . .

ألا لا يريد السامري مساس

انتهى .

فكلام الزمخشري وابن عطية يدل على أن مساس معدول عن المصدر الذي هو المسة ،

كفجار معدولاً عن الفجرة ﴿ وإن لك موعداً ﴾ أي في يوم القيامة .

وقرأ الجمهور ﴿ لن تُخْلَفَهُ ﴾ بالتاء المضمومة وفتح اللام على معنى لن يقع فيه خلف بل

ينجزه لك الله في الآخرة على الشرك والفساد بعدما عاقبك في الدنيا .

وقال الزمخشري : وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً .

قال الأعشى :

أثوى وقصر ليله ليزوّدا . . .

فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

وقرأ ابن كثير والأعمش وأبو عمرو بضم التاء وكسر اللام أي لن تستطيع الروغان عنه

والحيدة فتزول عن موعد العذاب .

وقرأ أبو نهيك : لن تَخْلُفُه بفتح التاء وضم اللام هكذا بالتاء منقوطة من فوق عن أبي نهيك

في نقل ابن خالويه .

وفي اللوامح أبو نهيك لن يَخْلُفه بفتح الياء وضم اللام وهو من خلفه يخلفه إذا جاء بعده أي الموعد الذي لك لا يدفع قولك الذي تقوله فيما بعد ﴿ لا مساس ﴾ بالفعل فهو مسند إلى الموعد أو الموعد لن يختلف ما قدر لك من العذاب في الآخرة .

وقال سهل : يعني أبا حاتم لا يعرف لقراءة أبي نهيك مذهباً انتهى .

وقرأ ابن مسعود والحسن بخلاف عنه نخلفه بالنون وكسر اللام أي لا ننقص مما وعدنا لك من الزمان شيئاً .

وقال ابن جني لن يصادفه مخلفاً .

وقال الزمخشري : لن يخلفه الله .

حكى قوله عز وجل كما مر في ﴿ لأهب لك ﴾ انتهى .

ثم وبخ موسى عليه السلام السامري بما أراد أن يفعل بالعجل الذي اتخذه إلهاً من الاستطالة عليه بتغيير هيئته ، فواجهه بقوله ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ وخاطبه وحده إذ كان هو رأس الضلال وهو ينظر لقولهم ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ وأقسم ﴿ لنحرقنه ﴾ وهو أعظم فساد الصورة ﴿ ثم لننسفنه في اليم ﴾ حتى تتفرق أجزاؤه فلا يجتمع ، ويظهر أنه لما كان قد أخذ السامري القبضة من أثر فرس جبريل وهو داخل البحر حالة تقدم فرعون وتبعه فرعون في الدخول ناسب أن ينسف ذلك العجل الذي صاغه السامري من الحليّ الذي

كان أصله للقبط .

وألقى فيه القبضة في البحر ليكون ذلك تنبيهاً على أن ما كان به قيام الحياة آل إلى العدم .

وأُلقي في محل ما قامت به الحياة وإن أموال القبط قذفها الله في البحر بحيث لا ينتفع بها كما قذف الله أشخاص مالكيها في البحر وغرقهم فيه .

وقرأ الجمهور ونصر بن عاصم لابن يعمر ﴿ ظَلْتَ ﴾ بظاء مفتوحة ولام ساكنة .

(190/501)

وقرأ ابن مسعود وقتادة والأعمش بخلاف عنه وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن يعمر بخلاف عنه كذلك إلا أنهم كسروا الظاء ، وعن ابن يعمر ضمها وعن أُبَيّ والأعمش ظللت بلامين على الأصل ، فأما حذف اللام فقد ذكره سيبويه في الشذوذ يعني شذوذ القياس لا شذوذ الاستعمال مع مست وأصله مسست وأحست أصله أحسست ، وذكر ابن الأنباري همت وأصله هممت ولا يكون ذلك إلاّ إذا سكن آخر الفعل نحو ظلت إذ أصله ظللت .

وذكر بعض من عاصرناه أن ذلك منقاس في كل مضاعف العين واللام في لغة بني سليم حيث تسكن آخر الفعل .

وقد أمعنّا الكلام على هذه المسألة في شرح التسهيل من تأليفنا ، فأما من كسر الظاء فلأنه

نقل حركة اللام إلى الظاء بعد نزع حركتها تقديراً ثم حذف اللام ، وأما من ضمها فيكون على أنه جاء في بعض اللغات على فعل بضم العين فيهما ، ونقلت ضمة اللام إلى الظاء كما نقلت في حالة الكسر على ما تقرر .

وقرأ الجمهور ﴿ لنحرّقنه ﴾ مشدداً مضارع حرّق مشدداً .

وقرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر وأبو رجاء والكلبي مخففاً من أحرق رباعياً .

وقرأ عليّ وابن عباس وحميد وأبو جعفر في رواية وعمرو بن فائد بفتح النون وسكون الحاء وضم الراء ، والظاهر أن حرق وأحرق هو بالنار .

وأما القراءة الثالثة فمعناها لنبردنه بالمبرد يقال حرق يحرق ويحرق بضم راء المضارع وكسرها .

وذكر أبو عليّ أن التشديد قد يكون مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد .

وفي مصحف أُبَيّ وعبد الله لنذبحنه ثم لنحرقنه ثم لننسفنه وتوافق هذه القراءة من روى أنه صار لحماً ودماً ذا روح ، ويترتب الإحراق بالنار على هذا ، وأما إذا كان جماداً مصوغاً من الحليّ فيترتب برده لا إحراقه إلا إن عنى به إذابته .

وقال السّدي : أمر موسى بذبح العجل فذبح وسال منه الدم ثم أحرق ونسف رماده .

وقيل : بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها .

وقرأ الجمهور ﴿ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ بكسر السين .

وقرت فرقة منهم عيسى بضم السين .

(191/501)

وقرأ ابن مقسم : لِنُنَسِّفنه بضم النون الأولى وفتح الثانية وتشديد السين .

والظاهر وقول الجمهور أن موسى تعجل وحده فوقع أمر العجل ، ثم جاء موسى وصنع بالعجل ما صنع ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة ، فكان لموسى عليه السلام نهضتان .

وأسند مكي خلاف هذا أن موسى كان مع السبعين في المناجاة وحينئذ وقع أمر العجل ، وأن الله أعلم موسى بذلك فكتمه عنهم وجاء بهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل ، فحينئذ أعلمهم موسى . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(192/501)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ في جواب هارون عليه الصلاة والسلام ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ على العجل وعبادته ﴿ عاكفين ﴾ مقيمين ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ جعلوا رجوعَه عليه السلام إليهم غايةً لعُكوفهم على عبادة العجلِ لكن لا على طريق الوعدِ بتركها عند رجوعِه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويفِ ، وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجِع بشيء مبين تعويلاً على مقالة السامريّ. روي أنهم لما قالوه اعتزلهم هارونُ عليه السلام في اثني عشر ألفاً وهم الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياحَ وكانوا يرقُصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوتُ الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا .

(193/501)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهارون عليه السلام ، كأنه قيل : فماذا قال موسى لهارون عليهما السلام حين سمع جوابهم له ؟ وهل رضيَ بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد ؟ فقيل : قال له وهو مغتاظٌ قد أخذ بلحيته ورأسه : ﴿ قَالَ يا هارون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ ﴾ بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة إلى

أن شافهوك بتلك المقالةِ الشنعاء ﴿ أَن لا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي أن تتّبعَني ، على أن لا مزيدةٌ وهو مفعولٌ ثانٍ لمنع وهو عامل في إذ ، أيْ أيُّ شيءٍ منعك حين رؤيتِك لضلالهم من أن لا تتبعني في الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به ، وقيل : المعنى ما حملك على أن تتبعني ، فإن المنع عن الشيء مستلزمٌ للحمل على مقابله ، وقيل : ما منعك أن تلحقَني وتُخبرَني بضلالهم فتكونَ مفارقتُك مزْجرةً لهم ، وفيه أن نصائحَ هارونَ عليه السلام حيث لم تزجُرْهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجُرَهم مفارقتُه إياهم عنه أولى ، والاعتذارُ بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوعَ موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول ، كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى رجوعه عليه السلام ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ أي بالصلابة في الدين والمحاماةِ عليه فإن قوله له عليهما السلام : اخلُفني متضمنٌ للأمر بهما حتماً ، فإن الخلافةَ لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلِفُ لو كان حاضراً ، والهمزة للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي ألم تتبعني أو خالفتني فعصيت أمري .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾ خصّ الأمَّ بالإضافة استعطافاً لحقها وترقيقاً لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهورَ على أنهما كانا شقيقين ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى ﴾ أي ولا بشعر رأسي، روي أنه عليه السلام أخذ شعرَ رأسِه بيمينه ولحيتَه بشماله من شدة غيظِه وفرْطِ غضبه لله، وكان عليه السلام حديداً متصلّباً في كل شيء فلم يتمالكْ حين رآهم يعبدون العجلَ ففعل ما فعل وقوله تعالى: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ ﴾ الخ، استئنافٌ سيق لتعليل موجبِ النهي ببيان الداعي إلى ترك المقاتلةِ وتحقيقِ أنه غيرُ عاصٍ لأمره بل ممتثلٌ به، أي إني خشيتُ لو قاتلت بعضَهم ببعض وتفانَوا وتفرقوا ﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ برأيك مع كونهم أبناءَ واحدٍ كما ينبىء عنه ذكرُهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه، وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتالُ من التفريق الذي لا يرُجى بعده الاجتماعُ ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ يريد به قولَه عليه السلام: اخلُفني في قومي وأصلح الخ، يعني إني رأيت أن الإصلاحَ في حفظ الدَّهْماءِ والمداراةِ معهم إلى أن ترجعَ إليهم فلذلك استأنيتُك لتكون أنت المتداركَ للأمر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا في غاية القوةِ ونحن على القلة والضّعف كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى. ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفسادِ إلى السامري واعتذارِ هارونَ عليه السلام، كأنه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حُكي من الاعتذارين واستقرارِ الفتنة على السامري؟ فقيل: قال موبخاً له: هذا

شأنهم ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يا سامري ﴾ أي ما شأنُك وما مطلوبُك مما فعلت ، خاطبه عليه السلام بذلك ليُظهر للناس بُطلانَ كيدِه باعترافه ويفعلَ به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالاً للمفتونين به ولمن خلفهم من

(195/501)

الأمم .

(196/501)

﴿ قَالَ ﴾ أي السامريُّ مجيباً له عليه السلام : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ بضم الصاد فيهما ، وقرىء بكسرها في الأول وفتحِها في الثاني ، وقرىء بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومِه ، أي علمتُ ما لم يعلمْه القوم وفطِنت لما لم يفطَنوا له أو رأيت ما لم يروه ، وهو الأنسب بما سيأتي من قوله : ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاءَ علمِ ما لم يعلمه موسى عليه السلام جراءةٌ عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاءِ رؤيةِ ما لم يرَه عليه السلام فإنها مما يقع بحسب ما يتفق ،

وقد كان رأى أن جبريلَ عليه السلام جاء راكبَ فرسٍ وكان كلما رفع الفرسُ يديه أو رجليه على الطريق اليَبَس يخرج من تحته النباتُ في الحال ، فعرف أن له شأناً فأخذ من موطئه حفنةً وذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ وقرئ من أثر فرسِ الرسولِ أي من تربة موطِيءِ فرسِ الملَك الذي أُرسل إليك ليذهبَ بك إلى الطور ، ولعل ذكرَه بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقِفْ عليه القومُ من الأسرار الإلهية تأكيداً لما صدّر به مقالتَه والتنبيهِ على وقت أخْذِ ما أخذه ، والقبضةُ المرّةُ من القبض أُطلقت على المقبوض مرةً ، وقرئ بضم القاف وهو اسمُ المقبوض كالغُرفة والمُضغة ، وقرئ فقبصْت قبصة بالصاد المهملة والأول للأخذ بجميع الكف والثاني بأطراف الأصابع ، ونحوُهما الخضْمُ والقضم ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي في الحُليّ المُذابة فكان ما كان ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ أي ما فعلتُه من القبض والنبذ فقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ المذكور بعده ، ومحلُّ كذلك في الأصل النصبُ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌّ أي نعتٌ لمصدر محذوف والتقديرُ سولت لي نفسي تسويلاً كائناً مثلَ ذلك التسويلِ فقُدّم على الفعل لإفادة القصرِ واعتُبرت الكافُ مقحمةً لإفادة تأكيدِ ما أفاده اسم

الإشارةِ من الفخامة فصار نفسَ المصدرِ المؤكّدِ لا نعتاً له، أي ذلك التزيينَ البديعَ زينت لي نفسي ما فعلتُه، لا تزييناً أدنى منه ولذلك فعلتُه وحاصل جُوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحضر اتباعِ هوى النفسِ الأمارة بالسوء وإغوائِها لا بشيء آخرَ من البرهان العقليّ أو الإلهامِ الإلهي.

(198/501)

فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ فاذهب ﴾ أي من بين الناس وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فاذهب فَإِنَّ لَكَ ﴾ الخ، تعليلٌ لموجب الأمرِ و(في) متعلقةٌ بالاستقرار في لك أي ثابتٌ لك في الحياة أو بمحذوف وقع حالاً من الكاف والعاملُ معنى الاستقرار في الظرف المذكورِ لاعتماده على ما هو مبتدأٌ معنى لا بقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ لِمكان، أي إن قولك: لا مساس ثابت لك كائناً في الحياة أي مدةَ حياتك أن تفارقَهم مفارقةً كلية، لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليفِ بل بحسب الاضطرارِ المُلجىءِ إليها، وذلك أنه تعالى رماه بداء عَقام لا يكاد يمسّ أحداً أو يمَسّه أحدٌ كائناً من كان إلا حُمّى من ساعته حُمّى شديدةً، فتحامى الناسَ وتحاموْه وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مِساس وحُرّم عليهم ملاقاتُه ومواجهتُه ومكالمتُه ومبايعتُه وغيرُها مما يُعتاد جريَانه فيما بين الناسِ من المعاملات

، وصار بين الناس أوحشَ من القاتل اللاجىء إلى الحَرم ومن الوحش النافِر في البرية ، ويقال : إن قومَه باقٍ فيهم تلك الحالةُ إلى اليوم ، وقرىء لا مَساسِ كفَجارِ وهو علمٌ للمسّة ، ولعل السرَّ في مقابلة جنايتِه بتلك العقوبةِ خاصة ما بينهما من مناسبة التضادّ فإنه لما أنشأ الفتنةَ بما كانت ملابستُه سبباً لحياة المَوات عوقب بما يُضادُّه حيث جُعلت ملابستُه سبباً للحمّى التي هي من أسبابُ موتِ الأحياء ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي في الآخرة ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أي لن يُخلفَك الله ذلك الوعدَ بل ينجزه لك ألبتةَ بعد ما عاقبك في الدنيا ، وقرىء بكسر اللام والأظهر أنه من أخلفتُ الموعدَ أي وجدتُه خلفاً ، وقرىء بالنون على حكاية قوله عز وجل : ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي ظَلْتَ مقيماً على عبادته فحُذفت اللامُ الأولى تخفيفاً ، وقرىء بكسر الظاءِ بنقل حركةِ اللام إليها ﴿ لَّنُحَرّقَنَّهُ ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ

أي بالنار ويؤيده قراءةُ لَنُحْرِقنه من الإحراق ، وقيل : بالمِبْرد على أنه مبالغةٌ في حرق إذا بُرد بالمِبرَد ويعضده قراءة لنَحْرُقنه ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ أي لنُذْرِينّه ، وقرىء بضم السين ﴿ فِى اليم ﴾ رماداً أو مُبْرَداً كأنه هباءٌ ﴿ نَسْفاً ﴾ بحيث لا يبقى منه عينٌ ولا أثرٌ ولقد فعل

عليه السلام ذلك كلَّه حينئذ كما يشهد به الأمرُ بالنظر ، وإنما لم يصرح به تنبيهاً على كمال ظهورِه واستحالةِ الخُلْف في وعده المؤكّدِ باليمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(200/501)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ ﴾ في جواب هارون عليه السلام ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ أي لا نزال على عبادة العجل ﴿ عاكفين ﴾ مقيمين ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ الظاهر من حالهم أنهم لم يجعلوا رجوعه عليه السلام غاية للعكوف على عبادة العجل على طريق الوعد بتركها لا محالة عند رجوعه بل ليروا ماذا يكون منه عليه السلام وماذا يقول فيه ، وقيل : إنهم علق في أذهانهم قول السامري : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ [طه : 88] فغيوا برجوعه بطريق التعلل والتسويف وأضمروا أنه إذا رجع عليه السلام يوافقهم على عبادته وحاشاه ، وهذا مبني على أن المحاورة بينهم وبين هارون عليه السلام وقعت بعد قول السامري المذكور فيكون ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ [طه : 90] على معنى من قبل رجوع موسى ، وذكر أن هذا الجواب يؤيده هذا المعنى لأن قولهم : ﴿ لَن نَّبْرَحَ ﴾ الخ يدل على عكوفهم

حال قوله عليه السلام وهم لم يعكفوا على عبادته قبل قول السامري وإنما عكفوا بعده .

وقال الطيبي : إن جوابهم هذا من باب الأسلوب الأحمق نقيض الأسلوب الحكيم لأنهم قالوه عن قلة مبالاة بالأدلة الظاهرة كما قال نمروذ في جواب الخليل عليه السلام : ﴿ أنا أحى وأميت ﴾ [البقرة : 258] فتأمل ، واستدل أبو حيان بهذا التغيي على أن لن لا تفيد التأبيد لأن التغي لا يكون إلا حيث يكون الشيء محتملاً فيزال الاحتمال به .

وأنت تعلم أن القائل بإفادتها ذلك لا يدعي أنها تفيده في كل الموارد وهو ظاهر ، وفي بعض الأخبار أنهم لما قالوا ذلك اعتزلهم هارون عليه السلام في اثني عشر ألفاً وهم الذي لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يسجدون إذا خار العجل فلا يرفعون حتى يخور ثانية ، وفي رواية كانوا يرقصون عند خواره قال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة حتى إذا وصل قال لقومه ما قال وسمع منهم ما قالوا .

(201/501)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف نشأ من حكاية جوابهم السابق أعني قوله تعالى : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ [طه : 87] الخ كأنه قيل : فماذا قال موسى لهارون عليهما السلام حين سمع جوابهم وهل رضي بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد ؟ فقيل : قال له وهو مغتاظ قد

أخذ بلحيته ورأسه ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ بعبادة العجل ولم يلتفتوا إلى دليل بطلانها .

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي تتبعني على أن ﴿ لا ﴾ سيف خطيب كما في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] وهو مفعول ثاني لمنع وإذ متعلق بمنع ، وقيل : بتتبعني ، ورد بأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها ، وأجيب بأن الظرف يتوسع فيه ما لم يتوسع في غيره وبأن الفعل السابق لما طلبه على أنه مفعول ثان له كان مقدماً حكماً وهو كما ترى أي أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعني وتسير بسيري في الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وروي ذلك عن مقاتل ، وقيل : في الإصلاح والتسديد ولا يساعده ظاهر الاعتذار ، واستظهر أبو حيان أن يكون المعنى ما منعك من أن تلحقني إلى جبل الطور بمن آمن من بني إسرائيل ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكان موسى عليه السلام رأى أن مفارقة هارون لهم وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية ازجر لهم من الاقتصار على النصائح لما أن ذلك أدل على الغضب وأشد في الإنكار لا سيما وقد كان عليه السلام رئيساً عليهم محبوباً لديهم وموسى يعلم ذلك ومفارقة الرئيس المحبوب كراهة لأمر تشق جداً على النفوس وتستدعي ترك ذلك الأمر المكروه له الذي يوجب مفارقته وهذا ظاهر لا غبار عليه عند من أنصف .

فالقول بأن نصائح هارون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزرجهم مفارقته إياهم عنه أولى على ما فيه لا يرد على ما ذكرنا ؛ ولا حاجة إلى الاعتذار بأنهم إذا علموا أنه يحلقه ويخبره عليهما السلام بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجرون عن ذلك ليقال : إنه بمعزل عن القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام ، وقال علي بن عيسى : إن ﴿ لا ﴾ ليست مزيدة ، والمعنى ما حملك على عدم الاتباع فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ بسياستهم حسب ما ينبغي فإن قوله عليه السلام : ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى ﴾ [الأعراف : 142] بدون ضم قوله : ﴿ وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] متضمن للأمر بذلك حتماً فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضراً وموسى عليه السلام لو كان حاضراً لساسهم على أبلغ وجه ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم تتبعني أو أخالفتني فعصيت أمري .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾

خص الأم بالإضافة استعطافاً وترقيقاً لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين .

وقرأ حمزة . والكسائي ﴿ يَبْنَؤُمِّ ﴾ بكسر الميم ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى ﴾ أي

بشعر رأسي فإن الأخذ أنسب به ، وزعم بعضهم أن قوله : ﴿ بِلِحْيَتِى ﴾ على معنى بشعر لحيتي أيضاً لأن أصل وضع اللحية للعضو النابت عليه الشعر ولا يناسبه الأخذ كثير مناسبة ، وأنت تعلم أن المشهور استعمال اللحية في الشعر النابت على العضو المخصوص ، وظاهر الآيات والأخبار أنه عليه السلام أخذ بذلك .

(203/501)

روي أنه أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله وكان عليه السلام حديداً متصلباً غضوباً لله تعالى وقد شاهد ما شاهد وغلب على ظنه تقصير في هارون عليه السلام يستحق به وإن لم يخرجه عن دائرة العصمة الثابتة للأنبياء عليهم السلام التأديب ففعل به ما فعل وباشر ذلك بنفسه ولا محذور فيه أصلاً ولا مخالفة للشرع فلا يرد ما توهمه الإمام فقال : لا يخلو الغضب من أن يزيل عقله أولاً والأول لا يعتقده مسلم والثاني لا يزيل السؤال بلزوم عدم العصمة وأجاب بما لا طائل تحته .

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي ﴿ بِلَحْيَتِى ﴾ بفتح اللام وهي لغة أهل الحجاز ﴿ إِنّى خَشِيتُ ﴾ الخ استئناف لتعليل موجب النهي بتحقيق أنه غير عاص أمره ولا مقصر في المصلحة أي خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا أو خشيت لو لحقتك بمن آمن

﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبىء عن ذلك ذكرهم بهذا العنوان دون القوم ونحوه، واستلزام المقاتلة التفريق ظاهر، وكذا اللحوق بموسى عليه السلام مع من آمن وربما يجر ذلك إلى المقاتلة.

وقيل: أراد عليه السلام بالتفريق على التفسير الأول ما يستتبعه القتال من التفريق الذي لا يرجى الاجتماع.

(204/501)

﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴾ أي ولم تراع ﴿ قَوْلِي ﴾ والجملة عطف على ﴿ فَرَّقْتَ ﴾ أي خشيت أن تقول مجموع الجملتين وتنسب إلى تفريق بني إسرائيل وعدم مراعاة قولك لي ووصيتك إياي، وجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ فَرَّقْتَ ﴾ أي خشيت أن تقول فرقت بينهم غير مراع قولي أي خشيت أن تقول مجموع هذا الكلام، وأراد بقول موسى المضاف إلى الياء قوله عليه السلام: ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ [الأعراف: 142] الخ، وحاصل اعتذاره عليه السلام إني رأيت الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم ولا يكون سبباً للومك إياي إلى أن ترجع إليهم فتكون أنت المتدارك للأمر حسبما تراه لا سيما والقوم

قد استضعفوني وقربوا من أن يقتلوني كما أفصح عليه السلام بهذا في آية أخرى .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ما يدل على أن المراد من القول المضاف قول هارون عليه السلام ، وجملة ﴿ لَمْ تَرْقُبْ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تَقُولَ ﴾ أي خشيت أن تقول ذلك غير منتظر قولي وبيان حقيقة الحال فتأمل .

وقرى أبو جعفر ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴾ بضم التاء وكسر القاف مضارع أرقب .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامري واعتذار هارون عليه السلام كأنه قيل : فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامري ؟ فقيل قال موبخاً له إذا كان الأمر هذا ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري ﴾ أي ما شأنك والأمر العظيم الصادر عنك ؛ وما سؤال عن السبب الباعث لذلك ، وتفسير الخطب بذلك هو المشهور ، وفي "الصحاح" الخطب سبب الأمر .

وقال بعض الثقات : هو في الأصل مصدر خطب الأمر إذا طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً : ما خطبك ؟ فمعناه ما طلبك له وشاع في الشأن والأمر العظيم لأنه يطلب ويرغب فيه ،

واختير في الآية تفسيره بالأصل ليكون الكلام عليه أبلغ حيث لم يسأله عليه السلام عما صدر منه ولا عن سببه بل عن سبب طلبه ، وجعل الراغب الأصل لهذا الشائع الخطب بمعنى التخاطب أي المراجعة في الكلام ، وأطلق عليه لأن الأمر العظيم يكثر فيه التخاطب ، وجعل في الأساس الخطب بمعنى الطلب مجازاً فقال : ومن المجاز فلان يخطب عمل كذا يطلبه وما خطبك ما شأنك الذي تخطبه ، وفرق ابن عطية بين الخطب والشأن بأن الخطب يقتضي انتهاراً ويستعمل في المكاره دون الشأن ثم قال فكأنه قيل ما نحسك وما شؤمك وما هذا الخطب الذي جاء منك انتهى .

وليس ذلك بمطرد فقد قال إبراهيم عليه السلام للملائكة عليهم السلام : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ [الحجر : 57] ولا يتأتى فيه ما ذكر .

وزعم بعض من جعل اشتقاقه من الخطاب أن المعنى ما حملك على أن خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت .

وفعلت معهم ما فعلت وليس بشيء ، وخطابه عليه السلام إياه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالاً للمفتونين ولمن خلفهم من الأمم .

﴿ قَالَ ﴾ أي السامري مجيباً له عليه السلام ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ بضم الصاد فيهما أي علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له ، قال الزجاج يقال : بصر بالشيء إذا علمه وأبصر إذا نظر ، وقيل : بصره وأبصره بمعنى واحد ؛ وقال الراغب : البصر يقال :

للجارحة الناظرة وللقوة التي فيها ويقال : لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر ويقال من الأول

أبصرت .

ومن الثاني أبصرته وبصرت به .

وقلما يقال : بصرت في الحاسة إذا لم يضامه رؤية القلب اه .

وقرأ الأعمش .

وأبو السمال ﴿ بَصُرْتُ ﴾ بكسر الصاد ﴿ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ ﴾ بفتح الصاد .

(206/501)

وقرأ عمرو بن عبيد ﴿ بَصُرْتُ ﴾ بضم الباء وكسر الصاد ﴿ بِمَا لَمْ ﴾ بضم التاء المثناة

من فوق وفتح الصاد على البناء للمفعول .

وقرأ الكسائي .

وحمزة وأبو بحرية .

والأعمش .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وابن مناذر.

وابن سعدان.

وقعنب ﴿ بِمَا لَمْ ﴾ بالتاء الفوقانية المفتوحة وبضم الصاد.

والخطاب لموسى عليه السلام وقومه.

وقيل: له عليه السلام وحده وضمير الجمع للتعظيم كما قيل في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ارجعون ﴾ [المؤمنون: 99] وهذا منقول عن قدماء النحاة وقد صرح به الثعالبي في سر العربية، فما ذكره الرضي من أن التعظيم إنما يكون في ضمير المتكلم مع الغير كفعلنا غير مرتضى وإن تبعه كثير.

وادعى بعضهم أن الأنسب بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله: ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ تفسير بصر برأي لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جراءة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام فإنه مما يقع بحسب ما يتفق.

وقد كان فيما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رأى جبريل عليه السلام يوم فلق البحر على فرس فعرفه لما أنه كان يغذوه صغيراً حين خافت عليه أمه فألقته في غار فأخذ قبضة من تحت حافر الفرس وألقى في روعه أنه لا يلقيها على شيء فيقول: كن كذا إلا كان.

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه رآه عليه السلام راكباً على فرس حين جاء ليذهب

بموسى عليهما السلام إلى الميقات ولم يره أحد غيره من قوم موسى عليه السلام فأخذ من موطىء فرسه قبضة من التراب .

وفي بعض الآثار أنه رآه كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على التراب اليبس يخرج النبات فعرف أن له شأناً فأخذ من موطئه حفنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ أي من أثر فرس الرسول .

وكذا قرأ عبد الله ، فالكلام على حذف مضاف كما عليه أكثر المفسرين .

وأثر الفرس التراب الذي تحت حافره .

(207/501)

وقيل : لا حاجة إلى تقدير مضاف لأن أثر فرسه أثره عليه السلام .

ولعل ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الرسالة لأنه لم يعرفه إلا بهذا العنوان أو للإشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الأسرار الإلهية تأكيداً لما صدر به مقالته والتنبيه كما قيل على وقت أخذ ما أخذ .

والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة ، وبذلك يرد على القائلين بأن المصدر الواقع كذلك لا يؤنث بالتاء فيقولون : هذه حلة نسيج اليمن ولا يقولون : نسيجة اليمن .

والجواب بأن الممنوع إنما هو التاء الدالة على التحديد لا على مجرد التأنيث كما هنا والمناسب على هذا أن لا تعتبره المرة كما لا يخفى .

وقرأ عبد الله .

وأبي .

وابن الزبير .

والحسن .

وحميد ﴿ قبصت ﴾ قبصة بالصاد فيهما ؛ وفرقوا بين القبض بالضاد المعجمة والقبص بالصاد بأن الأول الأخذ بجميع الكف والثاني الأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم بالخاء للأكل بجميع الفم والقضم بالقاف للأكل بأطراف الأسنان .

وذكر أن ذلك مما غير لفظه لمناسبة معناه فإن الضاد المعجمة للثقل واستطالة مخرجها جعلت فيما يدل على الأكثر والصاد لضيق محلها وخفائه جعلت فيما يدل على القليل .

وقرأ الحسن بخلاف عنه .

وقتادة .

ونصر بن عاصم بضم القاف والصاد المهملة وهو اسم للمقبوض كالمضغة اسم للممضوغ ﴿ الرسول فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي ألقيتها في الحلي المذاب .

وقيل : في جوف العجل فكان ما كان .

﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ أي زينته وحسنته إلى والإشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعد .

وذلك على حد قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143]

وحاصل جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء لا لشيء آخر من البرهان العقلي أو النقلي أو من الإلهام الإلهي .

(208/501)

هذا ثم ما ذكر من تفسير الآية هو المأثور عن الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم وتبعهم جل أجلة المفسرين ، وقال أبو مسلم الأصبهاني : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكروه .

وهنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وأثره سنته ورسمه الذي أمر به ودرج عليه فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، وتقرير الآية على ذلك أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم بالعجل قال : بصرت بما لم يبصروا به أي عرفت أن الذي عليه القوم ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أي شيئاً من دينك فنبذتها أي

طرحتها ولم أتمسك بها .

وتعبيره عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب على نحو قول من يخاطب الأمير ما قول الأمير في كذا .

ويكون إطلاق الرسول منه عليه عليه السلام نوعاً من التهكم حيث كان كافراً مكذباً به على حد قوله تعالى حكاية عن الكفرة :

﴿ يا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] انتهى ، وانتصر له بعضهم بأنه أقرب إلى التحقيق .

ويبعد قول المفسرين أن جبريل عليه السلام ليس معهوداً باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تكون اللام في الرسول لسابق في الذكر وأن ما قالوه لا بد له من تقدير المضاف والتقدير خلاف الأصل وأن اختصاص السامري برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس بعيد جداً .

وأيضاً كيف عرف أن أثر حافر فرسه يؤثر هذا الأمر الغريب العجيب من حياة الجماد وصيرورته لحماً ودماً على أنه لو كان كذلك لكان الأثر نفسه أولى بالحياة .

وأيضاً متى اطلع كافر على تراب هذا شأنه فلقائل أن يقول لعل موسى عليه السلام اطلع شيء آخر يشبه هذا فلأجله أتى بالمعجزات فيكون ذلك فيما أتى به المرسلون عليهم السلام من الخوارق ، وأيضاً يبعد الكفر والإقدام على الإضلال بعد أن عرف نبوة موسى عليه السلام بمجيء هذا الرسول الكريم إليه انتهى .

وأجيب بأنه قد عهد في القرآن العظيم إطلاق الرسول على جبريل عليه السلام فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [الحاقه : 40] وعدم جريان ذكر له فيما تقدم لا يمنع من أن يكون معهوداً ، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه عليه السلام شائعاً في بني إسرائيل لا سيما إن قلنا بصحة ما روي أنه عليه السلام كان يغذي من يلقى من أطفالهم في الغار في زمان قتل فرعون لهم ، وبأن تقدير المضاف في الكلام أكثر من أن يحصى وقد عهد ذلك في كتاب الله تعالى غير مرة ، وبأن رؤيته جبريل عليه السلام دون الناس كان ابتلاء منه تعالى ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

وبأن معرفته تأثير ذلك الأثر ما ذكر كانت لما ألقى في روعه أنه لا يلقيه على شيء فيقول كن كذا إلا كان كما في خبر ابن عباس أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء كما في بعض الآثار .

ويحتمل أن يكون سمع ذلك من موسى عليه السلام ، وبأن ما ذكر من أولوية الأثر نفسه

بالحياة غير مسلم ألا ترى أن الإكسير يجعل ما يلقى هو عليه ذهباً ولا يكون هو بنفسه ذهباً .

(210/501)

وبأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة من الله تعالى والتحدي وقد قالوا : متى ادعى أحد الرسالة وأظهر الخارق وكان لسبب خفي يجهله المرسل إليهم قيض الله تعالى ولا بد من يبين حقيقة ذلك بإظهار مثله غير مقرون بالدعوى أو نحو ذلك أو جعل المدعي بحيث لا يقدم على فعل ذلك الخارق بذلك السبب بأن يسلب قوة التأثير أو نحو ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون له عز وجل الحجة البالغة ، وجوزوا ظهور الخارق لا عن سبب أو عن سبب خفي على يد مدعي الألوهية لأن كذبه ظاهر عقلاً ونقلاً .

ولا تتوقف إقامة الحجة على تكذيبه بنحو ما تقدم .

وبأن ما ذكر من بعد الكفر والإضلال من السامري بعد أن عرف نبوة موسى عليه السلام في غاية السقوط فقد قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] وليس كفر السامري بأبعد من كفر فرعون وقد رأى ما رأى .

ويرد على ما ذكره أبو مسلم مع مخالفته للمأثور عن خير القرون مما لا يقال مثله من قبل الرأي

فله حكم المرفوع أن التعبير عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب بعيد .

وإرادة وقد كنت قبضت قبضة الخ من النظم الكريم أبعد .

وأن نبذ ما عرف أنه ليس بحق لا يعد من تسويل النفس في شيء فلا يناسب ختم جوابه بذلك .

فزعم أن ما ذكره أقرب إلى التحقيق باطل عند أرباب التدقيق .

وزعمت اليهود أن ما ألقاه السامري كان قطعة من الحلي منقوشاً عليها بعض الطلسمات وكان يعقوب عليه السلام قد علقها في عنق يوسف عليه السلام إذ كان صغيراً كما يعلق الناس اليوم في أعناق أطفالهم التمائم وربما تكون من الذهب والفضة منقوشاً عليها شيء من الآيات أو الأسماء أو الطلسمات وقد ظفر بها من حيث ظفر فنبذها مع حلي بني إسرائيل فكان ما كان لخاصية ما نقش عليها فيكون على هذا قد أراد بالرسول رسول بني إسرائيل في مصر من قبل وهو يوسف عليه السلام .

ولم يجيء عندنا خبر صحيح ولا ضعيف بل ولا موضوع فيما زعموا .

نعم جاء عندنا أن يعقوب كان قد جعل القميص المتوارث في تعويذ وعلقه في عنق يوسف عليه السلام .

وفسر بعضهم بذلك قوله تعالى : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا ﴾ [يوسف : 93] الخ .

وما أغفل أولئك البهت عن زعم أن الأثر هو ذلك القميص فإنه قد عهد منه ما تقدم في أحسن القصص في قوله تعالى : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ فبين معافاة المبتلي وحياة الجماد مناسبة كلية فهذا الكذب لو ارتكبوه لربما كان أروج قبولاً عند أمثال الأصبهاني الذين ينبذون ما روي عن الصحابة مما لا يقال مثله بالرأي وراء ظهورهم نعوذ بالله تعالى من الضلال .

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر غير مرة أي قال موسى عليه السلام إذا كان الأمر كما ذكرت ﴿ فاذهب ﴾ أي من بين الناس ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة ﴾ إلى آخره تعليل لموجب الأمر .

و ﴿ فِى ﴾ متعلقة بالاستقرار العامل في ﴿ لَكَ ﴾ أي ثابت لك في الحياة أو بمحذوف وقع حالاً من الكاف ، والعامل معنى الاستقرار المذكور أيضاً لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى أعني قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ ولم يجوز تعلقه بتقول لمكان أن ؛ وقد تقدم آنفاً عذر من يعلق الظرف المتقدم بما بعدها .

ولا يظهر ما يشفي الخاطر في وجه تعليق العلامة أبي السعود إذ في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا ﴾ [طه : 92 ، 93] فيما بعد أن وعدم تجويز تعليق ﴿ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا ﴾ فيما بعدها أي إن لك مدة حياتك أن تفارق الناس مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجىء إليها ، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد كائناً من كان الاحم من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى صوته لا مساس وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومؤاكلته ومبايعته وغير ذلك مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحشي النافر في البيداء ، وذكر أنه لزم البرية وهجر البرية ، وذكر الطبرسي عن ابن عباس أن المراد أن لك ولولدك أن تقول الخ ، وخص عرو الحمى بما إذا كان الماس أجنبياً ، وذكر أن بقايا ولده باق فيهم تلك الحال إلى اليوم ، وقيل : ابتلى بالوسواس حين قال له موسى عليه السلام ذلك ، وعليه حمل قول الشاعر :

فأصبح ذلك كالسامري . . .

إذ قال موسى له لا مساسا

وأنكر الجبائي ما تقدم من حديث عرو الحمى عند المس وقال : إنه خاف وهرب وجعل يهيم في البرية لا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار لبعده عن الناس كالقائل لا مساس وصحح الأول ، والمساس مصدر ماس كقتال مصدر قاتل وهو منفي بلا التي لنفي الجنس وأريد بالنفي النهي أي لا تمسين ولا أمسك .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وقعنب ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ بفتح الميم وكسر السين آخره وهو بوزن فجار ، ونحوه قولهم في الظباء إن وردت الماء فلا عباب وإن فقدته فلا أباب .

وهي كما قال الزمخشري .

وابن عطية أعلام للمسة والعبة والأبة وهي المرة من الأب أي الطلب ، ومن هذا قول الشاعر :

تميم كرهط السامري وقوله . . .

ألا لا يريد السامري مساس

و ﴿ لا ﴾ على هذا ليست النافية للجنس لأنها مختصة بالنكرات وهذا معرفة من أعلام الأجناس ولا داخلة معنى عليه فإن المعنى لا يكون أو لا يكن منك مس لنا .

وهذا أولى من أن يكون المعنى لا أقول مساس .

وظاهر كلام ابن جني أنه اسم فعل كنزال .

والمراد نفي الفعل أي لا أمسك والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر على ما قيل : إنه ضد ما قصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه فكان سبباً لبعدهم عنه وتحقيره وصار لديهم أبغض من الطلياء وأهون من معبأة .

وقيل : لعل السر في ذلك ما بينهما من مناسبة التضاد فإنه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سبباً لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سبباً للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء ، وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل حيث نبذ فنبذ فإن ذلك التحامي أشبه شيء بالنبذ وكانت هذه العقوبة على ما في البحر : باجتهاد من موسى عليه السلام ، وحكى فيه القول بأنه أراد قتله فمنعه الله تعالى عن ذلك لأنه كان سخياً ، وروي ذلك عن الصادق رضي الله تعالى عنه ، وعن بعض الشيوخ أنه قد وقع ما يقرب من ذلك في شرعنا في قضية الثلاثة الذين خلفوا فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يكلموا ولا يخالطوا وأن يعتزلوا نساءهم حتى تاب الله تعالى عليهم .

ومذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه في القتال اللاجىء إلى الحرم نحو ذلك ليضطر إلى الخروج فيقتل في الحل ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي في الآخرة ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أي لن يخلفك الله تعالى ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك في الدنيا .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

والأعمش بضم التاء وكسر اللام على البناء للفاعل على أنه من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً كأجبنته إذا وجدته جباناً .

وعلى ذلك قول الأعشى :

أثوى وقصر ليله ليزودا . . .

فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

وجوز أن يكون التقدير لن تخلف الواعد إياه فحذف المفعول الأول وذكر الثاني لأنه المقصود .

والمعنى لن تقدر أن تجعل الواعد مخلفاً لوعده بل سيفعله ، ونقل ابن خالويه عن ابن خالويه عن ابن نهيك أنه قرأ ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ بفتح التاء المثناة من فوق وضم اللام ، وفي اللوامح أنه قرئ ﴿ لَنْ يُخْلِفُهُ ﴾ بفتح الياء المثناة من تحت وضم اللام وهو من خلفه يخلفه إذا جاء بعده ، قيل : المعنى على الرواية الأولى وإن لك موعداً لا بد أن تصادفه ، وعلى الرواية الثانية وإن لك موعداً لا يدفع قول لا مساس فافهم .

وقرأ ابن مسعود .

والحسن بخلاف عنه ﴿ لَنْ نُخْلِفُهُ ﴾ بالنون المفتوحة وكسر اللام على أن ذلك حكاية قول الله عز وجل ، وقال ابن جني : أي لن نصادفه خلفاً فيكون من كلام موسى عليه السلام لا على سبيل الحكاية وهو ظاهر لو كانت النون مضمومة ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ أي معبودك ﴿ الذى ظَلْتَ ﴾ أي ظللت كما قرأ بذلك أبي .

والأعمش فحذفت اللام الأولى تخفيفاً ، ونقل أبو حيان عن سيبويه أن هذا الحذف من شذوذ القياس ولا يكون ذلك إلا إذا سكن آخر الفعل ، وعن بعض معاصريه أن ذلك منقاس في كل مضاعف العين واللام في لغة بني سليم حيث سكن آخر الفعل ، وقال بعضهم : إنه مقيس في المضاعف إذا كانت عينه مكسورة أو مضمومة .

وقرأ ابن مسعود .

وقتادة .

والأعمش بخلاف عنه .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وابن يعمر بخلاف عنه أيضاً ﴿ ظَلْتَ ﴾ بكسر الظاء على أنه نقل حركة اللام إليها بعد حذف حركتها ، وعن ابن يعمر أنه ضم الظاء وكأنه مبني على مجيء الفعل في بعض اللغات على فعل بضم العين وحينئذ يقال بالنقل كما في الكسر ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على عبادته ﴿ عَاكِفاً ﴾ أي مقيماً ، وخاطبه عليه السلام دون سائر العاكفين على عبادته القائلين : ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ [طه : 91] لأنه رأس الضلال ورئيس أولئك الجهال ﴿ لَّنُحَرّقَنَّهُ ﴾ جواب قسم محذوف أي بالله تعالى لنحرقنه بالنار كما أخرج ذلك ابن المنذر .

(215/501)

وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، ويؤيده قراءة الحسن .

وقتادة وأبي جعفر في رواية .

وأبي رجاء .

والكلبي ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ مخففاً من أحرق رباعياً فإن الإحراق شائع فيما يكون بالنار وهذا ظاهر في أنه صار ذا لحم ودم .

وكذا ما في مصحف أبي .

وعبد الله ﴿ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ .

وجوز أبو علي أن يكون نحرق مبالغة في حرق الحديد حرقاً بفتح الراء إذا برده بالمبرد .

ويؤيده قراءة علي كرم الله تعالى وجهه .

وحميد .

وعمرو بن فايد .

وأبي جعفر في رواية .

وكذا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ بفتح النون وسكون الحاء وضم الراء فإن حرق يحرق بالضم مختص بهذا المعنى كما قيل ، وهذا ظاهر في أنه لم يصر ذا لحم ودم بل كان باقياً على الجمادية .

وزعم بعضهم أنه لا بعد على تقدير كونه حياً في تحريقه بالمبرد إذ يجوز خلق الحياة في الذهب مع بقائه على الذهبية عند أهل الحق ، وقال بعض القائلين بأنه صار حيواناً ذا لحم ودم : إن التحريق بالمبرد كان للعظام وهو كما ترى ، وقال النسفي : تفريقه بالمبرد طريق تحريقه بالنار فإنه لا يفرق الذهب إلا بهذا الطريق .

وجوز على هذا أن يقال : إن موسى عليه السلام حرقه بالمبرد ثم أحرقه بالنار .

وتعقب بأن النار تذيبه وتجمعه ولا تحرقه وتجعله رماداً فلعل ذلك كان بالحيل الإكسيرية أو نحو ذلك ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ أي لنذرينه .

وقرأت فرقة منهم عيسى بضم السين .

وقرأ ابن مقسم ﴿ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وتشديد السين ﴿ فِي اليم ﴾ أي في البحر كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(216/501)

وأخرج عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه فسره بالنهر ، وقوله تعالى : ﴿ نَسْفاً ﴾ مصدر مؤكد أي لنفعلن به ذلك بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولا يصادف منه شيء فيؤخذ ، ولقد فعل عليه السلام ما أقسم عليه كله كما يشهد به الأمر بالنظر ، وإنما لم يصرح به تنبيهاً على كمال ظهوره واستحالة الخلف في وعده المؤكد باليمين ، وفي ذلك زيادة عقوبة للسامري وإظهار لغباوة المفتتنين ، وقال في البحر بياناً لسر هذا الفعل : يظهر أنه لما كان قد أخذ السامري القبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام وهو داخل البحر ناسب أن ينسف ذلك العجل الذي صاغه من الحلى الذي كان أصله للقبط وألقى فيه القبضة في البحر

ليكون ذلك تنبيهاً على أن ما كان به قيام آل إلى العدم وألقى في محل ما قامت به الحياة وأن أموال القبط قذفها الله تعالى في البحر لا ينتفع بها كما قذف سبحانه أشخاص مالكيها وغرقهم فيه ولا يخفى ما فيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(217/501)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا هرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾

قال بعض أهل العلم : « لا » في قوله : ﴿ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ زائدة للتوكيد. واستدل من قال ذلك بقوله تعالى في « الأعراف » : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] قال لأن المراد : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك. بدليل قوله في القصة بعينها في سورة « ص » : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] الية، وقوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله ﴾ [الحديد : 29] الآية. أي ليعلم أهل الكتاب، وقوله ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء : 65] أي فوربك لا يؤمنون، وقوله : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ [فصلت : 34] أي والسيئة، وقوله : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 95]

على أحد القولين، وقوله: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 109] على أحد القولين، وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ [الأنعام: 151] الآية على أحد الأقوال فيها. ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري... لا يدعي القوم أني أفر

يعني فوأبيك. وقول أبي النجم:

فما ألوم البيض ألا تسخرا... لما رأين الشمط القفندرا

يعني أن تسخر، وقول الآخر:

ما كان يرضى رسول الله دينهم... والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر. وقول الآخر:

وتلحينني في اللهو ألا أحبه... وللهو داع دائب غير غافل

(218/501)

يعني أن أحبه، و« لا » مزيدة في جميع الأبيات لتوكيد الجحد فيها. وقال الفراء: إنها لا تزاد إلا في الكلام الذي فيه معنى الجحد كالأمثلة المتقدمة. والمراد بالجحد النفي وما يشبهه كالمنع في قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ ونحو ذلك. والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم. أن

زيادة لفظة « لا » لتوكيد الكلام وتقويته أسلوب من أساليب اللغة العربية ، وهو في الكلام الذي فيه معنى الجحد أغلب مع أن ذلك مسموع في غيره . وأنشد الأصمعي لزيادة « لا » قول ساعدة الهذلي :

أفعنك لا برق كأن وميضه . . . غاب تسنمه ضرام مثقب

ويروى « أفمنك » بدل « أفعنك » بدل « تسنمه » يعين أعنك برق و « لا » زائدة للتوكيد والكلام ليس فيه معنى الجحد . ونظيره قول الآخر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتقطع

يعني كاد يتقطع . وأنشد الجوهري لزيادة « لا » قول العجاج :

في بئر لا حور سرى وما شعر . . . بإفكه حتى رأى الصبح جشر

والحور الهلكة . يعني في بئر هلكة ولا زائدة للتوكيد . قاله أبو عبيدة وغيره . والكلام ليس فيه معنى الجحد . وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة « البلد » .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ .

الظاهر أن أمره المذكور في هذه الآية هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] .

وهذه الآية الكريمة تدل على اقتضاء الأمر للوجوب . لأنه أطلق اسم المعصية على عدم امتثال الأمر ، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة : كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] فجعل أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم مانعاً من الاختيار ، موجباً للامتثال .

وقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] فوبخه هذا التوبيخ الشديد على عدم امتثال الأمر المدلول عليه بصيغة أفعل في قوله تعالى : ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ [البقرة : 34] . وجماهير الأصوليين على أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضي الوجوب للأدلة التي ذكرنا وغيرها مما هو مماثل لها . وإلى ذلك أشار في مراقي السعود بقوله :

وافعل لدى الأكثر للوجوب . . . وقيل للندب أو المطلوب

الخ .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن هارون قال لأخيه موسى ﴿ يا بنؤم لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ولا بِرَأْسِي ﴾ وذلك يدل على أنه لشدة غضبه أراد أن يمسك برأسه ولحيته .

وقد بين تعالى في « الأعراف » أنه أخذ برأسه يجره إليه . وذلك في قوله : ﴿ وَأَلْقَى الألواح وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : 150] . وقوله : ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ من بقية كلام هارون . أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ، وأن تقول لي لم ترقب قولي ! أي لم تعمل بوصيتي وتمتثل أمري .

تنبيه

(221/501)

هذه الآية الكريمة بضميمة آية « الأنعام » إليها تدل على لزوم إعفاء اللحية ، فهي دليل قرآني على إعفاء اللحية وعدم حلقها . وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وموسى وَهَارُونَ ﴾ [الأنعام : 84] الآية . ثم إنه تعالى قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده

﴾ [الأنعام : 90] فدل ذلك على أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم ، وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك أمر لنا . لأن أمر القدوة أمر لأتباعه ! كما بينا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة « المائدة » وقد قدمنا هناك : أنه ثبت في صحيح البخاري : أن مجاهداً سأل ابن عباس : من أين أخذت السجدة في « ص » قال : أو ما تقرأ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ ﴾ [الأنعام : 84] ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] فسجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم في سورة « الأنعام » ، وعلمت أن أمره أمر لنا . لأن لنا فيه الأسوة الحسنة ، وعلمت أن هارون كان موفراً شعر لحيته بدليل قلوه لأخيه : ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ﴾ لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته تبين لك من ذلك بإيضاح : أن إعفاء اللحية من السمت الذي أمرنا به في القرآن العظيم ، وأ ، ه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم . والعجب من الذين مضخت ضمائرهم ، واضمحل ذوقهم ، حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية ، وشرف الرجولة ، إلى خنوثة الأنوثة ، ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم ، ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر والأنثى وهو اللحية . وقد كان صلى الله عليه وسلم كث اللحية ، وهو أجمل الخلق

وأحسنهم صورة. والرجال الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر ، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها : ليس فيهم حالق. نرجو الله أن يرينا وإخواننا المؤمنين الحق حقاً ، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

أما الأحاديث النبوة الدالة على إعفاء اللحية ، فلسنا بحاجة إلى ذكرها لشهرتها بين الناس ، وكثرة الرسائل المؤلفة في ذلك.

وقصدنا هنا أن نبين دليل ذلك من القرآن. وإنما قال هارون لأخيه ﴿ قَالَ يا بنأم ﴾ لأن قرابة الأم أشد عطفاً وحناناً من قرابة الأب. وأصله. يا بنؤمي بالإضافة إلى ياء المتكلم ، ويطرد حذف الياء وإبدالها ألفاً وحذف الألف المبدلة منها كما هنا ، وإلى ذلك أشار في الخلاصة بقوله :

وفتح أو كسر وحذف اليا استمر . . . في يا بنؤم يا بن عم لا مفر

وأما ثبوت ياء المتكلم في قول حرملة بن المنذر :

يا بنؤمي ويا شقيق نفسي . . . أنت خليتني لدهر شديد

فلغة قليلة . وقال بعضهم : هو لضرورة الشعر . وقوله « يا بنؤم » قرأه ابن عامر وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي بكسر الميم . وقرأه الباقون بفتحها . وكذلك قوله في « الأعراف » : ﴿ قَالَ ابن أُمَّ إِنَّ القوم ﴾ [الأعراف : 150] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(224/501)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) ﴾

انتقل موسى من محاورة قومه إلى محاورة أخيه ، فجملة ﴿ قَالَ يا هارون ﴾ تابعة لجملة ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ [طه : 86] ، ولجملة ﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ [طاه : 87] وقد وجدت مناسبة لحكاية خطابه هارون بعد أن وقع الفصْل بين أجزاء الحكاية بالجمل المعترضة التي منها جملة ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾ [طه : 90] الخ فهو استطراد في خلال الحكاية للإشعار بعذر هارون كما تقدم .

ويحتمل أن تكون عطفاً على جملة ﴿ ولقد قال لهم هارون ﴾ الخ على احتمال كون تلك من حكاية كلام قوم موسى .

علم موسى أن هارون مخصوص من قومه بأنّه لم يعبد العجل ، إذ لا يجوز عليه ذلك لأنّ الرسالة تقتضي العصمة ، فلذلك خصه بخطاب يناسب حاله بعد أن خاطب عموم الأمة بالخطاب الماضي .

وهذا خطاب التوبيخ والتهديد على بقائه بين عبدة الصنم .

والاستفهام في قوله ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ إنكاري ، أي لا مانع لك من اللحاق بي ، لأنه أقامه خليفة عنه فيهم فلما لم يمتثلوا أمره كان عليه أن يرد الخلافة إلى من استخلفه .

و﴿ إِذْ رأَيْتَهُم ﴾ متعلق بـ ﴿ مَنَعَكَ ﴾ .

و(أنْ) مصدرية ، و(لا) حرف نفي .

وهي مؤذنة بفعل محذوف يناسب معنى النفي .

والمصدر الذي تقتضيه (أن) هو مفعول الفعل المحذوف .

وأما مفعول ﴿ مَنَعَكَ ﴾ فمحذوف يدلّ عليه ﴿ مَنَعَكَ ﴾ ويدل عليه المذكور .

والتقدير : ما منَعك أن تتبعني واضطرّك إلى أنْ لا تتبعني ، فيكون في الكلام شِبه احتباك .

والمقصودُ تأكيدُ وتشديدُ التوبيخ بإنكار أن يكون لهارونَ مانع حينئذ من اللحاق بموسى ومقتض لعدم اللحاق بموسى ، كما يقال : وُجد السبب وانتفَى المانع .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ في سورة الأعراف (12)

فارجعْ إليه .

(225/501)

والاستفهام في قوله أَفَعَصَيْتَ أمري ﴾ مفرع على الإنكار ، فهو إنكار ثان على مخالفة أمره ، مشوب بتقرير للتهديد .

وقوله في الجواب ﴿ يا ابن أم ﴾ نداء لقصد الترقيق والاستشفاع .

وهو مؤذن بأن موسى حين وبّخه أخذ بشَعَرِ لحية هارون ، ويشعر بأنه يجذ به إليه ليلطمه ، وقد صرح به في الأعراف (50) بقوله تعالى : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ﴾

وقرأ الجمهور يا ابن أمَّ بفتح الميم .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف بكسر الميم وأصله : يا ابن أمّي ، فحذفت ياء المتكلم تخفيفاً ، وهو حذف مخصوص بالنداء .

والقراءتان وجهان في حذف ياء المتكلّم المضاف إليها لفظ أمّ ولفظ (عَمّ) في النداء .

وعطف الرأس على اللحية لأنّ أخذه من لحيته أشد ألماً وأنكى في الإذلال .

وابنُ الأم : الأخ .

وعدل عن (يا أخي) إلى (ابن أم) لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوّة ، وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاعِ من لبان واحد .

واللِحية بكسر اللاّم ويجوز فتح اللاّم في لغة الحجاز اسم للشعر النابت بالوجه على موضع اللحيين والذقْن ، وقد أجمع القراء على كسر اللاّم من ﴿ لِحيتي ﴾ .

واعتذر هارون عن بقائه بين القوم بقوله ﴿ إني خشيت أن تقول فرقتَ ﴾ ، أي أن تظن ذلك بي فتقوله لوْماً وتحميلاً لتبعة الفرقة التي ظن أنها واقعة لا محالة إذا أظهر هارون غضبه عليهم لأنه يستتبعه طائفة من الثابتين على الإيمان ويخالفهم الجمهور فيقع انشقاق بين القوم وربما اقتتلوا فرأى من المصلحة أن يظهر الرضى عن فعلهم ليهدأ الجمهور ويصبر المؤمنون اقتداء بهارون ، ورأى في سلوك هذه السياسة تحقيقاً لقول موسى له ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ في سورة الأعراف (142) .

وهو الذي أشار إليه هنا بقوله ﴿ ولَمْ تَرْقُب قَوْلِي ﴾ ، فهو من جملة حكاية قول موسى الذي قدره هارون في ظنه .

وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج.

وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمّة فرجّح الثانية، وإنما رجحها لأنه رآها أدوم فإن مصلحة حفظ العقيدة يُستدرك فواتُها الوقتيّ برجوع موسى وإبطاله عبادة العجل حيث غيوا عكوفهم على العجل برجوع موسى، بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها.

وتضمن هذا قوله ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ، وكان اجتهاده ذلك مرجوحاً لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه، لأنّ مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع، كما بيناه في كتاب "أصول نظام الاجتماع الإسلامي".

ولذلك لم يكن موسى خَافياً عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعملُ بها كما بينته في كتاب "مقاصد الشريعة".

وفي قوله تعالى: ﴿ بين بَني ﴾ جناس، وطرد وعكس.

وهذا بعض ما اعتذر به هارون، وحكي عنه في سورة الأعراف (150) أنه اعتذر

بقوله ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) ﴾

التفت موسى بتوجيه الخطاب إلى السامريّ الذي كان سبباً في إضلال القوم ، فالجملة ناشئة عن قول القوم ﴿ فكذلك ألقى السامريّ فأخرج لهم عجلاً ﴾ [طه : 88] الخ ، فهي ابتداء خطاب .

ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنه كان جاهلاً بالدّين فلم يكن في ضلاله عجب .

ولعل هذا يؤيد ما قيل : إن السامريّ لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القِبط أو من كِرمان فاندسّ في بني إسرائيل .

(227/501)

ولما كان موسى مبعوثاً لبني إسرائيل خاصة ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل ، كان اتّباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمراً غير واجب على غير الإسرائيليين ولكنه مرغّب فيه لما فيه من الاهتداء ، فلذلك لم يعنفه موسى لأنّ الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة .

ومعنى ﴿ ما خطبك ﴾ ما طَلَبك ، أي ماذا تخطب ، أي تطلب ، فهو مصدر .

قال ابن عطية : "وهي كلمة أكثر ما تستعمل في المَكاره ، لأن الخطب هو الشأن المكروه .

كقوله تعالى : ﴿ فما خَطبكم أيها المرسلون ﴾ [الذاريات : 31] ، فالمعنى : ما هي مصيبتك التي أصبت بها القوم وما غرضك مما فعلت .

وقوله ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ إن حُملت كلمات (بَصُرت بما لم يبصروا به .

وقبضت قبضة ، وأثر ، ونبذتها) على حقائق مدلولاتها كما ذهب إليه جمهور المفسرين كان المعنى أبصرت ما لم يُبصروه ، أي نظرت ما لم ينظروه ، بناء على أن بَصُرت ، وأبصرت كلاهما من أفعال النظر بالعين ، إلا أن بصُر بالشيء حقيقته صار بصيراً به أو بصيراً بسببه ، أي شديد الإبصار ، فهو أقوى من أبصرت ، لأنّه صيغ من فَعُل بضم العين الذي تشتق منه الصفات المشبهة الدالة على كون الوصف سجية ، قال تعالى : ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ في سورة القصص (11) .

ولما كان المعنى هنا جليّاً عن أمر مرئيّ تعيّن حمل اللفظ على المجاز باستعارة بصُر الدال على قوّة الإبصار إلى معنى العِلم القويّ بعلاقة الإطلاق عن التقييد ، كما في قوله تعالى : ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : 22] ، وكما سميت المعرفة الراسخة بَصيرة في قوله ﴿ أدعوا إلى الله على بصيرة ﴾ [يوسف : 108] .

وحكى في "لسان العرب" عن اللحياني: إنه لبصير بالأشياء، أي عالم بها، وبصرت بالشيء: علمته.

وجعل منه قوله تعالى: ﴿ بصرت بما لم يبصروا به، وكذلك فسرها الأخفش في نقل لسان العرب ﴾ وأثبته الزجاج.

(228/501)

فالمعنى: علمتُ ما لم يعلموه وفطنت لما لم يفطنوا له، كما جعله في "الكشاف" أول وجهين في معنى الآية.

ولذلك طريقتان: إما جعل بصُرت مجازاً، وإما جعله حقيقة.

وقرأ الجمهور ﴿ يبصروا بتحتية على أنه رافع لضمير الغائب.

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بفوقية على أنه خطاب لموسى ومن معه.

والقَبضة: بفتح القاف الواحدة: من القَبض، وهو غلق الراحة على شيء، فالقبضة مصدر بمعنى المفعول، وضد القبض: البسط.

والنبذ: إلقاء ما في اليد.

والأثر: حقيقته: ما يتركه الماشي من صورة قَدَمِه في الرمل أو التراب.

وتقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ قال هم أولاء على أثري ﴾ [طه : 84] .

وعلى حمل هذه الكلمات على حقائقها يتعين صرف الرسول عن المعنى المشهور ، فيتعين حمله على جبريل فإنه رسول من الله إلى الأنبياء .

فقال جمهور المفسرين : المراد بالرسول جبريل ، ورووا قصة قالوا : إن السامري فتنهُ الله ، فأراه الله جبريل راكباً فرساً فوطىءَ حافر الفرس مكاناً فإذا هو مخضَرّ بالنبات .

فعلم السامري أن أثر جبريل إذا ألقي في جماد صار حياً ، فأخذ قَبضة من ذلك التراب وصنَع عجلاً وألقى القبضة عليه فصار جسداً ، أي حياً ، له خوار كخوار العجل ، فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ .

وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنّة وإنما هي أقوال لبعض السلف ولعلها تسربت للناس من روايات القصاصين .

فإذا صُرفت هذه الكلمات الستّ إلى معان مجازية كان ﴿ بصُرت بمعنى علمتُ واهتديت ، أي اهتديت إلى علم ما لم يعلموه ، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذي به صنع العجل ، وعلم الحِيل الذي أوجد به خُوار العجل ، وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل ، وكان الأثر بمعنى التعليم ، أي الشريعة ، وكان نبذت ﴾ بمعنى أهملت ونقضت ، أي كنت ذا معرفة إجمالية من هدي الشريعة فانخلعت عنها بالكفر .

وبذلك يصح أن يحمل لفظ الرسول على المعنى الشائع المتعارف وهو مَن أوحي إليه بشرع من الله وأُمر بتبليغه .

وكان المعنى : إني بعملي العجل للعبادة نقضت اتباع شريعة موسى .

والمعنى : أنه اعترف أمام موسى بصنعِهِ العجل واعترف بأنه جَهِل فَضَلّ ، واعتذر بأن ذلك سوّلته له نفسه .

وعلى هذا المعنى فسر أبو مسلم الأصفهاني ورجحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور واختاره الفخر .

والتسويل : تزيين ما ليس بزين .

والتشبيه في قوله ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ تشبيه الشيء بنفسه ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] ، أي كذلك التسويل سولت لي نفسي ، أي تسويلاً لا يقبل التعريفَ بأكثر من ذلك .

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

لم يزد موسى في عقاب السامريّ على أن خلعه من الأمّة ، إما لأنّه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة ، وإما لأنّ موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحه ، فيكون ممن حقّت عليه كلمة العذاب ، مثل الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين حقت

عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : 96 ، 97] ، ويكون قد أطلع الله موسى على ذلك بوحي أو إلهام ، مثل الذي قاتل قتالاً شديداً مع المسلمين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم " أما إنه من أهل النّار " ، ومثل المنافقين الذين أعلم الله بهم محمداً صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بن اليمان ببعضهم .

فقوله ﴿ فَاذْهَبْ ﴾ الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمّة ، ويجوز أن يكون كلمة زجر ، كقوله تعالى : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنّم جزاؤكم ﴾ [الإسراء : 63] ، وكقول الشاعر مما أنشده سيبويه في "كتابه" ولم يعزه:

فاليوم قَرّبْتَ تهجونا وتشتمنا . . .

فاذْهَبْ فما وبك لأيام من عجب

ويجوز أن يكون مراداً به عدم الاكتراث بحاله كقول النبهاني من شعراء "الحماسة" :

فإن كنتَ سيدنا سُدْتَنا . . .

وإن كنت للخَال فاذْهَب فَخَلْ

أما قوله ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاس وإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حَظه في حياته أن يقول لا مِساس، أي سلبه الله الأُنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوساً ووسواساً وتوحشاً، فأصبح متباعداً عن مخالطة الناس، عائشاً وحده لا يترك أحداً يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك، أو أراد لا اقتراب مني، فإن المس يطلق على الاقتراب كقوله ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ [هود: 64]، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة، أي مقاربة بيننا، فكان يقول ذلك، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية.

ومِساس بكسر الميم في قراءة جميع القراء وهو مصدر ماسّهُ بمعنى مسه، و(لا) نافية للجنس، و﴿ مساس اسمها مبني على الفتح.

وقوله وإنَّ لكَ مَوعِداً ﴾ اللام في ﴿ لَكَ ﴾ استعارة تهكمية، كقوله تعالى: ﴿ وإن أسأتم لها ﴾ [الإسراء: 7] أي فعليها.

وتوعده بعذاب الآخرة فجعله موعداً له، أي موعد الحشر والعذاب، فالموعد مصدر، أي وعد لا يخلف ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ [الروم: 6].

وهنا توعُّد بعذاب الآخرة.

وقرأ الجمهور ﴿ لن تُخلَفه بفتح اللاّم مبنيّاً للمجهول للعلم بفاعله، وهو الله تعالى، أي لا يؤخره الله عنك، فاستعير الإخلاف للتأخير لمناسبة الموعد.

وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب بكسر اللام مضارع أخْلَف وهمزته للوجدان.

يقال: أخلف الوعد إذا وجده مُخْلَفاً، وإما على جعل السامريّ هو الذي بيده إخلاف الوعد وأنه لا يخلفه، وذلك على طريق التهكم تبعاً للتهكم الذي أفاده لام الملك.

(231/501)

وبعد أن أوعد موسى السامريّ بيّن له وللذين اتبعوه ضلالهم بعبادتهم العجل بأنه لا يستحق الإلهيّة لأنّه معرّض للامتهان والعَجز، فقال: وانْظُر إلى إلهك الَّذِي ظَلت َعليهِ عاكِفاً لنُحرِقنَّهُ ثُمَّ لَننسِفنَّهُ في الْيَمِ نَسْفاً ﴾.

فجعَل الاستدلال بالنظر إشارة إلى أنه دليل بيّن لا يحتاج المستدل به إلى أكثر من المشاهدة فإن دلالة المحسوسات أوضح من دلالة المعقولات.

وأضاف الإله إلى ضمير السامريّ تهكماً بالسامريّ وتحقيراً له، ووصف ذلك الإله المزعوم بطريق الموصولية لما تدلّ عليه الصلة من التنبيه على الضلال والخطأ، أي الذي لا يستحق أن يعكف عليه.

وقوله ﴿ ظلتَ ﴾ بفتح الظاء في القراءات المشهورة، وأصله: ظَلَلْتَ: حذفت منه اللام الأولى تخفيفاً من توالي اللامين وهو حذف نادر عند سيبويه وعند غيره هو قياس.

وفعل (ظلّ) من أخوات (كان) .

وأصله الدلالة على اتصاف اسمه بخبره في وقت النّهار ، وهو هنا مجاز في معنى (دام)

بعلاقة الإطلاق بناء على أنّ غالب الأعمال يكون في النّهار .

والعكوف : ملازمة العبادة وتقدم آنفاً .

وتقديم المجرور في قوله ﴿ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ للتخصيص ، أي الذي اخترته للعبادة دون غيره

، أي دون الله تعالى .

وقرأ الجمهور ﴿ لَنُحرّقنّه ﴾ بضم النون الأولى وفتح الحاء وكسر الراء مشددة .

والتحريق : الإحراق الشديد ، أي لنحرقنه إحراقاً لا يدع له شكلاً .

وأراد به أن يذيبه بالنّار حتى يفسد شكله ويصير قِطَعاً .

وقرأ ابن جمّاز عن أبي جعفر ﴿ لَنُحْرِقنه بضم النّون الأولى وبإسكان الحاء وتخفيف

الراء .

وقرأه ابن وَردان عن أبي جعفر بفتح النون الأولى وإسكان الحاء وضم الراء لأنّه يقال :

أحرقه وحرّقه .

والنسف : تفريقٌ وإذراء لأجزاء شيء صلب كالبناء والتراب .

وأراد باليمّ البحر الأحمر المسمى بحر القلزم ، والمسمى في التوراة : بحْرَ سُوف ، وكانوا نازلين

حينئذ على ساحله في سفح الطور .

و (ثم) للتّراخي الرتبي ، لأن نسف العجل أشد في إعدامه من تحريقه وأذل له .

وأكد ننسِفَنَّه بالمفعول المطلق إشارة إلى أنه لا يتردد في ذلك ولا يخشى غضبه كما يزعمون أنّه إله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) ﴾

﴿ لَن نَّبْرَحَ ﴾ [طه : 91] . أي سنظل عل هذا الحال ، البعض يظن أنها للمكان فقط ، إنما هي حَسْب ما تتعلق به ، تقول : لا أبرح سائراً حتى أصِلَ لغرضي ، ولا أبرح هذه المكان فقد تكون للمكان ، وقد تكون للحال . كما ورد في القرآن :

للمكان والإقامة في قوله : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي أبي ﴾ [يوسف : 80] .

وللحال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين ﴾ [

الكهف : 60] أي : لا أبرح السير .

فالمعنى ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ [طه : 91] سنظلّ على عبادته حتى يرجع موسى ، فلن نمكثَ هذه الفترة دون إلهٍ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ يا هرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا ﴾

هذا حوار دار بين موسى وأخيه هارون ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ [طه : 92] وقد وردتْ هذه الكلمة في القرآن بأُسْلوبين : الأول : قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] أي : ما منعك من السجود .

والآخر : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] . أي : ما منعك أن لا تسجد ؛ لأن المانع قد يكون قَهْراً عنك ، وأنت لا تريد أن تفعل ، وقد يأتي آخر فيُقنِعك أن تفعل .

فمرّة يُرغِمك : أنت لا تريد أنْ تسجد يقول لك : اسجد . إذن : منعك أن تسجد يعني قهراً عنك ، لكن أقنعك أن تسجد أنت باختيارك فقد منعك ألاَّ تسجد .

إذن : مرة من النفس ، ومرة من الغير ، وهكذا يلتقي الأسلوبان .

فقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 9293] أي : من اتباعي ، لكن هل موسى عليه السلام هنا يستفهم ؟ الحقيقة أنه لا يريد الاستفهام ، فقد تخاطب إنساناً بذنب ، وأنت لا تعلم ذنبه ، إنما تخاطبه بصورة الذّنب لتسمع الردَّ منه ، فيكون رَدّاً على مَنْ يعترض عليه .

ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر رضي الله عنه عند الحجر الأسود ، فلما قَبَّله قال : " اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أَنِّي رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتُك " .

إذن : قبّله عمر ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّله ، إلا أنه جاء بهذا الكلام ليعطينا الجواب المستمر على مرِّ التاريخ لكل مَنْ يسأل عن تقبيل الحجر .

وهنا أثارها موسى شبهة ؛ كي نسمع نحن الجواب ، ولنسمع الردّ من صاحب الشأن باقياً سائراً في طول الأزمان .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾

إذن : صاحبَ خطابَ موسى لأخيه هارون فعْل نزوعيٌّ وحركة ، فهمناها من قول هارون : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94] .

ثم ذكر العلة ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه : 94] يقصد قول أخيه : ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] .

فذكّره بالتفويض الذي أعطاه إياه . وقد اجتهد هارون حَسْب رؤيته للموقف ، ونأى بالقوم عن معركة ربما انتهتْ بالقضاء على خِلِية الإيمان في بني إسرائيل ، اجتهد في إطار ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ [الأعراف : 142] .

إذن : أثار موسى هذه القضية مع أخيه ، لا ليسمع هو الرد ، وإنما لُيسمع الدنيا كلّها على مَرِّ التاريخ .

ثم ينقل موسى الخطاب إلى رأس هذه الفتنة : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يا سامري ﴾

أي : ما شأنك ؟ وما قصتك ؟

(235/501)

والخَطْب : يُقال في الحدّث المهم الذي يُسمُّونه الحدَث الجلَل ، والذي يُقال فيه " خطب " ، فليس هو الحدث العابر الذي لا يقف عنده أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : 51] .

وما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام لابنتَيْ شعيب : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص : 23] .

ثم يقول الحق سبحانه عن السامري : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾

مادة : بَصُر منها أبصرت للرؤية الحسية ، وبصرت للرؤية العلمية أي : بمعنى علمتُ .

فمعنى ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ [طه : 96] يعني : اقتنعتُ بأمر هم غير مقتنعين به ، فأنا فعلتُ وهم قلَّدوني فيما فعلتُ من مسألة العِجْل .

وقد أدَّى به اجتهاده إلى صناعة العجل ؛ لأنه رأى قومه يحبون الأصنام ، وسبق أنْ طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً لما رأوا قوماً يعبدون الأصنام ، فانتهز السامريُّ فرصة غياب موسى ، وقال لهم : سأصنع لكم ما لم يستطع موسى صناعته ، بل وأزيدكم فيه ، لقد طلبتم مجرد صنم من حجارة إنما أنا سأجعل لكم عِجْلاً جَسَداً من الذهب ، وله صوت وخُوَار مسموع .

وقوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا ﴾ [طه : 96] قبض على الشيء : أخذه بجُمْع يده . ومثلها : قَبص .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ [طه : 96] للعلماء في هذه المسألة روايات متعددة . منها : أن السامري حين كان جبريل عليه السلام يتعَهَّده وهو صغير ، كان يأتيه على جواد فلاحظ السامري أن الجواد كلما مَرَّ على شيء اخضرّ مكان حافره ، ودَبَّتْ الحياة فيه ، لذلك : فأصحاب هذا القول رأوا أن العجل كان حقيقياً ، وله صوت طبيعي ليس مجرد مرور الهواء من خلاله .

ورأى آخر يقول : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ [طه : 96] الرسول كما نعلم هو المبلِّغ لشرع الله المباشر للمبلَّغ ، أما جبريل فهو رسول للرسول ، ولم يَرَه أحد فأُطِلقت الرسول على حامل المنهج إلى المتكلّم به ، لكنها قد تُطلق ويُراد بها التهكّم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ [المنافقون : 7] فيقولون : رسول الله تهكماً لا إيماناً بها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] .

إذن : قد يُرَاد بها التهكّم .

لكن ، ما المراد بأثر الرسول؟ الرسول جاء لِيُبلِّغ شرعاً من الله ، وهذا هو أثره الذي يبقى من بعده . فيكون المعنى : قبضتُ قبضة من شرع الرسول ، قبضة من قمته ، وهي مسألة الإله الواحد الأحد المعبود ، لا صنمَ ولا خلافه .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ [طه : 96] أي : أبعدتُها وطرحتها عن مُخيِّلتي ، ثم تركتُ لنفسي العنان في أن تفكر فيما وراء هذا .

بدليل أنه قال بعدها ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه : 96] أي : زيَّنتها لي ، وألجأتني إلى معصية . فلا يقال : سوَّلَتْ لي نفسي الطاعة ، إنما المعصية وهي أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول ووَحْيه الذي جاء به من الله ، ثم يطرحه عن منهجه ويُبعده عن فِكْره ، ثم يسير بِمَحْض اختياره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ فَاذهب فَإِنَّ لَكَ ﴾

كان ردّ موسى عليه السلام على هذه الفعْلة من السامري : جزاؤك أن تذهب ، ويكون قولك الملازم لك ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ [طه : 97] والمِسَاس أي : المسّ . المعنى يحتمل : لا مساس مِنّي لأحد ، أو لا مساس من أحد لي .

ذلك لأن الذين يفترون الكذب ويدَّعُون أن لهم رسالة ولهم مهمة الأنبياء ، حظُّهم من هذا كله أن تكون لهم سُلْطة زمنية ومكانة في قلوب الناس ، وأن يكون لهم مذهب وأتباع وأشياع .

لذلك تراهم دائماً في سبيل الوصول إلى هذه الغاية يتحللون من المنهج الحق ، ويستبدلونه بمناهج حَسْب أهوائهم ، فيميلون إلى تسهيل المنهج وتبسيطه ، ويُعطون لأتباعهم حرية ما

أنزل الله بها من سلطان ، كالذي خرج علينا يُبيح للناس الاختلاط بين الرجال والنساء .

ومن العجيب أن تجد لهذه الأفكار أَنصاراً يؤمنون بها ويُطبّقونها ، لا من عامة الناس ، بل من المثقفين وأصحاب المناصب . فكيف تحجب عنهم المرأة ، وهي نصف المجتمع ؟

إذن : ما أجملَ هذ الدين ومَا أيسره على الناس ، فقد جاء على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، ووسَّع لهم المسائل ، فالنفس تميل بطبعها إلى التدين ؛ لأنها مفطورة عليه ، لكن تريد هذا الدين سَهْلاً لا مشقةَ فيه ، حتى وإنْ خالف منهج الله .

لذلك تجد مثلاً مسيلمة وسجاح وغيرهما من مُدَّعِي النبوة يُخفِّفون عن أتباعهم تكاليف الشرع في الصلاة والصوم ، أما الزكاة فهي ثقيلة على النفس فلا داعيَ لها . وإلاَّ فما الميْزة التي جاءوا بها ليتبعهم الناس ؟ وما وسائل التشجيع لاتباع الدين الجديد ؟

وهكذا يصبح لهؤلاء سُلْطة زمنية ومكانة ، وأتباع ، وجمهور ، إذن : الذي أفسد حياته أن يجد العِزَّ والمكانة في انصياع الناس له وتبعيتهم لأفكاره ، فيعاقبه الله بهم ، ويجعل ذُلَّه على أيديهم وفتنته من ناحيتهم ، فهم الذين أعانوه على هذا الباطل ، فإذا به يكرههم ويبتعد بنفسه عنهم ، لدرجة أن يقول ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ [طه : 97] كأنه يفِرُّ منهم يقول : إياك أنْ تقربَ مِنّي أو تمسّنِي .

لقد تحول القُرْب والمحبة إلى بُعْد وعداوة ، هذه الجمهرة التي كانت حوله وكان فيها عِزُّه وتسلُّطه يفرُّ منها الآن ، فهي سبب كَبْوته ، وهي التي أعانَتْه على معصية الله .

وهكذا ، كانت نهاية السامريّ أن ينعزل عن مجتمعه ، ويهيم على وجهه في البراري ، ويفرّ من الناس ، فلا يمسّه أحد ، بعد أنْ صدمه الحق ، وواجهتْه صَوْلته .

(238/501)

وما أشبهَ هذا الموقف بما يحدث لشاب متفوق مستقيم يُغريه أهل الباطل ، ويجذبونه إلى طريقهم ، وبعد أن انخرط في سِلْكهم وذاق لذة باطلهم وضلالهم إذَا به يصحو على صدمة الحق التي تُفيقه ، ولكن بعد أن خسر الكثير ، فتراه بعد ذلك يفِرُّ من هذه الصُّحْبة وينأى بنفسه عن مجرد الاقتراب منهم .

لذلك من الذين اختاروا دينهم وَفْق أهوائهم عبدة الأصنام ، فإن كانت العبادة أنْ يطيع العابدُ معبوده ، فما أيسرَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة بدون تكليف ، وعبادة بدون مشقة ، لا تقيد لك حركة ، ولا تمنعك من شهوة ، وإلا فماذا أعدَّتْ الأصنام من ثواب لَمَنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ من عذاب لمن كفر بها .

فكأن الحق تبارك وتعالى قال للسامري : ستُعاقب بنفس المجتمع الذي كنت تريد منه العِزّة والسُّلْطة والسيطرة والذكر ، فتتبرأ أنت منهم وتفرّ من جوارهم ، ولا تتحمل أنْ يمسَّك أحد منهم ، فهم سبب بلائك ، ومصدر فتنتك ، كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 67] .

فأخلاءُ الباطل ، وصُحْبَةُ السوء الذين يجتمعون على معصية الله في سهرات مُحرَّمة عليهم أنْ يحذروا هذا اللقاء . أما الخُلّة الحقيقية الصادقة فهي للمتقين ، الذين يأتمرون بالحق ، ويتواصَوْن بطاعة الله .

وفَرْق بين مَنْ يقاسمك الكأس ومَنْ يكسرها ويُريقها قبل أنْ تذوقها ، فَرْق بين مَنْ يلهيك عن الصلاة ومَنْ يحثُّك عليها ، فَرْق بين مَنْ يُسعِدك الآن بمعصية ومَنْ يحملك على مشقّة الطاعة ، فانظر وتأمّل .

ثم يقول : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ [طه : 97] أي : ما ينتظرك من عذاب الآخرة .

﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً ﴾ [طه : 97] .

(عَاكِفاً) أي : مقيماً على عبادته ، والاعتكاف : الإقامة في المسجد ، والانقطاع عن المجتمع الخارجي .

ومعنى ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ [طه : 97] أي : نُصيِّره كالمحروق ، بأنْ نبردَه بالمبرد حتى يصبح فُتَاتاً وذرات متناثرة ، بحيث يمكن أن نذروه في الهواء ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً ﴾ [طه : 97] أي : نذروه كما يفعل الفلاحون حين يذرون الحبوب لفَصْل القِشْر عنها بآلة تسمى (المنسف) تشبه الغربال ، وقد استبدلوا هذه الأدوات البدائية الآن بآلات ميكانيكية حديثة تُؤدِّي نفس الغرض .

ذلك لأن إلهَ السَّامري كان هذا العجل الذي اتخذه من ذهب ، فلا يناسبه الحرق في النار ، إنما نريد له عملية أخرى ، تذهب به من أصله ، فلا نُبقِي له على أثر . وهذا هو إلهك الذي عبدته إنْ أفلح كان يدافع عن نفسه ويحمي رُوحَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(240/501)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ قال: يابساً ليس فيه ماء ولا طين.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ طريقاً في البحر يبساً ﴾ قال: يابساً.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج قال: قال أصحاب موسى: هذا فرعون قد أدركنا، وهذا البحر قد عمنا. فأنزل الله ﴿ لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ من البحر غرقاً ولا وحلاً.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ لا تخاف دركاً ﴾ قال: من آل فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ من البحر غرقاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي في قوله: ﴿ فغشيهم من اليم ﴾ قال البحر.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ قال: الطغيان فيه أن يأخذه بغير حله.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ فيحل عليكم غضبي ﴾ قال: فينزل عليكم غضبي.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الأعمش أنه قرأ ﴿ من يحلل عليه غضبي ﴾ بكسر اللام على تفسير من يجب عليه غضبي.

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي مجلز في قوله : ﴿ ومن يحلل عليه غضبي ﴾ قال : إن غضبه خلق من خلقه يدعوه فيكلمه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فقد هوى ﴾ قال : شقي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سقي بن ماتع : أن في جهنم قصراً يرمى الكافر من أعلاه ، فيهوي في جهنم أربعين ، قبل أن يبلغ الصلصال ، فذلك قوله : ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ قال : من الشرك ﴿ وآمن ﴾ . قال : وحد الله ﴿ وعمل صالحاً ﴾ قال : أدى الفرائض ﴿ ثم اهتدى ﴾ قال : لم يشك .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإني لغفار ﴾ الآية . قال : تاب من الذنب ، وآمن من الشرك . وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ﴿ ثم اهتدى ﴾ علم أن لعمله ثواباً يجزى عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ثم اهتدى ﴾ قال : ثم استقام

لفرقة السنة والجماعة.

وأخرج ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن ميمون، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: فعجل موسى إلى ربه فقال الله: ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى ﴾ قال: فرأى في ظل العرش رجلاً فعجب له. فقال: من هذا يا رب؟ قال: لا أحدثك حديثه لكن سأحدثك بثلاث فيه: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة.

وأخرج ابن مردويه، عن وهب بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله لما وعد موسى أن يكلمه، خرج للوقت الذي وعده، فبينما هو يناجي ربه، إذ سمع خلفه صوتاً، فقال إلهي إني أسمع خلفي صوتاً، قال: لعل قومك ضلوا، قال: إلهي، من أضلهم؟ قال: السامري. قال: كيف أضلهم؟ قال: صاغ لهم ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ قال: إلهي هذا السامري صاغ لهم العجل: فمن نفخ فيه الروح حتى صار له خوار؟ قال: أنا يا موسى، قال: فبعزتك، ما أَضَلَّ قومي أحد غيرك. قال: صدقت. قال: يا حكيم الحكماء، لا ينبغي حكيم أن يكون أحكم منك".

وأخرج ابن جرير في تهذيبه ، عن راشد بن سعد قال : إن موسى لما قدم على ربه – واعد قومه أربعين ليلة – قال : يا موسى ، إن قومك قد افتتنوا من بعدك . قال : يا رب كيف يفتنون ؟ وقد نجيتهم من فرعون ، ونجيتهم من البحر ، وأنعمت عليهم ، وفعلت بهم ؟ ! قال : يا موسى إنهم اتخذوا من بعدك عجلاً له خوار قال : يا رب ، فمن جعل فيه الروح ؟ قال : أنا . قال : فأنت يا رب أضللتهم . قال : يا موسى ، يا رأس النبيين ، ويا أبا الحكام ، إني رأيت ذلك في قلوبهم ، فيسرته لهم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن علي رضي الله عنه قال : لما تعجل موسى إلى ربه ، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني إسرائيل فضربه عجلاً ، ثم ألقى القبضة في جوفه ، فإذا هو عجل جسد له خوار فقال لهم السامري : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ فلما أن رجع موسى أخذ رأس أخيه ، فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامري : ﴿ ما خطبك ﴾ فقال : ﴿ قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي ﴾ فعمد موسى إلى العجل ، فوضع عليه المبارد فبرده وهو على شطر نهر ، فما شرب أحد من ذلك الماء – ممن كان يعبد ذلك العجل – إلا اصفر وجهه مثل الذهب ! فقالوا : يا موسى ، ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين

، فجعل الرجل يقتل أباه وأخاه وابنه ، لا يبالي من قتل ، حتى قتل منهم سبعون ألفاً !

فأوحى الله إلى موسى : مرهم فليرفعوا أيديهم ، فقد غفرت لمن قتل ، وتبت على من بقي .

(243/501)

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لما هجم فرعون على البحر وأصحابه – وكان فرعون على فرس أدهم حصان ، هاب الحصان أن يقتحم البحر ، فمثل له جبريل على فرس أنثى ، فلما رآها الحصان هجم خلفها ، وعرف السامري جبريل – لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه – فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه ، في واحدة لبناً ، وفي الأخرى عسلاً ، وفي الأخرى سمناً ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ ، فلما عاينه في البحر عرفه ، فقبض قبضة من أثر فرسه .

قال أخذ من تحت الحافر قبضة ، وألقى في روع السامري : إنك لا تلقيها على شيء فتقول كن كذا إلا كان ، فلم تزل القبضة معه في يده حتى جاوز البحر ، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر ، أغرق الله آل فرعون . قال موسى لأخيه هارون ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ومضى موسى لموعد ربه ، وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون ، فكأنهم تأثموا منه ، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله ، فلما جمعوه قال

السامري : بالقبضة هكذا ، فقذفها فيه ، وقال : كن عجلاً جسداً له خوار فصار ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ فكان يدخل الريح من دبره ، ويخرج من فيه يسمع له صوت ! فقال ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فعكفوا ﴾ على العجل يعبدونه . فقال هارون : ﴿ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ .

(244/501)

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : كان السامري رجلاً من أهل ماجرما ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فكان يحب عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل ، فلما فصل موسى إلى ربه قال لهم هارون : إنكم قد حملتم ﴿ أوزاراً من زينة القوم ﴾ آل فرعون ومتاعاً وحلياً فتطهروا منها ، فإنها رجس ، وأوقد لهم ناراً ، فقال : اقذفوا ما معكم من ذلك فيها ، فجعلوا يأتون بما معهم فيقذفون فيها ، ورأى السامري أثر فرس جبريل ، فأخذ تراباً من أثر حافره ، ثم أقبل إلى النار ، فقال لهارون يا نبي الله ، ألقي ما في يدي ؟ قال : نعم . ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من ذلك الحلي والأمتعة فقذفه فيها فقال : كن ﴿ عجلاً جسداً له خوار

﴾ ، فكان للبلاء والفتنة . فقال : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ﴿ فعكفوا عليه ﴾ وأحبوه حباً لم يحبوا مثله شيئاً قط : يقول الله : ﴿ فنسي ﴾ أي ترك ما كان عليه من الإسلام ، يعني السامري ﴿ أفلا يرون ألاَّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ وكان اسم السامري : موسى بن ظفر وقع في أرض مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال : ﴿ يا قوم ، إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ فأقام هارون فيمن معه من المسلمين مخافة أن يقول له موسى : ﴿ فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ وكان له سامعاً مطيعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل فقال له : ما تصنع ؟ قال : اصنع ما لا يضر ولا ينفع ! فقال هارون : اللهم أعطه ما سأل على نفسه ، ومضى هارون فقال السامري : اللهم إني أسألك أن يخور ، فخار . فكان إذا خار سجدوا له ، وإذا خار رفعوا رؤوسهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن بني إسرائيل استعاروا حليا من القبط ، فخرجوا به معهم ، فقال لهم هارون : قد ذهب موسى إلى السماء اجمعوا هذا الحلي حتى يجيء موسى ، فيقضي فيه ما قضى ، فجمع ثم أذيب ، فلما ألقى السامري القبضة تحول ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ فقال : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ قال : إن موسى ذهب يطلب ربه ، فضل فلم يعلم مكانه وهو هذا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن علي رضي الله عنه قال : إن جبريل لما نزل فصعد بموسى إلى السماء ، بصر به السامري من بين الناس ، فقبض قبضة من أثر الفرس ، وحمل جبريل موسى خلفه حتى إذا دنا من باب السماء صعد ، وكتب الله الألواح ، وهو يسمع صرير الأقلام في الألواح ، فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده ، نزل موسى فأخذ العجل فأحرقه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان السامري من أهل كرمان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه قال انطلق موسى إلى ربه فكلمه قال له : ﴿ ما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ ﴿ قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى ﴾ قال : ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ فلما خبره خبرهم قال : يا رب ، هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل . أرأيت الروح من نفخها فيه ؟ قال الرب : أنا . قال : يا رب . فأنت إذاً أضللتهم . ثم رجع ﴿ موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ قال : حزيناً ﴿ قال يا قوم ألم يَعِدكُم ربكم وعداً حسناً ﴾ إلى قوله : ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ يقول : بطاقتنا ﴿ ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ يقول : من حلي القبط : ﴿ فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلاً جسداً خوار ﴾ ﴿ فعكفوا عليه يعبدونه ﴾ وكان يخور ويمشي . فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ يقول ابتليتم بالعجل . قال : ﴿ فما خطبك يا سامري ﴾ ما بالك . إلى قوله : ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليك عاكفاً لنحرقنه ﴾ قال : فأخذه فذبحه ثم خرقه بالمبرد . يعني سحكه ، ثم ذراه في اليم . فلم يبق نهر يجري يومئذ إلا وقع فيه منه شيء ، ثم قال لهم موسى : اشربوا منه ، فشربوا .

فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب ، فذلك حين يقول : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ قال : فلما سقط في أيدي بني إسرائيل حين جاء موسى ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ فأبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل ؛ إلا بالحال التي كرهوا أنهم كرهوا أن يقاتلوهم ، حين عبدوا العجل ﴿ فقال موسى يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ﴾ فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قتل من الفريقين شهيداً ، حتى كثر القتل ، حتى كادوا أن يهلكوا ، حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، وحتى دعا موسى وهارون : ربنا هلكت بنو إسرائيل ، ربنا البقية . . . البقية ، فأمرهم أن يضعوا السلاح ، وتاب عليهم ، فكان من قتل منهم . . . . كان شهيداً ، ومن بقي كان مكفراً عنه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ ثم إن الله تعالى أمر موسى : أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، فوعدهم موعداً ﴿ فاختار موسى سبعين رجلاً ﴾ ثم ذهب ليعتذروا من عبادة العجل ، فلما أتوا ذلك ، قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ فإنك قد كلمته فأرناه ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب . ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا

﴿ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل . فذلك حين يقول موسى : ﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ يقول : الوعد وفي قوله : ﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ يقول : عهدي وفي قوله : ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ بأمر ملكنا ﴿ ولكنا حملنا أوزاراً ﴾ قال : أثقالاً من زينة القوم ، وهي الحلي الذي استعاروه من آل فرعون ﴿ فقذفناها ﴾ قال : فألقيناها ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ قال : كذلك صنع ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ قال : حفيف الريح فيه . فهو خواره ، والعجل ولد البقرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ بملكنا ﴾ قال : بأمرنا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ قال : بطاقتنا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ بملكنا ﴾ قال: بسلطاننا.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر، عن يحيى أنه قرأ ﴿ بملكنا ﴾ وملكنا. واحد.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله: ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ قال: نسي موسى أن يذكر لكم: إن هذا إلهه!

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فنسي ﴾ قال هم يقولونه، قومه: أخطأ الرب العجل ﴿ أفلا يرون ألَّا يرجع إليهم قولاً ﴾ قال: العجل ﴿ ولا يملك لهم ضراً ﴾ قال: ضلالة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله: ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن ﴾ قال: تدعهم.

وأخرج ابن المنذر، عن ابن جريج في الآية قال: أمره موسى أن يصلح، ولا يتبع سبيل المفسدين، فكان من إصلاحه أن ينكر العجل. فذلك قوله: ﴿ أن لا تتبعن أفعصيت أمري ﴾ كذلك أيضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴾ قال: خشيت أن يتبعني بعضهم ويتخلف بعضهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴾ قال : قد كره الصالحون الفرقة قبلكم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ قال : لم تنتظر قولي وما أنا صانع وقائل . قال : وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لم ترقب قولي ﴾ لم تحفظ قولي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ قال فما خطبك يا سامري ﴾ قال : لم يكن اسمه ، ولكنه كان من قرية اسمها سامرة ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ يعني فرس جبريل .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم ، أنه قرأ ﴿ بما لم يبصروا به ﴾ بالياء ورفع الصاد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ قال : من تحت حافر فرس جبريل ﴿ فنبذتها ﴾ قال : نبذ السامري على حلية بني إسرائيل فانقلبت عجلاً .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ قال : قبض السامري قبضة من أثر الفرس فصره في ثوبه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحسن أنه كان يقرؤها " فقبصت " بالصاد . قال : والقبص بأطراف الأصابع .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الأشهب قال: كان الحسن يقرؤها "فقبصت قبصة" بالصاد، يعني بأطراف أصابعه، وكان أبو رجاء يقرؤها "فقبصت قبصة" بالصاد، هكذا بجميع كفيه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القبضة ملء الكف، والقبصة بأطراف الأصابع.

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم، أنه قرأ ﴿ فقبضت قبضة ﴾ بالضاد على معنى القبض.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ قال: عقوبة له ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ قال: لن تغيب عنه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ قال: أقمت ﴿ لنحرقنه ﴾ قال: بالنار ﴿ ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ قال: لنذرينه في البحر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أنه كان يقرأ ﴿ لنحرقنه ﴾ خفيفة. يقول: إن

الذهب والفضة لا يحرقان بالنار ، يسحل بالمبرد ثم يلقى على النار فيصير رماداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : في بعض القراءة " لنذبحنه ثم لنحرقنه " خفيفة . قال قتادة : وكان له لحم ودم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نهيك الأزدي ، أنه قرأ ﴿ لنحرقنه ﴾ بنصب النون وخفض الراء وخففها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اليم ، البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : اليم ، النهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(251/501)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) ﴾

و" إذْ " منصوبٌ ب " مَنَعَك " أي : أيُّ شيءٍ مَنَعَك وقت ضلالِهم ؟

أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)

و"لا" فيها قولان . أحدُهما : أنها مزيدةٌ . أي ما منعك مِنْ أَنْ تَتَّبِعَني . والثاني : أنها دَخَلَتْ حَمْلاً على المعنى ، إذ المعنى : ما حملك على أن لا تتبعَني ، وما دعاك إلى أَنْ تَتَّبِعَني ؟ ذكره علي بن عيسى . وقد تقدَّم تحقيقُ هذين القولين بحمدِ الله في أول الأعراف .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) ﴾

وتَقَدَّم الكلامُ والقراءةُ في "يا بن أُمَّ" .

والجمهورُ على كسرِ اللامِ من اللِّحْيَةِ وهي الفصحى . وفيها الفتح . وبه قرأ عيسى بن سليمان الحجازي . والفتحُ لغةُ الحجاز . ويجمع على لِحَى كقِرَب . ونُقِل فيها الضمُّ ، كما قالوا : صِوَر بالكسر ، وحقُّها الضمُّ . والباء في "بِلِحْيَتي" ليست زائدةً : إمَّا لأنَّ المعنى : لا يكنْ منك أَخْذٌ ، وإمَّا لأنَّ المفعولَ محذوفٌ أي : لا تأْخُذْني . ومَنْ زعم زيادتَها كهي في ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] فقد تعَسَّف .

قوله : ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ هذه الجملةُ محلُّها النصبُ نَسَقاً [على] ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أي : أن تقولَ : فرَّقْتَ بينهم ، وأَنْ تقولَ : لم تَرْقُبْ قولي أي : لم . . . .

وقرأ أبو جعفر "تُرْقِبْ" بضمِّ حرفِ المضارعةِ مِنْ أَرْقَبَ .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) ﴾

قوله : ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ﴾ مبتدأٌ وخبر . والخَطْبُ تقدَّم الكلامُ عليه في يوسف . وقال ابن عطية هنا : / "إنه يقتضي انتهاراً كأنه قال : ما نَحْسُك وما شؤمك" ؟ وردَّ عليه الشيخ بقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ [الحجر : 57] .

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾

قوله : ﴿ بَصُرْتُ ﴾ : يقال : بَصُرَ بالشيءِ أي عَلِمه ، وأبصرَه . أي : نظر إليه . كذا قاله الزجاج . وقال غيره : "بَصْرَ به وأبصره بمعنى علم" .

والعامَّةُ على ضم الصاد في الماضي ومضارعِه . وقرأ الأعمش وأبو السَّمَّال "بَصِرْتُ" بالكسر ، يَبْصَروا بالفتح وهي لغة . وعمرُو بن عبيد بالبناء للمفعول في الفعلين أي : أُعْلِمْتُ بما لم يُعْلَموا به .

وقرأ الأخَوان "تَبْصُروا" خطاباً لموسى وقومه أو تعظيماً له كقوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ [الطلاق : 1] و[قوله] :

3314 . . . . حَرَّمْتُ النساءَ سواكُمُ . . . .

. . . .

والباقون بالغَيْبة عن قومه .

والعامَّةُ على فتحِ القافِ من " قَبْضَة " وهي المرَّةُ من قَبَضَ . قال الزمخشري : " وأمَّا القَبْضَةُ فالمَرَّةُ من القَبْض ، وإطلاقُها على المقبوضِ مِنْ تسمية المفعول بالمصدر " قلت : والنحاة يقولون : إن المصدرَ الواقعَ كذلك لا يُؤَنَّثُ بالتاء تقول : هذه حُلَّةٌ نَسْجُ اليمن " ولا تقول : نَسْجَةُ اليمن . ويعترضون بهذه الآية ، ثم يُجيبون بأنَّ الممنوعَ إنما هو التاءُ الدالةُ على التحديدِ لا على مجرد التأنيث . وهذه التاءُ دالَّةٌ على مجردِ التأنيث ، وكذلك قوله : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ [الزمر : 67] .

(253/501)

وقرأ الحسن " قُبْضَة " بضم القاف وهي كالغُرْفَة والمُضْغة في معنى المَغْروف والمقبوض .

ورُوي عنه " قُبْصَة " بالصاد المهملة . والقَبْضُ بالمعجمة بجميع الكفِّ ، وبالمهملة بأطرافِ الأصابع . وله نظائر كالخَضْمِ وهو الأكل بجميع الفمِ ، والقَضْمِ بمقدَّمه . والقَصْمُ : قطعٌ بانفصالٍ ، والفَصْمُ بالفاء باتصالٍ . وقد تقدم شيءٌ من ذلك في البقرة .

وأدغم ابن محيصن الضادَ المعجمة في تاءِ المتكلم مع إبقائه الإطباقَ ، كما تقدَّم [في] " بَسَطْتَ " . وأدغم الأخوان وأبو عمروٍ الذال في التاء مِنْ " فَنَبَذْتُها " .

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

قوله: ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ : قرأ العامَّةُ بكسرِ الميمِ وفتحِ السين. وهو مصدرٌ لِ فاعَل كالقِتال مِنْ قاتَل، فهو يقتضي المشاركةَ. وفي التفسير: لا تَمَسُّني ولا أَمَسُّك، وإنَّ مَنْ مَسَّه أصابَتْه الحمى.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعنب بفتح الميم وكسر السين. قلت: هكذا عَبَّر الشيخُ وتَبع فيه أبا البقاء. ومتى أَخَذْنا بظاهِر هذه العبارة لَزِم أن يُقرأ "مَسِيس" بقلب الألفِ ياءً لانكسارِ ما قبلها ولكن لم يُرْوَ ذلك، فينبغي أَنْ يكونوا أرادوا بالكسرِ الإِمالةَ. ويَدُلُّ على ما قُلْتُه ما قاله الزمخشريُّ: "وقُرِىء لا مَساسِ بوزن فَجارِ. ونحوُه قولهم في الظباء: "إن وَرَدَتِ الماءَ فلا عَبابِ وإن فَقَدَتْه فلا أَبابِ" وهي أعلامٌ للمَسَّة والعَبَّة والأَبَّة وهي المرّة من الأَبّ وهو الطَلَبُ". فهذا تصريحٌ منه ببقاء الألفِ على حالِها.

(254/501)

ويدلُّ أيضاً قولُ صاحب "اللوامح": "هو على صورة نَزالِ ونَظارِ من أسماء الأفعال بمعنى انْزِلْ وانْظُرْ" فهذا أيضاً تصريحٌ بإقرار الألِف على حالها. ثم قال صاحب "اللوامح": "فهذه الأسماء التي بهذه الصيغةِ معارفُ، ولا تدخُلُ عليها "لا" النافيةُ التي تَنْصِبُ

النكراتِ، نحو "لا مالَ لك" لكنه فيه نَفْيُ الفعلِ فتقديرُه: لا يكون منك مساسٌ، ومعناه النهيُ أي: لا تَمَسَّني".

وقال ابنُ عطية: "لا مَساسِ هو معدولٌ عن المصدر كفَجارِ ونحوه. وشبَّهه أبو عبيدة وغيرُه بنَزالِ ودَراكِ ونحوه، والشَّبَهُ صحيحٌ من حيث هُنَّ معدولاتٌ. وفارقه في أنَّ هذه عُدِلَتْ عن الأمر، ومَساس وفَجار عُدلت عن المصدر. ومِن هذا قولُ الشاعر:

3315 تميمٌ كرَهْطِ السَّامِريِّ وقَوْلِه ... ألا لا يريدُ السَّامِرِيُّ مَساسِ

فكلامُ الزمخشريِّ وابنِ عطيةَ يعطي أنَّ "مَساس" على هذه القراءةِ معدولٌ عن المصدرِ كفجَارِ عن الفَجَرة، وكلامُ صاحبِ اللوامحِ يقتضي أنها معدولةٌ عن فعل أمرٍ، إلا أنْ يكونَ مرادُه أنها مَعْدُوْلَةٌ، كما أنَّ اسمَ الفعلِ معدولٌ، كما تَقَدَّم توجيهُ ابنِ عطيةَ لكلام أبي عبيدة.

قوله: ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمروٍ بكسرِ اللامِ على البناء للفاعل. والباقون بفتحِها على البناءِ للمفعولِ. وقرأ أبو نهيك فيما حكاه عنه ابن خالويه بفتح التاء من فوقُ، وضمِّ اللام، وحكى عنه صاحب "اللوامح" كذلك، إلاَّ أن بالياء مِنْ تحتُ. وابنُ مسعودٍ والحسن بضمِّ نونِ العظمة وكسرِ اللام.

فأمَّا القراءةُ الأولى فمعناها: لن تجدَه مُخْلَفاً كقولك: أَحْمَدْتُه وأَجْبَنْتُه/ أي: وَجَدْتُه

مَحْمُوداً وجَباناً . وقيل : المعنى : سيصلُ إليك ، ولن تستطيعَ الرَّوَغانَ ولا الحَيْدَةَ عنه .

قال الزمخشري : " وهذا مِنْ أَخْلَفْتُ الوعدَ إذا وجدته مُخْلَفاً . قال الأعشى :

(255/501)

3316 أثوى وقَصَّر لَيْلَةً لِيُزَوَّدا . . . فمضى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا

ومعنى الثانيةِ : لن يُخْلِفَ اللهُ موعدَه الذي وَعَدك . وأمَّا قراءتا أبي نهيك فهما مِنْ خَلَفَه يَخْلُفُه إذا جاء بعدَه أي : الموعدَ الذي لك لا يَدْفع قولَك الذي تقولُه . وهي قراءةٌ مُشْكَلةٌ . قال أبو حاتم : " لا نعرف لقراءةِ أبي نهيك مذهباً " وأمَّا قراءةُ ابنِ مسعود فأسند الفعلَ فيها إلى الله تعالى . والمفعولُ الأول محذوفٌ أي : لن يُخِلفَكه .

قوله : { ظَلْتَ } العامَّة على فتح الظاء ، وبعدها لامٌ ساكنة . وابنُ مسعودٍ وقتادةُ والأعمشُ بخلافٍ عنه وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويحيى بن يعمر [على] كسرِ الظاء . ورُوي عن ابن يعمر ضمُّها أيضاً . وأُبَيٌّ والأعمش في الرواية الأخرى " ظَلِلْتَ " بلامَيْنِ أولاهما مكسورةٌ " .

فأمَّا قراءةُ العامَّة ففيها : حَذْفُ أحدِ المِثْلين ، وإبقاءُ الظاءِ على حالِها مِنْ حركتها ، وإنما حُذف تخفيفاً . وعدَّه سيبويه في الشاذ . يعني شذوذَ قياسٍ لا شذوذَ استعمالٍ ، وعَدَّ

معه ألفاظاً أُخَرَ نحو : مَسْتُ وأَحَسْتُ كقوله :

3317 . . . . أَحَسْنَ به

فهنَّ إليه شُوْسُ

وعَدَّ ابنُ الأنباري " هَمْتُ " في " هَمَمْتُ " ولا يكونُ هذا الحذفُ إلاَّ إذا سُكِّنَتْ لامُ الفعلِ . وذكر بعضُ المتأخرين أن هذا الحذفَ منقاسٌ في كلِّ مضاعفِ العينِ واللامِ سَكَنَتْ لامُه ، وذلك في لغة سُلَيْم .

(256/501)

والذي أقولُه : إنه متى التقى التضعيفُ المذكورُ والكسرُ نحو : ظَلْتُ ومَسِسْتُ انقاس الحذفِ . وهل يَجْري الضمُّ مجرى الكسرِ في ذلك؟ فالظاهرُ أنه يجري . بل بطريق الأَوْلى؛ لأن الضمَّ أثقلُ من الكسر نحو : غُضْنَ يا نسوةُ أي : أَغْضُضْنَ أبصارَكُنَّ ، ذكره جمال الدين ابن مالك . وأمَّا الفتحُ فالحذفُ فيه ضعيفٌ نحو : " قَرْنَ يا نسوةُ في المنزل " ومنه في أحدِ توجيهَيْ قراءةِ { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ } [الأحزاب : 33] كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى . وأمَّا الكسرُ فوجهُه أنه نَقَل كسرةَ اللامِ إلى الفاءِ بعد سَلْبِها حركتَها لتدُلَّ عليها . وأمَّا الضمُّ فيحتمل أن يكونَ جاء فيه لغةٌ على فَعَل يفعُل بفتحِ العينِ في الماضي وضمِّها في المضارع ، ثم

نُقِلَتْ، كما تقدّم ذلك في الكسر . وأمّا ظَلِلْت بلامين فهذه هي الأصلُ، وهي مَنْبَهَةٌ على غيرِها . و "عاكفاً" خبرُ "ظلّ" .

قوله : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي : واللهِ لَنُحَرِّقَنَّهُ . والعامَّة على ضمّ النونِ وكسرِ الراءِ مشددةً مِنْ حَرَّقَه يُحرِّقُه بالشديد . وفيها تأويلان . أظهرُهما : أنها مِنْ حَرَّقه بالنار . والثاني : أنه مِنْ حَرَقَ نابُ البعير، إذا وقع عَضٌّ ببعضِ أنيابِه على بعضٍ . والصوتُ المسموعُ منه يُقال له الصَّرِيفُ . والمعنى : لَنَبْرُدَنَّه بالمِبْرد بَرْداً نَمْحقُه به كما يفعل البعيرُ بأنيابِه بعضها على بعض .

وقرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر "لَنُحْرِقَنَّه" بضم النون وسكونِ الحاءِ وكسرِ الراء، مِنْ أحرق رباعياً . وقرأ ابن عباس وحميد وعيسى وأبو جعفر "لَنَحْرُقَنَّه" كذلك إلاَّ أنه ضمَّ الراء . فيجوز أن يكونَ أَحْرق وحرّق بمعنى كأَنزل ونزّل . وأمّا القراءةُ الأخيرة فبمعنى لَنَبْرُدَنَّه بالمبرد .

قوله : ﴿ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ العامَّةُ على فتح النون الأولى وسكونِ الثانية وكسرِ السين خفيفةً . وقرأ عيسى بضم السين . وقرأ ابن مقسم بضمّ النونِ الأولى وفتح الثانية وكسر السينِ

مشددةً . والنَّسْفُ : التفرقةُ والتَّذْرِيَةُ وقيل : قَلْعُ الشيء مِنْ أصله يقال : نَسَفَه يَنْسِفُه بكسر السين وضمها في المضارع ، وعليه القراءتان . والتشديد للتكثير . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 92.100 ﴾

(258/501)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) ﴾

كان ذلك تَعَلُّلاً منهم بالباطل ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عبادة العجل ؟ إذ به يتحققون أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ غيرِ اللَّهِ . . . ولكنْ كُلُّ مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُ إلى ما يحتج به من الباطل .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) ﴾

ضاق قلبُ موسى - عليه السلام - لَمَّا شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل . ولقد كان سمع من الله أَنَّ السامريّ أظلَّهم حين قال : ﴿ إنَّا قد فتنا قومك ﴾ [طه : 85] ، ولكن قديماً قيل : ليس الخبر كالعيان ، فلمّا عايَنَ ذلك ضاق قلبهُ ، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر

منه ما ظهر ، وقيل : مَنْ ضاق قلبُه اتسع لسانُه . ولما ظهر لموسى - عليه السلام - ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المدارة . . وكذلك الواجب في الصحبة لئلا يرتقي الأمرُ إلى الوحشة ، فاستلطفه في الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾

(259/501)

أنت أمَرْتَني ألاَّ أُفارِقَهم . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى : في الوقتِ الذي احتَجْتَ أنْ تَمْضِيَ إلى فرعون قلتَ : ﴿ وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّى لِسَانًا ﴾ [القصص : 34] ، وقلت : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِى ﴾ [القصص : 34] ، وقلت حين مضيتَ إلى سماع كلام الحق : ﴿ أَخْلُفْنِى فِى قَوْمِى . . . ﴾ [الأعراف : 142] فما اكتفيت بأنْ لم تستصحبني . وخَلَّفْتَني ! وقد علِمْتَ أني بريءُ الساحةِ مما فعلوا فأخذتَ بلحيتي وبرأسي . . . ألم ترضَ بما أنا فيه حتى تزيدني حَرْبًا على حَرْبي ؟ ! . . . . لو قال ذلك لكان مَوْضِعَه ، ولكنْ لِحلْمِه ، ولِعلْمِه - بأنَّ ذلك كلَّه حُكْمُ ربِّهم - فقد قابَل كلَّ شيءٍ بالرضا .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) ﴾

سأل موسى كلَّ واحدٍ منهم بنوعٍ آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ، وتغيُّرَه في

نَفْسِه ، واستيلاءَ الغضب عليه – لم يغيِّرْ التقدير ، ولم يُؤَخِّرْ المحكوم .

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾

عَلِمْتُ ما لم يعلمه بنو إسرائيل فرأيتُ جبريلَ ، فَقَبَضْتُ التراب من موضع حافرِ دابته ، وأُلْقِي في رَوْعي أن ذلك سببُ حياةِ العجل فطرحتُها في جوفه . . . هكذا زَيَّنَتْ لي نفسي فاتَّبَعْتُ هواها .

ثم كان هلاكُه . . . لئلا يأْمَنَ أحدٌ خفي مَكْرِ التقدير ، ولا يركنَ إلى ما في الصورة من رِفْقٍ فَلَعَلَّه – في الحقيقة – يكون مكراً ، ولقد أنشدوا :

فأَمِنْتُه فأَتاحَ لي من مَأْمَنِي . . . مَكْرًا ، كذا مَنْ يأْمَنُ الأحبابا

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ .

(260/501)

لم يَخْفَ على موسى – عليه السلام – تأثيرُ التقدير وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال في خطابه مع الحق : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] ، ولكنه لم يدع – مع ذلك – بإحلال العقوبة بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه ؛ لِيُعْلَمَ أن الحُكمَ في الإبداع والإيجاد

– وإنْ كان لله – فالمعاتبةُ والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ في مقتضى التكليف ، وإجراءُ الحقِ ّما يُجْرِيه ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْراً له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِ نَسْفاً ﴾ .

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُه الحقُّ – سبحانه بِمُجِبّه ولهذا يُلْقِي الأصنامَ غداً في النار مع الكفار ، وليس له جُرْمٌ ، ولا عليهم تكليف ، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر . . . وإنما هي جماداتٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 473. 475 ﴾

(261/501)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾

أريناه الآيات الكونية التي وجهه إليها موسى عليه السلام فيما حوله ، وآيتي العصا واليد يحملهما هنا لأنهما بعض آيات الله ، وما في الكون منها أكبر وأبقى . لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون ، فهذا مفهوم ضمناً ، إنما يفصل رده على الآيات كلها فنفهم أنه يشير إليهما . .

قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت ، مكاناً سوى . قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . .

وهكذا لم يمض فرعون في الجدل ، لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة وسلطانه فيه قوي ، وهو يستمد حجته من آيات الله في الكون ، ومن آياته الخاصة معه . . إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذي يجعل العصا حية تسعى ، ويحيل اليد بيضاء من غير سوء .

وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر ؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر . . وهو تخييل لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس ، قد يصل إلى خداع الإحساس ، فينشئ فيه آثاراً محسوسة كآثار الحقيقة . كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها ، أو في صورة غير صورتها . وما يشاهد من تأثر المسحور أحياناً تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة . .

وليس من هذا النوع آيتا موسى . إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقاً . تحويلاً وقتياً أو دائماً .

﴿ قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ ﴾ .

ويظهر أن استبعاد بني إسرائيل كان إجراء سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم . وفي سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخلق والشرف والضمير . ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلهم بقتل المواليد الذكور . واستبقاء الإناث ؛ وتسخير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال . . فلما قال له موسى وهارون : أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم . قال : ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ ﴾ لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض .

وإذا كان موسى يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغرض ، وكل ما يقدمه هو عمل من أعمال السحر ، فما أسهل الرد عليه : ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ . . وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفاً من أهداف هذه الأرض ؛ وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم .

. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق . فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهرياً . . سحر نأتي بسحر مثله ! كلام نأتي بكلام من نوعه ! صلاح نتظاهر بالصلاح ! عمل طيب نرائي بعمل طيب ! ولا يدركون أن للعقائد رصيداً من الإيمان ، ورصيداً من عون الله ؛

فهي تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال !

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة . . وترك له اختيار ذلك الموعد : للتحدي : ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعدا ﴾ وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي ﴿ لا نخلفه نحن ولا أنت ﴾ . وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف : ﴿ مكاناً سوى ﴾ مبالغة في التحدي !

(263/501)

وقبل موسى عليه السلام تحدي فرعون له ؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم ، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة ؛ ﴿ قال : موعدكم يوم الزينة ﴾ . وطلب أن يجمع الناس ضحى ، ليكون المكان مكشوفاً والوقت ضاحياً . فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً في يوم العيد . لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت . ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر ، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية . . ! !

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان في الميدان . .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة :

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ . .

ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه . . يجمله في جملة : فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متوالية : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى عليه السلام قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدي بالسحر والسحر افتراء :

﴿ قال لهم موسى : ويلكم ! لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾ .

والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها . ويبدو أن هذا الذي كان ؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج في الأمر ؛ وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همساً خيفة أن يسمعهم موسى :

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾ . .

وجعل بعضهم يحمس بعضاً ، وراحوا يهيجون في المترددين الخوف من موسى وهارون ،

اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ؛ مما يوجب مواجهتهما يداً واحدة بلا تردد ولا نزاع .

(264/501)

واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذي يغلب فيها الفالح الناجح :

﴿ قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً . وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ . .

وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم ، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة . وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع . وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله . . ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى . .

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون . فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ؛ ويجمع كيده ثم يأتي ؛ ويحشر السحرة ويجمع الناس ؛ ويجلس هو والملأ من

قومه ليشهدوا المباراة؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى..

وهي كذلك التي جعلت جملة واحدة توقع الارتباك في صفوف السحرة المدربين، فتحوجهم إلى التناجي سراً؛ وإلى تجسيم الخطر، واستثارة الهمم، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات.

ثم أقدموا:

﴿ قالوا: يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴾..

وهي دعوة الميدان إلى النزال. يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدي.

﴿ قال: بل ألقوا ﴾..

فقبل التحدي، وترك لهم فرصة البدء، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة.. ولكن ماذا؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى:

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾،

والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى:

﴿ قلنا : لا تخف . إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ . .

لا تخف إنك أنت الأعلى . فمعك الحق ومعهم الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرفة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً .

لا تخف ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ بهذا التنكير للتضخيم ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ . فهو سحر من تدبير ساحر وعمله . والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار ، لأنه يتبع تخييلاً ويصنع تخييلاً ؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق .

وقد يبدو باطله ضخماً فخماً ، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر ؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية ، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى . . ووقعت المفاجأة الكبرى . والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في

نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها ، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً . والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى .

ويخيل إليه وهو الرسول أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم ، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به :

﴿ فألقي السحرة سجداً . قالوا : آمنا برب هارون وموسى ﴾ . .

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله . وتصادف " الزر " الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام . إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان .

(266/501)

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف ؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب ؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها

سلطان :

﴿ قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ .

﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ . . قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون وقد لمس الإيمان قلوبهم أن يدفعوه عنها ، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ . . فذلك سر الاستسلام في نظره ، لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون . ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال .

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة ؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح : ﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ .

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش في الغابة . القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب : ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ !

ولكنه كان قد فات الأوان . كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها

الهائل . فإذا هي قوية قويمة . وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة . وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة . وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل .

ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه :

﴿ قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ﴾ .

(267/501)

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنماً يتسابق إليه المتسابقون . فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه :

﴿ قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا . . ﴾ فهي علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى . ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض .

﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ . فسلطانك مقيد بها ، وما لك من سلطان علينا في

غيرها . وما أقصر الحياة الدنيا ، وما أهون الحياة الدنيا . وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً . ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصياناً ؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا ﴿ والله خير وأبقى ﴾ خير قسمة وجواراً ، وأبقى مغنماً وجزاء . إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى . .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي :

﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ .

فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى . فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرماً هي أشد عذاباً وأدوم ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حي فيتمتع . إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة . . وفي الجانب الآخر الدرجات العلى . . جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ وتطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الإيمان القوية . وباستعلاء الإيمان الواثق . وبتحذير الإيمان الناصع . وبرجاء الإيمان العميق .

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع ، في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشري ان يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان .

وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة من القصة جديدة .

إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة . فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف ؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد .

فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود . والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول . فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن . . إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية . فأما إذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم في القلب ، والحق

شعاراً لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان... وهذا هو الذي كان في موقف موسى عليه السلام من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه. ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة:

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي، فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، لا تخاف دركاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم، وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾..

ولا يذكر السياق هنا ما كان بعد مواجهة الإيمان للطغيان في موقف السحرة مع فرعون. ولا كيف تصرف معهم بعدما اعتصموا بإيمانهم مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه، المستهين بحياة الأرض وما فيها ومن فيها. إنما يعقب بهذا المشهد. مشهد الانتصار الكامل ليتصل النصر القلبي بالنصر الواقعي. وتتجلى رعاية الله لعباده المؤمنين

كاملة حاسمة . . ولنفس الغرض لا يطيل هنا في مشهد الخروج والوقوف أمام البحر كما يطيل في سور أخرى بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة . لأن مقدماته كانت في الضمائر والقلوب .

وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله بني إسرائيل ليلاً . فضرب لهم طريقاً في البحر يبساً بدون تفصيل ولا تطويل فنعرضه نحن كذلك كما جاء مطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه ! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه !

﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ . .

هكذا يجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه ، ولا يفصله ، ليبقى وقعه في النفس شاملاً مهولاً ؛ لا يحدده التفصيل ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر .

وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار . .

ولا نتعرض نحن لتفصيلات ما حدث في هذا الموضع ، كي نتابع السياق في حكمة الإجمال .

إنما نقف أمام العبرة التي يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه في القلوب . .

لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسرى ليلاً. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع.. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها. فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلاً. هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة. ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها. بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده.. يقول الطغيان: ﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ فيقول الإيمان: ﴿ فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾.. عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان.

وعبرة أخرى..

إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة

وخوفاً . فأما حين استعلن الإيمان ، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ، ودون اتقاء للتعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة . وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب . .

هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال ، وبتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات . ليستيقنها أصحاب الدعوات ، ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض . والطغاة يملكون المال والجند والسلاح .

(271/501)

وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كي لا ينسوا ولا يبطروا ؛ ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذي كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح :

﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ؛ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى

..

لقد جازوا منطقة الخطر ، وانطلقوا ناجين ناحية الطور . وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى : وإنجاؤهم من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير . ولكنه إعلان التسجيل . والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها .

ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر وقع ؛ وكانت مواعدة لموسى عليه السلام بعد خروجهم من مصر ، أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربه ، ليسمع ما يوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة ، المنظمة لهذا الشعب الذي كتب له دوراً يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر .

وتنزيل المن . وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر . والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء ، قريب المتناول سهل النزول ، كان نعمة من الله ومظهراً لعنايته بهم في الصحراء الجرداء . وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد .

وهو يذكرهم بهذه النعم ليأكلوا من الطيبات التي يسرها لهم ويحذرهم من الطغيان فيها . بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذي هم خارجون له ،

والتكليف الذي يعدهم ربهم لتلقيه. ويسميه طغياناً وهم قريبو العهد بالطغيان، ذاقوا منه ما ذاقوا، ورأوا من نهايته ما رأوا. ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾.. ولقد هوى فرعون منذ قليل. هوى عن عرشه وهوى في الماء.. والهويّ إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالي ينسق هذه المقابلات في اللفظ والظل على طريقة التناسق القرآنية الملحوظة.

هذا هو التحذير والإنذار للقوم المقدمين على المهمة التي من أجلها خرجوا؛ كي لا تبطرهم النعمة، ولا يترفوا فيها فيسترخوا.. وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطئ ويرجع:

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾..

والتوبة ليست كلمة تقال، إنما هي عزيمة في القلب، يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح. ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع. فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان، وصدقة العمل فهنا يأخذ الإنسان في الطريق، على هدى من الإيمان، وعلى ضمانة من العمل الصالح. فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل..

وإلى هنا ينتهي مشهد النصر والتعقيب عليه. فيسدل حتى يرفع على مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن..

لقد واعد الله موسى عليه السلام على الجبل ميعاداً ضربه له ليلقاه بعد أربعين يوماً؛ لتلقي

التكاليف : تكاليف النصر بعد الهزيمة . وللنصر تكاليفه ، وللعقيدة تكاليفها ، ولا بد من تهيؤ نفسي واستعداد للتلقي .

وصعد موسى إلى الجبل ، وترك قومه في أسفله ، وترك عليهم هارون نائباً عنه . .

(273/501)

لقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل ، فهو إليها مشتاق عجول . ووقف في حضرة مولاه . وهو لا يعلم ما وراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده ؛ حين تركهم في أسفل الجبل .

وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه . . فلنشهد المشهد ولنسمع الحوار :

﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثري ، وعجلت إليك رب لترضى .

قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ .

وهكذا فوجئ موسى . . إنه عجلان إلى ربه ، بعدما تهيأ واستعد أربعين يوماً ، ليلقاه ويتلقى منه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة . وقد استخلصهم من الذل والاستعباد ، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة ، وذات تكاليف .

ولكن الاستعباد الطويل والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها ، والوفاء بالعهد والثبات عليه ؛ وترك في كيانهم النفسي خلخلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختيار . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسي . وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري : ﴿ قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامري ﴾ ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء ، حتى لقي ربه ، وتلقى الألواح وفي نسختها هدى ، وبها الدستور التشريعي لبناء بني إسرائيل بناء يصلح للمهمة التي هم منتدبون لها .

(274/501)

وينهي السياق موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه ، ليصور انفعال موسى عليه السلام مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعته بالعودة ، وفي نفسه حزن وغضب ، على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية ؛ ومن عليهم بالرزق الميسر والرعاية الرحيمة في الصحراء ؛ وذكرهم منذ قليل بآلائه ، وحذرهم الضلال وعواقبه . ثم

ها هم أولاء يتبعون أول ناعق إلى الوثنية ، وإلى عبادة العجل !

ولم يذكر هنا ما أخبر الله به موسى من تفصيلات الفتنة ، استعجالاً في عرض موقف العودة إلى قومه . ولكن السياق يشي بهذه التفصيلات . فلقد عاد موسى غضبان أسفاً يوبخ قومه ويؤنب أخاه . فلا بد أن كان يعلم شناعة الفعلة التي أقدموا عليها :

﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً . قال : يا قوم : ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ؛ قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها ، فكذلك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟ ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ! ﴾ .

هذه هي الفتنة يكشف السياق عنها في مواجهة موسى بقومه ؛ وقد أخر كشفها عن موقف المناجاة ، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر في مشهد التحقيق الذي يقوم به موسى . .

لقد رجع موسى ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار يقولون : هذا إلهكم وإله موسى . وقد نسي موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربه هنا حاضر !

فراح موسى يسألهم في حزن وغضب : ﴿ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟ ﴾ وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد ؛ ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت . ويؤنبهم في استنكار : ﴿ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ ﴾ فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله كأنما يتعمد ذلك تعمداً ، ويقصد إليه قصداً ! . . أفطال عليكم العهد ؟ أم تعمدتم حلول الغضب ﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ وقد تواعدنا على أن تبقوا على عهدي حتى أعود إليكم ، لا تغيرون في عقيدتكم ولا منهجكم بغير أمري ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب ، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل ، والتخلخل النفسي والسخف العقلي : ﴿ قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا ! ﴿ ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها ﴾ . . وقد حملوا معهم أكداساً من حلي المصريات كانت عارية عند نسائهم فحملنها معهن . فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون : لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام . فأخذهم السامري فصاغ منها عجلاً . والسامري رجل من "سامراء" كان يرافقهم أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب . وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه فما كادوا

يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل ، وعكفوا على عجل الذهب ؛ وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ راح يبحث عنه على الجبل ، وهو هنا معنا . وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه ! وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه ، وبتوجيهه وإرشاده . اتهامهم له بأنه غير موصول بربه ، حتى ليضل الطريق إليه ، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه !

(276/501)

ذلك فضلاً على وضوح الخدعة : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟ ﴾ والمقصود أنه حتى لم يكن عجلاً حياً يسمع قولهم ويستجيب له على عادة العجول البقرية ! فهو درجة أقل من درجة الحيوانية . وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في أبسط صورة . فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية !

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون ، وهو نبيهم كذلك ، والنائب عن نبيهم المنقذ . ونبههم إلى أن هذا ابتلاء . قال : ﴿ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ﴾ ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل .

. ولكنهم بدلاً من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته ،

وقالوا : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ . .

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ؛ فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل ، وأصاب تفكيرهم من فساد . فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب ، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة :

﴿ قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمري ؟ ﴾ .

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل ، دون أن يبطل عبادته ، اتباعاً لأمر موسى عليه السلام بألا يحدث أمراً بعده ، ولا يسمح بإحداث أمر . ويستنكر عليه عدم تنفيذه ، فهل كان ذلك عصياناً لأمره ؟

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون . فهو يطلع أخاه عليه ؛ محاولاً أن يهدئ من غضبه ، باستجاشة عاطفة الرحم في نفسه :

﴿ قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي . إني خشيت أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ .

وهكذا نجد هارون أهدأ أعصاباً وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس في مشاعره نقطة حساسة . ويجيء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛ وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون . وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمراً . فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى . .

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها . إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ، لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم . فأما السامري فذنبه يجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني . فالتبعة عليهم أولاً وعلى راعيهم بعد ذلك . ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً .

اتجه موسى إلى السامري !

﴿ قال : فما خطبك يا سامري ؟ ﴾ . . أي ما شأنك وما قصتك . وهذه الصيغة تشير إلى جسامة الأمر ، وعظم الفعلة .

﴿ قال : بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها . وكذلك سولت لي نفسي ﴾ . .

وتتكاثر الروايات حول قول السامريّ هذا . فما هو الذي بصر به ؟ ومن هو الرسول الذي قبض قبضة من أثره فنبذها ؟ وما علاقة هذا بعجل الذهب الذي صنعه ؟ وما أثر هذه القبضة فيه ؟

والذي يتردد كثيراً في هذه الروايات أنه رأى جبريل عليه السلام وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض ؛ فقبض قبضة من تحت حافر فرسه ، فألقاها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار . أو إنها هي التي أحالت كوم الذهب عجلا له خوار . .

(278/501)

والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث ، إنما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية . . ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامريّ وتملصا من تبعة ما حدث . وأنه هو صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت في فراغه فتحدث صوتا كالخوار .

ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول ! وعلى أية حال فقد أعلنه موسى – عليه السلام – بالطرد من جماعة بني إسرائيل . مدة حياته . ووكل أمره بعد ذلك إلى الله . وواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده . ليرى قومه

بالدليل المادي أنه ليس إلها، فهو لا يحمي صانعه، ولا يدفع عن نفسه:

«قال: فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ: لا مِسَاسَ. وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ. وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا» . .

اذهب مطرودا لا يمسك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحدا - وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى. عقوبة العزل، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحدا - أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند اللّه . . وفي حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب، فيحرق وينسف ويلقى في الماء. والعنف إحدى سمات موسى - عليه السلام - وهو هنا غضبة للّه ولدين اللّه، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة.

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف، يعلن موسى - عليه السلام - حقيقة العقيدة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 2339. 2349﴾

(279/501)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثاني بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثاني بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 98 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 110 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أراهم بطلان ما هم عليه بالعيان ، أخبرهم بالحق على وجه الحصر فقال : ﴿ إنما إلهكم ﴾ جميعاً ﴿ الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ؛ ثم كشف المراد من ذلك وحققه بقوله : ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ أي لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره لأنه ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أي أحاط علمه بكل شيء ، فكان على كل شيء ممكن قديراً ، فكان كل شيء إليه فقيراً ، وهو غني عن كل شيء ، وجوده يباين وجود غيره ، وذاته تباين ذات غيره ، وصفاته تباين صفات غيره ، وأما العجل الذي عبدوه فلو كان حياً كان مثلاً في الغباوة ، فلا يصلح للإلهية بوجه ولا في عبادته شيء من حق ، وكان القياس على ما يتبادر إلى الذهن حيث نفى عنه العلم بقوله ﴿ ألا يرجع إليهم قولاً ﴾ والقدرة بقوله ﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أن يثبتا هنا للاله الحق ، ولكنه اعتنى بإثبات العلم الواسع لاستلزامه للقدرة على كل ما يمكن أن يتعلق به ، بإفادة الأسباب لشيء المراد ، ومنع الموانع

عنه فيكون لا محالة ، ولو لم يكن كذلك لكان التخلف للجهل إما بما يفيد مقتضياً أو يمنع مانعاً ، وأدل دليل على ذلك قوله تعالى ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ [الأعراف : 188] ولا يستلزم إثبات القدرة المحيطة العلم الشامل لخروج قسم المحال الذي ليس من شأن القدرة أن تتعلق به .

(5/502)

ولما تمت هذه القصة على هذا الأسلوب الأعظم ، والسبيل الأقوم ، متكفلة بالدلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة أول السورة بتكثير هذه الأمة ورد العرب عن غيهم بعد طول التمادي في العناد ، والتنكب عن سبيل الرشاد ، إلى ما تخللها من التسلية بأحوال السلف الصالح والتأسية ، مفصلة من أدلة التوحيد والبعث ، وغير ذلك من الحكم ، بما يبعث الهمم ، على معالي الشيم ، كان كأنه قيل : هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرفيع ؟ فقيل : نعم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا القص العالي ، في هذا النظم العزيز الغالي ، لقصة موسى ومن ذكر معه ﴿ نقص عليك ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ؛ وأشار إلى جلالة علمه بقوله : ﴿ من أنباء ﴾ أي أخبار ﴿ ما قد سبق ﴾ من الأزمان والكوائن الجليلة ، زيادة في علمك ، وإجلالاً لمقدارك

، وتسلية لقلبك ، وإذهاباً لحزنك ، بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيراً لأتباعك وزيادة في معجزاتك ، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتأكد الحجة على من عابه :

﴿ وقد ءاتيناك ﴾ من عظمتنا تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك ﴿ من لدنا ﴾ أي من عندنا من الأمر الشريف بمزيد خصوصيته بنا ولطيف اتصاله بحضرتنا من غيب غيباً

﴿ ذكرا ﴾ عظيماً جليلاً جامعاً لما أظهرناه من أمرنا في التوراة ، وما ابطنّاه من سرنا في الإنجيل ، وما أودعناه من سكينتنا في الزبور ، مع ما خصصناه به من لطائف المزايا ، وعظائم الأسرار ، يعرف بمجرد تلاوته أنه من عندنا لما يُشهد له من الروح ، ويُذاق له من الإخبات والسكون ، ويرى له من الجلالة في الصدور مع القطع بأن أحداً لا يقدر أن يعارضه ، وضمناه تلك القصص مع ما زدنا فيه على ذلك من المواعظ والأحكام ودقائق اشارات الحقائق ، متكفلاً بسعادة الدارين وحسنى الحسنيين ، فمن أقبل عليه كان مذكراً له بكل ما يريد من العلوم النافعة .

(6/502)

ولما اشتمل هذا الذكر على جميع أبواب الخير ، فكان كل مل ليس له فيه أصل شقاور محضة وضلالاً بعيداً ، قال يقص عليه من أنباء ما يأتي كما قص من أنباء ما قد سبق :

﴿ من أعرض عنه ﴾ أي عن ذلك الذكر ، وهو عام في جميع من يمكن دخوله في معنى " من " من العالمين ﴿ فإنه يحمل ﴾ ولما كان المراد استغراق الوقت قال : ﴿ يوم القيامة وزراً ﴾ أي حملاً ثقيلاً من العذاب الذي سببه الوزر وهو الذنب ، جزاء لإعراضه عنه واشتغاله بغيره ﴿ خالدين فيه ﴾ وجمع هنا حملاً على المعنى بعد الإفراد للفظ ، تنبيهاً على العموم لئلا يغفل عنه بطول الفصل ، أو يظن أن الجماعة يمكنهم المدافعة ، ويمكن أن يراد بالوزر الحمل الثقيل من الإثم ، ويكون الضمير في " فيه " للعذاب المسبب عنه فيكون استخداماً كقوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضابا

ولما كانوا منكرين ليوم القيامة ، صرح بذكره ثانياً مع قرب العهد ، قارعاً لأسماعهم به ، مجرياً له إجراء ما هو به جدير من أنه متحقق لا مرية فيه فقال : ﴿ وساء ﴾ أي وبئس ؛ وبين أصحاب السوء فقال : ﴿ لهم ﴾ أي ذلك الحمل ﴿ يوم القيامة حملاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 43.45 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من إبطال ما ذهب إليه السامري عاد إلى بيان الدين الحق فقال : ﴿ إِنَّمَا إلهكم ﴾ أي المستحق للعبادة والتعظيم : ﴿ الله الذى لا إله إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْء عِلْماً ﴾ قال مقاتل : يعلم من يعبده ومن لا يعبده .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آَتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولاً ثم مع السامري ثانياً أتبعه بقوله : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ من سائر أخبار الأمم وأحوالهم تكثيراً لشأنك وزيادة في معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها في الدين : ﴿ وَقَدْ اتيناك مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ يعني القرآن كما قال تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أنزلناه ﴾ [الأنبياء : 50] ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ [الزخرف : 44] ﴿ والقرءان ذِي الذكر ﴾ [ص : 1] ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ ﴾ [الأنبياء : 2] ﴿ يا أيها الذي نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ [الحجر : 6] ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه : أحدها : أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .

وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ .

وثالثها : فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] ، واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكراً فقال : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ [النحل : 43] وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه : أولها : قوله : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ فإنه يحمل يوم القيامة وزراً والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذي يثقل على الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم وقرىء يحمل ، ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين : أحدهما : أنه يكون مخلداً مؤبداً .

والثاني : قوله : ﴿ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ أي وما أسوأ هذا الوزر حملاً أي محمولاً وحملاً منصوب على التمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 98. 99﴾

(9/502)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أحاط بكل شيء حتى لم يخرج شيء من علمه .

الثاني : وسع كل شيء علماً حتى لم يخل شيء عن علمه به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(10/502)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

هذه مخاطبة من موسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل مبيناً لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ بمعنى وسع علمه كل شيء . و﴿ علماً ﴾ تمييز ، وهذا كقوله تفقأت شحماً وتصببت عرقاً ، والمصدر في الأصل فاعل ولكن يسند الفعل إلى غيره وينصب هو على التمييز ، وقرأ مجاهد وقتادة " وسَّع كل شيء " بفتح السين وشدها بمعنى خلق الأشياء وكثرها بالاختراع فوسعها موجودات ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك نقص ﴾ مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل هذا في خبر العجل ﴿ كذلك نقص عليك ﴾ فكأنه قال هكذا نقص عليك فكأنها تعديد نعمته ، وقوله ﴾

ما قد سبق ﴾ يريد به ما قد سبق مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، و" الذكر " القرآن ،
وقرأت فرقة " يحمَّل " بفتح الميم وشدها . وقوله ﴿ من أعرض عنه ﴾ يريد بالكفر به
والتكذيب له ، و" الوزر " الثقل وهو هاهنا ثقل العذاب بدليل قوله تعالى : ﴿ خالدين فيه
﴾ و﴿ حملاً ﴾ تمييز . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(11/502)

وقال ابن الجوزى :

ثم أخبرهم موسى عن إِلههم ، فقال : ﴿ إِنما إِلهكم الله الذي لا إِله إِلا هو ﴾

أي : هو الذي يستحق العبادة ، لا العجل ، ﴿ وسع كل شيءٍ علماً ﴾ أي : وسع علمه كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نقص عليك ﴾

أي : كما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه ، نقص عليك ﴿ من أنباء ما قد سبق ﴾ أي : من أخبار من مضى ، والذِّكْر هاهنا : القرآن ﴿ من أعرض عنه ﴾ فلم يؤمن ، ولم يعمل بما فيه ﴿ فإنه يحمل يوم القيامة ﴾ وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : "يُحَمَّل" برفع الياء وفتح الحاء وتشديد الميم ، ﴿ وزراً ﴾ أي : إِثماً ﴾

خالدين فيه ﴾ أي : في عذاب ذلك الوزر ﴿ وساءَ لهم ﴾ قال الزجاج : المعنى : وساء الوزر لهم يوم القيامة ﴿ حِملاً ﴾ ، و"حملاً" منصوب على التمييز . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(12/502)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذي لا إله إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

لا العِجْل ؛ أي وسع كل شيء عِلْمه ؛ يفعل الفعل عن العلم ؛ ونصب على التفسير .

وقرأ مجاهد وقتادة "وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً" .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف .

أي كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قصصاً كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليدل على صدقك .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ يعني القرآن .

وسمى القرآن ذكراً ؛ لما فيه من الذكر كما سمى الرسول ذكراً ؛ لأن الذكر كان ينزل عليه .

وقيل : ﴿ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ أي شرفاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ [

الزخرف : 44] أي شرف وتنويه باسمك .

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أي القرآن فلم يؤمن به ، ولم يعمل بما فيه ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ أي إثماً عظيماً وحملاً ثقيلاً .

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ يريد مقيمين فيه ؛ أي في جزائه وجزاؤه جهنم .

﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة .

وقرأ داود بن رفيع "فإنَّهُ يُحَمَّل" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(13/502)

وقال أبو حيان :

ولما فرغ من إبطال ما عمله السامري عاد إلى بيان الدين الحق فقال ﴿ إنما إلهكم الله ﴾

وقرأ الجمهور ﴿ وسع ﴾ فانتصب علماً على التمييز المنقول من الفاعل ، وتقدم نظيره في الأنعام .

وقرأ مجاهد وقتادة وسَّع بفتح السين مشددة .

قال الزمخشري : وجهه أن ﴿ وسعْ ﴾ متعد إلى مفعول واحد وهو كل شيء .

وأما ﴿ عِلماً ﴾ فانتصابه على التمييز وهو في المعنى فاعل ، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى

مفعولين فنصبهما معاً على المفعولية ، لأن المميز فاعل في المعنى كما تقول : خاف زيد عمراً

خوّفت زيداً عمراً ، فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً .

وقال ابن عطية ﴿ وسع ﴾ بمعنى خلق الأشياء وكثرها بالاختراع فوسعها موجودات

انتهى .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾

نسف ينسف بكسر سين المضارع وضمها نسفاً فرّق وذرى .

وقال ابن الأعرابي : قلع من الأصل .

الزرقة : لون معروف ، يقال : زرقت عينه وازرّقت وازراقت ، القاع قال ابن الأعرابي :

الأرض الملساء لا نبات فيها ولا بناء .

وقال الجوهري : المستوي من الأرض .

ومنه قول ضرار بن الخطاب :

ليكونن بالبطاح قريش . . .

فقعة القاع في أكف الإماء

والجمع أقوع وأقواع وقيعان .

وحكى مكي أن القاع في اللغة المكان المنكشف .

وقال بعض أهل اللغة : القاع مستنقع الماء .

الصفصف : المستوى الأملس .

وقيل : الذي لا نبات فيه ، وهو مضاعف كالسبسب .

الأمت : التل .

والعوج : التعوج في الفجاج قاله ابن الأعرابي .

الهمس : الصوت الخفي قاله أبو عبيدة .

وقيل : وطء الأقدام .

قال الشاعر :

وهن يمشين بنا هميساً . . .

ويقال للأسد الهموس لخفاء وطئه ، ويقال همس الطعام مضغه .

عنا يعنو : ذل وخضع ، وأعناه غيره أذلة .

وقال أمية بن أبي الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن . . .

لعزته تعنو الوجوه وتسجد

الهضم : النقص تقول العرب : هضمت لك حقي أي حططت منه ، ومنه هضيم الكشحين أي ضامرهما وفي الصحاح : رجل هضيم ومتهضم مظلوم وتهضمه واهتضمه ظلمه .

وقال المتوكل الليثي :

إن الأذلة واللئام لمعشر . . .

مولاهم المتهضم المظلوم

﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ .

ذلك إشارة إلى نبأ موسى وبني إسرائيل وفرعون أي كقصنا هذا النبأ الغريب نقص عليك من أنباء الأمم السابقة ، وهذا فيه ذكر نعمة عظيمة وهي الإعلام بأخبار الأمم السالفة ليتسلى بذلك ويعلم أن ما صدر من الأمم لرسلهم وما قاست الرسل منهم ، والظاهر أن الذكر هنا القرآن امتن تعالى عليه بإيتائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار الدال ذلك على معجزات أوتيها .

وقال مقاتل : ﴿ ذكراً ﴾ بياناً .

وقال أبو سهل : شرفاً وذكراً في الناس .

﴿ من أعرض عنه ﴾ أي عن القرآن بكونه لم يؤمن به ولم يتبع ما فيه .

وقرأ الجمهور ﴿ يحمل ﴾ مضارع حمل مخففاً مبنياً للفاعل .

وقرأت فرقة منهم داود بن رفيع : يُحَمِّل مشدد الميم مبنياً للمفعول لأنه يكلف ذلك لا أنه

يحمله طوعاً و﴿ وزراً ﴾ مفعول ثان و﴿ وزراً ﴾ ثقلاً باهظاً يؤده حمله وهو ثقل العذاب .

وقال مجاهد : إثماً .

وقال الثوري شركاً والظاهر أنه عبَّر عن العقوبة بالوزر لأنه سببها ولذلك قال ﴿ خالدين فيه ﴾ أي في العذاب والعقوبة وجمع خالدين ، والضمير في ﴿ لهم ﴾ حملاً على معنى من بعد الحمل على لفظها في أعرض وفي فإنه يحمل ، والمخصوص بالذم محذوف أي وزرهم و﴿ لهم ﴾ للبيان كهي في ﴿ هيت لك ﴾ لا متعلقة بساء ﴿ وساء ﴾ هنا هي التي جرت مجرى بئس لا ساء التي بمعنى أحزن وأهم لفساد المعنى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(15/502)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا إلهكم الله ﴾

استئناف مَسوقٌ لتحقيق الحقِّ إثرَ إبطالِ الباطل بتلوين الخطابِ وتوجيهه إلى الكل ، أي إنما معبودُكم المستحقُّ للعبادة الله ﴿ الذى لا إله ﴾ في الوجود لشيء من الأشياء ﴿ إِلاَّ هُوَ

﴿ وحده من غير أن يشاركه شيءٌ من الأشياء بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكامُ الألوهية ، وقرئ الله لا إله إلا هو الرحمن ربُّ العرش وقوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي وسع علمُه كلَّ ما من شأنه أن يُعلم بدلٌ من الصلة ، كأنه قيل : إنما إلهكم الله الذي وسع كلَّ شيءٍ علماً لا غيرُه كائناً ما كان فيدخل فيه العِجْلُ دخولاً أولياً ، وقرئ وسّع بالتشديد فيكون انتصابُ عِلْماً على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعلٌ حقيقةً ، وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولاً أولاً ، كأنه قيل : وسِع علمُه كلَّ شيء وبه تم حديثُ موسى عليه السلام المذكورُ لتقرير أمر التوحيدِ حسبما نطقت به خاتمتُه وقوله تعالى :

(16/502)

﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ كلامٌ مستأنف خوطب به النبيُّ عليه السلام بطريق الوعدِ الجميل بتنزيل أمثالِ ما مر من أنباء الأممِ السالفة ، وذلك إشارةٌ إلى اقتصاص حديثِ موسى عليه السلام ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلو رتبتِه وبُعدِ منزلتِه في الفضل ، ومحلُّ الكاف النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر مقدّر أي نقص عليك ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الحوادث الماضيةِ الجارية على الأمم الخاليةِ قصّاً مثل ذلك القَصِّ المارّ ، والتقديمُ

للقصر المفيدِ لزيادة التعيين ، ومن في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ ﴾ في حيز النصب إما على أنه مفعول نُقُصّ باعتبار مضمر فيه وإما على أنه متعلقٌ بمحذوف هو صفةٌ للمفعول كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي جمْعٌ دون ذلك ، والمعنى نقص عليك بعضَ أنباءِ ما قد سبق أو بعضاً كائناً من أنباء ما قد سبق ، وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَاس مَن يَقُولُ ﴾ الخ ، وتأخيرُه عن عليك لما مر مراراً الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أي مثلَ ذلك القصِّ البديعِ الذي سمِعتَه نقص عليك ما ذكر من الأنباء لا قصًّا ناقصاً عنه تبصِرةً لك وتوقيراً لعلمك وتكثيراً لمعجزاتك وتذكيراً للمستبصرين من أمتك .

﴿ وَقَدْ آتيناك مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ أي كتاباً منطوياً على الأقاصيص والأخبارِ حقيقاً بالتفكير والاعتبار ، وكلمةُ مِنْ متعلقةٌ بآتيناك وتنكيرُ ذكراً للتفخيم وتأخيرُه عن الجارّ والمجرور لما أن مرجعَ الإفادةِ في الجملة كونُ المؤتى من لدنه تعالى ذكراً عظيماً وقرآناً كريماً جامعاً لكل كمالٍ ، لا كونُ ذلك الذي مر مُؤْتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طولٍ بما بعده من الصفة ، فتقديمُه يذهب برونق النظمِ الكريم .

(17/502)

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن ذلك الذكرِ العظيم الشأنِ المستتبعِ لسعادة الدارين ، وقيل : عن الله عز وجل ، ومَنْ إما شرطيةٌ أو موصولةٌ وأياً ما كانت فالجملة صفةٌ لذكراً ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي المعرِضُ عنه ﴿ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ أي عقوبةً ثقيلةً فادحة على كفره وسائرِ ذنوبه ، وتسميتُها وزراً إما لتشبيهها في ثِقلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحِمْل الذي يفدَح الحاملَ وينقُض ظهرَه ، أو لأنها جزاءُ الوِزْر وهو الإثمُ والأولُ هو الأنسبُ بما سيأتي من تسميتها حِملاً وقوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهِ ﴾ أي في الوزر أو في احتماله المستمرِّ ، حالٌ من المستكنّ في يحمل والجمعُ بالنظر إلى معنى مَنْ لما أن الخلودَ في النار مما يتحقق حالَ اجتماعِ أهلِها كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثةِ بالنظر إلى لفظها ﴿ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ أي بئس لهم ففيه ضميرٌ مبهمٌ يفسّره حِمْلاً والمخصوصُ بالذم محذوفٌ ، أي ساء حملاً وِزرُهم واللامُ للبيان كما في هيتَ لك كأنه لما قيل : ساء ، قيل : لمن يقال هذا ؟ فأجيب : لهم ، وإعادةُ يوم القيامة لزيادة التقريرِ وتهويلِ الأمر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(18/502)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا إلهكم الله ﴾

استئناف مسوق لتحقيق الحق إثر إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل أي إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله عز وجل ﴿ الذى لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكام الألوهية .

وقرأ طلحة ﴿ الله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العرش ﴾ ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْء عِلْماً ﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم فالشيء هنا شامل للموجود المعدوم وانتصب ﴿ عِلْمًا ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل ، والجملة بدل من الصلة كأنه قيل : إنما إلهكم الذي وسع كل شيء علماً لا غيره كائناً ما كان فيدخل فيه العجل الذي هو مثل في الغباوة دخولاً أولياً .

وقرأ مجاهد .

وقتادة ﴿ واسع ﴾ بفتح السين مشددة فيكون انتصاب ﴿ عِلْمًا ﴾ على أنه مفعول ثان ، ولما كان في القراءة الأولى فاعلاً معنى صح نقله بالتعدية إلى المفعولية كما تقول في خاف زيد عمراً : خوفت زيداً عمراً أي جعلت زيداً يخاف عمراً فيكون المعنى هنا على هذا جعل علمه يسع كل شيء ، لكن أنت تعلم أن الكلام ليس على ظاهره لأن علمه سبحانه غير مجعول ولا ينبغي أن يتوهم أن اقتضاء الذات له على تقدير الزيادة جعلاً وبهذا تم

حديث موسى عليه السلام ، وقوله تعالى :

﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾

كلام مستأنف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مر من أنباء الأمم السالفة والجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر أو الكاف في محل نصب صفة لذلك المصدر أي نقص عليك ﴿ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصاً كائناً كذلك القص المار أو قصاً مثل ذلك ، والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين أي كذلك لا ناقصاً عنه ، و﴿ مِنْ أَنبَاء ﴾ إما متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول أي نقص عليك نبأ أو بعضاً كائناً من أنباء .

(19/502)

وجوز أن يكون في حيز النصب على أنه مفعول ﴿ نَقُصُّ ﴾ باعتبار مضمونه أي نقص بعض أنباء ، وتأخيره عن ﴿ عَلَيْكَ ﴾ لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، ويجوز أن يكون ﴿ كذلك نَقُصُّ ﴾ مثل قوله تعالى : ﴿ كذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] على أن الإشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعد ، وقد مر تحقيق ذلك .

وفائدة هذا القص توفير علمه عليه الصلاة والسلام وتكثير معجزاته وتسليته وتذكرة المستبصرين من أمته صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَدْ ءاتيناك مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ كتاباً منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتذكر والتفكر فيه والاعتبار ، و﴿ مِنْ ﴾ متعلق بآتيناك ، وتنكير ذكراً للتفخيم ، وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الإفادة في الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكراً عظيماً وقرآناً كريماً جمعاً لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعده من الصفة .

وجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الحال من ﴿ ذِكْراً ﴾ وليس بذاك ، وتفسير الذكر بالقرآن هو الذي ذهب إليه الجمهور ؛ وروى عن ابن زيد ، وقال مقاتل : أي بياناً ومآله ومآله ما ذكر ، وقال أبو سهل : أي شرفاً وذكراً في الناس ، ولا يلائمه قوله تعالى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ إذ الظاهر أن ضمير ﴿ عَنْهُ ﴾ للذكر ، والجملة في موضع الصفة له ، ولا يحسن وصف الشرف أو الذكر في الناس بذلك ، وقيل : الضمير لله تعالى على سبيل الالتفات وهو خلاف الظاهر جداً ، و﴿ مِنْ ﴾ إما شرطية أو موصولة أي من أعرض عن الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين ولم يؤمن به ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ أي عقوبة ثقيلة على إعراضه وسائر ذنوبه .

والوزر في الأصل يطلق على معنيين الحمل الثقيل والإثم ، وإطلاقه على العقوبة نظراً إلى المعنى الأول على سبيل الاستعارة المصرحة حيث شبهت العقوبة بالحمل الثقيل .

ثم استعير لها بقرينة ذكر يوم القيامة ، ونظراً إلى المعنى الثاني على سبيل المجاز المرسل من حيث أن العقوبة جزاء الاثم فهي لازمة له أو مسببة ، والأول هو الأنسب بقوله تعالى : فيما بعد ﴿ وَسَاء ﴾ [طه : 101] الخ لأنه ترشيح له ، ويؤيده قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ [العنكبوت : 13] وتفسير الوزر بالإثم وحمل الكلام على حذف المضاف أي عقوبة أو جزاء إثم ليس بذاك .

وقرأت فرقة منهم داود بن رفيع ﴿ يُحَمَّلُ ﴾ مشدد الميم مبنياً للمفعول لأنه يكلف ذلك لا أنه يحمله طوعاً ويكون ﴿ وِزْراً ﴾ على هذا مفعولاً ثانياً .

﴿ خالدين فِيهِ ﴾ أي في الوزر المراد منه العقوبة .

(21/502)

وجوز أن يكون الضمير لمصدر ﴿ يَحْمِلُ ﴾ [طه : 100] ونصب ﴿ خالدين ﴾ على الحال من المستكن في ﴿ يَحْمِلُ ﴾ [طه : 100] والجمع بالنظر إلى معنى ﴿ مِنْ

﴿ لما أن الخلود في النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما أن الأفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ إنشاء للذم على أن ساء فعل ذم بمعنى بئس وهو أحد معنييه المشهورين ، وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على ﴿ حِمْلاً ﴾ الواقع تمييز الأعلى وزراً لأن فاعل بئس لا يكون إلا ضميراً مبهماً يفسره التمييز العائد هو إليه وإن تأخر لأنه من خصائص هذا الباب والمخصوص بالذم محذوف والتقدير ساء حملهم حملاً وزرهم ، ولام ﴿ لَهُمْ ﴾ للبيان كما في سقياً له و ﴿ هيت لكَ ﴾ [يوسف : 23] وهي متعلقة بمحذوف كأنه قيل : لمن يقال هذا ؟ فقيل : هو يقال لهم وفي شأنهم ، وإعادة ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ لزيادة التقرير وتهويل الأمر ، وجوز أن يكون ﴿ سَاء ﴾ بمعنى أحزن وهو المعنى الآخر من المعنيين ؛ والتقدير على ما قيل وأحزنهم الوزر حال كونه حملاً لهم .

وتعقبه في "الكشف" بأنه أي فائدة فيه والوزر أدل على الثقل من قيده ثم التقييد بلهم مع الاستغناء عنه وتقديمه الذي لا يطابق المقام وحذف المفعول وبعد هذا كله لا يلائم ما سبق له الكلام ولا مبالغة في الوعيد بذلك بعد ما تقدم ثم قال : وكذلك ما قاله العلامة الطيبي من أن المعنى وأحزنهم حمل الوزر على أن ﴿ حِمْلاً ﴾ تمييز واللام في ﴿ لَهُمْ ﴾ للبيان لما ذكر من فوات فخامة المعنى ، وأن البيان إن كان لاختصاص الحمل بهم ففيه غنية ، وإن كان لمحل الأحزان فلا كذلك طريق بيانية ، وإن كان على أن هذا الوعيد لهم فليس موقعه قبل

يوم القيامة وأن المناسب حينئذ وزراً ساء لهم حملاً على الوصف لا هكذا معترضاً مؤكداً انتهى .

(22/502)

ولا مجال لتوجيه الإتيان باللام إلى اعتبار التضمين لعدم تحقق فعل مما يلائم الفعل المذكور مناسباً لها لأنها ظاهرة في الاختصاص النافع والفعل في الحدث الضار ، والقول بازديادها كما في ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] أو الحمل على التهكم تمحل لتصحيح اللفظ من غير داع إليه ويبقى معه أمر فخامة المعنى ، والحاصل أن ما ذكر لا يساعده اللفظ ولا المعنى ، وجوز أن يكون ﴿ سَاء ﴾ بمعنى قبح فقد ذكر استعماله بهذا المعنى وإن كان في كونه معنى حقيقياً نظر ، و﴿ حِمْلاً ﴾ تمييزاً و﴿ لَهُمْ ﴾ حالاً و﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ متعلقاً بالظرف أي قبح ذلك الوزر من جهة كونه حملاً لهم في يوم القيامة وفيه ما فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(23/502)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) ﴾

جملة : ﴿ قَالَ يَا هارون ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والمعنى : أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ من اتباعي واللحوق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة .

وقيل : معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ .

..

ألا تتبعن ﴾ : ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم .

وقيل : معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم .

وقيل : معناه : هلا فارقتهم .

و" لا " في ﴿ ألا تتبعن ﴾ زائدة ، وهو في محل نصب على أنه مفعول ثانٍ لمنع ، أي أيّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي ، والاستفهام في : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، والمعنى : كيف خالفت أمري لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه وأقمت يين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلها ؟ وقيل : المراد بقوله : ﴿ أمري ﴾ هو قوله الذي حكى الله عنه : ﴿ وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هارون اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] فلما أقام معهم ولم يبالغ في

الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه .

﴿ قَالَ يَا ابنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ قرئ بالفتح والكسر للميم ، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة الأعراف .

(24/502)

ونسبه إلى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه وأمه ، عند الجمهور ؛ استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ، ومعنى ﴿ وَلَا بِرَأْسِي ﴾ : ولا بشعر رأسي ، أي لا تفعل هذا بي عقوبة منك لي ، فإن لي عذراً هو ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرءِيلَ ﴾ أي خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول : إني فرقت جماعتهم وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم وتخلف مع السامريّ عند العجل آخرون ، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم ، ومعنى ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ : ولم تعمل بوصيتي لك فيهم ، إني خشيت أن تقول : فرّقت بينهم ، وتقول لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له هو قوله : ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ [الأعراف : 142] .

قال أبو عبيد : معنى ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ : ولم تنتظر عهدي وقدومي لأنك أمرتني أن أكون معهم ، فاعتذر هارون إلى موسى ها هنا بهذا ، واعتذر إليه في الأعراف بما حكاه

الله عنه هنالك حيث قال : ﴿ إِنَّ القوم استضعفونى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى ﴾ [الأعراف : 150].

ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامريّ فقَال : ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري ﴾ أي ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ أي قال السامريّ مجيباً على موسى : رأيت ما لم يروا أو علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له ، وأراد بذلك : أنه رأى جبريل على فرس الحياة فألقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول ، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً .

(25/502)

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وخلف : " ما لم تبصروا به " بالمثناة من فوق على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وهي أولى ؛ لأنه يبعد كلّ البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدّعي لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى ، وقرىء بضم الصاد فيهما وبكسرها في الأوّل وفتحها في الثاني ، وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة : " فقبصت قبصة " بالصاد المهملة فيهما ، وقرأ الباقون بالضاد المعجمة فيهما ، والفرق بينهما أن القبض بالمعجمة : هو الأخذ بجميع الكف ، وبالمهملة بأطراف الأصابع .

والقبضة بضم القاف : القدر المقبوض .

قال الجوهري : هي ما قبضت عليه من شيء ، قال : وربما جاء بالفتح ، وقد قرئ : " قبضة " بضم القاف وفتحها ، ومعنى الفتح : المرّة من القبض ، ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف ، ومعنى ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ : من المحل الذي وقع عليه حافر فرس جبريل ، ومعنى ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ : فطرحتها في الحليّ المذابة المسبوكة على صورة العجل ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ قال الأخفش : أي زينت ، أي ومثل ذلك التسويل : سوّلت لي نفسي .

وقيل : معنى ﴿ سوّلت لي نفسي ﴾ : حدّثتني نفسي .

فلما سمع موسى منه قال : ﴿ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ أي : فاذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك في الحياة ، أي ما دمت حياً ، وطول حياتك أن تقول : لا مساس .

المساس مأخوذ من المماسة ، أي لا يمسك أحد ولا تمسّ أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك ، بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك ؛ لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفي السامريّ عن قومه ، وأمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له .

قيل : إنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش لا يجد أحداً

من الناس يمسه ، حتى صار كمن يقول : لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ، كما قال الشاعر :

(26/502)

حمال رايات بها قناعسا . . . حتى تقول الأزد لا مسايسا

قال سيبويه : وهو مبني على الكسر .

قال الزجاج : كسرت السين ؛ لأن الكسرة من علامة التأنيث .

قال الجوهري في الصحاح : وأما قول العرب : لا مساس ، مثل قطام ، فإنما بني على الكسر ؛ لأنه معدول عن المصدر ، وهو المس .

قال النحاس : وسمعت عليّ بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول : إذا اعتلّ الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء ، فمساس ، دراك اعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، ومنها أنه معرفة ، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين .

وقد رأيت أبا إسحاق ، يعني الزجاج ، ذهب إلى أن هذا القول خطأ وألزم أبا العباس إذا

سميت امرأة بفرعون أن يبنيه وهذا لا يقوله أحد .

وقد قرأ بفتح الميم أبو حيوة والباقون بكسرها .

وحاصل ما قيل في معنى ﴿ لا مساس ﴾ ثلاثة أوجه : الأوّل : أنه حرّم عليه مماسة الناس ، وكان إذا ماسه أحد حمّ الماس والممسوس ، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً : لا مساس .

والثاني : أن المراد منع الناس من مخالطته ؛ واعترض بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو : لا مساس ، وإنما يقال له .

وأجيب بأن المراد الحكاية ، أي أجعلك يا سامريّ بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت : لا مساس .

والقول الثالث : أن المراد انقطاع نسله ، وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة ، قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً .

ثم ذكر حاله في الآخرة فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الموعد ، وهو يوم القيامة ، والموعد مصدر ، أي إن لك وعداً لعذابك ، وهو كائن لا محالة ، قال الزجاج : أي يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدي والحسن : " لن تخلفه بكسر " اللام ، وله على هذه القراءة معنيان : أحدهما : ستأتيه ولن تجده مخلفاً كما تقول أحمدته ، أي وجدته محموداً .

والثاني : على التهديد ، أي لا بدّ لك من أن تصير إليه .

وقرأ ابن مسعود : " لن نخلفه " بالنون ، أي لن يخلفه الله .

وقرأ الباقون بفتح اللام ، وبالفوقية مبنياً للمفعول ، معناه ما قدّمناه .

﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ ظلت أصله : ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً ، والعرب تفعل ذلك كثيراً .

وقرأ الأعمش بلامين على الأصل .

وفي قراءة ابن مسعود : " ظلت " بكسر الظاء .

والمعنى : انظر إلى إلهك الذي دمت وأقمت على عبادته ، والعاكف : الملازم .

﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وتشديد الراء من حرّقه يحرّقه .

وقرأ الحسن بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء من أحرقه يحرقه .

وقرأ عليّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب والعقيلي : " لنحرقنه " بفتح النون وضم الراء مخففة ، من حرقت الشيء أحرقه حرقاً : إذا بردته وحككت بعضه ببعض أي

: لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد : المحرق .

والقراءة الأولى أولى ، ومعناها : الإحراق بالنار ، وكذا معنى القراءة الثانية ، وقد جمع بين هذه الثلاث القراءات بأنه أحرق ، ثم برد بالمبرد ، وفي قراءة ابن مسعود : " لنذبحنه ثم لنحرقنه " واللام هي الموطئة للقسم .

﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى اليم نَسْفاً ﴾ النسف : نفض الشيء ليذهب به الريح .

قرأ أبو رجاء : " لننسفنه " بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وهما لغتان .

والمنسف : ما ينسف به الطعام ، وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع ، والنسافة : ما يسقط منه .

﴿ إِنَّمَا إلهكم الله الذي لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ لا هذا العجل الذي فتنتم به السامريّ ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْء عِلْماً ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وسع ﴾ بكسر السين مخففة .

(28/502)

وهو متعدّ إلى مفعول واحد ، وهو ﴿ كل شيء ﴾ .

وانتصاب ﴿ علماً ﴾ على التمييز المحوّل عن الفاعل ، أي وسع علمه كل شيء .

وقرأ مجاهد وقتادة : " وسع " بتشديد السين وفتحها فيتعدى إلى مفعولين ، ويكون

انتصاب ﴿ علماً ﴾ على أنه المفعول الأوّل وإن كان متأخراً ؛ لأنه في الأصل فاعل ، والتقدير : وسع علمه كل شيء ، وقد مرّ نحو هذا في الأعراف .

﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، أي كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقصّ عليك ﴿ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ أي من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك ، و" من " للتبعيض ، أي بعض أخبار ذلك ﴿ وَقَدْ آتيناك مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ المراد بالذكر : القرآن ، وسمي ذكراً ؛ لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار .

وقيل : المراد بالذكر : الشرف كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

ثم توعد سبحانه المعرضين على هذا الذكر فقال : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ أي أعرض عنه فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه وقيل : أعرض عن الله سبحانه ، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزراً ، أي إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿ خالدين فِيهِ ﴾ في الوزر ، والمعنى : أنهم يقيمون في جزائه .

وانتصاب : ﴿ خالدين ﴾ على الحال ﴿ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ أي بئس الحمل يوم القيامة ، والمخصوص بالذمّ محذوف ، أي ساء لهم حملاً وزرهم ، واللام للبيان ، كما في : ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : 23] .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ياهارون مَا مَنَعَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ قال: أمره موسى أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين، فكان من إصلاحه أن ينكر العجل.

(29/502)

وأخرج عنه أيضاً في قوله: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ قال: لم تنتظر قولي ما أنا صانع، وقال ابن عباس: ﴿ لم ترقب ﴾: لم تحفظ قولي.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الحياة أن تقول مساس ﴾ قال: عقوبة له ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ قال: لن تغيب عنه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ قال: أقمت ﴿ لَّنُحَرّقَنَّهُ ﴾ قال: بالنار ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم ﴾ قال: لنذرينه في البحر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ: "لَّنُحَرّقَنَّهُ" خفيفة، ويقول: إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رماداً.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: ﴿ اليم ﴾: البحر.

وأخرج أيضاً عن عليّ قال: ﴿ اليم ﴾ النهر.

وأخرج أيضاً عن قتادة في قوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ قال : ملأ .

وأخرج أيضاً عن ابن زيد في قوله : ﴿ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ قال : القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ وِزْراً ﴾ قال : إثماً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ يقول : بئس ما حملوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(30/502)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية : أن العجل الذي صنعه السامري من حلي القبط لا يمكن أن يكون إلهاً ؟ وذلك لأنه حصر الإله أي المعبود بحق ب ﴿ إِنَّمَآ ﴾ التي هي أداة حصر على التحقيق في خالق السموات والأرض . الذي لا إله إلا هو . أي لا معبود بالحق إلا هو وحده جل وعلا ، وهو الذي وسع كل شيء علماً . وقوله ﴿ عِلْماً ﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أي وسع علمه كل شيء .

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة : من أنه تعالى هو الإله المعبود بحق دون غيره ، وأنه

وسع كل شيء علماً ذكره في آيات كثيرة من كتابه تعالى. كقوله تعالى: ﴿ اللهُ لا إله إلاَّ هُو ﴾ [البقرة: 255] الآية، وقوله: ﴿ فاعلم أنَّهُ لا إله إلاَّ الله ﴾ [محمد: 19] الآية إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في إحاطة علمه بكل شيء: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السماء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: 61]، وقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

(31/502)

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾

الكاف في قوله ﴿ كذلك ﴾ في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي نقص عليك من أنباء ما سبق قصصاً مثل ذلك القصص الحسن الحق الذي قصصنا عليك عن موسى وهارون، وعن موسى وقومه والسامري. والظاهر أن «من» في قوله ﴿ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ للتبعيض، ويفهم من ذلك أن بعضهم لم يقصص عليه خبره ويدل لهذا المفهوم قوله

تعالى في سورة «النساء»: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: 164] الآية، وقوله في سورة «المؤمن»: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: 78] الآية، وقوله في سورة «إبراهيم» ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ [إبراهيم: 9] الآية. والأنباء: جمع نبأ وهو الخبر الذي له شأن.

(32/502)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أنه قص على نبيه صلى الله عليه وسلم أخبار الماضين. أي ليبين بذلك صدق نبوته، لأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم. فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما علمه بينه أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله في «آل عمران»: ﴿ ذلك مِنْ أَنَبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: 44] أي فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به. وقوله تعالى في سورة «هود» أيضاً: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: 120] الآية. وقوله تعالى في

سورة « يوسف » : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أجمعوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف : 102] ، وقوله في « يوسف » أيضاً : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] ، وقوله في « القصص » : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44] ، وقوله فيها : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : 46] ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [القصص : 45] ، إلى غير ذلك من الآيات . يعني لم تكن حاضراً يا نبي الله لتلك الوقائع ، فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته . وقوله ﴿ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ أي أخبار ما مضى من أحوال الأمم والرسل .

(33/502)

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ .

أي أعطيناك من عندنا ذكراً وهو هذا القرآن العظيم ، وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله . كقوله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 50] ، وقوله تعالى :

﴿ ذلك نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ والذكر الحكيم ﴾ [آل عمران : 58] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء : 2] وقوله : ﴿ وَقَالُواْ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] ، وقوله تعالى : ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة : ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه :

أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .

وثانيها أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه تعالى . ففيه التذكير والمواعظ .

وثالثها أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ .

واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكراً فقال : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ [النحل : 43] اهالمراد من كلام الرازي .

ويدل للوجه الثاني في كلامه قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ

أُوْلُوا الألباب ﴾ [ص : 29] ، وقوله تعالى : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه : 113] .

(35/502)

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم ، أي صد وأدبر عنه ، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام ، والآداب والمكارم ، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال ، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة . سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره ، ويلقي عليه بهره . أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد دلت آيات كثيرة من كتاب الله : على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم . أي أثقال ذنوبهم على ظهورهم . كقوله في سورة « الأنعام » : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام : 31] ،

وقوله في « النحل » : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] ، وقوله في « العنكبوت » : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : 13] ، وقوله في « فاطر » : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر : 18] .

(36/502)

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تعلم أن معنى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ أن المراد بذلك الوزر المحمول أثقال ذنوبهم وكفرهم يأتون يوم القيامة يحملونها : سواء قلنا إن أعمالهم السيئة تتجسم في أقبح صورة وأنتنها ، أو غير ذلك كما تقدم إيضاحه . والعلم عند الله . وقد قدمنا عمل « ساء » التي بمعنى بئس مرارا . فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ يريد مقيمين فيه ، أي في جزائه ، وجزاؤه جهنم .

تنبيه

إفراد الضمير في قوله: ﴿ أَعْرَضَ ﴾ ، وقوله: ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ وقوله: ﴿ يحمل ﴾ باعتبار لفظ «من» وأما جمع ﴿ خالدين ﴾ وضمير لهم ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ فباعتبار معنى من كقوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَل صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ ﴾ [الطلاق: 11] الآية، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ ﴾ [الجن: 23] الآية.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: اللام في «لهم» ما هي؟ وبم تتعلق؟ قلت: هي للبيان كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: 23]. انتهى. اهـ

﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(37/502)

وقال ابن عاشور:

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) ﴾

هذه الجملة من حكاية كلام موسى عليه السلام فموقعها موقع التذييل لوعظه، وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمّة إعراضاً عن خطابه تحقيراً له، وقصداً لتنبيههم

على خطئهم ، وتعليمهم صفات الإله الحق ، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم لأن الوحدانية تجمع جميع الصفات ، كما قرر في دلالة كلمة التوحيد عليها في كتب علم الكلام .

وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم .

واستعير فعل ﴿ وَسِعَ ﴾ لمعنى الإحاطة التامة ، لأن الإناء الواسع يحيط بأكثر أشياء مما هو دونه .

وانتصب ﴿ عِلْماً ﴾ على أنه تمييز نسبة السعةِ إلى الله تعالى ، فيؤول المعنى : وسع علمه كل شيء بحيث لا يضيق علمه عن شيء ، أي لا يقصر عن الاطلاع على أخفى الأشياء ، كما أفاده لفظ (كل) المفيد للعموم .

ونقدم قريب منه عند قوله ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ في سورة البقرة (255) .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾

جملة مستأنفة تذييلية أفادت التنويه بقصّة رسالة موسى وما عقبها من الأعمال التي جرت مع بني إسرائيل ابتداء من قوله ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً ﴾ [طه : 9 ، 10] ، أي مثل هذا القصص نقصّ عليك من أنباء القرون الماضية .

والإشارة راجعة إلى القصة المذكورة .

والمراد بقوله ﴿ نَقُصُّ ﴾ قصصنا ، وإنما صيغ المضارع لاستحضار الحالة الحسنة في ذلك القصص .

(38/502)

والتشبيه راجع إلى تشبيهها بنفسها كناية عن كونها إذا أريد تشبيهها وتقريبها بما هو أعرف منها في بابها لم يجد مُريد ذلك طريقاً لنفسه في التشبيه إلا أن يشبهها بنفسها ، لأنها لا يفوقها غيرها في بابها حتى تقرَّب به ، على نحو ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) ، ونظائره كثيرة في القرآن .

و(مِن) في قوله مِنْ أَنْبَاءِ ما قَدْ سَبَقَ ﴾ تبعيضية ، هي صفة لمحذوف تقديره : قصصاً من أنباء ما قد سبق .

ولك أن تجعل (من) اسماً بمعنى بعض ، فتكون مفعول ﴿ نقصّ .

والأنباء : الأخبار .

و(ما) الموصولة ما صدقها الأزمان ، لأنّ الأخبار تضاف إلى أزمانها ، كقولهم : أخبار أيام العرب ، والقرون الوسطى .

وهي كلها من حقها في الموصولية أن تعرف بـ(ما) الغالبة في غير العاقل .

ومعلوم أن المقصود ما فيها من أحوال الأمم ، فلو عرفت بـ (مَن) الغالبة في العقلاء لصح ذلك وكل ذلك واسع .

وقوله وقَدْ ءاتيناك مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطْع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة ، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها .

فللإيماء إلى هذا قال تعالى : ﴿ وقد آتيناك من لدنّا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وِزرا ً خالدين فيه .

وتنكير ذِكراً ﴾ للتعظيم ، أي آتيناك كتاباً عظيماً .

وقوله ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ توكيد لمعنى ﴿ ءاتيناك ﴾ وتنويه بشأن القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده .

والوِزر : الإثم .

وجعل محمولاً تمثيل لملاقاة المشقة من جراء الإثم ، أي من العقاب عنه .

فهنا مضاف مُقدر وقرينته الحال في قوله ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ ، وهو حال من اسم الموصول أو الضمير المنصوب بحرف التوكيد ، وما صدقهما ، متّحد وإنما اختلف بالإفراد والجمع رعياً لِلَفظ (مَن) مرةً ولمدلولها مرة .

وهو الجمع المعرضون .

فقال ﴿ من أعرَض ثم قال خَالدين .

وجملة وسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ حال ثانية ، أي ومسوئين به .

و(سَاء) هنا هو أحد أفعال الذم مثل (بئس) .

وفاعل ﴿ ساء ضمير مستتر مُبهم يفسره التمييز الذي بعده وهو حِملاً .

والحِمل بكسر الحاء اسم بمعنى المَحمول كالذِّبح بمعنى المذبوح .

والمخصوص بالذم محذوف لدلالة لفظ وِزراً عليه .

والتقدير : وساء لهم حملاً وِزرهم ، وحذف المخصوص في أفعال المدح والذم شائع كقوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص : 30] أي سليمان هو الأواب .

واللاّم في قوله ﴿ وسَآءَ لَهُمْ ﴾ لام التبيين .

وهي مبيّنة للمفعول في المعنى ، لأن أصل الكلام : ساءهم الحِمل ، فجيء باللام لزيادة تبيين تعلق الذم بحمله ، فاللاّم لبيان الذين تعلّق بهم سوء الحِمل .

والحِمل بكسر الحاء المحمول مثل الذبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(40/502)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد أن بَيَّن الحق سبحانه وَجْه البطلان فيما فعله السامري ، ومَنْ تبعه من القوم ، عاد لِيذكّرهم بمنطقه الحق وجادة الطريق ، وأن كلَّ ما فعلوه هراء في هراء :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

الحق تبارك وتعالى حينما يقول : ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [طه : 98] نقولها نحن هكذا ، ونشهد بها ، فقد تعلَّمناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سمعها من ربه ونقلها إلينا ، فهي الشهادة بالوحدانية الحقّة ، شهادة من الله لذاته أولاً : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُوا العلم ﴾ [آل عمران : 18] .

فهذه شهادة الذات للذات قبل أنْ يخلق شاهداً يشهد بها . ثم شهدتْ له بذلك الملائكة شهادةَ المشهد أنه لا إله غيره ، ثم شهد بذلك أولو العلم شهادة استدلال بالمخلوقات التي رأوْها على أبدع نظام وأعجبه ، ولا يمكن أن ينشأ هذا كله إلا عن إله قادر .

وقد سلمتْ لله تعالى هذه الدّعوى؛ لأنها قضية صادقة شَهِد بها سبحانه لنفسه، وشَهِد بها الملائكة وأولو العلم ولم يَقُمْ لها معارض يدّعِيها لنفسه.

وإلا والعياذ بالله أين ذلك الإله الذي أخذ الله تعالى منه الألوهية؟ فإما أنْ يكون لا يعلم، أو عَلِم بذلك ولم يعترض، وفي كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً. والدَّعْوى إذا لم تُجْبَه بمعارض فقد سلمتْ لصاحبها، إلى أن يُوجَد المعارض.

وكأن الحق سبحانه قال: لا إله إلا أنا، وأنا خالق الكون كله ومُدبّر أمره، ولم يَأْتِ أحد حتى من الكفار يدّعي شيئاً من هذا. وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً ولله المثل الأعلى: هَبْ أنه نزل عندك مجموعة ضيوف وزوار، وبعد انصرافهم وجدتَ حافظة نقود فسألتَ عن صاحبها، فلم يدّعِها أحد إلى أنْ قال واحد منهم: هي لي، إذن: فهو صاحبها، وهو أحقُّ بها حيث لم يَقُمْ له معارض.

(41/502)

لذلك يقول تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 42].

يعني إنْ كان هناك آلهة أخرى فلا بُدَّ أنْ يذهبوا إلى صاحب العرش، إما ليخضعوا له

ويستلهموا منه القدرة على فِعْل الأشياء، أو ليُحاسبوه ويُحاكموه: كيف يدَّعي الألوهية وهم آلهة؟ ولم يحدث شيء من هذا كله، ولا أقام أحد دليلاً على أنه إله، والدَّعْوى إذا لم يَقُمْ عليها دليل فهي باطلة.

وينفي الحق سبحانه وجود آلهة أخرى، فيقول في موضع آخر: ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: 91].

فهذا إله للسماء، وهذا إله للأرض، وهذا الجن، وهذا الإنس.. إلخ، وبذلك تكون الميْزة في أحدهم نقصاً في الآخر، والقدرة في أحدهم عجزاً في الآخر، وهذا لا يليق في صفات الألوهية.

ونلحظ هنا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله ﴾ [طه: 98] أن كلمة (إله) لا تعني (الله)، وإلا لو كان إلهاً بمعنى الله لأصبح المعنى: إنما الله الله.

إذن: هناك فَرْق بين اللفظين: الله عَلَم على واجب الوجود الأعلى، أما الإله فهو المعبود المطاع فيما يأمر، فالمعنى: أن المعبود المطاع فيما يأمر به هو الله خالق هذا الوجود، وصاحب الوجود الأعلى.

فالله تعالى هو المعبود المطاع بحقٍّ، لأن هناك معبوداً ومطاعاً لكن بالباطل، كالذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ويُسمُّونهم آلهة، فإذا كانت العبادة إطاعة

أمر ونهي المعبود ، فبماذا أمرتْهم هذه الآلهة ؟ وعن أيّ شيء نهتْهم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن عبدها أو لمن كفر بها ؟ إذن : هي معبودة ، لكن بالباطل ؛ لأنها آلهة بلا منهج .

(42/502)

وكلمة ﴿ إِنَّمَآ ﴾ [طه : 98] لا تأتي إلا استدراكاً على باطل ، وتريد أن تُصوِّبه ، كأن تقول : إنما الذي حضر زيد ، فلا تقولها إلا لمن ادَّعى أن الذي حضر غير زيد ، فكأنك تقول : لا ، فلان لم يحضر ، إنما الذي حضر زيد .

فلا بُدَّ أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله ﴾ [طه : 98] جاء رداً على كلام قيل يدَّعي أن هناك إلهاً آخر ، وإنما لا تُقال إلا إذا ادُّعِيَ أمر يخالف ما بعدها ، فتنفي الأمر الأول ، وتُثبت ما بعدها .

وهنا يقول : ﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله ﴾ [طه : 98] لأن السامريَّ لما صنع لهم العجل قال : ﴿ هاذآ إلهكم وإله موسى ﴾ [طه : 88] فكذَّبه الله واستدرك بالحقّ على الباطل : ﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله الذي لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ [طه : 98] .

ثم أضاف الحق تبارك وتعالى ما يُفرِّق بين إله الحق وإله الباطل ، فقال : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [طه : 98] لأنه سبحانه هو الإله الحق ، وهذه أيضاً رَدٌّ على السامريّ وما

اتخذه إلهاً من دون الله ، فالعجل الذي اتخذه لا عِلمَ عنده ، وكذلك السامري الذي أمر الناس بعبادته ، فلو كان عنده علم لعرفَ أن عِجْله سيُحرق ويُنسَف وتذروه الرياح ، ولعرفَ العاقبة التي انتهى إليها من قوله للقوم (لا مساس) ، وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلو علم هذه الحقائق ما أقدمَ على هذه المسألة .

ووسع علم الله لكل شيء يعني : مَنْ أطاع ومَنْ عصى ، لكن من رحمته تعالى بنا ألاَّ يحاسبنا عَمَّا علم منّا ، بل يعلمنا حين ندعوه أن نقول : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ [غافر : 7] فسبقتْ رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا ، وسبقت عذابه ونقمته ، وفي موضع آخر يقول عز وجل : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] .

(43/502)

فلو وقفنا عند ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ [طه : 98] لأتعبتْنا هذه المسألة ؛ لأنه سيجازينا عن السيئة وعن الحسنة ، ومَنْ يطيق هذا ؟

ثم يُبيِّن الحق سبحانه حكمة القَصَص في القرآن ، والقَصَص لون من التاريخ ، وليس مطلق التاريخ ، القصص تاريخ لشيء مشهود يهمني وتفيدني معرفته ، وإلا فمن التاريخ أن نقول :

كان في مكان كذا رجل يبيع كذا ، وكان يفعل كذا أو كذا .

إذن : فالقصص حدث بارز ، وله تأثيره فيمَنْ سمعه ، وبه تحدث الموعظة ، ومنه تؤخذ العبرة .

والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمنتها ، فحين تربط أيَّ حدث بزمنه فقد أرَّخْتَ له ، فإذا كان حَدَثاً متميزاً نسميه قصة تُروَى ، فإنْ كانت قصة شهيرة تعلو على القصص كله نسميها سيرة ، لذلك خُصَّ باسم السيرة تاريخ قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القَصَص شيء مميز ، أما السيرة فهي أميز ، ورسول الله خاتم الأنبياء ؛ لذلك نقول عن تاريخه سيرة ولا نقول قصة ؛ لأن واقعه في الحياة كان سَيْراً على منهج الله ، وعليه نزل القرآن ، وكان خُلقه القرآن .

والقصص يأتي مرة بالحدث ، ثم تدور حوله الأشخاص ، أو يأتي بشخصية واحدة تدور حولها الأحداث ، فإذا أردتَ أن تؤرخ للثورة العرابية مثلاً وضعت الحدث أولاً ، ثم ذكرتَ الأشخاص التي تدور حوله ، فإنْ أردتَ التأريخ لشخصية عرابي وضعت الشخصية أولاً ، ثم أدرت حولها الأحداث .

وقَصص القرآن يختلف عن غيره من الحكايات والقصص التي نسمعها ونحكيها من وضع البشر وتأليفهم ، فهي قصص مُخْتَرعة تبنى على عُقْدة وَحلّها ، فيأخذ القاصُّ حدثاً ، ثم ينسخ حوله أحداثاً من خياله .

وبذلك يكونون قد أخذوا من القصص اسمه ، وعدلوا عن مُسمَّاه ، فهم يُسمُّون هذا النسيج قصة ، وليست كذلك ؛ لأن قصة من قصَّ الأثر اي : مشى على أثره وعلى أقدامه ، لا يميل عنها ولا يحيد هنا أو هناك .

(44/502)

فالقصة إذن التزام حدثيٌّ دقيق لا يحتمل التأليف أو التزييف ، وهذا هو الفَرْق بين قَصَص القرآن الذي سماه الحق سبحانه وتعالى : ﴿ القصص الحق ﴾ [آل عمران : 62] و ﴿ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] وبين قَصَص البشر وتآليفهم .

القصص الحقُّ وأحسن القصص ؛ لأنه ملتزم بالحقيقة لا يتجاوزها ، وله غاية سامية أَسْمى من قَصَص دنياكم ، فقَصَص الدنيا غايته وخلاصته إن أفلح أن يحميك من أحداث الدنيا ، أما قصص القرآن فحمايته أوسع ؛ لأنه يحميك في الدنيا والآخرة .

فإنْ رأيتَ في قصص القرآن تكراراً فاعلم أنه لهدف وغاية ، وأنها لقطات شتَّى لجوانب الحدَث الواحد ، فإذا ما تجمعتْ لديك كل اللقطات أعطتك الصورة الكاملة للحدث .

وهنا يقول تعالى : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99)

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

فكأن فؤاده صلى الله عليه وسلم كان في حاجة إلى تثبيت ؛ لأنه سيتناول كل أحداث الحياة ، وسيتعرض لما تشيب لهَوْله الرؤوس ، ألم يَقُلْ الحق تبارك وتعالى عن الرسل قبله :

﴿ وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214] .

ألم يُضطهد رسول الله والمؤمنون ويُضربوا ويُحاصروا في الشِّعْب بلا مأوى ولا طعام ، حتى أكلوا الجلود وأوراق الشجر ؟

فهذه أحداث وشدائد تضطرب النفس البشرية حين تستقبلها ، ولا بُدَّ لها من تأييد السماء لتثبت على الإيمان ؛ لذلك يقصُّ الحق تبارك وتعالى على رسوله قصص مَنْ سبقوه في موكب الرسالات ليقول له : لست يا محمد بِدْعاً من الرسل ، فقد تحملوا من المشاق كيت وكيت ، وأنت سيدهم ، فلا بُدَّ أنْ تتحمل من المشاقِّ ما يتناسب ومكانتك ، فوطِّن نفسك على هذا .

فقوله تعالى : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه : 99] (كذلِكَ) : أي : كما قصصنا عليك قصة موسى وهارون وفرعون والسامريّ نقصُّ عليك قصصاً آخر من أنباء مَنْ سبقُوك من الرسل .

وأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر الهام العظيم ، فلا يُقال للأمر التافه نبأ . ومن ذلك قوله تعالى عن يوم القيامة : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم ﴾ [النبأ : 12] إنما يُقال " خبر " في أي شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ [طه : 99] .

وأكد الإتيان بأنه ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ [طه : 99] أي : من عندنا ، فلم يَقُلْ مثلاً : آتيناك ذِكْراً . وهذا له معنى ؛ لأن كل الكتب التي نزلت على الرسل السابقين نزلت ورُويتْ بالمعنى ، ثم صاغها أصحابها بألفاظ من عند أنفسهم ، أمّا القرآن فهو الكتاب الوحيد الذي نزل بلفظه ومعناه ؛ لذلك قال ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ [طه : 99] أي : مباشرة من الله لرسوله .

والمتأمّل في تبليغ الرسول وتلقّيه عن ربه يجد أنه يحافظ على لفظ القرآن ، لا يُخْفى منه حرفاً واحداً ، كما في قوله تعالى مثلاً : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فكان يكفي في تبليغ هذه العبارة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أحد ، لكنه يقول نصّ ما جاءه من ربه مباشرة .

أرأيتَ لو قلت لولدك : اذهب إلى عمك وقُلْ له : أبي سيزورك غداً ، ألاَ يكفي أن يقول

الولد : أبي سيزورك غداً ؟

إذن : فالقرآن الذي بين آيدينا هو نفسه كلام الله المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم لم يتغير فيه حرف واحد لا بالزيادة ولا بالنقصان ؛ لأنه نصُّ الإعجاز ، وما دام نص الإعجاز فلا بُدّ أنْ يظلّ كما قاله الله .

ومعنى ﴿ ذِكْراً ﴾ [طه : 99] للذكْر معان متعددة ، فيُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن ، كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

ويُطلَق ويُراد به الصِّيت والشّرف والجاه في الدنيا ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنzَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] أي : شرفكم ورِفْعتكم بين الناس ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

وقد يقول قائل : كيف يكون القرآن ذكراً وشرفاً للعرب ، وقد أبان عجزهم ، وأظهر ما فيهم من عِيٍّ ؟ وهل يكون للمغلوب صِيت وشَرف .

نقول : كونهم مغلوبين للحق شهادة بأنهم أقوياء ، فالقرآن أعجز العرب وهم أمة فصاحة

وبلاغة وبيان ، والحق سبحانه وتعالى حين يتحدى لا يتحدى الضعيف ، إنما يتحدى القوي ، ومن الفخر أن تقول : غلبت البطل الفلاني ، لكن أيّ فخر في أن تقول : غلبت أيّ إنسان عادي ؟

وكذلك يُطلَق الذكْر على كل كتاب أنزله الله تعالى ، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] أي : أهل الذكر قبلكم ، وهم أهل التوراة وأهل الإنجيل .

ويُطلَق الذكر ، ويُراد به فعل العمل الصالح والجزاء من الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] أي : اذكروني بالطاعة أذكركم بالخير .

ويأتي الذكْر بمعنى التسبيح والتحميد ، وبمعنى التذكُّر والاعتبار ، فله إذن معانٍ متعددة يُحدِّدها السياق .

لكن ، لماذا اختار كلمة (ذكر) ولم يقل مثلاً كتاباً ؟

(47/502)

قالوا : لأن الذكْر معناه أن تذكر الشيء بداية ؛ لأنه أمر مهم لا يُنسَى ، وهو ذِكْر لأنه يُسْتلهم ، ومن الذكر الاعتبار والتذكير ، والشيء لا يُذكر إلا إذا كان له أهمية ، هذه الأهمية

تتناسب مع الأمر من حيث مُدّة أهميته ومقدار أهميته ، وكل ذكر لشيء في الدنيا قصارى أمره أنْ يعطيك خير الدنيا ، أمّا القرآن فهو الذكر الذي يعطيك خير الدنيا والآخرة ؛ لذلك فهو أهم ذكر يجب أنْ يظلَّ على بالك لا يُنسى أبداً .

إذن : فالقرآن ذِكْر ذُكر أولاً ، وذِكْر يُذكَر ثانياً ، ويستلهم ذكراً يشمل الزمن كله في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يصف الحق تبارك وتعالى هذا الذكر ، فيقول : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ ﴾

أعرض : نعرف أن الطول أبعد المسافات ، وأن العرض أقصر المسافات ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أن يُصوِّر لنا اتساع مُلْكه سبحانه قال : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 133] فأتى بالأوسع للأقل ، فإن كان عَرْضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ لا بُدَّ أنه لا نهاية له .

والإنسان مِنّا له طول ، وله عرض ، ولا يميز العرض إلا الكتفان ، ودائماً مرآهما من الخلف ، لا من الأمام ؛ لذلك نجد الخياط إذا أراد أنْ يقيس لك الثوب قاسه من الخلف ، فعَرْض الإنسان مؤخرته من أعلى .

وبذلك يكون أعرض عن كذا ، يعني : تركه وذهب بعيداً عنه ، أو : أعطاه ظهره وانصرف عنه .

ومن ذلك ما نقوله (اديني عرض كتافك) يعني : در وجهك وانصرف عني ، فإنْ كان

جالساً تقول (انقُضْ طولك أو اطول) أي : قم وأَرِني طولك ، كي تريني عرض أكتافك وتنصرف عني .

(48/502)

والحق سبحانه وتعالى ، يعطينا صورة من الإعراض للذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فيقول : ﴿ يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : 35] .

وهكذا ترى ترتيب العذاب حسْب ترتيب الإعراض ، فأول ما واجهه السائل قَطَّب جبهته ، وكشَّر وبدَتْ عليه ملامح الغضب والضيق ، ثم أدار له جنبه ، ثم أعطاه ظهره وانصرف عنه .

والوِزْر : الحِمْل الثقيل ، وليْتَه في الدنيا فيمكنك أن تتخلص منه ، إما بأنْ يُوضع عنك ، وإما أنْ تفوته بالموت ، إنما الوِزْر هنا في الآخرة ؛ لذلك فهو وزر ثقيل لا ينحط عنك ولا تفوته بالموت ، فهو حِمْل لا نهايةَ له ولا أملَ في الخلاص منه . فهو ثقيل ممتد الإيلام ، فقد يكون الحمل ثقيلاً إلا أنه مُحبَّب إلى النفس ، كمَنْ يحمل شيئاً نافعاً له ، أمّا هنا فحِمْل ثقيل مكروه .

وبعد ذلك يستدرك به على العقوبة ، فالذي يأثم يُقال : أتى وزراً .

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ ﴾

ساء : قبح ذلك الحمل يوم القيامة ؛ لأن الحمل قد لا يكون قبيحاً إنْ كان خيراً ، وإن كان شراً فقد يحمله صاحبه في الدنيا ويزول عنه أمّا الوزر فحِمْل سيىء قبيح ، لأنه في دار الخُلْد التي لا نهايَة لها .

فمتى يكون ذلك ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(49/502)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ :

العامَّةُ على كسر السين خفيفةً . و" عِلْماً " على هذه القراءةِ تمييزٌ منقولٌ من الفاعلِ ؛ إذِ الأصلُ : وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْمُه . وقرأ مجاهد وقتادة بفتح السين مشددةً . وفي انتصاب " علماً " حينئذ [وجهان] ، أحدهما : أنه مفعولٌ به . قال الزمخشري : " وَجْهُه أنَّ وَسِع متعدٍّ إلى مفعولٍ واحد . وأمّا " عِلْماً " فانتصابُه على التمييز فاعلاً في المعنى . فلما ثُقِّل

نُقِل إلى التعديةِ إلى مفعولَيْنِ فنصبُهما معاً على المفعولية ؛ لأن المُميِّز فاعلٌ في المعنى ، كما تقول في " خاف زيد عمراً " : " خَوَّفْت زيداً عمراً " فتردُّ بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً " .

وقال أبو البقاء : " والمعنى : أعطى كل شيء عِلْماً " فضمَّنه معنى أعطى . وما قاله الزمخشريُّ أولى .

والوجه الثاني : أنه تمييزٌ أيضاً كما هو في قراءةِ التخفيفِ . قال أبو البقاء : " وفيه وجهٌ آخرُ : / وهو أن يكونَ بمعنى : عَظَّم خَلْقَ كلِ شيءٍ كالأرض والسماء ، وهو بمعنى بَسَط ، فيكون عِلْماً تمييزاً " . وقال ابن عطية : " وسَّع خَلْقَ الأشياءِ وكَثَّرها بالاختراع " .

قوله : ﴿ كذلك نَقُصُّ ﴾ :

الكافُ : إمَّا نعتٌ لمصدر محذوفٍ ، أو حالٌ من ضمير ذلك المصدرِ المقدَّر . والتقديرُ : نَقُصُّ هذا النبأ الغريبَ نَقُصٍّ . و " من أنباءِ " صفةٌ لمحذوفٍ هو مفعول نَقُصُّ أي : نَقُصُّ نبأً من أنباءِ .

قوله : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ ﴾ :

يجوزُ أَنْ تكونَ " مَنْ " شرطيةً أو موصولة . والجملةُ الشرطيةُ أو الخبريةُ الشبيهةُ بها في محلِ نصبٍ صفةً ل " ذِكْراً " .

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ :

حالٌ مِنْ فاعل "يَحْمِلُ" . فإنْ قيل : كيفَ [وقع] الجمعُ حالاً من مفردٍ ؟ فالجوابُ أنه حُمِل على لفظ "مَنْ" فَأُفْرِدَ الضميرُ في قولِه "أَعْرَضَ" و "فإنَّه" و "يَحْمِلُ" ، وعلى معناها فَجُمِعَ في "خالدين" و "لهم" . والضميرُ في "فيه" يعود ل "وِزْراً" . والمرادُ في العقاب المتسبِّبِ عن الوِزْرِ وهو الذنبُ فَأُقيم السببُ مُقامَ المُسَبَّبِ .

وقرأ داود بن رفيع "يُحَمَّلُ" مُضَعَّفاً مبنياً للمفعول والقائمُ مقامَ فاعِله ضميرُ "مَنْ" . و "وِزْراً" مفعولٌ ثانٍ .

قوله : ﴿ وَسَآءَ ﴾ هذه "ساء" التي بمعنى بِئْس . وفاعلُها مستترٌ فيها يعودُ على "حِمْلاً" المنصوبِ على التمييز ، لأنَّ هذا البابَ يُفَسَّر الضمير فيه بما بعدَه . والتقديرُ : وساء الحِمْل حِمْلاً . والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديرُه : وساء الحِمْل حِمْلاً وِزْرُهم : ولا يجوز أن يكون الفاعلُ ل "بِئْس" ضميرَ الوِزْرِ ، لأنَّ شَرْطَ الضميرِ في هذا الباب أن يعودَ على نفس التمييز . فإن قلت : ما أنكرتَ أن يكونَ في "ساء" ضميرُ الوِزْرِ ؟ قلت : لا يَصِحُّ أن يكونَ في "ساء" وحكمُه حكمُ "بئس" ضميرُ شيءٍ بعينه غيرِ مبهمٍ . ولا جائزٌ أن تكونَ "ساء" هنى بمعنى أهمَّ وأحزنَ ، فتكونَ متصرفةً كسائر الأفعال . قال الزمخشري : "كفاك صادّاً عنه أنْ يُؤول كلامُ الله تعالى إلى [قولِك] : وأحزن الوِزْرُ لهم يومَ القيامة حِمْلاً . وذلك بعد أن تَخْرَجَ عن عُهْدةِ هذه اللامِ وعُهْدَةِ هذا المنصوب" انتهى .

واللامُ في " لهم " متعلقةٌ بمحذوفٍ على سبيلِ البيان ، كهي في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 103.100 ﴾

(51/502)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) ﴾

أي إلهكم الذي تجب عليكم عبادته بحقِ أمره هو اللَّهُ الذي لا إله إلا هو ، وهو بوصف الجلال ، والذي لا يخفى عليه شيءٌ من المعلومات هو الله ، وليس مِثْلَ الذي هو جماد لا يَعْلَمْ ولا يَقْدِرُ ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر . ويمكنه أن يَسْحَقَ هذه الجماد ويحرقه .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾

نعرّفك أحوالَ الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليك شيءٌ من طرُقهم ؛ فتتأدبَ بآدابهم وتجتمعَ فيك مُتَفَرّقَات مناقبهم . . ولكن اعلمْ أَنَّا لم نُبلِغْ أحداً مَبْلَغَكَ ، ولم يكن لأحدٍ منّا مالَكَ ؛ آتيناك من عندنا شرَفاً وفخراً لم يشركك فيهما أحدٌ ، وذكّرناك ما سَلَفَ لَكَ من العهد معنا ، وجدّدْنا لك بينهم تخصيصنا إياك ، وكريمَ إقبالِنا عليك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ .

المُعْرِضُون عنه شركاءُ يحملون غداً وِزراً وثِقْلاً ، أولئك بعُدُوا عن محلّ الخصوصية ، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق ؛ فعقوبتُهم لا تزيد على آلام نفوسِهم وإحراقِ أشباحهم ، وأمّا أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسُوْه لحظةً لدَار – في الحال – على رؤوسهم البلاءُ بحيث تتلاشى في جهنّم عقوبةُ كلِّ أحدٍ (بالإضافة إلى هذه العقوبة) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 475 . 476 ﴾

(52/502)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم شرح لهم بعض أحوال ذلك اليوم من ابتدائه ، فقال مبدلاً من " يوم القيامة " : ﴿ يوم ينفخ ﴾ أي بعظمتنا – على قراءة أبي عمرو بالنون مبنياً لفاعل ، ودل على تناهي العظمة

بطريقة كلام القادرين في قراءة الباقين بالياء مبنياً للمفعول ﴿ في الصور ﴾ فيقوم الموتى من القبور ﴿ ونحشر ﴾ أي بعظمتنا ﴿ المجرمين ﴾ منهم الذين قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وعدل عن أن يقول : ونحشرهم - لبيان الوصف الذي جره لهم : الإعراض عن الذكر ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ، ويكون لهم ما تقدم ﴿ زرقاً ﴾ أي زرق العيون والجسوم على هيئة من ضرب فتغير جسمه ، حال كونهم ﴿ يتخافتون ﴾ .

ولما كان التخافت - وهو المسارّة بالكلام - قد يكون بين اثنين من قبيلتين ، فيكون كل منهما خائفاً من قومه أقل عاراً مما لو كانا من قبيلة واحدة ، لأنه يدل على أن ذلك الخوف طبع لازم ، قال دالاً على لزومه وعمومه : ﴿ بينهم ﴾ أي يتكلمون خافضي أصواتهم من الهيبة والجزع .

ولما كانت الزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب لعدم إلفهم لها ، والمخافتة أبغض الأصوات إليهم لأنها تدل عندهم على سفول الهمة والجبن وكانوا من الزرقة أشد نفرة لأن المخافتة قد يتعلق بها غرض .

رتبهما سبحانه كذلك ، ثم بين ما يتخافتون به فقال : ﴿ إن ﴾ أي يقول بعضهم لبعض : ما ﴿ لبثتم ﴾ أي في الدنيا استقصاراً لمدة إقامتهم في غيب ما بدا لهم من المخاوف ، أو غلطاً ودهشة ﴿ إلا عشراً ﴾ أي عقداً واحداً ، لم يزد على الآحاد إلا بواحد ، وهو لو أنه

سنون سن من لم يبلغ الحلم ، فكيف إذا كان شهوراً أو أياماً فلم يعرفوا لذة العيش بأيّ تقدير كان .

(53/502)

ولما كان علم ما يأتي أخفى من علم ما سبق ، أتى فيه بمظهر العظمة فقال : ﴿ نحن أعلم ﴾ من كل أحد ﴿ بما يقولون ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ في الدنيا فيما يحسبون ، أي أقربهم إلى أن تكون طريقته مثل ما يطلب منه : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ لبثتم ﴾ ودل على أن المعدود المحذوف من الأول الأيام بقوله : ﴿ إلا يوماً ﴾ أي مبدأ الآحاد ، لا مبدأ العقود كما قال في الآية الأخرى ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ [المؤمنون : 113] ﴿ يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ [الروم : 55] فلا يزالون في إفك وصرف عن الحق في الدارين ، لأن الإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، ويجوز أن يكون المراد أن من قال : إن لبثهم يوم واحد ، أمثلهم في نفس الأمر ، لأن الزمان وإن طال إنما هو يوم متكرر ، ليس مراداً لنفسه ، وإنما هو مراد لما يكون فيه فإن كان خيراً كان صاحبه محموداً ولم يضره قصره ، وإن كان شراً كان مذموماً ولم ينفعه طوله ، ويجوز أن يكون أنث أولاً إرادة لليالي ، لأنها محل الراحة المقصودة

بالذات ، فكان كأنهم قالوا : لم يكن لنا راحة إلا بزمن يسير جداً أكثر أول العقود ، ونص الأمثل على اليوم الذي يكون الكد فيه للراحة في الليل إشارة إلى أنهم ما كان لهم في اللبث في الدنيا راحة أصلاً ، ولم يكن سعيهم إلا نكداً كله كما يكون السعي في يوم لا ليلة يستراح فيها .

وإن كانت فيه راحة فهي ضمنية لا أصلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 46.45﴾

(54/502)

فصل

قال الفخر :

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور﴾

فالمراد بيان أن يوم القيامة هو يوم ينفخ في الصور وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله : ﴿وَنَحْشُرُ﴾ وقرأ الباقون ينفخ على ما لم يسم فاعله ونحشر بالنون لأن النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى ، وقرىء يوم ينفخ بالياء

المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لإسرافيل عليه السلام، وأما : يحشر المجرمين فلم يقرأ به إلا الحسن وقرئ في الصور بفتح الواو جمع صورة.

المسألة الثانية :

﴿ فِى الصور ﴾ قولان : أحدهما : أنه قرن ينفخ فيه يدعي به الناس إلى المحشر.

والثاني : أنه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ : الصور بفتح الواو والأول أولى لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى الناقور ﴾ [المدثر : 8] والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد في الدنيا ومن عادة الناس النفخ في البوق عند الأسفار وفي العساكر.

المسألة الثالثة :

المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لأن قوله بعد ذلك : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ كالدلالة على أن النفخ في الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ [النبأ : 18]، أما قوله : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قالت المعتزلة قوله : ﴿ المجرمين ﴾ يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر،

وقد تقدم هذا الكلام .

المسألة الثانية :

اختلفوا في المراد بالزرقة على وجوه : أحدها : قال الضحاك ومقاتل : يعني زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك ، فإن قيل : أليس أن الله تعالى أخبر أنهم : يحشرون عمياً فكيف يكون أعمى وأزرق ؟ قلنا : لعله يكون أعمى في حال وأزرق في حال .

وثانيها : المراد من الزرقة العمى .

قال الكلبي : زرقاً أي عمياً ، قال الزجاج : يخرجون بصراء في أول مرة ويعمون في المحشر .

وسواد العين إذا ذهب تزرق فإن قيل : كيف يكون أعمى ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 41] وشخوص البصر من الأعمى محال ، وقد قال في حقهم : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ [الإسراء : 14] والأعمى كيف يقرأ .

فالجواب : أن أحوالهم قد تختلف .

وثالثها : قال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والأزرق شاخص لأنه

لضعف بصره يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 41] .

ورابعها : زرقاً عطاشاً هكذا رواه ثعلب عن ابن الأعرابي قال : لأنهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] .

وخامسها : حكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال : طامعين فيما لا ينالونه .

الصفة الثالثة : من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

يتخافتون أي يتسارون .

يقال : خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108] وإنما يتخافتون لأنه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لأنهم صاروا بسبب الخوف في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن المراد بقوله : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ اللبث في الدنيا أو في القبر ، فقال قوم أرادوا به اللبث في الدنيا ، وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك ، واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العادين ﴾ [المؤمنون : 112 ، 113] فإن قيل : إما أن يقال إنهم نسوا قدر لبثهم في الدنيا ، أو ما نسوا ذلك ، والأول غير جائز إذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الإنسان خمسين سنة في بلد ثم ينساه .

والثاني : غير جائز لأنه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه : أحدها : لعلهم إذا حشروا في أول الأمر وعاينوا تلك الأهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم في الدنيا وما ذكروا إلا القليل فقالوا : ليتنا ما عشنا إلا تلك الأيام القليلة في الدنيا حتى لا نقع في هذه الأهوال ، والإنسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الأشياء وتمام تقريره مذكور في سورة الأنعام في قوله :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

وثانيها : أنهم عالمون بمقدار عمرهم في الدنيا إلا أنهم لما قابلوا أعمارهم في الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها في نهاية القلة فقال بعضهم : ما لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام وقال أعقلهم : بل ما لبثنا إلا يوماً واحداً أي قدر لبثنا في الدنيا بالقياس إلى قدر لبثنا في الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم ، وإنما خص العشرة والواحد بالذكر لأن القليل في أمثال هذه

المواضع لا يعبر عنه إلا بالعشرة والواحد .

وثالثها : أنهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لأن أيام السرور قصار .

(57/502)

ورابعها : أن أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب وإن طالت مدته قليل بالقياس إلى الآتي وإن قصرت مدته فكيف والأمر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ في التقليل فقال : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ .

القول الثاني : أن المراد منه اللبث في القبر ويعضده قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : 55] وقال : ﴿ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ [الروم : 56] فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا إشكال له في الآية ، أما من لم يجوز ، قال : إن الله تعالى لما أحياهم في القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم في القبر كم كان ، فخطر ببال بعضهم أنه في تقدير عشرة أيام ، وقال آخرون : إنه يوم واحد ، فلما وقعوا في العذاب مرة أخرى ، تمنوا زمان الموت الذي هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب .

المسألة الثالثة :

الأكثرون على أن قوله : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً ﴾ أي عشرة أيام ، فيكون قول من قال : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ أقل وقال مقاتل : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً ﴾ أي عشر ساعات كقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ [النازعات : 46] وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر ، والله أعلم واعلم أنه سبحانه وتعالى بين بهذا القول أعظم ما نالهم من الحيرة التي دفعوا عندها إلى هذا الجنس من التخافت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 99. 100 ﴾

(58/502)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾

فيه ستة أقاويل :

أحدها : عُمياً ، قاله الفراء .

الثاني : عطاشاً قد أزرقت عيونهم من شدة العطش ، قاله الأزهري .

الثالث : تشويه خَلْقِهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم .

الرابع : أنه الطمع الكاذب إذ تعقبته الخيبة ، وهو نوع من العذاب .

الخامس : أن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف ، قال الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا بن مكعبر . . . كما كل ضبي مِن اللؤم أزرق

قوله عز وجل : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يتسارُّون بينهم ، من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : 110] أي لا تُسرّ بها .

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ العشر على طريق التقليل دون التحديد وفيه وجهان :

أحدهما : إن لبثتم في الدنيا إلا عشراً ، لما شاهدوا من سرعة القيامة ، قاله الحسن .

الثاني : إن لبثتم في قبوركم إلاّ عشراً لما ساواه من سرعة الجزاء .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : نحن أعلم بما يقولونه مما يتخافتون به بينهم .

الثاني : نحن أعلم بما يجري بينهم من القول في مدد ما لبثوا .

﴿ إذ يقول أمثلهم طريقةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أوفرهم عقلاً .

الثاني : أكبرهم سداداً .

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ لأنه كان عنده أقصر زماناً وأقل لبثاً ، ثم فيه وجهان :

أحدهما : لبثهم في الدنيا .

الثاني : لبثهم في القبور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(59/502)

وقال ابن عطية :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

و ﴿ يوم ﴾ ظرف ، و ﴿ يوم ﴾ الثاني بدل منه وقرأ الجمهور "يُنفخ" بضم الياء وبناء الفعل للمفعول ، وقرأت فرقة "يَنفخ" بفتح الياء وبناء الفعل للفاعل ، أي ينفخ الملك . وقرأ أبو عمرو وحده "ننفخ" بالنون أي بأمرنا وهذه القراءة تناسب قوله ﴿ ونحشر ﴾ . وقرأ الجمهور "في الصور" بسكون الواو ، ومذهب الجمهور أنه القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وبهذا جاءت الأحاديث ، وقالت فرقة "الصوَر" جمع صورة كثمرة وثمر . وقرأ ابن عياض "ينفخ في الصوَر" بفتح الواو وهذه صريحة في بعث الأجساد من القبور ، وقرأت فرقة هي الجمهور ، "ونحشر" بالنون ، وقرأت فرقة "ويحشر" بالياء ، وقرأت فرقة "ويُحشر" بضم الياء "المجرمون" على المفعول الذي لم يسم فاعله ، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف وقوله : ﴿ زرقاً ﴾ اختلف الناس في معناه ، فقالت فرقة يحشرهم أول قيامهم سود

الألوان زرق العيون تشويه ما ثم يعمون بعد ذلك وهي مواطن ، وقالت فرقة إنهم يحشرون عطاشاً والعطش الشديد يرد سواد العين إلى البياض فكأنهم بيض سواد عيونهم من شدة العطش ، وقالت فرقة أراد زرق الألوان وهي غاية في التشويه لأنهم يجيئون كلون الرماد ، ومهيع كلام العرب أن يسمى هذا اللون أزرق ومنه زرقة الماء قال الشاعر : [زهير بن أبي سلمى] [الطويل]

فلما وردن الماء زرقاً جمامه . . . وضعن عصي الحاضر المتخيم

ومنه قولهم سنان أزرق لأنه نحو ذلك اللون .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) ﴾

(60/502)

أي " يتخافت " المجرمون ﴿ بينهم ﴾ أي يتسارون ، المعنى أنهم لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم قد عزب عنهم قدر المدة التي لبثوها ، واختلف الناس فيماذا ، فقالت فرقة في دار الدنيا ومدة العمر ، وقالت فرقة في الأرض مدة البرزخ ، وقالت فرقة ما بين النفختين في الصور ، و﴿ أمثلهم طريقة ﴾ معناه أثبتهم يقيناً وأعلمهم بالحقيقة بالإضافة إليهم فهم في هذه المقالة يظنون أن هذا قدر لبثهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾

قرأ أبو عمرو : "ننفخ" بالنون .

وقرأ الباقون من السبعة : "ينفخ" بالياء على ما لم يسم فاعله .

وقرأ أبو عمران الجوني : "يوم ينفخ" بياء مفتوحة ورفع الفاء ، وقد سبق بيانه .

﴿ ونحشر المجرمين ﴾ وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وطلحة بن مصرِّف : "ويحشر" بياء مفتوحة ورفع الشين .

وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وأبو عمران : "ويحشر" بياء مرفوعة وفتح الشين "المجرمون" بالواو .

قال المفسرون : والمراد بالمجرمين : المشركون .

﴿ يومئذ زُرْقاً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : عُمياً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وقال ابن قتيبة : بيض العيون من العمى ، قد ذهب السواد ، والناظر .

والثاني : زُرق العيون من شدة العطش ، قاله الزهري .

والمراد : أنه يشوّه خَلْقَهم بسواد الوجوه ، وزرق العيون .

قوله تعالى : ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ أي : يسارّ بعضهم بعضاً ﴿ إِن لبثتم ﴾ أي : ما لبثتم إِلا عشر ليال .

وهذا على طريق التقليل ، لا على وجه التحديد .

وفي مرادهم بمكان هذا اللبث قولان .

أحدهما : القبور .

ثم فيه قولان .

أحدهما : أنهم عَنَوا طول ما لبثوا فيها ، روى أبو صالح عن ابن عباس : إِن لبثتم بعد الموت إِلا عشراً .

والثاني : ما بين النفختين ، وهو أربعون سنة ، فإنه يخفف عنهم العذاب حينئذ ، فيستقلُّون مدة لبثهم لهول ما يعاينون ، حكاه علي ابن أحمد النيسابوري .

والقول الثاني : أنهم عَنَوا لبثهم في الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ إِذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أي : أعقلهم ، وأعدلهم قولاً ﴿ إِن لبثتم إِلا يوماً ﴾ فنسي القوم مقدار لبثهم لهول ما عاينوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾

قراءة العامة "يُنْفَخُ" بضم الياء على الفعل المجهول .

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بنون مسمى الفاعل .

واستدل أبو عمرو بقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ ﴾ بنون .

وعن ابن هُرْمُز "يَنْفُخُ" بفتح الياء أي ينفخ إسرافيل .

أبو عياض : "فِي الصُّوَرِ" .

الباقون : "في الصُّورِ" وقد تقدم هذا في "الأنعام" مستوفى وفي كتاب "التذكرة" .

وقرأ طلحة بن مُصرِّف "وُيحْشَرُ" بضم الياء "الْمُجْرِمُونَ" رفعاً بخلاف المصحف .

والباقون ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين ﴾ أي المشركين .

﴿ زُرْقاً ﴾ حال من المجرمين ، والزَّرَق خلاف الكَحَل .

والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه ؛ أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم .

وقال الكلبي والفراء : "زرقاً" أي عمياً .

وقال الأزهري : عطاشاً قد ازرقت أعينهم من شدة العطش ؛ وقاله الزجاج ؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويزرقّ من العطش .

وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ؛ يقال : ابيضت عيني لطول انتظاري لكذا .

وقول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف ؛ قال الشاعر :

لقد زَرِقت عيناك يا ابنَ مُكَعْبَرٍ . . .

كما كُلُّ ضَبِّيٍ من اللؤمِ أَزْرَقُ

يقال : رجل أزرق العين ، والمرأة زرقاء بينة الزَّرَق .

والاسم الزُّرقة .

وقد زَرِقت عينه بالكسر وازرقت عينه ازرقاقاً ، وازراقت عينه ازريقاقاً .

وقال سعيد بن جبير : قيل لابن عباس في قوله : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] فقال : إن ليوم القيامة حالات ؛ فحالة يكونون فيها زرقا ، وحالة عميا .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أصل الخفت في اللغة السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته خَفَتَه .

والمعنى يتسارون ؛ قاله مجاهد ؛ أي يقول بعضهم لبعض في الموقف سراً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم يعني في الدنيا ، وقيل : في القبور ﴿ إِلاَّ عَشْراً ﴾ يريد عشر ليال .

وقيل : أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة ؛ يرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار في قول ابن عباس فيستقصرون تلك المدة .

أو مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة ؛ ويخيل إلى أمثلهم أي أعدلهم قولاً وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً يعني لبثهم في الدنيا ؛ عن قتادة ؛ فالتقدير : إلا مثل يوم .

وقيل : إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم .

وقيل : أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين ، أو لبثهم في القبور على ما تقدم .

"وعشراً" و"يوماً" منصوبان ب"لبثتم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

ويوم ننفخ بدل من يوم القيامة .

وقرأ الجمهور ﴿ يُنفخ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ ونحشر ﴾ بالنن مبنياً للفاعل بنون العظمة .

وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وحميد : ننفخ بنون العظمة لنحشر أسند النفخ إلى الآمرية ، والنافخ هو إسرافيل ولكرامته أسند ما يتولاه إلى ذاته المقدسة و ﴿ الصور ﴾ تقدم الكلام فيه في الأنعام .

وقرىء يَنْفُخُ ويَحْشُرُ بالياء فيهما مبنياً للفاعل .

وقرأ الحسن وابن عياض في جماعة ﴿ في الصور ﴾ على وزن درر والحسن : يُحْشَرُ ، بالياء مبنياً للمفعول ، ويَحْشُرُ مبنياً للفاعل ، وبالياء أي ويحشر الله .

والظاهر أن المراد بالزرق زرقة العيون ، والزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين .

وقال الشاعر :

وما كنت أخشى أن تكون وفاته . . .

بكفي سبنتي أزرق العين مطرق

وقد ذكر في آية أخرى أنهم يحشرون سود الوجوه ، فالمعنى تشويه الصورة من سواد الوجه وزرقة العين وأيضاً فالعرب تتشاءم بالزرقة .

قال الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر . . .

ألا كل عليسى من اللؤم أزرق

وقيل : المعنى عمياً لأن العين إذا ذهب نورها ازرقّ ناظرها ، وبهذا التأويل يقع الجمع بين قوله ﴿ زرقاً ﴾ في هذه الآية و﴿ عمياً ﴾ في الآية الأخرى .

وقيل : زرق ألوان أبدانهم ، وذلك غاية في التشويه إذ يجيؤن كلون الرماد وفي كلام العرب يسمى هذا اللون أزرق ، ولا تزرق الجلود إلا من مكابدة الشدائد وجفوف رطوبتها .

وقيل : ﴿ زرقاً ﴾ عطاشاً والعطش الشديد يرد سواد العين إلى البياض ، ومنه قولهم سنان أزرق وقوله :

فلما وردن الماء زرقاً جمامه . . .

أي ابيض ، وذكرت الآيتان لابن عباس فقال : ليوم القيامة حالات فحالة يكونون فيها زرقاً وحالة يكونون عمياً .

﴿ يتخافتون ﴾ يتسارّون لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم قد عزب عنهم قدر المدة التي لبثوا فيها ﴿ إن لبثتم ﴾ أي في دار الدنيا أو في البرزخ أو بين النفختين في الصور ثلاثة أقوال ، ووصف ما لبثوا فيه بالقصر لأنها لما يعاينون من الشدائد كانت لهم في الدنيا أيام

سرور ، وأيام السرور قصار أو لذهابها عنهم وتقضيها ، والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء ، أو لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة و﴿ إذ ﴾ معمولة لأعلم .

و﴿ أمثلهم ﴾ أعدلهم .

و﴿ طريقة ﴾ منصوبة على التمييز .

﴿ إلاّ يوماً ﴾ إشارة لقصر مدة لبثهم .

و﴿ إلا عشراً ﴾ يحتمل عشر ليال أو عشرة أيام ، لأن المذكر إذا حذف وأبقي عدده قد لا يأتي بالتاء .

حكى الكسائي عن أبي الجراح : صمنا من الشهر خمساً ، ومنه ما جاء في الحديث ثم أتبعه بست من شوال ، يريد ستة أيام وحسن الحذف هنا كون ذلك فاصلة رأس آية ذكر أولاً منتهى أقل العدد وهو العشر ، وذكر أعدلهم طريقة أقل العدد ، وهو اليوم الواحد ودل ظاهر قوله ﴿ إلاّ يوماً ﴾ على أن المراد بقولهم ﴿ عشراً ﴾ عشرة أيام . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

بدلٌ من يوم القيامة أو منصوبٌ بإضمار اذكُر أو ظرفٌ لمضمر قد حُذف للإيذان بضيق العبارةِ عن حصره وبيانِه حسبما مر في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ وقرىء ننفخ بالنون على إسناد النفخِ إلى الآمرِ به تعظيماً له ، وبالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لإسرافيلَ عليه السلام وإن لم يجْرِ ذكرُه لشهرته ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يُنفخ في الصور ، وذكرُه صريحاً مع تعيّن أن الحشرَ لا يكون إلا يومئذ للتهويل ، وقرىء ويُحشَر المجرمون ﴿ زُرْقاً ﴾ أي حال كونهم زرْقَ العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزُّرقةَ أسوأُ ألوانِ العين وأبغضُها إلى العرب فإن الرومَ الذين كانوا أعدى عدوِّهم زرُقٌ ، ولذلك قالوا في صفة العدو : أسودُ الكِبد وأصهبُ السِّبال وأزرق العين ، أو عُمياً لأن حدقَةَ الأعمى تزرقّ .

(67/502)

وقوله تعالى : ﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ ﴾ أي يخفِضون أصواتَهم ويُخفونها لما يملأ صدورَهم من الرعب والهول ، استئنافٌ ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ ، أو حالٌ أخرى من المجرمين

أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم في الدنيا ﴿ إِلَّا عَشْراً ﴾ أي عشرَ ليالٍ استقصاراً لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدةَ الآخرة لتأسفهم عليها لمَّا عاينوا الشدائدَ وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطارِ واتّباعِ الشهوات ، أو في القبر وهو الأنسبُ بحالهم فإنهم حين يشاهدون البعثَ الذي كانوا يُنكِرونه في الدنيا ويعُدّونه من قبيل المُحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافاً به وتحقيقاً لسرعة وقوعِه ، كأنهم قالوا : قد بُعثتم وما لبثتم في القبر إلا مدةً يسيرة ، وإلا فحالُهم أفظعُ من أن تمكّنهم من الاشتغال بتذكر أيامِ النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وهو مدةُ لبثهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي أعدلُهم رأياً أو عملاً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ ونسبةُ هذا القولِ إلى أمثلهم استرجاحٌ منه تعالى له لكن لا لكونه أقربَ إلى الصدق بل لكونه أدلّ على شدة الهول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(68/502)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

منصوب بإضمار اذكر ، وجوز أن يكون ظرف المضمر حذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه أو بدلاً من ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ [طه : 101] أو بياناً له أو ظرفاً لِ ﴿ يتخافتون ﴾ [طه : 103] ، وقرأ أبو عمرو .

وابن محيصن .

وحميد ﴿ ننفخ ﴾ بنون العظمة على إسناد الفعل إلى الآمر به وهو الله سبحانه تعظيماً للنفخ لأن ما يصدر من العظم عظيم أو للنافخ يجعل فعله بمنزلة فعله تعالى وهو إنما يقال لمن له مزيد اختصاص وقرب مرتبة ، وقيل : إنه يجوز أن يكون لليوم الواقع هو فيه .

وقرىء ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ بالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام وإن لم يجر ذكره لشهرته ؛ وقرأ الحسن .

وابن عياض في جماعة ﴿ فِى الصور ﴾ بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة كغرفة وغرف ، والمراد به الجسم المصور .

وأورد أن النفخ يتكرر لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ [الزمر : 68] والنفخ في الصورة إحياء والإحياء غي متكرر بعد الموت وما في القبر ليس بمراد من النفخة الأولى بالاتفاق .

وأجيب بأنه لا نسلم أن كل نفخ إحياء ، وبعضهم فسر الصور على القراءة المشهورة بذلك أيضاً ، والحق تفسيره بالقرن الذي ينفخ فيه ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ ﴾ أي يوم إذ ينفخ في الصور ، وذكر ذلك صريحاً مع تعين أن الحشر لا يكون إلا يومئذ للتهويل ، وقرأ الحسن ﴿ يُحْشَرُ ﴾ بالياء والبناء للمفعول و ﴿ المجرمون ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل ، وقرىء أيضاً ﴿ يُحْشَرُ ﴾ بالياء والبناء للفاعل وهو ضميره عز وجل أي ويحشر الله تعالى المجرمين ﴿ زُرْقاً ﴾ حال كونهم زرق الأبدان وذلك غاية في التشويه ولا تزرق الأبدان إلا من مكابدة الشدائد وجفوف رطوبتها ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما زرق العيون فهو وصف للشيء بصفة جزئه كما يقال غلام أكحل وأحول والكحل والحول من صفات العين ، ولعله مجاز مشهور ، وجوز أن يكون حقيقة كرجل أعمى وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أشد أعدائهم عداوة زرق ، ولذلك قالوا في وصف العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين ، وقال الشاعر :

وما كنت أخشى أن تكون وفاته . . .

بكفي سبنتي أزرق العين مطرق

وكانوا يهجون بالزرقة كما في قوله :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر . . .

الأكل ضبي من اللؤم أزرق

وسئل ابن عباس عن الجمع بين ﴿ زُرْقاً ﴾ على ما روى عنه و﴿ عميا ﴾ [الإسراء : 97] في آية أخرى فقال : ليوم القيامة حالات فحالة يكونون فيها عمياً وحالة يكونون فيها زرقاً .

وعن افراء المراد من ﴿ زُرْقاً ﴾ عمياً لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها ، ووجه الجمع عليه ظاهر ، وعن الإهري المراد عطاشاً لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق ، وقيل : يجعله أبيض ، وجاء الأزرق بمعنى الأبيض ومنه سنان أزرق ، وقوله :

فلما وردنا الماء زرقاً جمامه . . .

ويلائم تفسيره بعطاشا قوله تعالى على ما سمعت ﴿ نَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] .

﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ ﴾ أي يخفضون أصواتهم ويخفونها لشدة هول المطلع ، والجملة استئناف لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من ﴿ المجرمين ﴾ [طه : 102] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ بتقدير قول وقع حالاً من ضمير ﴿ يتخافتون ﴾ أي قائلين ما لبثتم في القبور ﴿ إِلاَّ عَشْراً ﴾ أي عشر ليال أو عشرة أيام ، ولعله أوفق بقول الأمثل .

والمذكر إذا حذف وأبقى عدده قد لا يؤتى بالتاء حكى الكسائي صمناً من الشهر خمساً ، ومنه ما جاء في الحديث ﴿ ثُمَّ أَتْبِعُهُ ﴾ فإن المراد ستة أيام ، وحسن الحذف هنا كون ذلك فاصلة ، ومرادهم من هذا القول استقصار المدة وسرعة انقضائها والتنديم على ما كانوا يزعمون حيث تبين الأمر على خلاف ما كانوا عليه من إنكار البعث وعده من قبيل المحالات كأنهم قالوا : قد بعثتم وما لبثتم في القبر إلا مدة يسيرة وقد كنتم تزعمون أنكم لن تقوموا منه أبداً ، وعن قتادة أنهم عنوا لبثهم في الدنيا وقالوا ذلك استقصاراً لمدة لبثهم فيها لزوالها ولاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعة الأيام في قضاء الأوطار واتباع الشهوات ، وتعقب بأنهم في شغل شاغل عن تذكر ذلك فالأوفق بحالهم ما تقدم ، وبأن قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ [الروم : 56] صريح في أنه اللبث في القبور وفيه بحث .

وفي "مجمع البيان" عن ابن عباس .

وقتادة أنهم عنوا لبثهم بين النفختين يلبثون أربعين سنة مرفوعاً عنهم العذاب ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي بالذي يقولونه وهو مدة لبثهم .

﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي أعدلهم رأياً وأرجحهم عقلاً و﴿ إِذْ ﴾ ظرف يقولون ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ واحداً وإليه ينتهي العدد في القلة .

(71/502)

وقيل : المراد باليوم مطلق الوقت وتنكيره للتقليل والتحقير فالمراد إلا زمناً قليلاً ، وظاهر المقابلة بالعشر يبعهد ، ونسبة هذا القول إلى ﴿ أمثالهم ﴾ استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق بل لكونه أعظم في التنديم أو لكونه أدل على شدة الهول وهذا يدل على كون قائله أعلم بفظاعة الأمر وشدة العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(72/502)

وقال القاسمي :

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾

بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] ، وعلينا أن يؤمن بما ورد من النفخ في الصور . وليس علينا أن نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ للمسلم . أفاده بعض المحققين .

﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : نسوقهم إلى جهنم : ﴿ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ أي : زرق الوجوه . الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية : ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 106] .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف بصره ، يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : 42] ، نقله الرازي . والأول أظهر ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : يتسارّون من الرعب والهول ، أو من الضعف ، قائلين : ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي : في الدنيا : ﴿ إِلَّا عَشْراً ﴾ أي : عشر ليال .

(73/502)

قال الزمخشري : يستقصرون مدة لبثهم [في المطبوع : لبثم] في الدنيا ، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور ، فيتأسّفون عليها ويصفونها بالقصر . لأن أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتَقَضَّتْ . والذاهب ، وإن طالت مدته ، قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت : أطال الله بقاءك كفى بالانتهاء قصراً . وإما لاستطالتهم الآخرة ، وأنها أبد سرمد ، يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويتقالّ لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة . وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقالاً منهم ، في قوله تعالى :

(74/502)

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي : أعدلهم رأياً : ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ ونحوه قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ [المؤمنون : 112 – 113] ، انتهى .

قال أبو السعود : ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ، استرجاع منه تعالى له ، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدلّ على شدة الهول . أي : ولكونه منتهى الأعداد القليلة . وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمديّ ، وإلى تقضي الغائب الذي كأن لم يكن . ولا ينافي هذا ما

جاء في آية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] ، لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل ، فتصدق باليوم . كما أن المراد باليوم مطلق الوقت . ولذلك نكر ، تقليلاً له وتحقيراً .

قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال عَشْراً أو يَوْماً أو سَاعَةً حقيقة اختلافهم في مدة اللبث ، ولا الشك في تعيينه . بل المراد أنه لسرعة زواله ، عبّر عن قلّته بما ذكر . فتفنن في الحكاية ، وأتى في كل مقام بما يليق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 154.155 ﴾

(75/502)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾

بدل من ﴿ يومَ القيامة ﴾ [طه : 101] في قوله ﴿ وسَاءَ لهم يوم القيامة حملاً ﴾ [طه : 101] ، وهو اعتراض بين جملة ﴿ وقد ءَاتيناك من لدُنَّا ذِكراً ﴾ [طه : 99] وما تبعها وبين جملة ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ [طه : 113] ، تخلّص لذكر البعث والتذكير به والنذارة بما يحصل للمجرمين يومئذ .

والصُور : قَرن عظيم يُجعل في داخله سِداد لبعض فضائه فإذا نفخ فيه النافخ بقوة خرج منه صوت قوي ، وقد اتخذ للإعلام بالاجتماع للحرب .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ في سورة الأنعام (73) .

وقرأ الجمهور يُنفخ بياء الغيبة مبنياً للمجهول ، أي ينفخ نافخ ، وهو الملك الموكل بذلك .

وقرأه أبو عمرو وحده ننفخ بنون العظمة وضم الفاء وإسناد النفخ إلى الله مجاز عقلي باعتبار أنّه الآمر به ، مثل : بنى الأمير القلعة .

والمجرمون : المشركون والكفرة .

والزرق : جمع أزرق ، وهو الذي لونه الزُّرقة .

والزرقة : لون كلون السماء إثر الغروب ، وهو في جلد الإنسان قبيح المنظر لأنه يشبه لون ما أصابه حرقُ نارٍ .

وظاهر الكلام أن الزرقة لون أجسادهم فيكون بمنزلة قوله يوم ﴿ تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ [آل عمران : 106] ، وقيل : المراد لون عيونهم ، فقيل : لأنّ زرقة العين مكروهة عند العرب .

والأظهر على هذا المعنى أن يراد شدّة زرقة العين لأنّه لون غير معتاد ، فيكون كقول بشّار :

وللبخيل على أمواله عِلل . . .

زُرْقُ العُيونِ عليها أَوْجُه سُودُ

وقيل : المراد بالزُّرق العُمْي ، لأن العمى يلوّن العين بزرقة .

وهو محتمل في بيت بشّار أيضاً .

والتخافت : الكلام الخفي من خوف ونحوه .

وتخافتهم لأجل ما يملأ صدورهم من هول ذلك اليوم كقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ [طه : 108] .

(76/502)

وجملة ﴿ إن لَّبِثْتُم إلاَّ عَشْراً ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ يتخافتون ﴾ ، وهم قد علموا أنهم كانوا أمواتاً ورفاتاً فأحياهم الله فاستيقنوا ضلالهم إذ كانوا ينكرون الحشر .

ولعلهم أرادوا الاعتذار لخطئهم في إنكار الإحياء بعد انقراض أجزاء البدن مبالغة في المكابرة ، فزعموا أنهم ما لبثوا في القبور إلاّ عشرَ ليال فلم يصيروا رفاتاً ، وذلك لما بقي في نفوسهم من استحالة الإحياء بعد تفرق الأوصال ، فزعموا أن إحياءهم ما كان إلا بردّ الأرواح إلى الأجساد .

فالمراد باللبث : المكث في القبور ، كقوله تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين

قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ في سورة المؤمنين (112 ، 113) ، وقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ في سورة الروم (55) .

و(إذ) ظرف ، أي يتخافتون في وقت يقول فيه أمثلهم طريقةً .

والأمثل : الأرجح الأفضل .

والمَثالة : الفضل ، أي صاحب الطريقة المثلى لأن النسبة في الحقيقة للتمييز .

والطريقة : الحالة والسنّة والرأي ، والمراد هنا الرأي ، وتقدم في قوله ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ [طه : 63] في هذه السورة ، ولم يأت المفسرون في معنى وصف القائل ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ بأنه أمثل طريقة بوجه تطمئن له النفس .

والذي أراه : أنه يحتمل الحقيقة والمجاز ؛ فإن سلكنا به مسلك الحمل على الحقيقة كان المعنى أنه أقربهم إلى اختلاق الاعتذار عن خطئهم في إنكارهم البعث بأنهم ظنوا البعث واقعاً بعد طول المكث في الأرض طولاً تتلاشى فيه أجزاء الأجسام ، فلما وجدوا أجسادهم كاملة مثل ما كانوا في الدنيا قال بعضهم ﴿ إن لبثتم إلا عشراً ﴾ ، فكان ذلك القول عذراً لأن عشر الليالي تتغيّر في مثلها الأجسام .

فكان الذي قال ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ أقرب إلى رواج الاعتذار .

فالمراد : أنه الأمثل من بينهم في المعاذير ، وليس المراد أنه مصيب .

وإن سلكنا به مسلك المجاز فهو تهكم بالقائل في سوء تقديره من لبثهم في القبور ، فلما كان كلا التقديرين متوغلاً في الغلط مؤذناً بجهل المقدّرين واستِبهام الأمر عليهم دالاً على الجهل بعظيم قدرة الله تعالى الذي قَضّى الأزمانَ الطويلة والأممَ العظيمة وأعادهم بعد القرون الغابرة ، فكان الذي قدر زمن المكث في القبور بأقلِ قَدْرٍ أوغل في الغلط فعُبر عنه بـ ﴿ أَمْثَلُهُم طَرِيقَةً ﴾ تهكماً به وبهم معاً إذ استوى الجميع في الخطأ .

وجملة ﴿ نَحنُ أعلَمُ بما يَقُولونَ ﴾ معترضة بين فعل ﴿ يتخافتون وظرفية إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُم ﴾ ، أي إنهم يقولون ذلك سراً ونحن أعلم به وإننا نخبر عن قولهم يومئذ خبر العليم الصادق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(78/502)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾

وهو يوم القيامة ، والصور : هو البوق الذي يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] .

أي : نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هي لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه ، وازرقّ لونه بسبب شيء تعرَّض له ، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام في كيماوية الجسم من الداخل ، فهو انفعال داخلي يظهر أثره على البشرة الخارجية ، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدِث لهم هذه الزرقة .

والبعض يفسر ﴿ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] أي : عُمْياً ، ومن الزُّرْقة مَا ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التي تصيب العين وقد تسبب العمى .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) ﴾

أي : في هذه الحال التي يُحشرون فيها زرقاً ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه : 103] أي : يُسِرُّون الكلام ، ويهمس بعضهم إلى بعض ، لا يجرؤ أحد منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى ، والخائف حينما يلاقي من عدوه مَا لا قِبلَ له به يُخفِي صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه ؛ أو : لأن الأمر مَهُول لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقة للكلام ، فليس في وُسْعه أكثر من الهَمْس .

فما وجه التخافت ؟ وبِمَ يتخافتون ؟

يُسِرُّ بعضهم إلى بعض ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ [طه : 103] يقول بعضهم لبعض : ما

لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام ، ثم يُوضّح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي ، بدليل قوله في الآية بعدها : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ [طه : 104] .

(79/502)

فانتهت العشرة إلى يوم واحد ، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] فكُلُّ ما ينتهي فهو قصير .

إذن : أقوال متباينة تميل إلى التقليل ؛ كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هي إلا ساعة : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف : 35] .

وما هذا التقليل لمدة لُبْثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم وقِلَّة الخير الذي قدَّموه فيها ، لقد غفلوا فيها ، فخرجوا منها بلا ثمرة ؛ لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذْراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث ، كأنه لم يكُنْ لديهم وقت لعمل الخير ؟ ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

الحق تبارك وتعالى يقصُّ على رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين في الآخرة ، فإذا ما وقعتْ القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله

هي هي ؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شيء علماً .

وهذا القول الذي حكاه القرآن عنهم أمر في اختيارهم ، وقد سمعوا ذلك من رسول الله ، وبوسعهم ألَّا يقولوا ، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيِّرون منه شيئاً .

وقوله : ﴿ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ [طه : 104] يعني : أحسنهم حُكْماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(80/502)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ :

" يومَ " بدل من " يومَ القيامة " أو بيانٌ له ، أو منصوبٌ بإضمار فعل ، أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ .

وبُني على الفتحِ على رأي الكوفيين كقراءةِ ﴿ هذا يَوْمَ ينفعُ ﴾ [المائدة : 119] وقد تقدم .

وقرأ أبو عمروٍ " نَنْفُخُ " مبنياً للفاعل بنونِ العظمة ، أُسْنِدَ الفعلُ إلى الآمِر به تعظيماً للمأمورِ

، وهو المَلَكُ إسرافيل . والباقون بالياءِ مضمومةً مفتوحَ الفاءِ على البناءِ للمفعول . والقائمُ مقامَ الفاعل الجارُّ والمجرورُ بعدَه . والعامَّةُ على إسكانِ الواو . وقرأ الحسنُ وابنُ عامرٍ في روايةٍ بفتحها جمعَ " صُوْرَة " كغُرَف جمع غُرْفَة . وقد تقدَّم القولُ في " الصور " في الأنعام .

وقرىء " يَنْفُخُ " و " يَحْشُر " بالياءِ مفتوحةً مبنياً للفاعل ، وهو الله تعالى أو المَلَكُ . وقرأ الحسنُ وطلحةُ وحميدٌ " يُنْفَخ " كالجمهور و " يَحْشر " بالياءِ مفتوحةً مبنياً للفاعل .

والفاعلُ كما تقدَّم ضميرُ الباري أو ضميرُ المَلَك . ورُوي عن الحسن أيضاً و " يُحْشَر " مبنياً للمفعول " المجرمون " رفعٌ به . و " زرْقاً " حال من المجرمين . والمرادُ زُرْقَةُ العيونِ .

وجاءَتِ الحالُ هنا بصفةٍ تشبه اللازمة ؛ لأنَّ أصلَها على عَدَمِ اللزومِ ، ولو قلتَ في الكلامِ : " جاءني زيدٌ أزرقَ العينِ " لم يَجُزْ إلاَّ بتأويلٍ .

قوله : ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأن يكونَ حالاً ثانيةً من " المجرمين " ، وأن يكونَ حالاً من الضميرِ المستترِ في " زرقاً " فتكونَ حالاً متداخلةً إذ هي حالٌ من حال . ومعنى " يَتَخافَتُون " : أي : يتسارُّوْن فيما بينهم .

وقوله: ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ ﴾ هو مفعولُ المسارّة. وقوله: ﴿ إِلاَّ عَشْراً ﴾ يجوز أن يُرادَ الليالي، فَحَذْفُ التاءِ من العددِ قياسٌ، وأن يرادَ الأيامُ فيُسأل: لِمَ حُذِفت التاء؟ فقيل: إنْ لم يُذْكَرِ المميِّز في عددِ المذكرِ جازت التاءُ وعدمُها. سُمع من كلامهم "صُمْنا من الشهر خمساً" والمَصُومُ إنما هو الأيامُ دون الليالي. وفي الحديث: "مَنْ صامَ رمضانَ وأتبعه بستٍّ من شوال" وحَسُن الحذف هنا لكونِه رأسَ آيةٍ وفاصلة.

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) ﴾

قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾: منصوبٌ بـ"أعلمُ" و"طريقةً" نصبٌ على التمييز. انتهى ا. هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 103.104 ﴾

(82/502)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) ﴾

قومٌ يومُ القيامة لهم مُؤجّل، وهو بعد النفخ في الصُّور على ما وَرَدَ في الكتاب وفي الخبر المأثور.

وللآخرين قيامةٌ مُعَجَّلةٌ ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة ، وهوان حاضر وعذاب حاصل ، فكما تَرِدُ على ظواهرِ قومٍ في الآخرة عقوباتٌ ، تَرِدُ على سرائر آخرين عقوباتٌ في لاحياة الحاضرة ، والمعاملةُ مع كلِّ أحدٍ تخالف المعاملةَ مع صاحبه .

قوله : ﴿ يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ مَنْ تَفَرَّغَ لعَدِّ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوعٌ غير مستوفٍ في بلائه ، وأمره سهلٌ . . . ومَنْ كان يُرادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال ؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يُسْأَلُ عن الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 476.477 ﴾

(83/502)

قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن بعض ما سبق ثم عن بعض ما يأتي من أحوال المعرضين عن هذا الذكر فيما ينتجه لهم إعراضهم عنه ، وختم ذلك باستقصارهم مدة لبثهم في هذه الدار ، أخبر عن بعض أحوالهم في الإعراض فقال : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ ما يكون حالها يوم ينفخ في الصور ؟ شكا منهم في البعث وقوفاً مع الوهم في أنها تكون موجودة على قياس جمودهم لا محالة ، لأنها أشد الأشياء قوة ، وأطولها لبثاً ، وأبعدها مكثاً ، فتمنع بعض الناس من سماع النفخ في الصور ، وتخيل للبعض بحكم رجع الهواء الحامل للصوت أنه آتٍ من غير جهته فلا يستقيم القصد إلى الداعي ﴿ فقل ﴾ أي فتسبب عن علمنا بأنهم يسألونك هذا السؤال أنا نقول لك : قل ، أو يكون على تقدير شرط ، أي فإذا سألوك فقل لهم ، وهذا بخلاف ما نزل بعد وقوع السؤال عنه مثل الروح وقصة ذي القرنين فإن الأمر بجوابه على طريق الاستئناف لما هناك من استشراف النفس للجواب ﴿ ينسفها ﴾ أي يقلعها من أماكنها ويذريها بالهواء ﴿ ربي ﴾ المحسن إليّ بنصري في يوم القيامة نصراً لا يبلغ كنهه ﴿ نسفاً ﴾ عند النفخة الأولى ﴿ فيذرها ﴾ أي أماكنها ﴿ قاعاً ﴾ أي أرضاً ملساء ﴿ صفصفاً ﴾ أي مستوياً كأنه صف واحد لا اثر للجبال فيه ﴿ لا ترى ﴾ أي بالبصر ولا بالبصيرة ﴿ فيها ﴾ أي مواضع الجبال ﴿ عوجاً ﴾ بوجه من الوجوه ، وعبر هنا بالكسر هو للمعاني ، ولم يعبر بالفتح الذي يوصف به الأعيان ، ومواضع الجبال أعيان لا معاني ،

نفياً للاعوجاج على أبلغ وجه ، بمعنى أنك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الأراضي لا تفقوا على الحكم باستوائها ، ثم لو جمعت أهل الهندسة فحكموا مقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك ﴿ ولا أمتاً ﴾ أي شيئاً مرتفعاً كالكدية أو نتوّاً يسيراً أو شقاً أو اختلافاً ؛ وقال البيضاوي والزمخشري : الأمت النتوّ اليسير ، قال الغزالي في الدرة الفاخرة : ينفخ في الصور فتطاير الجبال ، وتفجر الأنهار بعضها في بعض ، فيمتلىء عالم الهواء ماء ، وتنتثر الكواكب وتتغير السماء

والأرض ، ويموت العالمون فتخلو الأرض والسماء ؛ قال : ثم يكشف سبحانه عن بيت في سقر فيخرج لهيب النار فيشتعل في البحور فتنشف ، ويدع الأرض جمرة سوداء ، والسماوات كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب ، ثم يفتح تعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة ، فيمطر به الأرض ، وهو كمنيّ الرجال فتنبت الأجسام على هيئتها ، الصبى صبي ، والشيخ شيخ ، وما بينهما ، ثم تهب من تحت العرش نار لطيفة فتبرز الأرض ليس فيها جبل ولا عوج ولا أمت ، ثم يحيى الله إسرافيل فينفخ في الصور من صخرة القدس ، فتخرج الأرواح من ثقب في الصور بعددها كل روح إلى جسدها حتى الوحش

والطير فإذا هم بالساهرة .

ولما أخبر سبحانه بنزول ما يكون منه العوج في الصوت قال : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ ينفخ في الصور فتنسف الجبال ﴿ يتبعون ﴾ أي أهل المحشر بغاية جهدهم ﴿ الداعي ﴾ أي بالنفخ منتصبين إليه على الاستقامة ﴿ لا عوج له ﴾ أي الداعي في شيء من قصدهم إليه ، لأنه ليس في الأرض ما يحوجهم إلى التعريج ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء ؛ وقال أبو حيان : أي لا عوج لدعائه ، بل يسمع جميعهم فلا يميل إلى ناس دون ناس .

ولما أخبر بخشوعهم في الحديث والانقياد للدعوة ، أخبر بخشوع غير ذلك من الأصوات التي جرت العادة بكونها عن الاجتماع فقال : ﴿ وخشعت الأصوات ﴾ أي ارتخت وخفيت وخفضت وتطامنت لخشوع أهلها ﴿ للرحمن ﴾ أي الذي عمت نعمه ، فيرجى كرمه ، ويخشى نقمه ﴿ فلا ﴾ أي فيتسبب عن رخاوتها أنك ﴿ تسمع إلا همساً ﴾ أخفى ما يكون من الأصوات ، وقيل : أخفى شيء من أصوات الأقدام .

ولما تقرر ما للأصوات من الانخفات ، وكان قد أشير فيما مضى إلى وقوع الشفاعة من بعض أخصائه بإذنه ، وكان الحشر للحساب بمعرض التقريب لبعض والتبعيد لبعض ،

وكانت العادة جارية بأن المقرب يشفع للمبعد ، لما بين أهل الجمع من الوصل والأسباب المقتضية لذلك ، وكان الكفار يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم قال نافياً لأن تقع شفاعة بغير إذنه ، معظماً ذلك اليوم بالإنذار منه مرة بعد مرة : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كان ما تقدم ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي لا تكون شفاعة ليكون لها نفع ، لأنه قد ثبت بما مضى أنه لا صوت ، وتقرر في تحقيق المحصورات من علم الميزان أن السالبة الحقيقية لا تستدعي وجود الموضوع في الخارج ، وإنما حول العبارة لأن المقصود بالذات النفع ، فنفيه بادىء بدا أفظع ، وقرع السمع به أولاً أهول وأفزع ﴿ إلا ﴾ أي إلا شفاعة ﴿ من أذن له الرحمن ﴾ العام النعمة ﴿ ورضي له قولاً ﴾ ولو الإيمان المجرد .

ولما نفي أن تقع الشفاعة بغير إذنه ، علل ذلك - كما سلف في آية الكرسي - بقوله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي الخلائق وهو كل ما يعلمونه ﴿ وما خلفهم ﴾ وهو كل ما غاب عنهم علمه ، أي علمه سبحانه محيط بهم ، فهو يمنع قلوبهم في ذلك اليوم بما يوجد من الأسباب أن تهم بما لا يرضاه ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ليحترزوا عما يقدره عليهم ، و ﴿ علماً ﴾ تمييز منقول من الفاعل ، أي ولا يحيط علمهم به - قال أبو حيان .

والأقرب عندي كونه منقولاً عن المفعول الذي تعدى إليه الفعل بحرف الجر ، أي ولا يحيطون بعلمه ، فيكون ذلك أقرب إلى ما في آية الكرسي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 46.48 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ وفي تقرير هذا السؤال وجوه .

أحدها : أن قوله : ﴿ يتخافتون ﴾ [طه : 103] وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك ، فكأنهم قالوا : كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت وثانيها : قال الضحاك : نزلت في مشركي مكة قالوا : يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء .

وثالثها : لعل قومه قالوا : يا محمد إنك تدعي أن الدنيا ستنقضي فلو صح ما قلته لوجب أن تبتدىء أولاً بالنقصان ثم تنتهي إلى البطلان ، لكن أحوال العالم باقية كما كانت في أول الأمر ، فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا ؟ وهذه شبهة تمسك بها جالينوس في أن السموات لا تفنى ، قال : لأنها لو فنيت لابتدأت في النقصان أولاً حتى ينتهي نقصانها إلى البطلان ،

فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا أن القول بالبطلان باطل ، ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم إلى الجواب أموراً أخر في شرح أحوال القيامة وأهوالها .

الصفة الأولى : قوله : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إنما قال : ﴿ فَقُلْ ﴾ مع فاء التعقيب لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر ، فلاجرم أمره بالجواب مقروناً بفاء التعقيب .

لأن تأخير البيان في مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز ، أما في المسائل الفروعية فجائزة ، لذلك ذكر هناك قل من غير حرف التعقيب .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿ يَنسِفُهَا ﴾ عائد إلى الجبال والنسف التذرية ، أي تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فإذا زالت الجبال الحوائل فيعلم صدق قوله : ﴿ يتخافتون ﴾ قال الخليل : ﴿ يَنسِفُهَا ﴾ أي يذهبها ويطيرها ، أما الضمير في قوله : ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ فهو عائد إلى الأرض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما في عادة الناس من الإخبار عنها بالإضمار

كقولهم: ما عليها أكرم من فلان وقال تعالى: ﴿مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ وإنما قال: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً﴾ ليبين أن ذلك النسف لا يزيل الاستواء لئلا يقدر أنها لما زالت من موضع إلى موضع آخر صارت هناك حائلة، هذا كله إذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة، أما لو كان الغرض من السؤال ما ذكرنا من أنه لا نقصان فيها في الحال فوجب أن لا ينتهي أمرها إلى البطلان، كان تقرير الجواب: أن بطلان الشيء قد يكون بطلاناً يقع توليدياً، فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلاناً يقع دفعة واحدة، وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان، فبين الله تعالى أنه يفرق تركيبات هذا العالم الجسماني دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا إلى تقديم النقصان على البطلان.

المسألة الثالثة:

أنه تعالى وصف الأرض ذلك الوقت بصفات.

أحدها: كونها قاعاً وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء.

وثانيها: الصفصف وهو الذي لا نبات عليه.

وقال أبو مسلم: القاع الأرض الملساء المستوية وكذلك الصفصف.

وثالثها : قوله : ﴿ لَّا ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ وقال صاحب "الكشاف" : قد فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا : العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان ، فإن قيل : الأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ قلنا : اختيار هذا اللفظ له موقع بديع في وصف الأرض بالاستواء ونفي الاعوجاج ، وذلك لأنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية فإذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعاً من العوج خارجة عن الحس البصري .

قال فذاك القدر في الاعوجاج لما لطف جداً ألحق بالمعاني فقيل فيه : عوج بالكسر ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأرض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لأن المضلع لا بد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية .

ورابعها : الأمت النتوء اليسير ، يقال : مد حبله حتى ما فيه أمت وتحصل من هذه الصفات الأربع أن الأرض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والإعوجاج .

الصفة الثانية : ليوم القيامة قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ وفي الداعي قولان : الأول : أن ذلك الداعي هو النفخ في الصور وقوله : ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ أي لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل .

الثاني : أنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي ويقول : أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتفرقة ، واللحوم المتمزقة ، قومي إلى ربك للحساب والجزاء .

فيسمعون صوت الداعي فيتبعونه ، ويقال : إنه إسرافيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة فإن قيل هذا الدعاء يكون قبل الإحياء أو بعده ؟ قلنا : إن كان المقصود بالدعاء إعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الإحياء لأن دعاء الميت عبث وإن لم يكن المقصود إعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفاً للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الإحياء .

(89/502)

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصواتُ للرحمنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ وفيه وجوه :

أحدها : خشعت الأصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع إلا همساً وهو الذكر الخفي ، قال أبو مسلم : وقد علم الإنس والجن بأن لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاماً يفهم بتحريك الشفتين لضعفه .

وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه .

وثانيها : قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد : الهمس وطء الأقدام ، فالمعنى أنه لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ قال صاحب "الكشاف" : من يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف إليه أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن والنصب على المفعولية ، وأقول : الاحتمال الثاني أولى لوجوه : الأول : أن الأول يحتاج فيه إلى الإضمار وتغيير الأعراب والثاني : لا يحتاج فيه إلى ذلك .

والثاني : أن قوله تعالى : ﴿لَّا تَنفَعُ الشفاعة﴾ يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع إليهم فكأنه قال : لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق إلا شخصاً مرضياً .

والثالث : وهو أن من المعلوم بالضرورة أن درجة الشافع درجة عظيمة فهي لا تحصل إلا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مرضياً ، فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى إيضاح الواضحات ، أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك إيضاح الواضحات فكان ذلك أولى ، إذا ثبت هذا فنقول : المعتزلة قالوا : الفاسق غير مرضي عند الله تعالى فوجب أن لا يشفع الرسول في حقه لأن هذه الآية دلت على أن المشفوع له لا بد وأن يكون مرضياً عند الله .

واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق لأن قوله ورضي له قولاً يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولاً واحداً من أقواله ، والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولاً واحداً من أقواله وهو : شهادة أن لا إله إلا الله .

فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لأن الاستثناء من النفي إثبات فإن قيل إنه تعالى استثنى عن ذلك النفي بشرطين : أحدهما : حصول الإذن .

والثاني : أن يكون قد رضي له قولاً ، فهب أن الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو أنه تعالى قد رضي له قولاً ، لكن لم قلتم إنه أذن فيه ، وهذا أول المسألة قلنا : هذا القيد وهو أنه رضي له قولاً كافٍ في حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : 28] فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على أنه لا بد من الإذن فظهر من مجموعهما أنه إذا رضي له قولاً يحصل الإذن في الشفاعة ، وإذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ عائد إلى الذين يتبعون الداعي ومن قال إن قوله : ﴿ مَنْ

أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ المراد به الشافع .

قال ذلك الضمير عائد إليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والأنبياء إلا لمن أذن له الرحمن في أن تشفع له الملائكة والأنبياء ، ثم قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني ما بين أيدي الملائكة كما قال في آية الكرسي ، وهذا قول الكلبي ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له .

قال مقاتل : يعلم ما كان قبل أن يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم .

المسألة الثانية :

(91/502)

ذكروا في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وجوهاً : أحدها : قال الكلبي : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا .

وثانيها : قال مجاهد : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا والأعمال ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الآخرة والثواب والعقاب .

وثالثها : قال الضحاك يعلم ما مضى وما بقي ومتى تكون القيامة .

المسألة الثالثة :

ذكروا في قوله : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ وجهين : الأول : أنه تعالى بين أنه يعلم ما بين أيدي العباد وما خلفهم .

ثم قال : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ أي العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علماً .

الثاني : المراد لا يحيطون بالله علماً والأول أولى لوجهين : أحدهما : أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا قوله : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

وثانيهما : أنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 101. 104 ﴾

(92/502)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذري الطعام .

الثاني : تصير كالهباء .

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ في القاع ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الموضع المستوي الذي لا نبات فيه ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

الثاني : الأرض الملساء .

الثالث : مستنقع الماء ، قاله الفراء .

وفي الصفصف وجهان : أحدهما : أنه ما لا نبات فيه ، قاله الكلبي .

الثاني : أنه المكان المستوي ، كأنه قال على صف واحد في استوائه ، قاله مجاهد .

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : عوجاً يعني وادياً ، ولا أمتاً يعني رابية ، قاله ابن عباس .

الثاني : عوجاً يعني صدعاً ، ولا أمتاً يعني أكمة ، قاله الحسن .

الثالث : عوجاً يعني ميلاً . ولا أمتاً يعني أثراً ، وهو مروي عن ابن عباس .

الرابع : الأمت الجذب والانثناء ، ومنه قول الشاعر :

ما في انطلاق سيره من أمت . . . قاله قتادة .

الخامس : الأمت أن يغلظ مكان في الفضاء أو الجبل ، ويدق في مكان ، حكاه الصولي ، فيكون الأمت من الصعود والارتفاع .

قوله تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ ﴾ قال ابن عباس : أي خضعت بالسكون ، قال الشاعر :

لما آتى خبر الزبير تصدعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

﴿ إلاَّ هَمْساً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الصوت الخفي ، قاله مجاهد .

الثاني : تحريك الشفة واللسان ، وقرأ أُبيّ : فلا ينطقون إلا همساً .

الثالث : نقل الأقدام ، قال ابن زيد ، قال الراجز :

وهن يمشين بنا هَمِيسا . . . يعني أصوات أخفاف الإِبل في سيرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(93/502)

وقال ابن عطية :

والضمير في قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ﴾

قيل إن رجلاً من ثقيف سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يكون أمرها يوم القيامة ، وقيل بل سأله عن ذلك جماعة من المؤمنين ، وقد تقدم معنى " النسف " . وروي ان الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً فتدكدكها حتى تكون ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] ثم يتوالى عليها حتى يعيدها كالهباء المنبث فذلك هو النسف وقوله تعالى : ﴿ فيذرها ﴾ يحتمل أن يريد مواضعها ، ويحتمل أن يريد ذلك التراب الذي نسفه ، لأنه إنما يقع على

الأرض باعتدال حتى تكون الأرض كلها مستوية ، و" القاع " المستوي من الأرض المعتدل الذي لا نشز فيه ومنه قول ضرار بن الخطاب : لتكونن بالطباخ قريش ، بقعة القاع في أكف الماء . و" الصفصف " نحوه في المعنى ، و" العوج " ما يعتري اعتدال الأرض من الأخذ يمنة ويسرة بحسب النشز من جبل وطرق وكدية ونحوه ، و" الأمت " ما يعتري الأرض من ارتفاع وانخفاض ، يقال مد حبله حتى ما ترك فيه أمتاً فكأن " الأمت " في الآية العوج في السماء تجاه الهواء ، و" العوج " في الآية مختص بالعرض وفي هذا نظر .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾

المعنى يوم ننسف الجبال يتبع الخلق داعي الله إلى المحشر وهذا نحو قوله تعالى ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ [القمر : 8] وقوله تعالى ﴿ لا عوج له ﴾ يحتمل أن يريد الإخبار به أي لا شك فيه ولا يخالف وجوده خبره ، ويحتمل أن يريد لا محيد لأحد عن اتباعه والمشي نحو صوته . و" الخشوع التطامن والتواضع وهي الأصوات استعارة بمعنى الخفاءِ والاستسرار ومعنى ﴿ للرحمن ﴾ أي لهيبته وهول مطلع قدرته ، و" الهمس " الصوت الخفي الخافت وقد يحتمل أن يريد " بالهمس " المسموع تخافتهم بينهم وكلامهم السر ، ويحتمل أن يريد

صوت الأقدام وأن أصوات النطق ساكنة. و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ إلا من ﴾ يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً وتكون ﴿ من ﴾ في موضع نصب يراد بها المشفوع له فكأن المعنى ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ في أن يشفع له، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعاً على تقدير "لكن من أذن له الرحمن يشفع"، ف ﴿ من ﴾ في موضع نصب بالاستثناء ويصح أن يكون في موضع رفع كما يجوز الوجهان في قولك ما في الدار أحد إلا حماراً وإلا حمار والنصب أوجه ﴿ من ﴾ على هذه التأويلات للشافع ويحتمل أن تكون للمشفوع فيه. وقوله تعالى: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ قالت فرقة يريد الملائكة، وقالت فرقة يريد خلقه أجمع، وقد تقدم القول في ترتيب "ما بين اليد وما خلف" في غير موضع على أن جماعة من المفسرين قالوا في هذه الآية ﴿ ما خلفهم ﴾ الدنيا و﴿ ما بين أيديهم ﴾ أمر الآخرة والثواب والعقاب، وهذا بأن نفرضها حالة وقوف حتى نجعلها كالأجرام وأما إن قدرناها في نسق الزمان فالأمر على العكس بحكم ما بيناه قبل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾

سبب نزولها أن رجالاً من ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا محمد : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ قال المفسرون : النسف : التذرية .

والمعنى : يصيِّرها رِمالاً تسيل سيلاً .

ثم يصيِّرها كالصوف المنفوش ، تطيِّرها الرياح فتستأصلها ﴿ فيذرها ﴾ أي : يدَع أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿ قاعاً ﴾ قال ابن قتيبة : القاع من الأرض : المستوي الذي يعلوه الماء ، والصفصف : المستوي أيضاً ، يريد : أنه لا نبت فيها .

قوله تعالى : ﴿ لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾ في ذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المراد بالعِوَج : الأودية ، وبالأَمَتْ : الرَّوابي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وكذلك قال مجاهد : العِوَج : الانخفاض ، والأَمَتْ : الارتفاع ، وهذا مذهب الحسن .

وقال ابن قتيبة : الأَمَتْ : النَّبَك .

والثاني : أن العِوَج : المَيْل ، والأَمْت : الأَثَرَ مثل الشِّراك ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن العِوَج : الصدع ، والأَمْت : الأَكَمة .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يَتَّبعون الداعي ﴾ قال الفراء : أي : يتَّبعون صوت الداعي للحشر ، لا عِوَج لهم عن دعائه : لا يقدرون أن لا يتّبعوا .

قوله تعالى : ﴿ وخَشَعَت الأصوات ﴾ أي : سكنت وخفيت ﴿ فلا تَسْمَعُ إلاّ هَمْساً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أَحدها : وطْء الأقدام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد في رواية ، واختاره الفراء ، والزجاج .

والثاني : تحريك الشفاه بغير نطق ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : الكلام الخفيّ ، روي عن مجاهد .

وقال أبو عبيدة : الصوت الخفيّ .

(96/502)

قوله تعالى : ﴿ يومئذ لا تَنْفَعُ الشفاعة ﴾ يعني : لا تنفع أحداً ﴿ إِلا من أَذِنَ له الرحمن ﴾ أي : إلا شفاعة من أَذِن له الرحمن ، أي : أَذِن أن يُشْفَع له ، ﴿ ورضي له قولاً ﴾ أي : ورضي للمشفوع فيه قولاً ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل "لا إِله إِلا الله" .

﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ الكناية راجعة إِلى الذين يتَّبعون الداعي .

وقد شرحنا هذه الآية في سورة [البقرة : 255] .

وفي هاء "به" قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله مقاتل .

والثاني : إلى "ما بين أيديهم وما خلفهم" ، قاله ابن السائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(97/502)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾

أي عن حال الجبال يوم القيامة .

﴿ فَقُلْ ﴾ فقد جاء هذا بفاء وكل سؤال في القرآن "قل" بغير فاء إلا هذا ، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط .

وقد علم الله أنهم يسألونه عنها ، فأجابهم قبل السؤال ، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال ؛ فلذلك كان بغير فاء ، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد ؛ فتفهّمه .

﴿ يَنسِفُهَا ﴾ يطيرها .

﴿ نَسْفاً ﴾ قال ابن الأعرابي وغيره : يقلعها قلعا من أصولها ، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا .

قال : ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ ، ثم كالهباء المنثور .

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي يذر مواضعها ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ القاع الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء ؛ قاله ابن الأعرابي .

وقال الجوهري : والقاع المستوي من الأرض والجمع أَقوعٌ وأَقواعٌ وِقيعانٌ صارت الواو ياء لكسر ما قبلها .

وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء .

الكلبي : هو الذي لا نبات فيه .

وقيل : المستوي من الأرض كأنه على صفّ واحد في استوائه ؛ قاله مجاهد .

والمعنى واحد في القاع والصفصف ؛ فالقاع الموضع المنكشف ، والصفصف المستوي الأملس .

وأنشد سيبويه :

وكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ . . .

ودَكْدَاكِ رَمْلٍ وأَعْقَادِهَا

و"قاعا" نصب على الحال والصفصف.

و﴿ لاَّ ترى ﴾ في موضع الصفة.

﴿ فِيهَا عِوَجاً ﴾ قال ابن الأعرابي: العِوجُ التّعوج في الفِجاج.

والأَمْت النَّبَك.

وقال أبو عمرو: الأَمْت النِّبَاك وهي التلال الصغار واحدها نَبَك؛ أي هي أرض مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع.

تقول؛ امتلأ فما به أَمْت، وملأتُ القربة مَلأً لا أمت فيه؛ أي لا استرخاء فيه.

والأمت في اللغة المكان المرتفع.

وقال ابن عباس: "عِوَجاً" مَيْلاً.

قال: والأمت الأثر مثل الشراك.

(98/502)

وعنه أيضاً "عِوَجاً"، واديا "وَلاَ أَمْتاً" رابية.

وعنه أيضاً: العوج (الانخفاض) والأمت الارتفاع.

وقال قتادة: "عِوَجاً" صدعا "وَلاَ أَمْتاً" أي أكمة.

وقال يمان : الأمت الشقوق في الأرض .

وقيل : الأمت أن يغلظ مكان في الفضاء أو الجبل ويدق في مكان ؛ حكاه الصولي .

قلت : وهذه الآية تدخل في باب الرُّقَى ؛ ترقى بها الثآليل وهي التي تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (برُّوقة) ؛ تطلع في الجسد وخاصة في اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من تبن الشعير ، يكون في طرف كل عود عقدة ، تُمرّ كل عُقدة على الثآليل وتقرأ الآية مرة ، ثم تدفن الأعواد في مكان نديّ ؛ تعفّن وتعفّن الثآليل ؛ فلا يبقى لها أثر ؛ جرّبت ذلك في نفسي وفي غيري فوجدته نافعاً إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي ﴾ يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ أي لا معدل لهم عنه ؛ أي عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه .

وعلى هذا أكثر العلماء .

وقيل : ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ أي لدعائه .

وقيل : يتَّبعون الداعي اتباعاً لا عوج له ؛ فالمصدر مضمر ؛ والمعنى : يتّبعون صوت الداعي للمحشر ؛ نظيره : ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [ق : 41] الآية .

وسيأتي .

﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات ﴾ أي ذلَّت وسكنت ؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع ، فكل لسان ساكت هناك للهيبة .

﴿ للرحمن ﴾ أي من أجله .

﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ الهمس الصوت الخفيّ ؛ قاله مجاهد .

عن ابن عباس : الحس الخفيّ .

الحسن وابن جريج : هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر ؛ ومنه قول الراجز :

وهُنَّ يَمْشِينَ بنَا هَمِيسَا . . .

يعني صوت أخفاف الإبل في سيرها .

ويقال للأسد الهموس ؛ لأنه يهمِس في الظلمة ؛ أي يطأ وطئًا خفيّاً .

قال رؤبة يصف نفسه بالشدّة :

(99/502)

ليثٌ يُدقُّ الأسدَ الهَمُوسَا . . .

والأَقْهَبين الفيلَ والجاموسَا

وهمس الطعام ؛ أي مضغه وفُوه منضمٌّ ؛ قال الراجز :

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أَمْسَا . . .

عجائزاً مثلَ السَّعَالِي خَمْسَا

يَأْكُلنَ ما أصنع هَمْساً هَمْساً . . .

وقيل : الهمسُ تحريك الشّفة واللسان .

وقرأ أبيّ بن كعب "فَلاَ يَنْطِقُونَ إِلاَّ همْساً" .

والمعنى متقارب ؛ أي لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام .

وبناء (هـ م س) أصله الخفاء كيفما تصرف ؛ ومنه الحروف المهموسة ، وهي عشرة يجمعها قولك : (حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ) وإنما سمى الحرف مهموساً لأنه ضَعُفَ الاعتمادُ من موضعه حتى جرَى معه النفَس .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ "من" في موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأوّل ؛ أي لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي رضي قوله في الشفاعة .

وقيل : المعنى ، أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، وكان له قول يرضى .

قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي من أمر الساعة .

﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ مِن أمرِ الدنيا قاله قتادة .

وقيل : يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب "وما خلفهم" ما خلفوه وراءهم في الدنيا .

ثم قيل : الآية عامة في جميع الخلق .

وقيل : المراد الذين يتبعون الداعي .

والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ الهاء في "به" لله تعالى ؛ أي أحد لا يحيط به علما ؛ إذ الإحاطة مشعرة بالحدّ ويتعالى الله عن التحديد .

وقيل : تعود على العلم ؛ أي أحد لا يحيط علماً بما يعلمه الله .

وقال الطبري : الضمير في "أيديهم" و"خلفهم" و"يحيطون" يعود على الملائكة ؛ أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾

وضمير الغائب في ﴿ ويسألونك ﴾ عائد على قريش منكري البعث أو على المؤمنين سألوا عن ذلك ، أو على رجل من ثقيف وجماعة من قومه أقوال ثلاثة .

والكاف خطاب للرّسول (صلى الله عليه وسلم) ، والظاهر وجود السؤال ويبعد قول من قال إنه لم يكن سؤال بل المعنى أن يسألوك ﴿ عن الجبال فقل ﴾ فضمن معنى الشرط ، فلذلك أجيب بالفاء وروي أن الله يرسل على الجبال ريحاً فيدكدكها حتى تكون كالعهن المنفوش ، ثم يتوالى عليها حتى يعيدها كالهباء المنبث فذلك هو النسف ، والظاهر عود الضمير في ﴿ فيذرها ﴾ على الجبال أي بعد النسف تبقى ﴿ قَاعاً ﴾ أي مستوياً من الأرض معتدلاً .

وقيل فيذر مقارها ومراكزها .

وقيل : يعود على الأرض وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الجبال عليها .

وقال ابن عباس ﴿ عوجاً ﴾ ميلاً ﴿ ولا أمتاً ﴾ أثراً مثل الشراك .

وعنه أيضاً ﴿ عوجاً ﴾ وادياً ﴿ ولا أمتاً ﴾ رابية .

وعنه أيضاً الأمت الارتفاع .

وقال قتادة ﴿ عوجاً ﴾ صدعاً ﴿ ولا أمتاً ﴾ أكمة .

وقيل : الأمت الشقوق في الأرض .

وقيل : غلظ مكان في الفضاء والجبل ويرق في مكان حكاه الصولي .

وقيل : كان الأمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء ، والعوج في الأرض مختص بالأرض .

(101/502)

وقال الزمخشري : فإن قلت : قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا : العِوَج بالكسر في المعاني ، والعَوَج بالفتح في الأعيان والأرض ، فكيف صح فيها المكسور العين ؟ قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة ، واتفقتم على أن لم يبق فيها اعوجاج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك بذلك بحاسة البصر ، ولكن بالقياس الهندسي فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلاّ بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه عوج بالكسر .

الأمت النتوء اليسير ، يقال : مدّ حبله حتى ما فيه أمت انتهى .

﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ ينسف الله الجبال ﴿ يتبعون ﴾ أي الخلائق ﴿ الداعي ﴾ داعي الله إلى المحشر نحو قوله ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وهو إسرافيل يقوم على صخرة بيت المقدس يدعو الناس فيقبلون من كل جهة يضع الصور في فيه ، ويقول : أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرّقة هلم إلى العرض على الرحمن .

وقال محمد بن كعب : يجمعون في ظلمة قد طويت السماء وانتثرت النجوم فينادي مناد فيموتون موته .

وقال عليّ بن عيسى ﴿ الداعي ﴾ هنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي كان يدعوهم إلى الله فيعوجون على الصراط يميناً وشمالاً ويميلون عنه ميلاً عظيماً ، فيومئذ لا ينفعهم اتباعه ، والظاهر أن الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على ﴿ الداعي ﴾ نفى عنه العوج أي ﴿ لا عوج ﴾ لدعائه يسمع جميعهم فلا يميل إلى ناس دون ناس .

وقيل : هو على القلب أي ﴿ لا عوج ﴾ لهم عنه بل يأتون مقبلين إليه متبعين لصوته من غير انحراف .

وقال الزمخشري : أي لا يعوج له مدعوّ بل يستوون إليه انتهى .

وقيل ﴿ لا عوج له ﴾ في موضع وصف لمنعوت محذوف أي اتباعاً ﴿ لا عوج له ﴾ فيكون الضمير في ﴿ له ﴾ عائداً على ذلك المصدر المحذوف .

وقال ابن عطية يحتمل أن يريد به الإخبار أي لا شك فيه ، ولا يخالف وجوده خبره ويحتمل أن يريد لا محيد لأحد عن اتباعه ، والمشي نحو صوته والخشوع التطامن والتواضع وهو في الأصوات استعارة بمعنى الخفاء .

والاستسرار للرحمن أي لهيبة الرحمن وهو مطلع قدرته .

وقيل هو على حذف مضاف أي وخشع أهل الأصوات والهمس الصوت الخفي الخافت ، ويحتمل أن يريد بالهمس المسموع تخافتهم بينهم وكلامهم السر ، ويحتمل أن يريد صوت الأقدام وأن أصوات النطق ساكنة .

وقال الزمخشري : ﴿ إلا همساً ﴾ وهو الركز الخفي ومنه الحروف المهموسة .

وقيل : هو من همس الإبل وهو صوت إخفافها إذا مشت ، أي لا يسمع إلا خَفْقُ الأقدام ونقلها إلى المحشر انتهى .

وعن ابن عباس وعكرمة وابن جبير : الهمس وطء الإقدام ، واختاره الفراء والزجاج وعن ابن عباس أيضاً تحريك الشفاه بغير نطق ، وعن مجاهد الكلام الخفي ويؤيده قراءة أُبيّ فلا ينطقون ﴿ إلا همساً ﴾ وعن أبي عبيدة الصوت الخفي يومئذ بدل من ﴿ يومئذ

يتبعون ﴾ أو يكون التقدير يوم إذ ﴿ يتبعون ﴾ ويكون منصوباً بلا تنفع و﴿ منْ ﴾ مفعول بقوله ﴿ لا تنفع ﴾ .

و﴿ له ﴾ معناه لأجله وكذا في ورضي له أي لأجله ، ويكون من للمشفوع له أو بدل من الشفاعة على حذف مضاف أي إلاّ شفاعة من أذن له أو منصوب على الاستثناء على هذا التقدير ، أو استثناء منقطع فنصب على لغة الحجاز ، ورفع على لغة تميم ، ويكون ﴿ من ﴾ في هذه الأوجه للشافع والقول المرضي عن ابن عباس لا إله إلا الله .

والظاهر أن الضمير في ﴿ أيديهم وما خلفهم ﴾ عائد على الخلق المحشورين وهم متبعو الداعي .

وقيل : يعود على الملائكة .

(103/502)

وقيل : على الناس لا بقيد الحشر والاتباع ، وتقدم تفسير هذه الجملة في آية الكرسي في البقرة ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على ﴿ ما ﴾ أي ﴿ ولا يحيطون ﴾ بمعلوماته ﴿ علماً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(104/502)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾

أي عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف ، وقيل : مشركو مكةَ على طريق الاستهزاء ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ أي يجعلها كالرمل ثم يُرسل عليها الرياحَ فتفرِّقها والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ الضميرُ إما للجبال باعتبار أجزائِها السافلةِ الباقيةِ بعد النسفِ وهي مقارُّها ومراكزُها ، أي فيذر ما انبسط منها وساوى سطحُه سطوحَ سائرِ أجزاءِ الأرض بعد نسفِ ما نتأ منها ونشَز ، وإما للأرض المدلول عليها بقرينة الحالِ لأنها الباقيةُ بعد نسفِ الجبال ، وعلى التقديرين يذر الكلَّ ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ لأن الجبالَ إذا سُوِّيت وجُعل سطحُها مساوياً لسطوح سائرِ أجزاءِ الأرض فقد جُعل الكلُّ سطحاً واحداً ، والقاعُ قيل : السهلُ ، وقيل : المنكشفُ من الأرض ، وقيل : المستوى الصُّلْبُ منها ، وقيل : ما لا نباتَ فيه ولا بناء ، والصفْصفُ الأرضُ المستويةُ الملساءُ كأن أجزاءَه صفٌّ واحد من كل جهة ، وانتصابُ قاعاً على الحالية من الضمير المنصوبِ أو هو مفعولٌ ثانٍ ليذر على تضمين معنى التصييرِ وصفصفاً إما حالٌ ثانية أو بدلٌ من المفعول الثاني وقوله تعالى : ﴿ لاَّ ترى فِيهَا ﴾ أي في مقارّ الجبال أو في الأرض على ما مر من التفصيل ﴿ عِوَجَا ﴾ بكسر العين أي اعوجاجاً ما ، كأنه لغاية

خفائه من قبيل ما في المعاني أي لا تدركه إن تأملْتَ بالمقاييس الهندسية ﴿ وَلا أَمْتاً ﴾ أي نُتوءاً يسيراً استئنافٌ مبينٌ لكيفية ما سبق من القاع الصفْصَفَ أو حالٌ أُخرى أو صفة لقاعاً ، والخطابُ لكل أحدٍ ممن تتأتى منه الرؤية ، وتقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول الصريحِ لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر مع ما فيه من طول ربما يُخلُّ تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظم الكريم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذْ نُسفت الجبالُ على إضافة اليوم إلى وقت النسْفِ وهو ظرفٌ لقوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ وقيل : بدلٌ

(105/502)

من يومَ القيامة وليس بذاك أي يتبع الناسُ داعيَ الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيلُ عليه السلام يدعو الناسَ عند النفخةِ الثانية قائماً على صخرة بيتِ المقدس ، ويقول : أيتها العِظامُ النخِرةُ والأوصالُ المتفرّقةُ واللحومُ المتمزّقة قومي إلى عَرْض الرحمن ، فيُقبلون من كل أَوب إلى صَوْبه ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يعوجّ له مدعوٌّ ولا يعدِل عنه .

﴿ وَخَشَعَتِ الاصوات للرحمن ﴾ أي خضعت لهيبته ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ أي صوتاً خفياً ومنه الهميسُ لصوت أخفافِ الإبل ، وقد فُسر الهمْسُ بخفق أقدامِهم ونقلِها إلى المحشر .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذُكر من الأمور الهائلة ﴿ لَّا تَنفَعُ الشفاعة ﴾ من الشفعاء أحداً ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ أن يشفع له ﴿ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي ورضيَ لأجله قولَ الشافع في شأنه أو رضي قوله لأجله وفي شأنه ، وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وإنْ فُرِضَ صدورُها عن الشفعاء المتصدّين للشفاعة للناس كقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ فالاستثناءُ كما ترى من أعم المفاعيل ، وأما كونُه استثناءً من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعةُ إلا شفاعةَ من أَذِن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه ، فلا سبيل إليه لما أن حُكم الشفاعةِ ممن لم يؤذَنْ له أن يملِكَها ولا تصدرُ هي عنه أصلاً كما في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ فالإخبارُ عنها بمجرد عدم نفعِها للمشفوع له ربما يوهم إمكانَ صدورِها عمن لم يؤذَنْ له مع إخلاله بمقتضى مقامِ تهويل اليوم ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة ﴾ فمعناه عدمُ الإذن في الشفاعة لا عدمُ قبولها بعد وقوعها ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ما تقدمهم من الأحوال ، وقيل : من أمر الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه ، وقيل : من أمر الآخرة ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾

أي لا تحيط علومُهم بمعلوماته تعالى ، وقيل : بذاته أي من حيث اتصافُه بصفات الكمالِ التي من جملتها العلمُ الشاملُ ، وقيل : الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعهما فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيلَ ما علموا منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(107/502)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾

السائلون منكرو البعث من قريش على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قالوا على سبيل الاستهزاء كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة ، وقيل : جماعة من ثقيل ، وقيل : أناس من المؤمنين ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبّى نَسْفاً ﴾ يجعلها سبحانه كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ، والفاء للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من بقاء الجبال بناء على ظن أن ذلك من توابع عدم الحشر ألا ترى أن منكري الحشر يقولون بعدم تبدل هذا النظام المشاهد في الأرض والسموات أو للمسارعة إلى تحقيق الحق حفظاً من أن يتوهم ما يقضي بفساد الاعتقاد .

(108/502)

وهذا مبني على أن السائل من المؤمنين والأول على أنه من منكري البعث ، ومن هنا قال الإمام : إن مقصود السائلين الطعن في الحشر والنشر فلا جرم أمر صلى الله عليه وسلم بالجواب مقروناً بحرف التعقيب لأن تأخير البيان في هذه المسألة الأصولية غير جائز وأما تأخيره في المائل الفروعية فجائز ولذا لم يؤت بالفاء في الأمر بالجواب في قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 219] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ العفو ﴾ [البقرة : 219] وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الانفال قُلِ الانفال لِلَّهِ والرسول ﴾ [الأنفال : 1] وقوله سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : 220] إلى غير ذلك ، وقال في موضع آخر : إن السؤال المذكور إما عن قدم الجبال أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر صلى الله عليه وسلم أن يجيبه بالفاء المفيدة للتعقيب كأنه سبحانه قال : يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال من غير تأخير لأن القول بقدمها أو وجوب بقائها كفر ، ودلالة الجواب على نفي ذلك من جهة أن النسف ممكن لأنه ممكن في كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً في حق كل الجبل فليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف انتهى .

(109/502)

واعترض بأن عدم جواز التغير والنسف إنما يسلم في حق القديم بالذات ولم يذهب أحد من السائلين إلى كون الجبال قديمة كذلك، وأما القديم بالزمان فلا يمتنع عليه لذاته ذلك بل إذا امتنع فإنما يمتنع لأمر آخر على أن في كون الجبال قديمة بالزمان عند السائلين وكذا غيرهم من الفلاسفة نظراً بل الظاهر أن الفلاسفة قائلون بحدوثها الزماني وإن لم يعلموا مبدأ معيناً لحدوثها فتأمل، ثم إنه ذكر رحمه الله تعالى أن السؤال والجوال قد ذكرا في عدة مواضع من كتاب الله تعالى منها فروعية ومنها أصولية والأصولية في أربعة مواضع في هذه الآية وقوله تعالى:

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاهلة قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: 189] وقوله سبحانه: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ [الإسراء: 85] وقوله عز وجل: ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ [النازعات: 42] ولا يخفى أن عد جميع ما ذكر من الأصولية غير ظاهر، وعلى تقدير ظهور ذلك في الجمع يرد السؤال عن سر اقتران الأمر بالجواب بالفاء في بعضها دون بعض.

(110/502)

وكون ما اقترن بالفاء هو الأهم في حيز المنع فإن الأمر بالجواب عن السؤال عن الروح إن كان عن القدم ونحوه فمهم كالأمر بالجواب فيما نحن فيه بل لعله أهم منه لتحقق القائل بالقدم الزماني للروح بناء على أنها النفس الناطقة كأفلاطون وأتباعه ، وقد يقال : لما كان الجواب هنا لدفع السؤال عن الكلام السابق أعني قوله تعالى : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه : 103] كأنه قيل كيف يصح تخافت المجرمين المقتضى لاجتماعهم والجبال في البين مانعة عن ذلك فمتى قلتم بصحته فبينوا لنا كيف يفعل الله تعالى بها ؟ فأجيب بأن الجبال تنسف في ذلك الوقت فلا يبقى مانع عن الاجتماع والتخافت ، وقرن الأمر بالفاء للمسارعة إلى الذب عن الدعوة السابقة ، والآية التي لم يقرن الأمر فيها بالفاء لم تسق هذا المساق كما لا يخفى على أرباب الأذواق ، وقال النسفي .

وغيره الفاء في جواب شرط مقدر أي إذا سألوك عن الجبال فقل ، وهو مبني على أنه لم يقع السؤال عن ذلك كما وقع في قصة الروح وغيرها فلذا لم يؤت بالفاء ثمة وأتى به هنا فيسألونك متمحض للاستقبال ، واستبعد ذلك أبو حيان ، وما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج من أن قريشاً قالوا : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ الآية يدل على خلافه ، وقال الخفاجي : الظاهر أنه إنما قرن بها هنا ولم يقرن بها ثمة للإشارة إلى أن الجواب معلوم له صلى الله عليه وسلم قبل ذلك فأمر عليه الصلاة

والسلام بالمبادرة إليه بخلاف ذلك انتهى .

وأنت تعلم أن القول بأن الجواب عن سؤال الروح ، وعن سؤال المحيط ونحو ذلك لم يكن معلوماً له صلى الله عليه وسلم قبل لم يتجاسر علمه أحد من عوام الناس فضلاً عن خواصهم فما ذكره مما لا ينبغي أن يلتفت إليه .

(111/502)

ومما يضحك الثكلى أن بعض المعاصرين سمع السؤال عن سر اقتران الأمر هنا بالفاء وعدم اقترانه بها في الآيات الأخر فقال : ما أجهل هذا السائل بما يجوز وما لا يجوز من المسائل أما سمع قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : 23] أما درى أن معناه نهي من يريد السؤال عن أن يسأل .

وأدل من هذا على جهل الرجل أنه دون ما قال ولم يبال بما قيل ويقال ، ونقلي لذلك من باب التحميض وتذكير من سلم من مثل هذا الداء بما من الله تعالى عليه من الفضل الطويل العريض ، وأمر الفاء في قوله تعالى :

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ ظاهر جداً ، والضمير إما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهي مقارها ومراكزها أي فنذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر

أجزاء الأرض بعد نسف ما نتأ منها ونشز وأما للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال .

وعلى التقديرين يذر سبحانه الكل ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ لأن الجبال إذا سويت وجعل سطحها مساوياً لسطوح أجزاء الأرض فقد جعل الكل سطحاً واحداً والقاع قيل : السهل ، وقال الجوهري : المستوى من الأرض .

ومنه قول ضرار بن الخطاب :

لتكونن بالبطاح قريش . . .

فقعة القاع في أكف الأماء

وقال ابن الأعرابي : الأرض الملساء لا نبات فيها ولا بناء .

وحكى مكي أنه المكان المنكشف ، وقيل : المستوى الصلب من الأرض ، وقيل : مستنقع الماء وليس بمراد وجمعه أقوع وأقواع وقيعان .

والصفصف الأرض المستوية الملساء كان أجزاءه صف واحد من كل جهة ، وقيل : الأرض التي لا نبات فيها ، وعن ابن عباس .

ومجاهد جعل القاع والصفصف بمعنى واحد وهو المستوى الذي لا نبات فيه .

وانتصاب ﴿ قَاعاً ﴾ على الحالية من الضمير المنصوب وهو مفعول ثان ليذر على تضمين

معنى التصيير.

و﴿ صَفْصَفاً ﴾ إما حال ثانية أو بدل من المفعول الثاني

(112/502)

﴿ لاَّ ترى فِيهَا ﴾ أي في مقار الجبال أو في الأرض على ما فصل ﴿ عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ استئناف مبين كيفية ما سبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاع والرؤية بصرية والخطاب لكل من يتأتى منه.

وعلقت بالعوج وهو بكسر العين ما لا يدرك بفتحها بل بالبصيرة لأن المراد به ما خفى من الاعوجاج حتى احتاج إثباته إلى المساحة الهندسية المدركة بالعقل فألحق بما هو عقلي صرف فأطلق عليه ذلك لذلك وهذا بخلاف العوج بفتح العين فإنه ما يدرك بفتحها كعوج الحائط والعود وبهذا فرق بينهما في الجمهرة وغيرها.

واختار المرزوقي في "شرح الفصيح" أنه لا فرق بينهما ، وقال أبو عمرو : يقال لعدم الاستقامة المعنوية والحسية عوج بالكسر ، وأما العوج بالفتح فمصدر عوج ، وصح الواو فيه لأنه منقوص من اعوج.

ولما صح في الفعل صح في المصدر أيضاً ، والأمت التنو ، والتنكير فيهما للتقليل.

وعن ابن عباس عوجاً ميلاً ولا أمتاً أثراً مثل الشراك .

وفي رواية أخرى عنه عوجاً واديا ولا أمتا رابية .

وعن قتادة عوجاً صدعاً ولا أمتاً أكمة ، وقيل : الأمت الشقوق في الأرض .

وقال الزجاج : هو أن يغلظ مكان ويدق مكان ، وقيل : الأمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء والعوج في الأرض مختص بالعرض .

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذا تنسف الجبال على إضافة يوم إلى وقت النسف من إضافة العام إلى الخاص فلا يلزم أن يكون للزمان ظرف وإن كان لا مانع عنه عند من عرفه بمتجدد يقدر به متجدد آخر .

وقيل : هو من إضافة المسمى إلى الاسم كما قيل في شهر رمضان ، وهو ظرف لقوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ الداعي ﴾ وقيل : بدل من ﴿ يوم القيامة ﴾ [طه : 101] .

فالعامل فيه هو العامل فيه ، وفيه الفصل الكثير وفوات ارتباط يتبعون بما قبله .

(113/502)

وعليه فقوله تعالى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ [طه: 105] الخ استطراد معترض وما بعده استئناف وضمير ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ للناس.

والمراد بالداعي داعي الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيل عليه السلام يضع الصور في فيه ويدعون الناس عند النفخة الثانية قائماً على صخرة بيت المقدس ويقول: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى العرض إلى الرحمن فيقبلون من كل صوت إلى صوته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: يحشر الله تعالى الناس يوم القيامة في ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم ويذهب الشمس والقمر وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه فذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ ﴾ الخ، وقال علي بن عيسى: "الداعي" هنا الرسول الذي كان يدعوهم إلى الله عز وجل والأول أصح.

﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ أي للداعي على معنى لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه، وهذا كما يقال: لا عصيان له أي لا يعصى ولا ظلم له أي لا يظلم، وأصله أن اختصاص الفعل بمتعلقه ثابت كما هو بالفاعل، وقيل: أي لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس بل يسمع جميعهم وحكى ذلك عن أبي مسلم.

وقيل : هو على القلب أي لا عوج لهم عنه بل يأتون مقبلين إليه متبعين لصوته من غير انحراف وحكى ذلك عن الجبائي وليس بشيء ، والجملة في موضع الحال من الداعي أو مستأنفة كما قال أبو البقاء ، وقيل : ضمير ﴿ لَهُ ﴾ للمصدر ، والجملة في موضع الصفة له أي اتباعاً لا عوج له أي مستقيماً ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى لا شك فيه ولا يخالف وجوده خبره ﴿ وَخَشَعَتِ الاصوات للرحمن ﴾ أي خفيت لمهابته تعالى وشدة هول المطلع ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : سكنت والخشوع مجاز في ذلك ، وقيل : لا مجاز والكلام على حذف مضاف أي أصحاب الأصوات وليس بذاك ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ ﴾ خطاب لكل من يصح منه السمع ﴿ إِلاَّ هَمْساً ﴾ أي صوتاً خفياً خافتاً كما قال أبو عبيدة .

وعن مجاهد هو الكلام الخفي ، ويؤيده قراءة أبي ﴿ فَلا يِنْطِقُونَ إِلاَّ هَمْساً ﴾ وعن ابن عباس هو تحريك الشفاه بغير نطق ، واستبعد بأن ذلك مما يرى لا مما يسمع ، وفي رواية أخرى عنه أنه خفق الأقدام وروى ذلك عن عكرمة .

وابن جبير .

والحسن ، واختاره الفراء .

والزجاج .

ومنه قول الشاعر :

وهن يمشين بنا هميساً . . .

وذكر أنه يقال للأسد الهموس لخفاء وطئه فالمعنى سكنت أصواتهم وانقطعت كلماتهم فلم يسمع منهم إلا خفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة وهو ظرف لقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة ﴾ وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ يوم القيامة ﴾ [طه : 101] أو من ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ﴾ [طه : 108] والمراد لا تنفع الشفاعة من الشفعاء أحداً ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ ﴾ في الشفاعة .

(115/502)

﴿ لَهُ الرحمن ﴾ فالاستثناء من أعم المفاعيل و﴿ مِنْ ﴾ مفعول ﴿ تَنفَعُ ﴾ وهي عبارة عن المشفوع له و﴿ لَهُ ﴾ متعلق بمقدر متعلق بإذن ، وفي "البحر" أن اللام للتعليل وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي ورضي لأجله قول الشافع وفي شأنه أو رضي قول الشافع لأجله وفي شأنه فالمراد بالقول على التقديرين قول الشافع ، وجوز فيه أيضاً أن لا يكون للتعليل ، والمعنى ورضي قولاً كائناً له فالمراد بالقول قول المشفوع وهو على

ما روي عن ابن عباس لا إله إلا الله ، وحاصل المعنى عليه لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن الرحمن في أن يشفع له وكان مؤمناً ، والمراد على كل تقدير أنه لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من ذكر وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وإن فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] .

وجوز في "البحر" والدر المصون" أن لا يقدر مفعول لتنفع تنزيلاً له منزلة اللازم والاستثناء من شفاعة ومن في محل رفع على البدلية منها بتقدير مضاف أو في محل نصب على الاستثناء بتقديره أيضاً أي إلا شفاعة من أذن الخ ، ومن عبارة عن الشافع والاستثناء متصل ويجوز أن يكون منقطعاً إذا لم يقدر شيء ومحل ﴿ مِنْ ﴾ حينئذٍ نصب على لغة الحجاز ورفع على لغة تميم ، واعترض كون الاستثناء من الشفاعة على تقدير المضاف بأن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن يملكها ولا تصدر عنه أصلاً ومعنى ﴿ لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعة ﴾ [البقرة : 48] لا يؤذن لها فيها لا أنها لا تقبل بعد وقوعها فالإخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم إمكان صدورها حين لم يأذن له مع إخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

الظاهر أن ضمير الجمع عائد على الخلق المحشورين وهم متبعو الداعي ، وقيل : على الناس لا بقيد الحشر والاتباع ، وقيل : على الملائكة عليهم السلام وهو خلاف الظاهر جداً ، والمراد من الموصولين على ما قيل ما تقدمهم من الأحوال وما بعدهم مما يستقبلونه أو بالعكس أو أمور الدنيا وأمور الآخرة أو بالعكس أو ما يدركونه وما لا يدر كونه وقد مر الكلام في ذلك .

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى فعلما تمييز محول عن الفاعل وضمير ﴿ بِهِ ﴾ لله تعالى والكلام على تقدير مضاف .

وقيل : المراد لا يحيط علمهم بذاته سبحانه أي من حيث اتصافه بصفات الكمال التي من جملتها العلم الشامل .

ويقتضي صحة أن يقال : علمت الله تعالى إذ المنفى العلم على طريق الإحاطة .

وقال الجبائي : الضمير لمجموع الموصولين فإنهم لا يعلمون جميع ما ذكر ولا تفصيل ما علموا منه ، وجوز أن يكون لأحد الموصولين لا على التعيين . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنهم يسألونه عن الجبال ، وأمره أن يقول لهم : إن ربه ينسفها نسفاً ، وذلك بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتهايل الذي يسيل ، وكالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا .

واعلم أنه جل وعلا بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه . فبين أنه ينزعها من أماكنها . ويحملها فيدكها دكاً . وذلك في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 13-14] .

ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض . وذلك في قوله ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 87-88] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور : 9-10] .

ثم بين أنه يفتنها ويدقها كقوله ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 5] أي فتت حتى صارت كالبسيسة ، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك ، وقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 14] .

(118/502)

ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل ، وكالعهن المنفوش ؟ وذلك في قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ [المزمل : 14] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ [المعارج : 8-9] في « المعارج ، والقارعة » .

والعهن : الصوف المصبوغ . ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته .

كأن فتات العهن في كل منزل . . . نزلن به حب الفنا لم يحطم

ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 5-6] ثم بين أنها تصير سراباً ، وذلك في قوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ وقد بين في موضع آخر : أن السراب لا شيء . وذلك قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] وبين أنه ينسفها نسفاً في قوله هنا : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفا ﴾ .

تنبيه

(119/502)

جرت العادة في القرآن : أن الله إذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ قال له ﴿ قُلْ ﴾ بغير فاء . كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح ﴾ [الإسراء : 85] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 219] الآية ، وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ [البقرة : 215] الآية ، وقوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات ﴾ [المائدة : 4] الآية ، وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 217] إلى غير ذلك من الآيات ، أما في آية « طه » هذه فقال فيها : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا ﴾ بالفاء . وقد أجاب القرطبي رحمه الله عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ أي عن حال الجبال يوم القيامة ، فقل . جاء هذا بفاء ، وكل سؤال في القرآن « قل » بغير فاء إلا هذا . لأن المعنى : إن سألوك عن الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط ، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال . وتلك أسئلة تقدمت ، سألوا عنها النبي صلى الله

عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال . فلذلك كان بغير فاء . وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فتفهمه – انتهى منه . وما ذكره يحتاج إلى دليل ، والعلم عند الله تعالى .

(120/502)

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) ﴾

الضمير في قوله : ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء :

أحدهما أنه راجع إلى الأرض وإن لم يجر لها ذكر . ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] ، وقوله : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : 61] فالضمير فيهما راجع إلى الأرض ولم يجر لها ذكر . وقد بينا شواهد ذلك من العربية والقرآن بإيضاح في سورة « النحل » فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

والثاني أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها لأنها مفهومة من ذكر الجبال . والمعنى : فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعاً صفصفاً . والقاع : المستوى من الأرض . وقيل : مستنقع الماء . والصفصف : المستوى الأملس الذي لا نبات فيه ولا بناء ، فإنه على صف واحد في استوائه . وأنشد لذلك سيبويه قول الأعشى :

وكم دون بيتك من صفصف . . . ودكداك ومل وأعقادها

ومنه قول الآخر :

وملمومة شهباء لو قذفوا بها . . . شماريخ من رضوى إذاً عاد صفصفا

وقوله : ﴿ لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ أي لا اعوجاج فيها ولا أمت . والأمت : النتوء اليسير . أي ليس فيها اعوجاج ولا ارتفاع بعضها على بعض ، بل هي مستوية ، ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد :

فاجرمزت ثم سارت وهي لاهية . . . في كافر ما به أمت ولا شرف

وقول الآخر :

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة . . . في كافر ما به أمت ولا عوج

والكافر في البيتين : قيل الليل . وقيل المطر ، لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع والانحدار في الأرض .

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت : قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا . العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان . والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين ؟

قلت اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون. وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندسين فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عوج بالكسر، والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه. وقد قدمنا في أول سورة الكهف ما يغني عن هذا الكلام الذي ذكره، والعلم عند الله تعالى.

(122/502)

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾

قوله ﴿ يَوْمَئِذ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي. والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب. قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة،

والأوصال المتفرقة ، واللحوم المتمزقة ، قومي إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعونه . ومعنى ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ : أي لا يحيدون عنه ، ولا يميلون يميناً ولا شمالاً . وقيل : لا عوج لدعاء الملك عن أحد ، أي لا يعدل بدعائه عن أحد ، بل يدعوهم جميعاً . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب ، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع ، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الداع إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِر مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 6-8] والإهطاع : الإسراع : وقوله تعالى : ﴿ واستمع يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ذَلِكَ يَوْمُ الخروج ﴾ [ق : 41-42] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 52] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(123/502)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن ﴾ أي خفضت وخفتت ، وسكنت هيبة لله ، وإجلالاً وخوفاً ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ ﴾ في ذلك اليوم صوتاً عالياً ، بل لا تسمع ﴿ إِلاَّ هَمْساً ﴾ أي صوتاً خفياً خافتاً من شدة الخوف . أو ﴿ إِلاَّ هَمْساً

﴿ أي إلا صوت خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر – والهمس يطلق في اللغة على الخفاء ، فيشمل خفض الصوت وصوت الأقدام . كصوت أخفاف الإبل في الأرض التي فيها يابس النبات ، ومنه قول الراجز :

وهن يمشين بنا هميسا . . . إن تصدق الطير ننك لميسا

وما ذكره جل وعلا هنا أشار له في غير هذا الموضع ، كقوله : ﴿ رَّبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 37–38] :

وقوله هنا : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة ﴾ [طه : 109] الآية ، قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في « مريم » وغيرها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(124/502)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) ﴾

لما جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبههم بتعذر

إعادة الأجسام بعد تفرق أجزائها ذكرت أيضاً شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون بها النبي صلى الله عليه وسلم سؤال تعنت لا سؤال استهداء ، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون : فأين تكون هذه الجبال التي نراها .

وروي أنّ رجلاً من ثقيف سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف وفيه جبل كرَى .

وسواء كان سؤالهم استهزاء أم استرشاداً ، فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالاً لشبهتهم وتعليماً للمؤمنين .

قال القرطبي : "جاء هنا (أي قوله ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا ﴾) بفاء وكل سؤال في القرآن "قل" (أي كل جواب في لفظ منه مادة سؤال) بغير فاء إلا هذا ، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط ، وقد علم أنّهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال . وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال ا . ه" .

وأكد ﴿ ينسفها نسفاً ﴾ لإثبات أنه حقيقة لا استعارة .

فتقدير الكلام : ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً . . .

إلى آخره ، وننسف الجبال نسفاً ، فقل ذلك للذين يسألونك عن الجبال .

والنسف : تفريق وإذراء ، وتقدم آنفاً .

والقاع : الأرض السهلة .

والصفصف : الأرض المستوية التي لا نتوء فيها .

ومعنى ﴿ يذرها قاعاً صفصفاً ﴾ أنها تندك في مواضعها وتسوى مع الأرض حتى تصير في مستوى أرضها ، وذلك يحصل بزلزال أو نحوه ، قال تعالى : ﴿ إذا رُجّت الأرض رجّاً وبُسّت الجبال بسّاً فكانت هباء منبثّاً ﴾ [الواقعة : 64] .

وجملة ﴿ لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾ حال مؤكدة لمعنى ﴿ قَاعاً صَفصفاً ﴾ لزيادة تصوير حالة فيزيد تهويلها .

والخطاب في ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ لغير معين يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم سائليه .

(125/502)

والعوج بكسر العين وفتح الواو : ضد الاستقامة ، ويقال : بفتح العين والواو كذلك فهما مترادفان على الصحيح من أقوال أئمة اللّغة .

وهو ما جزم به عمرو واختاره المرزوقي في "شرح الفصيح" .

وقال جماعة : مكسورُ العين يجري على الأجسام غير المنتصبة كالأرض وعلى الأشياء

المعنوية كالدين .

ومفتوحُ العين يوصف به الأشياء المنتصبة كالحائط والعصا ، وهو ظاهر ما في "لسان العرب" عن الأزهري .

وقال فريق : مكسور العين توصف به المعاني ، ومفتوح العين توصف به الأعيان .

وهذا أضعف الأقوال .

وهو منقول عن ابن دريد في "الجمهرة" وتبعه في "الكشاف" هنا ، وكأنه مال إلى ما فيه من التفرقة في الاستعمال ، وذلك من الدقائق التي يميل إليها المحققون .

ولم يعرج عليه صاحب "القاموس" ، وتعسف صاحب "الكشاف" تأويل الآية على اعتباره خلافاً لظاهرها .

وهو يقتضي عدم صحة إطلاقه في كل موضع .

وتقدم هذا اللّفظ في أول سورة الكهف فانظره .

والأمْت : النتوء اليسير ، أي لا ترى فيها وهدة ولا نتوءاً ما .

والمعنى : لا ترى في مكان فسْقها عوجاً ولا أمتاً .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾

جملة ﴿ يتبعون الدّاعي ﴾ في معنى المفرعة على جملة ﴿ يَنسِفُهَا ﴾ [طه : 105] .

و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ .

وقدم الظرف على عامله للاهتمام بذلك اليوم ، وليكون تقديمه قائماً مقام العَطف في الوصل ، أي يتبعون الداعي يوم ينسف ربّك الجبال ، أي إذا نسفت الجبال نودوا للحشر فحضروا يتبعون الداعي لذلك .

والداعي ، قيل : هو المَلك إسرافيل عليه السلام يدعو بنداء التسخير والتكوين ، فتعود الأجساد والأرواح فيها وتهطع إلى المكان المدعوّ إليه .

وقيل : الداعي الرسول ، أي يتبع كلّ قوم رسولهم .

و﴿ عِوَجَ لَهُ ﴾ حال من ﴿ الدَّاعِيَ ﴾ .

(126/502)

واللام على كلا القولين في المراد من الداعي للأجْل ، أي لا عوج لأجل الداعي ، أي لا يروغ المدعوون في سيرهم لأجل الداعي بل يقصدون متجهين إلى صَوبه .

ويجيء على قول من جعل المراد بالداعي الرسول أن يرَاد بالعوج الباطل تعريضاً بالمشركين الذين نسبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم العِوج كقولهم ﴿ إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾ [الفرقان : 8] ، ونحو ذلك من أكاذيبهم ، كما عُرض بهم في قوله تعالى : ﴿ الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ [الكهف : 1] .

فالمصدر المنفي أريد منه نفي جنس العوج في اتباع الداعي ، بحيث لا يسلكون غير الطريق القويم ، أو لا يسلك بهم غير الطريق القويم ، أو بحيث يعلمون براءة رسولهم من العِوج .

وبيْن قوله ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ [طه : 107] وقوله ﴿ لا عِوَج له ﴾ مراعاة النظير ، فكما جعل الله الأرض يومئذ غير معوجة ولا ناتئة كما قال ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 14] كذلك جعل سير النّاس عليها لا عوج فيه ولا مراوغة .

والخشوع : الخضوع ، وفي كلّ شيء من الإنسان مظهر من الخشوع ؛ فمظهر الخشوع في الصوت : الإسرار به ، فلذلك فرع عليه قوله ﴿ فلا تسمع إلاّ همساً ﴾ .

والهمس : الصوت الخفيّ .

والخطاب بقوله ﴿ لا ترى فيها عوجاً وقوله فلا تسمع إلا همساً خطاب لغير معين ، أي لا يرى الرائي ولا يسمع السامع .

وجملة وخَشَعَتِ الأَصوَاتُ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يتّبعون وإسناد الخشوع إلى الأصوات مجاز عقلي ، فإن الخشوع لأصحاب الأصوات ؛ أو استعير الخشوع لانخفاض الصوت وإسراره ، وهذا الخشوع من هول المقام .

وجملة يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ كجملة ﴿ يومئذ يتبعون الداعي ﴾ في معنى التفريع على ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ ، أي لا يتكلّم الناس بينهم إلاّ همساً ولا يجرؤون على الشفاعة لمن يهمهم نفعه .

والمقصود من هذا أن جلال الله والخشية منه يصدان عن التوسط عنده لنفع أحد إلاّ بإذنه ، وفيه تأييس للمشركين من أن يجدوا شفعاء لهم عند الله .

واستثناء ﴿ مَن أذِنَ لهُ الرحمن ﴾ من عموم الشفاعة باعتبار أنّ الشفاعة تقتضي شافعاً ، لأن المصدر فيه معنى الفعل فيقتضي فاعلاً ، أي إلا أن يشفع من أذن له الرحمان في أن يشفع ، فهو استثناء تام وليس بمفرغ .

واللاّم في ﴿ أذِنَ لَهُ ﴾ لام تعدية فِعل ﴿ أَذِنَ ﴾ ، مثل قوله ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ [الأعراف : 123] .

وتفسير هذا ما ورد في حديث الشفاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم " فيقال لي : سل تُعْطَه واشفَعْ تُشفَّع "

وقوله ﴿ ورضِيَ له قولاً ﴾ عائد إلى ﴿ مَن أذن له الرّحمان وهو الشافع .

واللاّم الداخلة على ذلك الضمير لام التّعليل ، أي رضي الرحمانُ قولَ الشّافع لأجل الشافع ، أي إكراماً له كقوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] فإن الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلا وقد أراد قبول شفاعته ، فصار الإذن بالشّفاعة وقبولُها عنواناً على

كرامة الشافع عند الله تعالى .

والمجرور متعلق بفعل ﴿ رضي ﴾ .

وانتصب ﴿ قولاً على المفعولية لفعل رضي لأن رضي هذا يتعدى إلى الشيء المرضي به بنفسه وبالباء .

وجملة ﴿ يعلَمُ ما بينَ أيديهِم وما خلفهم ﴾ مستأنفة بيانية لجواب سؤال من قد يسأل بيان ما يوجب رضى الله عن العبد الذي يأذن بالشفاعة فيه .

فبُيّن بياناً إجمالياً بأن الإذن بذلك يجري على ما يقتضيه عِلم الله بسائر العبيد وبأعمالهم الظاهرة ، فعبر عن الأعمال الظاهرة بما بَيْن أيديهم لأنّ شأن ما بين الأيدي أن يكون واضحاً ، وعبر عن السرائر بما خلفهم لأنّ شأن ما يجعل خلف المرء أن يكون محجوباً .

(128/502)

وقد تقدم ذلك في آية الكرسي ، فهو كناية عن الظاهرات والخفيات ، أي فيأذن لمن أراد تشريفه من عباده المقربين بأن يشفع في طوائف مثل ما ورد في الحديث " يخرج من النّار من كان في قلبه مثقال حبّة من إيمان " ، أو بأن يشفع في حالة خاصة مثل ما ورد في حديث الشفاعة العظمى في الموقف لجميع الناس بتعجيل حسابهم .

وجملة ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ تذييل للتعليم بعظمة علم الله تعالى وضآلة علم البشر ، نظير ما وقع في آية الكرسي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(129/502)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) ﴾

تكلمنا عن (يسألونك) في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر ﴾ [البقرة : 219] .

والسؤال استفهام يعني : طلب فَهْم يحتاج إلى جواب ، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم ، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب ، أو : من عالم لجاهل ، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم .

وهذه المسألة حَلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه ، يقولون : بينما الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] يقول في آية أخرى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] فالأولى تنفي السؤال ، والثانية تُثبته ؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته .

وهؤلاء معذورون ، فليست لديهم المَلَكة العربية لفَهْم الأداء القرآني ، وبيان هذه الإشكال أن السؤال يرِدُ في اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه .

فالحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] أي : سؤالَ إقرار ، لا سؤالَ استفهام ، فحين ينفي السؤال ينفي سؤال العلم من جهة المتكلم ، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير .

والحدث مرة يُنفَى ، ومرة يُثبت ، لكن جهة النفي مُنفكَّة عن جهة الإثبات ، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [الأنفال : 17] .

فنفى الرمي في الأولى ، وأثبته في الثانية ، والحدث واحد ، المثَبت له والمنفيّ عنه واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف نخرج من هذا الإشكال ؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذي جلس بجوار ولده كي يذاكر دروسه ، فأخذ الولد يذاكر ، ويُقلِّب صفحات الكتاب ، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من

معلومات لم يجد عنده شيئاً ، فقال للولد : ذاكرت وما ذاكرت . ذاكرت يعني : فعلت فِعْل المذاكر ، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئاً .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما رمى ، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله ؟ إذن : فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش ، إنما قدرة الله هي التي أوصلتْ حفنة التراب هذه وذرَّتْها في أعيُنِ الأعداء جميعاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : 26] فنفتْ عنهم العلم ، وفي آية أخرى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ [الروم : 7] فأثبتتْ لهم عِلْماً .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ [طه : 105] وحينما استعرضنا (يَسْأَلُونَكَ) في القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقاً ب (قُلْ) كما في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 219] .

وقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة : 189] وهكذا في كل الآيات ، ما عدا قوله تعالى هنا ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] فاقترن الفعل (قُلْ) بالفاء ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال في كُلِّ هذه الآيات سؤال عن شيء وقع بالفعل ، فكان الجواب بقُلْ .

مثل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة : 222] أما ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

الجبال ﴾ [طه : 105] قال في الجواب ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] ؛ لأنه حَدَثٌ لم يقع بَعْد .

(131/502)

والحق سبحانه وتعالى يُخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيُسَأل هذا السؤال ، فكأن الفاء هنا دَلَّتْ على شرط مُقدّر ، بمعنى : إنْ سألوك بالفعل فقُلْ : كذا وكذا .

إذن : السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية ، أمّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة ، وسُئِلت لرسول الله قبل نزول آياتها .

وقد تأتي إجابة السؤال بدون (قُلْ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 186] ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فقُلْ) لأنها تدُلّ على الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، وكأن الحق سبحانه يُوضّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ .

وقد تتعجب : كيف تأتي في القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس ؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون ، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التي لم ينزل فيها حكم .

نقول : دَلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه ، فالأشياء التي كانت عاداتٍ

لهم في الجاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنها عبادة، لا مجرد عادة جاهلية .

مع أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن السؤال فقال : " دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " .

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من الله، لا على أنه إلْف عادة كانت له في الجاهلية، إذن : هذه الأسئلة ترسيمُ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] تكلمنا عن هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً ﴾ [طه : 97] فالمراد : نُفتِّتها ونذروها في الهواء، وأكَّد النسف، فقال ﴿ نَسْفاً ﴾ [طه : 97] ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء .

(132/502)

فقد يتصوَّر البعض أنْ الجبال تُهَدُّ، وتتحول إلى كُتَل صخرية كما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة؛ لذلك أكّد على النسف، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير؛ لذلك قال في آية أخرى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] أي : كالصوف

المندوف .

لكن ، لماذا ذكر الجبال بالذات ؟

قالوا : لأن الإنسان يرى أنه ابْنُ أغيار في ذاته ، وابن أغيار فيما حوله مِمَّا يخدمه من حيوان أو نبات ، فيرى الحيوان يموت أو يُذبَح ، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتَّت ، والإنسان نفسه يموت وينتهي .

إذن : كل ما يراه حوله بيِّن فيه التغيير والانتهاء ، إلا الجبال يراها راسية ثابتة ، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور .

لذلك يُضرب بها المثل في الثبات ، كما في قوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ [إبراهيم : 46] .

فالجبال مظهر للثبات ، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخَلْق الثابت المستقر ، ماذا سيفعل الله به ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾

﴿ قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ [طه : 106] : أرضاً مستوية مَلْساء لا نباتَ فيها ولا بناء ، والضمير في ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ [طه : 106] يعود على الأرض لا على الجبال ؛ لأن الجبال لا تكون قاعاً صفصفاً ، أمّا الأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية ، لا بناءَ فيها ولا جبال ، فالأرض شيءٌ والجبال فوقها شيء آخر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 910] .

(133/502)

فالضمير في ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت : 10] لا يعود على الأرض ، إنما على الجبال . لأن الجبال في الحقيقة هي مخازن القُوت ومصدر الخِصْب للأرض ، التي هي مصدر القوت ، فالإنسان مخلوق من الأرض ، واستبقاء حياته من الأرض ، فالنبات قوت الإنسان وللحيوان ، والنبات والحيوان قوت للإنسان .

إذن : لا بُدَّ للأرض من خُصُوبة تساعدها وتُمدّها بعناصر الغذاء ، ولو أن الخالق عز وجل جعل الأرض هكذا طبقة واحدة بها المخصّبات لانتهتْ هذه الطبقة بعد عدة سنوات ، ولأجدبتْ الأرض بعد ذلك .

إذن : خلق اللهُ الجبالَ لحكمة ، وجعلها مصدراً للخصب الذي يمد الأرض مَدَداً دائماً ومستمراً ما بقيتْ الحياة على الأرض ، ومن هذا تتضح لنا حكمة الخالق سبحانه في أن تكون الجبال صَخْراً أصمّ ، فإذا ما تعرضت لعوامل التعرية على مَرّ السنين تفتتتْ منها

الطبقة الخارجية نتيجة لتغيُّر الظروف المناخية من حرارة وبرودة .

ثم تأتي الأمطار وتعمل في الصخر عمل المَبْرَد ، وتُكوِّن ما يسمى بالغِرْيَن ، فتحمل هذا الفتات إلى الودْيان ومجاري الأنهار ، وتُوزِّعه على طبقة الأرض ، فتزيدها خِصْباً تدريجياً كل عام ، وإلاَّ لو كانت الجبال هَشَّة غير متماسكة لانهالتْ في عدة أعوام ، ولم تُؤَدِّ هذا الغرض . لذلك نقول : إن الجبال هي مصدر القوت ، وليست الأرض .

ألاَ ترى أن خصوبة الوادي والدلتا جاءت من طمي النيل ، والغِرْين الذي يحمله الماء من أعالى أفريقيا . وهذا الغِرْيَن الذي يُنحَتُ من الجبال هو الذي يُسبب الزيادة في رقعة اليابسة ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة في المدن المطِلَّة على البحر ، فبعد أن كانت على شاطئه أصبحت الآن داخل اليابسة .

(134/502)

وقد مَثَّلنَا سابقاً للجبل بأنه مُثلث قاعدته إلى أسفل ، والوادي مُثلث قاعدته إلى أعلى ، فكل نحْتٍ في الجبل زيادة في الوادي ، وكأن الخالق عز وجل جعل هذه الظاهرة لتتناسبَ مع زيادة السكان في الأرض .

وقد حُذِف العائد في ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ [طه : 106] اعتماداً على ذِهْن السامع ونباهته

إلى أنه لا يكون إلا ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 1] فلم يذكر عائد الضمير (هو) لأنه إذا قيل لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى، وإنْ لم يتقدم اسمه.

وكما في قوله تعالى: ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص: 32] والمراد: الشمس التي غابت، ففاتتْ سليمان عليه السلام الصلاة، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس.

كذلك في: ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: 45] أي: على الأرض ولم تذكرها الآية، كذلك هنا (فَيذَرُهَا) أي الأرض.

﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) ﴾

أي: كأنها مُسْتوية على "ميزان الماء" لا ترى فيها اعوجاجاً ولا (أَمْتاً) يعني: منخفض ومرتفع، فهي مستوية استواءً تاماً، كما نفعل نحن في الجدار، ونحرص على استوائه.

لذلك نرى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع الضوء؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب في الجدار أو على ذرات التراب؛ لأنها تسقط على استقامتها، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما في الجدار من التواءات أو نتوءات.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي ﴾

الداعي: المنادي، كالمؤذِّن الذي كثيراً ما دعا الناس إلى حضرة الله تعالى في الصلاة،

فمنهم مَنْ أجاب النداء ، ومنهم مَنْ تأبَّى وأعرض ، أما الداعي في الآخرة ، وهو الذي ينفخ في الصور فلن يتأبَّى عليه أحد ، ولن يمتنع عن إجابته أحد .

(135/502)

وقوله : ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ [طه : 108] لأننا نرى داعي الدنيا حين يُنادِي في جَمْع الناس ، يتجه يميناً ويتجه يساراً ، ويدور ليُسمع في كُلِّ الاتجاهات ، فإذا لم يَصِلْ صوته إلى كل الآذان استيعاباً يستعمل مُكبِّر الصوت مثلاً ، أما الداعي في الآخرة فليس له عوج هنا أو هناك ؛ لأنه يُسمِع الجميع ، ويصل صوته إلى كل الآذان ، دون انحراف أو ميْل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108]

هذا الهمْسُ الذي قال عنه في الآيات السابقة : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه : 103] .

ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جَلَبة الصوت ، فما بالك بجَمْع القيامة من لَدُنْ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108] فلماذا كتمت هذه الأصوات التي طالما قالتْ ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف ، والهَوْل عظيم ، لا يجرؤ أحد من الهَوْل على رَفْع صوته ، والجميع كُلٌّ

منشغل بحاله ، مُفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدّثوا تحدّثوا سِرّاً ومخافتة : ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟

وكذلك نحن في أوقات الشدائد لا نستطيع الجهر بها ، كما حدث لما مات سعد زغلول رحمه الله وكان أحمد شوقي وقتها في لبنان ، فسمع الناس َيتخافتون ، ويهمس بعضهم إلى بعض بأن سعداً قد مات ، ولا يجرؤ أحد أن يجهر بها لِهَوْل هذا الحادث على النفوس ، فقال شوقي :

يَطأُ الآذَانَ هَمْساَ والشِّفَاهَا . . . قُلْتُ يا قَوْم اجمعُوا أَحْلامكُمْ . . . كُلُّ نَفْسٍ في وَرِيدْيها رَدَاهَا

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة ﴾

(136/502)

والشفاعة تقتضي مشفوعاً له وهو الإنسان . وشافعاً وهو الأعلى منزلة ، ومشفوعاً عنده : والمشفوع عنده لا يسمح بالشفاعة هكذا ترتجلها من نفسك ، إنما لا بُدَّ أنْ يأذن لك بها ، وأنْ يضعَك في مقام ومرتبة الشفاعة ، وهذا شَرْط في الشافع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109] هذه للمشفوع له ، أن يقول قولاً يرضى

الله عنه وإنْ قصَّر في جهة أخرى وخَيْر ما يقوله العبد ويرضى عنه الله أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذه مَقُولة مَرْضِيَّة عند الله ، وهي الأمل الذي يُتعلق به ، والبُشْرى لأهل المعاصي ؛ لأنها كفيلة أن تُدخِلهم في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان لديك خَصْلة سيئة ، أو نقطة ضعف في تاريخك تراها عقبةً فلا تيأس ، وانظر إلى زاوية أخرى في نفسك تكون أقوى ، فأكْثِرْ بها الحسنات ، لأن الحسنات يُذهِبْن السيئات .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) ﴾

معنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [طه : 110] ما أمامهم ، ويعلم ما خلفهم ، أما أنت فلا تحيط به عِلْماً ، ولا تعرف إلا ما يُخبرك به ، إلا أن تكون هناك مقدمات تستنبط منها ، لأن ما ستره الحق في الكون كثير ، منه ما جعل له مقدمات ، فمَنْ ألَمَّ بهذه المقدمات يصل إليها .

ومع ذلك لا يقال له : عَلِم غيباً . إنما اكتشف غيباً بمقدمات أعطاها له الحق سبحانه وتعالى ، كما نعطي التلميذ تمريناً هندسياً ، ونذكر له المعطيات ، فيستدل بالمعطيات على المطلوب .

والكون مليء بالأشياء والظواهر التي إنْ تأملناها وبحثْناها ولم نُعرِض عنها وجدنا فيها كثيراً من الأسرار ، فبالنظر في ظواهر الكون اكتشفوا عصر البخار وسَيَّروا الحركة على الناس ، وبالنظر في ظواهر الكون اكتشف أرشميدس قانون الأجسام الطافية ، واكتشفوا البنسلين . . إلخ .

(137/502)

هذه كلها ظواهر موجودة في كون الله ، كانت تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها ويكتشفها ؛ لذلك ينعى علينا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

فلو التفتوا إليها الالتفات الحق لانتفعوا بها .

لكن هناك أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد يعطيها لمن أحبَّ من عباده ، ويُطلِعهم عليها ، أو تظل في علم الله لا يعرفها أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(138/502)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ يقول : ملأ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي زيد في قوله : ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ قال : القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ قال : إثماً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ يقول : بئس ما حملوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ قال : ليس هي ، وسألهم موصولة ينبغي أن يقطع ، فإنك إن وصلت لم تفهم وليس بها خفاء ، ساء لهم حملاً ﴿ خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ قال : حمل السوء وبوئ صاحبه النار . قال : وإنما هي ﴿ وساء لهم ﴾ مقطوعة وساء بعدها لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، أن رجلاً أتاه فقال : أرأيت قوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ وأخرى عمياً . قال : إن يوم القيامة فيه حالات : يكونون في حال زرقاً وفي حال عمياً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ قال : يتسارّون .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ قال : أعلمهم في نفسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ قال : أعدلهم من الكفار ﴿ إن لبثتم ﴾ أي في الدنيا ﴿ إلا يوماً ﴾ لما تقاصرت في أنفسهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش : يا محمد ، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فيذرها قاعاً ﴾ قال : مستوياً ﴿ صفصفاً ﴾ قال : لا نبات فيه ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ قال : وادياً ﴿ ولا أمتاً ﴾ قال : رابية .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً ﴾ قال : القاع ، الأملس . والصفصف ، المستوي ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

ملمومة شهباء لو قذفوا بها . . . شماريخ من رضوى إذا عاد صفصفا

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ، أنه سئل عن قوله : ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ قال : كان ابن عباس يقول : هي الأرض الملساء

التي ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ قال : مستوياً ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ قال : خفضاً ﴿ ولا أمتاً ﴾ قال : إرتفاعاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ صفصفاً ﴾ قال : القاع : الأرض ، والصفصف : المستوية ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ قال : صدعاً . ﴿ ولا أمتاً ﴾ قال : أكمة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ﴾ قال : ميلاً ﴿ ولا أمتاً ﴾ قال : الأمت ، الأثر مثل الشراك .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : العوج ، الإرتفاع ، والأمت ، المبسوط .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في الآية قال : يعني بالأمت ، حفراً .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ ما الأمت ؟ قال : الشي الشاخص من الأرض ، قال فيه كعب بن زهير :

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة . . . في كافر ما به أمت ولا شرف

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد فيسمع الناس الصوت يأتونه. فذلك قول الله: ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله: ﴿ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ قال: لا عوج عنه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ لا عوج له ﴾ لا يميلون عنه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ لا تسمع إلا همساً ﴾ قال: الصوت الخفي.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال: صوت وطء الأقدام.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك في قوله: ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال: أصوات أقدامهم.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد في قوله: ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال: وطء الأقدام.

وأخرج عبد بن حميد عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت قاعداً عند الشعبي فمرت

علينا إبل قد كان عليها جص فطرحته ، فسمعت صوت أخفافها فقال : هذا الهمس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال : هو خفض الصوت بالكلام ، يحرك لسانه وشفتيه ولا يسمع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلا همساً ﴾ قال : سر الحديث وصوت الأقدام . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(141/502)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ :

في هذا الضميرِ قولان ، أحدهما : أنه ضميرُ الأرضَ أُضْمِرَتْ للدلالةِ عليها ؟ والثاني : ضمير الجبال ، وذلك على حَذْفِ مضاف أي : فَيَذَرُ مراكزَها ومَقارَّها . و" نَذَرُ " يجوز أن يكونَ بمعنى يُخَلّيها ، فيكونَ " قاعاً " حالاً ، وأن يكونَ بمعنى يترك التصييريةِ فيتعدَّى لاثنين ف " قاعاً " ثانيهما .

وفي " القاع " أقوالٌ فقيل : هو مستنقعُ الماء / ولا يليقُ معناه هنا . والثاني : أنه المنكشِفُ

من الأرض . قاله مكي . الثالث : أنَّه المكانُ المستوي ومنه قول ضرار بن الخطاب :

3318 لَتَكُوْنَنَّ بالبطاحِ قُرَيْشٌ . . . فَقْعَةَ القاعِ في أَكُفِّ الإِماءِ

الرابع : أنه الأرضُ التي لا نباتَ فيها ولا بناءَ .

والصَّفْصَفُ : الأرض المَلْساء . وقيل : المستوية ، فهما قريبان من المترادِفِ . وجمعُ القاعِ : أَقْوع وأَقْواع وقِيْعان .

قوله : ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ﴾ :

يجوز في هذه الجملةِ أن تكونَ مستأنفةً ، وأن تكونَ حالاً من الجبال ، ويجوزُ أن تكونَ صفةً للحال المتقدمةِ وهي " قاعاً " على أحدِ التأويلين ، أو صفة للمفعولِ الثاني على التأويل الآخر .

(142/502)

والعِوَج : تقدم الكلامُ عليه . قال الزمخشري هنا : " فإنْ قلتَ : قد فرَّقوا بين العَوَج والعِوَج . قالوا : العِوَج بالكسر في المعاني ، وبالفتح في الأَعْيان ، والأرضُ عينٌ ، فكيف صَحَّ فيها كَسْرُ العين ؟ قلت : اختيارُ هذا اللفظِ له موقعٌ حَسَنٌ بديعٌ في وصفِ الأرض بالاستواءِ والمَلاسة ونفيِ الاعوجاج عنها ، على أبلغِ ما يكونُ : وذلك أنك لو عَمَدْتَ إلى قطعةِ أرضٍ

فَسَوَّيتَها ، وبالَغْتَ في التسوية على عينِك وعيونِ البُصَراء ، واتَّفَقْتُمْ على أنَّه لم يَبْقَ فيها اعوجاجٌ قطُّ ، وثم استَطْلَعْتَ رأي المهندس فيها وأمرته أن يَعْرِضَ استواءَها على المقاييسِ الهندسيةِ لَعَثَرَ فيها على عِوَجٍ في غيرِ موضعٍ ، لا يُدْرَكُ ذلك بحاسَّةِ البصرِ ، ولكن بالقياسِ الهندسِيِّ ، فنفى الله تعالى ذلك العِوَجَ الذي دَقَّ ولَطُفَ عن الإدراك ، اللهم إلاَّ بالقياس الذي يَعْرِفُه صاحبُ التقديرِ الهندسيِّ . وذلك الاعوجاجُ كمَّا لم يُدْرَكْ إلاَّ بالقياسِ دون الإحساسِ لَحِقَ بالمعاني فقيل فيه "عِوج" بالكسر " .

والأَمْتُ : النُّبُوُّ اليسيرُ . يقال : مَدَّ حبلَه حتى ما فيه أَمْتٌ . وقيل : الأَمْتُ : التَلُّ ، وهو قريبٌ من الأولِ . وقيل : الشُّقوقُ في الأرضِ . وقيل : الأَكَامُ .

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ :

منصوبٌ ب "يَتَّبعُون" . وقيل : بدلٌ من ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ . قاله الزمخشري . وفيه نظرٌ للفصل الكثير . وأيضاً فإنه يبقى "يَتَّبِعُون" غيرَ مرتبطٍ بما قبلَه ، وبه يفوتُ المعنى .

والتقدير : يومَ إذ نُسِفت الجبال .

قوله: ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ الجملة مُستأنفة، وأن تكونَ حالاً من "الداعي".

ويجوز أن تكونَ الجملة نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: يَتَّبِعُونه اتّباعاً لا عِوَجَ له. والضميرُ في "له" فيه أوجهُ، أظهرُها: أنه يعودُ على الداعي أي: لا عِوَجَ لدعائِه بل يَسْمع جميعَهم، فلا يميل إلى ناسٍ دونَ ناس. وقيل: هو عائدٌ على ذلك المصدرِ المحذوفِ أي لا عِوَجَ لذلك الاتّباعِ. الثالث: أنَّ في الكلام قلباً. تقديرُه لا عِوَجَ لهم عنه.

قوله: ﴿ إِلاَّ هَمْساً ﴾ مفعولٌ به وهو استثناءٌ مفرغٌ. والهَمْسُ: الصوتُ الخفيُّ. قيل: هو تحريكُ الشفتين دون نطقٍ. قال الزمخشري: "هو الرِّكْزُ الخفيُّ. ومنه الحروفُ المهموسةُ". وقيل: هو ما يُسْمع مِنْ وَقْعِ الأقدامِ على الأرض. ومنه هَمَسَتِ الإِبلُ: إذا سُمع ذلك مِنْ وَقْعِ أخفافِها على الأرض قال:

3319 وهُنَّ يَمْشِيْنَ بنا هَمِيْسا . . .

قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾:

بدلٌ مِمَّا تقدم أو منصوب بما بعد "لا" عند مَنْ يُجيز ذلك. والتقديرُ: يومَ إذ يَتَّبِعُون لا تنفعُ الشفاعةُ.

قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ ﴾ فيه أوجه . أحدُها : أنه منصوبٌ على المفعولِ به . والناصبُ له " تَنْفَعُ " . و" مَنْ " حينئذٍ واقعةٌ على المشفوعِ له . الثاني : أنه في محلِّ رفعٍ بدلاً من الشفاعةِ ، ولا بدَّ مِنْ حذفِ مضافٍ تقديرُه : إلاَّ شفاعةَ مَنْ أَذِنَ له . الثالث : أنه منصوبٌ على الاستثناءِ من الشفاعةِ بتقدير المضاف المحذوف ، وهو استثناءٌ متصلٌ على هذا . ويجوزُ أَنْ يكونَ استثناءً منقطعاً إذا لم تقدِّرْ شيئًا ، وحينئذٍ يجوز أُن يكونَ منصوباً وهي لغةُ الحجازِ ، أو مرفوعاً وهو لغة تميم . وكلُّ هذه الأوجهِ واضحةٌ مِمَّا تقدم فلا أُطيل بتقريرها . و" له " في الموضعين للتعليل كقوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الأحقاف : 11] أي : لأجله ولأجلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 104 . 108 ﴾

(145/502)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) ﴾

كما أنَّ في القيامةِ الموعودةِ تُغَيِّرُ الجبالُ عن أحوالِها فهي كالعِهْنِ المنفوش فكذلك في القيامة

الموجودة. . . فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً ؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم، ويأخذهم عن أقرانهم. . . كذا سُنَّتُه سبحانه.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) ﴾

تنقطع الأوهام، وتقف الأفهام، وتنخنس العقول، وتندرس العلومُ، وتتحير المعارفُ، ويتلاشى ما هو نَعْتُ الخَلْق، ويستولي سلطانُ الحقيقة. . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أَثَرٌ، ولا رسم ولا طلل ولا غَبَرٌ، في الحضور خَرَسٌ، وعلى البساط فَنَاءٌ، وللرسوم امتحاءُ، وإنما الصحة على الثبات.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) ﴾

دليلُ الخطاب أَنَّ مَنْ أَذِنَ له في الشفاعةِ تنفعه الشفاعةُ، وإذا قُبِلَتْ شفاعة أحدٍ بإذن الرحنم فَمِنَ المُحال ألاّ تُقْبَلَ شفاعةُ الرسولِ - صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل الكافة، وشفاعةُ الأكابر من صفوته مقبولةٌ في الأصاغر في المُؤجَلِ وفي المُعجّل. والحقُّ سبحانه يُشَفِّعُ الشيوخَ في مريديهم اليوم.

ويقال شفاعة الرسول عليه السلام غداً للمطيعين بزيادة الدرجة، وللعاصين بغفران الزَّلَّة، كذلك شفاعة الشيوخ - اليوم - للمريدين على قسمين: للذين هم أصحاب السلوك فبزيادة التحقيق والتوفيق، وللذين هم أصحاب التَّخَبُّطِ والغِرّة فبالتجاوز عنهم، وعلى هذا

يُحْمَل قولُ قائلهم :

إذا مَرِضتم أتيْناكم نعودُكم . . . وتُذنِبُون فنأتيكم ونعتَذِرُ !

(146/502)

وحكاياتُ السَّلفِ من الشيوخ مع مريديهم في أوقات فترتهم معروفة ، وهي مُشَاكِلةٌ لهذه الجملة ، وإن شفاعتهم لا تكون إلا بتعريفٍ من قِبَلِ الله في الباطن ، ويكون ذلك أدباً لهم في ذلك .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) ﴾

لا يخفى على الحق شيء مما مضى من أحوالهم ولا مِنْ آتيها ، ولا يحيطون به عِلْماً .

والكناية في قوله : " به " يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، ويحتمل أن يعود إلى الحقِ - سبحانه - ، وهو طريقة السَّلَف ؛ يقولون : يعلم الخَلْقَ ولا يحيط به العلم ، كما قالوا : إنه يَرَى ولا يُدْرَك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 477.478 ﴾

(147/502)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوِمكَ يا موسى موسى ﴾

وذلك أن موسى لما انتهى إلى الجبل مع السبعين الذين اختارهم ، عجل موسى عليه السلام شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم بأن يتبعوه إلى الجبل ، فقال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوِمكَ يا موسى موسى ﴾ ، يعني ما أسبقك عن قومك وتركت أصحابك خلفك ؟ ﴿ قَالَ هُمْ أُولَاء على أَثَرِى ﴾ ، ويحتمل أن يكون أولاء صلة ، يعني : هم على أثري يجيئون من بعدي .

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ ، يعني : لكي يزداد رضاك عني .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ ؛ وهذا على وجه الاختصار ، لأنه لم يذكر ما جرى من القصة ، لأنه ذكر في موضع آخر فها هنا اختصر الكلام وقال : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾ ، يعني : ابتلينا قومك من بعد انطلاقك إلى الجبل ، ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ ؛ يعني : أمرهم السامري بعبادة العجل .

﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أَسِفاً ﴾ ، حزيناً وقال القتبي : ﴿ أَسَفاً ﴾ أي : شديد الغضب ؛ فلما دخل المحلة رآهم حول العجل فأبصر ما يصنعون حوله ، ﴿ قَالَ يَاءادَمُ قَوْمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ ؛ يعني : وعداً صدقاً ومعناه وعد الله عز

وجل بأن يدفع الكتاب إلى موسى ليقرأه عليهم ويهتدوا به؟ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ ، يعني: أطالت عليكم المدة؟ ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ ﴾ ، يعني: يجب ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ ﴾ ، يعني: سخط ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِى ﴾ ؟ بترك عبادة الله.

﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ ، يعني: ما تعمدنا ذلك؛ قرأ حمزة والكسائي ﴿ بِمُلْكِنَا ﴾ بضم الميم، يعني ما فعلناه بسلطان كان لنا ولا قدرة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ بِمِلْكِنَا ﴾ بكسر الميم.

(148/502)

والملك ما حوته اليد، وقرأ نافع وعاصم ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ بنصب الميم وهو بمعنى الملك.

﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً ﴾ ، يعني: آثاماً ﴿ مِّن زِينَةِ القوم ﴾ ، يعني: من حلي آل فرعون؛ ويقال: أوزاراً يعني: حمالاً، ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ ؛ يعني: فطرحناها في النار.

قرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ حُمِّلْنَا ﴾ بالنصب والتخفيف، وقرأ الباقون بضم الحاء وتشديد الميم على فعل ما لم يُسم فاعله.

﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامرى ﴾ يعني ألقاها في النار كما ألقينا.

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري من أهل قرية يعبدون البقر،

فدخل في بني إسرائيل وأظهر الإسلام معهم ، وفي قلبه حب عبادة البقر ، فابتلى الله عز وجل به بني إسرائيل ؛ فكشف له عن بصره ، فرأى أثر فرس جبريل عليه فأخذ من أثرها .

وقد كان هارون قال لبني إسرائيل : إنكم قد تحملتم من حلي آل فرعون وأمتعتهم معكم ، وهي نجسة فتطهروا منها ، وأوقدوا لهم ناراً فأحرقوها فيه .

فجعلوا يأتون بالحلي والأمتعة فيقذفونها في النار ، فانسبك الحلي .

وأقبل السامري وفي يده تلك القبضة من أثر فرس الرسول يعني جبريل عليه السلام فوقف فقال : يا نبي الله ألقها فيه .

فقال : نعم .

وهارون لا يظن إلا أنه من الحلي الذي يأتي به بنو إسرائيل ، فقذفها فيه وقال : كن عجلاً جسداً له خوار وقال السدي : جاء جبريل ليذهب بموسى إلى ربه ، وجبريل على فرس ، فبصر به السامري : ويقال : إن ذلك الفرس فرس الحياة فأخذ قبضة من أثر حافر الفرس ، فلما ألقى التراب في الحلي صار عجلاً جسداً له خوار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ .

وقال بعضهم : كان السامري من بني إسرائيل وقد ولدته أمه في غار مخافة أن يذبح ، فرباه جبريل عليه السلام في الغار حتى كبر ؛ فلما رأى جبريل على فرس الحياة ، عرفه لأنه قد كان رآه في صغره .

فأخذ قبضة من تراب من أثر حافر فرسه ، ثم ألقاها في جوف العجل ، فصار عجلاً له خوار ، يعني : صوتاً .

وقال مجاهد : خوار العجل كان هفيف الريح إذا دخلت جوفه ؛ وهكذا روي عن علي بن أبي طالب ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس أنه قال : صار عجلاً له لحم ودم وخرج منه الصوت مرة واحدة .

فقال : ﴿ هذا إلهكم ﴾ ، يعني : قال السامري وَإِلَهُ مُوسَىٰ ﴿ فَنَسِيَ ﴾ ، يعني : أخطأ موسى الطريق .

وروى عكرمة عن ابن عباس قوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي نسي موسى أن يخبركم أن هنا إله ، وقال قتادة : قوله ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ولكن موسى نسي ربه عندكم .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ ؟ يعني : لم يكن لهم عقل يعلموا أنه لم يكن إلههم حيث لا يكلمهم ولا يجيبهم .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ﴾ ، يعني : لا يقدر على دفع مضرتهم ، ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ ؛ أي : ولا جر منفعة .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هارون مِن قَبْلُ ﴾ يعني : من قبل مجيء موسى إليهم : ﴿ قَبْلُ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ ، يعني : إنما ابتليتم بعبادة العجل .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ ، يعني : إلهكم الرحمن ، ﴿ فاتبعونى ﴾ ، يعني : اتبعوا ديني ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِى ﴾ ؛ يعني : قولي .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين ﴾ ، يعني : لا نزال على عبادة العجل مقيمين ، ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ .

فلما جاءهم موسى ، ﴿ قَالَ يَا هارون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ، يعني أخطؤوا الطريق بعبادة العجل ﴿ إلا ﴾ يعني : أن لا تتبع أمري في وصيتي فتناجزهم الحرب ؟ ثم قال : ﴿ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ ، يعني : أفتركت وصيتي ؟ .

(150/502)

﴿ قَالَ ﴾ له موسى ذلك بعدما أخذ بشعر رأسه ولحيته ، فقال هارون عليه السلام : ﴿ قَالَ ابن أُمَّ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ قَالَ ابن أُمِّ ﴾ بكسر الميم على معنى الإضافة ، والباقون بالنصب بمنزلة اسم واحد ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى ﴾ ، أي : ولا بشعر رأسي .

﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، يعني : جعلتهم فريقين وألقيت بينهم الحرب ، ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ ؛ يعني : لم تنتظر قدومي ثم أقبل على السامري ، ﴿ قَالَ ﴾ له : ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ ؟ يقول : ما شأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت ؟ ف ﴿ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ﴾ السامري : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي بالتاء على معنى المخاطبة ، وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ ، يعني : رأيت ما لم يروا وعلمت ما لم يعلموا به يعني : بني إسرائيل .

قال موسى : ما الذي رأيت دون بني إسرائيل ؟ فقال : رأيت جبريل على فرس الحياة .

قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ ، يعني : من أثر فرس جبريل ؛ وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ فَقَبصتُ قَبْصَةً ﴾ بالصاد ، وروي عن الحسن أنه قرأ ﴿ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ بالصاد ، وهو الأخذ بأطراف الأصابع ، وقراءة الجماعة ﴿ فَقَبَضْتُ ﴾ بالضاد وهو القبض بالكف .

﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ ، يعني : فطرحتها في العجل .

﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ ، أي : زينت لي نفسي ، فلا تلمني بهذا الفعل ولمهم بعبادتهم إياه .

﴿ قَالَ ﴾ له موسى : ﴿ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة ﴾ ، يعني : عقوبتك في الدنيا ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ ، يعني : لا أمس أحداً ولا يمسَّني أحد ، ويقال : ابتلي بالوسواس وأصل الوسواس من ذلك الوقت ، ويقال : معناه لن تخالط أحداً ولن يخالطك أحد فنفاه عن قومه .

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ في الآخرة .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ بكسر اللام ، لن تغيب عنه ، ومعناه تبعث يوم القيامة لا تقدر على غير ذلك ولا تخلفه ، وقرأ الباقون ﴿ تُخْلَفَهُ ﴾ بنصب اللام ، يعني : لن تؤخر ولن تجاوز عنه ، ويقال : معناه يكافئك الله تعالى على ما فعلت والله لا يخلف الميعاد .

﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ ، يعني : عابداً .

﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ .

روى معمر ، عن قتادة قال : في حرف ابن مسعود ﴿ لَنُذَبِّحَنَّهُ ﴾ ثمَّ ﴿ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ ، وقرأ الحسن ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ بالتخفيف ، وقراءة العامة بالتشديد ونصب الحاء ، ومعناه أنه يحرق مرة بعد مرة ؛ وقرأ أبو جعفر المدني ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ بنصب النون وضم الراء ، ومعناه لنبردنه بالمبارد ، ويقال : حرقه وأحرقه .

﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ، يعني : لنذرينه في البحر ذرواً والنسف التذرية .

﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، يعني : أن العجل ليس بإلهكم وإنما إلهكم : الله الذي لا إله إلا هو .

﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ، يعني : أحاط علمه بكل شيء ، وهو عالم بما كان وما يكون قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ، يعني : أخبار ما مضى .

(152/502)

﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ ﴾ ، يعني : أعطيناك ﴿ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ ، يعني : أكرمناك من عندنا بالقرآن ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ ، يعني : من يكفر بالقرآن ، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ ؛ يعني : حملاً من الذنوب .

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ ، يعني : دائمين في عقوبة الوزر ، ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ ؛ يعني : بئس الحمل الوزر ، وبئس ما يحملون من الذنوب .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ﴾ ، يعني : في يوم ينفخ في الصور وهو يوم القيامة .

قرأ أبو عمرو ﴿ وَيَوْمَ نَنفُخُ فِى الصُّورِ ﴾ بالنون ، واحتج بقوله ﴿ وَنَحْشُرُ الْمجرمين ﴾

والباقون بالياء قال أبو عبيدة : وبهذا نقرأ ، لأن النافخ ملك قد التقم الصور ، وأما الحشر فالله تعالى يحشرهم .

قال أبو عبيد : معناه ينفخ الأرواح في الصور وخالفه غيره .

ثم قال : و﴿ نَحْشُرُ المجرمين ﴾ ، أي : المشركين ﴿ يَوْمِئذٍ زرْقاً ﴾ ، يعني : عطاشاً ؛ ويقال : عمياً ، ويقال : زرق الأعين .

وروي عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : إن الله يقول في موضع ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئذٍ زرْقاً ﴾ ﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : 97] ، فقال ابن عباس : إن يوم القيامة له حالات : في حال زرقاً وفي حال عمياً .

وقال القتبي : ﴿ زرْقاً ﴾ أي تبيض عيونهم من العمى أي ذهب السواد والناظر ، وقال الزجاج : يقال عطاشاً ، لأن من شدة العطش يتغير سواد الأعين حتى تزرق .

ثم قال : ﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ ﴾ ، يعني : يتشاورون فيما بينهم .

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ ، يعني : ما مكثتم في القبور بعد الموت ، ﴿ إِلاَّ عَشْراً ﴾ ؛ يعني : عشرة أيام ؛ ويقال : عشر ساعات .

يقول الله عز وجل : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ ، يعني : أوفاهم عقلاً ويقال : أعدلهم رأياً عند أنفسهم .

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ ، يعني : ما مكثتم في القبور ، ﴿ إِلاَّ يَوْماً ﴾ .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ ؛ وذلك أن بني ثقيف من أهل مكة قالوا : يا رسول الله ، كيف تكون الجبال يوم القيامة فنزل ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ ، يعني : عن أمر الجبال .

﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ ، يعني : يقلعها ربي قلعاً من أمكنتها .

والنسف : التذرية أي تصيير الجبال كالهباء المنثور .

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ ؛ قال القتبي : القاع واحدة القيعة وهي الأرض التي يعلوها السراب كالماء ، والصفصف : المستوي ؛ وقال السدي : القاع الأملس والصفصف المستوي .

﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ ، يعني : لا ترى فيها صعوداً ولا هبوطاً ؛ ويقال : لا ترى فيها أودية ، ولا أمتاً يعني : شخوصاً .

والأمت في كلام العرب ما نشز من الأرض .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ ، أي : يقصدون نحو الداعي .

﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ ، ومعناه لا يميلون يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وَخَشَعَتِ الاصوات للرحمن ﴾ ؛

يعني : خضعت وذلت وسكنت الكلمات للرحمن ، يعني : لهيبة الرحمن .

﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ، يعني : كلاماً خفياً ويقال صوت الأقدام كهمس الإبل .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ في الشفاعة ، ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ يعني : إذا قال بإخلاص القلب لا إله إلا الله في الدنيا ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ ؛ أي : لا يدركون علم الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 407 . 413 ﴾

(154/502)

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ ﴾

يعني وما حملك على العجلة ﴿ عَن قَومِكَ ﴾ يعني عن السبعين الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور ليأخذ التوراة من ربّه فلمّا سار عجل موسى شوقاً إلى ربه وخلّف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل ، فقال الله سبحانه له : وما أعجلك عن قومك ﴿ يا موسى ﴾ فقال مجيباً لربّه ﴿ هُمْ أولاء ﴾ يعني ﴿ على أَثَرِي ﴾ هؤلاء يجيئون ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ لتزداد رضاً ﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

﴿ ابتلينا ﴾ ﴿ قَوْمَكَ ﴾ الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفا ﴿ مِن بَعْدِكَ ﴾ من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ يعني دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل وحملهم عليها .

﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ حزيناً جزعاً ﴿ قَالَ ياقوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ صدقاً أنه يعطيكم التوراة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ مدّة مفارقتي إياكم ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ ﴾ يجب ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾ وذلك أنّ الله سبحانه كان قد وقّت لموسى ثلاثين ليلة ثمّ أتّمها بعشر ، فلمّا مضت الثلاثون قال عدو الله السامري . . .

قال سعيد بن جبير : كان السامري من أهل كرمان فقال لهم : إنما اصابكم هذا عقوبة لكم بالحلي التي معكم ، وكانت حلياً استعاروها من القبط ، فهلمّوا بها واجمعوها حتى يجيء موسى فيقضي فيه ، فجمعت ودفعت إليه فصاغ منها عجلاً في ثلاثة أيام ثمّ قذف فيه القبضة التي أخذها من أثر فرس جبرئيل ، فقال قوم موسى له : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم : بمَلكنا بفتح الميم ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الميم ، الباقون : بكسرها ، ومعناها بسلطاننا وطاقتنا وقدرتنا .

قال مقاتل : يعني ونحن نملك أمرنا ، وقيل : باختيارنا .

﴿ ولكنا حُمِّلْنَا ﴾ قرأ أهل الحجاز والشام وحفص : حُمّلنا بضم الحاء وتشديد الميم ، الباقون : حملنا بفتح الحاء والميم مخفّفة ﴿ أَوْزَاراً ﴾ أثقالاً وأحمالاً ﴿ مِّن زِينَةِ القوم ﴾ من حلي قوم فرعون ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ فجمعناها ودفعناها إلى السامري ، فألقاها في النار لترجع أنت فترى فيه رأيك ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري ﴾ ما معه من الحليّ مَعَنا كما ألقينا ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً ﴾ لا روح فيه ، صاغ لهم عجلاً من ذهب مرصّع بالجواهر ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ صوت ، وذلك أنه خار خورة واحدة ثمَّ لم يعد .

قال ابن عباس : أتى هارون على السامري وهو يصنع العجل فقال : ما تصنع ؟ قال : أصنع ما ينفع ولا يضر ، فقال : اللهمَّ أعطه ما سألك على ما في يقينه فلمّا قال : اللهم إنّي أسألك أن يخور ؛ فخار فسجد ، وإنّما خار لدعوة هارون ﴿ فَقَالُواْ هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ أي ضلّ وأخطأ الطريق ، وقيل : معناه فتركه ها هنا وخرج يطلبه .

قال الله سبحانه ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ ﴾ يعني أنّه لا يرجع ﴿ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أي لا يكلّمهم العجل ولا يجيبهم، وقيل: يعني لا يعود إلى الخوار والصوت ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ﴾ يعني من قبل رجوع موسى ﴿ يا قوم إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ ابتليتم بالعجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن فاتبعوني ﴾ على ديني ﴿ وأطيعوا أَمْرِي ﴾ فلا تعبدوه ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ لن نزال على عبادته مقيمين ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفا الذين لم يعبدوا العجل، فلمّا رجع موسى وسمع الصياح والجلبة، وكانوا يرقصون حول العجل، قال السبعون الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلمّا رأى هارون أخذ شعره بيمينه ولحيته بشماله وقال له ﴿ يا هرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا ﴾ أخطأوا وأشركوا ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ يعني أن تتّبع أمري ووصيتي ولا صلة، وقيل: معناه: ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك إيّاهم تقريعاً وزجراً لهم عمّا أتوه؟ وقيل: معناه: هلاّ قاتلتهم إذ علمت أنّي لو كنت فيما بينهم لقاتلتهم على كفرهم.

﴿ فَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ فقال هارون ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ قال الكلبي وغيره : كان أخاه لأبيه وأُمّه ولكنّه أراد بقوله : يا بن أُمّ أن يرقّقه ويستعطفه عليه فيتركه ، وقيل : كان أخاه لأُمّه دون أبيه ، وقيل : لأن كون الولد من الأُمّ على التحقيق والأب من جهة الحكم ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ يعني ذؤابتي وشعر رأسي إذ هما عضوان مصونان يقصدان بالإكرام والإعظام من بين سائر الأعضاء ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً فتقول ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ وأوقعت الفرقة فيما بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ولم تحفظ وصيّتي حين قلت لك اخلفني في قومي وأصلح .

قال قتادة في هذه الآية : فذكر الصالحون الفرقة قبلكم ، ثمّ أقبل موسى على السامريّ فقال له ﴿ فَمَا خَطْبُكَ ﴾ أمرك وشأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت ﴿ ياسامري ﴾ .

قال قتادة : كان السامري عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكنّ عدوّ الله نافق بعدما قطع البحر مع بني إسرائيل ، فلمّا مرّت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فاغتنمها السامريّ ،

فاتّخذ العجل فقال السامري مجيباً لموسى : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا وفطنت ما لم يفطنوا ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي تبصروا بالتاء على الخطاب ، الباقون بالياء على الخبر ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ يعني فأخذت تراباً من أثر فرس جبرئيل ، وقرأ الحسن فقبصت قبصة بالصاد فيهما ، والفرق بينهما أن القبض بجمع الكف والقبص بأطراف الأصابع ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ فطرحتها في العجل ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ ﴾ زيّنت ﴿ لِي نَفْسِي * قَالَ ﴾ له موسى ﴿ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِي الحياة ﴾ ما دمت حياً ﴿ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ لا تخالط أحداً ولا يخالطك أحد ، وأمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه .

قال قتادة : إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك : لا مساس ، ويقال بأنّ موسى همّ بقتل السامري فقال الله : لا تقتله فإنه سخيّ ، وفي بعض الكتب : إنه إنْ يمسّ واحد من غيرهم أحداً منهم حُمّ كلاهما في الوقت .

﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ يا سامري ﴿ مَوْعِداً ﴾ لعذابك ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ قرأ الحسن وقتادة وأبو نهيك وأبو عمرو بكسر اللام بمعنى لن تغيب عنه بل توافيه ، وقرأ الباقون بفتح اللام بمعنى لن يخلفكه الله .

﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ بزعمك وإلى معبودك ﴿ الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ ﴾ دمت عليه ﴿ عَاكِفاً ﴾ مقيماً تعبده .

يقول العرب : ظلتُ أفعل كذا بمعنى ظللت ، ومسْت بمعنى مسست ، وأحسْت بمعنى أحسست . قال الشاعر :

خلا أنّ العتاق من المطايا . . . أحَسْنَ به فهنّ إليه شوس

أي أحسسن .

(159/502)

﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ قرأه العامة بضم النون وتشديد الراء بمعنى لنحرقنه بالنار .

وقرأ الحسن بضم النون وتخفيف الراء من الإحراق بالنّار ، وتصديقه قول ابن عباس : فحرّقه بالنار ثمَّ ذرّاه في اليمّ .

وقرأ أبو جعفر وابن محيص وأشهب العقيلي لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة بمعنى لنبردنّه بالمبارد ، يقال : حرقه يحرقه ويحرقه إذا بردّه ، ومنه قيل للمبرد المحرق ، ودليل هذه القراءة قول السدّي : أخذ موسى العجل فذبحه ثمَّ حرقه بالمبرد ثمَّ ذرّاه في اليّم ، وفي حرف ابن مسعود : لنذبحنه ثمَّ لنحرّقنه ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ لنذرّينه ﴿ فِي اليم نَسْفاً ﴾ يقال نسف الطعام بالمنسف إذا ذرّاه فطيّر عنه قشوره وترابه .

﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله الذي لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ لا العجل ﴿ وَسِعَ ﴾ ملأ ﴿ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

فعلمه ولم يضق عليه ، يقال : فلان يسع لهذا الأمر إذا أطاقه وقوي عليه ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الأمور ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ يعني القرآن ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ ﴾ أدبر ﴿ عَنْهُ ﴾ فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ إثماً عظيماً وحملاً ثقيلاً ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ لا يكفره شيء .

﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ قرأه العامة بياء مضمومة على غير تسمية الفاعل ، وقرأ أبو عمرو بنون مفتوحة لقوله ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين ﴾ المشركين ﴿ يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ والعرب تتشاءم بزرقة العيون . قال الشاعر يهجو رجلاً :

لقد زرقت عيناك يا بن مكعبر . . . كما كل ضبي من اللؤم أزرق

وقيل : أراد عُمياً ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾ يتسارّون فيما ﴿ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ ما مكثتم في الدنيا ، وقيل : في القبور ﴿ إِلاَّ عَشْراً ﴾ أي عشر ليال .

قال الله سبحانه ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي أوفاهم عقلاً وأصوبهم رأياً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما يستقبلهم من أهوال يوم القيامة .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا ﴾ يقلعها من أماكنها ويطرحها في البحار حتى تستوي.

فإن قيل: ما العلّة الجالبة للفاء التي في قوله فقل خلافاً لأخواتها في القرآن؟

فالجواب أنّ تلك أسئلة تقدّمت سألوا عنها رسول الله فجاء الجواب عقيب السؤال، وهذا سؤال لم يسألوه بعد وقد علم الله سبحانه أنّهم سائلوه عنه فأجاب قبل السؤال، ومجازها: وإن سألوك عن الجبال فقل ينسفها ﴿ رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ أرضاً ملساء لا نبات فيها.

﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾.

قال ابن عباس: العوج: الأودة، والأمت الروابي والنشوز.

مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت: الارتفاع.

ابن زيد: الأمت: التفاوت والتعادي.

ويقول العرب: ملأت القربة ماءً لا أمت فيه أي لا استرخاء.

يمان: الأمت: الشقوق في الأرض ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي ﴾ الذي يدعوهم إلى موقف القيامة وهو إسرافيل ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ أي لدعاته، وقال أكثر العلماء: هو من المقلوب أي لا حرج لهم عن دعاته، لا يزيغون عنه، بل يتّبعونه سراعاً.

﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ وسكنت ﴿ الأصوات للرحمن ﴾ فوصف الأصوات بالخشوع

والمعنى لأهلها ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ يعني وطْء الأقدام ونقلها إلى المحشر ، وأصله الصوت الخفي ، يقال : همس فلان بحديثه إذا أسرّه وأخفاه ، قال الراجز :

وهنّ يمشين بنا هميساً . . . إن تصدق الطير ننك لميسا

يعني بالهمس صوت أخفاف الإبل .

وقال مجاهد : هو تخافت الكلام وخفض الصوت .

﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ في الشفاعة ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي ورضي قوله .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الكناية مردودة إلى الذين يتّبعون الداعي .

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ لا يدركونه ولا يعلمون ما هو صانع بهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 256 . 261 ﴾

(161/502)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) ﴾

وَمَا أَعْجَلَكَ أى شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء إلى

الطور على الموعد المضروب . ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به ، بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا اللّه تعالى ، وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرا إلى دواعي الحكمة ، وعلما بالمصالح المتعلقة بكل وقت ، فالمراد بالقوم : النقباء .

وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ، يأباه قوله هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وعن أبى عمرو ويعقوب : إثرى ، بالكسر وعن عيسى بن عمر : أثرى بالضم .

وعنه أيضا : أولى بالقصر . والإثر أفصح من الأثر . وأما الأثر فمسموع في فرند السيف «1» مدوّن في الأصول . يقال : إثر السيف وأثره ، وهو بمعنى الأثر غريب . فإن قلت : ما أَعْجَلَكَ

---

(1) . قوله «فرند السيف» أى ربده ووشيه ، كذا في الصحاح . (ع)

(162/502)

سؤال عن سبب العجلة «1» فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك . وقوله هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي كما ترى غير منطبق عليه .

قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين ، أحدهما : إنكار العجلة في نفسها .

والثاني :

السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتلّ بأنه لم يوجد منى إلا تقدّم يسير ، مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به . وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى ولقائل أن يقول : حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب اللّه ، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام .

[سورة طه (20) : آية 85]

قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

أراد بالقوم المفتونين : الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا . فإن قلت : في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة ، وحسبوها أربعين مع أيامها ، وقالوا : قد أكملنا العدة ، ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ؟ قلت : قد أخبر اللّه تعالى عن الفتنة المترقبة ، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته . أو افترص السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه ، وأخذ في تدبير ذلك . فكان بدء الفتنة

موجودا . قرئ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ أى وهو أشدّهم ضلالا : لأنه ضال مضل ، وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل : السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم : وقيل : كان من أهل باجرما .

وقيل : كان علجا من كرمان ، واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر .

[سورة طه (20) : الآيات 86 إلى 88]

فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (88)

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : سئل عن سبب العجلة . . . الخ» قال أحمد : وإنما أراد اللّه تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم : أن يعلم موسى أدب السفر ، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير ليكون نظره محيطا بطائفته ونافذا فيهم ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم ، ألا ترى اللّه عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا فقال : وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا

الأمر مبادرة إلى رضا اللّه عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة اللّه تعالى له صلى اللّه عليه وسلم.

(163/502)

الأسف: الشديد الغضب. ومنه قوله عليه السلام في موت الفجأة «رحمة المؤمن وأخذة أسف للكافر «1»» وقيل: الحزين. فإن قلت. متى رجع إلى قومه؟ قلت: بعد ما استوفى الأربعين: ذا القعدة وعشر ذى الحجة. وعدهم اللّه سبحانه أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل، حكى لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملا الْعَهْدُ الزمان، يريد: مدّة مفارقته لهم. يقال: طال عهدى بك، أى: طال زماني بسبب مفارقتك. وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل بِمَلْكِنا قرئ بالحركات الثلاث، أى: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده. أى: حملنا أحمالا من حلىّ القبط التي استعرناها منهم. أو أرادوا بالأوزار: أنها آثام وتبعات، لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب. وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فَقَذَفْناها في نار

السامري، التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ. وقرئ حملنا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ أراهم أنه يلقى حليا في يده مثل ما ألقوا. وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبريل. أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتا صار حيوانا فَأَخْرَجَ لَهُمْ السامري من الحفرة عجلا خلقه اللّه من الحليّ التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟ قلت: أما يصحّ أن يؤثر اللّه سبحانه روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات، وهي أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جمادا أنشأه اللّه إن شاء عند مباشرته حيوانا. ألا ترى كيف أنشأ المسيح

---

(1). أخرجه أحمد من طريق عبد اللّه بن عبيد بن عمير عن عائشة «سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن موت الفجأة - فذكره وله طريق أخرى عند عبد الرازق مرفوعة. وفيها يحيى بن العلاء الرازي وهو ضعيف. ورواه هو وابن أبى شيبة والطبراني من حديثهما موقوفا. وعن ابن مسعود أيضا موقوفا، وفي الباب عن أنس في الجنائز لابن شاهين وعن عبيد بن خالد عند أبى داود بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف».

[.....]

من غير أب عند نفخه في الدرع. فإن قلت: فلم خلق اللّه العجل من الحلىّ حتى صار فتنة لبنى إسرائيل «1» وضلالا؟ قلت: ليس بأوّل محنة محن اللّه بها عباده ليثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل اللّه الظالمين. ومن عجب من خلق العجل، فليكن من خلق إبليس أعجب. والمراد بقوله فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ هو خلق العجل للامتحان، أى: امتحناهم بخلق العجل وحملهم السامري على الضلال، وأوقعهم فيه حين قال لهم هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ أى: فنسي موسى أن يطلبه هاهنا، وذهب يطلبه عند الطور. أو فنسي السامري: أى ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر.

[سورة طه (20): الآيات 89 إلى 91]

أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (89) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (91)

يَرْجِعُ من رفعه فعلى أنّ أن مخففة من الثقيلة. ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال مِنْ قَبْلُ من قبل أن يقول لهم السامري ما قال، كأنهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من

الحفرة افتتنوا به واستحسنوه، فقبل أن ينطق السامري بادرهم هرون عليه السلام بقوله إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ.

[سورة طه (20) : الآيات 92 إلى 93]

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)

لا مزيدة. والمعنى ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا؟ أو مالك لم تلحقني.

[سورة طه (20) : آية 94]

قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

---

(1) . قال محمود: «إن قلت لم خلق الله العجل فتنة لهم» قال أحمد: هذا السؤال وجوابه تقدما له في أول سورة الأعراف. وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه لا علل أفعاله. وجواب هذا السؤال في قوله تعالى لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ فهذا الامر جائز. وقد أخبر الله تعالى بوقوعه فلا نبتغى وراء ذلك سبيلا، لكن الزمخشري تقتضي قاعدته في وجوب رعاية المصالح على الله تعالى وتحتم هداية الخلق عليه: أن يؤول ذلك ويحرفه، فذرهم وما يفترون.

قرئ لِحْيَتِي

بفتح اللام «1» وهي لغة أهل الحجاز ، كان موسى صلوات اللّه عليه رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء ، شديد الغضب للّه ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون اللّه بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ، غضبا للّه واستنكافا وحمية ، وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدوّ المكاشف قابضا على شعر رأسه - وكان أفرع «2» - وعلى شعر وجهه يجرّه إليه . أى : لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا ، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك ، المتلافى برأيك وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتنى به من ضم النشر وحفظ الدهماء «3» ، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها .

[سورة طه (20) : الآيات 95 إلى 96]

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)

الخطب : مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئا : ما خطبك ؟ فمعناه : ما طلبك له ؟ قرئ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ بالكسر «4» ، والمعنى : علمت ما لم تعلموه ، وفطنت ما لم تفطنوا له . قرأ الحسن قَبْضَةً بضم القاف وهي اسم المقبوض ، كالغرفة والمضغة .

وأما القبضة فالمرة من القبض ، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ، كضرب الأمير . وقرأ أيضا : فقبصت قبصة ، بالصاد المهملة . الضاد : بجميع الكف . والصاد : بأطراف الأصابع . ونحوهما : الخضم ، والقضم : الخاء بجميع الفم ، والقاف بمقدمه : قرأ ابن مسعود :

من أثر فرس الرسول . فإن قلت : لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس ؟ قلت : حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل اللّه إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامري فقال : إنّ لهذا شأنا ، فقبض قبضة من تربة موطئه ، فلما سأله موسى عن قصته قال : قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ، ولعله لم يعرف أنه جبريل .

[سورة طه (20) : آية 97]

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (97)

(1) . قوله «قرئ بلحيتي بفتح اللام» والقراءة المشهورة : بالكسر . (ع)

(2) . قوله «وكان أفرع» أى تام الشعر . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «وحفظ الدهماء» أى الجماعة ، أفاده الصحاح . (ع)

(4) . قوله «وقرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم . وقرئ : تبصروا به .

بالتاء : وعبارة النسفي : وبالتاء حمزة وعلى ، ولعلها سقطت هنا سهوا من الناسخ ، فليحرر . (ع)

(166/502)

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا ، وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلا أو امرأة ، حم الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس ، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم ، ومن الوحشي النافر في البرية . ويقال : إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم . وقرئ لا مِساسَ بوزن فجار .

ونحوه قولهم في الظباء . إذا وردت الماء فلا عباب ، وإن فقدته فلا أباب : وهي أعلام للمسة والعبة والأبة ، وهي المرة من الأب وهو الطلب لَنْ تُخْلَفَهُ أى لن يخلفك اللّه موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض ، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا ، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . وقرئ لن تخلفه . وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفا . قال الأعشى :

أثوى وأقصر ليله ليزوّدا فمضى وأخلف من قتيلة موعدا «1»

وعن ابن مسعود : نخلفه ، بالنون ، أى : لن يخلفه اللّه ، كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في لِأَهَبَ لَكِ

. ظَلْتَ وظلت ، وظلت والأصل ظلت ، فحذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ، ومنهم من لم ينقل لَنُحَرِّقَنَّهُ ولنحرقنه ولنحرقنه . وفي حرف ابن مسعود : لنذبحنه ، ولنحرقنه ، ولنحرقنه : القراءتان من الإحراق . وذكر أبو على الفارسي في لنحرقنه انه يجوز أن يكون حرّق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد . وعليه القراءة الثالثة ، وهي قراءة على بن أبى طالب رضى اللّه عنه لَنَنْسِفَنَّهُ بكسر السين وضمها ، وهذه عقوبة ثالثة وهي إبطال ما افتتن

---

(1) أثوى وأقصر ليله ليزودا فمضت وأخلف من قتيلة موعدا

ومضى لحاجته وأصبح حبله خلقا وكان بحالة لن ينكدا

للأعشى . وأقصر عن الشيء : أقلع عنه وامتنع منه . وأقصره : وجده قصيرا . وروى «قصر» بالتشديد . وروى «ليله» بالاضافة إلى الضمير ، لكن الذي في ديوان الأعشى «ليلة» بالتاء . وثوى بالمكان : أقام به ، وأثوى به : لغة فيه ، ويستعمل متعديا أيضا . يقول : إنه قطع السفر ، وأقام بربع قتيلة ، ووجد ليله قصيرا لتزوره بالوصال ، أو امتنع من السفر لذلك ، فمضى الليل على الأول ، أو مضت الليلة على الثاني . وجزالة المعنى تشهد له . وأخلف الموعد من قتيلة ، أي : وجده خلفا ، فسافر كما كان إلى حاجته ، واستعار الحبل للوداد أو للطمع فيه على طريق التصريحية والخلق ترشيح ، أي : يئس من مودته ، وكان الحبل أو العاشق بحالة حسنة ، هي أنه لن ينكدا ، أي لن يتنغص ، ولن يتكدر ، ولن يتعسر شأنه ، وزوال النعمة بعد نوالها يشق على النفس ، وخلق – بالضم – فهو خلق ، كحسن ، وهو في الأصل مصدر . وينكد كيتعب .

(167/502)

به وفتن ، وإهدار سعيه ، وهدم مكره وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ .

[سورة طه (20) : آية 98]

إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (98)

قرأ طلحة : اللّه الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً وعن مجاهد وقتادة : وسع ، ووجهه أن وسع متعدّ إلى مفعول واحد ، وهو كل شيء . وأمّا عِلْماً فانتصابه على التمييز ، وهو في المعنى فاعل ، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين ، فنصبهما معا على المفعولية لأنّ المميز فاعل في المعنى ، كما تقول في «خاف زيد عمرا» خوفت زيدا عمرا ، فترد بالنقل ما كان فاعلا مفعولا .

[سورة طه (20) : الآيات 99 إلى 101]

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101)

الكاف في كَذلِكَ منصوب المحل ، وهذا موعد من اللّه عزّ وجل لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، أى : مثل ذلك الاقتصاص ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون ، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم ، تكثيرا لبيناتك ، وزيادة في معجزاتك ، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة ، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر ، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعنى القرآن مشتملا على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار ، لذكر عظيم وقرآن كريم ، فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ، ومن أعرض عنه فقد هلك وشقى . يريد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح «1» لحامل ، وينقض ظهره ،

ويلقى عليه بهره «2» : أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم. وقرئ: يحمل. جمع خالِدِينَ على المعنى، لأنّ من معلق متناول لغير معرض واحد. وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ. ونحوه قوله تعالى وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها. فِيهِ أى في ذلك الوزر. أو في احتماله ساءَ في حكم بئس. والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهما يفسره حِمْلًا والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء حملا وزرهم، كما حذف في قوله تعالى

---

(1) . قوله «يفدح الحامل» أى يثقله. أفاده الصحاح. (ع)

(2) . قوله «بهره» أى غلبته. أفاده الصحاح. (ع)

(168/502)

نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ أيوب هو المخصوص بالمدح. ومنه قوله تعالى وَساءَتْ مَصِيراً أى وساءت مصيرا جهنم. فإن قلت: اللام في لَهُمْ ما هي؟ وبم تتعلق؟ قلت: هي للبيان، كما في هَيْتَ لَكَ. فإن قلت. ما أنكرت «1» أن يكون في ساء ضمير الوزر؟ قلت: لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم فإن قلت: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس، وليكن ساء الذي منه قوله تعالى سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا

بمعنى أهم وأحزن؟ قلت : كفاك صادّا عنه أن يؤول كلام اللّه إلى قولك :

وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملا ، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنصوب.

[سورة طه (20) : الآيات 102 إلى 104]

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104)

أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ : ننفخ ، بالنون. أو لأن الملائكة المقرّبين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة ، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى. وقرئ : ينفخ ، بلفظ ما لم يسم فاعله. وينفخ. ويحشر ، بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير للّه عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام. وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن.

وقرئ فِي الصُّوَرِ بفتح الواو جمع صورة ، وفي الصور : قولان ، أحدهما : أنه بمعنى الصور وهذه القراءة تدل عليه. والثاني : أنه القرن. قيل في الزرق قولان ، أحدهما : أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدوّ :

أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين. والثاني : أنّ المراد العمى ، لأنّ حدقة من

يذهب نور بصره تزراقّ. تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا: إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأن أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت، والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء. ومنه توقيع عبد اللّه بن المعتز تحت «أطال اللّه بقاءك»: «كفى بالانتهاء قصرا» وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا، ويقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد استرجح اللّه قول من يكون أشدّ تقاولا منهم في قوله تعالى إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ونحوه قوله تعالى قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ وقيل: المراد لبثهم في القبور. ويعضده

---

(1). قوله «ما أنكرت» لعله «لم أنكرت». ع

(169/502)

قوله عز وجل وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ، وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ.

[سورة طه (20): الآيات 105 إلى 107]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (107)

يَنْسِفُها يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها كما يذرى الطعام فَيَذَرُها «1» أى فيذر مقارّها ومراكزها. أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر، كقوله تعالى ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ. فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر في المعاني. والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأى المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عزّ وعلا ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك، اللهمّ إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني، فقيل فيه: عوج بالكسر. الأمت: النتوّ اليسير، يقال: مدّ حبله حتى ما فيه أمت.

[سورة طه (20) : الآيات 108 إلى 109]

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (108)
يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (109)

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله يَوْمَئِذٍ أى يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة. والمراد: الداعي إلى المحشر. قالوا: هو إسرافيل قائما على صخرة بيت المقدس يدعو الناس، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون لا عِوَجَ لَهُ أى لا يعوّج له مدعوّ، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أى: خفضت

---

(1) . قوله تعالى فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً في الصحاح: أن كلا من القاع والصفصف بمعنى المستوى من الأرض، فكأن الصفصف تأكيد. (ع)

(170/502)

الأصوات من شدة الفزع وخفتت «1» فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً وهو الركز الخفي. ومنه الحروف المهموسة. وقيل: هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت، أى: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر مَنْ يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف، أى: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ والنصب على المفعولية. ومعنى أذن له ورَضِيَ لَهُ لأجله. أى: أذن للشافع

ورضى قوله لأجله. ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ.

[سورة طه (20) : آية 110]

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110)

أى يعلم ما تقدّمهم من الأحوال وما يستقبلونه، ولا يحيطون بمعلوماته علما. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 80. 89﴾

---

(1). قوله «وخفتت» في الصحاح «خفت الصوت» سكن. (ع)

(171/502)

وقال الخازن:

قوله ﴿ وما أعجبك ﴾

يعني وما حملك على العجلة ﴿عن قومك يا موسى ﴾ وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً يذهبو معه إلى الطور ليأخذوا التوراة.

فسار بهم ثم عدل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه، وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله له وما أعجلك عن قومك يا موسى؟ فأجاب ربه ف ﴿ قال هم أولاء على

أثري ﴾ أي هم بالقرب مني يأتون على أثري من بعدي .

فإن قلت لم يطابق السؤال الجواب فإنه سأله عن سبب العجلة فعدل عن الجواب ، فقال هم أولاء بأنه لم يوجد منه إلا تقدم سيره ثم أعقبه بجواب السؤال فقال ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ أي لتزداد رضاً ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك ﴾ أي فإنا ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً ﴿ من بعدك ﴾ أي من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿ وأضلهم السامري ﴾ أي دعاهم وصرفهم إلى الضلال وهو عبادة العجل ، وإنما أضاف الضلال إلى السامري لأنهم ضلوا بسببه وقيل إن جميع المنشآت تضاف إلى منشئها في الظاهر ، وإن كان الموجد لها في الأصل هو الله تعالى فذلك قوله هنا وأضلهم السامري ، قيل كان السامري من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة ، وقيل كان من القبط وكان جاراً لموسى وآمن به ، وقيل كان علجاً من علوج كرمان رفع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ أي حزيناً جزعاً ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ أي صدقاً يعطيكم التوراة ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي مدة مفارقتي إياكم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب عليكم الغضب من ربكم بسببه ﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ يعني ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع .

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي بملك أمرنا ، وقيل باختيارنا وذلك أن المرء إذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه ﴿ ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ أي حملنا مع أنفسنا ما كان قد استعرناه من قوم فرعون ، والأوزار الأثقال سميت أوزاراً لكثرتها وثقلها وقيل الأوزار الآثام ، أي حملنا آثاماً وذلك أن بني إسرائيل استعاروا حلياً من القبط ولم يردوها وبقيت معهم إلى حين خروجهم من مصر وقيل إن الله لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذها بنو إسرائيل فكانت غنيمة ولم تكن الغنائم تحل لهم ﴿ فقذفناها ﴾ أي ألقيناها قيل إن السامري قال لهم احفروا حفيرة وألقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها . وقيل إن هارون أمرهم بذلك ففعلوا ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ أي ما كان معه من الحلي فيها ، قال ابن عباس : أوقد هارون ناراً وقال اقذفوا ما معكم فيها ، وقيل إن هارون مر على السامري وهو يصوغ العجل فقال له ما هذا قال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي .

فقال هارون أللهم اعطه ما سألك على ما في نفسه .

فألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل في فم العجل وقال كن عجلاً يخور فكان كذلك .

بدعوة من هارون فذلك قوله تعالى ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ اختلفوا هل كان الجسد حياً أم لا على قولين أحدهما لا لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد ضال بل

السامري صور صورة على شكل العجل وجعل فيه منافذ ومخاريق بحيث إذا دخل فيها الريح صوت كصوت العجل .

الثاني : أنه صار حياً وخار كما يخور العجل ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ﴾ يعني قال ذلك السامري ومن تابعه من افتتن به .

وقيل عكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط مثله ﴿ فنسي ﴾ قيل هو إخبار عن قول السامري أي إن موسى نسي إلهه وتركه ها هنا وذهب يطلبه .

وقيل معناه أن موسى إنما طلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر فأخطأ الطريق وضل .

(173/502)

وقيل هو من كلام الله تعالى وكأنه أخبر عن السامري أنه نسي الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل في شيء .

ولا يحل فيه شيء ثم بين سبحانه وتعالى المعنى الذي يجب الاستدلال به فقال ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ﴾ أي إن العجل لا يرد لهم جواباً إذ دعوه ولا يكلمهم ﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ هذا توبيخ لهم إذ عبدوا ما لا يملك ضر من ترك عبادته ولا ينفع من

عبده وكان العجل فتنة من الله تعالى ابتلى به بني إسرائيل .

قوله ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾ أي من قبل رجوع موسى ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ أي ابتليتم بالعجل ﴿ وإن ربكم الرحمن فاتبعوني ﴾ على ديني في عبادة الله ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ يعني في ترك عبادة العجل .

اعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم أولاً عن الباطل بقوله ﴿ إنما فتنتم به ﴾ ثم دعا إلى معرفة الله تعالى بقوله ﴿ إن ربكم الرحمن ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله ﴿ فاتبعوني ﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ فهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد من إماطة الأذى عن الطريق وهي إزالة الشبهات ثم معرفة الله فإنها هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة .

وإنما قال وإن ربكم الرحن فخص هذا الموضع بهذا الاسم لأنه ينبههم على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالإصرار والجحود ﴿ قالوا لن نبرح ﴾ يعني لن نزال ﴿ عليه ﴾ يعني على عبادة العجل ﴿ عاكفين ﴾ يعني مقيمين ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ كأنهم قالوا لن نقبل حجتك ولا نقبل إلا قول موسى فاعتزلهم هارون ومعه اثنا عشر ألفاً الذي لم يعبدوا العجل .

فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة ، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و ﴿ قال ﴾ له ﴿ يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ﴾ أي أشركوا ﴿ ألا تتبعن ﴾ أي تتبع أمري ووصيتي وهلا قاتلتهم وقد علمت أني ولو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم ، وقيل معناه ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك إياهم زجراً لهم عما أتوه ﴿ أفعصيت أمري ﴾ يعني خالفت أمري ﴿ قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ يعني بشعر رأسي وكان قد أخذ بذؤابتيه ﴿ إني خشيت أن تقول ﴾ يعني لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً فتقول ﴿ فرقت بين بني إسرائيل ﴾ يعني خشيت إن فارقتهم واتبعتك أن يصيروا أحزاباً فيتقاتلون ، فتقول فرقت بني إسرائيل ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ يعني لم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي أصلح وأرفق بهم ثم أقبل موسى على السامري ﴿ قال فما خطبك ﴾ يعني فما أمرك وشأنك وما الذي حملك على ما صنعت ﴿ يا سامري قال ﴾ يعني السامري ﴿ بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ يعني من تراب حافر فرس جبريل ﴿ فنبذتها ﴾ يعني فقذفتها في فم العجل فخار .

فإن قلت كيف عرف السامري جبريل ورآه من بين سائر الناس .

قلت ذكروا فيه وجهين .

أحدهما : أن أمه ولدته في السنة التي كان يقتل فيها البنون فوضعته في كهف حذراً عليه من القتل فبعث الله إليه جبريل ليربيه لما قضى الله على يديه من الفتنة .

الوجه الثاني : أنه لما نزل جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الطور رآه السامري من بين سائر الناس ، فلما رآه قال إن لهذا لشأناً فقبض القبضة من أصل تربة أثر موطئه ، فلما سأله موسى قال قبضت قبضة من أثر الرسول إليك يوم جاء للميعاد .

(175/502)

وقيل رآه يوم فلق البحر فأخذ القبضة وجعلها في عمامته لما يريد الله أن يظهره من الفتنة على يديه وهو قوله ﴿ وكذلك سولت ﴾ يعني زينت ﴿ لي نفسي ﴾ وقيل إنه من السؤال والمعنى أنه لم يدعني إلى فعله غيري واتبعت فيه هواي .

﴿ قال ﴾ يعني موسى للسامري ﴿ فاذهب فإن لك في الحياة ﴾ يعني ما دمت حياً ﴿ أن تقول لا مساس ﴾ يعني لا تخالط أحداً ولا يخالطك أحد فعوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أوحش منها ولا أعظم وذلك أن موسى أمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته .

وقال ابن عباس : لا مساس لك ولولدك .

فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحد وقيل كان إذا مس أحداً .

أو مسه أحد حمجمعيا ًفتحامى الناس وتحاموه وكان لا مساس حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك ﴿ وإن لك ﴾ يا سامري ﴿ موعداً ﴾ يعني بعذابك في الآخرة ﴿ لن تخلفه ﴾ قرىء بكسر اللام ومعناه لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة ، وقرىء بالفتح أي لن تكذب به ولم يخلفكه الله بل يكافئك على فعلك ﴿ وانظر لننسفنه ﴾ أي لنذرينه ﴿ في اليم ﴾ يعني في البحر ﴿ نسفاً ﴾ روي أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم وحرقه في النار ثم ذراه في البحر وقيل معناه لنحرقنه أي لنبردنه فعلى هذا التأويل لم ينقلب لحماً ودماً فإن ذلك لا يمكن أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال صار لحماً ودماً ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها في البحر فلما فرغ موسى من أمر العجل وابطال ما ذهب إليه السامري رجع إلى بيان الدين الحق فقال مخاطباً لبني إسرائيل ﴿ إنما إلهكم الله ﴾ يعني المستحق للعبادة والتعظيم هو الله ﴿ الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾ يعني وسع علمه كل شيء وقيل يعلم من يعبده .

قوله: ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ﴾ يعني من أخبار ﴿ ما قد سبق ﴾ يعني الأمم الخالية وقيل ما سبق من الأمور ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ وهو القرآن ﴿ من أعرض عنه ﴾ يعني عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿ فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ يعني حملاً ثقيلاً من الإثم ﴿ خالدين فيه ﴾ يعني مقيمين في عذاب الوزر ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ يعني بئس ما حملوا أنفسهم من الإثم ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ قيل هو قرن ينفخ فيه يدعي به الناس للمحشر والمراد بهذه النفخة النفخة الثانية لأنه أتبعه بقوله ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ يعني نحشر المجرمين زرق العيون سود الوجوه وقيل عمياً وقي عطشاً ﴿ يتخافتون ﴾ يعني يتشاورون ﴿ بينهم ﴾ ويتكلمون خفية ﴿ إن لبثتم ﴾ يعني مكثتم في الدنيا ﴿ إلا عشراً ﴾ يعني عشر ليال وقيل في القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وذلك أن العذاب رفع عنهم بين النفختين فاستقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا فقال الله تعالى ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ يعني يتشاورون فيما بينهم ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أي أوفاهم وأعدلهم قولاً ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم قوله ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ .

قال ابن عباس : سأل رجل من ثقيف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله تعالى هذه الآية والنسف هو القلع اي يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثوراً ﴿ فيذرها ﴾ أي يدع أماكن الجبال من الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ أي ارضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ﴿ لا ترى فيها جوعاً ولا أمتاً ﴾ يعني لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً يعني لا ترى وادياً ولا رابية ﴿ يومئذ يتبعون الداعي ﴾ أي صوت الداعي ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن ﴿ لا عوج له ﴾ أي لا عوج لهم عن دعائه ولا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً بل يتبعونه سراعاً ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ يعني سكنت وذلت وخضعت وضعفت والمراد به أصحاب الأصوات وقيل خضعت الأصوات من شدة الفزع ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ وهو الصوت الخفي قال ابن عباس : هو تحريك الشفاه من غير نطق وقيل أراد بالهمس صوت وطء الأقدام إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل .

﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ لأحد من الناس ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يعني إلا من أذن له أن يشفع ﴿ ورضي له قولاً ﴾ قال ابن عباس : يعني قال لا إله إلا الله ، وفيه دليل على أنه لا يشفع غير المؤمن ، وقيل إن درجة الشافع درجة عظيمة فهي لا تحصل إلا لمن يأذن الله له فيها وكان عند الله مرضياً ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ قيل الكناية راجعة إلى

الذين يتبعون الداعي ، أي يعلم الله ما قدموا من الأعمال وما خلفوا من الدنيا وقيل الضمير يرجع إلى من أذن له الرحمن وهو الشافع ، والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن أن يشفع ثم قال يعلم ما بين أيديهم أي أيدي الشافعين وما خلفهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ قيل الكناية ترجع إلى ما أي هو يعلم ما بين راجعة إلى الله تعالى أي ولا يحيطون بالله علماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 276 . 281 ﴾

(178/502)

وقال ابن جزى :

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾

قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام ، لما أمره الله أن يسير هو وبنو إسرائيل إلى الطور ، تقدم هو وحده مبادرة إلى أمر الله ، وطلباً لرضاه ، وأمر بني إسرائيل أن يسيروا بعده ، واستخلف عليهم أخاه هارون ، فأمرهم السامريّ حينئذ بعبادة العجل ، فلما وصل موسى إلى الطور دون قومه قال الله تعالى : ما أعجلك عن قومك ؟ وإنما سأل الله موسى عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى بأنهم يا تون على أثره ، فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل ، وقيل : سأله على وجه الإنكار لتقدّمه وحده دون قومه فاعتذر

موسى بعذرين : أحدهما أن قومه على أثره : أي قريب منه ، فلم يتقدّم عليهم بكثير فيوجب العتاب ، والثاني أنه إنما تقدم طلباً لرضا الله .

﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامري ﴾ كان السامريّ رجلاً من بني إسرائيل يقال : إنه ابن خال موسى ، وقيل : لم يكن منهم وهو منسوب إلى قرية بمصر يقال لها سامرة ، وكان ساحراً منافقاً ﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾ يعني رجع من الطور بعد إكمال الأربعين يوماً التي كلمه الله بها ﴿ أَسِفاً ﴾ ذكر في [الأعراف : 149] .

(179/502)

﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ يعني ما وعدهم من الوصول إلى الطور ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ يعني المدة وهذا الكلام توبيخ لهم ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ قرىء بالفتح والضم والكسر ، ومعناه ما أخلفنا موعدك بأن مَلَكْنا أمرنا ، ولكن غُلبنا بكيد السامريّ ، فيحتمل أنهم اعتذروا بقلة قدرتهم وطاقتهم ويناسب هذا المعنى القراءة بضم الميم ، واعتذروا بقلة ملكهم لأنفسهم في النظر وعدم توفيقهم للرأي السديد ، ويناسب هذ المعنى القراءة بالفتح والكسر ﴿ حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ الأوزار هنا الأحمال ؛ سميت أوزاراً لثقلها ، أو لأنهم اكتسبوا بسببها الأوزار أي الذنوب ، وزينة القوم هي : حُلّي القبط

قوم فرعون ؛ كان بنو إسرائيل قد استعاروه منهم قبل هلاكهم ، وقيل : أخذوه بعد هلاكهم فقال لهم السامريّ اجمعوا هذا الحليّ في حفرة حتى يحكم الله فيه ، ففعلوا ذلك وأوقد السامريّ ناراً على الحلّي وصاغ منه عجلاً وقيل : بل خلق الله منه العجل من غير أن يصنعه السامري ، ولذلك قال لموسى قد فتنا قومك من بعدك ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي قذفنا أحمال الحلي في الحفرة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ﴾ كان السامريّ قد رأى جبريل عليه السلام ، فأخذ من وطء فرسه قبضة من تراب ، وألقى الله في نفسه أنه إذا جعلها على شيء مواتاً صار حيواناً فألقاها على العجل فجاز العجل أي : صاح صياح العجول . فالمعنى أنهم . قالوا كما ألقينا الحلي في الحفرة ألقى السامريّ قبضة التراب ﴿ جَسَدًا ﴾ أي جسماً بلا روح ، والخوار صوت البقر ﴿ فَقَالُواْ هاذا إلهكم ﴾ أي قال ذلك بنو إسرائيل بعضهم لبعض ﴿ فَنَسِيَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من كلام بني إسرائيل والفاعل موسى : أي نسي موسى إلهه هنا ، وذهب يطلبه في الطور ، والنسيان على هذا بمعنى الذهول ، والوجه الثاني : أن يكون من كلام الله تعالى ، والفاعل على هذا السامريّ : أي نسي دينه وطريق الحق ،

والنسيان على هذا المعنى: الترك .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ معناه لا يردّ عليهم كلاماً إذا كلموه وذلك ردّ عليهم في دعوى الربوبية له، وقرىء ﴿ يَرْجِعُ ﴾ بالرفع، وأن مخففة من الثقيلة، وبالنصب وهي مصدرية .

﴿ قَالَ يا هرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ لا زائدة للتأكيد، والمعنى ما منعك أن تتبعني في المشي إلى الطور، أو تتبعني في الغضب لله، وشدّة الزجر لمن عبد العجل، وقتالهم بمن لم يعبده؟

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾ ذكر في [الأعراف: 150] ﴿ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ كان موسى قد أخذ بشعر هارون ولحيته من شدّة غضبه، لما وجد بني إسرائيل قد عبدوا العجل ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أي: لو قاتلت من عبد العجل منهم بمن لم يعبده، لقلت فرقت جماعتهم وأدخلت العداوة بينهم، وهذا على أن يكون معنى قوله: ﴿ تَتَّبِعَنِ ﴾ في الزجر والقتال، ولو أتبعتك في المشي إلى الطور لاتبعني بعضهم دون بعض، فتفرقت جماعتهم وهذا على أن يكون معنى ﴿ تَتَّبِعَنِ ﴾ في المشي إلى الطور ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ يعني قوله له: اخلفني في قومي وأصلح .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أي قال موسى ما شأنك ؟ ولفظ الخطب يقتضي الانتهار ، لأنه يستعمل في المكاره ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي رأيت ما لم يروه يعني : جبريل عليه السلام وفرسه ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أي قبضت قبضة من تراب من أثر فرس الرسول وهو جبريل ، وقرأ ابن مسعود " من أثر فرس الرسول " وإنما سمى جبريل بالرسول ، لأن الله أرسله إلى موسى ، والقبضة مصدر قبض ، وإطلاقها على المفعول من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير ، ويقال : قبض بالضاد المعجمة إذا أخذ بأصابعه وكفه ، وبالصاد المهملة : إذا أخذ بأطراف الأصابع وقد قرىء كذلك في الشاذ ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي ألقيتها على الحلي ، فصار عجلاً أو على العجل فصار له خوار ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ عاقب موسى عليه السلام السامري ؛ بأن منع الناس من مخالطته ومجالسته ومؤاكلته ومكالمته ، وجعل له مع ذلك أن يقول طول حياته : لا مساس ؛ أي لا مماسة ولا إذاية ، وروي أنه كان إذا مسه أحد أصابت الحمى له وللذي مسه ، فصار هو يبعد عن الناس وصار الناس يبعدون عنه ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ يعني العذاب في الآخرة وهذا تهديد ووعيد ﴿ ظَلْتَ ﴾ أصله ضللت ، حذفت إحدى اللامين والأصل في معنى ظل : أقام بالنهار ، ثم استعمل في الدأب على الشيء ليلاً ونهاراً ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ من الإحراق بالنار ، وقرىء بفتح النون وضم الراء بمعنى نبرده بالمبرد ،

وقد حمل بعضهم قراءة الجماعة على أنها من هذا المعنى ، لأن الذهب لا يفنى بالإحراق بالنار ، والصحيح أن المقصود بإحراقه بالنار إذابته وإفساد صورته ، فيصح حمل قراءة الجماعة على ذلك ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً ﴾ أي نلقيه في البحر ، والنسف تفريق الغبار ونحوه ﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله ﴾ الآية : من كلام موسى لبني إسرائيل .

(182/502)

﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ مخاطبة من الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وأنباء ما قد سبق : أخبار المتقدمين ﴿ ذِكْراً ﴾ يعني القرآن ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ يعني إعراض تكذيب به ﴿ وِزْراً ﴾ الوزر في اللغة الثقل ، ويعني هنا العذاب لقوله ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ أو الذنوب لأنها سبب العذاب ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ شبه الوزر بالحمل لثقله ، قال الزمخشري : ﴿ وَسَآءَ ﴾ تجري مجرى بئس ، ففاعلها ، مضمر يفسره ﴿ حِمْلاً ﴾ ، وقال غيره : فاعلها مضمر يعود على الوزر ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ أي ينفخ الملك في القرن ، وقرأ ننفخ بالنون أي بأمرنا ﴿ زُرْقاً ﴾ أي زرق الألوان كالسواد ، وقيل : زرق العيون من العمى .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ أي يقول بعضهم لبعض في السرّ : إن لبثتم في الدنيا

إلا عشر ليال وذلك لاستقلالهم مدّة الدنيا ، وقيل : يعنون لبثهم في القبور ﴿ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ أي يقول أعلمهم بالأمور ، فالإضافة إليهم إن لبثتم إلا يوماً واحداً فاستقل المدّة أشد مما استقلها غيره ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي ﴾ أي يجعلها كالغبار ثم يفرّقها ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ الضمير في يذرها للجبال ، والمراد موضعها من الأرض ، والقاع الصفصف : المستوي من الأرض الذي لا ارتفاع فيه .

﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ﴾ المعروف في اللغة أن العوج بالكسر في المعاني ، وبالفتح في الأشخاص والأرض شخص ، فكان الأصل أن يقال فيها بالفتح ، وإنما قاله بالكسر مبالغة في نفيه ، فإن الذي في المعاني أدق من الذي في الأشخاص ، فنفاه ليكون غاية في نفي العوج من كل وجه ﴿ ولا أَمْتاً ﴾ الأمت : هو الارتفاع اليسير .

(183/502)

﴿ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً ، ومن في موضع نصب بتنفع وهي واقعة على المشفوع له ، فالمعنى لا تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن في أن يُشفع له ، وأن يكون الاستثناء منطقعاً ومن واقعه على الشافع ، والمعنى لكن من أذن له الرحمن يشفع ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ إن أريد بمن أذن له الرحمن المشفوع فيه

، فاللام في له بمعنى لأجله ، أي رضي قول الشافع لأجل المشفوع فيه ، وإريد الشافع فالمعنى رضي له قوله في الشفاعة .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الضميران لجميع الخلق ، والمعنى ذكر في آية الكرسي ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ قيل : المعنى لا يحيطون بمعلوماته كقوله : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] ، والصحيح عندي أن المعنى لا يحيطون بمعرفة ذاته ؛ إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله ، ولو أراد المعنى الأوّل لقال ولا يحيطون بعمله ، ولذلك استثنى إلا بما شاء هناك ولم يستثن هنا . انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 3 صـ 20.16 ﴾

(184/502)

وقال النسفى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ ﴾

أي وأي شيء عجل بك ﴿ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾ أي عن السبعين الذين اختارهم وذلك أنه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ ﴾ أي وأي شيء أوجب عجلتك

استفهام إنكار و ﴿ مَا ﴾ مبتدأ و ﴿ أَعْجَلَكَ ﴾ الخبر ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَاء علَى أَثَرِي ﴾ أي هم خلفي يلحقون بي وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة.

ثم ذكر موجب العجلة فقال ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ ﴾ أي إلى الموعد الذي وعدت ﴿ لِتَرْضَى ﴾ لتزداد عني رضاً وهذا دليل على جواز الاجتهاد.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾ ألقيناهم في فتنة ﴿ مِن بَعْدِكَ ﴾ من بعد خروجك من بينهم والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هارون ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ بدعائه إياهم إلى عبادة العجل وإجابتهم له وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة.

وقيل: كان علجاً من كرمان فاتخذ عجلاً واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى ﴾ من مناجات ربه ﴿ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ شديد الغضب أو حزيناً ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور وكانت ألف سورة كل سوره ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملاً ولا وعد أحسن من ذلك ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أي مدة مفارقتي إياكم، والعهد الزمان، يقال: طال عهدي بك أي طال زماني بسبب مفارقتك ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربكم ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات فأخلفوا موعده باتخاذ العجل.

﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم : مدني وعاصم ، وبضمها : حمزة وعلي ، وبكسرها : غيرهم ، أي ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفنا موعدك ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا ﴾ بالضم والتشديد : حجازي وشامي وحفص ، وبفتح الحاء والميم مع التخفيف : غيرهم ﴿ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم ﴾ أثقالاً من حلي القبط ، أو أرادوا بالأوزار أنها آثام وتبعات لأنهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة أن لنا غداً عيداً ، فقال السامري : إنما حبس موسى لشؤم حرمتها لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فأحرقوها فخبأ في حفرة النار قالب عجل فانصاغت عجلاً مجوفاً فخار بدخول الريح في مجار منه أشباه العروق .

وقيل : نفخ فيه تراباً من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحيي فخار ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ في نار السامري التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلي ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامرى ﴾ ما معه من الحلي في النار أو ما معه من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام .

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ ﴾ السامري من الحفرة ﴿ عِجْلاً ﴾ خلقه الله تعالى من الحلي التي سبكتها النار ابتلاء ﴿ جَسَداً ﴾ مجسداً ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ صوت وكان يخور كما تخور العجاجيل ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي السامري وأتباعه ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ فأجاب عامتهم إلا اثني عشر ألفاً ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي فنسي موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند الطور، أو هو ابتداء كلام من الله تعالى أي نسي السامري ربه وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر، أو نسي السامري الاستدلال على أن العجل لا يكون إلهاً بدليل قوله ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ ﴾ أي أنه لا يرجع ف ﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة ﴿ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ أي لا يجيبهم ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ أي هو عاجز عن الخطاب والضر والنفع فكيف تتخذونه إلهاً وقيل: إنه ما خار إلا مرة ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ ﴾ لمن عبدوا العجل ﴿ هارون مِن قَبْلُ ﴾ من قبل رجوع موسى إليهم ﴿ ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ لا العجل ﴿ فاتبعوني ﴾ كونوا على ديني الذي هو الحق ﴿ وَأَطِيعُواْ أَمْرِي ﴾ في ترك عبادة العجل ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عاكفين ﴾ أي لن نزال مقيمين على العجل وعبادته ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ فننظره هل يعبده كما عبدناه وهل صدق السامري أم لا.

فلما رجع موسى ﴿ قَالَ يا هارون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ ﴾ بعبادة العجل.

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ بالياء في الوصل والوقف: مكي، وافقه أبو عمرو ونافع في الوصل، وغيرهم بلا ياء أي ما دعاك إلى ألا تتبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشي وبين الداعي إلى تركه.

(187/502)

وقيل: "لا" مزيدة والمعنى أي شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك وتلحق بي وتخبرني؟ أو ما منعك أن تتبعني في الغضب لله، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً؟ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أي الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم.

ثم أخذ بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضباً وإنكاراً عليه لأن الغيرة في الله ملكته ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾ وبخفض الميم: شامي وكوفي غير حفص، وكان لأبيه وأمه عند الجمهور ولكنه ذكر الأم استعطافاً وترفيقاً ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى ﴾ ثم ذكر عذره فقال ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ ﴾ إن قاتلت بعضهم ببعض ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرءِيلَ ﴾ أو خفت أن تقول إن فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق وتبع السامري فريق: ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرءِيلَ ﴾ ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴾ ولم تحفظ ﴿ قَوْلِي ﴾ اخلفني في قومي وأصلح.

وفيه دليل على جواز الاجتهاد .

ثم أقبل موسى على السامري منكراً عليه حيث ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ﴾ ما أمرك الذي تخاطب عليه ؟ ﴿ ياسامري قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصرُواْ بِهِ ﴾ وبالتاء : حمزة وعلي ، وقال الزجاج : بصر علم وأبصر نظر أي علمت ما لم يعلمه بنو اسرائيل .

قال موسى : وما ذاك ؟ قال : رأيت جبريل على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ القبضة المرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ل "ضرب" الأمير .

وقريء ﴿ فقبصت قبصة ﴾ فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ أي من أثر فرس الرسول وقريء بها ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ فطرحتها في جوف العجل ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ ﴾ زينت ﴿ لِى نَفْسِى ﴾ أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي وهو اعتراف بالخطأ واعتذار .

(188/502)

﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ فاذهب ﴾ من بيننا طريداً ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الحياة ﴾ ما عشت ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ أي لا يمسني أحد ولا

أمسه فمنع من مخالطة الناس منعاً كلياً وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ، وإذا اتفق أن يماس أحداً حم الماس والممسوس .

وكان يهيم في البرية يصيح لا مساس ويقال : إن ذلك موجود في أولاده إلى الآن .

وقيل : أراد موسى عليه السلام أن يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أي لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض ينجزه لك في الآخرة بعدما عاقبك بذاك في الدنيا ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ مكي وأبو عمرو وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ ﴾ وأصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً ﴿ عَاكِفاً ﴾ مقيماً ﴿ لَّنُحَرّقَنَّهُ ﴾ بالنار ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ لنذرينه ﴿ فِى اليم نَسْفاً ﴾ فحرقه وذراه في البحر فشرب بعضهم من مائة حباً له فظهرت على شفاههم صفرة الذهب .

﴿ إِنَّمَا إلهكم الله الذى لا إله إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ تمييز أي وسع علمه كل شيء .

ومحل الكاف في ﴿ كذلك ﴾ نصب أي مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من أخبار الأمم الماضية تكثيراً لبيناتك وزيادة في معجزاتك ﴿ وَقَدْ آتيناك ﴾ أي أعطيناك ﴿ مّن لَّدُنَّا ﴾ من عندنا ﴿ ذِكْراً ﴾ قرآناً فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن أقبل عليه ، وهو مشتمل على الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن هذا الذكر وهو القرآن ولم يؤمن به ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ عقوبة ثقيلة سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذي ينقض ظهره ويلقى عليه بهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم ﴿ خالدين ﴾ حال من الضمير في ﴿ يَحْمِلُ ﴾ وإنما جمع على المعنى ووحد في ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ حملاً على لفظ من ﴿ فِيهِ ﴾ في الوزر أي في جزاء الوزر وهو العذاب ﴿ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ ساء في حكم بئس وفيه مبهم يفسره ﴿ حِمْلاً ﴾ وهو تمييز واللام في ﴿ لَهُمْ ﴾ للبيان كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره ساء الحمل حملاً وزرهم .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ، ﴿ ننفخ ﴾ أبو عمرو ﴿ فِى الصور ﴾ القرن أو هو جمع صورة أي ننفخ الأرواح فيها دليله قراءة قتادة الصور بفتح الوّاو جمع صورة ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ حال أي عمياً كما قال

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ [الإسراء : 97] وهذا لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق ﴿ يتخافتون ﴾ يتسارون ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يقول بعضهم لبعض سراً لهول ذلك اليوم ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ ما لبثتم في الدنيا ﴿ إِلاَّ عَشْراً ﴾ أي عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم في القبور أو في الدنيا لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر ، لأن أيام السرور قصار ، أو لأنها ذهبت عنهم والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء ، أو لاستطالتهم الآخرة لأنها أبداً يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة ، وقد رجح الله قول من يكون أشد تقالاً منهم بقوله ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أعد لهم قولاً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ وهو كقوله ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العادين ﴾ [المؤمنون : 113] .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ما يصنع بالجبال يوم القيامة ؟ وقيل : لم يسئل وتقديره إن سألوك ﴿ فَقُلْ ﴾ ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة : 222] وقوله ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصلاح لهم خير ﴾ [البقرة : 220] ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 219] ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها قُلْ

إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : 187] ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح ﴾ [الإسراء : 85] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ ﴾ [الكهف : 83] لأنها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء .

(191/502)

﴿ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ أي يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام .

وقال الخليل : يقلعها ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ فيذر مقارها أو يجعل الضمير للأرض للعلم بها كقوله ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ [فاطر : 45] ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ مستوية ملساء ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ﴾ انخفاضاً ﴿ وَلاَ أَمْتاً ﴾ ارتفاعاً والعوج بالكسر إن كان في المعاني كما أن المفتوح في الأعيان والأرض عين ، ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه ما وإن دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعاني ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال أي يوم إذ نسفت وجاز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة ﴿ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ إلى المحشر أي صوت الداعي وهو إسرافيل حين ينادي على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمي إلى عرض الرحمن

فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون عنه ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ أي لا يعوج له مدعو بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته ﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ وسكنت ﴿ الأصوات للرحمن ﴾ هيبة وإجلالاً ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ صوتاً خفيفاً لتحريك الشفاه. وقيل : هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت أي لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر.

﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ محل من رفع على البدل من ﴿ الشفاعة ﴾ بتقدير حذف المضاف أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أي أذن للشافع في الشفاعة ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي رضي قولاً لأجله بأن يكون المشفوع له مسلماً أو نصب على أنه مفعول ﴿ تَنفَعُ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ أي بما أحاط به علم الله فيرجع الضمير إلى "ما" أو يرجع الضمير إلى الله لأنه تعالى ليس بمحاط به. انتهى ا. هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 66.61 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى ﴾

سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدم جواب الإنكار لأنه أهم .

﴿ قَالَ ﴾ موسى . ﴿ هُمْ أُوْلآءِ على أَثَرِى ﴾ أي ما تقدمتهم إلا بخطاً يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم بعضاً . ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً . ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته ، وقرىء ﴿ وَأَضَلُّهُمْ ﴾ أي أشدهم ضلالاً لأنه كان ضالاً مضلاً ، وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحسبوها بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل ، وإن هذا الخطاب كان له عند مقدمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقب بلفظ الواقع على عادته ، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته ، و ﴿ السامري ﴾ منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل كان

علجا من كرمان . وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً .

﴿ فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿ غضبان ﴾ عليهم .

(194/502)

﴿ أَسِفاً ﴾ حزيناً بما فعلوا . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور . ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقته لهم . ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ ﴾ يجب عليكم . ﴿ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بعبادة ما هو مثل في الغباوة . ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾ وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به ، وقيل هو من أخلفت وعده إذا وجدت الخلف فيه ، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين ، وهو لا يناسب الترتيب على الترديد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له .

﴿ قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بأن ملكنا أمرنا إذ لو خلينا وأمرنا ولم يسول لنا السامري لما أخلفناه ، وقرأ نافع وعاصم ﴿ بِمَلْكَنَا ﴾ بالفتح وحمزة والكسائي بالضم وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء . ﴿ ولكنا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم

﴿ حملنا أحمالاً من حلى القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس . وقيل استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به . وقيل : هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه ولعلهم سموها أوزاراً لأنها آثام ، فإن الغنائم لم تكن تحل بعد أو لأنهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي . ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أي في النار . ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري ﴾ أي ما كان معه منها . روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري : إنما أخلف موسى ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم ، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وروح ﴿ حملنا ﴾ بالفتح والتخفيف .

(195/502)

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا ﴾ من تلك الحلي المذابة . ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ صوت العجل . ﴿ فَقَالُواْ ﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه . ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور ، أو فنسي السامري أن ترك ما كان عليه من إظهار الإِيمان .

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ ﴾ أفلا يعلمون . ﴿ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً . وقرىء ﴿ يرجع ﴾ بالنصب وفيه ضعف لأن أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين . ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ ولا يقدر على إنفاعهم وإضرارهم .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هارون مِن قَبْلُ ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام ، أو قول السامري كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهم ذلك وبادر تحذيرهم . ﴿ ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ﴾ بالعجل . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ﴾ لا غير . ﴿ فاتبعونى وَأَطِيعُواْ أَمْرِي ﴾ في الثبات على الدين .

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ على العجل وعبادته . ﴿ عاكفين ﴾ مقيمين . ﴿ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول .

﴿ قَالَ ياهارون ﴾ أي قال له موسى حين رجع . ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ ﴾ بعبادة العجل .

﴿ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به ، أو أن تأتي عقبي وتلحقني و"لا" مزيدة كما في قوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه .

﴿ قَالَ يا بن أُمَّ ﴾ خص الأم استعطافاً وترقيقاً ، وقيل لأنه كان أخاه من الأم والجمهور على أنهما كانا من أب وأم. ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى ﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله ، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل. ﴿ إِنّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرءِيلَ ﴾ لو قاتلت أو فارقت بعضهم ببعض. ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ حين قلت ﴿ اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ فإن الإصلاح كان في حفظ الدهماء والمداراة لهم أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يا سامري ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه ، وهو مصدر خطب الشيء إذا طلبه.

﴿ يا سامري قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب أي علمت بما لم تعلموه وفطنت لما لم تفطنوا له ، وهو أن الرسول الذي جاءك روحاني محض لا يمس أثره شيئاً إلا أحياه ، أو رأيت ما لم تروه وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة. وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون وكان جبريل يغذوه حتى استقل. ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ من تربة موطئه والقبضة المرة من القبض فأطلق على المقبوض كضرب الأمير ، وقرىء بالصاد والأول للأخذ بجميع

الكف والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم والقضم ، والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور . ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي . ﴿ وكذلك سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ زينته وحسنته لي .

(197/502)

﴿ قَالَ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة ﴾ عقوبة على ما فعلت . ﴿ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى ومن مسك فتتحامى الناس ويتحاموك وتكون طريداً وحيداً كالوحش النافر ، وقرىء ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ كفجار وهو علم للمسة . ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً ﴾ في الآخرة . ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ لن يخلفكه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا ، وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تخلف الواعد إياه وسيأتيك لا محالة ، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعد ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً ، وقرىء بالنون على حكاية قول الله . ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ ظللت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً ، وقرىء بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها . ﴿ لَّنُحَرّقَنَّهُ ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة ﴿

لَّنُحرِّقَنَّهُ ﴾ ، أو بالمبرد على أنه مبالغة في حرق إذ برد بالمبرد ويعضده قراءة ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ . ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ ثم لنذرينه رماداً أو مبروداً وقرىء بضم السين . ﴿ فِى اليم نَسْفاً ﴾ فلا يصادف منه شيء والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار غباوة المفتنين به لمن له أدنى نظر .

﴿ إِنَّمَا إلهكم ﴾ المستحق لعبادتكم . ﴿ الله الذى لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة . ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يعلم لا العجل الذي يصاغ ويحرق وإن كان حياً في نفسه كان مثلاً في الغباوة ، وقرىء ﴿ وسع ﴾ فيكون انتصاب ﴿ عِلْمًا ﴾ على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً .

(198/502)

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام . ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمتك . ﴿ وَقَدْ آتيناك مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر

والاعتبار ، والتنكير فيه للتعظيم . وقيل ذكراً جميلاً وصيتاً عظيماً بين الناس .

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة وقيل عن الله . ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً ﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره ، وذنوبه سماها ﴿ وِزْراً ﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره ، أو إثماً عظيماً .

﴿ خالدين فِيهِ ﴾ في الوزر أو في حمله ، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ . ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ أي بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره ﴿ حِمْلاً ﴾ ، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وزرهم ، واللام في ﴿ لَهُمْ ﴾ للبيان كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ولو جعلت ﴿ سَاءَ ﴾ بمعنى أحزن والضمير الذي فيه للوزر أشكل أمر اللام ونصب ﴿ حِمْلاً ﴾ ولم يفد مزيد معنى .

(199/502)

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الآمر به تعظيماً له أو للنافخ . وقرىء بالياء المفتوحة على أن فيه ضمير الله أو ضمير إسرافيل وإن لم يجر ذكره لأنه المشهور بذلك ، وقرىء ﴿ فِى الصور ﴾ وهو جمع صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿

وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمَئِذٍ ﴾ وقرىء "ويحشر المجرمون" ﴿ زُرْقاً ﴾ زرق العيون وصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العين ولذلك قالوا: صفة العدو أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تزراق.

﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ ﴾ يخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ أي في الدنيا يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها، أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات، أو في القبر لقوله ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ إلى آخر الآيات.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أعدلهم رأياً أو عملاً. ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ استرجاح لقول من يكون أشد تقالاً منهم.

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ عن مآل أمرها وقد سأل عنها رجل من ثقيف. ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم. ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها.

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ فيذر مقارها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة ﴿ الجبال ﴾ عليها كقوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ﴿ قَاعاً ﴾ خالياً ﴿ صَفْصَفاً ﴾ مستوياً كأن أجزاءها على صف واحد.

﴿ لَّا ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ اعوجاجاً ولا نتواً إن تأملت فيها بالقياس الهندسي ، وثلاثتها أحوال مترتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس ولذلك ذكر العوج بالكسر وهو يخص بالمعاني ، والأمت وهو النتوء اليسير وقيل لا ترى استئناف مبين للحالين .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف ، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً من يوم القيامة . ﴿ يَتَّبِعُونَ الداعي ﴾ داعي الله إلى المحشر ، قيل هو إسرافيل يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه . ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن ﴾ خفضت لمهابته . ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ صوتاً خفياً ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل ، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر .

﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تنفعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له أو من أعم المفاعيل ، أي إلا من أذن في أن يشفع له فإن الشفاعة تنفعه ، فَ ﴿ مَنْ ﴾ على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية و ﴿ أَذِنَ ﴾

يحتمل أن يكون من الاذن ومن الأذن . ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه ، أو قوله لأجله وفي شأنه .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما تقدمهم من الأحوال . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه . ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ ولا يحيط علمهم بمعلوماته ، وقيل بذاته وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعها ، فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 64 .71 ﴾

(201/502)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما أمر تعالى موسى عليه السلام بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون : هم السبعون الذين اختارهم الله تعالى من جملة بني إسرائيل ليذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة ، فسار بهم موسى ، ثم عجل موسى عليه السلام من بينهم شوقاً إلى ربه وخلف السبعين ، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل ، فقال تعالى له:

أي : لمجيء ميعاد أخذ التوراة ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾

﴿ قال ﴾ مجيباً لربه تعالى : ﴿ هم أولاء ﴾ أي : بالقرب مني يأتون ﴿ على أثري ﴾ أي :

ماشين على آثار مشي قبل أن ينطمس ، وما تقدمتهم إلا بخطاً يسيرة لا يعتد بها عادة ، وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ أي : لتزداد عني رضاً ، فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك .

تنبيه : في الآية سؤالات:

الأول : قوله تعالى : وما أعجلك استفهام ، وهو على الله تعالى وأجيب عنه : بأنه كان في صورة الاستفهام ، ولا مانع منه .

الثاني : أن موسى عليه السلام لا يخلو إما أن يكون ممنوعاً من ذلك التقدم ، أو لم يكن ، فإن كان الأول كان التقدم معصية ، وإن لم يكن فلا إنكار ، وأجيب عنه : بأنه عليه السلام لعله ما وجد نصاً في ذلك ، فاجتهد ، فأخطأ في اجتهاده ، فاستوجب العتاب .

الثالث : قوله : وعجلت ، والعجلة مذمومة ، أجيب عنه بأنها ممدوحة في الدين قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ (آل عمران ،)

الرابع : قوله لترضى يدل على أنه إنما فعل ذلك ليحصل الرضا ، وإذا لم يكن راضياً عنه ، وجب أن يكون ساخطاً عليه ، وذلك لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام ، أجيب عنه : بأن المراد تحصيل دوام الرضا ، أو زيادته كما مرّ .

الخامس : قوله إليك يقتضي كون الله تعالى في جهة لأن إلى لانتهاء الغاية ، وأجيب عنه : بأنا اتفقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل ، فالمراد مكان وعدك .

(202/502)

السادس : قوله تعالى : ما أعجلك عن قومك سؤال عن سبب العجلة ، فكان جوابه اللائق به أن يقول : طلب زيادة رضاك ، أو التشوق إلى كلامك ، وأما قوله : هم أولاء على أثري ، فغير منطبق عليه كما ترى ؛ أجيب عنه بأن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين ؛ أحدهما : إنكار نفس العجلة ، والثاني : السؤال عن سبب التقدم ، فأجاب عن السؤال عن العجلة ؛ لأنها أهم ، فقال : وعجلت إليك رب لترضى

﴿ قال ﴾ تعالى : ﴿ فإنا ﴾ أي : تسبب عن عجلتك عنهم أنا ﴿ قد فتنا ﴾ أي : ابتلينا ﴿ قومك من بعدك ﴾ أي : بعد فراقك لهم بعبادة العجل ، وهم الذين خلفهم مع هارون ، وكانوا ستمائة ألف ، وما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً ﴿ وأضلهم السامري ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته ، فأطاعه بعضهم ، وامتنع بعضهم ، والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لهم السامرة ، وقيل : كان علجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر ، وقيل : كان من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن منهم ،

واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقاً

﴿ فرجع موسى ﴾ لما أخبره ربه بذلك ﴿ إلى قومه ﴾ بعدما استوفى الأربعين ذا القعدة ، وعشر ليال من ذي الحجة ، وأخذ التوراة ﴿ غضبان ﴾ عليهم ﴿ أسفاً ﴾ أي : حزيناً بما فعلوا ﴿ قال ﴾ أي : لقومه لما رجع إليهم مستعطفاً لهم : ﴿ يا قوم ﴾ وأنكر عليهم بقوله : ﴿ ألم يعدكم ربكم ﴾ أي : الذي أحسن إليكم ﴿ وعداً حسناً ﴾ أي : بأنه ينزل عليكم كتاباً حافظاً ، ويكفر عنكم خطاياكم ، وينصركم على أعدائكم إلى غير ذلك من إكرامه ، ولما جرت العادة بأنّ طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري:

*لا أنسينك طال الزمان بنا

** وكم حبيب تمادى عهده فنسى

قال لهم : ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي : زمن لطف الله تعالى بكم ، فتغيرتم عما فارقتكم عليه كما تغير أهل الرذائل والانحلال في العزائم لضعف العقول وقلة التدبر ﴿ أم أردتم ﴾ أي : بالنقض مع قرب العهد ، وذكر الميثاق ﴿ أن يحل ﴾

أي يجب ﴿ عليكم ﴾ بسبب عبادة العجل ﴿ غضب من ربكم ﴾ المحسن إليكم ، أي : وكلا الامرين لم يكن أما الأول فواضح ، وأما الثاني : فلا يظن بأحد إرادته ، والحاصل أنه يقول : فعلتم ما لا يفعله عاقل ﴿ فأخلفتم ﴾ أي : فتسبب عن فعلكم ذلك أن أخلفتم ﴿ موعدي ﴾ أي : وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله ، والقيام على ما أمركم به ، ولما تشوق السامع إلى جوابهم استأنف ذكره ، فقال:

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي : بأن ملكنا أمرنا إذ لو خلينا ، وأمرنا ولم يسوّل لنا السامري لما أخلفناه ، واختلف في هذا المجيب على وجهين .

الأول : هم الذين لم يعبدوا العجل ، فكأنهم قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا أي : بأمر كنا نملكه ، وقد يضيف الرجل فعل قرينه إلى نفسه كقوله تعالى : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ (البقرة ،) ، ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ (البقرة ،) ، وإن كان الفاعل لذلك آباءهم لا هم ، فكأنهم قالوا : الشبهة قويت على عبدة العجل ، فلم نقدر على منعهم عنه ، ولم نقدر أيضاً على مفارقتهم لأنا خفنا أن يصير ذلك سبباً لوقوع النفرة ، وزيادة الفتنة .

الثاني : أن هذا قول عبدة العجل ، والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة في قلوبنا ، وفاعل السبب فاعل المسبب ، فمخلف الوعد هو الذي أوقع الشبهة ، فإنه كان كالمالك لنا فإن قيل : كيف كان رجوع قريب من ستمائة ألف إنسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة إلى عبادة عجل يعرف فسادها بالضرورة ؟

(204/502)

أجيب : بأنَّ هذا غير ممتنع في حق البله من الناس وقرأ عاصم ونافع بفتح الميم ، وحمزة والكسائي بضمها ، والباقون بكسرها ، وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء ، ثم إن القوم فسروا الضرر الحامل لهم على ذلك الفعل ، فقالوا : ﴿ ولكنا حملنا ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشددة ، وأبو عمرو ، وشعبة وحمزة والكسائي بفتح الحاء والميم مخففة ﴿ أوزاراً ﴾ أي : أثقالاً ﴿ من زينة القوم ﴾ أي : حلي قوم فرعون استعارها منهم بنو إسرائيل بسبب عرس ، وقيل : استعاروها لعيد كان لهم ، ثم لم يردوها عند الخروج مخافة أن يعلموا به ، وقيل : هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم ، فأخذوه ، قال البيضاوي : ولعلهم سموها أوزاراً لأنها آثام فإن الغنائم لم تكن تحل بعد ، ولأنهم كانوا مستأمنين ، وليس للمستأمن أن يأخذ من مال الحربي ﴿ فقذفناها ﴾ أي : في النار ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ أي : ما كان معه إما من المال أو من أثر الرسول ، روي أن موسى عليه السلام لما وعده ربه أن يكلمه استخلف على قومه أخاه هارون ، وأجلهم ثلاثين يوماً ، وذهب فصامها ليلها ونهارها ، ثم كره أن يكلم

(205/502)

ربه ، وريح فمه متغير ، فمضغ شيئاً من نبات الأرض ، فقال له ربه : أوما علمت أن ريح الصائم أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشراً ، وقيل : إنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة ، وحسبوها أربعين بأيامها ، وقالوا : قد كملت العدة ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم خرجتم من مصر ، ولقوم فرعون عندكم عوار ، فاحفروا حفرة وألقوها فيها ، ثم أوقدوا عليها ناراً ، فلا يكون لنا ولا لهم ، وكان السامري قد رأى أثراً ، فقبض منه قبضة ، فمر بهارون فقال له : يا سامري ألا تلقي ما في يدك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها على شيء إلا أن تدعوا الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما في الحفرة وصار عجلاً ، فهذا معنى قوله تعالى:

﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً ﴾ من ذلك الحلي المذاب به جوف ليس فيه روح ﴿ له خوار ﴾ أي : صوت يسمع ؛ قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، وإنما كان الريح يدخل في دبره ، فيخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك ، وقيل : إنه صاغه ، ووضع التراب بعد صوغه في فمه ﴿ فقالوا ﴾ : أي السامري : ومن افتتن به أول ما رأوه مشيرين إلى العجل ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ أي : فنسيه موسى ، وذهب يطلبه عند الطور ، أو فنسي السامري ، أي : ترك ما كان عليه من الإيمان

﴿ أفلا يرون ﴾ أي : قالوا ذلك فتسبب عن قولهم علمهم عن روية ﴿ أن ﴾ أي : أنه ﴿ لا يرجع إليهم قولاً ﴾ والإله لا يكون أبكم ﴿ ولا يملك لهم ضراً ﴾ فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون ، فيقولون ذلك خوفاً من ضرره ﴿ ولا نفعاً ﴾ فيقولون ذلك رجاءً له

(206/502)

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾ أي : قبل رجوع موسى مستعطفاً لهم ﴿ يا قوم إنما فتنتم ﴾ أي : وقع اختياركم فاختبرتم في صحة إيمانكم وصدقكم فيه ، وثباتكم عليه ﴿ به ﴾ أي : بهذا العجل في إخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة ، وأكد لأجل إنكارهم ، فقال : ﴿ وإن ربكم ﴾ أي : الذي أخرجكم من العدم ، ورباكم بالإحسان ﴿ الرحمن ﴾ وحده الذي فضله عامّ ونعمه شاملة ، فليس على بر ولا فاجر نعمة إلا وهي منه تعالى قبل أن يوجد العجل ، وهو كذلك بعده ، ومن رحمته قبول التوبة ، فخافوا نزع نعمه بمعصيته ، وأرجوا إسباغها بطاعته ﴿ فاتبعوني ﴾ بغاية جهدكم في الرجوع إليه ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ أي : في الثبات على الدين

﴿ قالوا لن نبرح عليه ﴾ أي : العجل ﴿ عاكفين ﴾ أي : مقيمين ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ فدافعهم فهموا به ، وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم ، فخاف

أن يجاهد بهم الكفار ، فلا يفيد ذلك شيئاً مع أن موسى لم يأمره بجهاد من ضل ، وإنما قال له : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ، فرأى من الإصلاح اعتزالهم إلى أن يأتي .

(207/502)

تنبيه : إنما قال هارون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق ؛ أما شفقته على نفسه ، فلأنه كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان مأموراً من عند أخيه بقوله : ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (الأعراف ،) ، فلو لم يشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفاً لأمر الله تعالى ، ولأمر موسى ، وذلك لا يجوز . أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، ومائتي ألف من شرارهم ، فقال : يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي ، وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أصبح وهمه غير الله فليس من الله في شيء ، ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين ، فليس منهم" وعن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد" وعن عبد الله بن أبي أوفى قال : "خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أبو بكر وعمر عنده ، فجاء صغير يبكي ،

فقال لعمر : ضم الصبي إليك ، فإنه ضال ، فأخذه عمر ، وإذا أم الصبي تولول كاشفة عن رأسها جزعاً على ابنها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أدرك المرأة ، فنادها ، فجاءت ، وأخذت ولدها ، وجعلت تبكي والصبي في حجرها ، فالتفتت ، فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : أترون هذه رحيمة بولدها ؟ قالوا : يا رسول الله كفى بهذه رحمة ، فقال : والذي نفسي بيده إن الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها" ولقد سلك هارون في موعظته أحسن الوجوه ؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله : إنما فتنتم به ، ثم دعاهم إلى معرفة الله ثانياً بقوله : وإن ربكم الرحمن ، ثم دعاهم ثالثاً إلى النبوة بقوله : فاتبعوني ، ثم دعاهم رابعاً بقوله : وأطيعوا أمري ، وهذا هو الترتيب الجيد ؛ لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات ،

ثم معرفة

الله تعالى ، فإنها هي الأصل ، ثم النبوة ، ثم الشريعة ، فثبت أن هذا الترتيب أحسن الوجوه ؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً ، ولما ذكر الله تعالى ما قال هارون تشوقت النفس إلى علم ما قال موسى فقيل:

﴿ قال يا هارون ﴾ أنت نبي الله ، وأخي ووزيري وخليفتي ، فأنت أولى الناس بأن ألومه ، وأحقهم بأن أعاتبه ﴿ ما منعك إذ ﴾ أي : حين ﴿ رأيتهم ضلوا ﴾ عن طريق الهدى واتبعوا سبيل الردى

﴿ أن لا تتبعني ﴾ في سيرتي من الأخذ على يد الظالم طوعاً أو كرهاً .

تنبيه : لا مزيدة للتأكيد ؛ لأن النافي إذا زيد في كلام كان نافياً لضد مضمونه فيفيد إثباتاً للمضمون ونفياً لضده ، فيكون ذلك في غاية التأكيد ، وأثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفاً ووصلاً ، وأثبتها نافع ، وأبو عمرو وصلاً لا وقفاً ، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً

﴿ أفعصيت ﴾ أي : فتكبرت عن اتباعي ، فتسبب عن ذلك أنك عصيت ﴿ أمري ﴾ وأخذ بلحيته وبرأسه يجره إليه غضباً لله تعالى ، فكأنه قيل : ما قال له ؟ فقال:

﴿ قال ﴾ مجيباً له مستعطفاً بذكر أول وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ما له من الرقة والشفقة ﴿ يا ابن أمّ ﴾ فذكره بها خاصة وإن كان شقيقه ؛ لأنها يسوءها ما يسوءه ، وهي أرق من الأب ، وقرأ نافع وابن كثير ، وأبو عمرو وحفص بفتح الميم ، وكسرها ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ﴿ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ أي : بشعرهما . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إني خشيت أن تقول ﴾ إذا شددت عليهم حتى يصل الأمر إلى القتال

﴿ فرقت بين بني إسرائيل ﴾ يفعلك هذا الذي لم يجسد شيئاً لقلة من كان معك وضعفك عن ردهم ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ ﴿ اخلفني في قومي ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾

[الأعراف ،] ، ولم تقل : واردْدهم ، ولو أدى الأمر إلى السيف ، ولما فرغ من نصيحة أقرب الناس إليه ، وأحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى إذ كان رأس الهداة تشوف السامع إلى ما كان من غيره ، فاستأنف تعالى ذكره بقوله:

(209/502)

﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام لرأس أهل الضلال معرضاً عن أخيه بعد قبول عذره جاعلاً ما نسب إليه سبباً لسؤاله عن الحامل له عليه ﴿ فما خطبك ﴾ ؟ أي : أمرك هذا العجب العظيم الذي حملك على ما صنعت ، وأخبرني ربي أنك أضللتهم به ﴿ يا سامري ﴾

﴿ قال ﴾ السامري : مجيباً له ﴿ بصرت ﴾ من البصر والبصيرة ﴿ بما لم يبصروا به ﴾ أي : رأيت ما لم ير بنو إسرائيل ، وعرفت ما لم يعرفوا ، وقال ابن عباس : علمت ما لم يعلموا ، ومنه قولهم : رجل بصير ، أي : عالم قاله أبو عبيدة وأراد أنه رأى جبريل عليه السلام ، فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب كما قال : ﴿ فقبضت ﴾ أي : فكان ذلك سبباً ؛ لأن قبضت ﴿ قبضة ﴾ أي : مرة من القبض أطلقها على المقبوض تشبيهاً للمفعول بالمصدر ﴿ من أثر ﴾ فرس ذلك ﴿ الرسول ﴾ أي : المعهود ﴿ فنبذتها ﴾ أي : في الحلي

الملقى في النار ، أو في العجل ﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما سولت لي نفسي أخذ أثره ﴿ سوَّلت ﴾ أي : حسنت وزينت ﴿ لي نفسي ﴾ نبذها في الحلي ، فنبذتها ، وكان منها ما كان ، ولم يدعني إلى ذلك داع ، ولا حملني عليه حامل غير التسويل .

(210/502)

تنبيه : كون المراد بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة المفسرين ، وأراد بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته لما رآه يوم فلق البحر ، وعن علي رضي الله تعالى عنه أن جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى إلى الطور أبصره السامري من بين الناس ، واختلفوا في أنه كيف اختص السامري برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين الناس ، فقال ابن عباس في رواية الكلبي : إنما عرفه لأنه رباه في صغره ، وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني إسرائيل ، فكانت المرأة إذا ولدت طرحت ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون ، فتأخذ الملائكة الولدان ويربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس ، فكان السامري ممن أخذه جبريل عليه السلام ، وجعل كف نفسه في فيه ، وارتضع منه العسل واللبن ، فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه ، فلما رآه عرفه ؛ قال ابن جريج : فعلى هذا قوله : بصرت بما لم يبصروا به يعني : رأيت ما لم يروه .

ومن فسر الإبصار بالعلم ، فهو صحيح ، ويكون المعنى : علمت أن تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الإحياء ؛ قال أبو مسلم ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به ، فقد يقول الرجل : إن فلاناً يقفوا أثر فلان ، ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم ، والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في العجل ، قال : بصرت بما لم يبصروا به ؛ أي : عرفت أن الذي أنت عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ؛ أي : شيئاً من دينك ، فقذفته ؛ أي : طرحته ، فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة ، وإنما أورد لفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الأمير في كذا ، أو بماذا يأمر الأمير ، وأما ادعاؤه أن موسى رسول مع جحده وكفره .

(211/502)

فعلى مذهب من حكى الله فيه قوله : يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ، وإن لم يؤمنوا بالإنزال قال الرازي : وهذا القول الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا أنه مخالف للمفسرين ، ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه:

أحدها : أنَّ جبريل عليه السلام ليس معهود باسم الرسول ، ولم يجرِ له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه ، فإطلاق لفظ الرسول لإرادة جبريل كأنه تكليف بعلم الغيب .

وثانيها : أنه لا بد فيه من الإضمار ، وهو قبضة من أثر حافر دابة الرسول ، والإضمار خلاف الأصل . r

وثالثها : أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته ، وكيف عرف أن تراب حافر فرسه له هذا الأثر ، والذي ذكروه من أن جبريل هو الذي رباه فبعيد ؛ لأن السامري إن عرف أنه جبريل حال كمال عقله عرف قطعاً أن موسى نبّي صادق ، فكيف يحاول الإضلال ، وإن كان ما عرفه حال البلوغ ، فأنى ينفعه كون جبريل مربياً له حال الطفولية في حصول تلك المعرفة ، ثم إن موسى عليه السلام لما سمع من السامري ما ذكر

﴿ قال ﴾ له ﴿ فاذهب ﴾ أي : فتسبب عن فعلك أن أقول لك : اذهب من بيننا ، وحيث ذهبت ﴿ فإن لك في الحياة ﴾ أي : ما دمت حياً ﴿ أن تقول ﴾ لكل من رأيته

﴿ لا مساس ﴾ أي : لا تمسني ولا أمسك ، فلا تقدر أن تنفك عن ذلك ، فكان يهيم في البرية مع الوحوش والسباع ، وإذا مس أحداً أو مسه أحد حما جميعاً عاقبه الله تعالى بذلك ، وكان إذا لقي أحداً يقول لا مساس ؛ أي : لا تقربني ولا تمسني ، وقال ابن عباس لا مساس لك ولولدك حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك ، وإذا مس أحد من غيرهم أحداً منهم حما جميعاً في ذلك الوقت ﴿ وإن لك ﴾ بعد الممات ﴿ موعداً ﴾ للثواب إن تبت ، والعقاب إن أبيت ﴿ لن تخلفه ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام أي : لن تغيب عنه ، والباقون بفتحها أي : بل تبعث إليه ، فلا انفكاك لك عنه كما أنك في الحياة لا تقدر أن تنفك عن النفرة من الناس ، فاختر لنفسك ما يحلو . ولما ذكر ما للإله الحق من القدرة التامة في الدارين أتبعه عجز العجل ، فقال : ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ أي : بزعمك ﴿ الذي ظلت ﴾ أي : دمت في مدة يسيرة جداً بما أشار إليه تخفيف التضعيف ، فإن أصله ظللت بلامين أولاهما مكسورة حذفت تخفيفاً ﴿ عليه عاكفاً ﴾ أي : مقيماً تعبده ﴿ لنحرّقنّه ﴾ أي : بالنار وبالمبرد

قال البقاعي : كما سلف عن نص التوراة ، وكان معنى ذلك أنه أحماه حتى لان ، فهان على المبارد انتهى ، ﴿ ثم لننسفنه ﴾ أي : لنذرينه إذا صار سحالة ﴿ في اليمّ ﴾ أي : في البحر الذي أغرق الله تعالى فيه آل فرعون ، ثم يجمع الله تعالى سحالته التي هي من حليهم ، فيحميها في نار جهنم ، ويكويهم بها ، ويجعلها من أشد العذاب عليهم ، وأكد الفعل إظهاراً

لعظمة الله تعالى الذي أمره بذلك ، وتحقيقاً للصدق في الوعد ، فقال : ﴿ نسفاً ﴾ قال الجلال المحلي ، وفعل موسى عليه السلام بعد ذبحه ما ذكره انتهى ، وعلى هذا لا يصح أن يبرد بالمبرد ؛ قال الرازي : ويمكن أن يقال صار لحماً ودماً ، وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها ، ولما

(213/502)

أراهم بطلان ما هم

عليه بالعيان أخبرهم بالحق على وجه الحصر ، فقال:

﴿ إنما إلهكم الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ، ثم كشف المراد من ذلك ، وحققه بقوله : ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ أي : لا يصلح لهذا المنصب أحد غيره ؛ لأنه ﴿ وسع كل شيء ﴾ وقوله : ﴿ علماً ﴾ تمييز محمول على الفاعل ، أي : أحاط علمه بكل شيء ، فكل شيء إليه مفتقر ، وهو غني عن كل شيء ، وأما العجل الذي عبدوه ، فلا يصلح للإلهية بوجه ، ولا في عبادته شيء من حق ، ولما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولاً ، ثم مع السامري ثانياً على هذا الأسلوب الأعظم والسبيل الأقوم كان كأنه قيل : هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع ، والمثال الرفيع ، فقيل : نعم

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا القص العالي في هذا النظم العزيز الغالي كقصة موسى ومن ذكر معه ﴿ نقص عليك من أنباء ﴾ أي : أخبار ﴿ ما قد سبق ﴾ من الأمم زيادة في علمك وإجلالاً لمقدارك ، وتسلية لقلبك ، وإذهاباً لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك ، وتكثيراً لبيناتك ، وزيادة في معجزاتك ، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة ، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر ﴿ وقد أتيناك ﴾ أي : أعطيناك تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك ﴿ من لدنا ﴾ أي : من عندنا ﴿ ذكراً ﴾ أي : كتاباً هو القرآن وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه أحدها : أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، وثانيها : أنه يذكر فيه أنواع آلاء الله ونعمائه ، وفيه التذكير والموعظة ، وثالثها : فيه الذكر والشرف لك ولقومك كما قال الله تعالى : وإنه لذكر لك ولقومك ، وسمى الله تعالى كل كتاب أنزله ذكراً فقال : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ ، والتنكير فيه للتعظيم ، فإنه مشتمل على أسرار كتب الله تعالى المنزلة

﴿ من أعرض عنه ﴾ فلم يؤمن به ﴿ فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي : حملاً ثقيلاً من الإثم

﴿ خالدين فيه ﴾ أي : في عذاب الوزر ﴿ وساء ﴾ أي : وبئس ﴿ لهم ﴾ أي : ذلك الحمل ﴿ يوم القيامة ﴾ وقوله : ﴿ حملاً ﴾ تمييز مفسر للضمير في ساء ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره وزرهم ، واللام للبيان ، ومن أقبل عليه كان مذكراً له بكل ما يريد من العلوم النافعة ويبدل من يوم القيامة

﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي : القرن النفخة الثانية ، وقرأ أبو عمرو بنونين الأولى مفتوحة ، وضم الفاء على إسناد الفعل إلى الآمر به تعظيماً له ، أو إلى النافخ ، والباقون بياء مضمومة ، وفتح الفاء ﴿ ونحشر المجرمين ﴾ أي : الكافرين ﴿ يومئذٍ زرقاً ﴾ أي : عيونهم مع سواد وجوههم ؛ لأن زرقة العيون أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب ؛ لأن الروم أعداؤهم ، وهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين ، وقيل : المراد العمى ؛ لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق ، وقيل : عطاشاً حال كونهم

﴿ يتخافتون ﴾ أي : يخفضون أصواتهم ﴿ بينهم ﴾ لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ، والخفت خفض الصوت وإخفاؤه ﴿ إن ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض ما ﴿ لبثتم ﴾ أي : مكثتم ﴿ إلا عشراً ﴾ أي : من الليالي بأيامها في الدنيا ، وقيل : في القبور وقيل : بين النفختين ، وهو مقدار أربعين سنة ؛ قالوا : ذلك إما استقصاراً لمدة الراحة في جنب ما بدا لهم من المخاوف ؛ لأن أيام السرور قصار ، وإما لأنها ذهبت عنهم ، وانقضت ، والذاهب

وإن طالت مدته قصيرة بالانتهاء ، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز أطال الله تعالى بقاءك كفى بالانتهاء قصراً ، وإما لاستطالتهم الآخرة ، فإنه يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ (المؤمنين : ،) ، وإما غلطاً ودهشة قال الله تعالى:

﴿نحن أعلم﴾ أي : من كل أحد ﴿بما يقولون﴾ في ذلك اليوم أي : ليس كما قالوا : ﴿إذ يقول أمثلهم﴾ أي : أعدلهم ﴿طريقة﴾ أي : رأياً أو عملاً في الدنيا فيما يحسبون ﴿أن﴾ أي : ما ﴿لبثتم إلا يوماً﴾ أي : مبدأ الآحاد لا مبدأ العقود كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ (الروم ،) ، فلا يزالون في إفك وصرف عن الحق في الدارين ؛ لأن الإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، ولما وصف سبحانه وتعالى أمر يوم القيامة حكى سؤال من لا يؤمن بالحشر فقال تعالى:

﴿ويسئلونك﴾ يا أشرف الخلق ﴿عن الجبال﴾ كيف تكون يوم القيامة ؟ قال الضحاك

: نزلت في مشركي مكة قالوا : يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة ، وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء ، ولما كان مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر ، فلاجرم أمره الله تعالى بالجواب مقروناً بحرف التعقيب بقوله : ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ ينسفها ربي نسفاً ﴾ ؛ لأن تأخير البيان في هذه المسألة الأصولية غير جائز ، وأما المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هناك في نحو قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ (البقرة ،) ، وقوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ (البقرة ،)
بغير حرف التعقيب والنسف التذرية ، وقيل : القلع الذي يقلعها من أصلها ويجعلها هباءً منثوراً ؛ قال الخليل : ينسفها يذهبها ويطيرها ، وفي ضمير

﴿ فيذرها ﴾ قولان أحدهما : أنه ضمير الأرض أضمرت للدلالة عليها كقوله تعالى : ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ (فاطر ،) ، والثاني : ضمير الجبال ، وذلك على حذف مضاف أي : فيذر مراكزها ومقارها ، ويذر يجوز أن يكون بمعنى يخليها ، فيكون ﴿ قاعاً ﴾ حالاً وأن يكون بمعنى يترك التصييريه ، فيتعدى لاثنين فقاعاً ثانيهما ، والقاع هو المكان المستوي ، وقيل : الأرض التي لا بناء فيها ، ولا نبات ، وفي قوله تعالى :

﴿ صفصفاً ﴾ قولان أحدهما : الأرض الملساء ، والثاني : المستوية ، والقاع والصفصف قريبان من الترادف ، وجمع القاع أقوع وأقواع وقيعان

﴿ لا ترى فيها ﴾ أي : الأرض أو مواضع الجبال ﴿ عوجاً ﴾ أي : انخفاضاً ﴿ ولا أمتاً ﴾ أي : ارتفاعاً بوجه من الوجوه ، وعبر هنا في العوج بالكسر ، وهو للمعاني ، ولم يعبر بالفتح الذي توصف به الأعيان ، فإن الأرض أو مواضع الجبال أعيان لا معان نفياً للاعوجاج على أبلغ وجه بمعنى أنك لو جمعت أهل الخبرة بتسوية الأرض لاتفقوا على الحكم باستوائها ، ثم لو جمعت أهل الهندسة فحكموا بمقاييسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك .

(217/502)

﴿ يومئذٍ ﴾ أي : يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يتبعون ﴾ أي : الناس بعد القيام من القبور بغاية جهدهم ﴿ الداعي ﴾ أي : إلى المحشر ، وهو إسرافيل يضع الصور على فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول : أيتها العظام البالية ، والجلود الممزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن ﴿ لا عوج له ﴾ أي : الداعي في شيء من قصدهم إليه ؛ لأنه ليس في الأرض ما يحوجهم إلى التعويج ، ولا يمنع الصوت من النفوذ على السواء ، وقيل : لا عوج لدعائه ، وهو من المقلوب ، أي : لا عوج له عن دعاء الداعي لا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً ،

ولا يقدرون عليه ، بل يتبعونه سراعاً ﴿ وخشعت الأصوات ﴾ أي : سكنت وذلت وتطامنت لخشوع أهلها ﴿ للرحمن ﴾ الذي عمت نعمه ، فيرجى كرمه ، وتخشى نقمه ﴿ فلا ﴾ أي : فتسبب عن خشوعها أنك لا ﴿ تسمع إلا همساً ﴾ أخفى ما يكون من الأصوات ، وقيل : أخفى شيء من أصوات الأقدام في نقلها إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل في مشيها .

﴿ يومئذٍ ﴾ أي : إذا كان ما تقدم ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أحداً ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ أن يشفع له ﴿ ورضي له قولاً ﴾ ولو الإيمان المجرد قال ابن عباس : يعني قال : لا إله إلا الله ، فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن ، ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير إذنه علل ذلك كما سلف في آية الكرسي بقوله:

﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي : الخلائق من أمور الآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمور الدنيا ، وقيل : ما بين أيديهم ما قدموا وما خلفهم ما خلفوا من الأعمال ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ أي : لا يحيط علمهم بمعلوماته ، وقيل : الضمير إلى ما أي : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وهم لا يعلمونه ، وقيل : راجع إلى الله تعالى أي : ولا يحيطون بالله علماً . انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 189 . 201 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 111 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 127 ﴾ من نفس السورة

(4/503)

قوله تعالى ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر خشوع الأصوات ، أتبعه خضوع دونها فقال : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ أي ذلت وخضعت واستسلمت وجوه الخلائق كلهم ، وخصها لشرفها ولأنها أول ما يظهر فيه الذل ﴿ للحي ﴾ الذي هو مطلع على الدقائق والجلائل ، وكل ما سواه جماد حيث ما نسبت حياته إلى حياته ﴿ القيوم ﴾ الذي لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت ﴿ وقد

خاب ﴾ أي خسر خسارة ظاهرة ﴿ من حمل ﴾ منهم أو من غيرهم ﴿ ظلماً ﴾ .

ولما ذكر الظالم ، أتبعه الحكيم فقال : ﴿ ومن يعمل ﴾ ولما كان الإنسان محل العجز وإن اجتهد ، قال ﴿ من الصالحات ﴾ أي التي أمره الله بها بحسب استطاعته ، لأنه " لن يقدر الله أحد حق قدره " " ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه " ﴿ وهو مؤمن ﴾ ليكون بناؤها على الأساس ، وعبر بالفاء إشارة إلى قبول الأعمال وجعلها سبباً لذلك الحال فقال : ﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾ بأن ينسب إليه سوء لم يقترفه لأن الجزاء من جنس العمل ، وقراءة ابن كثير بلفظ النهي محققة للمبالغة في النفي ﴿ ولا هضماً ﴾ أي نقصاً من جزائه وإن كان هو لم يوف المقام حقه لأنه لا يستطيع ذلك ، وأصل الهضم الكسر ، وأما غير المؤمن فلو عمل أمثال الجبال من الأعمال لم يكن لها وزن .

(5/503)

ولما اشتملت هذه الآية على الذروة من حسن المعاني ، فبشرت ويسرت ، وأنذرت وحذرت ، وبينت الخفايا ، وأظهرت الخبايا ، مع ما لها من جلالة السبك وبراعة النظم ، كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالتها : أنزلناها على هذا المنوال العزيز المثال ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا الإنزال ﴿ أنزلناه ﴾ أي هذا الذكر كله بعظمتنا ﴿ قرآناً ﴾ جامعاً لجميع المعاني

المقصودة ﴿ عربياً ﴾ مبيناً لما أودع فيه لكل من له ذوق في أساليب العرب .

ولما كان أكثر هذه الآيات محذراً ، قال : ﴿ وصرفنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيه من الوعيد ﴾ أي ذكرناه مكررين له محولاً في أساليب مختلفة ، وأفانين متنوعة مؤتلفة .

ولما ذكر الوعيد ، أتبعه ثمرته فقال : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي ليكون الناظر لهم بعد ذلك على رجاء من أن يتقوا ويكونوا به في عداد من يجدد التقوى كل حين ، بأن تكون له وصفاً مستمراً ، وهي الحذر الحامل على اتخاذ الوقاية مما يحذر ﴿ أو ﴾ في عداد من ﴿ يحدث ﴾ أي يجدد هذا التصريف ﴿ لهم ذكراً ﴾ أي ما يستحق أن يذكر من طرق الخير ، فيكون سبباً للخوف الحامل على التقوى ، فيردهم عن بعض ما تدعو إليه النفوس من النقائض والبؤس .

ولما بلغت هذه الجمل نهاية الإعجاز ، فاشتملت على غاية الحكمة ، دالة على أن لقائلها تمام العلم والقدرة والعدل في أحوال الدراين ، تسبب عن سوقها كذلك أن بان له من العظمة ما أفهمه قوله ، معظماً لنفسه الأقدس بما هو له أهل بعد تعظيم كتابه تعليماً لعباده ما يجب له من الحق دالاً بصيغة التفاعل على مزيد العلو : ﴿ فتعالى الله ﴾ أي بلغ الذي لا يبلغ الواصفون وصفه حق وصفه من العلو أمراً لا تحتمله العقول ، فلا يلحقه شيء من إلحاد الملحدين ووصف المشركين ﴿ الملك ﴾ الذي لا يعجزه شيء ، فلا ملك في الحقيقة غيره

﴿ الحق ﴾ أي الثابت الملك ، فلا زوال لكونه ملكاً في زمن ما ؛ ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ما هم عليه من الأمور المتباينة .

(6/503)

ولما كانت هذه الآيات في ذم من أعرض عن هذا الذكر ، كان تقدير : فلا تعرض عنه ، بل أقبل عليه لتكون من المتقين الذاكرين ، ولما كان هذا الحث العظيم ربما اقتضى للمسابق في التقوى المبالغة في المبادرة إليه فيستعجل بتلقفه قبل الفراغ من إيحائه ، قال عاطفاً على هذا المقدر : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أي بتلاوته .

ولما كان النهي عاماً لجميع الأوقات القبلية ، دل عليه بالجار لئلا يظن أنه خاص بما يستغرق زمان القبل جملة واحدة فقال : ﴿ من قبل أن ﴾ ولما كان النظر هنا إلى فراغ الإيحاء لا إلى موحٍ معين ، بنى للمجهول قوله : ﴿ يقضى ﴾ أي ينهى ﴿ إليك وحيه ﴾ من الملك النازل إليك من حضرتنا به كما أنا لم نعجل بإنزاله عليك جملة ، بل رتلناه لك ترتيلاً ، ونزلناه إليك تنزيلاً مفصلاً تفصيلاً ، وموصلاً توصيلاً - كما أشرنا إليه أول السورة ، فاستمع له ملقياً جميع تأملك إليه ولا تساوقه بالقراءة ، فإذا فرغ فاقرأه فإنا نجمعه في قلبك ولا نسقيك بإنسائه وأنت مصغ إليه ، ولا بتكليفك للمساوقة بتلاوته ﴿ وقل رب ﴾ أي المحسن إليّ

بإفاضة العلوم عليّ ﴿ زدني علماً ﴾ أي بتفهيم ما أنزلت إليّ منه وإنزال غيره كما زدتني بإنزاله وتحفيظه ، لتتمكن من معرفة الأسباب المفيدة لتبع الخلق لك ، فإنه كما تقدم على قدر إحاطة العلم يكون شمول القدرة ، وفي هذا دليل على أن التأني في العلم بالتدبر وبإلقاء السمع أنفع من الاستعجال المتعب للبال المكدر للحال ، وأعون على الحفظ ، فمن وعى شيئاً حق الوعي حفظه غاية الحفظ ؛ وروى الترمذي وابن ماجة والبزار عن أبي هريرة. رضى الله عنهم. قال : كان رسول الله. صلى الله عليه وسلم. يقول :

" اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار " أفاده ابن كثير في تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 48. 50 ﴾

(7/503)

فصل

قال الفخر :

الصفة السادسة : قوله : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَىّ القيوم وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾

ومعناه أن في ذلك اليوم تعنوا الوجوه أي تذل ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن

لفظ العنو أخذوا العاني وهو الأسير ، يقال : عنا يعنو عناء إذا صار أسيراً وذكر الله تعالى : ﴿ الوجوه ﴾ وأراد به المكلفين أنفسهم لأن قوله : ﴿ وَعَنَتِ ﴾ من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [الغاشية : 8 ، 9] وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير ﴿ الحي القيوم ﴾ قد تقدم ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اطلبوا اسم الله الأعظم في هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه " قال الراوي : فوجدنا المشترك في السور الثلاث : ﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم ﴾ فبين تعالى على وجه التحذير أن ذلك اليوم لا يصح الإمتناع مما ينزل بالمرء من المجازاة ، وأن حاله مخالفة لحال الدنيا التي يختار فيها المعاصي ويمتنع من الطاعات ، أما قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ فالمراد بالخيبة الحرمان أي حرم الثواب من حمل ظلماً والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من العفو فقالوا قوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ يعم كل ظالم ، وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مراراً ، واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ يعني ومن يعمل شيئاً من الصالحات والمراد به الفرائض فكان عمله مقروناً بالإيمان وهو قوله :

﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات ﴾ [طه : 75] فقوله : ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ في موضع جزم لكونه في موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ ﴾ [المائدة : 95] ، ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ [الجن : 13]

وقرأ ابن كثير : فلا يخف على النهي وهو حسن لأن المعنى فليأمن والنهي عن الخوف أمر بالأمن والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أم يمنع من الثواب على الطاعة ، والهضم أن ينقص من ثوابه ، والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أي ضامر البطن ومنه : ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء : 148] أي لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامي ، وقال أبو مسلم : الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفي حقه من الإعظام لأن الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثواباً إلا إذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص في بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الأمرين .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وكذلك ﴾ عطف على قوله : ﴿ كذلك نَقُصُّ ﴾ أي ومثل ذلك لا نزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين : أحدهما : كونه عربياً لتفهمه العرب فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر .

والثاني : قوله : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ أي كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد

بيان الفرائض والمحارم لأن الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضي بيان الأحكام فلذلك قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره في سورة البقرة في قوله : ﴿ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 183] أما قوله : ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ ففيه وجهان .

(9/503)

الأول : أن يكون المعنى إنا إنما أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متقين أي محترزين عما لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكراً يدعوهم إلى الطاعات وفعل ما ينبغي ، وعليه سؤالات :

السؤال الأول : القرآن كيف يكون محدثاً للذكر .

الجواب : لما حصل الذكر عند قراءته أضيف الذكر إليه .

السؤال الثاني : لم أضيف الذكر إلى القرآن وما أضيفت التقوى إليه .

الجواب : أن التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح ، وذلك استمرار على العدم الأصلي فلم يجز إسناده إلى القرآن ، أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت إضافته إلى القرآن .

السؤال الثالث : كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الإتقاء إلا

مع الذكر فما معنى كلمة أو .

الجواب : هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أي لا تكن خالياً منهما فكذا ههنا .

الوجه الثاني : أن يقال : إنا أنزلنا القرآن ليتقوا فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكراً وشرفاً وصيتاً حسناً ، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى ، ثم إنه تعالى لما عظم أمر القرآن ردفه بأن عظم نفسه فقال : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ تنبيهاً على ما يلزم خلقه من تعظيمه وإنما وصفه بالحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك ، وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت أن علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت الجلال وأنه لا تكيفه الأوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى إنما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغي وليقدموا على ما ينبغي ، وأنه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم ، فالطاعات إنما تقع بتوفيقه وتيسيره ، والمعاصي إنما تقع عدلاً منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلقه بما قبله وجهان .

الوجه الأول : قال أبو مسلم : إن من قوله :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ [طه : 105] إلى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ خطاب مستأنف فكأنه قال : ويسألونك ولا تعجل بالقرآن .

الوجه الثاني : روى أنه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شيء فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي وأنه موصوف بالإحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي ، وإذ حصل الأمان عن السهو والنسيان قال : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ .

المسألة الثانية ؛ قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ ويحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك ، ويحتمل أن لا تعجل في تأديته إلى غيرك ، ويحتمل في اعتقاد ظاهره ، ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره ، وأما قوله : ﴿ مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك تمامه ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك بيانه ، لأن هذين الأمرين لا يمكن تحصيلهما إلا بالوحي ، ومعلوم أنه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكي يحفظه ويؤديه فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعاً ، لأنه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ

لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية .

(11/503)

ولنذكر أقوال المفسرين : أحدها : أن هذا كقوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له : لا تعجل إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهماً وعلماً ، وهذا قول مقاتل والسدي ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وثانيها : لا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى إليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة .

وثالثها : قال الضحاك : إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا : يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمداً فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ أي بنزوله من قبل أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل ومنه إلى جبريل ومنه إليك : ﴿ وَقُل رَّبّ زِدْنِي عِلْماً

﴾ .

ورابعها : روى الحسن أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : زوجي لطم

وجهي فقال : بينكما القصاص فنزل قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالقرءان ﴾ فأمسك رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن القصاص حتى نزل قوله تعالى : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى

النساء ﴾ [النساء : 34] وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الأول أما قوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه في زيادة

العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه .

المسألة الثالثة :

الاستعجال الذي نهى عنه إن كان فعله بالوحي فكيف نهى عنه .

الجواب : لعله فعله بالاجتهاد ، وكان الأولى تركه ، فلهذا نهى عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 104. 106 ﴾

(12/503)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾

فيه خسمة أوجه :

أحدها : أي ذلت ، قاله ابن عباس .

الثاني : خشعت ، قاله مجاهد ، والفرق بين الذل والخشوع - وإن تقارب معناهما - هو أنّ الذل أن يكون ذليل النفس ، والخشوع : أن يتذلل لذي طاعة . قال أمية بن الصلت :

وعنا له وجهي وخلقي كله . . . في الساجدين لوجهه مشكورا

الثالث : عملت ، قاله الكلبي .

الرابع : استسلمت ، قاله عطية العوفي .

الخامس : أنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود ، قاله طلق بن حبيب .

﴿ الْقَيُّومِ ﴾ فيها ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه القائم على كل نفس بما كسبت ، قاله الحسن .

الثاني : القائم بتدبير الخلق .

الثالث : الدائم الذي لا يزول ولا يبيد .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ يعني شركاً .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فلا يخاف الظلم بالزيادة في سيئاته ، ولا هضماً بالنقصان من حسناته ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .

الثاني : لا يخاف ظلماً بأن لا يجزى بعمله ، ولا هضماً بالانتقاص من حقه ، قاله ابن زيد ، والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، [والهضم] المنع من بعضه ، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه ، قال المتوكل الليثي :

إن الأذلة واللئام لمعشر . . . مولاهم المتهضم المظلوم

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : حذراً ، قاله قتادة .

الثاني : شرفاً لإيمانهم ، قاله الضحاك .

الثالث : ذِكراً يعتبرون به .

قوله تعالى : ﴿ . . . . وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرءَانِ ﴾ الآية . فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا تسأل إنزاله قبل أن يقضى ، أي يأتيك وحيه .

الثاني : لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، قاله عطية .

الثالث : لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه ، لأنه كان يعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه خوف نسيانه ، قاله الكلبي .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ يحتمل أربعة أوجه :

أحدها : زدني أدباً في دينك ، لأن ما يحتاج إليه من علم دينه لنفسه أو لأمته لا يجوز أن يؤخره الله عنده حتى يلتمسه منه .

الثاني : زدني صبراً على طاعتك وجهاد أعدائك ، لأن الصبر يسهل بوجود العلم .

الثالث : زدني علماً بقصص أنبيائك ومنازل أوليائك .

الرابع : زدني علماً بحال أمتي وما تكون عليه من بعدي .

ووجدت للكلبي جواباً .

الخامس : معناه : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ لأنه كلما ازداد من نزول القرآن عليه ازداد علماً به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(14/503)

وقال ابن عطية :

﴿ وعنت ﴾

معناه ذلت ، والعاني الأسير ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمر النساء : " هن عوان عندكم " وهذه حالة الناس يوم القيامة . وقال طلق بن حبيب : أراد سجود الناس على الوجوه والآراب السبعة .

قال القاضي أبو محمد : وإن كان روي هذا أن الناس يوم القيامة سجوداً وجعل هذه الآية إخباراً فهو مستقيم وإن كان أراد سجود الدنيا فإنه أفسد نسق الآية ، و﴿ القيوم ﴾ بناء مبالغة من قيامه عز وجل على كل شيء بما يجب فيه ، و﴿ خاب ﴾ معناه لم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ، والظلم يعم الشرك والمعاصي وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم فخيبة المشرك على الإطلاق ، وخيبة المعاصي مقيدة بوقت وحد في العقوبة .

قوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾

(15/503)

عادل لقوله ﴿ من حمل ظلماً ﴾ [طه : 111] ، وفي قوله ﴿ من الصالحات ﴾ تيسير في الشرع لأنها ﴿ من ﴾ التي للتبعيض ، و" الظلم " أعم من " الهضم " وهما يتقاربان في المعنى ويتداخلان ، ولكن من حيث تناسقا في هذه الآية ذهب قوم إلى تخصيص كل واحد منهما بمعنى ، فقالوا " الظلم " أن تعظم عليه سيئاته وتكثر أكثر مما يجب ، و" الهضم " أن

ينقض حسناته ويبخسها ، وكلهم قرأ ﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾ على الخبر ، غير ابن كثير فإنه قرأ " فلا يخف " على النهي ، ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي كما قدرنا هذه الأمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد كذلك حذرنا هؤلاء أمرنا و ﴿ أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ وتوعدنا فيه بأنواع من الوعيد ﴿ لعلهم ﴾ بحسب توقع البشر وترجيهم ﴿ يتقون ﴾ الله ويخشون عقابه فيؤمنون ويتذكرون نعمه عندهم وما حذرهم من أليم عقابه ، هذا تأويل فرقة في قوله ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ وقالت فرقة معناه أو يكسبهم شرفاً ويبقي عليهم إيمانهم ذكراً صالحاً في الغابرين ، وقرأ الحسن البصري " أو يحدثْ " ساكنة الثاء ، وقرأ مجاهد " أو نحدثْ " بالنون وسكون الثاء ولا وجه للجزم الا على أن يسكن حرف الإعراب استثقالاً لحركته ، وهذا نحو قول جرير ولا يعرفكم العرب . وقوله ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ختم للقول لأنه لما قدم صفة سلطانه يوم القيامة وعظم قدرته وذلة عبيده وحسن تلطفه بهم ختم ذلك بهذه الكلمة وجعل بعد ذلك الأمر بنوع آخر من القول وقوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ قالت فرقة سببه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف وقت تكلم جبريل له أن ينسى أول القرآن فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عيله السلام الوحي فنزلت في ذلك ، وهي على هذا في معنى قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : 16] وقالت فرقة سبب هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه القرآن أمر بكتبه للحين فأمره الله تعالى في هذه الآية أن يتأنى حتى

(16/503)

يفسر له المعاني وتقرر عنده ، وقالت فرقة سبب الآية أن امرأة شكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن زوجها لطمها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكما القصاص ثم نزلت ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [النساء : 34] ، ونزلت هذه بمعنى الأمر بالتثبت في الحكم بالقرآن حتى يبين والله أعلم . وقرأ الجمهور " من قبل ان يقضي إليك وحيه " وقرأ عبد الله بن مسعود " من قبل أن نقضي إليك وحيه " . وباقي الآية بين رغبة في خير . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/503)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وعَنَتِ الوجوه ﴾

قال الزجاج : "عَنَتْ" في اللغة : خضعت ، يقال : عنا يعنو : إِذا خضع ، ومنه قيل : أُخِذتْ البلاد عَنْوَةً : إِذا أُخذتْ غَلَبَة ، وأُخذتْ بخضوع من أهلها .

والمفسرون : على أن هذا في يوم القيامة ، إلا ما روي عن طلق بن حبيب : هو وضع الجبهة والأنف والكفّين والرُّكبتين وأطراف القدمين على الأرض للسجود .

وقد شرحنا في آية الكرسي معنى ﴿ الحي القيوم ﴾ [البقرة : 255] .

قوله تعالى : ﴿ وقد خاب مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ قال ابن عباس : خَسِر من أشرك بالله .

قوله تعالى : ﴿ ومَن يعملْ مِنَ الصالحات وهو مؤمن ﴾ "مِنْ" هاهنا للجنس .

وإنما شرط الإيمان ، لأن غير المؤمن لا يُقبَل عملُه ، ولا يكون صالحاً ، ﴿ فلا يخاف ﴾ أي : فهو لا يخاف .

وقرأ ابن كثير : "فلا يَخَفْ" على النهي .

قوله تعالى : ﴿ ظُلْماً ولا هَضماً ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا يخاف أن يُظلَم فيُزاد في سيِّئاته ، ولا أن يُهضَم من حسناته ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لا يخاف أن يُظلَم فيزاد من ذَنْب غيره ، ولا أن يُهضم من حسناته ، قاله قتادة .

والثالث : أن لا يخاف أن يؤاخَذ بما لم يعمل ، ولا يُنتقص من عمله الصالح ، قاله الضحاك .

والرابع : لا يخاف أن لا يُجزَى بعمله ، ولا أن يُنقَص من حَقّه ، قاله ابن زيد .

قال اللغويون : الهَضْم : النَّقْص ، تقول العرب : هضمتُ لك من حَقِّي ، أي : حَطَطْتُ ، ومنه : فلان هضيم الكَشْحَيْن ، أي : ضامر الجنبين ، ويقال : هذا شيء يهضم الطعام ،

أي : ينقص ثِقْله .

وفرق بعض المفسرين بين الظُّلم والهَضْم ، فقال : الظُّلم : منع الحق كلِّه ، والهضم : منع البعض ، وإن كان ظُلْماً أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي : وكما بيَّنَّا في هذه السورة ، أنزلناه ، أي : أنزلنا هذا الكتاب ﴿ قرآناً عربيّاً وصرَّفنا فيه من الوعيد ﴾ أي : بيَّنَّا فيه ضروب الوعيد .

(18/503)

قال قتادة : يعني : وقائعه في الأمم المكذِّبة .

قوله تعالى : ﴿ لعلَّهم يَتَّقون ﴾ أي : ليكون سبباً لاتِّقائهم الشرك بالاتِّعاظ بِمَنْ قبلهم ﴿ أو يُحْدِثُ لهم ﴾ أي : يجدِّد لهم القرآن ، وقيل : الوعيد ﴿ ذِكْراً ﴾ أي : اعتباراً ، فيتذكَّروا به عِقاب الأمم ، فيعتبروا .

وقرأ ابن مسعود ، وعاصم الجحدري : "أو نُحْدِثُ" بنون مرفوعة .

قوله تعالى : ﴿ فتعالى الله ﴾ أي : جَلَّ عن إلحاد الملحِدين وقول المشركين في صفاته ، ﴿ المَلِكُ ﴾ الذي بيده كلُّ شيء ، ﴿ الحَقُّ ﴾ وقد ذكرناه في [يونس : 32] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَعْجَل بالقرآن ﴾ في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن جبريل كان يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالسورة والآي فيتلوها عليه ، فلا يفرغ جبريل من آخرها حتى يتكلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً لطم امرأته ، فجاءت إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص ، فنزلت هذه الآية ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل قوله تعالى ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [النساء 34] ، قاله الحسن البصري .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أن يُقضى إِليكَ وَحْيُه ﴾ وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، ويعقوب : "نَقْضِيَ" بالنون وكسر الضاد وفتح الياء "وَحْيَه" بنصب الياء .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته تخاف نسيانه ، هذا على القول الأول .

والثاني : لا تُقرىء أصحابك حتى نبيِّن لك معانيه ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : لا تسأل إِنزاله قبل أن يأتيك الوحي ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وقل ربِّ زِدْني عِلْماً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : زِدْني قرآناً ، قاله مقاتل .

والثاني : فهماً .

والثالث : حفظاً ، ذكرهما الثعلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(19/503)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾

أي ذلّت وخضعت ؛ قاله ابن الأعرابي وغيره .

ومنه قيل للأسير عانٍ .

قال أمية بن أبي الصَّلْت :

مليكٌ على عرش السّماءِ مُهَيْمِنٌ . . .

لعزّته تَعنُو الوجوهُ وتَسجدُ

وقال أيضاً :

وَعَنَا له وَجْهِي وخَلْقِي كلُّه . . .

في الساجدين لوجهه مَشْكُورَا

قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذلّ وأعناه غيره ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه

لِلْحَيِّ القيوم ﴾ .

ويقال أيضاً : عَنا فيهم فلان أسيراً ؛ أي أقام فيهم على إساره واحتبس .

وَعَنَّاه غيرُه تعنيةً حبسه .

والعاني الأسير .

وقوم عُناة ونسوة عَوَانٍ .

وَعَنَتْ به أمورٌ نزلت .

وقال ابن عباس : "عَنَت" ذلّت .

وقال مجاهد : خشعت .

الماوردي : والفرق بين الذل والخشوع وإن تقارب معناهما أن الذل أن يكون ذليل النفس ، والخشوع أن يتذلل لذي طاعة .

وقال الكلبي : "عنت" أي عملت .

عطية العوفي : استسلمت .

وقال طَلْق بن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود .

النحاس : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ في معناه قولان : أحدهما : أن هذا في الآخرة .

وروى عكرمة عن ابن عباس "وَعَنَتِ الْوجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ" قال : الركوع والسجود ؛

ومعنى "عنت" في اللغة القهر والغلبة ، ومنه فتحت البلاد عَنوة أي غلبة ؛ قال الشاعر :

فما أخذوها عَنْوةً عن مودّة . . .

ولكنْ بضرب المَشْرَفيِّ اسْتَقَالَها

وقيل : هو من العناء بمعنى التعب ؛ وكنى عن الناس بالوجوه ؛ لأن آثار الذل إنما تتبين في الوجه .

﴿ لِلْحَيِّ القيوم ﴾ وفي القيوم ثلاثة تأويلات ؛ أحدها : أنه القائم بتدبير الخلق .

الثاني : أنه القائم على كل نفس بما كسبت .

الثالث : أنه الدائم الذي لا يزول ولا يبيد .

وقد مضى في "البقرة" هذا .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ أي خسر من حمل شركاً .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان .

(20/503)

و"من" في قوله : ﴿ مِنَ الصالحات ﴾ للتبعيض ؛ أي شيئاً من الصالحات .

وقيل : للجنس .

﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن محيصن "يَخَفْ" بالجزم جواباً لقوله : ﴿ وَمَن

يَعْمَلْ ﴾ .

الباقون "يَخَافُ" رفعاً على الخبر ؛ أي فهو لا يَخَافُ ؛ أو فإنه لا يخاف .

﴿ ظُلْماً ﴾ أي نقصاً لثواب طاعته ، ولا زيادة عليه في سيئاته .

﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ بالانتقاص من حقه .

والهضم النقص والكسر ؛ يقال : هضمتُ ذلك من حقّي أي حططتُه وتركته .

وهذا يهضم الطعام أي ينقص ثقله .

وامرأة هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن .

الماوردي : والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه ، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه ؛ قال المتوكل الليثي :

إنّ الأذلّة واللئام لَمعشرٌ . . .

مَوْلاَهُم المتهضّم المظلومُ

قال الجوهري : ورجل هَضِيمٌ ومُهتضَم أي مظلوم .

وتَهضَّمه أي ظلمه واهتضمه إذا ظلمه وكَسَر عليه حقه .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾

أي كما بيّنا لك في هذه السّورة من البيان ف ﴿ كذلك جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ أي بلغة العرب .

﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ أي بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يخافون الله فيجتنبون معاصيه، ويحذرون عقابه.

﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ أي موعظة.

وقال قتادة: حذرا وورعاً.

وقيل: شرفاً؛ فالذكر ها هنا بمعنى الشرف؛ كقوله: "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ".

وقيل: أي ليتذكروا العذاب الذي توعدوا به.

وقرأ الحسن "أَوْ نُحْدِثُ" بالنون؛ وروي عنه رفع الثاء وجزمها.

قوله تعالى: ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ لما عرف العباد عظيم نعمه، وإنزال القرآن نزّه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال: "فَتَعَالَى اللَّهُ" أي جلّ الله الملك الحق؛ أي ذو الحق.

﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ علّم نبيه كيف يتلقى القرآن.

(21/503)

قال ابن عباس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على الحفظ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان، فنهاه الله عن ذلك وأنزل ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن ﴾ [طه: 114].

وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] على ما يأتي .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد : قال : لا تتله قبل أن تتبّينه .

وقيل : "وَلَا تَعْجَلْ" أي لا تسل إنزاله "مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى" إليك أي يأتيك "وَحْيُهُ" .

وقيل : المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله .

وقال الحسن : نزلت في رجل لطم وجه امرأته ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لها القصاص ، فنزل ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساآء ﴾ [النساء : 34] ولهذا قال : "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً" أي فهماً ؛ لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك .

وقرأ ابن مسعود وغيره "مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْضِي" بالنون وكسر الضاد "وَحْيَهُ" بالنصب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(22/503)

وقال أبو حيان :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَىِّ القيوم ﴾

والظاهر عموم ﴿ الوجوه ﴾ أي وجوه الخلائق ، وخص ﴿ الوجوه ﴾ لأن آثار الذل إنما

تظهر في أول ﴿ الوجوه ﴾ .

وقال طلق بن حبيب : المراد سجود الناس على الوجوه والآراب السبعة ، فإن كان روى أن هذا يكون يوم القيامة فتكون الآية إخباراً عنه ، واستقام المعنى وإن كان أراد في الدنيا فليس ذلك بملائم للآيات التي قبلها وبعدها .

وقال الزمخشري : المراد بالوجود وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العناة وهم الأسارى ونحوه ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ و﴿ القيوم ﴾ تقدم الكلام عليه في البقرة .

﴿ وقد خاب ﴾ أي لم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ، والظلم يعم الشرك والمعاصي وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم ، فخيبة المشرك دائماً وخيبة المؤمن العاصي مقيدة بوقت في العقوبة إن عوقب .

ولما خص الزمخشري الوجوه بوجوه العصاة قال في قوله ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ أنه اعتراض كقولك : خابوا وخسروا حتى تكون الجملة دخلت بين العصاة وبين من يعمل من الصالحات ، فهذا عنده قسيم ﴿ وعنت الوجوه ﴾ .

وأما ابن عطية فجعل قوله ﴿ ومن يعمل ﴾ -إلى- ﴿ هضماً ﴾ معادلاً لقوله ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ لأنه جعل ﴿ وعنت الوجوه ﴾ عامة في وجوه الخلائق .

و﴿ من الصالحات ﴾ بيسير في الشرع لأن ﴿ من ﴾ للتبعيض والظلم مجاوزة الحد في عظم سيئاته ، والهضم نقص من حسناته قاله ابن عباس .

وقال قتادة : الظلم أن يزاد من ذنب غيره .

وقال ابن زيد : الظلم أن لا يجزى بعمله .

وقيل : الظلم أن لا يجزى بعمله ، وقيل : الظلم أن يأخذ من صاحبه فوق حقه ، والهضم أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين يسترجحون لأنفسهم إذا اكتالوا ويخسرون إذا كالوا انتهى .

والظلم والهضم متقاربان .

(23/503)

قال الماوردي : والفرق أن الظلم منع الحق كله والهضم منع بعضه .

وقرأ الجمهور ﴿ فلا يخاف ﴾ على الخبر أي فهو لا يخاف .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد فلا يَخَفْ على النهي ﴿ وكذلك ﴾ عطف على كذلك نقص أي ومثل ذلك الإنزال أو كما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة الوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة مكررين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي

أو فعل الخير والطاعة ، والذكر يطلق على الطاعة والعبادة .

وقيل : كما قدرنا هذه الأمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد كذلك حذرنا هؤلاء أمرها و ﴿ أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ وتوعدنا فيه بأنواع ﴿ من الوعيد لعلهم ﴾ بحسب توقع الشر وترجيهم ﴿ يتقون ﴾ الله ويخشون عقابه فيؤمنون ويتذكرون نعمه عندهم ، وما حذرهم من أليم عقابه هذا تأويل فرقة في قوله ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ وقالت فرقة : معناه أو يكسبهم شرفاً ويبقي عليهم إيمانهم ذكراً صالحاً في الغابرين .

وقيل : المعنى كما رغبنا أهل الإيمان بالوعد حذرنا أهل الشرك بالوعيد ﴿ وصرّفنا فيه من الوعيد ﴾ كالطوفان والصيحة والرجفة والمسخ ، ولم يذكر الوعد لأن الآية سيقت مساق التهديد ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي ليكونوا على رجاء من أن يوقع في قلوبهم الاتقاء أو يتقون أن ينزل بهم ما نزل بمن تقدّمهم أي ﴿ يحدث لهم ذكراً ﴾ أي عظة وفكراً واعتباراً . وقال قتادة : ورعاً .

وقيل : أنزل القرآن ليصيروا محترزين عما لا ينبغي ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ يدعوهم إلى الطاعات ، وأسند ترجي التقوى إليهم وترجي إحداث الذكر للقرآن لأن التقوى عبارة عن انتفاء فعل القبيح ، وذلك استمرار على العدم الأصلي فلم يسند القرآن وأسند إحداث الذكر إلى القرآن لأنه أمر حدث بعد أن لم يكن والظاهر أن أو هنا لأحد الشيئين .

قيل : ﴿ أو ﴾ كهي في جالس أو ابن سيرين أي لا تكن خالياً منهما .

وقرأ الحسن ﴿ أو يحدث ﴾ ساكنة الثاء .

(24/503)

وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة والحسن في رواية والجحدري وسلام ، أو نحدث بالنون وجزم الثاء ، وذلك حمل وصل على وقف أو تسكين حرف الإعراب استثقالاً لحركته نحو قول جرير :

أو نهر تيري فلا تعرفكم العرب . . . .

ولما كان فيما سبق تعظيم القرآن في قوله ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ ذكر عظمة منزله تعالى ثم ذكر هاتين الصفتين وهي صفة ﴿ الملك ﴾ التي تضمنت القهر ، والسلطنة والحق وهي الصفة الثابتة له إذ كل من يدعي إلهاً دونه باطل لا سيما الإله الذي صاغوه من الحلي ومضمحل ملكه ومستعار ، وتقدّم أيضاً صفة سلطانه يوم القيامة وعظم قدرته وذلة عبيده وحسن تلطفه بهم ، فناسب تعاليه ووصفه بالصفتين المذكورتين ، ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد طالباً منه التأني في تحفظ القرآن ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه ﴾ أي تأن حتى يفرغ

الملقى إليك الوحي ولا تساوق في قراءتك قراءته وإلقاءه، كقوله تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وقيل: معناه لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان.

وقيل: سبب الآية "أن امرأة شكت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أن زوجها لطمها، فقال لها "بينكما القصاص"" ثم نزلت ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ ونزلت هذه بمعنى الأمر بالتثبت في الحكم بالقرآن.

وقيل: كان إذا نزل عليه الوحي أمر بكتبه للحين، فأمر أن يتأنى حتى يفسر له المعاني ويتقرر عنده.

وقال الماوردي: معناه ولا تسأل قبل أن يأتيك الوحي إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا: يا محمد أخبرنا عن كذا وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه، وفشت المقالة بين اليهود قد غلب محمد فنزلت ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أي بنزوله.

وقال أبو مسلم ﴿ ولا تعجل ﴾ بقراءته في نفسك أو في تأديته إلى غيرك أو في اعتقاد ظاهره أو في تعريف غيرك ما يقتضيه ظاهره احتمالات.

﴿ من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ أي تمامه أو بيانه احتمالات ، فالمراد إذاً أن لا ينصب نفسه ولا غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعاً ، لأنه يجب التوقف في المعنى لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات ، وهذه العجلة لعله فعلها باجتهاده عليه السلام انتهى .

وفيه بعض تلخيص .

وقرأ الجمهور : ﴿ يُقضى إليك ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ وحيه ﴾ مرفوع به .

وقرأ عبد الله والجحدري والحسن وأبو حيوة ويعقوب وسلام والزعفراني وابن مقسم نقضي بنون العظمة مفتوح الياء وحيه بالنصب .

وقرأ الأعمش كذلك إلا أنه سكن الياء من يقضي .

قال صاحب اللوامح : وذلك على لغة من لا يرى فتح الياء بحال إذا انكسر ما قبلها وحلت طرفاً انتهى .

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ قال مقاتل أي قرآناً .

وقيل : فهماً .

وقيل : حفظاً وهذا القول متضمن للتواضع لله والشكر له عند ما علم من ترتيب التعلم أي علمتني مآرب لطيفة في باب التعلم وأدباً جميلاً ما كان عندي ، فزدني علماً .

وقيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلاّ في طلب العلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(26/503)

وقال الثعالبى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ معناه : ذلّت ، وخضعت ، والعَانِي : الأسِير ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في أمر النساء : «هن عوان عندكم» وهذه حالة النّاس يومَ القيامة .

قال * ص * : وَعَنَتْ : من عَنَا يَعْنُو : ذَلَّ ، وخَضَعَ ؛ قال أُمَيَّة ابن أبي الصَّلْت : [الطَّويل]

مَلِيكٌ على عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ . . . لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

انتهى .

* ت * : وأحادِيثُ الشفاعة قدِ استفاضت ، وبلغت حَدّ التواتر ، ومن أعظمها شفاعة أرْحم الراحمين سبحانه وتعالى ففي «صحيح مُسْلم» ، من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ قال : فيقول اللّه عز وجل : " شَفَعَتِ المَلاَئِكَةُ ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وشَفَعَ المُؤْمِنُونَ ،

وَلَمْ يبقَ إلاَّ أَرْحمَ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبضُ قَبْضةً مِنَ النَّارِ ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَماً ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الجَنَّةِ " وفيه : " فيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ ، فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِمُ ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ اللّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ . . . " الحديث ، وخرج أبو القاسم إسحاقُ ، بنُ إبراهيم الختلي بسنده عن ابن عباس ، قال : قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم : " إذَا فرغَ اللّهُ تعالى مِنَ القَضَاءِ بين خَلْقه ، أخرج كِتَاباً من تحت العَرْشِ ؛ أَنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبي ، وأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، قَالَ : فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مِثْلَ أَهْلِ الجَنَّةِ ، أَوْ قَالَ : مِثْلَيْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، قَالَ : وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ : مِثْلَيْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ : عُتَقَاءُ اللّهِ " انتهى من «التذكرة» .

(27/503)

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ ، معنى خاب : لم ينجح ، ولا ظفر بمطلوبه ، والظلمُ يَعمُّ الشِّرْكَ والمَعاصِي ، وخيبةُ كلِّ حاملٍ بقدْرِ ما حمل مِنَ الظُّلْم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ معادلٌ لقوله : ﴿ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ والظلم . والهُضْمُ : هما متقاربان في المعنى ، ولكن من حيث تَنَاسقَا في هذه الآية ؛ ذهب قومٌ إلى تَخْصِيص كل واحدٍ منهما بمعنًى ، فقالوا : الظلم : أن نعظم عليه سيِّئاته ، وتكثر

أكثر مما يجب .

والهَضْمُ : أن ينقص من حَسَنَاتِهِ ، ويبخسها .

وكلهم قرأ : «فَلَا يَخَافُ» على الخبر غير ابن كَثِيرٍ ؛ فإنه قرأ : «فَلَا يَخَفْ» على النهي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(28/503)

وقال أبو السعود :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَىّ القيوم ﴾

أي ذلت وخضعت خضوعَ العُناة أي الأُسارى في يد الملكِ القهارِ ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : خسِر من أشرك بالله ولم يتُب ، وهو استئنافٌ لبيان ما لأجله عنت وجوهُهم ، أو اعتراضٌ ، كأنه قيل : خابوا وخسِروا ، وقيل : حالٌ من الوجوه ومَنْ عبارةٌ عنها مغنيةٌ عن ضميرها ، وقيل : الوجوهُ على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل ظلماً فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ الخ ، قسيمٌ لقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ لا لقوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ الخ ، كما أنه كذلك

على الوجه الأول أي ومن يعمل بعضَ الصالحات أو بعضاً من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين في تفسير قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فإن الإيمان شرطٌ في صحة الطاعاتِ وقبول الحسنات ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ﴾ أي منعَ ثوابٍ مستحقٍ بموجب الوعد ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ ولا كسْراً منه ينْقُص، أو لا يخاف جزاءَ ظلمٍ وهضْمٍ إذ لم يصدُر عنه ظلمٌ ولا هضمٌ حتى يخافَهما، وقرىء فلا يخَفْ على النهي. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(29/503)

﴿ وكذلك ﴾ عطفٌ على ﴿ كذلك نَقُصُّ ﴾ وذلك إشارةٌ إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنةِ للوعيد المنبئةِ عما سيقع من أحوال القيامةِ وأهوالِها أي مثلَ ذلك الإنزال ﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآنَ كلَّه، وإضمارُه من غير سبق ذكرِه للإيذان بنباهة شأنِه وكونِه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ ليفهمه العربُ ويقفوا على ما فيه من النظم المعجزِ الدالّ على كونه خارجاً عن طوق البشر نازلاً من عند خلاّق القُوى والقدر ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ أي كررنا فيه بعضَ الوعيد أو بعضاً من الوعيد حسبما أشير إليه آنفاً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي كي يتقوا الكفرَ والمعاصيَ بالفعل ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ

ذِكْراً ﴾ اتعاظاً واعتباراً مؤدياً بالآخرة إلى الاتقاء .

﴿ فتعالى الله ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشؤونه التي يُصرّف عليها عبادَه من الأوامر والنواهي والوعدِ والوعيد وغيرِ ذلك ، أي ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاتِه وأفعاله وأحواله ﴿ الملك ﴾ النافذ أمرُه الحقيقيُّ بأن يُرجى وعدُه ويُخشَى وعيدُه ﴿ الحق ﴾ في ملكوته وألوهيته لذاته ، أو الثابتُ في ذاته وصفاته ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ ﴾ أي يتمّ ﴿ وَحْيُهُ ﴾ كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أُلْقَى إليه عليه السلام الوحيَ يَتبعه عند لفظِ كل حرفٍ وكل كلمةٍ لكمال اعتنائِه بالتلقّي والحِفظ فنُهي عن ذلك إثرَ ذكرِ الإنزال بطريق الاستطرادِ لما أن استقرارَ الألفاظِ في الأذهان تابعٌ لاستقرار معانيها فيها ، وربما يَشغَل التلفظُ بكلمة عن سماع ما بعدها ، وأُمر باستفاضة العلمِ واستزادتِه منه تعالى فقيل :

(30/503)

﴿ وَقُلْ ﴾ أي في نفسك ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ أي سل الله عز وجل زيادةَ العلمِ فإنه الموصلُ إلى طِلْبتك دون الاستعجالِ ، وقيل : إنه نُهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتيَ

بيانُه وليس بذاك ، فإن تبليغَ المُجملِ وتلاوتَه قبل البيان مما لا ريب في صحته ومشروعيّتِه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(31/503)

وقال الآلوسى :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَىّ القيوم ﴾

أي ذلت وخضعت خضوع العناة أي الأسارى ، والمراد بالوجوه إما الذوات وإما الأعضاء المعلومة وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة وآثار الذل أول ما تظهر فيها ، وأل فيها للعهد أو عوض عن المضاف إليه أي وجوه المجرمين فتكون الآية نظير قوله تعالى : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الملك : 27] واختار ذلك الزمخشري وجعل قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ اعتراضاً ووضع الموصول موضع ضميرهم ليكون أبلغ ، وقيل : الوجوه الإشراف أي عظماء الكفرة لأن المقام مقام الهيبة ولصوق الذلة بهم أولى والظلم الشرك وجملة ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ الخ حال والرابط الواو لا معترضة لأنها في مقابلة ﴿ وهو مؤمن ﴾ [طه : 112] فيما بعد انتهى .

قال صاحب الكشف : الظاهر مع الزمخشري والتقابل المعنوي كاف فإن الاعتراض لا

يتقاعد عن الحال انتهى .

وأنت تعلم أن تفسير الظلم بالشرك مما لا يختص بتفسير الوجوه بالإشراف وجعل الجملة حالاً بل يكون على الوجه الأول أيضاً بناءً على أن المراد بالمجرمين الكفار ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ الخ خسر من أشرك بالله تعالى ولم يتب ، وقال غير واحد : الظاهر أن أل للاستغراق أي خضعت واستسلمت جميع الوجوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ الخ يحتمل الاستئناف والحالية ، والمراد بالموصول إما المشركون وإما ما يعمهم وغيرهم من العصاة وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم فخيبة المشرك دائمة وخيبة المؤمن العاصي مقيدة بوقت العقوبة إن عوقب .

وقد تقدم لك معنى الحي القيوم في آية الكرسي .

والظاهر أن قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾

قسيم لقوله سبحانه : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ [طه : 111] إلى آخر ما تقدم ولقوله عز وجل : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ [طه : 111] على هذا كما صرح به ابن عطية .

وغيره أي ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي بما يجب الإيمان به .

والجملة في موضع الحال والتقييد بذلك لأن الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الحسنات ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ﴾ أي منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ ولا منع بعض منه تقول العرب هضمت حقي أي نقصت منه ومنه هضيم الكشحين أي ضامرهما وهضم الطعام تلاشى في المعدة .

روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة أن المعنى فلا يخاف أن يظلم فيزاد في سيآته ولا أن يهضم فينقص من حسناته .

والأول مروى عن ابن زيد ، وقيل الكلام على حذف مضاف أي فلا يخاف جزاء ظلم وهضم إذ لم يصدر عنه ظلم ، ولا هضم حق أحد حتى يخاف ذلك أو أنه أريد من الظلم والهضم جزاؤهما مجازاً ، ولعل المراد على ما قيل نفي الخوف عنه من ذلك من حيث إيمانه وعمله بعض الصالحات ويتضمن ذلك نفى أن يكون العمل الصالح مع الإيمان ظلماً أو هضماً .

وقيل : المراد أن من يعمل ذلك وهو مؤمن هذا شأنه لصون الله تعالى إياه عن الظلم أو الهضم

ولأنه لا يعتد بالعمل الصالح معه .

فلا يرد ما قيل أنه لا يلزم من الإيمان وبعض العمل أن لا يظلم غيره ويهضم حقه ولا يخفى عليك أن القول بحذف المضاف والتجوز في هذه الآية في غاية البعد وما قيل من الاعتراض قوي وما أجيب به كما ترى .

ثم إن ظاهر كلام الجوهري أنه لا فرق بين الظلم والهضم ، وظاهر الآية قاض بالفرق وكذا قول المتوكل الليثي :

إن الأذلة واللئام لمعشر . . .

مولاهم المتهضم المظلوم

وممن صرح به الماوردي حيث قال الفرق بينهما أن الظلم منع الحق كله والهضم منع بعضه .

وقرأ ابن كثير .

وابن محيصن .

وحميد ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ ﴾ على النهي .

قال الطيبي قراءة الجمهور توافق قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ [طه : 111] الخ من حيث الأخبار وأبلغ من القراءة الأخرى من حيث الاستمرار والأخرى أبلغ من حيث أنها لا تقبل التردد في الإخبار .

﴿ وكذلك ﴾ عطف على ﴿ كذلك نَقُصُّ ﴾ [طه : 99] والإشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أي مثل ذلك الإنزال ﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآن كله وهو تشبيه لإنزال الكل بإنزال الجزء والمراد أنه على نمط واحد ، وإضماره من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق الآدميين نازلاً من رب العالمين ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ أي كرر نافيه بعض الوعيد أو بعضاً من الوعيد ، والجملة عطف على جملة ﴿ أنزلناه ﴾ وجعلها حالاً قيد للإنزال خلاف الظاهر جداً .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ المفعول محذوف وتقدم الكلام في لعل ، والمراد لعلهم يتقون الكفر والمعاصي بالفعل ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ أي عظة واعتباراً مؤدياً في الآخرة إلى الاتقاء ، وكأنه لما كانت التقوى هي المطلوبة بالذات منهم أسند فعلها إليهم ولما لم يكن الذكر كذلك غير الأسلوب إلى ما سمعت كذا قيل ، وقيل : المراد بالتقوى ملكتها ، وأسندت إليهم لأنها ملكة نفسانية تناسب الإسناد لمن قامت به ، وبالذكر العظة الحاصلة من استماع القرآن المثبطة عن المعاصي ، ولما كانت أمراً يتجدد بسبب استماعه ناسب الإسناد إليه ،

ووصفه بالحدوث المناسب لتجدد الألفاظ المسموعة ، ولا يخفى بعد تفسير التقوى بملكتها على أن في القلب من التعليل شيئاً .

(34/503)

وفي "البحر" أسند ترجي التقوى إليهم لأن التقوى عبارة عن انتفاء فعل القبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي ، وأسند ترجي أحداث الذكر للقرآن لأن ذلك أمر حدث بعد أن لم يكن انتهى ، وهو مأخوذ من كلام الإمام وفي قوله : لأن التقوى إلى آخره على إطلاقه منع ظاهر ، وفسر بعضهم التقوى بترك المعاصي والذكر بفعل الطاعات فإنه يطلق عليه مجاز لما بينهما من السببية والمسببية فكلمة أو على ما قيل للتنويع ، وفي الكلام إشارة إلى أن مدار الأمر التخلية والتحلية .

والإمام ذكر في الآية وجهين ، الأول : أن المعنى إنما أنزلنا القرآن ليصيروا محترزين عن فعل ما لا ينبغي أو يحدث لهم ذكراً يدعوهم إلى فعل ما ينبغي فالكلام مشير أيضاً إلى التخلية والتحلية إلا أنه ليس فيه ارتكاب المجاز ، والثاني : أن المعنى أنزلنا القرآن ليتقوا فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث لهم ذكراً وشرفاً وصيتاً حسناً ، ولا يخفى أن هذا ليس بشيء ، وقال الطيبي : إن المعنى وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً أي فصيحاً ناطقاً بالحق

ساطعاً بيناته لعلهم يحدث لهم التأمل والتفكر في آياته وبيناته الوافية الشافية فيذعنون ويطيعون وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون العذاب ، ففي الآية لف من غير ترتيب وهي على وزان قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : 44] وعندي كون الآية متضمنة للتخلية والتحلية لا يخلو عن حسن فتأمل .

وقرأ الحسن ﴿ أَوْ يُحْدِثْ ﴾ بسكون الثاء ، وقرأ عبد الله .

ومجاهد .

وأبو حيوة .

والحسن في رواية .

والجحدري .

وسلام ﴿ أَوْ ﴾ بالنون وسكون الثاء وذلك حمل وصل على وقف أو تسكين حرف الإعراب استثالاً لحركته كما قال ابن جني نحو قول امرئ القيس :

اليوم أشرب غير مستحقب . . .

إثماً من الله ولا واغل

وقول جرير :

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم . . .

ونهر تيري ولا يعرفكم العرب

﴿ فتعالى الله ﴾ استعظام له تعالى ولما صرف في القرآن من الوعد والوعيد والأوامر والنواهي وغير ذلك وتنزيه لذاته المتعالية أن لا يكون إنزال قرآنه الكريم منتهياً إلى غاية الكمالية من تسببه لترك من أنزل عليهم المعاصي ، ولفعلهم الطاعات وفيه تعجيب واستدعاء للإقبال عليه وعلى تعظيمه ، وفي وصفه تعالى بقوله سبحانه ﴿ الملك ﴾ أي المتصرف بالأمر والنهي الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده ما يدل على أن قوارع القرآن سياسات إلهية يتضمن صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا مخذول هالك ، وقوله تعالى : ﴿ الحق ﴾ صفة بعد صفة لله تعالى أي الثابت في ذاته وصفاته عز وجل ، وفسره الراغب بموجد الشيء على ما تقتضيه الحكمة .

وجوز غير واحد كونه صفة للملك ومعناه خلاف الباطل أي الحق في ملكيته يستحقها سبحانه لذاته ، وفيه إيماء إلى أن القرآن وما تضمنه من الوعد والوعيد حق كله لا يحوم حول حماه الباطل بوجه وأن المحق من أقبل عليه بشراشره وأن المبطل من أعرض عن تدبر زواجره ، وفيه تمهيد لوصل النهي عن العجلة به في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان

مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ ﴾ أي يتم ﴿ وَحْيُهُ ﴾ أي تبليغ جبريل عليه السلام إياه فإن من حق الإقبال ذلك وكذلك من حق تعظيمه .

(36/503)

وذكر الطيبي أن هذه الجملة عطف على قوله تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ لما فيه من إنشاء التعجب فكأنه قيل حيث نبهت على عظمة جلالة المنزل وأرشدت إلى فخامة المنزل فعظم جنابه الملك الحق المتصرف في الملك والملكوت ، وأقبل بكلك على تحفظ كتابه وتحقق مبانيه ولا تعجل به ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليه جبريل عليه السلام القرآن يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة خوفاً أن يصعد عليه السلام ولم يحفظه صلى الله عليه وسلم فنهى عليه الصلاة والسلام عن ذلك إذ ربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها ، ونزل عليه أيضاً : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] الآية ، وأمر صلى الله عليه وسلم باستفاضة العلم واستزادته منه سبحانه فقيل : ﴿ وَقُلْ ﴾ أي في نفسك ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ أي سل الله عز وجل بدل الاستعجال زيادة العلم مطلقاً أو في القرآن فإن تحت كل كلمة بل كل حرف منه أسراراً ورموزاً وعلوماً جمة وذلك هو الأنفع لك ، وقيل : وجملة ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ ﴾ مستأنفة ذكرت بعد الإنزال على سبيل

الاستطراد ، وقيل : إن ذلك نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه وليس بذاك ، فإن تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لا ريب في صحته ومشروعيته .

ومثله ما قيل : إنه نهى عن الأمر بكتابته قبل أن تفسر له المعاني وتتقرر عنده عليه الصلاة والسلام بل هو دونه بكثير ، وقيل : إنه نهى عن الحكم بما من شأنه أن ينزل فيه قرآن بناءً على ما أخرج جماعة عن الحسن أن امرأة شكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن زوجها لطمها فقال لها : بينكما القصاص فنزلت هذه الآية فوقف صلى الله عليه وسلم حتى نزل : ﴿ الرجال قَوَّٰمُونَ عَلَى النساء ﴾ [النساء : 34] ، وقال الماوردي : إنه نهى عن العجلة بطلب نزوله .

(37/503)

وذلك أن أهل مكة وأسقف نجران قالوا : يا محمد أخبرنا عن كذا وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بين اليهود وزعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد غلب فشق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم واستعجل الوحي فنزلت : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ ﴾ الخ وفي كلا القولين ما لا يخفى .

وقرأ عبد الله .

والجحدري .

والحسن .

وأبو حيوة .

وسلام .

ويعقوب .

والزعفراني .

وابن مقسم ﴿ نقضي ﴾ بنون العظمة مفتوح الياء ﴿ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ بالنصب .

وقرأ الأعمش كذلك إلا أنه سكن الياء من ﴿ نقضي ﴾ ، قال صاحب اللوامح : وذلك على لغة من لا يرى فتح الياء بحال إذا انكسر ما قبلها وحلت طرفاً ، واستدل بالآية على فضل العلم حيث أمر صلى الله عليه وسلم بطلب زيادته ، وذكر بعضهم أنه ما أمر عليه الصلاة والسلام بطلب الزيادة في شيء إلا العلم .

وأخرج الترمذي : وابن ماجه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال " .

وأخرج سعيد بن منصور .

وعبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يدعو ﴿ اللهم زِدْنِى إيمانا شَىْء رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾

وما هذا إلا لزيادة فضل العلم وفضله أظهر من أن يذكر ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الزيادة فيه ويوفقنا للعمل بما يقتضيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(38/503)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) ﴾

الظرف وهو : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ متعلق بمقدّر هو اذكر .

وقيل : هو بدل من يوم القيامة ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ ينفخ ﴾ بضم الياء التحتية مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بالنون مبنياً للفاعل ، واستدلّ أبو عمرو على قراءته هذه بقوله : ﴿ ونحشر ﴾ فإنه بالنون ، وقرأ ابن هرمز : "ينفخ" بالتحتية مبنياً للفاعل على أن الفاعل هو الله سبحانه أو إسرافيل ، وقرأ أبو عياض : "في الصور" بفتح الواو جمع صورة ، وقرأ الباقون بسكون الواو .

وقرأ طلحة بن مصرف والحسن : "يُحْشَرُ" بالياء التحتية مبنياً للمفعول ورفع ﴿ المجرمين ﴾ وهو خلاف رسم المصحف ، وقرأ الباقون بالنون .

وقد سبق تفسير هذا في الأنعام.

والمراد بالمجرمين: المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم، والمراد ب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾: يوم النفخ في الصور.

وانتصاب ﴿ زرقاً ﴾ على الحال من المجرمين، أي زرق العيون، والزرقة الخضرة في العين كعين السنور والعرب تتشاءم بزرقة العين، وقال الفراء: ﴿ زرقاً ﴾ أي عميا.

وقال الأزهري: عطاشاً، وهو قول الزجاج، لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقة.

وقيل: إنه كني بقوله: ﴿ زرقاً ﴾ عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة.

وقيل: هو كناية عن شخوص البصر من شدّة الخوف، ومنه قول الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا بن معكبر... كما كل ضبي من اللؤم أزرق

والقول الأوّل أولى، والجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ [الإسراء: 97].

(39/503)

ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم، وجملة ﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في

ذلك اليوم ، والخفت في اللغة السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته : خفته .

والمعنى يتسارون ، أي يقول بعضهم لبعض سرّاً : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً ﴾ أي ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليالٍ .

وقيل : في القبور .

وقيل : بين النفختين ، والمعنى : أنهم يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا ، أو في القبور ، أو بين النفختين لشدّة ما يرون من أهوال القيامة .

وقيل : المراد بالعشر : عشر ساعات .

ثم لما قالوا هذا القول قال الله سبحانه : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي أعدلهم قولاً وأكملهم رأياً وأعلمهم عند نفسه : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ أي ما لبثتم إلا يوماً واحداً ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ؛ لكونه أدلّ على شدّة الهول ، لا لكونه أقرب إلى الصدق .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ أي عن حال الجبال يوم القيامة ، وقد كانوا سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ قال ابن الأعرابي وغيره : يقلعها قلعاً من أصولها ، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ، ثم كالهباء المنثور .

والفاء في قوله : ﴿ فَقُلْ ﴾ جواب شرط مقدّر ، والتقدير : إن سألوك فقل ، أو للمسارعة

إلى إلزام السائلين .

والضمير في قوله : ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها ، أي فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ قال ابن الأعرابي : القاع الصفصف : الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء ، وقال الفراء : القاع : مستنقع الماء ، والصفصف : القرعاء الملساء التي لا نبات فيها .

(40/503)

وقال الجوهري : القاع : المستوي من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان .

والظاهر من لغة العرب أن القاع : الموضع المنكشف ، والصفصف : المستويّ الأملس ، وأنشد سيبويه :

وكم دون بيتك من صفصف . . . ودكداك رمل وأعقادها

وانتصاب : ﴿ قاعاً ﴾ على أنه مفعول ثانٍ ليذر على تضمينه معنى التصيير ، أو على الحال والصفصف صفة له .

ومحل : ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ﴾ النصب على أنه صفة ثانية ل ﴿ قاعاً ﴾ ، والضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار .

والعوج بكسر العين : التعوّج ، قاله ابن الأعرابي .

والأمت : التلال الصغار .

والأمت في اللغة : المكان المرتفع .

وقيل : العوج : الميل ، والأمت : الأثر مثل الشراك .

وقيل : العوج : الوادي ، والأمت : الرابية .

وقيل : هما الارتفاع .

وقيل : العوج : الصدوع ، والأمت : الأكمة .

وقيل : الأمت : الشقوق في الأرض .

وقيل : الأمت : أن يغلظ في مكان ويدق في مكان .

ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ها هنا يدفع ما يقال : إن العوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الأعيان ، وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف في هذا الموضع بما عنه غني ، وفي غيره سعة .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أي يوم نسف الجبال يتبع الناس داعي الله إلى المحشر .

وقال الفراء : يعني صوت الحشر ، وقيل : الداعي هو إسرافيل إذا نفخ في الصور لا عوج له ، أي لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه ، أو ينحرفوا منه بل يسرعون إليه

كذا قال أكثر المفسرين .

وقيل لا عوج لدعائه ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن ﴾ أي خضعت لهيبته ، وقيل :

ذلت .

وقيل : سكتت ، ومنه قول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ الهمس : الصوت الخفي .

قال أكثر المفسرين : هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ، ومنه قول الشاعر :

وهنّ يمشين بنا هميسا . . . يعني صوت أخفاف الإبل .

وقال رؤبة يصف نفسه :

ليث يدق الأسد الهموسا . . . ولا يهاب الفيل والجاموسا

يقال للأسد : الهموس ؛ لأنه يهمس في الظلمة ، أي يطأ وطئاً خفياً .

والظاهر أن المراد هنا : كل صوت خفيّ سواء كان بالقدم ، أو من الفم ، أو غير ذلك ،

ويؤيده قراءة أبيّ بن كعب : " فلا ينطقون إلا همساً " .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشفاعة ﴾ أي يوم يقع ما ذكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائناً من كان ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ أي إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له ﴿ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي : رضي قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع .

والمعنى : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، وكان له قول يرضى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] ، وقوله : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 87] ، وقوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي ما بين أيديهم من أمر الساعة ، وما خلفهم من أمر الدنيا ، والمراد هنا : جميع الخلق .

وقيل : المراد بهم : الذين يتبعون الداعي ، وقال ابن جرير : الضمير يرجع إلى الملائكة ، أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ أي بالله سبحانه ، لا تحيط علومهم بذاته ، ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته .

وقيل : الضمير راجع إلى ما في الموضعين فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيّ القيوم ﴾ أي ذلت وخضعت ، قاله ابن الأعرابي .

قال الزجاج : معنى عنت في اللغة : خضعت ، يقال : عنى يعنو عنواً إذا خضع ، ومنه قيل للأسير : عان ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن . . . لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقيل : هو من العناء ، بمعنى التعب ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ أي خسر من حمل شيئاً من الظلم .

(42/503)

وقيل : هو الشرك .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ أي الأعمال الصالحة ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ؛ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان ، بل هو شرط في القبول ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ﴾ يصاب به من نقص ثواب في الآخرة ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ الهضم : النقص والكسر ، يقال : هضمت لك من حقي ، أي حططته وتركته .

وهذا يهضم الطعام ، أي : ينقص ثقله .

وامرأة هضيم الكشح ، أي ضامرة البطن .

وقرأ ابن كثير ومجاهد : "لا يخف" بالجزم جواباً لقوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾

وقرأ الباقون : ﴿ يخاف ﴾ على الخبر .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلاً أتاه ، فقال : رأيت قوله : ﴿ وَنَحْشُرُ

المجرمين يَوْمِئذٍ زرْقاً ﴾ وأخرى عمياً قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقاً ، وفي حال عمياً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ ﴾ قال: يتساررون.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ قال: أوفاهم عقلاً ، وفي لفظ قال: أعلمهم في نفسه .

وأخرج ابن المنذر وابن جريج قال: قالت قريش: كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴾ قال: لا نبات فيه ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجا ﴾ قال: وادياً ﴿ وَلا أَمْتاً ﴾ قال: رابية.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله: ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ قال: كان ابن عباس يقول: هي الأرض الملساء التي ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ عِوَجَا ﴾ قال: ميلاً ﴿ وَلا أَمْتاً ﴾ قال: الأمت : الأثر مثل الشراك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : يحشر الناس يوم القيامة في ظلمة تطوي السماء وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادي منادٍ فيتبع الناس الصوت يؤمونه .

فذلك قول الله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في الآية : قال لا عوج عنه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات ﴾ قال : سكتت ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ قال : الصوت الخفيّ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ إِلاَّ هَمْساً ﴾ قال : صوت وطء الأقدام .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الصوت الخفيّ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : سر الحديث وصوت الأقدام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ قال : ذلت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : خشعت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : خضعت .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ : الركوع والسجود .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ قال : شركاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ قال : شركاً ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ قال : ظلماً أن يزاد في سيئاته ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ قال : ينقص من حسناته .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : لا يخاف أن يظلم في سيئاته ، ولا يهضم في حسناته .

وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم عنه ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ قال : غصباً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(44/503)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾

قوله : ﴿ عَنَتِ ﴾ أي ذلت وخضعت . تقول العرب : عنا يعنو عنواً وعناء : إذ ذلك وخضع ، وخشع . ومنه قيل للأسير عان . لذله وخضوعه لمن أسره . ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

مليك على عرش السماء مهيمن . . . لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقوله أيضاً :

وعنا له وجهي وخلقي كله . . . في الساجدين لوجهه مشكوراً

واعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية الكريمة ، فقال بعضهم : المراد بالوجوه التي ذلت وخشعت للحي القيوم : وجوه العصا خاصة وذلك يوم القيامة : وأسند الذل والخشوع لوجوههم ، لأن الوجه تظهر فيه آثار الذل والخشوع . ومما يدل على هذا المعنى من الآيات القرآنية قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الملك : 27] الآية ، وقوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة : 24-25] ، وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ [الغاشية : 2-4] ، وعلى هذا القول انتصر الزمخشري واستدل له ببعض الآيات المذكورة .

وقال بعض العلماء ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ : أي ذلت وخضعت وجوه المؤمنين لله في دار الدنيا ، وذلك بالسجود والركوع . وظاهر القرآن يدل على أن المراد الذل والخضوع لله يوم

القيامة، لأن السياق في يوم القيامة، وكل الخلائق تظهر عليهم في ذلك اليوم علامات الذل والخضوع لله جل وعلا.

(45/503)

وقوله في هذه الآية: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ قال بعض العلماء: أي خسر من حمل شركاً. وتدل لهذا القول الآيات القرآنية الدالة على تسمية الشرك ظلماً. كقوله: ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13]، وقوله: ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة: 254]، وقوله: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ [يونس: 106]، وقوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ يعم الشرك وغيره من المعاصي. وخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من الظلم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ لِلْحَيِّ القيوم ﴾ الحي: المتصف بالحياة الذي لا يموت أبداً. والقيوم صيغة مبالغة. لأنه جل وعلا هو القائم بتدبير شؤون جميع الخلق. وهو القائم على كل نفس بما كسبت. وقيل: القيوم الدائم الذي لا يزول.

(46/503)

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن بربه فإنه لا يخاف ظلماً ولا هضماً. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء: 40]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: 44]، وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف: 49] إلى غير ذلك من الآيات، كما قدمنا ذلك.

وفرق بعض أهل العلم بين الظلم والهضم: بأن الظلم المنع من الحق كله. والهضم: النقص والمنع من بعض الحق. فكل هضم ظلم، ولا ينعكس. ومن إطلاق الهضم على ما ذكر قول المتوكل الليثي:

إن الأذلة واللئام لمعشر . . . مولاهم المتهضم المظلوم

فالمتهضم: اسم مفعول تهضمه إذا اهتضمه في بعض حقوقه وظلمه فيها. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ بضم الفاء وبألف بعد الخاء مرفوعاً ولا نافية. أي فهو لا يخاف، أو فإنه لا يخاف. وقرأ ابن كثير «فلا يخف» بالجزم من غير ألف بعد الخاء. وعليه ف «لا» ناهية جازمة المضارع. وقول القرطبي في تفسيره: إنه على

قراءة ابن كثير مجزوم. لأنه جواب لقوله ﴿ وَمَن يَعْمَلْ ﴾ غلط منه رحمه الله. لأن الفاء في قوله ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ مانعة من ذلك. والتحقيق هو ما ذكرنا من أن «لا» ناهية على قراءة ابن كثير، والجملة الطلبية جزاء الشرط، فيلزم اقترانها بالفاء. لأنها لا تصلح فعلاً للشرط كما قدماه مرارا.

(47/503)

وقوله تعالى: ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة «الكهف» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

(48/503)

قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾.

كان النّبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه على حفظ القرآن. فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي. فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى

ينتهي ، ثم يقرؤه هو بعد ذلك ، فإن الله ييسر له حفظه . وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع . كقوله في « القيامة » : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 16-19] وقال البخاري في صحيحه : حدثنا موسى بن إسماعيل قال : حدثنا أبو عوانة قال : حدثنا موسى بن أبي عائشة قال : حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان رسول الله صلى الله لعيه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما . وقال سعيد : أنا أحركمهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه . فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال : جمعه لك في صدرك ، وتقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ قال : فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ثم علينا أن تقرأه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع . فإذا انطلق جبريل قرأه النَّبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(49/503)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ وعَنَتِ الوجوهُ لِلحَيِّ القَيُّوم ﴾

معطوفة على جملة ﴿ وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمن ﴾ ، أي ظهر الخضوع في الأصوات والعناء في الوجوه .

والعناء : الذلة ، وأصله الأسر ، والعاني : الأسير .

ولما كان الأسير ترهقه ذلة في وجهه أسند العناء إلى الوجوه على سبيل المجاز العقلي ، والجملة كلها تمثيل لحال المجرمين الذين الكلام عليهم من قوله ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ رزْقاً ﴾ [طه : 102] ، فاللاّم في ﴿ الوجوه عوض عن المضاف إليه ، أي وجوههم ، كقوله تعالى : ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ [النازعات : 39] أي لهم .

وأما وجوه أهل الطاعات فهي وجوه يومئذ ضاحكة مستبشرة .

ويجوز أن يجعل التعريف في ﴿ الوجوه على العموم ، ويراد بعنت خضعت ، أي خضع جميع الناس إجلالاً لله تعالى .

والحيُّ : الذي ثبت له وصف الحياة ، وهي كيفية حاصلة لأرقَى الموجودات ، وهي قوّة للموجود بها بقاء ذاته وحصول إدراكه أبداً أوْ إلى أمد مّا .

والحياة الحقيقية هي حياة الله تعالى لأنّها ذاتية غير مسبوقة بضدها ولا منتهية .

والقيوم : القائم بتدبير النّاس ، مبالغة في القَيّم ، أي الذي لا يفوته تدْبير شيء من الأمور .

وتقدم ﴿ الحي القيوم ﴾ في سورة البقرة (255) .

وجملة وقد خَابَ من حَمَلَ ظُلْماً ﴾ ؛ إما معترضة في آخر الكلام تفيد التعليل إن جُعل التعريف في ﴿ الوجوه عوضاً عن المضاف إليه ، أي وجوه المجرمين .

والمعنى : إذ قد خاب كلّ من حمل ظلماً ؛ وإما احتراس لبيان اختلاف عاقبة عناء الوجوه ، فمن حمل ظلماً فقد خاب يومئذ واستمر عناؤه ، ومن عمل صالحاً عاد عليه ذلك الخوف بالأمن والفرح .

والظلم : ظلم النفس .

وجملة ومَن يعمل من الصالحات وهو مؤمنٌ ﴾ الخ : شرطية مفيدة قسيم مضمون جملة ﴿ وقَدْ خَابَ من حَمَلَ ظُلماً ﴾ .

(50/503)

وصيغ هذا القسيم في صيغة الشرط تحقيقاً للوعد ، و ﴿ فلا يخاف جواب الشرط ، واقترانه بالفاء علامة على أن الجملة غير صالحة لموالاة أداة الشرط ، فتعين ؛ إما أن تكون (لا) التي فيها ناهية ، وإما أن يكون الكلام على نيّة الاستئناف .

والتقدير : فهو لا يخاف .

وقرأ الجمهور فلا يخاف بصيغة المرفوع بإثبات ألف بعد الخاء ، على أن الجملة استئناف غير مقصود بها الجزاء ، كأن انتفاء خوفه أمر مقرر لأنه مؤمن ويعمل الصالحات .

وقرأه ابن كثير بصيغة الجزم بحذف الألف بعد الخاء ، على أن الكلام نهي مستعمل في الانتفاء .

وكتبت في المصحف بدون ألف فاحتملت القراءتين .

وأشار الطيبي إلى أن الجمهور توافق قوله تعالى : وقد خاب من حمل ظلماً في أن كلتا الجملتين خبرية .

وقراءة ابن كثير تفيد عدم التردد في حصول أمنه من الظلم والهضم ، أي في قراءة الجمهور خصوصية لفظية وفي قراءة ابن كثير خصوصية معنوية .

ومعنى لا يخاف ظلماً ﴾ لا يخاف جزاء الظالمين لأنه آمن منه بإيمانه وعمله الصالحات .

والهضم : النقص ، أي لا ينقصون من جزائهم الذي وُعدوا به شيئاً كقوله ﴿ وإنّا لموفّوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ [هود : 109] .

ويجوز أن يكون الظلم بمعنى النقص الشديد كما في قوله ﴿ ولم تَظْلم منه شيئاً ﴾ [الكهف : 33] ، أي لا يخاف إحباط عمله ، وعليه يكون الهضم بمعنى النقص الخفيف ، وعطفه على الظلم على هذا التفسير احتراس .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

عطف على جملة ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ [طه : 99] ، والغرض واحد ، وهو التنويه بالقرآن .

فابتدىء بالتنويه به جزئيا ً بالتنويه بقصصه ، ثمّ عطف عليه التنويه به كليّا ً على طريقة تشبه التذييل لما في قوله ﴿ أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ من معنى عموم ما فيه .

(51/503)

والإشارة بـ ﴿ كذلك ﴾ نحوُ الإشارة في قوله ﴿ كذلك نقص عليك ﴾ ، أي كما سمعته لا يُبين بأوضح من ذلك .

و﴿ قرآناً ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ أنزلناه ﴾ .

وقرآن تسمية بالمصدر .

والمراد المقروء ، أي المتلو ، وصار القرآن علماً ً بالغلبة على الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بألفاظ معينة متعبّدا ً بتلاوتها يعجز الإتيان بمثل سورة منها .

وسمي قرآناً ً لأنه نظم على أسلوب تسهل تلاوته .

ولوحظ هنا المعنى الاشتقاقي قبل الغلبة وهو ما تفيده مادة قرأ من يسر تلاوته ؛ وما ذلك إلاّ لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه .

والتنكير يفيد الكمال ، أي أكمل ما يقرأ .

و﴿ عربياً ﴾ صفة ﴿ قرآناً ﴾ .

وهذا وصف يفيد المدح ، لأنّ اللغة العربية أبلغ اللّغات وأحسنها فصاحة وانسجاماً .

وفيه تعريض بالامتنان على العرب ، وتحميق للمشركين منهم حيث أعرضوا عنه وكذبوا به ، قال تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ [الأنبياء : 10] .

والتصريف : التنويع والتفنين .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ في سورة الأنعام (46) ، وقوله ﴿ ولقد صرفنا ﴾ في هذا القرآن ليذكروا في سورة الإسراء (41) .

٧

وذكر الوعيد هنا للتهديد ، ولمناسبة قوله قبله ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ [طه : 111] .

والتقوى : الخوف .

وهي تستعمل كناية عن الطاعة لله ، أي فَعَلْنا ذلك رجاء أن يؤمنوا ويطيعوا .

والذكر هنا بمعنى التذكر ، أي يُحدث لهم القرآن تذكراً ونظراً فيما يحق عليهم أن يختاروه لأنفسهم .

وعبر بـ ﴿ يحدث ﴾ إيماء إلى أن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن ، فالقرآن أوجد فيهم ذكراً لم يكن من قبل ، قال ذو الرمة:

ولما جرت في الجزل جرياً كأنه . . .

سنا الفجر أحدثنا لخالقها شُكراً

و(لعل) للرجاء ، أي إن حال القرآن أن يقرّب الناس من التقوى والتذكر ، بحيث يمثّل شأن من أنزله وأمر بما فيه بحال من يرجو فيلفظ بالحرف الموضوع لإنشاء الرجاء .

(52/503)

فحرف (لعل) استعارة تبعية تنبىء عن تمثيلية مكنية ، وقد مضى معنى (لعل) في القرآن عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ في سورة البقرة (21) .

وجملة فتعالى الله الملك الحق ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ وبين جملة ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ .

وهذا إنشاء ثناء على الله منزل القرآن وعلى منة هذا القرآن ، وتلقين لشكره على ما بيّن لعباده من وسائل الإصلاح وحملهم عليه بالترغيب والترهيب وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام

وأحسن أسلوب فهو مفرع على ما تقدم من قوله ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ إلى آخرها . . .

والتفريع مؤذن بأن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كلّ ذلك ناشىء عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة .

وفي وصفه بالحق إيماء إلى أن مُلك غيره من المتَسَمّين بالملوك لا يخلو من نقص كما قال تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمان ﴾ [الفرقان : 26] .

وفي الحديث : " فيقول الله أنا الملِكُ أينَ ملوك الأرض " ، أي أحضروهم هل تجدون منهم من ينازع في ذلك ، كقول الخليفة معاوية حين خطب في المدينة "يا أهل المدينة أين علماؤكم" .

والجمع بين اسم الجلالة واسمه (المَلِك) إشارة إلى أن إعظامه وإجلاله مستحَقّان لذاته بالاسم الجامع لصفات الكمال ، وهو الدال على انحصار الإلهيّة وكمالها .

ثمّ أتبع بـ (الحق) للإشارة إلى أن تصرفاته واضحة الدلالة على أن ملكه ملك حق لا تصرف فيه إلاّ بما هو مقتضَى الحكمة .

والحق : الذي ليس في ملكه شائبة عجز ولا خضوع لغيره ، وفيه تعريض بأن ملك غيره زائف .

وفي تفريع ذلك على إنزال القرآن إشارة أيضاً إلى أن القرآن قانون ذلك الملك ، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعيه في الدنيا والآخرة .

(53/503)

وجملة ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ ناشئة على ما تقدم من التنويه بالقرآن وما اشتمل عليه من تصاريف إصلاح الناس .

فلمّا كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على صلاح الأمّة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عَقِب سماع تلك الآيات رغبةٌ أو طِلْبة في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعاً بِعظة الناس وصلاحهم ، فعلمه الله أن يكِل الأمر إليه فإنه أعلم بحيث يناسب حال الأمة العامَّ .

ومعنى ﴿ من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ أي من قبل أن يتم وحي ما قضي وحيه إليك ، أي ما نُفذ إنزاله فإنه هو المناسب .

فالمنهي عنه هو سؤال التعجيل أو الرغبة الشديدة في النفس التي تشبه الاستبطاء لا مطلق مودة الازدياد ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن قصة موسى مع الخضر عليهما السلام " ودَدنا أن موسى صبَر حتى يقص الله علينا من أمرهما أو من خبرهما "

ويجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل آياته .

فعن ابن عبّاس : كان النبي يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل حرصاً على الحفظ وخشية من النسيان فأنزل الله ﴿ ولا تعجل بالقرآن الآية .

وهذا كما قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ لا تُحرّكْ به لسانك لتعجلَ به ﴾ [القيامة : 16] كما في "صحيح البخاري" .

وعلى هذين التأويلين يكون المراد بقضاء وحيه إتمامه وانتهاؤه ، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول .

وعن مجاهد وقتادة أن معناه : لا تعجل بقراءة ما أُنزل إليك لأصحابك ولا تمْلِه عليهم حتى تتبين لك معانيه .

وعلى هذا التأويل يكون قضاء الوحي تمام معانيه .

وعلى كلا التفسيرين يجري اعتبار موقع قوله ﴿ وقل رب زدني علماً .

وقرأ الجمهور يُقضى بتحتية في أوله مبنياً للنائب ، ورفع وحيُه على أنه نائب الفاعل .

وقرأه يعقوب بنون العظمة وكسر الضاد وبفتحة على آخر نقضي وبنصب وحيَه .

(54/503)

وعطف جملة ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ يشير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأن الباعث على الاستعجال محمود .

وفيه تلطف مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم ، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً ، إيماء إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بَكر حين دخل المسجد فوجد النبي راكعاً فلم يلبث أن يصل إلى الصف بل ركع ودَبّ إلى الصف راكعاً فقال له : "زادك الله حرصاً ولا تَعُدْ" .

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(55/503)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾

الوجه أشرف وأكرم شيء في تكوين الإنسان ، وهو الذي يُعطِي الشخص سِمَته المميزة ؛ لذلك يحميه الإنسان ويحفظه ، ألاَ ترى لو أصاب وجهك غُبَار أو تراب أو طين مثلاً تمسحه بيدك ، لم تزِدْ على أنك جعلْتَ ما في وجهك في يدك لماذا ؟ لأنه أشرف شيء فيك .

لذلك ، كان السجود لله تعالى في الصلاة علامة الخضوع والخشوع والذِّلة والانكسار له عز وجل ، ورضيتَ أن تضع أشرف جزءٍ فيك على الأرض وتباشر به التراب ، والإنسان لا يعنُو بوجهه إلا لمَنْ يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يستحقّ هذا السجود ، وأن السجود له وحده يحميه من السجود لغيره ، كما قال الشاعر :

والسُّجُودُ الذِي تَجْتَوِيه . . . مِن أُلُوفِ السُّجُودِ فيهِ نَجَاةُ

فاسْجُدْ لواحد يكْفك السجود لسواه ، واعمل لوجه واحد يكْفك كل الأوْجُه .

وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ [طه : 111] حمل : يعني أخذه عبئاً ثقيلاً عليه . والظلم في أصله أنْ تأخذ خيراً ليس لك لتنتفع به وتزيد ما عندك ، فأنت في الظاهر تزداد كما تظن ، إنما الحقيقة أنك تُحمِّل نفسك وِزْراً وحملاً ثقيلاً ، سوف تنوء به ، وازددْتَ إثماً لا خيراً .

والظلم مراتب ودرجات ، أدناها أنْ تأخذ ما ليس لك وإن كان حقيراً لا قيمة له ، أو تظلم غيرك بأنْ تتناوله في عِرْضه ، ثم ترقى الظلم إلى أنْ تصل به إلى القمة ، وهو الشرك بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

وهو عظيم ؛ لأنك أخذتَ حقّاً لله تعالى ، وأعطيته لغيره .

إذن : فحاول أن تَسْلَم من هذه الآفة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾

(56/503)

الصالحات : هي الأعمال التي تعود بالخير عليك أو على غيرك ، وأضعفُ الإيمان في عمل الصالح أن تترك الصالح في ذاته على صلاحه فلا تفسده ، كأن تجد بئراً يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه . فإنْ رقيت العمل الصالح فيمكنك أن تزيد من صلاحه ، فتبنى حوله جداراً يحميه أو تجعل له غطاءً . . إلخ .

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه حينما حثَّنا على العمل الصالح قال : ﴿ مِنَ الصالحات ﴾ [طه : 112] ومن هنا للتبعيض ، فيكفي أنْ تفعل بعض الصالحات ؛ لأن طاقة الإنسان لا تسع كل الصالحات ولا تقوى عليها ، فحسْبُك أن تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كل هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنَتْ لنا الصلاح الكامل .

كما سبق أن ذكرنا أن ليس بوسع أحد منا أن يجمع الكمال المحمدي في أخلاقه ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " الخير فيَّ حقاً وفي أمتي إلى يوم القيامة " .

ففي كل فرد من أفراد الأمة خصلة من خصال الخير ، بحيث إذا تجمعت خصال الكمال في

الخلق أعطتنا الكمال المحمدي .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [طه : 112] لأن الإيمان شرط في قبول العمل الصالح ، فإنْ جاء العمل الصالح من غير المؤمن أخذ أجره في الدنيا ذِكْراً وشُهْرة وتخليداً لذكراه ، فقد عمل ليقال وقد قيل ، وانتهتْ المسألة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ [طه : 112] والظلم هنا غير الظلم في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ [طه : 111] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره ، إنما ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ [طه : 112] أي : ظُلْماً يقع عليه ، بألاَّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

(57/503)

﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ [طه : 112] الهَضْم يعني النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التي نأكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموي ، فتأخذ حيّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعني : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْي الظلم نَفْي للهضم ؟ نقول : لأنه مرة

يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾

(كَذَلِكَ) أي : كالإنزال الذي أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنْ فارق الرسالات أنهم بُعِثُوا لزمان محدود ، في مكان محدود ، وبُعثْتَ للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفهم من كلمة ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [طه : 113] أن المُنزَل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عالٍ ، وكأن الحق تبارك وتعالى يلفت أنظارنا ويُصعّد هممنا ، فيقول : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض ؛ لأنه يُقنّن للحاضر ويجهل المستقبل ، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حين ينادينا إلى منهجه العلوي يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ [الأنعام : 151] يعني : اعلوا وخُذوا منهجكم من أعلى ، لا من الأرض .

﴿ قُرْآناً ﴾ [طه : 113] يعني : مقروء ، كما قال ﴿ كِتَاباً ﴾ [الأنبياء : 10] يعني : مكتوب ، ليُحفظ في الصدور وفي السطور . وقال ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [طه : 113] مع أن النبي صلى الله عليه وسلم مُرْسَل إلى الناس كافة في امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه صلى الله عليه وسلم هو المباشر لهذه الأمة العربية التي ستستقبل أول دعوة له ، فلا بُدَّ أنْ تأتي المعجزة بلسانها ، كما أن معجزة القرآن ليستْ للعرب وحدهم ، إنما تحدٍّ للإنس والجن على امتداد الزمان المكان .

كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء : 88] .

فالقرآن تحدٍّ لكل الأجناس : الروسي ، والأمريكي ، والياباني ، والدنيا كلها ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لماذا والجن أيضاً داخل في مجال التحدي ؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يُمدُّه ويُوحِي إليه ؛ لذلك أدخل الجن أيضاً في هذا المجال .

وقد يقول قائل : وكيف نتحدّى بالقرآن غير العرب وهو بلسان عربي ، فهو حجة على العرب دون غيرهم ؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حيث أسلوبه العربي وأدائه البياني فقط ؟ لا ، فجوانب الإعجاز في القرآن كثيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات في التقنين لخير المجتمع ؟ ألم يأْتِ القرآن بمنهج في أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب ؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل

والبحث ؟

ثم الكونيات التي تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبيعي أن يأتي القرآن عربياً ؛ لأنه نزل على رسول عربي ، وفي أمة عربية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : 4] .

فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها في شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التي لا تعرف العربية ، أقنعوها بالمبادىء والمناهج التي جاء بها القرآن ؛ لأنها مبادىء ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

(59/503)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ [طه : 113] أي : حينما ينذر القرآن بشيء يُصرف هذا الإنذار على أوجه مختلفة ، ويُكرِّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .

يعني : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى في نفس أحد المستقبلين ، فخطابنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد في القرآن مَا يناسبه ؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامي ، فلا بُدَّ أنْ يكون في

القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .

وفي القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتي بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :

أَنَاةٌ فإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدها وَعِيداً . . . فإنْ لم يُغْنِ أغنتْ عزائمُهُ

وفي الأثر : " إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " .

والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد في سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 1921] فهذه نعم من الله .

أما قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 3536] فما النعمة في النار والشُّواظ ؟

النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ في فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك فسوف تفشل في الامتحان فيحتقرك زملائك ، ويحدث لك كيت وكيت ، فلم يترك ولده على غَفْلته وإهماله ، إلى أنْ يداهمه الامتحان ويُفاجئه الفشل ، أليستْ هذه نعمة ؟ أليستْ نصيحة مهمة ؟

والتصريف: يعني التحويل والتغيير بأساليب شتَّى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة عند نزول القرآن لعلها تصادف وَعْياً واهتماماً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه: 113].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [طه: 113] الاتقاء عادة يكون للشر والمعاصي المهلكة، أو يُحدِث لهم الذكْر والشرف والرفعة بفعل الخيرات، وهذا من ارتقاءات الطاعة.

ذلك لأن التكليف قسمان: قسم ينهاك عن معصية، وقسم يأمرك بطاعة، فينهاك عن شُرْب الخمر، ويأمرك بالصلاة، فهم يتقون الأول، ويُحدِث لهم ذِكْراً بوصيهم بعمل الثاني.

وما دام القرآن نازلاً من أعلى فلا بُدَّ أن يقول بعدها: ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾

﴿ تعالى ﴾ [طه: 114] تنزّه وارتفع عن كل ما يُشبه الحادث، تعالى ذاتاً، فليستْ هناك ذاتٌ كذاته، وتعالى صفاتاً فليست هناك صفة كصفته، فإنْ وُجدَتْ صفة في الخَلْق تشبه صفة في الخالق سبحانه، فخُذْها في ضوء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11].

فالحق سبحانه لا يضنُّ على عبده أنْ يُسميه خالقاً إنْ أوجد شيئاً من عدم، إنما لما تكلم عن خَلْقه سبحانه، قال: ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنين: 14].

فأنت خالق، لكن ربّك أحسنُ الخالقين، فأنت خلقتَ من موجود أمّا ربك عز وجل فقد

خلق من العدم، أنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالة واحدة، والله خلق خَلْقاً حياً نامياً، يُحسّ ويتحرك ويتكاثر، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى بصانع الأكواب الزجاجية من الرمال، وأوضحنا الفرق بين خَلْق وخَلْق.

وقوله تعالى: ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ [طه: 114] تلفتنا إلى ضرورة التطلع إلى أعلى في التشريع. فما الذي يُجبرك أنْ تأخذ تشريعاً من عبد مثلك؟ ولماذا يأخذ هو تشريعك؟ إذن: لا بُدَّ أن يكون المشرِّع أعلى من المشرَّع له.

(61/503)

ومن ألفاظ تنزيه الله التي لا تُقال إلا له سبحانه كلمة (سبحان الله) أسمعتَ بشراً يقولها لبشر؟ وهناك كفرة وملاحدة ومنكرون للألوهية ومعاندون، ومع ذلك لم يقُلْها أحد مَدْحاً في أحد.

كذلك كلمة (تعالى وتبارك) لا تُقال إلا لله، فنقول: (تباركت ربنا وتعاليت) أي: وحدك لا شريك لك.

فقوله: ﴿ فتعالى الله ﴾ [طه: 114] علا قَدْره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه، أمّا التعالي في البشر فيما بينهم فأمْر ممقوتٌ؛ أما تعالى الحق سبحانه فمن مصلحة الخلق،

وهذه اللفتة يُعَبِّر عنها أهل الريف ، يقولون (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) ؛ لأن الكبير هو الذي سيأخذ بيد الضعيف ويدكّ طغيان القوى ، فإذا لم يكُنْ لنا كبير نختلف ونضيع .

إذن : من مصلحة الكون كله أنْ يكونَ الله متعالياً ، والحق ليس متعالياً علينا ، بل متعالٍ من أجلنا ولصالحنا ، فأيُّ مُتعالٍ أو جبار من البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندكّ جبروته وتعاليه ، وأيّ ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد ، فيطمئن ويعيش آمناً وبذلك يحدث التوازن الاجتماعي بين الناس .

ونحن نحب عبوديتنا لله عز وجل ، وإنْ كانت العبودية كلمة بغيضة مكروهة حين تكون عبودية الخَلْق للخَلْق فيأخذ السيد خَيْر عبده ، إلا أن العبودية لله شرف وكرامة ؛ لأن العبد لله هو الذي يأخذ خَيْر سيده ، فأنا عبد لله وعبوديتي له لصالحي أنا ، ولن أزيد في مُلْكه شيئاً ، ولن ينتفع من ورائي بشيء ؛ لأنه سبحانه زوال مُلْكه وزوال سلطانه في الكون قبل أن يخلق الخَلْق ، فبقدرته وعظمته خلق ، وقبل أنْ توجد أنت أيها الإنسان الطاغي المتمرد أوجد لك الكون كله بما فيه .

فأنت بإيمانك لن تزيد شيئاً في مُلْك الله ، كما جاء في الحديث القدسي : "يا عبادي إنكم لن تملكوا نفعي فتنفعوني ، ولن تملكوا ضري فتضروني . . " فأنا إنْ تصرَّفتُ فيكم فلمصلحتكم ، لا يعود عليَّ من ذلك شيء .

وقوله تعالى : ﴿ الملك الحق ﴾ [طه : 114] لأن هناك ملوكاً كثيرين ، أثبتَ الله لهم المُلْك وسمَّاهم مُلُوكاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ [يوسف : 50]

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك ﴾ [البقرة : 258] .

إذن : في الدنيا ملوك ، لكنهم ليسوا مُلوكاً بحق ، الملك بحق هو الله ؛ لأن ملوك الدنيا ملوك في مُلْك موهوب لهم من الله ، فيمكن أن يفوت مُلْكه ، أو يفوته المُلْكُ ، وأيُّ مُلْك هذا الذي لا يملكه صاحبه ؟ أيّ مُلْك هذا الذي يُسلب منك بانقلاب أو بطلقة رصاص ؟

إذن : المِلك الحق هو الله ، وإن ملَّك بعض الخلق شئون بعض لمصلحتهم ، فهو سبحانه الذي يهب المُلْك ، وهو الذي ينزعه إن أراد : ﴿ تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

فالحق سبحانه له المُلْك الحق ، ويهَبُ من مُلْكه لمَنْ يشاء ، لكن يظل المَلِك وما مَلَكه في قبضة الله ؛ لأنه سبحانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرج أحد عن قيوميته .

وقد نسمع مَنْ يسبُّ الملوك والرؤساء ، ومَنْ يخوض في حقهم ، وهو لا يدري أن مُلْكهم من الله ، فهو سبحانه الذي ملّكهم وفوّضهم ، ولم يأخذ أحد منه مُلْكاً رَغْماً عن الله ، فلا تعترض على اختيار الله واحترم مَنْ فوّضه الله في أمرك ، واعلم أن في ذلك مصلحة البلاد والعباد ، ومَنْ يدريك لعلَّ الطاغية منهم يصبح غَداً واحداً من الرعية .

إذن : الحق سبحانه ملَّك بعض الناس أمْر بعض : هذا يتصرف في هذا ، وهذا يملك هذا لتسيير حركة الكون ، فإذا كانت القيامة ، قال عز وجل : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] هذا هو المُلْك الحق .

(63/503)

ومن عظمته في التعالى أنه يريحك هو سبحانه بعمله لك ، فيقول لك : نَمْ مِلْءَ جفونك ، فأنا لا تأخذني سِنَة ولا نوم ، نَمْ فلك رب قيوم قائم على أمرك يرعاك ويحرسك .

ومن معاني ﴿ الملك الحق ﴾ [طه : 114] أي : الثابت الذي لا يتغير ، وكُلّ ظاهرة من ظواهر القوة في الكون تتغير إلا قوة الحق تبارك وتعالى لذلك يُلقِي سبحانه أوامره وهو واثق أنها ستُنفذ ؛ لأنه سبحانه مِلكُ حقّ ، بيده ناصية الأمور كلها ، فلو لم يكُنْ سبحانه كذلك ، فكيف يقول للشيء : كُنْ فيكون ؟ فلا يعصاه أحد ، ولا يخرج عن طَوْعه مخلوق ، فيقول له : كُنْ فلا يكون .

فالحق تبارك وتعالى أنزل القرآن عربياً ، وصرَّف فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ؛ لأنه من حقه أن يكون له ذلك ؛ لأنه مَلِك حق ليس له هوى فيما شرع ؛ لذلك يجب أن تقبل تشريعه ، فلا يطعن في القوانين إلا أن تصدر عن هوى ، فإنْ قنَّن رأسمالي أعطَى

الامتياز للرأسماليين ، وإنْ قنّن فقير أعطى الامتياز للفقراء ، والله عز وجل لا ينحاز لأحد على حساب أحد .

وأيضاً يجب في المقنّن أن يكون عالماً بمستجدَّات الأمور في المستقبل ، حتى لا يستدرك أحد على قانون فيُغيِّره كما يحدث معنا الآن ، وتضطرنا الأحداث إلى تغيير القانون ؛ لأننا ساعة شرعناه غابتْ عنا هذه الأحداث ، ولم نحتط لها ؛ لذلك لا استدراكَ على قانون السماء أبداً .

وطالما أن الحق سبحانه وتعالى هو ﴿ الملك الحق ﴾ [طه : 114] فلا بُدَّ أنْ يضمن للخلق أنْ يصلهم الكتاب والمنهج كما قاله سبحانه ، لا تغيير فيه ؛ لذلك قال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

(64/503)

نحن الذين سنحفظه ؛ لأن البشر جُرِّبوا في حِفْظ مناهج السماء ، ولم يكونوا أمناء عليها ، فغيَّروا في التوراة وفي الإنجيل وفي الكتب المقدَّسة ، إما بأن يكتموا بعض ما أنزل الله ، وإما أنْ ينسُوا بعضه ، والذي ذكروه لم يتركوه على حاله بل حرَّفوه . وإنْ قُبل منهم هذا كله فلا يُقبَل منهم أنْ يفترُوا على الله فيُؤلِّفون من عندهم ، ويقولون : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ

عِندِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 78] .

ذلك لأن الحفْظ للمنهج كان موكولاً للبشر تكليفاً ، والتكليف عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، ولأن يُعْصَى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله ﴾ [المائدة : 44] .

أي : طلب منهم أن يحفظوها بهذا الأمر التكليفي ، فعَصَوْه نسياناً ، وكتماناً ، وتحريفاً ، وزيادة ؛ لذلك تولّى الحق تبارك وتعالى حفْظ القرآن ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذي لا استدراكَ عليه ، وضمن سبحانه للقرآن ألاَّ يُحرَّف بأيِّ وجه من أَوْجُه التحريف .

فاطمئنوا إلى أن القرآن كتاب الله الذي بين أيديكم هو كلام الله الذي جاء من علمه تعالى في اللوح المحفوظ الذي قال عنه : ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 7879] .

ثم نزل به الروح الأمين ، وهو مُؤتَمن عليه لم يتصرَّف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذي قال الله عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [الحاقة : 4445] .

إذن : حُفِظ القرآن عِلْماً في اللوح المحفوظ ، وحُفِظ في أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفِظ في مَنْ استقبله وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا حجةَ لنا بعد أن جمع الحق سبحانه وتعالى للقرآن كُلَّ ألوان الحفظ .

لذلك كان ولا بُدَّ حين يُنزِل الله القرآن على رسوله أن يقول له : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ [طه : 114] فليست هناك حقيقة بعد هذا أبداً ، وليس هناك شيء ثابت ثبوتَ الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] وهذه مُقدّمات ليطمئن رسول الله على حِفْظ القرآن ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الوحي ، فيحاول إعادته كلمة كلمة . فإذا قال الوحي مثلاً : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ [الجن : 1] فيأخذ الرسول من تكرارها في سِرِّه ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حِرْصه على القرآن .

فنهاه الله عن هذه العجلة ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن ﴾ [طه : 114] أي : لا تتعجل ، ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه طالما أنني تكفّلتُ بحِفْظه ؛ لذلك يقول له في موضع آخر : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] .

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة ؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى .

والعَجَلة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه ، كأن تقطف الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها ، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد ، أو تتعجل قَطْفها وهي صغيرة لا تكفي شخصاً واحداً ، ولو تركتها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص .

والقرآن كلام في مستوى عَالٍ من البلاغة ، وليس كلاماً مألوفاً له يسهُل عليه حِفْظه ؛ لذلك كان حريصاً على الحِفْظ والتثبيت .

وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 1618] أي : لما تكتمل الآيات فلك أنْ تقرأها كما تحب .

(66/503)

وهذه الظاهرة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، نبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن ، أو السورة كاملة ، ثم حيث يُسري عنه الوحي يعيدها كما أُنزِلتْ عليه ، ولك أن تأتي بأكثر الناس قدرة على الحفظ ، واقرأ عليه المدة عشر دقائق مثلاً من أي كتاب أو أي كلام ، ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فكان يأمر الكَتَبة بكتابة القرآن ، ثم يمليه عليهم كما سمعه ،

لا يُغير منه حرفاً واحداً ، بل ويُملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول : " ضعوا هذه في سورة كذا ، وهذه في سورة كذا " .

ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمر إلى حَدٍّ ما سهلاً ، إنما تنزل الآيات متفرقة ، فإذا ما قرأ صلى الله عليه وسلم في الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة ، هذه نزلت اليوم ، وهذه نزلت بالأمس ، وهكذا ، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية .

وقوله تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 19] وخاطب النبي في آية أخرى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبي صلى الله عليه وسلم .

ومعنى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] أي : انتظر حتى يسري عنك ، لكن كيف يعرف الرسول ذلك ؟ كيف يعرف أن الحالة التي تعتريه عند نزول الوحي قد زالتْ ؟ والصحابة يصفون حال النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه فيقولون : كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ويبلغ منه الجهد مبلغاً ، وإن نزل الوحي وهو على دابة كانت تنخ برسول الله ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

إذن : هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحي ؛ لأن الوَحْي من مَلَك له طبيعته التكوينية التي تختلف وطبيعة النبي البشرية ، فلكي يتم اللقاء بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب في الطبيعة ، فإمّا أن يتحول الملَك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية ، أو ينتقل رسول الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقّى عن الملك .

لذلك ، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية في طبيعته ، هذه التغييرات هي التي تجعله يتصبَّبُ عَرَقاً حتى يقول : " زملوني زملوني " أو " دثروني دثروني " لما حدث في تكوينه من تفاعل .

فكان الوحي شاقاً على رسول الله خاصة في أوله ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة ، وأنْ يُريحه فترة من نزول الوحي ليريحه من ناحية وليُشوّقه للوحي من ناحية أخرى ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: 13] والوِزْر هو الحِمْل الثقيل الذي كان يحمله رسول الله في نزول الوحي عليه .

فلما فتر الوحي عن رسول الله شمتَ به الأعداء ، وقالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه . سبحان الله ، أفي الجَفْوة تذكرون أن لمحمد رباً ؟ ألستم القائلين له : كذاب وساحر ؟ والآن أصبح له

رب لأنه قلاه ؟

وما فهم الكفار أن فتور الوحي لحكمة عالية ، أرادها ربُّ محمد ، هي أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية في تكوينه ، وأنْ تتجدد طاقته ، ويزداد شوقه للقاء جبريل من جديد ، والشَّوْق إلى الشيء يُهوِّن الصعاب في سبيله . كما يسير المحب إلى حبيبه ، لا تمنعه مشاقّ الطريق .

فردَّ الله على الكافر : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 15] .

(68/503)

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار ، ثم عدّل عبارتهم : إن ربَّ محمد قد قلاه فقال : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] هكذا بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع قد يكون للحبيب .

أمَّا في قوله : ﴿ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] فلم يأْتِ هنا بكاف الخطاب حتى مع النفي ، فلم يقُلْ (وما قلاك) ؛ لأن النفي مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله .

كما لو قلت : أنا لم أرَ شيخ الأزهر يشرب الخمر ، أمدحتَ شيخ الأزهر بهذا القول أم ذَمَمْته ؟ الحقيقة أنك ذممته ؛ لأنك جعلته مظنة أن يحدث منه ذلك .

فهذا التعبير القرآني يعطي لرسول الله منزلته العالية ومكانته عند ربه عز وجل .

لكن ، ما الحكمة في أن الحق تبارك وتعالى أقسم في هذه المسألة بالضحى وبالليل إذا سَجَى ؟ وما صلتهما بموضوع غياب الوحي عن رسول الله ؟

الله عز وجل يريد بقوله : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى ﴾ [الضحى : 12] أن يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونية مُشَاهدة ومُعْتَرف بها عند الجميع ، وهي أن الله خلق النهار وجعله مَحلاً للحركة والنشاط والسعي ، وخلق الليل وجعله مَحَلاً للراحة والسكون ، فيرتاح الإنسان في الليل ليعاود نشاطه في الصباح من جديد .

وهكذا أمر الوحي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أجهده الوحي احتاج إلى وقت يرتاح فيه ، لا لتنتهي المسألة بلا عودة ، بل ليُجدّد نشاط النبي ، ويُشوّقه للوحي من جديد ؛ لذلك بشّره بقوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 4] أي : انتظر يا محمد ، فسوف يأتيك خير كثير .

فالحق سبحانه يُرجعهم إلى ظواهر الكون ، وإلى الطبيعة التي يعيشون عليها ، فأنتم ترتاحون من عَناء النهار بسكون الليل ، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحي ومشقته ؟ وهل راحتكم في سكون الليل تعني دوام الليل وعدم عودة النهار ؟

(69/503)

وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] هذا توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم للاستزادة من العلم ، فما دُمْتَ أنت يا رب الحافظ فِزدْني منه ، ذلك لأن رسول الله سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لَدُنْه إلى أن تقوم الساعة ، عِلْمٍ يشمل الأزمنة والأمكنة ، فلا بُدَّ له أنْ يُعدَّ الإعدادَ اللازم لهذه المهمة . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(70/503)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) (طه : 112) ، وفي سورة الأنبياء : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) (الأنبياء : 94) ، فوردت آية طه منسوقة على ما قبلها بالواو ، والثانية بالفاء

المقتضية في مثل هذا استئناف التفصيل مع بنائه على ما قبله بمقتضى الفاء ، ثم أعقب الأولى بقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ والثانية بقوله : ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ ومقصود الآيتين واحد ، فللسائل أن يسأل عن الفرق ؟

والجواب عن الأول : أن قوله : ﴿ ومن يعمل ﴾ بواو النسق ورد في مقابلة ما تقدمه من المعنى الحاصل من قوله : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ (طه : 111) وقد خاب من حمل ظلماً لأن عنت الوجوه ذلتها في القيامة ، ومنه قولهم : العاني للأسير ، فمن حمل ظلماً خاب وخسر ، ومن قدم خيراً وعمل صالحاً فر يخاف ظلماً أي زيادة في سيئاته ، ولا هضماً أي نقصاً في حسناته ، وهذا معنى الكلام ، والله أعلم ، فهذا موضع الواو ولا مدخل فيه للفاء . أما قوله في الأنبياء : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ (الأنبياء : 94) فافتتح تفصيل أحوال الفريقين لما قال تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ (الأنبياء : 93) ، والمراد اختلافهم وافتراقهم في المذاهب والأديان ، ابتع ذلك تعالى ببيان حال المحسن والمسيء في افتراقهم ، فاستؤنف تفصيل جزائهم فقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ (الأنبياء : 94) إلى ما بعد وفي قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ

أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (الأنبياء : 95) إلى ما يتلوه بيان جزاء المسمى وحكمه ، وربطت الفاء ما فصل من الجزاء بما وقع الجزاء المفصل مربوطاً به ومنبهاً عليه ، فالموضوع للفاء ولا مدخل للواو هنا .

وأما تعقيب آية طه بقوله : (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) (طه : 112) ، فإفصاح بالتأنيس المناسب لما بنيت عليه ، وقد وضح هذا في الآية المترجم عليها قبل التي تلي هذا ، ولم تبن آية سورة الأنبياء على ما ذكر فجيء فيها بما يناسب ، وورد كل على ما يجب ، ولا يلائم عكس الوارد ولا يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 342.341 ﴾

(72/503)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) ﴾

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : ذلت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : خشعت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : استأسرت ، صاروا أسارى كلهم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : خضعت .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ قال : استسلمت وخضعت يوم القيامة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

ليبك عليك كل عان بكربه . . . وآل قصيّ من مقل وذي وفر

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ قال : الركوع والسجود .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن طلق بن حبيب رضي الله عنه في قوله : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ قال : هو وضعك جبهتك وكفيك وركبتيك وأطراف قدميك في السجود .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾

قال : شركاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ قال : شركاً . وفي قوله : ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ قال : ﴿ ظلماً ﴾ أن يزاد في سيئاته . ﴿ ولا هضماً ﴾ قال : لا ينقص من حسناته .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ قال : لا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته ، ولا يهضم من حسناته .

(73/503)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾ قال : أن يزاد عليه أكثر من ذنوبه ﴿ ولا هضماً ﴾ قال : أن ينتقص من حسناته شيئاً .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا هضماً ﴾ قال : غصباً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ قال : القرآن ﴿ ذكراً ﴾ قال : جداً وورعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه جبريل بالقرآن ، أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه ، يتخوف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه .

فقال الله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ وقال : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : 16] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ يقول : لا تعجل حتى نبينه لك .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن الحسن قال : لطم رجل امرأته فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب قصاصاً ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص ، فأنزل الله ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً ﴾ فوقف النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ [النساء : 34] الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن الحسن ، أنه قرأ ﴿ من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ قال : لا تمله على أحد حتى نتمه لك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ قال : تبيانه .

(74/503)

وأخرج الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن مسعود : أنه كان يدعو : اللهم زدني إيماناً وفقهاً ويقيناً وعلماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(75/503)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾ :

يُقال: عَنا يَعْنُو إذا ذَلَّ وخَضَع. وأَعْناه غيرُه أي: أذلَّه. ومنه العُنَاة جمع عانٍ. وهو الأسيرُ قال:

3320 فيا رُبَّ مَكْروبٍ كرَرْتُ وراءَه . . . وعانٍ فَكَكْتُ الغُلَّ عنه ففَدَّاني

وقال أمية بن أبي الصلت:

3321 مَليكٌ على عَرْشِ السماء مُهَيْمِنٌ . . . لِعِزَّته تَعْنُوا الوجوهُ وتَسْجُد

وفي الحديث: "فإنَّهنَّ عَوانٍ".

قوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ هذه الجملةُ مستأنفةً، وأن تكونَ حالاً، ويجوز أن تكونَ اعتراضاً. قال الزمخشري: "وقد خابَ وما بعده اعتراضٌ كقولك: خابوا وخَسِروا، وكلُّ مَنْ ظَلَم فهو خائبٌ خاسِرٌ"، ومرادُه بالاعتراضِ هنا أنَّه خَصَّ الوجوهَ بوجوهِ العصاةِ حتى تكونَ الجملةُ قد دَخَلَتْ بين العُصاةِ وبين ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ فهذا/ عنده قسيمُ "وعَنَتِ الوجوهُ" فلهذا كان اعتراضاً. وأمَّا ابنُ عطية فجعل الوجوهَ عامة، فلذلك جعل "وقد خابَ مَنْ حَمَل ظلما" معادَلاً بقولِه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ إلى آخره.

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) ﴾

قوله: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾:

جملةٌ حاليةٌ. وقوله: ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾. قرأ ابنُ كثيرٍ بجزمِه على النهي. والباقون برفعِه

على النفي والاستئنافِ أي: فهو لا يَخافُ .

والهَضْمُ: النَّقْصُ . تقول العرب: "هَضَمْتُ لزيدٍ مِنْ حقي" أي: نَقَصْتُ منه ، ومنه "هَضِيم الكَشْحَيْن" أي ضامِرُهما . ومِنْ ذلك أيضاً ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء: 148] أي: دقيقٌ متراكِبٌ ، كأنَّ بعضَه يظلم بعضاً فيُنْقِصُه حقَّه . ورجل هضيم ومُهْتَضَم أي: مظلومٌ . وهَضَمْتُه واهْتَضَمْتُه وتَهَضَّمْتُه ، كلٌ بمعنىً . اقل المتوكل الليثي:

(76/503)

3322 إنَّ الأَذِلَّةَ واللِّئامَ لَمَعْشَرٌ . . . مَوْلاهُمُ المُتَهَضِّمُ المظلومُ

قيل: والظلمُ والهَضْمُ متقاربان . وفرَّق القاضي الماوردي بينهما فقال: "الظلمُ مَنْعُ جميعِ الحقِّ ، والهضمُ مَنْعُ بعضِه" .

قوله: ﴿ وكذلك أَنْزَلْنَاهُ ﴾ :

نسقٌ على ﴿ كذلك نَقُصُّ ﴾ . قال الزمخشري: "ومِثْلَ ذلك الإِنزال ، وكما أنزَلْنا عليك هؤلاء الآيات أَنْزَلْنا القرآنَ كلَّه على هذه الوتيرةِ" . وقال غيرُه: "والمعنى: كما قَدَّرْنا هذه الأمورَ وجَعَلْناها حقيقةً بالمرصادِ للعبادِ ، كذلك حَذَّرْنا هؤلاءِ أمرَها وأنزَلْناه قرآناً" .

قوله: ﴿ مِنَ الوعيد ﴾ صفةٌ لمفعولٍ محذوفٍ أي: صَرَّفْنا في القرآنِ وعيداً مِن الوعيد ،

والمرادُ به الجنسُ . ويجوز أَنْ تكونَ "مِنْ" مزيدةً على رأيِ الأخفشِ في المفعولِ به .

والتقديرُ : وصَرَّفْنا فيه الوعيدَ .

وقرأ الحسن "أو يُحْدِثْ" كالجماعة ، إلاَّ أنه سَكَّن لامَ الفعل . وعبد الله والحسنُ أيضاً في روايةٍ ومجاهدٌ وأبو حيوة : "نُحْدِثْ" بالنون وتسكينِ اللام أيضاً . وخُرِّجَ على إجراء الوصل مُجْرى الوقفِ ، أو على تسكينِ الفعل استثقالاً للحركة ، كقول امرىء القيس :

3323 فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ . . . .

وقول جرير :

3324 . . . . أو نهرُ

تيرى فلا تَعْرِفْكُمُ النَّفَرُ

وقد فعلَه كما تقدَّم أبو عمروٍ في الراءِ خاصةً نحو { يَنصُرُكم } [آل عمران : 160] .

وقُرِىء "تُحْدِثُ" بتاء الخطاب أي : تُحْدِثُ أنت .

قوله : { يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } :

العامَّةُ على بناء " يقضى " للمفعولِ ورفع " وَحْيُه " لقيامه مقامَ الفاعلِ . والجحدري وأبو حيوةَ والحسنُ وهي قراءةُ عبد الله " نَقْضِي " بنونِ العظمة مبنياً للفاعلِ ، " وَحْيَه " مفعول به . وقرأ الأعمشُ كذلك ، إلاَّ أنه سَكَّنَ لامَ الفعلِ . استثقلَ الحركةَ وإن كانَتْ خفيفةً على حرفِ العلةِ . وقد تقدَّم لك منه شواهدُ عند قراءةِ ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْالِيكُمْ ﴾ [المائدة : 89] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 108 . 111 ﴾

(78/503)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) ﴾

ذَلَّتْ له الرقاب واستسلم لحُكْمه الخَلْقُ ، وخَضَعَت له الجبابرةُ ، ومَنْ اقترف الظلمَ بقي في ظُلُماته ، وعلى حسب ذلك في الزيادة والنقصان .

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) ﴾

العمل الصالح ما يصلح للقبول ، وفاعِلُه هو المتجرِّدُ عن الآفات الواقفة لحقيقة الأمر .

ويقال العمل الصالح ما لم يستعجل عليه صاحبُه أجراً .

قوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ : أي في المآل كما هو مؤمن في الحال .

ويقال هو مؤمنٌ مصدّق لربّه أنه لا يعطي المؤمنَ لأَجْلِ إيمانه شيئاً ، ولكن بفضله ، وإيمانُه أمارةٌ لذلك لا موجبٌ له .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) ﴾

أَتْبَعْنا دليلاً بعد دليل ، وبعثنا رسولاً بعد رسول ، وحَذَّرْناهم بوجوهٍ من التعريفات ، وإظهارِ كثيرٍ من الآيات .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ .

تعالى اللَّهُ في كبريائه ؛ وكبرياؤه : سناؤه وعُلاه ومَجْدُه ورِفْعَتُه وعظَمَتُه ، كل ذلك بمعنى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم .

و﴿ الْمَلِكُ ﴾ : مبالغةً من المالك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والانفراد بذلك .

و﴿ الْحَقُّ ﴾ : في وصفه – سبحانه – بمعنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام : " العين حق " أي موجود .

ويكون الحق بمعنى ذي الحقّ ، ويكون بمعنى مُحِقّ الحق . . . كل ذلك صحيح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ .

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافَةَ النسيان ، فأَمرَه بالتثبت في التلقين ، وأَمّنَه من طوارِق النسيان ، وعرّفه أن الذي يحفظ عليه ذلك هو الله .

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إنْ لم يوجد ما يُوجَبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحقِ اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .

فالآية تشير إلى التثبت في الأمور وضرورة التمكث واللبث قصداً للاحتياط .

قوله : ﴿ وَقُل رَّبِ زِدْنِى عِلْماً ﴾ : فإذا كان أَعْلَمُ البَشَر ، وسيِّدُ العرب العجم ، ومَنْ شهد له الحقُّ بخصائص العلم حين قال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] يقال له : ﴿ وَقُل رَّبِ زِدْنِى عِلْماً ﴾ - عُلِمَ أَنَّ ما يخصُّ به الحقّ أولياءَه من لطائف العلوم لا حَصْرَ له .

ويقال أحاله على نفسه في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : 66] فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً ﴾ [الكهف :

72] ثم كل ذلك التطلف قال له في آخر الأمر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ . . . ﴾ [الكهف : 78] وبين عبدٍ أَمرَه عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَل ربه فقال : قُلْ يا محمد : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ .

ويقال لما قال عليه السلام : " أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له " قال له : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ أشرف خِصالِ العبدِ الوقوفُ في محلِّ الافتقار ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في مَعْرِضِ الدعوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 478 480.﴾

(80/503)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) ﴾

التفسير : هذا شروع في قصة إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوّهم وقد تقدم في " البقرة " وفي " الأعراف " وفي " يونس " ومعنى ﴿ فاضرب لهم طريقاً ﴾ إجعل لهم من قولهم "

ضرب له في ماله سهماً وضرب اللبن عمله " أو أراد بين لهم طريقاً ﴿ في البحر ﴾ بالضرب بالعصا حتى ينفلق فعدي الضرب إلى الطريق، ثم بين أن جميع أسباب الأمن حاصلة في ذلك الطريق. واليبس مصدر وصف به ومثله اليبس ونحوهما العدم والعدم ويوصف به المؤنث لذلك فيقال: ناقتنا يبس إذا جف لبنها. والدرك. والدرك اسمان من الإدراك أي لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك. وفي ﴿ لا تخشى ﴾ إذا قرىء ﴿ لا تخف ﴾ أوجه الاستئناف أي وأنت لا تخشى، وجوز في الكشاف أن يكون الألف للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله ﴿ ولا تظنون بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب: 10] وأن يكون كقول الشاعر:

كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً . . . أراد لم تر لأن ما قبله:

(81/503)

وتضحك مني شيخة عبشمية . . . قلت: لعل هذا إنما يجوز في الضرورة ولا ضرورة في الآية ﴿ فأتبعهم فرعون ﴾ الحق بهم جنوده أو تبعهم ومعه جنوده كما مر في " يونس " ﴿ فغشيهم ﴾ أي علاهم ورهقهم ﴿ من اليم ما غشيهم ﴾ وهذا من جملة ما علم في باب الإيجاز لدلالته على أنه غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله، وقد سلف منه في السور المذكورة ما

حكي في الأخبار وروي في الآثار . ونسبة الإضلال إلى فرعون لا تنافي انتهاء الكل إلى إرادة الله ومشيئته . وقوله ﴿ وما هدى ﴾ تأكيد للإضلال وفيه تهكم به في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر : 38] ثم عدد ما أنعم به على بني إسرائيل ، ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لأن النعمة على الآباء نعمة في حق الأبناء ومثله قوله ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ أي الواقع على يمين من انطلق من مصر إلى الشام لأن منفعة المواعدة عادت إليهم وإن كانت المواعدة لنبيهم فبكتب التوراة في ألواح قام شرعهم واستقام أمر معاشهم ومعادهم . ﴿ كلوا ﴾ من تتمة القول . وطغيانهم في الرزق هو شغلهم باللهو والتنعم عن القيام بشكرها وتعدي حدود الله فيها بالإسراف والتقتير والغصب . ومن قرأ ﴿ فيحل ﴾ بالكسر فبمعنى الوجوب من قولهم " حل الدين يحل " إذا وجب أداؤه ، ومن قرأ بضم فبمعنى النزول ونزول الغضب نزول نائجة من العقوبات والمثلات . ومعنى ﴿ هوى ﴾ هلك وأصله السقوط من مكان عالٍ كالجبل . وقيل : هوى أي وقع في الهاوية .

(82/503)

سؤال : كيف أثبت المغفرة في حق من استجمع التوبة والإيمان والعمل الصالح ، والمغفرة إنما تتصور في حق من أذنب ؟ وأيضاً ما معنى قوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ بعد الأمور المذكور والاهتداء إنما يكون قبلها لا أقل من أن يكون معها ؟ الجواب أراد وإني لغفار لمن تاب من الكفر وآمن وعمل صالحاً . وفيه دليل لمن ذهب إلى وجوب تقديم التوبة من الكفر على الإيمان . والحاصل أن الغفران يعود إلى الذنوب السابقة على هذه الأمور ، ويجوز أن يراد أنه إذا تاب من الكفر وأقبل على الإيمان والعمل الصالح فإن الله يغفر الصغائر التي تصدر عنه في خلال ذلك كقوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ [النساء : 31] وأما الاهتداء فالمراد به الاستقامة والثبات على الأمور المذكورة كقوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [فصلت : 20] ومعنى " ثم " الدلالة على تباين المرتبتين ، فإن المداومة على الخدمة أصعب من الشروع فيها كما قيل :

لكل إلى شأو العلى حركات . . . ولكن عزيز في الرجال ثبات

(83/503)

ونظير هذا العطف قوله ﴿ أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ [الأعراف : 4] وقد مر البحث فيه . ويروى أن موسى قد مضى مع النقباء السبعين إلى الطور على الموعد

المضروب ، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله فأنكر الل تعالى تقدمه قائلاً ﴿ وما أعجلك عن قومك ﴾ أيّ شيء عجل بك عنهم ؟ فالمراد بالقوم النقباء لا جميع قومه على ما توهم بعضهم يؤكده قوله ﴿ هم أولاء على أثري ﴾ ولم يكن جميع قومه على أثره . قال جار الله : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين : أحدهما إنكار العجلة في نفسها ، والثاني السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الأمرين إلى موسى تمهيد العذر من العجلة نفسها فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدم يسير وليس بيني وبينهم إلا مسافة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ أي طلبت دوم رضاك عني أو مزيد رضاك بناء على اجتهادي أن التعجيل إلى مقام المكالمة والحرص على ذلك يوجب مزيد الثواب والكرامة . وقيل : لما أنكر عليه الاستعجال دهش خوفاً من العقاب فتحير في الجواب ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك ﴾ يعني جميع قومه الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً . يروى أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا : قد أكملنا العدة . ثم كان أمر العجل بعد ذلك فسئل أنه تعالى كيف قال لموسى عنه مقدمه ﴿ إنا قد فتنا قومك ﴾ ؟ وأجيب بأنه على عادة الله تعالى في إخباره عن الأمور المترقبة بلفظ الماضي تحقيقاً للوقوع

، أو أراد بدء الفتنة لأن السامري افترض غيبة موسى فعزم على إضلال قومه غب انطلاقه .

(84/503)

ولقائل أن يمنع كون هذه الأخبار عند مقدم موسى عليه السلام بل لعله عند رجوعه بدليل فاء التعقيب في قوله ﴿ فرجع موسى ﴾ قال جار الله إنه رجع بعدما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة وأوتي التوراة . وسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل : السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم . وقيل : كان علجاً من كرمان واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً وكان من قوم يعبدون البقر . قالت المعتزلة : الفتنة بمعنى الإضلال لا يجوز أن تنسب إلى الله تعالى لأنه يناقض قوله ﴿ وأضلهم السامري ﴾ وإنما الفتنة بمعنى الامتحان بتشديد التكليف ومنه " فتنت الذهب بالنار " وبيان ذلك أن السامريّ لما أخرج لهم العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة الأجسام على أن العجل لا يصلح للإلهية . وقالت الأشاعرة : الشبهة في كون الشمس والقمر إلهاً أعظم من العجل الذي له خوار وهو جسد من الذهب وحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديداً في التكليف ، فلا يكون فتنة من هذا الوجه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم .

وأجابوا عن إضافة الضلال إلى السامري بن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها في الظاهر وإن كان الموجد لها في الحقيقة هو الله تعالى. قال بعضهم: الأسف المغتاظ، وفرق بين الاغتياظ والغضب لأن الغيظ تغير يلحق المغتاظ فلا يصح إلا على الأجسام، والغضب قد يراد به الإضرار بالمغضوب عليه فلهذا صح إطلاقه على الله سبحانه.

(85/503)

ثم عاتب موسى عليه السلام قومه بأمور منها: قوله ﴿ ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ كأنهم كانوا معترفين بالرب الأكبر لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي تذكر عبدة الأصنام أو على تأويل الحلول. والوعد الحسن هو إنزال التوراة التي فيها هدى ونور. وقيل: هو الثواب على الطاعات ومثله ما روي عن مجاهد أن العهد المذكور من قوله ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ إلى قوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ وقيل: وعدهم إهلاك فرعون ووعدهم أرضهم وديارهم وقد فعل. ومنها قوله ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي الزمان يريد مدة مفارقته لهم وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان فاخلفوا موعده بعبادتهم العجل. وقيل: أراد عهدهم بنعم الله تعالى من الإنجاء وغيره. والأكثرون على الأول لما روي أنه وعدهم ثلاثين كما أمر الله تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ [الأعراف:

142] فجاء بعد الأربعين لقوله تعالى ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ ولما روي أنهم حسبوا العشرين أربعين ومنها قوله ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب ربكم ﴾ قالوا : هذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر لأن أحداً لا يريد هلاك نفسه ولكن المعصية - وهو خلاف الموعد - لما كانت توجب ذلك صح هذا الكلام لأن مريد السبب مريد للمسبب بالعرض .

(86/503)

احتج العلماء بالآية وبما مر من قوله ﴿ فيحل عليكم غضبي ﴾ أن الغضب من صفات الأفعال لا من صفات الذات لأن صفة ذات الله تعالى لا تنزل في شيء من الأجسام .

وموعد موسى هو ما ذكرنا من أنهم وعدوه الإقامة على دينه إلى أن يرجع إليهم من الطور .

وقيل : وعدوه اللحاق به والمجيء على أثره ﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ بالحركات الثلاث أي بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفناه ولكن غلبنا من جهة السامري وكيده . والظاهر أن القائلين هم عبدة العجل . وقيل : إنهم الذين لم يعبدوا العجل وقد يضيف الرجل فعل قرينه إلى نفسه فكأنهم قالوا : الشبهة قويت على عبدة العجل فلم يقدر على منعهم ولم يقدروا أيضاً على مخالفتهم حذراً من التفرقة وزيادة الفتنة . ثم إن القوم بينوا ذلك العذر المجمل فقالوا ﴿ ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾

أي أثقالاً من حلي القبط كما مر في " الأعراف " . وقيل : الأوزار الآثام وإنها في الحقيقة أثقال مخصوصة معنوية سموا بذلك لأن المغانم لم تحل حينئذ أو لأنهم كانوا مستأمنين في دار الحرب وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي . وقيل : إن تلك الحلي كان القبط يتزينون بها في مجامع الكفر ومجالس المعاصي فلذلك . وصفت بأنها أوزار كما يقال في آلات المعاصي ﴿ فقذفناها ﴾ أي في الحفرة ، كان هارون أمرهم بجمع الحلي انتظاراً لعود موسى ، أو في موضع أمرهم السامري بذلك بعد أن أوقد النار ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ مثل فعلنا أراهم أنه يلقي حلياً في يده مثل ما ألقوه . وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطىء حافر فرس جبريل كما يجيء في قوله ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴾ ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ قد مر في " الأعراف " ﴿ فقالوا ﴾ أي السامري ومن تبعه ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ موسى أن يطلبه ههنا فذهب يطلبه عند الطور ، أو فنسي السامري وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر ، أو نسي الاستدلال على أن العجل

(87/503)

لا يجوز أن يكون إلهاً بقوله ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع ﴾ " أن " مخففة من الثقيلة ولهذا لم تعمل . وقرىء بالنصب على أنها الناصبة . قال العلماء : ظهور الخوارق على يد مدعي

الإلهية جائز لأنه لا يحصل الالتباس ، وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع خلق الحياة في صورة العجل . وروى عكرمة عن ابن عباس أن هارون مر بالسامري وهو يصنع العجل فقال : ما تصنع ؟ فقال : أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي . فقال : اللهم أعطه ما سألك . فلما مضى هارون قال السامري : اللهم إني أسألك أن يخور فخار . وعلى هذا التقدير يكون معجزاً للنبي لا السامري .

ثم إنه سبحانه أخبر أن هارون لم يأل نصحاً وإشفاقاً في شأن نفسه وفي شأن القوم قبل أن يقول لهم السامري ما قال . أما شفقته على نفسه فهي أنه أدخلها في زمرة الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، أما الامتثال فإنه امتثل في نفسه وفي شأن القوم أمر أخيه حين قال لهم ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ قال جار الله : كأنهم أول ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة فتنوا به واستحسنوه فقبل أن ينطق السامري بادرهم هارون فزجرهم عن الباطل أولاً بأن هذا من جملة الفتن .

(88/503)

ثم دعاهم إلى الحق بقوله ﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ ومن فوائد تخصيص هذا الاسم بالمقام أنهم إن تابوا عما عزموا عليه لإن الله يرحمهم ويقبل توبتهم . ثم بين أن الوسيلة إلى معرفة

كيفية عبادة الله هو اتباع النبي وطاعته فقال ﴿ فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ وهذا ترتيب في غاية الحسن . واعلم أن الشفقة على خلق الله أصل عظيم في الدين وقاعدة متينة .

روى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم " مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا هو جالس إذا نظر إلى شاب على باب المسجد فقال : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه . فسمع الشاب ذلك فولى وقال : إلهي وسيدي هذا رسولك يشهد عليّ بأني من أهل النار وأنا أعلم أنه صادق ، فإذا كان الأمر كذلك فأسألك أن تجعلني فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشعل النار بي حتى يبر يمينه ولا تسفع النار أحداً . فهبط جبريل وقال : يا محمد بشر الشاب بأني قد أنقذته من النار بتصديقه لك وفداء أمتك بنفسه وشفقته على الخلق . قال أهل السنة ههنا : إن الشيعة تمسكوا بقوله صلى الله عليه وسلم " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " ثم إن هارون ما منعته التقية في مثل ذلك الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعته ، فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على عليّ كرم الله وجهه أن يفعل ما فعل هارون من غير تقية وخوف . وللشيعة أن يقولوا : إن هارون صرح بالحق وخاف فسكت ولهذا عاتبه موسى بما عاتب فاعتذر ب ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴾ [الأعراف : 15] وهكذا علي رضي الله عنه امتنع

أولاً من البيعة فلما آل الأمر إلى ما آل أعطاهم ما سألوا . وإنما قلت هذا على سبيل البحث لا لأجل التعصب . ثم إن القوم قابلوا حسن موعظة هارون بالتقليد والجحود قائلين ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى

(89/503)

يرجع إلينا موسى ﴾ ولا يخفى ما في هذا الكلام من أنواع التوكيد من جهة النفي ب " لن " ، ومن لفظ البراح والعكوف ، ومن صيغة اسم الفاعل ، ومن تقديم الخبر .

ثم حكى ما جرى بين موسى وهارون بعد الرجوع وقوله ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ﴾ كقوله ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ [الأعراف : 12] في أن " لا " هذه مزيدة أم لا ؟ . وقد مر في " الأعراف " . وفي هذا الإتباع قولان : فعن ابن عباس ما منعك من إتباعي بمن أطاعك واللحوق بي وترك المقام بين أظهرهم . وقال مقاتل : أراد الإتباع في وصيته كأنه قال : هلا قتلت من كفر بمن آمن ومالك لا تباشر الأمر كما كنت أباشره . قال الأصوليون : في قوله ﴿ أفعصيت أمري ﴾ دلالة على أن تارك المأمور به عاصٍ والعاصي يستحق العقاب لقوله ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم ﴾ [الجن : 22] فيعلم منه أن الأمر للوجوب . واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بأن موسى عليه السلام هل أمر

هارون باتباعه أم لا ؟ وعلى التقدير فهارون أتبعه أم لا ؟ فإن لم يأمره أو أمره ولكن اتبعه فملامته لهارون من غير جرم تكون ذنباً ، وإن أمره ولم يتبعه كان هارون عاصياً . وأيضاً قوله ﴿ أفعصيت ﴾ بمعنى الإنكار . فإما أن يكون موسى كاذباً في نسبة العصيان إلى هارون ، وإما أن يكون هارون عاصياً . وأيضاً أخذه بلحية هارون وبرأسه إن كان بعد البحث والتفتيش فهارون عاصٍ وإلا فموسى . وأجيب بأن كل ذلك أمور اجتهادية جائزة الخطأ أو هي من باب الأولى وقد مر في أوائل " البقرة " في آدم ما يتعلق بهذه المسألة .

(90/503)

قوله : ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ أي وصيتي لك بحفظ الدهماء واجتماع الشمل يؤيده قوله : ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت ﴾ قال الإمام أبو القاسم الأنصاري : الهداية أنفع من الدلالة فإن السحرة ما رأوا إلا آية واحدة فآمنوا وتحملوا في الدين ما تحملوا ، وأما قوم موسى فقد رأوا ذلك مع زيادة سائر الآيات التسع ومع ذلك اغتروا بصوت العجل وعكفوا على عبادته ، فعرفنا أن الغرض لا يحصل إلا بهداية الله تعالى . ولما فرغ موسى من عتاب هارون أقبل على السامري ، ويمكن أن يكون بعيداً ثم حضر أو ذهب إليه موسى ليخاطبه قال جار الله : الخطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه . فإذا قيل : لمن يفعل شيئاً

ما خطبك؟ فمعناه ما طلبك له والغرض منه الإنكار عليه وتعظيم صنيعه ﴿ قال ﴾ أي السامري ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ قال ابن عباس ورواه أبو عبيدة: علمت بما لم يعلموا به من البصارة. يعني العلم. وقال الآخرون: رأيت بما لم تروه فالباء للتعدية، رجح العلماء قراءة الغيبة على الخطاب احترازاً من نسبة عدم البصارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(91/503)

والقبضة بالفتح مصدر بمعنى المفعول وهو المقبوض بجميع الكف. عامة المفسرين على أن المراد بالرسول جبريل عليه السالم وأثره التراب الذي أخذه من موقع حافر دابته واسمها حيزوم فرس الحياة. ومتى رآه؟ الأكثرون على أنه رآه يوم فلق البحر كان جبريل على الرمكة وفرعون على حصان وكان لا يدخل البحر، فتقدم جبريل فتبعه فرس فرعون. وعن علي رضي الله عنه أن جبريل لما نزل ليذهب بموسى إلى الطور أبصره السامري من بين الناس وكان راكب حيزوم فقال: إن لهذا شأناً فقبض من تربة موطئه. فمعنى الآية فقبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد. ثم من المفسرين من جوز أن السامري لم يعرف أنه جبريل ومنهم من قال: إنه عرفه. عن ابن عباس: إنما عرفه لأنه رباه في صغره

وحفظه من القتل حين أمر فرعون بقتل أولاد بني إسرائيل . فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس . فكان السامري أخذه جبريل وجعل كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه . وقال أبو مسلم : إطلاق الرسول على جبريل في المقام من غير قرينة تكليف بعلم الغيب . وأيضاً تخصيص السامري من بين الناس برؤية جبريل وبمعرفة خاصية تراب حافر دابته لا يخلو عن تعسف ، ولو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه فلقائل أن يقول : لعل موسى اطلع على شيء آخر لأجله قدره على الخوارق . فالأولى أن يراد بالرسول موسى فقد يواجه الحاضر بلفظ الغائب كما يقال : ما قول الأمير في كذا ؟ ويكون إطلاق الرسول منه على موسى نوعاً من التهكم لأنه كان كافراً به مكذباً . وأراد بأثره سنته ورسمه من قولهم " فلان يقفو أثر فلان " أي عرفت أن الذي عليه ليس بحق وقد كنت قبضت شيئاً من سنتك فطرحتها . فعلى قول العامة يكون قوله : ﴿ وكذلك سوّلت لي نفسي ﴾ إشارة إلى ما أوحي إليه وليه الشيطان أن تلك التربة إذا نبذت على الجماد صار

(92/503)

حيواناً . وعلى قول أبي مسلم يشير إلى أن اتباع أثرك كان من تسويلات النفس الأمارة فلذلك تركته . ثم بين موسى أن له عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة . يروى أنه أراد أن يقتله فمنعه الله من ذلك وقال : لا تقتله فإنه سخيّ . وفي قوله : ﴿ لامساس ﴾ وجوه : الأوّل إنه حرم عليه مماسة الناس لأنه إذا اتفق أن هناك مماسة فأحدهم الماس والثاني الممسوس فلذلك إذا رأى أحداً صاح لا مساس . ويقال : إن قومه باقٍ فيهم ذلك إلى الآن الثاني : أن المراد منع الناس من مخالطته . قال مقاتل : إن موسى أخرجه من محلة بني إسرائيل وقال له : اخرج أنت وأهلك طريداً إلى البراري .

اعترض الواحدي عليه بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول : هو لامساس . وإنما يقال له ذلك . وأجيب بأن هذا على الحكاية أي أجعلك يا سامري بحيث إذا أخبرت عن حالك لم تقل إلا لا مساس . والثالث : قول أبي مسلم إن المراد انقطاع نسله وأن يخبر بأنه لا يمكن له مماسة المرأة أي مجامعتها . وأما حاله في الآخرة فلذلك قوله : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ قال جار الله : من قرأ بكسر اللام فهو من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً . ثم بين مآل حال إلهه فقال : ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أي ظللت فحذف إحدى اللامين تخفيفاً ﴿ لنحرقنه ﴾ من الإحراق ففيه دليل على أنه صار لحماً ودماً لأن الذهب لا يمكن إحراقه بالنار ونسفه في الميم . قال السدي : أمر موسى بذبحه فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف . والنسف النقض ومن جعله من الحرق أي لنبردنه بالمبرد ففيه

دلالة على أنه لم ينقلب حيواناً إلا إذا أريد برد عظامه . ومن جعله من التحريق فإنه يحتمل الوجهين والمراد إهدار السامري وإبطال كيده ومحق صنيعه والله خير الماكرين . ثم ختم الكلام ببيان الدين الحق فقال : ﴿ إنما إلهكم ﴾ أي المستحق للعباد والتعظيم ﴿ الله الذي لا إله إلاّ هو وسع كل شيء علماً ﴾ قد مر مثله في " الأنعام " قال مقاتل : أي يعلم من يعبده .

(93/503)

وحين فرغ من قصة موسى شرع في تثبيت رسولنا صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ كذلك ﴾ أي نحو اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون والسامري ﴿ نقص عليك من ﴾ سائر أخبار الرسل مع أممهم تكثيراً لمعجزاتك . ثم عظم شأن القرآن بقوله : ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ أي ما ذكر فيه كل ما يحتاج إليه المكلف في دينه وفي دنياه والوزر العقوبة الثقيلة التي تنقض ظهر صاحبها ، أو المراد جزاء الوزر وهو الإثم ﴿ خالدين فيه ﴾ أي في ذلك الوزر أو في احتماله ﴿ وساء ﴾ فيه ضمير مبهم يفسره ﴿ حملاً ﴾ والمخصوص محذوف للقرينة أي ساء حملاً وزرهم . واللام في ﴿ لهم ﴾ للبيان كما في ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : 23] ويجوز أن يكون " ساء " بمعنى " قبح " ويكون فيه ضمير الوزر .

وانتصب ﴿ حملاً ﴾ على التمييز و﴿ لهم ﴾ حال من ﴿ حملاً ﴾ ولا أدري لم أنكره صاحب الكشاف ، اللَّهم إلا أن يمنع وقوع الحال من التمييز وفيه نظر . قال ابن السكيت : الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على رأس شجرة ، وبالكسر ما كان على ظهر أو رأس : وفي الصور قولان : أشهرهما أنه القرن يؤيده قوله : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ [المدثر : 8] وإنه تعالى يعرّف أمور الآخرة بأمثال ما شوهد في الدنيا ومن عادة الناس النفخ في البوقات عند الأسفار وفي العساكر فجعل الله تعالى النفخ في تلك الآلة علامة لخراب الدنيا ولإعادة الأموات .

(94/503)

وأقربهما من المعقول أن الصور جمع صورة يؤكده قراءة من قرأ بفتح الواو . يقال : صورة وصور كدرة ودرر . والنفخ نفخ الروح فيها ولكنه يرد عليه أن النفخ يتكرر لقوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ [الزمر : 68] والإحياء لا يتكرر بعد الموت إلا ما ثبت من سؤال القبر وليس هو بمراد من النفخة الأولى بالاتفاق ﴿ ونحشر المجرمين ﴾ عن ابن عباس : هم الذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر . وقال المعتزلة : هم الكفار والعصاة . وفي الزرق وجوه : قال الضحاك ومقاتل : إن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب ، لأن الروم أعداؤهم

وإنهم زرق العيون ، ومن كلامهم في صفة العدوّ " أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين " . وقال الكلبي : ﴿ رزقاً ﴾ أي عمياً . قال الزجاج : يخرجون بصراء في أول أمرهم لقوله : ﴿ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] ولقوله : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ [الإسراء : 14] ثم يؤل حالهم إلى العمى وإن حدقة من يذهب نور بصرة تزرق . وقيل ﴿ زرقاً ﴾ أي عطاشا لقوله : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ [مريم : 86] فكأنهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي ﴿ يتخافتون ﴾ يتسارون ﴿ بينهم ﴾ من شدة خوفهم أو لأن صدورهم امتلأت رعباً ، وهؤلاء يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا إما لأنها أيام سرورهم وهن قصار ، وإما لأنها قد انقضت والذاهب قليل وإن طال ولا سيما بالنسبة إلى الأبد السرمدي كأن ظنينهم يقول : قدر لبثنا في الدنيا بالقياس إلى لبثنا في الآخرة كعشرة أيام . فقال أعقلهم : بل كاليوم الواحد . وإنما قال : ﴿ عشراً ﴾ لأن المراد عشر ليال . وقال مقاتل : أراد عشر ساعات أي بعض يوم . وعلى هذا فأفضلهم رد عليهم استقصارهم وتقالهم . وقيل : المراد لبثهم في القبور .

قال أهل النظم : كأن سائلاً سأل : كيف يصح التخافت بين المجرمين والجبال حائلة مانعة ؟ فلذلك قال : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ وقال الضحاك : إن مشركي مكة قالوا على سبيل الاستهزاء : يا محمد كيف يكون حال الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت . ويحتمل أن يكون هذا جواب شبهة تمسك بها منكرو البعث - منهم جالينوس - زعم أن الأفلاك لا تفنى لأنها لو فنيت لابتدأت بالنقصان حتى تنتهي إلى البطلان ، وكذا الجبال وغيرها من الأجرام الكلية ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم هذه المسألة الأصولية من غير تأخير ولهذا أدخل فاء التعقيب في الجواب . والنسف القلع . وقال الخليل : التطيير والإذهاب كأنه يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها . وحاصل الجواب أن كل بطلاً لا يلزم أن يكون ذبولياً بل قد يكون رفعياً . والضمير في ﴿ فيذرها ﴾ للمضاف المحذوف أي فيدع مقارها ومراكزها وهو للأرض للعلم بها كقوله : ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ [فاطر : 45] والقاع المستوي من الأرض . وقيل : المكان المطمئن . وقيل : مستنقع الماء .

(96/503)

والصفصف الأرض الملساء المستوية . وقيل : التي لا نبات فيها . والأمت النتوّ اليسير . وقيل : التلال الصغار . قالوا : العوج بالكسر في المعاني وكأنه سبحانه نفى العوج الذي يدق

عن الإحساس ولا يدرك إلا بالقياس الهندسي . وإذا كان هذا النوع من العوج الاعتباري منتفياً فكيف بالعوج الحسي ! وقد يستدل بالآية على أن الأرض يومئذ تكون كرة حقيقة إذ لو كانت مضلعة وقعت بين الأضلاع فصول مشتركة فيعوج الامتداد القائم عليها هناك . ثم إنه تعالى وصف ذلك اليوم بأن الخلائق فيه ﴿ يتبعون الداعي ﴾ قيل : هو النفخ في الصور وقوله : ﴿ لا عوج له ﴾ أي لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل . وقيل : إن إسرافيل أو ملكاً آخر يقوم على صخرة بيت المقدس ينادي : أيها العظام النخرة والأوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة ، قومي إلى ربك للحساب والجزاء فلا يعوج له مدعوّ بل يتبعون صوته من غير انحراف . ﴿ وخضعت الأصوات للرحمن ﴾ خفضت من شدة الفزع ﴿ فلا تسمع ﴾ أيها السامع ﴿ إلا همساً ﴾ وهو الصوت الخفي . وذلك أن الجن والإنس علموا أن لا مالك لهم سواه ، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه . وعن ابن عباس والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس وطء الأقدام إلى المحشر . قوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يصلح أن يكون " من " منتصباً على المفعولية وأن يكون مرفوعاً على البدلية بتقدير حذف المضاف أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ﴿ ورضي له ﴾ أي لأجله ﴿ قولاً ﴾ .

قال الإمام فخر الدين الرازي : الاحتمال الأول أولى لعدم التزام الإضمار ، ولأن درجة الشافع درجة عظيمة فلا تصلح ولا تحصل إلا لمن أذن له فيها وكان عند الله مرضياً . فلو حملنا الآية على ذلك كان من إيضاح الواضحات بخلاف ما لو حملت على المشفوع . وأقول : الاحتمالان متقاربان متلازمان لأن المشفوع لا تقبل الشفاعة في حقه إلا إذا أذن الرحمن لأجله فيعود إلى الثاني . قالت المعتزلة : الفاسق غير مرضي عند الله تعالى فوجب أن لا ينتفع بشفاعة الرسول . وأجيب بأنه قد رضي لأجله قولاً واحداً من أقواله وهو كلمة الشهادة . قالوا : هب أن الفاسق قد رضي الله قولاً لأجله ، فلم قلتم إن الإذن حاصل للشافع في حقه ؟ والجواب أنا أيضاً نمنع من أن الإذن غير حاصل في حقه على أنه قال في موضع آخر ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] فلم يعتبر إلا أحد القيدين . ثم أخبر عن نهاية علمه بقوله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ . الضمير للذين يتبعون الداعي أي يعلم ما يقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ﴿ ولا يحيطون ﴾ بمعلومه ﴿ علماً ﴾ . وقال الكلبي ومقاتل : الضمير للشافعين من الملائكة والأنبياء كما مر في آية الكرسي . وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له أي يعلم ما كان قبل خلقهم وما كان منهم بعد خلقهم من أمر الآخرة والثواب العقاب وإنهم لا يعلمون شيئاً من ذلك فكيف يصلحون للمعبودية .

ثم ذكر غاية قدرته فقال : ﴿ وعنت الوجوه ﴾ أي زلت رقاب الممكنات منقادين لأمره كالأسارى . عنا يعنو عنوّاً إذا صار أسيراً . وقيل : أراد وجوه العصاة في القيامة كقوله : ﴿ سيئت وجوه الذي كفروا ﴾ [الملك : 27] ولعله خص الوجوه بالذكر لأن أثر الذل والانكسار فيها أبين وأظهر ، قال جار الله : ﴿ وقد خاب ﴾ وما بعده اعتراض أي كل من ظلم فهو خائب خاسر . ولأهل السنة أن يخصوا الظلم ههنا بالشرك أو يعارضوا هذا العموم بعمومات الوعد . من قرأ ﴿ فلا يخاف ﴾ بالرفع فعلى الاستئناف أي فهو لا يخاف كقوله : ﴿ فينتقم الله منه ﴾ [المائدة : 95] ومن قرأ ﴿ فلا يخف ﴾ فمعناه فليأ من له لأن النهي عن الخوف أمر بالأمن . من فسر الظلم بأنه الأخذ فوق حقه بالنقص من حقه كصفة المطففين فيقدر مضافاً محذوفاً أي فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم لأنه لم يظلم ولم يهضم ، ومن فسر الظلم بأنه العقاب لا على جريمة والهضم بأنه النقص من الثواب فلا يحتاج إلى تقدير المضاف . قال أبو مسلم : الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من التعظيم لأن الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثواباً إلا إذا قارنه التعظيم .

قال جار الله : ﴿ وكذلك ﴾ عطف على قوله : ﴿ كذلك نقص ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال وعلى نهجه ، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله عربياً لأن العرب أصل وغيرهم تبع لأن النبي عربي . ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ كررناه وفصلناه ويدخل في ضمنه الفرائض والمحارم لأن الوعيد يتعلق بترك أحدهما وبفعل الآخر ﴿ لعلهم يتقون أن يحدث لهم ذكراً ﴾ حمل جار الله الأول على إرادة ترك المعاصي والثاني على فعل الخير والطاعة ، لأن الذكر قد يطلق على الطاعة والعبادة . قلت : لا ريب أن القرآن ينفر عن السيئات ويبعث على الطاعات من حيث إن فهم معانيه يؤدّي إلى ذلك ، وإنما قدم الأول على الثاني لأن التخلية مقدمة على التحلية . ويحتمل أن تكون التقوى عبارة عن فعل الخيرات وترك المنكرات جميعاً . والذكر يكون محمولاً على ضد النسيان أي إن نسوا شيئاً من التروك والأفعال أحدث لهم ذكراً إذا تأملوا معانية . وكلمة " أو " على الأول للتخيير والإباحة لا للتنافي ، وعلى الثاني يجوز أن تكون للتنافي . وقيل : أراد أنزلنا القرآن ليتقوا فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يوجب القرآن لهم ذكراً أي شرفاً ومنصباً كقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] وعلى التقديرين يكون في إنزال القرآن نفع . ثم عظم شأن القرآن من وجه آخر وهو عظمة شأن منزلة قائلاً ﴿ فتعالى الله

الملك الحق ﴾ ارتفع صفاته عن صفات المخلوقين أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغي وأنه منزه عن الانتفاء والتضرر بطاعاتهم ومعاصيهم .

(100/503)

ومعنى الحق قد مر في البسملة . قال جار الله : فيه استعظام له ولما يصرّف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه وغير ذلك كما يجري عليه أمر ملكوته . قال أبو مسلم : إن قوله : ﴿ ويسئلونك عن الجبال ﴾ إلى ههنا كلام تام . وقوله : ﴿ ولا تعجل ﴾ خطاب مستأنف . وقال آخرون : إنه صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن يفوته شيء فيقرأ مع الملك ، فإنه تعالى حين شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين أنه سبحانه متعال عن الانتفاع والتضرر بالطاعات والمعاصي . وأنه موصوف بالملك الدائم والعز بالباقي ، وكل من كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي وما يتعلق بصلاح العباد في المعاش والمعاد . قال : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ لأنه حصل لك الأمان من السهو والنسيان ﴿ من قبل أن يقضي إليك وحيه ﴾ أي من قبل أن تتم قراءة جبريل ونحوه قوله ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : 16] قاله مقاتل والسدي وابن عباس في رواية عطاء . وقال مجاهد وقتادة : أراد ولا تعجل بالقرآن فتقرأ

على أصحابك من قبل أن يوحى إليك بيان معانية أي لا تبلغ ما كان مجملاً حتى يأتيك البيان. وقال الضحاك: إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا: يا محمد، أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة أن اليهود قد غلبوا فنزلت هذه الآية. أي لا تعجل بنزول القرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل ومن جبرائيل ومنه إليك. وعن الحسن: أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: زوجي لطم وجهي فقال: بينكما القصاص فنزلت الآية فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص. وإنما نشأت هذه الأقوال لأن قوله: ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ يحتمل التعجيل بقراءته في نفسه، أو في تأديته إلى غيره، أو في اعتقاده ظاهره، أو في تعريف الغير ما يقتضيه الظاهر. وقوله: ﴿ من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ احتمل أن

يراد من قبل أن يقضى إليك تمامه، أو من قبل أن يقضى إليك بيانه فقد يجوز أن يحصل عقيبه استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات والمبينات ويؤكد هذه المعاني قوله: ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ لأن معرفة البيان علم زائد على معرفة الإجمال. والظاهر أن

هذا الاستعجال كان أمراً اجتهادياً وكان الأولى تركه فلذلك نهى عنه . قال جار الله : هذا الأمر متضمن للتواضع لله والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم أي علمني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدباً جميلاً ما كان عندي فزدني علماً إلى علم . ومن فضائل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ما أمر بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم .

وفيه إشارة إلى أن أسرار القرآن غير متناهية ، اللّهم إن هذا العبد الضعيف معترف بقصوره ونقصانه فأسألك مما سألك به نبيك أن ترزقني بتبعيته علماً ينفعني في الدارين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 562.574 ﴾

(102/503)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى ﴾ القلب ﴿ أن أسر بعبادي ﴾ وهم صفات القلب من الأخلاق الحميدة سر بهم من مصر البشرية إلى بحر الورحانية . ﴿ فاضرب لهم ﴾ بعصا الذكر ﴿ طريقاً يبساً ﴾ من ماء الهوى وطين الصفات الحيوانية وباقي التأويل كما مر في " يونس " ﴿ ونزلنا عليكم ﴾ منّ صفاتنا وسلوى أخلاقنا فاتصفوا بطيبات

أخلاقنا ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ بإفشاء أسرار الربوبية إلى غيرنا كمن قال : أنا الحق وسبحاني . فإن الحالات لا تصلح للمقاولات . ﴿ وإني لغفار لمن ﴾ رجع عن الطغيان ﴿ وآمن ﴾ بالربوبية ﴿ وعمل صالحاً ﴾ في مقام العبودية ﴿ ثم اهتدى ﴾ فتحقق أن حضرة الربوبية منزهة عن دنس الوهم والخيال ومقام الوصال مباين للقيل والقال . ﴿ وعجلت إليك ﴾ فيه أن الشوق إذا غلب انقطع العلائق وأن مطلوب السائل لا ينبغي أن يكون إلا رضا الله . ﴿ قد فتنّا قومك من بعدك ﴾ فيه أن فتنة الأمة والمريد مقرونة بالنبي والشيخ . ﴿ بملكنا ﴾ أي بإرادتنا ومشيئتنا ولكن بإرادة الله ومشيئته . ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ من غير اختيار منه ولكن باضطرار من القدر ﴿ يا ابن أم ﴾ قيل خاطبه بذلك ليذكره قول الملائكة : يا ابن النساء الحيض ما للتراب ورب الأرباب . ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴾ فيه أن الكرامة لأهل الكرامة كرامة ولأهل الغرامة استدراج وفتنة فيصرفونها في الباطل والطبيعة لا في الحق والحقيقة . قوله : ﴿ لا مساس ﴾ فيه معارضة بنقيض مقصود من أراد الجمعية والغلبة واتباع الناس إياه ، فعدت بالتفرد والتوحش والنفار عن الخلق ﴿ زرقا ﴾ إن الوجه أشرف أعضاء الإنسان والعين أشرف أعضاء الوجه ، وزرق العين دلالة على خروجها عن الاعتدال ، وإذا كان أشرف الأعضاء خارجاً عن الاعتدال فما ظنك بغيرها ؟ وكذا بالأخلاق التابعة للأمزجة . ﴿ وعنت الوجوه ﴾ أي كل جهة بها يستند الممكن إلى الواجب . ﴿ يتبعون

الداعي ﴾ لأن كل ناس تدعى بإمامهم فيتبعونه ألبتة وأهل الله لا يفرون إلا إلى الله في قوله :

﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾ [يونس : 25] وعلى الله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 574. 575 ﴾

(103/503)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر سبحانه بقصة موسى عليه السلام ما أشار إليه أول السورة بما هو عليه من الحلم والتأني على عباده ، والإمهال لهم فيما هم عليه من النقص بالنسيان للعهود والنقض للمواثيق ، وأتبعها ذكر مدح هذا الذكر الذي تأدت إلينا به ، وذم من أعرض عنه ، وختمه بما عهد إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمره نهياً وأمراً ، أتبع ذلك سبحانه قصة آدم عليه

السلام تحذيراً من الركون إلى ما يسبب النسيان ، وحثاً على رجوع من نسي إلى طاعة الرحمن ، وبياناً لأن ذلك الذي قرره من حلمه وإمهاله عادته سبحانه من القدم ، وصفته التي كانت ونحن في حيز العدم ، وأنه جبل الإنسان على النقص ، فلو أخذهم بذنوبهم ما ترك عليها من دابة ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ [الرعد : 37] أو ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ مؤكداً لما تقدم فيه وعهد به من أمر القرآن ، ومحذراً من الإخلال بذلك ولو على وجه النسيان ، ومنجزاً لما وعد به من قص أنباء المتقدمين مما يوافق هذا السياق : ﴿ ولقد عهدنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ إلى آدم ﴾ أبي البشر الذي أطلعناه على كثير منها في النهي عن الأكل من الشجرة ﴿ من قبل ﴾ أي في زمن من الأزمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم في هذه السورة ذكر نسيانهم وإعراضهم ﴿ فنسي ﴾ عهدنا وأكل منها مع علمه من تلك العظمة بما لا ينبغي أن ينسى معه ذلك العهد المؤكد بذلك الجلال ، فعددنا عليه وقوعه في ذلك المنهيّ ناسياً ذنباً لعلو رتبته عندنا ، فهو من باب " حسنات الأبرار سيئات المقربين " فكيف بما فوق ذلك !

﴿ ولم نجد ﴾ بالنظر إلى ما لنا من العظمة ﴿ له عزماً ﴾ أي قصداً صلباً ماضياً وإرادة نافذة لا تردد فيها كإرادات الملائكة عليهم السلام ، والمعنى أنه لم يتعلق علمنا بذلك موجوداً ، ومع ذلك عفونا عنه ولم نزحزحه عن رتبة الاصطفاء .

ولما كان المقصود من السورة – كما سلف – الإعلام بالحلم والأناة والتلطف بالنائي والقدرة على المعرض ، ذكر فعله آدم عليه السلام هذه في هذه السورة بلفظ المعصية مع التصريح بأنها على وجه النسيان ، وذكر ذلك أولاً مجملاً ثم أتبعه تفصيله ليكون ذلك مذكوراً مرتين ، تأكيداً للمعنى المشار إليه ، تقريراً وتحذيراً من الوقوع في منهيّ ، وإرشاداً لمن "غلب عليه" طبع النقص إلى المبادرة إلى الندم وتعاطي أسباب التوبة ليتوب الله عليه ما فعل بآدم عليه السلام فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكر هذا واذكر حين ﴿ قلنا ﴾ بما لنا من العظمة ، أي اذكر قولنا في ذلك الوقت ﴿ للملائكة ﴾ أي المجبولين على مضي العزم والتصميم على القصد من غير مانع تردد ولا عائق فتور ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ الذي خلقته بيدي ، فلم نأمرهم بذلك إلا بعد أن اصطفيناه ونحن عالمون بما سيقع منه ، وأنه لا يقدح في رتبة اصطفائه ، فإن الحلم والكرم من صفاتنا ، والرحمة من شأننا ، فلا تيأس من عودنا بالفضل والرحمة على من بالغ في مقاطعتنا من قومك الذين وصفناهم باللدد

﴿ فسجدوا ﴾ أي الملائكة ﴿ إلا إبليس ﴾ الذي نسب الله إلى الجور والإخلال بالحكمة فكفر فأيس من الرحمة وسلب الخير فأصر على إضلال الخلق بالتلبيس ، فكأنه قيل : ما كان من حاله في عدم سجوده ؟ فقيل : ﴿ أبى ﴾ أي تكبر على آدم فعصى أمر الله ﴿ فقلنا ﴾ بسبب ذلك بعد أن حلمنا عنه ولم نعاجله بالعقوبة : ﴿ يا آدم إن هذا ﴾

الشيطان الذي تكبر عليك ﴿ عدو لك ﴾ دائماً لأن الكبر الناشىء عن الحسد لا يزول ﴿ ولزوجك ﴾ لأنها منك ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ أي لا تصغيا إليه بوجه فيخرجكما ، ووجه النهي إليه والمراد : هما ، تنبيهاً على أن لها من الجلالة ما ينبغي أن تصان عن أن يتوجه إليها نهي ، وأسند الإخراج إليه لزيادة التحذير والإبلاغ في التنفير ، وزاد في التنبيه بقوله : ﴿ من الجنة ﴾ أي فإنه لا يقصر في ضركما وإرادة إنزالكما عنها .

(105/503)

ولما نص سبحانه على شركتها له في الإخراج فكان من المعلوم شركتها له في آثاره ، وكانت المرأة تابعة للرجل ، فكان هو المخصوص في هذه الدار بالكل في الكد والسعي ، والذب والرعي ، وكان أغلب تعبه في أمر المرأة ، أفرد بالتحذير من التعب لذلك وعدّاً لتعبها بالنسبة إلى تعبه عدماً ، وتعريفاً بأن أمرها بيده ، وهو إن تصلب قادها إلى الخير ، وإلا قادته إلى الضير ، وعبر عن التعب بالشقاء زيادة في التحذير منه فقال : ﴿ فتشقى ﴾ أي فتتعب ، ولم يرد شقاوة الآخر ، لأنه لو أرادها ما دخل الجنة بعد ذلك ، لأن الكلام المقدر بعد الفاء خبر ، والخبر لا يخلف .

ثم علل شقاوته على تقدير الإخراج بوصفها بما لا يوجد في غيرها من الأقطاب التي يدور

علها كفاف الإنسان ، وهي الشبع والريّ والكسوة والكن .

ذاكراً لها بلفظ النفي لنقائضها ليطرق سمعه بأسماء أصناف الشقوة التي حذره منها ليصير بحيث يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها ، فإذا مضت عليه القدرة الباهرة علم أنه لا يغني حذر من قدر ، فقال : ﴿ إن لك ﴾ أي علينا ﴿ ألا تجوع فيها ﴾ أي يوماً ما ﴿ ولا تعرى ﴾ فلا يتجرد باطنك ولا ظاهرك ﴿ وأنك لا تظمؤا ﴾ بالتهاب القلب ﴿ فيها ولا تضحى ﴾ أي لا يكون بحيث يصيبك حر الشمس ، والمعنى أنه لا يصيبك حر في الباطن ولا في الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 50.52 ﴾

(106/503)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ وإنك ﴾ بالكسر : أبو بكر وحماد والخراز ونافع . الباقون بالفتح عطفاً على ﴿ أن لا تجوع ﴾ ولا يلزم منه دخول " إن " المكسورة على المفتوحة للفصل بالخبر ، ولأنه يجوز في المعطوف ما لا يجوز في المعطوف عليه ﴿ أعمى ﴾ بالإمالة . حمزة وعلي وخلف ﴿ حشرتني ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير . ﴿ ترضى ﴾ مبيناً

للمفعول : علي وأبو بكر وحماد والمفضل ﴿ زهرة ﴾ بفتح الهاء : قتيبة وسهل ويعقوب . الآخرون بسكونها . وقرأ حمزة وعلي وخلف هذه السورة وكل سورة آياتها على الياء بالإمالة المفرطة وإن شاء بين الفتح والكسر .

الوقوف : ﴿ عزماً ﴾ 5 ﴿ إلا إبليس ﴾ ط ﴿ أبى ﴾ 5 ﴿ فتشقى ﴾ 5 ﴿ ولا تعرى ﴾ 5 ، لمن قرأ ﴿ وإنك ﴾ بالكسر ﴿ ولا تضحى ﴾ 5 ﴿ لا يبلى ﴾ 5 ﴿ الجنة ﴾ ز لنوع عدول عن ذكر حال اثنين إلى بيان فعل من هو المقصود ﴿ فغوى ﴾ 5 ص ﴿ وهدى ﴾ 5 ﴿ عدوّ ﴾ ج لابتداء الشرط مع الفاء ﴿ ولا يشقى ﴾ ، 5 ﴿ يوم القيامة أعمى ﴾ 5 ﴿ بصيراً ﴾ 5 ﴿ فنسيتها ﴾ ج لعطف المختلفين ﴿ تنسى ﴾ 5 ﴿ يآت ربه ﴾ ط ﴿ وأبقى ﴾ 5 ﴿ مساكنهم ﴾ ط ﴿ النهي ﴾ 5 ﴿ مسمى ﴾ 5 ط ﴿ غروبها ﴾ ج لعطف الجملتين مع اختلاف النظم ﴿ يرضى ﴾ 5 ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ ط ﴿ وأبقى ﴾ 5 ﴿ عليها ﴾ ط ﴿ رزقاً ﴾ ط ﴿ نرزقك ﴾ ط ﴿ للتقوى ﴾ 5 ﴿ من ربه ﴾ ط ﴿ الأولى ﴾ 5 ﴿ ونخزى ﴾ 5 ﴿ فتربصوا ﴾ ج لسين التهديد مع الفاء ﴿ اهتدى ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 576 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن : أولها في سورة البقرة ثم في الأعراف ثم في الحجر ثم في الإسراء ثم في الكهف ، ثم ههنا .

واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً .

أحدها : أنه تعالى لما قال : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه : 99] ثم إنه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازاً للوعد في قوله : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ .

وثانيها : أنه لما قال : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه : 113] أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال : إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا : ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ ثم إنه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم .

وثالثها : أنه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114

] ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فإنه بعدما عهد الله إليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي ، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان .

(108/503)

ورابعها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالقرءان مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] دل على أنه كان في الجد في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالإفراط وصف آدم بالتفريط في ذلك فإنه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط ليعلم أن البشر لا ينفك عن نوع زلة .

وخامسها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ ﴾ ضاق قلبه وقال في نفسه : لولا أني أقدمت على ما لا ينبغي وإلا لما نهيت عنه فقيل له : إن كنت فعلت ما نهيت عنه فإنما فعلته حرصاً منك على العبادة ، وحفظاً لأداء الوحي وإن أباك أقدم على ما لا ينبغي للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره ، أما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ من قَبْلُ ﴾ فلا شك أن المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهي منه كما يقال في

أوامر الملوك ووصاياهم أشار الملك إليه وعهد إليه .

قال المفسرون : عهدنا إليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها ، وفي قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وجوه .

أحدها : من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد في القرآن .

وثانيها : قال ابن عباس : من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا إليه أن لا يأكل منها .

وثالثها : أي من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن ، أما قوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة ، ونعيد ههنا منه شيئاً قليلاً ، وفي النسيان قولان : أحدهما : المراد ما هو نقيض الذكر ، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان ، وكان الحسن رحمه الله يقول : والله ما عصى قط إلا بنسيان .

(109/503)

والثاني : أن المراد بالنسيان الترك وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل من ثمرتها ، وقرىء : فنسي أي فنساه الشيطان ، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال : أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال : أقدم عليها مع التأويل ، والكلام فيه قد تقدم في سورة

البقرة ، وأما قوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزماً وأن يكون نقيض العدم كأنه قال : وعدمنا له عزماً .

البحث الثاني : العزم هو التصميم والتصلب ، ثم قوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ يحتمل ولم نجد له عزماً على القيام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب ، ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزماً على ترك المعصية أو لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة ، أو لم نجد له عزماً على الاحتياط في كيفية الاجتهاد إذا قلنا : إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد .

وأما قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى ﴾ فهذا يشتمل على مسائل : إحداها : أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم .

وثانيتها : أنه ما معنى السجود .

وثالثتها : أن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ؟ وإن لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأي شيء صار مأموراً بالسجود ؟ ورابعتها : أن هذا يدل على أن آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ وخامستها : أن قوله في صفة إبليس أنه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الإباء وأنه هل كان كافراً ابتداء أو كفر بسبب ذلك .

واعلم أن هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة ، أما قوله : ﴿ فَقُلْنَا

يائادم إِنِ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ ففيه سؤالات :

الأول : ما سبب تلك العداوة ؟ الجواب من وجوه : أحدها : أن إبليس كان حسوداً فلما رآى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده فصار عدواً له .

(110/503)

وثانيها : أن آدم كان شاباً عالماً لقوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ، وإبليس كان شيخاً جاهلاً لأنه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل ، والشيخ الجاهل أبداً يكون عدواً للشاب العالم .

وثالثها : أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى .

الجواب : لما كان بوسوسته هو الذي فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك .

السؤال الثالث : لم أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما في الفعل .

الجواب من وجهين : أحدهما : أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم

كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة.

الثاني: أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة، وروي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه أما قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تضحى﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى:

قرىء وإنك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع فيها، فإن قيل: أن لا تدخل على أن فلا يقال أن أن زيداً منطلق والواو نائبة عن أن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ قلنا: الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن أن، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع أن وأن.

المسألة الثانية:

الشبع والري والكسوة والإكتنان في الظل هي الأقطاب التي يدور عليها أمر الإنسان.

فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له في الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفي لأضدادها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيئاً من أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يبالغ في الاحتراز عن السبب الذي يوقعه فيها ، وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور في قوله : ﴿ فتشقى ﴾ . انتهى ا . هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 22 صـ 106 . 108 ﴾

(112/503)

وقال ابن العربى :

تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا فِي مِثْلِهَا مِنْ أَحْكَامٍ ؛ بَيْدَ أَنَّهُ كُنَّا فِي الْإِمْلَاءِ الْأَوَّلِ قَدْ وَعَدْنَا فِي قَوْلِهِمْ : إنَّهُ أَكَلَهَا نَاسِيًا بِبَيَانِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَهَا نَحْنُ بِقُوَّةِ اللَّهِ نَنْتَقِضُ مِنْ عُهْدَةِ الْوَعْدِ ، فَنَقُولُ : كَمَا قَالَ فِي تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِمَنْزِلَتِهِمْ مِمَّا يَنْسِبُ الْجَهَلَةُ إلَيْهِمْ مِنْ وُقُوعِهِمْ فِي الذُّنُوبِ عَمْدًا مِنْهُمْ إلَيْهَا ، وَاقْتِحَامًا لَهَا مَعَ الْعِلْمِ بِهَا ، وَحَاشَ لِلَّهِ ، فَإِنَّ الْأَوْسَاطَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَتَوَرَّعُونَ عَنْ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ بِالنَّبِيِّينَ ، وَلَكِنَّ الْبَارِئَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحُكْمِهِ النَّافِذِ ، وَقَضَائِهِ السَّابِقِ ، أَسْلَمَ آدَمَ إلَى الْمُخَالَفَةِ ، فَوَقَعَ فِيهَا مُتَعَمِّدًا نَاسِيًا ، فَقِيلَ فِي

تَعَمُّدِهِ : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ .

وَقِيلَ فِي بَيَانِ عُذْرِهِ : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ .

وَنَظِيرُهُ مِنْ التَّمْثِيلَاتِ أَنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ لَا يَدْخُلُ دَارًا أَبَدًا ، فَيَدْخُلَهَا مُتَعَمِّدًا نَاسِيًا لِيَمِينِهِ ، أَوْ مُخْطِئًا فِي تَأْوِيلِهِ ، فَهُوَ عَامِدٌ نَاسٍ ، وَمُتَعَلِّقُ الْعَمْدِ غَيْرُ مُتَعَلِّقِ النِّسْيَانِ ، وَجَازَ لِلْمَوْلَى أَنْ يَقُولَ فِي عَبْدِهِ : عَصَى تَحْقِيرًا وَتَعْذِيبًا ، وَيَعُودُ عَلَيْهِ بِفَضْلِهِ فَيَقُولُ : نَسِيَ تَنْزِيهًا ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يُخْبِرَ بِذَلِكَ عَنْ آدَمَ ، إلَّا إذَا ذَكَرْنَاهُ فِي أَثْنَاءِ قَوْلِ اللَّهِ عَنْهُ ، أَوْ قَوْلِ نَبِيِّهِ .

(113/503)

وَأَمَّا أَنْ نَبْتَدِئَ فِي ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِنَا فَلَيْسَ بِجَائِزٍ لَنَا فِي آبَائِنَا الْأَدْنَيْنِ إلَيْنَا ، الْمُمَاثِلِينَ لَنَا ، فَكَيْفَ بِأَبِينَا الْأَقْدَمِ الْأَعْظَمِ ، النَّبِيِّ الْمُقَدَّمِ ، الَّذِي عَذَرَهُ اللَّهُ ، وَتَابَ عَلَيْهِ ، وَغَفَرَ لَهُ .

وَوَجْهُ الْخَطَأِ فِي قِصَّةِ آدَمَ غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ ، وَلَكِنَّ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ تَتَصَرَّفُ ، وَالْمُدْرَكُ مِنْهَا عِنْدَنَا أَنْ يُذْهَلَ عَنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ ، كَمَا ضَرَبْنَا الْمَثَلَ فِي دُخُولِ الدَّارِ .

الثَّانِي : أَنْ يُذْهَلَ عَنْ جِنْسٍ مَنْهِيٍّ مِنْهُ ، وَيَعْتَقِدَهُ فِي عَيْنِهِ ؛ إذْ قَالَ اللَّهُ لَهُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

الثَّالِثُ : أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ النَّهْيَ لَيْسَ عَلَى مَعْنَى الْجَزْمِ الشَّرْعِيِّ لِمَعْنًى مُغَيَّبٍ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ : ﴿ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قُلْنَا : قَدْ قِيلَ مَعْنَاهُ مِنْ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِكُمَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ .

وَالصَّحِيحُ هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ ، وَهُوَ الَّذِي نَسِيَ مِنْ تَحْذِيرِ اللَّهِ لَهُ ، أَوْ تَأْوِيلُهُ فِي تَنْزِيلِهِ ، وَرَبُّك أَعْلَمُ كَيْفَ دَارَ الْحَدِيثُ .

وَالتَّعْيِينُ يَفْتَقِرُ إلَى تَأْوِيلِهِ ، وَكَذَلِكَ قُلْنَا إنَّ النَّاسِيَ فِي الْحِنْثِ مَعْذُورٌ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(114/503)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ . . . ﴾

فيه تأويلان :

أحدهما : يعني فترك أمر ربه ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه نسي من النسيان والسهو ، قال ابن عباس : إنما أخذ الإِنسان من أنه عهد إليه فنسي .

﴿ . . . وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : صبراً ، قاله قتادة .

الثاني : حفظاً قاله عطية .

الثالث : ثباتاً . قال ابن أمامة : لو قرنت أعمال بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه على حلمهم ، وقد قال الله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ .

الرابع : عزماً في العودة إلى الذنب ثانياً .

قوله عز وجل : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد . ولم يقل : فتشقيا لأمرين :

أحدهما : لأنه المخاطب دونها .

الثاني : لأنه الكادّ والكاسب لها ، فكان بالشقاء أخص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(115/503)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

(116/503)

قال الطبري المعنى وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آيا تي ويخالفوا رسلي ويطيعوا إبليس فقدماً فعل ذلك أبوهم آدم ع وهذا التأويل ضعيف ، وذلك أن يكون ﴿ آدم ﴾ مثالاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، و﴿ آدم ﴾ إنما عصى بتأويل ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم وأما الظاهر في هذه الآية ، إما ان يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم أن لا يعجل بالقرآن مثل له بنبي قبله عهد إليه ﴿ فنسي ﴾ فعوقب لتكون أشد في التحذير وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم . و" العهد " هنا في معنى الوصية . و" نسي " معناه ترك ، والنسيان الذهول لكن هنا أنه لا يتعلق بالناسي عقاب ، وقرأ الأعمش " فنسي " بسكون الياء ووجهها طلب الخفة ، و" العزم " المضي على المعتقد في أي شيء كان ، وآدم عليه السلام كان معتقداً لأن لا يأكل من الشجرة لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده ، وعبر بعض المفسرين عن العزم هنا بالصبر وبالحفظ وبغير ذلك مما هو أعم من حقيقة العزم والشيء الذي عهد إلى آدم هو أن يقرب الشجرة وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له ، وقال أبو أمامة لو أن أحلام بني آدم وضعت منذ خلق الله إلى يوم القيامة ووضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم ، وقد قال الله له ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ ابتداء قصة ، والعامل ، في ﴿ إذ ﴾ فعل

مضمر وقد تقدم استيعاب هذه القصة لكن نذكر من ذلك ما تقتضيه ألفاظ هذه الآية ، فالملائكة قيل كان جميعهم مأمور بذلك وقيل بل فرقة فاضلة منهم عددهم اثنان وعشرون ، و" السجود " الذي أمروا به سجود كرامة لآدم وعبادة لله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ إلا إبليس ﴾ الاستثناء متصل في قول من جعل إبليس من الملائكة ، ومنقطع في قول من قال هو من قبيلة غير الملائكة يقال لها الجن . وقوله تعالى : ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ أي لا يقع منكما طاعة

(117/503)

له في إغوائه فيكون ذلك سبب خروجكما ﴿ من الجنة ﴾ ثم خصص بقوله ﴿ فتشقى ﴾ من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود في الكلام ، وقيل بل ذلك لأن الله تعالى جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيز الرجال وروي أن آدم لما أهبط هبط معه ثور أحمر فكان يحرك ويمسح العرق فهذا هو الشقاء الذي خوف منه .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) ﴾

المعنى ﴿ إن لك ﴾ يا آدم نعمة تامة وعطية مستمرة أن لا يصيبك جوع ولا عري ولا ظمأ ولا بروز للشمس يؤذيك وهو الضحاء ، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر " وإنك لا تظمأ

" بكسر الألف ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم " وأنك " بفتح الألف ، وجعل الله تعالى الجوع في هذه الآية مع العري والظمأ مع الضحاء وكأن عرف الكلام أن يكون الجوع مع الظمأ المتناسب والعري مع الضحاء لأنها تتضاد إذ العري يمس بسببه البرد والحر يفعل ذلك بالضاحي ، وهذه الطريقة مهيع في كلام العرب أن تفرق النسب ومنه قول امرئ القيس : [الطويل]

كأني لم أركب جواداً للذة . . . ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزقّ الروي ولم أقل . . . لخيلي كري كرة بعد إقفال

وقد ذهب بعض الأدباء إلى أن بيتي امرئ القيس حافظة لنسب وان ركوب الخيل للصيد وغيره من الملاذ يناسب تبطن الكاعب ، ومن الضحاء قول الشاعر : [الطويل]

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت . . . فيضحي وأما بالعشيِّ فيخصر . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(118/503)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد عَهِدْنا إلى آدم ﴾

أي : أمرناه وأوصيناه أن لا يأكل من الشجرة ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإِيمان بي ، وهم الذين ذكرهم في قوله : ﴿ لعلَّهم يَتَّقون ﴾ ، والمعنى : أنهم إِن نقضوا العهد ، فإن آدم قد عَهِدنا إِليه ﴿ فَنَسِيَ ﴾ .

وفي هذا النسيان قولان .

أحدهما : أنه التَّرك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والمعنى : ترك ما أُمِر به .

والثاني : أنه من النسيان الذي يخالف الذِّكْر ، حكاه الماوردي .

وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : "فَنُسِّيَ" برفع النون وتشديد السين .

قوله تعالى : ﴿ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾ العَزْمُ في اللغة : توطينُ النفس على الفعل .

وفي المعنى أربعة أقوال .

أحدها : لم نجد له حفظاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، والمعنى : لم يحفظ ما أُمِر به .

والثاني : صبراً ، قاله قتادة ، ومقاتل ، والمعنى : لم يصبر عمَّا نُهي عنه .

والثالث : حزماً ، قاله ابن السائب .

قال ابن الأنباري : وهذا لا يُخرج آدم من أُولي العزم .

وإِنما لم يكن له عزم في الأكل فحسب .

والرابع : عزماً في العَوْد إِلى الذَّنب ، ذكره الماوردي .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [البقرة : 34] إلى قوله تعالى : ﴿ فلا يخرجنّكما من الجَنَّة فتشقى ﴾ قال المفسرون : المراد به نَصَب الدُّنيا وتعبها من تكلُّف الحرث والزرع والعجن والخَبزْ وغير ذلك .

قال سعيد بن جبير : أُهبط إلى آدم ثور أحمر ، فكان يعتمل عليه ويمسح العرق عن جبينه ، فذلك شقاؤه .

قال العلماء : والمعنى : فتشقَيا ؛ وإنما لم يقل : فتشقيا ، لوجهين .

أحدهما : أن آدم هو المخاطَب ، فاكتفى به ، ومثله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ [ق : 17] ، قاله الفراء .

والثاني : أنه لما كان آدم هو الكاسب ، كان التعب في حَقِّه أكثر ، ذكره الماوردي .

(119/503)

قوله تعالى : ﴿ إن لك ألاَّ تجوع فيها ولا تَعْرى ﴾ قرأ أُبيّ بن كعب : "لا تُجاع ولا تُعرى" بالتاء المضمومة والألف .

﴿ وأَنَّكَ لا تظمأُ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "وأَنَّكَ" مفتوحة الألف .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : "وإِنَّكَ" بكسر الألف .

قال أبو علي : من فتح ، حمله على أن لك أن لا تجوع ، وأن لك أن لا تظمأ ، ومن كسر ، استأنف .

قوله تعالى : ﴿ لا تَظْمَأُ فيها ﴾ أي : لا تعطش .

يقال : ظمئ الرجل ظَمَأً ، فهو ظمآن ، أي : عطشان .

ومعنى ﴿ لا تَضْحَى ﴾ لا تبرز للشمس فيصيبك حَرُّها ، لأنه ليس في الجنة شمس .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(120/503)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾

قرأ الأعمش باختلاف عنه "فَنَسْيَ" بإسكان الياء وله معنيان : أحدهما : ترك ؛ أي تَرَكَ الأمر والعهد ؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه "نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ" .

وثانيهما قال ابن عباس : "نسي" هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسي .

قال ابن زيد : نسي ما عهد الله إليه في ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس .

وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذاً بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعاً .

ومعنى "مِنْ قَبْلُ" أي من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهي عنها .

والمراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم ؛ أي إن نَقَضَ هؤلاء العهد فإن آدم أيضاً عهدنا إليه فنسي ؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري .

أي وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي ، ويخالفوا رسلي ، ويطيعوا إبليس ، فقدماً فعل ذلك أبوهم آدم .

قال ابن عطية : وهذا التأويل ضعيف ، وذلك كون آدم مثالاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما الظاهر في الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألا يعجل بالقرآن ، مثل له بنبيّ قبله عهد إليه فنسي فعوقب ؛ ليكون أشد في التحذير ، وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعهد هاهنا في معنى الوصية ؛ "ونسي" معناه ترك ؛ ونسيان الذهول لا يمكن هنا ؛ لأنه لا يتعلق بالناسي عقاب .

والعزم المضي على المعتقد في أي شيء كان ؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من

الشجرة لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده .

والشيء الذي عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة ، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدوّ له .

(121/503)

واختلف في معنى قوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ فقال ابن عباس وقتادة : لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة ، ومواظبة على التزام الأمر .

قال النحاس : وكذلك هو في اللغة ؛ يقال : لفلان عزم أي صبر وثبات على التحفظ من المعاصي حتى يسلم منها ، ومنه ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العزم مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] .

وعن ابن عباس أيضاً وعطية العوفي : حفظا لما أمر به ؛ أي لم يتحفظ مما نهيته حتى نسي ، وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال ؛ وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خُلِّدت في الجنة ؛ يعني عين تلك الشجرة ، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل في عموم النهي وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل ، وظنّ أنها لم تدخل في النهي فأكلها تأويلا ، ولا يكون ناسياً للشيء من يعلم أنه معصية .

وقال ابن زيد : "عزماً" محافظة على أمر الله .

وقال الضحاك: عزيمة أمر.

ابن كيسان: إصراراً ولا إضماراً للعود إلى الذنب.

قال القشيري: والأول أقرب إلى تأويل الكلام؛ ولهذا قال قوم: آدم لم يكن من أولي العزم من الرسل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾.

وقال المُعْظَم: كل الرسل أولو العزم، وفي الخبر: "ما من نبيّ إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا" فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولي العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى.

وقد قال أبو أمامة: لو أن أحلام بني آدم جمعت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة، ووضعت في كفة ميزان، ووضع حِلم آدم في كفة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسجدوا لآدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى ﴾ تقدم في "البقرة" مستوفى.

﴿ فَقُلْنَا يا آدم إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ نهي؛ ومجازه: لا تقبلا منه فيكون ذلك سبباً لخروجكما ﴿ مِنَ الجنة ﴾.

﴿ فتشقى ﴾ يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد ؛ ولم يقل : فتشقيا ؛ لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب ، وهو المقصود .

وأيضاً لما كان الكادّ عليها والكاسبَ لها كان بالشقاء أخص .

وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ؛ ألا ترى أنه عقبه بقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى ﴾ أي في الجنة ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ فأعلمه أن له في الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ؛ وأنك إن ضيَّعت الوصية ، وأطعت العدوّ أخرجكما من الجنة فشقيت تعباً ونصباً ؛ أي جُعْتَ وعريتَ وظمئتَ وأصابتك الشمس ؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة .

وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ؛ فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية .

وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ؛ لأن بها إقامة المهجة .

قال الحسن المراد بقوله : "فتشقى" شقاء الدنيا ؛ لا يُرى ابنُ آدم إلا ناصباً .

وقال الفراء : هو أن يأكل من كَدّ يديه .

وقال سعيد بن جبير : أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه الذي قال الله تبارك وتعالى .

وقيل : لما أهبِط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة ؛ فقال : يا آدم ازرع هذا ، فحرث وزرع ، ثم حصد ثم درس ثم نقى ثم طحن ثم عجن ثم خبز ، ثم جلس ليأكل بعد التعب ؛ فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه ، قال : يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك ما كنت في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ وَلَا تَعْرَى ﴾ .

﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ﴾ أي لا تعطش .

والظمأ العطش .

﴿ وَلَا تضحى ﴾ أي تبرز للشمس فتجد حرّها .

إذ ليس في الجنة شمس ، إنما هو ظل ممدود ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

قال أبو العالية : نهار الجنة هكذا : وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر .

قال أبو زيد : ضَحَا الطريق يَضْحُو ضُحُوًّا إذا بدا لك وظهر .

وضَحَيْتُ وضَحِيتُ (بالكسر) ضَحاً عرِقت .

وضَحِيتُ أيضاً للشمس ضَحاء ممدود بَرزتُ وضَحَيتُ (بالفتح) مثله ، والمستقبل

أَضْحَى في اللغتين جميعاً ؛ قال عمر بن أبي ربيعة :

رأَتْ رَجُلاً أَيما إذا الشمسُ عارضَتْ . . .

فَيَضْحَى وأَمَّا بالعَشِيّ فَيَخْصَرُ

وفي الحديث أن ابن عمر رأى رجلاً محرماً قد استظل ، فقال : أَضْحِ لمن أحرمت له .

هكذا يرويه المحدّثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت .

وقال الأصمعي : إنما هو اضْحَ لمن أحرمتَ له ؛ بكسر الألف وفتح الحاء ، من ضَحِيت

أَضْحَى ؛ لأنه أمره بالبروز للشمس ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تضحى

﴾ وأنشد :

ضَحِيتُ له كَيْ أَستظلَّ بظلّه . . .

إذا الظلُّ أَضْحَى في القيامة قَالِصا

(124/503)

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما في رواية أبي بكر عنه "وَأَنَّكَ" بفتح الهمزة عطفاً على "أَلَّا تَجُوعَ" .

ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على الموضع ، والمعنى : ولك أنك لا تظمأ فيها .

الباقون بالكسر على الاستئناف ، أو على العطف على "إِنَّ لَكَ" . انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(125/503)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

عرى يُعَرَّى لم يكن على جلده شيء يقيه .

قال الشاعر :

وإن يعرين إن كسى الجواري . . .

فتنبو العين عن كرم عجاف

ضحى يضحي : برز للشمس .

قال عمرو بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أيما إذا الشمس عارضت . . .

فيضحي وأما بالعشي فيحصر

الضنك : الضيق والشدّة ، ضنك عيشه يضنك ضناكة وضنكاً ، وامرأة ضناك كثيرة اللحم صار جلدها به .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ .

تقدّمت قصة آدم في البقرة والأعراف والحجر والكهف ، ثم ذكر ههنا لما تقدّم ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ كان من هذا الإنباء قصة آدم ليتحفظ بنوه من وسوسة الشيطان ويتنبهوا على غوائله ، ومن أطاع الشيطان منهم ذكر بما جرى لأبيه آدم معه وأنه أوضحت له عداوته ، ومع ذلك نسي ما عهد إليه ربه وأيضاً لما أمر بأن يقول ﴿ رب زدني علماً ﴾ كان من ذلك ذكر قصة آدم وذكر شيء من أحواله فيها لم يتقدّم ذكرها ، فكان في ذلك مزيد علم له عليه السلام ، والعهد عند الجمهور الوصية .

والظاهر أن المضاف إليه المحذوف بعد قوله ﴿ من قبل ﴾ تقديره ﴿ من قبل ﴾ هؤلاء الذين صرف لهم من الوعيد في القرآن لعلهم يتقون ، وهم الناقضو عهد الله والتاركو الإيمان .

وقال الحسن : ﴿ من قبل ﴾ الرسول والقرآن .

وقيل : ﴿ من قبل ﴾ أن يأكل من الشجرة .

وقال الطبري : المعنى أن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رسلي ويطيعوا إبليس ، فقدما فعل ذلك أبوهم آدم .

(126/503)

قال ابن عطية : وهذا ضعيف وذلك أن كون آدم مثالاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وآدم عليه السلام إنما عصى بتأويل ففي هذا غضاضته عليه السلام ، وإنما الظاهر في هذه الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه إنما هو لما عهد إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) أن لا يعجل بالقرآن مثل له بنبيّ قبله عهد إليه ﴿ فنسي ﴾ فعرف ليكون أشد في التحذير وأبلغ في العهد إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الزمخشري : يقال في أوامر الملوك ووصاياهم : تقدم الملك إلى فلان وأوغر عليه وعزم عليه وعهد إليه ، عطف الله سبحانه وتعالى قصة آدم على قوله ﴿ وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ﴾ والمعنى وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة ، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها وذلك ﴿ من قبل ﴾ وجودهم

و﴿ من قبل ﴾ أن نتوعدهم فخالف إلى ما نُهي عنه وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون كأنه يقول : إن أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه انتهى .

والظاهر أن النسيان هنا الترك إن ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها .

وقال الزمخشري : يجوز أن يراد بالنسيان الذي هو نقيض الذكر وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان انتهى .

وقاله غيره .

وقال ابن عطية : ونسيان الذهول لا يمكن هنا لأنه لا يتعلق بالناسي عقاب انتهى .

وقرأ اليماني والأعمش فَنُسِّيَ بضم النون وتشديد السين أي نسّاه الشيطان ، والعزم التصميم والمضي .

قال الزمخشري : أي على ترك الأكل وأن يتصلب في ذلك تصلباً يؤيس الشيطان من التسويل له ، والوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومفعولاه ﴿ له عزماً ﴾ وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعد منا ﴿ له عزماً ﴾ انتهى .

وقيل ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ على المعصية وهذا يتخرج على قول من قال إنه فعل نسياناً .

وقيل : حفظاً لما أمر به .

وقيل : صبراً عن أكل الشجرة .

وقيل ﴿ عزماً ﴾ في الاحتياط في كيفية الاجتهاد .

وتقدم الكلام على نظير قوله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى ﴾ و ﴿ أبى ﴾ جملة مستأنفة مبينة أن امتناعه من السجود إنما كان عن إباء منه وامتناع ، والظاهر حذف متعلق ﴿ أبى ﴾ وأنه يقدر هنا ما صرح به في الآية الأخرى ﴿ أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ وقال الزمخشري ﴿ أبى ﴾ جملة مستأنفة كأنه جواب قائل قال : لِمَ لْم يسجد ؟ والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله ﴿ اسجدوا ﴾ وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط انتهى .

و ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى إبليس و ﴿ عدو ﴾ يطلق على الواحد والمثنى والمجموع ، عرف تعالى آدم عداوة إبليس له ولزوجته ليحذراه فلن يغنيَ الحذر عن القدر ، وسبب العداوة فيما قيل إنّ إبليس كان حسوداً فلما رأى آثار نعم الله على آدم حسده وعاداه .

وقيل : العداوة حصلت من تنافي أصليهما إذ إبليس من النار وآدم من الماء والتراب ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ النهي له والمراد غيره أي لا يقع منكما طاعة له في إغوائه فيكون ذلك سبب

خروجكما من الجنة ، وأسند الإخراج إليه وإن كان المخرج هو الله تعالى لما كان بوسوسته هو الذي فعل ما ترتب عليه الخروج ﴿ فتشقى ﴾ يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار أن في جواب النهي ، وأن يكون مرفوعاً على تقدير فأنت تشقى .

وأسند الشقاء إليه وحده بعد اشتراكه مع زوجه في الإخراج من حيث كان هو المخاطب أولاً والمقصود بالكلام ولأن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله ، وفي سعادته سعادتها فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة .

وقيل : أراد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك راجع إلى الرجل .

وعن ابن جبير : أهبط له ثور أحمر يحرث عليه فيأكل بكد يمينه وعرق جبينه .

وقرأ شيبة ونافع وحفص وابن سعدان ﴿ وإنك لا تظمأ ﴾ بكسر همزة وإنك .

وقرأ الجمهور بفتحها فالكسر عطف على أن لك ، والفتح عطف على المصدر المنسبك من أن لا تجوع ، أي أن لك انتفاء جوعك وانتفاء ظمئك ، وجاز عطف ﴿ أنك ﴾ على أن لاشتراكهما في المصدر ، ولو باشرتها إن المكسورة لم يجز ذلك وإن كان على تقديرها ألا ترى أنها معطوفة على اسم إن ، وهو أن لا تجوع لكنه يجوز في العطف ما لا يجوز في المباشرة

، ولما كان الشبع والري والكسوة والسكن هي الأمور التي هي ضرورية للإنسان اقتصر عليها لكونها كافية له .

وفي الجنة ضروب من أنواع النعيم والراحة ما هذه بالنسبة إليها كالعدم فمنها الأمن من الموت الذي هو مكدر لكل لذة ، والنظر إلى وجه الله سبحانه ورضاه تعالى عن أهلها ، وأن لا سقم ولا حزن ولا ألم ولا كبر ولا هرم ولا غل ولا غضب ولا حدث ولا مقاذير ولا تكليف ولا حزن ولا خوف ولا ملل ، وذكرت هذه الأربعة بلفظ النفي لأثبات أضدادها وهو الشبع والري والكسوة والسكن ، وكانت نقائضها بلفظ النفي وهو الجوع والعُري والظمأ والضحو ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها .

قال ابن عطية : وكان عرف الكلام أن يكون الجوع مع الظمأ والعُري مع الضحاء لأنها تتضاد إذ العُري نفسه البرد فيؤذي والحر يفعل ذلك بالضاحي ، وهذه الطريقة مهيع في كلام العرب أن يقرن النسب .

ومنه قول امرئ القيس :

كأني لم أركب جواداً للذة . . .

ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الرق الروي ولم أقل . . .

لخيلي كري كرة بعد إجفال

وقد ذهب بعض الأدباء إلى أن بيتي امرىء القيس كافطاني للنسب ، وأن ركوب الخيل للصيد وغيره من الملاذ يناسب تبطن الكاعب انتهى .

(129/503)

وقيل : هذا الجواب على قدر السؤال لما أمر الله آدم بسكنى الجنة قال : إلهي ألي فيها ما آكل ؟ ألي فيها ما ألبس ؟ ألي فيها ما أشرب ؟ ألي فيها ما أستظل به ؟ وقيل : هي مقابلة معنوية ، فالجوع خلو الباطن ، والتعري خلو الظاهر ، والظمأ إحراق الباطن ، والضحو إحراق الظاهر فقابل الخلو بالخلو والإحراق بالإحراق .

وقيل : جمع امرؤ القيس في بيتيه بين ركوب الخيل للذة والنزهة ، وبين تبطن الكاعب للذة الحاصلة فيهما ، وجمع بين سباء الرق وبين قوله لخيله كري لما فيهما من الشجاعة ولما عيب على أبي الطيب قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف . . .

كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال هَزْمَى كليمة . . .

ووجهك وضاح وثغرك باسم

فقال: إن كنت أخطأت فقد أخطأ امرؤ القيس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(130/503)

وقال الثعالبى:

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ... ﴾ الآية، العهدُ هنا بمعنى الوصِيّة، والشيءُ الّذي عهد إلى آدم عليه السلام هو ألاَّ يقرَبَ الشجرة.

* ت *: قال عِياضٌ: وأما قوله تعالى: ﴿ وعصى آدَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه: 121] أي: جهل، فإنّ الله تعالى أخبر بعذره بقوله: ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ قيل: نسي، ولم ينو المخالفة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾، أيْ: قصداً للمخالفة.

* ت *: وقيل: غير هذا مما لا أرى ذكره هنا، ولِلَّه درُّ ابن العَرَبيّ حيثُ قال: يجبُ تنْزِيه الأنْبياء عليهم الصلاة والسلام عما نَسَبَ إليهم الجهالُ. ولكن البَارِي سبحانه بحُكْمه النافذ، وقَضَائه السابق أسلم آدم إلى الأكل من الشجرة متعمّداً للأكل، ناسِياً للعهد، فقال

في تعمده : ﴿ وَعَصَى آدَمَ ﴾ وقال في بيان عُذْرِهُ : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ فَمُتَعَلَّق العهد غيرُ متعلّق النسيان ، وجاز للمولى أن يقول في عبده لحقه : عصى تثْرِيباً ، ويعودُ عليه بفضله فيقول : نَسِيَ تقريباً ، ولا يجوز لأحد مِنّا أن يطلق ذلك على آدمَ ، أو يذكره إلاّ في تلاوة القرآن أو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم . انتهى . من «الأحكام» .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(131/503)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءادَمَ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لتقرير ما سبق من تصريف الوعيدِ في القرآن وبيانِ أن أساسَ بني آدمَ على العصيان ، وعِرْقُه راسخٌ في النسيان مع ما فيه من إنجاز الموعودِ في قوله تعالى : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ يقال : عَهِدَ إليه المِلكُ وعزم عليه وأوعز إليه وتقدّم إليه إذا أمره ووصاه ، والمعهودُ محذوفٌ يدل عليه ما بعده واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي وأُقسِم أو وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصّيناه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ هذا الزمانِ ﴿ فَنَسِىَ ﴾ أي العهدَ ولم يعتنِ به حتى غفلَ عنه أو تركه تركَ المَنْسيِّ عنه ، وقرىء

فنُسّيَ أي نسّاه الشيطان ﴿ وَلَمْ نجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ تصميمَ رأيٍ وثباتَ قدمٍ في الأمور إذ لو كان كذلك لما أزله الشيطانُ ولَما استطاع أن يغرَّه وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره من قبل أن يجرّب الأمورَ ويتولّى حارَّها وقارَّها ويذوقَ شَرْيَها وأَرْيَها .

عن النبي عليه الصلاة والسلام : " لو وُزنت أحلامُ بني آدمَ بحِلْم آدمَ لرجح حِلْمُه وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ نجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ " . وقيل : عزماً على الذنب فإنه أخطأ ولم يتعمّد وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ نجِدْ ﴾ إن كان من الوجود العلميّ فله عزماً مفعولاه قُدّم الثاني على الأول لكونه ظرفاً ، وإن كان من الوجود المقابلِ للعدم وهو الأنسبُ لأن مصبَّ الفائدةِ هو المفعولُ وليس في الإخبار بكون العزْمِ المعدومِ له مزيدُ مزيةٍ فله متعلقٌ به قُدّم على مفعوله لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويقِ إلى المؤخر ، أو بمحذوف هو حالٌ من مفعوله المنَكّر ، كأنه قيل : ولم نصادِفْ له عزماً

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ شروعٌ في بيان المعهودِ وكيفيةِ ظهور نسيانِه وفُقدانِ عزمِه ، وإذ منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، أي واذكر وقتَ قولِنا لهم ، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه

من الحوادث لما مر مراراً من المبالغة في إيجاب ذكرِها فإن الوقتَ مشتملٌ على تفاصيل الأمورِ الواقعةِ فيه ، فالأمرُ بذكره أمرٌ بذكر تفاصيلِ ما وقع فيه بالطريق البرهانيِّ ، ولأن الوقتَ مشتملٌ على أعيان الحوادثِ فإذا ذكر صارت الحوادثُ كأنها موجودةٌ في ذهن المخاطَبِ بوجود ذاتها العينية ، أي اذكر ما وقع في ذلك الوقتِ منا ومنه حتى يتبينَ نسيانُه وفقدانُ عزمِه ﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ قد سبق الكلامُ فيه مراراً ﴿ أبى ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ وقعت جواباً عن سؤال نشأ عن الأخبار بعدم سجودِه ، كأنه قيل : ما بالُه لم يسجُدْ ؟ فقيل : أبى واستكبر ، ومفعولُ أبى إما محذوفٌ أي أبى السجودَ كما في قوله تعالى : ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ أو غيرُ مَنْوِيَ رأساً بتنزيله منزلةَ اللازم أي فعل الإباءَ وأظهره ﴿ فَقُلْنَا ﴾ عقيبَ ذلك اعتناءً بنُصحه ﴿ ياءادم إِنَّ هذا ﴾ الذي رأيتَ ما فعل ﴿ عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ أي لا يكونَنّ سبباً لإخراجكما ﴿ مِنَ الجنة ﴾ والمرادُ نهيُهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطانُ إلى إخراجهما منها بالطريق البرهاني ، كما في قولك : لا أُرَينّك هاهنا ، والفاءُ لترتيب موجبِ النهى على عداوته لهما أو على الإخبار بها ﴿ فتشقى ﴾ جوابٌ للنهي ، وإسنادُ الشقاء إليه خاصةً بعد تعليقِ الإخراجِ الموجبِ له بهما معاً لأصالته في الأمور واستلزامِ شقائِه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل ، وقيل : المرادُ بالشقاء التعبُ في تحصيل مبادىء المعاشِ وذلك من وظائف الرجال .

﴿ إِنَّ لَكَ أَن لا تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾ تعليلٌ لما يوجبه النهيُ فإن اجتماعَ أسبابِ الراحة فيها مما يوجب المبالغةَ في الاهتمام بتحصيل مبادىء البقاءِ فيها ، والجدّ في الانتهاء عما يؤدّي إلى الخروج عنها . والعدلُ عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعّماً بفنون النعم من المآكل والمشاربِ وتمتعاً بأصناف الملابسِ البهية والمساكنِ المرْضيةِ مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذكر من نفْي نقائضها التي هي الجوعُ والعطشُ والعُري والضُحِيّ لتذكير تلك الأمورِ المنْكرة ، والتنبيهِ على ما فيها من أنواع الشّقوةِ التي حذّره عنها ليبالغَ في التحامي عن السبب المؤدي إليها ، على أن الترغيبَ قد حصل بما سوّغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثني من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا ءادَمُ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة وكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ وقد طوي ذكرُه هاهنا اكتفاءً بما ذكر في موضع آخرَ واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمّنِ للترهيب ، ومعنى ﴿ أَن لاَ تَجُوعَ فِيهَا ﴾ الخ ، أن لا يصيبه شيء من الأمور الأربعة أصلاً فإن الشِبعَ والرِّيَّ والكسوة ، ولكن قد تحصُل بعد عروض أضدادِها بإعواز الطعام والشرابِ واللباس والمسكنِ وليس الأمر فيها كذلك ، بل كلُّ ما وقع فيها شهوةٌ وميلٌ إلى شيء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة ، ووجهُ إفرادِه عليه السلام بما ذكر ما مر آنفاً ، وفصلُ الظمأ عن الجوع في الذكر مع تجانُسهما وتقارنِهما في الذكر عادةً وكذا حالُ العُرْي والضَّحْو المتجانسين ، لتوفية مقامِ الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أن نفيَ كلِّ واحد من تلك الأمور نعمةٌ على حيالها ، ولو جُمع بين الجوعِ والظمأ لربما تُوهم أن نفيَهما نعمةٌ واحدةٌ ، وكذا الحال في الجمع بين العُرْي والضَّحْو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقريرِ بالتنبيه على أن نفيَ كل واحد من الأمور المذكورة مقصودٌ بالذات مذكورٌ بالأصالة لا أن نفيَ بعضِها مذكورٌ بطريق الاستطرادِ والتبعية لنفي بعضٍ آخرَ كما عسى يُتوهم لو جمع بين كلَ من المتجانسين ، وقرىء إنك بالكسر والجمهورُ على الفتح بالعطف على أن لا تجوع ، وصحةُ وقوعِ الجملة المصدّرِة بأن المفتوحة اسماً للمكسورة المشاركة لها في إفادة التحقيقِ مع امتناع وقوعِها خبراً لها لما أن المحذورَ اجتماعُ حرفي التحقيق في مادة واحدة ولا اجتماعَ فيما نحن فيه لاختلاف مناطِ التحقيقِ فيما في حيزهما ، بخلاف ما لو وقعت خبراً لها فإن

اتحادَ المناطِ حينئذ مما لا ريب فيه بيانُه أن كل واحدةٍ من المكسورة والمفتوحة موضوعةٌ لتحقيق مضمونِ الجملة الخبريةِ المنعقدةِ من اسمها وخبرِها ، ولا يخفى أن مرجعَ خبريّتها ما فيها من الحُكم

(135/503)

الإيجابي أو السلبيّ وأن مناطَ ذلك الحكمِ خبرُها لا اسمُها ، فمدلولُ كلَ منهما تحقيقُ ثبوتِ خبرِها لاسمها لا ثبوتِ اسمِها في نفسه ، فاللازمُ من وقوعِ الجملةِ المصدرةِ بالفتحة اسماً للمكسورة تحقيقُ ثبوتِ خبرها لتلك الجملةِ المؤولة بالمصدر ، وأما تحقيقُ ثبوتِها في نفسها فهو مدلولُ المفتوحةِ حتماً فلم يلزَم اجتماعُ حرفي التحقيق في مادة واحدة قطعاً ، وإنما لم يجوّزوا أن يقال : أن زيداً قائم ، حتى مع اختلاف المناطِ بل شرطوا الفصلَ بالخبر كقولنا : إن عندي أن زيداً قائم للتجافي عن صورة الاجتماعِ ، والواوُ العاطفة وإن كانت نائبةً عن المكسورة التي يمتنع دخولُها على المفتوحة بلا فصل وقائمةً مقامَها في إفضاء معناها وإجزاءِ أحكامِها على مدخولها ، لكنها حيث لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماعُ حرفي التحقيقِ أصلاً ، فالمعنى إن لك عدمَ الجوعِ وعدمَ العُري وعدمَ الظمأ خلا أنه لم يُقتصَر على بيان أن الثابتَ له عليه السلام عدمُ الظمأ

والضَّحْو مطلقاً كما فُعل مثلُه في المعطوف عليه بل قُصد بيا نُ أن الثا بتَ له عليه السلام تحقيقُ عدمِهما فوُضِع موضعَ الحرفِ المصدريّ المحض إنّ المفيدةُ له ، كأنه قيل : إن لك فيها عدمَ ظمئك على التحقيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(136/503)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى ءادَمَ ﴾

كأنه لما مدح سبحانه القرآن ، وحرض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه وعهد على العزيمة بأمره وترك النسيان فيه ضرب حديث آدم مثلاً للنسيان وترك العزيمة .

وذكر ابن عطية أن في ذلك مزيد تحذير للنبي صلى الله عليه وسلم عن العجلة وعدم التؤدة لئلا يقع فيما لا ينبغي كما وقع آدم عليه السلام ، فالكلام متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ [طه : 114] الخ ، وقال الزمخشري : هو عطف على ﴿ صَرَفْنَا ﴾ [طه : 113] عطف القصة على القصة ، والتخالف فيه إنشاء وخبرية لا يضر مع أن المقصود بالعطف جواب القسم .

وحاصل المعنى عليه صرفنا الوعيد وكررناه لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً لكنهم لم يلتفتوا

لذلك ونسوه كما لم يلتفت أبوهم إلى الوعيد ونسي العهد إليه .

والفائدة في ذلك الإشارة إلى أن مخالفتهم شنشنة أخزمية وأن أساس أمرهم ذلك وعرقهم راسخ فيه ، وحكى نحو هذا عن الطبري .

(137/503)

وتعقبه ابن عطية بأنه ضعيف لما فيه من الغضاضة من مقام آدم عليه السلام حيث جعلت قصته مثلاً للجاحدين لآيات الله تعالى وهو عليه السلام إنما وقع منه ما وقع بتأويل انتهى ، والإنصاف يقضي بحسنه فلا تلتفت إلى ما قيل : إن فيه نظراً ، وقال أبو مسلم : إنه عطف على قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه : 99] وليس بذاك ، نعم فيه مع ما تقدم إنجاز الموعود في تلك الآية ، واستظهر ابن عطية فيه أحد أمرين التعلق بِ ﴿ لا تعجل ﴾ [طه : 114] وكونه ابتداءً كلام لا تعلق له بما قبله ، وهذا الأخير وإن قدمه في كلامه ناشىء من ضيق العطن كما لا يخفى ، والعهد الوصية يقال عهد إليه الملك ووغر إليه وعزم عليه وتقدم إليه إذا أمره ووصاه ، والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده ، واللام واقعة في جواب قسم محذوف أي وأقسم بالله لقد أمرناه ووصيناه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الزمان ، وقيل : أي من قبل وجود هؤلاء المخالفين .

وعن الحسن أي من قبل إنزال القرآن ، وقيل : أي من قبل أن يأكل من الشجرة ﴿ فَنَسِىَ ﴾ العهد ولم يهتم به ولم يشتغل بحفظه حتى غفل عنه ، والعتاب جاء من ترك الاهتمام ، ومثله عليه السلام يعاتب على مثل ذلك ، وعن ابن عباس والحسن أن المراد فترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها فالنسيان مجاز عن الترك والفاء للتعقيب وهو عرفي ، وقيل : فصيحة أي لم يهتم به فنسي والمفعول محذوف وهو ما أشرنا إليه ، وقيل : المنسي الوعيد بخروج الجنة إن أكل ، وقيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه : 117] وقيل : الاستدلال على أن النهي عن الجنس دون الشخص ، والظاهر ما أشرنا إليه.

وقرأ اليماني .

(138/503)

والأعمش ﴿ فَنَسِىَ ﴾ بضم النون وتشديد السين أي نساه الشيطان ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ تصميم رأي وثبات قدم في الأمور ، وهذا جار على القولين في النسيان ، نعم قيل : إنه أنسب بالثاني وأوفق بسياق الآية على ما ذكرنا أولاً .

وروى جماعة عن ابن عباس وقتادة أن المعنى لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة ، وعن ابن

زيد وجماعة أن المعنى لم نجد له عزماً على الذنب فإنه عليه السلام أخطأ ولم يتعمد وهو قول من قال : إن النسيان على حقيقته ؛ وجاء عن ابن عباس ما يقتضيه ، فقد أخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عنه قال : قال لي عمر رضي الله تعالى عنه إن صاحبكم هذا يعني علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه إن ولى زهد ولكني أخشى عجب نفسه أن يذهب به قلت : يا أمير المؤمنين إن صاحبنا من قد علمت والله ما نقول : إنه غير ولا بدل ولا أسخط رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام صحبته فقال ولا في بنت أبي جهل وهو يريد أن يخطبها على فاطمة قلت : قال الله تعالى في معصية آدم عليه السلام ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ فصاحبنا لم يعزم على إسخاط رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الخواطر التي لا يقدر أحد دفعها عن نفسه وربما كانت من الفقيه في دين الله تعالى العالم بأمر الله سبحانه فإذا نبه عليها رجع وأناب فقال : يا ابن عباس من ظن أنه يرد بحوركم فيغوص فيها معكم حتى يبلغ قعرها فقد ظن عجزاً ، لكن لا يخفى عليك أن هذا التفسير غير متبادر ولا كثير المناسبة للمقام .

وحاصل لم نجد الخ عليه أنه نسي فيتكرر مع ما قبله .

ثم إن ﴿ لَمْ نَجِدْ ﴾ إن كان من الوجود العلمي ، فله عزماً مفعولاه قدم الثاني على الأول لكونه ظرفاً وإن كان من الوجود المقابل للعدم كما اختاره بعضهم فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر غير مرة أو بمحذوف وقع حالاً من مفعوله المنكر ، والمعنى على هذا ولم

نصادف له عزماً .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾

(139/503)

شروع في بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، ﴿ وَإِذْ ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم أي واذكر وقت قولنا للملائكة الخ .

قيل : وهو معطوف على مقدر أي اذكر هذا واذكر إذ قلنا أو من عطف القصة على القصة .

وأياً ما كان فالمراد اذكر ما وقع في ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه .

﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ قد مر الكلام فيه مراراً ﴿ أبى ﴾ جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ عن الإخبار بعدم سجوده كأنه قيل : فما باله لم يسجد ؟ فقل : ﴿ أبى ﴾ والإباء الامتناع أو شدته ومفعوله إما محذوف أي أبى السجود كما في قوله تعالى : ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ [الحجر : 31] أو غير منوي رأساً بتنزيله منزلة اللازم أي فعل الإباء وأظهره .

﴿ فَقُلْنَا ﴾ عقيب ذلك اعتناءً بنصح آدم عليه السلام ﴿ سَوَاء الصراط إِنَّ هَذَا ﴾ الذي رأيت منه ما رأيت ﴿ عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ أعيد اللام لأنه لا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار عند الجمهور .

وقيل : أعيد للدلالة على أن عداوة اللعين للزوجة أصالة لا تبعاً .

وهو على القول بعدم لزوم إعادة الجار في مثله كما ذهب إليه ابن مالك ظاهر .

وإما على القول باللزوم فقد قيل في توجيهه .

إن كون الشيء لازماً بحسب القاعدة النحوية لا ينافي قصد إفادة ما يقتضيه المقام .

(140/503)

وقد صرح السيد السند في "شرح المفتاح" في توجيه جعل صاحب المفتاح تنكير التمييز في قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [مريم : 4] لإفادة المبالغة بما يرشد إلى ذلك ، ولا يخفى ما في التعبير بزوجك دون حواء من مزيد التنفير والتحذير منه ، واختلف في سبب العداوة فقيل مجرد الحسد وهو لعنه الله تعالى ولعن أتباعه أول من حسد ، وقيل : كونه شيخاً جاهلاً وكون آدم عليه السلام شاباً عالماً ، والشيخ الجاهل يكون أبداً عدواً للشاب العالم بل الجاهل مطلقاً عدو للعالم كذلك كما قيل :

والجاهلون لأهل العلم أعداء . . .

وقيل : تنافي الأصلين فإن اللعين خلق من نار وآدم عليه السلام خلق من طين وحواء خلقت منه ، وقد ذكر جميع ذلك الإمام الرازي .

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ أي فلا يكونن سبباً لإخراجكما ﴿ مِنَ الجنة ﴾ وهذا كناية عن نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان في إخراجهما منها نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ [الأعراف : 2] والفاء لترتيب موجب النهي على عداوته لهما أو على الإخبار بها ﴿ فتشقى ﴾ أي فتتعب بمتاعب الدنيا وهي لا تكاد تحصى ولا يسلم منها أحد وإسناد ذلك إليه عليه السلام خاصة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معاً لأصالته في الأمور واستلزام تعبه لتعبها مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل على أتم وجه ، وقيل : المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادىء المعاش وهو من وظائف الرجال ، وأيد هذا بما أخرجه عبد بن حميد .

وابن عساكر .

وجماعة عن سعيد بن جبير قال : "إن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة استقبله ثور أبلق فقيل له : اعمل عليه فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : هذا ما وعدني ربي ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ ثم نادى حواء حواء أنت عملت بي هذا فليس من ولد آدم أحد يعمل على ثور إلا قال : حو دخلت عليهم من قبل آدم عليه السلام ، وكذا أيد بالآية بعد وفيه تأمل ، ولعل القول بالعموم أولى ، و ﴿ تشقى ﴾ يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار أن في جواب النهي ، ويحتمل أن يكون مرفوعاً على الاستئناف بتقدير فأنت تشقى ، واستبعد هذا بأنه ليس المراد الإخبار عنه بالشقاء بل المراد أن وقع الإخراج حصل ذلك .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) ﴾

﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تضحى ﴾

أي ولا تصيبك الشمس يقال : ضحا كسعى وضحى كرضي ضحواً وضحياً إذا أصابته الشمس ، ويقال ضحا ضحوا وضحواً وضحياً إذا برز لها ، وأنشدوا قول عمرو بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أيما إذا الشمس عارضت . . .

فيضحي وأما بالعشي فيحضر

وفسر بعضهم ما في الآية بذلك والتفسير الأول مروى عن عكرمة ، وأياً ما كان فالمراد نفى أن يكون بلا كن ، والجملة تعليل لما يوجبه النهي فإن اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادىء البقاء فيها والجد في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج عنها ، والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعاً بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعرى والضحو لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذره سبحانه عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها ، ومعنى ﴿ أَن لا تَجُوعَ ﴾ الخ أن لا يصيبه شيء من الأمور الأربعة أصلاً فإن الشبع والري والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها وليس الأمر فيها كذلك بل كلما وقع فيها شهوة وميل إلى شيء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى الشجرة حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا ءادَمُ ءادَمَ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة : 35] وقد طوى ذكره ههنا اكتفاءً بذلك واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ، وقال بعضهم : إن الاقتصار على ما ذكر لما وقع في سؤال آدم عليه السلام فإنه روي أنه لما أمره سبحانه

يسكنى الجنة قال إلهي أي فيها ما آكل أي فيها ما ألبس أي فيها ما أشرب أي فيها ما استظل به فأجيب بما ذكر ، وفي القلب من صحة الرواية شيء .

(143/503)

ووجه إفراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفاً ، وقيل : كونه السائل وكان الظاهر عدم الفصل بين الجوع والظمأ والعري والضحو للتجانس والتقارب إلا أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها وهي أن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر فكأنه قيل لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما ، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس وهو الضحو المورث حرارة الظاهر فكأنه قيل : لا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر وذلك الوصل الخفي وهو سر بديع من أسرار البلاغة ، وفي "الكشف" إنما عدل إلى المنزل تنبيهاً على أن الشبع والكسوة أصلان وأن الأخيرين متممان على الترتيب فالامتنان على هذا الوجه أظهر ، ولهذا فرق بين القرينتين فقيل أولاً ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ وثانياً ﴿ إِنَّكَ ﴾ ، وقد ذكر هذا العلامة الطيبي أيضاً ثم قال : وفي تنسيق المذكورات الأربعة مرتبة هكذا مقدماً ما هو الأهم فالأهم ثم في جعلها تفصيلاً لمضمون قوله تعالى :

﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] وتكرير لفظة فيها وإخراجها في

صيغة النفي مكررة الأداة الإيماء إلى التعريض بأحوال الدنيا وأن لا بد من مقاساتها ﴿ فِيهَا ﴾ لأنها خلقت لذلك وأن الجنة ما خلقت إلا للتنعم ولا يتصور فيها غيره.

وفي الانتصاف أن في الآية سريعاً بديعاً من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم ولو قرن كل بشكله لتوهم المقرونان نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً فقال الكندي الأول:

كأني لم أركب جواداً للذة...

ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل...

لخيلي كرى كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخيله: كرى كرة وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف...

كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة . . .

ووجهك ضحاك وثغرك باسم

وقد اعترض عليه سيف الدولة إذ قطع الشيء عن نظيره فقال له : إن كنت أخطأت بذلك فقد أخطأ امرؤ القيس بقوله وأنشد البيتين السابقين ، وفي الآية سر لذلك أيضاً زائد على ما ذكر وهو قصد تناسب الفواصل اه .

وقد يقال في بيتي الأول : إنه جمع بين ركوب الخيل للذة والنزهة وتبطن الكاعب للذة الحاصلة فيهما وجمع بين سبء الزق وقوله لخيله : كرى لما فيهما من الشجاعة ، ثم ما ذكر من قصد تناسب الفواصل في الآية ظاهر في أنه لو عدل عن هذا الترتيب لم يحصل ذلك وهو غير مسلم .

وقرأ شيبة .

ونافع .

وحفص .

وابن سعدان ﴿ إِنَّكَ ﴾ بكسر الهمزة .

وقرأ الجمهور بفتحها على أن العطف على أن لا تجوع وهو في تأويل مصدر اسم لأن وصحة وقوع ما صدر بأن المفتوحة إسماً لأن المكسورة المشاركة لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبراً لها لما أن المحذور وهو اجتماع حر في التحقيق في مادة واحدة غير موجود فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما في حيزها بخلاف ما لو وقعت خبراً فإن اتحاد المناط حينئذٍ مما لا ريب فيه ، وبيانه على ما في إرشاد العقل السليم أن كل واحدة من الأداتين موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفي أن مرجع خبريتها ما فيها من الحكم وإن مناطه الخبر لا الاسم فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها في نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسماً للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر ، وأما تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة فلا يلزم اجتماع حر في التحقيق في مادة واحدة قطعاً ، وإنما لم يجز أن يقال : ان أن زيداً قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا : إن عندي أن زيداً قائم حق للتجافي عن صورة الاجتماع ، والواو العاطفة وإن كانت نائبة عن المكسورة التي يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق لم يلزم من دخولها اجتماع حر في التحقيق أصلاً .

فالمعنى إن لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له

عدم الظمأ والضحو مطلقاً كما فعل مثله في المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدري المحض أن المفيدة له كأنه قيل : إن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق انتهى .

ويحتاج عليه إلى بيان النكتة في عدم الاقتصار على بيان أن الثابت له عدم الظمأ مطلقاً كما فعل مثله في المعطوف عليه فتأمل ولا تغفل .

(146/503)

وقيل : إن الواو وإن كانت نائبة عن إن هنا إلا أنه يلاحظ بعدها ﴿ لَكَ ﴾ الموجود بعد أن التي نابت عنها فيكون هناك فاصل ولا يمتنع الدخول معه وهو كما ترى ، ولا يخفى عليك أن العطف على قراءة الكسر على أن الأولى مع معموليها لا على اسمها ولا كلام في ذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(147/503)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ﴾

أي : من قبل هذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : العهد : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ أي : تصميماً في حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّه . كما بيّنه الله تعالى بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أي : بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته في الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ,مع المحافظة على الفاصلة .

(148/503)

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ﴾ أي : لا تصوّن من حرّ الشمس .

قال أبو السعود : هذا تعليل لما يُوجبه النهي . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها . مما يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجدّ في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج

عنها . والعدولُ عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم . من المآكل والمشارب ، وتمتعًا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ، ما لا يخفى . إلا ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعري والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذره عنها ، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : في الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير . وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها , ولو قرن كلّاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكندي الأول :

~كَأَنِّيَ لَم أَرْكَبْ جَوَاداً لِلذَّةٍ ولَم أَتَبَطَّن كَاعِباً ذاتَ خِلخَالِ

~ولَم أسبأ الزِّقّ الرويّ ولم أقُل لخيليَ : كُرِّي كَرَّةً بعدَ إِجفَالِ

فقطع ركوب الجواد عن قوله : لخيلي كري كرة , وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدّد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .

على أن هذه الآية سرّاً لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل . ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ , لانتثر سلك رؤوس الآي . وأحسنْ به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذي سمّاه : قطع النظير عن النظير يسمى بالوصل الخفي .

ومما قيل في وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأوليْن ، أعني الشبع والكسوة أصلان . وأن الأخيرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل إنَّ لَكَ وأَنَّك وأيضاً روعي مناسبة الشبع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام لحماً . وأما الظمأ والضحى فمن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن كل بما يشاكله ، لتوهم المقرونان نعمة واحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 11 صـ 158. 160﴾

(150/503)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾

أي أوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة . وهذا العهد إلى آدم الذي أجمله هنا بينه في غير هذا

الموضع ، كقوله في سورة « البقرة » : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة وكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [البقرة : 35] فقوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ هو عهده إلى آدم المذكور هنا . وقوله في « الأعراف » : ﴿ وَيَا آدَمُ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [الأعراف : 19] .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ فيه للعلماء معروفان : أحدهما - أن المراد بالنسيان الترك ، فلا ينافي كون الترك عمداً . والعرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 126] فالمراد في هذه الآية : الترك قصداً . وكقوله تعالى : ﴿ فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : 51] ، وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 14] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [الحشر : 19] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الجاثية : 34] . وعلى هذا فمعنى قوله : ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي ترك الوفاء بالعهد ، وخالف ما أمره الله به من ترك الأكل من تلك الشجرة ، لأن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده .

والوجه الثاني هو أن المراد بالنسيان في الآية: النسيان الذي هو ضد الذكر، لأن إبليس لما أقسم له بالله أنه له ناصح فيما دعاه إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه ربه عنها – غره وخدعه بذلك، حتى أنساه العهد المذكور. كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: 21-22]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي رواه عنه ابن أبي حاتم اه.

ولقد قال بعض الشعراء:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه... ولا القلب إلا أنه يتقلب

أما على القول الأول فلا إشكال في قوله: ﴿ وعصى ءادمُ ربَّهُ فغوى ﴾ [طه: 121]

وأما على الثاني ففيه إشكال معروف. لأن الناسي معذور فكيف يقال فيه ﴿ وعصى ءادمُ ربَّهُ فغوى ﴾. وأظهر أوجه الجواب عندي عن ذلك: أن آدم لم يكن معذوراً بالنسيان. وقد بينت في كتابي (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) الأدلة الدالة على أن العذر بالنسيان والخطأ والإكراه من خصائص هذه الأمة. كقوله هنا ﴿ فَنَسِيَ ﴾ مع قوله ﴿ وعصى ﴾ فأسند إليه النسيان والعصيان، فدل على أنه غير معذور

بالنسيان. ومما يدل على هذا ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة : أن النّبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: 286] قال الله نعم قد فعلت. فلو كان ذلك معفواً عن جميع الأمم لما كان لذكره على سبيل الامتنان وتعظيم المنة عظيم موقع. ويستأنس لذلك بقوله: ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: 286] ويؤيد ذلك حديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». فقوله «تجاوز لي عن أ/تي» يدل على الاختصاص بأمته. وليس مفهوم لقب. لأن مناط التجاوز عن ذلك هو ما خصه الله به من التفضيل على غيره من الرسل. والحديث المذكور وإن أعله الإمام أحمد وابن أبي حاتم فله شواهد ثابتة في الكتاب والسنة. ولم يزل علماء الأمة قديماً وحديثاً يتلقونه بالقبول. ومن الأدلة على ذلك حديث طارق بن شهاب المشهور في الذي دخل النار في ذباب قربه مع أنه مكره وصاحبه الذي امتنع من تقريب شيء للصنم ولو ذباباً قتلوه. فدل ذلك على أن الذي قربه مكره. لأنه لو لم يقرب لقتلوه كما قتلوا صاحبه، ومع هذا دخل النار فلم يكن إكراهه عذراً. ومن الأدلة على ذلك قوله

تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تفلحوا إِذاً أَبداً ﴾ [الكهف: 20] فقوله: ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ دليل على الإكراه، وقوله: ﴿ وَلَن تفلحوا إِذاً أَبَداً ﴾ دليل على عدم العذر بذلك الإكراه. كما أوضحنا ذلك في غير هذا الموضع.

(153/503)

واعلم أن في شرعنا ما يدل على نوع من التكليف بذلك في الجملة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [النساء: 92] الآية. فتحرير رقبة هنا كفارة لذلك القتل خطأ. والكفارة تشعر بوجود الذنب في الجملة. كما يشير إلى ذلك قوله في كفارة القتل خطأ ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء: 92] فجعل صوم الشهرين بدلاً من العتق عند العجز عنه. وقوله بعد ذلك ﴿ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ يدل على أن هناك مؤاخذة في الجملة بذلك الخطأ، مع قوله: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ [الأحزاب: 5] وما قدمنا من حديث مسلم: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: 286] قال الله نعم قد فعلت، فالمؤاخذة التي هي الإثم مرفوعة والكفارة المذكورة. قال بعض أهل

العلم : هي بسبب التقصير في التحفظ والحذر من وقوع الخطإ والنسيان ، والله جل وعلا أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] هو ونحوه من الآيات مستند من قال من أهل الأصول بعدم عصمة الأنبياء من الصغائر التي لا تتعلق بالتبليغ . لأنهم يتداركونها بالتوبة والإنابة إلى الله حتى تصير كأنها لم تكن .

واعلم أن جميع العلماء أجمعوا على عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في كل ما تيعلق بالتبليغ .

(154/503)

واختلفوا في عصمتهم من الصغائر التي لا تعلق لها بالتبليغ اختلافاً مشهوراً معروفاً في الأصول . ولا شك أنهم صلوات الله عليهم وسلامه إن وقع منهم بعض الشيء فإنهم يتداركونه بصدق الإنابة إلى الله حتى يبلغوا بذلك درجة أعلا من درجة من لم يقع منه ذلك . كما قال هنا : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ [طه : 122] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ يدل على أن أبانا آدم عليه

وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس من الرسل الذين قال الله فيهم ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العزمِ مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] وهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل : هم جميع الرسل. وعن ابن عباس وقتادة ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة ومواظبة على التزام الأمر. وأقوال العلماء راجعة إلى هذا، والوجود في قوله : ﴿ لَمْ نَجِدْ ﴾ قال أبو حبان في البحر : يجوز أن يكون بمعنى العلم، ومفعولاه ﴿ لَهُ عَزْماً ﴾ وأن يكون نقيض العدم. كأنه قال : وعدّ مناله عزماً ا ه منه. والأول أظهر، والله تعالى أعلم.

(155/503)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى. أي أبى أن يسجد. فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار. وذكر عنه الإباء أيضاً في «الحجر» في قوله : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ [الحجر : 31]. وقوله في آية «الحجر» هذه ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ يبين معمول «أبى» المحذوف في آية «طه» هذه التي هي قوله ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى ﴾ أي أبى أن يكون مع

الساجدين ، كما صحر به في « الحجر » وكما أشار إلى ذلك في « الأعراف » في قوله : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : 11] وذكر عنه في سورة « ص » الاستكبار وحده في قوله : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص : 74] ، وذكر عنه الإباء والاستكبار معاً في سورة « البقرة » في قوله : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 34] . وقد بينا في سورة « البقرة » سبب استكباره في زعمه وأدلة بطلان شبهته في زعمه المذكور . وقد بينا في سورة « الكهف » كلام العلماء فيه . هل أصله ملك من الملائكة أو لا ؟

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ صرح في غير هذا الموضع أن السجود المذكور سجده الملائكة كلهم أجمعون لا بعضهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [الحجر : 30-31] الآية .

(156/503)

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في « الكهف » فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَتَشْقَى ﴾ أي فتتعب في طلب المعيشة بالكد

والاكتساب . لأنه لا يحصل لقمة العيش في الدنيا بعد الخروج من الجنة حتى يحرث الأرض ، ثم يزرعها ، ثم يقوم على الزرع حتى يدرك ، ثم يدسه ، ثم ينقيه ، ثم يطحنه ، ثم يعجنه ، ثم يخبزه . فهذا شقاؤه المذكور .

والدليل على أن المراد بالشقاء في هذه الآية : التعب في اكتساب المعيشة قوله تعالى بعده : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ يعني احذر من عدوك أن يخرجك من دار الراحة التي يضمن لك فيها الشبع والري ، والكسوة والسكن . قال الزمخشري : وهذه الأربعة هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان ، فذكره استجماعها له في الجنة ، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا . وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها اه .

فقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ قرينة واضحة على أن الشقاء المحذر منه تعب الدنيا في كد المعيشة ليدفع به الجوع والظمأ والعري والضحاء .

والجوع معروف ، والظمأ : العطش . والعري بالضم : خلاف اللبس .

وقوله : ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ أي لا تصير بارزاً للشمس ، ليس لك ما تستكن فيه من حرها . تقول العرب : ضحى يضحى ، كرضي يرضى . وضحى يضحى كسعى يسعى

إذا كان بارزاً لحر الشمس ليس له ما يكنه منه. ومن هذا المعنى قول عمر بن أبي ربيعة:

رأت رجلاً أيما إذا الشمس عارضت... فيضحي وأما بالعشي فيخصر

وقول الآخر:

ضحيت له كي أستظل بظله... إذا الظل أضحى في القيامة قالصا

(157/503)

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا نافعاً وشعبة عن عاصم ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ ﴾ بفتح همزة «أن»، والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها معطوف على المصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ ﴾ أي وإن لك أنك لا تظمأ فيها ولا تضحى. ويجوز في المصدر المعطوف المذكور النصب والرفع، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وجائز رفعك معطوفاً على... منصوب إن بعد أن تستكملا

وإيضاح تقدير المصدرين المذكورين: إن لك عدم الجوع فيها، وعدم الظمأ.

تنبيه

أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب نفقة الزوجة على زوجها لأن الله لما قال ﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ بخطاب شامل لآدم وحواء،

ثم خص آدم بالشقاء دونها في قوله ﴿ فتشقى ﴾ دل ذلك على أنه هو المكلف بالكد عليها وتحصيل لوازم الحياة الضرورية لها : من مطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن .

(158/503)

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيا – يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج . فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية . وأعلمنا في هذه الآية : أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام ، والشراب ، والكسوة ، والمسكن . فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور . فأما هذه الأربعة فلا بد منها . لأن بها إقامة المهجة اه منه .

وذكر في قصة آدم : أنه لما أهبط إلى الأرض أهبط إليه ثور أحمر وحبات من الجنة ، فكان يحرث على ذلك الثور ويمسح للعرق عن جبينه وذلك من الشقاء المذكور في الآية .

والظاهر أن الذي في هذه الآية الكريمة من البديع المعنوي في اصطلاح البلاغيين ، هو ما يسمى « مراعاة النظير » ، ويسمى « التناسب والائتلاف . والتوفيق والتلفيق » . فهذه

كلها أسماء لهذا النوع من البديع المعنوي . وضابطه : أنه جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد .

كقوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] فإن الشمس والقمر متناسبان لا بالتضاد . وكقول البحتري يصف الإبل الأنضاء المهازيل ، أي الرماح :

كالقسي المعطفات بل الأسهم . . . مبرية بل الأوتار

وبين الأسهم والقسي المعطفات والأوتار مناسبة في الرقة وإن كان بعضها أرق من بعض ، وهي مناسبة لا بالتضاد . وكقول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى . . . من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا . . . عن البحر عن كف الأمير تميم

فقد ناسب بين الصحة والقوة ، والسماع والخبر المأثور ، والأحاديث والرواية ، وكذا ناسب بين السيل والحيا وهو المطر ، والبحر وكف الأمير تميم ، وكقول أسيد بن عنقاء الفزاري :

كأن للثريا علقت في جبينه . . . وفي خده الشعري وفي جهة البدر

فقد ناسب بين الثريا والشعري والبدر ، كما ناسب بين الجبين والوجنة والوجه . وأمثلة هذا النوع كثيرة معروفة في فن البلاغة .

وإذا علمت هذا فاعلم أنه جل وعلا ناسب في هذه الآية الكريمة في قوله ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ بين نفي الجوع المتضمن لنفي الحرارة الباطنية والألم الباطني الوجداني ، وبين نفي العري المتضمن لنفي الألم الظاهري من أذى الحر والبرد ، وهي مناسبة لا بالتضاد . كما أنه تعالى ناسب في قوله ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ بين نفي الظمأ المتضمن لنفي الألم الباطني الوجداني الذي يسببه الظمأ .

وبين نفي الضحى المتضمن لنفي الألم الظاهري الذي يسببه حر الشمس ونحوه كما هو واضح .

بما ذكرنا تعلم أن قول من قال : إن في الآية المذكورة ما يسمع قطع النظير عن النظير ، وأن الغرض من قطع النظير عن النظير المزعوم تحقيق تعداد هذه النعم وتكثيرها . لأنه لو قرن النظير بنظيره لأوهم أن المعدودات نعمة واحدة ، ولهذا قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بين ذلك من التناسب . وقالوا : ومن قطع النظير عن النظير المذكور

قول امرئ القيس :

كأني لم أركب جواداً للذة . . . ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبا الزق الروي ولم أقل . . . لخيل كرى كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد من قوله « لخيل كرى كرة » وقطع « تبطن الكاعب » عن شرب « الزق الروي » مع التناسب في ذلك . وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها . كله كلام لا حاجة له لظهور المناسبة بين المذكورات في الآية كما أوضحنا ، والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(161/503)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

لما كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذبين والمعاندين الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وعاندوه ، وذلك المقصود من قَصَصها كما أشرنا إليه آنفاً عند قوله ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ [طه : 99 ، 100] فكأن النبي صلى الله

عليه وسلم استحب الزيادة من هذه القِصص ذات العبرة رجاء أن قومه يفيقون من ضلالتهم كما أشرنا إليه قريباً عند قوله ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ [طه : 114] ؛ أعقبت تلك القصة بقصة آدم عليه السلام وما عرّض له به الشيطان ، تحقيقاً لفائدة قوله ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ [طه : 114] .

فالجملة عطف قصة على قصة والمناسبة ما سمعتَ .

والكلام معطوف على جملة ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ .

وافتتاح الجملة بحرف التحقيق ولام القسم لمجرد الاهتمام بالقصة تنبيهاً على قصد التنظير بين القصتين في التفريط في العهد ، لأن في القصة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله ، كما قال فيها ﴿ ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد ﴾ [طه : 86] ، وفي قصة آدم تفريطاً في العهد أيضاً .

وفي كون ذلك من عمل الشيطان كما قال في القصة الأولى ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ [طه : 96] وقال في هذه ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ [طه : 120] .

وفي أن في القصتين نسياناً لما يجب الحفاظ عليه وتذكره فقال في القصة الأولى ﴿ فَنَسِيَ ﴾ [طه : 16] وقال في هذه القصة ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ .

وعليه فقوله ﴿ من قبلُ ﴾ حُذف ما أضيف إليه (قبلُ) .

وتقديره : من قبل إرسال موسى أو من قبل ما ذكر ، فإن بناء (قبلُ) على الضم علامة حذف المضاف إليه ونيّة معناه .

(162/503)

والذي ذكر : إما عهد موسى الذي في قوله تعالى : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ [طه : 13] وقوله ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ [طه : 16] ؛ وإما عهد الله لبني إسرائيل الذي ذكّرهم به موسى عليه السلام لما رجع إليهم غضبان أسفاً ، وهو ما في قوله ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ [طه : 86] الآية .

والمراد بالعهد إلى آدم : العهد إليه في الجنّة التي أنسي فيها .

والنسيان : أطلق هنا على إهمال العمل بالعهد عمداً ، كقوله في قصة السامري ﴿ فنَسي ﴾ ، فيكون عصياناً ، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى : ﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ الآية ، وقد مضت في سورة الأعراف (20 ، 21) .

وهذا العهد هو المُبيّن في الآية بقوله ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ﴾ [طه : 117] الآية .

والعزم : الجزم بالفعل وعدم التردد فيه ، وهو مغالبة ما يدعو إليه الخاطر من الانكفاف عنه لعسر عمله أو إيثار ضده عليه .

وتقدم قوله تعالى : ﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ في سورة البقرة (227) .

والمراد هنا : العزم على امتثال الأمر وإلغاءُ ما يحسِّن إليه عدمَ الامتثال ، قال تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ [آل عمران : 159] ، وقال ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وموسى ، وداوود ، وعيسى عليهم السلام .

واستعمل نفي وجدان العزم عند آدم في معنى عدم وجود العزم من صفته فيما عهد إليه تمثيلاً لحال طلب حصوله عنده بحال الباحث على عزمه فلم يجده عنده بعد البحث .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) ﴾

هذا بيان لجملة ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ﴾ [طه : 115] إلى آخرها ، فكان مقتضى الظاهر أن لا يكون معطوفاً بالواو بل أن يكون مفصولاً ، فوقوع هذه الجملة معطوفة اهتمام بها لتكون قصة مستقلة فتلفت إليها أذهان السامعين .

فتكون الواو عاطفة قصة آدم على قصة موسى عطفاً على قوله ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً ﴾ [طه : 10] ، ويكون التقدير : واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، وتكون جملة ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ﴾ تذييلاً لقصة هارون مع السامريّ وقوله ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هارون .

والمعنى : أنّ هارون لم يكن له عزم في الحفاظ على ما عهد إليه موسى .

وانتهت القصة بذلك التذييل ، ثمّ عطف على قصة موسى قصة آدم تبعاً لقوله ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ [طه : 99] .

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾

فَقُلْنَا يا آدم إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾

قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء الشيطان من السجود تقدمت في سورة البقرة وسورة الأعراف ، فلنقتصر على بيان ما اختصت به هاته السورة من الأفانين والتراكيب .

فقوله ﴿ إن هذا ﴾ إشارة إلى الشيطان إشارةً مراداً منها التحقير ، كما حكى الله في سورة الأنبياء (36) من قول المشركين ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ ، وفي سورة الأعراف (22) إن الشيطان لكما عدو عبر عنه باسمه .

وقوله عدوٌّ لكَ ولِزَوجِكَ ﴾ هو كقوله في الأعراف (22) : ﴿ وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ فذكرت عداوته لهما جملة هنالك وذكرت تفصيلاً هنا ، فابتدىء في ذكر متعلّق عداوته بآدم لأنّ آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده ، ثم أتّبع بذكر زوجه لأنّ عداوته إياها تبع لعداوته آدم زوجها ، وكانت عداوته متعلّقة بكليهما لاتحاد علّة العداوة ، وهي حسده إياهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء الذي هو عنوان الفكر الموصل إلى الهدى وعنوان التعبير عن الضمير الموصل للإرشاد ، وكل ذلك مما يبطل عمل الشيطان ويشق عليه في استهوائهما واستهواء ذريتهما ، ولأنّ الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم فحنق لما أمر بالسجود لآدم .

قوله فَلاَ يُخرجَنّكُما من الجنّةِفَلاَ يُخرِجَنّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى * إنِّ لَكَ أَلاَّ تجُوعَ فِيهَا ولاَ تعرى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا ولاَ تضحى ﴾ تفريع على الإخبار بعداوة إبليس له ولزوجه : بأن نُهيا نهي تحذير عن أن يتسبب إبليس في خروجهما من الجنة ، لأنّ العدوّ لا يروقه صلاح حال عدوه .

ووقع النهي في صورة نهي عن عمل هو من أعمال الشيطان لا مِنْ أعمال آدم كناية عن نهي آدم عن التأثر بوسائل إخراجهما من الجنّة ، كما يقال : لا أعرفنّك تفعل كذا ، كناية عن : لا تفعل ، أي لا تفعل كذا حتى أعرفه منك ، وليس المراد النهي عن أن يبلغ إلى المتكلّم خبر

فعل المخاطب .

وأسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازاً ، لأنّ في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع الإيماء إلى أنّ شقاء الذكر أصل شقاء المرأة ، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة .

وجملة ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ تعليل للشقاء المترتب على الخروج من الجنّة المنهي عنه ، لأنه لما كان ممتعاً في الجنة برفاهية العيش من مأكل وملبس ومشرب واعتدال جوّ مناسب للمزاج كان الخروج منها مقتضياً فقدان ذلك .

و ﴿ تضحى ﴾ مضارع ضَحِيَ : كرضي ، إذا أصابه حر الشمس في وقت الضحى ، ومصدره الضحو ، وحر الشمس في ذلك الوقت هو مبدأ شدته ، والمعنى : لا يصيبك ما ينافر مزاجك ، فالاقتصار على انتفاء الضحو هنا اكتفاء ، أي ولا تصردَ ، وآدم لم يعرف الجوع والعَرى والظمأ والضحْو بالوجدان ، وإنما عرفها بحقائقها ضِمن تعليمه الأسماء كلّها كما تقدّم في سورة البقرة .

وجُمع له في هذا الخبر أصول كُفاف الإنسان في معيشته إيماء إلى أن الاستكفاء منها

سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلة ، لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعاراً بخصائص المكوّن في مقوماته ، كما ورد في حديث الإسراء من توفيق النبي صلى الله عليه وسلم لاختيار اللبن على الخَمر فقيل له : لو اخترت الخمر لغَوَتْ أمّتك .

وقد قُرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله ﴿ ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وقرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ لمناسبة بين الجوع والعَرى ، في أن الجوع خلوّ باطن الجسم عما يقيه تألمه وذلك هو الطعام ، وأن العري خلوّ ظاهر الجسم عما يقيه تألمه وهو لفح الحر وقرص البرد ؛ ولمناسبة بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أن الأول ألم حرارة الباطن والثاني ألم حرارة الظاهر .

فهذا اقتضى عدم اقتران ذكر الظمأ والجوع ، وعدم اقتران ذكر العري بألم الحر وإن كان مقتضى الظاهر جمع النظيرين في كليهما ، إذ جَمْعُ النظائر من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النظائر .

ومن هذا القبيل في تفريق النظائر قصة أدبيّة طريفة جرت بين سيف الدولة وبين أبي الطيّب المتنبي ذكرها المعري في "معجز أحمد" شرحه على "ديوان أبي الطيّب" إجمالاً ، وبسطها الواحدي في "شرحه على الديوان" .

وهي : أن أبا الطيّب لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي طالعها :

على قَدر أهل العزم تأتي العزائم . . .

قال في أثنائها يصف موقعة بين سيف الدولة والرومِ في ثغر الحَدَث:

وقفتَ ما في الموت شك لواقف . . .

كأنك في جفن الردَى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمةً . . .

ووجهك وضّاح وثَغرك باسم

فاستعادها سيف الدولة منه بعد ذلك فلما أنشده هذين البيتين ، قال له سيف الدولة : إن صدريْ البيتين لا يلائمانِ عجُزيْهما وكان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف . . .

ووجهُك وضّاح وثغرك باسم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة . . .

كأنك في جفن الردى وهو نائم

وأنت في هذا مثل امرىء القيس في قوله:

كأني لم أركب جواداً للذة . . .

ولم أتبَطَّنْ كاعباً ذاتَ خَلْخال

ولم أسْبَأ الزقّ الرويّ ولم أقل . . .

لخيلي كُرّي كرَّة بعد إجفال

ووجه الكلام على ما قال العلماء بالشعر أن يكون عجز البيت الأول للثّاني وعجز البيت الثاني للأول ليستقيم الكلام فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر ، ويكون سِباء الخمر للذة مع تبطن الكاعب .

فقال أبو الطيّب : أدام الله عزّ الأمير ، إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلمُ منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفةَ الحائك لأن البزاز لا يعرف إلاّ جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله لأنه أخرجه من الغزليّة إلى الثوبية .

وإنما قرن امرؤ القيس لذّة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء .

وأنا لما ذكرت الموت أتبعتُه بذكر الردى لتجانسه ولما كان وجه المهزوم لا يخلو أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت:

ووجهك وضّاح وثغرك باسم . . .

لأجمع بين الأضداد في المعنى .

ومعنى هذا أن امرؤ القيس خالف مقتضى الظاهر في جمع شيئين مشتهري المناسبة فجمع شيئين متناسبين مناسبة دقيقة ، وأن أبا الطيّب خالف مقتضى الظاهر من جمع النظيرين ففرقهما لسلوك طريقة أبدع ، وهي طريقة الطباق بالتضاد وهو أعرق في صناعة البديع .

(167/503)

وجعلت المنة على آدم بهذه النعم مسوقة في سياق انتفاء أضدادها ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة تحذيراً منها لكي يتحامى من يسعى إلى إرزائه منها .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم ﴿ وإنك لا تظمأ ﴾ بكسر همزة (إنّ) عطفاً للجملة على الجملة .

وقرأ الباقون ﴿ وأنك بفتح الهمزة عطفاً على ألاّ تجوع عطف المفرد على المفرد ، أي إن لك نفي الجوع والعري ونفي الظّمأ والضَحْو .

وقد حصل تأكيد الجميع على القراءتين بـ (إن) وبأختها ، وبين الأسلوبين تفنّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(168/503)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

كأن الحق تبارك وتعالى يُعزِّي رسوله صلى الله عليه وسلم ويُخفِّف عنه ما يعانيه من كفر القوم وعنادهم بقوله له : اقبلهم على عِلاَّتهم ، فهُمْ أولاد آدم ، والعصيان أمر وارد فيهم ، وسبق أن عهدنا إلى أبيهم فنسى ، فإذا نسى هؤلاء فاقبل منهم فهم أولاد " نسَّاي " .

لذلك ، إذا أوصيتَ أحداً بعمل شيء فلم يَقُمْ به ، فلا تغضب ، وارجع الأمر إلى هذه المسألة ، والتمس له عُذْراً .

وقوله : ﴿ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ ﴾ [طه : 115] أي : أمرنا ووصَّيْنا ووعظنا ، وقلنا كل شيء .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ [طه : 115] هذه الكلمة لها دَوْر في القرآن ، وقد حسمتْ لنا مواقف عدة ، منها قوله هنا عن آدم والمراد : خُذْ لهم أُسْوة من أبيهم الذي كلّفه الله مباشرة ، ليس بواسطة رسول الله ، وكلّفه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة ، هذا هو التكليف ، ومع ذلك نسى آدم ما أُمِر به .

إذن : حينما يأتي التكليف بواسطة رسول ، وبأمور كثيرة ، فمَنْ نسى من ولد آدم فيجب

أنْ نعذره ونلتمس له عذراً ، ولكثرة النيسان في ذرية آدم قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ [طه : 82] بالمبالغة ؛ لأن الجميع عُرْضَة للنسيان وعُرْضة للخطأ ، فالأمر إذن يحتاج إلى مغفرة كثيرة .

كذلك جاءتْ (من قبل) في قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة : 91] .

(169/503)

فكان لها دور ومَغْزى ، فلو قال الحق سبحانه : فَلِمَ تقتلون أنبياء الله ؟ فحسْب ، فربما جرَّأهم على الاعتداء على رسول الله أنْ يقتلوه ، أو يفهم منها رسول الله أنه عُرْضة للقتل كما حدث مع سابقيه من الأنبياء . لذلك قيَّدها الحق تبارك وتعالى وجعلها شيئاً من الماضي الذي لن يكون ، فهذا شيء حدث من قبل ، وليس هذا زمانه .

وقوله : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] أي : نسي العَهْد ، هذه واحدة .

﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] ليس عنده عزيمة قوية تُعينه على المضيِّ والثبات في الأمر .

فالحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا فكرة بأنه سبحانه حين يأمر بأمْر فيه نفع لك تتهافت

عليه، أمّا إذا أمر بشيء يُقيِّد شهواتك تأبَّيْتَ وخالفتَ، ومن هنا احتاج التكليف إلى عزيمة قوية تعينك على المضيّ فيه والثبات عليه، فإنْ أقبلتَ على الأمر الذي يخالف شهوتك نظرتَ فيه وتأملتَ: كيف أنه يعطيك شهوة عاجلة زائلة لكن يعقبها ذل آجل مستمر، فالعَزْم هنا ألاّ تغريك الشهوة.

ألا ترى أن الله تعالى سمَّى الرسل أصحاب الدعوات والرسالات الهامة في تاريخ البشرية ﴿ أُوْلُواْ العزم ﴾ [الأحقاف: 35] لأنهم سيتحملون مشاقَ ومهامَ صعبة تحتاج إلى ثبات وصبر على التكليف.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: 63] أي: عزيمة تدفع إلى الطاعات، وتمنع من المعاصي.

ومسألة نسيان العبد للمنهيات التي يترتب عليها عقاب وعذاب أثارتْ عند الناس مشكلة في القضاء والقدر، فتسمع البعض يقول: ما دام أن الله تعالى كتب عليّ هذا الفعل فَلِمَ يعاقبني عليه؟

ونعجب لهذه المقولة، ولماذا لم تَقُلْ أيضاً: لماذا يثيبني على هذا الفعل، ما دام قد كتبه عليَّ؟ لماذا توقفتَ في الأولى و(بلعْت) الأخرى، بالطبع؛ لأن الأولى ليست في صالحك. إذن، عليك أن تتعامل مع ربك معاملة واحدة، وتقيس الأمور بمقياس واحد.

والعهد الذي أخذه الله على آدم أنْ يأكل رَغَداً من كل نعيم الجنة كما يشاء إلا شجرة واحدة حذَّره من مجرد الاقتراب منها هو وزوجه: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [البقرة: 35].

وهذه المسألة تلفتنا إلى أن المحللات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى أمّا المحرمات فقليلة معدودة محصورة؛ لذلك حينما يُحدِّثنا الحق سبحانه عن التكليف يقول: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: 151] فالمحرَّمات هي التي يمكن حصرها، أما المحللات فخارجة عن نطاق الحَصْر.

ونلحظ أن الله تعالى حينما يُحذِّرنا من المحرمات لا يُحذِّرنا من مباشرتها، بلْ مِن مجرد الاقتراب منها ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ [البقرة: 35] ولم يقُلْ: لا تأكلا منها؛ ليظل الإنسان بعيداً عن منطقة الخطر ومظنّة الفِعْل.

وحينما يُحدِّثنا ربُّنا عن حدوده التي حدَّها لنا يقول في الحدِّ المحلَّل: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: 229] وفي الحدِّ المحرّم يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: 187] ذلك لأن مَنْ حام حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه.

وقد كان للعلماء كلام طويل حول ما نسيه آدم عليه السلام ، فمنهم مَنْ قال : نسى (كُل من هذه ولا تقرب هذه) ، وعلى هذا الرأي لم يَنْس َآدم لأنه نفَّذ الأمر فأكل مِمّا أحله الله له ، أما كونه أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فليس في هذه أيضاً نسيان ؛ لأن إبليس ذكّره بهذا النهي فقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [الأعراف : 20] .

فحينما أكل آدم من الشجرة لم يكُنْ ناسياً ما نهاه الله عنه . إذن : ما المقصود بالنسيان هنا ؟

المقصود أن آدم عليه السلام نسى ما أخبره الله به من عداوة إبليس لعنه الله حين قال له :

﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [طه : 117] .

والفكر البشري لا بُدَّ أن تفوتَهُ بعض المسائل ، ولو كان عند الإنسان يقظه وحَذَر ما انطلى عليه تغفيل إبليس ، فتراه يُذكّر آدمَ بالنهي ولم يَدَعْهُ في غفلته ثم يحاول إقناعه : إنْ أكلتُما من هذه الشجرة فسوف تكونَا ملَكين ، أو تكونَا من الخالدين .

وما دُمْتَ أنت يا أبليس بهذا الذكاء ، فلماذا لم تأكل أنت من الشجرة وتكون مَلَكاً أو تكون

من الخالدين ؟ لماذا تضاءلت فصرْتَ أَرنباً تقول : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : 14] .

إذن : هذا نموذج من تغفيل إبليس لآدم وذريته من بعده ، يلفتنا الله تعالى إليه يقول : تيقظوا واحذروا ، فعداوته لكم مُسْبقة منذ سجد الجميع لآدم تكريماً ، وأَبَى هو أن يسجد .

فكان على آدم أنْ يُحذِّر عدوه ، وأنْ يتحصَّن له بسوء الظن فيه ، فينظر في قوله ويفكر في كلامه ويفتش في اقتراحه .

والبعض يقول : إن خطأ آدم ناتج عن نسيان ، فهو خطأ غير مُتعَمَّد ، والنسيان مرفوع ، كما جاء في الحديث الشريف : " إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " .

(172/503)

فهل كان النسيان قديماً لا يُرْفَع ، ورُفِع لهذه الأمة إكْراماً لها ؟ فأصحاب هذا القول يلتمسون العُذْر لآدم عليه السلام ، لكن كيف وقد كلَّفه ربُّه مباشرة ، وكلَّفه بأمر واحد ، فالمسألة لا تحتمل نسياناً ، فإذا نسي آدم مع وحدة التكليف وكَوْنه من الله مباشرة ، فهذا على آية حال جريمة .

ثم يقص الحق سبحانه علينا قصة آدم مع إبليس : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ ﴾ الحق تبارك وتعالى يقصُّ علينا قصة آدم عليه السلام ، لكن نلاحظ أنه سبحانه أعطانا مُجْمل القصة ومُوجزها في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] وأصلْ القصة وترتيبها الطبيعي أنه سبحانه يقول : خلقْتُ آدم بيدي وصوَّرته ، وكذا وكذا ، ثم أمرْتُ الملائكة بالسجود له ثم قلت له : كذا . . . . .

وعَرْض القصة بهذه الطريقة أسلوبٌ من أساليب التشويق يصنعه الآن المؤلفون والكُتَّاب في قصصهم ، فيعطوننا في بداية القصة لقطة لنهايتها ؛ لإثارة الرغبة في تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لوْنٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه .

ومن ذلك أسلوب القرآن في قصة أهل الكهف ، حيث ذكر القصة مُوجزة فقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لبثوا أَمَداً ﴾ [الكهف : 912] .

ثم أخذ في عَرْضها تفصيلاً : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ [الكهف : 13] .

وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً في قَصَص القرآن ، ففي قصة لوط عليه السلام يبدأ بنهاية القصة وما حاق بهم من العذاب : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : 3334] .

ثم يعود إلى تفصيل الأحداث : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بالنذر * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 3637] .

ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى في قصة موسى وفرعون : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ [الأعراف : 103] أي : من بعد موكب الرسالات إلى فرعون وملَئِه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، هذا مُجمل القصة ، ثم يأخذ في قَصِّ الأحداث بالتفصيل : ﴿ وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الأعراف : 104] .

وهكذا أسلوب القرآن في قصة آدم عليه السلام ، يعطينا مُجْمل القصة ، ثم يُفصِّلها : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا ﴾ [طه : 116] يعني : إذكر إذ قُلْنا للملائكة ﴿ اسجدوا لأَدَمَ ﴾ [البقرة : 34] .

وقبل أن نخوضَ في قصة أبينا آدم عليه السلام يجب أن نشير إلى أنها تكررتْ كثيراً في القرآن ، لكن هذا التكرار مقصود لحكمة ، ولا يعني إعادة الأحداث ، بل هي لقطاتٌ لجوانب

مختلفة من الحدَث الواحد تتجمع في النهاية لتعطيك القصة الكاملة من جميع زواياها .

كما أن الهدف من قَصَص القرآن تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سيمرُّ بكثير من الأحداث والشدائد ، سيحتاج في كل منها إلى تثبيت ، وهذا الغرض لا يتأتَّى إذا سردنا القصة مرة واحدة ، كما في قصة يوسف عليه السلام مثلاً .

(174/503)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا ﴾ [طه : 116] البعض يعترض يقول : كيف تسجد الملائكة لبشر ؟ نعم ، هم سجدوا لآدم ، لكن ما سجدوا من عند أنفسهم ، بل بأمر الله لهم ، فالمسألة ليستْ سجوداً لآدم ، بقدر ما هي إطاعة لأمر الله . ولقائل هذا الكلام : أأنت مَلكيٌّ أكثر من الملك ؟ يعني : أأنت ربانيّ أكثر من الربّ ؟

وما معنى السجود ؟ السجود معناه : الخضوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَاً ﴾ [يوسف : 100] أي : سجودَ تعظيم وخضوع ، لا سجودَ عبادة .

وآدم عليه السلام هو خليفة الله في الأرض ، لكنه ليس الوحيد عليها ، فعلى الأرض مخلوقات كثيرة منها الحسّ ، كالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والأرض والجبال ،

وكُلّ ما فيه مصلحة لهذا الخليفة ، ومنها ما هو خفيّ كالملائكة التي تدير خفى هذا الكون ، فمنهم الحفظة والكتبة ، ومنهم المكلَّفون بالريح وبالمطر . . إلخ من الأمور التي تخدم الخَلْق . فلا بُدّ إذن أن يخضع الجميع لهذا المخدوم الآتي .

وقد يحلو للبعض أن يقول : لقد ظَلَمنا آدمُ حين عصى ربه ، فأنزلنا من الجنة إلى الأرض .

نقول : يجب أن نفهم عن الله تعالى ، فالحق تبارك وتعالى لم يخلق آدم للجنة التي هي دار الخُلْد ، إنما خلقه ليكون خليفة له في الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] .

فأوّل بلاغ من الله عن آدم أنه خالقه للأرض لا للجنة . والجنة ، وإن كانت تُطلَق على دار الخُلْد ودار النعيم الأُخْروي فهي تُطلَق أيضاً على حدائق وبساتين الدنيا ، كما جاء في قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم : 17]

.

وقوله : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ [الكهف : 32] .

إذن : تُطلَق الجنة على شيء في الدنيا يضمُّ كل ما تطلبه النفس وسَمَّوْها الجنة ؛ لأنها تستر بشجرها وكثافتها مَنْ يدخل فيها ، أو جنة لأنها تكفي الإنسان ولا تُحوجه إلى شيء غيرها .

فلا تظلموا آدم بأنه أخرجكم من الجنة ؛ لأنه لم يكُنْ في جنة الخُلْد ، إنما في مكان أعدَّه الله له ، وأراد أنْ يُعطيه في هذا المكان درساً ، ويُدرِّبه على القيام بمهمته في الحياة وخلافته في الأرض .

أرأيتَ ما نفعله الآن من إقامة معسكرات للتدريب في شتى مجالات الحياة ، وفيها نتكفّل بمعيشة المتدرب وإقامته ورعايته .

إنها أماكن مُعدَّة للتدريب على المهام المختلفة : رياضية ، أو علمية ، أو عسكرية .. الخ .

هكذا كانت جنة آدم مكاناً لتدريبه قبل أنْ يباشر مهمته كخليفة لله في الأرض ، فأدخله الله في هذه التجربة العملية التطبيقية ، وأعطاه فيها نموذجاً للتكليف بالأمر والنهي ، وحذَّره من عدوه الذي سيتربص به وبذريته من بعده ، وكشف له بعض أساليبه في الإضلال والإغواء .

وهذه هي خلاصة منهج الله في الأرض، وما من رسول إلا وجاء بمثل هذا المنهج: أمر، ونهي، وتكليف، وتحذير من الشيطان ووسوسته حتى يُخرِجنا عن أمر الله ونَهْيه.

وبعد هذا (الكورس) التدريبي في الجنة عَلِم آدم بالتطبيق العملي أن الشيطان عدوه، وأنه سيُغريه ويخدعه، ثم بعد هذه التجربة أنزله الله ليباشر مهمته في الأرض، فيكون من عدوه على ذِكْر وحذر.

والبعض يقف طويلاً عند مسألة عصيان آدم: كيف يعصي الله وهو نبي؟ ويذكرون قوله تعالى: ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه: 121].

(176/503)

نقول: ما دام أن آدم عليه السلام هو خليفة الله في أرضه، ومنه أُنْسَالُ الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة، ومن نَسْله الأنبياء وغير الأنبياء، من نسله الرسل والمرسل إليهم. إذن: فهو بذاته يمثل الخَلْق الآتي كله بجميع أنواعه المعصومين وغير المعصومين.

كما أن آدم عليه السلام مرَّ بهذه التجربة قبل أن ينبأ، ومَرَّ بها بعد أن نُبىء، بدليل قوله تعالى: ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى * ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ [طه: 121122].

فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب ، ثم لما أُهبط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] .

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة آدم عليه السلام ، ومثَّل آدم الدَّوْرَيْن : دَوْر العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه ، ودَوْر البشر العادي غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأيِّ إنسان من أناس الأرض .

ينبغي إذن أن نفهم أن آدم خُلِق للأرض وعمارتها ، وقد هيَّأها الله لآدم وذريته من بعده ، وأعدَّها بكُلِّ مقوِّمات الحياة ومُقوِّمات بقاء النوع ، فمَنْ أراد ترف الحياة فليُعمل عقله في هذه المقوّمات وليستنبط منها ما يريد .

لقد ذكرنا أن في الكون مُلكاً وملكوتاً : المُلْك هو الظاهر الذي نراه ونشاهده ، والملكوت ما خفى عنّا وراء هذا المُلْك ، ومن الملكوت أشياء تؤدي مهمتها في حياتنا دون أنْ نراها ، فمثلاً ظاهرة الجاذبية الأرضية التي تتدخل في أمور كثيرة في حياتنا ، كانت في حجاب الملكوت لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً ، ثم لما اهتدتْ إليها العقول واكتشفتْها عرفنا أن هناك ما يسمى بالجاذبية .

ومن الملكوت الملائكة الموكّلون ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : 11] .

ومنهم الكَتَبة : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] .

فلما خلق الله آدم ، وخلق الملائكة الموكلين بمصالحه في الأرض أمرهم بالسجود له ؛ لأنهم سيكونون في خدمته ، فالسجود طاعة لأمر الله ، وخضوع للخليفة الذي سيعمر الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى ﴾ [طه : 116] وفي آية أخرى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ استكبر ﴾

[ص : 74] .

وقد أوضح الحق سبحانه سبب رَفْض إبليس للسجود لآدم بقوله : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75]

أي : لا سبب لامتناعك إلا الاستكبار على السجود ، أو تكون من العالين . أي : الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، فكأن الأمر كان للملائكة خاصة هم الموكّلون بخدمة آدم ، أمّا العالون فهم الملائكة المهيّمون ، ولا علاقة لهم بآدم ، وربما لا يدرُون به .

ومن الأساليب التي أثارتْ جدلاً حول بلاغة القرآن لدى المستشرقين قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] وقوله في موضع آخر : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [

الأعراف : 12] فأيُّ التعبيرْين بليغ ؟ وإنْ كان أحدهما بليغاً فالآخر غير بليغ .

وهذا كله ناتج عن قصور في فَهْم لغة القرآن ، وعدم وجود المَلَكة العربية عند هؤلاء ، فهناك فَرْق بين أنك تريد أن تسجدَ ويأتي مَنْ يقول لك : لا تسجد ، وبين أنْ يُقنعك شخص بألاَّ تسجد . فقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] كنت تريد السجود وواحد منعك ، وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] يعني : أمرك ألاَّ تسجد ، وأقنعك وأنت اقتنعتَ .

ومن المسائل التي أثيرتْ حول هذه القصة : أكان إبليس من الملائكة فشمله الأمر بالسجود ؟ وكيف يكون من الملائكة وهم لا يعصُون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؟ وإذا لم يكُنْ مَلَكاً فماذا أدخله في الأمر ؟

(178/503)

ولتوضيح هذه المسألة نقول : خلق الله الثَّقلَيْن : الجن والإنس ، وجعلهم مختارين في كثير من الأمور ، ومقهورين في بعض الأمور ، ليثبت طلاقة قدرته تعالى في خَلْقه ، فإنْ كنتَ مختاراً في أمور التكليف وفي استطاعتك أنْ تطيع أو أنْ تعصي ، فليس من اختيارك أنْ تكون صحيحاً أو مريضاً ، طويلاً أو قصيراً ، فقيراً أو غنياً ، ليس في اختيارك أنْ تحيا أو تموت .

والحق تبارك وتعالى لا يُكلِّفك بافعل كذا ولا تفعل كذا، إلا إذا خلقك صالحاً للفعل ولعدم الفعل، هذا في أمور التكليف وما عداه أمور قَهْرية لا اختيار لك فيها هي القدريات.

لذلك نقول للذين أَلِفُوا التمرد وتعوَّدوا الخروج على أحكام الله في التكليفات: لماذا لا تَمردوا أيضاً على القدريات ما دُمْتم قد أَلِفْتم المخالفة؟ إذن: أنت مقهور وعَبْد رَغْماً عنك.

لذلك، إذا كان المختار طائعاً يلزم نفسه بمنهج ربه، بل ويتنازل عن اختياره لاختيار الله، فمنزلته عند الله كبيرة، وهي أفضل من المَلَك، لأن المَلَك يطيع وهو مرغم. ومن هنا يأتي الفرْق بين عباد وعبيد، فالكل في القهر عبيد، لكن العباد هم الذين تركوا اختيارهم لاختيار ربهم.

ومن هنا نقول: إن إبليس من الجن، وليس من الملائكة؛ لأنه أُمِر فامتنع فعُوقِب، وإنْ كان الأمر في الأصل للملائكة.

وقد حسم القرآن هذه القضية حين قال: ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: 50] وهذا نصٌّ صريح لا جدالَ حوله.

فإنْ قُلْتَ: فلماذا شمله الأمر بالسجود، وهو ليس مَلَكاً؟

نقول: لأن إبليس قبل هذا الأمر كان طائعاً، وقد شهد عملية خَلْق آدم، وكان يُدْعَي "طاووس الملائكة" لأنه ألزم نفسه في الأمور الاختيارية ففاق بذلك الملائكة، وصار يزهو

عليهم ويجلس في مجلسهم، فلما جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم شمله الأمر ولزمه من ناحيتين:

(179/503)

الأولى: إنْ كان أعلى منهم منزلةً وهو طاووسهم الذي ألزم نفسه الطاعة رغم اختياره فهو أَوْلى بطاعة الأمر منهم، ولماذا يعصي هذا الأمر بالذات؟

الأخرى: إنْ كان أقلّ منهم، فالأمر للأعلى لا بُدَّ أنْ يشمل الأدنى، كما لو أمرتَ الوزراء مثلاً بالقيام لرئيس الجمهورية، وبينهم وكلاء ومديرون، فطبيعيٌّ أنْ يشملهم الامر.

ثم يقول الحق: ﴿ فَقُلْنَا ياءَادَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه: 117] كلمة الزوج لا تعني اثنين كما يظن البعض، الزوج فرد واحد معه مثله، فليس صحيحاً أن نقول: توأم إنما توأمان، فكل منهما توأم للآخر؛ لذلك يقول تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: 49].

مَلْحظ آخر في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ [طه: 117] الخطاب لآدم وزوجه يُحذِّرهما من إغواء إبليس وكَيْده، ثم يقول ﴿ فتشقى ﴾ [طه: 117] بصيغة الإفراد، ولم يقُل: فتشقيا. لماذا؟ لأن مسئولية الكَدْح والحركة للرجل أمّا المرأة

فهي السكن المريح المنشِّط لصاحب الحركة، على خلاف ما نرى في مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة في تبعات الحياة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) ﴾

فقد أعددْتُ لك الجنة، وجعلتُ لك فيها كل ما تحتاجه، وأبحْتُ لك كل نعيمها ونهيتُك عن شيء واحد منها، ولك علينا ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى ﴾ [طه: 118] فلن تجوع فيها؛ لأن فيها كل الثمرات ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: 35].

ونلحظ هنا أن الله تعالى تكفّل لهما بشيء ظاهر يُلبّي غريزة ظاهرة هي اللباس والتستُّر، وغريزة باطنة هي غريزة الطعام.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ﴾

(تظمأ) يعني: تعطش، و(تضحى): أي: لا تتعرض لحرارة الشمس اللافحة، فتكفّل لهما ربهما أيضاً بغريزة باطنة هي العطش، وغريزة ظاهرة هي ألاّ تلفحك حرارة الشمس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ﴾

تأمل قوله تعالى ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ﴾

كيف قابل الجوع بالعرى والظمأ بالضحى والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في اعلى الفصاحة والجلالة لأن الجوع ألم الباطن والعري ألم الظاهر فهما متناسبان في المعني وكذلك الظمأ مع الضحى لأن الظما موجب لحرارة الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرا وباطنا .

وفي هذا الباب حكاية مشهورة وهي أن ابن حمدان قال يوما للمتنبي قد أنتقد عليك قولك:

وقفت وما في الموت شك لواقف . . . كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة . . . ووجهك وضاح وثغرك باسم

قالوا : ركبت صدر كل بيت على عجز الآخر وكان الأولى أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف . . . ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة . . . كأنك في جفن الردى وهو نائم

فليتم المعنى حينئذ لأن انبساط الوجد ووضوحه مع الوقوف في موقف الموت أشبه بأوصاف الكماة والسلامة من الردى مع مرور الأبطال كلمى هزيمة أعجب في حصول النجاة وهذا كما أنتقد على امرىء القيس قوله:

كأني لم أركب جوادا للذة . . . ولم أبتطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل . . . لخيلي كري كرة بعد إجفال

فلو قال:

كأني لم أركب جوادا ولم أقل . . . لخليلي كري كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروي للذة . . . ولم أبتطن كاعبا ذات خلخال

كان أشبه بالمعنى لأن ركوب الخيل أشبه بالكر على الأبطال وسبأ الزق أليق بتبطن الكواعب.

فقال المتنبه يعني قائل الشعر المدعو بالمتنبي الكذاب: أعلم أن القزاز أعلم بالثوب من البزاز لأن القزاز يعلم أوله وآخره والبزاز لا يرى منه إلا ظاهره.

وهذا الانتقاد غير صحيح فإني قلت:

وقفت وما في الموت شك لواقف . . . .

فذكرت الموت وتحقق وقوعه في صدر البيت ثم تممت المعنى بقولي:

. . . . كأنك في جفن الردى وهو نائم

والردى الموت بعينه فكأني قلت: وقفت في مواضع الموت ولم تمت كأن الموت نائم عنك

فحصل المعنى مناسبا للقصد ثم قلت:

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة . . . .

ومن شأن المكلوم والمنهزم أن يكونا كاشحي الوجوه عابسيها خائبي الأمل فقلت:

. . . . ووجهك وضاح وثغرك باسم

لتحصل المطابقة بين عبوس الوجه وقطوبه ونضارته وشحوبه وإن لم تكن ظاهره في اللفظ

فهي في المعنى يفهمها من له في إدراك دقائق المعاني قدم راسخ وأما قول امرىء القيس:

كأني لم اركب جودا للذة . . . .

فإنه لما ذكر الركوب في البيت الأول تممه بما يشبهه ويناسبه من ركوب الكواعب ليحصل لذة

ركوب مهر الحرب وركوب مهر اللذة.

وأما البيت الثاني فمن شأن الشارب إذا أنتشي أن تتحرك كوامن صدره ويثور ما في نفسه

من كوامن الأخلاق إلى الخارج فلما ذكر الشرب وحالة وتخيل نفسه كذلك فتحرك كامن

خلقه من الحماسة والشجاعة فأردفه بما يليق به ثم ذكر الآية وتكلم عليها بنحو ما تقدم.

إذا ظفرت من الدنيا بقربكم . . . فكل ذنب جناه الحب مغفور

(183/503)

فصل: حكم ومواعظ وعبر

من نبت جسمه على الحرام فمكاسبه كبريت به يوقد عليه الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب. أتراهم نسوا طي الليالي لمن تقدمهم ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ فما هذا الاغترار وقد خلت من قبلهم المثلات ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من لهم إذا طلبوا العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون. سبحان الله كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة واحترقت كبد يتيم وجرت دمعة مسكين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾. ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم وما سمنت أجسامهم حتى أنتحلت أجسام ما استأثروا عليه. لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك. ويحك نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت قوسه قلبه المقروح ووتره سواد الليل وأستاذه صاحب لأنصرنك ولو بعد حين وقد رأيت ولكن لست تعتبر. احذر عداوة من ينام وطرفه باك يقلب وجهه في السماء يرمي

سهاما ما لها غرض سوى الأحشاء منك فربما ولعلها إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمرة العقوبة لم يحسن تناولها . ما تساوي لذة سنة غم ساعة فكيف والأمر بالعكس . كم في يم الغرور من تمساح فاحذر يا غائص ستعلم أيها الغريم قصتك عند علق الغرماء بك

إذا التقى كل ذي دين وماطلة . . . ستعلم ليلى أي دين تداينت

من لم يتتبع بمنقاش العدل شوك الظلم من أيدي التصرف أثر ما لا يؤمن تعديه إلى القلب . يا أرباب الدول لا تعربدوا في سكر القدرة فصاحب الشرطة بالمرصاد سليمان الحكم قد حبس عاصف العقوبة في حصن ﴿ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ وأجرى رحا الرخا ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾ فلو هبت سموم الجزاء من

(184/503)

مهب ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ قلعت سكرى ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ﴾ فإذا طوفان التلف ينادي فيهم ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ فالحذر ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ وأنت أيها المظلوم فتذكر من أين أتيت فإنك لا تلقى كدرا إلا من طريق جناية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ كان يشوب الماء باللبن فجاء سيل فذهب بالغنم فجعل

يبكي فهتف به هاتف اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا ولسان الجزاء يناديه: يداك أوقدتا وفوك نفخ اذكر غفلتك عن الأمر والأمر وقت الكسب ولا تنس اطراح التقوى عند معاملة الخلق فإذا انقض غاصب فسمعت صوت سوطه يضرب عقد المكسب جزاء لخيانته العقود فلا تستعظم ذاك فأنت الجاني والبادي أظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ3 صـ 240 . 243 ﴾

(185/503)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ .

ظاهر هذه الآية أن آدم ناس للعهد بالنهي عن أكل الشجرة ؛ لأن الشيطان قاسمه بالله أنه له ناصح حتى دلاه بغرور وأنساه العهد وعليه فهو معذور لا عاص .

وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ .

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: هو ما قدمنا من عدم العذر بالنسيان لغير هذه الأمة.

الثاني: أن نسي بمعنى ترك, والعرب ربما أطلقت النسيان بمعنى الترك ومنه قوله تعالى:

﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ ﴾ .

الآية. والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 202 ﴾

(186/503)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

وقرأ اليماني " فنُسِّي " بضم النون وتشديد السين بمعنى: نسَّاه الشيطانُ.

قوله: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ يجوز أن تكونَ " وجد " علميةً فتتعدى لاثنين، وهما " له عَزْماً "، وأنْ تكونَ بمعنى الإِصابة فتتعدى لواحدٍ، وهو " عَزْما ". و" له " متعلقٌ بالوجدان، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " عَزْما " إذ هو في الأصل صفةٌ له قُدِّمَتْ عليه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) ﴾

قوله : ﴿ أبى ﴾ : جملة مستأنفةٌ لأنها جوابُ سؤالٍ مقدرٍ . أي : ما منعه من السجود ؟ فأُجيب بأنه أبى واستكبر . ومفعولُ الإباءِ يجوز أن يكونَ مُراداً . وقد صَرَّح به في الآيةِ الأخرى في قولِه ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ [الحجر : 31] . وحَسَّن حَذْفَه هنا كونُ العاملِ رأسَ فاصلةٍ ، ويجوز أَنْ لا يُرادَ البتةَ ، وأنَّ المعنى : إنه مِنْ أهلِ الإِباءِ والعصيانِ ، من غيرِ نظرٍ إلى متعلَّق الإباء ما هو؟

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) ﴾

قوله : ﴿ فتشقى ﴾ :

منصوبٌ بإضمار " أَنْ " في جواب النهي . والنهيُ في الصورةِ لإِبليس ، والمرادُ به هما أي : لا تتعاطيا أسبابَ الخروجِ فيحصُلَ لكما الشقاءُ ، وهو الكَدُّ والتعبُ الدنيوي خاصة .

ويجوزُ أَنْ يكونَ مرفوعاً على الاستئنافِ أي : فأنت تَشْقَى . كذا قَدَّره الشيخ . وهو بعيدٌ أو ممتنع ؛ إذ ليس المقصودُ الإِخبارَ بأنه يشْقَى ، بل إنْ وقَعَ الإِخراجُ لهما من إبليس حَصَلَ ما ذكر . وأسند الشقاوةَ إليه دونها ؛ لأنَّ الأمورَ معصوبةٌ برؤوس الرجال . وحسَّن ذلك كونُه رأسَ فاصلةٍ .

قوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ ﴾

في محلِّ نصب اسماً ل " إنَّ " . والخبرُ " لك " . والتقديرُ : إنَّ لك عدَمَ الجوع والعريِ . ف " تعرى " منصوبٌ تقديراً نَسَقاً على " تجوعَ " . والعُرْيُ : تجرُّدُ الجِلْدِ عن شيءٍ يَقيه . يُقال منه : عَرِيَ يعرى عُرِيّاً قال الشاعر :

3325 وإنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِيَ الجَواري . . . فَتَنْبُو العينُ عن كَرَمٍ عِجافِ

قوله : ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ ﴾ :

قرأ نافع وأبو بكر و " إنك " بكسرِ الهمزة . والباقون بفتحها . فَمَنْ كَسَرَ فيجوز أن يكونَ ذلك استئنافاً ، وأن يكونَ نَسَقاً على " إنَّ " الأولى . ومَنْ فتح فلأنَّه عَطَفَ مصدراً مؤولاً على اسمِ " إنَّ " الأولى . والخبرُ " لك " المتقدمُ . والتقديرُ : إنَّ لك عَدَمَ الجوعِ وعدمَ العُرِيِّ وعَدَمَ الظمأ والضُّحا . وجاز أن تكون " أنَّ " بالفتح أسماً ل " إنَّ " بالكسر للفصل بينهما ، ولولا ذلك لم يَجُزْ . لو قلت : " إن إنَّ زيداً قائم / حَقٌّ " لم يجُزْ فلمَّا فُصِل بينهما جاز . وتقول : " إنَّ عندي أن زيداً قائم " ف " عندي " هو الخبرُ قُدِّم على الاسمِ وهو " أنَّ " وما في تأويلِها لكونِه ظرفاً ، والآيةُ من هذا القبيل ؛ إذ التقديرُ : وإنَّ لك أنَّك لا تظمأ . وقال الزمخشري : " فإنْ قلت : " إنَّ " لا تدخل على " أنَّ " فلا يُقال : " إنَّ أنَّ زيداً منطلق " ، والواوُ نائبةٌ عن " أنَّ " ، وقائمةٌ مقامَها فلِمَ دَخَلَتْ عليها ؟ قلت : الواوُ لم تُوْضَعْ لتكون أبداً نائبةً عن " أنَّ " إنما هي نائبةٌ عن كلِّ عاملٍ ، فلمَّا لم تكنْ حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصةً

"إنَّ" لم يمتنعْ اجتماعُهما كما [امتنع اجتماع] إنَّ وأنَّ" .

وضحى يَضْحَى أي: برز للشمسِ . قال عمر بن أبي ربيعة:

3326 رأَتْ رجلاً أَيما إذا الشمسُ عارَضَتْ . . . فيضحى وأيما بالعَشِيِّ فيَخْصَرُ

(188/503)

وذكر الزمخشريُّ هنا معنًى حسناً في كونِه تعالى ذكر هذه الأشياءَ بلفظ النفي، دونَ أَنْ يذكرَ أضدادَها بلفظِ الإثباتِ . فيقول: إنَّ لك الشِّبَعَ والكِسْوَةَ والرِّيَّ والاكتنانَ في الظلِّ فقال: "وذَكَرَها بلفظِ النفي لنقائضِها التي هي الجوعُ والعُرِيُّ والظمأُ والضَّحْوُ ليطرُقَ سمعه بأسامي أصنافِ الشِّقْوَةِ التي حَذَّره منها حتى يَتحامى السببَ الموقعَ فيها كراهةً لها .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 111. 114﴾

(189/503)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

لم تجد له قوةً بالكمال، وانكماشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمةُ العصيان بقوله:

﴿ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ ﴾ [طه: 121].

ويقال: ﴿ لم نجد له عزماً ﴾: على الإصرار على المخالفة.

ويقال لم نجد عزماً في القصد على الخلاف، وإن كان.. فذلك بمقتضى النسيان، قال تعالى: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ على خلاف الأمر، وإنْ كان منه اتباعُ لبعض مطالبات الأمر.

ويقال شرح قصة آدم – عليه السلام – لأولاده على حجة التسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى: ﴿ فَنَسِيَ ﴾ من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس.

ويقال عاتبه بقوله: ﴿ فَنَسِيَ ﴾ ثم أظهر عُذْرَه فقال: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) ﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القَدْر ، ولم تتقدم من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فَخَلَقه الحقُّ بيده ، ورَفَعَ شأنَه بعد ما علَّمه ، وحُمِلَ إلى الجنة ، وأَمَرَ الملائكةَ في كل سماءٍ أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء ، واختباراً لهم . فسجدوا بأجمعهم ، وامتنع إبليسُ من بينهم ، فَلَقِيَ من الهوان من سبق له في حكم التقدير . والعَجَبُ ممن يخفى عليه أنَّ مثل هذا يجري من دون إرادة الحقِ ومشيئته وهو عالِمٌ بأنه كذلك يجري ، واعتبروا الحكمةَ في أفعاله وأحكامه ، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته ، وكثرة مخالفات أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحقَّ سبحانه أراد خلاف ما عَلِمَ ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالِمٌ ، وكان عالماً بما سيكون ! ثم خلق إبليس ومكَّنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك ! ويدَّعُون حُسْنَ ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة . . . فسبحانَ مَنْ أَعْمَى بصائِرَهم ، وعَمَّى حقيقةَ التوحيد عليهم !

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) ﴾

وما كان ينفعهم النُصْحُ وقد أراد بهم ما حذَّرَهم ، وعَلِمَ أنهم سيلقون ما خوَّفهم به . قوله : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء ؛ وأَمَّا إنَّه أضاف الشقاءَ إلى آدم وحدَه - وكلاهما لحقَهَ شقاءُ الدنيا - فذلك لمضارعة رؤوس الآي ، أو لأن التعبَ على الرجال دون النساء . ومَنْ أصغى إلى قول عدوِه فإنه يتجرَّعُ النَّدَمَ ثم لا

ينفعه .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) ﴾

(191/503)

لا تصديقَ أتمُّ من تصديقِ آدم ، ولا وعظَ أشدُّ رحمةً من الله ، ولا يقينَ أقوى من يقينه . . .

ولكن ما قاسى آدمُ الشقاءَ قبل ذلك ، فلمَّا استقبله الأمرُ وذاق ما خُوِّفَ به من العناءِ والكدّ نَدِمَ وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ أُوثِرَ بكل وجه ؛ فلم يعرف قَدْرَ العافيةِ والسلامةِ ، إلى أن جرى ما هو محكواً به من سابقِ القسمة .

ويقال تنعَّمَ آدمُ في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوعُ والعطشُ ، والبلاء من كل (. . .) .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدَّد له نوعٌ من البلاء أخذ في البكاء ، وجبريل عليه السلام - يأتي ويقول : ربُّك يُقرِئك السلامَ ويقول : لِمَ تبكي ؟ فكان يُذَكِّر جبريلَ عليه السلام وهو يقول : أهذا لاذي قُلْتَ : ﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلآَ تَضْحَى ﴾ . . . ! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 481 . 483 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ فوسوس ﴾ أي فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد في الزمان أن وسوس ﴿ إليه الشيطان ﴾ المحترق المطرود ، وهو إبليس ، أي ألقى إليه وجه الخفاء بما مكناه من الجري في هذا النوع مجرى الدم ، وقذف المعاني في قلبه ، وكأنه عبر ب " إلى " ، لأن المقام لبيان سرعة قبول هذا النوع للنقائص وإن أتته من بعد ، أو لأنه ما أنهى إليه ذلك إلا بواسطة زوجه ، لذلك عدى الفعل عند ذكرهما بالام ، وكأنه قيل : ما دس إليه ؟ فقيل : ﴿ قال يا آدم ﴾ ثم ساق له الغش مساق العرض ، إبعاداً لنفسه من التهمة والغرض ؛ وشوقه إليه أولاً بقوله : ﴿ هل أدلك ﴾ فإن النفس شديدة الطلب لعلم ما تجهله ؛ وثانياً بقوله : ﴿ على شجرة الخلد ﴾ أي التي من أكل منها خلد ، فإن الإنسان أحب شيء في طول البقاء ؛

وثالثاً بقوله : ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أي لا يخلق أصلاً ، فكأنه قال له بلسان الحال أو القال : نعم ، فقال : شجرة الخلد هذه - مشيراً إلى التي نهي عنها - ما بينك وبين الملك الدائم إلا أن تأكل منها .

(193/503)

﴿ فأكلا ﴾ أي فتسبب عن قوله وتعقب أن أكل ﴿ منها ﴾ هو وزوجه ، متبعين لقوله ناسيين ما عهد إليهما ﴿ فبدت لهما ﴾ لما خرقا من ستر النهي وحرمته ﴿ سوءاتهما ﴾ وقوعاً لما حذرا منه من إخراجهما مما كانا فيه ﴿ وطفقا ﴾ أي شرعا ﴿ يخصفان ﴾ أي يخيطان أو يلصقان ﴿ عليهما من ورق الجنة ﴾ ليسترا عوراتهما ﴿ وعصى آدم ﴾ وإن كان إنما فعل المنهي نسياناً ، لأن عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ودوام المراقبة مع ربط الجأش ويقظة الفكر ﴿ ربه ﴾ أي المحسن إليه بما لم ينله أحداً من بنيه من تصويره له بيده وإسجاد ملائكته له ومعاداة من عاداه ﴿ فغوى ﴾ من الغواية وهي الضلال ، ولذلك قالوا : المعنى : فضلّ عن طريق السداد ، فأخطأ طريق التوصل إلى الخلد بمخالفة أمره ، وهو صفيه ، لم ينزله عن رتبة الاصطفاء ، لأن رحمته واسعة ، وحلمه عظيم ، وعفوه شامل ، فلا يهمنك أمر القوم اللد ، فإنا قادرون على أن نقبل بقلوب من شئنا منهم

فنجعلهم من أصفى الأصفياء ، ونخرج من أصلاب من شئنا منهم من نجعل قلبه معدن الحكمة والعلم .

ولما كان الرضى عنه - مع هذا الفعل الذي أسرع فيه اتباع العدو وعصيان الولي بشيء لا حاجة به إليه - مستبعداً جداً ، أثبت ذلك تعالى مشيراً إليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي المحسن إليه ﴿ فتاب عليه ﴾ أي بسبب الاجتباء بالرجوع إلى ما كان عليه من طريق السداد ﴿ وهدى ﴾ بالحفظ في ذلك كما هو الشأن في أهل الولاية والقرب . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 52 . 53 ﴾

(194/503)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) ﴾

واعلم أنه سبحانه بين أنه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجوداً للملائكة وبين أنه عرفه شدة عداوة إبليس له ولزوجه وأنه لعداوته يدعوهم إلى المعصية التي إذا وقعت زالت تلك

النعم بأسرها ، ثم إنه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الإقدام على الزلة ما اتفق ، والعجب ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال : "لو أن أحلام بني آدم إلى قيام الساعة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في الأخرى لرجح حلمه بأحلامهم" ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة ، واعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله : ﴿ فَلاَ يُخرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 117 119] ورغبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله : ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها ، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته ، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي .

ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره .

وأما قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ فقد تقدم في سورة البقرة أنه كيف وسوس ، وبماذا وسوس .

فإن قيل : كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] وأخرى بإلى ؟ قلنا قوله : ﴿ فوسوس له ﴾ معناه لأجله وقوله : ﴿ وسوس إِلَيْهِ ﴾ معناه أنهى إليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر إليه ثم بين أن تلك الوسوسة كانت بتطميعه في أمرين : أحدهما : قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها صار مخلداً بزعمه .

الثاني : قوله : ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ أي من أكل من هذه الشجرة دام ملكه ، قال القاضي : ليس في الظاهر أن آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبياً لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه ، لأنه لا بد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت ، وبالمعنى فآدم لما كان نبياً امتنع أن لا يعلم ذلك .

قلنا : لا نسلم بأنه لا بد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ، ولم لا يجوز

أن يقال : لا حاجة إلى الفترة أصلاً ، وإن كان ولا بد فيكفي حصول الفترة بغشي أو نوم خفيف .

(196/503)

ثم إن كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلم قلت : النبي لا بد وأن يعلم ذلك ، أليس قوم منكم يقولون إن موسى عليه السلام إنما سأل الرؤية لأنه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فإذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ، ثم ما الدليل على أن آدم كان نبياً في ذلك الوقت فإن مذهبنا أن واقعة الزلة إنما حصلت قبل رسالته لا بعدها ، ثم إن الذي يدل على أن آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها ، وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم : "زنى ماعز فرجم" "وسها رسول الله فسجد" فإن هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الأكل كالمعلل باستماع قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ وإنما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه ، فإنه لو رد قوله لما أقدم على الأكل بناء على قوله ، فثبت أن آدم عليه السلام قبل ذلك من إبليس ثم إنه سبحانه بين أنهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما ، قال ابن عباس : عريا من النور الذي كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وإنما جمع فقيل

سوآتهما كما قال : ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] فإن قيل : هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما ، قلنا : لا شك أن ذلك كالمعلق على ذلك الأكل ، لكن يحتمل أن لا يكون عقاباً عليه ، بل إنما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : قال صاحب "الكشاف" : طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً وبينها وبينه مسافة قصيرة ، وهي للشروع في أول الأمر ، وكاد لمقاربته والدنو منه .

البحث الثاني : قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل ، وهو أن يخرز عليها الخصاف أي يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين ، أما قوله : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ فمن الناس من تمسك بهذا في صدور الكبيرة عنه من وجهين : الأول : أن العاصي اسم للذم فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خالدا فِيهَا ﴾ [النساء : 14] ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلاً يعاقب عليه .

والوجه الثاني : أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغي ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول إلا الفاسق المنهمك في فسقه .

(198/503)

أجاب قوم عن الكلام الأول فقالوا : المعصية مخالفة الأمر ، والأمر قد يكون بالواجب والندب فإنهم يقولون : أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني ، وأمرته بشرب الدواء فعصاني ، وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركاً للواجب بل لكونه تاركاً للمندوب ، فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا أن ظاهر القرآن يدل على أن العاصي مستحق للعقاب والعرف يدل على أنه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصي بتارك الواجب ، ولأنه لو كان تارك المندوب عاصياً لوجب وصف الأنبياء بأسرهم بأنهم عصاة في كل حال لأنهم لا ينفكون من ترك المندوب ، فإن قيل : وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد ، قلنا : لما سلمت كونه مجازاً فالأصل عدمه ، أما قوله : أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني قلنا : لا نسلم أن هذا الاستعمال مروي عن العرب ، ولئن سلمنا ذلك ولكنهم إنما يطلقون ذلك إذا جزموا على المستشير بأنه لا بد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لا يجوز الإخلال

بذلك الفعل وحينئذ يكون معنى الإيجاب حاصلاً وإن لم يكن الوجوب حاصلاً ، وذلك يدل على أن لفظ العصيان لا يجوز إطلاقه إلا عند تحقق الإيجاب ، لكنا أجمعنا على أن الإيجاب من الله تعالى يقتضي الوجوب ، فيلزم أن يكون إطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام إنما كان لكونه تاركاً للواجب ، ومن الناس من سلم أن الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر ، وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضاً ضعيف ، لأنا بينا أن اسم العاصي اسم للذم ، ولأن ظاهر القرآن يدل على أنه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة ، وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول في غوى ، وهذا أيضاً بعيد لأن مصالح الدنيا تكون مباحة ، ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذي هو اسم للذم ولا يقال : (فدلاهما بغرور

(199/503)

) وأما التمسك بقوله تعالى : ﴿ فغوى ﴾ فأجابوا عنه من وجوه : أحدها : أنه خاب من نعيم الجنة وذلك لأنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائماً ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل إنه غوى ، وتحقيقه أن الغي ضد الرشد ، والرشد هو أن يتوصل بشيء

إلى شيء يوصل إلى المقصود فمن توصل بشيء إلى شيء فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غياً .

وثانيها : قال بعضهم : غوى أي بشم من كثرة الأكل .

قال صاحب "الكشاف" : هذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً ، فيقول في فنى وبقى فنا وبقا ، وهم بنو طيء فهو تفسير خبيث ، واعلم أن الأولى عندي في هذا الباب والأحسم للشغب أن يقال : هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك في سورة البقرة .

وههنا بحث لا بد منه وهو أن ظاهر القرآن وإن دل على أن آدم عصى وغوى لكن ليس لأحد أن يقول : إن آدم كان عاصياً غاوياً ، ويدل على صحة قولنا أمور : أحدها : قال العتبي : يقال لرجل قطع ثوباً وخاطه قد قطعه وخاطه ، ولا يقال : خائط ولا خياط حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفاً به ، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام إلا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز إطلاق هذا الاسم عليه .

وثانيها : أن على تقدير أن تكون هذه الواقعة إنما وقعت قبل النبوة ، لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة ، إطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر بمعنى أنه كان كافراً ، بل وبتقدير أن يقال : هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضاً أن

يقال ذلك لأنه عليه السلام تاب عنها ، كما أن الرجل المسلم إذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك إنه شارب خمر أو زانٍ فكذا ههنا .

(200/503)

وثالثها : أن قولنا : عاص وغاو يوهم كونه عاصياً في أكثر الأشياء وغاوياً عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصى فيها فكأنه قال : عصى في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه .

ورابعها : أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره ، كما يجوز للسيد في عبيده وولده عند معصيته من إطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده ، أما قوله : ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أي عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو جمع بكاء أهل الدنيا إلى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر ، وإنما سمي نوحاً لنوحه على نفسه ، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر " وقال وهب : إنه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى إليه وأمره بأن يقول : " لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي

فاغفر لي إنك خير الغافرين " فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل : " لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين " ثم قال قل : " لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم " قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 109.111﴾

(201/503)

وقال ابن عطية :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾

و" وسوسة الشيطان " قيل كانت دون مشافهة ، إلقاء في النفس ، وقيل بل كان بالمشافهة والمخاطبة وهو ظاهر القصة من غير ما موضع وكان دخوله إلى الجنة فيما روي في فم الحية ، وكان آدم عليه السلام قد قال الله تعالى له لا تأكل من هذه الشجرة وعين له شجرة قد تقدم الخلاف في جنسها فلما وصفها له إبليس بأنها ﴿ شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ أي من أكلها ملكاً مخلداً عمد آدم إلى غير تلك التي نهي عنها من جنسها فأكلها بتأويل أن النهي كان في تلك المعينة ، وقيل بل تأول أن النهي إنما كان على الندب لا على التحريم البت ،

وسارعت إلى ذلك حواء وكانت معه في النهي فلما رآها آدم قد أكلت أكل فطارت عنهما ثيابتها وظهر تبري الأشياء منهما وبدت سوءاتهما ، ﴿ وطفقا ﴾ معناه وجعلا يفعلان ذلك دائماً ، و﴿ يخصفان ﴾ معناه يلفقان ويضمان شيئاً إلى شيء فكانا يستتران بالورق وروي أنه كان ورق التين ، ثم نص تبارك وتعالى على آدم أنه ﴿ عصى ﴾ و" غوى " معناه ضل من الغي الذي هو ضد الرشد ومنه قول الشاعر : [الطويل]

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . . ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وقرأت فرقة " وأنك " بفتح الألف عطفاً على قوله ﴿ أن لا تجوع ﴾ وقرأت فرقة و" إنك " عطفاً على قوله ﴿ إن لك ﴾ .

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) ﴾

﴿ اجتباه ﴾ معناه تخيره واصطفاه ، و" تاب عليه " معناه رجع به من حال المعصية إلى حال الندم وهداه لصلاح الأقوال والأعمال وأمضى عقوبته عز وجل في إهباطه من الجنة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ هل أَدُلُّكَ على شجرة الخُلْد ﴾

أي : على شجرةٍ مَنْ أكل منها لم يَمُتْ ﴿ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ جديده ولا يفنى .

وما بعد هذا مفسر في [الأعراف : 22] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فغوى ﴾ قولان .

أحدهما : ضلَّ طريق الخلود حيث أراده من قِبَل المعصية .

والثاني : فسد عليه عيشه ، لأن معنى الغيّ : الفساد .

قال ابن الأنباري : وقد غلط بعض المفسرين ، فقال : معنى "غوى" : أكثر مما أكل من الشجرة حتى بشم ، كما يقال : غوى الفصيل : إِذا أكثر من لبن أَمِّه فبشم فكاد يهلك ، وهذا خطأٌ من وجهين .

أحدهما : أنه لا يقال من البشم : غَوَى يَغْوِي ، وإِنما يقال : غَوِي يَغْوَى .

والثاني : أن قوله تعالى : ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ [الأعراف : 22] يدل على أنهما لم يُكثِرا ، ولم تتأخر عنهما العقوبة حتى يصلا إِلى الإِكثار .

قال ابن قتيبة : فنحن نقول في حق آدم : عصى وغوى كما قال الله عز وجل ، ولا نقول : آدم عاصٍ وغاوٍ ، كما تقول لرجل قطع ثوبه وخاطه : قد قطعه وخاطه ، ولا تقول : هذا خياط ، حتى يكون معاوداً لذلك الفعل ، معروفاً به .

قوله تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربُّه ﴾ قد بيّنَّا الاجتباء في [الأنعام : 87] .

﴿ فتاب عليه وهدى ﴾ أي : هداه للتوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(203/503)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ تقدّم في "الأعراف" .

﴿ قَالَ ﴾ يعني الشيطان ﴿ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ وهذا يدل على المشافهة ، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدّم في "البقرة" بيانه ، وتقدم هناك تعيين الشجرة ، وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة .

﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ تقدّم في "الأعراف" مستوفى .

وقال الفراء : "وَطَفِقَا" في العربية أقبلا ؛ قال وقيل : جعلا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ فيه ست مسائل :

لأولى : قوله تعالى : ﴿ وعصى ﴾ تقدّم في "البقرة" القول في ذنوب الأنبياء .

وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ، ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليها ، وأخبروا بذلك عن نفوسهم ، وتنصّلوا منها ، واستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها ، وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور ، وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم ، وعلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ؛ فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة ، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة .

قال : وهذا هو الحق .

ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ، ولا قدح في رتبتهم ، بل قد تلافاهم ، واجتباهم وهداهم ، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانية : قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه ، فأما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين إلينا ، المماثلين لنا ، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدّم ، الذي عَذَره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت : وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز ، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا في أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه : من وصف شيئاً من ذات الله عز وجل مثل قوله : ﴿ وَقَالَتِ اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده ، وكذلك في السمع والبصر يقطع ذلك منه ؛ لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثة : روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم له : يا موسى اصطفاك الله عز وجل بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى : أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة فَحَجَّ آدم موسى ثلاثاً " قال المهلب قوله : "فحج آدم موسى" أي غلبه بالحجة .

قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له ؛ ولذلك قال آدم : أنت موسى الذي آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء ، فوجدت فيها أن الله قد قدّر عليّ المعصية ، وقدّر علي التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عني أفتلومني أنت والله لا يلومني ؛ وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذي قال له : إن عثمان فرّ يوم أحد ؛ فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب ؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله : "وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ" .

وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعييره من برّه أن لو كان مما يعيّر به غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول في الأبوين الكافرين : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان : 15] ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم : 46 47] فكيف بأبٍ هو نبيّ قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى .

الرابعة : وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة ، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم ، فيقول تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وقد قدّر الله علي ذلك ؛ والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه ، ولوم المسيء على إساءته ،

وتعديد ذنوبه عليه .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فغوى ﴾ أي ففسد عليه عيشه ، حكاه النقاش واختاره القشيري .

وسمعت شيخنا الأستاذ المقرىء أبا جعفر القرطبي يقول : ﴿ فغوى ﴾ ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا ؛ والغيّ الفساد ؛ وهو تأويل حسن ، وهو أولى من تأويل من يقول : "فغوى" معناه ضلّ ؛ من الغيّ الذي هو ضد الرشد .

وقيل : معناه جهل موضع رشده ؛ أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها ؛ والغيّ الجهل .

(206/503)

وعن بعضهم "فغوى" فبَشِم من كثرة الأكل ؛ الزمخشريّ : وهذا وإن صحّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً ؛ فيقول في فَنِيَ وبَقِيَ : فَنَى وبَقَى وهم بنو طيّ – تفسير خبيث .

السادسة : قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال : عصى آدم وغوى ولا يقال له عاصٍ ولا غاوٍ ، كما أن من خاط مرة يقال له : خاط ، ولا يقال له خيّاط ما لم تتكرر منه الخياطة .

وقيل : يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه ، وهذا تكلّف ؛ وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإما أن تكون صغائر ، أو ترك الأولى ، أو قبل النبوّة.

قلت : هذا حسن ؛ قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى : كان هذا من آدم قبل النبوّة ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان ، وإذا كان هذا قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ؛ لأن قبل النبوّة لا شرع علينا في تصديقهم ، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب.

وهذا نفيس والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(207/503)

وقال أبو حيان :

وتقدم الكلام في ﴿ فوسوس ﴾ والخلاف في كيفيتها في الأعراف ، وتعدى وسوس هنا بإلى وفي الأعراف باللام ، فالتعدي بإلى معناه أنهى الوسوسة إليه والتعدّي بلام الجر ، قيل معناه : لأجله ولما وسوس إليه ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ، ثم عرض عليه ما يلقى بقوله ﴿ هل أدلك ﴾ على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنضح.

ويؤثر قبول من يخاطبه كقول موسى ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ وهو عرض فيه مناصحة ، وكان آدم قد رغبه الله تعالى في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ الآية ورغبة إبليس في دوام الراحة بقوله : ﴿ هل أدلك ﴾ فجاءه إبليس من الجهة التي رغبه الله فيها .

وفي الأعراف ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ﴾ الآية .

وهنا ﴿ هل أدلك ﴾ والجمع بينهما أن قوله ﴿ هل أدلك ﴾ يكون سابقاً على قوله ﴿ ما نهاكما ﴾ لما رأى إصغاءه وميله إلى ما عرض عليه انتقل إلى الإخبار والحصر .

ومعنى ﴿ على شجرة الخلد ﴾ أي الشجرة التي مَن أكل منها خلد وحصل له ملك لا يخلق ، وهذا يدل لقراءة الحسن بن عليّ وابن عباس إلا أن تكونا ملكين بكسر اللام ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ تقدم الكلام على نحو هذه الآية في الأعراف ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ قال الزمخشري عن ابن عباس : لا شبهة في أن آدم صلوات الله عليه لم يمتثل ما رسم الله له وتخطى فيه ساحة الطاعة ، وذلك هو العصيان .

ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً فكان غياً لا محالة لأن الغيَّ خلاف الرشد .

ولكن قوله ﴿ عصى آدم ربه فغوى ﴾ بهذا الإطلاق وهذا التصريح ، وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة ، وكأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعتب على النبيّ المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع ، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر فضلاً عن أن تجسروا عن التورط في الكبائر ، وعن بعضهم ﴿ فغوى ﴾ فسئم من كثرة الأكل ، وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المسكور ما قبلها ألفاً فيقول في فنى وبقى فنا وبقا ، وهم بنو طيىء تفسير خبيث انتهى .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يجوز لأحدنا اليوم أن يخبر بذلك عنه عليه السلام إلاّ إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى أو قول نبيه عليه السلام ، فإما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين إلينا المماثلين لنا ، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبيّ المقدم الذي اجتباه الله وتاب عليه وغفر له .

قال القرطبي : وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز والإخبار عن صفات الله كاليد والرجل والأصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلاّ في أثناء قراءة كتابه أو سنة رسول عليه السلام ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس : من

وصف شيئاً من ذات الله مثل قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾ فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده وكذلك في السمع والبصر يقطع ذلك منه لأنه شبه الله سبحانه بنفسه .

﴿ ثم اجتباه ﴾ أي اصطفاه وقربه وتاب عليه أي قبل توبته ﴿ وهدى ﴾ أي هداه للنبوة أو إلى كيفية التوبة ، أو هداه رشده حتى رجع إلى الندم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(209/503)

وقال أبو السعود :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾

أي أنهى إليه وسوسته أو أسرها إليه ﴿ قَالَ ﴾ إما بدلٌ من وسوس أو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ منه ، كأنه قيل : فماذا قال في وسوسته ؟ فقيل : قال : ﴿ ياأادم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ أي شجرةٍ مَنْ أكل منها خلّد ولم يُمت أصلاً سواءٌ كان عن حاله أو بأن يكون ملكاً لقوله تعالى : ﴿ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ أي لا يزول ولا يختلّ بوجه من الوجوه .

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : عَرِيا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجُهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ قد مر تفسيرة في سورة الأعراف ﴿ وعصى ءادَمَ رَبَّهُ ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فغوى ﴾ ضل عن مطلوبه الذي هو الخلودُ أو المأمورُ به أو عن الرَّشَد حيث اغتر بقول العدوّ ، وقرىء فغوي من غوي الفصيل إذا أُتخم من اللبن ، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغَواية مع صغر زَلّته تعظيمٌ لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها .

﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاه وقرّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيقِ لها ، من اجتبى الشيءَ بمعنى جباه لنفسه أي جمعه ، كقوله : اجتمعتُه أو من جبى إليّ كذا فاجتبيته مثل جليتُ على العروس فأجليتُها ، وأصلُ الكلمة الجمعُ وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيدُ تشريفٍ له عليه السلام ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أي قبل توبتَه حين تاب هو وزوجتُه قائلين : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ وإفرادُه عليه السلام بالاجتباء وقَبولِ التوبة قد مرّ وجهُه ﴿ وهدى ﴾ أي إلى الثبات على التوبة والتمسكِ بأسباب العصمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾

أنهى الوسوسة إليه ، وهي كما قال الراغب : الخطرة الرديئة ؛ وأصلها من الوسواس وهو صوت الحلى والهمس الخفي ، وقال الليث : الوسوسة حديث النفس والفعل وسوس بالبناء للفاعل ، ويقال : رجل موسوس بالكسر والفتح لحن .

وذكر غير واحد أن وسوس فعل لازم مأخوذ من الوسوسة وهي حكاية صوت كولولة الثكلى ووعوعة الذئب ووقوقة الدجاجة وإذا عدى بإلى ضمن معنى الإنهاء وإذا جيء باللام بعده نحو وسوس له فهي للبيان كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] وقال الزمخشري : للأجل أي وسوس لأجله ، وكذا إذا كانت بعد نظائر هذا الفعل نحو قوله :

اجرس لها يا ابن أبي كباش . . .

فما لها الليلة من انفاش

وذكر في الأساس وسوس إليه في قسم الحقيقة ، وظاهره عدم اعتبار التضمين والكثير على اتعتاره .

﴿ قَالَ ﴾ إما بدل من ﴿ وسوس ﴾ أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل : فما قال له في وسوسته : فقيل : قال ﴿ قَالَ يَاءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ ناداه

باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ثم عرض عليه ما عرض على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح ، ومعنى شجرة الخلد شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى : ﴿ إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالدين ﴾ [الأعراف : 20] .

وفي البحر أن ما حكى هنا مقدم على ما حكى في الأعراف من قوله تعالى : ﴿ مَا نهاكما كَمَا ربُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة ﴾ [الأعراف : 20] الخ كما اللعين لما رأى منه عليه السلام نوع إصغاء إلى ما عرض عليه انتقل إلى الأخبار والحصر انتهى ، والحق أنه لا جزم بما ذكر ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ أي لا يفنى أولا يصير باليا خلقا قيل : إن هذا من لوازم الخلود فذكره للتأكيد وزيادة الترغيب .

﴿ فَأَكَلاَ ﴾ أي هو وزوجته ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الشجرة التي سماها اللعين شجرة الخلد ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءتُهُمَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما ، وفي رواية أخرى عنه أنه كان لباسهما الظفر أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع والله تعالى أعلم بصحة

ذلك، ثم إن ما ذكر يحتمل أن يكون عقوبة للأكل ويحتمل أن يكون مرتباً عليه لمصلحة أخرى ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ قد مر تفسيره.

﴿ وعصى ءادَمُ رَبَّهُ ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فغوى ﴾ ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود أو عن المطلوب منه وهو ترك الأكل من الشجرة أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو، وقيل: غوى أي فسد عليه عيشه.

ومنه يقال: الغواء لسوء الرضاع.

وقرىء ﴿ فغوى ﴾ بفتح الغين وكسر الواو وفتح الياء أي فبشم من كثرة الأكل من غوى الفصيل إذا اتخم من اللبن وبه فسرت القراءة الأخرى، وتعقب ذلك الزمخشري: فقال وهذا وان صح على لغة من يقلب الياء المكسوء ما قبلها ألفا فيقول في فنى وبقى فنا وبقا بالألف وهم بنو طيء تفسير خبيث، وظاهر الآية يدل على أن ما وقع من الكبائر وهو المفهوم من كلام الإمام فإن كان صدوره بعد البعثة تعمداً من غير نسيان ولا تأويل أشكل على ما اتفق عليه المحققون والأئمة المتقنون من وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام بعد البعثة عن صدور مثل ذلك منهم على ذلك الوجه، ولا يكاد يقول بذلك إلا الأزارقة من الخوارج فإنهم عليهم ما يستحقون جوزوا الكفر عليهم وحاشاهم فما دونه أولى بالتجويز، وإن كان صدوره قبل البعثة كام قال به جمع وقال الإمام: إنه مذهبنا فإن كان تعمداً أشكل

على قول أكثر المعتزلة والشيعة بعصمتهم عليهم السلام عن صدور مثل ذلك تعمداً قبل البعثة أيضاً .

(212/503)

نعم لا اشكال فيه على ما قاله القاضي أبو بكر من أنه لا يمتنع عقلاً ولا سمعاً أن يصدر من النبي عليه السلام قبل نبوته معصية مطلقاً بل لا يمتنع عقلاً إرسال من أسلم بعد كفره ، ووافقه على ذلك كما قال الآمدي في أبكار الأفكار أكثر الأصحاب وكثير من المعتزلة وإن كان سهواً كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] بناء على أحد القولين فيه اشكل على ما نقل عن الشيعة من منع صدور الكبيرة سهواً قبل البعثة أيضاً ، ولا إشكال فيه على ما سمعت عن القاضي أبي بكر ، وإن كان بعد البعثة سهواً أشكل أيضاً عند بعض دون بعض ، فقد قال عضد الملة في المواقف ان الأكثرين جوزوا صدور الكبيرة يعني ما عدا الكفر والكذب فيما دلت المعجزة على صدقهم عليهم السلام فيه سهواً وعلى سبيل الخطأ منهم ، وقال العلامة الشريف المختار : خلافه ، وذهب كثير إلى أن ما وقع صغيرة والأمر عليه هين فإن الصغائر الغير المشعرة بالخسة يجوز على ما ذكره العلامة الثاني في شرح العقائد صدورها منهم عليهم السلام عمداً بعد البعثة

عند الجمهور خلافاً للجبائي وأتباعه ويجوز صدورها سهواً بالاتفاق لكن المحققون اشترطوا أن ينبهوا على ذلك فينتهوا عنه .

نعم ذكر في "شرح المقاصد" عصمتهم عن صدور ذلك عمداً .

(213/503)

والأحوط نظراً إلى مقام عليهم السلام أن يقال : إن صدور ما ذكر منه كان قبل النبوة وكان سهواً أو عن تأويل إلا أنه عظم الأمر عليه وعظم لديه نظراً إلى علو شأنه ومزيد فضل الله تعالى عليه ، وإحسانه وقد شاع حسنات الأبرار سيآت المقربين ، ومما يدل على استعظام ذلك منه لعلو شأنه عليه السلام ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبد الله المغربي قال : تفكر إبراهيم في شأن آدم عليهما السلام فقال : يا رب خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس من ذكر معصيته فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة .

وذكر بعضهم أن في استعظام ذلك منه عليه الملام زجراً بليغاً لأولاده عن أمثاله ، وعلى العلات لا ينبغي لأحد أن ينسب إليه العصيان اليوم وأن يخبر بذلك إلا أن يكون تالياً لما تضمن ذلك أو راوياً له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما أن يكون مبتدئاً من قبل

نفسه فلا ، وقد صرح القاضي أبو بكر بن العربي بعدم جواز نسبة العصيان للآباء الأدنين إلينا المماثلين لنا فكيف يجوز نسبته للأنبياء الاقدام والنبي المقدم الأكرم ، وارتضى ذلك القرطبي وادعى أن ابتداء الأخبار بشيء من صفات الله تعالى المتشابهة كاليد والأصبع والنزول أولى بالمنع وعدم الجواز ، ثم إن ما وقع كان في الحقيقة بمحض قضاء الله تعالى وقدره ، وإلا فقد روي عن أبي إمامة الباهلي .

والحسن أن عقله عليه السلام مثل عقل جميع ولده وعداوة إبليس عليه اللعنة له عليه السلام في غاية الظهور ، وفي ذلك دليل على أنه لا ينفع عقل ولا يغني شيء في جنب تقدير الله تعالى وقضائه ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاه سبحانه وقربه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشيء جباه لنفسه أي جمعه كقولك : اجتمعته أو من جبى إلى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها ، وأصل معنى الكلمة الجمع فالمجتبى كأنه في الأصل من جمعت فيه المحاسن حتى اختاره غيره وقربه ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أي رجع عليه بالرحمة وقبل توبته حين تاب وذلك حين قال هو وزوجته :

(215/503)

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الأعراف : 23] ﴿ وهدى ﴾ أي إلى الثبات على التوبة والتمسك بما يرضى المولى سبحانه وتعالى ، وقيل إلى كيفية التوبة بتعليم الكلمات والواو لمطلق الجمع فلا يضر كون ذلك قبل التوبة عليه ، وقيل : إلى النبوة والقيام بما تقتضيه ، وقدم أبو حيان هذا على سائر الاحتمالات التي ذكرها ، والنيسابوري فسر الاجتباء بالاختيار للرسالة وجعل الآية دليلاً على أن ما جري كان قبل البعثة ولم يصرح سبحانه بنسبة العصيان والغواية إلى حواء بأن يسند هما إلى ضمير التثنية الذي هو عبارة عنها ، وعن آدم عليه السلام كما أسند الأكل وما بعده إلى ذلك إعراضاً عن مزيد النعي على الحرم وأن الأهم نظراً إلى مساق القصة التصريح بما أسند إلى آدم عليه السلام ويتضمن ذلك رعاية الفواصل وحيث لم يصرح جل وعلا بعصيانها لم يتعرض لتوفيقها للتوبة وقبولها منها ، وقال بعضهم : إنه تعالى اكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له في الحكم ولذا طوى ذكر النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(216/503)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ وعصى آدمُ ربَّه ﴾ ، اعلم أن العصيان الحقيقي هو عصيان القلوب ، كالتكبر على عباد الله وتحقير شيء من خلق الله ، وكالاعتراض على مقادير الله ، وعدم الرضا بأحكام الله . قال بعض الصوفية : (أذنبتُ ذنبًا فأنا أبكي منه أربعين سنة ، قيل : وما هو؟ قال : قلت لشيء كان : ليته لم يكن) . وأما معصية الجوارح ، إن لم يكن معها إصرار ، فقد تُوجب القرب من الكريم الغفار ؛ « معصية أورثت ذُلاً وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزّا واستكبارًا » ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول وتأمل معصية إبليس حيث كانت من القلب أورثت طردًا وإبعادًا ، ومخالفة آدم ؛ حيث كانت الجوارح أورثت قُربًا واجتباء .

والحاصل : أن كل ما يَردُّ العبد إلى مولاه ، ويحقق له العبودية والانكسار ، فهو شرف له وكمال ، وكل ما يُقوي وجود النفس ورفعتها فهو نقص وإبعاد ، كائنًا ما كان ، فالعصمة والحِفظة إنما هي من المعاصي القلبية ، أو من الإصرار ، وأما معاصي الجوارح فيجري على العبد ما كتب ، ولا تنقصه ، بل تكمله ، كما تقدم فالتنزيه إنما يكون من النقائص ، وهي التي تُوجب البعد عن الحق ، لا مما يؤدي إلى الكمال ، وبهذا تفهم أن ما وقع من الأنبياء

- عليهم السلام - مما صُورته المعصية، ليس بنقص، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء، على سبيل الهفوة، فتأمله، ولا تبادر بالاعتراض، حتى تصحب الرجال، فيعلموك النقص من الكمال.

قال الواسطي: العصيان لا يُؤثر في الاجتبائية، وقوله: ﴿ وعصى ﴾ أي: أظهر خلافًا، ثم أدركته الاجتبائية فأزالت عنه مذمة العصيان، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿ فنسي ولم نجد له عزمًا ﴾. انتهى انتهى. اهـ وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (نعمت المعصية أورثت الخلافة).

(217/503)

واعلم أن آدم عليه السلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً ﴾ [البَقَرَة: 30]؛ فقد استخلفه قبل أن يخلقه، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب، فكان أكله سببًا في نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض، فهو نزول حسًا، ورفعة معنى، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية، فيرتفع قدره عند الله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 430. 431 ﴾

(218/503)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) ﴾

قوله : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ معطوف على قوله : ﴿ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنزال أنزلناه ، أي القرآن حال كونه ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي بلغة العرب ليفهموه ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ بينا فيه ضروباً من الوعيد تخويفاً وتهديداً أو كررنا فيه بعضاً منه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي كي يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ أي اعتباراً واتعاظاً .

وقيل : ورعاً .

وقيل : شرفاً .

وقيل : طاعة وعبادة ؛ لأن الذكر يطلق عليها .

وقرأ الحسن : "أو نحدث" بالنون .

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء ، أي جلّ الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون في صفاته فإنه الملك الذي بيده الثواب والعقاب ، وأنه الحق أي ذو الحق ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ

بالقرءان مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أي يتمّ إليك وحيه .

قال المفسرون : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما كان ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك ، ومثله قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] .

على ما يأتي إن شاء الله .

وقيل : المعنى : ولا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، وقرأ ابن مسعود ويعقوب والحسن والأعمش : " من قبل أن نقضي " بالنون ونصب : " وحيه " .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ أي سل ربك زيادة العلم بكتابه .

(219/503)

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تصريف الوعيد ، أي لقد أمرناه ووصيناه ، والمعهود محذوف ، وهو ما سيأتي من نهيه عن الأكل من الشجرة ، ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الزمان ﴿ فَنسِيَ ﴾ قرأ الأعمش بإسكان الياء ، والمراد بالنسيان هنا : ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين .

وقيل : النسيان على حقيقته ، وأنه نسي ما عهد الله به إليه وينتهي عنه ، وكان آدم مأخوذاً بالنسيان في ذلك الوقت ، وإن كان النسيان مرفوعاً عن هذه الأمة .

والمراد من الآية تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على القول الأوّل ، أي أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيري .

واعترضه ابن عطية قائلاً بأن كون آدم مماثلاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وقرىء : " فنسي " بضم النون وتشديد السين مكسورة مبنياً للمفعول ، أي فنساه إبليس ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ العزم في اللغة : توطين النفس على الفعل والتصميم عليه ، والمضيّ على المعتقد في أيّ شيء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك ، فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر .

وقيل : العزم : الصبر ، أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة .

قال النحاس : وهو كذلك في اللغة ، يقال : لفلان عزم ، أي صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها ، ومنه ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] .

وقيل : المعنى : ولم نجد له عزماً على الذنب ، وبه قال ابن كيسان .

وقيل : ولم نجد له رأياً معزوماً عليه ، وبه قال ابن قتيبة .

(220/503)

ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، والعامل في إذ مقدّر ، أي : واذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة ؛ لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى وقد تقدم تفسير هذه القصة في البقرة مستوفى ، ومعنى ﴿ فتشقى ﴾ : فتتعب في تحصيل ما لا بدّ منه في المعاش كالحرث والزرع ، ولم يقل : " فتشقيا " ؛ لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده .

ثم علل ما يوجبه ذلك النهي بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام ، فقال : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى ﴾ أي في الجنة .

والمعنى : إن لك فيها تمتعاً بأنواع المعايش وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية ، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له ، وهكذا قوله : ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ فإن نفي الظمأ يستلزم حصول الريّ ووجود المسكن

الذي يدفع عنه مشقة الضحو ، يقال : ضحي الرجل يضحى ضحواً : إذا برز للشمس فأصابه حرّها ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكدّ في تحصيله ، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع والريّ والكسوة والكنّ ، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها ، وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله ، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا فيحلّ به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعري والظمأ والضحو .

فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا ، كما قاله كثير من المفسرين ، لا شقاء الأخرى .

قال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه ، وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصماً : " وأنك لتظمأ " بفتح أن ، وقرأ الباقون بكسرها على العطف على إن لك .

(221/503)

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ قد تقدّم تفسيره في الأعراف في قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] أي أنهى إليه وسوسته ، وجملة ﴿ قَالَ يَاءادَمُ ﴾ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال له في وسوسته ؟ و ﴿ شَجَرَةِ الخلد ﴾ هي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلاً ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ أي

لا يزول ولا ينقضي ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سوآتهما ﴾ قد تقدّم تفسير هذا وما بعده في الأعراف .

قال الفراء : ومعنى طفقا في العربية : أقبلا ، وقيل : جعلا يلصقان عليهما من ورق التين ﴿ وعصى ءادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ أي عصاه بالأكل من الشجرة فغوى فضلّ عن الصواب أو عن مطلوبه ، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة .

وقيل : فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا .

وقيل : جهل موضع رشده .

وقيل : بشم من كثرة الأكل .

قال ابن قتيبة : أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها باستزلال إبليس وخدائعه إياه ، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ، ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدّم ونية صحيحة ، فنحن نقول : عصى آدم ربه فغوى .

انتهى .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم .

قلت : لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله في كتابه بأنه عصاه ، وكما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومما قلته في هذا المعنى :

عصى أبو العالم وهو الذي . . . من طينة صوّره الله

وأسجد الأملاك من أجله . . . وصير الجنة مأواه

أغواه إبليس فمن ذا أنا المس . . . كين إن إبليس أغواه

﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ أي : اصطفاه وقرّبه .

قال ابن فورك : كانت المعصية من آدم قبل النبوّة بدليل ما في هذه الآية ، فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية ، وإذا كانت المعصية قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ أي تاب عليه من معصيته ، وهداه إلى الثبات على التوبة .

(222/503)

قيل : وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء بقولهما : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الأعراف : 23] .

وقد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ﴾ أي القرآن ﴿ ذِكْراً ﴾ قال : حذراً وورعاً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ يقول : لا تعجل حتى

نبينه لك .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : لطم رجل امرأته ، فجاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تطلب قصاصاً ، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ الآية ، فوقف النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء ﴾ [النساء : 34] الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ ﴾ الآية قال : لا تتله على أحد حتى نتمه لك .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن منده في التوحيد ، والطبراني في الصغير وصححه عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فنسي .

وأخرج عبد الغني ، وابن سعد عن ابن عباس : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءادَمَ ﴾ أن لا تقرب الشجرة ﴿ فَنَسِيَ ﴾ فترك عهدي ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ قال : حفظاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فَنَسِيَ ﴾ فترك ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ يقول : لم نجعل له عزماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ إِنَّكَ لاَ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا ولا تضحى ﴾ قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حرّ .

(223/503)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهي شجرة الخلد " وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " حاجّ آدم موسى قال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك ، قال آدم : يا موسى ، أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ، أو قدّره عليّ قبل أن يخلقني " ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فحج آدم موسى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(224/503)

وقال القاسمى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾

أي : من أكل منها خلد ولم يمت : ﴿ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا ﴾ أي : يلزقان : ﴿ مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ أي : لهما هذا الخزي ، بدل عزّ الملك المخلد . وهذه الأوراق الفانية ، بدل نفائس الملابس الخالدة : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ أي : بارتكاب النهي ، وترك العزم في حفظ العهد : ﴿ فَغَوَى ﴾ أي : عن المأمور به . حيث اعتز بقول العدوّ .

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي : اصطفاه ووفّقه للإنابة : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل جـ 11 صـ 160 ﴾

(225/503)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120)

﴾

الوسوسة والوسواس : الصوت الخفي . ويقال لهمس الصائد والكلاب ، وصوت الحلي :

وسواس . والوسوس بكسر الواو الأولى مصدر ، وبفتحها الاسم ، وهو أيضاً من أسماء الشيطان ، كما في قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الوسواس الخناس ﴾ [الناس : 4] ويقال لحديث النفس : وسواس ووسوسة . ومن إطلاق الوسواس على صوت الحلي قول الأعشى :

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت . . . كما استعان بريح عشرق زجل

ومن إطلاقه على همس الصائد قول ذي الرمة :

فبات يشئزه تأد ويسهره . . . تذؤب الريح والوسواس والهضب

وقول رؤبة :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق . . . سرا وقد أون تأوين العقق

(226/503)

في الزرب لو يمضغ شربا ما بصق . . . وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ أي كلمه كلاماً خفياً فسمعه منه آدم وفهمه . والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول ، وذلك في قوله ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ يا آدم

هَل أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ الآية . فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة . وقد أوضح هذا في سورة « الأعراف » وبين أنه وسوس إلى حواء أيضاً مع آدم ، وذلك في قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] إلى قوله ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : 21-22] لأن تصريحه تعالى في آية « الأعراف » هذه بأن إبليس قاسمهما أي حلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب دليل واضح على أن الوسوسة المذكورة كلام مسموع . واعلم أن في وسوسة الشيطان إلى آدم إشكالاً معروفاً ، وهو أن يقال : إبليس قد أخرج من الجنة صاغراً مذموماً مدحوراً ، فكيف أمكنه الرجوع إلى الجنة حتى وسوس لآدم؟ والمفسرون يذكرون في ذلك قصة الحية ، وأنه دخل فيها فأدخلته الجنة ، والملائكة الموكلون بها لا يشعرون بذلك . وكل ذلك من الإسرائيليات . والواقع أنه لا إشكال في ذلك ، لإمكان أن يقف إبليس خارج الجنة قريباً من طرفها بحيث يسمع آدم كلامه وهو في الجنة ، وإمكان أن يدخله الله إياها لامتحان آدم وزوجه ، لا لكرامة إبليس . فلا محال عقلاً في شيء من ذلك . والقرآن قد جاء بأن إبليس كلم آدم ، وحلف له حتى غره وزوجه بذلك .

(227/503)

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود . لأن من أكل منها يكون في زعمه الكاذب خالداً لا يموت ولا يزول ، وكذلك يكون له في زعمه ملك لا يبلى أي لا يفنى ولا ينقطع . وقد قدمنا أن قوله هنا ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ يدل لمعنى قراءة من قرأ ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف : 20] بكسر اللام . وقوله ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [الأعراف : 20] هو معنى قوله في « طه » : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ .

والحاصل أن إبليس لعنه الله كان من جملة ما وسوس به إلى آدم وحواء : أنهما أن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها نالا الخلود والملك ، وصارا ملكين ، وحلف لهما أنه ناصح لهما في ذلك ، يريد لهما الخلود والبقاء والملك فدلاهما بغرور . وفي القصة : أن آدم لما سمعه يحلف بالله اعتقد من شدة تعظيمه لله أنه لا يمكن أن يحلف به أحد على الكذب ، فأنساه ذلك العهد بالنهي عن الشجرة .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف ، وهو أن يقال : كيف عدى فعل الوسوسة في « طه »

بإلى في قوله ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ مع أنه عداه في « الأعراف » بالام في قوله ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] . وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة .

أحدها أن حروف الجر يخلف بعضها بعضاً . فاللام تأتي بمعنى إلى كعكس ذلك .

قال الجوهري في صحاحه : وقوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ يريد إليهما ، ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل ا ه . وتبعه ابن منظور في اللسان . ومن الأجوبة عن ذلك : إرادة التضمين ، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : فإن قلت كيف عدى « وسوس » تارة باللام في قوله ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] وأخرى بإلى ؟ قلت : وسوسة الشيطان كولولة الثكلى ، ووعوعة الذئب ، ووقوقة الدجاجة ، في أنها حكايات للأصوات ، وحكمها حكم صوت وأجرس . ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن . وأنشد ابن الأعرابي :

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق . . . .

فإن قلت : وسوس له . فمعناه لأجله . كقوله :

أجرس لها يا ابن أبي كباش . . . فما لها الليلة من إنفاش

غير السرى وسائق نجاش . . . ومعنى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ﴾ أنهى إليه الوسوسة . كقوله :

حدث إليه وأسر إليه ا ه منه . وهذا الذي أشرنا إليه هو معنى الخلاف المشهور بين البصريين والكوفيين في تعاقب حروف الجرّ . وإتيان بعضها مكان بعض هل هو بالنظر إلى التضمين ، أو لأن الحروف يأتي بعضها بمعنى بعض ؟ وسنذكر مثالاً واحداً من ذلك يتضح به المقصود . فقوله تعالى مثلاً : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [الأنبياء : 77] الآية ، على القول بالتضمين . فالحرف الذي هو « من » وارد في معناه لكن « نصر » هنا مضمنة معنى الإنجاء والتخليص ، أي أنجيناه وخلصناه من الذين كذبوا بآياتنا . والإنجاء مثلاً يتعدى بمن . وعلى القول الثاني ف « نصر » وارد في معناه ، لكن « من » بمعنى على ، أي نصرناه على القوم الذين كذبوا الآية ، وهكذا في كل ما يشاكله .

وقد قدمنا في سورة « الكهف » أن اختلاف العلماء في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها اختلاف لا طائل تحته ، لعدم الدليل على تعيينها ، وعدم الفائدة في معرفة عينها . وبعضهم يقول : هي السنبلة . وبعضهم يقول : هي شجرة الكرم . وبعضهم يقول : هي شجرة التين ، إلى غير ذلك من الأقوال .

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾

الفاء في قوله ﴿ فَأَكَلَا ﴾ تدل على أن سبب أكلها هو وسوسة الشيطان المذكورة قبله في قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ [طه : 120] أي فأكلا منها بسبب تلك الوسوسة . وكذلك الفاء في قوله : ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ تدل على أن سبب ذلك هو أكلهما من الشجرة المذكورة ، فكانت وسوسة الشيطان سبباً للأكل من تلك الشجرة . وكان الأكل منها سبباً لبدو سوءاتهما . وقد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه) : أن الفاء تدل على التعليل كقولهم : سها فسجد ، أي لعلة سهوه . وسرق فقطعت يده ، أي لعلة سرقته . كما قدمناه مراراً . وكذلك قوله هنا : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى فَأَكَلاَ مِنْهَا ﴾ أي بسبب تلك الوسوسة فبدت لهما سوءاتهما ، أي بسبب ذلك الأكل ، ففي الآية ذكر السبب وما دلت عليه الفاء هنا كما بينا من أن وسوسة الشيطان هي سبب ما وقع من آدم وحواء جاء مبيناً في مواضع من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : 36] فصرح بأن الشيطان هو الذي أزلهما . وفي القراءة الأخرى « فأزالهما » وأنه هو الذي أخرجهما مما كانا فيه ، أي من نعيم الجنة ، وقوله تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة ﴾ [الأعراف : 27] الآية ، وقوله : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : 22] إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره جل وعلا في آية « طه » هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة أوضحه في غير هذا الموضع ، كقوله في « الأعراف » : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : 22] إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره جل وعلا في آية « طه » هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة أوضحه في غير هذا الموضع ، كقوله في « الأعراف » : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [الأعراف : 22] ، وقوله فيها . أيضاً : ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ [الأعراف : 27] .

وقد دلت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوءاتهما ، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنهما انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة . فبدت سوءاتهما أي عوراتهما . وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها ، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة ، كما قال هنا : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ ، وقال في « الأعراف » : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ [الأعراف : 22] الآية .

وقوله : ﴿ وَطَفِقَا ﴾ أي شرعا . فهي من أفعال الشروع ، ولا يكون خبر أفعال الشروع إلا فعلاً مضارعاً غير مقترن ب « أن » وإلى ذلك أشار في الخلاصة بقوله :

(232/503)

. . . . وترك أن مع ذي الشروع وجبا

كأنشأ السائق يحدو وطفق . . . وكذا جعلت وأخذت وعلق

فمعنى قوله ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أي شرعا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض ليسترا به عوراتهما . والعرب تقول : خصف النعل يخصفها : إذا خرزها : وخصف الورق على بدنه : إذا ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة . وكثير من المفسرين يقولون : إن ورق الجنة التي طفق آدم وحواء يخصفان عليهما منه إنه ورق التين . والله تعالى أعلم .

واعلم أن الستر كان على آدم وحواء ، وانكشف عنهما لما ذاقا الشجرة اختلف العلماء في تعيينه .

فقالت جماعة من أهل العلم : كان عليهما لباس من جنس الظفر . فلما أكلا من الشجرة أزاله الله عنهما إلا ما أبقى منه على رؤوس الأصابع . وقال بعض أهل العلم : كان لباسهما نوراً يستر الله به سوءاتهما . وقيل : لباس من ياقوت ، إلى غير ذلك من الأقوال . وهو من

الاختلاف الذي لا طائل تحته، ولا دليل على الواقع فيه كما قدمنا كثيراً من أمثلة ذلك في سورة «الكهف». وغاية ما دل عليه القرآن: أنهما كان عليهما لباس يسترهما الله به. فلما أكلا من الشجرة نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما. ويمكن أن يكون اللباس المذكور الظفر أو النور، أو لباس التقوى، أو غير ذلك من الأقوال المذكورة فيه.

(233/503)

وأسند جل وعلا إبداء ما ووري عنهما من سوءاتهما إلى الشيطان قوله: ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [الأعراف: 20] كما أسند له نزع اللباس عنهما في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: 27] لأنه هو المتسبب في ذلك بوسوسته وتزيينه كما قدمناه قريباً. وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أ، يقال: كيف جعل سبب الزلة في هذه الآية وهو وسوسة الشيطان مختصاً بآدم دون حواء قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف: 20] مع أنه ذكر أن تلك الوسوسة سببت الزلة لهما معاً كما أوضحناه.

والجواب ظاهر، هو أنه بين في «الأعراف» أنه وسوس لحواء أيضاً مع آدم في القصة بعينها في قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف: 20] فبينت آية «الأعراف» ما لم

تبينه آية «طه» كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

مسألة

أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة: وجوب ستر العورة، لأن قوله: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ يدل على قبح انكشاف العورة، وأنه ينبغي بذل الجهد في سترها. قال القرطبي رحمه الله في تفسيره في سورة «الأعراف» ما نصه: وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر، ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة كما قيل لهما ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ [البقرة: 35].

وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي: أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك.

لأنه سترة ظاهرة، عليه التستر بها كما فعل آدم في الجنة. والله أعلم انتهى كلام القرطبي.

ووجوب ستر العورة في الصلاة مجمع عليه بين المسلمين. وقد دلت عليه نصوص من الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿ يا بني آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: 31] الآية، وكبعثه صلى الله عليه وسلم من ينادي عام حج أبي بكر بالناس

عام تسع : « إلا يحج بعد هذا العام مشرك ، وألا يطوف بالبيت عريان » . وكذلك لا خلاف بين العلماء في منع كشف العورة أمام الناس . وسيأتي بعض ما يتعلق بهذا إن شاء الله في سورة « النور » .

فإن قيل : لم جمع السوءات في قوله ﴿ سَوْءَاتُهُمَا ﴾ مع أنهما سوأتان فقط ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول أن آدم وحواء كل واحد منهما له سوءتان : القبل والدبر ، فهي أربع ، فكل منهما يرى قبل نفسه وقبل الآخر ، ودبره . وعلى هذا فلا إشكال في الجمع .

الوجه الثاني أن المثنى إذا أضيف إليه شيئان هما جزاءه جاز في ذلك المضاف الذي هو شيئان الجمع والتثنية ، والإفراد ، وأفصحها الجمع ، فالإفراد ، فالتثنية على الأصح ، سواء كانت الإضافة لفظاً أو معنى . ومثال اللفظ : شويت رؤوس الكبشين أو رأسهما ، أو رأسيهما . ومثال المعنى : قطعت من الكبشين الرؤوس ، أو الرأس ، أو الرأسين . فإن فرق المثنى المضاف إليه فالمختار في المضاف الإفراد ، نحو : على لسان داود وعيسى ابن مريم . ومثال جمع المثنى المضاف المذكور الذي هو الأفصح قوله تعالى ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] ، وقوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] ، ومثال الإفراد قول الشاعر :

حمامة بطن الواديين ترنمي . . . سقاك من الغر الغوادي مطيرها

ومثال التثنية قول الراجز :

ومهمهين قذفين مرتين . . . ظهراهما مثل ظهور الترسين

(235/503)

وللضمائر الراجعة إلى المضاف المذكور المجموع لفظاً وهو مثنى معنى يجوز فيها الجمع نظراً إلى اللفظ ، والتثنية نظراً إلى المعنى ، فمن الأول قوله :

خليلي لا تهلك نفوسكما أسى . . . فإن لهما فيما به دهيت أسى

ومن الثاني قوله :

قلوبكما يغشاهما الأمن عادة . . . إذا منكما الأبطال يغشاهم الذعر

الوجه الثالث ما ذهب إليه مالك بن أنس من أن أقل الجمع اثنان . قال في مراقي السعود :

أقل معنى الجمع في المشتهر . . . الاثنان في رأي الإمام الحميري

وأما إن كان الاثنان المضافان منفصلين عن المثنى المضاف إليه ، أي كانا غير جزأيه فالقياس الجمع وفاقاً للفراء ، كقولك : ما أخرجكما من بيوتكما ، وإذا أويتما إلى مضاجعكما ، وضرباه بأسيافهما ، وسألتا عن إنفاقهما على أزواجهما ، ونحو ذلك .

وقله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ .

المعصية خلاف الطاعة. فقوله ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ ﴾ أي لم يطعه في اجتناب ما نهاه عنه مِن قُربان تلك الشجرة.

وقوله: ﴿ فغوى ﴾ الغي: الضلال، وهو الذهاب عن طريق الصواب.

(236/503)

فمعنى الآية: لم يُطِع آدمُ ربَّه فأخطأ طريق الصواب بسبب عدم الطاعة، وهذا العصيان والغي بيَّن الله جل وعلا في غير موضع مِن كتابه أن المراد به: أن الله أباح له أن يأكل هو وامرأته مِن الجنة رَغَداً حيثُ شاءَا، ونهاهما أن يَقربَا شجرة مُعينة من شجرها. فلم يزل الشيطان يُوسوس لهما ويَحْلِف لهما بالله إنه لهما نَاصح، وإنَّهما إنْ أكلا منهما نالا الخُلود والمُلْك الذي لا يَبْلى. فخدعهما بذلك كما نصّ الله على ذلك في قوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَاصحين ﴾ [الأعراف: 21] ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: 22] فأكلا منها. وكان بعض أهل العلم يقول: من خادَعَنا بالله خَدَعنا. وهو مَروي عن عُمر.

وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي والحاكم: «المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خِبٌّ لئيم». وأنشد لذلك نفطويه:

إن الكريم إذا تَشاء خَدَعْتَه... وترى اللئيم مجرباً لا يُخْدع

فآدم عليه الصلاة والسلام ما صدرَتْ منه الزلة إلا بسبب غرور إبليس له . وقد قدمنا قول بعض أهل العلم : إن آدم مِن شدة تعظيمه لله اعتقد أنه لا يمكن أن يَحْلِف به أحد وهو كاذب فأنساه حلف إبليس بالله العَهْد بالنهي عن الشجرة . وقول بعض أهل العلم : إن معنى قوله : ﴿ فغوى ﴾ أي فسد عليه عيشه بنُزوله إلى الدنيا .

قالوا : والغي . الفساد ، خلاف الظاهر وإن حكاه النقاش واختاره القشيري واستحسنه القرطبي . وكذلك قول من قال ﴿ فغوى ﴾ أي بشم من كثرة الأكل . والبشم : التخمة ، فهو قول باطل . وقال فيه الزمخشري في الكشاف : وهذا وإن صحَّ على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في فَنِي وبَقِيَ ، فنا وبقا ، وهم بَنُو طَيْئ تفسير خبيث ، اه منه . وما أشار إليه الزمخشري من لغة طَيْئ معروف . فهم يقولون للجارية : جاراة ، وللناصية ناصاة ، ويقولون في بَقِيَ بقى كرَمَى . ومِن هذه اللغة قول الشاعر :

لعمرك لا أخشَى التصعلك ما بقي . . . على الأرض قيسي يسوق الأباعرا

وهذه اللغة التي ذكرها الزمخشري لا حاجة لها في التفسير الباطل المذكور ، لأن العرب تقول : غوى الفصيل كرضى وكرمى : إذا بشم من اللبن .

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وعصى ءَادَمُ ﴾ يدل على أن معنى «غوَى» ضلَّ عن طريق الصواب كما ذكرنا . وقد قدمنا أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن هي حجة من قال بأن الأنبياء غير معصومين مِن الصغائر . وعِصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مبحث أصولي لعلماء الأصول فيه كلام كثير واختلاف معروف ، وسنذكر هنا طرفاً من كلام أهل الأصول في ذلك . قال ابن الحاجب في مختصره في الأصول :

مسألة

الأكثر على أنه لا يمتنع عقلاً على الأنبياء مَعْصية . وخالف الروافض ، وخالف المعتزلة إلا في الصغائر . ومعتمدهم التقبيح العقلي . والإجماع على عصمتهم بعد الرسالة من تعمد الكذب في الأحكام .

لدلالة المعجزة على الصدق . وجوَّزه القاضي غلطاً وقال : دلت على الصدق اعتقاداً . وأما غيره مِن المعاصي فالإجماع على عصمتهم من الكبائر والصغائر الخسيسة . والأكثر على جواز غيرهما ا ه منه بلفظه .

وحاصل كلامه : عصمتهم من الكبائر ، ومن صغائر الخِسّة دون غيرها من الصغائر . وقال

العلّامة العلوي الشنقيطي في (نشر البنود شرح مراقي السعود) في الكلام على قوله :

والأنبياء عُصِموا مما نهوا . . . عنه ولم يكن لهم تفكّه

بجائز بل ذاكِ للتشريع . . . أو نية الزلفى من الرفيع

ما نصّه : فقد أجمع أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم من تعمد الكذب فيما دل المعجز القاطع على صدقهم فيه . كدعوى الرسالة ، وما يبلغونه عن الله تعالى للخلائق . وصدور الكذب عنهم فيما ذكر سهواً أو نسياناً منعه الأكثرون وما سوى الكذب في التبليغ . فإن كان كفراً فقد أجمعت الأُمَّة على عِصْمَتِهم منه قبل النبُوَّة وبعدها ، وإن كان غيره فالجمهور على عِصْمَتهم مِن الكبائر عَمداً . ومخالف الجمهور الحشوية . واختلف أهل الحق : هل المانع لوقوع الكبائر مِنهم عَمْداً العقل أو السمع ؟ وأما المعتزلة فالعقل ، وإن كان سهواً فالمختار العِصْمة منها . وأما الصغائر عمداً أو سهواً فقد جوزها الجمهور عقلاً . لكنها لا تقع مِنْهم غير صغائر الخِسَّة فلا يجوز وقوعها منهم لا عمداً ولا سهواً انتهى منه .

وحاصل كلامه : عصمتهم من الكذب فيما يُبلِّغونه عن الله ومن الكُفر والكبائر وصغائر الخسّة . وأن الجمهور على جواز وُقوع الصغائر الأخرى منهم عقلاً . غير أن ذلك لم يقع فعلاً . وقال أبو حيّان في البحر في سورة « البقرة » وفي المنتخب للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي ما ملخصّه : مَنعت الأمَّة وقوع الكفر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إلا الفضيلية من الخوارج قالوا : وقد وقع منهم ذنوب والذنب عندهم كُفر . وأجاز الإمامية إظهار الكُفر منهم على سبيل التقية . واجتمعت الأمة على عِصْمتهم مِن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ ، فلا يَجوز عمداً ولا سهواً . ومِن الناس من جوز ذلك سهواً . وأجمعوا على امتناع خطئهم في الفتيا عمداً . واختلفوا في السهو . وأما أفعالهم فقالت الحشوية : يجوز وقوع الكبائر منهم على جهة العمد . وقال أكثر المعتزلة : بجواز الصغائر عمداً إلا في القول كالكذب . وقال الجبائي : يمتنعان عليهم إلا على جهة التأويل . وقيل : يمتنعان عليهم إلا على جهة السهو والخطأ ، وهُم مأخُوذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أمتهم . وقالت الرافضة يمتنع ذلك على كل جهة .

واختلف في وقت العِصْمة . فقالت الرافضة : مِن وَقْت مَوْلدهم . وقال كثير من المعتزلة : مِن وَقْت النبوة . والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب حالة النبوة البتَّة لا الكبيرة ولا الصغيرة . لأنهم لو صَدَرَ عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة لعظيم شرفهم

وذلك محال ، ولئلا يكونوا غير مقبولي الشهادة ، ولئلا يجب زَجْرهم وإيذاؤهم ، ولئلا يُقْتَدَى بهم في ذلك .

(240/503)

ولئلا يكونوا مُسْتَحِقّين للعقاب ، ولِئلا يفعلوا ضِد ما أمروا به لأنهم مُصْطفون ، ولأن إبليس استثناهم في الإغواء انتهى ما لَخَّصناه من (المنتخب (، والقول في الدلائل لهذه المذاهب . وفي إبطال ما ينبغي إبطاله منها مذكور في كتب أصول الدين . انتهى كلام أبي حَيان .

وحاصل كلام الأصوليّين في هذه المسألة : عِصْمَتهم مِن الكُفر وفي كل ما يتعلق بالتبليغ ، ومن الكبائر وصغائر الخسة كسرقة لقمة وتطفيف حبة ، وأن أكثر أهل الأصول على جواز وقوع الصغائر غير الصغائر الخسة منهم . ولكن جماعة كثيرة مِن متأخّري الأصوليّين اختاروا أن ذلك وإن جاز عقلاً لم يَقع فعلاً ، وقالوا : إنما جاء في الكتاب والسنَّة مِن ذلك أن ما فعلوه بتأويل أو نسياناً أو سهواً ، أو نحو ذلك .

قال مقيده عفا الله وغفر له : الذي يظهر لنا أنه الصواب في هذه المسألة أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يَقع منهم ما يزري بمراتبهم العَلّية ، ومناصبهم السامِيَة . ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصاً فيهم صَلوات الله وسلامه عليهم ، ولو فَرَضْنا أنه وقع منهم

بعض الذنوب لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة ، والإخلاص ، وصِدق الإنابة إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك . ومِما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ [طه : 121–122] . فانظر أي أثر يبقى لِلعِصْيان والغي بعد توبة الله عليه ، واجتبائه أي اصطفائه إياه ، وهِدايته له ، ولا شكّ أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة . والعلم عند الله تعالى .

(241/503)

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) ﴾

الاجتباء : الاصْطِفاء والاختيار . أي ثم بعد ما صدر مِن آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره فتاب عليه وهداه إلى ما يُرضيه . ولم يبيّن هنا السبب لذلك ، ولكنه بين في غير هذا الموضع أنه تَلَقى مِن ربّه كلمات فكانت سبب توبة ربه عليه ، وذلك في قوله : ﴿ فتلقى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 37] أي بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء . وقد قدمنا في سورة « البقرة » : أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة «

الأعراف » في قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الأعراف : 23] وخير ما يفسر به القرآن القرآن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(242/503)

وقال ابن عاشور :

قوله ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾

تقدم مثله في الأعراف .

والفاء لتعقيب مضمون جملتها على مضمون التي قبلها ، وهو تعقيب نسبي بما يناسب مدّة تقلب في خلالها بخيرات الجنة حتى حسده الشيطان واشتد حسده .

وتعدية فعل (وسوس) هنا بحرف (إلى) وباللام في سورة الأعراف (20) ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ باعتبار كيفية تعليق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلّم ، فإنه فعل قاصر لا غنى له عن التعدية بالحرف ، فتعديته بحرف (إلى) هنا باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم وبلوغها إياه ، وتعديته باللاّم في الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما .

وجملة ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ [طه : 117] بيان لجملة ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ .

وهذه الآية مثال للجملة المبيّنة لغيرها في علم المعاني .

وهذا القول خاطر ألقاه الشيطان في نفس آدم بطريق الوسوسة وهي الكلام الخفي ؛ إما بألفاظ نطق بها الشيطان سراً لآدم لئلا يطّلع عليه الملائكة فيحذروا آدم من كيد الشيطان ، فيكونُ إطلاق القول عليه حقيقة ؛ وإما بمجرد توجه أراده الشيطان كما يوسوس للناس في الدنيا ، فيكون إطلاق القول عليه مجازاً باعتبار المشابهة .

و ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ استفهام مستعمل في العَرض ، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته .

والافتتاح بالنداء ليتوجه إليه .

والشجرة هي التي نهاه الله عن الأكل منها دون جميع شجر الجنّة ، ولم يُذكر النهي عنها هنا وذكر في قصة سورة البقرة .

وهذا العرض متقدم على الإغراء بالأكل منها المحكي في قوله تعالى في سورة الأعراف (20) ﴿ قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ ، ولم يدله الشيطان على شجرة الخلد بل كذبه ودله على شجرة أخرى بآية أن آدم لم يخلّد ، فحصل لآدم توهم أنه إذا أكل من الشجرة التي دله عليها الشيطان أن يخلد في الحياة .

والدلالة: الإرشاد إلى شيء مطلوب غير ظاهر لطالبه، والدلالة على الشجرة لقصد الأكل من ثمرتها.

وسماها هنا شجرة الخلد ﴾ بالإجمال للتشويق إلى تعيينها حتى يُقبِل عليها، ثم عيّنها له عقب ذلك بما أنبأ به قوله تعالى: ﴿ فأكلا منها ﴾ [طه: 121].

وقد أفصح هذا عن استقرار محبّة الحياة في جبلة البشر.

والمُلك: التحرر من حكم الغير، وهو يوهم آدم أنه يصير هو المالك للجنة المتصرّف فيها غير مأمور لآمر.

واستعمل البِلى مجازاً في الانتهاء، لأنّ الثوب إذا بلي فقد انتهى لبسه.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾

تفريع على ما قبله وثمّ جملة محذوفة دل عليها العرض، أي فعمل آدم بوسوسة الشيطان فأكل من الشجرة وأكلت حواء معه.

واقتصار الشيطان على التسويل لآدم وهو يريد أن يأكل آدم وحواء، لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوز في الجبلة.

وتقدم معنى ﴿ فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ في سورة الأعراف (22).

وقوله وعصى آدم ربه ﴾ عطف على ﴿ فأكلا منها ﴾ ، أي أكلا معاً ، وتعمد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة .

وإثبات العصيان لآدم دون زوجه يدل على أن آدم كان قدوة لزوجه فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه ، وفي هذا المعنى قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [التحريم : 6] .

والغواية : ضدّ الرشد ، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل ، وإثبات العصيان لآدم دليل على أنه لم يكن يومئذ نبيئاً ، ولأنّه كان في عالم غير عالم التكليف وكانت الغواية كذلك ، فالعصيان والغواية يومئذ : الخروج عن الامتثال في التربية كعصيان بعض العائلة أمرَ كبيرها ، وإنما كان شنيعاً لأنّه عصيان أمر الله .

!

وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لِمنعها ، لأنّ ذلك العالَم لم يكن عالَم تكليف .

وجملة ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وعصى آدم ﴾ وجملة ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾ ، لأن الاجتباء والتوبة عليه كانا بعد أن عوقب آدم وزوجه بالخروج من الجنة كما في سورة البقرة ، وهو المناسب لترتب الإخراج من الجنة على المعصية دون أن يترتب على التوبة .

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل ببيان مآل آدم إلى صلاح .

والاجتباء : الاصطفاء .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ في الأنعام (87) ، وقوله ﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ في النحل (121) .

والهداية : الإرشاد إلى النفع .

والمراد بها إذا ذكرت مع الاجتباء في القرآن النبوءة كما في هذه الآيات الثلاث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(245/503)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾

نلحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسماً يناسب الإغراء بالشيء، وهي كلمة (الوَسْوَسة) هي في الأصل صوت الحليّ أي: الذهب الذي تتحلّى به النساء، كما نقول: نقيق الضفادع، وصهيل الخيل، وخُوار البقر، ونهيق الحمير، وثغاء الشاة، وخرير الماء، وحفيف الشجر.

وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحليّ الذي يجذب الأسماع، ويُغرِي بالتطلع إليه، وكأن الحق سبحانه يُحذِّرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين.

فما الذي وَسوس به إلى آدم؟

﴿ قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه: 120].

ونعجب لإبليس: ما دُمْت تعرف شجرة الخُلْد والمُلْك الذي لا يبلى، لماذا لم تأكل أنت منها وتحوز هذه الميزة؟

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾

أي: بعد أن أكلا من هذه الشجرة ظهرتْ لهما سوءآتهما، والسَّوْأة هي العورة أي: المكان الذي يستحي الإنسان أن ينكشف منه، والمراد القُبُل والدُّبُر في الرجل والمرأة. ولكل من القُبل والدُّبر مهمة، وبهما يتخلص الجسم من الفضلات، الماء من ناحية الكُلَى والحالب والمثانة عن طريق القُبل، وبقايا وفضلات الطعام الناتجة عن حركة الهَضْم وعملية الأَيْض، وهذه تخرج عن طريق الدُّبُر.

لكن ، متى أحسَّ آدم وزوجه بسوءاتهما ، أبعد الأكل عموماً من شجر الجنة ، أم بعد الأكل من هذه الشجرة بالذات ؟

الحق تبارك وتعالى رتَّب ظهور العورة على الأكل من الشجرة التي نهاهما عنها ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [طه : 121] فقبْل الأكل من هذه الشجرة لم يعرفا عورتيهما ، ولم يعرفا عملية الإخراج هذه ؛ لأن الغذاء كان طاهيه ربُّه ، فيعطي القدرة والحياة دون أن يخلف في الجسم أيَّ فضلات .

(246/503)

لكن ، لما خالفوا وأكلوا من الشجرة بدأ الطعام يختمر وتحدث له عملية الهضم التي نعرفها ، فكانت المرة الأولى التي يلاحظ فيها آدم وزوجه مسألة الفضلات ، ويلتفتان إلى عورتيهما : ما هذا الذي يخرج منها ؟

وهنا مسألة رمزية ينبغي الالتفات إليها ، فحين ترى عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطل .

إذن : لم يعرف آدم وزوجه فضلات الطعام وما ينتج عنه من ريح وأشياء مُنفِّرة قذرة إلا بعد المخالفة ، وهنا تحيَّرا ، ماذا يفعلان ؟ ولم يكن أمامهما إلا ورق الشجر ﴿ وَطَفِقَا

يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ [طه : 121] .

أي : أخذا يلصقان الورق على عورتيهما لسترها هكذا بالفطرة ، وإلا ما الذي جعل هاتين الفتحتين عورة دون غيرهما من فتحات الجسم كالأنف والفم مثلاً ؟

قالوا : لأن فَتْحتيْ القُبُل والدُّبر يخرج منهما شيء قذر كريه يحرص المرء على سَتْره ، ومن العجيب أن الإنسان وهو حيوان ناطق فضّله الله ، وحين يأكل يأكل باختيار ، أمّا الحيوان فيأكل بغريزته ، ومع ذلك يتجاوز الإنسان الحد في مأكله ومشربه ، فيأكل أنواعاً مختلفة ، ويأكل أكثر من حاجته ويأكل بعدما شبع ، على خلاف الحيوان المحكوم بالغريزة .

ولذلك ترى رائحة الفضلات في الإنسان قذرة مُنفّرة ، ولا فائدة منها في شيء ، أما فضلات الحيوان فلا تكاد تشمُّ لها رائحة ، ويمكن الاستفادة منها فيجعلونها وقوداً أو سماداً طبيعياً . وبعد ذلك نتهم الحيوان ونقول : إنه بهيم . . إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] أي : فيما قبل النبوة ، وفي مرحلة التدريب ، والإنسان في هذه المرحلة عُرْضة لأنْ يصيب ، ولأنْ يخطىء ، فإنْ أخطأ في هذه المرحلة لا تضربه بل تُصوِّب له الخطأ . كالتلميذ في فترة الدراسة ، إنْ أخطأ صوَّب له المعلم ، أما في الامتحان فيحاسبه .

ومعنى : ﴿ فغوى ﴾ [طه : 121] يعني : لم يُصِبْ الحقيقة ، كما يقولون لمن تاه في الصحراء غاوٍ أي : تائه . ثم تأتي المرحلة الأخرى : مرحلة العِصْمة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾

إذن : مثَّل آدم دَوْر الإنسان العادي الذي يطيع ويعصي ، ويسمع كلام الشيطان ، لكن ربه شرعَ له التوبة كما قال سبحانه : ﴿ فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 37] .

إذن : عصى آدم وهو إنسان عادي وليس وهو نبي كما يقول البعض .

فقوله : ﴿ ثُمَّ اجتباه ﴾ [طه : 122] هذه بداية لمرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام ، و(ثُمَّ) تعني الترتيب مع التراخي ﴿ اجتباه ﴾ [طه : 122] اصطفاه ربه .

ولم يقل الحق سبحانه : ثم اجتباه الله ، إنما ﴿ اجتباه رَبُّهُ ﴾ [طه : 122] لأن الرب المتولي للتربية والرعاية ، ومن تمام التربية الإعداد للمهمة ، ومن ضمن إعداد آدم لمهمته أنْ يمرَّ بهذه التجربة ، وهذا التدريب في الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(248/503)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الصغير، وابن منده في التوحيد ، والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما سمي الإنسان : لأنه عهد إليه فنسي .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن عساكر ، عن أبي أمامة الباهلي قال : لو أن أحلام بني آدم جمعت منذ يوم خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فوضعت في كفة وحلم آدم في كفة ، لرجح حلمه بأحلامهم . ثم قال الله : ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ قال : حفظاً .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن قال : كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده . قال الله : ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ .

وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ قال : أن لا يقرب الشجرة .

وأخرج ابن جرير وابن منده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ قال : حفظاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ فنسي ﴾ قال: فترك ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ يقول: لم نجعل له عزماً.

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن قول الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تَسؤكُم ﴾ [المائدة: 101] قال: كان رجال من المهاجرين في أنسابهم شيء، فقالوا يوماً، والله لوددنا أن الله أنزل قرآناً في نسبنا. فأنزل الله ما قرأت، ثم قال لي: إن صاحبكم هذا - يعني علي بن أبي طالب - إن وِلّي زهد، ولكني أخشى عجب نفسه أن يذهب به. قلت: يا أمير المؤمنين، إن صاحبنا من قد علمت... والله ما نقول أنه غيَّر ولا غدَلَ ولا أسخط رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام صحبته، فقال: ولا في بنت أبي جهل. وهو يريد أن يخطبها على فاطمة، قلت: قال الله في معصية آدم عليه السلام ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ وصاحبنا لم يعزم على إسخاط رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الخواطر التي لم يقدر على دفعها عن نفسه. وربما كانت من الفقيه في دين الله العالم بأمر الله، فإذا نبه عليها رجع وأناب. فقال: يا ابن عباس، منْ ظَنّ أنه يرد بجوركم فيغوص فيها حتى يبلغ

قعرها فقد ظن عجزاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، لم يذكر الرجل ولم ينس ؟ فقال : إن على القلب طخاة كطخاة القمر ، فإذا تغشت القلب نسي ابن آدم ما كان يذكر ، فإذا انجلت ذكر ما نسي .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لا تأكلوا بشمائلكم ولا تشربوا بشمائلكم ، فإن آدم أكل بشماله فنسي فأورث ذلك النسيان .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطية ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ قال : حفظا لما أمر به .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ قال : صبراً .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب قال : لو وزن حلم آدم بحلم العالمين لوزنه .

أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال : لم يكن آدم من أولي العزم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ فنسي ﴾ قال : ترك ما قدم

إليه ولو كان منه نسيان ما كان عليه شيء ؛ لأن الله قد وضع عن المؤمنين النسيان والخطأ ، ولكن آدم ترك ما قدم إليه من أكل الشجرة .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ قال : عنى به شقاء الدنيا ، فلا تلقى ابن آدم إلا شقياً ناصباً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قال : لم يقل فتشقيان ؛ لأنها دخلت معه فوقع المعنى عليهما جميعاً وعلى أولادهما ، كقوله : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم ﴾ [الطلاق : 1] و ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ [التحريم : 1- 2] فدخلوا في المعنى معه وإنما كلم النبي وحده .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنهما قال : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض استقبله ثور أبلق ، فقيل له : اعمل عليه . فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : هذا ما وعدني ربي ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ ثم نادى حواء : أحواء ، أنت عملت في هذا ؟ فليس أحد من بني آدم يعمل على ثور إلا قال : حوّاء دخلت عليهم من قبل آدم عليه السلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ لا تظمأ ﴾ قال : لا تعطش ﴿ ولا تضحى ﴾ قال : لا يصيبك فيها حر .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ قال : لا تعرق فيها من شدة الشمس . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر يقول :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت . . . فيضحى وأما بالعشيّ فيخصر

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تضحى ﴾ قال : لا يصيبك حر الشمس .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهي شجرة الخلد " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير وابن

المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : لما أسكن الله آدم الجنة وزوجته ونهاه عن الشجرة ، رأى غصونها متشعبة بعضها على بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته ، فلما أراد إبليس أن يستزلهما دخل الحية ، وكانت الحية لها أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجته عنها فجاء بها إلى حواء فقال : انظري إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ! وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فأخذتها حواء فأكلتها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت : انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ! .

. فأكل منها آدم ﴿ فبدت لهما سوآتهما ﴾ ، فدخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه : أين أنت ؟ قال : ها أناذا يا رب . قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحي منك يا رب . قال : اهبط إلى الأرض . ثم قال : يا حواء ، غررت عبدي ؟ فإنك لا تحملين حملاً إلا حملتِ كرْهاً ، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً .

وقال للحية : أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرّ عبدي . . . أنت ملعونة لعنة تتحوّل قوائمك في بطنك ولا يكون لك رزق إلا التراب ، أنت عدو بني آدم وهم أعداؤك ، أينما لقيت أحداً منهم أخذت بعقبيه وحيث ما لقيك أحد منهم شرخ رأسك . قيل لوهب : وهل كانت الملائكة تأكل ؟ قال : يفعل الله ما يشاء .

وأخرج الحكيم الترمذي عن علقمة قال : اقتلوا الحيات كلها إلا الجان الذي كأنه ميل ، فإنه جنها ولا يضر أحدكم كافراً قتل أو مسلماً .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي عبد الله المغربي قال : تفكر إبراهيم عليه السلام في شأن آدم قال : يا رب ، خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك ، ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس حتى يقولوا : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ فأوحى الله إليه : يا إبراهيم ، أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(253/503)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ﴾ :

وَسْوَسَ إليه أي : أنهى إليه الوسوسةَ . وأمَّا وَسْوس له فمعناه لأجلِه . الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف عدى " وَسْوس " تارة باللامِ في قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] وأخرى ب إلى ؟ قلت : وَسْوَسَةُ الشيطانِ كوَلْوَلَةِ الثَّكْلى ووَقْوَقَةِ الدجاجة في أنها حكاياتٌ للأصواتِ ، فحكمُها حكمُ صوتٍ أو جَرْسٍ . ومنه وَسْوَسة المُبَرْسَم ، وهو مُوَسْوِس بالكسر . والفتحُ لحنٌ . وأنشد ابن الأعرابي :

3327 وَسْوَسَ يَدْعو مُخْلِصاً رَبَّ الفَلَقْ . . . فإذا قلت : وَسْوَسَ له فمعناه لأجلِه كقوله :

3328 أجْرِسْ لها يا ابنَ أبي كِباشِ . . . ومعنى وَسْوس إليه : أنهى إليه الوَسْوَسة لكونِه بمعنى ذكر له . ويكون بمعنى لأجله .

قوله : ﴿ فغوى ﴾ :

الجمهورُ على فتحِ الواوِ وبعدها ألفٌ . وتفسيرُها واضحٌ . وقيل : معناه بَشِمَ . من قولهم : " غَوِي البعير " بكسر الواو ، والياء ، إذا أصابه ذلك . وقد حكى أبو البقاء هذه قراءةً وفسَّروها بهذا المعنى . قال الزمخشريُّ : " وعن بعضِهم : فَغَوى فبشِم من كثرةِ الأكل . وهذا وإن صحَّ على لغةِ مَنْ يَقْلِبُ الياءَ المكسورَ ما قبلَها ألفاً فيقولُ في فَنِي وبَقِي : فَنا وبَقا وهم بنو طيِّئ تفسيرٌ خبيثٌ " . قلت : كأنه لم يَطَّلِعْ على أنه قُرِئ بكسر الواو ، ولو اطَّلع

عليها لَرَدَّها . وقد فَرَّ القائلُ بهذه المقالةِ مِنْ نسبةِ آدمَ عليه السلام إلى الغَيِّ . انتهى .

ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 115.114﴾

(254/503)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحقُّ يعلم ذلك ولم يذكُرْ آدمُ في الحال أن هذا من نزعات مَنْ قال له - سبحانه - : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ ﴾ [طه : 117] .

ويقال : لو عَمَّى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها ، ولو لم يكن (. . .) حتى دلَّه على تلك الشجرة إيش الذي كان يمنعه منه إلا أَنَّ الحُكمَ منه بذلك سَبَقَ ، والإرادةَ به تعلَّقت ؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له : يا شقيُّ ، فعلتَ وصنعتَ . . !

فقال إبليس لآدم : إنْ كنتُ شيطانَك فمَنْ كان شيطاني ؟

ويقال سُمِّي الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله ، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ الناسَ عن طاعة الله فهو شيطان ، ولذلك يقال : شياطين الإِنْسِ ، وشياطين الإِنْسِ شرٌّ من شياطين الجن .

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسَتِه .

والناسُ تكلموا في الشجرة : ما كانت ؟ والصحيحُ أَنْ يقالَ إنها كانت شجرة المحنة .

ويقال لو لم تُخْلَقْ في الجنة تلك الشجرة لَمَا كان في الجنة نقصانٌ في رتبتها .

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصلَ إليها يَدُه ، ولكنه - كما في القصة - كانت لا تصل لى أوراقها يده - بعد ما أكل منها - حينما أراد أَنْ يأخذَ منها لِيَسْتُرَ عورته .

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾

لَمَّا ارتكبا المنهيَّ عنه ظهر ما يُسْتَحْيَي مِنْ ظهوره ، ولكنَّ اللَّهَ - سبحانه - أَلْطَفَ معهما في هذه الحالة بقوله : فَبَدَتْ لهما سوآتهما ، ولم يَقُلْ - مُطْلَقاً - فبدت سَوْءَتُهما ؛ أي أنه لم يُطْلِع على سوءتهما غيرَهما .

ويقال لَمَّا تجرّدَا عن لباس التقوى تناثر عنهما لباسهما الظاهر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ .

أولُ الحِرَفِ والصناعات – على مقتضى هذا – الخياطةُ ، وخياطةُ الرّقاع بعضها على بعض للفقراء ميراثٌ من أبينا آدم – عليه السلام .

ويقال كان آدمُ – عليه السلام – قد أصبح وعليه من حُلَلِ الجنة وفنونِ اللّباس ما اللَّهُ به أعلمُ ، ثم لم يُمس حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة ، وهكذا كان في الابتداء ما هو موروثٌ في أولاده من هناء بعده بلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : 22] عند ذلك وقعت عليهما الخَجْلَةُ لمَّا وَرَدَ عليهما خطاب الحقِ : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا . . . . عن ﴾ [الأعراف : 22] ولهذا قيل : كفى للمُقَصِّر الحياء يو اللقاء .

قوله تعالى : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . . . ﴾ [الأعراف : 23] لم يتكلما بلسان الحجة فقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] ، ولم يقولا : بظلمنا صرنا من الخاسرين ، بل قالا : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23] ليُعْلَم أنَّ المدار على حُكْمِ الربّ لا على جُرْمِ الخَلْق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ .

لَمَّا وَقَعَتْ عليه سِمَةُ العصيان – وهو أَوَّلُ البشرِ – كان في ذكر هذا تنفيسٌ لأولاده ؛ أن تجري عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف الغيبة في حين الفترة .

ويقال كانت تلك الأُكْلةُ شيئاً واحداً ، ولكن قصتها يحفظها ويرددها الصبيانُ إلى يوم القيامة .

وعصى آدم ربَّه ليُعْلَم أن عِظَمَ الذنوبِ لمخالفةِ الآمِرِ وعِظَمِ قَدْرِه . . . لا لكثرة المخالفة في نفسها .

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) ﴾

(256/503)

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ ما فعَلَه اجتباه ربُّه ؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا عِلَّة اجتباه ثانياً بعد الزَّلَّة ، فتَابَ عليه ، وغَفَرَ ذنبَه ، ﴿ وَهَدَى ﴾ : أي هداه إليه حتى اعتذر واستغفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 483. 485﴾

(257/503)

قوله تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت دور الملوك لا تحتمل مثل ذلك ، وكان قد قدم سبحانه عنايته بآدم عليه السلام اهتماماً به ، وكان الخبر عن زوجه وعن إبليس لم يذكر ، فكانت نفس السامع لم تسكن عن تشوفها إلى سماع بقية الخبر ، أجاب عن ذلك بأنه أهبط من داره المقدسة الحامل على المخالفة والمحمول وإن كان قد هيأه بالاجتباء لها ، فقال على طريق الاستئناف :

﴿ قال ﴾ أي الرب الذي انتهكت حرمة داره : ﴿ اهبطا منها ﴾ أيها الفريقان : آدم وتبعه ، وإبليس ﴿ جميعاً ﴾ .

ولما كان السياق لوقوع النسيان وانحلال العزم بعد أكيد العهد ، حرك العزم وبعث الهم بإيقاع العداوة التي تنشأ عنها المغالبة ، فتبعث الهمم وتثير العزائم ، فقال في جواب من كأنه قال : على أيّ حال يكون الهبوط : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ وهو صادق بعداوة كل من الفريقين للفريق الآخر : فريق إبليس – الذين هم الجن – بالإضلال ، وفريق الإنس بالاحتراز منهم بالتعاويذ والرقى وغير ذلك ، وبعداوة بعض كل فريق لبعضه ﴿ فإما ﴾ أي فتسبب عن ذلك العلم بأنه لا قدرة لأحد منكم على التحرز من عدوه إلا بي ولا حرز لكم من قبلي إلا اتباع أمري ، فإما ﴿ يأتينكم ﴾ أي أيها الجماعة الذين هم أضلّ ذوي الشهوات من المكلفين ﴿ مني هدى ﴾ تحترزون به عن استهواء العدو واستزلاله ﴿ فمن اتبع ﴾ عبر بصيغة " افتعل " التي فيها تكلف وتميم للتبع الناشىء عن شدة الاهتمام ﴿ هداي ﴾ الذي أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول المؤيد بدلالة العقل ، وللتعبير بصيغة " افتعل " قال : ﴿ فلا يضل ﴾ أي بسبب ذلك ، عن طريق السداد في الدنيا ولا في الآخرة أصلاً ﴿ ولا يشقى ﴾ أي في شيء من سعيه في واحدة منهما ، فإن الشقاء عقاب الضلال ، ويلزم من نفيه نفي الخوف والحزن بخلاف العكس ، فهو أبلغ مما في البقرة ، فإن المدعو إليه في تلك مطلق العبادة ، والمقام في هذه للخشية والبعث على الجد بالعداوة ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ وللإقبال على الذكر ﴿ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ والتحفظ من المخالفة ولو بالنسيان ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ .

قال الرازي في اللوامع : والشقاء : فراق العبد من الله ، والسعادة وصوله إليه ؛ وقال الأصبهاني عن ابن عباس -رضى الله عنهما - : ضمن الله عز وجل لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن أعرض ﴾ أي فعل دون فعل الرضيع بتعمد الترك لما ينفعه بالمجاورة ﴿ عن ذكري ﴾ الذي هو الهدى ﴿ فإن له ﴾ ضد ذلك ﴿ معيشة ﴾ حقرها سبحانه بالتأنيث ثم وصفها بأفظع وصف وهو مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع وغيره فقال : ﴿ ضنكاً ﴾ أي ذات ضنك أي ضيق ، لكونه على ضلال وإن رأى أن حاله على غير ذلك في السعة والراحة ، فإن ضلاله لا بد أن يرديه ، فهو ضنك لكونه سبباً للضيق وآئلاً إليه ، من تسمية السبب باسم المسبب ، مع أن المعرض عن الله لا يشبع ولا يصل إلى أن يقنع ، مستولٍ عليه الحرص الذي لا يزال أن يطيح ببال من يريد الازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الانفاق ، عن مناوأة الخصوم ، وتعاقب الهموم ، مع أنه لا يرجو ثواباً ، ولا يأمن عقاباً ، فهو لذلك في أضيق الضيق ، لا يزال همه أكبر من وجده

"لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى إليه ثانياً ، ولو أن له واديين لا بتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ

جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب " متفق عليه عن أنس ـ رضى الله عنهم ـ ، وهكذا حال من أتبع نفسه هواها ، وأما المقبل على الذكر بكليته فهو قانع راض بما هو فيه ، مستكثر من ذكر الله الشارح للصدور الجالي للقلوب فهو أوسع سعة ، فلا تغتر بالصور وانظر إلى المعاني .

(260/503)

ولما ذكر حاله في الدنيا ، أتبعه قوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وكان ذلك في بعض أوقات ذلك اليوم ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إذا خرج من القبر خرج بصيراً ، فإذا سيق إلى المحشر عمي ، أو يكون ذلك – وهو أقرب مفهوم العبارة – في بعض أهل الضلال ليجتمع مع قوله ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ [مريم : 38] وحديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ في الصحيح من هذا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " الظلم ظلمات يوم القيامة " ثم استأنف قوله : ﴿ قال ﴾ مذكراً بالنعمة السابقة استعطافاً لأن من شأن مسلف نعمة أن يربيها وإن قصر المنعم عليه ، وغاية ذلك إنما يكون مهما بقي للصلح موضع : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ المسبغ نعمه عليّ ﴿ لم حشرتني ﴾ في هذا اليوم ﴿ أعمى وقد كنت ﴾ أي في الدنيا ، أو في أول هذا اليوم ﴿ بصيراً ﴾ فكأنه قيل : بم

أجيب ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ له ربه : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الفعل الشنيع فعلت في الدنيا ، والمعنى : مثل ما قلت كان ؛ ثم فسر على الأول ، وعلل على الثاني ، فقال : ﴿ أتتك آياتنا ﴾ على عظمتها التي هي من عظمتنا ﴿ فنسيتها ﴾ أي فعاملتها بإعراضك عنها معامله المنسي الذي لا يبصره صاحبه ، فقد جعلت نفسك أعمى البصر والبصيرة عنها ، كما قال تعالى : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ [الكهف : 101]

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك النسيان الفظيع ، وقدم الظرف ليسد سوقه للمظروف ويعظم اختباره لفهمه فقال : ﴿ اليوم تنسى ﴾ أي تترك على ما أنت عليه بالعمى والشقاء بالنار ، فتكون كالشيء الذي لا يبصره أحد ولا يلتفت إليه ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد ﴿ نجزي من أسرف ﴾ في متابعة هواه فتكبر عن متابعة أوامرنا ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ فكفر إحسانه إما بالتكذيب وإما بفعله فعل المكذب .

(261/503)

ولما ذكر أن هذا الضال كان في الدنيا معذباً بالضنك ، وذكر بعض ما له في الآخرة ، قال مقسماً لما له من التكذيب : ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ بأيّ نوع كان ﴿ أشد ﴾ من عذاب

الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ منه ، فإن الدنيا دار زوال ، وموضع قلعة وارتحال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 53. 55 ﴾

(262/503)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

اعلم أن على أول هذه الآية سؤالاً وهو أن قوله : ﴿ اهبطا ﴾ ، إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر فإن كان خطاباً لشخصين فكيف قال بعده : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ وهو خطاب الجمع وإن كان خطاباً لأكثر من شخصين فكيف قال : ﴿ اهبطا ﴾ وذكروا في جوابه وجوهاً : أحدها : قال أبو مسلم : الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله : ﴿ اهبطا ﴾ ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ﴾ قال صاحب "الكشاف" : لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ﴾ على لفظ الجماعة ، أما قوله :

﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾ فقال القاضي : يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم ، فإذا انضاف إلى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام ، وقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ فيه دلالة على أن المراد الذرية ، وقد اختلفوا في المراد بالهدى ، فقال بعضهم : الرسل وبعضهم قال : الآخر والأدلة وبعضهم قال القرآن ، والتحقيق أن الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك ، وفي قوله : ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ دلالة على أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الأدلة ، واتباعها لا يتكامل إلا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى ، وفيه ثلاثة أوجه : أحدها : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وثانيها : لا يضل ولا يشقى في الآخرة لأنه تعالى يهديه إلى الجنة ويمكنه فيها .

وثالثها : لا يضل ولا يشقى في الدنيا فإن قيل : المتبع لهدى الله قد يحلقه الشقاء في الدنيا ، قلنا : المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ، ولما وعد الله تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض ، فقال : ﴿ وَمَنۡ

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الأدلة ، وقوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال : منزل ضنك ، وعيش ضنك ، فكأنه قال : معيشة ذات ضنك ، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به إما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره .

أما الأول : فقال به جمع من المفسرين وذلك لأن المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشاً طيباً كما قال :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا طالباً للزيادة أبداً فعيشته ضنك وحالته مظلمة ، وأيضاً فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَاءوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بآيات الله ﴾ [البقرة : 61] وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : 66] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءَامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مِّنَ السماء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] وقال : ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ [نوح : 10 12] وقال : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ [الجن : 16] .

وأما الثاني : وهو عذاب القبر ، فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن عذاب القبر للكافر قال والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنيناً " قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت الآية في الأسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها أضلاعه .

وأما الثالث : وهو الضيق في الآخرة في جهنم ، فإن طعامهم فيها الضريع والزقوم ، وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي .

وأما الرابع : وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعيشة الضنك هي أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها .

سئل الشبلي عن قوله عليه السلام : " إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية " فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى إلى أنفسهم وأي معيشة أضيق وأشد من أن يرد الإنسان إلى نفسه ، وعن عطاء قال : المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لأنه غير موقن بالثواب والعقاب .

وأما الخامس : وهو أن يكون المراد الضيق في كل ذلك أو أكثره فروي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " عقوبة المعصية ثلاثة : ضيق المعيشة والعسر في الشدة ، وأن لا يتوصل إلى قوته إلا بمعصية الله تعالى " أما قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ ففيه وجوه : أحدها : هذا مثل قوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ [الإسراء : 97] وكما فسرت الزرقة بالعمى ، ثم قيل : إنه يحشر بصيراً فإذا سيق إلى المحشر عمي والكلام فيه وعليه قد تقدم في قوله : ﴿ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] .

(265/503)

وثانيها : قال مجاهد والضحاك ومقاتل : يعني أعمى عن الحجة ، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال القاضي : هذا القول ضعيف لأن في القيامة لا بد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ، ومن هذا حاله لا يوصف بذلك إلا مجازاً ، والمراد به أنه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله : ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ ولم يكن كذلك في حال الدنيا أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض أنه تعالى علل ذلك العمى بما أن المكلف نسي الدلائل في الدنيا فلو كان العمى الحاصل في

الآخرة بين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر ، كما أنه ما كان له في الدنيا بسبب ذلك ضرر ، واعلم أن تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الأرواح الجاهلة في الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة في الآخرة وأن تلك الجهالة تصير هناك سبباً لأعظم الآلام الروحانية .

وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضي المبنية على أصول الاعتزال بون شديد .

وثالثها : قال الجبائي : المراد من حشره أعمى أنه لا يهتدي يوم القيامة إلى طريق ينال منه خيراً بل يبقى واقفاً متحيراً كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء ، أما قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذلك أَتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ ففي تقرير هذا الجواب وجهان : أحدهما : أنه تعالى إنما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والإعراض عنه .

والثاني : هو أن الأرواح البشرية إذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية ، فلهذا علل الله تعالى حصول العمى في الآخرة بالإعراض عن الدلائل في الدنيا ، ومن فسر المعيشة الضنك

بالضيق في الدنيا ، قال إنه تعالى بين أن من أعرض عن ذكره في الدنيا فله المعيشة الضنك في الدنيا ، والعمى في الآخرة ، أما قوله : ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بآيات رَبّهِ ﴾ فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال : أشرك وكفر ، وبعضهم قال : أسرف في أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله : ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بآيات رَبّهِ ﴾ لأن ذلك كالتفسير لقوله : أسرف وبين أنه يجزي من هذا حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك أن : ﴿ عَذَابَ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ أما الأشد فلعظمه ، وأما الأبقى فلأنه غير منقطع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 112.114 ﴾

(267/503)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾

وعمل بما فيه ﴿ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ لا يضل في الدنيا ولا يشقى .

قال ابن عباس : ضمن الله لمن يقرأ القرآن ويعمل بما فيه ألاّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : كسباً حراماً ، قاله عكرمة .

الثاني : أن يكون عيشه منغصاً بأن ينفق من لا يوقن بالخلف ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه عذاب القبر ، قاله ابو سعيد الخدري وابن مسعود وقد رفعه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الرابع : أنه الطعام الضريع والزقوم في جهنم ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . والضنك في كلامهم الضيق قال ، عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت . . . مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

ويحتمل خامساً : أن يكسب دون كفايته .

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أعمى في حال ، وبصير في حال .

الثاني : أعمى عن الحجة ، قاله مجاهد .

الثالث : أعمى عن وجهات الخير لا يهتدي لشيء منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ اهبطا ﴾ مخاطبة لآدم وحواء ، ثم أخبرهما بقوله ﴿ جميعاً ﴾ أن إبليس والحية يهبطان معهما وأخبرهما بأن العداوة بينهم وبين أنسالهم إلى يوم القيامة . و ﴿ عدو ﴾ يوصف به الواحد والاثنان والجميع ، وقوله تعالى : ﴿ فإما يأتيكم مني هدى ﴾ شرط وجوابه في قوله ﴿ فمن اتبع ﴾ وما بعده إلى آخر القسم الثاني . و " الهدى " معناه دعوة شرعي ثم أعلمهم أنه من اتبع هداه وآمن به فإنه " لا يضل " في الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ في الآخرة ، وأن ﴿ من أعرض ﴾ عن ذكر الله وكفر به ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ والضنك النكد الشاق من العيش أو المنازل أو مواطن الحرب ونحو هذا ، ومنه قول عنترة وإن نزلوا بضنك أنزل ، وصف به الواحد والجمع ذلك من وعيد لهم ثم أخبر عن حالة أُخرى هي أيضاً في يوم القيامة وهي حشرهم عمياً ، ثم يجيء قوله ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ [طه : 127] معنى هذا الذي ذكرناه من المعيشة والعمى ونحوه هو عذابه في الآخرة وهو ﴿ أشد وأبقى ﴾ [طه : 127] من كل ما يقع عليه الظن والتخيل ، فكأنه ذكر نوعاً من عذاب الآخرة ثم أخبر أن عذاب الآخرة أشد وأبقى . وقرأت فرقة " ونحشره " بالنون ، وقرأت فرقة " ويحشره " بالياء وقرأت فرقة " ويحشرْه " بسكون الراء ، وقرأت فرقة " أعمى " بالإمالة ، وقالت فرقة العمى هنا هو عمى البصيرة عن الحجة .

قال القاضي أبو محمد : ولو كان هذا لم يخش الكافر لأنه كان أعمى البصيرة ويحشر كذلك ، وقالت فرقة العمى عمى البصرع وهذا هو الأوجه مع أن عمى البصيرة حاصل في الوجهين ، وأما قوله ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ [طه : 102] فمن رآه في العينين فلا بد أن يتأول فيها مع هذه إما أنها في طائفتين أو في موطنين ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك أتتك ﴾ ذلك إشارة إلى العمى الذي حل به ، أي مثل هذا في الدنيا أن ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ والنسيان في هذه الآية بمعنى الترك ولا مدخل للذهول في هذا الموضوع ، و ﴿ تنسى ﴾ بمعنى تترك في العذاب وروي أن هذه الآيات نزلت في المرشي .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾

المعنى وكما وصفنا من أليم الأفعال ﴿ نجزي ﴾ المسرفين الكفار بالله عز وجل ، وقوله ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ إن كانت معيشة الضنك في الدنيا أو البرزخ فجاء هذا وعيداً في الآخرة بعد وعيد ، وإن كانت المعيشة في الآخرة فأكد الوعيد بعينه هذا القول ، الذي جعل به عذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيله الإنسان أو يقع في الدنيا . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ قال اهْبِطا ﴾

في المشار إليهما قولان.

أحدهما : آدم وإبليس ، قاله مقاتل .

والثاني : آدم وحواء ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدوٌ ﴾ آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، والحية أيضاً ؛ وقد شرحنا هذا في [البقرة : 36] .

قوله تعالى : ﴿ فمن اتَّبَعَ هُدَاي ﴾ أي : رسولي وكتابي ﴿ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾ قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه ، هداه الله من الضلالة ، ووقاه سوء الحساب ، ولقد ضمن الله لمن اتَّبع القرآن أن لا يَضِلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذِكْري ﴾ قال عطاء : عن موعظتي .

وقال ابن السائب : عن القرآن ولم يؤمن به ولم يتَّبعه .

قوله تعالى : ﴿ فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً ﴾ قال أبو عبيدة : معناه : معيشة ضيِّقة ، والضَّنك يوصَف به الأنثى والذكر بغير هاءٍ ، وكل عيش أو مكان أو منزل ضيِّق ، فهو ضَنك ، وأنشد :

وإنْ نَزَلُوا بِضَنْكٍ فانْزِلِ . . .

وقال الزجاج : الضَّنْك أصله في اللغة : الضِّيق والشدَّة .

وللمفسرين في المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال .

أحدها : أنها عذاب القبر ، روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده إنه ليسلَّط عليه تسعة وتسعون تِنّيناً ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إِلى يوم القيامة " وممن ذهب إِلى أنه عذاب القبر ابن مسعود ، وأبو سعيد الخدري ، والسدي .

والثاني : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : شِدَّة عيشه في النار ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

قال ابن السائب : وتلك المعيشة من الضريع والزقُّوم .

والرابع : أن المعيشة الضَّنْك : كسب الحرام ، روى الضحاك عن ابن عباس قال : المعيشة الضَّنْك : أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها ، وله معيشة حرام يركض فيها .

قال الضحاك : فهذه المعيشة هي الكسب الخبيث ، وبه قال عكرمة .

والخامس : أن المعيشة الضَّنْك : المال الذي لا يتَّقي اللهَ صاحبُه فيه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال .

أحدها : القبر .

والثاني : الدنيا .

والثالث : جهنم .

وفي قوله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : "أعمى" "حشرتَني أعمى" بفتح الميمين .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بكسرهما .

وقرأ نافع بين الكسر والفتح .

ثم في هذا العمى للمفسرين قولان .

أحدهما : أعمى البصر ، روى أبو صالح عن ابن عباس قال : إذا أُخرج من القبر خرج

بصيراً ، فإذا سيق إلى المحشر عمي .

والثاني : أعمى عن الحُجَّة ، قاله مجاهد ، وأبو صالح .

قال الزجاج : معناه : فلا حُجَّة له يهتدي بها ، لأنه ليس للناس على الله حُجَّة بعد الرسل .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : الأمر كذلك كما ترى ﴿ أتتكَ آياتنا فنسيتَها ﴾ أي : فتركتَها ولم تؤمن بها ؛ وكما تركتَها في الدنيا تُترَك اليوم في النار .

﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما ذكرنا ﴿ نجزي من أسرف ﴾ أي : أشرك ، ﴿ ولَعذاب الآخرة أشدُّ ﴾ من عذاب الدنيا ومن عذاب القبر ﴿ وأبقى ﴾ لأنه يدوم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(272/503)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾

خاطب آدم وإبليس .

"مِنها" أي من الجنة .

وقد قال لإبليس : ﴿ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الأعراف : 18] فلعله أخرج

من الجنة إلى موضع من السماء ، ثم أُهبِط إلى الأرض .

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ تقدم في "البقرة" أي أنت عدوّ للحية ولإبليس وهما عدوّان لك .

وهذا يدل على أن قوله : "اهبِطا" ليس خطاباً لآدم وحوّاء ؛ لأنهما ما كانا متعادين ؛ وتضمن هبوط آدم هبوط حواء .

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ أي رشداً وقولاً حقاً .

وقد تقدّم في "البقرة" .

﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ ﴾ يعني الرسل والكتب .

﴿ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، وتلا الآية .

وعنه : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، ثم تلا الآية .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي ديني ، وتلاوة كتابي ، والعمل بما فيه .

وقيل : عما أنزلت من الدلائل .

ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول ؛ لأنه كان منه الذكر .

﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي عيشاً ضيقاً ؛ يقال : منزل ضنك وعيش ضنك يستوي

فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة:

إنْ يُلحقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَمُوا . . .

أَشدُدْ وإنْ يُلفَوْا بِضَنْكٍ أنزِل

وقال أيضاً:

إنّ المنيةَ لو تُمَثَّل مُثِّلتْ . . .

مثلي إذا نَزَلُوا بضَنْكِ المنزِل

وقرىء "ضَنْكَى" على وزن فَعْلَى: ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم

والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته، فصاحبه ينفق مما رزقه الله عز وجل بسماح وسهولة

ويعيش عيشاً رافِغاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النمل: 97].

والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا،

مسلط عليه الشحّ، الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضَنك، وحاله مظلمة، كما قال

بعضهم: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتَشوّش عليه رزقُه، وكان في

عيشة ضنك.

وقال عكرمة : "ضَنْكاً" كسباً حراماً .

الحسن : طعام الضَّرِيع والزَّقُّوم .

وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر ؛ قاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود ، ورواه أبو هريرة مرفوعاً : عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" ؛ قال أبو هريرة : يضيق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، وهو المعيشة الضنك .

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ قيل : أعمى في حال وبصيراً في حال ؛ وقد تقدّم في آخر "سبحان" .

وقيل : أعمى عن الحجة ؛ قاله مجاهد .

وقيل : أعمى عن جهات الخير ، لا يهتدي لشيء منها .

وقيل : عن الحيلة في دفع العذاب عن نفسه ، كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا يراه .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى ﴾ أي بأي ذنب عاقبتني بالعمى .

﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ أي في الدنيا ، وكأنه يظن أنه لا ذنب له .

وقال ابن عباس ومجاهد : أي ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى ﴾ عن حجتي ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ أي عالماً بحجتي ؛ القشيري : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة في الدنيا .

﴿ قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أي قال الله تعالى له : ﴿ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أي دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا .

﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أي تركتها ولم تنظر فيها ، وأعرضت عنها .

﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي تترك في العذاب ؛ يريد جهنم .

﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أي وكما جزينا من أعرض عن القرآن ، وعن النظر في المصنوعات ، والتفكر فيها ، وجاوز الحدّ في المعصية .

﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي لم يصدق بها .

(274/503)

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ ﴾ أي أفظع من المعيشة الضّنك ، وعذاب القبر .

﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم وأثبت ؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(275/503)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾

والضمير في ﴿ اهبطا ﴾ ضمير تثنية وهو أمر لآدم وحواء جعل هبوطهما عقوبتهما و ﴿ جميعاً ﴾ حال منهما .

وقال ابن عطية : ثم أخبرهما بقوله ﴿ جميعاً ﴾ أن إبليس والحية مهبطان معهما ، وأخبرهما أن العداوة بينهم وبين أنسالهم إلى يوم القيامة انتهى .

ولا يدل قوله ﴿ جميعاً ﴾ أن إبليس والحية يهبطان معهما لأن ﴿ جميعاً ﴾ حال من ضمير الاثنين أي مجتمعين ، والضمير في ﴿ بعضكم لبعض ﴾ ضمير جمع .

قيل : يريد إبليس وبنيه وآدم وبنيه .

وقيل : أراد آدم وذريته ، فالعداوة واقعة بينهم والبغضاء لاختلاف الأديان وتشتت الآراء .

وقيل : آدم وإبليس والحية .

وقال أبو مسلم الأصبهاني : الخطاب لآدم عليه السلام ولكونهما جنسين صح قوله ﴿ اهبطا ﴾ ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ .

وقال الزمخشري : لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منهما نشؤوا وتفرعوا جعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم ، فقيل ﴿ فإما يأتينكم ﴾ على لفظ الجماعة ، ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب وهو في الحقيقة للمسبب

انتهى .

و﴿ هدى ﴾ شريعة الله .

وعن ابن عباس ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ والمعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين ، فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه .

وعن ابن جبير من قرأ القرآن واتبع ما فيه عصمه الله من الضلالة ووقاه سوء الحساب .

وقال أبو عبد الله الرازي : وهذه الآية تدل على أن المراد بالهدى الذي ذكره الله تعالى اتباع الأدلة واتباعها لا يتكامل إلاّ بأن يستدل بها ، وبأن يعمل بها ، ومن هذه حاله فقد ضمن تعالى أن لا يضل ولا يشقى في الآخرة لأنه تعالى يهديه إلى الجنة .

(276/503)

وقيل ﴿ لا يضل ولا يشقى ﴾ في الدنيا .

فإن قيل : المنعم بهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا .

قلنا : المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فإن حصل بسبب آخر فلا بأس

انتهى .

ولما ذكر تعالى من اتبع الهدى أتبعه بوعيد من أعرض عن ذكره ، والذكر يقع على القرآن

وعلى سائر الكتب الإلهية .

وضنك : مصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع ، والمعنى النكد

الشاق من العيش والمنازل ومواطن الحرب رجوها .

ومنه قول عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت . . .

مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية في الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، والمراد ضغطة

القبر تختلف فيه أضلاعه .

وقال الحسن وقتادة والكلبي : هو الضيق في الآخرة في جهنم فإن طعامهم فيها الضريع

والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين ، ولا يموتون فيها ولا يحيون ، وقال عطاء : المعيشة

الضنك معيشة الكافر لأنه غير موقن بالثواب والعقاب .

وقال ابن جبير : يسلب القناعة حتى لا يشبع .

وقال أبو سعيد الخدري والسدّي : هو عذاب القبر ، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه عن

النبيّ (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الجوهري : المعيشة الضنك في الدنيا ، والمعنى أن الكافر وإن كان متسع الحال والمال فمعه من الحرص والأمل والتعذيب بأمور الدنيا والرغبة وامتناع صفاء العيش لذلك ما تصير معيشته ضنكاً وقالت فرقة ﴿ ضنكاً ﴾ بأكل الحرام .

ويستدل على أن المعيشة الضنك قبل يوم القيامة ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وقوله : ﴿ ولَعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ فكأنه ذكر نوعاً من العذاب ، ثم ذكر أن عذاب الآخرة أشد وأبقى ، وحسن قول الجمهور الزمخشري فقال : ومعنى ذلك أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة فيعيش عيشاً طيباً كما قال تعالى ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطيح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك وحاله مظلمة انتهى .

وقرأ الحسن ضنكي بألف التأنيث ولا تنوين وبالإمالة بناؤه صفة على فعلى من الضنك .

وقرأ الجمهور ﴿ ضنكاً ﴾ بالتنوين وفتحة الكاف فتحة إعراب .

وقرأ الجمهور ﴿ ونحشره ﴾ بالنون ، وفرقة منهم أبان بن تغلب بسكون الراء فيجوز أن

يكون تخفيفاً ، ويجوز أن يكون جرماً بالعطف على موضع ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾

لأنه جواب الشرط ، وكأنه قيل ﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ تكن له معيشة ضنك ﴿

ونحشره ﴾ ومثله

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم ﴾ في قراءة من سكن ويذرهم .

وقرأت فرقة ويحشره بالياء .

وقرىء ويحشره بسكون الهاء على لفظ الوقف قاله الزمخشري .

ونقل ابن خالويه هذه القراءة عن أبان بن تغلب والأحسن تخريجه على لغة بني كلاب وعقيل

فإنهم يسكنون مثل هذه الهاء .

وقرىء ﴿ لربه لكنود ﴾ والظاهر أن قوله ﴿ أعمى ﴾ المراد به عمى البصر كما قال

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ وقيل : أعمى البصيرة .

قال ابن عطية : ولو كان هذا لم يحس الكافر بذلك لأنه مات أعمى البصيرة ويحشر كذلك .

وقال مجاهد والضحاك ومقاتل وأبو صالح وروي عن ابن عباس : ﴿ أعمى ﴾ عن

حجته لا حجة له يهتدي بها .

وعن ابن عباس يحشر بصيراً ثم إذا استوى إلى المحشر ﴿ أعمى ﴾ .

وقيل : ﴿ أعمى ﴾ عن الحيلة في دفع العذاب عن نفسه كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا

يراه .

وقيل ﴿ أعمى ﴾ عن كل شيء إلاّ عن جهنم .

وقال الجبائي : المراد من حشره ﴿ أعمى ﴾ لا يهتدي إلى شيء .

وقال إبراهيم بن عرفة : كل ما ذكره الله عز وجل في كتابه فذمه فإنما يريد عَمَى القلب قال تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

وقال مجاهد : معنى ﴿ لم حشرتني أعمى ﴾ أي لا حجة لي وقد كنت عالماً بحجتي بصيراً بها أحاجّ عن نفسي في الدنيا انتهى .

سأل العبد ربه عن السبب الذي استحق به أن يحشر أعمى لأنه جهله ، وظن أنه لا ذنب له فقال له جل ذكره ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي مثل ذلك أنت ، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر ، ولم تتبصر وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك قاله الزمخشري .

والنسيان هنا بمعنى الترك لا بمعنى الذهول ، ومعنى ﴿ تُنْسَى ﴾ تترك في العذاب ﴿ وكذلك نجزي ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي من أسرف ﴾ أي من جاوز الحد في

المعصية ثم أخبر تعالى أن عذاب الآخرة أشد أي من عذاب الدنيا لأنه أعظم منه ﴿ وأبقى ﴾ أي منه لأنه دائم مستمر وعذاب الدنيا منقطع .

وقال الزمخشري : والحشر على العمى الذي لا يزوال أبداً أشد من ضيق العيش المنقضي ، أو أراد ولتركنا إياه في العمى ﴿ أشد وأبقى ﴾ من تركه لآياتنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(279/503)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ من الإخبار بأنه تعالى قبِل توبته وهداه ، كأنه قيل : فماذا أمره تعالى بعد ذلك ؟ فقيل : قال له ولزوجته : ﴿ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ أي انزِلا من الجنة إلى الأرض وقوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ حالٌ من ضمير المخاطب في اهبطا والجمعُ لما أنهما أصلُ الذرية ومنشأُ الأولاد ، أي مُتعادِين في أمر المعاشِ كما عليه الناسُ من التجاذُب والتحارُب ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مّنّى هُدًى ﴾ من كتاب ورسول ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَاىَ ﴾ وُضع الظاهرُ موضعَ المضمرِ مع الإضافة إلى ضميره تعالى

لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ في الدنيا ﴿ وَلَا يشقى ﴾ في الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾

(280/503)

أي عن الهدى الذاكر لي والداعي إليّ ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ في الدنيا ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ ضيقاً ، مصدرٌ وصف به ولذلك يستوي فيه المذكرُ والمؤنثُ ، وقرىء ضنكى كسَكْرى وذلك لأن مجامعَ همتِه ومطامحَ نظرِه مقصورةٌ على أعراض الدنيا وهو متهالكٌ على ازديادها وخائفٌ على انتقاصها بخلاف المؤمنِ الطالبِ للآخرة ، مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مّنَ السماء والأرض ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكتاب ءامَنُواْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ وقيل : هو الضّريعُ والزقومُ في النار ، وقيل : عذاب القبر ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ وقرىء بسكون الهاء على لفظ الوقفِ وبالجزم عطفاً على محل (فإن له معيشةً ضنكاً) لأنه جواب الشرط ﴿ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ فاقدَ البصر كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ لا أعمى عن الحجة كما قيل ﴿ قَالَ ﴾

استئنافٌ كما مر ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ أى في الدنيا ، وقرىء أعمى بالإمالة في الموضعين وفي الأول فقط لكونه جديراً بالتغيير لكونه رأسَ الآية ومحلَّ الوقف .

(281/503)

﴿ قَالَ كَذلك ﴾ أي مثلَ ذلك فعلتَ أنت ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ أَتَتْكَ ءاياتنا ﴾ واضحةً نيّرةً بحيث لا تخفى على أحد ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أي عَمِيتَ عنها وتركتها تركَ المنسيِّ الذي لا يُذكر أصلاً ﴿ وكذلك ﴾ ومثلَ ذلك النسيانِ الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ اليوم تنسى ﴾ تترك في العمى جزاءً وفاقاً لكن لا أبداً كما قيل بل إلى ما شاء الله ، ثم يزيله عنه فيرى أهوالَ القيامة ويشاهد مقعدَه في النار ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب ، وكذا البَكَم والصممُ يزيلهما الله تعالى عنه ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ ﴿ وكذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الجزاءِ الموافقِ للجناية ﴿ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بئايات رَبّهِ ﴾ بل كذبها وأعرض عنها ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة ﴾ على الإطلاق أو عذابُ النار ﴿ أَشَدُّ وأبقى ﴾ أي من ضنْك العيشِ أو منه ومن الحشر على العمى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الأخبار بأنه تعالى عامله بما عامله كأنه قيل : فماذا أمره بعد ذلك ؟ فقيل : قال له ولزوجته ﴿ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ أي انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، وقيل : الخطاب له عليه السلام ولابليس عليه اللعنة فإنه دخل الجنة بعد ما قيل له : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ص : 77] للوسوسة ، وخطابهما على الأول بقوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد فالتعادي في الحقيقة بين أولادهما .

وهذا على عكس مخاطبة اليهود ونسبة ما فعل ءاباؤهم اليهم .

والجملة في موضع الحال أي متعادين في أمر المعاش وشهوات الأنفس .

وعلى الثاني ظاهر لظهور العداوة بين آدم عليه السلام وابليس عليه اللعنة وكذا بين ذرية آدم عليه السلام وذرية اللعين .

ومن هنا قيل : الضمير لآدم وذريته وإبليس وذريته .

وعزم بعضهم أنه لآدم وإبليس والحية والمغول عليه الأول ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ الخ أي بني أرسله اليكم وكتاب أنزله عليكم ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَاىَ ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه .

وأخرج الطبراني .

وغيره عن أبي الطفيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فَمَنِ اتبع هُدًى ﴾ ﴿ فَلاَ يَضِلُّ ﴾ في الدنيا ﴿ وَلاَ يشقى ﴾ في الآخرة ، وفسر بعضهم الهدى بالقرآن لما أخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

(283/503)

والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ثم قرأ الآية ، وأخرج جماعة عنه مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ " من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من

الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة " ، ورجح على العموم بقيام القرينة عليه وهو قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾

بناء على تفسير الذكر بالقرآن ، وكذا قوله تعالى بعد و ﴿ كذلك أَتَتْكَ ءايا تنا فَنَسِيتَهَا ﴾ [طه : 126] ولمختار العموم أن يقول : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر الكتب الإلهية ، وكذا الآيات تكون بمعنى الأدلة مطلقاً ، وقد فسر الذكر أيضاً هنا بالهدى لأنه سبب ذكره تعالى وعبادته سبحانه ، فأطلق المسبب وأريد سببه لوقوعه في المقابلة ، وما في الخبر من باب التنصيص على حكم أشرف الإفراد المدلول عليه بالعموم اعتناء بشأنه .

ثم إن تقييد ﴿ لاَّ يَضِلُّ ﴾ بقولنا في الدنيا ﴿ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] بقولنا في الآخرة هو الذي يقتضيه الخبر .

وجوز بعضهم العكس أي فلا يضل طريق الجنة في الآخرة ولا يتعب في أمر المعيشة في الدنيا ، وجعل الأول في مقابلة ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ والثاني في مقابلة ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ ثم قال : وتقديم حال الآخرة على حال الدنيا في المهتدين لأن مطمح

نظرهم أمر ءاخرتهم بخلاف خلافهم فإن نظرهم مقصور على دنياهم ، ولا يخفى أن الذي نطقت به الآثار هو الأول ، وذكر بعضهم أنه المتبادر ، نعم ما ذكر لا يخلو عن حسن وإن قيل : فيه تكلف ، وجوز الإمام كون الأمرين في الآخرة وكونهما في الدنيا ، وذكر أن المراد على الأخير لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين لا مطلقاً فإن لحق المنعم بالهدى شقاء في الدنيا فبسبب آخر وذلك لا يضراه ، والمعول عليه ما سمعت ، والمراد من الاعراض عن الذكر عدم الاتباع فكأنه قيل : ومن لم يتبع ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي ضيقة شديدة وهو مصدر ضنك وكذا ضناكة ؛ ولذا يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع ، وقد وصف به هنا المؤنث باعتبار الأصل .

وقرأ الحسن ﴿ ضنكي ﴾ بألف التأنيث كسكرى وبالإمالة .

وهذا التأنيث باعتبار تأويله بالوصف .

وعن ابن عباس تفسيره بالشديد من كل وجه ، وأنشد قول الشاعر :

والخيل قد لحقت بنا في مأزق . . .

ضنك نواحيه شديد المقدم

والمتبادر أن تلك المعيشة له في الدنيا .

وروي ذلك عن عطاء .

وابن جبير ، ووجه ضيق معيشة الكافر المعرض في الدنيا أنه شديد الحرص على الدنيا متهالك على ازديادها خائف من انتقاصها غالب عليه الشح بها حيث لا غرض له سواها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة ، وقيل : الضنك مجاز عما لا خير فيه ، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه وزيادة في عذابه يوم القيامة كما دلت عليه الآيات ، وهو مأخوذ مما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية : يقول كل مال أعطيته عبدا من عبادي قل أو كثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة ، وقيل : المراد من كونها ضنكا إنها سبب للضنك يوم القيامة فيكون وصفها بالضنك للمبالغة كأنها نفس الضنك كما يقال في السلطان : الموت بين شفتيه يريدون بالموت ما يكون سبباً للموت كالأمر بالقتل ونحوه ، وعن عكرمة .

ومالك بن دينار ما يشعر بذلك ، وقال بعضهم : إن تلك المعيشة له في القبر بأن يعذب فيه .

وقد روى ذلك جماعة عن ابن مسعود .

وأبي سعيد الخدري .

وأبي صالح .

والربيع .

والسدى .

ومجاهد .

وفي البحر عن ابن عباس أن الآية نزلت في الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، والمراد ضغطة القبر حتى تختلف فيه أضلاعه .

وروي ذلك مرفوعاً أيضاً .

فقد أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت .

والحكيم الترمذي .

وأبو يعلى .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن حبان .

وابن مردويه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له قبره سبعين ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيم أنزلت ﴿ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ قالوا : الله ورسوله اعلم قال : عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسع وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون " .

وأخرج عبد الرزاق .

وسعيد بن منصور .

ومسدد في مسنده .

وعبد بن حميد .

والحاكم .

وصححه .

(286/503)

والبيهقي في كتاب عذاب القبر وجماعة عن أبي سعيد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ عذاب القبر " ولفظ عبد الرزاق يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ولفظ ابن أبي حاتم ضمة القبر إلى غير ذلك ومن قال : الدنيا ما قبل القيامة الكبرى قال ما يكون بعد الموت واقع في الدنيا كالذي يكون قبل الموت .

وقال بعضهم : إنها تكون يوم القيامة في جهنم .

وأخرج ذلك ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن الحسن ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : المعيشة الضنك في النار

شوك وزقوم وغسلين وضريع وليس في القبر ولا في الدنيا معيشة وما المعيشة والحياة إلا في الآخرة، ولعل الأخبار السابقة لم تبلغ هذا القائل أو لم تصح عنده، وأنت تعلم أنها إذا صحت فلا مساغ للعدول عما دلت عليه وإن لم تصح كان الأولى القول بأنها في الدنيا لا في الآخرة لظاهر ذكر قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ الخ بعد الأخبار بأن له معيشة ضنكا ﴿ وقرأت فرقة منهم أبان بن تغلب ﴿ ﴾ وقرأت فرقة منهم أبان بن تغلب ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ بإسكان الراء وخرج على أنه تخفيف أو جزم بالعطف على محل ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ الخ لأنه جواب الشرط كأنه قيل.

ومن أعرض عن ذكر تكن له معيشة ضنك ونحشره الخ.

ونقل ابن خالويه عن أبان أنه قرأ ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ بسكون الهاء على إجراء الوصل مجرى الوقف.

وفي البحر الأحسن تخريج ذلك على لغة بني كلاب.

وعقيل فإنهم يسكنون مثل هذه الهاء، وقد قرىء ﴿ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: 6] بإسكان الهاء، وقرأت فرقة ﴿ ويحشره ﴾ بالياء ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ الظاهر أن المراد فاقد البصر كما في قوله تعالى: ﴿ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: 97].

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ أي في الدنيا كما هو الظاهر ، ولعل هذا باعتبار أكثر أفراد من أعرض لأن من أفراده من كان أكمه في الدنيا .

والظاهر أن هذا سؤال عن السبب الذي استحق به الحسر أعمى لأنه جهل أو ظن أن لا ذنب له يستحق به ذلك .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى في جوابه ﴿ كذلك أَتَتْكَ ءاياتنا ﴾ الكاف مقحمة كما في مثلك لا يبخل وذلك إشارة إلى مصدر أتتك أي مثل ذلك الإتيان البديع أتتك الآيات الواضحة النيرة .

وعند الزمخشري لا إقحام وذلك إشارة إلى حشره أعمى أي مثل ذلك الفعل فعلت أنت .

وقوله تعالى : ﴿ أَتَتْكَ ﴾ الخ جواب سأال مقدر كأنه قيل : يا رب ما فعلت أنا ؟ فقيل : أتتك آياتنا ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أي تركتها ترك المنى الذي لا يذكر أصلاً ، والمراد فعميت عنها إلا أنه وضع المسبب موضع السبب لأن من عمي عن شيء نسيه وتركه .

والإشارة في قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ إلى النسيان المفهوم من نسيتها والكاف على ظاهرها أي مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ اليوم تنسى ﴾ أي تترك في العمى جزاء وفاقاً ، وقيل : الكاف بمعنى اللام الأجلية كما قيل في قوله تعالى : ﴿ واذكروه

كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : 198] أي ولأجل ذلك النسيان الصادر منك تنسى .

وهذا الترك يبقى إلى ما شاء الله تعالى ثم يزال العمى عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد النار كما قال سبحانه : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف : 53] الآية ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] .

(288/503)

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن الكافر يحشر أولاً بصيراً ثم يعمى فيكون الأخبار بأنه قد كان بصيراً إخباراً عما كان عليه في أول حشره ، والظاهر أن ذلك العمى يزول أيضاً ، وعن عكرمة أنه لا يرى شيئاً إلا النار ، ولعل ذلك أيضاً في بعض أجزاء ذلك اليوم وإلا فكيف يقرأ كتابه ، وروي عن مجاهد .

ومقاتل .

والضحاك .

وأبي صالح وهي رواية عن ابن عباس أيضاً أن المعنى نحشره يوم القيامة أعمى عن الحجة أي لا حجة له يهتدي بها .

وهو مراد من قال: أعمى القلب والبصيرة، واختار ذلك إبراهيم ابن عرفة وقال كلما ذكر الله سبحانه في كتابه العمى فذمه فإنما يراد به عمى القلب قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ [الحج: 46] وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ [طه: 125] وقد كنت عالما بحجتي بصيراً بها أحاج عن نفسي في الدنيا.

ومنه يعلم اندفاع ما قاله ابن عطية في رد من حمل العمى على عمى البصيرة من أنه لو كان كذلك لم يحس الكافر به لأنه كان في الدنيا أعمى البصيرة ومات وهو كذلك.

وحاصل الجواب عليه إني حشرتك أعمى القلب لا تهتدي إلى ما ينجيك من الحجة لأنك تركت في الدنيا آياتي وحججي وكما تركت ذلك تترك على هذا العمى أبداً، وقيل: المراد بأعمى متحيراً لا يدري ما يصنع من الحيل في دفع العذاب كالأعمى الذي يتحير في دفع ما لا يراه.

وليس في الآية دليل كما يتوهم على عد نسيان القرآن أو آية منه كبيرة كما ذهب إليه الإمام الرافعي ويشعر كلام الإمام النووي في الروضة باختياره لأن المراد بنسيان الآيات بعد القول بشمولها آيات القرآن تركها وعدم الإيمان بها.

ومن عد نسيان شيء من القرآن كبيرة أراد بالنسيان معناه الحقيقي نعم تجوز أبو شامة

شيخ النووي فحمل النسيان في الأحاديث الواردة في ذم نسيان شيء من القرآن على ترك العمل به .

(289/503)

وتحقيق هذه المسألة وأن كون النسيان بالمعنى الأول كبيرة عند من قال به مشروط كما قال الجلال البلقيني والزركشي وغيرهما بما إذا كان عن تكاسل وتهاون يطلب من محله وكذا تحقيق حال الأحاديث الواردة في ذلك .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وخلف ﴿ أعمى ﴾ بالإمالة في الموضعين لأنه من ذوات الياء .

وأمال أبو عمرو في الأول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية وحل الوقف .

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بآيات رَبّهِ ﴾ بل كذبها وأعرض عنها ، والمراد تشبيه الجزاء العام بالجزاء الخاص ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة ﴾ على الاطلاق أو عذاب النار ﴿ أَشَدُّ مِنَ عَذَابِ

الاولى وأبقى ﴾ أي أكثر بقاء منه أو أشد وأبقى من ذلك ومن عذاب القبر أو منهما ومن الحشر على العمي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(290/503)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قَالَ اهبطا ﴾ قد مرّ تفسيره في البقرة، أي انزلا من الجنة إلى الأرض، خصهما الله سبحانه بالهبوط؛ لأنهما أصل البشر، ثم عمم الخطاب لهما ولذرّيتهما فقال : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ والجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن يقال : خاطبهما في هذا وما بعده خطاب الجمع؛ لأنهما منشأ الأولاد.

ومعنى ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ : تعاديهم في أمر المعاش ونحوه، فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مّنى هُدًى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ أي لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أي عن ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه، ولم يتبع هداي ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي فإن له في هذه الدنيا معيشة ضنكاً، أي عيشاً ضيقاً.

يقال : منزل ضنك وعيش ضنك، مصدر يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث،

قال عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت . . . مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

وقرىء ﴿ ضُنكى ﴾ بضم الضاد على فُعلى ، ومعنى الآية : أن الله عزّ وجلّ جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشاً هنياً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] .

وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً وفي تعب ونصب ، ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب ، فهو في الأخرى أشدّ تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً ، وذلك معنى : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ أي مسلوب البصر .

وقيل : المراد : العمى عن الحجة .

وقيل : أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إلى شيء منها .

وقد قيل : إن المراد بالمعيشة الضنك : عذاب القبر ، وسيأتي ما يرجح هذا ويقوّيه .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ في الدنيا ﴿ قَالَ كذلك ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسره بقوله : ﴿ أَتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَهَا ﴾ أي أعرضت عنها وتركتها

ولم تنظر فيها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا تنسى ، أي : تترك في العمى والعذاب في النار .

قال الفراء : يقال : إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى في حشره .

﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزيه .

والإسراف : الانهماك في الشهوات .

وقيل : الشرك .

﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بِئَايَاتِ رَبِّهِ ﴾ بل كذب بها ﴿ وَلَعَذَابُ الاخرة أَشَدُّ ﴾ أي أفظع من المعيشة الضنك ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع .

وقد أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله يقول : ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ " وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال : أجار الله تابع القرآن من أن يضلّ في الدنيا أو يشقى في الآخرة ، ثم قرأ : ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ قال : لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ، ومسدد في مسنده ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ قال : عذاب القبر .

ولفظ عبد الرزاق قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه .

ولفظ ابن أبي حاتم قال : ضمة القبر .

وفي إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف .

وقد روي موقوفاً .

قال ابن كثير : الموقوف أصح .

(292/503)

وأخرج البزار وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : " ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ قال : " المعيشة الضنكى أن يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة " وأخرج ابن أبي الدنيا والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه بأطول منه .

قال ابن كثير : رفعه منكر جداً .

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : " ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ قال : عذاب القبر " قال ابن كثير بعد إخراجه : إسناد جيد .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ قال : عذاب القبر ، ومجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنك بعذاب القبر .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني ، والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن ابن مسعود ؛ أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ قال : عمي عليه كل شيء إلا جهنم ، وفي لفظ : لا يبصر إلا النار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله : ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ قال : من أشرك بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ ﴾ أي : بعد قبول توبته : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ أي : انزلا من الجنة إلى الأرض : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي : متعادين .

قال المهايمي : فالمرأة عدوّة الزوج ، في إلجائه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوّها في إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما , ويدعوهما إلى أنواع المفاسد التي لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماويّ ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ﴾ أي : من كتاب ورسول ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ أي : لا في الدنيا ولا الآخرة . قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : هُدَايَ مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، من شقائه في الدنيا والآخرة . وهذا الشقاء بقسميه ، هو نوع من أفانين العذاب

اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذي بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمرَ ربه .

وفي الآية مسائل :

(295/503)

الأولى : قال الرازي في قوله تعالى : ﴿ عَن ذِكْرِي ﴾ : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيّم في " مفتاح دار السعادة " : أي : عن الذكر الذي أنزلته . والذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . كقيامي وقراءتي لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرني . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء ، لا إضافة المصادر إلى معمولاتها . والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه ، فإن القرآن يسمى ذكراً . قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : 50] ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عِمْرَان : 58] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : 52] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ [فصلت : 41] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ [يس : 11

] ، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ [غافر : 3] ، فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد ، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم . ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ [غافر : 2 – 3] .

الثانية : قرئ ضَنكاً بالتنوين على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

~وَنَعَتُوا بمصدرٍ كثيراً فالتَزَمُوا الإِفرادَ والتذكِيرا

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضَنُكَ ككرم ، ضنكاً وضناكة وضنوكة ، ضاق . وقال السمين : ضنكاً صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور ضنكاً بالتنوين وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً كسائر المعربات . وقرأت فرقة ضنكي بألف كسكري . وفي هذه الألف احتمالان : فإما أن تكون بدلاً من التنوين ، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن

تكون ألف التأنيث بني المصدر على فعلى نحو دعوى .

الثالثة : ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالاً : إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي . قال ابن كثير : أي : ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره . بل صدره ضيّق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء . وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك . فلا يزال في ريبه يتردد : فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء والذات والمآرب . فالضنك المعنيّ بها ، إذن هو الضنك الحيويّ والقلق الدنيوي ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيّم الذي هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخارج إلا به ولا يرتاب في ذلك من كابر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذي تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدي به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمي هدىً ونوراً وشفاءً ورحمةً . ألق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هذه اليهودية ، يرى في اشتراعها في الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود في المأكل والمشرب . وحجر في المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يَلْمسون ولا يُلْمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء في التشريعات وتشعبها في الأهواء إلى شعب تتباين في العبادات .

وهذه النصرانية ، الذي أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ، ومضي عصر الحواريين . فأطلقوا لأتباعهم كل قيد في اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكاية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس ما لا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى . فإنه عليه السلام قال : ما جئت لأهدم الناموس – التوراة – بل لأتممه .

فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقاداً وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدي الكهنة حلاًّ وإبراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يتضجر منه كل مسيحيّ ذاق جوهر الدين المسيحي حقّاً . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفي نقيض ، فأنَّى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصارى بالمسلمين في الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ما قلد جيدهم مننا لا تنكر ؛ أخذوا يقاومون الكنيسة في حظرها على المعارف والفنون ، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزاباً . ولا يزالون يتقربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ما ورثوه . ولذا تراهم في عيشة ضنك يسعون لأرقى مما هم عليه ، علماً بأن الدخائل والبدع في دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقي إلا بالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسعون إليه ، وإن كانوا لا يشعرون ، أو يشعرون ويتجاهلون . هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين ، وهما تنتميان إلى كتابين منزلين . فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التي لا تحصى . ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالاً وعرضاً . فأهلها في شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء ، الطائفة المسماة بالماديين . وهم الدهريون والطبيعيون .

فإنهم بلا ريب أضيق صدراً وأضنك معيشةً وأشد اضطراباً وأعظم فرقة . فلا يمكن أن يوجد اثنان على رأي واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيِّلُهُ له رغائبه وشهواته . قال بعضهم : هؤلاء الذين يحصرون دينهم في أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيماً في أعماله ، إذا سئلوا : ما هو الدين الطبيعي الذي تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو

الذي يرشد إليه العقل عريّاً عن الوحي . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ، ضعيف متغيّر قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه في الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غداً أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلذّ له وتجعله مستنفراً مما يضادّ أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيماً في أعماله ؟ وما هي القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكل يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم ! ! فالصيني مثلاً يرى نفسه مستقيماً ولو باع أو قتل أولاده . والهندي يرى هذه الاستقامة في نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثني يرى نفسه مستقيماً ، ولو ارتكب الفحشاء تكرمة للزهرة

.

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا في موادّ ما يشرعون . ولم يهتدوا الجادّة الاستقامة الحقة . فأنّى يمكن لعامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعي يقبله كيف شاء ، ويجعله كشيء مرن ، يمده إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمي شريعة ثابتة عامة ، ما كان وقفاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجاراة ، أنه يوجد من كان ميّالاً طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة ، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبّاً للانتقام والاعتداء والشهوات . لا سيما والعقل ضعيف والنفس أمّارة بالسوء ، فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصي والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضي بإلزامه شريعة يخضع لها . فهي ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينة على ملازمة الشريعة طبعَ الإنسان ، ما يجده في نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظريّاً . حتى لا يمكنه أن يجرّد نفسه . مثلاً ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تعامى في الشر ، أن يجرّد نفسه عن تصور أنه خاضع لشريعة تنهاه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأيّ نوع كان ؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا في ألواح لحمية . ومن بحث

عن عموم سكان البسيطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت في بعض موادها . والحرية التي منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهي دمار لنظام العالم ، وجائحة للأدب ، وآفة لما غرس الباريء في عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنساني ، والإجحاف بالشرائع الأدبية . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على

الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفاسد ، واطّرح العذار في مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنسانيّ والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بعد الله ذمة بين الملأ, ولا حرمة للسنن والشرائع, ولا برٌّ بالملوك ، ولا عدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضروريّ بالذات لقيام الألفة البشرية ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظنن أحد أن العالم يدوم أو يبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيّدين بشريعة إلهية ، تصدّ الفاجر عن الفجور . فكما أن الهواء

ضروريّ للحياة الطبيعية ، فكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فكذا لا انتظام ولا هيئة في العالم دون الشريعة . انتهى .

وقال إمام مدقق ، في بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يتلذذون بملذة . كأن لهم في لذة ألماً ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم : فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدي الكلف به كثيري التحرق لفقدانه ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية ، وهما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافي للناس من نزعات الوسواس ؟ .

أما يدلنا هذا الضجر السري على أن النفس تائقة لأمر ما ، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد دله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيدان ، ولا مغازلة الغيد . بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء ، ولا الأكوان بجانبه إلا فناءً . . ما هو هذا الأمر السامي الذي لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شيء من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هي من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا لنور يجلي عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة ، لتشرف على حضرة القدس المنيفة ، وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجلّ من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية ، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فمهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ، ليهتدي إلى وَضَحِ المحجة . فإن تبصر في أمره ، واكتنه

حقيقة سره ، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجوّ لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر في أخس المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل السليم . العقل في النوع الإنسانيّ خصيصة من أجلّ خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده ، ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عزَّ وجلَّ ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائعه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية . في نواميس رقيّها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعتها . ويتصبر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاؤوا به ، وفي الآثار التي تركوها ، على معنى النبوّة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات ، وفي تباين الملل والديانات . بالعقل يميز

الإنسان بين أحوال الماضي والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويعثر بتعضيد العلم والبدائة، على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها، وباقية بقاء النوع الإنسانيّ، وهي شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

(305/503)

الرابعة : رأيت للإمام ابن القيّم، رحمه الله، كلاماً على هذه الآية في كتابيه : " الجواب الكافي " و" مفتاح دار السعادة " فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك . قال في " الجواب الكافي " في فصل أَبَان فيه العقوبات المترتبة على المعاصي : ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتّب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور

أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه ، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات . فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والبرزخ ويوم المعاد . ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين . ومن لم تقر عينه بالله , تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] ، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح ، الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة ، والحسنى يوم القيامة . فلهم أطيب

الحياتين وهم أحياء في الدارين . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : 30] ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : 3] ، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على

الحياة الطيبة في الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة . ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيّب . وقال آخر : إن في الدنيا جنة ، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة . من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

(307/503)

وقد أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى هذه الجنة بقوله : < إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر > . وقال : < ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة > ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13 - 14] ، يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة . وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة . وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش في

الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 83 – 84] ، وقال حاكياً عنه أنه قال : ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 88 – 89] ، والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تزاحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد انتهى ملخصاً .

(308/503)

وقال رحمه الله في " مفتاح دار السعادة " : فسَّرَ غير واحد من السلف قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أي : تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا . فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ، ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون

: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] ، فهذا في البرزخ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ فهذا في القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فقول الملائكة : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [لأنفال : 50] ، فهذه الإذاقة في البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كنظائره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

(309/503)

وفي الصحيح ، عن البراء بن عازب في قوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : 27] ، قال : نزلت في عذاب القبر . والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن

ذكره هو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكاً ، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحيه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] ، فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة ، وفي الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ، ونسيانه في العذاب في الآخرة . وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 36 – 37] ، فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوّه عن ذكره الذي أنزله على رسوله . فكان عقوبة هذا الإعراض ، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه . وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه ، وعاين هلاكه وإفلاسه قال : ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [الزخرف : 38] ، وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر في ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 37] ؟ قيل : لا عذر لهذا وأمثاله في الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى . فإذا ضل فإنما أُتي من تفريطه وإعراضه .

وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] ، وقال تعالى : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : 165] ، وقال تعالى في أهل النار : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : 76] ، وقال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : 56 - 59] ، وهذا كثير في القرآن .

الخامسة: قال ابن القيم: اختلف في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [124]: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ [125] هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [38]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: 22]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: 22]، وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: 6 – 7]، ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة لقوله: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: 45]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: 13 – 15]، وقوله: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: 53].

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق . فكيف يقول : ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ وكيف يجاب بقوله : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ ؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمي البصر وأنه جوزي من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره ، تركه في العذاب . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] ، وقد قيل في هذه الآي أيضاً : إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى . كما قيل في هذه الآية قوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [124] ، قالوا لأنهم يتكلمون يومئذٍ ويسمعون ويبصرون .

ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم ، المضادّ للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمي وصمم وبكم مقيد لا مطلق . فهو عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه . وهذا قد روي عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسرهم . وقال آخرون : هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة ،

يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروي عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى : ﴿ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] ، فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيُبْصَرُونَ بأجمعهم ، عمياً بكماً صمّاً ، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا : المراد به العمي عن الحجة ، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم ، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً ، هم عُمْيٌ عنها ، بل هم عُمْيٌ عن الهدى كما كانوا في الدنيا . فإن العبد يموت على ما عاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمي البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقرّ بما كان يجحد في الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب ؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم < إنكم محشورون إليّ حفاة عُراة > وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 5] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] ، ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار . لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا : ﴿ يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : 20 – 21] ، ثم قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : 22] ، الآية وهذا الحشر الثاني ، وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني . يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون ، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً . ولكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته . فالقرآن يصدق بعضه بعضاً : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] . انتهى .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أي : لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [

الأعراف : 51] ، فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس دخلاً في هذا الوعيد الخاص . وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى . فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك .

(315/503)

روى الإمام أحمد عن سعد بن عُبَادَة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

< ما من رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقي الله يوم يلقاه ، وهو أجذم > ؛ .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ الآية ، أي : وهكذا نجزي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضنك العيش في الدنيا . لكونه دائماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 160 . 172 ﴾

(316/503)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

الظاهر أن ألف الاثنين في قوله ﴿ اهبطا ﴾ راجعة إلى آدم وحوّاء المذكورين في قوله ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ [طه : 121] الآية ، خلافاً لمن زعم أنها راجعة إلى إبليس وآدم ، وأمْرَه إياهما بالهبوط مِن الجنة المذكور في آية « طه » هذه جاء مُبيناً في غير هذا الموضع . كقوله في سورة « البقرة » : ﴿ وَقُلْنَا اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ [البقرة : 38] ، وقوله في « الأعراف » : ﴿ قَالَ اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ [الأعراف : 24] . وفي هذه الآيات سؤال معروف ، وهو أن يُقال : كيف جيء بصيغة الجمع في قوله ﴿ اهبطوا ﴾ في « البقرة » و« الأعراف » وبصيغة التثنية في « طه » في قوله : ﴿ اهبطا ﴾ مع أنه اتَّبع صيغة التثنية في « طه » بصيغة الجمع في قوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ [طه : 123] وأظهر الأجوبة عندي عن ذلك : أن التثنية باعتبار آدم وحوّاء فقط ، والجمع باعتبارهما مع ذريتهما . خلافاً لمن زعم أن التثنية باعتبار آدم وإبليس ، والجمع باعتبار معهم ذريتهما معهما ، وخلافاً لمن زعم أن الجمع في قوله : ﴿ اهبطوا ﴾ مراد به آدم وحواء وإبليس والحَية . والدليل على أن الحية ليست مرادة في ذلك هو أنها لا تدخل في قوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ لأنها غير مكلفة .

واعلم أن المفسِّرين يذكرون قِصّة الحية ، وأنها كانت ذات قوائم أربع كالبختية من أحسن خلقها الله ، وأن إبليس دخل في فمها فأدخلته الجنة ، فوسوس لآدَم وحوّاء بعد أن عرض نفسه على كثير من الدواب فلم يدخله إلا الحية . فأهبط هو إلى الأرض ولُعِنَتْ هي وردت قوائمها في جوفها ، وجُعِلَت العداوة بَينها وبين بني آدم ، ولذلك أمروا بقتلها . وبهذه المناسبة ذكر القرطبي رحمه الله في تفسيره في سورة « البقرة » جملاً من أحكام قتل الحيات . فذكر عن ساكنة بنت الجعد أنها روت عن سري بنت نبهان الغنوية أنها سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يأمر بقتل الحيات صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأبيضها ، ويرغِّب في ذلك . ثم ذكر عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود حديثاً فيه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بقتل حية فسبقتهم إلى جحرها . فأمرهم أن يضرموا عليها ناراً . وذكر عن علماء المالِكية أنهم خصّصوا بذلك النهي عن الإحراق بالنار ، وعن أن يُعذب أحد بعذاب الله . ثم ذكر عن إبراهيم النخعي : أنه كره أن تحرق العقرب بالنار ، وقال : هو مثله . وأجاب عن ذلك بأنه يحتمل أنه لم يبلغه الخبر المذكور .

ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود الثابت في الصحيحين قال : كنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم في غار ، وقد أنزلت عليه ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ [المرسلات : 1] فنحن نأخذها من فيه رطبة ، إذ خرجَتْ علينا حية فقال « اقْتُلوها » ، فابتدرناها لِنَقْتُلها ، فسبقَتْنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وقاها الله شرَّكم كما وقاكُم شرَّها » فلم يضرم ناراً ، ولا احتال في قتلها ، وأجاب هو عن ذلك ، بأنه يحتمل أنه لم يجد ناراً في ذلك الوقت ، أو لم يكن الجحر بهيئة ينتفع بالنار هناك ، مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحية . ثم ذكر أن الأمر بقتل الحيات من الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات ثم ذكر أن الأمر بقتل الحيات عام في جميع أنواعها إن كانت غير حيات البيوت ، ثم ذكر فيما خرجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود : « اقتلوا الحيات كلهن ، فمن خاف ثأرهن فليس مني » ثم ذكر أن حيات البيوت لا تقتل حتى تؤذن ثلاثة أيام . لحديث : « إن بالمدينة جناً قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام » ثم ذكر أن بعض العلماء خص ذلك بالمدينة دون غيرها . لحديث : « إن بالمدينة جنا قد أسلموا » قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جن غير المدينة أحداً أو لا . قاله ابن نافع . ثم ذكر عن مالك النهي عن قتل جنان

البيوت في جميع البلاد . ثم قال : وهو الصحيح . لأن الله عزّ وجل قال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِ يَسْتَمِعُونَ القرآن ﴾ [الأحقاف : 29] الآية . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن وفيه وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة » وسيأتي بكماله في سورة « الجن » إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يخرج عليه وينذر ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله .

(319/503)

(ثم قال) : روى الأئمة عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة : أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته ، قال : فوجدته يصلي فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته ، فسمعت تحريكاً في عراجين ناحية البيت ، فالتفت فإذا حية فوثبت لأقتلها فأشار إلَي أن أجلس فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم . قال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُذ عليك

سلاحَك ، فإنّي أخْشَى عليك قُريظة » فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع ، فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة .

(320/503)

فقالت له : اكفُف عليك رمحك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ، فدخل فإذا بحية عظيمة مُنطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه ، فما يدري أيُّهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى . قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ، وقلنا : أدع الله يحيه لنا : فقال : « استغفروا لأخيكم ثم قال إن بالمدينة جناً قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئًا فأذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان » وفي طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لهذه البيوت عوامر ، فإذا رأيتم شيئًا منها فحرِّجوا عليها ثلاثاً ، فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر وقال لهم : اذهبوا فادفنوا صاحبكم » ثم قال : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذي قتله الفتى كان مسلماً ، وأن الجن قتلته به قصاصاً . لأنه لو سلم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون في اعلمد المحض ، وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمد قتل نفس مسلمة إذ لم يكن عنده

علم من ذلك ، وإنما قصد إلى قتل ما سُوغ قتل نوعه شرعاً ، فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عدْواً وانتقاماً . وقد قَتلت سعد بن عبادة رضي الله عنه ، وذلك أنه وجد ميتاً في مغتسله وقد اخضر جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولا يرون أحداً :

قد قتلنا سيد الخز . . . رج سعد بن عُباده

ورميناه بسهمين . . . فلم تُخْطِ فؤاده

(321/503)

وإنما قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : « إن بالمدينة جناً قد أسلموا » ليبين طريقاً يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ، ويتسلط به على قتل الكافر منهم . وروي من وجوه : أن عائشة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم قَتَلت جاناً . فأُريب في المنام أن قائلاً يقول لها : لقد قتلتِ مُسلماً . فقالت : لو كان مُسلما لم يدخل على أزواج النَّبي صلى الله لعيه وسلم . قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصحبت فأمرت باثني عشر ألف درهم فجُعلت في سبيل الله . وفي رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة . فتصدقت وأعتقت رقاباً .

وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيات التي نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن قتلها هي

التي تمشي ولا تلتوي. وعن علقمة نحوه. ثم ذكر صفة إنذار حيات البيوت فقال: قال مالك: أحب إلي أن ينذروا ثلاثة أيام. وقاله عيسى بن دينار: وإن ظهر في اليوم مراراً، ولا يقتصر على إنذاره ثلاث مرات في يوم واحد حتى يكون في ثلاثة أيام.

وقيل: يكفي ثلاث مرار. لقوله صلى الله عليه وسلم: «فليؤذنه ثلاثاً»، وقوله «حرجوا عليه ثلاثاً» ولأن ثلاثاً للعدد المؤنث، فظهر أن المراد ثلاث مرات. وقول مالك أولى لقوله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة أيام» وهو نص صحيح مقيد لتلك المطلقات، ويحمل ثلاثاً على إرادة ليالي الأيام الثلاث، فغلب الليلة على عادة العرب في باب التاريخ، فإنها تغلب فيها التأنيث. قال مالك: ويكفي في الإنذار أن يقول: أحرج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدو لنا ولا تؤذونا. وذكر ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال: إذا رأيتم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا: أنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم نوح عليه السلام، وأنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام، فإذا رأيتم منهن شيئاً بعد فاقتلوه. ثم قال: وقد حكى ابن حبيب عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول: «أنشدكن بالعهد الذي أخذ عليكن سليمان عليه السلام ألا تؤذونا ولا تظهرن

علينا » انتهى كلام القرطبي ملخصا قريباً من لفظه .

قال مقيده عفا لاله عنه وغفر له : التحقيق في هذه المسألة أن ما لم يكن من الحيات في البيوت فإنه يُقتل كالحيات التي توجد في الفيافي ، وأن حيات البيوت لا تُقتل إلا بعد الإنذار .

وأظهر القولين عندي عموم الإنذار في المدينة وغيرها ، وأنه لا بد من الإنذار ثلاثة أيام ، ولا تكفي ثلاث مرات في يوم أو يومين ، كما تقدمت أدلة ذلك في كلام القرطبي . وأن الأبر وذا الطفيتين يقتلان في البيوت بلا إنذار . لما ثبت في بعض روايات مسلم بلفظ : فقال أبو لبابة : إنه قد نُهي عنهنَّ (يريد عوامر البيوت) وأُمر بقتل الأبرت ذي الطُّفْيَتَيْن . وفي رواية في صحيح البخاري عن أبي لبابة : « لا تقتلوا الجنان إلا كل أبتر ذي طُفيتين ، فإنه يُسقط الولد ، ويُذهب البَصَر فاقتلوه » .

والدليل على قتل الحيات وإنذار حيات البيوت ثابت في الصحيحين وغيرهما .

قال البخاري في صحيحه : حدثنا عبدالله بن محمد ، حدثنا هشام بن يوسف حدثنا معمر عن الزهري ، عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه سمع النّبي صلى الله لعيه وسلم يخطب على المنبر يقول : « اقتلوا الحيّات واقتلوا ذا الطُّفيتين والأبتر . فإنهما

يَطْمِسان البصر ، ويَسْتَسْقطان الحَبَل » قال عبد الله : فبينا أنا أطارد حيّة لأقتلها فناداني أبو لُبابة : لا يقتلها . فقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل الحيات ؟ فقال : إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت ، وهي العوامر . وقال عبد الرزاق عن معمر : فرآني أبو لُبابة أو زَيد بن الخطاب ، وتابعه يونُس وابن عُيَيْنة وإسحاق الكَلْبي والزُّبَيْدي ، وقال صالح وابن أبي حَفْصَة وابن مُجمِّع عن الزهري عن سالم عن ابن عمر : فرآني أبو لبابة وزيد بن الخطاب اه من صحيح البخاري رحمه الله تعالى .

(324/503)

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : وحدثني عمرو بن محمد الناقد ، حدثنا سفيان بن أبي عُيَيْنة عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النّبي صلى الله عليه وسلم « اقتلوا الحيّات وذا الطُّفيتين والأبتر ، فإنهما يَسْتَسْقِطانْ الحَبَل ويلتمسان البصر » قال : فكان ابن عمر يقتل كل حية وجدها . فأبصره أبو لُبابة بن عبد المنذر ، أو زيد بن الخطاب وهو يطارد حيّة فقال : إنه قد نهى عن ذوات البيوت . ثم ذكره من طرق متعددة . وفي كلها التصريح بالنهي عن قتل جنان البيوت يعني إلا بعد الإنذار ثلاثاً . وعن مالك رحمه الله : يقتل ما وجد منها بالمساجد . وقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث « وذا الطُّفْيَتين

» هو بضم الطاء المهملة وإسكان الفاء بعدها ياء . وأصل الطُفْيَة خوصة المقل وهو شجر الدوم . وقيل : المقل ثم شجر الدوم . وجمعها طُفًى بضم افتح على القياس . والمراد بالطُّفْيَتين في الحديث : خَطَّان أبيضان . وقيل : أسودان على ظهر الحية المذكورة ، يشبهان في صورتها خوص المقل المذكور . والأبتر : قصير الذنب من الحيات : وقال النضير بن شميل : هو صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب ، لا تنظر إليه حامل إلا ألقت ما في بطنها . وقال الداودي : هو الأفعى التي تكون قدر شبر أو أكثر قليلاً وقوله في هذا الحديث : «يَسْتَسْقِطَان الحَبَل» معناها أن المرأة الحامل إذا نظرت إليهما وخافت أسقطت جنينها غالباً . وقد ذكر مسلم عن الزهري ما يدل على أن إسقاط الحبل المذكور خاصية فيهما من سمهما . والأظهر في معنى «يلتمسان البصر» أن الله جعل فيهما من شدة سمهما خاصية يخطفان بها البصر ، ويطمسانه بها بمجرد نظرهما إليه . والقول : بأن معناه أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش ضعيف . والعلم عند الله تعالى .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه : «اقتلوا الحيات» يدل على وجوب قتلها . لما قدمنا من أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تدل على الوجوب .

والجمهور على أن الأمر بذلك القتل المذكور للندب والاستحباب ، والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ على ما ذكرنا أنه الأظهر .

فالمعنى : أن بعض بني آدم عدو لبعضهم . كما قال تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : 65] ونحوها من الآيات . وعلى أن المراد بقوله ﴿ اهبطا ﴾ آدم وإبليس ، فالمعنى أن إبليس وذرّيته أعداء لآدم وذريته . كما قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] ونحوها من الآيات .

والظاهر أن ما ذكره القرطبي : من إحراق الحية بالنار لم يثبت ، وأنه لا ينبغي أن يعذب بعذاب الله ، فلا ينبغ أن تقتل بالنار ، والله أعلم .

(326/503)

فإن قيل : الحديث المذكور يدل على أن ذا الطُّفْيَتين غير الأبتر لعطفه عليه في الحديث ، ورواية البخاري التي قدمنا عن أبي لُبابة : « لا تقتلوا الجنان إلا كل أبتر ذي طفيتين » يقتضي أنهما واحد ؟ فالجواب : أن ابن حجر في الفتح أجاب عن هذا . بأن الرواية المذكورة ظاهرها اتحادهما ، ولكنها لا تنفي المغايرة اه . والظاهر أن مراده بأنها لا تنفي

المغايرة: أن الأبر وإن كان ذا طُفيتين فلا ينافي وجود ذي طفيتين غير الأبتر. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يشقى ﴾ .

الظاهر أن الخطاب لبني آدم. أي فإن يأتكم مني هُدَى أي رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتبع منكم هداي أي من آمن برسلي وصدق بكتبي، وامتثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه على ألسنة رسلي. فإنه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعُروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة لأنه كان في الدنيا عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسله. وهذا المعنى المذكور هنا ذُكر في غير هذا الموضع. كقوله في «البقرة» ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 28] ونحو ذلك من الآيات. وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبوينا من الجنة لا يرد إليها أحداً منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالتكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع الله فيما ابتلاه به. كما تقدمت الإشارة إليه في سورة «البقرة».

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ .

قد قدمنا في سورة «الكهف» في الكلام على قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [الكهف : 57] الآية الآيات الموضحة نتائج الإعراض عن ذكر الله تعالى الوخيمة . فأغنى ذلك عن إعادته هنا . وقد قدمنا هناك أن منها المعيشة الضنك .

واعلم أن الضنك في اللغة : الضيق . ومنه قول عنترة :

إنْ يُلحقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَمُوا . . . أَشْدُد وإن يُلْفَوْا بضَنْكٍ أنزل

وقوله أيضاً :

إن المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلَتْ . . . مثلي إذا نَزَلُوا بضَنْك المنزلِ

وأصل الضنك مصدر وصف به ، فيستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع . وبه تعلم أن معنى قوله ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي عيشاً ضيقاً والعياذ بالله تعالى .

واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة ، لا يكذب بعضها بعضاً . وقد قدمنا مراراً : أن الأولى في مثل ذلك شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة . ومن الأقوال في ذلك : أن معنى ذلك أن الله عزّ وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة ، والتوكل على الله ، والرضا بقسمته فصاحبه ينفق مما رزقه الله بسماح وسهولة ، فيعيش عيشاً هنيئاً . ومما يدل على هذا المعنى من القرآن قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ

استغفروا ربّكُمْ ثُمّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتّعْكُمْ مّتَاعاً حَسَنا إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود : 3] الآية ، كما تقدم إيضاح ذلك كله .

(328/503)

وأما المعرض عن الدين فإنه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك ، وحاله مظلمة .

ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره ، كما قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مّنَ الله ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله ﴾ [البقرة : 61] الآيات . وذلك من العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله . وبين في مواضع أخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله فأطاعوه تعالى أن عيشهم يصير واسعاً رغداً لا ضنكاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ مّن رَّبّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : 66] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مّنَ السمآء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] الآية ، وكقوله تعالى عن نوح : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ [نوح :

12-10]، وقوله تعالى عن هود : ﴿ ويا قوم استغفروا ربّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : 52] الآية، وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَّو استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غدقا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : 16-17] الآية، إلى غير ذلك من الآيات .

وعن الحسن أن المعيشة الضنك : هي طعام الضريع والزَّقُّوم يوم القيامة وذلك مذكور في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله :

(329/503)

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : 6] الآية، وقوله : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان : 43-44] الآية ونحو ذلك من الآيات . وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار : المعيشة الضنك : الكسب الحرام، والعمل السيِّئ . وعن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة : المعيشة الضنك : عذاب القبر وضغطته . وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَيُضِلُّ الله الظالمين وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : 27].

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: قد جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة: أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر. وبعض طرقه بإسناد جيد كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية. ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا. وطعام الضريع والزُّقُّوم. فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة، والعياذ بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى. قال مجاهد وأبو صالح والسدي: أعمى أي لا حجَّة له. وقال عكرمة: عمى عليه كل شيء إلا جهنم. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وقد ذكرنا أمثلة متعددة لذلك. فإذا علمت ذلك فاعلم أن في هذه الآية الكريمة قرينة دالة على خلاف قول مجاهد وأبي صالح والسدي وعكرمة. وأن المراد بقوله ﴿ أعمى ﴾ أي أعمى البصر لا يرى شيئاً. والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ [طه: 125] فصرح بأن عماه هو العمى

المقابل للبصر وهو بصر العين، لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله، وقد زاد جل وعلا في سورة «بني إسرائيل» أنه مع ذلك العمى يحشر أصم أبكم أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء: 97].

تنبيه

في آية «طه» هذه وآية «الإسراء» المذكورتين إشكال معروف. وهو أن يُقال: إنهما قد دلّتا على أن الكافر يُحشَر يوم القيامة أعمى، وزادت آية «الإسراء» أنه يحشر أبكم أصم أيضاً، مع أنه دلت آيات من كتاب الله على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويسمعون ويتكلمون. كقوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: 38] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾

[الكهف: 53] الآية، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ [السجدة: 12] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام

الاضطراب. عن آيات الكتاب) الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول واستظهره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقته. ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألوسي وغيره. وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به. كما أوضحناه في غير هذا الموضع. ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه. ألا ترى أن الله يقول في المنافقين: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة: 18] الآية، مع أنه يقول فيهم: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الخوف سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: 19]، ويقول فيهم: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: 4] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ويقول فيهم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ [البقرة: 20] وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء: فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، ومن ذلك قول قعنب ابن أم صاحب:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكِرت به . . . وإن ذكرت بسوء عندهم أَذنوا

وقول الآخر :

أصمُّ عن الأمر الذي لا أريده . . . وأسمع خلق الله حين أريد

وقول الآخر :

قل ما بدا لك من زور ومن كذب . . . حلمي أصم وأذني غير صماء

(332/503)

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه . وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه ، والرؤية التي لا فائدة فيها .

الوجه الثالث أن الله إذا قال لهم : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج قال تعالى : ﴿ وَوَقَعَ القول بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل : 85] وعلى هذا القول تكون الأحوال الخمسة مقدرة : أعني قوله في « طه » : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124] ، وقوله فيها : ﴿ لِمَ حشرتني أعمى ﴾ [طه : 125] ، وقوله في « الإسراء » : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] ، وأظهرها عندي الأول : والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه: 126] من النسيان بمعنى الترك عمداً كما قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه: 115].

(333/503)

قوله تعالى: ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يجازي المسرفين ذلك الجزاء المذكور. وقد دل مسلك الإيماء والتنبيه على أن ذلك الجزاء لعلة إسرافهم على أنفسهم في الطغيان والمعاصي، وبين في غير هذا الموضع أن جزاء الإسراف النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أَصْحَابُ النار ﴾ [غافر: 43] وبين في موضع آخر: أن محل ذلك إذا لم ينيبوا إلى الله ويتوبوا إليه، وذلك في قوله: ﴿ قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُوا على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [الزمر: 53] إلى قوله: ﴿ وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ﴾ [الزمر: 54] الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن عذاب الآخرة أشد وأبقى. أي أشد ألماً وأدوم من

عذاب الدنيا ، ومن المعيشة الضنك التي هي عذاب القبر . وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد : 34] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت : 16] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 26] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(334/503)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

استئناف بياني ، لأنّ الإخبار عن آدم بالعصيان والغواية يثير في نفس السامع سؤالاً عن جزاء ذلك .

وضمير قالقَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ عائد إلى ﴿ ربه ﴾ [طه : 121] من قوله ﴿ وعصى آدم ربه ﴾ والخطاب لآدم وإبليس .

والأمر في ﴿ اهبطا ﴾ أمر تكوين ، لأنهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض إلاّ بتكوين من الله إذ كان قرارهما في عالم الجنة بتكوينه تعالى .

و﴿ جميعاً ﴾ يظهر أنه اسم لمعنى كل أفرادِ ما يوصف بجميع ، وكأنه اسم مفرد يدل على التعدد مثل : فريق ، ولذلك يستوي فيه المذكر وغيره والواحد وغيره ، قال تعالى : ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ [هود : 55] ونصبه على الحال ، وهو هنا حال من ضمير ﴿ اهبطا .

وجملة بعضكم لبعض عدوٌّ ﴾ حال ثانية من ضمير ﴿ اهْبِطَا ﴾ .

فالمأمور بالهبوط من الجنة آدم وإبليس وأما حواء فتبع لزوجها .

والخطاب في قوله ﴿ بَعْضُكُم ﴾ خطاب لآدم وإبليس .

وخوطبا بضمير الجمع لأنه أريد عداوة نسليهما ، فإنهما أصلان لنوعين نوع الإنسان ونوع الشيطان .

﴾

تفريع جملة فإمّا يأتينكم مني هدى فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنّى هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَاىَ فَلاَ يَضِلّ وَلاَ يشقى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى * قَالَ رَبّ لِمَ حشرتنى أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتنا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم

تنسى ﴿ وكذلك نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بآيات رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الاخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ على الأمر بالهبوط من الجنة إلى الدنيا إنباءٌ بأنهم يستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنة لأنّهم أُودِعوا في عالَم خليط خيره بشرّه، وحقائقه بأوهامه، بعد أن كانوا في عالم الحقائق المحضة والخير الخالص، وفي هذا إنباء بطور طرأ على أصل الإنسان في جبلته كان مُعَدّاً له من أصل تركيبه.

والخطاب في قوله ﴿ يَأْتِيَنّكُم ﴾ لآدم باعتبار أنه أصل لنوع الإنسان إشعاراً له بأنه سيكون منه جماعة، ولا يشمل هذا الخطاب إبليس لأنه مفطور على الشر والضلال إذ قد أنبأه الله بذلك عند إبايته السجود لآدم، فلا يكلفه الله باتباع الهدى، لأن طلب الاهتداء ممن أعلمه الله بأنه لا يزال في ضلال يعد عبثاً ينزه عنه فعل الحكيم تعالى.

وليس هذا مثل أمر أبي جهل وأضرابه بالإسلام إذ أمثال أبي جهل لا يوقَن بأنهم لا يؤمنون، ولم يرد في السنّة أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الشيطان للإسلام ولا دعا الشياطين، وأما الحديث الذي رواه الدارَقطني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجنّ، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي ولكن الله أعانني فأسْلَمَ" فلا يقتضي أنه دعاه للإسلام ولكن الله ألهم قرينه إلى أن يأمره بالخير، والمراد بالقرين: شيطان قرين، والمراد بالهدى: الإرشاد إلى الخير.

وفي هذه الآية وصاية الله آدم وذريته باتباع رسل الله والوحي الإلهي ، وبذلك يعلم أن طلب الهدى مركوز في الجبلة البشرّية حتى قال كثير من علماء الإسلام : إن معرفة الإله الواحد كائنة في العقول أو شائعة في الأجيال والعصور .

وإنه لذلك لم يُعذر أهل الشرك في مُدد الفِتر التي لم تجىء فيها رسل للأمم .

وهذه مسألة عظيمة وقد استوعبها علماء الكلام ، وحررناها في "رسالة النسب النبوي" .

وقد تقدم تفسير نظير الجملتين الأولَيْن في سورة البقرة .

وأما قوله ﴿ فلا يضل ﴾ فمعناه : أنه إذا اتبع الهُدى الوارد من الله على لسان رسله سَلِم من أن يعتريه شيء من ضلال ، وهذا مأخوذ من دلالة الفِعل في حيّز النفي على العموم كعموم النكرة في سياق النفي ، أي فلا يعتريه ضلال في الدنيا ، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله فإنه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحْوال أخرى .

وهذا حال متبعي الشرائع غير الإلهية وهي الشرائع الوضعية فإن واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلب الحق لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غَفلات ، أو تعارض أدلة ، أو انفعال بعادات مستقرة ، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أن من المصلحة طلبَ

مرضاتهم .

وهذا سقراط وهو سيّد حكماء اليونان قد كان يتذرع لإلقاء الأمر بالمعروف في أثينا بأن يفرغه في قوالب حكايات على ألسنة الحيوان ، ولم يسلم من الخنوع لمصانعة اللفيف فإنه مع كونه لا يرى تأليه آلهتهم لم يسلم من أن يأمر قبل موته بقربان ديك لعطارد ربّ الحكمة .

وحالهم بخلاف حال الرسل الذين يتلقون الوحي من علاّم الغيوب الذي لا يضل ولا ينسى ، وأيدهم الله ، وعصمهم من مصانعة أهل الأهواء ، وكوّنهم تكويناً خاصاً مناسباً لما سبق في علمه من مراده منهم ، وثبت قلوبهم على تحمل اللأواء ، ولا يخافون في الله لومة لائم .

وإن الذي ينظر في القوانين الوضعية نظرة حكيم يجدها مشتملة على مراعاة أوهام وعادات .

(337/503)

والشقاء المنفي في قوله ﴿ ولا يشقى هو شقاء الآخرة لأنه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة .

ويدل لهذا مقابلة ضده في قوله ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ، إذ رتب على الإعراض عن هدي الله اختلال حَاله في الدنيا والآخرة ،

فالمعيشة مراد بها مدة المعيشة ، أي مدّة الحياة .

والضنك : مصدر ضَنُك ، من باب كَرُم ضناكة وضنكاً ، ولكونه مصدراً لم يتغيّر لفظه باختلاف موصوفه ، فوصف به هنا ﴿ معيشة وهي مؤنث .

والضنك : الضيق ، يقال : مكان ضنك ، أي ضيق .

ويستعمل مجازاً في عسر الأمور في الحياة ، قال عنترة:

إن يلحقوا أكْرُر وإن يستلحموا . . .

أشدد وإن نَزلوا بضَنْك أنْزِلِ

أي بمنزل ضنك ، أي فيه عسر على نازله .

وهو هنا بمعنى عسر الحال من اضطراب البال وتبلبله .

والمعنى : أن مجامع همه ومطامح نظره تكون إلى التحيل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه ، فهو متهالك على الازدياد خائف على الانتقاص غير ملتفت إلى الكمالات ولا مأنوس بما يسعى إليه من الفضائل ، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر ، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكن نفسَه غير مطمئنة .

وجعل الله عقابه يوم الحشر أن يكون أعمى تمثيلاً لحالته الحسية يومئذ بحالته المعنوية في الدنيا ، وهي حالة عدم النظر في وسائل الهدى والنجاة .

وذلك العمى عنوان على غضب الله عليه وإقصائه عن رحمته ، فأعمى الأول مجاز وأعمى

الثاني حقيقة .

وجملة قال رب لم حشرتني أعمى ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

وجملة ﴿ قال كذلك أتتك ﴾ الخ واقعة في طريق المحاورة فلذلك فصلت ولم تعطف .

وفي هذه الآية دليل على أنّ الله أبلغ الإنسان من يوم نشأته التحذير من الضلال والشرك ، فكان ذلك مستقراً في الفطرة حتى قال كثير من علماء الإسلام : بأن الإشراك بالله من الأمم التي يكون في الفترين الشرائع مستحق صاحبه العقاب ، وقال جماعة من أهل السنّة والمعتزلة قاطبة : إنّ معرفة الله واجبة بالعقل ، ولا شك أنّ المقصود من ذكرها في القرآن تنبيه المخاطبين بالقرآن إلى الحذر من الإعراض عن ذكر الله ، وإنذار لهم بعاقبة مثل حالهم .

والإشارة في ﴿ كذلك أتتك آياتنا ﴾ راجعة إلى العمى المضمن في قوله ﴿ لم حشرتني أعمى ﴾ ، أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها كنت نسيت آياتنا حين أتتك ، وكنت تُعرض عن النظر في الآيات حين تُدعى إليه فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاءً وفاقاً .

وقد ظهر من نظم الآية أن فيها ثلاثة احتباكات، وأن تقدير الأول: ونحشره يوم القيامة أعمى ونَنْساه، أي نُقصيه من رحمتنا.

وتقدير الثاني والثالث: قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وعميتَ عنها فكذلك اليوم تنسى وتُحْشَرَ أعمى.

والنسيان في الموضعين مستعمل كناية أو استعارة في الحرمان من حظوظ الرحمة.

وجملة ﴿ وكذلك نجزي من أسرف ﴾ الخ تذييل، يجوز أن تكون من حكاية ما يخاطب الله به من يحشر يوم القيامة أعمى قصد منها التوبيخ له والتنكيل، فالواوُ عاطفةٌ الجملةَ على التي قبلها.

ويجوز أن تكون تذييلاً للقصّة وليست من الخطاب المخاطب به من يحشر يوم القيامة أعمى قصد منها موعظة السامعين ليحذروا من أن يصيروا إلى مثل ذلك المصير.

فالواو اعتراضية لأن التذييل اعتراض في آخر الكلام، والواو الاعتراضية راجعة إلى الواو العاطفة إلاّ أنها عاطفة مجموع كلام على مجموع كلام آخر لا على بعض الكلام المعطوف عليه.

والمعنى: ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف، أي كفر ولم يؤمن بآيات ربّه.

فالإسراف: الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات ومكابرتها وتكذيبهما.

والمشار إليه بقوله ﴿ وكذلك ﴾ هو مضمون قوله ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ ، أي وكذلك نجزي في الدنيا الذين أسرفوا ولم يؤمنوا بالآيات .

وأعقبه بقوله ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ ، وهذا يجوز أن يكون تذييلاً للقصة وليس من حكاية خطاب الله للذي حشره يوم القيامة أعمى .

فالمراد بعذاب الآخرة مقابل عذاب الدنيا المفاد من قوله ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ الآية ، والواو اعتراضية .

ويجوز أن تكون الجملة من حكاية خطاب الله للذي يحشره أعمى ، فالمراد بعذاب الآخرة العذاب الذي وقع فيه المخاطب ، أي أشد من عذاب الدنيا وأبقى منه لأنّه أطول مدة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

أي : اهبطا إلى الأرض وامضوا فيها على ضوء التجربة الماضية ، واعلما أن هناك أمراً

ونهياً وعدواً يوسوس ويُزيِّن ويُغوِي حتى يظهر عوراتكم ، وكأنه عز وجل يعطي آدم المناعة الكافية له ولذريته من بعده لتستقيم لهم حركة الحياة في ظل التكاليف ؛ لأن التكاليف إما أمر وإما نهي ، والشيطان هو الذي يفسد علينا هذه التكاليف .

ومع ذلك لا ننسى طَرَفاً آخر هو النفس الأمّارة التي تُحرِّك نحو المعصية والمخالفة . إذن : ليس عدوك الشيطان فحسب فتجعله شماعة تُعلِّق عليها كل معاصيك ، فهناك مَعَاصٍ لا يدخل عليك الشيطان بها إلا عن طريق النفس ، وإلا إبليس لما غوى ؟ مَنْ أغواه ؟ ومَنْ وسوس له ؟

وقوله : ﴿ اهبطا ﴾ [طه : 123] بصيغة التثنية أمر لاثنين : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فقوله : ﴿ اهبطا ﴾ [طه : 123] إشارة إلى الأصل ، وقوله في موضع آخر : ﴿ اهبطوا ﴾ [البقرة : 38] إشارة إلى ما يتفرّع عن هذا الأصل .

وقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : 36] أي : بعض عدو للبعض الآخر ، وكلمة (بعض) لها دَوْر كبير في القرآن ، والمراد : أنت عدو الشيطان إنْ كنتَ طائعاً ، والشيطان عدوك إنْ كنتَ طائعاً . فإنْ كنتَ عاصياً فلا عداوة إذن ؛ لأن الشيطان يريدك عاصياً . وحين لا يُعيِّن البعض تكون العداوة متبادلة ، فالبعض شائع في الجميع .

كما في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة

الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف : 32] فمَن المرفوع؟ ومَنْ المرفوع عليه؟ أصحاب النظرة السطحية يفهمون أن الغنيّ مرفوع على الفقير .

والمعنى أوسع من هذا بكثير ، فكُلُّ الخَلْق بالنسبة للحق سبحانه سواء ، ومهمات الحياة تحتاج قدرات كثيرة ومواهب متعددة ؛ لذلك لا تجتمع المواهب في شخص ، ويُحرم منها آخر ، بل ينشر الخالق عز وجل المواهب بين خَلْقه ، فهذا ماهر في شيء ، وذاك ماهر في شيء آخر ، وهكذا ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، ويتم الربْط بين أفراد المجتمع ، ويحدث بينهما الانسجام اللازم لحركة الحياة .

إذن : كُلُّ بعض في الوجود مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ، فليكُنْ الإنسان مُؤدَّبًا في حركة حياته لا يتعالى على غيره لأنه نبغ في شيء ، ولينظر إلى ما نبغ فيه الآخرون ، وإلى ما تميَّزوا به حتى لا يسخَر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ، وربما لديهم من المواهب ما لم يتوفّر لك .

لكن ما دام بعضكم لبعض عدواً أي : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فَمنْ سيكون . الحكَم؟ الحكَم بينهما منهج الله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ [طه :

123] فإياكم أنْ تجعلوا الهدى من عندكم ؛ لأن الهدى إنْ كان من عندكم فلن ينفع ولن يفلح .

﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] فكأن هدى الله ومنهجه هو (كتالوج) سلامة الإنسان وقانون صيانته . ألاَ ترى الصانع من البشر حين يرفق بصنعته (كتالوجاً) يضم تعليمات عن تشغيلها وصيانتها ، فإن اتبعتَ هذه التعليمات خدمتْك هذه الآلة وأدّتْ لك مهمتها دون تعطّل .

وكما أن هذا (الكتالوج) لا يضعه إلا صانع الآلة ، فكذلك الخالق عز وجل لا يضع لخَلْقه قانونهم وهَدْيهم إلا هو سبحانه ، فإنْ وضعه آخر فهذا افتئات على الله عز وجل ، وكما لو ذهبتَ إلى الجزار تقول له : ضَعْ لي التعليمات اللازمة لصيانة (الميكروفون) ! !

(342/503)

إذن : الفساد في الكون يحدث حينما نخرج عن منهج الله ، ونعتدى على قانونه وتشريعه ، ونرتضي بهَدْي غير هَدْيه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [طه : 123] فإنْ كانت هذه نتيجة مَنِ اتبع هدى الله وعاقبة السير على منهجه تعالى ، فما عاقبة مَنْ أعرض عنه ؟ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾

والإعراض : هو الانصراف ، وأن تعطيه عَرْض أكتافك كما ذكرنا من قبل .

وقوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ [طه : 124] الضنْك هو الضيق الشديد الذي تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضَّنْك هذه تأتي مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بإله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ؛ لأنه يعلم أن له ربّاً يُخرِجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيف به الأسباب وتُعجِزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر . المؤمن يقول : لي ربٌّ يرزقني ويُفرِّج كَرْبي ، كما يقول عز وجل : ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] .

لذلك يقولون : لا كَرْب وأنت ربٌّ ، وإذا كان الولد لا يحمل هَمّاً في وجود أبيه فله أبٌ يكفيه متاعب الحياة ومشاقها ، فلا يدري بأزمات ولا غلاء أسعار ، ولا يحمل هَمَّ شيء ، فما بالك بمَنْ له ربٌّ ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً ولله المثل الأعلى ، قلنا : هَبْ أن معك جنيهاً ثم سقط من جيبك ، أو ضاع منك فسوف تحزن عليه إنْ لم يكُنْ معك غيره ، فإنْ كان معك غيره فلن تحزن عليه ، فإن كان لديك حساب في البنك فكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا المؤمن لديه في إيمانه بربه الرصيد الأعلى الذي يُعوِّضه عن كل شيء .

والحق تبارك وتعالى أعطانا مثالاً لهذا الرصيد الإيماني في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حينما حُوصِر موسى وقومه بين البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم، وأيقن القوم أنهم مُدْركون، ماذا قال نبي الله موسى؟

قال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 62] هكذا بملْء فيه يقولها قَوْلَة الواثق مع أنها قَوْلة يمكن أن تكذب بعد لحظات، لكنه الإيمان الذي تطمئن به القلوب، والرصيد الذي يثق فيه كُلُّ مؤمن.

إذن: مَنْ آمن بالله واتبع هُداه فلن يكون أبداً في ضَنْكٍ أو شِدَّة، فإنْ نزلت به شِدَّة فلن تُخرِج عَزْمه عن الرضى، واللجوء إلى ربه.

ومن آيات الإعجاز القرآني في مسألة الضيق، قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآءِ ﴾ [الأنعام: 125].

فمن أين عرف محمد صلى الله عليه وسلم أن مَنْ يصعِّد في السماء يضيق صدره؟ وهل صَعَد أحد إلى السماء في هذا الوقت وجرَّب هذه المسألة؟ ومعنى ضيق الصدر أن حيِّز الرئة التي هي آلة التنفس يضيق بمرض أو مجهود زائد أو غيره، ألاَ ترى أنك لو صعدت سُلَّماً مرتفعاً تنهج، معنى ذلك أن الرئة وهي خزينة الهواء لا تجد الهواء الكافي الذي يتناسب

والحركة المبذولة ، وعندها تزداد حركة التنفس لتُعوّض نَقْص الهواء .

والآن وبعد غزو الفضاء عرفنا مسألة ضيق التنفّس في طبقات الجو العليا مما يضطرهم إلى أخذ أنابيب الأكسجين وغيرها من آلات التنفس .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) ﴾

وكلمة ﴿ أعمى ﴾ [طه : 125] جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 72] .

(344/503)

والمراد بالعَمَى ألاَّ تُدرِكَ المبصَرات ، وقد توجد المبصَرات ولا تتجه لها بالرؤية ، فكأنك أعمى لا ترى ، وكذلك المعرِض عن الآيات الذي لا يتأملها ، فهو أعمى لا يراها .

لذلك في الآخرة يقول تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] فساعةَ يُبعَث الكافرون يُفزَّعون بالبعث الذي كانوا ينكرونه ويضطربون اضطراباً ، يحاول كل منهم أن يرى منفذاً وطريقاً للنجاة ، ولكن هيهات ، فقد سلبهم الله منافذ الإدراك كلها ، وسَدَّ في وجوههم كل طرق النجاة ، والإنسان يهتدي إلى طريقه بذاته وبعيونه ، فإنْ كان أعمى أمكنه أنْ ينادي على مَنْ يأخذ بيده ، فإنْ كان أيضاً

أبكم ، فلربما سمع مَنْ يناديه ويُحذره ويدله ، فإنْ كان أصمّ لا يسمع ؟

إذن : سُدَّتْ أمامه كل وسائل النجاة ، فهو أعمى لا يبصر النجاة بذاته ، وأبكم لا يستطيع أنْ يستغيث بمَنْ ينقذه ، وهو أيضاً أصمّ لا يسمع مَنْ يتطوع بإرشاده أو تحذيره .

وقد وجد كثير من المشككين في هذه الآية شيئاً ظاهرياً يطعنون به على أسلوب القرآن ، حيث يقول هنا : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى ﴾ [طه : 125] وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف : 53] فنفى عنهم الرؤية في آية ، وأثبتها لهم في آية أخرى .

وفاتَ هؤلاء المتمحّكين أن الإنسانَ بعد البعث يمرّ بمراحل عِدَّة : فساعةَ يُحشرون من قبورهم يكونون عُمْياً حتى لا يهتدوا إلى طريق النجاة ، لكن بعد ذلك يُريهم الله بإيلام آخر ما يتعذبون به من النار .

وهذا الذي حاق بهم كِفَاءٌ لما صنعوه ، فقد قدَّموا هم العمى والصمم والبكم في الدنيا ، فلما دعاهم الرسول إلى الله صَمُّوا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) ﴾

أي : نعاملك كما عاملتنا ، فننساك كما نسيت آياتنا .

والآيات جمع آية ، وهي الأمر العجيب ، وتُطلق على الآيات الكونية التي تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتُطلَق على المعجزات التي تؤيد الرسل ، وتثبت صِدْق بلاغهم عن الله ، وإنْ كانت الآيات الكونية تُلفِت إلى قدرة الخالق عز وجل وحكمته ، فالرسول هو الذي يدلُّ الناس على هذه القوة ، وعلى صاحب هذه الحكمة والقدرة التي يبحث عنها العقل .

أيها المؤمنون هذه القوة هي الله ، والله يريد منك كذا وكذا ، فإنْ أطعتَه فَلَكَ من الأجر كذا وكذا ، وإنْ عصيتَه فعقابك كذا وكذا ، ثم يؤيد الرسول بالمعجزات التي تدلُّ على صِدْقه في البلاغ عن ربه .

وتُطلَق الآيات على آيات الكتاب الحاملة للأحكام وللمنهج .

وأنت كذَّبْتَ بكل هذه الآيات ولم تلتفت إليها ، فلما نسيت آيات الله كان جزاءَك النسيان جزاءً وفَاقاً . والنسيان هنا يعني الترك ، وإلا فالنسيان الذي يقابله الذكر مُعْفىً عنه ومعذور صاحبه .

أما قوله : ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 126] أي تُنسَى في النعيم وفي الجنة ، لكنك لا تُنسى في العقاب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ [طه : 127] أي : مثل هذا الجزاء ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾

[طه : 127] والإسراف : تجاوز الحدِّ في الأمر الذي له حَدٌّ معقول ، فالأَكْل مثلاً جعله الله لاستبقاء الحياة ، فإنْ زاد عن هذا الحدِّ فهو إسراف .

دَخْلك الذي يسَّره الله لك يجب أن تنفق منه في حدود ، ثم تدَّخر الباقي لترقى به في الحياة ، فإنْ أنفقتَه كله فقد أسرفْتَ ، ولن تتمكن من أن ترقِّي نفسك في ترف الحياة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين ﴾ [الإسراء : 27] .

(346/503)

وللإسلام نظرته الواعية في الاقتصاديات ، فالحق يريد منك أنْ تنفق ، ويريد منك ألاَّ تُسرِف وبين هذين الحدَّيْن تسير دَفّة المجتمع ، ويدور دولاب الحياة ، فإنْ بالغتَ في حَدٍّ منهما تعطلتْ حركة الحياة ، وارتبك المجتمع وبارت السلع .

وقد أوضح الحق سبحانه هذه النظرة في قوله : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] .

فربُّك يريد منك أنْ تجمع بين الأمرين ؛ لأن التقتير والإمساك يُعطِّل حركة الحياة ، والإسراف يُجمِّد الحياة ويحرمك من الترقي ، والأخذ بأسباب الترف ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ

مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء : 29] .

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى : فربُّك عز وجل خلقك ، وخلق لك مُقوِّمات حياتك ، وحدَّد لك الحلال والحرام ، فإذا حاولتَ أنت أنْ تزيد في جانب الحلال مما حرمه الله عليك ، فهذا إسراف منك ، وتجاوز للحدِّ الذي حَدَّه لك ربك ، وتجاوزتَ فيما أحلَّ لك ، وفيما حرَّم عليك .

وقد يأتي الإسراف من ناحية أخرى : فالشيء في ذاته قد يكون حلالاً ، لكن أنت تأخذه من غير حِلّة .

فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن الله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّمَ أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شيء أحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ [الأعراف : 32] .

وخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ [التحريم : 1] .

إذن : فربّك لا يُضيّق عليك ، وينهاك أنْ تُضيِّق على نفسك وتُحرِّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أنْ تُحلِّل ما حرَّم عليك لأن ذلك في صالحك .

وكما يكون الإسراف في الطعام والشراب وهما من مُقوِّمات استبقاء الحياة، يكون كذلك في استبقاء النوع بالزواج والتناسل، إلى أنْ تقوم الساعة، فجعل الحق سبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال، فمَنْ تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف.

ومن رحمته تعالى أنه يغفر لمنْ أسرف على نفسه شريطةَ أن يكون مؤمناً: ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [الزمر: 53].

وقوله تعالى: ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ [طه: 127] فأنزل الإسراف منزلةَ تالية لعدم الإيمان؛ لذلك قال بعدها: ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّه ﴾ [طه: 127] لأنه حين ينقل الحلال إلى الحرام، أو الحرام إلى الحلال، فكأنه عطّل آيات الله.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ [طه: 127] إذن: فالكلام هنا عن الدنيا، فلا تظن أن الله يُؤخِّر للكافر كُلَّ العذاب، فهناك أشياء تُعجِّل له في الدنيا لا تُؤخَّر.

وأول مَا لا يُؤخّر ويُعجل الله به في الدنيا عقوبة الظلم، فلا يمكن أنْ يموتَ الظالم قبل أن يرى المظلوم ما صنعه الله به، وإلاّ فالذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالجزاء كانوا فجروا في الخَلْق وَعاثُوا في الأرض، فمن حكمة الله أن نرى لكل ظالم مصرعاً حتى تستقيم حركة الحياة، ولو لم يكُنْ الإنسان مؤمناً.

والحق سبحانه حين يريد أنْ يُعذِّب يتناسب تعذيبه مع قدرته تعالى، كما أن ضربة الطفل

غير ضربة الشاب القوي . إذن : مَا يناله من عذاب في الحياة هين لأنه من الناس ، أمّا عذاب الآخرة فشيء آخر ؛ لأنه عذاب من الله يتناسب مع قدرته تعالى .

(348/503)

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ [طه : 127] أَبْقَى ؛ لأن عذاب الدنيا ينتهي بالموت ، أو بأن يرضى عنك المعذِّب ويرحمك ، وقد يتوسط لك أحد فيزيل عنك العذاب ، أمّا في الآخرة فلا شيء من ذلك ، ولا مفرّ من العذاب ولا مَلْجأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(349/503)

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾

لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده اخبر عن حال من اعرض عنه

ولم يتبعه فقال ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا أي عن الذكر الذي انزلته فالذكر هنا مصدر مضاف الى الفاعل كقيامي وقراءتي لا الى المفعول وليس المعنى ومن اعرض عن ان يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره واحسن من هذا الوجه ان يقال الذكر هنا مضاف إضافة الاسماء لا إضافة المصادر الى معمولاتها والمعنى ومن اعرض عن كتابي ولم يتبعه فإن القرآن يسمى ذكرا قال تعالى وهذا ذكر مبارك انزلناه وقال تعالى ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم وقال تعالى وما هو الا ذكر للعالمين وقال تعالى إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز وقال تعالى إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن وعلى هذا فاضافته كاضافة الاسماء الجوامد التي لا يقصد بها اضافة العامل الى معموله ونظيره في اضافة اسم الفاعل غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب فإن هذه الاضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم وكذلك جرت أوصافا على اعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير

فصل وقوله تعالى فإن له معيشة ضنكا فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر وجعلوا هذه الاية احد الادلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى أي تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون النار يعرضون عليها غدوا وعشيا فهذا في البرزخ ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب فهذا في القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت ونظيره قوله تعالى ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق فهذه الاذاقة هي في البرزخ واولها حين الوفاة فإنه معطوف على قوله يضربون وجوههم وأدبارهم وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره وكلاهما واقع وقت الوفاة وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنه في قوله تعالى يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة قال نزلت في عذاب القبر والاحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر والمقصود ان الله سبحانه اخبر ان من

اعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى فإن له معيشة ضنكا وتكفل لمن حفظ

عهده ان يحييه حياة طيبة ويجزيه اجره في الاخرة فقال تعالى من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون فاخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علما وعملا في العاجلة بالحياة الطيبة وفي الاخرة باحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالاخرة وقال سبحانه ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون فأخبر سبحانه ان من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب اعراضه وعشوه عن ذكره الذي انزله على رسوله فكان عقوبة هذا الاعراض ان قيض له شيطانا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب انه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وافلاسه قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين وكل من اعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد ان يقول هذا يوم القيامة فإن قيل فهل لهذا عذر في ضلالة إذا كان يحسب انه على هدى كما

قال تعالى ويحسبون انهم مهتدون قيل لا عذر لهذا وامثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الاعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن انه مهتد فإنه مفرط باعراضه عن اتباع داعي الهدى فإذا ضل فإنما اتى من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول اليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن إنما يتناول الاول واما الثاني فإن الله لا يعذب احدا إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال تعالى في اهل النار وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين وقال تعالى ان تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين او تقول حين ترى العذاب لو ان لي

كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين وهذا كثير في القرآن

فصل وقوله تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا

اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة او من عمى البصر والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله اسمع بهم وابصر يوم يا توننا وقوله لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقوله يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين وقوله لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية

(353/503)

في الاخرة كقوله تعالى وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقوله يوم يدعون الى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون افسحر هذا ام انتم لا تبصرون وقوله رأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها والذين رجحوا انه منعمى البصر قالوا السياق لا يدل الا عليه لقوله قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا وهو لم يكن بصيرا في كفره قط بل قد تبين له حينئذ انه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيرا وكيف يجاب بقوله كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى بل هذا الجواب فيه تنبيه على انه من عمى البصر وانه جوزي من جنس عمله فإنه لما اعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا فجازاه على عمى بصيرته عمى في الاخرة وعلى تركه ذكره

تركه في العذاب وقال تعالى ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وقد قيل في هذه الاية ايضا انهم عمي وبكم وصم عن الهدى كما قيل في قوله ونحشره يوم القيامة اعمى قالوا لانهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصرانه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه ولهذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لا يرون شيئًا يسرهم وقال آخرون هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم الى الموقف قاموا كذلك ثم انهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروى عن الحسن وقال آخرون هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الاسماع والابصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عميا بكما صما لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ولا يسمع منهم الا الزفير

والشهيق وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم انهم لا حجة لهم ولم يريدوا ان لهم حجة هم عمى عنها بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الاخر وانه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ويقر بما كان يجحده في الدنيا فليس هو اعمى عن الحق يومئذ وفصل الخطاب ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به تارة الحشر الى موقف القيامة كقوله النبي صلى الله عليه وسلم انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا وكقوله تعالى وإذا الوحوش حشرت وكقوله تعالى وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر فحشر المتقين جمعهم وضمهم الى الجنة وحشر الكافرين جمعهم وضمهم الى النار قال تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقال تعالى احشروا الذين ظلموا أزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم فهذا الحشر هو بعد حشرهم الى الموقف وهو حشرهم وضمهم الى النار لانه قد اخبر عنهم انهم قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ثم قال تعالى احشروا الذين ظلموا وازواجهم وهذا الحشر الثاني وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف الى النار فعند الحشر الاول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه

بعضا ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 1 صـ 42 . 46 ﴾

(355/503)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

أخرج الطبراني والخطيب في المتفق والمفترق وابن مردويه عن أبي الطفيل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ فمن اتبع هداي ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اتبع كتاب الله ، هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة " وذلك أن الله يقول : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق ، عن ابن

عباس قال : أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة . ثم قرأ : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ قال : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدد في مسنده ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في كتاب عذاب القبر ، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قوله : ﴿ معيشة ضنكا ﴾ قال : عذاب القبر . ولفظ عبد الرزاق قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . ولفظ ابن أبي حاتم عن ضمة القبر .

وأخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : إن المعيشة الضنك : أن يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً تنهشه في القبر .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم عن أبي هريرة ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : المعيشة الضنك التي قال الله : " إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية تنهش لحمه حتى تقوم الساعة " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم من وجه آخر ، عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : " عذاب القبر " " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن في قبره في روضة خضراء ، ويرحب له قبره سبعين ذراعاً ، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر . . . هل تدرون فيما أنزلت ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : عذاب الكافر في قبره ، يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً . . . هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون " .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في كتاب عذاب القبر ، عن ابن مسعود قال : إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديق ذلك من كتاب الله ، إن المؤمن إذا وضع في قبره أجلس فيه فيقال له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيثبته الله فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم .

فيوسع له في قبره ويروّح له فيه . ثم قرأ عبد الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري . قال : فيضيق عليه قبره ويعذب فيه . ثم قرأ : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : الشقاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : شدة عليه في النار .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : الضنك ، الشديد من كل وجه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

والخيل قد لحقت بنا في مارق . . . ضنك نواحيه شديد المقدم

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي ، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : عذاب القبر .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن مسعود مثله .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن أبي صالح والربيع مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الحسن قال : المعيشة الضنك ، خصم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : يقول : كل مال أعطيته عبداً من عبادي قلّ أو كثر لا يطيعني فيه فلا خير فيه ، وهو الضنك في المعيشة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : ضيقة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : الضنك ، من المعيشة إذا وسع الله على عبده أن يجعل معيشته من الحرام ، فيجعله الله عليه ضيقاً في نار جهنم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينار في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : يحول الله رزقه في الحرام ، فلا يطعمه إلا حراماً حتى يموت فيعذ به عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : العمل السيء والرزق الخبيث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال : في النار شوك وزقوم وغسلين والضريع ، وليس في القبر ولا في الدنيا معيشة ، ما المعيشة والحياة إلا في الآخرة .

وأخرج البيهقي عن مجاهد ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ ضيقة يضيق عليه قبره .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : رزقاً ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال : عن الحجة ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ قال : في الدنيا ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها

وكذلك اليوم تنسى ﴾ قال : تترك في النار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال : ليس له حجة .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة في قوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال : عمي عليه كل شيء إلا جهنم . وفي لفظ قال : لا يبصر إلا النار .

(358/503)

وأخرج هناد عن مجاهد في قوله : ﴿ لم حشرتني أعمى ﴾ قال : لا حجة له .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ يقول : تركتها أن تعمل بها . ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ قال : في النار . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(359/503)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

قوله : ﴿ ضَنكا ﴾ : صفةٌ لـ " معيشة " ، وأصلُه المصدرُ فلذلك لم يُؤَنَّثْ . ويقع للمفردِ والمثنى والمجموعِ بلفظٍ واحدٍ .

وقرأ الجمهورُ " ضَنْكاً " بالتنوينِ وَصْلاً وإبدالِه ألفاً وقفاً كسائِرِ المعربات . وقرأتْ فرقةٌ قوله : " ضنكى " بألفٍ كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان ، أحدهما : أنها بدلٌ من التنوين ، وإنما أجرى الوصلَ مجرى الوقف كنظائرَ له مرَّتْ . وسيأتي منها بقيةٌ إن شاء الله تعالى . والثاني : أن تكونَ ألفَ التأنيث ، بُني المصدرُ على فَعْلى نحو دعوى .

والضَّنْكُ : الضِّيقُ والشِّدة . يُقال منه : ضَنُكَ عيشُه يَضنُك ضَنَاكة وضَنْكاً . وامرأة ضِناك كثيرةُ لحمِ البدنِ ، كأنهم تخيَّلوا ضِيْقَ جِلْدِها به .

وقرأ العامَّةُ " ونَحْشُرُه " بالنونِ ورَفْعِ الفعلِ على الاستئناف . وقرأ أبانُ ابن تغلب في آخرين بتسكينِ الراءِ . وهي محتملةٌ لوجهين ، أحدُهما : أن يكونَ الفعلُ مجزوماً نَسَقاً على مَحَلِّ جزاء الشرط ، وهو الجملةُ مِنْ قوله ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ﴾ فإنَّ محلَّها الجزمُ ، فه كقراءةِ ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُمْ ﴾ [الأعراف : 186] بتسكين الراء . والثاني : أَنْ يكونَ السكونُ سكونَ تخفيفٍ نحو ﴿ يَأْمُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 67] وبابِه .

وقرأ فرقةٌ بياءِ الغَيْبة وهو اللهُ تعالى أو المَلَك . وأبان بن تغلب في رواية " ونَحْشُرْه " بسكونِ الهاء وصلاً . وتخريجُها : إمَّا على لغةِ بني عقيل وبني كلاب ، وإمَّا على إجراء الوصل مُجرى الوقف . و" أعمى " نصب على الحال .

قوله : ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ :

جملةٌ حالية من مفعولِ " حَشَرْتني " . وفَتَح الياءَ مِنْ " حَشَرْتني " قبل الهمزة نافعٌ وابن كثير .

(360/503)

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) ﴾

قوله : ﴿ كذلك أَتَتْكَ ﴾ : قال أبو البقاء : / " كذلك " في موضع نصبٍ أي : حَشْراً مثلَ ذلك ، أو فَعَلْنا مثلَ ذلك ، أو إتياناً مثلَ ذلك ، أو جزاءً مثلَ إعراضِك أو نِسْياناً " . وهذه الأوجهُ التي قالها تكون الكافُ في بعضها نصباً على المصدر ، وفي بعضها نَصْباً على المفعول به . ولم يذكر الزمخشريُّ فيه غيرَ المفعول به فقال : " أي : مثلَ ذلك فَعَلْتَ أنت ، ثم فُسِّر بأنَّ آياتِنا أَتَتْك واضحةً مستنيرةً فلم تنظر إليها بعينِ المُعْتَبِر " .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ :

أي : ومثل ذلك الجزاءِ نَجْزي مَنْ أسرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 117.115 ﴾

(361/503)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ، وقد توالت المحنُ على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان ، ومفارقة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ . . . ﴾ وتركَ هواه ، ولم يعمل بوسوسة العدوّ فله كُلُّ خير ، ولا يلحقه ضَيْر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ .

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا ، وفي القبر ، وفي النار ، وبالقلب من حيث وحشة الكفر ، وبالوقتِ من حيث انغلاق الأمور .

ويقال مَنْ أعرض عن الانخراط في قضايا الوفاق انثالت عليه فنون الخذلان، ومن أعرض عن استدامة ذكره - سبحانه - بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ.

ومَنْ أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النَّفس بما يوجِب له وحشةَ الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط.

ويقال مَنْ أعرض عن ذِكْرِ الله في الخلوةِ قيَّضَ اللَّهُ له في الظاهر من القرينِ السوءِ ما توجِبُ رؤيتُه له قَبْضَ القلوب واستيلاءَ الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾.

في الخبر: "مَنْ كان بحالةٍ لَقِيَ اللَّهِ بها" فَمَنْ كان في الدنيا أعمى القلب يُحْشَرُ على حالته، ومَنْ يَعِشْ على جهلٍ يحشر على جهل، ولذا يقولون: ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾؟ [يس: 52] إلى أَنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً.

وكما يَتْرُكُون - اليومَ - التَّدبُّرَ في آياته يُتْرَكُون غداً في العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) ﴾

جَرَتْ سُنَّتُه بأَنْ يُجازِيَ كُلاًّ بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسه سيلقى غِبَّه ؛ على الخبر خيرا ، وعلى الشرِّ شَرّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 485 . 486 ﴾

(363/503)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 128 ﴾ من سورة طه

وحتى الآية ﴿ 135 ﴾ آخر السورة الكريمة

قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما مضى من هذه السورة وما قبلها من ذكر مصارع الأقدمين ، وأحاديث المكذبين ، بسبب العصيان على الرسل ، سبباً عظيماً للاستبصار والبيان ، كانوا أهلاً لأن ينكر عليهم لزومهم لعماهم فقال تعالى : ﴿ أفلم يهد ﴾ أي يبين ﴿ لهم كم أهلكنا قبلهم ﴾ اي كثرة إهلاكنا لمن تقدمهم ﴿ من القرون ﴾ بتكذيبهم لرسلنا ، حال كونهم ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ ويعرفون خبرهم بالتوارث خلفاً عن سلف أنا ننصر أولياءنا ونهلك أعدائنا ونفعل ما شئنا ! والأحسن أن لا يقدر مفعول ، ويكون المعنى : أو لم يقع لهم البيان الهادي ، ويكون ما بعده استئنافاً عيناً كما وقع البيان بقوله استئنافاً : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الإهلاك العظيم الشأن المتوالي في كل أمة ﴿ لآيات ﴾ عظيمات البيان ﴿ لأولي النهى ﴾ أي العقول التي من شأنها النهي عما لا ينفع فضلاً عما يضر ، فإنها تدل بتواليها على قدرة الفاعل ، وبتخصيص الكافر بالهلاك والمؤمن بالنجاة على تمام العلم مع عموم القدرة ، وعلى أنه تعالى لا يقر على الفساد وإن أمهل - إلى غير ذلك ممن له وازع من عقله .

ولما هددهم بإهلاك الماضين ، ذكر سبب التأخير عنهم ، عاطفاً على ما أرشد إلى تقديره السياق ، وهو مثل أن يقال : فلو أراد سبحانه لعجل عذابهم : ﴿ ولولا كلمة ﴾ أي عظيمة ماضية نافذة ﴿ سبقت ﴾ أي في الأزل ﴿ من ربك ﴾ الذي عودك بالإحسان بأنه يعامل بالحلم والأناة ، وأنه لا يستأصل مكذبيك ، بل يمد لهم ، ليرد من شاء منهم ويخرج من أصلاب بعضهم من يعبده ، وإنما ذلك إكراماً لك رحمة لأمتك لأنا كما قلنا أول السورة ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ بإهلاكهم وإن كانوا قوماً لداً ، ولا بغير ذلك ، وما أنزلناه إلا لتكثر أتباعك ، فيعملوا الخيرات ، فيكون ذلك زيادة في شرفك ، وإلى ذلك الإشارة بقوله - صلى الله عليه وسلم - " وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً " ﴿ لكان ﴾ أي العذاب ﴿ لزاماً ﴾ أي لازماً أعظم لزوم لكل من أذنب عند أول ذنب يقع منه لشرفك عنده وقربك لديه ﴿ و ﴾ لولا ﴿ أجل مسمى ﴾ ضربه لكل شيء لكان الأمر كذلك أيضاً ، لكنه سبقت رحمته غضبه فهو لا يعجل ، وضرب الأجل فهو لا يأخذ قبله ، وكل من سبق الكلمة وتسمية الأجل مستقل بالإمهال فكيف إذا اجتمعا ، فتسبب عن العلم بأنه لا بد من استيفاء الأجل وإن زاد العاصي في العصيان تسليم الأمور إلى الله وعدم القلق في انتظار الفرج فقال : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ لك من الاستهزاء وغيره .

ولما كان الصبر شديداً على النفس منافراً للطبع ، لأن النفس مجبولة على النقائص ، مشحونة بالوسواس ، أمر منه لأجل من يحتاج إلى الكمال بما ينهض بها من حضيض الجسم إلى أوج الروح بمقامي التحلي بالكمالات والتخلي عن الرعونات ، وبدأ بالأول لأنه العون على الثاني ، وذكر أشرف الحلي فقال : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي اشتغل بما ينجيك من عذابه ، ويقربك من جنابه ، بأن تنزه من أحسن إليك عن كل نفص ، حال كونك حامداً له بإثبات كل كمال ، وذلك بأن تصلي له خاصة وتذكره بالذاكرين ، غير ملتفت إلى شيء سواه ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ صلاة الصبح ﴿ وقبل غروبها ﴾ صلاة العصر والظهر ؛ وغير السياق في قوله : ﴿ ومن آناء اللّيل ﴾ أي ساعاته ، جمع إنو - بكسر ثم سكون ، أي ساعة ، لأن العبادة حينئذ أفضل لاجتماع القلب وهدوء الرجل والخلو بالرب ، لأن العبادة إذ ذاك أشق وأدخل في التكليف فكانت أفضل عند الله ﴿ فسبح ﴾ أي بصلاة المغرب والعشاء ، إيذاناً بعظمة صلاة الليل ، وكرر الأمر بصلاتي الصبح والعصر إعلاماً بمزيد فضلهما ، لأن ساعتيهما أثناء الطي والبعث فقال : ﴿ وأطراف النهار ﴾ ويؤيد ما فهمته من أن ذلك تكرير لهما ما في الصحيحين عن جرير ابن عبد الله البجلي .رضى الله عنهم .

قال : كنا جلوساً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ، ثم قرأ هذه الاية .

(7/504)

وإلا لم يكن في الآية مزيد حث عليهما خاصة ، على أن الفظ " آناء وأطراف " صالح لصلاة التطوع من الرواتب وغيرها ليلاً ونهاراً ، وأفاد بذكر الجارّ في الآناء التبعيض ، لأن الليل محل الراحة ، ونزعه من الأطراف لتيسر استغراقها بالذكر ، لأن النهار موضع النشاط واليقظة ، ويجوز - وهو أحسن - أن يكون المراد بما قبل الطلوع الصبح ، وما قبل الغروب العصر فقط ، وببعض الآناء المغرب والعشاء ، وأدخل الجار لكونهما وقتين ، وبجميع الأطراف الصبح والظهر والعصر ، لأن النهار له أربعة أطراف : أوله ، وآخره وآخر نصفه الأول ، وأول نصفه الثاني ، والكل مستغرق بالتسبيح ، ولذلك نزع الجار ، أما الأول والآخر فبالصبح والعصر ، وأما الآخران فبالتهيؤ للصلاة ثم الصلاة نفسها ، وحينئذ تكون الدلالة على فضيلة الصبح والعصر من وجهين : التقديم والتكرير ، وإلى ذلك الإشارة بالحديث ، وإذا أريد إدخال النوافل حملت الأطراف على الساعات - والله الهادي .

ولما كان الغالب على الإنسان النسيان فكان الرجاء عنده أغلب ، ذكر الجزاء بكلمة الإطماع لئلا يأمن فقال : ﴿ لعلك ترضى ﴾ أي افعل هذا لتكون على رجاء من أن يرضاك ربك فيرضيك في الدنيا والآخرة ، بإظهار دينك وأعلاء أمرك ، ولا يجعلك في عيش ضنك في الدنيا ولا في الآخرة - هذا على قراءة الكسائي وأبي بكر عن عاصم بالبناء للمفعول ، والمعنى على قراءة الجماعة بالبناء للفاعل : لتكون على رجاء من أن تكون راضياً دائماً في الدنيا والآخرة ، ولا تكون كذلك إلا وقد أعطاك ربك جميع ما تؤمل .

ولما كانت النفس ميالة إلى الدنايا ، مرهونة بالحاضر من فاني العطايا ، وكان تخيلها عن ذلك هو الموصل إلى حريتها المؤذن بعلو همتها ، قال مؤكداً إيذاناً بصعوبة ذلك : ﴿ ولا تمدن ﴾ مؤكداً له بالنون الثقيلة ﴿ عينيك ﴾ أي لا تطوّل نظرهما بعد النظرة الأولى المعفو عنها قاصداً للاستحسان ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ بما لنا من العظمة التي لا ينقصها تعظم أعدائنا به في هذه الحياة الفانية ﴿ أزواجاً ﴾ أي أصنافاً متشاكلين ﴿ منهم ﴾ أي من الكفرة ﴿ زهرة ﴾ أي تمتيع ﴿ الحياة الدنيا ﴾ لا ينتفعون به في الآخرة لعدم صرفهم له في

أوامر الله ، فهو مصدر من المعنى مثل جلست قعوداً ، ثم علل تمتيعهم بقوله تعالى :

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنفعل بهم فعل المختبر ، فيكون سبب عذابهم في الدنيا بالعيش الضنك لما مضى ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم ، فصورته تغر من لم يتأمل معناها حق التأمل ، فما أنت فيه خير مما هم فيه ﴿ ورزق ربك ﴾ الذي عود به أولياءه – وهو في دار السفر – الكفاف الطيب المقرون بالتوفيق ﴿ خير ﴾ من زهرتهم ، لأنه يكفي ولا يطغي وزادك ما يدني إلى جنابه فيعلي ﴿ وأبقى ﴾ فإنه وفقك لصرفه في الطاعة فكتب لك من أجره ما توفاه يوم الحاجة على وجه لا يمكن أحداً من الخلق حصره ، وتكون الدنيا كلها فضلاً عما في أيديهم أقل من قطرة بالنسبة إلى بحره ، وإضافة رزقه دون رزقهم إليه سبحانه – وإن كان الكل منه – للتشريف ، وفي التعبير بالرب إيذان بالحل ، وفيه إشارة إلى ظهوره عليهم وحياته بعدهم كما هو الشأن في الصالحين والطالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 56.58 ﴾

(9/504)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾

(10/504)

اعلم أنه تعالى لما بين أن من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما يعتبر [به] المكلف من الأحوال الواقعة في الدنيا بمن كذب الرسل فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ قال القفال : جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم ، كما جعل مثل ذلك واعظاً لهم وزاجراً ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي أفلم نهد لهم بالنون ، قال الزجاج : يعني أفلم نبين لهم بياناً يهتدون به لو تدبروا وتفكروا ، وأما قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ فالمراد به المبالغة في كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله : ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ أن قريشاً يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم ، وما حل بهم من ضروب الهلاك ، وللمشاهدة في ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره ، وبين أن في تلك الآيات آيات لأولى النهى ، أي لأهل العقول والأقرب أن للنهية مزية على العقل ، والنهي لا يقال إلا فيمن له عقل ينتهي به

عن القبائح ، كما أن لقولنا : أولو العزم مزية على أولو الحزم ، فلذلك قال بعضهم : أهل الورع وأهل التقوى ، ثم بين تعالى الوجه الذي لأجله لا ينزل العذاب معجلاً على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ وفيه تقديم وتأخير ، والتقدير : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً ، ولا شبهة في أن الكلمة هي إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ ، أن أمته عليه السلام وإن كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال ، واختلفوا فيما لأجله لم يفعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال بعضهم : لأنه علم أن فيهم من يؤمن ، وقال آخرون : علم أن في نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك ، وقال آخرون : المصلحة فيه خفية لا

(11/504)

يعلمها إلا هو ، وقال أهل السنة : له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة ، إذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة إن كانت قديمة لزم قدم الفعل ، وإن كانت حادثة افتقرت إلى علة أخرى ولزم التسلسل ، فلهذا قال أهل التحقيق : كل شيء صنيعه لا لعلة ، وأما الأجل المسمى ففيه قولان : أحدهما : ولولا أجل مسمى في

الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر .

والثاني : ولولا أجل مسمى في الآخرة لذلك العذب وهو أقرب ، ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب إلى الآخرة كقوله : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] لكان العقاب لازماً لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ، ثم إنه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحداً قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة في أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم ، فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم : إنه ساحر أو مجنون أو شاعر إلى غير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ، ويحتمل أيضاً تركهم القبول منه لأن كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى في الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ما حمل من الرسالة وأن لا يكون ما يقدمون عليه صارفاً له عن ذلك ، ثم قال الكلبي ومقاتل : هذه الآية منسوخة بآية القتال ، ثم قال : ﴿ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ وهو نظير قوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ في موضع الحال وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه .

المسألة الثانية :

إنما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في التسبيح على وجهين ، فالأكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه .

(12/504)

أحدها : أن الآية تدل على أن الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : دخلت الصلوات الخمس فيه ، فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، وقبل غروبها هو الظهر والعصر لأنهما جميعاً قبل الغروب ، ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الأخيرة ويكون قوله : ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ كالتوكيد للصلاتين الواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت في قوله : ﴿ والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] بالتوكيد .

القول الثاني : أن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة ، أما دلالتها على الصلوات الخمس فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها ، فالليل والنهار داخلان في

هاتين العبارتين ، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما ، بقي قوله : ﴿ وَمِنْ ءَانَآىِٕ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى ﴾ وأطراف النهار للنوافل .

القول الثالث : أنها تدل على أقل من الخمس ، فقوله : قبل طلوع الشمس للفجر ، وقبل غروبها للعصر ، ومن آناء الليل للمغرب والعتمة ، فيبقى الظهر خارجاً .

والقول الأول أقوى وبالاعتبار أولى .

هذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة ، قال أبو مسلم : لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات ، وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره ، وذلك لأنه تعالى صبره أولاً على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر ، والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائماً مظهراً لذلك وداعياً إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات .

المسألة الرابعة :

أفضل الذكر ما كان بالليل لأن الجمعية فيه أكثر .

وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الأعمال ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل : 6] وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ الليل ساجدا وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخرة ﴾ [الزمر : 9] ولأن الليل وقت السكون والراحة .

فإذا صرف إلى العبادة كانت على الأنفس أشق وللبدن أتعب فكانت أدخل في استحقاق الأجر والفضل .

المسألة الخامسة :

لقائل أن يقول : النهار له طرفان فكيف قال : ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ بل الأولى أن يقول كما قال : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ [هود : 114] ، وجوابه من الناس من قال أقل الجمع اثنان فسقط السؤال ، ومنهم من قال : إنما جمع لأنه يتكرر في كل نهار ويعود ، أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ ففيه وجوه .

أحدها : أن هذا كما يقول الملك الكبير : يا فلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد إني أوصلك إلى درجة عالية في النعمة ، وهو إشارة إلى قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] وقوله : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] ، وثانيها : لعلك ترضى ما تنال من الثواب .

وثالثها : لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة .

وقرأ الكسائي وعاصم : ﴿ لعلك ترضى ﴾ بضم التاء والمعنى لا يختلف لأن الله تعالى إذا أرضاه فقد رضيه وإذا رضيه فقد أرضاه .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على ما يقولون ، وأمره بأن يعدل إلى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه إلى ما متع به القوم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ وجهان : أحدهما : المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه إعجاباً به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا : ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : 79] حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ [القصص : 80] وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما إذا نظر الإنسان إلى شيء مرة ثم غض ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع قيل :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له .

ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها .

القول الثاني : قال أبو مسلم الذي نهى عنه بقوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ ليس هو النظر ، بل هو الأسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا .

المسألة الثانية :

قال أبو رافع : "نزل ضيف بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعثني إلى يهودي لبيع أو سلف ، فقال : والله لا أفعل ذلك إلا برهن فأخبرته بقوله فأمرني أن أذهب بدرعه إليه فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ " وقال عليه السلام : " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم " وقال أبو الدرداء : الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له .

وعن الحسن : لولا حمق الناس لخربت الدنيا .

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال : لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم لها عبيداً ، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين يتلو هذه الآية ، وقال الصلاة يرحمكم الله ، أما قوله عز وجل : ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ [أي] ألذذنا به ، والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الأصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح ، يقال أمتعه إمتاعاً ومتعه تمتيعاً والتفعيل يقتضي التكثير ، أما قوله : ﴿ أزواجا مّنْهُمْ ﴾ أي أشكالاً وأشباهاً من الكفار وهي من المزاوجة بين الأشياء وهي المشاكلة ، وذلك لأنهم أشكال في الذهاب عن الصواب ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أصنافاً منهم ، وقال الكلبي والزجاج : رجالاً منهم ، أما قوله : ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ ففي انتصابه أربعة أوجه .

أحدها : على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولاً ثانياً له أو على إبداله من محل الجار والمجرور أو على إبداله من أزواجاً على تقدير ذوي ، فإن قيل : ما معنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة .

قرئ : أرنا الله جهرة ، وأن يكون جمع زاهر وصفاً لهم بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب ، أما قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ فذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : لنعذبهم به كقوله : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وأولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ [التوبة : 55] .

وثانيها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : إضلالاً مني لهم .

(16/504)

وثالثها : قال الكلبي ومقاتل تشديداً في التكليف عليهم لأن الإعراض عن الدنيا عند حضورها والإقبال إلى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله تعالى والتضرع إليه أكثر من تضرع الأغنياء ، ولأن على من أوتي الدنيا ضروباً من التكليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولأن القادر على المعاصي يكون الاجتناب عن المعاصي أشق عليه من العاجز الفقير ، فمن هذه الجهات تكون الزيادة في الدنيا تشديداً في التكليف ثم قال لرسوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى ﴾ والأظهر أن المراد أن مطلوبك الذي تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى ، لأنه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من مَن الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى ، فذكر الرزق في الدنيا ووصفه بحسن

عاقبته إذا رضي به وصبر عليه ، ويحتمل أن يكون المراد ما أعطى من النبوة والدرجات الرفيعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 118.114 ﴾

(17/504)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّك تَرْضَى ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ ﴾ وَزْنُهُ أَفْعَالٌ ، وَاحِدُهَا إنْيٌ مِثْلُ عِدْلٍ ، وَإِنًى مِثْلُ عِنَبٍ فِي السَّالِمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إنَاهُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : لَا خِلَافَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ سَبِّحْ ﴾ ، صَلِّ ؛ لِأَنَّهُ غَايَةُ التَّسْبِيحِ وَأَشْرَفُهُ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ ذَلِكَ بَيَانٌ لِصَلَاةِ الْفَرْضِ أَمْ لِصَلَاةِ النَّفْلِ ؟ فَقِيلَ : قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَعْنِي الصُّبْحَ .

وَقَبْلَ غُرُوبِهَا يَعْنِي الْعَصْرَ .

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا : ﴿ مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ يَعْنِي سَاعَاتِهِ ، يُرِيدُ بِذَلِكَ قِيَامَ اللَّيْلِ كُلِّهِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ .

وَفِي الثَّانِي صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ الْآخِرَةِ عَلَى حَدِّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ فِي الْفَرْضِ ، وَعَلَى حَدِّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إلَّا قَلِيلًا ﴾ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِنَا فِي أَنَّهُ النَّفْلُ .

(18/504)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ : يَعْنِي فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ صَلَاةَ الظُّهْرِ .

وَقِيلَ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ؛ لِأَنَّهَا فِي الطَّرَفِ الثَّانِي .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّ الْمَغْرِبَ مِنْ طَرَفِ اللَّيْلِ ، لَا مِنْ طَرَفِ النَّهَارِ .

وَفِي الْقَوْلِ الثَّانِي يَعْنِي بِهِ صَلَاةَ التَّطَوُّعِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ : هُوَ مُجْمَلُ قَوْلِهِ الْمُفَسِّرِ : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ ، وَيُمَاثِلُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيك رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(19/504)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : بأن جعل الجزاء يوم القيامة ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : بتأخيرهم إلى يوم بدر . ﴿ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لكان عذاباً لازماً .

الثاني : لكان قضاء ، قاله الأخفش .

﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمّىً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يوم بدر .

والثاني : يوم القيامة ، قاله قتادة . وقال في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : ولولا كلمة

وأجل مسمى لكان لزاماً .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني من الإيذاء والافتراء .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل غروبها صلاة العصر .

﴿ وَمِنْ ءَانَآءِ اللَّيْلِ . . . ﴾ ساعاته ، وأحدها إنىً ، وفيه وجهان :

أحدهما : هي صلاة الليل كله ، قاله ابن عباس .

الثاني : هي صلاة المغرب والعشاء والآخرة .

﴿ . . . أَطْرَافِ النَّهَارِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : صلاة الفجر لأنها آخر النصف الأول ، وأول النصف الثاني : قاله قتادة .

الثاني : أنها صلاة التطوع ، قاله الحسن .

﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ أي تعطى ، وقرأ عاصم والكسائي ﴿ تُرضى ﴾ بضم التاء يعني لعل الله يرضيك بكرامته ، وقيل بالشفاعة .

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ . . . ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد بمد العين النظر .

الثاني : أراد به الأسف .

﴿ أَزْوَاجاً ﴾ أي أشكالاً ، مأخوذ من المزاوجة .

﴿ زَهْرَةَ الْحيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال قتادة : زينة الحياة الدنيا .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ يعني فيما متعناهم به من هذه الزهرة ، وفيه وجهان :

أحدهما : لنفتنهم أي لنعذبهم به ، قاله ابن بحر .

الثاني : لنميلهم عن مصالحهم وهو محتمل .

﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه القناعة بما يملكه والزهد فيما لا يملكه .

(20/504)

الثاني : وثواب ربك في الآخرة خير وأبقى مما متعنا به هؤلاء في الدنيا .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون الحلال المُبْقِي خيراً من الكثير المُطْغِي .

وسبب نزولها ما رواه أبو رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم استلف من يهودي طعاماً فأبى أن يسلفه إلا برهن ، فحزن وقال : " إني لأمين في السماء وأمين في الأرض ، أحمل درعي إليه " فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديه فنادى : من لم

يتأدب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(21/504)

وقال ابن عطية :

ثم ابتدأ يوبخهم ويذكرهم العبر بقوله ﴿ أفلم يهدِ لهم ﴾

(22/504)

وقرأت فرقة " يهد " بالياء بمعنى يتبين ، واختلفت هذه الفرقة في الفاعل فقال بعضها الفاعل ﴿ كم ﴾ وهذا قول كوفي . ونحاة البصرة لا يجيزونه لأن "كم " لها صدر الكلام ، وفي قراءة ابن مسعود " أفلم يهد لهم من أهلكنا " فكأن هذه القراءة تناسب ذلك التأويل في ﴿ كم ﴾ وقال بعضهم الفاعل الله عز وجل ، والمعنى ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ ما جعل الله لهم من الآيات والعبر فأضاف الفعل إلى الله عز وجل بهذا الوجه قاله الزجاج ، وقال بعضهم الفاعل مقدر الهدى أو الأمرع أو النظر او الاعتبار هذا أحسن ما يقدر به عندي ، وقرأت

فرقة " نهد " بالنون وهذه القراءة تناسب تأويل من قال في التي قبلها الفاعل الله تعالى . و ﴿ كم ﴾ على هذه الأقوال نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ ، ثم قيد ﴿ القرون ﴾ بأنهم يمشي هؤلاء الكفرة ﴿ في مساكنهم ﴾ فإنما أراد عاداً أو ثمود أو الطوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشام وغيره ، وقرأت فرقة " يمشون " بفتح الياء ، وقرأت فرقة " يُمشّون " بضم الياء وفتح الميم وشد الشين ، و ﴿ النهى ﴾ جمع نهية وهو ما ينهى الإنسان عن فعل القبيح ، ثم أعلم عز وجل قبله أن العذاب كان يصير لهم ﴿ لزاماً ﴾ ﴿ لولا كلمة سبقت ﴾ من الله تعالى في تأخيره عنهم إلى ﴿ أجل مسمى ﴾ عنده فتقدير الكلام ﴿ ولولا كلمة سبقت ﴾ في التأخير ﴿ وأجل مسمى ﴾ لكان العذاب ﴿ لزاماً ﴾ كما تقول لكان حتماً أو واجباً واقعاً لكنه قدم وأخر لتشتبه رؤوس الآي . واختلف الناس في الأجل فيحتمل أن يريد يوم القيامة والعذاب المتوعد به على هذا هو عذاب جهنم ، ويحتمل أن يريد ب " الأجل " موت كل واحد منهم فالعذاب على هذا هو ما يلقى في قبره وما بعده ، ويحتمل أن يريد بالآجال يوم بدر فالعذاب على هذا هو قتلهم بالسيف وبكل احتمال مما ذكرناه ، قالت فرقة ، وفي صحيح البخاري ، أن يوم بدر وهو اللزام وهو البشطة الكبرى ، ثم أمره تعالى بالصبر على أقوالهم إنه ساحر وإنه كاهن وإنه كذاب إلى

غير ذلك ، والمعنى لا تحفل بهم فإنهم مدركة الهلكة وكون اللزام يوم بدر أبلغ في آيات نبينا عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ قال أكثر المتأولين هذه إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ صلاة الصبح ﴿ وقبل غروبها ﴾ صلاة العصر و﴿ من آناء الليل ﴾ العتمة ﴿ وأطراف النهار ﴾ المغرب والظهر .

وقالت فرقة ﴿ آناء الليل ﴾ المغرب والعشاء ، ﴿ وأطراف النهار ﴾ الظهر وحدها ، ويحتمل اللفظ أن يراد قول سبحان الله وبحمده من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضحى وقبل غروب الشمس فقد قال صلى الله عليه وسلم : " من سبح قبل غروب الشمس سبعين تسبيحة غربت بذنوبه "ع وسمى الطرفين أطرافاً على أحد وجهين إما على نحو فقد صغت قلوبكما : وإما على أن يجعل النهار للجنس ، فلكل يوم طرف وهي التي جمع ، وأما من قال ﴿ أطراف النهار ﴾ لصلاة الظهر وحدها فلا بد له من أن يتمسك بأن يكون النهار للجنس كما قلنا أو نقول إن النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال ولكل قسم طرفان فعند الزوال طرفان الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر فقال عن الطرفين أطرافاً على نحو فقد صغت قلوبكما ، وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل والآناء جمع أنى وهي الساعة من الليل ومنه قول الهذلي :

حلو ومر كعطف القدح مر به . . . في كل أنى حداة الليل تنتقل

وقالت فرقة في الآية إشارة إلى نوافل ، فمنها ﴿ آناء الليل ﴾ ومنها ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ وركعتا الفجر والمغرب ﴿ أطراف النهار ﴾ ، وقرأ الجمهور " لعلك تَرضى " بفتح التاء أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به ، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم " لعلك تُرضى " أي لعلك تُعطى ما يرضيك .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(24/504)

قال بعض الناس سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزل به ضيف فلم يكن عنده شيء فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيراً فأبى اليهودي إلا برهن فبلغ الرسول بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال " والله إني لأمين في السماء وأمين في الأرض " فرهنه درعه فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا معترض أن يكون سبباً لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت ، وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها وذلك أن الله تعالى وبخهم على ترك الأعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم والصبر

على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا إذ ذاك منحصر عندهم صائر بهم إلى خزي ، وقوله ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ أبلغ من ولا تنظر ، لأن الذي يمد بصره إنما يحمله على ذلك حرص مقترن ، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه . و" الأزواج " الأنواع فكأنه قال ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ أقواماً منهم وأصنافاً . وقوله تعالى : ﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ شبه نعم هؤلاء الكفار بالزهر وهو ما اصفر من النور ، وقيل " الزهر " النور جملة لأن الزهر له منظر ثم يضمحل فكذلك حال هؤلاء ، ونصب ﴿ زهرة ﴾ يجوز أن ينصب على الحال وذلك أن تعرفها ليس بمحض ، وقرأت فرقة " زهْرة " بسكون الهاء ، وفرقة " زهَرة " بفتح الهاء ثم أخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن ذلك إنما هو ليختبرهم به ويجعله فتنة لهم وأمراً يجازون عليه بالسوء لفساد تقلبهم فيه ، ﴿ ورزق ﴾ الله تعالى الذي أحله للمتقين من عباده ﴿ خير وأبقى ﴾ أي رزق الدنيا ورزق الآخرة أبقى وبين أنه خير من رزق الدينا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(25/504)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لهم ﴾

أي : أفلم يتبيَّن لكفار مكة إِذا نظروا آثار مَنْ أهلكْنا مِنَ الأمم ؛ وكانت قريش تتَّجر وترى مساكن عاد وثمود وفيها علامات الهلاك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ .

وروى زيد عن يعقوب : "أفلم نَهْدِ" بالنون .

قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقتْ من ربِّك ﴾ في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إِلى يوم القيامة ، وقيل : إِلى يوم بدر ، وقيل : إِلى انقضاء آجالهم ﴿ لكان لزاماً ﴾ أي : لكان العذاب لزاماً ، أي : لازماً لهم .

واللِّزام : مصدر وُصف به العذاب .

قال الفراء وابن قتيبة : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ولولا كلمة وأَجَل مسمّىً لكان لزاماً .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أمر الله تعالى نبيَّه بالصبر على ما يسمع من أذاهم إِلى أن يحكم الله فيهم ، ثم حكم فيهم بالقتل ، ونسخ بآية السيف إِطلاق الصَّبر .

قوله تعالى : ﴿ وسبِّح بحمد ربِّك ﴾ أي : صلِّ له بالحمد له والثناء عليه ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ : يريد الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني : العصر ﴿ ومن آناء الليل ﴾ الآناء : الساعات ، وقد بيَّنّاها في [آل عمران : 113] ، ﴿ فسبِّح ﴾ أي : فصلِّ .

وفي المراد بهذه الصلاة أربعة أقوال .

أحدها : المغرب والعشاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : جوف الليل ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : العشاء ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والرابع : أول الليل وأوسطه وآخره ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وأطرافَ النهار ﴾ المعنى : وسبِّح أطرافَ النهار .

قال الفراء : إنما هم طَرَفان ، فخرجا مخرج الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكما ﴾ [التحريم : 4] .

وللمفسرين في المراد بهذه الصلاة ثلاثة أقوال .

(26/504)

أحدها : أنها الظُّهر ، قاله قتادة ؛ فعلى هذا ، إِنما قيل لصلاة الظهر : أطراف النهار ، لأن وقتها عند الزوال ، فهو طَرَف النِّصف الأول وطرف النِّصف الثاني .

والثاني : أنها صلاة المغرب وصلاة الصبح ، قاله ابن زيد ؛ وهذا على أن الفجر في ابتداء الطَّرف الأول ، والمغرب في انتهاء الطَّرف الثاني .

والثالث : أنها الفجر والظهر والعصر ؛ فعلى هذا يكون الفجر من الطرف الأول ، والظهر والعصر من الطرف الثاني ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : ﴿ لعلَّك ترْضَى ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : "ترضى" بفتح التاء .

وقرأ الكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بضمها .

فمن فتح ، فالمعنى : لعلَّك ترضى ثواب الله الذي يُعطيك .

ومَنْ ضمَّها ، ففيه وجهان .

أحدهما : لعلَّكَ ترضى بما تُعطى .

والثاني : لعلَّ الله أن يرضاك .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ ﴾

سبب نزولها ، ما روى أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً ، فقال : قل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "بعني كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفني إلى هلال رجب" ، فأتيته فقلت له ذلك ، فقال اليهودي : والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتُه ، فقال : "والله لو باعني أو أسلفني لقضيته ، وإني لأمين في السماء أمين في الأرض ، اذهب بدرعي الحديد إليه" " ، فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا .

قال أُبيّ بن كعب : من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطَّعت نفسه حسراتٍ على الدنيا .

وقد مضى تفسير هذه الآية في آخر [الحجر : 88] .

قوله تعالى : ﴿ زهرةَ الحياة الدنيا ﴾ وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، والزهري ، ويعقوب : "زهَرة" بفتح الهاء .

(27/504)

قال الزجاج : وهو منصوب بمعنى "متَّعنا" ، لأن معنى "متَّعنا" : جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ، ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي : لنجعل ذلك فتنة لهم .

وقال ابن قتيبة : لنختبرهم .

قال المفسرون : زهرة الدنيا : بهجتها وغضارتها وما يروق الناظر منها عند رؤيته ، وهو من زهرة النبات وحسنه .

قوله تعالى : ﴿ ورزق ربّك خير وأبقى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه ثوابه في الآخرة .

والثاني : القناعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(28/504)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾

يريد أهل مكة ؛ أي أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية ؛ أي أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بالكفار قبلهم .

وقرأ ابن عباس والسُّلَمي وغيرهما "نَهْدِ لَهُمْ" بالنون وهي أبين .

و "يهد " بالياء مشكل لأجل الفاعل ؛ فقال الكوفيون : "كَمْ" الفاعل ؛ النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن "كم" استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها .

وقال الزجاج : المعنى أولم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا .

وحقيقة "يهد " يدل على الهدى ؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يهد الهدي لهم .

قال الزجاج : "كم" في موضع نصب ب ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ فيه تقديم وتأخير ؛ أي ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً ؛ قاله قتادة .

واللزام الملازمة ؛ أي لكان العذاب لازماً لهم .

وأضمر اسم كان .

قال الزجاج: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على "كلمة" .

قتادة: والمراد القيامة؛ وقاله القتبي .

وقيل: تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى: ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم: إنه ساحر؛ إنه كاهن؛ إنه كذاب؛ إلى غير ذلك .

والمعنى: لا تحفل بهم؛ فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدّم ولا يتأخر .

ثم قيل: هذا منسوخ بآية القتال .

وقيل: ليس منسوخاً؛ إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقي المعظم منهم .

(29/504)

قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ قال أكثر المتأولين: هذه إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَآءِ الليل ﴾ العتمة ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ المغرب والظهر؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأوّل، وأوّل طرف النهار الآخر؛ فهي في طرفين منه؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب .

وقيل : النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال ، ولكل قسم طرفان ، فعند الزوال طرفان ؛ الآخر من القسم الأوّل والأوّل من القسم الآخر ؛ فقال عن الطرفين أطرافاً على نحو ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل .

وقيل : النهار للجنس فلكل يوم طرف ، وهو إلى جمع لأنه يعود في كل نهار .

"وآناء الليل" ساعاته وواحد الآناء إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى .

وقالت فرقة : المراد بالآية صلاة التطوّع ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ بفتح التاء ؛ أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به .

وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم "تُرْضَى" بضم التاء ؛ أي لعلك تُعطَى ما يرضيك .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾

وقد تقدّم معناه في "الحجر" .

﴿ أَزْوَاجاً ﴾ مفعول ب"متعنا" .

و﴿ زَهْرَةَ ﴾ نصب على الحال .

وقال الزجاج : "زهرة" منصوبة بمعنى "متعنا" لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ؛ أو بفعل مضمر وهو "جعلنا" أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ؛ عن الزجاج أيضا .

وقيل : هي بدل من الهاء في "به" على الموضع ، كما تقول : مررت به أخاك .

وأشار الفراء إلى نصبه على الحال ؛ والعامل فيه "مَتَّعْنَا" قال : كما تقول مررت به المسكين ؛ وقدره : متعناهم به زهرةَ في الحياة الدنيا وزينة فيها .

ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ [النمل : 88] و﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ [الروم : 6] وفيه نظر .

(30/504)

والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرىء "وَلاَ اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارَ" بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون "الحياة" مخفوضة على البدل من "ما" في قوله : ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ فيكون التقدير : ولا تمدنّ عينيك إلى الحياة الدنيا زهرةً أي في حال زهرتها .

ولا يحسن أن يكون "زهرة" بدلاً من "ما" على الموضع في قوله : "إلى ما متعنا" لأن ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ متعلق ب"متعنا" و﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني زينتها بالنبات .

والزَّهَرة ، بالفتح في الزاي والهاء نَوْر النبات .

والزُّهَرة بضم الزاي وفتح الهاء النجم .

وبنو زُهْرة بسكون الهاء ؛ قاله ابن عزيز .

وقرأ عيسى بن عمر "زَهَرَةَ" بفتح الهاء مثل نَهْر ونَهَر .

ويقال : سراج زاهر أي له بريق .

وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها .

وفي الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ؛ أي نير اللون ؛ يقال لكل شيء مستنير : زاهر ، وهو أحسن الألوان .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنبتليهم .

وقيل : لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالاً .

ومعنى الآية : لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزناً ، فإنه لا بقاء لها . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(31/504)

وقال أبو حيان :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾

زهرة : بفتح الهاء وسكونها نحو نهر ونهر ما يروق من النور ، وسراج زاهر له بريق ، والأنجم الزهر المضيئة ، وأزهر الشجر بدا زهره وهو النور .

﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ يهد ﴾ الياء .

وقرأ فرقة منهم ابن عباس والسلمي بالنون ، وبخهم تعالى وذكرهم العبر بمن تقدم من القرون ، ويعني بالإهلاك الإهلاك الناشىء عن تكذيب الرسل وترك الإيمان بالله واتباع رسله ، والفاعل ليهد ضمير عائد على الله تعالى ، ويؤيد هذا التخريج قراءة نهد بالنون ومعناه نبين وقاله الزجاج .

وقيل : الفاعل مقدر تقديره الهدى والآراء والنظر والاعتبار .

وقال ابن عطية : وهذا أحسن ما يقدر به عندي انتهى .

وهو قول المبرد وليس بجيد إذ فيه حذف الفاعل وهو لا يجوز عند البصريين ، وتحسينه أن يقال الفاعل مضمر تقديره ﴿ يهد ﴾ هو أي الهدى .

وقال أبو البقاء : الفاعل ما دل عليه ﴿ أهلكنا ﴾ والجملة مفسرة له .

قال الحوفي ﴿ كم أهلكنا ﴾ قد دل على هلاك القرون ، فالتقدير أفلم نبين لهم هلاك من ﴿ أهلكنا ﴾ ﴿ من القرون ﴾ ومحو آثارهم فيتعظوا بذلك .

وقال الزمخشري : فاعل ﴿ لم يهد ﴾ الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين ﴾ أي تركنا عليه هذا الكلام ، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول انتهى .

وكون الجملة فاعلاً هو مذهب كوفي ، وأما تشبيهه وتنظيره بقوله ﴿ تركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين ﴾ فإن تركنا عليه معناه معنى القول فحكيت به الجملة كأنه قيل وقلنا عليه ، وأطلقنا عليه هذا اللفظ والجملة تحكي بمعنى القول كما تحكى بلفظه ،

وأحسن التخاريج الأول وهو أن يكون الفاعل ضميراً عائداً على الله كأنه قال ﴿ أفلم ﴾ يبين الله ومفعول يبين محذوف ، أي العبر بإهلاك القرون السابقة ثم قال ﴿ كم أهلكنا ﴾ أي كثيراً أهلكنا ، فكم مفعوله بأهلكنا والجملة كأنها مفسرة للمفعول المحذوف ليهد .

وقال الحوفي : قال بعضهم هي في موضع رفع فاعل ﴿ يهد ﴾ وأنكر هذا على قائله لأن كم استفهام لا يعمل فيها ما قبلها انتهى .

وليست كم هنا استفهاماً بل هي خبرية .

وقال أبو البقاء : ﴿ يهد لهم ﴾ في فاعله وجهان أحدهما ضمير اسم الله تعالى أي ألم يبين الله لهم وعلق ﴿ يهد ﴾ هنا إذ كانت بمعنى يعلم كما علقت في قوله تعالى ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ انتهى .

و﴿ كم ﴾ هنا خبرية والخبرية لا تعلق العامل عنها ، وإنما تعلق عنه الاستفهامية .

وقرأ ابن السميفع : يُمَشُّون بالتشديد مبنياً للمفعول لأن المشي يخلق خطوة بخطوة وحركة بحركة وسكوناً بسكون ، فناسب البناء للمفعول والضمير في ﴿ يمشون ﴾ عائد على ما عاد عليه لهم وهم الكفار الموبخون يريد قريشاً ، والعرب يتقلبون في بلاد عاد وثمود والطوائف التي كانت قريش تمر عليها إلى الشام وغيره ، ويعاينون آثار هلاكهم و ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ جملة في موضع الحال من ضمير ﴿ لهم ﴾ والعامل ﴿ يهد ﴾ أي ألم نبين للمشركين في حال مشيهم في مساكن من أهلك من الكفار .

وقيل : حال من مفعول ﴿ أهلكنا ﴾ أي أهلكناهم غارين آمنين متصرّفين في مساكنهم لم يمنعهم عن التمتع والتصرف مانع من مرض ولا غيره ، فجاءهم الإهلاك بغتة على حين غفلة منهم به .

(33/504)

﴿ إن في ذلك ﴾ أي في ذلك التبيين بإهلاك القرون الماضية ﴿ لآيات لأولي النهى ﴾ أي العقول السليمة .

ثم بين تعالى الوجه الذي لأجله لا يترك العذاب معجلاً على من كفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والكلمة السابقة هي المعدة بتأخير جزائهم في الآخرة قال تعالى : ﴿ بل الساعة

موعدهم ﴾ تقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً هؤلاء الكفرة، واللزام إما مصدر لازم وصف به وإما فعال بمعنى مفعل أي ملزم كأنه آلة للزوم، ولفظ لزومه كما قالوا لزاز خصم.

وقال أبو عبد الله الرازي: لا شبهة أن الكلمة إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ أن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وإن كذبوا يؤخرون ولا يفعل بهم ما فعل بغيرهم من الاستئصال انتهى.

والأجل أجل حياتهم أو أجل إهلاكهم في الدنيا أو عذاب يوم القيامة، أقوال: فعلى الأول يكون العذاب ما يلقى في قبره وما بعده.

وعلى الثاني: قتلهم بالسيف يوم بدر.

وعلى الثالث: هو عذاب جهنم.

وفي صحيح البخاري "أن يوم بدر هو اللزام وهو البطشة الكبرى" والظاهر عطف ﴿ وأجل مسمى ﴾ على كلمة وأخر المعطوف عن المعطوف عليه، وفصل بينهما بجواب ﴿ لولا ﴾ لمراعاة الفواصل ورؤوس الآي، وأجاز الزمخشري أن يكون ﴿ وأجل ﴾ معطوفاً على الضمير المستكن في كان قال أي ﴿ لكان ﴾ الأخذ العاجل ﴿ وأجل مسمى ﴾ لازمين له كما كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل انتهى.

ثم أمره تعالى بالصبر على ما يقول مشركو قريش، وهم الذين عاد الضمير عليهم في ﴿ أفلم

يهد لهم ﴾ وكانوا يقولون أشياء قبيحة مما نص الله عنهم في كتابه ، فأمره تعالى بالصبر على أذاهم والاحتمال لما يصدر من سوء أخلاقهم ، وأمره بالتسبيح والحمد لله و ﴿ بحمد ربك ﴾ في موضع الحال ، أي وأنت حامد لربك .

(34/504)

والظاهر أنه أمر بالتسبيح مقروناً بالحمد ، وإما أن يراد اللفظ أي قل سبحان الله والحمد لله ، أو أريد المعنى وهو التنزيه والتبرئة من السوء والثناء الجميل عليه .

وقال أبو مسلم : لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله في هذه الأوقات .

قال أبو عبد الله الرازي : وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره لأنه صبره أولاً ﴿ على ما يقولون ﴾ من التكذيب ومن إظهار الكفر والشرك الذي يليق بذلك أن يؤمر بتنزيهه عن قولهم حتى يكون مظهراً لذلك وداعياً ، ولذلك ما جمع كل الأوقات أو يراد المجاز فيكون المراد الصلاة فقبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل ﴾ المغرب والعتمة ﴿ وأطراف النهار ﴾ الظهر وحده .

قال ابن عطية : ويحتمل اللفظ أن يراد قول سبحان الله وبحمده من بعد صلاة الصبح إلى

ركعتي الضحى وقبل غروب الشمس ، فقد قال عليه السلام : " من سبح عند غروب الشمس سبعين تسبيحة غربت بذنوبه " انتهى .

وقال الزمخشري : ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ، وتعمد ﴿ آناء الليل ﴾ ﴿ وأطراف النهار ﴾ مختصاً لها بصلاتك ، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوّ الرجل والخلو بالرب .

وقال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ وقال : ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ﴾ الآيتين .

ولأن الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله وقد تناول التسبيح في ﴿ آناء الليل ﴾ صلاة العتمة ﴿ وفي أطراف النهار ﴾ صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ عند بعض المفسرين انتهى .

وجاء هنا ﴿ وأطراف النهار ﴾ وفي هود ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ فقيل : جاء على حد قوله :

ومهمهين قذفين مرتين . . .

ظهراهما مثل ظهور الترسين

جاءت التثنية على الأصل والجمع لا من اللبس إذ النهار ليس له إلاّ طرفان .

وقيل : هو على حقيقة الجمع الفجر الطرف الأول ، والظهر والعصر من الطرف الثاني ، والطرف الثالث المغرب والعشاء .

وقيل : النهار له أربعة أطراف عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، وعند زوال الشمس ، وعند وقوفها للزوال .

وقيل : الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ، فهي في طرفين منه ، والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب .

وقيل : يجعل النهار للجنس فلكل يوم طرف فيتكرر بتكرره .

وقيل : المراد بالأطراف الساعات لأن الطرف آخر الشيء .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأطراف ﴾ بنصب الفاء وهو معطوف على ﴿ ومن آناء الليل ﴾ .

وقيل : معطوف على ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ وقرأ الحسن وعيسى بن عمر ﴿ وأطراف ﴾ بخفض الفاء عطفاً على ﴿ آناء ﴾ .

﴿ لعلك ترضى ﴾ أي تثاب على هذه الأعمال بالثواب الذي تراه وأبرز ذلك في صورة الرجاء والطمع لا على القطع .

وقيل : لعل من الله واجبة .

وقرأ أبو حيوة وطلحة والكسائي وأبو بكر وأبان وعصمة وأبو عمارة عن حفص وأبو زيد عن المفضل وأبو عبيد ومحمد بن عيسى الأصبهاني تُرْضَى بضم التاء أي يرضيك ربك .

ولما أمره تعالى بالصبر وبالتسبيح جاء النهي عن مد البصر إلى ما متع به الكفرة يقال : مد البصر إلى ما متع به الكفار ، يقال : مد نظره إليه إذا أدام النظر إليه ، والفكرة في جملته وتفصيله .

قيل : والمعنى على هذا ولا تعجب يا محمد مما متعناهم به من مال وبنين ومنازل ومراكب وملابس ومطاعم ، فإنما ذلك كله كالزهرة التي لا بقاء لها ولا دوام ، وإنها عما قليل تفنى وتزول .

(36/504)

والخطاب وإن كان في الظاهر للرسول (صلى الله عليه وسلم) فالمراد أمته وهو كان (صلى الله عليه وسلم) أبعد شيء عن النظر في زينة الدنيا وأعلق بما عند الله من كل أحد ، وهو القائل في الدنيا " ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أريد به وجه الله " وكان شديد النهي عن الاغترار بالدنيا والنظر إلى زخرفها ﴿ ولا تمدن ﴾ أبلغ من لا تنظر لأن مد البصر يقتضي

الإدامة والاستحسان بخلاف النظر ، فإنه قد لا يكون ذلك معه والعين لا تمدّ فهو على حذف مضاف أي ﴿ لا تمدن ﴾ نظر ﴿ عينيك ﴾ والنظر غير الممدد معفو عنه .

وذلك مثل من فاجأ الشيء ثم غض بصره .

والنظر إلى الزخارف مركوز في الطبائع فمن رأى منها شيئاً أحب إدمان النظر إليه ، وقد شدّد المتقون في غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة مركوباً وملبوساً وغيرهما لأنهم إنما اتخذوها لعيون النظارة حتى يفتخروا بها ، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمغرى لهم على اتخاذها .

وانتصب ﴿ أزواجاً ﴾ على أنه مفعول به ، والمعنى أصنافاً من الكفرة و﴿ منهم ﴾ في موضع الصفة لأزواجاً أي أصنافاً وأقواماً من الكفرة .

كما قال : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ وأجاز الزمخشري أن ينتصب ﴿ أزواجاً ﴾ عن الحال من ضمير ﴿ به ﴾ و﴿ متعنا ﴾ مفعوله منهم كأنه قيل إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم ، وناساً منهم .

و﴿ زهرة ﴾ منصوب على الذم أو مفعول ثان لمتعنا على تضمينه معنى أعطينا أو بدل من محل الجار والمجرور ، أو بدل من ﴿ أزواجاً ﴾ على تقدير ذوي زهرة ، أو جعلهم ﴿ زهرة ﴾ على المبالغة أو منصوب بفعل محذوف يدل عليه ﴿ متعنا ﴾ أي جعلنا لهم ﴿ زهرة ﴾ أو حال من الهاء ، أو ما على تقدير حذف التنوين من ﴿ زهرة ﴾ لالتقاء

الساكنين وخبر ﴿ الحياة ﴾ على البدل من ﴿ ما ﴾ وكل هذه الأعاريب منقول والأخير اختاره مكي ، وردّ كونه بدلاً من محل ﴿ ما ﴾ لأن فيه الفصل بالبدل بين الصلاة وهي ﴿ متعنا ﴾ ومعمولها وهو ﴿ لنفتنهم ﴾ فالبدل وهو ﴿ زهرة ﴾ .

(37/504)

وقرأ الجمهور ﴿ زَهْرَة ﴾ بسكون الهاء .

وقرأ الحسن وأبو البرهيثم وأبو حيوة وطلحة وحميد وسلام ويعقوب وسهل وعيسى والزهري بفتحها .

وقرأ الأصمعي عن نافع لُنُفْتِنَهم بضم النون من أفتنه إذا جعل الفتنة واقعة فيه ، والزهرة والزهرة بمعنى واحد كالجهرة والجهرة .

وأجاز الزمخشري في ﴿ زهرة ﴾ المفتوح الهاء أن يكون جمع زاهر نحو كافر وكفرة ، وصفهم بأنهم زاهر وهذه الدنيا الصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب ، ومعنى ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم أو لنعذبهم في الآخرة بسببه .

﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ أي ما ذخر لهم من المواهب في الآخرة ﴿ خير ﴾ مما متع به هؤلاء في الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم .

وقيل : ما رزقهم وإن كان قليلاً خير مما رزقوا وإن كان كثير الحلية ذلك وحرمية هذا .

وقيل : ما رزقت من النبوة والإسلام .

وقيل : ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

وقيل : القناعة .

وقيل : ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(38/504)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لتقرير ما قبله من قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ الآية ، والهمزةُ للإنكار التوبيخي والفاءُ للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، واستعمالُ الهداية باللام إما لتنزيلها منزلةَ اللام فلا حاجةَ إلى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعولُ محذوفٌ ، وأياً ما

كان فالفاعلُ هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعنى أغَفلوا فلم يَفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآلَ أمرِهم كثرةُ إهلاكنا للقرون الأولى وقد مر في قوله عز وجل:

(39/504)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ الآية، وقيل: الفاعلُ الضميرُ العائد إلى الله عز وجل ويؤيده القراءةُ بنون العظمة وقوله تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ الخ، إما معلّقٌ للفعل سادٌّ مسدَّ مفعولِه أو مفسِّرٌ لمفعوله المحذوف هكذا قيل، والأوجهُ أن لا يُلاحَظَ مفعولٌ كأنه قيل: أفلم يفعلِ الله تعالى لهم الهدايةَ؟ ثم قيل بطريق الالتفاتِ: كم أهلكنا الخ بيانًا لتلك الهدايةِ، ومن القرى في محل النصبِ على أنه وصفٌ لمُمَيِّزِكَم أي كم قرنًا كائنًا من القرون وقوله تعالى: ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ حالٌ من القرون أو من مفعول أهلكْنا، أي أهلكناهم وهم في حال أمنٍ وتقلّبٍ في ديارهم أو من الضمير في لهم مؤكدٌ للإنكار والعامل يُهد، والمعنى أفلم يهد لهم إهلاكُنا للقرون السالفة من أصحاب الحِجْر وثمودَ وقُرّيات قوم لوطٍ حالَ كونهم ماشين في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكِهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا لئلا يحِلَّ بهم مثلُ ما حل بأولئك

، وقرئ يُمْشَوْن على البناء للمفعول أي يمكثون على المشي ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ تعليلٌ للإنكار وتقريرٌ للهداية مع عدم اهتدائِهم ، وذلك إشارةٌ إلى مضمون قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ الخ ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببُعْد منزلِته وعلوّ شأنه في بابه ﴿ لأيَاتٍ ﴾ كثيرةً عظيمةً واضحاتِ الهداية ظاهراتِ الدِلالة على الحق ، فإذن هو هادٍ وأيُّما هادٍ ويجوز أن تكون كلمةُ في تجريدية فافهم ﴿ لِّأُوْلِى النهى ﴾ لذوي العقولِ الناهيةِ عن القبائح التي من أقبحها ما يتعاطاه كفارُ مكّة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغيرِ ذلك من فنون المعاصي ، وفيه دلالةٌ على أن مضمونَ الجملة هو الفاعلُ لا المفعول .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ ﴾

(40/504)

كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حِكمة عدمِ وقوعِ ما يُشعر به قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الآية ، من أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب القرونَ المهلَكة ، أي ولولا الكلمةُ السابقةُ وهي العِدَةُ بتأخير عذابِ هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحةٍ تستدعيه ﴿ لَكَانَ ﴾ عقابُ جناياتِهم ﴿ لِزَاماً ﴾ أي لازماً لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعةً لزومُ ما نزل بأولئك الغابرين ، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه

السلام تلويحٌ بأن هذا التأخيرَ لتشريفه عليه السلام كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ واللّزامُ إما مصدرٌ لازمٌ وُصِف به مبالغةً وإما فِعالٌ بمعنى مِفْعل ، جُعل آلةَ اللزوم لفَرْط لزومه كما يقال : لِزازُ خصم ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على (كلمةٌ) أي ولولا أجلٌ مسمًّى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يومُ القيامة ويومُ بدر لما تأخر عذابُهم أصلاً ، وفصلُه عما عطف عليه للمسارعة إلى بيانِ جواب لولا وللإشعار باستقلال كلَ منهما بنفي لزومِ العذابِ ومراعاةِ فواصلِ الآيةِ الكريمةِ ، وقد جوّز عطفُه على المستكن في كان العائدِ إلى الأخذ العاجلِ المفهومِ من السياق تنزيلاً للفصل بالخبر منزلةَ التأكيد ، أي لكان الأخذُ العاجلُ وأجلٌ مسمى لازمَين لهم كدأب عادٍ وثمودَ وأضرابِهم ولم ينفرد الأجلُ المسمى دون الأخذِ العاجل .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

(41/504)

أي إذا كان الأمرُ على ما ذكر من أن تأخيرَ عذابِهم ليس بإهمالٍ بل إمهالٍ وأنه لازمٌ لهم ألبتةَ ، فاصبِرْ على ما يقولون من كلمات الكفرِ فإن علمه عليه السلام بأنهم معذبون لا محالة مما يسلّيه ويحمِله على الصبر ﴿ وَسَبّحْ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ أي صلِّ وأنت حامدٌ

لربك الذي يبلّغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه ، أو نزّهه تعالى عما ينسُبونه إليه مما لا يليق بشأنه الرفيعِ حامداً له على ما ميّزك بالهدى معترفاً بأنه مولى النّعم كلّها ، والأولُ هو الأظهرُ المناسبُ لقوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ الخ ، فإن توقيت التنزيه غيرُ معهودٍ فالمرادُ صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني صلاتي الظهرِ والعصر لأنهما قبل غروبها بعد زوالها ، وجمعُهما لمناسبة قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ صلاة العَصْرِ ﴾ ﴿ وَمِنْ ءانَاء الليل ﴾ أي من ساعاته جمع إنًى بالكسر والقصر ، وآناء بالفتح والمد ﴿ فَسَبّحْ ﴾ أي فصلِ والمرادُ به المغربُ والعشاءُ إيذاناً باختصاصهما بمزيد الفضل فإن القلبَ فيهما أجمعُ والنفسَ إلى الاستراحة أميل فتكون العبادةُ فيهما أشقَّ ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِىَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ تكريرٌ لصلاته الفجر والمغرب إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزيةٍ ، ومجيئُه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقول من قال : ظَهراهما مثل ظُهورِ التُّرسين ، أو أمرٌ بصلاة الظهر فإنه نهايةُ النصفِ الأول من النهار وبدايةُ النصف الأخيرِ ، وجمعُه باعتبار النصفين أو لأن النهارَ جنسٌ أو أمرٌ بالتطوع في أجزاء النهار ﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ متعلقٌ بسبح أي في هذه الأوقات رجاءَ أن تنال عنده تعالى ما ترضَى به نفسُك ، وقرىء تُرضَى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أي يُرضيك ربك .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تُطِلْ نظرَهما بطريق الرغبة والميل ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ من زخارف الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ أزواجا مِّنْهُمْ ﴾ أي أصنافاً من الكَفَرة مفعول متّعنا قُدّم عليه الجارُّ والمجرور للاعتناء به ، أو هو حالٌ من الضمير والمفعولُ منهم أي إلى الذي متعنا به وهو أصنافُ وأنواعُ بعضِهم على أنه معنى مِنْ التبعيضية ، أو بعضاً منهم على حذف الموصوفِ كما مر مراراً ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ منصوبٌ بمحذوف يدل عليه متعنا أي أعطينا أو به على تضمين معناه ، أو بالبدلية من محل به أو من أزواجاً بتقدير مضافٍ أو بدونه ، أو بالذم وهي الزينةُ والبهجةُ ، وقرىء زهَرَة بفتح الهاء وهي لغة كالجهَرة في الجهْرة أو جمعُ زاهر ، وصفٌ لهم بأنهم زاهِرو الدنيا لتنعُّمهم وبهاءِ زِيِّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهّاد ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ متعلقٌ بمتعنا جيء به للتنفير عنه ببيان سوءِ عاقبتِه مآلاً إثرَ إظهارِ بهجتِه حالاً ، أي لنعاملهم معاملةَ من يبتليهم ويختبرُهم فيه أو لنعذّبهم في الآخرة بسببه ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ أي ما ادخّر لك في الآخرة أو ما رزقك في الدنيا من النبوة والهدى ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه مع كونه في نفسه أجلَّ ما يتنافس فيه المتنافسون مأمونُ الغائلةِ بخلاف ما منحوه ﴿ وأبقى ﴾ فإنه لا يكاد ينقطع نفْسُه أو أثرُه أبداً كما عليه زهرة الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾

كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِى ﴾ [طه : 127] الآية والهمزة للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

واستعمال الهداية باللام إما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة إلى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعول الثاني محذوف .

وأياً ما كان فالفاعل ضميره تعالى وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى أغفلوا فلم يفعل الله تعالى لهم الهداية أو فلم يبين عز وجل لهم العبر .

وقوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّنَ القرون ﴾ إما بيان بطريق الالتفات لتلك الهداية أو كالتفسير للمفعول المحذوف ، وقيل : فاعل ﴿ يَهْدِ ﴾ ضميره صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ضمير الاهلاك المفهوم من قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ والجملة مفسره له ، وقيل : الفاعل محذوف أي النظر والاعتبار ونسب ذلك إلى المبرد ، وفيه حذف الفاعل وهو لا

يجوز عند البصريين، وقال الزمخشري: الفاعل جملة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ الخ ووقوع الجلمة فاعلاً مذهب كوفي، والجمهور على خلافه لكن رجح ذلك هنا بأن التعليل فيما بعد يقتضيه.

ورجح كون الفاعل ضميره تعالى شأنه بأنه قد قرأ فرقة منهم ابن عباس.

والسلمي ﴿ أَفَلَمْ ﴾ بالنون.

(44/504)

واختار بعضهم عليه كون الفعل منزلاً منزلة اللازم وجملة ﴿ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ بياناً لتلك الهداية، وبعض آخر كونه متعدياً والمفعول مضمون الجملة أي أفلم يبين الله تعالى لهم مضمون هذا الكلام، وقيل: الجملة سادة مسد المفعول والفعل معلق عنها، وتعقب بأن ﴿ كَمْ ﴾ هنا خبرية وهي لا تعلق عن العمل وإنما التي تعلق عنه كم الاستفهامية على ما نص عليه أبو حيان في البحر لكن أنت تعلم أنه إذا كان مدار التعليق الصدارة كما هو الظاهر فقد صرح ابن هشام بأن لكل من كم الاستفهامية وكم الخبرية ما ذكر ورد في المغنى قول ابن عصفور: ﴿ إن كَمْ ﴾ في الآية فاعل يهد بأن لها الصدر ثم قال: وقوله إن ذلك جاء على لغة رديئة حكاها الأخفش عن بعضهم أنه يقول ملكت كم عبيد فيخرجها عن

الصدرية خطأ عظيم إذ خرج كلام الله تعالى شأنه على هذه اللغة انتهى .

وهو ظاهر في أنه قائل بأن كم هنا خبرية ولها الصدر .

نعم نقل الحوفي عن بعضهم أنه رد القائل بالفاعلية بأنها استفهامية لا يعمل ما قبلها فيها والظاهر خبريتها وهي مفعول مقدم لأهلكنا و ﴿ مّنَ القرون ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمميزها أي كن قرن كائن من القرون ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ حال من ﴿ القرون ﴾ أو من مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في ديارهم .

واختار في البحر كونه حالاً من الضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ مؤكداً للإنكار والعامل في "يهد" أي أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين في مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر .

وثمود .

وقوم لوط مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى الشام وغيره ، وتوهم بعضهم أن الجملة في موضع الصفة للقرون وليس كذلك ، وقرأ ابن السميقع "يمشون" بالتشديد والبناء للمفعول أي يمكنون في المشي ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم .

﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ اشارة إلى مضمون قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ الخ ، وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه في بابه .

﴿ لَآيَاتٍ ﴾ كثيرة عظيمة ظاهرات الدالالة على الحق ، وجوز أن تكون كلمة في تجريدية كما فيل في قوله عز وجل : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ﴿ لِّأُوْلِى النهى ﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح التي من أقبحها ما يتعاطاه هؤلاء المنكر عليهم من الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك من فنون المعاصي .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾

كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يشعر به قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [طه : 128] الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة والكلمة السابقة هي العدة بتأخير عذاب الاستئصال عن هذه الامة إما إكراماً للنبي صلى الله عليه وسلم كما يشعر به التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] أو لأن من نسلهم من يؤمن أو لحكمة أخرى الله تعالى أعلم بها أي لولا الكلمة السابقة والعدة بتأخير العذاب ﴿ لَكَانَ ﴾ أي عقاب جناياتهم ﴿ لِزَاماً ﴾ أي لازماً لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل باضرابهم من القرون السالفة ، واللزام إما مصدر لازم كالخصام وصف به

للمبالغة أو اسم آلة كحزام وركاب والوصف به للمبالغة أيضاً كلزاز خصم بمعنى ملح على خصمه .

وجوز أبو البقاء كونه جمع لازم كقيام جمع قائم وهو خلاف الظاهر ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على ﴿ كَلِمَةَ ﴾ كما أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة .

(46/504)

والسدى أي لولا العدة بتأخير عذابهم والأجل المسمى لأعمارهم لما تأخر عذابهم أصلاً ، وفصله عما عطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب لولا ، والاشعار باستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآي الكريم ، وقيل : أي ولولا أجل مسمى لعذابهم وهو يوم القيامة .

وتعقب بأنه يتحد حينئذ بالكلمة السابقة فلا يصح إدراج استقلال كل منهما بالنفي في عداد نكت الفصل .

وأجيب بأنه لا يلزم من تأخير العذاب عن الدينا أن يكون له وقت لا يتأخر عنه ولا يتخلف فلا مانع من الاستقلال .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أن الأجل المسمى هي الكلمة التي سبقت ، وقيل : الأجل

المسمى للعذاب هو يوم بدر .

وتعقب بأنه ينافي كون الكلمة هي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة .

وأجيب بأن المراد من ذلك العذاب هو عذاب الاستئصال ولم يقع يوم بدر وجوز الزمخشري كون العطف على المستكن في كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد أي لكان الأخذ العاجل والأجل المسمى لازمين لهم كدأب عاد .

وثمود .

وأضرابهم ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل ، وأنت تعلم أن هذا لا يتسنى إذا كان ﴿ لزماً ﴾ اسم ءالة للزوم التثنية حينئذ

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

أي إذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال وأنه لازم لهم البتة ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من كلمات الكفر فإن علمه صلى الله عليه وسلم بأنهم معذبون لا محالة مما يليه ويحمله على الصبر ، والمراد به عدم الاضطراب لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ أي صل وأنت حامد لربك عز وجل الذي يبلغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه سبحانه ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ أي صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ أي صلاة المغرب ، والظاهر أن الظرف متعلق

بسبح .

وقد أخرج "تفسير التسبيح" في هذين الوقتين بما ذكر الطبراني .

وابن عساكر .

(47/504)

وابن مردويه عن جرير مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الحاكم عن فضالة بن وهب الليثي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له : " حافظ على العصرين قلت : وما العصران ؟ قال : صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " ، وقيل : المراد بالتسبيح قبل غروبا صلاتا الظهر والعصر لأن وقت كل منهما قبل غروبها وبعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ ، وأنت تعلم أن قبل الغروب وإن كان باعتبار معناه اللغوي صادقاً على وقت الظهر ووقت العصر إلا أن الاستعمال الشائع فيه وقت العصر ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءانَاء الليل ﴾ أي من ساعاته جمع إني وأنو بالياء والواو وكسر الهمزة وإنا بالكسر والقصر و ﴿ ءانَاء ﴾ بالفتح والمد ولم يشتهر اشتهار الثلاثة الأول ، وذكره من يوثق به من المفسرين ، وقال الراغب في مفرداته : قال الله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ [الأحزاب : 53] أي وقته ، والاناه إذا كسر أوله

قصر وإذا فتح مد نحو قول الحطيئة :

وآنيت العشاء إلى سهيل . . .

أو الشعري فطار بي الاناء

ثم قال : ويقال ءانيت الشيء إيناء أي أخرته عن أوانه ويانيت تأخرت اه ، وفي "المصباح" آنيته بالفتح والمد أخرته ، والاسم إناء بوزن سلام قيل منصوب على الظرفية بمضمر ، وقوله بجانه ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ عطف عليه أي قم بعض آناء الليل فسبح وهو كما ترى ، وقيل : منصوب بسبح على نسق ﴿ وإياى فارهبون ﴾ [البقرة : 40] ، والفاء على الأول عاطفة وعلى الثاني مفسرة ، وقيل : إنه معمول ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ ، والفاء زائدة فائدتها الدلالة على لزوم ما بعدها لما قبلها .

(48/504)

وذكر الخفاجي أنه معمول لما ذكر من غير حاجة لدعوى زيادة الفاء لأنها لا تمنع عمل ما بعدها فيما قبلها كما صرح به النحاة ، والمراد من التسبيح في بعض آناء الليل صلاة المغرب وصلاة العشاء وللاعتناء بشأنهما لم يكتف في الأمر بفعلهما بالفعل السابق بأن يعطف ﴿ مِنْ ءانَاء الليل ﴾ على أحد الظرفين السابقين من غير ذكر فسبح وللاهتمام بشأن ءاناء

الليل وأمنيازها على سائر الأوقات بأمور خاصية وعامية قدم ذكرها على الأمر ولم يسلك بها مسلك ما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ عطف على محل قوله سبحانه : ﴿ مِنْ ءانَاء الليل ﴾ وقيل : على قوله عز وجل ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ﴾ والمراد من التبيح أطراف النهار على ما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهما عن قتادة صلاة الظهر واختاره الجبائي ، ووجه إطلاق الطرف على وقتها بأنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير منه ، وجمعه باعتبار النصفين أو لأن تعريف النهار للجنس الشامل لكل نهار فيكون الجمع باعتبار تعدد النهار وأن لكل طرفا كذا قيل .

وأورد على ذلك أن البداية والنهاية فيه ليست على وتيرة واحدة لأن كون ذلك نهاية باعتبار أن النصف الأول انتهى عنده وهو خارج عنه وبداية باعتبار أن النصف الثاني ابتدأ منه وهو داخل فيه ، ولا شك في بعض كون الجمع بمثل هذا الاعتبار على أنه لا بد مع ذلك من القول بأن أقل الجمع اثنان ، وأيضاً أن إطلاق الطرف على طرف أحد نصفيه تكلف فإنه ليس طرفاً له بل لنصفه .

وقيل : هذا تكرير لصلاتي الصبح والمغرب إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية ، والمراد

بالنهار ما بين طلوع الشمس وغروبها وبالطرف ما يلاصق أول الشيء وآخره ، والاتيان بلفظ الجمع مع أن المراد إثنان لا من اللبس إذ النهار ليس له إلا طرفان ، ونظيره قول العجاج :

ومهمهين فدفدين مرتين . . .

ظهراهما مثل ظهور الترسين

(49/504)

والمرجح المشاكلة لآناء الليل ، واختار هذا من أدخل الظهر فيما قبل الغروب ، وفيه أن الطرف حقيقة فيما ينتهي به الشيء وهو منه ويطلق على أوله وآخره وإطلاقه على الملاصق المذكور ليس بحقيقة ، وأجيب بأنه سائغ شائع وإن لم يكن حقيقة ؛ وجوز أن يكون تكريراً لصلاتي الصبح والعصر ويراد بالنهار ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس وبالطرف الأول ، والآخر بحسب العرف وإذا أريد بالنهار ما بين طلوع الشمس وغروبها يبعد هذا التجويز إذ لا يكون الطرفان حينئذ على وتيرة واحدة ، وقيل : هو أمر بالتطوع في الساعات الأخيرة للنهار وفيه صرف الأمر عن ظاهره مع أن في كون الساعات الأخيرة للنهار زمن تطوع بالاصة كلاماً لا يخفى على الفقيه .

وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أمر بالتسبيح مقروناً بالحمد وحينئذ إما أن يراد اللفظ أي قل سبحانه الله والحمد لله أو يراد المعنى أي نزهه سبحانه عن السوء وأثن عليه بالجميل .

وفي خبر ذكره ابن عطية " من سبح عند غروب الشمس سبعين تسبيحة غربت بذنوبه "

وقال أبو مسلم : لا يبعد حمل ذلك على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات وعلى ذلك حمله أيضاً العز بن عبد السلام وجعل الباء في قوله سبحانه : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ للآلة ، وقال : إن ذلك لتعيين سلب صفات النقص لأن من سلب شيئاً فقد أثبت ضده وأشداد صفات النقص صفات الكمال فمن نزهه سبحانه فقد أثبت صفات الكمال ، وجوز في إضافة الحمد إلى الرب أن تكون من إضافة المصدر إلى الفاعل أو من إضافة المصدر إلى المفعول أو من إضافة الاختصاص بأن يكون الحمد بمعنى المحامد ؛ ثم استحسن الأول لأن الحمد الحق الكامل حمد الله تعالى نفسه ، والمتبادر جعل الباء للملابسة والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول .

واختار الإمام حمل التسبيح على التنزيه من الشرك ، وقال : إنه أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره لأنه سبحانه صبره أولاً على ما يقولون من التكذيب وإظهار الكفر والشرك والذي يليق بذلك أن يؤمر بتنزيهه تعالى عن قولهم : حتى يكون مظهراً لذلك وداعياً إليه .

واعترض بأنه لا وجه حينئذ لتخصيص هذه الأوقات بالذكر ، وأجيب بأن المراد بذكرها الدلالة على الدوام كما في قوله تعالى : ﴿ بالغداة والعشى ﴾ [الأنعام : 52] مع أن لبعض الأوقات مزية لأمر لا يعلمه إلا الله تعالى .

ورد بأنه يأباه من التبعيضية في قوله سبحانه ﴿ مِنْ أَمَّنْ هُوَ ﴾ على أن هذه الدلالة يكفيها أن يقال : قبل طلوع الشمس وبعده لتناوله الليل والنهار فالزيادة تدل على أن المراد خصوصية الوقت ، ولا يخفى أن قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَمَّنْ هُوَ ﴾ متعلق بسبح الثاني فليكن الأول للتعميم ، والثاني لتخصيص البعض اعتناء به ، نعم يرد أن التنزيه عن الشرك لا معنى لتخيصه إلا إذا أريد به قول : سبحانه الله مراداً به التنزيه عن الشكر ، وقيل : يجوز أن يكون المراد من الحمد الصلاة والظرف متعلق به فتكون حكمة التخصيص ظاهرة كذا في "الحواشي الشهابية" .

وقد عورض ما قاله الإمام بأن الأنسب بالأمر بالصبر الأمر بالصلاة ليكون ذلك إرشاداً لما تصمنه قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] وأيضاً الأمر الآتي أوفق بحمل الأمر بالتسبيح على الأمر بالصلاة وقد علمت أن الآثار تقتضي ذلك ثم إنه

يجوز أن يراد بالطرف طائفة من الشيء فإنه أحد معانيه كما في "الصحاح" و"القاموس" وإذا كان تعريف النهار للجنس على هذا لم يبق الكلام فيما روى عن قتادة كما كان فتدبر .

﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ قيل : هو متعلق بسبح أي سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب .

(51/504)

واستدل به على عدم الوجوب على الله تعالى ، وجوز أن يكون متعلقاً بالأمر بالصبر والأمر بالصلاة ، والمراد ﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ في الدنيا بحصول الظفر وانتشار أمر الدعوة ونحو ذلك ، وقرأ أبو حيوة .

وطلحة .

والكسائي .

وأبو بكر .

وإبان .

وعصمة .

وأبو عمارة عن حفص .

وأبو زيد عن المفضل.

وأبو عبيد.

ومحمد بن عيسى الأصفهاني ﴿ ترضى ﴾ على صيغة البناء للمفعول من أرضى أي يرضيك ربك.

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾

أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ من زخارف الدنيا كالبنين.

والأموال والمنازل.

والملابس.

والمطاعم ﴿ أزواجا مّنْهُمْ ﴾ أي أصنافاً من الكفرة وهو مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به ومن بيانية ، وجون أن يكون حالاً من ضمير به ومن تبعيضية مفعول متعنا أو متعلقة بمحذوف وقع صفة لمفعوله المحذوف أي لا تمدن عينيك إلى الذي متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم أو بعضاً كائناً منهم.

والمراد على ما قيل استمر على ترك ذلك ، وقيل : الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد أمته لأنه صلى الله عليه وسلم كان أبعد شيء عن إطالة النظر إلى زينة الدينا وزخارفها وأعلق بما عند الله عز وجل من كل أحد وهو عليه الصلاة والسلام القائل : " الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أريد به وجه الله تعالى " وكان صلى الله عليه وسلم شديد النهي عن الاغترار بالدنيا والنظر إلى زخرفها ، والكلام على حذف مضاف أو فيه تجوز في النسبة ، وفي العدول عن لا تنظر إلى ما متعنا به الخ إلى ما في النظم الكريم إشارة إلى أن النظر الغير الممدود معفو وكان المنهي عنه في الحقيقة هو الإعجاب بذلك والرغبة فيه والميل إليه لكن بعض المتقين بالغوا في غض البصر عن ذلك حتى أنهم لم ينظروا إلى أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغيرهما وذلك لمغزى بعيد وهو أنهم اتخذوها لعيون النظارة والفخر بها فيكون النظر إليها محصلاً لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها .

﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي زينتها وبهجتها وهو منصوب بمحذوف يدل عليه متعناً أي جعلنا لهم زهرة إو بمتعنا على أنه مفعول ثان له لتضمينه معنى أعطينا أو على أنه بدل من محل به وضعفه ابن الحاجب في أماليه لأن إبدال منصوب من محل جار ومجرور ضعيف كمررت بزيد أخاك ولأن الإبدال من العائد مختلف فيه .

ومثل ذلك ما قيل إنه بدل من ما الموصولة لما فيه من الفصل بالبدل بين الصلة ومعمولها أو

على أنه بدل من أزواجاً بتقدير مضاف أي ذوي أو أهل زهرة ، وقيل : بدون تقدير على كون أزواجاً حالاً بمعنى أصناف التمتعات أو على جعلهم نفس الزهرة مبالغة .

(53/504)

وضعف هذا بأن مثله يجري في النعت لا في البدل لمشابهته لبدل الغلط حينئذ أو على أنه تمييز لما أو لضمير به ، وحكى عن الفراء أو صفة أزواجاً ورد ذلك لتعريف التمييز وتعريف وصف النكرة ، وقيل : على أنه حال من ضمير به أو من ما وحذف التنوين للالتقاء الساكنين وجر الحياة على البدل من ما واختاره مكي ولا يخفى ما فيه ، وقيل : نصب على الذم أي اذم زهرة الخ واعترض بأن المقام يأباه لأن المراد أن النفوس مجبولة على النظر إليها والرغبة فيها ولا يلائمه تحقيرها ورد بأن في إضافة الزهرة إلى الحياة الدنيا كل ذم وما ذكر من الرغبة من شهوة النفوس الغبية التي حرمت .

نور التوفيق .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وطلحة .

وحميد .

وسلام .

ويعقوب .

وسهل .

وعيسى .

والزهري زهرة بفتح الهاء وهي لغة كالجهرة في الجهرة ، وفي المحتسب لابن جني مذهب أصحابنا في كل حرف حلق ساكن بعد فتحة أنه لا يحرك إلا على أنه لغة كنهر .

ونهر .

وشعر .

وشعر .

ومذهب الكوفيين أنه يطرد تحريك الثاني لكونه حرفاً حلقياً وإن لم يسمع ما لم يمنع منه مانع كما في لفظ نحو لأنه لو حرك قلب الواو ألفاً ، وجوز الزمخشري كون زهرة بالتحريك جمع زاهر ككافر وكفرة وهو وصف لأزواجاً أي أزواجاً من الكفرة زاهرين بالحياة الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب ، وجوز على هذا كونه حالاً لأن إضافته لفظية .

(54/504)

وأنت تعلم أن المتبادر من هذه الصفة قصد الثبوت لا الحدوث فلا تكون إضافتها لفظية على أن المعنى على تقدير الحالية ليس بذاك ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ متعلق بمتعنا أي لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم في الآخرة بسببه وفيه تنفير عن ذلك سوء عاقبته مآلاً أثر بهجته حالاً ، وقرأ الأصمعي عن عاصم لنفتنهم بضم النون من أفتنه إذا جعل الفتنة واقعة فيه على ما قال أبو حيان ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ أي ما ادخر لك في الآخرة أو ما رزقك في الدنيا من النبوة والهدى ، وادعى "صاحب الكشف" أنه أنسب بهذا المقام أو ما ادخر لك فيها من فتح البلاد والغنائم ، وقيل : القناعة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما متع به هؤلاء لأنه مع كونه في نفسه من أجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما متعوا به ﴿ وأبقى ﴾ فإنه نفسه أو أثره لا يكاد ينقطع كالذي متعوا به . انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(55/504)

وقال القاسمي :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾

أي : لهؤلاء المكذبين : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أي : الأمم المكذبة للرسل : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ يريد قريشاً ، أي : يتقلّبون في بلاد عاد وثمود ولوط ويعاينون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ أي : العقول السليمة . كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46] ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الآية ، بإهلاكهم مثل هلاك أولئك والكلمة السابقة ، قال القاشانيّ : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب في الدنيا ، لكون نبيّهم نبيّ الرحمة . وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] .

وقال الزمخشري : الكلمة السابقة هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة . واللزام إما مصدر لازم كالخصام ، وصف به مبالغة . أو اسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب ، واسمُ الآلة يوصف به

مبالغة أيضاً ، كقولهم : مِسْعَرُ حَرْبٍ ، ولِزَاز خَصْمٍ بمعنى مُلَحّ علَى خَصمه . من لَزَّ بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع لازم . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمّىً ﴾ عطف على كلمة , أي : ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه ، للإشعار باستقلال كل منهما ، بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

وقد جوز عطفه على المستكن في كان العائد إلى الأخذ العاجل ، المفهوم من السياق ، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم ، كدأب عاد وثمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل .

(56/504)

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ أي : إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمْهال ، فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر ، فالفاء سببية . والمراد بالصبر عدم

الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة . وفي التسبيح المأمور به وجهان :

الأول : أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائض ، حامداً على ما ميّزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة : سبحان الله وبحمده . وعليه فسرُّ تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثاني : أنه الصلاة وهو الأقرب لآية : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : 45] ، والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى : صلِّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه ، قبل طلوع الشمس ، يعني صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعني صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ أي : من ساعاته ، يعني المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيهما ، لاختصاصهما بمزيد الفضل . وذلك لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوءِ الرِّجْلِ والخلوّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ تكرير لصلاة الفجر والمغرب ، إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ : ﴿ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار ، أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار . وقال الرازي : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت : وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ أي : رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك . وتقهرك على عدوك وبلوغ أمنيتك من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ [الإسراء : 79] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى : 5] .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغي الرغبة فيه ، وإن ما أوتيه أجلّ وأسمى ، بقوله سبحانه :

﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ﴾ أي : أصنافاً من الكفرة : ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي زينتها . منصوب على البدلية من : ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ أو بـ : ﴿ مَتَّعْنَا ﴾ على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي : لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم . فإن ذلك فان وزائل وغرور وخدع تضمحل .

قال أبو السعود : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ متعلق بـ : ﴿ مَتَّعْنَا ﴾ جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلاً ، إثر إظهار بهجته حالاً . أي : لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم في الآخرة بسببه : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي : ثوابه الأخرويّ خير في نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [القصص : 80] ، أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبقى ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذي تتبعه السعادة في الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تذبل وتفنى . وفي التعبير بالزهرة إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية ما قاله الزمخشري رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه ، وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : 79] ، حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بـ : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [القصص : 80] .

وفيه : أن النظر غير الممدود معفوّ عنه . وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع ، وإن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه ، قيل : ولا تمدّن عينيك . أي : لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجب غض النظر عن أبنية الظلمة ، وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغري لهم على اتخاذها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 172.176 ﴾

(60/504)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾

تفريع على الوعيد المتقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ [طه : 127] .

جعل الاستفهام الإنكاري التعجيبي مفرعاً على الإخبار بالجزاء بالمعيشة الضنك لمن

أعرض عن توحيد الله لأنه سبب عليه لا محالة ، تعجيباً من حال غفلة المخاطبين المشركين عما حلّ بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرسل .

فضمائر جمع الغائبين عائدة إلى معروف من مقام التعريض بالتحذير والإنذار بقرينة قوله ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ ، فإنه لا يصلح إلا أن يكون حالاً لقوم أحياء يومئذ .

والهداية هنا مستعارة للإرشاد إلى الأمور العقلية بتنزيل العقلي منزلة الحسيّ ، فيؤول معناها إلى معنى التبيين ، ولذلك عُدي فعلها باللاّم ، كما في قوله تعالى : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ في سورة الأعراف (100) .

وجملة كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ معلّقة فعل ﴿ يهدِ عن العمل في المفعول لوجود اسم الاستفهام بعدها ، أي ألم يرشدهم إلى جواب كم أهلكنا قبلهم ﴾ أي كثرة إهلاكنا القرون .

وفاعل ﴿ يهد ضمير دل عليه السياق وهو ضمير الجلالة ، والمعنى : أفلم يهد الله لهم جواب كم أهلكنا ﴾ .

ويجوز أن يكون الفاعل مضمون جملة ﴿ كم أهلكنا ﴾ .

والمعنى : أفلم يُبيّن لهم هذا السؤال ، على أن مفعول ﴿ يهدِ محذوف تنزيلاً للفعل منزلة اللازم ، أي يحصل لهم التبيين .

وجملة يمشون في مساكنهم ﴾ حال من الضمير المجرور باللاّم ، لأنّ عدم التبيين في تلك الحالة

أشد غرابة وأحرى بالتعجيب .

والمراد بالقرون : عاد وثمود .

فقد كان العرب يمرون بمساكن عاد في رحلاتهم إلى اليمن ونجران وما جاورها ، وبمساكن ثمود في رحلاتهم إلى الشام .

وقد مرّ النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بديار ثمود في مسيرهم إلى تبوك .

(61/504)

وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ في موضع التعليل للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون .

فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيذان بالتعليل .

والنُهى بضم النُون والقصر جمع نُهْيَة بضم النون وسكون الهاء : اسم العقل .

وقد يستعمل النُهى مفرداً بمعنى العقل .

وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم عديمو العقول ، كقوله ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان : 44] .

جملة ﴿ ولوْلاَ كَلِمَةٌ ﴾ عطف على جملة ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ [طه : 128] باعتبار ما

فيها من التحذير والتهديد والعبرة بالقرون الماضية ، وبأنهم جديرون بأن يحل بهم مثل ما حل بأولئك .

فلما كانوا قد غرّتهم أنفسهم بتكذيب الوعيدِ لما رأوا من تأخر نزول العذاب بهم فكانوا يقولون ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [سبأ : 29] عقب وعيدهم بالتنبيه على ما يزيل غرورهم بأن سبب التأخير كلمةٌ سبقت من الله بذلك لِحِكَم يعلمها .

وهذا في معنى قوله ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ [سبأ : 29 ، 30] .

والكلمة : مستعملة هنا فيما شأنه أن تدل عليه الكلمات اللفظية من المعاني ، وهو المسمى عند الأشاعرة بالكلام النفسي الراجع إلى علم الله تعالى بما سيبرزه للناس من أمر التكوين أو أمرِ التشريع ، أو الوعظ .

وتقدّم قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ في سورة هود (110) .

فالكلمة هنا مراد بها : ما عَلمه الله من تأجيل حلول العذاب بهم ، فالله تعالى بحكمته أنظر قريشاً فلم يعجل لهم العذاب لأنه أراد أن ينشر الإسلام بمن يؤمن منهم وبذريّاتهم .

وفي ذلك كرامة للنبيء محمد بتيسير أسباب بقاء شرعه وانتشاره لأنه الشريعة الخاتمة .

وخصّ الله منهم بعذاب السيف والأسر من كانوا أشداء في التكذيب والإعراض حكمة منه تعالى، كما قال: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ [الأنفال: 33 - 34].

واللِزام بكسر اللام: مصدر لازَمَ: كالخصام، استعمل مصدراً لفعل لَزِم الثاني لقصد المبالغة في قوة المعنى كأنه حاصل من عدة ناس.

ويجوز أن يكون وزن فِعال بمعنى فاعل، مثل لزاز في قول لبيد:

منا لزاز كريهة جذّامها . . .

وسِداد في قول العَرَجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا . . .

ليوم كريهة وسِدادِ ثَغْر

أي: لكان الإهلاك الشديد لازماً لهم.

فانتصب لزاماً على أنه خبر (كانَ)، واسمُها ضمير راجع إلى الإهلاك المستفاد من ﴿ كم أهلكنا ﴾ (128)، أي لكان الإهلاك الذي أُهلك مثله مَن قبلهم من القرون، وهو الاستيصال، لازماً لهم.

﴿ وأجل مسمى ﴾ عطف على ﴿ كلمة ﴾ والتقدير : ولولا كلمة وأجلٌ مسمّى يقع عنده الهلاك لكان إهلاكهم لزاماً .

والمراد بالأجل : ما سيُكشف لهم من حلول العذاب : إما في الدنيا بأن حل برجال منهم وهو عذاب البطشة الكبرى يومَ بدر ؛ وإما في الآخرة وهو ما سيحل بمن ماتوا كفّاراً منهم .

وفي معناه قوله تعالى : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ [الفرقان : 77] .

ويظهر أنه شاع في عصر الصحابة تأويل اسم اللزام أنه عذاب توعد الله به مشركي قريش .

وقيل : هو عذاب يوم بدر .

ففي "صحيح البخاري" عن ابن مسعود قال : "خمس قد مضين : الدخان ، والقمرُ ، والرّومُ ، والبطشة ، واللِزام ﴿ فسوف يكون لزاماً .

يريد بذلك إبطال أن يكون اللِزام مترقباً في آخر الدنيا .

وليس في القرآن ما يحوج إلى تأويل اللِزام بهذا كما علمت .

وفرع على ذلك أمر رسول الله بالصبر على ما يقولون من التكذيب وبالوعيد لتأخير نزوله بهم .

والمعنى : فلا تستعجل لهم العذاب واصبر على تكذيبهم ونحوه الشامل له الموصول في قوله ما يقولون ﴾ .

وأمره بأن يقبل على مزاولة تزكية نفسه وتزكية أهله بالصلاة ، والإعراض عما متع الله الكفّار برفاهية العيش ، ووعده بأن العاقبة للمتقين .

فالتسبيح هنا مستعمل في الصلاة لاشتمالها على تسبيح الله وتنزيهه .

والباء في قوله ﴿ بحمد ربك ﴾ للملابسة ، وهي ملابسة الفاعل لفعله ، أي سبّحْ حامداً ربّك ، فموقع المجرور موقع الحال .

والأوقات المذكورة هي أوقات الصلوات ، وهي وقت الصبح قبل طلوع الشمس ، ووقتان قبل غروبها وهما الظهر والعصر ، وقيل المراد صلاة العصر .

وأما الظهر فهي قوله : ﴿ وأطراف النهار ﴾ كما سيأتي .

و﴿ منْ ﴾ في قوله ﴿ من آناء الليل ﴾ ابتدائية متعلّقة بفعل (فسبح) .

وذلك وقتا المغرب والعشاء .

وهذا كله من المجمل الذي بيّنته السنّة المتواترة .

وأدخلت الفاء على ﴿ فسبح ﴾ لأنه لما قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام شابه تقديم أسماء الشرط المفيدة معنى الزمان ، فعومل الفعل معاملة جواب الشرط كقوله صلى الله

عليه وسلم "ففيهما فجاهد" ، أي الأبوين ، وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ وقد تقدم في سورة الإسراء (79) .

ووجه الاهتمام بآناء الليل أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة فيخشى أن تتساهل في أداء الصلاة فيه .

وآناء الليل : ساعاته .

وهو جمع إنْي بكسر الهمزة وسكون النون وياء في آخره .

ويقال : إنو بواو في آخره .

ويقال : إنىً بألف في آخره مقصوراً ويقال : أناء بفتح الهمزة في أوله وبمد في آخره وجَمْع ذلك على آناء بوزن أفْعال .

وقوله وأطراف النهار ﴾ بالنصب عطف على قوله ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ ، وطرف الشيء منتهاه .

قيل : المراد أول النهار وآخره ، وهما وقتا الصبح والمغرب ، فيكون من عطف البعض على الكل للاهتمام بالبعض ، كقوله ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] .

وقيل : المراد طرف سير الشمس في قوس الأفق ، وهو بلوغ سيرها وسْط الأفق المعبر عنه بالزوال ، وهما طرفان طرفُ النهاية وطرف الزوال ، وهو انتهاء النصف الأول وابتداء النصف الثاني من القوس ، كما قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ [هود : 114] .

وعلى هذا التفسير يتجه أن يكون ذكر الطرفين معاً لوقت صلاة واحدة أن وقتها ما بين الخروج من أحد الطرفين والدخول في الطرف الآخر وتلك حصة دقيقة .

وعلى التفسيرين فللنهار طرفان لا أطراف ، كما قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار فالجمع في قوله وأطراف النهار ﴾ من إطلاق اسم الجمع على المثنى ، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس ، كقوله تعالى : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] .

والذي حسّنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ لعلّك تَرضى بفتح التاء بصيغة البناء للفاعل ، أي رجاءً لك أن تنال من الثواب عند الله ما ترضَى به نفسُك .

ويجوز أن يكون المعنى : لعل في ذلك المقدار الواجب من الصلوات ما ترضى به نفسك دون زيادة في الواجب رفقاً بك وبأمتك .

ويبيّنه قوله : وجعلت قرّة عيني في الصلاة .

وقرأ الكسائي ، وأبو بكر عن عاصم تُرضى بضم التاء أي يرضيك ربّك ، وهو محتمل للمعنيين .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

أُعقب أمره بالصبر على ما يقولونه بنهيه عن الإعجاب بما يَنْعَم به من تَنعّم من المشركين بأموال وبنين في حين كفرهم بالله بأن ذلك لِحكَم يعلمها الله تعالى ، منها إقامة الحجّة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ المؤمنون : 55 ، 56) .

(65/504)

وذكر الأزواج هنا لدلالته على العَائلات والبيوت ، أي إلى ما متعناهم وأزواجَهم به من المتع ؛ فكلّ زوج ممتّع بمتعة في زوجه مما يحسن في نظر كل من محاسن قرينه وما يقارن ذلك من محاسن مشتركة بين الزوجين كالبنين والرياش والمنازل والخدم .

ومدّ العينين : مستعمل في إطالة النظر للتعجيب لا للإعجاب ، شبه ذلك بمد اليد لتناول شيء مشتهى .

وقد تقدم نظيره في آخر سورة الحِجْر .

والزَهرة بفتح الزاي وسكون الهاء : واحدة الزهْر ، وهو نَوْر الشجر والنباتتِ .

وتستعار للزينة المعجِبة المبهتة ، لأن منظر الزّهرة يزين النبات ويُعجب الناظر ، فزهرة الحياة : زينة الحياة ، أي زينة أمور الحياة من اللّباس والأنعام والجنان والنساء والبنين ، كقوله تعالى : ﴿ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ [القصص : 60] .

وانتصب ﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ على الحال من اسم الموصول في قوله ﴿ ما متعنا به أزواجاً منهم .

وقرأ الجمهور زهْرة بسكون الهاء .

وقرأه يعقوب بفتح الهاء وهي لغة .

لنفتنهم ﴾ متعلق بـ ﴿ متعنا ﴾ .

و(في) للظرفية المجازية ، أي ليحصل فتنتهم في خلاله ، ففي كلّ صنف من ذلك المتاع فتنة مناسبة له .

واللاّم للعلّة المجازية التي هي عاقبة الشيء ، مثل قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 68] .

وإنما متّعهم الله بزهرة الدنيا لأسباب كثيرة متسلسلة عن نُظُم الاجتماع فكانت لهم فتنة في دينهم ، فجُعل الحاصل بمنزلة الباعث .

والفتنة : اضطراب النفس وتبلبل البال من خوف أو توقع أو التواء الأمور ، وكانوا لا يخلُون

من ذلك ، فَلشركهم يقذف الله في قلوبهم الغم والتوقع ، وفتنتُهم في الآخرة ظاهرة .

فالظرفية هنا كالتي في قول سبَرة بن عَمرو الفقْعسي:

نُحابي بها أكفَاءَنا ونُهينها . . .

ونشرب في أثمانها ونقامر

وقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ في سورة النساء (5) .

(66/504)

وجملة ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ تذييل ، لأن قوله ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ إلى آخره يفيد أن ما يبدو للناظر من حسن شارتهم مشوب ومبطّن بفتنة في النفس وشقاء في العيش وعقاب عليه في الآخرة ، فذيل بأن الرزق الميسّر من الله للمؤمنين خير من ذلك وأبقى في الدنيا ومنفعته باقية في الآخرة لما يقارنه في الدنيا من الشكر .

فإضافة ﴿ رزق ربك ﴾ إضافة تشريف ، وإلا فإن الرزق كلّه من الله ، ولكن رزق الكافرين لما خالطه وحف به حال أصحابه من غضب الله عليهم ، ولما فيه من التبعة على أصحابه في الدنيا والآخرة لكفرانهم النعمة جعل كالمنكور انتسابه إلى الله ، وجعل رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران ومن تبعات ذلك .

و ﴿ خير ﴾ تفضيل ، والخيرية حقيقة اعتبارية تختلف باختلاف نواحيها .

فمنها : خير لصاحبه في العاجل شرّ عليه في الآجل ، ومنها خير مشوب بشرور وفتن ، وخير صاف من ذلك ، ومنها ملائم ملاءَمَة قوية ، وخير ملائم ملاءمة ضعيفة ، فالتفضيل باعتبار توفر السلامة من العواقب السيّئة والفتن كالمقرون بالقناعة ، فتفضيل الخيرية جاء مجملاً يظهر بالتدبر .

﴿ وأبقى ﴾ تفضيل على ما مُتّع به الكافرون لأنّ في رزق الكافرين بقاءً ، وهو أيضاً يظهر بقاؤه بالتدّبر فيما يحف به وعواقبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(67/504)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾

الهداية : الدلالة والبيان ، وتهديه أي : تدلّه على طريق الخير . والاستفهام في ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [طه : 128] والاستفهام يَرِد مرة لتعلم ما تجهل ، أو يرد للتقرير بما فعلتَ .

فالمراد : أفلم ينظروا إلى الأمم السابقة وما نزل بهم لما كَذَّبوا رسُل الله ؟ كما قال في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] .

وقال سبحانه : ﴿ والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُوا الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد ﴾ [الفجر : 110] .

أَلاَ ترَوْنَ كل هذه الآيات في المكذبين ؟ أَلاَ ترون أن الله ناصرُ رسُلَه ؟ ولم يكُنْ سبحانه ليبعثهم ، ثم يتخلى عنهم ، ويُسلمهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40] .

وبعد هذا كله يُعرِض المكذبون ، وكأنهم لم يروا شيئاً من هذه الآيات .

وساعة ترى (كَمْ) فاعلم أنها للشيء الكثير الذي يفوق الحصر ، كما تقول لصاحبك : كم أعطيتُك ، وكم ساعدتُك . أي : مرات كثيرة ، فكأنك وكلته ليجيب هو بنفسه ، ولا تستفهم منه إلا إذا كان الجواب في صالحك قطعاً .

فمعنى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [طه : 128] يعني : يُبيّن لهم ويدُلُّهم على القرى الكثيرة التي كذَّبت رسلها ، وماذا حدث لها وحاق بها من العذاب ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا ويأخذوا منهم عِبرة ولا ينصرفوا عنها .

وقوله تعالى : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ [طه : 128] كقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] فليس تاريخاً يُحكى إنما واقع ماثل تروْنه بأعينكم ، وتسيرون بين أطلاله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النهى ﴾ [طه : 128] أي : عجائب لمَنْ له عقل يفكر .

وكلمة (النُّهَى) جمع نُهية ، وهي العقل ، وهذه الكلمة تحُلّ لنا إشكالات كثيرة في الكفر ، فالبعض يظن أن الله تعالى خلق لنا العقل لنرتع به في مجالات الفكر كما نشاء ، وننفلت من كل القيود .

إنما العقل من العقال الذي يُعقَل به البعير حتى لا ينفلتَ منك ، وكذلك عقلُك يعقِلك ، ويُنظِّم حركتك حتى لا تسير في الكون على هَواك ، عقلك لتعقل به الأمور فتقول : هذا صواب ، وهذا خطأ . قبل أن تُقدِم عليه .

فالسارق لو عقل ما يفعل ما أقدمَ على سرقة الناس ، وما رأيك لو أبحنا للناس جميعاً أنْ يسرقوك ، وأنت فرد ، وهم جماعة ؟

الحق ساعةَ يعقل بصرك أنْ يمتدَّ لما حرم عليك فلا تقُلْ : ضيق عليَّ ، لأنه أمر الآخرين أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك ، والغير أكثر منك ، إذن : فأنت المستفيد . فإنْ أردتَ أن تُعربد في أعراض الناس ، فأَبِح لهم أن يُعربِدوا في أعراضك .

" والنبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه شاب يشكو عدم صبره على غريزة الجنس ، يريد أن يبيح له الزنا والعياذ بالله ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يُلقِّنه درساً يصرفه عن هذه الجريمة ، فماذا قال له ؟

قال : " يا أخا العرب ، أتحب هذا لأمك ؟ أتحب هذا لأختك ؟ أتحب هذا لزوجتك ؟ "

والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك . ولك أنْ تتصوَّر ماذا ينتاب الواحد منّا إنْ سمع سيرة أمه وأخته وزوجته في هذا الموقف .

ثم يقول صلى الله عليه وسلم للشاب بعد أن هزَّه هذه الهزة العنيفة : "كذلك الناس لا يحبون لذلك لأمهاتهم ، ولا لزوجاتهم ، ولا لأخواتهم ، ولا لبناتهم .

(69/504)

وهنا قال الشاب : " فوالله ما همَّتْ نفسي لشيء من هذا إلا وذكرتُ أمي وزوجتي وأختي وابنتي " .

إذن : فالعقل هو الميزان ، وهو الذي يُجرِي المعادلة ، ويُوازِن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللُّب فإنها تؤدي نفس المعنى : فالنُّهي من النهي عن الشيء ، واللب أي : حقيقة الشيء وأصله ، لا أنْ يكون سطحيّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ ﴾

الكلام عن آيات الله في المكذبين للرسل وما حاق بهم من العذاب وقد مَرَّ عليها القوم دون أن يعتبروا بها ، أو يرتدعوا ، أو يخافوا أن تكون نهايتهم كنهاية سابقيهم ، وربما قال هؤلاء القوم : ها نحن على ما نحن عليه دون أن يصيبنا شيء من العذاب : لا صَعْق ولا مَسْخ ولا ريح ، فبماذا تهددنا ؟

لذلك يوضح لهم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة : ما منعنا أنْ نفعل بكم ما فعلنا بسابقيكم من المكذبين بالرسل ، ما منعنا من إذلالكم وتدميركم إلا شيء واحد هو كلمة سبقتْ من الله .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : 129] .

فما هذه الكلمة التي سبقتْ من الله ، ومنعتْ عنهم العذاب ؟

المراد بالكلمة قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] .

فهذه الكلمة التي سبقت مني هي التي منعتْ عنكم عذابي ، والرسول صلى الله عليه وسلم يوضح هذه المسألة فيقول : " بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً " .

فإنْ قال قائل : الله يهدد الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنْ يُنزل بهم ما أنزل

بالمكذِّبين من الأمم السابقة، وها هم كفار مكة يُكذّبون رسول الله دون أن يحدث لهم شيء.

(70/504)

نقول: لأن لهم أمانين من العذاب، الكلمة التي سبقتْ، والأجل المسمّى عند الله ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه: 129] فلكل واحد أَجَلٌ معلوم.

معنى: ﴿ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ [طه: 129] أي: لزم لزاماً أنْ يحيق بهم ما حاقَ بالأمم السابقة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

فما دام أن القوم يُكذِّبون رسول الله، وهم في مأمن من العذاب، فلابُدَّ أن يتمادوا في تكذيبهم، ويستمروا في عنادهم لرسول الله؛ لذلك يتوجه الحق سبحانه وتعالى إلى الناحية الأخرى فيعطي رسوله صلى الله عليه وسلم المناعة اللازمة لمواجهة هذا الموقف ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: 130] لأن لك بكل صبر أجراً يتناسب مع ما تصبر عليه.

والصبر قد يكون مَيْسوراً سهلاً في بعض المواقف، وقد يكون شديداً وصَعْباً ويحتاج إلى

مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر . ومرة يقول : اصطبر .

فما الأقوال التي يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر وقولهم : مجنون وكاهن ، كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله ؛ لأن كلَّ قوله من أقوالهم تحمل معها دليل كذبهم .

فقولهم عن رسول الله : ساحر ، فمَن الذي سَحَره رسول الله ؟ سحر المؤمنين به ، فلماذا إذن لم يسحركم أنتم أيضاً ، وتنتهي المسألة . إذن : بقاؤكم على عناده والكفر به دليل براءته من هذه التهمة .

وقولهم : شاعر ، كيف وهم أمة صناعتها الكلام ، وفنون القول شعره ونثره ، فكيف يَخْفي عليهم أسلوب القرآن ؟ والشعر عندهم كلام موزون ومُقفًى ، فهل القرآن كذلك ؟ ولو جاء هذا الاتهام من غيركم لكان مقبولاً ، أما أنْ يأتيَ منكم أنتم يا مَنْ تجعلون للكلام أسواقاً ومعارض كمعارض الصناعات الآن ، فهذا غير مقبول منكم .

وسبق أنْ قلنا : إنك إذا قرأتَ مقالاً مثلاً ، ومرَّ بك بيت من الشعر تشعر به وتحسُّ أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . فخُذْ مثلاً قول ابن زيدون :

" هذا العَذْل محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوة غمرة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدي أنْ أبطأ سَيْبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها . ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له العتب في احتباله ، ولا عتبَ عليه في اغتفاله .

فَإنْ يكُنِ الفعلُ الذي سَاءَ واحِداً . . . فَأَفْعالُه اللائي سَرَرْنَ أُلوفُ "

على الفور تحس أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر .

فإذا ما قرأتَ في القرآن مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة امرأة العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم ﴾ [يوسف : 3032] .

فهل أحسستَ بانتقال الأسلوب من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر ؟ ومع ذلك لو وزنتَ ﴿ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف : 32] لوجدتَ لها وزناً شِعْرياً .

وقوله تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [الحجر : 49] .

لو أردتها بيتاً شعرياً تقول (نبىء عبادي إني أنا الغفور الرحيم) . ومع ذلك تقرأها في

سياقها ، فلا تشعر أنها شعر ؛ لأن الأسلوب فريد من نوعه ، وهذه من عظمة القرآن الكريم ، كلام فَذٌّ لوحده غير كلام البشر .

(72/504)

أما قولهم " مجنون " فالمجنون لا يدري ما يفعل ، ولا يعقل تصرفاته ولا يسأل عنها ، ولا نستطيع أنْ نتهمه بشيء فنقول عنه مثلاً : كذاب أو قبيح ؛ لأن آلة الاختيار عنده مُعطّلة ، وليس لديه انسجام في التصرفات ، فيمكن أن يضحك في وجهك ، ثم يضربك في نفس الوقت ، يمكن أن يعطيك شيئاً ثم يتفل في وجهك .

والمجنون ليس له خُلق ، والحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 14] .

والخُلق هو المَلَكَة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً ، وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبْتُم عليه شيئاً مما يفعله المجانين .

أما قولهم : إن رسول الله افترى هذا القرآن ، كيف وأنتم لم تسمعوا منه قبل البعثة شِعْراً أو خطباً ولم يسبق أن قال شيئاً مثل هذا ؟ كيف يفتري مثل هذا الأسلوب المعجز ، وليس

عنده صنعة الكلام ؟ وإن كان محمد قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون أنتم مثله وتعارضونه ؟

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : 38] .

وهكذا تقوم من نفس أقوالهم الأدلة على كذبهم وادعائهم على رسول الله .

ثم يقول تعالى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : 130] .

والتسبيح هو التنزيه لله تعالى ، وهو صفة لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ويُنزِّهه ؛ لذلك يقول تعالى في استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] ؛ لأن العملية مخالفة لمنطق القوانين ، فقال : نزّه فعل الله عن أفعالك .

إذن : فسبحان معناها أن التنزيه ثابت لله ، ولو لم يوجد المنزَّه ، فلما خلق الله الكون سَبَّحتْ السموات والأرض وما فيهن لله .

(73/504)

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله قبل أن يوجد المسبّح ، ثم سبح لله أول خلقه ، ولا يزالون يُسبِّحون ، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك الأعلى . أي : نزّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً

وأقوالاً عَمّا تراه من المخلوقات .

ومعنى ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [طه : 130] لأن من لوازم الخلق أن يكون مختلفاً في الأهواء والأغراض والمصالح ، يتشاكلون ويتحاربون على عَرَضٍ زائل ، فمنهم الظالم والمظلوم ، والقوي والضعيف .

إذن : لا بُدَّ من وجود واحد لا توجد فيه صفة من هذه الصفات ، ليضع القانون والقسطاس المستقيم الذي يُنظِّم حياة الخَلْق ، فهذا التنزُّه عن مشابهة الأحداث كلها ، وعن هذه النقائض نعمة يجب أن نشكر الله ونحمده على وجودها فيه ، نحمده على أنه ليس كمثله شيء .

فذلك يجعل الكون كله طائعاً ، إنما لو مثله شيء فلربما تأبَّى على الطاعة في "كُنْ فيكون" .

والتسبيح والتنزيه يعني المقياس الذي يضبط العالم ليس كمقياس العالم ، إنما أصلح وأقوى ، وهذا في صالح أنت ، فساعةَ أن تُسبِّح الله اذكر أن التسبيح نعمة ، فاحمد الله على أنه لا شيءَ مثلُه . سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمْدِ ربك ؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على مَنْ خلق ، وهذه نعمة تستحق أن تحمدَ الله عليها .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى ربّ الأسرة ، هذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها ، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون الله على وجوده بينهم ؛

لأنه يحفظ توازن الأسرة، ويُنظِّم العلاقات بين أفرادها . ألم نَقُلْ في الأمثال (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) ؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعاليا ؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته، حيث سليزم كل واحد منهم حدوده .

(74/504)

لذلك من أسماء الله تعالى: المتعال المتكبر، وهذه الصفة وإنْ كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد ، فهي محبوبة لله تعالى ؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له، فتَكَبُّره سبحانه وتعاليه بحقٍّ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82] .

إذن: لا يحفظ التوازن في الكون إلا قوة مغايرة للخَلْق .

وقوله: ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى ﴾ [طه: 130] .

أي: تسبيحاً دائماً مُتوالياً، كما أن نعم الله عليك متوالية لا تنتهي، فكُلُّ حركة من حركاتك نعمة، النوم نعمة، والاستيقاظ نعمة، الأكل نعمة، والشرب نعمة، البصر

والسمع ، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد ، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نِعَم .

خُذْ مثلاً حركة اليد التي تبطش بها ، وتأمّل كم هي مرنة مِطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك ، أصابعك تتجمع وتمسك الأشياء دون أن تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها ، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله في حركة يده ، إلا إذا أصابها شلل والعياذ بالله ، ساعتها يعرف أنها عملية صعبة ، ولا يقدر عليها إلا الخالق عز وجل .

لذلك ؛ فالحق سبحانه وتعالى يعطينا زمن التسبيح ، فيعيشه في كل الوقت ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ [طه : 130] .

وآناء : جمع إنْى ، وهو الجزء من الزمن ، وهذا الجزء يترقَّى حسْب تنبهك لتسبيح التحميد ، فمعنى التسبيح آناء الليل ، يعني أجزاء الليل كله ، فهل يعني هذا أن يظل الإنسانُ لا عمل له إلا التسبيح ؟

(75/504)

المناطقة يقولون عن الجزء من الوقت : مقول بالتشكيك ، فيمكن أن تُجزّىء الليل إلى ساعات ، فتُسبِّح كل ساعة ، أو تترقّى فتسبح كل دقيقة ، أو تترقّى فتُسبِّح كل ثانية ،

وهكذا حسْب مقامات المسبّح الحامد وأحواله .

فهناك من عباد الله مَنْ لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة ، فتراه يُسبِّح الله في كل حركة من حركاته ؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته بدليل أنها قد تُسْلَب منه في أي وقت .

إذن : فأجزاء الوقت تختلف باختلاف المقامات والأحوال ، ألاَ تراهم في وحدة القياس يقيسون بالمتر ، ثم بالسنتيمتر ، ثم بالمللي متر ، وفي قياس الوقت توصّل اليابانيون إلى أجهزة تُحدِّد جزءاً من سبعة آلاف جزء من الثانية .

ثم يقول : ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ [طه : 130] ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره ، والمقامات والأحوال كلها ؛ لذلك يقول بعض العارفين في نصائحه التي تضمن سلامة حركة الحياة :

(اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك) فهذا الذي يستحق المراقبة ، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة ، فلا تكُنْ مراقبته لمن يغفل عنه ، أو ينصرف ، أو ينام عنه .

﴿ واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك) فإذا شربتَ كوب ماءٍ فقُلْ : الحمد لله أن أرواك ، فساعةَ تشعر بنشاطها في نفسك قل : الحمد لله . وساعةَ أنْ تُخرجها عرقاً أو بولاً قل : الحمد لله ، وهكذا تكون موالاة حمد الله ، والمداومة على شُكْره .

(واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) فطالما أنك لا تستغني عنه ، فهو الأَوْلَى بطاعتك .

(واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه) وإلاَّ فأين يمكنك أن تذهب ؟

لكن ، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل ، فقال ﴿ آنَآءِ الليل ﴾ [طه : 130] وحدده في النهار فقال ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ [طه : 130] ؟

(76/504)

قالوا : لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسَّعْي ، فربما شغلك التسبيح عن عملك ، وربنا يأمرك أن نضربَ في الأرض ونُسهم في حركة الحياة ، والعمل يُعين على التسبيح ، ويُعين على الطاعة ، ويُعينك أنْ تلبي نداء : الله أكبر .

ألاَ تقرأ قول الله عز وجل في سورة الجمعة : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : 910] .

ذلك لأن حركة الحياة هي التي تُعينك على أداء فَرْض ربك عليك ، فأنت مثلاً تحتاج في الصلاة إلى سَتْرِ العورة ، فانظر إلى هذا الثواب الذي تستتر به عورتك : كم يَدٍ ساهمتْ فيه ؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرتْ في إخراجه على هذه الصورة ؟

أمّا في الليل فأنتم مستريح ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله في أيِّ وقت من أوقاته .

ويلفتنا قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ [طه : 130] فأيّ طلوع؟ وأيّ غروب؟ وأيُّ ليل؟ وأيّ نهار؟ أهي لمصر أم للجزائر أم للهند أم لليابان؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهي ، فالشمس في كل أوقاتها طالعة غاربة ، ففي هذا إشارة إلى أن ذِكْر الله وتسبيح الله دائمٌ لا ينقطع .

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح ، فيقول ﴿ لَعَلَّكَ تَرضى ﴾ [طه : 130] ونلحظ أن الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية ، فلم يقُل : لعلِّي أرضى ، قال : لعلك أنت ترضى ، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك .

(77/504)

والرضا : أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمِّل ، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد ، وحقّق ما يرجو ، كما تقول لصاحبك : أأنت سعيد الآن؟ يقول : يعني : يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا ، فإنْ تحقَّق له ما يريد يقول لك : سعيد والحمد لله .

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول : ربنا يُديم عمرك ، جزاك الله خيراً .

إذن : رضا الإنسان له مراحل ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي كما روى النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يتجلى على خَلْقه في الجنة : يا عبادي هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ، قال : أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وهل يوجد أفضل من ذلك ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً " .

وهكذا يكون الرضى في أعلى مستوياته . الغاية من التسبيح إذن الذي كلّفك ربك به أنْ ترضى أنت ، وأن يعودَ عليك بالنفع ، وإلا فالحق سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق ، أنت مُسبِّح قبل أن يخلق الكون كله ، ولا يزيد تسبيح في ملكه تعالى شيئاً . ويتم لك هذا الرضا حين تُرضِي الله فيرضيك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا ﴾

بعد أن قال الحق سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : 130] حذره أن ينظر إلى هؤلاء الجبابرة والمعاندين على أنهم في نعمة تمتد عينه إليها .

ومعنى مَدِّ العين ألاَّ تقتصر على مجرد النظر على قَدَر طاقتها ، إنما يُوجهها باستزادة ويوسعها لترى أكثر مما ينبغي ، ومَدُّ العين يأتي دائماً بعد شغل النفس بالنعمة وتطلّعها إليها ، فكأن الله يقول : لا تشغل نفسك بما هم فيه من نعيم ؛ لأنه زهرة الدنيا التي سرعان ما تفنى

.

وقوله: ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [طه: 131] الأزواج لا يُراد بها هنا الرجل والمرأة، إنما تعني الأصناف المقترنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت: 25].

كل واحد له شيطان يلازمه لا يفارقه. هذه هي الزوجية المرادة، كذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات: 51].

والزَّهْرة إشارة إلى سرعة النهاية والحياة القصيرة، وهي زهْرة لحياة دنيا، وأيّ وصف لها أقل من كوْنها دنيا؟ وهذا الذي أعطيناهم من متاع الدنيا الزائل فأخذوا يزهُون به، ما هو إلا فتنة واختبار ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه: 131].

والاختبار يكون بالخير كما يكون بالشر، يقول تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: 35].

ويقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر: 15].

ويشكر أنه عرفها لله ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر:

16] .

وهنا يُصحّح لهم الحق سبحانه هذه الفكرة، يقول: كلا كما كاذب في هذا القول، فلا النعمةَ دليلُ الإكرام، ولا سلبها دليلُ الإهانة: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ [الفجر: 1719] .

فهَبْ أن الله أعطاك نعمة ولم تؤدِّ شكرها وحقَّها، فأيُّ إكرام فيها؟

(79/504)

ثم يقول تعالى: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131] أي: لا تشغل بالك بما أعطاهم الله؛ لأنه سبحانه سيعطيك أعظم من هذا، ورِزْق ربك خير من هذا النعيم الزائل وأبْقى وأخلد؛ لأنه دائم لا ينقطع في دار البقاء التي لا تفوتها ولا تفوتك، أما هؤلاء فنعيمهم موقوت، إمّا أنْ يفوتهم بالفقر، أو يفوتوه هم بالموت. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(80/504)

لطيفة

قال في ملاك التأويل :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ (طه : 128) ، وفي سورة السجدة : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ (السجدة : 26) ، فلحقت همزة الاستفهام الواردة هنا تقريراً وتوبيخاً حرف العطف متقدمة قبله كما يجب واختلف حرف العطف ، فلسسائل أن يسأل : لم اختصت الأولى بالفاء من حروف العطف والثانية بالواو ؟ وعن زيادة (من) في سورة السجدة ؟

(81/504)

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن قوله في الآية الأولى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ كلام لم يتقدمه ما يكون هذا معطوفاً عليه ، وإنما هو كلام مستأنف مبتدأ ، ألا ترى ما تقدم قبله من قوله تعالى إخباراً عمن أعرض عما جاءت به الرسل فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ - أي بإعراضه عن إتباع الرسل - ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ (طه : 124) إلى قوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ (طه : 127) ، هذا إخبار عن جزاء من أعرض ولم يؤمن ، ثم ورد ما بعد مستأنفاً وارداً مورد ما يرد من الكلام التفاتاً ، وهذا مراد أبي محمد بن عطية ، ثم

ابتدأ توبيخهم وتذكيرهم فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ ، والضمير المجرور لكفار قريش ومن كان معهم ، أي أفلم يتبين لهم ، والفاعل ما يفهم من جملة الكلام وسياقه ، أي أفلم يهد لهم هذا المشاهد لهم الواضح من تقلبهم في بلاء عاد وثمود يمشون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم ، وكم مفعولة بأهلكنا . واستمر الكلام مع المذكورين إلى آخر السورة ، وإذا كان قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ مبتدأ مستأنفاً فالموضع للفاء ، وهذا كقوله في سورة الرعد : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (الرعد : 31) ، وقوله في سورة القتال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد : 24) ، وما أتى مثل هذا مما الوجه فيه الاستئناف ، ولم يقصد عطفه

على ما قبله ، وإنما ارتباطه بما تقدمه من جهة المعنى ، ولا مدخل فيه للعطف مع أن الالتحام حاصل من وجه كما بينا .

(82/504)

وأما آية السجدة فالواو فيها عاطفة على مقدر لما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ (السجدة : 22) ، كأن قد قيل : أفلا تذكروا ولم يعرضوا : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ (السجدة : 26) أولم يبين لهم إهلاك من

تقدمهم من القرون ، وقال الزمخشري في الواو في : { أَوَلَمْ يَهْدِ } للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف والضمير في لهم لأهل مكة ، قلت وهذا هو عين ما قدمنا ، وإنما لم تكن الواو هنا لغير العطف لأن الواو لا يستأنف بها بخلاف الفاء كما قدمنا ، فاختلف المقصود في الآيتين ووضح وجه مجيء الفاء في آية طه والواو في آية السجدة .

وأما زيادة { من } في قوله في آية السجدة : { مِنْ قَبْلِهِمْ } فإنها مقصود فيها استغراق عموم لمناسبة ما تقدم هذه الآية من حصر التقسيم في قوله : { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ } [السجدة : 18] وأعقب : { به } ما يفهمه قوله : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ } [السجدة : 26] ، إذ ليس هنا الوارد كالوارد في سورة طه من قوله : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } [طه : 128] ، فهذا يشعر بخصوص يناسبه سقوط { من } الاستغراقية ، وما في آية السجدة يشعر بعموم واستغراق تناسبه { من } في قوله : { مِنْ قَبْلِهِمْ } ، فجاء كل على ما يناسب ويجب ، والله أعلم .

(83/504)

الآية الثامنة من سورة طه قوله تعالى : { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } [طه : 130] ، وفي سورة ق : { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) (ق : 39) ، فقال في الأولى : (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) وفي الثانية : (وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) ، وفي سورة الطور : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) (الطور : 48-49) ، (فيسأل عن الفرق) ؟

والجواب أن ذلك ، والله أعلم : لرعي الفواصل ومقاطع الآي ، ألا ترى ما تقدم قبل آية ق من قوله : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) (ق : 38) ، فناسب هذا قوله : (وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) ، وأما آية طه فقد اكتنفها أي مقاطعها الألف المفتوح ما قبلها نطقاً وتقديراً ، فجاء ذلك على ما يجب في السورتين .

(84/504)

فصل : وأما قوله تعالى في السورتين : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) بناء على المتقدم فيهما من قوله تعالى : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) واتصاله به فبين الوضوح ، لن المراد أمره عليه السلام بالصبر على أذاهم في قولهم كاهن ومجنون وساحر إلى غير ذلك مما نزه الله نبيه ، عليه السلام ، منه فأمر (بالصبر) على ذلك وأمر أن يستعين بصبره وصلاته كما قال تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) (البقرة : 45) ، وهو المراد أيضاً هنا ، وعن الصلاة عبر بالتسبيح في

قول أكثر المفسرين ، وإن أريد بالتسبيح معنى التنزيه بالذكر المعروف فذلك أيضاً بين والمعنى متعارف ، ويكون مأموراً بالصبر والذكر والتنزيه ، فالالتحام بين ، وإنما المشكل قوله تعالى في سورة ص : (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ . . .) (ص : 17) ، وربط قوله : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) بما قبله ومطابقته إياه ، وقد أجاب الزمخشري عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب ، بناء على استبداد العبيد وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريد ، فجعل لله شركاء ، وأفرد العباد بأفعالهم استبداداً وملكاً ، وأجاب (بناء) على ما أصل ولم يوفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصل ، وأذكر إن شاء الله ذلك في أول آية من سورة ص على أوضح منهج بحلول الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 342 . 344 ﴾

(85/504)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله : ﴿ وكذلك نجزي من أسرف ﴾ قال : من أشرك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ قال : ألم نبين لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ قال : أفلم نبين لهم ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم . وفي قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ قال : هذا من مقاديم الكلام يقول : لولا كلمة من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً ﴾ قال : لكان أخذاً ، ولكنا أخرناهم إلى يوم بدر وهو اللزوم ، وتفسيرها ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ لكان لزاماً ، ولكنه تقديم وتأخير في الكلام .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : الأجل المسمى ، الكلمة التي سبقت من ربك ﴿ لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ قال : أجل مسمى الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لكان لزاماً ﴾ قال : موتاً .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس

في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قال : هي الصلاة المكتوبة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ قال : هي صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ قال : صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل ﴾ قال : صلاة المغرب والعشاء ﴿ وأطراف النهار ﴾ قال : صلاة الظهر .

(86/504)

وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن جرير ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قال : " ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ صلاة الصبح ﴿ وقبل غروبها ﴾ صلاة العصر " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قال : كان هذا قبل أن تفرض الصلاة .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان وابن مردويه ، عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم

ستروون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا " ثم قرأ : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي ، عن عمارة بن رومية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " .

وأخرج الحاكم عن فضالة بن وهب الليثي ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : " حافظ على العصرين . قلت : وما العصران ؟ قال : صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار ﴾ قال : بعد الصبح وعند غروب الشمس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ لعلك ترضى ﴾ قال : الثواب فيما يزيدك الله على ذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عبد الرحمن ، أنه قرأ ﴿ لعلك ترضى ﴾ برفع التاء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والخرائطي في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في المعرفة عن أبي رافع قال : " أضاف النبي صلى الله عليه وسلم ضيفاً ولم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلِفْنا دقيقاً إلى هلال رجب . فقال : لا ، إلا برهن . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ، ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه ، اذهب بدرعي الحديد ، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ كأنه يعزيه عن الدنيا " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ الآية . قال : تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخوف ما أخاف عليكم ، ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا . قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بركات الأرض " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ قال : زينة الحياة الدنيا ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ قال : لنبتليهم فيه ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ قال : مما متع به هؤلاء من زهرة الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ يقول : رزق الجنة .

وأخرج المرهبي في فضل العلم عن زياد الصدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من طلب العلم تكفل الله برزقه " .

وأخرج المرهبي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من غدا في طلب العلم ، أظلت عليه الملائكة ، وبورك له في معيشته ولم ينقص من رزقه وكان عليه مباركاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(88/504)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ :

في فاعل " يَهْدِ " أوجهٌ ، أحدها : أنه ضميرُ الباري تعالى . ومعنى يَهْدي : يُبَيِّن . ومفعولُ يهدي محذوفٌ تقديرُه : أفلم يُبَيِّنِ اللهُ لهم العبرَ وفِعْلَه بالأمم المكذبة . قال أبو البقاء : " وفي فاعِله وجهان ، أحدهما : ضميرُ اسم الله تعالى ، وعَلَّق " بَيَّن " هنا إذا كانَتْ بمعنى اعلمْ ،

كما عَلَّقه في قولِه تعالى: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [إبراهيم: 45]. قال الشيخ: و"كم" هنا خبريةٌ لِ تعُلّق العاملَ عنها". وقال الزمخشري: "ويجوز أَنْ يكونَ فيه ضميرُ اللهِ أو الرسولِ. ويدلُّ عليه القراءةُ بالنون.

الوجه الثاني: أنَّ الفاعلَ مضمرٌ يُفَسِّره ما دَلَّ عليه من الكلام بعدَه. قال الحوفي: "كم أَهْلكنا" قد دَلَّ على هلاكِ القرونِ. التقدير: أفلم يَتَبَيَّنْ لهم هلاكُ مَنْ أَهْلكنا من القرن ومَحْوُ آثارِهم فيتَّعِظوا بذلك. وقال أبو البقاء: "الفاعلُ ما دَلَّ عليه قوله: ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ أي إهلاكنا والجملةُ مفسِّرةٌ له".

الوجه الثالث: أنَّ الفاعلَ نفسُ الجملة بعده. قال الزمخشري: "فاعلُ "لم يَهْدِ" الجملةُ بعده. يريدُ: ألم يَهْدِ لهم هذا بمعناه ومضمونِه. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين ﴾ [الصافات: 79] أي تَرَكْنا عليه هذا الكلامَ". قال الشيخ: "وكَوْنَ الجملةِ فاعلَ "يَهْدِ" هو مذهبٌ كوفي. وأمَّا تشبيهُه وتنظيرُه بقولِه: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين ﴾ فإنَّ "تركْنا" معناه معنى القول، فحُكِيَتْ به الجملةُ كأنه قيل: وقُلْنا عليه وأَطْلقنا عليه هذا اللفظ، والجملةُ تُحْكى بمعنى القولِ كما تُحْكَى بالقول".

الوجهُ الرابعُ : أنه ضميرُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ؛ لأنه هو المُبَيِّن لهم بما يوحى إليه من أخبار الأممِ السالفةِ والقرونِ الماضية . وهذا الوجهُ تقدَّم نَقْلُه عن أبي القاسم الزمخشري .

الوجهُ الخامسُ : أنَّ الفاعلَ محذوفٌ ، قال ابنُ عطية نقلاً عن غيره : " إن الفاعلَ مقدرٌ تقديرُه : الهدى أو الأمرُ أو النظرُ والاعتبار " قال ابن عطية : " وهذا عندي أحسنُ التقادير " .

قال الشيخ : " وهو قولُ المبردِ ، وليس بجيدٍ ؛ إذ فيه حَذْفُ الفاعلِ وهو لا يجوز عند البصريين ، وتحسينُه أَنْ يقالَ : الفاعل مضمر تقديره : يهد هو أي الهدى " ، قلت : ليس في هذا القولِ أنَّ الفاعلَ محذوفٌ ، بل فيه أنه مقدرٌ ، ولفظُ " مقدرٌ " كثيراً ما يُستعمل في المضمر . وأما مفعولُ " يَهْدِ " ففيه وجهان أحدهما : أنه محذوف . والثاني : أن يكونَ الجملةَ من " كم " وما في حَيِّزها ؛ لأنها معلِّقَةٌ له فهي سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولِه .

الوجه السادس : أنَّ الفاعلَ " كم " ، قاله الحوفي وأنكره على قائله ؛ لأنَّ " كم " استفهامٌ لا يَعْمل فيها ما قبلها .

قال الشيخ : " وليست هنا استفهاماً بل هي خبرية " . واختار الشيخ أن يكون الفاعلُ ضميرَ الله تعالى فقال : " وأحسنُ التخاريجِ أن يكونَ الفاعلُ ضميراً عائداً على الله تعالى

فكأنه قال: أفلم يبيِّن الله. ومفعول "يُبَيِّن" محذوفٌ أي: العبر بإهلاك القرونِ السابقة.

ثم قال: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أي: كثيراً أَهْلَكْنا ف "كم" مفعولةٌ بأهلكنا، والجملة كأنُها مفسِّرةٌ للمفعولِ المحذوف ل "يَهْدِ".

قوله: ﴿ مِّنَ الْقرون ﴾ في محلِّ نصبٍ نعتاً ل "كم" لأنها نكرة. ويَضْعُفُ جَعْلُه حالاً من النكرة. ولا يجوز أن يكونَ تمييزاً على قواعد البصريين، و "مِنْ" داخلةٌ عليه على حَدِّ دخولِها على غيرِه من التمييزات لتعريفه.

(90/504)

وقرأ العامَّةُ "يَهْدِ" بياءِ الغَيْبة. وتقدَّم الكلامُ في فاعِله. وقرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن بالنونِ المُؤْذِنَةِ بالتعظيم، وهي مؤيدةٌ لكونِ الفاعلِ في قراءةِ العامَّةِ ضميرَ الله تعالى.

قوله: ﴿ يَمْشُونَ ﴾ حالٌ من القرون أو مِنْ مفعولِ "أهلَكْنا". والضميرُ على هذين عائدٌ على القرونِ المُهْلَكَة. ومعناه: إنَّا أهلكناكم وهم في حالِ أَمْنٍ ومَشْيٍ وتَقَلُّبٍ في حاجاتهم كقوله: ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: 44] ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من الضمير في "لهم". والضميرُ في "يَمْشُون" على هذا عائدٌ على مَنْ عاد عليه الضمير في "لهم"، وهم المشركون المعاصرون لرسول الله صلَّى الله عليه وسلِّم. والعاملُ فيها "يَهْدِ". /و]

المعنى] : أنكم تَمْشُون في مساكن الأمم السالفة ، وتتصرَّفون في بلادهم ، فينبغي أَنْ تعتبروا لئلاَّ يَحُلَّ بكم ما حلَّ بهم . وقرأ ابن السميفع "يُمَشَّوْن" مبنياً للمفعول مضعَّفاً ؛ لأنه لَمَّا تعدى بالتضعيف جاز بناؤه للمفعول .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) ﴾

قوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ : في رفعِه وجهان ، أظهرُهما : عطفُه على "كلمةٌ" أي : ولولا أجلٌ مُسَمَّى لكان العذابُ لازماً لهم .

الثاني : جَوَّزه الزمخشريُّ وهو أَنْ يكونَ مرفوعاً عطفاً على الضمير المستتر . والضميرُ عائدٌ على الأخذِ العاجلِ المدلولِ عليه بالسياقِ . وقام الفصلُ بالجرِّ مَقامَ التأكيدِ .

والتقدير : ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربك لكان الأخذُ العاجل وأجلٌ مُسَمَّى لازِمَيْن لهم ، كما كانا لازِمَيْنِ لعادٍ وثمودَ ، ولم ينفردِ الأجلُ المسمى دون الأخذِ العاجل .

(91/504)

قلت : فقد جعل اسمَ "كان" عائداً على ما دَلَّ عليه السياقُ ، إلاَّ أنه قد تُشْكِلُ عليه مسألةٌ : وهو أنه قد جَوَّز في "لزام" وجهين ، أحدهما : أَنْ يكونَ مصدرَ لازَمَ كالخِصام ، ولا إشكال على هذا .

والثاني: أن يكون وصفاً على فِعال بمعنى مُفْعِل أي: مُلْزِم، كأنه آلةُ اللُّزوم لفَرْطِ لُزومه كما قالوا: لِزازُ خَصْمٍ، وعلى هذا فيُقال: كان ينبغي أَنْ يطابق في التثنية فيقال: لِزَامَيْنِ بخلاف كونه مصدراً فإنه يُفْرَدُ على كل حال.

وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ "لزاماً" جمعَ لازم كقِيام جمعَ قائم.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾

قوله: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾: حالٌ أي: وأنت حامدٌ له.

قوله: ﴿ وَمِنْ آنَآءِ الليل ﴾ متعلِّقٌ ب "سَبِّحْ" الثانيةِ، وقد تقدَّم ما في هذه الفاء.

قوله: ﴿ وَأَطْرَافَ ﴾ العامَّة علت نصبه. وفيه وجهان أحدُهما: أنه عطفٌ على محلِّ ﴿ وَمِنْ آنَآءِ الليل ﴾. والثاني: أنه عطفٌ على "قبلَ". وقرأ الحسنُ وعيسى بنُ عمر "وأطرافِ" بالجرِّ عطْفاً على "آناءِ الليل". وقوله هنا "أطرافَ" وفي هود ﴿ طَرَفَيِ النهار ﴾ [الآية: 114] فقيل: هو مِنْ وَضْعِ الجمعِ موضعَ التثنيةِ كقوله:

3329 ظَرْاهما مثلُ ظُهورِ التُّرْسَيْنْ... وقيل: هو على حقيقتِه. والمرادُ بالأَطْراف: الساعات.

قوله: ﴿ ترضى ﴾ قرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم تُرْضَى "مبنياً للمفعول. والباقون مبنياً للفاعلِ، وعليه ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى: 5].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

قوله : ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ : في نصبِه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ على المفعولِ به وهو واضح . والثاني : أنه منصوبٌ على الحالِ من الهاء في " به " . راعى لفظَ " ما " مرةً ، ومعناها أخرى ، فلذلك جَمَع . قال الزمخشري : " ويكون الفعلُ واقعاً على " منهم " .

قال الزمخشري : "كأنه قيل : إلى الذي مَتَّعْنا به وهو أصنافُ بعضِهم وناساً منهم " .

قوله : ﴿ زَهْرَةَ ﴾ في نصبه تسعةُ أوجه ، أحدُها : أنه مفعولٌ ثانٍ لأنه ضَمَّن مَتَّعْنا معنى أَعْطَيْنا . ف " أزواجاً " مفعولٌ أولُ ، و" زهرةَ " هو الثاني . الثاني : أن يكونَ بدلاً من " أَزْواجاً " ، وذلك : إمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : ذوي زهرة ، وإمَّا على المبالغةِ جُعِلوا نفسَ الزهرة . الثالث : أن يكونَ منصوباً بفعلٍ مضمرٍ دَلَّ عليه " مَتَّعْنا " تقديرُه : جَعَلْنا لهم زهرةً . الثالث : نَصْبُه على الذَّمِ ، قال الزمخشري : " وهو النصبُ على الاختصاص " .

الرابع : أن يكونَ بدلاً من موضعِ الموصولِ . قال أبو البقاء : " واختاره بعضُهم . وقال آخرون : لا يجوز لأنَّ قولَه ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ مِنْ صلة " مَتَّعْنا " فيلزمُ الفصلُ بين الصلةِ والموصولِ بالأجنبي " . وهو اعتراضٌ حسنٌ .

الخامس : أن ينتصبَ على البدلِ من محلِّ " به " . السادس : أن ينتصِبَ على الحالِ مِنْ " ما

" الموصولةِ . السابع : أنه حالٌ من الهاء في " به " وهو ضميرُ الموصولِ فهو كالذي قبله في المعنى ، فإنْ قيل : كيف تقع الحالُ معرفةً ؟ فالجوابُ أن تجعلَ " زهرةَ " منونةً نكرة ، وأنما حُذِفَ التنوينُ لالتقاء الساكنين نحو :

3330 . . . . ولا ذاكرَ اللَّهَ

إلاَّ قليلا

(93/504)

وعلى هذا : فيم جُرَّتِ الحياة ؟ فقيل : على البدل مِنْ " ما " الموصولة . الثامن : أنه تمييزٌ ل " ما " أو للهاءِ في " به " قاله الفراء . وقد رَدُّوه عليه بأنه معرفةٌ ، والمميِّزُ لا يكون معرفة . وهذا غيرُ لازمٍ له ؛ لأنه يجوز تعريفُ التمييز على أصول الكوفيين .

التاسع : أنه صفةٌ ل " أَزْواجاً " بالتأويلين المذكورَيْن في نصبه حالاً . وقد منع أبو البقاء من هذا الوجهِ بكونِ الموصوفِ نكرةً ، والوصفِ معرفةً ، وهذا يُجابُ عنه بما أُجيب في تسويغ نصبِه حالاً ، أعني حذفَ التنوينِ لالتقاءِ الساكنين .

والعامَّةُ على تسكينِ الهاء . وقرأ الحسن وأبو البرهسم وأبو حيوةَ بفتحِها ، فقيل : بمعنى ، ك جَهْرَة وجَهَرَة . وأجاز الزمخشري أَنْ يكونَ جمعَ زاهر كفاجِر وفَجَرة وبارّ وبَرَرَة ، وروى

الأصمعي عن نافع " لَنُفْتِنَهم " بضمِّ النون مِنْ أَفْتَنَه إذا أوقعه في الفتنةِ .

والزَّهْرَةُ : بفتحِ الهاء وسكونِها كنَهْر ونَهَر ، ما يَرُوْق من النَّوْر . وسِراجٌ زاهِرٌ لبريقِه ، ورجلٌ أزهرُ وأمرأةٌ زهراءُ من ذلك . والأنجمُ الزهرُ هي المضيئةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 117. 124﴾

(94/504)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾

أي أفلا ينظرون فيتفكرون ؟ ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون ؟ وإذا اعتبروا أفلا يزدجرون ؟ أم على وجوههم – في ميادين غَفَلاَتِهم يركضون ، وعن سوءِ معاملاتهم لا يرجعون ؟ أَلا ساء ما يعملون !

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) ﴾

لولا أَنَّ كلمةً اللَّهِ سَبَقَتْ بتأخير العقوبة عن هذه الأمة ، وأنه لا يستأصلهم لأنَّ جماعةً من الأولياء في أصلابهم لَعَجلَّ عقوبتَهم (1) ، ولكن . . . كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدةً

معلومة، ولكنه لم يهملهم أصلاً.

وإذا كانت الكلمةُ بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم قد سبقت، والعلمُ بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى - فالسعيُ والجهدُ، والانكماشُ والجدُّ.. متى تنفع؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

سماعُ الأذى يوجِب المشقة، فأزال عنه ما كان لَحِقَه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون، وأَمَرَهُ: إنْ كان سماعُ ما يقولون يُوحشُكَ فتسبيحُنا - الذي تُثْنِي به علينا - يُرَوِّحُك.

﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾: أي في صدر النهار؛ لِيُبَارِكَ لك في نهارِك، ويَنْعَمَ صباحُك.

﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ أي عند نقصان النهار؛ ليطيبَ لَيْلُكَ، وينعم رَواحُك.

﴿ وَمِنْ ءَانَآىءِ الَّيْلِ ﴾ أي في ساعات الليل؛ فإن كمال الصفوة في ذكر الله حال الخلوة.

﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ أي استَدِمْ ذِكْرَ اللَّهِ في جميع أحوالك.

---

(1) السبب كما ذكره رب العالمين فى سورة الأنفال ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) ﴾. والله أعلم.

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

فضل الرؤية فيما لا يُحْتَاجُ إليه معلول كَفَضْلِ الكلامِ ، والذي له عند الله مَنْزِلٌ وقَدْرٌ فَلِلْحَقِّ على جميع أحواله غَيْرَةٌ ، إذ لا يَرْضَى منه أنْ يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس لله - سبحانه - فيه رِضاءٌ ، وفي معناه أنشدوا :

فعيني إذا اسْتَحْسَنَتْ غيرَكم . . . أَمَرْتُ الدموعَ بتأديبها

ويقال لمّا أَدَّبَه في ألا ينظرَ إلى زينة الدنيا بكمال نظره وَقَفَ على وجه الأرض بِفَرْدِ قَدَمٍ تصاوناً عنها حتى قيل له " طه " أي طَأْ الأرضَ بقَدَمِكَ . . ولِمَ كلُّ هذه المجاهدة وكل هذا التباعد حتى تقف بفَرْدٍ قدمٍ؟ طَأْ الأرض بقدميك .

﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾ الفتنة ما يُشْغَل به عن الحقّ ، ويستولي حُبُّه على القلب ، ويُجَسِّر وجودُه على العصيان ، ويحمل الاستمتاع به على البَطَرِ والأشَر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

القليلُ من الحلال - وفيه رضاءُ الرحمن - خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام . . ومعه سُخْطُه . ويقال قليل يُشْهِدُكَ ربَّكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يُنْسِيكَ رَبَّك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 487 . 488 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمر بتزكية النفس أتبعه الإعلام بأن منها تزكية الغير ، لأن ذلك أدل على الإخلاص ، وأجدر بالخلاص ، كما دل عليه مثل السفينة الذي ضربه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن يأمر بالمعروف ومن يتركه فقال ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ كما كان أبوك إسماعيل عليه السلام ، ليقودهم إلى كل خير ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] ولم يذكر الزكاة لدخولها في التزهيد بالآية التي قبلها .

ولما كانت شديدة على النفس عظيمة النفع ، قال ﴿ واصطبر ﴾ بصيغة الافتعال ﴿ عليها ﴾ أي على فعلها ، مفرغاً نفسك لها وإن شغلتك عن بعض أمر المعاش ، لأنا

﴿لا نسألك رزقاً﴾ أي نكلفك طلبه لنفسك ولا لغيرك ، فإن ما لنا من العظمة يأبى أن نكلفك أمراً ، ولا نكفيك ما يشغلك عنه .

(97/504)

ولما كانت النفس بكليتها مصروفة إلى أمر المعاش ، كانت كأنها تقول : فمن أين يحصل الرزق ؟ فقال : ﴿نحن﴾ بنون العظمة ﴿نرزقك﴾ لك ولهم ما قدرناه لكم من أيّ جهة شئنا من ملكنا الواسع وإن كان يظن أنها بعيدة ، ولا ينفع في الرزق حول محتال ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا تدأبوا في تحصيله والسعي فيه ، فإن كلاًّ من الجاد فيه والمتهاون به لا يناله أكثر مما قسمناه له في الأزل ولا أقل ، فالمتقي لله المقبل على ذكره واثق بوعده قانع راض فهو في أوسع سعة ، والمعرض متوكل على سعيه فهو في كد وشقاء وجهد وعناء أبداً ﴿والعاقبة﴾ أي الكاملة ، وهي التي لا عاقبة في الحقيقة غيرها ، وهي الحالة الجميلة المحمودة التي تعقب الأمور ، أي تكون بعدها ﴿للتقوى﴾ أي لأهلها ، ولا معولة على الرزق وغيره توازي الصلاة ، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة – أخرجه أحمد عن حذيفة وعلقه البغوي في آخر سورة الحجر ، وقال الطبراني في معجمه الأوسط : ثنا أحمد – هو ابن يحيى الحلواني – ثنا سعيد – هو ابن سليمان –

عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنهم ـ قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ، ثم قرأ ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ الآية .

(98/504)

لا يروى هذا الحديث عن عبد الله بن سلام إلا بهذا الإسناد ، تفرد به معمر ، وقال الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير في تفسيره : وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي عبد الله بن أبي زياد القطران ناسيار نا جعفر عن ثابت قال : "كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أصابته خصاصة نادى أهله : يأهلاه ! صلوا صلوا " ، قال ثابت : وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وقد روى الترمذي وابن ماجه كلاهما في الزهد – وقال الترمذي : حسن غريب – من حديث عمران بن زائدة عن أبيه عن أبي خالد الوالبي عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يقول الله تعالى : تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك " وروى ابن ماجه من حديث الضحاك عن الأسود عن ابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ : سمعت نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد ،

كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم أحوال الدنيا لم يبال الله في أيّ أوديتها هلك "

وروى أيضاً من حديث عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت -رضى الله عنهم- : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : " من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمر ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة " .

(99/504)

ولما قدم في هذه السورة ما ذكر من قصص الأولين وأخبار الماضين ، مبكتاً بذلك من أمر قريش بالتعنت من اليهود ، فلم يقدروا على إنكار شيء منه ولا توجيه طعن إليه ، وخلله ببدائع الحكم ، وغرائب المواعظ في أرشق الكلم ، وختم ذلك بأعظم داع إلى التقوى ، عجب منهم في كونهم لا يذعنون للحق أنفة من المجاهرة بالباطل ، أو خوفاً من سوء العواقب ، فقال : ﴿ وقالوا ﴾ ولعله عطف على ما يقدر في حيز قوله ﴿ أفلم يهد لهم إلى قوله : إن في ذلك لآيات ﴾ من أن يقال : وقد أبوا ذلك ولم يعدوا شيئاً منه آية : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ يأتينا ﴾ أي محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ﴿ بآية ﴾ أي مثل آيات الأولين ﴿ من ربه ﴾ المحسن إليه ، دالة على صدقه .

ولما تضمن هذا أنهم لم يعدوا شيئاً من هذه البينات – التي أدلى بها على من تقدمه – آية مكابرة، استحقوا الإنكار، فقال: ﴿أولم﴾ أي ألم يأتهم من الآيات في هذا القرآن مما خصصتك به من الأحكام والحكم في أبلغ المعاني بأرشق النظوم ما أعجز بلغاءهم، وأبكم فصحاءهم، فدل قطعاً على أنه كلامي، أولم ﴿تأتهم بينة ما﴾ أي الأخبار التي ﴿في الصحف الأولى﴾ من صحف إبراهيم وموسى وعيسى وداود عليهم السلام في التوارة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب الإلهية كقصتي آدم وموسى المذكورتين في هذه السورة وغيرهما مما تقدم قصة لها كما هي عند أهلها على وجوه لا يعلمها إلا قليل من حذاقهم من غير أن يخالط عالماً منهم أو من غيرهم، ومن غير أن يقدر أحد منهم على معارضة ما أتى به في قصتها من النظم المنتج قطعاً أنه لا معلم له إلا الله المرسل له، وأن أتى به منها شاهد لما في الصحف الأولى من ذلك بالصدق، لأنه كلام الله، فهو بينة على غيره لإعجازه، فجميع الكتب الإلهية مفتقرة إلى شهادته افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة، ولا افتقار له بعد العجز عنه إلى شيء أصلاً، فهو أعظم من آيات جميع الأنبياء اللاتي يطلبون مثلها بما لا يقايس.

ولما تبين بذلك أنهم يطعنون بما لا شبهة لهم فيه أصلاً ، أتبعه ما كان لهم فيه نوع شبهة لو وقع ، فقال عاطفاً على ﴿ ولولا كلمة ﴾ : ﴿ ولو أنا أهلكناهم ﴾ معاملة لهم في عصيانهم بما يقتضيه مقام العظمة ﴿ بعذاب من قبله ﴾ أي من قبل هذا القرآن المذكور في الآية الماضية وما قاربها ، وفي قوله ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ صريحاً ، وكذا في مبنى السورة ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ﴿ لقالوا ﴾ يوم القيامة : ﴿ ربنا ﴾ يا من هو متصف بالإحسان إلينا ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ أرسلت ﴾ ودلوا على عظمته وعلو رتبته بحرف الغاية فقالوا : ﴿ إلينا رسولاً ﴾ أي يأمرنا بطاعتك ﴿ فنتبع ﴾ أي فيتسبب عنه أن نتبع ﴿ آياتك ﴾ التي يجيئنا بها .

(101/504)

ولما كان اتباعهم لا يستغرق زمان القبل قالوا : ﴿ من قبل أن نذل ﴾ بالعذاب هذا الذل ﴿ ونخزى ﴾ بالمعاصي التي عملناها على جهل هذا الخزي فلأجل ذلك أرسلناك إليهم وأقمنا بك حجة عليهم ، ونحن نترفق بهم ، ونكشف عن قلوب من شئنا منهم ما عليها من الرين بما ننزل من الذكر ونجدد من الآيات حتى نصدق أمرك ونعلي شأنك ونكثر أتباعك وننصر أشياعك .

ولما علم بهذا أن إيمانهم كالممتنع ، وجدالهم لا ينقطع ، بل إن جاءهم الهدى طعنوا فيه ، وإن عذبوا قبله تظلموا ، كان كأنه قيل : فما الذي أفعل معهم ؟ فقال : ﴿ قل كل ﴾ أي مني ومنكم ﴿ متربص ﴾ أي منتظر حسن عاقبة أمره ودوائر الزمان على عدوه ﴿ فتربصوا ﴾ فإنكم كالبهائم ليس لكم تأمل ، ولا تجوزون الجائز إلا عند وقوعه ﴿ فستعلمون ﴾ أي عما قريب بوعد لا خلف فيه عند كشف الغطاء ﴿ من أصحاب الصراط ﴾ أي الطريق الواضح الواسع ﴿ السويّ ﴾ أي الذي لا عوج فيه ولا نتوّ ، فهو من شأنه أن يوصل إلى المقاصد .

ولما كان صاحب الشيء قد لا يكون عالماً بالشيء ولا عاملاً بما يعلم منه ، قال ﴿ ومن اهتدى ﴾ أي من الضلالة فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره ، نحن أم أنتم ؟ ولقد علموا يقيناً ذلك يوم فتح مكة المشرفة ، واشتد اغتباطهم بالإسلام ، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم ، ورهبة من السيف والنقم ، وكنوا بعد ذلك يعجبون من توقفهم عنه ونفرتهم منه ، وهذا معناه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن اتبعه هم السعداء الأغنياء الراضون في الدنيا والآخرة ، وهو عين قوله تعالى : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ فقد انطبق الآخر على الأول ، ودل على أن العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل – والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 62.58 ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾

فمنهم من حمله على أقاربه ومنهم من حمله على كل أهل دينه ، وهذا أقرب وهو كقوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكواة ﴾ [مريم : 55] وإن احتمل أن يكون المراد من يضمه المسكن إذ التنبيه على الصلاة والأمر بها في أوقاتها ممكن فيهم دون سائر الأمة يعنى كما أمرناك بالصلاة فامر أنت قومك بها ، أما قوله : ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلاً ، فإن الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعلي عليهما السلام كل صباح ويقول : " الصلاة " وكان يفعل ذلك أشهراً ، ثم بين تعالى أنه إنما يأمرهم بذلك لمنافعهم وأنه متعال عن المنافع بقوله : ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وفيه وجوه .

أحدها : قال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 56 ، 57] .

وثانيها : ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ، ففرغ بالك

لأمر الآخرة ، وفي معناه قول الناس : من كان في عمل الله كان الله في عمله .

وثالثها : المعنى أنا لما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لأنا ننتفع بصلاتك .

فعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه النعم وفي الآخرة بالثواب ، قال عبد الله بن سلام : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية" واعلم أنه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب لأنه تعالى قال في وصف المتقين : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [النور : 37] ، أما قوله : والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لأهل التقوى يعني تقوى الله تعالى ، ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم ، فكأنه من تمام قوله : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : 130] وهي قولهم : ﴿ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِأَيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أوهموا بهذا الكلام أنه يكلفهم الإيمان من غير آية ، وقالوا في موضع آخر : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] وأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أن ما في القرآن إذ وافق ما في كتبهم مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى أستاذاً ألبتة كان ذلك

إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً .

وثانيها : أن بينة ما في الصحف الأولى ما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته .

(104/504)

وثالثها : ذكر ابن جرير والقفال [أن] المعنى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك ، وإنما أتاهم هذا البيان في القرآن ، فلهذا وصف القرآن بكونه : ﴿ بَيّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ واعلم أنه إنما ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل ، ثم بين أنه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة في التكليف ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذراً لهم ، فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم ألبتة بل الحجة عليهم .

ومعنى : ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ يحتمل من قبل إرساله ويحتمل من قبل ما أظهره من البينات فإن قيل فما معنى قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم . . .

لَقَالُواْ ﴾ [طه : 134] والهالك لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال : ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ وذلك لا يليق إلا بعذاب الآخرة ، روي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال عليه السلام : "يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة : الهالك في الفترة يقول لم يأتني رسول وإلا كنت أطوع خلقك لك .

" وتلا قوله : ﴿ لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لي عقلاً أنتفع به ، ويقول الصبي : كنت صغيراً لا أعقل فترفع لهم نار ، ويقال لهم : ادخلوها فيدخلها من كان في علم الله تعالى أنه شقي ويبقى من في علمه أنه سعيد ، فيقول الله تعالى لهم : "عصيتم اليوم فكيف برسلي لو أتوكم" والقاضي طعن في الخبر وقال : لا يحسن العقاب على من لا يعقل ، واعلم أن في هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(105/504)

قال الجبائي : هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف إذ المراد أنه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن ؟ وهلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ؟ وإن كان المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم الرسول لم يكن في

ذلك حجة ، فصح أنه إنما يكون حجة لهم إذا كان في المعلوم أنهم يؤمنون عنده إذا أطاعوه .

المسألة الثانية :

قال الكعبي قوله : ﴿ لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أوضح دليل على أنه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده ، وأنه ليس قوله : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : 23] كما ظنه أهل الجبر من أن ما هو جور منا يكون عدلاً منه بل تأويله : أنه لا يقع منه إلا العدل فإذا ثبت أنه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة .

المسألة الثالثة :

قال أصحابنا : الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع إذ لو تحقق العقاب قبل مجيء الشرع لكان العقاب حاصلاً قبل مجيء الشرع .

ثم إنه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت ، إما بسبب الأمر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة ، ويحتمل أن يكون بالموت فإن كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه ، ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب ، فإنه يتميز في الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى ، وعلى المبطل من أنواع إهانته ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عند ذلك ﴿ مَنْ أَصحاب الصراط السوي وَمَنِ

اهتدى ﴾ إليه وليس هو بمعنى الشك والترديد ، بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 118 . 119 ﴾

(106/504)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد أهله المناسبين له .

والثاني : أنه أراد جميع من اتبعه وآمن به ، لأنهم يحلون بالطاعة له محل أهله .

﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي اصبر على فعلها وعلى أمرهم بها .

﴿ وَلَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ هذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم فالمراد به جميع الخلق أنه تعالى يرزقهم ولا يسترزقهم ، وينفعهم ولا ينتفع بهم ، فكان ذلك أبلغ في الامتنان عليهم .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي وحسن العاقبة لأهل التقوى .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾

أي منتظر ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : منتظر النصر على صاحبه .

الثاني : ظهور الحق في عمله .

﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ وهذا تهديد .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فستعلمون بالنصر من أهدى إلى دين الحق .

الثاني : فستعلمون يوم القيامة من أهدى إلى طريق الجنة ، والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(107/504)

وقال ابن عطية :

ثم أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة وتمثيلها معهم ويصطبر عليها ويلازمها ويتكفل هو برزقه لا إله إلاَّ هو ، وأخبره أن العاقبة الأولى التقوى وفي حيزها فثم نصر الله في الدنيا ورحمته في الآخرة ، وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويدخل في عمومه جمع أُمته . وروي أن عروة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى

منزله فدخله وهو يقرأ ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا ﴾ الآية إلى قوله ﴿ وأبقى ﴾ ، ثم ينادي بالصلاة الصلاة يرحكم الله ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي هو ويتمثل بهذه الآية ، وقرأ الجمهور " نحن نرزقُك " بضم القاف ، وقرأت فرقة " نرزقْك " بسكونها ، ثم أخبر تعالى عن طوائف من الكفار قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ أي بعلامة مما اقترحناها عليه وبما يبهر ويضطر .

قال القاضي أبو محمد : ورسل الله إنما اقترنت معهم آيات معرضة للنظر محفوفة بالبراهين العقلية ليضل من سبق في علم الله تعالى ضلاله ويهتدي من في علم الله تعالى هداه ، فيوبخهم الله تعالى بقوله ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يعني التوراة أعظم شاهد وأكبر آية له . وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم " تأتهم " على لفظة ﴿ بينة ﴾ وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم " يأتهم " بالياء على المعنى ، وقرأت فرقة " بينةُ ما " بالإضافة إلى ﴿ ما ﴾ وقرأت فرقة " بينةٌ " بالتنوين ، و﴿ ما ﴾ على هذه القراءة فاعلة ب " تأتي " ، وقرأ الجمهور " في الصحُف " بضم الحاء ، وقرأت فرقة " في الصحْف " بسكونها .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾

أخبر الله تعالى نبيه عليه السلام أنه لو أهلك هذه الأُمة الكافرة قبل إرساله إليهم محمداً لقامت لهم حجة ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ الآية . وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال " يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة الهالك في الفترة والمغلوب على عقله والصبي الصغير فيقول المغلوب على عقله رب لم تجعل لي عقلاً ويقول الصبي نحوه ويقول الهالك في الفترة رب لم ترسل إليّ رسولاً ولو جاءني لكنت أطوع خلقك لك . قال : فترفع لهم نار ويقال لهم ردوها قال : فيردها من كان في علم الله تعالى أنه سعيد ويكع عنها الشقي فيقول الله تعالى إياي عصيتم فكيف برسلي لو أتتكم " أما الصبي والمغلوب على عقله فبين أمرهما وأما صاحب الفترة فليس ككافر قريش قبل النبي صلى الله عليه وسلم لأن كفار قريش وغيرهم ممن علم وسمع عن نبوة ورسالة في أقطار الأرض فليس بصاحب فترة والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال أبي وأبوك في النار ورأى عمرو بن لحي في النار إلى غير هذا مما يطول ذكره ، وأما صاحب الفترة يفرض أنه آدمي لم يطرأ إليه أن الله تعالى بعث رسولاً ولا دعا إلى دين وهذا قليل الوجود اللهم إلا أن يشذ في أطراف الأرض والمواضع المنقطعة عن العمران ، و" الذل والخزي " مقترنان بعذاب الآخرة ، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يتوعدهم ويحملهم ونفسه على التربص وانتظار الفرج . و" التربص " التأني ، و﴿ الصراط ﴾ الطريق . وقرأت فرقة " السوي " ، وقرأت فرقة " السوء " فكأن هذه

القراءة قسمت الفريقين أي ستعلمون هذا من هذا وقرأت فرقة " السوَّي " بشد الواو وفتحها ، وقرأت فرقة " السُّوُءى " بضم السين وهمزة على الواو على وزن فعلى ، و ﴿ اهتدى ﴾ معناه رشد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(109/504)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأْمُرْ أهلكَ بالصلاة ﴾

قال المفسرون : المراد بأهله : قومه ومن كان على دينه : ويدخل في هذا أهل بيته .

قوله تعالى : ﴿ واصطبر عليها ﴾ أي : واصبر على الصلاة ﴿ لا نسألكَ رزقاً ﴾ أي : لا نكلّفك رزقاً لنفسك ولا لِخلَقنا ، إِنما نأمرك بالعبادة ورزقُكَ علينا ، ﴿ والعاقبةُ للتقوى ﴾ أي : وحُسن العاقبة لأهل التقوى .

وكان بكر بن عبد الله المزني إِذا أصاب أهلَه خصاصةٌ قال : قوموا فصلُّوا ، ثم يقول : بهذا أمر الله تعالى ورسوله ، ويتلو هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾

يعني : المشركين ﴿ لولا ﴾ أي : هلاّ ﴿ يأتينا ﴾ محمد ﴿ بآية من ربِّه ﴾ أي : كآيات

الأنبياء ، نحو الناقة والعصا ، ﴿ أوَلَم يأتهم ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : "تأتهم" بالتاء .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "يأتهم" بالياء .

قوله تعالى : ﴿ بيِّنة ما في الصحف الأولى ﴾ أي : أولم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب من أخبار الأمم التي أهلكناها لمَّا سألوا الآيات ثم كفروا بها ، فما يؤمِّنهم أن تكون حالُهم في سؤال الآيات كحال أولئك ؟ ! ﴿ ولو أنَّا أهلكناهم ﴾ يعني : مشركي مكة ﴿ بعذاب من قبله ﴾ في الهاء قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ، قاله مقاتل .

والثاني : إلى الرسول ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ لقالوا ﴾ يوم القيامة ﴿ ربَّنا لولا ﴾ أي : هلاّ ﴿ أرسلتَ إلينا رسولاً ﴾ يدعونا إلى طاعتك ﴿ فنتَّبع آياتك ﴾ أي : نعمل بمقتضاها ﴿ من قبل أن نَذِلَّ ﴾ بالعذاب ﴿ ونَخْزَى ﴾ في جهنم .

وقرأ ابن عباس ، وابن السميفع ، وأبو حاتم عن يعقوب : "نُذَلَّ" "ونُخْزَى" برفع النون فيهما ، وفتح الذال .

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد : ﴿ كُلٌّ ﴾ منا ومنكم ﴿ متربِّص ﴾ أي : نحن نتربَّص بكم العذاب في الدنيا ، وأنتم تتربصون بنا الدوائر ﴿ فتربَّصوا ﴾ أي : فانتظروا ﴿ فستعلمون ﴾ إذا جاء أمر الله ﴿ مَنْ أصحابُ الصِّراط السَّويّ ﴾ أي : الدِّين المستقيم ﴿ ومَنِ اهتدى ﴾ من الضلالة ، أنحن ، أم أنتم ؟ وقيل : هذه منسوخة بآية السيف ، وليس بشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(111/504)

وقال القرطبى :

" وَلاَ تَمُدَّنَّ " أبلغ من لا تنظرنّ ، لأن الذي يمدّ بصره ، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن ، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه .

مسألة : قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلني عليه السلام إلى رجل من اليهود ، وقال : قل له يقول لك محمد : " نزل بنا ضيف ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذي يصلحه ؛ فبعني كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفني إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن .

قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : "والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأدّيت إليه اذهب بدِرْعي إليه" "

ونزلت الآية تعزية له عن الدنيا .

قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سبباً ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ودِرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذكرت ؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خِزي .

قلت : وكذلك ما روي عنه عليه السلام أنه مرّ بإبل بني المصطلق وقد عَبست في أبوالها (وأبعارها) من السِّمن فتقنّع بثوبه ثم مضى ؛ لقوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ الآية .

ثم سَلاَّه فقال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى .

وقيل : يعني بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم ، ويصطبر عليها ويلازمها .

وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع أمته ، وأهل بيته على التخصيص .

وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعليّ رضوان الله عليهما فيقول : "الصلاة" .

ويروى أن عُرْوة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ وأبقى ﴾ ثم ينادي بالصلاة : الصلاة يرحمكم الله ؛ ويصلّي .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي وهو يتمثل بالآية .

قوله تعالى : ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي لا نسألك أن ترزق نفسك وإياهم ، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق أمرهم بالصلاة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ﴾ [الذاريات : 56 58] .

قوله تعالى : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي الجنة لأهل التقوى ؛ يعني العاقبة المحمودة .

وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهي كالمعدومة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

يريد كفار مكة ؛ أي لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضروري .

أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا .

أو هلا يأتينا بالآيات التي نقترحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى ﴾ يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها .

وقرىء "الصحف" بالتخفيف .

وقيل : أولم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة .

وقيل : أولم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ؛ فما يؤمّنهم إن أتتهم الآيات أن يكون حالهم حال أولئك .

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص "أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ"

بالتاء لتأنيث البينة .

الباقون بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن البينة هي البيان والبرهان فردّوه إلى المعنى ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وحكى الكسائي "أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى" قال : ويجوز على هذا "بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى" .

قال النحاس : إذا نونت "بينة" ورفعت جعلت "ما" بدلاً منها ، وإذا نصبتها فعلى الحال ؛ والمعنى : أولم يأتهم ما في الصحف الأولى مبيّناً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ﴿ لَقَالُواْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أي هلاّ أرسلت إلينا رسولاً .

﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ وقرىء "نُذَلَّ وَنُخْزَى" على ما لم يسمّ فاعله .

(114/504)

وروى أبو سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهالك في الفترة والمعتوه والمولود قال : "يقول الهالك في الفترة لم يأتني كتاب ولا رسول ثم تلا ﴿ وَلَوْ أَنَّآ

أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ الآية ويقول المعتوه رب لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً ويقول المولود رب لم أدرك العمل فترفع لهم نار فيقول لهم ردُوها وادخلوها قال فيردُها أو يدخلها من كان في علم الله سعيداً لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان في علم الله شقياً لو أدرك العمل قال فيقول الله تبارك وتعالى إياي عصيتم فكيف رسلي لو أتتكم " ويروى موقوفاً عن أبي سعيد قوله ؛ وفيه نظر ؛ وقد بيناه في كتاب "التذكرة" وبه احتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يمتحنون في الآخرة.

﴿ فَنَتَّبِعَ ﴾ نصب بجواب التخصيص.

﴿ آيَاتِكَ ﴾ يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ أي في العذاب ﴿ ونخزى ﴾ في جهنم ؛ قاله ابن عباس.

وقيل : ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ في الدنيا بالعذاب ﴿ ونخزى ﴾ في الآخرة بعذابها.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي قل لهم يا محمد كل متربص، أي كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر.

﴿ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي وَمَنِ اهتدى ﴾ يريد الدين المستقيم والهدى ؛ والمعنى : فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق.

وقيل : فستعلمون يوم القيامة من اهتدى إلى طريق الجنة.

وفي هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختم به السورة.

وقرىء "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" .

قال أبو رافع : حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الزمخشري .

و"من" في موضع رفع عند الزجاج.

وقال الفراء : يجوز أن يكون في موضع نصب مثل ﴿ والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح ﴾ [البقرة : 220] .

(115/504)

قال أبو إسحاق : هذا خطأ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، و"مَن" هاهنا استفهام في موضع رفع بالابتداء ؛ والمعنى : فستعلمون أصحاب الصراط السويّ نحن أم أنتم ؟ .

قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي ﴾ من لم يضلّ ، وإلى أن معنى ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ من ضلّ ثم اهتدى .

وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدري "فسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السُّوَّا" بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فُعْلَى بغير همزة ؛ وتأنيث الصراط شاذ قليل ، قال الله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] فجاء مذكراً في هذا وفي غيره ، وقد ردّ هذا أبو حاتم قال : إن كان من السّوء وجب أن يقال السُّوءَى وإن كان من السَّواء وجب أن

يقال : السِّيَا بكسر السين والأصل السِّوْيَا .

قال الزمخشري : وقرىء "السَّواءِ" بمعنى الوسط والعدل ؛ أو المستوِي .

النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدري أن يكون الأصل "السُّوءَى" والساكن ليس بحاجز حصين ، فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واواً كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها .

تمت والحمد لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(116/504)

وقال أبو حيان :

ولما أمره تعالى بالتسبيح في تلك الأوقات المذكورة ونهاه عن مد بصره إلى ما متع به الكفار أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة التي هي بعد الشهادة آكد أركان الإسلام ، وأمره بالاصطبار على مداومتها ومشاقها وأن لا يشتغل عنها ، وأخبره تعالى أن لا يسأله أن يرزق نفسه وأن لا يسعى في تحصيل الرزق ويدأب في ذلك ، بل أمره بتفريغ باله لأمر الآخرة ويدخل في خطابه عليه السلام أمته .

وقرأ الجمهور ﴿ نَرْزُقُكَ ﴾ بضم القاف .

وقرأت فرقة : منهم وابن وثاب بإدغام القاف في الكاف وجاء ذلك عن يعقوب .

قال صاحب اللوامح : وإنما امتنع أبو عمرو من إدغام مثله بعد إدغامه ﴿ نرزقكم ﴾ ونحوها لحلول الكاف منه طرفاً وهو حرف وقف ، فلو حرك وقفاً لكان وقوفه على حركة وكان خروجاً عن كلامهم .

ولو أشار إلى الفتح لكان الفتح أخف من أن يتبعض بل خروج بعضه كخروج كله ، ولو سكن لأجحف بحرف .

ولعل من أدغم ذهب مذهب من يقول جعفر وعامر وتفعل فيشدد وقفاً أو أدغم على شرط أن لا يقف بحال فيصير الطرف كالحشو انتهى .

و ﴿ العاقبة ﴾ أي الحميدة أو حسن العاقبة لأهل التقوى ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ هذه عادتهم في اقتراح الآيات كأنهم جعلوا ما ظهر من الآيات ليس بآيات ، فاقترحوا هم ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بقوله ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ أي القرآن الذي سبق التبشير به وبإيحائي من الرسل به في الكتب الإلهية السابقة المنزّلة على الرسل ، والقرآن أعظم الآيات في الإعجاز وهي الآية الباقية إلى يوم القيامة .

وفي هذا الاستفهام توبيخ لهم .

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص ﴿ تأتهم ﴾ بالتاء على لفظ بينة .

وقرأ باقي السبعة وأبو بحرية وابن محيصن وطلحة وابن أبي ليلى وابن مناذر وخلف وأبو

عبيدة وابن سعدان وابن عيسى وابن جبير الأنطاكي يأتهم بالياء لمجاز تأنيث الآية والفصل .

(117/504)

وقرأ الجمهور بإضافة ﴿ بينة ﴾ إلى ﴿ ما ﴾ وفرقة منهم أبو زيد عن أبي عمرو بالتنوين و﴿ ما ﴾ بدل .

قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون ما نفياً وأريد بذلك ما في القرآن من الناسخ والفصل مما لم يكن في غيره من الكتب .

وقرأت فرقة بنصب ﴿ بينة ﴾ والتنوين و﴿ ما ﴾ فاعل بتأتهم و﴿ بينة ﴾ نصب على الحال ، فمن قرأ يأتهم بالياء فعلى لفظ ﴿ ما ﴾ ومن قرأ بالتاء راعى المعنى لأنه أشياء مختلفة وعلوم من مضى وما شاء الله .

وقرأ الجمهور ﴿ في الصُحُف ﴾ بضم الحاء ، وفرقة منهم ابن عباس بإسكانها والضمير في ضمن قبله يعود على البينة لأنها في معنى البرهان ، والدليل قاله الزمخشري والظاهر عوده على الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقوله : ﴿ لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ ولذلك قدره بعضهم قبل إرساله محمداً إليهم والذل والخزي مقترنان بعذاب الآخرة .

وقيل ﴿ نذل ﴾ في الدنيا و ﴿ نخزَى ﴾ في الآخرة.

وقيل: الذل الهوان والخزي الافتضاح.

وقرأ الجمهور ﴿ نُذل ونَخزى ﴾ مبنياً للفاعل، وابن عباس ومحمد بن الحنفية وزيد بن علي والحسن في رواية عباد والعمري وداود والفزاري وأبو حاتم ويعقوب مبنياً للمفعول.

﴿ قل كل متربص فتربصوا ﴾ أي منتظر منا ومنكم عاقبة أمره، وفي ذلك تهديد لهم ووعيد وأفرد الخبر وهو ﴿ متربّص ﴾ حملاً على لفظ ﴿ كل ﴾ كقوله ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ والتربص التأني والانتظار للمفرج و ﴿ من أصحاب ﴾ مبتدأ وخبر علق عنه ﴿ فستعلمون ﴾ وأجاز الفراء أن تكون ما موصولة بمعنى الذي فتكون مفعولة بفستعلمون و ﴿ أصحاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره الذي هم أصحاب، وهذا جار على مذهب الكوفيين إذ يجيزون حذف مثل هذا الضمير مطلقاً سواء كان في الصلة طول أم لم يكن وسواء كان الموصول أياً أم غيره.

وقرأ الجمهور ﴿ السوي ﴾ على وزن فعيل أي المستوي.

وقرأ أبو مجلز وعمران بن حدير السواء أي الوسط.

وقرأ الجحدري وابن يعمر السوأى على وزن فعلى أنث لتأنيث ﴿ الصراط ﴾ وهو مما يذكر ويؤنث تأنيث الأسواء من السوأى على ضد الاهتداء قوبل به ﴿ ومن اهتدى ﴾ على الضد ومعناه ﴿ فستعلمون ﴾ أيها الكفار من على الضلال ومن على الهدى ، ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس الصراط السوء وقد روي عنهما أنهما قرآ السوأى على وزن فعلى ، فاحتمل أن يكون أصله السووي إذ روي ذلك عنهما فخفف الهمزة بإبدالها واواً وأدغم ، واحتمل أن يكون فعلى من السواء أبدلت ياؤه واواً وأدغمت الواو وفي الواو ، وكان القياس أنه لما بني فعلى من السواء ان يكون السويا فتجتمع واو وياء ، وسبقت إحداهما بالسكون فتقلب الواو ياء وتدغم في الياء ، فكان يكون التركيب السيا .

وقرىء السُوَيّ بضم السين وفتح الواو وشد الياء تصغير السوء .

قاله الزمخشري ، وليس بجيد إذ لو كان تصغير سوء لثبتت همزته في التصغير ، فكنت تقول سؤيي والأجود أن يكون تصغير سواء كما قالوا في عطاء عطي .

ومن قرأ السوأى أو السوء كان في ذلك مقابلة لقوله ﴿ ومن اهتدى ﴾ وعلى قراءة الجمهور لم تراع المقابلة في الاستفهام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(119/504)

وقال الثعالبى :

قال الداوودي : وعن عَبْدِ اللَّهُ بْنِ سَلاَمٍ ، قال : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله ضِيقٌ أوْ شِدَّةٌ أمرهم بالصَّلاَةِ ، ثم قرأَ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ إلى قوله ﴿ للتقوى ﴾ . انتهى .

قال ابن عطاء اللَّه في «التنوير» واعلم . أنَّ هذه الآية علمت أهل الفَهْم عن اللَّه تعالى كَيْفَ يطلبون رزقَهُم ، فإذَا توقفت عليهم أسباب المعيشة ، أكْثروا من الخِدْمة والموافقة ، وقَرَعُوا بابَ الرِّزْقِ بمعاملة الرزَّاق – جل وعلا – ثم قال : وسمعتُ شَيْخَنَا أَبَا العبَّاس المُرْسِي رضي اللَّه عنه يقول : واللَّه مَا رَأَيتَ العزَّ إلاَّ في رفع الهِمّة عن الخلق ، واذكر رحمك اللَّه هنا : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] .

ففي العز الذي أَعزّ اللَّه به المؤمن رفْعُ همته إلى مولاه ، وثقتُه به دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، واستحي من اللَّه بعد أن كساك حُلّة الإيمان ، وزينك بزينة العِرْفان ؛ أن تستولي عليك الغفلة والنسيان ؛ حتى تميل إلى الأكوان ، أو تطلب من غيره تعالى وجود إحسان ، ثم قال : ثم قال ورفع الهِمَّة عن الخَلْقِ : هو ميزانُ ذوي الكمال ومِسْبار الرجال ، كما توزن الذَّواتُ كذلك توزن الأحوالُ والصِّفَاتُ . انتهى .

ومن كتاب «صفوة التصوف» لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي الحافظ حَدِيثٌ

بسنده عن ابن عُمَرَ قال : أَتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رَجَلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَدِّثْنِي حَدِيثاً ، واجعله مُوجَزا ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم

« صَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّع ، كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَرَاهُ ، فَإِنَّهُ يُرَاكَ ، وَايَأَس مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، تَعْشِ غَنِيّاً ، وإِيَّاكَ وَمَا يُعتَذَّرُ مِنْهُ » ورواه أبو أيوب الأنصاري بمثله عن النبي صلى الله عليه وسلم إنتهى .

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا ﴾ محمدٌ ﴿ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي : بعلامة مما اقترحناها عليه ، ثم وبخهم سبحانه بقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى ﴾ أَيْ : ما في التوراة ، وغيرها ، ففيها أعظم شاهد ، وأكبر ، آية له سبحانه .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ . . . ﴾ أي : من قبل إرسالنا إليهم محمداً ، ﴿ لقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً . . . ﴾ الآية ، وروى أبو سعيد الخِدْرِي ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يَحْتَجُّ عَلَى اللَّه تعالى يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ: الهَالِكُ في الفَتْرَةِ، والمَغْلُوبُ على عَقْلِهِ، والصَّبِيُّ الصَّغِيرُ: فيقُولُ المَغْلُوبُ على عَقْلِه: رَبِّ، لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلاً، ويَقُولُ الصَّبِيُّ نَحْوَهُ، ويقولُ الهَالِكُ فِي الفَتْرَةِ. رَبِّ، لَمْ يُرْسِلْ إلَيَّ رَسُولاً، ولَوْ جَاءَنِي، لَكُنْتُ أَطْوَعَ خَلْقِكَ لَكَ، قَالَ: فَتَرْتَفِعُ لَهُمْ نَارٌ، ويُقَالُ لَهُمْ: رِدُوهَا، فَيَرِدُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُ سَعِيدٌ ويَكَعُ عَنْهَا الشَّقِيُّ، فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى: إيَّايَ عَصَيْتُمْ فَكَيْفَ بِرُسُلِي لَوْ أَتَتْكُمْ". قال (ع): أما الصبيُّ، والمغلوبُ على عقله، فبيِّن أمرهما، وأما صاحبُ الفترة، فليس ككفَّارِ قريش قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن كفار قريش، وغيرهم مِمَّنْ علم وسمع نبوءة ورسالة في أقطارِ الأرض، ليس بصاحب فترةٍ، وقد، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لرجل: "أبي وأَبوكَ فِي النَّارِ" ورأى صلى الله عليه وسلم، عَمْرو بْنَ لُحَيٍّ في النار إلى غير هذا مِمَّا يطُولُ ذِكْره، وإنما صاحبُ الفترة يفرض أنه آدميٌّ لم يطرأ إليه أن الله تعالى بعث رَسُولاً، ولا دَعا إلى دِينٍ، وهذا قليلُ الوجود إلاّ أن يشذ في أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران.

* ت *: والصحيح في هذا الباب: «أَنَّ أوْلاَدَ المُشْرِكِينَ في الجَنَّةِ، وأمَّا أَوْلاَدُ المُسْلِمِينَ فَفِي الجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ» متفق عليه.

وقد أَسند أَبو عُمَرَ في «التمهيد» من طريق أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " سألتُ ربِّي في اللاَّهين مِنْ ذُرِّيَّةِ البَشَرِ ألاَّ يُعَذِّبَهُمْ فَأَعْطانِيهِمْ " قال أبو عمر إن قيل للأطفال: اللاَّهُونَ؛ لأن أعمالهم كاللهو، واللعب من غير عقد، ولا عَزْم، ثم أسند أبو عمر، عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ خَدَمُ أَهْلِ الجَنَّةِ ". قال أبو عمر، وروى شُعْبَة، وسعيد بن أبي عروبة، وأبو عَوَانة، عن قتادة، عن أَبي سراية العجلي، عن سَلْمَان قال: أَطْفَالُ المُشْرِكِينَ خَدَمُ أَهْلِ الجَنَّةِ.

وذكر البخاري حَديثَ الرؤيا الطويل، وفيه: " وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإنَّهُ إبْرَاهِيمَ عليه السلام وأَمَّا الوِلْدَانُ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، قَالَ: فقيل: يَا رَسُولَ اللَّه، وأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: وأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ" ، وفي رواية: " والصبيان حَوْلَهُ أَوْلاَدُ النَّاسِ " وظاهره العمومُ في جميع أولاد الناس. انتهى من التمهيد والذلُّ، والخِزْيُ مقترنان بعذاب الآخرة.

وقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أَيْ: مِنّا ومنكم ﴿ مُتَرَبِّصٌ ﴾ والتربصُ: التأَنِّي، والصِّراطُ: الطريق، وهذا وَعِيدٌ بَيِّنٌ؛ والله الموفِّقُ، والهادي إلى الرشاد بفضله. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾

أُمر عليه السلام بأن يأمر أهلَ بيته والتابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أُمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خَصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفتَ أربابِ الثروة ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ وثابرْ عليها غيرَ مشتغلٍ بأمر المعاش ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي لا نكلّفك أن ترزُقَ نفسَك ولا أهلَك ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وإياهم ففرِّغْ بالَك بأمر الآخرة ﴿ والعاقبة ﴾ الحميدةُ ﴿ للتقوى ﴾ أي لأهل التقوى ، على حذف المضافِ وإقامة المضافِ إليه مُقامَه تنبيهاً على أن مَلاكَ الأمر هو التقوى . روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهلَه ضُرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلةِ التي أُمر عليه السلام بالصبر عليها ، أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقة في دعوى النبوةِ أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعِناد إلى حيث لم يعُدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخِرّ لها صُمُّ الجبال من قبيل الآيات حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ أي

التوراةِ والإنجيل وسائرِ الكتبِ السماوية ، ردٌّ من جهته جل وعلا لمقالتهم القبيحةِ وتكذيبٌ لهم فيما دسوا تحتها من إنكار مجيءِ الآية بإتيان القرآنِ الكريم الذي هو أمُّ الآياتِ وأُسُّ المعجزات وأعظمُها وأبقاها ، لأن حقيقةَ المعجزة اختصاصُ مدّعي النبوة بنوع من الأمور الخارقةِ للعادات أيِّ أمرٍ كان ، ولا ريب في أن العلمَ أجلُّ الأمور وأعلاها إذ هو أصلُ الأعمال ومبدأُ الأفعالِ ولقد ظهر مع حيازته لجميع علومِ الأولين والآخرين على يد أميٍّ لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً ، فأيُّ معجزة تُراد بعدَ ورودِه وأيُّ آية ترام مع وجوده ، وفي إيراده بعنوان كونِه بينةَ ما في الصحف الأولى ومن التوراة

(124/504)

والإنجيل وسائرِ الكتبِ السماوية أي شاهداً بحقية ما فيها من العقائد الحقةِ وأصولِ الأحكام التي أجمعت عليها كافةُ الرسل ، وبصحة ما تنطِقُ به من أنباء الأمم من حيث أنه غنيٌّ بإعجازه عما يشهد بحقّيته ، حقيقٌ بإثبات حقّيةِ غيرِه ما لا يخفى من تنويه شأنِه وإنارة برهانِه ، ومزيدُ تقريرٍ وتحقيقٍ لإتيانه ، وإسنادُ الإتيان إليه مع جعلهم إياه مأتياً به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة ، والهمزةُ لإنكار الوقوعِ والواوُ للعطف على مقدر يقتضيه المقامُ ، كأنه قيل : ألم يأتهم سائرُ الآياتِ ولم تأتهم خاصةً بينةُ ما في

الصحف الأولى ؟ تقريراً لإتيانه وإيذاناً من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكارُه أصلاً وإن اجترأوا على إنكار سائر الآياتِ مكابرةً وعِناداً ، وقرىء أولم يأتهم بالياء التحتانية ، وقرىء الصُّحْفِ بالسكون تخفيفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ ﴾ إلى آخر الآية جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آيةً بينةً لا يمكن إنكارُها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة ، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصِل ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ متعلقٌ بأهلكنا أو بمحذوف هو صفةٌ لعذاب أي بعذاب كائنٍ من قبل إتيانِ البينة أو قبل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ لَقَالُواْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا ﴾ في الدنيا ﴿ رَسُولاً ﴾ مع كتاب ﴿ فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ التي جاءنا بها ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ ونخزى ﴾ بدخول النار اليوم ولكنا لم نُهلكهم قبل إتيانِها فانقطعت معذِرتُهم فعند ذلك قالوا : بلى ، قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء .

قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كلُّ واحدٍ منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظِرٌ لما يؤول إليه أمرُنا وأمركم ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ وقرىء فتمتعوا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب ﴿ مَنْ أصحاب الصراط السوي ﴾ أي المستقيمِ ، وقرىء السواءِ أي الوسطِ الجيد ، وقرىء السوءِ والسُّوآي والسُّوَي تصغيرُ السوء ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ من الضلالة ومَنْ في الموضعين استفهامية محلُّها الرفعُ بالابتداء خبرُها ما بعدها ، والجملةُ سادةٌ مسدَّ مفعولي العلم أو مفعولِه ، ويجوز كونُ الثانية موصولةً بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفةً على محل الجملةِ الاستفهامية المعلّقِ عنها الفعلُ على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط ، وقيل : العائدُ في الأولى محذوفٌ والتقديرُ من هم أصحابُ الصراط. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(126/504)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾

أمر صلى الله عليه وسلم أن يأمر أهله بالصلاة بعدما أمر هو عليه الصلاة والسلام بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت ذوي

الثروة ، والمراد بأهله صلى الله عليه وسلم قيل أزواجه وبناته وصهره علي رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : ما يشملهم وسائر مؤمني بني هاشم .

والمطلب ، وقيل : جميع المتبعين له عليه الصلاة والسلام من أمته ، واستظهر أن المراد أهل بيته صلى الله عليه وسلم ، وأيد بما أخرجه ابن مردويه .

وابن عساكر .

وابن النجار عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ الخ كان عليه الصلاة والسلام يجيء إلى باب علي كرم الله تعالى وجهه صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول : الصلاة رحمكم الله تعالى إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، وروى نحو ذلك الإمامية بطرق كثيرة .

والظاهر أن المراد بالصلاة الصلوات المفروضة ويؤمر بأدائها الصبي وإن لم تجب عليه ليعتاد ذلك فقد روى أبو داود بإسناد حسن مرفوعاً " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع " .

﴿ واصطبر عليها ﴾ أي وداوم عليها فالصبر مجاز مرسل عن المداومة لأنها لازم معناه ، وفيه إشارة إلى أن العبادة في رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس ، والخطاب عام شامل للأهل وإن كان في صورة الخاص وكذا فيما بعد ، ولا يخفى ما في التعبير بالتسبيح أولاً والصلاة ثانياً مع توجيه الخطاب بالمداومة إليه عليه الصلاة والسلام من الإشارة إلى مزيد رفعة شأنه صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضر بأمر المعاش فكأنه قيل داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم إذ نحن نرزقكم ، وتقديم المسند إليه للاختصاص أو لإفادة التقوى ، وزعم بعضهم أن الخطاب خاص وكذا الحكم إذ لو كان عاماً لرخص لكل مسلم المداومة على الصلاة وترك الاكتساب وليس كذلك ، وفيه أن قصارى ما يلزم العموم سواء كان الأهل خاصاً أو عاماً لسائر المؤمنين أن يرخص للمصلي ترك الاكتساب المانع من الصلاة وأي مانع عن ذلك بل ترك الاكتساب لأداء الصلاة المفروضة فرض وليس المراد بالمداومة عليها إلا أداؤها دائماً في أوقاتها المعينة لها لا استغراق الليل والنهار بها وكان الزاعم ظن أن المراد بالصلاة ما يشمل المفروضة وغيرها وبالمداومة عليها فعلها دائماً على وجه يمنع من الاكتساب وليس كذلك ، ومما ذكرنا يعلم أنه لا حاجة في رد ما ذكره الزاعم إلى حمل العموم على شمول خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأهله فقط دون جميع الناس كما لا يخفى ، نعم قد يستشعر من الآية

أن الصلاة مطلقاً تكون سبباً لإدرار الرزق وكشف الهم وعلى ذلك يحمل ما جاء في الأخبار، أخرج أبو عبيد.

وسعيد بن منصور وابن المنذر.

والطبراني في "الأوسط".

(128/504)

وأبو نعيم في "الحلية" والبيهقي في "شعب الايمان" بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا وأمر أهلك بالصلاة" وأخرج أحمد في الزهد وغيره عن ثابت قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله بالصلاة صلوا صلوا قال ثابت وكانت الأنبياء عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، وأخرج مالك.

والبيهقي عن أسلم قال كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل إيقظ أهله للصلاة ويقول لهم: الصلاة الصلاة ويتلو هذه الآية ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ الخ، وجوز لظاهر الاخبار أن يراد بالصلاة مطلقها فتأمل، وقرأ ابن وثاب. وجماعة ﴿ نَرْزُقُكَ ﴾ بإدغام القاف في الكاف، وجاء ذلك عن يعقوب ﴿ والعاقبة ﴾

الحميدة أعم من الجنة وغيرها وعن السدي تفسيرها بالجنة ﴿ للتقوى ﴾ أي لأهلها كما في قوله تعالى ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : 128] ولو لم يقدر المضاف صح وفيما ذكر تنبيه على أن ملاك الأمر التقوى .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر عليها أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة أو بآية من الآيات التي اقترحوها لا على التعيين بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء .

(129/504)

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الاولى ﴾ رد من جهته تعالى لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فما دسوا تحتها من إنكار إتيان الآية بإتيان القرآن الكريم الذي هو أم الآيات وأس المعجزات وأرفعها وأنفعها لأن حقيقة المعجزة الأمر الخارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند التحدي أي أمر كان ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال وبه تنال المراتب العلية والسعادة الأبدية ، ولقد ظهر مع

حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد من لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً فأي معجزة تراد بعد وروده ، وأية آية تطلب بعد وفوده ، فالمراد بالبينة القرآن الكريم ، والمراد بالصحف الأولى التوراة والإنجيل وسائل الكتب السماوية وبما فيها العقائد الحقة وأصول الأحكام التي اجمعت عليها كافة الرسل عليهم السلام ، ومعنى كونه بينة لذلك كونه شاهداً بحقيته ، وفي إيراده بهذا العنوان ما لا يخفى من التنويه بشأنه والإنارة لبرهانه حيث أشار إلى امتيازه وغناه عما يشهد بحقية ما فيه بإعجازه .

وإسناد الإتيان إليه مع جعلهم إياه مأتياً به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة ، والهمزة لإنكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل : ألم يأتهم سائر الآيات ولم يأتهم خاصة بينة ما في الصحف الأول تقريراً لإتيانه وإيذاناً بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكار أصلاً : وإن اجترؤا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعناداً ، وتفسير الآية بما ذكر هو الذي تقتضيه جزالة التنزيل .

وزعم الإمام .

والطبرسي أن المعنى أو لم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب الأولى من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما اقترحوا الآيات ثم كفروا بها فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآية بقولهم ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ ﴾ كحال أولئك الهالكين اه .

وهو بمعزل عن القبول كما لا يخفى على ذوي العقول .

وقرأ أكثر السبعة .

وأبو بحرية وابن محيصن .

وطلحة .

وابن أبي ليلى .

وابن مناذر .

وخلف .

وأبو عبيد .

وابن سعدان .

وابن عيسى .

وابن جبير الأنطاكي ﴿ يَأْتِهِمْ ﴾ بالياء التحتانية لمجاز تأنيث الآية والفصل .

وقرأت فرقة منهم أبو زيد عن أبي عمرو ﴿ بَيِّنَةٌ ﴾ بالتنوين على أن ﴿ مَا ﴾ في القرآن من الناسخ والفضل مما لم يكن في غيره من الكتب وهو كما ترى .

وقرأت فرقة بنصب ﴿ بَيِّنَةً ﴾ والتنوين على أنه حال ، و﴿ مَا ﴾ فاعل .

وقرأت فرقة منهم ابن عباس "الصحف" بإسكان الحاء للتخفيف ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ ﴾

إلى آخر الآية جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن إنكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة ، والمعنى ولو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أي بعذاب كائن من قبله ، والضمير للبينة والتذكير باعتبار أنها برهان ودليل أو للإتيان المفهوم من الفعل أي من قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقَالُواْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ ﴾ في الدنيا ﴿ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ مع آيات ﴿ فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ التي جاءنا بها ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ ونخزى ﴾ بدخول النار اليوم ، وقال أبو حيان : الذل والخزي كلاهما بعذاب الآخرة .

ونقل تفسير الذل بالهوان والخزي بالافتضاح والمراد أنا لو أهلكناهم قبل ذلك لقالوا ولكنا لم نهلكهم قبله فانقطعت معذرتهم فعند ذلك ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْء ﴾ [الملك : 9] .

وقرأ ابن عباس .

ومحمد بن الحنفية .

وزيد بن علي .

والحسن في رواية عباد .

والعمري.

وداود والفزاري.

وأبو حاتم.

(131/504)

ويعقوب ﴿ نَّذِلَّ ﴾ بالناء للمفعول، واستدل الإشاعرة بالآية على أن الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع والجبائي على وجوب اللطف عليه عز وجل وفيه نظر.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي منتظر لما يؤل إليه أمرنا وأمركم وهو خبر ﴿ كُلٌّ ﴾ وإفراده حملاً له على لفظه ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ وقرىء ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب ﴿ مَنْ أصحاب الصراط السوي ﴾ أي المستقيم.

وقرأ أبو مجلز.

وعمران بن حدير ﴿ السواء ﴾ أي الوسط، والمراد به الجيد.

وقرأ الجحدري.

وابن يعمر ﴿ السوأى ﴾ بالضم والقصر على وزن فعلى وهو تأنيث الأسوأ وأنث لتأنيث الصراط وهو مما يذكر ويؤنث .

وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ مَطَرَ السوء ﴾ بفتح وسكون وهمزة آخره بمعنى الشر .

وقرىء ﴿ السوي ﴾ بضم السين وفتح الواو وتشديد الياء وهو تصغير سوء بالفتح ، وقيل : تصغير سوء بالضم ، وقال أبو حيان : الأجود أن يكون تصغير سواء كما قالوا في عطا عطى لأنه لو كان تصغير ذلك لثبتت همزته ، وقيل : سوئى .

وتعقب بأن إبدال مثل هذه الهمزة ياء جائز ، وعن الجحدري .

وابن يعمر أنهما قرآ ﴿ السوي ﴾ بالضم والقصر وتشديد الواو ، واختير في تخريجه أن يكون أصله السوآى كما في الرواية الأولى فخففت الهمزة بإبدالها واواً وأدغمت الواو في الواو ، وقد روعيت المقابلة على أكثر هذه القراءات بين ما تقدم وقوله تعالى : ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ أي من الضلالة ولم تراع على قراءة الجمهور والأولى من الشواذ .

ومن في الموضعين استفهامية في محل رفع على الابتداء والخبر ما بعد والعطف من عطف الجمل ومجموع الجملتين المتعاطفتين ساد مسد مفعولي العلم أو مفعوله إن كان بمعنى المعرفة ، وجوز كون من الثانية موصولة فتكون معطوفة على محل الجملة الأولى الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة المتعدية لواحد إذ لولاه لكان الموصول بواسطة العطف أحد المفعولين وكان المفعول الآخر محذوفاً اقتصاراً وهو غير جائز .

وجوز أن تكون معطوفة على ﴿ أصحاب ﴾ فتكون في حيز من الاستفهامية أي ومن الذي اهتدى أو على ﴿ الصراط ﴾ فتكون في حيز أصحاب أي ومن ﴿ أصحاب ﴾ فتكون في حيز من الاستفهامية أي ومن الذي اهتدى أو على ﴿ الصراط ﴾ فتكون في حيز أصحاب أي ومن ﴿ أصحاب ﴾ الذي اهتدى يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا عنى بالصراط السوي النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً كان العطف من باب عطف الصفات على الصفات مع اتحاد الذات .

وأجاز الفراء أن تكون من الأولى موصولة أيضاً بمعنى الذين وهي في محل النصب على أنها مفعول للعلم بمعنى المعرفة و﴿ أصحاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف وهو العائد أي الذين هم أصحاب الصراط وهذا جائز على مذهب الكوفيين فإنهم يجوزون حذف مثل هذا العائد سواء كان في الصلة طول أو لم يكن وسواء كان الموصول أياً أو غيره بخلاف البصريين ، وما أشد مناسب هذه الخاتمة للفاتحة ، وقد ذكر الطيبي أنها خاتمة شريفة ناظرة إلى

الفاتحة وأنه إذا لاح أن القرآن أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ولا تنهك نفسك فحيث بلغت وبلغت جهدك فلا عليك وعليك بالإقبال على طاعتك قدر طاقتك وأمر أهلك وهم أمتك المتبعون بذلك ودع الذين لا ينجع فيهم الإنذار فإنه تذكرة لمن يخشى وسيندم المخالف حين لا ينفعه الندم انتهى. انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

(133/504)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾

الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر ، كما مرّ غير مرّة ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وفاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها ، والمفعول محذوف ، وأنكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لا تقع فاعلاً ، وجوّزه غيرهم .

قال القفال : جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم .

قال النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن "كم" استفهام ، فلا يعمل فيها ما قبلها .

وقال الزجاج : المعنى : أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى ، فالفاعل هو الهدى ، وقال : "كَمْ" في موضع نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ .

وقيل : إن فاعل ﴿ يهد ﴾ ضمير لله أو للرسول ، والجملة بعده تفسره ، ومعنى الآية على ما هو الظاهر : أفلم يتبين لأهل مكة خبر من ﴿ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ حال كون القرون ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ ويتقلبون في ديارهم ، أو حال كون هؤلاء يمشون من مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط ، فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم ، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك ، وقرأ ابن عباس والسلمي : " نهد " بالنون ، والمعنى على هذه القراءة واضح ، وجملة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأُولِي النُّهَى ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى مضمون ﴿ كم أهلكنا ﴾ إلى آخره .

والنهى : جمع نهية ، وهي العقل ، أي لذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي ولولا الكلمة السابقة ، وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة ﴿ لَكَانَ ﴾ عقاب ذنوبهم ﴿ لِزَامًا ﴾ أي لازماً لهم ، لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر .

وقوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على ﴿ كلمة ﴾ قاله الزجاج وغيره ؛ والأجل المسمى هو : يوم القيامة ، أو يوم بدر ، واللزام مصدر لازم .

قيل : ويجوز عطف ﴿ وأجل مسمى ﴾ على الضمير المستتر في كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق ؛ تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد ، أي لكان الأخذ العاجل ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، وفيه تعسف ظاهر .

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر ، فقال : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من أنك ساحر كذاب ، ونحو ذلك أن مطاعنهم الباطلة ، والمعنى : لا تحتفل بهم ، فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدّم ولا يتأخر .

وقيل : هذا منسوخ بآية القتال ﴿ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ أي متلبساً بحمده .

قال أكثر المفسرين : والمراد : الصلوات الخمس كما يفيد قوله : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر ﴿ وَمِنْ ءَانَاء اليل ﴾ العتمة ، والمراد بالآناء : الساعات ، وهي جمع إني بالكسر والقصر ، وهو الساعة ، ومعنى ﴿ فَسَبّحْ ﴾ أي فصلّ ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ أي المغرب والظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وأوّل طرف النهار الآخر .

وقيل : إن الإشارة إلى صلاة الظهر هي بقوله : ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ لأنها هي وصلاة العصر قبل غروب الشمس .

وقيل : المراد بالآية صلاة التطوّع .

ولو قيل ليس في الآية إشارة إلى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي : قول القائل سبحان الله ، لم يكن ذلك بعيداً من الصواب .

والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك إلى المعنى المجازي ، وجملة : ﴿ لَعَلَّكَ تَرضى ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ فسبح ﴾ أي سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك ، هذا على قراءة الجمهور .

(135/504)

وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم : " ترضى " بضم التاء مبنياً للمفعول ، أي يرتضيك ربك .

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجا مّنْهُمْ ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية في الحجر .

والمعنى : لا تطل نظر عينيك ، و﴿ أزواجاً ﴾ مفعول ﴿ متعنا ﴾ .

و﴿ زهرة ﴾ منصوبة على الحال ، أو بفعل محذوف ، أي جعلنا أو أعطينا ، ذكر معنى هذا الزجاج.

وقيل : هي بدل من الهاء في : ﴿ به ﴾ باعتبار محله ، وهو النصب لا باعتبار لفظه ، فإنه مجرور كما تقول : مررت به أخاك .

ورجح الفراء النصب على الحال ، يجوز أن تكون بدلاً ، ويجوز أن تكون منتصبة على المصدر مثل صبغة الله ووعد الله و ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ : زينتها وبهجتها بالنبات وغيره .

وقرأ عيسى بن عمر : " زهرة " بفتح الهاء ، وهي نور النبات ، واللام في : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فيه ﴾ متعلق ب ﴿ متعنا ﴾ أي لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ، ابتلاءً منا لهم ، كقوله : ﴿ إِنَّا جعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ [الكهف : 7] وقيل : لنعذبنهم .

وقيل : لنشدد عليهم في التكليف ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي ثواب الله ، وما ادّخر لصالح عباده في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع ، وهذا ينقطع ، وهو معنى ﴿ وأبقى ﴾ .

وقيل : المراد بهذا الرزق : ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأوّل أولى ؛ لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في الرزق الأخروي لا الدنيوي ، وإن كان حلالاً طيباً : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ أمره الله سبحانه بأن يأمر أهله بالصلاة .

والمراد بهم : أهل بيته .

وقيل : جميع أمته ، ولم يذكر ها هنا الأمر من الله له بالصلاة ، بل قصر الأمر على أهله ، إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً ، أو لكون أمره بها قد تقدّم في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ، ولهذا قال : ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ أي اصبر على الصلاة ، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي العاقبة المحمودة ، وهي الجنة لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش .

وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِئَايَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ أي قال كفار مكة : هلا يأتينا محمد بآية من آيات ربه كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء ؟ وذلك كالناقة والعصا ، أو هلا يأتينا بآية من الآيات التي قد اقترحناها عليه ؟ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصحف الاولى ﴾ يريد بالصحف الأولى : التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة ، وفيها التصريح بنبوّته والتبشير به ، وذلك يكفي ، فإن هذه الكتب المنزلة هم

معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوّته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم .

وقيل : المعنى : أو لم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم .

وقيل : المراد : أو لم تأتهم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن ، فإنه برهان : لما في سائر الكتب المنزلة .

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص : ﴿ أو لم تأتهم ﴾ بالتاء الفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية ؛ لأن معنى البينة : البيان والبرهان ، فذكروا الفعل اعتباراً بمعنى البينة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم .

قال الكسائي : ويجوز : " بينة " بالتنوين .

قال النحاس : إذا نوّنت بينة ورفعت جعلت " ما " بدلاً منها ، وإذا نصبت فعلى الحال .

والمعنى : أو لم يأتهم ما في الصحف الأولى مبيناً ، وهذا على ما يقتضيه الجواز النحوي وإن لم تقع القراءة به .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهلكناهم بِعَذَابٍ مّن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أو من

قبل إتيان البينة لنزول القرآن ﴿ لَقَالُواْ ﴾ يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أي هلا أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا ﴿ فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ التي يأتي بها الرسول ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ ونخزى ﴾ بدخول النار ، وقرىء : " نذلّ ونخزى " على البناء للمفعول .

وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم ؛ ولهذا حكى الله عنهم أنهم : ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْء ﴾ [الملك : 9] .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أي قل لهم يا محمد كل واحد منا ومنكم متربص ، أي منتظر لما يؤول إليه الأمر فتربصوا أنتم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب ﴿ مَنْ أصحاب الصراط السوي ﴾ أي فستعلمون بالنصر والعاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ من الضلالة ونزع عن الغواية ، و" من " في الموضعين في محل رفع بالابتداء .

قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى ﴿ مَنْ أصحاب الصراط السوي ﴾ : من لم يضلّ ، وإلى أن معنى ﴿ مَّنِ اهتدى ﴾ : من ضلّ ثم اهتدى وقيل : " من " في الموضعين في محل نصب ، وكذا قال الفراء .

وحكي عن الزجاج أنه قال : هذا خطأ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله .

وقرأ أبو رافع : " فسوف تعلمون " وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدري : " السوى " على فعلى ، وردت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ وقيل : هي بمعنى الوسط والعدل .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ : ألم نبين لهم .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مساكنهم ﴾ نحو عاد وثمود ومن أهلك من الأمم .

وفي قوله : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يقول : هذا من مقاديم الكلام ، يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ نحوه .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : الأجل المسمى : الكلمة التي سبقت من ربك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ قال : موتاً .

وأخرج الفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ الآية قال : هي الصلاة المكتوبة .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن جرير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله

: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ قال : " قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، ﴿ وقبل غروبها ﴾ صلاة العصر " وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ، وقرأ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ * قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ .

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن عمارة بن رؤبة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " وأخرج ابن أبي شيبة وابن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والخرائطي وأبو نعيم عن أبي رافع قال : "أضاف النبيّ صلى الله عليه وسلم ضيفاً .

ولم يكن عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من اليهود : أن بعنا أو أسلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلا برهن ، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال :

" أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأدّيت إليه ، اذهب بدرعي الحديد " ، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ .

كأنه يعزيه عن الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا " ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : " بركات الأرض " وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد الخدريّ قال : لما نزلت : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يجيء إلى باب عليّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول : " الصلاة رحمكم الله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ " [الأحزاب : 33] .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء نحوه .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ثابت ، قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله : " يا أهلاه صلوا صلوا " ، قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب بإسناد .

قال السيوطي : صحيح ، عن عبد الله بن سلام قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدّة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ الآية . " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(141/504)

وقال القاسمى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾

يعني بأهله : أهل بيته أو التابعين له . أي : مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله : ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي : على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التي ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الآمر بها نفع ما , لتعاليه وتنزهه بقوله : ﴿ لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ أي : لا نسألك مالاً . بل نكلفك عملاً ببدنك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً . ومعنى نحن نرزقك : أي : نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألكه . قاله ابن جرير .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 56 – 57] ، وقال بعض المفسرين : معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة ، فإن رزقك مكفي من عندنا ، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيه حض على القعود عن الكسب ، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعي المأمور به . وقد قال تعالى في وصف المتقين : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور : 37] ، إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي : والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعنون ما تعنتوا في اقتراحهمما تقدم، في سورة بني إسرائيل، من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ [الإسراء: 90-91].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ أي: أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب، من أنباء الأمم من قبلهم، التي أهلكناهم لما سألوا الآيات، فكفروا بها لما أتتهم، كيف عجلنا لهم العذاب، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها. يقول: فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية، أن يكون حالهم حال أولئك. هذا ما قاله ابن جرير.

(143/504)

وذهب غيره إلى أن المعنى: أو لم يأتهم آية هي أم الآيات وأعظمها، وهي معجزة القرآن المبينة لما في الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور. مع أن الآتي بها أُمّيٌّ لم يرها ولم يعلم ممن علمها. فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه، وعلى الباطل المحرف ففنّدَهُ.

وفيه إشعار بكفاية التنزيل في الإعجاز والبرهان كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:

50 – 51] ، ولذلك قال أحد حكماء الإسلام : إن الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الخارق الذي تواتر خبره ولم ينقطع أثره . وهو الدليل وحده . وما عداه مما ورد في الأخبار ، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهي ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فإذا أورد في مقام الاستدلال ، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله ، وفضلٌ من التأكيد لمن سلمه من أهله . ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين ، هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ، هو أنه جاء على لسان أميّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضال مقوما للمعوج كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه . وهلاك كانوا أشرفوا عليه . وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ، أن يعارضوه بشيء من مثل ، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف ، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين

به ، إلى أن ألجاؤهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها في جوائها . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم . وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم ، فإما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعي ، فعليهم أن يأتوا به ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 82] ، وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم . فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها [في المطبوع : أحنائها] . ونشر ما انطوى في أثنائها . وله منها حظه الذي لا ينتقص . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها . ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها . أما معجزة موت حيّ بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم . وإنما يأتي بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضئ عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات .

وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جلّ شانه أن يكوّن الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم . ينطلق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ، ويحبب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة ، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتي للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ، ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية . وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً مّا . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن ، حيث بلغ العقل أشده ، والنوع الإنسانيّ رشده ، فلا تجدي فيه معجزة ، ولا تنفع فيه غريبة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة الموادّ العلمية . فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أوّلاً ، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن طائفة الاسبيريت الروحيين في أوربا تعمل الآن من الأعمال

المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات ، من أن القوم لا يدَّعون النبوة ، ولا يزعمون الرسالة . نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

(146/504)

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهوراً منهم ، إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدي فيه الاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ، ببدائه العقل ، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى منته في إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

(147/504)

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي : من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام : ﴿ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ ﴾ أي : بالعذاب الدنيويّ : ﴿ وَنَخْزَى ﴾ أي : بالعذاب الأخرويّ . أي : ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها . فانقطعت معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء : ﴿ قُلْ ﴾ أي : لأولئك الكفرة المتمردين : ﴿ كُلٌّ ﴾ أي : منا ومنكم : ﴿ مُتَرَبِّصٌ ﴾ أي : منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم : ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ أي : عن قرب : ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ أي : المستقيم : ﴿ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أي : من الزيغ والضلالة . أي : هل هو النبي وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقّق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد في الأولى والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 176 . 180 ﴾

(148/504)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾

أظهر الأقوال عندي في معنى هذه الآية الكريمة : أن الكفار اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة كالعصا واليد من آيات موسى ، وكناقة صالح ، واقتراحهم لذلك بحرف التحضيض الدال على شدة الحضّ في طلب ذلك في قوله : ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا ﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية : كناقة صالح ، وعصا موسى ، أي نطلب ذلك منه بحضّ وحثّ . فأجابهم الله بقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى ﴾ وهي هذا القرآن العظيم ، لأنه آية هي أعظم الآيات وأدلها على الإعجاز . وإنما عبر عن هذا القرآن العظيم بأنه بينة ما في الصحف الأولى . لأن القرآن برهان قاطع على صحة جميع الكتب المنزلة من الله تعالى ، فهو بَيّنة واضحة على صِدقها وصحتها : كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 48] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيل أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : 76] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بالتوراة فاتلوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : 93] إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية على هذا التفسير الذي هو الأظهر أوضحه جل وعلا في سورة « العنكبوت » في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 50-51] . فقوله في « العنكبوت » : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ هو معنى قوله في « طه » : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ [طه : 133] كما أوضحنا . والعلم عند الله تعالى . ويزيد ذلك إيضاحاً الحديث المتفق عليه : « ما من نبي مِنَ الأنبياء إلا أُوتي ما آمَنَ البشر على مِثْله ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يومَ القيامةِ » وفي الآية أقوال أخر غير ما ذكرنا .

(150/504)

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾

قد قدمنا في سورة « النساء » أن آية « طه » هذه تشير إلى معناها آية « القصص » التي هي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : 47] وأن تلك الحجة التي

يحتجون بها لو لم يأتهم نذير هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165]

(151/504)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أن يقول للكفار الذين يقترحون عليه الآيات عناداً وتعنُّتاً : كل منا ومنكم متربِّص ، أي منتظر ما يحل بالآخر من الدوائر كالموت والغلبة . وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمسلمون كله خير ، بعكس ما ينتظره ويتربص الكفار . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فتربصوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : 52] ، وقوله : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ [التوبة : 98] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . والتربص : الانتظار .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي وَمَنِ اهتدى ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار سيعلمون في ثاني حال مَن أصحاب

الصراط السوي ومن اهتدى . أي وفق لطريق الصواب والديمومة على ذلك . وأمر نبيه أن يقول ذلك للكفار . والمعنى : سيتضِح لكم أنا مُهتدون ، وأنا على صراط مستقيم ، وأ ، كم على ضلال وباطل . وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة ، ويظهر لهم في الدنيا لِما يرونه من نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

(152/504)

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 42] ، وقوله : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ [القمر : 26] ، وقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِ ﴾ [ص : 88] إلى غير ذلك من الآيات والصراط في لغة العرب : الطريق الواضح . والسوي : المستقيم ، وهو الذي لا اعوجاج فيه . ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط . . . إذا اعوج الموارج مستقيم

و« مَن » في قوله ﴿ مَنْ أَصْحَابُ ﴾ قال بعض العلماء : هي موصولة مفعول به ل « تعلمون » . وقال بعضهم : هي استفهامية معلقة لفعل العلم ، كما قدمنا إيضاحه في « مريم » والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

ذِكر الأهل هنا مقابل لذِكر الأزواج في قوله ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ [طه : 131] فإن من أهل الرجل أزواجه ، أي مِتْعَتُك ومتعة أهلك الصلاةُ فلا تلفتوا إلى زَخارف الدنيا .

وأهل الرجل يكونون أمثل من ينتمون إليه .

ومن آثار العمل بهذه الآية في السنّة ما في "صحيح البخاري" : أن فاطمة رضي الله عنها بلغها أن سبياً جيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتت تشتكي إليه ما تلقى من الرحى تسأله خادماً من السبي فلم تجده .

فأخبرت عائشةُ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءَها النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذت وعليّ مضجعهما فجلس في جانب الفراش وقال لها ولِعَليّ : "ألا أُخبِركُما بخير لكما مما سألتما تسبّحان وتحمدان وتكبران دُبر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين فذلك خير لكما من خادم"

وأمَر الله رسوله بما هو أعظم مما يأمر به أهله وهو أن يصْطبر على الصلاة.

والاصطبار: الانحباس، مطاوع صبره، إذا حبسه، وهو مستعمل مجازاً في إكثاره من الصلاة في النوافل.

قال تعالى: ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ [المزمل: 1] الآيات، وقال ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ [الإسراء: 79].

وجملة ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾ معترضة بين التي قبلها وبين جملة ﴿ نحن نرزقك ﴾ جعلت تمهيداً لهاته الأخيرة.

والسؤال: الطلب التكليفي، أي ما كلفناك إلاّ بالعبادة، لأنّ العبادة شكر لله على ما تفضل به على الخلق ولا يطلب الله منهم جزاءً آخر.

وهذا إبطال لما تعوده الناس من دفع الجبايات والخراج للملوك وقادة القبائل والجيوش.

وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات: 56 58]، فجملة ﴿ نحن نرزقك ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ [طه: 131].

والمعنى : أنّ رزق ربّك خير وهو مسوق إليك .

والمقصود من هذا الخطاب ابتداءً هو النبي صلى الله عليه وسلم ويشمل أهلَه والمؤمنين لأنّ المعلّل به هذه الجملة مشترك في حكمه جميع المسلمين .

وجملة ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ عطف على جملة ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾ المعلّل بها أمره بالاصطبار للصلاة ، أي إنا سألناك التقوى والعاقبة .

وحقيقة العاقبة : أنها كل ما يعقب أمراً ويقع في آخره من خير وشر ، إلا أنها غلب استعمالها في أمور الخير .

فالمعنى : أنّ التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير .

واللام للملك تحقيقاً لإرادة الخير من العاقبة لأنّ شأن لام الملك أن تدل على نوال الأمر المرغوب ، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة .

وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضاً للتقوى .

وهذه الجملة تذييل لما فيها من معنى العموم ، أي لا تكون العاقبة إلا للتقوى .

فهذه الجملة أرسلت مجرى المثل .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾

رجوع إلى التنويه بشأن القرآن ، وبأنه أعظم المعجزات .

وهو الغرض الذي انتقل منه إلى أغراض مناسبة من قوله ﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً

وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾ [طه : 113] .

والمناسبة في الانتقال هو ما تضمنه قوله ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ [طه : 130]

فجيء هنا بشَنِع من أقوالهم التي أمر الله رسوله بأن يصبر عليها في قوله ﴿ فاصبر على ما يقولون .

فمن أقوالهم التي يقصدون منها التعنت والمكابرة أن قالوا : لولا يأتينا بآية من عند ربّه فنؤمن برسالته ، كما قال تعالى : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] .

ولولا حرف تحضيض .

وجملة ﴿ أولَمْ تأْتِهم بيِّنَةُ ما في الصُّحفِ الأُولى ﴾ في موضع الحال ، والواو للحال ، أي قالوا ذلك في حال أنّهم أتتهم بيّنة ما في الصحف الأولى .

فالاستفهام إنكاري ، أنكر به نفي إتيان آية لهم الذي اقتضاه تحضيضهم على الإتيان بآية .

والبيّنة : الحجة .

و ﴿ الصحف الأولى : كتب الأنبياء السابقين ، كقوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 19 18] .

والصحف : جمع صحيفة .

وهي قطعة من ورَق أو كاغَدَ أو خرقة يكتب فيها .

ولما كان الكتاب مجموع صحف أطلق الصحف على الكتب .

ووجه اختيار ﴿ الصحف هنا على الكُتب أن في كلّ صحيفة من الكتب علماً ، وأن جميعه حَواه القرآن ، فكان كلّ جزء من القرآن آية ودليلاً .

وهذه البيّنة هي محمد وكتاُبه القرآن ، لأنّ الرسول موعود به في الكتب السالفة ، ولأنّ في القرآن تصديقاً لما في تلك الكتب من أخبار الأنبياء ومن المواعظ وأصول التشريع .

وقد جاء به رسول أميّ ليس من أهل الكتاب ولا نشأ في قوم أهل علم ومزاولة للتاريخ مع مجيئه بما هو أوضح من فلق الصبح من أخبارهم التي لم يستطع أهل الكتاب إنكارها ، قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة : 146] ، وكانوا لا يحققون كثيراً منها بما طرأ عليهم من التفرق وتلاشي أصول كتبهم وإعادة كتابة كثير منها بالمعنى على حسب تأويلات سقيمة .

وأما القرآن فما حواه من دلائل الصدق والرشاد ، وما امتاز به عن سائر الكتب من البلاغة والفصاحة البالغتين حد الإعجاز ، وهو ما قامت به الحجّة على العرب مباشرة وعلى غيرهم استدلالاً .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى

تأتيهم البيّنة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ [البينة : 12] .

وقرأ نافع ، وحفص ، وابن جماز عن أبي جعفر ﴿ تأتِهم بتاء المضارع للمؤنث .

وقرأه الباقون بتحتية المذكر لأنّ تأنيث بيّنة غير حقيقي ، وأصل الإسناد التذكير لأنّ التذكير ليس علامة ولكنه الأصل في الكلام .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾

(156/504)

الذي يظهر أن جملة ﴿ ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى ﴾ [طه : 133] ، وأنّ المعنى على الارتقاء في الاستدلال عليهم بأنّهم ضالّون حين أخروا الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوه متوقفاً على أن يأتيهم بآية من ربّه ، لأنّ ما هم متلبسون به من الإشراك بالله ضلال بيّن قد حَجَبتْ عن إدراك فساده العادَات واشتغال البال بشؤون دين الشرك ، فالإشراك وحده كاف في استحقاقهم العذاب ولكن الله رحمهم فلم يؤاخذهم به إلاّ بعد أن أرسل إليهم رسولاً يوقظ عقولهم .

فمجيء الرسول بذلك كاف في استدلال العقول على فساد ما هم فيه ، فكيف يسألون

بعد ذلك إتيان الرسول لهم بآية على صدقه فيما دعاهم إليه من نبذ الشرك لو سُلّم لهم جدلاً أن ما جاءهم من البيّنة ليس هو بآية، فقد بطل عذرهم من أصله، وهو قولهم ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ﴾ .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ [الأنعام : 156] .

فالضمير في قوله ﴿ من قبله ﴾ عائد إلى القرآن الذي الكلام عليه، أو على الرسول باعتبار وصفه بأنه بيّنة، أو على إتيان البيّنة المأخوذ من ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ [طه : 133] .

وفي هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بوحدانية خالق الخلق يقتضيه العقل لولا حجب الضلالات والهوى، وأن مجيء الرسل لإيقاظ العقول والفطر، وأن الله لا يؤاخذ أهل الفترة على الإشراك حتى يبعث إليهم رسولاً، وأنّ قريشاً كانوا أهل فترة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

ومعنى ﴿ لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ : أنهم يقولون ذلك يوم الحساب بعد أن أهلكهم الله الإهلاك المفروض ، لأنّ الإهلاك بعذاب الدنيا يقتضي أنهم معذبون في الآخرة .

و(لولا) حرف تحضيض ، مستعمل في اللوم أو الاحتجاج لأنّه قد فات وقت الإرسال ، فالتقدير : هلاّ كنت أرسلت إلينا رسولاً وانتصب ﴿ فنتبع ﴾ على جواب التحضيض باعتبار تقدير حصوله فيما مضى .

والذل : الهوان .

والخزي : الافتضاح ، أي الذل بالعذاب .

والخزي في حشرهم مع الجناة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ [الشعراء : 87] .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾

جواب عن قولهم ﴿ لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ [طه : 133] وما بينهما اعتراض .

والمعنى : كل فريق متربص فأنتم تتربصون بالإيمان ، أي تؤخرون الإيمان إلى أن تأتيكم آية من ربّي ، ونحن نتربص أن يأتيكم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، وتفرع عليه جملة ﴿ فتربصوا .

ومادة الفعل المأمور به مستعملة في الدوام بالقرينة ، نحو ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله

ورسوله ﴾ [النساء : 136] ، أي فداوموا على تربصكم .

وصيغة الأمر فيه مستعملة في الإنذار ، ويسمى المتاركة ، أي نترككم وتربصَكم لأنا مؤمنون بسوء مصيركم .

وفي معناه قوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ [السجدة : 30] .

وفي ما يقرب من هذا جاء قوله ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ [التوبة : 52] .

وتنوين ﴿ كلّ تنوين عوض عن المضاف إليه المفهوم من المقام ، كقول الفضل بن عبّاس اللّهَبي :

كلّ له نِية في بُغض صاحبه . . .

بنعمة الله نقليكم وتقلونا

والتربص : الانتظار .

تفعّل من الربْص ، وهو انتظار حصول حدث من خير أو شرّ ، وقد تقدّم في سورة براءة .

وفرع على المتاركة إعلامهم بأنهم يعلمون في المستقبل مَن مِن الفريقين أصحاب الصراط المستقيم ومن هم المهتدون .

وهذا تعريض بأن المؤمنين هم أصحاب الصراط المستقيم المهتدون ، لأنّ مثل هذا الكلام لا يقوله في مقام المحاجّة والمتاركة إلا الموقن بأنه المحق .

وفِعل (تعلمون) معلق عن العمل لوجود الاستفهام .

والصراط : الطريق .

وهو مستعار هنا للدّين والاعتقاد ، كقوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

والسوي : فعيل بمعنى مفعول ، أي الصراط المسَوّى ، وهو مشتق من التسوية .

والمعنى : يحتمل أنهم يعلمون ذلك في الدنيا عند انتشار الإسلام وانتصار المسلمين ، فيكون الذين يعلمون ذلك مَن يبقى من الكفار المخاطبين حين نزول الآية سواء ممن لم يسلموا مثل أبي جهل ، وصناديد المشركين الذين شاهدوا نصر الدين يوم بَدر ، أو من أسلموا مثل أبي سفيان ، وخالد بن الوليد .

ومن شاهدوا عزّة الإسلام .

ويحتمل أنهم يعلمون ذلك في الآخرة عِلم اليقين .

وقد جاءت خاتمة هذه السورة كأبلغ خواتم الكلام لإيذانها بانتهاء المحاجَة وانطواء بساط

المقارعة .

ومن محاسنها : أن فيها شبيه رد العجز على الصدر لأنّها تنظر إلى فاتحة السورة .

وهي قوله ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ [طه : 2] ، لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلّغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال ، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاجَ صدره أنه أدى الرسالة والتذكرة فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتى يتبين لهم أنه الحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 16 صـ ﴾

(159/504)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

هنا يعطينا الحق تبارك وتعالى منهجاً لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه ، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو ربُّ الأسرة ، فعليه أنْ يُصلح نفسه أولاً ، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية ، وهي الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته ، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه ، فعليه أنْ يُصلح الدوائر الأخرى المباشرة له .

فقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ [طه : 132] لتستقيم الوحدة الأولى في بناء

الكون ، فإذا ما صلُحَتْ الوحدة الأولى في بناء الكون ، فأمَر كل واحد أهله بالصلاة ، واستقام الكون كله وصَلُح حال الجميع .

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئوليته عند هذا الحدّ إنما ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] لأن في الصلاة مشقة تحتاج إلى صبر ، فالصلاة تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التي هي سبب الخير والنفْع لك ، فلا بُدّ إذن من صبر عليها .

وفَرْق بين اصبر واصطبر : اصبر الفعل العادي ، إنما اصطبر فيها مبالغة أي : تكلَّف حتى الصبر وتعَمَّده .

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ في أذهانهم أهمية الصلاة ، فمثلاً تدخل البيت فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك : انتظروني دقائق حتى أُصلي ، هنا يلتفت الأولاد إلى أن الصلاة أهمّ حتى من الأكل ، وتغرس في نفوسهم مهابةَ التكليف ، واحترامَ فريضة الصلاة ، والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقوم من الليل يصلي ما شاء الله له أنْ يصلي حتى يؤذن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رَشَّ في وجوههم الماء ؛ لأن الصلاة خَيْر من النوم ، فالنوم في مثل هذا الوقت فيه راحة للبدن ، أمّا الصلاة فهي أفضل وأعظم ، ويكفي أنك تكون فيها في حضرة الله تعالى .

وهَبْ أن رب الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام ، ثم فجأة قالوا : أبوكم جاء ، فترى الجميع يُهرولون إليه ، وهكذا الله المثل الأعلى ، إذا دعاك ، فلا تتخلّف عن دعوته ، بل هَرْول إليه ، وأسرع إلى تلبية ندائه ، ولك أنْ تتصوَّر واحداً يناديك وأنتَ لا تردّ عليه ولا تجيبه ، أعتقد أنه شيء غير مقبول ، ولا يرضاه صاحبك .

إذن : عليك أنْ تُعوِّد أولادك احترام هذا النداء ، وبمجرد أن يسمعوا " الله أكبر " يُلبُّون النداء ، ولا يُقدِّمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك في عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) ؛ لأنك انشغلتَ بالنعمة عن المنعم عز وجل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تعرف خير عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر) ، فإنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو أعلى منه منزلةً ، فانظر إلى آخرهم خروجاً من المسجد ، وليس كذلك مَنْ يأتي الصلاة دُبُراً ، وبمجرد السلام يسرع إلى الانصراف .

" ويُروى أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عابَ على أحد الصحابة إسراعه في الانصراف من المسجد بعد السلام ، فتعمَّد رسول الله أنْ يناديه في إحدى المرات ، قال : أزهداً فينا " ؟

وهل هناك مَنْ يزهد في رؤية رسول الله والجلوس معه ؟ فقال الرجل : لا يا رسول الله ، ولكن لي زوجة بالبيت تنتظر ثوبي هذا لتصلي فيه ، فيدعو له رسول الله ، وينصرف

الرجل إلى زوجته ، فإذا بها تقول له : تأخرت بقدْرِ كذا تسبيحة ، فقال : لقد استوقفني رسول الله وحدث كذا وكذا ، فقالت له : شكوتَ ربَّك لمحمد "

ثم يقول تعالى : ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : 132] إذن : ما الذي يشغلك عن حَضْرة ربك ، الرزق ؟ ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ [طه : 132] فالذي لا يستطيع العمل نُوجِّه إليه من الأغنياء مَنْ يطرق بابه ويعطيه ، فالغنيّ شَرْطٌ في إيمانه الفقيرُ ، وليس شرطاً في إيمان الفقير الغني .

(161/504)

وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير ، والطَّرْق على بابه لإعطائه حقَّه في مال الغنيّ ، لا ينتظره حتى يسأل ، ويُريق ماء وجهه وهو يطلب حَقّاً من حقوقه في مجتمع الإيمان .

وقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : 132] أي : لا نسألك رزقاً ثم نتركك ، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك ، فاطمئن إلى هذه المسألة .

﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه : 132] لأنك إذا تأزمتْ معك أمور الحياة تلجأ إلى الله ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر قام إلى الصلاة ، وتأزَّمُ الأمور يأتي حينما

نفقد نحن الأسباب المعطاة من الله، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحِيَل لم يَبْقَ لك إلا أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه، كما يقول في آية أخرى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: 23]

.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ ﴾

مرت بنا (لولا) في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ ﴾ [يونس: 19] وتعني: امتناع التعذيب لوجود الكلمة، أما (لولا) هنا فتعني: هلا، للحثّ والطلب ﴿ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [طه: 133] كما في ﴿ ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: 39].

فكأن القرآن لا يعجبهم، مع أنهم أمةُ بلاغة وبيانٍ، وأمة فصاحة وكلام، والقرآن يخجلهم لفصاحته وبلاغته، فأيُّ آية تريدونها بعد هذا القرآن؟

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [طه: 133] كدليل صِدْق على بلاغه عن الله كالمعجزات الحسّية التي حدثتْ لمن قبله من الرسل، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 9093] .

إذن : فالآيات من الله لا دَخْل لي فيها ولا أختارها ، وها هو القرآن بين أيديكم يخبركم بما كان في الأمم السابقة ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] .

وقال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى * إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 1419] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ ﴾ [النساء : 163] .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى ﴾ [طه : 133] .

فالقرآن جاء جامعاً ومُهيْمناً على الكتب السابقة ، وفيه ذِكْر لكل ما حدث فيها من معجزات حسية ، وهل شاهد هؤلاء معجزة عيسى عليه السلام في إبراء الأكمه والأبرص ؟ هل شاهدوا عصا موسى أو ناقة صالح ؟

لقد عرفوا هذه المعجزات عندما حكاها لهم القرآن ، فصارت خبراً من الأخبار ،

وليست مَرْأىً ، والمعجزة الحسّية تقع مرة واحدة ، مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ يرهَا فهي بالنسبة له خبر ، ولولا أن القرآن حكاها ما صدّقها أحد منهم .

(163/504)

لكن هؤلاء يريدون معجزة حِسّية تصاحب رسالة محمد العامة للزمان وللمكان ، ولو كانت معجزةَ محمد حِسِّية لكانت لمَنْ شاهدها فقط ، والحق سبحانه يريدها معجزة دائمة لأمتداد الزمان والمكان ، فمَنْ آمن بمحمد نقول له : هذه هي معجزته الدائمة الباقية إلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك ، كان القرآن معجزة لكل القرون ، ولو أفنى القرآن معجزته مرة واحدة للمعاصرين له فحسب لاستقبلتْه القرون الآتية بلا إعجاز ، لكن شاءتْ إرادة الله أن يكون إعجاز القرآن سراً مطموراً فيه ، وكل قرن يكتشف من أسراره على قدر التفاتهم إليه وتأملهم فيه ، وهكذا تظل الرسالة محروسة بالمعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ ﴾

يقول تعالى : أنا قطعت عليهم الحجة ؛ لأنني لو أهلكتُهم على فَتْرة من الرسل لقالوا : لماذا لم تُبقِنَا إلى أن يأتينا رسول ، فلو جاءنا رسول لآمنا به قبل أن نقع في الذَّلِّ والخِزْي ، فمعنى :

ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبل أن يأتي القرآن لقالوا : ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً لآمنّا به واهتدينا .

وهذه مجرد كلمة هو قائلها ، وكما قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] إنها مجرد كلمة تنقذهم من الإشكال .

وقولهم : ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه : 134] الذل : ما يعتري الحييّ مما ينشأ عنه انكساره بعد أنْ كان متعالياً ، والذّل يكون أولاً بالهزيمة ، وأذلّ من الهزيمة الأَسْر ، لأنه قد يُهزم ثم يفِرّ ، وأذلُّ منهما القتل . إذن : الذل يكون في الدنيا أمام المشاهدين له والمعاصرين لانكساره بعد تعاليه .

أما الخزي : نخزى يعني : يُصيبنا الخزي ، وهو تخاذل النفس بعد ارتفاعها . ومن ذلك يقولون : أنت خزيت . يعني : كنت تنتظر شيئاً فوجدت خلافه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 194] فإنْ عُجِّل لهم الذلُّ في الدنيا ، فإن الخزي مُؤخَّر للآخرة حتى تكون فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، كما يقولون (فضيحة بجلاجل) حيث يشهد خِزْيهم أهلُ

الموقف جميعاً .

وكلمة " الخزي " هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول عليه رحمة الله وكان رجلاً مكفوفَ البصر ، وكنا (نستلخمه) فإذا وجدنا فرصة تفلّتنا منه وهربنا من تصحيح اللوح الذي نحفظه ، فالذي يحفظ بمفرده هكذا من المصحف يكون عرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبد الباري ، وقد حضر مدير المدرسة فجأة ، وأراد أن يُسمّع لنا ، وكان الشيخ عبد الباري لم يصحح لوحه الذي سيقرأ منه فقرأ : (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) فقرأها بالراء بدلاً من الزاي ، فضحك الشيخ طويلاً رحمه الله وقال : يا بني المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا . فكنا نأخذها على الشيخ عبد الباري ، فَمنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار . .) ويسكتْ ! !

فشاء الله تعالى أن يتعرض كُلُّ منا لموقف مشابه يُؤْخَذ عليه ، وقد أُخِذ عليَّ مثلُ هذا حين قرأت دون أنْ أُصحّحِ اللوح أول سورة الشورى : (حم عسق) وقد سبق لي أن عرفت (حم) لكن لم يمر بي (عسق) فقرأت : (حم عَسَقَ) بالوصل ، فصار الشيخ عبد الباري كلما قلت له : (إنك من تدخل النار . . . .) يقول : (حم) .

فقلنا سبحان الله :

مَنْ يِعِبْ يَوْماً بشَيْء . . . لَمْ يمُتْ حتَّى يَرَاهُ

(165/504)

إذن : فقول هؤلاء : ﴿ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه : 134] تمحُّك منهم : لو أرسلت لنا رسولاً لاتبعناه من قبل أنْ نذلّ في الدنيا هزيمة ، أو أَسْراً ، أو قَتْلاً ، ونخزى في الآخرة بفضيحة علنية على رؤوس الأشهاد .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾

التربُّص : التحفُّز لوقوع شيء بالغير ، تقول : فلان يتربص بي يعني : يلاحظني ويتابعني ، ينتظر مني هَفْوة أو خطأ ، فقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ [طه : 135] فكُلٌّ مِنَّا يتربص بالآخر ، لأننا أعداء ، كل منا ينتظر من الآخر هفوة ويترقب ماذا يحدث له .

وقد أوضح سبحانه وتعالى توجيهات التربُّص منه ومنهم في آية أخرى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين ﴾ [التوبة : 52] .

ماذا تنتظرون إلا إحدى الحُسْنيين : إما أن نموت في قتالكم شهداء ، أو ننتصر عليكم ونُذِلكم ، فأيّ تربُّص يحدث شرف لنا ، إما النصر أو الشهادة ، فكلاهما حُسنْى ، ونحن

نتربّص بكم أنْ يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فكلاهما سوءة .

وما دام الأمر كذلك فتربّصُوا بنا كما تحبون ، ونحن نتربص بكم كما نريد ؛ لأن تربصنا بكم يفرحنا ، وتربصكم بنا يُؤلمكم ويُحزنكم .

ومعنى ﴿ قُلْ ﴾ [طه : 135] هنا أن القول ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ [طه : 135] ليست من عند محمد ، فليس في يده زمام الكون ولا يعلم الغيب ، فهو قَوْل الله الذي قال له (قل) يا محمد ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ [طه : 135] .

إذن : قيلتْ مِمَّن يملك أَزمّة الأمور وأعنّتها ، ولا يخرج شيء عن مراده تعالى ، وربما لو قُلْت لكم من عندي تقولون : كلام بشر لا يملك من الأمور شيئاً . إذن : خذوها لا بمقياس كلام البشر ، إنما بمقياس مَنْ يملك زمام أقْضية البشر كلها .

(166/504)

ثم يقول تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي وَمَنِ اهتدى ﴾ [طه : 135] متى سيحدث هذا ؟ ساعة تقوم الساعة حيث الانصراف ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوي : نحن أمْ أنتم ؟ لكنه سيكون عِلْماً لا ينفع ولا يُجدي ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، جاء وقت الحساب لا وقت العمل

وتلافي الأخطاء .

إنه عِلْم لا يترتب عليه عمل ينجيكم ، فقد انتهى وقت العمل ، وهكذا يكون عِلْماً يُزيد حسرتهم ، ويُؤذيهم ولا ينفعهم .

والصراط : الطريق المستقيم . والسَّويّ : المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه ولا أَمْت .

وقال بعدها ﴿ ومَنِ اهتدى ﴾ [طه : 135] لأنه قد يوجد الصراط السويّ ، ولا يوجد مَنْ يسلكه ، فالمراد : الصراط السَّوي ومَن اهتدى إليه وسلَكه .

وقد يظن ظانٌّ أن مسألة التربُّص هذه قد تطول ، فيقطع الحق سبحانه هذا الظن بقوله في سورة الأنبياء الآتية بَعدُ : ﴿ اقترب لِلنَّاس حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 1] .

وهكذا تنسجم السُّورتان ، ويتصل المعنى بين الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(167/504)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ قال : قومك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في قوله : ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾ قال : لا نكلفك الطلب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة ، أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفاً ، فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار قرأ ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ إلى قوله : ﴿ نحن نرزقك ﴾ ثم يقول : الصلاة . . . الصلاة رحمكم الله .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار ، عن أبي سعيد الخدري قال : " لما نزلت ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ "كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيء إلى باب عليّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول : الصلاة رحمكم الله ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ [الأحزاب : 33] " " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ثابت قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله بالصلاة : صلوا . . . صلوا . . . " قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وعبد بن حميد عن معمر ، عن رجل من قريش قال : " كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على أهله بعض الضيق في الرزق ، أمر أهله

بالصلاة ثم قرأ ﴿ وأمر أهلك بالصلاة . . . ﴾ الآية " .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح ، عن عبد الله بن سلام قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق ، أمرهم بالصلاة وتلا ﴿ وأمر أهلك بالصلاة . . . ﴾ الآية " .

(168/504)

وأخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي ، حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة . . . الصلاة . . . ويتلو هذه الآية : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة قال : قال لنا أبي : إذا رأى أحدكم شيئاً من زينة الدنيا وزهرتها ، فليأت أهله وليأمر أهله بالصلاة وليصطبر عليها ، فإن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم . . . . ﴾ وقرأ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ قال : هي الجنة . والله

أعلم.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ قال: التوراة والإنجيل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال: الهالك في الفترة والمعتوه والمولود يقول: رب لم يأتني كتاب ولا رسول. وقرأ هذه الآية ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً... ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ أصحاب الصراط السوي ﴾ قال: العدل.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(169/504)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) ﴾

قوله: ﴿ للتقوى ﴾: أي: لأهلِ التقوى. ويؤيد هذا قولُه في موضعٍ أخرَ ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: 128]، وقرأ ابن وثاب "نَرْزقُك" بإدغام القاف في الكاف. / والمشهورُ عنه أنه لا يدُغِمُ إلاَّ إذا كانَتِ الكافُ متصلةً بميمِ جمعٍ نحو ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة: 21] وقد تقدم.

قوله: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ﴾:

قرأ نافع وأبو عمرو وحفص "تأتهم" بالتأنيثِ والباقون بالياء مِنْ تحت؛ لأنَّ التأنيثَ مجازي. وقرأ العامَّةُ "بَيِّنَةُ ما" بإضافة "بَيِّنَة" إلَى "ما" مرفوعةً وهي واضحةٌ. وقرأ أبو عمروٍ فيما رواه أبو زيدٍ بتنوينِ "بَيِّنَةٌ" مرفوعةً. وعلى هذه القراءةِ ففي "ما" أوجهٌ، أحدُها: أنها بدلٌ من "بَيِّنَةٌ" بدل كل من كل. والثاني: أن تكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي: هي ما في الصحف الأولى. والثالث أَنْ تكونَ "ما" نافيةً. قال صاحب: اللوامح": "وأُريدَ بذلك ما في القرآن من الناسخ والفصلِ ممَّا لم يكنْ في غيرِه من الكتب".

وقرأَتْ جماعةٌ "بَيِّنَةً" بالتنوين والنصب. ووجهُها أَنْ تكونَ "ما" فاعلةً، و"بَيِّنَةً" نصب على الحال، وأَنَّث على معنى "ما". ومَنْ قرأ بتاء التأنيث فحملاً على معنى "ما"، ومَنْ قرأ بياءِ الغَيْبة فعلى لفظِها.

وقرأ ابنُ عباس بسكونِ الحاء.

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾

والهاءُ في "قَبْلِه"

(170/504)

يجوزُ أَنْ تعودَ للرسول بدليلِ قولِه: ﴿ لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ . وجَوَّز الزمخشري وغيرُه أَنْ تعودَ على "بَيِّنَةٍ" باعتبارِ أنها في معنى البرهان والدليل.

قوله: ﴿ فَنَتَّبِعَ ﴾ نصبٌ بإضمار "أَنْ" في جوابِ التخصيص. وفي إعراب أبي البقاء: "في جوابِ الاستفهام" وهو سهوٌ.

وقرأ ابنُ عباس وابنُ الحنفية والحسن وجماعة كثيرةٌ "نُذَلَّ ونخزى". مبنيين للمفعول.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾

و"مُتَرَبِّصٌ" خبرُ "كل"، أَفْرَدَ حملاً على لفظ "كل".

قوله: ﴿ مَنْ أَصْحَابُ ﴾ يجوز في "مَنْ" هذه وجهان، أظهرهما: أَنْ تكونَ استفهاميةً مبتدأةً، و"أصحابُ" خبره. والجملةُ في محلِّ نصبٍ سادَّةً مَسَدَّ المفعولَيْن. والثاني ويعزى للفراء أن تكونَ موصولةً بمعنى الذين. و"أصحابُ" خبر مبتدأ مضمر أي: هم أصحاب، وهذا على مقتضى مذهبِهم، يحذفون مثل هذا العائدِ وإن لم تَطُلِ الصلة. ثم "

عَلِمَ " يجوز أَنْ تكونَ عرفانيةً فتكتفيَ بهذا المفعولِ ، وأن تكون على بابها فلا بُدَّ مِنْ تقديرِ ثانيهما .

وقرأ العامَّةُ : " السَّوِيّ " على وزن فَعيل بمعنى المُسْتَوِي . وقرأ أبو مجلز وعمران بن حدير " السَّوَاء " بفتحِ السينِ والمدِّ ، بمعنى الوسط الجيِّد . وقرأ يحيى بن يعمر والجحدري " السوءى " على فعلى باعتبار أن الصراط يُذَكَّرُ ويؤنث . وقرأ ابن عباس " السَّوْء " بفتح السين بمعنى الشرِّ .

ورُوِي عنهما " السوى " بضم السين وتشديد الواو . ويحتمل ذلك وجهين ، أحدُهما : أَنْ يكونَ قَلَبَ الهمزةَ واواً ، وأدغم الواوَ في الواو ، وأَنْ يكونَ فُعْلَى من السَّوَاء . وأصلُه السُّوْيا فقُلِبَتِ الياءُ واواً وأُدْغم أيضاً . وكان قياسُ هذه السُّيَّا ؛ لأنه متى اجتمع ياءٌ وواوٌ وسَبَقت إحداهما بالسكون قُلبت الواوُ ياءً وهنا فُعِل بالعكس .

(171/504)

وقُرِىء " السُّوَيّ " بضم السين وفتح الواو وتشديد الياءِ تصغيرَ " سُوْء " قاله الزمخشري . قال الشيخ : " وليس بجيدٍ إذ لو كانَ كذلك لثَبَتَتْ همزةُ " سوء " . والأجودُ أَنْ يكونَ تصغيرَ " سواء " ، كقولِهم عُطَيّ في عَطاء " . قلت : وقد جعله أبو البقاء أيضاً تصغيرَ

السَّوْء يعني بفتح السين . ويَرِدُ عليه ما تقدَّم إيرادُه على الزمخشريِّ، وإبدالُ مثلِ هذه الهمزةِ جائزٌ فلا إيرادَ .

قوله : ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدها : أَنْ تكونَ استفهاميةً، وحكمُها كالتي قبلها إلاَّ في حَذْفِ العائد . الثاني : أنها في محلِّ رفعٍ على ما تقدَّم في الاستفهاميةِ . الثالث : أنها في محلِّ جرٍّ نَسَقاً على " الصراطِ " أي : وأصحابُ مَنِ اهتدى . وعلى هذين الوجهين تكونُ موصولةً، قال أبو البقاء في الوجه الثاني : " وفيه عَطْفُ الخبرِ على الاستفهام ، وفيه تقويةٌ قولِ الفرَّاءِ " يعني أنه إذا جعَلَها موصولةً كانت خبريةً. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 124. 127 ﴾

(172/504)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ .

الصلاةُ استفتاحُ بابِ الرزق، وعليها أحال في تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه . ويقال الصلاة رزق القلوب، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قوتُ النّفْسِ قَوِيَ قُوتُ القلب .

وأمرَ - الرسولَ - عليه السلام - بأن يأمرَ أهلَه بالصلاةِ، وأَنْ يَصْطَبِرَ عليها وللاصطبار مزية على الصبر؛ وهو ألَّا يجِدَ صاحبُه الألَمَ بل يكون محمولاً مُرَوَّحاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ لَا نَسْئَلُكَ رِزْقاً ﴾.

أي لا نكلفك برزق أحدٍ، فإنّ الرازقَ اللَّهُ - سبحانه - دون تأثير الخَلْق، فنحن نرزقك ونرزق الجميع.

قوله جلّ ذكره: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾.

هما شيئان: وجود الأرزاق وشهود الرزاق؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة النفوس، وشهود الرزاق يوجب قوة القلوب.

ويقال استقلال العامة بوجود الأرزاق، واستقلال الخواص بشهود الرزّاق.

ويقال نَفي عن وقته الفَرْقَ بين أوصاف الرزق حين قال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾؛ فإنّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله: ﴿ نَّحْنُ ﴾ سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ.

ويقال خفَّفَ على الفقراءِ مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّرِه عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله: ﴿ نَّحْنُ ﴾.

قوله: ﴿ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾: أي العاقبة بالحسنى لأهل التقوى.

ويقال المراد بالتقوى المُتّقي، فقد يسمَّى الموصوف بما هو المصدر.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) ﴾

عَمِيَتْ بصائرهم وادّعوا أنه لا برهانَ معه ، ولم يكن القصورُ في الأدلة بل كان الخَلَلُ في بصائرهم ، ولو جمع اللَّهُ لهم كل آيةٍ اقْتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِد ﴿ اللَّهُ أَنْ يؤمِنوا لَمَا ازدادوا إلا طغياناً وكفراً وخسراناً . . . وتلك سُنَّةُ أسلافهم في تكذيب أنبيائهم ، ولذا قال :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾

إنْ أرسلنا إليهم الرسلَ قابلوهم بفنونٍ من الجحد ، ووجوهٍ من العلل ؛ مرةً يقولون فما بالُ هذا الرسول بَشَر ؟ هلاّ أرسله مَلَكاً ؟ ولو أرسلنا مَلَكاً لقالوا هلاّ أرسل إلينا مثلنا بَشَراً ؟ ولو أظهر عليهم آيةً لقالوا : هذا سِحْرٌ مُفْتَرَى ! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من نكيرٍ لقالوا :

هلاّ بَعَثَ إلينا رسولاً حتى كنا نُؤْمِن ؟ فليست تنقطع أعلالُهم ، ولا تنفك - عما لا يُرْضَى - أحوالُهم . وكذلك سبيل مَنْ لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد ، وفي معناه أنشدوا :

وكذا إذا الملولُ قطيعةً . . . مَلَّ الوِصال وقال كان وكانا

﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾

الكل واقفوان على التجويز غير حاصلين بوثيقة ، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف ، إلاَّ أَنَّ أربابَ التفرقة ينتظرون ما سيبدو مِمَّا يقتضيه حُكْمُ الأفلاك ، وما الذي توجبه الطبائعُ والنجومُ . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رَوْحِ التوحيد ، والباقون في ظُلُمَاتِ الشَّرْكِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 488 . 490 ﴾

(174/504)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾

قال قتادة : ذلَّت الوجوه ﴿ لِلْحَىّ القيوم ﴾ ؛ وقال القتبي : أصله من عنيته أي : حبسته ، ومنه قيل للأسير عان ؛ وقال الزجاج : رحمه الله : عنت أي : خضعت ، يقال : عنا يعنو أي : خضع ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ ، أي : خسر من حمل شركاً .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ ، يعني : من يعمل من الطاعات ومن للصِّلة والزينة .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مع عمله ، لأن العمل لا يقبل بغير إيمان ، ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ ؛ قال قتادة : أي : لا يزداد في سيئاته ولا ينقص من حسناته أي : لا يهضم .

قال السدي رحمه الله : الظلم أن يأخذ لما لم يعمل ، والهضم النقصان من حقه .

قال القتبي : ومنه قيل هضيم الكشحين ، أي : ضامر الجنبين ، وهضمني الطعام أي أمرأني ويهضمني حقي .

قرأ ابن كثير ﴿ فَلاَ يَخَافْ ﴾ على معنى النهي ، والباقون ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ على معنى الخبر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وكذلك أنزلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ ، يعني : هكذا أنزلنا عليك جبريل ، ليقرأ عليك القرآن على لغة العرب ، وبينّا في القرآن من أخبار الأمم الماضية وما أصابهم بذنوبهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يعني : لكي يتقوا الشرك ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ ، يعني : يحدث الوعيد بهذا القرآن ، أو هذا القرآن لهم اعتباراً ، فيذكر به عذاب الله للأمم فيعتبروا ؛ وهذا قول مقاتل ، ويقال : ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ أي يحدث الوعيد بذكر العذاب فيزجرهم عن المعاصي ، ويقال : ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ ، أي شرفاً ، والذكر الشرف .

ثم قال عز وجل : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ، يعني : ارتفع وتعظم عن الشريك والولد ﴿ الملك الحق ﴾ أهل الربوبية ؛ ويقال : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ، يعني : ارتفع وتعظم من أن يزيد في سيئات أحد وينقص من حسنات أحد ﴿ الملك الحق ﴾ الذي يعدل بين الخلق ثم قال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ إن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام كان إذا قرأ القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يتعجل النبي صلى الله عليه وسلم بقراءته قبل أن يختم جبريل تلاوته مخافة أن لا يحفظ ، فنزل : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ ﴾ أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءته ، فيكون في الآية تعليم حفظ الأدب ، وهو الاستماع إلى من يتعلم منه ؛ وهذا مثل قوله : ﴿ لَا تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ روى جرير بن حازم عن الحسن أن رجلاً لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص قبل أن ينزل القرآن ، فنزل ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ الآية ، أي لا تعجل بالقصاص من قبل أن يقضى عليك بالقرآن ، ونزل قوله عز وجل : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء ﴾ قال : وكان الحسن يقرأ ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّقْضِىَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ بالنصب ، يعني : من قبل أن ينزل إليك جبريل بالوحي ؛ وقراءة العامة ﴿ يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ، ومعنى القراءتين واحد .

ثم قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ ، يعني : زدني علماً بالقرآن ، معناه زدني فهماً في معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى مِن رَّبِّهِ قَبْلُ ﴾ ، يعني : أمرنا آدم عليه السلام بترك أكل الشجرة من قبل ، يعني : من قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَنَسِىَ ﴾ ، يعني : فترك أمرنا ، ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ ؛ أي : حفظاً لما أمر به .

روى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ عَهِدْنَا إِلَى مِن رَّبِّهِ قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾ يعني : فترك أمرنا ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ ، يعني : حزماً صريماً ؛ وقال قتادة : يعني : صبراً ؛ وقال السدي مثله ، وقال عطية : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ ، أي : حفظاً بما أمر به .

روى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : عهد إلى آدم فنسي ، فسمي الإنسان .

وقال القتبي : النسيان ضد الحفظ .

كقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة فَإِنِّى نَسِيتُ الحوت وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ واتخذ سَبِيلَهُ فِى البحر عَجَبًا ﴾ [الكهف : 63] ، والنسيان الترك .

كقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى مِن رَّبِّهِ قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾ وكقوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء

يَوْمِكُمْ هذا ﴾ وكقوله : ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ ﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أبى ﴾ ، أي : تعظم عن السجود ، ﴿ فَقُلْنَا ياءادم أَن لَّا هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ ؛ يعني : إبليس عدو لك ولزوجك حواء فاحذرا منه ، ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ ؛ يعني : فتتعب وتتعبا بعمل كفيك ولا تأكل إلا كداً بعد النعمة .

وقال سعيد بن جبير : لما هبط آدم من الجنة وكلّف العمل ، فكان يمسح العرق عن جبينه ، فذلك قوله : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ ، وهو العرق الذي مسحه من الجبين .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ لَكَ أَن لا تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى ﴾ ، يعني : أن حالك ما دمت في الجنة لا تجوع ولا تعرى من الثياب .

﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا ﴾ ، يعني : لا تعطش في الجنة ، ﴿ وَلاَ تضحى ﴾ ؛ يعني : لا يصيبك الضحى ؛ وهو حر الشمس .

قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ بالكسر على معنى الابتداء ، وقرأ الباقون ﴿ وَأَنَّكَ ﴾ بالنصب على معنى البناء .

قوله عز وجل : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ ءادَمَ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ من أكل منها خلد ولم يمت ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ ؟ يعني : هل أدلك على ملك لا يفنى ؟ فهو أكل الشجرة .

﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا ﴾ ، يعني : من الشجرة وقد ذكرنا تفسير الشجرة في سورة البقرة .

﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا ﴾ ، أي : ظهرت لهما عوراتهما ، ﴿ سَوْءتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ ؛ أي : عمدا يلزقان ﴿ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة وعصى ءادَمَ رَبَّهُ ﴾ ، أي : ترك أمره بأكله من الشجرة ، ﴿ فغوى ﴾ ؛ أي : أخطأ ولم يصب بأكله ما أراد وما وعد له من الخلود .

﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ ، أي : اختاره واصطفاه بالنبوة ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ ، يعني : تجاوز عنه وقبل توبته ، ﴿ وهدى ﴾ ؛ يعني : هداه الله تعالى للتوبة بكلمات تلقاها .

﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ ؛ يعني : من الجنة آدم وحواء وإبليس والحية ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ ؛ يعني : يا ذرية آدم سيأتيكم مني الكتب والرسل ، خاطبه به وعنى ذريته .

﴿ فَمَنِ اتبع هُدَاىَ ﴾ ؛ يعني : أطاع كتبي ورسلي ﴿ فَلاَ يَضِلُّ ﴾ باتباعه إياها في الدنيا ، ﴿ وَلاَ يشقى ﴾ في الآخرة .

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتّبع ما فيه، هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، فذلك قوله: ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يشقى ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾، يعني: عن القرآن والرسل ولم يؤمن؛ وقال مقاتل: من أعرض عن الإيمان، ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾؛ يعني: معيشة ضيقة.

روي عن ابن مسعود، وأبي سعيد الخدري أنهما قالا: ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾؛ يقول عذاب القبر.

(178/504)

وروى أبو سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾، قال: "عَذَابَ الْقَبْرِ".

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾، أي: أعمى عن الحجة.

وقال ابن عباس: وذلك حين يخرج من القبر، يخرج بصيراً؛ فإذا سيق إلى المحشر عمي.

قال عكرمة رحمه الله في قوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾، قال: عمي قلبه عن كل

شيء إلا جهنم؛ وقال الضحاك في قوله: ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ .

قال: الكسب الخبيث وقيل: معيشة سوء، لأنه في معاصي الله؛ وقال السدي: ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ ، أي: عذاب القبر حين يأتيه الملكان؛ وقال قتادة: الضنك الضيق، يقول: ضنكاً في النار.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى ﴾ ، قال مجاهد: ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى ﴾ لا حجة لي؟ ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ بالحجة في الدنيا، ويقال: ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى ﴾ أي: أعمى العينين ﴿ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ في الدنيا؟ ﴿ قَالَ كذلك أَتَتْكَ اياتنا فَنَسِيتَهَا ﴾ يعني: الرسل والقرآن فنسيتها وتركت العمل بها ولم تؤمن بها.

﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ ، أي: تترك في النار.

ويقال: ﴿ كذلك أَتَتْكَ اياتنا فَنَسِيتَهَا ﴾ ، أي: تعلمت القرآن فنسيته وتركته.

وقال السدي: ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي: تترك في النار وتترك عن الخير.

ثم قال عز وجل: ﴿ وكذلك نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ يعني: هكذا نعاقب من أشرك بالله، ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بِئَايَاتِ رَبِّهِ ﴾ ؛ بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ ، يعني: وأدوم.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ ، يعني: أفلم يتبين لقومك؟ ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّنَ القرون يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ ، يعني: يمرون على منازلهم.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ ، يعني : في هلاكهم لعبرات ﴿ لِأُوْلِى النهى ﴾ ، يعني : لعبرات لذوي العقول من الناس .

(179/504)

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ؛ وهذا مقدم ومؤخر ، يقول : ولولا كلمة سبقت بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى أجل مسمى ، أي : إلى يوم القيامة ، أي : لكان لزاماً ، أي : لأخذتهم بالعذاب كما أخذت من كان قبلهم من الأمم عند التكذيب ، ولكن نؤجلهم إلى يوم القيامة ﴿ وَهُوَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

وقال القتبي : معناه ولولا أن الله عز وجل جعل الجزاء يوم القيامة وسبقت بذلك كلماته ، لكان العذاب ملازماً لا يفارقهم .

وقال : في الآية تقديم ، أي : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى ، لكان العذاب لازماً .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ ، يعني : على ما يقول أهل مكة من تكذيبهم إياك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، يعني : صل لربك واعمل بحمد ربك وبأمره ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ يعني : صلاة الفجر وقبل غروبها ، يعني : صلاة العصر ؛ ويقال : صلاة الظهر

والعصر .

وروى جرير ، عن عبد الله البجلي ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "

سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ يعني : لا تزدحمون ، مأخوذ من الضم أي : لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته بظهوره كما في رواية الهلال .

ويروى لا تضامون بالتخفيف وهو الضم أي : الظلم ، أي : لا يظلم بعضكم في رؤيته بأن يراه البعض دون البعض فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَنِ الصَّلاةِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا " .

ثم قرأ هذه الآية ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .

﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ، على معنى التأكيد للتكرار ﴿ وَمِنْ ءانَاء الليل ﴾ ، يعني : ساعات الليل .

﴿ فَسَبِّحْ ﴾ ، يعني : صلاة المغرب والعشاء ، ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ ؛ يعني : غدوة وعشية .

﴿ لَعَلَّكَ تَرضى ﴾ ؛ يعني : لعلك تعطى من الشفاعة حتى ترضى .

قرأ الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ ترضى ﴾ بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله ، والباقون بالنصب يعني : ترضى أنت ؛ وقال أبو عبيدة : وبالقراءة الأولى نقرأ بالضم ، لأن فيها معنيين أحدهما ترضى أي : تعطى الرضا ، والأخرى ترضى أي يرضاك الله .

وتصديقه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكواة وكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ [مريم : 55] ؛ وليس في الأخرى وهي القراءة بالنصب ، إلا وجه واحد .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجا مِّنْهُمْ ﴾ ، يعني : لا تنظر بالرغبة إلى ما أعطينا رجالاً منهم من الأموال والأولاد .

﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ ، يعني : فإن زينة الدنيا .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ، يعني : لنبتليهم بالمال وقلة الشكر .

﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ ، أي : جنة ربك ﴿ خَيْرٌ ﴾ من هذه الزينة التي في الدنيا ، ﴿ وأبقى ﴾ ؛ أي : وأدوم .

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : حدّثنا محمد بن الفضل .

قال : حدّثنا إسماعيل بن جعفر .

قال : حدّثنا إبراهيم بن يوسف .

قال : حدّثنا وكيع ، عن موسى بن عبيدة ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي رافع قال : نزل بالنبي صلى الله عليه وسلم ضيف فبعثني إلى يهودي أن يبيعنا أو يسلفنا إلى أجل ، فقال

اليهودي : لا والله إلاّ برهْنٍ .

فرجعت إليه فأخبرته فقال : "لَوْ بَاعَنِي أوْ أُسْلَفَنِي لَقَضَيْتُهُ ؛ وإنّي لأَمِينٌ فِي السّمَاءِ وَأَمِينٌ فِي الأَرْضِ ، اذْهَبْ بدِرْعِي الحَدِيدِيّ" فذهبت بها فنزل من بعدي هذه الآية تعزية عن الدنيا ﴿ ولَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجا مّنْهُمْ ﴾ إلى آخر الآية .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ ، يعني : قومك وأهلك وأهل بيتك بالصلاة .

﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ ، يعني : اصبر على ما أصابك فيها من الشدة .

روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن رجل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل عليه نقص في الرزق ، أي : ضيق ، أمر أهله بالصلاة .

ثم قرأ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ .

﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ لخلقنا ولا أن ترزق نفسك ؛ إنما نسألك العبادة .

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ في الدنيا ما دمت حياً .

﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ ، يعني : الجنة للمتقين .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ ، يعني الكفار : ﴿ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ ، يعني : هلا يأتينا محمد بعلامة

لنبوته؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ﴾ ، يعني : بيان ﴿ مَا فِى الصحف الاولى ﴾ ، يعني : ما في التوراة والإنجيل حتى يجدوا نعته فيه ؛ وهذا كقوله عز وجل : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ ، يقول : لو أن أهل مكة أهلكناهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ ، يعني : من قبل أن نعذب .

(182/504)

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ ، يعني : منتظر لهلاك صاحبه أنا وأنتم وقال مقاتل : كان كفار مكة يقولون نتربص بمحمد ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] ، يعني : الموت ووعدهم النبي صلى الله عليه وسلم العذاب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ ، يعني : أنتم متربصون بمحمد صلى الله عليه وسلم الموت ، ومحمد متربص بكم العذاب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ ، أي : انتظروا ، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ إذا نزل بكم العذاب ، ﴿ مَنْ أصحاب الصراط السوي ﴾ ،

أي : العدل ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ منا ومنكم .

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ بالتاء ، لأن لفظ البينة مؤنث ، والباقون ﴿ أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ بالياء ، لأن معناه البيان .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 413. 418 ﴾

(183/504)

وقال الثعلبى :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيِّ القيوم ﴾

أي ذلّت وخضعت واستسلمت ، ومنه قيل للأسير عان ، وقال أُميّة بن أبي الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن . . . لعزّته تعنو الوجوه وتسجد

وقال طلق بن حبيب : هو السجود .

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ خسر ﴿ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ شركاً .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ﴾ قرأ ابن كثير على النهي جواباً لقوله ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ والباقون : فلا يخاف على الخبر . ﴿ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً

﴾ .

قال ابن عباس : لا يخاف أن يزاد عليه في سيئاته ولا ينقص من حسناته .

الحسن وأبو العالية : لا ينقص من ثواب حسناته شيئاً ولا يحمل عليه ذنب مسيء .

الضحاك : لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا يبطل حسنة عملها . وأصل الهضم : النقص والكسر يقال : هضمت لك من حقك أي حططتُ ، وهضم الطعام ، وامرأة هضيم الكشح أي ضامرة البطن .

﴿ وكذلك أنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصرَّفْنَا ﴾ بيّنا ﴿ فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ﴾ القرآن ﴿ ذِكْراً ﴾ عظة وعبرة . وقال قتادة : جدّاً وورعاً .

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ قرأ يعقوب بفتح النون والياءين ، وقرأ الآخرون : بضم الياء الأولى والأُخرى وسكون الوسطى .

قال مجاهد وقتادة : لا تقرئه أصحابك ولا تُمله عليهم حتى يتبيّن لك معانيه ، نهى عن تلاوة الآية التي تنزل عليه وإملائه على أصحابه قبل بيان معناها ، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس .

وقال في سائر الروايات : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبرائيل بالوحي يقرأه مع جبرائيل ، ولا يفرغ جبرائيل مما يريد من التلاوة حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بأوّله حرصاً منه على ما كان ينزل عليه وشفقة على القرآن مخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك وقال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالقرآن ﴾ أي بقراءة القرآن ﴿ مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ من قبل أن يفرغ جبرئيل من تلاوته عليك .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ بالقرآن أي فهماً ، وقيل : حفظاً ونظيرها قوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] الآية .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾ الآية يقول الله سبحانه : وإن يضيّع هؤلاء الذين نصرّف لهم في القرآن الوعيد عهدي ويخالفوا أمري ويتركوا طاعتي فقد فعل ذلك أبوهم آدم (عليه السلام) حيث عهدنا إليه أي أمرناه وأوصينا إليه ﴿ فَنَسِيَ ﴾ فترك الأمر والعهد ، نظيره قوله ﴿ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] أي تركوا أمر الله فتركهم الله في النار . هذا قول أكثر المفسرين .

وقال ابن زيد : نسي ما عهد الله إليه في ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوّه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له ، وعصى الله الذي كرّمه وشرّفه ، وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم في ذلك القول بالنسيان مأخوذ ، وإن كان هو اليوم عنّا مرفوعاً .

﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ قال ابن عباس : حفظاً لما أُمر به ، قتادة ومقاتل : صبراً ، ابن زيد

: محافظة على أمر الله وتمسّكاً به ، الضحّاك : صريمة أمر ، عطية : رأياً ، وقيل : جزماً ، ابن كيسان : إصراراً وإضماراً على العود إلى الذنب ثانياً ، وأصل العزم النيّة واعتقاد القلب على الشيء .

(185/504)

قال أبو أمامة : لو أنّ أحلام بني آدم جمعت منذ يوم خلق الله سبحانه آدم إلى يوم تقوم الساعة ، ووضعت في كفّة ميزان ، ووضع حلم آدم في الكفّة الأُخرى لرجح حلمه بأحلامهم ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى ﴾ أن يسجد له ﴿ فَقُلْنَا ياءَادَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ حوّاء ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ فتتعب ويكون عيشك من كدّ يمينك ، بعرق جبينك .

قال سعيد بن جبير : أُهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فهو شقاؤه الذي قال الله سبحانه ، وكان حقّه أن يقول : فيشقيا ولكن غلب المذكّر رجوعاً به إلى آدم لأنّ تعبه أكثر ، وقيل : لأجل رؤوس الآي .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا ﴾ أي في الجنّة ﴿ وَلاَ تعرى * وَأَنَّكَ ﴾ قرأ نافع بكسر الألف

على الاستئناف ، ومثله روى أبو بكر عن عاصم ، وقرأ الباقون بالفتح نسقاً على قوله ﴿ أَلَّا تَجُوعَ ﴾ ﴿ لَا تَظْمَؤُا ﴾ بعطش فيها ﴿ ولَا تضحى ﴾ تبرز للشمس فيؤذيك حرّها . قال عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت . . . فيضحى وأما بالعشيّ فيحصر

أخبرنا أبو بكر بن عبدوس المزكّى قال : أخبرنا أبو الحسن المحفوظي قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الرّحْمن بن مهدي عن سفيان عن خصيف عن عكرمة : ﴿ ولَا تضحى ﴾ ولا تصيبك الشمس .

﴿ فوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت خالداً مخلداً ﴿ ومُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ لا يبيد ولا يفنى .

﴿ فأَكَلَا ﴾ يعني آدم وحوّاء ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من شجرة المحنة ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ أي تعدّى إلى ما لم يكن له فعله .

وقال أكثر المفسرين : فغوى : أي أخطأ وضلّ ولم ينل مراده ممّا أكل . ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ اختاره واصطفاه ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ هداه إلى التوبة ووفقّه بها .

﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ ﴾ يعني الكتاب والرسول ﴿ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ .

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن حمدون بقراءتي عليه قال : أخبرنا محمد بن إسحاق قال : حدّثنا سعيد بن عيسى ، قال : حدّثنا فارس بن عمر وحدّثنا صالح بن محمد : قال : حدّثنا يحيى بن الضريس عن سفيان عن رجل عن الشعبي عن ابن عباس في قوله سبحانه ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ قال : أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضلّ في الدنيا ويشقى في الآخرة .

وأخبرني محمد بن القاسم قال : حدّثنا محمد بن يزيد قال : حدّثنا الحسن بن سفيان قال : حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة .

وأخبرني ابن المقرئ قال : حدّثنا محمد بن أحمد بن سنان قال : حدّثنا الحسن بن سفيان قال : حدّثنا ابن شيبة قال : حدّثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس قال : ضمن الله لمن قرأ القرآن لا يضلّ في الدّنيا ولا يشقى في الآخرة ثمّ قرأ ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ .

وبإسناده عن أبي بكر بن أبي شيبة قال : حدّثنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن

سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأنّ الله يقول ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ يعني عن القرآن فلم يؤمن به ولم يتّبعه ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ ضيقاً يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، يستوي فيه الذكر والأُنْثى والواحد والاثنان والجمع، قال عنترة:

(187/504)

وإذا هم نزلوا بضنك فانزل . . . واختلف المفسّرون في المعيشة الضنك، فاخبرني أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد الحيري قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد المفيد قال: حدّثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب قال: حدّثنا أبو الوليد الطيالسي قال: حدّثنا حماد بن سلمة عن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: في قوله سبحانه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ قال: "عذاب القبر"".

وقال ابن عباس: الشقاء، مجاهد: الضيق، الحسن وابن زيد: الزقوم والغسلين والضريع، قتادة: يعني في النار، عكرمة: الحرام، قيس بن أبي حازم: الرزق في المعصية، الضحاك: الكسب الخبيث، عطيّة عن ابن عباس يقول: كلّ مال أعطيته عبداً من عبادي قلّ أو كثر

لا يتّقيني فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة ، وإنّ قوماً ضُلاّلاً أعرضوا عن الحق وكانوا أُولي سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكاً ، وذلك أنّهم كانوا يرون أنّ الله ليس بمخلف لهم معائشهم من سوء ظنّهم بالله والتكذيب به ، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظنّ به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك أبو سعيد الخدري : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويسُلّط عليه في قبره تسعة وتسعون تنّيناً ، لكلّ تنّين سبعة رؤوس تنهشه وتخدش لحمه حتى يُبعث ، ولو أنّ تنّيناً منها ينفخ في الأرض لم تنبت زرعاً .

مقاتل : معيشة سوء لأنّها في معاصي الله . سعيد بن جبير : سلبه القناعة حتى لا يشبع .

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ قال ابن عباس : أعمى البصر ، مجاهد : أعمى عن الحجّة .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ بعيني ، وقال مجاهد : عالماً بحجّتي .

(188/504)

﴿ قَالَ كذلك ﴾ يقول كما ﴿ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ فتركتها وأعرضت عنها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ تُترك في النار وكذلك أي وكما جزينا من أعرض ﴿ وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أشرك ﴿ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ ﴾ ممّا يعذبهم به في

الدنيا والقبر . ﴿ وأبقى ﴾ وأدوم وأثبت . ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يتبيّن لهم ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ ومنازلهم إذا سافروا واتّجروا .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى * وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ نظم الآية ، ولولا كلمة سبقت من ربّك في تأخير العذاب عنهم وأجل مسمّى وهو القيامة ﴿ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ نسختها آية القتال ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وصلّ بأمر ربّك ، وقيل : بثناء ربك ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ يعني صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني صلاة العصر ﴿ وَمِنْ ءَانَآءِ اليل ﴾ صلاة العشاء الآخر ﴿ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ صلاة الظهر والمغرب ، وإنّما قال : أطراف لهاتين الصلاتين ؛ لأنّ صلاة الظهر في آخر الطرف الأول من النهار ، وفي أول الطرف الآخر من النهار فهي في طرفين منه الطرف الثالث غروب الشمس ، وعند ذلك يصلّي المغرب ، فلذلك قال : أطراف ، ونصب عطفاً على قوله : قبل طلوع الشمس .

﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ بالشفاعة والثواب ، قرأه العامة : بفتح التاء ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] وقرأ الكسائي وعاصم برواية أبي بكر بضم التاء .

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية .

قال أبو رافع : أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهودي يستسلفه فأبى أن يعطيه إلاّ برهن ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله سبحانه ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ ولا تنظر ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ أي عطيناهم أصنافاً من نعيم الدنيا ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ أي زينتها وبهجتها ، قرأه العامة بجزم الهاء ، وقرأ يعقوب بفتحها وهما لغتان مثل : جهرة وجهرَة ، وإنّما نصبها على القطع والخروج من الهاء في قوله : متّعنا به .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ وإنّما نكلّفك عملاً ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبة ﴾ الجملية المحمودة ﴿ للتقوى ﴾ أي لأهل التقوى .

قال هشام بن عروة : كان عروة إذا رأى ما عند السلاطين دخل داره وقال : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ ، إلى قوله ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ ثمّ ينادي : الصلاة الصلاة يرحمكم الله .

وقال مالك بن دينار : كان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة يقول : قوموا فصلّوا ، ثم يقول : بهذا أمر الله رسوله ، ويتلو هذه الآية .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ لَوْلاَ يَأْتِينَا ﴾ محمد ﴿ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ كما أتى بها

الأنبياء من قبله .

قال الله سبحانه ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ بالتاء ، قرأه أهل المدينة والبصرة وبعض قرّاء الكوفة لتأنيث البيّنة ، وقرأ الآخرون بالياء لتقديم الفعل ولأنّ البيّنة هي البيان فردَّه إلى المعنى ﴿ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف ﴾ الكتب ﴿ الأولى ﴾ أي بيان ما فيها يعني القرآن أقوى دلالة وأوضح آية .

(190/504)

وقال بعض أهل المعاني : يعني ألم يأتهم بيان ما في الكتب الأُولى التوراة والإنجيل وغيرهما من أنباء الأُمم التي أهلكناهم لمّا سألوا الآيات ، فأتتهم فكفروا بها ، كيف عجّلنا لهم العذاب والهلاك بكفرهم بها فما تؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أُولئك .

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن ومجيء محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا ﴾ هلاّ ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ يدعونا ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ بالعذاب ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر دوائر الزمان وما يكون من الحدثان ولمن يكون الفلح والنصر . ﴿ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ إذا جاء أمر الله تعالى وقامت القيامة ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ

اهتدى ﴾ من الضلالة أنحن أم أنتم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 267.261 ﴾

(191/504)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) ﴾

المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا – يوم القيامة – الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوههم عانية ، أى ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى . ونحوه قوله تعالى فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . وقوله تعالى وَقَدْ خَابَ وما بعده اعتراض ، كقولك : خابوا وخسروا . وكلّ من ظلم فهو خائب خاسر .

[سورة طه (20) : آية 112]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (112)

الظلم : أن يأخذ من صاحبه فوق حقه . والهضم : أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له ، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون ، وإذا كالوهم أو

وزنوهم يخسرون. أى: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم، لأنه لم يظلم ولم يهضم. وقرئ: فلا يخف، على النهى.

[سورة طه (20) : آية 113]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113)

وَكَذلِكَ عطف على كَذلِكَ نَقُصُّ أى: ومثل ذلك الإنزال، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد «1» أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكرّرين فيه آيات الوعيد،

---

(1) . قال محمود: «معناه وكما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة للوعيد ... الخ» قال أحمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد لله من جميعهم التقوى لوقعت. وقد تقدمت أمثالها. والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير لعل أول هذه السورة عند قوله تعالى لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى أن معناه: كونا على رجائكما، ثم رجع عن ذلك هاهنا لأن المعتقد الفاسد يحذوه إلى هذا التأويل الباطل، والله الموفق.

ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة. والذكر - كما ذكرنا - يطلق على الطاعة والعبادة. وقرئ: نحدث وتحدث، بالنون والتاء، أى: تحدث أنت. وسكن بعضهم الثاء للتخفيف، كما في:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه ولا واغل «1»

[سورة طه (20) : آية 114]

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114)

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجرى عليه أمر ملكوته ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن، فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته. ونحوه قوله تعالى لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ وقيل معناه: لا تبلغ ما كان منه مجملا حتى يأتيك البيان. وقرئ: حتى تقضى إليك وحيه. وقوله تعالى رَبِّ زِدْنِي عِلْماً متضمن للتواضع للّه تعالى والشكر له عند ما علم من ترتيب التعلم، أى علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدبا جميلا ما كان عندي، فزدني علما إلى علم، فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلما.

وقيل : ما أمر اللّه رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم .

[سورة طه (20) : آية 115]

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115)

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم : تقدّم الملك إلى فلان وأوعز إليه ، وعزم عليه ، وعهد

---

(1) حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه ولا واغل

لامرئ القيس ، كان حلف لا يشرب الخمر حتى يقتل بنى أسد الذين قتلوا أباه حجرا ، فلما قتل جماعة منهم قال :

حلت لي الخمر بعد أن كانت حراما على وكنت في شغل شاغل لي عن شربها ، فاليوم حين أخذت الثأر أشرب ، وكان حقه الرفع لعدم الجازم ، فسكن تخفيفا للوزن . والمستحقب للشيء : الحامل له على ظهره . ومنه الحقيبة ، فشبه الإثم بالشيء المحمول لمشقته على النفس ، والاستحقاب تخييل ، والواغل : الداخل على الشاربين من غير أن يدعوه ، أى : فاليوم أشرب ما شئت حال كوني غير متحمل ذنبا من اللّه . حيث بررت في قسمي ، ولا متطفل على الشاربين .

إليه. عطف اللّه سبحانه قصة آدم على قوله وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ والمعنى: وأقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنّ أساس أمر بنى آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه. فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟ قلت يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها. وقرئ: فنسي، أى: نساه الشيطان. العزم: التصميم والمضىّ على ترك الأكل، وأن يتصلب في ذلك تصلبا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود:

يجوز أن يكون بمعنى العلم، ومفعولاه لَهُ عَزْماً وأن يكون نقيض العدم كأنه قال:

وعدمنا له عزما.

[سورة طه (20): آية 116]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (116)

إِذْ منصوب بمضمر، أى: واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه

وتزيينه له الأكل من الشجرة ، وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده ، حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولى العزم والثبات . فإن قلت : إبليس كان جنيا بدليل قوله تعالى كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة ؟ قلت كان في صحبتهم ، وكان يعبد اللّه تعالى عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنى الذي معهم أجدر بأن يتواضع ، كما لو قام لمقبل على المجلس علية أهله وسراتهم ، كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب ، حتى إن لم يقم عنف . وقيل له : قد قام فلان وفلان ، فمن أنت حتى تترفع عن القيام ؟ فإن قلت : فكيف صحّ استثناؤه وهو جنى عن الملائكة ؟ قلت : عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه ، فأخرج الاستثناء على ذلك ، كقولك : خرجوا إلا فلانة ، لامرأة بين الرجال أَبى جملة مستأنفة ، كأنه جواب قائل قال : لم لم يسجد . والوجه أن لا يقدّر له مفعول ، وهو السجود المدلول عليه بقوله فَسَجَدُوا وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط

[سورة طه (20) : آية 117]

فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (117)

فَلا يُخْرِجَنَّكُما فلا يكونن سببا لإخراجكما . وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون

حوّاء بعد إشراكهما في الخروج، لأنّ في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها. مع المحافظة على الفاصلة.

أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه.

وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه. قرئ: وَأَنَّكَ بالكسر والفتح. ووجه الفتح العطف على أَلَّا تَجُوعَ. فإن قلت: إنّ لا تدخل على أن، فلا يقال:

إنّ أن زيدا منطلق، والواو نائبة عن إنّ وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ قلت: الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن إنّ، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة - كإن - لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إنّ وأن.

[سورة طه (20): الآيات 118 إلى 119]

إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (118) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (119)

الشبع والرىّ والكسوة والكنّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان، «1» فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعرى والظمأ

والضحو «2» ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التي حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها .

[سورة طه (20) : آية 120]

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (120)

---

(1) . قال محمود : «ذكر تعالى الأصناف التي بها قوام الإنسان . . . الخ» قال أحمد : تنبيه حسن ، وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة ، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا فقال الكندي الأول :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله «لخيلى كرى كرة» وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب ، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها ، وتبعه الكندي الآخر فقال :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره ، ولكنه على فطنته قصر فهمه

عما طالت إليه يد أبى الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سرا لذلك زائدا على ما ذكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رؤس الآي، وأحسن به منتظما، والله أعلم.

[.....]

(2). قوله «والضحو» الذي في الصحاح: ضحيت للشمس ضحا - ممدود - إذا برزت الشمس لها، وضحيت - بالفتح - مثله. (ع)

(195/504)

فإن قلت: كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ وأخرى بإلى؟ قلت: وسوسة الشيطان كولولة الثكلى «1» ووعوعة الذئب ووقوفة الدجاجة، في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس. ومنه: وسوس المبرسم، وهو موسوس بالكسر.

والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابى:

وسوس يدعو مخلصا ربّ الفلق «2»

فإذا قلت: وسوس له، فمعناه لأجله، كقوله:

أجرس لها يا ابن أبى كباش «3»

ومعنى «وسوس إليه» أنهى إليه الوسوسة، كقولك. حدّث إليه. وأسرّ إليه. أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود، لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس الحياة، لأنّ من باشر أثره حيي وَمُلْكٍ لا يَبْلى دليل على قراءة الحسن بن على وابن عباس رضى اللّه عنهم:

إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ بالكسر.

[سورة طه (20) : آية 121]

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (121)

---

(1) . قوله «كولولة الثكلى» أى الحزينة. (ع)

(2)

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق سرا وقد أونّ تأوين العقق

في الزرب لو يمضغ شربا ما بصق

لرؤبة، يصف قانصا. وسوس: تكلم في نفسه، يدعو للّه مخلصا أنه يظفره بالصيد، وقوله «سرا» ساقه مساق الظرف للتوكيد، أى تعلق بوسوس، وللتأسيس إن تعلق بيدعو، وتكون الجملة حالية مبينة للوسوسة. وقد أونّ أى: الحمير الوحشية، والجملة أيضا

حالية ، والتأوين : امتلاء الجنبين من الأون ، وهو جانب الخرج الممتلئ . والأوثان الجانبان الممتلئان . والعقق : الحوامل ، واحده عقوق كعروس ، وقيل : هو العقوق ، أي امتلأت بطونهن ماء لكثرة شربهن كامتلاء بطون الحوامل في الزرب ، حال من ضمير القانص . والزرب والزربة : قترته التي يكمن فيها وانزرب القانص : دخل الزرب . وقوله «لو يمضغ» في معنى الحال أيضا ، أي : ساكنا بحيث لو يمضغ شربا ، أي :

لو يلوك بفمه مقدارا من مائه وهو الريق ، لم يبصق لئلا يسمع الصيد صوته . وأصل الشرب : النصيب من الماء ، استعاره لما يجتمع بفمه من الريق ، وبين الزرب والشرب الجناس المضارع .

(3)

أجرس لها يا ابن أبى كباش فما لها الليلة من أنفاش

غير السرى وسائق نجاش

«أجرس» بقطع الهمزة وبالسين المهملة ، أي : صوت واحد للإبل في السير ، فما لها في هذه الليلة انفاش ، أي :

إطلاق في المرعى . والسرى : سير الليل . ونجشت الإبل : جمعتها بعد تفرق . ونجاش : صيغة مبالغة ، أي : ليس لها رعى ، بل سير شديد . وروى «اجرش» بوصل الهمزة

والشين المشالة ، وهو بمعناه هنا . والجرس – بالمهملة – :
الصوت الخفي ، وبالمشالة : صوت المشط في الشعر . وما شابه ذلك .

(196/504)

«طفق يفعل كذا» مثل : جعل يفعل ، وأخذ ، وأنشأ . وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلا مضارعا ، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أوّل الأمر . وكاد لمشارفته والدنوّ منه . قرئ يَخْصِفانِ للتكثير والتكرير ، من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف ، أى : يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين . وقيل كان مدورا فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما . وقيل كان لباسهما الظفر ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع . عن ابن عباس : لا شبهة في أنّ آدم لم يمتثل ما رسم اللّه له ، وتخطى فيه ساحة الطاعة ، وذلك هو العصيان . ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشدا وخيرا ، فكان غيا لا محالة ، لأنّ الغى خلاف الرشد ، ولكن قوله وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى بهذا الإطلاق وبهذا التصريح ، وحيث لم يقل : وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك ، مما يعبر به عن الزلات والفرطات : فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة ، وكأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب اللّه الذي لا

يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلطة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر، فضلا أن تجسروا على التورّط في الكبائر.

وعن بعضهم فَغَوى فبشم «1» من كثرة الأكل، وهذا - وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا فيقول في «فنى، وبقي»: «فنا، وبقا» وهم بنو طىّ - تفسير خبيث.

[سورة طه (20) : آية 122]

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (122)

فإن قلت: ما معنى ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ؟ قلت: ثم قبله بعد التوبة وقرّبه إليه، من جبى إلىّ كذا فاجتبيته. ونظيره: جليت علىّ العروس فاجتليتها. ومنه قوله عز وجل وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها أى هلا جبيت إليك فاجتبيتها. وأصل الكلمة الجمع. ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار. وهَدى أى وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

[سورة طه (20) : آية 123]

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (123)

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلى البشر، والسببين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا:

جعلا كأنهما البشر في أنفسهما، فخوطبا مخاطبتهم، فقيل فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ على لفظ الجماعة.

---

(1). قوله «فبشم من كثرة الأكل» في الصحاح «البشم» التخمة، (ع)

(197/504)

ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب، وهو في الحقيقة للمسبب هُدىً كتاب وشريعة. وعن ابن عباس: ضمن اللّه لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا قوله فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى والمعنى أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب اللّه وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

[سورة طه (20): الآيات 124 إلى 126]

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (124) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (126)

الضنك: مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث. وقرئ ضَنْكاً على فعلى. ومعنى

ذلك : أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على اللّه وعلى قسمته فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة ، فيعيش عيشا رافغا كما قال عز وجل فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً والمعرض عن الدين ، مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك وحاله مظلمة ، كما قال بعض المتصوّفة : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه . ومن الكفرة من ضرب اللّه عليه الذلة والمسكنة لكفره : قال اللّه تعالى وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وقال وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وقال وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وقال اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وقال وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً وعن الحسن : هو الضريع والزقوم في النار . وعن أبى سعيد الخدري : عذاب القبر . وقرئ وَنَحْشُرُهُ بالجزم عطفا على محل فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً لأنه جواب الشرط .

وقرئ : ونحشره ، بسكون الهاء على لفظ الوقف ، وهذا مثل قوله وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا وكما فسر الزرق بالعمى كَذلِكَ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة ، فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر ، وتركتها وعميت عنها ، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك .

[سورة طه (20) : آية 127]

وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (127)

(198/504)

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك في الدنيا ، وحشره أعمى في الآخرة - ختم آيات الوعيد بقوله وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى كأنه قال : وللحشر على العمى الذي لا يزول أبدا أشدّ من ضيق العيش المنقضى . أو أراد : ولتركنا إياه في العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا .

[سورة طه (20) : آية 128]

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (128)

فاعل فَلَمْ يَهْدِ الجملة بعده يريد : ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه . ونظيره قوله تعالى وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ أى تركنا عليه هذا الكلام . ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ، ويدل عليه القراءة بالنون . وقرئ يَمْشُونَ يريد أنّ قريشا يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون فِي مَساكِنِهِمْ ويعاينون آثار هلاكهم .

[سورة طه (20) : آية 129]

وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129)

الكلمة السابقة: هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة، يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عادا وثمودا لازما لهؤلاء الكفرة. واللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى مفعل، أى ملزم، كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه، كما قالوا: لزاز خصم وَأَجَلٌ مُسَمًّى لا يخلو من أن يكون معطوفا على كَلِمَةٌ أو على الضمير في لَكانَ أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل

[سورة طه (20) : آية 130]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (130)

بِحَمْدِ رَبِّكَ في موضع الحال، أى: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه. والمراد بالتسبيح الصلاة. أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلا، والأوقات على الفعل آخرا، فكأنه قال: صل للّه قبل طلوع الشمس يعنى الفجر، وقبل غروبها يعنى الظهر والعصر، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصا لهما بصلاتك، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب. وقال اللّه عز وجل إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ

وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا وقال أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً ولأنّ الليل وقت السكون والراحة، فإذا

(199/504)

صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند اللّه. وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار، إرادة الاختصاص، كما اختصت في قوله حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى عند بعض المفسرين. فإن قلت: ما وجه قوله وَأَطْرافَ النَّهارِ على الجمع، وإنما هما طرفان كما قال أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ؟ قلت: الوجه أمن الإلباس، وفي التثنية زيادة بيان. ونظير مجيء الأمرين في الآيتين: مجيئهما في قوله:

ظهراهما مثل ظهور الترسين «1»

وقرئ: وأطراف النهار، عطفا على آناء الليل، ولعل للمخاطب، أى: اذكر اللّه في هذه الأوقات، طمعا ورجاء أن تنال عند اللّه ما به ترضى نفسك ويسر قلبك. وقرئ: ترضى، أى يرضيك ربك.

[سورة طه (20) : آية 131]

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (131)

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ أى نظر عينيك، ومدّ النظر: تطويله، وأن لا يكاد يرده، استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به، وتمنيا أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ حتى واجههم أولو العلم والإيمان ب وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً

---

(1) ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين

جبتهما بالنعت لا بالنعتين

لخطام المجاشعي. وقيل: لهميان بن قحافة. والمهمه: المفازة. والقذف - بالتحريك -: الذي يقذف سالكه فلا يمكث فيه أحد. وقيل: البعيد. والمرت - بالسكون -: القفر لا ماء فيه ولا نبات. والترس: حيوان ناتئ الظهر. وثنى ظهراهما على الأصل، وجمع فيما بعد لأمن اللبس، ولأنه ربما كره اجتماع تثنيتين، لا سيما عند تتابع التثنية كما هنا. وقال النحاة: كل مثنى في المعنى مضاف إلى متضمنه، يختار في لفظه الجمع لتعدد معناه وكراهة اجتماع تثنيتين في اللفظ. ويجوز مجيئه على الأصل كما هنا. ويجوز إفراده كقوله:

حمامة بطن الواديين ترنمي

والجواب : القطع . والنعت : الوصف ، ويروى : «بالسمت لا بالسمتين» والسمت : الهيئة والقصد والجهة والطريق والمراد أنهما وصفا ، أو ذكرت هيأتهما له مرة واحدة . يقول : رب موضعين قفرين لا أنيس فيهما ، لهما ظهران مرتفعان ، كظهرى الترسين ، قطعتهما بالسير بنعت واحد ، لا بوصفهما لي مرتين أو ثلاثة كغيرى . ويجوز أن المعنى بذكر نعت واحد من نعوتها ، لا بذكر نعتين ، فالنعت بمعنى الصفة القائمة بالشيء . وفي الكلام دلالة على شجاعته وحذقه .

(200/504)

وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ، وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع ، وأنّ من أبصر منها شيئا أحب أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه : قيل وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه ، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغري لهم على اتخاذها أَزْواجاً مِنْهُمْ أصنافا من الكفرة . ويجوز أن ينتصب حالا من هاء الضمير ، والفعل واقع على مِنْهُمْ كأنه قال : إلى

الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسا منهم . فإن قلت : علام انتصب زَهْرَةَ ؟ قلت : على أحد أربعة أوجه : على الذم وهو النصب على الاختصاص . وعلى تضمين مَتَّعْنا معنى أعطينا وخوّلنا ، وكونه مفعولا ثانيا له . وعلى إبداله من محل الجار والمجرور . وعلى إبداله من أزواجا ، على تقدير ذوى زهرة .

فإن قلت : ما معنى الزهرة فيمن حرّك «1» ؟ قلت : معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة ، كما جاء في الجهرة الجهرة . وقرئ : أرنا اللّه جهرة . وأن تكون جمع زاهر ، وصفا لهم بأنهم زاهروا هذه الدنيا ، لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون ، وتهلل وجوههم «2» وبهاء زيهم وشارتهم «3» ، بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء : من شحوب الألوان والتقشف في الثياب لِنَفْتِنَهُمْ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب ، لوجود الكفران منهم . أو لنعذبهم في الآخرة بسببه وَرِزْقُ رَبِّكَ هو ما ادّخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم . أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة . أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة «4» من بعض الوجوه ، والحلال خَيْرٌ وَأَبْقى لأن اللّه لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث ، والحرام لا يسمى رزقا أصلا «5» . وعن عبد اللّه بن قسيط عن رافع قال : بعثني رسول اللّه صلى اللّه عليه

---

(1) . قوله «حرك» أى حرك الهاء بالفتح . (ع)

(2) . قوله «و تهلل وجوههم» الذي في الصحاح : تهلل وجه الرجل من فرحه ، وهلهل

النساج الثوب . أرق نسجه وخففه . (ع)

(3) . قوله «وبهاء زيهم وشارتهم» في الصحاح : الزي والشارة : اللباس والهيئة . (ع)

(4) . قال محمود : «معناه أن رزق هؤلاء المتمتعين في الدنيا أكثره مكتسب من الحرام

. . . الخ» قال أحمد :

لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير اللّه تعالى كما أثبتوا خالقا سوى اللّه تعالى

لكان البحث لفظيا .

فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البنية رزق من اللّه تعالى ، سواء كان حلالا أو غيره ، لا يلزم

من كون اللّه تعالى رزقه أن يكون حلالا ، فكما يخلق اللّه تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه ،

كذلك يرزقه ما أباح له تناوله وما لا لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ واللّه الموفق الصواب .

(5) . قوله «والحرام لا يسمي رزقا أصلا» هذا عند المعتزلة ، وسمى رزقا عند أهل

السنة . (ع)

(201/504)

وسلم إلى يهودى وقال : «قل له يقول لك رسول اللّه أقرضنى إلى رجب» فقال : واللّه لا

أقرضته إلا برهن ، فقال رسول اللّه «إنى لأمين في السماء وإنى لأمين في الأرض ، احمل إليه

درعي «1» الحديد» فنزلت: ولا تمدّنّ عينيك.

[سورة طه (20): آية 132]

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (132)

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ أى وأقبل أنت مع أهلك على عبادة اللّه والصلاة، واستعينوا بها على خصاصتكم ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة، فإنّ رزقك مكفىّ من عندنا، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة. وفي معناه قول الناس: من دان في عمل اللّه كان اللّه في «2» عمله. وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم اللّه. وعن بكر بن عبد اللّه المزني كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر اللّه رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

[سورة طه (20): آية 133]

وَقالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (133)

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعنى القرآن، من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرئ: الصحف. بالتخفيف. ذكر الضمير

الراجع إلى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل .

[سورة طه (20) : آية 134]

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (134)

---

(1) . قلت وقع فيه تحريف في الراويين . وإنما هو عن يزيد بن عبد اللّه بن قسيط عن أبى رافع . ولعل ذلك من النساخ . والحديث أخرجه إسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار والطبري والطبراني من هذا الوجه مطولا .

وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو متروك . واستدل على بطلان ما رواه أنه وقع فيه «أن قوله تعالى وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ الآية نزلت في هذه القصة وسورة طه مكية - وهذه القصة إنما كانت في المدينة كما في الصحيح . وهذا يمكن الجواب عنه إذ لا مانع أن تكون الآية وحدها مدنية . وبقية السورة مكي . وأما حمله على تعدد القصة فلم يصب .

(2) . قوله «من دان في عمل اللّه كان اللّه في عمله» دان : ذل ، ودانه : أذله ، كذا في الصحاح. (ع)

قرئ نَذِلَّ وَنَخْزى على لفظ ما لم يسم فاعله .

[سورة طه (20) : آية 135]

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (135)

كُلٌّ أى كل واحد منا ومنكم مُتَرَبِّصٌ للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم .

وقرئ : السواء ، بمعنى الوسط والجيد . أو المستوى والسوء والسوأى والسوي تصغير السوء .

وقرئ : فتمتعوا فسوف تعلمون . قال أبو رافع : حفظته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار «1»» وقال : «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه ويس «2»» . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 89. 100﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي من رواية زياد عن الحسن مرسلا . [. . . . .]

(2) . أخرجه ابن مردويه من حديث أبى بن كعب .

وقال الخازن :

﴿ وعنت الوجوه ﴾

يعني ذلت وخضعت في ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وذكر الوجوه وأراد بها المكلفين لأن عنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يتبين وفيها يظهر وقوله تعالى ﴿ للحي القيوم ﴾ تقدم تفسيره ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ .

قال ابن عباس خسر من أشرك بالله ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هظماً ﴾ قال ابن عباس معناه لا يخاف أن يزاد على سيئاته ولا ينقص من حسناته ، وقيل لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها قوله تعالى ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي كما بينا في هذه السورة أو هذه الآية المتضمنة للوحيد أنزلنا القرآن كله كذلك وقوله ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلسان العرب ليفهمون ويقفوا على إعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ أي كررنا وفصلنا القول فيه بذكر

الوعيد ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لأن الوعيد بهما يتعلق فتكريره

وتصريفه يقتضي بيان الأحكام فلذلك قال تعالى ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي يجتنبون الشرك

والمحارم وترك الواجبات ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ أي إنما أنزلنا القرآن ليصبروا متقين

مجتنبين ما لا ينبغي ويحدث لهم القرآن ذكراً يرغبهم في الطاعات وفعل ما ينبغي ، وقيل

معناه يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبرون ويتعظون بذكر عقاب الله الأمم قوله تعالى ﴿

فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي جل الله وعظم عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون

والجاحدون وقيل فيه تنبيه على ما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده ، وقيل إنما وصف

نفسه بالملك الحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره وأولى به

منه ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا نزل عليه جبريل

بالقرآن يبادره فيقرأ معه أن يفرغ جبريل مما يريده من التلاوة ومخافة الانفلات أو النسيان فنهاه

الله تعالى عن ذلك فقال تعالى ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أي ولا تعجل بقراءته ﴿ من قبل أن

يقضى إليك وحيه ﴾ أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ وقيل معناه لا تقرئه أصحابك

ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معناه ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ فيه التواضع والشكر لله

والمعنى زدني علماً إلى ما علمت فإن لك في كل شيء علماً وحكمة ، قيل ما أمر

الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم .

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول اللهم زدني علماً وإيماناً ويقيناً قوله عزّ وجلّ ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ يعني أمرنا وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة ﴿ من قبل ﴾ أي من هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى ﴿ لعلهم يتقون ﴾ ﴿ فنسي ﴾ أي فترك ما عهدنا إليه من الاحتراز عن أكل هذه الشجرة وأكل منها ، وقيل أراد النسيان الذي هو ضد الذكر ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ أي صبراً عما نهي عنه وحفظاً لما أمر به ، وقيل معناه لم نجد له رأياً معزوماً حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له ، وقيل معناه لم نجد له عزماً على المقام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب قوله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس إبى أن يسجد ﴾ ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا ﴾ أي إبليس ﴿ عدو لك ولزوجتك ﴾ إي حواء وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدواً له ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ أسند الخروج إليه ، وإن كان الله تعالى هو المخرج لأنه لما كان بوسوسته وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك .

ومعنى تشقى تتعب وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك ، وهو الحرث والزرع والحصد والطحن والخبز قيل أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح

العرق عن جبينه فكان ذلك شقاءه .

فإن قلت لم أسند الشقاء إلى آدم دون حواء .

قلت فيه وجهان أحدهما : أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله ، كما أن في سعادته سعادتهم لأنه القيم عليهم .

(206/504)

الثاني : إنه أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لأن الرجل هو الساعي على زوجته ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ﴾ يعني الجنة ﴿ ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ﴾ أي تعطش ﴿ ولا تضحى ﴾ أي تبرز للشمس فيؤذيك حرها لأنه ليس في الجنة شمس وأهلها في ظل ممدود والمعنى أن الشبع والري والكسوة والسكن هي الأمور التي يدور عليها كفاف الإنسان .

فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء في الجنة وإنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى أهل الدنيا .

﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ أي أنهى إليه الوسوسة فأسر إليه ثم بين تلك الوسوسة ما هي فقال ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ أي على الشجرة التي إن أكلت منها

بقيت مخلداً ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أي لا يبيد ولا يفنى رغبة في دوام الراحة فكان الشيء الذي رغب الله فيه آدم رغبة إبليس فيه ، إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراز عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها وآدم مع كمال علمه بأن الله تعالى هو خالقه وربه ومولاه وناصره ، وإبليس هو عدوه أعرض عن قول الله تعالى ولم يرد المخالفة ومن تأمل هذا السر عرف أنه لا دفع لقضاء الله ولا مانع منه .

وقوله تعالى ﴿ فأكلا منها ﴾ يعني أكل آدم وحواء من الشجرة ﴿ فبدت لهما سوءاتهما ﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما حتى بدت فروجهما وظهرت عوراتهما ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ أي يلزقان بسوءاتهما من ورق التين ﴿ وعصى آدم ربه ﴾ أي بأكل الشجرة ﴿ فغوى ﴾ أي فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهي عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب .

قال ابن قتيبة : يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص ، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده .

(ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم " احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أفتلومني على أمر قدره الله تعالى علي قبل أن يخلقني بأربعين عاماً فحج آدم موسى " .

وفي رواية لمسلم " قال آدم بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين سنة قال فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى .

قال له نعم قال فهل تلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة .

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحج آدم موسى " .

(الكلام على معنى الحديث وشرحه)

قوله احتج آدم وموسى : المجادلة والمخاصمة يقال حاججت فلاناً فحججته أي جادلته فغلبته .

قال أبو سليمان الخطابي : قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر والقضاء من الله تعالى على معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ، ويتوهم أن قوله فحج آدم وموسى من هذا الوجه وليس كذلك .

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد وإكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها .

والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر والقضاء في هذا معناه الخلق وإذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم الله فهم أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقدم إرادة واختبار .

فالحجة إنما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها وجماع القول في هذا أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء .

فمن رام الفصل بينهما فقد رام هذا البناء ونقضه وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله تعالى كان قد علم من آدم أن يتناول الشجرة ويأكل منها ، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك .

وإنما كان تناوله الشجرة سبباً لنزوله إلى الأرض التي خلق لها وإنما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال أتلومني على أمر الله علي من قبل أن يخلقني .

(فصل : في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك)

قال الإمام فخر الدين الرازي : اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة ، أحدهما : ما يقع في باب الاعتقاد وهو اعتقاد لكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم .

والثاني : ما يتعلق بالتبليغ فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض .

وإلا لارتفع الوثوق بالأداء واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمداً ولا سهواً ومن الناس من جوز ذلك سهواً قالوا لأن الاحتراز عنه غير ممكن .

الثالث : ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيها على سبيل العمد وأجازه لبعضهم على سبيل السهو .

الرابع : ما يقع في أفعالهم فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال .

أحدها : قول من جوز عليهم الكبائر .

الثاني : قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد وهو قول أكثر المعتزلة .

الثالث : لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل وهو قول الجبائي .

الرابع : أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ .

الخامس : أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السهو ولا

على سبيل التأويل ، وهو قول الشيعة .

واختلفت الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال : أحدها : قول من ذهب إلى أنهم معصومون من حين وقت الولادة وهو قول الشيعة .

الثاني : قول من ذهب إلى عصمتهم من وقت بلوغهم وهو قول أكثر المعتزلة .

الثالث قول من ذهب إلى أن ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة وهو قول أكثر أصحابنا وأبي الهزيل وأبي علي من المعتزلة .

قال الإمام والمختار عندنا لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة من حين جائتهم النبوة .

ويدل عليه وجوه أحدها : لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من أحد الأمة وذلك غير جائز لأن درجة الأنبياء غاية في الرفعة والشرف .

الثاني : لو صدر منه وجب أن لا يكون مقبول الشهادة فكان أقل حالاً من عدول الأمة وذلك غير جائز أيضاً لأن معنى النبوة والرسالة هو أنه يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم ، وأيضاً فإنه يوم القيامة شاهد على الكل .

الثالث : لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال .

الرابع : ثبت ببديهة العقل أنه لا شيء أقبح بمن رفع الله درجته وائتمنه على وحيه وجعله خليفته في عباده وبلاده يسمع ربه يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحاً لغرضه .

واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطعيوه لدخلوا تحت قوله ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ وقال ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ الخامس : قال الله تعالى ﴿ أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ ولفظه للعموم فيتناول الكل ويدل على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه ، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهي وذلك ينافي صدور الذنب عنهم .

السادس : قال الله تعالى : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ وقال تعالى في حق موسى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ وقال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إن أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة ، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم ، وذكر غير ذلك من الوجوه .

قال وأما المخالف فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه .

والجواب عنها أن نقول إن كلامهم إنما يتم أن لو بينوا بالدلالة أن ذلك كان حال النبوة وذلك ممنوع ولم لا يجوز أن يقال إن آدم حال ما صدرت عنه هذه الأشياء ما كان نبياً وإن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وإن الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة .

وقال القاضي عياض وأما قصة آدم ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ أي جهل وقيل أخطأ فقد أخبر الله تعالى بعذره في قوله : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾ أي نسي عداوة إبليس له وما عهد الله إليه .

وقيل لم يقصد المخالفة استحلالاً لها ولكنه اغتر بحلف إبليس له إني لكما لمن الناصحين وتوهم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً ، وقيل نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال ولم نجد له عزماً أي قصداً للمخالفة ، وقيل بل أكل من الشجرة متأولاً وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهي عنها لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ، ولهذا قيل إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة وقيل تأويل أن الله تعالى لم ينه نهي تحريم .

فإن قلت إذا نفيت عنهم الذنوب والمعاصي فما معنى قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾

وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه.

(211/504)

قلت إن درجة الأنبياء من الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده وعظم سلطانه وقوة بطشه، مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وإنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا، وآتوها على وجه التأويل أو السهو وتزيدوا من أمور الدنيا المباحة أوخذوا عليها وعوتبوا بسببها أو حذروا من المؤاخذة بها فهم خائفون وجلون، وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، أي يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات وسنذكر في كل موضع ما يليق به وما قيل فيه إن شاء الله تعالى.

قوله: ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي اختاره واصطفاه ﴿ فتاب عليه ﴾ أي عاد بالعفو والمغفرة ﴿ وهدى ﴾ أي هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار ﴿ قال اهبطا منه جميعاً ﴾ قيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبلس ومعه ذريته فصح قوله اهبطا لاشتمال

كل واحد من الجنسين على الكثرة ، وقيل الخطاب لآدم وحواء لأنهما أصل البشر فجعلا كأنهما البشر فخوطبا بلفظ الجمع ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ وقيل في تقوية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء الناس ، ويحتمل أن يكون بعض الفريقين لبعض عدواً ﴿ فأما يأتينكم مني هدى ﴾ أي كتاب ورسول ﴿ فمن اتبع هدايَ ﴾ أي الكتاب والرسول ﴿ فلا يضل ولا يشقى ﴾ قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب وذلك لأن الله تعالى يقول فمن اتبع هداي فلا يضل أي في الدنيا ولا يشقى أي في الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ روي عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري م أنهم قالوا هو عذاب القبر .

قال ابو سعيد يضغط في القبر حتى تختلف أضلاعه .

وفي بعض المسانيد مرفوعاً يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال يعذب حتى يبعث وقيل الزقوم والضريع والغسلين في النار ، وقيل الحرام والكسب الخبيث .

وقال ابن عباس الشقاء وعنه قال كل ما أعطي العبد قل أم كثر فلم يتق فلا خير فيه وهو

الضنك في المعيشة .

وإن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين منها فكانت معيشتهم وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله تعالى .

وقيل يسلب القناعة حتى لا يشبع ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال ابن عباس أعمى البصر وقيل أعمى عن الحجة ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ يعني بصيراً العين أو بصير بالحجة ﴿ قال كذلك ﴾ يعني كما ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ يعني فطردتها وأعرضت عنها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ يعني تترك في النار وقيل نسوا من الخير والرحمة ولم ينسوا من العذاب ﴿ وكذلك نجزي من أسرف ﴾ يعني كما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك نجزي من أسرف أي أشرك ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد ﴾ يعني مما يعذبهم الله به في الدنيا والقبر ﴿ وأبقى ﴾ يعني وأدوم قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ يعني أفلم يبين القرآن لكفار مكة ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴾ يعني في ديارهم ومنازلهم إذ سافروا وذلك أن قريشاً كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وهم ثمود وقريات قوم لوط ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ أي لذوي العقول ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم ﴿ لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك

وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة.

(213/504)

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ نسختها آية السيف ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي صل بأمر ربك ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ أي صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل ﴾ أي ومن ساعاته ﴿ فسبح ﴾ يعني فصل المغرب والعشاء قال ابن عباس يريد أول الليل ﴿ وأطراف النار ﴾ يعني صلاة الظهر سمي وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال وهو طرف النصف الأول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء ﴿ لعلك ترضى ﴾ أي ترضى ثوابه في المعادن وقيل معناه لعلك ترضى بالشفاعة ، وقرىء ترضى بضم التاء أي تعطى ثوابه ، وقيل يرضاك ربك (ق) عن جرير بن عبد الله قال : "كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " قوله لا تضامون بتخفيف الميم من الضيم ، وهو الظلم والمعنى أنكم ترونه جميعاً لا يظلم بعضكم بعضاً في رؤيته وروي بتشديد الميم من

الانضمام والازدحام ، أي لا يزدحم ولا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته والكاف في قوله كما ترون هذا القمر كاف التشبيه للرؤية لا للمرئي وهي فعل الرائي ، ومعناه ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك كرؤيتكم هذا القمر ليلة البدر ولا ترتابون فيه ولا تشكون قوله : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ قال أبو رافع نزل برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضيف فبعثني إلى يهودي فقال قل له إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " بعني كذا وكذا من الدقيق أو سلفني إلى هلال رجب فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن فأتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبرته فقال والله لئن باعني أو أسلفني لقضيته إني لأمين في السماء وأمين في الأرض أذهب بدرعي الحديد إليه " فنزلت هذه الآية : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ أي لا تنظر نظراً تكاد تردده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به وتمنياً له ﴾

إلى ما متعنا به ﴾ أي أعطينا ﴿ أزواجاً ﴾ أي أصنافاً ﴿ منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنجعل ذلك فتنة بأن تزيد النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً ﴿ ورزق ربك ﴾ أي في المعاد في الجنة ﴿ خير وأبقى ﴾ أي أدوم وقال أبي بن

كعب من لم يعتز بالله تقطعت نفسه حسرات ، ومن أتبع بصره ما في أيدي الناس يطل حزنه ومن ظن أن نعمة الله عليه في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه .

ف

(215/504)

قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك ﴾ أي قومك وقيل من كان على دينك ﴿ بالصلاة ﴾ يعني بالمحافظة عليها ﴿ واصطبر عليها ﴾ يعني اصبر على الصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل اصبر عليها فإن الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق أحداً من خلقنا ولا أن ترزق نفسك بل نكلفك عملاً ﴿ نحن نرزقك ﴾ أي بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي الخصلة المحمودة لأهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك وآمنوا بك وفي بعض المسانيد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية قوله تعالى ؛ ﴿ وقالوا ﴾ يعني المشركين ﴿ لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ أي الآية المقترحة فانه كان قد أتاهم بآيات كثيرة ﴿ أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ أي بيان ما فيها وهو القرآن لأنه أقوى دلالة وأوضح آية وقيل معنى ما في الصحف ما في التوراة والإنجيل وغيرهما من

أخبار الأمم أنهم اقترحوا الآيات فلما أتتهم لم يؤمنوا فعجلنا لهم العذاب والهلاك فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك وقيل بينة ما في الصحف الأولى هي البشارة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ونبوته وبعثته ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ أي من قبل إرسال الرسل وإنزال القرآن ﴿ لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسلاً ﴾ أي لقالوا يوم القيامة أولاً أرسلت إلينا رسولاً يدعونا ﴿ فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ بالعذاب والهوان والافتضاح ﴿ قل كل متربص ﴾ أي منتظر دوائر الزمان وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون وحوادث الدهر فإذا مات تخلصنا قال الله تعالى :

﴿ فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ﴿ فستعلمون ﴾ أي إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ﴿ ومن أصحاب الصراط السوي ﴾ يعني المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ يعني من الضلالة نحن أم أنتم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 288.281 ﴾

(216/504)

وقال ابن جزى :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه ﴾

أي ذلت يوم القيامة ﴿ وَلَا هَضْماً ﴾ أي بخساً ونقصاً لحسناته ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ أي تذكراً ، وقيل : شرفاً وهو هنا بعيد ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أي إذ أقرأك جبريل القرآن ؛ فاستمع إليه واصبر حتى يفرغ ، وحينئذ تقرأه أنت . فالآية : كقوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] ، وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوحي إليه القرآن يأمر بكتبه في الحين ، فأمر بأن يتأنى حتى تفسر له المعاني ، والأول أشهر .

﴿ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة ﴿ فَنَسِيَ ﴾ يحتمل أن يكون النسيان الذي هو ضدّ الذكر ، فيكون ذلك عذراً لآدم أو يريد الترك ، وقال ابن عطية : ولا يمكن غيره ، لأن الناسي لا عقاب عليه ، وقد تقدّم الكلام على قصة آدم وإبليس في البقرة .

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ أي لا تطيعاه فيخرجكما من الجنة ، فجعل المسبب موضع السبب وخص آدم بقوله ﴿ فتشقى ﴾ لأنه كان المخاطب أولاً ، والمقصود بالكلام ، وقيل : لأن الشقاء في معيشة الدنيا مختص بالرجال .

﴿ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ الظمأ هو العطش ، والضحى هو البروز للشمس .

﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ ذكر في [الأعراف : 21] وكذلك الشجرة وأكل آدم منها ذكر ذلك في [البقرة : 35] .

﴿ اهبطا ﴾ خطاب لآدم وحواء ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ﴾ هي إن الشرطية دخلت عليها ما الزائدة وجوابها ﴿ فَمَنِ اتبع ﴾ ﴿ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ أي لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي ضيقة ، فقيل إن ذلك في الدنيا ، فإن الكافر ضيق المعيشة لشدّة حرصه وإن كان واسع الحال ، وقد قال بعض الصوفية : لا يُعرض أحد عن ذكر الله إلا أظلم عليه وقته وتكدر عليه عيشه ، وقيل : إن ذلك في البرزخ ، وقيل : في جهنم بأكل الزقوم ، وهذا ضعيف ، لأنه ذكر بعد هذا يوم القيامة وعذاب الآخرة ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ أي يعني أعمى البصر .

﴿ فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ من الترك لا من الذهول ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ أي عذاب جهنم أشدّ وأبقى من العيشة الضنك ومن الحشر أعمى .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ معناه : أفلم يتبين لهم ، والضمير لقريش والفاعل بيهد مقدر تقديره : أو لم يهد لهم الهدى أو الأمر ، وقال الزمخشري : الفاعل الجملة التي بعده ، وقيل : الفاعل ضمير الله عز وجل ، ويدل عليه قراءة (أفلم نهد) بالنون ، وقال الكوفيون : الفاعل كم ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد وثمود ، ويعاينون آثار

هلاكهم ﴿ لِأُوْلِي النهى ﴾ أي ذوي العقول .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ الكلمة هنا القضاء السابق ، والمعنى لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم لكان العذاب لزاماً : أي واقعاً بهم ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ : أي لولا الكلمة والأجل المسمى لكان العذاب لزاماً ، وإنما أخره لتعتدل رؤوس الآي ، والمراد بالأجل المسمى يوم بدر ، وبذلك ورد تفسيره في البخاري ، وقيل : المراد به أجل الموت ، وقيل القيامة .

(218/504)

﴿ وَسَبِّحْ ﴾ يحتمل أن يريد بالتسبيح الصلاة ، أو قول سبحان الله وهو ظاهر اللفظ ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ في موضع الحال أي وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح ، ويحتمل أن يكون المعنى سبح تسبيحاً مقروناً بحمد ربك فيكون أمراً بالجمع بين قوله : سبحان الله وقوله الحمد لله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض " ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ إشارة إلى الصلوات الخمس عند من قال إن معنى ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ : الصلاة ، فالتي قبل طلوع الشمس الصبح ، والتي قبل غربوها الظهر والعصر ، ومن آناء الليل المغرب والعشاء الآخرة وأطراف النهار

المغرب والصبح ، وكرر الصبح في ذلك تأكيداً للأمر بها ، وسمى الطرفين أطرافاً لأحد وجهين : إما على نحو فقد صغت قلوبكما ، وإما أن يجعل النهار للجنس ، فلكل يوم طرف ، وآناء الليل ساعاته ، واحدها إني .

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ ذكر في [الحجر : 88] ومدّ العينين هو تطويل النظر ففي ذلك دليل على أن النظر غير الطويل معفوّ عنه ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ شبه نعيم الدنيا بالزهر وهو النوار ، لأن الزهر له منظر حسن ، ثم يذبل ويضمحل ، وفي نصب زهرة خمسة أوجه : أن ينتصب بفعل مضمر على الذم ، أو يضمن ﴿ مَتَّعْنَا ﴾ معنى أعطينا ، ويكون ﴿ زَهْرَةَ ﴾ مفعولاً ثانياً له ، أو يكون بدلاً من موضع الجار والمجرور ، أو يكون بدلاً من أزواجاً على تقدير ذوي زهرة أو ينتصب على الحال .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم .

(219/504)

﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك فتفرغ أنت وأهلك للصلاة فنحن نرزقك ، وكان بعض السلف إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا بهذا أمركم الله ، ويتلو هذه الآية : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى ﴾ البينة هنا

البرهان ، والصحف الأولى هي التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله بهذا الجواب ، والمعنى قد جاءكم برهان ما في التوراة والإنجيل من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، فلأي شيء تطلبون آية أخرى ، ويحتمل أن يكون المعنى : قد جاءكم القرآن وفيه من العلوم والقصص ما في الصحف الأولى ، فذلك بينة وبرهان على أنه من عند الله .

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ الآية : معناها لو أهلكنا هؤلاء الكفار قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم لاحتجوا على الله بأن يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولاً ، ولولا هنا : عرض فقامت عليهم الحجة ببعثه صلى الله عليه وسلم .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي قل كل واحد منا ومنكم منتظر لما يكون من هذا الأمر ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ تهديد ﴿ الصراط السوي ﴾ المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 20 . 22﴾

(220/504)

وقال النسفى :

﴿ وَعَنَتِ ﴾

خضعت وذلت ومنه قيل للأسير : عانٍ ﴿ الوجوه ﴾ أي أصحابها ﴿ لِلْحَىِّ ﴾ الذي

لا يموت وكل حياة يتعقبها الموت فهي كأن لم تكن ﴿ القيوم ﴾ الدائم القائم على كل نفس بما كسبت أو القائم بتدبير الخلق ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ يئس من رحمة الله ﴿ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ من حمل إلى موقف القيامة شركاً لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ الصالحات الطاعات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بما جاء به محمد عليه السلام ، وفيه دليل أنه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة وأن الإيمان شرط قبولها ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ أي فهو لا يخاف ﴿ فَلاَ يخف ﴾ على النهي : مكي ﴿ ظُلْماً ﴾ أن يزداد في سيئاته ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ ولا ينقص من حسناته وأصل الهضم النقص والكسر .

﴿ وكذلك ﴾ عطف على كذلك نقص أي ومثل ذلك الإنزال ﴿ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ بلسان العرب ﴿ وَصَرَّفْنَا ﴾ كررنا ﴿ فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يجتنبون الشرك ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ﴾ الوعيد أو القرآن ﴿ ذِكْراً ﴾ عظة أو شرفاً بإيمانهم به وقيل "أو" بمعنى الواو .

﴿ فتعالى الله ﴾ ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الأفهام وتنزه عن مضاهاة الأنام ومشابهة الأجسام ﴿ الملك ﴾ الذي يحتاج إليه الملوك ﴿ الحق ﴾ المحق في الألوهية .

ولما ذكر القرآن وإنزاله قال استطراداً : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان ﴾ بقراءته ﴿ مِن قَبْلِ إِن يقضى

إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ بالقرآن ومعانيه.

وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءادَمَ ﴾ أي أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة.

(221/504)

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم تقدم الملك إلى فلان وأوصى إليه وعزم عليه وعهد إليه، فعطف قصة آدم على ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ والمعنى وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل وجودهم فخالف إلى ما نهي عنه كما أنهم يخالفون يعني أن أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه ﴿ فَنَسِيَ ﴾ العهد أي النهي والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلفوا لحفظوه ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ قصداً إلى الخلاف لأمره أو لم يكن آدم من أولي العزم. والوجود بمعنى العلم ومفعولاه ﴿ لَهُ عَزْماً ﴾ أو بمعنى نقيض العدم أي وعد منا له عزما و﴿ لَهُ ﴾ متعلق ب ﴿ نَجِدْ ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ منصوب ب "اذكر" ﴿ للملائكة اسجدوا لأَدَمَ ﴾ قيل: هو السجود اللغوي الذي هو الخضوع والتذلل أو كان آدم كالقبلة

لضرب تعظيم له فيه ﴿ فَسَجَدُواْ إِلآَّ إِبْلِيسَ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس كان ملكاً من جنس المستثنى منهم.

وقال الحسن: الملائكة لباب الخليقة من الأرواح ولا يتناسلون وإبليس من نار السموم.

وإنما صح استثناؤه منهم لأنه كان يصحبهم ويعبد الله معهم ﴿ أبى ﴾ جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال لم يسجد، والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله ﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف.

﴿ فَقُلْنَا يائادم أن هذا عَدُوٌّلَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما ﴿ فتشقى ﴾ فتتعب في طلب القوت ولم يقل "فتشقيا" مراعاة لرؤوس الآي، أو دخلت تبعاً، أو لأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة.

وروي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ وَلاَ تعرى ﴾ عن الملابس لأنها معدة أبداً فيها ﴿ وَأَنَّكَ ﴾ بالكسر: نافع وأبو بكر عطفاً على "إن" الأولى، وغيرهما بالفتح عطفاً على ﴿ أَلاَّ تَجُوعَ

﴾ ومحله نصب ب "أن" وجاز للفصل كما تقول "إن في علمي أنك جالس" ﴿ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا ﴾ لا تعطش لوجود الأشربة فيها ﴿ وَلَا تضحى ﴾ لا يصيبك حر الشمس إذ ليس فيها شمس فأهلها في ظل ممدود .

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ أي أنهى إليه الوسوسة كأسر إليه ﴿ قَالَ يَاءادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها خلد بزعمه ولا يموت ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ لا يفنى ﴿ فَأَكَلاَ ﴾ أي آدم وحواء ﴿ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا ﴾ عوراتهما ﴿ سَوْءتُهُمَا ﴾ ﴿ وَطَفِقَا ﴾ طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وهو ك "كاد" في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً إلا أنه للشروع في أول الأمر وكاد للدنو منه ﴿ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ أي يلزقان الورق بسواتهما للتستر وهو ورق التين ﴿ وعصى ءادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ ضل عن الرأي .

وعن ابن عيسى خاب ، والحاصل أن العصيان وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي ، وقد يكون عمداً فيكون ذنباً وقد لا يكون عمداً فيكون زلة .

ولما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من أن يكون رشداً فكان غياً ، لأن الغي خلاف الرشد .

وفي التصريح بقوله ﴿ وعصى ءادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ والعدول عن قوله و"زل آدم" مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين كأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي

المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلاً عن الكبائر.

﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ قربه إليه اصطفاه.

(223/504)

وقريء به وأصل الكلمة الجمع يقال جبى إلى كذا فاجتبيته ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ قبل توبته ﴿ وهدى ﴾ وهداه إلى الاعتذار والاستغفار.

﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ يعني آدم وحواء ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ يا ذرية آدم ﴿ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ بالتحاسد في الدنيا والاختلاف في الدين ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ كتاب وشريعة ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ ﴾ في الدنيا ﴿ وَلاَ يشقى ﴾ في العقبى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة يعني أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ عن القرآن ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ ضيقاً وهو مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث.

عن ابن جبير : يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة ، ومع الإعراض الحرص والشح فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتصوفة : لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ عن الحجة .

عن ابن عباس : أعمى البصر وهو كقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ [الإسراء : 97] وهو الوجه ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ في الدنيا

﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت .

ثم فسر فقال ﴿ أَتَتْكَ ءاياتنا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك .

﴿ وكذلك نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بئايات رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى ﴾ لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في العقبى ختم

آيات الوعيد بقوله ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي للحشر على العمى الذي يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضي ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ أي الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القرون يَمْشُونَ ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿ لهم ﴾ ﴿ فِى مساكنهم ﴾ يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِأُوْلِى النهى ﴾ لذوي العقول إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ ﴾ أي الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ لازماً فاللزام مصدر لزم فوصف به ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ القيامة وهو معطوف على كلمة ، والمعنى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ فيك ﴿ وَسَبّحْ ﴾ وصل ﴿ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ في موضع الحال وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ﴿ ومن ءاناي الليل فسبّح وأطراف النهار ﴾ أي وتعهد أناء الليل أي ساعاته وأطراف النهار مختصاً لها بصلاتك .

وقد تناول التسبيح في آناء الليل وصلاة العتمة ، وفي أطراف النهار صلاة المغرب ، وصلاة

الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله ﴿ والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] عند البعض .

وإنما جمع وأطراف النهار وهما طرفان لأمن الإلباس وهو عطف على قبل ﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ لعل للمخاطب أي اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك .

﴿ وترضى ﴾ علي وأبو بكر أي يرضيك ربك .

﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي نظر عينيك ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه وإعجاباً به ، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك أن يباده الشيء بالنظر ثم يغض الطرف .

ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن : لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب .

وهذا لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم ومغر لهم

على اتخاذها ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على ﴿ منهم ﴾ كأنه قال إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً منهم ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ زينتها وبهجتها وانتصب على الذم أو على إبداله من محل به أو على إبداله من أزواجا على تقدير ذوي زهرة ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم أو لنعذبهم في الآخرة بسببه ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ ثوابه وهو الجنة أو الحلال الكافي ﴿ خَيْرٌ وأبقى ﴾ مما رزقوا ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ أمتك أو أهل بيتك ﴿ بالصلاة واصطبر ﴾ أنت دوام ﴿ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وإياهم فلا تهتم لأمر الرزق وفرغ بالك لأمر الآخرة لأن من كان في عمل الله كان الله في عمله .

وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ . الآية ثم ينادي الصلاة ، الصلاة رحمكم الله .

وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا بهذا أمر الله ورسوله .

وعن مالك بن دينار مثله .

وفي بعض المسانيد أنه عليه السلام كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية

﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي وحسن العاقبة لأهل التقوى بحذف المضافين .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي الكافرون ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم ﴾ ﴿ أولم تأتهم ﴾ مدني وحفص وبصري ﴿ بَيِّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ أي الكتب المتقدمة يعني أنهم اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة فقيل لهم : أولم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ من قبل الرسول أو القرآن ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام بالفاء ﴿ بآياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بنزول العذاب ﴿ ونخزى ﴾ في العقبى ﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ إذا جاءت القيامة ﴿ مِنْ أصحاب ﴾ مبتدأ وخبر ومحلهما نصب ﴿ الصراط السوي ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ إلى النعيم المقيم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يقرأ أهل الجنة إلا سورة طه ويس" والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفي حـ 3 صـ 66. 71 ﴾

(227/504)

وقال البيضاوى :

﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيِّ القيوم ﴾

ذلت وخضعت له خضوع العناة وهم الأساري في يد الملك القهار، وظاهرها يقتضي العموم ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة ويؤيده. ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف ما لأجله عنت وجوههم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ بعض الطاعات. ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الخيرات. ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿ وَلاَ هَضْماً ﴾ ولا كسراً منه بنقصان أو جزاء ظلم وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه، وقرىء "فلا يخف" على النهي.

﴿ وكذلك ﴾ عطف على كذلك نقص أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ كله على هذه الوتيرة. ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ

الوعيد ﴾ مكررين آيات الوعيد . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم ملكة .

﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ عظة واعتبارا حين يسمعونها فتثبطهم عنها ، ولهذه النكتة أسند التقوى إليه والإحداث إلى القرآن .

﴿ فتعالى الله ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته ذاتهم . ﴿ الملك ﴾ النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده . ﴿ الحق ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته ، أو الثابت في ذاته وصفاته ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ إن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ نهي عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد . وقيل نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه . ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ أي سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى ءَادَمَ ﴾ ولقد أمرناه يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه إذا أمره ، واللام جواب قسم محذوف وإنما عطف قصة آدم على قوله

﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ﴾ للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم

راسخ في النسيان . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هذا الزمان . ﴿ فَنَسِيَ ﴾ العهد ولم يعن به حتى غفل عنه ، أو ترك ما وصي به من الاحتراز عن الشجرة . ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ تصميم رأي وثباتاً على الأمر إذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ولم يستطع تغريره ، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور ويذوق شريها وأريها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ " وقيل عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده ونجد إن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه ، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حال من عزماً أو متعلق بنجد .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدَمَ ﴾ مقدر باذكر أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات . ﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ قد سبق القول فيه . ﴿ أبى ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله ﴿ فَسَجَدُواْ ﴾ لأن المعنى أظهر الإِباء عن المطاوعة .

﴿ فَقُلْنَا يا ئادم إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ فلا يكونن سبباً لإِخراجكما ، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما . ﴿ مِنَ الجنة فتشقى ﴾ وأفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام

شقائه شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل ، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال ويؤيده قوله .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى ﴾ .

﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والسكن مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها ، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها ، والعاطف وإن ناب عن أن لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق فلا يمتنع دخوله على أن امتناع دخول إن عليه . وقرأ نافع وأبو بكر ﴿ وَإِنَّكَ لَا تَظْمَؤُا ﴾ بكسر الهمزة والباقون بفتحها .

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ فانتهى إليه وسوسته . ﴿ قَالَ يَاءادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ الشجرة التي من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً . فأضافها إلى الخلد أي الخلود لأنها سببه بزعمه . ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يبلى ﴾ لا يزول ولا يضعف .

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سوءاتهما وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ أخذا

يلزقان الورق على سوآتهما للتستر وهو ورق التين ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ ﴾ بأكل الشجرة .

﴿ فغوى ﴾ فضل عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة ، أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو . وقرىء ﴿ فغوى ﴾ من غوى الفصيل إذا أتخم من اللبن وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها .

﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ ﴾ اصطفاه وقربه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من أجبى إلى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها ، وأصل معنى الكلمة الجمع . ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فقبل توبته لما تاب . ﴿ وهدى ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة .

(230/504)

﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ الخطاب لآدم وحواء ، أوله ولإبليس ولما كانا أصليَّ الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ كتاب ورسول . ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ ﴾ في الدنيا . ﴿ وَلاَ يشقى ﴾ في الآخرة .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ عن الهدى الذاكر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ ضيقاً مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، وقرىء ﴿ ضنكى ﴾ كسكرى، وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهالكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه تعالى قد يضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإِيمان كما قال ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ واتقوا ﴾ الآيات، وقيل هو الضريع والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ قرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفاً على محل ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ لأنه جواب الشرط. ﴿ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ أعمى البصر أو القلب ويؤيد الأول.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف منقلبة من الياء، وفرق أبو عمرو بأن الأول رأس الآية ومحل الوقف فهو جدير بالتغيير.

﴿ قَالَ كذلك ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال: ﴿ أَتَتْكَ ءاياتنا ﴾ واضحة نيرة. ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ فعميت عنها وتركتها غير منظور إليها. ﴿ وكذلك ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿ اليوم تنسى ﴾ تترك في العمى والعذاب.

﴿ وكذلك نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات . ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِئَايَاتِ رَبِّهِ ﴾ بل كذب بها وخالفها . ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة ﴾ وهو الحشر على العمى ، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك . ﴿ أَشَدُّ وأبقى ﴾ من ضنك العيش أو منه ومن العمى ، ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ مسند إلى الله تعالى أو الرسول أو ما دل عليه . ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ أي إهلاكنا إياهم أو الجملة بمضمونها ، والفعل على الأولين معلق يجري مجرى أعلم ويدل عليه القراءة بالنون . ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم .

﴿ إِنَّ فِى ذلك لأيات لأُوْلِى النهى ﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة . ﴿ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ لكان مثل ما نزل بعاد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة ، وهو مصدر وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفرط لزومه كقولهم لزاز خصم . ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على كلمة أي ولولا العدة بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم ، أو لعذابهم وهو يوم القيامة أو يوم بدر لكان العذاب لزاماً والفصل للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب ، ويجوز عطفه على المستكن في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له .

﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وصل وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه ، أو نزهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميزك بالهدى معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ يعني الفجر . ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار أو العصر وحده . ﴿ وَمِنْ ءَانَاءِ اليل ﴾ ومن ساعاته جمع أنا بالكسر والقصر ، أو أناء بالفتح والمد . ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ يعني المغرب والعشاء وإنما قدم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل فإن القلب فيه أجمع والنفس أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اليل هِىَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ﴿ وَأَطْرَافَ النهار ﴾ تكرير لصلاتي الصبح والمغرب إرادة الاختصاص ، ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله :

ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُرْسَيْنِ . . . أو أمر بصلاة الظهر فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس ، أو بالتطوع في أجزاء النهار . ﴿ لَعَلَّكَ ترضى ﴾ متعلق ب ﴿ سَبِّح ﴾ أي سبح في هذه الأوقات طمعاً أن

تنال عند الله ما به ترضي نفسك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يرضيك ربك.

(233/504)

﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي نظر عينيك. ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون مثله. ﴿ أزواجا مِّنْهُمْ ﴾ وأصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي الذي متعنا به، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ منصوب بمحذوف دل عليه ﴿ مَتَّعْنَا ﴾ أو ﴿ بِهِ ﴾ على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل ﴿ بِهِ ﴾ أو من ﴿ أزواجا ﴾ بتقدير مضاف ودونه، أو بالذم وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب بالفتح وهو لغة كالجهرة في الجهرة، أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه. ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ وما ادخر لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة.

﴿ خَيْرٌ ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿ وأبقى ﴾ فإنه لا ينقطع.

(234/504)

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصلاة ﴾ أمره بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمر بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿ واصطبر عَلَيْهَا ﴾ وداوم عليها. ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وإياهم ففرغ بالك لأمر الآخرة. ﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة. ﴿ للتقوى ﴾ لذوي التقوى. روي " أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرٌ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية " ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِئَايَةٍ مّن رَّبّهِ ﴾ بآية تدل على صدقه في إهداء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعنتاً وعناداً فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، ونبههم أيضاً على وجه أبين من الوجوه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ من التوراة والإِنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية مع أن الآتي بها أُميّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها إعجاز بين، وفيه إشعار بأنه كما يدل على نبوته برهان لما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك

ليست كذلك ، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها . وقرئ "الصحف" بالتخفيف وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم ﴾ بالتاء والباقون بالياء .

(235/504)

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة والتذكير لأنها في معنى البرهان ، أو المراد بها القرآن . ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا . ﴿ ونخزى ﴾ بدخول النار يوم القيامة ، وقد قرئ بالبناء للمفعول فيهما .

﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم . ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم . ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ وقرئ "فتمتعوا" . ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي ﴾ المستقيم ، وقرئ "السواء" أي الوسط الجيد و"السوآى" و"السوء" أي الشر ، و"السوي" هو تصغيره . ﴿ وَمَنِ اهتدى ﴾ من الضلالة و﴿ من ﴾ في الموضعين للاستفهام ومحلها الرفع بالابتداء ، ويجوز أن تكون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبي صلى الله عليه وسلم . وعنه

صلى الله عليه وسلم " من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار (1) رضوان الله عليهم أجمعين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 71 . 80 ﴾

---

(1) موضوع .

(236/504)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾

التفسير : في تعلق قصة آدم بما قبلها وجوه منها : أنه لما قال : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ ثم عظم شأن القرآن وبالغ فيه ذكر القصة إنجازاً للوعد . ومنها أنه لما قال : ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ أردفه بهذه القصة ليعلم أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم وخلة موروثة ، وذلك أنه عهد إلى آدم من قبل هؤلاء الذين صرف لأجلهم الوعيد فنسي وترك العهد . ومنها أن قوله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ دليل على أنه صلى الله عليه وسلم زاد على قدر الواجب في رعاية أمر الدين وكان مفرطاً في أداء الرسالة وحفظ ما أمر به فناسب أن يعطف عليه قصة آدم لأنه كان موسوماً بالتفريط والإفراط والتفريط

كلاهما من باب ترك الأولى ، وإذا كان أوّل الأنبياء وخاتمهم موصوفين بما فيه نوع تقصير فما ظنك بغيرهما ! ومن هنا يعرف أفضلية الخاتم فإنه سعى في طلب الكمال إلى أن عوتب بالخروج عن حد الاعتدال ، وآدم توسط في حيز النقصان فلا جرم وسم بالظلم والعصيان . ومنها أن محمداً صلى الله عليه وسلم أمر بأن يقول ﴿ رب زدني علماً ﴾ ثم ذكر عقيبه قصة آدم تنبيهاً على أن بني آدم مفتقرون في جميع أحوالهم إلى التضرع واللجأ إلى الله حتى ينفتح عليهم أبواب التيسير في العلم والعمل .

(237/504)

ومعنى ﴿ عهدنا إلى آدم ﴾ أمرناه ووصيناه ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل محمد والقرآن . وفي النسيان قولان : أحدهما أنه نقيض الذكر . عن الحسن : والله ما عصي قط إلا بنسيان . والثاني أن معناه الترك وعلى هذا يحتمل أن يقال : أقدم على الأكل من غير تأويل . وأن يقال : أقدم عليه بتأويل قد مر في " البقرة " . قال أهل الإشارة : عهد إليه أن لا يعلق نوره فانقاد للشيطان وهو النسيان . والعزم أيضاً فيه أقوال : أحدها عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمد . وثانيها عزماً في العود إلى الذنب ثانياً . وثالثها رأياً وصبراً أي لم يكن من أهل العزيمة والثبات إذ كان من حقه أن يتصلب في المأمور به تصلباً يؤيس

الشيطان من التسويل . قال جار الله : قوله : ﴿ ولم نجد له ﴾ يجوز أن يكون بمعنى العلم ومفعولاه ﴿ له عزماً ﴾ وأن يكون بمعنى نقيض العدم كأنه قال : وعد مثاله عزماً . قوله : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ سلف في "البقرة" مستقصى قوله : ﴿ إن هذا عدوّ لك ﴾ ذكروا في سبب عداوته إياه أنه كان شاباً عالماً لقوله : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ وإبليس كان شيخاً جاهلاً لأنه أثبت فضله بفضيلة أصله ، والشيخ الجاهل أبداً يكون عدوّاً للشاب العالم . وأيضاً الماء والتراب مضادان للنار ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ فلا يكون سبباً لإخراجكما لأن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه ﴿ فتشقى ﴾ فتتعب في طلب القوت وسائر ما يتعيش به الإنسان أسند الشقاء إليه وحده مع اشتراكهما في الخروج لأن الرجل أصل في باب الإنفاق والكسب والمرأة تابعة له .

ثم بين ذلك الشقاء بقوله : ﴿ إن لك أن تجوع فيها ﴾ إلى آخره . والظمأ العطش وتقول : ضحيت للشمس بالكسر أضحى ضحاء ممدوداً إذا برزت لها . والمراد به الكن مع أن الجنة ليس فيها شمس حتى يتصور فيها الضحاء ، نفى كون هذه الأمور في الجنة ليثبت حصولها في غيرها . ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي : الشبع والري الكسوة

والكن . وأما المنكوح فمشترك إلا أن مؤن النكاح تختص بالدنيا وأنها أيضاً ترجع إلى المذكورات . يروى أنه كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع . ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ أنهى إليه وسوسة كما مر في " الأعراف " . بيان الوسوسة أنه ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ أضافها إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها بزعمه كما قيل لحيزوم فرس الحياة لأنه من باشر أثره حيي ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أي لا ينقطع ولا يزول . قال القاضي : ليس في الظاهر أنه قيل ذلك منه لأنه لا بد أن يحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فصل بالموت ، والنبي يمتنع أن لا يعلم هذا القدر .

(239/504)

وأجيب بالمنع ولو سلم فلم لا يكفي الفصل بغشي أو نوح خفيف . ولو سلم أنه لا يكفي فلم استحال أن يجهل النبي ذلك كما جهل عدم جواز الرؤية زعمكم حين قال : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف : 143] ومما يدل على أن آدم قبل وسوسته قوله تعالى : ﴿ فأكلا ﴾ بالفاء مشعر بالعلية كقول الصحابي : " زنى ماعز فرجم " وما في الآية قد مر تفسيره في " الأعراف " إلا قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال بعض الناس : إن آدم ذنبه كبيرة

وإلا لم يوصف بالعصيان والغواية فإن العاصي والغاوي اسمان مذمومان عرفاً وشرعاً وقد ترتب الوعيد عليهما . وأجيب بأن المعصية مخالفة الأمر والأمر قد يكون مندوباً . وزيف بالمنع من أن المندوب غير مأمور به . ثم أن مخالفة عاص وإلا كان الأنبياء كلهم عصاة لأنهم لا ينكفون عن ترك المندوب . قالوا : يقال أشرت إليه في أمر كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني . وأجيب بالمنع من أن هذا من مستعملات العرب العاربة ، ولو سلم فلعله إنما يقال ذلك إذا عرف أن المستشير لا بد له أن يفعل ذلك ، وحينئذ يكون معنى الإيجاب حاصلاً وإن لم يكن وجوب شرعي لأن ذلك الإيجاب لم يصدر عن الشارع . ومنهم من زعم أنه ذنب صغير وهم عامة المعتزلة ورد بأن المعاصي إسم من يستحق العقاب وهذا لا يليق بالصغيرة . وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف ولهذا قال سبحانه ﴿ فغوى ﴾ أي خاب من نعيم الجنة لأن الرشد هو أن يتوصل بشيء إلى شيء فيصل إلى المقصود والغي ضده ، وأنه سعى في طلب الخلود فنال ضد المقصود . وعن بعضهم ﴿ فغوى ﴾ أي بشم من كثرة الأكل وزيفه جار الله . ورد قول أبي مسلم بأن مصالح الدنيا تكون مباحة فلا يوصل تاركها بالعصيان .

قلت: في هذا نظر، والأحوط في هذا الباب أن يعتقد كون هذه الواقعة قبل النبوة بدليل قوله: ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي اختاره للرسالة ﴿ وهدى ﴾ لحفظ أسباب العصمة. أصل الاجتباء هو الجمع كما مر في آخر "الأعراف". يروى عن أبي أمامة: لو وزنت أحلام بني آدم لرجح حلمه. وقد قال الله تعالى: ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ قال العلماء: فيه دليل على أنه لا رادّ لقضائه وما قدره كائن لا محالة، وإذا جاء القضاء عمي البصر والدليل قد يكون غاية الظهور ومع ذلك يخفى على أعقل الناس كما خفي على آدم عداوة إبليس، وأنه تعرّض لسخط الله في شأنه حين امتنع من سجوده فكيف قبل من وسوسة ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ [الأنفال: 68] قال المحققون: الأولى أن لا يطلق لفظ العاصي والغاوي على آدم عليه السلام وإن ورد في القرآن ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ لأنه لم تصدر عنه الزلة إلا مرة واحدة.

(241/504)

وصيغة اسم الفاعل تنبئ عن المزاولة، ولأن المسلم إذ تاب عن الشرب أو الزنا وحسنت توبته لا يقال له شارب وزان، ولأن السيد يجوز له أن يشتم عبده بما شاء وليس لغيره ذلك. ﴿ قال اهبطا ﴾ قد مر تفسير مثله في "البقرة" خاطبهما بالهبوط لأنهما أصلا

البشر ثم عم الخطاب لهما ولذريتهما في قوله ﴿ فإما يأتينكم ﴾ أما قوله : ﴿ بعضكم لبعض عدوّ ﴾ فقد قال القاضي : يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء الناس والناس أعداء لهم ، فإذا انضاف إلى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام . عن ابن عباس : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا قوله : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ والسبب فيه أن العقاب في الآخرة لأجل أنه قد ضل عن الدين في مدة التكليف ، واتباع كتاب الله يستلزم عدم الضلال عن الدين المستتبع للنجاة من العقاب في الآخرة . وأما الشقاء الذي قد يلحق المؤمن في الدنيا فلا اعتداد به لقصر مدته على أن الرضا بالقضاء يهوّن عليه مصائب الدنيا وآفاتها . ثم ذكر وعيد من أعرض عن ذكره ظاهر الكلام يدل على أن الذكر ههنا هو الهدى المذكور لأن قوله : ﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ فمن اتبع هداي ﴾ . وقد مر في أول " البقرة " أن المراد به الشريعة والبيان . وقال كثير من المفسرين : إن الذكر هو القرآن وسائر كتب الله وفيه نوع تخصيص . والضنك الضيق مصدر وصف به . ولهذا استوى فيه المذكر والمؤنث . يقال : منزل ضنك ومعيشة ضنك كأنه قيل : ذات ضنك . قالت الحكماء : عيش الدنيا ضنك ضيق لانقضائه وقصر مدّته وكثرة شوائبه ، وإنما العيش الواسع عيش الآخرة . وهذا الضيق المتوعد به إما في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة مال إلى كل طائفة . أما لأول فلأن المسلم الراضي بقضاء ربه

معه من التسليم والتوكل والقناعة ما يعيش به عيشاً رافغاً . والمعرض عن الدين متول عليه الحرص والشح فلا

ينفك عن الانقباض ولطموح ما ليس يناله من الفراغ والرفاغ الكلي فلا هم له إلا هم الدنيا . عن ابن عباس : المعيشة الضنك هي أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها ، ومن الكفرة من ضربت عليه الذلة والمسكنة . وسئل الشبلي عن قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية " فقال : أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى إلى أنفسهم وأيّ معيشة أضيق وأشد من أن يرد الأنسان إلى نفسه . قلت : التحقيق أن بعض البليات من العقوبات فطلب العافية منها لازم ، وبعضها لمزيد الدرجات ولكن الإنسان خلق ضعيفاً فكثيراً ما يؤل أمر المبتلي إلى الجزع والفزع فيحرم الثواب فتطلب العافية من هذا القسم أيضاً خوفاً من المآل .

وأما الثاني فعن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري ورفعه أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه : " عذاب القبر للكافر " وعن ابن عباس أن الآية نزلت في الأسود بن عبد الله المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيه أضلاعه . وأما الثالث فعن الحسن وقتادة

والكلبي أنه ضيق في الآخرة وفي جهنم ، وأطعامهم فيها الضريع والزقوم والحميم والغسلين ، فلا يموتون فيها ولا يحيون .

(243/504)

أما قوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ كقوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ [طه : 102] فيمن فسر الزرق بالعمى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ [الإسراء : 97] ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] قال الجبائي : أراد أنه لا يهتدي يوم القيامة إلى طريق ينال منه خيراً كالأعمى . وعن مجاهد والضحاك ومقاتل أنه أراد أعمى عن الحجة وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال القاضي : هذا القول ضعيف لأنه لا بد في القيامة أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه بتمييزه لهم الحق من الباطل ، ومن هذه حاله لا يوصف بذلك إلا مجازاً باعتبار ما كان ، لكن قوله : ﴿ وقد كنت بصيراً ﴾ ينافيه . قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله : ومما يؤكد هذا الاعتراض أنه تعالى علل ذلك العمى بما أن المكلف نسي الدلائل في الدنيا ، فلو كان العمى الحاصل في الآخرة عين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر كما في الدنيا . قال : والتحقيق في الجواب عن الاعتراض هو أن النفوس الجاهلة في الدنيا إذا

فارقت أبدانها تبقى على جهالتها في الآخرة فتصير تلك الجهالة سبباً لأعظم الآلام الروحانية . وأقول على القاضي : يحتمل أن يكون مجازاً باعتبار الغاية . فقد ينفي الشيء باعتبار عدم غايته وثمرته فلا ينافي كونه أعمى في الآخرة بهذا الاعتبار إعلام الله تعالى إياه الحجة ، ولا كونه بصيراً في الدنيا كونه أعمى في الآخرة بالاعتبار المذكور لأن المعرض عن الدليل يشبه أن يكون كافراً معانداً ، ويكون الغرض من الإعلام التوبيخ والإلزام يؤيده قوله تعالى في جوابه : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ أتتك آياتنا ﴾ أي دلائلنا وضاحة مستنيرة ﴿ فنسيتها ﴾ أي تركت العمل بها والقيام بموجبها ﴿ وكذلك اليوم تنسى ﴾ تترك بلا فائدة النظر والاعتبار . وعلى الإمام الرازي : إنه لا يلزم من كون المكلف غير متضرر بنسيان الدلائل في

الدنيا كونه غير متضرر به في الآخرة . وأما قوله في الجواب المحقق بناء على قاعدة الحكيم إن جهل النفس يصير سبباً لتعذيبها فإن كان منعاً لقول المعتزلة إنه تعالى يعلم المكلف بطلان ما كان عليه في الدنيا فذاك لا يفتقر إلى العدول ، وإن كان تسليماً لقولهم فمن أين يتحمل الاعتراض هذا وقد رأيت في بعض الآثار أن أشد الناس عمى يوم القيامة هم الذين حفظوا

القرآن ثم نسوه .

دليله قوله تعالى : ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ اللّهم اجعلني ممن يواظب على تلاوة كتابك حتى لا أنساه يوم ألقاك . ﴿ وكذلك نجزي من أسرف ﴾ قيل : عصى ربه . والأظهر أنه أراد أشرك وكفر بدليل قوله : ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة ﴾ وهو الحشر على العمى ﴿ أشد وأبقى ﴾ من ضيق المعيشة في العاجل أو أراد ، وتركنا إياه في العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا .

(245/504)

ثم وبخ المعرضين عن الدلائل بعدم الاعتبار بأحوال القرون الخالية فقال : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ بالفاء وفي السجدة بالواو ، لأن الكلام ههنا كالمتصل بقوله : ﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ وهناك كالمنفصل عن الإعراض لأنه قال : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ [السجدة : 22] . وبعد ذلك أورد قصة موسى فناسب الاستئناف بالواو ، وأما حذف من ههنا وإثباته هنالك فلما مر من أن " من " تفيد الاستيعاب وهنالك قد زاد في القرون بشرح قصة بني إسرائيل وما فيهم من الملوك والأنبياء . قال في الكشاف : فاعل ﴿ لم يهد ﴾ الجملة بعده . وأنكر البصريون مثل هذا لأن الجملة لا تقع فاعلاً فلهذا قال :

يريد أو لم يهد لهم هذا المعنى أو مضمون هذا الكلام. قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم. وقال الزجاج: أراد أَوَلَمْ نبين لهم ما يهدون به لو تدبروا وتأملوا. وقيل: فيه ضمير الله أو الرسول والجملة بعده تفسره يريد أن قريشاً يتقلبون في السورة. قال بعض أهل اللغة: إن للنبيه مزية على العقل فلا يقال إلا لمن له عقل ينتهي به عن القبائح فقوله: ﴿ أولي النهى ﴾ كقوله: ﴿ أولي العزم ﴾ [الأحقاف: 35] والحزم ومن هذا فسره بعضهم بأهل الورع والتقوى.

(246/504)

ثم بين الوجه الذي لأجله لا ينزل العذاب معجلاً على من كذب من هذه الأمة فقال: ﴿ ولولا كلمة ﴾ هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة كتبها في اللوح المحفوظ وأخبر بها ملائكته ورسله لأن فيهم أو في نسلهم من يؤمن، أو لمصلحة أخرى خفية. قال أهل السنة: إنه بحكم المالكية له أن يفعل ما يشاء من غير علة. واللزام مصدر لازم وصف به. وقيل: فعال لما يفعل به فهو بمعنى ملزم كأنه آلة اللزوم أي ﴿ لكان ﴾ الأخذ العاجل ﴿ لزاماً وأجل مسمى ﴾ وهو عذاب الآخرة. وقيل: يوم بدر معطوف على ﴿ كلمة ﴾ وجوز في الكشاف أن يكون معطوفاً على الضمير في كان. ولعله إنما جوز ذلك للفصل أي لكان

الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل .

(247/504)

وحين بين أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر على ما يقولون من التكذيب وسائر الأذيات . زعم الكلبي ومقاتل أنها منسوخة بآية القتال وليس بذاك فإن كلاًّ منهما معمول بها في موضعها ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي متلبساً بحمده على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه ، والأكثرون أنها بمعنى الصلاة ليكون كقوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] ولأنه بين أوقاتها فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، وقبل غروبها صلاة الظهر والعصر لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ المغرب والعتمة . وقوله ﴿ وأطراف النهار ﴾ أي في طرفيه فجمع للمبالغة وأمن الإلباس ، أو لأن أقل الجمع اثنان . أو أراد طرفي كل نهار تكرار لصلاتي الفجر والعصر لا المغرب على ما ظن اعتناء بشأنهما كقوله ﴿ والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] وآناء جمع "أنى" وهو الساعة وقد مر في "آل عمران" . وإنما قدم آنا الليل وأدخل الفاء في ﴿ فسبح ﴾ المؤذنة بتلازم ما قبلها وما بعدها تنبيهاً على زيادة الاهتمام بشأن صلاة

الليل ، لأن الليل وقت السكون والراحة وهدوّ الأصوات فالصلاة فيه أشق على النفس وأدخل في الإخلاص وأقرب من المحافظة على الخشوع والإخبات . وبعضهم أخرج من الآية صلاة الظهر لانه خصص قبل الغروب بصلاة العصر . ومنهم من زاد فيها النوافل لأن الصلاة في الأوقات المذكورة تشملها والأمر قد يكون للندب لا أقل من التغليب . وقال أبو مسلم : الأقرب حمل التسبيح على التنزيه والإجلال كأنه لما أمره بالصبر على أذية القوم بعثه على الاشتغال بالتقديس والمواظبة عليه في كل الأوقات .

(248/504)

وقوله : ﴿ لعلك ترضى ﴾ كقوله : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الإسراء : 79] ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] ولا ريب أن الأطماع من الكريم واجب الوقوع اللَّهم ارزقنا شفاعته . ولما حث رسوله على الأمور الدينية نهاه عن الميل إلى الزخارف الدنيوية فقال : ﴿ ولا تمدّن عينيك ﴾ أي نظر عينيك . ومد النظر تطويله استحساناً للمنظور إليه ، وفيه أن النظر الغير المدود معفوّ عنه كما لو نظر فغض . وقال أبو مسلم : المنهي عنه في الآية ليس هو التطويل وإنما هو الأسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوا من حظ الدنيا . قال أبو رافع : نزل ضيف بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعثني

إلى يهوديّ يستقرضه فقال : لا أقرضه إلا برهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض ، أحمل إليه درعي الحديد فنزلت . " والأزواج الأصناف . وقيل : أي أشكالاً وأشباهاً من الكفار لأنهم أشكال في الذهاب عن الصواب . وقد مر في آخر الحجر . ولقد شدد العلماء المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وملابسهم ومراكبهم لأنهم اتخذوها . قال جار الله : انتصب ﴿ زهرة ﴾ على الذم ، أو على تضمين متعنا بمعنى خولنا وأعطينا ، أو على إبداله من محل ﴿ به ﴾ أو على إبداله من ﴿ أزواجاً ﴾ والتقدير ذوي زهرة وهي الزينة والبهجة .

ومن قرأ بفتح الهاء فبمعناها أيضاً أو هي جمع زاهر كأنهم لصفاء ألوانهم وظهور آثار النعومة عليهم زاهر وهذه الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب . وقوله : ﴿ لنفتنهم ﴾ أي لنبلوهم كقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ [الكهف : 7] وقيل : لعذبهم كقوله : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم ﴾ [التوبة : 55] . وقال الكلبي ومقاتل : لنشدد عليهم في التكليف لأن الاجتناب عن المعاصي مع القدرة يكون أشق على النفس . ﴿

ورزق ربك ﴾ هو ثواب الآخرة أو ما رزقت من الإسلام والنبوّة ﴿ خير وأبقى ﴾ وقيل : أراد به الحلال الطيب الذي يحق أن ينسب إلى ربك خير من أموالهم التي غلب عليها الغصب والسرقة وسائر وجوه الخيانة ، وأبقى بركة ونماء وحسن عاقبة . ﴿ وأمر أهلك ﴾ في سورة مريم ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة ﴾ [الآية : 55] أي أقبل أنت مع أهلك على عبادة الله . ومن السلف من كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله ثم يتلو هذه الآية . وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ ﴿ ولا تمدنّ عينيك ﴾ الآية . ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعليّ كل صباح ويقول : " الصلاة وكان يفعل ذلك شهراً " وقوله : ﴿ واصطبر عليها ﴾ أراد أنك كما تأمرهم بها فحافظ عليها فإن الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾ كما يريد الملوك خراجاً من رعيتهم والسادة خرجاً من عبيدهم ﴿ بل نحن نرزقك ﴾ كقوله : ﴿ وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 57 - 58] والحاصل أنا إنما أمرناك بالصلاة فذلك لأجل انتفاعك بثوابها لا لأنا ننتفع بها . وقيل : لا نسألك رزقاً لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك وإياهم فلا تهتم بأمر الرزق والمعيشة وفرغ بالك لأمر الآخرة وفي

معناه قولهم " من كان في عمل الله كان الله في عمله " . وقال أهل الإشارة ﴿ ورزق ربك ﴾ رمز إلى قوله : " أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " قال عبد الله بن سلام : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة . ﴿ والعاقبة ﴾ أي الجميلة ﴿ للتقوى ﴾ .

ثم عاد إلى قوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ فحكى واحدة من شبهاتهم هي قولهم : ﴿ لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ كأنهم لم يتعدّوا بالقرآن الذي أخرس شقاشقهم فرد الله عليهم بقوله : ﴿ أولم تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ لأن القرآن برهان سائر الكتب المنزلة لأنه معجز دونها فهو شاهد لها بالصحة وأنها من عند الله .

وقيل : أراد بالبينة ما فيها من بشارة مقدم محمد صلى الله عليه وسلم . وعن ابن جرير أنه ما رأوا فيها من قصص الأمم المكذبة وبيان إهلاكهم بعد اقتراح الآيات وإنما أتاهم هذا البيان في القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه ﴿ بينة ما في الصحف الأولى ﴾ ثم بين الحكمة في نزول القرآن فقال : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ أي من قبل البرهان المذكور

الدال عليه البينة ﴿ لقالوا ﴾ أي في القيامة لأن الهالك لا قول له في الدنيا . وعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة : الهالك في الفترة يقول لم يأتني رسول وإلا كنت أطوع خلقك " وتلا قوله : " ﴿ لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لي عقلاً أنتفع به . ويقول الصبي : كنت صغيراً أعقل . فيرفع لهم نار ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان في عالم الله أنه سعيد ويتلكأ من كان في علمه أنه شقي . فيقول الله تعالى : عسيتم اليوم فكيف برسولي لو أتاكم ؟ ! " وطعن المعتزلة في هذا الخبر قالوا : لا يحسن العقاب على ما لم يفعل . وقال الجبائي : في الآية دلالة على وجوب فعل اللطف والمراد أنه يجيب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده وإلا كان لهم أن يقولوا : هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن . وقال الكعبي : فيها أوضح دليل على أنه تعال يقبل الاحتجاج من عباده . وليس معنى قوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : 23] أن الجور منه يكون عدلاً بل تأويله أنه لا يقع منه إلا العدل . وإذا ثبت أنه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة . واستدل أهل السنة بها على أن الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع وإلا لكان العقاب حاصلاً قبل مجيئه . ثم ختم السورة بوعيد إجمالي فقال : ﴿ قل كل ﴾ أي كل منا ومنكم ﴿ متربص ﴾ عاقبة أمره وهذا الانتظار إما قبل الموت بسبب الأمر بالجهاد أو ظهور الدولة والغلبة ، أو بالموت فإن كان واحد من

الخصمين ينتظر موت صاحبه ، وإما بعد الموت وهو ظهور أثر الثواب والعقاب وتمييز المحق المبطل ويؤيده قوله : ﴿ فستعلمون ﴾ إلى آخره وهذا من كلام المنصف والله المستعان . (تم) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 576.584 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها ، فقال:

﴿ وعنت الوجوه ﴾ أي : ذلت وخضعت في ذلك اليوم ، ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ، وخص الوجوه بالذكر مع أن المراد الأشخاص لشرف الوجوه ، ولأنها أول ما يظهر فيها الذل ﴿ للحي ﴾ الذي هو مطلع على الدقائق والجلائل ﴿ القيوم ﴾ الذي لا يغفل عن التدبير ومجازاة كل نفس بما كسبت ؛ روى ابن أسامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اطلبوا اسم الله الأعظم في هذه السور الثلاث : البقرة وآل عمران ،

وطه" ، قال الرازي : فوجدنا المشترك في السور الثلاث : الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم

﴿ وقد خاب ﴾ أي : خسر خسارة ظاهرة ﴿ من حمل ظلماً ﴾ قال ابن عباس : خسر من أشرك بالله ، والظلم الشرك . ولما شرح الله تعالى أحوال القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين ، فقال:

﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ أي : التي أمره الله تعالى بها بحسب طاقته ؛ لأنه لن يقدر الله أحد حق قدره ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ﴿ وهو مؤمن ﴾ ليكون بناؤها على الأساس كما في قوله تعالى : ﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ (طه ،)

﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾ أي : بزيادة في سيئاته ﴿ ولا هضماً ﴾ أي : بنقص من حسناته ؛ قاله ابن عباس ، وقيل : لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ، ولا تبطل حسنة عملها ، وعبّر تعالى بالفاء إشارة إلى قبول الأعمال وجعلها سبباً لذلك الحال ، وأما غير المؤمن ، فلو عمل أمثال الجبال لم يكن لها وزن ، وقوله تعالى:

﴿ وكذلك ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ وكذلك نقص ﴾ ، أي : ومثل إنزال ما ذكر ﴿ أنزلناه ﴾ أي : القرآن ﴿ قرآناً ﴾ جامعاً لجميع المعاني المقصودة ، ثم وصفه تعالى

بأمرين ؛ أحدهما : قوله تعالى ﴿ عربياً ﴾ أي : بلسان العرب ليفهموه ، ويقفوا على إعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر ، الثاني : قوله تعالى : ﴿ وصرّفنا فيه من الوعيد ﴾ أي : كرّرناه ، وفصلناه ، ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم ؛ لأن الوعد بهما يتعلق بتكريره وتصريفه يقتضي بيان الأحكام ، فلذلك قال تعالى : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي : يجتنبون الشرك والمحارم ، وترك الواجبات ، فتصير التقوى لهم ملكة ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ أي : عظة واعتباراً حين يسمعونها ، فيثبطهم عنها ، ولهذه النكتة أسند التقوى إليهم ، والأحداث إلى القرآن .

(255/504)

﴿ فتعالى الله ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته وصفاته ذاتهم وصفاتهم ﴿ الملك ﴾ الذي لا يعجزه شيء ، فلا ملك في الحقيقة غيره ﴿ الحق ﴾ أي : الثابت الملك ، فلا زوال لكونه ملكاً في زمن ما ، ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف خلقه على ما هم عليه من الأمور المتباينة ، ولما شرح الله تعالى كيفية نفع القرآن للمكلفين ، وبيّن أنه سبحانه وتعالى متعالٍ عن كل ما لا ينبغي موصوف بالإحسان والرحمة ، ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي ،

فلذلك قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أي : بقراءته ﴿ من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ من الملك النازل به إليك من حضرتنا كما أنا لم نعجل بإنزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلاً ، ونزلناه إليك تنزيلاً مفصلاً تفصيلاً ، وموصلاً توصيلاً ، فاستمع له ملقياً جميع تأملك إليه ، ولا تساوقه بالقراءة ، فإذا فرغ فاقرأه ، فإنا نجمعه في قلبك ، ولا نكلفك المساوقة بتلاوته ﴿ وقل رب ﴾ أيها المحسن إليّ بإفاضة العلوم عليّ ﴿ زدني علماً ﴾ أي : سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال ، فإن ما أوحي إليك تناله لا محالة ؛ روى الترمذي عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار" وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدني علماً ويقيناً ، ولما قال تعالى : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ (طه ،)

ذكره هذه القصة إنجازاً للوعد ، فقال تعالى:

﴿ ولقد عهدنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ إلى آدم ﴾ أبي البشر أي : وصيناه أن لا يأكل من الشجرة ، وإنما عطفها على قوله تعالى : ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ (طه ،)

للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان ، وعرقهم راسخ بالنسيان ﴿ من قبل ﴾ أي : في زمن من الأزمان الماضية قبل هؤلاء الذين تقدّم في هذه السورة ذكر نسيانهم وإعراضهم ﴿ فنسي ﴾ عهدنا ، وأكل منها ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ أي : تصميم رأي وثبات على الأمر ؛ إذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان ، ولم يستطع تغريره ؛ قال البيضاوي : ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور ويذوق أريها وشريها انتهى ، والأري العسل ، والشري : الحنظل ؛ قال البغوي : قال أبو أمامة الباهلي : لو وزن حلم آدم بحلم ولده لرجح حلمه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ولم نجد له عزماً ﴾ ، وقال البيضاوي : وعن النبي صلى الله عليه وسلم "لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه" ، وقد قال تعالى : ولم نجد له عزماً ، قال ابن الأثير : والحلم بالكسرة الأناة والتثبت في الأمور .

فإن قيل : ما المراد بالنسيان أجيب بأنه يجوز أن يراد بالنسيان الذي هو نقيض الذكر ، وإنه لم يعنِ بالوصية العناية الصادقة ، ولم يستوثق منها بقصد القلب عليها ، وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان ، ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعاً عن الإنسان بل كان يؤاخذ به ، وإنما رفع عنا ، وكان الحسن يقول : ما عصى أحد قط إلا بنسيان ، وإن يراد الترك وأنه ترك ما أوصي به من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها ، وقيل : نسي عقوبة الله تعالى ، وظن أنه نهي تنزيه .

تنبيه : هذا هو المرّة الخامسة من قصة آدم في القرآن أولها في البقرة ، ثم في الأعراف ، ثم في الحجر ، ثم في الكهف ، ثم ههنا ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ تقدَّم الكلام على ذلك مفصلاً في سورة البقرة ، وقوله تعالى :

﴿ أبى ﴾ جملة مستأنفة ؛ لأنها جواب سؤال مقدر ؛ أي : ما منعه من السجود ؟ فأجيب بأنه أبى ، ومفعول الإباء يجوز أن يكون مراداً ، وقد صرح به في الآية الأخرى في قوله تعالى :

﴿ أبى أن يكون من الساجدين ﴾ (الحجر ،) ، وحسن حذفه هنا كون العامل رأس فاصلة ، ويجوز أن لا يراد أصلاً ، وأنَّ المعنى أنه من أهل الإباء والعصيان من غير نظر إلى متعلق الإباء ما هو

﴿ فقلنا ﴾ بسبب امتناعه بعد أن حلمنا عليه ولم نعاجله بالعقوبة ﴿ يا آدم إنَّ هذا ﴾ الشيطان الذي تكبر عليك ﴿ عدوّ لك ولزوجك ﴾ حوّاء بالمدّ لأنها منك ، وسبب تلك العداوة من وجوه ؛ الأول : أن إبليس كان حسوداً ، فلما رأى آثار نعم الله في حق آدم حسده ، فصار عدواً له ، الثاني : أن آدم عليه السلام كان شاباً عالماً لقوله تعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (البقرة ،) ، وإبليس كان شيخاً جاهلاً ؛ لأنه أثبت فضيلته بفضيلة أصله ، وذلك جهل ، والشيخ الجاهل أبداً يكون عدواً للشاب العالم ، الثالث : أن إبليس مخلوق من النار ، وآدم مخلوق من الماء والتراب ، فبين أصليهما عداوة ، فثبتت تلك

العداوة فإن قيل : لِمَ قال تعالى : ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة ﴾ مع أن المخرج لهما منها هو الله تعالى ؟

أجيب بأنه لما كان هو الذي فعل بوسوسته ما ترتب عليه الخروج صح ذلك فإن قيل : لِمَ قال تعالى : ﴿ فتشقى ﴾ أي : فتتعب وتنصب في الدنيا ، ولم يقل : فتشقيا ؟

أجيب بوجهين ؛ أحدهما : أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيّم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على كونه رأس فاصلة ، وعن سفيان بن عيينة قال : لم يقل فتشقيا ؛ لأنها داخلة معه ، فوقع المعنى عليهما جميعاً وعلى أولادهما جميعاً كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ (الطلاق ،) ، و ﴿ يا أيها النبي لم تحرِّم ما أحل الله لك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ (التحريم ،) ، فدخلوا في المعنى معه ، وإنما كلم النبي وحده ، الثاني : أريد بالشقاء التعب في طلب القوت ، وذلك على الرجل دون المرأة ؛ لأن الرجل هو الساعي على زوجته ، روي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر ، فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ويحتاج بعد الحرث إلى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج إليه ، وعن الحسن قال : عنى به

شقاء الدنيا ، فلا تلقى ابن آدم إلا شقياً ناصباً أي : ولو أراد شقاوة الآخرة ما دخل الجنة بعد ذلك ، ولما كان

الشبع والريّ والكسوة والمكن هي الأمور التي يدور عليها كفاف الناس ذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء في الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب ، وذكرها بلفظ النفي لأضدادها بقوله تعالى:

﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾

﴿ وإنك لا تظمأ ﴾ أي : تعطش ﴿ فيها ولا تضحى ﴾ أي : لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفاء الشمس في الجنة بل أهلها في ظل ممدود وهذه الأشياء كأنها تفسير للشقاء المذكور في قوله تعالى : فتشقى

(259/504)

﴿ فوسوس ﴾ أي : فتعقب تحذيرنا هذا من غير بعد في زمان أن وسوس ﴿ إليه الشيطان ﴾ المحترق المطرود وهو إبليس أي : أنهى إليه الوسوسة ، وأما وسوس له ، فمعناه لأجله ، فلذلك عدي تارة باللام في قوله تعالى : ﴿ فوسوس لهما ﴾ (الأعراف ،) ، وتارة بإلى ، ثم بيّن تعالى تلك الوسوسة ما هي بقوله تعالى : ﴿ قال يا آدم هل أدلك على

شجرة الخلد ﴾ أي : على الشجرة التي إن أكلت منها بقيت مخلداً ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أي : لا يبيد ولا يفنى ، قال الرازي : واقعة آدم عجيبة ، وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله تعالى : ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ ، ورغبة إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله تعالى : هل أدلك على شجرة الخلد وفي انتظام المعيشة بقوله ، وملك لا يبلى ، فكان الشيء الذي رغب الله تعالى فيه آدم هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك الأمر على الاحتراس عن تلك الشجرة ، وإبليس وقفه على الإقدام عليها ، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله مولاه وناصره ومربيه وعلمه بأن إبليس عدوّه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل في الواقعة الواحدة ، والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بعداوته له ، وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه الناصر له والمربي ، ومن تأمل هذا الباب طال تعجبه ، وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء

الله ، ولا

مانع له منه ، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة ، فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله ذلك وقدّره انتهى . W

ويدل على ذلك ما ثبت في الحديث الصحيح روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ، فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها بيان كل شيء ، وقرّبك نجياً فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقني ؛ قال موسى : بأربعين عاماً قال آدم : فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال : نعم ، قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى" ، وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء ، وقال : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس" ، ثم كأن إبليس قال لآدم بلسان الحال أو المقال مشيراً إلى الشجرة التي نهي عنها ما بينك وبين الملك الدائم إلا أن تأكل منها

﴿ فأكلا ﴾ أي : فتسبب عن قوله وتعقب أن أكل ﴿ منها ﴾ هو وزوجته متبعين لقوله ناسين ما عهد إليهما لأمر قدّره الله في الأزل ﴿ فبدت لها سوآتهما ﴾ قال ابن عباس عرياً من النور الذي كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما ، وإنما جمع سوآتهما كما قال : صغت قلوبكما ، أي : فظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره ، وسمى كل منهما سوأة ؛ لأن انكشافه يسوء صاحبه ﴿ وطفقا يخصفان ﴾ أي : أخذا يلزقان ﴿ عليهما من ورق الجنة ﴾ ليستترا به ، قال ابن عادل : وهو ورق التين ﴿ وعصى آدم ﴾ بالأكل من الشجرة ، وإن كان إنما فعل المنهي نسياناً لأن عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له مزيد الاعتناء ، ودوام المراقبة ﴿ ربه ﴾ المحسن إليه بما لم ينله أحد من بنيه من تصويره له بيده ، وإسجاد ملائكته له ، ومعاداة من عاداه ﴿ فغوى ﴾ أي : فعل ما لم يكن له فعله ، وقيل : أخطأ طريق الحق ، وقيل : حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عنه ، فخاب ، ولم ينل مراده وصار من العز إلى الذل ، ومن الراحة إلى التعب ؛ قال ابن قتيبة : يجوز أن يقال : عصى آدم ، ولا يجوز أن يقال : آدم عاص ؛ لأنه إنما يقال : عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه ، فيقال : خاط ثوبه ، ولا يقال : هو خياط حتى يعاوده ويعتاده .

تنبيه : تمسك بعضهم بقوله تعالى : وعصى آدم ربه فغوى في صدور الكبيرة عنه من وجهين ؛ الأول : أن العاصي اسم للذم ، فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ﴾ (الجن ،) ، ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلاً يعاقب عليه ، الثاني : أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان ، والغي ضد الرشاد ، ومثل هذا لا يتناول إلا الفاسق المنهمك في فسقه ، وأجيب : بأن المعصية مخالفة الأمر ، والأمر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب ، فإنك تقول : أمرته فعصاني ، وأمرته بشرب الدواء فعصاني ، وإذا كان كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم بكونه للمندوب ، وإن كان وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز ، وأجاب أبو مسلم الأصبهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف ، وكذا القول في غوى ؛ قال الرازي : والأولى عندي في هذا الباب أن يقال : هذه الواقعة كانت قبل النبوّة ، وقد تقدم شرح ذلك في البقرة ، وقيل : بل أكل من الشجرة متأولاً ، وهو لا يعلم أنَّ الشجرة التي نهى الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس ، ولهذا قيل : إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة ، فهو كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين أي : يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات

﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي : اختاره واصطفاه ﴿ فتاب عليه ﴾ أي : قبل توبته ، وأعاد عليه بالعفو والمغفرة ﴿ وهدى ﴾ أي : هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار ، ولما

كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وإن كان قد هيأه بالاجتباء لها قال على طريق الاستئناف.

﴿ قال ﴾ الرب سبحانه وتعالى : الذي انتهكت حرمة داره ﴿ اهبطا ﴾ أي : آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿ منها ﴾ أي : الجنة ﴿ جميعاً ﴾ وقيل : الخطاب لآدم ومعه ذريته ، ولإبليس ، فقوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدوٌّ ﴾ يكون على التفسير الأول بعض الذرية لبعض عدوٌّ من ظلم بعضهم لبعض ، وعلى الثاني آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، وقوله تعالى : ﴿ فإما ﴾ فيه إدغام نون أن الشرطية في ما المزيدة ﴿ يأتينكم مني هدى ﴾ أي : كتاب ورسول ﴿ فمن اتبع هداي ﴾ الذي أسعفته به من أوامر الكتاب والرسول ﴿ فلا يضل ﴾ أي : بعد ذلك عن طريق السداد في الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ في الآخرة؛ قال ابن عباس : من قرأ القرآن ، واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ، ووقاه الله تعالى يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك أن الله تعالى يقول : فمن اتبع هداي ، فلا يضل ولا يشقى ، ولما وعد تعالى من اتبع الهدى أتبعه بوعيد من أعرض فقال تعالى:

﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ أي : عن القرآن ، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ والضنك أصله الضيق والشدة ، وهو مصدر ، فكأنه قال : له معيشة ذات ضنك ، واختلف في ذلك ، فقال أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن مسعود : المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر ، وروى أبو هريرة أنَّ عذاب القبر للكافر ، قال : قال صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رؤوس يخدشونه ويلسعونه ، وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون" ، وقال الحسن وقتادة والكلبي : هو الضيق في الآخرة في جهنم ، فإنّ طعامهم الضريع والزقوم ، وشرابهم الحميم والغسلين ، فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وقال ابن عباس : المعيشة الضنك هي أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها ، وعن عطاء : المعيشة الضنك هي معيشة الكافر ؛ لأنه غير موقن بالثواب والعقاب ، وروي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "عقوبة المعصية ثلاثة : ضيق المعيشة والعسر في الشدة ، وأن لا يتوصل إلى قوته إلا بمعصية الله" ، وذلك أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى ، وعلى قسمته ، فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماح وسهولة ، فيعيش عيشاً رفيعاً كما قال الله تعالى : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ (النحل ،) ، والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من

الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الانفاق فعيشه ضنك ، وحاله مظلمة ، قال صلى الله عليه وسلم "لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى إليه ثانياً ، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب" متفق عليه . قال بعض الصوفية : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته ، وتشوش عليه رزقه ، وقال تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ (نوح : ،)

(265/504)

الآية ، وقال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾ (الجن ،) . ثم ذكر حال المعرض في الآخرة بقوله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال ابن عباس : إذا خرج من القبر خرج بصيراً ، فإذا سيق إلى المحشر عمي ، ولعله جمع بذلك بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ (مريم ،) ، وقال عكرمة : عمي عليه كل شيء إلا جهنم ، وفي لفظ قال : لا يبصر إلا النار ، وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ، ويؤيد الأول قوله تعالى:

﴿ قال رب لم حشرتني أعمى ﴾ في هذا اليوم ؟ ﴿ وقد كنت بصيراً ﴾ أي : في الدنيا ، أو في أول هذا اليوم ، فكأنه قيل : بما أجيب ؟ فقيل:

﴿ قال ﴾ له ربه ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك فعلت، ثم فسره، فقال: ﴿ أتتك آياتنا ﴾ واضحة نيرة ﴿ فنسيتها ﴾ فعميت عنها، وتركتها غير منظور إليها ﴿ وكذلك ﴾ أي: ومثل تركك إياها ﴿ اليوم تنسى ﴾ أي: تترك في العمى والعذاب

﴿ وكذلك ﴾ أي: ومثل هذا الجزاء الشديد ﴿ نجزي من أسرف ﴾ في متابعة هواه، فتكبر عن متابعة أوامرنا ﴿ ولم يؤمن ﴾ بل كذب ﴿ بآيات ربه ﴾ وخالفها ﴿ ولعذاب الآخرة أشدّ ﴾ مما نعذبهم به في الدنيا والقبر لعظمه ﴿ وأبقى ﴾ فإنه غير منقطع. ولما بيّن الله تعالى أنّ من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الأفعال الواقعة في الدنيا ممن كذب الرسل، فقال:

أي: يبين بياناً يقود إلى المقصود ﴿ لهم ﴾ أي: هؤلاء الذين أرسلت إليهم أعظم رسلي، وفاعل يهد مضمون قوله: ﴿ كم أهلكنا ﴾ وقال أبو البقاء: الفاعل ما دل عليه أهلكنا أي: إهلاكنا، والجملة مفسرة له، وقال الزمخشري: فاعل لم يهد الجملة بعده يريد: ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين ﴾ (الصافات: ،) ، أي: تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله

أو الرسول انتهى. وكم خبرية مفعول أهلكنا ﴿ قبلهم من القرون ﴾ أي: بتكذيبهم لرسلنا حال كونهم ﴿ يمشون ﴾ أي: هؤلاء العرب من أهل مكة وغيرهم ﴿ في مساكنهم ﴾ أي: في سفرهم إلى الشام، ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿ إن في ذلك ﴾ أي: الإهلاك العظيم الشأن المتوالي في كل أمة ﴿ لآيات ﴾ عظيمات بينات ﴿ لأولي النهى ﴾ أي: لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي. ولما هددهم بإهلاك الماضين ذكر سبب التأخير عنهم بقوله تعالى:

﴿ ولولا كلمة ﴾ أي: عظيمة قاضية نافذة ﴿ سبقت ﴾ أي: في أزل الآزال ﴿ من ربك ﴾ الذي عودك بالإحسان بتأخير العذاب عنهم إلى الآخرة فإنه يعامل بالحلم والأناة ﴿ لكان ﴾ أي: العذاب ﴿ لزاماً ﴾ أي: لازماً أعظم لزوم لهم في الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود، ولكن نمدُّ لهم لنرد من شئنا منهم، ونخرج من أصلاب بعضهم من يؤمن، وإنما فعلنا ذلك إكراماً لك ورحمة لأمتك، فيكثر أتباعك، فيعملوا الخيرات، فيكون ذلك زيادة في شرفك، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً"، وفي رفع قوله تعالى ﴿ وأجل مسمى ﴾ وجهان:

أظهرهما : عطفه على كلمة أي ، ولولا أجل مسمى لكان العذاب لازماً لهم ، وهذا ما صدَّر به البيضاوي ، والثاني : أنه معطوف على الضمير المستتر في كان ، وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد ، واقتصر الجلال المحلي على هذا ، وجوَّزه الزمخشري والبيضاوي ، وفي هذا الأجل المسمى قولان ؛ أحدهما : ولولا أجل مسمى في الدنيا لذلك العذاب ، وهو يوم بدر ، والثاني : ولولا أجل مسمى في الآخرة لذلك العذاب ، وهذا كما قال الرازي أقرب قال أهل السنة تعالى بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ، ومن شاء بعذابه من غير علة إذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة إما قديمة ، فيلزم قدم الفعل ، وإما حادثة ، فيلزم افتقارها إلى علة أخرى ، ويلزم التسلسل ، ثم إنه تعالى لما أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه لا يهلك أحداً قبل استيفاء أجله أمره بالصبر ، فقال:

(268/504)

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ لك من الاستهزاء وغيره ، وهذا كان أول الأمر ، ثم نسخ بآية القتال ﴿ وسبح ﴾ أي : صل ، وقوله تعالى : ﴿ بحمد ربك ﴾ حال أي : وأنت حامد لربك على أنه وفقك لذلك ، وأعانك عليه ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ صلاة الصبح ﴿ وقبل غروبها ﴾ صلاة العصر ﴿ ومن أناء الليل ﴾ أي : ساعاته ﴿ فسبح ﴾ أي : صل

المغرب والعشاء ، وقوله تعالى : ﴿ وأطراف النهار ﴾ معطوف على محل من آناء المنصوب أي : صل الظهر ؛ لأن وقتها يدخل بزوال الشمس ، فهو طرف النصف الأول ، وطرف النصف الثاني قال ابن عباس : دخلت الصلوات الخمس في ذلك ، وقيل : المراد الصلوات الخمس والنوافل ؛ لأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها ، فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين .

وأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما ، فبقي قوله : ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل ، وقال أبو مسلم : لا يبعد حمل التسبيح على التنزيه والإجلال ، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات .

فإن قيل : النهار له طرفان ، فكيف قال : وأطراف النهار ، ولم يقل : طرفي النهار أجيب بوجهين أظهرهما : أنه إنما جمع لأنه يلزم في كل نهار ويعود ، والثاني : أن أقل الجمع اثنان ، وقرأ قوله تعالى ﴿ لعلك ترضى ﴾ أبو بكر والكسائي بضم التاء أي : ترضى بما تنال من الثواب كقوله تعالى : ﴿ وكان عند ربه مرضياً ﴾ (مريم ،) ، وقرأ الباقون بفتحها أي : ترضى بما تنال من الشفاعة قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ (الضحى ،) ، وقال تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ (الإسراء ، س) ، والمعنى : على القراءتين لا يختلف ؛ لأن الله تعالى إذا أرضاه ، فقد رضيه ، وإذا رضيه ، فقد أرضاه ،

ولما كانت النفس ميالة إلى الدنيا مرهونة بالحاضر من فاني العطايا ، وكان تخليها عن ذلك هو الموصل إلى حريتها المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكداً إيذاناً بصعوبة ذلك:

﴿ ولا تمدن ﴾ مؤكداً له بالنون الثقيلة ﴿ عينيك ﴾ أي : لا تطول نظرهما بعد النظرة الأولى المعفو عنها ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ في هذه الحياة الفانية ﴿ أزواجاً ﴾ أي : أصنافاً ﴿ منهم ﴾ أي : الكفرة استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ، ويسمع من الأصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح ، وقوله تعالى : ﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ أي : زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا ، أو به على تضمنه معنى أعطينا ، فأزواجاً مفعول أول ، وزهرة هو الثاني ، وذكر ابن عادل غير هذين الوجهين سبعة أوجه لا حاجة لنا بذكرها ، ثم علل تعالى تمتعهم بقوله تعالى : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي : لنفعل بهم فعل المختبر ، فيكون سبب عذابهم في الدنيا بالعيش الضنك لما مضى ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم ، فصورته تغرّ من لم يتأمل معناه حق التأمل ، فما أنت فيه خير مما هم فيه ﴿ ورزق ربك ﴾ في الجنة ﴿ خير ﴾ مما أوتوه في الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ أي : أدوم أو ما رزقته من نعمة الإسلام والنبوّة ، أو لأنّ

أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه ، والحلال خير وأبقى ، قال الزمخشري : لأن الله تعالى لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث ، والحرام لا يسمى زرقاً انتهى ، وهذا جار على مذهبه المخالف لأهل السنة من أن الحرام لا يسمى زرقاً ، وقال أبو مسلم الذي نهى عنه بقوله : ولا تمدّنّ عينيك ليس هو النظر بل هو الأسف أي : لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا ، وقال أبو رافع : نزلت هذه الآية في ضيق نزل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فبعثني إلى يهودي يبيع أو يستلف إلى مدة ، فقال : والله لا أفعل إلا برهن ، فأخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم "إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض احمل إليه درعي الحديد" فنزل قوله : ولا تمدن عينيك ، وقال صلى الله عليه وسلم "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن

ينظر إلى قلوبكم

وأعمالكم" ، وقال أبو الدرداء : الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له ، وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا ، وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا داراً ، فتتخذكم لها عبيداً . ولما أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه

وسلم بتزكية النفس أمره بأن يأمر أهله بالصلاة بقوله عز وجل:

﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ أي: أمر أهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما كان أبوك إسماعيل عليه السلام يدعوهم إلى كل خير إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة، وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعلي رضي الله عنهما كل صباح ويقول: الصلاة ﴿ واصطبر ﴾ أي: داوم ﴿ عليها لا نسألك ﴾ أي: نكلفك ﴿ رزقاً ﴾ لنفسك ولا لغيرك ﴿ نحن نرزقك ﴾ وغيرك كما قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد إن يطعمون إن الله هو الرازق ذو القوة المتين ﴾ (الذاريات،)

ففرِّغ بالك لأمور الآخرة، وفي معناه قول الناس: من كان في عمل الله كان الله في عمله.

(271/504)

وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضرٌّ أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية، وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلطان قرأ: ولا تمدن عينيك الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله وعن بكر بن عبد الله المزني كان إذا أصاب أهله خصاصة قال

: قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿ والعاقبة ﴾ أي : الجميلة المحمودة ﴿ للتقوى ﴾ أي : لأهل التقوى قال ابن عباس : الذين صدقوك واتبعوك واتقوني ، ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ (الأعراف ،) ، ولا معونة على الرزق وغيره بشيء يوازي الصلاة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر أي بالباء الموحدة أي : إذا أحزنه فزع إلى الصلاة قال ثابت : وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم "يقول الله تعالى : تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك" ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به هموم أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك" وعن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة همه جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة" ، ثم إنه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهاً بقوله تعالى:

﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ فكأنه من لوازم قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ وهو قولهم لولا أي : هلا يأتينا بآية ، وقال في موضع آخر : لو ما تأتينا بآية كما أرسل الأوّلون ، ثم أجاب الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ أولم تأتهم بينة ﴾ أي : بيان ﴿ ما في الصحف الأولى ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية المشتمل عليه القرآن أنباء الأمم الماضية وإهلاكهم بتكذب الرسل فما يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالفوقية على التأنيث ، والباقون بالتحتية على التذكير

﴿ ولو أنّا أهلكناهم ﴾ معاملة لهم في عصيانهم ﴿ بعذاب من قبله ﴾ أي : هذا القرآن المذكور في الآية الماضية وما قاربها ، وفي قوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ (طه ،)

وفي مثنى السورة في : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ (طه ،)

أو من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لقالوا ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ ربنا ﴾ يا من هو متصف بالإحسان إلينا ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ أرسلت إلينا رسولاً ﴾ يأمرنا بطاعتك ﴿ فنتبع ﴾ أي : فيتسبب عنه أن نتبع آياتك التي تنجينا بها ﴿ من قبل أن نذل ﴾ بالعذاب هذا الذل ﴿ ونخزى ﴾ بالمعاصي التي عملناها على جهل ، فلأجل ذاك أرسلناك إليهم ، وأقمنا بك الحجة عليهم ، ولما علم بهذا أنّ إيمانهم كالممتنع ، وجدالهم لا

ينقطع بل إن جاءهم الهدى طعنوا فيه ، وإن عذبوا قبله تظلموا كان كأنه قيل : فما الذي أفعل معهم ؟ فقيل:

(273/504)

﴿ قل ﴾ لهم ﴿ كل ﴾ أي : كل مني ومنكم ﴿ متربص ﴾ أي : منتظر ما يؤول إليه أمري وأمركم ﴿ فتربصوا ﴾ فأنتم كالبهائم ليس لكم تأمل ﴿ فستعلمون ﴾ أي : عما قريب بوعد لا خلف فيه ، وهو يوم القيامة ﴿ من أصحاب الصراط ﴾ أي : الطريق ﴿ السويّ ﴾ أي : المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ أي : من الضلال ، فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره أنحن أم أنتم ؟ قال ابن عادل : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا : طوبى لأمّة ينزل عليها هذا ، وطوبى لألسن تتكلم بهذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا" ، وعن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه" انتهى ، ولم يذكر لذلك سنداً ، وأما ما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب

المهاجرين والأنصار" فحديث موضوع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 214.201 ﴾

(274/504)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) ﴾

بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وأنه لم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليشقى به أو بسببه . ومن القرآن قصة موسى عليه السلام وما يبدو فيها من رعاية الله وعنايته بموسى وأخيه وقومه .

فالآن يعقب السياق على القصة بالعودة إلى القرآن ووظيفته ، وعاقبة من يعرض عنه . ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة ، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ؛ وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمن ، وتعنو الوجوه للحي القيوم . لعل هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس ، ويذكرها بالله ويصلها به . . وينتهي هذا المقطع بإراحة بال الرسول صلى الله عليه وسلم من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه ، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه ، ولا يشقى بذلك

فالله ميسره وحافظه . إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً .

وبمناسبة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان ، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله . وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس ، وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى ، ثم تنتهي إلى هناك مرة أخرى .

وتختم السورة بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم ، فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم . وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن . ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله ان يعذر إليهم بالرسول الأخير ، فلينفض يده من أمرهم ويكلهم إلى مصيرهم .

﴿ قل : كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ﴾ . .

﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملاً يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون : إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوما ﴾ . .

كذلك القصص الذي أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق . نقصه عليك في القرآن ويسمى القرآن ذكراً ، فهو ذكر لله ولآياته ، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين مشهداً في يوم القيامة . فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله .

ويا لسوئها من أحمال ! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم ، وقصرت أيامها في مشاعرهم ، فليست في حسهم سوى أيام قلائل : ﴿ إن لبثتم إلا عشراً ﴾ فأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر : ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ . وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ؛ ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ؛ ويبدو ذلك كله فترة

وجيزة في الزمان ، وشيئاً ضئيلاً في القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها والمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة . ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لا نهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزا ، بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه في الدنيا عن الجبال ما يكون من شأنها يومذاك . فإذا الجواب يصور الهول الذي يواجهونه !

(276/504)

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحي القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾ . .

ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً ؛ وإذا هي قاع بعد ارتفاع . قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو

فيها ولا انخفاض . .

وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ؛ وتنصت الجموع المحشودة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ويعبر عن استسلامهم بأنهم ﴿ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ تنسيقاً لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء !

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ . . ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ . .

وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . فالكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضاف . والوجوه عانية . وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علماً . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات .

إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه ، في حضرة الرحمن .

﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴾ .

كذلك على هذا النسق نوعنا في القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش في نفوس المكذبين شعور التقوى ، أو يذكرهم بما سيلقون في الآخرة فينزجروا . فذلك إذ يقول الله في أول السورة . ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلاحق الوحي فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهي الوحي مخافة أن ينسى . وكان ذلك يشق عليه . فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التي يحملها .

﴿ فتعالى الله الملك الحق . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقل : رب زدني علماً ﴾ . .

فتعالى الله الملك الحق . الذي تعنو له الوجوه ؛ ويخيب في حضرته الظالمون ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون . . هو منزل هذا القرآن من عليائه ، فلا يعجل به لسانك ، فقد نزل القرآن لحكمة ، ولن يضيعه . إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم ، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك ، لا تخشى عليه الذهاب . وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع . ويثمر ولا يخيب . .

ثم تجيء قصة آدم ، وقد نسي ما عهد الله به إليه ؛ وضعف أمام الإغراء بالخلود ، فاستمع

لوسوسة الشيطان : وكان هذا ابتلاء من ربه له قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض ؛ ونموذجاً من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة . فلما تم الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباه وهداه . .

والقصص القرآني يجيء في السياق متناسقاً معه . وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان . وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده ، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه . ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة . وكأنما هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت في السياق :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ . .

وعهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة ، وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ؛ فلا تستعبدها

الرغائب وتقهرها . وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري . فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري .

وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى .

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته ، وتنبيه قوة المقاومة فيه ، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان ، وإرادته وعهده للرحمن . وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ ثم تعرض تفصيلاتها :

﴿ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ . .

هكذا في إجمال ، يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى ، لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية . . فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية :

﴿ فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ . .

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته ان ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره ، عقب نشوزه وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه . ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان . . كلها تنتظر هناك خارج الجنة ؛ وأنت في حمى منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس . . ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ . . فهذا كله مضمون لك ما دمت في رحابها ، والجوع والعري ، يتقابلان مع الظمأ والضحوة . وهي في مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى في الحصول على الطعام والكساء ، والشراب والظلال .

ولكن آدم كان غفلاً من التجارب . وهو يحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان . ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان :

﴿ فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ ﴾

لقد لمس في نفسه الموضع الحساس ، فالعمر البشري محدود ، والقوة البشرية محدودة . من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر ، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة . . ومن ثم نسي العهد ، وأقدم على المحظور :

﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . . وعصى

آدم ربه فغوى ﴾ . .

والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة ، وأنها مواضع العفة في جسديهما . يرجح ذلك أنهما أخذا يستراتها بورق الجنة يشبكانه ليستر هذه المواضع .

وقد يكون ذلك إيذاناً باستيقاظ الدوافع الجنسية في كيانهما . فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها .

وربما كان حظر هذه الشجرة عليهما ، لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع في الجسم تأجيلاً لها فترة من الزمان كما يشاء الله .

وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط في عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبهت فيهما دوافع الجنس . وربما كانت الرغبة في الخلود تجسمت في استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل ؛ فهذه هي الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردي المحدود . . كل هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة . فهو لم يقل : فبدت سوآتهما . إنما قال : فبدت لهما

سوآتهما . مما يؤذن انها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلي من

إحساسهما . . وقد جاء في موضع آخر عن إبليس : ﴿ ليبدي لهما ما ووري عنهما من

سوءاتهما ﴾ وجاء : ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ وقد يكون اللباس

الذي نزعه الشيطان ليس لباساً مادياً إنما هو شعور ساتر ، قد يكون هو شعور البراءة

والطهارة والصلة بالله . وعلى أية حال فهي مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح

واحداً منها . إنما هي لتقرب صورة التجربة الأولى في حياة البشرية .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله ، بعدما عصاه ، فقد كانت هذه هي التجربة الأولى :

﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ . .

بعدما استغفر آدم وندم واعتذر . ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في الجو وحدها . .

ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى :

﴿ قال : اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ﴾ . .

وبذلك أعلنت الخصومة في الثقلين . فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد

منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدري . فقد درى وعلم ؛ وأعلن هذا الأمر العلوي

في الوجود كله : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ !

ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرضون ، وشهده الملائكة أجمعون . شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى . قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم . فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس ، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى :

﴿ فإما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ . .

يجيء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها ، فقد أعلن عنه في ختامها في الملأ الأعلى . فذلك أمر إذن قضي فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل .

﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ . . فهو في أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله . وهما ينتظران خارج عتبات الجنة .

ولكن الله يقي منهما من اتبع هداه . والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع . فهذا المتاع ذاته شقوة . شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة . وما من متاع حرام ، إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه . وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ

والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه . والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع ! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء . ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض ، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود ، حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود .

(282/504)

﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ﴾ والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع . إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه . ضنك الحيرة والقلق والشك . ضنك الحرص والحذر : الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت . ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت . وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله . وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها . . إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان .

﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ وانقطع عن الاتصال بي ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ . . ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ . . وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا . وذلك جزاء

على إعراضه عن الذكر في الأولى. حتى إذا سأل: ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ ﴾ كان الجواب: ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾!

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه. أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً. فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً! ويحشر في يوم القيامة أعمى!

اتساق في التعبير. واتساق في التصوير.. هبوط من الجنة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال. وفسحة في الدنيا يقابلها الضنك، وهداية يقابلها العمى.. ويجيء هذا تعقيباً على قصة آدم وهي قصة البشرية جميعاً فيبدأ الاستعراض في الجنة، وينتهي في الجنة، كما مر في سورة الأعراف، مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق..

فإذا انتهت هذه الجولة بطرفيها أخذ السياق في جولة حول مصارع الغابرين؛ وهي أقرب في الزمان من القيامة، وهي واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيباً لا تراه الأبصار:

﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات لأولي النهى .

ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ . .

وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون . وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب ، وحين يتملى الخيال الدور وقد خلت من أهلها الأول ؛ ويتصور شخوصهم الذاهبة ، وأشباحهم الهاربة ، وحركاتهم وسكناتهم ، وخواطرهم وأحلامهم ، وهمومهم وآمالهم . . حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر . . ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئاً إلا الفراغ والخواء . . عندئذ يستيقظ للهوة التي تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر . وعندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها . وعندئذ يعي معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنظار . فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفي مصارع القرون ما يهدي أولي الألباب ؟ : ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ !

ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا ، لحكمة عليا . لحل بهم ما حل بالقرون الأولى . ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى أمهلهم إليه : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما ، وأجل مسمى ﴾ .

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، ممهلين لا مهملين ، فلا عليك يا محمد منهم ولا مما أوتوه من زينة

الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هي الفتنة ، وما أعطاكه الله إنعاماً فهو خير مما أعطاهم ابتلاء :

(284/504)

﴿ فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ . .

فاصبر على ما يقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . واتجه إلى ربك . سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . في هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ؛ وفي هدأة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من الليل والنهار . . كن موصولاً بالله على مدار اليوم . . ﴿ لعلك ترضى ﴾ . .

إن التسبيح بالله اتصال . والنفس التي تتصل تطمئن وترضى . ترضى وهي في ذلك الجوار الرضي ؛ وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن .

فالرضى ثمرة التسبيح والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع في حنايا القلب . اتجه إلى ربك بالعبادة ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ من عرض الحياة الدنيا ، من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان . ﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ التي تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعه جذابة . والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزواق . فإنما نمتعهم بها ابتلاء ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ فنكشف عن معادنهم ، بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع .

وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل «وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى» وهو رزق للنعمة لا للفتنة . رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن .

وما هي دعوة للزهد في طيبات الحياة ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به . فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار . .

(وأمر أهلك بالصلاة) . . فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ; وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله , فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة . وما

أروح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله .

(واصطبر عليها) . . على إقامتها كاملة ; وعلى تحقيق آثارها . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . وهذه هي آثارها الصحيحة . وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك . وإلا فما هي صلاة مقامة . إنما هي حركات وكلمات .

هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئاً . فالله غني عنك وعن عبادة العباد : (لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى (والعاقبة للتقوى) . فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وأخراه . يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح . ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى . والله غني عن العالمين .

الدرس الخامس: 133 - 135 تفنيد طلبات الكفار في تبديل القرآن وتهديدهم

وقرب ختام السورة يعود بالحديث إلى أولئك الكبراء الممتعين المكذبين , الذين يطلبون إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعدما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه: هذا القرآن الذي يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله:

(وقالوا: لولا يأتينا بآية من ربه . أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ?) . .

فليس إلا التعنت وإلا المكابرة والرغبة في الاقتراح هي التي تملي مثل هذا الاقتراح وإلا فآية

القرآن كافية . وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها , ويوحد طبيعتها واتجاهها , ويبين ويفصل ما أجمل في الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين (صلى الله عليه وسلم)

(ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا , فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) . .

وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم . إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم . الذي يذلون فيه ويخزون :فلعلهم حينذاك قائلون : ا أرسلت إلينا رسولا . . .)فها هي ذي الحجة قد قطعت عليهم , فلم يعد لهم من عذر ولا عذير !

وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذي ينتظرهم يؤمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن ينفض يده منهم , فلا يشقى بهم , ولا يكربه عدم إيمانهم , وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير , فليتربصوا هم كيف يشاءون :

(قل : كل متربص فتربصوا . فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) . .

بذلك تختم السورة التي بدأت بنفي إرادة الشقاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من

تنزيل القرآن , وحددت وظيفة القرآن:(إلا تذكرة لمن يخشى) . . والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق . فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة . وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة . والعاقبة بيد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2349 . 2358 ﴾

(287/504)

(288/504)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ﴾ [طه : 67] قيل : إنه عليه السلام رأى أن الله تعالى ألبس سحر السحرة لباس القهر فخاف من القهر لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وسئل ابن عطاء عن ذلك فقال : ما خاف عليه السلام على نفسه وإنما خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله تعالى : ﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الاعلى ﴾ [طه : 68] أي

إنك المحفوظ بعيون الرعاية وحرس اللطف أو أنت الرفيع القدر الغالب عليه غلبة تامة بحيث يكونون بسببها من أتباعك فلا يفوتهم حظهم من الله تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً ﴾ [طه : 70] إلى آخر ما كان منهم فيه إشارة إلى أن الله تعالى يمن على من يشاء بالتوفيق والوصول إليه سبحانه في أقصر وقت فلا يستبعد حصول الكمال لمن تاب وسلك على يد كامل مكمل في مدة يسيرة .

(289/504)

وكثير من الجهلة ينكرون على السالكين التائبين إذا كانوا قريبي العهد بمقارفة الذنوب ومفارقة العيوب حصول الكمال لهم وفيضان الخير عليهم ويقولون كيف يحصل لهم ذلك وقد كانوا بالأمس كيت وكيت ، وقولهم : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ [طه : 72] الخ كلام صادر من عظم الهمة الحاصل للنفس بقوة اليقين فإنه متى حصل ذلك للنفس لم تبال بالسعادة الدنيوية والشقاوة البدنية واللذات العاجلة الفانية والآلام الحسية في جنب السعادة الأخروية واللذة الباقية الروحانية ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ [طه : 77] الخ فيه إشارة إلى استحباب مفارقة الأغيار وترك صحبة الأشرار ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [طه : 81] عد من الطغيان فيه استعماله مع الغفلة عن الله تعالى وعدم نية

التقوى به على تقواه عز وجل ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى موسى ﴾ [طه : 83] الإشارة فيه أنه ينبغي للرئيس رعاية الأصلح في حق المرؤس وللشيخ عدم فعل ما يخشى منه سوء ظن المريد لا سيما إذا لم يكن له رسوخ أصلاً ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾.

قال ابن عطاء : إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام بعد أن أخبره بذلك : أتدري من أين أتيت ؟ قال : لا يا رب قال سبحانه : من قولك لهارون : ﴿ اخلفني في قومي ﴾ [الأعراف : 142] وعدم تفويض الأمر إلي والاعتماد في الخلافة علي .

وذكر بعضهم أن سر إخبار الله تعالى إياه بما ذكر مباسطته عليه السلام وشغله بصحبته عن صحبة الأضداد وهو كما ترى :

﴿ وَأَضَلَّهُمُ السامرى ﴾ [طه : 85] صار سبب ضلالهم بما صنع قال بعض أهل التأويل : إنما ابتلاهم الله تعالى بما ابتلاهم ليتميز منهم المستعد القابل للكمال بالتجريد من القاصر الاستعداد المنغمس في المواد الذي لا يدرك إلا المحسوس ولا يتنبه للمجرد المعقول .

ولهذا قالوا : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ [طه : 87] أي برأينا فإنهم عبيد بالطبع لا رأي لهم ولا ملكة وليسوا مختارين لا طريق لهم إلا التقليد والعمل لا التحقيق والعلم وإنما استعبدهم السامري بالطلسم المفرغ من الحلي لرسوخ محبة الذهب في نفوسهم لأنها سفلية منجذبة إلى الطبيعة الجسمانية وتزين الطبيعة الذهبية وتحلى تلك الصورة النوعية فيها للتناسب الطبيعي وكان ذلك من باب مزج القوى السماوية التي هي أثر النفس الحيوانية الكلية السماوية المشار إليها بحيزوم وفرس الحياة وهي مركب جبريل عليه السلام المشار به إلى العقل الفعال بالقوى الأرضية ولذلك قال : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ [طه : 96] أي من العلم الطبيعي والرياضي اللذين يبتني عليهما علم الطلسمات والسيمياء ﴿ قَالَ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِى الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ [طه : 97] قال ذلك عليه السلام غضباً على السامري وطرداً له وكل من غضب عليه الأنبياء وكذا الأولياء لكونهم مظاهر صفات الحق تعالى وقع في قهره عز وجل وشقي في الدنيا والآخرة وكانت صورة عذاب هذا الطريد في التحرز عن المماسة نتيجة بعده عن الحق في الدعوة إلى الباطل وأثر لعن موسى عليه السلام إياه عند إبطال كيده وإزالة مكره ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ [طه : 105] قال أهل الوحدة : أي يسألونك عن وجودات الأشياء فقل ينسفها ربي برياح النفحات الإلهية الناشئة من معدن الأحدية فيذرها في القيامة الكبرى ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ [طه : 106] وجوداً أحدياً ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ [

طه : 107] اثنينية ولا غيرية ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ الذي هو الحق سبحانه لا عوج له إذ هو تعالى آخذ بنواصيهم وهو على صراط مستقيم ﴿ وَخَشَعَتِ الاصوات للرحمن ﴾ إذ لا فعل لغيره عز وجل ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ﴾ [طه : 108]

(291/504)

أمراً خفياً باعتبار الإضافة إلى المظاهر انتهى .

ولكم لهم مثل هذه التأويلات والله تعالى العاصم ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تنفعُ الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ورَضِىَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109] قيل : هو من صحح فعله وعقده ولم ينسب لنفسه شيئاً ولا رأى لها عملاً ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] لكمال تقدسه وتنزهه وجلاله سبحانه عز وجل فهيهات أن تحلق بعوضة الفكر في جو سماء الجبروت .

ومن أين لنحلة النفس الناطقة أن ترعى أزهار رياض بيداء اللاهوت ، نعم يتفاوت الخلق في العلم بصفاته عز وجل على قدر تفاوت استعداداتهم وهو العلم المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] وقيل : هذا إشارة إلى العلم اللدني ، والإشارة في قصة آدم عليه السلام إلى أنه ينبغي للإنسان مزيد التحفظ عن الوقوع في العصيان ، ولله تعالى در من قال :

يا ناظراً يرنو بعيني راقد . . .

ومشاهداً للأمر غير مشاهد

منيت نفسك ضلة وأبحتها . . .

طرق الرجاء وهن غير قواصد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي . . .

درج الجنان بها وفوز العابد

ونسيت أن الله أخرج آدما . . .

منها إلى الدنيا بذنب واحد

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : بينا آدم عليه السلام يبكي جاءه جبريل عليه السلام فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه عليهما السلام وقال : يا آدم ما هذا البكاء ؟ قال : يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حولني ربي من السماء إلى الأرض ومن دار النعمة إلى دار البؤس فانطلق جبريل عليه السلام بمقالة آدم فقال الله تعالى : يا جبريل انطلق إليه فقل له : يا آدم يقول لك ربك ألم أخلقك بيدي ألم أنفخ فيك من روحي ألم أسجد لك ملائكتي ألم أسكنك جنتي ألم آمرك فعصيتني فوعزتي وجلالي لو أن ملء الأرض رجالاً مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين غير أنه يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي وقد سمعت تضرعك ورحمت بكاءك وأقلت عثرتك .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾

أي بالتوجه إلى العالم السفلي ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : 124] لغلبة شحه وشدة بخله فإن المعرض عن جناب الحق سبحانه انجذبت نفسه إلى الزخارف الدنيوية والمقتنيات المادية لمناسبتها إياه واشتد حرصه وكلبه عليها وشغفه بها للجنسية والاشتراك في الظلمة والميل إلى الجهة السفلية فيشح بها عن نفسه وغيره وكلما استكثر منها ازداد حرصه عليها وشحه بها وتلك المعيشة الضنك .

ولهذا قال بعضهم : لا يعرض أحد عن ذكر ربه سبحانه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه بخلاف الذاكر المتوجه إليه تعالى فإنه ذو يقين منه عز وجل وتوكل عليه تعالى في سعة من عيشه ورغد ينفق ما يجد ويستغني بربه سبحانه عما يفقد ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه : 132] أي العاقبة التي تعتبر وتستأهل أن تسمى عاقبة لأهل التقوى المتخلين عن الرذائل النفسانية المتحلين بالفضائل الروحانية ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بحسن العاقبة وصفاء العمر عن المشاغبة ونحمده سبحانه على آلائه ونسلم على خير أنبيائه وعلى آله خير آل ما طلع نجم ولمع آل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 16 صـ ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة طه (20) : آية 83]

وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (83)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام مبتدأ في محلّ رفع (عن قومك) متعلّق بـ (أعجلك) ،

(موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر .

جملة : " أعجلك . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قلنا له .

وجملة : " النداء . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

[سورة طه (20) : آية 84]

قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (84)

الإعراب :

(هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع خبر " 1 "

، (على أثري) متعلّق بمحذوف خبر ثان أي آتون " 2 " ، (إليك) متعلّق بـ (عجلت) ،

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف و(الياء) المحذوفة للتخفيف في محلّ جرّ بالإضافة (اللام) للتعليل (ترضى) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب الفتحة المقدّرة، والفاعل أنت.

---

(1) أجاز العكبريّ أن يكون (أولاء) موصولا و(على أثري) صلته، وهو بعيد.

(2) أو هو حال من مقدّر أي: يأتون على أثري.

والمصدر المؤوّل (أن ترضى) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (عجلت).

جملة: "قال... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "هم أولاء... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "عجلت... " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: "ربّ... " لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام.

وجملة: "ترضى... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

الصرف:

(أثري) ، اسم فيه معنى الظرف أي بعدي . . وزنه فعل بفتحتين.

[سورة طه (20) : آية 85]

قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

الإعراب:

(295/504)

(الفاء) تعليليّة (من بعدك) متعلّق ب (فتنّا) ، (الواو) عاطفة - أو حاليّة - جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّا قد فتنّا . . . " لا محلّ لها تعليل لمقدّر هو مقول القول أي لا تنتظر قومك فإنّا قد فتنّاهم.

وجملة: " قد فتنّا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " أضلّهم السامريّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا قد فتنّا " 1 ".

الصرف:

(السامريّ) ، اسم منسوب إلى سامرة قبيلة من بني إسرائيل ، واسمه موسى بن ظفر.

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

[سورة طه (20) : آية 86]

فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إلى قومه) متعلّق بـ (رجع) ، (غضبان) حال منصوبة من موسى ، وامتنع من التنوين لأنه صفة على وزن فعلان (أسفا) حال ثانية منصوبة (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (وعدا) مفعول مطلق منصوب مؤكّد للفعل " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (عليكم) متعلّق بـ (طال) ، (أم) حرف عطف معادل للهمزة (عليكم) الثاني متعلّق بـ (يحلّ) ، (من ربّكم) متعلّق بنعت لـ (غضب) (الفاء) عاطفة (موعدي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه .

جملة : " رجع موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "قال... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "النداء: يا قوم... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يعدكم ربّكم... "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "طال.. العهد... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

---

(1) أو مفعول به منصوب إن كان بمعنى الموعود.

(297/504)

وجملة: "أردتم... "لا محلّ لها معطوفة على جملة طال...

وجملة: "يحلّ.. غضب... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

والمصدر المؤوّل (أن يحلّ..) في محلّ نصب مفعول به عامله أردتم.

وجملة: "أخلفتم... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أردتم.

الفوائد

- مواعدة موسى، اختار موسى من قومه سبعين رجلا، وانطلق لميقات ربه، ليتلقى منه كتابا يكون المرجع الأول والأخير لبني إسرائيل. وقد وصل بعد ثلاثين يوما، فأوحي إليه أن يكملها أربعين، لقد سعد موسى بقربه من ربه، وتلقى عنه رسالته وعند ما طلب إليه

أن يراه قال له : انظر إلى الجبل إن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما نظر إلى الجبل أنهار الجبل وغاص في الأرض ، فخر موسى صعقا وعند ما أفاق قام يسبح الله الكبير المتعال .

وعند ما عاد موسى بالألواح التي تشتمل على شريعته ، أوحى الله إليه " يا موسى ، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين " .

[سورة طه (20) : الآيات 87 إلى 88]

قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (88)

الإعراب :

(ما) نافية (بملكنا) متعلّق بحال من فاعل أخلفنا " 1 " ، (الواو) عاطفة (لكنّا) حرف استدراك ونصب و(نا) ضمير اسم لكنّ (حمّلنا) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(نا) ضمير نائب الفاعل (أوزارا) مفعول به منصوب (من زينة) متعلّق بنعت لـ (أوزارا) ، (الفاء) الأولى عاطفة ، والثانية استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله

ألقى.

جملة: "قالوا ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما أخلفنا ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لكنّا حمّلنا ... "في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: "حمّلنا ... "في محلّ رفع خبر لكنّ.

وجملة: "قذفناها ... "في محلّ رفع معطوفة على جملة حمّلنا .

وجملة: "ألقى السامريّ ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

88 - (الفاء) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (أخرج)، (جسدا) نعت لـ (عجلا) منصوب (له) متعلّق بخبر مقدّم (خوار) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الفاء) عاطفة في الموضعين، وفاعل (نسي) ضمير يعود على موسى عليه السلام أي نسي موسى ربّه هنا - وهو العجل - وذهب يطلبه في الجبل.

وجملة: "أخرج ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى السامريّ.

وجملة: "له خوار ... "في محلّ نصب نعت ثان لـ (عجلا) "2" .

وجملة: "قالوا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرج.

وجملة: "هذا إلهكم ... "في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) أو متعلّق بـ (أخلفنا)، والباء سببيّة.

(2) أو حال من العجل لأنّ النكرة وصفت.

الجدول ج 16، ص: 409

وجملة: "نسي ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

الصرف:

(ملكنا)، مصدر ملك بمعنى اقتدر، وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة طه (20): آية 89]

أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (89)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة " 1 "، (لا) نافية (أن) مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف (لا) نافية، وفاعل (يرجع) ضمير يعود على العجل (إليهم) متعلّق بـ (يرجع)، (قولا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بمحذوف حال من (ضرّا)، (لا) الثاني زائد لتأكيد النفي (نفعا) معطوف على (ضرّا) منصوب.

والمصدر المؤوّل (ألّا يرجع ...) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يرون.

جملة: " يرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يرجع . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخففّة العاملة.

وجملة: " يملك . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يرجع.

[سورة طه (20) : آية 90]

وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (يا قوم)

---

(1) لأنّ حكاية القوم انتهت في قوله فنسي، والكلام مستأنف من اللّه.

مرّ إعرابها " 1 " ، (إنّما) كافّة ومكفوفة (به) متعلّق بـ (فتنتم) ، (الواو) عاطفة، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر، وعلامة النصب في (أمري) الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء، و(الياء) مضاف إليه.

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . جملة القسم لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة النداء: " يا قوم " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " فتنتم به . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " إنّ ربّكم الرحمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء.

وجملة: " اتّبعوني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن صدّقتموني فاتّبعوني.

[سورة طه (20) : آية 91]

---

(1) في الآية (86) من هذه السورة.

قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (91)

الإعراب:

(نبرح) مضارع ناقص منصوب، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (عليه) متعلّق بالخبر (عاكفين)، (حتّى) حرف غاية وجر (يرجع) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى . .

(إلينا) متعلّق بـ (يرجع).

والمصدر المؤوّل (أن يرجع) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (عاكفين).

جملة: "قالوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لن نبرح . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يرجع إلينا موسى "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

[سورة طه (20) : الآيات 92 إلى 93]

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)

الإعراب:

(هارون) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة (منعك) ، (إذ) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بـ (منعك) .

جملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة النداء: "يا هارون . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة" 1 ".

وجملة: "ما منعك . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "رأيتهم . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "ضلّوا . . . "في محلّ نصب مفعول به ثان عامله رأيتهم أي علمتهم.

93 - (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) زائدة" 2 " ، (تتّبعن) فيه ياء محذوفة في آخره هي ياء الضمير مفعول به، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة، وعلامة النصب

في (أمري) الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . .

والمصدر المؤوّل (ألّا تتّبعن . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (منعك) ، أي ما منعك من اتّباعي .

---

(1) يجوز أن تكون جملة النداء وجوابها في محلّ نصب مقول القول . . . وجملة ما منعك هي جواب النداء لا محلّ لها .

(2) يجوز أن يكون (لا) حرف نفي - ليس زائدا - فالمعنى : ما منعك من عدم اتّباعي في الغضب للّه . . ويجوز أيضا تضمين منعك معنى حملك . . .

(302/504)

وجملة : " تتّبعن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " عصيت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ما منعك .

[سورة طه (20) : آية 94]

قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

الإعراب :

(ابن) منادى مضاف منصوب (أمّ) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الميم لاشتغال المحل بحركة المناسبة للألف المحذوفة، و(الألف) المحذوفة المنقلبة عن الياء مضاف إليه (لا) ناهية جازمة (بلحيتي) متعلّق بمحذوف حال من فاعل تأخذ " 1 "، أي لا تأخذني ممسكا بلحيتي (لا) زائدة لتأكيد النفي (برأسي) متعلّق بما تعلّق به بلحيتي فهو معطوف عليه.

والمصدر المؤوّل (أن تقول..) في محلّ نصب مفعول به عامله خشيت.

(بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (فرّقت)، (بني) مضاف إليه مجرور وعلام الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم، ومنع (إسرائيل) من الصرف للعلميّة والعجمة.. (قولي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء.

جملة: "قال..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يا بن أمّ..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لا تأخذ..." لا محل لها جواب النداء.

وجملة: "إنّي خشيت..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

---

(1) أو متعلّق بـ (تأخذ). [.....]

وجملة: " خشيت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " تقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " فرّقت . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " لم ترقب . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة فرّقت " 1 ".

الصرف:

(الحية)، اسم جامد، وزنه فعلة بكسر فسكون.

[سورة طه (20): آية 95]

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95)

الإعراب:

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم استفهام مبتدأ خبره (خطبك)، (سامريّ) منادى مفرد علم مبني على الضم في محلّ نصب.

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما خطبك . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر مقترنة بالفاء . .

والشرط المقدّر وجوابه في محلّ نصب مقول القول أي: إن ذكر أخي الحقيقة فما خطبك أنت؟

وجملة: "يا سامري... "لا محلّ لها اعتراضيّة بين طرفي الحوار... "2".

[سورة طه (20) : آية 96]

قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)

---

(1) الياء في (قولي) تعود إلى موسى عليه السلام لأنّ الكلام حكاية قوله.. ويجوز تخريج الكلام بمعنى آخر أي إنّ الضمير يعود على هارون، أي خشيت أن تقول كذا وخشيت عدم ترقّبك قولي.. فالجملة معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ: تقول.

(2) أو استئنافيّة.

الجدول ج 16، ص: 414

الإعراب:

(بما) متعلّق ب (بصرت)، و(ما) موصول "1"، (به) متعلّق ب (يبصروا)، (الفاء) عاطفة في الموضعين (قبضة) مفعول به منصوب (من أثر) متعلّق بنعت ل (قبضة)، وفي الكلام حذف مضاف أي من تراب أثر الرسول (الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله سوّلت (لي) متعلّق ب (سوّلت)، وعلامة الرفع في (نفسي) الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء.. و(الياء) مضاف إليه.

جملة: "قال... "لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة.

وجملة: " بصرت . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " لم يبصروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

---

(1) يجوز أن يكون نكرة موصوفة، وجملة لم يبصروا في محلّ جر نعت لـ (ما).

وجملة: " قبضت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة بصرت.

وجملة: " نبذتها . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة قبضت.

وجملة: " سوّلت لي نفسي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(قبضة)، قد يراد به المقبوض أو كميّته فيكون اسما جامدا، وقد يراد به مصدر المرّة من قبض الثلاثيّ، ووزنه فعلة بفتح فسكون.

الفوائد

- قصة السامري:

في الوقت الذي حل فيه ميعاد ذهاب موسى إلى الطور، أرسل الله إلى موسى جبريل راكبا حيزوم فرس الحياة، فأبصره السامريّ وكان حيث يضع الفرس قدمه يخضر ويزهر، فقال

السامري : إن لهذا الفرس لشأنا ، فقبض من أثر تربة موطئه قبضة من تراب ، فلما سأله موسى عن قصته . قال : قبضت قبضة من أثر فرس

المرسل إليك يوم حلول الميعاد - ولعله لم يعرف أنه جبريل - ثم جمع السامري الحلي التي أخذها بنو إسرائيل من سكان مصر ، فحفر حفرة ، وأضرم النار ، وأبقى الحلي فيها وعند ما انصهرت صنع منها عجلا له خوار ، فعبده بنو إسرائيل حتى عاد إليهم موسى ، فأحرقه ونسفه في اليم نسفا .

[سورة طه (20) : آية 97]

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (97)

الإعراب :

(الفاء) الأولى رابطة لجواب شرط مقدّر و(الفاء) الثانية تعليليّة (لك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (في الحياة) متعلّق بحال من ضمير الخطاب في (لك) " 1 " ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية للجنس (مساس) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب ، وخبر لا محذوف أي بيننا .

والمصدر المؤوّل (أن تقول . .) في محلّ نصب اسم إنّ مؤخّر .

---

(1) أي حالة كونك حيّا .

(الواو) عاطفة (إنّ لك) مثل الأولى (موعدا) اسم إنّ منصوب (تخلفه) مضارع منصوب مبنيّ للمجهول، و(الهاء) مفعول به، ونائب الفاعل أنت (الواو) عاطفة (إلى إلهك) متعلّق بـ (انظر)، (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت لـ (إلهك)، و(التاء) في (ظلت) اسم ظلّ، (عليه) متعلّق بـ (عاكفا) وهو خبر ظلّ منصوب (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نحرّقنّه)

مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع.. و(النون) نون التوكيد، و(الهاء) مفعول به، والفاعل نحن (لننسفنّه) مثل لنحرقنّه (في اليمّ) متعلّق بـ (ننسفنّه)، (نسفا) مفعول مطلق منصوب.

جملة: "قال..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اذهب..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن تكفر بالله فاذهب" 1 ". وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّ لك.. أن تقول" لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "تقول..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة : " لا مساس . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ لك موعدا . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " لن تخلفه " في محلّ نصب نعت لـ (موعدا) .

وجملة : " انظر . . . " معطوفة على جملة اذهب .

وجملة : " ظلت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " نحرّقنّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . والقسم المقدر استئناف .

وجملة : " ننسفنّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نحرّقنّه .

الصرف :

(مساس) ، مصدر سماعيّ للفعل الرباعيّ ماسّ زنة فاعل ، ووزن مساس فعال بكسر الفاء (نسفا) ، مصدر سماعيّ للفعل الثلاثيّ نسف باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) يجوز أن تكون الفاء لربط المسبّب بالسبب المقدّر – وهو مقول القول – أي : قال موسى لقد كفرت باللّه فاذهب ، فجملة اذهب معطوفة على جملة كفرت . .

[سورة طه (20) : آية 98]

إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (98)

الإعراب:

(الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت للفظ الجلالة (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محل رفع بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف أي: لا إله موجود " 1 " ، (كلّ) مفعول به منصوب (علما) تمييز محوّل من فاعل، منصوب.

جملة: " إلهكم الله . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا إله إلّا هو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة: " وسع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

الفوائد

- مسوغات النكرة لتكون صاحبا للحال، الأصل في صاحب الحال أن يكون معرفة، لأن الحال هو حكم بصفة من الصفات، فلا يجوز أن يصدر الحكم على نكرة.

ولكن يمكن للنكرة أن تحظى بمسوغ، فتصبح جديرة بأن تكون صاحبا للحال والمسوغات هي ما يلي:

أ- إذا تقدمت الحال على صاحبها، نحو: في المكتبة واقفا تلميذ.

ب- أن يكون صاحب الحال مخصصا بصفة، نحو: " في فلك ماخر باليم مشحونا " .

ج - أن يخصص صاحب الحال بإضافة ، نحو : " في أربعة أيام سواء للسائلين " فسواء حال من أربعة بعد تخصيصها بالإضافة إلى أيام .

د - أن يخصص صاحبها بمعمول ، نحو : " عجبت من ضرب أخوك شديدا " .

---

(1) أو هو بدل من محلّ (لا واسمها . .) فمحلّه الرفع .

ه - أن يكون صاحب الحال مخصصا بواسطة العطف ، نحو : " هؤلاء جنود " وقائدهم منطلقين " .

و - أن يكون صاحب الحال مسبوقا بنفي ، نحو : " وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ " .

ز - أن يكون مسبوقا بنهي نحو :

لا يركن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفا لحمام .

ج - أن يكون صاحب الحال مسبوقا باستفهام :

كقول بعضهم :

يا صاح هل حمّ عيش باقيا فترى لنفسك العذر في ابعادها الأملا

فباقيا حال من عيش وسوّغ بواسطة الاستفهام.

وقد يقع الحال من النكرة بلا مسوغ، وهو نادر جدا، نحو: " ووراءه رجال قياما " . . !

[سورة طه (20) : الآيات 99 إلى 103]

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103)

الإعراب:

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نقصّ (عليك) متعلّق بـ (نقّص) ، (من أنباء) متعلّق بـ (نقصّ) ، (ما) اسم

موصول " 1 " في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة - أو حاليّة - من (لدنّا) متعلّق بحال من (ذكرا) وهو مفعول به ثان منصوب.

جملة: " نقصّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قد سبق . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة: "قد آتيناك . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة "2" .

100 - (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عنه) متعلّق بـ (أعرض) ، والضمير يعود على الذكر ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (يوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحمل) .

وجملة: "من أعرض . . . "في محلّ نصب نعت لـ (ذكرا) .

وجملة: "أعرض عنه . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة: "إنّه يحمل . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: "يحمل . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

101 - (خالدين) حال من فاعل يحمل العائد على من الشرطيّة ، منصوبة "3" ، (فيه) متعلّق بـ (خالدين) ، والضمير يعود على عذاب الوزر (الواو) عاطفة (ساء) فعل ماض لإنشاء الذمّ ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو (لهم) متعلّق بحال من (حملا) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالحال المحذوفة (حملا) تمييز منصوب ، ميّز الضمير في ساء . . والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره وزرهم .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعده نعت في محلّ جرّ .

(2) أو في محلّ نصب حال .

(3) وقد جاء بلفظ الجمع مراعاة لمعنى (من) ، بعد أن روعي لفظه .

وجملة : " ساء لهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على خالدين ، والرابط مقدّر .

102 - (يوم) بدل من يوم القيامة ، منصوب مثله (في الصور) جارّ ومجرور نائب الفاعل (الواو) عاطفة (يومئذ) ظرف منصوب " 1 " مضاف إلى ظرف مبنيّ متعلّق بـ (نحشر) ، والتنوين فيه هو تنوين العوض عن جملة محذوفة ، (زرقا) حال من المجرمين منصوبة .

وجملة : " ينفخ في الصور . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نحشر . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ينفخ .

103 - (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يتخافتون) ، (إن) نافية (إلّا) أداة حصر (عشرا) ظرف زمان منصوب ، أي عشر ليال .

وجملة : " يتخافتون . . . " في محلّ نصب حال ثانية من المجرمين .

وجملة : " لبثتم . . . " في محلّ نصب مقول القول لحال أي قائلين إن لبثتم . . .

الصرف :

(زرقا) جمع زرقاء مؤنث أزرق، صفة مشبّهة، وزنه فعل بضمّ فسكون.

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية:

في قوله تعالى "يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً".

والوزر في الأصل يطلق على معنين: الحمل الثقيل والإثم، وإطلاقه على العقوبة نظرا إلى المعنى الأول، على سبيل الاستعارة المصرحة، حيث شبهت

---

(1) أو مبني على الفتح لأنّه أضيف إلى مبني.

العقوبة بالحمل الثقيل. ثم أستعير لها بقرينة ذكر يوم القيامة. ونظرا إلى المعنى الثاني، على سبيل المجاز المرسل، من حيث أن العقوبة جزاء الإثم، فهي لازمة له أو مسببة والأول هو الأنسب بقوله تعالى فيما بعد (وساء) إلخ لأنه ترشيح له.

2 - المجاز المرسل:

في قوله تعالى "خالِدِينَ فِيهِ".

أي في الوزر، والوزر لا يقام فيه، ولكن أراد العقاب المتسبب عن الوزر، فالعلاقة فيه

السببية.

الفوائد

-لدن:

كنا ألمحنا سابقا إلى خصائص لدن مجملة. والآن نعود لبيان الفارق بينها وبين "عند".

فهي تفارقها بستة أمور:

أ- فهي ملازمة لمبدأ الغايات، فهما يتعاقبان نحو: "آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً" بخلاف "جلست عنده" فلا يجوز "جلست لدنه" لعدم معنى الابتداء.

ب- قلما يفارق وجود لفظ "من" قبلها..

ج- هي مبنية في لغة قيس، وبلغتهم قرئ: "من لدنه".

د- جواز إضافتها إلى الجمل، كما ذكرنا سابقا.

ه- جواز إفرادها قبل "غدوة"، وتنصب "غدوة" بها إما تمييزا ومفعولا به، أو خبرا لكان المحذوفة.

و- أنها لا تقع إلا فضلة

[سورة طه (20): آية 104]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104)

الإعراب:

(بما) متعلّق بـ (أعلم) ، وما حرف مصدريّ " 1 " ، (إذ) ظرف متعلّق بـ (أعلم) ،

(طريقة) تمييز منصوب (إن لبثتم إلا يوما) مثل إن لبثتم إلّا عشرا " 2 " .

جملة : " نحن أعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما يقولون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) .

وجملة : " يقول أمثلهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إن لبثتم إلّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

---

(1) أو اسم موصول والعائد محذوف أي يقولونه .

(2) أي عشر ليال .

(أمثلهم) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ مثل يمثل باب كرم بمعنى فضل ، وزنه أفعل ، وقد جاء مفردا لأنه أضيف إلى معرفة وإن كان الضمير فيه يعود إلى الكثرة ، وهذا جائز كما يجوز جمعه مطابقة للجمع المتقدّم .

[سورة طه (20) : الآيات 105 إلى 107]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (107)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عن الجبال) متعلّق بـ (يسألونك) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، وعلامة الرفع في (ربّي) الضمة المقدّرة على ما قبل الياء (نسفا) مفعول مطلق منصوب (الفاء) عاطفة ، والضمير في (يذرها) يعود على الجبال أو أصولها المستوية مع الأرض (قاعا) حال منصوبة من الضمير الغائب (في يذرها) " 1 " ، (صفصفا) حال ثانية منصوبة " 2 " .

جملة : " يسألونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أجبت فقل .

وجملة : " ينسفها ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يذرها . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ينسفها .

107 - (فيها) متعلّق بـ (ترى) ، (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (أمتا) معطوف على (عوجا) بالواو منصوب .

وجملة : " لا ترى . . . " في محلّ نصب حال ثالثة من الهاء في (يذرها) " 3 " .

الصرف :

(قاعا) ، اسم للأرض السهلة المطمئنّة ، وزنه فعل بفتحتين ، جمعه أقواع وأقوع بفتح الهمزة وضمّ الواو وقيع وقيعان وقيعة . والقاع فيه إعلال بالقلب ، أصله القوع ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

(صفصفا) ، اسم للأرض المستوية الملساء ، وزنه فعلل بفتح الفاء واللام الأولى .

---

(1) أو مفعول به ثان إذا جعل (يذر) من أفعال الصيرورة .

(2) أو بدل من (قاعا) لأنّه بمعناه . [. . . . .]

(3) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها . .

(أمتا) ، اسم للنتوء والمكان المرتفع أو التلّ ، جمعه آمات وأموت ، ووزن أمت فعل بفتح فسكون .

الفوائد

- العوج والعوج بكسر العين وفتحها . في هذه الآية نكتة بلاغية لطيفة هي من لطائف القرآن ، وإعجازه المكين .

فقد ذكر اللغويين أن العوج بكسر العين يكون للشؤون المعنوية، أما العوج بفتح العين، فيكون لوصف الشؤون المادية.

لكننا، في هذه الآية، نجده سبحانه، يضع ما هو للأمور المعنوية، يضعه للأمور المادية، وهي صفات الأرض المنبسطة التي لا ترى فيها أي نتوء أو تضاريس.

ولكن ما علينا الا أن نتعمق في إدراك ما يرنو إليه هذا الاستعمال، من ملاحظة عدم وجود أي نتوء مهما دق، أو انخفاض مهما قلّ الذي لا تدركه العين الباصرة، ولكن تدركه وسائل العلم الحديثة، لذلك عبر سبحانه وتعالى باللفظ الموضوع للمعاني، عن الأمور التي هي من صفات الأجرام المادية. وهذه لفتة يكاد لا يدركها إلا من أوتي نفاذ البصيرة إلى قوة الباصرة. فتأمل، ففي ذلك منتهى العبرة والإعجاز..!

ولعلّ الخنساء لحظت ما يماثل هذا المعنى عند ما قالت:

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

ففي طلوع الشمس شنّ الغارات وفي غروبها ملتقى الضيفان.

[سورة طه (20): الآيات 108 إلى 110]

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً (108)
يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (109) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما

خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110)

الإعراب:

(313/504)

(يومئذ) مرّ إعرابه "1" متعلّق بـ (يتّبعون)، والجملة المستعاض منها بالتنوين هي نسفت الجبال، (لا) نافية للجنس (له) متعلّق بخبر لا "2"، (الواو) عاطفة (للرحمن) متعلّق بـ (خشعت)، (الفاء) عاطفة (إلّا) أداة حصر (همسا) مفعول به منصوب، وهو في الأصل نعت لمنعوت محذوف أي كلاما همسا أي مهموسا.

جملة: "يتّبعون ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا عوج له ... " في محلّ نصب حال من الداعي "3".

وجملة: "خشعت الأصوات ... " لا محل لها معطوفة على جملة الاستئناف.

وجملة: "لا تسمع ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة خشعت.

109 - (يومئذ) متعلّق بـ (تنفع)، (إلّا) أداة حصر "4"، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله تنفع، وهو المشفوع له، (له) الأول متعلّق

---

(1) في الآية (102) من هذه السورة.

(2) والضمير فيه يعود إمّا إلى الداعي أي لا عوج لدعائه ، وإمّا إلى الاتّباع المفهوم من سياق الكلام أو المقدّر .

(3) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها . . وقيل هي نعت لمصدر محذوف أي تتّبعون الداعي اتّباعا لا عوج له .

(4) يجوز أن تكون للاستثناء و(من) في محلّ نصب على الاستثناء بحذف مضاف أي شفاعة من أذن . . أو في محلّ رفع بدل .

ب (أذن) ، و(له) الثاني متعلّق ب (رضي) ، واللام للتعليل أي لأجله ، (قولا) مفعول به منصوب .

وجملة : "لا تنفع الشفاعة . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "أذن له الرحمن . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "رضي . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

110 - (ما) اسم موصول مفعول به (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما ، (ما) الثاني في محلّ نصب معطوف على الأول (خلفهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف

صلة ما الثاني (الواو) حاليّة (به) متعلّق بـ (يحيطون) ، والضمير فيه يعود على قوله : ما بين أيديهم وما خلفهم (علما) تمييز منصوب .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يحيطون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في أيديهم . . .

الصرف :

(همسا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ همس باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة طه (20) : آية 111]

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (111)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عنت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(التاء) للتأنيث (للحيّ) متعلّق بـ (عنت) ، (الواو) واو الحال (قد) حرف تحقيق (ظلما) مفعول به منصوب .

جملة : " عنت الوجوه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الجدول ج 16 ، ص : 427

وجملة : " خاب من . . . " في محلّ نصب حال من الوجوه ، والرابط مقدّر " 1 " .

وجملة : " حمل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(عنت) ، فيه إعلال بالحذف أصله عنات ، التقى ساكنان الألف والتاء ، فحذفت الألف وزنه فعت .

[سورة طه (20) : آية 112]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (112)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (من الصالحات) من تبعيضيّة ، والجارّ والمجرور نعت لمنعوت مقدّر أي :

شيئا من الصالحات (الواو) حاليّة و(الفاء) رابطة لجواب الشرط و(لا) نافية ، وفاعل (يخاف) يعود على من ، (ظلما) مفعول به منصوب و(لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (هضما) معطوف على (ظلما) بالواو .

جملة : " من يعمل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " يعمل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " هو مؤمن . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يعمل .

وجملة : " لا يخاف . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة الاسمية في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 3 " .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة فلا محلّ لها.

(2) يجوز أن تكون معطوفة على جملة قد خاب إن أعربت استئنافيّة.

(3) إن كان المضارع صالحا للجواب جاز اقترانه بالفاء بشرط أن يكون مثبتا أو منفيا ب (لا) أو (لم)، وجملة الفعل هي خبر لمبتدأ محذوف، والجملة الاسميّة هي جواب الشرط (انظر النحو الوافي. ج/ 4 ص/ 350).

(315/504)

الصرف:

(هضما)، مصدر سماعيّ لفعل هضم يهضم باب ضرب بمعنى نقص وبمعنى ظلم وغصب، وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة طه (20): الآيات 113 إلى 114]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113)

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أنزلناه " 1 " ، (قرآنا) حال منصوبة " 2 " ، (فيه) متعلّق بـ (صرّفنا) ، (من الوعيد) هو نعت لمنعوت مقدّر أي نوعا من الوعيد ، أو وعيدا من الوعيد " 3 " ، وفاعل (يحدث) ضمير يعود على القرآن (لهم) متعلّق بـ (يحدث) " 4 " .

جملة : " أنزلناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " صرّفنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على أنزلناه .

وجملة : " لعلّهم يتّقون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " يتّقون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

وجملة : " يحدث . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يتّقون .

---

(1) يجوز أن تكون الكاف اسما بمعنى مثل ، فهي في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنّها صفته .

(2) جاز إعرابه حالا وهو جامد لكونه قد وصف .

(3) و(من) هي زائدة عند الأخفش ، فالوعيد مفعول به منصوب محلّا .

(4) يجوز أن يكون متعلّقا بحال من (ذكرا) - نعت تقدّم على المنعوت .

114 (الفاء) عاطفة (الملك) نعت للفظ الجلالة مرفوع (الحقّ) نعت ثان للفظ الجلالة مرفوع (الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (بالقرآن) متعلّق بـ (تعجل) بحذف مضاف أي بتلاوته أو بإنزاله .. (من قبل) متعلّق بـ (تعجل)، (يقضى) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (إليك) متعلّق بـ (يقضى)، (وحيه) نائب الفاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أن يقضى ...) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(الواو) عاطفة (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف و(الياء) المحذوفة مضاف إليه، و(النون) في (زدني) للوقاية، (علما) مفعول به ثان منصوب.

جملة: "تعالى اللّه ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلناه.

وجملة: "يقضى إليك وحيه ..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "لا تعجل ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قل ..." لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تعجل.

وجملة النداء: "ربّ ..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "زدني ..." لا محلّ لها جواب النداء.

الصرف :

(وحيه) ، يحتمل أن يكون مصدرا سماعيّا لفعل وحي يحي باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، ويحتمل أن يكون اسما عن الملك جبريل .

الفوائد

- ولا تعجل بالقراءة قبل أن يقضي إليك وحيه . ففي هذه الآية معنيان كريمان :

الأول : يوصينا سبحانه بالتأني والتروي ، وقد خلق الإنسان عجولا . فيريد أن يهدئ لدينا ثورة العجلة ، ونضع مكانها التؤدة والسكينة ، فذلك أدعى لنجاح الأعمال وإدراك مواطن الحق .

الثاني : يطلب إلى رسوله التريث ، حتى يتم جبريل رسالة الوحي التي نزل من شأنها ، ليؤديها الرسول كاملة غير منقوصة ، وغير مجزّأة وغير مبتورة ، وغير مضطربة خشية أن يورثه ذلك تناقضا في البلاغ ، وتضادّا في الأحكام .

ويلحظ من خلال هذه الآية أن الرسول / صلّى اللّه عليه وسلّم / كان حريصا على إبلاغ ما يوحى إليه بالسرعة الممكنة . وهنا تلعب الصفات البشرية في أي رسول دورها ، إن سلبا

، أو إيجابا، فأراد الله كبح جماح هذه الخاصة، وحمل الرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ على الريث والأناة، وليت كلّا منا يفيد من هذه الآية حكمة، ومن هذا التوجيه الرباني قدوة وعبرة.

[سورة طه (20): آية 115]

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (إلى آدم) متعلّق بـ (عهدنا)، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (عهدنا)، (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان "1".

جملة: "عهدنا... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.. وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة.

---

(1) وإذا كان الفعل (نجد) متعدّيا لواحد فالجارّ والمجرور متعلّق بحال من (عزما)، أو متعلّق بـ (نجد).

وجملة: " نسي ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة عهدنا.

وجملة: " لم نجد ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسي.

[سورة طه (20) : آية 116]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (116)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (للملائكة) متعلّق بـ (قلنا) ، (لآدم) متعلّق بـ (اسجدوا) ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (إلّا) أداة استثناء (إبليس) منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل على الخلاف في معنى إبليس حين أمر بالسجود.

جملة: " قلنا ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " اسجدوا ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " سجدوا ... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قلنا.

وجملة: " أبى ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

[سورة طه (20) : الآيات 117 إلى 119]

فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (117) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (118) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (119)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (آدم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (لك) متعلّق بنعت لـ (عدوّ) ، (لزوجك) مثل لك فهو معطوف عليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (يخرجنّكما) مضارع

الجدول ج 16 ، ص : 432

مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . و(النون) نون التوكيد ، و(كما) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (من الجنّة) متعلّق بـ (يخرجنّ) ، (الفاء) فاء السببيّة (تشقى) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف ، والفاعل أنت . والمصدر المؤول (أن تشقى . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من النهي السابق أي : لا يكن إخراج منه لكما فشقاء لك .

جملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا آدم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ هذا عدوّ . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا يخرجنّكما . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عرفتما عداوته فلا يخرجنّكما أي لا تمكّناه من أسباب إخراجكما .

وجملة: " تشقى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

118 - (لك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (فيها) متعلّق بـ (تجوع)، (تعرى) مضارع منصوب معطوف على (تجوع).

والمصدر المؤوّل (ألّا تجوع . . .) في محلّ نصب اسم إنّ.

وجملة: " إنّ لك أن . . تجوع . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق.

وجملة: " تجوع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " تعرى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ.

119 - (فيها) الثاني متعلّق بـ (تظمأ)، (تضحى) مضارع مرفوع معطوف، على (تظمأ)، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة.

والمصدر المؤوّل (أنّك لا تظمأ . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل السابق اسم إنّ.

وجملة: " لا تظمأ . . . " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: " لا تضحى . . . " في محلّ رفع معطوف على جملة لا تظمأ.

الصرف:

(تعرى)، فيه إعلال بالقلب، أصله تعري - بالياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت

ألفا . . ماضيه عري - بكسر الراء - من باب فرح.

(تضحى) ، فيه إعلال بالقلب أصله تضحي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا . .

و(الياء) منقلبة أصلا عن واو لأنّ الماضي ضحا يضحو والاسم ضحوة ، ولمّا أصبح

حرف العلّة رابعا رسم بالياء غير المنقوطة . .

البلاغة

- قطع النظير عن النظير :

في قوله تعالى : " إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى ، وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى " .

في هذه الآية سر بديع من أسرار البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير ، حيث قطع الظمأ

عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك ، تحقيق

تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة .

[سورة طه (20) : آية 120]

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (120)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إليه) متعلّق بـ (وسوس) ، (هل) حرف استفهام (على شجرة) متعلّق بـ (أدلّك) ، (ملك) معطوف على شجرة مجرور .

جملة : " وسوس إليه الشيطان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يا آدم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للإغراء .

وجملة : " هل أدلّك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا يبلى . . . " في محلّ جرّ نعت لملك .

الصرف :

(يبلى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله يبلي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، ماضيه بلي من باب فرح .

[سورة طه (20) : الآيات 121 إلى 124]

فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (121) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (122) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (124)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة، و(الألف) فاعل (أكلا)، (منها) متعلّق بـ (أكلا)، (الفاء) عاطفة (بدت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، و(التاء) للتأنيث (لهما) متعلّق بـ (بدت)، (الواو)

عاطفة (طفقا) فعل ماض ناقص من أفعال الشروع.. و(الألف) اسم طفق (عليهما) متعلّق بـ (يخصفان)، (من ورق) متعلّق بـ (يخصفان)، (الواو) استئنافيّة و(الفاء) عاطفة.

جملة: "أكلا..." لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف.

وجملة: "بدت لهما سوءاتهما..." لا محلّ لها معطوفة على جملة أكلا.

وجملة: "طفقا..." لا محلّ لها معطوفة على جملة بدت.

وجملة: "يخصفان..." في محلّ نصب خبر طفقا.

وجملة: "عصى آدم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "غوى..." لا محلّ لها معطوفة على جملة عصى.

122 - (عليه) متعلّق بـ (تاب) .

وجملة: " اجتباه ربّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عصى وجملة: " تاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتباه وجملة: " هدى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتباه.

(منها) متعلّق بـ (اهبطا) ، (جميعا) حال منصوبة من الفاعل (بعضكم) مبتدأ مرفوع (لبعض) متعلّق بحال من (عدو) " 1 " وهو خبر المبتدأ مرفوع (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (ما) زائدة (يأتينّكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط . . و(النون) نون التوكيد ، و(كم) ضمير مفعول به (منّي) متعلّق بـ (يأتينّكم) " 2 " ، (هدى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الفاء) رابطة لجواب الشرط (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اتّبع) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط،

---

(1) أو متعلّق بعدوّ. [. . . . . .]

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من هدى.

و الفاعل هو (هداي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف ،

و(الياء) مضاف إليه (فلا يضل ولا يشقى) مثل فلا يخاف . . " 1 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اهبطا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بعضكم . . عدوّ . . . " في محلّ نصب حال ثانية من فاعل اهبطا .

وجملة : " يأتينّكم . . هدى " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " من اتّبع هداي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الأول مقترنة بالفاء .

وجملة : " اتّبع . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " لا يضلّ . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . .

والجملة الاسميّة هو لا يضلّ في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء .

---

(1) في الآية (112) من هذه السورة .

وجملة : " لا يشقى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يضلّ .

124 - (الواو) عاطفة (من أعرض) مثل من اتّبع (عن ذكري) متعلّق بـ (أعرض) ،

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بخبر إنّ (معيشة) اسم إنّ مؤخّر منصوب (الواو) عاطفة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نحشره) ، (أعمى) حال منصوبة من ضمير الغائب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف .

وجملة : " من أعرض . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة من اتّبع . . .

وجملة : " إنّ له معيشة . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أعرض . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " نحشره . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن والجملة الاسميّة في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط . .

الصرف :

(عصى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله عصي تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، مضارعه يعصي من باب ضرب .

(غوى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله غوي تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، مضارعه يغوي - بالياء - من باب ضرب ، وقد يأتي الماضي غوي بكسر الواو والمضارع يغوى بفتح الواو باب فرح . . ورسمت الألف ياء غير منقوطة لأنّ عينه واو .

(اجتباه) ، فيه إعلال بالقلب أصله اجتبي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، ورسمت طويلة لأنّها توسطّت عرضا بدخول ضمير الغائب .

(معيشة) ، مصدر سماعيّ لفعل عاش الثلاثيّ ، وزنه مفعلة بفتح الميم وكسر العين ، وقد سكّنت الياء ونقلت حركتها إلى العين قبلها كإعلال بالتسكين . . وثمّة مصادر أخرى للفعل هي عيش بفتح فسكون ، وعيشة بكسر العين وسكون الياء ، ومعاش بفتح الميم ، ومعيش من غير تاء ، وعيشوشة .

(ضنكا) مصدر ضنك باب كرم ، وزنه فعل بفتح فسكون أي ضاق . .

وثّمة مصادر أخرى هي : ضناكة بفتح الضاد ، وضنوكة بضمّ الضاد . . وقد جاء (ضنكا) مذكّرا بالرغم من كونه وصفا لمعيشة لأنّه مصدر .

الفوائد

1 - بين أسماء الأفعال وأسماء الأصوات ، يكاد يختلط على بعضهم ما بين هاتين الزمرتين من فروق .

فأسماء الأفعال يلحظ بها المخاطب ، كما يلحظ بها الزمن الذي اختصت به ، هذا إلى جانب المعنى الذي تحمله وتدل عليه .

أما أسماء الأصوات ، فهي خلوّ من ذلك ، وانما هي تختص بالحيوانات التي توجه إليها

الأصوات، أو بالأشياء والأحياء التي تصدر عنها بعض الأصوات. وهي على أقسام:

أولا: أصوات يخاطب بها مالا يعقل، مثل:

جيء جيء: دعاء للإبل لتشرب، وكقولهم في دعاء الضأن "حاحا"، وفي أيامنا هذه يستعمل لحث الحمير على السير. ويستعمل في دعاء المعز "عاعا" وهو قريب مما يستعمله الراعي الآن، ومثل "عدس" لزجر البغل. كقول أحدهم وقد فرّ من الاعتقال:

عدس ما لعباد عليك أمارة أمنت وهذا تحملين طليق

ثانيا: الأصوات المسموعة وهي قسمان:

أ- حيوان: مثل "غاق"، لصوت الغراب.

ب- و "طق": لصوت الضرب أو وقع الحجر.

ولولا الخروج عن خطة الكتاب لعرضنا لكم الكثير من أصوات الأحياء والجوامد التي تجدونها في المطولات.

[سورة طه (20): آية 125]

قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125)

الإعراب:

(ربّ) مرّ إعرابها "1"، (لم) جارّ ومجرور متعلّق بـ(حشرتني)، و(ما) اسم استفهام حذفت ألفه (أعمى) حال منصوبة من الياء (الواو) حاليّة (بصيرا) خبر كنت منصوب.

(1) في الآية (114) من هذه السورة.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة النداء: " ربّ... " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " حشرتني... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " كنت بصيرا " في محلّ نصب حال من مفعول حشرتني.

[سورة طه (20) : الآيات 126 إلى 127]

قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (126) وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (127)

الإعراب:

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله مقدّر " 1 "، (الواو) عاطفة (كذلك) الثاني متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله تنسى " 2 "، (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تنسى) وهو مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت.

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " (حشرناك حشرا) كذلك " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أتتك آياتنا . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " نسيتها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتتك.

وجملة: " تنسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسيتها " 3 " .

---

(1) أي كذلك - أو مثل ذلك - حشرناك أو فعلنا . . ويجوز أن يكون الجارّ خبرا لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك . .

(2) أي تنسى اليوم نسيانا كذلك النسيان لآياتنا.

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها.

الجدول ج 16، ص: 440

127 - (الواو) عاطفة (كذلك) الثالث مفعول مطلق عامله نجزي، وفاعل نجري نحن للتعظيم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (بآيات) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) استئنافيّة (اللام) لام الابتداء للتوكيد . .

وجملة: " نجزي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: " أسرف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " لم يؤمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " عذاب الآخرة أشدّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة طه (20) : آية 128]

(326/504)

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (128)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام (الفاء) استئنافيّة، وعلامة الجزم في (يهد) حذف حرف العلّة، وفاعل يهد محذوف دلّ عليه سياق الكلام تقديره (الإهلاك) " 1 "، (لهم) متعلّق بـ (يهد) بتضمينه معنى يتبيّن (كم) خبريّة أو استفهاميّة، مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله أهلكنا، (قبلهم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أهلكنا)، (من القرون) متعلّق بمحذوف نعت (كم) " 2 "، (في مساكنهم) متعلّق بـ (يمشون)، (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ و(اللام) لام التوكيد (آيات) اسم إنّ مؤخّر منصوب، وعلامة النصب الكسرة (لأولي) متعلّق بنعت لـ (لآيات)، وعلامة الجرّ الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (النهى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف.

---

(1) ويجوز أن يكون الفاعل ضميرا مستترا يعود على اللّه تعالى أي يبيّن اللّه لهم . . .

(2) لا يجوز أن يكون (من القرون) تمييزا لـ (كم) لأنّه معرفة ، فالتمييز مقدّر أي كم قرن ، أو كم قرنا .

(327/504)

جملة : " يهد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " أهلكنا . . . " في محلّ نصب مفعول به لـ (يهد) المعلّق بـ (كم) فهو بمعنى يبيّن المتضمّن معنى العلم .

وجملة : " يمشون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

[سورة طه (20) : الآيات 129 إلى 132]

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (130) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ

رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (132)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لولا) حرف امتناع لوجود فيه معنى الشرط (كلمة) مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف تقديره موجودة (من ربّك) متعلّق بـ (سبقت) ، (اللام) رابطة لجواب لولا، واسم (كان) ضمير يعود على الإهلاك العاجل (الواو) عاطفة (أجل) معطوف على كلمة مرفوع " 2 " ، (مسمّى) نعت لأجل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف.

---

(1) هي عند النحاة معطوفة على مقدّر أي أغفلوا فلم يهد لهم؟

(2) أو معطوف على الضمير اسم كان، وأغنى الفصل بالخبر عن التوكيد.

الجدول ج 16، ص: 442

جملة: "كلمة سبقت... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " سبقت من ربّك... " في محلّ رفع نعت لكلمة.

وجملة: "كان (الإهلاك) لزاما... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

130 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (على ما) متعلّق بـ (اصبر)، و(ما) حرف مصدريّ "1"، (بحمد) متعلّق بحال من فاعل سبّح أي متلبّسا بحمد ربّك (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (سبّح)، (الواو) عاطفة (قبل) الثاني معطوف على الأول (الواو) عاطفة (من آناء) متعلّق بـ (سبّح) الثاني و(الفاء) زائدة للتزيين "2"، (الواو) عاطفة (أطراف) معطوف على قبل "3" ومتعلّق بما تعلّق به، منصوب (ترضى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة، والفاعل أنت.

وجملة: "اصبر..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن سمعت ما يؤذيك فاصبر.

وجملة: "يقولون..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

والمصدر المؤوّل (ما يقولون..) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (اصبر).

وجملة: "سبّح..." في محلّ جزم معطوفة على جملة اصبر.

وجملة: "سبّح (الثانية)" معطوفة على جملة سبّح (الأولى).

وجملة: "لعلّك ترضى..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "ترضى..." في محلّ رفع خبر لعلّ.

---

(1) أو اسم موصول والعائد محذوف.

(2) أو عاطفة على مقدّر، أو رابطة لجواب شرط مقدّر.

(3) أو معطوف على محلّ (من آناء) لأنّ محلّه النصب فهو ظرف لـ (سبّح).

131 - (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تمدّنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . و(النون) نون التوكيد ، والفاعل أنت ، وعلامة النصب في (عينيك) الياء فهو مثنّى (إلى ما) متعلّق بـ (تمدّنّ) . . و(ما) اسم موصول أو نكرة موصوفة (به) متعلّق بـ (متّعنا) و(الباء) سببيّة ، (أزواجا) مفعول به منصوب " 1 " ، (منهم) متعلّق بنعت لـ (أزواجا) (زهرة) حال من الضمير في (به) هو العائد على ما " 2 " ، (اللام) للتعليل (نفتنهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، و(هم) مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (فيه) متعلّق بـ (نفتنهم) .

والمصدر المؤوّل (أن نفتنهم . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (متّعنا) .

(الواو) استئنافيّة (أبقى) معطوف على خير مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف .

جملة : " لا تمدّنّ . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " متّعنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 3 " .

وجملة : " نفتنهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " رزق ربّك خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) والعامل متّعنا ، يجوز أن يكون حالا من الضمير في (به) راعي فيه معنى (ما) وهو الجمع . [. . . . .]

(2) وجاء من الجامد لأنه يدلّ على تشبيه . . ويجوز أن يكون 1 - مفعولا ثانيا بتضمين متّعنا معنى أعطينا ، والمفعول الأول (أزواجا) ، 2 - بدلا من (أزواجا) بحذف مضاف أي ذوي زهرة 3 - مفعولا به لمقدّر أي جعلنا لهم زهرة . . .

(3) أو في محلّ جرّ نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة .

الجدول ج 16 ، ص : 444

132 - (الواو) عاطفة (بالصلاة) متعلّق بـ (اومر) ، (عليها) متعلّق بـ (اصطبر) ، (لا) نافية (رزقا) مفعول به ثان منصوب (للتقوى) متعلّق بخبر المبتدأ ، وفيه حذف مضاف أي لذوي التقوى . .

وجملة : " اومر . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تمدّنّ .

وجملة : " اصطبر . . . " معطوفة على جملة اومر .

وجملة : " نسألك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نحن نرزقك . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " نرزقك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ نحن .

وجملة: " العاقبة للتقوى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الصرف:

(لزاما) ، مصدر الرباعيّ لازم، وهو مصدر سماعيّ وزنه فعال بكسر الفاء ، والمصدر له معنى اسم الفاعل .

(طلوع) ، مصدر طلع الثلاثيّ باب نصر وزنه فعول بضمّ الفاء .

(غروب) ، مصدر غرب الثلاثيّ باب نصر وزنه فعول بضمّ الفاء .

(زهرة) ، اسم جامد لقسم النبات المعروف ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

---

(1) أو معطوفة على استئنافيّة .

(وأمر) ، فيه حذف همزة الوصل أصله اؤمر ، كتبت الهمزة على واو لأنّ حركة همزة الوصل - إن تحرّكت - الضمّ ، عين الفعل في المضارع مضموم ، فلمّا تقدّمت الواو على الفعل حذفت همزة الوصل ، ونقلت الهمزة الثانية إلى ألف كما هي القاعدة .

البلاغة

- التشبيه التمثيلي :

في قوله تعالى " زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا " .

مثّل لنعم الدنيا بالزهر ، وهو النوار ، لأن الزهر له منظر حسن ، ثم يذبل ويضمحل ، وكذلك نعيم الدنيا .

الفوائد

1 - النسخ في القرآن :

قوله : فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ : زعم كثير من المفسرين ، أن هذه الآية منسوخة بآية القتال . وعندنا أنها تأمر بالصبر وعدم الثورة وارتكاب الحماقة حيال كل موقف يقتضي الحلم والصبر على المكروه . ويبدو أن الصحابة كانوا يستعملون النسخ في مفهوم مغاير لمفهوم الفقهاء والأصوليين . وقد ذهب المتأخرون إلى التقليل من النسخ في القرآن ، حتى إنهم لم يتجاوزوا فيه العشرين آية ، بل اتجهوا إلى تأويل ما زعم الأوائل أنه منسوخ ، وقد أنكر الإمام محمد عبده النسخ في القرآن وقال : إن كل ما زعموا أنه منسوخ يمكن تأويله ، كما رأينا في هذه الآية " فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ " ولا شك أن القول القديم بأن الآيات المنسوخة تبلغ حوالي خمسمائة آية هو قول باطل بالبداهة ، وفيه كثير من الغلوّ والمبالغة .

2 - زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا :

ذهب النحاة في إعرابها مذاهب شتّى ، وكلّها تصبّ في حالة النصب ، وإليك أهمها ، وهي تسعة :

أ - أن تكون مفعولا ثانيا ، إذ لحظنا أن أزواجا هي المفعول الأول وذلك لأن معنى متّعنا " أعطينا " .

ب - أن تكون منصوبة على الحال من " ما " الموصولة .

ج - أن تكون منصوبة على البدلية من " أزواجا " . على المبالغة كأنهم نفس الزهرة .

(331/504)

ء - أن تكون منصوبة بفعل مضمر ، دلّ عليه فعل " متعنا " ، تقديره جعلنا لهم .

ه - أن تكون منصوبة على " الذم " أي ذم الحياة الدنيا .

و - أن تكون منصوبة على الاختصاص .

ز - أن تكون منصوبة على " البدلية " من محل " به " .

ح - أن تكون منصوبة على الحال من الضمير الموجود في " به " .

ط - أن تكون منصوبة على التمييز ل " ما " أو للهاء في " به " .

وقد رجّح الزمخشري ، من هذه الوجوه ، النصب على الذم ، أو المفعولية على تضمين متعنا معنى أعطينا . . !

[سورة طه (20) : آية 133]

وَقالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (133)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لولا) حرف تحضيض (بآية) متعلّق بـ (يأتينا)، (من ربّه) متعلّق بنعت لـ (لآية)، (الهمزة) للاستفهام (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (في الصحف) متعلّق بمحذوف صلة ما (الأولى) نعت للصحف مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف.

جملة: "قالوا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يأتينا بآية... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لم تأتهم بيّنة... " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة أي: ألم تأتهم سائر الآيات وتأتهم بيّنة.

الصرف:

(الصحف) جمع الصحيفة، اسم للورقة يكتب عليها، وزنه فعيلة، ووزن الصحف فعل بضمّتين.. وتجمع الصحيفة أيضا على صحائف زنة فعائل.

[سورة طه (20) : الآيات 134 إلى 135]

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ

وَمَنِ اهْتَدَى (135)

الإعراب:

(332/504)

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (بعذاب) متعلّق بـ (أهلكناهم) ، (من قبله) متعلّق بـ (أهلكناهم) .

والمصدر المؤوّل (أنّا أهلكناهم . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي: ثبت إهلاكنا لهم.

(اللام) رابطة لجواب لو (لولا) للتحضيض (إلينا) متعلّق بـ (أرسلت) ، (الفاء) فاء السببيّة (نتّبع) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء، والفاعل نحن، وعلامة النصب في (آياتك) الكسرة (من قبل) متعلّق بـ (نتّبع) .

والمصدر المؤوّل (أن نتّبع) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من التحضيض المتقدّم أي: ليكن إرسال منك فاتّباع لآياتك منّا.

والمصدر المؤوّل (أن نذلّ . .) في محلّ جرّ مضاف إليه.

جملة: " (ثبت) إهلاكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " أهلكناهم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لولا أرسلت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " نتّبع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " نذلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الظاهر .

وجملة : " نخزى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة نذلّ .

135 - (كلّ) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (الفاء) الثانية تعليليّة و(السين) حرف استقبال (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (أصحاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم (من) الثاني مثل الأول ومعطوف عليه " 3 " .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "كلّ متربّص . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تربّصوا . . . " معطوفة على جملة مقدّرة مستأنفة مسبّبة عما قبلها أي : تنبّهوا فتربّصوا . .

وجملة : " ستعلمون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " (هم) أصحاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " اهتدى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الثاني .

الصرف :

(نخزى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله نخزي - بالياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 16 صـ 404 . 448﴾

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة كونها دالّة على عموم ، وهي في معنى الإضافة أي كلّ واحد .

(2) أو هو اسم استفهام مبتدأ خبره أصحاب . . والجملة في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق بالاستفهام .

(3) أو هو اسم استفهام مبتدأ خبره جملة اهتدى والجملة في محلّ نصب معطوفة على الجملة الاسميّة الأولى .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة طه (20) : الآيات 83 إلى 86]

وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (83) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (84) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86)

اللغة :

(عَلى أَثَرِي) : الأثر بقية الشيء والجمع آثار وأثور والخبر وخرج في أثره وإثره : بعده وائتثره وتأثّره تبع اثره والأثر فرند السيف ويكسر كالأثير والجمع أثور .

(السَّامِرِيُّ) : في القاموس : الذي عبد العجل وكان علجا من كرمان أو عظيما من بني إسرائيل ينسب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة نسبة إلى مقاطعة في فلسطين ، قال في المنجد : وهم قوم " يخالفون اليهود في نقاط دينية جوهرية منها أنهم لا يقرون من كتب الوحي إلا أسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة وانهم يقولون بواجب العبادة لا في أورشليم ولكن على جبل جريزيم جنوبي شكيم " وقال في الخازن " واسمه موسى بن ظفر " .

الاعراب :

(وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى) الواو عطف على محذوف يفهم من السياق والتقدير فسار موسى لحضور الميقات مع قوم مخصوصين وهم السبعون الذين اختارهم موسى من بين قومه ليذهبوا معه إلى جبل الطور ليأخذوا التوراة ، عجل من بينهم شوقا إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وخلفهم وراءه فقال له تعالى :

وما أعجلك وسيأتي المزيد عن هذا السؤال في باب البلاغة . وما اسم استفهام مبتدأ وأعجل فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو يعود على ما والكاف مفعول به والجملة خبر ما وعن قومك متعلقان بأعجلك .

)

قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى) هم مبتدأ وأولاء خبر وعلى أثري خبر ثان أو حال وعجلت فعل وفاعل والواو حالية

بتقدير قد أو عاطفة وإليك متعلقان بعجلت ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وحرف النداء محذوف ولترضى اللام للتعليل وترضى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بعجلت أيضا كأنه تعليل لعجلته . (قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) قال فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه والفاء الفصيحة أي إن شئت أن تعلم مصير قومك، وان واسمها وجملة قد فتنا خبرها وهي فعل وفاعل وقومك مفعول به وأضلهم السامري فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر. (فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً) تقدم القول في فاء التعقيب انها قد تتخلف في وقتها دون أن يحدث فاصل فلم يرجع موسى إلا بعد أن استوفى الأربعين يوما وأخذ التوراة، ورجع فعل ماض وموسى فاعل والى قومه متعلقان برجع وغضبان أسفا حالان. (قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً) يا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، ألم الهمزة للاستفهام الانكاري ويعدكم فعل مضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به وربكم فاعل ووعدا مفعول مطلق وحسنا صفة. (أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف على محذوف وطال فعل ماض وعليكم متعلقان بطال والعهد فاعل وأم حرف عطف معادل للهمزة وأردتم فعل وفاعل وأن وما في حيزها مفعول أردتم وعليكم متعلقان بيحل وغضب فاعل يحل ومن ربكم صفة لغضب فأخلفتم الفاء حرف عطف وأخلفتم عطف على أردتم وموعدي مفعول أخلفتم.

البلاغة:

الاستفهام من اللّه تعالى لا يقع لاستدعاء المعرفة ولكنه يخرج عن معناه الأصلي لأغراض أخر تدرك من سياق الكلام وقد أفاد السؤال هنا أغراضا نوجزها فيما يلي :

آ- لتعريف المسئول بما يجهله من أمور وقد أراد سبحانه تعريفه بفتنة قومه فقد قيل انهم كانوا نحو ستمائة ألف نفس ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا .

ب- تبكيت المسئول وتفهيمه وتنبيهه إلى خطل ما جاء به من ترك القوم وافساح المجال للسامري كي يضلهم لأنه مغرق في الضلالة وماهر في الإضلال .

ج- تعليم المسئول آداب السفر وهي : انه ينبغي على رئيس القوم أن يتأخر عنهم في المسير ليكون نظره محيطا بهم ونافذا فيهم ومهيمنا عليهم ، وقاطعا الطريق على كل فتنة قد تتسرب إلى صفوفهم .

على أن موسى عليه السلام أغفل هذه الأمور ولعله ملم بها ومطلع عليها ولكن الشوق إلى لقاء اللّه والمسارعة إلى ميعاده ألهب قلبه فلم يملك عنان صبره الجامح وذلك شأن الموعود بما طال حنينه اليه يودّ لو امتطى أجنحة الطير واستبق الساعات وهل ثمة ما يلهب الشوق مثل مواعدة اللّه ؟

[سورة طه (20) : الآيات 87 إلى 98]

قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى
السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ
(88) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (89) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ
مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ
عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (91)

(337/504)

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قالَ يَا بْنَ أُمَّ
لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي
(94) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (95) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ
أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)
قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ
الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (97) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ
إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (98)

اللغة :

(بِمَلْكِنا) : بقدرتنا مصدر ملك وهو مثلث الميم وفي القاموس وشرحه التاج ملك يملك من باب تعب ملكا وملكا وملكا بفتح الميم وضمها وكسرها وملكة ومملكة بفتح اللام ومملكة بكسرها

ومملكة بضمها الشيء احتواه قادرا على التصرف والاستبداد به وملك على القوم : استولى عليهم وملك على فلان أمره استولى عليه وملك نفسه قدر على حبسها وملك المرأة تزوجها .

(أَوْزاراً) : أثقالا وأرادوا بها حلي القبط التي استعاروها منهم وأرادوا بالأوزار انها آثام وتبعات لأنهم استعاروها منهم وليس لهم فيها حق .

(خُوارٌ) : بضم الخاء صوت البقر والعجاجيل وعبر بالجسد مع أنه لا يقال للعاقل : ولأن الجسد لا يقال إلا

أمسكه قضت قبضة وقبصت قبصة ويقال :

إن القبصة أقل من القبضة وقال غيره : القبص بأطراف الأصابع والقبض بالكف كلها ويقال عاد إلى ضئضئه وصئصئه أي إلى أصله والهمز الأصل وأنشد :

أنا من ضئضىء صدق بخ ومن أكرم حذل

من عزاني قال به به سنخ ذا أكرم أصل

الحذل : الحجر وقال اللحياني : بخ بخ وبه به تقال للانسان إذا عظّم ، وقال أبو عمرو : ما ينوض بحاجة وما يقدر على أن ينوص أي يتحرك ومنه قوله عز وجل : " وَلاتَ حِينَ مَناصٍ " ومناص ومناض واحد ويقال : أنقاص وأنقاض بمعنى واحد وقال الأصمعي :

المنقاض : المنقعر من أصله والمنقاص : المنشقّ طولا وقال أيضا :

مضمض لسانه ومصمص لسانه إذا حركه وقال اللحياني : يقال : إنه لصلّ أصلال وضلّ أضلال والصل الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها ويقال مصمص إناءه ومضمضه إذا غسله فقول العامة مصمص العظم صحيح لا غبار عليه .

(بَصُرْتُ) : بصر بالشيء بضم الصاد وأبصره بمعنى علمه وهو من باب ظرف ويقال بصر بالكسر من باب علم .

(مِساسَ) : بكسر الميم مصدر ماس وستأتي حقيقة هذا التركيب في باب الاعراب .

الاعراب :

(قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا) قالوا فعل وفاعل وما نافية وأخلفنا فعل وفاعل وموعدك مفعول به وبملكنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أي حال كوننا مالكين أمرنا ولكننا غلبنا على أمرنا من جهة السامري وكيده . (وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ) الواو

عاطفة ولكن واسمها وحملنا فعل ماضي بالبناء للمجهول ونا نائب فاعل وأوزارا مفعول به ثان ومن زينة القوم صفة. (فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) الفاء عاطفة وقذفناها فعل وفاعل ومفعول وهو معطوف على محذوف أي فقال لنا السامري اقذفوها في النار لأن موسى تأخر عنكم بسببها فقذفناها الفاء حرف عطف وكذلك نعت لمصدر محذوف وقد تقدم كثيرا وألقى السامري فعل وفاعل. (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ) الفاء عاطفة وأخرج فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على السامري والعطف على فأضلهم السامري لئلا يتوهم أنه من كلامهم ولهم متعلقان بأخرج وعجلا مفعول به وجسدا حال من عجلا ولكن يشكل على هذا الاعراب الذي اختاره عدد من المفسرين أن صاحب الحال لا يكون إلا معرفة ولعل هذا العجل الذي أخرجه السامري من الحفرة التي فيها تراب اثر حافر الرسول إلى موسى كما سيأتي صار بحكم المعرفة نقول ولا مانع من إعرابه بدلا من عجلا وجملة له خوار من الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر صفة. (فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) الفاء حرف عطف وقالوا فعل وفاعل وهذا مبتدأ وإلهكم خبر وإله موسى عطف على إلهكم فنسي الفاء حرف عطف ونسي فعل ماض وفاعله مستتر

تقديره هو يعود على موسى أي نسي ربه فذهب يطلبه وقيل الضمير يعود على السامري أي ترك ما كان عليه من الايمان الظاهر . (أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً) الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف ولا نافية ويرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وأن مخففة من الثقيلة ولا نافية ويرجع فعل مضارع واسم أن المخففة ضمير الشأن أي انه ، وفاعل يرجع مضمر تقديره هو يعود على العجل وإليهم متعلقان بيرجع وقولا مفعول به ولهذا ارتفع الفعل بعدها . (

وَلَقَدْ

قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ)

الواو حرف عطف واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وقال لهم هارون فعل ماض وفاعل ومن قبل متعلقان بمحذوف حال أي قبل رجوع موسى . (يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) يا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وإنما كافة ومكفوفة وفتنتم فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والميم علامة جمع الذكور وبه متعلقان بفتنتم وإن ربكم الرحمن ان واسمها وخبرها والفاء

الفصيحة واتبعوني فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به وأطيعوا أمري عطف على اتبعوني. (قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى) لن حرف نفي ونصب واستقبال ونبرح فعل مضارع ناقص منصوب بلن واسمها ضمير مستتر تقديره نحن وعليه متعلقان بعاكفين وعاكفين خبر نبرح، حتى حرف غاية وجر ويرجع فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وإلينا متعلقان بيرجع وموسى فاعل وهذا التعليق الذي جعلوه غاية لعكوفهم لم يكن منهم إلا تسويفا وتعللا ليس من قبيل الوعد بترك عبادته بعد رجوع موسى. (قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا) ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة منعك خبر وإذ ظرف متعلق بمنعك وجملة رأيتهم مضافة للظرف ورأيتهم فعل وفاعل ومفعول به وجملة ضلوا حالية أو مفعول به ثان لرأيتهم إذا اعتبرتها قلبية. (أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) أن حرف مصدري ونصب ولا مزيدة أي أي شيء منعك من اتباعي في الغضب لله وهلا قاتلت من كفر بمن آمن، والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على مقدر وعصيت فعل ماض وفاعل وأمري مفعول به.

(يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي)

يا ابن أم يا حرف نداء وابن أم اسمان مبنيان على الفتح لتركبهما تركب الأعداد مثل خمسة

عشر أو الظروف مثل صباح مساء فعلى هذا ليس ابن مضافا إلى أم بل هو مركب معها فحركتهما حركة بناء وقد تقدم تفصيل هذا التركيب في " الأعراف " وعلى كل فهما في محل نصب منادى وانما اقتصر في خطابه على الأم مع أنه شقيقه لأن ذكر الأم أعطف لقلبه ، ولا ناهية وتأخذ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره أنت وبلحيتي متعلقان بتأخذ ولا برأسي عطف على بلحيتي . قيل كان موسى مجبولا على الحدة والغضب لله ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون غير الله أن أخذ برأس أخيه وبشعر وجهه يجره إليه . نّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) ان واسمها وجملة خشيت خبر إن وأن وما في حيزها مفعول خشيت وجملة فرقت مقول القول وبين ظرف مكان متعلق بفرقت وبني إسرائيل مضاف اليه ولم ترقب قولي عطف على فرقت أي وخشيت أن تقول لم ترقب قولي وعلى هذا يكون الضمير في قولي واقعا على موسى ، ويجوز عطفها على خشيت فيكون الضمير في قولي واقعا على هارون . (قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على موسى والفاء عاطفة أو استئنافية وما استفهامية مبتدأ وخطبك خبر ويا حرف نداء وسامري منادى مفرد علم . (قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) جملة بصرت مقول القول وفاعل قال هو أي السامري ، وبما متعلقان ببصرت وجملة لم يبصروا به صلة ،

فقبضت عطف على بصرت وقبضة مفعول به ، وهي مصدر مرة من قبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ، ومن أثر صفة لقبضة وأثر مضاف والرسول مضاف اليه على تقدير محذوفين أي من أثر حافر فرس الرسول والمعنى من تربة موطئه ، وتفصيل القصة في المطولات وسنلخص لك ما قالوه في باب البلاغة (فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

(342/504)

فنبذتها عطف على قبضت أي ألقيتها ، وكذلك نعت لمصدر محذوف وقد تقدم وسولت لي نفسي فعل وفاعل أي زينت لي نفسي .

)

قال فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ) قال فعل ماض وفاعله يعود على موسى ، فاذهب الفاء عاطفة واذهب فعل أمر فاعله أنت ، فإن الفاء عاطفة وان حرف مشبه بالفعل ولك خبرها المقدم وفي الحياة متعلقان بمحذوف حال وأن وما بعدها اسم إن ولا نافية للجنس ومساس اسم لا والخبر محذوف فهو مبني مع لا الجنسية والمراد به النهي أي لا تمسني ولا أمسّك ، ومساس مصدر ماس كقتال مصدر قاتل ، قال الزمخشري : " عوقب

في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش وذلك انه منع من مخالطة الناس منعا كليا وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلا أو امرأة حم الماس والممسوس فتحامى الناس وتحاموه" . (وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ) وإن حرف مشبه بالفعل ولك خبرها المقدم وموعدا اسمها المؤخر ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتخلفه منصوب بلن ونائب الفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به ثان . (وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً) وانظر الواو عاطفة وانظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإلى إلهك متعلقان بانظر ، والذي صفة وجملة ظلت صلة وظلت فعل ماض ناقص ، وأصله ظللت بلامين وأولاهما مكسورة حذفت تخفيفا ، وعليه متعلقان بعاكفا وعاكفا خبر ظلت ، ولنحرقنه اللام موطئة للقسم ونحرقنه فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به ، ثم حرف عطف لننسفنه مثل نحرقنه وفي اليم متعلقان بننسفنه ونسفا مفعول مطلق .

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) إنما كافة

و مكفوفة وإلهكم مبتدأ والله خبره والجملة مستأنفة والذي نعت وجملة لا إله إلا هو صلة وقد تقدم اعرابها كثيرا ووسع فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وكل شيء مضاف اليه وعلما تمييز من فاعل وسع .

البلاغة :

الإيجاز في هذه الآيات واضح جدا وهو في كل واحدة ، لأن تسلسل الحوادث يقتضي تقدير جمل لا بد منها ، وقد أشرنا إليها إشارات واضحة تجزئ عن إعادتها ولكننا نورد هنا إيجازا بالحذف ورد في قوله تعالى " فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ " فقد حذف المضاف مكررا هنا والتقدير من أثر حافر فرس الرسول وهذا الحذف شائع كثيرا في القرآن كقوله تعالى " وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى " وقوله " حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ " فحذف المضاف إلى يأجوج ومأجوج وهو سدهما كما حذف المضاف إلى القرية في قوله تعالى : " وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ " أي أهل القرية وقد ورد في الشعر أيضا ومما جاء منه قول الخزيمي يرثي أبا الهندام وهو من شعراء الحماسة :

إذا لاقيت قومي فاسأليهم كفى قوما بصاحبهم خبيرا

هل أعفو عن أصول الحق فيهم إذا عسرت وأقتطع الصدورا

أراد أنه يقتطع ما في الصدور من الضغائن أي يزيل ذلك بإحسانه من عفو وغيره فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه . وحذف المضاف أكثر من حذف المضاف اليه ومما

جاء من حذف المضاف اليه في القرآن الكريم قوله تعالى "لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ" أي من قبل الغلب ومن بعده .

خلاصة قصة السامري :

هذا وسنخرج عن النطاق الذي ترسمناه في هذا الكتاب وهو نطاق الاعراب واللغة والبيان فنورد لمحة خاطفة عن قصة السامري لعلاقتها بما نحن بصدده تاركين للقارئ مجال الرجوع إلى المطولات .

ففي الوقت الذي حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكبا حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامري فقال :

إن لهذا شأنا فقبض قبضة من أثر تربة موطئه فلما سأله موسى عن قصته قال : قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ولعله لم يعرف انه جبريل ، وقيل انه كلما وضعت الفرس حافرها على شيء اخضر ، فعرف أن للتراب الذي تضع الفرس حافرها عليه شأنا وقيل غير ذلك مما لا تطمئن اليه النفس ويحتاج إلى كثير من التمحيص .

الفوائد :

صاحب الحال :

الأصل في صاحب الحال التعريف لأنه محكوم عليه بالحال وحق المحكوم عليه أن يكون معرفة لأن الحكم على المجهول لا يفيد غالبا ، ويقع صاحب الحال نكرة بمسوغ يقربه من المعرفة وذلك في المواضع التالية :

1- إذا تقدمت عليه الحال نحو في الدار جالسا رجل ، وقول كثير عزة :

لمية موحشا طلل يلوح كأنه خلل

وفي المغني ان تقديم حال النكرة عليها ليس لأجل تسويغ الحال فيها بل لئلا يلتبس الحال بالصفة .

2- أن يكون صاحبها مخصوصا بوصف كقول الشاعر :

نجيت يا رب نوحا واستجبت له في فلك ماخر في اليم مشحونا

فمشحونا حال من فلك لوصفه بماخر .

3- أن يكون صاحبها مخصوصا باضافة كقوله تعالى "فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ"

فسواء حال من أربعة لاختصاصها بالإضافة إلى أيام .

4- أن يكون صاحبها مخصوصا بمعمول نحو : عجبت من ضرب أخوك شديدا ، فشديدا حال من ضرب لاختصاصه بالعمل في الفاعل وهو أخوك .

5- أن يكون صاحبها مخصوصا بعطف نحو : هؤلاء أناس وعبد اللّه منطلقين ، فمنطلقين حال من أناس لاختصاصه بالعطف عليه وهو عبد اللّه .

(345/504)

6- أن يكون صاحبها مسبوقا بنفي كقوله تعالى " وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ " فجملة ولها كتاب معلوم حال من قرية لكونها مسبوقة بالنفي ، وقد مرّ أن الزمخشري يرد هذا القول ويجعل الجملة صفة لقرية وانما توسطت الواو بينهما لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف .

7- أن يكون صاحبها مسبوقا بنهي كقول الطرماح :

لا يركنن أحد إلى الاحجام يوم الوغى متخوفا لحمام

فمتخوفا حال من أحد لأنه مسبوق بالنهي .

8- أن يكون صاحبها مسبوقا باستفهام كقول أحد الطائيين :

يا صاح هل حم عيش باقيا فترى لنفسك العذر في إبعادها الأملا

فباقيا حال من عيش لكونه مسبوقا بالاستفهام بهل ، وصاح منادى مرخم صاحب على غير قياس وحم بالحاء المهملة بمعنى قدر والإبعاد مصدر أبعد والأمل مفعوله .

هذا وقد يقع صاحب الحال نكرة بلا مسوغ كقولهم عليه مائة بيضا ، فبيضا بلفظ الجمع حال من مائة وليس تمييزا خلافا للمبرد لأن تمييز المائة لا يكون جمعا منصوبا ولا مجرورا وهو من أمثلة سيبويه ، وفي الحديث : صلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قاعدا ووراءه رجال قياما ، فقياما حال من رجال وهو نكرة بلا مسوغ.

[سورة طه (20) : الآيات 99 إلى 104]

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (100) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (102) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (103)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (104)

اللغة :

)

(وِزْراً) : حملا ثقيلا والمراد بها هنا العقوبة الثقيلة المرهقة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها لها في ثقلها على من يحل به العقاب بالحمل الثقيل ينوء به الكاهل ويرزح الحامل تحت عبئه الفادح.

(زُرْقاً) : جمع أرزق وسبب اختياره لعيونهم القيامة لوجهين :

1 - ان الزرقة أبغض شيء من ألوان العيوب إلى العرب لأن الروم كانوا أعداءهم وهم زرق العيون ومن أقوالهم في صفة العدو :

" أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين " فأصهب من الصهبة بالصاد المهملة وهي حمرة أو شقرة في الشعر ، والسبال : ما على الشارب من الشعر ومقدم اللحية والاثنان مرادان بها هنا وقال بشار في وصف البخيل :

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

وهو من أبيات ممتعة نوردها بكاملها :

ظل اليسار على العباس ممدود وقلبه أبدا بالبخل معقود

إن الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنيا وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود

أورق بخير ترجّي للنوال فما ترجى الثمار إذا لم يورق العود

بثّ النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سدّ فقرا فهو محمود

2- ان المراد العمى لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق .

(يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ) أي يخفضون أصواتهم ويخفونها لما لحقهم من الرعب والهول وفي المختار : خفت الصوت سكن وبابه جلس والمخافتة والتخافت والخفت بوزن السبت : أسرار المنطق .

(أَمْثَلُهُمْ) : أفضلهم وأعدلهم رأيا أو عملا في الحياة الدنيا وجمعه أماثل ومثل ومؤنثه مثلى ، وأماثل القوم خيارهم ، والطريقة المثلى الشبهى بالحق ويقال المريض اليوم أمثل أي أحسن حالة ، وقال امرؤ القيس يصف الليل من معلقته :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

الاعراب :

(كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً) كذلك : نعت لمصدر

محذوف أي كما قصصنا يا محمد هذه القصة ونقص فعل مضارع فاعله مستتر تقديره نحن وعليك متعلقان بنقص ومن أنباء صفة لموصوف محذوف هو مفعول به لنقصّ أي نقصّ نبأ من أنباء ، وما مضاف اليه وجملة قد سبق صلة ، وقد الواو عاطفة وقد حرف تحقيق وآتيناك فعل ماض وفاعل ومفعول به ومن لدنا حال لأنه كان صفة لذكرا ، وذكرا مفعول به ثان أي قرآنا . (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً) من شرطية في محل رفع مبتدأ وأعرض فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر تقديره هو

وعنه متعلقان بأعرض والفاء رابطة وان واسمها وجملة يحمل خبرها والفاعل مستتر تقديره هو ويوم القيامة ظرف متعلق بيحمل ووزرا مفعول وجملة من أعرض في محل نصب نعت لذكرا أي قرآنا منطويا مشتملا على هذه القصص يحمل المعرض عنها وزرا كاملا يوم القيامة .

)

(348/504)

خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا) خالدين حال وفيه متعلقان بخالدين والضمير يعود للوزر أي في العقاب المتسبب عنه ففي الكلام مجاز كما سيأتي ، وساء الواو حالية أو

عاطفة وساء فعل ماض من أفعال الذم وقد تقدم كثيرا وفاعله مستتر مميز بنكرة وهو حملا والمخصوص بالذم محذوف تقديره وزرهم ، ولهم متعلقان بقول مقدر أي يقال لهم هذا الكلام ، وقيل هي كاللام في هيت لك أي لمجرد البيان فراجع سورة يوسف . ويوم القيامة ظرف متعلق بساء وحملا تمييز . (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً) الظرف بدل من يوم القيامة وجملة ينفخ مضافة إلى الظرف وينفخ فعل مضارع بالبناء للمجهول وفي الصور متعلقان بينفخ ، ونحشر الواو عاطفة ونحشر فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن والمجرمين مفعول به ويوم ظرف أضيف إلى ظرف مثله متعلق بنحشر والتنوين في إذ عوض عن جملة وزرقا حال من المجرمين . (يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً) الجملة حال من المجرمين أو مستأنفة مسوقة لبيان حالهم في ذلك اليوم ويتخافتون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل وبينهم ظرف متعلق بيتخافتون ، وإن لبثتم جملة منصوبة بقول دل عليه يتخافتون والقول نصب على الحال أي قائلين في السر ، وان نافية ولبثتم فعل وفاعل وإلا أداة حصر وعشرا ظرف زمان ذهابا إلى الليالي لأن الشهور غررها الليالي فتكون الأيام داخلة تبعا وتخافتهم ناجم عن الرعب الذي داخلهم ، فكأن أيام الدنيا لم تكن شيئا مذكورا

فهم يتذكرون أيام السرور التي سنحت لهم في الدنيا كيف مرت عليهم كظل الطائرة .

)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً) نحن مبتدأ وأعلم خبر وبما متعلقان بأعلم وجملة يقولون صلة، وإذ ظرف متعلق بأعلم وجملة يقول مضافة إلى الظرف وأمثلهم فاعل وطريقة تمييز وإن نافية ولبثتم فعل وفاعل وإلا أداة حصر ويوما ظرف متعلق بلبثتم.

البلاغة:

المجاز المرسل في قوله "خالِدِينَ فِيهِ" أي في الوزر، والوزر لا يقام فيه ولكن أراد العقاب المتسبب عن الوزر، فالعلاقة فيه السببية.

[سورة طه (20) : الآيات 105 إلى 114]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (105) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (106) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (108) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (109)

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (110) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ

وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (112) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (113) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114)

اللغة:

(

قاعاً): القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام والجمع أقواع وأقوع وقيع وقيعان وقيعة، وقيل هو المنكشف من الأرض، وقيل المستوي الصلب منها، وقيل مالا نبات فيه ولا بناء.

(350/504)

(صَفْصَفاً): الصفصف: الأرض المستوية الملساء كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة، وفي القاموس: المستوي من الأرض، وقاع صفصف مستو مطمئن فهو بمثابة التأكيد للقاع لأنه بمعناه.

(أَمْتاً): الأمت هو النتوّ اليسير، يقال مدّ حبله حتى ما فيه أمت وقيل: الأمت هو التل

وهو قريب من الأول وقيل الشقوق في الأرض وقيل الآكام وفي القاموس " أمته يأمته قدره وحزره كأمّته وقصده وأجل مأموت مؤقت والأمت المكان المرتفع والتلال الصغار والانخفاض والارتفاع والاختلاف في الشيء والجمع أمات وأموت والضعف والوهن والطريقة الحسنة والعوج والعيب في الفم وفي الثوب والحجر وأن يغلظ مكان ويرق مكان والمؤمّت المملوء والمتهم بالشر ونحوه والخمر حرمت لا أمت فيها أي لا شك في حرمتها " .

(هَمْساً) : الهمس : الصوت الخفي وهو مصدر همست الكلام من باب ضرب إذا أخفيته ومنه الحروف المهموسة وقيل هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت .

(وَعَنَتِ) : في المختار : عنا يعنو من باب سما يسمو سموّا فالألف محذوفة قبل تاء التأنيث لالتقاء الساكنين إذا ذل وخضع ومنه العناة جمع عان وهو الأسير .

(هَضْماً) : الهضم : النقص ، تقول العرب : هضمت لزيد من حقه أي نقصت منه ، ومنه هضيم الكشحين أي ضامرهما ، قال امرؤ القيس :

إذا قلت هاتي نوليني تمايلت عليّ هضيم الكشح ريا المخلخل

ورجل هضيم ومهتضم أي مظلوم ، وهضمته واهتضمته وتهضمته كله بمعنى .

الاعراب :

(

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً) الواو للاستئناف والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير تعنتهم وإصرارهم على الجدل والمكابرة والاستهزاء ، ويسألونكمؤخر ونسفا مفعول مطلق . (فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً) الفاء عاطفة ويذرها فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره هو أي اللّه تعالى والهاء مفعول به وقاعا لك أن تعربها حالا من الضمير المنصوب أو مفعولا به ثانيا لتضمين يذر معنى التصيير ، وصفصفا حال ثانية أو بدل من المفعول الثاني وأعربها بعضهم صفة له . (لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً) الجملة حال ثالثة أو حال أولى ولا نافية وترى فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت وفيها متعلقان بتري وعوجا مفعول به ولا أمتا عطف . وسيأتي مزيد من التقرير حول هذه الآية في باب البلاغة .

)

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ) الظرف متعلق بيتبعون أو بدل من يوم القيامة المتقدم وقد تقدم تقرير اضافة يوم إلى الظرف ويتبعون الداعي فعل مضارع وفاعل ومفعول به ولا نافية للجنس وعوج اسمها مبني على الفتح وله خبرها وجملة لا عوج له حال من الداعي أو صفة لمصدر محذوف أي يتبعونه اتباعا لا عوج له ويجوز أن تكون مستأنفة والأول أظهر لأن الضمير في له يعود عليه أي لا عوج لدعائه بل يسمع جميعهم فلا يميل إلى أناس دون أناس .

(وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً) الواو عاطفة وخشعت الأصوات فعل وفاعل وللرحمن متعلقان بخشعت والفاء عاطفة ولا نافية وتسمع فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وإلا أداة حصر وهمسا مفعول به لأن الاستثناء مفرغ. (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) الظرف متعلق بتنفع وإذ مضاف ولا نافية وتنفع الشفاعة فعل مضارع وفاعل ، وإلا أداة حصر ومن يجوز فيه أن يكون مفعولا لتنفع وعندئذ تكون من واقعة على المشفوع ويجوز أن يكون بدلا من الشفاعة على قاعدة المستثنى المنفي أو النصب على الاستثناء المتصل من الشفاعة ولا بد في هذين الوجهين من تقدير مضاف تقديره إلا شفاعة من أذن له وإذا

اعتبر مستثنى منقطعا وجب نصبه فتلخص فيه أربعة أوجه متقاربة الرجحان ورجح الزمخشري الرفع على البدلية وتبعه القاضي البيضاوي .

وجملة أذن له الرحمن صلة ورضي له قولا عطف على أذن له ورجح أبو البقاء النصب على المفعولية. (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) الجملة استئنافية مسوقة لتقرير علمه تعالى ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلهم، ويعلم فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو وما مفعول به وبين ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول وأيديهم مضافة لبين، وما خلفهم عطف على ما بين أيديهم، ولا يحيطون لك أن تجعل الواو عاطفة ولك أن تجعلها حالية، ويحيطون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وبه متعلقان بيحيطون وعلما مفعول به. (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) وعنت الوجوه فعل وفاعل وللحي متعلقان بعنت والقيوم صفة، وسيأتي المراد بالوجوه في باب البلاغة والواو حالية وجملة وقد خاب حالية ومن فاعل خاب وجملة حمل ظلما صلة. (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) الواو عاطفة على وقد خاب، ومن شرطية مبتدأ ويعمل فعل الشرط ومن الصالحات صفة لمفعول به محذوف أي ومن يعمل أعمالا من الصالحات والواو حالية وهو مبتدأ ومؤمن خبر والفاء رابطة لجواب الشرط ولا نافية ويخاف فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وظلما مفعول به ولا هضما عطف على ظلما وجملة لا يخاف خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهو لا يخاف، وجملة فهو لا يخاف في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من. (وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا)

الكاف صفة لمصدر محذوف أي مثل ذلك الانزال أنزلناه وقرآنا حال وعربيا صفة .

(وَصَرَّفْنا فِيهِ
مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً)

(354/504)

و صرفنا فعل وفاعل وفيه متعلقان بصرفنا ومن الوعيد صفة لمفعول محذوف أي صرفنا وعيدا من الوعيد ، ولعل واسمها وجملة يتقون خبرها وأو حرف عطف ويحدث عطف على يتقون ولهم متعلقان بيحدث وذكرا مفعول به ، وفاعل يحدث هو أي القرآن . (فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) الفاء استئنافية وتعالى الله فعل ماض وفاعل والملك الحق صفتان لله ولا تعجل الواو عاطفة ولا ناهية وتعجل فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وبالقرآن متعلقان بتعجل ومن قبل متعلقان بتعجل وأن يقضى المصدر المؤول مضاف لقبل وإليك متعلقان بيقضى ويقضى فعل مضارع مبني للمجهول ووحيه نائب فاعل ، وقل عطف على لا تعجل ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وزدني فعل أمر والنون للوقاية والياء مفعول به أول وعلما مفعول به ثان أو تمييز .

البلاغة :

في قوله تعالى : " لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً " فن طريف يذهل العقول ، ويسكر العواطف ، ولا يكاد يدركه إلا من أودع الله فيهم سر البيان ، وارتاضوا بالمعاناة والدربة على إدراك النكت التي تعز على من رامها وتطول ، وهذا الفن سموه فن " التنكيت " وحدّه أن يخص المتكلم شيئا بالذكر دون غيره مما يسد مسده وما يقتضيه ظاهر الكلام لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه ، وهو كثير في القرآن الكريم وسيرد في مواطنه ، أما في هذه الآية فقد تقدم في الكهف أن أهل اللغة فرقوا بين العوج والعوج فقالوا : العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان ولذلك قال في الكهف " الحمد لله الذي

أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجا " أما في هذه الآية فالأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ أوليس مقتضى اللغة يوجب أن يستعمل العوج بالفتح ؟ وهنا يأتي هذا الفن ليسبر غور هذه النكتة التي تدق على النظرة السطحية الأولى ، ولا تقف عند التقارير اللغوية ، فنقول :

إن اختيار العوج بالكسر في الآية له موضع حسن بديع في استواء الأرض ووصفها بالملاسة

وانتفاء الاعوجاج عنها على أبلغ وجه ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة من الأرض فسويتها وبالغت في تسويتها على عينك وعلى عيون البصراء بالأراضي واتفقتم بالإجماع على انه لم يبق فيها اعوجاج قط ثم عمدت إلى المهندس تستطلع رأيه لا بحسب الحدس والتخمين والنظر المجرد بل بحسب المقاييس الهندسية المبنية على العلم الدقيق لعثر فيها على عوج في غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي الذي لا يضل ولا يعزب عنه القليل النادر .

فنفى اللّه سبحانه ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك والفهم ألّلهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الاحساس ولحق بالمعاني وسما عن الأعيان فقيل فيه عوج بالكسر .

وقد مرّ معنا وسيمر في هذا الكتاب نماذج رائعة لهذا التنكيت الذي ظهر لك في هذه الآية الكريمة مما لا يدركه إلا الحذاق الملهمون ، فلنرجئ القول فيها وسنعرض الآن على ناظريك نماذج من الشعر الجميل التي اشتملت على نكتة بارعة لتكون لك معالم صبح تحتذيها ، فمن ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخرا :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

وقد سئل الأصمعي عن قولها هذا : لم اختصت فيه طلوع الشمس وغروبها دون أثناء النهار ؟ فقال لأن طلوع الشمس وقت الركوب إلى الغارات وغروب الشمس وقت قرى

الضيفان.

ومنه قول الحسن بن هانئ، أبي نواس:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

فقال " وقل لي هي الخمر " وذلك لأن الحواس الأربع قد التذت حين شربها وبقيت حاسة وحدة لم تستكمل لذتها وهي حاسة السمع فقال " وقل لي هي الخمر " ليسمع ذلك فتكمل له اللذة بجميع حواسه.

ونكتفي الآن بما تقدم ولنا عودة إلى هذا الفن الجميل.

[سورة طه (20) : الآيات 115 إلى 123]

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (116) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (117) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (118) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (119)

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (120) فَأَكَلا

مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (121) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (122) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (123)

اللغة :

(تَضْحى) : ينتابك حر الشمس في الضحى وفي القاموس :

" وضحا يضحو كغزا يغزو ضحوا برز للشمس وكسعى ورضي ضحوا وضحيا أصابته الشمس " .

(وسوس) : وسوسة الشيطان كولولة الثكلى ووعوعة الذئب في أنها حكايات للأصوات ، وسنتحدث عن أسماء الأصوات وحكاياتها في باب الفوائد ، وجاء في القاموس : " وسوس وسواسا ووسوسة الشيطان له وإليه حدثه بشر أو بما لا نفع فيه ولا خير ووسوس الرجل :

أصيب في عقله وتكلم بغير نظام وأصابته الوساوس فهو موسوس وتكلم بكلام خفي ، والوسواس صوت الحلي ، ووسوس الرجل كلمه كلاما خفيا ، ووسوس به بالبناء للمجهول

اختلط كلامه ودهش ، والوسواس الاسم من وسوس ، والوسواس الشيطان ، والوسواس مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن ويقال لما يخطر بالقلب من شر أو لما لا خير فيه وسواس وجمعه وساوس .

(سَوْآتُهُما) : عوراتهما وقد تقدمت .

(يَخْصِفانِ) : أي يلزقان من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أي يلزقان ورق الشجر بعضه ببعض حتى يصير عريضا صالحا للاستتار .

(اجْتَباهُ) : اصطفاه وقربه من جبى إلي كذا فاجتبيته فالمجتبى كأنه في الأصل من جمعت فيه المحاسن حتى اختاره غيره .

الاعراب :

)

(358/504)

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير مساوئ النسيان الذي هو صنو الجهل وقرينه ولذلك يجب التحوط منه والدعاء دائما بقوله تعالى " وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً " . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وعهدنا فعل

وفاعل والى آدم جار ومجرور متعلقان بعهدنا ومن قبل متعلقان بمحذوف حال ، فنسي عطف على عهد أي نسي ما أمرناه به أي أن النسيان أمر مركوز في طباع بني آدم ، ولم نجد : الواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم والفاعل مستتر تقديره نحن وعزما مفعول به .

(وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى) الظرف متعلق باذكر مقدرا أي واذكر وقت ما جرى على آدم من معاداة إبليس ووسوسته له وتزيينه له الأكل من الشجرة ومبادرة آدم بالطاعة له بعد ما سلف من النصيحة البالغة والتحذير من الشيطان ومكره وأحابيله . وقد تقدم اعراب الآية كثيرا فلا حاجة إلى الاعادة ، ولا تنس اختلاف العلماء في اتصال الاستثناء وانقطاعه . وجملة أبى حالية . (فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) الفاء عاطفة وقلنا فعل وفاعل ويا آدم نداء وجملة إن

مقول القول وهذا اسم ان وعدو خبرها ولك صفة لعدو ولزوجك عطف على لك . (فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى) الفاء عاطفة ولا ناهية ويخرجنكما فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا والكاف مفعول به والفاعل مستتر وهو إبليس والميم والألف للتثنية ، فتشقى الفاء فاء السببية وتشقى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية

والفاعل مستتر تقديره أنت وأسند فعل الشقاء إلى آدم وحده لأن شقاء زوجه منوط بشقائه كما أن سعادتها منوطة بسعادته فاختصر الكلام مع المحافظة على الفاصلة. (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) إن حرف مشبه بالفعل ولك خبر مقدم وأن وما في حيزها اسمها المؤخر وفيها متعلقان بتجوع ولا تعرى عطف على لا تجوع. (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى) عطف على سابقتها وسيأتي كلام بديع حول فصل الجوع عن الظمأ والعري عن الضحو والسر البياني الذي تتقطع دونه الأعناق في باب البلاغة. بقيت هناك مشكلة وهي عطف أنك على أن لا تجوع فكأنها اسم لإن بالكسر وهذا ممتنع فلا يقال: إن أن زيدا منطلق ولكن لما فصل هنا بينهما جاز فتقول: إن عندي أن زيدا قائم، فعندي هو الخبر قدم على الاسم وهو ان وما في حيزها لكونه ظرفا.

والآية من هذا القبيل، ورأى الزمخشري رأيا آخر فقال "فإن قلت: إن لا تدخل على أن فلا يقال إن أن زيدا منطلق، والواو نائبة عن أن وقائمة مقامها، فلم أدخلت عليها؟ قلت: الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن إن، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كأن لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن وأن".

قال ابن هشام في صدد الحديث عن المواضع التي يجوز فيها كسر همزة إن وفتحها:

السادس أن تقع بعد واو مسبوقة بمفرد صالح

للعطف عليه نحو إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، قرأ نافع وأبو بكر بالكسر في " وانك لا تظمأ " إما على الاستئناف فتكون جملة منقطعة عما قبلها أو بالعطف على جملة إن الأولى وهي إن لك أن لا تجوع وعليهما فلا محل لها من الاعراب وقرأ الباقون من السبعة بالعطف على أن لا تجوع من عطف المفرد على مثله والتقدير ان لك عدم الجوع وعدم الظمأ " .

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى) فوسوس الفاء عاطفة ووسوس فعل ماض واليه متعلقان بوسوس والشيطان فاعل ، قال يا آدم فعل ماض ونداء وهل حرف استفهام وأدلك فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وعلى شجرة الخلد متعلقان بأدلك وملك عطف على شجرة وجملة لا يبلى صفة لملك . (فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى) فأكلا فعل ماض والألف فاعل ومنها متعلقان بأكلا فبدت عطف على أكلا ولهما متعلقان ببدت وسوءاتهما فاعل ، وطفقا فعل ماض من أفعال الشروع العاملة عمل كاد في وقوع الخبر فعلا مضارعا والالف اسمها وجملة يخصفان خبر طفقا

وعليهما متعلقان بيخصفان ومن ورق الجنة صفة لموصوف محذوف هو المفعول به أي ورقا من ورق الجنة قيل هو التين والأولى أن يكون عاما ليشمل جميع أوراق الأشجار ، وعصى آدم ربه فعل وفاعل ومفعول به ، فغوى عطف على عصى . (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) ثم حرف عطف واجتباه فعل ومفعول به وربه فاعل فتاب عليه عطف على اجتباه وهدى عطف على تاب . (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) اهبطا فعل أمر مبني على حذف النون والألف فاعل ومنها متعلقان

باهبطا وجميعا حال وبعضكم مبتدأ ولبعض حال لأنه كان صفة لعدو وعدو خبر وجملة بعضكم لبعض عدو في محل نصب على الحال .

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) الفاء عاطفة وإن شرطية وما زائدة ويأتينكم فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط والكاف مفعول به ومني متعلقان بيأتينكم وهدى فاعل يأتينكم ، فمن اتبع الفاء رابطة ومن شرطية مبتدأ واتبع فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وهداي مفعول به والفاء رابطة للجواب وجملة لا يضل في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من وجملة من اتبع في محل جزم

جواب إن .

البلاغة :

في قوله تعالى " إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى " فن بديع يسمى قطع النظير عن النظير وذلك انه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلّا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة . ويسميه بعض علماء البيان " فن التوهيم " وقد سبقت الاشارة اليه وهو أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها وهو يريد غير ذلك ، ومنها أن يأتي في ظاهر الكلام ما يوهم أن فيه لحنا خارجا عن اللسان ، ومنها ما يأتي ظاهره يوهم أن الكلام قد قلب عن وجهه لغير فائدة ، ومنها ما يأتي دالا على أن ظاهر الكلام فاسد المعنى وهو صحيح .

وهذه الآية من القسم الذي يوهم ظاهره أن نظم الكلام جاء على غير طريق البلاغة لكون لفظه غير مؤتلف بمعناه لما ترى في الألفاظ من

عدم ملاءمة ، وإذا تأمله المتأمل حق التأمل وجده جاريا على منهج البلاغة بحيث لو جاء على ما توهمه المعترض لكان النظم معيبا . وفي الآية يقول المتوهم لو قيل لا تجوع ولا تظمأ ولا تضحى ولا تعرى لكان ذلك جاريا على ما توجبه البلاغة من الملاءمة والجواب ان مجيئها على ما توهمه المتوهم يفسد معنى النظم لأنه لو قيل : ان لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ لوجب أن يقول وانك لا تعرى فيها ولا تضحى ، والتضحي البروز للشمس بغير سترة . قال الهذلي وقيل للمجنون كما في أمالي القالي :

سلبت عظامي لحمها فتركتها مجردة تضحى لديك وتخصر

أي تلقى الشمس الضاحية مجردة فينال منها حرها وتلقى برد الليل مجردة فينال منها برده فهي معذبة ليلها ونهارها وإذا كان التضحي البروز للشمس بغير سترة كان معناه التعري فيصير معنى الكلام :

وانك لا تعرى فيها ولا تعرى وهذا فساد ظاهر ، ولما كان هذا الفساد لازما للنظم على الوجه الذي توهمه المتوهّم وجب العدول عنه إلى لفظ القرآن وهو أن يضم سبحانه لنفي الجوع نفي العري لتطمئن النفس بسد الجوعة وستر العورة اللذين تدعو إليهما ضرورة الحياة وتطلبهما طبيعة الإنسان بالجبلّة ، ولما كان الجوع مقدّما على العطش كتقديم الأكل على الشراب أوجبت البلاغة تأخر ذكر الظمأ عن الجوع وتقديمه على التضحي لأنه مهم يجب أن يتقدم الوعد بنفيه كما تقدم الوعد بنفي الجوع ، ويتأخر ذكر التضحي كما تأخر ذكر

العري عن الجوع لأن التضحي من جنس العري والظمأ من جنس الجوع فإن قيل : لم ذكر التضحي وهو عري في المعنى وقد أغنى ذكر العري ؟ قلت : في ذكر التضحي فائدة كبيرة وهي وصف الجنة بأنها لا شمس فيها كما قال سبحانه :

" لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً " فإن التضحي عري مخصوص

(363/504)

مشروط بالبروز إلى الشمس وقت الضحى لذلك سمي تضحيا والانتقال من الأعم إلى الأخص بلاغة لاختصاص الأخص بما لا يوجد في الأعم وقال العز بن عبد السلام في الأمالي : كان المناسب من طريق المجاز أن لا تجوع ولا تظمأ ولا تعرى ولا تضحى للجمع بين المتماثلين فلم عدل عن هذا ؟ والجواب : ان في الآية جناسا خيرا من هذا وذلك أن الجوع تجرد الباطن من الغذاء والعري تجرد الظاهر من الغشاء فجانس في الآية بين التجردين وكذلك الظمأ حر الباطن والضحى وهو الظهور للشمس حرّ الظاهر فجانس بالجمع بين الحرّين .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا فقال أبو الطيب المتنبي :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسم

يحكى انه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ إلى هذين البيتين قال سيف الدولة : قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كأني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

ولم اسبأ الزق الروي ولم أقل لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس وكان ينبغي لك أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي إن صحّ أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس واخطأت انا ، ومولاي يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله ، وانما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب

للصيد ، وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤما ، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت " ووجهك وضاح وثغرك باسم " لأجمع بين الأضداد .

على أن في هذه الآية سرا لذلك زائدا على ما ذكر وهو أنه قصد تناسب الفواصل ولو قرن الظمأ بالجوع لانتثر سلك رؤوس الآي وأحسن به منتظما .

الفوائد :

أسماء الأصوات :

وعدناك ببحث أسماء الأصوات ونرى أن نتوسع فيها قليلا لأن كتب النحو قلّما تهتم لها .

فهي تجري مجرى أسماء الافعال لأنها متواخية معها وهي مبنية وتنقسم إلى قسمين :

آ- ما خوطب به مالا يعقل مما يشبه اسم الفعل في الاكتفاء به ، ولكن اسم الفعل مركب واسم الصوت مفرد لعدم تحمله الضمير كقولهم في دعاء الإبل لتشرب : جىء جىء بكسر الجيم فيهما مكررين مهموزين ، وفي المحكم انهما أمر للابل بورود الماء يقال جأجأت الإبل إذا دعوتها لتشرب فقلت جىء جىء نقله الجوهري عن الاموي ، وكقولهم في دعاء الضأن حاحا وفي دعاء المعز عاعا غير مهموزين والفعل منهما حاحيت وعاعيت ، قال سيبويه وأبدلوا الألف من الياء لشبهها بها لأن قولك حاحيت انما هو صوت بنيت منه فعلا

وليست فاعلت وكقولهم في زجر البغل :

عدس ما لعباد عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق

فعدس صوت يزجر به البغل وقد يسمى البغل به والتقدير على التسمية به يا عدس فحذف حرف النداء . وإمارة بكسر الهمزة أي حكم .

(365/504)

ب- ما حكي به صوت مسموع ، والمحكي صوته قسمان حيوان وغيره : فالأول كغاق بالغين المعجمة والقاف لصوت الغراب ، والثاني نحو طاق حكاية لصوت الضرب وطق بفتح الطاء حكاية لصوت

وقع الحجارة بعضها على بعض . هذا وسيرد المزيد من بحث أسماء الأصوات في هذا الكتاب .

نبذة من أسماء الأصوات :

وفيما يلي طائفة مختارة من أسماء الأصوات :

الصرير صوت القلم والسرير والباب والطست والنعل ، والنشيش صوت غليان القدر والشراب ، الرنين : صوت الثكلى والقوس ، القصيف : صوت الرعد والبحر ، وهدير

الفحل ، النقيق صوت الدجاج والضفدع ، القعقعة : صوت السلاح والجلد اليابس والقرطاس ، الغرغرة : صوت غليان القدر وتردد النفس في صدر المحتضر ، العجيج : صوت الرعد والنساء والشاء ، الزفير : صوت النار والحمار والمكروب إذا امتلأ صدره غما فزفر به ، الخشخشة والشخشخة : صوت حركة القرطاس والثوب الجديد والدرع ، الجلجلة : صوت السبع والرعد وحركة الجلاجل ، الحفيف : صوت حركة الأغصان وجناح الطائر وحركة الحية ، الصليل والصلصلة : صوت الحديد واللجام والسيف والدراهم والمسامير ، الطنين : صوت البعوض والذباب والطنبور ، الأطيط : صوت الناقة والمحمل والرجل إذا أثقله ما عليه ، الصرصرة :

صوت البازي والبط ، الدوي : صوت النحل والأذن والمطر والرعد ، الانقاض : صوت الدجاجة والفروج ، التغريد صوت المغني والحادي والطائر وكل صائت طرب الصوت فهو غرد ، الزمزمة والز

: آناء الليل ساعاته ، قال الأخفش واحدها إنى مثل معى وقيل واحدها أني وأنو ، يقال مضى من الليل أنوان وانيان .

(مُتَرَبِّصُ) : منتظر ما يئول اليه الأمر .

الاعراب :

(

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) الواو عاطفة على جواب الشرط المتقدم وهو " فمن اتبع هداي " ومن اسم شرط جازم مبتدأ وأعرض فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وعن ذكري متعلقان بأعرض ، فإن الفاء رابطة للجواب لأنه

جملة اسمية وان حرف مشبه بالفعل وله خبرها المقدم ومعيشة اسمها المؤخر وضنكا صفة والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من .

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى) ونحشره الواو استئنافية ونحشر فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به ويوم القيامة ظرف متعلق بنحشره وأعمى حال من الهاء في نحشره وقد قرئ بالجزم عطفا على محل " فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً " .

(قالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً) رب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة ولم اللام حرف جر وما الاستفهامية في محل جر باللام وقد حذفت ألف ما الاستفهامية كما هي القاعدة والجار والمجرور متعلقان بحشرتني ، وحشرتني فعل وفاعل ومفعول به وأعمى

حال والواو للحال وقد حرف تحقيق وكنت : كان واسمها وبصيرا خبر كنت .

)

(367/504)

قال كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) كذلك نعت لمصدر محذوف أي

حشرا مثل ذلك أو خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وأتتك آياتي فعل وو مفعول به مقدم

وفاعل مؤخر ، فنسيتها الفاء عاطفة ونسيتها فعل وفاعل ومفعول به ، وكذلك نعت

لمصدر محذوف واليوم ظرف متعلق بتنسى . (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ

رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) وكذلك نعت لمصدر محذوف ونجزي فعل مضارع

وفاعله مستتر تقديره نحن ومن موصول مفعول به وجملة أسرف صلة ، ولم يؤمن عطف

على أسرف فهو داخل في حيز الصلة وبآيات متعلقان بيؤمن وربه مضاف إليه ، ولعذاب :

الواو حالية أو عاطفة واللام للابتداء وعذاب مبتدأ والآخرة مضاف إليه وأشد خبر

وأبقى عطف على أشد . (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)

الهمزة للاستفهام وهي داخلة على محذوف عطف عليه بالفاء وقد تقدم تقريره كثيرا

وأعدناه الآن للتذكير والتقدير أغفلوا فلم

يتبين لهم ، وفاعل يهد المصدر المفهوم من أهلكنا أي أفلم يتبين لهم إهلاكنا ويحتمل أن يكون فاعل يهد ضميرا عائدا على اللّه تعالى أي يبين اللّه والأول أولى لأن يهدي معناه يتبين فهو لازم فالفاعل هو الجملة المنسبكة مصدرا لأهلكنا . وقد أنكر البصريون وقوع الجملة فاعلا وجوزه غيرهم قال القفال : جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم ، قال النحاس : وهذا خطأ لأن كم استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها وقال الزجاج : المعنى أولم يهد لهم الأمر باهلاكنا من أهلكناه وحقيقته تدل على الهدى فالفاعل هو الهدى . ولهم متعلقان بيهد وكم خبرية مفعول مقدم لأهلكنا ومن القرون نعت لتمييز كم الخبرية أي كم قرن من القرون والمراد الأمة ، وجملة يمشون في مساكنهم حال من مفعول أهلكنا أو من الضمير في لهم وفي مساكنهم متعلقان بيمشون والضمير يعود على المهلكين بفتح اللام يريد أن قريشا يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم وفيها ما يدعوا إلى العبرة والاتعاظ ، وقد رمق أبو الطيب سماء هذا المعنى كما سيأتي في باب البلاغة . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى) إن وخبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ، ولأولي صفة لآيات والنهى مضاف

اليه وهي جمع نهية بمعنى العقل .

)

(369/504)

وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى) الواو استئنافية ولولا حرف امتناع لوجود وكلمة مبتدأ محذوف الخبر وجملة سبقت من ربك صفة لكلمة ومن ربك متعلقان بسبقت ، لكان اللام واقعة في جواب لولا وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو يعود على الإهلاك ولزاما خبرها ، وأجل مسمى عطف على كلمة أي ولولا أجل مسمى لكان الإهلاك لازما لهم ويجوز كما يرى الزمخشري وأبو البقاء أن يكون معطوفا على الضمير المستتر في "كان " أي لكان الإهلاك العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ومن العجيب ان معظم المفسرين كالجلال والبيضاوي وغيرهما جروا على هذا الوجه رغم

(370/504)

ما فيه من تكلف وقالوا : ان الفصل بالخبر قام مقام التأكيد لأنه كان من حق العطف أن يؤكد الضمير المستتر في كان بالضمير المنفصل فكان يقال هو لزاما وأجل مسمى ولا داعي لكل هذا التكلف وعطفه على كلمة أسهل وأسرع في تأدية المعنى المراد . (فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها) الفاء الفصيحة أي إذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وهو واقع بهم وآت عليهم فاصبر . واصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعلى ما متعلقان باصبر وجملة يقولون صلة وسبح عطف على اصبر وبحمد ربك في موضع نصب على الحال أي وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه وسيأتي المراد بالصبر في باب الفوائد . وقبل متعلق بسبح وطلوع الشمس مضاف وقبل غروبها عطف على قبل طلوع الشمس . (وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى) الجار والمجرور متعلقان بسبح والفاء هي الفصيحة أيضا وسبح فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وأطراف النهار نصب عطفا على محل " ومن آناء " المنصوب ويجوز عطفه على قبل طلوع الشمس ولعل حرف ترج ونصب والكاف اسمها وجملة ترضى خبرها ومتعلق نرضى محذوف مفهوم من السياق أي بما تعطاه من الثواب وجملة لعلك ترضى حالية من فاعل سبح أي صل حال كونك راجيا في أن اللّه تعالى يرضيك بما يعطيكه من الثواب . (

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) الواو عاطفة

ولا ناهية وتمدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد وهو في محل جزم بلا وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وعينيك مفعول به والى ما متعلقان بتمدن وجملة متعنا صلة وبه متعلقان بمتعنا والهاء هي العائد وأزواجا مفعول متعنا أي أصنافا منهم ومنهم صفة ويجوز أن يعرب

نصبا على الحال من هاء الضمير فيكون منهم متعلقا بمتعنا وزهرة الحياة الدنيا توسع المعربون في اعرابها فأوصلوا أوجه نصبها إلى تسعة وقد محصناها فرأيناها كلها سائغة ولهذا نعرضها كما ذكروها لنتوصل إلى الترجيح :

1- أن تكون مفعولا ثانيا إذا أعربنا أزواجا هو المفعول الاول لأن معنى متعنا أعطينا .

2- أن تكون منصوبة على الحال من ما الموصولة .

3- أن تكون منصوبة على البدلية من أزواجا على المبالغة كأنهم نفس الزهرة .

4- أن تكون منصوبة بفعل مضمر دل عليه متّعنا تقديره جعلنا لهم زهرة .

5- أن تكون منصوبة على الذم أي أذم زهرة الحياة الدنيا .

6- أن تكون منصوبة على الاختصاص .

7- أن تكون منصوبة على البدلية من محل " به " .

8- أن تكون منصوبة على الحال من الضمير في " به " .

9- أن تكون منصوبة على التمييز ل " ما " أو للهاء في " به " .

ومن تمحيص هذه الوجوه ومراعاة جانب السهولة يتبين أن نصب زهرة يترجح في نصبها على الذم أو المفعولية على تضمين متعنا معنى أعطينا وبهما بدأ الزمخشري وغيره .

ولنفتنهم اللام للتعليل ونفتنهم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد

(372/504)

لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بمتعناهم والهاء مفعول به وفيه متعلقان بنفتنهم .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) الواو للحال ورزق ربك مبتدأ وخير خبر وأبقى عطف على خير . (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا) وأمر الواو استئنافية أو عاطفة وأمر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وأهلك مفعول به وبالصلاة متعلقان بفعل الأمر واصطبر فعل أمر وفاعله مستتر وتقديره أنت وعليها متعلقان باصطبر وجملة لا نسألك استئنافية ونسألك فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ورزقا مفعول به ثان .

(نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) نحن مبتدأ وجملة نرزقك خبر والعاقبة مبتدأ وللتقوى خبر

وهاتان الجملتان مستأنفتان أيضا . (وَقالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى) لولا حرف تحضيض أي هلا ويأتينا فعل وفاعل مستتر ومفعول به وبآية متعلقان بيأتينا ومن ربه متعلقان بمحذوف صفة لآية ، اقترحوا جريا على دينهم المعروف وعادتهم في التعنت واللجاج ، أولم الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على مقدر يقتضيه السياق والتقدير ألم تأتهم البينات تترى ولم تأتهم بصورة خاصة بينة ما في الصحف الأولى ، وبينة فاعل لتأتهم وما موصول مضاف لبينة وفي الصحف متعلقان بمحذوف صلة الموصول والأولى صفة للصحف وفيها ما يكفي المنصف أما المكابر المتعنت فهيهات أن يقنعه شيء .

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا) تقدم اعراب مثل هذا التركيب أي لو ثبت إهلاكنا ، فأنا وما بعدها فاعل لفعل محذوف والجملة مستأنفة سيقت لدعيم ما تقرر من تعنتهم وصلفهم ومجادلتهم وبعذاب متعلقان بأهلكناهم ومن قبله صفة لعذاب .

لقالوا : جواب لو والجملة لا محل لها وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء ولولا حرف تحضيض

وأرسلت فعل وفاعل وإلينا متعلقان بأرسلت ورسولا مفعول به والجملة مقول القول .

(فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) فنتبع الفاء هي السببية ونتبع منصوب بأن مضمرة في جواب التحضيض والفاعل مستتر تقديره نحن وآياتك مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم ومن قبل متعلقان بنتبع وان وما بعدها في تأويل مصدر مضاف لقبل ونخزى عطف على نذل . (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) كل مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم ومتربص خبر والجملة مقول القول والفاء الفصيحة وتربصوا فعل أمر ، فستعلمون الفاء استئنافية والسين حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومن اسم استفهامية مبتدأ وأصحاب الصراط السوي خبر ومن اهتدى عطف على من أصحاب والجملة من أصحاب مفعول تعلمون المعلقة عن العمل ويجوز أن تكون من موصولة مفعول تعلمون وأصحاب الصراط خبر لمبتدأ محذوف أي هم أصحاب .

البلاغة :

1- المجاز المرسل فقد ذكر القرون وأراد الأمم التي تعيش عبرها والاعتبار بآثار الأمم البائدة ، والقرون الخالية ، كان مثارا لأخيلة الشعراء وخاصة في مقام الرثاء وأبرع من سما

بخياله إلى هذا المعنى أبو الطيب المتنبي والبحتري فنكتفي بهما وسنورد أبياتا مختارة من قصيدتين لهما .

يقول عبد اللّه بن المعتز الشاعر العباسي الخليفة : " لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته في ايوان كسرى وقصيدته في وصف بركة المتوكل لكان أشعر الناس " فقد زار البحتري بعد أن سئم الحياة في بغداد بعد

مقتل المتوكل على اللّه المدائن وهي مدينة يقع فيها ايوان كسرى وقد أبدع في وصف الايوان إبداعا فريدا زاده روعة أنه من شعراء العرب أول من وصف الآثار القديمة الخالدة واستوحاها وصب عليها من روحه وهذه مختارات منها :

صنت نفسي عما يدنّس نفسي وترفعت عن جدا كلّ جبس

وتماسكت حيث زعزعني الدهر التماسا منه لتعسي ونكسي

حضرت رحلي الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنسي

ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي

حلل لم تكن كأطلال سعدى في قفار من البسابس ملس

فكأن الجرماز من عدم الأن س وإخلاله بنية رمس

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس

فإذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعت بين روم و

فرس والمنايا مواثل وانوشر . . . . . . وان يزجي الصفوف تحت ال

درفس في اخضرار من اللباس على أص فر يختال في صبيغة

ورس عمرت للسرور دهرا فصارت للتعزي رباعهم وال

تأسي فلها ان أعينها بدموع موفقات على الصبابة حبس

ولا يتسع المجال لا يراد القصيدة بكاملها ، فهي نموذج حي معبر من أدبنا العربي ، كما لا يتسع المجال لدراستها فنكتفي بإيراد بعض الملاحظات السريعة عليها :

1- تشعر حين تقرأ السينية بروعة موسيقاها الناتجة عن خفة الجر وجماله (الخفيف) وتلاؤمه مع العواطف والمعاني والألفاظ والروي المهموس وهو السين وترداد الحروف المهموسة كالسين والصاد والتاء .

2- تشعر بتأثر الشاعر بالعظمة حين قدم لوصف الايوان ثم ما تعتم أن تأسى وتحزن حين تقرأ أن الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس وهذا التجاوب النفسي بين ما يصفه الشاعر وبين ما يصف ميزة فنية بحتة .

3- تشعر أن الشاعر يعجب بكل ما هو عظيم في الدنيا ولو كان من غير قومه فنراه هنا

معجبا بالفرس فبكاهم أصدق بكاء ورثاهم أحر رثاء وهكذا الفن يسمو ليستحيل انسانية صرفا .

(375/504)

4- وأخيرا تعجب من أن الشاعر يطرق في الأدب العربي فنا جديدا لم يطرقه أحد من قبله وهو رثاء الممالك الزائلة والآثار الباقية ، ولم يشر إليه قبل القرآن أحد فيقول اللّه تعالى " أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى " .

وننتقل إلى عينية أبي الطيب المتنبي وهي القصيدة التي رثى بها أبا شجاع فاتك وفيها تحدث عن شعور الإنسان حيال الآثار المتخلفة عن أصحابها فقال منها :

إني لأجبن عن فراق أحبتي وتحسّ نفسي بالحمام فأشجع

ويزيدني غضب الأعادي قسوة ويلمّ بي عتب الصديق فأجزع

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى فيها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ؟ ما المصرع

تتخلّف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

ويظهر أن أبا الطيب كان يحب القائد فاتكا أبا شجاع حبا خالصا قائما على الاعجاب فهو يرثيه بقصيدتين يجعل منهما وسيلة إلى الإبانة عما في نفسه من هموم ومحن وترى من خلالهما بعض النظرات الفلسفية فهو كما ترى يرى الحياة لا تصفو إلا للجاهل أو الغافل أما الشجاع الأبي فقلما تخطئه سهامها ونراه هنا معاني مظلمة قاتمة في نفسه حتى ليكاد يلقي سلاحه أمام عوادي الزمان لو لا بقية من قوة يستمسك بها :

المجد أخسر والمكارم صفقة من أن يعيش لها الهمام الأروع

والناس أنزل في مكانك منزلا من أن تعايشهم وقدرك أرفع

(376/504)

2- وفي قوله : " أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . . " الآية فن المناسبة وهي على ضربين معنوية ولفظية والمعنوية هي أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ فالآية موعظتها سمعية فختمها بأشد مناسبة معنوية بقوله " أَفَلا يَسْمَعُونَ " وقال في الآية التي موعظتها مرئية وهي آية السجدة : " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ " فقد ختمها بقوله :

" أَفَلا يُبْصِرُونَ " لأن ذلك مما يتبين بالرؤية وما فوق هذه المناسبة مناسبة . ومن بديع ما ورد

فيها شعرا قول القاضي الفاضل :

وبدر بأفلاك الخواطر طالع وغصن بريحان العذار وريق

لئن بت في بحر من الفكر سابحا فإنسان عيني في الدموع غريق

فالمناسبة في الشطر الاول في البدر والافلاك والطلوع وفي الشطر الثاني بين الغصن والريحان ووريق وفي الثالث بين البحر وسابحا وفي الرابع بين إنسان العين والدموع وغريق ففي كل شطر من البيتين مناسبات عديدة ، وأما المناسبة اللفظية فهي دون رتبة المعنوية وهي الإتيان بكلمات متزنات وهي أيضا على ضربين : تامة وغير تامة فالتامة تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة والناقصة موزونة غير مقفاة فمن شواهد التامة من القرآن العظيم قوله تعالى : " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، ما أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ " ومن الشعر قول ابن هانئ الاندلسي :

وعوابس وقوابس وفوارس وكوانس وأوانس وعقائل

ومن غير التامة قول ابن خلوف المغربي :

كالورد خدا والغزالة بهجة والغصن قدا والغزال مقلدا

وقد اجتمعت التامة والناقصة في قول أبي تمام :

مها الوحش إلا أن ها تا أوانس قنا الحظ إلا أن تلك ذوابل فبين قنا ومها مناسبة لفظية تامة وبين الوحش والحظ وأوانس وذوابل مناسبة غير تامة .

الفوائد :

النسخ في القرآن :

في قوله تعالى " فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ " مبحث هام جدير بالتأمل وهو أن معظم المفسرين درجوا على القول إن هذه الآية منسوخة بآية القتال والصواب انها ليست منسوخة بل هي أمر بالصبر المحمود على كل حال وهو عدم الاضطراب ومساورة الجزع لما يقولون ولما يصدر عنهم من الأذية وليس فيها أية اشارة أو تلميح إلى عدم القتال حتى يكون الأمر بالقتال ناسخا لها .

وموضوع النسخ في القرآن الكريم من الموضوعات الشائكة الصعبة ، والاختلاف حوله كثير وما علم في هذا الباب من استقراء كلام الصحابة والتابعين انهم كانوا يستعملون النسخ بإزالة المعنى اللغوي الذي هو إزالة شيء بشيء لا بإزاء مصطلح الأصوليين فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى إما بانتهاء مدة العمل أو بصر الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقيا أو تخصيص عام أو بيان الفارق بين المنصوص وما قيس ظاهرا عليه أو ازالة عادة الجاهلية أو الشريعة السابقة

فاتسع باب النسخ عندهم وكثر جولان العقل هنالك واتسعت دائرة الاختلاف.

أما المنسوخ باصطلاح المتأخرين فهو قليل جدا وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في الإتقان بتقرير مبسوط، كما ينبغي، بعض ما ذكره العلماء ثم حرر المنسوخ الذي فيه رأي المتأخرين على وفق الامام الحافظ القاضي أبي بكر محمد بن عبد اللّه ابن العربي المعافري

الأندلسي فعنده قريبا من عشرين آية، وأتى في العصر الحديث الشيخ الامام محمد عبده فأنكر النسخ في القرآن وقال ان كل ما زعموا انه منسوخ يمكن تأويله كما رأيت في قوله تعالى "فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ" وهو ظاهر في هذه الآية يطيح بالقول القديم ان الآيات المنسوخة تبلغ حوالي خمسمائة آية وهو قول ظاهر البطلان بالبداهة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 229. 278﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/505)

الجزء الخامس بعد الخمسمائة

(سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)

(4/505)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)

(5/505)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

رُوى فيه أَحاديث ساقطة ضعيفة .

منها : مَن قرأَ سورة اقترب للنَّاس حسابهم حسابه الله حساباً يسيراً ، وصافحه ، وسلَّم عليه كلُّ نبىّ ذكر اسمُه فى القرآن .

وفى حديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ هذه السّورة فكأَنَّما عبد الله على رضاه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 322﴾

(6/505)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الأنبياء

مقصودها الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت ، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير ، لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها ، وهن من لا يبدل القول لديه ، والدال على ذلك أوضح دلالة مجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يستقل قصة منها استقلالا ظاهرا بجميع ذلك كما سنبين ، ولا يخلو قصو من قصصهم من دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 63 ﴾

(7/505)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . اقترب للناس حسابهم)

السّورة مكّيّة بالاتّفاق.

وآياتها مائة واثنتا عشرة عند الكوفيّين، وإِحدى عشرة عند الباقين.

وكلماتها أَلف ومائة وثمانية وستون.

وحروفها أَربعة آلاف وثمانمائة وسبعون، المختلف فيها آية واحدة: ﴿ولَا يَضُرُّكُمْ﴾.

مجموع فواصل آياتها (م ن) وسمِّيت سورة الأَنبياءِ لاشتمالها على قصصهم على إِبراهيم، واسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وسليمان، وداود وأَيوب، وإِسماعيل، وصالح، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى.

مقصود السّورة: ما اشتملت عليه مجملا: من التنبيه على الحساب فى القيامة، وقرب زمانها، ووصف الكفَّار بالغفلة، وإِثبات النبوّة، واستيلاء أَهل الحَقّ على أَهل الضَّلالة، وحُجّة الوحدانيّة، والإِخبار عن الملائكة وطاعتهم، وتخليق الله السّمواتِ والأَرض بكمال قدرته، وسير الكواكب ودَوْر الفَلَك، والإِخبار عن موت الخلائق وفنائهم، وكَلاءُ الله تعالى وحفظه العبدَ من الآفات، وذكر ميزان العَدْل فى القيامَة، وذكر إِبراهيم بالرّشد والهداية، وإِنكاره على الأَصنام وعُبَّادها، وسلامة إِبراهيم من نار نُمرود وإِيقادها، ونجاة لوط من قومه أُولى العُدْوان، ونجاة نوح ومتابعَته من الطوفان، وحُكم داود، وفهم سليمان، وذكر تسخير الشيطان، وتضرّع أَيوب، ودعاء يونس، وسؤال زكريّا، وصلاح مريم، وهلاك قُرًى أَفرطوا فى الطغيان، وفتح سدّ يأْجوج ومأْجوج فى آخر الزّمان وذلّ

الكفَّار والأَوثان، فى دخول النيران، وعِزّ أَهل الطَّاعة والإِيمان، من الأَزل إِلى الأَبد فى جميع الأَزمان، على علالىّ الجِنَان، وطىّ السّموات فى ساعة القيامة، وذكر الأُمم الماضية، والمنزلة من الكتب فى سالف الأَزمان، وإِرسال على حكم السّويّة من غير نقصان ورجحان، وطلب حكم الله تعالى على وَفْق الحقّ، والحكمة فى قوله ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ﴾.

(8/505)

الناسخ والمنسوخ:

فى هذه السّورة آيتان م ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إِلى تمام الآيتين ن ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 317.318﴾

(9/505)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الأنبياء عليهم السلام

273 - مسألة :

قوله تعالى : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ)

وقال في الشعراء : (مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ) ؟ .

جوابه :

لما تقدم هنا : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) وذكر إعراضهم وغفلتهم وهو وعيد وتخويف فناسب ذكر الرب المالك ليوم القيامة المتوفى ذلك الحساب .

وفى الشعراء : تقدم (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً) لكن لم يفعل ذلك لعموم رحمته للمؤمنين والكافرين لم يشأ ذلك ، ويقوى ذلك تكرير قوله تعالى في السورة :

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

274 - مسألة :

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) ثم قال تعالى : (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

والسقف : المستوى ، والفلك : هو المستدير ؟ .

جوابه :

أن السقف لا يلزم منه الاستواء ، بل يقال لكل بناء عال على هواء سقف سواء كان مستويا أو مستديرا ، كقولهم :

"سقف الخباء" وإن كان مستديرا .

275 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

وقال في إدريس وعيسى عليهما السلام أنه : رفعهما إليه فهما حيان باقيان وهم من البشر ؟ .

جوابه :

أن المراد من الخلد في الدنيا التي هي عالم الفناء المعهود عندهم . وإدريس وعيسى عليهما السلام في عالم آخر غير المعهود عنده .

276 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وفى النمل والروم : (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) .

والصم كاف فما فائدة ولوا مدبرين ؟ .

جوابه :

أن آية الأنبياء نسب فيها السماع إليهم فلم يحتج إلى توكيد ومبالغة فيه ، ولذلك قال : (إِذَا

مَا يُنْذَرُونَ (45) أي يتشاغلون

عن سماعه ، فهم كالصم الذين لا يسمعون .

(10/505)

وفى آية الروم والنمل نسب الإسماع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فبالغ في عدم

القدرة على إسماعهم بقوله تعالى : (وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

لأن المولى عن المتكلم أجدر بعدم القدرة على إسماعه من

الماكث عنده ، ولذلك شبههم بالمولى ، وفيه بسط عذر النبى

- صلى الله عليه وسلم - .

277- مسألة :

قوله معا . إى : (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وقال تعالى في الصافات :

(فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)) ؟ .

جوابه :

أنهم أرادوا كيده بإحراقه فنجاه الله تعالى وأهلكهم وكسر أصنامهم ، فخسروا الدنيا والآخرة .

وفى الصافات قالوا : (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ) أي من فوق البناء في الجحيم ، فناسب ذكر الأسفلين لقصدهم العلو لإلقائه في النار والله أعلم .

278 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ)

وقال في سورة ص : (تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً)

والعاصفة الشديدة ، والرخاء : الرخوة ؟ .

جوابه :

أنها كانت رخوة طيبة في نفسها ، عاصفة في مرورها كما . قال تعالى : (غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) .

أو أن ذلك كان باعتبار حالين على حسب ما يأمرها سليمان عليه السلام .

279 – مسألة :

قوله تعالى : (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) وفى التحريم : (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) ؟ .

جوابه:

أن لفظ التذكير عند العرب أخف من التأنيث، وها هنا لم يتكرر لفظ التأنيث كتكريره في التحريم فجاء فيها مؤنثا.

وفى التحريم تكرر لفظ التأنيث بقوله تعالى: (ومريم) و(ابنت) و(أحصنت) و(فرجها) فناسب التذكير تخفيفا من زيادة تكرر التأنيث.

280 - مسألة:

قوله تعالى: (وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا) وفى المؤمنين: (فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا) ؟.

جوابه:

أما قوله: (فَاعْبُدُونِ) فلأنه خطاب لسائر الخلق، فناسب

(11/505)

أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق.

وقوله: ((فَاتَّقُونِ) خطاب للرسل فناسب الأمر بالتقوى، ويؤيده: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) و(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ).

وأما " الواو" ، و " الفاء" ، فلأن ما قبل " الواو" لا يتعلق بما

بعدها ، وما قبل "الفاء" متعلق بما بعدها لأن ذكر الرسل

يقتضي التبليغ ولم يسمعوا ، فكأنه قيل : بلغهم الرسل دين

الحق فتقطعوا أمرهم ، ولذلك قيل هنا : (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93)) وفى المؤمنين : (كُلُّ

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ)

أي من الخلاف بينهم فرحون .

281 - مسألة :

قوله تعالى : (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100)) وقال تعالى : (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ)

وقال تعالى : (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96)

إلى غير ذلك مما يدل على سماعهم ؟ .

جوابه :

لعل ذلك باعتبار حالين :

فحال السماع والمحاجة والمخاصمة قبل اليأس من الخلاص من النار .

وحال اليأس لا يسمعون ، لما روى أنهم يجعلون في توابيت من نار ويسد عليهم أبوابها

فحينئذ لا يسمعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 253 . 259﴾

(12/505)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

المتشابهات:

قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ وفى الشعراءِ ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ﴾ خصّت هذه السّورة بقوله ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بالإضافة، لأَن (الرّحمن) لم يأْت مضافاً، ولموافقة ما بعده، وهو قوله: ﴿قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ﴾ وخصّت الشعراء بقوله ﴿مِّنَ الرَّحْمَانِ﴾ ليكون كلُّ سورة مخصوصةً بوصف من أَوصافه، وليس فى أَوصاف الله تعالى اسم أَشبهُ باسم الله من الرحمن؛ لأَنَّهما اسمان ممنوعان أَن يسمّى بهما غيرُ الله عزَّ وجلَّ، ولموافقة ما بعده، وهو قوله: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛ لأَنَّ الرّحمن والرّحيم من مصدر واحد.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ وبعده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾، (قبلك) و(من قبلك) كلاهما لاستيعاب الزمان المتقدّم، إِلا أَنَّ (مِن) إِذا دخل دلَّ على الحَصْر بين الحدَّين، وضبطه بذكر الطَّرفين.

ولم يأت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ إِلاَّ هذه - وخصّت بالحذف؛ لأَنَّ قبلها ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ﴾ فبناه عليه لأَنه هو؛ وآخر فى الفرقان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ﴾ وزاد فى الثانى ﴿مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ على الأَصل للحصر

قوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ وفى العنكبوت : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ؛ لأَن ثمّ للتراخى ، والرّجوعُ هو الرّجوع إِلى الجنَّة أَو النّار ، وذلك فى القيامة ، فخُصّت سورة العنكبوت به .

وخُصّت هذه السّورة بالواو لمّا حيل بين الكلامين بقوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا ﴾ وإِنَّما ذُكِرَا لتقدّم ذكرهما ، فقام مقام التراخى ، وناب الواو

مَنابه ، والله أَعلم .

قوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ وفى الفرقان ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ لأَنَّه ليس فى الآية التى تقدّمتها ذكر الكفّار ؛ فصرّح باسمهم ، وفى الفرقان قد سَبَق ذكر الكفّار ، فخُصّ الإِظهار بهذه السّورة ، والكناية بتلك .

قوله : ﴿ مَا هذه التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَا ﴾ وفى الشعراءِ ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا ﴾ ؛ لأَنّ قوله : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا ﴾ جواب لقوله : ﴿ مَا هذه التَّمَاثِيلُ ﴾ وفى الشعراءِ أَجابوا عن قوله ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بقولهم ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ ثمّ قال لهم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ فأَتى بصورة الاستفهام ومعناه

النفى ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ﴾ (أى قالوا لا بل وجدنا) عليه آباءَنا ، لأَن السّؤال فى الآية يقتضى فى جوابهم أَن ينفوا ما نفاه السّائل ، فأَضربوا عنه إِضراب مَن ينفى الأَوّل ، ويُثبت الثانى ، فقالوا : بل وجدنا .

فخُصت السّورة به .

قوله : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ ، وفى الصّافَّات ﴿ الأَسْفَلِينَ ﴾ ؛ لأَنَّ فى هذه السورة كادهم إِبراهيم ؛ لقوله : ﴿ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ وهم كادوا إبراهيم لقوله : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ فجرت بينهم مكايدة ، فغلبهم إِبراهيم ؛ لأَنَّه كسر أَصنامهم ، ولم يغلبوه ؛ لأَنَّهم (لم يبلغوا من إِحراقه مرادهم) فكانوا هم الأَخسرين .

وفى الصّافَّات ﴿ قَالُواْ ابْنُواْ لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ ، فأَجّجوا ناراً عظيمة ، وبنوا بنياناً عالياً ، ورفعوه إليه ، ورموه [منه] إِلى أَسفل ، فرفعه الله ، وجعلهم فى الدّنيا سافلين ، وردَّهم فى العقبى أَسفل سافلين .

فخُصت والصّافَّات بالأَسفلين .

قوله : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ بالفاءِ سبق فى يونس .

ومثله فى الشّعراءِ ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ختم القصّة بقوله ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وقال فى ص ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ لأَنَّه بالغ (فى التضرّع) بقوله ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فبالغ سبحانه فى الإِجابة ، وقال ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ لأَنَّ (عند) حيث جاءَ دلَّ على أَنَّ الله سبحانه تولَّى ذلك من غير واسطة .

وفى ص لمَّا بدأَ القصة بقوله ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا ﴾ ختم بقوله (منَّا) ليكون آخِرُ الآية ملتئما بالأَوّل .

قوله : ﴿ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا ﴾ وفى المؤمنين ﴿ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا ﴾ لأَنَّ الخطاب فى هذه السّورة للكفار ، فأَمرهم بالعبادة التى هى التَّوحيد ، ثم قال : ﴿ وَتَقَطَّعُوا ﴾ بالواو ؛ لأَنَّ التقطُّع قد كان منهم قبل هذا القول لهم .

ومَن جعله خطاباً للمؤمنين ، فمعناه : دُوموا على الطَّاعة .

وفى المؤمنين الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلَّم وللمؤمنين بدليل قوله قبله ﴿ يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ والأَنبياءِ والمؤمنون مأْمورون بالتَّقوى ، ثم قال ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أَى ظهر منهم التقطُّع بعد هذا القول ، والمراد أُمَتُهم .

قوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ وفى التحريم (فيه) ؛ لأَنَّ المقصود هنا ذِكرها وما آل إِليه أَمرها ، حتى ظهر فيها ابنُها ، وصارت هى وابنها آية .

وذلك لا يكون إلا بالنَّفخ فى جُملتها ، وبحَمْلها ، والاستمرار على ذلك إلى يوم ولادتها .

فلهذا خُصَّت بالتَّأْنيث .

وما فى التحريم مقصور على ذكر إحصانها ، وتصديقها بكلمات ربّها ، وكان النفخ أَصاب فرجها ، وهو مذكَّر ، والمراد به فرج الجَيْب أَو غيره ، فخُصّت بالتَّذكير. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 318 . 322 ﴾

(15/505)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الأنبياء

305 - قوله تعالى ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث 2 وفي الشعراء وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث 5 خصت هذه السورة

بقوله من ربهم بالإضافة لأن الرحمن لم يأت مضافا ولموافقته ما بعد وهو قوله قال ربي يعلم 4 وخصت الشعراء بقوله من الرحمن 5 لتكون كل سورة مخصوصة بوصف من أوصافه وليس في أوصاف الله اسم أشبه باسم الله من الرحمن لأنهما اسمان ممنوعان أن يسمى بهما غير الله عز وجل ولموافقة ما بعده وهو قوله لهو العزيز الرحيم 9 لأن الرحمن الرحيم مصدر

واحد

306 - قوله وما أرسلنا قبلك إلا رجالا 7 وبعده وما أرسلنا من قبلك 25 كلاهما

لاستيعاب الزمان المتقدم إلا أن من إذا دخل دل على الحصر بين الحدين وضبطه بذكر

الطرفين ولم يأت وما أرسلنا قبلك 7 إلا هذه وخصت بالحذف لأن قبلها ما آمنت قبلهم من

قرية 6 فبناه عليه لأنه هو وأخر من في الفرقان وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم 20

وزاد في الثاني من قبلك من رسول 21 25 22 52 على الأصل للحصر

307 - قوله كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون 35 وفي

العنكبوت ثم إلينا ترجعون 57 لأن ثم للتراخي والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار وذلك

في القيامة فخصت سورة العنكبوت به وخصت هذه السورة بالواو لما حيل بين الكلامين

بقوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة 35 وإنما ذكرا لتقدم ذكرهما فقام مقام التراخي وناب بالواو

منابه

208 - قوله وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا 36 وفي الفرقان وإذا رأوك إن

يتخذونك إلا هزوا 41 لأنه ليس في هذه الآية التي تقدمتها ذكر الكفار هنا فصرح باسمهم

وفي الفرقان قد سبق ذكر الكفار فخص الإظهار بهذه السورة والكناية بتلك

309 - قوله ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا 52 53 وفي الشعراء قالوا بل وجدنا 74 بزيادة بل لأن قوله وجدنا آباءنا 53 جواب لقوله ما هذه التماثيل 52 وفي الشعراء أجابوا عن قوله ما تعبدون 70 بقولهم نعبد أصناما 71 ثم قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون 72 73 فأتى بصورة الاستفهام ومعناه النفي قالوا بل وجدنا أي قالوا لا بل وجدنا عليه آباءنا لأن السؤال في الآية يقتضي في جوابهم أن ينفوا ما نفاه السائل فأضربوا عنه إضراب من ينفي الأول ويثبت الثاني فقالوا بل وجدنا فخصت السورة به

310 - قوله وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين 70 وفي الصافات الأسفلين 98 لأن في هذه السورة كادهم إبراهيم عليه السلام بقوله لأكيدن أصنامكم 98 وكادوا هم إبراهيم بقوله وأرادوا به كيدا فجرت بينهم مكايده فغلهم إبراهيم لأنه كسر أصنامهم ولم يغلبوه لأنهم لم يبلغوا من إحراقه مرادهم فكانوا هم الأخسرين

وفي الصافات قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم 97 فأججوا نارا عظيمة وبنوا بنيانا عاليا ورفعوه إليه ورموه منه إلى أسفل فرفعه الله وجعلهم في الدنيا من الأسفلين وردهم في العقبى أسفل سافلين فخصت الصافات بالأسفلين

311 - قوله ونجيناه 71 بالفاء سبق في يونس ومثله في الشعراء فنجيناه وأهله أجمعين

إلا عجوزا في الغابرين 170 171

312 - قوله وأيوب إذ نادى ربه 83 ختم القصة بقوله رحمة من عندنا 84 وقال في ص رحمة منا 43 لأنه هنا بالغ في التضرع بقوله وأنت أرحم الراحمين 83 فبالغ سبحانه في الإجابة وقال رحمة من عندنا 83 لأن عند حيث جاء دل على أن الله سبحانه تولى ذلك من غير واسطة

وفي ص لما بدأ القصة بقوله واذكر عبدنا 41 ختم بقوله منا ليكون آخر الآية لفقا بالأول الآية

(17/505)

---

313 - قوله فاعبدون وتقطعوا 92 93 وفي المؤمنين فاتقون فتقطعوا 52 53 لأن الخطاب في هذه السورة للكفار فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد ثم قال وتقطعوا 93 بالواو لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ومن جملة خطاب المؤمنين فمعناه داوموا على الطاعة وفي المؤمنين الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بدليل قوله يا أيها الرسل كلوا من الطيبات 51 والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى ثم قال فتقطعوا أمرهم 53 أي ظهر منهم التقطع بعد هذا القول والمراد أممهم

314 - قوله والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها 91 وفي التحريم

فنفخنا فيه 13 لأن المقصود في هذه السورة ذكرها وما آل إليه أمرها حتى ظهر فيها ابنها وصارت هي وابنها آية وذلك لا يكون إلا بالنفخ في حملها وتحملها والاستمرار على ذلك إلى ولادتها فلهذا اختصت بالتأنيث

وما في التحريم مقصور على ذكر إحصانها وتصديقها بكلمات ربها وكأن النفخ أصاب فرجها وهو مذكر والمراد به فرج الجيب أو غيره فخصت بالتذكير. انتهى انتهى. ا هـ

﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 140. 144﴾

(18/505)

فصل

قال الآلوسى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

نزلت بمكة كما أخرج ابن مردوية عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم وفي البحر أنها مكية بلا خلاف وأطلق ذلك فيها واستثني منها في الاتقاق قوله تعالى " أفلا يرون أنا

نأتي الأرض " الآية .

وهي مائة واثنتا عشرة آية في عد الكوفي وإحدى عشرة في عد الباقين كما قاله الطبرسي والداني ووجه اتصالهما بما قبلهما غني عن البيان وهي سورة عظيمة فيها موعظة فخيمة فقد أخرج ابن مردوية وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن عامر ابن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم واديا ما في العرب واد أفضل منه وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا اقترب للناس إلى آخره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 17 صـ 2 ﴾

(19/505)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الأنبياء

تمهيد

هى جديرة باسمها ، لأن فيها قصصا من أخبار النبيين ، وهو غير مكرر مع ما ذكر فى غيرها من القصص ، فكل قصة لست جزءا من القصة هو عبرة فى موضعها غير مكرر مع غيره ، وقد نبهنا إلى ذلك من قبل ، وضربنا المثل بقصة بدء خلق الإنسان ، والمفارقات .

وسورة الأنبياء سورة مكية وآياتها اثنتا عشرة آية ومائة .

وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر الساعة وقربها وما وراءها من حساب على ما قدمت أيديهم ، (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1)

ويأخذون الحياة لعبا ولهوا حتى ما يكون تذكيرا باليوم الآخر (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ . . .

وقالوا لكل رسول جاءهم (. . . هل هذا إلا بشر مثلكم أفتاتون السحر وأنتم تبصرون – ، واتهموا كل رسول يرسل إليهم بأن كلامه أضغاث أحلام وأن كلامه افتراء افتراه على الله تعالى ، (. . . بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ . . . ويذكر العبرة فى حال من سبقوا (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6 ،

ويخاطب نبيه فيقول : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) .

ولقد كفر أقوامهم فصدق الله تعالى وعده لأنبيائه فأنجاهم وأهلك الكافرين لأنهم أسرفوا فى الضلال ، وبين للنبى -صلى الله عليه وسلم- أنه مذكور فى الكتب قبله ، وأن الكتاب

(20/505)

الذى أنزله " الله " إليكم " فيه ذكركم " ورفعتكم ، " وقد ذكرا الله سبحانه وتعالى " أنه أهلك الذين من قبلهم لضلالهم ، (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) ،

وقد أحسوا الهلاك النازل بهم عند نزوله (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) .

وقد بين سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض ودلالتها على وحدانية الخالق ، وأنه مالك السموات والأرض (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) .

ولقد جاء إثبات الوحدانية بدليل يجمع بين البلاغة وأعلى درجات المنطق فقال

تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)

ولقد تحداهم سبحانه أن يأتوا بما يدل على ألوهية غيره سبحانه فقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) .

(21/505)

وقد أشار سبحانه من بعد إلى أنه قد أرسل رسلا من قبلكم وكانت دعوتهم التوحيد الخالص ونفى سبحانه عن ذاته العلية اتخاذ الولد ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) .

ونفى سبحانه أن يقول أحد ممن ادعوا أنهم أبناء الله ، ومن يقل بذلك يجزيه جهنم وكذلك يجزى الله الظالمين .

وقد أتى سبحانه بقضية كونية لم يصل إليها العلم إلا فى العصور المتأخرة ، وهو أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا

فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)

وبين بعد ذلك ما فى الأرض من جبال راسيات ، ومن مهاد ، ومن فجاج وسبل ، وجعل السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وبين سبحانه أنه خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ، وأن نهاية النفوس جميعا إلى الموت (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) ،

(22/505)

ثم أشار سبحانه إلى استهزاء المشركين يقولون عند رؤية النبى -صلى الله عليه وسلم- أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ، وقد أشار سبحانه إلى ما فى الإنسان فى طبيعته من الاستعجال ، ويستعجلون العذاب (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، ثم بين سبحانه حال الكافرين (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) ،

ولقد ذكر الله تعالى لتسلية النبى (صلى الله عليه وسلم) ما كان يفعله السابقون من السخرية برسلهم وحاق بالذين سخروا ما كانوا به يستهزئون .

ثم نبه سبحانه إلى ما أنعم به عليهم من نعم وهى دائمة (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) ،

وليس لهم من يمنعهم من الله ، وأنه سبحانه متع هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم وظنوا أنه لا حساب ، وقد وجدوا عقاب الله تعالى لمشركى مكة بالحرب التى كانت تنقص عليهم الأرض من أطرافها .

ولقد أشار سبحانه إلى موسى وهارون وقد آتاهم ما أضاء الحق وذكر المتقين ، وما كان فرقانا بين الهدى والضلال ، وهذا ذكر مبارك وهو القرآن ، أفأنتم معشر المشركين له منكرون .

(23/505)

ذكر بعد ذلك شيئا من مجاوبة إبراهيم لعبّاد الأوثان قائلا لهم : (. . . مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

وحطم " أصنامهم ووضع الفأس التى حطمها بها فى عنق كبيرهم ، ثم جاءوا وتحروا فوقعت الظنة على إبراهيم فأرادوا أن يحرقوه بالنار فجعلها الله تعالى بردا وسلاما على إبراهيم ، وهذا القدر من قصة إبراهيم لم يذكر فى أى سورة أخرى ، مما يدل على أنه لا تكرار فى قصص القرآن ، وإن بدا ذلك بظاهر الأمر لمن لم يفحص مرامى القصص وموضع العبرة فيه ، وقد جرت بين الشاب وبينهم مجادلات فى عبادة الأوثان ، حتى انتهى إلى قوله لهم : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) .

ونجى الله من كيدهم إبراهيم كما نجى الله تعالى لوطا .

وذكر سبحانه بعد ذلك ما وهبه له من إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعله الله من الصالحين وجعلهم أئمة يهدون بأمره ، ويقول سبحانه : (. . . وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) .

ثم ذكر نوحا : (. . . إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) .

وذكر سبحانه داود وسليمان ، وقضايا سليمان وما فهمه سبحانه وتعالى من الحكم فيها وما علمه لداود من صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، وما مكن سبحانه وتعالى لسليمان ، وقال : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82) .

وقص سبحانه قصة نبى الله تعالى أيوب وما أصابه من ضر وصبره لما أصابه (. . . إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ، وقد استجاب له الله تعالى ، وكشف ما به من ضر وقال سبحانه : (. . . وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) .

وأشار سبحانه وتعالى إلى إسماعيل وإدريس وذى الكفل ، وكل من الصابرين ، وقال سبحانه : (وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ، ثم ذكر سبحانه قصة ذى النون فقال : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي

الْمُؤْمِنِينَ (88) .

وذكر خبر زكريا ، ونداءه ربه (رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين ، وقد استجاب الله تعالى له ووهب له يحى .

(25/505)

ثم ذكر سبحانه وتعالى خبر مريم فقال : (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) .

ثم أشار سبحانه إلى أن الناس جميعا أمة واحدة دعيت إلى دين واحد ،

فقال : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون .

وأشار سبحانه إلى أنه مع هذه الوحدة الجامعة تفرقوا حول الأنبياء الذين دعوا إلى عبادة الله تعالى : (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) .

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أحوال يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، وبين سبحانه أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد اقتربت لأن كل آت قريب ، وأشار إلى أحوال الناس عند هذه الساعة ، وبين أنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم ، وبين لنا أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى أولئك عن جهنم مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم

فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

وذكر سبحانه وتعالى ما يكون للكون يوم القيامة ، وما كتبه الله فى كتبه السماوية أن الأرض يرثها الصالحون ، وأمر نبيه أن يقول للمشركين الذين كفروا

برسالته : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112)﴾ .

وبهذا تنتهى السورة الشريفة ، وفيها كما يرى القارئ من هذا العرض أنها تشتمل على إشارات من قصص النبيين ، وصلبها الدعوة إلى التوحيد ، وما لقيه النبيون فى سبيل هذه الدعوة التى هى الحق ، وضل من يعاندها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زهرة التفاسير ص 4824.4819﴾

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

سماها السلف " سورة الأنبياء " .

ففي " صحيح البخاري " عن عبد الله بن مسعود قال : " بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، طه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول وهن من تلادي " .

ولا يعرف لها اسم غير هذا .

ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبيا ومريم ولم يأت في سورة القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام .

فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيا في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيُونُسَ وَلُوطاً ﴾ فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء ، وإلا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية ، على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها .

وهي مكية بالاتفاق .

وحكي ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك ونقل السيوطي في "الإتقان" استثناء قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، ولم يعزه إلى قائل.

ولعله أخذه من رواية عن مقاتل والكلبي عن ابن عباس أن المعنى ننقصها بفتح البلدان، أي بناء على أن المراد من الرؤية في الآية الرؤية البصرية، وأن المراد من الأرض أرض الحجاز، وأن المراد من النقص نقص سلطان الشرك منها.

وكل ذلك ليس بالمتعين ولا بالراجح.

وسيأتي بيانه في موضعه.

وقد تقدم بيانه في نظيرها من سورة الرعد التي هي أيضا مكية بالأرجح أن سورة الأنبياء مكية كلها.

(28/505)

وهي السورة الحادية والسبعون في ترتيب النزول نزلت بعد حم السجدة وقبل سورة النحل، فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة.

ولعلها نزلت بعد إسلام من أسلم من أهل المدينة كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا

النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ، كما سيأتي بيانه ، غير أن ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس أن قوله تعالى في سورة الزخرف : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ، أن المراد بضرب المثل هو المثل الذي ضربه ابن الزبعرى لما نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ كما يأتي يقتضي أن سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف .

وقد عدت الزخرف ثانية وستين في النزول .

وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام والبصرة مائة وإحدى عشرة وفي عد أهل الكوفة مائة واثنتا عشرة .

أغراض السورة :

والأغراض التي ذكرت في هذه السور هي :

الإنذار بالبعث ، وتحقيق وقوعه وإنه لتحقق وقوعه كان قريبا .

وإقامة الحجة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من السماء .

والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله .

والتذكير بأن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله .

وذكر كثير من أخبار الرسل عليهم السلام .

والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وأنه رحمة للعالمين .

والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع ولا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة .

وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة ، وذكر

(29/505)

من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج .

وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق .

ومن الإيماء إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزي كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل .

ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذا لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة .

وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى .

وما يكرهه على فعل ما لا يريد .

وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء .

وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ .

ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء .

وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم وأحوال قومه .

وكيف نصر الله الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم .

وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطعه الضالون قطعا .

وأثنى على الرسل وعلى من آمنوا بهم .

وأن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة ، وأن الله سيحكم بين الفريقين بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 17 صـ 7.5﴾

(30/505)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بالسورة

هذه السورة , مكية تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية . . موضوع العقيدة . . تعالجه في ميادينه الكبيرة: ميادين التوحيد , والرسالة والبعث .

وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها .

فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون , يسير على نواميسه الكبرى ; وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض , وعلى الجد الذي تدبر به السموات والأرض , وليست لعبا ولا باطلا , كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا , ولم يشب خلقه باطل :(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) . .

ومن ثم يجول بالناس . . بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم . . بين مجالي الكون الكبرى :السماء والأرض . الرواسي والفجاج . الليل والنهار . الشمس والقمر . . . موجها أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها , وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر , والمالك الذي لا شريك له في الملك , كما أنه لا شريك له في الخلق . . (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) . .

ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه الأرض , وإلى وحدة مصدر الحياة: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وإلى وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء : (كل نفس ذائقة الموت) . . وإلى وحدة المصير الذي إليه ينتهون: (وإلينا ترجعون) . .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان :(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

فاعبدون) . . وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون الرسل كلهم من البشر: (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) . .

(31/505)

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى, فكذلك ملابسات هذه العقيدة في الأرض . فالسنة التي لا تتخلف أن يغلب الحق في النهاية وأن يزهق الباطل, لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) . . وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين, وينجي الله الرسل والمؤمنين:(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) . . وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون:(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) . .

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة في سلسلة طويلة استعراضا سريعا . يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم - عليه السلام - وعند الإشارة إلى داود وسليمان . ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح, وموسى, وهارون, ولوط, وإسماعيل, وإدريس, وذي الكفل, وذي النون, وزكريا, ويحيى, وعيسى عليهم السلام .

وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي سبقت في سياق السورة . تتجلى . في صورة

وقائع في حياة الرسل والدعوات , بعدما تجلت في صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ; وتتمثل فيها تلك المعاني نفسها في صورة واقع يوم القيامة . .

وهكذا تتجمع الإيقاعات المنوعة في السورة على هدف واحد , هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم) فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين كما يصفهم في مطلع السورة: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم . . .) .

إن هذه الرسالة حق وجد . كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهو في استقبال الرسالة ; ولا مجال لطلب الآيات الخارقة ; وآيات الله في الكون وسنن الكون كله . توحي بأنه الخالق القادر الواحد , والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

(32/505)

نظم هذه السورة من ناحية بنائه اللفظي وإيقاعه الموسيقي هو نظم التقرير , الذي يتناسق مع موضوعها , ومع جو السياق في عرض هذا الموضوع . . يبدو هذا واضحا بموازنته

بنظم سورتي مريم وطه مثلا . فهناك الإيقاع الرخي الذي يناسب جوهما . وهنا الإيقاع المستقر الذي يناسب موضوع السورة وجوها . .

ويزيد هذا وضوحا بموازنة نظم قصة إبراهيم - عليه السلام - في مريم ونظمها هنا .

وكذلك بالتأمل في الحلقة التي أخذت منها هنا الحلقة التي أخذت منها هناك . ففي سورة مريم أخذت حلقة الحوار الرخي بين إبراهيم وأبيه . أما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام , وإلقاء إبراهيم في النار . ليتم التناسق في الموضوع والجو والنظم والإيقاع .

والسياق في هذه السورة يمضي في أشواط أربعة:

الأول:ويبدأ بمطلع قوي الضربات , يهز القلوب هزا , وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق , وهي عنه غافلة لاهية: اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . . . الخ.

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين , الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين , فعاشوا سادرين في الغي ظالمين:(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا:يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) . .

ثم يربط بين الحق والجد في الدعوة , والحق والجد في نظام الكون . وبين عقيدة التوحيد

ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذي أسلفناه .

(33/505)

فأما الشوط الثاني فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالسخرية والاستهزاء , بينما الأمر جد وحق , وكل ما حولهم يوحي باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب والعذاب منهم قريب . . وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة . ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسل قبلهم . ويقرر أن ليس لهم من الله من عاصم . ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهي تنقص الأرض من أطرافها , وتزوي رقعتها وتطويها , فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التي جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء . . .

وينتهي هذا الشوط بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى بيان وظيفته: (قل:إنما أنذركم بالوحي)وإلى الخطر الذي يتهددهم في غفلتهم: (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون)حتى تنصب الموازين القسط وهم في غفلتهم سادرون .

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين , وفيها تتجلى وحدة الرسالة والعقيدة .

كما تتجلى رحمة الله بعباده الصالحين وإيحاؤه لهم وأخذ المكذبين .

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير , في مشهد من مشاهد القيامة المثيرة:ويتضمن ختام السورة بمثل ما بدأت:إيقاعا قويا , وإنذارا صريحا , وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 2364. 2367﴾

(34/505)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الأنبياء

مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة آية

بين يدي السورة

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإِسلامية في ميادينها الكبيرة (الرسالة ، الوحدانية ، البعث والجزاء) وتتحدث عن الساعة وشدائدها ، والقيامة واهوالها ، وعن قصص الانبياء المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين . ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، بينما القيامة تلوح لهم ، وهم عن ذلك اليوم الرهيب غافلون ، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب .

ثم انتقلت الى الحديث عن المكذبين ، وهم يشهدون مصارع الغابرين ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون ، حتى إذا ما فاجأهم العذاب ، رفعوا اصواتهم بالتضرع والاستغاثة ، ولكن هيهات ان ينفع الندم ، او تفيد الاستغاثة . وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق ، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم ، فيما خلق وأبدع ، ولتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الإله الكبير جل جلاله . وبعد عرض الأدلة والبراهين ، الشاهدة على وحدانية رب العالمين ، تذكر السورة حال المشركين ، وهم يتلقون الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وتعقب على ذلك بسنة الله الكونية في اهلاك الطغاة المجرمين ثم تتناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل ، وتتحدث بالاسهاب عن قصة " ابراهيم " عليه السلام مع قومه الوثنيين ، في أسلوب مشوق ، فيه من نصاعة البيان ، وقوة الحجة والبرهان ، ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوع واستسلام ، وفي قصته عبر وعظات ، لمن كان له قلب وفكر سليم . . وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن (اسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وايوب ، واسماعيل ، وادريس ، وذي الكفل ، وذي النون ، وزكريا ، وعيسى) بايجاز ، ولهذا

سميت سورة الانبياء ، مع بيان الاهوال والشدائد التي تعرضوا لها ، وتختم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين .

التسمية :

سميت " سورة الأنبياء " لان الله تعالى ذكر فيها جملة من الانبياء الكرام فى استعراضٍ سريع ، يطول احيانا ويقصر احيانا ، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لاسعاد البشرية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 254.255 ﴾

(36/505)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الأنبياء

اقترب وقرب بمعنى ، والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وهو مجىء الساعة ، والناس : هم المكلفون ، معرضون : أي عن التأهب لهذا اليوم ، من ذكر : أي قرآن ، محدث : أي جديد إنزاله ، يلعبون : أي يسخرون ويستهزئون ، لاهية قلوبهم :

أي غافلة قلوبهم عن ذكر اللّه ، النجوى : التناجي ، والمراد أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم ، أضغاث أحلام : أي تخاليط أحلام رآها فى النوم ، افتراه : اختلقه من تلقاء نفسه ، بل : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ، ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه كما قال ابن مالك وسبقه إليه صاحب الوسيط ووافقه ابن الحاجب وهو الحق .

أهل الذكر : هم أهل الكتاب ، الجسد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان كما قال الخليل بن أحمد ، خالدين : أي باقين ، الوعد : هو نصرهم وإهلاك أعدائهم ، المسرفين : أي الكافرين ، ذكركم : أي عظتكم ، تعقلون : أي تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .

كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها ، القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها ، والإحساس : الإدراك بالحساسة : أي أدركوا بحاسة البصر عذابنا الشديد ، والبأس : الشدة ، والركض : الفرار والهرب يقال ركض الرجل الفرس برجليه إذا كدّه بساقيه ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ، ومنه "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ" والإتراف : إبطار النعمة يقال أترف فلان أي وسّع عليه فى معاشه وقلّ فيه همه ، يا ويلنا : أي يا هلاكنا ، دعواهم : أي دعوتهم التي يردّدونها ، حصيدا : أي كالزرع المحصود بالمناجل ، خامدين : أي كالنار التي خمدت وانطفأت .

اللعب : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح ، واللهو : الفعل يعمل ترويحا عن النفس ، ومن ثم تسمى المرأة والولد لهوا لأنه يستروح بكل منهما ، ويقال لا مرأة الرجل وولده ريحانتاه ، من لدنا : أي من عندنا ، القذف : الرمي البعيد ، وأصل الدمغ : كسر الشيء الرّخو ويراد به هنا القهر والإهلاك ، زاهق : أي زائل ذاهب ، الويل :

الهلاك ، من عنده : هم الملائكة ، لا يستكبرون أي لا يتعظمون ، يستحسرون : أي يكلون ويتعبون ، يقال حسر البعير إذا أعيا وكلّ ، ومثل استحسر وتحسر ، لا يفترون : أي لا يضعفون ولا يتراخون .

ينشرون : من أنشره . أي أحياه ، لفسدتا : أي لخرجتا عن نظامهما وخربتا ، فسبحان اللّه : أي تنزيها له عما وصفوه به ، هذا ذكر من معى : أي هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى ، وذكر من قبلى : أي وموعظتهم وإرشادهم ، لا يسبقونه بالقول : أي لا يتكلمون حتى يأمرهم ، مكرمون : أي مقربون عنده ، من خشيته :

أي بسبب خوف عذابه ، مشفقون : أي حذرون .

المعنى الجملي

بعد أن أبان سبحانه فى سابق الآيات أن كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها قد أبيدت وأنشئ بعدها أقوام آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارعووا وندموا حيث لا ينفع الندم ثم أردف ذلك ذكر أن من فى السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يكلّون ولا يملون منها - ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف ، ثم أقام البرهان على وحدانيته وأنه لو كان فى السموات والأرض إلهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لا دليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت بإخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل للّه ولدا فقال : الملائكة بنات اللّه ، والملائكة خلق مطيعون لربهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خوفه حذرون ، ومن يقل منهم إنه إله فلا جزاء له إلا جهنم ، وهى جزاء كل ظالم

الرتق : الضم والالتحام خلقة كان أو صنعة ، والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين ، الرواسي : الثوابت واحدها راسية ، وتميد : تتحرك وتضطرب ، والفجاج واحدها فج ، وهو شقة يكتنفها جبلان ، والسبل واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع والفلك : كل

شيء دائر ، وجمعه أفلاك .

الخلد : الخلود والبقاء ، الذوق : هنا الإدراك والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، والمدرك لذلك هى النفس المفارقة التي تدرك مفارقتها للبدن ، ونبلوكم :

أي نختبركم والمراد نعاملكم معاملة من يختبركم ، بالخير والشر : أي المحبوب والمكروه ، فتنة : أي ابتلاء ، إن يتخذونك إلا هزوا : أي ما يتخذونك إلا مهزوءا به مسخورا منه .

(39/505)

العجل والعجلة : طلب الشيء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان : هذا النوع ، وقد جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغة كما يقال للرجل الذكي هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خلق من الكرم ، قال المبرد : خلق الإنسان من عجل : أي إن من شأنه العجلة كقوله : " خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ " أي خلقكم ضعفاء ، والآيات هى آيات النقم التي هددهم بوقوعها ، وإراءتهم إياها :

إصابتهم بها .

والمراد بالوعد قيام الساعة ، لا يكفون : أي لا يمنعون ، بغتة : أي فجأة ، تبهتهم :

أي تدهشهم وتحيّرهم ، ينظرون : أي يمهلون ويؤخّرون ، حاق : حل ونزل .

يكلؤكم : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس ، من الرحمن : أي من بأسه وعقابه الذي تستحقونه ، من دوننا : أي من غيرنا ، يصحبون : أي يجارون من عذابنا تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان : أي ومجير منه واختاره الطبري ، نفحة :

أي قسط ونصيب ضئيل ، حبة الخردل : مثل فى الصغر ، حاسبين : أي عادّين محصين .

الفرقان : هى التوراة ، وهى الضياء والموعظة ، وكانت فرقانا ، لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وكانت ضياء لأنها تنير طريق الهدى للمتقين ، وكانت موعظة لما فيها من عبرة للسالكين سبل النجاة ، يخشون ربهم : أي يخشون عذابه ، مشفقون . أي خائفون ، مبارك : أي كثير الخير غزير النفع .

(40/505)

الرشد : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والاسترشاد بالنواميس الإلهية ، التماثيل : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع اللّه كطير أو شجر أو إنسان والمراد بها هنا الأصنام ، سماها بذلك تحقيرا لشأنها ، والعكوف على الشيء : ملازمته والإقبال عليه ، بالحق : أي بالشيء الثابت فى الواقع ، اللاعبين : أي الهازلين ، فطرهن : أي أنشأهن ، من الشاهدين : أي المتحققين صحته ، المثبتة بالبرهان ،

والكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، والمراد المبالغة فى إلحاق الأذى بها

، جذاذا : أي قطعا ، من الجذ ، وهو القطع

يذكرهم : أي يعيبهم ويسبهم ، على أعين الناس : أي على رءوس الأشهاد فى الملأ ،

يشهدون : أي بفعله أو قوله ، فرجعوا إلى أنفسهم : أي ففكروا وتدبروا ،

الظالمون : أي الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم وعدم حفظكم إياها ، ويقال نكسته

:

أي قلبته فجعلت أعلاه أسفله ، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا من تلك الحال

إلى المكابرة والجدل بالباطل

أف : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر ، والكيد : المكر والخديعة .

لوط : هو ابن أخى إبراهيم : قاله ابن عباس ، والأرض : هى أرض الشام .

نافلة : أي عطية ومنحة ، حكما : أي نبوة ، القرية : هى سدوم التي بعث إليها لوط ،

والخبائث : الأعمال الخبيثة التي يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

الكرب : الغم الشديد والمراد به هنا العذاب النازل بقومه وهو الغرق بعد أن لقى منهم

الأذى ، قوم سوء : أي منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

الحرث هنا : الزرع ، والنفش : رعى الماشية فى الليل بلا راع ، وشاهدين : أي حاضرين ، واللبوس : الدروع ، والبأس : الحرب ، والريح العاصف : الشديدة الهبوب ، إلى الأرض التي باركنا فيها : هى أرض الشام ، والغوص : النزول إلى قاع البحار لإخراج شىء منها ، ودون ذلك : أي غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصناعات الغريبة .

أيوب : هو أيوب بن أموص اصطفاه اللّه وبسط الدنيا وكثر أهله وماله ، ثم ابتلاه بموت أولاده بسقوط البيت وبذهاب أمواله وبالمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة ، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم آتاه اللّه من الأولاد ضعف ما كان وأزال عنه ما به من مرض ، وسيأتى تفصيل قصصه فى سورة ص ، والضرر : شائع فى كل ضرر ، والضر (بالضم) : خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما ، والذكرى : التذكرة .

النون : الحوت وجمعه نينان ، وذو النون : أي صاحب الحوت وهو يونس بن متى ، مغاضبا : أي غضبان من قومه ، لتماديهم فى العناد والطغيان ، نقدر عليه : أي نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه ، والظلمات : هى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل

الإحصان : المنع مطلقا ، والفرج فى الأصل : الشق بين الشيئين كالفرجة ، ثم أطلق على السّوءة ، وكثر حتى صار كالصريح فى ذلك ، والروح هو المعنى المعروف ، ونفخ الروح : هو الإحياء ، آية : أي برهانا ودليلا على قدرة اللّه

الأمة : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها فى الدين ، وتقطعوا أمرهم بينهم : أي جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، وحرام : أي ممتنع ، وقرية : أي أهلها ، أهلكناها : أي قدرنا هلاكها ، يأجوج ومأجوج تقدم الكلام فيهما وفى بيان أصلهما ، وحدب : أي مرتفع من الأرض ، ينسلون : أي يسرعون ، واقترب : أي قرب ، الوعد الحق : هو يوم القيامة ، شاخصة : أي مرتفعة أجفانها لا تكاد تطرف من شدة الهول ، والويل : الهلاك .

(42/505)

الحصب : ما يرمى به فى النار لاشتعالها ، والزفير : صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف ، والحسنى : أي الكلمة الحسنى التي تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم ، والحسيس : الصوت الذي يحس من حركتها ، والسجل : هو الصحيفة .

الزبور : الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر : اللوح المحفوظ ، والبلاغ الكفاية ، والعابد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

مسلمون : أي منقادون خاضعون ، تولوا : أي أعرضوا ، آذنتكم : أي أعلمتكم وكثر

استعماله في الإنذار كما في قوله : " فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ " ما توعدون : من غلبة المسلمين عليكم ، فتنة : أي اختبار ، واحكم : أي اقض ، وبالحق : أي العدل والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم ، ما تصفون : أي ما تقولون وتفترون من الكذب كقولكم " بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ " وقولكم إن للرحمن ولدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغي حـ 17 صـ 79.4 ﴾ . باختصار .

(43/505)

وقال الفراء :

ومن سورة الأنبياء

وقوله : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ [2] لو كان المحدث نصبا أو رفعا لكان صوابا . النصب على الفعل : ما يأتيهم محدثا . والرفع على الردّ على تأويل «1» الذكر لأنك لو ألقيت (من)

---

(1) يريد بتأويله ما يصير إليه وهو الرفع إذ حرف الجر زائد .

(44/505)

لرفعت الذكر. وهو كقولك: ما من أحد قائم «1» وقائم وقائما. النصب فى هذه «2» على استحسان «3» الباء، وفى الأولى على الفعل.

وقوله: لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [3] منصوبة «4» على العطف على قوله (وَهُمْ يَلْعَبُونَ) لأن قوله وهم يلعبون بمنزلة لاعبين، فكأنه: إلّا استمعوه لاعبين لاهية قلوبهم. ونصبه أيضا من إخراجه «5» من الاسم المضمر فى (يَلْعَبُونَ) يلعبون كذلك لاهية قلوبهم. ولو رفعت (لاهِيَةً) تتبعها «6» يلعبون كان صوابا كما تقول: عبد اللّه يلهو ولاعب. ومثله قول الشاعر:

يقصد فى أسوقها وجائر «7»

ورفع أيضا على الاستئناف لا بالرّد على يلعبون.

وقوله (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) إنما قيل: وأسرّوا لأنها للناس الذين وصفوا باللهو واللعب و(الَّذِينَ) تابعة للناس مخفوضة كأنك قلت: اقترب للناس الذين هذه حالهم. وإن شئت جعلت (الَّذِينَ) مستأنفة مرفوعة، كأنك جعلتها تفسيرا للأسماء «8» التي فى أسرّوا كما قال (فَعَمُوا «9» وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ.)

---

(1) سقط فى ش.

(2) ا : «هذا» والمراد المثال : ما من أحد قائما

(3) كذا . والمراد حذف الباء وسقوطها ، وفى ا ما يقرب من «استحساف» وكأن معناه الإزالة والإسقاط ، فان من معانى إعادة القشر . يقال : حسف الجلدة : قشرها ، وتحسفت أوبار الإبل : تطايرت . [. . . . . .]

(4) يريد أنه حال كما أن الجملة السابقة حال من الضمير فى (استمعوه) .

(5) يريد أنه حال من الضمير فى (يلعبون) .

(6) يريد أن تكون خبرا لهذه الجملة .

(7) هو رجز قبله :

بات يعشيها بعضب باتر

والظاهر أنه يريد إبلا أخذ يعقرها وينحرها فيضرب بالسيف فى سوقها فيقصد السيف ويصيب السوق تارة وتارة يجور عن القصد . وانظر شواهد العيني فى العطف ، وأمالى ابن الشجري 2/ 167 .

(8) يريد الضمير فى (أسروا) وجعله أسماء لأنه جمع يقوم مقام الأسماء .

(9) الآية 71 سورة الأنعام .

وقوله: قالَ رَبِّي [4] و(قل «1» ربى) وكلّ صواب.

وقوله: أَضْغاثُ أَحْلامٍ، بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ [5] ردّ ببل «2» على معنى تكذيبهم، وإن لم يظهر قبله الكلام بجحودهم، لأن معناه خطاب وإخبار عن الجاحدين.

وقوله: (فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) كالآيات التي جاء بها الأوّلون.

فقال الله «ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها [6] ممّن جاءته آية فكيف يؤمن هؤلاء.

وقوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ [7] أي أهل الكتب «3» التوراة والإنجيل.

وقوله: وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ [8] وحّد الجسد ولم يجمعه وهو عربىّ لأن الجسد كقولك شيئًا مجسّدا لأنه مأخوذ من فعل «4» فكفى من الجمع، وكذلك قراءة من قرأ (لِبُيُوتِهِمْ «5» سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ) والمعني سقوف ثم قال «6» (لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ) يقول: لم نجعلهم جسدا إلّا ليأكلوا الطعام (وَما كانُوا خالِدِينَ) بأكلهم وشربهم، يعنى الرجال المرسلين 116 ا ولو قيل: لا يأكل الطعام كان صوابا تجعل الفعل للجسد، كما تقول. أنتما شيئان صالحان، وشىء صالح وشىء صالحان. ومثله (أَمَنَةً «7» نُعاساً تغشى طائفة) و(يَغْشى) مثله (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ «8» طَعامُ الْأَثِيمِ)

(1) القراءة الأولى لحفص وحمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش. والأخيرة للباقين.

(2) يريد أن (بل) واردة على كلام مفهوم من المقام وهو جحد ونفى . وفى الطبري : «يقول تعالى ذكره :

ما صدقوا بحكمة هذا القرآن ولا أنه من عند اللّه ولا أقروا بأنه وحي أوحاه اللّه إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بل قال بعضهم . . . » .

(3) كأن المراد الجنس إذ هما كتابان . وقد يكون الأصل : الكتاب فكتب بحذف الألف .

(4) ا : «الفعل» .

(5) فى ا : «لبيوتهم فيمن قرأ . سقفا من فضة» وهو فى الآية 33 سورة الزخرف وقراءة «سقفا» بالإفراد لابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر وافقهم الحسن وابن محيصن .

(6) ا : «يقول» .

(7) الآية 154 سورة آل عمران . والقراءة بالتاء لحمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش . وقراءة الياء للباقين .

(8) الآيتان 43 ، 44 سورة الدخان . وقراءة (يغلى) بالياء لابن كثير وحفص ورويس . وقراءة (تغلى) بالتاء للباقين . [. . . . .]

ثم قال (كَالْمُهْلِ تغلى) للشجرة و(يَغْلِي) للطعام وكذلك قوله (أَلَمْ يَكُ «1» نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى) وتمنى.

وقوله: كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ [10] شرفكم.

وقوله: إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ [12]: يهربون وينهزمون.

وقوله: فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ [15] يعنى قولهم: إنا كنّا ظالمين، أي لم يزالوا يردّدونها. وفى هذا الموضع يصلح التذكير. وهو مثل قوله (ذلِكَ «2» مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ) و(تِلْكَ «3» مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ).

وقوله: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً [17] قال الفراء حدثنى «4» حبّان عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال: اللهو: الولد بلغة حضرموت.

وقوله: (إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ) جاء فى «5» التفسير: ما كنا فاعلين و(إن) قد تكون فى معنى (ما) كقوله (إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ) «6» وقد تكون إن «7» التي فى مذهب جزاء «8» فيكون: إن كنّا فاعلين ولكنا لا نفعل. وهو أشبه الوجهين بمذهب العربيّة والله أعلم.

وقوله: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا [22] إلّا فى هذا الموضع بمنزله سوى كأنك قلت: لو كان فيهما آلهة سوى (أو غير) «9» الله لفسد أهلهما «10» (يعنى أهل السماء والأرض).

---

(1) الآية 37 سورة القيامة. وقراءة الياء لحفص ويعقوب وهشام وافقهم ابن محيصن

والحسن. وقراءة الياء للباقين.

(2) الآية 44 سورة آل عمران.

(3) الآية 49 سورة هود.

(4) ا: «حدثنا».

(5) سقط في ا.

(6) الآية 23 سورة فاطر.

(7) ا: «على إن».

(8) ا: «الجزاء».

(9) سقط في ا.

(10) ا: «أهلها».

وقوله: سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ [26] معناه: بل هم عباد مكرمون. ولو كانت: بل عبادا مكرمين مردودة على الولد أي لم نتّخذهم ولدا ولكن اتخذناهم عبادا مكرمين (قالَ صَوابا).

وقوله : أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [30] فتقت السماء بالقطر والأرض بالنبت (وقال «1») (كانَتا رَتْقاً) ولم يقل : رتقين (وهو) كما قال (ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً) .

وقوله : (وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) خفض ولو كانت «2» : حيّا كان صوابا أي جعلنا كلّ شىء حيّا من الماء .

وقوله : وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً [32] ولو «3» قيل : محفوظا يذهب بالتأنيث إلى السّماء وبالتذكير إلى السقف كما قال (أَمَنَةً نُعاساً تغشى) و(يَغْشى) وقيل (سَقْفاً) وهى سموات لأنها سقف على الأرض كالسّقف على البيت . ومعنى قوله (مَحْفُوظاً) : حفظت (مِنَ الشَّياطِينِ «4») بالنجوم .

وقوله : (وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ) فآياتها قمرها وشمسها ونجومها . قد قرأ مجاهد (وهم عن آيتها معرضون) فوحّد (وجعل «5») السماء بما فيها آية وكل صواب .

وقال «6» : فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [33] لغير الآدميّين للشمس والقمر «7» والليل والنهار ، وذلك أن السّباحة من أفعال الآدميين فقيلت بالنون كما قيل : (وَالشَّمْسَ «8» وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ) لأنّ السجود من أفعال الآدميّين . ويقال : إن الفلك موج مكفوف «9» يجرين فيه .

---

(1) ا : «فقال» .

(2) ا : «نصب» .

(3) الجواب محذوف أي لكان صوابا مثلا.

(4) فى ا تأخير ما بين القوسين عما بعده. [. . . . . .]

(5) ا : «فجعل».

(6) ش، ب : «قوله».

(7) سقط فى ا.

(8) الآية 4 سورة يوسف.

(9) كأن المراد أنه محفوظ من التسفل.

(48/505)

وقوله أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ [34] دخلت «1» الفاء فى الجزاء وهو (إن) وفى جوابه لأن الجزاء متّصل بقرآن قبله. فأدخلت فيه ألف الاستفهام على الفاء من الجزاء.

ودخلت الفاء فى قوله (فهم) لأنه جواب للجزاء. ولو حذفت الفاء من قوله (فهم) كان صوابا من وجهين أحدهما أن تريد الفاء فتضمرها، لأنها لا تغيّر (هم) عن رفعها فهناك يصلح الإضمار. والوجه الآخر أن يراد تقديم (هم) إلى الفاء فكأنّه 116 ب قيل: أفهم الخالدون إن متّ.

وقوله : كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ [35] ولو نوّنت فى (ذائقة) ونصبت (الموت) كان صوابا .

وأكثر ما تختار العرب التنوين والنصب فى المستقبل . فإذا كان معناه ماضيا لم يكادوا يقولون إلّا بالاضافة . فأمّا المستقبل فقولك : أنا صائم يوم الخميس إذا كان خميسا مستقبلا . فإن أخبرت عن صوم يوم خميس ماض قلت : أنا صائم يوم الخميس فهذا وجه العمل . ويختارون أيضا التنوين . إذا كان مع الجحد . من ذلك قولهم : ما هو بتارك حقّه ، وهو غير تارك حقه ، لا يكادون يتركون التنوين .

وتركه كثير جائز وينشدون قول أبى الأسود :

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر اللّه إلا قليلا «2»

فمن حذف النون ونصب قال : النيّة التنوين مع الجحد ، ولكنى أسقطت النون للساكن الذي لقيها وأعملت معناها . ومن خفض أضاف .

وقوله : أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ [36] يريد : يعيب آلهتكم . وكذلك قوله : سمعنا «3» فتى

---

(1) ش : «ودخلت» .

(2) كان أبو الأسود تزوج امرأة فلم ير فيها ما يرضيه فقال شعرا لذويها منه هذا البيت يذكر فى شعره أن خال امرأ لم يبله فخانه وأفشى سره فما جزاؤه أليس . جزاؤه الصوم والهجران فقالوا : نعم فقال : تلك صاحبتكم وهى طالق .

وانظر الأغانى 12/ 310 من طبعة الدار.

(3) الآية 60 سورة الأنبياء.

(49/505)

يذكرهم يقال له إبراهيم) أي يعيبهم. وأنت قائل للرجل: لئن ذكرتنى لتندمنّ وأنت تريد: بسوء قال عنترة:

لا تذكرى مهرى وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأشهب «1»

أي لا تعيبينى بأثرة مهرى فجعل الذكر عيبا.

وقوله: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ [37] وعلى عجل «2» كأنك قلت: بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة.

وقوله: وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ [38] (مَتى) فى موضع نصب، لأنّك لو أظهرت جوابها رأيته منصوبا فقلت: الوعد يوم كذا وكذا (ولو «3») جعلت (متى) فى موضع رفع كما تقول: متى الميعاد؟ فيقول: يوم الخميس ويوم الخميس. وقال اللّه (مَوْعِدُكُمْ «4» يَوْمُ الزِّينَةِ) فلو نصبت «5» كان صوابا. فإذا جعلت الميعاد فى نكرة من الأيام والليالى والشهور والسنين رفعت فلقت: ميعادك يوم أو يومان، وليلة وليلتان كما قال اللّه (غُدُوُّها

«6» شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ) والعرب تقول : إنما البرد شهران وإنما الصيف شهران . ولو جاء «7» نصبا كان صوابا . وإنّما اختاروا الرفع لأنك أبهمت الشهرين فصارا جميعا كأنهما وقت للصّيف .

وإنما اختاروا النصب فى المعرفة لأنها حين معلوم مسند إلى الذي بعده ، فحسنت الصّفة ، كما أنك تقول :

عبد اللّه دون من الرجال ، وعبد اللّه دونك فتنصب . ومثله اجتمع الجيشان فالمسلمون جانب والكفّار

---

(1) كانت لعنترة زوجة لا تزال تلومه فى فرس كان يؤثره ويطعمه ألبان إبله فقال فيها هذا الشعر . ورواية ديوانه :

«الأجرب» فى مكان «الأشهب» . والأشهب من الشهبة وهى بياض يصدعه سواد ، وقد يكون من الجرب . يريد أنك إن دمت على هذا نفرت منك وكان جلدك كجلد الأجرب فلا أقربك .

(2) يريد أنه يقال فى اللغة ما فى الآية وهذا أيضا . ولا يريد أن هذا قراءة .

(3) : «فلو» .

(4) الآية 59 سورة طه .

(5) ا : «نصب» .

(6) الآية 12 سورة سبا . [. . . . .]

(7) ا : «كان» .

(50/505)

جانب . فإذا أضفت نصبت فقلت : المسلمون جانب صاحبهم ، والكفّار جانب صاحبهم فإذا «1» لم تضف الجانب صيرتهم هم كالجانب لا أنهم فيه فقس على ذا «2»

وقوله : وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ [39] .

وقوله : (فَمَنْ يَنْصُرُنِي «3» مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) : فمن يمنعنى . ذلك معناه - واللّه أعلم - فى عامّة القرآن .

وقوله : قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ [42] . مهموزة (ولو «4») تركت 117 ا همز مثله فى غير القرآن قلت : يكلوكم بواو ساكنة أو يكلاكم بألف ساكنة مثل يخشاكم : ومن جعلها واوا ساكنة قال كلان بالألف تترك منها النّبرة «5» . ومن قال : يكلاكم قال : كليت مثل قضيت . وهى من لغة قريش . وكلّ حسن ، إلا أنهم يقولون فى الوجهين مكلوّة بغير همز ، ومكلوّ بغير همز أكثر ممّا يقولون مكلّية . ولو قيل مكلىّ فى قول الذين يقولون كليت كان صوابا .

وسمعت بعض العرب ينشد قول الفرزدق :

وما خاصم الأقوام من ذى خصومة كورها ، مشنىّ إليها حليلها «6»

فبنى على شنيت بترك النبرة. وقوله (مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ) يريد : من أمر الرحمن ، فحذف الأمر وهو يراد كما قال فى موضع آخر (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ) يريد : من يمنعنى من عذاب اللّه. وأظهر المعنى فى موضع آخر فقال (فَمَنْ يَنْصُرُنا «7» مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا) .

---

(1) ا : «وإذا» .

(2) ا : «هذا» .

(3) الآية 63 سورة هود .

(4) ا : «فلو»

(5) النبرة : الهمزة.

(6) الورهاء : الحمقاء . والشنآن : البغض . كانت النوار امرأة الفرزدق كرهته وأرادت فراقه فخاصمته عند ابن الزبير فقال قصيدة فى هذا المعنى . وانظر الديوان 606 .

(7) الآية 29 سورة غافر .

وقوله : لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ [43] يعنى الآلهة لا تمنع أنفسها (وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) يعنى الكفار يعنى يجارون (وهى «1» منّا لا تجار) ألا ترى أن العرب تقول (كان لنا «2» جارا) ومعناه يجيرك ويمنعك فقال (يُصْحَبُونَ) بالإجارة «3» .

وقوله : وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ [45] ترفع (الصمّ) لأن الفعل لهم . وقد قرأ أبو عبد الرحمن «4» السّلمىّ (ولا تسمع الصم الدعاء) ، نصب (الصم) بوقوع الفعل عليه .

وقوله : وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ [47] القسط من صفة الموازين وإن كان موحّدا . وهو بمنزلة قولك للقوم : أنتم رضا وعدل . وكذلك الحقّ إذا كان من صفة واحد أو اثنين أو أكثر من ذلك كان واحدا .

وقوله : (لِيَوْمِ الْقِيامَةِ) وفى «5» يوم القيامة .

وقوله : عز وجل (أَتَيْنا بِها) ذهب إلى الحبّة ، ولو كان أتينا به (كان «6» صوابا) لتذكير المثقال . ولو رفع المثقال كما قال (وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ «7» فَنَظِرَةٌ) كان صوابا ، وقرأ مجاهد (آتينا بها) بمدّ الألف يريد : جازينا بها على فاعلنا . وهو وجه حسن :

وقوله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً [48] هو من صفة الفرقان ومعناه - والله أعلم - آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرا ، فدخلت الواو كما قال (إِنَّا زَيَّنَّا «8» السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ وَحِفْظاً) جعلنا ذلك ، وكذلك (وَضِياءً وَذِكْراً) آتينا ذلك .

---

(1) سقط فى ا .

(2) ا : «أنالك جار» .

(3) ا : «للاجارة» .

(4) هى قراءة ابن عامر . وقد وافقه الحسن .

(5) يريد أن اللام بمعنى فى .

(6) أخر فى ا عن «لتذكير المثقال» . [. . . . .]

(7) الآية 280 سورة البقرة وقد قرأ بالرفع نافع وأبو جعفر . وقرأ الباقون بالنصب .

(8) يريد أن الضياء من صفة الفرقان وإن عطف عليه بالواو . وفى ا بعد قوله : ضياء : «هو من صفة الفرقان .

وهو كقولك : آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرا» . والآيتان 6 و7 من سورة الصافات .

(52/505)

وقوله : وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ [50] المبارك رفع من صفة الذكر . ولو كان نصبا على قولك : أنزلناه مباركا كان صوابا .

وقوله : وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ [51] هداه ، إذ كان فى السّرب «1» حتّى بلّغه اللّه ما بلّغه .

ومثله (وَلَوْ شِئْنا «2» لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها) : رشدها .

وقوله : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ [57] كانوا أرادوا الخروج إلى عيد لهم ، فاعتلّ عليهم إبراهيم ، فتخلّف (فَقالَ «3») : إِنِّي سَقِيمٌ) ، فلمّا مضوا كسر آلهتهم إلّا أكبرها ، فلمّا رجعوا قال قائل منهم : أنا سمعت إبراهيم يقول : وتاللّه لأكيدنّ أصنامكم . وهو قوله (سَمِعْنا فَتًى «4» يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ) : يذكرهم بالعيب (والشتم «5») وبما قال من الكيد .

وقوله : فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً [58] قرأها يحيى «6» بن وثاب (جذاذا) وقراءة الناس بعد
117 ب (جُذاذاً) بالضم . فمن قال (جُذاذاً) فرفع الجيم فهو واحد مثل الحطام والرفات . ومن قال (جذاذا) بالكسر فهو جمع كأنه جذيذ وجذاذ مثل خفيف وخفاف .

وقوله : عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ [61] : على رءوس الناس (لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) عليه بما شهد به الواحد .

ويقال : لعلّهم يشهدون أمره وما يفعل به .

وقوله : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا [63] هذا ، قال بعض «7» الناس بل فعّله كبيرهم مشدّدة يريد : فلعله

---

(1) السرب: بيت فى الأرض لا منفذ له. والمراد المغارة التي ولدته أمه فيها خوفا من نمرود وكان يذبح الأبناء وقد مكث فيها زمنا. وانظر تاريخ الطبري (طبعة المعارف) 1/ 234.

(2) الآية 13 سورة السجدة.

(3) ا: «فقال».

(4) فى الآية 60 من سورة الأنبياء.

(5) سقط فى ا.

(6) وهى قراءة الكسائي وافقه الأعمش وابن محيصن.

(7) هو محمد بن السميقع فى النيسا بورى

(53/505)

كبيرهم، وقال بعض الناس: بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون. فجعل فعل الكبير مسندا إليه إن كانوا ينطقون وهم لا ينطقون. والمذهب الذي العوامّ عليه: بل فعله كما قال يوسف (أَيَّتُهَا «1» الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ) ولم يسرقوا. وقد أيّد الله أنبياءه بأكثر من هذا.

وقوله: ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ [65] يقول: رجعوا عند ما عرفوا من حجّة إبراهيم فقالوا

:

(لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ) (والعلم «2» والظنّ بمنزلة اليمين. فلذلك لقيت العلم بما)

فقال: (عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ) كقول القائل: واللّه ما أنت بأخينا. وكذلك قوله: (وَظَنُّوا «3»

ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ.)

ولو أدخلت العرب (أن) قبل (ما) فقيل: علمت أن ما فيك خير وظننت أن ما فيك خير

كان صوابا. ولكنهم إذا لقى شيئا من هذه الحروف أداة مثل (إن) التي معها اللام أو

استفهام كقولك «4»: اعلم لى «5» أقام «6» عبد اللّه أم زيد (أو لئن) «7» ولو اكتفوا

بتلك الأداة فلم يدخلوا عليها (أن) ألا ترى قوله (ثُمَّ بَدا «8» لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ

لَيَسْجُنُنَّهُ) لو قيل: أن ليسجننّه كان صوابا كما قال الشاعر:

وخبّرتما أن إنّما بين بيشة ونجران أحوى والمحلّ خصيب «9»

فأدخل أن على إنما فلذلك أجزنا دخولها على ما وصفت لك من سائر الأدوات.

وقوله: وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً «10» [72] النافلة ليعقوب خاصّة لأنّه ولد

الولد، كذلك بلغني.

وقوله: وَلُوطاً آتَيْناهُ [74] نصب لوط من الهاء التي رجعت عليه من (آتَيْناهُ)، والنصب

الآخر

---

(1) الآية 70 سورة يوسف

(2) سقط ما بين القوسين فى ا .

(3) الآية 48 سورة فصلت .

(4) ش : «كقولهم» .

(5) ش : «أن لى» . وفى ا : «أقام لى» . وما هنا عن ج. وقوله : «أو لئن» سقط فى ا

[. . . . . .]

(6) ش : «أن لى» . وفى ا : «أقام لى» . وما هنا عن ج. وقوله : «أو لئن» سقط فى ا

(7) ش : «أن لى» . وفى ا : «أقام لى» . وما هنا عن ج. وقوله : «أو لئن» سقط فى ا

(8) الآية 35 سورة يوسف

(9) سبق هذا البيت فى تفسير قوله تعالى فى سورة يوسف «وشهد شاهد من أهلها» ص 37 .

(10) ا : «فالنافلة» .

(54/505)

على إضمار (واذكر لوطا) أو (وَلَقَدْ أَرْسَلْنا) أو ما يذكر فى أوّل السورة وإن لم يذكر فإنّ الضمير إنما هو من الرسالة أو من الذكر ومثله (وَلِسُلَيْمانَ «1» الرِّيحَ) فنصب (الريح)

بفعل مضمر معلوم معناه : إمّا سخّرنا ، وإمّا آتيناه .

وكذلك قوله : (وَنُوحاً «2» إِذْ نادى) فهو على ضمير الذكر .

وقوله : (وَداوُدَ «3» وَسُلَيْمانَ) وجميع ما يأتيك من ذكر الأنبياء فى هذه السورة نصبتهم على النسق على المنصوب بضمير الذكر .

وقوله : إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ [78] النفش بالليل ، وكانت غنما لقوم وقعت «4» فى كرم آخرين فارتفعوا إلى داود ، فقضى لأهل الكرم بالغنم ، ودفع الكرم إلى أهل الغنم فبلغ ذلك سليمان ابنه ، فقال : غير هذا كان أرفق بالفريقين . فعزم عليه داود ليحكمنّ . فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الكرم فينتفعوا بألبانها وأولادها وأصوافها ، ويدفع الكرم إلى أرباب الشاء 118 ا فيقوموا عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ، فذكر أن القيمتين كانتا فى هذا الحكم مستويتين : قيمة ما نالوا من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم من الكرم . فذلك قوله : (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) .

وقوله «5» : (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ) .

وفى بعض «6» القراءة : (وكنّا لحكمهما شاهدين) وهو «7» مثل قوله : (فَإِنْ كانَ «8» لَهُ إِخْوَةٌ) يريد : أخوين فما زاد . فهذا كقوله : (لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ) إذ جمع اثنين .

---

(1) الآية 81 سورة الأنبياء

(2) الآية 76 سورة الأنبياء

(3) الآية 78 سورة الأنبياء

(4) ا : «فوقعت»

(5) زيادة يقتضيها السياق

(6) هى قراءة ابن عباس، كما فى البحر 6/ 331

(7) أي قراءة الجمهور : «لحكمهم»

(8) الآية 11 سورة النساء

(55/505)

وقوله : وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ [80] و(ليحصنكم) «1» و(لنحصنكم «2») فمن قال : (ليحصنكم) بالياء كان لتذكير اللّبوس. ومن قال : (لِتُحْصِنَكُمْ) بالتاء ذهب إلى تأنيث الصنعة. وإن شئت جعلته لتأنيث الدروع لأنها هى اللبوس. ومن قرأ : (لنحصنكم)، بالنون يقول :

لنحصنكم نحن : وعلى هذا المعنى يجوز (ليحصنكم) بالياء اللّه من بأسكم أيضا.

وقوله : تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ [81] كانت تجرى بسليمان إلى كلّ موضع ثم تعود به من يومه إلى منزله. فذلك قوله (تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ).

وقوله : وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ [82] دون الغوص . يريد سوى الغوص .

من البناء .

وقوله : (وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ) للشياطين «3» . وذلك أنهم كانوا يحفظون من إفساد ما يعملون فكان «4» سليمان إذا فرغ بعض الشياطين من عمله وكّله بالعمل الآخر ، لأنه كان إذا فرغ ممّا يعمل فلم يكن له شغل كرّ على تهديم ما بنى فذلك قوله : (وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ) .

وقوله : وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ [84] ذكر «5» أنه كان لأيوب سبعة بنين وسبع بنات فماتوا فى بلائه . فلمّا كشفه اللّه عنه أحيا اللّه له بنيه وبناته ، وولد له بعد ذلك مثلهم .

فذلك قوله :

(أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً) فعلنا ذلك رحمة .

وقوله : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ [87] يريد أن لن نقدر عليه من العقوبة ما قدرنا .

وقوله : (فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ) يقال : ظلمة البحر ، وبطن الحوت «6» ومعاها (مقصور) الذي كان فيه يونس فتلك الظلمات .

---

(1) قراءة التاء لابن عامر وحفص وأبى جعفر وافقهم الحسن وقراءة النون لأبى بكر ورويس وقراءة الياء للباقين : [. . . . .]

(2) قراءة التاء لابن عامر وحفص وأبى جعفر وافقهم الحسن وقراءة النون لأبى بكر ورويس وقراءة الياء للباقين :

(3) سقط فى ا

(4) ا : «وكان»

(5) ش : «ذلك»

(6) أي معى الحوت وكأنه أنثه ذهابا به إلى السمكة

(56/505)

وقوله : وَكَذلِكَ نُنْجِي «1» الْمُؤْمِنِينَ [88] القراء يقرءونها بنونين ، وكتابها بنون واحدة .

وذلك أن النون الأولى متحركة والثانية ساكنة ، فلا تظهر السّاكنة على اللسان ، فلمّا خفيت حذفت .

وقد قرأ عاصم «2» - فيما أعلم - (نجّى) بنون واحدة ونصب (المؤمنين) كأنه احتمل اللحن ولا نعلم «3» لها جهة إلّا تلك لأن ما لم يسمّ فاعله إذا خلا باسم رفعه ، إلا أن يكون «4» أضمر المصدر فى نجّى فنوى به الرفع ونصب (المؤمنين) فيكون كقولك : ضرب الضرب زيدا ، ثم تكنى عن الضرب فتقول : ضرب زيدا . وكذلك نجّى النجاء المؤمنين .

وقوله : وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ [90] يقول : كانت عقيما فجعلناها تلد فذلك صلاحها .

وقوله : أَحْصَنَتْ فَرْجَها [91] ذكر المفسّرون أنه جيب درعها «5» ومنه نفخ فيها .

وقوله : وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً

(ولم يقل آيتين) لأن شأنهما واحد . ولو قيل : آيتين لكان صوابا لأنها ولدت وهى بكر ، وتكلّم عيسى فى المهد فتكون آيتين إذ اختلفتا .

وقوله : إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً [92] تنصب (أُمَّةً واحِدَةً) على القطع «6» . وقد رفع الحسن (أمتكم أمة واحدة) على أن يجعل الأمة خبرا ثم يكرّ على الأمة الواحدة بالرفع على نيّة الخبر أيضا كقوله : (كَلَّا إِنَّها «7» لَظى نَزَّاعَةً لِلشَّوى) .

---

(1) رسمت فى المصحف بنون واحدة (نجى) ، كما ذكر المؤلف

(2) هى رواية أبى بكر عنه أما رواية حفص عنه فتنجى بنونين وقد قرأ أيضا بنون واحدة ابن عامر

(3) ا : «نعرف»

(4) لم يرتض هذا الوجه ابن جنى وخرج القراءة على أن أصلها : ننحى بنون مضمومة فنون مفتوحة من التنجية ثم حذفت النون الثانية إذ لو كان ماضيا كما يقدر الفراء لا نفتحت اللام . وانظر الخصائص 1/ 398

(5) درع المرأة : قميصها

(6) ا : فقيل : آية»

(7) الآيتان 15 ، 16 سورة المعارج وقراءة رفع (نزاعة) لغير حفص فعنده النصب

وفى قراءة أبىّ فيما أعلم : (إنّها لإحدى «1» الكبر نذير للبشر) الرفع على التكرير ومثله :

(ذُو الْعَرْشِ «2» الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) .

وقوله : وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها [95] قرأها ابن عباس . حدثنى بذلك غير واحد ، منهم هشيم عن داود عن عكرمة عن ابن عباس ، وسفيان عن عمير وعن ابن عباس . وحدثنى عمرو بن أبى المقدام عن أبيه عن سعيد بن جبير (وحرم) وحدّثنى بعضهم عن يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعىّ (وحرم على) وأهل المدينة والحسن (وَحَرامٌ) «3» بألف . وحرام أفشى فى القراءة . وهو بمنزلة قولك : حلّ وحلال ، وحرم وحرام .

وقوله : وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ [96] والحدب كل أكمة (ومكان «4» مرتفع) .

وقوله : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ [97] معناه - والله أعلم - : حتى إذا فتحت اقترب . ودخول الواو فى الجواب فى (حَتَّى إِذا) بمنزلة قوله (حَتَّى «5» إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها) . وفى قراءة عبد الله فلمّا جهّزهم بجهازهم «6» جعل السّقاية) وفى قراءتنا بغير واو . ومثله فى الصافات (فَلَمَّا أَسْلَما «7» وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنادَيْناهُ) معناه ناديناه ، وقال

امرؤ القيس :

فلمّا أجزنا ساحة الحىّ وانتحى بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل «8»

يريد انتحى .

---

(1) الآيتان 35 ، 36 سورة المدثر

(2) الآيتان 15 ، 16 سورة البروج [. . . . .]

(3) وهى قراءة أبى بكر وحمزة والكسائي وافقهم الأعمش والباقون بفتح الحاء والراء وبألف بعد هى (حرام) .

(4) فى ا : «مرتفعة»

(5) الآية 73 سورة الزمر

(6) الآية 70 سورة يوسف

(7) الآيتان 103 ، 104 من سورة الصافات

(8) البيت من معلقته . وانتحى : اعترض . والخبت : المتسع من بطون الأرض . والقفاف جمع القف : ما ارتفع من الأرض والعقنقل : الوادي العظيم المتسع وانظر الديوان 15

وقوله : (فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) تكون (هى) عمادا يصلح فى موضعها (هو) فتكون كقوله : (إِنَّهُ أَنَا «1» اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ومثله قوله : (فَإِنَّها «2» لا تَعْمَى الْأَبْصارُ) فجاء التأنيث لأن الأبصار مؤنّثة والتذكير للعماد . وسمعت بعض العرب يقول : كان مرّة وهو ينفع الناس أحسابهم فجعل (هو) عمادا . وأنشدنى بعضهم :

بثوب ودينار وشاة ودرهم فهل هو مرفوع بما ها هنا راس

وإن شئت جعلت (هى) للأبصار كنيت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها كما قال الشاعر «3» :

لعمر أبيها لا تقول ظعينتى ألا فرّعنى مالك بن أبى كعب

فذكر الظعينة وقد كنى عنها فى (لعمر) «4» .

وقوله : حَصَبُ جَهَنَّمَ [98] ذكر أن الحصب فى لغة أهل اليمن الحطب . حدّثنا أبو العباس قال حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : حدّثنى قيس بن الربيع عن محمد بن الحكم الكاهلىّ عن رجل سمع عليّا يقرأ (حطب) بالطاء . حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى ابن أبى يحيى المدنىّ عن أبى الحويرث رفعه إلى عائشة أنها قرأت «5» (حطب) كذلك . وبإسناد لابن أبى يحيى عن ابن عباس أنه قرأ «6» (حضب) بالضاد . وكلّ ما هيّجت به النار أو أوقدتها به فهو حضب .

وأمّا الحصب فهو فى معنى لغة نجد : ما رميت به فى النار ، كقولك : حصبت الرجل أي

رميته.

---

(1) الآية 9 سورة النمل

(2) الآية 46 سورة الحج.

(3) هو مالك بن أبى كعب من شعر يقوله فى حرب كانت بينه وبين رجل من بنى ظفر

وانظر الأغانى الدار 16/ 234 وما بعدها.

(4) أي في قوله. «لعمر أبيها»

(5) ا: «قرأته»

(6) ا: «قرأها»

(59/505)

وقوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ [104] بالنون وبالتاء (تطوى «1») ولو قيل (يطوى) كما قيل (نَطْوِي) بالنون جاز.

واجتمعت القراء على (السِّجِلِّ «2») بالتثقيل.

وأكثرهم يقول (للكتاب) وأصحاب «3» عبد اللّه (لِلْكُتُبِ) والسّجلّ: الصّحيفة.

فانقطع الكلام عند الكتب، ثم استأنف فقال (كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) فالكاف للخلق

«4» كأنك قلت «5» : نعيد الخلق كما بدأناهم (أَوَّلَ مَرَّةٍ «6») .

وقوله (وَعْداً عَلَيْنا) كقولك حقّا علينا .

وقوله : أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ [105] يقال : أرض الجنّة . ويقال : إنها الأرض التي وعدها بنو إسرائيل ، مثل قوله : (وَأَوْرَثْنَا «7» الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا .

وقوله : إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً [106] أي فى القرآن .

وقوله : يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ [108] وجه الكلام (فتح أنّ «8») لأن (يُوحى) يقع عليها .

و(إنّما) بالكسر يجوز . وذلك أنها أداة كما وصفت لك من قول الشاعر :

. . . أن إنّما بين بيشة

فتلقى (أن) كأنه قيل : إنما يوحى إلى أن إنّما إلهكم إله واحد .

---

(1) هى قراءة أبى جعفر

(2) عن الحسن فيه تسكين الجيم وتخفيف اللام كما فى الإتحاف والسين أيضا مكسورة كما فى القاموس [. . . . . .]

(3) هى قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف . وافقهم الأعمش .

(4) يريد أنها متعلقة في المعنى بضمير الخلق فى (نعيده) .

(5) ا : «كأنك قدمتها فقلت» .

(6) سقط فى ا .

(7) الآية 137 سورة الأعراف .

(8) ا : «الفتح» .

(60/505)

وقوله : قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ [112] جزم «1» : مسألة سألها ربّه . وقد قيل «2» : قل ربّى أحكم بالحق ترفع (أحكم) وتهمز ألفها . ومن قال قل ربى أحكم بالحق كان موضع ربى رفعا ومن قال :

ربّ احكم موصولة كانت فى موضع نصب بالنداء .

وقوله : إِنْ أَدْرِي [111] رفع على معنى ما أدرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 197. 214 ﴾

---

(1) سقط فى ا . وهو يريد سكون الميم فى احكم وقد جرى على (قل) بصيغة الأمر وهى قراءة غير حفص . أما هو فيقرأ بصيغة الماضي .

(2) هى قراءة ابن عباس وعكرمة والجحدري وابن محيصن كما فى البحر 6/ 345 .

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الأنبياء عليهم السلام

(اقترب للناس حسابهم) [1] [اقترابه] من وجهين: أحدهما : أن كل آت قريب . والثاني: قلة ما يبقى بالقياس إلى ما مضى . (محدث) [2] أي: في التنزيل . (لاهية) [3] مشتغلة عنه من لهيت ألهي . ويجوز طالبة للهو ، من لهوت ألهو . وإذا تقدمت الصفة على الموصوف ، انتصب . كقول الشاعر:

780- [لـ]ـمية موحشاً طلل [يلوح] كأنه خلل . (وأسروا النجوى الذين ظلموا) [3] جاء على قولهم: أكلوني البراغيث . (أفتأتون السحر) [3] أفتقبلونه ؟ (فيه ذكركم) [10] شرفكم إن عملتم به . (يركضون) [12] [يسرعون ، ويستحثون] ، ركضت الفرس ، إذا حثثته على المر السريع ،

فعدا ، ولا يقال فركض . (لعلكم تسئلون) [13] أي: لتسألوا عما كنتم تعملون . وقيل: إنه على [استهزاء بهم] . (حصيداً خامدين) [15] أي: خمدوا كالنار ، وحصدوا كما يحصد الزرع بالفأس . ([و] لا يستحسرون) [19] لا يتعبون ، ولا ينقطعون عن العمل ،

من البعير الحسير، وهو المعيى. (ينشرون) [21] يحيون الموتى، أنشر الله الموتى

فنشروا. (ومن يقل منهم إني إله) [29]

قيل: إنه إبليس في [دعائه إلى] طاعته. (كانتا رتقاً) [30] [ملتصقتين] ففتق الله بينهما

بالهواء. وقيل: فتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات. (يذكر ءالهتكم) [36] يعيبهم.

قال عنترة:

781- لا تذكري فرسي وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجرب/ (خلق الإنسان

من عجل) [37] فسر باسم الجنس، كقوله: (وكان الإنسان عجولاً) وفسر بآدم عليه

السلام، وأنه لما نفخ فيه الروح، فقبل أن استكمله نهض. وقال الأخفش: معناه خلق

الإنسان في عجلة. وذكر صاحب العين: أن العجل: الحمأة.

(62/505)

وذكر غلام ثعلب في الياقوتة: إنه التراب، وأنشد ابن الأعرابي: 782- والنبع ينبت بين

الصخر ضاحية والنخل ينبت بين الماء والعجل. ووجه المطابقة بين ذلك وقوله: (فلا

تستعجلون): أن من خلق الإنسان مع ما فيه من بديع الصنعة التي يعجز عنها كل قادر،

ويحار فيها كل ناظر، لا يعجزه ما استعجلوه من الآيات. (فتبهتهم) [40]

تفجؤهم. وقيل: [تحيرهم]. (نفحة) [46] دفعة يسيرة. وقيل: نصيب، يقال: نفح له من العطاء، إذا أعطاه نصيباً منه. (ونضع الموازين القسط) [47] على قولهم: قوم رضى وعدل. (جذاذاً) [58] حطاماً، ويجوز قطعاً، جمع جذاذة، مثل: زجاجة وزجاج، و(جذاذاً): جمع جذيذ، مثل: خفيف وخفاف.

(فتى يذكرهم) [60] يعيبهم. (قال بل فعله كبيرهم) [63] أي: يجب أن يفعله كبيرهم - أن لو [كان] معبوداً على زعمكم - لئلا يعبد معه غيره، فهو على إلزام الحجة لا الخبر. وقيل: إنه خبر معلق بشرط لا يكون -وهو نطق الأصنام- فيكون نفياً [للمخبر به] كما قال:

783- إذا شاب الغراب أتيت أهلي فصار القار كاللبن الحليب. وقال آخر: 784- وقد تركناك لا ترانا على بابك حتى ترى قفاك اللئيما. والكسائي [يقف] على "بل فعله" أي: بل فعله من فعله. ثم يبتدئ بقوله: (كبيرهم هذا). (إذ نفشت فيه غنم القوم) [78] رعت ليلاً. يقال: نفشت الغنم/ونفشها [أهلها]، إن لم يكن معها راعيها فهي بالليل سدى وبالنهار همل. يقال: أسداها أهلها وأهملها، إذا فعلوا ذلك ثم غابوا.

(ففهمناها سليمان) [79] فدفع الغنم إلى صاحب الحرث، لينتفع بدرها ونسلها، ودفع الحرث إلى صاحب الغنم، وجعل عليه عمارته، حتى إذا نبتت في السنة القابلة [ترادا].

اللبوس: الدرع. للواحد [و]الجميع. قال الراجز: 785- إلبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها. (وذا النون) [87] أي: صاحب الحوت، وبه يفسر قوله: (ن والقلم)

(63/505)

في بعض الروايات. قال: 786- زر جانب القصر نعم القصر والوادي ما شئت من حاضر فيه [ومن] بادي 787- ترفي [سفاينه] والوحش راتعة والضب والنون والملاح والحادي

(إذ ذهب مغاضباً) [87] أي: مغاضباً لقومه حين استبطأ وعد الله فخرج عن قومه بغير أمره، ولم يصبر، كما قال تعالى: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت)، (فظن أن لن نقدر عليه) [87] لن نضيق عليه كقوله: (ومن قدر عليه رزقه) وقيل: إنه على تقدير الاستفهام، أي: أفظن؟

(في الظلمات) [87] ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت. (إن هذه أمتكم) [92] أي: دينكم (أمة واحدة) ديناً واحداً ونصبه على القطع. وقيل: معناه إنكم خلق واحد، فكونوا على دين واحد. (وتقطعوا أمرهم بينهم) [93] اختلفوا في الدين وتفرقوا.

(وحرام) [95] واجب. (على قرية) أهل قرية. (أهلكناها)

أي: بالعذاب. وقال عكرمة: وجدناها هالكة بالذنوب، كقولك: أعمرت بلدة وأخربتها، إذا وجدتها كذلك. (أنهم لا يرجعون) لا يؤمنون. (من كل حدب) [96] الحدب فجاج الأرض. وقيل/: قلاعها. (ينسلون) [96] يخرجون. وقيل: يسرعون، من نسلان الذئب، قال الهذلي: 788- حامي الحقيقة [نسال] الوديقة معتاق الوسيقة جلد غير ثنيان

789- آبي الهضيمة ناب العظيمة متلاف الكريمة لا سقط ولا وان. (حصب جهنم) [98] حطبها. وقيل: يحصبون فيها بالحصباء. (الفزع الأكبر) [103] إطباق باب النار على أهلها، عن علي رضي الله عنه، وعن الحسن: أنه النفخة الأخيرة.

(كطي السجل) [104] اسم الملك الذي يكتب الأعمال. وقيل: كاتب النبي عليه السلام. وقيل: اسم الصحيفة، فيكون الكاتب. [مصدراً] كالكتابة، نحو قوله: (وكل شيء أحصيناه كتاباً). (ولقد كتبنا في الزبور) [105] زبور داود عليه السلام. (من بعد الذكر) [105]

أي: التوراة. وقال مجاهد: (الزبور) الكتب المزبورة التي أنزلها الله على أنبيائه. و(الذكر): أم الكتاب. (ءاذنتكم على سواء) [109] أمر بين سوي. وقيل: قصد عدل. (لعله فتنة) [111] أي: إبقاؤكم على ما أنتم عليه، كناية عن مدلول غير مذكور. (قال رب احكم بالحق) [112] أي: بحكمك الحق. وقيل: افصل بيننا بإظهار الحق.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا شهد حرباً قرأها.

[تمت سورة الأنبياء]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 922.939﴾

(65/505)

وقال الأخفش:

سورة (الأنبياء)

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

قال ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ كأنه قال ﴿وَأَسَرُّوا﴾ ثم فسره بعد فقال: "هم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أو جاء هذا على لغة الذين يقولون "ضَرَبُونِي قَوْمُكَ".

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ

شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال ﴿ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ قال ﴿ كَانَتَا ﴾ لأنه جعلهما صنفين كنحو قول العرب: "هُما لِقاحانِ سُودَانِ" وفي كتاب الله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ ﴾ . وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الخمسون بعد المئتين]:

رَأَوْا جَبَلاً فَوْقَ الجِبالِ إِذا الْتَقَتْ * رُؤُوسُ كَبِيرَيْهِنَّ يَنْتَطِحانِ

فقال "رُؤوسُ" ثم قال "يَنْتَطِحانِ" وذا نحو قول العرب "الجُزُراتِ" و"الطُرُقَاتِ" فيجوز في ذا ان تقول: "طُرُقانِ" للاثنين و"جُزُرانِ" للاثنين. وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الحادي والخمسون بعد المئتين]:

وإِذا الرِّجالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُم * خُضُعَ الرِّقابِ نَواكِسِي الأَبصارِ

والعرب تقول: "مَوَالِيات" و"صَواحِبَاتُ يوسُف" . فهؤلاء قد كسروا فجمعوا "صَواحِب" وهذا المذهب يكون فيه المذكر "صَواحِبُون" ، ونظيره "نَواكِسي" . وقال بعضهم [152 ب] "نَواكِسِ" في موضع جرّ كما تقول "جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ" .

﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

وقال ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ يقول: "من تعجيلٍ من الأمْرِ، لأَنَّه قال: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ ﴾ فهذا العجل كقوله ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وقوله ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فإِنَّني ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾

وقال ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ فذكَّر الأصنام وهي من الموات لأنها كانت عندهم ممن يعقل او ينطق.

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ فذكر الشياطين وليسوا من الانس إِلاّ أَنَّهم مثلهم في الطاعة والمعصية. الا ترى انك تقول "الشياطينُ يَعْصُونَ" ولا تقول: "يَعْصِينَ" وانما جمع ﴿ يَغُوصُونَ ﴾ و ﴿ مَنْ ﴾ في اللفظ واحد لأن ﴿ مَنْ ﴾ في المعنى لجماعة. قال الشاعر:

[من الكامل وهو الشاهد الثامن والأربعون بعد المئتين]:

لَسْنَا كَمَنْ جَعَلَتْ إِيادٍ دارَهَا * تكريت تَنْظُرُ حَبَّهَا أَنْ يُحْصَدا

وقال: [من المتقارب وهو الشاهد التاسع والأربعون بعد المئتين]:

أَطُوفُ بِهَا لا أَرَى غَيْرَهَا * كَمَا طَافَ بِالبِيْعَةِ الرَّاهِبِ

فجعل "الراهب" بدلا من ﴿ مَا ﴾ كأنه قال "كالذي طافَ" وتقول العرب [152]: "إِنَّ الحَقَّ مَنْ صَدَّقَ اللهَ" أي: "الحقُ حقُّ مَنْ صَدَّقَ اللهَ" .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(67/505)

وقال ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي: لن نقدر عليه العقوبة، لأنه قد اذنب بتركه قومه وانما غاضب بعض الملوك ولم يغاضب ربه كان بالله عز وجل اعلم من ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 447. 449 ﴾

(68/505)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الأنبياء

1 - اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ أي قربت القيامة وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ.

6 - ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أي ما آمنت بالآيات.

8 - وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ كقوله: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ [سورة المؤمنون

آية : 24] . فقال الله : ما جعلنا الأنبياء قبله أجساما لا تأكل الطعام ولا تموت ، فنجعله كذلك .

10 – لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أي شرفكم وكذلك قوله : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ .

11 – قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ أي أهلكنا . وأصل القصم : الكسر .

12 – إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ أي يعدون . وأصل الرّكض : تحريك الرجلين ، تقول : ركضت الفرس : إذا أعديته بتحريك رجليك فعدا . ولا يقال فركض . ومنه قوله : ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ [سورة ص آية : 42] .

13 – وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ أي إلى نعمكم التي اترفتكم .

15 – خامِدِينَ قد ماتوا فسكنوا وخمدوا .

(69/505)

---

17 – لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً أي ولدا . ويقال : امرأة . وأصل اللهو : النكاح . وقد ذكرت هذا في كتاب «تأويل المشكل» .

لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا أي من عندنا لا عندكم .

18 - فَيَدْمَغُهُ أي يكسره . وأصل هذا إصابة الرأس والدماغ بالضرب وهو مقتل .

فَإِذا هُوَ زاهِقٌ أي زائل ذاهب .

19 - لا يَسْتَحْسِرُونَ أي لا يعيون . والحسير : المنقطع به الواقف إعياء او كلالا .

21 - هُمْ يُنْشِرُونَ أي يحيون الموتى .

24 - قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ أي حجّتكم .

هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ يعني القرآن وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي يعني الكتب المتقدمة من كتب اللّه . يريد أنه ليس في شيء منها أنه اتخذ ولدا .

17 - لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ لا يقولون حتى يقول ويأمر وينهي ، ثم يقولون عنه . ونحوه قوله : لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ : أي لا تقدموا القول بالأمر والنهي قبله .

28 - وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ أي خائفون .

30 - كانَتا رَتْقاً أي كانتا شيئا واحدا ملتئما . ومنه يقال : هو يرتق الفتق ، أي يسدّه .

وقيل للمرأة : رتقاء .

فَفَتَقْناهُما يقال : كانتا مصمتتين ، ففتقنا السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

32 - سَقْفاً مَحْفُوظاً من الشياطين ، بالنجوم .

وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ أي عمّا فيها : من الأدلة والعبر .

37 - خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ أي خلقت العجلة في الإنسان ، وهذا من المقدم والمؤخر ، وقد بينت ذلك في كتاب «المشكل» .

43 - وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أي لا يجيرهم منها أحد ، لأن المجير صاحب لجاره .

44 - أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أي نفتحها عليك .

44 - أَفَهُمُ الْغالِبُونَ مع هذا ؟ ! .

51 - وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ أي وهو غلام .

58 - فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً أي فتاتا . وكلّ شيء كسرته : فقد جذذته .

ومنه قيل للسّويق : جذيذ .

قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ أي : يغيبهم وهذا كما يقال :

لئن ذكرتني لتندمنّ يريد : بسوء .

60 - فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ أي بمرأى من الناس : لا تأتوا به خفية .

65 - ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ أي ردوا إلى أول ما كانوا يعرفونها به : من انها لا تنطق ، فقالوا : لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ، فحذف «قالوا» اختصارا .

69 - كُونِي بَرْداً وَسَلاماً أي وسلامة . لا تكوني بردا مؤذيا مضرا .

72 - وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً دعا بإسحاق فاستجيب له وزيد يعقوب نافلة

كأنه تطوع من اللّه وتفضل بلا دعاء. وإن كان كلّ بفضله.

78 - نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ: رعت ليلا. يقال: نفشت الغنم بالليل، وهي إبل، نفش ونفّش ونفّاش. والواحد نافش. وسرحت.

(71/505)

وسربت بالنهار.

80 - عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ يعني الدّروع.

لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ أي من الحرب.

81 - عاصِفَةً شديدة الحر.

وقال في موضع آخر: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً [سورة ص آية: 36]، أي لينة. كأنها كانت تشتدّ إذا أراد، وتلين إذا أراد.

87 - وَذَا النُّونِ: ذا الحوت. والنون: الحوت.

فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أي نضيق عليه. يقال: فلان مقدّر عليه، ومقتّر عليه في رزقه.

وقال: وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ [سورة الفجر آية: 16]، أي ضيّق عليه في رزقه.

93 - وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أي تفرقوا فيه واختلفوا .

94 - فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ أي لا نجحد ما عمل .

95 - وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ أي حرام عليهم ان يرجعوا . ويقال :

حرام : واجب . وقال الشاعر :

فإن حراما لا أرى الدهر باكيا على شجوه إلا بكيت على عمرو

أي واجبا .

ومن قرأ : «حرم» فهو بمنزلة حرام . يقال : حرم وحرام ، كما يقال :

حل وحلال .

96 - وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ أي من كل نشز من الأرض وأكمة .

يَنْسِلُونَ من النّسلان . وهو : مقاربة الخطو مع الإسراع ، كمشي الذئب إذا بادر .

والعسلان مثله .

97 - وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ يعني يوم القيامة .

98 - حَصَبُ جَهَنَّمَ: ما ألقي فيها وأصله من الحصباء، وهي:

الحصى. يقال: حصبت فلانا: إذا رميته حصبا - بتسكين الصاد - وما رميت به:

حصب، بفتح الصاد. كما تقول: نفضت الشجرة نفضا. وما وقع من ثمرها: نفض،

واسم حصى الحجارة: حصب.

104 - السِّجِلِّ: الصحيفة.

105 - أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ يقال: أرض الجنة، ويقال: الأرض المقدّسة،

ترثها أمة محمد صلى اللّه عليه وعلى آله.

109 - آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ أي أعلمتكم وصرت انا وأنتم على سواء، وإنما يريد نابذتكم

وعاديتكم وأعلمتكم ذلك، فاستوينا في العلم.

وهذا من المختصر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 242. 246﴾

(73/505)

وقال الغزنوى:

ومن سورة الأنبياء

1 اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ: لقلّة ما بقي بالإضافة إلى ما مضى «1»، أو لأنّ كل آت

قريب . وحساب اللّه العبد إظهاره تعالى ما للعبد وما عليه للجزاء .

2 مُحْدَثٍ : أي : في التنزيل «2» .

3 لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ : مشتغلة ، من لهيت ألهى لهوا ولهيّا «3» .

أو طالبة للّهو ، من لهوت ألهو ، وإذا تقدّمت الصّفة انتصب ، كقول الشّاعر «4» :

لميّة موحشا طلل يلوح كأنّه خلل

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى : تمّ الكلام عليه ، ثم كأنه فسّره فقال : هم الذين

---

(1) ذكر الماوردي هذا القول والذي يليه في تفسيره : 3/ 36 ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 339 .

وانظر تفسير القرطبي : 11/ 267 ، والبحر المحيط : 6/ 295 .

(2) تفسير الطبري : 17/ 2 ، وتفسير الماوردي : 3/ 36 ، والمحرر الوجيز : 10/ 122 .

قال القرطبي في تفسيره : 11/ 267 : «أي ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث ، يريد في النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة ، وآية بعد آية ، كما كان ينزله اللّه تعالى عليه في وقت بعد وقت ، لا أن القرآن مخلوق» .

(3) اللسان : 15/ 258 (لها) ، وانظر تفسير القرطبي : 11/ 267 ، والبحر المحيط : 6/ 295 .

(4) هو كثيّر عزّة، والبيت له في الكتاب لسيبويه: 2/ 123، وخزانة الأدب: 2/ 211.

وهو في مغني اللبيب: 1/ 85، واللسان: 11/ 220 (خلل) دون نسبة.

قال الأستاذ عبد السلام هارون - رحمه اللّه - في هامش تحقيقه لكتاب سيبويه: «و الشاهد فيه نصب «موحشا» على الحال، وكان أصله صفة ل «طلل»، فتقدمت على الموصوف فصارت حالا».

(74/505)

ظلموا، كقوله»

: ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ.

أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ: أفتقبلونه «2» ؟.

10 فِيهِ ذِكْرُكُمْ: شرفكم «3» إن [عملتم] «4» به.

12 يَرْكُضُونَ: يسرعون ويستحثون.

13 لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ: لتسألوا عما كنتم تعملون «5».

15 حَصِيداً خامِدِينَ/: خمدوا كالنّار وحصدوا كما يحصد الزّرع.

19 لا يَسْتَحْسِرُونَ : لا يتعبون ولا ينقطعون عن العمل ، من البعير الحسير .

21 يُنْشِرُونَ : يحيون . أنشر اللّه الموتى فنشروا .

29 وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ : قيل «6» : إنّه إبليس في دعائه إلى طاعته .

30 كانَتا رَتْقاً : ملتصقتين ، ففتق اللّه بينهما بالهواء «7» ، أو فتق السّماء بالمطر والأرض

بالنبات «8» .

---

(1) سورة المائدة : آية : 71 .

(2) في تفسير الطبري : 17/ 3 : «قال بعضهم لبعض : أتقبلون السحر ، وتصدقون به

وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ يعنون بذلك القرآن» .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 200 ، وتفسير الطبري : 17/ 7 ، ومعاني الزجاج

:

3/ 385 ، وتفسير البغوي : 3/ 239 .

(4) في الأصل : «علمتم» ، ولا يستقيم به السياق .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 39 عن ابن بحر .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 17 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 625 ، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق ، وابن المنذر

، وابن أبي حاتم عن قتادة أيضا . [. . . . .]

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 18 عن الحسن ، وقتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 42 عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(8) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 201 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 37 ، واليزيدي في غريب القرآن : 254 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 286 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 19 عن عكرمة ، وعطية ، وابن زيد .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 382 ، كتاب التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

وفي إسناده : طلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي . قال عنه الذهبي في التلخيص : «واه» .

ووصفه الحافظ في التقريب : 283 بقوله : «متروك ، من السابعة» .

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات : 1/ 61 عن ابن عباس ، وفي إسناده طلحة بن عمرو أيضا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 625 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ورجح الطبري هذا القول فقال : «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا من المطر والنبات ، ففتقنا السماء

بالغيث، والأرض بالنبات. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في ذلك لدلالة قوله:

جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ على ذلك، وأنه جلّ ثناؤه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه

الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه...».

(75/505)

---

38 يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ: يعيبهم.

37 خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ: فسر بالجنس، أي: خلق على حبّ العجلة في أمره «1»،

كقوله «2»: وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا: وفسّر بآدم «3» - عليه السلام - وأنّه لمّا نفخ فيه

الرّوح فقبل أن استكمله «4» نهض.

وقال الأخفش «5»: معناه: خلق الإنسان في عجلة.

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي: 3/ 45، وذكر نحوه الطبري في تفسيره: 17/ 26.

(2) سورة الأسراء: آية: 11.

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 17/ 26 عن السدي، ونقله البغوي في تفسيره:

3/ 244 عن سعيد بن جبير، والسدي.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 630، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن عكرمة.

(4) في «ك»: فقبل استكماله.

(5) الأخفش: (- 215 ه).

هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، الإمام اللّغوي النّحويّ المشهور، أصله من «بلخ».

لازم سيبويه وروى عنه كتابه.

أخباره في: إنباه الرواة: 2/ 36، ومعجم الأدباء: 4/ 242، وإشارة التعيين: 131.

ونص كلامه في معانيه: 2/ 633 كالتالي: «من تعجيل الأمر، لأنه قال: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ، فهذا العجل كقوله: فَلا تَسْتَعْجِلُونِ.

وانظر قوله في تفسير القرطبي: 11/ 289، والبحر المحيط: 6/ 313

38 يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ : يعيبهم .

37 خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ : فسر بالجنس ، أي : خلق على حبّ العجلة في أمره «1» ، كقوله «2» : وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا : وفسّر بآدم «3» - عليه السلام - وأنّه لمّا نفخ فيه الرّوح فقبل أن استكمله «4» نهض .

وقال الأخفش «5» : معناه : خلق الإنسان في عجلة .

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 45 ، وذكر نحوه الطبري في تفسيره : 17/ 26 .

(2) سورة الأسراء : آية : 11 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 26 عن السدي ، ونقله البغوي في تفسيره :

3/ 244 عن سعيد بن جبير ، والسدي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 630 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن عكرمة .

(4) في «ك» : فقبل استكماله .

(5) الأخفش : (- 215 ه) .

هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، الإمام اللّغوي النّحويّ المشهور ، أصله من

«بلخ» .

لازم سيبويه وروى عنه كتابه .

أخباره في : إنباه الرواة : 2/ 36 ، ومعجم الأدباء : 4/ 242 ، وإشارة التعيين :

131 .

ونص كلامه في معانيه : 2/ 633 كالتالي : «من تعجيل الأمر ، لأنه قال : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ ، فهذا العجل كقوله : فَلا تَسْتَعْجِلُونِ .

وانظر قوله في تفسير القرطبي : 11/ 289 ، والبحر المحيط : 6/ 313 .

(77/505)

وقيل العجل : الطين «1» وتلفيقه «2» بقوله : فَلا تَسْتَعْجِلُونِ أن من خلق الإنسان مع ما فيه من بديع الصّنعة لا يعجزه ما استعجلوه من الآيات .

40 فَتَبْهَتُهُمْ : فتفجؤهم أو تحيّرهم «3» .

46 نَفْحَةٌ : دفعة يسيرة «4» . وقيل «5» : نصيب ، نفح له من عطائه «6» .

47 الْمَوازِينَ الْقِسْطَ : أي : ذوات القسط ، والقسط : العدل ، مصدر يوصف به ، يكون للواحد وللجميع «7» .

58 جُذاذاً : قطعا ، جمع جذاذة ، ك «زجاجة» وزجاج.

---

(1) ذكره اليزيدي في غريب القرآن : 254 ، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 151 ، ونقل القرطبي في تفسيره : 11/ 289 عن أبي عبيدة وكثير من أهل المعاني أن العجل الطين بلغة حمير .

وعقب ابن عطية على هذا القول بقوله : «و هذا أيضا ضعيف مغاير لمعنى الآية» .

(2) كذا في الأصل ، ولعل المناسب للسياق هنا : «و تعقيبه» ، لدلالة : فَلا تَسْتَعْجِلُونِ عليه .

(3) في تفسير البغوي : 3/ 245 : «يقال فلان مبهوت ، أي : متحير» .

وقال القرطبي في تفسيره : 11/ 290 : «يقال : بهته يبهته إذا واجهه بشيء يحيره . وقيل : فتفجأهم» .

(4) قال القرطبي في تفسيره : 11/ 293 : «و النفحة في اللغة الدفعة اليسيرة ، فالمعنى : ولئن مسهم أقل شيء من العذاب لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ، أي : متعدين ، فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف» .

(5) ذكره الطبري في تفسيره : 17/ 32 ، ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 246 عن ابن جريج ، وكذا القرطبي في تفسيره : 11/ 293 .

(6) في اللسان: 2/ 622 (نفح) : «ونفحه بشيء، أي: أعطاه، ونفحه بالمال نفحا: أعطاه».

(7) معاني القرآن للزجاج: 3/ 394. [.....]

(78/505)

و«جذاذا» «1» جمع جذيذ «2» ، ك «خفيف» وخفاف.

63 بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ: أي: يجب أن يفعله كبيرهم أن لو كان معبودا لئلا يعبد معه غيره على إلزام الحجة لا الخبر، أو هو خبر معلق بشرط لا يكون، وهو نطق الأصنام فيكون نفيا للمخبر به «3» .

وإذا وقفت على بَلْ فَعَلَهُ «4» كان المعنى: بل فعله من فعله، ثم الابتداء بقوله: كَبِيرُهُمْ هذا.

68 حَرِّقُوهُ: قاله رجل من أكراد فارس «5» ، ولم تحرق النّار إلّا وثاقة «6» ، ولما أوثقوه قال: لا إله إلّا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك «7» .

69 كُونِي بَرْداً: قيل: أحدث فيها البرد بدلا من الحرّ.

---

(1) بكسر الجيم المعجمة، وهي قراءة الكسائي كما في السبعة: 429، وحجة

القراءات :

468 ، والتبصرة لمكي : 264 .

(2) قال اليزيدي في غريب القرآن : 255 : «و «جذيذ» بمعنى مجذوذ كالقتيل

والجريح» .

وانظر المعنى الذي أورده المؤلف في معاني الفراء : 2/ 206 ، ومعاني القرآن للزجاج :

3/ 396 ، والكشف لمكي : 2/ . 112

(3) ينظر هذا المعنى في تفسير الماوردي : 3/ 47 ، وتفسير البغوي : 3/ 249 ، وزاد

المسير :

5/ . 359

(4) وقد نقل عن الكسائي أنه كان يقف على قوله تعالى : بَلْ فَعَلَهُ .

ينظر تفسير البغوي : 3/ 249 ، وتفسير القرطبي : 11/ 300 ، والبحر المحيط : 6/

. 325

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 43 عن مجاهد .

(6) ورد هذا المعنى فيأثر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 341 ، والطبري في تفسيره :

17/ 44 عن كعب الأحبار .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 639 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر

عن كعب أيضا .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 45 عن أرقم ، وذكره ابن كثير في تفسيره

:

5/ 345 دون عزو .

(79/505)

وقيل «1» : حيل بينها وبينه فلم تصل إليه .

71 إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها : أرض الشّام «2» . وبركتها أنّ أكثر الأنبياء منها ، وهي

أرض خصيب يطيب فيها عيش الغنيّ والفقير .

74 الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ : قرية سدوم «3» ، وخبائثهم إتيان الذكران

وتضارطهم في أنديتهم «4» .

78 نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ : رعت ليلا «5» ، نفشت الغنم ، ونفشها أهلها ، وأسداها

أيضا باللّيل ، وأهملها بالنهار «6» .

79 فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ : دفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بدرها ونسلها ودفع الحرث

إلى صاحب الغنم ، وجعل عليه عمارته حتى إذا نبتت في السنة القابلة ترادّا «7» .

78 وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ: جمع في موضع التثنية لإضافته إلى المحكوم لهم ومن حكم.

---

(1) ذكره الفخر الرازي في تفسيره: 22/ 189.

(2) ورد هذا القول في آثار أخرجها الطبري في تفسيره: (17/ 46، 47) عن أبيّ بن كعب، والحسن، وقتادة، والسدي، وابن جريج، وابن زيد.

وأورد ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 368 القول الذي ذكره المؤلف، ثم قال: «وهذا قول الأكثرين».

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 642، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب.

(3) ذكره الطبري في تفسيره: 17/ 49، والماوردي في تفسيره: 3/ 50، والبغوي في تفسيره:

3/ 252، وابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 370.

(4) المصادر السابقة.

(5) غريب القرآن لليزيدي: 256، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 287، وتفسير الطبري:

17/ 53، والمفردات للراغب: 502، واللسان: 6/ 357 (نفش).

(6) الهمل، بالتحريك: الإبل بلا راع، مثل النّفش، إلّا أن الهمل بالنهار والنّفش لا يكون إلّا

ليلا. يقال: إبل همل وهاملة وهمّال وهوامل، وتركتها هملا أي: سدى إذا أرسلتها ترعى ليلا بلا راع.

ينظر اللسان: 11/ 710 (همل).

(7) تفسير الطبري: (17/ 51 - 54)، وتفسير البغوي: 3/ 253، وتفسير ابن كثير: 5/ 349. [.....].

(80/505)

---

79 وَكُنَّا فاعِلِينَ: نقدر على ما نريد.

82 وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ: كثّف أجسام الجن حتى أمكنهم تلك الأعمال معجزة لسليمان «1».

وسخّر الطير له بأن قوّى إفهامها كصبياننا الذين يفهمون التخويف.

83 أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ: لم يكن ما نزل به من المرض فعلا للشّياطين كما ذكره في سورة «ص» «2»، ولكن إنّما آذاه «3» بالوسوسة ونحوها.

84 وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ: ابن عباس قال «4»: أبدل بكل شيء ذهب له ضعفين.

«ذو الكفل» «5» رجل صالح كفل لنبيّ بصيام النّهار وقيام اللّيل وألّا يغضب ويقضي

بالحق «6» .

وذا النُّونِ «7» صاحب الحوت ، إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً : أي :

---

(1) تفسير الفخر الرازي : (22/ 202 ، 203) .

(2) قوله تعالى : وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ [آية :

41] .

(3) في الأصل : «إنما وإنما آذاه . . . .» ، ولا يستقيم به السياق .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 72 بسند فيه : محمد بن سعد عن أبيه عن عمه

. . . وقد سبق بيان ضعفهم ص (135) .

(5) في قوله تعالى : وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ [آية : 85] .

(6) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : (17/ 74 ، 75) عن أبي

موسى الأشعري ، ومجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 661 ، وزاد نسبته إلى ابن حاتم ، وابن أبي شيبة

، وابن المنذر ، وعبد بن حميد عن مجاهد رحمه اللّه .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 5/ 357 : «الظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء

إلا وهو نبي .

وقال آخرون: إنما كان رجلا صالحا، وكان ملكا عادلا، وحكما مقسطا، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم» اه.

(7) في قوله تعالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً . . . [آية: 87].

(81/505)

مغاضبا لقومه حين استبطأ وعد الله، فخرج بغير أمر ولم يصبر بدليل قوله «1»: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ.

87 فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ: لن نضيّق «2»، كقوله «3»: وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أو فظنّ أن لن نقدّر عليه البلاء من القدر «4» لا القدرة، كأنه: فظن أن لن نقدر عليه ما قدرنا من كونه في بطن الحوت، أو هو على تقدير الاستفهام «5»، أي: أفظنّ؟.

فِي الظُّلُماتِ: ظلمة اللّيل والبحر وبطن الحوت «6».

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ: أي: لنفسي في خروجي قبل الإذن.

90 وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ: كانت عقيما فجعلها الله ولودا «7».

وقيل «8»: كان في خلقها سوء فحسّن الله خلقها.

---

(1) سورة القلم: آية: 48.

(2) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 287، وذكره الطبري في تفسيره: 17/ 78 ورجحه.

وانظر تفسير الماوردي: 3/ 57، والمحرر الوجيز: 10/ 196، وتفسير القرطبي: 11/ 329.

(3) سورة الطلاق: آية: 7.

(4) ذكره الزجاج في معانيه: 3/ 402.

(5) ذكره الطبري في تفسيره: 17/ 79، والماوردي في تفسيره: 3/ 58، وابن عطية في المحرر الوجيز: 10/ 196.

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 17/ 80 عن ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، وعمرو بن ميمون.

وذكره الفراء في معاني القرآن: 2/ 209، والزجاج في معانيه: 3/ 402، وابن عطية في المحرر الوجيز: 10/ 197.

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 17/ 83 عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة.

وذكره الفراء في معاني القرآن: 2/ 210، والماوردي في تفسيره: 3/ 59، ورجحه ابن كثير في تفسيره: 5/ 364. [.....]

(8) ذكره الطبري في تفسيره: 17/ 83، ونقله الماوردي في تفسيره: 3/ 59 عن عطاء، وابن كامل.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 670، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق»، وابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح.

وعقّب الطبري - رحمه اللّه - على القولين اللذين تقدما بقوله: «و الصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه أصلح لزكريا زوجه، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولودا حسنة الخلق، لأن كل ذلك من معاني إصلاحه إياها، ولم يخصص اللّه جل ثناؤه بذلك بعضا دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض».

(82/505)

---

91 فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا: أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنّفخ «1».

[63/ ب] 92 إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ: دينكم «2»، أُمَّةً واحِدَةً: دينا واحدا، ونصبه على القطع «3»، أو أنكم خلق واحد فكونوا على دين واحد «4».

93 وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ : اختلفوا في الدين وتفرقوا «5» .

95 وَحَرامٌ : واجب «6» ، عَلى قَرْيَةٍ : على أهل قرية ،

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 60 ، وانظر زاد المسير : 5/ 385 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 85 عن مجاهد ، ونقله الماوردي في

تفسيره :

3/ 60 عن ابن عباس ، وقتادة .

(3) أي على الحال ، وهو اصطلاح جرى عليه الفراء .

ينظر معاني القرآن له : 2/ 210 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 79 ، والتبيان

للعكبري :

2/ 926 ، ومعجم المصطلحات النحوية : 188 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 60 .

(5) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 288 ، وتفسير الطبري : 17/ 84 ،

وتفسير البغوي :

3/ 268 ، وتفسير القرطبي : 11/ 341 .

(6) نقل الزجاج هذا القول في معانيه : 3/ 405 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/

387 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 672 ، وعزا إخراجه إلى الفريابي ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس أيضا .

وفي توجيه هذا القول ذكر الفخر الرازي في تفسيره : 22/ 221 : أن الحرام قد يجيء بمعنى الواجب ، والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر .

أما الآية فقوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وترك الشرك واجب وليس بمحرم ، وأما الشعر فقول الخنساء :

وإن حراما لا أرى الدهر باكيا على شجوة إلا بكيت على عمرو

يعني : وإن واجبا . وأما الاستعمال فلأن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور ، كقوله تعالى : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .

إذا ثبت هذا فالمعنى أنه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون . . . » اه .

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 204 : «ويتجه في الآية معنى ضمنه وعيد بيّن ، وذلك أنه ذكر من عمل صالحا وهو مؤمن ، ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا يحشرون إلى ربّ ، ولا يرجعون إلى معاد ، فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم ، فجاءت الآية مكذبة لظن هؤلاء ، أي : ممتنع على الكفرة المهلكين أنهم لا يرجعون ، بل هم راجعون إلى عقاب اللّه وأليم عذابه» .

أَهْلَكْناها : بالعذاب ، أو وجدناها هالكة بالذنوب ، كقولك : أعمرت بلدة وأخربتها : وجدتها كذلك ، أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ : لا يؤمنون .

96 حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ : أي : جهة يأجوج.

و «الحدب» : فجاج الأرض «1» .

يَنْسِلُونَ : يخرجون ويسرعون «2» ، من نسلان الذئب .

98 حَصَبُ جَهَنَّمَ : حطبها «3» . وقيل : يحصبون فيها بالحصباء «4» .

---

(1) المفردات للراغب : 110 ، واللسان : 1/ 301 (حدب) .

(2) قال اليزيدي في غريب القرآن : 256 : «والنسلان والنسول مشي سريع في استخفاء مثل نسلان الذئب» .

وانظر تفسير الطبري : 17/ 91 ، ومعاني الزجاج : 3/ 405 ، والمفردات للراغب : 491 ، واللسان : 11/ 661 (نسل) .

(3) معاني القرآن للفراء : 2/ 212 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 94 عن مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة .

(4) أي : يرمون فيها بالحصى ، وفي تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 288 : «وأصله من

الحصباء، وهي: الحصى. يقال: حصبت فلانا: إذا رميته حصبا - بتسكين الصاد - وما رميت به: حصب، بفتح الصاد . . . واسم حصى الحجارة: حصب».

وانظر تفسير الطبري: 17/ 94، واللسان: 1/ 320 (حصب).

(84/505)

---

100 لا يَسْمَعُونَ: أي: لا يسمعون ما ينتفعون به وإن سمعوا ما يسؤوهم «1».

101 إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى: الطاعة للّه «2».

وقيل «3»: إنّهم عيسى وعزير والملائكة عبدوا وهم كارهون.

و«الحسيس» «4»: الصوت الذي يحسّ «5».

103 الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ: النفخة الأخيرة «6». وقيل «7»: إطباق باب النّار على أهلها.

---

(1) ينظر تفسير الفخر الرازي: 22/ 225، وتفسير القرطبي: 11/ 345، والبحر المحيط:

6/ 341.

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 17/ 96 عن مجاهد.

(3) ورد هذا القول في أثر طويل عن ابن عباس رضي اللّه عنهما، في سياق المناظرة بين

أحد رؤوس الشرك في مكة – وهو ابن الزّبعرى – وبين النبي صلى اللّه عليه وسلم .

وقد أخرجه الطبري في تفسيره : (17/ 96 ، 97) ، والطبراني في المعجم الكبير : 12/ 153 ، حديث رقم (12739) ، والحاكم في المستدرك : 2/ 385 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول : (353 ، 354) عن ابن عباس أيضا .

وانظر تفسير ابن كثير : (5/ 374 ، 375) ، والدر المنثور : 5/ 679 . [. . . . .]

(4) من قوله تعالى : لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ [آية : 102] .

(5) غريب القرآن لليزيدي : 357 ، وتفسير الطبري : 17/ 98 ، واللسان : 6/ 49 (حسس) .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 99 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما من طريق محمد بن سعد عن أبيه عن عمه ، وهو إسناد مسلسل بالضعفاء ، تقدم بيان حالهم ص (135) .

ونقل الماوردي في تفسيره : 3/ 62 هذا القول عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(7) أخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 98 عن سعيد بن جبير ، وابن جريج .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 63 عن ابن جريج .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 5/ 394، وقال: «رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الضحاك».

(85/505)

كَطَيِّ السِّجِلِّ: الصّحيفة «1» : فيكون «الكتاب» «2» مصدرا كالكتابة.

كَما بَدَأْنا: العامل في كما. . .: نُعِيدُهُ، أي: نعيد الخلق كما بدأناه «3» .

وَعْداً: مصدر، والعامل فيه معنى نُعِيدُهُ «4» .

105 وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ: الكتب المزبورة المنزلة على الأنبياء.

والذِّكْرِ: أم الكتاب «5» .

109 آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ: أمر بيّن سويّ «6» ، أو سواء في البلاغ، لم أظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره «7» ، فيدلّ على إبطال مذهب الباطنية «8» لعنهم الله.

111 لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ: أي: إبقاؤكم على ما أنتم عليه كناية عن مدلول غير مذكور.

---

(1) ذكره الفراء في معانيه: 2/ 213، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 288، وأخرجه الطبري في تفسيره: 17/ 100 عن ابن عباس، ومجاهد.

ورجح الطبري هذا القول.

(2) بالتوحيد على قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية شعبة.

كما في السبعة لابن مجاهد: 431، 471، والتبصرة لمكي: 264.

وانظر الكشف لمكي: 2/ 114، والبيان لابن الأنباري: 2/ 166، والبحر المحيط: 6/ 343.

(3) ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 213، والتبيان للعكبري: 2/ 929.

(4) معاني القرآن للزجاج: 3/ 406، والتبيان للعكبري: 2/ 929، وتفسير القرطبي: 11/ 348.

(5) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: 17/ 103 عن مجاهد، وابن زيد.

ونقله الماوردي في تفسيره: 3/ 63 عن مجاهد.

(6) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره: 3/ 64 عن السدي.

(7) نقله الماوردي في تفسيره: 3/ 64 عن علي بن عيسى. وذكره الفخر الرازي في تفسيره:

22/ 233، والقرطبي في تفسيره: 11/ 350.

(8) تفسير النسفي: 3/ 91.

وعن الرّبيع بن أنس «1» أنّ النّبي صلى اللّه عليه وسلم لما أسري به رأى فلانا - وهو بعض بني أميّة على المنبر يخطب النّاس - فشق عليه، فنزل: وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ.

112 رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ، بحكمك الحق «2»، أو افصل بيننا بإظهار الحق «3» وكان النبيّ صلى اللّه عليه وسلم إذا شهد حربا قرأها «4». انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 556. 568﴾

---

(1) أورد الشوكاني هذا الأثر في فتح القدير: 3/ 433، وعزا إخراجه إلى ابن أبي خيثمة، وابن عساكر عن الربيع.

وذكر نحوه القرطبي في تفسيره: 11/ 351 دون عزو.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 17/ 108 فقال: «وقد زعم بعضهم أن معنى قوله: رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ قل: ربّ احكم بحكمك الحق، ثم حذف «الحكم» الذي «الحق» نعت له، وأقيم «الحق» مقامه...». [.....]

(3) ذكره الماوردي في تفسيره: 3/ 64، وقال: «هذا معنى قول قتادة».

(4) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: 345 عن قتادة، وكذا الطبري في تفسيره: 17/ 108، وعزاه ابن كثير في تفسيره: 5/ 383 إلى زيد بن أسلم.

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 689 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة رحمه اللّه .

(87/505)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الأنبياء

عدد 23 و73 - 21

نزلت بمكة بعد سورة إبراهيم .

وهي مئة واثنتا عشرة آية ، وألف وثمنمئة وثمانية وستون كلمة ، وأربعة آلاف وثمنمئة وتسعون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ" على ما عملوه في الدنيا ، لأن القرب إما زماني ، وإما مكاني ، وكونه مكانيا يتعذر هنا .

فلزم أن يكون زمانيّا ، ولا يقال إنه مرّ عليه ما يقرب من أربعة عشر قرنا ولم يأت لأن يوما عند ربك كألف سنة مما نعدّه ، والمراد أن وقت الحساب صار قريبا ، ولذلك عبر بالماضي

لتحقق وقوعه وقربه وقلة ما بقي بالنسبة لما مضى ، لأن كل آت قريب .

والبعيد ما وقع ومضى .

وقيل في المعنى :

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ومناسبة هذه السورة لما قبلها ظاهرة ، إذ ما بعد الإنذار بالجزاء إلا الوقوع .

وقد أخبر اللّه تعالى بقربه ليتيقظ المسيء ويتعظ ، ويكثر المحسن ويستزيد من إحسانه ، وليكون كل منهما بحالة أدعى للتأهب ، وليتنبه الغافل من رقدته ، ويتذكر الناس أجمع ويسرعوا بالإقلاع عن المعاصي والإقدام على الطاعات ، ولكن مع الأسف لا يتذكرون "وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ" 1 عن الاستعداد لما يراد بهم في ذلك اليوم ، لا هون عنه ، غارقون في بحر النسيان ، وتراهم يا سيد الرسل "ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ" إنزاله أي ما يحدث اللّه تعالى من تنزيل القرآن شيئا فشيئا ، ليذكرهم به تدريجا ، ويعظهم أولا فأولا ليتشوقوا إليه ويعوه ويعقلوه "إِلَّا اسْتَمَعُوهُ" منك "وَهُمْ يَلْعَبُونَ" 2 فيسخرون به ويستهزئون عند سماعه "لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ" عنه ساهية أفئدتهم عن معناه كأنه لم ينزل لخيرهم "وَأَسَرُّوا النَّجْوَى" فيما بينهم بالباطل عند سماعه .

وأعلم أن الضمير في أسروا صرف دال على الجمع فقط لأن فاعله "الَّذِينَ" وصلته جملة "ظَلَمُوا" ومن هنا صحت لغة أكلوني البراغيث ، ثم بين هذه النّجوى التي بالغوا في إخفائها بينهم بقوله جل قوله "هَلْ هذا" الذي يدعي رسالة اللّه ويأمركم

باتباعه وإبطال دين آبائكم "إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ" أيها الناس ليس بملك ولا إله وإنما بسحركم بما أوتي من بلاغة في المعنى وفصاحة في القول "أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ" بمطلق ادعائه الرسالة وتقبلون قوله بمجرد أن قال لكم إن الذي أتلوه عليكم من اللّه "وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ" 3 بأم أعينكم أنه بشر مثلكم وتعقلون ببصائركم أن ما يأتيكم به سحر ، قل يا أكمل الرسل لهؤلاء الكفرة الذين يحوكون لك الدسائس فيما بينهم ، ويظنون أنا لا نطلعك على حقيقة أمرهم ، والقراءة التي عليها المصاحف "قالَ" لهم جوابا لما تناجوا به "رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ" قليله وكثيره ، وخفيه وظاهره ، من كل ما وقع أو يقع "فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ" فكيف تناجون فيّ ولا يطلعني على نجواكم "وَهُوَ السَّمِيعُ" لكل ما يقع في أرضه وسمائه مهما رق ودق "الْعَلِيمُ" 3 به سره وجهره وما تضمرونه إليّ في أي مكان وزمان كان لا يخفى عليه شيء .

مطلب وصف الكفرة كلام اللّه والنزل عليه ومعنى اللهو وكلمة لا يفترون :

واعلم يا سيد الرسل أن هؤلاء الكفرة لم يكتفوا بقولهم لك ساحر والقرآن سحر "بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ" أباطيل رآها في نومه ، ثم انتقلوا إلى ما هو أفظع فقالوا "بَلِ افْتَرَاهُ" اختلقه من نفسه ، ثم أضربوا فقالوا "بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" وذلك أن الكفرة تضاربت آراؤهم وتنافت أقوالهم إذ اختلفوا في وصف محمد وما يتلوه عليهم على ثمانية أقوال : 1 - منهم من قال إن ما يأتي به من أساطير الأولين وهو ناقل لها ، 2 - ومنهم من قال يتعلم من الغير ويتلوه عليكم ، 3 - ومنهم من قال القرآن كهانة ومحمد كاهن ، 4 - ومنهم من قال إنه سحر وهو ساحر 5 - ومنهم من قال إنه شعر وهو شاعر ، 6 - ومنهم من قال إنه نثر مسجع وهو ألفه ، 7 - ومنهم من قال اختلقه من نفسه وهو مختلق مبتدع ، 8 - ومنهم من قال أباطيل نوم يراها وينسبها إلى الله .

قاتلهم الله وعذبهم في أصناف ناره وحرمهم من أنواع جنته ، وقد كذبوا كلهم فيما تقولوه ولما عرفوا أنهم لم يصيبوا الهدف تحدوه فقالوا "فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ" من لدن ربه تدل على صحة دعواه "كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ" 5 بالآيات مثل موسى وعيسى ومن قبلها ، ومن هنا يفهم أن ما قاله بعضهم إن المراد

بالذكر المحدث في الآية الثانية المارة هو قول الرسول .

قول لا قيمة له ولا يستند إلى قول بل المراد ما ذكرناه في تفسيرها لا غير والله أعلم .

قال تعالى رادا عليهم قولهم ومجيبا عن نبيه صلّى اللّه عليه وسلم "ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها" من الأمم السالفة الذين اقترحوا الآيات على أنبيائهم لأنهم كذبوا بها بعد نزولها فأهلكناهم "أَ فَهُمْ" قومك هؤلاء العريقون في الكفر إذا أنزلنا عليهم آية "يُؤْمِنُونَ" 6 كلا لا يؤمنون ولو آتيناهم كل آية، وهذا من إطلاق الكل وإرادة الجزء لأن منهم من آمن ومنهم من أصر فالمخبر عنهم بعدم الإيمان هم المصرّون على كفرهم وقال تعالى في معرض الرد عليهم أيضا "وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ" مثلك فكيف يقولون ما هذا إلا بشر مثلكم "فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ" جمع الضمير للتعظيم وسببه اقتضاء المقام لتعظيمه أمام قومه، أي اسأل يا محمد علماء أهل الكتابين الذين سألهم قومك بماذا يختبرونك وقالوا لهم سلوه عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، كما تقدم في الآية 9 من سورة الكهف المارة، فقل لمثل هؤلاء هل أرسل اللّه للأولين ملائكة كما يزعمون فإنهم يجيبونك حتما بأن اللّه لم يرسل إلى البشر إلا بشرا مثلهم "إِنْ كُنْتُمْ" يا رسولنا "لا تَعْلَمُونَ" 7 ذلك راجع نظيره هذه الآية الآية 47 من سورة النحل المارة بزيادة لفظ من فقط "وَما جَعَلْناهُمْ" أي الرسل قبلك يا حبيبي "جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ" حتى يقولوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام) الآيتين 8/ 20 من

الفرقان في ج 1 ، وجاءت هذه الآية بمعرض الرد لهذا القول لأنهم لا زالوا يترنمون بهذه الأباطيل وينكرون ما تتلوه عليهم بقولهم المجرد إذ لا حجة لهم ولا برهان على إبطاله لذلك تراهم يتمسكون بهذه الأقاويل الفارغة ويكررونها "وَما كانُوا خالِدِينَ" 8 في الدنيا بل يموتون كغيرهم و

(91/505)

ما أنت إلا مثلهم تموت أيضا فلا محل لا نتقادك بذلك "ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ" بنصرهم وإهلاك أعدائهم في الدنيا أما الأنبياء إخوانك "فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ" من أتباعهم الصادقين "وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ" 9 بالمعاصي والتعدي على الغير هلاك استئصال ، قال تعالى "لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً" عظيما جليلا يا معشر قريش على أشرف رجل منكم وهذا سفر خطير "فِيهِ ذِكْرُكُمْ"

شرفكم بين الأمم وشرعكم الشامل لهم ودينكم الذي تدينون فيه فهو أكبر النعم عليكم إذ جاء بلسانكم فلكم فيه الفخر على غيركم "أَفَلا تَعْقِلُونَ" 10 هذه النعم العظيمة وتعضوا عليها بالنواجذ وتعملوا بكتابكم هذا فتحلّوا حلاله وتحرموا حرامه

"وَكَمْ قَصَمْنا" قصفنا والقصم الكسر مع تفريق الأجزاء وإذهاب التئامها ، والمعنى أنا

عجلنا عقوبتهم لاشتداد غضبنا عليهم ولم نمهلهم لشدة إصرارهم ، وقد جرت سنتنا أن لا نمهل ظالما "مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً" مصرة بل دككناها بما فيها وما عليها "وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ" 11 فأسكناهم فيها بدلهم فتبعوا أثرهم بالفسق والطغيان قال :

ولا تتبع الماضي سؤالك لم مضى وعرّج على الباقي وسائله لم بقي

(92/505)

قال تعالى "فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا" عذابنا وشاهدوه بحاسة بصرهم بعد أن أنذرناهم وحذرناهم "إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ" 12 ، هربا من القرية كي لا يصل إليهم العذاب الذي رأوه أظلهم فقيل لهم "لا تَرْكُضُوا" يا قوم فليس بنافع جري إذا جاء القضاء بالعذاب وقد مر في الآية 13 من سورة ص في ج 1 أن الركض ضرب الأرض بالرجل أي بعقبها وجاء هنا بمعنى الجري على اللغة الدارجة لأن القرآن العظيم جاء فيه من كافة اللغات مما هو أحسنها "وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ" من التنعم بالعيش والترف في اللباس والترفه في السكنى "وَمَسَاكِنِكُمْ" التي زخرفتموها في الدنيا أي تقول لهم الملائكة ذلك على طريق الاستهزاء والسخرية بهم "لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ" 13 من قبل الغير عما جرى بكم من العذاب وعن السبب الذي أوقعكم فيه فتجزون به ، قيل نزلت هذه في أهل (حصوه) قرية باليمن كان أهلها عربا

حينما قتلوا نبيهم بعد أن كذبوه فسلط اللّه عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم فصاروا يهربون منهم فأدركوهم وقد أخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء بالثارات الأنبياء ، ولما لم يروا بدا اعترفوا و"قَالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ" 14 بتكذيب الرسل وقتلهم ولكن لم ينفعهم الندم بعد نزول العذاب "فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ" أي قولهم يا ويلنا وهم يقتلون ويذبحون متوالية "حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً" كالزرع المحصود

(93/505)

"خامِدِينَ" 15 لا حراك بهم ، وفي هذه الآية تحذير لأهل مكة وتخويف عظيم وتهديد شديد بأنهم إذا لم يرجعوا عن غيهم يكون مصيرهم مثل مصيرهم ، قال تعالى "وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما" وما فيهما من العجائب والبدائع "لاعِبِينَ" 16 لأن اللعب يروق ساعة أوله ولا ثبات له وإنما خلقناهما لفوائد كثيرة همها الاستطلاع على قدرتنا والتبصّر في باهر حكمتنا وأرسلنا الأنبياء ليكفروا الخلق فيها وإلا لما كان من حاجة لإرسالهم لو كان خلقها لمجرد اللهو ، ثم نزّه ذاته المقدسة فقال "لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً" نلهو به من امرأة أو ولد أو خدم أو جنات أو أموال وأنعام "لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا" في الجنة من الحور والولدان لا من عندكم ولكنا لم نتخذ "إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ" 17 ما تتفوهون به وهذا ممتنع علينا

لغنانا عنه واحتياج الكل إلينا ، فالولد والزوجة لا يكونان إلا عند الأب والزوج لا يكونان عند غيره ، وقال بعض المفسرين ان (إن) هنا نافيه أي (ما كنا فاعلين) وعليه يكون الوقف على (لدنا) لا على (فاعلين) والأول أي اعتبار إن شرطية محذوفة الجواب الدال عليه ما قبلها وهو (لا تخذناه) أولى بسبك العبارة والثاني أبلغ في النفي فقط تأمل ، وفي هذه الآية رد وتقريع على من ينسب له تعالى الصاحبة والولد تبرأت ذاته المقدسة عنهما ، ولذلك بقول بعض النصارى إن مريم صاحبة للّه وعيسى ابنه ، واليهود يقولون إن عزيزا ابنه ، والعرب تقول الملائكة بناته ، تعالى عن ذلك كله علوا كبيرا أي لكنا لنا ممن يفعل ذلك لاستحالته في حقنا ، وإنما نفى اللهو جل جلاله عنه لأنه نقص وهو مستحيل في حقه تعالى فتركه واجب منه وهذا ليس من قبيل الوجوب عليه بل القول بالوجوب عنه وهو واجب علينا ، ومن أنكر أن اللعب نقص كالكذب فقد كابر ، ولا داعي لمن قال إن اللهو يراد به الجماع ويكنّى عنه به وعن المرأة واستشهد

بقول امرئ القيس :

الا زعمت بسباسة القوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

إذ لا حاجة لقلب الحقيقة إلى المجاز دون صارف .

ثم أضرب جلّ اضرابه فقال "بَلْ نَقْذِفُ" نرمي ونطرح "بِالْحَقِّ" القرآن والإيمان به "عَلَى الْباطِلِ"

الكفر والشرك "فَيَدْمَغُهُ" يمحقه ويدمره "فَإِذا هُوَ زاهِقٌ" مضمحل مدحوض ذاهب لا أثر له ، وقال بعض المفسرين المراد بالحق هنا الجد وبالباطل اللهو لأن الآية هذه مسوقة لما قبلها ، وهو وجيه لولا الإضراب الموجود لأنه ينافي كونها مسوقة لما قبلها بل يفيد الانتقال عنها لمعنى آخر لأن الاضراب لا يأتي إلا لمغزى غير مغزى ما قبله وهو ما ذكرناه واللّه أعلم "وَلَكُمُ الْوَيْلُ" أيها الكفرة والهلاك "مِمَّا تَصِفُونَ" 18 الحضرة الإلهية مما لا يليق بها ، قال تعالى "وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ" من الملائكة إنما خصهم بالذكر مع أنهم داخلون في معنى من اعتناء بهم ، لأنهم لا شغل لهم إلا التقديس والتنزيه لحضرته الكريمة يدل عليه قوله "لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ" 19 لا يعيون ولا يكلّون "يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" بلا انقطاع "لا يَفْتُرُونَ" 20 عن تعظيمه وتكبيره وتسبيحه لأنه جار منهم مجرى التنفس من بني آدم فلا يلحقهم فيه سامة ولا تعب بل يتلذذون به ولا يمنعهم عن التكلم بغيره كما لا يمنع ابن آدم النفس عن الكلام فلا يرد عليه قول القائل إن من الملائكة من هو مشغول بتبليغ الرسل ومنهم من هو موكل بلعن الكفرة ومنهم من هو مشغول بتقليب

الرياح وغير ذلك .

مطلب برهان التمانع ومعنى فساد السموات والأرض وما يتعلق بهما :

(95/505)

قال تعالى يا أكمل الرسل قل لهؤلاء الذين يزبتون لخلقي عبادة غيري أتخذوا إلها من السماء كلا إذ لا إله غيري "أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ" من أحجارها وأخشابها ومعادنها لأن الأصنام تعمل منها أو من بعضها ولا إله فيها ولمن فيها غيري وهل ما اتخذوه "هُمْ" أي الآلهة المتخذة من صنع أيديهم "يُنْشِرُونَ" 21 يحيون الموتى مثلي ، كلا لا يقدرون على ذلك ولا يستحق العبادة إلا من يقدر على الإحياء والإماتة والإيجاد من العدم إلى الوجود ولا قادر على هذا غيري فأنا المستحق للعبادة وحدي ، وأنت يا سيد الرسل قل لهم "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" أي السموات والأرض وإذا فسدتا فسد من فيهما وما بينهما ، لأن كل أمر يصدر عن اثنين لم يجر على انتظام بل يفضي إلى المحال ، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالا

لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ، ولو كان كذلك لكان كل منهما قادرا على إماتة زيد مثلا وإحيائه فإذا أراد أحدهما إماتته

وأراد الآخر إحياءه أي إبقاءه حيا فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال أيضا لأن المانع من وجود مراد كل منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس، فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أيضا، أو يقع مراد أحدهما دون الثاني وذلك أيضا محال لأمرين: الأول لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لا بد وأن يستويا بالقدرة، فإذا استويا فيها استحال أن يكون مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الآخر النّافي له وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح، الثاني إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده كان قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص والنقص يستحيل وجوده مع الإله.

(96/505)

ولو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضي إلى وقوع مقدور واحد من قادرين اثنين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن استناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستقلا بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه

عنهما واحتياجه لهما معا وذلك محال ، وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد .

قال تعالى (وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ) الآية 91 من المؤمنين الآتية ، وهذه وحدها كافية للاستدلال على عدم وجود إله غير اللّه الواحد لمن كان له قلب حي أو ألقى السمع الواعي ، وسيأتي تمام البحث في هذه عند تفسير هذه الآية ، قال الإمام فخر الدين الرازي : القول بوجود إلهين يفضي إلى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا .

أو تقول لو قدرنا وجود إلهين فإما أن يتفقا أو يختلفا ، فإن اتفقا على الشيء الواحد فيكون مقدورا لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال ، وإن اختلفا فإما أن يقع المرادان أو لا يقعا أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال ، فثبت أن الفساد

لازم على كل التقديرات .

(97/505)

وأعلم رعاك اللّه ووفقك لهداه وأرشدك لمرماك إنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلائل

عرفت أن جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المحدثات ، والكائنات دليل على

وحدانية اللّه تعالى عقلا ، ولهذا وجبت معرفة اللّه تعالى بالعقل فضلا عن النقل ، فكل من

وهبه اللّه عقلا كاملا ولم يعترف بوجوب وجود الإله الواحد فهو كافر ، ولهذا أول بعض

المفسرين قوله تعالى (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) الآية 15 من الإسراء في ج 1 ،

بأن الرسول هنا معناه العقل ولكنا فنّدنا هذا القول في تفسير هذه الآية فراجعها ، وذلك لأن

الدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة في القرآن والسنة غنية عن البيان لأن القرآن كله

طافح بها وأقوال المصطفى صائحة فيها ، ومن قال إن معنى هذه الآية التي اشتهرت

ببرهان التمانع لو كان في السماء والأرض آلهة كما يقول عبدة الأوثان لزم فساد العالم لأن تلك

الآلهة التي يقولون بها جمادات لا تقدر على تدبير شيء مما في هذا العالم فيلزم فساده غفل

عن قوله تعالى (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً) الآية المتقدمة لا الآتية بأنها مسوقة للزجر عن عبادة الأوثان

وإن لم تكن لها الألوهية التامة لأن العبادة إنما تليق لمن له ذلك .

وبعد هذا الزجر أشار سبحانه إلى أن من له ما ذكر لا يكون إلا واحدا ، تنبه ، ولهذا نزه

نفسه المقدسة بقوله "فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" 22 من الشرك والولد

والصاحبة والمثيل وغيرها "لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ" في كونه لأنه متفرد فيه "وَهُمْ يُسْئَلُونَ" 23

ما عداه من جميع الكائنات عما يقع منهم وهذا مما لا ريب فيه لأنا نرى بعض ملوك الأرض لا

تسأل عما تفعل لأنهم نصوا في دستورهم المطبق على رعاياهم (ذات السلطان مقدسة

وغير مسئولة) فكيف بملك الملوك حقيقة في الدنيا والآخرة لا مجازا ولا في الدنيا فقط .

(98/505)

قال تعالى "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً" استفهام إنكاري وتوبيخ للمشركين لأنه لمّا أبطل كون آلهة غيره بما مر أنكر عليهم اتخاذهم آلهة غيره فقال (أم اتخذوا) إلخ، وكلفهم الحجة على زعمهم فقال يا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء الكفرة "هاتوا بُرْهانَكُمْ" على وجود إله غير اللّه وإذا كنتم تحتجون بالكتب القديمة فهو كذب لأن "هذا" القرآن المنزل عليّ فيه "ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ" من أصحابي

الموجودين في هذه الدنيا "وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي" من الأمم السالفة ومعاني ما أنزل على إخواني الأنبياء من الكتب والصحف موجودة فيه أيضا، لأنه يحتوي على جميع الكتب السماوية المتعلقة بالتوحيد ولا يوجد فيه ما تزعمون، وها هي ذي الكتب الأخرى التوراة والإنجيل والزبور أنظروها هل تجدون فيها شيئا مما يدل على أن اللّه اتخذ ولدا أو صاحبة أو كان معه إله آخر؟ كلا لا تجدون شيئا من ذلك البتة "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ" المنزل عليك من عندنا "فَهُمْ" لعدم معرفتهم وجهلهم "مُعْرِضُونَ" 24 عن النظر والاستدلال فيما لهم وعليهم.

(99/505)

قال تعالى "وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" 25 وحدي وهذا تقرير لما سبق من آي التوحيد لأن هذه الآية تشير إلى أن اللّه تعالى أخذ العهد على الأنبياء ولرسل كافة بأنه لا إله في الكون غيره وأن يعبده من فيه وحده ، فكل ما يقال بخلاف هذا كذب محض وبهت مفترى ، ثم طفق يندّد بصنيعهم الفاسد فقال "وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً" أول من قال هذا من العرب خزاعة ثم قلدهم غيرهم "سُبْحانَهُ" تبرأ عن ذلك "بَلْ" هم الملائكة الذين يزعمونهم بنات اللّه "عِبادٌ مُكْرَمُونَ" 26 عنده لاستغراقهم بعبادته وأدبهم معه "لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ" فيستقدمون به عليه بل يتبعونه ويقتفون أثر كلامه الجليل "وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" 27 لا يخالفونه قيد شعرة ولا أقل منها قولا ولا عملا "يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ" من الأفعال والأقوال التي وقعت منهم أو لم تقع في الحال أو التي ستقع بعد لا يخفى عليه شيء من أمر غيرهم "وَلا يَشْفَعُونَ" لأحد كما يزعم من عبدهم وكذلك بقية الملائكة وجميع الرسل والأنبياء والأولياء "إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى " اللّه الشفاعة له ورضي عنه وأذن لهم أن يشفعوا لمن يشاء ، راجع الآية 55 من البقرة في ج 3 والآية الثانية من سورة يونس المارة والآية 23 من سورة سبأ المارة وما تدلك عليه "وَهُمْ" كغيرهم من العباد العارفين مقام الألوهية الحقة كذلك تراهم "مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ" 28 وجلون دائما لا يأمنون على أنفسهم منه لأن من قرب من الملك وعرف عظمته وبطشه صار أكثر الناس

خوفا منه ، وجاء في

الخبر : الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون هلكى إلا العارفون ، والعارفون على خطر عظيم .

(100/505)

ثم شرع يهددهم ، يا ويل من أغضب الجبار القائل "وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ" أي الملائكة والأنبياء والأولياء وغيرهم فضلا عن الرعاع والجماد فأي كان من مخلوقاته جزؤ فقال "إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ" وناهيك بها من جزاء شديد "كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الفظيع "نَجْزِي الظَّالِمِينَ" 29 الذين وضعوا مقام الإلهية بغير موضعها .

قال تعالى "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً" شيئا واحدا ملتصقتين ببعضهما "فَفَتَقْناهُما" عن بعضهما وخللنا الهواء بينهما فجعلنا هيكلا علويا على حدة وهيكلا سفليا ، والمراد من السموات طائفتها ولهذا ثني الضمير ولم يجمع ومثل هذا قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا) الآية 42 من سورة فاطر في ج 1 ، وعليه قول الأسود بن يعفر :

إن المنية والحتوف كلاهما دون المحارم يرقبان سواري

وقد أفرد الخبر وهو رتقا لأنه مصدر وأصل الرتق الضم والالتحام خلقة كان أو صنعة ، ومنه الرتقاء من كانت ملتحمة محل الجماع ، وقد ذكرنا ما يتعلق بهذا البحث في سورة فاطر المذكورة وله صلة في الآية 66 من سورة الحج في ج 3 فراجعهما ، "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" من حيوان ونبات إذ يدخل في معنى شيء النبات والشجر لأن الماء سبب حياتهما وحياة كل شيء ، وقال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) الآية 45 من سورة النور في ج 3 ، فيدخل في معنى دابة الإنسان لأن لفظ دابة موضوع لكل ما دب على وجه الأرض ، وخرج هذا مخرج الأغلب لأن آدم وحواء وعيسى والملائكة والجن لم يخلقوا من الماء كما ذكرنا ذلك عند ذكر كل منهم "أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" 30 هؤلاء الكفار بألوهية من يفعل ذلك ، وهذه الآية من معجزات القرآن العظيم لأنه لم يكن في مكة ولا في العالم زمن نزول القرآن من يعرف أن الموجودات كانت كتلة واحدة ، ثم فتقت فتكونت منها السموات ثم الأرض ثم المخلوقات ، ولا من يعلم أن أصل كل الموجودات الماء ولم يعرف أحد شيئا من هذا إلا بالعصور الأخيرة ، راجع الآية 7 من سورة هود المارة .

قال تعالى "وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ" لأنها كانت تتحرك بالهواء كالسفينة في الماء، فأثقلها اللّه تعالى بالجبال الثوابت، وفيها إشارة إلى ما يعبّر عنه الجغرافيون بالقشرة الباردة، لأن الرواسي هي الصخور الجامدة في أديم الأرض، راجع الآية 22 من سورة الحجر المارة "وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً" طرقا واسعة بين الجبال "سُبُلًا" تفسير للفجاج أي طرق سهلة "لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ" 31 بها إلى مقاصدهم من البلاد والقرى والبوادي إذا سلكوها، والفرق بين هذه الآية وقوله تعالى (لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً) الآية 20 من سورة نوح المارة، أن هذه للإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة، وتلك لبيان أنه حين خلقها خلقها على تلك الحالة والصفة، فهو بيان لما أنهم "وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً" من البلى والسقوط والتغير على مدى الدهر المقدر لها، قال تعالى (وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) الآية 65 من سورة الحج في ج 3، والآية 42 من سورة فاطر في ج 1، "وَهُمْ" الكفار "عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ" 32 لا يتفكرون بما فيها من الشموس والأقمار والكواكب والنجوم وحركاتها في أفلاكها ومطالعها ومغاربها وترتيبها العجيب الدال على الحكمة الباهرة والنظام البديع المنبئ عن كمال القدرة القاهرة.

مطلب في الأفلاك وما يتعلق بها ، وبحث في الشماتة ، وما قيل في وزن الأعمال والإخبار بالغيب :

قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" للضياء ونضج الأثمار ومنافع أخرى كثيرة ألمعنا إليها في الآية 15 من سورة يونس المارة "كُلٌّ" من هؤلاء "فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" 23 يجرون في الهواء بصورة بديعة لا يعتريها الزيغ ، راجع الآية 40 من سورة يس في ج 1 والآية 15 من سورة الحجر المارة .

(103/505)

على أن العالم الألماني أنشتين اليهودي صاحب النظرية النسبية التي تقوم على معاكسة جميع الافتراضات القديمة في الفلك والحساب يقول : إن كل الحقائق التي أقرها العلم حتى الآن ما هي إلا بالنسبة لفرضيات افترضوها مما خيل لهم أنها حقائق وليست كذلك ، وان الأرض يوشك

أن لا تكون كروية ولا دائرة حول الشمس ، خلافا لما أقره الأكثر على القول بكرويتها ، وقال ابن كثير من علماء الإسلام وهو لا ينافي القرآن كما بينا في السورة المارة الذكر ، أما القول بدورانها حول الشمس فهو بعيد عن رأي المحققين ، وهو يخالف صراحة القرآن لفظا ،

واللّه أعلم بالواقع ، وما ندري لعل الزمن يظهر مفكرين آخرين يؤيدون نظرية هذا اليهودي ، واللّه تعالى يقول (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) الآية 76 من سورة يوسف المارة .

هذا ، والفلك هو مدار النجوم الذي يضمها ، وهو عرفا كل شيء مستدير ، وجمعه أفلاك ، والأفلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة ولا تقبل الخرق والالتئام ولا النموّ ولا الذبول ، ولا يعرف كنه أفلاك اللّه إلا هو أعلمنا بوجودها كما لا يعلم مدى خرابها غيره ، وكما أعلمنا بخرابها في قوله جلّ قوله (إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ) وفي قوله (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ) وقوله (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) وآيات أخرى كثيرة تدل على ذلك .

قال تعالى "وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ" في الدنيا "أَفَإِنْ مِتَّ" يا سيد الرسل "فَهُمُ الْخالِدُونَ" 34 بعدك ؟ كلا ، فإنهم ميتون لا يبقى منهم أحد ، نزلت هذه الآية حين قال المشركون إنا نتربص بمحمد ريب المنون ، فنشمت بموته ، فنفى اللّه تعالى الشماتة عنه في هذه الآية القاضية بعدم تخليد أحد في هذه الدنيا ، قال ذو الإصبع العدواني :

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلا كله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا

على أنه لا شماتة في الموت ، لأنه محتوم على كل أحد ، وتكون بغيره من المصائب ، وإن كانت مقدرة لأنها على أناس دون آخرين ، قال الشافعي رضي اللّه عنه :

تمّنى أناس أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل الذي يبغي خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها وكأن قد

وإنما قالوا الموت لا شماتة فيه لأنه لا علاقة للعبد فيه ، حتى ان المقتول يموت بأجله ، وإنما الشماتة التي تقع على الغير بفعل الغير ، ومن قال :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

(105/505)

بالنظر لظاهر الأمر ، لأن فيه غياب عدوه عن نظره ، فمن هذه الجهة يصدق قوله هذا ، ومن قال إن هذه الآية تنفي حياة عيسى والخضر وإدريس والياس وغيرهم ، وتثبت موتهم فقد أخطأ ، لأن عيسى حي بنص القرآن والأحاديث الصحيحة ، والخضر بالأحاديث والتواتر ، وأنهما لا بد أن يموتا ، راجع الآية 61 من سورة الزخرف في ج 2 وما ترشدك إليه ، والآية 57 من سورة مريم المارة في ج 1 تغنيء عن رفع إدريس ، ووردت أخبار وآثار بحق

الياس ، راجع الآية 132 المارة من سورة الصافات والآية 85 الآتية ، على أنه لا بد من موت الكل بقوله تعالى "كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ" والذوق مقدمات الموت وآلامه لأنه به ينقطع ذلك ، ويفيد سور الكلية العامة موت كل نفس ، إلا أنه مخصوص بقوله تعالى (تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ) الآية 116 من المائدة في ج 3 ، لأن اللّه تعالى حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت ، فكما أنه تعالى لا يشبه شيئا من خلقه فكذلك نفسه الكريمة لا تشبه نفوس خلقه ، وبعضهم جعل الخصوص أيضا في الجمادات ، لأن لها نفوسا لا تموت ، هذا والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به على ظاهره فيما عدا ما أخرج منه ، وهذا يبطل قول الفلاسفة في الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية أنها لا تموت ، بل تموت أيضا وتدخل في عموم هذه الآية إذا كان لما قالوه من صحة "وَنَبْلُوكُمْ" نختبركم أيها الناس "بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً" ابتلاء فهو مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه ، أي لننظر كيف شكركم على ما تحبون وصبركم فيما تكرهون "وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ" 35

(106/505)

فنجازيكم بحسبها "وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا" يا سيد الرسل "إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً" كأبي جهل وجماعته من رءوس الكفر ، لأنهم كانوا إذا مرّوا به صلّى اللّه عليه وسلم يضحكون

ويقولون هذا نبي بني عبد مناف ويقول بعضهم لبعض "أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ" أي يذمها ، والذكر يطلق على المدح والذم "وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ" 36 أي كيف يستهزئون بك إذ تستهزء بأصنامهم وهم أحق أن يستهزىء بهم ، لأنك تعبد الخالق وهم يعبدون ما يخلقون ، ونزلت فيهم هذه الآية .

قال تعالى "خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ" العجلة طلب الشيء قبل

أوانه ، وهو من مقتضيات الشهوة ، فلذلك صارت مذمومة حتى قيل العجلة من الشيطان ، والقاعدة الشرعية : من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، قال القائل :

لا تعجلن لأمر أنت طالبه فقلما يدرك المطلوب ذو العجل

فذو التأني مصيب في مقاصده وذو التعجل لا يخلو من الزلل

فالإنسان لقلة صبره وفرط استعجاله جعل كأنه مخلوق من العجلة ، لأنه يكثر منها ، والعرب تقول لكثير الكرم خلق من الكرم "سَأُرِيكُمْ آياتِي" التي تطلبونها أيها الناس "فَلا تَسْتَعْجِلُونِ" 37 نزولها وذلك أنهم كانوا يقولون لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم هات ما توعدنا به من العذاب أدع ربك فلينزله علينا ، فأجابهم اللّه بأنه لا بد من إنزاله بكم ، ولكن لم يحن بعد أجله القدر له "وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 38 في قولكم يا محمد ويكررون هذه المقالة له على طريق السّخرية والاستهزاء بوعده ، وهذا هو الاستعجال المذموم الذي أوعدهم اللّه سوء عاقبته ، راجع الآية 48 من سورة يونس المارة .

(107/505)

قال تعالى "لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا" ما هو ذلك العذاب هو "حِينَ" يحل بهم "لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ" 39 إذا حل بهم فلا يقدرون على ردّ شيء منه ولا تأخيره ، وجواب لو محذوف تقديره لما كانوا طلبوا ولا استهزأوا ولعلموا أن جهلهم هو الذي أوقعهم في ذلك العذاب وحدا بهم إلى تلك المهالك .

قال تعالى "بَلْ تَأْتِيهِمْ" الساعة المقدر فيها نزوله أو الموت "بَغْتَةً" على حين غرة فجأة "فَتَبْهَتُهُمْ" ويهولهم أمرها وتراهم حين تأتيهم حائرين "فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا" عنهم ولا الصبر عليها "وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ" 40 يمهلون ليتوبوا ويعتذروا كما أنهم لا ينصرون من قبل أحد .

قال تعالى مسليا لحبيبه "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ" كما استهزأ بك قومك "فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" 41 من نزول العذاب فلم يحسوا إلا وقد نزل وأحاط بهم وكذلك قومك يا محمد إذا بقوا مصرين على تكذيبهم وسخريتهم يحيق بهم مثلهم ، راجع نظيرة هذه الآية

(108/505)

الآية 134 من سورة الأنعام المارة لمناسبة غير هذه المناسبة "قُلْ" يا سيد الرسل لقومك "مَنْ يَكْلَؤُكُمْ" يحرسكم إذا نمتم "بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ" إذا انصرفتم فيه لمعاشكم "مِنَ الرَّحْمنِ" إذا أراد إيقاع عذابه بكم فيهما ، وفي التعريض لعذاب الرحمن دون غيره من الأسماء المقدسة والصفات الطاهرة تنبيه على أنه لا حفيظ لهم غيره بمقتضى رحمته وتلقين للجواب ليقولوا رحمتك تحرسنا ، ونظير هذه قوله تعالى (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) الآية 7 من سورة الانفطار الآتية ليقول كرمك يا رب فإذا وفقوا يقولون هنا وهناك ولكن أنى لهم التوفيق وقد فات وقته إذ يقول اللّه "بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ" 42 فلا يخطر ببالهم لسابق شقائهم ، فيا أكمل الرسل قل لمن يجادلك فيهم "أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا" إذا أردنا بهم شرا ؟ كلا ، آلهتهم التي يزعمونها "لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ" فهم عن نصر غيرها عجز "وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ" 43 بالنصر والتأييد ليخلفوا وإذا كانوا كذلك فلا محيص لهم من العذاب قال تعالى "بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ" الكفرة "وَآباءَهُمْ" متعناهم أيضا في الدنيا فاغتروا بها ولهوا بنعيمها "حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ" وهم في صحة وأمن وسعة فقست قلوبهم وظنوا أنهم خالدون فيها لا يغلبون عليها لفرط جهلهم أخذوا على غفلة "أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ" التي هي تحت تصرف الكفار فنسلط عليها المؤمنين و"نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها" فنسلبها منهم ونضمها للمؤمنين وهذا من الإخبار بالغيب ، لأنه تقدير لما سيجريه اللّه تعالى لرسوله من النصر والفتوح في غزواته ومن بعده لأصحابه إذ تدخل عساكرهم أراضي

المشركين عنوة أو صلحا غالبة ظافرة فنضمها إلى المسلمين فتكون في حوزتهم فإذا فعل بهم هذا "أَفَهُمُ الْغالِبُونَ" 44 أم نحن ؟

(109/505)

كلا بل هم المغلوبون ، والغلبة للّه ولرسوله وللمؤمنين ، راجع الآية 8 من سورة المنافقين في ج 3 ، وهذا الاستفهام إنكاري جوابه النفي ، وكيف لا يكونون غالبين وهم حزب اللّه الذي لا زال غالبا من قبل للرسل وأتباعهم ، فلأن يكون الغلب لخاتم الرسل وأتباعه من باب أولى .

ولهذا البحث صلة في الآية 44 من سورة الرعد الآتية ج 3 ، وقد مرّ له بحث في الآية 8 من سورة المؤمن والآية 75 من الصافات فراجعها .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن النقص الواقع بطرفي الأرض من جهة قطبيها الشمالي والجنوبي ، وهو أيضا من الإخبار بالغيب ، إذ لم يكن أحد في عهد نزول القرآن يعلم ذلك ، صدق اللّه العظيم (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من سورة الأنعام المارة ، قيل كان ابن الجوزي يدرس في جامع دمشق في هذه الآية فقال له رجل هل في القرآن ما يدل على أن فأرة حملت عصا بذنبها وتريد أن تدخل جحرها معها ؟

قال نعم في قوله تعالى (لِيَحْمِلوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً . . .

وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ) الآية 25 من سورة النحل المارة، رحمه اللّه ما أدق فكره،

راجع الآية المذكورة في سورة الأنعام المارة، والآية 23 في سورة الشورى المارتين "قُلْ" لهم يا

سيد الرسل "إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ" المنزل عليّ من ربي لا بما تتفوّهون به من السحر والشعر

والكهانة وغيرها من الأمور الثمانية المارة من الآية 5 من هذه السورة "وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ

الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ" 45 يخوفون ولكنهم بمعزل عن السماع ولأنهم لا يسمعون مطلقا،

وإنما قال بالوحي ليعلمهم أن إنذاره مقتصر على الإخبار الإلهي لا باقتراح الآيات لأنه

مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية، ولأن الإيمان برهاني لا عياني.

(110/505)

قال تعالى "وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ" شيء قليل وطرف يسير كأدنى شيء "مِنْ عَذابِ رَبِّكَ

لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ" 46 لأقروا على أنفسهم بالظلم حالا فكيف إذا أصابهم

معظم العذاب أو صب عليهم كله يا ويل من لم يرجع إلى اللّه قبل أن لا يقبل منه الرجوع قال

تعالى "وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ" فنزن بها أعمال الخلق فمن أحاطت حسناته

بسيئاته فقد فاز ونجى ومن حاقت سيئاته بحسناته فقد خاب وخسر وإذ ذاك يظهر

للكافرين قوله تعالى (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً) الآية 107 من سورة الكهف المارة، إذ لا أعمال لهم صالحة، وقرىء القصط بالصاد لأنه قد يحل محل السين كما أن السين تحل محله في الصراط راجع تفسيره في سورة الفاتحة في ج 1، واللام هنا في يوم القيامة بمعنى في، وعليه قول مسكين الدارمي:

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم كما قد مضى من قبل عاد وتبّع

"فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً" بذلك الوزن لأن اللّه تعالى وصفها بالعدل على ما يعرفون أن منها ما يكون في الدنيا مستقيما ومنها ما لا يكون فبين اللّه تعالى لهم أن موازين الآخرة على العدل والاستقامة فلا يتصور فيها النقص والزيادة اللذان هما من دواعي الظلم "وَإِنْ" وصلية "كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ" لا يظلمه وهذا مبالغة في القلة بحسب عرفنا لأنا لا نرى أقل منها وإلا فاللّه تعالى يجازي ويثيب على أقل منها مما لا يدركه الطرف ولا يوزن "أَتَيْنا بِها" إلى فاعلها ليعلم أنا واقفون على كل حركاته وسكناته، وإنا نحاسبه عليها مهما كانت "وَكَفى بِنا حاسِبِينَ" 47 عادين محصين ومتقنين أعمالكم عالمين بها حافظيها عليكم فنعفوا عمن نشاء ونعاقب من نشاء إذا شئنا على الفتيل والنقير والقطمير، قال الشبلي وقد رؤي بالمنام بعد مرته رحمه اللّه ما فعل اللّه بك فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

هكذا عادة الملوك بالمماليك يرفقوا

وفي رواية يشفقوا ، وتشير هذه الآية إلى أن الحساب بعد وضع الموازين ، أخرج الترمذي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول أتنكر من هذه شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟

فيقول لا يا رب ، فيقول ذالك عذر ؟ فيقول لا يا رب ، فيقول اللّه تعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول احضر وزنك ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت (خفت) تلك السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم اللّه شيء .

هذا لأنه قالها بإخلاص وعقيدة راسخة فخبأها اللّه له ، وفي هذا الحديث دلالة على أن صحائف الأعمال نفسها توزن ، لا أن الأعمال تتجسد ثم توزن ، واللّه أعلم بحقيقة الحال لأن أفعال الآخرة فوق العقل لا يعرفها إلا من يشاهدها ، لهذا يجب الاعتقاد والتسليم للمخبر بها .

قال تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ"

التوراة الفاصلة بين الحق والباطل الفارقة بين الهدى والضلال "وَضِياءً" نورا يعرف به طريق الرشد من الغي "وَذِكْراً" يتذكر به ما يحتاجه بنو إسرائيل من أمور دينهم ودنياهم وعظة يتعظون بها وعبرة "لِلْمُتَّقِينَ" 48 الذين يعتبرون بما فيها ويعملون.

(112/505)

ثم وصف هؤلاء المتقين الذين يعملون بالفرقان الموصوف بالأوصاف المذكورة بقوله "الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ" من حيث لم يرونه فيعبدونه في خلواتهم إذا غابوا عن أعين الناس ويمتنعون من مخالفته خوفا من أن يراهم لعلمهم أنه مطلع على سرّهم وجهرهم، لأن من عبد اللّه وعلم أنه يراه أحسن عبادته وخشع فيها وخضع لربه "وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ" 49 خائفون من هولها قبل أن يروها لأنهم آمنوا بها على الغيب تصديقا لرسلهم وكتابهم "وَهذا" القرآن "ذِكْرٌ مُبارَكٌ" عظيم الخير كثير البركات جامع لمنافع الدنيا والآخرة "أَنْزَلْناهُ" عليك يا سيد الرسل كما أنزلنا الكتب على من قبلك عيسى وموسى فمن قبلهم "أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ" 50 يا أهل مكة إنزاله على نبيكم وشمول بركته لكم وخيره فيكم، وهل أنتم جاحدون صحبته، وهذا استفهام على طريق الإنكار والتقريع يضاهي ما جاء في الآية

175 من سورة الأنعام المارة.

قال تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ" موسى وهارون "وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ" 51 بأنه أهل لما آتيناه لما هو عليه من الكمال والإخلاص لنا، قالوا لما ألقي في النار قال له جبريل عليهما السلام سل ربك ينقذك منها، قال له علمه بحالي يغني عن سؤالي، وقال ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا.

(113/505)

فهذا كاف على إخلاصه لربه، فاذكر يا محمد لقومك شأنه هذا مع قومه وأهله "إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ" 52 أراد عليه السلام ما هذه الأصنام، ولكنه تحقيرا لها وتقريعا لهم بعبادتها، عبر عنها بالتماثيل وهي الصور المصنوعة المشبهة بالمخلوقين من إنسان وحيوان وطير وحوت وغيرها، أي ما بالكم مقبلون عليها ملازمون لها منهمكون في عبادتها "قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ" 53 فعبدناها تقليدا لهم "قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 54 بالعكوف عليها لا يخفى على عاقل وان استنادكم للتقليد

(114/505)

عبارة عن هوى متبع وشيطان مطاع وإعجاب بما تصنعون "قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ" أي الصدق لمقابلة قولهم "أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ" 55 الهازئين في قولك لأنا لم نسمع هذا إلا منك "قالَ" يا قوم إن هذه لا تصلح للعبادة وليست برب ينفع ويضر ويحيي ويميت "بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ" 56 وجازم بقولي لكم بأنها ليست بآلهة لأنها من عملكم والله خلقكم وما تعملون ولست بهازل ولا من شأني اللعب وأريد لكم ما أريد لنفسي "وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ" التي تخوفوني بها ولأفعلن بها فعلا يكيدكم "بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ" 57 من هنا إلى عيدكم ، وذلك أن أباه كلفه ، وقيل الملك أراده أن يذهب مع قومه إلى العيد ، فسار معه ثم ألقى نفسه بأثناء سيره معهم لشدة تفكره وتأثره من صنيعهم على الأرض وقال إني سقيم ، راجع قصته في الآية 89 من سورة الصافات والآية 78 من سورة الأنعام المارتين ، فتركه أبوه ومضى إلى عبده فرجع إبراهيم إلى بيت الآلهة فوجدها في بهو عظيم ، وبمستقبل بابه صنم كبير إلى جنبه أصغر منه ، وهكذا بقية الأصنام ، ورأى بين أيديهم طعاما وضعوه لتحل عليه بركتها ، فيأكلوه بعد رجوعهم من مراسم العيد والتبرك بالأصنام ، فقال لهم على طريق السخرية ألا تأكلون ؟ فلم يردوا عليه فقال لهم استهزاء بهم ما لكم لا تنطقون ؟ فلم يردوا عليه ، فطفق يكسرها حتى أتى على آخرها ، ووضع الفأس في عنق كبيرهم الذي لم يتعرض إليه كما حكى الله

عنه "فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً" قطعا كبيرة وصغيرة ، من الجذ الذي هو القطع ، قال الشاعر :

بنو المهلب جذ اللّه دابرهم أمسوا رمادا فلا أصل ولا طرف

(115/505)

"إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ" لعابديها لم يتعرض له ، وهذا أولى من عود الضمير لنفس الأصنام ، إذ لو كان لها كما مشى عليه بعض المفسرين لقال كبيرها ويؤيده أيضا قوله "لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ" 58 فيسألونه عمن كسرها لأنه بقي صحيحا وآلة التكسير في عنقه ، قالوا كانت اثنتين وسبعين صنما منها من ذهب ومنها من فضة ومن نحاس وصفر وحديد وخشب وحجر وطين ، فلما رجعوا من عيدهم ودخلوا على البهو رأوا ما هالهم "قالُوا" صائحين بلسان واحد "مَنْ فَعَلَ هذا

بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ"

59 في جرأته هذه المؤدية لإهلاكه "قالُوا" الذين سمعوا صياحهم وسمعوا قبل قسم إبراهيم على كيدها "سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ" بسوء ويعيبهم ويسخر بهم "يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ" 60 فأوصلوا الخبر إلى النمروذ وملائه فأجمع رأيهم على جلبه واستنطاقه أولا ولهذا "قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ" 61 على اعترافه بذلك لئلا يقول الناس إنه أخذ بغير

ذنب وقتل بغير بينة ، فأتوا به ثم له "قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ" 62 ولما ذا "قالَ" ما فعلت شيئًا وقصد غير تكسيرها وما عملت شيئًا يسخط اللّه فيها "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا" ففهموا من كلامه هذا أن الذي كسرها هو الصنم الكبير المشار إليه من قبل إبراهيم ، وقد وقف بعضهم على (بل فعله) ، ثم ابتدأ فقرأ (كبيرهم هذا) إلخ يريد بذلك عود الضمير على إبراهيم تخلصا من الكذب ، ووقف بعضهم على هذا ، وأراد أي هذا قولي فاسألوهم إلخ لأجل التخلص من الكذب أيضا ، والحال أن الكذب للمصلحة جائز من النبي وغيره إذا كان هناك محذور كما هنا ، فلا حاجة للوقفين اللذين لم يردهما إبراهيم نفسه ، أي إنما كسرها كبيرهم بسبب غضبه عليكم ، لأنكم تعبدون الصغار معه وتساوونها به وهو أكبر منها ، فكرهن ليستقل بعبادتكم .

(116/505)

قالوا ما بينتك على هذا ؟

قال لا بينة لي سوى وجود آلة التكسير لديه كما شاهدتموها ، فإن لم تصدقوني "فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ" 63 أراد بهذا إقامة الحجة عليهم لأنها إذا قدرت على النطق قدرت على الفعل ، وإلا فيظهر لهم عجزها .

قال تعالى "فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ" لما سمعوا قوله وتفكروا به فلم يكن لهم بد إلا الاعتراف بعجزها "فَقَالُوا" أولا لبعضهم "إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ" 64 بعبادتكم ما لا يتكلم، لأن من لم يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن عابديه البأس، وقد أجرى اللّه الحق على لسانهم أثناء المذاكرة فيما بينهم على غياب من إبراهيم بدليل ما حكى تعالى عنهم (فرجعوا إلى أنفسهم) وقد لحقهم الشقاء المبعد عن الحق المهوي بهم إلى الباطل المشار إليه بقوله تعالى "ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ" أي ردّوا إلى تعصبهم وآرائهم الفاسدة عن الفكرة المستقيمة الصالحة في تظليمهم

(117/505)

أنفسهم فقالوا له "لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ" 65 فكيف تكلفنا سؤالهم فلما رأى الحجة اتجهت عليهم "قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ" إن عبدتموه "شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ" 66 إن تركتم عبادتها "أُفٍّ" راجع معناه في الآية 23 من الإسراء في ج 1 "لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ" 67 أنها لا تستحق العبادة فتتركونها، ثم طفق يندد بهم وبآلهتهم ويذمها ويحقرها ويسفههم، ولما جابههم بذلك وعرفوا أنه هو الفاعل حكموا عليه بما ذكره اللّه بقوله "قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ" 68 به شيئا

يرفع العار عنكم وعن آلهتكم ، لأنه طعن فيكم ووصم آلهتكم جهرا ولم يحترم أحدا ولم يقلع عما هو عليه ولم يعتذر ، قالوا فقبضوه وحبسوه في حظيرة في قرية كوني ، وأمر النمروذ الناس بجمع الحطب مدة ستة أشهر ، حتى صار المرضى وذو العاهات والحاجات ينذرون جمع الحطب لإحراقه إذا أجيبت دعواتهم ، قاتلهم اللّه ما أحمقهم ، ثم أوقدوا ما جمعوه مدة سبعة أيام حتى صارت الطير في جو السماء تحترق من وهجها ، فأخرجوا إبراهيم ليلقوه فيها ، فلم يقدروا أن يتقربوا منها ولم يعلموا كيفية إلقائه بوسطها ليتم لهم ما قرروه ، قالوا فخرج إبليس على صورة رجل منهم فعلمهم عمل المنجنيق (آلة قاذفة) فعملوه ووضعوه فيه مقيدا مغلولا ورموه في تلك المقذفة من محل عال مشرف على وسط النار ، فتداركه الذي ألهمه ما عمل وأنطقه بما قال جلت قدرته بقوله "يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ" 69 فكانت كذلك لأنها لا تحرق إلا بخلق اللّه الإحراق فيها "وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ" 70 في سعيهم وعدم حصول مرادهم "وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ" 71 أرض الشام والقدس .

مطلب إلقاء إبراهيم في النار وماذا قال لربه وملائكته وفي مدح الشام :

قالوا لما وضع إبراهيم بالمقذف ليرمى في النار صاحت ملائكة الأرض والسماء ، ربنا ائذن لنا في نصرته فليس في الأرض أحد يعبدك غيره ، فقال إنه خليلي وأنا إلهه فإن استغاثكم فأغيثوه ، قالوا فجاء خازن المياه وقال له إن أردت أخمدت النار ، وأتاه خازن الهواء فقال له إن أردت طيّرت النار ، فقال لا حاجة لي إليكم ، حسبي اللّه ونعم الوكيل ، وقالوا إنه قال حين ألقي بالنار : لا إله إلا أنت لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .

فاستقبله جبريل فقال له يا إبراهيم ألك حاجة ؟

قال أما إليك فلا ، قال اسأل ربك ، قال حسبي من سؤالي علمه بحالي .

روى البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى (وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قال : قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي بالنار ، وقالها محمد صلّى اللّه عليه وسلم حين قال لهم الناس (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) الآية 173 من آل عمران في ج 3 .

قالوا وصار كل شيء يسعى ليطفي النار على إبراهيم إلا الوزغ فإنه كان ينفخها ، وروى البخاري ومسلم عن أم شريك قالت : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أمر بقتل الأوزاغ .

زاد البخاري قال : وكان ينفخ على إبراهيم .

قال ابن عباس : لو لم يقل اللّه تعالى سلاما لمات إبراهيم من بردها .

وجاء في الآثار أنه لم تبق نار في الأرض ذلك اليوم إلا أطفئت ، ولو لم يقل على إبراهيم لبقيت باردة أبدا ، ولم ينتفع بها أحد ، قالوا وبقي إبراهيم فيها سبعة أيام ولم يحترق إلا وثاقه ، لأنه من أعدائه وفي حرقه خلاصه من التكتيف فكان لمنفعته ، وإلا لم يحرق تبعا للباسه .

(119/505)

قالوا وأتبع اللّه له فيها عين ماء عذب ، وأنبت على حافتها الورد الأحمر والنرجس ، وبعث اللّه ملكا يظلل عليه ويؤنسه ، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، وبطنفسة فأجلسه عليها ، وصار يؤانسه أيضا ، قالوا وأشرف نمروذ من الصرح على إبراهيم فرآه جالسا في روضة وسط النار ، فناداه كبير إلهك الذي بلغت قدرته هذا يا إبراهيم أتستطيع أن تخرج ؟ قال نعم ، قال تخشى إن قمت أن تضرك ؟ قال لا ، قال إذن فاخرج فإنك آمن وإنا لا نجابهك بشيء بعد أن رأينا فعل إلهك معك ، قالوا فخرج ، ولما وصل إليه قال من الذي كان معك ؟ قال ملك يؤانسني ، قال إني مقرب إلى ربك أربعة آلاف بقرة ، قال لا يقبلها منك إلا أن تكون على ديني ، قال لا أستطيع ترك ملكي ولكن سأذبحها لصنيعه بك ، فذبحها وترك إبراهيم وشأنه ، قالوا واستجاب لإبراهيم رجلان من قومه حين رأى لطف

اللّه فيه ، ثم آمنت به سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، وتبعه لوط ابن أخيه ، وكان لها أخ ثالث يسمى ناخورا

وثلاثتهم أولاد تارخ وهو آزر ، فخرجوا من كوني في أرض العراق ، وفروا إلى حران بدينهم ، ومنها نزل هاران في أرض الجزيرة ، ومكث فيها ، ثم ذهبوا إلى مصر ثم إلى الشام ، وأول ما نزل هاران أرض على سبيل الإقامة أرض بئر السبع من فلسطين ، ونزل لوط بالمؤتفكة تبعد عن بئر السبع ثمانية عشر فرسخا فبعثه اللّه نبيا إلى أهلها وما حولها .

أما النمروذ فقد أصر على الكفر فأرسل اللّه بعرضة فدخلت في منخره إلى دماغه فأهلكته ، وفي إهلاكه بهذه الحشرة الصغيرة تقريع لمن يدعي العظمة تجاه ربه عز وجل لأن هذا تعاظم حتى ادعى الإلهية فأهلكه اللّه بأحقر شيء من خلقه ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

وسبب تسمية أرض الشام مباركة لأن أكثر الأنبياء خرجوا منها وبعثوا لأهلها ودفنوا فيها .

روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال لكعب ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقبره الشريف ؟ فقال كعب إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشام كنز اللّه في أرضه ، وبها كنزه من عباده .

وأخرج أبو داود عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة (أراد بالهجرة الثانية إلى الشام إذ يرغب بالمقام فيها) فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم .

وأخرج الترمذي عن زيد ابن ثبت قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم طوبى لأهل الشام ، فقلت وما ذاك يا رسول الله ؟ قال لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها .

وأخرج أيضا عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول اللّه أين تأمرني ؟ قال هاهنا ، ونحى بيده نحو الشام ، وقدمنا في الآية 136 من سورة الأعراف ما يتعلق بهذا فراجعه .

قال تعالى "وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً" فرق طلبه لأنه قال (رب هب لي من الصالحين) فأعطاه إسحق وأعطى إسحق يعقوب زياده ، والنافلة ولد الولد .

وهذا بعد أن أعطاه إسماعيل من الجارية هاجر زوجته ، وبعد أن وضعه وأمه في مكة المكرمة ، وإن ابنه إسحق من زوجته سارة .

وقد بينا التاريخ بينهما في الآية 99 من سورة إبراهيم المارة وهو ثماني عشرة سنة "وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ" 72 أنبياء كاملين لائقين لرسالتنا وإرشاد عبادنا "وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً"

(121/505)

قادة "يَهْدُونَ" الناس إلى ديننا "بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ" من كل معروف وعمل صالح وفعل طيب "وَإِقامَ الصَّلاةِ" المحافظة عليها بأوقاتها المعينة لها والمداومة على فعلها "وَإِيتاءَ الزَّكاةِ" لمستحقيها من الفقراء والمساكين وهي أفضل العبادات المالية، كما أن الصلاة أفضل العبادات البدنية، ومنه يعلم أن هذين الفرضين قديمان لم تخل أمة منهما "وَكانُوا" إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب "لَنا عابِدِينَ" 73 لم يعبدوا غيرنا منذ نشأوا "وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً" بين الناس على طريق النبوة بمقتضى شريعته لا على سبيل الملكية، لأنها لم تجمع إلا لداود عليه السلام فمن بعده كما سيأتي في الآية 251 من سورة البقرة ج 3 "وَعِلْماً" به وفقها بأنواعه "وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ" إتيان الذكران والضراط في المجالس والطرقات وقذف المارة بالحصى والتصفير والتصفيق وعقد أيديهم وراءهم تقليدا لفعل إبليس عند طرده من الجنة، والتباهي بعوراتهم من حيث كبرها وصغرها وغيرها من الفواحش "إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ" 74 خارجين عن

حدود الله متجاوزين عليها "وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا" كسائر أنبيائنا "إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" 75 للدين والدنيا وتقدمت القصة مفصلة في الآية 39 من سورة هود المارة "وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ" إبراهيم ولوط "فَاسْتَجَبْنا لَهُ" دعوته "فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ" 76 الذي لحقه من تكذيب قومه وإهانتهم له ومن الغرق الذي أهلك به قومه "وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" فلم يصلوا إليه بسوء قط "إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ" منهمكين بالشرور "فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ" 77 لعلمنا أنهم لم يؤمنوا، وتقدمت قصة إهلاكهم في الآية 144 فما

(122/505)

بعدها من سورة هود أيضا، "وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ" الذي انطلقت فيه الأغنام فأهلكته وهو معنى قوله "إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ" لبلاد دخلت فيه فأفسدته كله "وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ" 78.

مطلب أن الجمع ما فوق الاثنين، وأحكام داود وسليمان، والبساط وسيره وما يتعلق بذلك:

في هذا الجمع دليل المناطقة القائلين أقل الجمع اثنان وعليه اللغات الأجنبية كلها إذ ليس

عندهم تثنية بين الجمع والمفرد وعليه قوله تعالى (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ) الآية 11 من سورة النساء في ج 3 ، والمراد أخوان ، وقرىء لحكمهما قراءة شاذة ، وقيل إن الحكم كما يضاف إلى الحاكم يضاف إلى المتحاكمين فيكون معهما جمعا ، تأمل وراجع الآية 116 من الصافات المارة .

وخلاصة هذه القصة :

قالوا دخل على داود عليه السلام رجلان ، قال أحدهما إن غنم هذا قد دخلت في زرعي ليلا فلم تبق منه شيئا ، واعترف الآخر بذلك ، فحكم عليه السلام بالغنم كلها لرب الزرع ، فلما خرجا قال لهما سليمان : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه بالحكم ، فقال غير هذا أوفق وأرفق ، فعادا فأخبرا داود ، فدعاه وقال له بحق الأبوة والنبوة إلا أخبرتني بالذي هو أولى بهما وأحسن ، قال له ادفع لصاحب الحرث ، الغنم فينتفع بدرّها ونسلها وصوفها ، وأمر صاحبها يزرع لصاحب الحرث مثل حرثه حتى إذا صار كهيئة يوم أكل دفع إلى صاحبه واستعاد صاحب الغنم غنمه ، وبهذه الصورة يرتفع الضرر عن الطرفين ، ويعود كل لماله كما كان ، فقال داود عليه السلام الأمر هو ما قضبت وحكم به ، وكان عمر سليمان إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، ومن ذلك اليوم يقال : الرجوع إلى الحق فضيلة ، والاعتراف بالخطأ خير من التمادي في الباطل ، والخطأ في البراءة خير من الخطأ بالحكم .

والحكم الشرعي في هذا هو أن ما أفسدته الماشية المرسلة من مال الغير نهارا فلا ضمان على ربّها لأن أصحاب الزرع مكلفون بحفظ زرعهم نهارا من المواشي التي تسرح فيه، وإن كان ليلا فعليه الضمان لأن أهل المواشي مكلفون بحفظها ليلا في مراحها لئلا تتسرب إلى مال الغير فتتلفه حال غفلة أهله، يدل على هذا ما رواه حرام بن سعيد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا (بستانا) لرجل من الأنصار فأفسدت فيه، فقضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل - أخرجه أبو داود مرسلا - وما روى الشيخان من قوله صلّى اللّه عليه وسلم:

جرح

العجماء جبار ولم يقيده بليل ولا نهار، وقد أخذ أبو حنيفة بهذا ولم يقض بالضمان أصلا، وأخذ الشافعي بالحديث المشار إليه على التفصيل الذي فيه، وكان حكم داود عليه السلام وابنه بالاجتهاد، ولأنه لو كان بالنص لما جاز لسليمان الاعتراض عليه، ولا لداود الرجوع عنه، وان اللّه تعالى حمد هذا لصوابه، وأثنى على الآخر باجتهاده.

قال الحسن: لولا هذه الآيات لهلك الحكام.

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: قال صلّى اللّه عليه وسلم إذا حكم الحاكم باجتهاده فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر.

وهناك من قال إن حكمهما كان بالنص ، إلا أن الآخر نسخ الأول وفيه ما فيه فضلا عن أنه يوجب عدم جواز الاجتهاد للأنبياء ، لأن سليمان لم يتنبأ بعد لينزل عليه شرع ، يدل عليه قوله تعالى "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ" أي قضية الحكم بطريق الإلهام ، وإنما ركن داود لحكم سليمان ، لأنه رآه موافقا وأرفق من حكمه بحق الطرفين ، ولأنه علم حذاقته قبل هذه ، وذلك على ما قالوا إن امرأة تبتّلت واستغرقت أوقاتها بالعبادة ، وكان لها جاريتان جميلتان ، قالت إحداهما للأخرى قد طال علينا البلاء ، لأن هذه لا تريد الرجال ، وإننا بشر فلو فضحناها لرجمت وخلصنا منها ، فصرنا إلى الرجال من بعدها ، فأخذنا ماء أبيض ونضحتاه على سوءتها وهي تصلي ، وخرجنا إلى داود عليه السلام فقالتا له إنها قد بغت ، وكان حد الزنى عنده الرجم ، فرفعت إلى داود والماء لأبيض في ثيابها ، فسألها فأنكرت ، وسألها عن الماء ، فقالت لا أدري لعله ماء أبيض أو شيء مفتعل ، فأراد رجمها ، فقال سليمان ائتوني بنار ، فإنه إن كان ماء أبيض اجتمع ، وإن كان ماء الرجل تفرق ، فأتي بنار فوضعها عليه فاجتمع فدرأ عنها الحد ، وهذا من ذكانه عليه السلام وحدة فطنته .

ولهذا البحث صلة بعد الآية الآتية.

قال تعالى "وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ" يسبحن أيضا ويسرن معه حيث سار وهذا هو تسخيرها "وَكُنَّا فاعِلِينَ" 79 أمثال هذه المعجزات لأنبيائنا ومن شأننا أن نفعل أكثر من ذلك فليس ببدع منا وإن كان بديعا وعجيبا عندكم أيها الناس "وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ" دروع من حديد بدليل قوله "لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ"

من أن ينالكم سلاح عدوكم في الحرب "فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ" 80 يا آل داود، وهذا استفهام بمعنى الأمر، أي أديموا الشكر للّه على ذلك.

(125/505)

واللبوس لغة كل ما يلبس، قال ابن السكّيت:

البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بوسها

"وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ" سخرناها "عاصِفَةً" شديدة الهبوب ولا يرد هنا ما جاء في قوله (رخاء) في الآية 37 من سورة ص في ج والآية 12 من سورة سبأ المارة لم يذكر فيها الأمران بل ذكر مدة سيرها حين تحمل البساط على الريح اللينة.

أما العاصفة فتقطع أكثر مما ذكر هناك ، وبما أن اللّه تعالى سخرها له فتكون على رأيه إن شاء رخاء لينة وإن شاء شديدة عاصفة تقطع السنة بساعة وأقل .

راجع كيفية جلب عرش بلقيس في الآية 38 من سورة النمل في ج 1 ، فالريح بالنسبة لسيدنا سليمان كالفرس إن شاء أطلقها فغارت وإن شاء أمسكها فسارت ، فإذا أراد أن تشتد اشتدت وإذا أراد أن تلين لانت ، يدل عليه قوله تعالى "تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها" بالأشجار والأنهار والثمار واعتدال الهواء فضلا عن أنها مهبط الأنبياء ومثواهم "وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ" 81 لأن هذه الأشياء وغيرها تجري بمقتضى حكمتنا وتدبيرنا "وَمِنَ الشَّياطِينِ" سخرنا له "مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ" في البحار لاستخراج الدراري "وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ" الغوص ، من البناء الرفيع ، والتصوير الجميل ، وعمل القدور والجفان العظيمة ، والقوارير والصابون وغيرها مما عرف ذلك الزمن وما لم يعرف ، "وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ" 82 فلا يزيغون عن أمره ولا يفسدون في الأرض ولا يبدلون ما أمروا به فلا يخالفونه بشيء ما .

قالوا نسجت الشياطين لسليمان بساطا ذهبا في إبريسم فرسخا في فرسخ ، وكان يوضع له منبر من ذهب وسطه فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة ، يقعد عليها الأنبياء والعلماء وحولهم الوجهاء والأمراء ، وحولهم عامة الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظلّهم الطير بأجنحتها ، وترفع الصبا البساط مسيرة شهر صباحا ومثلها مساء ، وذلك بمدة ساعة أو ساعة ونصف على الاختلاف في تقدير الفرسخ ، لأن الغدو من

مطلع الفجر إلى طلوع الشمس ، والرواح مثله من اصفرار الشمس إلى غروبها راجع الآية 12 من سورة سبأ المارة .

قالوا وكان يسير في الريح اللّينة إلى العراق فيقيل ببلخ وتخلّل بلاد الترك وجاوزها إلى الصين ، ثم إلى قرب مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى إلى السند وجاورها إلى مكران وكرمان في أرض فارس ، وغدا منها فقال في بكسكى ، ثم راح إلى الشام ، وكان مستقره تدمر ، وفي ذلك قال النّابغة :

ألا سليمان إذ قال المليك له قم في البرية فاصددها عن النفد

وجيّش الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا وسبب إعطائه البساط هو غضبه على الخيل التي ألهته عن الصلاة وعقره لها عقوبة لنفسه بحرمانها منها وعقوبة لها لتسببها لفوات صلاة العصر ، وكان في شريعته جواز عقوبة المتسبب ، فأبدله اللّه تعالى خيرا منها وهو البساط ، قالوا وكان عليه السلام يحب الغزو فلا يمر بناحية إلا غزاها ، وأذل أهلها وملكها ، وكان يمر ببساطه وعظمته على المزرعة فما يحركها ولا يثير ترابها ولا يؤذي طائرا ، راجع الآية 15 فما بعدها من سورة النمل في ج 1 ، والآية 10 فما بعدها من سورة سبأ المارة ، وفي هذا وذاك يبيّن أن وجود الجن وإعمارهم الأرض ثابت بالنص فلا يجوز إنكار وجودهم بوجه من الوجوه ، لأنه كفر صريح لمخالفته القرآن ، وعدم رؤيتنا لهم في الدنيا يقابله عدم رؤيتهم لنا في الآخرة ، راجع الآية 27 من الأعراف في ج 2 وبقية قصة عظمة ملك سليمان مفصلة هناك ، وفي أحكام سليمان عليه السلام ما أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك .

فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فاخبرتاه ، فقال ائتوني بسكين أسقه بينكما ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك اللّه هو ابنها ، فقضى به للصغرى ، وهذا مما يدل على أن حكمه بالاجتهاد لا بالنص بالقصتين المذكورتين .

ونقلوا عنه قصصا أخرى لم نثبتها لعدم التثبت من صحتها ، وهناك قصة رابعة نقلها صاحب الإبريز وهي أن امرأة شهد عليها رجلان بأنها مكنت الكلب من وطئها فحكم برجمها ، وأن سليمان عليه السلام استشهد
الرجلين على الانفراد فاختلف شهادتهما قدرا عنها الحد ، ومن ذلك اليوم استحب استشهاد الشهود مفردين وهو الصواب .

(128/505)

ومن هنا يعلم أن تمكين الكلاب من النساء قديم ، لم تبتدعه بعض عواهر زماننا ، وأن آية التبرّج الآتية من سورة الأحزاب 32 في ج 3 تشير إلى أن كل ما أحدثه أهل هذا القرن من الخلاعة قديم أيضا ، وهذا من معجزات (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 18 من سورة الأنعام المارة ، وليعلم أن أحكام داود عليه السلام في هذه القصص الأربع على فرض صحة الثلاث ، لأن الأولى ذكرها اللّه تعالى فلا قول فيها وكلها موافقة لظاهر الشرع وأحكام سليمان كذلك ، وإنما جوزها بحكمه ، لأن قضية الحرث صارت كالصلح بينهما لرضائهما بحكمه فيها ، وقضية الزنى قبيل ظهور كذب الشهادة إذ يقتضي الحكم بمثلها ، أما قضية الولد فإنما قضى بها داود للكبيرة لعدم وجود بينة لدى الصغيرة ، وكان الولد بيد

الكبيرة فحكم باعتبارها ذات اليد والصغيرة خارجة والحكم الشرعي أن البينة على الخارج والقول لذي اليد كما أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، وكان عمل سليمان من قبيل الاختبار ، لأنه لما رأى الكبيرة وافقت على قسمه شقين عرف أن لا شفقة لها عليه ، فلو كان ابنها لما رضيت بموته ، ولو أن الصغيرة وافقت على قسمه لما حكم لها به ولأبقاه لدى الكبيرة باعتبار يدها عليه ، ولهذا حكم به للصغيرة حكم موافق للواقع مصدره الحذق والفطنة والاجتهاد ، تأمل .

(129/505)

قال تعالى "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ" قائلا رب "أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" 83 والضر كلمة جامعة لأنواع الشر أنظر رعاك اللّه ما أبدع هذا الدعاء إذ ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغايتها ، ولم يصرح بمطلوبه عليه السلام أدبا مع ربه وحياء منه وإيذانا بأن ربه عالم بمراده من دعائه ، ولا شك أن الأنبياء موفقون ، قال تعالى "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ" الذين فقدهم "وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ" 84 ليتأسوا به ويعبروا مثله فيثابوا كثوابه ويعتبروا بطلبه ويتفكروا بعطاء اللّه له زيادة عما خطر بباله .

مطلب قصة أيوب عليه السلام ومن تسمى باسمين من الأنبياء عليهم السلام :

ونظير هذه الآية الآية 42 من سورة ص في ج 1 وخلاصة هذه القصة قالوا إن أيوب ابن اموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم وامه من ولد لوط بن هاران الأصغر أخي ابراهيم عليه السلام.

وكان تنبأ وبسطت له الدنيا في أرض البلقاء ، من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها ، وكان عنده من أصناف النعم والعبيد ما لم يكن لأحد في عصره ، وأعطاه اللّه مع هذا أهلا وأولادا ذكورا ونساء ، وكان برا تقيا لربه رحيما بالمساكين والأيتام والأرامل ، مكرما للضيفان مبلغا أبناء السبيل بلادهم وهذا مما يوافق شريعتنا راجع الآية 60 من سورة التوبة في ج 3 ومن هنا وجب على الأغنياء إعطاء أبناء السبيل من الزكاة ما يوصلهم إلى بلادهم ولو كانوا أغنياء فيها وعلى الحكومة أيضا أن تعطيهم من بيت المال ما يؤمن وصولهم ، وكان شاكرا لأنعم اللّه مؤديا حقوقه وقد آمن به ثلاثة فقط وكان لهم مال أيضا فحده إبليس على ذلك وصار يخاطب ربه فيقول يا رب لو ابتليت أيوب بنزع ما أعطيته لخرج عن طاعتك ، فقال إني قد سلطتك على ماله قالوا وكان إبليس لا يحجب عليه

شيء في السموات ، ولكنه بعد رفع عيسى عليه السلام حجب من أربع منها وفي مبعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم حجب عن الكل إلا في استراق السمع ، وكان يسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، ولذلك حسده فجمع خيله ورجله ونفخوا على الإبل فأحرقوها ورعاتها ، فذهب وقال يا أيوب أتت نار فأحرقت إبلك ورعاتها ، فقال إنها مال اللّه أعارنيها ثم نزعها مني وله الحمد ، عريانا خرجت من بطن أمي وأحشر إلى اللّه كذلك ، ثم أكثر عليه من الكلام حتى قال له يقول الناس لو كان إلهك يقدر لمنع ذلك ، فلم يرد عليه ، فرجع خاسئا ثم فعل بالغنم ورعاتها كذلك ، وجاء إليه فقال ما قال أولا ورد عليه كما رد عليه أيضا فرجع خائبا ثم فعل بالزرع والأشجار كذلك ، وأخبره فكان ما كان أولا وهكذا حتى لم يبق عنده شيء من المال ولم يره

(131/505)

تأثر من شيء أصلا ، فقال إبليس يا رب ان أيوب يرى أنك ما متعته بولده فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطني على ولده ؟ فقال قد سلطتك ، فانقض عدو اللّه حتى أتى ولده جميعا وهم في قصرهم فزلزله فيهم ، فتلفوا عن آخرهم ، ثم ذهب إلى أيوب عليه السلام بصورة معلمهم ، لأنه كان عليه اللعنة كلما فعل شيئا يذهب إلى أيوب بصفة

الرجل الذي يناسب ذلك الفعل ، ففي تلف الإبل والغنم ذهب بصورة راعيها ، وفي تلف الأشجار والزروع والثمار بصورة ساقيها ، وهكذا ، فقال يا أيوب وهو يبكي ليحرك حزنه لو رأيت كيف نكسوا على رءوسهم وسالت دماؤهم وتقطعت أمعاؤهم لتقطع قلبك ألما عليهم ، فقال من هم ؟ قال كل أولادك وأخبره خبرهم ، وقال قد شقت بطونهم وكسرت رءوسهم وتناثرت أدمغتهم ، وكذا وكذا ، ولم يزل يصفهم ويقول له بتحرق وتأسف إلى أن رأى التأثر بدا بوجهه عليه السلام طفق يصف له مزاياهم ويعظم فظاعة ما حل بهم حتى رق قلبه عليه السلام ، فاغتنم إبليس لعنه اللّٰه هذه الفرصة وذهب يعرض لربه جزعه ، فتنبه أيوب واستغفر ربه حالا وصعدت توبته قبل أن يبثّ إبليس ما عنده ، فخسىء إبليس وذل ، ولما رأى ذلك قال يا رب إنما هان عليه المال والولد ما متعته بنفسه فإنك تعبد له ما فقده من مال وولد ونشب فهل أنت مسلطني على جسده ، فسلطه اللّٰه على جسده عدا لسانه وقلبه وعقله ، فانقض زاعما أنه فاز ببغيته ، فأتى إليه مسرعا ونفخ في منخريه فاعتراه مرض في جميع جسده ما بين العظم والجلد استدام معه سبع سنين وبضعة أشهر وهو صابر لا يشكو ، وتفرقت عنه الناس ، وجاء أصحابه المؤمنون وأشاروا عليه بأن يدعو ربه بكشف ضره فأعرض عنهم وأنبهم على ما رأى من ضجرهم ، وقال إن اللّٰه تعالى عافانا سنين كثيرة ومتعنا بكل نعمه الحاضرة ، أفلا نصبر على بلائه بمقدار معافاته على الأقل وأطال عليهم الكلام بخطبة بليغة مؤثرة حتى انفضوا عنه ، ولم يبق ممن يراجعه

إلا زوجته رحمة بنت افرائيم بن يوسف عليه السلام ، وصارت تأتيه بطعامه وشرابه ،

فلما رأى اللعين خيبة سعيه و

مداومة أيوب على ذكر اللّه تعالى وحمده وشكره صرخ صرخة فاجتمعت إليه الشياطين من كل جانب وقالوا له ما دهاك قال أعياني هذا الرجل ، وحكى لهم قصته معه ، فقالوا له هل أتيته من المكان الذي جئت به آدم حين أخرجته من الجنة ؟ قال أصبتم ، فذهب إلى زوجته وقال لها أين بعلك ذلك الذي كنت ترين ، أين أولادك الذين كنت تباهين ، أين مالك الذي كنت تفاخرين ؟ قد ذهب عنك كل ذلك وتباعدت عنكم أصدقاؤكم

وأنفسكم الناس ، فانظري لحالك أين جمالك ، أين زخارفك ، أين قصورك أين أين ؟

فلم يزل يعدد لها ويذكرها عزها الذي كانت فيه حتى صاحت صيحة أظهرت فيها جزعها وضجرها ، وقالت له ما العمل ؟ قال خذي هذه السخلة وقولي لزوجك يذبحها

لي وهو يبرأ مما فيه وتخلصين من هذا الحال ويعود إليك جمالك وعزك وما ذهب منك ، فاستمالها الملعون بذلك وأذعنت لقوله ظانة أنه ناصح لها وأنه يرجع لها ما ذكر ، فأخذت السخلة منه وذكرت لأيوب ما وقع لها وكلفته أن يذبحها لإبليس لأنه هو الذي نفخ فيك فأصابك ما أصابك ، قال لها ويلك أغراك عدو اللّه أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والجمال والعز والصحة ، أليست هي من اللّه ؟ قالت نعم ، قال كم متعنا به ، قالت ثمانون سنة ، فقال لها كم لك في البلاء ، قالت سبع سنين وأشهر ، قال لها ويلك ما أنصفت ربك ، ألا صبرت على البلاء ثمانين كما كنت في الرخاء والنعم ، واللّه لئن شفاني اللّه لأجلدنك مئة جلدة ، تأمريني أذبح لعدو اللّه اذهبي ، طعامك وشرابك عليّ حرام ، فذهبت تبكي ، وبقي أيوب صابرا ما شاء اللّه أن يصبر بلا زاد ولا ماء ولا صديق ولا أحد ، فخرّ ساجدا للّه تعالى ، وقال (ربّ إني مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وبين عليه السلام في دعائه هذا افتقاره إلى ربه فقط إذ لم يقل ارحمني ، وإن أكثر أسئلة الأنبياء ربهم على سبيل التعريض لا على طريق الطلب ، لأن حياءهم منه يحول دون طلبهم ، قال المتنبي في هذا المعنى :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام تحققوا أن كل شيء كان أو يكون مسبوق بالإرادة ، والإرادة مسبوقة بالعلم ، والعلم تابع المعلوم فيتعلق به على ما هو عليه ، في ثبوته غير المجهول مما يقتضيه استعداده الأزلي ، ثم بعد أن خلق الخلق على حسب ذلك كلفهم استخراج سرّ ما سبق به العلم التابع للمعلوم من الطوع والإباء اللذين في استعدادهم الأزلي ، ولذلك أرسل الرسل إليهم مبشرين ومنذرين لتتحرك الدواعي فيهم فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بيّنة ، ولئلا يكون للناس على اللّه حجة ، فلا يتوجه عليه اعتراض بخلق الكافر ، وإنما يتوجه الاعتراض على الكافر

بكفره ، إذ أنه من توابع استعداده في ثبوته غير المجهول ، ويشير إلى هذا قوله تعالى (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) الآية 102 من سورة هود المارة ، وقوله صلّى اللّه عليه وسلم : من وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وقد أشار الشافعي رحمة اللّه إلى بعض هذا في قوله :

خلقت العباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتى والمسن

هذا وبما أن الأنبياء واقفون على هذا وقد أرشدوا الخلق إليه ، فإذا دعوا لأنفسهم أو على أعدائهم كان من قبيل التعريض لا التصريح ، لأنهم عالمون أن الكائن كائن في الأزل ، وإن ما لم يكن لا يكون أبدا سواء دعوا أو لم يدعوا ، سعوا أو لم يسعوا ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : علمه بحالي يغني عن سؤالي ، راجع الآية 71 المارة ، قالوا ولما صعدت دعوته هذه التي هي من إلهام اللّه وكان قضاء اللّه الأزلي معلقا على وجودها منه وقد صادقت الزمن المقدر لإنقاذ أيوب مما هو فيه ، بعد أن بلغ غايته وطمى نهايته ، ناداه مناد من السماء أن ارفع رأسك قد استجيب لك ، فاركض الأرض برجلك ، فرفسها فنبعت عين ماء فاغتسل منها فشفي مما كان فيه ، وعاد عليه جماله أحسن مما كان ، وقام صحيحا ورأى أن اللّه تعالى قد أعطاه مالا وولدا كأحسن ما كان أولا ، ومشى وقعد على مكان مشرف ، فعنّ لزوجته أن تراه حرصا عليه ، فجاءت فلم تر أحدا ، فصارت تبكي ، فناداها من فوق ما يبكيك يا أمة اللّه ؟ قالت بعلي ، قال وهل تعرفينه ؟ قالت لا يخفى على أحد وانه في حال صحته أشبه بك ، فقال أنا هو ، تأمريني أذبح لإبليس ، ها إني دعوت اللّه فردّ علي ما ترين ، ثم أمره اللّه أن يأخذ قبضة من النبات فيها مئة عود فضربها بها تحلة يمينه كما تقدم في الآية 44 من سورة ص المارة في ج 1 ، ففعل ، فرد عليها شبابها .

هذا ، وما قيل إن أيوب عليه السلام حال مرضه دوّد وألقي على الزبل وغير ذلك من الترهات التي عنها تتحاشى ساحة الأنبياء ، فهو كذب لا نصيب له من الصحة ، لأن

الأنبياء معصومون من العاهات المنفّرة ، وإن الذي أصابه هو ما بين الجلد والعظم بحيث لم يظهر عليه ما ينفر الناس عنه ، وما قيل من ان النفرة بسبب سلب ما كان عنده من النعم فقد يكون بالنسبة للناس .

وما قيل

أيضا إن زوجته باعت شعرها وحلف عليها ذلك اليمين هو محض كذب وافتراء وإنما حلف عليها للسبب المار ذكره وهو تكليفه ذبح السخلة لإبليس ، وما نقلناه في هذه القصة هو أصح ما ورد فيها ولو لم نعتمد على صحتها ، إذ لا اعتماد إلا على ما يأتي في كتاب اللّه وسنة رسوله .

روى البخاري ومسلم عن ابي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه جواد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه ، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال بلى يا رب ولكن لا غنى عن بركتك .

هذا واختلف في معنى (وآتيناه أهله) إلخ ، فقيل إن اللّه تعالى أحيى له أهله وأولاده

بأعيانهم وزاده مثلهم ، وقيل إنه آتاه أهله في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة ، وقيل إن اللّه آتاه مثل أهله وماله وولده وأنعامه وبيوته ومثلها ثانيا واللّه أعلم .

والآية تحتمل المعنيين واللّه قادر على كل شيء .

قال تعالى "وَإِسْماعِيلَ" بن إبراهيم الذي استسلم لربه وانقاد لأمر أبيه ليذبحه تنفيذا لإرادة اللّه ، راجع قصته في الآية 117 من الصافات المارة .

أما قصة وضعه في مكة وأمه فستأتي في الآية 123 من سورة البقرة في ج 3 ، إن شاء اللّه "وَإِدْرِيسَ" ابن أخوخ ، وقد مرت قصته في الآية 57 من سورة مريم في ج ، وفيها كيفية رفعه إلى السماء "وَذَا الْكِفْلِ" الحظ والنصيب واسمه الياس وهو أحد الأنبياء الخمس الذين تسموا باسمين بالقرآن العظيم ، هذا وإسرائيل ويعقوب ، وعيسى والمسيح ، ويونس وذو النون ، ومحمد وأحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، وهو ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزان بن هرون أخي موسى بن عمران عليهم الصلاة والسلام ، راجع الآية 143 من سورة البقرة ج 3 بشأن ذى الكفل والآيات من 124 إلى 132 من سورة الصافات المارة .

قالوا إنه لما كبر اليسع قال إني استخلف رجلا على الناس ليعمل عليهم في حياتي على أن يصوم النهار ويقوم الليل ويقضي ولا يغضب ، فقال إلياس أنا فرده أولا ، ثم قال مثلها في اليوم الثاني فلم يتعهد بهذه الشروط غيره ، فاستخلفه ووفى بعهده ولقبه بذي الكفل لأنه وفى ما تكفل به .

وما قيل ليس بنبي ينفيه قوله تعالى "كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ" 85 على ما ابتليناهم به راجع قصته مفصلة في الآيات المذكورة أعلاه من سورة الصافات المارة "وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ"

86 أي إسماعيل وإدريس وذا الكفل .

وقد ذكر اللّه تعالى هؤلاء الأنبياء الممتحنين بأنواع البلاء بسياق قصة أيوب عليهم الصلاة والسلام لأنهم صبروا على ما امتحنوا به كما ذكر في قصصهم .

قال تعالى "وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً" من قومه لأجل ربه واسمه يونس واسم الحوت الذي ابتلعه نون فسمي ذا النون وصاحب الحوت "فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ" بفتح أول نقدر وتخفيفه وقرىء بضم أوله وتشديده من التقدير وعلى الأول من القدر وهو التضييق وهي

القراءة المشهورة أي ظن أنا لا نضيق عليه بلزوم الإقامة مع قومه ، ولذلك تركهم وذهب ، راجع قصته في الآية 123 من الصافات المارة أيضا ، "فَنادى فِي الظُّلُماتِ" ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت "أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" 87 بمفارقتي قومي دون أمرك ، فلا تؤاخذني يا رب على ما وقع مني ، ولم يقل نجني أو خلّصني أو غير ذلك لما مر آنفا من أن الأنبياء يفوضون أمرهم لربهم "فَاسْتَجَبْنا لَهُ" لأن قوله هذا تعريض لدعائنا وتنويه بالالتجاء إلينا "وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ" الذي لحقه في بطن الحوت "وَكَذلِكَ" مثل هذه الإجابة "نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ" 88 بنا مما يهمهم ، ولا يوجد في هذه الآية بما يتمسك به من قال بوقوع الذنب من الأنبياء بعد رسالتهم ، لأنه عليه السلام لم يذهب مغاضبا من ربه كما قاله بعضهم ، حاشاه ، وإنما ذهب مغاضبا من قومه لأجل ربه ، وإن ظنّه بعدم التضييق عليه لوثوقه بربه ، ولأنه لم يظن أنه أذنب معه بترك قومه ، بل كان يظن أنه مخير بين الإقامة معهم والخروج من بينهم عند عدم قبولهم دعوته ، لذلك فإن فعله هذا لا يستوجب الذنب لو كان من سائر البشر ، أو أن ظنه أن اللّه لم يقدر عليه شيئا ، وهذا على القراءة بالتشديد أي لن نقدر عليه عقوبته ، لتركه قومه ، والمعنيان متقاربان ، إلا أن القراءة بالتخفيف وتفسيرها على ما ذكرنا تبعا لغيرنا أولى وأنسب بالمقام ، لأن نقدر بمعنى نضيق شائع ، ومثله في القرآن كثير ، قال تعالى (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ

يَقْدِرُ) الآية 43 من سورة الروم الآتية ، وجاء في الآية 7 من سورة الطارق في ج 3 (ومن قدر عليه رزقه) وفي الآية 11

من سورة الفجر في ج

1 (فقدر عليه رزقه) وغيرها كثير وكلها بمعنى التضييق ، وعليه فلم يبق حجة لمن يقول إن نقدر لا تأتي إلا بمعنى القدرة ، لأنا إذا جرينا على هذا المعنى فلا يجوز نسبته إلى آحاد الناس ، فكيف إلى نبي اللّه ؟ وقد تردد في هذه معاوية بن أبي سفيان فسأل عنها ابن عباس رضي اللّه عنهما فقال له إنها من القدر لا من القدرة .

وفيها قراءات أخرى ومعان بنسبتها ضربنا عنها صفحا لأنا ذكرنا أصح ما فيها ، واللّه أعلم .

أما ما حكى عنه بقوله (إني كنت من الظالمين) يريد نفسه لعدم انتظاره أمر ربه قومه وفي أمر بقائه أو خروجه عنهم لا لشيء آخر ، على أن ابن عباس قال إن هذه الحادثة كانت قبل النبوة والرسالة مستدلا بقوله تعالى بعد ذكر خروجه من بطن الحوت (وأرسلنا إلى مائة ألف أو يزيدون) الآية 145 من الصافات المارة ، مما يدل على أنه قبل النبوة والرسالة وصححه الخازن .

ومن قال إنه بعد النبوة وهو ما ذهبت إليه في تفسيري هذا استدل بقوله تعالى (وَإِنَّ يُونُسَ

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)

الآيتين 139/ 140 من الصافات أيضا ، فالجواب عنه ما تقدم ، إذ تفيد هذه الآية صراحة أنه مرسل إليهم قبل هروبه بالفلك ، والاستدلال بها أقوى من الاستدلال بتلك ، لأن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، تأمل .

(140/505)

قوله تعالى "وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ" قائلا في ندائه "رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً" بلا ولد يرثني "وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ" 89 لي إن لم ترزقني وارثا ، وإن رزقني فأنت خير الوارثين له ، لأنك ترث الأرض ومن عليها والسماء وما فيها ، وأنت الذي لا وارث في الحقيقة غيرك لمن تحت الأرض وما عليها ، ومن في السماء وما فوقها "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ" بأن جعلناها صالحة للحمل والولادة بعد أن كانت عجوزا عقيما ، فولدته كأنها حدثة "إِنَّهُمْ كَانُوا" أولئك الأنبياء "يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ" إلى مخلوقاتنا طلبا لخيرنا "وَيَدْعُونَنَا رَغَباً" بنا ورهبا "وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" 90 مخبتين لعظمتنا ، خاضعين لهيبتنا ، فعلى العاقل أن يستديم الخوف حالة الصحة ، والرجاء حالة المرض ، إذ يقول صلّى اللّه عليه وسلم لرجل دخل عليه وهو في حالة النزع : كيف تجدك ؟ قال أخاف

ذنوبي وأرجو رحمة ربي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم ما اجتمعا في عبد في هذا الموطن إلا أعطاه ما رجا وآمنه مما يخاف .

ومعنى الآية رغبا بذات اللّه ورجاء عفوه ، وطمعا برحمته وخوفا من عذابه ، ولهذا يقول اللّه تعالى لتحليهم بتلك الصفات الأربع العظيمة :

نجيناهم من السوء وأجبنا دعاءهم ونصرناهم على أعدائهم .

واذكر يا سيد الرسل لقومك أيضا بسياق ذكر هؤلاء الصالحين من الرجال المرأة الطاهرة الكاملة الصالحة البتول ، وهو معنى

"وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا" من التزوج بالحلال السيدة مريم بنت عمران "فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا" المراد من الروح هنا معناه المعروف والإضافة إلى ضميره تعالى للتشريف ، ونفخ الروح عبارة عن الإحياء لعيسى عليه السلام الذي قدر اللّه تكوينه في بطنها ، وليس هناك نفخ حقيقة ، ولهذا صح أن يقال نفخنا فيها ، لأن ما يكون فيما في الشيء يكون فيه ، فلا يلزم أن يكون المعنى أحييناها أي مريم ، كما قاله بعض المفسرين ، وليس هذا بمراد ، وهو كما يقول الزّمار نفخت في بيت فلان وهو قد نفخ في المزمار في بيته ، وقدمنا القصة ومعنى

النفخ في الآية 24 من سورة مريم في ج 1 ، وأوضحنا هناك معنى الروح أيضا فراجعه ، ولبحثه صلة في الآية الأخيرة من سورة التحريم في ج 3 فراجعه ، "وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ" 91 على كمال قدرتنا إذ خلقناه من غير أب ، ولم يقل آيتين كما في قوله تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ) الآية 12 من سورة الإسراء في ج 1 ، لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهي ولادتها إياه من غير فحل ، أي وجعلنا شأنها وأمرها آية .

أخبر اللّه تعالى في هذه الآيات وأمثالها من القرآن العظيم وهو أصدق المخبرين بأن مريم عليها السلام محصنة من الحلال ، والتي تحصن نفسها من الحلال لا يتصور أن لا تحصنه من الحرام ، قاتل اللّه اللئام الذين يفترون عليها ويبهتونها ، تنزهت وتبرأت عما يقول الظالمون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون "إِنَّ هذِهِ" ملة الإسلام وأمة الإيمان "أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً" وملة واحدة وهي ملة جميع الأنبياء ودينهم ، لا دين غيره اختاره اللّه لكم أيها الناس لتمسكوا به وتعبدوا اللّه وحده وهي التي أدعوكم إليها لتعضوا عليها بالنواجذ ، لأن جميع الكتب نازلة في شأنها ، والأنبياء كلهم مبعوثون للدعوة إليها ومتفقون عليها .

قال تعالى (مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) الآية الأخيرة من سورة الحج في ج 3 "وَأَنَا رَبُّكُمْ" واحد لا إله غيري "فَاعْبُدُونِ" 92 وحدي لا تشركوا بي أحدا ولا شيئًا ، وهذا الخطاب للناس كافة لا يختص به واحد دون آخر .

قال تعالى "وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ" أي البعداء عن الحق الذين لم يجيبوا الدعوة جعلوا الدين الواحد قطعا ووزعوه بينهم كما يتوزع الجماعة الشيء الواحد ، فاختلفوا فيه وصاروا أحزابا .

وسياق الكلام يفهم على أن المعنى وتقطعتم ، إلا أن الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أوجب ذلك ، وفي تخصيص لفظ الرب ترجيح جانب الرحمة بهم وإيذان بأنه يدعوهم إلى عبادته بلسان الترغيب والبسط ، لأنه رب كل مربوب ، وهو المقيض على عباده جوده ولطفه .

ثم انه توعدهم على ذلك التفريق الذي ابتدعوه بقوله "كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ" 93 لا يفلت منهم أحد ولا مرجع له غيري ، وإذ ذاك أجازي كلّا بما يستحقه "فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ" في دنياه "وَهُوَ مُؤْمِنٌ" قيد العمل بالإيمان ، لأن الكافر لا ينفعه عمله الطيب في الآخرة لمكافأته عليه في الدنيا "فَلا كُفْرانَ" حرمان وبطلان ولا جحود "لِسَعْيِهِ" الذي سعاه في الدنيا كيف "وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ" 94 فلا يضيع له شيئًا من عمله الحسن ولو مثقال ذرة بل نعطيه أضعافها من أحسن ما يستحقه طبقا لقوله تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الآية 97 من سورة النحل المارة "وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ" ممتنع على أهل قرية "أَهْلَكْناها" بحسب

واقتضاء حكمنا وقضائنا الأزلي لغاية طغيانهم ونهاية بغيهم وتجبرهم "أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ"

95 من الكفر إلى الإيمان البتة.

والجملة في تأويل مصدر خبر وحرام أي رجوعهم إلينا وتوبتهم حرام.

(143/505)

ولا هنا مثلها في قوله تعالى (أَلَّا تَسْجُدَ) الآية 12 من سورة الأعراف في ج 1، وهذا على قراءة فتح همزة أنهم وهو الأفصح، وعلى كسرها يكون معناها التعليل، والمعنيان متقاربان.

وقيل إن حراما بمعنى واجب، وعليه قول الخنساء:

وان حراما لا أرى الدهر باكيا على شجوة إلا بكيت على صخر

وقد مشى بعض المفسرين في قوله تعالى (قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) الآية 151 من سورة الأنعام المارة، أي ما أوجب، لأن ترك الشرك واجب، وعلى هذا قال الحسن ومجاهد لا يرجعون أي لا يتوبون عن الشرك، وقال قتادة ومقاتل لا يرجعون إلى الدنيا، وقال غيرهم لا يرجعون إلى الجزاء، إلا أنه على هذا المعنى الأخير يكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث، وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعي أحد، وأنه يجرى على

ذلك يوم القيامة ، وفيه ما فيه ، والأول أولى ، واللّه أعلم ، فليحرر .

قال تعالى "حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ" أي سد هما المشار إليه في الآية 99 من سورة الكهف المارة "وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ" 96 سراعا والحدب كل ما ارتفع ونشر في الأرض روى مسلم عن حذيفة بن أسيد العفاري قال : اطلع النبي صلّى اللّه عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر ، قال ما تذكرون ؟ قالوا تذكر الساعة ، قال إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاث خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

وفي رواية ودابة الأرض ، فتكون مع ذكرها عشرا .

(144/505)

قال تعالى "وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ" لقيام الساعة "فَإِذا" الفاء للمفاجأة واقعة في جواب إذا "هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا" فلا تكاد تطرف من هول ما ترى في ذلك اليوم ، يقولون بلسان واحد "يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا" اليوم لم نقدره في الدنيا على هذه الحالة الفظيعة ، ثم انتقلوا عن هذا القول فقالوا "بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ" 97 أنفسنا لعدم اصغائنا إلى

الذين خوفونا منه ولم نطع الرسل برفض الكفر والإزام التوحيد ، ثم يقال لهم "إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ" وقود "جَهَنَّمَ" وأصل الحصب الرمي والوقود يرمى بالنار رميا بل يقذف قذفا في جهنم إهانة لهم ، ولهذا عبر عنه بالحصب "أَنْتُمْ لَها" أيها الكفرة "وارِدُونَ" 98 ورود دخول ، راجع الآية 98 من سورة هود المارة "لَوْ كانَ هؤُلاءِ" الأوثان كما زعم عابدوها "آلِهَةً" تعبد وتشفع لهم مما حل بهم "ما وَرَدُوها" الآن ولما دخلوا فيها وعذبوا في جهنم بسبب عبادتها ،

ولّما كانت ليست بآلهة ولا تستحق العبادة يقول اللّه تعالى "وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ" 99 العابدون والمعبودون "لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ" هو خروج النفس بشدة حتى يظهر له صوت عال من ألم العذاب "وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ" 100 شيئا مما يقال لهم لانشغالهم بأنفسهم .

مطلب إخساء عبد اللّه بن الزبعرى وجماعته ، ومن كان كافرا في أصل الخلقة :

ولما نزلت هذه الآيات الثلاث دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم المسجد وصناديد قريش في الخطيم ، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فعرض له النفر من قريش منهم النضر بن الحارث ، فكلمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه هذه

الآيات الثلاث ، وقام فأقبل عبد اللّه الزبعرى السهمي ، فأخبره الوليد بن المغيرة بما قاله حضرة الرسول ، فقال ابن الزبعرى أما واللّه لو وجدته لخصمته ، فدعوا رسول اللّه فقال له ابن الزبعرى أنت قلت إنكم وما تعبدون الآيات ؟ قال نعم ، قال أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى المسيح ، وبنو مليح الملائكة ، أهؤلاء في النار ؟

قالوا فضحكت قريش وارتفعت أصواتهم وفرحوا على زعمهم أنه حجّ محمدا ، ولم يعلموا أن هؤلاء بمعزل عن أن يكونوا معبودين ، قال تعالى في حق عيسى (ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ) الآية 117 من المائدة في ج 3 ، وقال بحق الملائكة (سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ) الآية 41 من سورة سبأ المارة ، وقال تعالى في حق عزير (أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الآية 259 من البقرة في ج 3 ، بعد أن ضرب اللّه به المثل ، ثم التفت صلّى اللّه عليه وسلم إلى ابن الزبعرى وقال بل هم يعبدون الشيطان لا هؤلاء ، ثم قال له ما أجهلك بلغة قومك ، وذلك أن ما وضعت لما لا يعقل ، فيكون ما ذكر غير داخل في الآية ، لأنها لم تأت بلفظ من الموضوعة لمن يعقل ليصح الاحتجاج بها ، لأنها جاءت لحمل الآية على حقيقتها ورفع احتمال المجاز لا لتخصيص العام المتأخر عن الخطاب كما قاله بعض المفسرين ، وبما أن ما صريحة هنا بأنها لغير العقلاء فلم يتجه خلط ابن الزبعرى ، وهذا بعد أن قال له ذلك حضرة الرسول نكس رأسه ، وخسىء هو ومن معه ، وتفقئوا خجلا وحياء بعضهم من

بعض ،

ثم أنزل اللّه بعدها "إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى "كعيسى وعزير

(146/505)

وإخوانهم من الأنبياء والملائكة وأصنافهم وكل صالح محسن مطيع من المؤمنين ممن سبقت لهم السعادة "أُولَئِكَ" الأفاضل الأكارم "عَنْهَا" أي جهنم "مُبْعَدُونَ" 191 لا يردونها ورود دخول أبدا .

وهذه الآية عامة يدخل فيها كل من قدر اللّه له دخول الجنة وهؤلاء المحسنون "لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا" صوت لهيبها "وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ" من نعيم الجنة وكرامة ربهم "خَالِدُونَ" 102 في جنة ربهم المقدرة لهم "لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ" في هول الموقف ودخول النار "وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ" على أبواب الجنة يحيونهم ويقولون لهم "هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ" 103 في الدنيا ، وما قيل إنه بعد ذلك ذهب أبو جهل وجماعة من قريش إلى أبي طالب وكلفوه منع ابن أخيه من التعرض لآلهتهم على الصورة المارة في الآية 107 من سورة الأنعام المارة ، وعلى الصورة التي ذكرناها في الآية 26 من السورة نفسها لا يصح ، لأن أبا طالب توفي قبل هاتين الحادثتين بكثير كما أشرنا إليه في الآيتين المذكورتين ، وأن هذه

متأخرة عن وفاة أبي طالب ، لذلك فإنه قيل لا قائل له ، واذكر لقومك يا سيد الرسل "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ" مثل طي الصحف والطي ضد النشر وهو تكويرها ولفها ومحو رسومها بعد أن كانت مبسوطة منشورة بحيث لا يبقى لها اسم ولا رسم ، لأن طي الشيء كناية عن نسيانه وإعدامه وعدم تذكره بالمرة .

(147/505)

وقال بعض المفسرين إن السجل اسم ملك موكل بالصحف ، فإذا مات الإنسان دفع كتابه إليه فطواه ورفعه ، والأول أولى ، لأن السجل هو مجموع الصحائف التي تسجل فيها الأعمال ، ومنه أخذ أهل الدنيا تسميتهم ما يدون به وقائع الأحوال الدنيوية سجلا في المحاكم وغيرها "كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ" بعد الموت مثل ما خلقناه أولا على هيئته ، وقد وعدنا الرسل بذلك "وَعْدًا" حقا ثابتا لا يبدل ولا يغير وهو لازم "عَلَيْنَا" بأن من خلقناه في الأزل كافرا نعيده بعد الموت كافرا ، ومن خلقناه مؤمنا نعيده يوم الحشر مؤمنا ، وهذا واجب علينا إنجازه على طريق الوفاء بالوعد "إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ" 104 لما نعد به لا نخلفه البتة ، وهذه الآية والآية 30 من سورة الأعراف في ج 1 تؤيدان ما مشينا عليه من تفسيرهما بأن الذي خلق يوم خلق الذر كافرا يموت كافرا ويحشر كافرا ولو عمل ما

عمل من الخير كإبليس ، والذي خلق مؤمنا يموت ويحشر مؤمنا ، ولو فعل ما فعل من الشر ، كسحرة فرعون ، والحديث الصحيح الذي ذكرناه في الآية 84 من سورة الإسراء في ج 1 ، يؤيد هذا بزيادة فيما يبدو للناس ، كما هو في صحيح البخاري ، وعليه فلا عبرة فيما يقع للعبد في متوسط عمره من أفعال الخير والشر ، وإنما العبرة بالخاتمة نسأل اللّه حسنها .

(148/505)

قال تعالى "وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ" المنزل على داود عليه السلام "مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ" أي التوراة لنزوله بعدها ، وقيل الذكر اللوح أو أم الكتاب أو غير ذلك ، والأول أولى "أَنَّ الْأَرْضَ" أل فيها للعهد والمعهود من أرض الدنيا الأرض المقدسة "يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ" 105 لعمارتها وحفظها بإعلاء شأن دين اللّه وإقامة العدل بين الناس ، قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الآية 56 من سورة النور في ج 3 ، وهناك أقوال أخر بأن المراد بالصالحين الصالحون بعمارتها الدنيوية ، وعليه فيراد بالأرض الأرض كلها قال تعالى (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) الآية 127 من سورة الأعراف في ج 1 ولفظ العباد لا يختص بالمؤمنين وأقوال أخر بأنها أرض الجنة ، قال تعالى (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ) الآية

74 من سورة الزمر المارة وأولاها أوسطها والله أعلم ، وقد جاء في الزبور الموجود الآن عند النصارى وغيرهم في المزمور 37 والآية 2 ما نصه : اسكن الأرض وارع الأمانة .

وفي الآية 11 أما الورعاء فيرثون الأرض ويتلذذون في كثرة السلامة .

وفي الآية 24 لأن المباركين يرثون الأرض ، والملعونين يقطعون .

وفي الآية 27 صدّ عن الشر وافعل الخير واسكن إلى الأبد .

وفي الآية 29 الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد .

وفي الآية 34 انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض إلى انقراض الأشرار .

هذا أيها الناس كتابنا ينطق بالحق عما في كتب الأنبياء السالفين ، مصدقا لما جاء فيه كما أخبرنا الله على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ، فاعتبروا رحمكم الله في هذه العبرة العظيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد "إِنَّ

(149/505)

فِي هذا" المتلو عليكم أيها الناس ، "لَبَلاغاً" اخطارا كافيا وانذارا شافيا ووعظا وافيا ، "لِقَوْمٍ عابِدِينَ" 106 الله وحده مخلصين له العمل الموصل إلى البغية والمؤدي إلى المطلوب ولا بعد هذا البلاغ والبلاغ المار ذكره آخر سورة إبراهيم المارة بلاغ لمن يعتبر ويتذكر "وَما

أَرْسَلْناكَ" يا خاتم الرسل "إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ" 107 اجمع ، لأن هذه الآية عامة لمن آمن به واتبعه ومن لم يؤمن به لأنه أتى من عند نفسه فضيّع نصيبه من هذه الرحمة ، وإنما كان إرساله صلّى اللّه عليه وسلم رحمة لأنه حينما بعث كان الناس في كفر وجهالة ، وكان أهل الكتاب في حيرة لما وقع من الاختلاف بينهم في أمر دينهم وكتبهم ، ولم يكن لطالب الحق من سبيل ، فدعاهم صلّى اللّه عليه وسلم كلهم إلى الهدى وبين لهم طريق الصواب وشرع لهم الأحكام ، ووضح لهم الحلال من الحرام ، وأظهر حقائق ما اختلفوا فيه ، ورفع اللّه عن العباد المسخ والخسف وعذاب الاستئصال الذي كان يقع على الأمم السابقة ، ببركته صلّى اللّه عليه وسلم القائل إنما بعثت رحمة مهداة ، ففاز من فاز برشده ، وخسر من خاب بغيّه ، لأنه صلّى اللّه عليه وسلم مرسل إلى الخلق كافة إنهم وجنّهم وملائكتهم ، بنص هذه الآية والآية 28 من سورة سبأ المارة والآية 158 من سورة الأعراف في ج 1 ، لدخولهم في عموم لفظيّ الناس والعالمين وهو كذلك أما كونه رحمة للأنس والجن فظاهرا لأنه هداهم إلى الحق وأنقذهم من الكفر وشرفهم بالإيمان وسبب لهم دخول الجنان ، وأما الملائكة فرحمة لهم لأنهم وقفوا بواسطته على علوم جمة وأسرار عظيمة مما أودع اللّه في كتابه الذي فيه ما كان وسيكون عبارة وإشارة ، وأي سعادة أفضل من التحلي بمزية العلم وقد أظهر من فضلهم على لسانه الشريف ما أظهره وأمنهم مما ابتلى به هاروت وماروت ، وأيد هذا صاحب الشفاء بأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إلى السيد جبريل عليه

السلام هل أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال نعم ، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء اللّه تعالى علي في القرآن .

وقال ابن القيم في كتابه مفتاح السعادة لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح في معشية ولا قوام لمملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض ، وكل خير في العالم من آثار النبوة ، وكل شر وقع في العالم أو سيقع بسبب

إخفاء آثار النبوة ودرسها ، فالعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه .

ولهذا فإذا انكسفت شمس النبوة من العالم ولم يبق في الأرض شيء من آثارها انشقت سماؤه وانتثرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قمره ونسفت جباله وزلزلت أرضه وأهلك من عليها ، فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة ، وإذا سلم هذا علم منه بواسطة كونه صلّى اللّه عليه وسلم أكمل النبيين ، وما جاء به أجمل مما جاءوا به عليهم السلام وإن لم يكن في الأصول اختلاف .

ووجه كونه صلّى اللّه عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين أجمع أسودهم وأحمرهم عربهم

وعجمهم هو أنه أكرمهم على اللّه ، وأحبهم إليه ، وأنفعهم لعباده وأتقاهم ، وأرضاهم إليه ، وأسخاهم فيما لديه ، وأوفرهم نصيبا عنده وأكثرهم مروءة بخلقه وغيرة على دينه وكونه خاتم الرسل .

وما قيل إن العالمين خاص بالمؤمنين غير وجيه لعدم وجود ما يخصصه بهم ، بل إنه عام مطلق ، وقد بعث صلّى اللّه عليه وسلم رحمة لكل فرد من أفراده إنسهم وجنهم وملائكهم ، إلا أن الرحمة متفاوتة فتكون لكل بحسبه بمقتضى أعماله ، كما أن العذاب والعقاب يكون كذلك .

هذا وقد أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول اللّه أدع على المشركين ، قال إني لم أبعث لعّانا وإنما بعثت رحمة .

قال تعالى "قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ" إنما أداة حصر ، والحصر قصر الحكم على شيء ، أو قصر

الشيء على حكم ، وعليه يكون المعنى أن الإله إله واحد لا غير البتة ، وهو الذي أوحى إلي ما تلوته عليكم "فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" 108 منقادون إلى توحيد اللّه .

وهذا استفهام بمعنى الأمر ، مثله في قوله تعالى (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) الآية 91 من المائدة في ج 3 أي هلا تنتهون عن شرب الخمر واللعب بالميسر وكل ما نهى اللّه عنه ؟

والمعنى هنا هلا أسلمتم بعد ما أوضحنا إليكم الدلائل ، فأسلموا تسلموا خير لكم ، ولهذا يقول اللّه "فَإِنْ تَوَلَّوْا" عنك يا محمد ولم يذعنوا لك "فَقُلْ آذَنْتُكُمْ" أعلمتكم وأنذرتكم أيها الناس ما أمرني به ربي .

وكلمة آذن تتضمن الإنذار والتحذير من الحرب ، ولا سيما قد تقدمه الإنذاران المشار إليهما آنفا ، وهذه كلها من مقدمات الهجرة التي آن أوانها والتي ستكون سببا للحروب معهم وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى "عَلى سَواءٍ" أي لم أخص أحدا منكم بذلك الإعلام المسبوق

بالإنذارين ، وإنما أعمكم جميعا لأنكم في المعاداة سواء .

على وجه نستوي فيه نحن وأنتم بالإعلام والإخطار ، وهذه طريقة الأنبياء قبلي إذ كانوا يخوفونهم وينذرونهم عذاب اللّه ، لا يخصون بإنذارهم أحدا ، وها أنذا أنصحكم فتأهبوا لما يراد بكم "وَإِنْ أَدْرِي" وما أعلم يا قوم "أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ" 109 به من العذاب الذي تجازون به على أعمالكم القبيحة ، لأن اللّه لم يطلعني عليه ولا على وقت وقوعه ، فأنا وأنتم بعدم العلم به سواء ، ولكنه كائن لا محالة "إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ" 110 لا يعزب عنه شيء فكل ما تكنّونه لي من الحقد والإحن وما تطعنون بي

وبديني معلوم عند اللّه ، ولا بد أن ينتقم لي منكم إن لم تتوبوا وترجعوا عن غيكم في الدنيا أو في الآخرة ، وإني لأرجو أن ينتقم منكم فيهما إن بقيتم مصرين

(152/505)

"وَإِنْ أَدْرِي" وما أدري "لَعَلَّهُ" أي تأخير العذاب عنكم "فِتْنَةٌ لَكُمْ" امتحان واختبار يختبركم به اللّه لتعلموا أنتم وليعلم بعضكم بعضا أن الحجة عليكم ، وإلا فإن اللّه تعالى عالم بما هو واقع منكم قبل وقوعه ، وما أدري هل هذا الإمهال استدراج تغترون به "وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ" 111 معلوم عنده تتمتعون به أياما قليلة ، ثم يريكم سوء صنيعكم قبيح عملكم وخبث فعلكم "قَالَ" وقرىء قل يا أكمل الرسل "رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ" بيني وبينهم واللّه تعالى يحكم بالحق بين جميع خلقه على السواء ، ومعنى هذا الطلب ظهور الرغبة من الطالب وإعلام المطلوب أنه لا يريد غير الحق من ربه ، لتطمئن نفسه بأن إلهه لا يحب إلا طلب الحق ، ولكن طلب الرسول هذا يفيد الاستعجال ، بنزول العذاب بقومه لما رأى من تضاعف عنادهم وتكاثر عتوهم وتوالي أذيتهم له ولقومه وتطاولهم على دينه وكنا به وإن اللّه تعالى قد أقر عينه فيهم ، إذ عذبهم في واقعة بدر ، وقهرهم في فتح مكة في الدنيا ، ولعذاب الآخرة المخبوء لهم أشد وأدهى ، كما أنه أقر عينه بمن آمن منهم ، لأن إيمانهم أحب إليه من

كل شيء "وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ" به "عَلى ما تَصِفُونَ" 112 به حضرته المقدسة من الشرك وتصمونه من التكذيب وتوقعونه بنبيه وأصحابه من الأذى والإهانة ولا عون لرسوله عليكم غيره ، أضاف صلّى اللّه عليه وسلم لفظ الرب لنفسه وحده ، لأنه في معرض الدعاء

والدعاء من وظائفه الخاصة .

وأضافه ثانيا له ولأصحابه لأنه في معرض طلب العون والغوث والرحمة ، وهي من الوظائف العامة به وبهم ، وقرىء (يصفون) بالياء أيضا ، وفي ذكر صفوة الخلق وما يتعلق به بختام هذه السورة بهذه الجملة التي لا توجد سورة مختومة بها طيب تضوع منه المسك ، كما أن ما بدئت به من أحوال القيامة هول تنفطر له الأجساد ، وما بينهما آيات وعظات عظيمة وعبر وأخبار فخيمة ما وراءها وراء .

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فجاءه الرجل فقال إني استقطعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم واديا ما في العرب واد أفضل منه ، وقد

أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ، فقال عامر لا حاجة لي في قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : اقترب للناس حسابهم إلخ .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 294. 339 ﴾

(154/505)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأنبياء عليهم السلام

مكية

معرضون تام لاهية قلوبهم كاف وكذا وأسروا والنجوى إن جعل ما بعده مرفوعا خبر مبتدأ محذوف أو منصوبا بأعنى وليس بوقف إن جعل بدلا من الضمير في أسروا مثلكم كاف تبصرون تام والأرض جائز العليم كاف بل هو شاعر صالح الاولون تام أهلكناها كاف أفهم يؤمنون تام لايعلمون حسن لا يأكلون الطعام كاف وكذا خالدين المسرفين تام فيه ذكركم

جائز فلا تعقلون تام آخرين كاف وكذا يركضون وتسألون وظالمين خامدين تام لاعبين

حسن من لدنا تان إن جعلت إن بمعنى ما والا فليس بوقف فاعلين كاف وكذا راهق

تصفون حسن والأرض كاف إن جعل ما بعده مستأنفا وليس بوقف إن جعل ذلك عطفا

على ما قبله يستحسرون كاف لا يفترون صالح ينشرون تام لفسدتا كاف يصفون عما يفعل

كاف وكذا يسألون وآلهة وبرهانكم وذكر من قبلي والحق إن قرئ بالنصب ومن قراه بالرفع

وقف على لا يعلمون ومعرضون تام فاعبدوه حسن سبحانه كاف وكذا مكرمون ويعلمون

وخلفهم ارتضى صالح مشفقون حسن جهنم كاف نجزي الظالمين تام ففتقنا عما كاف

وكذا حي أفلا يؤمنون حسن أن تميد بهم صالح لعلهم يهتدون كاف محفوظا صالح معرضون

تام والقمر حسن يسبحون تام وكذا الخالدين ذائقة الموت كاف فتنة صالح والينا ترجعون

كاف هزوا مفهوم يذكر آلهتكم كاف كافرون تام من عجل كاف وكذا تستعجلون صادقين

تام ينصرون كاف ينظرون تام وكذا يستهزؤن من الرحمن كاف معرضون صالح من دوننا

كاف وكذا يصبحون عليهم العمر تام من أطرفها كاف الغالبون تام وكذا أنذرتكم بالوحي

ينذرون كاف ظالمين تام شيأ كاف أتينا بها جائز حاسبين تام للمتقين جائز إن جعل ما بعده

خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل نعتا له مشفقة‌ن حسن منكرون تام عالمين صالح

عاكفون كاف وكذا عابدين ومبين ومن اللاعبين فطرهن صالح من الشاهدين كاف وكذا

مدبرين ويرجعون والظالمين وإبراهيم ويشهدون ويا براهيم إن كانوا ينطقون كاف وقيل يجوز الوقف على بل أي فعله من فعله وقيل على بل فعله كبيرهم هذا الظالمن

(155/505)

صالح ينطقون كاف وكذا وريضركم من دون الله صالح تعقلون كاف وكذا فاعلين على إبراهيم حسن وكذا إلا خسرين للعالمين كاف نافلة حسن وكذا صالحين عابدين تام لأنه آخر قصة إبراهيم حكما وعلما صالح الخبائث كاف وكذا فاسقين في رحمتنا صالح من الصالحين تام العظيم كاف بآياتنا صالح أجمعين تام ففهمناها سليمان حسن حكما علما صالح يسجن والطير كاف وكذا فاعلين شاكرون حسن باركنا فيها كاف وكذا عالمين دون ذلك صالح حافظين تام الراحمين كاف وكذا مابه من ضر للعابدين تام وذا الكفل حسن من الصابرين كاف من الصالحين تام من الظالمين كاف وكذا من الغم المؤمنين تام الوارثين كاف له زوجه حسن خاشعين تام وكذا للعالمين فاعبدون كاف أمرهم بينهم حسن وكذا راجعون لسعيه كاف كاتبون تام لا يرجعون كاف وكذا إبصار الذين إن جعل جواب إذا فتحت قوله اقترب الوعد الحق والواو زائدة أو جعل جوابها محذوف فادل عليه فإذا هي شاخصة إلى آخره وان جعل جوابها ياويلنا أي قالوا ياويلنا كان الوقف على كنا ظالمين والوقف عليه

على الوجه الثلاثة كاف لها واردون تام ما وردوها حسن وكذا خالدون لا يسمعون تام مبعدون كاف وكذا حسيسها خالدون حسن الأكبر جائز الملائكة مفهوم توعدون كاف وكذا نعيده ووعدا علينا فاعلين تام وكذا الصالحون وعابدون وللعالمين اله واحد صالح فهل أنتم مسلمون حسن على سواء كاف ما تعودون حسن ما تكتمون كاف إلى حين تام وكذا قل رب احكم بالحق وآخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ 497. 509﴾

(156/505)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الأنبياء

مكية بإجماع وهي مائة واثنتا عشرة آية وكلمها ألف ومائة وثمانية وستون كلمة وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضعان بل أكثرهم لا يعلمون ولا يشفعون ولا وقف من أول السورة إلى معرضون فلا يوقف على حسابهم لأنَّ الجملة بعده في موضع الحال فكأنَّه قال اقترب للناس حسابهم في حال غفلتهم

معرضون (كاف) ولا يوقف على استمعوه لأنَّ قوله وهم يلعبون جملة في موضع الحال أيضاً كأنَّه قال في حال غفلتهم ولعبهم يجوز أن يكون حالاً مما عمل فيه استمع أي إلاَّ استمعوه لاعبين

يلعبون (جائز) وإن كان ما بعده منصوباً على الحال من ضمير استمعوه فهي حال بعد حال في هي حال متداخلة

قلوبهم (حسن)

النجوى (كاف) إن جعل ما بعده مرفوعاً خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره الجملة من قوله هل هذا إلاَّ بشر مثلكم أو نصب بأعني أو رفع الذين بفعل مقدر تقديره يقول الذين وليس بوقف في بقية الأوجه وحاصلها أنَّ في محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع من ستة أوجه أحدها أنه بدل من واو وأسروا أوانه فاعل والواو علامة جمع دلت على جمع الفاعل أو الذين مبتدأ وأسروا جملة خبرية قدمت على المبتدأ ويعزى هذا للكسائي أو الذين مرفوع بفعل مقدر تقديره يقول الذين أو أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو مبتدأ وخبره الجملة من قوله هل هذا إلاَّ بشر مثلكم والنصب من وجهين أحدهما الذم والثاني إضمار أعني والجر من وجهين أيضاً أحدهما النعت والثاني البدل من الناس والتقدير اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم وهم في غفلة ويعزى هذا للفراء وفي رفع الذين

بفعله وهو أسروا بعد إلاَّ أنه جمع على لغة قليلة كما قال الشاعر

ولكن ديافي أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط أقاربه

أراد يعصر أقاربه السليط فجمع وإنَّما لم يوقف على ظلموا لأنَّ قوله هل هذا إلاَّ بشر هو النجوى كقوله فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والكلمة التي أسرها هي قوله أنتم شر مكاناً وقد علمت ما يخصنا من هذه الأوجه

مثلكم (كاف) للابتداء بالاستفهام

السحر ليس بوقف لأنَّ جملة وأنتم تبصرون في موضع الحال فكأنَّه قال وهذه حالتكم 0

تبصرون (تام)

والأرض (جائز)

العليم (كاف)

أحلام (جائز) ومثله افتراه وبل هو شاعر وذلك أن كل جملة تقوم بنفسها إلاَّ أنَّها ليست تامة

وإنما فصل بينها لاختلافهم في مقالاتهم في نسبة السحر إليه 0

بآية ليس بوقف لأنَّ موضع الكاف جر على النعت لآية 0

الأولون (كاف) ومثله أهلكناها للاستفهام بعدها 0

أفهم يؤمنون (تام)

نوحي إليهم (حسن)

لا تعلمون (تام)

الطعام (كاف) ومثله خالدين

الوعد ليس بوقف لأنَّ ما بعده تفسير له وهو النجاة والإهلاك وهو الوعد 0

المسرفين (تام)

فيه ذكركم (حسن)

أفلا تعقلون (تام)

آخرين (كاف)

بأسنا ليس بوقف لأنَّ قوله إذا هم جواب لما 0

تركضون (كاف)

لا تركضوا (جائز)

تسئلون (كاف) ومثله ظالمين

خامدين (تام) ومثله لاعبين

من لدنا (تام) إن جعلت إن بمعنى ما أي ما كنا فاعلين وليس بوقف إن جعلت إن شرطية

وجوابها محذوف لدلالة لو عليه والتقدير لو كنا فاعلين اتخذناه ولكنا لا نفعل ذلك 0

فاعلين (كاف)

فيدمغه لبس بوقف لأنَّ قوله فإذا هو زاهق تفسير لما يكون من الدمغ وهو مهلك للشر

فكذلك الحق يهلك الباطل 0

فإذا هو زاهق (حسن)

مما تصفون (تام)

والأرض (حسن) وقيل كاف على استئناف ما بعده بجعل من مبتدأ خبره لا يستكبرون

وليس بوقف إن جعل ذلك معطوفاً على ما قبله ويكون الوقف على ومن عنده ثم يبتدئ لا

يستكبرون عن عبادته 0

ولا يستحسرون (كاف) إن جعل يسبحون مستأنفاً وليس بوقف إن جعل في موضع

مسبحين أي لا يكلون من التسبيح ولا يسأمون 0

لا يفترون (كاف)

ينشرون (تام) نعت لآلهة ينشرون أي يحيون ويخلقون يقال أنشر الله الموتى أي أحياهم

ونشروا أي أحيوا ومنه قول الأعشى أعشى قيس

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر

أي الحي بعد موته 0

لفسدتا (كاف)

يصفون (تام)

عما يفعل (حسن)

وهم يسئلون (كاف)

آلهة (حسن) ومثله برهانكم لأنَّ هذا مبتدأ والجملة مفعول قل 0

وذكر من قبلي (حسن) ومثله الحق على قراءة من قرأ بالنصب وهي قراءة العامة مفعولاً

لقوله لا يعلمون أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة كما تقول هذه عبد الله الحق لا

الباطل ومن قرأه بالرقع وهو الحسن على إضمار مبتدأ أي هو الحق كما قال الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا

أي هذه خولان جاز الوقف على يعلمون

معرضون (تام)

إلاَّ يوحى إليه ليس بوقف لأنَّ أنَّه قد قامت مقام الفاعل في يوحي كأنَّه قال إلاَّ يوحي إليه

التوحيد وأن لا يعبد غيره 0

فاعبدون (كاف) ومثله سبحانه وكذا مكرمون

لا يسبقونه بالقول (تام) عند نافع على استئناف ما بعده 0

يعلمون (كاف)

وما خلفهم (حسن)

لمن ارتضى (أحسن) منه

مشفقون (كاف)

من دونه ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد 0

جهنم (حسن)

الظالمين (تام)

ففتقناهما (حسن) والرتق الفصل أي فصل بينهما بالهواء وقرأ ابن كثير ألم ير الذين بغير واو

وعليها فهو أحسن مما قبله 0

حي (كاف) للاستفهام بعده 0

يؤمنون (كاف) على استئناف ما بعده وإن عطف على ما قبله لم يوقف على قوله يؤمنون 0

رواسي ليس بوقف لأنَّ قوله أن تميد موضعه نصب بالجعل وقال المبرد وهو على حذف

مضاف تقديره كراهة أن تميد بهم فحذف كراهة وأقيم ما بعدها مقامها وقال آخرون أراد لئلا تميد بهم وكذلك سبلاً ليس بوقف وذلك أنَّ قوله يهتدون في معنى ليهتدوا وهذا إذا جعلت لعل من صلة جعل الأول وإن جعلت من صلة جعل الثاني كان الوقف على بهم حسناً 0

يهتدون (كاف)

(159/505)

محفوظاً (جائز)

معرضون (تام)

والقمر (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعلت الجملة في محل نصب حالاً من الشمس والقمر واستبد الحال بهما دون الليل والنهار 0

يسبحون(تام)

الخلد (حسن)

الخالدون (تام)

الموتى (حسن)

والخير (جائز) إن نصب فتنة بفعل مقدر وليس بمرضى لأنَّه يصير المعنى فتنتكم فتنة وليس

بوقف إن نصبت فتنة مفعولاً لأجله أو مصدراً في موضع الحال أي فاتنين وتجاوزه إلى فتنة

أولى لأنَّ إلى التي بعده من صلة ترجعون 0

وترجعون (تام)

إلاَّ هزواً (حسن) إن جعل قوله إن يتخذونك إلاَّ هزواً وهو الجواب وإذا لم يحتج إلى الفاء في

الجواب بخلاف أدوات الشرط فإنَّها إذا كان الجواب مصدراً بما النافية فلابد من الفاء نحو

إن تزرنا فلا نسيء إليك وليس بوقف إن جعل جواب إذا محذوفاً تقديره وإذ رآك الذين

كفروا قالوا هذا القول 0

يذكر آلهتكم (حسن) متعلق يذكر محذوف تقديره بسوء 0

كافرون (تام)

من عجل (حسن) العجل بلغة حمير الطين 0

فلا تستعجلون (كاف) ومثله صادقين وكذا ينصرون وجواب لو محذوف تقديره لو يعلم

الذين كفروا ما ينزل بهم من العذاب يوم القيامة ما استعجلوا به ولما قالوا متى هذا الوعد

بغتة (جائز) لأنَّ ما بعد الفاء تفسير لها ومثله فتبهتهم

ينظرون (تام)

برسل من قبلك ليس بوقف لأنَّ ما بعده كالجواب لما قبله ومعنى حاق وجب ونزل بهم

العذاب الذي كانوا يستهزؤن بالرسل من أجل إلَّا يعاد به

يستهزؤن (تام)

من الرحمن (كاف) يقال كلأه الله يكلؤه كلاءة بالكسر كذا ضبطه الجوهري فهو كالئ

ومكلؤة قال ابن هرمة 0

إنَّ سلمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها 0

معرضون (كاف) ومثله من دوننا فصلاً بين الاستفهام والأخبار 0

ولا هم منا يصحبون (كاف) ومثله العمر وكذا من أطرافها 0

الغالبون (تام)

(160/505)

بالوحي (حسن) قرأ ابن عامر ولا تسمع الصم الدعاء بضم التاء الفوقية وكسر الميم من

أسمع رباعياً خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ونصب الصم مفعولاً والباقون بتحتيّة

مفتوحة من سمع ثلاثياً ورفع الضم فاعلاً 0

ما ينذرون (كاف)

من عذاب ربك ليس بوقف لأنَّما بعده جاوب لما قبله 0

ظالمين (تام)

ليوم القيامة (جائز)

شيئاً (حسن) ومن قرأ مثقال بالرفع كان أحسن 0

من خردل ليس بوقف لأنَّ أتينا جواب الشرط قرأ نافع مثقال بالرفع والباقون بنصبها 0

بها (حسن)

حاسبين (تام)

الفرقان (حسن) وضياء منصوب بفعل مقدر تقديره وجعلناه ضياءً والفرقان التوراة وهو

الضياء وليس بوقف إن جعلت الواو عاطفة أو زائدة وقرأ ابن عباس ضياءً بغير واو 0

للمتقين (كاف) إن رفع الذين خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو نصب بتقدير أعني أو

أمدح وليس بوقف إن جعل نعتاً أو بدلاً

بالغيب (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل جملة في موضع الحال

مشفقون (تام)

أنزلناه (كاف) للاستفهام بعده

منكرون (تام)

من قبل (حسن) إن جعل إذ قال لأبيه منصوباً بعالمين وليس بوقف إن جعل إذ منصوباً

بآياتنا أو برشده والتقدير ولقد آتينا إبراهيم رشده في الوقت الذي قال فيه لأبيه وقومه ما

ذكر وهو بعيد من المعنى بهذا التقدير وحينئذ لا يوقف على عالمين في الوجهين لأنَّ إذ إن كانت متصلة بالفعل الأول فلا يجوز الوقف على ما بعد الناصب دون المنصوب وكذا إن كانت متصلة بالثاني انظر السمين

عالمين (كاف) عاكفون وعابدين ومبين ومن اللاعبين كلها وقوف كافية

فطرهن (حسن) وقيل (تام)

من الشاهدين (كاف) ومثله مدبرين

إلَّا كبيراً لهم ليس بوقف لاتصال حرف الترجي بجعلهم فلا يفصل فكأنَّه قال جعلهم لهذا يرجعون (كاف)

(161/505)

من فعل هذا بآلهتنا (جائز) على جعل من استفهامية والجملة من قوله إنَّه لمن الظالمين مستأنفة وليس بوقف إن جعلت من موصولة بمعنى الذي والجملة من أنَّه الخ في محل رفع خبر الموصول والتقدير الذي فعل هذا بآلهتنا إنَّه لمن الظالمين

فتى يذكرهم (جائز) على استئناف ما بعده

إبراهيم (كاف) ومثله يشهدون وكذا يا إبراهيم

قال بل فعله (تام) أي فعله من فعله أبهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الفاعل تعريضاً للمعنى المقصود الذي أراده فراراً من الوقوع في الكذب فهو منقطع عما بعده لفظاً ومعنى فهو تام قاله الكسائي وقوله كبيرهم هذا جملة من مبتدأ وخبر استئنافية لا تعلق لها بما قبلها أو هي إخبار بأنَّ هذا الصنم المشار إليه أكبر الأصنام وهذا صدق محض بخلاف ما لو جعل كبيرهم فاعلاً بفعله فإنَّه يحتاج إلى تأويل ذكروه وهو حسن لأنَّه من المعاريض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب ومن جوز الكذب في إبطال باطل وإحقاق حق فهو حسن جائز بالإجماع فإن قلت السؤال وقع عن الفاعل لا عن الفعل فإنَّهم لم يستفهموه عن الكسر بل عن الكاسر لها فلم صدّر في جوابه بالفعل دون الاسم قلت الجواب مقدر دل عليه السياق لأنَّ بل لا تصلح أن يصدر بها الكلام والتقدير ما فعلته بل فعله تلويحاً بغيره وحيث كان السؤال مضمراً فالأكثر التصريح بالفعل ومن غير الأكثر قوله يسبح له فيها بالغدو والآصال في قراءته بالبناء للمفعول فرجال في جواب سؤال مقدر تقديره من يسبحه فقال يسبحه رجال قال في الخلاصة:

ويرفع الفاعل فعل أضمراً كمثل زيد في جواب من قرا

وقرئ فعله أي فلعله قال الفراء فليس فعله فعلاً بل هو التقاء علَّ حرف عطف دخل على علّ التي للترجي وحذفت اللام الأولى فصار فعله أي فلعله ثم حذفت اللام الأولى وخففت الثانية واستدل على مذهبه بقراءة ابن السميفع اليماني فعله بتشديد اللام والحامل له على هذا خفاء صدور هذا الكلام من إبراهيم وهذا مرغوب عنه انظر السمين وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد

كبيرهم هذا (جائز) لأنّ كبيرهم مبتدأ وهذا خبره أو نعت كبيرهم أو بدل منه وقوله فاسئلوهم دليل الجواب قد قام مقامه مقدماً عليه كأنَّه قال إن كانوا ينطقون فاسئلوهم ومعلوم أنَّ الأصنام لا تنطق وأن النطق عليها مستحيل فما علق بهذا المستحيل من الفعل مستحيل أيضاً فإذا علم استحالة النطق عليها علم استحالة الفعل أيضاً

ينطقون (كاف)

الظالمون (جائز) ومثله على رؤوسهم

ينطقون (كاف)

ما هؤلاء ما حجازية وهؤلاء اسمها وينطقون خبرها أو هي تميمية لا عمل لها

ولا يضركم (كاف)

من دون الله (حسن)

تعقلون (كاف)

وانصروا آلهتكم ليس بوقف لأنَّ ما بعده شرط فيما قبله وما قبله جواب له فإن جعل قوله وانصروا آلهتكم هو الجواب حسن الوقف على حرقوه وفاعلين وعلى إبراهيم والأخسرين وللعالمين كلها وقوف كافية

اسحق (كاف) عند نافع إن نصب نافلة حالاً من يعقوب فقط لأنَّ النافلة مختصة به لأنَّها ولد الولد بخلاف اسحق فإنَّه ولد لصلبه والتقدير ووهبنا له يعقوب حالة كونه نافلة ويكون من عطف الجمل وليس بوقف إن نصب نافلة انتصاب المصدر من معنى العامل وهو ووهبنا لا من لفظه فهي كالعاقبة والعافية فيكون شاملاً لاسحق ويعقوب لأنَّهما زيدا لإبراهيم بعد ابنه إسمعيل فلا يفصل بينهما وكذا لا يصح الوقف على اسحق إن عطف يعقوب على اسحق عطف مفرد على مفرد من غير إضمار فعل لتعلق ما بعده بما قبله من جهة المعنى لأنَّه معطوف على ما قبله

صالحين (كاف)

بأمرنا (جائز)

فعل الخيرات ليس بوقف لأنَّما بعده عطف على ما قبله

الزكاة (حسن)

عابدين (تام) لأنَّه آخر قصة إبراهيم وأيضاً إن قدر وآتينا لوطاً وإن عطف لوطاً على

الضمير المنصوب في نجيناه كان جائزاً من حيث كونه رأس آية

وعلماً (جائز)

الخبائث (كاف) ومثله فاسقين

في رحمتنا (حسن)

من الصالحين (تام) لأنَّه آخر القصة وإن قدر مع إذ فعل محذوف أي واذكر نوحاً لتكون كل

قصة على حيالها كان زيادة في التمام وإن عطف على لوطاً كان جائزاً من حيث كونه رأس

آية

العظيم (كاف)

بآياتنا (حسن)

إنَّهم كانوا قوم سوء (جائز)

أجمعين (تام) إن نصب ما بعده بمقدر وجائز إن عطف على لوطاً

في الحرث ليس بوقف لأنَّ قوله إذ نفشت فيه ظرف للحكم

غنم القوم (جائز)

شاهدين (حسن)

ففهمناها سليمان (كاف)

حكماً وعلماً (جائز) ومثله الجبال على استئناف ما بعده كأنَّ قائلاً قال كيف سخرهن

فقال يسبحن وليس بوقف إن عطف على الجبال

يسبحن والطير (حسن) على القراءتين النصب عطفاً على الجبال والرفع عطفاً على

الضمير في يسبحن

فاعلين (كاف)

لبوس لكم ليس بوقف لأنَّ ما بعد اللام علة في إيجاب الفعل الذي قبلها أي ليكون لبسها

وقاية لكم في حربكم وسبباً لنجاتكم من عدوكم

من بأسكم (حسن)

شاكرون (كاف) إن نصب الريح بفعل مضمر أي وسخرنا الريح لسليمان وعلى قراءة عبد

الرحمن بن هرمز بالرفع فالوقف تام على شاكرون

باركنا فيها (حسن)

عالمين (كاف)

دون ذلك (حسن)

حافظين (تام) لأنَّه آخر القصة وأيوب منصوب بفعل مضمر أي واذكر أيوب

الراحمين (كاف) ومثله ما به من ضر

للعابدين (تام) قال الحسن وقتادة أحيا الله من مات من أهله وأعطاه مثلهم معهم

وذا الكفل (حسن)

من الصابرين (كاف)

من الصالحين (تام) إن نصب ذا النون بفعل مضمر أي واذكر ذا النون

مغاضباً (جائز) ومثله نقدر عليه وقيل ليس بوقف لأنَّه يحتاج إلى ما بعده ليبين معناه وقال الفراء نقدر بالتخفيف بمعنى نقدر بالتشديد أي لن نقدر عليه العقوبة كما في قول الشاعر

ولا عائذ ذاك الذي قد مضى لنا تباركت ما تقدر ويقع فلك الشكر

وقيل معناه نضيق عليه بسبب مغاضبته ومفارقته لقومه لأجل آبائهم عليه ولا وقف من قوله فنادى إلى من الظالمين فلا يوقف على أنت ولا على سبحانك لأنَّه كله داخل في حكاية النداء

من الظالمين (كاف)

فاستجبنا له ليس بوقف لاتصال الفجاءة بالإجابة

من الغم (حسن)

المؤمنين (تام) لأنه آخر القصة

إذ نادى ربه (حسن) إذ أضمر القول بعده أي قال رب لا تذرني فرداً وليس بوقف إن

جعلت الجملة متصلة بالنداء لأنَّ فيه معنى القول

فرداً (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعلت الجملة بعده حالاً

الوارثين (كاف) ويجوز فاستجبنا له

يحيى ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

زوجه (حسن) ومثله في الخيرات وكذا ورهباً

خاشعين (تام) لأنَّه آخر قصة

من روحنا (حسن) المراد بفرجها فرج القميص أي لم يعلق بثوبها ريبة وفروج القميص أربعة

الكمان والأعلى والأسفل

للعالمين (تام)

فاعبدون (كاف)

أمرهم بينهم (حسن)

راجعون (تام)

لسعيه (جائز)

كاتبون (تام)

أهلكناها ليس بوقف لأنَّ أن منصوبة بما قبلها

لا يرجعون (تام)

ينسلون (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل جواب إذا اقترب الوعد والواو زائدة وإن جعل جوابها يا ويلنا لا وقف من قوله حتى إذا فتحت إلى ظالمين وهو (كاف) ومن وقف فإذا هي واقعة يعني يوم القيامة ثم يبتدئ شاخصة أبصار الذين كفروا على أنَّ الفاء في جواب إذا السابقة وإذا الثانية الفجائية وهي ضمير القصة مبتدأ وهي زائدة وأبصار مبتدأ ثان وشاخصة خبره والجملة خبر عن ضمير القصة

حصب جهنم (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل في موضع الحال

واردون (كاف)

آلهة ليس بوقف لأنَّ قوله ما وردوها جواب لو

ما وردوها (حسن)

خالدون (كاف)

زفير (جائز) على استئناف ما بعده

لا يسمعون (تام)

الحسنى ليس بوقف لأنَّ أولئك خبر إن

مبعدون (كاف)

حسيسها (حسن) لأنَّ بعده مبتدأ خبره خالدون والمبتدأ في حكم الانفصال عما قبله

خالدون (كاف)

الأكبر (جائز) قيل الفزع الأكبر ذبح الموت بين الجنة والنار وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت

الملائكة (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل هذا يومكم معه إضمار قول أي قائلين لكم هذا يومكم

توعدون (كاف) إن نصب يوم بفعل مضمر وليس بوقف إن نصب بما قبله والتقدير وتتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء وحينئذ فلا يوقف على الملائكة ولا على توعدون

للكتاب (كاف) والسجل الصحيفة وقيل السجل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والأوّل أولى لتعدد كتابه صلى الله عليه وسلم فالكاتب لا يعرف ولا يحمل كتاب الله على ما لا يعرف وقيل السجل اسم ملك يطوي السماء كطي الملك لكتاب الصحيفة التي يكتب فيها أعمال العباد فهو مصدر مضاف لفاعله وقرأ الأخوان وحفص للكتب جمعاً والباقون للكتاب بالأفراد

نعيده (كاف) إن نصب وعداً بفعل مقدر وليس بوقف إن نصب بنعيده

علينا (كاف)

فاعلين (تام)

من بعد الذكر ليس بوقف لأنَّ قوله أنَّ الأرض في موضع نصب بكتبنا

الصالحون (تام) ومثله عابدين وكذا للعالمين

يوحى إلي ليس بوقف لأنَّ إنَّما موضعها رفع لأَنَّه قد قام مقام الفاعل في يوحي

إله واحد (حسن) للابتداء بالاستفهام

مسلمون (كاف)

على سواء (تام) للابتداء بالنفي لأنَّ إن بمعنى ما أي ما أدري وما في قوله ما توعدون فاعل

بقريب أي أيقرب ما توعدون أم يبعد

ما توعدون (كاف)

من القول (جائز)

ما تكتمون (كاف)

إلى حين (تام)

بالحق (حسن) وقرأ حفص قال رب على الخبر والباقون قل على الأمر لأنَّ قوله وربنا مبتدأ

خارج عن المقول

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 497. 509 ﴾

(166/505)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الأنبياء :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[101ظ] قراءة يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف : "هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي 1"

، بالتنوين في "ذكر" ، وكسر الميم من "مِنْ" .

قال أبو الفتح : هذا أحد ما يدل على أن "مع" اسم ، وهو دخول "مِنْ" عليها .

حكى صاحب الكتاب وأبو زيد ذلك عنهم : جئت من معهم ، أي : من عندهم ، فكأنه

قال : هذا ذكر مِنْ عندي ومِنْ قَبلي ، أي : جئت أنا به ، كما جاء به الأنبياءُ مِنْ قَبلي ،

كما قال الله "تعالى" : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ 2 .

ومن ذلك قراءة الحسن وابن محيصن : "الْحَقُّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ"3 .

قال أبو الفتح : الوقف في هذه القراءة على قوله "تعالى" : "لا يَعْلَمُونَ" ، ثم يستأنف : "الحقُّ" ، أي هذا الحق ، أو هو الحق ؛ فيحذف المبتدأ ، ثم يوقف على "الحق" ، ثم يستأنف فيقال : فهم معرضون ، أي : فهم معرضون4 ، أي : أكثرهم لا يعلمون.

ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد : "فَذَلِكَ نُجْزِيهُ"5 ، برفع الهاء والنون.

قال ابن مجاهد : لا أدري ما ضم النون؟ لا يقال إلا جزيت ، كما قال : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾6.

---

1 سورة الأنبياء : 24.

2 سورة النساء : 163.

3 جزء من الآية 24 السابقة ، وقبله منها : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾.

4 كذا في النسختين ، وهو تكرار.

5 سورة الأنبياء : 29.

6 سورة سبأ : 17.

قال أبو الفتح : هو لعمري غريب عن الاستعمال ، إلا أن له وجها أنا أذكره .

وذلك أنه يقال : أجزأني الشيء : كفاني ، وهذا يجزئني من كذا ، أي يكفيني منه ، فكأنه في الأصل نجزئ به جهنم ، أي نكفيها به ، ومعناه : نمكنها منه . فتأتي عليه ، كأنها تطلب باستيفائها إياه الاكتفاء بذلك ، ثم حُذف حرف الجر . فصار نجزئه جهنم ، أي : نُطعمه جهنم ، كما حُذف الحرف في قوله "تعالى" : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ 1 ، أي : من "قومه" ، ثم أبدلت الهمزة من نجزئه ياء على حد أخطيت وقريت ؛ فصارت ياء ساكنة : نجزِيهُ ، وأقرت الهاء على ضمتها وهو الأصل ، كما قرأ أهل الحجاز : "فَخَسَفْنَا بِهُو بِدَارِهُو الْأَرْضَ2" .

وزاد في حسن الضمة هنا أن الأصل الهمز . والهاء مع الهمزة هنا مضمومة . أي : نجزئه ، فلما أبدلت الهمزة على غير قياس صارت الهاء كأن لا ياء قبلها ؛ لأنه ليس هناك مسوغ للهمز لولا حمله على قريت وبابه ، فبقيت الهاء على ضمتها تنبيها على أن الهمز ياء في الحكم ، وأن ما عرض فيه من البدل لم يكن عن قَوِيّ عذر ، فهذا3 طريق الصنعة فيه . وهو أمثل من أن يحمل على إعطاء في بابه بما لا طريق إلى تسهيل طريقه .

ومن ذلك قراءة الحسن وعيسى الثقفي وأبي حيوة : "رَتَقًا"4 ، بفتح التاء .

قال أبو الفتح : قد كثر عنهم مجيء المصدر على فَعْل ساكن العين . واسم مفعول منه على فعَل مفتوحها ، وذلك قولهم : النفْضُ للمصدر والنَّفَضُ للمنفوض5 ، والخبْط . المصدر

والخبَط الشيء المخبوط، والطرْد المصدر والطرَد المطرود. وإن كان قد يستعمل

مصدرا، نحو: الحلْب والحلَب. فقراءة الجماعة: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ كأنه مما وضع من

المصدر موضع اسم المفعول، كالصيْد في معنى المصيد، والخلْق بمعنى المخلوق.

وأما "رَتَقًا"، بفتح التاء فهو المرتوق، أي: كانتا شيئا واحدا مرتوقا، فهو إذاً كالنفض

1 سورة الأعراف: 155.

2 سورة القصص: 81.

3 في ك: وهذا.

4 سورة الأنبياء: 30.

5 في ك: النقض للمصدر والنقض للمنقوض، وهو تحريف. وسيأتي قريبا ذكر النقض.

(168/505)

والخبط، بمعنى المنفوض والمخبوط. ونحو من ذلك مجيئهم بالمصدر على فَعْل مفتوح الفاء

[102و]، واسم المفعول على فِعْل بكسرها، نحو رعيْت رَعيًا والرِّعي: المرعى،

وطحنت الشيء طحنا والطِّحن: المطحون. ونقضت الشيء نقضا. والنِّقض: التعب،

فكأنه منقوض. وسوغ الانحراف عن المصدر تارة على فَعَل والأخرى إلى فِعْل – تعاقبُ

فِعْل وفَعَل في أماكن صالحة على المعنى الواحد ، وهو المِثْل والمَثَل ، والبِدْل والبَدَل ، والشِبْه والشَبَه . ومن المعتل القِيل والقَال ، والرِير 1 والرَار . والكِيح 2 والكَاح ، والقِير والقَار .

وقالوا أيضًا صِغْوُهُ 3 معك وصَغَاهُ معك ، وكذلك عندي ما عدلوا بفَعَل تارة إلى فِعْل ، وأخرى إلى فُعْل ، وذلك قولهم : بِنْت على فِعْل وأُخْت على فُعْل . وأصل كل واحد منهما فَعَل : بنو . وأخو ، فلما مالوا إلى التأنيث جاءوا "ببنت" على فِعل . و"أخت" على فُعل ؛ فصارا في التقدير بنو وأخو ، ثم أبدلوا الواو تاء كتُجاه وتُراث ؛ فصارت بِنْتًا وأُخْتًا .

وقد مالوا أيضا ببعضه إلى فَعْل . فقالوا : هَنْت 4 ، وأصله فَعَل : هَنَوٌ ، فأصاروه إلى هَنْو ، ثم أبدلوا الواو تاء ، فقالوا : هَنْت . وقابل ذلك أيضا من كلامهم ما كان فيه ثلاث لغات . نحو الشُرب والشَرب والشِرب ، والزَعم والزُعم والزِعم . وقالوا شَنِئْتُه شَنْئًا وشِنئًا وشُنئًا .

وقال أبو عبيدة : هو قُطْب الرحى وقِطْب وقَطْب ، فهذا طريق مقابلة صنعة اللغة ولفظة واحدة منه في هذا الحد ، وعلى التنبه وتدارك الوضع - يقوم مقام كتاب لغة يحفظ هكذا سردا ، ولا تُبَل النفس بنحو ذلك من لطيف الصنعة فيه يدا .

ومن ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والعلاء بن سيابة وجعفر بن محمد وابن سريج الأصبهاني : "آتَيْنَا بِهَا" 5 ، بالمد .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون "آتَيْنَا" هنا فاعَلْنا لا أفْعَلْنا ؛ لأنه لو كانت أفعَلْنا لما احتيج إلى الباء ولقيل : آتيناها . كما قال "تعالى" : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ 6 ،

---

1 الرير : المخ الذائب .

2 الكيح : عرض الجبل .

3 صغوه : ميله .

4 لغة في الهن ، من قولهم للرجل : ياهن .

5 سورة الأنبياء : 47 .

6 سورة الإسراء : 59 .

فآتينا إذا من قوله : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ فاعلْنا ، ومضارعها يُوَاتِي 1 كيُهاتِي 2 في قول الجماعة إلا أبا علي فإنه كان يقول في هات : غير ما يقول الناس فتصريف هذا الفعل آتينا نُوَاتِي مُواتاة ، وأنا مواتٍ ، وهو مواتًى . ومن قال : ضاربت ضِرَابًا قال : إتاءً ، ومن قال : ضِيرَابا قال : إيتاءً ؛ فإيتاءُ على فِيعال كضِيراب ، ومن قال :

أقاتلُ حتى لا أرى لي مُقاتَلًا 3

قال : مواتًى .

ومن ذلك قراءة ابن عباس ، وعكرمة والضحاك : "الْفُرْقَانَ ضِيَاءً"4 ، بغير واو .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون "ضياء" هنا حالا ، كقولك : دفعت إليك زيدا مجملا لك ومسددا من أمرك ، وأصحبتك القرآن دافعا عنك ومؤنسا لك . فأما في قراءة الجماعة : "وضياء" بالواو ، فإنه عطف على الفرقان ، فهو مفعول به على ذلك .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وأبي نهيك وأبي السمال : "فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا"5 .

قال أبو الفتح : أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد عن أبي بكر محمد بن هارون6 عن أبي حاتم قال : فيها لغات : جِذاذا ، وجُذاذا ، وجَذاذا . قال : وأجودها الضم ، كالحُطام والرُّقات ، وكذلك روينا عن قطرب : جَذَّ الشيءَ يجُذه جَذًّا [102ظ] وجُذاذا وجِذاذا وجَذاذا .

---

1 هو في النسختين "يواتي" على التسهيل .

2 يهاتي : يفاعل من هات يا رجل ، بمعنى أعط .

3 من قول كعب بن مالك :

أقاتلُ حتى لا أرى لي مُقاتَلا وأنجو إذا غُم الجبانُ من الكربِ

أو من قول زيد الخيل :

أقاتلُ حتى لا أرى لي مُقاتَلا وأنجو إذا لم ينجُ إلَّا المكيّسُ

والمكيس: من كيسه، إذا جعله كيسا، وانظر اللسان "قتل"، والخصائص: 1: 367، 2: 304.

4 سورة الأنبياء: 48.

5 سورة الأنبياء: 58.

6 محمد بن هارون: لعله محمد بن هارون الطبري، روى الحروف عن أبي حاتم السجستاني، وروى عنه الحروف محمد بن الحسن النقاش، طبقات ابن الجزري: 2: 273.

(170/505)

ومن ذلك قراءة الحسن وابن أبي إسحاق والأشهب ورويت عن أبي عمرو: "أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ"1.

قال أبو الفتح: تكون "أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ" بدلا من "أُمَّتُكُمْ"، كقولك: زيد أخوك رجل صالح، حتى كأنه قال: أخوك رجل صالح. ولو قرئ "أُمَّتَكُمْ" بالنصب بدلا وتوضيحا "لهذه". ورفع "أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ" لأنه2 خبر إن لكان وجها جميلا حسنا.

ومن ذلك قراءة ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وقتادة: "وَحِرَمَ عَلَى قَرْيَةٍ"3.

وقرأ : "وحرُم" ابن عباس – بخلاف – وأبو العالية وعكرمة .

وقرأ : "وَحَرَمَ عَلَى قَرْيَةٍ" قتادة ومطر الوراق .

وقرأ : "وَحَرِمَ" ، بفتح الحاء ، وكسر الراء ، والتنوين في الميم عكرمة ، بخلاف .

وقرأ : "وحَرْمٌ" ، بفتح الحاء ، وسكون الراء والتنوين ابن عباس ، بخلاف .

قال أبو الفتح : أما "حَرِمَ" فالماضي من حرِمَ4 ، كقَلِقَ من قَلِقٍ ، وبَطِرَ من بَطِرٍ . قالوا : حرم زيد ، وهو حرم وحارم : إذا قبر ماله5 ، وأحرمته : قمرته . قال زهير :

وإن أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ6

وأما "حَرُمَ" فأمره في الاستعمال ظاهر .

ومن جهة أحمد بن يحيى : "وَحَرِمٌ عَلَى قَرْيَةٍ" ، أي : واجبٌ وحرامٌ ، معناه : حُرِّمَ ذلك عليها ، فلا تُبعث إلى يوم القيامة ، وهذا على زيادة "لا"7 ، وحرِمَ الرجلُ : إذا لَجَّ في شيء ومَحَكَ8 .

---

1 سورة الأنبياء : 92 .

2 في ك : لأن ، وهو تحريف .

3 سورة الأنبياء : 95 .

4 الظاهر أنه يريد بقوله : فالماضي من حرم – إن حرم لازم ، ولذا الوصف منه على فَعِل كمثل : قَلِق وبَطِر ، وإلا فالفعل لا يُؤخذ من الوصف .

5 يقال : قمرته المال ، أي : سلبته إياه في القمار .

6 روي "مسغبة" مكان "مسألة" . والخليل : الفقير ، من الخلة . الديوان : 153 ، والأمالي : 1 : 196 ، والكتاب : 1 : 436 .

7 الآية بتمامها :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ .

8 محك : لج وتمادى في اللجاجة .

(171/505)

وأما "حَرُمَ" فمن حَرَمْتُه الشيءَ : إذا منعْتُه إياه ، فقد عاد إذاً إلى معنى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ . وأما "حَرْمٌ" ، بفتح الحاء ، وتسكين الراء فمخفف من حَرِمٌ على لغة بني تميم ، فهو كبَطْر من بَطِرٍ ، وفَخْذ من فَخِذٍ ، وكَلْمة من كَلِمَة . وقال أبو وعلة :

لا تأمنَنْ قوما ظلمتَهُمُ وبدأتَهُمُ بالشرِّ والحِرْمِ .

فكسَر ، فهذا يصلح أن يكون من معنى اللجاج والمحك ، ويصلح أن يكون من معنى الحرمان ، أي : ناصبتهم وحرمتهم إنصافك .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "مِنْ كُلِّ جَدَث يَنْسِلُونَ1" .

قال أبو الفتح : هو القبر بلغة أهل الحجاز ، والجَدَفُ بالفاء لبني تميم . وقالوا : أجدثْتُ له جدَثًا ، ولم يقولوا : أجدفْتُ ، فهذا يريك أن الفاء في "جدَفٍ" بدل من الثاء في "جدَثٍ" . ألا ترى الثاء أذهب في التصرف من الفاء ؟ وقد يجوز أن يكونا أصليين إلا أن أحدهما أوسع تصرفا من صاحبه ، كما قالوا : وكَّدْتُ عهده وأكَّدْته ، إلا أن الواو أوسع تصرفًا من الهمزة . ألا تراهم قالوا : قد وكَدَ وكْدَهُ[2] ، أي : شغل به ، ولم يقولوا : أكَدَ أكْدَهُ؟ فالواوُ إذًا أوسعُ تصرفًا ، وعليه قالوا : مودَّةٌ وكِيدةٌ ، ولم يقولوا : أكِيدةٌ . وقالوا : وكَّدْتُ السَّرجَ ، والوِكَادُ[3] ، ولم تستعملْ هنا الهمزةُ ، فهذا مذهبٌ مقتاس على ما رأيتك هنا .

ومن ذلك قراءة ابن السَّمَيفع : "حَصْبُ جهَنَّمَ[4]" ، ساكنة الصاد .

وقرأ : "حَضَبُ" ، بالضاد مفتوحة – ابن عباس .

وقرأ : "حَضْبُ" ، ساكنة الضاد كُثِّير عزَّة[5] .

---

1 سورة الأنبياء : 96 .

2 الوكد : الهم ، والمراد ، والقصد .

3 الوكاد : سير يشد به الرحل ، وجمعه وكائد . ويقال أيضا : أكاد .

4 سورة الأنبياء : 98 .

5 هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي ، صاحب عزة بنت جميل بن

حفص بن أياس بن عبد العزى، وله فيها أشعار كثيرة. وكان عبد الملك بن مروان يتهمه بالتشيع مات سنة 105 ودفن في مقابر المدينة. تزيين الأسواق: 39 وما بعدها.

(172/505)

وقرأ: "حَطَبُ جَهَنَّمَ" علي بن أبي طالب وعائشة "عليهما السلام" وابن الزبير وأبي بن كعب وعكرمة.

قال أبو الفتح: أما الحَضَبُ1 بالضاد مفتوحة، وكذلك بالصاد غير معجمة فكلاهما الحطب، ففيه ثلاث لغات: حَطَبُ، وحَضَبُ، وحَصَبُ, وإنما يقال: حَصَبٌ إذا ألقي في التنور والموقد. فأما ما لم يستعمل فلا يقال له: حصب. وقال أحمد بن يحيى: أصل الحَصْب الرمي، حطبًا كان أو غيره. [103و] فهذا يؤكد ما ذكرناه من كونه المرمي في النار.

قال الأعشى:

فَلا تَكُ في حَرْبِنَا مِحْضَبًا لِتَجْعَلَ قَوْمَكَ شَتَّى شُعُوبَا2

فأما "الحَصْب" ساكنا بالصاد والضاد فالطرح، فقراءة من قرأ: "حَضْبُ جَهَنَّمَ" و "حَصْبُ جَهَنَمَ" بإسكان الثاني منهما إنما هو على إيقاع المصدر موقع اسم المفعول.

كالخلق في معنى المخلوق، والصيد في معنى المصيد . وقد تقدم ذكر ذلك3 .

ومن ذلك قراءة أبي زرعة4 : "السُجُلِّ"5 بضم السين والجيم، مشددة . وهذا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، وكان قد قرأ على أبي هريرة .

وقرأ : "كَطَيِّ السِّجْلِ"، بكسر السين، ساكنة الجيم، خفيفة اللام - الحسن، وأجازه أبو عمرو، وحكاه عن أهل مكة .

وقرأ أبو السمال : "السَّجْل"، بفتح السين والجيم ساكنة، واللام خفيفة .

قال أبو الفتح : السَّجْل : الكتاب، ويقال : هو كتاب العهدة ونحوها . وقال قوم : هو

---

1 في ك : الحصب بالصاد، وهو تحريف .

2 المحضب : المسعر، وهو عود تحرك به النار عند الإيقاد . رواه اللسان منسوبا إلى الأعشى أيضا، ولم نعثر عليه في ديوانه، ورواه البحر "6 : 340"، وفيه "فتجعل" مكان "لتجعل" .

3 انظر الصفحة 62 من هذا الجزء .

4 هو أبو زرعة بن عمرو بن جرير بن عبد الله البجلي الكوفي، قيل : اسمه هرم، وقيل : عبد الله، وقيل غيرهما، رأى عليا - رضي الله عنه - وروى عن جده وأبي هريرة ومعاوية وغيرهم، وروى عنه عمه إبراهيم بن جرير وإبرهيم النخعي والحارث العكلي وغيرهم . وكان من علماء التابعين الثقات وأهل الصدق . تهذيب التهذيب : 12 :

69 .

5 سورة الأنبياء : 104 .

(173/505)

فارسي معرب ، وأنكر ذلك أصحابنا : أبو عبيدة وكافة أصحابنا ، وقالوا : بل هو عربي ، وهذه اللغات بعد مسموعة فيه . وقال قوم : هو مَلَك ، وقال آخرون : هو كاتب كان للنبي "صلى الله عليه وسلم" ، وذلك مدفوع ؛ لأن كتابه معروفون .

ويشبه أن يكون هذان القولان إنما قاد إليهما توهم من ظن أن السجلّ هنا فاعل في المعنى ، وإنما هو مفعول في المعنى . وهو كقولك : كطي الكتاب للكتابة ، وقوله : "للكتاب" كقولك : للكتابة ، أي كطي الكتاب لأن يكتب فيه ؟

ومن ذلك ما رواه أيوب عن يحيى عن ابن عامر أنه قرأ : "وَإِنْ أَدْرِيَ لَعَلَّه" 1 ، "وَإِنْ أَدْرِيَ أَقرِيبٌ" 2 ، بفتح الياء فيهما جميعا .

قال أبو الفتح : أنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين ، وظاهر الأمر لعمري كذلك ، لأنها لام الفعل بمنزلة ياء أرمي وأفضي ، إلا أن تحريكها بالفتح في هذين الموضعين لشبهة عرضت هناك ، وليس خطأ ساذجا بحتا .

وذلك أنك إذا قلت : "أدري" فلك هناك ضمير وإن كان فاعلا ، فأشبه آخرهُ ، آخرَ ما لك فيه ضمير وإن كان مضافا إليه ، كقولك : غلامي وداري . فلما تشابه الآخران بكونهما ياءين ، وهناك أيضا للمتكلم ضميران ، وهما المرفوع في "أدري" و"صاحبي" ؛ ففتحت الياء في "أدري" كما تفتح في نحو "داري" و"غلامي" .

ولا تستبعد في الشبه نحو هذا ، فقد همزوا مصائب لما أشبه حرف اللين في مصيبة – وإن كانت عينا – حرف اللين في صحيفة وإن كان زائدا3 . وقالوا ما هو أعلى من هذا ، وهو أنهم تركوا صرف أحمد وأصرم4 لما أشبها بالمثال نحو أركبُ وأذهبُ ، وقالوا أيضا : مَسِيل ، وهو من سال يسيل وياؤه عين ، ثم عاملوها معاملة ياء فعيل الزائدة ، فقالوا :

---

1 سورة الأنبياء : 111 .

2 سورة الأنبياء : 109 .

3 في ك : رائدا ، وهو تحريف .

4 الأصرم : الفقير الكثير العيال .

أمسلة. كما قالوا: أجربة1، قالوا: سالت معنانه2. فحذفوا ياء معين، وهو من العيون، وأجروها مجرى ياء قفيز وقفزان الزائدة. هذا هو الظاهر. فأما قولهم: مَسِيل ومُسُل، وأَمْعَنَ بحقّهِ: إذا أجاب إليه وانقاد له - فقد يجوز أن يكون إنما ساغ ذلك لما سمعوهم يقولن: مُعْنَان [103ظ] وأمْسِلَة، كما قال أبو بكر في قولهم3 ضَفَنَ الرجل يَضفِنُ إذا جاء ضيفًا مع الضيف: لما قالوا ضيفَنَ، فأشبه فيعلا4. فصارت النون في ضيفن كالأصل، إلا أن فَيْعَلا أكثر من فَعْلَن. فاشتُقَّ منه على أقوى ما يجب في مثله؛ فثبتت النون في ضَفَنَ لاما وإن كانت في ضَيْفَن زائدة. فكذلك شبهوا ياء "أدري" بياء غلامي وداري من حيث ذكرنا. فاعرفه معنى كالعذر أو عذرا.

ومن ذلك قراءة أبي جعفر: "قُلْ رَبُّ احْكُمْ"5 بضم الباء، والألف ساقطة على أنه نداء مفرد.

قال أبو الفتح: هذا عند أصحابنا ضعيف، أعني حذف حرف النداء مع الاسم الذي يجوز أن يكون وصفا لأي. ألا تراك لا تقول: رجل أقبل؛ لأنه يمكنك أن تجعل الرجل وصفا لأي. فتقول: يأيها الرجل؟ ولهذا ضعف عندنا قول من قال في قوله "تعالى": ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾6: إنه أراد يا هؤلاء. وحذف حرف النداء من حيث كان "هؤلاء" من أسماء الإشارة، وهو جائز أن يكون وصفا لأي في نحو قوله:

ألا أيُّها ذا المنزِلُ الدارِسُ الذي كأنَّكَ لم يعهدْ بِكَ الحيَّ عاهِدُ7

---

1 الأجربة: جمع الجريب، ومن معانيه: الوادي، والمزرعة.

2 المعنان: مجاري الماء في الوادي. وقد أورده الصحاح واللسان والقاموس في "معن"، وذكر في اللسان أنه قد يكون مفعولا من العيون، أو من عنت الماء، أي: استنبطته، وقد يكون فعيلا من المعن.

3 في ك: كلامهم.

4 أي: وإنما هو فعلن.

5 سورة الأنبياء: 112.

6 سورة هود: 78.

7 البيت لذي الرمة، ويروى صدره:

ألا أيها الربع الذي غير البلى

يقول: كأن هذا المنزل لدروسه لم يقم به أحد، ولا له به عهد، انظر الديوان: 122، والكتاب: 1: 308.

و "رَبُّ" مما يجوز أن يكون وصفا لأي ، ألا تراك تجيز يأيها الربُّ ؟ قال أصحابنا فلم يكونوا ليَجمعوا عليه حذف موصوفه وهو "أي" ، وحذف حرف النداء جميعا 1 .

وعلى أن هذا قد جاء مثلُه في المثَل ، وهو قولهم : افتدِ مخنُوق2 ، وأصبِحْ ليل3 ، وأطرقْ كَرا4 . يريد يا مخنوق ، ويا ليل ، ويا كروان . وعلى أن الأمثال عندنا وإن كانت5 منثورة فإنها تجري في تحمل الضرورة لها مجرى المنظوم في ذلك . قال أبو علي : لأن الغرض في الأمثال إنما هو التسيير ، كما أن الشعر كذلك ، فجرى المثل مجرى الشعر في تجوز الضرورة فيه ومن الشعر قوله :

عجِبْتُ لِعطّارٍ أَتانا يَسُومُنا بِدَسْكَرَةِ المَرّانِ دُهْنَ البنفسجِ

فَقُلْتُ له : عطارُ هَلّا أتيْتَنا بنَوْر الخزامى أو بِخُوصَةِ عَرْفَجِ6

---

1 في هامش نسخة الأصل : غيره يخرج هذه القراءة على أنه مضاف إلى ياء المتكلم ، لكن حذف ، فعومل بعد حذفها معاملة المنادى المفرد . فهو إذاً مضاف في التقدير وإن كان مفردا في اللفظ ، فلا يكون إذاً حذف أداة النداء شاذا ولا ضعيفا . وجاء مثل هذا في البحر : 6 : 345 .

2 مثل يضرب لكل مضطر مشفوق عليه . ويروى افتدي مخنوق . وفي الأصل "اقتد" بالقاف ، وهو تحريف . وانظر الأمثال للميداني : 2 : 24 .

3 مثل قالته امرأة من طيئ كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر ، فكرهت من ليلتها مكانها

معه، إذ كان مفركا لا تحبه النساء. فجعلت تقول: "يا خير الفتيان، أصبحت، فيرفع رأسه، فيرى الليل كما هو، فتقول: أصبِحْ ليل! يقال ذلك في الليلة الشديدة التي يطول فيها الشر. أمثال الميداني: 1: 416

4 مثل، بقيته: أن النعامة في القرى. يضرب للذي ليس عنده غناء، ويتكلم، فيقال له: اسكت، وتوق انتشار ما تلفظ به كراهة ما يعقبه. وقولهم: أن النعامة في القرى، أي: تأتيك، فتدوسك بأخفافها. ويقال: أن الكروان يقال له: أطرق كرى، أنك لن ترى. فإذا سمعها لبد بالأرض، فيلقى عليه ثوب، فيصاد.

وأصل كرا: كروان، فرخم بحذف النون، وحذفت معها الألف لكونها لينا زائدا ساكنا مكملا أربعة، ثم قلبت الواو ألفا، لتحركها، وانفتاح ما قبلها. وانظر الأمثال للميداني: 1: 445، والأساس "كرى". والخزانة: 1: 494، وحاشية الصبان على الأشموني في باب النداء.

5 في ك: وإن كانت عندنا.

6 الخزامى: عشبة طويلة العيدان، صغيرة الورق، حمراء الزهر، طيبة الريح. والعرفج: ضرب من النباب سهل، وقيل: إنه طيب الريح، أغبر اللون إلى الخضرة، وله زهر أصفر، وليس له حب ولا شوك. وقيل غير ذلك في وصفه.

أراد يا عطار .

وقد ذكرنا هذا في غير موضع من كتبنا ، وإنما قال ابن مجاهد : والألف ساقطة لأجل قراءة ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر والجحدري والضحاك وابن محيصن : "رَبِّي احْكُمْ بِالْحَقِّ" بياء ثابتة ، وفتح الألف والكاف ، ورفع الميم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 60. 70 ﴾

(177/505)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

مكية وآيها مائة وإحدى عشرة غير الكوفي واثنا عشرة فيه خلافها آية ولا يضركم كوفي مشبه الفاصلة أربعة أكثرهم لا يعلمون ولا يشفعون ولما تعبدون إنكم وما تعبدون القراآت أمال النجوى الذين وقفا حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وابو عمرو بخلفهما واختلف في ﴿ قل ربي ﴾ الآية 4 فحفص وحمزة والكسائي وكذا خلف قال بفتح القاف وألف على الخبر والضمير للرسول وافقهم الأعمش والباقون بضم القاف بلا ألف على الأمر

له وتأتي الأخيرة في محلها إن شاء الله تعالى وقرأ نوحي إليهم بنون العظمة مع البناء للفاعل حفص أي نحن وإليهم محله نصب والمفعول محذوف أي القرآن والذكر والباقون بالياء من تحت وفتح الحاء على البناء للمفعول وإليهم محله رفع على النيابة عن الفاعل ومر بيوسف وقرأ فسلوا بالنقل ابن كثير والكسائي وكذا خلف وأدغم تاء كانت ظالمة الأزرق وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وابن الكسائي وخلف وأدغم لام بل نقذف الكسائي وعن الحسن ينشرون بفتح الياء من تحت من نشر والجمهور بضمه من أنشر قال في المفتاح وكلهم بكسر الشين وقال السمين قرأ الحسن بفتح الياء وضم الشين وفتح ياء الإضافة من معي حفص وحده وسكنها الباقون وعن ابن محيصن بخلفه الحق فهم بالرفع خبر محذوف والجمهور بالنصب مفعول لا يعلمون

وقرأ (نوحي إليهم) الآية 7 بالنون مبنيا للفاعل حفص وحمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش والباقون بضم الياء من تحت وفتح الحاء مبنيا للمفعول وقللها الأزرق بخلفه وسبق بيوسف وأثبت الياء في فاعبدون معا في الحالين يعقوب وأمال ارتضى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وفتح ياء الإضافة من إني له نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وسكنها الباقون

واختلف في ( ) أولم ير الذين كفروا (الآية 30 فابن كثير ﴿ الم ﴾ بحذف الواو

بعد همزة الاستفهام التوبيخي وافقه ابن محيصن والباقون بإثباتها عطفا على السابق

واتفقوا على خفض حي من كل شيء حي صفة لشيء وقرئ شاذا من غير قراءتنا

بالنصب مفعولا ثانيا لجعلنا والجار والمجرور حينئذ لغو وقرأ أفائن مت بكسر الميم نافع

وحفص وحمزة والكسائي وخلف ومر بآل عمران وعن المطوعي ذائقة الموت بالتنوين

ونصب الموت على الأصل وعنه أيضا حذف التنوين مع نصب الموت حذفه لالتقاء

الساكنين

وقرأ (ترجعون) الآية 35 بالبناء للفاعل يعقوب ومر بالبقرة وقرأ راك ونحوه مما اتصل

بمضمر بإمالة الراء والهمزة معا حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق معا وأمال الهمزة

فقط أبو عمرو وذكر الشاطبي رحمه الله تعالى الخلاف عن السوسي في إمالة الراء تقدم ما

فيه واختلف عن هشام فالجمهور عن الحلواني على فتحهما معا عنه وكذا الصقلي عن

الداجوني والأكثرون عن الداجوني عنه على إمالتها معا والوجهان صحيحان عن هشام

كما في النشر واختلف أيضا عن ابن ذكوان على ثلاثة أوجه الأول إمالتها معا عنه رواية

المغاربة وجمهور المصريين الثاني فتحهما عن رواية جمهور العراقيين الثالث فتح الراء وإمالة

الهمزة رواية الجمهور عن الصوري وأما أبو بكر ففتحهما عنه معا العليمي وأمالهما معا

يحيى ابن آدم والباقون بالفتح فيهما

وقرأ (هزوا) الآية 36 بضم الزاي وإبدال الهمزة واوا حفص وقرأ حمزة وخلف بإسكان الزاي وبالهمزة والباقون بضم الزاي وبالهمز ووقف عليه حمزة بالنقل على القياس وإبدال الهمزة واوا على الرسم وأما تشديد الزاي فضعيف كبين بين وأثبت الياء في (فلا تستعجلون) في الحالين يعقوب وأدغم لام بل تأتيهم حمزة والكسائي وهشام كما صححه عنه في النشر وكسر دال ولقد استهزئ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وأبدل أبو جعفر همز استهزئ ياء مفتوحة ومر أوائل البقرة حكم يستهزؤون لحمزة وغيره وغلظ الأزرق لام حتى طال بخلف عنه للفصل بالألف والوجهان صحيحان والأرجح في النشر التغليط

(179/505)

واختلف في (ولا يسمع الصم) الآية 45 فابن عامر تسمع بضم التاء من فوق وكسر الميم والفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول الصم بالنصب على المفعولية والدعاء ثان وافقه الحسن والباقون يسمع بفتح الياء من تحت الميم الصم بالرفع على الفاعلية والدعاء مفعول به ويذكر كل من موضع النمل والروم في محله إن شاء الله تعالى وسهل الثانية من الدعاء إذا كالياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

واختلف في (مثقال) الآية 47 هنا ولقمان فنافع وأبو جعفر بالرفع على أن كان تامة أي

وجد مثقال والباقون بالنصب على أنها ناقصة واسمها مضمر أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة ومن خردل صفة حبة

وقرأ (وضياء) الآية 48 بهمزة مفتوحة بدل الياء قنبل ومر توجيهه آخر باب الهمز المفرد

واختلف في (جذاذا) الآية 58 فالكسائي بكسر الجيم وافقه الأعمش وابن محيصن بخلف عنه والباقون بالضم وهما لغتان في متفرق الأجزاء والمكسور جمع جذيذ كخفيف وخفاف أو جذاذة والمضمون جمع جذاذة كقرادة وقراد وقيل هي في لغاتها كلها مصدر وسهل الثانية مع الفصل بالألف في أأنت فعلت قالون وأبو عمرو وهشام من طريق ابن عبدان عن الحلواني وأبو جعفر وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل لكن من غير إدخال ألف وللأزرق ثان إبدالها ألفا مع المد للساكنين وقرأ هشام من مشهور طرق الداجوني وابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وروح بتحقيقهما بلا ألف وقرأ الجمال عن الحلواني عن هشام بتحقيقهما مع إدخال الألف فلهشام ثلاثة وقرأ فسلوهم بالنقل ابن كثير والكسائي وخلف

وقرأ (أف) الآية 67 بكسر الفاء منونة نافع وحفص وأبو جعفر وبفتح الفاء من غير تنوين ابن كثير وابن عامر ويعقوب وكسرها بلا تنوين الباقون ومر بالإسراء

وقرأ (أئمة) الآية 73 بالتسهيل للثانية بين بين وبإبدالها ياء خالصة نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ورويس وكلهم بالقصر على الوجهين غير أبي جعفر فيدخل الفاء بينهما حال تسهيله فقط كما مر والباقون بتحقيقهما مع القصر بخلف عن هشام فيه أعني القصر كما سبق تفصيله

واختلف في (لتحصنكم) الآية 80 فابن عامر وحفص وأبو جعفر بالتاء على التأنيث والفاعل يعود على الصنعة أو اللبوس لأنه يراد بها الدروع وافقهم الحسن وقرأ أبو بكر ورويس بنون العظمة لمناسبة وعلمناه والباقون بالياء من تحت والفاعل يعود على الله تعالى أو داود عليه السلام أو التعليم أو اللبوس

وقرأ (ولسليمان الريح) الآية 81 بالجمع أبو جعفر ومر بالبقرة

وأمال نادى وفنادى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأسكن ياء الإضافة من مسني الضر حمزة وفتحها الباقون

واختلف في ﴿ أن لن يقدر ﴾ الآية 87 فيعقوب بالياء المضمومة من تحت ودال مفتوحة مبنيا للمفعول والباقون بنون العظمة المفتوحة وكسر الدال على البناء للفاعل والمفعول محذوف أي لن نضيق عليه الجهات والأماكن وعن الحسن الظلمات بسكون اللام

واختلف في (ننجي المؤمنين) الآية 88 فابن عامر وأبو بكر بحذف إحدى النونين وتشديد

الجيم واختارها أبو عبيد لموافقة المصاحف وقد طعن فيها لمنع الإدغام في المشدد

وأجيب عنه بأجوبة أحسنها كما في الدر أن الأصل ننجي بنونين مضمومة فمفتوحة مع

تشديد الجيم فاستثقل توالي المثلين فحذفت الثانية كما حذفت في نزول الملائكة تنزيلا

والباقون بضم النون الأولى وسكون الثانية وتخفيف الجيم من أنجى وسهل الثانية من زكريا

إذ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وقرأ ابن عامر وأبو بكر وروح بتحقيقهما

وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف زكريا بالقصر بلا همز

(181/505)

وأمال (يسارعون) الدوري عن الكسائي وفتحه الباقون وعن الأعمش (رغبا ورهبا)

الآية 90 بضم رائهما وسكون الغين والهاء ورويت عن أبي عمرو من غير طريق الكتاب

قال في البحر وأشهر عن الأعمش بضمتين فيهما وعن الحسن (أمة واحدة) بالرفع فيهما

على أن أمتكم خبر إن وأمة واحدة بدل منها بدل نكرة من معرفة خبر محذوف أي هي أمة

والجمهور على نصبهما على الحال أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء

واختلف في (وحرام) الآية 95 فأبو بكر وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء بلا

ألف وافقهم الأعمش والباقون بفتح الحاء والراء وبألف بعدهما وهما لغتان كالحل والحلال

وتقدم اتفاقهم على قراءة لا يرجعون ببنائه للفاعل

وقرأ (فتحت) الآية 96 بالتشديد ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ومر بالأنعام

وقرأ عاصم (يأجوج ومأجوج) الآية 96 بالهمز فيهما والباقون بالألف وعن ابن محيصن

بخلفه حصب جهنم بسكون الصاد مصدر بمعنى المفعول أي المحصوب أو على المبالغة

والجمهور على فتحها وهو ما يحصب به أي يرمى في النار فلا يقال له حصب إلا وهو في

النار وقيل ذلك حطب وبه قرىء وأبدل الثانية ياء مفتوحة من هؤلاء آلهة نافع وابن كثير

وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

وقرأ (لا يحزنهم) الآية 103 بضم الياء وكسر الزاي مضارع أحزن أبو جعفر وسبق بآل

عمران

واختلف في (نطوي السماء) الآية 104 فأبو جعفر بضم التاء من فوق على

التأنيث وفتح الواو مبنيا للمفعول والسماء بالرفع نائب الفاعل والباقون بنون العظمة

والسماء بالنصب مفعول به وعن الحسن السجل بسكون الجيم وتخفيف اللام والجمهور

بكسر الجيم وتشديد اللام لغتان

واختلف في (للكتب) الآية 104 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بضم الكاف والتاء

بلا ألف على الجمع وافقهم الأعمش والباقون بكسر الكاف وفتح التاء مع الألف على

الإفراد والرسم يحتملها

وقرأ حمزة وخلف (الزبور) بضم الزاي ومر بالنساء وأسكن ياء الإضافة من عبادي

الصالحون حمزة ووقف يعقوب بخلفه على يوحى إلى بهاء السكت

واختلف في ﴿ قل رب ﴾ الآية 112 فحفص (قال) بصيغة الماضي خبرا عن الرسول

عليه الصلاة والسلام والباقون قل بصيغة الأمر

واختلف في (رب احكم) الآية 112 فأبو جعفر بضم الباء على أحد اللغات الجائزة في

المضاف لياء المتكلم نحو يا غلامي تبنيه على الضم وتنوي الإضافة وليس منادى مفردا

لأنه ليس من نداء النكرة المقبل عليها وافقه ابن محيصن والباقون بكسر الباء اجتزاء

بالكسرة عن ياء الإضافة وهي الفصحى

واختلف في (ما تصفون) الآية 112 فابن ذكوان من طريق الصوري بالياء من تحت على

الغيب وافقه الأعمش والباقون بالتاء من فوق على الخطاب وهي رواية الأخفش عن ابن

ذكوان

المرسوم في مصحف الكوفة قال رب الأول بالألف وباقي المصاحف بلا ألف وفي المكي أو

لم ير الذين بغير واو وفي سائرها بواو العطف وروى نافع عن المدني كالبقية حذف ألف

جذذا الأول وألف يسرعون وكتبوا في الكل وحرم بحذف الألف واتفقوا على كتابة أفاين مت بياء بين الألف والنون وكتبوا في أكثرها سأوريكم آياتي بزيادة واو بين الألف والراء المقطوع اختلفوا في قطع أن عن لا في قوله تعالى أن لا إله إلا أنت وكذا اختلفوا في قطع في عن ما في قوله تعالى فيما اشتهت أنفسهم ياآت الإضافة أربع (إني إله) الآية 29 و(من معي) الآية 24 (مسني الضر) الآية 83 (عبادي الصالحون) الآية 105 الزوائد ثلاث (فاعبدون) الآية 25 92 معا (فلا تستعجلون) الآية 37 . انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 391.395 ﴾

(183/505)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الأنبياء "

" يأتيهم " أبدل الهمزة مطلقا السوسي وورش وأبو جعفر وفي الوقف حمزة وضم الهاء يعقوب .

" استمعوه " ظلموا ، أفتأتون ، السحر ذكركم ، تبصرون . وأنشأنا حصيدا خامدين وهو يستحسرون ، ينشرون بأسنا ، افتراه فيهما ، ذكر معا أيديهم ، من خشيته ، كله جلي .

" قال ربي يعلم " قرأ حفص والأخوان وخلف . بفتح القاف وألف بعدها وفتح اللام والباقون بضم القاف وحذف الألف وسكون اللام .

" نوحي إليهم " قرأ حفص بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء التحتية وفتح الحاء ، وضم يعقوب وحمزة هاء إليهم .

" فسألوا " نقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة ابن كثير والكسائي وخلف في اختياره والباقون بتحقيق الهمزة .

" معي " فتح الياء حفص وأسكنها غيره .

" نوحي إليه " قرأ حفص والأخوان وخلف بالنون المضمومة وكسر الحاء والباقون بالياء التحتية المضمومة وفتح الحاء .

" فاعبدون " أثبت الياء في الحالين يعقوب وحذفها غيره .

" مشفقون " آخر الربع .

الممال

للناس لدوري البصري ، النجوى لدى الوقف عليه ودعواهم بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه افتراه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . يوحى الأول وارتضى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه يوحى الثاني يقلله ورش بخلف عنه ولا إمالة فيه لأحد لأن المميلين يقرءون بكسر الحاء .

المدغم

" الصغير " كانت ظالمة لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف ، بل نقذف ، للكسائي .

" الكبير " يعلم ما .

" إني إله " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" أو لم ير " قرأ المكي بحذف الواو والباقون بإثباتها .

" مت " كسر الميم نافع وحفص والأخوان وخلف ، وضمها غيرهم .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم .

" هزوا " كافرون ، وجوههم النار ، تأتيهم ، يستهزءون ، انذركم ، تظلم ، من خردل الدعاء إذا ذكر ، منكرون " جلي .

" تستعجلون " أثبت الياء في الحالين يعقوب وحذفها غيره كذلك .

" ولقد استهزئ " كسر الدال وصلا البصريان وعاصم وحمزة وضمها غيرهم وأبدل أبو جعفر الهمزة ياء مفتوحة وصلا وساكنة وقفا ، ووقف عليه حمزة وهشام بإبدال الهمزة ياء

ساكنة .

" يكلؤكم " وقف عليه حمزة بالتسهيل فقط .

" طال " فيه لورش تفخيم اللام وترقيقها ، والأول أرجح .

" ولا يسمع الصم " قرأ الشامي بتاء فوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم والباقون يسمع بياء تحتية مفتوحة وفتح الميم ورفع ميم الصم .

" مثقال " قرأ المدنيان برفع اللام والباقون بنصبها .

" وضياء " قرأ قنبل بهمزة مفتوحة بعد الضاد ، والباقون بياء مفتوحة في مكان الهمزة .

" وذكرا " فيه لورش التفخيم والترقيق ، ولورش في هذه الآية سبعة أوجه: قصر البدل وفتح ذات الياء والوجهان في ذكرا ، ثم توسيط البدل وتقليل ذات الياء وتفخيم ذكرا ، ثم مد البدل والفتح والتقليل في ذات الياء وعلى كل منهما الوجهان في ذكرا .

" منكرون " آخر الربع .

الممال

" رآك " بإمالة الراء والهمزة معا لشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه وإمالة الهمزة وحدها للبصري وبتقليل الراء والهمزة لورش ، وهو في البدل على أصله ، والباقون بفتحهما وهو الوجه الثاني لابن ذكوان ، متى وكفى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . فحاق لحمزة النهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . موسى بالإمالة

للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " " بل تأتيهم " لهشام والأخوين .

" الكبير " " ذكر ربهم " لا يستطيعون نصر .

" جذاذا " كسر الجيم الكسائي وضمها غيره .

"كبيرا " إليه ، ءأنت كبيرهم ، فسألوهم ، رءوسهم ، الخيرات ، الصلاة سوء معا والطير ،

بأسكم ، شاكرون ، واضح .

" أف لكم " تقدم في سورة الإسراء .

" أئمة " تقدم في سورة التوبة .

" لتحصنكم " قرأ الشامي وحفص وأبو جعفر بتاء التأنيث ، وشعبة ورويس بالنون

والباقون بياء التذكير .

" الريح " قرأ أبو جعفر بالجمع ، وغيره بالإفراد .

" حافظين " آخر الربع .

الممال

فتى لدى الوقف عليه . نادى معا بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه . الناس لدوري البصري ، وذكرى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " " قال لأبيه " قال: لقد يقال له ، ولا إدغام في الريح عاصفة لقصر ذلك على زحزح عن النار .

" مسني الضر " أسكن الياء حمزة وفتحها غيره .

" نقدر " قرأ يعقوب بياء تحتية مضمومة وفتح الدال ، والباقون بالنون المفتوحة وكسر الدال وفيه ترقيق الراء لورش .

" ننجي المؤمنين " قرأ الشامي وشعبة بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم ، والباقون بنونين الأولى مضمومة ، والثانية ساكنة مع تخفيف الجيم .

" وزكرياء إذ " قرأ حفص والأخوان وخلف بإسقاط همزة زكريا ، والباقون بهمزة مفتوحة ، وحينئذ يجتمع همزتان الأولى مفتوحة والثانية مكسورة في كلمتين ، فيسهل الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس ، ويحققها الباقون وهم الشامي وشعبة وروح

" وأصلحنا " الخيرات ، زفير ، لا يخفى ما فيه .

" فاعبدون " أثبت الياء في الحالين يعقوب .

" وحرام " قرأ شعبة والأخوان بكسر الحاء وسكون الراء من غير ألف ، والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعدها .

" فتحت " شدد التاء ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ، وخففها سواهم .

" يأجوج ومأجوج " قرأ عاصم بهمزة ساكنة ، والباقون بإبدالها ألفا .

" هؤلاء آلهة " أبدل الهمزة الثانية ياء محضة المدنيان والمكي ورويس والبصري ، وحققها غيرهم .

" لا يحزنهم " قرأ أبو جعفر وحده بضم الياء وكسر الزاي ، والباقون بفتح الياء وضم الزاي .

" نطوي السماء " قرأ أبو جعفر بالتاء الفوقية المضمومة وفتح الواو ، ورفع همزة السماء وغيره بالنون المفتوحة في مكان التاء وكسر الواو ونصب همزة السماء .

" للكتب " قرأ حفص والأخوان وخلف بضم الكاف والتاء من غير ألف على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على الإفراد .

" بدأنا " فيه إبدال الهمز للسوسي وأبي جعفر مطلقا ، ولحمزة وقفا .

" الزبور " ضم الزاي خلف وحمزة ، وفتحها غيرهما .

" عبادي الصالحون " أسكن الياء وصلا حمزة ، وفتحها غيره .

" إلى " وقف يعقوب بهاء السكت .

" قال رب احكم " قرأ حفص بفتح القاف واللام وألف بينهما ، والباقون بضم القاف وإسكان اللام من غير ألف . وقرأ أبو جعفر بضم باء رب ، والباقون بكسرها .

" تصفون " آخر السورة ، وآخر الربع .

المال

" وذكرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، فنادى ، ونادى وتتلقاهم ويوحى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . يحيى والحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . يسارعون لدوري الكسائي .

المدغم

" الكبير " . " ويعلم ما " انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 217.213 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الأنبياء

قوله تعالى ﴿ قل ربي أعلم ﴾ يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبت أنه جعله فعلا ماضيا أخبر به والحجة لمن حذف أنه جعله من أمر النبي صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى ﴿ نوحي إليهم ﴾ يقرا بالنون وكسر الحاء وبالياء وفتحها فالحجة لمن قرا بالياء أنه اراد بذلك من شك في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكفر به وقال هلا كان ملكا فأمرهم الله أن يسألوا أهل الكتب هل كانت الرسل إلا رجالا يوحى إليهم والحجة لمن قرأه بالنون أنه اراد أن الله تعالى أخبر به عن نفسه ورده على قوله ﴿ أرسلنا ﴾ ليكون الكلام من وجه واحد فيوافق بعضه بعضا

قوله تعالى ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ يقرأ بياء مفتوحة ورفع الضم وبتاء مضمومة ونصب الصم فالحجة لمن قرأ بالياء أنه أفردهم بالفعل فرفعهم بالحديث عنهم والحجة لمن قرأ بالتاء أنه قصد النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل ونصب الصم بتعدي الفعل إليهم ودليله قوله تعالى ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ لأن من لم يلتفت إلى وعظ الرسول عليه السلام ولم يسمع عن الله ما يخاطبه به كان كالميت الذي لا يسمع ولا يجيب

قوله تعالى ﴿ أولم ير الذين كفروا ﴾ يقرا بإثبات الواو وحذفها فالحجة لمن ثبتها أنه جعلها

واو العطف دخلت على ألف التوبيخ كما تدخل الفاء والحجة لمن حذفها أنه اتبع خط مصاحف أهل الشام ومكة واجتزأ منها بالألف لأن دخولها مع الألف وخروجها سيان ومعنى قوله ﴿ رتقا ﴾ مغلقة ومعنى الفتق تشقق السماء بالمطر والأرض بالنبات

قوله تعالى ﴿ وإن كان مثقال حبة ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه جعل كان بمعنى حدث ووقع فلم يحتج إلى خبر والحجة لمن نصب أنه أضمر في كان اسما معناه وإن كان الشيء مثقال حبة

فإن قيل فلم قال ﴿ أتينا بها ﴾ ولم يقل به فقل لأن مثقال الحبة هو الحبة ووزنها

(188/505)

قوله تعالى ﴿ وضياء وذكرا ﴾ يقرأ بياء وهمزة وبهمزتين وقد ذكرت علته في يونس وقال الكوفيون الواو في قوله وضياء زائدة لأن الضياء هو الفرقان فلا وجه للواو

وقال البصريون هي واو عطف معناها واتيناهما ضياء ودليلهم قوله ﴿ فيه هدى ونور ﴾ والنور هو الهدى وسميت التوراة فرقانا لأنها فرقت بين الحق والباطل

قوله تعالى ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ يقرأ بضم التاء وفتحها فالحجة لمن ضم أنه أراد تردون والحجة لمن فتح أنه أراد تصيرون

قوله تعالى ﴿ جذاذا ﴾ يقرأ بضم الجيم وكسرها فمن ضم أراد به معنى حطام ورفات ولا يثنى في هذا ولا يجمع والحجة لمن كسر أنه أراد جمع جذيذ بمعنى مجذوذ كقولهم خفيف وخفاف

قوله تعالى ﴿ أف لكم ﴾ مذكور في بني إسرائيل

قوله تعالى ﴿ لتحصنكم ﴾ يقرأ بالتاء والياء والنون فالحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على الصنعة واللبوس لأن اللبوس الدرع وهي مؤنثة والحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على لفظ اللبوس لا على معناه والحجة لمن قرأه بالنون أنه أخبر به عن الله عز وجل لأنه هو المحصن لا الدرع

قوله تعالى ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ إجماع القراء على إثبات النونين الأولى علامة الاستقبال والثانية فاء الفعل إلا ما قرأه عاصم بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم فالحجة لمن قرأه بنونين وإن كان في الخط بنون واحدة أن النون تخفى عند الجيم فلما خفيت لفظا سقطت خطا ودل نصب المؤمنين على أن في الفعل فاعلا هو الله عز وجل ولعاصم في قراءته وجه في النحو لأنه جعل نجي فعل ما لم يسم فاعله وأرسل الياء بغير حركة لأن الحركة لا تدخل عليها في الرفع وهي ساقطة في الجزم إذا دخلت في المضارع وأضمر مكان المفعول الأول المصدر لدلالة الفعل عليه ومنه قولهم من كذب كان شرا له

يريدون كان الكذب فلما دل كذب عليه حذف فكأنه قال وكذلك نجي النجاء المؤمنين

وأنشد شاهدا لذلك % ولو ولدت قفيرة جرو كلب % لسب بذلك الجرو الكلابا %

(189/505)

قوله تعالى ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ يقرآن بالتشديد والتخفيف وبالهمز وتركه وقد ذكرت علل ذلك فيما سلف

قوله تعالى ﴿ وحرام على قرية ﴾ يقرأ بفتح الحاء والراء وإثبات الألف وبكسر الحاء وإسكان الراء وحذف الألف فالحجة لمن فتح وأثبت الألف أنه أراد ضد الحلال والحجة لمن كسر الحاء وحذف الألف أنه أراد وواجب على قرية ولا في قوله لا يرجعون صلة ومعناه واجب عليهم الرجوع للجزاء وقيل هما لغتان حرم وحرام وحل وحلال

قوله تعالى ﴿ كتاب ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد ذكرت علل ذلك آنفا وقال بعضهم السجل الكاتب

قوله تعالى ﴿ في الزبور من بعد الذكر ﴾ يقرأ بضم الزاي وفتحها وقد ذكر فيما مضى

قوله تعالى ﴿ من بعد الذكر ﴾ يريد به من قبل الذكر والذكر القرآن والأرض أرض الجنة لقوله ﴿ الصالحون ﴾

قوله تعالى ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ يقرأ بإثبات الألف على الخبر وبطرحها على الأمر

فإن قيل ما وجه قوله بالحق فقل يريد احكم بحكمك الحق ثم سمى الحكم حقا

قوله تعالى ﴿ عما يصفون ﴾ يقرأ بالياء والتاء وقد تقدمت العلة في ذلك من الغيبة

والخطاب فاعرفه إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 252.248 ﴾

(190/505)

وقال ابن زنجلة :

21 – سورة الأنبياء

قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم 4

قرأ حمزة والكسائي وحفص قال ربي على الخبر عن النبي صلى الله عليه أنه قال للكفار

مجيبا عن قيلهم قبلها هل هذا إلا بشر مثلكم 3 ونزول هذه الآية بعد أن تقدم هذا القول من

النبي صلى الله عليه وسلم لهم

وقرأ الباقون قل ربي على الأمر وحجتهم في ذلك أن الله أمره أن يقول للكفار مجيبا لهم عن

قولهم هل هذا إلا بشر مثلكم

قل ربي يعلم قولكم وقول كل قائل قولا في السموات والأرض وهو السميع لجميع ذلك والعليم بخلقه

وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم 7

قرأ حفص إلا رجالا نوحي بالنون وكسر الحاء إخبار الله عن نفسه وحجته قوله إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح

وقرأ الباقون يوحى بالياء وفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وحجتهم قوله وأوحي إلى نوح

وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون 25

قرأ حمزة والكسائي وحفص وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه بالنون وكسر الحاء وحجتهم في ذلك أن نوحي جاءت على مجرى أرسلنا ولفظها قريب من لفظ الجمع فجرى الكلام على نظام واحد إذ كان الوحي والإرسال جميعا له فأسندوا الفعلين إليه ويقوي هذا قوله إنا أوحينا إليك

وقرأ الباقون إلا يوحى بالياء وفتح الحاء وتركوا لفظ أرسلنا وإنما تركوا لأن آخر الكلام جرى على غير لفظ أوله وذلك

أنه قال لا إله إلا أنا فاعبدون ولو كان الكلام يتبع بعضه بعضا لم يقل فاعبدون لأنه لم يقل في أول الآية وما أرسلت من رسول فيكون آخر الكلام تابعا لأوله فلما لم يكن الكلام منظوما لم يجب أن يجعل نوحي بالنون بلفظ أرسلنا ولكن عدلوا به إلى لفظ ما لم يسم فاعله وحجتهم

قوله وأوحي إلى نوح

أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما 30

(191/505)

قرأ ابن كثير ألم ير الذين كفروا بغير واو وكذا مكتوب في مصاحفهم بغير واو وقرأ الباقون بالواو والواو عطف على ما قبلها كما قال أولم يأتهم ومن أسقط الواو لم يجعله نسقا لكنه جعله ابتداء كلام في معنى وعظ وتذكير

ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون 45

قرأ ابن عامر ولا تسمع بالتاء مضمومة الصم نصب أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع الصم كما قال سبحانه وما أنت بمسمع من في القبور والصم ها هنا المعرضون عما يتلى عليهم من ذكر الله فهم بمنزلة من لا يسمع كما قال الشاعر . . . أصم عما ساءه سميع

وقرأ الباقون ولا يسمع بالياء والصم رفع جعلوا الفعل لهم وكانوا يسمعون ويبصرون ولكنهم لم يستعملوا هذه الحواس استعمالا يجدي عليهم فصاروا كمن لم يسمع ولم يبصر

فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حسبين 47

قرأ نافع وإن كان مثقال بالرفع أي وإن حصل للعبد مثقال حبة كقوله تعالى وإن كان ذو

عسرة

وقرأ الباقون مثقال بالنصب فجعلوه خبر كان والاسم مضمر المعنى فلا تظلم نفس شيئا وإن كان العمل مثقال حبة من خردل

فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم 58

قرأ الكسائي فجعلهم جذاذا بالكسر جمع ل جذيذ وجذيذ معدول عن مجذوذ مثل قتيل مقتول ثم جمع الجذيذ جذاذا كما جمع الخفيف خفافا والكبير كبارا والصغير صغارا وكان قطرب يذهب إلى المصدر يقول جذذته جذاذا مثل ضرمته ضراما

وقرأ الباقون جذاذا بالضم قال اليزيدي واحدها جذاذة مثل زجاجة وزجاج وقال الفراء الجذاذ مثل الحطام فهو عند اليزيدي جمع وعند الفراء في تأويل مصدر مثل الرفات والفتات لا واحد له

وعلمنه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شكرون 80

قرأ ابن عامر وحفص لتحصنكم بالتاء أرادوا الدرع والدرع تؤنث وتذكر وقال الزجاج من قرأ بالتاء أراد الصنعة

وقرأ أبو بكر لنحصنكم بالنون الله جل وعز يخبر عن نفسه

وقرأ الباقون ليحصنكم بالياء أي ليحصنكم الله مثل النون ويجوز ليحصنكم هذا اللبوس

وكذلك ننجي المؤمنين 88

قرأ ابن عامر وأبو بكر وكذلك نجي المؤمنين بنون واحدة والجيم مشددة قال الفراء لا وجه له عندي لأن ما لم يسم فاعله إذا خلا باسم رفع وقالوا أيضا نجي لم يسم فاعله وكان الواجب أن تكون الياء مفتوحة كما تقول عزي وقضي وقد احتج له غيره فقال نجي فعل ماض على ما لم يسم فاعله ثم سكنوا الياء وتأويله نجي النجاء المؤمنين فيكون النجاء مرفوعا لأنه اسم ما لم يسم فاعله والمؤمنين نصب لأنه خبر ما لم يسم فاعله كما تقول ضرب الضرب زيدا ثم يكنى عن الضرب فتقول ضرب زيدا وحجتهم قراءة أبي جعفر قرأ ليجزى قوما بما كانوا أي ليجزى الجزاء قوما وقال أبو عبيد يجوز أن

يكون أراد ننجي فأدغم النون في الجيم والمؤمنين نصب لأنه مفعول به ف نجي على ما ذكره أبو عبيد فعل مستقبل وعلامة الاستقبال سكون الياء

وقرأ الباقون ننجي بنونين فعل مستقبل من أنجى ينجي والمؤمنين معفولون وكتبوا في المصاحف بنون واحد على الاختصار

وحرام على قرية أهلكنها أنهم لا يرجعون 95

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر وحرم على قرية بغير ألف وقرأ الباقون وحرام قال قطرب هما لغتان مثل حل وحلال وحرم وحرام وقال قوم حرم بمعنى عزم وحرام بمعنى واجب

قرأ ابن عامر حتى إذا فتحت بالتشديد أي مرة بعد مرة وقرأ الباقون بالتخفيف أرادوا بمرة واحدة

يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب 104

قرأ حمزة والكسائي وحفص كطي السجل للكتب بضم الكاف والتاء وحجتهم ما روي عن ابن عباس أنه قال السجل ملك وهو الذي يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه

(193/505)

وقرأ الباقون للكتاب وحجتهم أن الكتاب في معنى مصدر وتأويله كطي الصحيفة للكتب فيها كما يطوي الكاتب الصحيفة عند إرادته الكتب قال مجاهد السجل الصحيفة التي يكتب فيها فإن قال قائل كيف تطوي الصحيفة الكتاب إن كان السجل صحيفة قيل ليس المعنى في ذلك ما ذهبت إليه وإنما معناه يوم نطوي السماء كما يطوى السجل على ما فيه من الكتاب ثم جعل يطوي مصدرا فقيل كطي السجل واللام في قوله للكتاب بمعنى على وقال آخرون منهم ابن عباس السجل اسم رجل كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه فإن صح ذلك فالطي مضاف إلى كاتبه ومعناه كطي الملك أو الكاتب للكتاب وقراءتهم أحب إلي لأن الكتاب يجمع المعنيين إن كان مصدرا وإن كان واحدا فهو يؤدي عن معنى الجمع

ولقد كتبنا في الزبور 105

قرأ حمزة ولقد كتبنا في الزبور بضم الزاي يعني في الكتب جمع زبر مثل قرح وقروح

وقرأ الباقون في الزبور بفتح الزاي أراد زبور داوود

قل رب احكم بالحق 112

قرأ حفص قال رب احكم هو إخبار الله جل وعز عن نبيه صلى الله عليه وآله أنه قال

يا رب احكم بالحق وقرأ الباقون قل على الأمر أي قل يا محمد يا رب احكم بالحق . انتهى

انتهى . اهـ ﴿حجة القراءات صـ 465 . 471﴾

(194/505)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الأنبياء

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير الكوفي ولا نظير لها فيه

وكلمها ألف ومئة وثمان وستون كلمة

وحروفها أربعة آلاف وثماني مئة وتسعون حرفا

وهي مئة واثنتا عشرة آية في الكوفي وإحدى عشرة في عدد الباقين اختلافها آية (﴿ ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان (﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ولا يشفقون)

(195/505)

ورؤوس الآي

معرضون

1 يلعبون

2 تبصرون

3 العليم

4 الأولون

5 يؤمنون

6 لا تعلمون

7 خالدين

8 المسرفين

9 تعقلون

10 آخرين

11 يركضون

12 تسألون

13 ظالمين

14 خامدين

15 لاعبين

16 فاعلين

17 تصفون

18 يستحسرون

19 لايفترون

20 ينشرون

21 يصفون

22 يسألون

23 معرضون

24 فاعبدون

25 مكرمون

26 يعملون

27 مشفقون

28 الظالمين

29 يؤمنون

30 يهتدون

31 معرضون

32 يسبحون

33 الخالدون

34 ترجعون

35 كافرون

36 تستعجلون

37 صادقين

38 ينصرون

39 ينظرون

40 يستهزئون

41 معرضون

42 يصحبون

43 الغالبون

44 ينذرون

45 ظالمين

46 حاسبين

47 للمتقين

48 مشفقون

49 منكرون

50 عالمين

51 عاكفون

52 عابدين

53 مبين

54 اللاعبين

55 الشاهدين

56 مدبرين

57 يرجعون

58 الظالمين

59 إبراهيم

60 يشهدون

61 يا إبراهيم

62 ينطقون

63 الظالمون

64 ينطقون

65 تعقلون

67 فاعلين

68 إبراهيم

69 الأخسرين

70 للعالمين

71 صالحين

72 عابدين

73 فاسقين

74 الصالحين

75 العظيم

76 أجمعين

77 شاهدين

78 فاعلين

79 شاكرون

80 عالمين

81 حافظين

82 الراحمين

83 للعابدين

84 الصابرين

85 الصالحين

86 الظالمين

87 المؤمنين

88 الوارثين

89 خاشعين

90 للعالمين

91 فاعبدون

92 راجعون

93 كاتبون

94 لا يرجعون

95 ينسلون

96 ظالمين

97 واردون

98 خالدون

99 لا يسمعون

100 مبعدون

101 خالدون

102 توعدون

103 فاعلين

104 الصالحون

105 عابدين

106 للعالمين

107 مسلمون

108 ما توعدون

109 تكتمون

110 إلى حين

111 تصفون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 187. 188﴾

(196/505)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة الأنبياء عليهم السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (وهم في غفلة) هم مبتدأ، و(معرضون) الخبر، وفى غفلة يجوز أن يكون حالا من الضمير في معرضون: أي أعرضوا غافلين، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا.

قوله تعالى (محدث) محمول على لفظ ذكر ولو رفع على موضع من ذكر جاز ، ومن ربهم يجوز أن يتعلق بيأتيهم ، وأن يكون صفة لذكر ، وأن يتعلق بمحدث وأن يكون حالا من الضمير في محدث .

قوله تعالى (لاهية) هو حال من الضمير في يلعبون ، ويجوز أن يكون حالا من الواو في استمعوه .

قوله تعالى (الذين ظلموا) في موضعه ثلاثة أوجه أحدها الرفع ، وفيه أربعة أوجه: أحدها أن يكون بدلا من الواو في أسروا والثانى أن يكون فاعلا والواو حرف للجمع لا اسم . والثالث أن يكون مبتدأ والخبر هل هذا ، والتقدير: يقولون هل هذا والرابع أن يكون خبر مبتدأ محذوف: أي هم الذين ظلموا والوجه الثاني أن يكون منصوبا على إضمار أعنى والثالث أن يكون مجرورا صفة للناس .

قوله تعالى (قال ربى) يقرأ قل على الأمر ، وقال على الخبر (في السماء) حال من القول أو حال من الفاعل في يعلم وفيه ضعف: ويجوز أن يتعلق بيعلم .

قوله تعالى (أضغاث أحلام) أي هذا أضغاث (كما أرسل) أي إتيانا مثل إرسال الأولين ، و(أهلكناها) صفة لقرية إما على اللفظ أو على الموضع ، و(يوحى) بالياء ، و(إليهم) قائم مقام الفاعل ، ونوحى بالنون ، والمفعول محذوف: أي الأمر والنهى .

قوله تعالى (جسدا) هو مفرد في موضع الجمع ، والمضاف محذوف: أي ذوى

أجساد ، و(لا يأكلون) صفة لأجساد .

وجعلناهم يجوز أن يكون متعديا إلى اثنين ، وأن يتعدى إلى واحد ، فيكون جسدا حالا ، ولا يأكلون حالا أخرى .

(197/505)

قوله تعالى (فيه ذكركم) الجملة صفة لكتاب ، وذكركم مضاف إلى المفعول أي ذكرنا إياكم ، ويجوز أن يكون مضافا إلى الفاعل : أي ما ذكرتم من الشرك وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون المفعول محذوفا (وكم) في موضع نصب ب (قصمنا) و(كانت ظالمة) صفة لقرية .

قوله تعالى (إذا هم) للمفاجأة فهو مبتدأ ، و(يركضون) الخبر ، وإذا ظرف للخبر .

قوله تعالى (تلك دعواهم) تلك في موضع رفع اسم زالت ، ودعواهم الخبر .

ويجوز العكس ، والدعوى قولهم يا ويلنا ، و(حصيدا) مفعول ثان ، والتقدير : مثل حصيد ، فلذلك لم يجمع كما لا يجمع مثل المقدر : و(خامدين) بمنزلة هذا حلو حامض ، ويجوز أن يكون صفة لحصيد ، و(لاعبين) حال من الفاعل في خلقنا ، و(إن كنا) بمعنى ما كنا ، وقيل هي شرط (فيدمغه) قرئ شاذا بالنصب وهو بعيد ، والحمل فيه على المعنى : أي بالحق

فالدمغ ، (مما يصفون) حال: أي ولكم الويل واقعا ، و" ما " بمعنى الذى أو نكرة موصوفة أو مصدرية.

قوله تعالى (ومن عنده) فيه وجهان: أحدهما أن تكون " من " معطوفة على " من " الأولى والأولى مبتدأ وله الخبر أو هي مرفوعة بالظرف ، فعلى هذا (لا يستكبرون) حال إما من " من " الاولى أو الثانية على قول من رفع بالظرف ، أو من الضمير في الظرف الذى هو الخبر ، أو من الضمير في عنده.

والوجه الثاني أن تكون من الثانية مبتدأ ، ولا يستكبرون الخبر.

قوله تعالى (يسبحون) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا من ضمير الفاعل قبلها ، و(لا يفترون) حال من ضمير الفاعل في يسبحون.

قوله تعالى (من الأرض) هو صفة لآلهة.

أو متعلق باتخذوا على معنى ابتداء غاية الاتخاذ.

قوله تعالى (إلا الله) الرفع على أن إلا صفة بمعنى غير ، ولايجوز أن يكون بدلا ، لأن المعنى يصير إلى قولك: لو كان فيهما الله لفسدتا ، ألا ترى أنك لو قلت: ما جاءني قومك إلا زيد على البدل لكان المعنى: جاءني زيد وحده ، وقيل يمتنع البدل ،

لأن ما قبلها إيجاب ، ولايجوز النصب على الاستثناء لوجهين: أحدهما أنه فاسد في المعنى ، وذلك أنك إذا قلت: لو جاءني القوم إلا زيدا لقتلتهم: كان معناه أن القتل امتنع لكون زيد مع القوم ، فلو نصبت في الآية لكان المعنى: إن فساد السموات والأرض امتنع لوجود الله تعالى مع الآلهة ، وفى ذلك إثبات إله مع الله ، وإذا رفعت على الوصف لا يلزم مثل ذلك ، لأن المعنى لو كان فيهما غير الله لفسدتا .

والوجه الثاني أن آلهة هنا نكرة والجمع إذا كان نكرة لم يستثن منه عند جماعة من المحققين ، لأنه لاعموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء .

قوله تعالى (ذكر من معى) الجمهور على الإضافة ، وقرئ بالتنوين على أن تكون "من" في موضع نصب بالمصدر ، ويجوز أن تكون في موضع رفع على إقامة المصدر مقام ما لم يسم فاعله ، ويقرأ كذلك إلا أنه بكسر الميم ، والتقدير: هذا ذكر من كتاب معى ، ومن كتاب قبلى ونحو ذلك فحذف الموصوف .

قوله تعالى (الحق) الجمهور على النصب بالفعل قبله ، وقرئ بالرفع على تقدير حذف مبتدأ .

قوله تعالى (بل عباد) أي هم عباد ، (مكرمون) بالتخفيف والتشديد ، و(لا يسبقونه) صفة في موضع رفع .

قوله تعالى (فذلك) في موضع رفع بالابتداء ، وقيل في موضع نصب بفعل دل عليه (نجزيه) والجملة جواب الشرط ، و(كذلك) في موضع نصب ب (نجزى) أي جزاء مثل ذلك .

قوله تعالى (أو لم) يقرأ بالواو وبحذفها ، وقد ذكر نظيره في البقرة عند قوله تعالى " وقالوا اتخذ الله " (كانتا) الضمير يعود على الجنسين ، و(رتقا) بسكون التاء : أي ذاتي رتق أو مرتوقتين ، كالخلق بمعنى المخلوق ، ويقرأ بفتحها وهو بمعنى المرتوق كالقبض والنقض (وجعلنا) أي وخلقنا ، والمفعول (كل شئ) و(حى) صفة ومن لابتداء الغاية ، ويجوز أن يكون صفة لكل تقدم عليه فصار حالا ، ويجوز أن تكون جعل بمعنى صير ، فيكون من الماء مفعولا ثانيا ، ويقرأ " حيا " على أن يكون صفة لكل ، أو مفعولا ثانيا .

(199/505)

قوله تعالى (أن تميد) أي مخافة أن تميد ، أو لئلا تميد ، و(فجاجا) حال من (سبل) وقيل سبلا بدل : أي سبلا (فجاجا) كما جاء في الآية الأخرى .

قوله تعالى (كل) أي كل واحد منهما أو منها ، ويعود إلى الليل والنهار والشمس والقمر و(يسبحون) خبر كل على المعنى ، لأن كل واحد منها إذا سبح فكلها تسبح ، وقيل يسبحون على هذا الوجه حال ، والخبر في فلك ، وقيل التقدير : كلها

والخبر يسبحون ، وأتى بضمير الجمع على معنى كل ، وذكره كضمير من يعقل لأنه وصفها بالسباحة ، وهى من صفات من يعقل .

قوله تعالى (أفإن مت) قد ذكر في قوله تعالى "وما محمد إلا رسول" .

قوله تعالى (فتنة) مصدر مفعول له ، أو في موضع الحال: أي فاتنين ، أو على المصدر بمعنى نبلوكم: أي تفتنكم بهما فتنة .

قوله تعالى (إلا هزوا) أي مهزوا به ، وهو مفعول ثان ، وأعاد ذكرهم توكيدا .

قوله تعالى (من عجل) في موضع نصب بخلق على المجاز كما تقول خلق من طين ، وقيل هو حال: أي عجلا ، وجواب "لو" محذوف ، و(حين) مفعول به لاظرف ، و(بغتة) مصدر في موضع الحال .

قوله تعالى (من الرحمن) أي من أمر الرحمن ، فهو في موضع نصب بيكلؤكم ونظيره يحفظونه من أمر الله .

قوله تعالى (لا يستطيعون) هو مستأنف .

قوله تعالى (ننقصها من أطرافها) قد ذكر في الرعد .

قوله تعالى (ولا يسمع) في قراءات وجوهها ظاهرة ، و(إذا) منصوبة بيسمع أو بالدعاء ، فعلى هذا القول يكون المصدر المعرف بالألف واللام عاملا بنفسه .

قوله تعالى (من عذاب) صفة لنفحة أو في موضع نصب بمستهم قوله تعالى (القسط) إنما

أفرد وهو صفة لجمع لأنه مصدر وصف به ، وإن شئت قلت: التقدير ذوات القسط (ليوم القيامة) أي لأجله ، وقيل هي بمعنى في ، و(شيئًا) بمعنى المصدر ، و(مثقال) بالنصب على أنه خبر كان: أي وإن كان الظلم أو العمل ، ويقرأ بالرفع على أن تكون كان التامة ، و(من خردل)

(200/505)

صفة لحبة أو لمثقال ، و(أتينا) بالقصر جئنا ، ويقرأ بالمد بمعنى جازينا بها ، فهو يقرب من معنى أعطينا لأن الجزاء إعطاء ، وليس منقولا من أتينا لأن ذلك ينقل عنهم .

قوله تعالى (وضياء) قيل دخلت الواو على الصفة كما تقول: مررت بزيد الكريم والعالم ، فعلى هذا يكون حالا: أي الفرقان مضيئًا ، وقيل هي عاطفة: أي آتيناه ثلاثة أشياء .

الفرقان ، والضياء ، والذكر .

قوله تعالى (الذين يخشون) في موضع جر على الصفة ، أو نصب بإضمار أعنى ، أو رفع على إضمارهم .

و(بالغيب) حال .

قوله تعالى (إذ قال) إذ ظرف لعالمين أو لرشده ، أو لآتينا ، ويجوز أن يكون بدلا من موضع "

من قبل " ويجوز أن ينتصب بإضمار أعنى أو بإضمار اذكر (لها عاكفون) قيل اللام بمعنى على كقوله " لن نبرح عليه عاكفين " وقيل هي على بابها ، إذ المعنى لها عابدون ، وقيل أفادت معنى الاختصاص .

قوله تعالى (على ذلكم) لا يجوز أن يتعلق با (لشاهدين) لما يلزم من تقديم الصلة على الموصول فيكون على التبيين ، وقد ذكر في مواضع .

قوله تعالى (جذاذا) يقرأ بالضم والفتح والكسر وهى لغات ، وقيل الضم على أن واحده جذاذه ، والكسر على أن واحده جذاذه بالكسر ، والفتح على المصدر كالحصاد ، والتقدير: ذوى جذاذ ، ويقرأ بضم الجيم من غير ألف ، وواحده جذه كقبة وقبب ، ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الذال الاولى ، وواحده جذيذ كقليب وقلب .

قوله تعالى (من فعل هذا) يجوز أن يكون " من " استفهاما ، فيكون (إنه) استئنافا ، ويجوز أن يكون بمعنى الذى ، فيكون " إنه " وما بعده الخبر .

قوله تعالى (يذكرهم) مفعول ثان لسمعنا ، ولا يكون ذلك إلا مسموعا

كقولك: سمعت زيدا يقول كذا ، والمعنى: سمعت قول زيد ، و(يقال) صفة ويجوز أن يكون حالا .

وفى ارتفاع (إبراهيم) عليه السلام ثلاثة أوجه: أحدها هو خبر مبتدأ محذوف: أي هو أو

هذا ، وقيل هو مبتدأ والخبر محذوف: أي إبراهيم فاعل ذلك ، والجملة محكية .

والثانى هو منادى مفرد فضمته بناء .

والثالث هو مفعول يقال ، لأن المعنى يذكر إبراهيم في تسميته ، فالمراد الاسم لا المسمى .

قوله تعالى (على أعين الناس) في موضع الحال: أي على رؤيتهم: أي ظاهرا لهم .

قوله تعالى (بل فعله) الفاعل (كبيرهم) ، (هذا) وصف أو بدل ،

وقيل الوقف على فعله ، والفاعل محذوف: أي فعله من فعله ، وهذا بعيد لأن حذف الفاعل لا يسوغ.

قوله تعالى (على رؤوسهم) متعلقة بنكسوا ، ويجوز أن يكون حالا فيتعلق بمحذوف (ما هؤلاء ينطقون) الجملة تسد مسد مفعولي علمت كقوله " وظنوا مالهم من محيص " ،

و(شيئا) في موضع المصدر: أي نفعا (أف لكم) قد ذكر في سبحان .

قوله تعالى (بردا) أي ذات برد ، و(على) يتعلق بسلام أو هي صفة له .

قوله تعالى (نافلة) حال من يعقوب ، وقيل هو مصدر كالعاقبة والعافية ، والعامل فيه معنى وهبنا (وكلا) المفعول الأول ل (جعلنا - وإقام الصلاة) الأصل فيه إقامة ، وهى عوض من

حذف إحدى الألفين ، وجعل المضاف إليه بدلا من الهاء .

قوله تعالى (ولوطا) أي وآتينا لوطا ، و(آتيناه) مفسر للمحذوف ، ومثله ونوحا وداود وسليمان وأيوب وما بعده من أسماء الأنبياء عليهم السلام ، ويحتمل أن يكون التقدير: واذكر لوطا ، والتقدير: واذكر خبر لوط ، والخبر المحذوف هو العامل في " إذ " والله أعلم .

قوله تعالى (ونصرناه) أي منعناه من أذاهم ، وقيل من بمعنى على ، و(إذ نفشت) ظرف ليحكمان ، و(لحكمهم) بمعنى الذين اختصموا في الحرث وقيل الضمير لهم ولداود وسليمان ، وقيل هو لداود وسليمان خاصة ، وجمع لأن الاثنين جمع .

قوله تعالى (مع داود الجبال) العامل في مع (يسبحن) وهو نظير قوله تعالى " يا جبال أوبى معه " ويسبحن حال من الجبال (والطير) معطوف على الجبال وقيل هي بمعنى ، ويقرأ شاذا بالرفع عطفا على الضمير في يسبحن ، وقيل التقدير والطير كذلك .

(202/505)

قوله تعالى (لكم) يجوز أن يكون وصفا للبوس ، وأن يتعلق بعلمنا أو بصنعة (لتحصنكم) يجوز أن يكون بدلا من لكم بإعادة الجار ، ويجوز أن يتعلق بعلمنا : أي لأجل تحصينكم

ويحصنكم بالياء على أن الفاعل الله عزوجل أو داود عليه السلام أو الصنع أو التعليم أو اللبوس ، وبالتاء : أي الصنعة أو الدروع ، وبالنون لله تعالى على التعظيم ، ويقرأ بالتشديد والتخفيف ، و(الريح) نصب على تقدير : وسخرنا

لسليمان ، ودل عليه وسخرنا الأولى ، ويقرأ بالرفع على الاستئناف ، و(عاصفة) حال ، و(تجرى) حال أخرى ، إما بدلا من عاصفة ، أو من الضمير فيها .

قوله تعالى (من يغوصون له) " من " في موضع نصب عطفا على الرياح ، أو رفع على الاستئناف ، وهى نكرة موصوفة والضمير عائد على معناها ، و(دون ذلك) صفة لعمل .

قوله تعالى (رحمة – وذكرى) مفعول له ، ويجوز أن ينتصب على المصدر : أي ورحمناه ، و(مغاضبا) حال .

قوله تعالى (ننجي) الجمهور على الجمع بين النونين وتخفيف الجيم ، ويقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم ، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه فعل ماض ، وسكن الياء إيثارا للتخفيف ، والقائم مقام الفاعل المصدر : أي نجى النجاء .

وهو ضعيف من وجهين: أحدهما تسكين آخر الماضي ، والثانى إقامة المصدر مقام المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول الصحيح .

والوجه الثاني أنه فعل مستقبل قلبت منه النون الثانية جيما وأدغمت وهو ضعيف أيضا .

والثالث أن أصله ننجي بفتح النون الثانية ، ولكنها حذفت كما حذفت التاء الثانية في "

تظاهرون " وهذا ضعيف أيضا لوجهين: أحدهما أن النون الثانية أصل وهى فاء الكلمة ، فحذفها يبعد جدا .

والثانى أن حركتها غير حركة النون الأولى ، فلا يستثقل الجمع بينهما بخلاف تظاهرون ، ألا ترى أنك لو قلت تتحامى المظالم لم يسغ حذف التاء الثانية .

قوله تعالى (رغبا ورهبا) مفعول له ، أو مصدر في موضع الحال ، أو مصدر على المعنى .

(203/505)

قوله تعالى (والتى أحصنت) أي واذكر التى ، ويجوز أن يكون في موضع رفع: أي وفيما يتلى عليك خبر التى ، و(فيها) يعود على مريم ، و(آية) مفعول ثان .

وفى الإفراد وجهان: أحدهما أن مريم وابنها جميعا آية واحدة ، لأن العجب منهما كمل .

والثانى أن تقديره وجعلناها آية وابنها كذلك فآية مفعول المعطوف عليه ، وقيل المحذوف هو الأول ، وآية المذكور للابن .

قوله تعالى (أمتكم) بالرفع على أنه خبر إن ، وبالنصب على أنه خبر أو عطف بيان ، و(أمة) بالنصب حال ، وبالرفع بدل من أمتكم ، أو خبر مبتدأ محذوف قوله تعالى (وتقطعوا أمرهم) أي في أمرهم .

أي تفرقوا ، وقيل عدى

تقطعوا بنفسه ، لأنه بمعنى قطعوا : أي فرقوا ، وقيل هو تمييز : أي تقطع أمرهم .

و(له) أي للسعى ، وقيل يعود على من .

قوله تعالى (وحرام) يقرأ بالألف وبكسر الحاء وسكون الراء من غير ألف .

وبفتح الحاء وكسر الراء من غير ألف ، وهو في ذلك كله مرفوع بالابتداء ، وفى الخبر وجهان: أحدهما هو (أنهم لا يرجعون) و"لا" زائدة: أي ممتنع رجوعهم إلى الدنيا ، وقيل ليست زائدة: أي ممتنع عدم رجوعهم عن معصيتهم ، والجيد أن يكون أنهم فاعلا سد مسد الخبر .

والثانى الخبر محذوف تقدير: توبتهم أو رجاء بعثهم إذا جعلت "لا" زائدة ، وقيل حرام خبر مبتدأ محذوف أي ذلك الذى ذكرناه من العمل الصالح حرام ، وحرام وحرم لغتان مثل حلال وحل ، ومن فتح الحاء وكسر الراء كان اسم فاعل من حرم: أي امتنع مثل فلق ، ومنه: * يقول لا غائب مالى ولا حرم * أي ممتنع ، ويقرأ "حرم" على أنه فعل بكسر الراء وضمها ، وأنهم بالفتح على أنها مصدرية وبالكسر على الاستئناف ، و(حتى) متعلقة في المعنى بحرام: أي يستمر الامتناع إلى هذا الوقت ، ولا عمل لها في (إذا) ويقرأ "من كل جدث" بالجيم والثاء وهو بمعى الحدب ، و(ينسلون) بكسر السين وضمها لغتان ، وجواب إذا "فإذا هي" وقيل جوابها قالوا يا ويلنا ، وقيل واقترب ، والواو زائدة .

قوله تعالى (فإذا هي) " إذا " للمفاجأة ، وهى مكان ، والعامل فيها (شاخصة) وهى ضمير القصة ، و(أبصار الذين) مبتدأ ، وشاخصة خبره (يا ويلنا) في موضع نصب بقالوا المقدر ، ويجوز أن يكون التقدير : يقولون فيكون حالا .

قوله تعالى (حصب جهنم) يقرأ بفتح الصاد وهو ما توقد به ، وبسكونها وهو مصدر حصبتها أوقدتها فيكون بمعنى المحصوب ، ويقرأ بالضاد محركة وساكنة ، وبالطاء وهما بمعنى (أنتم لها) يجوز أن يكون بدلا من حصب جهنم ، وأن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا من جهنم .

قوله تعالى (منا) يجوز أن يتعلق بسبقت ، وأن يكون حالا من (الحسنى) (ولا يسمعون) يجوز أن يكون بدلا من " مبعدون " ، وأن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا من الضمير في مبعدون (هذا يومكم) أي يقولون .

قوله تعالى (يوم نطوى) يجوز أن يكون بدلا من العائد المحذوف من قوله يوعدون ، أو على إضمار أعنى ، أو ظرفا للايحزنهم أو بإضمار اذكر ، ونطوى بالنون على التعظيم ، وبالياء على الغيبة ، وبالتاء وترك تسمية الفاعل ، و(السماء) بالرفع

والتقدير طيا كطى ، وهو مصدر مضاف إلى المفعول إن قلنا السجل القرطاس ، وقيل هو اسم ملك أو كاتب ، فيكون مضافا إلى الفاعل ، ويقرأ بكسر السين والجيم وتشديد اللام ، ويقرأ كذلك إلا أنه بتخفيف اللام ، ويقرأ بفتح السين وسكون الجيم وتخفيف اللام ، وبضم السين والجيم مخففا ومشددا وهى لغات فيه ، واللام في (للكتاب) زائدة ، وقيل هي بمعنى على ، وقيل يتعلق بطى والله أعلم .

قوله تعالى (كما بدأنا) الكاف نعت لمصدر محذوف : أي نعيده عوادا مثل بدئه وفى نصب (أول) وجهان : أحدهما هو منصوب ببدأنا : أي خلقنا أول خلق والثانى هو حال من الهاء في نعيده ، والمعنى مثل أول خلقه ، (وعدا) مصدر : أي وعدنا ذلك وعدا .

قوله تعالى (من بعد الذكر) يجوز أن يتعلق بكتبنا ، وأن يكون ظرفا للزبور لأن الزبور بمعنى المزبور : أي المكتوب .

قوله تعالى (إلا رحمة) هو مفعول له ، ويجوز أن يكون حالا : أي ذا رحمة .

كما قال تعالى " ورحمة للذين آمنوا " ويجوز أن يكون بمعنى راحم .

قوله تعالى (يوحى إلي أنما) " أن " مصدرية ، وما الكافة لا تمنع من ذلك .

والتقدير: يوحى إلى وحدانية إلهى (فهل أنتم) هل هنا على لفظ الاستفهام، والمعنى على التحريض: أي فهل أنتم مسلمون بعد هذا فهو للمستقبل.

قوله تعالى (على سواء) حال من المفعول والفاعل: أي مستوين في العلم بما أعلمتكم به (وإن أدرى) بإسكان الياء وهو على الأصل، وقد حكى في الشاذ فتحها قال أبو الفتح: هو غلط لأن "إن" بمعنى ما، وقال غيره: ألقيت حركة الهمزة على الياء فتحركت وبقيت الهمزة ساكنة فأبدلت ألفا لانفتاح ما قبلها ثم أبدلت همزة متحركة لأنها في حكم المبتدأ بها، والابتداء بالساكن محال، و(أقريب) مبتدأ، (وما توعدون) فاعل له لأنه قد اعتمد على الهمزة، ويخرج على قول البصريين أن يرتفع ببعيد لأنه أقرب إليه، و(من القول) حال من الجهر: أي المجهور من القول.

قوله تعالى (قل ربى) يقرأ على لفظ الأمر وعلى لفظ الماضي، و(احكم) على الأمر، ويقرأ ربى أحكم على الابتداء والخبر، و(تصفون) بالتاء والياء وهو ظاهر والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 130. 138 ﴾

(206/505)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الأنبياء

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

"اقْتَرَبَ" ماض "لِلنَّاسِ" متعلقان باقترب "حِسابُهُمْ" فاعل والجملة مستأنفة "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "فِي غَفْلَةٍ" متعلقان بمعرضون "مُعْرِضُونَ" خبر والجملة حالية "ما" نافية "يَأْتِيهِمْ" مضارع ومفعوله "مِنْ" حرف جر زائد "ذِكْرٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل والجملة مستأنفة "مِنْ رَبِّهِمْ" متعلقان بصفة لذكر "مُحْدَثٍ" صفة ثانية "إِلَّا" أداة حصر "اسْتَمَعُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حالية "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "يَلْعَبُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر هم وجملة المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال "لاهِيَةً" حال من الواو في يلعبون "قُلُوبُهُمْ" فاعل لاهية "وَأَسَرُّوا" الواو عاطفة وأسروا ماض وفاعله "النَّجْوَى" مفعول به "الَّذِينَ" اسم موصول بدل من فاعل أسروا والجملة معطوفة "ظَلَمُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "هَلْ" اسم استفهام "هذا" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بَشَرٌ" خبر

"مِثْلُكُمْ" صفة والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "أَفَتَأْتُونَ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ومضارع وفاعله "السِّحْرَ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَأَنْتُمْ" مبتدأ والواو حالية "تُبْصِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حالية.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 4 الى 5]

(207/505)

قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّي" مبتدأ والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ "الْقَوْلَ" مفعول به "فِي السَّماءِ" متعلقان بمحذوف حال من القول "وَالْأَرْضِ" الواو عاطفة ومعطوفة على السماء "وَهُوَ" الواو عاطفة هو مبتدأ "السَّمِيعُ" خبر "الْعَلِيمُ" خبر ثان والجملة معطوفة "بَلْ" حرف إضراب "قالُوا" ماض وفاعله "أَضْغاثُ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة مقول القول "أَحْلامٍ" مضاف إليه "بَلْ" حرف إضراب "افْتَراهُ" ماض ومفعوله والفاعل ضمير مستتر "بَلْ" حرف إضراب "هُوَ" ضمير في محل رفع مبتدأ "شاعِرٌ" خبر "فَلْيَأْتِنا" الفاء الفصيحة واللام للأمر

ويأتنا مضارع مجزوم بحذف حرف العلة ونا مفعوله والفاعل مستتر "بِآيَةٍ" متعلقان بيأتنا والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "كَما" ما موصولية ومتعلقان بمحذوف صفة لآية "أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة لا محل لها .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 6 الى 9]

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

(208/505)

"ما" نافية "آمَنَتْ" ماض والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل "أَهْلَكْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة "أَفَهُمْ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة "هم" مبتدأ "يُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعل والجملة خبر "وَما" الواو عاطفة وما نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعل "قَبْلَكَ" ظرف زمان "إِلَّا" أداة حصر "رِجالًا" مفعول به "نُوحِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل

والفاعل مستتر "إِلَيْهِمْ" جار ومجرور متعلقان بنوحي وجملة نوحي إليهم في محل نصب صفة لرجالا "فَسْئَلُوا" الفاء الفصيحة واسألوا أمر وفاعله "أَهْلَ" مفعول به "الذِّكْرِ" مضاف إليه. "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها "لا" نافية "تَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كنتم وجواب الشرط محذوف دلت عليه الفاء الفصيحة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "جَعَلْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به أول "جَسَداً" مفعول به ثان "لا" نافية "يَأْكُلُونَ" مضارع وفاعله "الطَّعامَ" مفعول به والجملة في محل نصب صفة لجسد "وَما" الواو عاطفة ما نافية "كانُوا" ماض ناقص والواو اسمها "خالِدِينَ" خبرها منصوب بالياء والجملة معطوفة على يأكلون "ثُمَّ" حرف عطف "صَدَقْناهُمُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْوَعْدَ" مفعول به ثان "فَأَنْجَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَمَنْ" الواو عاطفة واسم موصول معطوف على هم "نَشاءُ" جملة نشاء صلة الموصول "وَأَهْلَكْنَا" الواو عاطفة وماض وفاعله "الْمُسْرِفِينَ" مفعول به والجملة معطوفة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 10 الى 12]

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12)

"لَقَدْ" اللام جواب لقسم محذوف "قد" حرف تحقيق "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله "إِلَيْكُمْ" متعلقان بأنزلنا "كِتاباً" مفعول به "فِيهِ" متعلقان بخبر مقدم "ذِكْرُكُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة صفة لكتابا "أَفَلا" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة ولا نافية "تَعْقِلُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة معطوفة "وَكَمْ" الواو عاطفة أو استئنافية "كَمْ" خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لقصمنا "قَصَمْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ قَرْيَةٍ" اسم مجرور تمييز كم "كانَتْ" ماض ناقص والتاء للتأنيث "ظالِمَةً" خبر كان والجملة صفة لقرية "وَأَنْشَأْنا" الواو عاطفة وماض وفاعل "بَعْدَها" ظرف متعلق بأنشأنا "قَوْماً" مفعول به "آخَرِينَ" صفة "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية ظرف زمان "أَحَسُّوا" ماض وفاعله "بَأْسَنا"

مفعول به "إِذا" الفجائية "هُمْ" مبتدأ "مِنْها" متعلقان بيركضون "يَرْكُضُونَ" مضارع وفاعله والجملة في محل رفع خبر هم.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 13 الى 16]

لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ (14) فَما زَالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15) وَما
خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16)

(210/505)

"لا" ناهية "تَرْكُضُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول لفعل محذوف "وَارْجِعُوا" الواو عاطفة "ارْجِعُوا" فعل أمر وفاعله والجملة معطوفة "إِلى ما" متعلقان بارجعوا "أُتْرِفْتُمْ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بأترفتم "وَمَساكِنِكُمْ" الواو عاطفة ومساكنكم اسم معطوف والكاف مضاف إليه "لَعَلَّكُمْ" حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها "تُسْئَلُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر لعل "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا وَيْلَنا" يا أداة نداء "وَيْلَنا" منادى مضاف والجملة مقول القول "إِنَّا" حرف مشبه بالفعل ونا اسمها "كُنَّا ظالِمِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة خبر إن "فَما زالَتْ" الفاء عاطفة وماض ناقص "تِلْكَ" اسم إشارة في محل رفع اسمها "دَعْواهُمْ" خبرها والهاء مضاف إليه والميم للجمع والجملة معطوفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "جَعَلْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعول به أول "حَصِيداً" مفعول به ثان "خامِدِينَ" صفة لحصيدا "وَما" الواو عاطفة وما نافية "خَلَقْنَا" ماض وفاعله

"السَّماءَ" مفعول به والجملة استئنافية "وَالْأَرْضَ" عطف على السماء "وَما" والواو عاطفة وما اسم موصول معطوف على ما قبله "بَيْنَهُما" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول "لاعِبِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 17 الى 20]

لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20)

(211/505)

"لَوْ" شرطية غير جازمة "أَرَدْنا" ماض وفاعل "أَنْ" ناصبة "نَتَّخِذَ" مضارع منصوب والفاعل مستتر تقديره نحن "لَهْواً" مفعول به والجملة مفعول أردنا "لَاتَّخَذْناهُ" اللام واقعة في جواب لو "اتخذناه" ماض وفاعل ومفعول به أول ية "هُوَ" مبتدأ "زاهِقٌ" خبر "وَلَكُمُ" الواو عاطفة "لَكُمُ" متعلقان بخبر محذوف "الْوَيْلُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "مِمَّا تَصِفُونَ" من حرف جر "ما" موصولية متعلقان بخبر ويل المحذوف "تَصِفُونَ" مضارع وفاعله والجملة

صلة "وَلَهُ" الواو عاطفة "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "مَنْ" اسم موصول مبتدأ مؤخر "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَالْأَرْضِ" معطوف "وَمَنْ" الواو عاطفة "مَنْ" اسم موصول معطوف على من في السموات "عِنْدَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "لا" نافية "يَسْتَكْبِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة حالية "عَنْ عِبادَتِهِ" متعلقان بيستكبرون والهاء مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة لا نافية "يَسْتَحْسِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "يُسَبِّحُونَ" مضارع وفاعله "اللَّيْلَ" ظرف زمان متعلق بيسبحون "وَالنَّهارَ" معطوف "لا" نافية "يَفْتُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة حالية.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 21 الى 23]

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23)

(212/505)

"أَمِ" عاطفة "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "آلِهَةً" مفعول به "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بصفة لآلهة "هُمْ" مبتدأ "يُنْشِرُونَ" مضارع وفاعله وجملة هم ينشرون صفة ثانية لآلهة "لَوْ" شرطية غير جازمة "كانَ" ماض ناقص "فِيهِما" متعلقان بخبر مقدم "آلِهَةٌ" اسمها

مؤخر "إِلَّا اللَّهُ" بمعنى غير في محل رفع صفة مع لفظ الجلالة مضاف إليه "لَفَسَدَتا" اللام واقعة في جواب لو وماض والتاء تاء التأنيث والألف فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "فَسُبْحانَ" الفاء عاطفة "سبحان" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "رَبِّ" بدل من الله "الْعَرْشِ" مضاف إليه "عَمَّا" عن وما الموصولية متعلقان بسبحان "يَصِفُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "لا" نافية "يُسْئَلُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَمَّا" متعلقان بيسأل "يَفْعَلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَهُمْ" الواو عاطفة أو حالية "هُمْ" مبتدأ "يُسْئَلُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل جملة يسألون خبر والجملة من المبتدأ والخبر معطوفة أو حالية.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 24 الى 27]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)

"أَمِ" حرف عطف "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله "مِنْ دُونِهِ" جار ومجرور في محل نصب مفعول به ثان لاتخذوا "آلِهَةً" مفعول به أول "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "هاتُوا" فعل أمر مبني على حذف النون وواو الجماعة فاعل "بُرْهانَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه والميم للجمع "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "ذِكْرُ" خبر "مِنْ" اسم موصول مضاف إليه و"مَعِيَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والياء مضاف

(214/505)

إليه "وَذِكْرُ" عطف على ذكر الأولى "مِنْ" اسم موصول مضاف إليه "قَبْلِي" ظرف زمان متعلق بصلة الموصول والياء مضاف إليه "بَلْ" حرف إضراب "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر "الْحَقَّ" مفعول به "فَهُمْ" الفاء حرف تعليل وهم مبتدأ "مُعْرِضُونَ" خبر، "وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ رَسُولٍ" من حرف جر زائد "رَسُولٍ" مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "نُوحِي" مضارع فاعله ضمير مستتر "إِلَيْهِ" متعلقان بنوحي "أَنَّهُ" حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها "لا إِلهَ" لا نافية

للجنس وإله اسمها والجملة خبر أنه "إِلَّا" أداة حصر "أَنَا" بدل من محل لا واسمها "فَاعْبُدُونِ" الفاء الفصيحة "اعبدون" فعل أمر مبني على حذف النون والنون للوقاية وفاعله ومفعوله الياء المحذوفة والجملة لا محل لها "وَقَالُوا" الواو استئنافية "وَقَالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ" ماض وفاعله "وَلَدًا" مفعول به والجملة مقول القول "سُبْحَانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره سبح والجملة اعتراضية "بَلْ" حرف إضراب "عِبَادٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم "مُكْرَمُونَ" صفة "لا" نافية "يَسْبِقُونَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة "بِالْقَوْلِ" متعلقان بيسبقونه "وَهُمْ" الواو عاطفة "هُمْ" مبتدأ "بِأَمْرِهِ" متعلقان بيعملون وجملة يعملون خبر هم وجملة "هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ" معطوفة على ما سبق.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 28 الى 29]

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28)
وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

"يَعْلَمُ" مضارع فاعله ضمير مستتر والجملة صفة لما سبق "ما" ما موصولية مفعول به "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه "وَما خَلْفَهُمْ" الواو حرف عطف وما موصولية معطوفة على ما سبق "خَلْفَهُمْ" ظرف متعلق بالصلة والميم علامة الجمع والجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يَشْفَعُونَ" مضارع وفاعله والجملة صفة "إِلَّا" أداة حصر "لِمَنِ" اللام حرف جر ومن اسم موصول ومتعلقان بيشفعون "ارْتَضى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الموصول "وَهُمْ" الواو عاطفة "هُمْ" مبتدأ "مِنْ خَشْيَتِهِ" متعلقان بمشفقون "مُشْفِقُونَ" خبر هم والجملة معطوفة على ما سبق "وَمَنْ" الواو عاطفة "مَنْ" اسم شرط مبتدأ "يَقُلْ" مضارع مجزوم فعل الشرط فاعله مستتر "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة "إِنِّي إِلهٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالخبر "فَذلِكَ" الفاء رابطة لجواب الشرط "ذلك" مبتدأ والجملة في محل جزم جواب الشرط "نَجْزِيهِ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة خبر ذلك "جَهَنَّمَ" مفعول به ثان "كَذلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "نَجْزِي" مضارع فاعله محذوف "الظَّالِمِينَ" مفعول به وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ من.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 30 الى 31]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ

حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31)

(216/505)

"أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو عاطفة "لَمْ" حرف نفي وجزم وقلب "يَرَ" مضارع "الَّذِينَ" فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "السَّماواتِ" اسمها "وَالْأَرْضَ" معطوف المصدر المؤول سد مسد مفعولي ير "كانَتا" ماض ناقص والألف اسمها "رَتْقاً" خبرها وجملة كانتا رتقا خبر أن "فَفَتَقْناهُما" الفاء عاطفة "فتقناهما" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على كانتا "وَجَعَلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنَ الْماءِ" متعلقان بجعلنا "كُلَّ" مفعول به "شَيْءٍ" مضاف إليه "حَيٍّ" صفة "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ولا نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعله "وَجَعَلْنا" الواو حرف عطف "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف مفعول به ثان "رَواسِيَ" مفعول به أول "أَنْ" حرف ناصب "تَمِيدَ" مضارع منصوب بأن وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول لأجله "بِهِمْ" متعلقان بتميد "وَجَعَلْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "فِيها" متعلقان بجعلنا "فِجاجاً" حال "سُبُلًا" مفعول به

"لَعَلَّهُمْ" لعل حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها "يَهْتَدُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر لعل.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 32 الى 34]

وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34)

(217/505)

"وَجَعَلْنَا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "السَّماءَ" مفعول به أول "سَقْفاً" مفعول به ثان "مَحْفُوظاً" مفعول لأجله "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "عَنْ آياتِها" متعلقان بمعرضون "مُعْرِضُونَ" خبرهم والجملة حالية "وَهُوَ" الواو عاطفة "هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" خبر هو "خَلَقَ" الجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب "اللَّيْلَ" مفعول به "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "وَالشَّمْسَ" معطوف "وَالْقَمَرَ" معطوف "كُلٌّ" مبتدأ "فِي فَلَكٍ" متعلقان بيسبحون وجملة المبتدأ والخبر حالية "يَسْبَحُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كل "وَما" الواو عاطفة "ما" نافية "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لِبَشَرٍ" متعلقان بمحذوف مفعول به ثان "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة لبشر "الْخُلْدَ" مفعول به أول

"أَفَإِنْ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة وإن حرف شرط جازم "مِتَّ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "فَهُمُ" الفاء رابطة للجواب "هم" مبتدأ "الْخالِدُونَ" خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 35 الى 38]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

(218/505)

"كُلُّ" مبتدأ "نَفْسٍ" مضاف إليه "ذائِقَةُ" خبر والجملة ابتدائية "الْمَوْتِ" مضاف إليه "وَنَبْلُوكُمْ" الواو استئنافية "نَبْلُوكُمْ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله "بِالشَّرِّ" متعلقان بنبلوكم "وَالْخَيْرِ" معطوف على الشر والجملة مستأنفة "فِتْنَةً" مفعول لأجله "وَإِلَيْنا" الواو استئنافية والجار والمجرور متعلقان بترجعون "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "وَإِذا" الواو استئنافية "إِذا" ظرفية شرطية "رَآكَ" ماض ومفعوله

والجملة مضاف إليه "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنْ"
نافية "يَتَّخِذُونَكَ" مضارع وفاعله ومفعوله الأول "إِلَّا" أداة حصر "هُزُواً" مفعول به ثان
"أَهذَا" الهمزة للاستفهام "هذَا" مبتدأ "الَّذِي" خبر "يَذْكُرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة
صلة لا محل لها من الإعراب "آلِهَتَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَهُمْ" الواو حالية
"وَهُمْ" مبتدأ "بِذِكْرِ" متعلقان بكافرون "الرَّحْمنِ" مضاف إليه "هُمْ" تأكيد لهم الأولى
"كافِرُونَ" خبرهم والجملة حالية "خُلِقَ" ماض مبني للمجهول "الْإِنْسانُ" نائب فاعل
والجملة مستأنفة "مِنْ عَجَلٍ" متعلقان بخلق "سَأُرِيكُمْ" السين للاستقبال ومضارع فاعله
مستتر ومفعوله الأول "آياتِي" مفعول به ثان والياء مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَلا" الفاء
عاطفة ولا ناهية "تَسْتَعْجِلُونِ" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والنون للوقاية
والياء المحذوفة مفعول به والجملة معطوفة "وَيَقُولُونَ" الواو استئنافية ومضارع وفاعله
والجملة مستأنفة "مَتى" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية متعلق بالخبر المقدم
والجملة مقول القول "هذَا" مبتدأ مؤخر "الْوَعْدُ" بدل من هذا "إِنْ كُنْتُمْ" إن حرف شرط
جازم "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمها "صادِقِينَ" خبر كان وجملة كنتم ابتدائية
لا محل لها وجواب الشرط محذوف.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 39 الى 40]

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

"لَوْ" شرطية غير جازمة "يَعْلَمُ" مضارع "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "حِينَ" ظرف زمان "لا" نافية "يَكُفُّونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "عَنْ وُجُوهِهِمُ" متعلقان بيكفون والهاء مضاف إليه "النَّارَ" مفعول به "وَلا" الواو عاطفة لا نافية "عَنْ ظُهُورِهِمْ" متعلقان بيكفون "وَلا" الواو عاطفة "لا" نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر "بَلْ" حرف إضراب وعطف "تَأْتِيهِمْ" مضارع فاعله مستتر "بَغْتَةً" حال "فَتَبْهَتُهُمْ" مضارع

ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة "فَلا" الفاء عاطفة لا نافية "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع وفاعله "رَدَّها" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة "لا" نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْظَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر وجملة المبتدأ والخبر معطوفة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 41 الى 43]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (41) قُلْ

مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

(220/505)

"وَلَقَدِ" الواو استئنافية "لَقَدِ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف "قد" حرف تحقيق "اسْتُهْزِئَ" ماض مبني للمجهول "بِرُسُلٍ" جار ومجرور بمقام نائب الفاعل "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بصفة لرسل "فَحاقَ" الفاء عاطفة "حاق" ماض "بِالَّذِينَ" الباء حرف جر "الذين" اسم موصول متعلقان بحاق "سَخِرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الموصول "مِنْهُمْ" متعلقان بسخروا "ما" ما اسم موصول فاعل "كانُوا" ماض ناقص والواو اسمها "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع وفاعله والجملة في محل نصب خبر كانوا "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "مَنْ" مبتدأ "يَكْلَؤُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر وجملة المبتدأ والخبر مقول القول "بِاللَّيْلِ" متعلقان بيكلؤكم "وَالنَّهارِ" معطوف على الليل "مِنَ الرَّحْمنِ" متعلقان بيكلؤهم "بَلْ" حرف إضراب "هُمْ" مبتدأ "عَنْ ذِكْرِ" متعلقان بمعرضون "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "مُعْرِضُونَ" خبرهم "أَمْ" حرف عطف "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "آلِهَةٌ" مبتدأ مؤخر "تَمْنَعُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "مِنْ

دُونِنا" متعلقان بتمنعهم والجملة معطوفة "لا" نافية "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع وفاعله "نَصْرَ" مفعول به والجملة مستأنفة "أَنْفُسِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَلا" الواو استئنافية "لا" نافية "هُمْ" مبتدأ والجملة معطوفة "مِنَّا" متعلقان بيصحبون والجملة استئنافية "يُصْحَبُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 44 الى 46]

(221/505)

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (44) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46)

"بَلْ" حرف إضراب "مَتَّعْنا" ماض وفاعله "هؤُلاءِ" الها للتنبيه أولاء اسم إشارة في محل نصب مفعول به "وَآباءَهُمْ" الواو عاطفة "آباءَهُمْ" معطوف على هؤلاء والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "طالَ" ماض "عَلَيْهِمُ" متعلقان بطال "الْعُمُرُ" فاعل "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة "لا" نافية "يَرَوْنَ" مضارع وفاعله "أَنَّا" أن

حرف مشبه بالفعل ونا اسمها وأصلها أننا فأدغمت النونان "نَأْتِي" مضارع والفاعل مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به وأنّا وما بعدها سدت مسد مفعولي يرون

(222/505)

"نَنْقُصُها" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر تقديره نحن "مِنْ أَطْرافِها" متعلقان بننقصها والجملة حالية "أَفَهُمُ" الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف "هم" مبتدأ "الْغالِبُونَ" خبر والجملة مستأنفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أُنْذِرُكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مقول القول "بِالْوَحْيِ" متعلقان بأنذركم "وَلا" الواو عاطفة "لا" نافية "يَسْمَعُ" مضارع "الصُّمُّ" فاعل "الدُّعاءَ" مفعول به والجملة معطوفة "إِذا" ظرفية "ما" زائدة "يُنْذَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مضاف إليه "وَلَئِنْ" الواو عاطفة "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم "إن" حرف شرط جازم "مَسَّتْهُمْ" ماض ومفعوله وهو في محل جزم فعل الشرط "نَفْحَةٌ" فاعل "مِنْ عَذابِ" متعلقان بصفة من نفحة "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم "يقولن" مضارع وحذفت الواو وهي الفاعل لالتقاء الساكنين "يا وَيْلَنا" يا للنداء أو للتنبيه "وَيْلَنا" مفعول مطلق لفعل مقدر "إِنَّا" إن واسمها وأصلها إننا "كُنَّا" كان واسمها والجملة مقول القول

"ظَالِمِينَ" خبر كنا والجملة خبر إن .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 47 الى 49]

وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (47) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

(223/505)

"وَنَضَعُ" الواو استئنافية ومضارع فاعله مستتر "الْمَوازِينَ" مفعول به "الْقِسْطَ" صفة "لِيَوْمِ" متعلقان بنضع "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "فَلا" الفاء عاطفة "لا" نافية "تُظْلَمُ" مضارع مبني للمجهول "نَفْسٌ" نائب فاعل "شَيْئاً" مفعول مطلق والجملة معطوفة "وَإِنْ" الواو عاطفة إن شرطية "كانَ" ماض ناقص "مِثْقالَ" خبرها "حَبَّةٍ" مضاف إليه "مِنْ خَرْدَلٍ" متعلقان بصفة لحبة "أَتَيْنا" فعل ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "بِها" متعلقان بأتينا "وَكَفى" الواو عاطفة وفعل ماض "بِنا" الباء حرف جر زائد ونا في محل رفع فاعل "حاسِبِينَ" تمييز "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف قد حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "مُوسى" مفعول به أول "وَهارُونَ" معطوف على موسى

"الْفُرْقانَ" مفعول به ثان "وَضِياءً" عطف على الفرقان "وَذِكْراً" معطوف "لِلْمُتَّقِينَ"

متعلقان بذكرا "الَّذِينَ" صفة "يَخْشَوْنَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "رَبَّهُمْ" مفعول به

والهاء مضاف إليه "بِالْغَيْبِ" متعلقان بمحذوف حال من فاعل يخشون "وَهُمْ" الواو حالية

"هُمْ" مبتدأ "مِنَ السَّاعَةِ" متعلقان بمشفقون "مُشْفِقُونَ" خبر هم والجملة حالية.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 50 الى 53]

وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50) وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (51) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (52) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (53)

"وَهذا" الواو استئنافية "هذا" مبتدأ "ذِكْرٌ" خبر والجملة مستأنفة "مُبارَكٌ" صفة "أَنْزَلْناهُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة صفة "أَفَأَنْتُمْ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة "أنتم" مبتدأ "لَهُ" متعلقان بمنكرون

"مُنْكِرُونَ" خبر أنتم والجملة استئنافية "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب القسم "قد" حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "إِبْراهِيمَ" مفعول به أول "رُشْدَهُ" مفعول به ثان

"مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف حال "وَكُنَّا" الواو عاطفة وكان واسمها "بِهِ" متعلقان بعالمين "عالِمِينَ" خبر كنا والجملة معطوفة "إِذْ" ظرف متعلق بفعل محذوف اذكر "قالَ" ماض وفاعله محذوف والجملة مضاف إليه "لِأَبِيهِ" متعلقان بقال "وَقَوْمِهِ" معطوف على أبيه "ما" اسم استفهام مبتدأ "هذِهِ" الها للتنبيه "ذه" خبر والجملة مقول القول "التَّماثِيلُ" بدل من اسم الإشارة "الَّتِي" صفة للتماثيل "أَنْتُمْ" مبتدأ "لَها" متعلقان بعاكفون "عاكِفُونَ" خبر والجملة صلة الموصول لا محل لها . "قالُوا" ماض وفاعل والجملة مستأنفة "وَجَدْنا" ماض وفاعله "آباءَنا" مفعول به أول ونا مضاف إليه "لَها" متعلقان بعابدين "عابِدِينَ" مفعول به ثان والجملة مقول القول .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 54 الى 57]

قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (54) قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ
(55) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ
(56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

"قالَ" ماض فاعله مستتر "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف "قد" حرف تحقيق "كُنْتُمْ" كان واسمها "أَنْتُمْ" توكيد "وَآباؤُكُمْ" عطف على اسم كان "فِي ضَلالٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مُبِينٍ" صفة والجملة مقول القول "قالُوا" ماض وفاعل والجملة استئنافية "أَجِئْتَنا" الهمزة للاستفهام "جِئْتَنا" فعل ماض وفاعل ومفعول به "بِالْحَقِّ" متعلقان بجئتنا والجملة مقول القول "أَمْ" حرف عطف "أَنْتَ" مبتدأ "مِنَ اللَّاعِبِينَ" متعلقان بخبر أنت والجملة معطوفة "قالَ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "بَلْ" حرف إضراب "رَبُّكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "رَبُّ" خبر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَ" عاطفة "الْأَرْضِ" معطوفة على السموات والجملة في محل نصب مفعول به "الَّذِي" صفة لرب في محل رفع "فَطَرَهُنَّ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَأَنَا" الواو عاطفة "أَنَا" مبتدأ "عَلى ذلِكُمْ" متعلقان بالشاهدين واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة معطوفة "مِنَ الشَّاهِدِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف لها "أَصْنامَكُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بَعْدَ" ظرف متعلق بأكيدن "أَنْ" حرف ناصب "تُوَلُّوا" مضارع وفاعله "مُدْبِرِينَ" حال وأن تولوا في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 58 الى 61]

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ

الظَّالِمِينَ (59) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

(226/505)

"فَجَعَلَهُمْ" الفاء عاطفة "جعلهم" ماض فاعله مستتر والهاء مفعول به أول "جُذاذاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة استثناء "كَبِيراً" مستثنى بإلا "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة كبيرا "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "إِلَيْهِ" متعلقان بيرجعون وجملة "يَرْجِعُونَ" خبر لعل وجملة لعلهم مستأنفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "فَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر والمبتدأ والخبر مقول القول "هذا" مفعول به "بِآلِهَتِنا" متعلقان بالفعل "إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ" إن واسمها واللام المزحلقة "من الظالمين" متعلقان بخبر إن والجملة مستأنفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "سَمِعْنا" ماض وفاعل والجملة مقول القول "فَتًى" مفعول به "يَذْكُرُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة لفتى "يُقالُ" مضارع مبني للمجهول "لَهُ" متعلقان بيقال "إِبْراهِيمُ" نائب فاعل "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "فَأْتُوا" الفاء الفصيحة "أتوا" أمر وفاعله "بِهِ" متعلقان بفأتوا "عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ" متعلقان بمحذوف حال "النَّاسِ" مضاف إليه "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها

"يَشْهَدُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر لعل وجملة لعل مستأنفة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 62 الى 66]

قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (62) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65) قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (66)

(227/505)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَأَنْتَ" الهمزة للاستفهام وأنت مبتدأ "فَعَلْتَ" ماض وفاعله والجملة خبر وجملة "أَنْتَ فَعَلْتَ" مقول القول "هذا" مفعول به "بِآلِهَتِنا" متعلقان بفعلت "يا" حرف نداء "إِبْراهِيمُ" منادى مفرد علم في محل نصب "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ" ماض ومفعول به وفاعل مؤخر "هذا" صفة لكبيرهم "فَسْئَلُوهُمْ" الفاء الفصيحة "اسألوهم" أمر وفاعله ومفعول به "إِنْ" شرطية "كانُوا" ماض ناقص والجملة في محل جزم فعل الشرط والواو اسمها وجملة "يَنْطِقُونَ" خبرها وجواب الشرط محذوف "فَرَجَعُوا" الفاء عاطفة وماض والواو فاعله "إِلى

أَنْفُسِهِمْ" متعلقان برجعوا "فَقالُوا" الفاء عاطفة والجملة معطوفة "إِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة مقول القول "أَنْتُمُ" مبتدأ "الظَّالِمُونَ" خبر والجملة خبر إن "ثُمَّ" حرف عطف للتراخي "نُكِسُوا" ماض مبني للمجهول "والواو" نائب فاعل والجملة معطوفة "عَلى رُؤُسِهِمْ" متعلقان بنكسوا "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف "قد" حرف تحقيق "عَلِمْتَ" ماض وفاعله "ما" نافية للجنس "هؤُلاءِ" الها للتنبيه "أولاء" اسمها "يَنْطِقُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبرها "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة ابتدائية "أَفَتَعْبُدُونَ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ومضارع وفاعله والجملة مقول القول "مِنْ دُونِ"
متعلقان بتعبدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "لا" نافية "يَنْفَعُكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "شَيْئاً" مفعول مطلق "وَلا" الواو عاطفة "لا" نافية "يَضُرُّكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 67 الى 70]

(228/505)

أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (67) قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (68) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (69) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً

فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)

"أُفٍّ" اسم فعل مضارع والجملة مستأنفة "لَكُمْ" متعلقان بحال محذوفة "وَلِما تَعْبُدُونَ" الواو عاطفة واللام حرف جر وما موصولية في محل جر معطوفان على لكم وجملة تعبدون صلة الموصول لا محل لها من الإعراب "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَفَلا" الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة ولا نافية "تَعْقِلُونَ" الجملة مستأنفة. "قالُوا" الجملة مستأنفة "حَرِّقُوهُ" فعل أمر والواو فاعله والجملة في محل نصب مفعول به. "وَانْصُرُوا" الواو عاطفة والجملة معطوفة "آلِهَتَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه والميم للجمع "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها "فاعِلِينَ" خبرها وكنتم فعل الشرط والجواب محذوف تقديره حرقوه وانصروا إلخ "قُلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا" حرف نداء "نارُ" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب "كُونِي بَرْداً" أمر ناقص واسمه وخبره "وَسَلاماً" معطوفة على بردا وجملة يا نار.. مقول القول "وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً" الجملة من الفعل والفاعل والمفعول به معطوفة على قالوا وبه متعلقان بأرادوا "فَجَعَلْناهُمُ" فعل ماض وفاعل ومفعوله الأول والجملة معطوفة بالفاء "الْأَخْسَرِينَ" مفعول به ثان.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 71 الى 73]

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)

"وَنَجَّيْنَاهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما سبق "وَلُوطًا" معطوف على المفعول به من نجيناه "إِلَى الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل المتقدم "الَّتِي" اسم موصول صفة في محل جر "بَارَكْنَا" فعل ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "فِيهَا" متعلقان ببار كنا "لِلْعَالَمِينَ" اللام حرف جر والعالمين اسم مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم متعلقان بباركنا "وَ" الواو عاطفة "وَهَبْنَا" فعل ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما سبق "لَهُ" متعلقان بالفعل المتقدم "إِسْحَاقَ" مفعول به منصوب "وَيَعْقُوبَ" معطوف على اسحق "نَافِلَةً" حال من يعقوب. "وَكُلًّا" الواو عاطفة وكلا مفعول به أول مقدم لجعلنا "جَعَلْنَا" فعل ماض وفاعله "صَالِحِينَ" مفعول به ثان منصوب بالياء لأنه

جمع مذكر سالم والجملة معطوفة على ما سبق "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً" الواو عاطفة وفعل ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة على ما سبق "يَهْدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لأئمة "بِأَمْرِنَا" متعلقان بحال محذوفة "وَأَوْحَيْنَا" الواو عاطفة وفعل ماض وفاعله والجملة معطوفة "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل المتقدم "فِعْلَ" مفعول به "الْخَيْرَاتِ"

مضاف إليه "وَإِقامَ" معطوف على فعل "الصَّلاةِ" مضاف إليه "وَإِيتاءَ الزَّكاةِ" عطف على فعل والزكاة مضاف إليه "وَكانُوا لَنا عابِدِينَ" الواو عاطفة وكان واسمها وخبرها ولنا متعلقان بعابدين

(230/505)

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 74 الى 75]

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

"وَلُوطاً" الواو عاطفة ولوطا مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور "آتَيْناهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة مفسرة لا محل لها من الإعراب "حُكْماً" مفعول به ثان لآتيناه "وَعِلْماً" معطوف على حكما "وَنَجَّيْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما سبق "مِنَ الْقَرْيَةِ" متعلقان بنجيناه "الَّتِي" اسم موصول محله صفة للقرية "كانَتْ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف تقديره هي "تَعْمَلُ الْخَبائِثَ" مضارع فاعله محذوف ومفعول به والجملة خبر كان وجملة كانت صلة الموصول لا محل لها من الإعراب "إِنَّهُمْ" إن واسمها والجملة تعليلية لا محل لها "كانُوا" كان واسمها والجملة خبر إن "قَوْمَ" خبر

كانوا "سَوْءٍ" مضاف إليه "فاسِقِينَ" صفة منصوبة بالياء "وَأَدْخَلْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة على ما سبق "فِي رَحْمَتِنا" متعلقان بأدخلناه "إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" إن واسمها والجار والمجرور متعلقان بالخبر وجملة إن إلخ . . تعليلية لا محل لها من الإعراب.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 76 الى 77]

وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

(231/505)

"وَنُوحاً" الواو عاطفة ونوحا معطوف على لوطا "إِذْ" ظرف زمان "نادى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المقصورة للتعذر فاعله محذوف تقديره هو والجملة مضاف إليه "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بنادى وقبل ظرف مبني على الضم لقطعه عن الإضافة لفظا لا معنى "فَاسْتَجَبْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة بالفاء على ما سبق "لَهُ" متعلقان باستجبنا "فَنَجَّيْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما سبق "وَأَهْلَهُ" معطوف على مفعول نجيناه والهاء مضاف إليه "مِنَ الْكَرْبِ" متعلقان بنجيناه "الْعَظِيمِ" صفة للكرب

"وَنَصَرْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما سبق "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان

بنصرناه "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر صفة للقوم "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة

"بِآياتِنا" جار ومجرور متعلقان بكذبوا ونا مضاف إليه "إِنَّهُمْ" إن واسمها والميم للجمع

والجملة تعليلية

لا محل لها وجملة "كانُوا" خبر إن "قَوْمَ" خبر كانوا "سَوْءٍ" مضاف إليه "فَأَغْرَقْناهُمْ" الفاء

عاطفة وجملة أغرقناهم من الفعل والفاعل والمفعول به معطوفة بالفاء "أَجْمَعِينَ" توكيد

للهاء في أغرقناهم منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 78 الى 80]

وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ

(78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ

وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ

شاكِرُونَ (80)

"وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ" معطوف على ونوحا "إِذْ يَحْكُمانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والألف فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فِي الْحَرْثِ" متعلقان بيحكمان "إِذْ" ظرف متعلق بالفعل السابق "نَفَشَتْ" ماض والتاء للتأنيث "فِيهِ" متعلقان بنفشت "غَنَمُ" فاعل "الْقَوْمِ" مضاف إليه "وَ" استئنافية "كُنَّا" كان واسمها "لِحُكْمِهِمْ" متعلقان بشاهدين والجملة مستأنفة "شاهِدِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة على ما سبق "وَكُلًّا" الواو عاطفة ومفعول به أول لآتينا "آتَيْنا" فعل ماض وفاعله "حُكْماً" مفعول به ثان لآتينا "وَعِلْماً" معطوف على حكما والجملة معطوفة على ما سبق "وَسَخَّرْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "مَعَ" ظرف متعلق بسخرنا "داوُدَ" مضاف إليه ممنوع من الصرف "الْجِبالَ" مفعول به لسخرنا "يُسَبِّحْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة حال من الجبال "وَالطَّيْرَ" معطوف على الجبال أو مفعول معه "وَكُنَّا" كان واسمها "فاعِلِينَ" خبر والجملة معطوفة. "وَعَلَّمْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة "صَنْعَةَ" مفعول به ثان "لَبُوسٍ" مضاف إليه "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لبوس "لِتُحْصِنَكُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل فاعله مستتر والكاف مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر متعلقان بعلمناه "مِنْ بَأْسِكُمْ" متعلقان بالفعل قبله "فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ" الفاء استئنافية وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ

وشاكرون خبر والجملة مستأنفة

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 81 الى 82]

(233/505)

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

"وَلِسُلَيْمانَ" الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره سخرنا "الرِّيحَ" مفعول به للفعل المحذوف "عاصِفَةً" حال من الريح "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة حال ثانية "بِأَمْرِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "إِلَى الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل قبلهما "الَّتِي" اسم موصول محله جر صفة "بارَكْنا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "فِيها" متعلقان بالفعل قبلهما "وَكُنَّا" كان واسمها والجملة معطوفة "بِكُلِّ" متعلقان بالخبر بعدهما "شَيْءٍ" مضاف إليه "عالِمِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَمِنَ الشَّياطِينِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره وسخرنا "مِنَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به للفعل المحذوف سخرنا أو هي في محل رفع مبتدأ مؤخر ومن الشياطين متعلقان بخبر مقدم والجملة معطوفة على ما سبق "يَغُوصُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون

والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "لَهُ" متعلقان بالفعل السابق "وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا" مضارع وفاعله ومفعوله المطلق والجملة معطوفة "دُونَ" ظرف متعلق بصفة لعملا "ذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل جر مضاف إليه واللام للبعد والكاف للخطاب "وَكُنَّا" كان واسمها "لَهُمْ" متعلقان بحافظين "حافِظِينَ" خبر كنا المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 83 الى 85]

(234/505)

وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (84) وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)

"وَأَيُّوبَ" الواو عاطفة وأيوب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر "إِذْ" ظرف زمان متعلق بالفعل اذكر المحذوف "نادى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والفاعل مستتر وجملة نادى في محل جر مضاف إليه "رَبَّهُ" مفعول به لنادى والهاء مضاف إليه "أَنِّي" أن واسمها "مَسَّنِيَ" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به مقدم "الضُّرُّ" فاعل مؤخر والجملة خبر أن "وَأَنْتَ أَرْحَمُ" الواو واو الحال ومبتدأ وخبر والجملة في محل نصب على الحال

"الرَّاحِمِينَ" مضاف إليه "فَاسْتَجَبْنا" الفاء عاطفة واستجبنا ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما سبق "لَهُ" متعلقان باستجبنا "فَكَشَفْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "بِهِ" متعلقان بصلة الموصول "وَآتَيْناهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة "أَهْلَهُ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه "وَمِثْلَهُمْ" معطوف على أهله "مَعَهُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "رَحْمَةً" مفعول لأجله "مِنْ عِنْدِنا" متعلقان بصفة رحمة "وَذِكْرى" معطوف على رحمة "لِلْعابِدِينَ" متعلقان بذكرى "وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ" معطوف على ما ذكر من الأنبياء "وَإِسْماعِيلَ" مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر "كُلٌّ" مبتدأ "مِنَ الصَّابِرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة استئنافية.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 86 الى 88]

(235/505)

وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

"وَأَدْخَلْنَاهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة على ما سبق "فِي رَحْمَتِنَا" متعلقان بالفعل

(236/505)

"إِنَّهُمْ" إن واسمها "مِنَ الصَّالِحِينَ" متعلقان بخبر إن والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب "وَذَا النُّونِ" معطوف على من ذكر من الأنبياء أو ذا مفعول به لفعل اذكر منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والنون معناه الحوت مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان متعلق بالفعل المقدر اذكر "ذَهَبَ" ماض فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "مُغَاضِباً" حال منصوبة من الفاعل المستتر "فَظَنَّ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "أَنْ" مخففة من أن الثقيلة واسمها ضمير الشأن "لَنْ" حرف نفي ونصب واستقبال "نَقْدِرَ" مضارع منصوب بلن فاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بنقدر وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي ظن "فَنَادَى " ماض مبني على الفتح المقدر على الألف فاعله مستتر تقديره هو والجملة معطوفة بالفاء على ما سبق "فِي الظُّلُمَاتِ" متعلقان بنادى "أَنْ" حرف مشبه بالفعل مخفف من أن الثقيلة واسمها ضمير الشأن تقديره أنه "لا" نافية للجنس "إِلَهَ" اسمها "إِلَّا" أداة حصر "الله" لفظ الجلالة بدل والجملة خبر أن "سُبْحَانَكَ" مفعول مطلق لفعل محذوف

تقديره أسبح والكاف مضاف إليه والجملة مؤكدة للجملة السابقة "إِنِّي" إن واسمها "كُنْتُ" كان واسمها "مِنَ الظَّالِمِينَ" متعلقان بخبر كنت والجملة خبر إني وجملة إني تعليلية لا محل لها من الإعراب "فَاسْتَجَبْنا" فعل ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَهُ" متعلقان بالفعل "وَنَجَّيْناهُ" الجملة معطوفة "مِنَ الْغَمِّ" متعلقان بنجيناه "وَكَذلِكَ" الواو استئنافية والكاف حرف جر وذا اسم إشارة في محل جر متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق واللام للبعد والكاف للخطاب "نُنْجِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل فاعله مستتر "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 89 الى 91]

(237/505)

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

"وَزَكَرِيَّا" معطوف على ما سبق أو مفعول به لفعل اذكر المحذوف "إِذْ" ظرف زمان "نادى"

ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر مضاف إليه "رَبَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "رَبِّ" منادى منصوب حذف منه أداة النداء وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه "لا" ناهية للدعاء "تَذَرْنِي" مضارع مجزوم والنون للوقاية والياء مفعول به "فَرْداً" حال منصوبة وما تقدم من الجمل في محل نصب مقول القول لفعل قال المحذوف تقديره قال رب إلخ "وَأَنْتَ خَيْرُ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "الْوارِثِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فَاسْتَجَبْنا" الفاء استئنافية وفعل ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَهُ" متعلقان باستجبنا "وَوَهَبْنا" ماض وفاعله "لَهُ" متعلقان بوهبنا "يَحْيى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف والجملة معطوفة بالواو ومثلها "وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ" "إِنَّهُمْ" إن واسمها

(238/505)

والجملة تعليلية لا محل لها "كانُوا" كان واسمها والجملة خبر إن "يُسارِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كان "فِي الْخَيْراتِ" متعلقان بيسارعون "وَيَدْعُونَنا" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ونا مفعول به "رَغَباً وَرَهَباً" حالان أو مفعولان لأجله "وَكانُوا" كان واسمها "لَنا" متعلقان بالخبر المؤخر "خاشِعِينَ" خبر

منصوب بالياء والجملة معطوفة على ما سبق. "وَالَّتِي" الواو عاطفة "الَّتِي" اسم موصول في محل نصب مفعول به لفعل اذكر المحذوف والجملة معطوفة على ما سبق "أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا" ماض والتاء للتأنيث فاعله مستتر ومفعول به والجملة صلة لا محل لها "فَنَفَخْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "فِيها" متعلقان بنفخنا "مِنْ رُوحِنا" متعلقان بنفخنا ونا مضاف إليه "وَجَعَلْناها" ماض وفاعله ومفعوله الأول "وَابْنَها" معطوف على الهاء بجعلناها أو مفعول معه "آيَةً" مفعول به ثان "لِلْعالَمِينَ" اللام جارة والعالمين اسم مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجملة معطوفة على ما سبق.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 92 الى 95]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94) وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "هذِهِ" الهاء للتنبيه وذا اسم إشارة في محل نصب اسم إن "أُمَّتُكُمْ" خبر والكاف مضاف إليه والجملة ابتدائية "أُمَّةً" حال أو بدل من هذه "واحِدَةً"

صفة "وَأَنَا رَبُّكُمْ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة بالواو "فَاعْبُدُونِ" الفاء الفصيحة اعبدون أمر والواو فاعله وياء المتكلم المحذوفة لرسم المصحف مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَتَقَطَّعُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَمْرَهُمْ" مفعول به بمعنى فرقوا أمرهم "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل تقطعوا والهاء مضاف إليه "كُلٌّ" مبتدأ "إِلَيْنا" متعلقان براجعون "راجِعُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية أو مستأنفة "فَمَنْ" الفاء استئنافية من اسم شرط جازم مبتدأ "يَعْمَلْ" مضارع مجزوم وهو فعل الشرط وفاعله مستتر "مِنَ الصَّالِحاتِ" متعلقان بيعمل "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ "مُؤْمِنٌ" خبر والجملة حالية "فَلا" الفاء رابطة للجواب ولا نافية تعمل عمل إن عطوفة "وَحَرامٌ" خبر مقدم "عَلى قَرْيَةٍ" متعلقان بحرام "أَهْلَكْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة لقرية "أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ" أن والهاء واسمها ولا نافية ويرجعون مضارع والواو فاعله والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أنّ وما بعدها مبتدأ مؤخر .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 96 الى 97]

حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (97)

"حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بمحذوف تقديره قالوا يا ويلنا "فُتِحَتْ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث "يَأْجُوجُ" نائب فاعل "وَمَأْجُوجُ" معطوف عليه والجملة مضاف إليه "وَهُمْ" الواو واو الحال وهم مبتدأ "مِنْ كُلِّ" متعلقان بينسلون "حَدَبٍ" مضاف إليه "يَنْسِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجملة هم إلخ حالية. "وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ" الواو عاطفة وماض وفاعل والجملة معطوفة على ما سبق "الْحَقُّ" صفة الوعد "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية وتدخل على الجملة الاسمية لا محل لها "هِيَ شاخِصَةٌ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة على ما سبق "أَبْصارُ" فاعل شاخصة "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "يا" نداء "وَيْلَنا" منادى مضاف ونا مضاف إليه والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره قالوا يا ويلنا "قَدْ" حرف تحقيق "كُنَّا" كان واسمها "فِي غَفْلَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ" حرف جر "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة في محل جر ومتعلقان بغفلة "بَلْ" حرف إضراب "كُنَّا" كان واسمها "ظالِمِينَ" خبر كان منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مقول القول المحذوف.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 98 الى 101]

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما

وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101)

(241/505)

"إِنَّكُمْ" إن واسمها والميم للجمع "وَمَا" الواو عاطفة وما موصولية معطوفة على الكاف "تَعْبُدُونَ" الجملة صلة لا محل لها "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة من الهاء المحذوفة في تعبدونه "حَصَبُ" خبر إن وجملتها ابتدائية "جَهَنَّمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "أَنْتُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "لَهَا" متعلقان بالخبر المؤخر "وَارِدُونَ" خبر المبتدأ والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "كَانَ" فعل ماض ناقص "هَؤُلَاءِ" الها للتنبيه وأولاء اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع اسم كان "آلِهَةً" خبر والجملة ابتدائية لا محل لها "ما" نافية "وَرَدُوهَا" ماض وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَكُلٌّ" مبتدأ "فِيهَا" متعلقان بالخبر المؤخر "خَالِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "فِيهَا" متعلقان بالخبر المقدم "زَفِيرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "وَهُمْ" الواو عاطفة هم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "فِيهَا" متعلقان بيسمعون "لَا يَسْمَعُونَ" لا نافية ويسمعون مضارع مرفوع بثبوت

النون والواو فاعل والجملة خبر "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول اسم إن "سَبَقَتْ" ماض والتاء للتأنيث والجملة صلة "لَهُمْ" و"مِنَّا" كلاهما متعلقان بالفعل "الْحُسْنى" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "أُولئِكَ" اسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "عَنْها" متعلقان بمبعدون "مُبْعَدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة في محل رفع خبر إن.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 102 الى 104]

(242/505)

لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104)

(243/505)

"لا" نافية "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "حَسِيسَهَا" مفعول به وها في محل جر بالإضافة والجملة خبر ثان لإن أو في محل نصب على الحال من الضمير المستتر في مبعدون "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "فِي" حرف جر "مَا" موصولية متعلقان بالفعل بعدهما "اشْتَهَتْ" ماض والتاء للتأنيث "أَنْفُسُهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه والميم للجمع والجملة صلة "خالِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية "لا يَحْزُنُهُمُ" لا نافية ومضارع ومفعوله والهاء مضاف إليه "الْفَزَعُ" فاعل مؤخر "الْأَكْبَرُ" صفة للفزع والجملة بدل من الجملة السابقة أو في محل نصب على الحال "وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والهاء مفعوله المقدم والملائكة فاعله المؤخر والجملة معطوفة على ما تقدم "هذا يَوْمُكُمُ" مبتدأ وخبر والكاف مضاف إليه والجملة في محل نصب مقول القول لفعل يقولون المحذوف "الَّذِي" اسم موصول صفة ليوم في محل رفع "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة لا محل لها "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر كنتم "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بفعل اذكر المحذوف "نَطْوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "السَّماءَ" مفعول به "كَطَيِّ" متعلقان بمحذوف مفعول مطلق والتقدير طيا "السِّجِلِّ" مضاف إليه "لِلْكُتُبِ" متعلقان بالمصدر "كَما" الكاف حرف جر "ما" موصولية أو مصدرية "بَدَأْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَوَّلَ" مفعول به "خَلْقٍ" مضاف إليه "نُعِيدُهُ"

فعل مضارع ومفعوله وفاعله مستتر "وَعْداً" مفعول مطلق لفعل محذوف "عَلَيْنا" متعلقان بوعدا "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا" كان واسمها وجملة كنا إلخ خبر إن وإن واسمها وخبرها جملة مستأنفة "فاعِلِينَ" خبر كان المنصوب

بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

(244/505)

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 105 الى 108]

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "كَتَبْنا" ماض وفاعله "فِي الزَّبُورِ" متعلقان بكتبنا والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل السابق "الذِّكْرِ" مضاف إليه "أَنَّ الْأَرْضَ" أن واسمها وجملتها في محل نصب مفعول به "يَرِثُها" مضارع ومفعوله "عِبادِيَ" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء

المتكلم والياء مضاف إليه والجملة خبر أن "الصَّالِحُونَ" صفة مرفوعة بالواو لأنه جمع مذكر سالم "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي هذا" ذا اسم إشارة وهما متعلقان

بمحذوف خبر إن المقدم "لَبَلاغاً" اللام لام المزحلقة وبلاغا اسم إن المؤخر "لِقَوْمٍ" متعلقان ببلاغا "عابِدِينَ" صفة قوم مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَرْسَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية "إِلَّا" أداة حصر "رَحْمَةً" مفعول لأجله "لِلْعالَمِينَ" متعلقان برحمة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يُوحى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مقول القول "إِلَيَّ" متعلقان بيوحى "إِنَّما" كافة ومكفوفة "إِلهُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "إِلهٌ" خبر "واحِدٌ" صفة لإله وجملة أنما إلهكم إله في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل يوحى "فَهَلْ" الفاء استئنافية هل حرف استفهام "أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" مبتدأ وخبر والجملة استئنافية.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 109 الى 112]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ

الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111)
قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (112)

(246/505)

"فَإِنْ" الفاء استئنافية إن حرف شرط جازم "تَوَلَّوْا" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل "فَقُلْ" الفاء رابطة للجواب وقل أمر فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "آذَنْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "عَلى سَواءٍ" متعلقان بآذنتكم "وَإِنْ" الواو استئنافية أو حالية وإن حرف نفي "أَدْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل فاعله مستتر والجملة مستأنفة أو حالية "أَقَرِيبٌ" الهمزة للاستفهام "قَرِيبٌ" خبر مقدم "أَمْ" حرف عطف "بَعِيدٌ" معطوف على قريب "ما" اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول لأدري "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة لا محل لها "إِنَّهُ" إن واسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "الْجَهْرَ" مفعول به والجملة خبر "مِنَ الْقَوْلِ" متعلقان بمحذوف حال من الجهر "وَيَعْلَمُ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة معطوفة "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "تَكْتُمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون

والواو فاعل والجملة صلة "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن نافية "أَدْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ" لعل واسمها وخبرها "لَكُمْ" متعلقان بفتنة أو بصفة منها "وَمَتَاعٌ" معطوف على فتنة "إِلَى حِينٍ" متعلقان بمتاع والجملة في محل نصب مفعول به لأدري "قَالَ" الجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو مضاف لياء المتكلم المحذوفة والجملة مقول القول "احْكُمْ" فعل دعاء فاعله محذوف "بِالْحَقِّ" متعلقان باحكم "وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "عَلَى مَا" ما اسم موصول في محل جر بعلى ومتعلقان بالمستعان "تَصِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 300.280﴾

(247/505)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

ذكر فِيهَا اثْنَي عشر حَدِيثا

795 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بعثت فِي نسم السَّاعَة)

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن سعيد حَدثنَا ابْن أبي الْوَزير مُحَمَّد بن عمر حَدثنَا سُفْيَان عَن إِسْمَاعِيل عَن قيس عَن أبي جبيرَة بن الضَّحَّاك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بعثت فِي نسم السَّاعَة)

انْتَهى

وَسكت عَنهُ إِلَّا أَنه قَالَ لَا نعلم روى أَبُو جبيرَة عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا هذَيْن الْحَدِيثين وَأسْندَ لَهُ حَدِيثا آخر فِي النَّهْي عَن التَّنَابُز بالألقاب وَأَبُو جبيرَة بن الضَّحَّاك هُوَ أَخُو ثَابت ابْن الضَّحَّاك

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي الطُّفَيْل فَقَالَ حَدثنَا أَبُو عَمْرو بن هَمدَان حَدثنَا الْحسن بن سُفْيَان حَدثنَا مُحَمَّد بن الصَّباح حَدثنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن قيس عَن أبي جبيرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَفِي النِّهَايَة فِي الحَدِيث (بعثت فِي نسم السَّاعَة) وَالنَّسَم جمع نسمَة وَهِي النَّفس وَالروح أَي بعثت فِي ذِي أَرْوَاح خلقهمْ الله قريب السَّاعَة

وَقَالَ الْجَوْهَرِي نسم السَّاعَة ابْتِدَاؤُهَا وَنَسَم الرّيح أَولهَا وَفِي الحَدِيث (بعثت فِي نسم السَّاعَة)

انْتَهَى

وروى التِّرْمِذِيّ فِي الْفِتَن من حَدِيث الْمُسْتَوْرد بن شَدَّاد قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بعثت فِي نَفْس السَّاعَة فَسَبَقتهَا كَمَا سبقت هَذِه لهَذِهِ) لِأُصْبُعَيْهِ السبابَة وَالْوُسْطَى

(248/505)

انْتَهَى وَقَالَ غَرِيب لَا نعرفه من من حَدِيث الْمُسْتَوْرد إِلَّا من هَذَا الْوَجْه

انْتَهَى

قَالَ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيبه نفس السَّاعَة قربهَا جعل لَهَا نفسا كَنَفس الْإِنْسَان

انْتَهَى

وَأَعَادَهُ الْمُصَنّف فِي سُورَة سبأ

796 - قَوْله وَفِي خطْبَة بعض الْمُتَقَدّمين ولت الدُّنْيَا حذاء وَلم تبْق إِلَّا صبابة كصُبابة الْإِنَاء

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه عَن خَالِد بن عُمَيْر الْعَدوي قَالَ خطب بنَا عتبَة بن غَزوَان وَكَانَ أَمِيرا عَلَى الْبَصْرَة فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد فَإِن الدُّنْيَا قد آذنت بصرم

وولت حذاء ولم يبْق مِنْهَا إِلَّا صبابة كصُبَابَةِ الْإِنَاء . . . الحَدِيث بطُولِه

وَقَالَ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات عتبَة بن غَزوَان بن جَابر بن وهيب يكنى أَبَا عبد الله وَسمعت بَعضهم يكنيه أَبَا غَزوَان قديم الْإِسْلَام وَهَاجَر إِلَى الْحَبَشَة وَشهد بَدْرًا وَاسْتَعْملهُ عمر بن الْخطاب عَلَى الْبَصْرَة وَكَانَ أول خطْبَة خطبهَا بِالْبَصْرَةِ أَن قَالَ الْحَمد لله أَحْمده وَأَسْتَعِينهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّل عَلَيْهِ وَأشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله أما بعد أَيهَا النَّاس فَإِن الدُّنْيَا قد ولت حذاء . . . إِلَى آخرهَا توفّي سنة سبع عشرَة وَهُوَ ابْن سبع وَخمسين سنة

انْتَهَى

797 - الحَدِيث الثَّانِي

اسْتَعِينُوا عَلَى حَوَائِجكُمْ بِالْكِتْمَانِ جعله المُصَنّف من كَلَام النَّاس ثمَّ قَالَ وَيرْفَع إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قلت رُوِيَ من حَدِيث معَاذ بن جبل وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس

أما حَدِيث معَاذ فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمَيْهِ الْكَبِير وَالصَّغِير وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي آخر الْبَاب الثَّالِث وَالْأَرْبَعين وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة خَالِد بن معدان كلهم من حَدِيث سعيد بن سَلام الْعَطَّار حَدثنَا ثَوْر بن يزِيد عَن خَالِد بن معدان عَن معَاذ بن جبل قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اسْتَعِينُوا عَلَى إنجاح الْحَوَائِج بالْكِتْمَان فَإِن كل ذِي نعْمَة مَحْسُود)

انْتَهَى

وَفِي رِوَايَة للطبراني (اسْتَعِينُوا عَلَى أُمُوركُم)

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بسَعِيد الْعَطَّار وَأسْندَ إِلَى البُخَارِيّ أَنه قَالَ يذكر بِوَضْع الحَدِيث وَإِلَى ابْن نمير أَنه قَالَ كَذَّاب

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ أَيْضا وَقَالَ سعيد ضَعِيف وَلَا يُتَابع عَلَيْهِ وَلَا يعرف إِلَّا بِهِ

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن عدي عَن حُسَيْن بن علوان عَن ثَوْر بن يزِيد بِهِ ثمَّ قَالَ وحسين هَذَا كَانَ يضع الحَدِيث

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من الطَّرِيقَيْنِ وَقَالَ الْمُتَّهم بِهِ فِي الأولى سعيد الْعَطَّار قَالَ ابْن حَنْبَل كَذَّاب وَفِي الثَّانِي حُسَيْن قَالَ ابْن حبَان يضع الحَدِيث

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم حَمْزَة بن يُوسُف السَّهْمِي فِي كتاب تَارِيخ جرجان أخبرنَا الإِمَام أَبُو بكر أَحْمد بن إِبْرَاهِيم الإِسْمَاعِيلِيّ حَدثنِي أَبُو بكر عَن عُمَيْر حَدثنَا بشار بن نصر بن يسَار الْبَزَّار الْبَغْدَادِيّ حَدثنَا الْهَيْثَم بن أَيُّوب الطَّالقَانِي حَدثنَا سهل بن عبد الرَّحْمَن الْجرْجَانِيّ عَن مُحَمَّد بن مطرف عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اسْتَعِينُوا عَلَى الْحَوَائِج بِكِتْمَانِهَا فَإِن لكل نعْمَة حَاسِدًا)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من حَدِيث الْحسن ابْن عبيد الله الأَبْزَارِيّ بِسَنَدِهِ إِلَى عَطاء عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا بِلَفْظ الطَّبَرَانِيّ ثمَّ قَالَ هَذَا من عمل الأَبْزَارِيّ وَكَانَ مَاجِنًا كذابا

وَقَالَ مهنا سَأَلت أَحْمد بن حَنْبَل وَيحيى بن معِين عَن حَدِيث اسْتَعِينُوا عَلَى طلب الْحَوَائِج بِالْكِتْمَانِ

فَقَالَا هَذَا حَدِيث مَوْضُوع وَلَيْسَ لَهُ أصل

انْتَهَى كَلَامه

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله قَالَ أبي إِن هَذَا حَدِيث مُنكر لَا يعرف لَهُ أصل وَضعف سَلام

بن سعيد من أجل هَذَا الحَدِيث

انْتهى كَلَامه

وَقَالَ ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب هَذَا حَدِيث رُوِيَ من حَدِيث معَاذ بن جبل وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث بُرَيْدَة

أما حَدِيث معَاذ فَرَوَاهُ سعيد بن سَلام الْعَطَّار عَن ثَوْر بن يزِيد عَن خَالِد ابْن معدان عَن معَاذ بن جبل وَسَعِيد هَذَا بَصرِي يكنى أَبَا الْحسن كَذَّاب وخَالِد بن معدان لم يلق معَاذًا وَرَوَاهُ حُسَيْن بن علوان عَن ثَوْر وحسين مَتْرُوك الحَدِيث

(251/505)

وَرَوَاهُ شُعْبَة عَن ثَوْر وَلَا يثبت عَنهُ وَرُوِيَ عَن حَفْص بن غياث عَن ثَوْر وَحَفْص ثِقَة إِلَّا أَن الَّذِي رَوَاهُ عَنهُ غير ثِقَة

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ طَاهِر بن الْفضل الْحلَبِي عَن حجاج بن مُحَمَّد الْأَعْوَر عَن ابْن جريج عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ ابْن حبَان وَضعه طَاهِر عَلَى حجاج وَلم يُتَابعه عَلَيْهِ أحد من أَصْحَاب حجاج

وَرُوِيَ أَيْضا من طَرِيق الْخُلَفَاء من ولد ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الْحسن بن عَلّي صَاحب السّلْعَة

عَن إِبْرَاهِيم بن سعيد الْجَوْهَرِي عَن الْمَأْمُون عَن آبَائِهِ

وَأما حَدِيث بُرَيْدَة فَرَوَاهُ إِبْرَاهِيم بن عَلّي بن بَالَوَيْهِ الثَّلْجِي حَدثنَا الطَّالِبِيُّ حَدثنَا إِبْرَاهِيم معقل حَدثنَا أَبُو الْفضل الْمروزِي حَدثنَا عِيسَى بن يُونُس حَدثنَا السينَانِي حَدثنَا الْحُسَيْن بن وَاقد عَن ابْن بُرَيْدَة عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . وَهَذَا الْإِسْنَاد إِن سلم من الطَّالِبِيُّ فَإِنِّي لم أعرفهُ فَهُوَ أَجود مَا ورد فِي الْبَاب فَإِن إِبْرَاهِيم ثِقَة وَأَبُو الْفضل الْمروزِي لَعَلَّه صَدَقَة بن الْفضل أحد أَرْكَان الحَدِيث وَعِيسَى ثِقَة والسيناني الْفضل بن مُوسَى ثِقَة

انْتَهَى

وَحَدِيث طَاهِر بن الْفضل الْحلَبِي رَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء وَالله أعلم

798 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي الحَدِيث كفن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبَيْنِ سَحُولِيَّيْنِ وحضوريين

قَالَ الْمُصَنّف وَسَحُول وَحُضُور قريتَان بِالْيمن ينْسب إِلَيْهِمَا الثِّيَاب

ثمَّ اسْتشْهد بِالْحَدِيثِ

قلت الأول رواه أَصْحَاب الْكتب السِّتَّة عَن عَائِشَة قَالَت كفن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي ثَلَاثَة أَثوَاب بيض سحُولِيَّة لَيْسَ فِيهَا قَمِيص وَلَا عِمَامَة

انْتَهى وَلم أَجِدهُ بِلَفْظ الْمُصَنّف

وَأما رِوَايَة الحضوريين فَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كتاب الْعِلَل من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق الصَّاغَانِي حَدثنَا أَبُو الْجواب حَدثنَا سُفْيَان الثَّوْريّ عَن عَاصِم بن عبيد الله عَن سَالم عَن ابْن عمر قَالَ كفن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي ثَلَاثَة أَثوَاب ثَوْبَيْنِ حضوريين وثوب حبرَة

انْتَهى وَقَالَ تفرد بِهِ الصَّاغَانِي عَن أبي الْجواب

انْتَهى

وَفِي الصِّحَاح حُضُور بِفَتْح الْحَاء بلد بِالْيمن

799 - الحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن أمة قَالَ لَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَيْن رَبك) فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاء فَقَالَ إِنَّهَا مُؤمنَة)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث مُعَاوِيَة بن الحكم السّلمِيّ قَالَ بَيْنَمَا أَنا أُصَلِّي مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذْ عطس رجل من الْقَوْم فَقلت لَهُ يَرْحَمك الله . . .

إِلَى أَن قَالَ فَقلت يَا رَسُول الله جَارِيَة لي صككتها صَكَّة فَعظم ذَلِك عَلَى رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقلت يَا رَسُول الله أَفلا أعْتقهَا قَالَ ائْتِنِي بهَا) فَجِئْته بهَا فَقَالَ لَهَا (أَيْن الله) قَالَت فِي السَّمَاء قَالَ من أَنا) قَالَت أَنْت رَسُول الله قَالَ (أعْتقهَا فَإِنَّهَا مُؤمنَة)

انْتهى بِلَفْظ أبي دَاوُد وَطوله مُسلم

800 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه رأى جِبْرِيل سَاقِطا كالحلس

(253/505)

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي أول شعب الْإِيمَان وَفِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَابْن سعد فِي الطَّبَقَات وَابْن خُزَيْمَة فِي كتاب التَّوْحِيد وَالْتزم فِي أَوله أَن مَا يرويهِ من الْأَحَادِيث صَحِيح ثَابت بأسانيد ثَابِتَة صَحِيحَة مَوْصُولَة إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط من حَدِيث سعيد بن مَنْصُور حَدثنَا الْحَارِث بن عبيد الْإِيَادِي عَن ابْن عمرَان الْجونِي عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (بَيْنَمَا أَنا قَاعد إِذْ جَاءَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فوكز بَين كَتِفي فَقُمْت إِلَى شَجَرَة فِيهَا كوكري الطير فَقعدَ فِي أَحدهمَا وَقَعَدت فِي الآخر فَسَمت وَارْتَفَعت حَتَّى سدت الْخَافِقين وَأَنا أقلب طرفِي وَلَو شِئْت أَن أمس السَّمَاء لمسست فَالْتَفت إِلَيّ جِبْرِيل كَأَنَّهُ حلس لَاطَ فَعرفت فضل علمه

بِاللَّه عَلّي وَفتح بَاب من أَبْوَاب السَّمَاء فرَأَيْت النُّور الْأَعْظَم وَإِذا دون الْحجاب رَفْرَف الدّرّ والياقوت وَأَوْحَى الله إِلَيّ مَا شَاءَ أَن يُوحى) انْتَهَى قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم رَوَاهُ عَن أبي عمرَان إِلَّا الْحَارث بن عبيد وَهُوَ مَشْهُور من أهل الْبَصْرَة

وَقَالَ الْبَيْهَقِيّ هَكَذَا رَوَاهُ الْحَارث بن عبيد عَن أبي عمرَان وَقد رَوَاهُ حَمَّاد بن سَلمَة عَن أبي عمرَان الْجونِي عَن مُحَمَّد بن عُمَيْر بن عُطَارِد أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . انْتَهَى

وَهَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَيْهَقِيّ رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد أخبرنَا حَمَّاد ابْن سَلمَة عَن أبي عمرَان الْجونِي عَن مُحَمَّد بن عُمَيْر بن عُطَارِد أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(254/505)

كَانَ فِي ملأ من أَصْحَابه فَأَتَاهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ فنكت فِي ظَهْري فَذهب بِي إِلَى شَجَرَة فِيهَا مثل وكري الطير فَقعدَ فِي أَحدهمَا وَقَعَدت فِي الآخر فنشأت بِنَا سَحَابَة حَتَّى مَلَأت الْأُفق فَلَو بسطت يَدي إِلَى السَّمَاء لنلتها ثمَّ أَنَّهَا دُلِّي بِسَبَب فهبطت فَوَقع النُّور فَوَقع جِبْرِيل مغشيا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ حلس فَعرفت فضل خَشيته عَلَى خشيتي فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ أَنَبِيًّا عبدا أم نَبيا ملكا وَإِلَى الْجنَّة مَا أَنْت فَأَوْمَى إِلَيّ جِبْرِيل وَهُوَ مُضْطَجع بل نَبيا عبدا)

انْتَهى وَهَذَا مُرْسل

وَالْأول فِيهِ الْحَارث بن عبيد وَهُوَ وَإِن أخرج لَهُ مُسلم فِي صَحِيحه فقد ضعفه لابْن معِين وَقَالَ أَحْمد مُضْطَرب الحَدِيث وَقَالَ أَبُو حَاتِم لَا يحْتَج بِهِ وَقَالَ ابْن حبَان كثير الْوَهم فَلَا يحْتَج بِهِ إِذا انْفَرد وَهَذَا الحَدِيث من غرائبه وَلَعَلَّه مَنَام

وَالله أعلم

وَقَالَ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية بَاب ذكر أَشْيَاء رُوِيَ أَنه رَآهَا عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَة الْمِعْرَاج وَذكر أَشْيَاء من جُمْلَتهَا مَا رَوَاهُ من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق ابْن خُزَيْمَة حَدثنَا مُحَمَّد بن مَيْمُون حَدثنَا سُفْيَان عَن مَالك بن مغول عَن زبيد عَن مرّة قَالَ قَالَ عبد الله بن مَسْعُود إِن نَبِيكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذكر سِدْرَة الْمُنْتَهى إِلَى أَن قَالَ فَوَقع جِبْرِيل فَصَارَ كالحلس الْملقى ثمَّ قَالَ وَهَذَا لَا يَصح وَابْن مَيْمُون مُنكر الحَدِيث

(255/505)

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث الله عبيد بن عَمْرو عَن عبد الْكَرِيم الْجَزرِي عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن جَابر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (مَرَرْت فِي السَّمَاء الرَّابِعَة بِجِبْرِيل وَهُوَ كالحلس الْبَالِي من خشيَة الله تَعَالَى)

انْتَهى

وَهَذَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا أَبُو زرْعَة عبد الرَّحْمَن بن عَمْرو حَدثنَا عَمْرو بن عُثْمَان حَدثنَا عبيد الله بن عَمْرو بِهِ سَوَاء

801 - الحَدِيث السَّادِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا أَنا من دد وَلَا الدَّد مني)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي سنَنه فِي الشَّهَادَات وَالْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب من حَدِيث أبي زُكَيْر يحيى بن مُحَمَّد بن قيس عَن عَمْرو بن أبي عَمْرو سَمِعت أنس بن مَالك يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لست من دد وَلَا دد مني)

انْتَهى زَاد الْبَزَّار قَالَ يَحْيَى يَقُول لست من الْبَاطِل وَلَا الْبَاطِل مني ثمَّ قَالَ وَلَا نعلمهُ يرْوى إِلَّا عَن أنس وَلَا نعلم رَوَاهُ عَن عَمْرو ابْن أبي عَمْرو إِلَّا يَحْيَى بن قيس

انْتَهى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وأعله بِيَحْيَى وَقَالَ عَامَّة رواياته مُسْتَقِيمَة إِلَّا هَذَا الحَدِيث وَهُوَ يعرف بِهِ

انْتَهى

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله وَقد رَوَاهُ الدَّرَاوَرْدِي عَن عَمْرو بن أبي عَمْرو عَن الْمطلب بن

عبد الله عَن مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء قَالَ وَسَأَلت أبي وَأَبا زرْعَة أَيهمَا أشبه حَدِيث يَحْيَى أَو حَدِيث الدَّرَاورْدِي فَقَالَا حَدِيث الدَّرَاورْدِي أشبه انْتَهَى

802 - الحَدِيث السَّابِع

(256/505)

جَاءَ فِي الحَدِيث (لَا يعذب بالنَّار إِلَّا خَالقهَا)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَهُوَ فِي البُخَارِيّ فِي الْجِهَاد عَن سُلَيْمَان بن يسَار عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا يعذب بالنَّار إِلَّا الله) وَفِي لفظ أبي دَاوُد (لَا يعذب بالنَّار إِلَّا رب النَّار)

803 - الحَدِيث الثَّامِن

قَالَ المُصَنّف فِي قَوْله وَأَدْخلنَاهُ فِي رَحْمَتنَا المُرَاد بِالرَّحْمَةِ الْجنَّة قَالَ وَمِنْه فِي الحَدِيث (هَذِه رَحْمَتي أرْحم بهَا من أَشَاء)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب التَّوْحِيد فِي بَاب مَا جَاءَ فِي قَوْله تَعَالَى إِن رَحْمَة الله قريب من الْمُحْسِنِينَ وَمُسلم فِي صفة النَّار عَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تحاجَّتْ النَّار وَالْجنَّة فَقَالَت

النَّار أُوثِرت بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَت الْجنَّة فَمَالِي لَا يدخلني إِلَّا ضعفاء النَّاس

وَسَقَطهمْ فَقَالَ الله تَعَالَى للجنة أَنْت رَحْمَتي أرْحم بهَا من أَشَاء من عبادي وَقَالَ للنار أَنْت

عَذَابي أعذب بك من أَشَاء من عبادي وَلكُل وَاحِدَة مِنْكُمَا ملؤُهَا)

انْتَهَى

وَأخرجه مُسلم عَن الْخُدْرِيّ من حَدِيث أبي صَالح عَنهُ بِنَحْوِ حَدِيث أبي هُرَيْرَة سَوَاء

804 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (مَا من مكروب يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاء إِلَّا

اسْتُجِيبَ لَهُ يَعْنِي دُعَاء يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام فِي بطن الْحُوت لَا إِلَه إِلَّا أَنْت سُبْحَانَكَ إِنِّي

ظلمت نَفسِي)

(257/505)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات وَالنَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث إِبْرَاهِيم ابْن مُحَمَّد

بن سعد عَن أَبِيه عَن جده سعد بن أبي وَقاص قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (

دَعْوَة ذِي النُّون إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بطن الْحُوت لَا إِلَه إِلَّا أَنْت سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت من الظَّالمين

فَإِنَّهُ لم يدع بهَا رجل مُسلم فِي شَيْء قطّ إِلَّا اسْتَجَابَ الله لَهُ) انْتَهى وَسكت التِّرْمِذِيّ عَنهُ إِلَّا أَنه قَالَ وَرَوَاهُ جمَاعَة عَن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد ابْن سعد عَن سعد فَلم يقل فِيهِ عَن أَبِيه

انْتَهى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السّبْعين بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْفَضَائِل عَن كثير بن يزِيد عَن الْمطلب ابْن عبد الله بن حنْطَب عَن مُصعب بن سعد عَن سعد فَذكره وَقَالَ إِنَّه شَاهد لحَدِيث إِبْرَاهِيم وَلَفظه فِيهِ قَالَ أَلا أخْبركُم بِشَيْء إِذا نزل بِأحد مِنْكُم كرب أَو بلَاء فَدَعَا بِهِ إِلَّا فرج عَنهُ قيل بلَى يَا رَسُول الله قَالَ دُعَاء ذِي النُّون لَا إِلَه إِلَّا أَنْت سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت من الظَّالِمين)

انْتَهى

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن مُعْتَمر بن سُلَيْمَان عَن معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي أُمَامَة بن سهل بن حنيف عَن سعد

805 - الحَدِيث الْعَاشِر

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الْمَسْجِد وحول الْكَعْبَة ثلثمِائة وَسِتُّونَ صنما وَكَانَت صَنَادِيد قُرَيْش فِي الْحطيم فجَلَسَ إِلَيْهِم عَلَيْهِ السَّلَام فعرض لَهُ النَّضر بن الْحَارِث فَكَلمهُ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى أَفْحَمَهُ ثمَّ تَلا عَلَيْهِم إِنَّكُم وَمَا تَعْبدُونَ من دون الله . . . الْآيَة فَأقبل عبد الله ابْن الزبعري فَأَخْبرُوهُ بمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ أما وَالله لَو وجدته لَخَصَمْته فَدَعوهُ فَقَالَ عبد الله أَأَنْت قلت ذَلِك قَالَ نعم) قَالَ قد خصمتك وَرب الْكَعْبَة أَلَيْسَ الْيَهُود عبدُوا عُزَيْرًا وَالنَّصَارَى عبدُوا الْمَسِيح وبنوا مليح عبدُوا الْمَلَائِكَة فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (بل هم عبدُوا الشَّيَاطِين الَّتِي أَمرتهم بذلك) فَنزلت إِن الَّذين سبقت لَهُم منا الْحُسْنَى . . . الْآيَة

قلت رَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول أخبرنَا عمر بن أَحْمد بن عمر الْمَاوَرْدِيّ أَنا عبد الله بن مُحَمَّد بن نصر الرَّازِيّ أَنا مُحَمَّد بن أَيُّوب أَنا عَلّي بن الْمَدِينِيّ حَدثنَا يحْيَى بن نوح حَدثنَا أَبُو بكر بن عَيَّاش عَن عَاصِم بن أبي النجُود عَن أبي رزين عَن أبي يحْيَى قَالَ قَالَ ابْن عَبَّاس لما نزلت إِنَّكُم وَمَا تَعْبدُونَ من دون الله حصب جَهَنَّم أَنْتُم لَهَا وَارِدُونَ شقّ ذَلِك عَلَى قُرَيْش وَقَالُوا يشْتم آلِهَتنَا فجَاء ابْن الزبعري فَقَالَ مَا لكم قَالُوا يشْتم آلِهَتنَا قَالَ فَمَا قَالَ قَالُوا قَالَ إِنَّكُم وَمَا تَعْبدُونَ من دون الله حصب جَهَنَّم أَنْتُم لَهَا وَارِدُونَ قَالَ ادعوهُ لي فَلَمَّا دعِي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَا مُحَمَّد هَذَا شَيْء لآلهتنا خَاصَّة أَو لكل من عبد من دون الله قَالَ لَا بل لكل من عبد من دون الله)

فَقَالَ ابْن الزبعري خصمتك وَرب الْكَعْبَة أَلَسْت تزْعم أَن الْمَلَائِكَة عباد صالحون وَأَن عِيسَى عبد صَالح وَأَن عُزَيْرًا عبد صَالح وَهَذِه بَنو مليح يعْبدُونَ الْمَلَائِكَة وَهَذِه النَّصَارَى يعْبدُونَ عِيسَى وَهَذِه الْيَهُود يعْبدُونَ عُزَيْرًا قَالَ فضج أهل مَكَّة

فَأنْزل الله إِن الَّذين سبقت لَهُم منا الْحُسْنَى . . . الْآيَة

انْتهى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد ابْن أَيُّوب بِهِ سندا ومتنا

وَفِي أَوَائِل سيرة ابْن هِشَام عَن ابْن إِسْحَاق قَالَ جلس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فِي الْمَسْجِد مَعَ رجال قُرَيْش فَعرض لَهُ النَّضر بن الْحَارِث فَكَلمهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أفحمه ثمَّ تَلا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم إِنَّكُم وَمَا تَعْبدُونَ من دون الله حصب جَهَنَّم

. . . الْآيَة وَقَامَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقْبل عبد الله بن الزبعري حَتَّى جلس فَقَالَ لَهُ الْوَلِيد بن الْمُغيرَة زعم مُحَمَّد أَنا وَمَا نعْبد من آلِهَتنَا هَذِه حصب جَهَنَّم فَقَالَ عبد الله بن الزبعري أما وَالله لَو وجدته لَخَصَمْته فَسَلُوا مُحَمَّدًا أكل مَا يعبد من دون الله فِي جَهَنَّم مَعَ من عَبده فَنحْن نعْبد الْمَلَائِكَة وَالْيَهُود تعبد عُزَيْرًا وَالنَّصَارَى تعبد الْمَسِيح فَعجب الْوَلِيد وَمن كَانَ مَعَه فِي الْمجْلس من قَول عبد الله ابْن الزبعري وَرَأَوا أَنه قد احْتج وخاصم فَذكر ذَلِك لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ (إِن كل من أحب أَن يعبد من دون الله فَهُوَ مَعَ من عَبده إِنَّهُم إِنَّمَا يعْبدُونَ الشَّيَاطِين وَمن أَمرتهم بِعِبَادَتِهِ) فَأنْزل الله إِن الَّذين سبقت لَهُم منا الْحسنى . . . الْآيَة

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ إِلَى ابْن إِسْحَاق بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور

وَصدر الحَدِيث رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي آخر مُعْجَمه الصَّغِير من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن عَمْرو بن حزم الْأنْصَارِيّ عَن عَليّ بن عبد الله بن الْعَبَّاس عَن ابْن عَبَّاس قَالَ دخل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّة يَوْم الْفَتْح وعَلى الْكَعْبَة ثَلَاثمِائَة وَسِتُّونَ صنما قد شدت أَقْدَامهَا بِرَصَاص فجَاء وَمَعَهُ

قضيب يهوي إِلَى كل صنم مِنْهَا فيخر لوجهه وَيَقُول جَاءَ الْحق وزهق الْبَاطِل إِن الْبَاطِل كَانَ زهوقا حَتَّى مر عَلَيْهَا كلهَا

انْتهى وَقَالَ تفرد بِهِ ابْن إِسْحَاق

وَذكره الثَّعْلَبِيّ ثمَّ الْبَغَوِيّ الحَدِيث بِلَفْظ المُصَنّف من غير سَنَد

وَقَالَ السُّهيْلي فِي الرَّوْض الْأنف وَاعْتِرَاض ابْن الزبعري عَنهُ غير لَازم فَإِن الْخطاب مَخْصُوص بِقُرَيْش وَمَا يعْبدُونَ من الْأَصْنَام وَكَذَلِكَ أَتَى بِمَا الْوَاقِعَة عَلَى مَا لَا يعقل انْتهى

وَهَذَا مَنْقُوص بِمَا فِي متن الواحدي أَن ابْن الزبعري قَالَ يَا مُحَمَّد هَذَا شَيْء لِآلِهَتِنَا خَاصَّة أَو لكل من عبد من دون الله فَقَالَ لَا بل لكل من عبد من دون الله فَقَالَ خصمتك وَرب الْكَعْبَة

وَفِي متن السِّيرَة قريب من ذَلِك . . .

806 - قَوْله رُوِيَ أَن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَرَأَ الْآيَة الْمَذْكُورَة ثمَّ قَالَ أَنا مِنْهُم وَأَبُو بكر وَعمر وَعُثْمَان وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر وَسعد وَعبد الرَّحْمَن بن عَوْف ثمَّ أُقِيمَت الصَّلَاة فَقَامَ يجر رِدَاءَهُ وَهُوَ يَقُول لَا يسمعُونَ حَسِيسهَا

قلت رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم والثعلبي وَابْن مرْدَوَيْه فِي تفاسيرهم من حَدِيث مُحَمَّد بن الْحسن بن أبي يزِيد الْهَمدَانِي حَدثنَا لَيْث بن أبي سليم عَن ابْن عَم النُّعْمَان ابْن بشير وَكَانَ من سمار عَلّي قَالَ تلا عَلّي عَلَيْهِ السَّلَام هَذِه الْآيَة إِن الَّذين سبقت لَهُم منا

الْحُسْنَى . . . الْآيَة فَقَالَ أَنا مِنْهُم وَأَبُو بكر وَعمر وَعُثْمَان وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر وَعبد الرَّحْمَن بن عَوْف ثمَّ أُقِيمَت الصَّلَاة فَقَامَ عَلّي يجر رِدَاءَهُ وَيَقُول لَا يسمعُونَ حَسِيسهَا

انْتَهى

بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ لم يذكر فِيهِ سَعْدا وَلَفظ ابْن أبي حَاتِم وَعبد الرَّحْمَن بن عَوْف أَو قَالَ سعد شكّ فِيهِ

(262/505)

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن دَاوُد بن علية الْحَارِثِيّ عَن لَيْث بن أبي سليم بِهِ . . . فَذكره وَلم يذكر فِيهِ سَعْدا كَالثَّعْلَبِيّ

807 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اللَّهُمَّ اشْدُد وطأتك عَلَى مُضر)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول حِين يفرغ من صَلَاة الْفجْر من الْقِرَاءَة وَيكبر وَيرْفَع رَأسه (سمع الله لمن حَمده رَبنَا وَلَك الْحَمد) ثمَّ يَقُول وَهُوَ قَائِم اللَّهُمَّ أَنْج الْوَلِيد بن الْوَلِيد وَسَلَمَة بن هِشَام وَعَيَّاش بن أبي ربيعَة وَالْمُسْتَضْعَفِينَ من الْمُؤمنِينَ اللَّهُمَّ شدد وطأتك عَلَى مُضر وَاجْعَلْهَا

عَلَيْهم سِنِين كَسِنِي يُوسُف اللَّهُمَّ الْعَن لحيان ورِعْلًا وَعصيّة عَصَتْ الله ورَسُوله) قَال ثمَّ بلغنَا أَنه ترك ذَلِك لما نزلت لَيْس لَك من الْأَمر شَيْء . . .

انْتَهى

808 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ اقْتَرَبَ للنَّاس حسابهم حَاسبه الله حسابا يَسِيرا وَصَافحهُ وَسلم عَلَيْهِ كل نَبِي ذكر فِي الْقُرْآن)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو الْحُسَيْن عَلّي بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن الجرْجَانِيّ الْمُقْرِئ حَدثنَا أَبُو عَلّي بن حُبَيْش الْمُقْرِئ الدينَورِي حَدثنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن مُوسَى الرقَاق الرَّازِيّ حَدثنَا عبد الله بن روح الْمَدَائِنِي حَدثنَا شَبابَة بن سوار الْفَزارِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الْوَاحِد الْفَزارِيّ عَن عَلّي بن زيد عَن عَطاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيرِه الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمَذْكُور فِي سُورَة يُونُس. انتهى انتهى. ا هـ

﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 373.359﴾

(264/505)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الأنبياء

قوله تعالى في سورة الأنبياء «1» :

(وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ) ، الآية/ 78 .

حكم داود بأن الشياء تسلم إلى صاحب الزرع ويقضى بها له .

وقال سليمان : تدفع إليه الغنم ليصيب من ألبانها وأصوافها حتى يعود الزرع كما كان .

وصار الحسن إلى مثل ذلك في شرعنا ، إذ لم ير في شرعنا ناسخا مقطوعا به عنده .

وقال قائلون : سليمان أوحى إليه بذلك ، فكان ناسخا لما قضى به داود ، وهذا على قول

من منع اجتهاد الأنبياء في الوقائع .

وقال آخرون : بل اجتهد داود فلم يصب الأشبه وأصابه سليمان .

وقال آخرون : بل أخطأ خطأ مغفورا له .

---

(1) سميت بذلك لاشتمالها على فضائل جليلة ، لجماعة منهم عليهم الصلاة والسلام .

(265/505)

وقال آخرون : لا يجوز أن يكون ما حكما به مستدركا بالاجتهاد ، فإن الاجتهاد مبني على أصول ، وذلك لا يستدرك إلا توقيفا .

وهذا يحتمل الخلاف ، فإن النظر في المصالح يجوز أن يقود إلى هذا :

وأن داود أراد جبر حق صاحب الزرع ، وسليمان أراد الجمع بين الحقين .

وأبو حنيفة لا يرى الضمان أصلا على صاحب البهيمة ، والشافعي يفصل بين الليل والنهار ، وهو قول مالك .

والمسألة مستقصاة في أصول الفقه ، ومتعلقنا منها بالآية ما ذكرناه فقط «1» . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 275 . 276﴾

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص الجزء الخامس، والتفسير للقرطبي سورة الأنبياء .

[. . . . . .]

(266/505)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الأنبياء» (21)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

«وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» (3) خرج تقدير فعل الجميع ها هنا على غير المستعمل فى المنطق لأنهم يقولون فى الكلام وأسروا النّجوى الذين ظلموا مجازه مجاز إضمار القوم فيه وإظهار كفايتهم فيه التي ظهرت فى آخر الفعل ثم جعلوا «الَّذِينَ» صفة الكناية المظهرة، فكان مجازه «و أسرّ القوم الذين ظلموا النجوى» فجاءت «الَّذِينَ» صفة لهؤلاء المضمرين، لأن فعلوا ذلك فى موضع فعل القوم ذلك وقال آخرون : بل قد تفعل العرب هذا فيظهرون عدد القوم فى فعلهم إذا بدءوا بالفعل قال أبو عمرو الهذلي : «أكلونى البراغيث» بلفظ الجميع فى الفعل وقد أظهر الفاعلين بعد الفعل ومجازه مجاز ما يبدأ بالمفعول قبل الفاعل لأن

النجوى المفعولة جاءت قبل الذين أسروها والعرب قد تفعل ذلك وقال :

فجذّ حبل الوصل منها الواشي

[573] و«أَسَرُّوا» من حروف الأضداد ، أي أظهروا .

(267/505)

«أَضْغاثُ أَحْلامٍ» (5) واحدها ضغث وهو ما لم يكن له تأويل ولا تفسير ، قال :

كضغث حلم غرّ منه حاله

«1» [574] .

«قَصَمْنا» (11) أهلكنا . .

«فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا» (12) أي لقوه ورأوه ، يقال : هل أحسست فلانا ، أي هل وجدته

ورأيته ولقيته «2» ويقال : هل أحسست مني ضعفا ، وهل أحسست من نفسك برءا

قال الشاعر «3» :

أحسن به فهن إليه شوس

(650) .

«إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ» (12) أي يهربون ويسرعون ويعدون ويعجلون ، والمرأة تركض

ذيلها برجليها إذا مشت، أي تحرّكه قال الأعشى:

والراكضات ذيول الخزّ آونة والرافلات على أعجازها العجل

«4» [575] العجل: القرب واحدتها عجلة.

---

(1) . - 574: فى القرطبي 11/ 270.

(2) . - 5 - 6 «يقال - لقيته»: روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة (فتح الباري 7/ 331).

(3) . - 7 «الشاعر»: هو أبو زبيد الطائي.

(4) . - 575: ديوانه ص 46 والجمهرة 2/ 102 واللسان والتاج (عجل).

(268/505)

«حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» (15) مجاز الخامد مجاز الهامد كما يقال للنار إذا طفئت: خمدت النار.

والحصيد: مجازه مجاز المستأصل وهو يوصف بلفظ الواحد والاثنين والجميع من الذكر والأنثى سواء كأنه أجرى مجرى المصدر الذي يوصف به الذكر والأنثى والاثنان والجميع منه على لفظه، وفى آية أخرى: «كانَتا رَتْقاً» (21/ 30) مثله..

«لاَ يَسْتَحْسِرُونَ» (19) أي لا يفترون ولا يعيون ولا يملّون، ويقال:

حسرت البعير..

«أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما» (30) فالسموات جميع والأرض واحدة فخرج لفظ صفة الجميع على تقدير لفظ صفة الواحد كما ترى ولم يجىء «أنّ السماوات والأرض كنّ رتقا» ولا «ففتقناهن»، والعرب قد تفعل هذا إذا كان جميع موات أو جميع حيوان ثم أشركوا بينه وبين واحد من الموات أو من الحيوان جعلوا لفظ صفتهما أو لفظ خبرهما على لفظ الاثنين وقال الأسود بن يعفر:

أن المنيّة والحتوف كلاهما يوفى المخارم يرقبان سوادى

«1» [576] فجميع وواحد جعلهما اثنين، وقال الراعي:

أخليد إنّ أباك ضاف وساده همّان باتا جنبة ودخيلا

(142)

---

(1). - 576: من قصيدة مفضلية 445 - 457 وهى فى ملحق ديوان الأعشى ص 296 - 298 والأغانى 11/ 129.

ثم جعل الاثنين جميعا فقال:

طرقا فتلك هماهمى أقريهما قلصا لواقح كالقسىّ وحولا

(142) فجعل الهماهم وهى جميع واحدا وجعل الهمّين جميعا وهما اثنان وأنشدنى

«1» غالب أبو على النّفيلى للقطامى.

ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

«2» [577] فجعل «حبال قيس» وهى جميع وحبال تغلب وهى جميع اثنين..

«كانَتا رَتْقاً» مجازه مجاز المصدر الذي يوصف بلفظه الواحد والاثنان والجميع من المذكر والمؤنث سواء ومعنى الرّتق الذي ليس فيه ثقب ثم فتق اللّه السماء بالمطر وفتق الأرض بالشجر «3».

[«فِجاجاً»] (31) الفجاج المسالك واحدها فجّ، وقال العجّاج لحميد الأرقط:

«الفجاج»، وتنازعا أرجوزتين على الطاء فقال له الحميد:

الخلاط يا أبا الشّعثاء، فقال له العجاج. الفجاج أوسع من ذلك يا ابن أخى، أي لا تخلط أرجوزتى بأرجوزتك «4».

---

(1). - 3 - 6 «وأنشدنى... اثنين»: روى الطبري هذا الكلام عنه (17/ 14). [.....].

(2). - 577: ديوانه ص 37 والطبري 17/ 14، 19/ 17 والقرطبي 13/

.63

(3) . - 8 - 9 «فتق . . بالشجر» : وانظر أصحاب هذا التأويل فى الطبري 17/

.13

(4) . - 10 - 13 «الفجاج . . . بأرجوزتك» : روى هذا الكلام عن أبى عبيدة فى

اللسان (خلط) .

(270/505)

«كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (33) الفلك : القطب الذي تدور به النجوم «1» قال :

باتت تناصى الفلك الدوارا حتى الصباح تعمل الاقتارا

«2» [578] .

«يَسْبَحُونَ» أي يجرون ، و«كُلٌّ» تقع صفته وخبره وفعله على لفظ الواحد لأن لفظه لفظ

الواحد والمعنى يقع على الجميع لأن معناه معنى الجميع وكذلك «كلاهما» قال الشاعر

«3» :

أن المنيّة والحتوف كلاهما يوفى المخارم يرقبان سوادى

(576) قال «يوفى» على لفظ الواحد ثم عاد إلى المعنى فجعله اثنين فقال : يرقبان

سوادى ، ومعنى كل المستعمل يقع أيضا على الآدميين فجاء هنا فى غير جنس الآدميين

والعرب قد تفعل ذلك قال النّابغة الجعدىّ :

تمزّزتها والدّيك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبوا

(310) وفى رواية أخرى «لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ» (21/ 65) وفى آية أخرى

«وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» (12/ 4) وفى آية أخرى.

«يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ» (27/ 18) . .

«خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ» (37) مجازه مجاز خلق العجل من الإنسان

---

(1) . - 1 «الفلك . . . النجوم» : قال الطبري (17/ 15) وقال آخرون هو القطب

. . .

واستشهد قائل هذا القول لقوله هذا بقول الراجز .

(2) . - 578 : فى الطبري 17/ 16 .

(3) . - 5 «الشاعر» هو الأسود بن يعفر .

وهو العجلة والعرب تفعل هذا إذا كان الشيء من سبب الشيء بدءوا بالسبب ، وفى آية أخرى «ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ» (28/ 76) .

والعصبة هى التي تنوء «1» بالمفاتيح ، ويقال : إنها لتنوء عجيزتها ، والمعنى أنها هى التي تنوء بعجيزتها ، قال الأعشى :

لمحقوقة أن تستجيبى لصوته وأن تعلمى أن المعان موفّق

(277) أي أن الموفّق معان . وقال الأخطل :

مثل القنافذ هدّاجون قد بلغت نجران أو بلغت سوآتهم هجر

«2» [579] وإنما السّوءة البالغة هجر ، وهذا البيت مقلوب وليس بمنصوب . .

«قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ» (42) مجازه : يحفظكم ويمنعكم ، قال ابن هرمة :

إنّ سليمى واللّه يكلؤها ضنّت بشىء ما كان يرزؤها

«3» «4» [580]

---

(1) . - 2 - 4 «أولى القوة . . . هى التي تنؤ» : انظر الطبري 17/ 18 والكامل للمبرد ص 209 .

(2) . - 579 : ديوانه ص 110 والكامل للمبرد ص 209 وشواهد المغني ص 328 .

(3) . - 580 : البيت مطلع قصيدة وقد قيل له إن قريشا لا تهمز فقال لأقولن قصيدة

أهمزها كلها بلسان قريش، بعضها فى شواهد المغني ص 279 وهو فى الطبري 17/ 20 والقرطبي 11/ 291 واللسان والتاج (كلأ).

(4) . - 581: ديوانه ص 217 والكامل للمبرد ص 209 والعيني 2/ 456.

(272/505)

«مِثْقالَ حَبَّةٍ» (47) مجازه وزن حبة.

«فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً» (58) أي مستأصلين قال جرير:

بنى المهلّب جذّ الله دابرهم أمسوا رمادا فلا أصل ولا طرف

«1» [582] لم يبق منهم شىء ولفظ «جذاذ» يقع على الواحد والاثنين والجميع من المذكر والمؤنث سواء بمنزلة المصدر..

«فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ» (61) أي أظهروه تقول العرب، إذا أظهر الأمر وشهر، كان ذلك على أعين النّاس. أي بأعين الناس، ويقول بعضهم جاؤوا به على رؤوس الخلق..

«فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» (63) فهذا من الموات وخرج مخرج الآدميين بمنزلة قوله «رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» (12/ 4) ويقال:

سألت وسلت تسال لا يهمز فهو بلغة من قال سلته.

«ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ» (65) مجازه: قلبوا، ويقال: نكست فلانا على رأسه، إذا قهره وعلاه ونحو ذلك..

«إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً» (71) أي غنيمة، قال لبيد بن ربيعة:

للّه نافلة الأعزّ الأفضل

«2» [583].

«وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ» (72) «وكل» يقع خبره على الواحد لأن لفظه لفظ الواحد ويقع خبره على خبر الجميع.

---

(1). - 582: ديوانه ص 390 والكامل ص 510.

(2). - 583: ديوانه 2/ 33 واللسان (أثل، نفل)

(273/505)

«إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» (78) النّفش أن تدخل فى زرع ليلا فتأكله وقالت: نفشت فى جدّادى، الجداد «1» من نسج الثوب تعنى الغنم..

«وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» (80) واللبوس: السلاح كلها من درع إلى رمح «2» وقال الهذلي:

ومعى لبوس للبئيس كأنه روق بجبهة ذى نعاج مجفل

«3» [584].

«وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ» (82) «و من» يقع على الواحد والاثنين والجميع من المذكر والمؤنث قال الفرزدق:

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

«4» [585] وكذلك يقع على المؤنث كقوله «وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً» (33/ 31)، وقد يجوز أن يخرج لفظ فعل «من» على لفظ الواحد والمعنى على الجميع كقولك: من يفعل ذلك، وأنت تسأل عن الجميع.

---

(1). - 2 «الجداد» الخيوط المعقدة وهو بالنبطية «كدادى» فى الجمهرة 3/ 502 والمعرب للجواليقى ص 95 واللسان (جدد).

(2). - 3 - 4 «واللبوس . . . . رمح»: روى ابن حجر هذا الكلام عن عبيدة فى فتح الباري 8/ 331. [. . . . .]

(3). - 584: البيت لأبى كبير الهذلي فى ديوان الهذليين 2/ 98.

(4). - 585: ديوانه ص 872 والكتاب 1/ 358 والشنتمرى 1/ 404 واللسان والتاج (منن) وشواهد المغني ص 281.

«وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» (93) مجازه واختلفوا وتفرقوا . .

«فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ» (94) أي فلا كفر لعمله ، وقال :

من الناس ناس لا تنام جدودهم وجدّى ولا كفران للّه نائم

«1» [586] .

«يَنْسِلُونَ» (96) يعجلون فى مشيهم كما ينسل الذئب ويعسل قال الجعدىّ :

عسلان الذئب أمسى قاربا برد الليل عليه فنسل

«2» [587] .

«حَصَبُ جَهَنَّمَ» (98) كل شىء ألقيته فى نار فقد حصبتها ، ويقال : حصب فى الأرض أي ذهب فيها . .

«لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها» (99) فهو من الموات الذي خرج مخرج الآدميين . .

«لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها» أي صوتها والحسيس والحسّ واحد «3» قال عبيد بن الأبرص :

فاشتال وارتاع من حسيسها وفعله يفعل المذءوب

«4» [588] فاشتال يعنى الثعلب رفع ذنبه.

---

(1) . - 586: فى الطبري 17/ 61 والجمهرة 3/ 415.

(2) . - 587: البيت منسوب فى الجمهرة (3/ 32) واللسان (عسل) للبيد ولم أجد فى ديوانه وقال فى اللسان: وقيل هو للنابغة الجعدي كما هو منسوب للجعدى فى القرطبي 11/ 341 وغير معزو فى الطبري 17/ 66، «كل ... حصبتها»: نقل ابن دريد هذا الكلام عنه فى الجمهرة 1/ 223.

(3) . - 12 «حسيسها ... واحد» نقل ابن حجر هذا الكلام عنه (فتح الباري 8/ 331).

(4) . - 588: ديوانه ص 11 وشعراء النصرانية 1/ 610.

(275/505)

«وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ» (103) مجازه مجاز المختصر المضمر فيه «ويقولون: هذا يومكم».

و «آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ «1»» (109) إذا أنذرت عدوّك وأعلمته ذلك ونبذت إليه الحرب حتى تكون أنت وهو على سواء وحذر فقد آذنته على سواء. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 34. 43 ﴾

---

(1) . - 3 - 5 «آذنتكم . . . سواء» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه (فتح الباري 8/ 331) .

(276/505)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الأنبياء عليهم السلام»

[سورة الأنبياء (21) : آية 11]

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11)

قوله سبحانه : وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً [11] وحقيقة القصم كسر الشيء الصلب . وجعل هاهنا مستعارا للعبارة عن إهلاك الجبارين من أهل القرى أصلب ما كانوا عيدانا ، وأمنع أركانا .

[سورة الأنبياء (21) : آية 15]

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15)

وقوله سبحانه : فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ [15] وفى هذه الآية استعارتان . لأنه سبحانه جعل القوم الذين أهلكهم بعذابه بمنزلة النبات المحصود ، الذي أنيم بعد قيامه ، وأهمد بعد اشتطاطه واهتزازه .

والاستعارة الأخرى قوله تعالى : خامِدِينَ والخمود من صفات النار ، كما كان الحصيد من صفات النبات . فكأنه سبحانه شبّه همود أجسامهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها . وقد يجوز أيضا - واللّه أعلم - أن يكون المراد تشبيههم بالنبات الذي حصد ثم أحرق . فيكون ذلك أبلغ فى صفتهم بالهلاك والبوار ، وامّحاء المعالم والآثار . لاجتماع صفتى الحصد والإحراق . وقال سبحانه : حَصِيداً خامِدِينَ . ولم يقل خامدا ، كما قال تعالى : فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ «1» ولم يقل خاضعة . لأنه سبحانه ردّ معنى خاضعين على أصحاب الأعناق ، لا على الأعناق . وكذلك يجوز رد معنى خامدين على القوم الذين أهلكوا ، لا على النبات الذي به شبّهوا .

---

(1) سورة الشعراء . الآية رقم 4 . [. . . . .]

وقيل معنى : حَتَّى «1» جَعَلْناهُمْ حَصِيداً أي سلطنا عليهم السيف يختليهم كما تختلى الزروع بالمنجل . وقد جاء فى الكلام : جعله اللّه حصيد سيفك ، وأسير خوفك .

[سورة الأنبياء (21) : آية 18]

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

وقوله سبحانه : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ [18] . وهذه استعارة . لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة ، التي يرجم بها ، كالحجارة وغيرها . فجعل - سبحانه - إيراد الحق على الباطل بمنزلة الحجر الثقيل ، الذي يرضّ ما صكّه ، ويدمغ ما مسّه . ولما بدأ تعالى بذكر قذف الحق على الباطل وفىّ الاستعارة حقها ، وأعطاها واجبها ، فقال سبحانه :

فَيَدْمَغُهُ ولم يقل فيذهبه ويبطله . لأن الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال ، وعلى طريق الغلبة والاستعلاء . فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه . والدماغ مقتل .

ولذلك قال سبحانه من بعد : فَإِذا هُوَ زاهِقٌ والزاهق : الهالك .

[سورة الأنبياء (21) : آية 30]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30)

وقوله سبحانه : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [30] .

وهذه استعارة. لأن الرّتق هو سد خصاصة «2» الشيء ، ويقال :

رتق فلان الفتق . إذا سدّه. ومنه قيل للمرأة : رتقاء . إذا كان موضع مرّها من الذّكر

ملتحما . وأصل ذلك مأخوذ من قولهم : رتق فتق الخباء والفسطاط وما يجرى مجراهما .

إذا خاطه . فكأن السموات والأرض كانتا كالشىء المخيط الملتصق بعضه ببعض ،

ففتقهما سبحانه ، بأن صدع ما بينهما بالهواء الرقيق ، والجو الفسيح .

---

(1) فى الأصل : (فجعلناهم) وهو تحريف من الناسخ . لأن الآية التي يبين المؤلف المجاز فيها هى قوله تعالى : «فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» .

(2) فى الأصل «حصاصه» بدون نقط .

(278/505)

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - صلوات اللّه عليه وآله - معنى أن السموات كانت لا تمطر ، والأرض لا تنبت . ففتق اللّه سبحانه السماء بالأمطار ، والأرض بالنبات «1» .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 32 الى 33]

وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ

وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

وقوله سبحانه : وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً [32] وهذه استعارة. لأن حقيقة السقف ما أظلّ الإنسان ، من علو بيت أو خباء ، أو ما يجرى مجرى ذلك. فلما كانت السماء تظل من تحتها ، وتعلو على أرضها ، حسن أن تسمّى «2» سقفا لذلك. ومعنى محفوظا : أي تحفظ «3» مما لا يمكن أن تحفظ من مثله سائر السقوف ، من الانفراج والانهدام والتشعث والاسترمام. وقد قيل : معنى ذلك حفظ السماء من مسارق السمع ، وتحصينها بمقاذف الشهب.

وقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [33]. وهذه استعارة. لأن أصل السبح هو التقلب والانتشار فى الأرض.

ومنه السباحة فى الماء. ولا يكون ذلك إلا من حيوان يتصرف. ولكن اللّه سبحانه لما جعل الليل والنهار والشمس والقمر مسخرة للتقلب فى هذا الفلك الدائر والصفيح السائر ، تتعاقب فيه وتتغاير ، وتتقارب وتتباعد ، حسن أن يعبّر عنها بما يعبر به عن الحيوان المتصرف ، وزيدت على ذلك شيئا ، فعبر عنها بالعبارة عن الحيوان المميز. فقيل : يسبحون ، ولم يقل :

تسبح ، لأنها فى الجري على الترتيب المتقن والتقدير المحكم أقوى تصرفا من الحيوان غير المميز. ولأن اللّه سبحانه أضاف إليها الفعل على تدبير ما يعقل ، فحسن أن يعبر عنها

بالعبارة

---

(1) نسب الشريف الرضى هذا الكلام للأمام على بن أبى طالب. وهذا التفسير منسوب لابن عباس رضى اللّه عنه، كما ذكرنا ذلك فى مقدمة الكتاب، وانظر «مناهل العرفان فى علوم القرآن» للزرقانى ج 1 ص 483. ورواية الإمام السيوطي فى «الإتقان» تؤيد قولنا، انظر ص 187 ج 2 من كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» للسيوطى.

(2) فى الأصل: يسمى بالياء وهو تحريف.

(3) فى الأصل: (يحفظ) بالياء وهو تحريف.

عما يعقل مثل قوله تعالى: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ «1». ومثل قوله سبحانه: قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ «2» فقال: ادخلوا ولم يقل ادخلن. لأن خطابها لما خرج على مخرج خطاب من يعقل كان الأمر لها على مثال أمر من يعقل. وقد مضى الكلام على ذلك فيما تقدم.

[سورة الأنبياء (21): آية 37]

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

وقوله سبحانه : خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ [37] . وهذه استعارة . والمراد أن الإنسان خلق مستعجلا بطلب «3» ما يؤثره ، واستطراف ما يحذره . واللّه سبحانه إنما يعطيه ما طلب ، ويصرف عنه ما رهب ، على حسب ما يعلمه من مصالحه ، لا على حسب ما يسنح من مآربه .

وقيل ذلك على طريق المبالغة فى وصف الإنسان بالعجلة ، كما يقال فى الرجل الذكي : إنما هو نار تتوقد ، وللإنسان البليد : إنما هو حجر جلمد .

فأما من قال من أصحاب التفسير : إن العجل هاهنا اسم من أسماء الطين ، وأورد عليه شاهدا من الشعر ، فلا اعتبار بقوله ، ولا التفات إلى شاهده ، فإنه شعر مولد «4» وقول فاسد .

[سورة الأنبياء (21) : آية 46]

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46)

وقوله سبحانه : وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ [46] .

ولفظ النفحة هاهنا مستعار . والمراد بها إصابة الشيء اليسير من العذاب .

---

(1) سورة يوسف . الآية رقم 4 .

(2) سورة النمل . الآية رقم 18 .

(3) فى الأصل : (يطلب) بالياء المثناة التحتية . وهو تحريف .

(4) أما الشعر الذي أنشدوه ليثبتوا به أن العجل هو الطين ، فهو قول الشاعر :

والنبع فى الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل انظر «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبى ج 11 ص 289 .

(280/505)

يقال : نفح فلان فلانا بيده . ونفح الفرس فلانا بحافره . إذا أصابه إصابة خفيفة ، ولم يبلغ فى إيلامه الغاية . فكأن النفحة هاهنا قدر يسير من العذاب ، يدل واقعه على عظيم متوقعه «1» ، [و] شاهده على فظيع غائبه .

[سورة الأنبياء (21) : آية 65]

ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65)

وقوله سبحانه : ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ ، لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ [65] وهذه استعارة . والمراد بها وصف ما لحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق عند لزوم الحجة ، فكأنهم شبّهوا بالمتردي على رأسه ، تدويخا بنصوع البيان ، وإبلاسا عند وضوح البرهان .

[سورة الأنبياء (21) : آية 74]

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74)

وقوله سبحانه : وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ [74] ولفظ القرية هاهنا مستعار . والمراد به الجماعة التي كانت تعمل الخبائث من أهل القرية . وكشف سبحانه عن ذلك بقوله : إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ وفى هذا الكلام خبر عجيب ، لأنه تعالى جعل ما يلى لفظ القرية مؤنثا ، إذ كانت مؤنثة ، فقال : الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ . وجعل بقية الكلام مذكرا ، فقال : إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ لأن المراد به مذكر ، فصار الكلام فى الآية على قسمين : قسم عائد إلى اللفظ ، وقسم عائد على المعنى . وهذا من عجائب القرآن .

[سورة الأنبياء (21) : آية 79]

فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79)

وقوله سبحانه : وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فاعِلِينَ [79] ويسبح هاهنا استعارة . وقد مضى من الكلام فى «الرعد» على قوله تعالى : وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ «2» ما هو بعينه تأويل تسبيح الجبال هاهنا . وقد قيل فى ذلك وجه آخر يخرج به

(1) فى الأصل بدون واو. وقد أثبتناها بين حاصرتين، لأن بها يستقيم نسق الكلام.

(2) سورة الرعد الآية رقم 13.

(281/505)

الكلام من حد الاستعارة. وهو أن يكون قوله تعالى: يُسَبِّحْنَ هاهنا مأخوذا من التسبيح، وهو الإبعاد فى السير، والتصرف فى الأرض. لا من التسبيح. فكأنه تعالى قال: وسخّرنا مع داود الجبال يسرن فى الأرض معه، ويتصرفن على أمره، طاعة له. ونظير ذلك قوله سبحانه فى «سبأ»: يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ «1» أي سيرى معه. والتأويب السير.

وإنما قال تعالى: يُسَبِّحْنَ عبارة عنها بتكثير الفعل من السّبح.

وقال سبحانه: إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا «2» أي تصرفا ومتسعا. ومجالا ومنفسحا.

[سورة الأنبياء (21): آية 91]

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

وقوله سبحانه: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها، فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا [91].

وهذه استعارة. والمراد هاهنا بالروح: إجراء روح المسيح عليه السلام فى مريم عليها السلام، كما يجرى الهواء بالنفخ. لأنه حصل معها من غير علوق من ذكر، ولا انتقال من طبق إلى طبق. وأضاف تعالى الروح إلى نفسه، لمزية الاختصاص بالتعظيم، والاصطفاء بالتكريم. إذا كان خلقه المسيح عليه السلام، من غير توسط مناكحة، ولا تقدم ملامسة.

[سورة الأنبياء (21) : آية 93]

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93)

وقوله سبحانه: وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ، كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ [93]. وهذه استعارة. والمراد بها: أنهم تفرقوا فى الأهواء، واختلفوا فى الآراء، وتقسمتهم المذاهب، وتشعبت بهم الولائج «3». ومع ذلك فجميعهم راجع إلى اللّه سبحانه، على أحد وجهين:

---

(1) سورة سبأ. الآية رقم 10.

(2) سورة المزمل. الآية رقم 7.

(3) الولائج: جمع وليجة، وهى بطانة الإنسان ومن يتخذه معتمدا عليه من غير أهله.

[.....]

إمّا أن يكون ذلك رجوعا فى الدنيا . فيكون المعنى : أنهم وإن اختلفوا فى الاعتقادات صائرون إلى الإقرار بأن اللّه سبحانه خالقهم ورازقهم ، ومصرفهم ومدبرهم . أو يكون ذلك رجوعا فى الآخرة ، فيكون المعنى أنهم راجعون إلى الدار التي جعلها اللّه تعالى مكان الجزاء على الأعمال ، وموفّى الثواب والعقاب وإلى حيث لا يحكم فيهم ، ولا يملك أمرهم إلا اللّه سبحانه .

وشبّه تخالفهم فى المذاهب ، وتفرقهم فى الطرائق ، مع أن أصلهم واحد ، وخالقهم واحد ، بقوم كانت بينهم وسائل متناسجة ، وعلائق متشابكة ، ثم تباعدوا تباعدا قطع تلك العلائق ، وشذب تلك الوصائل ، فصاروا أخيافا «1» مختلفين ، وأوزاعا «2» مفترقين .

[سورة الأنبياء (21) : آية 98]

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98)

وقوله سبحانه : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ [98] هذه استعارة . لأن الحصب هو ما يرمى به من الحصباء ، وهى الحصا الصغار . يقال : حصب فلان فلانا . إذا قذفه بالحصا . ويقولون : حصبنا الجمار . أي قذفنا فيها بالحصبات «3» . فشبّه سبحانه قذفهم فى نار جهنم بالحصباء التي يرمى بها . من ذلّ مقاذفهم ، وهوان مطارحهم .

وفى ذلك أيضا معنى لطيف، وهو أنه سبحانه لما قال: إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ والمراد هاهنا - والله أعلم - بما تعبدون: الأصنام، والأغلب

---

(1) الأخياف: المختلفون. يقال: هم إخوة أخياف، أي أمهم واحدة والآباء شتى.

(2) الأوزاع: الجماعات. ولا واحد لها.

(3) فى الأصل «بالحصيات» بالياء المثناة التحتية. وهو تحريف، والصواب بالحصبات. بالباء الموحدة التحتية.

عليها أن تكون «1» من الحجارة، حسن أن يسمّى الرمي بها فى نار جهنم حصبا، وتسميتها حصبا إذ كانت حجارة ومن جنس الحصباء، وجاز أن يسمّى قذف العابدين لها فى النار أيضا بذلك، حملا على حكمها، وإدخالا فى جملتها.

والفائدة فى قذف الأصنام مع عابديها فى نار جهنم أن يكون من زيادات عقابهم، ورجحانات عذابهم، لأنهم إذا كثرت مشاهدتهم لها فى أحوال العذاب كان ذلك أعظم لحسرتهم على عبادتها، وندمهم على الدعاء إليها.

وقد قيل أيضا إنها إذا حميت بوقود النار - نعوذ بالله منها - لصقت بأجسامهم، فكانت

من أقوى أسباب الإيلام لهم . وعلى هذا التأويل حمل جماعة من المفسرين قوله تعالى : فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ «2» وقوله سبحانه : يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ «3» . وهذه استعارة والمراد بها على أحد القولين : إبطال السماء ونقض بنيتها ، وإعدام جملتها . من قولهم :

طوى الدّهر آل فلان . إذا أهلكهم «4» ، وعفّى آثارهم . وعلى القول الآخر يكون الطّىّ هاهنا على حقيقته فيكون المعنى : إن عرض السموات يطوى «5» حتى يجتمع بعد انتثاره ، ويتقارب بعد تباعد أقطاره . فيصير كالسجل المطوى ، وهو ما يكتب فيه من جلد ، أو قرطاس ، أو ثوب ، أو ما يجرى مجرى ذلك . والكتاب هاهنا مصدر ، كقولهم :

---

(1) فى الأصل : (أن يكون) وهو تحريف من الناسخ .

(2) سورة البقرة . الآية رقم 24 .

(3) «للكتاب» بالإفراد ، هى قراءة نافع أما قراءة الجمع «للكتب» فهى قراءة حفص وحمزة والكسائي ويحيى وخلف

(4) فى : الأصل (أهلكم) وهو تحريف من الناسخ .

(5) فى الأصل : (تطوى) وهو تحريف .

كتبت ، كتابة ، وكتابا ، وكتبا . فيكون المعنى : يوم نطوى السماء كطى السجل ليكتب فيه ، فكأنه قال تعالى : كطى السجل للكتابة ، لأن الأغلب فى هذه الأشياء التي أومأنا إليها أن تطوى قبل أن تقع الكتابة فيها ، لأن ذلك الطى أبلغ فى التمكن منها . انتهى . ا هـ

﴿ تلخيص البيان صـ 227.235 ﴾

(285/505)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الأنبياء

سورة الأنبياء من أواخر ما نزل فى العهد المكى ، وسميت كذلك لأنها تضمنت أسماء ستة عشر نبيا مع إشارة وجيزة إلى تاريخهم ، وإن كان الكلام قد طال عن إبراهيم وحده . وفى السورة ما يشير إلى أن المرسلين من الرجال ، فهم أقدر على حمل الأعباء الجسام ومقارعة صناديد الكفر : " وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " . ومن العلماء من يسلك مريم وأم موسى فى عداد الأنبياء ، وإن لم تكن

حملة رسالات ! ! . ومطلع السورة يدل على أن مشركى مكة كانوا موغلين فى الضلال ! ، وعبادة الدنيا . كانت معرفتهم بالله غامضة ، ومعرفتهم بشركائه الموهومين قوية ، وكانوا ينكرون البعث والجزاء ، ولا يحيون إلا ليومهم الحاضر . وصورت السورة ذلك فى قوله تعالى: " اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم . . " وقد رد القرآن على منكرى البعث هنا بأدلة شتى ، منها قوله: " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين " لابد من حساب دقيق على ما نقدم ونؤخر ، وما أحسن قول المعرى: خلق الناس للبقاء فضلت - أمة يحسبونهم للنفاد . . ! إنما ينقلون من دار أعمال - إلى دار شقوة أو رشاد . . ! وقد استدل القرآن على البعث بالدليل البديهى على جوازه وهو أن خالق العالم أولا يستطيع إفناءه وإعادته ثانيا : " أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي . . " . وأغلب العلماء يقررون ما يسمى بنظرية السديم ، وهى تقوم على أن الكواكب كانت جزما واحدا ثم تبعثرت - بصنع الله - على هذا النحو المشاهد ، وأخذ كل كوكب مداره ! . والغريب أن باطن الأرض ملتهب ، وأن القشرة التى نعيش عليها - وهى إطار ذلك اللهب

المصهور – ملآى بالماء الذى يحيا به كل شىء وترف به الزروع والزهور ! ما أغرب هذه القدرة " وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون " . ولكن إنكار البعث شائع فى الأولين والآخرين . . والناس فى عصرنا الحاضر سكارى بخمرة الحياة الدنيا فما يفيقون منها ، ولا يسيغون كلاما عن اليوم الآخر ، بل لعلهم يسخرون منه " ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون " . ثم بين سبحانه أن الحساب فى الآخرة دقيق ، لا تجاوز فيه ولا تفريط ، لا وكس ولا شطط " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " . والمشركون يضفون إلى استبعاد البعث تكذيبهم للنبى – عليه الصلاة والسلام – واتهامه بالسحر والافتراء " وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم " ؟ وهذه الكلمة تخفى وراءها ضيق الناس بكل من آثره الله بموهبة جليلة أو اختصاص كريم ! . إن المرسلين يجب أن يكونوا بشرا مجانسين لنا حتى يمكن الاقتداء بهم والأخذ عنهم ، بشرا يحسون أشواقنا وآلامنا ، ويتعرضون بأبدانهم وغرائزهم إلى الابتلاء والمجاهدة ، كيف يتعلم البشر التسامى والتطهر من ملك نزل من السماء لن تكون له زوجة أو ولد ، ولن يتعرض لما يضحك ويبكى . . .

وقد طلب المشركون – ليؤمنوا – معجزة مادية قالوا : " فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون " . إنهم لن يؤمنون ولو جاءتهم كل آية كما قال فى سورة أخرى : " ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " وسينتهى العناد بهؤلاء إلى الهلاك . . . وينبه الله سبحانه العرب إلى أنه اختار محمدا منهم ليرفع شأنهم فى العالمين ، ويجعلهم أصحاب رسالة تحولهم

من

وعاة للغنم إلى رعاة للأمم : " لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون " .

ومع ذلك فقد دخل العرب الإسلام بشق النفس ، ولكنهم بعدما اطمأنوا إليه افتدوه بالنفس والنفيس ، وطوفوا به فى أرجاء العالمين . وكانت عقيدة التوحيد الأساس الذى انبعثوا به وجادلوا الناس فيه ، فالنصارى فى المشارق والمغارب يجعلون عيسى إلها ، ويجعلون جبريل إلها ، ولايزال التثليث شعارهم إلى يوم الناس هذا . وقد نفى القرآن هذه المزاعم ، وبين أن عيسى وجبريل " عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون

* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . . . " . وهذا التهديد واضح الدلالة ! فأى إله هذا الذى يهدد بجهنم ومع ذلك يستسلم ويستكين ؟ لو كانت فيه ألوهية لثار لكرامته ، وهاج محدثا فتنة فى الملأ الأعلى ! بيد أن شيئًا من ذلك لم يحدث ، وبقى النظام الكونى على العهد به من بدء الخليقة ! . لماذا ؟ لأن صاحب الكلمة الحاسمة فى الأرض والسموات واحد ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ! ماعداه خافض الرأس أمام جلاله ومجده ، لاينبس بكلمة تخالفه " وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون * أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون " . والأنبياء جميعا دعاة إلى توحيد الله ، ولا غرو فهم مرسلون من لدنه " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " . إذا كان هناك غير الله فلماذا صمت فلم يتكلم ؟ وعجز فلم يبعث أحدا ينبئ عنه ؟ إنه لا إله إلا الله ، وما يتبع المعددون إلا أصفارا . . . ولم تتبع السورة فى ذكر الأنبياء ترتيبا زمانيا ولا تحديدا مكانيا ، فقد بدأت بذكر موسى وهارون ، ثم ثنت بالكلام عن إبراهيم ، وهما من ذريته ! على عكس ما وقع فى

سورة مريم من ذكر إبراهيم أولا ، والسبب أن توراة موسى أشيع وأبقى ، فكان الإيماء إليها تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم: " وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون " ؟ .

ويلفتنا فى الحديث عن إبراهيم ذكر شبابه المؤمن القوى ، فقد شاع تحطيمه للأصنام ، وتهديده لها من قبل "سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم" وقد شاء إبراهيم أن يستبقى الصنم

الأكبر بعد ما جعل زملاءه جذاذا ، وأن يعفق الفأس برأسه ليقول للعتاد المذهولين نافيا التهمة عن نفسه: " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " . وظاهر أنه يوبخ المشركين ويتهكم بعبادتهم . . وجاء ذكر لوط بعد إبراهيم ، فهوا ابن أخيه ، وشريك له فى مجاهدة الفسقة " ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين " . وعاد الكلام إلى نوح ، ثم تبعه الكلام عن داود وسليمان ، وهما من أنبياء بنى إسرائيل ، ويذكر القرآن عن هذين الرسولين أنهما اختلفا فى حكم أصدراه فى قضية واحدة: " ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما . . . " إن الخلاف فى فروع العبادات والمعاملات شىء طبيعى ، وهو مأجور على الحالين من خطأ وصواب ، مادام وراءه اجتهاد محترم . ولكن عوام المسلمين يجعلون هذا الخلاف مثار فرقة وهجاء ، وهذا يغاير منهج القرآن الذى رأيت . وتذكر السورة أيوب ، وكان ذا صحة

ومال وولد ، فنكب فى أولئك جميعا وساءت حالته ، فلجأ إلى الله يستجير به " وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين " . وكذلك ابتلى إسماعيل وإدريس وذو الكفل ويونس وزكريا ويحيى ، فإلى أين يلجأون وبمن يستجيرون ؟ بالله وحده ! ولم أر أغبى ولا أضل ممن تنزل به الفراء فيسأل العباد ويقف ببابهم ، ما يصنع فقير لفقير أو ضعيف لضعيف ؟ . إن الابتلاء طبيعة الحياة ، وهل خلق الناس إلا للابتلاء ؟ فإذا

صبروا واحتموا بالله مما يؤودهم يوشك أن يرسل إليهم فرجه . وابتلاء الأنبياء رفع لدرجاتهم وتعليم لأممهم ، ولنتأمل قصة يونس " وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين " فلتكن لنا دروس من هذه القصص ، ولنتعلم منها الارتباط بالله وحده . وأغلب الأنبياء الذين عرفناهم ظهروا شرق البحر

المتوسط وجنوبه فى مناطق قامت بها أهم الحضارات القديمة ، ويمكن وصفهم بأنهم أعضاء هيئة تدريس فى معهد عميده محمد بن عبد الله ، وطلابه أهل الأرض كلهم .

(290/505)

وخلاصة تعاليمهم مودعة فى القرآن الكريم . . ويلاحظ أن الحديث عن هؤلاء الأنبياء سبقه حديث عن اليوم الآخر " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " . وأعقبه كذلك حديث مستفيض عن اليوم الآخر بدأ بقوله تعالى : " وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون "كان حريا بأتباع الأنبياء أن يتعاونوا على البر والتقوى ، لكن الذى وقع غير هذا ، فقد ظل اليهود عشرين قرنا يكذبون عيسى بن مريم ، وعندما ظهر محمد كذبه النصارى ، وتعاون معهم اليهود على حرب رسالته وخصومة أمته ! ! . ويبدو أن هذا التقطع بين أتباع الرسل سوف يبقى حتى يظهر جنس همجى من شرق العالم لم يحمل يوما ما رسالة سماوية ، فيجتاح الدنيا ويهزم من يعترضه " حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا " . والذى يظهر لى أن هؤلاء من الصين وشرق آسيا عامة . ومن المفسرين من يقول: إنهم المغول والتتار الذين أسقطوا دولة

الإسلام فى بغداد ، وداسوا الشعوب من سبعة قرون تقريبا ، وليس هذا بمقبول ، فالسياق يدل على أن يأجوج ومأجوج من الفتن التى تظهر بين يدى الساعة ، وأنهم من أشراطها القريبة جدا . وقد أعقب الحديث عنهم ذكر أهل الجنة السعداء بما وعدوا ، وأهل النار الأشقياء بما لقوا ، ثم قوله تعالى : " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده . . . " والسجل : الورقة التى يسطر الكاتب على صفحتها ثم يطويها بعدما انتهى من مراده ، وهكذا ينتهى أمر السماء والأرض ويتحول العالم إلى ذكريات توضع فى " الآرشيف " كما يعبر عصرنا . . ! ثم يقول الله بعد ذلك : " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون " . قد تكون الأرض أرض الجنة كما جاء فى سورة أخرى " وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء " وقد تكون الآية إشارة إلى أن

مواريث السيادة فى الأرض تؤول إلى من يستحقونها بمؤهلاتهم الخلقية والاجتماعية . ومجىء ذلك فى الزبور لأن داود كان يقود شعبا مظلوما يكافح لتأمين عقيدته وحريته ، فأفهمنا الله – كما أفهمه – أن للسيادة مرشحات وخصائص لابد من استجماعها .

وكما بدأت السورة بالدعوة إلى التوحيد ، والاستعداد للآخرة ، والانتفاع بالوحى ، ختمت بالمعانى نفسها "قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون" ؟ . فإذا صدقتم معشر العرب نجوتم وسدتم ، وإلا فلا عذر لكم " قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 258.253 ﴾

(292/505)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/506)

الجزء السادس بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 3 ﴾ من نفس السورة

(4/506)

(في رياض آيات السورة الكريمة)

(5/506)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الأنبياء

قدمت ما فيها مستوفي وظهر لي في اتصالها بآخر طه: أنه سبحانه لما قال: (قل كل متربص فتربصوا) وقال قبله: (ولولا كلمةٍ سبقت من رِبكَ لكان لَزاماً وأَجلا مسمى) قال في مطلع هذه: (اقترب للناس حسابهم) إشارة إلى قرب الأجل ، ودنو الأمل المنتظر وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم) فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه الحياة الدنيا ، لدنوها من الزوال والفناء ، ولهذا ورد في الحديث أنها نزلت قيل لبعض الصحابة: هلا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عنها ؟ فقال (نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 117 ﴾

(6/506)

قوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ بسم ﴾ الحكيم العدل الذي تمت قدرته وعم أمره ﴿ الله ﴾ الملك الذي لا كفوء له ﴿ الرحمن ﴾ الذي ساوى بين خلقه في رحمة إيجاده ﴿ الرحيم ﴾ الذي ينجي من شاء من عباده في معاده .

لما ختمت طه بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي والسعيد ، وكان هذا العلم تارة يكون في الدنيا بكشف الحجاب بالإيمان ، وتارة بمعاينة ظهور الدينن وتارة بإحلال العذاب

(7/506)

بإزهاق الروح بقتل أو غيره ، وتارة ببعثها يوم الدين ، افتتحت هذه بأجلى ذلك وهو اليوم الذي يتم فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين وهو يوم الحساب ، فقال تعالى : ﴿ اقترب للناس ﴾ أي عامة أنتم وغيركم ﴿ حسابهم ﴾ أي في يوم القيامة ؛ وأشار بصيغة الافتعال إلى مزيد القرب لأنه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها ، وأخر الفاعل تهويلاً لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب ، ويصح أن يراد بالحساب الجزاء ، فيكون ذلك تهديداً بيوم بدر والفتح ونحوهما ، ويكون المراد بالناس حينئذ قريشاً أو

جميع العرب، والحساب: إحصاء الشيء والمجازاة عليه بخير أو شر ﴿ وهم ﴾ أي الحال أنهم من أجل ما في جبلاتهم من النوس، وهو الاضطراب الموجب لعدم الثبات على حالة الأمن، أنقذه الله منهم من هذا النقص وهم قليل جداً ﴿ في غفلة ﴾ فهي تعليل لآخر تلك على ما تراه، لأنهم إذا نشروا علموا، وإذا أبادتهم الوقائع علموا هم بالموت، ومن بقي منهم بالذل المزيل لشماخة الكبر، أهل الحق من أهل الباطل، وقوله: ﴿ معرضون ﴾ كالتعليل للغفلة، أي أحاطت بهم الغفلة بسبب إعراضهم عما يأتيهم منا، وسيأتي ما يؤيد هذا في قوله آخرها ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ وإلا فالعقول قاضية بأنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء.

(8/506)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه: لما تقدم قوله سبحانه ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ [طه: 131] - إلى قوله - ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ﴾ [طه: 131] قال تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ أي لا تمدن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنة لمن ناله بغير حق، ونسأل عن قليل ذلك وكثيره ﴿ ولتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ [التكاثر: 8] والأمر قريب ﴿ اقترب للناس

حسابهم ﴾ وأيضاً فإنه تعالى لما قال ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ [مريم : 97] وهم الشديد والخصومة في الباطل ، ثم قال ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ [مريم : 74] إلى آخرها ، استدعت هذه الجملة بسط حال ، فابتدئت بتأنيسه عليه الصلاة السلام وتسليتة ، حتى لا يشق عليه لددهم ، فتضمنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقوله ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] وتأنيسه بقصة موسى عليه السلام وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السلام لرد فرعون ومرتكبه إلى أن وقصه الله ، وأهلكه ، وأورث عباده أرضهم وديارهم ، ثم اتبعت بقصة آدم عليه السلام ليرى نبيه. صلى الله عليه وسلم. سنته في عباده حتى أن آدم عليه السلام وإن لم يكن امتحانه بذريته ولا مكابدته من أبناء جنسه – فقد كابد من إبليس ما قصه الله في كتابه ، وكل هذا تأنيس للنبي. صلى الله عليه وسلم. ، فإنه إذا تقرر لديه أنه سنة الله تعالى في عبادة هان عليه لدد قريش ومكابدتهم ، ثم ابتدئت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس ، فبين اقتراب الحساب ووقوع يوم الفصل المحمود فيه ثمرة ما كوبد في ذات الله والمتمنى فيه أن لو كان ذلك أكثر والمشقة أصعب لجليل الثمرة وجميل الجزاء ، ثم اتبع ذلك سبحانه بعظات ، ودلائل وبسط آيات ، وأعلم أنه سبحانه قد سبقت سنته بإهلاك من لم يكن منه الإيمان من متقدمي القرون وسالفي الأمم

﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ [الأنبياء : 6] وفي قوله ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ [الأنبياء : 6] تعزية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمر قريش ومن قبل ما الكلام بسبيله ، وقد تضمنت هذه السورة إلى ابتداء قصة إبراهيم عليه السلام من المواعظ والتنبيه على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار بها ما يعقب لمن اعتبر به التسليم والتفويض لله سبحانه والصبر على الابتلاء وهو من مقصود السورة ، وفي قوله ﴿ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ [الأنبياء : 9] إجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل عليهم السلام من قومهم وإهلاك من أسرف وأفك ولم يؤمن ، وفي ذكر تخليص الرسل وتأييدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله ﴿ ولقد ءاتينا إبراهيم رشده ﴾ [الأنبياء : 51] إلى آخر السورة كمال الغرض المتقدم من التأنيس وملاءمة ما تضمنته سورة طه وتفسير لمجمل ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ [مريم : 98] انتهى .

ولما أخبر سبحانه عن غفلتهم وإعراضهم ، علل ذلك بقوله : ﴿ ما يأتيهم ﴾ وأعرق في النفي بقوله : من ﴿ ذكر ﴾ أي وحي يذكر بما جعل في العقول من الدلائل عليه سبحانه ويوجب الشرف لمن أتبعه ﴿ من ربهم ﴾ المحسن إليهم بخلقهم وتذكيرهم ، قديم لكونه صفة له ﴿ محدث ﴾ إنزاله ﴿ إلا استمعوه ﴾ أي قصدوا سماعه وهو أجد الجد وأحق

الحق ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ يلعبون ﴾ أي يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء به ووضعه في غير مواضعه وجعلهم استماعهم له لإرادة الطعن فيه ، فهو قريب من قوله ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فصلت : 26] ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ أي غارقة قلوبهم في اللهو ، مشغولة به عما حداها إليه القرآن ، ونبهها عليه الفرقان ، وحذرها منه البيان ، قال الرازي في اللوامع : لاهية : مشتغلة من لهيت ألهى : أو طالبة للهو ، من لهوت ألهو – انتهى .

(10/506)

ويمكن أن يراد بالناس مع هذا كله العموم ويكون من باب قوله تعالى

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ [الأنعام : 91] وقوله صلى الله عليه وسلم " لا أحصي ثناء عليك " وأن يخص بالكفار .

ولما ذكر ما يظهرونه في حال الاستماع من اللهو واللعب ، ذكر ما يخفونه من التشاور في الصد عنه وإعمال الحيلة في التنفير منه والتوثق من بعضهم لبعض في الثبات على المجانبة له فقال عاطفاً على ﴿ استمعوا ﴾ : ﴿ وأسروا ﴾ أي الناس المحدث عنهم ﴿ النجوى ﴾ أي بالغوا في إسرار كلامهم بسبب الذكر ، لأن المناجاة في اللغة السر – كذا في القاموس ، وقال

الإمام أبو عبد الله القزاز في ديوانه : والنجوى : الكلام بين اثنين كالسر والتشاور .

ولما أخبر بسوء ضمائرهم ، أبدل من ضميرهم ما دل على العلة الحاملة لهم على ذلك فقال : ﴿ الذين ظلموا ﴾ ثم بين ما تناجوا به فقال : ﴿ هل ﴾ أي فقالوا في تناجيهم هذا ، معجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته لهم في البشرية : هل ﴿ هذا ﴾ الذي أتاكم بهذا الذكر ﴿ إلا بشر مثلكم ﴾ أي خلقه وأخلاقه من الأكل والشرب والحياة والموت ، فكيف يختص عنكم بالرسالة ؟ ما هذا الذي جاءكم به مما لا تقدرون على مثله إلا سحر لا حقيقة له ، فحينئذ تسبب عن هذا الإنكار في قولهم : ﴿ أفتأتون السحر وأنتم ﴾ أي والحال أنكم ﴿ تبصرون ﴾ بأعينكم أنه بشر مثلكم ، وببصائركم أن هذه الخوارق التي يأتي بها يمكن أن تكون سحراً ، فيا لله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم فلم يجوزوا أن يكون عن الرحمن الداعي إلى الفوز بالجنان وجزموا بأنه من الشيطان الداعي إلى الهوان ، باصطلاء النيران ، والعجب أيضاً أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم لما يخص الله به بعض الناس عن بعض الذكاء والفطنة ، وحسن الخلائق والأخلاق ، والقوة والصحة ، وطول العمر وسعة الرزق - ونحو ذلك من القيافة والعيافة والرجز والكهانة ، ويأتون أصحابها لسؤالهم عما عندهم من ذلك من العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 63.

﴾ 66

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات ﴿ قال ربي ﴾ بالألف : حمزة وعلي وحفص . الباقون ﴿ قل ﴾ على الأمر ﴿ نوحي ﴾ بالنون مبنياً للفاعل : حفص غير الخراز . الباقون : بالياء مجهولاً .

الوقوف : ﴿ معرضون ﴾ ج للآية مع احتمال كون ما بعده صفة أو استئنافاً . ﴿ يلعبون ﴾ لا لأن ﴿ لاهية ﴾ حال أخرى مترادفة أو متداخلة من ضمير ﴿ يلعبون ﴾ وهي لقلوبهم في المعنى . ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ مثلكم ﴾ ج لابتداء الاستفهام مع اتحاد المقول ﴿ تبصرون ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ز لاتفاق الجملتين مع استغناء الثانية عن الأولى ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ شاعر ﴾ ج لاختلاف النظم مع اتحاد المقول ﴿ الأولون ﴾ 5 ﴿ أهلكناها ﴾ ج لابتداء الاستفهام مع اتحاد المقول ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ لا تعلمون ﴾ 5 ﴿ خالدين ﴾ 5 ﴿ المسرفين ﴾ 5 ﴿ ذكركم ﴾ 5 ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ آخرين ﴾ 5 ﴿ يركضون ﴾ 5 ط لتقدير القول ﴿ تسألون ﴾ 5 ﴿ ظالمين ﴾ 5 ﴿ خامدين ﴾ 5 ﴿ لاعبين ﴾ 5 ﴿ من لدنا ﴾ 5 على جعل " إن " نافية والأصح أنها للشرط ﴿ فاعلين ﴾ 5 ﴿ زاهق ﴾ لا ﴿ تصفون ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط لأن ما بعده

مبتدأ ﴿ يستحسرون ﴾ 5ج لأن ما بعده يصلح حالاً واستئنافاً ، ﴿ لا يفترون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 4 ﴾

(12/506)

فصل

قال الفخر :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

القرب لا يعقل إلا في المكان والزمان ، والقرب المكاني ههنا ممتنع فتعين القرب الزماني ، والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب ، وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام والجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمَّا

تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] .

وثانيها : أن كل آت قريب وإن طالت أوقات ترقبه ، وإنما البعيد هو الذي انقرض قال الشاعر :

فلا زال ما تهواه أقرب من غد . . ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

وثالثها : أن المعاملة إذا كانت مؤجلة إلى سنة ثم انقضى منها شهر ، فإنه لا يقال اقترب الأجل أما إذا كان الماضي أكثر من الباقي فإنه يقال : اقترب الأجل ، فعلى هذا الوجه قال العلماء : إن فيه دلالة على قرب القيامة ، ولهذا الوجه قال عليه السلام : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وهذا الوجه قيل إنه عليه السلام ختم به النبوة ، كل ذلك لأجل أن الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي .

المسألة الثالثة :

إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب إلى تلافي الذنوب والتحرر عنها خوفاً من ذلك ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح ، كما أن كتمان وقت الموت أصلح .

المسألة الخامسة :

الفائدة في تسمية يوم القيامة بيوم الحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف

من ذكره أعظم.

المسألة السادسة:

يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل في الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له، ثم قال ابن عباس: المراد بالناس المشركون.

(13/506)

وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فاعلم أنه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والإعراض.

أما الغفلة فالمعنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ثم إذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم.

أما قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى:

قرأ ابن أبي عبلة محدث بالرفع صفة للمحل.

المسألة الثانية :

إنما ذكر الله تعالى ذلك بيانا ًلكونهم معرضين ، وذلك لأن الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم ذلك إلا لعباً واستسخارا ً .

(14/506)

المسألة الثالثة :

المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا : القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث ، بيان أن القرآن ذكر قوله تعالى في صفة القرآن : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ [ص : 87] وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] وقوله : ﴿ ص والقرءان ذِي الذكر ﴾ [ص : 1] وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] وقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ [يس : 69] وقوله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أنزلناه ﴾ [الأنبياء : 5] وبيان أن الذكر محدث قوله في هذا الموضع : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ مّن رَّبّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ وقوله في سورة الشعراء : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ مّن الرحمن مُحْدَثٍ ﴾ [الشعراء : 5] ثم قالوا : فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص في أن القرآن محدث

والجواب من وجهين :

الأول : أن قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ للعالمين ﴾ وقوله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ إشارة إلى المركب من الحروف والأصوات فإذا ضممنا إليه قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ لزم حدوث المركب من الحروف والأصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة ، وإنما النزاع في قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر .

الثاني : أن قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ لا يدل على حدوث كل ما كان ذكراً بل على ذكر ما محدث كما أن قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل إلا يبغضونه ، فإنه لا يدل على أن كل رجل يجب أن يكون فاضلاً بل على أن في الرجال من هو فاضل وإذا كان كذلك فالآية لا تدل إلا على أن بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لا ينتج شيئاً كما أن قول القائل : الإنسان حيوان وبعض الحيوان فرس لا ينتج شيئاً فظهر أن الذي ظنوه قاطعاً لا يفيد ظناً ضعيفاً فضلاً عن القطع .

أما قوله : ﴿ إِلَّا استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لأن الإنتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر ، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ واللاهية من لهى عنه إذا ذهل وغفل ، وإنما ذكر اللعب مقدماً على اللهو كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد : 36] تنبيهاً على أن اشتغالهم باللعب الذي معناه السخرية والإستهزاء معلل باللهو الذي معناه الذهول والغفلة ، فإنهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق ، والله أعلم بالصواب .

المسألة الثانية :

قال صاحب الكشاف : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة لأن لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله : ﴿ وَهُمْ ﴾ .

أما قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ .

الجواب : معناه بالغوا في إخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ .

الجواب : أبدل الذين ظلموا من أسروا إشعاراً بأنهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو جاء على لغة من قال : أكلوني البراغيث أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره : ﴿ أَسَرُّواْ النجوى ﴾ قدم عليه والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم .

أما قوله : ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(16/506)

قال صاحب " الكشاف " هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى أي وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام .

المسألة الثانية :

إنما أسروا هذا الحديث لوجهين : أحدهما : أنه كان ذلك شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره ، وعادة المتشاورين أن يجتهدوا في كتمان سرهم

عن أعدائهم .

الثاني : يجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقاً فأخبرونا بما أسررناه .

المسألة الثالثة :

أنهم طعنوا في نبوته بأمرين : أحدهما : أنه بشر مثلهم .

والثاني : أن الذي أتى به سحر ، وكلا الطعنين فاسد .

أما الأول : فلأن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور إذ لو بعث الملك إليهم لما علم كونه نبياً لصورته ، وإنما كان يعلم بالعلم فإذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب أن يكون نبياً ، بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشراً لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس .

وأما الثاني : وهو أن ما أتى به الرسول عليه السلام سحر وأنهم يرون كونه سحراً فجهل أيضاً ، لأن كل ما أتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه . فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالاً بعد حال مدة من الزمان وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، وكانوا في نهاية الحرص على إبطال أمره وأقوى الأمور في إبطال أمره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لا يأتوا بها لأن الفعل عند توافر الدواعي وارتفاع الصارف واجب الوقوع ، فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على أنه في نفسه معجزة وأنهم عرفوا

حاله.

فكيف يجوز أن يقال: إنه سحر والحال على ما ذكرناه، وكل ذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بصدقه، إلا أنهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وإن كانوا فيه مكابرين. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 120. 123﴾

(17/506)

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾

أي اقترب منهم، وفيه قولان:

أحدهما: قرب وقت عذابهم، يعني أهل مكة، لأنهم استبطؤواْ ما وُعِدواْ به من العذاب تكذيباً، فكان قتلهم يوم بدر، قاله الضحاك.

الثاني: قرب وقت حسابهم وهو قيام الساعة.

وفي قربه وجهان:

أحدهما: لأن كل آت قريب.

الثاني: لأن الزمان لكثرة ما مضى وقلة ما بقي قريب.

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : في غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة .

الثاني : في غفلة بالضلال ، معرضون عن الهدى .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ التنزيل مبتدأ التلاوة لنزوله سورة بعد سورة . وآية بعد آية ، كما كان ينزله الله عليه في وقت بعد وقت .

﴿ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ ﴾ أي استمعوا تنزيله فتركوا قبوله .

﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي يلهون .

الثاني : يشتغلون . فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما : بلذاتهم .

الثاني : بسماع ما يتلى عليهم .

وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يشتغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا ، لأنها لعب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد : 20] .

الثاني : يتشاغلون بالقَدْحِ فيه والاعتراض عليه .

قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل .

قوله عز وجل : ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني غافله باللهو عن الذكر ، قاله قتادة .

الثاني : مشغلة بالباطل عن الحق ، قاله ابن شجرة ، ومنه قول امرىء القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع . . . فألهيتها عن ذي تمائم محولِ

أي شغلتها عن ولدها .

ولبعض أصحاب الخواطر وجه ثالث : أنها غافلة عما يراد بها ومنها .

﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فيه وجهان :

(18/506)

أحدهما : ذكره ابن كامل أنهم أخفوا كلامهم الذي يتناجون به ، قاله الكلبي .

الثاني : يعني أنهم أظهروه وأعلنوه ، وأسروا من الأضداد المستعملة وإن كان الأظهر في حقيقتها أن تستعمل في الإِخفاء دون الإِظهار إلا بدليل .

﴿ هَلْ هَذَآ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إنكاراً منهم لتميزه عنهم بالنبوة .

﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

ويحتمل وجهين :

أحدهما : أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر .

الثاني : أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(19/506)

وقال ابن عطية :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

روي أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان يبني جداراً فمر به آخر في يوم نزول هذه السورة فقال الذي كان يبني الجدار ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر نزل اليوم ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ فنفض يده من البنيان وقال والله لا بنيت أبداً وقد اقترب الحساب ، وقوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ عام في جميع الناس ، المعنى وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش ويدل على ذلك ما بعد من الآيات ، وقوله ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾ يريد الكفار .

قال القاضي أبو محمد : ويتجه من هذه الألفاظ على العصاة من المؤمنين قسطهم ، وقوله ﴿ ما يأتيهم ﴾ وما بعده مختص بالكفار ، وقوله ﴿ من ذكر من ربهم محدث ﴾ قالت فرقة المراد منا ينزل من القرآن ومعناه ﴿ محدث ﴾ نزوله وإتيانه إياهم لا هو في نفسه ،

وقالت فرقة المراد ب " الذكر " أقوال النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الشريعة ووعظه وتذكيره فهو محدث على الحقيقة وجعله من ربه من حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا ما هو من عند الله ، وقالت فرقة " الذكر " الرسول نفسه واحتجت بقوله تعالى ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ [الطلاق : 11] فهو محدث على الحقيقة ويكون ، قوله ﴿ استمعوه ﴾ بمعنى استمعوا إليه ، وقوله تعالى : ﴿ وهو يلعبون ﴾ جملة في موضع الحال أي أسماعهم في حال لعب غير نافع ولا واصل النفس .

(20/506)

قوله تعالى : ﴿ لاهية ﴾ حال بعد الحال ، واختلف النحاة في إعراب قوله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ فذهب سيبويه رحمه الله إلى أن الضمير في ﴿ أسروا ﴾ فاعل وأن ﴿ الذين ﴾ بدل منه وقال رحمه الله لغة أكلوني البراغيث ليست في القرآن ، وقال أبو عبيدة وغيره الواو والألف علامة أن الفاعل مجموع كالتاء في قولك قامت هند و ﴿ الذين ﴾ فاعل ب ﴿ أسروا ﴾ وهذا على لغة من قال أكلوني البراغيث ، وقالت فرقة الضمير فاعل و ﴿ الذين ﴾ مرتفع بفعل مقدر تقديره أسرها الذين أو قال الذين ع والوقوف على

﴿ النجوى ﴾ في هذا القول وفي الأول أحسن ولا يحسن في الثاني ، وقالت فرقة ﴿ الذين ﴾ مرتفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هم الذين ظلموا ، والوقف مع هذا حسن ، وقالت فرقة ﴿ الذين ﴾ في موضع نصب بفعل تقديره أعني الذين ، وقالت فرقة ﴿ الذين ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿ الناس ﴾ [الانبياء : 1]ع وهذه أقوال ضعيفة ومعنى ﴿ أسروا النجوى ﴾ تكلموا بينهم في السر والمناجاة بعضهم لبعض ، وقال ابو عبيدة ﴿ أسروا ﴾ أظهروا وهو من الأضداد ، ثم بين تعالى الأمر الذي يتناجون به وهو قول بعضهم لبعض ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ ، ثم قال بعضهم لبعض على جهة التوبيخ في الجهالة ﴿ أفتأتون السحر ﴾ أي ما يقول شبهوه بالسحر ، المعنى أفتتبعون السحر ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ أي تدركون أنه سحر وتعلمون ذلك ، كأنهم قالوا تضلون على بينة ومعرفة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(21/506)

وقال ابن الجوزى :

قوله عز وجل : ﴿ اقترب ﴾ افتعل ، من القُرْب ، يقال : قَرُبَ الشيء واقترب .

وهذه الآية نزلت في كفار مكة .

وقال الزجاج : اقترب للناس وقت حسابهم .

وقيل : اللام في قوله : ﴿ للناس ﴾ بمعنى : "مِنْ" .

والمراد بالحساب : محاسبة الله لهم على أعمالهم .

وفي معنى قُرْبِهِ قولان .

أحدهما : أنه آتٍ ، وكلُّ آتٍ قريبٌ .

والثاني : لأن الزمانَ لكثرة ما مضى وقِلَّة ما بقي قريبٌ .

قوله تعالى : ﴿ وهُمْ في غفلة ﴾ أي : عمَّا يفعل الله بهم ذلك اليوم ﴿ معرضون ﴾ عن التأهُّب له .

وقيل : "اقترب للناس" عامٌّ ، والغفلة والإعراض خاص في الكفار ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ ﴾ ، وفي هذا الذِّكْر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا تكون الإشارة بقوله : "مُحْدَثٍ" إلى إنزاله له ، لأنه أُنْزِل شيئاً بعد شيء .

والثاني : أنه ذِكْر من الأذكار ، وليس بالقرآن ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

وقال النقاش : هو ذِكْر من رسول الله ، وليس بالقرآن .

والثالث : أنه رسول الله ، بدليل قوله في سياق الآية : ﴿ هل هذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكم ﴾ ، قاله الحسن ابن الفضل .

قوله تعالى : ﴿ إِلا استَمَعُوه وهم يلعبون ﴾ قال ابن عباس : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ﴿ لاهيةً قلوبُهم ﴾ أي : غافلة عما يُراد بهم .

قال الزجاج : المعنى : إِلا استمعوه لاعبين لاهيةً قلوبهم ؛ ويجوز أن يكون منصوباً بقوله : "يلعبون" .

وقرأ عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : "لاهيةٌ" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ وأسرُّوا النَّجوى ﴾ أي : تناجَوا فيما بينهم ، يعني المشركين .

ثم بيَّن مَنْ هم فقال : ﴿ الذين ظَلَموا ﴾ أي : أَشْرَكوا بالله .

و"الذين" في موضع رفع على البدل من الضمير في "وأَسَرُّوا" .

(22/506)

ثم بيَّن سِرَّهم الذي تناجَوْا به فقال : ﴿ هل هذا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكم ﴾ أي : آدميٌّ ، فليس بملك ؛ وهذا إِنكار لنبوَّته .

وبعضهم يقول : "أسرُّوا" هاهنا بمعنى : أظهروا ، لأنه من الأضداد .

قوله تعالى : ﴿ أفتأتون السِّحر ﴾ أي : أفتقبلون السِّحر ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنه

سِحْر ؟ ! يعنون أن متابعة محمد صلى الله عليه وسلم متابعةُ السِّحر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(23/506)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاس حِسَابُهُمْ ﴾

قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول ، وهنّ من تلادي ؛ يريد من قديم ما كسب وحفظ من القرآن كالمال التّلاد .

وروي أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبني جداراً ، فمرّ به آخر في يوم نزول هذه السورة ، فقال الذي كان يبني الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : نزل ﴿ اقترب لِلنَّاس حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ فنفض يده من البنيان ، وقال : والله لا بنيت أبداً وقد اقترب الحساب .

"اقترب" أي قرب الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم .

"للناس" قال ابن عباس : المراد بالناس هاهنا المشركون بدليل قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ .

وقيل : الناس عموم وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش ؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات ؛ ومن عَلِم اقتراب الساعة قصر أمله ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكأنّ ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آتٍ قريب ، والموت لا محالة آتٍ ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى .

وقال الضحاك : معنى ﴿ اقتربَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ أي عذابهم يعني أهل مكة ؛ لأنهم استبطأوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بَدْر .

النحاس : ولا يجوز في الكلام اقترب حسابهم للناس ؛ لئلا يتقدّم مضمر على مظهر لا يجوز أن ينوي به التأخير .

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ابتداء خبر .

ويجوز النصب في غير القرآن على الحال .

وفيه وجهان : أحدهما : "وهم فِي غفلةٍ معرِضون" يعني بالدنيا عن الآخرة .

الثاني : عن التأهب للحساب وعما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذه الواو عند سيبويه بمعنى "إذ" وهي التي يسميها النحويون واو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يغشى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [آل عمران : 154] .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ "مُحْدَثٍ" نعت ل"ذكر" .

وأجاز الكسائي والفراء "مُحْدَثاً" بمعنى ما يأتيهم محدثاً ؛ نصب على الحال .

وأجاز الفراء أيضاً رفع "مُحْدَث" على النعت للذِّكر ؛ لأنك لو حذفت "مِن" رفعت ذكراً ؛ أي ما يأتيهم ذكر من ربهم مُحدَث ؛ يريد في النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة ، وآية بعد آية ، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقت بعد وقت ؛ لا أن القرآن مخلوق .

وقيل : الذكر ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ويعظهم به .

وقال : ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحي ، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر ، وهو محدث ؛ قال الله تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : 21] .

ويقال : فلان في مجلس الذكر .

وقيل : الذكر الرسول نفسه ؛ قاله الحسين بن الفضل بدليل ما في سياق الآية ﴿ هَلْ هَاذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 3] ولو أراد بالذكر القرآن لقال : هل هذا إلا أساطير الأوّلين ؛

ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : 51 52] يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقال : ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً ﴾ [الطلاق : 10 11] .

﴿ إِلَّا استمعوه ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته .

﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الواو واو الحال يدل عليه ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ومعنى "يَلْعَبُونَ" أي يلهون .

(25/506)

وقيل : يشتغلون ؛ فإن حُمِل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما : بلذاتهم .

الثاني : بسماع ما يتلى عليهم .

وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما : بالدنيا لأنها لعب ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد : 36] .

الثاني : يتشاغلون بالقَدْح فيه ، والاعتراض عليه .

قال الحسن : كلما جدّد لهم الذكر استمروا على الجهل .

وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أي ساهية قلوبهم ، معرضةً عن ذكر الله ، متشاغلةً عن التأمل والتفهم ؛ من قول العرب : لَهَيْتُ عن ذكر الشيء إذا تركتَه وسلوتَ عنه أَلْهَى لِهِيًّا ولِهْيَاناً .

و"لاهيةً" نعت تقدّم الاسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الإعراب ، فإذا تقدّم النعت الاسم انتصب كقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ [القلم : 43] و﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ﴾ [الإنسان : 14] و﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ قال الشاعر :

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ . . .

يَلُوحُ كَأَنَّه خَلَلُ

أراد : طلل موحش .

وأجاز الكسائي والفراء "لاَهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ" بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية .

وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبراً بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ .

وقال الكسائي : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم .

﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بين من هم فقال : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي الذين أشركوا ؛ ف"الذين ظلموا" بدل من الواو في "أسروا" وهو

عائد على الناس المتقدّم ذكرهم ؛ ولا يوقف على هذا القول على "النجوى" .

قال المبرّد وهو كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله فبنو بدل من الواو في انطلقوا .

وقيل : هو رفع على الذم ، أي هم الذين ظلموا .

(26/506)

وقيل : على حذف القول ؛ التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ؛ مثل ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 23 24] .

واختار هذ القول النحاس ؛ قال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ .

وقول رابع : يكون منصوباً بمعنى أعني الذين ظلموا .

وأجاز الفراء أن يكون خفضاً بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم ؛ ولا يوقف على هذا الوجه على "النجوى" ويوقف على الوجوه الثلاثة المتقدّمة قبله ؛ فهذه خمسة أقوال .

وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلوني البراغيث ؛ وهو حسن ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 71] .

وقال الشاعر :

بك نال النِّضالُ دون المساعي . . .

فاهتدَيْنَ النِّبالُ للأغراض

وقال آخر :

ولكِنْ دِيافِيٌّ أبوه وأمُّهُ . . .

بِحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أقَارِبُهْ

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى .

أبو عبيدة : "أسروا" هنا من الأضداد ؛ فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ هاذآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي تناجوا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر الذي هو الرسول ، أو هل هذا الذي يدعوكم إلا بشر مثلكم ، لا يتميز عنكم بشيء ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق كما تفعلون .

وما علموا أن الله عز وجل بيّن أنه لا يجوز أن يرسل إليهم إلا بشراً ليتفهموا ويعلمهم .

﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر ﴾ أي إن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر ، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا به .

و"السحر" في اللغة كل مموّه لا حقيقة له ولا صحة .

﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ قيل معناه "وأنتم تبصرون" أنه إنسان مثلكم مثل : "وأنتم تعقلون" لأن العقل البصر بالأشياء .

(27/506)

وقيل : المعنى ؛ أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر .

وقيل : المعنى ؛ أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق ؛ ومعنى الكلام التوبيخ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(28/506)

وقال أبو حيان :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

هذه السورة مكية بلا خلاف ، وعن عبد الله : الكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء من العتاق الأول ، وهن من تلادي أي من قديم ما حفظت وكسبت من القرآن كالمال التلاد .

ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر ﴿ قل كل متربص فتربصوا ﴾ قال مشركو قريش

: محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح ، وإن صح ففيه بعد فأنزل الله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ ، و﴿ اقترب ﴾ افتعل بمعنى الفعل المجرد وهو قرب كما تقول : ارتقب ورقب .

وقيل : هو أبلغ من قرب للزيادة التي في البناء .

والناس مشركو مكة .

وقيل : عام في منكري البعث ، واقتراب الحساب اقتراب وقته والحساب في اللغة إخراج الكمية من مبلغ العدد ، وقد يطلق على المحسوب وجعل ذلك اقتراباً لأن كل ما هو آت وإن طال وقت انتظاره قريب ، وإنما البعيد هو الذي انقرض أو هو مقترب عند الله كقوله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أو باعتبار ما بقي من الدنيا فإنه أقصر وأقل مما مضى .

وفي الحديث : " بعثت أنا والساعة كهاتين " قال الشاعر :

فما زال من يهواه أقرب من غد . . . .

وما زال من يخشاه أبعد من أمس

و﴿ للناس ﴾ متعلق باقترب .

وقال الزمخشري : هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب ، أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم كما تقول أزف للحي رحيلهم ، الأصل أزف رحيل الحي ثم أزف للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقر توكيداً عليك زيد حريص عليك ، وفيك زيد راغب فيك ومنه قولهم : لا أبا لك لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة ، وهذا الوجه أغرب من الأول انتهى يعني بقوله صلة أنها تتعلق باقترب ، وأما جعله اللام تأكيداً لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحداً يقول ذلك ، وأيضاً فيحتاج إلى ما يتعلق به ولا يمكن تعلقها بحسابهم لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه ، وأيضاً فالتوكيد يكون متأخراً عن المؤكد وأيضاً فلو أخر في هذا التركيب لم يصح .

وأما تشبيهه بما أورد سيبويه فالفرق واضح لأن عليك معمول لحريص ، وعليك الثانية متأخرة توكيداً وكذلك فيك زيد راغب فيك يتعلق فيك براغب ، وفيك الثانية توكيد ، وإنما غره في ذلك صحة تركيب حساب الناس .

وكذلك أزف رحيل الحي فاعتقد إذا تقدّم الظاهر مجروراً باللام وأضيف المصدر لضميره أنه من باب فيك زيد راغب فيك وليس مثله ، وأمّا لا أبا لك فهي مسألة مشكلة وفيها خلاف ، ويمكن أن يقال فيها ذلك لأن اللام جاورت الإضافة ولا يقاس على مثلها غيرها لشذوذها وخروجها عن الأقيسة ، وقد أمعنّا الكلام عليها في شرح التسهيل والواو في ﴿

وهم ﴿ واو الحال .

وأخبر عنهم بخبرين ظاهرهما التنافي لأن الغفلة عن الشيء والإعراض عنه متنافيان ، لكن يجمع بينهما باختلاف حالين أخبر عنهم أولاً أنهم لا يتفكرون في عاقبة بل هم غافلون عما يؤول إليه أمرهم .

ثم أخبر عنهم ثانياً أنهم إذا نبهوا من سنة الغفلة وذكروا بما يؤول إليه أمر المحسن والمسيء أعرضوا عنه ولم يبالوا بذلك ، والذكر هنا ما ينزل من القرآن شيئاً بعد شيء .

(30/506)

وقيل المراد بالذكر أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) في أمر الشريعة ووعظه وتذكيره ووصفه بالحدوث إذا كان القرآن لنزوله وقتاً بعد وقت .

وسئل بعض الصحابة عن هذه الآية فقال محدث النزول محدث المقول .

وقال الحسن بن الفضل : المراد بالذكر هنا النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بدليل ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ وقال : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ﴾ وقد احتجت المعتزلة على حدوث القرآن بقوله ﴿ محدث ﴾ وهي مسألة يبحث فيها في علم الكلام .

وقرأ الجمهور ﴿ محدث ﴾ بالجر صفة لذكر على اللفظ ، وابن أبي عبلة بالرفع صفة لذكر

على الموضع ، وزيد بن عليّ بالنصب على الحال ﴿ من ذكر ﴾ إذ قد وصف بقوله ﴿ من ربهم ﴾ ويجوز أن يتعلق ﴿ من ربهم ﴾ بيأتيهم .

و﴿ استمعوه ﴾ جملة حالية وذو الحال المفعول في ﴿ ما يأتيهم ﴾ ﴿ وهم يلعبون ﴾ جملة حالية من ضمير ﴿ استمعوه ﴾ و﴿ لاهية ﴾ حال من ضمير ﴿ يلعبون ﴾ أو من ضمير ﴿ استمعوه ﴾ فيكون حالاً بعد حال ، واللاهية من قول العرب لهى عنه إذا ذهل وغفل يلهى لهياً ولهياناً ، أي وإن فطنوا لا يجدي ذلك لاستيلاء الغفلة والذهول وعدم التبصر بقلوبهم .

وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى ﴿ لاهية ﴾ بالرفع على أنه خبر بعد خبر لقوله ﴿ وهم ﴾ .

و﴿ النجوى ﴾ من التناجي ولا يكون إلا خفية فمعنى ﴿ وأسرّوا ﴾ بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون .

وقال أبو عبيد : ﴿ أسروا ﴾ هنا من الأضداد يحتمل أن يكون أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون أظهروه ومنه قول الفرزدق :

فلما رأى الحجاج جرد سيفه . . .

أسر الحروري الذي كان أضمرا

وقال التبريزي : لا يستعمل في الغالب إلاّ في الإخفاء ، وإنما ﴿ أسروا ﴾ الحديث لأنه كان ذلك على طريق التشاور ، وعادة المتشاورين كتمان سرهم عن أعدائهم ، وأسروها ليقولوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين إن ما تدعونه حقاً فأخبرونا بما أسررناه وجوزوا في إعراب ﴿ الذين ظلموا ﴾ وجوهاً الرفع والنصب والجر ، فالرفع على البدل من ضمير ﴿ وأسروا ﴾ إشعاراً أنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به قاله المبرد ، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه أو على أنه فاعل ، والواو في ﴿ أسروا ﴾ علامة للجمع على لغة أكلوني البراغيث قاله أبو عبيدة والأخفش وغيرهما .

قيل وهي لغة شاذة.

قيل : والصحيح أنها لغة حسنة ، وهي من لغة أزدشنوءة وخرج عليه قوله ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾

وقال شاعرهم :

يلومونني في اشتراء . . .

النخيل أهلي وكلهم ألوم

أو على أن ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ﴿ وأسروا النجوى ﴾ خبره قاله الكسائي فقدّم عليه ، والمعنى : وهؤلاء ﴿ أسروا النجوى ﴾ فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم

أنه ظلم ، أو على أنه فاعل بفعل القول وحذف أي يقول ﴿ الذين ظلموا ﴾ والقول كثيراً يضمر واختاره النحاس قال ويدل على صحة هذا أن بعده هل هذا إلا بشر مثلكم .

وقيل التقدير أسرها الذين ظلموا .

وقيل : ﴿ الذين ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي هم ﴿ الذين ﴾ والنصب على الذم قاله الزجاج ، أو على إضمار أعني قاله بعضهم .

والجر على أن يكون نعتاً للناس أو بدلاً في قوله ﴿ اقترب للناس ﴾ قاله الفراء وهو أبعد الأقوال .

﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ استفهام معناه التعجب أي كيف خص بالنبوة دونكم مع مماثلته لكم في البشرية ، وإنكارهم وتعجبهم من حيث كانوا يرون أن الله لا يرسل إلاّ ملكاً .

(32/506)

و ﴿ أفتأتون السحر ﴾ استفهام معناه التوبيخ و ﴿ السحر ﴾ عنوا به ما ظهر على يديه من المعجزات التي أعظمها القرآن والذكر المتلو عليهم ، أي أفتحضرون ﴿ السحر وأنتم تبصرون ﴾ أنه سحر وأن من أتى به هو ﴿ بشر مثلكم ﴾ فكيف تقبلون ما أتى به وهو سحر ، وكانوا يعتقدون أن الرسول من عند الله لا يكون إلا ملكاً وأن كل من ادعى الرسالة

من البشر وجاء بمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر ، وها تان الجملتان الاستفهاميتان

الظاهر أنهما متعلقتان بقوله : ﴿ وأسروا النجوى ﴾ وأنهما محكيتان بقوله للنجوى لأنه

بمعنى القول الخفي ، فهما في موضع نصب على المفعول بالنجوى .

وقال الزمخشري : في محل النصب بدلاً من ﴿ النجوى ﴾ أي ﴿ وأسروا ﴾ هذا

الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(33/506)

وقال أبو السعود :

﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾

مناسبةُ هذه الفاتحةِ الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنيةٌ عن البيان . قال ابن عباس

رضي الله عنهما : المرادُ بالناس المشركون وهو الذي يُفصح عنه ما بعده ، والمرادُ باقتراب

حسابِهم اقترابُه في ضمن اقترابِ الساعةِ ، وإسنادُ الاقترابِ إليه لا إلى الساعة مع

استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والأهوالِ الفظيعة لانسياق الكلامِ إلى بيان غفلتِهم

عنه وإعراضِهم عما يذكّرهم ذلك ، واللامُ متعلقةٌ بالفعل ، وتقديمُها على الفاعل للمسارعة

إلى إدخال الروعةِ فإن نسبةَ الاقترابِ إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويُورثهم رَهبةً

وانزعاجاً من المقترِب، كما أن تقديمَ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريحِ في قوله تعالى:

﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض ﴾ لتعجيل المسرّة لما أن بيان كونِ الخلق لأجل المخاطَبين مما يسرّهم ويزيدهم رغبةً فيما خُلق لهم وشوقاً إليه، وجعلها تأكيداً للإضافة على أن الأصلَ المتعارفَ فيما بين الأوساط اقترب حسابُ الناس ثم اقترب للناس الحسابُ ثم اقترب للناس حسابُهم مع أنه تعسفٌ تامٌّ بمعزل عما يقتضيه المقامُ وإنما الذي يستدعيه حسنُ النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حسابُ أعمالِهم السيئةِ الموجبة للعقاب، وفي إسناد الاقترابِ المنبىءِ عن التوجه نحوَهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يُعتبرَ التوجّهُ والإقبالُ من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويلِ أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيءٍ مقبلٍ عليهم لا يزال يطلُبهم ويصيبهم لا محالة، ومعنى اقترابِه لهم تقارُبُه ودُنُوُّه منهم بعدَ بُعدِه عنهم فإنه في كل ساعة من ساعات الزمان أقربُ إليهم منه في الساعة السابقة.

(34/506)

هذا وأما الاعتذارُ بأن قربَه بالإضافة إلى ما مضى من الزمان أو بالنسبة إلى الله عز وجل أو باعتبار أن كلَّ آتٍ قريبٌ فلا تعلُّقَ له بما نحن فيه من الاقترابِ المستفادِ من صيغة الماضي

ولا حاجة إليه في تحقيق أصلِ معناه ، نعم قد يفهم منه عُرفاً كونُه قريباً في نفسه أيضاً فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأولِ دون الأخيرين ، أما الثاني فلا سبيلَ إلى اعتباره هاهنا لأن قربَه بالنسبة إليه تعالى مما لا يُتصوّر فيه التجددُ والتفاوتُ حتماً ، وإنما اعتبارُه في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ونظائرِه مما لا دَلالةَ فيه على الحدوث ، وأما الثالثُ فلا دِلالةَ فيه على القرب حقيقةً ولو بالنسبة إلى شيء آخر .

﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي في غفلة تامةٍ منه ساهون عنه بالمرة لا أنهم غيرُ مبالين به مع اعترافهم بإتيانه ، بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولِهم أن الأعمالَ لا بد لها من الجزاء ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الآيات والنذرُ المنبّهة لهم عن سِنَة الغفلة ، وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلةُ أمراً جبلّياً لهم جُعل الخبرُ الأول ظرفاً منبئاً عن الاستقرار بخلاف الإعراض ، والجملةُ حالٌ من الناس ، وقد جُوّز كونُ الظرف حالاً من المستكن في معرضون .

(35/506)

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ ﴾ من طائفة نازلةٍ من القرآن تذكّرهم ذلك أكملَ تذكيرٍ وتنبّههم عن الغفلة أتمَّ تنبيهٍ ، كأنها نفسُ الذكر ومن في قوله تعالى : ﴿ مِّن رَّبِّهِمُ ﴾ لابتداء الغايةِ مجازاً

متعلقةٌ بيأتيهم أو بمحذوف هو صفةٌ لذكر ، وأياً ما كان ففيه دِلالةٌ على فضله وشرفِه

وكمالِ شناعةِ ما فعلوا به ، والتعرضُ لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ بالجر

صفةٌ لذكر ، وقرىء بالرفع حملاً على محله أي محدَثٌ تنزيلُه بحسب اقتضاءِ الحكمةِ وقوله

تعالى : ﴿ إِلاَّ استمعوه ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ محلُّه النصبُ على أنه حالٌ من مفعول يأتيهم

بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حالٌ من

فاعل استمعوه وقوله تعالى : ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ إما حالٌ أُخرى منه أو من واو يلعبون

والمعنى ما يأتيهم ذكرٌ من ربهم محدَثٌ في حال من الأحوال إلا حالَ استماعِهم إياه لاعبين

مستهزئين به لاهين عنه ، أو لاعبين به حالَ كونِ قلوبِهم لاهيةً عنه لتناهي غفلتِهم وفرْطِ

إعراضِهم عن النظر في الأمور والتفكرِ في العواقب ، وقرىء لاهيةٌ بالرفع على أنه خبرٌ بعد

خبر ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لبيان جنايةٍ خاصة إثرَ حكايةِ

جناياتهم المعتادة ، والنجوى اسمٌ من التناجي ومعنى إسرارِها مع أنها لا تكون إلا سراً

أنهم بالغوا في إخفائها أو أسروا نفسَ التناجي بحيث لم يشعُر أحدٌ بأنهم متناجون وقوله

تعالى : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ بدلٌ من واو أسروا منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم

الفاحش فيما أسروا به ، أو هو مبتدأٌ خبرُه أسروا النجوى قُدّم عليه اهتماماً به ، والمعنى

هم أسرّوا النجوى فوُضِع الموصولُ موضعَ الضمير تسجيلاً على فعلهم بكونه ظلماً أو

منصوبٌ على الذم وقوله : ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ الخ ، في حيّز النصبِ على أنه مفعولٌ لقول مضمرٍ هو جوابٌ عن سؤال نشأ عما قبله

(36/506)

، كأنه قيل : ماذا قالوا في نجواهم ؟ فقيل : قالوا هل هذا الخ ، أو بدلٌ من أسرّوا أو معطوفٌ عليه أو على أنه بدلٌ من النجوى ، أي أسروا هذا الحديثَ وهل بمعنى النفي والهمزة في قوله تعالى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر ﴾ للإنكار والفار للعطف على مقدّر يقتضيه المقام ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ حال من فاعل تأتون مقرِّرة للإنكار ومؤكدةٌ للاستبعاد ، والمعنى ما هذا إلا بشرٌ مثلُكم أي من جنسكم وما أتى به سحرٌ ، أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضُرونه على وجه الإذعان والقَبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغِ أن الرسولَ لا يكون إلا ملَكاً وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر ، وزل عنهم أن إرسالَ البسر إلى عامة البشر هو الذي تقتضيه الحكمةُ التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيقِ العهدِ وترتيب مبادي الشرِّ والفساد وتمهيدِ مقدمات المكرِ والكيد في هدم أمرِ النبوة وإطفاءِ نورِ

الدين والله متمٌّ نورَه ولو كره الكافرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(37/506)

وقال الآلوسى :

﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾

روي عن ابن عباس كما قال الإمام .

والقرطبي . والزمخشري أن المراد بالناس المشركون ويدل عليه ما ستسمعه بعد إن شاء الله تعالى من الآيات فإنها ظاهرة في وصف المشركين ، وقال بعض الأجلة : إن ما فيها من قبيل نسبة ما للبعض إلى الكل فلا ينافي كون تعريفه للجنس ، ووجه حسنه ههنا كون أولئك البعض هم الأكثرون وللأكثر حكم الكل شرعاً وعرفاً .

(38/506)

ومن الناس من جوز إرادة الجنس والضمائر فيما بعد لمشركي أهل مكة وإن لم يتقدم ذكرهم في هذه السورة وليس بأبعد مما سبق ، وقال بعضهم : إن دلالة ما ذكر على التخصيص ليست الأعلى تقدير تفسير الأوصاف بما فسروها به ، ويمكن أن يحمل كل منها على معنى يشترك فيه عصاة الموحدين ولا يخفى أن في ذلك ارتكاب خلاف الظاهر جداً ، واللام صلة لاقترب كما هو الظاهر وهي بمعنى إلى أو بمعنى من فإن ﴿ اقترب ﴾ افتعل من القرب ضد البعد وهو يتعدى بإلى وبمن ، واقتصر بعضهم على القول بأنها بمعنى إلى فقيل فيه تحكم لحديث تعدى القرب بهما ، وأجيب بأنه يمكن أن يكون ذلك لأن كلاً من من وإلى اللتين هما صلتا القرب بمعنى انتهاء الغاية إلا أن إلى عريقة في هذا المعنى ومن عريقة في ابتداء الغاية فلذا أوثر التعبير عن كون اللام المذكورة بمعنى انتهاء الغاية كالتي في قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] القول بأنها بمعنى إلى واقتصر عليه ، وفي "الكشف" المعنى على تقدير كونه صلة لاقترب اقترب من الناس لأن معنى الاختصاص وابتداء الغاية كلاهما مستقيم يحصل به الغرض انتهى ، وفيه بحث فإن المفهوم منه أن يكون كلمة من التي يتعدى بها فعل الاقتراب بمعنى ابتداء الغاية وليس كذلك لعدم ملاءمة ذلك المعنى مواقع استعمال تلك الكلمة فالحق أنها بمعنى انتهاء الغاية فإنهم ذكروا أن من يجيء لذلك ، قال الشمني : وفي الجني الداني مثل ابن مالك لانتهاء الغاية بقولهم تقربت منه فإنه مساو لتقربت إليه ، ومما يشهد لذلك أن فعل الاقتراب كما يستعمل بمن يستعمل بإلى ، وقد

ذكر في معاني من انتهاء الغاية كما سمعت ولم يذكر أحد في معاني إلى ابتداء الغاية والأصل أن تكون الصلتان بمعنى فتحمل من على إلى في كون المراد بها الانتهاء ، وغاية ما يقال في توجيه ذلك أن صاحب الكشف حملها على ابتداء الغاية لأنه أشهر معانيها حتى ذهب بعض النحاة إلى إرجاع سائرها إليه وجعل

(39/506)

تعديته بها حملاً على ضده المتعدي بها وهو فعل البعد كما أن فعل البيع يعدي بمن حملا له على فعل الشراء المتعدي بها على ما ذكره نجم الأئمة الرضي في بحث الحروف الجارة ؛ والمشهور أن ﴿ اقترب ﴾ بمعنى قرب كارتقب بمعنى رقب ، وحكى في "البحر" أنه أبلغ منه لزيادة مبناه والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه وهو الساعة ، ووجه إيثار بيان اقترابه مع أن الكلام مع المشركين المنكرين لأصل بعث الأموات ونفس إحياء العظام الرفات فكان ظاهر ما يقتضيه المقام أي يؤتى بما يفيد أصل الوقوع بدل الاقتراب وأن يسند ذلك إلى نفس الساعة لا إلى الحساب للإشارة إلى أن وقوع القيام وحصول بعث الأجساد والأجسام أمر ظاهر بلا تمويه وشيء واضح لا ريب فيه وأنه وصل في الظهور والجلاء إلى حيث لا يكاد يخفى على العقلاء وأن الذي يرخي في بيانه أعنة المقال بعض ما يستتبعه من الأحوال

والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب بل نفس وقوع الحساب أيضاً غني عن البيان لا ينبغي أن ترتاب فيه العقول والأذهان وأن الذي قصد بيانه ههنا أنه دنا أوانه واقترب زمانه فيكون الكلام مفصحاً عن تحقق القيام الذي هو مقتضى المقام على وجه وجيه أكيد ونهج بديع سديد لا يخفى لطفه على من ألقى السمع وهو شهيد .

وجوز أن يكون الكلام مع المشركين السائلين عن زمان الساعة المستعجلين لها استهزاء كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : 51] فحينئذٍ يكون الإخبار عن الاقتراب على مقتضى الظاهر ، وإيثار بيان اقتراب الحساب على بيان اقتراب سائر وقوع مستتبعات البعث كفنون العذاب وشجون العقاب للإشعار بأن مجرد اقتراب الحساب الذي هو من مبادىء العذاب ومقدماته كاف في التحذير عما هم عليه من الإنكار وواف بالردع عما هم عليه من العلو والاستكبار فكيف الحال في نفس العذاب والنكال .

وذكر شيخ الإسلام مولانا أبو السعود عليه الرحمة إن إسناد ذلك إلى الحساب لا إلى الساعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم إياه وفيه ما فيه ، ثم

الوجه اللائح في النظر الجليل لإسناد الاقتراب إلى الحساب دون الناس مع جواز العكس هو أن الاقتراب إذا حصل بين شيئين يسند إلى ما هو مقبل على الآخر متحرك ومتوجه إلى جهته حقيقة أو حكماً حتى أنه لو كان كل منهما متوجهاً إلى الآخر يصح إلى كل منهما ، وقد سمعت أن المراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه ، وقد صرح به أجلة المفسرين ، وأنت خبير بأن الشائع المستفيض اعتبار التوجكه والإتيان من الزمان إلى ذي الزمان لا بالعكس فلذلك يوصف الزمان بالمضي والاستقبال فكان الجدير أن يسند الاقتراب إلى زمان الحساب ويجعل الناس مدنواً إليهم .

وذكر شيخ الإسلام أن في هذا الإسناد من تفخيم شأن المسند إليه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصوير ذلك بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم فيصيبهم لا محالة انتهى ، وهو معنى زائد على ما ذكرنا لا يخفى لطفه على الناقد البصير واليلمعي الخبير ، والمراد من اقتراب ذلك من الناس على ما اختاره الشيخ قدس سره دنوه منهم بعد بعده عنهم فإنه في كل ساعة يكون أقرب إليهم منه في الساعة السابقة ، واعترض قول الزمخشري المراد من ذلك كون الباقي من مدة الدنيا أقل وأقصر مما مضى منها فإنه كصبابة الإناء ودردى الوعاء بأنه لا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضي ولا حاجة إليه في تحقيق أصل معناه .

نعم قد يفهم منه عرفاً كونه قريباً في نفسه أيضاً فيصار حينئذٍ إلى هذا التوجيه .

وتعقبه بعض الأفاضل بأن القول بعدم التعلق بالاقتراب المستفاد من صيغة الماضي خارج عن دائرة الإنصاف فإنه إن أراد أنه لا تعلق له بالحدوث المستفاد منها فلا وجه له أيضاً إذ الدلائل دلت على حصول هذا الاقتراب حين مبعث النبي صلى الله عليه وسلم الموعود في آخر الزمان المتقدم على نزول الآية .

ثم قال : فليت شعري ما معنى عدم عدم تعلقه بما نحن فيه بل ربما يمكن أن يدعي عدم المناسبة في المعنى الذي اختاره نفسه فإن الاقتراب بذلك المعنى مستمر من أول بدء الدنيا إلى يوم نزول الآية بل إلى ما بعد فالذي يناسبه هو الصيغة المنبئة عن الاستمرار والدوام ، ثم لا يخفى على أصحاب الأفهام أن هذا المعنى الذي اعترضه أنسب بما هو مقتضى المقام من إخافة الكفرة اللئام المرتابين في أمر القيام لما فيه من بيان قربه الواقع في نفس الأمر اه فتدبر ، وقيل المراد اقتراب ذلك عند الله تعالى ، وتعقب بأنه لا عند لله عز وجل إذ لا نسبة للكائنات إليه عز وجل بالقرب والبعد .

ورد بأنه غفلة أو تغافل عن المراد فإن المراد من عند الله في علمه الأزلي أو في حكمه

وتقديره لا الدنو والاقتراب المعروف ، وعلى هذا يكون المراد من القرب تحققه في علمه تعالى أو تقديره .

(42/506)

وقال بعض الأفاضل : ليس المراد من كون القرب عند الله تعالى نسبته إليه سبحانه بأن يجعل هو عز وجل مدنواً منه ومقرباً إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً بل المراد قرب الحساب للناس عند الله تعالى ، وحاصله أنه تعالى شأنه لبلوغ تأنيه إلى حد الكمال يستقصر المدد الطوال فيكون الحساب قريباً من الناس عند جنابه المتعال وإن كان بينه وبينهم أعوام وأحوال ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج : 6 ، 7] وهذا المعنى يفيد وراء إفادته تحقق الثبوت لا محالة أن المدة الباقية بينهم وبين الحساب شيء قليل في الحقيقة وما عليه الناس من استطالته واستكثاره فمن التسويلات الشيطانية وأن اللائق بأصحاب البصيرة أن يعدوا تلك المدة قصيرة فيشمروا الذيل ليوم يكشف فيه عن ساق ويكون إلى الله تعالى شأنه المساق ، وقول شيخ الإسلام في الاعتراض على ما قيل أنه لا سبيل إلى اعتباره ههنا لأن قربه بالنسبة إليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتماً وإنما اعتباره في قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] ونظائره مما لا دلالة فيه على الحدوث مبني على حمل القرب عنده تعالى على القرب إليه تعالى بمعنى حضور ذلك في علمه الأزلي فإنه الذي لا يجري فيه التفاوت حتماً وأما قرب الأشياء بعضها إلى بعض زماناً أو مكاناً فلا ريب أنه يتجدد تعلقات علمه سبحانه بذلك فيعلمه على ما هو عليه مع كون صفة العلم نفسها قديمة على ما تقرر في موضعه اه .

واختار بعضهم أن المراد بالعندية ما سمعته أولاً وهو معنى شائع في الاستعمال وجعل التجدد باعتبار التعلق كما قيل بذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم لَنَعْلَمُ ﴾ [الكهف : 12] الآية ، وقيل المراد من اقترابه تحقق وقوعه لا محالة فإن كل آت قريب والبعيد ما وقع ومضى ولذا قيل

: فلا زال ما تهواه أقرب من غد . . .

ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(43/506)

ولا بد أن يراد من تحقق وقوعه تحققه في نفسه لا تحققه في العلم الأزلي ليغاير القول السابق .

وبعض الأفاضل قال : إنه على هذا الوجه عدم تعلقه بالاقتراب المستفاد من صيغة

الماضي إلا أن يصار إلى القول بتجرد الصيغة عن الدلالة على الحدوث كما في قولهم :

سبحان من تقدس عن الأنداد وتنزه عن الأضداد فتأمل ولا تغفل .

وتقديم الجار والمجرور على الفاعل كما صرح به شيخ الإسلام للمسارعة إلى إدخال الروعة فإن نسبة الاقتراب المشركين من أول الأمر يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجاً من المقترب ، واعترض بأن هؤلاء المشركين لا يحصل لهم الترويع والانزعاج لما ستسمع من غفلتهم وإعراضهم وعدم اعتدادهم بالآيات النازلة عليهم فكيف يتأتى تعجيل المساءة .

وأجيب بأن ذلك لا يقتضي أن لا يزعجهم الإنذار والتذكير ولا يروعهم التخويف والتحذير لجواز أن يختلج في ذهنهم احتمال الصدق ولو مرجوحاً فيحصل لهم الخوف والإشفاق .

وأيد بما ذكره بعض المفسرين من أنه لما نزلت : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] قال الكفار فيما بينهم : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً فنزلت ﴿ اقترب لِلنّاسِ حسابهم ﴾ فأشفقوا فانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به انتهى .

وقال بعضهم في بيان ذلك : إن الاقتراب منبىء عن التوجه والإقبال نحو شيء فإذا قيل اقترب أشعر ان هناك أمراً مقبلاً على شيء طالباً له من غير دلالة على خصوصية المقترب منه فإذا قيل بعد ذلك ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ دل على أن ذلك الأمر طالب لهم مقبل عليهم وهم هاربون منه فأفاد أن المقترب مما يسوؤهم فيحصل لهم الخوف والاضطراب قبل ذكر الحساب بخلاف ما إذا قيل اقترب الحساب للناس فإن كون إقبال الحساب نحوهم لا يفهم على ذلك التقدير إلا بعد ذكر للناس فتحقق فائدة التعجيل في التقديم مما لا شبهة فيه بل فيه فائدة زائدة وهي ذهاب الوهم في تعيين ذلك الأمر الهائل إلى كل مذهب إلى أن يذكر الفاعل ، ويمكن أيضاً أن يقال في وجه تعجيل التهويل : إن جرين عادته الكريمة صلى الله عليه وسلم على إنذار المشركين وتحذيرهم وبيان ما يزعجهم يدل على أن ما يين اقترابه منهم شيء سيء هائل فإذا قدم الجار يحصل التخويف حيث يعلم من أول الأمر أن الكلام في حق المشركين الجاري عادته الكريمة عليه الصلاة والسلام على تحذيرهم بخلاف ما إذا قدم الفاعل حيث لا يعلم المقترب منه إلى أن يذكر الجار والمجرور والقرينة المذكورة لا تدل على تعيين المقترب كما تدل على تعيين المقترب إذ من المعلوم من عادته الكريمة صلى الله عليه وسلم أنه إذا تكلم في شأنهم يتكلم غالباً بما يسوؤهم لا أنه عليه الصلاة والسلام يتكلم في غالب أحواله بما يسوؤهم وفرق يين العادتين ، ولا يقدح في تمامية المرام توقف تحقق نكتة التقديم على ضم ضميمة العادة إذ يتم المراد بأن يكون للتقديم مدخل في حصول تلك

النكتة بحيث لو فات التقديم لفات النكتة ، وقد عرفت أن الأمر كذلك وليس في كلام الشيخ قدس سره ما يدل على أن المسارعة المذكورة حاصلة في من التقديم وحده كذا قيل .

(45/506)

ولك أن تقول : التقديم لتعجيل التخويف ولا ينافي ذلك عدم حصوله كما لا ينافي عدم حصول التخويف كون إنزال الآيات للتخويف فافهم ، وجوز الزمخشري كون اللام تأكيداً لإضافة الحساب إليهم قال في "الشكف" : فالأصل اقترب حساب الناس لأن المقترب منه معلوم ثم اقترب للناس الحساب على أنه ظرف مستقر مقدم لا أنه يحتاج إلى مضاف مقدر حذف لأن المتأخر مفسر أي اقترب الحساب للناس الحساب كما زعم الطيبي وفي التقديم والتصريح باللام وتعريف الحساب مبالغات ليست في الأصل ثم اقترب للناس حسابهم فصارت اللام مؤكدة لمعنى الاختصاص الإضافي لا لمجرد التأكيد كما في لا أبا له وما ثنى فيه الظرف من نحو فيك زيد راغب فيك انتهى .

وادعى الزمخشري أن هذا الوجه أغرب بناءً على أن فيه مبالغات وكتاً ليست في الوجه الأول وادعى شيخ الإسلام أنه مع كونه تعسفاً تاماً بمعزل عما يقتضيه المقام ، وبحث فيه

أيضاً أبو حيان وغيره ومن الناس من انتصر له وذب عنه ، وبالجملة للعلماء في ذلك مناظرة عظمى ومعركة كبرى ، والأولى بعد كل حساب جعل اللام صلة الاقتراب هذا .

واستدل بالآية على ثبوت الحساب ، وذكر البيضاوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ ﴾ (البقرة : 284) أن المعتزلة والخوارج ينكرونه ويعضده ما ذكره الإمام النسفي في بعض مؤلفاته حيث قال : قالت المعتزلة لا ميزان ولا حساب ولا صراط ولا حوض ولا شفاعة وكل موضع ذكر الله تعالى فيه الميزان أو الحساب أراد سبحانه به العدل انتهى .

(46/506)

لكن المذكور في عامة المعتبرات الكلامية أن أكثرهم ينفي الصراط وجميعهم ينفي الميزان ولم يتعرض فيها لنفيهم الحساب ، والحق أن الحساب بمعنى المجازاة مما لا ينكره إلا المشركون ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي في غفلة عظيمة وجهالة فخيمة عنه ، وقيل الأولى التعميم أي في غفلة تامة وجهالة عامة من توحيده تعالى والإيمان بكتبه ورسله عليهم السلام ووقوع الحساب ووجود الثواب والعقاب وسائر ما جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ، وذكر غفلتهم عن ذلك عقيب بيان اقتراب الحساب لا يقتضي قصر الغفلة عليه فإن وقوع تأسفهم

وندامتهم وظهور أثر جهلهم وحماقتهم لما كان مما يقع في يوم الحساب كان سبباً للتعقيب المذكور انتهى.

وقد يقال: إن ظاهر التعقيب يقتضي ذلك، ومن غفل عن مجازاة الله تعالى له المراد من الحساب صدر منه كل ضلالة وركب متن كل جهالة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً لهم وقوله سبحانه: ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الآيات والنذر الناطقة بذلك الداعية إلى الإيمان به المنجي من المهالك خبر بعد خبر، واجتماع الغفلة والإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء ولذا إذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا إلى آخر ما قال.

(47/506)

وحاصله يتضمن دفع التنافي بين الغفلة التي هي عدم التنبه والإعراض الذي يكون من المتنبه بأن الغفلة عن الحساب في أول أمرهم والإعراض بعد قرع عصا الإنذار أو بأن الغفلة عن الحساب والإعراض عن التفكر في عاقبتهم وأمر خاتمتهم، وفي "الكشف" أراد أن حالهم

المستمرة الغفلة عن مقتضى الأدلة العقلية ثم إذا عاضدتها الأدلة السمعية وأرشدوا لطريق النظر أعرضوا ، وفيه بيان فائدة إيراد الأول جملة ظرفية لما في حرف الظرف من الدلالة على التمكن وإيراد الثاني وصفاً منتقلاً دالاً على نوع تجدد ، ومنه يظهر ضعف الحمل على أن الظرفية حال من الضمير المستكن في ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ قدمت عليه انتهى .

ولا يخفى أن القول باقتضاء العقول أنه لا بد من الجزاء لا يتسنى إلا على القول بالحسن والقبح العقليين والأشاعرة ينكرون ذلك أشد الإنكار ، وقال بعض الأفاضل : يمكن أن يحمل الإعراض على الاتساع كما في قوله

: عطاء فتى تمكن في المعالي . . .

وأعرض في المعالي واستطالا

وذكره بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نجاكم إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : 67] فيكون المعنى وهم متسعون في الغفلة مفرطون فيها .

ويمكن أيضاً أن يراد بالغفلة معنى الإهمال كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غافلين ﴾ [المؤمنون : 17] فلا تنافي بين الوصفين .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ ﴾ من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتبين لهم الأمر أتم تبيين كأنها نفس الذكر ، و﴿ مِنْ ﴾ سيف خطيب وما بعدها مرفوع المحل على الفاعلية ، والقول بأنها تبعيضية بعيد ، و﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مّن رَّبّهِمُ ﴾ لابتداء الغاية

مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر ، وأياً ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به ، والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ بالجر صفة لذكر .

(48/506)

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على أنه صفة له أيضاً على المحل ، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بالنصب على أنه حال منه بناءً على وصفه بقوله تعالى : ﴿ مِّن رَّبِّهِمُ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ استمعوه ﴾ استثناءً مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول ﴿ يَأْتِيهِمُ ﴾ بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور على ما قيل ، وقال نجم الأئمة الرضي : إذا كان الماضي بعد إلا فاكتفاؤه بالضمير من دون الواو وقد أكثر نحو ما لقيته إلا أكرمني لأن دخول إلا في الأغلب على الأسماء فهو بتأويل إلا مكرماً فصار كالمضارع المثبت .

وجوز أن يكون حالاً من المفعول لأنه حامل لضميره أيضاً والمعنى لا يأباه وهو خلاف الظاهر ، وأبعد من ذلك ما قيل إنه يحتمل أن يكون صفة لذكر ، وكلمة ﴿ إِلا ﴾ وإن كانت مانعة عند الجمهور إذ التفريغ في الصفات غير جائز عندهم إلا أنه يجوز أن يقدر ذكر

آخر بعد إلا فتجعل هذه الجملة صفة له ويكون ذلك بمنزلة وصف المذكور أي ما يأتيهم من ذكر إلا ذكر استمعوه، وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حال من فاعل ﴿ استمعوه ﴾ ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ إما حال أخرى منه فتكون مترادفة أو حال من واو ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: 2] فتكون متداخلة والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه.

وقرأ ابن أبي عبلة.

وعيسى ﴿ لاَهِيَةً ﴾ بالرفع على أنه خبر بعد خبر لهم، والسر في اختلاف الخبرين لا يخفى، و﴿ لاَهِيَةً ﴾ من لهى عن الشيء بالكسر لهياً ولهياناً إذا سلا عنه وترك ذكره وأضرب عنه كما في "الصحاح".

(49/506)

وفي "الكشاف" هي من لهى عنه إذا ذهل وغفل وحيث اعتبر في الغفلة فيما مر أن لا يكون للغافل شعور بالمغفول عنه أصلاً بأن لا يخطر بباله ولا يقرع سمعه أشكل وصف قلوبهم بالغفلة بعد سماع الآيات إذ قد زالت عنهم بذلك وحصل لهم الشعور وإن لم يوفقوا للإيمان

وبقوا في غيابة الخزي والخذلان.

وأجيب بأن الوصف بذلك على تنزيل شعورهم لعدم انتفاعهم به منزلة العدم نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِى الآخرة مِنْ خلاق وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 102) وأنت تعلم أنه لا بأس أن يراد من الغفلة المذكورة في تفسير لهى الترك والإعراض على ما تفصح عنه عبارة الصحاح، وإنما لم يجعل ذلك من اللهو بمعنى اللعب على ما هو المشهور لأن تعقيب ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ بذلك حينئذٍ مما لا يناسب جزالة التنزيل ولا يوافق جلالة نظمه الجزيل وإن أمكن تصحيح معناه بنوع من التأويل، والمراد بالحدوث الذي يستدعيه ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ التجدد وهو يقتضي المسبوقية بالعدم، ووصف الذكر بذلك باعتبار تنزيله لا باعتباره نفسه وإن صح ذلك بناءً على حمل الذكر على الكلام اللفظي والقول بما شاع عن الأشاعرة من حدوثه ضرورة أنه مؤلف من الحروف والأصوات لأن الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام بيان أنه كلما تجدد لهم التنبيه والتذكير وتكرر على أسماعهم كلمات التخويف والتحذير ونزلت عليهم الآيات وقرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة والجهالة عدد الحصا وأرشدوا إلى طريق الحق مراراً لا يزيدهم ذلك إلا فراراً، وأما إن ذلك المنزل حادث أو قديم فمما لا تعلق له بالمقام كما لا يخفى على ذوي الإفهام.

وجوز أن يكون المراد بالذكر الكلام النفسي وإسناد الإتيان إليه مجاز بل إسناده إلى الكلام مطلقاً كذلك ؛ والمراد من الحدوث التجدد ويقال : إن وصفه بذلك باعتبار التنزيل فلا ينافي القول بقدم الكلام النفسي الذي ذهب إليه مثبتوه من أهل السنة والجماعة .

والحنابلة القائلون بقدم اللفظي كالنفسي يتعين عندهم كون الوصف باعتبار ذلك لئلا تقوم الآية حجة عليهم ، وقال الحسن بن الفضل المراد بالذكر النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمي ذكراً في قوله تعالى :

﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً ﴾ [الطلاق : 10 ، 11] ويدل عليه هنا ﴿ هَلْ هذا ﴾ الخ الآتي قريباً إن شاء الله تعالى وفيه نظر ، وبالجملة ليست الآية مما تقام حجة على رد أهل السنة ولو الحنابلة كما لا يخفى ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى من جناياتهم ، و﴿ النجوى ﴾ اسم من التناجي ولا تكون إلا سراً فمعنى إسرارها المبالغة في إخفائها ، ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى التناجي فالمعنى أخفوا تناجيهم بأن لم يتناجوا بمرأى من غيرهم ، وهذا على ما في "الكشف" أظهر وأحسن موقعاً ، وقال أبو عبيدة : الإسرار من الأضداد ، ويحتمل أن يكون هنا بمعنى الإظهار ومنه قول الفرزدق

: فلما رأى الحجاج جرد سيفه . . .

أسر الحروري الذي كان أضمرا

وأنت تعلم أن الشائع في الاستعمال معنى الإخفاء وإن قلنا إنه من الأضداد كما نص عليه التبريزي ولا موجب للعدول عن ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ بدل من ضمير ﴿ أَسَرُّواْ ﴾ كما قال المبرد ، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه ، وفيه إشعار بكونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به ، وقال أبو عبيدة .

والأخفش .

وغيرهما : هو فاعل ﴿ أَسَرُّواْ ﴾ والواو حرف دال على الجمعية كواو قائمون وتاء قامت وهذا على لغة أكلوني البراغيث وهي لغة لأزدشنوءة قال شاعرهم

: يلومونني في اشتراء النخيل أهلي وكلهم ألوم . . . .

(51/506)

وهي لغة حسنة على ما نص أبو حيان وليست شاذة كما زعمه بعضهم ، وقال الكسائي : هو مبتدأ والجملة قبله خبره وقدم اهتماماً به ، والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلاً على فعلهم بكونه ظلماً ، وقيل هو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين ، وقيل هو فاعل لفعل محذوف أي يقول الذين والقول كثيراً ما يضمر ، واختاره النحاس ،

وهو على هذه الأقوال في محل الرفع .

وجوز أن يكون في محل النصب على الذم كما ذهب إليه الزجاج أو على إضمار أعني كما ذهب إليه بعضهم ، وأن يكون في محل الجر على أن يكون نعتاً ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ [الأنبياء : 1] كما قال أبو البقاء أو بدلاً منه كما قال الفراء وكلاهما كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ الخ في حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر بعد الموصول وصلته هو جواب عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا قالوا في نجواهم ؟ فقيل قالوا هذا هذا الخ أو بدل من ﴿ أَسَرُّواْ ﴾ أو معطوف عليه ، وقيل حال أي قائلين هل هذا الخ وهو مفعول لقول مضمر قبل الموصول على ما اختاره النحاس ، وقيل مفعول للنجوى نفسها لأنها في معنى القول والمصدر المعرف يجوز إعماله الخليل .

(52/506)

وسيبويه ، وقيل بدل منها أي أسروا هذا الحديث ، و﴿ هَلُ ﴾ بمعنى النفوي ليست للاستفهام التعجبي كما زعم أبو حيان ، والهمزة في قوله تعالى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر ﴾ للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ حال من فاعل تأتون مقررة للإنكار مؤكدة للاستبعاد ، وأرادوا كما قيل ما هذا إلا بشر

مثلكم أي من جنسكم وما أتى به سحر تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر ، وعنوا بالسحر ههنا القرآن ففي ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه قاتلهم الله تعالى أني يؤفكون ، وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادي الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة وإطفاء نور الدين والله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون ، وقيل أسروه ليقولوا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقاً فاخبرونا بما أسررناه ؟ ورده في الكشف بأنه لا يساعده النظم ولا يناسب المبالغة في قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ ولا في قوله سبحانه ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(53/506)

وقال القاسمى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾

أي : دنا لأهل مكة ما وعدوا به في الكتاب من الحساب الأخرويّ وهو عذابهم : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي : عما يراد بهم : ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : مكذّبون به . وإنما كان مقترباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6 – 7] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] ، ولا يخفى ما في عموم الناس من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن ينتبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن في تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، ففي العنوان ما يرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدنيويّ والأخروي لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركي مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم ، كما أشير أليه في آية : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ [المائدة : 52] ، ووعد به النبيّ وصحبه في آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرويّ ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ تقريع لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكمل تذكير ، وينبه على الغفلة أتم تنبيه ، أن تخشع له القلوب وتستحذي [في المطبوع : تستخذي] له الأنفس .

قال الزمخشري : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، فأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون . فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التي هي أحق الحق وأجد الجد ، إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً . والذكر هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع . وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية . فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف . فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً ، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات في الجسم . كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبيّ عليه الصلاة السلام ، أو غيرهم كشجرة موسى . وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدالّ والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلاً للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوّ دال على الصفة القديمة النفسية ، التي هي الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلّغوها إلى أممهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة .

والمسألة شهيرٌ ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليها .

(55/506)

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان ، هذا الاحتجاج من الأغلاط ، وعبارته في كتابه " مطابقة المنقول للمعقول " : احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم . والحدوث في لغة العرب العام ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام . فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً ، وما تقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن كقوله تعالى : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يّس : 39] ، وقوله تعالى عن إخوة يوسف : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [

يوسف : 95] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 11] ، وقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء : 75 - 76] ، انتهى .

وقال العارف ابن عربيّ في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من " فتوحاته " في هذه الآية : المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سمعوه . وهذا كما تقول : حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتي . وكذلك القرآن جاء في مواد حادثة تعلق السمع بها . فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات . فله الحدوث من وجه والقدم من وجه .

(56/506)

فإن قلت : فإن الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسماً " إنَّهُ " يعني : القرآن : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : 40] . فأضاف الكلام إلى الواسطة والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : 6] ، فإذا تلي علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السماعين بعد المشرقين . فإن الذي يدركه من يسمع كلام الله بلا

واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالحكمة فالمذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية في " منهاج السنة " : أن الله تعالى لم ينزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً .

وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً .

فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا : نعم . وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتي ويجيء – فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادي موسى في الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ ﴾ [النمل : 8] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] ، فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال .

(57/506)

ثم قال رحمه الله : قالوا – يعني أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما – وبالجملة فكل ما يحتاج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء ويتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . ولفظ الحوادث مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائض ، والله منزه عن ذلك . ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلماً ودوام كونه فاعلاً بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاري وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم .

ثم قال : فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهي وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول أنه أصوات منقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضا فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزلياً لم ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص وإن صار محلاً للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي : أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . والذين بدل من واو أسروا أو مبتدأ خبره أسروا أو منصوب على الذم : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ أي : تنقادون له وتتبعونه . وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشري رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملكاً ، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو

ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود : وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(59/506)

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [4] .

﴿ قَالَ رَبِّي ﴾ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . وقرىء : قلْ على الأمر له صلوات الله عليه : ﴿ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ أي : لما أسروه : ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أي : به فيجازيهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 11 صـ 186.182﴾

(60/506)

وقال الشيخ الشنقيطى :

بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

قوله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في أول سورة " النحل " فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار أخفوا النجوى فيما بينهم ، قائلين : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم ما هو إلا بشر مثلهم ، فكيف يكون رسولاً إليهم ؟ والنجوى : الإسرار بالكلام وإخفاؤه عن الناس . وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من دعواهم : أن بشراً مثلهم لا يمكن أن يكون رسولاً ، وتكذيب الله لهم في ذلك جاء في آيات كثيرة ، وقد قدمنا كثيراً من ذلك ، كقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] ، وقوله : ﴿ فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله ﴾ [التغابن : 6] الآية ، وقوله : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 24] وقوله : ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 33-34] ، وقوله تعالى : ﴿ مالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [

الفرقان : 7] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا إنْ أَنتُمْ إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [إبراهيم : 10] الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، كما تقدم إيضاح ذلك .

(61/506)

وقد رد الله عليهم هذه الدعوى الكاذبة التي هي منع إرسال البشر ، كقوله هنا في هذه السورة الكريمة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : 38] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] ، وقوله هنا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 8] ، إلى غير ذلك من الآيات . وجملة ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ . قيل بلد من " النجوى " . أي أسروا النجوى التي هي هذا الحديث الخفي الذي هو قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم . وصدر به الزمخشري ، وقيل : مفعول به للنجوى . لأنها بمعنى القول الخفي . أي قالوا في خفية : ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ . وقيل : معمول قول محذوف . أي قالوا هل هذا

إلا بشر مثلكم . وهو أظهرها . لاطراد حذف القول مع بقاء مقوله . وفي قوله : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أوجه كثيرة من الإعراب معروفة ، وأظهرها عندي : أنها بدل من الواو في قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ بدل بعض من كل ، وقد تقرر في الأصول : أن بدل البعض من الكل من المخصصات المتصلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] . فقوله ﴿ من ﴾ بدل من " الناس " : بدل بعض من كل ، وهي مخصصة لوجوب الحج بأنه لا يجب إلاَّ على من استطاع إليه سبيلاً . كما قدمنا هذا في سورة " المائدة " .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ .

(62/506)

إعراب هذه الجملة جار مجرى إعراب الجملة التي قبلها ، التي هي ﴿ هَلْ هاذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 3] ، والمعنى : أنهم زعموا أ ، ما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم سحر ، وبناء على ذلك الزعم الباطل أنكروا على أنفسهم إتيان السحر وهم يبصرون . يعنون بذلك تصديق النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أي لا يمكن أن نصدقك ونتبعك ، ونحن نبصر أن ما جئت به سحر . وقد بين جل وعلا في غير هذا الموضع أنهم ادعوا أن ما جاء

به صلى الله عليه وسلم سحر ، كقوله عن بعضهم : ﴿ إِنْ هاذا آإِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : 24] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَآ أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : 52] . وقد رد الله عليهم دعواهم أ ، القرآن سحر بقوله هنا : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض وَهُوَ السميع العليم ﴾ [الأنبياء : 4] يعني أن الذي يعلم القول في السماء والأرض الذي هو السميع العليم ، المحيط علمه بكل شيء ، هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم ، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء يدل على كمال صدقه في الأخبار وعدله في الأحكام ، وسلامته من جميع العيوب والنقائص ، وأنه ليس بسحر .

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع : كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ لكن الله يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكة يَشْهَدُونَ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [النساء : 166] إلى غير ذلك من الآيات . وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول ﴾ بألف بعد القاف وفتح اللام بصيغة الفعل الماضي ، وقرأه الباقون ﴿ قُلْ ﴾ بضم القاف وإسكان اللام بصيغة الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(63/506)

وقال ابن عاشور :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع على المنذَرين ، فإن المراد بالناس مشركو مكة ، والاقتراب مبالغة في القرب ، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقق الفعل أي اشتد قرب وقوعه بهم .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيلية شبه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس ، ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة ، وهي هيئة المغير والمُعَجِّل في الإغارة على القوم فهو يلح في السير تكلفاً للقرب من ديارهم وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم كما يكون قوم غارّين معرضين عن اقتراب العدوّ منهم ، فالكلام تمثيل .

والمراد من الحساب إما يوم الحساب ، ومعنى اقترابه أنه قريب عند الله لأنه محقق الوقوع ، أو قريب بالنسبة إلى ما مضى من مدة بقاء الدنيا كقول النبي صلى الله عليه وسلم "بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين" أو اقترب الحساب كناية عن اقتراب موتهم لأنهم إذا ماتوا رأوْا جزاء أعمالهم ، وذلك من الحساب .

وفي هذا تعريض بالتهديد بقرب هلاكهم وذلك بفنائهم يوم بدر .

أو المراد بالحساب المؤاخذة بالذنب كما في قوله تعالى : ﴿ إنْ حسابهم إلاّ على ربي ﴾ [

الشعراء : 113] وعليه فالاقتراب مستعمل في حقيقته أيضاً فهو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

واللام في قوله ﴿ للناس ﴾ إن أبقيت على معناها الأصلي من الاختصاص فذكرها تأكيد لمعنى اللام المقدرة في الإضافة في قوله ﴿ حسابهم ﴾ لأن تقديره : حسابٌ لهم.

(64/506)

والضمير عائد إلى ﴿ الناس ﴾ فصار قوله ﴿ للناس ﴾ مساوياً للضمير الذي أضيف إليه (حساب) فكأنه قيل : اقترب حساب للناس لهم فكانَ تأكيداً لفظياً ، وكما تقول : أزف للحي رَحيلُهم ، أصله أزف الرحيلُ للحيّ ثم صار أزف للحي رحيلُهم ، ومنه قول العرب : لا أبَا لك ، أصله لا أباكَ ، فكانت لام (لك) مؤكدة لمعنى الإضافة لإمكان إغناء الإضافة عن ذكر اللام.

قال الشاعر:

أبالموت الذي لا بد أني

مُلاق لا أباك تخوّفيني

وأصل النظم : اقترب للناس الحساب.

وإنما نظم التركيب على هذا النظم بأن قدم ما يدل على المضاف إليه وعُرِّف ﴿ الناس ﴾ تعريف الجنس ليحصل ضرب من الإبهام ثم يقع بعده التبيين ، ولِما في تقديم الجار والمجرور من الاهتمام بأن الاقتراب للناس ليعلم السامع أن المراد تهديد المشركين لأنهم الذين يُكنَّى عنهم بالناس كثيراً في القرآن ، وعند التقديم احتيج إلى تقدير مضاف فصار مثل : اقترب حساب للناس الحساب ، وحذف المضاف لدلالة مفسره عليه .

ولما كان الحساب حساب الناس المذكورين جيء بضمير الناس ليعود إلى لفظ الناس فيحصل تأكيد آخر وهذا نمط بديع من نسج الكلام ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى (من) أو بمعنى (إلى) متعلقة بـ ﴿ اقترب ﴾ فيكون المجرور ظرفاً لغواً ، وعن ابن مالك أنه مَثّل لانتهاء الغاية بقولهم : "تقربت منك" .

وجملة ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾ حال من ﴿ الناس ، ﴾ أي اقترب منهم الحساب في حال غفلتهم وإعراضهم .

والمراد بالناس المشركون لأنهم المقصود بهذا الكلام كما يدل عليه ما بعده .

والغفلة : الذهول عن الشيء وعن طرق علمه ، وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ في سورة [الأنعام : 156] ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ في [سورة الأعراف : 146] .

والإعراض : صرف العقل عن الاشتغال بالشيء .

وتقدم في قوله : ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ في سورة [النساء : 63] ، وقوله : ﴿ فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ في سورة [الأنعام : 68] .

ودلت (في) على الظرفية المجازية التي هي شدة تمكن الوصف منهم ، أي وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها ، ذلك أن غفلتهم عن يوم الحساب متأصلة فيهم بسبب سابق كفرهم .

والمعنى : أنهم غافلون عن الحساب وعن اقترابه .

وإعراضهم هو إبايتهم التأمل في آيات القرآن التي تذكرهم بالبعث وتستدل لهم عليه ، فمتعلق الإعراض غير متعلق الغفلة لأن المعرض عن الشيء لا يعد غافلاً عنه ، أي أنهم لما جاءتهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان وإنذارهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به .

فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يقلع الغفلة عنهم بإعراضهم عن الدلائل المثبتة للبعث .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً ﴾ .

جملة مبينة لجملة ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾ [الأنبياء : 1] لبيان تمكن الغفلة منهم وإعراضهم ، بأنهم إذا سمعوا في القرآن تذكيراً لهم بالنظر والاستدلال اشتغلوا عنه باللعب واللهو فلم يفقهوا معانيه وكان حظهم منه سماع ألفاظه كقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ في سورة [البقرة : 171] .

والذكر : القرآن أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر لإفادة قوة وصفه بالتذكير .

والمحدَث : الجديد .

(66/506)

أي الجديد نزوله متكرراً ، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بالذكر كلما جاءهم بحيث لا يزالون بحاجة إلى إعادة التذكير وإحداثه مع قطع معذرتهم لأنه لو كانوا سمعوا ذكراً واحداً فلم يعبأوا به لانتحلوا لأنفسهم عذراً كانوا ساعتئذ في غفلة ، فلما تكرر حدثان إتيانه تبين لكل منصف أنهم معرضون عنه صداً .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ في سورة [الشعراء : 5] ، وليس المراد بمحدث ما قابل القديم في اصطلاح علم الكلام

لعدم مناسبته لسياق النظم .

ومسألة صفة كلام الله تعالى تقدم الخوض فيها عند قوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ في سورة [النساء : 164] .

وجملة ﴿ استمعوه ﴾ حال من ضمير النصب في ﴿ يأتيهم ﴾ وهذا الحال مستثنى من عموم أحوال أي ما يأتيهم ذكر في حال إلا في حال استماعهم .

وجملة ﴿ وهم يلعبون ﴾ حال لازمة من ضمير الرفع في ﴿ استمعوه ﴾ مقيّدة لجملة ﴿ استمعوه ﴾ لأن جملة ﴿ استمعوه ﴾ حال باعتبار أنها مقيّدة بحال أخرى هي المقصودة من التقييد وإلاّ لصار الكلام ثناء عليهم .

وفائدة هذا الترتيب بين الجملتين الحاليتين الزيادةُ لِقطع معذرتهم المستفاد من قوله ﴿ مُحْدَث ﴾ كما علمت .

و﴿ لاهية قلوبهم ﴾ حال من المبتدأ في جملة ﴿ وهم يلعبون ﴾ وهي احتراس لجملة ﴿ استمعوه أي استماعاً لا وعي معه .

وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

جملة مستأنفة يجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] إلى آخرها ، لأن كلتا الجملتين مسوقة لذكر أحوال تلقي المشركين لدعوة النبي صلى الله

عليه وسلم بالتكذيب والبهتان والتآمر على رفضها .

فالذين ظلموا هم المراد بالناس كما تقدم .

(67/506)

وواو الجماعة عائد إلى ما عاد إليه ضمائر الغيبة الراجعة إلى ﴿ للناس وليست جملة وأسروا النجوى ﴾ عطفاً على جملة ﴿ استمعوه وهم يلعبون ﴾ لأن مضمونها ليس في معنى التقييد لِما يأتيهم من ذكر .

و ﴿ الذين ظلموا ﴾ بدل من واو الجماعة لزيادة تقرير أنهم المقصود من النجوى ، ولما في الموصول من الإيماء إلى سبب تناجيهم بما ذكر وأن سبب ذلك كفرهم وظلمهم أنفسهم ، وللنداء على قبح ما هم متصفون به .

وجملة ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ بدل من ﴿ النجوى ﴾ لأن ذلك هو ما تناجوا به ، فهو بدل مطابق .

وليست هي كجملة ﴿ قالوا إنّ هذانِ لساحران من جملة فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾ في سورة [طه : 6263] فإن تلك بدل بعض من كل لأن ذلك القول هو آخر ما أسفرت عليه النجوى .

ووجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطلع المسلمون على ما تآمروا به لئلا يتصدى الرسول صلى الله عليه وسلم للرد عليهم لأنهم علموا أن حجتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضللوا الدهماء ، أو أنهم أسروا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لما تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتابع دخول الناس في الإسلام فاختلَوا بقوم ما زالوا على الشرك وناجَوْهم بذلك ليُدخلوا الشك في قلوبهم .

والنجوى : المحادثة الخفية .

والإسرار : هو الكتمان والكلام الخفي جداً .

وقد تقدم الجمع بينهما في قوله تعالى ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ في سورة [براءة : 78] ، وتقدم وجه جعل النجوى مفعولاً ل ﴿ أسروا ﴾ في قوله تعالى ﴿ وأسروا النجوى ﴾ في [سورة طه : 62] ، أي جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها لأن شأن التشاور في المهم كتمانه كيلا يطلع عليه المخالف فيفسده .

والاستفهام في قوله ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم أي فكيف تؤمنون بنبوءته وهو أحد منكم .

وكذلك الاستفهام في قوله ﴿ أفتأتون بالسحر ﴾ إنكاري وأراد بالسحر الكلام الذي يتلوه عليكم.

والمعنى: أنه لما كان بشراً مثلكم فما تصديقكم لنُبُوءته إلا من أثر سحرٍ سحَرَكم به فتأتون السحر بتصديقكم بما يَدعوكم إليه.

وأطلق الإتيان على القبول والمتابعة على طريق المجاز أو الاستعارة، لأن الإتيان لشيء يقتضي الرغبة فيه، ويجوز أن يراد بالإتيان هنا حضور النبي صلى الله عليه وسلم لسماع دعوته فجعلوه إتياناً، لأن غالب حضور المجالس أن يكون بإتيان إليها، وجعلوا كلامه سحراً فنَهوا من ناجَوهم عن الاستماع إليه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ في سورة [فصلت: 26].

وقوله ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ في موضع الحال، أي تأتون السحر وبصركم سليم، وأرادوا به العلم البديهي، فعبروا عنه بالبصر لأن المبصرات لا يحتاج إدراكها إلى تفكير. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(69/506)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة في مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعني مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفية زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضي ﴿ اقترب ﴾ [الأنبياء : 1] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذي يملك الأحداث ويقدر عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ﴾ [النحل : 1] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد : فكيف - إذن - جمع بين الماضي ﴿ أتى . . . ﴾ [النحل : 1] والمستقبل ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . ﴾ [النحل : 1] .

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضِيٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . ﴾ [الكهف : 23-24] .

لا بُدّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك " سأفعل ذلك غداً " قضيةٌ يدعوك للفعل والقدرة التي تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغي أن تُبرِّيء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذي يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

(70/506)

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث العفل قُلْ بالماضي : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدّ له قُلْ : سيحضر فلان أي قريباً ، أو سوف يحضر أي : بعد ذلك .

هذا الذي يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شيء مرهون بأمره التكويني ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدّق ؛ لأنه لا شيء يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذي يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فَقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 1] بصيغة الماضي ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضي (قترب) أيضاً في قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] .

وفي قوله تعالى ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعني دنا ، أما اقترب أي : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عِدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشيء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين .

أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتي بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطاني زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب في ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 1] فيقتضي مُحاسباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحَاسَباً عليه وهي الأعمال والأحداث التي أحدثوها في دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسِنّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه، إنما تركنا نمرح ونرتع في نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شيء، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير، وألزمنا المنهج الذي يضمن سعادتنا " بافعل " و " لا تفعل " وهذا يقتضي أن نحاسب، فعلنا، أم لم نفعل.

إذن: المسألة حساب، ليست جُزَافاً، جماعة في الجنة وجماعة في النار، وقوله سبحانه في الحديث القدسي: " هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي " بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب، ففي علم الله ما فعلوا وما تركوا.

ولا تنْسَ أن المحاسب في هذا الموقف هو الله، فإنْ كان الحساب في الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه؛ لذلك يضاعف الحسنات، وإنْ كان الحساب في الشر كان على قَدْره دون زيادة، كما قال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ: 26].

وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك، ولم يأخذنا على غَفْلة، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرّة، إنما أبان لنا التكاليف، وأوضح الحلال والحرام، وأخبرنا بيوم

الحساب لنستعدَّ له، فلا نسير في الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] .

فمن رحمته تعالى بعابده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم في سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعِظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

(72/506)

إذن : ما أخذنا ربنا على غِرّة ، ولم تُفاجِئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 1] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات في بطن أمه . إذن : لا تؤجِّل لأنك لا تدري ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 1] مع أن الساعة

مازالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة مَا لا يعلمه إلا الله .

فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التي يقضيها في القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شيء ظنيّ لا نضمنه ، والإنسان عُرضة للموت في أيّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 1] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس) أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] .

إذن : الحساب ليس في مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون ف مثل هذا السياق ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 1] ما دام الأمر على الكفار ؟

كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أي : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] الغفلة معناها : زحزحة الشيء عن بال الواجب ألَّا يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التي جاء بها الدين ، وهذه هي المعاصي ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ . . . ﴾ [الأنبياء : 2] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبي صلى الله عليه وسلم صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت في جِذْرِ قلوب الرجال) والأمانة هي الإيمان الحق بالله ، أي : حَلَّ الإيمان ، واستقر في القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أي : يغفل (فيظل أثرها مثل أثر الوكت) الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجلد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أي : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ،

فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شيء) أي : انتفخ (فيصبح الناس) أي : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

(74/506)

ثم يقول الراوي : (وقد مر عليَّ زمان ما كنت أبالي أيكم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه عليَّ دينه) يعني : إنْ غشَّني في شيء أو حدث خطأ ما في البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه عليَّ ساعيه) أي : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحِسْبة ، فإنْ رأَوْا غِشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً) فإنْ كان هذا في أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " أي : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفي رواية أخرى : " تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً " أي : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان على القلب .

فغفلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف ؛ لأنهم ليسوا مؤمنين

بالمكلّف سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] تدل على الافتعال أي : أنهم مفتعلون هذا الإعراض ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ . . . . ﴾ .

أي : ذكر من القرآن ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء : 2] يعني : يسمعونه جديداً لأول مرة ﴿ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء : 2] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِي بعضهم بعضاً به ويُحرّضون عليه ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] .

(75/506)

إنهم يخافون إنْ سمعوا القرآن أنْ يتأثروا به فيؤمنوا ؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد في هدوء واطمئنان فيؤمن به . وهذا يعني أن هذا العمل في مصلحتهم ؛ لأنهم لا يستطيعون رَدَّ حُجج القرآن ولا الثبات أمام إعجازيته ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفوا الناس عن سماعه ، والتشويش عليه ، حتى لا يتمكّن

من الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نفسك بعمل لا قَصْدَ فيه لغاية ، كما يأخذ الطفل الصغير كراسة أخيه ، ويعبث فيها بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضاً اللهو : وهو عمل مقصود لغاية ، لكن هذه الغاية تضعها أنت لنفسك ، أو يضعها غيرك ممّنْ يريد أنْ يُفسِدك بها ، إذن : هو عمل مقصود وله غاية ، ليس مجرد (شخبطة) كمَنْ ينشغل مثلاً برسم بعض الصور للتسلية ، أو ينشغل بحلِّ الكلمات المتقاطعة ، فهي أعمال لا فائدة منها .

أما العمل النافع الذي ينبغي أن ينشغل الإنسان به فهو الذي يضعه لك مَنْ هو أعلى منك ، وأنْ يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلا في الإله ، لذلك كل ما يُلهيك عَمَّا يضعه لك إلهك فهو لَهْو ؛ لأنه شَغَلك عما هو أهَمّ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . . ﴾ [محمد : 36] .

فاللعب في مرحلة الطفولة ، بل نأتي نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أن تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية لكنها تلهيك عن غاية أسمى هي التي وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتهي اللهو واللعب أن يلعبوا عند سماع القرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غاية له ولا فائدةَ منه ؛ لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً في فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُرَبَّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق في هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان ، وهذه مهمة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به . وهكذا في كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربِّى في الولد مواجيده على اليقين بالله القوي ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونِعَمه .

ويرى أباه الذي يتعهده ، ويأتي له بكل شيء لا يتصيّد المجد لنُفسه ، إنما ينسب كل شيء إلى الله .

فأبوه - وهو المثل الأعلى له - يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللّهْو واللّعِب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المواجيد ، ولا ينشأ الفعل دون مَوجدة إلا فعل المجنون ، والقلوب هي التي تُوجِّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر – رضي الله عنه – حينما دخل على رجل يعبث بذقنه هو يصلي – كما يفعل الكثيرون – قال: لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه. فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب؟ لذلك يقول تعالى بعدها: ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى . . . ﴾.

ويا ليت كلاًّ منهم يفعل هذا الفعل في نفسه، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى . . . ﴾ [الأنبياء: 3] أي: يتناجَوْن في الإثم، ويُسِرُّونه يعني: يجعلونه سِراً. والنَّجْوى أو التناجي: خَفْض الصوت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ . . . ﴾ [المجادلة: 7].

(77/506)

فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله، أو تُخْفُون عنه شيئاً. وتلاحظ في ارتقاءات العدد في هذه الآية أنها لم تذكر اثنين، فبدأت من العدد ثلاثة؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين، إنما تكون بين الثلاثة، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث.

كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب، فلم تَقُلْ مثلاً: ولا أربعة إلا هو خامسهم؛ ذلك لأن

الآية لا تقصد الترتيب العددي، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُوا عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول . . . ﴾ [المجادلة : 8] .

وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسِرُّونه، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة، ولو كان حقّاً لَقَالُوه علانية، فالنجْوى دليل اتهامهم في العقل، وفي القلب، وفي كل شيء .

أما قوله تعالى في شأن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً . . . ﴾ [المجادلة : 12] .

وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سرّاً؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى :

﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً . . . ﴾ [النور : 63] .

فالمراد ألاّ نرفع أصواتنا في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم كما يحدث مِنّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً، بل نُكلِّمه كلام المهيب، ونلتزم معه الأدب والخشوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ . . ﴾ [الأنبياء : 3] هل (الذين) هنا هي الفاعل لأسرُّوا؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم أكلوا على الفاعل لقال : وأَسَرَّ الذين ظلموا، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هي الفاعل، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .

فكأن سائلاً سأل : ومَن الذي أسرَّ ؟ فأجاب : (الَّذِينَ ظَلَمُوا) وكلمة (ظَلَمُوا) عامة في الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً ؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشيء من أنه ظلم الحق الأعلى ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

ثم ظلم الناس في أمور أخرى وفي حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة ؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظَلَم الله فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .

فما النجوى التي أسرَّهَا القوم ؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها ؟

النجوى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : 8] .

فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها في أنفسهم وأسرُّوها ؟ ألم يكُن على هؤلاء أن يتنبَّهوا : كيف عرف محمد مقولتهم ؟ وأن الذي أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذي لا تَخْفى عليه خافية ، كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذي يعلم خَبْءَ كل شيء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء في تناجيهم ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 3] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

[الأنبياء : 3] فسمُّوا القرآن سحْرا ً، لأنهم يروْنَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 3] أن القرآن يفعل مثل هذا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(79/506)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (الأنبياء : 2) ، وفي سورة الشعراء : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) (الشعراء : 5) ، فورد في الأولى : (مِنْ رَبِّهِمْ) وفي الثانية : (مِنَ الرَّحْمَنِ) مع اجتماع الآيتين في أن التذكير لا يجدي على ما ذكر في الآيتين ، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب ، والله أعلم : أن هذين الاسمين العظيمين وهما : الرب والرحمان تواردا في الكتاب العزيز كثيرا ً، أول ذلك في الفاتحة ، ثم إن اسمه سبحانه الرحمان يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والتأنيس ، فمن مراده في التأنيس ، فمن مراده في التأنيس البسملة ، وأم القرآن ، وصدر سورة طه ، وآية الشعراء المتكلم فيها

، وما ورد من مثل الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ) (الفرقان : 60) ، فتحقيق الاعتبار يقتضي تأويله بالرجوع إلى ما ذكرنا ، وأما اسمه الرب فيعم وروده طرفي الترغيب والترهيب .

(80/506)

أما الترغيب فبين ، وأما الترهيب فحيث يرد معنى ملكيته سبحانه لهم ، وانفراده بإيجادهم ، وإدرار أرزاقهم ، وبيان انفراده تعالى بذلك ، ثم هم ذلك على كفرهم . ولما تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكم ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمان ، ألا ترى أن قوله تعالى : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) (الأنبياء : 1) أشد تخويفاً للمخاطبين ، ثم لفظ الناس لفظ لا يخص به المؤمنون ، إنما يرد حيث يراد عموم المخاطبين ، ويكثر حيث يراد الوعيد والإنذار والتخويف والدعاء الأولى إلى العبادة والدخول في الإسلام ، وأما ما ذكر بعد وصفه بالغفلة والإعراض وما انجر مع ذلك فأهل الكفر والتكذيب ، والسورة مكية ولفظ الناس عام كما تقدم ، إلا أن قوله بعد : (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) (الأنبياء : 3) خاص بمن حكى قولهم الذي أسروه وهو : (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) (الأنبياء : 3)

أما آية الشعراء فمبينية على تأنيس النبي صلى الله عليه وسلم وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى عليهم ، ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كشق الجبل فوق بني إسرائيل . وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى : (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) (الشعراء : 4) ، ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين ، فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا صلى الله عليه وسلم ، وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم ، فأشار إلى هذا وناسبه اسمه الرحمان ، فقال تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) (الشعراء : 5) ، فقد وضح ورود كل من الآيتين في موضعه على ما يجب ويناسب ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 345. 346 ﴾

موعظة

قال الثعالبى :

أَيُّها الأَخُ أَشْعِرِ قلبك مَهَابَةَ ربِّك ، فإليه مآلك ؛ وتأهب للقدوم عليه ؛ فقد ، آنَ ارتحالك ؛ أنت في سكرة لذاتِك ؛ وغشية شهواتِك ؛ وإغماء غفلاتِك ؛ ومِقْراضُ الفناء يعمل في ثوب حياتك ؛ ويفصل أجزاء عمرك جُزْءًا جزءًا في سائر ساعاتك ؛ كل نفس من أنفاسك جزءٌ منفصل من جملة ذاتك وبذهاب الأجزاء تذهبُ الجمل ، أنت جملة تؤخذ ، آحادها وأبعاضها ، إلى أن تستوفي سائرها عساكر الأقضية ، والأقدار مُحْدقة بأسوار الإعمار ؛ تهدمُها بمعاول الليل والنهار ؛ فلو أضاء لنا مِصْباحُ الاعتبار ؛ لم يبقَ لنا في جَمِيع أوقاتنا سكونٌ ولاَ قَرار . انتهى من «الكلم الفارقية والحكم الحقيقة» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(83/506)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ اقترب لِلنّاسِ ﴾ : اللامُ متعلقٌ ب " اقترب " . قال الزمخشري : " هذه اللامُ لا

تخلُو : إمَّا أَنْ تكونَ صلةً لاقترب ، أو تأكيداً لإِضافةِ الحسابِ إليهم كقولك : أَزِفَ للحَيِّ رحيلُهم الأصل : أَزِفَ رحيلُ الحيِّ ، ثم أَزِفَ للحيِّ الرحيلُ ، ثم أزف للحيِّ رحيلُهم ، ونحوه ما أوردَه سيبويه في باب " ما يثنى فيه المستقِرُّ توكيداً " نحو : " عليك زيدٌ حريصٌ عليك " ، و" فيك زيد راغب فيك " ، ومنه قولهم : " لا أبا لك " لأنَّ اللامَ مؤكدةٌ لمعنى الإِضافة . وهذا الوجهُ أغربُ من الأول . قال الشيخ : / " يعني بقولِه صلةً لاقتربَ أي : متعلقةً به . وأمَّا جَعْلُه اللامَ تأكيداً لإِضافةِ الحسابِ إليهم مع تقدُّمِ اللامِ ودخولِها على الاسمِ الظاهرِ ، فلا نعلم أحداً يقول ذلك ، وأيضاً فتحتاج إلى ما تتعلَّقُ به . ولا يمكن تعلُّقُها ب " حسابُهم " ؛ لأنه مصدرٌ موصولٌ ، لأن قُدِّم معمولُه عليه . وأيضاً فإنَّ التوكيدَ يكونُ متأخراً عن المُؤَكَّد ، وأيضاً فلو أُخِّر في هذا التركيبِ لم يَصِحَّ . وأمَّا تشبيهُه بما أورد سيبويهِ فالفرقُ واضحٌ فإنَّ " عليك " معمولٌ ل " حريصٌ " ، و" عليك " المتأخرةُ تأكيدٌ ، وكذلك " فيك زيدٌ راغبٌ فيك " يتعلَّقُ " فيك " ب " راغبٌ " ، و" فيك " الثانيةُ توكيدٌ . وإنما غَرَّه في ذلك صحةُ تركيبِ حسابِ الناس ، وكذلك " أَزِفَ رحيلُ الحيِّ " فاعتقدَ إذا تقدَّم الظاهرُ مجروراً باللامِ وأُضيف المصدرُ لضميرِه أنه من بابِ " فيك زيد راغب فيك " ، فليس مثلَه . وأمَّا " لا أبا لك " فهي مسألةٌ مشكلةٌ ، وفيها خلاف ، ويمكن أن يقال فيها ذلك ؛ لأنَّ اللامَ فيها جاورَتِ الإِضافةَ ، ولا يُقاس عليها لشذوذِها وخروجِها عن الأقيسةِ " .

(84/506)

قلت : مسألةُ الزمخشري أشبهُ شيءٍ بمسألةِ " لا أبا لَك " ، والمعنى الذي أَوْرده صحيحٌ .

وأمَّا كونُها مشكلةً فهو إنما بناها على قولِ الجمهورِ ، والمُشْكِل مقررٌ في بابِه ، فلا يَضُرُّنا القياسُ عليه لتقريرِه في مكانِه .

قوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ الجارُّ متعلقاً بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من الضميرِ في " مُعْرِضُون " ، وأن يكون خبراً للضمير ، و" مُعْرِضون " خبرٌ ثانٍ . وقولُ أبي البقاء في هذا الجارِّ " إنه خبرٌ ثانٍ " يعني في العددِ ، وإلاَّ فهو أولٌ في الحقيقة . وقد يقال : لَمَّا كان في تأويلِ المفرد جُعِل المفردُ الصريحُ مقدَّماً في الرتبةِ فهو ثانٍ بهذا الاعتبارِ . وهذه الجملةُ في محلِّ نصب على الحال من " للناس " .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) ﴾

(85/506)

قوله : ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ : العامَّةُ على جرِّ " من " مُحْدَثٍ " نعتاً ل " ذِكْرٍ " على اللفظِ .

وقوله : ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ فيه أوجهٌ ، أجودُها : أن يتعلَّقَ ب " يأْتيهم " وتكونُ " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ مجازاً . والثاني : أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من الضمير المستترِ في " مُحْدَثٍ " . الثالث : أن يكونَ حالاً مِنْ نفسِ " ذِكْرٍ " وإنْ كان نكرةً لأنَّه قد تَخَصَّصَ بالوصفِ ب " مُحْدَثٍ " ، وهو نظيرُ " ما جاءني رجلٌ قائماً منطلقٌ " فَفَصَل بالحالِ بين الصفةِ والموصوفِ . وأيضاً فإنَّ الكلامَ نفيٌ وهو مُسَوِّغٌ لمجيء الحالِ من النكرةِ . الرابع : أَنْ يكونَ نعتاً ل " ذِكْر " فيجوزُ في محلِّه الوجهان : الجرُّ باعتبارِ اللفظِ ، والرفعُ باعتبارِ المحلِّ لأنه مرفوعُ المحل إذ " مِنْ " مزيدةٌ فيه ، وسيأتي . وفي جَعْلِه نعتاً ل " ذِكْرٍ " إشكالٌ من حيث إنه قد تقدَّم غيرُ الصريحِ على الصريحِ . وتقدَّم تحريرُه في المائدة . الخامس : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على سبيلِ البيان .

وقرأ ابنُ أبي [عَبْلة] " مُحْدَثٌ " رفعاً نعتاً ل " ذِكْرٍ " على المحلِّ لأنَّ " مِنْ " مزيدةٌ فيه لاستكمالِ الشرطين . وقال أبو البقاء : " ولو رُفِعَ على موضع " مِنْ ذكْر " جاز " . كأنه لم يَطَّلِعْ عليه قراءةً . وزيدُ بنُ علي " مُحْدَثاً " نصباً على الحالِ مِنْ " ذِكْرٍ " ، وسَوَّغَ ذلك وصفُه ب " مِنْ ربِّهم " إنْ جَعَلْناه صفةً ، أو اعتمادُه على النفي . ويجوز أن يكونَ من الضميرِ المستترِ في " مِنْ ربهم " إذا جَعَلْناه صفةً .

قوله : ﴿ إِلاَّ استمعوه ﴾ هذه الجملةُ حالٌ من مفعول " يأتيهم " ، وهو استثناءٌ مفرغٌ ، و"

قد " معه مضمرةٌ عند قوم .

قوله : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حالٌ مِنْ فاعل " استمعوه " .

(86/506)

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

قوله : ﴿ لاَهِيَةً ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً مِنْ فاعل " اسْتَمَعوه " عند مَنْ يُجيز تعدُّدَ الحال فتكونَ الحالان مترادِفَتَيْن ، وأن تكون حالاً من فاعل " يَلْعَبون " فتكونَ الحالان متداخلتين . وعَبَّر الزمخشري عن ذلك فقال : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ حالان مترادفتان أو متداخلتان " وإذا جعلناهما حالَيْنِ مترادفتين ففيه تقديمُ الحالِ غيرِ الصريحة على الصريحة ، وفيه من البحثِ كما في باب النعت . و" قلوبُهم " مرفوعٌ ب" لاهِيَةً " .

والعامَّةُ على نصب " لاهِيَةً " . وابنُ أبي عبلة بالرفع على أنها خبرٌ ثانٍ بقولِه " وهم " عند مَنْ يُجَوِّز ذلك ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ عند مَنْ لا يُجَوِّزه .

قوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ يجوز في محلِّ " الذين " ثلاثةُ أوجهٍ : الرفعُ والنصبُ والجرُّ . فالرفعُ مِنْ أوجهٍ ، أحدها : أنه بدلٌ من واو " أَسَرُّوا " تنبيهاً على

اتِّسامهم بالظلمِ الفاحش ، وعزاه ابن عطية لسيبويه ، وغيره للمبرد .

الثاني : أنه فاعلٌ . والواوُ علامةُ جمعٍ دَلَّتْ على جمعِ الفاعل ، كما تَدُلُّ التاءُ على تأنيثه ، وكذلك يفعلون في التثنية فيقولون : قاما أخواك . وأنشدوا :

3331 يَلُوْمونني في اشتراء النَّخي . . . لِ أهلي فكلُّهُمُ ألْوَمُ

وقد تقدَّمت هذه المسألة في المائدة عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [الآية : 71] وإليه ذهب الأخفش وأبو عبيدة . وضعَّف بعضُهم هذه اللغةَ ، وبعضُهم حَسَّنها ونسبها لأزد شنوءة ، وقد تقدمت هذه المسألة في المائدة عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ .

(87/506)

الثالث : أن يكونَ " الذين " مبتدأً ، و " أَسَرُّوا " جملةً خبريةً قُدِّمَتْ على المبتدأ ، ويُعْزَى للكسائي .

الرابع : أن يكون " الذين " مرفوعاً بفعل مقدر فقيل تقديره : يقولُ الذين . واختاره النحاس قال : " والقول كثيراً ما يُضْمَرُ . ويَدُلُّ عليه قولُه بعد ذلك : ﴿ هَلْ هَاذَآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ . وقيل : تقديرُه : أَسَرَّها الذين ظلموا .

الخامس: أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه: هم الذين ظلموا .

السادس: أنه مبتدأٌ . وخبرُه الجملةُ من قوله: ﴿ هَلْ هاذآ إِلَّا بَشَرٌ ﴾ ولا بُدَّ من إضمار القولِ على هذا القول تقديرُه: الذين ظلموا يقولون: هل هذا إلَّا بَشَرٌ، والقولُ يُضمر كثيراً .

والنصبُ مِنْ وجهين، أحدُهما: الذمُّ . الثاني: إضمار أعني . والجرُّ من وجهين أيضاً: أحدهما: النعت، والثاني: البدلُ من "للناس"، ويعزى هذا للفراءِ وفيه بُعْدٌ .

قوله: ﴿ هَلْ هاذآ ﴾ إلى قوله: ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ يجوز في هاتَيْن الجملتين الاستفهاميتين أَنْ يكونا في محلِّ نصب بدلاً من "النجوى"، وأَنْ يكونا في محلِ نصبٍ بإضمار القول . قالهما الزمخشريُّ، وأَنْ يكونا في محلِّ نصبٍ على أنهما محكيّتان بالنجوى، لأنها في معنى القولِ .

﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ جملة حاليةٌ مِنْ فاعل "تأْتُون". انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 129 . 134 ﴾

(88/506)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله اسم عزيز من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بجميل نعمته ، إن أطاع فضله ، وإن أضاع أمهله ، ثم إن آب وأقر ، ذكره ، وزإن عصى وعاب ستره ، فإن تنصل رحمه ، وإن تكبر قصمه .

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه ، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه ، بتوفيقه وصل العابدون إلى مجاهداتهم ، وبتحقيقه وجد العارفون كمال مشاهدتهم وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجل مثوبتهم ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم .

قوله جل ذكره : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون)

فالمطيعون منهم عَظُمَ لدينا ثوابُهم ، والعاصون منهم حَقَّ مِنَّا عقابُهم .

﴿ فِى غَفْلَةٍ ﴾ [الأنبياء : 1] يقال الغفلة على قسمين : غافلٍ عن حسابه باستغراقه في دنياه وهواه ، وغافلٍ عن حسابه لاستهلاكه في مولاه ؛ فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر والغفلة الثانية صِفَةُ الوَصْل ؛ فالأَولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبدِ لفنائهم في وجود الحق تعالى .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) ﴾

لم يجدد إليهم رسولاً إذا ازدادوا نفوراً ، ولم يُنَزِّلْ عليهم خِطاباً إلا ردُّوه جحداً وتكذيباً ، وما زدناهم فصلاً إلا عدُّوه هَزْلاً ، وما جددنا لهم نعمةً إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة ، فكان

الذي أكرمناهم به محنةً بها بلوناهم . . . وهذه صفة مَنْ أساء مع الله خُلُقَه ، وخَسِرَ عند الله حقَّه .

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

عَمِيَتْ بصائرُهم وعامت أفهامهم ، فهم في غباوة لا يستبصرون ، وفي أكنة عمَّا اقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون .

(89/506)

قوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى . . . ﴾ لَمَّا عجزوا عن معارضته ، وسقطوا عن التحدي ، وظهرت عليهم حُجَّتُهُ رَجَّمُوا فيه الفِكْرَ ، وقَسَّمُوا فيه الظن ، فمرةً نسبوه إلى السحر ، ومرةً وصفوه بقول الشعر ، ومرة رَمَوْه بالجنونِ وفنونٍ من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه : هو محمدٌ الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنعَ قصةٍ . . . وكانوا لنا سِلْماً فصاروا لنا حَرْباً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 491 . 492 ﴾

(90/506)

مناظرة قيمة في الرد على من قال بخلق القرآن بعنوان

الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن

لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني المكي الكناني ،

المتوفى سنة 240

والمردود عليه هو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة أبي المريسي المعتزلي المتوفى

سنة 218

حققه وعلق عليه دكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ، أستاذ لقسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية

الناشر

مكتبة العلوم والحكم

المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ذكر ما جرى بين عبد العزيز بن يحيى رحمه الله وبين بشر المريسي:

قرأت على أبي عمر أحمد بن خالد في ربيع الآخر عام اثنين وخمسين وثلاثمائة، حدثنا أبو عمر وعثمان بن أحمد بن عبد الله السماك قال فنا أبو بكر محمد بن الحسن بن أزهر بن حسين القطايعي، قال: حدثني أبو عبد الله العباس بن محمد بن فرقد، قال: حدثني أبي محمد بن فرقد بهذا الكتاب من أوله إلى آخره، قال: قال عبد العزيز بن مسلم الكناني(1):

---

(1) أما إسناد الإمام ابن بطة في كتاب الإبانة ورقة 160/ب المرفقة قال: باب ذكر مناظرات الممتحنين بين يدي الملوك الجبارين الذين دعو الناس إلى هذه الضلالة.

... قال: مناظرة عبد العزيز بن يحيى المكي لبشر بن غياث المريسي بحضرة المأمون - حدثنا أبو حفص محمد ابن رجاء قال ثنا أبو أيوب عبد الوهاب بن عمرو النزلي قال حدثني أبو القاسم العطاف بن مسلم قال حدثني الحسين بن بشر ودبيس الصائغ ومحمد بن فرقد قالوا: قال لنا عبد العزيز بن يحيى المكي الكناني... الخ.

والضلالة ، ورهبة الناس وفزعهم من مناظرته ، وإحجامهم عن الرد عليه بما يكسرون به قوله ، ويدحضون به حجته ويبطلون به مذهبه ، واستتار المؤمنين في بيوتهم وانقطاعهم عن الجمعات والجماعات ، وهربهم من بلد إلى بلد ، خوفا على أنفسهم وأديانهم ، وكثرة موافقة الجهال والرعاع من الناس لبشر على مذهبه وكفره وضلالته ، والدخول في بدعته ، والانتحال لمذهبه ، رغبة في الدنيا ورهبة من العقاب الذي كان يعاقب به من خالفه على مذهبه .

قال عبد العزيز بن يحيى : فأزعجني ذلك وأقلقني واسهر ليلي وأطال غمي وهمي فخرجت من بلدي متوجها إلى ربي عزوالضلالة ، ورهبة الناس وفزعهم من مناظرته ، وإحجامهم عن الرد عليه بما يكسرون به قوله ، ويدحضون به حجته ويبطلون به مذهبه ، واستتار المؤمنين في بيوتهم وانقطاعهم عن الجمعات والجماعات ، وهربهم من بلد إلى بلد ، خوفا على أنفسهم وأديانهم ، وكثرة موافقة الجهال والرعاع من الناس لبشر على مذهبه وكفره وضلالته ، والدخول في بدعته ، والانتحال لمذهبه ، رغبة في الدنيا ورهبة من العقاب الذي كان يعاقب به من خالفه على مذهبه .

قال عبد العزيز بن يحيى : فأزعجني ذلك وأقلقني واسهر ليلي وأطال غمي وهمي فخرجت من بلدي متوجها إلى ربي عز

وكان ذلك كله بتوفيق الله عز وجل لي ، ومعونته إياي) .

قال عبد العزيز بن يحيى: وكان الناس في ذلك الزمان وذلك الوقت في أمرا عظيم ، قد منع الفقهاء والمحدثون والمذكرون والداعون من القعود في الجامعين ببغداد وفي غيرهما من سائر المواضع ، إلا بشر المريسي وابن الجهم ، ومن كان موافقاً لهما على مذهبهما ، فأنهم كانوا يقعدون يعني (الجهم بن صفوان الذي به تعرف الجهمية) (1)

---

(1) هكذا في الأصل وجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكتاب المتكلم رأس الضلالة ورأس الجهمية ، كان صاحب ذكاء وجدال كتب للأمير الحارث بن سريج التميمي وكان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه ، ويقول بخلق القرآن ، ويقول إن الله في الأمكنة كلها ، قال ابن حزم: كان يخالف مقاتلا في التجسيم وكان يقول: الإيمان عقد بالقلب وإن تلفظ بالكفر ، قيل: إن مسلم بن احوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى ، سنة 128 هـ سير أعلام النبلاء 26/6 ، ميزان الاعتدال 426/1 ، الملل والنحل 199/1 ، الفصل 204/4 ، الكامل 352/5 ، الخطط للمقريزي 249/2 ، 351 ، ولعل الصواب: ابن الجهم ، كما ذكر في السطر السابق فإنه وبشر المريسي ومن

وافقهما يعلمون الناس مذهب الجهم بن صفوان . . . الخ . وكان ذلك كله بتوفيق الله عز وجل لي ، ومعونته إياي) .

قال عبد العزيز بن يحيى : وكان الناس في ذلك الزمان وذلك الوقت في أمرا عظيم ، قد منع الفقهاء والمحدثون والمذكرون والداعون من القعود في الجامعين ببغداد وفي غيرهما من سائر المواضع ، إلا بشر المريسي وابن الجهم ، ومن كان موافقاً لهما على مذهبهما ، فأنهم كانوا يقعدون يعني (الجهم بن صفوان الذي به تعرف الجهمية) (1)

---

(1) هكذا في الأصل وجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكاتب المتكلم رأس الضلالة ورأس الجهمية ، كان صاحب ذكاء وجدال كتب للأمير الحارث بن سريج التميمي وكان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه ، ويقول بخلق القرآن ، ويقول إن الله في الأمكنة كلها ، قال ابن حزم : كان يخالف مقاتلا في التجسيم وكان يقول : الإيمان عقد بالقلب وإن تلفظ بالكفر ، قيل : إن مسلم بن احوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى ، سنة 128 هـ سير أعلام النبلاء 26/6 ، ميزان الاعتدال 426/1 ، الملل والنحل 199/1 ، الفصل 204/4 ، الكامل 352/5 ، الخطط للمقريزي 249/2 ، 351 ، ولعل الصواب : ابن الجهم ، كما ذكر في السطر السابق فإنه وبشر المريسي ومن وافقهما يعلمون الناس مذهب الجهم بن صفوان . . . الخ .

وكان ذلك كله بتوفيق الله عز وجل لي، ومعونته إياي) .

قال عبد العزيز بن يحيى: وكان الناس في ذلك الزمان وذلك الوقت في أمرا عظيم، قد منع الفقهاء والمحدثون والمذكرون والداعون من القعود في الجامعين ببغداد وفي غيرهما من سائر المواضع، إلا بشر المريسي وابن الجهم، ومن كان موافقاً لهما على مذهبهما، فأنهم كانوا يقعدون يعني (الجهم بن صفوان الذي به تعرف الجهمية) (1)

---

(1) هكذا في الأصل وجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكتاب المتكلم رأس الضلالة ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال كتب للأمير الحارث بن سريج التميمي وكان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، ويقول إن الله في الأمكنة كلها، قال ابن حزم: كان يخالف مقاتلا في التجسيم وكان يقول: الإيمان عقد بالقلب وإن تلفظ بالكفر، قيل: إن مسلم بن احوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى، سنة 128 هـ سير أعلام النبلاء 26/6، ميزان الاعتدال 426/1، الملل والنحل 199/1، الفصل 204/4، الكامل 352/5، الخطط للمقريزي 249/2

، 351 ، ولعل الصواب: ابن الجهم ، كما ذكر في السطر السابق فإنه وبشر المريسي ومن وافقهما يعلمون الناس مذهب الجهم بن صفوان . . .الخ.

(95/506)

قال عبد العزيز: فلما كان في الجمعة التي اعتزمت فيها على إظهار نفسي ، وإشهار قولي ، واعتقالي ، صليت الجمعة بالمسجد الجامع بالرصافه من الجانب الشرقي بحيال القبلة والمنبر بأول صف من صفوف العامة ، فلما سلم الإمام من صلاة الجمعة ، وثبت قائما على رجلي ليراني الناس ويسمعوا كلامي ، ولا تخفى عليهم مقالتي ، وناديت بأعلى صوتي لأبني ، وكنت قد أقمت أبني بحيالي عند الأسطوانة الأخرى ، فقلت له: يا أبني ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله غير مخلوق.

(96/506)

قال عبد العزيز: فلما سمع الناس كلامي ، ومسألتي لأبني وجوابه إياه هربوا على وجوههم خارجين من المسجد إلا يسير من الناس خوفاً على أنفسهم ، وذلك أنهم سمعوا ما لم يكونوا

يسمعون ، وظهر لهم ما كانوا يخفون ويكتمون ، فلم يستتم أبني الجواب حتى أتاني أصحاب السلطان ، واحتملوني وأبني فأوقفوني بين يدي عمرو بن مسعدة(1) وكان قد جاء ليصلي الجمعة ، فلم نظر إلى وجهي ، وكان قد سمع

---

(1) عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول الكاتب كنيته أبو الفضل ، أحد وزراء المأمون توفي سنة سبع عشرة ومائتين . تاريخ بغداد 203/12 وفيات الأعيان 475/2 .

(97/506)

كلامي ومسألتي لأبني ، وجواب أبني إياي ، فلم يحتج أن يسألني عن كلامي ، فقال لي: أمجنون أنت ؟ قلت: لا . قال: فموسوس أنت ؟ قلت: لا . قال: أفمعتوه أنت ؟ قلت: لا . أني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة والحمد الله كثيراً . قال: فمظلوم أنت ؟ قلت: لا . فقال لأصحابه ورجالته: مروا بهما إلى منزلي .

قال عبد العزيز: فحملنا على أيد الرجال حتى أخرجنا من المسجد ثم جعلوا يتعادون بنا سحباً شديداً وأيدينا في أيد الرجال يمنه ويسره ، وسائر أصحابه خلفنا وقدامنا ، حتى صرنا إلى منزل عمرو بن مسعدة على تلك الحال العنيفة الغليظة ،

يديه وولدي يعدي بنا على وجوهنا ، وأيدينا في أيدي الرجال حتى صار إلى أمير المؤمنين من الجانب الشرقي ، فدخل وأنا في الدهليز قائم على رجلي ، فأطال عند أمير المؤمنين ، ثم خرج فقعد في حجرة له ، وأمر بي فأدخلت عليه ، فقال لي: قد أخبرت أمير المؤمنين أطال الله بقاه بخبرك وما فعلت ، وما قلت وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك من المناظرة بين يديه ، وقد أمر أطال الله بقاه ، بإجابتك إلى ما سألت وجمع المناظرين عن هذه المقالة إلى مجلسة أعلاه الله في يوم الاثنين الأتي وتحضر معهم ليناظروا بين يديه أيده الله ويكون هو يديه وولدي يعدي بنا على وجوهنا ، وأيدينا في أيدي الرجال حتى صار إلى أمير المؤمنين من الجانب الشرقي ، فدخل وأنا في الدهليز قائم على رجلي ، فأطال عند أمير المؤمنين ، ثم خرج فقعد في حجرة له ، وأمر بي فأدخلت عليه ، فقال لي: قد أخبرت أمير المؤمنين أطال الله بقاه بخبرك وما فعلت ، وما قلت وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك من المناظرة بين يديه ، وقد أمر أطال الله بقاه ، بإجابتك إلى ما سألت وجمع المناظرين عن هذه المقالة إلى مجلسة أعلاه الله في يوم الاثنين الأتي وتحضر معهم ليناظروا بين يديه أيده الله ويكون هو

يديه وولدي يعدي بنا على وجوهنا ، وأيدينا في أيدي الرجال حتى صار إلى أمير المؤمنين من الجانب الشرقي ، فدخل وأنا في الدهليز قائم على رجلي ، فأطال عند أمير المؤمنين ، ثم خرج فقعد في حجرة له ، وأمر بي فأدخلت عليه ، فقال لي: قد أخبرت أمير المؤمنين أطال الله بقاه بخبرك وما فعلت ، وما قلت وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك من المناظرة بين يديه ، وقد أمر أطال الله بقاه ، بإجابتك إلى ما سألت وجمع المناظرين عن هذه المقالة إلى مجلسة أعلاه الله في يوم الاثنين الأتي وتحضر معهم ليناظروا بين يديه أيده الله ويكون هو

الحاكم بينكم .

قال عبد العزيز: فأكثرت حمد الله على ذلك وشكرته وأظهرت الشكر والدعاء لأمير المؤمنين ، فقال لي عمرو بن مسعدة: أعطنا كفيلا بنفسك حتى تحضر معهم يوم الاثنين

وليس بنا حاجة إلى حبسك .

فقلت له: أعزك الله أنا رجل غريب ولست أعرف في هذا البلد أحدا ولا يعرفني من أهله أحد ، فمن أين لي من يكفلني ، وخاصة مع إظهار مقالتي لو كان الخلق يعرفوني لتبرؤا مني ، وهربوا من قربي وأنكروا معرفتي ، قال: فنوكل بك من يكون معك حتى يحضك في ذلك اليوم ، وتنصرف فتصلح من شأنك وتفكر في أمرك فلعلك أن ترجع عن غيك وتتوب من فعلك

فيصفح أمير المؤمنين عن جرمك ، فقلت ذلك إليك أعزك الله فافعل ما رأيت .

قال عبد العزيز: فوكل بي من يكون معي في منزلي وانصرفت .

. . . قال عبد العزيز: فلما كان يوم الاثنين ، صليت الغداة في مسجدي الذي كان على باب منزلي ، فلما فرغت من الصلاة إذ بخليفة عمرو بن مسعدة قد جاء ومعه خلق كثير من الفرسان والرجال فحملوني مكرما على دابة حتى صاروا بي على باب أمير المؤمنين فأوقفوني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها ، ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت . فلما صرت بين يديه أجلسني ثم قال لي: أنت مقيم على

بالله عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل .

قال محمد بن الحسن(1) سمعت أبا عبدا لله(2) يقول: قال لي أبي(3) جاء عبد العزيز إلى أبي عبدا لله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهو في الحبس فقال: إن هذا الأمر الذي أنت فيه ليس تطيقه على دقته ، فاذكرني فبعث إليه أبو عبد الله أنا قد وقعت ، وأخاف أن أذكرك فأشيط بدمك ، فيكون قتلك على يدي ، فأقتل أنا أحب إلي ، فانصرف بسلام .

---

(1) هو ابن الأزهر .

(2) أبو عبد الله ، هو العباس بن محمد بن فرقد .

(3) هو محمد بن فرقد ، وهؤلاء جميعاً ورد ذكرهم في إسناد الكتاب . بالله عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل .

قال محمد بن الحسن(1) سمعت أبا عبدا لله(2) يقول: قال لي أبي(3) جاء عبد العزيز إلى أبي عبدا لله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهو في الحبس فقال: إن هذا الأمر الذي أنت فيه ليس تطيقه على دقته ، فاذكرني فبعث إليه أبو عبد الله أنا قد وقعت ، وأخاف

أن أذكرك فأشيط بدمك ، فيكون قتلك على يدي ، فأقتل أنا أحب إلي ، فانصرف بسلام .

---

(1) هو ابن الأزهر .

(2) أبو عبد الله ، هو العباس بن محمد بن فرقد .

(3) هو محمد بن فرقد ، وهؤلاء جميعاً ورد ذكرهم في إسناد الكتاب .

(103/506)

قال عبد العزيز: فقام عمرو بن مسعدة على رجليه ، وقال: قد حرصت في كلامك جهدي ، وأنت حريص مجتهد في سفك دمك وقتل نفسك ، فقلت له: معونة الله أعظم ، والله عز وجل ألطف من أن يسلمني ويكلني إلى نفسي ، وعدل أمير المؤمنين أطال الله بقاه أوسع من أن يقصر عني ، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال عبد العزيز: وأمر بي فأخرجت إلى الدهليز الأول ، ومعي جماعة موكلون بي ، وكان قد تقدم إلى سائر بني هاشم ممن يحضر مجلس أمير المؤمنين أطال الله بقاه ، أن يركبوا ووجه إلى الفقهاء والقضاة والموافقين لهم على قال عبد العزيز: فقام عمرو بن مسعدة على رجليه ، وقال: قد حرصت في كلامك جهدي ، وأنت حريص مجتهد في سفك دمك وقتل نفسك

، فقلت له: معونة الله أعظم ، والله عز وجل ألطف من أن يسلمني ويكلني إلى نفسي ، وعدل أمير المؤمنين أطال الله بقاه أوسع من أن يقصر عني ، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال عبد العزيز: وأمر بي فأخرجت إلى الدهليز الأول ، ومعي جماعة موكلون بي ، وكان قد تقدم إلى سائر بني هاشم ممن يحضر مجلس أمير المؤمنين أطال الله بقاه ، أن يركبوا ووجه إلى الفقهاء والقضاة والموافقين لهم على

(104/506)

مذهبهم . وسائر المتكلمين ، والمناظرين أن يحضروا دار أمير المؤمنين ، فأمر القواد والأمراء أن يركبوا في السلاح كل ذلك ليرهبوني بهم . ومنع الناس من الانصراف إلى أن ينقضي المجلس ، فلما اجتمع الناس وتأهبوا ولم يتخلف منهم أحد ممن يعرفون بالكلام والجدال ، أذن لي في الدخول ، فلم أزل أنقل من دهليز إلى دهليز حتى صرت إلى الحاجب (صاحب) الستر الذي على باب الصحن ، فلما رآني أمر بي فأدخلت إلى حجرته ، ودخل معي فقال لي: إن احتجت إلى أن تجدد طهرا فافعل ، فقلت: لا حاجة لي بذلك ، فقال: صل ركعتين قبل دخولك ، فصليت أربع ركعات

(105/506)

ودعوت الله وتضرعت إليه ، فلما فرغت ، أمر من كان بحجرته فخرج من الحجرة ثم تقدم إلي فقال لي وهو يسارني : يا هذا إن أمير المؤمنين بشر مثلك رجل من ولد آدم ، وكذلك كل من يناظرك بحضرته فهو بشر مثلك ، فلا تهيبهم ، واجمع فهمك وعقلك لمناظرتهم ، وإياك والجزع ، واعلم علما يقينا أنه إن ظهرت حجتك عليهم انكسروا وانقطع كلامهم عنك ، وأذللتهم وغلبتهم ولم يقدروا على ضر ولا مكروه وصار أمير المؤمنين أطال الله بقاه وسائر الأولياء والرعية معك عليهم ، وإن ظهرت حجتهم عليك أذلوك وقتلوك وأشهروك وجعلوك للخلق عبرة ، فأجمع همتك

(106/506)

ومعرفتك ولا تدع شيئا مما تحسنه وتحتاج إليه أن تتكلم به خوفا من أمير المؤمنين أو من أحد غيره وتوكل على الله واستخر الله ، وقم فادخل .

فقلت له : جزاك الله خيرا فقد أديت النصيحة وسكنت الروعة وآنست الوحشة ، وخرج

، وخرجت معه إلى باب الصحن .

قال عبد العزيز: فشال الستر ، وأخذ الرجال بيدي وعضدي وجعل أقوام يتعادون بي ، وأيديهم في ظهري وعلى عنقي ، فجعلت أسمع أمير المؤمنين وهو يقول: خلو عنه خلو عنه ، وكثر الضجيج من الحجاب والأولياء بمثل ذلك ، فخلي عني وقد كاد عقلي أن يتغير من شدة الجزع وعظيم ما رأيت من ذلك الصحن

من السلاح والرجال ، وقد انبسطت الشمس عليهم ، وملأ الصحن صفوفا ، وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين ، ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها ، فلما صرت على باب الإيوان ، وقفت هناك فسمعته يقول: قربوه قربوه ، فلما دخلت من باب الإيوان وقعت عيني عليه ، وقبل ذلك لم أتبينه لما كان على باب الإيوان من الحجاب والقواد ، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال: أدن مني ، فدنوت منه ، ثم قال: أدن مني زاده تكرارا ، وأنا أدنو منه خطوة خطوة ، حتى صرت في الموضع الذي يجلس فيه المناظرون ، ويسمع كلامهم ، والحاجب معي

يقدمني ، فلما انتهيت إلى الموضع . قال لي المأمون: أجلس فجلست .

قال عبد العزيز: فسمعت رجلا من جلسائه يقول وقد دخلت من الإيوان: يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه ، لا والله ما أريت خلق الله قط أقبح وجها منه ، فسمعته يقول هذا وفهمت كلامه كله ورأيت شخصه على ما بي من الروعة والجزع والخوف ، وجعل ينظر إلي وأنا ارتعد وانتفض ، فأحب أن يؤنسني وأن يسكن عني ما قد لحقني وأن ينشطني ، فجعل يكثر كلام جلسائه ويكلم خليفته عمرو بن مسعدة ، ويتكلم بأشياء كثيرة مما لا يحتاج أن يتكلم بها يريد بذلك كله إيناسي ، وجعل

(109/506)

يطيل النظر إلى الإيوان ، ويدير طرفه فيه ، فوقعت عينه على موضع من نقش الجص قد انتفخ ، فقال: يا عمرو أما ترى هذا الذي قد انتفخ من هذا النقش ، وسيقع فبادره في يومنا هذا ، فقال عمرو: قطع الله يد صانعه ، فإنه قد استحق العقوبة على عمله هذا .

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون فقال لي: الاسم ، فقلت: عبد العزيز . فقال لي: ابن من ؟ فقلت: ابن يحيى قال: ابن من ؟ قلت: ابن ميمون الكناني . قال: وأنت من كنانه .

قلت: نعم ، يا أمير المؤمنين ، فتركني ولم يكلمني هنيهة ، ثم أقبل علي فقال: من أين الرجل ، قلت: من الحجاز ، قال: من أي

(110/506)

الحجاز ، قلت: من مكة ، قال: ومن تعرف من أهلها ، قلت: يا أمير المؤمنين كل من بها من أهلها أعرفه إلا رجلا ضوى إليها وجاور بها من الغرباء فإني لا أعرفه ، قال: فهل تعرف فلانا ، هل تعرف فلانا حتى عد جماعة من بني هاشم كلهم أعرفهم حق معرفتهم ، فجعلت أقول: نعم أعرفه ، وسألني عن أولادهم وأنسابهم فأخبره من غير حاجة به إلى شي من ذلك ، ولا مما تقدم من مسألتي وإنما يريد به إيناسي وبسطي للكلام ، وتسكين روعتي وجزعي ، فقوى بها ظهري ، واشتد بها قلبي ، واجتمع بها فهمي ، وعلا بها جدي ، وانشرح بها صدري ، وانطلق بها لساني ، ورجوت

(111/506)

فناظره وأنصفه .

قال عبد العزيز: فوثب إلي بشر من موضعه الذي كان فيه كالأسد يثب إلى فريسته ، فجاء فانحط علي ، فوضع فخذه الأيسر على فخذي الأيمن ، فكاد أن يحطمها ، واعتمد علي بقوته كلها . فقلت له: مهلا فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاه لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي ، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي ، فصاح به المأمون تنح عنه ، وكرر ذلك عليه حتى باعده مني .

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز ناظره على ما تريد واحتج عليه ، ويحتج عليك ، وسله ويسألك ، وتناصفا في كلامكما ، وتحفظا ألفاظكما ، فإني مستمعفناظره وأنصفه .

قال عبد العزيز: فوثب إلي بشر من موضعه الذي كان فيه كالأسد يثب إلى فريسته ، فجاء فانحط علي ، فوضع فخذه الأيسر على فخذي الأيمن ، فكاد أن يحطمها ، واعتمد علي بقوته كلها . فقلت له: مهلا فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاه لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي ، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي ، فصاح به المأمون تنح عنه ، وكرر ذلك عليه حتى باعده مني .

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز ناظره على ما تريد واحتج عليه ، ويحتج عليك ، وسله ويسألك ، وتناصفا في كلامكما ، وتحفظا ألفاظكما ، فإني مستمع

إليكما ومتحفظ ألفاظكما .

قال عبد العزيز: فقلت السمع والطاعة يا أمير المؤمنين ، ولكني أقول شيئًا فإن رأى أمير المؤمنين أبقاه الله أن يأذن لي في ذلك فعلت . فقال: قل ما تريد . فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك إني رجل عربي ، وفي كلامي دقة ، ولم يسمع أمير المؤمنين أطال الله بقاه من كلامي شيئًا قبل هذا الوقت ، فجليل كلامي في سمع أمير المؤمنين دقيق ، وبشر يا أمير المؤمنين كثير سماع أمير المؤمنين دقيق كلامه ، فصار في سمع أمير المؤمنين جليلا ، فإن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاه أن يأذن لي فأقدم شيئًا من كلامي

(113/506)

في هذا المجلس ليقيس ما يدق بعده من كلامي على ما تقدم ، ويعرف مذهبي في كلامي ، ثم يجمعني ومن أحب لمناظرتي بعد هذا في أي وقت شاء .

قال المأمون: أنا مشغول عن هذا بما يلزمني من أمر المسلمين ، وإنما جمعتك ومخالفيك لما أظهرت من مخالفتك إياهم وذمك لمذهبهم ، وادعائك الرد عليهم ، ومسألتك الجمع

[بينك] وبينهم ولست أجمعك وإياهم بعد هذا المجلس إلا عن مناظرة تجري بينك وبينهم فتحتاجون إلى عودة لاستمام ما بقي عليكما من المناظرة فأجمعكما لذلك .

(114/506)

قال عبد العزيز: فقلت في نفسي ، هذا الذي سألت الله عز وجل أن يبلغنيه وعاهدته لأن بلغنيه لأقومن بحقه ولأذبن عن دينه بما يلهمني بتوفيقه صابرا محتسبا وإن عرضت على السيف والقتل حتى إذا بلغني الله ما أملته وأعطاني ما سألته ، وأيدني بالمعونة ، وكفاني المؤونة وعطف قلوب عباده علي ، وصرف عني ما كنت أحاذر من سوء بادرة تكون قبل قيامي بحق الله تعالى ، أأنقض عهده ، وأخلف وعده ، وأكفر نعمه ، فيسخط علي ويخذلني ويكلني إلى نفسي ، والله والله لا فعلت ولو تلفت نفسي .

(115/506)

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين إني لم أتهيب المناظرة ولم أعجز عنها ، وإنما أحببت أن أقدم في هذا المجلس شيئا من كلامي ليقف من بحضرة أمير المؤمنين أطال الله بقاه ومن في

مجلسه على معنى كلامي ودقته فلا يخفى عليهم بعض ما يجري بيننا . قال: فقال أمير المؤمنين المأمون لبشر: ناظر صاحبك على ما تريد .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك إن رأيت أن تأذن لي أن أتكلم بشي قد شغل قلبي قبل مناظرتي لبشر . فقال لي: تكلم بما شئت فقد أذنت لك .

فقلت: أسألك بالله يا أمير المؤمنين من بلغك إنه كان أجمل ولد آدم – صلى الله عليه وسلم – . فأطرق مليا ، ثم رفع رأسه فقال: يوسف عليه السلام . فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين – فوالله ما أعطي يوسف على حسن وجهه بعرتين ، ولقد سجن وضيق عليه من أجل حسن وجهه بعد أن وقف على براءته بالشاهد الذي أنطقه الله عز وجل بتصديقه وبيان قوله وبعد إقرار امرأة العزيز إنها هي راودته عن نفسه فاستعصم فحبس بعد ذلك كله لحسن وجهه ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى

حِينٍ ﴾ (1) فدل بقوله عز وجل أنه سجن بغير ذنب لعله حسن وجهه وليغيبوه عنها وعن غيرها ، فطال في السجن جبسه حتى إذا عبر الرؤيا ووقف الملك على علمه ومعرفته اشتاق إليه ، ورغب في صحبته فقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ (2) فكان هذا القول من الملك عندما وقف عليه من علم يوسف ومعرفته قبل أني يسمع كلامه ، فلما دخل عليه وسمع كلامه وحسن عبارته صيره على خافي خزائن الأرض ، وفوض إليه الأمور كلها وتبرأ منها وصار كأنه من تحت يده ، فكان هذا

---

(1) سورة يوسف آية 35 .

(2) سورة يوسف آية 54 .

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون وأي شي أردت بهذا القول ، وما الذي دعاك إلى ذكر هذا ؟ فقلت سمعت بعض من ها هنا يقول لأمير المؤمنين: يكفيك من كلامه قبح وجهه ، فما يضرني قبح وجهي مع ما رزقني الله عز وجل من فهم كتابه ، والعلم بسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه ، ثم قلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاه فقد رأيتك تنظر إلى هذا النفش وانتفاخ الجص وتذكره ، وسمعت عمرا يعيب ذلك

ويدعو إلى صانعه، ولا يعيب الجص، ولا يدعو عليه، فقال المأمون: العيب لا يقع على الشيء المصنوع، وإنما يقع

(119/506)

فقال المأمون: وذلك موجود عن الله عز وجل. قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (1).

وهذا تعليم الله عز وجل وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين وهو خير وأحسن ما أصله المتنازعون بينهم، وقد تنازعت أنا وبشر يا أمير المؤمنين فنحن نؤصل بيننا كتاب الله عز وجل وسنه نبيه – صلى الله عليه وسلم – كما أمرنا فإن اختلفنا في شيء من

---

(1) سورة النساء آية 59. فقال المأمون: وذلك موجود عن الله عز وجل. قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (1).

وهذا تعليم الله عز وجل وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين وهو خير وأحسن ما أصله المتنازعون بينهم، وقد تنازعت أنا وبشر يا أمير المؤمنين فنحن نؤصل بيننا كتاب الله عز

وجل وسنه نبيه – صلى الله عليه وسلم – كما أمرنا فإن اختلفنا في شيء من

---

(1) سورة النساء آية 59 .

(120/506)

فقال المأمون: وذلك موجود عن الله عز وجل . قلت: نعم يا أمير المؤمنين قال الله تعالى:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (1) .

وهذا تعليم الله عز وجل وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين وهو خير وأحسن ما أصله المتنازعون بينهم ، وقد تنازعت أنا وبشر يا أمير المؤمنين فنحن نؤصل بيننا كتاب الله عز

وجل وسنه نبيه – صلى الله عليه وسلم – كما أمرنا فإن اختلفنا في شيء من

---

(1) سورة النساء آية 59 .

(121/506)

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (1)

قال بشر : فإنما أمر الله أن يرد إليه وإلى الرسول ، ولم يأمرنا أن نرده إلى كتابه العزيز وإلى سنة نبيه عليه السلام .

قال عبد العزيز : هذا مالا خلاف فيه بين المؤمنين وأهل العلم إن رددناه إلى الله فهو إلى كتاب الله ، وإن رددناه إلى رسوله بعد وفاته رددناه إلى سنته ، وإنما يشك في هذا الملحدون ، وقد روى هذا بهذا اللفظ عن ابن عباس(2) وعن جماعة من الأئمة(3)

---

(1) سورة النساء آية 59 .

(2) ابن كثير التفسير 304/3 .

(3) ابن كثير التفسير 304/3 . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (1)

قال بشر : فإنما أمر الله أن يرد إليه وإلى الرسول ، ولم يأمرنا أن نرده إلى كتابه العزيز وإلى سنة نبيه عليه السلام .

قال عبد العزيز : هذا مالا خلاف فيه بين المؤمنين وأهل العلم إن رددناه إلى الله فهو إلى كتاب الله ، وإن رددناه إلى رسوله بعد وفاته رددناه إلى سنته ، وإنما يشك في هذا الملحدون ، وقد روى هذا بهذا اللفظ عن ابن عباس(2) وعن جماعة من الأئمة(3)

---

(1) سورة النساء آية 59 .

(2) ابن كثير التفسير 3/304 .

(3) ابن كثير التفسير 3/304 .

(122/506)

الذين أخذ العلم عنهم رحمة الله عليهم .

قال عبد العزيز : فقال لي المأمون : فافعلا وأصلا بينكما يا عبد العزيز أصلا واتفقا عليه وأنا الشاهد بينكما إن شاء الله تعالى .

قال عبد العزيز : فقلت يا أمير المؤمنين : إنه من الحد في كتاب الله عز وجل جاحدا أو زائدا لم يناظر بالتأويل ، ولا بالتفسير ، ولا بالحديث .

فقال المأمون : وبأي شي تناظره ، قلت : بنص التنزيل كما قال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا

(123/506)

لِنَفْسِهِ ﴾ (1) .

فإنما أمر الله نبيه بالتلاوة ، ولم يأمره بالتأويل ، وإنما يكون التأويل لمن أقر بالتنزيل ، وإما من الحد في التنزيل فكيف يناظر بتأويله . فقال لي المأمون: ويخالفك في التنزيل ، قلت: نعم ليخالفني ، أو ليدع قوله ومذهبه ويوافقني .

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على بشر فقلت: يا بشر ما حجتك أن القرآن مخلوق ، وانظر إلى أحد سهم في كنانتك فارمني به ، ولا تحتاج إلى معاودتي بغيره .

فقال: تقول القرآن شيء أم غير شيء ، فإن قلت إنه شيء أقررت إنه مخلوق إذ كانت الأشياء مخلوقة بنص التنزيل ، وإن

---

(1) سورة النمل آية 92 .لِنَفْسِهِ ﴾ (1) .

فإنما أمر الله نبيه بالتلاوة ، ولم يأمره بالتأويل ، وإنما يكون التأويل لمن أقر بالتنزيل ، وإما من الحد في التنزيل فكيف يناظر بتأويله . فقال لي المأمون: ويخالفك في التنزيل ، قلت: نعم ليخالفني ، أو ليدع قوله ومذهبه ويوافقني .

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على بشر فقلت: يا بشر ما حجتك أن القرآن مخلوق ، وانظر إلى أحد سهم في كنانتك فارمني به ، ولا تحتاج إلى معاودتي بغيره .

فقال: تقول القرآن شيء أم غير شيء ، فإن قلت إنه شيء أقررت إنه مخلوق إذ كانت الأشياء مخلوقة بنص التنزيل ، وإن

(1) سورة النمل آية 92 .

(124/506)

قلت إنه ليس بشيء فقد كفرت لأنك تزعم أنه حجة الله على خلقه وإن حجة الله ليس بشيء .

قال عبد العزيز: فقلت لبشر ما رأيت أعجب من هذا تسألني وتجيب نفسك عني وتكفرني ولم تسمع كلامي ولا قولي فإن كنت سألت لأجيبنك ، فاسمع مني فأني أحسن أن أجيب عن نفسي واحتج عن مقالتي ومذهبي ، وأن كنت إنما تريد أن تخطئني وتتكلم لتدهشني وتنسيني حجتي فلن أزداد بتوفيق الله إياي إلا بصيرة وفهما ، وما أحسبك إلا وقد تعلمت شيئًا أو سمعت قائلا يقول هذه المقالة التي قلتها أو قرأتها في كتاب فأنت تكره أن تقطعها حتى تأتي على آخرها .

(125/506)

قال عبد العزيز: صدقت إنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول ولقد وصفت نفسك بأقبح الصفات، واخترت لها أذم الاختيارات، ولقد ذم الله عز وجل في كتابه من قال مثل ما قلت: أو كان بمثل ما وصفت به نفسك، فقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (1) وقال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ

---

(1) سورة الأنفال آية 22–32 .

قال عبد العزيز: صدقت إنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول ولقد وصفت نفسك بأقبح الصفات، واخترت لها أذم الاختيارات، ولقد ذم الله عز وجل في كتابه من قال مثل ما قلت: أو كان بمثل ما وصفت به نفسك، فقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (1) وقال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ

---

(1) سورة الأنفال آية 22–32 .

أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (2) . ومثل هذا في القرآن كثيرا جدا ، ولقد امتدح الله عز وجل في كتابه أقواما

(1) سورة الزخرف آية 40 .

(2) سورة البقرة آية 16-18 .

(127/506)

بحسن الاستماع وأثنى عليهم أحسن الثناء فقال: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (2) وقال عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (3) وقال عز وجل:

(1) سورة الزمر آية 18 .

(2) سورة المائدة آية 83 .

(3) سورة البقرة آية 285 .

(128/506)

قال عبد العزيز: قال المأمون: دع هذا يا عبد العزيز وارجع إلى ما كنت فيه ، وبين ما كنت فيه ، واشرحه ، واحتج لنفسك ، فقلت: يا أمير المؤمنين: إن الله عز وجل أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه إذ كان كلامه من صفاته فلم يتسم بالشيء ولم يجعل الشيء أسمائه ولكنه دل على نفسه أنه شيء وأكبر الأشياء إثباتا للوجود ونفيا للعدم(1) ، وتكذيباً منه للزنادقة ، والدهرية ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته وأنكر ربوبيته من سائر الأمم فقال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً

---

(1) فتح الباري 402/13 . قال عبد العزيز: قال المأمون: دع هذا يا عبد العزيز وارجع إلى ما كنت فيه ، وبين ما كنت فيه ، واشرحه ، واحتج لنفسك ، فقلت: يا أمير المؤمنين: إن الله عز وجل أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه إذ كان كلامه من صفاته فلم يتسم بالشيء ولم يجعل الشيء أسمائه ولكنه دل على نفسه أنه شيء وأكبر الأشياء إثباتا للوجود ونفيا للعدم(1) ، وتكذيباً منه للزنادقة ، والدهرية ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته وأنكر

ربوبيته من سائر الأمم فقال عز وجل لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً

(1) فتح الباري 402/13 .

(129/506)

بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ثم عدد أسماءه في كتابه ولم يتسم بالشيء ولم يجعله أسما من أسمائه ، ثم قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: (إن الله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة) (2)

(1) سورة الأعراف آية 180 .

(2) خ/ الدعوات ، فتح الباري 214/11 ح6410 ، والتوحيد فتح الباري 377/13 ح7392 . بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ثم عدد أسماءه في كتابه ولم يتسم بالشيء ولم يجعله أسما من أسمائه ، ثم قال

النبي – صلى الله عليه وسلم –: (إن الله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة)(2)

---

(1) سورة الأعراف آية 180 .

(2) خ/ الدعوات ، فتح الباري 11/214ح6410 ، والتوحيد فتح الباري 13/377ح7392 .

(130/506)

التوراة بما علم من صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – وذكر نبوته فيها حتى أثبت نبوته – صلى الله عليه وسلم – من التوراة فضحك اليهودي وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله عز وجل تكذيبه ، وذم قوله ، وأعظم فريته حين جحد أن يكون كلام الله شيئًا ، ودل بذلك على أن كلامه شيء ليس كالأشياء ، كما دل على نفسه أنه شيء ليس كالأشياء ثم قال في موضع أخر: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (1) فدل بهذا الخبر أيضا على

---

(1) سورة الأنعام 93 . التوراة بما علم من صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – وذكر نبوته

فيها حتى أثبت نبوته – صلى الله عليه وسلم – من التوراة فضحك اليهودي وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله عز وجل تكذيبه ، وذم قوله ، وأعظم فريته حين جحد أن يكون كلام الله شيئا ، ودل بذلك على أن كلامه شيء ليس كالأشياء ، كما دل على نفسه أنه شيء ليس كالأشياء ثم قال في موضع أخر: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (1) فدل بهذا الخبر أيضا على

---

(1) سورة الأنعام 93.

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون هذا يلزمك يا عبد العزيز ، وجعل محمد بن الجهم وغيره يصيحون (يقولون) ظهر أمر الله وهم كارهون ، جاء الحق وزهق الباطل وطمعوا في قتلي ، وجثا بشر على ركبتيه وجعل يقول: أقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن ، فأمسكت فلم أتكلم حتى قال لي المأمون: مالك لا تتكلم يا عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، قد تكلم بشر وطالبني بنص التنزيل على ما قلت وهو المناظر لي فضجيج هؤلاء أي شيء هو وأنا لم أنقطع ولم أعجز عن الجواب وإقامة الحجة بنص التنزيل كما طالبني ولست أتكلم فيقال عبد العزيز: فقال لي المأمون هذا يلزمك يا عبد العزيز ، وجعل محمد بن الجهم

وغيره يصيحون (يقولون) ظهر أمر الله وهم كارهون ، جاء الحق وزهق الباطل وطمعوا في قتلي ، وجثا بشر على ركبتيه وجعل يقول: أقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن ، فأمسكت فلم أتكلم حتى قال لي المأمون: مالك لا تتكلم يا عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، قد تكلم بشر وطالبني بنص التنزيل على ما قلت وهو المناظر لي فضجيج هؤلاء أي شيء هو وأنا لم أنقطع ولم أعجز عن الجواب وإقامة الحجة بنص التنزيل كما طالبني ولست أتكلم في

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون هذا يلزمك يا عبد العزيز ، وجعل محمد بن الجهم وغيره يصيحون (يقولون) ظهر أمر الله وهم كارهون ، جاء الحق وزهق الباطل وطمعوا في قتلي ، وجثا بشر على ركبتيه وجعل يقول: أقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن ، فأمسكت فلم أتكلم حتى قال لي المأمون: مالك لا تتكلم يا عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، قد تكلم بشر وطالبني بنص التنزيل على ما قلت وهو المناظر لي فضجيج هؤلاء أي شيء هو وأنا لم أنقطع ولم أعجز عن الجواب وإقامة الحجة بنص التنزيل كما طالبني ولست أتكلم في

هذا المجلس ويتكلم فيه غير بشر إلا أن ينقطع بشر عن الحجة فيعتزل ويتكلم غيره في مكانه ، فصاح المأمون بمحمد بن الجهم وغيره فأمسكوا .

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون تكلم يا عبد العزيز فليس يعارضك أحد غير بشر .

قال عبد العزيز: قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (1) وقال عز وجل ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (2) وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا

---

(1) سورة النحل آية 40 .

(2) سورة يس آية 82 .

﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ (1) يقول من قبل الخلق ومن بعد الخلق ، ثم جمع عز وجل بين الأشياء المخلوقة في آيات كثيرة من كتابه ، وأخبر عن خلقهما بقوله وكلامه ، وأن كلامه

وقوله غيرها وخارج عنها فقال عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ (2) وقال عز وجل ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ

---

(1) سورة الروم آية 4 .

(2) سورة الأنعام آية 73 . ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ (1) يقول من قبل الخلق ومن بعد الخلق ، ثم جمع عز وجل بين الأشياء المخلوقة في آيات كثيرة من كتابه ، وأخبر عن خلقهما بقوله وكلامه ، وأن كلامه وقوله غيرها وخارج عنها فقال عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ (2) وقال عز وجل ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ

---

(1) سورة الروم آية 4 .

(2) سورة الأنعام آية 73 .

الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) وقال عز وجل ﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (3) وقال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا

---

(1) سورة الحجر آية 85 .

(2) سورة العنكبوت آية 44 .

(3) سورة الأحقاف آية 1-3 .

(136/506)

بِالْحَقِّ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (2) وقال عز وجل: ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (3) .

---

(1) سورة الدخان آية 38-39 .

(2) سورة الروم آية 8 .

(3) سورة الجاثية آية 22 .

وجل يخلق بها الأشياء فأكذب نفسه ونقض قوله ورجع عما ادعاه من حيث لا يدري ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاه الشاهد عليه الحاكم بيننا .

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز قد قال بشر كلاما قد قلته وتحتاج أن تصحح قولك ولا ينقض بعضه بعضا ، وجعل بشر يصيح ويقول: لو تركناه يتكلم لجاءنا بألف لون مما خلق الله عز وجل بها الأشياء .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، ذهبت الحجج وانقطع الكلام ، ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج إلى الباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص منوجل يخلق بها الأشياء فأكذب نفسه ونقض قوله ورجع عما ادعاه من حيث لا يدري ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاه الشاهد عليه الحاكم بيننا .

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز قد قال بشر كلاما قد قلته وتحتاج أن تصحح قولك ولا ينقض بعضه بعضا ، وجعل بشر يصيح ويقول: لو تركناه يتكلم لجاءنا

بألف لون مما خلق الله عز وجل بها الأشياء .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، ذهبت الحجج وانقطع الكلام ، ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج إلى الباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص من

الله عز وجل . قال: فصاح المأمون: يا بشر أقبل على صاحبك واسمع منه ، ودع هذا الضجيج ، وكان قد قعد منا مقعد الحاكم من الخصوم .

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون وقال: تكلم يا عبد العزيز . فقلت: يا بشر زعمت أني قد أتيت بأشياء متباينات متفرقات ، فزعمت أن الله خلق بها الأشياء ، فما قلت إلا ما قال الله عز وجل في كتابه ، وما جئت بشيء غير كلام الله ولا قلت ولا أقول إلا أن (الله خلق الأشياء بكلامه .

قال بشر: يا أمير المؤمنين ، قد قال إنه خلق الأشياء بقوله وبأمره ، وبكلامه ، وبالحق ، فقال المأمون: بلى قد قلت هذا

يا عبد العزيز .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين قد قلت هذا ، وما قلته إلا على صحته ، ولا خرجت عن كتاب الله عز وجل ولا قلت إلا ما قال الله عز وجل ، ولا أخبرت إلا بما أخبر الله عز وجل به أنه خلق (مما) يوافق بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، وكل ما ذكر الله عز وجل إنه خلق ويخلق به الأشياء فهو شيء واحد له أسماء ، هو كلام الله ، هو قول الله ، هو أمر الله ، وهو الحق ، فقول الله هو كلامه وكلامه هو الحق ، والحق هو أمره ، وأمره هو قوله ، وقوله هو الحق ، وهي أسماء شتى لشيء واحد ، وكما سمى كلامه نورا وهدى وشفاء ورحمة

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ (1) فسمى الله القرآن كلامه ، وسماه قوله ، وأخبر أن قوله هو كلامه بقوله عز من قائل: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ (2) وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ

(1) سورة الفتح آية 15 .

(2) سورة الفتح آية 15 . ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ (1) فسمى الله القرآن كلامه ، وسماه قوله ، وأخبر أن قوله هو كلامه بقوله عز من قائل: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ (2) وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ

(1) سورة الفتح آية 15 .

(2) سورة الفتح آية 15 .

(141/506)

الْمُمْتَرِينَ ﴾ (1) فهذا خبر الله عن القرآن إنه الحق وقال عز وجل : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) فهذا خبر الله عن القرآن إنه الحق وقال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي

لِنَفْسِهِ ﴾ (3) وقال عز

---

(1) سورة يونس آية 94 .

(2) سورة هود آية 17 .

(3) سورة يونس آية 108 .الْمُمْتَرِينَ ﴾ (1) فهذا خبر الله عن القرآن إنه الحق وقال عز وجل : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) فهذا خبر الله عن القرآن إنه الحق وقال عز وجل لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ (3) وقال عز

---

(1) سورة يونس آية 94 .

(2) سورة هود آية 17 .

(3) سورة يونس آية 108 .

الْمُمْتَرِينَ ﴾ (1) فهذا خبر الله عن القرآن إنه الحق وقال عز وجل : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) فهذا خبر الله عن القرآن إنه الحق وقال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ (3) وقال عز

---

(1) سورة يونس آية 94 .

(2) سورة هود آية 17 .

(3) سورة يونس آية 108 .

يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ﴾ (1) ، فهذه كلها وأمثالها في القرآن كثير ، إخبار الله عن القرآن أنه الحق ، فسماه باسم الحق ، ثم ذكر عز وجل أن القرآن قوله وأن قوله هو الحق فقال عز وجل: ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (2) فهذا خبر الله عن قوله إنه الحق وإن الحق قوله ، وقال عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

(1) سورة القصص آية 53 .

(2) سورة الأحزاب آية 4 .يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ﴾ (1) ، فهذه كلها وأمثالها في القرآن كثير ، إخبار الله عن القرآن أنه الحق ، فسماه باسم الحق ، ثم ذكر عز وجل أن القرآن قوله وأن قوله هو الحق فقال عز وجل: ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (2) فهذا خبر الله عن قوله إنه الحق وإن الحق قوله ، وقال عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

(1) سورة القصص آية 53 .

(2) سورة الأحزاب آية 4 .

(144/506)

أَجْمَعِينَ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ (2) فهذه أخبار الله كلها عن الحق إنه قوله وأن قوله هو الحق ، ومثل هذا في القرآن كثير ، ثم ذكر أن الحق كلامه وأن كلامه الحق فقال عز وجل: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) فأخبر عن كلام الله أنه الحق ، وقال عز وجل:

﴿ وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ

---

(1) سورة السجدة آية 13 .

(2) سورة سبأ آية 23 .

(3) سورة يونس آية 33 .

الْمُجْرِمُونَ ﴾ (1) فأخبر عز وجل عن الحق أنه كلامه وأن كلامه هو الحق ، وقال عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (2) فهذه أخبار الله عز وجل عن الحق أنه كلامه وإن كلامه هو الحق ثم ذكر عز وجل أن القرآن أمره ، وهو كلامه فقال عز وجل: ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا ﴾ (3) يعني القرآن ،

---

(1) سورة يونس آية 82 .

(2) سورة الزمر آية 71 .

(3) سورة الدخان آية 1-5 .

فأخبر الله أن القرآن أمره ؛ وأن أمره القرآن ، وقال عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ (1) يعني القرآن فهذا خبر الله أن القرآن أمره وأن أمره القرآن ، وإن هذه أسماء شتى لشيء واحد ، وهو الشيء الذي به خلق الأشياء وهو غير الأشياء ، وخارج عن الأشياء ، وغيره داخل في الأشياء ، ولا هو كالأشياء وبه تكون الأشياء ، وهو كلامه ، وهو قوله ، وهو أمره ، وهو الحق . وهذا نص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير .

قال عبد العزيز: فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز .

(1) سورة الطلاق آية 5 .

قال بشر: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، إنه يحب أن يخطب ويهذي بما لا أعقله ، ولا أسمعه ، ولا التفت إليه ، ولا أتى بحجة ، ولا أقبل من هذا شيئاً .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك ، من لا يعقل عن الله ما خاطب به

نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، وما علمه لعباده المؤمنين في كتابه ، ولا يعلم ما أراد الله بكلامه وقوله ، يدعي العلم ، ويحتج بالمقالات والمذاهب ويدعو الناس إلى البدع والضلالات ؟ .

يا أمير المؤمنين أعلم أن الذي أنزل عليه – صلى الله عليه وسلم – هو الحق ، وأومن به ، وبشر يشهد على نفسه إنه لا يعلم ذلك ولا يعقله ولا يقبله ولا هو مما يقوم لي به عليه حجة ، فلم يقل كما قال الله عز وجل ، ولا كما علم نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقوله ، ولا كما قال موسى عليه السلام ، ولا كما قالت الملائكة ، ولا كما قال المؤمنين ، ولا كما قال أهل الكتاب ، ولقد أخبر الله عز وجل عن جهله ، وأزال عنه التذكرة ، وأخرجه عن جملة أولى الألباب ، لكن أمير المؤمنين أطال الله بقاه لما خصه الله به من الفضل والسؤدد ، ورزقهيا أمير المؤمنين أعلم أن الذي أنزل عليه – صلى الله عليه وسلم – هو الحق ، وأومن به ، وبشر يشهد على نفسه إنه لا يعلم ذلك ولا يعقله ولا يقبله ولا هو مما يقوم لي به عليه حجة ، فلم يقل كما قال الله عز وجل ، ولا كما علم نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقوله ، ولا كما قال موسى عليه السلام ، ولا كما قالت الملائكة ، ولا كما قال المؤمنين ، ولا كما

قال أهل الكتاب ، ولقد أخبر الله عز وجل عن جهله ، وأزال عنه التذكرة ، وأخرجه عن جملة أولى الألباب ، لكن أمير المؤمنين أطال الله بقاه لما خصه الله به من الفضل والسؤدد ، ورزقه

(149/506)

مخلوقا بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير .

قال عبد العزيز : فقلت : يا أمير المؤمنين علي أن أكسر قوله وأكذبه فيما قال بنص التنزيل حتى يرجع أو يقف أمير المؤمنين على كسر قوله وكذبه وبطلان ما أدعاه . فقال : هات ما عندك يا عبد العزيز ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال الله عز وجل : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (1) يعني الريح التي أرسلت على عاد ، فهل أبقت الريح يا بشر شيئًا لم تدمره ، قال : لا لم يبق شيء إلا دمرته ، وقد دمرت كل شيء كما أخبر الله تعالى لأنه لم يبق شيء إلا وقد دخل في

---

(1) سورة الأحقاف آية 25 . مخلوقا بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير .

قال عبد العزيز : فقلت : يا أمير المؤمنين علي أن أكسر قوله وأكذبه فيما قال بنص التنزيل حتى يرجع أو يقف أمير المؤمنين على كسر قوله وكذبه وبطلان ما أدعاه . فقال : هات ما

عندك يا عبد العزيز ، فقلت: يا أمير المؤمنين ، قال الله عز وجل: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (1) يعني الريح التي أرسلت على عاد ، فهل أبقت الريح يا بشر شيئًا لم تدمره ، قال: لا لم يبق شيء إلا دمرته ، وقد دمرت كل شيء كما أخبر الله تعالى لأنه لم يبق شيء إلا وقد دخل في

(1) سورة الأحقاف آية 25 .

(150/506)

هذه اللفظة . قلت: قد أكذب الله من قال هذا بقوله: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ (1) فأخبر عنهم أن مساكنهم كانت باقية بعد تدميرهم ، ومساكنهم أشياء كثيرة . وقال عز وجل: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (2) وقد أتت الريح على الأرض والجبال والمساكن والشجر وغير ذلك فلم يصر شيئًا منها كالرميم وقال عز وجل: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (3) يعني بلقيس ، فكأن بقولك يا بشر يجب أن لا يبقى شيء

(1) سورة الأحقاف آية 25 .

(2) سورة الذاريات آية 42 .

(3) سورة النمل آية 23 .

(151/506)

يقع عليه اسم الشيء إلا دخل في هذه اللفظة وأوتيته بلقيس ، وقد بقي ملك سليمان وهو مائة ألف ضعف مما أوتيته لم يدخل في هذه اللفظة . فهذا كله مما يكسر قولك ويدحض حجتك ، ومثل هذا في القرآن كثير مما يبطل قولك ، ولكني أبدأ بما هو أشنع وأظهر فضيحة لمذهبك وأدفع لبدعتك ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ (1)

وقال : ﴿ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (2)

---

(1) سورة البقرة آية 255 .

(2) سورة النساء آية 166 .

(152/506)

وقال عز وجل: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ (2) فأخبر الله عز وجل بأخبار كثيرة في كتابه ، أن له علماً أفتقر يا بشر أن الله علما كما أخبرنا أو تخالف التنزيل ؟ .

قال عبد العزيز: فحاد بشر عن جوابي وأبا أن يصرح بالكفر فيقول: ليس لله علم ، فيكون قد رد نص التنزيل فتتبين ضلالته وكفره ، وأبى أن يقول: إن الله علماً ، فأسأله عن علم الله هل هو داخل

---

(1) سورة هود آية 14 .

(2) سورة فاطر آية 11 .

في الأشياء المخلوقة أم لا ؟ وعلم ما أريد ، وما يلزمه في ذلك من كسر قوله وإبطال حجته ، فاجتلب كلاماً لم أسأله عنه ، فقال: معنى علمه إن لا يجهل . فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين لا يكون الخبر عن المعنى قبل الإقرار بالشيء ، وإنما يكون الإقرار بالشيء ثم الخبر عن معناه ، فليقر بشر أن لله علماً كما أخبرنا في كتابه ، فإن سألته عن معنى العلم وهذا مما لا أسأله عنه فليجبن أن الله لا يجهل ، وقد حاد بشر يا أمير المؤمنين عن جوابي .

فقال بشر: وهل تعرف الحيدة؟ قلت: نعم إني أعرف الحيدة في كتاب الله عز وجل وهي سبيل الكفار التي اتبعتها .

فقال لي المأمون: يا عبد العزيز هل تعرف الحيدة في كتاب الله عز وجل؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين وفي سنة المسلمين، وفي لغة العرب . فقال: وأين هي من كتاب الله عز وجل .

فقلت: قال الله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام حين قال لقومه: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (1) وإنما قال لهم إبراهيم هذا ليكذبهم فيعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم فعرفوا

(1) سورة الشعراء آية 71 - 83 .

ما أراد بهم، وإنهم بين أمرين:

إما أن يقولوا نعم يسمعوننا حين ندعو وينفعوننا ويضروننا ، فيشهد عليهم بلغة قومهم إنهم

قد كذبوا . أو يقولوا لا يسمعوننا حين ندعو ولا ينفعوننا ولا يضروننا فينفوا عن آلهتهم القدرة . وعلموا أن الحجة لإبراهيم عليه السلام في أي القولين أجابوه عليهم قائمة . فحادوا عن كلامه واجتلبوه كلاما من غير ما سألهم عنه فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (1) ولم يكن هذا جوابا لمسألة إبراهيم عليه السلام ، وأما الحيدة في سنة المسلمين فيروى عن عمر بن

---

(1) سورة الشعراء آية 74 .

(156/506)

الخطاب رضي الله عنه أنه قال لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وقد قدم عليه فنظر إليه يكاد يتفقأ شحما ، فقال: يا معاوية ما هذه الشحمة لعلها من نومة الضحى ورد الخصوم ، قال له معاوية: يا أمير المؤمنين رحمك الله علمني وفهمني ، ولم يكن هذا جواباً لقول عمر رضي الله عنه إنما حاد عن جوابه لعلمه بما فيه ، فاجتلب كلاما غيره فأجاب به .

وأما الحيدة في كلام العرب فقول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا . . . . . . عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين إنه لم يمدح الله تعالى في كتابه ملكًا ولا نبيًا ولا مؤمنًا بنفي الجهل ليدل على إثبات العلم، وإنما مدحهم بالعلم فقال عز وجل: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (1) ولم يقل لا يجهلون، وقال عز وجل لنبيه- صلى الله عليه وسلم -: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (2) وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

---

(1) سورة الانفطار آية 10-11.

(2) سورة التوبة آية 43. قال عبد العزيز: ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين إنه لم يمدح الله تعالى في كتابه ملكًا ولا نبيًا ولا مؤمنًا بنفي الجهل ليدل على إثبات العلم، وإنما مدحهم بالعلم فقال عز وجل: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (1) ولم يقل لا يجهلون، وقال عز وجل لنبيه- صلى الله عليه وسلم -: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (2) وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

(1) سورة الانفطار آية 10-11 .

(2) سورة التوبة آية 43 .

(158/506)

إلى حدوث علمه ، وهذه صفة المخلوقين ، والله عز وجل أعظم وأجل من أن يوصف بذلك أو ينسب إليه ، ومن قال ذلك فقد كفر وحل دمه ووجب على أمير المؤمنين قتله ، وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء وغير داخل فيها ، كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها ، فمن ثم ترك قوله وضل يا أمير المؤمنين وثبتت عليه الحجة فيها . فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز ، وإنما فر بشر أن يجيبك في هذه المسألة لهذا . ثم أقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز تقول إن الله عالم . فقلت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: فتقول: إن اللهإلى حدوث علمه ، وهذه صفة المخلوقين ، والله عز وجل أعظم وأجل من أن يوصف بذلك أو ينسب إليه ، ومن قال ذلك فقد كفر وحل دمه ووجب على أمير المؤمنين قتله ، وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء وغير داخل فيها ، كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها ، فمن ثم ترك قوله وضل يا أمير المؤمنين وثبتت عليه الحجة فيها . فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز ، وإنما فر بشر أن يجيبك

في هذه المسألة لهذا . ثم أقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز تقول إن الله عالم . فقلت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: فتقول: إن الله

(159/506)

إلى حدوث علمه ، وهذه صفة المخلوقين ، والله عز وجل أعظم وأجل من أن يوصف بذلك أو ينسب إليه ، ومن قال ذلك فقد كفر وحل دمه ووجب على أمير المؤمنين قتله ، وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء وغير داخل فيها ، كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها ، فمن ثم ترك قوله وضل يا أمير المؤمنين وثبتت عليه الحجة فيها .

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز ، وإنما فر بشر أن يجيبك في هذه المسألة لهذا . ثم أقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز تقول إن الله عالم . فقلت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: فتقول: إن الله

(160/506)

سميع بصير . قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين . قال: فتقول إن الله سمعاً وبصراً . كما قلت إن له علم ، فقلت ، لا أطلق هذا هكذا يا أمير المؤمنين . فقال: أي فرق بين هذين ؟ فأقبل بشر يقول: يا أمير المؤمنين يا أفقه الناس ، ويا أعلم الناس يقول الله عز وجل: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (1) .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين قد قدمت إليك فيما احتججت به إن على الناس كلهم جميعا أن يثبتوا ما أثبت الله ، وينفوا ما نفى الله ، ويمسكوا عما أمسك

(1) سورة الأنبياء آية 18 .

(161/506)

فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا

(1) سورة الجن آية 26-27 .

(2) سورة الأنعام آية 59 . فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (1)

وقال عز وجل: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا

---

(1) سورة الجن آية 26-27 .

(2) سورة الأنعام آية 59 .

نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) . أتدري يا بشر ما معنى هذا ؟ قال: وأي شيء هذا مما نحن فيه . فقال المأمون: قل يا عبد العزيز أنت ما معنى هذا . قلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك يقول: ولو أن ما في الأرض من جميع الشجر والخشب والقصب أقلام يكتب بها والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر بالمداد والخلائق كلهم يكتبون بهذه الأقلام من هذا الشجر ما نفذت كلمات الله ، فمن يبلغ عقله أو فهمه أو فكره كنه عظمة الله عز وجل وسعة علمه وكثرة كلامه ، قال عز وجل: ﴿ قُل لَّوْ

(1) سورة لقمان آية 27 .

(163/506)

قال عبد العزيز: فاشتد تبسم أمير المؤمنين من كلامي فقال: يا عبد العزيز أمرك بشر بما نهاك الله عنه وحرم عليك القول به ، وأمرك بما أمرك به الشيطان ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: ومن أين لك ذلك ؟ قلت: من كتاب الله وكلامه بنص التنزيل . قال: هاته . قلت: قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (1)

(1) سورة الأعراف آية 32 . قال عبد العزيز: فاشتد تبسم أمير المؤمنين من كلامي فقال: يا عبد العزيز أمرك بشر بما نهاك الله عنه وحرم عليك القول به ، وأمرك بما أمرك به الشيطان ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: ومن أين لك ذلك ؟ قلت: من كتاب الله وكلامه بنص التنزيل . قال: هاته . قلت: قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (1)

(1) سورة الأعراف آية 32 .

(164/506)

من ارتكاب نهي الله عز وجل وتحريمه حين قال: لابد أن تقول أي شيء علم الله ، وقد أعلمته أني لا أعلمه ولا علمه أحد قبلي ولا يعلمه أحد بعدي .

قال عبد العزيز: فكثر تبسم المأمون حتى غطى فمه بيده وأطرق ينكث بيده على السرير .

(باب ذكر "علم" الله عز وجل)

فقال لي بشر: لو ورد عليك اثنان وقد تنازعا في علم الله عز وجل ، فحلف أحدهما بالطلاق: إن علم الله هو الله . وحلف الآخر بالطلاق: إن علم الله غير الله ، فقالا لك: أفتنا في أيماننا فما كان جوابك لهما . قلت: الإمساك عنهما وتركهما وجهلهما وصرفهما بغير جواب . قال بشر من ارتكاب نهي الله عز وجل وتحريمه حين قال: لابد أن تقول أي شيء علم الله ، وقد أعلمته أني لا أعلمه ولا علمه أحد قبلي ولا يعلمه أحد بعدي .

قال عبد العزيز: فكثر تبسم المأمون حتى غطى فمه بيده وأطرق ينكث بيده على السرير .

(باب ذكر "علم" الله عز وجل)

فقال لي بشر: لو ورد عليك اثنان وقد تنازعا في علم الله عز وجل، فحلف أحدهما بالطلاق: إن علم الله هو الله. وحلف الآخر بالطلاق: إن علم الله غير الله، فقالا لك: أفتنا في أيماننا فما كان جوابك لهما. قلت: الإمساك عنهما وتركهما وجهلهما وصرفهما بغير جواب. قال بشر

من ارتكاب نهي الله عز وجل وتحريمه حين قال: لابد أن تقول أي شيء علم الله، وقد أعلمته أني لا أعلمه ولا علمه أحد قبلي ولا يعلمه أحد بعدي.

قال عبد العزيز: فكثر تبسم المأمون حتى غطى فمه بيده وأطرق ينكث بيده على السرير.

(باب ذكر "علم" الله عز وجل)

فقال لي بشر: لو ورد عليك اثنان وقد تنازعا في علم الله عز وجل، فحلف أحدهما بالطلاق: إن علم الله هو الله. وحلف الآخر بالطلاق: إن علم الله غير الله، فقالا لك:

أفتنا في أيماننا فما كان جوابك لهما . قلت: الإمساك عنهما وتركهما وجهلهما وصرفهما بغير جواب . قال بشر

(166/506)

يلزمك ويجب عليك إذ كنت تدعي العلم أن تجيبهما عن مسألتهما وأن تخرجهما من أيمانهما وإلا فأنت وهما في الجهل سواء .

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: أو يجب علي أن أجيب كل من سألني عن مسألة لا أجد لها في كتاب الله ولا في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكرا ولا علماً قد جهل السائل عنها ، وحمق الحالف عليها . قال بشر: يجب عليك أن تجيبه عن مسألته فإنه لابد لكل مسألة من جواب .

قال عبد العزيز: فقلت: هذا جهل من قائله . قال عبد العزيز: ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين سمعت ما قال بشر إنه يجب علي جواب

(167/506)

وأجبنا عن أيماننا ، وذلك مما لم يخبر الله به ولا رسول ولا يوجد علمه في كتاب الله ولا في سنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، كان علي يا أمير المؤمنين أن أجيبهم عن مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم . فقال المأمون: لا ليس عليك إجابتهم ولا فتياهم . قال: فقلت: يا أمير المؤمنين ، فلو ورد علي ثلاثة نفر قد تنازعوا في المؤذن الذي يؤذن بين أهل الجنة والنار الذي أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (1) فقال أحدهم: حلفت بالطلاق إن المؤذن

(1) سورة الأعراف آية 44 .

وأجبنا عن أيماننا ، وذلك مما لم يخبر الله به ولا رسول ولا يوجد علمه في كتاب الله ولا في سنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، كان علي يا أمير المؤمنين أن أجيبهم عن مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم . فقال المأمون: لا ليس عليك إجابتهم ولا فتياهم . قال: فقلت: يا أمير المؤمنين ، فلو ورد علي ثلاثة نفر قد تنازعوا في المؤذن الذي يؤذن بين أهل الجنة والنار الذي أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (1) فقال أحدهم: حلفت بالطلاق إن المؤذن

(1) سورة الأعراف آية 44 .

وأجبنا عن أيماننا ، وذلك مما لم يخبر الله به ولا رسول ولا يوجد علمه في كتاب الله ولا في سنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، كان علي يا أمير المؤمنين أن أجيبهم عن مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم . فقال المأمون: لا ليس عليك إجابتهم ولا فتياهم . قال: فقلت: يا أمير المؤمنين ، فلو ورد علي ثلاثة نفر قد تنازعوا في المؤذن الذي يؤذن بين أهل الجنة والنار الذي أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (1) فقال أحدهم: حلفت بالطلاق إن المؤذن

---

(1) سورة الأعراف آية 44 .

من الملائكة . وقال الآخر: حلفت بالطلاق إن المؤذن من الإنس . وقال الآخر: حلفت بالطلاق إن المؤذن من الجن . فأجبنا عن مسألتنا وافتنا في أيماننا ، وذلك مما لا أجده في كتاب الله عز وجل ولا في سنه نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، ولا أخبرنا الله به ولا رسوله كان علي يا أمير المؤمنين أن أجيبهم في مسألتهم وأفتيهم في أيمانهم ، فقال المأمون لا

ليس عليك إجابتهم ولا فتياهم ، فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين لا يجوز لي ولا لغيري بأن يقض بينهم ولا يفتيهم إلا أن يكون الله عز وجل قد أخبر عن ذلك في كتابه أو عن علم الله ، وهو

(170/506)

مما لا يوجد في كتابه ولا في سنة نبيه ، ولا أخبرنا الله به ولا رسوله ، وقد أكذب الله بشرا على لسان أمير المؤمنين أطال الله بقاه فيما ادعاه من وجوب الجواب علي وفتوى من جهل في مسألته وحمق في يمينه ، فقال: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز .

فقال بشر: واحدة بواحدة يا أمير المؤمنين ، سألني عبد العزيز أن أقول لله علما فلم أُجبه ، وسألته ما علم الله فلم يجبني فقد استوينا في الحيدة عن الجواب ، ونخرج عن هذه المسألة إلى غيرها ، وندعها على غير حجة تثبت لأحدنا على صاحبه فيما قال .

(171/506)

قال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن بشرا قد أفحم وانقطع عن الجواب ودحضت حجته وبقي لا حجة يقيمها لهذا المذهب الذي كان يدعو الناس إليه ، فلجأ إلى أن يسألني عن مسألة محال يحتج بها علي ليقول: سألني عبد العزيز عن مسألة فلم أجبه ، وسألته عن مسألة فلم يجبني عنها ، وقد قال ذلك ، وأنا وبشر يا أمير المؤمنين على غير السواء في مسألتنا ، لأني سألته عما أخبر الله به وشهد به على نفسه وشهدت له الملائكة به ، وتعبد الله عز وجل نبيه – صلى الله عليه وسلم – وسائر الخلق بالإيمان به بقوله:

﴿ وَقُلْ آمَنتُ

(172/506)

بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾ (1) فوجب على نبيه – صلى الله عليه وسلم – وعلى الخلق جميعاً الإيمان بما أنزل الله من كتاب ، وبشر يا أمير المؤمنين يأبى أن يؤمن بذلك أو يقر به أو يصدقه . وسألني بشر عن مسالة ستر الله علمها عن الملائكة ، وأهل ولايته جميعاً ، وعني وعن بشر وعن سائر الخلق جميعاً ، ممن مضى وممن هو آت إلى يوم القيامة فلم يعلمها أحد قبلنا ولا يعلمها أحد بعدنا ، فلم يكن لي أن أجيبه عن مسألته ، وإنما يدخل النقض علي يا أمير المؤمنين لو كان بشر يعلم ما سألني عنه أو غيره من

(1) سورة الشورى آية 15 .

(173/506)

العلماء ، وكنت أنا لا أعلمه ، فأما إذا اجتمعنا جميعاً أنا وبشر وسائر الخلق في جهل هذه المسألة وقلة العلم بها ، فليس الضرر بداخل عليَّ دونه ، وهذه مسألة لا يحل أن يسأل عنها ، ولا يحل لأحد يجيب فيها لأن الله عز وجل حرم ذلك عليه .

قال عبد العزيز: فقال لي المأمون: أنتما في مسألتكما على غير السواء ، وقد صح قولك في هذه المسألة يا عبد العزيز وبان ووضح وظهرت حجتك على بشر فيها .

قال عبد العزيز: ورأيت بشرا قد حار وانقطع وصح ما في يدي واستبان الحق ووضح لأمير المؤمنين ولسائر من بحضرته ، فقلت: يا أمير المؤمنين أطال

(174/506)

الله بقاءك ، أرجع إلى المسألة ، وأدع العلم فأكسر قول بشر وافضح مذهبه وأبطل قوله واحتجاجه .

فقال لي المأمون: قد أصبت يا عبد العزيز بتركك الكلام فيما قد قطع المجلس من غير أن يرجع إليك عن مسألتك فيه جواب، وقد وقفنا من قولك على ما يلزم بشرا في هذه المسألة لو أجابك عن مسألتك، فهات ما عندك من غير هذا.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك على كل من اكتال بمكيال أن يوفي به، قال ذلك يلزمه. فقلت: يا بشر ألست تزعم أن قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (1) لفظه لا يخرج عنها

(1) سورة الأنعام آية 102.

(175/506)

شيء، لأن كل، كلمة تجمع الأشياء فلا تدع شيئًا يخرج عنها وكل شيء داخل فيها. فقال بشر: هكذا قلت وهكذا أقول، وهكذا هو عند الخلق ولست أرجع عنه بكثرة خطبك وهذيانك، فقلت: أمير المؤمنين شاهد عليك بهذا.

قال عبد العزيز: ثم قلت له: يا بشر قال الله عز وجل ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (2) وقال جل ذكره: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (3)

(1) سورة طه آية 41 .

(2) سورة آل عمران آية 30 .

(3) سورة الأنعام آية 12 .

(176/506)

وقال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ﴾ (1) وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (2) فقد أخبر الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه أن له نفسا ، أفتقر يا بشر أن الله نفسا كما أخبرنا عنها بهذه الأخبار كلها ، قال: نعم(3)

---

(1) سورة الأنعام آية 54 .

(2) سورة المائدة آية 116 .

(3) في طبعة المجمع: تم الجزء الأول - ثم قال: الجزء الثاني - وعلق في الحاشية بقوله: في "ظ" ابتداء الجزء الثاني وهو ساقط من جميع النسخ . قلت: لكن الكلام في هذه النسخة متصل حيث قال: بعد قوله: نعم - قال عبد العزيز . . . إلخ كما في الصفحة التالية .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد كسرت قوله بقوله، ودحضت حجته بحجته وبطل ما كان يدعو إليه من بدعته، وبان لأمير المؤمنين قبح مذهبه وفحش قوله، فأقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز وقد وضحت حجتك، وبان قولك، وانكسر قول بشر، وتحتاج أن تشرح هذه الأخبار التي في القرآن ومعانيها وما أراد الله عز وجل بها ليسمع من بحضرتنا، فقد جرت اليوم أشياء كثيرة يحتاج من سمعها إلى معرفتها وفهمها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل شرف العرب وكرمهم بأن أنزل القرآن بلسانهم وجعله مكتباً علىقال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد كسرت قوله بقوله، ودحضت حجته بحجته وبطل ما كان يدعو إليه من بدعته، وبان لأمير المؤمنين قبح مذهبه وفحش قوله، فأقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز وقد وضحت حجتك، وبان قولك، وانكسر قول بشر، وتحتاج أن تشرح هذه الأخبار التي في القرآن ومعانيها وما أراد الله عز وجل بها ليسمع من بحضرتنا، فقد جرت اليوم أشياء كثيرة يحتاج من سمعها إلى معرفتها وفهمها.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل شرف العرب وكرمهم بأن أنزل القرآن بلسانهم وجعله مكتتباً على

(178/506)

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين ، قد كسرت قوله بقوله ، ودحضت حجته بحجته وبطل ما كان يدعو إليه من بدعته ، وبان لأمير المؤمنين قبح مذهبه وفحش قوله ، فأقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز وقد وضحت حجتك ، وبان قولك ، وانكسر قول بشر ، وتحتاج أن تشرح هذه الأخبار التي في القرآن ومعانيها وما أراد الله عز وجل بها ليسمع من بحضرتنا ، فقد جرت اليوم أشياء كثيرة يحتاج من سمعها إلى معرفتها وفهمها .

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل شرف العرب وكرمهم بأن أنزل القرآن بلسانهم وجعله مكتتباً على

(179/506)

تبيانهم فقال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (2) وقال عز وجل: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ (3) فخص الله عز وجل العرب بفهمه ومعرفته وفضلهم على غيرهم بعلم أخباره ومعاني ألفاظه وخصوصه وعمومه ومحكمه ومبهمه، وخاطبهم بما عقلوه وعلموه، ولم يجهلوه وقبلوه

---

(1) سورة يوسف آية 2

(2) سورة الشعراء آية 192-195

(3) سورة مريم آية 97

ولم يدفعوه، وعرفوه فلم ينكروه، إذ كانوا قبل نزوله عليهم يتعاملون بمثل ذلك في خطابهم ولغاتهم وكلامهم، فأنزل الله جل ذكره القرآن على أربعة أخبار خاصة، وعامة، فمنها خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص، ومنها خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى العموم، فهذان خبران محكمان لا ينصرفان بإلحاد ملحد، ومنها خبر مخرجه

مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص ، ومنها خبر مخرجه الخصوص ومعناه معنى العموم ، ففي هذين الخبرين يا أمير المؤمنين دخلت الشبهة على من لا يعرف خاص القرآن وعامه .

(181/506)

سَاجِدِينَ ﴾ (1) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ﴾ (2) فكان مخرج الخبر لآدم عليه السلام مخرج الخصوص ، ومعناه معنى الخصوص ، وكذلك كان مخرج الخبر لعيسى عليه السلام مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص . ثم قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ

---

(1) سورة ص آية 71 ، 72 .

(2) سورة آل عمران آية 59–60 .

(182/506)

فكان مخرج الخبر خاصا ومعناه عاما .

وأما الخبر الذي مخرجه مخرج العموم ومعناه الخصوص ، فهو قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (1) فعقل المؤمنون عن الله عز وجل عند نزول هذا الخبر أنه لم يعن إبليس فيمن تسعة الرحمة لما قدم فيه من الخبر الخاص قبل ذلك وهو قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) فكان إبليس ومن تبعه خارجين بهذا الخبر الخاص من رحمته التي وسعت كل شيء ، فصار معنى ذلك الخبر العام خاصا لخروج إبليس ومن تبعه من

---

(1) سورة الأعراف آية 156

(2) سورة ص 85فكان مخرج الخبر خاصا ومعناه عاما .

وأما الخبر الذي مخرجه مخرج العموم ومعناه الخصوص ، فهو قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (1) فعقل المؤمنون عن الله عز وجل عند نزول هذا الخبر أنه لم يعن إبليس فيمن تسعة الرحمة لما قدم فيه من الخبر الخاص قبل ذلك وهو قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) فكان إبليس ومن تبعه خارجين بهذا الخبر الخاص من رحمته التي وسعت كل شيء ، فصار معنى ذلك الخبر العام خاصا لخروج إبليس ومن تبعه من

---

(1) سورة الأعراف آية 156

(2) سورة ص 85

(183/506)

رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ، فلما أنزل الله عز وجل هذه الأربعة الأخبار ، خص العرب بفهمها ومعرفة معانيها وألفاظها وخصوصها وعمومها والخطاب بها ، ثم لم يدعها اشتباها على خلقه فيجد الملحدون السبيل إلى الإلحاد في صفاته والطعن على أخباره والتشبيه على خلقه من غير العرب الذين لم يعقلوا عنه ما أراد بخطابه حتى جعل فيها بيانا ظاهرا وعلما واضحا لا يخفى على من سمعه وتدبره وتفهمه من غير العرب ، ممن لا يعرف الخاص ، والعام ، والمحكم ، والمبهم ، تفضلا منه وتكرما وإحسانا إلى خلقه وإثباتا منه للحجة على من ألحد

(184/506)

كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (1) فكان مخرج الخبر باللفظ عاما ، وكان معناه خاصا لما قدم قبله من الخصوص في إبليس ومن تبعه بقوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (3) فعقل المؤمنون عن الله تعالى أنه لم يعن هؤلاء الذين قدم فيهم الأخبار الخاصة لخروجهم عن الرحمة أنهم معمومون بالرحمة مع

---

(1) سورة الأعراف آية 156 .

(2) سورة ص آية 85 .

(3) سورة العنكبوت آية 23 . كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (1) فكان مخرج الخبر باللفظ عاما ، وكان معناه خاصا لما قدم قبله من الخصوص في إبليس ومن تبعه بقوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (3) فعقل المؤمنون عن الله تعالى أنه لم يعن هؤلاء الذين قدم فيهم الأخبار الخاصة لخروجهم عن الرحمة أنهم معمومون بالرحمة مع

---

(1) سورة الأعراف آية 156 .

(2) سورة ص آية 85 .

(3) سورة العنكبوت آية 23 .

غيرهم بهذا الخبر العام ، وكذلك قال عز وجل في قصة لوط عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (1) وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ (2) فخص عز وجل المرأة بالهلاك وقدم

(1) سورة العنكبوت آية 31 ، 32 .

(2) سورة العنكبوت آية 33 .

(2) سورة العنكبوت آية 33 . غيرهم بهذا الخبر العام ، وكذلك قال عز وجل في قصة لوط عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (1) وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ (2) فخص عز وجل المرأة بالهلاك وقدم

(1) سورة العنكبوت آية 31 ، 32 .

(2) سورة العنكبوت آية 33 .

فيها أخبارا خاصة بذلك ، ثم أنزل عز وجل خبراً مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص فقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ (1) فعقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعن امرأة لوط بالنجاة ، لما قدم فيها من الأخبار الخاصة بالهلاك ، وكذلك حين قدم إلينا عز وجل في نفسه خبراً خاصا إنه حي لا يموت بقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (2) ثم أنزل خبراً مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص فقال: ﴿ كُلُّ

(1) سورة القمر آية 34 .

(2) سورة الفرقان آية 58 .

نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (1) عقل المؤمنون عن الله عز وجل أنه لم يعن نفسه مع هذه النفوس الميتة لما قدم إليهم من الخبر الخاص في نفسه أنه حي لا يموت وكذلك حين قدم إلينا في كتابه

خبراً خاصا فقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (2) فدل على قوله باسم معرفة ، وعلى الشيء باسم نكره ، فكانا شيئين مفترقين عند العرب وأهل اللغة ، فقال: إذا أردناه ، ولم يقل إذا أردناهما ، (وقال: أن نقول له) ولم يقل أن نقول لهما ،

---

(1) سورة آل عمران آية 185 .

(2) سورة النحل آية 40 .

ففرق بين القول والشيء المخلوق والذي يقول له كن فيكون بالقول مخلوقا ، ثم قال عز وجل: ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (1) فعقل المؤمنون عن الله عز وجل عند نزول هذا الخبر العام إنه لم يعن كلامه وقوله في الأشياء المخلوقة لما قدم في ذلك من الخبر الخاص أن الأشياء المخلوقة إنما تكون بقوله ، وإنما غلط بشر ومن قال بقوله وهلكوا وتاهوا وضلوا لجهلهم بالخاص والعام في القرآن العظيم ، وإنما شرف الله العرب وفضلها بمعرفتها بخاص القرآن وعامه ومجمله ومبهمه .

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز .

(1) سورة الأنعام آية 102 .

(189/506)

يوجد في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

أما خلاف أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن أصحابه اختلفوا في الحلال والحرام ومخارج الأحكام ، فلم يخطئ بعضهم بعضا ، فهم من أن يكفر بعضهم بعضا أبعد .

وبشر يا أمير المؤمنين أدعى على الأمة كلمة تأولها بغير علم منه لمعناها وبما أراد الله عز وجل بها ولم يجد لها في كتاب الله عز وجل ما ينصها ولا ما يدل على تأويلها ، ثم زعم أن من خالفه عليها كافر حلال الدم فأباح دم الأمة جميعا على ذلك ، فهو خارج عن إجماع أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - تسليماً وشر فيوجد في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

أما خلاف أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن أصحابه اختلفوا في الحلال والحرام ومخارج الأحكام ، فلم يخطئ بعضهم بعضا ، فهم من أن يكفر بعضهم بعضا أبعد .

وبشر يا أمير المؤمنين أدعى على الأمة كلمة تأولها بغير علم منه لمعناها وبما أراد الله عز وجل بها ولم يجد لها في كتاب الله عز وجل ما ينصها ولا ما يدل على تأويلها ، ثم زعم أن من

خالفه عليها كافر حلال الدم فأباح دم الأمة جميعا على ذلك ، فهو خارج عن إجماع أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - تسليماً وشرف

(190/506)

وكرم(1) .

الكتاب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فقال بشر : قد خطبت وتكلمت وهذيت وتركتك حتى تفرغ مما ادعيت (من إبطال خلق القرآن) بنص التنزيل ، ومعنا من كتاب الله آية لا يتهيأ لك معارضتها ولا دفعها ، ولا التشبيه فيها ، ولا الخطب عليها ، كما فعلت في غيرها ، وإنما أخرتها ليكون

---

(1) قال الناسخ : تم الكتاب الأول بعون الله وتوفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، يتلوه الكتاب الثاني إن شاء الله . ثم بدأ به فقال : بسم الله الرحمن الرحيم .

(191/506)

وبلسان قومك ، وأنت أفهم أهل الأرض بلغة العرب ومعاني كلامها ، وبشر رجل من أبناء الأعاجم يتأول كتاب الله على غير ما عناه الله عز وجل ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه ، ويقول ما تنكره العرب ولا تتعارفه في كلامها ولغاتها ، وأنت أعلم خلق الله بلغات قومه ، وإنما يكفر بشر الناس ويبيح دماءهم وبتأويل التنزيل .

فجعل بشر يقول: جاء الحق وزهق الباطل ، تروح يا عبد العزيز إلى الكلام والخطب والاستغاثة بأمير المؤمنين أطال الله بقاه لينقطع المجلس قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ

وبلسان قومك ، وأنت أفهم أهل الأرض بلغة العرب ومعاني كلامها ، وبشر رجل من أبناء الأعاجم يتأول كتاب الله على غير ما عناه الله عز وجل ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه ، ويقول ما تنكره العرب ولا تتعارفه في كلامها ولغاتها ، وأنت أعلم خلق الله بلغات قومه ، وإنما يكفر بشر الناس ويبيح دماءهم وبتأويل التنزيل .

فجعل بشر يقول: جاء الحق وزهق الباطل ، تروح يا عبد العزيز إلى الكلام والخطب والاستغاثة بأمير المؤمنين أطال الله بقاه لينقطع المجلس قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ

وبلسان قومك ، وأنت أفهم أهل الأرض بلغة العرب ومعاني كلامها ، وبشر رجل من أبناء الأعاجم يتأول كتاب الله على غير ما عناه الله عز وجل ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه ، ويقول ما تنكره العرب ولا تتعارفه في كلامها ولغاتها ، وأنت أعلم خلق الله بلغات قومه ، وإنما يكفر بشر الناس ويبيح دماءهم وبتأويل التنزيل .

فجعل بشر يقول: جاء الحق وزهق الباطل ، تروح يا عبد العزيز إلى الكلام والخطب والاستغاثة بأمير المؤمنين أطال الله بقاه لينقطع المجلس قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ

المؤمنين أن يتحفظ علينا ألفاظنا وما يجري بيننا في هذه المسألة ويشهد علينا بما نقول ويطالب كل واحد منا صاحبه بإقامة الشاهد على ما يقول ، من الكتاب والسنة فعل .

فقال: أنا أفعل ذلك منذ اليوم .

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر فقلت: أخبرني عن جعل هذا حرف محكم لا يحتمل غير الخلق ، فقال بشر: نعم هو حرف محكم لا يحتمل معنى غير الخلق وما بين جعل وخلق

فرق عندي ولا عند غيري من سائر الناس ، ولا عند أحد من العرب ، ولا من العجم ، ولا يتعارفون الناس ولا يعقلون غير هذا في كلامهم ولغاتهم سواء عندهم قالوا : خلق أو جعل . المؤمنين أن يتحفظ علينا ألفاظنا وما يجري بيننا في هذه المسألة ويشهد علينا بما نقول ويطالب كل واحد منا صاحبه بإقامة الشاهد على ما يقول ، من الكتاب والسنة فعل . فقال: أنا أفعل ذلك منذ اليوم .

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر فقلت: أخبرني عن جعل هذا حرف محكم لا يحتمل غير الخلق ، فقال بشر: نعم هو حرف محكم لا يحتمل معنى غير الخلق وما بين جعل وخلق فرق عندي ولا عند غيري من سائر الناس ، ولا عند أحد من العرب ، ولا من العجم ، ولا يتعارفون الناس ولا يعقلون غير هذا في كلامهم ولغاتهم سواء عندهم قالوا : خلق أو جعل .

(194/506)

المؤمنين أن يتحفظ علينا ألفاظنا وما يجري بيننا في هذه المسألة ويشهد علينا بما نقول ويطالب كل واحد منا صاحبه بإقامة الشاهد على ما يقول ، من الكتاب والسنة فعل .

فقال: أنا أفعل ذلك منذ اليوم .

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر فقلت: أخبرني عن جعل هذا حرف محكم لا يحتمل

غير الخلق ، فقال بشر: نعم هو حرف محكم لا يحتمل معنى غير الخلق وما بين جعل وخلق فرق عندي ولا عند غيري من سائر الناس ، ولا عند أحد من العرب ، ولا من العجم ، ولا يتعارفون الناس ولا يعقلون غير هذا في كلامهم ولغاتهم سواء عندهم قالوا: خلق أو جعل .

(195/506)

فقلت: وأنا أقول أيضا هكذا كافر حلال الدم .

قلت: فأخبرني عمن قال من أن التوراة خلقها اليهود من دون الله تعالى أمؤمن هو أم كافر ؟ قال: بل كافر حلال الدم ، فقلت: وأنا أقول أيضا هكذا كافر حلال الدم . قلت: فأخبرني عمن قال(1) : إن بني آدم خلقوا الله ، وأن الله أخبر بذلك . أمؤمن هو أم كافر ؟ قال: بل كافر حلال الدم . قلت: وأنا أقول أيضا مثل ذلك .

---

(1) في طبعة المجمع / ص87 والجامعة ص45: عمن قال: إن بني آدم خلقوا الله وإن الله تعالى أخبر بذلك . ثم أشار في الحاشية إلى أن هذا اللفظ جاء في ت و ظم . فقلت: وأنا أقول أيضا هكذا كافر حلال الدم .

قلت: فأخبرني عمن قال من أن التوراة خلقها اليهود من دون الله تعالى أمؤمن هو أم كافر ؟ قال: بل كافر حلال الدم ، فقلت: وأنا أقول أيضا هكذا كافر حلال الدم . قلت: فأخبرني

عمن قال(1) : إن بني آدم خلقوا الله ، وأن الله أخبر بذلك . أمؤمن هو أم كافر ؟ قال : بل كافر حلال الدم . قلت : وأنا أقول أيضا مثل ذلك .

---

(1) في طبعة المجمع / ص87 والجامعة ص45 : عمن قال : إن بني آدم خلقوا الله وإن الله تعالى أخبر بذلك . ثم أشار في الحاشية إلى أن هذا اللفظ جاء في ت و ظ م .

(196/506)

فأخبرني يا بشر أليس الله خلق الخلق كلهم أجمعين ؟ قال : بلى . قلت : فهل شاركه في خلقهم أحد ؟ قال : لا . قلت : فمن قال إن بعض بني آدم خلقوا الله أمؤمن هو أم كافر ؟ قال : بل كافر حلال الدم . قلت : وأنا هكذا أقول .

قال بشر : قد قعدت تمتحنني وتشغلني حتى يؤذن الظهر وينقطع المجلس رجاء أن تنصرف سالما وهو ما لا يكون عندك جواب لمسألتي وإلا فقد انقطع الكلام وأي شي هذه الخرافات .

قال عبد العزيز : فقلت يا أمير المؤمنين ليس ينصفني فأمره أن يجيبني عما أسأله عنه ، فإن الذي بقي أيسر ، ثم أجيبه عن مسألته وعن كلامه ، فقال له المأمون فأخبرني يا بشر أليس الله خلق الخلق كلهم أجمعين ؟ قال : بلى . قلت : فهل شاركه في خلقهم أحد ؟ قال : لا .

قلت: فمن قال إن بعض بني آدم خلقوا الله أمؤمن هو أم كافر ؟ قال: بل كافر حلال الدم .

قلت: وأنا هكذا أقول .

قال بشر: قد قعدت تمتحنني وتشغلني حتى يؤذن الظهر وينقطع المجلس رجاء أن تنصرف سالما وهو ما لا يكون عندك جواب لمسألتي وإلا فقد انقطع الكلام وأي شي هذه الخرافات .

قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين ليس ينصفني فأمره أن يجيبني عما أسأله عنه ، فإن الذي بقي أيسر ، ثم أجيبه عن مسألته وعن كلامه ، فقال له المأمون

أجبه عن كلامه وما يسألك ، قال الساعة يؤذن بالصلاة وينقطع المجلس ، فقال المأمون: يؤخر الآذان بالصلاة إلى آخر الوقت وإن احتجتما إلى المجلس بعد الصلاة لتمام الكلام جلست لكما حتى تفرغا .

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون فقال: سله يا عبد العزيز عما تريد ولا تدع شيئًا مما تحتاج إليه فإني متحفظ عليكما جميع ما يجري بينكما وشاهد عليكما ، فقلت له: جزاك الله عني يا أمير المؤمنين خاصة وعن رعيتك عامة أفضل الجزاء فقد جلست منا اليوم

مجلس الإمام العادل أحسنت إلي حين رأيتني جزعا فسكنت روعتي وآنست وحشتي وبسطت

(198/506)

لساني بحجتي وتابعت الحق حين ظهر لك ودافعت وانتصرت له وشهدت لي بثبات الحجة ، ودفعت أهل الباطل حين زهق واضمحل ، وبانت فضيحته ، وشهدت على بطلانه ، وأنصفت في مجلسك ، وكان ذلك كله منك بتوفيق الله تعالى وتأييده إياك فله الحمد والشكر على ما أولاك وأولى رعيتك فيك يجزيك الله أفضل ما جازى أحداً من الأئمة عن رعيته .

فقال لي المأمون: قد أبلغت يا عبد العزيز في القول والشكر ولك الزيادة مما ابتدأناك به ، فارجع إلى مسألة بشر (وأسأله) عما تريد .

(199/506)

الله بقاءك لم يكفرنا ويحل دماءنا بحضرتك وفي مجلسك بلا حجة ظهرت ، وإنما سبب ذلك ليقول هذا .

قال عبد العزيز: فقلت له: قد شهد عليك أمير المؤمنين بما قلت . فقال لي المأمون: لقد افحشت القول وأعظمته واستشهدني على ما لم أسمعه ولم أشهد على بشر به ولا على أحد يقول بقوله .

قال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين اسمع قول فإن (كنت) قلت حقاً وإن بشرا قد كفر نفسه ومن قال بمقالته وأحل دمه ودماءهم وانتزعت على كل حرف من كلامي بآية من كتاب الله عز وجل ، وإلا فدمي حلال وليأمر أمير المؤمنين بضرب عنقي الساعة على رؤوس الأشهاد

(200/506)

وإن أتيت على ما قلت ولفظت به بنص الكتاب والتنزيل في كل لفظة وأقمت الشهادة على بشر من كتاب الله وسعني عدل أمير المؤمنين . قال: فقال لي: هات ما عندك ولا تطل الكلام بغير حجة .

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا

الأَيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ (1) وقد خلقتم الله عليكم كفيلا ، لا معنى لذلك عنده غيره ، وإنه ومن قال بقوله ومن خالفه وسائر العرب والعجم يقولون هذا .

(1) سورة النحل آية 91 .

(201/506)

ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم ، وقد كذب في القول الأول ، وصدق في قوله إن من قال هذا حلال الدم بإجماع الأمة .

وقال عز وجل: ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ (1) ولا تخلقوا الله عرضة لأيمانكم ، لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله ، ومن خالفه وسائر الخلق جميعاً غير هذا أن الله قال لبني آدم ، ولا تخلقوا الله ، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم ، وأمير المؤمنين يشهد عليه بهذا اللفظ ، وقد كذب في قوله ، إن معنى ولا تجعلوا ولا تخلقوا ، وصدق في قوله ، إن من قال

(1) سورة البقرة آية 224 .

يا أمير المؤمنين إن معنى وجعلوا وخلقوا ، ولا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله غير هذا فزعم عن الله عز وجل إنه قال وخلقوا لله أنداداً ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ ﴾ (1) وخلقوا له شركاء الجن ، لا معنى له عنده ولا عند من يقول بقوله ومن خالفه ولا عند سائر الناس إلا هذا ، فزعم بشر أن الله عز وجل أخبر إنهم يخلقون له شركاء الجن ، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم ، وقد كذب في قوله إن معنى وجعلوا

---

(1) سورة الأنعام آية 100 . يا أمير المؤمنين إن معنى وجعلوا وخلقوا ، ولا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله غير هذا فزعم عن الله عز وجل إنه قال وخلقوا لله أنداداً ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ ﴾ (1) وخلقوا له شركاء الجن ، لا معنى له عنده ولا عند من يقول بقوله ومن خالفه ولا عند سائر الناس إلا هذا ، فزعم بشر أن الله عز وجل أخبر إنهم يخلقون له شركاء الجن ، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم ، وقد

كذب في قوله إن معنى وجعلوا

(1) سورة الأنعام آية 100 .

وخلقوا ، وصدق في قوله إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بقوله وقول الناس جميعا .

وقوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ (1) فزعم بشر يا أمير المؤمنين إن معنى ، وجعلوا ، وخلقوا لله شركاء ، لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله ولا من خالفه ولا عند العرب والعجم وإلا هذا المعنى فزعم أن الله عز وجل أخبرهم ، إنهم خلقوا له شركاء وكذب بشر يا أمير المؤمنين وقال الباطل والزور ، ولقد نفى الله

(1) سورة الرعد آية 33 .

تعالى ذلك وأبطله ، وأخبر أنه لا يعلم من هذا شيئًا وأخبر إن من قال ذلك كافر ضال بقول:
(وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول . .) .
وكما قال : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ (2)
لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله وعند الناس جميعا غير هذا ، ثم قال: من قال

---

(1) سورة الرعد آية 33 .

(2) سورة الأعراف آية 190 .

(205/506)

هذا فهو كافر حلال الدم ، وكذب في الأول ، وصدق في الآخر إنه كافر حلال الدم بإجماع الأمة ، وقال عز وجل: ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ (1)
فزعم بشر إن معنى أم جعلوا ، أم خلقوا ، لا معنى له عنده وعند من قال بقوله وعند الناس جميعا غير هذا ، وزعم أن من قال هذا كافر حلال الدم ، وكذب في قوله الأول وصدق في الآخر إنه حلال الدم كافر بإجماع الأمة ، وقال عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً

(1) سورة الرعد آية 16 .

(206/506)

أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ . . . ﴾ (1) فزعم بشر إن معنى قوله ، وجعلوا ، وخلقوا الملائكة ، ثم قال: من قال هذا كافر حلال الدم ، وكذب في الأول وصدق في الآخر إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة ، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا . . . ﴾ (2) فزعم بشر يا أمير المؤمنين إن

(1) سورة الزخرف آية 19 .

(2) سورة الأنعام آية 91 .

(207/506)

معنى تجعلونه وتخلقونه، يعني أن اليهود خلقوا التوراة، ومعنى خلق التوراة خلق كلام الله عز وجل، فزعم أن اليهود خلقت كلام الله تعالى وأنه لا معنى لذلك عنده ولا عند غيره ومن قال بقوله وعند سائر العرب والعجم غير ذلك، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، فكذب في الاول، وصدق في الآخر إنه كافر حلال الدم. ثم قال الله عز وجل: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (1) فزعم بشر إن معنى قوله الذين جعلوا القرآن عضين، الذين خلقوا القرآن عضين، ثم

---

(1) سورة الحجر آية 90-91.

قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وقد كذب في قوله، إن المقتسمين خلقوا القرآن، وصدق في قوله، إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة.

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال: حسبك يا عبد العزيز قد أقر بشر على نفسه بالكفر وإحلال الدم وأشهد على نفسه بذلك وقد صدقت في كل ما قلت، ولكنه قال ما قال وهو لا يعقل ولا يعلم ما عليه في ذلك وهذا شيء يلزمه في نفسه خاصة ولا يلزم غيره ممن لا يقر بمثل ما أقر به ولا يحكم به على غيره بمثل ما حكم به بشر على نفسه.

تخاطب بشرا أقبل علي ودعه . قلت: قال الله عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ (1) وقال في موضع آخر لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ (2) فزعم بشر يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه – صلى الله عليه وسلم – لا تخلق مع الله إلها آخر ، فمن أقبح قولا من هذا أو أفحش منه . وقال الله عز وجل لنبيه عليه

---

(1) سورة الإسراء آية 22 .

(2) سورة الإسراء آية 39 . تخاطب بشرا أقبل علي ودعه . قلت: قال الله عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ (1) وقال في موضع آخر لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ (2) فزعم بشر يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه – صلى الله عليه وسلم – لا تخلق مع الله إلها آخر ، فمن أقبح قولا من هذا أو أفحش منه . وقال الله عز وجل لنبيه عليه

(1) سورة الإسراء آية 22 .

(2) سورة الإسراء آية 39 .

(210/506)

السلام: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (1) فزعم بشر إن الله قال لنبيه عليه السلام ولا تخلق يدك مغلولة إلى عنقك ، فزعم أن الله خلقه وبعثه رسولا ، وليس له يد ، ثم خاطبه بعد الرسالة فقال: ولا تخلق يدك ، والله سبحانه خلقه خلقا سويا ، وما أقبح هذا القول وأشنعه وأبين كسره وقال الله عز وجل: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (2) فزعم بشر يا أمير المؤمنين أن الله عز وجل قال

---

(1) سورة الإسراء آية 29 .

(2) سورة النور آية 63 . السلام: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (1) فزعم بشر إن الله قال لنبيه عليه السلام ولا تخلق يدك مغلولة إلى عنقك ، فزعم أن الله خلقه وبعثه رسولا ، وليس له يد ، ثم خاطبه بعد الرسالة فقال: ولا تخلق يدك

، والله سبحانه خلقه خلقا سويا ، وما أقبح هذا القول وأشنعه وأبين كسره وقال الله عز وجل: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (2) فزعم بشر يا أمير المؤمنين أن الله عز وجل قال

---

(1) سورة الإسراء آية 29 .

(2) سورة النور آية 63 .

نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (1) وزعم بشر إنه يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويخلقهم وهم مخلوقون مستضعفون في الأرض هذا مالا تعقله العرب ولا العجم . وقال عز وجل: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ (2) فخاطبه بعد خلقه وبعد فهمه ومعرفته ، وزعم بشر أن الله تعالى قال لداود : إنا جعلناك خليفة في الأرض ، وهذا مما لو خوطب به داود عليه السلام ما عقله ، وقال الله عز وجل

---

(1) سورة القصص آية 5 .

(2) سورة ص 26 .نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (1) وزعم بشر إنه يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويخلقهم وهم مخلوقون مستضعفون في الأرض هذا مالا تعقله العرب ولا العجم . وقال عز وجل: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ (2) فخاطبه بعد خلقه وبعد فهمه ومعرفته ، وزعم بشر أن الله تعالى قال لداود: إنا جعلناك خليفة في الأرض ، وهذا مما لو خوطب به داود عليه السلام ما عقله ، وقال الله عز وجل

---

(1) سورة القصص آية 5 .

(2) سورة ص 26 .

مخبراً عن دعاء إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام حين قالا: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (1) فأخبر أنهما دعيا ربهما وهما مخلوقان ، وزعم بشر أنهما دعيا ربهما إن يخلقهما مسلمين كان قد خلقهما ، وقال الله عز وجل مخبرا عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ (2) وقد كانت مكة مخلوقة قبل آدم عليه السلام وقبل إبراهيم ، فكيف يدعو إبراهيم بخلقها وهذا مما لا يعقله الناس ، وقال عز وجل:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ

(1) سورة البقرة آية 128 .

(2) سورة إبراهيم آية 35 .

وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ﴾ (1) فأخبر الله أنه ما جعل ذلك كله ، وزعم بشر أن الله ما خلق البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحام ، وإنما خلقهما الكفار من دون الله تعالى ومن قال هذا فقد كفر بالله عز وجل .

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال: حسبك يا عبد العزيز فقد ثبتت حجتك في هذه المسألة كثباتها في المسألة الأولى وانكسر قول بشر فيها ، وبطل دعواه ، فارجع إلى بيان ما قد انتزعت به واشرحه (واذكر) معانيه وما أراد الله به وما هو من الجعل مخلوق ؟ وما هو غير

(1) سورة المائدة آية 103 .

مخلوق ؟ وبيان الأعلام والشواهد ، وما هو مخلوق ، وما هو غير مخلوق ، وما تتعامل به العرب في لغاتها وما تفرق به بين الجعلين في كلامها ، ليسمع من في المجلس ذلك ، ويقفوا على مذهب العرب في ذلك وما أراده الله عز وجل بقوله في ذلك .

قال عبد العزيز : فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن جعل في كتاب الله عز وجل يحتمل معنيين عند العرب ، معنى خلق ، ومعنى صير غير خلق ، فلما كان خلق حرفا محكما لا يحتمل معنى غير الخلق ، ولم يكن من صناعة العباد لم يتعبد الله به العباد فيقول لهم : اخلقوا أو لا تخلقوا ، إذ كان الخلق ليس من صناعة

(215/506)

فعقلت العرب عنه أن معنى هذا وخلق لكم إذ كان قولا مفصلا . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ (1) ، فعقلت العرب عنه أنه عنى بهذا الجعل الخلق ، إذ كان من القول المفصل ، وسواء عندها قال جعل أو قال خلق ، لأنها قد علمت ما أراده وما عنى . ومثل هذا في القرآن كثيرا جدا ، يا أمير المؤمنين ، فهذا وما كان على مثاله من القول المفصل الذي يستغني المخاطب به والسامع له بكل كلمة عما بعدها .

(1) سورة النحل آية 78 . فعقلت العرب عنه أن معنى هذا وخلق لكم إذ كان قولا مفصلا . وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ (1) ، فعقلت العرب عنه أنه عنى بهذا الجعل الخلق ، إذ كان من القول المفصل ، وسواء عندها قال جعل أو قال خلق ، لأنها قد علمت ما أراده وما عنى . ومثل هذا في القرآن كثيرا جدا ، يا أمير المؤمنين ، فهذا وما كان على مثاله من القول المفصل الذي يستغني المخاطب به والسامع له بكل كلمة عما بعدها .

---

(1) سورة النحل آية 78 .

الله به . ولا ما عنى بقوله لأنه خاطبه بهذا القول وهو مخلوق ، فلما وصلها بخليفة في الأرض ، عقل داود وكل من سمع هذا الخطاب ما أراد الله بقوله وما عنى به ، وكذلك حين قال الله عز وجل لأم موسى: ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (1) فلو لم يصل جاعلوه بالمرسلين لم تعقل أم موسى ما خاطبها به ولا ما عنى بقوله ، إذ كان خلق موسى عليه السلام قد تقدم لرده إليها ، فلما

وصل

---

(1) سورة القصص آية 7 .الله به . ولا ما عنى بقوله لأنه خاطبه بهذا القول وهو مخلوق ، فلما وصلها بخليفة في الأرض ، عقل داود وكل من سمع هذا الخطاب ما أراد الله بقوله وما عنى به ، وكذلك حين قال الله عز وجل لأم موسى: ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (1) فلو لم يصل جاعلوه بالمرسلين لم تعقل أم موسى ما خاطبها به ولا ما عنى بقوله ، إذ كان خلق موسى عليه السلام قد تقدم لرده إليها ، فلما وصل

---

(1) سورة القصص آية 7 .

(217/506)

الكلمة بالمرسلين عقلت أم موسى ما أراد بخطابها ، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ (1) وقد كان الجبل قبل أن يتجلى له مخلوقا ، فوصل الجعل بدكا ، ولو لم يصله لم يعقل السامع له ما أراد الله بقوله ، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (2) فلو لم يصل الكلمة وفصلها لم يعقل أحد كل من سمع ذلك ما أراد

بدعوتهما ، وكذلك قول إبراهيم: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ (3) فوصله

---

(1) سورة الأعراف آية 143 .

(2) سورة البقرة آية 128 .

(3) سورة البقرة آية 126 .الكلمة بالمرسلين عقلت أم موسى ما أراد بخطابها ، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ (1) وقد كان الجبل قبل أن يتجلى له مخلوقا ، فوصل الجعل بدكا ، ولو لم يصله لم يعقل السامع له ما أراد الله بقوله ، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (2) فلو لم يصل الكلمة وفصلها لم يعقل أحد كل من سمع ذلك ما أراد بدعوتهما ، وكذلك قول إبراهيم: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ (3)

فوصله

---

(1) سورة الأعراف آية 143 .

(2) سورة البقرة آية 128 .

(3) سورة البقرة آية 126 .

بآمنا ، ولم يصله ما عقل أحد ممن سمع ذلك ما عنا بدعوته إذ كان بلد مكة مخلوقا قبل ذلك ، فلما وصل بآمنا عقل السامع لذلك ما أراد إبراهيم عليه السلام بدعوته ، ومثل هذا كثير في القرآن جدا يا أمير المؤمنين .

والذي تتعارفه العرب وتتعامل به في لغاتها وخطابها ومعنى كلامها ومخارج ألفاظها هو الذي جرت به سنة الله عز وجل في كتابه إذ كان إنما أنزل بلسانها واكتتب على تبيانها فخاطبهم الله عز وجل بما عقلوه وعرفوه ولم ينكروه ولم يكونوا يعرفون سواه وهو القول الموصل والمفصل .

في الياء ، أما العرب فلا تعرف هذا .

قال عبد العزيز: فاشتد تبسم المأمون من قول الأصمعي ووضع يده على فيه . قلت: وهذا الذي يأتينا به بشر يا أمير المؤمنين من لغة أصحابنا بني الأنباء _ بني ساسان .

فقال بشر: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك يذمنا ويكفرنا ويقول إنا نحرف القرآن عن مواضعه ، وهو قد وضع قدر القرآن وشأنه وسماه بأنقص اسم ووصفه بأخس صفة واقلها ولقد خالف بقوله كتاب الله عز وجل وحرفه عن مواضعه لأن الله عز وجل سماه

كتابا عزيزا ، وسماه كريما ، وأخبر عنه إنه تام كامل بقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِيفي الياء ، أما العرب فلا تعرف هذا .

قال عبد العزيز: فاشتد تبسم المأمون من قول الأصمعي ووضع يده على فيه . قلت: وهذا الذي يأتينا به بشر يا أمير المؤمنين من لغة أصحابنا بني الأنباء _ بني ساسان .

فقال بشر: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك يذمنا ويكفرنا ويقول إنا نحرف القرآن عن مواضعه ، وهو قد وضع قدر القرآن وشأنه وسماه بأنقص اسم ووصفه بأخس صفة واقلها ولقد خالف بقوله كتاب الله عز وجل وحرفه عن مواضعه لأن الله عز وجل سماه كتابا عزيزا ، وسماه كريما ، وأخبر عنه إنه تام كامل بقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي

في الياء ، أما العرب فلا تعرف هذا .

قال عبد العزيز: فاشتد تبسم المأمون من قول الأصمعي ووضع يده على فيه . قلت: وهذا الذي يأتينا به بشر يا أمير المؤمنين من لغة أصحابنا بني الأنباء _ بني ساسان .

فقال بشر: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك يذمنا ويكفرنا ويقول إنا نحرف القرآن عن مواضعه ، وهو قد وضع قدر القرآن وشأنه وسماه بأنقص اسم ووصفه بأخس صفة

واقلها ولقد خالف بقوله كتاب الله عز وجل وحرفه عن مواضعه لأن الله عز وجل سماه كتابا عزيزا ، وسماه كريما ، وأخبر عنه إنه تام كامل بقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي

الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (1) . وسماه عبد العزيز موصلاً ومفصلاً ، فخالف كتاب الله تعالى وصفته وذم ما مدح الله لأن الموصل عند العرب والعجم وسائر الخلق دون التام الصحيح الكامل ، إذ كان الموصل عندهم جميعا الملفق الذي قد وصل بعضه ببعض ولف بعضه ببعض . فإذا أراد الرجل من العرب وغيرهم أن يضع من قدر الشيء قال: هو موصل وليس هو صحيح ، فقد سمى كتاب الله اسما ناقصا وقال فيه إثماً وبهتاناً عظيماً ، ولو قلت أنا هذا وما هو دونه لكان قد خطب وتكلم واستغاث بأمير المؤمنين وأخرجنا عن الإسلام وهو يقول

---

(1) سورة الأنعام آية 38 .

العظام ويحيل على العرب ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاه يحلم عنه بفضله وهو يتقوى بحلمه علينا .

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: وهذا أيضا من جهلك بما في كتاب الله عز وجل ، تذمني وتزعم إني سميت كتاب الله اسماً ناقصاً ، وتغري بي أمير المؤمنين ، وهو أعلم بما قلت وتكلمت مني ومنك وما قلت إلا ما قال الله عز وجل ، وما نسبت إلا ما نسبه إليه وارتضاه له ، وهو عند العرب الفصحاء كلام جيد صحيح مرتضى ، وأنت تزعم أن كلام الله هو من ذاته مخلوق وتشبهه بكلام المخلوقين من الشعر وقول الزور وغيره ، وتنكر عل أن سميته بما سماه الله

(223/506)

تعالى به .

فقال بشر: وأين سماه الله موصلا ومفصلا . قلت: في كتابه من حيث لا تفهمه ولا تعلمه

فقال: هاته .

قال عبد العزيز: فقلت: قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (1) فهذه تسمية الله عز وجل لكلامه ووصفه له بنص التنزيل لا بتأويل ولا

بتفسير وهو الذي اختاره لنفسه ولكلامه وارتضاه له ، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ (2) فامتدحهم بصلة ما وصل وأثنى عليهم في غير آية من كتابه ووعدهم على

(1) سورة القصص آية 51 .

(2) سورة الرعد آية 21 .

(224/506)

عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) وقال: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (3) فهذا قول الله عز وجل وهذه أخبار الله وهذه تسمية الله وهذه نسبة الله عز وجل لكلامه وهذا اختيار الله عز وجل لكتابه ولكلامه وهذا ما ارتضاه الله ورضي به من قائله .

قال عبد العزيز: فأقبلت على أمير المؤمنين فقلت: يا أمير المؤمنين يزعم بشر أني سميت كتاب الله اسما ناقصا مذموما

(1) سورة فصلت آية 1-3 .

(2) سورة الروم آية 28 .

(3) سورة الأنعام آية 98 . عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (2) وقال: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (3) فهذا قول الله عز وجل وهذه أخبار الله وهذه تسمية الله وهذه نسبة الله عز وجل لكلامه وهذا اختيار الله عز وجل لكتابه ولكلامه وهذا ما ارتضاه الله ورضي به من قائله .

قال عبد العزيز: فأقبلت على أمير المؤمنين فقلت: يا أمير المؤمنين يزعم بشر أني سميت كتاب الله اسما ناقصا مذموما

---

(1) سورة فصلت آية 1-3 .

(2) سورة الروم آية 28 .

(3) سورة الأنعام آية 98 .

وتختار هذه الأسماء لكلامها وترتضيها ، وهي عندنا جميلة حسنة صحيحة المعنى لا خلاف بينهم .

قال بشر: ما تعرف العرب من هذا شيئا ، وما أنت أعرف بلغة العرب مني ، وكل شيء

نسبته إلى العرب فهو مخالف لقولها ولغتها ومذهبها في كلامها .

قال عبد العزيز: فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك أنت بيت اللغة وأعلم خلق الله بلغة العرب وكلامها وما تتعارفه وتتعامل به في خطابها وأنت الحاكم بيننا فإن أكن تزيدت على العرب منذ اليوم في ما حكيته عن العرب أو نسبته إليهم أو عدلت عن سنتهم أو حدث عنهم وعنو تختار هذه الأسماء لكلامها وترتضيها ، وهي عندنا جميلة حسنة صحيحة المعنى لا خلاف بينهم .

قال بشر: ما تعرف العرب من هذا شيئًا ، وما أنت أعرف بلغة العرب مني ، وكل شيء

نسبته إلى العرب فهو مخالف لقولها ولغتها ومذهبها في كلامها .

قال عبد العزيز: فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك أنت بيت اللغة وأعلم خلق الله بلغة العرب وكلامها وما تتعارفه وتتعامل به في خطابها وأنت الحاكم بيننا فإن أكن تزيدت على العرب منذ اليوم في ما حكيته عن العرب أو نسبته إليهم أو عدلت عن سنتهم أو حدث عنهم وعن

مذهبهم وكلامهم وخطابهم ومخارج ألفاظهم فقد استحققت العقوبة من وجهين ، أحدهما جرأتي على أمير المؤمنين أطال الله بقاه وقولي بين يديه ، وحكايتي عن قومه ما يعلم خلافه مع علمي إنه أعلم خلق الله بذلك . والأخرى كذبي على سائر العرب وادعائي الباطل عليهم وأمير المؤمنين يشهد علي بكذبي وتزيدي وهو في حل وسعة من دمي ومن كل ما يعاقبني به ، إن كان قد وقف على ذلك مني . وإن يكون بشر يا أمير المؤمنين قد تزيد في القول ، وادعى علي الباطل كان أمير المؤمنين أعلا عينا بالرد عليه ومنعه من قول الزور والكذب .

مذهبهم وكلامهم وخطابهم ومخارج ألفاظهم فقد استحققت العقوبة من وجهين ، أحدهما جرأتي على أمير المؤمنين أطال الله بقاه وقولي بين يديه ، وحكايتي عن قومه ما يعلم خلافه مع علمي إنه أعلم خلق الله بذلك . والأخرى كذبي على سائر العرب وادعائي الباطل عليهم وأمير المؤمنين يشهد علي بكذبي وتزيدي وهو في حل وسعة من دمي ومن كل ما يعاقبني به ، إن كان قد وقف على ذلك مني . وإن يكون بشر يا أمير المؤمنين قد تزيد في القول ، وادعى علي الباطل كان أمير المؤمنين أعلا عينا بالرد عليه ومنعه من قول الزور والكذب .

فقال المأمون: ما قلت يا عبد العزيز منذ اليوم إلا ما تقوله العرب وما تتعارفه وتتعامل به ، وما خرجت عن مذهبها ، ولو عدلت عن ذلك ما سوغت(1) لك الكذب عليها .

قال عبد العزيز: فقلت: الله أكبر الله أكبر كذب بشر والله بشهادة أمير المؤمنين أطال الله بقاه _ لي عليه _ أفلحت ورب الكعبة أفلحت ورب الكعبة وظهر أمر الله وهم كارهون .

قال عبد العزيز: فقال بشر وعلى الخلق أن يتعلموا لغة العرب(2) وما تعبدنا الله بهذا ، كل إنسان

---

(1) في الأصل ورقة 30/ب سطر 8 سوغتك .

(2) في طبعة المجمع ص111: لغات العرب كلها ما تعبدنا الله بهذا .

يقول بلغته وبقدر معرفته ، وما كلف الله الخلق فوق طاقتهم ، ولا طالب أولاد العجم بلغة العرب .

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: وكلف الله الخلق أن يتكلموا بما لا يعلمون حيث ادعيت العلم وتكلمت في القرآن العظيم وتأولت كتاب الله على غير ما عناه الله ، ودعوت الخلق إلى إتباعك ، وكفرت من خالفك وأبحت دمه ، والله قد نهى الخلق جميعا فلم يحاش نبيا

مرسلا ولا صديقا ولا عبدا مؤمنا أن يقولوا ما لا يعلمون ، فقال عز وجل لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

(229/506)

ما انقطعت ولا تحيرت ولا بانت فضيحة مذهبي ، وأنا على بينة من أمري ، وما دعوت الناس ولا أدعوهم إلا إلى سبيل الرشاد ولا أنا ولا هم إلا على سداد وكل من خالفني فكافر حلال الدم .

قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين ما كان بقي على بشر غير هذا قد قال كما قال فرعون ، ولجأ إلى سبيل فرعون فاتبعها وإلى سبيله فسلكها .

فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه ثم قال: كيف قلت يا عبد العزيز ؟ فأعدت عليه القول فازداد تبسمه ثم قال: كيف قال بشر ما قال فرعون ولجأ إلى سبيل فرعون ؟ فقلت له: لما قرأت على بشر القرآن وأوضحت السبيلما انقطعت ولا تحيرت ولا بانت فضيحة مذهبي ، وأنا على بينة من أمري ، وما دعوت الناس ولا أدعوهم إلا إلى سبيل الرشاد ولا أنا ولا هم إلا على سداد وكل من خالفني فكافر حلال الدم .

قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين ما كان بقي على بشر غير هذا قد قال كما قال

فرعون ، ولجأ إلى سبيل فرعون فا تبعها وإلى سبيله فسلكها .

فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه ثم قال: كيف قلت يا عبد العزيز ؟ فأعدت عليه القول فازداد تبسمه ثم قال: كيف قال بشر ما قال فرعون ولجأ إلى سبيل فرعون ؟ فقلت له: لما قرأت على بشر القرآن وأوضحت السبيل

(230/506)

كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا ﴾ (1) قلت: قال هذا المؤمن الحق الذي أنطق الله به لسانه وسدد به قوله وسمعه فرعون وقومه قال فرعون لقومه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (2) وكذلك بشر يا أمير المؤمنين حين سمعني أقول الحق وفقني الله إليه وأنطق به لساني ، فقال: إني لعلى بينة من ربي وما دعوت الناس إلا إلى سبيل الرشاد فأجاب بمثل ما

---

(1) سورة غافر آية 27-28 .

(2) سورة غافر آية 29 . كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا ﴾ (1) قلت: قال هذا المؤمن الحق الذي أنطق الله به لسانه وسدد به قوله وسمعه فرعون وقومه قال فرعون لقومه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

الرَّشَادِ ﴾ (2) وكذلك بشر يا أمير المؤمنين حين سمعني أقول الحق وفقني الله إليه وأنطق به لساني ، فقال: إني لعلى بينة من ربي وما دعوت الناس إلا إلى سبيل الرشاد فأجاب بمثل ما

(1) سورة غافر آية 27-28 .

(2) سورة غافر آية 29 .

(231/506)

أجاب به فرعون عند سماع الحق واتبع سبيله وما عدل عنها فبشر مرة يتبع سبيل الشيطان ويأمر بما أمر به الشيطان وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (1) ومرة يتبع سبيل اليهود في تحريف القرآن عن مواضعه ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ (2) إلى قوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ (3) وقال: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا

(1) سورة النساء آية 76 .

(2) سورة النساء آية 46 .

(3) سورة النساء آية 52 . أجاب به فرعون عند سماع الحق واتبع سبيله وما عدل عنها

فبشر مرة يتبع سبيل الشيطان ويأمر بما أمر به الشيطان وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (1) ومرة يتبع سبيل اليهود في تحريف القرآن عن مواضعه ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ (2) إلى قوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ ﴾ (3) وقال: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْا

(1) سورة النساء آية 76 .

(2) سورة النساء آية 46 .

(3) سورة النساء آية 52 .

بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (1) ومثل هذا كثير ، ومرة يتبع سبيل الكفار في التسوية بين الناس وبين خلقه في خلق الأشياء ، ومرة يتبع سبيل عبدة الأصنام في الحيدة عن الجواب وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (2) ومرة يتبع سبيل فرعون والقول بمثل قوله وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (3) وقال عز وجل: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ

(1) سورة البقرة آية 61 .

(2) سورة غافر آية 25 .

(3) سورة غافر آية 37 .

(233/506)

الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (1) وقال عز وجل: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (2) .

فقال بشر: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءكم إنما يتكلم ويخطب لينسي خصمه حجته ويشغله بغيرها ، ولولا بسط أمير المؤمنين إياه لم يقدر يدير لسانه في فمه ولكنت ظاهرا عليه ، ثم أقبل بشر علي وقال: لو خطبت إلى غد ما تركت مطالبتك بما قلت فدع عنك الهذيان وأقبل علي . قال عبد العزيز: فقلت له: تكلم بما شئت حتى أجيبك . فقال بشر: تعبد الله الخلق

---

(1) سورة الأنبياء آية 18 .

(2) سورة الإسراء آية 81 .

أن يعرفوا الموصل والمفصل وما يضر الخلق أن لا يعرفوا ذلك ولا يتعلمونه .

فقال له المأمون: قد رجعنا إلى الكلام الأول .

فقال بشر: أدهشني بكلامه وخطبه عن تمام الكلام في هذا وهو يتوهم أنه كسر قولي بهذا المفصل والموصل الذي لا يحتاج إلى معرفته/ ولا يطالب أحد به .

قال عبد العزيز: فقلت لبشر بل قد تعبد الله الخلق أن يعرفوا ذلك ويتعلمونه لئلا يصلوا ما فصل الله ويفصلوا ما وصل الله عز وجل .

قال: ما الحجة في ذلك والدليل على صدق قولك .

أتكلم في ذكر المفصل والموصل من القرآن وأحتج للعرب في صحة لغاتها ومذاهبها في كلامها وخطابها .

قال عبد العزيز فقال المأمون: إن كان بشر لم يفهم ما مضى فكذلك لا يفهم إعادة ما يأتي

فدع إعادة شيء قد مضى وظهرت لك الحجة فيه فإن هذا وقت الصلاة .

فقلت يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لي أن أتكلم بشيء لم أتكلم به في هذا المعنى أقيم به الحجة على بشر وأرجو أن يستحسنه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من غير إطالة الكلام .

فقال: تكلم وأوجز . أتكلم في ذكر المفصل والموصل من القرآن وأحتج للعرب في صحة لغاتها ومذاهبها في كلامها وخطابها .

قال عبد العزيز فقال المأمون: إن كان بشر لم يفهم ما مضى فكذلك لا يفهم إعادة ما يأتي

فدع إعادة شيء قد مضى وظهرت لك الحجة فيه فإن هذا وقت الصلاة .

فقلت يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لي أن أتكلم بشيء لم أتكلم به في هذا المعنى أقيم به الحجة على بشر وأرجو أن يستحسنه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من غير إطالة الكلام .

فقال: تكلم وأوجز .

(236/506)

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر فقلت: زعمت يا بشر إن الله لم يتعبد الخلق بمعرفة الموصل والمفصل فمن زاد فيه شيئًا أو نقص منه كان كافراً . قال بشر: ما قلت هذا يا أمير المؤمنين وهو يدعيه علي .

فقلت له: اخبرني عمن قال إن الله عز وجل لم يتعبد الخلق بمعرفة شيء ، من هذا أو غيره أو زاد فيه أو نقصه كان كافراً ، أيكون صادقا أو كاذبا ؟ فقال: كاذبا وإنما أقول كل شيء إذا زيد فيه أو نقص منه أو غير عما هو عليه كان فاعل ذلك / كافرا لأن الله تعبد الخلق بمعرفته وعلمه .

فقلت له: قد وافقتني وأجبت نفسك عني وأقررت بما أنكرت .

(237/506)

يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (1) لو أن رجلا قال: إن الله لا يستحيي وقطع الكلام عامدا كان كافراً لأنه زعم أن الله لا يستحيي ، ومن قال هذا فقد أعظم الفرية إذ أخبر عن الله أنه أخبر عن نفسه أنه لا يستحيي فقد كفر وحل دمه بقوله هذا وكذلك قوله في سورة الأحزاب: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ (2) فلو قال رجل: والله لا يستحيي وقطع الصلة عامدا كان كافرا حتى يصل ما وصل الله في الحرفين فيقول في الأول أن يضرب مثلا ويقول

---

(1) سورة البقرة آية 26 .

(2) سورة الأحزاب آية 53 . يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (1) لو أن

رجلا قال: إن الله لا يستحيي وقطع الكلام عامداً كان كافرا لأنه زعم أن الله لا يستحيي ، ومن قال هذا فقد أعظم الفرية إذ أخبر عن الله أنه أخبر عن نفسه أنه لا يستحيي فقد كفر وحل دمه بقوله هذا وكذلك قوله في سورة الأحزاب: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ (2) فلو قال رجل: والله لا يستحيي وقطع الصلة عامدا كان كافرا حتى يصل ما وصل الله في الحرفين فيقول في الأول أن يضرب مثلا ويقول

---

(1) سورة البقرة آية 26 .

(2) سورة الأحزاب آية 53 .

في الآخر من الحق فيكون قد وصل ما وصل الله ولم يقطعه وإن لم يصله كان كافرا حلال الدم ، وقال الله عز وجل: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (1) فلو قال رجل: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها وقطع الصلة عامدا كان كافرا حلال الدم لأنه زعم أن الله لا يعلم الغيب ، ومن زعم هذا فقد رد خبر الله عز وجل ورد قول الله عز وجل بشهادته لنفسه بعلم الغيب بقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (2) وقوله عز وجل: ﴿ عَالِمُ

(1) سورة الأنعام آية 59 .

(2) سورة الرعد آية 9 . في الآخر من الحق فيكون قد وصل ما وصل الله ولم يقطعه وإن لم يصله كان كافرا حلال الدم ، وقال الله عز وجل: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ (1) فلو قال رجل: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها وقطع الصلة عامدا كان كافرا حلال الدم لأنه زعم أن الله لا يعلم الغيب ، ومن زعم هذا فقد رد خبر الله عز وجل ورد قول الله عز وجل بشهادته لنفسه بعلم الغيب بقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (2) وقوله عز وجل: ﴿ عَالِمُ

(1) سورة الأنعام آية 59 .

(2) سورة الرعد آية 9 .

الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (1) وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (2) فمن قال إن الله لا يعلم الغيب فقد كفر وحل دمه ، فإذا وصل ما وصل الله عز وجل ولم يقطعه فقال: وعنده مفاتح

الغيب لا يعلمها إلا هو كان صادقا وكان قد قال ما قال الله عز وجل ووصل ما وصل الله عز وجل ومثل هذا في القرآن كثير.

---

(1) سورة الجن آية 26-27.

(2) سورة فاطر آية 38.

قال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز، قال عبد العزيز فقلت لبشر: استمع لما في مسألتك.

فقال بشر: هاته، قال عبد العزيز وأما المفصل الذي لا يجوز صلته فقول الله عز وجل:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ (1) ها هنا تم الكلام ثم يبتدي القاري فيقول:

﴿ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (2) فلو قال رجل للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله قطع الكلام عامدا كان كافرا حلال الدم لأنه زعم أن لله مثل السوء وشبهه جل ذكره

---

(1) سورة النحل آية 60.

(2) سورة النحل آية 60.

عامدا كان كافرا حلال الدم لأنه قد أعظم الفرية على الله عز وجل وزعم أن الله قد أخبر أن كلمته سفلى مع كلمة الذين كفروا فشبه الله تعالى بالذين كفروا فإذا فصل الكلام من الصلة فقال وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ووقف على ذلك وقطع الصلة كان صادقا وكان فصل ما قد فصل الله عز وجل .

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز وقد أبلغت فلا تحتاج إلى زيادة ، ثم أقبل على بشر فقال: يا بشر هل عندك شيء تحتاج تسأل عنه عبد العزيز أو تحتج به عليه فقد ظهرت حجته ووضح قوله عندنا . قال بشر: يا أمير عامدا كان كافرا حلال الدم لأنه قد أعظم الفرية على الله عز وجل وزعم أن الله قد أخبر أن كلمته سفلى مع كلمة الذين كفروا فشبه الله تعالى بالذين كفروا فإذا فصل الكلام من الصلة فقال وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ووقف على ذلك وقطع الصلة كان صادقا وكان فصل ما قد فصل الله عز وجل .

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز وقد أبلغت فلا

تحتاج إلى زيادة ، ثم أقبل على بشر فقال: يا بشر هل عندك شيء تحتاج تسأل عنه عبد العزيز أو تحتج به عليه فقد ظهرت حجته ووضح قوله عندنا . قال بشر: يا أمير

(242/506)

المؤمنين أطال الله بقاءك هذا يريد نص التنزيل بكل شيء يتكلم به أو يلفظ به وليس كل ما يتكلم به الناس ويحتجون به يجدونه في نص التنزيل وإنما يجدونه في التأويل وهذا لا يقبل التأويل ويبطل التفسير حتى كأنه كان يشاهد التنزيل وهذا ما لا أسوغه أنا للمناظرين ولا أطيقه للمتكلمين إذ كان الناس لا يجدون علم ما يختلفون فيه ويتنازعون من أمر دينهم في كتاب الله عز وجل بنص التنزيل ولو كان هذا كما يقول عبد العزيز لبطل التفسير كله وبقي الناس في حيرة من أمر دينهم والناس جميعا يوافقوني على قولي ويخالفون عبد العزيز .

(243/506)

القرآن عقله من عقله وجهله من جهله .

قال عبد العزيز: فجثى محمد بن الجهم على ركبتيه وقال يا عبد العزيز زعمت أن كل شيء

يتكلم به الناس ويحتاجون إلى معرفته موجود في كتاب الله بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير فأوجدنا أن هذا الحصير مخلوق أو غير مخلوق في كتاب الله تعالى بنص التنزيل ووضع يده على حصير مرمي / كان تحتنا مبسوطاً في الإيوان فقلت له: نعم علي أن أوجدك ذلك. قال عبد العزيز فأقبلت عليه فقلت له: أخبرني عن هذا الحصير أليس هو من سعف النخل وجلود الأنعام؟ قال: بلى. قلت: فهل فيه شيء غير هذا؟ قال: لا. فقلنا القرآن عقله من عقله وجهله من جهله.

قال عبد العزيز: فجثى محمد بن الجهم على ركبتيه وقال يا عبد العزيز زعمت أن كل شيء يتكلم به الناس ويحتاجون إلى معرفته موجود في كتاب الله بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير فأوجدنا أن هذا الحصير مخلوق أو غير مخلوق في كتاب الله تعالى بنص التنزيل ووضع يده على حصير مرمي / كان تحتنا مبسوطاً في الإيوان فقلت له: نعم علي أن أوجدك ذلك. قال عبد العزيز فأقبلت عليه فقلت له: أخبرني عن هذا الحصير أليس هو من سعف النخل وجلود الأنعام؟ قال: بلى. قلت: فهل فيه شيء غير هذا؟ قال: لا. فقلت

له: هل هاهنا شيء غير هذا قال: لا . فقلت له بل هاهنا شيء صار به حصيرا يجلس عليه . قال وما هو؟ قلت: الإنسان الذي صنعه وألفه وأحكمه قال: نعم .

قال عبد العزيز: فقلت له قال الله عز وجل وقد ذكر الأنعام فقال: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾ (1) وأما السعف فإن الله ذكره فقال: ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ ﴾ (2) وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (3) فقد كمل

---

(1) سورة النحل آية 5 .

(2) سورة الواقعة آية 72 .

(3) سورة المؤمنون آية 12 .

بغيره فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقول بقولي ويقر بخلق القرآن الساعة فدمي حلال .

فقال المأمون: لهذا مجلس تناظرون فيه . قال عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن رأيت أن تأذن لي فأناظره كما سأل على جهة النظر والقياس وأدع مطالبته بالقرآن ونص التنزيل ويكون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه الشاهد علينا والمحتفظ لكلامنا فإن أقام بشر علي الحجة كما زعم وأقررت بشيء مما قال ورجعت عن شي مما قلت/ فدمي حلال

كما قال بشر وإن ثبتت الحجة عليه من القياس والنظر كما ثبتت عليه من القرآن والسنة وشهد عليهبغيره فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقول بقولي ويقر بخلق القرآن الساعة فدمي حلال .

فقال المأمون: لهذا مجلس تناظرون فيه . قال عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن رأيت أن تأذن لي فأناظره كما سأل على جهة النظر والقياس وأدع مطالبته بالقرآن ونص التنزيل ويكون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه الشاهد علينا والمحتفظ لكلامنا فإن أقام بشر علي الحجة كما زعم وأقررت بشيء مما قال ورجعت عن شي مما قلت/ فدمي حلال كما قال بشر وإن ثبتت الحجة عليه من القياس والنظر كما ثبتت عليه من القرآن والسنة وشهد عليه

(246/506)

أمير المؤمنين بذلك فقد حل دمه بما شرط على نفسه .

قال عبد العزيز: فقال المأمون أنا الشاهد عليكما والحاكم بينكما فأوجزا واقتصرا ولا تطيلا فيخرج وقت الصلاة . قال عبد العزيز لبشر: أتسألني أم أسألك؟ فقال: سل أنت فطمع في هو وجميع أصحابه وتوهموا أني إذا خرجت عن التنزيل لم أحسن أن أتكلم بشيء

غيره . قال عبد العزيز فقلت لبشر : تقول إن كلام الله مخلوق . فقال : إن القرآن مخلوق ، قال عبد العزيز فقلت له يلزمك واحدة من ثلاث لا بد أن تقول أن الله عز وجل خلق القرآن وهو عندي أنا كلامه في نفسه ، أو خلقه في غيره ، أو خلقه

(247/506)

قائما بذاته ونفسه فقل ما عندك .

قال بشر : أقول إنه مخلوق وإنه خلقه كما خلق الأشياء كلها . قال عبد العزيز فقلت : يا أمير المؤمنين تركنا القرآن والسنن والأخبار عند هربه منها وناظرناه بالقياس والكلام لما ادعاه وذكر أنه يقيم الحجة علي به وإني أقر معه بخلق القرآن ، فقد رجع بشر إلى الحيدة عن الجواب وانقطع الكلام فإن كان يريد مناظرتي على أنه يجيبني عما أسأله عنه وإلا فأمير المؤمنين أعلا عينا في ما يراه في صرفي فإنما يريد بشر أن يقع معه من لا يفهم فيحيد عن دينه ويحتج عليه بما لا يعقله فتظهر حجته عليه فيبيح

(248/506)

بذلك دمه .

قال فأقبل عليه المأمون فقال: أجب عبد العزيز عما سألك فقد ترك قوله ومذهبه وناظرك على مذهبك وما ادعيت أنك تحسنه وتقيم الحجة به عليه .

فقال بشر: قد أجبته ولكنه يتعنت . فقال له المأمون: يأبى عليك عبد العزيز إلا أن تقول واحدة من ثلاث .

قال : هذا بشر من مطالبته بالتنزيل ما عندي غير ما أجبت به .

قال عبد العزيز: فأقبل علي المأمون فقال يا عبد العزيز تكلم أنت في شرح هذه المسألة وبيانها ودع بشرا فقد انقطع عن الجواب من كل جهة .

(249/506)

فقلت يا أمير المؤمنين سألته عن كلام الله عز وجل أمخلوق هو قال: نعم . فقلت له ما صح يلزمك في هذا القول وهو واحدة من ثلاث لا بد منها أن تقول إن الله خلق كلامه في نفسه ، أو خلقه في غيره ، أو خلقه قائما بذاته . فإن قال إن الله خلق كلامه في نفسه فهذا محال لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ولا نظر معقول لأن الله عز وجل لا يكون مكانا للحوادث ولا

يكون فيه شيء مخلوق ولا يكون ناقصاً فيزيد فيه شيء مخلوق ، ولا يكون ناقصا فيزيد فيه شيء إذا خلقه تعالى الله عن ذلك وجل وتعاظم .

(250/506)

وإن قاتل: خلقه في غيره فيلزمه في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله لا يقدر أن يفرق بينهما فيجعل الشعر كلاما لله تعالى ويجعل قول الكفر والفحص وكل قول ذمه الله وذم قائله كلاما لله عز وجل وهذا محال لا يجد السبيل إليه ولا إلى القول به لظهور الشناعة والفضيحة على قائله تعالى الله عنه ذلك علوا كبيراً .

وإن قال: خلقه قائما بنفسه وذاته وهذا هو المحال الباطل الذي لا يجد إلى القول به سبيلا في قياس ولا نظر ولا معقول لأنه لا يكون الكلام إلا من متكلم كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ولا

(251/506)

العلم إلا من عالم ولا القدرة إلا من قادر ولا رئي ولا يرى كلام قط قائم نفسه يتكلم بذاته وهذا مالا يعقل ولا يعرف ولا يثبت في نظر ولا قياس ولا غير ذلك فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقا ثبت أنه صفة لله عز وجل وصفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة فبطل قول بشر يا أمير المؤمنين من جهة النظر كما بطل من جهة القرآن والتنزيل .

فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز فقال بشر: تسأل عن غير هذه المسألة فلعله يخرج بيننا شيء يسمع فقلت نعم أنا أدع هذه المسألة وأسأل عن غيرها / فقال: سل يا عبد العزيز .

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: تقول إن الله كان ولا شيء ، وكان ولما يفعل شيئا ولما يخلق شيئا . قال: بلى . فقلت له: بأي شيء حدثت الأشياء بعد إذ لم تكن شيئا أهي أحدثت أنفسها أم الله أحدثها ؟ قال: الله أحدثها . فقلت له: فبأي شي أحدثها ؟ قال: أحدثها بقدرته التي لم تزل . قلت له: صدقت أحدثها بقدرته أفليس تقول إنه لم يزل قادرا ؟ قال: بلى . قلت له: فتقول إنه لم يزل يفعل ؟ قال: لا أقول هذا . قلت له: فلا بد من أن يلزمك أن

تقول إنه خلق بالفعل الذي كان عن القدرة وليس الفعل لأن القدرة صفة الله ولا يقال لصفة هي الله ولا هي

(253/506)

غير الله.

قال بشر: ويلزمك أيضا أن تقول إن الله لم يزل يفعل ويخلق وإذا قلت ذلك فقد أثبت أن المخلوق لم يزل مع الله سبحانه وتعالى.

قال عبد العزيز فقلت له: ليس لك أن تحكم علي وتلزمني ما لا يلزمني وتحكي عني ما لم أقل إذ لم أقل إنه لم يزل فاعلا يفعل فيلزمني مثل ما قلت وإنما قلت إنه لم يزل الفاعل سيفعل ولم يزل الخالق سيخلق لأنه الفعل صفة لله عز وجل يقدر عليه ولا يمنعه منه مانع.

قال بشر: أنا أقول إنه أحدث الأشياء بقدرته فقل أنت ما شئت.

(254/506)

واللغة العربية ، والنظر والمعقول ، ولم يبق إلا القياس ، وأنا أكسره بالقياس إن شاء الله تعالى .

قال عبد العزيز: وكان المأمون قد جلس منا مقعد الحاكم من الخصمين . فقال: هاته يا عبد العزيز وأوجز ، فقلت: يا أمير المؤمنين ، لو كان بشر غلامان ، وأنا لا أجد علمهما من أحد من الناس إلا من بشر ، يقال لأحدهما خالد ، وللآخر يزيد ، وكان بشر غائبا عني فكتب إلي ثمانية عشر كتابا يقول في كل كتاب منها ، أدفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب . وكتب إلي أربعة وخمسين كتابا (يقول في كل كتاب)(1) أدفع إلى يزيد ، ولم

---

(1) من طبعة المجمع ص132 . واللغة العربية ، والنظر والمعقول ، ولم يبق إلا القياس ، وأنا أكسره بالقياس إن شاء الله تعالى .

قال عبد العزيز: وكان المأمون قد جلس منا مقعد الحاكم من الخصمين . فقال: هاته يا عبد العزيز وأوجز ، فقلت: يا أمير المؤمنين ، لو كان بشر غلامان ، وأنا لا أجد علمهما من أحد من الناس إلا من بشر ، يقال لأحدهما خالد ، وللآخر يزيد ، وكان بشر غائبا عني فكتب إلي ثمانية عشر كتابا يقول في كل كتاب منها ، أدفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب . وكتب إلي أربعة وخمسين كتابا (يقول في كل كتاب)(1) أدفع إلى يزيد ، ولم

---

(1) من طبعة المجمع ص132 .

يقل: يزيد غلامي، هذا الكتاب، ثم كتب إلي كتابا جمعهما فيه فقال: أدفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب، وإلى يزيد ولم يقل، يزيد غلامي.

ثم قدم بشر من سفره، فقال: أليس تعلم أن يزيد هذا غلامي؟ فقلت له: قد كتبت إلي أربعة وخمسين كتابا (تقول في كل كتاب منها) (1) أدفع هذا الكتاب إلى يزيد ولم تقل غلامي، ولم أسمعك تقول إنه أحد غلاميك، وأنا لا أجد علمه عن أحد غيرك. وكتبت إلي ثمانية عشر كتابا _ تقول في كل واحد منها _ أدفع إلى خالد غلامي هذا الكتاب فعلمت إنه غلامك، ثم كتبت إلي كتابا جمعتهما فيه

(1) من طبعة المجمع ص132 .

وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعا من كتابه فلم يخبر عن خلقه في موضع منها ولا أشار إليه بشي من صفات الخلق، ثم جمع بين القرآن والإنسان في موضع واحد وأخبر عن خلق

الإنسان، ونفى الخلق عن القرآن. فقال عز وجل: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ (1) ففرق بين القرآن وبين الإنسان، فزعم بُشر يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل فرط في الكتاب، وكان يجب عليه أن يخبر عن خلق القرآن، وقال الله عز وجل ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (2) فهذا كسر

---

(1) سورة الرحمن آية 1-3 .

(2) سورة الأنعام آية 38 . وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعا من كتابه فلم يخبر عن خلقه في موضع منها ولا أشار إليه بشي من صفات الخلق، ثم جمع بين القرآن والإنسان في موضع واحد وأخبر عن خلق الإنسان، ونفى الخلق عن القرآن. فقال عز وجل:

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ (1) ففرق بين القرآن وبين الإنسان، فزعم بُشر يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل فرط في الكتاب، وكان يجب عليه أن يخبر عن خلق القرآن، وقال الله عز وجل ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (2) فهذا كسر

---

(1) سورة الرحمن آية 1-3 .

(2) سورة الأنعام آية 38 .

قول بشر في القياس والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز ، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم ، فحملت بين يدي وانصرفت من مجلسه على أحسن حال وأجملها ، قد أعز الله دين الإسلام وعز أهله وأذل الكفر وأهله فلله الحمد والشكر على نعمه كلها وعلى مننه وتوفيقه وتسديده .

قال عبد العزيز: فسر المسلمون جميعا بما وهبهم الله من إظهار الحق وقمع الباطل ، وانكشف عن قلوبهم ما كان قد اكتنفها من الغم والهم والحزن وجعل الناس يجيئون إلي أفواجا حتى أغلقت بابي

ذلك الرجل يضرب يده على فخذه ويقول: يا سبحان الله تزعم أن كل ما هو كائن مما يحتاج إليه قد ذكره الله ما أعظم هذا وكيف يعلم ما هو كائن فيذكره ؟

قال عبد العزيز: فالتفت إليه فقلت له أنت جهمي قدري أيضا وأنت تهذي دائما ، ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن هذا الذي شكوت إليك أذاه

منذ اليوم . هو جهمي قدري قد جمع الأمرين من جهتين ، ينكر أن يكون الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ، فقال المأمون: هذا قوله ، فقلت له: إن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أن يأذن لي حتى أكذبه وأكسر قولهذلك الرجل يضرب يده على فخذه ويقول: يا سبحان الله تزعم أن كل ما هو كائن مما يحتاج إليه قد ذكره الله ما أعظم هذا وكيف يعلم ما هو كائن فيذكره؟

قال عبد العزيز: فالتفت إليه فقلت له أنت جهمي قدري أيضا وأنت تهذي دائما ، ثم أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن هذا الذي شكوت إليك أذاه منذ اليوم . هو جهمي قدري قد جمع الأمرين من جهتين ، ينكر أن يكون الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ، فقال المأمون: هذا قوله ، فقلت له: إن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أن يأذن لي حتى أكذبه وأكسر قوله

(259/506)

ذلك الرجل يضرب يده على فخذه ويقول: يا سبحان الله تزعم أن كل ما هو كائن مما يحتاج إليه قد ذكره الله ما أعظم هذا وكيف يعلم ما هو كائن فيذكره؟

قال عبد العزيز: فالتفت إليه فقلت له أنت جهمي قدري أيضا وأنت تهذي دائما ، ثم

أقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك إن هذا الذي شكوت إليك أذاه منذ اليوم. هو جهمي قدري قد جمع الأمرين من جهتين، ينكر أن يكون الله يعلم ما يكون قبل أن يكون، فقال المأمون: هذا قوله، فقلت له: إن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أن يأذن لي حتى أكذبه وأكسر قوله

(260/506)

وأدحض حجته وأبطل مذهبه بنص التنزيل الساعة.

فقال المأمون: لهذا وقت غير هذا ومجلس غير هذا تتكلم معه ومع غيره في القدر خاصة.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين ليس أطول إنما أحتج عليه بآية واحدة. فقال المأمون: قل ما تريد.

قال عبد العزيز فقلت له: أتنكر أن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون. قال: نعم. أنا أنكر هذا. فقلت: والله يا أمير المؤمنين لقد علم الله ما لم يكن، ولا يكون أن لو كان كيف كان يكون. فصاح الرجل ما أجراك على الكذب الحمد لله الذي أخذك بلسانك.

(261/506)

الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (1) في قولهم هذا ، وهذا ما لم يكن ولا يكون لأنهم لا يردون لا هم ولا غيرهم ، فأخبر عز وجل بعلمه السابق فيهم أن لو ردوا ما كانوا فاعلين ، ولن يردوا أبدا ، فهذا ما لم يكن ولا يكون أن لو كان كيف يكون .

فقال لي المأمون: أحسنت يا عبد العزيز ، وما قلت في يومك هذا أحسن ولا أدق من هذا .

فقلت: قد أكذبت والله أهل هذه المقالة وكسرت قولهم ودحضت حجتهم

---

(1) سورة الأنعام آية 26-27 .

وأبطلت مذهبهم بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن / للإمام عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/507)

الجزء السابع بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 4 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(4/507)

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الله تعالى لا يقر من كذب عليه ، فضلاً عن أن يصدقه ويؤيده ، ولا يخفى عليه كيد حتى يلزم منه نقص ما أراده ، قال دالاً لهم على صدقه منبهاً على موضع الحجة في أمره - على قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ، وجواباً لمن كأنه قال : فماذا يقال لهؤلاء ؟ - على قراءة الباقين : ﴿ قال ربي ﴾ المحسن إليّ بتأييدي بكل ما يبين صدقي ويحمل على أتباعي ﴿ يعلم القول ﴾ سواء كان سراً أو جهراً .

ولما كان من يسمع من هاتين المسافتين يسمع من أيّ مسافة فرضت غيرهما قطعاً ، لم يحتج إلى جمع على أنه يصح إرادة الجنس فقال : ﴿ في السماء والأرض ﴾ على حد سواء ، لأنه لا مسافة بينه وبين شيء من ذلك ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ السميع العليم ﴾ يسمع كل ما يمكن سمعه ، ويعلم كل ما يمكن علمه من القول وغيره ، فهو يسمع سركم ، ويبطل مكركم ، ويسمع ما أنسبه إليه من هذا الذكر ، فلو لم يكن عنه لزلزل بي ، وقد جرت سنته القديمة في الأولين ، بإهلاك المكذبين ، وتأييد الصادقين ، وإنجائهم من زمن نوح عليه السلام إلى هذا الزمان ، ولعلمه بحال الفريقين .

(5/507)

وستعلمون لمن تكون له العاقبة ، وقد أشار إلى هذا في هؤلاء الأنبياء عليهم السلام الذين دل بقصصهم في هذه السورة على ما تقدمها من الأحكام والقضايا ﴿ وكنا به عالمين ﴾ [الأنبياء : 51] ﴿ إذ قال لأبيه وقومه وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ و ﴿ كنا بكل شيء عالمين ﴾ [الأنبياء : 88] ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ [الأنبياء : 109] ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ [الأنبياء : 110] ﴿ إن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] ﴿ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف

الذين من قبلهم ﴾ [النور : 55] .

ولما كانت أقوالهم في أمر القرآن قد اضطربت ، والإضطراب من أمارات الباطل ، وكان وصفهم له بأنه سحر مما يهول السامع ويعلم منه أنه معجز ، فربما أدى إلى الاستبصار في أمره ، أخبر أنهم نزلوا به عن رتبة السحر على سبيل الاضطراب فقال : ﴿ بل قالوا ﴾ أي عن هذا الذكر الحكيم أنه ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي تخاليط نائم مبناه الباطل وإن كان ربما صدق بالأخبار ببعض المغيبات التي كشف الزمان عن أنها كما أخبر القرآن ، ثم أنزلوا عن ذلك إلى الوصف موجب لأعظم النفرة عنه وعمن ظهر عنه فقالوا : ﴿ بل افتراه ﴾ أي تعمد وصفه من عند نفسه ونسبه إلى الله .

ولما كان ذلك لا ينافي كون مضمونه صادقاً في نفسه ، قالوا ﴿ بل هو شاعر ﴾ أي يخيل ما لا حقيقة له كغيره من الشعراء ، تتربص به ريب المنون لأنه بشر كما تقدم ، فلا بد أن يموت ونستريح بعد موته ، وإليه أشار في آخر التي قبلها ﴿ قل كل متربص ﴾ [طه : 135] إلى أخره ، فاضطربت أقوالهم وعوّلوا أخيراً على قريب من السحر في نفي الحقيقة .

(6/507)

ولما كانوا يصفون القرآن بجميع هذه الأوصاف جملة ، يقولون لكل شخص ما رأوه أنسب له منها ، نبه الله سبحانه كل من له لب على بطلانها كلها بتناقضها بحرف الإضراب إشارة إلى أنه كان يجب على من قالها على قلة عقله وعدم حيائه أن لا ينتقل إلى قول منها إلا بعد الإعراض عن الذي قبله ، وأنه مما يضرب عنه لكونه غلطاً ، ما قيل إلا عن سبق لسان وعدم تأمل ، ستراً لعناده وتدليساً لفجوره ، ولو فعل ذلك لكانت جديرة بانكشاف بطلانها بمجرد الانتقال فكيف عند اجتماعها .

ولما كانت نسبته إلى الشعر أضعفها شأناً ، وأوضحها بطلاناً ، لم يحتج إلى إضراب عنه ، وعبروا في الأضغاث بوصف القرآن تأكيداً لعيبه ، وفي الافتراء والشعر بوصفه. صلى الله عليه وسلم. لذلك .

ولما أنتج لهم ذلك على زعمهم القدح في أعظم المعجزات ، سببوا عن هذا القدح طلب آية فقالوا : ﴿ فليأتنا ﴾ أي دليلاً على رسالته ﴿ بآية ﴾ أي لأنا قد بينا بطعننا أن القرآن ليس بآية ؛ ثم خيلوا النصفة بقولهم : ﴿ كما ﴾ أي مثل ما ، وبنوا الفعل للمفعول إشارة إلى أنه متى صحت الرسالة كان ذلك بزعمهم من غير تخلف لشيء أصلاً فقالوا : ﴿ أرسل الأولون ﴾ أي بالآيات مثل تسبيح الجبال ، وتسخير الريح ، وتفجير الماء ، وإحياء الموتى ، وهذا تناقض آخر في اعترافهم برسالة الأولين مع معرفتهم أنهم بشر ، وإنكارهم رسالته. صلى الله عليه وسلم. لكونه بشراً ، ولم يستحيوا بعد التناقض من المكابرة فيما أتاهم به من

انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى ، ونبع الماء ، والقرآن المعجز ، مع كونه أمياً – إلى غير ذلك .

ولما أشار سبحانه إلى فساد طعنهم بما جعله هباء منثوراً ، وتضمن قولهم الذي سببوه عنه القرار بالرسل البشريين وأياتهم ، أتبعه بيان ما عليهم فيه ، فبين أولاً أن الآيات تكون سبباً للهلاك ، فقال جواباً لمن كأنه قال : رب أجبهم إلى ما اقترحوه ليؤمنوا : ﴿ ما ءامنت ﴾ أي بالإجابة إلى الآيات المقترحات .

(7/507)

ولما كان المراد استغراق الزمان ، جرد الظرف عن الخافض فقال : ﴿ قبلهم ﴾ أي قبل كفار مكة المقترحين عليك ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من قرية ﴾ ولما كان المقصود التهويل في الإهلاك ، وكان إهلاك القرية دالاً على إهلاك أهلها من غير عكس ، دل على إهلاك جميع المقترحين تحذيراً من مثل حالهم بوصفها بقوله في مظهر العظمة المقتضي لإهلاك المعاندين : ﴿ أهلكناها ﴾ أي على كثرتهم ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ [الإسراء : 17] ، ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ [الشعراء : 208] ، ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] " وما من الأنبياء نبي إلا

أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر " وأشار بذلك إلى أنه لم يسلم عند البأس إلا قرية واحدة وهم قوم يونس لأنهم آمنوا عند رؤية المخايل وقيل الشروع في الإهلاك ، وهو إشارة إلى أن سبب الإيمان مشيئته سبحانه لا الآيات .

ولما كانوا كمن قبلهم إن لم يكونوا دونهم ، حسن الإنكار في قوله : ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ أي كلا ! بل لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم حين لا ينفع الإيمان ، وقد قضينا في الإزل أن لا نستأصل هذه الأمة إكراماً لنبيها ، فنحن لا نجيبهم إلى المقترحات لذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 66 . 69 ﴾

(8/507)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ قَالَ رَبّي يَعْلَمُ القول فِي السماء والأرض وَهُوَ السميع العليم ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى : قرىء ﴿ قَالَ رَبّي ﴾ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الألف

وسكون اللام .

المسألة الثانية : أنه تعالى لما أورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال إنكم وإن أخفيتم قولكم ، وطعنكم فإن ربي عالم بذلك وإنه من وراء عقوبته ، فتوعدوا بذلك لكي لا يعودوا إلى مثله .

المسألة الثالثة : قال صاحب " الكشاف " : فإن قلت فهلا قيل له يعلم السر لقوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ [الأنبياء : 3] قلت القول علام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الإطلاع على نجواهم من أن يقول : ﴿ يَعْلَمُ السر ﴾ كما أن قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السر ﴾ آكد من أن يقول يعلم سرهم فإن قلت فلم ترك الآكد في سورة الفرقان في قوله : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِي السموات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] قلت : ليس بواجب أن يجيء بالآكد في قوله في كل موضع ، ولكن يجيء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ، ثم الفرق أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بأن قال : ﴿ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض ﴾ فهو كقوله : ﴿ علام الغيوب ﴾ [سبأ : 48] ، ﴿ عالم الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ [سبأ : 3] .

المسألة الرابعة : إنما قدم السميع على العليم لأنه لا بد من سماع الكلام أولاً ثم من حصول العلم بمعناه ، أما قوله : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فاعلم أنه تعالى عاد إلى حكاية قولهم المتصل بقوله : ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [الأنبياء : 3] ثم قال : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ فحكى عنهم ثم هذه الأقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا : ندعي أن كونه بشراً مانع من كونه رسولاً لله تعالى .

سلمنا أنه غير مانع ، ولكن لا نسلم أن هذا القرآن معجز ، ثم إما أن يساعد على أن فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر ، قلنا : لم لا يجوز أن يكون ذلك سحراً وإن لم يساعد عليه فإن ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا : إنها أضغاث أحلام ، وإن ادعينا أنه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا إنه افتراه ، وإن ادعينا إنه كلام فصيح قلنا إنه من جنس فصاحة سائر الشعراء ، وعلى جميع هذه التقديرات فإنه لا يثبت كونه معجزاً ، ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا : ﴿ فليأتنا بآيةٍ كما أُرسل الأولون ﴾ فالمراد أنهم طلبوا آية جلية لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم إن الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله : ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ والمعنى أنهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على

أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثاً .

(10/507)

قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهم لم يجابوا لأن حكم الله تعالى أن من كذب بعد الإجابة إلى ما اقترحه من الآيات فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 123.124 ﴾

(11/507)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أهاويل أحلام رآها في المنام ، قاله مجاهد .

الثاني : تخاليط أحلام رآها في المنام ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

كضغث حلمٍ غُرَّ منه حالمه . . . . الثالث : أنه ما لم يكن له تأويل ، قاله اليزيدي .

وفي الأحلام تأويلان :

أحدهما : ما لم يكن له تأويل ولا تفسير ، قاله الأخفش .

الثاني : إنها الرؤيا الكاذبة ، قاله ابن قتيبة ، ومنه قول الشاعر :

أحاديث طسم أو سراب بفدفدٍ . . . ترقوق للساري وأضغاث حالم . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(12/507)

وقال ابن عطية :

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم وللناس جميعاً ﴿ قل ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي يعلم أقوالكم هذه وهو بالمرصاد في المجازاة عليها ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " قل ربي " وقرأ حمزة والكسائي " قال ربي يعلم " على معنى الخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، واختلف عن عاصم ، قال الطبري رحمه الله وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الإهماز .

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾

لما اقتضت الآية التي قبل هذه أنهم قالوا إن ما عنده سحر ، عدد الله في هذه جميع ما قالته طوائفهم ووقع الإضراب بكل مقالة عن المقدمة لها ليتبين اضطراب أمرهم ، فهو إضراب عن جحد متقدم لأن الثاني ليس بحقيقة في نفسه ، و" الأضغاث " الأخلاط وأصل الضغث القبضة المختلطة من العشب والحشيش ، فشبه تخليط الحلم بذلك ، وهو ما لا يتفسر ولا يتحصل ، ثم حكى من قال قول شاعر وهي مقالة فرقة عامية منهم لأن نبلاء العرب لم يخف عليهم بالبديهة أن مباني القرآن ليست مباني شعر ثم حكى اقتراحهم وتمنيهم آية تضطرهم وتكون في غاية الوضوح كناقة صالح وغيرها ، وقولهم ﴿ كما ارسل الأولون ﴾ دال على معرفتهم بإيتان الرسل الأمم المتقدمة . وقوله تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ مقدراً كلام يدل عليه المعنى ، تقديره والآية التي طلبوا عادتنا أن القوم إن كفروا بها عاجلناهم . وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة أفهذه كانت تؤمن وقوله تعالى : ﴿ أهلكناها ﴾ جملة في موضع الصفة ل ﴿ قرية ﴾ والجملة إذا اتبعت النكرات فهي صفة لها وإذا اتبعت المعارف فهي أحوال منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ قُل ربِّي ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "قل ربي" .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "قال ربِّي" ، وكذلك هي في مصاحف الكوفيين ، وهذا على الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يعلم القول ، أي : لا يخفى عليه شيء يقال في السماء والأرض ، فهو عالم بما أسررتم .

﴿ بل قالوا ﴾ قال الفراء : رَدَّ ب "بل" على معنى تكذيبهم ، وإن لم يظهر قبله الكلام بجحودهم ، لأن معناه الإِخبار عن الجاحدين ، وأعلمَ أن المشركين كانوا قد تحيَّروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلفت أقوالهم فيه ، فبعضهم يقول : هذا الذي يأتي به سِحْر ، وبعضهم يقول : أضغاث أحلام ، وهي الأشياء المختلطة تُرى في المنام ؛ وقد شرحناها في [يوسف : 44] ، وبعضهم يقول : افتراه ، أي : اختلقه ، وبعضهم يقول : هو شاعر فليأتنا بآية كالناقة والعصا ، فاقترحوا الآيات التي لا إِمهال بعدها .

قوله تعالى : ﴿ ما آمنتْ قبلَهم ﴾ يعني : مشركي مكة ﴿ مِنْ قرية ﴾ وصف القرية ، والمراد أهلها ، والمعنى : أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات ، لم يؤمنوا بالآيات لمَّا أتتهم ،

فكيف يؤمن هؤلاء ؟ ! وهذه إِشارة إِلى أن الآية لا تكون سبباً للإِيمان ، إِلا أن يشاء الله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(14/507)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض ﴾

أي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض .

وفي مصاحف أهل الكوفة "قَالَ رَبِّي" أي قال محمد ربي يعلم القول ؛ أي هو عالم بما تناجيتم به .

وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقول لهم هذا ؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أن النبي صلى الله عليه وسلم أُمِر وأنه قال كما أُمِرَ .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ قال الزجاج : أي قالوا الذي يأتي به أضغاث أحلام .

وقال غيره : أي قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة ؛ أي أهاويل رآها في المنام ؛ قال معناه

مجاهد وقتادة ؛ ومنه قول الشاعر :

كضِغْث حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه . . .

وقال القتبي : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفدفدٍ . . .

تَرَقْرَقُ للسَّارِي وأضغاثُ حالِم

وقال اليزيديّ : الأضغاث ما لم يكن له تأويل .

وقد مضى هذا في "يوسف" .

فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا : "بل افتراه" ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا : "بل هو شاعر" أي هم متحيّرون لا يستقرّون على شيء : قالوا مرة سحر ، ومرة أضغاث أحلام ، ومرة افتراه ، ومرة شاعر .

وقيل : أي قال فريق إنه ساحر ، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه افتراه ، وفريق إنه شاعر .

والافتراء الاختلاق ؛ وقد تقدّم .

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح .

وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغي أن يأتي بآية نقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعدما رأوا آية واحدة .

(15/507)

وأيضاً إذا لم يؤمنوا بآية هي من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرأ الأكمه والأبرص لقالوا : هذا من باب الطبّ ، وليس ذلك من صناعتنا ؛ وإنما كان سؤالهم تعنتا إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية .

وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 23] .

قوله تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون .

﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يريد كان في علمنا هلاكها .

﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يريد يصدقون ؛ أي فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضاً ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن في أصلابهم من يؤمن .

و"مِن" زائدة في قوله : "مِنْ قَرْيَةٍ" كقوله : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 47] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(16/507)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ القول فِى السماء والأرض ﴾

وقرأ حمزة والكسائي وحفص والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وأيوب وخلف وابن سعدان وابن جبير الأنطاكي وابن جرير ﴿ قال ربي ﴾ على معنى الخبر عن نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقرأ باقي السبعة قل على الأمر لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ يعلم ﴾ أقوالكم هذه ، وهو يجازيكم عليها و ﴿ القول ﴾ عام يشمل السر والجهر ، فكان في الإخبار بعلمه القول علم السر وزيادة ، وكان آكد في الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم سرهم.

ثم بين ذلك بقوله ﴿ وهو السميع العليم ﴾ ﴿ السميع ﴾ لأقوالكم ﴿ العليم ﴾ بما انطوت عليه ضمائركم.

ولما ذكر تعالى عنهم أنهم قالوا إن ما أتى به سحر ذكر اضطرابهم في مقالاتهم فذكر أنهم

أضربوا عن نسبة السحر إليه و﴿ قالوا ﴾ ما يأتي به إنما هو ﴿ أضغاث أحلام ﴾ وتقدم تفسيرها في سورة يوسف عليه السلام ، ثم أضربوا عن هذا فقالوا ﴿ بل افتراه ﴾ أي اختلقه وليس من عند الله ، ثم أضربوا عن هذا فقالوا ﴿ بل هو شاعر ﴾ وهكذا المبطل لا يثبت على قول بل يبقى متحيراً ، وهذه الأقوال الظاهر أنها صدرت من قائلين متفقين انتقلوا من قول إلى قول أو مختلفين قال كل منهم مقالة .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله لأقوالهم في درج الفساد ، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث انتهى .

وقال ابن عطية ثم حكى قول من قال إنه شاعر وهي مقالة فرقة عامّية لأن بنات الشعر من العرب لم يخف عليهم بالبديهة ، وإن مباني القرآن ليست مباني شعر .

(17/507)

وقال أبو عبد الله الرازي : حكى الله عنهم هذه الأقوال الخمسة وترتيب كلامهم أن كونه بشراً مانع من كونه رسولاً لله سلمنا أنه غير مانع ، ولكن لا نسلم أن هذا القرآن ثم إما أن يساعد على أن فصاحة القرآن خارجة عن مقدار البشر قلنا لم لا يجوز أن يكون ذلك سحراً وإن لم يساعد عليه فإن ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا إنه أضغاث أحلام ، وإن

ادعينا أنه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا إنه افتراء ، وإن ادعينا أنه كلام فصيح قلنا إنه من جنس فصاحة سائر الشعر ، وعلى جميع هذه التقديرات لا يثبت كونه معجزاً .

ولما فرغوا من تقدير هذه الاحتمالات قالوا ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ اقترحوا من الآيات ما لا إمهال بعدها كالآيات في قوله ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ قال الزمخشري : صحة التشبيه في قوله ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ من حيث إنه في معنى كما أتى الأولون بالآيات ، لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ، ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول أتى محمد بالمعجزة ، وأن تقول : أرسل محمد بالمعجزة انتهى .

والكاف في ﴿ كما أرسل ﴾ يجوز أن يكون في موضع النعت لآية ، وما أرسل في تقدير المصدر والمعنى بآية مثل آية إرسال ﴿ الأولين ﴾ ، ويجوز أن يكون في النعت لمصدر محذوف أي إتياناً مثل إرسال ﴿ الأولين ﴾ أي مثل إتيانهم بالآيات ، وهذه الآية التي طلبوها هي على سبيل اقتراحهم ، ولم يأت الله بآية مقترحة إلا أتى بالعذاب بعدها .

وأراد تعالى تأخير هؤلاء وفي قولهم ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ دلالة على معرفتهم بإتيان الرسل .

ثم أجاب تعالى عن قولهم ﴿ فليأتنا بآية ﴾ بقوله ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ والمراد بهم قوم صالح وقوم فرعون وغيرهما ، ومعنى ﴿ أهلكناها ﴾ حكمنا بإهلاكها بما اقترحوا من الآيات ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ استبعاد وإنكار أي هؤلاء أعني من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا فأهلكهم الله ، فلو أعطينا هؤلاء ما اقترحوا لكانوا أنكث من أولئك ، وكان يقع استئصالهم ولكن حكم الله تعالى بإبقائهم ليؤمن من آمن ويخرج منهم مؤمنين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(19/507)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ رَبّى يَعْلَمُ القول فِى السماء والأرض ﴾

حكايةٌ من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما أوحى إليه أحوالَهم وأقوالَهم بياناً لظهور أمرِهم وانكشافِ سرِّهم ، وإيثارُ القول المنتظمِ للسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوتَ بينهما بالجلاء والخفاء قطعاً كما في علوم الخلقِ ، وقرىء : قل ربي الخ ، وقوله تعالى : ﴿ فِى السماء والأرض ﴾ متعلقٌ بمحذور وقع حالاً من القول أي كائناً في السماء والأرض

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ أي المبالغُ في العلم بالمسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم ، اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبله متضمنٌ للوعيد .

(20/507)

﴿ بَلْ قَالُواْ أَضْغاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ إضرابٌ من جهته تعالى وانتقالٌ من حكاية قول آخرَ مضطربٍ في مسالك البطلان ، أي لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه عليه السلام : هل هذا إلا بشرٌ؟ وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحرٌ ، بل قالوا تخاليطُ الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا : ﴿ بَلِ افتراه ﴾ من تلقاء نفسِه من غير أن يكون له أصلٌ أو شبهةُ أصلٍ ، ثم قالوا : ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وما أتى به شعرٌ يُخيّل إلى السامع معانيَ لا حقيقة لها وهكذا شأنُ المبطِل المحجوجِ متحيّرٌ لا يزال يتردد بين باطلٍ وأبطلَ ويتذبذب بين فاسد وأفسدَ ، فالإضرابُ الأول كما ترى من جهته تعالى والثاني والثالث من قبلهم وقد قيل : الكلُّ من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم : هو سحرٌ إلى أنه تخاليطُ أحلام ، ثم إلى أنه كلامٌ مفترًى ثم إلى أنه قول شاعر ، ولا ريب في أنه كان ينبغي حينئذ أن يقال : قالوا : بل أضغاثُ أحلامٍ والاعتذارُ بأن (بل قالوا) مقولٌ لقالوا المضمرِ قبل قوله تعالى : ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ

﴿ الخ ، كأنه قيل : وأسروا النجوى قالوا : (هل هذا) إلى قوله : (بل أضغاثُ أحلام) ، وإنما صرح بقالوا بعد بل لبُعْد العهد مما يجب تنزيهُ ساحة التنزيلِ عن أمثاله ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَة ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ يفصح عنه السياقُ ، كأنه قيل : وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولاً من الله تعالى فليأتنا بآية ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ أي مثلَ الآية التي أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرِهما حتى نؤمن به ، فما موصولةٌ ومحلُّ الكاف الجرُّ على أنها صفةٌ لآية ويجوز أن تكون مصدريةً فالكافُ منصوبةٌ على أنها مصدرٌ تشبيهيٌّ أي نعتٌ لمصدر محذوفٍ ، أي فليأتنا بآية إتياناً كائناً مثلَ إرسالِ الأولين بها ، وصِحّةُ التشبيه من حيث إن الإتيانَ بالآية من فروع الإرسالِ بها أي مثلَ إتيانٍ مترتبٍ على الإرسال ، ويجوز أن يحمل النظمُ الكريمُ على أنه أريد

(21/507)

كلُّ واحد من الإتيان والإرسال في كل واحد من طرفي التشبيه ، لكنه تُرك في جانب المشبّه ذكرُ الإرسال وفي جانب المشبّهِ به ذكرُ الإتيانِ اكتفاءً بما ذكر في كل موطنٍ عما تُرك في الموطن الآخر حسبما مر في آخر سورة يونسَ عليه السلام .

﴿ مَا ءامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتكذيبهم فيما تنبىء عنه خاتمةُ

مقالهم من الوعد الضمنيّ بالإيمان كما أشير إليه ، وبيانِ أنهم في اقتراح تلك الآياتِ كالباحث عن حتفه بظِلْفه وأن في ترك الإجابة إليه إبقاءً عليهم ، كيف لا ولو أُعطوا ما اقترحوا مع عدم إيمانهم قطعاً لوجب استئصالُهم لجريان سنةِ الله عز وجل في الأمم السالفة ، على أن المقترحين إذا أُعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذابُ الاستئصال لا محالة ، وقد سبقت كلمةُ الحق منه تعالى أن هذه الأمةَ لا يعذبون بعذاب الاستئصالِ ، فقوله : من قرية أي من أهل قرية في محل الرفعِ على الفاعلية ومن مزيدةٌ لتأكيد العمومِ وقوله تعالى : ﴿ أهلكناها ﴾ أي بإهلاك أهلِها لعدم إيمانِهم بعد مجيءِ ما اقترحوه من الآيات صفةٌ لقرية والهمزة في قوله تعالى : ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنونَ ﴾ لإنكار الوقوعِ والفاء للعطف إما على مقدر دخلتْه الهمزةُ فأفادت إنكارَ وقوعِ إيمانِهم ونفيَه عقبَ عدمِ إيمان الأولين ، فالمعنى أنه لم تؤمنْ أمةٌ من الأمم المهلَكة عند إعطاءِ ما اقترحوه من الآيات فلم يؤمنوا ، أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى ؟ وإما على ما آمنت على أن الفاء متقدمةٌ على الهمزة في الاعتبار مفيدةٌ لترتيب إنكارِ وقوعِ إيمانِهم على عدم إيمانِ الأولين ، وإنما قُدّمت عليها الهمزةُ لاقتضائها الصدارةَ كما هو رأيُ الجمهور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(22/507)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ القول فِى السماء والأرض ﴾

حكاية من جهته تعالى لما قال عليه الصلاة والسلام بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرهم ففاعل ﴿ قَالَ ﴾ ضميره صلى الله عليه وسلم والجملة بعده مفعوله ، وهذه القراءة قراءة حمزة.

والكسائي.

وحفص.

والأعمش.

وطلحة.

وابن أبي ليلى.

وأيوب وخلف.

وابن سعدان.

وابن جبير الانطاكي.

وابن جرير ، وقرأ باقي السبعة ﴿ قُلْ ﴾ على الأمر لنبيه صلى الله عليه وسلم ، و ﴿ القول ﴾ عام يشمل السر والجهر فايثاره على السر لإثبات علمه سبحانه به على النهج

البرهاني مع ما فيه من الإيذان بأن علمه تعالى بالأمرين على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعاً كما في علوم الخلق .

وفي الكشف أن بين السر والقول عموماً وخصوصاً من وجه والمناسب في هذا المقام تعميم القول ليشمل جهره وسره والأخفى فيكون كأنه قيل يعلم هذا الضرب وما هو أعلى من ذلك وأدنى منه وفي ذلك من المبالغة في إحاطة علمه تعالى المناسبة لما حكى عنهم من المبالغة في الإخفاء ما فيه ؛ وإيثار السر على القول زي بعض الآيات لنكتة تقتضيه هناك ولكل مقام مقال ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أي كائناً في السماء والأرض ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ أي بجميع المسموعات ﴿ العليم ﴾ أي بجميع المعلومات ، وقيل أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات ويدخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم دخولاً أولياً اعتراض تذييلي مقدر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد بمجازاتهم على ما صدر منهم ، ويفهم من كلام البحر أن ما قبل متضمن ذلك أيضاً .

(23/507)

﴿ بَلْ قَالُواْ أَضْغاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب باطل أي لم يقتصروا على القول في حقه صلى الله عليه وسلم

هل هذا إلا بشر مثلكم وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحر بل قالوا هو أي القرآن تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا : ﴿ بَلِ ﴾ من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم أضربوا فقالوا : ﴿ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ، وهذا الاضطراب شأن المبطل المحجوج فإنه لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد ؛ قبل الأولى كما ترى من كلامه عز وجل وهي انتقالية والمنتقل منه ما تقدم باعتبار خصوصه والأخيرتان من كلامهم المحكى وهما ابطاليتان لترددهم وتحيرهم في تزويرهم وجملة المقول داخلة في النجوى .

ويجوز أن تكون الأولى انتقالية والمنتقل منه ما تقدم بقطع النظر عن خصوصه والجملة غير داخلة في النجوى ، وكلا الوجهين وجيه وليس فيهما إلا اختلاف معنى بل ، وكون الأولى من الحكاية والأخيرتين من المحكى ولا مانع منه .

وجوز أن تكون الأولى من كلامهم وهي إبطالية أيضاً متعلقة بقولهم هو سحر المدلول عليه ب ﴿ أفتأتون السحر ﴾ [الأنبياء : 3] .

(24/507)

ورد بأنه إنما يصح لو كان النظم الكريم قالوا بل الخ ليفيد حكاية اضرابهم ، وكونه من القلب وأصله قالوا بل لا يخفى ما فيه ، وقد أجيب أيضاً بأنه اضراب في قولهم المحكى بالقول المقدر قبل قوله تعالى : ﴿ هَلْ هذا ﴾ [لأنبياء : 3] الخ أو الذي تضمنه النجوى وأعيد القول للفاصل أو لكونه غير مصرح به ولا يخفى ما فيه أيضاً ، وجوز أن تكون الثلاثة من كلامه عز وجل على أن ذلك تنزيل لأقوالهم في درج الفساد وأن قولهم الثاني أفسد من الأول والثالث أفسد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث ، ويطلق على نحو هذا الاضراب الترقي لكن لم يقل هنا ترقيا إشارة إلى أن الرتقي في القبح تنزيل في الحقيقة ، ووجه ذلك كما قال في الكشف أن قولهم إنه سحر أقرب من الثاني فقد يقال : إن من البيان لسحراً لأن تخاليط الكلام التي لا تنضبط لأشبه لها بوجه بالنظم الأنيق الذي أبكم كل منطيق ، ثم ادعاء أنها مع كونها تخاليط متفريات أبعد وأبعد لأن النظم بمادته وصورته من أتم القواطع دلالة على الصدق كيف وقد انضم إليه أن القائل عليه الصلاة والسلام علم عندهم في الأمانة والصدق ، والأخير هذيان المبرسمين لأنهم أعرف الناس بالتمييز بين المنظوم والمنثور طبعاً وبين ما يساق له الشعر وما سيق له هذا الكلام الذي لا يشبه بليغات خطبهم فضلاً عن ذلك وبين محسنات الشهر ومحسنات هذا النثر هذا فيما يرجع إلى الصورة وحدها ، ثم إذا جئت إلى المادة وتركب الشعر من المخيلات والمعاني النازلة التي يهتدي إليها الإجلاف وهذا من اليقينيات العقدية والدينيات العملية التي عليها مدار المعاد والمعاش وبها

تفاضل الإشراف فأظهر وأظهر ، هذا والقائل عليه الصلاة والتسليم ممن لا يتسهل له الشعر وان أراده خالطوه وذاقوه أربعين سنة اه .

(25/507)

وكون تركب الشعر من المخيلات باعتبار الغالب فلا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن من الشعر لحكمة " لأنه باعتبار الندرة ويؤيده التأكيد بأن الدالة على التردد فيه ، وقد جاء الشاعر بمعنى الكاذب بل قال الراغب : إن الشاعر في القرآن بمعنى الكاذب بالطبع ، وعليه يكون قد أرادوا قاتلهم الله تعالى بل هو وحاشاه ذو افتراءات كثيرة ، وليس في بل هنا على هذا الوجه إبطال بل إثبات للحكم الأول وزيادة عليه كما صرح بذلك الراغب ، وفي وقوعها للإبطال في كلام الله تعالى خلاف فاثبته ابن هشام ومثل له بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] ووهم ابن مالك في "شرح الكافية" فنفاه ، والحق أن الإبطال إن كان لما صدر عن الغير فهو واقع في القرآن وإن كان لما صدر عنه تعالى فغير واقع بل هو محال لأنه بداء ، وربما يقال : مراد ابن مالك بالمنفى الضرب الثاني ، ثم إن هذا الوجه وإن كان فيه بعد لا يخلو عن حسن كما قيل فتدبر .

(26/507)

﴿ بَلْ قَالُوا ﴾ جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولاً من الله عز وجل كما يقول فليأتنا بآية ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الاولون ﴾ وقدر النيسابوري غير هذا الشرط فقال أخذا من كلام الإمام في بيان حاصل معنى الآية : إنهم أنكروا أولاً كون الرسول من جنس البشر ثم إنهم كأنهم قالوا سلمنا ذلك ولكن الذي ادعيت أنه معجز ليس بمعجز غايته أنه خارق للعادة وما كل خارق لها معجز فقد يكون سحراً هذا إذا ساعدنا على أن فصاحة القرآن خارجة عن لعادة لكنا عن تسليم هذه المقدمة بمراحل فانا ندعي أنه في غاية الركاكة وسوء النظم كأضغاث احلام سلمنا ولكنه من جنس كلام الأوساط افتراه من عنده سلمنا أنه كلام فصيح لكنه لا يتجاوز فصاحة الشعر وإذا كان حال هذا المعجز هكذا فليأتنا بآية لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات كما أرسل الأولون انتهى وهو كما ترى .

(27/507)

وما موصولة في محل الجر بالكاف والجملة بعدها صلة والعائد محذوف، والجار والمجرور متعلق بمقدر وقع صفة لآية أي فليأتنا بآية مثل الآية التي أرسل بها الأولون، ولا يضر فقد بعض شروط جواز حذف العائد المجرور بالحرف إذ لا اتفاق على اشتراط طلك، ومن استرط اعتبر العائد المحذوف هنا منصوباً من باب الحذف والإيصال، وهو مهيع واسع، وأرادوا بالآية المشبة بها كما روي عن ابن عباش رضي الله تعالى عنهما الناقة والعصا ونحوهما، وكان الظاهر أن يقال فليأتنا بما أتى به الأولون أو بمثل ما أتى به الأولون إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم لدلالته على ما دل عليه مع زيادة كونه مرسلاً به من الله عز وجل، وفي التعبير في حقه صلى الله عليه وسلم بالاتيان والعدول عن الظاهر فيما بعده إيتاء إلى أن ما أتى به صلى الله عليه وسلم من عنده وما أتى به الأولون من الله تبارك وتعالى ففيه تعريض مناسب لما قبله من الافتراء قاله الخفاجي وذكر أن ما قيل إن العدول عن كما أتى به الأولون لأن مرادهم اقتراح آية مثل آية موسى وآية عيسى عليهما السلام لا غيرهما مما أتى به سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن العلامة البيضاوي أشار إلى ذلك مما لا وجه له، وجوز أن تكون ما مصدرية والكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر محذوف أي فليأتنا بآية إتياناً كائناً مثل إرسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث أن المراد مثل اتيان الأولين بها لأن ارسال الرسل عليهم السلام متضمن الإتيان المذكور كما في الكشاف، وفي الكشف أنه يدل على أن قوله تعالى: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الاولون﴾ كناية في

هذا المقام ، وفائدة العدول بعد حسن الكناية تحقيق كونها آية بمثلها تثبت الرسالة لا تنازع فيها ويترتب المقصود عليها ، والقول بأن الإرسال المشبه به مصدر المجهول ومعناه كونه مرسلاً من الله تعالى بالآيات لا يسمن ولا يغنى في توجيه التشبيه لأن ذلك مغاير للإتيان أيضاً

(28/507)

وإن لم ينفك عنه ، وقيل يجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الإتيان والإرسال في كل واحد من طرفي التشبيه لكنه ترك في جانب المشبه ذكر الإرسال ، وفي جانب المشبه به ذكر الإتيان اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في الموطن الآخر ، ولا يخفى بعده ، ثم أن الظاهر أن إقرارهم بإرسال الأولين ليس عن صميم الفؤاد بل هو أمر اقتضاه اضطرابهم وتحيرهم ، وذكر بعض الأجلة أنّ مما يرجح الحمل على أن ما تقدم حكاية أقوالهم المضطربة هذه الحكاية لأنهم منعوا أولاً أن يكون الرسول بشراً وبتوا القول به وبنوا ما بنوا ثم سلموا أن الأولين كانوا ذوي آيات وطالبوه عليه الصلاة والسلام بالاتيان بنحو ما أتوا به منها ، وعلى وجه التنزيل لأقوالهم على درج الفساد يحمل هذا على أنه تنزل منهم ، والعدول إلى الكناية لتحقيق تنزله عن شأوهم انتهى فتأمل ولا تغفل .

﴿ مَا ءامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ ﴾

كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبىء عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمني بالإيمان عند اتيان الآية المقترحة وبيان أنهم في اقتراح ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه وإن في ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوه مع عدم إيمانهم قطعاً لاستئصلوا لجريان سنة الله تعالى شأنه في الأمم السالفة على استئصال المقترحين منهم إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا وقد سبقت كلمته سبحانه أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا أولى مما قيل أنهم لما طعنوا في القرآن وانه معجزة وبالغوا في ذلك حتى أخذوا من قوله تعالى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر ﴾ [الأنبياء : 3] إلى أن انتهوا إلى قوله سبحانه ﴿ فَلْيَأْتِنَا ﴾ [الأنبياء : 5] الخ جيء بقوله عز وجل ﴿ مَا ءامَنَتْ ﴾ الخ تسلية له صلى الله عليه وسلم من أن الإنذار لا يجدي فيهم .

وأياً ما كان فقوله سبحانه : ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ على حذف المضاف أي من أهل قرية ، ومن مزيدة لتأكيد العموم وما بعدها في محل الرفع على الفاعلية ، وقوله سبحانه : ﴿ أهلكناها ﴾ في محل جر أو رفع صفة قرية ، والمراد أهلكناها باهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء

ما اقترحوه من الآيات ، وقيل القرية مجاز عن أهلها فلا حاجة إلى تقدير المضاف .

واعترض بأن ﴿ أهلكناها ﴾ يأباه والاستخدام وإن كثر في الكلام خلاف الظاهر ، وقال بعضهم : لك أن تقول إن اهلاكها كناية عن اهلاك أهلها وما ذكر أولاً أولى ، والهمزة في قوله سبحانه : ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ لإنكار الوقوع والفاء للعطف إما على مقدر دخلته الهمزة فافادت إنكار وقوع إيمانهم ونفيه عقيب عدم إيمان الأولين فالمعنى أنه لم يؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أعطوا ما اقترحوه أي مع أنهم اعتى واطغى كما يفهم بمعونة السياق والعدول عن فهم لا يؤمنون أيضاً وأما على ﴿ مَا ءامَنَتْ ﴾ على أن الفاء متقدمة على الهمزة في الاعتبار مفيدة لترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأولين وإنما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(30/507)

وقال القاسمى :

ثم بين خوضهم في فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ،

بقوله :

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي: أخلاط يراها في النوم: ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ أي: اختلقه: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ أي: ما أتى به شعر يخيل للناس معاني لا حقيقة لها . وهكذا شأن المبطل المحجوج، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل، ويتذبذب بين فاسد وأفسد: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أي: مثل الآية التي أرسل بها الأولون . أي: حتى نؤمن له . ثم أشار تعالى إلى كذبهم في دعوى الإيمان بمجيء الآية، كما يشير إلى طلبهم لها، بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات . أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا، وأعطوا ما اقترحوا، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، كمن قبلهم . وقدمنا أن رقيَّ النوع البشري في العهد النبويّ، اقتضى أن تكون الآية عقلية، لا كونية . فتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل جـ 11 صـ 186.187 ﴾

(31/507)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ .

(32/507)

الظاهر أن الاضراب في قوله هنا ﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ إلخ ، إضراب انتقالي لا إبطالي ، لأنهم قالوا ذلك كله ، وقال بعض العلماء : كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها الله عنهم صدرت من طائفة متفقة لا يثبتون على قول ، بل تارة يقولون هو ساحر ، وتارة شاعر ، وهكذا ، لأن المبطل لا يثبت على قول واحد . وقال بعض أهل العلم : كل واحد من تلك الأقوال قالته طائفة : كما قدمنا الإشارة إلى هذا في سورة " الحجر " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ [الحجر : 91] وقد رد الله عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه : كرده دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 41-47] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ [يس :

69-70] ، وقوله في رد دعواهم إنه افتراه : ﴿ وَمَا كَانَ هذا القرآن أَن يفترى مِن دُونِ الله ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين أَمْ يقولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : 37-38] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : 13] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن

(33/507)

تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111] إلى غير ذلك من الآيات ، وكقوله في رد دعواهم إنه كاهن أو مجنون : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : 22] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 46] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُمْ بالحق وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون : 69-70] إلى غير ذلك من الآيات المبينة إبطال

كل ما ادعوه في النّبي صلى الله عليه وسلم والقرآن. وقوله ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي أخلاط كالأحلام المختلفة التي يراها النائم ولا حقيقة لها كما قال الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفدفد . . . ترقوق للساري وأضغاث حالم

وعن اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار اقترحوا على نبينا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله.

(34/507)

نحو ناقة صالح، وعصى موسى، وريح سليمان، وإحياء عيسى للأموات وإبرائه الأكمه والأبرص، ونحو ذلك. وإيضاح وجه التشبيه في قوله ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ هو أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات. لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات. فقولك أرسل محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزة. وقد بين تعالى أن الآيات التي اقترحوها لو جاءتهم ما آمنوا وأنها لو جاءتهم وتمادوا على كفرهم أهلكهم الله بعذاب مستأصل. كما أهلك قوم صالح لما عقروا الناقة. كقلوه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ

بِهَا الأولون وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: 59] الآية، وكقوله تعالى:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 109]. وأشار إلى ذلك هنا في قوله:

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 6] يعني أن الأمم الذين اقترحوا الآيات من قبلهم وجاءتهم رسلهم بما اقترحوا، لم يؤمنوا بل تمادوا فأهلكهم الله وأنتم أشد منهم عُتوًا وعِنادًا. فلو جاءكم ما اقترحتم، ما آمنتم، فهلكتم كما هلكوا.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس: 96-97] إلى غير ذلك من الآيات.

(35/507)

وبين أنهم جاءتهم آية هي أعظم الآيات، فيستحق من لم يكتف بها التقريع والتوبيخ، وذلك في قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: 50-51] الآية. وقد ذكرنا أن هذا المعنى يشير إليه قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه: 133]، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ [

الأنبياء : 7] إلى قوله ﴿ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 8] قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(36/507)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) ﴾

أطلع الله رسوله على نجواهم فلم يتم لهم ما أرادوا من الإسرار بها فبعد أن حكى ما تناجوا به أمره أن يخبرهم بأن الله الذي عِلم نجواهم يعلم كل قول في السماء والأرض من جهر أو سر ، فالتعريف في ﴿ القول ﴾ للاستغراق ، وبذلك كان هذا تذييلاً ، وأعلمهم بأنه المتصف بتمام العلم للمسموعات وغيرها بقوله ﴿ وهو السميع العليم ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ قل ﴾ بصيغة الأمر ، وقرأ حمزة والكسائي ، وحفص ، وخلف ﴿ قال ﴾ بصيغة الماضي ، وكذلك هي مرسومة في المصحف الكوفي قاله أبو شامة ، أي قال الرسول لهم ، حكى الله ما قاله الرسول لهم ، وإنما قاله عن وحي فكان في معنى قراءة الجمهور ﴿ قل ربي يعلم القول ﴾ لأنه إذا أمر بأن يقوله فقد قاله .

وإنما لم يقل يعلم السرّ لمراعاة العلم بأن الذي قالوه من قبيل السرّ وأن إثبات علمه بكل قول

يقتضي إثبات علمه بالسرّ وغيره بناء على متعارف الناس .

وأما قوله في سورة [الفرقان : 6] ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾ فلم يتقدم قبله ذكر للإسرار ، وكان قول الذين كفروا : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه ﴾ [الفرقان : 4] صادراً منهم تارة جهراً وتارة سراً فأعلمهم الله باطلاعه على سرّهم .

ويعلم منه أنه مطلع على جهرهم بطريقة الفحوى .

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) ﴾

﴿ بل ﴾ الأولى من كلام الله تعالى إضراب انتقال من حكاية قول فريق منهم ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ [الأنبياء : 3] إلى حكاية قول آخر من أقوال المشركين ، وهو زعمهم أنّ ما يخبر عنه ويحكيه هو أحلام يراها فيحكيها ، فضمير ﴿ قالوا ﴾ لجماعة المشركين لا لخصوص القائلين الأولين .

(37/507)

و ﴿ بل ﴾ الثانية يجوز أن تكون من الكلام المحكي عنهم وهي إضراب انتقال فيما يصفون به القرآن .

والمعنى : بل افتراه واختلقه من غير أحلام ، أي هو كلام مكذوب .

ثم انتقلوا فقالوا ﴿ هو شاعر ﴾ أي كلامه شعر ، فحرف (بل) الثالثة إضراب منهم عن كلامهم وذلك مؤذن باضطرابهم وهذا الاضطراب ناشىء عن ترددهم مما ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن .

وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردد في حجته كما قيل : الباطل لَجْلَج ، أي ملتبس متردّد فيه .

ويجوز أن تكون (بل) الثانية والثالثة مثل (بل) الأولى للانتقال في حكاية أقوالهم .

والتقدير : بل قالوا افتراه بل قالوا هو شاعر ، وحذف فعل القول لدلالة القول الأول عليهما ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المحكي كلام جماعات من المشركين انتحلت كل جماعة اعتلالاً .

والأضغاث : جمع ضغث بكسر الضاد ، وهو الحزمة من أعواد أو عُشب أو حشيش مختلط ثم أطلق على الأخلاط مطلقاً كما في سورة يوسف (44) ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أرادوا أن ما يخبركم به من أنه أوحي إليه ومن أخبار البعث والحساب ويوم القيامة هو أحلام يراها .

وفرعوا على ترددهم أو فرع كل فريق على مقالته نتيجة واحدة وهي المطالبة أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه غير هذا القرآن من نوع ما يحكى عن الرسل السابقين أنهم أتوا به مثل انقلاب العصا حية .

ومن البهتان أن يسألوا الإتيان بآية يكون الادعاءُ بأنها سَحْر أروجَ في مثلها فإن من أشهر أعمال السحرة إظهار ما يبدو أنه خارق عادة .

وقديماً قال آل فرعون في معجزات موسى : إنها سحر ، بخلاف آية إعجاز القرآن .

ودخلت لام الأمر على فعل الغايب لمعنى إبلاغ الأمر إليه ، أي فقولوا له : ائتنا بآية ،

والتشبيه في قوله ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يأتنا ﴾ أي حالة كون هذا البشر حين يأتي بالآية يشبه رسالته رسالة الأولين ، والمشبه ذات والمشبه به معنى الرسالة وذلك واسع في كلام العرب .

قال النابغة:

(38/507)

وقد خِفت حتى ما تزيد مخافتي . . .

على وَعِل من ذي المطارة عاقل

أي على مخافة وَعِل أو حالة كون الآية كما أرسل الأولون ، أي به .

﴿ مَا آَمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) ﴾

استئناف ابتدائي جواباً على قولهم ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] ، والمعنى :

أن الأمم التي أرسل إليها الأولون ما أغنت فيهم الآيات التي جاءتهم كما وددتُم أن تكون لكم مثلها فما آمنوا ، ولذلك حق عليهم الإهلاك فشأنكم أيها المشركون كشأنهم .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ في سورة [الإسراء : 59] .

وإنما أمسك الله الآيات الخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم ، ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها .

و(ما) نافية .

و(من) في قوله تعالى ﴿ من قرية ﴾ مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من حرف (ما) .

ومتعلق ﴿ آمنت ﴾ محذوف دل عليه السياق ، أي ما آمنت بالآيات قرية .

وجملة ﴿ أهلكناها ﴾ صفة ل ﴿ قرية ، ﴾ وردت مستطردة للتعريض بالوعيد بأن المشركين أيضاً يترقبون الإهلاك .

وذُكرت القرية هنا مراداً بها أهلها ليبنى عليها الوصف بإهلاكها لأن الإهلاك أصاب أهل القرى وقراهم ، فلذلك قيل ﴿ أهلكناها ﴾ دون (أهلكناهم) كما في سورة [الكهف : 59] ﴿ وتلك القرى أهلكناهم ﴾ وفرعت جملة ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ على جملة ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ مقترنة باستفهام الإنكار ، أي فهم لا يؤمنون لو أتيناهم بآية كما

اقترحوا كما لم يؤمن الذين من قبلهم الذين جعلوهم مثالاً في قولهم ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] وهذا أخذ لهم بلازم قولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(39/507)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

كأن سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرّه القوم ؟ ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض . . . ﴾ [الأنبياء : 4] فلا تَخْفى عليه خافية ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [الأنبياء : 4] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال .

ومما قالوه أيضاً : ﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ . . . . ﴾ .

(بَلْ) تعني أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفوا بما قالوا ، بل قالوا أيضاً ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ [الأنبياء : 5] وأضغاث : جمع ضِغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء في قصة أيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ . . . ﴾ [ص : 44] أي حزمة من أعواد الحشيش .

ووردْت أيضاً في رُؤْيا عزيز مصر : ﴿ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بِعَالِمِينَ ﴾ [يوسف : 44] .

وقوله ﴿ بَلِ افتراه . . . ﴾ [الأنبياء : 5] أي تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلافه ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ . . . ﴾ [الأنبياء : 5] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة في ماهية ما هو؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكورن أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر ! !

وقد سبق أنْ فنّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل في طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ، فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التي جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم في هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التي اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ تؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله ؛ لذلك لم يُجِبْهم إلى ما طلبوا من الآيات ؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنزِل بهم العذاب ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ . . . ﴾ .

إذن : هذه التجربة مَرَّت مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/507)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ قُل رَّبِّي ﴾ : قرأ الأخوان وحفصٌ " قال " على لفظِ الخبرِ . والضميرُ للرسولِ عليه السلام . والباقون " قُلْ " على الأمر له .

قوله : ﴿ فِي السمآء ﴾ في أوجهٌ ، أحدها : أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من القول . والثاني : أنه حالٌ من فاعل " يعلمُ " . وضعَّفَه أبو البقاء ، وينبغي أَنْ يمتنعَ . والثالث : أنه متعلقٌ ب "يَعْلَمُ" ، وهو قريبٌ مِمَّا قبله . وحَذْفُ متعلِّق السميع العليم للعلمِ به .

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

قوله : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ : خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : هو أضغاثُ . والجملةُ نصبٌ بالقول .

قوله : ﴿ كَمَآ أُرْسِلَ ﴾ يجوزُ في هذه الكاف وجهان ، أحدهما : أن تكونَ في محلِّ جرِّ نعتاً ل " آيةٍ " أي : بآيةٍ مثلِ آيةِ إرسالِ الأوَّلين . ف " ما " مصدريةٌ . والثاني : أن تكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ أي : إتياناً مثل إرسال الأولين .

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)

قوله : ﴿ أَهْلَكْنَاهَآ ﴾ و ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ : قد تقدَّمَ نظيرُه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 134 ﴾

(42/507)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) ﴾

الأقاويل التي يسمعها الحقُّ - سبحانه - مختلفة ؛ فَمِنْ خطابِ بعضهم مع بعض ، ومن

بعضهم مع الحق . والذين يخاطِبون الحقَّ : فَمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا ، ومِنْ داعٍ يطلب كرائمَ العُقْبَى ، ومِنْ مُثْنٍ يثني على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى .

ويقال يسمع أنينَ المُذْنبين سِراً عن الخَلْق حَذَراً أن يفتضحوا ، ويسمع مناجاةَ العابدين التسبيح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهم البُرَحاء فَضَجُّوا من شدة الاشتياق .

ويقال يسمع خطابَ مَنْ يناجيه سِرّاً بسرٍ ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثني عليه بلسان سِرِّه .

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) ﴾

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه – بعد ما نزّلنا إليه الأمر – من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا هِمَمَه على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال ، وكما قيل :

رمتني بداءها وانسلت . . .

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَه أن يُعذِّبَ من كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المآل . وإنَّ هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أمثالُهم في الكفران ، وقد حَكَمَ الحقُّ لهم بالحرمان والخذلان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 492 . 493 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين أولاً أن الآيات تكون سبباً للهلاك ، فلا فائدة في الإجابة إلى ما اقترحوه منها بعد بطلان ما قدحوا به في القرآن ، بيّن ثانياً بطلان ما قدحوا به في الرسول بكونه بشراً ، بأن الرسل الذين كانوا من قبله كانوا بإقرارهم من جنسه ، فما لهم أن ينكروا رسالته هو مثلهم ، بل عليهم أن يعترفوا له عندما أظهر من المعجز كما اعترفوا لأولئك ، كل ذلك قطماً عن أن يتمنى أحد إجابتهم إلى التأييد بملك ظاهر ، فقال عاطفاً على ما "آمنت" : ﴿ وما أرسلنا ﴾ .

ولما كان السياق لإنكار أن يكون النبي بشراً ، وكان الدهر كله ما خلا قط جزء منه من رسالة ، إما برسول قائم ، وإما بتناقل أخباره ، كان تعميم الزمان أنسب فقال من غير

حرف جر : ﴿ قبلك ﴾ أي في جميع الزمان الذي تقدم زمانك في جميع طوائف البشر ﴿ إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ بالملائكة سراً من غير أن يطلع على ذلك الملك غيرهم كما اقتضته العظمة من التخصيص والاختيار والإسرار عن الأغيار ، وذلك من نعم الله على خلقه ، لأن جعل الرسل من البشر أمكن للتلقي منهم والأخذ عنهم .

ولما لم يكن لهم طريق في علم هذا إن يقبلوا خبره عن القرآن إلا سؤال من كانوا يفزعون إليهم من أهل الكتاب ليشايعوهم على ما هم عليه من الشك والارتياب ، قال : ﴿ فسألوا أهل الذكر ﴾ ثم نبه على أنهم غير محتاجين فيه إلى السؤال بما كان قد بلغهم على الآجال من أحوال موسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم عليهم الصلاة والسلام بقوله ، معبراً بأداة الشكك محركاً لهم إلى المعالي : ﴿ إن كنتم ﴾ أي بجبلاتكم ﴿ لا تعلمون ﴾ أي لا أهلية لك في اقتناص علم ، بل كنتم أهل تقليد محض وتبع صرف .

ولما بين أنه على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلاً ، بين أنه على سنتهم في جميع الأوصاف التي حكم بها على البشر من العيش والموت فقال : ﴿ وما جعلناهم ﴾ أي الرسل الذين اخترنا بعثهم إلى الناس ليأمروهم بأوامرنا .

(44/507)

ولما كان السبب في الأكل ترتيب هذا الهيكل الحيواني على ما هو عليه لا كونه متكثراً ، وحد فقال ﴿ جسداً ﴾ أي ذوي جسد لحم ودم متصفين بأنهم ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾ بل جعلناهم أجساداً يأكلون ويشربون ، وليس ذلك بمانع من إرسالهم ؛ قال ابن فارس في المجمل : وفي كتاب الخليل : إن الجسد لا يقال لغير الإنسان من خلق الأرض .

(45/507)

ثم عطف على الأول قوله : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي بأجسادهم ، بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم ، أي لم يكن ذلك في جبلتهم وإنما تميزوا عن الناس بما يأتيهم عن الله سبحانه ، ورسولكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس بخالد ، فتربصوا كما أشار إليه ختم طه فإنه متربص بكم وأنتم عاصون للملك الذي اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له ، فأيكم أحق بالأمن ؟ ولما بين أن الرسل كالمرسل إليهم بشر غير خالدين ، بين سنته فيهم وفي أممهم ترغيباً لمن اتبع ، وترهيباً لمن امتنع ، فقال عاطفاً بأداة التراخي في مظهر العظمة على ما أرشد إليه التقدير من مثل : بل جعلناهم جسداً يأكلون ويشربون ، ويعيشون إلى انقضاء آجالهم ويموتون ، وأرسلناهم إلى أممهم فحذروهم وأنذروهم وكلموهم كما أمرناهم ، ووعدناهم أن من آمن بهم أسعدناه ، ومن كفر واستمر أشقيناه ، وأنا نهلك من أردنا من

المكذبين ، فآمن بهم بعض وكفر آخرون ؛ فلم نعاجلهم بالأخذ بل صبرنا عليهم ، وطال بلاء رسلنا بهم ﴿ ثم صدقناهم ﴾ بما اقتضت عظمتنا ، وأكد الأمر بتعدية الفعل من غير حرف الجر فقال : ﴿ الوعد ﴾ أي بإنجائهم ؛ وأشار بأداة التراخي إلى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ، ثم أحل بهم سطوته ، وأراهم عظمته ، ولذا قال مسبباً عن ذلك : ﴿ فأنجيناهم ﴾ أي الرسل بعظمتنا ، ولكون السياق لأنهم في غاية الغفلة التي نشأ عنها التكذيب البليغ الذي اقتضى تنويع القول به إلى سحر وأضغاث وافتراء وشعر ، فاقتضى مقابلته بصدق الوعد منه سبحانه ، عبر بالإنجاء الذي هو إقلاع من وجدة العذاب في غاية السرعة ﴿ ومن نشآء ﴾ أي من تابعيهم .

إشارة إلى أن سبب الإنجاء المشيئة لا أن التصديق موجب له ، لأنه لا يجب عليه سبحانه وتعالى شيء ﴿ وأهلكنا ﴾ أي بما يقتضيه الحكمة ﴿ المسرفين ﴾ كلهم الذين علمنا أن الإسراف لهم وصف لازم لا ينفكون عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 69 ـ 70 ﴾.

(46/507)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) ﴾

اعلم أنه تعالى أجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم : ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون : 33] بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ فبين أن هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلاً للآيات التي ظهرت عليهم فإذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال عليه في كونه بشراً فأما قوله تعالى : ﴿ فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذكر ﴾ فالمعنى أنه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة ، وإنما أحالهم على هؤلاء لأنهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً ﴾ [آل عمران : 186] فإن قيل إذا لم يوثق باليهود والنصارى ، فكيف يجوز أن يأمرهم بأن يسألوهم عن الرسل قلنا : إذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك ، كما قد يعمل بخبر الكفار إذا تواتر ، مثل ما يعمل بخبر المؤمنين .

ومن الناس من قال : المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لأنهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم فأما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في أن للعامي أن

يرجع إلى فتيا العلماء وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لأن هذه الآية خطاب مشافة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين .

ثم بين تعالى أنه لم يجعل الرسل قبله جسداً لا يأكلون الطعام وفيه أبحاث :

البحث الأول : قوله : ﴿ لَّا يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ صفة جسد والمعنى وما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين .

البحث الثاني : وحد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال ذوي ضرب من الأجساد .

البحث الثالث : أنهم كانوا يقولون : ﴿ مالِ هذاَ الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِى الأسواق لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] فأجاب الله بقوله : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ فبين تعالى أن هذه عادة الله في الرسل من قبل وأنه لم يجعلهم جسداً لا يأكلون بل جسداً يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم ، ونبه بذلك على أن الذي صاروا به رسلاً غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ ، أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ فقال صاحب

"الكشاف" : هو مثل قوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ [الأعراف : 155] والأصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم المقال : ﴿ وَمَن نَّشَاءُ ﴾ هم المؤمنون ، قال المفسرون : المراد منه أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم ، وجعل الوفاء بما وعد صدقاً من حيث يكشف عن الصدق ومعنى : ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ أي بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لأنه إخبار عما مضى وتقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 124. 125 ﴾

(48/507)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ الآية .

فيهم ثلاثة أوجه :

أحدها : أهل التوراة والإِنجيل ، قاله الحسن ، وقتادة .

الثاني : أنهم علماء المسلمين ، قاله علي رضي الله عنه .

الثالث : مؤمنو أهل الكتاب ، قاله ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا . . . ﴾ الآية . فيه وجهان :

أحدهما : معناه وما جعلنا الأنبياء قبلك أجسادًا لا يأكلون الطعام ولا يموتون فنجعلك كذلك ، وذلك لقولهم : ﴿ مَا هذا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون : 24] قاله ابن قتيبة .

الثاني : إنما جعلناهم جسدًا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ، فلذلك جعلناك جسدًا مثلهم ، قاله قتادة .

قال الكلبي : أو الجسد هو الجسد الذي فيه الروح ويأكل ويشرب ، فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسمًا . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ، فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(49/507)

وقال ابن عطية :

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا ﴾

رد على فرقة منهم كانوا يستبعدون أن يبعث الله من البشر رسولًا يشف على نوعه من البشر بهذا القدر من الفضل ، فمثل الله تعالى في الرد عليهم بمن سبق من الرسل من البشر ،

وقرأ الجمهور " يوحى " على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ حفص عن عاصم " نوحي " بالنون ، ثم أحالهم على سؤال ﴿ أهل الذكر ﴾ من حيث لم يكن عند قريش كتاب ولا إثارة من علم ، واختلف الناس في ﴿ أهل الذكر ﴾ من هم ، فروى عبد الله بن سلام أنه قال أنا من أهل الذكر ، وقالت فرقة هم أهل القرآن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا موضع ينبغي أن يتأمل ، وذلك أن الذكر هو كل ما يأتي من تذكير الله تعالى عباده فأهل القرآن أهل ذكر ، وهذا ما أراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأما المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت لأنهم كانوا خصومهم ، وإنما أُحيلوا على سؤال أحبار أهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد عليه السلام فتجيء شهادتهم بأن الرسل قديماً من البشر لا مطعن فيها لازمة لكفار قريش وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً ﴾ قيل الجسد من الأشياء يقع على ما لا يتغذى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عجلاً جسداً ﴾ [الأعراف : 148] . فمعنى هذا ما جعلناهم أجساداً لا تتغذى ، وقيل الجسد يعم المتغذي وغير المتغذي . والمعنى ما جعلناهم أجساداً وجعلناهم مع ذلك لا يأكلون الطعام كالجمادات أو الملائكة ، ف ﴿ جعلناهم جسداً ﴾ على التأويل الأول منفي ، وعلى الثاني موجب ، والنفي واقع على صفته . وقوله تعالى : ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾ كناية عن الحدث ، ثم نفى

عنهم الخلد لأنه من صفات القديم وكل محدث فغير خالد في دار الدنيا .

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) ﴾

(50/507)

هذا وعيد في ضمن وصفه تعالى سيرته في الأنبياء من أنه يصدق مواعيدهم فكذلك يصدق لمحمد عليه السلام ولأصحابه ما وعدهم من النصر وظهور الكلمة وقوله تعالى : ﴿ ومن نشاء ﴾ معناه من المؤمنين بهم ، و" المسرفون " الكفار المفرطون في غيهم وكفرهم وكل من ترك الإيمان مفرط مسرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(51/507)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴾

هذا جواب قولهم : "هل هذا إلاّ بَشَر مِثْلُكم" .

قوله تعالى : ﴿ نُوحي إِليهم ﴾ قرأ الأكثرون : "يوحَى" بالياء .

وروى حفص عن عاصم : "نُوحي" بالنون .

وقد شرحنا هذه الآية في [النحل : 43] .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم ﴾ يعني الرسل ﴿ جَسَداً ﴾ قال الفراء : لم يقل : أجساداً ، لأنه اسم الجنس .

قال مجاهد : وما جعلناهم جسداً ليس فيهم روح.

قال ابن قتيبة : ما جعلنا الانبياء قبله أجساداً لا تأكل الطعام لا تموت فنجعله كذلك .

قال المبرد وثعلب جميعاً : العرب إِذا جاءت بين الكلام بجحدين ، كان الكلام إِخبارا ، فمعنى الآية : إِنما جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام .

قال قتادة : المعنى : وما جعلناهم جسداً إِلا ليأكلوا الطعام .

قوله تعالى : ﴿ ثم صَدَقْناهم الوعدَ ﴾ يعني : الأنبياء أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإِهلاك مكذِّبيهم ﴿ فأنجيناهم ومَنْ نشاء ﴾ وهم الذين صدَّقوهم ﴿ وأهلكنا المُسْرِفين ﴾ يعني : أهل الشِّرك ؛ وهذا تخويف لأهل مكة . انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحَى إِلَيْهِمْ ﴾

هذا رد عليهم في قولهم : ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أي لم يرسل قبلك إلا رجالاً .

﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قاله سفيان .

وسماهم أهل الذكر ؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب .

وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن ؛ أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ؛ قال جابر الجعفي : لما نزلت هذه الآية قال عليّ رضي الله عنه نحن أهل الذكر .

وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر ؛ فالمعنى لا تبدؤوا بالإنكار وبقولكم ينبغي أن يكون الرسول من الملائكة ، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر .

والملك لا يسمى رجلاً ؛ لأن الرجل يقع على ما له ضدّ من لفظه ؛ تقول : رجل وامرأة ، ورجل وصبي ؛ فقوله : ﴿ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ من بني آدم .

وقرأ حفص وحمزة والكسائي "نُوحِي إِلَيْهِمْ" .

مسألة : لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] وأجمعوا على أن الأعمى لا بدّ له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه ؛ فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه ، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا ؛ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ الضمير في "جعلناهم" للأنبياء ؛ أي لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب .

(53/507)

﴿ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون .

وهذا جواب لقولهم : ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون : 33] وقولهم : ﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام ﴾ [الفرقان : 7] .

و"جسداً" اسم جنس ؛ ولهذا لم يقل أجساداً .

وقيل : لم يقل أجساداً ؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسداً .

والجسد البدن ؛ تقول منه : تَجسَّد كما تقول من الجسم تَجسَّم .

والجسد أيضاً الزعفران أو نحوه من الصّبغ ، وهو الدم أيضاً ؛ قال النابغة :

وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ . . .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذي فيه الروح يأكل ويشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسماً .

وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفساً ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوعد ﴾ يعني الأنبياء ؛ أي بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذّبيهم .

﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ أي الذين صدّقوا الأنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(54/507)

وقال أبو حيان :

ولما تقدم من قولهم ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ وأن الرسول لا يكون إلاّ من عند الله من جنس البشر قال تعالى راداً عليهم ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴾ أي بشراً ولم يكونوا

ملائكة كما اعتقدوا ، ثم أحالهم على ﴿ أهل الذكر ﴾ فإنهم وإن كانوا مشايعين للكفار ساعين في إخماد نور الله لا يقدرون على إنكار إرسال البشر .

وقوله ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ من حيث إنّ قريشاً لم يكن لها كتاب سابق ولا إثارة من علم .

والظاهر أن ﴿ أهل الذكر ﴾ هم أحبار أهل الكتابين وشهادتهم تقوم بها الحجة في إرسال الله البشر هذا مع موافقة قريش في ترك الإيمان بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فشهادتهم لا مطعن فيها .

وقال عبد الله بن سلام : أنا من أهل الذكر .

وقيل : هم أهل القرآن .

وقال علي : أنا من أهل الذكر .

وقال ابن عطية : لا يصلح أن يكون المسؤول أهل القرآن في ذلك الوقت لأنهم كانوا خصومهم انتهى .

وقيل ﴿ أهل الذكر ﴾ هم أهل التوراة .

وقيل : أهل العلم بالسير وقصص الأمم البائدة والقرون السالفة ، فإنهم كانوا يفحصون عن هذه الأشياء وإذا كان ﴿ أهل الذكر ﴾ أريد بهم اليهود والنصارى فإنهم لما بلغ خبرهم حد التواتر جاز أن يسألوا ولا يقدح في ذلك كونهم كفاراً .

وقرأ الجمهور : يوحي مبنياً للمفعول .

وقرأ طلحة وحفص ﴿ نوحي ﴾ بالنون وكسر الحاء و﴿ الجسد ﴾ يقع على ما لا يتغذى من الجماد .

(55/507)

وقيل : يقع على المتغذي وغيره ، فعلى القول الأول يكون النفي قد وقع على ﴿ الجسد ﴾ وعلى الثاني يكون مثبتاً ، والنفي إنما وقع على صفته ووحد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال : ذوي ضرب من الأجساد ، وهذا رد لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، وهذه الجملة من تمام الجواب للمشركين الذين قالوا ﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ لأن البشرية تقتضي الجسمية الحيوانية ، وهذه لا بد لها من مادة تقوم بها ، وقد خرجوا بذلك في قولهم ﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولما أثبت أنهم كانوا أجساداً يأكلون الطعام بين أنهم مآلهم إلى الفناء والنفاد ، ونفى عنهم الخلود وهو البقاء السرمدي أو البقاء المدة المتطاولة أي هؤلاء الرسل بشر أجساد يطعمون ويموتون كغيرهم من البشر ، والذي صاروا به رسلاً هو ظهور المعجزة على أيديهم وعصمتهم من الصفات القادحة في التبليغ وغيره .

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ ذكر تعالى سيرته مع أنبيائه فكذلك يصدق نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ما وعدهم به من النصر وظهور الكلمة ، فهذه عدة للمؤمنين ووعيد للكافرين و﴿ صدقناهم الوعد ﴾ من باب اختار وهو ما يتعدى الفعل فيه إلى واحد وإلى الآخر بحرف جر ، ويجوز حذف ذلك الحرف أي في ﴿ الوعد ﴾ وهو باب لا ينقاس عند الجمهور ، وإنما يحفظ من ذلك أفعال قليلة ذكرت في النحو ونظير ﴿ صدقناهم الوعد ﴾ قولهم : صدقوهم القتال وصدقني سن بكره وصدقت زيداً الحديث و﴿ من نشاء ﴾ هم المؤمنون ، والمسرفون هم الكفار المفرطون في غيهم وكفرهم ، وكل من ترك الإيمان فهو مفرط مسرف وإنجاؤهم من شر أعدائهم ومن العذاب الذي نزل بأعدائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(56/507)

وقال أبو السعود :

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾

جوابٌ لقولهم : هل هذا إلا بشر ؟ الخ ، متضمنٌ لردّ ما دسّوا تحت قولهم : كما أُرسل الأولون من التعريض بعدم كونِه عليه السلام مثلَ أولئك الرسلِ صلوات الله تعالى عليهم

أجمعين ، ولذلك قُدّم عليه جوابُ قولهم : فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة إلى رده وإبطاله كما مر في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق وَمَا كَانُواْ إِذَاً مُّنظَرِينَ ﴾ ولأن في هذا الجواب نوعَ بسطٍ يُخِل تقديمُه بتجاوب أطرافِ النظم الكريم ، والحقُّ أن ما اتخذوه سبباً للتكذيب موجبٌ للتصديق في الحقيقة لأن مقتضى الحكمةِ أن يُرسلَ إلى البشر البشرُ وإلى الملَك الملَكُ حسبما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ فإن عامةَ البشر بمعزل من استحقاق المفاوضةِ الملَكية لتوقّفها على التناسب بين المُفيض والمستفيض ، فبعثُ الملَكِ إليهم مزاحِمٌ للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوينِ والتشريع ، وإنما الذي تقتضيه الحكمةُ أن يبعث الملكُ منهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكية المؤيّدين بالقوة القدسية المتعلّقين بكلا العالَمَين الروحانيّ والجُسماني ليتلقّوا من جانب ويُلْقوا إلى جانب آخرَ ، وقوله تعالى : ﴿ نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ استئنافٌ مبينٌ لكيفية الإرسالِ وصيغةُ المضارعِ لحكاية الحالِ الماضية المستمرة ، وحُذف المفعولُ لعدم القصدِ إلى خصوصه ، والمعنى وما أرسلنا إلى الأمم قبلَ إرسالك إلى أمتك إلا رجالاً مخصوصين من أفراد الجنسِ مستأهلين للاصطفاء والإرسال نوحي إليهم بواسطة الملَك ما نوحي من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار ، كما نوحي إليك من غير فرقٍ بينهما في حقيقة الوحي وحقيقةِ

مدلولِه حسبما يَحكيه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ والنبيين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ كما لا فرقَ بينك وبينهم في البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدْعاً من الرسل وأن ما أُوحيَ إليك ليس مخالفاً لما أوحيَ إليهم فيقولون ما يقولون ، وقرىء يوحى إليهم بالياء على صيغة المبني للمفعول جرياً على سَنن الكبرياءِ وإيذاناً بتعين الفاعل وقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالِهم عن رتبة الاستبعادِ والنكيرِ إثرَ تحقيق الحقِ على طريقة الخطابِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحقيقُ بالخطاب في أمثال تلك الحقائقِ الأنيقةِ ، وأما الوقوفُ عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوامِّ ، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدلالة المذكورِ عليه أي إن كنتم لا تعلمون ما ذُكر فاسألوا أيها الجهلةُ أهلَ الكتاب الواقفين على أحوال الرسلِ السالفةِ عليهم السلام لتزول شبهتُكم . أُمروا بذلك لأن إخبارَ الجمِّ الغفير يوجب العلمَ لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته عليه السلام ويشاورونهم في أمره عليه السلام ، ففيه من الدِلالة على كمال وضوحِ الأمر وقوةِ شأنِ النبي عليه السلام ما لا يخفى .

﴿ وَمَا جعلناهم جَسَدًا ﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام أُسوةً لسائر أفراد الجنس في أحكام الطبيعةِ البشرية إثرَ بيانِ كونهم أسوةً في نفس البشرية ، والجسدُ جسمُ الإنسانِ والجنِّ والملائكة ، ونصبُه إما على أنه مفعولٌ ثانٍ للجعل لكن لا بمعنى جعلِه جسداً بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهورُ من معنى التصيير ، بل بمعنى جعله كذلك ابتداءً على طريقة قولهم : سبحان من صغّر البعوضَ وكبر الفيل ، كما مر في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ وإما حالٌ من الضمير والجعل إبداعيٌّ وإفرادُه لإرادة الجنس المنتظمِ للكثير أيضاً ، وقيل : بتقدير المضافِ أي ذوي جسدٍ وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ صفةٌ له أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل والشرب بل محتاجاً إلى ذلك لتحصيل بدَلِ ما يتحلل منه ﴿ وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ لأن مآلَ التحلّلِ هو الفناءُ لا محالة ، وفي إيثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيهٌ على أن عدمَ الخلود مقتضي جِبلّتهم التي أشير إليها بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جعلناهم ﴾ الخ ، لا بالجعل المستأنَف والمرادُ بالخلود إما المكثُ المديدُ كما هو شأنُ الملائكة أو الأبدية وهم معتقدون أنهم لا يموتون ، والمعنى جعلناهم أجساداً متغذّيةً صائرةً إلى الموت بالآخرة على حسب آجالِهم لا ملائكةً ولا أجساداً مستغنيةً عن الأغذية

مصونةً عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلودٌ كخلودهم ، فالجملةُ مقرِّرةٌ لما قبلها من كون الرسلِ السالفةِ عليهم السلام بشراً لا ملَكاً مع ما في ذلك من الرد على قولهم : ما لهذا الرسولِ يأكل الطعامَ .

(59/507)

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ عطفٌ على ما يفهم من حكاية وحْيِه تعالى إليهم على الاستمرار التجدّدي كأنه قيل : أوحينا ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائِهم ﴿ فأنجيناهم وَمَن نَّشَاء ﴾ من المؤمنين وغيرهم من تستدعي الحكمةُ إبقاءَه كمن سيؤمن هو أو بعضُ فروعِه بالآخرة ، وهو السرُّ في حماية العرب من عذاب الاستئصال ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ أي المجاوزين للحدود في الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(60/507)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾

جواب لما زعموه من أن الرسول لا يكون إلا ملكاً المشار إليه بقولهم ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : 3] الذي بنوا عليه ما بنوا فهو متعلق بذلك وقدم عليه جواب قولهم : ﴿ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا ﴾ [الأنبياء : 5] لأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة إلى رده وإبطاله ولأن في هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب النظم الكريم ، وقوله تعالى : ﴿ نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ استئناف مبين لكيفية الإرسال ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه ، والمعنى ما أرسلنا إلى الأمم قبل ارسالك إلى أمتك إلا رجالاً لا ملائكة نوحي إليهم بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقية مدلوله كما لا فرق بينك وبينهم في البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعا وإن ما أوحى إليك ليس مخالفاً لما أوحى إليهم فيقولون ما يقولون .

وقال بعض الأفاضل : إن الجملة في محل النصب صفة مادحة لرجالاً وهو الذي يقتضيه النظم الجليل ، وقرأ الجمهور ﴿ يُوحِي إِلَيْهِمُ ﴾ بالياء على صيغة المبني للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بتعين الفاعل ، وقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير أثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك الحقائق الأنيقة ، وأما الوقوف عليها بالسؤال من الغير فهو من وظائف العوام وأمره صلى الله عليه وسلم بالسؤال في بعض الآيات ليس للوقوف وتحصيل العلم بالمسؤول عنه لأمر آخر ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وأهل الذكر أهل الكتاب كما روي عن الحسن وقتادة وغيرهما ، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام لتزول شبهتكم ، أمروا بذلك لأن اخبار الجم الغفير يفيد العلم في مثل ذلك لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته صلى الله عليه وسلم ويشاورونهم في أمره عليه الصلاة والسلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوة شأن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، وعن ابن زيد أن أهل الذكر هم أهل القرآن .

ورده ابن عطية بأنهم كانوا خصومهم فكيف يؤمرون بسؤالهم ، ويرد ذلك على ما زعمته الامامية من أنهم آله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم الكلام في ذلك .

﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً ﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام اسوة لسائر أفراد الجنس في أحكام الطبيعة البشرية والجسد على ما في القاموس جسم الإنس والجن والملك ؛ وقال الراغب : هو كالجسم إلا أنه أخص منه ، قال الخليل : لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه ، وأيضاً فإن الجسد يقال لما له لون والجسم لما لا يبين له لون كالهواء والماء ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً ﴾ الخ يشهد لما قاله الخليل انتهى ، وقيل : هو جسم ذو تركيب ظاهره أنه أعم من الحيوان ومنهم خصه به ؛ وقال بعضهم : هو في الأصل مصدر جسد الدم يجسد أن التصق وأطلق على الجسم المركب لأنه ذو أجزاء ملتصف بعضها ببعض ، ثم الظاهر أن الذي يقول بتخصيصه بحيث لا يشمل غير العاقل من الحيوان مثلاً غاية ما يدعى أن ذلك بحسب أصل وضعه ولا يقول بعدم جواز تعميمه بعد ذلاك فلا تغفل ، ونصبه إما على أنه مفعول ثان للجعل ، والمراد تصييره كذلك إبداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل ، وأما حال من الضمير والجعل ابداعي وأفراده لا عادة الجنس الشامل للكثير أو لأنه في الأصل على ما سمعت مصدر وهو يطلق على الواحد المذكر وغيره ، وقيل : لإرادة الاستغراق الإفرادي في الضمير أي جعلنا كل واحد

منهم ؛ وقيل : هو بتقدير مضاف أي ذوي جسد ، وفي التسهيل أنه يستغنى بتثنية المضاف وجمه عن تثنية المضاف إليه وجمعه في الاعلام وكذا ما ليس فيه لبس من أسماء الأجناس .

(63/507)

وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ صفة ﴿ جَسَداً ﴾ أي وما جعلناهم جسدا مستغنياً عن الغذاء بل محتاجاً إليه ﴿ وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ أي باقين ابدا ، وجوز أن يكون الخلود بمعنى المكث المديد ، واختير الأول لأن الجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام بشراً لا ملائكة كما يقتضيه اعتقاد المشركين الفاسد وزعمهم الكاسد ، والظاهر هم يعتقدون أيضاً في الملائكة عليهم السلام الأبدية كاعتقاد الفلاسفة فيهم ذلك إلا أنهم يسمونهم عقولاً مجردة ، وحاصل المعنى جعلناهم أجساداً متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة حسب آجالهم ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ولا يموتون حسبما تزعمون ، وقيل : الجملة رد على قولهم ﴿ مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام ﴾ [الفرقان : 7] الخ والأول أولى ، نعم هي مع كونها مقررة لما قبلها فيها رد على ذلك ، وفي إيثار ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ على وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود والبقاء من توابع جبلتهم في هذه النشأة التي أشير إليها بقوله تعلى : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً ﴾ الخ لا

بالجعل المستأنف بل إذا نظرت إلى سائر المركبات من العناصر المتضادة رأيت بقاءها سويعة أمراً غريباً وانتهضت إلى طلب العلة لذلك ومن هنا قيل

: ولا تتبع الماضي سؤالك لم مضى . . .

وعرج على الباقي وسائله لم بقي

(64/507)

بل لا يبعد أن تكون الممكنات مطلقاً كذلك فقد قالوا : إن الممكن إذا خلى وذاته يكون معدوماً إذ العدم لا يحتاج إلى علة وتأثير بخلاف الوجود ؛ ولا يلزم على هذا أن يكون العدم مقتضى الذات حتى يصير ممتنعاً إذ مرجع ذلك إلى أولوية العدم وأليقيته بالنسبة إلى الذات ، ويشير إلى ذلك على ما قيل قول أبي علي في الهيئات الشفاء للمعلول في نفسه أن يكون ليس وله عن علته أن يكون آيساً ، وقولهم باستواء طرفي الممكن بالنظر إلى ذاته معناه استواؤه في عدم وجوب واحد منهما بالنظر إلى ذاته ، وقولهم علة العدم عدم علة الوجود بمعنى أن العدم لا يحتاج إلى تأثير وجعل بل يكفيه انعدام العلة لا أن عدم العلة مؤثرة في عدم المعلول ولعل في قوله صلى الله عليه وسلم : " ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن " إشارة إلى هذا فتدبر ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ قيل : عطف على ما

يفهم من حكاية وحيه تعالى إلى المرسلين على الاستمرار التجددي كأنه قيل أوحينا إليهم ما أوحينا ثم صدقناهم الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي باهلاك أعدائهم ، وقيل : عطف على ﴿ نُوحِى ﴾ السابق بمعنى أوحينا ، وتوسيط الأمر بالسؤال وما معه اهتماماً ما بالزامهم والرد عليهم ؛ وقال الخفاجي : هو عطف على قوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ ثم للتراخي الذكرى أي أرسلنا رسلاً من البشر وصدقناهم ما وعدناهم فكذا محمد صلى الله عليه وسلم فاحذروا تكذيبه وشمخالفته فالآيات كما تضمنت الجواب تضمنت التهديد انتهى ، وفيه تأمل ، ونصب ﴿ الوعد ﴾ على نزع الخافض والأصل صدقناهم في الوعد ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره ، وقيل : على ما أنه مفعول ثان وصدق قد تتعدى للمفعولين من غير توسط حرف الجر أصلاً .

(65/507)

وقوله تعالى : : ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ قيل : عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى الى المرسلين على الاستمرار التجديدي كأنه قيل أوحينا إليهم ما أوحينا ثم صدقناه الوعد الذي وعدناه في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائهم ، وقيل عطف على ﴿ نوحي ﴾ [الأنبياء : 7] السابق بمعنى أوحينا ، وتوسيط الأمر بالسؤال وما معه اهتماماً

بإلزامهم والرد عليهم ، وقال الخفاجي : هو عطف على قوله تعالى : ﴿ أرسلنا ﴾ [الأنبياء : 7] وثم للتراخي الذكري أي أرسلنا رسلاً من البشر وصدقناهم ما وعدناهم فكذا محمد صلى الله عليه وسلم فاحذروا تكذيبه ومخالفته فالآيات كما تضمنت الجواب تضمنت التهديد انتهى ، وفيه تأمل ، ونصب ﴿ الوعد ﴾ على نزع الخافض والأصل صدقناهم في الوعد ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره ، وقيل : على أنه مفعول ثان وصدق قد تتعدى للمفعولين من غير توسط حرف الجر أصلاً . .

﴿ فأنجيناهم وَمَن نَّشَاء ﴾ أي من المؤمنين بهم كما عليه جماعة من المفسرين ، وقيل منهم ومن غيرهم ممن تستدعي الحكمة إبقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر في حماية الذين كذبوه وآذوه صلى الله عليه وسلم من عذاب الاستئصال ، ورجح ما عليه الجماعة بالمقابلة بقوله تعالى : ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ وذلك لحمل التعريف على الاستغراق والمسرفين على الكفار مطلقا لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أصحاب النار ﴾ [غافر : 43] النار ملازموها والمخلدون فيها ولا يخلد فيها عندنا إلا الكفار ، ومن عمم أولاً قال : المراد بالمسرفين من عدا أولئك المنجين ، والتعبير بمن نشاء دون من آمن أو من معهم مثلاً ظاهر في أن المراد بذلك المؤمنون وآخرون معهم ولا يظهر على التخصيص وجه العدول عما ذكر إلى ما في النظم الكريم والتعبير بنشاء مع أن الظاهر شئنا لحكاية الحال الماضية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

يقال : قرب الشيء واقترب وقد اقترب الحساب ، أي قرب الوقت الذي يحاسبون فيه .

قال الزجاج : المعنى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ ﴾ وقت ﴿ حِسَابَهُمْ ﴾ أي القيامة كما في قوله :

﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] .

واللام في ﴿ للناس ﴾ متعلقة بالفعل ، وتقديمها هي ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب وقت الحساب : دنّوه منهم ، لأنه في كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التي قبلها .

وقيل : لأن كل ما هو آتٍ قريب ، وموت كل إنسان قيام ساعته .

والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى ،

والمراد بالناس : العموم .

وقيل : المشركون مطلقاً .

وقيل : كفار مكة ، وعلى هذا الوجه قيل : المراد بالحساب : عذابهم يوم بدر ، وجملة :

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي هم في غفلة بالدنيا معرضون

عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله .

والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه .

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ : " من " لابتداء الغاية .

وقد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثاً على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو :

القرآن .

وأجيب بأنه : لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد في النزول .

فالمعنى محدث تنزيله ، وإنما النزاع في الكلام النفسي .

وهذه المسألة أعني قدم القرآن وحدوثه ، قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة

المأمونية والمعتصمية والواثقية ، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد

والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي ، وصارت فتنة عظيمة في

ذلك الوقت وما بعده .

والقصة أشهر من أن تذكر ، ومن أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي .

ولقد أصاب أئمة السنّة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف ، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب ، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك ، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه ، والتمسك بأذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى ، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه .

وقوله : ﴿ إِلَّا استمعوه ﴾ استثناء مفرغ في محل نصب على الحال .

وجملة : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ في محل نصب على الحال أيضاً ، من فاعل استمعوه ، و ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ حال أيضاً والمعنى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب ، وقرىء : "لاهية" بالرفع كما قرىء : "محدث" بالرفع ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ النجوى : اسم من التناجي ،

والتناجي لا يكون إلا سرّاً ، فمعنى إسرار النجوى : المبالغة في الإخفاء .

وقد اختلف في محل الموصول على أقوال ، فقيل : إنه في محل رفع بدل من الواو في ﴿ أسرّوا ﴾ ، قاله المبرد وغيره .

وقيل : هو في محل رفع على الذمّ .

وقيل : هو فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : يقول الذين ظلموا ، واختار هذا النحاس ،

وقيل : في محل نصب بتقدير أعني .

وقيل : في محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد .

(68/507)

وقيل : هو في محل رفع على أنه فاعل ﴿ أسرّوا ﴾ على لغة من يجوّز الجمع بين فاعلين ، كقولهم : أكلوني البراغيث ، ذكر ذلك الأخفش ، ومثله ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 71] ومنه قول الشاعر :

فاهتدين البغال للأغراض . . . وقول الآخر :

ولكن دنا بي أبوه وأمه . . . بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، أي والذين ظلموا أسرّوا النجوى .

قال أبو عبيدة : أسرّوا هنا من الأضداد ، يحتمل أن يكون بمعنى : أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى : أظهروه وأعلنوه ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها ، أي قالوا : هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء ؟ ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من النجوى ، وهل بمعنى النفي أي : وأسرّوا هذا الحديث ، والهمزة في ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وجملة : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، والمعنى : إذا كان بشراً مثلكم ، وكان الذي جاء به سحراً ، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه .

فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما تناجوا به ، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ قُل رَّبِّي يَعْلَمُ القول فِى السماء والأرض ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما ، وفي مصاحف أهل الكوفة : ﴿ قال ربي ﴾ أي قال محمد : ربي يعلم القول ، فهو عالم بما تناجيتم به .

قيل : القراءة الأولى أولى ، لأنهم أسرّوا هذا القول ، فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا .

قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة آيتين ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لكل ما يسمع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم ، فيدخل في ذلك ما أسرّوا دخولاً أولياً .

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ قال الزجاج : أي قالوا : الذي تأتي به أضغاث أحلام .

قال القتيبي : أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة .

(69/507)

وقال اليزيدي : الأضغاث ما لم يكن له تأويل ، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول .

ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم : أضغاث أحلام ، قال : ﴿ بَلِ افتراه ﴾ أي بل قالوا : افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل .

ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، وفي هذا الاضطراب منهم ، والتلوّن والتردّد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به ، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ؟ أو كانوا قد علموا أنه حق ، وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان .

ثم بعد هذا كله ، قالوا : ﴿ فليأتنا بآية ﴾ وهذا جواب شرط محذوف أي : إن لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها ،

وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجرّ صفة لآية ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك ، كما قال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 23] قال الزجاج : اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال ، فقال الله مجيباً لهم : ﴿ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ ﴾ أي قبل مشركي مكة ، ومعنى ﴿ من قرية ﴾ : من أهل قرية ، ووصف القرية بقوله : ﴿ أهلكناها ﴾ أي أهلكنا أهلها ، أو أهلكناها بإهلاك أهلها .

(70/507)

وفيه بيان أن سنّة الله في الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، و" من " في ﴿ من قرية ﴾ مزيدة للتأكيد ، والمعنى : ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ، فكيف نعطيهم ما يقترحون ، وهم أسوة من قبلهم ، والهمزة في ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا ، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمُ ﴾ أي لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالاً من البشر ، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِى الأَرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

وجملة ﴿ نوحي إليهم ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال ، ويجوز أن تكون صفة ل ﴿ رجالاً ﴾ أي متصفين بصفة الإيحاء إليهم .

قرأ حفص وحمزة والكسائي : ﴿ نوحي ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : "يوحي" .

ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وأهل الذكر : هم أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ومعنى ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ : إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر ، كذا قال أكثر المفسرين .

وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه ، وتقدير الكلام : إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر .

وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنّة ، لا عن الرأي البحت ، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته .

وقد أوضحنا هذا في رسالة بسيطة : سميناها "القول المفيد في حكم التقليد" .

ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ أي أن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان .

قال الزجاج : هو واحد ، يعني الجسد ينبىء عن جماعة ، أي وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام فجملة : ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾ صفة ل ﴿ جسداً ﴾ أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل ، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿ وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

وجملة : ﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ معطوفة على جملة يدلّ عليها السياق ، والتقدير : أوحينا إليهم ما أوحينا .

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأنجيناهم وَمَن نَّشَاء ﴾ من عبادنا المؤمنين ، والمراد : إنجاؤهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي ، والمراد ب ﴿ المسرفين ﴾ : المجاوزون للحدّ في الكفر والمعاصي ، وهم المشركون .

وقد أخرج النسائي عن أبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ قال : " في الدنيا " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : " من أمر الدنيا " وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغاث أَحْلاَمٍ ﴾ أي فعل الأحلام إنما هي رؤيا رآها ﴿ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ كل هذا قد كان منه ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل ﴿ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ أي أن الرسل كانوا إذا جاؤوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا .

(72/507)

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إذا كان ما تقوله حقاً ويسرّك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا لم يُنْظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : " بل أستأني بقومي " ، فأنزل الله : ﴿ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً لاَّ

يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ يقول : لم نجعلهم جسداً ليس يأكلون الطعام ، إنما جعلناهم جسداً يأكلون الطعام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(73/507)

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

أي : لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ أي : العلماء بالتوراة والإنجيل : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفي الآية دليل على جواز الإستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحجّ الخصم وإقناعه .

تنبيه :

قال الرازيّ : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، في أن للعاميّ أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر – فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى

.

ثم بيّن تعالى كون الرسل كسائر الناس ، في أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

(74/507)

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ أي : جسداً مستغنياً عن الطعام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر ما فات بالتحليل كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : 20] ، وفي هذا التعريف الربانيّ عن حال المرسل ، أكبر رادع لأولئك المنزوين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعاع والعامة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة . إذ يرون تناول الطعام في المحافل وتكثير سواد الناس في الجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم ، وهو السنة . ومن المشي بالأسواق ، وهو المأذون فيه . ومن إجابة الدعوة ، وهي واجبة ، لأوهام في أنفسهم شيدوها . ومحافظة على السمعة حموا جانبها . فتبّاً لهم من قوم مبتدعين ، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق عليه رسل الله . وما ذلك إلا لله . فما أجرأهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار ! وقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ أي : في الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [34] ، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عزّ وجلّ . تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وكونهم بشراً في تمام النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن المرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس أميل إلى الجنس .

(75/507)

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ أي : في غلبتهم على أعدائهم : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] ، ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ أي : من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه : ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المجاوزين الحدود في الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 187.188 ﴾

(76/507)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) ﴾

(77/507)

يبن جل وعلا في هذه الآيات : أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم ، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة ، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم . وأنجى معهم ما شاء أن ينجيه . . والمراد به من آمن بهم من أممهم ، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل ، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه ، كقوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرسل وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : 110] ، وقوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم : 47] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 13-14] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : 171-173] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ [هود : 58] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 66] الآية ، وقوله ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالذين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود : 94] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . والظاهر أن " صدق " تتعدى بنفسها وبالحروف ، تقول : صدقته الوعد ، وصدقته في الوعد . كقوله هنا : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوعد ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ ﴾ [آل عمران : 152] . فقول الزمخشري " صدقناهم الوعد " كقوله : " واختار موسى قومه سبعين رجلاً " لا حاجة إليه ، والله أعلم . والإسراف : مجاوزة الحد في المعاصي كالكفر ، ولذلك يكثر في

القرآن إطلاق المسرفين على الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(78/507)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) ﴾

عطف جواب على جواب .

والمقصود من هذا إبطال مقصودهم من قولهم ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : 3] إذا أرادوا أنه ليس بأهل للامتياز عنهم بالرسالة عن الله تعالى ، فبيّن خطأهم في

استدلالهم بأن الرسل الأولين الذين اعترفوا برسالتهم ما كانوا إلا بشراً وأن الرسالة ليست إلا وحياً من الله لمن اختاره من البشر .

وقوله ﴿ إلا رجالاً ﴾ يقتضي أن ليس في النساء رسلاً وهذا مجمع عليه .

وإنما الخلاف في نبوءة النساء مثل مريم أختتِ موسى ومريمَ أم عيسى .

ثم عرّض بجهلهم وفضح خطأهم فأمرهم أن يسألوا أهل الذكر ، أي العلم بالكتب والشرائع السالفة من الأحبار والرهبان .

وجملة ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ الخ معترضة بين الجمل المتعاطفة .

وتوجيه الخطاب لهم بعد كون الكلام جرى على أسلوب الغيبة التفاتٌ ، ونكتته أن الكلام لما كان في بيان الحقائق الواقعة أعرض عنهم في تقريره وجعل من الكلام الموجه إلى كل سامع وجُعلوا فيه معبّراً عنهم بضمائر الغيبة ، ولما أريد تجهيلهم وإلجاؤهم إلى الحجة عليهم غُيِّر الكلام إلى الخطاب تسجيلاً عليهم وتقريعاً لهم بتجهيلهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ﴾

الجسد : الجسم الذي لا حياة فيه ، وهو يرادف الجثة .

هذا قول المحققين من أئمة اللغة مثل أبي إسحاق الزجاج في تفسير قوله تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسدا ﴾ [طه : 88] .

وقد تقدم هناك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ [ص : 34] .

(79/507)

قيل هو شِق غلام لا روح فيه ولدته إحدى نسائه ، أي ما جعلناهم أجراماً غير منبثة فيها الأرواح بحيث تنتفي عنهم صفات البشَر التي خاصتها أكل الطعام ، وهذا رد لما يقولونه ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] مع قولهم هنا ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : 3] .

وذكر الجسد يفيد التهكم بالمشركين لأنهم لما قالوا ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] ، وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين كانوا في صور الآدميين لكنهم لا يأكلون الطعام وأكل الطعام من لوازم الحياة ، فلزمهم لما قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام أن يكونوا قائلين بأن شأن الرسل أن يكونوا أجساداً بلا أرواح ، وهذا من السخافة بمكانة .

وأما قوله : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ فهو زيادة استدلال لتحقيق بشريتهم استدلالاً بما هو واقع من عدم كفاءة أولئك الرسل كما هو معلوم بالمشاهدة ، لقطع معاذير الضالين ، فإن

زعموا أن قد كان الرسل الأولون مخالفين للبشر فماذا يصنعون في لحاق الفناء إياهم .

فهذا وجه زيادة ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ .

وأُتي في نفي الخلود عنهم بصيغة ﴿ ما كانوا ﴾ تحقيقاً لتمكن عدم الخلود منهم .

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) ﴾

﴿ ثم ﴾ عاطفة الجملة على الجمل السابقة فهي للترتيب الرتبي .

والمعنى : وأهَمّ مما ذكر أنّا صدقناهم الوعد فأنجيناهم وأهلكنا الذين كذبوهم .

ومضمون هذا أهم في الغرضين التبشير والإنذار .

فالتبشيرُ للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الله صادِقُه وعده من النصر ،

والإنذارُ لمَن ماثَل أقوامَ الرسل الأولين .

(80/507)

والمراد بالوعد وعدم النصرَ على المكذبين بقرينة قوله تعالى ﴿ فأنجيناهم ﴾ المُؤذِن بأنه

وعد عذابٍ لأقوامهم ، فالكلام مسوق مساق التنويه بالرسل الأولين ، وهو تعريض بوعيد

الذين قالوا ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] .

وفي هذا تقريع للمشركين ، أي إنْ كان أعجبكم ما أتى به الأولون فسألتم من رسولكم مثله

فإن حالكم كحال الذين أرسلوا إليهم فترقبوا مثلَ ما نزل بهم ويترقب رسولكم مثل ما لقي سلفه .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين في سورة ﴾ [يونس : 102] وانتصب الوعد بـ ﴿ صدقناهم ﴾ على التوسع بنزع حرف الجر .

وأصل الاستعمال أن يقال : صدقناهم في الوعد ، لأن (صدَق) لا يتعدى إلا إلى مفعول واحدٍ .

وهذا الحذف شائع في الكلام ومنه في مثل هذا ما في المثل "صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه"

والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى ﴿ من نشاء ﴾ احتباك ، والتقدير : فأنجيناهم ومَن شئنا ونُنْجِي رسولنا ومن نشاء منكم ، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية مَن آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة .

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان ، ولذلك لم يقل : ونهلك المسرفين ، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حلّ بالأمم السالفة وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد .

والمسرفون : المفْرِطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا . . . ﴾ [التغابن : 6] .

يعني : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منّا ، فكيف يهدوننا ؟ ! وهل الرسول يهديكم ببشريته ؟ أم بشيء جاءه من أعلى ؟ هل منهجه من عنده ؟

الرسول ليس مُصلِحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ربي وربكم . وقد سبقت السوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 7] ولو أرسلنا إليهم مِلَكاً لجاءكم الرسول مَلَكاً . ﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 7] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة ؟

ذلك لأن المفروض في النبي أن يكون قدوة لقومه وأُسْوة ، مُبلِّغَ منهج ، وأُسْوةَ سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة ، إنما هو

أُسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسي في القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّي مع المتأسَّي به .

فلو رأيت مثلاً في الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر في يوم ما أن تكون أسداً ؟ هل تأخذ الأسد لك أُسْوة ؟ ! لا ، لأنه يُشترط في أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب في الأعداد يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

كذلك إذا جاء النبي مَلَكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ، إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا في صورة بشرية .

(82/507)

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَنعَ النَّاسَ أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر . ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء في الحديث الشريف : " يرد عليَّ - يعني من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم " .

وقوله : ﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 7] أي : إنْ كنتم في شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب .

وقال : ﴿ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 7] لأنها مسألة عِلْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً . . . ﴾ .

﴿ جَعَلْنَاهُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 8] أي : الرسل ﴿ جَسَداً . . . ﴾ [الأنبياء : 8] يعني : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأيّ بشر ، ويمشون في الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية ﴿ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 8] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعَلِموا عنهم هذه الحقيقة ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوعد . . . ﴾ .

وهذه سُنة من سُنَن الله في الرسل أنْ يَصْدقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه ؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(84/507)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [7] قال : يعني أهل الفهم عن الله ، والعلماء بالله وبأوامره وبأيامه .

قيل : صفهم لنا .

قال : العلماء ثلاثة : عالم بالله لا بأمر الله ولا بأيام الله ، وهو عامة المؤمنين ؛ وعالم بالله وبأمر

الله لا بأيام الله ، وهم العلماء ؛ وعالم بالله وبأمر الله وبأيام الله ، وهم النبيون والصديقون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 104 ﴾

(85/507)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

قوله : ﴿ نوحي إِلَيْهِمْ ﴾ : قرأ حفصٌ " نُوْحي " بنون العظمة مبنياً للفاعلِ أي : نوحي نحن . والباقون بالياء وفتحِ الحاء مبنيا للمفعولِ ، وقد تقدَّم ذلك في يوسف . وهذه الجملةُ في محلِّ نصبٍ نعتاً ل " رِجالاً " و " إليهم " في القراءةِ الأُوْلى منصوبُ المحلِّ . والمفعولُ محذوفٌ أي : نُوحي إليهم القرآنَ أو الذِّكْرَ ، ومرفوعُ المحلِّ في القراءةِ الثانيةِ لقيامِه مَقامَ الفاعلِ .

قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ جوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالةِ ما تقدَّم عليه أي : فاسْأَلوهم ، حُذِفَ لدلالةِ ما تقدَّم عليه . ومفعولا العِلْم يجوز أَنْ يُرادا أي : لا تَعْلمون أنَّ ذلك كذلك ، ويجوز أن لا يُرادا أي : إنْ كنتم مِنْ غيرِ ذوي العلمِ .

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8)

قوله : ﴿ لَّا يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ : في هذه الجملةِ وجهان ، أظهرُهما : أنَّها في محلِّ نصب نعتاً ل "جَسَدَاً " ، و"جَسَدَا" مفردٌ يُراد به الجمعُ ، وهو على حذفِ مضافٍ أي : ذوي أجسادٍ غيرِ آكلينَ الطعامَ . وهذا ردٌّ لقولِهم : ﴿ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ [الفرقان : 7] . و"جعل" يجوز أن يكونَ بمعنى صَيَّر فيتعدى لاثنين ، ثانيهما "جسداً " ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى خلق وأنشأ فيتعدى لواحدٍ ، فيكون "جسداً " حالاً بتأويله بمشتقٍ أي : مُتَغَذِّيْنَ ؛ لأنَّ الجسدَ لا بُدَّ له من الغذاءِ .

وقال أبو البقاء : "إنَّ "لا يأكلون" حالٌ أخرى بعد "جَسَدَاً " إذا قلنا إنَّ "جعل" يتعدى لواحدٍ " . وفيه نَظَرٌ ، بل هي صفةٌ ل"جَسَدَاً " بالاعتبارين ، لا يليق المعنى إلاَّ به .

(86/507)

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

قوله : ﴿ صَدَقْنَاهُمُ الوعد ﴾ : "صَدَقَ "يتعدَّى لاثنينِ إلى ثانيهما بحرفِ الجرِّ ، وقد يُحْذف . تقول : صَدَقْتُك الحديثَ ، وفي الحديث . نحو : أمر واستغفر وقد تقدَّمَ في آل عمران . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 135 . 136﴾

(87/507)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

لمَّا قالوا لولا أَنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسِلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بَشراً، وذَكَرَ أنَّ الخصوصية لهم كانت بإرسال الله إياهم.

ثم قال: ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾: الخطاب للكلِّ والمراد منه الأمة، وأهلُ الذكر العلماءُ من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحقِّ - سبحانه - أو من يُحْسِنُ الإفهامَ عن الحق.

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات، وإذا اشتكلت الواقعةُ فيخبر عن اجتهاده، وشرطه ألا يكون مقلداً، ويكون من أهل الاجتهاد، فإذا لم يخالف النصَّ وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه، وأمَّا الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتَى به فإن لم تتقدم له من قِبَله المنازلة ففتواه في هذا الطريق كفتوى المقلِّد في مسائل الشرع.

فأمَّا العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وَجْدِه - إنْ كان - وإلا فلا تُقْبَلُ فتواه ولا

تُشْمَع .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ﴾

لَمَّا عيّروا الرسولَ – عليه السلام – بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . . أخبر أن أَكْلَ الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكابر ، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّه القلوبُ والسرائر من وجوه التعريف .

ويقال : النفوس لا خبر لها مما به القلوب ، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السرُّ .

(88/507)

قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ : أي إنهم على ممرٍ ومعْبرٍ ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْد .

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) ﴾

الحقُّ – سبحانه – يُحقّق وعْدَه وإنْ تباطأ بتحقيقه الوقتُ فيما أخبر أنه يكون . والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدِّين ، وإرغام مَنْ نَابَذَ الحقَّ مِنَ الجاحدين ،

وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ الشبهة . انتهى ا .

هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 494.493 ﴾

(89/507)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى ما لزمهم بسبب الإقرار برسلية البشر من الإقرار برسلية رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكونه مساوياً لهم في النوع والإتيان بالمعجز ، وما فعل بهم وبأممهم ترغيباً وترهيباً ، وختم ذلك بأنه أباد المسرفين ، ومحا ذكرهم إلا بالبشر ، التفت إلى الذكر الذي طعنوا فيه ، فقال مجيباً لمن كأنه قال : هذا الجواب عن الطعن في الرسول قد عرف ، فما الجواب عن الطعن في الذكر ؟ معرضاً عن جوابهم لما تقدم من الإشارة بحرف الإضراب إلى

أن ما طعنوا به فيه لا يقوله عاقل ، مبيناً لما لهم فيه من الغبطة التي هم لها رادون ، والنعمة التي هم بها كافرون : ﴿ لقد ﴾ أي وعزتنا لقد ﴿ أنزلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ إليكم ﴾ يا معشر قريش بل العرب قاطبة ﴿ كتاباً ﴾ أي جامعاً لجميع المحاسن لا يغسله الماء ولا يحرقه النار ﴿ فيه ذكركم ﴾ طوال الدهر بالخير إن أطعتم ، والشر إن عصيتم ، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل ، وتكثرون فيه القال والقيل .

ولما تم ذلك على هذا الوجه ، نبه أنه يتعين على كل ذي لب الإقبال عليه والمسارعة إليه ، فحسن جداً قوله منكراً عليهم منبهاً على أن علم ذلك لا يحتاج إلى غير العقل المجرد عن الهوى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

(90/507)

ولما كان التقدير : فإن عدلتم بقبوله شرفناكم ، وإن ظلمتم برده عناداً أهلكناكم كما أهلكنا من كان قبلكم ، عطف عليه قوله : ﴿ وكم قصمنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ من قرية ﴾ جعلناها كالشيء اليابس الذي كسر فتباينت أجزاؤه ، والإناء الذي فت فانكب ماؤه ؛ وأشار بالقصم الذي هو أفظع الكسر إلى أنها كانت باجتماع الكلمة وشدة الشكيمة

كالحجر الرخام في الصلابة والقوة ، و"كم" في هذا السياق يقتضي الكثرة ، ثم علل إهلاكها وانتقالها بقوله : ﴿ كانت ظالمة ﴾ ثم بين الغنى عنها بقوله : ﴿ وأنشأنا ﴾ أي بعظمتنا .

ولما كان الدهر لم يخل قط بعد آدم من إنشاء وإفناء ، فكان المراد أن الإنشاء بعد الإهلاك يستغرق الزمان على التعاقب ، بياناً لأن المهلكين ضروا أنفسهم من غير افتقار إليهم ، اسقط الجار فقال : ﴿ بعدها قوماً ﴾ أي أقوياء ، وحقق أنهم لا قرابة قريبة بينهم بقوله : ﴿ ءاخرين ﴾ ثم بين حالها عند إحلال البأس بها فقال : ﴿ فلما أحسوا ﴾ أي أدرك أهلها بحواسهم ﴿ بأسنا ﴾ أي بما فيه من العظمة ﴿ إذا هم ﴾ أي من غير توقف أصلاً ﴿ منها ﴾ أي القرية ﴿ يركضون ﴾ هاربين عنها مسرعين كمن يركض الخيل - أي يحركها - للعدو ، بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ [إبراهيم : 13] فناداهم لسان الحال تقريعاً تبشيعاً لحالهم وتفظيعاً : ﴿ لا تركضوا ﴾ وصور التهكم بهم بأعظم صورة فقال : ﴿ وارجعوا ﴾ إلى قريتكم ﴿ إلى ما ﴾ .

ولما كان التأسيف إنما هو على العيش الرافه لا على كونه من معط معين ، بني للمفعول قوله : ﴿ أترفتم فيه ﴾ أي منها ، ويجوز أن يكون بني للمجهول إشارة إلى غفلتهم عن العلم لمن أترفهم أو إلى أنهم كانوا ينسبون نعمتهم إلى قواهم ، ولو عدوها من الله لشكروه فنفعهم .

ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن، قال: ﴿ومساكنكم﴾ أي التي كنتم تفتخرون بها على الضعفاء من عبادي بما أتقنتم من بنائها، وأوسعتم من فنائها، وعليتم من مقاعدها، وحسنتم من مشاهدها ومعاهدها ﴿لعلكم تسألون﴾ في الإيمان بما كنتم تسألون، فتابوا بما عندكم من الأنفة ومزيد الحمية والعظمة، أو تسألون في الحوائج والمهمات، كما يكون الرؤساء في مقاعدهم العلية، ومراتبهم البهية، فيجيبون سائلهم بما شاؤوا على تؤدة وأحوال مهل تخالف أحوال الراكض العجل ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ [إبراهيم: 44].

ولما كان كأنه قيل: بما أجابوا هذا المقال؟ قيل ﴿قالوا﴾ حين لا نفع لقولهم عند نزول البأس: ﴿يا ويلنا﴾ إشارة إلى أنه حل بهم لأنه لا ينادي إلا القريب، وترفقاً له كما يقول الشخص لمن يضربه: يا سيدي - كأنه يستغيث به ليكف عنه، وذلك غباوة منهم، وعمى عن الذي أحله بهم، لأنهم كالبهائم لا ينظرون إلا السبب الأقرب؛ ثم عللوا حلوله بهم تأكيداً لترفقهم بقولهم: ﴿إنا كنا﴾ أي جبلة لنا وطبعاً ﴿ظالمين﴾ حيث كذبنا الرسل، وعصينا أمر ربنا، فاعترفوا حيث لم ينفعهم الاعتراف لفوات محله ﴿فما﴾ أي فتسبب عن إحلالنا ذلك البأس بهم أنه ما ﴿زالت تلك﴾ أي الدعوة البعيدة عن الخير والسلامة، وهي قولهم: يا ويلنا ﴿دعواهم﴾ يرددونها لا يكون دعوى لهم غيرها، لأن

الويل ملازم لهم غير منفك عنهم ، وترفقهم له غير نافعهم ﴿حتى جعلناهم﴾ بما لنا من العظمة ﴿حصيداً﴾ كالزرع المحصود .

ولما كان هذا وما بعده مثل حلو حامض في الزمان ، جعلا خبراً واحداً ليكون " جعل " مقتصراً على مفعولين فقال : ﴿خامدين﴾ أي جامعين للانقطاع والخفوت ، لا حركة لهم ولا صوت ، كالنار المضطرمة إذا بطل لهيبها ثم جمرها وصارت رماداً ، ولم يك ينفعهم إيمانهم واعترافهم بالظلم وخضوعهم لما رأوا بأسنا . انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 70 . 72﴾

(92/507)

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى بقوله : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾

عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا ، فلذلك قال فيه : ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ وفيه ثلاثة أوجه : أحدها ؛ ذكر شرفكم وصيتكم ، كما قال :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف : 44] .

وثانيها : المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد ، كما قال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : 55] .

وثالثها : المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل ، وقوله : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ كالبعث على التدبر في القرآن لأنهم كانوا غفلاء لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) ﴾

(93/507)

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لأن شرائط الإعجاز لما تمت في القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزاً ، وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ قال صاحب "الكشاف" القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وأنها ظالمة وأراد أهلها توسعاً لدلالة العقل على أنها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى

: ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ فالمعنى أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين وقال : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَا ﴾ إلى قوله ﴿ قَالُوا۟ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ وكل ذلك لا يليق إلا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لأنه يكون ذلك موهماً للكذب ، واختلفوا في هذا الإهلاك فقال ابن عباس : المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهي وسحول قريتان باليمن ينسب إليهما الثياب .

(94/507)

وفي الحديث : "كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين" وروى : " حضوريين بعث الله إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم" وروى : "أنه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء " فندموا واعترفوا بالخطأ ، وقال الحسن : المراد عذاب الاستئصال ، واعلم أن هذا أقرب لأن إضافة ذلك إلى الله تعالى أقرب من إضافته إلى القاتل ، ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بأنها إحدى القرى التي أرادها الله تعالى بهذه الآية ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا

في ديارهم ، والركض ضرب الدابة بالرجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اركض برِجْلِكَ ﴾ فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ، ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين ، أما قوله : ﴿ لاَ تَرْكُضُواْ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : القول محذوف ، فإن قلت من القائل قلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين ، أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل ، أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم ، أما قوله : ﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ومساكنكم ﴾ أي من العيش والرفاهية والحال الناعمة ، والإتراف إبطار النعمة وهي الترفه ، أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ فهو تهكم بهم وتوبيخ ، ثم فيه وجوه : أحدها : أي ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .

(95/507)

وثانيها : ارجعوا كما كنتم في مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين .

وثالثها : تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات ويستعينون بآرائكم .

ورابعها : يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ ، أما قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ فقال صاحب " الكشاف " تلك إشارة إلى ﴿ يا ويلنا ﴾ لأنها عدوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم ، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] فإن قلت : لم سميت دعوى ؟ قلت : لأنهم كانوا دعوا بالويل : ﴿ فَقَالُواْ يا ويلَنَا ﴾ أي يا ويل احضر فهذا وقتك ، وتلك مرفوع أو منصوب إسماً أو خبراً وكذلك : ﴿ كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾ قال المفسرون : لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] أما قوله : ﴿ حتى جعلناهم حَصِيداً خامدين ﴾ فالحصيد الزرع المحصود أي جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم ، كما تقول جعلناهم رماداً أي مثل الرماد فإن قيل : كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل ، قلت : حكم الاثنين الأخيرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين ، والمراد أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما

يجف الحصيد ، وخمدوا كما تخمد النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 127.125﴾

(96/507)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ الآية .

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : فيه حديثكم ، قاله مجاهد .

الثاني : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم ، قاله سفيان .

الثالث : شرفكم إن تمسكتم به وعملتم بما فيه ، قاله ابن عيسى .

الرابع : ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم .

الخامس : العمل بما فيه حياتكم ، قاله سهل بن عبد الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ أي عاينوا عذابنا .

﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من القرية .

الثاني : من العذاب ، والركض : الإسراع .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي نعمكم ، والمترف المنعم .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لعلكم تسألون عن دنياكم شيئاً ، استهزاء بهم ، قاله قتادة .

الثاني : لعلكم تقنعون بالمسألة ، قاله مجاهد .

الثالث : لتسألوا عما كنتم تعملون ، قاله ابن بحر .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ يعني ما تقدم ذكره من قولهم ﴿ يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ .

﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : بالعذاب ، قاله الحسن .

الثاني : بالسيف ، قال مجاهد : حتى قتلهم بختنصر .

والحصيد قطع الاستئصال كحصاد الزرع . والخمود : الهمود كخمود النار إذا أطفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفىء تشبيهاً بانطفاء النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(97/507)

وقال ابن عطية :

ثم وبخهم تعالى بقوله : ﴿ لقد أنزلنا ﴾ الآية

و" الكتاب " القرآن . وقوله تعالى : ﴿ فيه ذكركم ﴾ يحتمل أن يكون في الذكر الذي أنزله الله تعالى إليكم بأمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه ، فأضاف الذكر إليهم حيث هو في أمرهم ويحتمل أن يريد فيه شرفكم وذكركم آخر الآية . كما تذكر عظام الأُمور ، وفي هذا تحريض ثم تأكد التحريض بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وحركهم ذلك إلى النصر ، ثم مثل لهم على جهة التوعد بمن سلف من الأُمم المعذبة ، و ﴿ كم ﴾ للتكثير وهي في موضع نصب ب ﴿ قصمنا ﴾ ومعناه أهلكنا ، وأصل القصم الكسر في الأجرام فإذا استعير للقوم أو القرية ونحوه فهو ما يشبه الكسر وهو إهلاكهم وأوقع هذه الأمور على " القرية " والمراد أهلها وهذا مهيع كثير ، ومنه ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ [الأنبياء : 6] وغيره وقوله تعالى : ﴿ وأنشأنا ﴾ أي خلقنا وبثثنا أُمة أُخرى غير المهلكة ، وقوله تعالى : ﴿ فلما أحسوا ﴾ وصف عن قرية من القرى المجملة أولاً قيل كانت باليمن تسمى حصورا بعث الله تعالى إلى أهلها رسولاً فقتلوه ، فأرسل الله تعالى بخت نصر صاحب بني إسرائيل فهزموا جيشه مرتين ، فنهض في الثالثة بنفسه فلما مزقهم وأخذ القتل فيهم ركضوا هاربين ، ويحتمل أن لا يريد بالآية قرية بعينها وأنه واصف حال كل قرية من القرى المعذبة وأن أهل كل قرية كانوا إذا أحسوا العذاب من أي نوع كان أخذوا في الفرار . و ﴿ أحسوا ﴾ باشروه

بالحواس، و" الركض " تحريك القدم على الصفة المعهودة، فالفار والجاري بالجملة راكض إما دابة وإما الأرض تشبيهاً بالدابة.

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾

(98/507)

يحتمل قوله تعالى: ﴿ لا تركضوا ﴾ إلى آخر الآية أن يكون من قول رجال بخت نصر على الرواية المتقدمة فالمعنى على هذا أنهم خدعوهم واستهزؤوا بهم بأن قالوا للهاربين منهم لا تفروا ﴿ وارجعوا ﴾ إلى مواضعكم ﴿ لعلكم تسألون ﴾ صلحاً أو جزية أو أمراً يتفق عليه، فلما انصرفوا أمر بخت نصر أن ينادي فيهم يا لثارات النبي المقتول فقتلوا بالسيف عن آخرهم ع، هذا كله مروي، ويحتمل أن يكون ﴿ لا تركضوا ﴾ إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب، على التأويل الآخر أن الآيات وصف قصة كل قرية وأنه لم يرد تعيين حصورا ولا غيرها، فالمعنى على هذا أن أهل هذه القرية كانوا باغترارهم يرون أنهم من الله تعالى بمكان وأنه لو جاءهم عذاب أو أمر لم ينزل بهم حتى يخاصموا أو يسألوا عن وجع تكذيبهم لنبيهم فيحتجون هم عند ذلك بحجج تنفعهم في ظنهم، فلما نزل العذاب دون هذا الذي أملوه وركضوا فارين نادتهم الملائكة على وجه الهزء بهم ﴿ لا تركضوا

وارجعوا ﴾ ﴿ لعلكم تسألون ﴾ كما كنتم تطمعون بسفه آرائكم ، ثم يكون قوله ﴿ حصيداً ﴾ أي بالعذاب تركضوا كالحصيد ، و" الإتراف " التنعيم ، و﴿ دعواهم ﴾ معناه دعاؤهم وكلامهم أي لم ينطقوا بغير التأسف ، والحصيد يشبه بحصيد الزرع المنجل الذي ردهم الهلاك كذلك ، و﴿ خامدين ﴾ أي موتى دون أزواج مشبهين بالنار إذا طفيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(99/507)

وقال ابن الجوزى :

ثم ذكر منّته عليهم بالقرآن فقال : ﴿ لقد أنزلنا إِليكم كتاباً فيه ذِكْرُكم ﴾ ،

وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فيه شرفكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فيه دِينكم ، قاله الحسن ، يعني : فيه ما تحتاجون إِليه من أمر دينكم .

والثالث : فيه تذكرة لكم لِمَا تلقَونه من رَجعة أو عذاب ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما فضَّلْتُكم به على غيركم .

ثم خوَّفهم فقال : ﴿ وكم قصمنا ﴾ قال المفسرون واللغويون : معناه : وكم أهلكنا ،

وأصل القصم : الكسر .

وقوله : ﴿ كانت ظالمة ﴾ ، أي : كافرة ، والمراد : أهلها .

﴿ فلما أَحَسُّوا بأسنا ﴾ أي : رأَوا عذابنا بحاسّة البصر ﴿ إِذا هم منها يَرْكُضون ﴾ أي : يَعْدُون ، وأصل الرَّكْض : تحريكُ الرِّجلين ، يقال : رَكَضْتُ الفَرَس : إِذا أَعْدَيته بتحريك رِجليكَ فعدا .

قوله تعالى : ﴿ لا تَرْكُضوا ﴾ قال المفسرون : هذا قول الملائكة لهم : ﴿ وارجعوا إِلى ما أُترفتم فيه ﴾ أي : إِلى نعَمكم التي أترفتْكم ، وهذا توبيخ لهم .

وفي قوله : ﴿ لعلكم تُسأَلون ﴾ قولان .

أحدهما : تُسأَلون من دنياكم شيئاً ، استهزاءً بهم ، قاله قتادة .

والثاني : تُسأَلون عن قتل نبيّكم ، قاله ابن السائب .

فلما أيقنوا بالعذاب ﴿ قالوا يا ويلنا إِنَّا كنّا ظالمين ﴾ بكفرنا ، وقيل : بتكذيب نبيّنا .

﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ ، أي : ما زالت تلك الكلمة التي هي "يا ويلنا إِنَّا كنّا ظالمين" قولهم يردِّدونها ﴿ حتى جعلناهم حصيداً ﴾ بالعذاب ، وقيل : بالسيوف ﴿ خامدين ﴾ ، أي : ميتين كخمود النار إِذا طُفِئَتْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير ـ 5 ص ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾

يريد مدائن كانت باليمن .

وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مَهْدَم ، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له : ضنن كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام ، وبعد مئين من السنين من مدة سليمان عليه السلام ، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرَّس في ذلك التاريخ نبياً لهم اسمه حنظلة بن صفوان ، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن ايت بختنصر فأعلمه أني قد سلطته على أرض العرب ، وأني منتقم بك منهم ، وأوحى الله إلى أرميا أن احمل مَعَدّ بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كي لا تصيبه النقمة والبلاء معهم ، فإني مستخرج من صلبه نبياً في آخر الزمان اسمه محمد ، فحمل مَعَدّاً وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوّج امرأة اسمها معانة ؛ ثم إن بختنصر نهض بالجيوش ، وكمن للعرب في مكان وهو أوّل من اتخذ المكامن فيما ذكروا ثم شنّ الغارات على حَضُور فقَتَل وسَبَى وخرّب العامر ، ولم يترك بحَضُور أثراً ، ثم انصرف راجعاً إلى السواد .

و"كَمْ" في موضع نصب ب"قصمنا" .

والقَصْم الكسر ؛ يقال : قَصمتُ ظهر فلان وانقصمت سنّه إذا انكسرت ، والمعنيّ به هاهنا الإهلاك .

وأما الفَصْم (بالفاء) فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ؛ قال الشاعر :

كأنّهُ دُمْلُجٌ من فِضةٍ نَبَهُ . . .

في مَلْعَبٍ من عَذَارَى الحيِّ مَفْصُومُ

ومنه الحديث : "فيُفْصِم عنه وإن جبينه ليتفصّد عَرَقاً" وقوله : ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ أي كافرة ؛ يعني أهلها .

والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان .

﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ﴿ قَوْماً آخَرِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ ﴾ أي رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منه ضعفاً .

وقال الأخفش : "أحسّوا" خافوا وتوقعوا .

﴿ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون ويفرّون .

والركض العدو بشدة الوطء .

والركض تحريك الرِّجل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ [ص : 42] وركضت الفرس برجلي استحثته ليعدو ثم كثر حتى قيل رَكَض الفرسُ إذا عَدَا وليس بالأصل ، والصواب رُكِض الفرسُ على ما لم يسمّ فاعله فهو مركوض .

﴿ لاَ تَرْكُضُواْ ﴾ أي لا تفرّوا .

وقيل : إن الملائكة نادتهم لما انهزموا استهزاء بهم وقالت : "لا تركضوا" .

﴿ وارجعوا إلى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أُترف على فلان أي وُسّع عليه في معاشه .

وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال : ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [المؤمنون : 33] .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم ؛ استهزاء بهم ؛ قاله قتادة .

وقيل : المعنى "لَعَلَّكُمْ" عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به .

وقيل : المعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم ؛ قيل لهم ذلك استهزاء وتقريعاً وتوبيخاً .

﴿ قَالُواْ ياويلنآ ﴾ لما قالت لهم الملائكة : "لا تركضوا" ونادت يا لثارات الأنبياء ! ولم يروا شخصاً يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذي سلط عليهم عدوهم بقتلهم النبي الذي بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا : ﴿ ياويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا

ينفع الاعتراف .

﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي لم يزالوا يقولون : ﴿ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

﴿ حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً ﴾ أي بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ؛ قاله مجاهد .

وقال الحسن : أي بالعذاب .

﴿ خَامِدِينَ ﴾ أي ميتين .

والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفىء تشبيهاً بانطفاء النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(102/507)

وقال أبو حيان :

ولما توعدهم في هذه الآية أعقب ذلك بوعده بنعمته عليهم فقال ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ والكتاب هو القرآن .

وعن ابن عباس : ﴿ ذكركم ﴾ شرفكم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، وعن الحسن ذكر دينكم ، وعن مجاهد فيه حديثكم ، وعن سفيان مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم .

وقيل : تذكرة لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب .

وقال صاحب التحرير : الذي يقتضيه سياق الآيات أن المعنى فيه ذكر مشائكم ومثالبكم وما عاملتهم به أنبياء الله من التكذيب والعناد ، فعلى هذا تكون الآية ذماً لهم وليست من تعداد النعم عليهم ، ويكون الكلام على سياقه ويكون معنى قوله ﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إنكاراً عليهم على إهمالهم المتدبر والتفكر المؤديين إلى اقتضاء الغفلة .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يريد فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما نذكر عظام الأمور ، وفي هذا تحريض ثم أكد التحريض بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وحركهم بذلك إلى النظر .

وقال الزمخشري نحوه قال : ﴿ ذكركم ﴾ شرفكم وصيتكم كما قال ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أو موعظتكم أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء ، وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾

لما رد الله تعالى عليهم ما قالوه بالغ تعالى في زجرهم بذكر ما أهلك من القرى ، فقال : ﴿ وكم قصمنا ﴾ والمراد أهلها إذ لا توصف القرية بالظلم كقوله ﴿ من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ قال ابن عباس : الإنشاء إيجاد الشيء من غير سبب أنشأه فنشأ وهو ناشىء

والجمع نشاء كخدم ، والقصم أفظع الكسر عبر به عن الإهلاك الشديد ﴿ وكم ﴾ تقتضي التكثير ، فالمعنى كثيراً من أهل القرى أهلكنا إهلاكاً شديداً مبالغاً فيه .

(103/507)

وما روي عن ابن عباس أنها حضوراء قرية باليمن ، وعن ابن وهب عن بعض رجاله أنهما قريتان باليمن بطر أهلهما فيحمل على سبيل التمثيل لا على التعيين في القرية ، لأن ﴿ كم ﴾ تقتضي التكثير .

ومن حديث أهل حضوراء أن الله بعث إليهم نبياً فقتلوه ، فسلط الله عليهم بخت نصر كما سلطه على أهل بيت المقدس بعث إليهم جيشاً فهزموه ، ثم بعث آخر فهزموه ، ثم خرج إليهم بنفسه فهزمهم في الثالثة ، فلما أخذ القتل فيهم ركضوا هاربين .

﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي باشروه بالإحساس والضمير في ﴿ أحسوا ﴾ عائد على أهل المحذوف من قوله ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ ولا يعود على قوله ﴿ قوماً آخرين ﴾ لأنه لم يذكر لهم ذنب يركضون من أجله ، والضمير في ﴿ منها ﴾ عائد على القرية ، ويحتمل أن يعود على ﴿ بأسنا ﴾ لأنه في معنى الشدة ، فأنث على المعنى ومن على هذا السبب ، والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين

منهزمين .

قيل : ويجوز أن شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فهم ﴿ يركضون ﴾ الأرض بأرجلهم ، كما قال ﴿ اركض برجلك ﴾ وجواب لما ﴿ إذا ﴾ الفجائية وما بعدها ، وهذا أحد الدلائل على أن لما في هذا التركيب حرف لا ظرف ، وقد تقدم لنا القول في ذلك .

(104/507)

وقوله : ﴿ لا تركضوا ﴾ قال ابن عطية : يحتمل أن يكون من قول رجال بخت نصر على الرواية المتقدمة ، فالمعنى على هذا أنهم خدعوهم واستهزؤا بهم بأن قالوا للهاربين منهم : لا تفروا وارجعوا إلى منازلكم ﴿ لعلكم تسألون ﴾ صلحاً أو جزية أو أمراً يتفق عليه ، فلما انصرفوا أمر بخت نصر أن ينادي فيهم يا لثارات النبيّ المقتول فقتلوا بالسيف عن آخرهم ، هذا كله مروي ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لا تركضوا ﴾ إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب ، وصف قصة كل قرية وأنه لم يرد تعيين حضوراء ولا غيرها ، فالمعنى على هذا أن أهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أنهم من الله بمكان وأنه لو جاءهم عذاب أو أمر لم ينزل بهم حتى يتخاصموا ويسألوا عن وجه تكذيبهم لنبيهم فيحتجون هم عند ذلك

بحجج تنفعهم في ظنهم ، فلما نزل العذاب دون هذا الذي أملوه وركضوا فارين نادتهم الملائكة على وجه الهزء بهم .

﴿ لا تركضوا وارجعوا ﴾ ﴿ لعلكم تسألون ﴾ كما كنتم تطمعون لسفه آرائكم .

وقال الزمخشري : يحتمل أن يكون يعني القائل بعض الملائكة ، أو من ثم من المؤمنين ، أو يجعلون خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل ، أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم .

(105/507)

﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ من العيش الرافه والحال الناعمة ، والإتراف إبطار النعمة وهي الترفة ﴿ لعلكم تسألون ﴾ غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، أو ﴿ ارجعوا ﴾ واجلسوا كما كنتم في مجالسكم وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ، ويقولوا لكم : بم تأمرون وماذا ترسمون ، وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين ، أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ويستضيئون بآرائكم أو يسألكم الوافدون

عليكم والطماع ، ويستمطرون سحائب أكفكم ويميرون إخلاف معروفكم وأياديكم إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء الناس وطلب الثناء ، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ انتهى .

ونداء الويل هو على سبيل المجاز كأنهم قالوا : يا ويل هذا زمانك ، وتقدم تفسير الويل في البقرة .

والظلم هنا الإشراك وتكذيب الرسل وإيقاع أنفسهم في الهلاك ، واسم ﴿ زالت ﴾ هو اسم الإشارة وهو ﴿ تلك ﴾ وهو إشارة إلى الجملة المقولة أي فما زالت تلك الدعوى ﴿ دعواهم ﴾ .

قال المفسرون : فما زالوا يكررون تلك الكلمة فلم تنفعهم كقوله ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ والدعوى مصدر دعا يقال : دعا دعوى ودعوة كقوله ﴿ وآخر دعواهم ﴾ لأن المويل كأنه يدعو الويل .

وقال الحوفي : وتبعه الزمخشري وأبو البقاء : ﴿ تلك ﴾ اسم ﴿ زالت ﴾ و﴿ دعواهم ﴾ الخبر ، ويجوز أن يكون ﴿ دعواهم ﴾ اسم ﴿ زالت ﴾ و﴿ تلك ﴾ في موضع الخبر انتهى .

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء قاله الزجاج قبلهم ، وأما أصحابنا المتأخرون فاسم كان وخبرها مشبه بالفاعل والمفعول ، فكما لا يجوز في باب الفاعل والمفعول إذا ألبس أن يكون المتقدم الخبر والمتأخر الاسم لا يجوز ذلك في باب كان ، فإذا قلت : كان موسى صديقي لم يجز في موسى إلى أن يكون اسم كان وصديقي الخبر ، كقولك : ضرب موسى عيسى ، فموسى الفاعل وعيسى المفعول ، ولم ينازع في هذا من متأخري أصحابنا إلاّ أبو العباس أحمد بن عليّ عُرِّف بابن الحاج وهو من تلاميذ الأستاذ أبو عليّ الشلوبين ونبهائهم ، فأجاز أن يكون المتقدم هو المفعول والمتأخر هو الفاعل وأن ألبس فعلى ما قرره جمهور الأصحاب يتعين أن يكون ﴿ تلك ﴾ اسم ﴿ زالت ﴾ و﴿ دعواهم ﴾ الخبر .

وقوله : ﴿ حصيداً ﴾ أي بالعذاب تركوا كالصحيد ﴿ خامدين ﴾ أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا طفئت و﴿ حصيداً ﴾ مفعول ثان .

قال الحوفي : و﴿ خامدين ﴾ نعت لحصيداً على أن يكون ﴿ حصيداً ﴾ بمعنى محصودين يعني وضع المفرد ويراد به الجمع ، قال : ويجوز أن يجعل ﴿ خامدين ﴾ حالاً من الهاء والميم .

وقال الزمخشري : ﴿ جعلناهم ﴾ مثل الحصيد شبههم في استئصالهم واصطلامهم كما تقول : جعلناهم رماداً أي مثل الرماد ، والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان

بعده كانا خبرين له ، فلما دخل عليهما جعل نصبهما جميعاً على المفعولية .

فإن قلت : كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل ؟ قلت : حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد لأن معنى قولك : جعلته حلواً حامضاً جعلته للطعمين ، وكذلك معنى ذلك ﴿ جعلناهم ﴾ جامعين لمماثلة الحصيد والخمود ، والخمود عطف على المماثلة لا على الحصيد انتهى . انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(107/507)

وقال أبو السعود :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتحقيق حقيةِ القرآنِ العظيم الذي ذُكر في صدر السورةِ الكريمةِ إعراضُ الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤُهم به وتسميتُهم تارةً سحراً وتارة أضغاثَ أحلام وأخرى مفترًى وشعراً ، وبيانُ علوِّ رتبته إثرَ تحقيق رسالتِه صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسلِ الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمي إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذاناً بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكيرِ ، أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشرَ قريش ﴿ كتاباً ﴾ عظيمَ الشأن نيِّر البرهان وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ

ذِكْرُكُمْ ﴾ صفةٌ لكتاباً مؤكدةٌ لما أفاده التنكيرُ التفخيميُّ من كونه جليلَ المقدار بأنه جميلُ الآثار مستجلبٌ لهم منافعَ جليلةً، أي فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وقيل: ما تحتاجون إليه في أمور دينكم ودنياكم، وقيل: فيه ما تطلُبون به حَسَنَ الذكرِ من مكارم الأخلاق، وقيل: فيه موعظتُكم وهو الأنسب بسباق النظمِ الكريم وسياقِه فإن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إنكارٌ توبيخيٌّ فيه بعثٌ لهم على التدبر في أمر الكتابِ والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظِ والزواجر التي من جملتها القوارعُ السابقةُ واللاحقة، والفاءُ للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلامُ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمرَ كذلك؟ أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر.

(108/507)

وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ نوعُ تفصيلٍ لإجمالِ قوله تعالى: ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ وبيانٌ لكيفية إهلاكِهم وسببه وتنبيهٌ على كثرتهم، وكم خبريةٌ مفيدةٌ للتكثير محلُّها النصبُ على أنها مفعولٌ لقصمنا ومن قرية تمييزٌ، وفي لفظ القصْمِ الذي هو عبارةٌ عن الكسر بإبانة أجزاءِ المكسور وإزالةِ تأليفها بالكلية من الدِلالة على قوة الغضب وشدة السُّخط ما لا يخفى وقوله تعالى: ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ في محل الجرِّ على أنها صفةٌ لقرية

بتقدير مضافٍ ينبئ عنه الضميرُ الآتي ، أي وكثيراً قصمنا من أهل قريةٍ كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأْبكم ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ أي بعد إهلاكها ﴿ قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ أي ليسوا منهم نسباً ولا ديناً ، ففيه تنبيهٌ على استئصال الأولين وقطعِ دابرهم بالكلية وهو السرُّ في تقديم حكاية إنشاءِ هؤلاء على حكاية مبادي إهلاكِ أولئك بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا ﴾ أي أدركوا عذابَنا الشديدَ إدراكاً تاماً كأنه إدراكُ المشاهَد المحسوسِ ﴿ إِذَا هُمْ مّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ يهرُبون مسرعين راكضين دوابَّهم أو مُشبَّهين بهم في فرْط الإسراع ﴿ لاَ تَرْكُضُواْ ﴾ أي قيل لهم بلسان الحالِ أو بلسان المقال من الملَك أو ممن ثمّةَ من المؤمنين بطريق الاستهزاءِ والتوبيخِ : لا تركُضوا ﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التنعم والتلذّذ ، والإترافُ إبطارُ النعمة ﴿ ومساكنكم ﴾ التي كنتم تفخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ تُقصَدون للسؤال والتشاور والتدبير في المُهمّات والنوازل ، أو تُفقّدون إذا رُئيت مساكنُكم خاليةً وتُسألون أين أصحابُها ، أو يسألكم الوافدون نوالَكم على أنهم كانوا أسخياءَ ينفقون أموالَهم رياءً ، أو بخلاً فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم .

﴿ قَالُوا ﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب ﴿ يا ويلنا ﴾ أي هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي مستوجبين للعذاب ، وهذا اعترافٌ منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندمٌ عليه حين لم ينفعْهم ذلك .

﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي فما زالوا يرددون تلك الكلمةَ ، وتسميتُها دعوى أيْ دعوةً لأن المُوَلول كأنه يدعو الويلَ قائلاً : يا ويل تعالَ فهذا أوانُك ﴿ حتى جعلناهم حَصِيداً ﴾ أي مثلَ الحصيدِ وهو المحصودُ من الزرع والنبت ولذلك لم يُجمع ﴿ خامدين ﴾ أي ميتين من خمَدت النارُ إذا طَفِئت وهو مع حصيداً في حيز المفعول الثاني للجعْل ، كقولك : جعلتُه حُلْواً حامضاً ، والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيدِ والخمود ، أو حالٌ من الضمير المنصوب في جعلناهم أو من المستكنّ في حصيداً أو صفة لحصيداً لتعدّده معنًى لأنه في حكم جعلناهم أمثالَ حصيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(110/507)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتاباً ﴾

كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذي ذكر في صدر السورة الكريمة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به واضطرابهم في أمره وبيان علو مرتبته إثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الركام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمي إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذاناً بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكير والخطاب لقريش، وجوز أن يكون لجميع العرب وتنوين كتاباً للتعظيم والتفخيم أي كتاباً عظيم الشأن نير البرهان، وقوله عز وجل: ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمي من كونه جليل القدر بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع ﴿ جليلة ﴾ والمراد بالذكر كما أخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس الصيت والشرف مجازاً أي فيه ما يوجب الشرف لكم لأنه بلسانكم ومنزل على نبي منكم تتشرفون بشرفه وتشتهرون بشهرته لأنكم حملته والمرجع في حل معاقده وجعل ذلك فيه مبالغة في سببيته له، وعن سفيان أنه مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال أي فيه ما يحصل به الذكر أي الثناء الحسن وحسن الأحدوثة من مكالام الأخلاق ومحاسن الأعمال إطلاقاً لاسم المسبب على السبب فهو مجاز عن ذلك أيضاً.

وأخرج غير واحد عن الحسن أن المراد فيه ما تحتاجون إليه في أمور دينكم، وزاد بعض ودنياكم، وقيل الذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول، والمعنى فيه موعظتكم، ورجح ذلك بأنه الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه فإن قوله تعالى: ﴿ الكتاب أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب والتدبر فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة.

(111/507)

وقال صاحب التحرير: الذي يقتضيه سياق الآيات إن المعنى فيه ذكر فيائحكم ومثالبكم وما عاملتم به أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام من التكذيب والعناد.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إنكار عليهم في عدم تفكرهم مؤد إلى التنبه عن سنة الغفلة انتهى، وفيه بعد، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي إلا تتفكرون فلا تعقلون ان الأمر كذلك أولا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر.

وقوله عز وجل: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ [الأنبياء: 9] وبيان لكيفية اهلاكهم وتنبيه على كثرتهم، فكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول ﴿ لقصمنا ﴾ و﴿ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ تمييز، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء واذهاب التئامها بالكلية كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿ كَانَتْ ظالمة ﴾ صفة ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ وكان الأصل على ما قيل أهل

قرية كما ينبىء عنه الضمير الآتي إن شاء الله تعالى فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فوصف بما هو من صفات المضاف أعني الظلم فكأنه قيل وكثيراً قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها مثلكم .

وفي الكشاف المراد بالقرية أهلها ولذلك وصفت بالظلم فيكون التجوز في الطرف ، وقال بعضهم : لك أن تقول وصفها بذلك على الإسناد المجازي وقوله : ﴿ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ كناية عن قصم أهلها للزوم اهلاكها اهلاكهم فلا مجاز ولا حذف ، وأياً ما كان فليس المراد قرية معينة ، وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن الكلبي أنها حضور قرية باليمن .

(112/507)

وأخرج ابن مردويه من طريقه عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال بعث الله تعالى نبينا من حمير يقال له شعيب فوثب إليه عبد فضربه بعصا فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ الخ ؛ وفي البحر أن هؤلاء كانوا بحضور وأن الله تعالى بعث إليهم نبينا فقتلوه فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس بعث إليهم جيشاً فهزموه ثم بعث إليهم آخر فهزموه فخرج إليهم

بنفسه فهزمهم وقتلهم ، وعن بعضهم أنه كان اسم هذا النبي موسى بن ميشا ، وعن ابن وهب أن الآية في قريتين باليمن إحداهما حضور والأخرى قلابة بطر أهلهما فاهلكهم الله تعالى على يد بختنصر ، ولا يخفى أنه مما يأباه ظاهر الآية والقول بأنها من قبيل قولك كم أخذت من دارهم زيد على أن الجار متعلق بأخذت والتمييز محذوف أي كم درهم أخذت من دراهم زيد ، ويقال هنا إنها بتقدير كم ساكن قصمنا من ساكني قرية أو نحو ذلك مما لا ينبغي أن يلتفت إليه إلا بالرد عليه ، فلعل ما في الروايات محمول على سبيل التمثيل ، ومثل ذلك غير قليل ، وفي قوله سبحانه : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ أي بعد اهلاك أهلها لا بعد تلك الفعلة كما توهم ﴿ قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ أي ليسوا منهم في شيء تنبيه على استئصال الأولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر في تقديم حكاية إنشاء هؤلاء على حكاية مبادي اهلاك أولئك

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ فضمير الجمع للأهل .

لا لقوم آخرين إذ لا ذنب لهم يقتضي ما تضمنه هذا الكلام ، والإحساس الإدراك بالحاسة أي فلما أدركوا بحاستهم عذابنا الشديد ، ولعل ذلك العذاب كان مما يدرك بإحدى الحواس

الظاهرة ، وجوز أن يكون البأس استعارة مكنية ويكون الإحساس تخييلاً وأن يكون الإحساس مجازاً عن مطلق الإدراك أي فلما أدركوا ذلك ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا ﴾ أي من القرية فمن ابتدائية أو من البأس والتأنيث لأنه في معنى النقمة والبأساء فمن تعليلية وهي على الاحتمالين متعلقة بقوله تعالى : ﴿ يَرْكُضُونَ ﴾ وإذا فجائية ، والجملة جواب لما ، وركض من باب قتل بمعنى ضرب الدابة برجله وهو متعد ، وقد يرد لازماً كركض الفرس بمعنى جرى كما قاله أبو زيد ولا عبرة بمن أنكره ، والركض هنا كناية عن الهرب أي فإذا هم يهربون مسرعين راكضين دوابهم .

وجوز أن يكون المعنى مشبهين بمن يركض الدواب على أن هناك استعارة تبعية ولا مانع من حمل الكلام على حقيقته على ما قيل :

(114/507)

﴿ لاَ تَرْكُضُواْ ﴾ أي قيل لهم ذلك ، والقائل يحتمل أن يكون ملائكة العذاب أو من كان ثمة من المؤمنين قالوا ذلك على سبيل الهزء بهم ، وقال ابن عطية : يحتمل على الرواية السابقة أن يكون القائل من جيش بختنصر وأراد بذلك خدعهم والاستهزاء بهم ، وقيل يحتمل أن يكون المراد يجعلون خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل على معنى أنهم بلغوا في الركض

والفرار من العذاب بعد الاتراف والتنعم بحيث من رآهم قال لا تركضوا ﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من النعم والتلذذ والاتراف إبطار النعمة وفي ظرفية، وجوز كونها سببية ﴿ ومساكنكم ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ ﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل أو تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومنازلكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو يسألكم حشمكم وعبيدكم فيقولوا لكم بم تأمرون وما ذا ترسمون وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قبل أو يسألكم الوافدون نوالكم اما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالكم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم، وقيل على الرواية المتقدمة المعنى لعلكم تسألون صلحاً أو جزية أو أمراً تتفقون مع الملك عليه، وقيل المراد بمساكنهم النار فيكون المراد بارجعوا إلى مساكنكم ادخلوا النار تهكماً، والمراد بالسؤال السؤال عن الأعمال أو المراد به العذاب على سبيل المجاز المرسل بذكر السبب وإرادة المسبب أي ادخلوا النار كي تسألوا أو تعذبوا على ظلمكم وتكذيبكم بآيات الله تعالى وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى.

﴿ قَالُواْ ﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا استيلاء العذاب ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ يا هلاكنا ﴿ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ بآيات الله تعالى مستوجبين للعذاب ، وهذا اعتراف منهم بالظلم واستتباعه للعذاب وندم عليه حين لا ينفعهم ذلك ، وقيل على الرواية السالفة إن هذا الندم والاعتراف كان منهم حين أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء يالثارات الأنبياء .

﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ ﴾ أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة ، وتسميتها دعوى بمعنى الدعوة فإنه يقال دعا دعوى ودعوة لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلاً يا ويل تعال فهذا أوانك .

وجوز الحوفي .

والزمخشري .

وأبو البقاء كون ﴿ طس تِلْكَ ﴾ اسم زال و ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ خبرها والعكس ، قال أبو حيان : وقد قال ذلك قبلهم الزجاج وأما أصحابنا المتأخرون فعلى أن اسم كان وخبرها مشبه بالفاعل والمفعول فكما لا يجوز في الفاعل والمفعول التقدم والتأخر إذا أوقع ذلك في اللبس لعدم ظهور الإعراب لا يجوز في باب كان ولم ينازع فيه أحد إلا أبو العباس أحمد بن الحاج من نبهاء تلاميذ الشلوبين اه .

وقال الفاضل الخفاجي : إن ما ذكره ابن الحاج في كتاب المدخل أنه ليس فيه التباس وأنه من عدم الفرق بين الالتباس وهو أن يفهم منه خلاف المراد والإجمال وهو أن لا يتعين فيه أحد

الجانبين .

ولأجل هذا جوزه ، وما ذكره محل كلام وتدبر .

وفي حواشي الفاضل البهلوان على تفسير البيضاوي إن هذا في الفاعل والمفعول وفي المبتدأ والخبر إذا انتفى الإعراب ، والقرينة مسلم مصرح به ، وأما في باب كان وأخواتها فغير مسلم اه .

(116/507)

والظاهر أنه لا فرق بين باب كان وغيرها مما ذكر وإن سلم عدم التصريح لاشتراك ما ذكروه علة للمنع ثم إن ذلك إلى الالتباس أقرب منه إلى الإجمال لا سيما في الآية في رأي فافهم ﴿ حتى جعلناهم حَصِيداً خامدين ﴾ أي إلى أن جعلناهم بمنزلة النبات المحصود والنار الخامدة في الهلاك قاله العلامة الثاني في "شرح المفتاح" ثم قال في ذلك استعارتان بالكناية بلفظ واحد وهو ضمير ﴿ جعلناهم ﴾ حيث شبه بالنبات وبالنار وأفرد بالذكر وأريد به المشبه بهما أعني النبات والنار ادعاءً بقرينة أنه نسب إليه الحصاد الذي هو من خواص النبات والخمود الذي هو من خواص النار ، ولا يجعل من باب التشبيه مثل هم صم بكم عمي لأن جمع ﴿ خامدين ﴾ جمع العقلاء ينافي التشبيه إذ ليس لنا قوم خامدون يعتبر

تشبيه أهل القرية بهم إذ الخمود من خواص النار بخلاف الصمم مثلاً فإنه يجعل بمنزلة هم كقوم صم وكذا يعتبر ﴿ حَصِيداً ﴾ بمعنى محصودين على استواء الجمع والواحد في فعيل بمعنى مفعول ليلاً ثم ﴿ خامدين ﴾ نعم يجوز تشبيه هلاك القوم بقطع النبات وخمود النار فيكون استعارة تصريحية تبعية في الوصفين انتهى ، وكذا في "شرح المفتاح" للسيد السند بيد أنه جوز أن يجعل ﴿ حَصِيداً ﴾ فقط من باب التشبيه بناءً على ما في "الكشاف" أي جعلناهم مثل الحصيد كما تقول جعلناهم رماداً أي مثل الرماد ، وجعل غير واحد إفراد الحصيد لهذا التأويل فإن مثلاً لكونه مصدراً في الأصل يطلق على الواحد وغيره وهو الخبر حقيقة في التشبيه البليغ ويلزم على ذلك صحة الرجال أسد وهو كما ترى ، واعترض على قول الشارحين : إذ ليس لنا الخ بأن فيه بحثاً مع أن مدار ما ذكراه من كون ﴿ خامدين ﴾ لا يحتمل التشبيه جمعه جمع العقلاء المانع من أن يكون صفة للنار حتى لو قيل خامدة كان تشبيهاً ، وقد صرح به الشريف في حواشيه لكنه محل تردد لأنه لما صح الحمل في التشبيه ادعاء فلم لا يصح جمعه لذلك ولولاه لما صحت الاستعارة أيضاً

وذهب العلامة الطيبي والفاضل اليمني إلى التشبيه في الموضعين ففي الآية أربعة احتمالات فتدبر جميع ذلك و ﴿ خامدين ﴾ مع حصيداً في حيز المفعول الثاني للجعل كجعلته حلواً حامضاً ، والمعنى جعلناهم جامعين للحصاد والخمود أو لمماثلة الحصيد والخامد أو لمماثلة الحصيد والخمود أو جعلناهم هالكين على أتم وجه فلا يرد أن الجعل نصب ثلاثة مفاعيل هنا وهو مما ينصب مفعولين أو هو حال من الضمير المنصوب في ﴿ جعلناهم ﴾ أو من المستكن في ﴿ حَصِيداً ﴾ أو هو صفة لحصيداً وهو متعدد معنى ، واعترض بعضهم بأن كونه صفة له مع كونه تشبيهاً أريد به ما لا يعقل يأباه كونه للعقلاء . انتهى ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(118/507)

وقال القاسمى :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

أي : شرفكم وحديثكم الذي تذكرون به فوق شرف الأشراف : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 44] ، وقيل : معنى : ﴿ ذِكْرُكُمْ ﴾ موعظتكم فالذكر بمعنى التذكير

مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ إنكار توبيخيّ ، فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب ، والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له ، بقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي : عذابنا النازل بهم : ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي : يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقال : ﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي : من التنعم والتلذذ وفي ظرفية أو سببية : ﴿ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ أي : التي كثر فيها إسرافهم : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي : تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل .

﴿ قَالُوا ﴾ أي : لما أيقنوا بنزول العذاب : ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي : تلك الكلمة وهي : يا ويلنا دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق : ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً ﴾ أي : كنبات محصود : ﴿ خَامِدِينَ ﴾ أي : هالكين بإخماد نار أرواحهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 188.189 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) ﴾

"كم" هنا للإخبار بعدد كثير، وهي في محل نصب لأنها مفعول "قصمنا" أي قصمنا كثير من القرى التي كانت ظالمة، وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في مواضع كثيرة من كتاب الله. كقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 17]، وقوله: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ [الحج: 45] الآية، وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: 8-9] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ أصل القصم: أفظع الكسر لأنه الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم بالفاء فهو كسر لا يبين تلاؤم الأجزاء بالكلية.

والمراد بالقصم في الآية: الإهلاك الشديد. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) ﴾

استئناف جوابٌ عن قولهم ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] بإيقاظهم إلى أن الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأولون ، وتجهيلاً لألبابهم التي لم تُدرك عِظم الآية التي جاءتهم كما أنبأ بذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان .

وفي ضمير ذلك تحقيق لكون القرآن حقاً ، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عَمُوا عنها فيما حكي عنهم أول السورة بقوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ [الأنبياء : 23] كما أنبأ بذلك ظاهر معنى الآية .

ولقصد هذا الإيقاظ صُدِّرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم كما اقتضته تعدية فعل ﴿ أنزلنا ﴾ بحرف (إلى) شأن تعدية فعل الإنزال أن يكون المجرور بـ "إلى" هو المنزّل إليه فجعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظراً إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم .

وذلك أبلغ من أن يقال : لقد أنزلنا لكم .

وتنكير ﴿ كتاباً ﴾ للتعظيم إيماء إلى أنه جمع خصلتين عظيمتين : كونه كتاب هدى ، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مُدَانِيه .

والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح ، ويطلق على السمعة والصيت كقوله ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكرياء ﴾ [مريم : 2] .

وقد أوثر هذا المصدر هنا وجُعل معرفاً بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاماً موجهاً فيصح قصد المعنيين معاً من كلمة (الذكر) بأن مجيء القرآن مشتملاً على أعظم الهدى ، وهو تذكير لهم بما به نهاية إصلاحهم ، ومجيئه بلغتهم ، وفي قومهم ، وبواسطة واحد منهم ، سمعةٌ عظيمة لهم كما قال تعالى : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء : 195] وقال ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ [البقرة : 151] .

(121/507)

وقد فسر السلف هذه الآية بالمعنيين .

وفي "تفسير الطبري" هنا قال جماعة : معنى "فيه ذكركم" أنه الشرَف ، أي فيه شرفكم .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يريد فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما تذكر عظام الأمور ، وقد فُسر بمثل ذلك قوله تعالى ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] .

وعلى المعنيين يكون لتفريع قوله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أحسنُ موقع لأن الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم متجه على كلا المعنيين فإن من جاءه ما به هديه فلم يهتد يُنكَر عليه سوء عقله ، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به ينكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها كما يكون الفضل في مثله مضاعفاً .

وأيضاً فهو متفرع على الإقناع بإنزال القرآن آية تفوق الآيات التي سألوا مثلها وهو المفاد من الاستئناف ومن تأكيد الجملة بالقسم وحرفِ التحقيق قال تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ في سورة [العنكبوت : 51] ، وذلك لإعجازه اللفظي والمعنوي .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) ﴾

عطف على قوله ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ [الأنبياء : 6] أو على قوله تعالى ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ ، وهو تعريض بالتهديد .

ومناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صدَق رُسُلَه وعْدَه وهو خبر يفيد ابتداءً التنويه بشأن الرسل ونصرَهم وبشأن الذين آمنوا بهم .

وفيه تعريض بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر إهلاك المكذبين له تبعاً لذلك ، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصفِ ما حل بهم ليكون ذلك مقصوداً بذاته ابتداءً اهتماماً به ليَقرع أسماعهم ، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض بقاعدة

قياس المساواة ، وأن الله يُنشىء بعدهم أُمّة مؤمنة كقوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ في سورة [إبراهيم : 19] .

(122/507)

و (كم) اسم ، له حقّ صدر الكلام لأن أصله اسم استفهام عن العدد ، وشاع استعماله للإخبار عن كثرة الشيء على وجه المجاز لأن الشيء الكثير من شأنه أن يُستفهَم عنه ، والتقدير : قصمنا كثيراً من القرى ف (كم) هنا خبرية .

وهي واقعة في محل نصب بفعل ﴿ قصمنا ﴾ .

وفي (كم) الدالة على كثرة العدد إيماء إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلف إهلاك هذه القرى ، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم أي الشرك إيماءٌ إلى سبب الإهلاك فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم ، فيَعلم المشركون التهديد بأن ذلك حالٌّ بهم لا محالة بحكم العموم ، وأن هذا ليس مراداً به قرية معينة ، فما روي عن ابن عباس : أن المراد بالقرية (حَضوراء) بفتح الحاء مدينة باليمن قتلوا نبيئاً اسمه شُعيب بن ذي مهدم في زمن أرمياء نبيء بني إسرائيل فسلط الله عليهم بختنصر فأفناهم .

فإنما أراد أن هذه القرية ممن شملتهم هذه الآية ، والتقدير : قصمنا كثيراً .

وقد تقدم الكلام على قوله تعالى ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ في سورة [الأنعام : 6] .

وأطلق القرية على أهلها كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ .

ووجه اختيار لفظ ﴿ قرية ﴾ هنا نظير ما قدمناه آنفاً في قوله تعالى ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ [الأنبياء : 6] .

وحرف (مِن) في قوله تعالى ﴿ من قرية ﴾ لبيان الجنس ، وهي تدخل على ما فيه معنى التمييز وهي هنا تمييز لإبهام (كم) .

والقصْم : الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع .

واستعير للاستيصال والإهلاك القوي كإهلاك عاد وثمود وسبأ .

وجملة ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ وجملة ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ الخ .

فجملة ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ الخ تفريع على جملة ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ .

وضمير ﴿ منها ﴾ عائد إلى ﴿ قرية ﴾ .

والإحساس : الإدراك بالحس فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.

والبأس : شدة الألم والعذاب .

وحرف (مِن) في قوله منها يركضون ﴾ يجوز أن يكون للابتداء ، أي خارجين منها ، ويجوز أن يكون للتعليل بتأويل (يركضون) معنى (يهربون) ، أي من البأس الذي أحسوا به فلا بدّ من تقدير مضاف ، أي من بأسنا الذي أحسوه في القرية .

وذلك بحصول أشراط إنذار مثل الزلازل والصواعق .

والركض : سرعة سير الفرس ، وأصله الضرب بالرّجل فيسمى به العدو ، لأن العدو يقتضي قوة الضرب بالرّجل وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير الناس على وجه الاستعارة تشبيهاً لسرعة سيرهم بركض الأفراس .

و﴿ منها ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال من الضمير المنفصل المرفوع .

ودخلت (إذا) الفجائية في جواب (لما) للدلالة على أنهم ابتدروا الهروب من شدة الإحساس بالبأس تصويراً لشدة الفزع .

وليست (إذا) الفجائية برابطة للجواب بالشرط لأن هذا الجواب لا يحتاج إلى رابط ، و(إذا) الفجائية قد تكون رابطة للجواب خَلفاً من الفاء الرابطة حيث يحتاج إلى الرابط لأن معنى الفجاءة يصلح للربط ولا يلازمه .

وجملة ﴿ لا تركضوا ﴾ معترضة وهي خطاب للراكضين بتخيل كونهم الحاضرين

المشاهَدين في وقت حكاية قصتهم ، ترشيحاً لِما اقتضى اجتلاب حرف المفاجأة وهذا

كقول مَالك بن الرّيب:

دعَاني الهوى من أهل وُدي وجيرِتي . . .

بذِي الطَبَسيْن فالتفتُّ ورائيا

أي لما دعاه الهوى ، أي ذكّره أحبابَه وهو غازٍ بذي الطّبسين التفتَ وراءه كالذي يدعوه داع

من خلفه فتخيل الهوى داعياً وراءه .

وتكون هذه الجملة معترضة بين جملة ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ وبين جملة ﴿ قالوا يا ويلنا

إنا كنا ظالمين ﴾ .

ويجوز جعل الجملة مقول قول محذوف خوطبوا به حينئذ بأن سمعوه بخلق من الله تعالى أو

من ملائكة العذاب .

وهذا ما فسر به المفسرون ويبعده استبعادُ أن يكون ذلك واقعاً عند كل عذاب أصيبت

به كل قرية .

وأياً ما كان فالكلام تهكم بهم .

والإتراف : إعطاء الترف ، وهو النعيم ورفه العيش ، أي ارجعوا إلى ما أعطيتم من الرفاهية وإلى مساكنكم .

وقوله تعالى ﴿ لعلكم تسألون ﴾ من جملة التهكم .

وذكر المفسرون في معنى ﴿ تُسألون ﴾ احتمالات ستة .

أظهرها : أن المعنى : ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه فلعلكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدَم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك ، وفي هذا تكملة للتهكم .

وجملة ﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ إن جَعَلْتَ جملة ﴿ لا تركضوا ﴾ معترضة على ما قررتُه آنفاً تكون هذه مستأنفة استئنافاً بيانياً عن جملة ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ كأن سائلاً سأل عما يقولونه حين يسرعون هاربين لأن شأن الهارب الفزِع أن تصدر منه أقوال تدل على الفزع أو الندم عن الأسباب التي أحلت به المخاوف فيجاب بأنهم أيقنوا حين يرون العذاب أنهم كانوا ظالمين فيُقرون بظلمهم ويُنشئون التلهف والتندم بقولهم ﴿ يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ .

وإن جَعَلتَ جملة ﴿ لا تركضوا ﴾ مقول قول محذوف على ما ذهب إليه المفسرون كانت جملة ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ جواباً لقول من قال لهم ﴿ لا تركضوا ﴾ على وجه

التهكم بهم ويكون فصل الجملة لأنها واقعة في موقع المحاورة كما بيّناه غير مرة ، أي قالوا : قد عرفنا ذنبنا وحق التهكم بنا .

فاعترفوا بذنبهم .

قال تعالى : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ في سورة [الملك : 11] .

﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) ﴾

(125/507)

تفريع على جملة ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ [الأنبياء : 14] ، فاسم ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى القول المستفاد من قوله تعالى ﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ [الأنبياء : 14] ، وتأنيثه لأنه اكتسب التأنيث من الإخبار عنه بدعواهم ، أي ما زالوا يكررون تلك الكلمة يَدعون بها على أنفسهم .

وهذا الوجه يرجح التفسير الأول لمعنى قوله تعالى ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ [الأنبياء : 13] لأن شأن الأقوال التي يقولها الخائف أن يكررها إذ يغيب رأيه فلا يهتدي للإتيان بكلام آخر ، بخلاف الكلام المسوق جواباً فإنه لا داعي إلى إعادته .

والمعنى : فما زالوا يكررون مقالتهم تلك حتى هلكوا عن آخرهم .

وسمي ذلك القول دعوى لأن المقصود منه هو الدعاء على أنفسهم بالويل ، والدعاء يسمى دعوى كما في قوله تعالى ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ في [سورة يونس : 10] .

أي فما زال يُكرر دعاؤهم بذلك فلم يكفّوا عنه إلى أن صيرناهم كالحصيد ، أي أهلكناهم .

وحرف ﴿ حتى ﴾ مؤذن بنهاية ما اقتضاه قوله تعالى ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ .

والحصيد : فعيل بمعنى مفعول ، أي المحصود ، وهذه الصيغة تلازم الإفراد والتذكير إذا جرت على الموصوف بها كما هنا .

والحَصد : جَزُّ الزرع والنبات بالمنجل لا باليد .

وقد شاع إطلاق الحصيد على الزرع المحصود بمنزلة الاسم الجامد .

والخامد : اسم فاعل من خَمدت النار تخمُد بضم الميم إذا زال لهيبها .

شُبهوا بزرع حُصِد ، أي بعد أن كان قائماً على سوقه خضرا ، فهو يتضمن قبل هلاكهم بزرع في حسن المنظر والطلعة ، كما شبه بالزرع في قوله تعالى : ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ في سورة [الفتح : 29] .

ويقال للناشىء : أنبته الله نباتاً حسناً ، قال تعالى : ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ في سورة [آل عمران : 37] .

فللإشارة إلى الشبهين شَبَه البهجة وشبَه الهلك أوثر تشبيههم حين هلاكهم بالحَصيد .

وكذلك شبهوا حين هلاكهم بالنار الخامدة فتضمن تشبيههم قبل ذلك بالنار المشبوبة في القوة والبأس كما شبه بالنار في قوله تعالى : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ في سورة [المائدة : 64] ، وقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ في سورة [البقرة : 17] .

فحصل تشبيهان بليغان وليسا باستعارتين مكنيتين لأن ذكر المشبه فيهما مانع من تقوّم حقيقة الاستعارة خلافاً للعلاّمتين التفتازاني والجرجاني في "شرحيهما للمفتاح" مُتمسكين بصيغة جمعهم في قوله تعالى ﴿ جعلناهم ﴾ فجعَلا ذلك استعارتين مكنيتين إذ شبهوا بزرع حين انعدامه ونار ذهب قوتُها وحذف المشبهُ بهما ورُمز إليهما بلازم كل منهما وهو الحصد والخمود فكان ﴿ حصيداً ﴾ وصفاً في المعنى للضمير المنصوب في ﴿ جعلناهم ﴾ ، فالحصيد هنا وصف ليس منزلاً منزلة الجامد كالذي في قوله تعالى ﴿ وحَبّ الحصيد ﴾ [ق : 9] ، وبذلك لم يكن قوله تعالى ﴿ حصيداً ﴾ من قبيل التشبيه البليغ إذ لم يشبهوا بحصيد زرع بل أثبت لهم أنهم محصودون استعارة مكنية مثل نظيره في قوله تعالى ﴿ خامدين ﴾ الذي هو استعارة لا محالة كما هو مقتضى مجيئه بصيغة الجمع المذكر

، ومبنى الاستعارة على تناسي التشبيه .

وهذا تكلف منهما ولم أدر ماذا دعاهما إلى ارتكاب هذا التكلف .

وانتصب ﴿ حصيداً خامدين ﴾ على أن كليهما مفعول ثان مكرر لفعل الجَعل كما يخبر عن المبتدأ بخبرين وأكثر ، فإن مفعولي (جعل) أصلهما المبتدأ والخبر وليس ثانيهما وصفاً لأولهما كما هو ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(127/507)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبي : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه ، ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن في القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعي أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (ألم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم

يجدوا فيها مَغْمزاً في رسول الله ؛ لأن العرب في لغتهم وأسلوبهم في الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلّم والسامع ، المتكلّم لا يُفاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمّا السامع فقد يُفاجأ بكلام المتكلم ، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقِظه ويُنبّهه حتى لا يفوته شيء .

وهكذا وُضِعَتْ في اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام في شيء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شيء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم :

أَلاَ هُبّي بِصَحْنِكِ فَاصْبحينا . . . وقول آخر :

أَلاَ أَنعِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ البَالي . . . وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ في العَصْرِ الخالي

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعني : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ . . . ﴾ [هود : 5] .

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 10] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف . أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُرَاد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدي إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التي اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة في القتل هي نفس الدية التي حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ، كثيرون منهم كانوا يُحرِّمون الخمر ولا يشربونها ، هكذا بالفطرة ، وكثيرون كانوا لا يسجدون للأصنام ، إذن : الفطرة السليمة قد تهتدي إلى الحق ، ولا تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى ﴿ ذِكْرُكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 10] شرفكم وصيْتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم ؛ لأن القرآن الذي نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثني عقول الناس جميعاً ، ويثني قلوبهم للغتكم ، ويحثّهم على تعلّمها ومعرفتها والحديث بها ونشرها في الناس ، فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأيُّ شرف بعد هذا ؟ !

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 10] أفلا تُعمِلون عقولكم وتتأملون أن

خيركم في هذا القرآن ، فإنْ كنتم تريدون خُلقاً وديناً ففي القرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففي القرآن ، وأيُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبي عربي ، والقرآن عربي ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ .

(129/507)

قصمنا : القَصْم هو الكَسْر الذي لا جَبْر فيه ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة ، ليأخذوا منها عِبْرة وعِظَة ، فليس بِدعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين ، بل لها سوابق كثيرة في التاريخ .

لذلك قال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا . . . ﴾ [الأنبياء : 11] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التي لا تُعَدُّ ، فاحذروا إنْ لويتم أعناقكم أنْ يُنزل بكم ما نزل بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء : 11] أي : خلف بعدهم خَلْف آخرون . ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ . . . ﴾ .

أي : حين أحسُّوا العذاب ﴿ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء : 12] حتى لا يلحقهم

العذاب . والركْضُ : الجَرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : ركْضُ الدابة . يعني : ضَرْبها برِجله كي تُسرع . ومنها : ﴿ اركض برِجْلِكَ . . . ﴾ [ص : 42] يعني : اضرب الأرض برِجلْك لِتُخرج الماء ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَاردٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] .

وفي هذه الآية مَلْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآني ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ في جلده ، وأراد له ربُّه - عز وجل - الشفاء . فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوا مثلاً البثور والدمامل في الجلد يعالجونها بالمراهم التي يندمِلُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهي فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ، وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة في الجوف .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا . . . ﴾ .

(130/507)

الحق - سبحانه وتعالى - في قصة هؤلاء المكذِّبين قدَّم الغاية من العذاب ، فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ . . . ﴾ [الأنبياء : 11] ثم فصَّل القَصمْ بأنهم لما أحسّوا العذاب تركوا

قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترِفْتم فيه .

والتُّرفُ : هو التنعُّم تقول : ترف الرجل يترف مثل : فرح يفرَح أي : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .

ومنها أيضاً : أترفَهُ الله يعني : غرَّه بالنعيم ؛ ليكون عقاباً له .

فقوله هنا ﴿ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ . . ﴾ [الأنبياء : 13] من أترافه الله يعني : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم ؟

قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .

وقد مثَّلْنا لذلك بأن إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلَم له .

ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام : 44] أعطيناهم الصحة والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

ومَلْمَح آخر في قوله تعالى : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الأنعام : 44] لا لهم كما في : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سيَبْطَرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 13] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم . ﴿ قَالُواْ ياويلنآ . . . ﴾ .

لما أحسَّ المكذِّبون بأْسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿ ياويلنآ . . . ﴾ [الأنبياء : 14] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسي) أو (يا شقائي) وهل أحد ينادي على العذاب أو البُؤْس أو الشقاء ؟ الإنسان لا

ينادي إلا على ما يُفرِح .

فالمعنى : يا ويلتي تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضي إلا أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 14] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا في أننا كفرنا به ، كما قال في آية أُخْرى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحسرتا على مَا فَرَّطَتُ فِي جَنبِ الله . . . ﴾ [الزمر : 56] .

(132/507)

قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 15] أي : قولهم : ﴿ قَالُواْ ياويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 14] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، وأخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، فلا شيء يشفي صدورهم إلا هذه الكلمة يُردّدونها . كما يجلس المرجم يُعزِّي نفسه نادماً يقول : أنا مُخطيء ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : ﴿ حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 15] الحصيد : أي

المحصود وهو الزرْع بعد جمعه ﴿ خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 15] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق – سبحانه وتعالى – يشير إلى حرارتهم في عداء الرسول وجَدَلهم وعنادهم معه صلى الله عليه وسلم ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(133/507)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ قال : " من أمر الدنيا " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ قال : ما يوعدون .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم ﴾

يقول : ما ينزل عليهم شيء من القرآن . وفي قوله : ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ قال : غافلة . وفي قوله : ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ يقول : أسروا الذين ظلموا النجوى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وأسروا النجوى ﴾ قال : أسروا نجواهم بينهم ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ أفتأتون السحر ﴾ يقولون : إن متابعة محمد صلى الله عليه وسلم متابعة السحر . وفي قوله : ﴿ قال ربي يعلم القول ﴾ قال : الغيب وفي قوله : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ قال : أباطيل أحلام .

وأخرج ابن منده وأبو نعيم في المعرفة والبيهقي في سننه وابن عدي ، عن جندب البجلي أنه قتل ساحراً كان عند الوليد بن عقبة ثم قال : ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي فعل الأحلام إنما هي رؤيا رآها ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾ كل هذا قد كان منه ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأوّلون ﴾ كما جاء موسى وعيسى بالبينات والرسل ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ أي أن الرسل كانوا إذا جاؤوا قومهم بالآيات فلم يؤمنوا لم ينظروا .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : " قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن نؤمن ، فحوّل لنا الصفا ذهباً . فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا ؛ وإن شئت استأنيت بقومك . قال : بل أستأني بقومي " فأنزل الله ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ قال : يصدقون بذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ يقول : لم نجعلهم جسداً ليس يأكلون الطعام ، إنما جعلناهم جسداً يأكلون الطعام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ قال : لا بد لهم من الموت أن يموتوا . وفي قوله : ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ إلى قوله : ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ قال : هم المشركون .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال : فيه شرفكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال : فيه حديثكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿

كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال : فيه دينكم ، أمسك عليكم دينكم بكتابكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ كتاباً فيه ذكركم ﴾ يقول : فيه ذكر ما تعنون به وأمر آخرتكم ودنياكم .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي ، عن ابن عباس قال : بعث الله نبياً من حمير يقال له شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله ﴿ وكم أهلكنا من قرية كانت ظالمة ﴾ إلى قوله : ﴿ خامدين ﴾ .

(135/507)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن الكلبي ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ قال : هي حصون بني أزد .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ قال : أهلكناها . وفي قوله : ﴿ لا تركضوا ﴾ قال : لا تفروا . وفي قوله : ﴿ لعلكم تسألون ﴾ قال : تتفهمون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال : كانوا إذا أحسوا بالعذاب وذهبت عنهم

الرسل من بعد ما أنذروهم فكذبوهم ، فلما فقدوا الرسل وأحسوا بالعذاب أرادوا الرجعة إلى الإيمان وركضوا هاربين من العذاب ، فقيل لهم : لا تركضوا . فعرفوا أنه لا محيص لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ قال : يفرون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ يقول : ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها ﴿ لعلكم تسألون ﴾ من دنياكم شيئاً استهزاء بهم . وفي قوله : ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ قال : لما رأوا العذاب وعاينوه ، لم يكن لهم هجيري إلا قولهم : ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ حتى دمر الله عليهم وأهلكهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ قال : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ قال : هم أهل حصون ، كانوا قتلوا نبيهم فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم . وفي قوله : ﴿ حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ قال : بالسيف ضربت الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب قال : حدثني رجل من المحررين قال : كان باليمن قريتان ، يقال لإحداهما حضور ، والأخرى فلانة ، فبطروا وأترفوا حتى كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبياً فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم فجهز إليهم جيشاً فقاتلوهم فهزموا جيشه ، ثم رجعوا منهزمين إليه فجهز إليهم جيشاً آخر أكثف من الأول فهزموهم أيضاً ، فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه فقاتلوه فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا منادياً يقول : ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ فرجعوا فسمعوا منادياً يقول : يا لثارات النبي ، فقتلوا بالسيف فهي التي قال الله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ إلى قوله : ﴿ خامدين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ حتى جعلناهم حصيداً ﴾ قال : الحصاد ﴿ خامدين ﴾ قال : كخمود النار إذا طفئت .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ خامدين ﴾ قال : ميتين . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

خلوا ثيابهم على عوراتهم . . . فهم بأفنية البيوت خمود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) ﴾

قوله : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ جملةً في محلِّ نصبٍ صفةً ل " كتاباً " ويجوزُ أَنْ يكونَ " فيه " هو الوصفَ وحدَه و " ذِكْرُكم " فاعلٌ . وقال بعضهم : " في الكلامِ حَذْفُ مضافٍ تقديرُه : فيه ذِكْرُ شَرَفِكم . و " ذَكَر " هنا مصدرٌ يجوز أن يكونَ مضافاً لمفعولِه أي : ذِكْرُنا إياكم . ويجوز أَنْ يكونَ مضافاً لفاعِله أي : ما ذَكَرْتُم من الشِّرْك وتكذيب النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11)

قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ : في محلِّ نصب مفعولاً مقدماً ب " قَصَمْنا " . و " من قرية " تمييزٌ . والظاهرُ أنَّ " كم " هنا خبريةٌ لأنها تفيدُ التكثيرَ .

قوله : ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ في محلِّ جرٍّ صفةً ل " قريةٍ " . ولا بُدَّ من مضافٍ محذوفٍ قبل " قرية " أي : وكم قَصَمْنا من أهلِ قرية بدليل عَوْدِ الضميرِ في قوله : ﴿ فلمَّا أحسُّوا ﴾ ولا

يجوز أَنْ يعودَ على قولِه " قوماً " ؛ لأنه لم يَذْكُرْ لهم ما يَقْتَضِي ذلك .

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12)

قوله : ﴿ إِذَا ﴾ : هذه فجائيةٌ . وقد تقدَّمَ الخلافُ فيها مُشْبَعاً . و" هم " مبتدأٌ ، و" يَرْكُضون " خبرُه ، وتقدَّمَ في أولِ هذه الموضوعِ أنَّ هذه الآيةَ وأمثالَها دالَّةٌ على أن " لمَّا " ليست ظرفيةً ، بل حرفُ وجوبٍ لوجوبٍ لأنَّ الظرفَ لا بُدَّ له مِنْ عاملٍ ولا عاملَ هنا لأنَّ ما بعدَ إذا لا يعملُ فيما قبلَها . والجواب : أنه عَمِلَ فيها معنى المفاجأةِ المدلولِ عليه ب " إذا " .

(138/507)

والضميرُ في " مِنْها " يعودُ على " قرية " . ويجوز أَنْ يعودَ على " بَأْسَنا " لأنه في معنى النِّقْمة والبأساء ، فَأَنَّثَ الضميرَ حملاً على المعنى . و" مِنْ " على الأولِ لابتداءِ الغايةِ ، وللتعليل على الثاني . والرَّكْضُ : ضَرْبُ الدابَّة بالرِّجْل . يُقال : رَكَضَ الدابَّةَ يَرْكُضها رَكْضاً .

فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15)

قوله : ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ : اسم " زالَتْ " " تلك " و" دعواهم " الخبرُ ، هذا هو الصواب . وقد قال الحوفي والزمخشري وأبو البقاء بجواز العكس . وهو مردودٌ بأنه إذا

خَفِي الإِعرابُ مع استوائِهما في المُسَوِّغ لكونِ كلٍ منهما اسماً أو خبراً وَجَبَ جَعْلُ المتقدِّم اسماً والمتأخرِ خبراً ، وهو من باب " ضرب موسى عيسى " وقد تقدَّم إيضاحُ هذا في أول سورة الأعراف . وهناك شيءٌ لا يتأتى ههنا فَلْيُلْتَفَتْ إليه . و" تلك " إشارةٌ إلى الجملةِ المقولة .

قوله : ﴿ حَصِيداً ﴾ مفعولٌ ثانٍ ؛ لأنَّ الجعلَ هنا تصييرٌ . و﴿ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ من باب " هذا حلوٌ حامِضٌ " . كأن قيل : جَعَلْناهم جامعين بين الوصفين جميعاً . ويجوز أن يكونَ " خامِدِيْن " حالاً من الضمير في " جَعَلْناهم " ، أو من الضميرِ المستكنِّ في " حَصِيداً " فإنَّه في معنى مَحْصُود . ويجوز أن يكونَ مِنْ باب ما تعدَّد فيه الخبرُ نحو : " زيدٌ كاتبٌ شاعرٌ " . وجَوَّزَ أبو البقاء فيه أيضاً أن يكونَ صفةً ل " حَصيداً " وحَصِيد بمعنى مَحْصود كما تقدَّم ؛ فلذلك لم يُجْمع . وقال أبو البقاء : " والتقدير : مثل حصيدٍ ، فلذلك لم يُجمع كما لم يُجْمَعْ " مثل " المقدر " انتهى . وإذا كان بمعنى مَحْصُودين فلا حاجة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 136.138 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) ﴾

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ : أي شرفكم ومحلُّكم ، فَمَنْ استبصرَ بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وأخراه .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) ﴾

إنَّ اللَّهَ يُمهِل الظالمَ حينا لكنه يأخذه أَخْذَ قهر وانتقام ، وقد حَكَمَ اللَّهُ بخرابِ مساكنِ الظالمين ، وقد جاء الخبر : " لو كان الظلم بيتاً في الجنة لَسُلِّطَ عليه الخراب " فإذا ظلم العبدُ نَفْسَه حرَّمَ اللَّهُ أَنْ يقطنها التوفيقُ وجعلها موطنَ الخذلان ، فإذا ظَلَمَ قلبَه بالغفلة سَلَّط عليه الخواطرَ الردية التي هي وساوس الشيطان ودواعي الفجور . وعلى هذا القياس في القلة والكثرة ؛ إنَّ الروح إذا خربت زايلتها الحقائقُ والمحابُّ واستولت عليها العلائقُ والمساكنات .

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) ﴾

لَمَّا ذاقوا وبالَ أفعالهم اضطربوا في أحوالهم فلم ينفعهم نَدَمُهم ، ولم تَعْدُ إلى محالِّها أقدامُهم ، وبعد ظهور الخيانة لا تُقْبَلُ الأمانة .

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) ﴾

وللخيانة سراية، فإذا حصلت الخيانة لم تقف السراية، وإذا غرقت السفينةُ فليس بيد المَلاَّحِ إلا إظهار الأسف، وهيهات أن يُجْدِي ذلك!

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) ﴾

للإقرار زمانٌ؛ فإذا فات وقتُه فكما في المَثَل: يسبق الفريض الحريصُ. ووَضْعُ القوسِ بعد إرسال السهم لا قيمة له.

﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) ﴾

(140/507)

إنّ مِنَ البلاءِ أَنْ يشكوَ المرءُ فلا يُسْمَع، ويبكي فلا يَنْفَع، ويدنو فيُقْصَى، ويمرض فلا يُعادَ، ويعتذر فلا يُقْبَل... وغايةُ البلاءِ التَّلَفُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 496.495﴾

(141/507)

قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجاد بإحقاق الحق بالانتقام لأهله ، وإزهاق الباطل باجتثاثه من أصله ، فكان التقدير : وما ينبغي لنا أن نفعل غير ذلك من أفعال الحكمة العرية عن اللعب ، فلم نخلق الناس عبثاً يعصوننا ولا يؤاخذون ، عطف عليه قوله : ﴿ وما خلقنا ﴾ أي بعظمتنا التي تقتضي الجد ولا بد .

ولما كان خلق السماء واحدة يكفي في الدلالة على الحكمة فكيف بأكثر منها ! وحّد فقال : ﴿ السماء ﴾ أي على علوها وإحكامها ﴿ والأرض ﴾ على عظمها واتساعها ﴿ وما بينهما ﴾ مما دبرناه لتمام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع ﴿ لاعبين ﴾ غير مريدين بذلك تحقيق الحقائق وإبطال الأباطيل ، بل خلقنا لكم ذلك آية عظيمة كافية في الوصول إلينا ليظهر العدل في جزاء كل بما يستحق ، مشحونة بما يقوت الأجسام ، ويهيج النفوس ، ويشرح الصدور ، ويريح الأرواح ويبعث إلى الاعتبار ، كلَّ من له استبصاراً ، للدلالة على حكمتنا ووجوب وحدانيتنا فاتخذتم أنتم ما زاد على الحاجة لهواً صاداً عن

الخير ، داعياً إلى الضير .

ولما نفى عنه اللعب ، أتبعه دليله فقال : ﴿ لو أردنا ﴾ أي على عظمتنا ﴿ أن نتخذ لهواً ﴾ يكون لنا ومنسوباً في لهوه إلينا ، واللهو - قال الأصفهاني : صرف الهم عن النفس بالقبيح .

(142/507)

﴿ لاتخذناه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ من لدنا ﴾ أي مما يليق أن ينسب إلى حضرتنا بما لنا من تمام القدرة وكمال العظمة ، وباهر الجلالة والحكمة ، وذلك بأن يكون محض لهو لا جد فيه أصلاً ، ولا يخلطه شيء من الكدر ، ولا يتوقف من يراه في تسميته لهواً ، لا يكون له عنده اسم غير ذلك كما لو أن شمساً أخرى وجدت لم يتوقف أحد في تسميتها شمساً كما قال تعالى في السورة الماضية ﴿ وقد ءاتيناك من لدنا ذكراً ﴾ [طه : 99] أي فهو بحيث لا يتوقف أحد في أنه من عندنا ، وأنه ذكر وموعظة كما مضى ، لكنا لم نرد ذلك فلم يكن ، وما اتخذتموه لهواً فإنا خلقناه لغير ذلك بدليل ما فيه من الشواغل والمنغصات والقواطع فاتخذتموه أنتم من عند أنفسكم لهواً ، فكان أكثره لكم ضراً وعليكم شراً ، وخص الحرالي ﴿ عند ﴾ بما ظهر ، و﴿ لدن ﴾ بما بطن ، فعلى هذا يكون المراد : من حضرتنا الخاصة

بنا الخفية التي لا يطلع عليها غيرنا ، لأن ما للملك لا يكون مبتذلاً ، وكذلك لم يذكر إلا ما يتحقق المكذبون بالبعث رؤيته فوحد السماء هنا وجمعها في غير هذا الموضع لاقتضاء الحال ذلك .

(143/507)

ولما كان هذا مما ينبغي أن تنزه الحضرة القدوسية عنه وعن مجرد ذكره ولو على سبيل الفرض ، أشار إلى ذلك بأداة شرط أخرى فقال : ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ أي له ، ولكنه لا يليق بجنابنا فلم نفعله ولا نكون فاعلين له ﴿ بل ﴾ وإشعار لهذا المعنى بالقذف والدمغ تصويراً للحق بجعل الحق كأنه جرم صلب كالصخرة قذف بها على جرم رخو أجوف فقال : ﴿ نقذف ﴾ أي إنما شأننا أن نرمي رمياً شديداً ﴿ بالحق ﴾ الذي هو هذا الذكر الحكيم الذي أنزلناه جداً كله وثباتاً جميعه لا لهو فيه ولا باطل ، ولا هو مقارب لشيء منهما ، ولا تقدرون أن تتخذوا شيئاً منه لهواً اتخاذاً يطابقكم عليه منصف ، فنحن نقذف به ﴿ على الباطل ﴾ الذي أحد ثتموه من غير أنفسكم ﴿ فيدمغه ﴾ أي فيمحقه محق المكسور الدماغ ﴿ فإذا هو ﴾ في الحال ﴿ زاهق ﴾ أي ذاهب الروح أي هالك ؛ ثم عطف على ما أفادته " إذا " قوله : ﴿ ولكم ﴾ أي وإذا لكم أيها المبطلون ﴿ الويل مما

تصفون ﴾ أي من وصفكم لكل شيء بما تهوى أنفسكم من غير إذن منا لكم ، لأنكم لا تقفون على حقائق الأمور ، فإن وصفتم القرآن بشيء مما تقدم ثم قذفنا عليه بما يبين بطلانه ، بان لكل عاقل أنه يجب عليكم أن تنادموا الويل بميلكم كل الميل ، وإن وصفتم الله أو الدنيا أو غيرهما فكذلك إنما أنتم متعلقون بقشور وظواهر لا يرضاها إلا بعيد عن العقل محجوب عن الإدراك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 72 . 74 ﴾

(144/507)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

اعلم أن فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان : الأول : أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم اتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد

الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب ، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 191] وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ [ص : 27] وقوله : ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 39] .

والثاني : أن الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه فإن كان محمد كاذباً كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه وإن كان صادقاً فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن .

المسألة الثانية :

قال القاضي عبد الجبار : دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى إذ لو كان كذلك لكان لاعباً فإن اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب فنفى الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل .

والجواب : يبطل ذلك بمسألة الداعي عن ما مر غيره مرة أما قوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتخذناه مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فاعلين ﴾ فاعلم أن قوله : ﴿ لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ معناه من جهة قدرتنا .

وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن وقيل : المرأة وقيل من لدنا أي من الملائكة لا من الإنس رداً لمن قال بولادة المسيح وعزير فأما قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل ﴾ فاعلم أن قوله : ﴿ بَلِ ﴾ اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق ، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويراً لإبطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو فدمغه ، فأما قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ يعني من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام إلى غير ذلك من الأباطيل ، وهو الذي عناه بقوله : ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 127 . 128﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : ولداً ، قاله الحسن .

الثاني : أن اللهو النساء ، قاله مجاهد . وقال قتادة : اللهو بلغة اهل اليمن المرأة . قال ابن جريج : لأنهم قالوْا : مريم صاحبته وعيسى ولده .

الثالث : أنه اللهو الذي هو داعي الهوى ونازع الشهوة ، كما قال الشاعر :

ويلعبنني في اللهو أن لا أحبه . . . وللهو داعٍ لبيب غير غافلِ

﴿ لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ أي من عندنا إن كنا فاعلين . قال ابن جريج : لاتخذنا نساء وولداً من أهل السماء وما اتخذنا من أهل الأرض .

﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وما كنا فاعلين ، قاله ابن جريج .

الثاني : أنه جاء بمعنى الشرط ، وتقدير الكلام لو كنا لاتخذناه بحيث لا يصل علمه إليكم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الحق الكلام المتبوع ، والباطل المدفوع . ومعنى يدمغه أي يذهبه ويهلكه كالمشجوج تكون دامغة في أم رأسه تؤدي لهلاكه .

الثاني : أن الحق القرآن ، والباطل إبليس .

الثالث : أن الحق المواعظ والباطل المعاصي ، قاله بعض أهل الخواطر .

ويحتمل رابعاً : أن الحق الإسلام ، والباطل الشرك .

﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هالك ، قاله قتادة .

الثاني : ذاهب ، قاله ابن شجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(147/507)

وقال ابن عطية :

ولما فرغ وصف هذا الحال وضع الله تعالى السامعين بقوله ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي ظن هؤلاء الذين نزل بهم ما نزل كما تظنون أنتم أيها الكفرة الآن ففي الآية وعيد بهذا الوجه والمعنى إنما خلقنا هذا كله ليعتبر به وينظر فيه ويؤمن بالله بحسبه ، قال بعض الناس ﴿ تسألون ﴾ معناه تفهمون وتفقهون .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تفسير لا يعطيه اللفظ ، وقال فرقة ﴿ تسألون ﴾ معناه شيئاً من أموالكم وعرض دنياكم على وجه الهزء .

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) ﴾

ظاهر هذه الآية الرد على من قال من الكفار أمر مريم وما ضارعه من الكفر تعالى الله عن قول المبطلين ، و" اللهو " في هذه الآية المرأة وروي أنها في بعض لغات العرب تقع على الزوجة ، و﴿ إن ﴾ في قوله ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ يحتمل أن تكون الشرطية بمعنى لو كنا أي ولسنا كذلك ، وللمتكلمين هنا اعتراض وانفصال ويحتمل أن تكون نافية بمعنى ما وكل هذا قد قيل ، و" الحق " عام في القرأن والرسالة والشرع وكل ما هو حق ، و﴿ الباطل ﴾ أيضاً عام كذلك ويدمغه معناه يصيب دماغه وذلك مهلك في البشر فكذلك الحق يهلك الباطل . و﴿ الويل ﴾ الخزي والهم وقيل هو اسم واد في جهنم فهو المراد في هذه الآية وهذه مخاطبة للكفار الذين وصفوا الله تعالى بما لا يجوز عليه ولا يليق به تعالى الله عن قولهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز ـ 4 صـ ﴾

(148/507)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾

أي : لم نخلق ذلك عبثاً ، إِنما خلقناهما دلالة على قدرتنا ووحدانيّتنا ليعتبر الناس بخَلْقه ،

فيعلموا أن العبادة لا تصلح إلا لخالقه، لنجازيَ أولياءنا، ونعذِّبَ أعداءنا.

قوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتَّخذ لهواً﴾ في سبب نزولها قولان.

أحدهما: أن المشركين لما قالوا: الملائكة بنات الله والآلهة بناته، نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن نصارى نجران قالوا: إن عيسى ابن الله، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

وفي المراد باللهو ثلاثة أقوال.

أحدها: الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السدي.

قال الزجاج: المعنى: لو أردنا أن نتخذ ولداً ذا لهوٍ نُلْهَى به.

والثاني: المرأة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة.

والثالث: اللعب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿لاتَّخذناه من لَدُنَّا﴾ قال ابن جريج: لاتَّخذنا نساءً أو ولداً من أهل السماء، لا من أهل الأرض.

قال ابن قتيبة: وأصل اللهو: الجماع، فكُنِّي عنه باللهو، كما كُنِّيَ عنه بالسِّرِّ، والمعنى: لو فعلنا ذلك لاتَّخذناه من عندنا، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره.

وفي قوله ﴿إنْ كنا فاعلين﴾ قولان.

أحدهما : أن "إِنْ" بمعنى "ما" ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .

والثاني : أنها بمعنى الشرط .

قال الزجاج : والمعنى : إِن كنا نفعل ذلك ، ولسنا ممن يفعله ؛ قال : والقول الأول قول المفسرين ، والثاني : قول النحويين ، وهم يستجيدون القول الأول أيضاً ، لأن "إِنْ" تكون في موضع النفي ، إِلا أنَّ أكثر ما تأتي مع اللام ، تقول : إِن كنت لَصالحاً ، معناه : ما كنت إِلاَّ صالحاً .

(149/507)

قوله تعالى : ﴿ بل ﴾ أي : دع ذاك الذي قالوا ، فإنه باطل ﴿ نقذف بالحق ﴾ أي : نسلّط الحق وهو القرآن ﴿ على الباطل ﴾ وهو كذبهم ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يكسره ، وأصل هذا إِصابة الدماغ بالضرب ، وهو مقتل ﴿ فإذا هو زاهق ﴾ أي : زائل ذاهب .

قال المفسرون : والمعنى : إِنا نبطل كذبهم بما نبيِّن من الحق حتى يضمحلَّ ، ﴿ ولكم الويل مما تَصِفُون ﴾ أي : من وصفكم الله بما لا يجوز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ

﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾

أي عبثاً وباطلاً ؛ بل للتنبيه على أن لها خالقاً قادراً يجب امتثال أمره ، وأنه يجازي المسيء والمحسن ؛ أي ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضاً ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا ، ولا يؤمروا في الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح .

وهذا اللعب المنفي عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ لما اعتقد قوم أن له ولداً قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ واللهو المرأة بلغة اليمن ؛ قاله قتادة .

وقال عقبة بن أبي جَسْرَة وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ فقال : اللهو الزوجة ؛ وقاله الحسن .

وقال ابن عباس : اللهو الولد ؛ وقاله الحسن أيضاً .

قال الجوهري : وقد يكنى باللهو عن الجماع.

قلت : ومنه قول امرئ القيس :

أَلا زَعَمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أَنَّنِي . . .

كَبِرتُ وأَلاَّ يُحسِنَ اللَّهْوَ أَمثَالِي

وإنما سمي الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب ، كما قال :

فيهِنّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرُ . . .

الجوهري : وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ قالوا امرأة ، ويقال : ولداً .

﴿ لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ أي من عندنا لا من عندكم .

قال ابن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض .

قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله ؛ أي كيف يكون منحوتكم ولداً لنا .

وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى .

﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 23] أي ما أنت إلا نذير .

و"إن" بمعنى الجحد وتم الكلام عند قوله : ﴿ لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ .

وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أي إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً .

وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولداً على طريق التبني لاتخذناه من عندنا من الملائكة .

ومال إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالتبني فأما اتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل ؛ ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل ﴾ القذف الرمي ؛ أي نرمي بالحق على الباطل .

﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يقهره ويهلكه .

وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة .

والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان في قول مجاهد ؛ قال : كل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان .

وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره .

وقيل : أراد بالحق الحجة ، وبالباطل شبههم .

وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصي ؛ والمعنى متقارب .

والقرآن يتضمن الحجة والموعظة .

﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي هالك وتالف ؛ قاله قتادة .

﴿ وَلَكُمُ الويل ﴾ أي العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الربّ بما لا يجوز وصفه .

وقال ابن عباس : الويل واد في جهنم ؛ وقد تقدم .

﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي مما تكذبون ؛ عن قتادة ومجاهد ؛ نظيره "سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ" أي بكذبهم .

وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو اتخاذه سبحانه الولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(152/507)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى قصم تلك القرى الظالمة أتبع ذلك بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا وأنه إنما أنشأ هذا العالم العلوي المحتوي على عجائب من صنعه وغرائب من فعله ، وهذا العالم السفلي وما أودع فيه من عجائب الحيوان والنبات والمعادن وما بينهما من الهواء والسحاب والرياح على سبيل اللعب بل لفوائد دينية تقضي بسعادة الأبد أو بشقاوته ، ودنياوية لا تعد ولا تحصى كقوله ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ وقوله ﴿ ما خلقناهما إلاّ بالحق ﴾ قال الكرماني : اللعب فعل يدعو إليه الجهل

يروق أوله ولا ثبات له ، وإنما خلقناهما لنجازي المحسن والمسيء ، وليستدل بهما على الوحدانية والقدرة انتهى .

و﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ أصل اللهو ما تسرع إليه الشهوة ويدعو إليه الهوى ، وقد يكنى به عن الجماع ، وأما هنا فعن ابن عباس والسدّي هو الولد .

وقال الزجاج : هو الولد بلغة حضرموت .

وعن ابن عباس : إن هذا رد على من قال ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ وعنه أن اللهو هنا اللعب .

وقيل : اللهو هنا المرأة .

وقال قتادة : هذا في لغة أهل اليمن ، وتكون رداً على من ادعى أن لله زوجة ومعنى ﴿ من لدنا ﴾ من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنه نقص فستره أولى .

وقال السدّي : من السماء لا من الأرض .

وقيل : من الحور العين .

وقيل : من جهة قدرتنا .

وقيل : من الملائكة لا من الإنس رداً لولادة المسيح وعزير .

وقال الزمخشري : بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي أن الحكمة صارفة عنه ، وإلاّ فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً لأني على كل شيء قدير انتهى .

ولا يجيء هذا إلاّ على قول من قال : اللهو هو اللعب ، وأما من فسره بالولد والمرأة فذلك

مستحيل لا تتعلق به القدرة .

والظاهر أن ﴿ أن ﴾ هنا شرطية وجواب الشرط محذوف ، يدل عليه جواب ﴿ لو ﴾ أي إن كنا فاعلين اتخذناه إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله .

(153/507)

وقال الحسن : وقتادة وجريج ﴿ أن ﴾ نافية أي ما كنا فاعلين .

﴿ بل نقذف ﴾ أي نرمي بسرعة ﴿ بالحق ﴾ وهو القرآن ﴿ على الباطل ﴾ وهو الشيطان قاله مجاهد ، وقال كل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان .

وقيل : بالحق بالحجة على الباطل وهو شبههم ووصفهم الله بغير صفاته من الولد وغيره .

وقيل : الحق عام في القرآن والرسالة والشرع ، والباطل أيضاً عام كذلك و ﴿ بل ﴾ إضراب عن اتخاذ اللعب واللهو ، والمعنى أنه يدحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه أي أصاب دماغه ، وذلك مهلك في البشر فكذلك الحق يهلك الباطل .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ فيدمغه ﴾ بنصب الغين ، قال الزمخشري : وهو في ضعف قوله :

سأترك منزلي لبني تميم . . .

وألحق بالحجاز فأستريحا

وقرىء ﴿ فيدمُغه ﴾ بضم الميم انتهى .

و﴿ لكم الويل ﴾ خطاب للكفار أي الخزي والهم مما تصفون أي تصفونه مما لا يليق به تعالى من اتخاذ الصاحبة والولد ونسبة المستحيلات إليه .

وقيل ﴿ لكم ﴾ خطاب لمن تمسك بتكذيب الرسل ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام ، وهو المعنى بقوله ﴿ مما تصفون ﴾ وأبعد من ذهب إلى أنه التفات من ضمير الغيبة في ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ إلى ضمير الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(154/507)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض ﴾

إشارةٌ إجماليةٌ إلى أن تكوينَ العالمَ وإبداعَ بني آدمَ مؤسسٌ على قواعد الحِكَم البالغةِ المستتبِعة للغايات الجليلةِ ، وتنبيهٌ على أن ما حُكي من العذاب الهائلِ والعقاب النازلِ بأهل

القرى من مقتَضيات تلك الحِكَم ومتفرّعاتها حسبَ اقتضاءِ أعمالِهم إياه ، وأن للمخاطَبين المقتدين بآثارهم ذَنوباً مثلَ ذَنوبهم ، أي ما خلقناهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسُها وأفرادُها ولا تحصر أنواعُها وآحادُها على هذا النمط البديعِ والأسلوب المنيعِ خاليةٌ عن الحِكَم والمصالح ، وإنما عبّر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل : ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ لبيان كمالِ تنزّهه تعالى عن الخَلْق الخالي عن الحِكمة بتصويره بصورةِ ما لا يرتاب أحدٌ في استحالة صدورِه عنه سبحانه ، بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يقودُه إلى تحصيل معرفتِنا التي هي الغايةُ القصوى بواسطةِ طاعتِنا وعبادتنا كما ينطِق به قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ استئنافٌ مقرّر لما قبله من انتفاء اللعبِ واللهو ، أي لو أردنا أن نتخذ ما يُتلهى به ويُلعب ﴿ لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ أي من جهة قدرتِنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعةِ والأجرامِ الموضوعة كديدن الجبابرةِ في رفع العروش وتحسينها وتسويةِ الفروش وتزيينها ، لكن يستحيل إرادتُنا له لمنافاته الحِكمةَ فيستحيل اتخاذُنا له قطعاً وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله عليه ، أي إن كنا فاعلين لاتخذناه ، وقيل : إن نافية أي ما كنا فاعلين أي لاتخاذ اللهو لعدم

إرادتنا إياه فيكون بياناً لانتفاء التالي لانتفاء المقدّم أو لإرادة اتخاذه فيكون بياناً لانتفاء المقدّمِ المستلزِمِ لانتفاء التالي ، وقيل : اللهوُ الولدُ بلغة اليمن ، وقيل : الزوجةُ والمرادُ الردُّ على النصارى ولا يخفى بُعدُه .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته ، كأنه قيل : لكنا لا نريده بل شأننا أن نُغلّب الحقَّ الذي من جملته الجِدُّ على الباطل الذي من قبيله اللهوُ ، وتخصيصُ شأنه هذا من بين سائر شؤونه تعالى بالذكر للتخلص إلى ما سيأتي من الوعيد ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المَحْكية ، وقد استُعير لإيراد الحقِ على الباطل القذفُ الذي هو الرميُ الشديدُ بالجِرم الصُّلْب كالصخرة ، ولَمحْقه للباطل الدمغُ الذي هو كسرُ الشيء الرِّخوِ الأجوفِ وهو الدِّماغ بحيث يشق غشاءَه المؤدّيَ إلى زُهوق الروحِ تصويراً له بذلك ، وقرىء فيدمغه بالنصب وهو ضعيف ، وقرىء فيدمُغه بضم الميم ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي ذاهبٌ بالكية ، وفي إذا الفجائية والجملة الاسميةِ من الدِلالة على كمال المسارعةِ في الذهاب والبُطلان ما لا يخفى فكأنه زاهقٌ من الأصل ﴿ وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ وعيدٌ لقريش بأن لهم أيضاً مثَلَ ما لأولئك من العذاب والعقاب ،

ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الخبرُ ، أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره في الخبر ، وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أي واستقر لكم الويلُ والهلاكُ من أجل وصفِكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل ، أو بالذي تصفونه أو بشيء تصفونه به من الولد أو كائناً مما تصفونه تعالى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(156/507)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾

أي ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية كأن تكون سبباً للاعتبار ودليلاً للمعرفة مع منافع لا تحصى وحكم لا تستقصى ، وحاصله ما خلقنا ذلك خالياً عن الحكم والمصالح إلا أنه عبر عن ذلك باللعب وهو كما قال الراغب الفعل الذي لا يقصد به مقصد صحيح لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب

أحد في استحالة صدوره عنه سبحانه ، وهذا الكلام على ما قيل إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بني آدم مؤسس على قواعد الحكمة البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكى من العذاب النازل بأهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفراعاتها حسب اقتضاء أعمالهم إياه مع التخلص إلى وعيد المخاطبين ، وفي "الكشف" أن الآيات لإثبات أمر النبوة ونفي تلك المطاعن السابقة على ما ذكره الإمام وهو الحق لأنه قد تكرر في الكتاب العزيز أن الحكمة في خلق السماء والأرض وما بينهما العبادة والمعرفة وجزاء من قام بهما ومن لم يقم ولن يتم ذلك إلا بإنزال الكتب وإرسال الرسل عليهم السلام ، فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لعباً تعالى خالقهما وخالق كل شيء عنه وعن كل نقص علواً كبيرا ، ومنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم جعل إظهار المعجزة على يديه من باب العبث واللعب ففيه إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام وفساد تلك المطاعن كلها .

(157/507)

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب في خلق السماء والأرض وما بينهما ، ومعنى الآية على ما استظهره صاحب الكشف لو

أردنا اتخاذ لهو لكان اتخاذ لهو من جهتنا أي لهواً إلهيا أي حكمة اتخذتموها لهواً من جهتكم وهذا عين الجد والحكمة فهو في معنى لو أردناه لامتنع .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ كالتكرير لذلك المعنى مبالغة في الامتناع على أن إن شرطية وجوابها محذوف أي ﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ ما يوصف بفعله باللهو فكهذا يكون فعلنا ولو حمل على النفي ليكون تصريحاً بنتيجة السابق كما عليه جمهور المفسرين لكان حسناً بالغاً انتهى ، وقال الزمخشري : ﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي من جهة قدرتنا ، وجعل حاصل المعنى أنا لو أردنا ذلك لاتخذنا فإنا قادرون على كل شيء إلا أنا لم نرده لأن الحكمة صارفة عنه ، وذكر صاحب الكشف أن تفسيره ذلك بالقدرة غير بين ، وقد فسره به أيضاً البيضاوي وغيره وظاهره أن اتخاذ اللهو داخل تحت القدرة ، وقد قيل إنه ممتنع عليه تعالى امتناعاً ذاتياً والممتنع لا يصلح متعلقاً للقدرة ، وأجيب بأن صدق الشرطية لا يقتضي صدق الطرفين فهو تعليق على امتناع الإرادة أو يقال الحكمة غير منافية لاتخاذ ما من شأنه أن يتلهى به وإنما تنافي أن يفعل فعلاً يكون هو سبحانه بنفسه لاهياً به فلا امتناع في الاتخاذ بل في وصفه انتهى .

والحق عندي أن العبث لكونه نقصاً مستحيل في حقه تعالى فتركه واجب عنه سبحانه وتعالى ونحن وإن لم نقل بالوجوب عليه تعالى لكنا قائلون بالوجوب عنه عز وجل ، قال أفضل المتأخرين الكلنبوي : إن مذهب الماتريدية المثبتين للأفعال جهة محسنة أو مقبحة قبل ورود الشرع أنه إن كان في الفعل جهة تقتضي القبح فذلك الفعل محال في حقه تعالى فتركه واجب عنه سبحانه لا واجب عليه عز وجل ، وذلك كالتكليف بما لا يطاق عندهم وكالكذب عند محققي الأشاعرة والماتريدية وإن لم يكن فيه تلك الجهة فذلك الفعل ممكن له تعالى وليس بواجب عليه سبحانه فهم يوافقون الأشاعرة في أنه تعالى لا يجب عليه شيء انتهى .

ومن أنكر أن أكون العبث نقصاً كالكذب فقد كابر عقله ، وأبلغ من هذا أنه يفهم من كلام بعض المحققين القول بوجوب رعاية مطلق الحكمة عليه سبحانه لئلا يلزم أحد المحالات المشهورة وأن المراد من نفي الأصحاب للوجوب عليه تعالى نفي الوجوب في الخصوصيات على ما يقوله المعتزلة ، ولعله حينئذٍ يراد بالوجوب لزوم صدور الفعل عنه تعالى بحيث لا يتمكن من تركه بناءً على استلزامه محالاً بعد صدور موجبه اختياراً لا مطلقاً ولا بشرط تمام الاستعداد لئلا يلزم رفض قاعدة الاختيار كما لا يلزم رفضها في اختيار الإمام الرازي ما اختاره كثير من الأشاعرة من لزوم العلم للنظر عقلاً ، ومع هذا ينبغي التحاشي عن إطلاق الوجوب عليه تعالى فتدبره فإنه مهم .

وقيل معنى من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات أي لاتخذناه من ذلك لا من الأجرام المرفوعة والأجسام الموضوعة كديدن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها انتهى.

(159/507)

ولا يخفى أن أكثر أهل السنة على إنكار المجردات ثم على تقدير تفسير الآية بما ذكر المراد الرد على من يزعم اتخاذ اللهو في هذا العالم لا أنه يجوز اتخاذه من المجردات بل هو فيها أظهر في الاستحالة، وعن الجبائي أن المعنى لو أردنا اتخاذ اللهو لاتخذناه من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنه نقص فستره أولى أو هو أسرع تبادراً لما في "الكشف" وذلك أبعد مغزى، وقال الإمام الواحدي: اللهو طلب الترويح عن النفس ثم المرأة تسمى لهواً وكذا الولد لأنه يستروح بكل منهما ولهذا يقال لامرأة الرجل وولده ريحانتاه، والمعنى لو أردنا أن نتخذ امرأة ذات لهو أو ولداً ذا لهو لاتخذناه من لدنا أي مما نصطفيه ونختاره مما نشاء كقوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الزمر: 4] وقال المفسرون: أي من الحور العين، وهذا رد لقول اليهود في عزير وقول النصارى في المسيح وأمه من كونه عليه السلام السلام ولداً وكونها صاحبة، ومعنى ﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾ من عندنا بحيث لا يجري

لأحد فيه تصرف لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره انتهى .

وتفسير اللهو هنا بالولد مروى عن ابن عباس والسدي ، وعن الزجاج أنه الولد بلغة حضرموت ، وكونه بمعنى المرأة حكاه قتادة عن أهل اليمن ولم ينسبه لأهل بلدة منه ، وزعم الطبرسي أن أصله الجماع ويكنى به عن المرأة لأنها تجامع ، وأنشد قول امرىء القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني . . .

كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

(160/507)

والظاهر حمل اللهو على ما سمعت أولاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 16] ولأن نفي الولد سيجىء مصرحاً إن شاء الله تعالى ، ويعلم من ذلك أن كون المراد الرد على النصارى وأضرابهم غير مناسب هنا ، ثم إن الظاهر من السياق أن إن شرطية والجواب محذوف ثقة بدلالة ما قبل عليه أي إن كنا فاعلين لاتخذناه من لدنا وكونها نافية وإن كان حسناً معنى وقد قاله جماعة منهم مجاهد .

والحسن .

وقتادة .

وابن جريج استدرك عليه بعضهم بأن أكثر مجيء إن النافية مع اللام الفارقة لكن الأمر في ذلك سهل

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالحق عَلَى الباطل ﴾

إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب بل عن إرادة الاتخاذ كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من جملته اللهو ، وتخصيص هذا الشأن من بين سائر شؤونه تعالى بالذكر للتخلص لما سيأتي إن شاء الله تعالى من الوعيد ، وعن مجاهد أن الحق القرآن والباطل الشيطان ، وقيل الحق الحجة والباطل شبههم ووصفهم الله تعالى بغير صفاته من الولد وغيره ، والعموم هو الأولى ، وأصل القذف الرمي البعيد كما قال الراغب وهو مستلزم لصلابة الرمي وقد استعير للإيراد أي نورد الحق على الباطل .

﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكمة ، وأصل الدمغ كسر الشيء الرخو الأجوف وقد استعير للمحق .

وجوز أن يكون هناك تمثيل لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه برمي جرم صلب على رأس دماغه رخو ليشقه ، وفيه إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل وأن جانب الأول باق

والثاني فان ، وجوز أيضاً أن يكون استعارة مكنية بتشبيه الحق بشيء صلب يجيء من مكان عال والباطل بجرم رخو أجوف سافل ، ولعل القول بالتمثيل أمثل ، وقرأ عيسى ابن عمر ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ بالنصب ، وضعف بأن ما بعد الفاء إنما ينتصب بإضمار أن لا بالفاء خلافاً للكوفيين في جواب الأشياء الستة وما هنا ليس منها ولم ير مثله إلا في الشعر كقوله :

سأترك منزلي لبني تميم . . .

وألحق بالحجاز فاستريحا

على أنه قد قيل في هذا إن استريحا ليس منصوباً بل مرفوع مؤكد بالنون الخفيفة موقوف عليه بالألف ، ووجه بأن النصب في جواب المضارع المستقبل وهو يشبه التمني في الترقب ، ولا يخفى أن المعنى في الآية ليس على خصوص المستقبل ، وقد قالوا إن هذا التوجيه في البيت ضعيف فيكون ما في الآية أضعف منه مأخذاً والعطف على هذه القراءة على الحق عند أبي البقاء ، والمعنى بل نقذف بالحق فندمغه على الباطل أي نرمي بالحق فإبطاله به .

وذكر بعض الأفاضل أنه لو جعل من قبيل علفتها تبناً وماءً بارداً صح ، واستظهر أن العطف على المعنى أي نفعل بالقذف فالدمغ ، وقرىء ﴿ فَيَدْمُغُهُ ﴾ بضم الميم والغين ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي ذاهب بالكلية وفي إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل .

﴿ وَلَكُمُ الوَيلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ وعيد لقريش أو لجميع الكفار من العرب بأن لهم أيضاً مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ، وما تعليلية متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل على مذهب بعضهم أو من ضميره المستتر في الخبر ، وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أي ومستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل تعالى شأنه أو بالذي تصفونه أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه أو كائناً مما تصفونه عز وجل به ، وكون الخطاب لمن سمعت مما لا خفاء فيه ولا بعد ، وأبعد كل البعد من قال : إنه خطاب لأهل القرى على طريق الالتفات من الغيبة في قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ [الأنبياء : 15] إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(163/507)

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾

أي : بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا

له . قال الزمخشري عليه الرحمة : أي : وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للّهو واللّعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى . وقال أبو السعود : في هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بني آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة . وتنبيه على أن ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرعاتها . عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه . وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم . أي : ما خلقناهما وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع ، خالية عن الحكم والمصالح . وإما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل : ﴿ لاعِبِينَ ﴾ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد في استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه . ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود : 7] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] . وقوله تعالى :

(164/507)

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أي : لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب لاتخذناه من عندنا . كديدن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزيينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة . فيستحيل اتخاذنا له قطعاً . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أي : لاتخذناه . وقيل : إنّ إن نافية . أي : ما كنا فاعلين . أي : لاتخاذ اللهو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالي ، لانتفاء المقدم . ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب أو نريده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق : ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي : يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي : هالك بالكلية . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء

الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلاً لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه ، برمي جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ لترشيح المجاز . لأن من رمى فدمغ تزهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفي إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل وفي الآية إيماء إلى علوّ الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثاني فانٍ : ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي : مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تتنزه عظمته عنه . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 189 . 191 ﴾

(165/507)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

قد قدما الآيات الموضحة لهذا في سورة " الحجر " فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، وكذلك قوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الباطل ﴾ [الأنبياء : 18] الآية . قد قدمنا الآيات

الموضحة لذلك في سورة " بني إسرائيل " ، وكذلك الآيات التي بعد هذا قدْ قدمنا في مواضع متعددة ما يبينها من كتاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(166/507)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

كثير في القرآن الاستدلال بإتقان نظام خلق السماوات والأرض وما بينهما على أن لله حكمة في خلق المخلوقات وخلق نُظمها وسُننها وفِطَرها ، بحيث تكون أحوالها وآثارها وعلاقة بعضها ببعض متناسبة مُجارية لما تقتضيه الحكمة ولذلك قال تعالى في سورة [الحجر : 85] ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ وقد بيّنا هنالك كيفية ملابسة الحق لكل أصناف المخلوقات وأنواعها بما يغني عن إعادته هنا .

وكثر أن ينبه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المناسبة بين خلق ما في السماوات والأرض ملتبساً بالحق ، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم إلى أن عَمّتهم الشريعة العامة الخاتمة شريعة

الإسلام ، وإلى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقى فيها النفوس جزاءَ ما قدمته في هذه الحياة الزائلة جزاء وفاقاً .

(167/507)

فلذلك كثر أن تُعقب الآياتُ المبينة لما في الخلق من الحقّ بالآيات التي تذكُر الجزاء والحساب ، والعكس ، كقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ في آخر سورة [المؤمنين : 115] ، وقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾ آخر [الحجر : 85] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ في سورة [ص : 2628] ، وقوله تعالى : ﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ في سورة [الدخان : 3740] ،

وقوله تعالى : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ في سورة [الأحقاف : 3] إلى غير هذه من الآيات .

فكذلك هذه الآية عقب بها ذكر القوم المهلَكين ، والمقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات وإعطاء كلّ مخلوق ما به قِوامه ، فإذا كانت تلك سنةَ الله في خلق العوالم ظَرفِها ومظروفها ، استدل بذلك على أن تلك السنة لا تتخلف في ترتب المسببات على أسبابها فيما يأتيه جنس المكلفين من الأعمال ، فإذا ما لاح لهم تخلف سبب عن سببه أيقنوا أنه تخلف مؤقت فإذا علمهم الله على لسان شرائعه بأنه ادخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به ، وإذا علّمهم أنهم لا يفوتون ذلك بالموت بل إن لهم حياةً آخِرة وأن الله باعثهم بعد الموت أيقنوا بها ، وإذا علمهم أنه ربما عجل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به .

ولذلك كثر تعقيب ذكر نظام خلق السماوات والأرض بذكر الجزاء الآجل والبعث وإهلاك بعض الأمم الظالمة ، أو تعقيب ذكر البعث والجزاء الآجل والعاجل بذكر نظام خلق السماوات والأرض .

وحسبك تعقيب ذلك بالتفريع بالفاء في قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ الآيات ختام سورة [آل عمران : 190191] .

ولأجل هذا اطرد أوْكادَأن يطرد ذكر لفظ ﴿ وما بينهما ﴾ بعد ذكر خلق السماوات والأرض في مثل هذا المقام لأن تخصيص ما بينهما بالذكر يدل على الاهتمام به لأن أشرفه هو نوع الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال وهو مناط التكليف .

فليس بناء الكلام على أن يكون الخلق لعباً منظوراً فيه إلى رد اعتقاد معتقدٍ ذلك ولكنه بني على النفي أخذاً لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة الله بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعباً .

(169/507)

واللعبُ : العمل أو القول الذي لا يُقصد به تحصيل فائدة من مصلحة أو دفع مفسدة ولا تحصيل نفع أو دفع ضر .

وإنما يقصد به إرضاء النفس حين تميل إلى العبث كما قيل : "لا بد للعاقل من حَمْقة يعيش

بها " .

ويرادفه العبث واللهو ، وضده : الجد .

واللعب من الباطل إذ ليس في عمله حكمة فضده الحقّ أيضاً .

وانتصب ﴿ لاعبين ﴾ على الحال من ضمير ﴿ خلَقْنا ﴾ وهي حال لازمة إذ لا يستقيم المعنى بدونها .

وجملة ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ مقررة لمعنى جملة ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ تقريراً بالاستدلال على مضمون الجملة ، وتعليلاً لنفي أن يكون خلق السماوات والأرض لَعباً ، أي عبثاً بأن اللعب ليس من شأننا أو على الفرض والتنازل لو أردنا اللهو لكان ما يلهو به حاصلاً في أشرف الأماكن من السماوات فإنها أشد اختصاصاً بالله تعالى إذ جعَل سكانها عباداً له مخلصين ، فلذلك عبر عنها باسم الظرف المختص وهو ﴿ لَدُن ﴾ مضافاً إلى ضمير الجلالة بقوله تعالى من ﴿ لدنا ﴾ ، أي غير العوالم المختصة بكم بل لكان في عَالم الغيب الذي هو أشد اختصاصاً بنا إذ هو عالم الملائكة المقربين .

فالظرفية المفادة من ﴿ لدن ﴾ ظرفية مجازية .

وإضافة ﴿ لدن ﴾ إلى ضمير الجلالة دلالة على الرفعة والتفضيل كقوله تعالى ﴿ رزقا من لدنا ﴾ في سورة [القصص : 57] ، وقوله تعالى : ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ في

سورة [آل عمران : 8] ، أي لو أردنا أن نتخذ لهواً لما كان اتخاذه في عالم شهادتكم .

وهذا استدلال باللزوم العرفي لأن شأن من يتخد شيئاً للتفكه به أن يستأثر به ولا يبيحه لغيره وهو مبني على متعارف عقول المخاطبين من ظنهم أن العوالم العليا أقرب إلى الله تعالى .

(170/507)

وجملة ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ إن جعلت (إن) شرطية فارتباطها بالتي قبلها ارتباط الشرط بجزائه المحذوف الدال عليه جواب (لو) وهو جملة ﴿ لاتخذناه ﴾ فيكون تكريراً للتلازم ؛ وإن جعلت (إن) حرف نفي كانت الجملة مستأنفة لتقرير الامتناع المستفاد من (لو) ، أي ما كنا فاعلين لهواً .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

(بل) للإضراب عن اتخاذ اللهو وعن أن يكون الخَلق لعباً إضرابَ إبطال وارتقاء ، أي بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحق عليه كراهيةً للباطل بَلْهَ أن نعمل عملاً هو باطل ولعب .

والقذف ، حقيقته : رمي جسم على جسم .

واستعير هنا لإيراد ما يزيل ويبطل الشيء من دليل أو زَجْر أو إعدامٍ أو تكوين ما يغلب ، لأن ذلك مثل رمي الجسم المبطل بشيء يأتي عليه ليتلفه أو يشتته ، فالله يبطل الباطل بالحقّ بأن يبين للناس بطلان الباطل على لسان رسله ، وبأن أوجَد في عقولهم إدراكاً للتمييز بين الصلاح والفساد ، وبأن يسلط بعض عباده على المبطلين لاستئصال المبطلين ، وبأن يخلق مخلوقات يسخرها لإبطال الباطل ، قال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ في سورة الأنفال (12) .

والدمغ : كَسْر الجسم الصُلب الأجوف ، وهو هنا ترشيح لاستعارة القذف لإيراد ما يبطل ، وهو استعارة أيضاً حيث استعير الدمغ لمحق الباطل وإزالته كما يزيل القذف الجسم المقذوف ، فالاستعارتان من استعارة المحسوسين للمعقولين .

ودل حرف المفاجأة على سرعة محق الحقّ الباطلَ عند وروده لأن للحقّ صولة فهو سريع المفعول إذا ورد ووضح ، قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ في سورة الرعد (17) .

والزاهق: المنفلت من موضعه والهالك، وفعله كسمع وضرب، والمصدر الزهوق.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿ وتَزْهَقَ أنفسُهم وهم كافرون ﴾ في سورة براءة (55) وقوله تعالى: ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ في سورة الإسراء (81).

وعندما انتهت مقارعتهم بالحجج الساطعة لإبطال قولهم في الرسول وفي القرآن ابتداء من قوله تعالى: ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء: 53].

وما تخلل ذلك من المواعظ والقوارع والعبر.

خُتم الكلام بشتمهم وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾، أي مما تصفون به محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن.

والويل: كلمة دعاء بسوء.

وفيها في القرآن توجيه لأن الوَيل اسم للعذاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

ربنا - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل الأعلى في الخَلْق ؛ لأن خَلْق السماوات والأرض مسألة كبيرة : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [غافر : 57] فالناس تُولَد وتموت وتتجدد ، أمّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خَلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخَلْق السماء والأرض وما بينهما ؛ لأنها أعجب شيء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً ﴿ وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ [طه : 6] .

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو في النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى في هذا الكون فما عمله هو ؟ وما وظيفته في كون الله ؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك ؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة في الحياة فأنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك ؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات وهي أقوى منك ، ألك قدرة على السماء ؟ أتطول الشمس والقمر ؟

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرضَ وَلَن تَبْلُغَ الجبالَ طُولاً ﴾ [الإسراء : 37] .

إذن : كان يجب عليك أن تبحث بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدي إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : " يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له " .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما ؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهي - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل

الأعلى – نقول له : أين القصيدة التي قلتها ؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شِعْره وآثاره التي ادَّعاها . وهي دعوى دون دليل ؟ !

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربَع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطي المؤمن والكافر والطائع والعاصي ؛ لأنها تعمل بالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار . أما الإنسان هو المخلوق صاحب الاختيار في أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً في نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذي يحدث فيه الخَلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم * والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم * لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 38–40] .

(174/507)

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شيء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة 365 يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها في عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ في اليوم الأول من نفس المكان ، وفي اليوم الثاني من نفس مكان اليوم الثاني ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك ؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئي أو حَلْقي ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً في نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه ؛ لأنه لا تدخلُّ لنا فيه أبداً .

وفي المقابل انظر إلى أيِّ شيء للإنسان فيه تدخّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض . . الخ

انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإن سارت على منهج الله استقامت كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخلق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شيء ، ولا اختلّتْ فيه ظاهرة ، أمّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندي أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أُنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك في الدنيا ، فأنا أخدمك في الآخرة ، وأُلبّي لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أنني شغلت نفسي بمَنْ يملكني وهو الله تعالى لاستقام لي ما أملكه .

(175/507)

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا ؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأِنّي يكفيني من خلقي أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذي يملك أنْ يشهد أو لا يشهد .

كما أنني بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هي الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .

وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالي لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ

السماء والأرض بدون غاية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً . . . ﴾ .

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شيء ، وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ . . . ﴾ [الأنبياء : 17] تدل على أن ذلك لن يحدث .

فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة في ذاتها ، فليس لها هدف كما لي نسعى له في الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عَبَثاً .

وهذا يمتنع في حق الله سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل . . . ﴾ .

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله في السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملي للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .

فقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل . . ﴾ [الأنبياء : 18] القذف : الرَّمْي بشدة مثل القذائف المدمرة ﴿ فَيَدْمَغُهُ . . ﴾ [الأنبياء : 18] يقال : دمغه أي : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أيِّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ في النجاة بعده .

لذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - عَظْمة الدماغ أغوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت - مثلاً - إذا توقف القلب ؛ لأن القلب يجري له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية الأولى والتي تحتفظ بآخر مظاهر الحياة في الجسم ؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكي .

وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ، فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفي طاقته الاحتراقية في العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعم ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللحم ، ثم على العَظْم لِيُوفِّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد في الجسم ، ومن بعده تتغذّى باقي الأعضاء .

إذن : كل شيء في الجسم يخدم المخ ؛ لأنه أَعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جفَّ الماء في التربة ولم يجد النبات الغذاءَ الكافي يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم

تساقط الأوراق، ثم تجفّ الفروع الصغيرة، ثم الجذع، ثم الجذر.

ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّي واشتعل الرأس شَيْباً . . . ﴾ [مريم: 4] فالعَظْم آخر مخزَن للغذاء في الجسم، فوَهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية.

(177/507)

إذن: فقوله تعالى: ﴿ فَيَدْمَغُهُ . . . ﴾ [الأنبياء: 18] أي: يصيبه في أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها، لا عضو آخر يمكن أنْ يُجبر؛ لذلك يقول بعدها ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . ﴾ [الأنبياء: 18] زاهق: يعني خارج بعنف.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18] يعني: أيها الإنسان المغترّ بلججه وعناده في الباطل، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق، سنقذف بالحق على باطلك، فنصيب دماغه فيزهق، ساعتها ستقول: يا ويلتي كما سبق أنْ قالوا: ﴿ قَالُواْ ياويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 14] حينما يباشرون العذاب.

ومعنى: ﴿ تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18] تكذبون كذباً افترائياً، كما لو رأيت شخصاً جميلاً، فتقول: وجهه يَصِفُ الجمال، يعني: إنْ كنت تريد وَصْفاً للجمال، فانظر إلى

وجهه يعطيك صورة للجمال ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب . . . ﴾ [النحل : 62] يعني : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .

كما يقولون : حديث خرافة ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندي سهم إنْ أطلقتُه على الظَّبي يسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذي نراه اليوم ! ! فسار كلامه مثلاً يُضرب للكذب .

لذلك قال الشاعر :

حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرو . . . فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قوْلٌ لا يوافق الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب ؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام : 100] أي : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملِي الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه ؟

نقول : الحكمة من هذا أنْ تتم الابتلاءات ، والناس لا تعشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مِثْلُ الصبْحُ مُبيضٌ . . . وَالشَّعْر مِثْلُ الليْلِ مُسْوَدُ

ضِدَّان لَمَّا استُجْمِعا حَسُنا . . . والضِدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِدُ

إذن : لا نعرف جمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(179/507)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

قوله : ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ : حالٌ من فاعل " خَلَقْنا " .

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17)

قوله : ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ : في " إنْ " هذه وجهان ، أحدهما : أنها نافيةٌ أي : ما كُنَّا فاعلين . والثاني : أنها شرطيةٌ . وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالةِ جوابِ " لو " عليه . والتقدير : إنْ كُنَّا فاعلينَ اتَّخَذْنَاه .

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

قوله : ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ : العامَّةُ على رفع الغين نَسَقاً على ما قبله . وقرأ عيسى بن عمر بنصبِها . قال الزمخشري : " وهو في ضَعْفِ قولِه :

3332 سأَتْرُكُ منزلي لبني تميمٍ . . . وأَلْحَقُ بالحِجازِ فأَسْتَرِيحا

وقرئ شاذاً " فَيَدْمُغُه " بضمِّ الميم ، وهي محتملةٌ لأَنْ يكونَ في المضارع لغتان : يَفْعَل ويَفْعُل ، وأن يكونَ الأصلُ الفتحَ ، والضمة للإتباع في حرف الحلق . ويدمغه : أي يصيب دماغه ، من قولِهم دَمَغْتُ الرجلَ أي : ضَرَبْتَه في دماغِه كقولهم رَأَسَه وكَبَده ورَجَله ، إذا أصاب منه هذه الأعضاءَ .

قوله : ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه متعلقٌ بالاستقرار الذي تَعَلَّق به الخبرُ أي : استقرَّ لكم الويلُ من أجلِ ما تَصِفُون . و " مِنْ " تعليليَّةٌ . وهذا وجهٌ وجيهٌ . الثاني :

أنه متعلقٌ بمحذوفٍ ، والثالث : أنه حالٌ من الويلِ أي : الويلُ واقعاً مِمَّا تَصِفون ، كذا قَدَّره أبو البقاء . و" ما " في ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ مصدريةً فلا عائدَ عند الجمهورِ ، وأن تكونَ بمعنى الذي ، أو نكرةً موصوفةً ولا بُدَّ من العائد ، عند الجميع ، حُذِف لاستكمالِ الشروطِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 138 . 139 ﴾

(181/507)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

اللَّعِبُ نعتُ من زالَ عن حَدّ الصواب ، واستجلب بفعله الالتذاذ ، وانجرَّ في حَبْلِ السَّفَهِ . وحَقُّ الحقِّ مُتَقَدّسٌ عن هذه الجملة .

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) ﴾

يخاطبهم على حسب أفهامهم ؛ وإلا . . فالذي لا يعتريه سهوٌ لا يستفِزُّه لَهْوٌ ، والحقُّ لا يعتريه ولا يضاهيه كُفُؤٌ .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) ﴾

نُدْخِلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأَوهام فينقشع سحابُ الغيبة ، وينجلي ضبابُ الأوهام ، وتنير شمسُ اليقين ، وتصحو سماءُ الحقائق عن كلِّ غُبار التُّهَم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 496 ﴾

(182/507)

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم عطف أيضاً على ما لزم من ذلك القذف قوله : ﴿ وله من في السماوات ﴾ أي الأجرام العالية وهي ما تحت العرش ، وجمع السماء هنا لا قتضاء تعميم الملك ذلك .

ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدد الأراضي ، وحد فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي ومن فيها ، وذلك شامل – على أن التعبير بمن لتغليب العقلاء – للسماوات والأرض ، لأن الأرض في السماوات ، وكل سماء في التي فوقها ، والعليا في العرش وهو سبحانه ذو العرش العظيم – كما سيأتي قريباً ، فدل ذلك دلالة عقلية على أنه مالك الكل وملكه .

ولما كانوا يصفون الملائكة بما لهم الويل من وصفه ، خصهم بالذكر معبراً عن خصوصيتهم وقربهم بالعندية تمثيلاً بما نعرف من أصفياء الملوك عند التعبير بعند من مجرد القرب في المكانة لا في المكان فقال : ﴿ ومن عنده ﴾ أي هم له حال كونهم ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ بنوع كبر طلباً ولا إيجاداً ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي ولا يطلبون أن ينقطعوا عن ذلك فأنتج ذلك قوله : ﴿ يسبحون ﴾ أي ينزهون المستحق للتنزيه بأنواع التنزيه من الأقوال والأفعال التي هي عبادة ، فهي مقتضية مع نفي النقائص إثبات الكمال ﴿ الّيل والنهار ﴾ أي في جميع آنائهما دائماً .

ولما لم يصرح هنا بإنكار منهم ، ولا ما يستلزمه من الاستكبار ، لم يؤكد لا عطف بالواو فقال : ﴿ لا يفترون ﴾ عن ذلك في وقت من الأوقات بخلاف ما في ﴿ فصلت ﴾ فإن الأمر فيها مبني على حد استكبارهم المستلزم لأنكارهم المقتضي للتأكيد ، وكل هذا في حيز ﴿ إذا ﴾ أي إذا أنزلنا شيئاً من القرآن منبهاً على أقاويلكم مبيناً لأباطيلكم ، فاجأه ظهور الزهوق للباطل ، والويل لكم والملك له سبحانه منزهاً عن كل نقص ثابتاً له بالعبادة كل كمال ، ويجوز أن يعطف على ﴿ نقذف ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 74 ﴾

(183/507)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان .

الأول : أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة ونفي الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة ، لا جرم عقب تلك الآية بقوله : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة .

الثاني : وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الإنقياد بين في هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات ، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ معناه أن كل المكلفين في السماء والأرض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ، فيجب على الكل طاعته والانقياد

لحكمه.

المسألة الثالثة:

دلالة قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ على أن الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها في سورة البقرة.

المسألة الرابعة:

قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة ولأنه تعالى وصفهم بأنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنهار لَا يَفْتُرُونَ﴾ وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة، فكأنه تعالى قال: الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته.

المسألة الخامسة:

قال الزجاج: ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب "الكشاف": فإن قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكأن الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات

الشاقة بأن يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ فالمعنى أن تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر ، روي عن عبد الله بن الحرث بن نوفل ، قال : قلت لكعب : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [فاطر : 1] أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضاً قال : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله والملئكة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة : 161] فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح ؟ أجاب كعب الأحبار فقال : التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتبسيح لا يمنعهم من سائر الأعمال .

فإن قيل هذا القياس غير صحيح لأن الإشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام ، لأن آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال .

والجواب : أي استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله ، أو يقال معنى قوله : ﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته اللائقة به كما يقال : إن فلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به أنه أبداً مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها في أوقاتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 128.129 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لا يملون ، قاله ابن زيد .

الثاني : لا يعيون ، قاله قتادة .

الثالث : لا يستنكفون ، قاله الكلبي .

الرابع : لا ينقطعون ، مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء ، قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها . . . فبيض وأما جلدها فصليب انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(186/507)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وله ﴾ يحتمل أن يكون ابتداء كلام يحتمل أن يكون معادلاً لقوله ﴿ ولكم

الويل ﴾ [الأنبياء : 18] كأنه تقسيم الأمر في نفسه أي للمختلقين هذه المقالة الويل ولله تعالى ﴿ من في السموات والأرض ﴾ واللام في ﴿ له ﴾ لام الملك ، وقوله تعالى : ﴿ من في السماوات ﴾ يعم الملائكة والنبيين وغيرهم ، ثم خصص من هذا العموم من أراد تشريفه من الملائكة بقوله تعالى : ﴿ ومن عنده ﴾ لأن " عند " هنا ليست في المسافات إنما هي تشريف في المنزلة فوصفهم تعالى بأنهم ﴿ لا يستكبرون ﴾ عن عبادة الله ولا يسأمونها ولا يكلون فيها . والحسير من الإبل المعيي ومنه قول الشاعر : [الطويل]

لهن الوجى لم يكن عوناً على النوى . . . ولا كان منها طالع وحسير

وحسر واستحسر بمعنى واحد ، وهذا موجود في كثير من الأفعال وإن كان الباب في استفعل أن يكون لطلب الشيء ، وقوله تعالى : ﴿ لا يفترون ﴾ ، روي عن كعب الأحبار أنه قال جعل الله التسبيح كالنفس وطرف العين للبشر منهم دائباً دون أن يلحقهم فيه سآمة ، وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس مع أصحابه إذ قال " أتسمعون ما أسمع " قالوا : ما نسمع من شيء يا رسول الله ، قال " إني لأسمع أطيط السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع راحة إلا وفيه ملك ساجد أو قائم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ وله من في السموات والأرض ﴾

يعني : هم عبيده ومُلْكه ﴿ ومَنْ عنده ﴾ يعني : الملائكة .

وفي قوله : ﴿ ولا يَسْتَحْسِرُون ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يرجعون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لا ينقطعون ، قاله مجاهد .

وقال ابن قتيبة : لا يعيَون ، والحَسِر : المنقطع الواقف إعياءً وكلالاً .

والثالث : لا يملُّون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ لا يَفْتُرون ﴾ قال قتادة : لا يسأَمون .

وسئل كعب : أما يَشْغَلهم شأن ؟ أما تَشْغَلُهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي ، جُعل لهم التسبيح كما جُعل لكم النَّفَسُ ، ألست تَأكل وتشرب وتقوم وتجلس وتجيء وتذهب وتتكلم وأنت تتنفس ؟ ! فكذلك جُعل لهم التسبيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير ـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾

أي ملكاً وخلقاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه .

﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله .

﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له .

﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي يعيون ؛ قاله قتادة .

مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، (يقال) : حسر البعير يحسِر حُسوراً أعيا وكَلّ ، واستحسر وتحسر مثله ، وحسرته أنا حسراً يتعدى ولا يتعدى ، وأحسرته أيضاً فهو حسير .

وقال ابن زيد : لا يملون .

ابن عباس : لا يستنكفون .

وقال أبو زيد : لا يكلّون .

وقيل : لا يفشلون ؛ ذكره ابن الأعرابي ؛ والمعنى واحد .

﴿ يُسَبّحُونَ الليل والنهار ﴾ أي يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما .

﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ أي لا يضعفون ولا يسأمون ، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون

النَّفَس .

قال عبد الله بن الحرث سألت كعباً فقلت : أما لهم شغل عن التسبيح ؟ أما يشغلهم عنه شيء ؟ فقال : من هذا ؟ فقلت : من بني عبد المطلب ؛ فضمني إليه وقال : يا ابن أخي هل يشغلك شيء عن النفس ؟ ! إن التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس .

وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الملائكة أفضل من بني آدم .

وقد تقدّم والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(189/507)

وقال أبو حيان :

ثم أخبر تعالى أن من في السموات والأرض ملك له فاندرج فيه من سموه بالصاحبة والولد ومن عنده هم الملائكة ، واحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ من ﴾ فيكونون قدر اندرجوا في الملائكة بطريق العموم لدخولهم في ﴿ من ﴾ وبطريق الخصوص بالنص على أنهم من عنده ، ويكون ﴿ لا يستكبرون ﴾ جملة حالية منهم أو استئناف إخبار ، واحتمل أن يكون ومن عنده مبتدأ وخبره ﴿ لا يستكبرون ﴾ وعند هنا لا يراد بها ظرف المكان لأنه تعالى منزه عن المكان ، بل المعنى شرف المكانة وعلو المنزلة ، والظاهر أن قوله ﴿ وله من

في السموات والأرض ﴾ استئناف إخبار بأن جميع العالم ملكه .

وقيل : يحتمل أن يكون معادلاً لقوله ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ كأنه يقسم الأمر في نفسه أي للمتخلفين هذه المقالة الويل ، ولله تعالى من في السموات والأرض انتهى .

والمراد أن الملائكة مكرمون منزلون لكرامتهم على الله منزلة المقرّبين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم ، ويقال : حسر البعير واستحسر كَلَّ وتعب وحسرته أنا فهو متعد ولازم ، وأحسرته أيضاً ، وقال الشاعر :

بها جيف الحسرى فإما عظامها . . .

فبيض وأما جلدها فصليب

قال الزمخشري : فإن قلت : الاستحسار مبالغة في الحسور ، وكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت : في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه ، وأنهم أخفاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون انتهى .

﴿ يسبحون ﴾ هم الملائكة بإجماع الأمة وصفهم بتسبيح دائم .

وعن كعب : جعل الله لهم التسبيح كالنفس وطرف العين للبشر يقع منهم دائماً دون أن يلحقهم فيه سآمة ، وفي الحديث : " "إني لأسمع أطيط السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع راحة إلا وفيه ملك ساجد أو قائم" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾

استئنافٌ مقررٌ لما قبله من خلقة تعالى لجميع مخلوقاتِه على حكمة بالغةٍ ونظامٍ كامل وأنه تعالى يُحِق الحقَّ ويُزْهق الباطل ، أي له تعالى خاصة جميعُ المخلوقات خلقاً ومُلكاً وتدبيراً وتصرفاً وإحياءً وإماتة وتعذيباً وإثابةً من غير أن يكون لأحد في ذلك دخلٌ ما استقلالاً أو استتباعاً ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ وهم الملائكةُ عليهم السلام ، عبّر عنهم بذلك إثرَ ما عبّر عنهم بمن في السموات تنزيلاً لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزُلْفاهم عنده منزلةَ المقربين عند الملوكِ بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أي لا يتعظمون عنها ولا يُعدّون أنفسهم كبيراً ﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ولا يكِلّون ولا يعيَوْن ، وصيغةُ الاستفعال المنبئةِ عن المبالغة في الحُسور للتنبيه على أن عباداتِهم بثقلها ودوامها حقيقةٌ بأن يُستَحسَرَ منها ومع ذلك لا يستحسرون ، لا لإفادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصلِه في الجملة كما أن نفيَ الظلاّمية في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ بظلاّم للعَبِيدِ ﴾ لإفادة كثرةِ الظلم المفروضِ تعلقُّه بالعبيد لا لإفادة نفي المبالغةِ في الظلم مع ثبوت أصلِ الظلم في الجملة ، وقيل : من عنده

معطوف على من الأولى وإفرادُهم بالذكر مع دخولهم في مَن في السموات والأرض للتعظيم كما في قوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ حينئذ حال من الثانية .

﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات ويعظّمونه ويمجدونه دائماً ، وهو استئنافٌ وقع جواباً عما نشأ مما قبله ، كأنه قيل : ماذا يصنعون في عباداتهم أو كيف يعبدون ؟ فقيل : يسبحون الخ ، أو حالٌ من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى : ﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ أي لا يتخلل تسبيحَهم فترةٌ أصلاً بفراغ أو بشغل آخرَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(191/507)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾

استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمه بالغة ونظام كامل وأنه سبحانه يحق الحق ويزهق الباطل ، وقيل هو عديل لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمُ الويل ﴾ وهو كما ترى أي وله تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقاً وملكاً وتدبيراً وتصرفاً وإحياءً وإماتة

وتعذيباً وإثابة من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالاً واستتباعاً ، وكأنه أريد هنا إظهار مزيد العظمة فجيء بالسموات جميعاً على معنى له كل من هو في واحدة واحدة من السموات ولم يرد فيما مر سوى بيان اشتمال هذا السقف المشاهد والفراش الممهد وما استقر بينهما على الحكم التي لا تحصى فلذا جيء بالسماء بصيغة الإفراد دون الجمع .

وفي الاتقان حيث يراد بالعدد يؤتى بالسماء مجموعة وحيث يراد الجهة يؤتى بها مفردة ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ وهم الملائكة مطلقاً عليهم السلام على ما روي عن قتادة وغيره ، والمراد بالعندية عندية الشرف لا عندية المكان وقد شبه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة فعبر عن المشبه بلفظ دال على المشبه به فهناك استعارة مصرحة .

وقيل عبر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم عليه عز وجل منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل ، والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أي لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبراء ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي لا يكلون ولا يتعبون يقال حسر البعير واستحسر كل وتعب وحسرته أنا فهو متعد ولازم ويقال أيضاً أحسرته بالهمز .

والظاهر أن الاستحسار حيث لا طلب كما هنا أبلغ من الحسور فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، والمراد من الاتحاد بينهما الدال عليه كلامهم الاتحاد في أصل المعنى ، والتعبير به للتنبيه على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون وليس لنفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصله في الجملة ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] على أحد الأوجه المشهورة فيه .

وجوز أبو البقاء وغيره أن يكون ذلك معطوفاً على من الأولى وأمر تفسيره بالملائكة عليهم السلام على حاله ، وذكر أن هذا العطف لكون المعطوف أخص من المعطوف عليه في نفس الأمر كالعطف في قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح ﴾ [القدر : 4] في الدلالة على رفعة شأن المعطوف وتعظيمه حيث أفرد بالذكر مع اندراجه في عموم ما قبله ، وقيل إنما أفرد لأنه أعم من وجه فإن من في الأرض يشمل البشر ونحوهم وهو يشمل الحافين بالعرش دونه ، وجوز أن يراد بمن عنده نوع من الملائكة عليهم السلام متعال عن التبوء والاستقرار في السماء والأرض ، وكأن هذا ميل إلى القول بتجرد نوع من الملائكة عليهم السلام متعال عن التبوء والاستقرار في السماء والأرض ، وكأن هذا ميل إلى القول بتجرد نوع من الملائكة عليهم السلام ، وأنت تعلم أن جمهور أهل الإسلام لا يقولون بتجرد شيء من الممكنات ، والمشهور عن القائلين به القول بتجرد الملائكة مطلقاً لا بتجرد بعض دون بعض .

ثم إن أبا البقاء جوز في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ على هذا الوجه أن يكون حالاً من

الأولى والثانية على قول من رفع بالظرف أو من الضمير في الظرف الذي هو الخبر أو من الضمير في ﴿ عِندَهُ ﴾ ويتعين أحد الأخيرين عند من يعرب من مبتدأ ولا يجوز مجىء الحال من المبتدأ ولا يخفى.

(193/507)

وجوز بعض الأفاضل أن تكون الجملة مستأنفة والأظهر جعلها خبراً لمن عنده، وفي بعض أوجه الحالية ما لا يخفى

﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ في موضع الحال من مضير ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ على تقديري الاستئناف والحالية، وجوز على تقدير الحالية أن يكون هذا حالاً من ضمير ﴿ لاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 19] أيضاً، ولا يجوز على تقدير الاستئناف كونه حالاً منه للفصل.

وجوز أن يكون استئنافاً والمعنى ينزهون الله تعالى ويعظمونه ويمجدونه في كل الأوقات لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلاً بفراغ أو شغل آخر، واستشكل كون الملائكة مطلقاً كذلك مع أن منهم رسلاً يبلغون الرسالة ولا يتأتى التسبيح حال التبليغ ومنهم من يلعن الكفرة كما ورد في آية أخرى.

وقد سأل عبد الله بن الحرث بن نوفل كعباً عن ذلك كما أخرج ابن المنذر.

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ في العظمة .

والبيهقي في "الشعب" فأجاب بأنه جعل لهم التسبيح كالتنفس فلا يمنع عن التكلم بشيء آخر .

وتعقب بأن فيه بعداً ، وقيل إن الله تعالى خلق لهم ألسنة فيسبحون ببعض ويبلغون مثلاً ببعض آخر ، وقيل تبليغهم ولعنهم الكفرة تسبيح معنى .

وقال الخفاجي : الظاهر أنه إن لم يحمل على بعضهم فالمراد به المبالغة كما يقال فلان لا يفتر عن ثنائك وشكر آلائك انتهى .

ولا يخفى حسنه ، ويجوز أن يقال : إن هذا التسبيح كالحضور والذكر القلبي الذي يحصل لكثير من السالكين وذلك مما يجتمع مع التبليغ وغيره من الأعمال الظاهرة ، ثم إن كون الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يستلزم أن يكون عندهم في السماء ليل ونهار لأن المراد إفادة دوامهم على التسبيح على الوجه المتعارف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

وقال القاسمى :

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً ، وبراءتهم من البُنُوَّة المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : ملكاً وتدبيراً : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ وهم الملائكة : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي : لا يعْيَونَ ولا يتعبون منها .

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي : من تنزيهه وعبادته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل جـ 11 صـ 191 ﴾

(195/507)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

عطف على جملة ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنّا ﴾ [الأنبياء : 17] مبيّنةً أن كل من في السماوات والأرض عباد لله تعالى مخلوقون لقبول تكليفه والقيام بما خلقوا لأجله ، وهو تخلص إلى إبطال الشرك بالحجة الدامغة بعد الإفاضة في إثبات صدق الرسول صلى

الله عليه وسلم وحجية القرآن .

فاللام في ﴿ وله ﴾ للملك ، والمجرور باللام خبر مقدم .

و﴿ من في السموات ﴾ مبتدأ ، وتقديم المجرور للاختصاص ، أي له من في السماوات والأرض لا لغيره وهو قصر إفراد رداً على المشركين الذين جعلوا لله شركاء في الإلهية .

و﴿ من في السماوات والأرض ﴾ يعم العقلاء وغيرهم وغُلِّب اسم الموصول الغالب في العقلاء لأنهم المقصود الأول .

وقوله تعالى ﴿ ومن عنده ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ فيكون من عطف الخاص على العام للاهتمام به .

ووجه الاهتمام ظاهر وتكون جملة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ حالاً من المعطوف عليه .

ويجوز أن يكون ﴿ مَنْ عنده ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ خبراً .

وما صدَق (مَن) جماعة كما دل عليه قوله تعالى ﴿ لا يستكبرون ﴾ بصيغة الجمع .

﴿ ومن عنده ﴾ هم المقربون في العوالم المفضلة وهم الملائكة .

وعلى كلا الوجهين في موقع جملة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ يكون المقصود منها التعريض بالذين يستكبرون عن عبادة الله ويعبدون الأصنام وهم المشركون .

والاستحسار : مصدر كالحُسور وهو التعب ، فالسين والتاء فيه للمبالغة في الوصف

كالاستكبار والاستنكار والاسيخار ، أي لا يصدر منهم الاستحسار الذي هو التعب الشديد الذي يقتضيه عملهم العظيم ، أي لا يقع منهم ما لو قام بعملهم غيرهم لاستحسر ثقلَ ذلك العمل ، فعبر بالاستحسار هنا الذي هو الحسور القوي لأنه المناسب للعمل الشديد ، ونفيه من قبيل نفي المقيد بقيد خرجَ مخرج الغالب في أمثاله .

(196/507)

فلا يفهم من نفي الحسور القوي أنهم قد يحسرون حسوراً ضعيفاً .

وهذا المعنى قد يعبر عنه أهل المعاني بأن المبالغة في النفي لا في المنفي .

وجملة ﴿ يسبحون الليل والنهار ﴾ بيان لجملة ﴿ ولا يستحسرون ﴾ لأن من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه ولا يَعيَا منه .

والليل والنهار : ظرفان .

والأصل في الظرف أن يستوعبَه الواقع فيه ، أي يسبحون في جميع الليل والنهار .

وتسبيح الملائكة بأصوات مخلوقة فيهم لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال .

والفتور : الانقطاع عن الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(197/507)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

سبق أن أخبر الحق سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فما المظروف فيه ؟ المظروف فيه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الأنبياء : 19] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصي ، فإنْ كان مختاراً في أمور التكليف فهو مقهورة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . . ﴾ [الأحزاب : 72] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذي لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجه هذه الأمانة التوجيه السليم ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

فوصفه ربُّه بأنه كان في هذا العمل ظلوماً جهولاً ؛ لأنه لا يدري عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السماوات والأرض وهي مضطرة ؟ نقول : هي مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ . . . ﴾ [الأنبياء : 19] أي ليسوا

أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم في عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة ؛ لأنهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 19] من حسر : يعني ضَعُفَ وكَلَّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 4] أي : كليل ضعيف ، لا يَقْوي على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية ؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

(198/507)

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ المقربون . . . ﴾ [النساء : 172] لأن عِزَّهم في هذه المسألة . ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل . . . ﴾ .

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه : فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : 206] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(199/507)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ يقول : ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً .

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة في قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ قال : اللهو ، الولد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ الآية . يقول : لو أردت أن أتخذ ولداً لأتخذت من الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ قال :

النساء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: اللهو بلسان اليمن، المرأة.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال: اللهو بلغة أهل اليمن، المرأة. وفي قوله: ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي، إن ذلك لا يكون ولا ينبغي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال: نساء ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ قال: من الحور العين.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال: لعباً.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ قال: من عندنا ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي ما كنا فاعلين. يقول: وما خلقنا جنة ولا نارا ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً، وكل شيء في القرآن ﴿إن﴾ فهو إنكار.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿بل نقذف بالحق﴾ قال: القرآن ﴿على الباطل﴾ قال: اللبس ﴿فإذا هو زاهق﴾ قال: هالك.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ قال : هي والله لكل واصف كذب إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ومن عنده ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ يقول : لا يرجعون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ قال : لا يحسرون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ قال : لا يعيون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ قال : لا ينقطعون من العبادة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الشعب ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل رضي الله عنه ، أنه سأل كعباً عن قوله : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أما شغلهم رسالة ؟ أما شغلهم عمل ؟ فقال : جعل لهم التسبيح كما جعل لكم

النفس ، ألست تأكل وتشرب ، وتجيء وتذهب ، وتتكلم وأنت تتنفس ؟ فكذلك جعل لهم التسبيح .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ قال : جعلت أنفاسهم تسبيحاً .

وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن أبي كثير قال : خلق الله الملائكة صمداً ليس لهم أجواف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(201/507)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) ﴾

قوله : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أنه معطوفٌ على " مَنْ " الأولى . أخبرَ تعالى عن مَنْ في السماوات والأرض ، وعن مَنْ عنده بأنَّ الكلَّ له في مِلْكِه ، وعلى هذا فيكون من باب ذِكْرِ الخاصِّ بعد العام مَنْبَهَةً على شرفه . لأنَّ قولَه : ﴿ مَن فِي

السماوات ﴾ شَمَل مَنْ عنده ، وقد مَرّ نظيرُه في قولِه : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] . وقوله : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ على هذا فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه حال/مِنْ "مَنْ" الأولى أو الثانية أو منهما معاً . وقال أبو البقاء : "حالٌ : إمَّا مِن الأولى أو الثانيةِ على قولِ مَنْ رَفَع بالظرف "يعني أنَّه إذا جَعَلْنا "مَنْ" في قولِه ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات ﴾ مرفوعاً بالفاعليةِ ، والرافعُ الظرفُ ؛ وذلك على رأي الأخفش ، جاز أَنْ يكونَ "لا يَسْتبكرون" حالاً : إمَّا مِنْ "مَنْ" الأولى ، وإمَّا مِن الثانية ؛ لأن الفاعلَ يجيءُ منه الحالُ . ومفهومُه أنَّا إذا جَعَلْنا مبتدأً لا يجيءُ "يستكبرون" حالاً ، وكأنه يرى أنَّ الحالَ لا تجيءُ من المبتدأ ، وهو رأيٌ لبعضِهم . وفي المسألةِ كلامٌ مقررٌ في غيرِ هذا الموضوعِ ، ويجوزُ أَنْ يكونَ "لا يستكبرون" حالاً من الضميرِ المستكنِّ في "عندَه" الواقعِ صلةً ، وأن يكونَ حالاً من الضميرِ المستكنِّ في "له" الواقع خبراً .

(202/507)

والوجهُ الثاني من وجهَيْ "مَنْ" : أن تكونَ مبتدأً ، و"لا يستكبرون" خبرُه ، وهذه جملةٌ معطوفةٌ على جملةٍ قبلَها . وهل الجملةُ مِنْ قوله ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات ﴾ استئنافيةٌ أو معادِلَةٌ لجملة قولِه : ﴿ وَلَكُمُ الويل ﴾ أي : لكم الوَيْلُ ، ولله تعالى جميعُ العالَمِ عُلْوِيِّه

وسُفْلِيّه؟ والأول أُظهرُ .

ولا يَسْتَحْسِرون أي: لا يَكِلُّون ولا يَتْبعون . يقال: اسْتَحْسر البعيرُ أي كَلَّ وتَعِب . قال: علقمة بن عبدة:

3333 بها جِيَفُ الحسرى فأمَّا عِظامُها ... فبيْضٌ وأمَّا جِلْدُها فصَلِيْبُ

ويقال: حَسَرَ البعيرُ، وحَسَرْته أنا، فيكون لازماً ومتعدياً . وأَحْسَرْتُه أيضاً . فيكون فَعَل وأَفْعَل بمعنىً في أحدِ وجهَيْ فَعَل . قال الزمخشري: "الاستحسارُ مبالغةٌ في الحُسورِ . فكان الأبلغُ في وصفِهم أَنْ ينفيَ عنهم أدْنى الحُسورِ . قلت: في الاستحسارِ بيانُ أنَّ ما هُمْ فيه يوجب غايةَ الحُسور وأقصاه، وأَنَّهم أَحِقَّاءُ لتلك العباداتِ الباهظة بأَنْ يَسْتَحْسِروا فيما يَفْعلون" وهو سؤالٌ حسنٌ وجوابٌ مطابق .

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

قوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾: يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً، وأن يكونَ حالاً من الفاعل في الجملةِ قبلَه . و﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ يجوز فيه الاستئنافُ والحالُ من فاعلِ "يُسَبِّحون" . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 139 . 141 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

الحادثات له سبحانه مِلْكاً والكائنات له حُكماً ، وتعالى اللّهُ عن أنْ يَتَجَمَّلَ بوفاقٍ أو ينقض بخلاف ، وبالقَدَرِ ظهورُ الجميع ، وعلى حسب الاختيار تنصرف الكلمة .

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

المطيعُ بالمختار يُسَبِّحه بالقول الصدق ، والكُلّ من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخِلْقَة ، وبرهان البَيِّنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 497 ﴾

(204/507)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

التفسير : قال جار الله : اللام في قوله ﴿ للناس ﴾ إما صلة لاقترب أو تأكيد لإضافة الحساب إليهم كقولك في أزف رحيل الحي أزف للحي الرحيل ، فيه تأكيد إن من جهة

تقديم الحي ومن جهة إظهار اللام ، ثم تزيد تأكيداً آخر من جهة وضع ضمير الحي مضافاً إليه الرحيل ، موضع لام التعريف فيه فتقول : أزف للحي رحيلهم . والمراد اقترب للناس وقت حسابهم وهو القيامة كقوله ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] فإذا اقتربت الساعة فقد إقترب ما يكون فيها من الحساب وغيره ، كأنه لما هدد في خاتمة السورة المتقدمة بقوله ﴿ فستعلمون ﴾ يبن في أول هذه السورة أن وقت ذلك العلم قريب . فإن قيل : كيف وصف بالاقتراب وقد مضى دون هذا القول أكثر من سبعمائة عام فالجواب أن كل ما هو آتٍ قريب ، وإنما البعيد الذي دخل في خبر كان قال القائل : شعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد . . . ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

على أنه لم يمض بعد يوم من ايام الله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : 47] ومما يدل على أن الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي قوله صلى الله عليه وسلم " بعثت أنا والساعة كهاتين " وقد وعد بعث خاتم النبيين في آخر الزمان ، وفي ذكر هذا الاقتراب تنبيه للغافلين وزجر للمذنبين . فالمراد بالناس كل من له مدخل في الحساب وهم جميع المكلفين . وما روي عن ابن عباس أن المراد بالناس المشركون فمن باب إطلاق اسم الجنس على بعضه بالدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين من الغفلة والإعراض وغيرهما .

والذكر الطائفة النازلة من القرآن ، وقرئ ﴿ محدث ﴾ بالرفع صفة على المحل ، واحتجت المعتزلة بالآية على أن القرآن محدث ، وأجاب الأشاعرة بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف لأنه متجدد في النزول ، وإنما النزاع في الكلام النفسي الذي لا يصح عليه الإتيان والنزول . وزعم الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه أن حاصل قول المعتزلة في هذا المقام يؤل إلى قولنا القرآن ذكر ، وبعض الذكر محدث لأن قوله ﴿ من ذكر من ربهم محدث ﴾ لا يدل على حدوث كل ما كان ذكراً بل على أن ذكراً ما محدث ، كما أن قول القائل : لا يدخل هذا البلد رجل فاضل إلا يبغضونه ، لا يدل على أن كل رجل يجب أن يكون فاضلاً ، وإذا كان كذلك فيصير صورة القياس كقولنا " الإنسان حيوان وبعض الحيوان فرس " وإنه لا ينتج شيئاً لأن كلية الكبرى شرط في إنتاج الشكل الأول كما عرف في علم الميزان . قلت : إن المعتزلة لا يحتاجون في إثبات دعواهم إلى تركيب مثل هذا القياس لأن مدعاهم يثبت بتسنيم إحدى مقدمتي القياس الذي ركبه وهي قوله " بعض الذكر محدث " لأنه نقيض ما يدعيه الأشاعرة وهو لا شيء من القرآن بمحدث . وإذا صدق أحد النقيضين كذب بالضرورة ، فظهر أن الإمام غلطهم في هذا القياس الذي ركبه ، ثم لقائل أن يقول تتميماً لقول المعتزلة : إذا ثبت أن بعض القرآن محدث لزم أن يكون كله محدثا لأن القائل قائلان : أحدهما ذهب إلى قدم كله ، والثاني إلى حدوث كله ، ولم يذهب أحد

إلى قدم بعضه وحدوث بعضه. قال أهل البرهان: إنما قال في هذه السورة ﴿ من ربهم محدث ﴾ لموافقة قوله بعد هذا ﴿ قل ربي يعلم ﴾ وقال في الشعراء ﴿ من ذكر من الرحمن محدث ﴾ [الآية: 5] لكثرة الرحيم فيها. فكان "الرحمن بالرحيم" أنسب.

(206/507)

قوله تعالى ﴿ يلعبون ﴾ اللعب الاشتغال بما لا يعني قوله ﴿ لاهية ﴾ هي من لهى عنه بالكسر إذا ذهل وغفل. وفيه إن هم كالأنعام بل هم لا يحصلون من الاستماع والتذكير إلا على مثل ما تحصل هي عليه آذانهم تسمع وقلوبهم لا تعي ولا تفقه.

ومعنى ﴿ وأسروا النجوى ﴾ بالغوا في إخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لها ولا يعلم أنهم متناجون وفي "واو" اسروا وجهان: أحدهما أن على لغة من يجوز إلحاق علامة التثنية والجمع بالفعل إذا كان مقدماً على فاعله، وثانيهما وهو الأقوى أن الواو ضمير راجع إلى الناس المقدم ذكرهم و﴿ الذين ظلموا ﴾ بدل منهم. أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره ﴿ أسروا النجوى ﴾ مقدماً عليه. وعلى التقادير أراد وأسروا النجوى هؤلاء فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم ثم أبدل من النجوى قوله ﴿ هل هذا إلاّ بشر ﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ أي أتقبلون سحره

وتحضرون هناك وأنتم ترون أنه رجل مثلكم ، أو تلعمون أنه سحر وأنتم من أهل البصر والعقل ؟ وجوز بعضهم أن يكون قوله ﴿ هل هذا ﴾ إلى آخره مفعولاً لقالوا مضمراً ، وإنما أسروا نجوى هذا الحديث لأنهم أرادوا شبه التشاور فيما بينهم تحرياً لهدم أمر النبي كما جاء في كلام الحكماء .

ويرفع أيضاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم " استعينوا على حوائجكم بالكتمان " ويجوز أن يسروا بذلك ثم يقولوا للرسول والمؤمنين : إن كان ما تدعون حقاً فأخبرونا بما اسررنا . من قرأ ﴿ قال ربي ﴾ فعلى حكاية الرسول صلى الله عليه وسلم كأنه قال : إنكم وإن أخفيتم قولكم وطعنكم فإن ربي عالم بذلك ، وإنه من وراء عقابه يصف نفسه في بعض المواضع بأنه يعلم السر وذلك حين يريد تخصيصه بعلم الغيب ، ووصف نفسه ههنا بأنه يعلم القول . قال جار الله : هذا آكد لأنه عام يشمل السر والجهر ، فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة ، وأقول هذا إذا كان اللام في القول للاستغراق ، أما إذا كان للجنس فلا يلزم زيادة العلم إذ لا دلالة للعام على الخاص . بل نقول : العلم بالسر يستلزم العلم بالجهر بالطريق الأولى فلا مزية لإحدى العبارتين على الأخرى ﴿ وهو السميع العليم ﴾ خصص علمه

بالمسموعات أولاً ثم عمم وقال الإمام قدم " السميع " على " العليم " لأنه لا بد من استماع الكلام أولاً ثم من حصول العلم بمعناه . قلت : هذا قياس للغائب على الحاضر قوله ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ معنى هذه الإضطرابات مع ملاحظة ما قبلها أنهم أنكروا أولاً كون الرسول من جنس البشر ، ثم كأنهم قالوا : سلمنا ذلك ولكن الذي ادعيت أنه معجز ليس بمعجز غايته أنه خارق للعادة ، وليس كل ما هو خارق للعادة معجزاً فقد يكون سحراً هذا إذا ساعدنا على أن فصاحة القرآن خارجة عن العادة ، لكنا عن تسليم هذه المقدمة بمراحل فإنا ندعي أنه في غاية الركاكة وسوء النظم كأضغاث أحلام وهي الأحلام المختلطة التي لا أصل لها وقد مر في سورة يوسف . سلمنا ولكنه من جنس كلام الأوساط افتراه من عنده ؟ سلمنا أنه كلام فصيح ولكنه لا يتجاوز فصاحة الشعراء ، وإذا كان حال هذا المعجز هكذا . ﴿ فليأتنا بآية ﴾ لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ اي كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال

الرسل متضمن لإتيانهم بالآيات . ومن تأمل في هذه الأقوال المحكية عن أولئك الكفرة علم أنها كلام مبطل متحير هائم في أودية الضلال وألا يكفي في إعجاز القرآن أنهم عدلوا حين

تحدوا به عن المعارضة بالحروف إلى المقارعة بالسيوف . ثم بين أن الآيات التي يقترحونها لا فائدة لهم فيها لأنهم أعتى من الأمم السالفة وأنهم ما آمنوا عند مجيء الايات المقترحة فأهلكوا لأجل ذلك ﴿ افهم يؤمنون ﴾ مع شدة شكيمتهم فيه معنى الإنكار أي لا يؤمنون ألبتة وحينئذ يجب إهلاكهم ، ولكن قد سبق القول من الله أن هذه الأمة أمنوا من عذاب الاستئصال .

(209/507)

ثم أجاب عن شبهتهم الأولى وهي قولهم ﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ بقوله ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴾ وقد مر مثله في آخر سورة يوسف وفي النحل . وإنما جاز الأمر بالرجوع إلى أهل الكتاب وإن كانوا من الكفرة ، لأن هذا الخبر قد تواتر عندهم وبلغ حد الضرورة على أن أهل الكتاب كانوا يتابعون المشركين في معادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان قولهم عندهم حجة . وقيل : أهل الذكر أهل القرآن . وضعف بأنهم كانوا طاعنين في القرآن وفي محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يؤمرون بالرجوع إلى قولهم ؟ واستدل كثير من الفقهاء بالآية في أن للعاميّ أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وللمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر وأجيب بأنها خطاب مشافهة وارد في الواقعة المخصوصة ، وفي السؤال

عن أهل الكتاب فلا يتعدى عن مورد النص وقد مر في آخر سورة يوسف الفرق بين قوله ﴿ وما ارسلنا من قبلك ﴾ وقوله ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ بغير "من" وليس إلا ههنا وفي أوائل الفرقان ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ﴾ [الآية : 20] ثم أكد كون الرسل من جنس البشر بقوله ﴿ وما جعلناهم جسداً ﴾ الآية كأنهم قالوا : إنه بشر يأكل كما نأكل ويموت كما نموت ، فلعلهم اعتقدوا خلود الملائكة لا أقل من العمر الطويل ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف اي وما جعلنا الأنبياء قبلك ذوي جسد غير طاعمين وإلا قيل : وما جعلنا لهم جسداً . ووحد الجسد لإرادة الجنس اي ذوي ضرب من الأجساد وأراد كل واحد منهم قوله : ﴿ صدقناهم الوعد ﴾ أصله في الوعد فنصب بنزع الخافض ، ثم فسر الوعد بقوله ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ وهم المؤمنون ، ثم نبههم على عظيم نعمه عليهم بقوله ، ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي شرفكم وصيتكم ، أو فيه بيان مكارم الآخلاق التي بها يبقى الذكر الجميل مع الثواب الجزيل ، ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة فقال ﴿ وكم قصمنا ﴾ والقصم القطع الكبير وهو الذي يبين تلاؤم الأجزاء ، وإذا لم

يبين فهو الفصم بالفاء ، وذلك أن القاف حرف شديد والفاء رخو لوحظ جانب المعنى في اللفظ ومعنى ﴿ من قرية ﴾ من أهل قرية لقوله ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ وللضمائر في قوله ﴿ فلما أحسوا ﴾ إلى آخر القصة . والمراد بالإحساس الإدراك بحاسة اللمس أو علم لا شك فيه كالمحسوس المشاهد . والركض ضرب الدابة بالرجل كأنهم ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم حين أدركتهم مقدمة العذاب ، قال الجوهري : الركض تحريك الرجل على الدابة استحثاثاً لها ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ، فعلى هذا يجوز أن القوم كانوا يعدون على أرجهلم فقيل لهم لا تركضوا .

والقائل إما من الملائكة أو من المؤمنين أو يجعلون أحقاء بأن يقال لهم ذلك ، أو أسمع رب العزة ملائكته هذا القول لينفعهم في دينهم ، أو ألهم الله الكفار ذلك فحدثوا به أنفسهم : ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ من العيش الهني ء والإتراف إبطار النعمة ﴿ لعلكم تسألون ﴾ غداً عما جرى عليكم وعلى أموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، أو أجلسوا في مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم بما تأمرون وماذا ترسمون فينفذ فيهم أمركم ونهيكم ، أو يسألكم الناس مستعينين بتدابيركم بآرائكم ، أو يسألكم

الوافدون وأرباب الطمع مستمطرين سحاب أكفكم إما لأنهم كانوا أسخياء ولكن سمعة ورياء ، إما لأنهم بخلاء وفي كل هذه الوجوه تهكم بهم وتوبيخ لهم ﴿ فما زالت تلك ﴾ الدعوى وهي قولهم ﴿ يا ويلنا ﴾ لأن المولول كأنه يدعو الويل ﴿ دعواهم ﴾ الأول اسم " ما زال " والثاني خبره أو بالعكس . والدعوى بمعنى الدعوة وقد مر في قوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] والحصيد المحصود كقوله ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ شبهوا بالزرع المستأصل والنار التي تخمد فتصير رماداً أي جعلناهم مشبهين بالمحصود والخامد ، ووحد ﴿ حصيداً ﴾ لأن المراد زرعاً حصيداً ، ولأن " فعيلاً " قد يستوي فيه الواحد والجمع ، عن ابن عباس أن الآية نزلت في حضور وسحول قريتين باليمن تنسب إليهما الثياب . وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين . وروى حضوريين بعث الله إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم فكأن القوم حصدوا بالسيف وروي أنه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء بالثارات الأنبياء .

قال أهل النظم : لما بين إهلاك كثير من القرى لأجل ظلمهم وتكذيبهم منها اللتان رواهما ابن عباس ، أتبعه ما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً ومجازاة لا عبثاً ولا مجازفة فقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض ﴾ الاية أي وما سوينا هذا السقف المرفوع والمهاد الموضوع ﴿ وما بينهما ﴾ من الأركان والمواليد كما تسوّي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو أو اللعب ، وإنما سويناهما لغايات صحيحة ومنافع للخلق دينية ودنيوية كما مر طرف منها في أول " البقرة " ويمكن أن يقال : المقصود من سياق الآية تقرير نبوة محمد والرد على منكريه لأنه ظهر المعجز عليه ، فإن كان صادقاً فهو المطلوب ، وإن كان كاذباً كان إظهار المعجز عليه من باب اللعب وهو منفي عنه سبحانه . قال القاضي عبد الجبار : فيه دليل على أنه لا يخلق اللعب وكل قبيح وإلا كان لاعباً وعورض بمسألتي العلم والداعي .

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو اللعب ليس هو العجز والضعف ولكن لأن الحكمة تنافيه ، معنى ﴿ من لدنا ﴾ من جهة قدرتنا وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن أو المرأة ، وقيل : من لدنا اي من الملائكة لا من الإنس رداً على من قال : عزير ابن الله والمسيح ابن الله .
ويحتمل أن يقال من لدنا أي من عندنا على سبيل الخفية فلا تعرفونه ولا ستمعون اسمه

فيكون الرد شاملاً لكل من ادعى الله ولداً ولو من الملائكة . ثم اضرب عن اتخاذ اللهو واللعب فوصف نفسه بما يضاد فعل العبث قائلاً ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو ﴾ يعني الباطل ﴿ زاهق ﴾ اي ففاجأ الدمغ زهوق الباطل ، قال علماء المعاني : هذا من باب استعارة المحسوس للمعقول بجامع عقلي : فأصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام لأن القذف الرمي بنحو الحجارة ، والدمغ من دمغه إذا شجه حتى بلغت الشجة الدماغ ، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل ، والدمغ لإذهاب الباطل بجامع الزهوق ، ثم وبخهم ونعى عليهم بما وصفوه بالولد وغير ذلك مما لا يجوز عليه وينافي وجوب الوجود بما وصفوا رسوله به من السحر والشعر وغير ذلك من الأوصاف المضادة للرسالة فقال ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ اي تصفونه به . ثم بين كمال قدرته ونهاية حلمه وحكمته فقال ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ والمراد بمن عنده الملائكة المقربون والمقصود عندية الشرف والرتبة . فأما عندية المكان ففيها بحث طويل . قال الزجاج : ﴿ لا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يمسهم الإعياء . قال جار الله : كان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور ولكنه ذكر بلفظ المبالغة وهو " استفعل " لبيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور ، وأنهم أحقاء بتلك العبادات الشاقة بأن يستحسروا ومع ذلك لا يعدُّونها تعباً عليهم . ثم أكد ذلك بقوله ﴿ يسبحون الليل والنهار ﴾ منصوبان على

الظرفية ﴿ لا يفترون ﴾ لا يلحقهم الفتور والكلال . وحاصل الآية أؤن الملائكة مع غاية شرفهم

(214/507)

ونهاية قربهم لا يستنكفون عن طاعة الله ، فكيف يليق بالبشر مع ضعفهم ونقصهم أن يتمردوا عن طاعته ؟ وقد مر في أول سورة البقرة استدلال مفضلي الملائكة على الأنبياء بهذه الآية وبغيرها فلا حاجة إلى إعادته عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال : قلت لكعب الأحبار : أرايت قول الله عز وجل ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ثم قال : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [فاطر : 1] ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة ﴾ [البقرة : 161] أليس الرسالة واللعن ما نعين لهم عن التسبيح ؟ أجاب كعب بأن التسبيح لهم كالنفس لنا لا يمنعهم عن الاشتغال بشيء آخر . واعترض بأن آلة التنفس فينا مغايرة للسان فلهذا صح اجتماع التنفس والتكلم . وأجيب بأنه لا استبعاد في أن يكون لهم ألسن كثيرة ، أو يكون المراد بعدم الفتور أنهم لا يتركون التسبيح في أوقاته اللائقة به .

التأويل : اقترب لأهل النسيان أن يحاسبوا أنفسهم ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ [الحديد : 16] ﴿ وما يأتيهم من ذكر ﴾ وعظ وتذكير من عالم رباني ﴿

محدث ﴾ إلهامه إلا أنكروه عليه ونسبوه إلى التخليط ونحوه ﴿ وما جعلناهم جسداً ﴾ فيه أن الله قادر على أن لا يجعل النبي الولي ذا جسد ولكن اقتضت حكمته كونهم ذوي أجساد آكلين للطعام فإن الطعام للروح الحيواني الذي هو مركب الروح الإنساني كالدهن للسراج، وبالقوى الحيوانية تتم الكمالات النفسانية وتدرك المحسوسات وتستفاد العلوم المستندة إلى الإحساس والتجربة وتفصيله أكثر من أن يحصى. قال بعض المشايخ، لولا الهوى ما سلك أحد طريقاً إلى الله ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ والسر فيه أن يعلموا من الموت حقيقة اسم المميت كما علموا من الحياة حقيقة اسم المحيي.

(215/507)

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ الذي وعدناهم حين أهبطوا إلى الأرض ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ من متابعيهم من هاوية الهوان وعالم الطبيعة ﴿ وأهلكنا هم المسرفين ﴾ الذين اسرفوا على أنفسهم بالكون إلى أسفل سافلين الطبائع. ﴿ وكم قصمنا من ﴾ أهل ﴿ قرية ﴾ قالت ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ وهي شدة قطع التعلق عن الكونين فإن الفطام عن المألوف شديد ﴿ لا تركضوا ﴾ منا بل فروا إلينا ﴿ وارجعوا ﴾ إلى التنعمات الروحانية ﴿ ومساكنكم ﴾ الصلية ﴿ لعلكم تسألون ﴾ عزة وكرامة ﴿ وما خلقنا

﴿ سموات الأرواح وأرض الأجساد ، وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار من غير غاية ، وإنما خلقناها لتكون لطفنا وقهرنا ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ للحق ثلاث مراتب : مرتبة أفعال الحق ومرتبة صفات الحق ومرتبة ذات الحق ، ففي كل مرتبة يتجلى الحق فيها للعبد ، ارهق باطل تلك المرتبة عن العبد حتى إذا تجلى له بأفعاله ذهب عنه باطل الأفعال ، وإذا تجلى له بصفاته ذهب باطل صفاته ، وإذا تجلى له بذاته في ذاته فيقول : أنا الحق وسبحاني والويل لمن لم يذهب باطله بإحدى هذه المراتب فيبقى متصفاً بالوجود المجازي . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 10.4 ﴾

(216/507)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/508)

الجزء الثامن بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 28 ﴾ من نفس السورة

(4/508)

قوله تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ

(23) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بأن يبادروا إلى التوحيد فلم يفعلوا ، كانوا حقيقين بعد الإعراض عنهم - بالتوبيخ والتهكم والتعنيف فقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا ﴾ أي أعلموا أن كل شيء تحت قهره نافذ فيه أمره فرجعوا عن ضلالهم ، أم لم يعلموه ، أو علموا ما ينافيه فاتخذوا ﴿ ءالهة ﴾ .

ولما كانت معبوداتهم أصناماً أرضية من حجارة ونحوها قال : ﴿ من الأرض ﴾ أي التي هم مشاهدون لأنها وكل ما فيها طوع مشيئته ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ ينشرون ﴾ أي يحيون شيئاً مما فيها من الأجسام النامية حتى يستحقوا بذلك صفة الإلهية ، وإفادة السياق الحصر تفيد أنه لو وقع الإنشاء لأحد على وجه يجوّز مشاركة غيره له لم يستحق العبادة ، وفي هذا الاستفهام تهكم بهم بالإشارة إلى أنهم عبدوا ما هو من أدنى ما في الأرض مع أنه ليس في الأرض ما يستحق أن يعبد ، لأن الإنسان أشرف ما فيها ، ولا يخفى ما له من الحاجة المبعدة من تلك الرتبة الشماء .

ولما كان الجواب قطعاً : لم يتخذوا آلهة بهذا الوصف ، ولا شيء غيره سبحانه يستحق

وصف الإلهية ، أقام البرهان القطعي على صحة نفي إله غيره ببرهان التمانع ، وهو أشد برهان لأهل الكلام فقال : ﴿ لو كان فيهما ﴾ أي السماوات والأرض ، أي في تدبيرهما .

(5/508)

ولما كان الأصل فيما بعد كل من " إلا " و " غير " أن يكون من جنس ما قبلهما وإن كان مغايراً له في العين ، صح وضع كل منهما موضع الآخر ، واختير هنا التعبير بأداة الاستثناء والمعنى للصفة إذ هي تابعة لجميع منكور غير محصور الإفادة إثبات الإلهية له سبحانه مع النفي عما عداه ، لأن ﴿ لولا ﴾ - لما فيها من الامتناع - مفيدة للنفي ، فالكلام في قوة أن يقال " ما فيهما " ﴿ ءالهة إلا الله ﴾ أي مدبرون غير من تفرد بصفات الكمال ، ولو كان فيهما آلهة غيره ﴿ لفسدتا ﴾ لقضاء العادة بالخلاف بين المتكافئين المؤدي إلى ذلك ، ولقضاء العقل بإمكان الاختلاف اللازم منه إمكان التمانع اللازم منه إمكان عجز أحدهما اللازم منه أن لا يكون إلهاً لحاجته ، وإذا انتفى الجمع ، انتفى الاثنان من باب الأولى ، لأن الجمع كلما زاد حارب بعضهم بعضاً فقل الفساد كما نشاهد .

ولما أفاد هذا الدليل أنه لا يجوز أن يكون المدبر لها إلا واحداً ، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال : ﴿ فسبحان الله ﴾ أي فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال ﴿ رب

العرش ﴾ أي الذي هو نهاية المعلومات من الأجسام ، ورب ما دونه من السماوات والأراضي وما فيهما المتفرد بالتدبير ، كما يتفرد الملك الجالس على السرير ﴿ عما يصفون ﴾ مما يوهم نقصاً ما ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ لا يسأل ﴾ أي من سائل ما ﴿ عما يفعل ﴾ أي لا يعترض عليه لأنه لا كفوء له في علم ولا حكمة ولا قدرة ولا عظمة ولا غير ذلك ، فليس في شيء من أفعاله لإتقانها موضع سؤال ، فمهما أراد كان ومهما قال فالحسن الجميل ، فلو شاء لعذب أهل سماواته وأهل أرضه ، وكان ذلك منه عدلاً حسناً ، وهذا مما يتمادح به أولو الهمم العوال ، كما قال عامر الخصفي في هاشم بن حرملة بن الأشعر :

أحيا أباه هاشم بن حرملة . . .

يوم الهباءات ويوم اليعمله

ترى الملوك عنده مغربلة . . .

يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

(6/508)

قال ابن هشام في مقدمة السيرة قبل " أمر البسل " بقليل : أنشدني أبو عبيدة هذه الأبيات وحدثني أن هاشم قال لعامر : قل فيّ بيتاً جيداً أثبك عليه ، فقال عامر البيت الأول فلم

يعجب هاشماً ، ثم قال البيت الثاني فلم يعجبه ، ثم قال الثالث فلم يعجبه ، فلما قال الرابع " ويقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له " أعجبه فأثابه عليه ، ومن أعجب ما رأيت في حكم الأقدمين أن الشهرستاني قال في الملل : وقد سأل بعض الدهرية أرسطاطاليس فقال : إذا كان لم يزل ولا شيء غيره ثم أحدث العالم فلم أحدثه ؟ فقال : "لِمَ" غير جائز عليه ، لأن لم تقتضي علة والعلة محمولة فيما هي علة له من معلّ فوقه ولا علة فوقه ، وليس بمركب فتحمل ذاته العلل ، فلم عنه منفية .

﴿ وهم يسألون ﴾ من كل سائل لما في أفعالهم من الاختلال بل يمنعون عن أكثر ما يريدون .

ولما قام الدليل ، ووضح السبيل ، واضمحل كل قال وقيل ، فانمحقت الأباطيل ، قال منبهاً لهم على ذلك : ﴿ أم ﴾ أي أرجعوا عن ضلالهم لما بان لهم غيهم فيه فوحدوا الله أم ﴿ اتخذوا ﴾ ونبه على أن كل شيء دونه وأثبت أن آلهتهم بعض من ذلك بإثبات الجار فقال منبهاً لهم مكرراً لما مضى على وجه أعم ، طالباً البرهان تلويحاً إلى التهديد : ﴿ من دونه ءالهة ﴾ من السماء أو الأرض وغيرهما .

ولما كان جوابهم : اتخذنا ، ولا يرجع أمره بجوابهم فقال : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على ما ادعيتموه من عقل أو نقل كما أثبت أنا ببرهان النقل المؤد بالعقل .

ولما كان الكريم سبحانه لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضم إليه دليل النقل ، أتبعه قوله مشيراً إلى ما بعث الله به الرسل من الكتب : ﴿ هذا ذكر ﴾ أي موعظة وشرف ﴿ من

معي ﴾ ممن آمن بي وقد ثبت أنه كلام الله بعجزكم عن معارضته فانظروا هل تجدون فيه شيئاً يؤيد أمركم ﴿ وذكر ﴾ أي وهذا ذكر ﴿ من قبلي ﴾ فاسألوا أهل الكتابين هل في الكتاب منهما برهان لكم.

(7/508)

ولما كانوا لا يجدون شبهة لذلك فضلاً عن حجة اقتضى الحال الإعراض عنهم غضباً، فكان كأنه قيل: لا يجدون لشيء من ذلك برهاناً ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي هؤلاء المدعوين ﴿ لا يعلمون الحق ﴾ بل هم جهلة والجهل أصل الشر والفساد، فهم يكفرون تقليداً ﴿ فهم ﴾ أي فتسبب عن جهلهم ما افتتحنا به السورة من أنهم ﴿ معرضون ﴾ عن ذكرك وذكر من قبلك غفلة منهم عما يراد بهم وفعلاً باللعب فعلَ القاصر عن درجة العقل، وبعضهم معاند مع علمه الحق، وبعضهم يعلم فيفهم - كما أفهمه التقييد بالأكثر. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 75. 77 ﴾

(8/508)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إلا نوحي إليه ﴾ بالنون : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد ﴿ إني إله ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ابن ذكوان . ﴿ ألمير ﴾ بغير واو : ابن كثير الآخرون بواو متوسطة بين همزة الاستفهام والفعل ونظائرها كثيرة ﴿ ترجعون ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب وابن مجاهد عن ابن ذكوان . ﴿ ولا تسمع ﴾ من الاسماع خطأ بالنبي صلى الله عليه وسلم الصم بالنصب : ابن عامر . الآخرون على الغيبة من السماع . ﴿ الصم ﴾ بالرفع ﴿ مثقال حبة ﴾ بالرفع على "كان" التامة وكذلك في سورة لقمان : أبو جعفر ونافع . الباقون بالنصب .

(9/508)

الوقوف : ﴿ ينشرون ﴾ 5 ﴿ لفسدتا ﴾ ج للابتداء ﴿ بسبحان ﴾ للتعظيم مع فاء التعقيب تعجيلاً للتنزيه ﴿ يصفون ﴾ 5 ﴿ يسالون ﴾ 5 ﴿ آلهة ﴾ ط ﴿ برهانكم ﴾ ج لاتحاد المقول من غير عاطف ﴿ قبلي ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 لا لأن ما بعده مفعول ﴿ معرضون ﴾ 5 ﴿ فاعبدون ﴾ 5 ﴿ سبحانه ﴾ ط ﴿ مكرمون ﴾

5ط لأن ما بعده صفة بعد صفة ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ ولا يشفعون ﴾ 5 لا للاستثناء ﴿ مشفقون ﴾ 5 ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ ففتقناهما ﴾ ط لانتهاء الاستفهام إلى الإخبار ﴿ حي ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ يهتدون ﴾ 5 ﴿ محفوظاً ﴾ ج لاحتمال الواو الاستئناف والحال ﴿ معرضون ﴾ 5 ﴿ والقمر ﴾ ط ﴿ يسبحون ﴾ 5 ﴿ الخلد ﴾ ط ﴿ الخالدون ﴾ 5 ﴿ الموت ﴾ ط ﴿ فتنة ﴾ ط ﴿ ترجعون ﴾ 5 ﴿ هزوا ﴾ ط ﴿ آلهتكم ﴾ ج لاحتمال الواو الإستئناف والحال ﴿ كافرون ﴾ 5 ﴿ من عجل ﴾ ط ﴿ فلا تستعجلون ﴾ 5 ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ ينصرون ﴾ 5 ﴿ ينظرون ﴾ 5 ﴿ يستهزئون ﴾ 5ط ﴿ من الرحمن ﴾ ط ﴿ معرضون ﴾ 5 ﴿ من دوننا ﴾ ط فصلاً بين الاستفهام والإخبار ﴿ يصبحون ﴾ 5 ﴿ العمر ﴾ ط ﴿ من أطرافها ﴾ ط ﴿ الغالبون ﴾ 5 ﴿ بالوحي ﴾ ط لاستئناف ولا يسمع بالياء التحتانية والوصل أجوز لتتميم المقول ، ومن قرأ على الخطاب وقف لأنه خرج عن المقول ﴿ ينذرون ﴾ 5 ﴿ ظالمين ﴾ 5 ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ أتينا بها ﴾ ط ﴿ حاسبين ﴾ 5 ﴿ للمتقين ﴾ 5 لا لاتصال الصفة ولا يخفى أنه يحتمل النصب أو الرفع على المدح فيجوز أن لا يوصل . ﴿ مشفقون ﴾ 5 ﴿ أنزلناه ﴾ ط ﴿ منكرون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 12.11 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالاً وجواباً ، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد .

أما قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا ءالِهَةً مّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : أم ههنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها ، والمنكر هو اتخاذهم آلهم من الأرض ينشرون الموتى ، ولعمري إن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات ، فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا في نهاية البعد عن هذه الدعوى ، فإنهم كانوا مع إقرارهم بالله وبأنه خالق السموات والأرض منكرين للبعث ، ويقولون : ﴿ مَن يُحيِي العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة ألبتة ؟ قلت : لأنهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هي الثواب فإقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الإقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر

والثواب والعقاب ، فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل ، يعني إذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فأي عقل يجوز اتخاذهم آلهة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ كقولك فلان من مكة أو من المدينة ، تريد مكي أو مدني إذ معنى نسبتها إلى الأرض الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض لأن الآلهة على ضربين : أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض ، لأنها إما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض .

المسألة الثالثة :

النكتة في ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ معنى الخصوصية كأنه قيل : أم اتخذوا آلهة من الأرض لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم .

المسألة الرابعة :

قرأ الحسن ﴿ ينشرون ﴾ وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها .

أما قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال أهل النحو إلا ههنا بمعنى غير أي لو كان يتولاهما ويدير أمورهما شيء غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا ، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الإستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد ، وذلك باطل لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم .

ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرناه .

المسألة الثانية :

قال المتكلمون : القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً ، إنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه ، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر ، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس ، فلو امتنعا معاً لوجدا معاً وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثاني وذلك محال أيضاً لوجهين : أحدهما : أنه لو كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من

الآخر بل لا بد وأن يستويا في القدرة .

وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح .

وثانيهما : أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادراً والذي لم يقع مراده يكون عاجزاً والعجز نقص وهو على الله محال .

(12/508)

فإن قيل الفساد إنما يلزم عند اختلافهما في الإرادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما في الإرادة بل أقصى ما تدعونه أن اختلافهما في الإرادة ممكن ، فإذا كان الفساد مبنياً على الإختلاف في الإرادة وهذا الإختلاف ممكن والمبني على الممكن ممكن فكان الفساد ممكناً لا واقعاً فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد ؟ قلنا الجواب من وجهين : أحدهما : لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث إن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب .

والثاني : وهو الأقوى أن نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجه آخر ، فنقول : لو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدّورات فيفضي إلى وقوع

مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه فإذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلاً منهما جميعاً فيلزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه إليهما معاً وذلك محال .

(13/508)

وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد ، فنقول القول بوجود الإلهين يفضي إلى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع ألبتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً ، أو نقول لو قدرنا إلهين ، فإما أن يتفقا أو يختلفا فإن اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وإن اختلفا ، فإما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات ، فإن قلت : لم لا يجوز أن يتفقا على الشيء الواحد ولا يلزم الفساد لأن الفساد إنما يلزم لو أراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف ، أما إذا أراد كل واحد منهما أن يكون الموجد له أحدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين ، قلت : كونه موجداً له ، إما أن يكون نفس القدرة والإرادة أو نفس ذلك الأثر أو أمراً ثالثاً ، فإن

كان الأول لزم الإشتراك في القدرة والإرادة والاشتراك في الموجد ، وإن كان الثاني فليس وقوع ذلك الأثر بقدرة أحدهما وإرادته أولى من وقوعه بقدرة الثاني ، لأن لكل واحد منهما إرادة مستقلة بالتأثير ، وإن كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمراً ثالثاً فذلك الثالث إن كان قديماً استحال كونه متعلق الإرادة .

وإن كان حادثاً فهو نفس الأثر ، ويصير هذا القسم هو القسم الثاني الذي ذكرناه .

واعلم أنك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من الجواهر والأعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذي بيناه .

وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى في مواضع من كتابه ، واعلم أن ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى .

أحدها : وهو الأقوى أن يقال : لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا في الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه ، وكل

مركب فهو مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته .

هذا خلف ، فإذن واجب الوجود ليس إلا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر إليه وكل مفتقر في وجوده إلى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث ، ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيراً لهذه الآية .

لأنا إنما دللنا على أنه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شيء منهما واجباً وإذا لم يوجد الواجب لم يوجد شيء من هذه الممكنات ، وحينئذ يلزم الفساد فثبت أنه يلزم من وجود إلهين وقوع الفساد في كل العالم .

وثانيها : أنا لو قدرنا إلهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركاً للآخر في الإلهية ، ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما وإلا لما حصل التعدد ، فما به الممايزة إما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فإن كان صفة كمال فالخالي عنه يكون خالياً عن الكمال فيكون ناقصاً والناقص لا يكون إلهاً ، وإن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفاً بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصاً ، ويمكن أن يقال : ما به الممايزة إن كان معتبراً في تحقق الإلهية فالخالي عنه لا يكون إلهاً وإن لم يكن معتبراً في الإلهية لم يكن الاتصاف به واجباً ، فيفتقر إلى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج .

وثالثها : أن يقال : لو فرضنا إلهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما

، لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل إلا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والإمكان وكل ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الإمتياز .

(15/508)

ورابعها : أن أحد الإلهين إما أن يكون كافياً في تدبير العالم أو لا يكون فإن كان كافياً كان الثاني ضائعاً غير محتاج إليه ، وذلك نقص والناقص لا يكون إلهاً .

وخامسها : أن العقل يقتضي احتياج المحدث إلى الفاعل ولا امتناع في كون الفاعل الواحد مدبراً لكل العالم .

فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال .

وسادسها : أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه .

والأول محال لأن دليل الصانع ليس إلا بالمحدثات وليس في حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثاني والتالي محال لأنه يفضي إلى كونه عاجزاً عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون إلهاً .

وسابعها : أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر ، فإن قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلاً ، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً .

وثامنها : لو قدرنا إلهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده ، فيكون كل واحد من القدرتين متناهياً والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهياً .

وتاسعاً : العدد ناقص لاحتياجه إلى الواحد ، والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص ناقص ، لأن العدد أزيد منه ، والناقص لا يكون إلهاً فالإله واحد لا محالة .

(16/508)

وعاشرها : أنا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثم قدرنا إلهين فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً ، وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون إلهاً ، وإن قدرا جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر ، وإن قدر كل واحد على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرفه فلا يكون إلهاً .

فإن قيل الواحد إذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز ، قلنا : الواحد

إذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لا يكون عجزاً ، أما الشريك فإنه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة ألبتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون تعجيزاً .

الحادي عشر : أن نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسماً وتقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلاً عن السكون وبالعكس ، فإن لم يقدر كان عاجزاً وإن قدر فنسوق الدلالة إلى أن نقول إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون ، فالأول أزال قدرة الثاني وعجزه فلا يكون إلهاً ، وهذان الوجهان يفيدان العجز نظراً إلى قدرتيهما والدلالة الأولى إنما تفيد العجز بالنظر إلى أرادتيهما .

وثاني عشرها : أنهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقاً بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لأحد المثلين قابلة للمثل الآخر ، فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعي مخصصاً يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبداً فقيراً ناقصاً .

وثالث عشرها : أن الشركة عيب ونقص في الشاهد ، والفردانية والتوحد صفة كمال ، ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر أشد الكراهية .

ونرى أنه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد ، فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه ، فإن قدر عليه كان المغلوب فقيراً عاجزاً فلا يكون إلهاً ، وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهية فلا يكون إلهاً .

ورابع عشرها : أنا لو قدرنا إلهين لكان إما أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر أو يستغني كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما إلى الآخر والآخر يستغني عنه ، فإن كان الأول كان كل واحد منهما ناقصاً لأن المحتاج ناقص وإن كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنياً عنه ، والمستغني عنه ناقص ، ألا ترى أن البلد إذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه ومن غير التفات منهم إليه عد ذلك الرئيس ناقصاً ، فالإله هو الذي يستغني به ولا يستغنى عنه ، وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصاً والمحتاج إليه هو الإله .

واعلم أن هذه الوجوه ظنية إقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة ، أما الدلائل السمعية فمن وجوه : أحدها : قوله تعالى :

﴿ هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ [الحديد : 3] فالأول هو الفرد السابق ، ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لأن شرط الأول أن يكون فرداً .

وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحداً لم يحنث أيضاً لأن شرط الفرد أن يكون سابقاً وهذا ليس بسابق .

فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولاً وجب أن يكون فرداً سابقاً فوجب أن لا يكون له شريك .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] فالنص يقتضي أن لا يكون أحد سواه عالماً بالغيب ولو كان له شريك لكان عالماً بالغيب وهو خلاف النص .

(18/508)

وثالثها : أن الله تعالى صرح بكلمة ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [البقرة : 163] في سبعة وثلاثين موضعاً من كتابه وصرح بالوحدانية في مواضع نحو قوله : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ [البقرة : 163] وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] وكل ذلك صريح في الباب .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] حكم بهلاك كل ما سواه ، ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديماً ، ومن لا يكون قديماً لا يكون إلهاً .

وخامسها : قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ وهو كقوله : ﴿ وَلَعَلاَ

بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] وقوله : ﴿ إِذاً لأَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِى العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

وسادسها : قوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 17] ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : 107] وقال في آية أخرى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هن ممسكات رحمته ﴾ [الزمر : 38] .

وسابعها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبصاركم وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : 46] وهذا الحصر يدل على نفي الشريك .

(19/508)

وثامنها : قوله تعالى : ﴿ الله خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : 62] فلو وجد الشريك لم يكن خالقاً فلم يكن فيه فائدة ، واعلم أن كل مسألة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فإنه يمكن إثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها ، فلا جرم يمكن إثباتها بالدلائل السمعية ، واعلم أن من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والأرض آلهة تقول بإلهيتها عبدة الأوثان لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على

تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم قوله : ﴿ أَمِ اتخذوا آلِهَةً مِّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق .

أما قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أنه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده : ﴿ فسبحان الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي هو منزه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأن معه إلهاً ، وهذا تنبيه على أن الإشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزهاً وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول أي فائدة لقوله : ﴿ فسبحان الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ولَمْ لم يكتف بقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ؟ وجوابه أن هذه المناظرة إنما وقعت مع عبدة الأصنام ، إلا أن الدليل الذي ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ، ثم إنه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الأصنام ، وهي أنه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذي لا يعقل ولا يحس شريكاً في الإلهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والأرضين ومدبر

الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين.

(20/508)

أما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فاعلم أنه مشتمل على بحثين:

أحدهما: أن الله تعالى لا يسأل عن شيء من أفعاله ولا يقال له لم فعلت.

والثاني: أن الخلائق مسؤولون عن أفعالهم، أما البحث الأول ففيه مسألتان:

المسألة الأولى:

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن عمدة من أثبت لله شريكاً ليست إلا طلب اللمية في أفعال الله تعالى، وذلك لأن الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا: رأينا في العالم خيراً وشراً ولذة وألماً وحياة وموتاً وصحة وسقماً وغنى وفقراً، وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشريراً معاً، فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلاً للخير والآخر فاعلاً للشر.

ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن مدبر العالم لو كان واحداً لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى، وخص ذلك بالموت والألم والفقر.

فيرجع حاصله إلى طلب اللمية في أفعال الله تعالى.

فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لا جرم أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك، لأن الترتيب الجيد في المناظرة أن يقع الإبتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب.

ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم.

المسألة الثانية:

في الدلالة على أنه سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أما أهل السنة فإنهم استدلوا عليه بوجوه: أحدها: أنه لو كان كل شيء معللاً بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلا بد في قطع التسلسل من الإنتهاء إلى ما يكون غنياً عن العلة وأولى الأشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته، وكما أن ذاته منزهة عن الإفتقار إلى المؤثر والعلة، وصفاته مبرأة عن الافتقار إلى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الإستناد إلى الموجب والمؤثر.

وثانيها : أن فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة ، إما أن تكون واجبة أو ممكنة فإن كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلاً ، وحينئذ يكون موجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار ، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلاً لله تعالى أيضاً فتفتقر فاعليته لتلك العلة إلى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال .

وثالثها : أن علة فاعلية الله تعالى للعالم إن كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وإن كانت محدثة افتقر إلى علة أخرى ولزم التسلسل .

ورابعها : أن من فعل فعلاً لغرض ، فإما أن يكون متمكناً من تحصل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أو لا يكون متمكناً منه .

فإن كان متمكناً منه كان توسط تلك الواسطة عبثاً وإن لم يكن متمكناً منه كان عاجزاً والعجز على الله تعالى محال ، أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالأغراض ، وكل ذلك في حق الله تعالى محال .

وخامسها : أنه لو كان فعله معللاً بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائداً إلى الله تعالى أو إلى العباد والأول محال لأنه منزه عن النفع والضر ، وإذا بطل ذلك تعين أن الغرض لا بد وأن يكون عائداً إلى العباد ، ولا غرض للعباد إلا حصول اللذات وعدم حصول الآلام ، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسائط .

وإذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئاً لأجل شيء .

وسادسها : هو أنه لو فعل فعلاً لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السواء أو لا يكون ، فإن كان على السواء استحال أن يكون غرضاً ، وإن لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصاً بذاته كاملاً بغيره وذلك محال ، فإن قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وإن كان بالنسبة إليه على السواء .

أما بالنسبة إلى العباد فالوجود أولى من العدم ، قلنا : تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إليه على السوية أو لا على السوية ، ويعود التقسيم الأول .

(22/508)

وسابعها : وهو أن الموجود إما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك .

وثامنها : وهو أن من قال لغيره لم فعلت ذلك ؟ فهذا السؤال إنما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤول منه عن فعله وذلك من العبد في حق الله تعالى محال ، فإنه لو فعل أي فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك ؟ إما بأن يهدده بالعقاب والإيلام وذلك على الله تعالى محال ، أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والإتصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضاً محال ، لأن استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة

والجلال أمور ذاتية له ، وما ثبت للشيء لذاته يستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات العرضية الخارجية ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز أن يقال لله في أفعاله لم فعلت هذا الفعل ؟ فإن كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وأما المعتزلة فإنهم سلموا أنه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر ، وهو أنه تعالى عالم بقبح القبائح ، وعالم بكونه غنياً عنها ، ومن كان كذلك فإنه يستحيل أن يفعل القبيح ، وإذا عرفنا ذلك عرفنا إجمالاً أن كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب ، وإذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا .

أما البحث الثاني : وهو قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ فهذا يدل على كون المكلفين مسؤولين عن أفعالهم وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أن الكلام في هذا السؤال إما في الإمكان العقلي أو في الوقوع السمعي ، أما الإمكان العقلي فالخلاف فيه مع منكري التكاليف ، واحتجوا على قولهم بوجوه .

أحدها : قالوا : التكليف إما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته إلى الفعل والترك ، أو حال رجحان أحدهما على الآخر .

والأول محال لأن حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف

بالترجيح تكليفاً بالمحال ، والثاني محال لأن حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوع ممتنع الوقوع .

(23/508)

والتكليف بإيقاع ما يكون واجب الوقوع عبث ، وبإيقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق .

وثانيها : قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثاً ، وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع ، فيكون التكليف به تكليفاً بما لا يطاق .

وثالثها : قالوا : سؤال العبد ما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فإن كان لفائدة فتلك الفائدة إن عادت إلى الله تعالى كان محتاجاً وهو محال ، وإن عادت إلى العبد فهو محال ، لأن سؤاله لما كان سبباً لتوجيه العقاب عليه ، لم يكن هذا نفعاً عائداً إلى العبد بل ضرراً عائداً إليه ، وإن لم يكن في السؤال فائدة كان عبثاً وهو غير جائز على الحكيم ، بل كان إضراراً وهو غير جائز على الرحيم .

والجواب عنها من وجهين : الأول : أن غرضكم من إيراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفي التكليف فكأنكم تكلفونا بنفي التكليف وهو متناقض .

والثاني : وهو أن مدار كلامكم في هذه الشبهات على حرف واحد وهو أن التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات إلى أنه يقال له تعالى : لم كلفت عبادك ، إلا أن قد بينا أنه سبحانه : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ فظهر بهذا أن قوله : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ كالأصل والقاعدة لقوله : ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ فتأمل في هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من أسرار علم القرآن ، وأما الوقوع السمعي فلقائل أن يقول إن قوله : ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ وإن كان متأكداً بقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وبقوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسؤولون ﴾ [الصافات : 24] إلا أنه يناقضه قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 39] والجواب : أن يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والإيجاب إلى مقام آخر دفعاً للتناقض .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة فيه وجوه : أحدها : أنه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل ، بل كان يذم بما حقه الذم ، كما يحمد بما حقه المدح .

وثانيها : أنه كان يجب أن لا يسأل عن الأمور إذا كان لا فاعل سواه .

وثالثها : أنه كان لا يجوز أن يسألوا عن عملهم إذ لا عمل لهم .

ورابعها : أن أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم .

(25/508)

وخامسها : أنه تعالى صرح في كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] وهذا يقتضي أن لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [طه : 134] ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على أن حجة العبد متوجهة على الله تعالى .

وسادسها : قال ثمامة إذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى : ما حملك على معصيتي ؟ فيقول على مذهب الجبر : يا رب إنك خلقتني كافراً وأمرتني بما لا أقدر عليه وحلت بيني وبينه ، ولا شك أنه على مذهب الجبر يكون صادقاً ، وقال الله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ، ومن

يدعه يقول : هذا الكلام أو يحتج ؟ فقال ثمامة : أليس إذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم أنه منعه مما لو لم يمنعه منه لانقطع في يده ، وهذا نهاية الانقطاع .

والجواب عن هذه الوجوه : أنها معارضة بمسألة الداعي ومسألة العلم ثم بالوجوه الثمانية التي بينا فيها أنه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ فاعلم أنه سبحانه كرر قوله : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ استعظاماً لكفرهم أي وصفتم الله بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك .

أما من جهة العقل ، أو من جهة النقل فإنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولاً وقرر الأصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانياً ، أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثاً .

أما قوله تعالى : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(26/508)

في تفسيره وفيه أقوال : أحدها : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾ أي هذا هو الكتاب المنزل على من معي : ﴿ وهذا ذِكْرُ مِن قَبْلِي ﴾ أي الكتاب المنزل على من تقدمني من الأنبياء وهو

التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وليس في شيء منها أني أذنت بأن تتخذوا إلهاً من دوني بل ليس فيها إلا : ﴿ إِنِّى أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَا ﴾ كما قال بعد هذا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَا فاعبدون ﴾ وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج.

والثاني : وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدي أن قوله : ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ صفة للقرآن فإنه كما يشتمل على أحوال هذه الأمة فكذا يشتمل على أحوال الأمم الماضية.

الثالث : ما ذكره القفال وهو أن المعنى قل لهم هذا الكتاب الذي جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معي من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلي من المخالفين والموافقين فاختاروا لأنفسكم ، كأن الغرض منه التهديد .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" قرىء : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ﴾ [البلد : 14 ، 15] وهو الأصل والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله : ﴿ غُلِبَتِ الروم * فِى أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 2 ، 3] وقرىء : من معي ومن قبلي ، بكسر ميم من على ترك الإضافة في هذه القراءة وإدخال الجار على مع غريب

والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على إخواته

وقرىء : ذكر معي وذكر قبلي .

وأما قوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(27/508)

أنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين أنه لا دليل لهم ألبتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ، ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه ، بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء : ﴿ الحق ﴾ بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب ، والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 129.137 ﴾

(28/508)

وقال الماوردي :

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ ءَالِهَةً مِّنَ الأَرْضِ ﴾

أي مما خلق في الأرض .

﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يخلقون ، قاله قطرب .

الثاني : قاله مجاهد ، يحيون ، يعني الموتى ، يقال : أنشر الله الموتى فنشروا أي أحياهم فحيوا ، مأخوذ من النشر بعد الطي ، قال الشاعر :

حتى يقول الناس مما رأوا . . . يا عجباً للميت الناشِر

قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمآ ﴾ يعني في السماء والأرض .

﴿ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه سوى الله ، قاله الفراء .

الثاني : أن " إلا " الواو ، وتقديره : لو كان فيهما آلهة والله لفسدتا ، أي لهلكتا بالفساد فعلى الوجه الأول يكون المقصود به إبطال عباد غيره لعجزه عن أن يكون إلهاً لعجزه عن قدرة الله ، وعلى الوجه الآخر يكون المقصود به إثبات وحدانية الله عن أن يكون له شريك يعارضه في ملكه .

قوله عز وجل : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يسأل الخلق الخالق عن قضائه في خلقه ، وهو يسأل الخلق عن عملهم ، قاله ابن جريج .

الثاني : لا يسأل عن فعله ، لأن كل فعله صواب وهو لا يريد عليه الثواب ، وهم يسألون عن أفعالهم ، لأنه قد يجوز أن تكون في غير صواب ، وقد لا يريدون بها الثواب إن كانت صواباً فلا تكون عبادة ، كما قال تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ [الأحزاب : 8] .

الثالث : لا يُحاسَب على أفعاله وهم يُحْسَبُونَ على أفعالهم ، قاله ابن بحر .

ويحتمل رابعاً : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون على أفعالهم .

قوله تعالى : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : هذا ذكر من معي بما يلزمهم من الحلال والحرام ، وذكر من قبلي ممن يخاطب من الأمم بالإيمان ، وهلك بالشرك ، قاله قتادة .

الثاني : ذكر من معي بإخلاص التوحيد في القرآن ، وذكر من قبلي في التوراة والإنجيل ، حكاه ابن عيسى . انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

(30/508)

هذه ﴿ أم ﴾ التي هي بمنزلة ألف الاستفهام ، وهي هاهنا تقرير وتوقيف ، ومذهب سيبويه أنها بمنزلة بل مع ألف الاستفهام ، كأن في القول إضراباً عن الأول ووقفهم الله تعالى هل ﴿ اتخذوا آلهة ﴾ يحيون ويخترعون ، أي ليست آلهتكم كذلك فهي آلهة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة . وقرأت فرقة "يُنشرون " بضم الياء بمعنى يحيون غيرهم ، وقرأت فرقة "يَنشرون " بمعنى يحيونهم وتدوم حياتهم يقال نشر الميت وأنشره الله تعالى ، ثم بين تعالى أمر التمانع بقوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وذلك بأنه كان يبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق ، واقتضاب القول في هذا أن الإلهين لو فرضنا فوقع بينهما الاختلاف في تحريك جرم وتسكينه فمحال أن تتم الإرادتان ومحال أن لا تتم جميعاً ، وإذا تمت الواحدة كان صاحب الأخرى عاجزاً ، وهذا ليس بإله ، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما ونظر آخر وذلك أن كل جزء يخرج من العدم إلى

الوجود فمحال أن يتعلق به قدرتان ، فإذا كانت قدرة أحدهما موجدة بقي الآخر فضلاً لا معنى له في ذلك الجزء ، ثم يتمادى النظر هكذا جزءاً جزءاً ثم نزه تعالى نفسه عما وصفه أهل الجهالة والكفر ، ثم وصف نفسه تعالى بأنه ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ وهذا وصف يحتمل معنيين : إما أن يريد أنه بحق ملكه وسلطانه لا يعارض ولا يسأل عن شيء يفعله إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء ، وإما أن يريد أنه محكم الأفعال واضع كل شيء موضعه فليس في أفعاله موضع سؤال ولا اعتراض ، وهؤلاء من البشر يسألون لهاتين العلتين لأنهم ليسوا مالكين ولأنهم في أفعالهم خلل كثير ، ثم قررهم تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة ، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكره وبيان فساده ، وفي هذا التقرير زيادة على الأول وهي قوله تعالى : ﴿ من دونه ﴾ فكأنهم قررهم هنا على قصد الكفر بالله عز وجل ، ثم دعاهم إلى الحجة والإتيان بالبرهان . وقوله تعالى : ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من

قبلي ﴾ يحتمل ان يريد به هذا جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها ، أي ليس فيها برهان على اتخاذ آلهة من دون الله ، بل فيها ضد ذلك ، ويحتمل أن يريد هذا القرآن والمعنى فيه ذكر الأولين والآخرين ، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشرع لهم وردهم على طريق النجاة

، وذكر الأولين بقص أخبارهم وذكر الغيوب في أمورهم ، ومعنى الكلام على هذا التأويل عرض القرآن في معرض البرهان أي ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ فهذا برهاني أنا ظاهر في ﴿ ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ وقرأت فرقة " هذا ذكرُ من " " وذكرُ من " بالإضافة فيهما ، وقرأت فرقة " هذا ذكرُ من " بالإضافة " وذكرٌ مِن قبلي " بتنوين " ذكر " الثاني وكسر الميم من قوله تعالى : ﴿ مِن قبلي ﴾ وقرأ يحيى بن سعيد وابن مصرف بالتنوين في " ذكرٌ مِن " في الموضعين وكسر الميم من قوله " مِن " في الموضعين ، وضعف أبو حاتم هذه القراءة كسر الميم في الأولى ولم يرلها وجهاً ، ثم حكم عليهم تعالى بأن ﴿ أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ لإعراضهم عنه وليس المعنى ﴿ فهم معرضون ﴾ لأنهم لا يعلمون بل المعنى ﴿ فهم معرضون ﴾ ولذلك ﴿ لا يعلمون الحق ﴾ وقرأ الحسن وابن محيصن " الحقُ " بالرفع على معنى هذا القول هو الحق والوقف على هذه القراءة على ﴿ لا يعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(32/508)

وقال ابن الجوزى :

ثم إِن الله تعالى عاد إِلى توبيخ المشركين فقال : ﴿ أم اتَّخذوا آلهة من الأرض ﴾ لأن

أصنامهم من الأرض هي ، سواء كانت من ذهب أو فضة أو خشب أو حجارة ﴿ هُمْ ﴾ يعني : الآلهة ﴿ يُنْشِرون ﴾ أي : يُحْيُون الموتى .

وقرأ الحسن : "يَنشُرون" بفتح الياء وضم الشين .

وهذا استفهام بمعنى الجحد ، والمعنى : ما اتخذوا آلهة تَنْشُر ميتاً .

﴿ لو كان فيهما ﴾ يعني : السماء والأرض ﴿ آلهةٌ ﴾ يعني : معبودين ﴿ إِلا الله ﴾ قال الفراء : سوى الله .

وقال الزجاج : غير الله .

قوله تعالى : ﴿ لفَسَدَتَا ﴾ أي : لخربتا وبطلتا وهلكَ من فيهما ، لوجود التمانع بين الآلهة ، فلا يجري أمر العالَم على النظام ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعداً لم يَسْلَم من الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ لا يُسأَل عمَّا يَفْعَل ﴾ أي : عمَّا يَحْكُم في عباده من هدي وإِضلال ، وإِعزاز وإِذلال ، لأنه المالك للخلق ، والخلق يُسأَلون عن أعمالهم ؛ لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم ، ولمَّا أبطل عز وجل أن يكون إِله سواه من حيث العقل بقوله : ﴿ لفسدتا ﴾ ، أبطل ذلك من حيث الأمر فقال : ﴿ أم اتَّخَذوا من دونه آلهة ﴾ وهذا استفهام إِنكار وتوبيخ ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على ما تقولون ، ﴿ هذا ذِكْر مَنْ معي ﴾ يعني : القرآن خبر مَن معي على ديني ممن يتبعني إِلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿ وذِكْر مَنْ قبلي ﴾ يعني : الكتب المنزلة ، والمعنى : هذا

القرآن، وهذه الكتب التي أُنزلت قبله، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إِله سواه؟ فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به.

قال الزجاج: قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أخبر أُمَّته بأن لهم إلهاً غير الله!.

قوله تعالى: ﴿ بل أكثرهم ﴾ يعني: كفار مكة ﴿ لا يعلمون الحقَّ ﴾ وفيه قولان.

أحدهما: أنه القرآن، قاله ابن عباس.

والثاني: التوحيد، قاله مقاتل.

﴿ فهم مُعْرِضُون ﴾ عن التفكُّر والتأمُّل وما يجب عليهم من الإِيمان. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(33/508)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتخذوا آلِهَةً مِّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾

قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد، أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء.

وقيل: "أم" بمعنى "هل" أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى.

ولا تكون "أم" هنا بمعنى بل ؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر "أم" مع الاستفهام فتكون "أم" المنقطعة فيصح المعنى ؛ قاله المبرد .

وقيل : "أم" عطف على المعنى أي أفخلقنا السماء والأرض لعباً ، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة في الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة ؟ .

وقيل : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 10] ثم عطف عليه بالمعاتبة ، وعلى هذين التأويلين تكون "أم" متصلة .

وقرأ الجمهور "يُنْشِرُونَ" بضم الياء وكسر الشين من أنشر الله الميت فنُشِر أي أحياه فحيي .

وقرأ الحسن بفتح الياء ؛ أي يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾

أي لو كان في السموات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدتا .

قال الكسائي وسيبويه : "إلاّ" بمعنى غير فلما جعلت إلا في موضع غير أعرب اسم الذي بعدها بإعراب غير ، كما قال :

وكلُّ أَخٍ مفارقُه أخوهُ . . .

لَعَمْرُ أبيكَ إلاّ الفرْقَدَانِ

وحكى سيبويه : لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكنا .

وقال الفراء : "إلا" هنا في موضع سوى ، والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها .

وقال غيره : أي لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير ؛ لأن أحدهما إن أراد شيئاً والآخر ضده كان أحدهما عاجزاً .

وقيل : معنى "لَفَسَدَتَا" أي خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء .

﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزّه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

(34/508)

قوله تعالى : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

قاصمة للقدرية وغيرهم .

قال ابن جريج : المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم ؛ لأنهم عبيد .

بيّن بهذا أن من يسأل غداً عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية .

وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون .

وروي عن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له : يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : أفيعصى ربنا قهراً ؟ قال : أرأيت إن منعني الهدى ومنحني الردى أأحسن إلي أم أساء ؟ قال : إن منعك حقك فقد أساء ، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيه من يشاء .

ثم تلا الآية ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه ، وأنزل عليه التوراة ، قال : اللهم إنك رب عظيم ، لو شئت أن تطاع لأُطِعت ، ولو شئت ألا تُعصى ما عُصيت ، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تُعصى فكيف هذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه : إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أعاد التعجب في اتخاذ الآلهة من دون الله مبالغة في التوبيخ ؛ أي صفتهم كما تقدم في الإنشاء والإحياء ، فتكون "أم" بمعنى هل على ما تقدم ، فليأتوا بالبرهان على ذلك .

وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول ؛ لأنه قال : "هُمْ يُنْشِرُونَ" ويحيون الموتى ؛ هيهات ! والثاني احتجاج بالمنقول ، أي هاتوا برهانكم من هذه الجهة ، ففي أي كتاب نزل هذا ؟ ! في القرآن ، أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟ ! ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾

بإخلاص التوحيد في القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ في التوراة والإنجيل ، وما أنزل الله من الكتب ؛ فانظروا هل في كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة سواه ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد ، وإنما اختلفت في الأوامر والنواهي .

(35/508)

وقال قتادة : الإشارة إلى القرآن ؛ المعنى : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾ بما يلزمهم من الحلال والحرام ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك .

وقيل : ﴿ ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾ بما لهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ من الأمم السالفة فيما يفعل بهم في الدنيا ، وما يفعل بهم في الآخرة .

وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد ، أي افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء .

وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مُصرِّف قرأا "هذا ذِكْرٌ مِنْ معي وذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي" بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذا .

وقال أبو إسحاق الزجاج في هذه القراءة : المعنى ؛ هذا ذكرٌ مما أنزل إليّ ومما هو معي وذكرٌ مِن قبلي .

وقيل : ذكرٌ كائن مِن قبلي ، أي جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحق ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن "الْحَقُّ" بالرفع بمعنى هو الحقُّ وهذا هو الحقّ.

وعلى هذا يوقف على "لا يعلمون" ولا يوقف عليه على قراءة النصب ﴿ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(36/508)

وقال أبو حيان:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

لما ذكر تعالى الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض كلهم ملك له، وأن الملائكة المكرمين هم في خدمته لا يفترون عن تسبيحه وعبادته، عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم و﴿ أم ﴾ هنا منقطعة تتقدر ببل والهمزة ففيها إضراب وانتقال من خبر إلى خبر، واستفهام معناه التعجب والإنكار أي ﴿ اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ يتصفون بالإحياء ويقدرون عليها وعلى الإماتة، أي لم يتخذوا آلهة بهذا الوصف بل اتخذوا آلهة جماداً لا يتصف بالقدرة على شيء فهي غير آلهة لأن من صفة

الإله القدرة على الإحياء والإماتة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى لأنهم مع إقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض وبأنه قادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى منكرين للبعث ، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة ؟ قلت : الأمر كما ذكرت ولكنهم بادعائهم الإلهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشاء لأنه لا يستحق هذا الاسم إلاّ القادر على كل مقدور ، والإنشاء من جملة المقدورات وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة ونحو قوله ﴿ من الأرض ﴾ قولك : فلان من مكة أو من المدينة ، تريد مكي أو مدني ، ومعنى نسبتها إلى الأرض الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض لا أن الآلهة أرضية وسماوية ، من ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " "أين ربك ؟" فأشارت إلى السماء فقال : "إنها مؤمنة" " لأنه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام لا إثبات السماء مكاناً لله تعالى .

ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض .

فإن قلت : لا بد من نكتة في قوله ﴿ هم ﴾ قلت : النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية كأنه قيل ﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ لا تقدر على الإنشاء إلا هم وحدهم انتهى .

و ﴿ اتخذوا ﴾ هنا يحتمل أن يكون المعنى فيها صنعوا وصوروا ، و ﴿ من الأرض ﴾ متعلق باتخذوا ، ويحتمل أن يكون المعنى جعلوا الآلهة أصناماً من الأرض كقوله ﴿ أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ وقوله ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وفيه معنى الإصطفاء والاختيار .

وقرأ الجمهور : ﴿ ينشرون ﴾ مضارع أنشر ومعناه يحيون .

وقال قطرب : معناه يخلقون كقوله ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ وقرأ الحسن ومجاهد ﴿ ينشرون ﴾ مضارع نشر ، وهما لغتان نشر وانشر متعديان ، ونشر يأتي لازماً تقول : أنشر الله الموتى فنشروا أي فحيوا ، والضمير في ﴿ فيهما ﴾ عائد على السماء والأرض وهما كناية عن العالم .

و ﴿ إلا ﴾ صفة لآلهة أي آلهة غير ﴿ الله ﴾ وكون ﴿ إلا ﴾ يوصف بها معهود في لسان العرب ومن ذلك ما أنشد سيبويه رحمه الله :

وكل أخ مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك إلا الفرقدان

قال الزمخشري : فإن قلت : ما منعك من الرفع على البدل ؟ قلت : لأن لو بمنزلة إن في أن الكلام معه موجب والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب ، كقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ﴾ وذلك لأن أعم العام يصح نفيه ولا يصح إيجابه ، والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما ﴿ لفسدتا ﴾ وفيه دلالة على أمرين أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلاّ واحداً ، والثاني أن لا يكون ذلك الواحد إلاّ إياه وحده كقوله ﴿ إلا الله ﴾ .

فإن قلت : لم وجب الأمران قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف .

وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق كان والله أعز عليّ من دم ناظري ولكن لا يجتمع فحلان في شول وهذا ظاهر .

وأما طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجادل وطراد ولأن هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات

المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر .

وقال ابن عطية : وذلك بأنه كان يبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق ، واقتضاب القول في هذا أن الهين لو فرضنا بينهما الاختلاف في تحريك جسم ولا تحريكه فمحال أن تتم الإرادتان ، ومحال أن لا تتم جميعاً ، وإذا تمت الواحدة كان صاحب الأخرى عاجزاً وهذا ليس بإله ، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما ، ونظر آخر وذلك أن كل جزء يخرج من العدم إلى الوجود فمحال أن تتعلق به قدرتان ، فإذا كانت قدرة أحدهما توجده ففي الآخر فضلاً لا معنى له في ذلك الجزء ثم يتمادى النظر هكذا جزأ جزأ .

وقال أبو عبد الله الرازي : لو فرضنا موجودين واجبيَ الوجود لذاتهما فلا بد أن يشتركا في الوجود ولا بد أن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بمعيته وما به المشاركة غير ما به الممايزة ، فيكون كل واحد مشاركاً للآخر وكل مركب فهو مفتقر إلى آخر ممكن لذاته ، فإذا واجب الوجود ليس إلاّ واحداً فكل ما عدا هذا فهو محدث ، ويمكن جعل هذا تفسيراً لهذه الآية لأنا لما دللنا على أنه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شيء منهما واجباً ، وإذا لم يوجد الواجب لم يوجد شيء من هذه الممكنات ، فحينئذ يلزم الفساد في كل العالم .

وقال أبو البقاء : لا يجوز أن يكون بدلاً لأن المعنى يصير إلى قولك ﴿ لو كان فيهما ﴾ ﴿ إلا الله لفسدتا ﴾ ألا ترى أنك لو قلت : ما جاءني قومك إلاّ زيد على البدل لكان المعنى جاءني زيد وحده .

وقيل : يمتنع البدل لأن ما قبله إيجاب ولا يجوز النصب على الاسثناء لوجهين ، أحدهما أنه فاسد في المعنى وذلك أنك إذا قلت : لو جاءني القوم إلاّ زيداً لقتلتهم كان معناه أن القتل امتنع لكون زيد مع القوم ، فلو نصب في الآية لكان المعنى فساد السموات والأرض امتنع لوجود الله مع الآلهة ، وفي ذلك إثبات الإله مع الله ، وإذا رفعت على الوصف لا يلزم مثل ذلك لأن المعنى ﴿ لو كان فيهما ﴾ غير ﴿ الله لفسدتا ﴾ .

والوجه الثاني أن ﴿ آلهة ﴾ هنا نكرة ، والجمع إذا كان نكرة لم يستثن منه عند جماعة من المحققين لأنه لا عموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء انتهى .

وأجاز أبو العباس المبرد في ﴿ إلاّ الله ﴾ أن يكون بدلاً لأن ما بعد لو غير موجب في المعنى ، والبدل في غير الواجب أحسن من الوصف .

وقد أمعنّا الكلام على هذه المسألة في شرح التسهيل .

وقال الأستاذ أبو عليّ الشلوبين في مسألة سيبويه : لو كان معنا رجل إلاّ زيد لغلبنا أن المعنى لو كان معنا رجل مكان زيد لغلبنا فإلاّ بمعنى غير التي بمعنى مكان .

وقال شيخنا الأستاذ أبو الحسن بن الصائغ : لا يصح المعنى عندي إلاّ أن تكون ﴿ إلاّ ﴾

في معنى غير الذي يراد بها البدل أي ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ عوض واحد أي بدل الواحد الذي هو ﴿ الله لفسدتا ﴾ وهذا المعنى أراد سيبويه في المسألة التي جاء بها توطئة انتهى .

(40/508)

ولما أقام البرهان على وحدانيته وانفراده بالألوهية نزه نفسه عما وصفه به أهل الجهل بقوله ﴿ فسبحان الله ﴾ ثم وصف نفسه بأنه مالك هذا المخلوق العظيم الذي جميع العالم هو متضمنهم ثم وصف نفسه بكمال القدرة ونهاية الحكم فقال ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء ، وفعله على أقصى درجات الحكمة فلا اعتراض ولا تعقب عليه ، ولما كانت عادة الملوك أنهم لا يسألون عما يصدر من أفعالهم مع إمكان الخطأ فيها ، كان ملك الملوك أحق بأن لا يسأل هذا مع علمنا أنه لا يصدر عنه إلاّ ما اقتضته الحكمة العارية عن الخلل والتعقب ، وجاء ﴿ عما يفعل ﴾ إذ الفعل جامع لصفات الأفعال مندرج تحته كل ما يصدر عنه من خلق ورزق ونفع وضر وغير ذلك ، والظاهر في قوله ﴿ لا يسأل ﴾ العموم في الأزمان .

وقال الزجّاج : أي في القيامة ﴿ لا يُسْأَل ﴾ عن حكمه في عباده ﴿ وهم يُسْأَلُون ﴾ عن

أعمالهم .

وقال ابن بحر : لا يحاسب وهم يحاسبون .

وقيل : لا يؤاخذ وهم يؤاخذون انتهى .

﴿ وهم يسألون ﴾ لأنهم مملوكون مستعبدون واقع منهم الخطأ كثيراً فهم جديرون أن يقال لهم لم فعلتم كذا .

وقرأ الحسن : لا يُسَل وُيسَلُون بفتح السين نقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة .

ثم كرر تعالى عليهم الإنكار والتوبيخ فقال : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم ، وزاد في هذا التوبيخ قوله ﴿ من دونه ﴾ فكأنه وبخهم على قصد الكفر بالله عز وجل ، ثم دعاهم إلى الإتيان بالحجة على ما اتخذوا ولا حجة تقوم على أن الله تعالى شريكاً لا من جهة العقل ولا من جهة النقل ، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه تعالى عن الشركاء والأنداد كما في الوحي الذي جئتكم به ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ أي عظة للذين معي وهم أمته ﴿ وذكر ﴾ للذين ﴿ من قبلي ﴾ وهم أمم الأنبياء ، فالذكر هنا مراد به الكتب الإلهية ويجوز أن يكون ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى القرآن .

والمعنى فيه ذكر الأولين والآخرين فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشرع لهم ، وذكر الأولين بقص أخبارهم وذكر الغيوب في أمورهم .

والمعنى على هذا عرض القرآن في معرض البرهان أي ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ فهذا برهاني في ذلك ظاهر .

وقرأ الجمهور : بإضافة ﴿ ذكر ﴾ إلى ﴿ من ﴾ فيهما على إضافة المصدر إلى المفعول كقوله ﴿ بسؤال نعجتك ﴾ وقرىء بتنوين ﴿ ذكر ﴾ فيهما و﴿ من ﴾ مفعول منصوب بالذكر كقوله ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ﴾ وقرأ يحيى بن يعمر وطلحة بتنوين ﴿ ذكر ﴾ فيهما وكسر ميم ﴿ من ﴾ فيهما ، ومعنى ﴿ معي ﴾ هنا عندي ، والمعنى ﴿ هذا ذكر من ﴾ عندي و﴿ من قبلي ﴾ أي أذكركم بهذا القرآن الذي عندي كما ذكر الأنبياء من قبلي أممهم ، ودخول ﴿ من ﴾ على مع نادر ، ولكنه اسم يدل على الصحبة والاجتماع أُجري مجرى الظرف فدخلت عليه ﴿ من ﴾ كما دخلت على قبل وبعد وعند ، وضعَّف أبو حاتم هذه القراءة لدخول ﴿ من ﴾ على مع ولم ير لها وجهاً .

وعن طلحة ﴿ ذكر ﴾ منوناً ﴿ معي ﴾ دون ﴿ مِن ﴾ ﴿ وذكر ﴾ منوناً ﴿ قبلي ﴾ دون ﴿ من ﴾ .

وقرأت فرقة ﴿ وذكر من ﴾ بالإضافة ﴿ وذكر ﴾ منوناً ﴿ من قبلي ﴾ بكسر ميم من .

وقرأ الجمهور ﴿ الحق ﴾ بالنصب والظاهر نصبه على المفعول به فلا يعلمون أي أصل شرهم وفسادهم هو الجهل وعدم التمييز بين الحق والباطل ، ومن ثم جاء الإعراض عنه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على معنى التوكيد لمضمون الجملة السابقة كما تقول : هذا عبد الله الحق لا الباطل ، فأكد نسبة انتفاء العلم عنهم ، والظاهر أن الإعراض متسبب عن انتفاء العلم لما فقدوا التمييز بين الحق والباطل أعرضوا عن الحق .

وقال ابن عطية ثم حكم عليهم تعالى بأن ﴿ أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ لإعراضهم عنه وليس المعنى ﴿ فهم معرضون ﴾ لأنهم لا يعلمون بل المعنى ﴿ فهم معرضون ﴾ ولذلك ﴿ لا يعلمون الحق ﴾ وقرأ الحسن وحميد وابن محيصن ﴿ الحق ﴾ بالرفع .

(42/508)

قال صاحب اللوامح : ابتداءً والخبر مضمر ، أو خبر والمبتدأ قبله مضمر .

وقال ابن عطية : هذا القول هو ﴿ الحق ﴾ والوقف على هذه القراءة على ﴿ لا يعلمون ﴾ .

وقال الزمخشري : وقرىء ﴿ الحق ﴾ بالرفع على توسيط التوكيد بين السبب والمسبب ،

والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(43/508)

وقال أبو السعود :

﴿ أَمِ اتخذوا ءَالِهَةً ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أخرى من جناياتهم بطريق الإضرابِ والانتقال من فن إلى فن آخر من التوبيخ إثرَ تحقيق الحقِّ ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبةً تحت ملكوته وقهره وأن عبادَه مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزِّهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها الأندادُ ، ومعنى الهمزة في (أم) المنقطعة إنكارُ الوقوعِ لا إنكار الواقع وقوله تعالى : ﴿ مّنَ الأرض ﴾ متعلقٌ باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأياً ما كان فالمرادُ هو التحقيرُ لا التخصيصُ ، وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي يَبعثون الموتى ، صفةٌ لآلهةً وهو الذي يدور عليه الإنكارُ والتجهيلُ والتشنيع لا نفسُ الاتخاذ فإنه واقعٌ لا محالة أي بل أتخذوا آلهةً من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم يُنشِرون الموتى ، كلا ، فإن ما اتخذوها آلهةً بمعزل من ذلك وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحاً لكنهم حيث ادّعَوا لها الإلهية فكأنهم ادّعَوا لها الإنشارَ

ضرورةَ أنه من الخصائص الإلهية حتماً ، ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينةِ حالهم للإنشار الموجبةِ لمزيد الإنكار كما في قوله تعالى : ﴿ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا ﴾ فإن تقديمَ الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينةِ أمرِه تعالى لأن يُشك فيه ويُستهزأ به ، ويجوز أن يُجعل ذلك من مستتبعات ادّعائِهم الباطلِ لأن الألوهيةَ مقتضيةٌ للاستقلال بالإبداء والإعادة فحيث ادّعَوا للأصنام الإلهية فكأنهم ادّعوا لها الاستقلالَ بالإنشار كما أنهم جعلوا بذلك مدّعين لأصل الإنشار .

(44/508)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ إبطالٌ لتعدد الإله بإقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته ، وإيرادُ الجمع لوروده إثرَ إنكار اتخاذِ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلاً في الاستدلال وكذا فرضُ كونِهما فيهما وإلا بمعنى غيرٍ على أنها صفةٌ لآلهة ، ولا مساغَ للاستثناء لاستحالة شمولِ ما قبلها وما بعدها وإفضائِه إلى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفسادَ لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لأنه متفرّع على الاستثناء ومشروطٌ بأن يكون في كلامٍ غيرِ موجب ، أي لو كان في السموات والأرض آلهةٌ غيرُ الله كما هو

اعتقادُهم الباطل ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدّم قطعاً ببيان الملازمة أن الإلهية مستلزِمةٌ للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً وإيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه إما بتأثير كل منها وهو محالٌ لاستحالة وقوعِ المعلولِ المعيّن بعلل متعددة، وإما بتأثير واحدٍ منها فالبواقي بمعزل من الإلهية قطعاً، واعلم أن جعلَ التالي فسادَهما بعد وجودِهما لِما أنه اعتُبر في المقدم تعددُ الآلهةِ فيهما وإلا فالبرهانُ يقضي باستحالة التعدد على الإطلاق، فإنه لو تعدد الإله فإنْ توافقَ الكلِّ في المراد تطاردت عليه القُدَرُ وإن تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجودٌ أصلاً وحيث انتفى التالي تعيّن انتفاءُ المقدّم والفاء في قوله تعالى:

﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أي فسبحوه سبحانه اللائقَ به ونزّهوه عما لا يليق به من الأمور التي من جملتها أن يكون له شريكٌ في الألوهية، وإيرادُ الجلالة في موضع الإضمارِ للإشعار بعلة الحُكم فإن الألوهيةَ مناطٌ لجميع صفاتِ كماله التي من جملتها تنزّهُه تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ العرش ﴾ صفةٌ للاسم الجليل مؤكدةٌ لتنزّهه عز وجل ﴿

عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ متعلق بالتسبيح أي فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهةٌ .

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ استئنافٌ ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهرِ بحيث ليس لأحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعال إثرَ بيانِ أن ليس له شريكٌ في الإلهية ﴿ وَهُمْ ﴾ أي العباد ﴿ يُسْئَلُونَ ﴾ عما يفعلون نقيراً وقطميراً لأنهم مملوكون له تعالى مستعبَدون ففيه وعيدٌ للكفرة .

(46/508)

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من إظهار بُطلانِ كون ما اتخذوه آلهةً آلهةً حقيقةً بإظهار خلوِّها عن خصائص الألاهية التي من جملتها الإنشارُ وإقامةُ البرهان القاطعِ على استحالة تعدد الإله على الإطلاق وتفرّدِه سبحانه بالألوهية إلى إظهار بطلانِ اتخاذِهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاءَ لله عز سلطانُه ، وتبكيتُهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيقُ أن جميع الكتب السماويةِ ناطقةٌ بحقية التوحيد وبطلانِ الإشراك . والهمزةُ لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحِه ومن متعلقةٌ باتخذوا ، والمعنى بل أتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية آلهةً مع ظهور خلوهم عن خواصّ الألوهية بالكلية ﴿ قُلْ ﴾ لهم بطريق التبكيتِ

وإلقامِ الحجر ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على ما تدّعونه من جهة العقل والنقلِ فإنه لا صحةَ لقولٍ لا دليلَ عليه في الأمور الدينية لا سيما في مثل هذا الشأنِ الخطير ، وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ضربٌ من التهكم بهم وقوله تعالى : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ إنارةٌ لبرهانه وإشارةٌ إلى أنه مما نطقت به الكتبُ الإلهية قاطبةً وشهِدت به ألسنةُ الرسلِ المتقدمة كافةً وزيادةُ تهييجٍ لهم على إقامة البرهان لإظهار كمالِ عجزِهم ، أي هذا الوحيُ الواردُ في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطعِ العقليّ ذكرُ أمتي أي عظتُهم وذكرُ الأممِ السالفة قد أقمتُه فأقيموا أنتم أيضاً برهانَكم ، وقيل : المعنى هذا كتابٌ أُنزل على أمتي وهذا كتابٌ أنزل على أمم الأنبياءِ عليهم السلام من الكتب الثلاثةِ والصحفِ فراجعوها وانظُروا هل في واحد منها غيرُ الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك ، ففيه تبكيتٌ لهم يتضمن إثباتَ نقيضِ مُدّعاهم وقرىء بالتنوين والإعمال كقوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى

مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ﴾ وبه وبمن الجارة على أن (مع) اسمٌ هو ظرف كقبلٍ وبعْدٍ وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ إضرابٌ من جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقن

وانتقالٌ من الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهانِ إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المُحاجّة بإظهار حقيقة الحقِ وبطلانِ الباطل ، فإن أكثرهم لا يفهمون الحقَّ ولا يميزون بينه وبين الباطل ﴿ فَهُمْ ﴾ لأجل ذلك ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباعِ الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغي والضلال وإن كُرِّرت عليهم البينات والحجج ، أو معرضون عما ألقي عليهم من البراهين العقلية ، وقرىء الحقُّ بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف وسِّط بين السبب والمسببِ تأكيداً للسببية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(48/508)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمِ اتخذوا ءالِهَةً ﴾

حكاية لجناية أخرى من جنايات أولئك الكفرة هي أعظم من جناية طعنهم في النبوة ، وأم هي المنقطعة وتقدر ببل الإضرابية والهمزة الإنكارية وهي لإنكار الوقوع لا إنكار الواقع ، وقوله تعالى : ﴿ مّنَ الأرض ﴾ متعلق باتخذوا ومن ابتدائية على معنى أن اتخاذهم إياها مبتدأ من أجزاء الأرض كالحجارة وأنواع المعادن ويجوز كونها تبعيضية .

وقال أبو البقاء وغيره : يجوز أن تكون متعلقة بمحذوف وقع صفة لآلهة أي آلهة كائنة من جنس الأرض ، وأياً ما كان فالمراد التحقير لا التخصيص ، ومن جوزه التزم تخصيص الإنكار بالشديد وهو غير سديد .

(49/508)

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فإنه واقع لا محالة أي بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فإن ما اتخذوه آلهة بمعزل من ذلك وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحاً لكنهم حيث ادعوا لها الإلهية فكأنهم ادعوا لها الإنشار ضرورة أنه من الخصائص الإلهية حتماً ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار الموجبة لمزيد الإنكار كما أن تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ أَفِى اللهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم : 10] للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ، ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل فإن الألوهية مقتضية للاستقلال بالإبداء والإعادة فحيث ادعوا للأصنام الإلهية فكأنهم ادعوا لهم الاستقلال بالإنشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الإنشار قاله المولى أبو السعود ، وقال بعضهم

: تقديم الضمير للتقوى ، وما ذهب إليه من إفادته معنى التخصيص تبع فيه الزمخشري ، وفي "الكشف" الداعي إلى ترجيحه على التقوى أنه ترشيح لما أبداه أولاً من أن الإلهية لا تصح دون القدرة على الإنشار ولا وجه لتجويز كونه فصلاً انتهى ، وجوز أن تكون جملة ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ مستأنفة مقدراً معها استفهام إنكاري لبيان علة إنكار الاتخاذ ، ولعل مجوز ذلك لا يسلم لزوم كون معنى الهمزة في أم المنقطعة إنكار الوقوع ويجوز كونه إنكار الواقع ، وتفسير ﴿ يُنشِرُونَ ﴾ يبعثون هو المشهور وعليه الجمهور ، وقال قطرب : هو بمعنى يخلقون .

وقرأ الحسن .

ومجاهد ﴿ يُنشِرُونَ ﴾ بفتح الياء على أنه من نشر وهو وأنشر بمعنى وقد يجىء نشر لازماً يقال أنشر الله تعالى الموتى فنشروا

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءالِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾

إبطال لتعدد الإله وضمير ﴿ فِيهِمَا ﴾ للسماء والأرض والمراد بهما العالم كله علوية وسفلية والمراد بالكون فيهما التمكن البالغ من التصرف والتدبير لا التمكن والاستقرار

فيهما كما توهمه الفاضل الكلنبوي، والظرف على هذا متعلق بكان، وقال الطيبي: أنه ظرف لآلهة على حد قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ [الزخرف: 84] وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الله فِى السموات وَفِى الأرض ﴾ [الأنعام: 3] وجعل تعلق الظرف بما ذكر ههنا باعتبار تضمنه معنى الخالقية والمؤثرية.

وأنت تعلم أن الظاهر ما ذكر أولاً، و﴿ إِلا ﴾ لمغايرة ما بعدها لما قبلها فهي بمنزلة غير، وفي "المغني" أنها تكون صفة بمنزلة غير فيوصف بها وبتاليها جمع منكر أو شبهه ومثل للأول بهذه الآية، وقد صرح غير واحد من المفسرين أن المعنى لو كان فيهما آلهة غير الله وجعل ذلك الخفاجي إشارة إلى أن ﴿ إِلا ﴾ هنا اسم بمعنى غير صفة لما قبلها وظهر إعرابها فيما بعدها لكونها على صورة الحرف كما في أل الموصولة في اسم الفاعل مثلاً.

(51/508)

وأنكر الفاضل الشمني كونها بمنزلة غير في الاسمية لما في حواشي العلامة الثاني عند قوله تعالى: ﴿ لاَّ فَارِضٌ ﴾ [البقرة: 68] من أنه لا قائل باسمية إلا التي بمنزلة غير ثم ذكر أن المراد بكونها بمنزلة غير أنها بمنزلتها في مغايرة ما بعدها لما قبلها ذاتاً أو صفة، ففي شرح الكافية للرضى أصل غير أن تكون صفة مفيدة لمغايرة مجرورها لموصوفها إما بالذات نحو

مررت برجل غير زيد وإما بالصفة نحو دخلت بوجه غير الذي خرجت به ، وأصل إلا التي هي أم أدوات الاستثناء مغايرة ما بعدها لما قبلها نفياً أو إثباتاً فلما اجتمع ما بعد إلا وما بعد غير في معنى المغايرة حملت إلا على غير في الصفة فصار ما بعد إلا مغايراً لما قبلها ذاتاً أو صفة من غير اعتبار مغايرته له نفياً أو إثباتاً وحملت غير على إلا في الاستثناء فصار ما بعدها مغايراً لما قبلها نفياً أو إثباتاً من غير مغايرته له ذاتاً أو صفة إلا أن حمل غير على إلا أكثر من حمل إلا على غير لأن غير اسم والتصرف في الأسماء أكثر منه في الحروف فلذلك تقع غير في جميع مواقع إلا انتهى .

(52/508)

وأنت تعلم أن المتبادر كون إلا حين إفادتها معنى غير اسماً وفي بقائها على الحرفية مع كونها وحدها أو مع ما بعدها بجعلهما كالشيء الواحد صفة لما قبلها نظر ظاهر وهو في كونها وحدها كذلك أظهر ، ولعل الخفاجي لم يقل ما قال إلا وهو مطلع على قائل باسميتها ، ويحتمل أنه اضطره إلى القول بذلك ما يرد على القول ببقائها على الحرفية ، ولعمري أنه أصاب المحز وإن قال العلامة ما قال ، وكلام الرضي ليس نصاً في أحد الأمرين كما لا يخفى على المنصف ولا يصح أن تكون للاستثناء من جهة العربية عند الجمهور لأن ﴿ ءالِهَةٌ ﴾

جمع منكر في الإثبات ومذهب الأكثرين كما صرح به في التلويح أنه لا استغراق له فلا يدخل فيه ما بعدها حتى يحتاج لإخراجه بها وهم يوجبون دخول المستثنى في المستثنى منه في الاستثناء المتصل ولا يكتفون بجواز الدخول كما ذهب إليه المبرد وبعض الأصوليين فلا يجوز عندهم قام رجال إلا زيداً على كون الاستثناء متصلاً وكذا على كونه منقطعاً بناءً على أنه لا بد فيه من الجزم بعدم الدخول وهو مفقود جزماً ، ومن أجاز الاستثناء في مثل هذا التركيب كالمبرد جعل الرفع في الاسم الجليل على البدلية .

واعترض بعدم تقدم النفي ، وأجيب بأن لو للشرط وهو كالنفي .

وعنه أنه أجاب بأنها تدل على الامتناع وامتناع الشيء انتفاؤه وزعم أن التفريغ بعدها جائز وأن نحو لو كان معنا إلا زيد لهلكنا أجود كلام وخالف في ذلك سيبويه فإنه قال لو قلت لو كان معنا المثال لكنت قد أحلت .

ورد بأنهم لا يقولون لو جاءني ديار أكرمته ولا لو جاءني من أحد أكرمته ولو كانت بمنزلة النافي لجاز ذلك كما يجوز ما فيها ديار وما جاءني من أحد .

وتعقبه الدماميني بأن للمبرد أن يقول : قد أجمعنا على إجراء أبي مجرى النفي الصريح وأجزنا التفريغ فيه قال الله تعالى : ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : 89] ، وقال سبحانه : ﴿ ويأبى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة : 32] مع أنه لا يجوز أبى ديار المجيء وأبى من أحد الذهاب فما هو جوابكم عن هذا فهو جوابنا .

وقال الرضي : أجاز المبرد الرفع في الآية على البدل لأن في لو معنى النفي وهذا كما أجاز الزجاج البدل في قوم يونس في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ ﴾ [يونس : 98] الآية إجراء للتحضيض مجرى النفي والأولى عدم إجراء ذينك في جواز الإبدال والتفريغ معهما مجراه إذ لم يثبت انتهى .

وذكر المالكي في "شرح التسهيل" أن كلام المبرد في المقتضب مثل كلام سيبويه وأن التفريغ والبدل بعد لو غير جائز ، وكذا لا يصح الاستثناء من جهة المعنى ففي "الكشف" أن البدل والاستثناء في الآية ممتنعان معنى لأنه إذ ذاك لا يفيد ما سيق له الكلام من انتفاء التعدد ويؤدي إلى كون الآلهة بحيث لا يدخل في عدادهم الإله الحق مفض إلى الفساد فنفي الفساد يدل على دخوله فيهم وهو من الفساد بمكان ثم أن الصفة على ما ذهب إليه ابن هشام مؤكدة صالحة للإسقاط مثلها في قوله تعالى :

﴿ نَفْخَةٌ واحدة ﴾ [الحاقه : 13] فلو قيل لو كان فيهما آلهة لفسدتا لصح وتأتى المراد .

وقال الشلوبين .

وابن الصائغ : لا يصح المعنى حتى تكون إلا بمعنى غير التي يراد بها البدل والعوض ، ورد بأنه يصير المعنى حينئذٍ لو كان فيهما عدد من الآلهة بدل وعوض منه تعالى شأنه لفسدتا وذلك يقتضي بمفهومه أنه لو كان فيهما اثنان هو عز وجل أحدهما لم تفسدا وذلك باطل .

وأجيب بأن معنى الآية حينئذٍ لا يقتضي هذا المفهوم لأن معناها لو كان فيهما عدد من الآلهة دونه أو به سبحانه بدلاً منه وحده عز وجل لفسدتا وذلك مما لا غبار عليه فاعرف .

(54/508)

والذي عليه الجمهور إرادة المغايرة ، والمراد بالفساد البطلان والاضمحلال أو عدم التكون ، والآية كما قال غير واحد مشيرة إلى دليل عقلي على نفي تعدد الإله وهو قياس استثنائي استثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم فكأنه قيل لو تعدد الإله في العالم لفسد لكنه لم يفسد ينتج أنه لم يتعدد الإله .

وفي هذا استعمال للو غير الاستعمال المشهور .

قال السيد السند : إن لو قد تستعمل في مقام الاستدلال فيفهم منها ارتباط وجود التالي

بوجود المقدم مع انتفاء التالي فيعلم منه انتفاء المقدم وهو على قلته موجود في اللغة يقال : لو كان زيد في البلد لجاءنا ليعلم منه أنه ليس فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ : وقال العلامة الثاني : إن أرباب المعقول قد جعلوا لو أداة للتلازم دالة على لزوم الجزاء للشرط من غير قصد إلى القطع بانتفائهما ولهذا صح عندهم استثناء عين المقدم فهم يستعملونها للدلالة على أن العلم بانتفاء الثاني علة للعلم بانتفاء الأول ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم من غير التفات إلى أن علة انتفاء الجزاء في الخارج ما هي لأنهم يستعملونها في القياسات لاكتساب العلوم والتصديقات ولا شك أن العلم بانتفاء الملزوم لا يوجب العلم بانتفاء اللازم بل الأمر بالعكس وإذا تصفحنا وجدنا استعمالها على قاعدة اللغة أكثر لكن قد تستعمل على قاعدتهم كما في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ﴾ الخ لظهور أن الغرض منه التصديق بانتفاء تعدد الآلهة لا بيان سبب انتفاء الفساد اه .

وفيه بحث يدفع بالعناية ، ولا يخفى عليك أن لبعض النحويين نحو هذا القول فقد قال الشلوبين .

وابن عصفور إن لو لمجرد التعليق بين الحصولين في الماضي من غير دلالة على امتناع الأول والثاني كما أن إن لمجرد التعليق في الاستقبال والظاهر أن خصوصية المضي ههنا غير معتبرة .

وزعم بعضهم: أن لو هنا لانتفاء الثاني لانتفاء الأول كما هو المشهور فيها ويتم الاستدلال ولا يخفى ما فيه على من دق النظر، ثم إن العلامة قال في "شرح العقائد": إن الحجة إقناعية والملازمة عادية على ما هو اللائق بالخطابيات فإن العادة جارية بوقوع التمانع والتغالب عند تعدد الحاكم وإلا فإن أريد الفساد بالفعل أي خروجهما عن هذا النظام المشاهد فمجرد التعدد لا يستلزمه لجواز الافتقا على هذا النظام وإن أريد إمكان الفساد فلا دليل على انتفائه بل النصوص شاهدة بطي السموات ورفع هذا النظام فيكون لا محالة. وكذا لو أريد بفسادهما عدم تكونهما بمعنى أنه لو فرض صانعان لأمكن بينهما تمانع في الأفعال فلم يكن أحدهما صانعاً فلم يوجد مصنوع لا تكون الملازمة قطعية لأن إمكان التمانع لا يستلزم إلا عدم تعدد الصانع وهو لا يستلزم انتفاء المصنوع على أنه يرد منع الملازمة إن أريد عدم التكون بالفعل ومنع انتفاء اللازم إن أريد بالإمكان انتهى.

(56/508)

فنفى أن تكون الآية برهاناً سواء حمل الفساد على الخروج عن النظام أو على عدم التكون، وفيه قدح لما أشار إليه في "شرح المقاصد" من كون كونها برهاناً على الثاني فإنه بعد ما قرر

برهان التمانع قال : وهذا البرهان يسمى برهان التمانع وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ ﴾ الآية فإن أريد عدم التكون فتقريره أن يقال : لو تعدد الآلهة لم تتكون السماء والأرض لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما والكل باطل أما الأول فلأن من شأنه الإله كمال القدرة وأما الأخيران فلما مر من التوارد والرجحان من غير مرجح ، وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام فتقريره أن يقال : إنه لو تعددت الإله لكان بينهما التنازع والتغالب وتمييز صنيع كل منهما عن الآخر بحكم اللزوم العادي فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام الذي باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد ويختل أمر النظام الذي فيه بقاء الأنواع وترتب الآثار انتهى ، وذلك القدح بأن يقال : تعدد الإله لا يستلزم التمانع بالفعل بطريق إرادة كل منهما وجود العالم بالاستقلال من غير مدخلية قدرة الآخرة بل إمكان ذلك التمانع والإمكان لا يستلزم الوقوع فيجوز أن لا يقع بل يتفقان على الإيجاد بالاشتراك أو يفوض أحدهما إلى الآخر ؛ وبحث فيه المولى الخيالي بغير ذلك أيضاً ثم قال : التحقيق في هذا المقام أنه إن حملت الآية الكريمة على نفي تعدد الصانع مطلقاً فهي حجة إقناعية لكن الظاهر من الآية نفي تعدد الصانع المؤثر في السماء والأرض إذ ليس المراد من الكون فيهما التمكن فيهما بل التصرف والتأثير فالحق أن الملازمة قطعية إذ التوارد باطل فتأثيرهما إما على سبيل الاجتماع أو التوزيع فيلزم انعدام الكل أو البعض

عند عدم كون أحدهما صانعاً لأنه جزء علة أو علة تامة فيفسد العالم أي لا يوجد هذا المحسوس كلاً أو بعضاً ، ويمكن أن توجه الملازمة بحيث تكون قطعية على

(57/508)

الإطلاق وهو أن يقال : لو تعدد الإله لم يكن العالم ممكناً فضلاً عن الوجود وإلا لأمكن التمانع بينهما المستلزم للمحال لأن إمكان التمانع لازم لمجموع الأمرين من التعدد وإمكان شيء من الأشياء فإذا فرض التعدد يلزم أن لا يمكن شيء من الأشياء حتى لا يمكن التمانع المستلزم للمحال انتهى .

(58/508)

وأورد الفاضل الكلنبوي على الأول خمسة أبحاث فيها الغث والسمين ثم قال : فالحق أن توجيهه الثاني لقطعية الملازمة صحيح دون الأول ، وللعلامة الدواني كلام في هذا المقام قد ذكر الفاضل المذكور ماله وما عليه من النقض والإبرام ، ثم ذكر أن للتمانع عندهم مغنيين ، أحدهما : إرادة أحد القادرين وجود المقدور والآخر عدمه وهو المراد بالتمانع في البرهان

المشهور ببرهان التمانع ، وثانيهما : إرادة كل منهما إيجاد بالاستقلال من غير مدخلية قدرة الآخرة فيه وهو التمانع الذي اعتبروه في امتناع مقدور بين قادرين ، وقولهم : لو تعدد الإله لم يوجد شيء من الممكنات لاستلزامه أحد المحالين إما وقوع مقدور بين قادرين وإما لترجيح بلا مرجح مبني على هذا ، وحاصل البرهان عليه أنه لو وجد إلهان قادران على الكمال لأمكن بينهما تمانع واللازم باطل إذ لو تمانعا وأراد كل منهما الإيجاد بالاستقلال يلزم إما أن لا يقع مصنوع أصلاً أو يقع بقدرة كل منهما أو بأحدهما والكل باطل ووقوعه بمجموع القدرتين مع هذه الإرادة يوجب عجزهما لتخلف مراد كل منهما عن إرادته فلا يكونان إلهين قادرين على الكمال وقد فرضا كذلك ؛ ومن هنا ظهر أنه على تقدير التعدد لو وجد مصنوع لزم إمكان أحد المحالين إما إمكان التوارد وإما إمكان الرجحان من غير مرجح والكل محال ، وبهذا الاعتبار مع حمل الفساد على عدم الكون قيل بقطعية الملازمة في الآية فهي دليل إقناعي من وجه ودليل قطعي من وجه آخر والأول بالنسبة إلى العوام والثاني بالنبة إلى الخواص ، وقال مصلح الدين اللاري بعد كلام طويل وقال وقيل أقول أقرر الحجة المستفادة من الآية الكريمة على وجه أوجه مما عداه وهو أن الإله المستحق للعبادة لا بد أن يكون واجب الوجود ، وواجب الوجود وجوده عين ذاته عند أرباب التحقيق إذ لو غايره لكان ممكناً لاحتياجه في موجوديته إلى غيره الذي هو الوجود فلو تعدد لزم أن لا يكون وجوداً فلا تكون الأشياء موجودة

(59/508)

لأن موجودية الأشياء بارتباطها بالوجود فظهر فساد السماء والأرض بالمعنى الظاهر لا بمعنى عدم التكون لأنه تكلف ظاهر انتهى.

(60/508)

وأنت تعلم أن إرادة عدم التكون أظهر على هذا الاستدلال، ثم إن هذا النحو من الاستدلال مما ذهب إليه الحكماء بل أكثر براهينهم الدالة على الوحيد الذي هو أجل المطالب الإلهية بل جميعها يتوقف على أن حقيقة الواجب تعالى هو الوجود البحت القائم بذاته المعبر عنه بالوجوب الذاتي والوجود المتأكد وإن ما يعرضه الوجوب أو الوجود فهو في حد نفسه ممكن ووجوده كوجوبه يستفاد من الغير فلا يكون واجباً ومن أشهرها أنه لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لكانا مشتركين في وجوب الوجود ومتغايرين بأمر من الأمور وإلا لم يكونا اثنين، وما به الامتياز إما أن يكون تمام الحقيقة أو جزءها لا سبيل إلى الأول لأن الامتياز لو كان بتمام الحقيقة لكان وجوب الوجود المشترك بينهما خارجاً عن

حقيقه كل منهما أو عن حقيقة أحدهما وهو محال لما تقرر من أن وجوب الوجود نفس حقيقة واجب الوجود لذاته، ولا سبيل إلى الثاني لأن كل واحد منهما يكون مركباً مما به الاشتراك وما به الامتياز وكل مركب محتاج فلا يكون واجباً لإمكانه فيكون كل من الواجبين أو أحدهما ممكناً لذاته هذا خلف، واعترض بأن معنى قولهم وجوب الوجود نفس حقيقة واجب الوجود أنه يظهر من نفس تلك الحقيقة أثر صفة وجوب الوجود لا أن تلك الحقيقة عين هذه الصفة فلا يكون اشتراك موجودين واجبي الوجود في وجوب الوجود إلا أن يظهر من نفس كل منهما أثر صفة الوجوب فلا منافاة بين اشتراكهما في وجوب الوجود وتمايزهما بتمام الحقيقة، وأجيب بأن المراد العينية، ومعنى قولهم أن وجوب الوجود عين حقيقة الواجب هو أن ذاته بنفس ذاته مصداق هذا الحكم ومنشأ انتزاعه من دون انضمام أمر آخر ومن غير ملاحظة حيثية أخرى غير ذاته تعالى أية حيثية كانت حقيقية أو إضافية أو سلبية، وكذلك قياس سائر صفاته سبحانه عند القائلين بعينيتها من أهل التحقق، وتوضيح ذلك على مشربهم أنك كما قد تعقل المتصل مثلاً نفس المتصل كالجزء الصوري للجسم من حيث

هو جسم وقد تعقل شيئاً ذلك الشيء هو المتصل كالمادة فكذلك قد تعقل واجب الوجود بما هو واجب الوجود وقد تعقل شيئاً ذلك الشيء هو واجب الوجود ومصداق الحكم به ومطابقه في الأول حقيقة الموضوع وذاته فقط ، وفي الثاني هي مع حيثية أخرى هي صفة قائمة بالموضوع حقيقية أو انتزاعية وكل واجب الوجود لم يكن نفسه واجب الوجود بل يكن له حقيقة تلك الحقيقة متصفة بكونها واجبة الوجود ففي اتصافها تحتاج إلى عروض هذا الأمر وإلى جاعل يجعلها بحيث ينتزع منها هذا الأمر فهي في حد ذاتها ممكنة الوجود وبه صارت واجب الوجود فلا تكون واجب الوجود بذاته فهو نفس واجب الوجود بذاته فهو نفس واجب الوجود بذاته وليقس على ذلك سائر صفاته تعالى الحقيقية الكمالية كالعلم والقدرة وغيرهما .

واعترض أيضاً بأنه لم لا يجوز أن يكون ما به الامتياز أمراً عارضاً لا مقوماً حتى يلزم التركيب .

وأجيب بأن ذلك يوجب أن يكون التعين عارضاً وهو خلاف ما ثبت بالبرهان ، ولابن كمونة في هذا المقام شبهة شاع أنها عويصة الدفع عسيرة الحل حتى أن بعضهم سماه لا بدائها بافتخار الشياطين وهي أنه لم لا يجوز أن يكون هناك هويتان بسيطتان مجهولتا الكنه مختلفتان بتمام الماهية كل منهما واجباً بذاته ويكون مفهوم واجب الوجود منتزعاً منهما مقولاً عليها قولاً عرضياً ، وقد رأيت في ملخص الإمام عليه الرحمة ونحوها .

ولعلك إذا أحطت خبراً بحقيقة ما ذكرنا يسهل عليك حلها وإن أردت التوضيح فاستمع لما قيل في ذلك إن مفهوم واجب الوجود لا يخلو إما أن يكون انتزاعه عن نفس ذات كل منهما من دون اعتبار حيثية خارجة أية حيثية كانت أو مع اعتبار تلك الحيثية وكلا الشقين محال ، أما الثاني فلما تقرر أن كل ما لم يكن ذاته مجرد حيثية انتزاع الوجوب فهو ممكن في ذاته ، وأما الأول فلأن مصداق حمل مفهوم واحد ومطابق صدقه بالذات مع قطع النظر عن أية حيثية كانت لا يمكن أن يكون حقائق متخالفة متباينة بالذات غير مشتركة في ذاتي أصلاً ، ولعل كل سليم الفطرة يحكم بأن الأمور المتخالفة من حيث كونها متخالفة بلا حيثية جامعة لا تكون مصداقاً لحكم واحد ومحكياً عنها به نعم يجوز ذلك إذا كانت تلك الأمور متماثلة من جهة كونه متماثلة ولو في أمر سلبي بل نقول لو نظرنا إلى نفس مفهوم الوجودي المصدري المعلوم بوجه من الوجوه بديهة أدانا النظر والبحث إلى أن حقيقته وما ينتزع هو منه أمر قائم بذاته هو الواجب الحق الوجود المطلق الذي لا يشوبه عموم ولا خصوص ولا تعدد إذ كل ما وجوده هذا الوجود لا يمكن أن يكون بينه وبين شيء آخر له أيضاً هذا الوجود فرضاً مباينة أصلاً ولا تغاير فلا يكون إثنان بل يكون هناك ذات واحدة ووجود واحد كما لوح إليه

صاحب التلويحات بقوله صرف الوجود الذي لا أتم منه كلما فرضته ثانياً فإذا نظرت فهو هو إذ لا ميز في صرف شيء فوجوب وجوده تعالى الذي هو ذاته سبحانه تدل على وحدته جل وعلا انتهى فتأمل .

(63/508)

ولا يخفى عليك أن أكثر البراهين على هذا المطلب الجليل الشأن يمكن تخريج الآية الكرمية عليه ويحمل حينئذ الفساد على عدم التكون فعليك بالتخريج وإن أحوجك إلى بعض تكلف وإياك أن تقنع بجعلها حجة إقناعية كما ذهب إليه كثير فإن هذا المطلب الجليل أجل من أن يكتفي فيه بالإقناعات المبنية على الشهرة والعادة ، ولصاحب الكشف طاب ثراه كلام يلوح عليه مخايل التحقيق في هذا المقام سنذكره إن شاء الله تعالى كما اختاره في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] ثم لا تتوهمن أنه لا يلزم من الآية نفي الإثنين والواحد لأن نفي آلهة تغاير الواحد المعين شخصاً يستلزم بالضرورة إن كل واحد واحد منهم يغايره شخصاً وهو أبلغ من نفي واحد يغاير المعين في الشخص على أنه طوبق به قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا الِهَةً مّنَ الأرض ﴾ وقيام الملازمة كاف في نفي الواحد والإثنين أيضاً .

واستشكل سياق الآية الكريمة بأن الظاهر أنها إنما سيقت لإبطال عبادة الأصنام المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا ءالِهَةً مّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 21] لذكرها بعده ، وهي لا تبطل إلا تعدد الإله الخالق القادر المدبر التام الألوهية وهو غير متعدد عند المشركين ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ مِنْ خلاق السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] وهم يقولون في آلهتهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرّبُونَا إِلَى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] فما قالوا به لا تبطله الآية ؛ وما تبطله الآية لم يقولوا به ومن هنا قيل معنى الآية لو كان في السماء والأرض آلهة كما يقول عبدة الأوثان : لزم فساد العالم لأن تلك الآلهة التي يقولون بها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم ، وأجيب بأن قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ [الأنبياء : 21] الخ مسوق للزجر عن عبادة الأصنام وإن لم تكن لها الألوهية التامة لأن العبادة إنما تليق لمن له ذلك وبعد الزجر عن ذلك أشار سبحانه إلى أن من له ما ذكر لا يكون إلا واحداً على أن شرح اسم الإله هو الواجب الوجود لذاته الحي العالم المريد القادر الخالق المدبر فمتى أطلقوه على شيء لزمهم وصفهم بذلك شاؤا أو أبوا فالآية لإبطال ما يلزم قولهم على أتم وجه ﴿ فسبحان الله رَبّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي نزهوه أكمل تنزيه عن أن يكون من

دونه تعالى إلهة كما يزعمون فالفاء لترتيب ما بعده على ما قبلها من ثبوت الوحدانية ، وإبراز الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية مناط لجميع صفات الكمال التي من جملتها تنزهه تعالى عن الشركة ولتربية المهابة وإدخال الروعة ، والوصف برب العرش لتأكيد التنزه مع ما في ذلك من تربية المهابة ، والظاهر أن المراد حقيقة الأمر بالتنزيه ، وقيل : المراد بالتعجيب ممن عبد تلكم المعبودات الخسيسة وعدها شريكاً مع وجود المعبود العظيم

(65/508)

الخالق لأعظم الأشياء ، والكلام عليه أيضاً كالنتيجة لما قبله من الدليل

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾

يمكن أن يكون جواب سؤال مقدر ناشيء من إثبات توحده سبحانه في الألوهية المتضمن توحده تعالى في الخلق والتصرف ووصف الكفرة إياه سبحانه بما لا يليق كأنه قيل إذا كان الله تعالى هو الإله الخالق المتصرف فلم خلق أولئك الكفرة ولم يصرفهم عما يقولون فأجيب بقوله سبحانه ﴿ لَا يُسْأَلُ ﴾ الخ وحاصله أنه تعالى لا ينبغي لأحد أن يعترض عليه في شيء من أفعاله إذ هو حكيم مطلق لا يفعل ما يرد عليه الاعتراض ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

عما يفعلون ويعترض عليهم ، وهذا الحكم في حقه تعالى عام لجميع أفعاله سبحانه ويندرج فيه خلق الكفرة وإيجادهم على ما هم عليه ، ووجه حل السؤال الناشيء مما تقدم بناء على ما يشير إليه هذا الجواب الإجمالي أنه تعالى خلق الكفرة بل جميع المكلفين على حسب ما علمهم مما هم عليه في أنفسهم لأن الخلق مسبوق بالإرادة والإرادة مسبوقة بالعلم والعلم تابع للمعلوم فيتعلق به على ما هو عليه في ثبوته الغير المجعول مما يقتضيه استعداده الأزلي ، وقد يشير إلى بعض ذلك قول الشافعي عليه الرحمة من أبيات

: خلقت العباد على ما علمت . . .

ففي العلم يجري الفتى والمسن

(66/508)

ثم بعد أن خلقهم على حسب ذلك كلفهم لاستخراج سر ما تسبق به العلم التابع للمعلوم من الطوع والاباء اللذين في استعدادهم الأزلي وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين لتتحرك الدواعي ويهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولا يكون للناس على الله تعالى حجة فلا يتوجه على الله تعالى اعتراض بخلق الكافر وإنما يتوجه الاعتراض على الكافر بكفره حيث أنه من توابع استعداده في ثبوته الغير المجعول ، وقد يشير إلى ذلك قوله سبحانه

: ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] وقوله عليه الصلاة والسلام : " فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " وهذا وإن كان مما فيه قيل وقال ونزاع وجدال إلا أنه مما ارتضاع كثير من المحققين والأجلة العارفين ، وقال البعض : إن ذلك استئناف ببيان أنه تعلى لقوة عظمته الباهرة وعزة سلطنته القاهرة بحيث ليس لأحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعاله إثر بيان أن ليس له شريك في الألوهية ، وضمير ﴿ هُمْ ﴾ للعباد أي والعاد يسألون عما يفعلون نقيراً وقطميراً لأنهم مملوكون له تعالى مستعبدون ، وفي هذا وعيد للكفرة ، والظاهر أن المراد عموم النفي جميع الأزمان أي لا يسئل سبحانه في وقت من الأوقات عما يفعل ، وخص ذلك الزجاج بيوم القيامة والأول أولى وإن كان أمر الوعيد على هذا أظهر واستدل بالآية على أن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض والغايات فلا يقال فعل كذا لكذا إذ لو كانت معللة لكان للعبد أن يسأل فيقول لم فعل ؟ وإلى ذلك ذهب الأشاعرة ولهم عليه أدلة عقلية أيضاً وأولوا ما ظاهره التعليل بالحمل على المجاز أو جعل الأداة فيه للعاقبة .

ومذهب الماتريدية كما في "شرح المقاصد" والمعتزلة أنها تعلل بذلك وإليه ذهب الحنابلة كما قال الطوفي وغيره .

وقال العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي الحنبلي المعروف با بن القيم في كتاب شفاء العليل : إن الله سبحانه وتعالى حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل ، وقد دل كلامه تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على هذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها فنذكر بعض أنواعها وساق اثنين وعشرين نوعاً في بضعة عشرة ورقة ثم قال : لو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله تعالى في خلقه وأمره لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع ثم قال : وهل إبطال الحكم والمناسبات والأوصاف التي شرعت الأحكام لأجلها إلا إبطال الشرع جمله ؟ وهل يمكن فقيهاً على وجه الأرض أن يتكلم في الفقه مع اعتقاده بطلان الحكمة والمناسبة والتعليل .

وقصد الشارع بالأحكام مصالح العباد ؟ ثم قال : والحق الذي لا يجوز غيره هو أنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته ويفعل ما يفعل بأسباب وحكم وغايات محمودة ، وقد أودع العالم من القوى والغرائز ما به قام الخلق والأمر وهذا قول جمهور أهل الإسلام .

وأكثر طوائف النظار وهو قول الفقهاء قاطبة اه .

والظاهر أن ابن القيم وأضرابه من أهل السنة القائلين بتعليل أفعاله تعالى لا يجعلون كالأشاعرة المخصص لأحد الضدين بالوقوع محض تعلق الإرادة بالمعنى المشهور ومحققو

المعتزلة كأبي الحسن .

والنظام .

والجاحظ والعلاف .

وأبي القاسم البلخي .

وغيرهم يقولون : إن العلم بترتب النفع على إيجاد النافع هو المخصص للنافع بالوقوع ويسمون ذلك العلم بالداعي وهو الإرادة عندهم .

(68/508)

وأورد عليهم أن الواجب تعالى موجب في تعلق علمه سبحانه بجميع المعلومات فلو كان المخصص الموجب للوقوع هو العلم بالنفع كان ذلك المخصص لازماً لذاته تعالى فيكون فعله سبحانه واجباً لأمر خارج ضروري للفاعل وهو ينافي الاختيار بالمعنى الأخص قطعاً فلا يكون الواجب مختاراً بهذا المعنى بل يؤل إلى ما ذهب إليه الفلاسفة من الاختيار الجامع للإيجاب ، ولا يرد ذلك على القائلين بأن المخصص هو تعلق الإرادة الأزلية لأن ذلك التعلق غير لازم الواجب تعالى وإن كان أولياً دائماً لإمكان تعلقها بالضد الآخر بدل الضد الواقع ، نعم يرد عليهم ما يصعب التفصي عنه مما هو مذكور في الكتب الكلامية ، وأورد نظير ما

ذكر على الحنفية فإنهم ذهبوا إلى التعليل وجعلوا العلم بترتب المصالح علة لتعلق العلم بالوقوع فلا يتسنى لهم القول بكون الواجب تعالى مختاراً بالمعنى الأخص لأن الذات يوجب العلم والعلم يوجب تعلق الإرادة وتعلق الإرادة يوجب الفعل ولا مخلص إلا بأن يقال : إن إيجاب العلم بالنفع والمصلحة لتعلق الإرادة ممنوع عندهم بل هو مرجح ترجيحاً غير بالغ إلى حد الوجوب وما قيل إذا لم يبلغ الترجيح إلى حد الوجوب جاز وقوع لراجح في وقت وعدم وقوعه في وقت آخر مع ذلك المرجح فإن كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع بانضمام شيء آخر إلى ذلك المرجح لم يكن المرجح مرجحاً وإلا يلزم الترجيح من غير مرجح بل يلزم ترجيح المرجوح عدمه في الوقت الآخر لأن الوقوع كان راجحاً بذلك المرجح فمدفوع بوجهين إلا أنه إنما يجري في العلة التامة بالنسبة إلى معلولها لا في الفاعل المختار بالنسبة إلى فعله فإنه إن أريد لزوم الرجحان من غير مرجح كما هو اللازم في العلة التامة فعدم اللزوم ظاهر وإن أريد الترجيح من غير مرجح فبطلان اللازم في الفاعل المختار ممنوع وإلا فما الفرق بين الفاعل الموجب والمختار ، الثاني أن المرجح بالنبسة إلى وقت ربما لا يكون مرجحاً بالنسبة إلى وقت آخر بل منافياً

للمصلحة فلا يلزم ترجيح أحد المتساويين أو المرجوح في وقت آخر بل يلزم تريح الراجح في كل وقت وهو تعالى عالم بجميع المصالح اللائقة بالأوقات فتتعلق إرادته سبحانه بوقوع كل ممكن في وقت لترتب المصالح اللائقة بذلك الوقت على عدمه فلا إشكال ، وهذا هو المعول عليه إذ لقائل أن يقول على الأول أن ترجيح المرجوح مستحيل في حق الواجب الحكيم وإن جاز في حق غيره من أفراد الفاعل بالاختيار .

(70/508)

هذا ووقع في كلام الفلاسفة أن أفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض والغايات ومرادهم على ما قاله بعضهم نفي التعليل عن فعله سبحانه بما هو غير ذاته لأنه جل شأنه تام الفاعلية لا يتوقف فيها على غيره ولا يلزم من ذلك نفيه الغاية والغرض عن فعله تعالى مطلقاً ولذا صح أن يقولوا علمه تعالى بنظام الخير الذي هو عين ذاته تعالى علة غائبة وغرض في الايجاد ومرادهم بالاقتضاء في قولهم في تعريف العلة الغائية ما يقتضي فاعلية الفاعل مطلق عدم الانفكاك لكنهم تسامحوا في ذلك اعتماداً على فهم المتدرب في العلوم وصرحوا بأنه تعالى ليس له غرض في الممكنات وقصد إلى منافعها لأن كل فاعل يفعل لغرض غير ذاته فهو فقير إلى ذلك الغرض مستكمل به والمكمل يجب أن يكون أشرف فغرض الفاعل يجب أن يكون

ما هو فوقه وإن كان بحسب الظن وليس له غرض فيما دونه وحصول وجود الممكنات منه تعالى على غاية من الاتقان ونهاية من الأحكام ليس إلا لأن ذاته تعالى ذات لا تحصل منه الأشياء إلا على أتم ما ينبغي وأبلغ ما يمكن من المصالح فالواجب سبحانه عندهم يلزم من تعلقه لذاته الذي هو مبدأ كل خير وكمال حصول الممكنات على الوجه الأتم والنظام الأقوم واللوازم غايات عرضية إن أريد بالغاية ما يقتضي فاعلية الفاعل وذاتية إن أريد بها ما يترتب على الفعل ترتباً ذاتياً لا عرضياً كوجود مبادىء الشر وغيرها في الطبائع الهيولانية ثم كما أنه تعالى غاية بالمعنى الذي أشير إليه فهو غاية بمعنى أن جميع الأشياء طالبة له متشوقة إليه طبعاً وإرادة لأنه الخير المحض والمعشوق الحقيقي جل جلاله وعم نواله .

والحكماء المتألهون قد حكموا بسريان نور العشق في جميع الموجودات على تفاوت طبقاتها ولولا ذلك ما دار الفلك ولا استناز الحلك فسبحانه من إله قاهر وهو الأول والآخر ، وتمام الكلام في هذا المقام على مشرب المتكلمين والفلاسفة يطلب من محله .

وقرأ الحسن ﴿ لا ﴾ بنقل فتحة الهمزة إلى السين وحذفها

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِۦ ءالِهَةً ﴾

إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة حقيقة بإظهار خلوها عن خصائص الإلهية التي من جملتها الإنشار وإقامة البرهان القطعي على استحالة تعدد الإله مطلقاً وتفرده سبحانه بالألوهية إلى بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله تعالى شأنه وتبكيتهم بالجائهم إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الإشراك .

وجوز أن يكون هذا انتقالاً لإظهار بطلان الآلهة مطلقاً بعد إظهار بطلان الآلهة الأرضية ، والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ؛ ومن متعلقه باتخذوا ، والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية آلهة مع ظهور أنها عارية عن خواص الألوهية بالكلية .

﴿ قُلْ ﴾ لهم بطريق التبكيت والقام الحجر ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل الصريح أو النقل الصحيح فإنه لا يصح القول بمثل ذلك من غير دليل عليه ، وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الأشعار بأن لهم برهاناً ضرب من التهكم بهم ، وقوله تعالى : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ إنارة لبرهانه وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتي وعظمتهم وذكر الأمم السالفة قد

أقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم ، وأعيد لفظ ﴿ ذِكْرَ ﴾ ولم يكتف بعطف الموصول على الموصول المستدعي للانسحاب لأن كون المشخص ذكر من معه ظاهر وكونه ذكر من قبله باعتبار اتحاده بالحقيقة مع الوحي المتضمن ذلك .

(72/508)

وقيل : المراد بالذكر الكتاب أي هذا كتاب أنزل على أمتي وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لنقيض مدعاهم وقرىء بتنوين ذكر الأول والثاني وجعل ما بعده منصوب المحل على المفعولية له لأنه مصدر وأعماله هو الأصل نحو ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 1514] .

وقرأ يحيى بن يعمر .

وطلحة بالتنوين وكسر ميم ﴿ مِنْ ﴾ فهي على هذا حرف جر ومع مجرورة بها وهي اسم يدل على الصحبة والاجتماع جعلت هنا ظرفاً كقبل وبعد فجاز إدخال من عليها كما جاز إدخالها عليهما لكن دخولها عليها نادر ، ونص أبو حيان أنها حينئذ بمعنى عند .

وقيل : من داخلة على موصوفها أي عظة من كتاب معي وعظة من كتاب من قبلي ، وأبو

حاتم ضعف هذه القراءة لما فيها من دخول من على مع ولم ير له وجهاً وعن طلحة أنه قرأ ﴿ هذا ذِكْرٌ مَّعِىَ وَذِكْرٌ قَبْلِى ﴾ بتنوين ﴿ ذِكْرَ ﴾ وإسقاط ﴿ مِنْ ﴾ وقرأت فرقة ﴿ هذا ذِكْرُ مَن ﴾ بالإضافة وذكر من قبلي بالتنوين وكسر الميم ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ إضراب من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن وانتقال من الأمر بتبكيتهم بمطالعة البرهان إلى بيان أن الاحتجاج عليهم لا ينفع لفقدهم التمييز بين الحق والباطل ﴿ فَهُمْ ﴾ لأجل ذلك ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغي والضلال وإن كررت عليهم البينات والحجج أو فهم معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية .

وقرأ الحسن .

وحميد .

(73/508)

وابن محيصن ﴿ الحق ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق ، والجملة معترضة بين السبب والمسبب تأكيداً للربط بينهما ، وجوز الزمخشري أن يكون المنصوب أيضاً على معنى التأكيد كما تقول هذا عبد الله الحق لا الباطل ، والظاهر أنه منصوب على

أنه مفعول به ليعلمون والعلم بمعنى المعرفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ

﴾

(74/508)

وقال القاسمى :

ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته في ألوهيته ونفي الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة – فإن ما سلف من أول السورة كان في تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ أي : يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أي بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله نداً ، وعبدوها معه ؟

قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عزّ وجل بأنه خالق السموات والأرض : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : 25] ، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ،

منكرين للبعث . ويقولون : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يّس : 78] ، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم . فكيف يدّعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .

قلت : الأمر كما ذكرت . ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار . لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإنشار من جملة المقدورات . انتهى .

قال في " الانتصاف " : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ في الإنكار .

ثم قال الزمخشري : وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . انتهى .

لطيفة :

سر قوله تعالى : ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ هو التحقير ، أي : تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية . وجوز إرادة التخصيص . أي : الآلهة التي من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضيّ مصنوع بأيديهم كيف يدعي ألوهيته ؟ ثم بيّن تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ﴾ أي : يتصرف في السموات والأرض : ﴿ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي : غيره : ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي : لبطلتا بما فيهما جميعاً ، واختل نظامهما المشاهد ، كما قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] ، قال أبو السعود : وحيث انتفى التالي ، علم انتفاء المقدم قطعاً . بيان الملازمة : أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة . فبقاؤهما على ما هما عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقي بمعزل من الإلهية قطعاً ، واعلم أن جعل التالي فسادهما بعد وجودهما ، لما أنه اعتبر في المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضي باستحالة التعدد على الإطلاق فإنه لو تعدد الإله ، فإن توافق الكل في المراد ، تطاردت عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجوداً أصلاً . وحيث انتفاء التالي تعين انتفاء المقدم . انتهى .

وتفصيله كما في " المقاصد " أنه لو وجد إلهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً كحركة جسم مثلا ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أوْ لا . وكلاهما محال . أما الأول فلأنه لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال ، لاستلزامه اجتماع الضدين . أوْ لا يقع مراد واحد منهما ، وهو محال لاستلزامه عجز الإلهين الموصوفين بكمال القدرة على ما هو المفروض ، ولاستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلوّ المحل عنهما ، كحركة جسم وسكونه في زمان معين ، أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فإن أريد بالفساد عدم التكوّن ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخران فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العاديّ . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذي باعتباره

صار الكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذي به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

(77/508)

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانيّ ، والمشار إليه في الآية إقناعيّ . ولا يفيد العلم اليقينيّ فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب ، وممن فصل ذلك التفتازانيّ في " شرح العقائد النسفية " قادحاً لما أشار إليه نفسه في " شرح المقاصد " من كون الآية برهاناً ، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام ، أي : بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعددُ التمانعَ بالفعل بل بالإمكان . والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادهما . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل في كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلاً . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فإما بمجموع القدرتين ، فيلزم عجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون

مصنوع لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالعادة القاضية التي لم يوجد أخرمها قط في ملكين مقتدرين في مدينة واحدة ، أن يطلب كلٌّ الانفرادَ بالملك والعلو على الآخر وقهره, فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر, فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ؟ وهذا إذا تؤمل لا تكاد النفس تخطر نقيضه بالبال ، فضلاً عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر . فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعيّ . هذا ملخص ما جاء في رد مقالة السعد في الحواشي . وقد شنع عليه في مقالته المتقدمة غير واحد . وبالغ معاصره عبد اللطيف

(78/508)

الكرمانيّ في الانتقاد .

قال العلامة المرجانيّ : وقد سبقه في هذا أبو المعين النسفيّ في كتابه " التبصرة " وتابعه صاحب " الكشف " حيث شنع على أبي هاشم الجبائيّ تشنيعاً بليغاً . حتى نسبه إلى الكفر بقدحه في دلالة الآية قطعاً على هذا المدعي ، ولا يخفى أن الأفهام لا تقف عند حد

. ولا تزال تتباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولا تضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

(79/508)

وقد أوضح بيان هذه الملازمة مفتي مصر في رسالة " التوحيد " إيضاحاً ما عليه من مزيد ، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة في الصفة ، أي : أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود ، فلما بيّنا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود . فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ، ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد المكنات ، فهي ثابتة ، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها ، بتعين ما يثبت له بالبداهة . فيختلف العلم الإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة

علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتيّ ، لأن علم الواجب وإرادته لا زمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كُلّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات . فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته . ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى . فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من

(80/508)

الممكنات . لأن كل ممكن لا بد أي : يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال ف : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ لكن الفساد ممتنع بالبداهة . فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزاليّ في كتاب "الاقتصاد في الاعتقاد" في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لا أبين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن. قال الكلنبويّ: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر. وإما بمعنى عدم تكونهما في الأصل كما قالوا. ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله. فهي بعبارتها تنفي آلهة متعددة غير الواجب تعالى، وبدلالتها تنفي تعدد الآلهة. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: من وجود شرك له فيهما والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالدليل المتقدم. أي: فسبحوه سبحانه اللائق به، ونزهوه عما يفترون. وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش، غيره ممن لا يقدر على شيء البتة.

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه: ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الضمير للعباد. أي: يسألون عما يفعلون كقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: 92-93].

قال الزمخشري : إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيباً وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم ، أولى بأن لا يُسأَل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ، ولا يجوز عليه خطأ ، ثم قال : ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ أي : هم مملوكون مستعبدون خطاءُون . فما أخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم ؟ في كل شيء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : 88] .

تنبيه :

قال الإمام الغزاليّ في " المضنون به على غير أهله " : وأما معنى قول الله تعالى : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ [125] ، فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار ، كما يسأل التلميذ أستاذه . والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام . وهو المعني بقوله : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ إذ لا يقال لم قول إلزام . فأما أن لا يستخبر ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله : ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِي

أَعْمَى ﴾ . وقوله تعالى :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ كرره استعظاماً لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، ومع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي : دليلكم على ما تفترون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

(82/508)

قال أبو السعود : وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهكم بهم . وقوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت له الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أي : هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقليّ ، ذكر أمتي أي : عظتهم ، وذكر الأمم السابقة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم المحاجّة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : عن النظر الموصل إلى الهدى . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 191. 197 ﴾

(83/508)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

(أم) هذه منقطعة عاطفة الجملة على الجملة عطفَ إضراب انتقالي هو انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحجية دلالة القرآن إلى إبطال الإشراك ، انتقالاً من بقية الغرض السابق الذي تهيأ السامع للانتقال منه بمقتضى التخلص ، الذي في قوله تعالى : ﴿ وله من في السماوات والأرض ومن عنده ﴾ [الأنبياء : 19] كما تقدم ، إلى التمحض لغرض إبطال الإشراك وإبطال تعدد الآلهة .

وهذا الانتقال وقع اعتراضاً بين جملة ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء : 20] وجملة ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : 23] .

وليس إضرابُ الانتقال بمقتضٍ عدم الرجوع إلى الغرض المنتقل إليه .

و(أم) تؤذن بأن الكلام بعدها مسوق مساق الاستفهام وهو استفهام إنكاري ، أنكر عليه

اتخاذهم آلهة.

وضمير ﴿ اتخذوا ﴾ عائد إلى المشركين المتبادرين من المقام في مثل هذه الضمائر.

وله نظائر كثيرة في القرآن.

ويجوز جعله التفاتاً عن ضمير ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ [الأنبياء: 18]، ويجوز أن يكون متناسقاً مع ضمائر ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ [الأنبياء: 5] وما بعده.

ووصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين، وإظهار لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالَم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض من حجارة أو خشب تعريضاً بأن ما كان مثلَ ذلك لا يستحق أن يكون معبوداً، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ في [الصافات: 95].

وذكر الأرض هنا مقابلة لقوله تعالى: ﴿ ومن عنده ﴾ [الأنبياء: 19] لأن المراد أهل السماء، وجملة ﴿ هم ينشرون ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ آلهة ﴾.

واقترانها بضمير الفصل يفيد التخصيص أن لا ينشر غير تلك الآلهة.

والمراد: إنْشار الأموات، أي بعثُهم.

وهذا مسوق للتهكم وإدماج لإثبات البعث بطريقة سَوْق المعلوم مساق غَيره المسمى بتجاهل العارف ، إذ أبرز تكذيبهم بالبعث الذي أخبرهم الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم في صورة تكذيبهم استطاعة الله ذلك وعجزه عنه ، أي أن الأوْلى بالقدرة على البعث شركاؤهم فكأنّ وقوع البعث أمر لا ينبغي النزاع فيه فإنْ نازع فيه المنازعون فإنما ينازعون في نسبته إلى الله ويرومون بذلك نسبته إلى شركائهم فأنكرت عليهم هذه النسبة على هذه الطريقة المفعمة بالنكت ، والمشركون لم يدّعوا لآلهتهم أنها تبعث الموتى ولا هم معترفون بوقوع البعث ولكن نُزلوا منزلة من يزعم ذلك إبداعاً في الإلزام .

ونظيره قوله تعالى في سورة [النحل : 21] في ذكر الآلهة : ﴿ أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون .

﴿

﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

جملة مبينة للإنكار الذي في قوله تعالى ﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ [الأنبياء : 21] ولذلك فصلت ولم تعطف .

وضمير المثنى عائد إلى ﴿ السموات والأرض ﴾ [الأنبياء : 19] من قوله تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ [الأنبياء : 19] أي لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن جميع من فيها مِلكاً لله وعباداً له لفسدت السماوات والأرض واختل

نظامهما الذي خُلقتا به .

وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق ، أي أنه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له ، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج "لبيكَ لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه ومَا ملك" وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء .

(85/508)

وبذلك يتبين أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله هو خالق السماوات والأرض ، قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ في سورة [الزمر : 38] ، وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ في سورة الزخرف (9) .

فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين ، ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك ، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم

الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم .

والفساد : هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء .

ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيهما .

فمن صلاح السماء نظام كواكبها ، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها ، ونظام النور والظلمة .

ومن صلاح الأرض مهدها للسير ، وإنباتها الشجرَ والزرع ، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب ، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح .

ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفاً بصفات الإلهية المعروفةِ آثارها ، وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرف ، ثم إن التعدد يقتضي اختلاف متعلقات الإرادات والقُدَر لأن الآلهة لو استوت في تعلقات إراداتها ذلك لكان تعدد الآلهة عبثاً للاستغناء بواحد منهم ، ولأنه إذا حصل كائن فإن كان حدوثه بإرادة متعددين لزم اجتماع مؤثرَيْن على مؤثّر واحد وهو محال لاستحالة اجتماع علتين تامتين على معلول واحد .

فلا جرم أن تعدد الآلهة يستلزم اختلاف متعلقات تصرفاتها اختلافاً بالأنواع ، أو بالأحوال

، أو بالبقاع ، فالإله الذي لا تنفذ إرادته في بعض الموجودات ليس بإله بالنسبة إلى تلك الموجودات التي أوجدها غيره .

(86/508)

ولا جرم أن تختلف متعلقات إرادات الآلهة باختلاف مصالح رعاياهم أو مواطنهم أو أحوال تصرفاتهم فكل يغار على ما في سُلطانه .

فثبت أنّ التعدد يستلزم اختلاف الإرادات وحدوثَ الخلاف .

ولما كان التماثل في حقيقة الإلهية يقتضي التساوي في قوة قدرة كل إله منهم ، وكان مقتضياً تمام المقدرة عند تعلق الإرادة بالقهر للضد بأن لا يصده شيء عن استئصال ضده ، وكل واحد منهم يدفع عن نفسه بغزو ضده وإفساد ملكه وسلطانه ، تعين أنه كلما توجه واحد منهم إلى غزو ضده أن يُهلك كلَّ ما هو تحت سلطانه فلا يزال يَفْسُد ما في السماوات والأرض عند كل خلاف كما قال تعالى : ﴿ وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ في سورة المؤمنون (91) .

فلا جرم دلت مشاهدة دوام السماوات والأرض على انتظامهما في متعدد العصور والأحوال على أنّ إلهَها واحد غير متعدد .

فأما لو فُرض التفاوت في حقيقة الإلهية فإن ذلك يقتضي رُجحان بعض الآلهة على بعض ، وهو أدخل في اقتضاء الفساد إذ تصير الغلبة للأقوى منهم فيجعل الكل تحت كلاكله ويَفسد على كل ضعيف منهم ما هو في حَوزته فيكون الفساد أسرع .

وهذا الاستدلال باعتبارِ كونه مسوقاً لإبطال تعدّدٍ خاص ، وهو التعدد الذي اعتقده أهل الشرك من العرب واليونان الزاعِمين تعدد الآلهة بتعدد القبائل والتصرفات ، وكذا ما اعتقده المانوية من الفرس المثبتين إلهين أحدهما للخير والآخر للشرّ أو أحدهما للنور والآخر للظلمة هو دليل قطعي .

وأما باعتبار ما نحاه المتكلمون من الاستدلال بهذه الآية على إبطال تعدد الآلهة من أصله بالنسبة لإيجاد العالم وسمّوه برهان التمانع ، فهو دليل إقناعي كما قال سعد الدين التفتازاني في "شرح النسفية" .

وقال في "المقاصد" : "وفي بعضها ضعف لا يخفى" .

وبيانه أن الاتفاق على إيجاد العالم يمكن صدوره من الحكيمين أو الحكماء فلا يتم الاستدلال إلا بقياس الآلهة على الملوك في العُرف وهو قياس إقناعي .

ووجه تسميته برهان التمانع أن جانب الدلالة فيه على استحالة تعدد الإله هو فرض أن يتمانع الآلهة ، أي يمنعَ بعضهم بعضاً من تنفيذ مراده ، والخوض فيه مَقامُنا غنيٌّ عنه .

والمنظور إليه في الاستدلال هنا هو لزوم فساد السماوات والأرض لا إلى شيء آخر من مقدمات خارجة عن لفظ الآية حتى يصير الدليل بها دليلاً قطعياً لأن ذلك له أدلة أخرى كقوله تعالى ﴿ وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ وسيجيء في سورة المؤمنون (91) .

وأما الاستدلال ببرهان التمانع فللمتكلمين في تقريره طريقتان ذكرهما صاحب "المواقف" .

الأولى : طريقة الاستدلال بلزوم التمانع بالفعل وهي الطريقة المشهورة .

وتقريرها : أنه لو كان للعالم صانعان متماثلان في القدرة ، فلا يخلو إما أن تتفق إرادتاهما وحينئذ فالفعل إن كان بإرادتيهما لزم اجتماع مؤثرين تامين على مؤثر بفتح المثلثة واحدٍ وهو محال لامتناع اجتماع العلتين التامتين على معلول واحد .

وإن كان الفعل بإحدى الإرادتين دون الأخرى لزم ترجيح إحداهما بلا مُرجح لاستوائهما في الصفة والموصوف بها ، وإما أن تختلف إرادتاهما فيلزم التمانع ، ومعناه أن يمنع كل منهما الآخر من الفعل لأن الفرض أنهما مستويان في القدرة .

ويرد على الاستدلال بهاته الطريقة أمور :

أحدها أنه لا يلزم تساوي الإلهين في القدرة بل يجوز عقلاً أن يكون أحدهما أقوى قدرةً من

الآخر ، وأجيب عنه بأن العجز مطلقاً منافٍ للألوهية بداهةً .

قاله عبد الحكيم في "حاشية البيضاوي" .

الأمر الثاني : يجوز أن يتفق الإلهان على أن لا يريد أحدهما إلا الأمرَ الذي لم يرده الآخر فلا يلزم عجز من لم يفعل .

الأمر الثالث : يجوز أن يتفق الإلهان على إيجاد الأمر المراد بالاشتراك لا بالاستقلال .

(88/508)

الأمر الرابع : يجوز تفويض أحدهما للآخر أن يفعل فلا يلزم عجز المفوّض لأن عدم إيجاد المقدور لمانعٍ أرَاده القادرُ لا يسمّى عجزاً ، لا سيما وقد حصل مراده ، وإن لم يفعله بنفسه .

والجواب عن هذه الثلاثة الأخيرة أنّ في جميعها نقصاً في الألوهية لأن الألوهية من شأنها الكمال في كل حال .

إلا أن هذا الجواب لا يخرج البرهان عن حد الإقناع .

الطريقة الثانية : عول عليها التفتازاني في "شرح العقائد النسفية" وهي أنّ تعدد الإلهين يستلزم إمكان حصول التمانع بينهما ، أي أن يمنع أحدهما ما يريده الآخر ، لأن المتعددين

يجوز عليهم الاختلاف في الإرادة .

وإذا كان هذا الإمكان لازماً للتعدد فإن حصل التمانع بينهما إذ تعلقت إرادة أحدهما بوجود شخص معين وتعلقت إرادة الآخر بعدم وجوده ، فلا يصح أن يحصل المُرَادَانِ معاً للزوم اجتماع النقيضين ، وإن حصل أحد المرادين لزم عجز صاحب المراد الذي لم يحصل ، والعجزُ يستلزم الحدوث وهو محال ، فاجتماع النقيضين أو حدوث الإله لازمٌ لازِمٍ لازمٍ للتعدد وهو محال ، ولازم اللازم لازمٌ فيكون الملزوم الأول محالاً ، قال التفتازاني : وبه تندفع الإيرادات الواردة على برهان التمانع .

وأقول يرد على هذه الطريقة أن إمكان التمانع لا يوجب نهوض الدليل ، لأن هذا الإمكان يستحيل وقوعه باستحالة حدوث الاختلاف بين الإلهين بناء على أنّ اختلاف الإرادة إنما يجيء من تفاوت العلم في الانكشاف به ، ولذلك يقل الاختلاف بين الحكماء .

والإلهان نفرضهما مستويين في العلم والحكمة فعلمهما وحكمتهما يقتضيان انكشافاً متماثلاً فلا يريد أحدهما إلا ما يريده الآخر فلا يقع بينهما تمانع ، ولذلك استدل في المقاصد على لزوم حصول الاختلاف بينهما بحكم اللزوم العادي .

بقي النظر في كيفية صدور الفعل عنهما فذلك انتقال إلى ما بنيت عليه الطريقة الأولى .

وإن احتمال اتفاق الإلهين على إرادة الأشياء إذا كانت المصلحة فيها بناء على أنّ الإلهين حكيمان لا تختلف إرادتهما ، وإن كان احتمالاً صحيحاً لكن يصير به تعدد الإله عبثاً لأن تعدد ولاة الأمور ما كان إلا لطلب ظهور الصواب عند اختلافهما ، فإذا كانا لا يختلفان فلا فائدة في التعدد ، ومن المحال بناء صفة أعلى الموجودات على ما لا أثر له في نفس الأمر ، فالآية دليل قطعي .

ثم رجع عن ذلك في "شرح النسفية" فحقق أنها دليل إقناعي على التقديرين ، وقال المحقق الخيالي إلى أنها لا تكون دليلاً قطعياً إلا بالنظر إلى تحقيق معنى الظرفية من قوله تعالى ﴿ فيهما ، ﴾ وعين أن تكون الظرفية ظرفية التأثير ، أي لو كان مؤثر فيهما ، أي السماوات والأرض غير الله تكون الآية حجة قطعية .

وقد بسطه عبد الحكيم في "حاشيته على الخيالي" ولا حاجة بنا إلى إثبات كلامه هنا .

والاستثناء في قوله تعالى ﴿ إلا الله ﴾ استثناء من أحد طرفي القضية لا من النسبة الحكمية ، أي هو استثناء من المحكوم عليه لا من الحكم .

وذلك من مواقع الاستثناء لأن أصل الاستثناء هو الإخراج من المستثنى منه فالغالب أن يكون الإخراج من المستثنى باعتبار تسلط الحكم عليه قبلَ الاستثناء وذلك في المفرغ وفي المنصوب ، وقد يكون باعتباره قبل تسلط الحكم عليه وذلك في غير المنصوب ولا المفرغ

فيقال حينئذ إن (إلا) بمعنى غير والمستثنى يعرب بدلاً من المستثنى منه .

وفُرع على هذا الاستدلال إنشاءُ تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى :

﴿ فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون ﴾ أي عما يصفونه به من وجود الشريك .

وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة .

ووصفه هنا برب العرش للتذكير بأنه انفرد بخلق السماوات وهو شيء لا ينازعون فيه بل هو خالق أعظم السماوات وحاويها وهو العرش تعريضاً بهم بإلزامهم لازم قولهم بانفراده بالخلق أن يلزم انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك .

(90/508)

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) ﴾

الأظهر أن هذه الجملة حال مكملة لمدلول قوله تعالى : ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء : 1920] كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ [الأنبياء : 21] الخ .

.

فالمعنى أن مَنْ عنده وهم المقربون من المخلوقات هم مع قربهم يُسألون عما يفعلون ولا

يسألونه عما يفعل ، أي لم يبلغ بهم قربهم إلى حدّ الإدلال عليه وانتصابهم لتعقب أفعاله .

فلما كان الضمير المرفوع بالنيابة عن الفاعل مشعراً بفاعل حُذف لقصد التعميم ، أي لا يَسأل سائلٌ الله تعالى عما يفعل .

وكان ممن يشملهم الفاعل المحذوف هم مَن عنده من المقربين ، صَحّ كون هذه الجملة حالاً من ﴿ مَن عنده ﴾ [الأنبياء : 19] ، على أن جملة ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ تمهيد لجملة ﴿ وهم يسألون ﴾ .

على أن تقديمه على جملة ﴿ وهم يسألون ﴾ اقتضته مناسبة الحديث عن تنزيهه تعالى عن الشركاء فكان انتقالاً بديعاً بالرجوع إلى بقية أحوال المقربين .

فالمقصود أن مَن عنده مع قربهم ورفعة شأنهم يحاسبهم الله على أعمالهم فهم يخافون التقصير فيما كلفوا به من الأعمال ولذلك كانوا لا يستحسرون ولا يفترون .

وبهذا تعلم أن ليس ضمير ﴿ وهم يسألون ﴾ براجع إلى ما رجع إليه ضمير ﴿ يَصفون ﴾ [الأنبياء : 22] لأن أولئك لا جَدوى للإخبار بأنهم يُسألون إذ لا يتردد في العلم بذلك أحدٌ ، ولا براجع إلى ﴿ آلهة من الأرض ﴾ [الأنبياء : 21] لعدم صحة سؤالهم ، وذلك هو ما دعانا إلى اعتبار جملة ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ حالاً مِن ﴿ مَن عنده ﴾ [الأنبياء : 19] .

والسؤال هنا بمعنى المحاسبة ، وطلب بيان سبب الفعل ، وإبداء المعذرة عن فعل بعض ما

يُفعل ، وتخلّص من ملام أو عتاب على ما يفعل .

وهو مثل السؤال في الحديث "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " .

(91/508)

فكونهم يسألون كناية عن العبودية لأن العبد بمظنة المؤاخذة على ما يَفعل وما لا يفعل وبمظنة التعرض للخطأ في بعض ما يفعل .

وليس المقصود هنا نفي سؤال الاستشارة أو تطلب العلم كما في قوله تعالى ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] ، ولا سؤالَ الدعاء ، ولا سؤال الاستفادة والاستنباط مثل أسئلة المتفقهين أو المتكلمين عن الحِكَم المبثوثة في الأحكام الشرعية أو في النظم الكونية لأن ذلك استنباط وتتبع وليس مباشرةً بسؤال الله تعالى ، ولا لتطلب مخلص من ملام .

وفي هذا إبطال لإلهية المقربين التي زعمها المشركون الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله تعالى ، بطريقة انتفاء خاصية الإله الحق عنهم إذ هم يُسألون عما يفعلون وشأن الإله أن لا يُسأل .

وتُستخرج من جملة ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ كنايةٌ عن جريان أفعال الله تعالى على

مقتضى الحكمة بحيث إنها لا مجال فيها لانتقاد منتقد إذا أتقن الناظر التدّبر فيها أو كُشف له عما خفي منها .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾

جملة ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ تأكيد لجملة ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ [الأنبياء : 21] .

أُكد ذلك الإضراب الانتقالي بمثله استعظاماً لفظاعته وليُبنَى عليه استدلال آخر كما بُني على نظيره السابق ؛ فإن الأول بني عليه دليل استحالةٍ من طريق العقل ، وهذا بني عليه دليل بطلان بشهادة الشرائع سابِقِها ولاحقها ، فلقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي ، هاتوا دليلاً على أنّ لله شركاء من شواهد الشرائع والرسل .

والبرهان : الحجة الواضحة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ في سورة النساء (174) .

والإشارة في قوله تعالى ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ إلى مقدّر في الذهن يفسره الخبر .

والمقصود من الإشارة تمييزه وإعلانه بحيث لا يستطيع المخاطب المغالطة فيه ولا في مضمونه، كقوله تعالى: ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ في سورة لقمان (11) ، أي أن كتب الذكر أي الكتب الدينية في متناول الناس فانظروا هل تجدون في أحد منها أن لله شركاء وأن الله أذن باتخاذهم آلهة.

وإضافة ﴿ ذِكر ﴾ إلى ﴿ مَن معي ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله وهم المذكَّرون بفتح الكاف.

والمعية في قوله تعالى ﴿ مَن معي ﴾ معيَّة المتابعة، أي مَن معي من المسلمين، فما صْدق (مَن) الموصولة الأمم، أي هذا ذكر الأمة التي هي معي، أي الذكر المنزل لأجلكم.

فالإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله تعالى: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء: 10].

والمراد بقوله تعالى: ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ القرآن، وأما قوله تعالى: ﴿ وذكر من قبلي ﴾ فمعناه ذكر الأمم الذين هم قبلي يشمل جميع الكتب السالفة المعروفة: التوراة والزبور والإنجيل وكتاب لقمان.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط في ﴾ [آل عمران: 18].

وأضرب عن الاستدلال بأنه استدلال مضيع فيهم بقوله تعالى : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ ، أي لا ترجَ منهم اعترافاً ببطلان شركهم من دليل العقل المتقدم ولا من دليل شهادة الشرائع المذكور ثانياً ، فإن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يكتسبون عِلمه .

والمراد بكونهم لا يعلمون الحق أنهم لا يتطلبون علمه كما دلت عليه قرينة التفريع عليه بقوله تعالى ﴿ فهم معرضون ﴾ ، أي معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها .

وإنما أسند هذا الحكم إلى أكثرهم لا لجميعهم تسجيلاً عليهم بأن قليلاً منهم يعلمون الحق ويجحدونه ، أو إيماء إلى أن قليلاً منهم تهيّأت نفوسهم لقبول الحقّ .

(93/508)

وتلك هي الحالة التي تعرض للنفس عند هبوب نسمات التوفيق عليها مثل ما عرض لعمر بن الخطاب حين وجد اللوح عند أخته مكتوباً فيه سورة طه فأقبل على قراءته بشَرَاشِره فما أتمها حتى عزم على الإسلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(94/508)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

أي : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق ؟ ألهم آلهة غيري وأنا خالق السماء والأرض ، وهي لي بمَنْ فيها من الإنس والجن والملائك ؟ فالجميع عَبْد لي يُسبِّح بحمدي ، فما الذي أعجبهم في غيري فأعرضوا عني ، وانصرفوا إليه ؟ أهو أحسن مني ، أو أقرب إليهم مني ؟ كأن الحق - تبارك وتعالى - يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذي له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادي والنِّعَم .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 21] أي : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم . وشيء من هذا كله لم يحدث ؛ لأنه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا . . . ﴾ .

فمَع انصرافكم عن الإله الحق الذي له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . . ﴾ [الأنبياء : 22] أي : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض ﴿ لَفَسَدَتَا . . . ﴾ [الأنبياء : 22] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شيء من خَلْق الله .

ومعنى ﴿ إِلَّا اللَّهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 22] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو

المجيء، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . . ﴾ [الأنبياء: 22] يعني: لو كان هناك آلهة، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض.

إذن: ما الحال لو قلنا: لو كان هناك آلهة والله معهم؟ معنى ذلك أنها لا تفسد. فإلا إنْ حققت وجود الله، فلم تمنع الشّركة مع الله، وليس هذا مقصود الآية، فالآية تقرر أنه لا إله غيره.

(95/508)

إذن: (إلا) هنا ليست أداة استثناء. إنما هي اسم بمعنى (غير) كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ . . . ﴾ [هود: 36].

فالمعنى: لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لفسدتا، فامتنع أن يكون هناك شريك.

وهناك آية أخرى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 42].

الحق - سبحانه وتعالى - يعطينا القسمة العقلية في القرآن: فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً . . ﴾ [الإسراء: 42] أي: لو حدث هذا ﴿ لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: 42].

السبيل : الطريق ، أي طلبوا طريقاً إلى ذي العرش أي : إلى الله ، لماذا ؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة في ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقي هو الذي خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لَسلَبها هذه القدرة ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] .

وقوله : ﴿ مَا اتخذ الله مِن ولَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . ﴾ [المؤمنون : 91] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

(96/508)

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهي تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهي - إذن - اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا الله) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذي ظهر على لفظ الجلالة (الله) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ؟

قالوا : لأنك في هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستوية في صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا ؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شيء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لي . ويقول الآخر : هذه لي ، فقد علا بعضهم على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق - سبحانه وتعالى - يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلي هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل .

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيرُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله . ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : ﴿ أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى ربِّهِمُ الوسيلة أيُّهُمْ أَقْرَبُ . . ﴾ [الإسراء : 57] .

إن هؤلاء الذين تدعُونهم مع الله يطلبون إليه وسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة ؟

ثم يقول تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش . . . ﴾ [الأنبياء: 22] أي: تنزيهاً لله عَمَّا قال هؤلاء: ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 22] أي: يُلحِدون ويكذبون ويفترون.

(97/508)

والعرش: هو السرير الذي يجلس عليه الملك، وهو علامة المُلْك والسيطرة، كما في قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: 23] فحين يقول سبحانه ﴿ رَبِّ العرش ﴾ [الأنبياء: 22] ينصرف إلى عرشه تعالى، الذي لا يعلو عليه، ولا ينازعه عَرْش آخر. ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه:

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) ﴾

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل؛ لأن السائل له مراتب مع المسئول، والعادة أن يكون المسئول في مرتبة أَدْنى من السائل؛ لذلك لا احدَ يسأل الله تعالى عَمَّا يفعل، أمّا هو سبحانه فيسأل الناس.

لذلك قال بعض الظرفاء: الدليل على أن الله لا شريك له، خَلْقه لفلان، لأنه له كان له شريك كان عارضه في هذه المسألة.

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ . . . ﴾ .

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صِدْقها ، كما أن الله تعالى - وهو الإله الحق - أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن ؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهي آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ يُجابهوا الحقائق ويدافعوا عن أنفسهم ؟ إذن : هم ضعفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 24] أي : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذي أوجدتُ ؟ هل أرسل رسولاً بآية ؟

إذن : هذا كلام كذب وافتراء واختلاق من عند أنفسكم ؛ لأنكم لستم أهلَ علم في شيء ، ولا يعني هذا عدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعرِضون عن سماعه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 24] .

كأن للحق سمات يعلم بها ، فمَنْ أقبل على معرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعرض عن المعرفة ، فمن أين له أنْ يعرف ؟ إذن : فالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(99/508)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ قال : يحيون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ يقول : ينشرون الموتى من الأرض ، يقول : يحيونهم من قبورهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ يعني مما اتخذوا من الحجارة والخشب . وفي قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ قال : لو كان معهما آلهة إلا الله ﴿ لفسدتا فسبحان الله رب العرش ﴾ يسبح نفسه تبارك وتعالى إذا قيل عليه البهتان .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ قال : بعباده ﴿ وهم يسألون ﴾ قال : عن أعمالهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ قال : لا يسأل الخلاق عما يقضي في خلقه ، والخلق مسؤولون عن أعمالهم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن ابن عباس قال : ما في الأرض قوم أبغض إليّ من القدرية ، وما ذلك إلا لأنهم لا يعلمون قدرة الله تعالى . قال الله : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في بعض ما أنزل الله في الكتب : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، قدرت الخير والشر فطوبى لمن قدرت على يده الخير ويسّرْتُه له ، وويل لمن قدرت على يده الشر ويسرته له . . إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أُسْأَل عما أفعل وهم يسألون ، فويل لمن قال وكيف " .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ميمون بن مهران قال: لما بعث الله موسى وكلمه وأنزل عليه التوراة قال: اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تطاع لأطِعْت، ولو شئت أن لا تُعْصَى ما عُصِيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى! فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: "إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون".

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن نوف البكالي قال: قال عزير فيما يناجي ربه: "يا رب، تخلق خلقاً ﴿ تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ [الأعراف: 155] فقال له: يا عزير، أعرض عن هذا. فأعاد، فقيل له: لتعرضن عن هذا وإلا محوتك من النبوّة، إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون".

وأخرج البيهقي عن داود بن أبي هند، أن عزيراً سأل ربه عن القدر فقال: سألتني عن علمي، عقوبتك أن لا أسميك في الأنبياء.

وأخرج الطبراني من طريق ميمون بن مهران، عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة قال: اللهم إنك رب عظيم ولو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت أن لا تُعْصى ما عُصِيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى، فكيف يا رب!؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. فانتهى موسى.

فلما بعث الله عزيراً وأنزل عليه التوراة بعد ما كان رفعها عن بني إسرائيل، حتى قال: من قال: إنه ابن الله؟ قال: اللهم إنك رب عظيم، ولو شئت أن تطاع لأُطِعْت، ولو شئت أن لا تُعْصى ما عُصِيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى، فكيف يا رب!؟ فأوحى الله أني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. فأبت نفسه حتى سأل أيضاً فقال: أتستطيع أن تصرّ صرة من الشمس؟ قال: لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال: لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور؟ قال: لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بقيراط من نور؟ قال: لا. قال: فهكذا إن لا تقدر على الذي سألت إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، أما أني لا أجعل عقوبتك إلا أن أمحوا اسمك من الأنبياء فلا تذكر فيهم. فمحي اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم وهو نبي.

فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته من ربه وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، قال: اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تُطاع لأطِعْت، ولو شئت أن لا تعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى! فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، وأنت عبدي ورسولي

وكلمتي ألقيتك إلى مريم وروح مني ، خلقتك من تراب ثم قلت لك كن فكنت ، لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك . . . إني لا أسال عما أفعل وهم يسألون . فجمع عيسى من تبعه وقال : القدر سرّ الله فلا تكلفوه .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾

(102/508)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ﴾ يقول : هاتوا بينتكم على ما تقولون ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ يقول : هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يقول : فيه ذكر أعمال الأمم السالفة وما صنع الله بهم وإلى ما صاروا ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ عن كتاب الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ قال : أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد لله ، لا يقبل منهم حتى يقولوه ويقروا به ، والشرائع تختلف في التوراة شريعة وفي الإنجيل شريعة وفي القرآن شريعة ، حلال وحرام فهذا كله في الإخلاص لله وتوحيد الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(103/508)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ » .

لا يستحسرون : أي لا يملّون ، ولا يكلّون . .

لا يفترون : أي لا يتراخون ، ولا ينقطعون عن العبادة ، لحظة ، أو فترة .

والآية والآيات التي بعدها ، تكشف عن بعض سلطان اللّه ، وتحدث عن بعض ما له من قدرة قادرة على كل شىء ، ممسكة بكل شىء . .

فهو ـ سبحانه ـ المالك لمن فى السموات والأرض ، من عوالم . . من الذرة ، وما دون الذرة ، إلى الكواكب فى مساراتها ، والنجوم فى أفلاكها . . إلى الملائكة الذين هم عنده ، حافّين بالعرش . . وهو سبحانه المتصرف فى هذه الموجودات ، الموجه لها ، المقدّر لوضعها الذي تأخذه فى هذا الوجود .

وإذا كان هذا سلطان اللّه ، وتلك قدرته الآخذة بناصية كل شىء ، فإنه من غير المعقول أن يكون شىء من خلقه ذا سلطان معه ، أو خارجا عن سلطانه . .

والملائكة ، الذين هم عند اللّه بهذا المكان الرفيع ، لم تخرج بهم منزلتهم هذه عن أن يكونوا عبادا من عباد اللّه يدينون له بالولاء ويتقربون إليه بالعبادة :

« يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ » . . إنهم فى عبادة دائمة متطلة ، وذكر للّه لا يفترون عنه ! والسؤال هنا ، هو : إذا كان الملائكة على هذا الصفاء النورانى الذي خلقوا منه ، وعلى تلك العبادة الدائبة والطاعة الدائمة ، فلم هذا الخوف ؟ ولم تلك الخشيه ؟ كما يقول سبحانه : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » (13 : الرعد) والجواب على هذا ، هو أن الملائكة لقربهم من اللّه سبحانه وتعالى ، ولكمال معرفتهم بما له سبحانه وتعالى من جلال وكمال . هم أكثر عباد اللّه ولاء للّه ، وانقيادا له ، وفناء فيه . . فمن كان باللّه أعرف كان منه أخوف ، ومن كان إلى اللّه أقرب كان لجلاله وسلطانه أرهب . ! يقول اللّه سبحانه وتعالى :

« إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ » . . فالعلماء باللّه ، العارفون به ، هم أكثر الناس خشية له ، وولاء لذاته . . والملائكة يعلمون أكثر مما يعلم العالمون من جلال اللّه وسلطانه ، وعظمته . .

وقوله تعالى :

« أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ » هو تسفيه لعقول هؤلاء المشركين ، الذين يعبدون

مما على الأرض، من ناطق أو صامت، مثل أولئك الذين اتخذوا من البشر آلهة، أو من الأحجار أصناما ينحتونها ويعبدونها . . فهؤلاء أحمق عقولا، وأغلظ جهلا من أولئك الذين عبدوا الملائكة، وإن كان هؤلاء وأولئك جميعا فى ضلال مبين . .

فلا الملائكة المقربون، ولا الجن، ولا البشر، ولا الأحجار، ولا أي شىء مما خلق اللّه، مما يصح فى عقل عاقل أن يجعل له إلى اللّه نسبا، فضلا عن أن يجعله إلها مع اللّه، يشاركه التصريف والتدبير.

(105/508)

وفى قوله تعالى: «مِنَ الْأَرْضِ» إشارة إلى مدى الانحطاط العقلي، الذي وصل إليه أولئك الذين يعبدون ما على هذه الأرض من مخلوقات . . فهى من معدن هذا التراب الذي تدوسه الأقدام، فكيف يكون هذا التراب المشكّل فى أي صورة من الصور، إلها يعبد من دون اللّه، ويرجى منه ما يرجو المؤمنون باللّه، من اللّه رب العالمين؟.

وقوله تعالى: «هُمْ يُنْشِرُونَ» . . يمكن أن يكون استفهاما . . تقديره أهم ينشرون؟ أي أهؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من الأرض ينشرون الأموات ويبعثونهم من قبورهم، كما يفعل اللّه؟ والاستفهام هنا إنكارى . .

ويمكن أن يكون جملة خبرية، هى صفة للآلهة، وتكون الآية كلها مبنية على الاستفهام الإنكارى، ويدخل فيها إنكار الجملة الخبرية، كذلك . .

قوله تعالى:

«لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» .

هذه قضية، هى تعقيب على ما وجه به المشركون الذين يتخذون من عباد اللّه، فى السماء أو فى الأرض: آلهة، فإن ذلك سفه وجهل، وسوء تقدير لما ينبغى أن يكون للإله المعبود، من صفات الكمال والجلال المطلقين . .

وإذا كان الإله الذي يستحق العبادة موصوفا بصفات الكمال المطلق، فإن هذه الصفات - فى إطلاقها - لا تكون إلا لإله واحد، لا يشاركه أحد فيها، إذ لو شاركه غيره فيها، أو كان له مثلها، لما كان له الكمال المطلق، ولما كان له التفرد بالألوهية . . إذ الكمال المطلق صفة واحدة، ولا يتصف بها إلا موصوف واحد، هو اللّه سبحانه . .

ومن جهة أخرى . . فإن هذا الوجود، فى علوه وسفله، وفى سمائه وأرضه - لو قام عليه أكثر من ذى سلطان واحد مطلق، لما استقام أمره، ولما استقرّ نظامه، ولكان لكل ذى

سلطان أن يتصرف فيما له سلطان عليه ، ولذهب كل منهم مذهبا ، فمضى ذا مشرّقا ، ومضى ذاك مغرّبا . . وأخذ هذا يمينا ، وأخذ ذاك يسارا . . فيتصادم هذا الوجود ، وتتضارب الوجودات ، وينفرط عقدها ، وتتناثر أشلاؤها . .

فالإنسان مثلا ، وهو العالم الأصغر ، الذي يناظر العالم الأكبر . . يقوم على ملكة التفكير فيه ، عقل واحد . . ويقوم على تغذيته بالدم ـ الذي هو ملاك حياته ـ قلب واحد . . وتصوّر أن يكون لإنسان عقلان . . ماذا يكون حاله ؟ وكيف يكون مقامه فى عالم البشر ؟ إن لكل عقل مدركات ، وتصورات وتقديرات . . فبأى عقل يسير ؟ وبأى عقل يحكم على الأشياء ويتعامل معها ؟ إنه بهذين العقلين إنسانان لا إنسان واحد . .

إنه ذو شخصية مزدوجة ، تتصارع فيها العواطف والنوازع ، وتقتتل فيها الآمال والرغبات ، ثم لا يسكن هذا الصراع ، ولا ينتهى هذا القتال ، حتى يتحطم هذا الكائن العجيب ، الإنسان . . له رأسان ، أو عقلان . . !

وقل مثل هذا فى القلبين ، اللذين يفسد أحدهما عمل الآخر ، وينقض أحدهما ما بناه صاحبه . .

واللّه سبحانه وتعالى يقول : « ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » (4 : الأحزاب) .

وقل مثل هذا فى الجماعات البشرية . . إن كل جماعة يجب أن يكون على رأسها رأس واحد . . وإلّا فالتنازع والتصادم ، والفساد . . !

وقوله تعالى: «فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» ..

هو تنزيه للّه سبحانه عما يصفه به الواصفون، من صفات لا تخصّه بالكمال المطلق، بل تجعل له شريكا فيها، ويكون له بمقتضى ذلك سلطان مع سلطان اللّه، وعرش كعرش اللّه .. فاللّه سبحانه منزه عن أن يكون على تلك الصفة ..

(107/508)

إنه سبحانه الإله المتفرد بالخلق والأمر ..

قوله تعالى: «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ» ..

هو أيضا تنزيه للّه سبحانه وتعالى عن أن يكون كهذه الآلهة التي يعبدها هؤلاء الضالون .. فهذه الآلهة، هى من مخلوقات اللّه، وهى خاضعة لمشيئته فيها، يصرّفها كيف يشاء، ويحاسب العاقل منها على ما كان منه .. أما هو سبحانه، فلا يسأل عما يفعل .. إذ لا يسأله إلا من هو فوقه، وهو ـ سبحانه ـ فوق كل ذى فوق .. «يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ .. ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» (68: القصص).

قوله تعالى: «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً .. قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ .. هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي .. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ» ..

«أَمِ» هنا للإضراب، بمعنى بل . .

والمعنى: أنه مع هذه البديهيّات التي تقع فى متناول كلّ عقل، والتي تقضى بما لا يدع مجالا للشك، بأنه لا يمكن أن يكون لهذا الوجود إلا إله واحد، يقوم عليه، ويدبّر أمره.. مع هذا، فإن هؤلاء الضالين المشركين قد عموا عن هذه البديهيات، وقصرت أفهامهم عن إدراكها، وساغ لهم أن يعبدوا أكثر من إله، وأن يوزّعوا عقولهم وقلوبهم بين أرباب وأشباه أرباب، ولم يحاولوا أبدا أن يجيبوا على هذا السؤال: «أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (39: يوسف) . . كما لم يحاولوا أن يقيموا دليلا يقبله العقل، ويرتضيه المنطق لعبادة هذه الآلهة المتعددة! وفى قوله تعالى: «قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ» دعوة لهؤلاء المشركين أن يرجعوا إلى عقولهم، وأن يأتوا منها بالدليل والحجة على ما يعبدون من دون اللّه . .

(108/508)

«وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ» (117: المؤمنون) . .

وقوله تعالى: «هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي» . . هو إشارة إلى القرآن الكريم، الذي بين يدى الرسول، وهو برهانه على الإله الذي يعبده، ويدعو الناس إلى عبادته . . وهذا

القرآن كما هو حجة وبرهان للرسول الكريم، هو حجة وبرهان لهؤلاء المشركين الذين يدعوهم الرسول إلى الإيمان بالله، كما أنه حجة وبرهان على أهل الكتاب.. «هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي».. فمن مع الرسول هم هؤلاء المشركون.. والذين من قبله هم أهل الكتاب.. والقرآن الكريم حجة على هؤلاء وأولئك جميعا..

وقوله تعالى: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ.. فَهُمْ مُعْرِضُونَ».. هو اعتذار لكثير من هؤلاء المشركين، الذين عموا عن طريق الحق، فركبوا رءوسهم، وأبوا أن يستمعوا لداعى الحقّ، وأن يستجيبوا له.. ومن ثمّ، فإن الرسول قائم فيهم، لا يتخلى عن مكانه بينهم، ولا يمسك عن دعوتهم، وكشف معالم الطريق لهم، حتى يبصروا من عمى، ويهتدوا من ضلال..

وقد كان.. فما زال الرسول يغادى هؤلاء المشركين، ويراوحهم، بالحكمة والموعظة الحسنة، على مدى ثلاث وعشرين سنة، حتى استنارت بصائرهم، وتفتحت قلوبهم، وما كادت تختم الرسالة، وتنزل آخر آية من آياتها، حتى آمن هؤلاء المشركون، ودخلوا فى دين الله أفواجا.. وكان مختتم الرسالة قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» (3: المائدة). انتهى انتهى. اهـ ﴿التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 858. 863﴾

(109/508)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

قوله : ﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ : هذه " أم " المنقطعةُ ، فتتقدَّرُ ب بل التي لإِضراب الانتقال ، وبالهمزةِ التي معناها الإِنكار . و" اتَّخذ " يجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى صَنَع ، فتتعلَّقَ " مِن " به . وجوَّز الشيخُ أن يكونَ بمعنى صَيَّر التي في قوله : ﴿ واتخذ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء : 125] قال : " وفيه معنى الاصطفاءِ والاختيار " . و﴿ مِّنَ الأرض ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ بالاتخاذ كما تقدَّم ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها نعتٌ ل " آلهة " أي : مِنْ جنسِ الأرض .

قوله : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ صفةً لآلهة . وقرأ العامَّةُ " يُنْشِرون " بضمِّ حرفِ المضارعة مِنْ أُنْشَر . وقرأ الحسن بفتحها وضم الشين يُقال : أُنْشَر اللهُ الموتى فَنَشَروا ، ونَشَر يكون لازماً ومتعدياً .

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

قوله : ﴿ إِلاَّ الله ﴾ : " إلاَّ " هنا صفةٌ للنكرة قبلها بمعنى " غَيْر " . والإِعرابُ فيها متعذَّر ، فَجُعِل على ما بعدها . وللوصفِ بها شروطٌ منها : تنكيرُ الموصوفِ ، أو قُرْبُه من النكرة بأَنْ يكونَ معرفاً بأل الجنسية . ومنها أَنْ يكونَ جمعاً صريحاً كالآية ، أو ما في قوةِ

الجمعِ كقوله :

3334 لو كان غيري سُلَيْمى اليومَ غيَّره . . . وَقْعُ الحوادِثِ إلاَّ الصارمُ الذَّكَرُ

ف " إلاَّ الصارمُ " صفةٌ لغيري لأنه في معنى الجمع . ومنها أَنْ لا يُحْذَفَ موصوفُها عكسَ " غير " . وقد أَتْقَنَّا هذا كلَّه في " إيضاحِ السبيل إلى شرحِ التسهيل " فعليك به . وأنشد سيبويهِ على ذلك قولَ الشاعر :

3335 وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه . . . لَعَمْرُ أبيكَ إلاَّ الفرقدانِ

(110/508)

أي : وكلُّ أخٍ غيرُ الفرقدين مفارِقُه أخوه . وقد وقع الوصفُ ب إلاَّ كما وقع الاستثناء ب " غير " ، والأصلُ في " إلاَّ " الاستثناءُ وفي " غير " الصفةُ . ومن مُلَحِ كلامِ أبي القاسم الزمخشري : " واعلمْ أنَّ " إلاَّ " وغيرَ يتقارضان " .

ولا يجوزُ أَنْ ترتفعَ الجلالةُ على البدل مِنْ " آلهة " لفسادِ المعنى . قال الزمخشري : " فإن قلت : ما مَنَعك من الرفع على البدل؟ قلت : لأنَّ " لو " بمنزلةِ " إنْ " في أنَّ الكلامَ معها موجَبٌ ، والبدلُ لا يَسُوغ إلاَّ في الكلامِ غيرِ الموجبِ كقوله تعالى : { وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ

إِلاَّ امرأتك ﴾ [هود : 81] وذلك لأنَّ أعمَّ العامِّ يَصِحُّ نفيُه ولا يَصِحُّ إيجابُه " . فجعل المانعَ صناعياً مستنداً إلى ما ذُكِرِ مِنْ عدم صحةِ إيجاب أعمِّ العام .

(111/508)

وأحسنُ مِنْ هذا ما ذكره أبو البقاء مِنْ جهة المعنى فقال : " ولا يجوزُ أَنْ يكونَ بدلاً ، لأنَّ المعنى يصيرُ إلى قولك : لو كان فيهما اللهُ لَفَسَدَتا ، ألا ترى أنَّك لو قلت : " ما / جاءني قومُك إلاَّ زيدٌ " على البدلِ لكان المعنى : جاءني زيدٌ وحدَه . ثم ذكر الوجه الذي رَدَّ به الزمخشريُّ فقال : " وقيل : يمتنعُ البدلُ لأنَّ قبلها إيجاباً " . ومنع أبو البقاء النصبَ على الاستثناء لوجهين ، أحدُهما : أنه فاسدٌ في المعنى ، وذلك أنك إذا قلتَ : " لو جاءني القومُ إلاَّ زيداً لقتلتُهم " كان معناه : أنَّ القَتْلَ امتنع لكونِ زيدٍ مع القوم . فلو نُصِبَتْ في الآية لكان المعنى : إنَّ فسادَ السماواتِ والأرض امتنع لوجود الله تعالى مع الآلهة . وفي ذلك إثباتُ إلهٍ مع الله . وإذا رُفِعَتْ على الوصفِ لا يلزمُ مثلُ ذلك ؛ لأنَّ المعنى : لو كان فيهما غيرُ اللهِ لفسدتا . والوجهُ الثاني : أنَّ آلهة هنا نكرةٌ ، والجمعُ إذا كان نكرةً لم يُسْتَثْنَ منه عند جماعةٍ من المحققين ؛ إذ لا عمومَ له بحيث يدخلُ فيه المستثنى لولا الاستثناءُ " .

وهذا الوجهُ الذي منعاه أعني الزمخشري وأبا البقاء قد أجازه أبو العباس المبرد وغيره : أمَّا

المبردُ فإنه قال : " جاز البدل لأنَّما بعد " لو " غيرُ موجَبٍ في المعنى . والبدلُ في غير الواجبِ أحسنُ من الوصفِ . وفي هذه نظرٌ من جهة ما ذكره أبو البقاء من فسادِ المعنى . وقال ابنُ الضائعِ تابعاً للمبرد : لا يَصِحُّ المعنى عندي إلاَّ أن تكون " إلاَّ " في معنى " غير " التي يُراد بها البدلُ أي : لو كان فيهما آلهةٌ عِوَضَ واحدٍ أي بدل الواحد الذي هو الله لفسدتا . وهذا المعنى أرادَ سيبويه في المسألةِ التي جاء بها توطئةً .

(112/508)

وقال الشَّلَوْبين في مسألةِ سيبويه " لو كان معنا رجلٌ إلاَّ زيدٌ لَغَلَبْنا " : إنَّ المعنى : لو كانَ معنا رجلٌ مكانَ زيد لَغُلبنا ، ف " إلاَّ " بمعنى " غير " التي بمعنى مكان . وهذا أيضاً جنوحٌ من أبي عليّ إلى البدلِ . وما ذكره ابنُ الضائع من المعنى المتقدمِ مُسَوِّغٌ للبدل . وهو جوابٌ عَمَّا أَفْسَد به أبو البقاء وجهَ البدل ، إذ معناه واضحٌ ، ولكنه قريبٌ من تفسير المعنى لا من تفسيرِ الإِعراب .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

قوله : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾ : العامَّةُ على إضافة " ذِكْر " إلى " مَنْ " إضافةَ المصدرِ إلى

مفعولِه، كقوله تعالى: ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ [ص: 24]. وقُرِئ "ذِكْرٌ" بالتنوين فيهما، و"مَنْ" مفتوحة الميم، نُوِّنَ المصدرُ ونُصِبَ به المفعولُ كقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد: 14-15].

وقرأ يحيى بن يعمر "ذِكْرٌ" بتنوينه و"مِنْ" بكسر الميم، وفيه تأويلان، أحدُهما: أنَّ ثَمَّ موصوفاً محذوفاً قامَتْ صفتُه وهي الظرف مَقامَه. والتقدير: هذا ذِكْرٌ مِنْ كتاب معي، ومِنْ كتابٍ قبلي. والثاني: أنَّ "معي" بمعنى عندي. ودخولُ "مِنْ" على "مع" في الجملة نادرٌ؛ لأنها ظرفٌ لا يَتَصرَّف. وقد ضَعَّفَ أبو حاتم هذه القراءةَ، ولم يَرَ لدخول "مِنْ" على "مع" وجهاً.

وقرأ طلحةُ "ذِكْرٌ معي وذكرٌ قبلي" بتنوينهما دونَ "مِنْ" فيهما. وقرأَتْ طائفةٌ "ذكرُ مَنْ" بالإِضافة لـ "مَنْ" كالعامَّة، "وذكرٌ مِنْ قبلُ" بتنوينه وكسرِ ميم "مِنْ". ووجهها واضحٌ مِمَّا تقدم.

(113/508)

قوله: ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ العامَّةُ على نصب "الحق". وفيه وجهان، أظهرُهما: أنَّه مفعولٌ به بالفعلِ قبلَه. والثاني: أنه مصدرٌ مؤكِّد. قال الزمخشريُّ: "ويجوز أَنْ يكونَ

المنصوبُ أيضاً على التوكيدِ لمضمونِ الجملةِ السابقة ، كما تقول : " هذا عبدُ اللهِ الحقَّ لا الباطل " فأكَّدَ انتفاءَ العِلْم " .

وقرأ الحسن وابن محيصن وحميد برفع " الحق " . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه مبتدأٌ والخبرُ مضمرٌ . والثاني : أنه خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ . قال الزمخشري : " وقُرِىء " الحقُّ " بالرفعِ على توسيطِ التوكيد بين السببِ والمُسَبَّب . والمعنى : أن إعراضَهم بسببِ الجهلِ هو الحقُّ لا الباطلُ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 141 . 145﴾

(114/508)

لطيفة فى لو ولولا ولا ولن وليت واللت ولكنْ ولكنَّ

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لو)

وهى حرف شرط للماضى .

ويقلّ فى المستقبل .

وقال سيبويه : حرف لِمَا كان سيقع لوقوع غيره .

وقال غيره : حرف امتناعٍ لامتناع .

وقيل : لمجرّد الربط .

وقيل : الصحيح أنه فى الماضى لامتناع ما يليه ، واستلزام تاليه ، ثم ينتفى الثانى إن ناسب ولم يخلف المقدَّمَ غيره ، نحو : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ؛ لا إن خلفه ؛ نحو : لو كان إنسانا لكان حيوانا .

ويَثبت إن لم ينافِ وناسب بالأَولى ، كلولم يخف لم يعصِ ، أو المساوى : كلولم تكن ربيبته لَمَا حَلَّت للرضاع ، أو الأَدون ؛ كقولك : لو انتفت أُخوّة النّسب لما حلَّت للرضاع .

وترد للتمنِى والعَرْض ، والتقليل ، نحو : ولو بظِلْفٍ مُحْرقٍ .

وتكون مصدريّة بمنزلة أَن ، إلاَّ أَنها / لا تنصب ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ ﴾ .

وقد ورد بمعنى إنْ ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ، ولو جاء على فرس .

وقول الشاعر :

*قومٌ إذا حاربوا شدُّوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت بأطهار*

وقولنا : لو شرط للماضى معناه أَن لو يفيد عقد السببيّة والمسبّبية بين الجملتين بعدها ، وبهذا يجامع إنّ الشرطية ؛ وبتقييد الشرط بالماضى يفارق إنْ ، فإنها للمستقبل .

ومع تنصيص النحاة على قلة ورود لو للمستقبل فإِنهم أَوردوا لها أَمثلة ، منها قوله :

*ولو تلتقى أَصداؤنا بعد موتنا * ومن دون رَمْسينا من الأَرض سبسب*

*لظلَّ صَدَى صوتى وإِن كنت رِمّة * لصوت صدى ليلى يَهَش ويطرب*

وقول توبة ابن الحُمَيِّر :

(115/508)

---

*ولو أَنّ ليلى الأَخيليَّة سلَّمت * علىّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ*

*لسلَّمتُ تسليم البشاشة أَوزقا * إِليها صدًى من جانب القبر صائح*

وقول الآخر :

*لا يُلْفِكَ الراجوكَ

إِلاَّ مظهرا * خُلُقَ الكرام ولو تكون عديما *

وقد أَكثر الخائضون القول فى لو الامتناعية .

وعبارة سيبويه مقتضِية أَن التالى فيها كان بتقدير وقوع المقدّم قريب الوقوع ؛ لإِتيانه بالسين فى قوله : سيقع .

وأَمَّا عبارة المعربين : أَنها حرف امتناع لامتناع فقد ردّها جماعة من مشايخنا المحقِّقين ،

قالوا : دعوى دلالتها على الامتناع مطلقا منقوضة بما لا قِبَل به .

ثم نقضوا بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ، قالوا : فلو كانت حرف امتناع لامتناع لزم نفاد الكلمات مع عدم كون كل ما فى الأرض من شجرة أقلاما تكتب الكلماتِ ، وكون البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وكون السبعة الأبحر مملوءات مِدَاداً وهى تَمُد ذلك البحْر ؛ وقول عُمَر رضى الله عنه : نعم العبد صُهَيب لو لم يخف الله لم يعصه .

قالوا .

فيلزم ثبوت المعصية مع ثبوت الخوف ، وهو عكس المراد .

ثم اضطربت عباراتهم .

وكان أقربها إلى التحقيق كلام شيخنا أبى الحسن بن عبد الكافى ، فإنه قال : تتبّعت مواقع (لو) من الكتاب العزيز ، والكلام الفصيح ، فوجدت المستمرّ فيها انتفاءَ الأوّل وكون وجوده لو فرض مستلزماً لوجود الثانى .

وأمّا الثانى فإن كان الترتيب بينه وبين الأوّل مناسباً ولم يخلُف الأوّل غيره فالثانى منتف فى هذه الصورة ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، وكقول القائل : لو جئتنى لأكرمتك .

لكن المقصود الأَعظم فى المثال الأَوّل نفى الشرط ردًّا على من ادّعاه ، وفى المثال الثانى أَن الموجب لانتفاء الثانى هو انتفاء الأَوّل لا غير .

(116/508)

وإِن لم يكن الترتيب بين الأَول والثانى مناسباً لم يدلَّ على انتفاء الثانى ، بل على وجوده من باب الأَولى ، مثل : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، فإِن المعصية منفيَّة عند عدم الخوف .

فعند الخوف أَولى وإِن كان الترتيب مناسباً ولكن الأَول عند انتفائه شىء آخر يخلفه بما / يقتضى وجود الثانى [فالثانى غير منتفٍ] ، كقولنا : لو كان إِنساناً لكان حيوانا ؛ فإِنه عند انتفاءِ الإِنسانية قد يخلفها غيرها مِمَّا يقتضى وجود الحيوانيّة .

وهذا ميزان مستقيم مطَّرد حيث وردت لو وفيها معنى الامتناع .

وقال بعض العصريِّين ممن يودّ تصحيح عبارة سيبويه وترجيحها : مدلول لو الشرطيّة امتناع التالى لامتناع المقدّم مطلقاً .

وهذا هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَاكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ ، فالمعنى والله أَعلم – ولكن حق القول فلم أَشأ ، أَولم أَشأ فحقّ القول :

﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَاكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ ، أي فلم يريكموهم لذلك .

(117/508)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَاكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَاكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَاكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَاكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَاكِن لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَاكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ

(118/508)

وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ وَلَاكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَاكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ ، ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَاكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَاكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَاكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلاَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَاكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وغير ذلك من الآيات .

وفى الحديث : "لو كنت متَّخذا [من أُمّتى خليلا] لاتَّخذت أَبا بكر خليلاً ، ولكن أَخى وصاحبى" .

وفى رواية : ولكن أُخوّة الإِسلام ، "ولو يُعطَى الناسُ بدعواهم لادّعى رجال دماءَ قومٍ وأَموالهم ، لكن البيِّنة على المدّعِى واليمينُ على مَن أَنكر" .

وقال امرؤ القيس :

*ولو أَنَّما أَسعَى لأَدنى معيشة * كفانى ولم أَطلب قليلٌ من المال*

*ولكنّما أَسعى لمجد مؤثَّل * وقد يدرك المجدَ المؤثَّل أَمثالى*

وقال طرفة بن العبد :

*فلو كان مولاى امرأً هو غيرُه * لفرّج كربى أَو لأَنظرنى غدى*

ولكنّ مولاى امرؤ هو خانقى * على الشكر والتسآل أَو أنا مفتدِ *

وقال قُريط بن أُنيف

العنبرىّ :

(119/508)

---

*لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح إِبلى * بنو اللّقيطة من ذُهل بن شيبانا *

*لكنّ قومى وإِن كانوا ذوى عَدَدٍ * ليسوا من الشرّ فى شىءٍ وإِن هانا *

هكذا وقع فى جمهور نسخ الحماسة .

والصواب : بنو الشقيقة .

والنسخ / محرّفة .

وقال آخر :

*رأَين فتى لا صيدُ وحش يهمّه * فلو صافحت إِنسا لصافحنه معا *

*ولكنّ أَرباب المخاض يشفّهم * إِذا اقتفروه واحدا أَو مشيّعا *

وقال آخر :

*ولو خفت أَنى إِن كففت تحيتى * تنكّبت عنى رُمْت أَن تتنكبا *

*ولكن إِذا ما حل كَّرهٌ فسامحت * به النفس يوما كان للكره أَذهبا *

وقال آخر :

*فلو كان حمدٌ يُخلد الناسَ لم تَمُتْ * ولكنّ حمد الناس ليس بمُخْلِدِ *

فهذه الأَماكن وأَمثالها صريحة فى أَنها للامتناع ، لأَنها عُقِّبت بحرف الاستدراك داخلاً على فعل الشرط منفيًّا لفظاً أَو معنى ، فهى بمنزلة : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَاكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ .

فإِذا كانت دالّة على الامتناع ويصحّ تعقيبها بحرف الاستدراك دلّ على أَن ذلك عامّ فى جميع مواردها ، وإِلاَّ يلزم الاشتراك ، وعدم صحّة تعقيبها بالاستدراك .

وذلك ظاهر كلام سيبويه ، فلم يخرج عنه .

وأَمّا قول مَن قال : إِنه ينتقض كونه للامتناع بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية ، وبالأَثر العُمَرىّ : لو لم يخف ، وبقول النبى صلّى الله عليه وسلّم : "لو لم تكن ربيبتى فى حجرى لما حلّت لى" فإِنه يمكن ردّ جميع ذلك إِلى الامتناع .

وإِيضاح ذلك بأَن نقول : إِذا قلنا : امتنع طلوع الشمس لوجود الليل فليس معناه انتفاءُ طلوع الشمس رأْساً بل انتفاؤه لوجود الليل .

وفَرْق بين انتفائه لذلك وانتفائه المطلق ، فإن الأَوّل أَخصّ من الثانى .

ولا يلزم من ارتفاع الخاص ارتفاع العام .

فاذا قلنا : لو حرف امتناع لامتناع كان المعنىّ به أَن التالى يمتنع امتناعاً مضافاً إِلى امتناع المقدَّم .

وليس المعنىّ به أَنه يمتنع مطلقا .

وإِذا قلت

(120/508)

فيمن قيل لك انتقض وضوءُه لأَنه مسّ ذكره : لم ينتقض لأَنه مسّ ، فإِنه لم يمسّ ، ولكن لناقض آخر غير المسّ ، صحّ ؛ ولذلك لك أَن تقول : لم ينتقض لأَنه لم يمسّ .

كلّ هذا كلام صحيح ، وإِن كان وضوءه منتقِضاً عندك بناقض آخر ؛ فإِن حاصل كلامك أَن الانتقاض بالنسبة إِلى المسّ لم يحصل ، ولا يلزم من ذلك انتفاء أَصل الانتقاض ، فإِنما يلزم مطلقاً الامتناع فى لو الشرطية لو قلنا : إِن مقتضاه الامتناع مطلقا ، ونحن لم نقل ذلك ، وإِنما قلنا : يقتضى امتناعاً منكَّرًا لامتناع منكَّر ، فالمنفىّ خاصّ لا عامّ .

إِذا عرفت هذا فنقول : قد يؤتى بلَوْ مسلَّطة على ما يحسب العقل كونه إِذا وُجد مقتضِياً

لوجود شىء آخر ، مرادًا بها أَن ذلك لا يلزم تحقيقا لاستحالة وجود ذلك الشىء الآخر الذى ظُنَّ أَنه يوجد عند وجود ما يحسبُه العقل مقتضِيا ؛ كما تقول لعابد الشمس : لو عبدتها أَلف سنة ما أَغنت عنك من الله شيئًا ، فإِن مرادك أَن عبادتها لا تغنى .

وفى الحقيقة الازدياد من عبادتها ازدياد من عدم الإِغناء ، ولكن لمَّا كان الكلام خطابا لمن يعتقدها مغنِية حسن إِخراجه فى هذا القالَب .

وكذلك تقول للسائل إِذا أَحكمت أَمر منعه : لو تضرعت إِلىّ بأَلف شفيع ما قضيتُ لك سُؤلا .

ولذلك إِذا [كان] بصيغة إِن الشرطيّة لم يكن له مفهوم عند المعترفين بمفهوم الشرط ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، لأَن المراد قطع الإِياس .

والإِتيان بصيغة لو فيما ضَرَبناه مَثَلا لتحقُّق الامتناع لا لمقابله .

وأَمّا ما أَوردوه نقضاً ، وأَنه يلزم نفاد الكلمات عند انتفاء كون ما فى الأَرض من شجرة أَقلاما ، وهو الواقع ؛ فيلزم النَفَاد وهو مستحيل ؛ فالجواب أَن النَفَاد إِنما يلزم انتفاؤه لو كان المقدّم ممَّا لا يتصور العقل أَنه مقتضٍ للانتفاء .

أَما إِذا كان مِمَّا قد يتصوّره العقل مقتضياً فألَّا يلزم عند انتفائه أَولى وأَحرى .

وهذا لأَن الحكم إِذا كان لا يوجد مع وجود المقتضِى فأَلَّا يوجد عند انتفائه أَولى .

فمعنى (لو) فى الآية أَنه لو وجد الحكم المقتضِى لما وُجد الحكم ، لكن لم يوجد فكيف يوجد .

وليس المعنى : لكن لم يوجد فوجد ؛ لِامتناع وجود الحكم بلا مقتضٍ .

فالحاصل أَن ثمّ أَمرين : أَحدهما : امتناع الحكم لامتناع المقتضِى .

وهو مقرر فى بدائه العقول ؛ وثانيهما : وجوده عند وجوده ، وهو الذى أَتت (لو) للتنبيه على انتفائه مبالغة فى الامتناع .

فلولا تمكُّنها فى الدلالة على الامتناع مطلقا لما أُتى بها .

فمن زعم أَنها والحالة هذه لا تدل عليه فقد عكس ما يقصده العرب بها ، فإِنها إِنما تأْتى بلو هنا للمبالغة فى الدلالة على الانتفاء ؛ لما للو من التمكُّن فى الامتناع .

فإِذا تبين هذا أَنقله إِلى الأَثر وغيره ، فنقول : لو لم يخف الله لم يعصه لِمَا عنده من إِجلال الله تعالى والخشية ، وإِذا لم يخف يكون المانع واحدا وهو الإِجلال .

فالمعصية منتفية على التقديرين ، وجئ بلو تنبيها على الامتناع بالطريقة التى قدَّمناها لا على مطلق الامتناع .

فإِن قلت : قوله لو لم يخف لم يعص إِذا جعلنا لو للامتناع صريح فى وجود المعصية ، مستندا

إلى وجود الخوف ، وهذا لا يقبله العقل .

قلنا : المعنى : لو انتفى خوفه انتفى عصيانه ، لكن لم ينتف خوفه فلم ينتف عصيانه مستنداً إلى أمر وراءَ الخوف .

وأَما قوله : ترد للتمنِّى فشاهده قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ ، أَى فليت لنا كرّة ؛ ولهذا نصب (فيَكُونَ) فى جوابها ، كما انتصب (فأَفُوزَ) فى جواب كنت فى قوله تعالى :

﴿ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

وأَما العَرْض فمثاله : لو تنزل عندنا فتصيب خيرًا .

(122/508)

وأَما التقليل فذكره بعض النحاة ؛ وكثر استعمال الفقهاء له ، وشاهده قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "أَوْلِم ولو بشاة" ، وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "اتَّقوا النار ولو بشِق تمرة" ، وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "التمِس ولو خاتما من حديد" ، وقوله صلَّى الله عليه وسلَم : "تصدَّقوا ولو بظِلف مُحْرَق" .

وقد يُسأَل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا ﴾ ،

ويقال : إِن الجملتين يَتَركَّب منهما قياس وحينئذ ينتج : لو علم الله فيهم لتولَّوْا وهذا مستحيل .

الجواب أَن التقدير : لأَسمعهم إِسماعاً نافعا ، ولو أَسمعهم إِسماعا غير نافع لتولَّوْا .

جواب ثان : أَن يقدّر ولو أَسمعهم على تقدير عدم علم الخير فيهم .

جواب ثالث : أَن التقدير : ولو علم الله فيهم خيرًا وقتاما لتولَّوا بعد ذلك .

قال الشيخ أَثِير الدين : وقد ركَّب أَبو العبَّاس بن مرَسُح ما دخلت عليه لو تركيباً غريباً غير عربىّ فقال :

*ولو كلَّما / كلب عوى مِلْتُ نحوَه * أَجاوبه إِنّ الكلاب كثير*

*ولكن مبالاتى بمن صاح أَو عَوى * قليل فإِنّى بالكلاب بصير*

(بصيرة فى لولا)

وهى على أَربعة أَوجه :

أَحدها : أَن يدخل على اسمية ففعليّة لربط امتناع الثانية بوجود الأَولى ، نحو : لولا زيد لأَكرمتك ، أَى لولا زيد موجود .

وأَمَّا قوله صلَّى الله عليه وسلم : "لولا أَن أَشُقّ على أُمَّتى لأَمرتهم بالسواك عند كل صلاة" ، فالتقدير : لولا مخافة أَن أَشق لأَمرتهم أَمر إِيجاب ، وإِلاَّ لا نعكس معناها ؛ إِذ الممتنع

المشقَّة والموجود الأَمر .

والمرفوع بعد لولا مبتدأ ، والخبر يكون كوناً مطلقا .

(123/508)

الثانى : يكون للتحضيض والعَرْض ، فيختص بالمضارع أَو ما فى تأْويله ؛ نحو : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ونحو : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ والفرق بينهما أَن التحضيض طلب بحثّ ، والعَرْض طلب برفع وتأَدّب .

الثالث : أَن تكون للتوبيخ والتنديم ، فتختصّ بالماضى ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ لَّوْلَا جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ ، ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ ، ومنه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ﴾ ، الاَّ أَن الفعل أُخّر ، وقوله :

*تعدُّون عَقْرَ النِّيب أَفضل مجدكم * بنى ضَوْطَرَى لولا الكِمىَّ المقنَّعا *

إِلاَّ أَن الفعل أضمر ، أَى لولا عددتم .

وقد فُصلت من الفعل بإذا وإِذا معمولين له ، وبجملة شرط معترضة .

فالأَول نحو : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ﴾ ، ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ ، والثانى والثالث : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ ﴾ ، المعنى : فهلاَّ ترجعون الروح إِذا بلغت الحلقوم إِن كنتم غير مربوبين وحالتكم أَنكم تشاهدون ذلك.

ولولا الثانية تكرار للأُولى.

الرابع : الاستفهام ؛ نحو : ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ هكذا مثَّلوا.

والظاهر أَن الأُولى للعَرْض ، والثانية مثل : ﴿ لَّوْلَا جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ .

(124/508)

وذكر بعضهم قسماً خامساً وهو : أَنها تكون نافية بمعنى لَمْ ، وجعل منه : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ ، والظاهر أَن المعنى على التوبيخ ، أَى فهلاّ كانت قرية واحدة من القرى المهلَكة تابت عن الكفر قبل مجئ العذاب فنفعها ذلك ؛ وهو تفسير الأَخفش والكسائىّ والفرّاء وعلى بن عيسى والنحاس.

ويؤيده قراءَة أُبَى وعبدالله : (فهَلاَّ) ، ويلزم من هذا المعنى النفى ؛ لأَن التوبيخ يقتضى عدم الوقوع.

وذكر الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ : لكنه جئ بلولا

ليفاد أَنهم لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع ، إِلاَّ عنادهم وقسوة قلوبهم وإِعجابهم بأَعمالهم التى زيَّنها الشيطان لهم .

وقول القائل :

*أَلا زعمت أَسماءُ أَن لا أحبّها * فقلتُ بَلى لولا ينازعنى شُغلى*

قيل : إِنها الامتناعية ، والفعل بعدها على إِضمار أَن ، على حدّ قولهم : تسمعُ بالمُعَيدِىّ خير من أَن تراه .

وقيل : ليس من أَقسام لولا ، قيل : هما كلمتان بمنزلة قولك : لو لم ، والجواب محذوف ، أَى لولم ينازعنى شغلى لزرتك .

و(لَوْما) بمعنى لولا تقول : لوما زيد لأَكرمتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ﴾ : وزعم بعضهم أَن لوما لا يستعمل إِلا للتحضيض .

والله أَعلم .

(بصيرة فى لا)

/ وهى على ثلاثة أَوجه : نافية ، وموضوعة لطلب الترك ، وزائدة .

فأَمَّا النافية فعلى خمسة أَوجه :

أَحدها : أَن تكون عاملة عمل إِنَّ .

وإِنما يظهر نصب اسمها إِذا كان خافضا ، نحو : لا صاحب جود ممقوت ، وقول المتنبِّى :

*فلا ثوب مجدٍ غيرَ ثوب ابن أَحمد * على أَحدٍ إِلاَّ بلؤم مرقَّع*

أَو رافعاً ، نحو : لا حَسَنًا فعلُه مذموم ؛ أَو ناصباً ، نحو : لا طالعاً جبلاً حاضر ومنه لا خيرًا من زيد عندنا ، وقول المتنبّى :

*قِفا قليلا بها علىّ فلا * أَقلَّ من نظرة أَزوّدها *

(125/508)

والثانى : العاملة عمل ليس ، فمثّلوا بقوله :

*مَن صَدّ عن نيرانها * فأَنا ابن قيس لا براحُ*

الوجه الثالث : أَن تكون عاطفة ، ولها ثلاثة شروط :

أَحدها : أَن يتقدّمها إِثبات ، نحو : جاءَ زيد لا عمرو ؛ أَو نداء ، نحو : يا ابن أَخى لا ابن عمِّى .

الثانى : أَلاَّ تقترن بعاطف .

الثالث : أَن يتعاند متعاطِفاها ، فلا يجوز جاءَنى رجل لا زيد ؛ لأَنه يصدق على زيد اسمُ الرّجل ، بخلاف جاءَنى رجل لا امرأَة .

قالوا : فإِن كان ما بعدها جملة اسميّة صدرُها معرفة أَو نكرة ولم تعمل فيها ، أَو فعلاً

ماضياً لفظاً أَو تقديرًا ، وجب تكرارها .

مثال المعرفة : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ ؛ ومثال النكرة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ ، والتكرار هنا واجب بخلاف : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ، ومثال الفعل الماضى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴾ ، وفى الحديث : "فإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرضا قَطَع ولا ظَهْراً أَبقى" .

الثانى من أَوجه لا : أَن تكون موضوعة لطلب الترك ، وتختص بالمضارع ؛ نحو : قوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ .

الوجه الثالث : لا الزَّائدة للتأْكيد ، نحو قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وتوضِّحه الآية الأخرى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ .

واختلف فى لا فى مواضع من التنزيل هل هى نافية أَو زائدة :

أَحدها : قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فقيل : نافية لما تقدّم منهم من إِنكار البعث .

وقيل : زائدة لمجرّد التوكيد وتقوية الكلام .

الموضع الثانى : قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، فقيل : لا النافية .

وقيل : ناهية ، وقيل : زائدة .

والجمع محتمل .

وحاصل القول فى الآية : أَن (ما) خبريَّة بمعنى الذى منصوبة بـ(أَتْلُ) ، (وحرَّمَ ربُّكُمْ) صلة ، (وعليكم) متعلق بـ(حرَّم) .

الموضع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيمن فَتَحَ الهمز ، فقال الخليل والفارسىّ : لا زائدة ، وإِلاَّ لكان عُذراً لهم أَى للكفَّار .

وردّه الزجَّاج بأَنَّها نافية فى قراءَة الكسر ، فيجب ذلك فى قراءَة الفتح .

وقيل : نافية وحُذف المعطوف ، أَى أَو أَنهم يؤمنون وقال الخليل مرّة : (أَنَّ) بمعنى لعل .

وهى لغة فيه .

الموضع الرابع : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وقيل : زائدة .

والمعنى : ممتنع على أَهل قرية قدَّرنا إِهلاكهم كفرهم أَنهم يرجعون عن الكفر إِلى القيامة .

وقيل : نافية ، والمعنى : ممتنع عليهم أَنهم لا يرجعون إِلى الآخرة .

الموضع الخامس : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا

عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَاكِن / كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ قرئ فى السبع برفع (يأمركم) ونصبه.

فمن رفعه قطعه عمَّا قبله، وفاعله ضميره تعالى، أو ضمير الرسول، و[لا] على هذه القراءة نافية لا غير.

ومن نصبه فهو معطوف على (يُؤتيه) وعلى هذا (لا) زائدة مؤكّدة لمعنى النفى.

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ قرأ جماعة (لَتُصِيبَنَّ)، وخُرِّج على حذف ألف (لا) تخفيفاً؛ كما قالوا: أَمَ والله.

(127/508)

وأمَّا (لا) فى قوله تعالى: ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فقيل: نافية، والتاء لتأنيث اللفظة، نحو: رُبَّت وثُمَّت، وحرّكت لالتقاء الساكنين.

وقيل نافية والتاء زائدة فى أوّل الحين.

وقيل: إنما هى كلمة واحدة، فعل ماض بمعنى نَقَص، من قوله تعالى: ﴿ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ فإنه يقال: لات يليت، كما يقال ألَت يألُت، وقد قرئ بهما.

وقيل: أَصلها لَيس على زنة أَيس، قُلبت الياءُ أَلفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، وأَبدلت

السين تاء .

واختلف فى عمله ، فقال الأَكثرون : يعمل عمل ليس ، وقيل : يعمل عمل إِنَّ : ينصب الاسم ويرفع الخبر ، وقيل : لا يعمل شيئاً .

فإِن وليها مرفوع فمبتدأ محذوف الخبر ، أَو منصوب فمعمول لفعل محذوف .

والتقدير فى الآية : لا أَرى حين مناص .

وعلى قراءَة الرفع التقدير : لا حينُ مناص كائن لهم .

وقرئ : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ بخفض (حين) ، فزعم الفرّاء أَن (لات) يستعمل حرفاً جارا لأَسماءِ الزمان خاصّة ؛ كما أَن مذْ ومُنْذ كذلك .

والله أَعلم .

(بصيرة فى لن وليت واللات)

لَنْ : حرف نصب ونفى واستقبال ، ولا يفيد توكيد المنفى ، ولا التأْبيد ، خلافا للزمخشرى ؛ ولو كانت للتأْبيد لم يقيّد منفيّها باليوم فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ﴾ ، ولكان ذكر الأَبد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبداً ﴾ تكرارًا ، والأَصل عدمه .

ويأْتى للدّعاءِ كقوله :

*لن يزالوا كذلكم ثم لا زلـ * ـت لهم خالدا خلود الجبال*

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

وتلقّى القسم بها وبلم نادر جدًا ، كقول أَبى طالب :

*والله لن يصلوا إِليك بجَمعهم * حتّى أُوسَّد فى التراب دَفينا *

وقد يُجزم بها ؛ كقوله :

* فلن يَحْلَ للعينين بعدكِ منظر *

وليت حرف تمنٍّ يتعلق بالمستحيل غالبا ؛ كقوله :

(128/508)

---

*فيا ليت الشّباب يَعود يوماً * فأخبره بما فعل المَشِيبُ*

ويتعلّق بالممكن قليلاً : ﴿ يالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ ، ﴿ يالَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ﴾ ، ﴿ يالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً ﴾ .

وحكمه أَن ينصب الاسم – ويرفع الخبر .

قيل : وقد ينصبهما كقوله :

* ياليت أَيام الصبا رواجعا *

واللاتُ والعُزَّى صنمان .

أَصل اللات : اللاه ، فحذفوا منه الهاء ، وأَدخلوا لتاءَ فيه ؛ فأَنَّثوه ؛ تنبيها على قصوره عن

الله تعالى.

وجعلوه مختصًا بما يُتقرّب به إلى الله فى زعمهم.

(بصيرة فى لكنْ ولكنَّ)

لكنّ - مشدّدة - : حرف، تنصب الاسم وترفع الخبر؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾، ونظائره كثيرة جدًّا.

ومعناه الاستدراك، وهو: أَن يُثبت لما بعدها حكما مخالفا لحكم ما قبلها ولذلك لا بدّ أَن يتقدّمها كلام مناقض لما بعدها.

وقيل: تارة للاستدراك، وتارة للتوكيد.

وقيل: للتوكيد دائماً مثل إِنّ، ويصحب التوكيد معنى الاستدراك.

وهى بسيطة عند البصريّين.

وقيل: أَصلها: لكِنْ إِنَّ/ فطُرحت الهمزة للتخفيف، ونون لكِنْ للساكنين.

وقيل: مركَّبة من: لا، والكاف الزائدة، ولا التشبيهيّة، وإِنَّ، حذفت الهمزة تخفيفاً.

وقد يحذف اسمها كقوله

*فلو كنت ضَبيًّا عرفتَ قرابتى * ولكنَّ زنجىٌّ عظيم المشافر*

لكنْ ساكنة النون حرف ابتداء لا يعمل، خلافاً لجماعة.

فإِن ولِيَها كلام فهى حرف ابتداء لمجرد الاستدراك، وليست عاطفة.

ويجوز أن يستعمل بالواو نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَاكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وبدونها نحو قول زهير

*إنّ ابنَ ورقاءَ لا تُخشى بوادره * لكنْ وقائعه فى الحرب تنتظر*

وإن وليها مفرد فهى عاطفة بشرط أن يتقدّمها نفى أو نهى ، نحو : ما قام زيد لكن عمرو . وقيل : لا يستعمل مع المفرد إلّا بالواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 467.447 ﴾

(129/508)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

تفرَّد الحقُّ بالإبداع والإيجاد ، وتقدّس عن الأمثال والأنداد ، فالذين يُعْبَدُون مِنْ دونه أمواتٌ غيرُ أحياءٍ . وهم بالضرورة يعرفون . . . أفلا يَعْتبرُون وألا يَزْدَجرُون ؟

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

أخبر أنّ كلَّ أمرٍ يُناط بجماعةٍ لا يجري على النظامِ ؛ إذ ينشأ بينهم النزاعُ والخلافُ . ولمَّا

كانت أمورُ العالَم في الترتيب مُنسَّقَة فقد دلَّ ذلك على أنها حاصلةٌ بتقديرِ مُدبّرٍ حكيم؛ فالسماءُ في علوِّها تدور على النظام أفلاكُها، وليس لها عُمُدٌ لإمساكها، والأرضُ مستقرةٌ بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها. والشمسُ لتقديرِ العزيزِ العليمِ علامةٌ، وعلى وحدانيته دلالةٌ.

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)

لِكَوْنِ الخلق له، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم؟

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

دلت الآيةُ على فسادِ القولِ بالتقليد، ووجوبِ إقامة الحجة والدليل.

ودلَّت الآية على توحيد المعبود، ودلت الآية على إثبات الكسب للعبيد؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللومُ والعَتْبُ. وكلُّ مَنْ علَّقَ قلبه بمخلوقٍ، أو تَوَهَّمَ من غير الله حصولَ شيءٍ فَقَد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإله مَنْ يصحُّ منه الإيجاد.

قوله: ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾: الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحق، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرد ونعت الوحدانية.

ثم قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إنما عدموا العلم لإعراضهم عن النظر ، ولو وضعوا النظر موضعه لوجَبَ لهم العلم لا محالة ، والأمر يدل على وجوب النظر ، وأنَّ العلومَ الدينية كلُّها كسبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 497 498. ﴾

(131/508)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير بياناً لما في الذكرين : ولو أقبلوا على الذكر لعلموا أنا أوحينا إليك في هذا الذكر أنه لا إله ألا أنا ، ما أرسلناك إلا لنوحي إليك ذلك ، عطف عليه قوله : ﴿ وما

أرسلنا ﴾ أي بعظمتنا .

ولما كان الإرسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم لأنه كما أن الرسالة لا يقوم بها كل أحد ، فكذلك الإرسال لا يصلح له كل زمن ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من رسول ﴾ في شيع الأولين ﴿ إلا نوحي إليه ﴾ من عندنا ﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ ولم يقل : نحن ، لئلا يجعلوها وسيلة إلى شبهة ، ولذا قال : ﴿ فاعبدون ﴾ بالإفراد ، وترك التصريح بالأمر بالتخصيص بالعبادة لفهمه من المقام والحال ، فإنهم كانوا قبل ذلك يعبدونه ولكنهم يشركون تنبيهاً على أن كل عبادة فيها شوب شرك عدم .

(132/508)

ولما دل على نفي مطلق الشريك عقلاً ونقلاً ، فانتفى بذلك كل فرد يطلق عليه هذا الاسم ، عجب من ادعائهم الشركة المقيدة بالولد ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ وأسروا النجوى ﴾ [طه : 62] : ﴿ وقالوا ﴾ قيل : الضمير لخزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : لليهود حيث قالوا : إنه سبحانه صاهر الجن فكانت منهم الملائكة : ﴿ اتخذ ﴾ أي تكلف كما يتكلف من يكون له ولد ﴿ الرحمن ﴾ أي الذي كل موجود من فيض نعمته ﴿ ولداً ﴾ .

ولما كان ذلك أعظم الذنب ، نزه نفسه سبحانه عنه بمجمع التنزيه فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن أن يكون له ولد ، فإن ذلك يقتضي المجانسة بينه وبين الولد ، ولا يصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقي ﴿ بل ﴾ الذي جعلوهم له ولداً وهم الملائكة ﴿ عباد ﴾ من عباده ، أنعم الله عليهم بالإيجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد ، فإن العبودية تنافي الولدية ﴿ مكرمون ﴾ بالعصمة من الزلل ، ولذلك فسر الإكرام بقوله : ﴿ لا يسبقونه ﴾ أي لا يسبقون إذنه ﴿ بالقول ﴾ أي بقولهم ، لأنهم لا يقولون شيئاً لم يأذن لهم فيه ويطلقه لهم .

ولما كان الواقف عما لم يؤذن له فيه قد لا يفعل ما أمر به قال : ﴿ وهم بأمره ﴾ أي خاصة إذا أمرهم ﴿ يعملون ﴾ لا بغيره لأنهم في غاية المراقبة له فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة ؛ ثم علل إخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه فقال : ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي مما لم يعملوه ﴿ وما خلفهم ﴾ مما عملوه ، أو يكون الأول لما عملوه والثاني لما لم يعلموه ، لأنك تطلع على ما قدامك ويخفى عليك ما خلفك ، أي أن علمه محيط بأحوالهم ماضياً وحالاً ومآلاً ، لا يخفى عليه خافية ؛ ثم صرح بلازم الجملة الأولى فقال : ﴿ ولا يشفعون ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ فلا تطمعوا في شفاعتهم لكم بغير رضاه ، وبلازم الجملة الثانية فقال : ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي لا من غيرها ﴿ مشفقون ﴾ أي دائماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 77 78. ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾

فاعلم أن يوحى ونوحى قراءتان مشهورتان ، وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزهاً عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم فقال : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [الصافات : 158] ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة

غير ما به الممايزة فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن ، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكناً غير واجب .

وذلك يخرجه عن حد الإلهية ويدخله في حد العبودية ، ولذلك نزه نفسه عنه .

أما قوله : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرىء :

﴿ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ ﴾ من سابقته فسبقته أسبقه .

والمعنى أنهم يتبعونه في قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله ، وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به .

(134/508)

ثم إنه سبحانه ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ والمعنى أنهم لما علموا كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات علموا كونه عالماً بظواهرهم وبواطنهم ، فكان ذلك داعياً لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية .

وذكر المفسرون فيه وجوهاً .

أحدها : قال ابن عباس : يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم .

وثانيها : ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك .

وثالثها : قال مقاتل : يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم .

وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم ، وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدي الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له .

ثم كشف عن هذا المعنى فقال : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ أي لمن هو عند الله مرضي : ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي من خشيتهم منه ، فأضيف المصدر إلى المفعول ومشفقون خائفون ولا يأمنون مكره وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله تعالى " ونظيره قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [النبأ : 38] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فإنا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء ، وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الصفات تدل على العبودية وتنافي الولادة لوجوه .

أحدها : أنهم لما بالغوا في الطاعة إلى حيث لا يقولون قولاً ولا يعملون عملاً إلا بأمره فهذه صفات للعبيد لا صفات الأولاد .

(135/508)

وثانيها : أنه سبحانه لما كان عالماً بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى وجب أن يكون الإله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هي نفس ما ذكره عيسى عليه السلام في قوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : 116] .

وثالثها : أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ومن يكن إلهاً أو ولداً للإله لا يكون كذلك .

ورابعها : أنهم على نهاية الإشفاق والوجل وذلك ليس إلا من صفات العبيد .

وخامسها : نبه تعالى بقوله : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ على أن حالهم حال سائر العبيد المكلفين في الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة .

المسألة الثانية :

احتجت المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ على أن الشفاعة في الآخرة لا تكون لأهل الكبائر لأنه لا يقال في أهل الكبائر إن الله يرتضيهم .

والجواب : قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك : ﴿ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ أي لمن قال لا

إله إلا الله .

واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر وتقريره هو أن من قال لا إله إلا الله فقد ارتضاه تعالى في ذلك ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه ، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما .

المسألة الثالثة :

هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أحدها : تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَهُمْ مّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ومن حيث الوعيد .

وثانيها : تدل أيضاً على أن الملائكة معصومون لأنه قال : ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وثالثها : قال القاضي عبد الجبار قوله : ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ يدل على أن كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على أنه تعالى لا يغفر لأهل

الكبائر في الآخرة .

والجواب : أقصى ما في الباب أن هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 137 . 139 ﴾

(137/508)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما ما بين أيديهم من أمر الآخرة ، وما خلفهم من أمر الدنيا ، قاله الكلبي .

الثاني : ما قدموا وما أخروا من عملهم ، قاله ابن عباس .

وفيه الثالث : ما قدموا : ما عملوا ، وما أخروا : يعني ما لم يعملوا ، قاله عطية .

﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا يستغفرون في الدنيا إلا لمن ارتضى .

الثاني : لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن ارتضى .

وفيه وجهان :

أحدهما : لمن ارتضى عمله ، قاله ابن عيسى .

الثاني : لمن رضي الله عنه ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(138/508)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) ﴾

لما أخبرهم تعالى أنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أتبع ذلك بإعلامهم أنه ما أرسل قط رسولاً إلا أوحى إليه أن الله تعالى فرد صمد ، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النبوات ، وإنما اختلفت في الأحكام . وقرأ حمزة والكسائي " نوحي " بنون مضمومة ، وقرأ الباقون " يوحى " بياء مضمومة . واختلف عن عاصم ثم عدد بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم وذلك أنهم مع اتخاذهم آلهة كانوا يقربون بالله تعالى هو الخالق الرازق إلا أنهم قال بعضهم اتخذ الملائكة بنات ، وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام ، واليهود في عزيز ، فجاءت هذه الآية رادة على جميعهم منبهة عليهم ، ثم نزه تعالى نفسه عن مقالة الكفرة وأضرب عن مقالهم ونص ما هو الأمر في نفسه بقوله ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وهذه عبارة

تشمل الملائكة وعزيزاً وعيسى . وقوله تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ عبارة عن حسن طاعتهم ومراعاتهم لامتثال الأمر ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما تقدم من أفعالهم وأعمالهم ، والحوادث التي لها إليهم تنسب وما تأخر ، ثم أخبر تعالى أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يشفع له ، قال بعض المفسرين لأهل لا إله إلا الله ، " والمشفق " البالغ في الخوف المحترق من الفزع على أمر ما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(139/508)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ مِنْ رسول إِلا نوحِي ﴾

قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "إِلا نوحي" بالنون ؛ والباقون بالياء .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتَّخَذ الرحمن ولداً ﴾ في القائلين لهذا قولان .

أحدهما : أنهم مشركو قريش ، قاله ابن عباس .

وقال ابن إِسحاق : القائل لهذا النضر بن الحارث .

والثاني : أنهم اليهود ، قالوا : إِن الله صاهر الجن فكانت منهم الملائكة ، قاله قتادة .

فعلى القولين، المراد بالولد : الملائكة، وكذلك المراد بقوله : ﴿ بل عباد مُكْرَمون ﴾ ،
والمعنى : بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم ، ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ ، أي : لا يتكلّمون إلا
بما يأمرهم به .

وقال ابن قتيبة : لا يقولون حتى يقول ، ثم يقولون عنه ، ولا يعملون حتى يأمرهم .

قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي : ما قدّموا من الأعمال ﴿ وما خَلْفَهم ﴾ ما هم
عاملون ، ﴿ ولا يشفعون ﴾ يوم القيامة ، وقيل : لا يستغفرون في الدنيا ﴿ إلا لِمَن ارتضى
﴾ أي : لِمَن رضي عنه ، ﴿ وهم مِنْ خشيته ﴾ أي : من خشيتهم منه ، فأضيف
المصدر إلى المفعول ، ﴿ مُشْفِقون ﴾ أي : خائفون .

وقال الحسن : يرتعدون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(140/508)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَى إِلَيْهِ ﴾ .

وقرأ حفص وحمزة والكسائي "نُوحِي إِلَيْهِ" بالنون ؛ لقوله : "أَرْسَلْنَا" .

﴿ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ أي قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فأدلة العقل شاهدة أنه لا

شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود ، والدليل إما معقول وإما منقول .

وقال قتادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد ، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن ، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً سُبْحَانَهُ ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً في شفاعتهم لهم .

وروى معمر عن قتادة قال : قالت اليهود قال معمر في روايته أو طوائف من الناس : خَاتَن إلى الجن والملائكة من الجن ، فقال الله عز وجل : "سبحانه" تنزيهاً له .

﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ أي بل هم عباد ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي ليس كما زعم هؤلاء الكفار .

ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل اتخذ عباداً مكرمين .

وأجازه الفراء على أن يرده على ولد ، أي بل لم نتخذهم ولداً ، بل اتخذناهم عباداً مكرمين .

والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولداً .

ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس ، كما يقال لفلان مال .

﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ أي لا يقولون حتى يقول ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بطاعته وأوامره .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي يعلم ما عملوا وما هم عاملون ؛ قاله ابن عباس .

وعنه أيضاً : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الدنيا ؛ ذكر الأول الثعلبي ، والثاني القشيري .

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله .

(141/508)

وقال مجاهد : هم كل من رضي الله عنه ، والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره ، وفي الدنيا أيضاً ؛ فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض ، كما نص عليه التنزيل على ما يأتي .

﴿ وَهُمْ ﴾ يعني الملائكة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ ﴾ يعني من خوفه ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون لا يأمنون مكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(142/508)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر انتفاء علمهم الحق وإعراضهم أخبر أنه ما أرسل ﴿ من رسول ﴾ إلاّ جاء مقرراً

لتوحيد الله وإفراده بالإلهية والأمر بالعبادة .

ولما كان ﴿ من رسول ﴾ عاماً لفظاً ومعنى ، أفرد على اللفظ في قوله إلّا يوحى إليه ثم جمع على المعنى في قوله ﴿ فاعبدون ﴾ ولم يأت التركيب فاعبدني ، ويحتمل أن يكون الأمر له ولأمته ، وهذه العقيدة من توحيد الله لم تختلف فيها النبوّات وإنما وقع الاختلاف في أشياء من الأحكام .

وقرأ الأخوان والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى والقطعي وابن غزوان عن أيوب وخلف وابن سعدان وابن عيسى وابن جرير ﴿ نوحي ﴾ بالنون وباقي السبعة بالياء وفتح الحاء ، واختلف عن عاصم .

ثم نزه تعالى نفسه عما نسبوا إليه من الولد .

قيل : ونزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وقالت النصارى نحو هذا في عيسى واليهود في عزير ثم أضرب تعالى عن نسبة الولد إليه فقال ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ ويشمل هذا اللفظ الملائكة وعزيراً والمسيح ، ويظهر من كلام الزمخشري أنه مخصوص بالملائكة قال : نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله نزه ذاته عن ذلك ، ثم أخبر عنهم بأنهم ﴿ عباد ﴾ والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم ﴿ مكرمون ﴾ مقربون عندي مفضلون على سائر العباد لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم ، فذلك هو الذي غرّ منهم من زعم أنهم أولادي تعاليت عن ذلك علواً كبيراً انتهى .

وقرأ عكرمة ﴿ مكرمون ﴾ بالتشديد والجمهور بالتخفيف، وقرأ ﴿ لا يسبِقونه ﴾ بكسر الباء.

وقرئ بضمها من سابقني فسبقته أسبقه، والمعنى أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله: فلا يسبق قولهم قوله.

وأل في بالقول نابت مناب الضمير على مذهب الكوفيين أي بقولهم وكذا قال الزمخشري: والمراد بقولهم فأنيبت اللام مناب الإضافة أو الضمير محذوف أي بالقول منهم، وذلك على مذهب البصريين.

﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ فكما أن قولهم تابع لقوله كذلك فعلهم مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وهذه عبارة عن توغلهم في طاعته والامتثال لأمره.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي ما تقدم من أفعالهم وأقوالهم، والحوادث التي لها إليهم تسبب وما تأخر وعلمه بذلك يجري مجرى السبب لطاعتهم لما علموه عالماً بجميع المعلومات وظواهرهم وبواطنهم كان ذلك داعياً لهم إلى نهاية الخضوع والدؤوب على العبادة.

قال ابن عباس : ﴿ يعلم ﴾ ما قدموا وما أخروا من أعمالهم .

وقال نحوه عمار بن ياسر ، قال : ما عملوا وما لم يعملوا بعد ، وقيل ﴿ ما بين أيديهم ﴾ الآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ الدنيا .

وقيل عكس ذلك .

وقيل ﴿ يعلم ﴾ ما كان قبل أن خلقهم وما كان بعد خلقهم .

ولما كانوا مقهورين تحت أمره وملكوته وهو محيط بهم لم يجسروا على أن يشفعوا إلاّ لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في زيادة الثواب والتعظيم ، ثم ﴿ هم ﴾ مع ذلك ﴿ من خشيته مشفقون ﴾ متوقعون حذرون لا يأمنون مكر الله .

وقال ابن عباس : ﴿ لمن ارتضى ﴾ هو من قال : لا إله إلا الله وشفاعتهم : الاستغفار .

وقال مجاهد : لمن ارتضاه الله أن يشفع .

وقيل : شفاعتهم في القيامة وفي الصحيح أنهم يشفعون في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلَّآ أَنَاْ فاعبدون ﴾

استئنافٌ مقررٌ لما أُجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطَقت به الكتبُ الإلهية وأجمعت عليه الرسلُ عليهم الصلاة والسلام ، وقرىء (يوحى) على صيغة الغائب مبنياً للمفعول وأياً ما كان فصيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضية استحضاراً لصورة الوحي .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ حكايةٌ لجناية فريق من المشركين جيء بها لإظهار بُطلانِها وبيانِ تنزهه تعالى عن ذلك إثرَ بيان تنزّهِه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق وهم حيٌّ من خُزاعَةَ يقولون : الملائكةُ بناتُ الله تعالى ، ونقل الواحدي أن قريشاً وبعضَ أجناسِ العرب جهينةَ وبني مُلَيح يقولون ذلك . والتعرضُ لعنوان الرحمانية المنبئةِ عن كون جميع ما سواه تعالى مربوباً له تعالى نعمةً أو مُنعَماً عليه لإبراز كمالِ شناعةِ مقالتِهم الباطلةِ ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزّه بالذات تنزّهَه اللائقَ به على أن السُّبحانَ مصدرٌ من سبح أي بَعُد أو أسبّحه تسبيحَه على أنه علمٌ للتسبيح وهو مقولٌ على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحَه وقوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ إضرابٌ وإبطالٌ لما قالوه ، كأنه قيل : ليست الملائكةُ كما قالوا بل هم عبادٌ له تعالى ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ مقربون عنده ، وقرىء مكرّمون بالتشديد تنبيهٌ على منشأ غلطِ القوم .

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقول ﴾ صفةٌ أخرى لعباد منبئةٌ عن كمال طاعتهم وانقيادِهم لأمره تعالى، أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصلُه لا يسبق قولُهم قولَه تعالى، فأسند السبقُ إليه منسوباً إليه تعالى تنزيلاً لسبق قولِهم قولَه تعالى منزلةَ سبقهم إياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبقِ المعرَّضِ به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى، وجعلُ القول محلاً للسبق وأداةً له ثم أنيب اللامُ عن الإضافة للاختصار والتجافي عن التكرار، وقرىء لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبُقه وفيه مزيدُ استهجانٍ للسبق وإشعارٌ بأن من سبق قولُه قولَه تعالى فقد تصدّى لمغالبته تعالى في السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى، وزيادةُ تنزيهٍ لهم عما نُفيَ عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلَبة بعد المغالبة، فأنى يُتوهم صدورُه عنهم ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ بيانٌ لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثرَ بيانِ تبعيتهم له تعالى في الأقوال، فإن نفيَ سبقِهم له تعالى بالقول عبارةٌ عن تبعيّتهم له تعالى فيه، كأنه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلاً، فالقصرُ المستفادُ من تقديم الجار معتبرٌ بالنسبة إلى غير أمرِه لا إلى أمر غيرِه.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ استئنافٌ وقع تعليلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده فإنهم لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الأقوال والأعمال لا يزالون يراقبون أحوالَهم فلا يُقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ أن يشفعَ له مهابةً منه تعالى ﴿ وَهُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ مّنْ خَشْيَتِهِ ﴾ عز وجل ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ مرتعدون ، وأصلُ الخشيةِ الخوفُ مع التعظيم ولذلك خص بها العلماءُ ، والإشفاقِ الخوفُ مع الاعتناء فعند تعديتِه بمن يكون معنى الخوف فيه أظهرَ وعند تعديته بعلى ينعكس الأمر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(147/508)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) ﴾

استئناف مقرر لما سبق من آي التوحيد وقد يقال إن فيه تعميماً بعد تخصيص إذا أريد من ﴿ ذِكْرٍ مَّن قَبْلِى ﴾ [الأنبياء : 24] الكتب الثلاثة ، ولما كان ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ عاماً معنى فكان هناك لفظ ومعنى أفرد على اللفظ في نوحي إليه ثم جمع على المعنى في ﴿

فاعبدون ﴾ ولم يأت التركيب فاعبدني وهذا بناء على أن ﴿ فاعبدون ﴾ داخل في الموحى وجوز عدم الدخول على الأمر له صلى الله عليه وسلم ولأمته ، وقرأ أكثر السبعة ﴿ يُوحَى ﴾ على صيغة الغائب مبنياً للمفعول ، وأياً ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحي .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾

حكاية جناية فريق من المشركين لإضهار بطلانها وبيان تنزهه سبحانه عن ذلك إثر بيانه تنزهه جل وعلا عن الشركاء على الإطلاق وهم حي من خزاعة قالوا الملائكة بنات الله سبحانه .

ونقل الواحدي أن قريشاً وبعض العرب جهينة وبني سلامة .

وخزاعة .

وبني مليح قالوا ذلك .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود إن الله عز وجل صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة فنزلت والمشهور الأول .

والآية مشنعة على كل من نسب إليه سبحانه ذلك كالنصارى القائلين عيسى ابن الله واليهود القائلين عزير ابن الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، والتعرض لعنوان الرحمانية

المنبئة عن جميع ما سواه تعالى مربوباً له تعالى لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزهه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مدر سبح أي بعد أن أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه .

(148/508)

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ إضراب وإبطال لما قالوا كأنه قيل : ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد من حيث أنهم مخلوقون له تعالى فهم ملكه سبحانه والولد لا يصح تملكه ، وفي قوله تعالى : ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي مقربون عندهم تعالى تنبيه على منشأ غلطهم وقرأ عكرمة مكرمون بالتشديد .

﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقول ﴾

أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو ديدن العبيد المؤدبين ففيه تنبيه على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره عز وجل وتأدبهم معه تعالى ، والأصل لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق إليهم منسوباً إليه تعالى تنزيلاً لسبق قولهم قوله سبحانه منزلة سبقهم إياه عز وجل لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون ما لم يقله تعالى ، وجعل القول محل السبق وآلته التي يسبق بها وأنيبت اللام عن

الإضافة إلى الضمير على ما ذهب إليه الكوفيون للاختصاص والتجافي عن التكرار .

وقرىء ﴿ لَا يَسْبُقُونَهُ ﴾ بضم الباء الموحدة على أنه من باب المغالبة يقال سابقني فسبقته وأسبقه ويلزم فيه ضم عين المضارع ما لم تكن عينه أو لامه ياء ، وفيه مزيد استهجان للسبق وإشعار بأن من سبق قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى في السبق وزيادة تنزيه عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فإنى يتوهم صدوره عنهم ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له سبحانه في الأقوال كأنه قيل هم بأمره يعملون لا بغير أمره تعالى أصلاً بأن يعملوا من تلقاء أنفسهم ، فالحصر المستفاد من تقديم الجار بالنسبة إلى غير أمره تعالى لا إلى أمر غيره سبحانه :

(149/508)

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

استئناف وقع تعليلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده كأنه قيل إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لأنه سبحانه لا يخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث أنهم يعلمون ذلك ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ الله تعالى أن يشفع له .

وهو كما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

والبيهقي في البعث .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس من قال لا إله إلا الله وشفاعتهم الاستغفار ، وهي كما في الصحيح تكون في الدنيا والآخرة ولا متمسك للمعتزلة في الآية على أن الشفاعة لا تكون لأصحاب الكبائر فإنها لا تدل على أكثر من أن لا يشفعوا لمن لا ترتضي الشفاعة له مع أن عدم شفاعة الملائكة لا تدل على عدم شفاعة غيرهم ﴿ وَهُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ ﴾ أي بسبب خوف عذابه عز وجل ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ متوقعون من إمارة ضعيفة كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله تعالى ؛ فمن تعليلية والكلام على حذف مضاف ، وقد يراد من خشيته تعالى ذلك فلا حاجة إليه .

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى أنهم يخشون الله تعالى ومع ذلك يحذرون من وقوع تقصير في خشيتهم وعلى هذا تكون ﴿ مِنْ ﴾ صلة لمشفقون ، وفرق بين الخشية والاشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] والثاني خوف مع اعتناء ويعدي بمن كما يعدى

الخوف وقد يعدى بعلى بملاحظة الحنو والعطف ، وزعم بعضهم أن الخشية ههنا مجاز عن سببها وأن المراد من الاشفاق شدة الخوف أي وهم من مهابته تعالى شديدو الخوف ، والحق أنه لا ضرورة لارتكاب المجاز ، وجوز أن تكون المعنى وهم خائفون من خوف عذابه تعالى على أن من صلة لما بعدها وإضافة خشية إلى المضاف المحذوف من إضافة الصفة إلى الموصوف أي خائفون من العذاب المخوف ، ولا يخفى ما قيه من التكلف المستغنى عنه ، ثم ان هذا الاشفاق صفة لهم دنيا وأخرى كما يشعر به الجملة الاسمية ، وقد كثرت الأخبار الدالة على شدة خوفهم ، ومن ذلك ما أخرج ابن أبي حاتم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري بي " مررت بجبريل عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ملقى كالحلس البالي من خشية الله تعالى " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(151/508)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) ﴾

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتابا ﴾ يعني القرآن ﴿ فِيهِ

ذِكْرُكُمْ ﴾ صفة ل ﴿ كتاباً ﴾ ، والمراد بالذكر هنا : الشرف ، أي فيه شرفكم كقوله :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] وقيل : ﴿ فيه ذكركم ﴾ أي ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب .

وقيل : فيه حديثكم ، قاله مجاهد .

وقيل : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم .

وقيل : فيه العمل بما فيه حياتكم .

قاله سهل بن عبد الله .

وقيل : فيه موعظتكم ، والاستفهام في : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ للتوبيخ والتقريع ، أي : أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر .

ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة ، فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظالمة ﴾ : "كم" في محل نصب على أنها مفعول ﴿ قصمنا ﴾ وهي الخبرية المفيدة للتكثير .

والقصم : كسر الشيء ودقه ، يقال : قصمت ظهر فلان : إذا كسرته ، واقتصمت سنه : إذا انكسرت ، والمعنى هنا : الإهلاك والعذاب .

وأما الفصم بالفاء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ، وجملة : ﴿ كَانَتْ ظالمة ﴾ في محل جرّ صفة لقرية ، وفي الكلام مضاف محذوف ، أي وكم قصمنا من أهل قرية كانوا

ظالمين ، أي كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم في الأصل : وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قوماً ليسوا منهم .

(152/508)

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي أدركوا أو رأوا عذابنا ، وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا ، أو البأس : العذاب الشديد ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ الركض : الفرار والهرب والانهزام ، وأصله : من ركض الرجل الدابة برجليه ، يقال : ركض الفرس : إذا كدّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ، ومنه : " اركض برِجْلِكَ " [ص : 42] والمعنى : أنهم يهربون منها راكضين دوابهم .

فقيل لهم : ﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أي لا تهربوا .

قيل : إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم .

وقيل : إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم ، والمترف المنعم ، يقال : أترف فلان ، أي وسع عليه في معاشه ﴿ ومساكنكم ﴾ أي وارجعوا إلى

مساكنكم التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي : تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم .

وقيل : المعنى : لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به ؛ وقيل : لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم .

قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية : أهل حضور من اليمن ، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم ، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له ضنن ، وبينه وبين حضور نحو بريد ، قالوا : وليس هو شعيباً صاحب مدين .

قلت : وآثار القبر بجبل ضين موجودة ، والعامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم .

﴿ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي قالوا لما قالت لهم الملائكة ﴿ لا تركضوا ﴾ يا ويلنا ، أي : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدّمنا .

فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب .

﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي ما زالت هذه الكلمة دعواهم أي : دعوتهم ، والكلمة هي قولهم : ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يدعون بها ويردّدونها ﴿ حتى جعلناهم حَصِيداً ﴾ أي بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود ، ومعنى ﴿ خامدين ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات : قد طفىء .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والارض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ أي لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً ، بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره .

وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم ، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ اللهو : ما يتلهى به .

قيل : اللهو : الزوجة والولد .

وقيل : الزوجة فقط .

وقيل : الولد فقط .

قال الجوهري : قد يكفي باللهو عن الجماع ، يدل على ما قاله قول امرىء القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني . . . كبرت وألا يحسن اللهو أمثالي

ومنه قول الآخر :

وفيهنّ ملهى للصديق ومنظر . . . والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لقوله : ﴿ لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم .

قال المفسرون أي من الحور العين ، وفي هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله ، تعالى عن ذلك علوّاً كبيرا .

وقيل : أراد الردّ على من قال : الأصنام أو الملائكة بنات الله .

وقال ابن قتيبة : الآية ردٌّ على النصارى .

﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : ما كنا فاعلين .

قال الفراء والمبرد والزجاج : يجوز " أن " تكون إن للنفي كما ذكره المفسرون ، أي ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ويجوز أن تكون للشرط ، أي إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا .

قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو ، أي دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يقهره ، وأصل

الدمغ : شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة .

قال الزجاج : المعنى : نذهبه ذهاب الصغار والإذلال ، وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب .

قيل أراد بالحق : الحجة ، وبالباطل : شبههم .

وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصي .

وقيل : الباطل : الشيطان .

وقيل : كذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي : زائل ذاهب ، وقيل : هالك تالف ، والمعنى متقارب ، و" إذا " هي الفجائية ﴿ وَلَكُمُ الوَيلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي العذاب في الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه ، وقيل : الويل : وادٍ في جهنم ، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك ؛ ومن : هي التعليلية .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ عبيداً وملكاً ، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكاً يعبد كما يعبد ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ يعني : الملائكة ، وفيه ردّ على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفي التعبير عنهم بكونهم ﴿ عنده ﴾ إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أي لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي لا يعيون ، مأخوذ من الحسير ، وهو

البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، يقال : حسر البعير يحسر حسوراً : أعيا وكلّ ، واستحسر وتحسر : مثله وحسرته أنا حسراً ، يتعدى ولا يتعدى .

قال أبو زيد : لا يكلون ، وقال ابن الأعرابي : لا يفشلون .

قال الزجاج : معنى الآية أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله ، عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأعراف : 206] .

وقيل : المعنى لا ينقطعون عن عبادته .

وهذه المعاني متقاربة .

﴿ يُسَبّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ أي ينزهون الله سبحانه دائماً لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون .

وقيل : يصلون الليل والنهار .

قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء ، فكذلك تسبيحهم دائم ، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أو في محل نصب

على الحال ﴿ أَمِ اتخذوا الِهَةً مِّنَ الأرض ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام : الجحد ، أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء ، و"أم" : هي المنقطعة ، والهمزة لإنكار الوقوع.

قال المبرد : إن "أم" هنا بمعنى هل ، أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى ، ولا تكون "أم" هنا بمعنى بل ، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر "أم" مع الاستفهام ، فتكون "أم" المنقطعة ، فيصح المعنى ، و﴿ من الأرض ﴾ متعلق باتخذوا ، أو بمحذوف هو صفة لآلهة ، ومعنى ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ : هم يبعثون الموتى ، والجملة صفة لآلهة ، وهذه الجملة هي التي يدور عليها الإنكار والتجهيل ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع منهم لا محالة.

والمعنى : بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى ، وليس الأمر كذلك ، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك.

قرأ الجمهور : ﴿ ينشرون ﴾ بضم الياء وكسر الشين من أنشره أي : أحياه ، وقرأ الحسن بفتح الياء ، أي يحيون ولا يموتون.

ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدّد الآلهة، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أي: لو كان في السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا، أي لبطلتا، يعني السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات، قال الكسائي وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة: إن "إلا" هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لآلهة، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها وظهر فيه إعراب غير التي جاءت "إلا" بمعناها، ومنه قول الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه... لعمر أبيك إلا الفرقدان

وقال الفراء: إن "إلا" هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ فسبحان الله ربّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أي تنزّه عزّ وجلّ عما لا يليق به من ثبوت الشريك له، وفيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عما لا يليق به.

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوّة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره ﴿ وَهُمْ ﴾ أي: العباد ﴿ يُسْئَلُونَ ﴾ عما يفعلون أي: يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده.

وقيل : إن المعنى : أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون .

قيل : والمراد بذلك أنه سبحانه يبن لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلها .

(157/508)

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ أي بل اتخذوا ، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق ، إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على دعوى أنها آلهة ، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ، ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك ، لا من عقل ولا نقل ، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتي وذكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم .

وقيل : المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي فانظروا : هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه .

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ،

فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله ؟ وقيل معنى الكلام : الوعيد والتهديد ، أي افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء .

وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرآ : " هذا ذكر من معي وذكر من قبلي " بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة .

وقال الزجاج في توجيه هذه القراءة : إن المعنى : هذا ذكر مما أنزل إليّ ومما هو معي وذكر من قبلي .

وقيل : ذكر كائن من قبلي ، أي جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي .

ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ وهذا إضراب من جهته سبحانه وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان ، لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل .

وقرأ ابن محيصن والحسن : " الحق " بالرفع على معنى هذا الحق ، أو هو الحق ، وجملة : ﴿ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون أي فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد

واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون في برهان ، ولا يتفكرون في دليل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَى إِلَيْهِ ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي : ﴿ نوحي ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء أي : نوحي إليه ﴿ أَنَّهُ لا إله إلا أَنَاْ ﴾ وفي هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدّم من قوله : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته ، فقال : ﴿ فاعبدون ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ قال : شرفكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : فيه حديثكم .

وفي رواية عنه قال : فيه دينكم .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : بعث الله نبياً من حمير يقال له : شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ خامدين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد ، وابن المنذر عن الكلبي في قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن

قَرْيَةٍ ﴾ قال : هي حضور بني أزد ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ قال : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم .

(159/508)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ قال : هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم ، وفي قوله : ﴿ فجعلناهم حَصِيداً خامدين ﴾ قال : بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال : حدّثني رجل من الجزريين قال : كان اليمن قريتان ، يقال لإحداهما : حضور ، وللأخرى قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبياً فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم ، فجهز لهم جيشاً ، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه ، فجهز إليهم جيشاً آخر أكثف من الأوّل ، فهزموهم أيضاً ؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه ، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا منادياً يقول : ﴿ لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ومساكنكم ﴾ فرجعوا فسمعوا صوتاً منادياً يقول : يا لثارات النبي فقتلوا بالسيف ، فهي التي قال الله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ خامدين ﴾ قلت

: وقرى حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد في جهة الغرب منها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ حَصِيداً خامدين ﴾ .

قال : كخمود النار إذا طفئت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ قال : اللهو : الولد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ قال : النساء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ يقول : لا يرجعون .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ قال : بعباده ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ قال : عن أعمالهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك نحوه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما في الأرض قوم أبغض إليّ من القدرية ، وما ذاك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(161/508)

وقال القاسمى :

ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبيّ ، بقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ﴾ وقرىء يوحى بالياء وفتح الحاء : ﴿ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ . كما قال : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] ، فكل نبيّ بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . ثم بين تعالى بطلان ما يفتريه بعض المشركين من أن الملائكة بناته ، تعالى علواً كبيراً ، بقوله سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ أي : مقربون : ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ

بِالْقَوْلِ ﴾ أي : يتبعون قوله ، فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين : ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ فلا يعصونه في أمر . إشارة إلى مراعاتهم في أدب العبودية في الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي : مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علماً : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ أي : أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال المهايميّ : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدرون على أدنى وجوه معارضته . لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى . إذا الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه : ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ ﴾ أي : قهره : ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أي : خائفون .

(162/508)

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، وقوله : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : 23] ، في آيات كثيرة بمعنى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 197 . 198 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار لعنهم الله قالوا عليه أنه اتخذ ولداً . وقد بينا ذلك فيما مضى بياناً شافياً في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وبين هنا بُطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطالي الذي هو " بل " مبيناً : أنهم عباده المكرمون ، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيِّده . ثم أثنى على ملائكته بأنهم عباد مكرمون ، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ . وما أشار إليه في هذه الآية الكريمة من أن الملائكة عبيده وملكه ، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده أشار له في غير هذا الموضع . كقوله في " البقرة " : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : 116] ، وقوله في " النساء " : ﴿ إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ وما فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وكفى بالله وَكِيلاً ﴾ [النساء : 171] أي والمالك بكل شيء لا يمكن أن

يكون له ولد . لأن الملك ينافي الولدية ، ولا يمكن أن يوجد شيء سواه إلا وهو ملك له جل وعلا .

(164/508)

وما ذكره في هذه الآية الكريمة : من الثناء على ملائكته عليهم صلوات الله وسلامه بينه في غير هذا الموضع . كقوله تعالى . ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : 10-12] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السماوات والأرض وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 19-20] إلى غير ذلك من الآيات .

مسألة

أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن : أن الأب إذا ملك ابنه عتق عليه بالملك . ووجه ذلك واضح . لأن الكافر زعموا أن الملائكة بنات الله . فنفى الله تلك الدعوى بأنهم عباده وملكه . فدل ذلك على منافاة الملك للولدية ، وأنهما لا يصح اجتماعهما . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) ﴾

لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقّيه أقبل على رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييد مقاله الذي لقّنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ [الأنبياء : 24] ، فأفادهُ تعميمه في شرائع سائر الرسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب ، وسواء من كان كتابه باقياً مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم .

وليس ذكر هذه الجملة لمجرد تقرير ما قبلها من آي التوحيد وإن أفادت التقرير تبعاً لفائدتها المقصودة .

وفيها إظهارٌ لعناية الله تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره إصلاحاً لعقولهم بأن يُزال منها أفظع خطل وأسخف رأي ، ولم تَقطع دابرَ الشرك شريعةٌ كما قطعه الإسلام بحيث لم يحدث الإشراك في هذه الأمّة .

وحرف (مِن) في قوله تعالى ﴿ مِن رسول ﴾ مزيد لتوكيد النفي .

وفرع فيما أوحي إليهم أمرَه إياهم بعبادته على الإعلان بأنه لا إله غيره ، فكان استحقاق العبادة خاصاً به تعالى .

وقرأ الجمهور ﴿ إلاّ يُوحى إليه بمثناة تحتية مبنياً للنائب ، وقرأه حفص وحمزة والكسائي بالنون مبنياً للفاعل ، والاستثناءُ المفرّع في موضع الحال .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾

عطف قصة من أقوالهم الباطلة على قصة أخرى .

فلما فرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتقل إلى بيان باطل آخر وهو اعتقادهم أن الله اتخذ ولداً .

وقد كانت خُزاعة من سكان ضواحي مكة يزعمون أن الملائكة بنات الله من سَرَوات الجن وشاركهم في هذا الزعم بعضُ من قريش وغيرِهم من العرب .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ في سورة النحل (57) .

(166/508)

والوَلد اسم جمع مفردُه مثلُه ، أي اتخذ أولاداً ، والولد يشمل الذكر والأنثى ، والذين قالوا اتخذ الله ولداً أرادوا أنه اتخذ بناتٍ ، قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ [

النحل : 57] .

ولما كان اتخاذ الولد نقصاً في جانب واجب الوجود أعقب مقالتهم بكلمة ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له عن ذلك فإن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص العارض بفقد الولد كما قال تعالى في سورة يونس (68) ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني ﴾ ولما كان المراد من قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] أنهم زعموا الملائكة بناتِ الله تعالى أعقب حرف الإضراب عن قولهم بالإخبار بأنهم عبادٌ دون ذِكرِ المبتدأ للعلم به .

والتقدير : بل الملائكة عباد مكرمون ، أي أكرمهم الله برضاه عنهم وجعلهم من عباده المقربين وفضلهم على كثير من خلقه الصالحين .

والسبْق ، حقيقته : التقدم في السير على سائر آخر .

وقد شاع إطلاقه مجازاً على التقدم في كل عمل .

ومنه السبق في القول ، أي التكلم قبل الغَير كما في هذه الآية .

ونفيه هنا كناية عن عدم المساواة ، أي كناية عن التعظيم والتوقير .

ونظيره في ذلك النهيُ عن التقدم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ [الحجرات : 1] فإن التقدم في معنى السبق .

فقوله تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ معناه لا يصدر منهم قول قبل قوله ، أي لا يقولون إلاّ ما

أذن لهم أن يقولون .

وهذا عام يدخل فيه الردّ على زعم المشركين أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله إذا أراد الله عقابهم على أعمالهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله كما سيصرح بنفيه .

وتقديم ﴿ بأمره ﴾ على ﴿ يعملون ﴾ لإفادة القصر ، أي لا يعملون عملاً إلا عن أمر الله تعالى فكما أنهم لا يقولون قولاً لم يأذن فيه كذلك لا يعملون عملاً إلا بأمره .

(167/508)

وقوله تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ تقدم نظيره في سورة البقرة (255) .

وقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ تخصيص بالذكر لبعض ما شمله قوله تعالى ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ اهتماماً بشأنه لأنه مما كفروا بسببه إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند الله .

وحذف مفعول ﴿ ارتضى ﴾ لأنه عائد صلة منصوب بفعل ، والتقدير : لمن ارتضاه ، أي ارتضى الشفاعة له بأن يأذن الملائكة أن يشفعوا له إظهاراً لكرامتهم عند الله أو استجابةً لاستغفارهم لمن في الأرض ، كما قال تعالى ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ في سورة الشورى (5) .

وذلك الاستغفار من جملة ما خلقوا لأجله فليس هو من التقدم بالقول.

ثم زاد تعظيمهم ربهم تقريراً بقوله تعالى: وهم من خشيته مشفقون ﴾ ، أي هم يعظمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره.

و﴿ مِن ﴾ في قوله تعالى ﴿ من خشيته ﴾ للتعليل، والمجرور ظرف مستقر، وهو حال من المبتدأ.

و﴿ مشفقون ﴾ خبر، أي وهم لأجل خشيته، أي خشيتهم إياه.

والإشفاق: توقع المكروه والحذر منه. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(168/508)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) ﴾

إذن: فقضية التوحيد واضحة منذ بداية الرسالات إلى خاتمها، الكل جاء بقول لا إله إلا الله قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء .

وقوله تعالى: ﴿ مِن رَّسُولٍ . . ﴾ [الأنبياء: 25] (منْ) هنا للشمول والتعميم، يعني

: كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شخص : ما عندي مال ، لا يمنع هذا القول أن يكون عنده قليل من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لها مال ، فإنْ قال لك : ما عندي من مال فقد نفى وجود جنس المال من بداية ما يقال له مال ، ما عندي حتى مليم واحد .

إذن : ما جئتم به من مسألة الشرك بالله أو إنكاره عز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها . ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن . . . . . ﴾ .

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 26] أي : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول . . . ﴾ .

ومع أنهم عباد مكرمون إنما لا يسبقونه بالقول ، فلا يقولون ما لم يقُلْه ولا يتقدمون عليه بقول حتى إنْ وافق مراد الله ، ولا يفعلون ما لم يأمر به ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة لبعض آفات المجتمع ، فمن آفات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُلْه ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدّمون أوامرهم على أوامره .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] أي : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا

، وإنْ نَهى تركوا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . . . ﴾ .

(169/508)

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فَمعَ أن الله أكرمهم وفضّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى . . . ﴾ [الأنبياء : 28] .

أي : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] أي : مُدلَّلون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 28] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/508)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) ﴾

قوله : ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ : " عبادٌ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هم عبادٌ . و" مُكْرَمون " في العامَّة مخففٌ ، وقراءة عكرمة مشدداً .

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)

قوله : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ ﴾ : جملةٌ في محلِّ رفعٍ صفةً ل" عبادٌ " . والعامَّةُ على كسرِ الباء في " يَسْبِقونه " وقُرِئ بضمِّها . وخُرِّجَتْ على أنه مضارعُ سَبَقه أي غلبه في السبق يُقال : سابقه فَسَبَقه يَسْبُقه أي : غلبه في السَّبْق . ومضارع فَعَلَ في المغالبة مضمومُ العينِ مطلقاً إلاَّ في ياءَيْ العينِ أو اللام ، والمرادُ : لا يَسْبقونه بقوله ، فَعَوَّض الألفَ واللامَ عن الضمة عند

الكوفيين ، والضميرُ محذوفٌ عند البصريين أي بالقول منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 146 ﴾

(171/508)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) ﴾

التوحيدُ في كل شريعة واحدٌ ، والتعبدُ -على من أرسل إليه الرسول- واجبٌ ، ولكنَّ الأفعالَ للنسخِ والتبديلِ مُعَرَّضةٌ ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصول إليه فلا يجوز في ذلك النسخُ والتبديل .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26)

في الآية رخصةٌ في ذِكْر اقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الردّ عليهم ، وكَشْفِ عوراتهم ، والتنبيه على مواضع خطاياهم ، وأنَّه إنْ وَسْوَسَ الشيطان إلى أحدٍ بشيء منه كان في ذلك حجةٌ للانفصال عنه .

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره – سبحانه ، وأنهم لا يُقَصِّرون في واجبٍ عليهم .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28)

عِلْمُه القديمُ – سبحانه – لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : ﴿ لا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ دلَّ على أنهم يشفعون لقومٍ ، وأنَّ الله يتقبل شفاعتهم .

قوله : ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يَجُزْ أن يُعذِّب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زلةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 498 . 499﴾

(172/508)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾

يعني : قربت القيامة كقوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [لقمر : 1] ، ويقال : معناه اقترب وقت حسابهم ، ويقال : دنا للناس ما وعدوا في هذا القرآن ، ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ ، أي : في جهل وعمى من أمر آخرتهم .

﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، يعني : جاحدين مكذبين ؛ وهم كفار مكة ومن كان مثل حالهم .

ثم نعتهم فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ ، يعني : ما يأتيهم جبريل بالقرآن محدث ؛ والمحدث إتيان جبريل بالقرآن مرة بعد مرة ، ويقال : قراءة النبي صلى الله عليه وسلم القرآن مرة بعد مرة ﴿ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، يعني : يستمعون لاعبين ، ويقال : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يعني : يهزؤون ويسخرون .

قوله عز وجل : ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ، يعني : ساهية قلوبهم عن أمر الآخرة .

﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ ، يعني : أخفوا تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ويتناجون فيما بينهم ، ثم بين أمرهم فقال : ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ ، معناه وأسروا النجوى يعني : الذين ظلموا ، ثم بين ما يسرون فقال : ﴿ هَلْ هذا ﴾ ، يعني : يقولون ما هذا : ﴿ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي : آدميّ مِثلكم ؟ ﴿ أَفَتَأْتُونَ السحر ﴾ ، يعني : أفتصدقون الكذب ؟ ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ وتعلمون أنه سحر .

﴿ قَالَ ﴾ محمد : ﴿ رَبّى يَعْلَمُ القول ﴾ ، يعني : السر ، فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم قولهم

، وأطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على سرهم وعلانيتهم فقال : ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ القول ﴾ .

﴿ فِى السماء والأرض ﴾ ، أي : يعلم سر أهل السموات وسر أهل الأرض .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ﴾ على معنى الخبر ، وقرأ الباقون على معنى الأمر .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لمقالتهم ، ﴿ العليم ﴾ بهم وبعقوبتهم .

(173/508)

﴿ بَلْ قَالُواْ أَضغاث أَحْلاَمٍ ﴾ ، يعني : أباطيل أحلام كاذبة ؛ وقال أهل اللغة : لا يكون الضغث إلا من أخلاط شتى ؛ فلذلك يقال أضغاث أحلام ، أي : لما فيها من التخاليط . وهو كل حلم لا يكون له تأويل ومن هذا قوله : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ ، أي : أخلاط العيدان عدد مائة ، ويقال : في الآية تقديم ومعناه بل قالوا أضغاث أحلام .

﴿ بَلِ افتراه ﴾ ، يعني : اختلقه من تلقاء نفسه .

﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ، يعني : ينقضون قولهم بعضهم ببعض ، مرة يقولون سحر ، ومرة يقولون أضغاث أحلام .

﴿ بَلْ قَالُواْ أَضغاث أَحْلَامٍ بَلِ ﴾ ، يعني : يقولون : فأتنا بآية أي : بعلامة كما في الرسل الأولين .

فأخبر الله تعالى أنهم لم يؤمنوا ، وإن أتاهم بآية ، فقال عز وجل : ﴿ مَا ءامَنَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ ، يعني : قبل كفار مكة .

﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ من للصلة والزينة ، يعني : لم يصدق قبلهم أهل قرية للرسل ، أي : إذا جاءتهم بالآيات .

﴿ أهلكناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ يعني : أفقومك يصدقون إذا جاءتهم الآيات ؟ أي : لا يؤمنون/

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : لم أرسل إليهم الملائكة بالرسالة وكانت الرسل من الآدميين .

﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ ، يعني : أهل التوراة والإنجيل .

﴿ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : لا تصدقون ؛ وذلك أن أهل مكة قالوا : لو أراد الله تعالى أن يبعث إلينا رسولاً لأرسل ملائكة .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ نُوحِى ﴾ بالنون وكذلك في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] ، وقرأ حمزة والكسائي الأول بالياء والثاني بالنون ، والباقون كليهما بالياء وهو اختيار أبي عبيد .

﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ ، يعني : ما خلقنا الرسل جسداً لا يأكلون ولا يشربون ، ولكن جعلناهم أجساداً فيها أرواح يأكلون ويشربون .

وقال ﴿ جَسَداً ﴾ ولم يقل أجساداً ، لأن الواحد ينبىء عن الجماعة ، ويقال : معناه وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام ، لأنهم قالوا : ﴿ وَقَالُواْ مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الاسواق لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] ثم قال : ﴿ وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ ، يعني : في الدنيا .

﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ ، يعني : العذاب للكفار والنجاة للأنبياء .

عليهم السلام .

﴿ فأنجيناهم وَمَن نَّشَاء ﴾ ، يعني : فأنجينا الأنبياء عليهم السلام ومن نشاء من المؤمنين ، ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ ؛ يعني : المشركين .

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتابا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ، يعني : القرآن فيه عزكم وشرفكم ، يعني : شرف العرب .

والذكر يوضع موضع الشرف ، لأن الشرف يذكر ، ويقال ﴿ ذِكْرُكُمْ ﴾ أي : فيه تذكرة

لكم ما ترجون من رحمة وتخافون من عذابه كما قال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : 11].

وقال السدي : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ يعني : ما تُعْنون به من أمر دنياكم وآخرتكم وما بينكم ؛ وقال الحسن : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ، يعني : أمسك به عليكم دينكم وفيه بيان حلالكم وحرامكم ، ويقال : وعدكم ووعيدكم ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن فيه عزكم وشرفكم فتؤمنون به .

قوله عز وجل : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ القَصم الكسر يعني كم أهلكنا ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ ، يعني : أهل قرية ؟ ﴿ كَانَتْ ظالمة ﴾ ، أي : كافرة ، ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ ؛ يعني : خلقنا بعد هلاكها قوماً آخرين خيراً منهم ، فسكنوا ديارهم .

(175/508)

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا ﴾ ، يعني : رأوا عذابنا ، ﴿ إِذَا هُمْ يَرْكُضُونَ ﴾ ؛ يعني : يهربون ويعدون ؛ وقال القتبي : أصل الركض تحريك الرجلين .

يقال : ركضت الفرس إذا أعديته بتحريك رجليك .

ومنه قوله : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

ثم قال عز وجل : ﴿ لَا تَرْكُضُواْ ﴾ يعني : قالت الملائكة عليهم السلام لا تهربوا وقال قتادة : هذا على وجه الاستهزاء ، وقال مقاتل : لما انهزموا قالت لهم الملائكة عليهم السلام كهيئة الاستهزاء : لا تركضوا وقال القتبي : هذا كما قال لبيد :

هَلا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْدَةَ .

. . يوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

قال ابن عباس : إن قرية من قرى اليمن يقال لها حصور ، أرسل الله تعالى إليهم نبياً فكذبوه ثم قتلوه ، فسلط الله عز وجل عليهم بختنصر فقتلهم وهزمهم ، فقالت لهم الملائكة عليهم السلام حين انهزموا : لا تركضوا يعني : لا تهربوا .

﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ يعني : خولتم فيه من أمر دنياكم ﴿ ومساكنكم لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ .

عن قتل نبيكم ؛ ويقال : عن الإيمان .

﴿ قَالُواْ يا ويلنا قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ بقتل نبينا عليه السلام ويقال : بالشرك بالله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ ، يعني : كلمة الويل قولهم .

﴿ حتى جعلناهم حَصِيداً خامدين ﴾ ، يعني : محصوداً .

وقال أهل اللغة : فعيل بمعنى مفعول ، والحصيد بمعنى محصود ، ويقع على الواحد والاثنين

والجماعة ؛ وقال السدي : الحصيد الذي قد حصد ، ويقال : كداسة الغنم بأظلافها خامدين ميتين لا يتحركون ؛ وقال مجاهد رحمه الله : ﴿ خامدين ﴾ بالسيف .

(176/508)

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلق والعجائب ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ ، أي : لغير شيء ولكن خلقناهم لأمر كائن ، ويقال : وما خلقت هذه الأشياء ، إلا ليعتبروا ويتفكروا فيها ويعلموا أن خالق هذه الأشياء أحق بالعبادة من غيره ويكون لِيَ عليهم الحجة يوم القيامة .

قوله عز وجل : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ يعني : زوجةً بلغة حضرموت ، ﴿ لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ ؛ يعني : من عندنا .

قال ابن عباس : اللهو الولد ، وقال الحسن وقتادة : اللهو المرأة ، وقال القتبي : التفسيران متقاربان ، لأن المرأة للرجل لهو وولده لهو كما يقال : ريحانتاه وأصل اللهو الجماع ؛ فكني به بالمرأة والولد كما كني عنه باللمس .

وتأويل الآية أن النصارى لما قالوا ، في المسيح ما قالوا قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ أي : صاحبةً وولداً ، لاتخذنا ذلك من عندنا لا من عندكم ، لأن

ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره .

ثم قال : ﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ يعني : ما كنا فاعلين .

ويجوز أن يكون إن كنا ممن يفعل ذلك ، ولسنا ممن يفعله .

ثم قال عز وجل : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق ﴾ ، يعني : بالحق ﴿ عَلَى الباطل ﴾ ، ومعناه نبيّن الحق من الباطل .

﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ ، أي : يبطله ويضمحل به .

ويقال : يكسره .

وقال أهل الله : أصل هذا إصابة الرأس والدماغ بالضرب وهو مقتل .

﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ، يعني : هالك ، ويقال : زاهق أي : زائل ذاهب .

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : في الآية دليل أن النكتة إذا قابلتها نكتة أخرى على ضدها سقط الاحتجاج بها ، لأنها لو كانت صحيحة ما عارضها غيرها ، لأن الحق لا يعارضه الباطل ولكن يغلب عليه فيدمغه .

ثم قال : ﴿ وَلَكُمُ الويل ﴾ ، يعني : الشدة من العذاب وهم النصارى .

﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ، يعني : تقولون من الكذب على الله .

﴿ وَلَهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الخلق .

﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ من الملائكة ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، يعني : لا يتعظمون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ يعني لا يعيون .

الحسير المنقطع الواقف إعياء .

روي عن عبد الله بن الحارث أنه قال : قلت لكعب الأحبار .

رضي الله عنه أرأيت قوله : ﴿ يُسَبّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ .

أما شغلهم رسالة ، أما شغلهم عمل ؟ فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت من بني عبد المطلب .

فضمني إليه ثم قال : يا ابن أخي إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لنا النفس ألست تأكل وتشرب وتذهب وتجيء وأنت تتنفس ؟ كذلك جعل لهم التسبيح .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمِ اتخذوا الِهَةً ﴾ ؟ الميم صلة معناه أعبدوا من دون الله آلهة ، ويقال : بل عبدوا آلهة .

﴿ مّنَ الأرض ﴾ ، يعني : اتخذوها من الأرض ويقال : من الأرض يعني : في الأرض .

﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ، يعني : هل يحيون تلك الآلهة شيئاً ، وقرىء أيضاً ﴿ يُنشِرُونَ ﴾ بضم الياء ونصب الشين .

هل يحيون أبداً لا يموتون .

ثم قال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ ﴾ يعني: لو كان في السماء والأرض آلهة غير الله، ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾؛ يعني: لخربت السموات والأرض ولهلك أهلها، يعني: أن التدبير لم يكن مستوياً ثم نزّه نفسه عن الشريك فقال تعالى: ﴿ فسبحان الله ربّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾؛ يعني: عما يقولون من الكذب.

قوله عز وجل: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾، يعني: عما يحكم في خلقه من المغفرة والعقوبة، لأنه عادل ليس بجائر.

﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾، عما يفعلون بعضهم ببعض، لأنهم يجورون ولا يعدلون ومعناه، لا يسأل عما يفعل على وجه الاحتجاج عليه، ولكن يسأل عن معنى الاستكشاف والبيان، كقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه: 125].

(178/508)

وروي عن مجاهد أنه قال: لا يسأل عن قضائه وقدره وهم يسألون عن أعمالهم، ويقال: لا يسأل عما يفعل لأنه ليس فوقه أحد وهم يسألون، لأنهم مملوكون.

ثم قال عز وجل: ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ الميم صلة، يعني: أعبدوا من دونه آلهة؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا برهانكم ﴾، يعني: حجتكم وكتابكم الذي فيه عذركم.

﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ إلى يوم القيامة ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ ؛ يعني : خبر من قبلي ، فلا أجد فيه أن الشرك كان مباحاً في وقت من الأوقات ويقال : ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ ، يعني : القرآن وكتب الأولين .

ثم قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن ويقال بالتوحيد .

﴿ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، يعني : مكذبون بالقرآن والتوحيد .

ثم بين ما أمر في جميع الكتب للرسل ، فقال عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ ﴾ ، كما يوحى إليك ﴿ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ ، يعني : وحدون .

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ وذلك حين قال مشركو قريش في الملائكة ما قالوا فقال الله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ نزه نفسه عن الولد .

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ، يعني : بل عبيد أكرمهم الله تعالى بعبادته .

﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ ، يعني : لا يقولون ولا يعملون شيئاً ما لم يأمرهم .

﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : يعملون ما يأمرهم به ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الآخرة .

﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا ، ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ ﴾ ؛ يعني : الملائكة .

﴿ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ يعني لمن رضي عنه بشهادة أن لا إله إلا الله .

﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ، يعني : من هيبته خائفون ، لأنهم عاينوا أمر الآخرة فيخافون عاقبة الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 419 . 424 ﴾

(179/508)

وقال الثعلبى :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ ﴾

قيل : اللام بمعنى من أي اقترب من الناس ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ محاسبة الله إيّاهم على أعمالهم ﴿ وَهُمْ ﴾ واو الحال ﴿ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عنه ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التفكير فيه والتأهّب له ، نزلت في منكري البعث .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ يعني ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكّرهم ويعظهم به ﴿ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ لا يعتبرون ولا يتّعظون .

قال مقاتل : يحدث الله الأمر بعد الأمر ، وقال الحسن بن الفضل : الذكر هاهنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلّ عليه قوله في سياق الآية ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ولو أراد الذكر بالقرآن لقال : هل هذا إلاّ أساطير الأوّلين ، ودليل هذا التأويل أيضاً قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : 51-52] يعني محمداً (عليه

السلام) .

﴿ لاَهِيَةً ﴾ ساهية ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ معرضة عن ذكر الله ، من قول العرب : لهيت عن الشيء إذا تركته ، ولاهية نعت تقدّم الاسم ومن حقّ النعت أن يتبع الاسم في جميع الاعراب ، فإذا تقدّم النعت الاسم فله حالتان : فصل ووصل ، فحاله في الفصل النصب كقوله سبحانه ﴿ خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ ﴾ [القمر : 7] ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ﴾ [الإنسان : 14] و﴿ لاَهِيَةً قلوبُهُمْ ﴾ . قال الشاعر :

لعزّة موحشاً طلال . . . يلوح كأنّه خلل

أراد : طلل موحش ، وحاله في الوصل حال ما قبله من الإعراب كقوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هذه القرية الظالم أَهْلُهَا ﴾ [النساء : 75] قال ذو الرمّة :

قد أعسف النازح المجهول معسفة . . . في ظلّ أخضر يدعو هامه البوم

أراد معسفه مجهول وإنّما نصب لانتصاب النازح .

وقال النابغة :

من وحش وجرة موشّي أكارعه . . . طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

أراد أنّ أكارعه مَوشيّة .

﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ كان حقّه وأسرّ لأنه فعل تقدّم الاسم فاختلف النحاة في وجهه ، فقال الفرّاء : الذين ظلموا في محلّ الخفض على أنّه تابع للناس في قوله ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ .

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير أراد والذين ظلموا أسرّوا النجوى .

وقال قطرب : وهذا سائغ في كلام العرب وحُكي عن بعضهم أنه قال : سمعت بعض العرب يقول : أكلوني البراغيث قال الله سبحانه ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 71] . وقال الشاعر :

بك نال النصال دون المساعي . . . فاهتدين النبال للأغراض

ويحتمل أن يكون محل الذين رفعاً على الابتداء ، ويكون معناه وأسرّوا النّجوى ، ثمّ قال هم الذين ظلموا .

﴿ هَلْ هذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنّه سِحر ﴿ قَالَ رَبِّي ﴾ قرأ أكثر أهل الكوفة (قال) على الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ الباقون "قل" على الأمر له ﴿ يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض وَهُوَ السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بأفعالهم ﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ ﴾ أي أباطيلها وأهاويلها ﴿ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ يعني أنّ المشركين اقتسموا القول فيه : فقال بعضهم : أضغاث أحلام ، وقال بعضهم : بل

افتراه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر، لأنَّ بل تأتي لتدارك شيء ونفي آخر.

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ﴾ إن كان صادقاً ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ من الرسل بالآيات.

قال الله سبحانه مجيباً لهم ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أهل قرية أتتها الآيات فأهلكناهم ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن جاءتهم آية...

(181/508)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا جواب لقولهم ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكر ﴾ أي التوراة والإنجيل يعني علماء أهل الكتاب ﴿ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن يعني فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن، قال جابر الجعفي: لما نزلت هذه الآية قال عليّ: نحن أهل الذكر.

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ ﴾ يعني الرسل الأولين ﴿ جَسَداً ﴾ قال الفرّاء: لم يقل أجساداً لأنّه اسم الجنس ﴿ لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ يقول: لم نجعلهم ملائكة، بل جعلناهم بشراً محتاجين إلى الطعام، وهذا جواب لقولهم ﴿ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ [الفرقان: 7] ﴿ وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوعد ﴾ الذي وعدناهم هلاك أعدائهم

ومخالفيهم وإنجائهم ومتابعيهم ﴿ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ المشركين .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ قال مجاهد : حديثكم ، وقيل : شرفكم .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ أي أهلكنا ، والقصم : الكسر يقال : قصمت ظهر فلان ، وانقصمت سنة إذا انكسرت .

﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ وأحدثنا ﴿ بَعْدَهَا ﴾ بعد إهلاك أهلها ﴿ قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ ﴾ رأوا ﴿ بَأْسَنَآ ﴾ عذابنا ﴿ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ يسرعون هاربين ، يقال منه : ركض فلان فرسه إذا كدّه بالرجل ، وأصله التحريك .

(182/508)

﴿ لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ نُعّمتم فيه ﴿ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ عن نبيّكم ، مجاهد : لعلكم تفقهون بالمسألة ، قتادة : لعلّكم تسألون من دنياكم شيئاً استهزاءً بهم ، نزلت هذه الآيات في أهل حصورا وهي قرية باليمن ، وكان أهلها العرب فبعث الله إليهم نبياً يدعوهم إلى الله سبحانه فكذّبوه وقتلوه ، فسلّط الله عليهم بخت نصّر حتى قتلهم وسباهم ونكّل بهم ، فلمّا استحرّ فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا ، فقالت

الملائكة لهم على طريق الاستهزاء ﴿ لَا تَرْكُضُوا وارجعوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ إلى مساكنكم وأموالكم ، فأتبعهم بخت نصّر وأخذتهم السيوف ، ونادى مناد من جوّ السّماء : يالثارات الأنبياء ، فلمّا رأوا ذلك أقرّوا بالذنوب حين لم ينفعهم فقالوا ﴿ ياويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ قولهم وهجّيراهم ﴿ حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً ﴾ بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿ خَامِدِينَ ﴾ ميّتين .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ عبثاً وباطلاً ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ قال قتادة : اللهو بلغة أهل اليمن المرأة .

وقال عقبة بن أبي جسرة : شهدت الحسن بمكة وجاءه طاووس وعطاء ومجاهد فسألوه عن هذه الآية ، فقال الحسن : اللهو : المرأة . وقال ابن عباس : الولد .

﴿ لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ من عندنا وما اتّخذنا نساءً وولداً من أهل الأرض ، نزلت في الذين قالوا اتّخذ الله ولداً .

﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ ﴾ نأتي ونرمي وننزل ﴿ بالحق ﴾ بالإيمان ﴿ عَلَى الباطل ﴾ الكفر ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فيهلكه ، وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدِماغ ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ذاهب وهالك .

﴿ وَلَكُمُ الوَيلُ ﴾ يا معشر الكفّار ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ لله بما لا تليق به من الصاحبة والولد . وقال مجاهد : ممّا تكذبون ، ونظيره قوله ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ [الأنعام : 139] أي تكذيبهم .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ عبداً وملكاً ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعني الملائكة ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لا يستنكفون ، مجاهد : لا يحسرون ، قتادة ومقاتل والسدّي : لا يعيون ، الوالبي عن ابن عباس : لا يرجعون ، ابن زيد : لا يملّون .

﴿ يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ لا يضعفون ولا يسأمون ، قد أُلهموا التسبيح كما تلهمون النَّفَس .

﴿ أَمِ اتخذوا آلِهَةً مِّنَ الأرض ﴾ يعني الأصنام ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ يحيون الإموات ويخلقون الخلق .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ﴾ أي في السماء والأرض ﴿ آلِهَةٌ إِلاَّ الله ﴾ غير الله ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ وهلك من فيهما .

﴿ فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لأنه الرب ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ عما لا يعلمون لأنهم عبيده .

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على ذلك ، ثمَّ قال مستأنفاً ﴿ هذا ﴾ يعني القرآن ﴿ ذِكْرُ ﴾ خبر ﴿ مَن مَّعِيَ ﴾ بيان الحدود والأحكام والثواب والعقاب ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ من الأمم السالفة وما فعل الله بهم في الدنيا وما هو فاعل بهم في الآخرة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن القرآن .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ ﴾ قرأ أكثر أهل الكوفة بالنون وكسر الحاء على التعظيم لقوله : أرسلنا ، وقرأ الباقون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول .

(184/508)

﴿ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون * وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ يعني الملائكة ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ ﴾ لا يتقدّمونه ﴿ بالقول ﴾ ولا يتكلمون إلاّ بما يأمرهم به .

﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وقال مجاهد : لمن رضي الله عنه ، ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 273.268 ﴾

(185/508)

وقال الزمخشرى :

سورة الأنبياء

مكية وآياتها 112 [نزلت بعد سورة إبراهيم] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنبياء (21) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1)

هذه اللام : لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب ، أو تأكيدا لإضافة الحساب إليهم ، كقولك : «أزف للحىّ رحيلهم» الأصل : أزف رحيل الحىّ ، ثم أزف للحىّ الرحيل ، ثم أزف للحىّ رحيلهم . ونحوه ما أورده سيبويه في «باب ما يثنى فيه المستقرّ توكيدا» عليك زيد حريص عليك . وفيك زيد راغب فيك . ومنه قولهم : لا أبالك : لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة . وهذا الوجه أغرب من الأوّل . والمراد اقتراب الساعة . وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك . ونحوه وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .

(186/508)

فإن قلت : كيف وصف بالاقتراب وقد عدّت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام ؟

قلت : هو مقترب عند اللّه والدليل عليه قوله عزّ وجلّ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ولأنّ كل آت - وإن طالت أوقات استقباله وترقبه - قريب ، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ، ولأنّ ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها ، بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه في آخر الزمان . وقال عليه السلام «1» «بعثت في نسم الساعة «2»» وفي خطبة بعض المتقدّمين : ولت الدنيا حذاء ، ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء . وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه ، كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أنّ المراد بالناس : المشركون . وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم ، وهو ما يتلوه من صفات المشركين . وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون ، لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بدّ من جزاء للمحسن والمسيء ، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 2 إلى 3]

ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

قرّر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ : بأنّ اللّه يجدّد لهم الذكر وقتا فوقتا ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، ليكرّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر - التي هي أحق الحق وأجدّ الجدّ - إلا لعبا وتلهيا واستسخارا . والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن.

وقرأ ابن أبى عبلة مُحْدَثٍ بالرفع صفة على المحل . قوله وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ

---

(1) . أخرجه البزار بإسناد حسن ، من حديث أبى جبير بن الضحاك الأنصارى وأخرجه الحسن بن سفيان.

ومن طريقه أبو نعيم في الحلية . وفي الباب عن المستورد بن شداد رفعه «بعثت في نفس الساعة - الحديث» أخرجه الترمذي . وقوله : وفي خطب بعض المتقدمين «ولت الدنيا حذاء لم يبق إلا صبابة كصبابة الإناء» هو عبد اللّه بن غزوان . أخرجه مسلم من حديثه مطولا.

(2) . قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح» أو لها حين تقبل بلين قبل أن

تشتد . ومنه الحديث «بعثت في نسم الساعة» أي حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . والنسيم أيضا : جمع نسمة وهي النفس . (ع)

(187/508)

حالان مترادفتان أو متداخلتان . ومن قرأ لاهِيَةً بالرفع فالحال واحدة ، لأن لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ خبر بعد خبر ، لقوله وَهُمْ واللاهية : من لها عنه إذا ذهل وغفل ، يعنى أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلا ، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمّل والتبصر بقلوبهم . فإن قلت : النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية ، فما معنى قوله وَأَسَرُّوا ؟ قلت : معناه : وبالغوا في إخفائها . أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون ، أبدل الَّذِينَ ظَلَمُوا من واو وأسرّوا ، إشعارا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به . أو جاء على لغة من قال «أكلونى البراغيث» أو هو منصوب المحل على الذم . أو هو مبتدأ خبره وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قدم عليه : والمعنى : وهؤلاء أسروا النجوى .

فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ هذا الكلام كله في محل النصب بدلا من النجوى ، أى : وأسروا هذا

الحديث . ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرا : اعتقدوا أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يكون إلا ملكا ، وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر . فإن قلت :

لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه ؟ قلت : كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم ، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره ، وعمل المنصوبة في التثبيط عنه «1» . وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراهم ، ويتجاهدوا في طىّ سرّهم عنهم ما أمكن واستطيع . ومنه قول الناس «استعينوا على حوائجكم بالكتمان» ويرفع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» .

ويجوز أن يسرّوا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين : إن كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررنا .

[سورة الأنبياء (21) : آية 4]

قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)

---

(1) . قوله «وعمل المنصوبة في التثبيط عنه» كأن فيه سقطا . وفي الصحاح : نصبت لفلان نصبا : إذا عاديته . (ع)

(2) . روى موقوفا . قال : ويرفع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم أخرجه الطبراني والبيهقي

في الشعب الثالث والأربعين وابن عدى من رواية سعيد بن سلام العطار عن ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. وسعيد. قال البخاري: يذكر بالوضع، وتابعه حسين بن علوان عن ثور. وكان أيضا يضع الحديث. قاله ابن عدى وابن حبان وقال هاهنا عن أحمد وابن معين: هو حديث موضوع. وقال ابن أبى حاتم عن أبيه: منكر لا يعرف له أصل. وفي الباب عن أبى هريرة أخرجه حمزة السهمي في تاريخ جرجان. وفيه شميل بن عبد الرحمن الجرجاني رواه محمد بن مطرف وعند الهيثم بن أيوب الطالقاني، وعن ابن عباس أخرجه ابن حبان في الضعفاء. وفيه طاهر بن الفضل الحلبي. وهو متهم بالوضع. وله طريق أخرى من رواية الخلفاء للحسن بن على صاحب السلعة عن إبراهيم بن على ابن مالونة البلخي عن الطالبي عن إبراهيم بن معقل بسنده. وليس فيه غير الطالبي.

(188/508)

فإن قلت: هلا قيل: يعلم السر لقوله وَأَسَرُّوا النَّجْوَى «1» ؟ قلت: القول عام يشمل السرّ والجهر، فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السرّ، كما أنّ قوله: يعلم السرّ، آكد من أن يقول: يعلم سرهم. ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية. فإن قلت: فلم ترك هذا الآكد في سورة

الفرقان في قوله قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟ قلت : ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع ، ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى ، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتنانا ، وتجمع الغاية وما دونها ، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه ، من قبل أنه قدم هاهنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول :

إن ربى يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، وثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، فهو كقوله علام الغيوب عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ. وقرئ قالَ رَبِّي حكاية لقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لهم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 5]

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل لجلج «2» ، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد .

ويجوز أن يكون تنزيلا من اللّه تعالى لأقوالهم في درج الفساد : وأن قولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني ، وكذلك الرابع من الثالث . صحة التشبيه في قوله كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ

(1) . قال محمود : «إن قلت لم عدل عن قوله يعلم السر مع أن المتقدم وأسروا النجوى . . . الخ» قال أحمد :

وهذا من إتباع القرآن للرأى ، نعوذ باللّه من ذلك لا سيما رأى ينفى صفات الكمال عن اللّه تعالى وما الذي دل عليه السَّمِيعُ الْعَلِيمُ من نفى صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك ، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع ، ولا عليم إلا بعلم ، فإنها صفات مشتقات من مصادر لا بد من فهمها وثبوتها أولا ، ثم ثبوت ما اشتقت منه . ومن أنكر السمع والعلم فقد سارع إلى إنكار السميع العليم وهو لا يشعر . وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما الطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر . وأما الأدلة الكلامية فمن فنها تتلقى . وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزغات مختلف : فمرة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعارا بغرضه ، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع في الظهور ، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته ، حتى لا يحتمل ما يدعيه بوجه ما ، وقد يلجئنا الانصاف إلى تسليم الظهور له فنذكر وجه التأويل الذي يرشد إليه دليل العقل . ومرة يورد نبذا من هذا الرأى عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه ، وغرضه التعف حتى لا يخلى شيئا من كلامه من تعصب وإصرار على باطل ، فننبه على ذلك أيضا . وما ذكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه ، وقد أوضحناه .

(2) . قوله «الباطل لجلج» في الصحاح : الحق أبلج والباطل لجلج ، أى : يردد من غير أن ينفد . (ع)

(189/508)

من حيث أنه في معنى : كما أتى الأوّلون بالآيات ، لأنّ إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول : أرسل محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وبين قولك : أتى محمد بالمعجزة .

[سورة الأنبياء (21) : آية 6]

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)

أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا ، فأهلكهم اللّه . فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث .

[سورة الأنبياء (21) : آية 7]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7)

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب ، حتى يعلموهم أن رسل اللّه الموحى إليهم

كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا ، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . قال اللّه تعالى وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 8]

وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (8)

لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ صفة لجسدا ، والمعنى : وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوى جسد غير طاعمين . ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوى ضرب من الأجساد . وهذا ردّ لقولهم مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ . فإن قلت : نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشرا يأكل ويشرب بما ذكرت . فما ذا ردّ من قولهم بقوله وَما كانُوا خالِدِينَ ؟ قلت : يحتمل أن يقولوا إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت . أو يقولوا : هلا كان ملكا لا يطعم ويخلد : إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون . أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتدّ خلودا .

[سورة الأنبياء (21) : آية 9]

ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ مثل واختار موسى قومه . والأصل في الوعد : ومن قومه . ومنه :

صدقوهم القتال. وصدقنى سنّ بكره وَمَنْ نَشاءُ هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

[سورة الأنبياء (21) : آية 10]

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (10)

(190/508)

ذِكْرُكُمْ شرفكم وصيتكم، كما قال وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ أو موعظتكم. أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر «1»، كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والسخاء، وما أشبه ذلك،

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 11 إلى 15]

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (14) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15)

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم، لأنّ القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم. وأراد بالقرية: أهلها،

ولذلك وصفها بالظلم. وقال قَوْماً آخَرِينَ لأن المعنى : أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين.

وعن ابن عباس : أنها «حضور» وهي و«سحول» قريتان باليمن، تنسب إليهما الثياب. وفي الحديث «كفن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ثوبين سحوليين «2»» وروى «حضوريين «3»» بعث اللّه إليهم نبيا فقتلوه، فسلط اللّه عليهم بخت نصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم. وروى : أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء، ندموا واعترفوا بالخطإ، وذلك حين لم ينفعهم الندم. وظاهر الاية على الكثرة. ولعل ابن عباس ذكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها اللّه بهذه الآية. فلما علموا شدّة عذابنا وبطشتنا علم حسّ ومشاهدة، لم يشكوا فيها، ركضوا من ديارهم. والركض : ضرب الدابة بالرجل. ومنه قوله تعالى ارْكُضْ بِرِجْلِكَ فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب.

ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فقيل لهم. لا تَرْكُضُوا والقول محذوف. فإن قلت : من القائل؟ قلت يحتمل أن يكون بعض الملائكة

---

(1) . قوله «تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر» لعله «وحسن الذكر» بالواو فقط. (ع)

(2) . متفق عليه عن عائشة بلفظ «كفن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ثلاثة أثواب سحولية».

(3) . أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما، بلفظ «ثلاثة

أثواب : ثوبين حضوريين وثوب حبرة» وقال : تفرد به محمد بن إسحاق الصاغاني عن ابن الحوأب عن الثوري عن عاصم بن عبد اللّه عن سالم عن أبيه بهذا .

«فائدة» «حضور» بفتح المهملة وضم المعجمة : قرية بصنعاء قريبة من قرية عبد الرزاق .

(191/508)

أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل . أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم . أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ من العيش الرأفة والحال الناعمة . والإتراف : إبطار النعمة وهي الترفة لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ تهكم بهم وتوبيخ ، أى : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة . أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم . وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم : بم تأمرون ؟ وبماذا ترسمون ؟ وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدّمين ؟

أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب ، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ، ويستضيئون بآرائكم . أو يسألكم الوافدون عليكم

والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف «1» معروفكم وأياديكم: إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم، وتوبيخا إلى توبيخ تِلْكَ إشارة إلى يا ويلنا، لأنها دعوى، كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دَعْواهُمْ والدعوى بمعنى الدعوة. قال تعالى وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. فإن قلت: لم سميت دعوى؟ قلت:

لأن المولول كأنه يدعو الويل، فيقول تعالى: يا ويل فهذا وقتك. وتِلْكَ مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم. الحصيد: الزرع المحصود، أى: جعلناهم مثل الحصيد، شبههم به في استنصالهم واصطلامهم «2» كما تقول: جعلناهم رمادا، أى مثل الرماد. والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له، فلما دخل عليها جعل نصبها جميعا على المفعولية. فإن قلت كيف ينصب «جعل» ثلاثة مفاعيل؟ قلت: حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد، لأنّ معنى قولك «جعلته حلوا حامضا» جعلته جامعا للطعمين. وكذلك معنى ذلك: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 16 إلى 17]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17)

أى: وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق

مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوّى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ،

---

(1) . قوله «ويمترون أخلاف معروفكم» في الصحاح : الريح تمرى السحاب وتمتريه ، أى تستدره . وفيه أيضا :

الخلف - بالكسر - حلية ضرع الناقة . (ع)

(2) . قوله «واصطلامهم» في الصحاح «الاصطلام» الاستئصال . (ع)

(192/508)

للهو واللعب ، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعدّ والمرافق التي لا تحصى . ثم بين أنّ السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالى : هو أن الحكمة صارفة عنه ، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأنى على كل شيء قدير . وقوله لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا كقوله رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا أى من جهة قدرتنا . وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن . وقيل المرأة . وقيل من لدنا ، أى من الملائكة لا من الإنس ، ردّا لولادة المسيح وعزير .

[سورة الأنبياء (21) : آية 18]

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

بَلْ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب «1» ، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد ، وندحض الباطل بالحق . واستعار لذلك القذف «2» والدمغ ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا ، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه «3» ، ثم قال وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته . وقرئ : فيدمغه بالنصب ، وهو في ضعف قوله :

---

(1) . قال محمود : «معناه سبحاننا أن نتخذ لهوا ولعبا . . . الخ» قال أحمد : وله تحت قوله واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة ، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم ، وذلك أن القدرية يوجبون على اللّه تعالى رعاية المصالح وفعل ما يتوهمونه حسنا بعقولهم ، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك ، فلا يستغنى الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح ، فان الحكمة تقتضي الاستغناء عنه ، فالى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزعة سبق إليها ضلال الفلاسفة . ومن ثم يقولون : ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم ، لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن ، ثم لم يخلقه اللّه تعالى : لكان بخلا ينافي الجود ، أو عجزا ينافي القدرة ، حتى انبعهم في ذلك من لا نسميه من أهل الملة - عفا اللّه عنه - إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو . فالحق أن اللّه تعالى مستغن

عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة. وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسنا، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحا، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فبقدرته وجد، فليس في الوجود إلا اللّه وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره، وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكه شيئا، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكه شيئا. اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به.

(2). عاد كلامه. قال: «وفي قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل استعارة حسنة: استعار القذف... الخ» قال أحمد: ومثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت: إن الحسنات يذهبن السيئات، واللّه أعلم. [.....]

(3). قوله «فدمغه» في الصحاح: أى شجه حتى بلغت الشجة الدماغ. (ع)

سأترك منزلي لبنى تميم وألحق بالحجاز فاستريحا «1»

وقرئ فيدمغه.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 19 إلى 20]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20)

وَمَنْ عِنْدَهُ هم الملائكة. والمراد أنهم مكرمون، منزلون - لكرامتهم عليه - منزلة المقرّبين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه «2». فإن قلت:

الاستحسار مبالغة في الحسور «3»، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور. قلت في الاستحسار بيان أنّ ما هم فيه يوجب غاية الحسور «4» وأقصاه، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون. أى، تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم، لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر.

[سورة الأنبياء (21): آية 21]

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21)

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر: هو اتخاذهم آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ الموتى «5»، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات. فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر «6» وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا - مع إقرارهم للّه عزّ وجل بأنه خالق السماوات والأرض وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى - منكرين البعث ويقولون : من يحيى العظام وهي رميم ، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثانى القديم ، فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأسا ؟ قلت : الأمر

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 557 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت لم استعمل الاستحسار هاهنا في النفي . . . الخ» قال أحمد : وبمثله أجيب عن قوله تعالى وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فانظره .

(4) . قوله «يوجب غاية الحسور» أى الكلال . أفاده الصحاح . (ع)

(5) . قوله «هم ينشرون الموتى» الأبشار : الأحياء بعد الموت . أفاده الصحاح . (ع)

(6) . قال محمود : «إن قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة . . . الخ» قال أحمد : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها وهو أبلغ في الإنكار ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

كما ذكرت، ولكنهم بادّعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات. وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل، وإشعار بأنّ ما استبعدوه من اللّه لا يصح استبعاده، لأنّ الإلهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة. ونحو قوله مِنَ الْأَرْضِ قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد: مكي أو مدني. ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض: لأنّ الآلهة على ضربين: أرضية وسماوية. ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أين ربك»؟ فأشارت إلى السماء، فقال إنها مؤمنة «1» لأنه فهم منها أنّ مرادها نفى الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكانا للّه عزّ وجلّ. ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض، لأنها إمّا أن تنحت من بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض. فإن قلت: لا بدّ من نكتة في قوله هُمْ «2» قلت: النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم. وقرأ الحسن يُنْشِرُونَ وهما لغتان: أنشر اللّه الموتى، ونشرها. وصفت آلهة بإلا كما توصف بغير، لو قيل آلهة غير اللّه.

---

(1). أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

(2) . عاد كلامه . قال محمود : «إن قلت لا بد لقوله هُمْ من فائدة ، وإلا فالكلام مستقل بدونها . . . الخ» قال أحمد : وفي هذه النكتة نظر ، لأن آلات الحصر مفقودة ، وليس ذلك من قبيل : صديقي زيد ، فان المبتدأ في الآية أخص شيء لأنه ضمير . وأيضا فلا ينبغي على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم ، وتخصيص الانشار بهم ، ونفيه عن اللّه تعالى ، إذ هذا لا يناسب السياق ، فانه قال عقبها : لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا . ومعناه : لو كان فيهما إله غير اللّه شريكا للّه لفسدتا ، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال : لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا . وأما والمتلوّ على خلاف ذلك ، فلا وجه لما قال الزمخشري . وعندي أنه يحتمل واللّه أعلم أن تكون فائدة قوله هُمْ الإيذان بأنهم لم يدعوا لها الانشار ، وأن قوله هُمْ يُنْشِرُونَ استئناف إلزام لهم ، وكأنه قال : اتخذوا آلهة مع اللّه عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة ، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى ، نظم في إبطال هذه الدعوى وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا وأزيد هذا التقرير وضوحا فأقول : إن دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية ، المقتبس من نورها ، يورده المتكلمون على صورة التقسيم ، فيقولون : لو وجد مع اللّه إله آخر ، وربما قالوا : لو فرضنا وجود إلهين ، فاما أن يكونا جميعا موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات ، أو لا يتصف بها واحد منهما أو

أحدهما دون الآخر، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف. وأدق الأقسام إبطالا قسم اتصافهما جميعا بصفات الكمال، وما عداه فبادئ الرأى يبطل.

فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان، فأوضح فساده في أخصر أسلوب وأوجزه، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه. وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله هُمْ يُنْشِرُونَ إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم، حتى يتحرى أنهم اختاروا القسم الذي أبطله اللّه تعالى، ووكل إبطال ما عداه من الأقسام إلى ما ركبه في عباده من العقول، وكل خطب بعد بطلان هذا القسم جلل، واللّه الموفق. فتأمل هذا الفصل بعين الانصاف. تجده أنفس الانصاف، واللّه المستعان.

(195/508)

[سورة الأنبياء (21) : آية 22]

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

فإن قلت: ما منعك من الرفع على البدل؟ قلت: لأنّ «لو» بمنزلة «إن» في أنّ الكلام معه موجب، والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ وذلك لأنّ أعم العامّ يصح نفيه ولا يصح إيجابه. والمعنى: لو كان يتولاهما ويدبر

أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا . وفيه دلالة على أمرين ،

أحدهما :

وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا . والثاني : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله إِلَّا اللَّهُ . فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف . وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو ابن سعيد الأشدق : كان واللّه أعزّ عليّ من دم ناظري ، ولكن لا يجتمع فحلان في شول «1» وهذا ظاهر . وأمّا طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد ، ولأنّ هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقرّ .

[سورة الأنبياء (21) : آية 23]

لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23)

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيبا وإجلالا ، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم - كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله ، مع ما علم واستقرّ في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ «2» ولا فعل القبائح «3»

---

(1) . قوله «لا يجتمع فحلان في شول» في الصحاح «الشول» النوق التي خف لبنها وارتفع

ضرعها . (ع)

(2) . قال محمود : «لما بين تعالى أنه رب الأرباب وخالقهم ومالكهم ، ناسب هذا التنبيه على ما يجب له تعالى علي خلقه من الإجلال والإعظام ، فان آحاد الملوك تمنع مهابته أن يسئل عن فعل فعله ، فما ظنك بخالق الملوك وربهم . ثم إن آحاد الملوك يجوز عليهم الخطأ والزلل وقد استقر في العقول أن أفعال اللّه تعالى كلها مفعول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» قال أحمد : سحقا لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع اللّه تعالى ، أعنى قوله :

دواعي الحكمة ، فان الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين ، كقولك : هو مما توفر دواعي الناس إليه أو صوارفهم عنه . وقوله «لا يجوز عليه فعل القبائح» قلت : وهذا من الطراز الأول ، ولو أنه في الذيل :

فقد نسيت وما بالعهد من قدم

وبعد ما انقضى دليل التوحيد وإبطال الشرك من سمعك أيها الزمخشري ، وقلمك رطب بتقريره ، فلم نكصت وانتكست ؟ أتقول إن أحدا شريك للّه في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح فتنفيها عن قدرة اللّه تعالى وإرادته . وما الفرق بين من يشرك للّه ملكا من الملائكة ، وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول : إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء اللّه أو لم يشأ ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا . والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك ، لأن

غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات ، نعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك .

(3) . قوله «ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فهو الفاعل للخير والشر ، كما بين في علم التوحيد . (ع)

(196/508)

وَهُمْ يُسْئَلُونَ أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون ، فما خلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم ؟ في كل شيء فعلوه .

[سورة الأنبياء (21) : آية 24]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

كرّر أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم ، أى : وصفتم اللّه تعالى بأنّ له شريكا ، فهاتوا برهانكم على ذلك : إمّا من جهة العقل ، وإمّا من جهة الوحى ، فإنكم لا تجدون كتابا من كتب الأوّلين إلا وتوحيد اللّه وتنزيهه عن الأنداد مدعوّ إليه ، والإشراك به منهى عنه متوعد عليه . أى هذا الوحى الوارد في معنى توحيد اللّه ونفى

الشركاء عنه، كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء، فهو ذكر: أي عظة للذين معي: يعني أمّته، وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء عليهم السلام. وقرئ ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بالتنوين. ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً وهو الأصل والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ وقرئ مَنْ مَعِيَ وَمَنْ قَبْلِي على من الإضافية في هذه القراءة. وإدخال الجار على «مع» غريب، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف، نحو: قبل، وبعد، وعند، ولدن، وما أشبه ذلك، فدخل عليه «من» كما يدخل على أخواته. وقرئ: ذكر معي وذكر قبلي. كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الشرّ والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم، وعدم التمييز بين الحق والباطل، فمن ثم جاء هذا الإعراض، ومن هناك ورد هذا الإنكار. وقرئ «الحق» بالرفع على توسيط التوكيد بين السبب والمسبب. والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل.

ويجوز أن يكون المنصوب أيضا على هذا المعنى، كما تقول: هذا عبد اللّه الحق لا الباطل.

[سورة الأنبياء (21): آية 25]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

يوحى ونُوحِي

: مشهورتان. وهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 26 إلى 29]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28)

(197/508)

نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة، إلا أنهم مُكْرَمُونَ مقرّبون عندي مفضلون «1» على سائر العباد، «2» لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم، فذلك هو الذي غرّ منهم من زعم أنهم أولادى، تعاليت عن ذلك علوا كبيرا. وقرئ مكرّمون. ولا يَسْبِقُونَهُ بالضم، من: سابقته فسبقته أسبقه. والمعنى: أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله. والمراد:

بقولهم، فأنيب اللام مناب الإضافة، أى لا يتقدّمون قوله بقولهم، كما تقول: سبقت بفرسي فرسه، وكما أنّ قولهم تابع لقوله، فعملهم أيضا كذلك مبنى على أمره: لا يعملون

عملا ما لم يؤمروا به. وجميع ما يأتون ويذرون مما قدّموا وأخروا بعين اللّه، وهو مجازيهم عليه، فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم، ويراعون أحوالهم، ويعمرون أوقاتهم. ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه اللّه وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم، ثم أنهم مع هذا كله من خشية اللّه مُشْفِقُونَ أى متوقعون من أمارة ضعيفة، كائنون على حذر ورقبة «3» لا يأمنون مكر اللّه. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس «4» من خشية «5» اللّه. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 100. 112﴾

---

(1). قال محمود: «معناه مكرمون مفضلون على سائر عباد اللّه» قال أحمد: وهذا التفسير من جعل القرآن تبعا للرأى، فانه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله، وتناول منها ما لا تعطيه، لأنه ادعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم، فدعواه شاملة ودليله مطلق، واللّه الموفق.

(2). قوله «مفضلون على سائر العباد» هذا عند المعتزلة، وبعض البشر أفضل منهم عند أهل السنة. (ع) [. . . . .]

(3). قوله «ورقبة» بالكسر، أى: انتظار. أفاده الصحاح. (ع)

(4). قوله «كالحلس» بكسر فسكون. أو بفتحتين: كساء رقيق يكون تحت البرذعة أو

تحت الرحل. أفاده الصحاح. (ع)

(5) . أخرجه ابن خزيمة من رواية مرة عن ابن مسعود «أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ذكر سدرة المنتهى - الحديث» قال فوقع جبريل فصار كالحلس الملقى» إسناده قوى. وغلط ابن الجوزي في تضعيفه لمحمد بن ميمون شيخ ابن خزيمة، فانه ثقة - وفي الطبراني الأوسط وتفسير ابن مردويه من رواية عبد الكريم الجزري عن عطاء عن جابر رفعه «مررت في السماء الرابعة بجبريل، وهو كالحلس البالي من خشية اللّٰه» إسناده قوى. وروى ابن خزيمة في التوحيد وابن سعد وسعيد بن منصور والبزار والبيهقي في الشعب والدلائل والطبراني في الأوسط، كلهم من رواية أبى قلابة الحارث بن أبى عمران الحوفى عن أنس رفعه «بينما أنا قاعد إذ جاء جبريل. فوكز بين كتفي فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطائر فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر. فسمت بنا فارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى. ولو شئت أن أمسس لمسست. فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاطئ. فعرفت فضل علمه باللّٰه عليّ. وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم - الحديث» قال البزار: لا نعلم رواه عن أبى عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره: خالفه حماد بن سلمة عن أبى عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره: خالفه حماد ابن سلمة عن أبى عمران. فقال: عن محمد بن عمير بن عطاء مرسلا كذلك أخرجه ابن المبارك في الزهد عن حماد.

وفي رواية «فعرفت فضل خشيته على خشيتي» وزاد فيه فأوحى الله إليه أنبيا عبدا أم نبيا ملكا . فاومأ إلى جبريل عليه السلام : بل نبيا عبدا .

(198/508)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾

أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم يوم القيامة .

نزل في منكري البعث وإنما ذكر الله هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين ، فيكونون أقرب إلى التأهب له ، والمراد بالناس المحاسبون وهم المكلفون دون غيرهم ، وقيل هم المشركون وهذا من باب إطلاق اسم الجنس على بعضه ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾ أي عن التأهب له وقيل معناه أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ثم إذا نبهوا من سنة الغفلة بما يتلى من الآيات والنذر أعرضوا عنه ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظمهم به وقيل معناه إن الله يحدث الأمر بعد الأمر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور

والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافة إليه لأن الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ أي لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ أي ساهية معرضة غافلة عن ذكر الله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي بالغوا في أخفاء التناحي وهم الذين أشركوا ثم بين سرهم الذي تناجوا به، فقال تعالى مخبراً عنهم ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعني أنهم أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة والأولى إرسال البشر إلى البشر لأن الإنسان إلى القبول من أشكاله أقرب ﴿ أفتأتون السحر ﴾ يعني أتحضرون السحر وتقبلونه ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ يعني تعلمون أنه سحر ﴿ قال ﴾ لهم محمد ﴿ ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ يعني لا يخفى عليه شيء ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بأفعالهم.

قوله:

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ يعني أباطيل وأهاويل رآها في النوم ﴿ بل افتراه ﴾ يعني اختلقه ﴿ بل هو شاعر ﴾ وذلك أن المشركين اقتسموا القول في النبي (صلى الله عليه

وسلم) وفيما يقوله ، فقال بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم بل هو فرية وقال بعضهم هو شاعر وما جاءكم به شعر ﴿ فليأتنا ﴾ يعني النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ بآية ﴾ يعني بحجة إن كان صادقاً ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ أي من الرسل بالآيات قال الله تعالى مجيباً لهم ﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿ من قرية ﴾ أي من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿ أهلكناها ﴾ يعني بالتكذيب ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ يعني إن جاءتهم آية والمعنى أن أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما جاءتهم أفيؤمن هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ هذا جواب لقولهم هل هذا إلا بشر مثلكم ، والمعنى إنا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالاً يوحى إليهم مثلك ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ يعني أهل التوراة والإنجيل يريد علماء أهل الكتاب ، فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشراً وإن أنكروا نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) أمر الله المشركين بسؤال أهل الكتاب لأن المشركين أقرب إلى تصديقهم من تصديق من آمن بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل أراد بالذكر القرآن يعني فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ قوله : ﴿ وما جعلناهم ﴾ أي الرسل ﴿ جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ هذا رد لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، والمعنى لم نجعلهم ملائكة بل جعلناهم بشراً يأكلون الطعام ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ يعني في الدنيا بل يموتون كغيرهم ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ يعني الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء

﴿ يعني من المؤمنين الذي صدقوهم ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ يعني المشركين لأن المشرك مسرف على نفسه.

(200/508)

قوله: ﴿ لقد أنزلنا إليكم ﴾ يعني يا معشر قريش ﴿ كتاباً فيه ذكركم ﴾ يعني شرفكم وفخركم وهو شرف لمن آمن به، وقيل معناه فيه حديثكم، وقيل فيه ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فيه بعث على التدبر لأن الخوف من لوازم العقل.

قوله تعالى: ﴿ وكم قصمنا ﴾ يعني أهلكنا ﴿ من قرية كانت ظالمة ﴾ يعني كافرة والمراد أهل القرية ﴿ وأنشأنا بعدها ﴾ أي أحدثنا بعد هلاك أهلها ﴿ قوماً آخرين فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي عذابنا بحاسة البصر ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ يعني يسرعون هاربين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب ﴿ لا تركضوا ﴾ يعني قيل لهم لا تهربوا ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ يني تنعمتم فيه من العيش ﴿ ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ قال ابن عباس عن قتل نبيكم، قيل نزلت هذه الآية في أهل حضرموت قرية باليمن، وكان أهلها عرباً فبعث الله إليهم نبياً يدعوهم إلى الله فكذبوه وقتلوه، فسلط الله عليهم بختنصر فقتلهم

وسباهم ، فلما استمر فيهم القتل هربوا فقالت الملائكة لهم استهزاء لا تركضوا ، أي لا تهربوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسألون شيئاً من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم ، فإنكم أهل ثروة ونعمة فأتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ، ونادى مناد من جو السماء يا لثارات الأنبياء فلما رأوا ذلك ، أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ يعني لأنفسنا حين كذبنا الرسل وذلك أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب ، وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ يعني تلك الكلمة هو قولهم يا ويلنا ﴿ حتى جعلناهم حصيداً ﴾ يعني بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿ خامدين ﴾ يعني ميتين .

(201/508)

قوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ معناه ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو ، سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصى ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ قال ابن عباس : اللهو المرأة وعنه أنه الولد ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ يعني من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض ، وقيل معناه لو كان ذلك جائزاً في حقنا

لم تتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر ، ذلك حتى لا تطلعوا عليه ، وذلك أن النصارى لما قالوا ، في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم لا تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ يعني ما كنا فاعلين ، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق بالربوبية ﴿ بل ﴾ يعني دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل ﴿ نقذف ﴾ يعني نرمي ونسلط ﴿ بالحق ﴾ يعني بالإيمان ﴿ على الباطل ﴾ يعني على الكفر ، وقيل الحق قول الله أنه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولداً ﴿ فيدمغه ﴾ فيهلكه ﴿ فإذا هو زاهق ﴾ يعني ذاهب والمعنى أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يذهب ويضمحل ، ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى ﴿ ولكم الويل ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مما تصفون ﴾ الله بما لا يليق من الصحابة والولد ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ يعني عبيداً وملكاً وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ﴿ ومن عنده ﴾ يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها ﴿ ولا يستحسرون ﴾ يعني لا يعيون ولا يتبعون ، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ يعني لا يضعفون ولا يسأمون ، وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ

أو شغل أخر قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم ﴿ آم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهم من المعادن وهي من الأرض ﴿ هم ينشرون ﴾ يعني يحيون الأموات إذ لا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم ، وهو الله ﴿ لو كان فيهما ﴾ يعني في السماء والأرض ﴿ آلهة إلا الله ﴾ يعني غير الله ﴿ لفسدتا ﴾ يعني لخربتا وهلك من فيهما الوجود والتمانع من الآلهة لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام وقال الإمام فخر الدين الرازي قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال ، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً ، وإنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين ، فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات ، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه .

لو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه وأراد تسكينه ، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعن معاً وذلك محال أو يقع مراد أحدهما : دون الثاني وذلك أيضاً محال لوجهين أحدهما أنه لو كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر ، بل لا بد

وأن يستويا في القدرة وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح .

وثانيهما : أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادراً والذي لم يقع مراده يكون عاجزاً والعجز نقص ، وهو على الإله محال .

(203/508)

ولو فرضنا إلهين ، لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضي إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد ، وهو محال لأن إسناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لإمكانه ، فإذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد فالفعل لكونه من هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلاً منهما جميعاً ، فيلزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه إليهما معاً ، وذلك محال وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد فنقول القول بوجود إلهين يفضي إلى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً ، أو نقول لو قدرنا إلهين فإما أن يتفقا أو يختلفا ، فإن اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما ، وهو محال وإن اختلفا فإما أن يقع المرادن أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثاني والكل محال

فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات .

واعلم أنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى .

(204/508)

وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة في القرآن ، واعلم أن كل من طعن في دلالة التمانع ففسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والأرض آلهة يقول بإلهيتها عبدة الأصنام ، لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم في قوله : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وأما قوله ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ ففيه تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ يعني لا يسأل عما يفعله ويقضيه في خلقه ﴿ وهم يسألون ﴾ يعني والناس عن أعمالهم ، والمعنى أنه لا يسأل عما يحكم في عباده من إعزاز وإذلال وهدى وإضلال وإسعاد وإشقاء لأنه الرب مالك الأعيان والخلق يسألون سؤال توبيخ .

يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم .

والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشيء فعله لم فعلته .

قوله : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ لما أبطل الله تعالى أن تكون آلهة سواه ، بقوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال أم اتخذوا من دونه آلهة وهو استفهام إنكار وتوبيخ ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ أي حجتكم على ذلك ثم قال مستأنفاً ﴿ هذا ﴾ يعني القرآن ﴿ ذكر من معي ﴾ يعني فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿ وذكر ﴾ يعني خبر ﴿ من قبلي ﴾ أي من الأمم السالفة وما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة .

(205/508)

وقال ابن عباس ذكر من معي القرآن وذكر من قبلي التوراة والإنجيل ، والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب ، هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولداً أو كان معه آلهة ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ أي فوحدوني ، وقيل لما توجهت الحجة عليهم ، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق ، فقال بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، أي عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الإيمان بأنه لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ نزه نفسه عما قالوا .

﴿ بل عباد ﴾ أي هم عباد يعني الملائكة ﴿ مكرمون ﴾ أي أكرمهم الله واصطفاهم ﴿ لا يسبقونه ﴾ أي لا يتقدمونه ﴿ بالقول ﴾ أي يتكلمون إلا بما يأمرهم به ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ المعنى أنهم لا يخالفونه قولاً ولا عملاً ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما عملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ قال ابن عباس إلا لمن قال لا إله إلا الله وقيل إلا لمن رضى الله تعالى عنه ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون لا يأمنون مكره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 288. 293 ﴾

(206/508)

وقال النسفى :

﴿ اقترب ﴾ دنا ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ اللام صلة لاقتراب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس المشركون لأن ما يتلوه من صفات المشركين ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ وقت محاسبة الله إياهم ومجازاته على أعمالهم يعني يوم القيامة ، وإنما

وصفه بالاقتراب لقلة ما بقي بالإضافة إلى ما مضى ولأن كل آتٍ قريب ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ عن حسابهم وعما يفعل بهم ثم ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التأهب لذلك اليوم فالاقتراب عام والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين، فرب غافل عن حسابه لاستغراقه في دنياه وإعراضه عن مولاه، ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه وإعراضه عن دنياه فهو لا يفيق إلا برؤية المولى، والأول إنما يفيق في عسكر الموتى فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب وتتنبه للعرض قبل أن تنبه، وتعرض عن الغافلين وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين لتفوز بلقاء رب العالمين ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ ﴾ شيء من القرآن ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ في التنزيل إتيانه، مبتدأة تلاوته، قريب عهده باستماعهم، والمراد به الحروف المنظومة.

ولا خلاف في حدوثها ﴿ إِلاَّ استمعوه ﴾ من النبي عليه السلام أو غيره ممن يتلوه ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يستهزئون به.

﴿ لاَهِيَةً ﴾ حال من ضمير يلعبون أو ﴿ وهم يلعبون ﴾ و ﴿ لاهية ﴾ حالان من الضمير في استمعوه.

ومن قرأ ﴿ لاَهِيَةً ﴾ بالرفع يكون خبراً بعد خبر لقوله: ﴿ وهم ﴾ وارتفعت ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ ب ﴿ لاهية ﴾ وهي من لها عنه إذا ذهل وغفل، والمعنى قلوبهم غافلة عما يراد بها

، ومنها قال أبو بكر الوارق: القلب اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ وبالغوا في إخفاء ﴿ النجوى ﴾ وهي اسم من التناجي.

(207/508)

ثم أبدل ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ من واو ﴿ وأسروا ﴾ إيذاناً بأنهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به، أو جاء على لغة من قال "أكلوني البراغيث"، أو هو مجرور المحل لكونه صفة أو بدلاً من الناس، أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره ﴿ أسروا النجوى ﴾ فقدم عليه أي والذين ظلموا أسروا النجوى ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ هذا الكلام كله في محل النصب بدل من النجوى أي وأسروا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق ب "قالوا" مضمراً والمعنى أنهم اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر ﴿ قَالَ رَبّى ﴾ حمزة وعلي وحفص أي قال محمد وغيرهم ﴿ قل ربي ﴾ أي قل يا محمد للذين أسروا النجوى ﴿ يَعْلَمُ القول فِى السماء والأرض ﴾ أي يعلم قول كل قائل هو في السماء أو الأرض سراً كان أو جهراً ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بما في

ضمائرهم .

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام رآها في نومه فتوهمها وحياً من الله إليه ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج والمبطل رجاع غير ثابت على قول واحد ، ثم قالوا إن كان صادقاً في دعواه وليس الأمر كما يظن ﴿ فليأتنا بآية ﴾ بمعجزة ﴿ كَمَآ أُرْسِلَ الأولون ﴾ كما أرسل من قبله باليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى ، وصحة التشبيه في قوله كما ﴿ أرسل الأولون ﴾ من حيث إنه في معنى كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ، ألا ترى أنه لا فرق بين قولك "أرسل محمد" وبين قولك "أتى بالمعجزة" فرد الله عليهم قولهم بقوله .

(208/508)

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ من أهل قرية ﴿ أهلكناها ﴾ صفة ل ﴿ قرية ﴾ عند مجيء الآيات المقترحة لأنهم طلبوها تعنتاً ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا مع أنهم أعني منهم ، والمعنى أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا

وخالفوا فأهلكهم الله فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضاً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ هذا جواب قولهم هل هذا إلا بشر مثلكم ﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ ﴿ نُوحِي ﴾ حفص ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ العلماء بالكتابين فإنهم يعرفون أن الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة وكان أهل مكة يعتمدون على قولهم ﴿ إِن كُنتُم لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

ثم بين أنه كمن تقدمه من الأنبياء بقوله ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَدًا ﴾ وحد الجسد لإرادة الجنس ﴿ لَّا يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ صفة ل ﴿ جسداً ﴾ يعني وما جعلنا الأنبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين ﴿ وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ كأنهم قالوا هلا كان ملكاً لا يطعم ويخلد ، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاولة خلودا ﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ بإنجائهم والأصل في الوعد مثل ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] أي من قومه ﴿ فأنجيناهم ﴾ مما حل بقومهم ﴿ وَمَن نَّشَاء ﴾ هم المؤمنون ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ المجاوزين الحد بالكفر ودل الإخبار بإهلاك المسرفين على أن من نشاء غيرهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا معشر قريش ﴿ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ شرفكم إن عملتم به أو لأنه بلسانكم أو فيه موعظتكم أو فيه ذكر دينكم ودنياكم والجملة أي فيه ذكركم صفة ل ﴿ كتاباً ﴾ ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنوا ﴿ وَكَمْ ﴾ نصب بقوله ﴿ قَصَمْنَا ﴾ أي أهلكنا ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ أي أهلها بدليل قوله ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ كافرة وهي واردة عن غضب شديد وسخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم فإنه كسر بلا إبانة ﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ خلقنا ﴿ بَعْدَهَا قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ فسكنوا مساكنهم.

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّواْ ﴾ أي المهلكون ﴿ بَأْسَنَا ﴾ عذابنا أي علموا علم حس ومشاهدة ﴿ إِذَا هُمْ مِّنْهَا ﴾ من القرية و﴿ إذا ﴾ للمفاجأة و﴿ هم ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ يَرْكُضُونَ ﴾ يهربون مسرعين، والركض ضرب الدابة بالرجل فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، أو شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم ﴿ لاَ تَرْكُضُواْ ﴾ والقائل بعض الملائكة ﴿ وارجعوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ نعمتم فيه من الدنيا ولين العيش.

قال الخليل: المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه ﴿ ومساكنكم لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾

أي يقال لهم استهزاء بهم: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى

عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم

في مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقولوا لكم بم تأمرون

وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين، أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل

الخطوب، أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحاب أكفكم، أو قال

بعضهم لبعض: لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم وأموالكم لعلكم تسألون مالاً وخراجاً فلا

تقتلون، فنودي من السماء يا لثارات الأنبياء وأخذتهم السيوف فثم

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترافهم بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف.

﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ ﴾ هي إشارة إلى يا ويلنا ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ دعاءهم و﴿ تلك ﴾

مرفوع على أنه اسم ﴿ زالت ﴾ و﴿ دعواهم ﴾ الخبر ويجوز العكس ﴿ حتى

جعلناهم حَصِيداً ﴾ مثل الحصيد أي الزرع المحصود ولم يجمع كما لم يجمع المقدر ﴿

خامدين ﴾ ميتين خمود النار و﴿ حصيدا خامدين ﴾ مفعول ثان ل "جعل" أي

جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود كقولك "جعلته حلواً حامضاً" أي جعلته جامعاً

للطعمين.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ اللعب فعل يروق أوله ولا ثبات له ، ولاعبين حال من فاعل ﴿ خلقنا ﴾ والمعنى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلق للهو واللعب ، وإنما سويناها ليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا ، ثم نزه ذاته عن سمات الحدوث بقوله ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ أي ولداً أو امرأة كأنه رد على من قال : عيسى ابنه ومريم صاحبته ﴿ لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ من الولدان أو الحور ﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ أي إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقنا .

وقيل : هو نفي كقوله ﴿ وإن أدري ﴾ [الأنبياء : 109] أي ما كنا فاعلين

﴿ بَلْ نَقْذِفُ ﴾ "بل" إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا أن نقذف أي نرمي ونسلط ﴿ بالحق ﴾ بالقرآن ﴿ عَلَى الباطل ﴾ الشيطان أو بالإسلام على الشرك أو بالجد على اللعب ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فيكسره ويدحض الحق الباطل ، وهذه استعارة لطيفة لأن أصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام ، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل والدمغ لإذهاب الباطل فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي فكأنه قيل : بل نورد الحق الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه

بالجسم الضعيف فيبطله إبطال الجسم القوي الضعيف ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ أي الباطل ﴿ زَاهِقٌ ﴾ هالك ذاهب ﴿ وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ الله به من الولد ونحوه .

(212/508)

﴿ وَلَهُ مَن فِى السماوات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً فأنى يكون شيء منه ولداً له وبينهما تنافٍ ويوقف على ﴿ الأرض ﴾ لأن ﴿ ومن عنده ﴾ منزلة ومكانة لا منزلاً ولا مكاناً يعني الملائكة مبتدأ خبره ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ لا يتعظمون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ولا يعيون ﴿ يُسَبّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ حال من فاعل ﴿ يسبحون ﴾ أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر فتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا .

ثم أضرب عن المشركين منكراً عليهم وموبخاً فجاء ب "أم" التي بمعنى "بل" والهمزة فقال ﴿ أَمِ اتخذوا الِهَةً مّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ يحيون الموتى ومن الأرض صفة ل ﴿ الهة ﴾ لأن الهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب والفضة والحجر أو تعبد في الأرض فنسبت إليها كقولك "فلان من المدينة" أي مدني ، أو متعلق ب ﴿ اتخذوا ﴾ ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ ، وفي قوله ﴿ هم ينشرون ﴾ زيادة توبيخ وإن لم يدعوا أن

أصنامهم تحيي الموتى ، وكيف يدعون ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات لأنه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار ، لأن العاجز عنه لا يصح أن يكون إلهاً إذ لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور والإنشار من جملة المقدورات .

وقرأ الحسن ﴿ ينشرون ﴾ بفتح الياء وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أي أحياها .

(213/508)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ ﴾ أي غير الله وصفت آلهة ب "إلا" كما وصفت ب "غير" لو قيل آلهة غير الله ، ولا يجوز رفعه على البدل لأن "لو" بمنزلة "إن" في أن الكلام معه موجب والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب كقوله تعالى ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امرأتك ﴾ [هود : 81] ولا يجوز نصبه استثناء لأن الجمع إذا كان منكراً لا يجوز أن يستثنى منه عند المحققين لأنه لا عموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء ، والمعنى لو كان يدبر أمر السماوات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه في أصول الكلام .

ثم نزه ذاته فقال ﴿ فسبحان الله ربّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والشريك .

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لأنه المالك على الحقيقة ، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده

مع وجود التجانس وجواز الخطأ عليه وعدم الملك الحقيقي لاستقبح ذلك وعد سفهاً ،

فمن هو مالك الملوك ورب الأرباب وفعله صواب كله أولى بأن لا يعترض عليه ﴿ وَهُمْ

يُسْئَلُونَ ﴾ لأنهم مملوكون خطاؤون فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم في كل شيء فعلوه .

وقيل : وهم يسئلون يرجع إلى المسيح والملائكة أي هم مسئولون فكيف يكونون آلهة

والألوهية تنافي الجنسية والمسئولية ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ ءالِهَةً ﴾ الإعادة لزيادة الإفادة

فالأول للإنكار من حيث العقل ، والثاني من حيث النقل أي وصفتم الله تعالى بأن يكون له

شريك فقيل لمحمد ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ حجتكم على ذلك وذا عقلي وهو يأباه كما

مر ، أو نقلي وهو الوحي وهو أيضاً يأباه فإنكم لا تجدون كتاباً من الكتب السماوية إلا وفيه

توحيده وتنزيهه عن الأنداد ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ يعني أمته ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ يعني

أمم الأنبياء من قبلي وهو وارد في توحيد الله ونفي الشركاء عنه .

﴿ معي ﴾ حفص .

(214/508)

فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم فقال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ أي القرآن

وهو نصب ب ﴿ يعلمون ﴾ وقرىء ﴿ الحق ﴾ أي هو الحق ﴿ فَهُمُ ﴾ لأجل ذلك ﴿

مُّعْرِضُونَ ﴾ عن النظر فيما يجب عليهم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ ﴾ ﴿ إِلَّا نُوحِى ﴾ كوفي غير أبي بكر وحماد ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾ وحدوني فهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُۥ ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد بقوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي بل هم عباد مكرمون مشرفون مقربون وليسوا بأولاد إذ العبودية تنافي الولادة ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ ﴾ أي بقولهم فأنيبت اللام مناب الإضافة، والمعنى أنهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يتقدمون قوله بقولهم ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أي كما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً مبني على أمره لا يعملون عملاً لم يأمروا به ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي ما قدموا وأخروا من أعمالهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ أي لمن رضي الله عنه وقال لا إله إلا الله ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 71.76 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ اقترب لِلنّاس حسابهم ﴾

بالإضافة إلى ما مضى أو ما عند الله لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ وقوله ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أو لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقرض ومضى ، واللام صلة ل ﴿ اقترب ﴾ أو تأكيد للإضافة وأصله اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم ، وخص الناس بالكفار لتقييدهم بقوله : ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ أي في غفلة عن الحساب . ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التفكر فيه وهما خبران للضمير ، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ ﴾ ينبههم من سنة الغفلة والجهالة . ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ صفة ل ﴿ ذِكْرٍ ﴾ أو صلة ل ﴿ يَأْتِيهِم ﴾ . ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ تنزيله ليكرر على أسماعهم التنبيه كي يتعظوا ، وقرىء بالرفع حملاً على المحل . ﴿ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حال من الواو وكذلك :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكر فيه ، ويجوز أن يكون من واو ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ وقرئت بالرفع على أنها خبر آخر للضمير. ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث خفي تناجيهم بها . ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ بدل من واو ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به ، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره وأصله وهؤلاء أسروا النجوى فوضع الموصول موضعه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم أو منصوب على الذم . ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ بأمره في موضع النصب بدلاً من ﴿ النجوى ﴾ ، أو مفعولاً لقول مقدر كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً ، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فأنكروا حضوره ، وإنما أسروا به تشاوراً في استنباط ما يهدم أمره ويظهر فساده للناس عامة .

﴿ قُل رَبّى يَعْلَمُ القول فِى السماء والأرض ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أسروا به فهو آكد من قوله ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السر فِى السموات والأرض ﴾ ولذلك اختير ها هنا وليطابق قوله ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى ﴾ في المبالغة . وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ قَالَ ﴾ بالإخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون .

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ إضراب لهم عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام افتراه ، ثم إلى أنه قول شاعر والظاهر أن ﴿ بل ﴾ الأولى لتمام حكاية والإبتداء بأخرى أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاولهم في أمر القرآن ، والثانية والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيل خيلت إليه وخلطت عليه إلى كونه مفتريات اختلقها من تلقاء نفسه ، ثم إلى أنه كلام شعري يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها ، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في درج الفساد لأن كونه شعراً أبعد من كونه مفترى لأنه مشحون بالحقائق والحكم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء ، وهو من كونه أحلاماً لأنه مشتمل على مغيبات كثيرة طابقت الواقع والمفتري لا يكون كذلك بخلاف الأحلام ، ولأنهم جربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نيفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط ، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق . ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾ أي كما أرسل به الأولون مثل اليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى ، وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية .

﴿ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ من أهل قرية. ﴿ أهلكناها ﴾ باقتراح الآيات لما جاءتهم. ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ لو جئتهم بها وهم أعتى منهم، وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم إذ لو أتى به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم.

(218/508)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحَى إِلَيْهِمْ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ جواب لقولهم ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فأمرهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة والإحالة عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويثقون بقولهم، أو لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص ﴿ نُوحِى ﴾ بالنون.
﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ نفي لما اعتقدوا أنها من خواص الملك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبشاراً مثلهم. وقيل جواب لقولهم ﴿ مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ ﴿ وَمَا كَانُواْ خالدين ﴾ تأكيد وتقرير له فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء وتوحيد الجسد لا إرادة الجنس، أو لأنه

مصدر في الأصل أو على حذف المضاف أو تأويل الضمير بكل واحد وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء ، ومنه الجساد للزعفران . وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتداده .

﴿ ثُمَّ صدقناهم الوعد ﴾ أي في الوعد . ﴿ فأنجيناهم وَمَن نَّشَاءُ ﴾ يعني المؤمنين بهم ومن في إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته ، ولذلك حميت العرب من عذاب الاستئصال . ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ في الكفر والمعاصي .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا قريش ﴿ كتابا ﴾ يعني القرآن . ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ صيتكم كقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أو موعظتكم أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق . ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فتؤمنون .

(219/508)

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ وإرادة عن غضب عظيم لأن القصم كسر يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم . ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ صفة لأهلها وصفت بها لما أقيمت مقامه . ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ بعد إهلاك أهلها . ﴿ قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ مكانهم .

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا ﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس ، والضمير

للأهل المحذوف . ﴿ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم ، أو مشبهين بهم من فرط إسراعهم .

﴿ لاَ تَرْكُضُواْ ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاء لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال ، والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين . ﴿ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التنعم والتلذذ والإِتراف إبطار النعمة . ﴿ ومساكنكم ﴾ التي كانت لكم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ ﴾ غدا عن أعمالكم أو تعذبون فإن السؤال من مقدمات العذاب ، أو تقصدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل .

﴿ قَالُواْ يا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ لما رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة لذلك لم ينفعهم . وقيل إن أهل حضور من قرى اليمن بعث إليهم نبي فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فوضع السيف فيهم فنادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء فندموا وقالوا ذلك .

﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ فما زالوا يرددون ذلك ، وإنما سماه دعوى لأن المولول كأنه يدعو الويل ويقول : يا ويل تعال فهذا أوانك ، وكل من ﴿ تِلْكَ ﴾ و ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ يحتمل الاسمية والخبرية . ﴿ حتى جعلناهم حَصِيداً ﴾ مثل الحصيد وهو النبت المحصود ولذلك لم يجمع . ﴿ خامدين ﴾ ميتين من خمدت النار وهو مع ﴿ حَصِيداً ﴾ منزلة المفعول الثاني كقولك : جعلته حلواً حامضاً إذ المعنى : وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو صفة له أو حال من ضميره .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والارض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكرة لذوي الاعتبار وتسبباً لما ينتظم به أمور العباد في المعاش والمعاد ، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال .

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ ما يتلهى به ويلعب . ﴿ لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ من جهة قدرتنا ، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقها وتسوية الفرش وتزيينها ، وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصارى ﴿ إِن كُنَّا فاعلين ﴾ ذلك ويدل على جواب الجواب المتقدم . وقيل ﴿ إِن ﴾ نافية والجملة كالنتيجة للشرطية .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب أي بل من شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من عداده اللهو . ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فيمحقه ، وإنما استعار لذلك القذف وهو الرمي البعيد المستلزم لصلابة المرمى ، والدمغ الذي هو كسر الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح تصويره

لابطاله ومبالغة فيه ، وقرىء ﴿ فَيَدْمَغَهُ ﴾ بالنصب كقوله :

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيم . . . وَأَلْحَق بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا

ووجه مع بعده الحمل على المعنى والعطف على "الحق" . ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ هالك والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح المجاز . ﴿ وَلَكُمُ الوَيلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه ، وهو في موضع الحال وما مصدرية أو موصولة أو موصوفة .

(221/508)

﴿ وَلَهُ مَن فِى السموات والارض ﴾ خلقاً وملكاً . ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ يعني الملائكة المنزلين منه لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك ، وهو معطوف على ﴿ مَن فِى السموات ﴾ وأفرده للتعظيم أو لأنه أعم منه من وجه ، أو المراد به نوع من الملائكة متعال عن التبوؤ في السماء والأرض أو مبتدأ خبره : ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ لا يتعظمون عنها . ﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ولا يعيون منها ، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحسور تنبيهاً على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ولا يستحسرون .

﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائماً . ﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ حال من الواو في

﴿ يسبحون ﴾ وهو استئناف أو حال من ضمير قبله.

﴿ أَمِ اتخذوا ءَالِهَةً ﴾ بل اتخذوا والهمزة لإنكار اتخاذهم. ﴿ مِّنَ الأَرض ﴾ صفة لآلهة أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتها التحقير دون التخصيص. ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ الموتى وهم وإن لم يصرحوا به لكن لزم ادعاؤهم لها الإلهية، فإن من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الانشار بهم.

﴿ وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ ﴾ غير الله، وصف ب ﴿ إِلَّا ﴾ لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها ودلالته على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمراد ملازمته لكونها مطلقاً أو معه حملاً لها على غير كما استثنى بغير حملاً عليها، ولا يجوز الرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب.

(222/508)

﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ لبطلتا لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردت عليه القدر وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه. ﴿ فسبحان اللهِ رَبِّ العرش ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذي هو محل التدابير ومنشأ التقادير. ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من

اتخاذ الشريك والصاحبة والولد .

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفرده بالألوهية والسلطنة الذاتية . ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ لأنهم مملوكون مستعبدون والضمير لل ﴿ ءَالِهَةً ﴾ أو للعباد .

(223/508)

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ كرره استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيتاً وإظهاراً لجهلهم ، أو ضماً لإِنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة ، لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية ، أو وجدوا في الكتب الإِلهية الأمر بإشراكهم فاتخذوهم متابعة للأمر ، ويعضد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلاً وعلى الثاني ما يدل على فساده نقلاً . ﴿ قُلْ هَاتُوا برهانكم ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل ، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلاً ونقلاً . ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإِشراك ، والتوحيد لما لم يتوقف على صحته بعثة الرسل وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل و﴿ مَن مَّعِىَ ﴾ أمته و﴿ مَن قَبْلِى ﴾ الأمم المتقدمة وإضافة ال

﴿ ذِكْرُ ﴾ إليهم لأنه عظتهم ، وقرىء بالتنوين ولا إعمال وبه وب ﴿ مِنْ ﴾ الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وشبههما وبعدمها . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحق ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل ، وقرىء ﴿ الحق ﴾ بالرفع على أنه خبر محذوف وسط للتأكيد بين السبب والمسبب . ﴿ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن التوحيد واتباع الرسول من أجل ذلك .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ تعميم بعد تخصيص ، فإن ﴿ ذكر من قبلي ﴾ من حيث إنه خبر لاسم الإِشارة مخصوص بالموجود بين أظهرهم وهو الكتب الثلاثة ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿ نُوحِى إِلَيْهِ ﴾ بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء .

(224/508)

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له عن ذلك . ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد . ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ وفيه تنبيه على مدحض القوم ، وقرىء بالتشديد .

﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقوله كما هو ديدن العبيد المؤدبين ، وأصله لا يسبق قولهم قوله فنسب السبق إليه وإليهم ، وجعل القول محله وأداته تنبيهاً على استهجان

السبق المعرض به للقائلين على الله ما لم يقله ، وأنيبت اللام على الإِضافة اختصاراً وتجافياً عن تكرير الضمير ، وقرىء ﴿ لاَ يَسْبُقُونَهُ ﴾ بالضم من سابقته فسبقته أسبقه . ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم . ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ أن يشفع له مهابة منه . ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ ﴾ عظمته ومهابته . ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ مرتعدون ، وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء . والإِشفاق خوف مع اعتناء فإن عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وإن عدي بعلى فبالعكس . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 81.90﴾

(225/508)

وقال ابن جزى :

سورة الأنبياء عليهم السلام .

﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾

الناس لفظ عام ، وقال ابن عباس : المراد به هنا المشركون من قريش بدليل ما بعد ذلك ،

لأنه من صفاتهم ، وإنما أخبر عن الساعة بالقرب ، لأن الذي مضى من الزمان قبلها أكثر مما بقي لها ولأن كل آت قريب .

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ يعني بال ﴿ ذِكْرٍ ﴾ القرآن ، ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ أي محدث النزول .

﴿ وَأَسَرُّوا النجوى الذين ظَلَمُوا ﴾ الواو في ﴿ وَأَسَرُّوا ﴾ ضمير فاعل ، يعود على ما قبله ، ﴿ الذين ظَلَمُوا ﴾ : بدل الضمير ، وقيل : إن الفاعل هو الذين ظلموا ، وجاء ذلك على لغة من قال : أكلوني البراغيث ، وهي لغة بني الحارث بن كعب ، وقال سيبويه : لم تأت هذه اللغة في القرآن ويحتمل أن يكون ﴿ الذين ظَلَمُوا ﴾ منصوباً بفعل مضمر على الذم أو خبر ابتداء مضمر ، والأول أحسن ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ هذه الكلام في موضع نصب بدل من النجوى ، لأن هو الكلام الذي تناجوا به ، والبشر المذكور في الآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول ﴾ إخبار بأنه ما تناجوا به على أنهم أسّروه فإن قيل : هلا قال يعلم السر مناسبة لقوله ﴿ وَأَسَرُّوا النجوى ﴾ ؟ فالجواب : أن القول يشمل السرّ والجهر فحصل به ذكر السرّ وزيادة .

﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي أخلاط منامات ، وحكى عنهم هذه الأقوال الكثير ، ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الأولون ﴾ أي كما جاء الرسل المتقدمون بالآيات ، فليأتنا محمد بآية . فالتشبيه في الإتيان بالمعجزة ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ ﴾ لما قالوا : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ﴾ أخبرهم الله أن الذين من قبلهم طلبوا الآيات ، فلما رأوها ولم يؤمنوا أهلكوا ، ثم قال : ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أن حالهم في عدم الإيمان وفي الهلاك كحال من قبلهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن كل قرية هلكت لم تؤمن فهؤلاء كذلك ، ولا يكون على هذا جواباً لقولهم : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ﴾ بل يكون إخباراً مستأنفاً على وجه التهديد ؛ وأهلكناها في موضع الصفة لقرية ، والمراد أهل القرية .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ ردّ على قولهم : ﴿ هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 3] ؛ والمعنى أن الرسل المتقدمين [كانوا] رجالاً من البشر ، فكيف تنكرون أن يكون هذا الرجل رسولاً ﴿ أَهْلَ الذكر ﴾ يعني : أحبار أهل الكتاب .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ أي ما جعلنا الرسل اجساداً غير طاعمين ، ووحد الجسد لإرادة الجنس ، و﴿ لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ صفة لجسد ، وفي الآية ردّ على قولهم ﴿ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام ﴾ [الفرقان : 7] .

﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ يعني المؤمنين ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ أي شرفكم وقيل : تذكيركم .

﴿ قَصَمْنَا ﴾ أي أهلكنا ، وأصله من قصم الظهر أي كسره ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ يريد أهل القرية : قال ابن عباس : هي قرية باليمن يقال لها حضور ، بعث الله إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر ملك بابل فأهلكهم بالقتل ، وظاهر اللفظ أنه على العموم لأن كم للتكثير ، فلا يريد قرية معينة ﴿ يَرْكُضُونَ ﴾ عبارة عن فرارهم ، فيحتمل أن يكونوا ركبوا الدواب ، وركضوها لتسرع الجري أو شبهوا في سرعة جريهم على أرجلهم بمن يركض الدابة ﴿ لَا تَرْكُضُواْ ﴾ أي قيل لهم لا تركضوا والقائل لذلك هم الملائكة . قالوه تهكماً بهم ، أو رجال بختنصر إن كانت القرية المعينة ، قالوا ذلك لهم خداعاً ليرجعوا فيقتلوهم ﴿ أُتْرِفْتُمْ ﴾ أي نعمتم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ تهكم بهم وتوبيخ أي : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون عما جرى عليكم ، ويحتمل أن يكون ﴿ تُسْأَلُونَ ﴾ بمعنى يطلب لكم الناس معروفكم وهذا أيضا تهكم .

﴿ قَالُواْ ياويلنآ ﴾ الآية اعتراف وندم حين لم ينفعهم ﴿ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ شبهوا في هلاكهم بالزرع المحصود ومعنى ﴿ خَامِدِينَ ﴾ : موتى وهو تشبيه بخمود النار ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ حال منفية أي ما خلقنا السموات والأرض لأجل اللعب بل للاعتبار بها ، والاستدلال على صنعها .

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ اللهو في لغة اليمن : الولد ، وقيل المرأة ، و ﴿

مِن لَّدُنَّآ ﴾ : أي من الملائكة ، فالمعنى على هذا لو أردنا أن نتخذ ولداً لاتخذناه من الملائكة ، لا من بني آدم ، فهو ردّ على من قال : إن المسيح ابن الله وعزيز ابن الله ، والظاهر أن اللهو بمعنى اللعب لاتصاله بقوله لاعبين .

(228/508)

وقال الزمخشري : المعنى على هذا لو أردنا أن نتخذ لهواً لكان ذلك في قدرتنا ، ولكن ذلك لا يليق بنا لأنه مناقض للحكمة ، وفي كلا القولين نظر ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ يحتمل أن تكون إن شرطية وجوابها فيما قبلها ، أو نافية ، والأوّل أظهر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ ﴿ الحق ﴾ عام في القرآن والرسالة والشرع وكل ما هو حق ، ﴿ الباطل ﴾ عام في أضداد ذلك ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يقمعه ويبطله ، وأصله من إصابة الدماغ ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعني الملائكة ﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي لا يعيَوْن ولا يملون ﴿ أَمِ اتخذوا آلِهَةً مِّنَ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أم هنا للإضراب عما قبلها ، والاستفهام على وجه الإنكار لما بعدها ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ يتعلق بينشرون ؛ والمعنى : أن الآلهة التي اتخذها المشركون لا يقدرون أن ينشروا الموتى من الأرض ، فليست بآلهة في الحقيقة ؛ لأن من صفة الإلهة القدرة على الإحياء والإماتة .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ هذا برهان على وحدانية الله تعالى ، والضمير في قوله ﴿ فِيهِمَا ﴾ للسموات والأرض ، ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ صفة لآلهة ، و ﴿ إِلَّا ﴾ بمعنى غير ، فاقتضى الكلام أمرين : أحدهما نفي كثرة الآلهة ، ووجوب أن يكون الإله واحداً ، والأمر الثاني : أن يكون ذلك الواحد هو الله دون غيره ، ودل على ذلك قوله : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، وأما الأوّل فكانت الآية تدل عليه لو لم تذكر هذه الكلمة ، وقال ابن كثير من الناس في معنى الآية : إنها دليل على التمانع الذي أورده الأصوليون ، وذلك أنا لو فرضنا إليهن ، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه ، فإما أن تنفذ إرادة كل واحد منهما ، وذلك محال ؛ لأن النقيضين لا يجتمعان ، وإما أن لا تنفذ إرادة واحدة منهما ، وذلك أيضاً محال ، لأن النقيضين لا يرتفعان معاً ، ولأن ذلك يؤدّي إلى عجزهما وقصورهما ، فلا يكونان إليهن ، وإما أن ينفذ أرادة واحدة منهما دون الآخر ، فالذي تنفذ إرادته هو الإله ، والذي لا تنفذ إرادته ليس بإله ، فالإله واحد . وهذا الدليل إن سلمنا صحته فلفظ الآية لا يطابقه ، بل الظاهر من اللفظ استدلال آخر أصح من دليل التمانع ، وهو أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، لما يحدث بينهما من الاختلاف والتنازع في التدبير وقصد المغالبة ، ألا ترى أنه لا

يوجد ملكان اثنان لمدينة واحدة ، ولا وليّان لخطة واحدة ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لأنه مالك كل شيء ، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم ، فأفعاله كلها جارية على الحكمة ﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ لفقد العلتين ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ كرر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ، ومبالغة في تقبيحه ، لأن قبله من صفات الله ما يوجب توحيده ، وليناط به ما ذكر بعده من تعجيز المشركين ، وأنهم ليس لهم على الشرك برهان ؛ لا من جهة العقل ، ولا من جهة الشرع .

(230/508)

﴿ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ تعجيز لهم وقد تكلمنا على هاتوا في [البقرة : 111] ﴿ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ ردّ على المشركين والمعنى هذا الكتاب الذي معي ، والكتب التي من قبلي ليس فيهما ما يقتضي الإشراك بالله ، بل كلها متفقة على التوحيد .
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ الآية : ردّ على المشركين ، والمعنى أن كل رسول إنما أتى بلا إله إلا الله
﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ يعني الملائكة ، وهم الذي قال فيهم بعض الكفار أنهم بنات الله ، فوصفهم بالعبودية لأنها تناقض النبوّة ، ووصفهم بالكرامة ، لأن ذلك هو الذي غر الكفار حتى قالوا فيهم ما قالوا : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ أي لا يتكلمون حتى يتكلم هو تأدباً معه

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ أي لمن ارتضى أن يشفع له ، ويحتمل أن تكون هذه الشفاعة في الآخرة أو في الدنيا ، وهي استغفارهم لمن في الأرض ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون. انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 22. 25﴾

(231/508)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام مكية

قال الرازي بإجماع : وهي مائة وإحدى أو ثنتا عشرة آية وألف ومائة وستون كلمة وأربعة آلاف وثمان وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الحكم العدل الذي تمت قدرته وعمّ أمره ﴿ الرحمن ﴾ الذي ساوى بين خلقه في رحمة إيجاده ﴿ الرحيم ﴾ الذي نجى من شاء من عباده في معاده قال أبو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم قوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ (الحجر ،)

إلى قوله : ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ﴾ (طه ،)

قال تعالى:

﴿ اقترب ﴾ أي : قرب ﴿ للناس حسابهم ﴾ أي : في يوم القيامة أي : فلا تمدن عينيك إلى ذلك فإني جعلته فتنة ، وأشار بصيغة الافتعال إلى مزيد القرب ؛ لأنه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها ، وأخر الفاعل تهويلاً لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب فإن قيل : كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من تسعمائة عام أجيب بأنه مقترب عند الله ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ (الحج ،)

ولأن كل آت ، وإن طالت أوقات استقباله وترقبه قريب وإنما البعيد هو الذي وجد وانقرض قال الشاعر:

*فلا زال ما تهواه أقرب من غد

** ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(232/508)

ولأنّ ما بقي من الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه الموعود ببعثه في آخر الزمان ، وقال : "بعثت أنا والساعة كهاتين" ، وأشار بإصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم "ختمت النبوة بي" كل ذلك لأجل أن الباقي من مدة

التكليف أقل من الماضي ، وعن ابن عباس أن المراد بالناس المشركون وهو من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم ، وهو ما يتلوه من صفات المشركين ، وهو قوله تعالى :

﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ في غفلة ﴾ أي : عن الحساب ﴿ معرضون ﴾ عن التأهب لهذا اليوم لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما يرجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ، وأيضاً إن هذه الآية نزلت في كفار مكة ، ولما أخبر تعالى عن غفلتهم وإعراضهم دلّ على ذلك بقوله:

﴿ ما يأتيهم ﴾ وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من ذكر ﴾ أي : وحي ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة ، وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ صفة ذكر أو صلة ليأتيهم ﴿ محدث ﴾ إنزاله أي : ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به ، وبهذا سقط احتجاج المعتزلة بأن القرآن حادث لهذه الآية ، وقيل : معناه أن الله تعالى يحدث الأمر بعد الأمر ، فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع ، وقيل : الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبيّنه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن ، وإضافه إليه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (النجم : ،)

﴿ إلا استمعوه ﴾ أي : قصدوا إسماعه وهو أجد الجد وأحق الحق ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ يلعبون ﴾ أي : يفعلون فعل اللاعبين بالاستهزاء والسخرية لتناهي غفلتهم

وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور ، والتفكر في العواقب

﴿ لاهية ﴾ أي : غافلة معرضة ﴿ قلوبهم ﴾ عن ذكر الله .

(233/508)

تنبيه قوله تعالى : وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفتان ، أو متداخلتان ، ولما ذكر تعالى ما يظهرونه في حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفاً على استمعوه : ﴿ وأسروا ﴾ أي : الناس المحدّث عنهم ﴿ النجوى ﴾ أي : بالغوا في إسرار كلامهم ، وقوله تعالى : ﴿ الذين ظلموا ﴾ بدل من واو وأسروا للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره ، والمعنى : وهؤلاء أسروا النجوى ، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم ، وقيل : جاء على لغة من قال : أكلوني البراغيث وقيل : منصوب المحل على الذم ، ثم بيّن تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى : ﴿ هل ﴾ أي : فقالوا في تناجيهم هذا ، معجبين من ادعائه النبوّة مع مماثلته لهم في البشرية هل ﴿ هذا ﴾ الذي أتاكم بهذا الذكر ﴿ إلا بشر مثلكم ﴾ أي : في خلقه وأخلاقه من الأكل والشرب ، والحياة والممات ، فكيف يختص عنكم بالرسالة ما هذا الذي جاءكم به مما لا تقدرون على مثله إلا سحر لا حقيقة له ، فحينئذٍ تسبب عن هذا الإنكار قولهم :

﴿ أفتأتون السحر وأنتم ﴾ أي : والحال أنكم ﴿ تبصرون ﴾ بأعينكم أنه بشر مثلكم ، فكأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء النبوة والرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً ، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر ، فأنكروا حضوره .

فإن قيل : لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه أجيب : بأن ذلك كان يشبه التشاور فيما بينهم ، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره ، وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في مشورتهم ، ويجتهدوا في طي سرهم عنهم ما أمكن واستطيع .

(234/508)

ومنه قول الناس : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، قال البقاعي : فيا لله العجب من قوم رأوا ما أعجزهم ، فلم يجوزوا أن يكون ذلك عن الرحمن الداعي إلى الفوز بالجنان ، وجزموا أنه من الشيطان الداعي إلى الهوان باصطلاء النيران والعجب أيضاً أنهم أنكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم بما يخص الله تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة ، وحسن الخلائق والأخلاق والقوة والصحة ، وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك انتهى ، ولا عجب فإنها عقول أضلها باريها ، ثم كأنه قيل : فإذا يقال لهؤلاء فقال:

﴿ قال ﴾ لهم : ﴿ ربي ﴾ المحسن إلي ﴿ يعلم القول ﴾ سواء كان سراً أم جهراً كائناً ﴿ في السماء والأرض ﴾ على حد سواء ؛ لأنه لا مسافه بينه وبين شيء من ذلك ﴿ وهو السميع العليم ﴾ ، فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون .

فإن قيل : هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى : ﴿ وأسروا النجوى ﴾ (طه ،)

أجيب بأن القول عام يشمل السر والجهر ، فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة ، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول : يعلم السر كما أن قوله : يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم .

فإن قيل : لم ترك هذا الآكد في سوره الفرقان في قوله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ (الفرقان ،) ، ولم يقل : يعلم القول كما هنا ؟

أجيب : بأنه ليس بواجب أن يأتي بالآكد في كل موضع ، ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد تارة أخرى ، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتناناً ، ويجمع الغاية وما دونها ، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول : إنّ ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، وثم قصد وصف ذاته بأنه أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، فهو كقوله تعالى : ﴿ علام الغيوب ﴾ (المائدة ،)

﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ (سبأ ،) ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي قال بصيغة الماضي بالإخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الأمر ، ثم إنه تعالى بيّن أنّ المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله بقوله تعالى:

﴿ بل قالوا ﴾ أي : قال بعضهم هذا الذي قال لكم : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي : أخلاط أحلام رآها في النوم ، وقال بعضهم : ﴿ بل افتراه ﴾ أي : اختلقه من عند نفسه ، ونسبه إلى الله تعالى ، وقال بعضهم : ﴿ بل هو ﴾ أي : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ شاعر ﴾ فما جاءكم به شعر ، والشاعر يخيل ما لا حقيقة له لغيره ، أو أنهم كلهم أضربوا عن قولهم : هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا المبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد ؛ قال الزمخشري : ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد ، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني ، وكذا الرابع أفسد من الثالث ، ثم إنهم لما قدحوا في أعظم المعجزات طلبوا آية غيره ، فقالوا : ﴿ فليأتنا ﴾ دليلاً على رسالته ﴿ بآية كما ﴾ أي : مثل ما ﴿ أرسل الأولون ﴾ بالآيات كتسبيح الجبال وتسخير الريح وتفجير الماء ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية قال الله تعالى مجيباً لهم:

﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ أي : قبل مشركي مكة ﴿ من قرية ﴾ أي : من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿ أهلكناها ﴾ باقتراح الآيات لما جاءتهم ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ أي : لو جئتهم بها وهم أغنى منهم ، وفيه دليل على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم إذ لو أتى به لم يؤمنوا ، واستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم ، ولما بيّن تعالى بطلان ما اقترحوا به في رسوله صلى الله عليه وسلم بكونه بشراً قال تعالى عاطفاً على آمنت مجيباً عن قولهم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾

(236/508)

﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ أي : في جميع الزمان الذي تقدّم زمانك في جميع طوائف البشر ﴿ إلا رجالاً ﴾ أي : لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالاً ﴿ نوحي إليهم ﴾ مثلك ثم إنه تعالى أمر المشركين أن يسألوا أهل الكتاب بقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ وإنما أحالهم على هؤلاء لأنهم كانوا لا ينكرون أن الرسل كانوا بشراً ، وإن أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : المراد بالذكر القرآن ، أي : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ، وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ، ولا همزة بعدها ، وكذا يفعل حمزة في الوقف ، والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ، ثم نبّه تعالى على أنهم غير

محتاجين فيه إلى السؤال بما قد كان بلغهم على الإجمال من أحوال موسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معبراً بأداة الشك محركاً لهم على المعالي ﴿ إن كنتم ﴾ أي : بجبلاتكم ﴿ لا تعلمون ﴾ أي : لا أهلية لكم في اقتناص علم بل كنتم أهل تقليد محض ، وتبع صرف ، ولما بيّن تعالى أنه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلاً بيّن أنه على سنتهم في جميع الأوصاف التي حكم بها على البشر في العيش والموت ، فنبه على الأول بقوله تعالى:

﴿ وما جعلناهم ﴾ أي : الذين اخترنا بعثتهم إلى الناس ليأمروهم بأوامرنا ﴿ جسداً ﴾ أي : ذوي جسد ولحم ودم متصفين بأنهم ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾ بل جعلناهم أجساداً يأكلون ويشربون ، وليس ذلك بمانع من إرسالهم .

(237/508)

فائدة : قال ابن فارس في المجمل وفي كتاب الخليل : إن الجسد لا يقال لغير الإنسان ، وتوحيد الجسد لإرادة الجنس كأنه قيل : ذوي ضرب من الأجساد ، أو على حذف المضاف ، أي : ذوي جسد كما مر ، أو تأويل الضمير لكل واحد ، وهو جسم ذو لون ، قال البيضاوي : ولذلك أي : ولكون الجسد جسماً ذا اللون لا يطلق على الماء والهواء ، وهو في الماء مبني

على أنه لا لون له ، وإنما يتلون بلون ظرفه أو مقاله ؛ لأنه جسم شفاف ؛ لكن قال الإمام الرازي : بل له لون ويرى ، ومع ذلك لا يحجب عن رؤية ما وراءه ، ثم نبه على الثاني بقوله تعالى : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي : بأجسادهم ، بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم ، وإنما امتازوا عن الناس بما يأتيهم عن الله تعالى ورسولكم صلى الله عليه وسلم ليس بخالد ، فتربصوا كما أشار إليه ختم طه ، فإنه متربص بكم ، وأنتم عاصون الملك الذي اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي : الذي وعدناهم بإهلاكهم ، وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ واختار موسى قومه ﴾ (الأعراف ،)

في حذف الجار والأصل في الوعد ، ومن قومه ومنه صدقوهم القتال ، وصدقني سنّ بكره والأصل في هذا المثل أن أعرابياً عرض بعيراً للبيع ، فقال له المشتري : ما سنه؟ قال : بكر ، فاتفق أنه ند ، فقال صاحبه هدع هدع ، وهذه اللفظة مما يسكن بها صغار الإبل لا الكبار ، فقال المشتري : صدقني سنّ بكره ، وأعرض ، فصار مثلاً .

تنبيه : أشار تعالى بأداة التراخي إلى أنهم طال بلاؤهم بهم ، وصبرهم عليهم ، ثم أحل بهم سطوته ، وأراهم عظمته ﴿ فأنجيناهم ﴾ أي : الرسل ﴿ ومن نشاء ﴾ وهم المؤمنون أو من في إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو واحد من ذريته ، ولذلك حميت به العرب من

عذاب الاستئصال ، ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي : المشركين ؛ لأن المشرك مسرف على نفسه

(238/508)

﴿ لقد أنزلنا إليكم ﴾ يا معشر قريش ﴿ كتاباً ﴾ أي : القرآن ﴿ فيه ذكركم ﴾ أي : شرفكم ووصيتكم كما قال تعالى : وإنه لذكر لك ولقومك ، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء وحسن الذكر كحسن الجوار والوفاء بالعهد ودق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك ، وقيل : فيه ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ، أو لأنه نزل بلغتكم ، وقيل : فيه تذكرة لكم لتحذروا ، فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتؤمنوا به ، وفي ذلك حث على التدبر ؛ لأن الخوف من لوازم العقل

﴿ وكم قصمنا ﴾ أي : أهلكنا ﴿ من قرية ﴾ أي : أهلها بغضب شديد ؛ لأن القصم أفظع الكسر ، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم ، وقوله تعالى : ﴿ كانت ظالمة ﴾ أي : كافرة صفة لأهلها وصفت بها لما أقيمت مقامها ، ثم بيّن الغنى عنها بقوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها ﴾ أي : بعد إهلاك أهلها ﴿ قوماً آخرين ﴾ مكانهم ، ثم بيّن حالها عند إحلال البأس بها بقوله تعالى:

﴿ فلما أحسوا ﴾ أي : أدرك أهلها بحواسهم ﴿ بأسنا ﴾ أي : عذابنا ﴿ إذا هم منا ﴾ أي : القرية ﴿ يركضون ﴾ هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما أدركتهم مقدّمة العذاب والركض ضربة الدابة بالرجل ، ومنه اركض برجلك ، أو مشبهين بهم من فرط إسراعهم بعد تجبرهم على الرسل ، وقولهم لهم : لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن في ملتنا ، فناداهم لسان الحال تقريعاً وتشنيعاً لحالهم

﴿ لا تركضوا ﴾ أو المقال والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين ﴿ وارجعوا ﴾ إلى قريتكم ﴿ إلى ما أترفتم ﴾ أي : تمتعتم ﴿ فيه ﴾ من التنعم والتلذذ والإتراف إبطار النعمة والترفه ، ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال : ﴿ ومساكنكم ﴾ أي : التي كنتم تفتخرون بها على الضعفاء بما أوسعتم من فنائها ، وعليتم من بنائها ، وحسنتم من مشاهدها ﴿ لعلكم تسألون ﴾ وفي هذا تهكم بهم وتوبيخ أي : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما يجري عليكم ، وينزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، أو ارجعوا ، واجلسوا كما كنتم في مجالسكم وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره ، وينفذ فيه أمركم ونهيكم ،

فيقولوا لكم بم تأمرون وماذا ترسمون ، أو شيئاً من دنياكم على العادة ، أو تسألون في الإيمان كما كنتم تسألون ، فتأبوا بما عندكم من الأنفة والحمية والعظمة ، أو في المهمات كما تكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ، ومراتبهم السنية ، فيجيبون سائلهم بما شاؤوا ، ولما كان كأنه قيل : بم أجابوا هذا القائل ؟ قيل:

(240/508)

﴿ قالوا ﴾ حين لا نفع لقولهم عند نزول البأس ﴿ يا ويلنا ﴾ إشارة إلى أنه حل بهم ؛ لأنه ينادي بيا القريب ترفقاً به كما يقول الشخص لمن يضربه : يا سيدي كأنه يستغيث به ليكف عنه ، وذلك غباوة منهم ، وعمى عن الذي أحله بهم ؛ لأنهم كالبهائم لا ينظرون إلا السبب الأقرب ، ثم عللوا حلوله بهم تأكيداً لترفقهم بقولهم : ﴿ إنا كنا ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ ظالمين ﴾ حيث كذبنا الرسل ، وعصينا أمر ربنا ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه القرية حَضور بفتح الحاء وبالضاد المعجمة ، وهي وسحول قريتان قريبتان من اليمن تنسب إليهما الثياب ، وفي الحديث : "كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين" ، وروي حضوريين بعث الله لهم نبياً ، فقتلوه ، فسلط الله تعالى عليهم بختنصر كما سلطه الله على أهل بيت المقدس ،

فاستأصلهم ، وروي أنه لما أخذتهم السيوف نادى منادٍ من السماء : يا لثأرات الأنبياء ، وهي بفتح اللام ، وبمثلثة وهمزة ساكنة أي : يا لأهل ثأراتهم أي : الطالبة بدمهم ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، فندموا وقالوا ذلك

﴿ فما ﴾ أي : فتسبب عن إحلالنا بهم ذلك البأس أنه ما ﴿ زالت تلك ﴾ الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة ، وهي قولهم : يا ويلنا ﴿ دعواهم ﴾ يرددونها لا دعوى لهم غيرها ؛ لأن الويل ملازم لهم غير منفك عنهم ، وترفقهم له غير نافعهم ﴿ حتى جعلناهم حصيداً ﴾ كالزرع المحصود بالمناجل بأن قتلوا بالسيف ،

تنبيه : حصيد على وزن فعيل بمعنى مفعول ، ولذلك لم يجمع ؛ لأنه يستوي فيه الجمع وغيره ﴿ خامدين ﴾ أي : ميتين كخمود النار إذا طفئت وصارت رماداً فإن قيل : كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل أجيب بأنّ حكم الاثنين الأخيرين حكم الواحد ؛ لأن معنى قولك : جعلته حلواً حامضاً جعلته جامعاً للطعمين ، وكذلك معنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود أو خامدين صفة لحصيداً أو حال من ضميره ، ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر في خلق السموات وما بينهما ليعتبروا ، فقال تعالى:

﴿ وما خلقنا السماء ﴾ على علوِّها وإحكامها ﴿ والأرض ﴾ على عظمها واتساعها ﴿ وما بينهما ﴾ مما دبرناه لتمام المنافع من أصناف البدائع وغرائب الصنائع ﴿ لاعبين ﴾ أي : عابثين كما تسوّي الجبابرة سقوفهم وفرشهم ، وسائر زخارفهم للهو واللعب ، وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار ، وتذكيراً لذوي الاعتبار ، وتسبيباً لما ينتظم به أمر العباد في المعاش والمعاد ، ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله ، فقال عز وجل: ﴿ لو أردنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أن نتخذ لهواً ﴾ أي : ما يتلهى به ويلعب ، وقيل : هو الولد بلغة اليمن ، وقيل : الزوجة والمراد الرد على النصارى ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ أي : من عندنا مما يليق أن ينسب لحضرتنا من الحور العين والملائكة بما لنا تمام القدرة ، وكمال العظمة ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ ذلك لكنا لم نفعله ؛ لأنه لا يليق بجنابنا ، فلم نرده ، وقوله تعالى:

﴿ بل نقذف ﴾ أي : نرمي ﴿ بالحق ﴾ أي : الإيمان ﴿ على الباطل ﴾ أي : الكفر إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب بل شأننا أن نرمي بالحق الذي من جملة الجد على الباطل الذي من عداد اللهو ﴿ فيدمغه ﴾ أي : يذهبه ، واستعار لدحض الباطل بالحق القذف والدمغ تصويراً لإبطاله به ، وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب

كالصخرة، ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر أن أصل استعمالهما في الأجسام، ثم استعير القذف لدحض الباطل بالحق والدمغ لإذهاب الباطل، فالمستعار منه حسيّ، والمستعار له عقليّ ﴿ فإذا هو ﴾ في الحال ﴿ زاهق ﴾ أي: ذاهب، والزهوق ذهاب الروح، وذكره لترشيح المجاز من إطلاق القذف على دحض الباطل، ثم عطف على ما أفادته إذا قوله تعالى: ﴿ ولكم ﴾ أي: وإذا لكم أيها المبطلون ﴿ الويل ﴾ أي: العذاب الشديد ﴿ مما تصفون ﴾ الله تعالى به بما تهوى أنفسكم كالزوجة والولد

تنبيه: ما إمّا مصدرية أو موصولة أو موصوفة، ولما حكى الله تعالى كلام الطاعنين في النبوات، وأجاب عنها بأن أغراضهم من تلك المطاعن التمرد، وعدم الانقياد بيّن بقوله تعالى:

﴿ وله من في السموات ﴾ أي: الأجرام العالية، وهي ما تحت العرش، وجمع السماء هنا لاقتضاء تفخيم الملك ذلك، ولما كانت عقولهم لا تدرك تعدّد الأرض وحدها، فقال: ﴿ والأرض ﴾ أي: له ذلك خلقاً وملكاً أنه منزه عن طاعتهم؛ لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات، وعبر بمن تغليباً للعقلاء، وقوله تعالى: ﴿ ومن عنده ﴾ أي: وهم الملائكة بإجماع الأمة، ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهذا لا يليق بالبشر، مبتدأ خبره ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ بنوع كبر طلباً ولا إيجاداً، وخصهم بالذكر لكرامتهم عليه تنزيلاً لهم منزلة المقرّبين عند الملك.

تنبيه : هذه العندية للشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة ، فكأنه تعالى قال : الملائكة مع كمال شرفهم وعلو مراتبهم ، ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن عبادته ، فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته ﴿ و ﴾ مع ذلك أيضاً ﴿ لا يستحسرون ﴾ أي : لا يعيون ، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحسور تنبيهاً على أن عبادتهم من ثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ولا يستحسرون ، ولا يطلبون أن ينقطعوا عنها ، فأنتج ذلك قوله تعالى:

H

﴿ يسبحون ﴾ أي : ينزهون المستحق للتنزيه بأنواع التنزيه من الأقوال والأفعال ﴿ الليل والنهار ﴾ أي : جميع آنائهما دائماً ﴿ لا يفترون ﴾ أي : عن ذلك وقتاً من الأوقات ، فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل ، ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بأن يبادروا إلى التوحيد ، فلم يفعلوا كانوا حقيقين بعد الإعراض عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعنيف ، فقال تعالى:

﴿ أم اتخذوا ﴾ أي : بل اتخذوا ، فأم بمعنى بل للانتقال والهمزة لإنكار اتخاذهم ﴿ آلهة من الأرض ﴾ ومعنى نسبتها إلى الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض ؛ لأن الآلهة على

ضربين: أرضية وسماوية، ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "أين ربك؟ فأشارت إلى السماء، فقال: إنها مؤمنة"؛ لأنه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام لا إثبات أن السماء مكان الله تعالى، ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض ﴿ هم ينشرون ﴾ أي: يحيون الموتى لا يقدرون على ذلك، وهم وإن لم يصرّحوا بذلك لزم من ادعائهم لها آلهة أنهم يقدرون على ذلك، فإنّ من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات، فالمراد به تجهيلهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الانتشار بهم، ثم إنه سبحانه وتعالى أقام البرهان القطعي على نفي إله غيره ببرهان التمانع، وهو أشدّ برهان لأهل الكلام، فقال:

﴿ لو كان فيهما ﴾ أي: السموات والأرض أي: في تدبيرهما ﴿ آلهة إلا الله ﴾ أي: غير الله تعالى ﴿ لفسدتا ﴾ أي: لخرجتا عن نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدّد الحاكم، وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق كان والله أعز عليّ من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول، وهذا ظاهر.

وأما طريقة التمانع فقال المتكلمون: القول بوجود إلهين مفضٍ إلى المحال لأنّا لو فرضنا وجود إلهين، فلابدّ أن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه، ولو فرضنا أنّ أحدهما أراد تحريكه والآخر أراد تسكينه، فإمّا أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدّين، أو لا يقع واحد منهما، وهو محال؛ لأنّ المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس، أو يقع مراد أحدهما دون الآخر، وذلك أيضاً محال؛ لأنّ الذي وقع مراده يكون قادراً، والذي لم يقع مراده يكون عاجزاً، والعجز نقص، وهو على الإله محال، فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات، وإذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أنّ جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات دليل على أنّ وحدانية الله تعالى والدلائل السمعية على الوحدانية كثيرة في القرآن، ولما أفاد هذا الدليل أنه لا يجوز أن يكون المدبر للسموات والأرض إلا واحداً، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله تعالى قال: ﴿فسبحان الله﴾ أي: فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال ﴿ربّ﴾ أي: خالق ﴿العرش﴾ أي: الكرسي المحيط بجميع الأجسام الذي هو محل التدابير، ومنشأ التقادير ﴿عما يصفون﴾ أي: الكفار الله به من الشريك له وغيره، ثم بيّن تعالى ذلك بقوله عز وجل:

﴿ لا يسأل ﴾ أي: من سائل ما ﴿ عما يفعل ﴾ لعظمته وقوّة سلطانه، وإذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيباً وإجلالاً مع جواز الخطأ والزلل، وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسأل عن أفعاله مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه تعالى الخطأ ﴿ وهم يسألون ﴾ لأنهم مملوكون مستعبدون خطاؤون، فما أخلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه، ولما قام الدليل ووضح السبيل واضمحل كلّ قال وقيل، وانمحقت الأباطيل كرّر تعالى:

(246/508)

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ كرّره استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم، وإظهاراً لجهلهم، ولما كان جوابهم: اتخذنا ولا نرجع، أمر الله تعالى نبيه بجوابهم فقال: ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على ما ادّعيتموه من عقل أو نقل كما أتيت أنا ببرهان النقل المؤيد بالعقل، ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة العقل ما لم ينضمّ إليه دليل النقل أتبعه قوله مشيراً إلى ما بعث الله تعالى به الرسل من الكتب ﴿ هذا ذكر ﴾ أي: موعظة وشرف ﴿ من معي ﴾ ممن آمن بي

وهو القرآن الذي عجزتم عن معارضته ﴿ وذكر ﴾ أي: وهذا ذكر ﴿ من قبلي ﴾ من الأمم الماضية وهو التوراة والإنجيل، وغيرهما من الكتب السماوية، فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلاً عن حجة ذمّهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق فقال تعالى: ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي: هؤلاء المدّعون ﴿ لا يعلمون الحق ﴾ فلا يميزون بينه وبين الباطل بل أكثرهم جهلة، والجهل أصل الشرّ والفساد ﴿ فهم ﴾ أي: فتسبب عن جهلهم ما افتتحنا به السورة من أنهم ﴿ معرضون ﴾ عن التوحيد واتباع الرسل، ولما كان الإرسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدّم كما أنّ الرسالة لا يقوم بها كل واحد، فكذلك الإرسال لا يصلح له كل زمن أثبت الجار في قوله تعالى:

﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ وأغرق في النفي فقال: ﴿ من رسول ﴾ في شيع الأوّلين ﴿ إلا نوحي إليه ﴾ من عندنا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وهذا مقرّر لما سبقه من آي التوحيد، وقال تعالى: إلا أنا، ولم يقل: نحن لئلا يجعلوا ذلك وسيلة إلى ما ادّعوه من تعدّد الآلهة، ولذلك قال: فاعبدون بالإفراد، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالنون وكسر الحاء، والباقون بالياء وفتح الحاء، ولما بيّن سبحانه وتعالى بالدلائل الباهرة كونه منزهاً عن الشريك والضدّ والندّ أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد بقوله:

﴿ وقالوا اتخذ ﴾ أي : تكلف كما يتكلف من لا يكون له ولد ﴿ الرحمن ﴾ أي : الذي كل موجود من فيض نعمه ﴿ ولداً ﴾ نزل في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : نزل ذلك في اليهود حيث قالوا : إنه تعالى صاهر الجن ، فكانت منهم الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم قولهم ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزه عن أن يكون له ولد ، فإنّ ذلك يقتضي المجانسة بينه وبين الولد ، ولا تصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقي ﴿ بل ﴾ أي : الذين جعلوهم له ولداً وهم الملائكة ﴿ عباد ﴾ من عباده أنعم عليهم بالإيجاد كما أنعم على غيرهم لا أولاد ، فإنّ العبودية تنافي الولدية ﴿ مكرمون ﴾ بالعصمة من الزلل ولذلك فسر الإكرام بقوله تعالى: ﴿ لا يسبقونه ﴾ أي : لا يسبقون إذنه ﴿ بالقول ﴾ أي : لا يقولون شيئاً حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدّبين ﴿ وهم بأمره ﴾ إذا أمرهم ﴿ يعملون ﴾ لا بغيره لأنهم في غاية المراقبة له تعالى ، فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل ، وذلك غاية الطاعة ، ثم علل إخباره بذلك بعلمه بما هذا المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى:

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي : ما عملوا وما هم عاملون لا تخفى عليه تعالى خافية مما قدّموا وأخروا ، ثم صرح تعالى بلازم الجملة الأولى ، فقال : ﴿ ولا يشفعون ﴾ أي : لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ فلا تطمعوا في شفاعتهم لكم بغير

رضاه تعالى ؛ قال ابن عباس والضحاك : إلا لمن ارتضى أي : لمن قال : لا إله إلا الله ، فسقط بذلك قول المعتزلة : إنّ الشفاعة في الآخرة لا تكون لأهل الكبائر ، ثم صرّح بلازم الجملة الثانية فقال : ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي : لا من غيرها ﴿ مشفقون ﴾ أي : خائفون ، وأصل الخشية خوف مع تعظيم ، ولذلك خص بها العلماء والإشفاق خوف مع اعتناء ، فإن عدّى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإن عدى بعلى فبالعكس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 215. 227 ﴾

(248/508)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى.رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/509)

الجزء التاسع بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 29 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ من نفس السورة

(4/509)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29) أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا

فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نفى الشريك مطلقاً ثم مقيداً بالولدية ، أتبعه التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع فقال : ﴿ ومن يقل منهم ﴾ أي من كل من قام الدليل على أنه لا يصلح للإلهية حتى العباد المكرمون الذين وصف كرامتهم وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم كما رواه البيهقي في الخصائص من الدلائل عن ابن عباس .رضى الله عنهما . : ﴿ إني إله ﴾ ولما كانت الرتب التي تحت رتبة الإلهية كثيرة ، بعّض ليدل على من استغرق بطريق الأولى فقال : ﴿ من دونه ﴾ أي من دون الله ﴿ فذلك ﴾ أي اللعين الذي لا يصلح للتقريب أصلاً ما دام على ذلك ﴿ نجزيه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ جهنم ﴾ لظلمه ، فأفهم تعذيب مدعي الشرك تعذيب أتباعه من باب الأولى ، وهو على سبيل الفرض والتمثيل في الملائكة من إحاطة علمه بأنه لا يكون ، وما ذاك إلا لقصد تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد ، وفي دلائل النبوة للبيهقي في باب التحدث بالنعمة والخصائص أن هذه الآية مع قوله تعالى ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ﴾ [الفتح : 2] دليل على فضله .صلى الله عليه وسلم .على أهل السماء .

ولما كان مقتضياً للسؤال عن غير هذا من الظلمة ، قيل : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء الفظيع جداً ﴿ نجزي الظالمين ﴾ كلهم ما داموا على ظلمهم .

(5/509)

ولما أنكر سبحانه اتخاذهم آلهة من دونه تارة بقيد كونها أرضية ، وتارة بقيد كونها سماوية ، وتارة مطلقة ، لتعم كلا من القسمين وغيرهما ، واستدل على ذلك كله بما لم تبق معه شبهة ، فدل تفرده على أنه لا مانع له مما يريد من بعث ولا غيره ، وكان علمهم لا يتجاوز ما في السماوات والأرض ، قال مستدلاً على ذلك أيضاً مقرراً بما يعلمونه ، أو ينبغي أن يسألوا عنه حتى يعلموه لتمكنهم من ذلك ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ جلياً له في أسلوب العظمة : ﴿ أولم ﴾ أي ألم يعلموا ذلك بما أوضحنا من أدلته ولم يروا ، ولكنه أظهر للدلالة على أنهم يغطون أنوار الدلائل عناداً فقال : ﴿ ير ﴾ أي يعلم علماً هو كالمشاهدة ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما يعلمون من قدرة الله فأدى ذلك إلى الاستهانة والتنقص فصار ذنبهم غير مغفور ، وسعيهم غير مشكور ، وحذف ابن كثير الواو العاطفة على ما قدرته مما هدى إليه السياق أيضاً ، لا للاستفهام بما دل عليه ختام الآية التي قبل من البعث والجزاء المقتضي للإنكار على من أنكره ، فكان المعنى على قراءته : نجزي كل ظالم بعد البعث ، ألم ير

المنكرون لذلك قدرتنا عليه بما أبدعنا من الخلائق ، وإنما أنكر عليهم عدم الرؤية بسبب أن الأجسام وإن تباينت لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بقادر يفصل بينها ، فمن البديهي الاستحالة أن يرتفع شيء منها عن الآخر منفصلاً عنه بغير رافع لا سيما إذا كان المرتفع ثابتاً من غير عماد ، فكيف وهو عظيم الجسم كبير الجرم ؟ وذلك دال على تمام القدرة والاختيار والتنزه عن كل شائبة نقص من مكافىء وغيره ، فصح الإنكار عليهم في عدم علم ذلك بسبب أنهم عملوا بخلاف ما يعلمونه ﴿ أن السماوات والأرض ﴾ .

(6/509)

ولما كان المراد الإخبار عن الجماعتين لا عن الأفراد قال : ﴿ كانتا ﴾ ولما كان المراد شدة الاتصال والتلاحم ، أخبر عن ذلك بمصدر مفرد وضع موضع الاسم فقال : ﴿ رتقاً ﴾ أي ملتزقتين زبدة واحدة على وجه الماء ، والرتق في اللغة : السد ، الفتق : الشق ﴿ ففتقناهما ﴾ أي بعظمتنا أي بأن ميزنا إحداهما عن الأخرى بعد التكوين المتقن وفتقنا السماء بالمطر ، والأرض بأنواع النبات بعد أن لم يكن شيء من ذلك ، ولا كان مقدوراً على شيء منه لأحد غيرنا ؛ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وعطاء والضحاك وقتادة : كانتا شيئًا واحداً ملتزقتين ففصل الله تعالى بينهما بالهواء .

وعن مجاهد وأبي صالح والسدي : كانتا مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سماوات ، وكذلك الأرض كانت مرتتقة واحدة ففتقها فجعلها سبع طبقات .

ولما كان خلق الماء سابقاً على خلق السماوات والأرض ، قال : ﴿ وجعلنا ﴾ أي بما اقتضته عظمتنا ﴿ من الماء ﴾ أي الهامر ثم الدافق ﴿كل شيء حي ﴾ مجازاً من النبات وحقيقة من الحيوان ، خرج الإمام أحمد وغيره " عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ أنه قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أخبرني عن كل شيء ، فقال : كل شيء خلق من ماء " ولذلك أجاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الذي وجده على ماء بدر وسأله : ممن هو؟ بقوله : " نحن من ماء " .

ولما كان هذا من تصرفه في هذين الكونين ظاهراً ومنتجاً لأنهما وكل فيهما ومن فيهما بصفة العجز عن أن يكون له تصرف ما ، تسبب عنه إنكار عدم إيمانهم فقال : ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ أي بأن شيئاً منهما أو فيهما لا يصلح للإلهية ، لا على وجه الشركة ولا على وجه الانفراد ، وبأن صانعهما ومبدع النامي من حيوان ونبات منهما بواسطة الماء قادر على البعث للحساب للثواب أو العقاب ، بعد أن صار الميت تراباً بماء يسببه لذلك .

ولما كان من القدرة الباهرة ثبات الأرض من غير حركة ، وكان الماء أدل دليل على ثباتها ، وكانت الأرض أقرب في الذكر من السماء ، أتبع ذلك قوله : ﴿ وجعلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ في الأرض ﴾ جبالاً ﴿ رواسي ﴾ أي ثوابت ، كراهة ﴿ أن تميد بهم ﴾ وتضطرب فتهلك المياه كل شيء حي فيعود نفعها ضراً وخيرها شراً .

ولما كان المراد من المراسي الشدة والحزونة لتقوى على الثبات والتثبيت ، وكان ذلك مقتضياً لإبعادها وحفظها عن الذلة والليونة ، بين أنه أخرق فيها العادة ليعلم أنه قادر مختار لكل ما يريد فقال : ﴿ وجعلنا ﴾ بما لنا من القدرة الباهرة والحكمة البالغة ﴿ فيها ﴾ أي الجبال مع حزونتها ﴿ فجاجاً ﴾ أي مسالك واسعة سهلة ؛ ثم أبدل منها قوله : ﴿ سبلاً ﴾ أي مذللة للسلوك ، ولولا ذلك لتعسر أو تعذر الوصول إلى بعض البلاد ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ إلى منافعهم في ديارهم وغيرها ، وإلى ما فيها من دلائل الوحدانية وغيرها فيعلموا أن وجودها لو كان بالطبيعة كانت على نمط واحد مساوية للأرض متساوية في الوصف ، وأن كونها على غير ذلك دال على أن صانعها قادر مختار متفرد بأوصاف الكمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 78 . 80 ﴾

(8/509)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدالة على وجود الصانع ، وهذه الدلائل أيضاً دالة على كونه منزهاً عن الشريك ، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم ، ووجود الإلهين يقتضي وقوع الفساد .

فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم .

وفيها أيضاً رد على عبدة الأوثان من حيث إن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع .

فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ، واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من الدلائل :

النوع الأول : قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ أَنَّ السموات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وإدخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه .

قال صاحب "الكشاف" : قرئ رتقاً بفتح التاء ، وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنفض أي كانتا مرتوقتين ، فإن قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر فما بال الرتق ؟ قلت : هو على تقدير موصوف أي كانتا شيئاً رتقاً .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : المراد من الرؤية في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ، إما الرؤية ، وإما العلم والأول مشكل ، أما أولاً فلأن القوم ما رأوهما كذلك ألبتة ، وأما ثانياً فلقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض ﴾ [الكهف : 51] ، وأما العلم فمشكل لأن الأجسام ، قابلة للفتق والرتق في أنفسها ، فالحكم عليها بالرتق أولاً وبالفتق ثانياً لا سبيل إليه إلا السمع ، والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة ، فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال .

(9/509)

والجواب : المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال فدفعه من وجوه : أحدها : أنا نثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله : ثم نجعله دليلاً على حصول النظام في العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة في التوحيد .

وثانياً : أن يحمل الرتق والفتق على إمكان الرتق والفتق والعقل ، يدل عليه لأن الأجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي مخصصاً .

وثالثها : أن اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فإنه جاء في التوراة إن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم خلق السموات والأرض منها وفتق بينها ، وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على أنهم يقبلون قول اليهود في ذلك .

المسألة الثالثة :

إنما قال ﴿ كانتا رتقاً ﴾ ولم يقل كن رتقاً لأن السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس ، قال الأخفش : السموات نوع والأرض نوع ، ومثله :

﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ، ومرت بنا غنمان أسودان ، لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم .

المسألة الرابعة :

الرتق في اللغة السد ، يقال : رتقت الشيء فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين .

قال الزجاج : الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق ، قال المفضل : إنما لم يقل كانتا رتقين كقوله : ﴿ وَمَا جعلناهم جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام ﴾ [الأنبياء : 8] لأن كل واحد جسد

كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق .

المسألة الخامسة :

(10/509)

اختلف المفسرون في المراد من الرتق والفتق على أقوال : أحدها : وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم أن المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هي وأصعد الأجزاء السماوية ، قال كعب : خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً توسطتهما ففتقهما بها .

وثانيها : وهو قول أبي صالح ومجاهد أن المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الأرضون .

وثالثها : وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع * والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ [الطارق : 11 ، 12] ورجعوا

هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا .

فإن قيل : هذا الوجه مرجوح لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا ، قلنا : إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة منها سماء ، كما يقال : ثوب أخلاق وبرمة أعشار .

واعلم أن هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الإبصار .

ورابعها : قول أبي مسلم الأصفهاني : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ [الشورى : 11] وكقوله : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض الذى فطَرَهُنَّ ﴾ [الأنبياء : 56] فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق .

(11/509)

أقول وتحقيقه أن العدم نفي محض ، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة ، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه ، فإذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض ، فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازاً عن العدم والفتق عن

الوجود .

وخامسها : أن الليل سابق على النهار ، لقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [يس : 37] وكانت السموات والأرض مظلمة أولاً ففتقهما الله تعالى بإظهار النهار المبصر ، فإن قيل : فأي الأقاويل أليق بالظاهر ؟ قلنا : الظاهر يقتضي أن السماء على ما هي عليه ، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقاً ، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودان ، والرتق ضد الفتق فإذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة ، وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحاً ، ويصير الوجه الأول أولى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني .

وهو أن كل واحد منهما كان رتقاً ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعاً ، ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ، ففتقهما لينزل المطر من السماء ، ويظهر النبات على الأرض .

المسألة السادسة :

دلالة هذه الوجوه على إثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة ، لأن أحداً لا يقدر على مثل ذلك ، والأقرب أنه سبحانه خلقهما رتقاً لما فيه من المصلحة للملائكة ، ثم لما أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقاً لما فيه من منافع العباد .

النوع الثاني من الدلائل : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وفيه

مسائل :

المسألة الأولى :

(12/509)

قال صاحب "الكشاف" قوله : وجعلنا لا يخلو إما أن يتعدى إلى واحد أو اثنين ، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله : ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآء ﴾ [النور : 45] أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه ، ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام : " ما أنا من دد ولا الدد مني " وقرىء حياً وهو المفعول الثاني .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول كيف قال : وخلقنا من الماء كل حيوان ، وقد قال : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 27] وجاء في الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِى ﴾ [المائدة : 110] وقال في حق آدم : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [

آل عمران : 59] والجواب : اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة ، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهداً محسوساً ليكون أقرب إلى المقصود ، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام ، لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك .

المسألة الثالثة :

اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله : ﴿ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ الحيوان فقط ، وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار نامياً وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر ، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود ، كأنه تعالى قال : ففتقنا السماء لإنزال المطر وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حياً ، حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حياً ، قلنا لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى :

(13/509)

﴿ كَيْفَ يُحْىِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم : 50] أما قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك .

النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الأولى وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك في قوله : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ .

المسألة الثانية :

الرواسي الجبال ، والراسي هو الداخل في الأرض .

المسألة الثالثة :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الأرض بسطت على الماء فكانت تتكفى ء بأهلها كما تتكفى ء السفينة ، لأنها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال .

النوع الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : الفج الطريق الواسع ، فإن قلت في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى : ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ قلت لم تقدم وهي صفة ، ولكنها جعلت حالاً كقوله :

لعزة موحشاً طلل قديم . والفرق من جهة المعنى أن قوله سبلاً فجاجاً ، إعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقاً واسعة ، وأما قوله : ﴿ فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ فهو إعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة ، فهذه الآية بيان لما أبهم في الآية الأولى .

المسألة الثانية :

في قوله ﴿ فِيهَا ﴾ قولان : أحدهما أنها عائدة إلى الجبال ، أي وجعلنا في الجبال التي هي رواسي فجاجاً سبلاً ، أي طرقاً واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجاً وجعل فيها طرقاً .

(14/509)

الثاني : أنها عائدة إلى الأرض ، أي وجعلنا في الأرض فجاجاً وهي المسالك والطرق وهو قول الكلبي .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ معناه لكي يهتدوا إذ الشك لا يجوز على الله تعالى .

المسألة الرابعة :

في يهتدون قولان : الأول : ليهتدوا إلى البلاد .

والثاني : ليهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال ، قالت المعتزلة وهذا التأويل يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء .

والكلام عليه قد تقدم ، وفيه قول ثالث وهو أن الإهتداء إلى البلاد والاهتداء إلى وحدانية الله تعالى يشتركان في مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للأمرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملاً في مفهوميه معاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 139.142 ﴾

(15/509)

وقال الماوردى :

قوله عز جل : ﴿ أَنَّ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتق الله بينهما بالهواء ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن السموات كانت مرتتقة مطبقة ففتقها الله سبع سموات وكانت الأرض كذلك ففتقها سبع أرضين ، قاله مجاهد .

الثالث : أن السموات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، قاله عكرمة ، وعطية ، وابن زيد .

والرتق سدٌّ ، والفتق شق ، وهما ضدان ، قال عبد الرحمن بن حسان :

يهون عليهم إذا يغضبو . . . ن سخط العداة وإرغامُها

ورتق الفتوق وفتق الرتو . . . ق ونقض الأمور وإبرامها

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن خلق كل شيء من الماء ، قاله قتادة .

الثاني : حفظ حياة كل شيء حي بالماء ، قاله قتادة .

الثالث : وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي ، قاله قطرب .

﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني أفلا يصدقون بما يشاهدون .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ والرواسي الجبال ، وفي تسميتها بذلك وجهان :

أحدهما : لأنها رست في الأرض وثبتت ، قال الشاعر :

رسا أصله تحت الثرى وسما به . . . إلى النجم فرعٌ لا يزال طويل

الثاني : لأن الأرض بها رست وثبتت . وفي الرواسي من الجبال قولان :

أحدهما : أنها الثوابت : قاله قطرب .

الثاني : أنها الثقال قاله الكلبي .

﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لئلا تزول بهم .

الثاني : لئلا تضطرب بهم . الميد الاضطراب .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ في الفجاج وجهان : أحدهما : أنها الأعلام التي يهتدى بها .

الثاني : الفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين . قال الكميت :

تضيق بنا النجاح وهنّ فج . . . ونجهل ماءها السلم الدفينا

﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سبل الاعتبار ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

الثاني : مسالك ليهتدوا بها إلى طرق بلادهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(16/509)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾

المعنى من يقل منهم كذا أن لو قاله وليس منهم من قال هذا ، وقال بعض المفسرين المراد بقوله ﴿ ومن يقل ﴾ الآية ، إبليس .

قال القاضي أبو محمد : هذا ضعيف لأن إبليس لم يرو قط أنه ادعى ربوبية ، وقرأ الجمهور " نَجزيه " بفتح النون ، وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد " نُجزيه " بضم النون والهاء ووجهها أن المعنى نجعلها تكتفي به من قولك أجزاني الشيء ثم خففت الهمزة ياء . وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي كجزائنا هذا القائل جزاؤنا الظالمين ، ثم وقفهم على عبرة دالة على وحدانية الله جلت قدرته ، و" الرتق " الملتصق بعضه ببعض المبهم الذي لا صدع ولا فتح ومنه امرأة رتقاء ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ فقالت فرقة كانت السماء ملتصقة بعضها ببعض والأرضون كذلك ففتقهما الله تعالى سبعاً سبعاً ، وعلى هذين القولين ف " الرؤية " الموقف عليها رؤية القلب ، وقال فرقة السماء قبل المطر رتق والأرض قبل النبات رتق ففتقهما تعالى بالمطر والنبات ، كما قال الله تعالى ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع ﴾ [الطارق : 11-12] وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعديد النعمة والحجة بمحسوس بين ويناسب قوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي من الماء الذي أوجده الفتق فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار ، وقالت فرقة السماء والأرض رتق بالظلمة وفتقهما الله تعالى بالضوء و" الرؤية " على هذين القولين رؤية العين ، و﴿ الأرض ﴾ هنا اسم الجنس فهي جمع ، وقرأ الجمهور " رتْقاً " بسكون التاء ، والرتق مصدر وصف به كالزور والعدل ، وقرأ الحسن والثقفي وأبو حيوة "كانتا رتَقاً " بفتح التاء وهو اسم المرتوق كالنفض والنفض والخبط والخبط وقال كانتا من

حيث هما نوعان ونحوه قول عمرو بن شيم . ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعاً .

(17/509)

وقوله ﴿ كانتا ﴾ في القولين الأولين بمنزلة قولك كان زيد حياً ، أي لم يكن ، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك كان زيداً عالماً أي وهو كذلك ، وقرأ ابن كثير وحده " ألم ير " بإسقاط الواو . وقوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ يبن أنه ليس على عموم فإن الملائكة والجن قد خرجوا عن ذلك ، ولكن الوجه أن يحمل على أعم ما يمكن فالحيوان أجمع والنبات على أن الحياة فيه مستعارة داخل في هذا ، وقالت فرقة المراد ب ﴿ الماء ﴾ المني في جميع الحيوان ، ثم وقفهم على ترك الإيمان توبيخاً وتقريعاً .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

" الرواسي " جمع راسية أي ثابتة يقال رسا يرسو إذا ثبت واستقر ولا يستعمل إلا في الأجرام الكبار كالجبال والسفينة ونحوه ، ويروى أن الأرض كانت تكفأ بأهلها حتى ثقلها الله تعالى بالجبال فاستقرت ، و" الميد " التحرك ، و" الفجاج " الطرق المتسعة في الجبال وغيرها ، و﴿ سبلاً ﴾ جمع سبيل ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ يحتمل أن يعود

على الرواسي ويحتمل أن يعود على ﴿ الأرض ﴾ وهو أحسن ، و﴿ يهتدون ﴾ معناه في مسالكهم وتصرفهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/509)

وقال ابن الجوزى :

﴿ ومَنْ يَقُل منهم ﴾ أي : من الملائكة .

قال الضحاك في آخرين : هذه خاصة لإبليس ، لم يَدْعُ أحد من الملائكة إلى عبادة نفسه سواه ، قال أبو سليمان الدمشقي : وهذا قول من قال إنه من الملائكة ، فإن إبليس قال ذلك للملائكة الذين هبطوا معه إلى الأرض ، ومن قال : إنه ليس من الملائكة ، قال : هذا على وجه التهديد ، وما قال أحد من الملائكة ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أولم ير الذين كفروا ﴾ أي : أولم يعلموا .

وقرأ ابن كثير : "ألم ير الذين كفروا" بغير واو بين الألف واللام ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة ، ﴿ أنَّ السموات والأرض كانتا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ قال أبو عبيدة : السموات جمع ، والأرض واحدة ، فخرجت صفة لفظ الجمع على لفظ صفة الواحد والعرب تفعل هذا إذا أشركوا بين جمع وبين واحد ؛ والرَّتْق مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع

والمذكر والمؤنث سواء ، ومعنى الرَّتْق : الذي ليس فيه ثقب .

قال الزجاج : المعنى : كانتا ذواتَي رَتْق ، فجعلهما ذوات فتق ، وإنما لم يقل : "رَتْقَيْنِ" لأن الرَّتق مصدر .

وللمفسرين في المراد به ثلاثة أقوال .

أحدها : أن السموات كانت رَتْقاً لا تُمْطِر ، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنْبِت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات .

رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وعكرمة ، ومجاهد في رواية ، والضحاك في آخرين .

والثاني : أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، ففتقهما الله تعالى ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

والثالث : أنَّه فَتَق من الأرض ست أرضين فصارت سبعاً ، ومن السماء ست سموات فصارت سبعاً ، رواه السدي عن أشياخه ، وابن أبي نجيح عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنَا من الماء كلَّ شيء حيٍّ ﴾ وقرأ معاذ القارئ ، وابن أبي عبلة ، وحميد بن قيس : "كلَّ شيء حيّاً" بالنصب .

وفي هذا الماء قولان .

أحدهما : أنه الماء المعروف ، والمعنى : جعلنا الماء سبباً لحياة كل حيٍّ ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه النُّطفة ، قاله أبو العالية .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ قد فسرناه في [النحل 15] .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي : في الرواسي ﴿ فِجَاجاً ﴾ ، قال أبو عبيدة : هي المسالك .

قال الزجاج : الفِجَاج جمع فَجّ ، وهو كل منخَرق بين جبلين ، ومعنى ﴿ سُبُلاً ﴾ طرقاً .

قال ابن عباس : جعلنا من الجبال طُرُقاً كي تهتدوا إلى مقاصدكم في الأسفار .

قال المفسرون : وقوله : "سبلاً" تفسير للفِجَاج ، وبيان أن تلك الفِجَاج نافذة مسلوكة ، فقد يكون الفَجُّ غير نافذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(20/509)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إني إله مِّن دُونِه ﴾

قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشركة ، ودعا إلى

عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إني إله غيره .

وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أي فذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ .

وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال .

وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء .

وقد تقدم في سورة "البقرة" .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾ أي كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعهما .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا ﴾ قراءة العامة "أَوَلَمْ" بالواو .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد "أَلَمْ يَرَ" بغير واو ، وكذلك هو في مصحف مكة .

"أَوَلَمْ يَرَ" بمعنى يعلم .

﴿ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ﴾ قال الأخفش : "كانتا" لأنهما صنفان ، كما تقول العرب : هما لِقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ قال أبو إسحاق : "كانتا" لأنه يعبر عن السموات

بلفظ الواحد بسماء ؛ ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون .

وقال : "رتقاً" ولم يقل رتقين ؛ لأنه مصدر ؛ والمعنى كانتا ذواتي رتق .

وقرأ الحسن "رَتَقاً" بفتح التاء .

قال عيسى بن عمر : هو صواب وهي لغة .

والرتق السد ضد الفتق ، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتتق أي التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج .

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء .

وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحها بها ، وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً .

وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح : كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعاً .

وحكاه القتبي في عيون الأخبار له ، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عز وجل : ﴿

أَوَلَمْ يرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ففتقْنَاهُمَا ﴾ قال : كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، ففتق من هذه سبع سموات ، ومن هذه سبع أرضين ؛ خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيها الأنهار وأنبت فيها الأثمار ، وجعل فيها البحار وسماها رعاء ، عرضها مسيرة خمسمائة عام ؛ ثم خلق الثانية مثلها في العرض والغلظ وجعل فيها أقواماً ، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدي الناس ؛ وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج ، واسم تلك الأرض الدكماء ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام ، ومنها هواء إلى الأرض .

الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود ، ولها أذناب مثل أذناب الخيل الطوال ، يأكل بعضها بعضاً فتسلط على بني آدم .

ثم خلق الله الخامسة (مثلها) في الغلظ والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار .

ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سُود بُهْم ، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام ، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهي من كبريت تعلق في أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها

عربية وفيها جهنم ، فيها بابان اسم الواحد سجين واسم الآخر الفلق ، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهي كتاب الكفار ، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون ، وأما الفلق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة .

(22/509)

وقد مضى في "البقرة" أنها سبع أرضين بين كل أرضَين مسيرة خمسمائة عام ، وسيأتي له في آخر "الطلاق" زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوي : إن السموات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ؛ نظيره قوله عز وجل : ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع * والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ [الطارق : 1211] .

واختار هذا القول الطبري ؛ لأن بعده ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة ؛ ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته ، وعلى البعث والجزاء .

وقيل :

يَهُونُ عليهم إذا يَغضبونَ . . .

سخطُ العداة وإرغامُها

ورَتْق الفُتوق وفَتْق الرُّتوق . . .

ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها

وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ثلاث تأويلات : أحدها : أنه خلق كل شيء من الماء ؛ قاله قتادة .

الثاني ؛ حفظ حياة كل شيء بالماء .

الثالث : وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حيّ ؛ قاله قطرب .

"وجعلنا" بمعنى خلقنا .

وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسي ، وقرّت عيني ؛ أنبئني عن كل شيء ؛ قال : "كل شيء خلق من الماء" الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبي هريرة : "أنبئني عن كل شيء" أراد به عن كل شيء خلق من الماء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : "كل شيء خلق من الماء" وإن لم يكن مخلوقاً .

وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقاً .

وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 27]

وقوله : "تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ" والصحيح العموم ؛ لقوله عليه السلام : "كل شيء خلق من الماء" والله أعلم .

(23/509)

﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه ، بل لمكوّن كوّنه ، ومدبر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوّن محدثاً .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت .

﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي لئلا تميد بهم ، ولا تتحرك ليتم القرار عليها ؛ قاله الكوفيون .

وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد .

والميد التحرك والدوران .

يقال : ماد رأسه ؛ أي دار .

وقد مضى في "النحل" مستوفى .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً ﴾ يعني في الرواسي ؛ عن ابن عباس .

والفجاج المسالك .

والفجُّ الطريق الواسع بين الجبلين .

وقيل : وجعلنا في الأرض فجاجاً أي مسالك ؛ وهو اختيار الطبري ؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي يهتدون إلى السير في الأرض .

"سُبُلاً" تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً وقد لا يكون .

وقيل : ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(24/509)

وقال أبو حيان :

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وأثنى عليهم وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية فاجأ بالوعيد الشديد وأنذر بعذاب جهنم من ادعى منهم أنه إله وذلك على سبيل العرض والتمثيل مع علمه بأنه لا يكون كقوله ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد .

وقرأ الجمهور ﴿ نجزيه ﴾ بفتح النون .

وقرأ أبو عبد الرحمن المقري بضمها أراد نجزئه بالهمز من أجزائي كذا كفاني ، ثم خفف الهمزة فانقلبت ياء كذلك أي مثل هذا الجزاء ﴿ نجزي الظالمين ﴾ وهم الكافرون

والواضعون الشيء في غير موضعه ، وأداة الشرط تدخل على الممكن والممتنع نحو قوله

﴿ لئن أشركت .

﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

هذا استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ، ودلالة على تنزيهه عن الشريك ، وتوكيد لما تقدم من أدلة التوحيد ، ورد على عبدة الأوثان من حيث إنّ الإله القادر على هذه المخلوقات المتصرف فيها التصرف العجيب ، كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع والرؤية هنا من رؤية القلب .

وقيل : من رؤية البصر وذلك على الاختلاف في الرتق والفتق .

وقرأ ابن كثير وحميد وابن محيصن ألم يَرَ بغير واو العطف والجمهور ﴿ أو لم ﴾ بالواو .

﴿ كانتا ﴾ قال الزجاج : السموات جمع أريد به الواحد ، ولهذا قال ﴿ كانتا رتقاً ﴾ لأنه أراد السماء والأرض ، ومنه أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا جعل السموات نوعاً والأرضين نوعاً ، فأخبر عن النوعين كما أخبر عن اثنين كما تقول : أصلحت بين القوم ومر بنا غنمان أسودان لقطيعي غنم .

وقال الحوفي : قال ﴿ كانتا رتقاً ﴾ والسموات جمع لأنه أراد الصنفين ، ومنه قول الأسود بن يعفر :

إن المنية والحتوف كلاهما . . .

يوفي المحارم يرقبان سوادي

لأنه أراد النوعين .

وقال أبو البقاء : الضمير يعود على الجنسين .

(25/509)

وقال الزمخشري : وإنما قال ﴿ كانتا ﴾ دون كنّ لأن المراد جماعة ﴿ السموات ﴾ وجماعة ﴿ الأرض ﴾ ونحوه قولهم : لقاحان سوداوان إن أراد جماعتان فعل في المضمر ما فعل في المظهر .

وقال ابن عطية : وقال ﴿ كانتا ﴾ من حيث هما نوعان ونحوه قول عمرو بن شييم :

ألم يحزنك أن جبال قيس . . .

وتغلب قد تباينت انقطاعا

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : كانتا شيئاً واحداً ففصل الله بينهما بالهواء .

وقال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحها

بها وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً .

وقال مجاهد والسدّي وأبو صالح : كانت السموات والأرض مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضون كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبعاً .

وقالت فرقة : السموات والأرض رتق بالظلمة وفتقها الله بالضوء .

وقالت فرقة : السماء قبل المطر رتق ، والأرض قبل النبات رتق ﴿ ففتقناهما ﴾ بالمطر والنبات كما قال ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع ﴾ قال ابن عطية : وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعديد النعمة والحجة للمحسوس بين ، ويناسب قوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ﴾ أي من الماء الذي أوجده الفتق انتهى .

وعلى هذين القولين تكون الرؤية من البصر وعلى ما قبلهما من رؤية القلب ، وجاء تقريرهم بذلك لأنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد ، ولأن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص ، وهو الله سبحانه وقرأ الجمهور ﴿ رتْقاً ﴾ بسكون التاء وهو مصدر يوصف به كزور وعدل فوقع خبراً للمثنى .

وقرأ الحسن وزيد بن عليّ وأبو حيوة وعيسى ﴿ رتقاً ﴾ بفتح التاء وهو اسم المرتوق كالقبض والنفض ، فكان قياسه أن يثني ليطابق الخبر الاسم .

فقال الزمخشري : هو على تقدير موصوف أي ﴿ كانتا ﴾ شيئاً ﴿ رتقاً ﴾ .

وقال أبو الفضل الرازي : الأكثر في هذا الباب أن يكون المتحرك منه اسماً بمعنى المفعول والساكن مصدر ، أو قد يكونان مصدرين لكن المتحرك أولى بأن يكون في معنى المفعول لكن هنا الأولى أن يكونا مصدرين فأقيم كل واحد منهما مقام المفعولين ، ألا ترى أنه قال ﴿ كانتا رتقاً ﴾ فلو جعلت أحدهما اسماً لوجب أن تثنيه فلما قال ﴿ رتقاً ﴾ كان في الوجهين كرجل عدل ورجلين عدل وقوم عدل انتهى .

﴿ وجعلنا ﴾ إن تعدت لواحد كانت بمعنى وخلقنا من الماء كل حيوان أي مادته النطفة قاله قطرب وجماعة أو لما كان قوامه الماء المشروب وكان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً منه كقوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ قاله الكلبي وغيره ، وتكون الحياة على هذا حقيقة ويكون كل شيء عاماً مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة والجن وليسوا مخلوقين من نطفة ولا محتاجين للماء .

وقال قتادة : أي خلقنا كل نام من الماء فيدخل فيه النبات والمعدن ، وتكون الحياة فيهما مجازاً أو عبر بالحياة عن القدر المشترك بينهما وبين الحيوان وهو النموّ ويكون أيضاً على هذا عاماً مخصوصاً ، وإن تعدّت ﴿ جعلنا ﴾ لاثنين فالمعنى صيرنا ﴿ كل شيء حي

﴾ بسبب من الماء لا بد له منه .

وقرأ الجمهور ﴿ حي ﴾ بالخفض صفة لشيء .

وقرأ حميد حياً بالنصب مفعولاً ثانياً لجعلنا ، والجار والمجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً ل ﴿ جعلنا ﴾ ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ استفهام إنكار وفيه معنى التعجب من ضعف عقولهم ، والمعنى أفلا يتدبرون هذه الأدلة ويعملوا بمقتضاها ويتركوا طريقة الشرك ، وأطلق الإيمان على سببه وقد انتظمت هذه الآية دليلين من دلائل التوحيد وهي من الأدلة السماوية والأرضية .

ثم ذكر دليلاً آخر من الدلائل الأرضية فقال : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ وتقدم شرح نظير هذه الجملة في سورة النحل ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ وهذا دليل رابع من الدلائل الأرضية ، والظاهر أن الضمير في ﴿ فيها ﴾ عائد على الأرض .

(27/509)

وقيل يعود على الرواسي ، وجاء هنا تقديم ﴿ فجاجاً ﴾ على قوله ﴿ سبلاً ﴾ وفي سورة نوح ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ فقال الزمخشري : وهي يعني ﴿ فجاجاً ﴾ صفة ولكن جعلت حالاً كقوله :

لمية موحشاً طلل . . .

يعني أنها حال من سبل وهي نكرة ، فلو تأخر ﴿ فجاجاً ﴾ لكان صفة كما في تلك الآية ولكن تقدم فانتصب على الحال قال : فإن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى ؟ قلت : وجهان أحدهما إعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة ، والثاني بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثمة انتهى .

يعني بالإبهام أن الوصف لا يلزم أن يكون الموصوف متصفاً به حالة الإخبار عنه ، وإن كان الأكثر قيامه به حالة الإخبار عنه ، ألا ترى أنه يقال : مررت بوحشي القاتل حمزة ، فحالة المرور لم يكن قائماً به قتل حمزة ، وأما الحال فهي هيئة ما تخبر عنه حالة الإخبار ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ في مسالكهم وتصرّفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(28/509)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ أي من الملائكة الكلامَ فيهم وفي كونهم بمعزل مما قالوا في حقهم ﴿ إِنّى إله مّن دُونِهِ ﴾ متجاوزٌ إياه تعالى ﴿ فَذَلِكَ ﴾ الذي فُرض قولُه فرضَ مُحال ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ كسائر المجرمين ولا يغني عنهم ما ذُكر من صفاتهم السنية وأفعالِهم المَرْضية ،

وفيه من الدِلالة على قوة ملكوتِه تعالى وعزة جبروتِه واستحالةِ كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرةُ ما لا يخفى ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ مصدرٌ تشبيهيٌّ مؤكد لمضمون ما قبله أي مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيعِ نجزي الذين يضعون الأشياءَ في غير مواضعها ويتعدَّوْن أطوارَهم ، والقصرُ المستفادُ من التقديم معتبرٌ بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أي لا جزاءً أنقصَ منه .

(29/509)

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ تجهيلٌ لهم بتقصيرهم في التدبُّر في الآيات التكوينيةِ الدالةِ على استقلاله تعالى بالألوهية وكونِ جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوتِه ، والهمزةُ للإنكار والواو للعطف على مقدّر وقرىء بغير واو والرؤيةُ قلبيةٌ ، أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ أَنَّ السموات والأرض كَانَتَا ﴾ أي جماعتا السمواتِ والأرضين كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ ﴿ رَتْقاً ﴾ الرتْق الضمُّ والالتحامُ والمعنى إما على حذف المضافِ أو هو بمعنى المفعولِ أي كانتا ذواتيْ رتْقٍ أو مرتوقتين ، وقرىء رتَقاً أي شيئاً رتقاً أي مرتوقاً ﴿ ففتقناهما ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية عكرمة والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير : كانتا شيئاً واحداً ملتزمين ففصل الله

تعالى بينهما ورفع السماءَ إلى حيث هي وأقرّ الأرض ، وقال كعب : خلق الله تعالى السمواتِ والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً فتوسطتها ففتقْتها ، وعن الحسن : خلق الله تعالى الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر عليها دخانٌ ملتزق بها ثم أصعدَ الدخانَ وخلق منه السمواتِ وأمسك الفِهرَ في موضعها وبسط منها الأرضَ وذلك قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ وقال مجاهد والسدي : كانت السمواتُ مُرتَتِقَةً طبقةً واحدة ففتقها فجعلها سبعَ سموات وكذلك الأرضُ كانت مرتتِقةً طبقةً واحدةً ففتقها فجعلها سبعَ أرضين ، وقال ابن عباس في رواية عطاء وعليه أكثرُ المفسرين : إن السمواتِ كانت رتْقاً مستويةً صُلبة لا تمطر والأرضُ رتْقاً لا تُنبت ففتق السماءَ بالمطر والأرضَ بالنبات ، فيكون المراد بالسموات السماءَ الدنيا والجمعُ باعتبار الآفاقِ أو السمواتِ جميعاً على أن لها مدخلاً في الأمطار ، وعلمُ الكفرةِ الرتْقَ والفتقَ بهذا المعنى مما لا سِترةَ به وأما بالمعاني الأُوَل فهم وإن لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما إما بطريق

النظرِ والتفكر ، فإن الفتقَ عارضٌ مفتقرٌ إلى مؤثر قديم وإما بالاستفسار من العلماء ومطالعةِ الكتب .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْء حَىّ ﴾ أي خلقنا من الماء كلَّ حيوان كقوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مّن مَّاء ﴾ وذلك لأنه من أعظم موادّه أو لفرْط احتياجه إليه وانتفاعِه به ، أو صيرنا كلَّ شيء حي من الماء أي بسبب منه لا بد له من ذلك ، وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين في الأصل مبتدأٌ وخبرٌ وحقُّ الخبر عند كونه ظرفاً أن يتقدم على المبتدأ فإن ذلك مصحّحٌ محْضٌ لا مرجحٌ ، وقرىء حيًّا على أنه صفة كُلَّ أو مفعولٌ ثانٍ والظرفُ كما في الوجه الأول قُدّم على المفعول للاهتمام به والتشويقِ إلى المؤخر ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إنكار لعدم إيمانِهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتماً من الآيات الآفاقية والأنفسيةِ الدالةِ على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورةً تحت ملكوته وقدرتِه ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكارُ السابق أي أيعلمون ذلك فلا يؤمنون

(31/509)

﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ أي جبالاً ثوابتَ جمعُ راسية من رسا الشيءُ إذا ثبت ورسَخ ، ووصفُ جمعِ المذكر بجمع المؤنثِ في غير العقلاءِ مما لا ريب في صحته كقوله تعالى : ﴿ أَشْهُرٌ معلومات ﴾ و ﴿ أَيَّامًا معدودات ﴾ ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي كراهةَ أن

تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا ، لعدم الإلباس ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض وتكريرُ الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقَّه أو في الرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق ﴿ فِجَاجاً ﴾ مسالكَ واسعةً وإنما قدم على قوله تعالى : ﴿ سُبُلاً ﴾ وهى وصفٌ له ليصير حالاً فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقَها كذلك ، أو ليبدل منها سبلاً فيدل ضمناً على أنه تعالى خلقها ووسّعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى مصالحهم ومَهمّاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(32/509)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾

أي من الملائكة عليهم السلام ، وقيل من الخلائق ، والأول هو الذي يقتضيه السياق إذ الكلام في الملائكة عليهم السلام وفي كونهم بمعزل عما قالوه في حقهم ، والمراد ومن يقل منهم على سبيل الفرض ﴿ إِنّى إله مّن دُونِهِ ﴾ أي متجاوزاً إياه تعالى : ﴿ فَذَلِكَ ﴾ أي الذي فرض قوله ما ذكر فرض محال ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ كسائر المجرمين ولا يغنى عنه ما سبق من

الصفات السنية والأفعال المرضية .

وعن الضحاك .

وقتادة عدم اعتبار الفرض وقالا : إن الآية خاصة بإبليس عليه اللعنة فإنه دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر ، والمعول عليه ما ذكرنا ، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما يتوهم أولئك الكفرة ما لا يخفي .

وقرأ أبو عبد الرحمن المقري ﴿ نَجْزِيهِ ﴾ بضم النون أراد نجزئه بالهمز من أجزاني كذا كفاني ثم خفف الهمزة فانقلبت ياء ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها ويتعدون أطوارهم ، والقصر المستفاد من التقديم يعتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أي لا جزاء أنقص منه .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم عن التدبر في الآيات التكوينية الدالة على عظيم قدرته وتصرفه وكون جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوته على وجه ينتفعون به ويعلمون أن من كان كذلك لا ينبغي أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه مما لا يضر ولا ينفع ، والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر .

وقرأ ابن كثير .

وحميد .

وابن ميصن بغير واو ، والرواية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ إن السموات والأرض كَانَتَا ﴾ الضمير للسموات والأرض ، والمراد من السموات طائفتها ولذا ثنى الضمير ولم يجمع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 40] وكذا قول الأسود بن يعفر

: إن المنية والحتوف كلاهما . . .

دون المحارم يرقبان سوادي

وأفرد الخبر أعني قوله تعالى : ﴿ رَتْقاً ﴾ ولم يثن لأنه مصدر ، والحمل إما بتأويله بمشتق أو لقصد المبالغة أو بتقدير مضاف أي ذاتي رتق ، وهو في الأصل الضم والالتحام خلقة كان أم صنعة ، ومنه الرتقاء الملتحمة محل الجماع .

وقرأ الحسن .

وزيد بن علي .

وأبو حيوة .

وعيسى ﴿ رَتْقاً ﴾ بفتح التاء وهو اسم المرتوق كالنقض والنقض فكان قياسه أن يثني

هنا ليطابق الاسم فقال الزمخشري : هو على تقدير موصوف أي كانتا شيئاً رتقاً وشيء اسم جنس شامل للقليل والكثير فيصح الاخبار به عن المثنى كالجمع ، ويحسنه أنه في حالة الرتقية لا تعدد فيه .

(34/509)

وقال أبو الفضل الرازي : الأكثر في هذا الباب أن يكون المتحرك منه اسماً بمعنى المفعول والساكن مصدراً وقد يكونان مصدرين ، والأولى هنا كونهما كذلك وحينئذ لا حاجة إلى ما قاله الزمخشري في توجيه الأخبار ، وقد أريد بالرتق على ما نقل عن أبي مسلم الأصفهاني حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكان السموات والأرض أمر واحد متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالى : ﴿ ففتقناهما ﴾ الايجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقائق عن البعض به فيكون كحقوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 14] بناء على أن الفطر الشق وظاهره نفي تمايز المعدومات ، والذي حققه مولانا الكوراني في جلاء الفهوم وذب عنه حسب جهده أن المعدوم الممكن متميز في نفس الأمر لأنه متصور ولا يمكن تصور الشيء إلا بتميزه عن غيره وإلا لم يكن بكونه متصوراً أولى من غيره ولأن بعض المعدومات قد يكون مراداً دون بعض ولولا التميز بينهما لما

عقل ذلك إن القصد إلى إيجاد غير المتعين ممتنع لأن ما ليس بتعين في نفسه لم يتميز القصد إليه عن القصد إلى غيره ، وقد يقال على هذا : يكفي في تلك الإرادة عدم تمايز السموات والأرض في حالة العدم نظراً إلى الخارج المشاهد ، وأياً ما كان فمعنى الآية ألم يعلموا أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدناهما ، ومعنى علمهم بذلك تمكنهم من العلم به بأدنى نظر لأنهما ممكنان والممكن باعتبار ذاته وحدها يكون معدوماً واتصافه بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود .

(35/509)

قال ابن سينا في المقالة الثامنة من "إلهيات الشفاء" : سائر الأشياء غير واجب الوجود لا تستحق الوجود بل هي في أنفسها ومع قطع اضافتها إلى الواجب تستحق العدم ولا يعقل أن يكون وجود السموات والأرض مع أمكانهما الضروري عن غير علة ، وأما ما ذهب إليه ذيمقرطيس من أن وجود العالم إنما كان بالاتفاق وذلك لأن مباديه أجرام صغار لا تتجزأ لصلابتها وهي مبثوثة في خلاء غير متناه وهي متشاكلة الطبائع مختلفة الأشكال دائمة الحركة فاتفق أن تضامت جملة منها واجتمعت على هيئة مخصوصة فتكون منها هذا العالم فضرب من الهذيان ، ووافقه عليه على ما قيل ابناذقلس لكن الأول زعم أن تكون الحيوان

والنبات ليس بالاتفاق وهذا زعم أن تكون الإجرام الاسطقسية بالاتفاق أيضاً إلا أن ما اتفق إن كان ذا هيئة احتماعية على وجه يصلح للبقاء والنسل بقي وما اتفق إن لم يكن كذلك لم يبق ، وهذا الهذيان بعيد من هذا الرجل فانهم ذكروا أنه من رؤساء يونان كان في زمن داود عليه السلام وتلقى العلم منه واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ، ثم ان وجودهما عن العلة حادث بل العالم المحسوس منه وغيره حادث حدوثان زمانياً باجماع المسلمين وما يتوهم من بعض عبارات بعض الصوفية من أنه حادث بالذات قديم بالزمان مصروف عن ظاهره إذ هم أجل من أن يقولوا به لما أنه كفر .

(36/509)

والفلاسفة في هذه المسألة على ثلاثة آراء فجماعة من الأوائل الذين هم أساطين من الملطية وسامياً صاروا إلى القول بحدوث موجودات العالم مباديها وبسائطها ومركباتها وطائفة من الأتينينية وأصحاب الرواق صاروا إلى قدم مباديها من العقل والنفس والمفارقات والبسائط دون المتوسطات والمركبات فإن المبادي عندهم فوق الدهر والزمان فلا يتحقق فيها حدوث زماني بخلاف المركبات التي هي تحت الدهر والزمان ومنعوا كون الحركات سرمدية ، ومذهب أرسطو ومن تابعه من تلامذته أن العالم قديم وأن

الحركات الدورية سرمدية ، وهذا بناء على المشهور عنه وإلا فقد ذكر في الاسفار أن أساطين الحكمة المعتبرين عند الطائفة ثمانية ثلاثة من الملطيين ثالس .

وانكسيمائس .

واغاثاذيمون ، وخمسة من اليونانيين ابناذقلس .

وفيثغورس .

وسقراط .

وأفلاطون .

وأرسطو وكلهم قائلون بما قال به الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من حدوث العالم بجميع جواهره وأعراضه وأفلاكه وأملاكه وبسائطه ومركباته ، ونقصل عن كل كلمات تؤيد ذلك ، وكذا نقل عن غير أولئك من الفلاسفة وطال الكلام في هذا المقام ، ولولا مخافة السآمة لنقلت ذلك ولعلي أنقل شيئاً منه في محله الأليق به إن شاء الله تعالى ، وجاء عن ابن عباس في رواية عكرمة .

والحسن وقتادة .

وابن جبير أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء إلى حيث هي واقر الأرض .

وقال كعب : خلق الله تعالى السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً فتوسطهما ففتقهما .

(37/509)

وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة القهر عليها دخان ملتصق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ فجعل سبع سموات ، وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين ، والمراد من العلم على هذه الأقوال التمكن منه أيضاً إلا أن ذلك ليس بطريق النظر بل بالاستفسار من علماء أهل الكتاب الذين كانوا يخالطونهم ويقبلون أقوالهم ؛ وقيل بذلك أو بمطالعة الكتب السماوية ويدخل فيها القرآن وإن لم يقبلوه لكونه معجزة في نفسه وفي ذلك دغدغة لا تخفى .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو نعيم في الحلية من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمران رجلاً أتاه فسأله عن الآية فقال : اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فاخبرني وكان ابن عباس فذهب إليه فسأله

فقال : نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رَتْقاً لا تنبت فلما خلق الله تعالى للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : الآن علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً صدق ابن عباس هكذا كانت ، وروي عنه ما هو بمعنى ذلك جماعة منهم الحاكم وصححه وإليه ذهب أكثر المفسرين .

وقال ابن عطية : هو قول حسن يجمع العبرة والحجة وتعديد النعمة ويناسب ما يذكر بعد والرتق والفتق مجازيان عليه كما هما كذلك على الوجه الأول ، والمراد بالسماوات جهة العلو أو سماء الدنيا ، والجمع باعتبار الآفاق أو من باب ثوب أخلاق ، وقيل هو على ظاهره ولكل من السموات مدخل في المطر ، والمراد بالرؤية العلم أيضاً وعلم الكفرة بذلك ظاهر .

(38/509)

وجوز أن تكون الرؤية بصرية وجعلها علمية أولى ، ومن البعيد ما نقل عن بعض علماء الإسلام أن الرتق انطباق منطقتي الحركتين الأولى والثانية الموجب لبطلان العمارات وفصول السنة والفتق افتراقهما المقتضى لا مكان العمارة وتميز الفصول بل لا يكاد يصح على الأصول الإسلامية التي أصلها السلف الصالح كما لا يخفى .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْء حَىّ ﴾ عطف على ﴿ إن السموات ﴾ الخ

ولا حاجة إلى تكلف عطفه على فتقنا ، والجعل بمعنى الخلق المتعدى لمفعول واحد ، ومن ابتدائية والماء هو المعروف أي خلقنا من الماء كل حيوان أي متصف بالحياة الحقيقية .

ونقل ذلك عن الكلبي .

وجماعة ويؤيده قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مّن مَّاء ﴾ [النور : 45] ووجه كون الماء مبدأ ومادة للحيوان وتخصيصه بذلك أنه أعظم مواده وفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه ولا بد من تخصيص العام لأن الملائكة عليهم السلام وكذا الجن أحياء وليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه على الصحيح .

وقال قتادة : المعنى خلقنا كل نام من الماء فيدخل النبات ويراد بالحياة النمو أو نحوه ، ولعل من زعم أن في النبات حسا وشعوراً أبقى الحياة على ظاهرها ، وقال قطرب .

وجماعة : المراد بالماء النطفة ولا بد من التخصيص بما سوى الملائكة عليهم السلام والجن أيضاً بل بما سوى ذلك والحيوانات المخلوقة من غير نطفة كأكثر الحشرات الأرضية .

(39/509)

ويجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير المتعدى لمفعولين وهما هنا ﴿ كُلَّ وِمنْ الماء ﴾ وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به ومن اتصالية كما قيل في قوله صلى الله عليه وسلم : " ما

أنا من دد ولا الدد مني " والمعنى صيرنا كل شيء حي متصلاً بالماء أي مخالطاً له غير منفك عنه ، والمراد أنه لا يحيا دونه ، وجوز أبو البقاء على الوجه الأول أن يكون الجار والمجرور في موضع الحال من ﴿ كُلٍّ ﴾ وجعل الطيبي من على هذا بيانية تجريدية فيكون قد جرد من الماء الحي مبالغة كأنه هو ، وقرأ حميد ﴿ حَياً ﴾ بالنصب على أنه صفة ﴿ كُلٍّ ﴾ أو مفعول ثان لجعل ، والظرف متعلق بما عنده لا بحيا ، والشيء مخصوص بالحيوان لأنه الموصوف بالحياة ، وجوز تعميمه للنبات .

وأنت تعلم أن من الناس من يقول : إن كل شيء من العلويات والسفليات حي حياة لائقة به وهم الذين ذهبوا إلى أن تسبيح الأشياء المفاد بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] قالي لا حالي ، وإذا قيل بذلك فلا بد من تخصيص الشيء أيضاً إذ لم يجعل من الماء كل شيء حيا ؛ ولم أقف على مخالف في ذلك منا ، نعم نقل عن ثالس الملطي وهو أول من تفلسف بملطية أن أصل الموجودات الماء حيث قال : الماء قابل كل صورة ومنعه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض انتهى .

ويمكن تخريجه على مشرب صوفي بأن يقال إنه أراد بالماء الوجود الانبساطي المعبر عنه في اصطلاح الصوفية بالنفس الرحماني ، وحينئذ لو جعلت الإشارة في الآية إلى ذلك عندهم لم يبعد ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده مع ظهور ما يوجبه حتماً من

الآيات ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكار أي أيعلمون ذلك فلا يؤمنون .

﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾

(40/509)

أي جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ، ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مما لا ريب في صحته ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم فحذف اللام ولا لعدم الالباس ، وهذا مذهب الكوفيين والأول أولى ، وفي الانتصاف أولى من هذين الوجهين أن يكون مثل قولك أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط على ما قال سيبويه من أن معناه أعددتها أن أدعم الحائط بها إذا مال ، وقدم ذكر الميد عناية بأمره ولأنه السبب في الادعام والادعام سبب إعداد الخشبة فعومل سبب السبب معاملة السبب فكذا فيما نحو فيه يكون الأصل وجعلنا في الأرض رواسي أن نثبتها إذا مادت بهم فجعل الميد هو السبب كما جعل الميل في المثال سبباً وصار الكلام وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم فنثبتها ثم حذف فنثبتها لأمن الالباس إيجازاً ، وهذا أقرب إلى الواقع مما ذكر أولاً فإن مقتضاه أن لا تميد الأرض بأهلها لأن الله تعالى كره ذلك ومحال أن يقع ما يكرهه سبحانه والمشاهدة بخلافه فكم من زلزلة أمادت

الأرض حتى كادت تنقلب وعلى ما ذكرنا يكون المراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت، وهذا لا يأبى وقوع الميد لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلزال إنما هو كاللمحة ثم يثبتها الله تعالى انتهى.

(41/509)

وفي الكشف ان قولهم كراهة أن تميد بيان للمعنى لا أن هناك اضمار البتة ولهذا كان مذهب الكوفيين خليقا بالرد، وما في الانتصاف من أن الأولى أن يكون من باب أعددت الخشبة أن يميل الحائط على ما قرر راجع إلى ما ذكرناه ولا مخالف له، أما ما ذكره من الرد بمخالفة الواقع المشاهد فليس بالوجه لأن ميدودة الأرض غير كائنة البتة وليست هذه الزلازل منها في شيء انتهى، وهو كلام رصين كما لا يخفى، وقد طعن بعض الكفرة المعاصرين فيما دلت عليه الآية الكريمة بأن الأرض لطلبها المركز طبعاً ساكنة لا يتصور فيها الميد ولو لم يكن فيها الجبال.

وأجيب أولاً بعد الاغماض عما في دعوى طلبها المركز طبعاً وسكونها عنده من القيل والقال يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق الأرض يوم خلقها عرية عن الجبال مختلفة الأجزاء ثقلاً وخفة اختلافاً تاماً أو عرض لها الاختلاف المذكور ومع هذا لم يجعل سبحانه لمجموعها

من الثقل ما لا يظهر بالنسبة إليه ثقل ما علم جل وعلا أنه يتحرك عليها من الأجسام الثقيلة فيكون لها مركزان متغايران مركز حجم ومركز ثقل وهي إنما تطلب بطبعها عندهم أن ينطبق مركز ثقلها على مركز العالم وذلك وان اقتضى سكونها إلا أنه يلزم أن تتحرك بتحرك ها تيك الأجسام فخلق جل جلاله الجبال فيها ليحصل لها من الثقل ما لا يظهر معهم ثقل المتحرك فلا تتحرك بتحركه أصلاً ، وكون نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطرها كنسبة سبع عرض شعيرة إلى ذراع إنما ينفع في أمر الكرية الحسية وأما أنه يلزم منه أن لا يكون لمجموع الجبال ثقل معتد به بالنسبة إلى ثقل الأرض فلا .

(42/509)

ثم ليس خلق الجبال لهذه الحكمة فقط بل لحكم لا تحصى ومنافع لا تستقصى فلا يقال إنه يغنى عن الجبال خلقها بحيث لا يظهر للأجسام الثقيلة المتحركة عليها أثر بالنسبة إلى ثقلها ، وثانياً أنها بحسب طبعها تقتضي أن تكون مغمورة بالماء بحيث تكون الخطوط الخارجة من مركزها المنطبق على مركز العالم إلى محدب الماء متساوية من جميع الجوانب فبروز هذا المقدار المعمور منها قسرى ، ويجوز أن يكون للجبال مدخل في القسر باجتباس الابخرة فيها وصيرورة الأرض بسبب ذلك كزق في الماء نفخ نفخاً ظهر به شيء منه على وجه الماء

ولولا ذلك لم يكن القسر قوياً بحيث لا يعارضنه ما يكون فوق الأرض من الحيوانات وغيرها وذلك يوجب الميد الذي قد يقضي بها إلى الانغمار فتأمل ، وقد مر لك ما يتعلق بهذا المطلق فتذكر ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ، وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين مع ما فيه من الإشارة إلى كمال الامتنان أو في الرواسي على ما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر عن ابن عباس ويؤيده أنها المحتاجة لأن يجعل سبحانه فيها ﴿ فِجَاجاً ﴾ جمع فج قال الراغب : هو شقة يكتنفها جبلان ، وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج ، وقال بعضهم : هو مطلق الواسع سواء كان طريقا بين جبلين أم لا ولذا يقال جرح فج ، والظاهر أن ﴿ فِجَاجاً ﴾ نصب على المفعولية لجعل ، وقوله سبحانه ﴿ سُبُلاً ﴾ بدل منه فيدل ضمناً على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد لأن البدل كالتكرار وعلى نية تكرار العامل والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقاً ، وقال في الكشاف : هو حال من ﴿ سُبُلاً ﴾ ولو تأخر لكان صفة كما في قوله تعالى في سورة نوح (20) ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ وإنما لم يؤت به كذلك بل قدم فصار حالاً ليدل على أنه في حال جعلها سبلاً كانت واسعة ولو أتى به صفة لم يدل على ذلك .

(43/509)

وأوجب بعضهم كونه مفعولاً وكون ﴿ سُبُلاً ﴾ بدلا منه وكذا أوجب في قوله تعالى : ﴿ لِّتَسْلُكُوا ﴾ [نوح : 20] الخ كون ﴿ سُبُلاً ﴾ مفعولا وكون ﴿ فِجَاجاً ﴾ بدلاً قائلاً إن الفج اسم لا صفة لدلالته على ذات معينة وهو الطريق الواسع والاسم يوصف ولا يوصف به ولذا وقع موصوفاً في قوله تعالى :

﴿ من كل فج عميق ﴾ [الحج : 27] والحمل على تجريده عن دلالته على ذات معينة لا قرينة عليه .

وتعقب بانا لا نسلم أن معناه ذلك بل معناه مطلق الواسع وتخصيصه بالطريق عارض وهو لا يمنع الوصفية ولو سلم فمراد من قال إنه وصف أنه في معنى الوصف بالنسبة إلى السبيل لأن السبيل الطريق وهو الطريق الواسع فإذا قدم عليه يكون ذكره بعد لغواً لو لم يكن حالاً ، وظاهر كلام الفاضل اليمني في المطلع أن ﴿ سبلا ﴾ عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال : هو تفسير للفجاج وبيان أن تلك الفجاج نافذة فقد يكون الفج غير نافذ وقدم هنا وأخر في آية سورة نوح لأن تلك الآية واردة للامتنان على سبيل الإجمال وهذه للاعتبار والحث على أمعان النظر وذلك يقتضي التفصيل ، ومن ثم ذكرت عقب قوله تعالى ﴿ كانتا رَتْقاً ﴾ [الأنبياء : 30] الخ انتهى ، وأنت تعلم أن الاظهر نصب ﴿ فِجَاجاً ﴾ هنا على المفعولية لجعل ووجه التغاير بين الآيتين لا يخفى فتأمل ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة ، وقيل : إلى مصالحهم ومهماتهم .

ورد على ما تقدم بأنه يغني عن ذلك قوله تعالى فيما بعد ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] وبأن خلق السبل لا تظهر دلالته على ما ذكر انتهى ، وفيه ما فيه ، وجوز أن يكون المراد ما هو أعم من الاهتداء إلى الاستدلال والاهتداء إلى المصالح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(44/509)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ الضمير في منهم للملائكة . لتقدم ذكرهم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ في الرد والتهديد .

قال الزمخشري رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض [في المطبوع : الفرص] والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 88] ، قصد بذلك تفظيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد .

انتهى .

وفي قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(45/509)

هذا شروع في آياته الكونية ، الدالة على وحدته في ألوهيته ، التي عمي عنها المشركون ، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أي : لا تمطر ولا تنبت : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي : بالمطر والنباتات . فالفتق والرتق استعارة . ونظير قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق : 11 – 12] ، والرجع لغة هو الماء والصدع هو النبات لأنه يصدع الأرض أي : يشقها . وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ [عبس : 24] وأي : كيف انفردنا في إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ﴾ [عبس : 25] ، أي : من المزن بعد أن لم يكن : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ﴾ [عبس : 26] ، أي : ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقّاً مرئيّاً مشهوداً ، كما تراه في الأرض بعد الريّ . أو شقّاً بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهانيّ : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى : ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : 14] ، وكقوله : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ [56] ، فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق .

قال الرازيّ : وتحقيقه أن العدم نفي محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة . بل كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازاً عن العدم والفتق عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أي : شيئاً واحداً .

ومعنى : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ فصلنا بعضهما عن بعض .

(46/509)

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه . أي أنها إحدى هذه السيارات . وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى . وكونها

كروية الشكل . فالسيارات أو السماوات هي متماثلة من جميع الوجوه ، كلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهي مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول في تفسير الآية لقوله تعالى بعده : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾ بصرية . وعلى قول أبي مسلم وما بعده ، علمية . على حد قوله تعالى لنبيّه صلوات الله عليه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل : 1] ، مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما تيقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحجة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمُه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ صيّرنا كل شيء حيّ بسبب من الماء ، لا يحيا دونه . فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنَّور والثمر . وإسناده الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى . كقوله تعالى : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم : 19] ، وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لآية : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ [النور : 45] ، ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة ، وأعظم في العبرة ، وأبلغ في الخطاب ، وألطف في المعنى .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور ما يوجبه حتماً من الآيات الظاهرة .

(47/509)

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت : ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي : لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب مما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ الضمير في فيها للأرض . وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثاني اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى : ﴿ وَسُبُلاً ﴾ بدل من : ﴿ فِجَاجاً ﴾ أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك ، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة ، ومعنى : ﴿ يهتدون ﴾ أي : إلى مصالحهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 199 . 201 ﴾

(48/509)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29) ﴾

الضمير في قوله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ عائد إلى الملائكة المذكورين في قوله : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] والمعنى : أنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركاً ، وكان جزاؤه جهنم . ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع . كقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ ﴾ [الزخرف : 81] الآية ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك . وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره جل وعلا هنا في شأن الملائكة ، ذكره أيضاً في شأن الرسل على الجميع صلوات الله وسلامه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] ولما ذكر جل وعلا من ذكر من الأنبياء في سورة " الأنعام " في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ ﴾ [الأنعام : 84] إلى آخر من ذكر منهم قال بعد ذلك ﴿ ذلك هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 88] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِي إِله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ الآية دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلاً . ومما يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ الله الكتاب والحكم والنبوة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادا لِّي مِن دُونِ الله ولكن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتاب وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملائكة والنبيين أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بالكفر بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 79-80] ، وقوله تعالى مخاطباً لسيّد الخلق صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 64] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير " أو لم ير " بواو بعد الهمزة : وقرأه ابن كثير " ألم ير الذين كفروا " بدون واو ، وكذلك هو في مصحف مكة . والاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم ، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه ، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عَبَده ، ولا يضر من عَصَاه ، ولا يقدر على شيء .

وقوله ﴿ كَانَتَا ﴾ التثنية باعتبار النوعين اللذَين هما نوع السماء ، ونوع الأرض . كقوله

تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] ونظيره قول عمر بن شييم :

ألم يحزنك أن جبال قيس . . . وتغلب قد تباينتا انقطاعا

(50/509)

والرتق مصدر رَتَقه رتْقاً : إذا سده . ومنه الرتقاء . وهي التي اسند فرجها ، ولكن المصدر وصف به هنا ولذا أفرده ولم يقل كانتا رتقين . والفتق : الفصل بين الشيئين المتَّصلين . فهو ضد الرتق . ومنه قول الشاعر :

يهوون عليهم إذا يغضبو . . . ن سخط العداة وإرغامها

ورتق الفتوق وفتق الرتو . . . ق ونقض الأمور وإبرامها

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية على خمسة أقوال ، بعضها في غاية السقوط ، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم :

الأول أن معنى ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض ، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض ، فرفع السماء إلى مكانها ، وأقر الأرض في مكانها ، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى .

القول الثاني أن السموات السبع كانت رتقاً . أي متلاصقة بعضها ببعض ، ففتقها الله وجعلها سبع سموات ، كل اثنتين منها بينهما فصل ، والأرضون كذلك كانت رتقاً ففتقها ، وجعلها سبعاً بعضها منفصل عن بعض .

القول الثالث أن معنى ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر ، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

الرابع أنها ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقهما الله بالنور . وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول ، والثاني .

الخامس وهو أبعدها لظهور سقوطه . أن الرتق يراد به العدم . والفتق يراد به الإيجاد . أي كانتا عدماً فأوجدناهما . وهذا القول كما ترى .

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية ، فاعلم أن لاقول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقاً بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر ، والأرض لا تنبت شيئًا ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى .

الأولى أن قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا ﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك .

لأن الأظهر في رأى أنها بصرية ، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها . فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر ، وإنباته به أنواع النبات .

القرينة الثانية أنه أتبع ذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : 30] . والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله . أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء ، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي .

القرينة الثالثة أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ [الطارق : 11-12] لأن المراد بالرَّجْع نزول المطر منها تارة بعد أخرى ، والمراد بالصَّدْع : انشقاق الأرض عن النبات . وكقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ [عبس : 24-26] الآية . واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا . ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر ، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى ، وعظم منته على خلقه ، وقدرته على البعث . والذين قالوا : إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما الله وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾ أنها من رأي العلمية لا البصرية ، وقالوا : وجه تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن ، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه . والعلم عند الله تعالى .

وأقرب الأقوال في ذ 1لك هو ما ذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه ، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره : ورجَّحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : 30] وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم ، ولا يكون كذلك إلاَّ إذا كان المراد ما ذكرنا .

فإن قيل : هذا الوجه مرجوح . لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا .

قلنا : إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء . كما يقال ثوب أخلاق ، وبرمة أعشارا ه منه .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الظاهر أن " جَعل " هنا بمعنى خَلَق . لأنها متعدية لمفعول واحد . ويدل لذلك قوله تعالى في سورة " النور " : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور : 45] .

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء . قال بعض العلماء : الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة . لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من

النطف ، وعلى هذا فهو من العام المخصوص .

وقال بعض العلماء : هو الماء المعروف ، لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء . وإما غير مباشرة لأن النطف من الأغذية ، والأغذية كلّها ناشئة عن الماء ، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر ، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها : لأنه كله ناشئ بسبب الماء .

وقال بعض أهل العلم : معنى خَلْقه كل حيوان من ماء : أنه كأنما خلقه من الماء لفرط احتياجه إليه ، وقالة صبره عنه . كقوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] إلى غير ذلك من الأقوال . وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة " جعل " وما جاء منها في القرآن وما لم يجئ فيه في سورة " النحل " .

(53/509)

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : لقائل أن يقول : كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان ؟ وقد قال ﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 27] وجاء في الأخبار : أن الله تعالى خلق الملائكة من النور ، وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [

المائدة : 110] ، وقال في حق آدم ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] .

والجواب : اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة ، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهداً محسوساً ليكون أقرب إلى المقصود . وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام ، لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك ا ه منه .

ثم قال الرازي أيضاً : اختلف المفسِّرون ، فقال بعضهم : المراد من قوله ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ الحيوان فقط . وقال آخرون : بل يدخل فيه النبات والشجر ، لأنه من الماء صار نامياً ، وصار فيه الرطوبة والخضرة ، والنور والثمر . وهذا القول أليق بالمعنى المقصود ، كأنه تعالى قال : ففتقنا السماء لإنزال المطر ، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حياً .

حجة القول الأول : أن النبات لا يسمى حياً . قلنا : لا نسلم ، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : 50] انتهى منه أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة " النحل " فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(54/509)

وقال ابن عاشور :

والشرط الذي في قوله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ الخ . . .

شرط على سبيل الفرض ، أي لو قاله واحد منهم مع العلم بأنهم لا يقولونه لأجل ما تقرر من شدة خشيتهم .

فالمقصود من هذا الشرط التعريض بالذين ادَّعوا لهم الإلهية بأنهم ادعوا لهم ما لا يرضَونه ولا يقولونه ، وأنهم ادعوا ما يوجب لقائله نار جهنم على حد ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] .

وعدل عن (إن) الشرطية إلى (مَن) الشرطيّة للدلالة على العموم مع الإيجاز .

وأدخل اسم الإشارة في جواب الشرط لتحقيق التعليق بنسبته الشرط لأداته للدلالة على جدارة مضمون الجزاء بمن ثبت له مضمون الشرط ، وفي هذا إبطال لدعوى عامة النصارى إلهية عيسى عليه السلام وأنهم يقولون عليه ما لم يقله .

ثم صرح بما اقتضاه التعريض فقال تعالى ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو جهنم يجزي المثبتين لله شريكاً .

والظلم : الشرك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾

قرأ الجمهور ﴿ أَوَلَمْ ﴾ بواو بعد الهمزة وهي واو العطف ، فالجملة معطوفة عطف الاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأول وما فيه من العجائب .

وقرأ ابن كثير ﴿ أَلَمْ يَرَ ﴾ بدون واو عطف .

قال أبو شامة : ولم تثبت الواو في مصاحف أهل مكة .

قلت : معناه أنها لم تثبت في المصحف الذي أرسل به عثمان إلى مكة فالتزمَ قراء مكة رِواية عدم الواو إلى أن قرأ بها ابن كثير ، وأهملت غير قراءته .

والاستفهام على كِلتا القراءتين إنكاري ، توجه الإنكار على إهمالهم للنظر .

والرؤية تُحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية .

(55/509)

والاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينقذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار ، وإنكار أعمال الفكر في دلالة الأشياء على لوازمها حتى لا يقع أحد في الضلال جدير أيضاً بالإنكار أو بالتقرير المشوب بإنكار كما سنفصله .

والرَّتق : الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء .

والفَتق : ضده ، وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء .

والإخبار عن السماوات والأرض بأنهما رَتق إخبار بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة .

ثم إن قوله تعالى كانتا ﴿ يحتمل أن تكونا معاً رتقاً واحداً بأن تكون السماوات والأرض جسماً ملتئماً متصلاً .

ويحتمل أن تكون كل سماء رتقاً على حدتها ، والأرض رتقاً على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى ﴿ ففتقناهما ﴾ .

وإنما لم يقل نحو : فصارتا فتقاً ، لأن الرتق متمكن منهما أشدّ تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما ، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي .

والرتق يحتمل أن يراد به معانٍ تنشأ على محتملاتها معانٍ في الفتق ، فإن اعتبرنا الرؤية بصرية فالرتقُ المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض ، والفتقُ هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلاً من السماء ويرى البرْق يلعج منها والصواعق تسقط منها فذلك فتقها ، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها ، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرف الخالق ، وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنة ، كما قال ابن عطية أي هو عبرة دلالةٍ على

عظم القدرة وتقريب لكيفية إحياء الموتى كما قال تعالى : ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ في سورة فاطر (9) .

(56/509)

وإن اعتبرنا الرؤية علمية احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد به على اعتبار كون الرؤية بصرية ، وكان الاستفهام أيضاً إنكارياً متوجهاً إلى إهمالهم التدبر في المشاهدات .

واحتمل أن يراد بالرتق معانٍ غيرُ مشاهدةٍ ولكنها مما ينبغي طلب العلم به لما فيه من الدلائل على عظم القدرة وعلى الوحدانية ، فيحتمل أن يراد بالرتق والفتق حقيقتاهما ، أي الاتصال والانفصال .

ثم هذا الاحتمال يجوز أن يكون على معنى الجملة ، أي كانت السماوات والأرض رتقاً واحداً ، أي كانتا كُتلة واحدة ثم انفصلتْ السماوات عن الأرض كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ في سورة هود (7) .

ويجوز على هذا الاحتمال أن يكون الرتق والفتق على التوزيع ، أي كانت السماوات رتقاً في حد ذاتها وكانت الأرض رتقاً في حد ذاتها ثم فتق الله السماوات وفتق الله الأرض ، وهذا

كقوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ في سورة فصّلت (912) .

وعلى هذين الاحتمالين يكون الاستفهام تقريرياً عن إعراضهم عن استماع الآيات التي وصفت بدء الخلق ومشوباً بالإنكار على ذلك .

وعلى جميع التقادير فالمقصود من ذلك أيضاً الاستدلال على أن الذي خلق السماوات والأرض وأنشأهما بعد العدم قادر على أن يخلق الخلق بعد انعدامه قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [الإسراء : 99] .

ويحتمل أن يراد بالرتق العدم وبالفتق الإيجاد .

وإطلاق الرؤية على العلم على هذا الاحتمال ظاهر لأن الرتق والفتق بهذا المعنى محقق أمرهما عندهم قال تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان: 25].

ويحتمل أن يراد بالرتق الظلمة وبالفتق النور، فالموجودات وجدت في ظلمة ثم أفاض الله عليها النور بأن أوجد في بعض الأجسام نوراً أضاء الموجودات.

ويحتمل أن يراد بالرتق اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة أو كانت أثيراً أو عَمَاء كما جاء في الحديث: "كان في عماء" فكانت جنساً عالياً متحداً ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق، وهو حينئذ كلي انحصر في فرد.

ثم خلق الله من ذلك الجنس أبعاضاً وجعل لكل بَعض مميزات ذاتية فصيّر كل متميز بحقيقة جنساً فصارتْ أجناساً.

ثم خلق في الأجناس مميزات بالعوارض لحقائقها فصارت أنواعاً.

وهذا الاحتمال أسعد بطريقة الحكماء وقد اصطلحوا على تسمية هذا التمييز بالرتق والفتق، وبعض من الصوفية وهو صاحب "مرآة العارفين" جعل الرتق عَلَماً على العنصر الأعظم يعني الجسمَ الكل، والجسم الكل هو الفلك الأعظم المعبر عنه بالعرش.

ذكر ذلك الحكيمُ الصوفي لطف الله الأرضرومي صاحب "مَعارج النور في أسماء الله الحسنى" المتوفى في أواخر القرن الثاني عشر الذي دخل تونس عام 1185ه في مقدمات

كتابه "معارج النور" وفي رسالة له سماها "رسالة الفتق والرتق".

والظاهر أن الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعاً، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس وكل عبرة خاصة بأهل النظر والعلم فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ زيادة استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار وفيه عبرة للناس في أكثر أحواله.

وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات.

وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان فإنه لا يتكون إلا من الرطوبة ولا يعيش إلا ملابساً لها فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحمى مفضياً إلى الهزال ثم إلى الموت.

و﴿ جَعَلَ ﴾ هنا بمعنى خلق، متعدية إلى مفعول واحد لأنها غير مراد منها التحول من حال إلى حال.

ومن الماء ﴾ متعلق بـ ﴿ جعلنا .

﴾ و(مِن) ابتدائية .

وفرع عليه ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ إنكاراً عليهم عدم إيمانهم الإيمان الذي دعاهم إليه محمد

صلى الله عليه وسلم وهو الإيمان بوحدانية الله

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾

هذا من آثار فتق الأرض في حد ذاتها إذْ أخرج الله منها الجبال وذلك فتق تكوين ، وجعل

فيها الطّرق ، أي الأرضين السهلة التي يتمكن الإنسان من المشي فيها عكس الجبال .

والرواسي : الجبال ، لأنها رست في الأرض ، أي رسخت فيها .

والميْد : الاضطراب .

وقد تقدم في أول سورة النحل .

وتقدم في أول سورة النحل أن معنى ﴿ أن تَميد ﴾ أن لا تميد ، أو لكراهة أن تميد .

والمعنى : وجعلنا في الأرض فجاجاً .

ولما كان ﴿ فجاجاً ﴾ معناه واسعة كان في المعنى وصفاً للسبيل ، فلما قُدم على

موصوفه انتصب على الحال .

والمقصود إتمام المنة بتسخير سطح الأرض ليسلكوا منها طرقاً واسعة ولو شاء لجعل

مسالك ضيقة بين الجبال كأنها الأودية .

والفجاج: جمع فَجّ.

والفج: الطريق الواسع.

والسُبُل: جمع سبيل، وهو: الطريق مطلقاً.

وجملة ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ مستأنفة إنشاء رجاءِ اهتداء المشركين إلى وحدانية الله فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة.

ويجوز أن يراد بالاهتداء الاهتداء في السير، أي جعلنا سبلاً واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منة أخرى وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله.

فقوله تعالى ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ من الكلام الموجه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(59/509)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾

أي: على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول، إذن: هذا كلام لم يحدث، ولا يمكن أنْ يُقال

منهم ﴿ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾ [الأنبياء : 29] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم في أعلى مراتبة وعنُفوانه وطغيانه ، ظلم في مسألة القمة ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

لذلك يُهدّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفي هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

***

بعد ذلك أراد الحق – سبحانه وتعالى – أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التي أكَّدها في كلامه السابق ، والوحدانية في طَيّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصفْان لله عز وجل ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] وقال : ﴿ الواحد القهار ﴾ [الرعد : 16] .

فالواحد أي : الفرد الذي لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد في ذاته أحد أي : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون في ذاته مُكوّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كوّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً في وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له في وجوده ليكوِّن كله ، إذنْ : فلا هو كليّ ، ولا هو جزئي .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التي لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة في الوقت نفسه ، فقد يكون المرئي واضحاً لكن لا حاجة

لك فيه - فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر . . إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضي الالتفات إليها، والنفعية فيها تقتضي أيضاً الالتفات إليها، حتى وهي غائبة عنك، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

(60/509)

فيقول الحق سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات . . . ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا . . . ﴾ [الأنبياء: 30] يعني: أعميتْ أبصارهم، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفي .

لكن كيف يقول الحق سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا . . ﴾ [الأنبياء: 30] والحديث هنا عن السماء والأرض، وقد قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف: 51] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد، ولم يخبرهم أحد بها، فكيف يروْنَها ؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية في القرآن، وأن لها استعمالات مختلفة: فتارة تأتي بمعنى: نظر

أي : بصرية . وتأتي بمعنى : علم ، ففي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها ؛ لأنه وُلِد في نفس عامها ،

فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدَل السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هي آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أَيْن ؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله صلى الله عليه وسلم أنت صحيح لم ترهَا بعينيك ، لكن ربك أخبرك بها ن وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشيء فإخبار الله أصدق من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل .

أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم : 83] .

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم في مسألة خَلْق السماوات والأرض ؟

قالوا : لأن الإنسان حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب ؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشيء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له ؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَنِ الذي نبَّأ رسول الله بهذه المسألة ؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله بمعجزة تُثبِت صدقه في البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ [النساء : 122] .

وقد نزل القرآن في جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل الكتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أطلّ زمان نبي سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبي ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام في خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفي التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول :

إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوّنَت الأرض .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا . . . ﴾ [الأنبياء : 30] .

(62/509)

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ [الأنبياء : 30] قالوا : السماوات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْر أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوي والأرضية وهما مُثنَّى .

وفي القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة ؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربي المبنيّ على الفِطنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا . . . ﴾ [الحجرات : 9] .

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا ؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوي جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه

الجمع ﴿ اقتتلوا . . . ﴾ [الحجرات : 9] فإذا ما جِئْنا للصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممَثّل عن كل طائفة ، فالصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين ؛ لذلك يعود السياق للتثنية . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل ﴾ [الحجرات : 9] .

والرَّتْق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا . . ﴾ [الأنبياء : 30] أي : فَصلْنَاهما وأَزَحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكِر في التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها في هَيْبة ، فحصل لها كذا وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً . . . ﴾ [فصلت : 11] .

(63/509)

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة ؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف

كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذي لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج " افعل كذا " و" لا تفعل كذا " لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمّا الأمور الكونية التي تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمّلة أنْ تُكمِلَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة في إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديداً شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق في بلاغه عن الله .

الموقف الثاني : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد ؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظري أي : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا – إذن – ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التي تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس في فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك ؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك ؟ !

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطئ البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقي المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلامَ يدلُّ ذلك ؟ هذا يدل

على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجي ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

(65/509)

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هي التي تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره ؟ ولك أن تأخذ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أَدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء ، لماذا ؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التي تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ في دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُد من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هي التي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة في طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتّبة حسب قُرْبها من الشمس في المركز : عطارد ، فالزهرة

، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشتري ، فزُحَل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار - منهم الشيخ المراغي - بالقول بأنها السماوات السبع ، وكتبوا في ذلك بحوثاً ، وفي القرآن الذي سبق إلى هذا . ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكواكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع .

إذن : ربْط النظرية التي لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزة أحدث ومجاهر أكبر - كما يقول بعض علماء الفضاء - لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة في المجرة التي نسميها (سكة التبَّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبني) .

(66/509)

وهذه الكواكب التي نراها كبيرة وعظيمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التي نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس في جوفه . والمسافة بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية ، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب في ستين ثانية ، الثانية الواحدة السرعة فيها 186 ألف ميل يعني : ثلاثمائة ألف كيلومتر .

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْري الذي امتنَّ الله به في قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ [النجم : 49] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها في السماء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسماوات السبع التي تحدثوا عنها ؟ !

لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبَّة في حقِّهم وزلّة في طريقهم العلمي .

كذلك من النظريات التي قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم : إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهي كتلة ملتهبة ، فانفصل عنها بعض (طراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التي بردتْ بمرور الوقت ، ومنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف) مثلاً .

والقياس العقلي يقتضي أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعي أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهي بالاستطراق الحراري ، إذن : فهذه نظرية غير سلمة ، وقولكم بها يقتضي أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض . . ﴾ [الكهف : 51] .

ثم يقول في آية جامعة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

(67/509)

والمضلّ هو الذي يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضِلّلة في هذه المسألة تقول : حدث في الخلق كيت وكيت .

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق - عز وجل - وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشيء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلِقَتْ ؟ وكيف كانت ؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .

فالرجل الأميّ الذي لا يعلم شيئاً يشتري مثلاً " التليفزيون " ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت . . إلخ . فخُذْ ما في الكون من جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض في أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهيّ أتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِي هذا الطعام ؟ !

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرّتْق والفَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأي الذي قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوّنت السماء والأرض .

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حِدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً * ثم شَقَقْنَا الأرض شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [عبس : 24-28] .

وفي موضع آخر قال : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 11-12] .

(68/509)

فالمراد - إذن - أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر ، فشقّ الله السماء بالمطر ، وشَقّ الأرض بالنبات الذي يصدعها : ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع * والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ [الطارق : 11-12] .

وقال عن السماء : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام . . . ﴾ [الفرقان : 25] على

اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك ، فيكون السحاب من السماء .

نفهم من هذا الرأي أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حِدَة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطي حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثْبته الأيام ، وقد تأتي بشيء آخر ، المهم أن القولَيْن لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . . ﴾ [الأنبياء : 30] قال أصحاب التأويل الثاني : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق في كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شيء حيًا ، إنما ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . . ﴾ [الأنبياء : 30] وقد استدلوا بها على أن الحيَّ المراد به الحياة الإنسانية التي نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ في تكوين كل شيء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . ﴾ [الأنبياء : 30] أي : كل شيء مذكور موجود .

والتحقيق العلمي أن لكل شيء حياةً تناسبه ، وكل شيء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يا أيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 24] .

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أي : حياة أخرى لها قيمة ؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هي حياة الآخرة .

وسمي الشيء الذي يتصل بالمادة ، فتدب فيها الحياة روحاً ، فقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . ﴾ [الحجر : 29] .

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمّي الملَك الذي ينزل به روحاً ؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الإرتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يُنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] .

فوصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [الأنفال : 42] فالحياة ضِدُّها الهلاك .

إذن : فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفي تكوينه مائية ، كما قال سبحانه

: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . . . ﴾ [الأنبياء : 30] .

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : 30] يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ فكان يجب عليهم أنْ يتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آله حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج في كلية كذا . . . إلخ .

(70/509)

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف - إذن - عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض . . . ﴾ .

الرواسي : الجبال جمع رَاس يعني : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : ﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : 7] شبّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر عِلَّة ذلك : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 31] أي : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما

احتاجت لأن يُثبّتها بالجبال ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب . . . ﴾ [النمل : 88] .

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وأنْ كنا لا نراها ؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها ؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً . . . ﴾ [الأنبياء : 31] أي من حكمة الله أنْ جعل لنا في الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صَلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم فيها ، فقال ﴿ فِجَاجاً سُبُلاً . . . ﴾ [الأنبياء : 31] أي : طرقاً واسعة في الوديان ، والأماكن السهلة . وفي موضع آخر قال : ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : 20] .

ومعنى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا . . . ﴾ [الأنبياء: 31] يصح في الجبال أو في الأرض، ففي كل منهما طرق يسلكها الناس، وهي في الجبال على شكل شِعَاب ووديان.

ثم يذكر سبحانه عِلّة ذلك، فيقول: ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: 31] والهداية هنا تحتمل معنيين: يهتدون لخالقها ومكوّنها، ويستدلون بها على الصانع المبدع سبحانه، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتجاهات، وقديماً كانوا يتخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال، فيقولون: المكان الفلاني قريب من جبل كذا، وعلى يمين جبل كذا، وقد قال شاعرهم:

خُذَا بَطْنَ هِرْشَي أو قَفَاهَا فَإنَّهُ . . . كِلاَ جَانِبَي هَرْشَي لَهُنَّ طَرِيقُ

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: 16] أي: يهتدون إلى الطرق والاتجاهات، وكان العربي يقول مثلاً: اجعل الثُّرَيا عن يمينك أو النجم القطبي، أو سهيل أو غيرها، فكانوا على علم بمواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها.

أو: يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحيِّ، وقديماً كانوا يقولون: فلان هَوَى نَجْمه، كأن لكل واحد منا نجماً في السماء له علاقة ما به، وهذه يعرفها بعض المختصين، وربما اهتدوا من خلالها إلى شيء، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله.

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 75-76] أي : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً في الخَلْق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(72/509)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾

قوله : ﴿ فذلك نَجْزِيهِ ﴾ : يجوزُ في ذلك وجهان أحدُهما : أنَّه مرفوعٌ بالابتداءِ . وهذا وجهٌ حسنٌ . والثاني : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره هذا الظاهرُ . والمسألةُ من بابِ الاشتغال . وفي هذا الوجهِ إضمارُ عاملٍ مع الاستغناءِ عنه ، فهو مرجوحٌ والفاءُ وما في حَيِّزها في موضعِ جزمٍ جواباً للشرط و"كذلك" نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أو حالٌ من ضمير المصدر أي : جزاءً مثلَ ذلك الجزاءِ ، أو نجزي الجزاءَ حالَ كَونه مثلَ ذلك .

وقرأ العامَّةُ " نجزي " بفتحِ النونِ . وأبو عبد الرحمن المقرىء بضمِها . وجهُها أنه مِنْ أجزا بالهمز ، مِنْ أجزأني كذا أي : كفاني ، ثم خَفَّفَ الهمزةَ فانقلبت إلى الياء .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)

قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾: قرأ ابن كثير "ألم يرَ" من غير واو. والباقون/ بالواو بين همزة الاستفهام و"لم". ونظيرُ حذفِ الواو وإثباتِها هنا ما تقدَّم في البقرة وآل عمران في قوله ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [البقرة: 116] ﴿ سارعوا إلى مَغْفِرَةٍ ﴾ [البقرة: 133] وقد تقدَّم حكمُ ذلك. والرؤيةُ هنا يجوز أن تكونَ قلبيةً، وأن تكونَ بَصَرية. ف "أنَّ" وما في حَيِّزها سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولَيْنِ عند الجمهور على الأول، ومَسَدَّ واحدٍ والثاني محذوف، عند الأخفش، وسادَّةٌ مسدَّ واحدٍ فقط على الثاني.

(73/509)

قوله: ﴿ كَانَتَا ﴾ الضميرُ يعودُ على السماوات والأرض بلفظِ التثنيةِ، والمتقدّم جمعٌ. وفي ذلك أوجه أحدُها: ما ذكره الزمخشري فقال: "وإنما قيل "كانتا" دون "كُنَّ" لأنَّ المرادَ جماعةُ السماواتِ وجماعةُ الأَرَضين. ومنه قولُهم: "لِقاحان سَوْداوان" أي: جماعتان. فعَلَ في المضمر نحوَما فعَلَ في المظهر. الثاني: قال أبو البقاء: "الضميرُ يعودُ على الجنسين". الثالث: قال الحوفي: "قال: كانتا رَتْقاً والسماوات جمعٌ لأنه أراد

الصِّنْفَيْن . قال الأسودُ ابنُ يَعْفَر :

3336 إن المنيّةَ والحُتُوفَ كِلاهما . . . يُوفي المخارمَ يَرْقُبان سوادي

لأنه أراد النوعين ، وتبعه ابن عطية في هذا فقال : " وقال : " وكانتا " من حيث هما نوعان

. ونحوُه قول عمرو بن شييم :

3337 ألم يُحْزِنْكَ أنَّ حبالَ قيسٍ . . . وتَغْلِبَ قد تباينتا انقطاعا

ورَتْقاً : خبرٌ . ولم يُثَنَّ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ . ثم لك أن تجعلَه قائماً مقامَ المفعولِ كالخَلْقِ

بمعنى المَخْلوق ، أو تجعلَه على حَذْفِ مضافٍ أي : ذواتَيْ رَتْقٍ . وهذه قراءةُ الجمهور .

وقرأ الحسنُ وزيد بن علي وأبو حيوة وعيسى " رَتَقاً " بفتحِ التاءِ وفيه وجهان ، أحدهما :

أنه مصدرٌ أيضاً ، ففيه الوجهان المتقدِّمان في الساكنِ التاءِ . والثاني : أنه فَعَل بمعنى مَفْعول

كالقَبَض والنَّقَض بمعنى المَقْبوض والمَنْقوض ، وعلى هذا فكان ينبغي أَنْ يطابقَ بخبرِه في

التثنية . وأجاب الزمخشري عن ذلك فقال : " هو على تقديرِ موصوفٍ أي : كانتا شيئاً

رَتَقاً " . ورَجَّح بعضُهم المصدرية بعدمِ المطابقةِ في التثنية ، وقد عرفت جوابه . وله أن

يقولَ : الأصلُ عدمُ حذفِ الموصوفِ فلا يُصارُ إليه دونَ ضرورةٍ .

والرَّتْقُ: الانضمامُ. ارْتَتَقَ حَلْقُه: أي: انضمَّ. وامرأةٌ رَتْقاءُ أي: مُنْسَدَّةَ الفَرْجِ، فلم يُمْكِنْ جماعُها من ذلك. والفَتْقُ: فَصْلُ ذلك المُرْتتِقِ، وهو من أحسن البديع هنا؛ حيث قابل الرَّتْقَ بالفَتْق. قال الزمخشري: "فإنْ قلت: متى رَأَوْهما رَتْقاً حتى جاء تقريرُهم بذلك؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه واردٌ في القرآن الذي هو معجزٌ في نفسِه، فقام مقامَ المَرْئيِّ المشاهَدِ. والثاني: أنَّ تلاصُقَ السماءِ والأرضِ وتبايُنهما كلاهما جائزٌ في العقلِ فلا بُدَّ للتبايُنِ دون التلاصُقِ من مخصِّصٍ وهو القديمُ سبحانه".

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ يجوز في "جَعَل" هذه أَنْ تكونَ بمعنى "خلق" فتتعدى لواحدٍ وهو كلُّ شيءٍ، و﴿مِنَ الْمَآءِ﴾ متعلقٌ بالفعلِ قبلَه. ويجوزُ أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من "كل شيء" لأنه في الأصلِ يجوز أن يكونَ وَصْفاً له، فلما قُدِّم عليه نُصِبَ على الحال. ومعنى خَلْقِه من الماء أحدُ شيئَيْن: إمَّا شدةُ احتياجِ كلِّ حيوانٍ للماء فلا يعيشُ بدونِه، وإمَّا لأنه مخلوقٌ من النُّطْفَةِ التي تسمى ماءً. ويجوز أن تكونَ "جَعَلَ" بمعنى صَيَّر فتتعدَّى لاثنين، ثانيهما الجارُّ بمعنى: أنَّا صَيَّرْنا كلَّ شيءٍ حيٍّ بسبب من الماء لا بُدَّ له منه.

والعامَّةُ على خفض "حيّ" صفةً لشيْء. وقرأ حميد بنصبه على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ جَعَلْنا. والظرفُ لغوٌ. ويَبْعُد على هذه القراءةِ أَنْ يكونَ "جعل" بمعنى "خَلَقَ"، وأَنْ ينتصبَ

" حيّاً " على الحال .

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31)

(75/509)

قوله : ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ مفعولٌ من أجله أي : أن لا تميدَ فحُذِفَتْ " لا " لفَهْمِ المعنى ، أو كراهةَ أَنْ تميد . وقَدَّره أبو البقاء فقال : " مخافةَ أن تميدَ " . وفيه نظرٌ لأنَّا إنْ جَعَلْنا المخافةَ مسندةً إلى المخاطبين أَخْتَلَّ شرطٌ من شروطِ النصب في المفعول له وهو الفاعل . وإنْ جعَلْناها مسندةً لفاعل الجَعْل استحال ذلك ، لأنَّه تبارك وتعالى لا يُسْنَدُ إليه الخوف . وقد يقال : يُختارُ أن تُسْنَدَ المخافةُ إلى المخاطبين . قولكم : يختلُّ شرطٌ من شروطِ النصب . جوابُه : أنه ليس بمنصوبٍ ، بل مجرورٌ بحرف العلةِ المقدرِ . / وحَذْفُ حرفِ الجر مُطَّرِدٌ مع أنْ وأنَّ بشرطه .

قوله : ﴿ فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ في " فجاجاً " وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ به و " سُبُلا " بدلٌ منه . والثاني : أنه منصوب على الحال مِنْ " سبلاً " لأنه في الأصلِ صفةٌ له فلمَّا قُدِّم انتصبَ حالاً كقوله :

3338 لمَيَّةَ موحشاً طَلَلُ . . . يلوحُ كأنَّه خِلَلُ

ويدلُّ على ذلك مجيئُه صفةً في الآيةِ الأخرى، وهي قولُه تعالى: ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح: 20]. قال الزمخشري: "فإنْ قلت: في الفجاجِ معنى الوصفِ، فما لها قُدِّمَتْ على السُّبُل ولم تُؤَخَّرْ، كقولِه تعالى: ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾؟ قلت: لم تُقَدَّم وهي صفةٌ ولكنْ جُعِلَتْ حالاً كقولِه:

3339 لِعَزَّةَ مُوْحِشاً طَلَلٌ قديمُ ....

....

فإنْ قلتَ: ما الفرقُ بينهما من جهةِ المعنى؟ قلتُ: أحدُهما أعلامٌ بأنه جَعَلَ فيها طرقاً واسعة. والثاني: أنه حينَ خَلَقَها خَلَقَها على تلك الصفةِ، فهو بيانٌ لما أُبْهِم ثَمَّةَ".

(76/509)

قال الشيخ: "يعني بالإِبهامِ أنَّ الوصفَ لا يلزمُ أَنْ يكونَ الموصوفُ متصفاً به حالةَ الإِخبارِ عنه، وإن كان الأكثرُ قيامَه به حالةَ الإِخبار عنه. ألا ترى أنه يُقال: مررت بوَحْشِيٍّ القاتلِ حمزةَ، وحالةَ المرورِ لم يكن قائماً به قَتْلُ حمزة".

والفَجُّ: الطريقُ الواسعُ. والجمعُ: الفِجاجُ.

والضميرُ في "فيها" يجوزُ أن يعودَ على الأرض، وهو الظاهرُ كقولِه: ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ

الأَرضَ بِسَاطاً لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : 19-20] وأَنْ يعودَ على الرَّواسي ، يعني أنه جعل في الجبال طُرُقاً واسعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 146 . 151 ﴾

(77/509)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29) ﴾

أخبر ، أنهم مُعْرِضون عن الزَّلَة بكلِّ وجهٍ . ثم قال : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فالحقُّ - سبحانه - يعلم ما لا يكون كيف كان يكون

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ .

داخَلَتْهُم الشبهةُ في إعادة الخَلْقِ والقيامةِ والنَّشْرِ ، فأقام الله الحجةَ عليهم بأن قال : أليسوا قد عَلِموا أنه خلق السموات والأرض ؛ سَمَكَ السماء وبَسَطَ الأرض . . فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كُلُّ شيءٍ مخلوقٍ حيٍّ فَمِنَ الماء خَلْقُه ، فإنّ أصل الحيوان الذي حَصَلَ بالتناسل النطفةُ ، وهي من جملة الماء .

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء ، وحياة القلوب بماء الرحمة ، وحياة الأسرار بماء التعظيم . وأقوام حياتُهم بماءِ الحياء . . وعزيزٌ هُمْ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ .

الأولياء هم الرواسي في الأرض وبهم يُرْزَقون ، وبهم يُدْفع عنهم البلاء ، وبهم يُوَفَّى عليهم العطاءُ . وكما أنه لولا الجبالُ الرواسي لم تكن للأرض أوتادٌ . . فكذلك الشيوخ الذين هم أوتادُ الأرضِ (فلولاهم) لنَزَلَتْ بهم الشدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

(78/509)

كما أن في الأرض سُبُلاً يسلكونها ليَصِلُوا إلى مقاصدهم كذلك جعل السُّبُلَ إليه مسلوكة بما بيَّن على ألسنتهم من هداية المريدين ، وقيادة السالكين ، كما يَسَّر بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 499 . 501 ﴾

(79/509)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان:

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية. 2.

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما .... الأنبياء: 30.

بقلم الدكتور: زغلول النجار

في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأزلية الكون بلا بداية ولا نهاية, وعدم محدوديته إلي ما لا نهاية, وسكونه وثباته (أي عدم حركته, علي الرغم من حركة بعض الأجرام فيه), بمعني أن هذا الكون اللانهائي الساكن كان موجودا منذ الأزل, وسيبقي إلي الأبد, وهي فرية أطلقها الكفار والملحدون من بني البشر في محاولة يائسة لنفي الخلق, والتنكر للخالق سبحانه وتعالي, في هذا الوقت نزل القرآن الكريم موجها أنظار هؤلاء الجاحدين من الكفار والمشركين والوثنيين إلي طلاقة القدرة الإلهية في إبداع خلق الكون من جرم ابتدائي واحد, وذلك في صيغة استفهام توبيخي, استنكاري, تقريعي يقول فيه ربنا تبارك وتعالي:

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون (الأنبياء :30) .

وهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة علي أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية , بدأ الله تعالي خلقه من جرم ابتدائي واحد مرحلة الرتق , وهو القادر علي كل شيء , ثم أمر الله تعالي بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق مرحلة الفتق وتحول إلي غلالة من الدخان مرحلة الدخان , وخلق الله تعالي من هذا الدخان كلا من الأرض والسماء أي جميع أجرام السماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء , وقد جاء وصف المرحلتين الأخيرتين في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت , والتي يقول فيها ربنا تبارك وتعالي موبخا كلا

(80/509)

من الذين كفروا بالله تعالي فأنكروا الخلق , أو أشركوا مع الله تعالي معبودا آخر :

قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين , وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين , ثم استوي

إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين , فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم . (فصلت :9.11) .

وهذه الآيات القرآنية الكريمة في كل من سورتي الأنبياء وفصلت تعرض لخلق السماوات والأرض في إجمال وشمول وإيجاز , كما تعرض لعدد من الحقائق الكونية الأخري , وتربط بينها وبين عقيدة الإيمان بالله الخالق , الواحد الأحد , الفرد الصمد , لأن عقيدة التوحيد تقوم علي أساس من الحق الذي قامت به السماوات والأرض , وكل ما فيهما من صور الخلق , ولكننا سوف نقصر حديثنا هنا علي الإشارات الواردة في تلك الآيات عن خلق السماوات والأرض , وقبل أن نفعل ذلك لابد من تأكيد حقيقة الدلالة العلمية للآيات الكونية الواردة في كتاب الله الخالق .

الدلالة العلمية للآيات الكونية في القرآن الكريم

من المسلمات أن الآيات الكونية لم ترد في كتاب الله الخالد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان , وذلك لأن التحصيل العلمي قد ترك لاجتهاد الناس , يجمعون شواهده جيلا بعد جيل , وأمة بعد أمة , نظرا للطبيعة التراكمية للمعارف المكتسبة , ولمحدودية حواس الإنسان وقدرات عقله , ومحدودية كل من مكانه في بقعة محددة من الأرض وزمانه أي عمره .

ومع تسليمنا بهذا الفهم , وتسليمنا كذلك بأن الآيات الكونية التي أشار إليها ربنا تبارك وتعالي في محكم كتابه جاءت في مقام الاستدلال علي طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق , وللاستشهاد علي أن الله تعالي الذي أبدع هذا الخلق قادر علي

(81/509)

إفنائه , وعلي إعادة خلقه من جديد , كما تأتي هذه الآيات الكونية في مقام الاستدلال علي وحدانية الخالق العظيم بغير شريك , ولا شبيه , ولا منازع , وتتراءي هذه الوحدانية لكل ذي بصيرة في جميع جنبات الكون , وفي كل أمر من أموره , في السماوات وفي الأرض , في الأنفس وفي الآفاق , في كل سنة من سنين الكون , وفي كل ناموس من نواميسه , وفي كل جزئية من جزئياته من الذرة إلي الخلية الحية إلي المجرة , كما تتراءي في وحدة بناء الكون , ووحدة لبناته وتآصل عناصره التي ترد كلها إلي غاز الإيدروجين وفي وحدة كل من المادة والطاقة , وفي تواصل كل من المكان والزمان , وفي وحدة بناء الخلية الحية , وفي وحدة الحياة والممات والمصير , لكل حي .

وتتراءي وحدانية الخالق سبحانه وتعالي في تعميم الزوجية علي جميع المخلوقات من الأحياء والجمادات , حتي يبقي الخالق في علاه , متفردا بالوحدانية فوق جميع خلقه .

ومع تسليمنا بكل ذلك فإن القرآن الكريم يبقي كلام الله الخالق , الذي أوحي به إلي خاتم أنبيائه ورسله صلي الله عليه وسلم , وتعهد سبحانه وتعالي بحفظه باللغة نفسها التي أوحاه بها اللغة العربية فحفظ كلمة كلمة , وحرفا حرفا تحقيقا للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا تبارك وتعالي علي ذاته العلية فقال عز من قائل :

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (الحجر :9)

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وكان الكون من صنعته وإبداع خلقه , فلابد أن يكون كل حرف وكلمة وآية في القرآن الكريم حقا مطلقا , وأن تكون كل الإشارات الكونية فيه ناطقة بالحقيقة المطلقة للكون ومكوناته , ولو وعي المسلمون ذلك حق الوعي لكان لهم قصب السبق في الكشف عن العديد من حقائق هذا الكون قبل غيرهم من الأمم بقرون عديدة , وكان هذا السبق من أفضل وسائل الدعوة إلي دين الله الخاتم في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه .

(1) العلوم المكتسبة وخلق السماوات والأرض

للعلوم المكتسبة شواهد تؤيد فكرة الانفجار العظيم منها ما يلي :

(1) توسع الكون كدليل علي الانفجار العظيم :

علي الرغم من تأكيد القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين حقيقة

توسع الكون يقول الحق تبارك وتعالي :

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون

(الذاريات :47)

فقد بقي الفلكيون إلي مطلع العشرينيات من القرن الماضي مصرين علي ثبات الكون وعدم

تغيره

وفي السنوات من 1914 . 1925 م أثبت الفلكي الأمريكي ف . م سلايفر

أن معظم المجرات التي قام برصدها خارج مجرتنا درب اللبانة تتباعد عنا وعن بعضها

بعضا بسرعات كبيرة .

وفي سنة 1929 م تمكن الفلكي الأمريكي الشهير إدوين هبل من تأكيد ظاهرة

توسع الكون , وتوصل إلي الاستنتاج الصحيح أن سرعة تباعد المجرات الخارجية عن

مجرتنا تتناسب تناسبا طرديا مع بعدها عنا , وفي سنة 1934 م اشترك هو وأحد من

مساعديه في قياس أبعاد وسرعات تحرك 32 من تلك المجرات الخارجية بعيدا عن مجرتنا

وعن بعضها بعضا .

من جانب آخر استطاع علماء كل من الفيزياء النظرية والفلكية تأكيد حقيقة توسع الكون بتوظيف القوانين الرياضية في عدد من الحسابات النظرية , ففي سنة 1917 م أطلق ألبرت إينشتاين نظرية النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية كقوة مؤثرة في الكون المدرك , وأشارت المعادلات الرياضية المستنتجة من تلك النظرية إلي أن الكون الذي نحيا فيه كون غير ثابت , فهو إما أن يتمدد وإما أن ينكمش وفقا لعدد من القوانين المحددة له , وجاءت هذه النتيجة علي عكس ما كان يعتقد إينشتاين وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية , ولقد أصاب إينشتاين الذعر حينما أدرك أن معادلاته تنبئ ـ رغم أنفه ـ بأن الكون في حالة تمدد مستمر , فعمد إلي إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم الثابت الكوني ليلغي به تمدد الكون , ويؤكد ثباته واستقراره برغم دوران الأجرام التي يحتويها , وحركاتها المتعددة , ثم عاد إينشتاين ليعترف ـ أمام سيل ملاحظات الفلكيين عن تمدد الكون ـ بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه في حياته .

في السنوات 1917 ـ 1924 م قام الروسي أليكساندر فريدمان بإدخال عدد من التحسينات علي معادلات إينشتاين , وقدم نموذجين لتفسير نشأة الكون يبدأ كل منهما

بحالة متفردة تتميز بكثافة لا نهائية , وتتمدد منها إلي حالات ذات كثافة أقل .

وتحدث فريدمان عن انحناء الكون , وعن تحدبه تبعا لكمية المادة الموجودة فيه , فإن كانت تلك المادة أقل من قدر معين كمية حرجة وجب أن يستمر تمدد الكون إلي الأبد , وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مفتوحا , أما إذا كانت كمية المادة بالكون أقل من الكمية الحرجة غدت الجاذبية علي قدر من القوة بحيث تحدب الكون إلي درجة تتوقف عندها عملية التمدد في لحظة معينة من المستقبل , عندها يبدأ الكون في الانطواء علي ذاته ليعود إلي حالة الكثافة اللانهائية الأولي التي بدأ بها الكون , وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مغلقا .

(84/509)

وقد أثبت كل من وليام دي سيتر في سنة 1917 م وآرثر إدنجتون في سنة 1930 م أن الكون كما صورته معادلات إينشتاين هو كون غير ثابت , ولكن تصور كل منهما للكون كان تصورا بدائيا , فبينما كان نموذج إينشتاين للكون نموذجا ماديا دون حركة , ونموذج دي سيتر حركيا دون مادة , جاء نموذج إدنجتون وسطا بين النموذجين بمعني أن الكون بدأ بحالة ساكنة , ثم أخذ في التمدد نظرا لطغيان قوي الدفع للخارج علي قوي الجاذبية , ولكن

انطلاقا من فكر الإلحاد السائد في عصره اضطر إدنجتون إلي فرض ماض لا نهائي للكون ليتخلص من حقيقة الخلق , وشبح الانفجار الكبير والذي سماه بالبداية الكارثة .

في السنوات 1932, 1934 م اقترح ريتشارد تولمان نموذجا متذبذبا للكون يبدأ وينتهي بعملية الانفجار الكبير . وأخيرا اقترح آلان جوت نموذج الكون المتضخم , والذي يقترح فيه أن الكون المبكر تمدد في أول الانفجار تمددا رأسيا سريعا جدا مع سطوع فائق . ثم أخذت معدلات التوسع في التباطؤ إلي معدلاتها الحالية ,

ومن منطلق إنكار الخلق ينادي الفلكيون المعاصرون بفكرة الكون المفتوح أي الذي يتمدد إلي ما لا نهاية ولكن حسابات الكتل المفقودة

تؤكد انغلاق الكون , هذا الانغلاق الذي سيقف بتمدده عند لحظة في المستقبل يعود الكون فيها إلي الانكماش والتكدس علي ذاته ليعاود سيرته الأولي .

وبالتدريج بدأت فكرة تمدد الكون إلي حد ما في المستقبل تلقي القبول من الغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية , وان بقيت أعداد منهم يدعون إلي ثبات الكون حتي مشارف الخمسينيات من القرن

العشرين , ومن هذه الأعداد جامعة كمبردج المكونة من كل من هيرمان بوندي , وتوماس جولد , وفريد هويل . وقد قام هذا الفريق بنشر سلسلة من المقالات والبحوث في السنوات 1946 م, 1948, 1949 م دفاعا عن النموذج الثابت للكون

ثم اضطروا إلي الاعتراف بحقيقة تمدده بعد ذلك بسنوات قليلة , ومن عجائب القدر بهؤلاء الجاحدين لحقيقة الخلق , المتنكرين لجلال الخالق سبحانه وتعالي المنادين كذبا بأزلية العالم , أن يكون أحد زعمائهم وهو فريد هويل الذي حمل لواء الادعاء بثبات الكون واستقراره وأزليته

لسنوات طويلة هو الذي يعلن بنفسه في سخرية لاذعة تعبير الانفجار الكبير للكون وذلك في سلسلة أحاديث له عبر الاذاعة البريطانية في سنة 1950 م ينتقد فيها ظاهرة تمدد الكون , ويحاول إثبات بطلانها , ثم جاء بعد ذلك بسنوات ليكون من أشد المدافعين عنها .

وكانت نظرية خلق الكون من جرم أولي واحد عالي الكثافة قد توصل إليها البلجيكي جورج لوميتر في سنة 1927 م وذلك في رسالة تقدم بها إلي معهد ماشوسيتس للتقنية , دافع فيها وفي عدد من بحوثه التالية عن حقيقة تمدد الكون , ولم تلق أبحاثه أي انتباه إلي أن جاء إدنجتون في سنة 1930 م ليلفت إليها الأنظار ومن هنا أطلق علي لوميتر لقب صاحب فكرة الانفجار الكبير في صورتها الأولي .

(2) بقايا الإشعاع الكوني كدليل علي الانفجار العظيم :

في سنة 1948 م أعلن كل من جورج جامو وزميله رالف ألفر أن تركيز العناصر في الجزء المدرك من الكون يشير إلي أن الجرم الأولي الذي بدأ به الكون كان تحت ضغط وفي درجة حرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما , وعند انفجاره انتقلت تلك الحرارة إلي سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن ذلك الانفجار , وسمحت بعدد من التفاعلات النووية التي أدت إلي تكون العناصر الأولية من مثل الإيدروجين والهيليوم .

وفي السنة نفسها 1948 م قدم كل من ألفر وهيرمان اقتراحا بأن الجرم

الابتدائي للكون كان له إشعاع حراري يشابه إشعاع الأجسام المعتمة , وأن هذا الإشعاع تناقصت شدته مع استمرار تمدد الكون وتبرده , ولكن لابد أن تبقي منه بقية في صفحة السماء , إذا أمكن البحث عنها وتسجيلها , كانت تلك البقية الإشعاعية من أقوي الأدلة علي بدء خلق الكون بعملية الانفجار الكبير .

وفي سنة 1964 م تمكن اثنان من علماء مختبرات بل للأبحاث وهما أرنو بنزياس وروبرت ويلسون بمحض المصادفة من اكتشاف تلك البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني علي

هيئة ضوضاء لاسلكية محيرة تفد بانتظام إلي الهوائي الذي كانا قد نصباه لغاية أخري من جميع الجهات في السماء حيثما وجه الهوائي , وقدروها بثلاث درجات مطلقة. 270 درجة مئوية. .

في الوقت نفسه كان كل من روبرت دايك وتلميذه بيبلز قد استنتجا من معادلاتهما الرياضية الفلكية أن النسب المقدرة لغازي الإيدروجين والهيليوم في الكون تؤكد الكمية الهائلة من الإشعاع التي نتجت عن الانفجار الكبير وتدعم نظريته , ومع تمدد الكون ضعف هذا الإشعاع بالتدريج وانخفضت درجة حرارته إلي بضع درجات قليلة فوق الصفر المطلق. 273 درجة مئوية .

في سنة 1965 م قام كل من بنزياس وولسون بتصحيح قيمة البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني إلي 2.73 من الدرجات المطلقة , وأثبتا أنها من الموجات الكهرومغناطيسية المتناهية في القصر , وتقدر قيمتها اليوم بأقل قليلا من قيمتها السابقة 2.726 من الدرجات المطلقة .

في سنة 1989 م أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية إلي الفضاء قمرا صناعيا لجمع المعلومات حول الإشعاع الحراري الكوني أطلق عليه اسم كوب وزود بأجهزة فائقة الحساسية أثبتت وجود تلك الأشعة الأثرية المتبقية عن عملية الانفجار العظيم .

وكان في هذا الاكتشاف التفسير المنطقي لسبب الأزيز اللاسلكي المنتظم الذي يعج به الكون والذي يأتي إلينا من مختلف أطراف الكون المدرك , والذي بقي علي هيئة صدي لعملية الانفجار الكبير , وقد منح كل من بنزياس وولسون جائزة نوبل في سنة 1978 م علي اكتشافهما الذي كان فيه الدليل المادي الملموس لدعم نظرية الانفجار الكبير , والارتقاء بها إلي مقام الحقيقة شبه المؤكدة , ودفع بالغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلي الاعتقاد بصحتها , وسبحان الخالق الذي أنزل في محكم كتابه من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء :30) .

وبدء خلق الكون بعملية انفجار كبري هو من دلائل طلاقة القدرة الإلهية لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلي تناثر المادة وبعثرتها ولا

يخلف وراءه إلا الدمار , أما هذا الانفجار الكوني الفتق بعد الرتق فقد أدي إلي إبداع نظام كوني له تصميم دقيق محكم الأبعاد والعلاقات والتفاعلات , منضبط الكتل والأحجام والمسافات , منتظم الحركة والجري والتداخلات , مبني علي الوتيرة نفسها من أدق دقائقه إلي أكبر وحداته علي الرغم من تعاظم أبعاده , وكثرة أجرامه , وتعقيد علاقاته , وانفجار

هذه نتائجه لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير حكيم وتقدير مسبق عظيم لا يقدر عليه إلا رب العالمين , وقد أشار العالم البريطاني المعاصر ستيفن وهوكنج إلي شيء من ذلك في كتابه المعنون تاريخ موجز للزمن الذي نشره في كندا سنة 1988 م ولكن إشاراته جاءت علي استحياء شديد نظرا لجو الإلحاد الذي يسود الغرب بصفة عامة في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه , والكتاب مملوء بالاستنتاجات المؤكدة لحقيقة الخلق , وعظمة الخالق سبحانه وتعالي .

القرآن الكريم وخلق السماوات والأرض

في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأن الكون الذي نحيا فيه كان منذ الأزل , وسيبقي إلي الأبد , وأنه كون لا نهائي , أي لا تحده حدود , وأنه كون ساكن , ثابت في مكانه , لا يتغير , وأن النجوم مثبتة في السماء التي تدور بنجومها كقطعة واحدة حول الأرض , وأن الكون شامل للعناصر الأربعة : التراب , والماء , والهواء , والنار , وحول هذه الكرات الأربع تدور السماء بنجومها , وغير ذلك من الخرافات والأساطير , في هذا الوقت جاء القرآن الكريم مؤكدا أن الكون مخلوق له بداية , ولابد أنه ستكون له في يوم من

الأيام نهاية , وكل مخلوق محدود بحدود لا يتجاوزها , ومؤكدا أن جميع أجرام السماء في حركة دائبة , وجري مستمر إلي أجل مسمي , وأن السماء ذاتها في توسع دائب إلي أجل مسمي , وأن السماوات والأرض كانتا في الأصل جرما واحدا ففتقهما الله (تعالي) فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلي الدخان الذي خلقت منه الأرض

والسماء , وأن هذا الكون سوف يطوي ليعود كهيئته الأولي جرما واحدا مفردا ينفتق مرة أخري إلي غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية , وسماوات غير السماوات التي تظلنا في حياتنا الدنيا , وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولي وتبدأ رحلة الآخرة .

وقد لخص لنا ربنا (تبارك وتعالي) عملية خلق السماوات والأرض وإفنائهما , وإعادة خلقهما في صياغة كلية شاملة من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة , وذلك في خمس آيات من آي القرآن الكريم علي النحو التالي :

(1) والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (الذاريات :47) .

(2) أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء :30) .

(3) ثم استوي إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (فصلت : 11) .

(4) يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين (الأنبياء :104) .

(89/509)

---

(5) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار (إبراهيم :48) .

وهذه الآيات القرآنية الكريمة تشير إلي عدد من حقائق الكون الكبري والتي منها :

(1) توسع الكون منذ اللحظة الأولي لخلقه وإلي أن يشاء الله .

(2) ابتداء خلق الكون من جرم أولي واحد (مرحلة الرتق الأول) .

(3) فتق هذا الجرم الأولي أي انفجاره (مرحلة الفتق الأول) .

(4) تحول المادة في الجرم الأولي عند فتقه إلي الدخان (مرحلة الدخان) .

(5) خلق كل من الأرض والسماوات من الدخان الكوني (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء) .

(6) حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلي جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأولي الذي ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثاني أو طي السماء أو الانسحاق الشديد للكون) .

(7) حتمية فتق هذا الجرم الثاني أي انفجاره (مرحلة الفتق للرتق

الثاني) .

(8) حتمية تحول الرتق الثاني بعد فتقه إلي غلالة من الدخان الكوني .

(9) إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التي تظللنا اليوم وبداية رحلة الآخرة .

وهذه الحقائق الكونية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في القرن العشرين , حين توصل العلم الحديث إلي إثبات توسع الكون

في الثلث الأول من ذلك القرن , ثم اندفع بهذه الملاحظة الصحيحة إلي الاستنتاج المنطقي أننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلي الوراء مع الزمن , فلابد أن تلتقي جميع صور المادة والطاقة المنتشرة في الكون , كما يلتقي كل من المكان والزمان , وجميع ما في الكون من موجودات في نقطة واحدة تكاد تقترب من الصفر أي العدم علي هيئة ابتدائية للكون

أو (مرحلة الرتق) , وأن تلك الهيئة الأولية كانت متناهية في الصغر , كما كانت بالقطع في مستوي من الكثافة ودرجة الحرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما فانفجرت (مرحلة الفتق) , ونتج عن هذا الانفجار الكوني العظيم (الفتق بعد الرتق) تحول هذا الجرم الأولي

للكون.المتناهي في ضآلة الحجم وضخامة الكثافة وشدة الحرارة.إلي غلالة من الدخان (مرحلة الدخان الكوني) الذي خلق الله (تعالي) منه الأرض والسماء (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء) .

ويتوقف العلم المكتسب عند ملاحظة أن عملية التوسع الكوني لا يمكن لها أن تستمر إلي ما لا نهاية , وذلك لأن قوة الدفع إلي الخارج الناتجة عن الانفجار الكوني التي بدأت بعنف بالغ حتي اليوم في تناقص مستمر , وسوف يؤدي هذا التناقص التدريجي في سرعة توسع الكون إلي الوصول به إلي مرحلة تتغلب فيها قوي الجاذبية علي قوي الدفع إلي الخارج , فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس علي ذاته حتي يعود إلي حالة مشابهة تماما لحالته الأولي التي ابتدأ منها خلق الكون (مرحلة الرتق الأولي) , وتعرف هذه المرحلة المستقبلية باسم مرحلة الرتق الثانية [

أو الرتق بعد الفتق أو طي السماء أو مرحلة الانسحاق الشديد للكون

كما يحلو لبعض الفلكيين المعاصرين تسميتها] .

وقد أخبرنا ربنا (تبارك وتعالي) من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أنه (سبحانه) قد تعهد بإعادة السماوات والأرض إلي سيرتها الأولي وذلك بقوله في محكم كتابه (عز من قائل) :

يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين

(الأنبياء :104),

وليس من قبيل المصادفة أن ترد الآيتان رقم (30) وهي المتعلقة بخلق الكون (الفتق بعد الرتق), ورقم (104) وهي المتعلقة بإفناء الكون (الرتق بعد الفتق) في سورة واحدة وهي سورة الأنبياء .

(91/509)

ولولا أن الله (تعالي) قد تعهد بإعادة خلق أرض غير أرضنا , وخلق سماء غير سمائنا , وأخبرنا بذلك من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة في محكم كتابه وذلك بقوله (عز من قائل):

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار (إبراهيم :48) .

ما كان أمام العلوم المكتسبة من سبيل إلي معرفة ذلك .

هذه الحقائق الكونية الكبري في خلق السماوات والأرض , لم يستطع الانسان الوصول إلي إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك , حين تبلورت نظرية فلكية باسم نظرية الانفجار العظيم

وهذه النظرية هي الأكثر قبولا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في

تفسير نشأة الكون , وقد سبق القرآن الكريم بالاشارة إليها من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق تبارك وتعالي .

أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء :30) .

والرتق : في اللغة عكس الفتق , لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيا أو صناعيا , يقال رتقت الشيء فارتتق أي فالتأم والتحم .

والفتق : لغة هو الفصل والشق والانشطار .

والمعني الواضح

لنا من هذه الآية الكريمة أن السموات والأرض كانتا في الأصل شيئا واحد متصلا , ملتئما , وملتحما , ففتقه ربنا تبارك وتعالي بأمر منه سبحانه إلي الأرض التي نحيا عليها , وإلي سبع سماوات من فوقنا .

والقرآن الكريم هنا يعطي الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكوني العظيم , ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض , والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة في صفحة السماء لتؤكد في منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله تعالي في آخر كتبه , وعلي خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم من قبل ألف وأربعمائة من السنين .

هذا السبق القرآني بحقيقة الفتق بعد الرتق يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلي مقام الحقيقة , ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب , وليس العكس , والسبب في لجوئنا إلي تلك النظرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية رقم 30 من سورة الأنبياء هو أن العلوم المكتسبة لايمكن لها أن تتجاوز مرحلة التنظير في القضايا التي لاتخضع لحس الانسان المباشر أو ادراكه المباشر من مثل قضايا الخلق والافناء وإعادة الخلق خلق الكون , خلق الحياة , وخلق الانسان وصدق الله العظيم اذ يقول :

ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (الكهف :51) .

كذلك فإن نظرية الانسحاق الكوني العظيم

يرتقي بها إلي مقام الحقيقة قول ربنا تبارك وتعالي :

يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين (الانبياء :104) .

هذا السبق القرآني بالإشارة إلي حقيقة الفتق بعد الرتق أو ما يعبر عنه بالانفجار الكوني

العظيم , وإلي حقيقة توسيع السماء أو تمدد الكون , وإلي حقيقة الخلق من الدخان , وإلي حقيقة الرتق بعد الفتق طي المساء أو الانسحاق الكوني العظيم , وإلي حقيقة إعادة خلق أرض غير الأرض وسماوات غير السماوات الحالية , وإلي العديد غيرها من الحقائق التي صاحبت خلق السماوات والأرض أو التي تلازمهما اليوم , أو التي سوف تحدث عند إفناء الكون , هو من أعظم الشهادات بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , ولايمكن له أن يكون كلام أحد غير الله , كما يشهد لهذا النبي الخاتم صلي الله عليه وسلم بأنه كان موصولا بوحي السماء , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , حيث انه لم يكن لأحد من الخلق علم بهذه الحقائق الكونية الكبري في زمن الوحي , ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله :

وتشهد هذه الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وأمثالها من الآيات القرآنية الأخري المتعلقة بالكون وظواهره وبعض مكوناته بالدقة والشمول والكمال , وبالصياغة المعجزة التي يفهم منها أهل كل عصر معني من المعاني يتناسب مع المستوي العلمي للعصر , وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لايعرف التضاد , وهذا عندي من أبلغ جوانب الإعجاز في كتاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن

الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﷺ .

(94/509)

بحث آخر فى نفس الآية

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(77) . . . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون *

بقلم: د . زغلول النجار

هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع الربع الثاني من سورة الأنبياء وهي سورة مكية , وآياتها 112 بعد البسملة , ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة الإسلامية ومن ركائزها الإيمان بالله ربا وبملائكته , وكتبه , ورسله , واليوم الآخر , والتوحيد الخالص لجلال الله (بغير شريك , ولا شبيه , ولا زوجة , ولا ولد , ولا منازع له في سلطانه) .

وابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلي غفلة الناس عن الحساب , وعللت تلك الغفلة بانصراف أغلب الناس عن الهداية الربانية التي أنزلها الله (تعالي) علي فترة من الأنبياء

والمرسلين , وأتمها , وأكملها , وحفظها في القرآن الكريم , وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) .

وضربت سورة الأنبياء مثلا علي ذلك بغفلة كفار قريش , الذين أنكروا نبوة ورسالة هذا الرسول الخاتم . وأمثالهم في هذا الزمان كثير . واتهموه (شرفه الله تعالي) . كما يتهمه كفار ومشركو اليوم . بالسحر , والهلوسة , والافتراء , والشعر , وطالبوه بعدد من المعجزات الحسية كالتي جاء بها سلفه من الأنبياء والمرسلين . ناسين أو متناسين كفر الكافرين بتلك السلسلة الطويلة من رسل الله وأنبيائه , علي الرغم من تأييد الله لهم بالمعجزات , وناسين أو متناسين أن جميع هؤلاء الأنبياء والمرسلين كانوا بشرا مختارين , مما يدحض اعتراضهم علي بشرية خاتمهم (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) , وناسين أو متناسين أن الله (تعالي) قد أهلك المتقدمين من الكفار والمشركين , ومن الطغاة المتجبرين , فلم يعتبروا بهلاكهم حتي إذا فاجأتهم عقوبة من الله رفعوا أصواتهم بالاستغاثة والضراعة صاغرين , متذللين . . . . ! !

وأكدت الآيات في سورة الأنبياء أنه لو أعرض أهل الأرض جميعا عن طاعة خالقهم , وعبادته بما أمر , فإن الملائكة لا يستكبرون عن الخضوع الدائم لجلاله , ولا عن تسبيحه , وتمجيده , وحمده , ولا يملون ذلك أبدا :

(يسبحون الليل والنهار لا يفترون *) .

واستشهدت سورة الأنبياء بالعديد من الآيات الكونية علي عظمة الخالق (سبحانه وتعالي) في إتقانه لصنعته , وعلي وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه , وعلي تنزيهه (سبحانه) عن الشريك , والزوجة , والولد , وهو (تعالي) رب كل شيء ومليكه , ومن ينازعه في سلطانه فجزاؤه جهنم وبئس المصير .

وتؤكد السورة الكريمة أن (كل نفس ذائقة الموت) , وأن الدنيا دار ابتلاء بالخير والشر , وأن جميع المخلوقين عائدون حتما إلي خالقهم .

وتواسي الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) بأن جميع من سبقوه تاريخيا من أنبياء الله ورسله قد لاقوا من كفار أقوامهم , وشراذم أممهم , وحثالات مجتمعاتهم مثل ما لاقي (ولا يزال يلاقي) من التكذيب والسخرية والاستهزاء , وقد نال السابقين من هؤلاء المكذبين نكال من الله في الدنيا , ولهم في الآخرة العذاب المقيم , وهو نفس جزاء المكذبين من بعد ذلك إلي أيامنا هذه وإلي يوم الدين , فالله (تعالي) يضع الموازين العادلة فلا تظلم نفس شيئا . . . ! !

واستعرضت سورة الأنبياء قصص عدد من هؤلاء المصطفين الأخيار منهم موسي وهارون وقد آتاهما الله (تعالي) التوراة نورا وضياء وجعلها فارقة بين الحق والباطل , وتذكرة للمتقين (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) .

وتؤكد الآيات أن القرآن الكريم قد جاء من نفس المشكاة , وهو كتاب مبارك , أنزله الذي أنزل التوراة من قبل , فلا ينكره إلا

ضال .

(96/509)

وممن ذكرت بهم السورة من أنبياء الله ورسله : إبراهيم الخليل أبو الأنبياء , ولخصت حواره مع قومه من عبدة الأوثان , ودعوته إياهم إلي التوحيد الخالص , وتنجية الله له من كيدهم , وبعثه وابن أخيه لوطا إلي أرض فلسطين المباركة , ووهبه ـ علي الكبر ـ ذرية صالحة , وتنجية لوط من القرية التي كانت تعمل الخبائث والتي دمرها الله (تعالي) تدميرا .

وأضافت السورة الكريمة ذكر نوح (عليه السلام) وقصته مع قومه الذين كذبوه فأغرقهم الله (تعالي) , ونجي نوحا ومن آمن معه , وقصة كل من داود وسليمان , وما أكرمهما الله (تعالي) به من معجزات وكرامات , وقصة أيوب وما مسه من ضر وبلاء صبر عليه

فكشفه الله (تعالي) عنه , وقصص كل من إسماعيل , وإدريس , وذي الكفل , الذين كانوا من أهل الإحسان والصبر , وقصة يونس (علي نبينا وعليه وعلي أنبياء الله جميعا من الله السلام) والحوت الذي التقمه , وتنجية الله (تعالي) له منه , وقصة زكريا (عليه السلام) وقد رزقه الله تعالي ـ علي الكبر ـ ابنا صالحا , وقصة السيدة مريم البتول وولادتها بمعجزة حقيقية لابنها عيسي (عليها وعليه من الله السلام) , ومن هنا كانت تسمية هذه السورة المباركة باسم سورة الأنبياء .

وبعد هذا السرد التاريخي المعجز يأتي القرار الإلهي الحاسم :

وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون * الأنبياء :92

وفيه من التأكيد علي وحدة الرسالة السماوية , ووحدة هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء والمرسلين , ما يدعم صدورها عن الإله الواحد الذي خلق الخلق , واصطفي منهم الأنبياء والمرسلين , وأوحي إليهم جميعا بدينه القويم ـ الإسلام ـ الذي أكمله , وأتمه وحفظه في الرسالة الخاتمة ـ القرآن الكريم ـ المنزل علي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) .

وعلي الرغم من هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس في

وسط النهار فقد اختلف الناس في أمر الدين , وأصبحوا فيه شيعا متعارضين , والجميع راجعون إلي الله (تعالي) ليحاسبهم , ويجازيهم علي ما كانوا يعتقدون , وما كانوا يعملون .

وقد أوضح الله (تعالي) للجميع أن الذين أهلكوا في الدنيا لكفرهم وشركهم وطغيانهم قد أدركوا ذلك بعد هلاكهم , وتمنوا العودة مرة أخري إلي الحياة الدنيا ليتوبوا إلي الله , ويعودوا إلي طاعته وعبادته وتوحيده ولكن هيهات لهم أن يعودوا إلا عند قيام الساعة حين يبعث الخلق أجمعون .

وتتحدث الآيات في سورة الأنبياء عن سد يأجوج ومأجوج , وعن الإشعار بقرب فتحه , وتدافع هذا الخلق للخروج منه , وانتشارهم , في كل فج , وتزاحمهم علي النزول من كل مرتفع متسارعين للإفساد في الأرض , وخروجهم من العلامات الكبري للساعة ومن نبوءات القرآن العظيم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) باقتراب وقتها ....

ويومئذ يري الكافرون والمشركون وأبصارهم شاخصة من شدة الهول والفزع , وتصف الآيات جانبا من مشاهد هذا اليوم العصيب , وتمايز بين موقف كل من المؤمنين والكافرين فيه .

وتؤكد السورة في أواخرها أن الرسول الخاتم والنبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم) قد أرسله الله (تعالي) رحمة للعالمين , داعيا للناس جميعا إلي التوحيد الخالص لله الخالق , فإن

تولوا فما عليه إلا أن يقول : قد أعلمتكم جميعا بالحق , أنذرتكم بما توعدون , ولا أدري أقريب هو أم بعيد , وأخبرتكم بأن الله (تعالي) هو علام الغيوب , الذي لا يخفي عليه شيء , وأنه (تعالي) سوف يجازي كلا بعمله , ولست أدري إن كان إمهالكم لمزيد من البقاء في الدنيا هو ابتلاء لكم أم فتنة , وتختتم السورة الكريمة بهذا الدعاء الكريم علي لسان خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) :

قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان علي ما تصفون * أي : يا رب احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين

(98/509)

بالحق الذي أرسلتني به , وأنت المستعان علي ما يصفون من الكفر والتكذيب , وبهذا التفويض لله (تعالي) والاستعانة به والضراعة إليه تختتم سورة الأنبياء .

من الآيات الكونية في سورة الأنبياء

في مقام الاستدلال علي طلاقة القدرة . . الإلهية المبدعة في الخلق , وعلي وحدانية الخالق العظيم

أشارت سورة الأنبياء إلي عدد من الآيات الكونية التي يمكن إيجازها فيما يلي :

1 .خلق السماوات والأرض بالحق , أي بنظم فائقة الدقة والانتظام .

2 .وحدة البناء في الخلق تؤكد وحدانية الخالق (سبحانه وتعالي) .

3 .حقيقة أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله (تعالي) .

4 .حقيقة أن الله (سبحانه وتعالي) قد جعل من الماء كل شيء حي .

5 .حقيقة أن الله (تعالي) خلق الجبال , وجعلها رواسي للأرض , وجعل فيها فجاجا سبلا للناس يسلكونها ويهتدون بها .

6 .تأكيد أن الله (تعالي) قد جعل السماء سقفا محفوظا .

7 .الإشارة إلي دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بخلق كل من الليل والنهار وتبادلهما , وتأكيد جري كل من الأرض والشمس والقمر بالوصف القرآني المعجز : كل في فلك يسبحون .

8 .تأكيد حقيقة أن كل نفس ذائقة الموت .

9 .الإشارة إلي أن الإنسان خلق من عجل .

10 .الإشارة إلي حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها في مجاز معجز .

11 .الإشارة إلي طي السماء كطي السجل للكتب , والعودة بالكون إلي هيئته الأولي (رتقا متصلا قبل فتقه إلي السماوات والأرض) .

ومن إعجاز القرآن الكريم أن تأتي الإشارة إلي كيفية خلق الكون , وإلي كيفية إفنائه في

سورة واحدة , والإشارة إلي خلق كل شيء حي بين هذين الحدين .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة , ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا علي النقطة الرابعة فقط في هذه القائمة والتي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) :

. . . . . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا

(99/509)

يؤمنون * وقبل الدخول إلي ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامي والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

. . . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * الأنبياء :30

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : . . . وقوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي أصل كل الأحياء , عن أبي هريرة قال , قلت : يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني , فأنبئني عن كل شيء , قال :

كل شيء خلق من ماء قال , قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة ؟

قال : أفش السلام , وأطعم الطعام , وصل الأرحام , وقم بالليل والناس نيام , ثم ادخل الجنة بسلام (مسند أحمد بن حنبل) .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه : . . . (وجعلنا من الماء) النازل من السماء والنابع من الأرض (كل شيء حي) نبات وغيره , أي : فالماء سبب لحياته (أفلا يؤمنون) بتوحيدي ؟ .

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه : . . . فأما شطر الآية الثاني :(وجعلنا من الماء كل شيء حي) فيقرر كذلك حقيقة خطيرة , يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرا عظيما . . إن الماء هو مهد الحياة الأول . وهي حقيقة تثير الانتباه حقا , وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا , ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن , فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله , لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له . . ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلي عجائب صنع الله في الكون , ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود : أفلا يؤمنون ؟ وكل ما حولهم في الكون يقود إلي الإيمان بالخالق المدبر الحكيم .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) ما نصه : . . . (

وجلعنا من الماء كل شيء حي) خلقنا من الماء كل شيء حي , أي متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان , أو كل شيء نام فيدخل النبات , ويراد من الحياة ما يشمل النمو .

وهذا العام مخصوص بما سوي الملائكة والجن مما هو حي .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : أعمي الذين كفروا , ولم يبصروا . . . . , وجعلنا من الماء الذي لا حياة فيه كل شيء حي ؟ !

فهل بعد كل هذا يعرضون , فلا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله ؟ !

وجاء بالهامش هذا التعليق : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) : تقرر هذه الآية حقيقة علمية أثبتها أكثر من فرع من فروع العلم , فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون المهم في تركيب مادة الخلية , وهي وحدة البناء في كل كائن حي نباتا كان أو حيوانا , وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الأحياء , فهو إما وسط , أو عامل مساعد , أو داخل في التفاعل , أو ناتج عنه .

وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظائفه التي بدونها لا تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبها خيرا) ما نصه :

. . . . . (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببا

للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات (أفلا يؤمنون) أي : أفلا يصدقون بقدرة الله ؟ .

الماء في القرآن الكريم

الماء سائل شفاف تقوم عليه الحياة , وهو في نقائه لا لون له , ولا طعم ولا رائحة , وقد وهبه الله (تعالي) من الصفات الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من القيام بدوره الأساسي في أجساد كل صور الحياة .

والهمزة في اسمه مبدلة من الهاء لأن أصله (موه) وجمعه (أمواه) في القلة , و (مياه في الكثرة) , وتصغيره (مويه) , والنسبة إلي (ماء) هي (مائي) أو (ماوي) .

(101/509)

ولفظة (ماء) وردت في القرآن الكريم (63) مرة , وهي لفظة تدل علي الجمع والمفرد معا (فتقول ماء البحر كما تقول قطرة ماء) .

ومن هذه المرات الثلاث وستين والتي جاءت ـ في معظمها ـ بمعني السائل المعروف الذي يشربه كل من الإنسان والحيوان , ويروي به النبات , جاءت لفظة (ماء) في القرآن الكريم

أربع مرات بمعني النطفة (أي : ماء التناسل) , كما جاءت كلمة (ماء) 59 مرة غير متصلة بضمير , 4 مرات متصلة بضمير من الضمائر .

وهذه المرات الثلاث وستون التي جاء فيها ذكر لفظة (ماء) أو (الماء) في كتاب الله (في إحدي وستين آية مباركة ورد في اثنتين منها ذكر الماء مرتين) يمكن تصنيفها في المجموعات العشر التالية :

أولا : آية واحدة تدل علي أن عرش الله (تعالي) كان علي الماء هود : 7 .

ثانيا : آية واحدة تدل علي أن أصل ماء الأرض كله من داخل الأرض (النازعات : 3) .

ثالثا : آيتان كريمتان تثبتان أن الله (تعالي) قد خلق كل شيء من الماء الأنبياء : 30 , النور : 45 .

رابعا : ثمان وعشرون آية كريمة تصف دورة الماء حول الأرض بإنزاله من السماء , ودور كل من الرياح والسحاب في تلك الدورة التي جعلها ربنا (تبارك وتعالي) لتطهير ماء الأرض , ولسقيا كل من الإنسان والحيوان وإنبات مختلف أنواع النباتات وريها بانتظام البقرة : 164,22 , الأنعام : 99 , الأعراف : 57 , الأنفال : 11 , الرعد : 17,4 , إبراهيم : 32 , الحجر : 22 , النحل : 65,10 , طه : 53 , الحج : 63,5 , الفرقان : 48 , النمل : 60 , العنكبوت : 63 , الروم : 24 , لقمان : 10 , السجدة : 27 , فاطر : 27 , فصلت : 39 , الزخرف : 11 , ق : 9 , الواقعة : 68 , المرسلات : 27 , النبأ : 14 , عبس

:25 .

خامسا : خمس آيات تصف خزن ماء المطر تحت سطح الأرض بتدبير من الله (سبحانه وتعالي) وتقدير حكيم منه ,(منها آية واحدة الملك :30 ذكر فيها الماء مرتين البقرة :74,

المؤمنون :18, الكهف :41, الزمر :21, الملك :30 .

(102/509)

سادسا : ثماني آيات مباركات تشير إلي ماء له علاقة بأحداث تاريخية هود :44,24,23, القصص :23, القمر :28,12,11, الحاقة :11 .

سابعا : آيتان كريمتان تشيران إلي التيمم في غيبة وجود الماء النساء :43, المائدة :6 .

ثامنا : خمس آيات مباركات تذكر الماء في الآخرة إما في الجنة أو في النار (أشير في إحداها محمد :15 إلي الماء مرتين . الأعراف :50, إبراهيم :16, الكهف :29, محمد :15, الواقعة :31) .

تاسعا : خمس آيات كريمات استخدمت للتشبيه أو لضرب المثل يونس :24, الرعد :14, الكهف :45, النور :39, الجن :16 .

عاشرا : أربع آيات تشير بالماء إلي النطف أي : ماء التناسل (الفرقان :54, السجدة :8, المرسلات :20, الطارق :6) .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية التي يمكن استخلاصها من قول الحق (تبارك وتعالي)

. . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون الأنبياء :30 ما يلي :

أولا : أن الماء سابق في وجوده علي جميع الخلائق , فقد أثبتت دراسات علوم الأرض أن هذا الكوكب يرجع عمره إلي أكثر من 4.6 بليون سنة مضت , بينما يرجع عمر أقدم أثر للحياة في صخور الأرض إلي 3.8 بليون سنة مضت , وهذا يعني ان عملية إعداد الأرض لاستقبال الحياة استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة. وربنا تبارك وتعالي قادر علي أن يقول للشيء كن فيكون , وإنما جاء الخلق علي مراحل متطاولة من الزمن بهدف إعانة الإنسان علي تتبع سنن الله في الأرض , وعلي حسن توظيفها في عمارة الحياة , لأن كلا من الزمان والمكان إذا كان من أبعاد المادة , وحدود الإنسان , فهو من خلق الله , والمخلوق لا يحد الخالق أبدا . . . فالله (تعالي) فوق جميع خلقه بما في ذلك المادة والطاقة والزمان والمكان .

وخلال هذه الفترة الطويلة من إعداد الأرض لاستقبال الحياة فجر الله (

تعالي) الأرض بالثورات البركانية التي أخرجت كلا من أغلفة الأرض الصخرية , والمائية , والهوائية , كما كونت السلاسل الجبلية التي اندفعت من قاع المحيط الأولي الغامر للأرض .
حتي أصبح كوكبنا مهيأ ليكون محضنا لنوع الحياة الأرضية .

ثانيا : إن الله (تعالي) خلق كل صور الحياة الأرضية الباكرة في الماء , لأن الأوساط المائية في بدء خلق الأرض كانت أنسب البيئات لاستقبال الحياة , ودراسات بقايا الحياة في صخور الأرض تشير إلي أن الحياة المائية استمرت علي الأرض قرابة 3360 مليون سنة (في الفترة من 3800 مليون سنة مضت إلي 440 مليون سنة مضت) قبل خلق أول نباتات علي اليابسة .

ثالثا : كذلك أثبتت دراسات علوم الأرض أن خلق النبات كان دوما سابقا لخلق الحيوان , وأن عملية الخلق قد توجها الله (تعالي) بخلق الإنسان , وعلي ذلك فإن خلق النباتات البحرية كان سابقا لخلق الحيوانات البحرية , وكذلك خلق النباتات الأرضية علي اليابسة كان سابقا لخلق الحيوانات علي اليابسة , وكل ذلك كان سابقا لخلق الإنسان وهو المخلوق الذي كرمه الله (سبحانه وتعالي) فقال (عز من قائل) :

ولقد كرمنا بني آدم . . .

والحكمة من ذلك جلية , بينة واضحة , لأن الإنسان يعتمد في غذائه علي كل من النبات

والحيوان . ولأن كلا من الإنسان والحيوان يعتمد في غذائه علي النبات , ولأن النباتات لعبت .ولا تزال تلعب .الدور الرئيسي في إمداد الغلاف الغازي للأرض بالأوكسجين الذي بدونه ما كانت حياة أي من الحيوان أو الإنسان ممكنة . . . ! !

يضاف إلي ذلك أن النبات الأخضر هو المصنع الرباني الذي تتخلق فيه الجزيئات العضوية اللازمة لبناء اجساد كل صور الحياة النباتية والحيوانية والانسية وذلك بواسطة الماء المقبل مع العصارة الغذائية المستمدة من الأرض , وثاني أوكسيد الكربون المستمد من الغلاف الغازي للأرض , والطاقة المستمدة من الشمس وعملية

التمثيل الضوئي في النباتات الخضراء لا تتم في غيبة الماء , الذي يتكون كل جزيء فيه من ذرتي إيدروجين , وذرة أوكسجين واحدة , والنبات يستمد الماء من العصارة الغذائية التي تمتصها جذوره من تربة وصخور الأرض , ويستمد الطاقة من ضوء الشمس بواسطة الصبغة الخضراء التي أودعها الله (تعالي) في خلايا النبات والمعروفة باسم اليخضور , والتي أعطاها الله (سبحانه وتعالي) القدرة علي تحليل جزيء الماء إلي أيون من الإيدروجين يحمل شحنة كهربائية موجبة , وأيون آخر من الإيدروكسيد يحمل شحنة

كهربائية سالبة , وباتحاد كل اثنين من أيونات الإيدروكسيد يتكون جزيء من الماء وذرة من ذرات الأوكسجين الذي ينطلق إلي الغلاف الغازي للأرض لتعويض ما تستهلكه بقية الكائنات الحية من هذا الغاز الضروري للحياة عن طريق التنفس .

وتتحد أيونات الإيدروجين الناتجة عن عملية تحلل الماء مع جزيئات ثاني أوكسيد الكربون الذي يستمده النبات من الجو المحيط به ليكون جميع أنواع الجزيئات العضوية اللازمة لبناء الخلايا الحية , مبتدئا بأبسطها , وهو سكر العنب (الجلوكوز) وغيره من السكاكر والنشويات (الكربوهيدرات) , منتهيا إلي البروتينات , والزيوت , والدهون , ومركبات ذلك من الأحماض الأمينية , والأحماض النووية التي تكتب بها الشفرة الوراثية لكل كائن حي .

وبهذه العملية يختزن جزء من طاقة الشمس علي هيئة روابط كيميائية تلعب الدور الرئيسي فيها أيونات الإيدروجين الموجودة في الماء , بينما الأوكسجين المنطلق من الماء إلي الجو عن طريق عملية التمثيل الضوئي فإنه يستخدم بواسطة بقية الكائنات الحية في عملية التنفس وهي عملية ينتج عنها أكسدة المواد العضوية في الطعام والمأخوذة أصلا من النبات مباشرة (أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الحيوان إلي ثاني أوكسيد كربون وماء , وبذلك يسترجع الغلاف الغازي للأرض ثاني أوكسيد الكربون الذي أخذه منه النبات ,

كما يسترجع قدرا من طاقة الشمس التي استفاد بها النبات علي شكل حرارة ناتجة عن جميع الأنشطة التي تقوم بها الكائنات الحية , أو تتركها علي هيئة بقايا وفضلات تتأكسد وتعود هي الأخري إلي الجو .

من هنا يتضح أن الماء ضروري لبناء أجساد كل الكائنات الحية , كما أنه ضروري لمساعدتها علي الاستمرار في القيام بمختلف نشاطاتها ومظاهرها الحيوية .

رابعا : أن الماء أعظم مذيب يعرفه الإنسان ولذلك يشكل الوسط المذيب للعديد من العناصر والمركبات التي يقوم بنقلها من تربة وصخور الأرض إلي مختلف أجزاء النبات , ومن الطعام إلي مختلف أجزاء جسم كل من الإنسان والحيوان . وذلك بما له من درجة عالية من اللزوجة والتوتر السطحي , وخاصية شعرية فائقة . .

خامسا : أن الماء يشكل العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الكائنات الحية , فقد ثبت بالتحليل أن نسبة الماء في جسم الإنسان تتراوح بين حوالي 71% في الإنسان البالغ , و 93% في الجنين ذي الأشهر المحدودة , بينما يكون الماء أكثر من 80% من تركيب دم الإنسان , وأكثر من 90% من أجساد العديد من النباتات والحيوانات .

سادسا : أن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة من التغذية إلي الإخراج ومن النمو إلي التكاثر لا تتم في غيبة الماء بدءا من التمثيل الغذائي , وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها

البعض , وبينها وبين المسافات الفاصلة بينها , وذلك بواسطة الخاصية الشعرية للمحاليل المائية التي تعمل من خلال جدر الخلايا , وانتهاء ببناء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين علي النمو والتكاثر , وقبل ذلك وبعده التخلص من سموم الجسم وفضلاته عن طريق مختلف صور الإفرازات والإخراجات .

هذا بالإضافة إلي ما يقوم به الماء من أدوار أساسية في عمليات بلع الطعام , وهضمه , وتمثيله , ونقله , وتوزيعه , ونقل كل من الفيتامينات , والهرمونات , وعناصر المناعة , ونقل الأوكسجين إلي جميع

(106/509)

أجزاء الجسم , وإخراج السموم والنفايات إلي خارج الجسم , وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقدم لذلك أو يترتب عليه من العمليات الحيوية , وعلي ذلك فلا يمكن للحياة أن تقوم بغير الماء أبدا , فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أوكسجين الهواء , ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية , فبالإضافة إلي منافعه العديدة وفي مقدمتها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم , بما له من سعة حرارية كبيرة , ومنظم لضغط الدم , ولدرجات الحموضة , فإن في نقصه تعطش الخلايا ويضطرب عملها ,

وتيبس الأنسجة , وتلاصق المفاصل , ويتجلط الدم ويتخثر , ويوشك الكائن الحي علي الهلاك ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحي خطيرة للغاية , فإذا فقد الإنسان علي سبيل المثال 1% من ماء جسده أحس بالظمأ , وإذا ارتفعت نسبة فقد الماء إلي 5% جف حلقه ولسانه , وصعب نطقه , وتغضن جلده , وأصيب بانهيار تام , فإذا زادت النسبة المفقودة علي 10% أشرف الإنسان علي الهلاك بالموت .

وفي المقابل فإن الزيادة في نسبة الماء بجسم الكائن الحي علي القدر المناسب له قد تقتله , فالزيادة في نسبة الماء بجسم الإنسان قد تسبب الغثيان , والضعف العام وتنتهي بالغيبوبة التي تفضي إلي الموت .

سابعا : يغطي الماء في زماننا الراهن حوالي 71% من مساحة سطح الأرض المقدرة بنحو (510) ملايين كيلو متر مربع , بينما تشغل مساحة اليابسة حوالي 29% من تلك المساحة .

والأرض هي أغني كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته علي السطح بنحو 1,4 بليون كيلو متر مكعب , بالإضافة إلي مخزون يقدر بمئات أضعاف هذا الرقم في نطاق الضعف الأرضي , يخرجه لنا ربنا (تبارك وتعالي) بقدر معلوم مع ثورات البراكين .

ويتوزع أغلب الماء علي سطح الأرض (حوالي 97,22%) في البحار والمحيطات التي تغطي مساحة تزيد علي 362 مليون كيلو متر مربع , بمتوسط عمق

يقدر بحوالي 3800 مترا مما يعطي لبحار ومحيطات الأرض حجما يزيد قليلا علي (1375) مليون كيلو متر مكعب من الماء المالح .

هذا بالإضافة إلي كم من الجليد يغطي قطبي الأرض , وقمم الجبال بسمك يصل إلي أربعة كيلو مترات في القطب الجنوبي وإلي 3800 متر في القطب الشمالي , ويقدر كم الماء في هذا الغطاء الجليدي بحوالي (2,15%) من مجموع الماء علي سطح الأرض , والنسبة الباقية وتقدر بحوالي (0,63%) من مجموع ماء الأرض تمثل أغلبها بالمخزون المائي في صخور قشرة الأرض ونسبته 0,613% ويمثل الباقي (وتقدر نسبته بحوالي 0,017%) بمخزون البحيرات الداخلية , وكم الماء الجاري في الأنهار والجداول , ورطوبة كل من الجو والتربة , التي تعين الأرض علي الإنبات , وتلعب دورا مهما في تكوين السحب التي تدفع عن الأرض جزءا كبيرا من حرارة وأشعات الشمس بالنهار , كما ترد إلي الأرض معظم الدفء الذي تشعه صخورها إلي الجو بمجرد غياب الشمس .

وهذا التوزيع المعجز للماء علي سطح الأرض لعب . ولا يزال يلعب . دورا أساسيا في تهيئة مناخ الأرض لاستقبال الحياة , فلولا هذه المساحات المائية والجليدية الشاسعة لاستحالت

الحياة التي نعرفها علي سطح الأرض , لأن درجة حرارة نطاق المناخ كان من الممكن أن تصل إلي أكثر من مائة درجة مئوية بالنهار , وأن تنخفض إلي ما دون المائة درجة تحت الصفر المئوي بالليل , وهو تباين لا تقوي عليه كل صور الحياة المعروفة لنا , ولكن شاءت إرادة الله ورحمته أن تحمينا من هذه المخاطر بواسطة الغلاف المائي للأرض الذي ينظم درجة حرارتها , وحرارة الهواء المحيط بها في نطاق المناخ , وذلك بتكرار عمليات التبخير بكميات كبيرة من الماء (تقدر سنويا بحوالي 380,000 كيلو متر مكعب) , وتكثيف هذا الكم الهائل من بخار الماء علي هيئات السحاب والضباب والندي , وإنزاله إلي الأرض علي هيئة المطر , والثلج والبرد , وما يصاحب ذلك من

رعد وبرق , وما ينزل معهما من مركبات النيتروجين وغيره من العناصر التي تثري تربة الأرض بما يحتاجه النبات من مركبات , وما يصاحب كل ذلك من إحياء للأرض بعد موتها , بتقدير من الخالق البارئ المصور الذي خلق فسوي * والذي قدر فهدي *(الأعلي :2 و 3) .

ثامنا : الماء يساعد علي حفظ درجات الحرارة في البحار والمحيطات في الحدود التي تعين

الحياة البحرية علي النشاط , وذلك باختلاط التيارات البحرية الدافئة والباردة , وبامتصاص جزء كبير من آشعة الشمس ومما تنتجه الأحياء البحرية من حرارة نتيجة لمختلف أنشطتها الحيوية , والعمل علي إعادة توزيعها , وكذلك توزيع الحرارة الناتجة عن ثورات البراكين فوق قيعان كل محيطات الأرض , وقيعان أعداد من بحارها , وقبل ذلك وبعده وقاية الأحياء البحرية من مختلف التقلبات الجوية خاصة عندما تنخفض درجات الحرارة إلي ما دون الصفر المئوي , وهنا يلحظ كل عاقل دور القدرة المبدعة في الخلق والتي أعطت الماء عددا من الخصائص الفيزيائية والكيميائية التي لا تتوافر لغيره من العناصر ومركباتها , وأبرزها قلة كثافة الماء عند تجمده مما يضطره إلي الطفو علي سطح مياه البحار والمحيطات في المناطق الباردة والمتجمدة بدلا من الغوص إلي قيعانها والقضاء علي مختلف صور الحياة فيها , ويقوم الجليد الطافي علي سطح الماء بدور العازل بين درجات حرارة الهواء الشديد البرودة من فوقه , والماء الدافئ نسبيا من تحته وما فيه من حياة زاخرة .

هذا قليل من كثير مما حبا الله (تعالي) به الماء من صفات طبيعية وكيميائية فريدة , التي من أهمها أيضا قدرته الفائقة علي إذابة أعداد كبيرة من المواد الصلبة والسائلة والغازية , وبناؤه الجزيئي ذو القطبية المزدوجة والمقاوم للتحلل والتأين , ودرجتا التجمد والغليان

المتميزتان , والحرارة النوعية المرتفعة , والحرارة الكامنة العالية , واللزوجة والتوتر السطحي الفائقان ,

(109/509)

وقلة كثافته عند التجمد , وقدرته الكبيرة علي الأكسدة والاختزال , وعلي التفاعل مع العديد من المركبات الكيميائية , وعلي تصديع التربة وشقها لمساعدتها علي الإنبات , وبذلك هيأه الله (سبحانه وتعالي) للقيام بدوره الرئيسي في أجساد كل أنواع الحياة النباتية والحيوانية والإنسية مما يعتبر معجزة كبري من معجزات الخالق (سبحانه وتعالي) الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

. . . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجاء ذلك مباشرة بعد تقرير خلق السماوات والأرض بعملية فتق الرتق وهي من أعظم معجزات الخالق (سبحانه) في إبداعه للكون , والخطاب في مطلع الآية الكريمة موجه للذين كفروا , ولذلك ختمت بهذا الاستفهام التقرير , التقريعي , التوبيخي : أفلا يؤمنون .

وهذه حقائق لم يصل إليها علم الإنسان الكسبي إلا في منتصف القرن العشرين , وورودها في كتاب الله بهذه الدقة العلمية المبهرة , والإيجاز المعجز , مع الشمول والإحاطة لمما يقطع

بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , ويشهد بالنبوة والرسالة للرسول والنبي الخاتم الذي تلقاه , فصلي الله وسلم وبارك عليه , وعلي آله وصحبه , ومن تبع هداه , ودعا بدعوته إلي يوم الدين , والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(110/509)

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دلهم بالسماوات والأرض على عظمته ، ثم فصل بعض ما في الأرض لملابستهم له ، وخص الجبال لكثرتها في بلادهم ، أتبعه السماء فقال : ﴿ وجعلنا ﴾ أي بعظمتنا

﴿ السماء ﴾ وأفردها بإرادة الجنس لأن أكثر الناس لا يشاهدون منها إلا الدنيا ولأن الحفظ للشيء الواحد أتقن ﴿ سقفاً ﴾ أي للأرض لا فرق بينها وبين ما يعهد من السقوف إلا أن ما يعهد لا يسقط منه إلا ما يضر ، وهذه مشحونة بالمنافع فأكثر ما ينزل منها ما لا غنى للناس عنه من آلآت الضياء وعلامات الاهتداء والزينة التي لا يقدر قدرها .

ولما كان ما يعرفون من السقوف على صغرها لا تثبت إلا بالعمد ، ويتمكن منه المفسدون ، وتحتاج كل قليل إلى إصلاح وتعهد ، بين أن هذا السقف على سعته وعلوه على غير ذلك فقال : ﴿ محفوظاً ﴾ أي عن السقوط بالقدرة وعن الشياطين بالشهب ، فذكّر باعتبار السقف ، وأشار إلى كثرة ما حوى من الآيات مؤنثاً باعتبار السماء أو العدد الدال عليه الجنس ، لأن العدد أولى بالدلالة على كثرة الآيات والنجوم مفرقة في الكل فقال : ﴿ وهم ﴾ أي أكثر الناس ﴿ عن آياتها ﴾ أي من الكواكب الكبار والصغار ، والرياح والأمطار ، وغير ذلك من الدلائل التي تفوت الانحصار ، أي الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالإلهية وغير ذلك من أوصاف الكمال ، من الجلال والجمال ﴿ معرضون ﴾ لا يتفكرون فيما فيها من التسيير والتدبير بالمطالع والمغارب والترتيب القويم الدال على الحساب الدائر عليه سائر المنافع .

ولما ذكر السماء ، ذكر ما ينشاء عنها فقال : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي خلق الّيل والنهار ﴾ ثم أتبعهما آيتيهما فقال : ﴿ والشمس ﴾ التي هي آية النهار وبها وجوده

﴿ والقمر ﴾ الذي هو آية الليل .

ولما ذكر أعظم آياتها فأفهم بقية الكواكب ، استأنف لمن كأنه قال : هل هي كلها في سماء واحدة ؟ : ﴿ كل ﴾ أي من ذلك ﴿ في فلك ﴾ فكأنه قيل : ماذا تصنع ؟ فقيل تغليباً لضمير العقلاء . . .

ونقلهم إليها : ﴿ يسبحون ﴾ أي كل واحد يسبح في الفلك الذي جعل به .

ولما ذكر الصارم البتار ، للأعمار الطوال والقصار ، من الليل والنهار ، كان كأنه قيل : فيفنيان كل شديد ، ويبليان كل جديد ، فعطف عليه قوله : ﴿ وما جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي اقتضت تفردنا بالبقاء ﴿ لبشر ﴾ وحقق عدم هذا الجعل بإثبات الجار فقال : ﴿ من قبلك الخلد ﴾ ناظراً إلى قوله ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ بعد قوله ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ وهذا من أقوى الأدلة على أن الخضر عليه السلام مات ، ويجاب بأن الحياة الطويلة ليست خلداً كما في حق عيسى عليه السلام ، لكن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض بعد اليوم "

وقوله : " " لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على ظهر الأرض اليوم أحد " وقوله : " "

وددنا أن موسى عليه السلام صبر فقص علينا من أمرهما " في أمثال ذلك ، يدل على موته دلالة لا تقبل ادعاء حياته بعدها إلا بأظهر منه .

ولما كان قولهم ﴿ بل هو شاعر ﴾ [الأنبياء : 5] مشيراً إلى أنهم قالوا نتربص به ريب المنون كما اتفق لغيره من الشعراء ، وكان ينبغي أن لا ينتظر أحد لآخر من الأذى إلا ما يتحقق سلامته هو منه ، توجه الإنكار عليهم والتسلية له بمنع شماتتهم في قوله : ﴿ أفائن ﴾ أي أيتمنون موتك فإن ﴿ مت فهم ﴾ أي خاصة ﴿ الخالدون ﴾ فالمنكر تقدير خلودهم على تقدير موته الموجب لإنكار تمنيهم لموته ، فحق الهمزة دخولها على الجزاء ، وهو فهم ، وإنما قارنت الشرط لأن الاستفهام له الصدر .

(112/509)

ولما تم ذلك ، أنتج قطعاً : ﴿ كل نفس ﴾ أي منكم ومن غيركم ﴿ ذائقة الموت ﴾ أي فلا يفرح أحد ولا يحزن بموت أحد ، بل يشتغل بما يهمه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ونبلوكم ﴾ أي نعاملكم معاملة المبتلي المختبر المظهر في عالم الشهادة الشاكر والصابر والمؤمن والكافر كما هو عندنا في علام الغيب بأن نخالطكم ﴿ بالشر ﴾ الذي هو طبع النفوس ، فهي أسرع شيء إليه ، فلا ينجو منه إلا من أخلصناه لنا ﴿ والخير ﴾ مخالطة كبيرة ، وأكد البلاء

بمصدر من معناه مقرون بالهاء تعظيماً له فقال : ﴿ فتنة ﴾ أي كما يفتن الذهب إذا أريدت تصفيته بمخالطة النار له ، على حالة عظيمة محيلة مميلة لكم لا يثبت لها إلا الموفق ﴿ وإلينا ﴾ أي بعد الموت لا إلى غيرنا ﴿ ترجعون ﴾ للجزاء حيث لا حكم لأحد أصلاً لا ظاهراً ولا باطناً كما هذه الدار بنفوذ الحكم فلا يكون إلا ما نريد فاشتغلوا بما ينجيكم منا ، ولا تلتفتوا إلى غيره ، فإن الأمر صعب ، وجدوا فإن الحال جد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 81.82 ﴾

(113/509)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

سمى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت .

المسألة الثانية :

في المحفوظ قولان : أحدهما : أن محفوظ من الوقوع والسقوط الذين يجري مثلهما على سائر السقوف كقوله : ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] وقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : 25] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] وقال : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] .

الثاني : محفوظاً من الشياطين قال تعالى : ﴿ وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] ثم ههنا قولان : أحدهما : أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين .

والثاني : أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين ، والقول الأول أقوى لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظماً لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثاني لأنه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ معناه عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة .

المسألة الرابعة :

قرىء عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أي هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون .

النوع السادس : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(114/509)

اعلم أنه سبحانه لما قال : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ فصل تلك الآيات ههنا لأنه تعالى لو خلق السماء والأرض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل إنما يكون ذلك بسبب حركاتها في أفلاكها ، فلهذا قال : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وتقريره أن نقول قد ثبت بالأرصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق إلى المغرب وهي حركة الشمس اليومية ، ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة ، وههنا حركة أخرى من المغرب إلى المشرق قالوا وهي ظاهرة في السبعة السيارة خفية في الثابتة ،

واستدلوا عليها بأنا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة إذا قارن ما هو أبطأ حركة فإنه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا في القمر ظاهر جداً فإنه يظهر بعد الإجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعداً منها إلى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقياً منه على طريقته في ممر البروج يزداد كل ليلة قرباً منه ثم إذا أدركه ستره بطرفه الشرقي وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربي فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب إلى المشرق ، وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالي البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب إلى المشرق .

هذا ما قالوه ونحن خالفناهم فيه ، وقلنا : إن ذلك محال لأن الشمس مثلاً لو كانت متحركة بذاتها من المغرب إلى المشرق حركة بطيئة ولا شك أنها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب إلى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركاً حركتين إلى جهتين مختلفتين دفعة احدة وذلك محال لأن الحركة إلى الجهة تقتضي حصول المتحرك في الجهة المنتقل إليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة في مكانين وهو محال .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : الشمس حال حركتها إلى الجانب الشرقي تنقطع حركتها إلى الجانب الغربي وبالعكس ، وأيضاً فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى إلى جانب والنملة التي تكون عليها تتحرك إلى خلاف ذلك الجانب ، قلنا : أما الأول فلا يستقيم على أصولكم لأن حركات الأفلاك مصونة عن الانقطاع عندكم ، وأما الثاني فهو مثال محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان ، أما الذي احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب إلى المشرق فهو ضعيف ، فإنه يقال لم لا يجوز أن يقال إن جميع الكواكب متحركة من المشرق إلى المغرب إلا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك إلى خلاف تلك الجهة مثلاً الفلك الأعظم استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثاني دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الأولى إلى أول اليوم الثاني دورة تامة إلا مقدار ثانية فيظن أن فلك الثوابت تحرك من الجهة الأخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لأنه تخلف بمقدار ثانية ، وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ، ثم يليها في السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا إلى أن ينتهي إلى فلك القمر فهو أبطأ الأفلاك حركة وهذا الذي قلناه مع ما يشهد له البرهان المذكور فهو أقرب إلى ترتيب الوجود ، فإن على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الأعظم ونهاية السكون الجرم الذي هو في غاية البعد وهو الأرض ، ثم إن كل ما كان أقرب إلى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا ما نقوله

في حركات الأفلاك في أطوالها وأما حركاتها في عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها إلى الشمال والجنوب .

(116/509)

إذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة ، فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه ، وكان الذي يقرب منه متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة ، فإن كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها إلى النارية ، وبالجملة فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون في موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية ، وكان الكوكب يتحرك بطيئاً لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الإفراط ، وكان يعرض قريباً مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت ، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ثم ينتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصوناً عن طرفي الإفراط والتفريط .

وبالجملة ، فالعقول لا تقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية .

المسألة الثانية :

أنه لا يجوز أن يقول : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولاً فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها والله أعلم .

المسألة الثالثة :

(117/509)

الفلك في كلام العرب كل شيء دائر وجمعه أفلاك ، واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم : الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك ، وقال الأكثرون : بل هي أجسام تدور النجوم عليها ، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن ، ثم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم : الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه ، وقال الكلبي : ماء مجموع تجري فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون إلا في الماء ، قلنا : لا نسلم فإنه يقال في الفرس الذي يمد يديه في الجري سابح ، وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة : إنها أجرام

صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والإلتئام والنمو والذبول ، فأما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور في الكتب اللائقة به ، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السموات إلا بالخبر .

المسألة الرابعة :

(118/509)

اختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فإنه إما أن يكون الفلك ساكناً والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك في الماء الراكد ، وإما أن يكون الفلك متحركاً والكواكب تتحرك فيه أيضاً إما مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لجهته إما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة ، وإما أن يكون الفلك متحركاً والكوكب ساكناً ، أما الرأي الأول فقالت الفلاسفة إنه باطل لأنه يوجب خرق الأفلاك وهو محال ، وأما الرأي الثاني فحركة الكواكب إن فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضاً يوجب الخرق وإن كانت حركتها إلى جهة الفلك فإن كانت مخالفة لها في السرعة والبطء لزم الانخراق وإن استويا في الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضاً لازم لأن الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق إلا القسم الثالث وهو أن يكون

الكوكب مغروزاً في الفلك واقفاً فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك ، واعلم أن مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الأفلاك وهو باطل بل الحق أن الأقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذي يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الأفلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء .

المسألة الخامسة :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ كُلٌّ ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أي كلهم في فلك يسبحون والله أعلم .

المسألة السادسة :

(119/509)

احتج أبو علي بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ قال والجمع بالواو والنون لا يكون إلا للعقلاء ، وبقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] ، والجواب : إنما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب "الكشاف" : فإن قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها ، فإن قلت : لكل واحد من القمرين فلك

على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون في فلك ؟ قلت : هذا كقولهم كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً أي كل واحد منهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالأشياء الستة التي شرحناها في الفصل المتقدم وكانت تلك الأشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على أن هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له ، بل خلقها سبحانه وتعالى للإبتلاء والامتحان ، ولكي يتوصل بها إلى الآخرة التي هي دار الخلود .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : أحدها : قال مقاتل : أنا أناساً كانوا يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يموت فنزلت هذه الآية .

وثانيها : كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أي قضى الله تعالى أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت أفائن مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفي معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . سيلقى الشامتون كما لقينا

وثالثها : يحتمل أنه لما ظهر أنه عليه السلام خاتم الأنبياء جاز أن يقدر مقدر أنه لا يموت إذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الأنبياء عليهم السلام في

الموت .

أما قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نفسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ ففيه أبحاث :

(120/509)

البحث الأول : أن هذا العموم مخصوص فإنه تعالى نفس لقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : 116] مع أن الموت لا يجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت ، والعام المخصوص حجة فيبقى معمولاً به فيما عدا هذه الأشياء ، وذلك يبطل قول الفلاسفة في أن الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لا تموت .

والثاني : الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق إدراك خاص فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك ، وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لأن الموت قبل دخوله في الوجود يمتنع إدراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتاً ولا يدرك شيئًا .

والثالث : الإضافة في ذائقة الموت في تقدير الإنفصال لأنه لما يستقبل كقوله : ﴿ غَيْرَ مُحِلّى الصيد ﴾ [المائدة : 1] ، و﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخيرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف ، فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وإن كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين :

أحدهما : ما سماه خيراً وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات .

والثاني : ما سماه شراً وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين ، فبين تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين ، لكي يشكر على المنح ويصبر في المحن ، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم .

المسألة الثانية :

إنما سمي ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم لأنه في صورة الاختبار .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ فِتْنَةً ﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

المسألة الرابعة :

احتجت التناسخية بقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فإن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه .

والجواب : أنه مذكور مجازاً .

المسألة الخامسة :

المراد من قوله : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أنهم يرجعون إلى حكمه ومحاسبته ومجازاته ، فبين بذلك بطلان قولهم في نفي البعث والمعاد ، واستدلت التناسخية بهذه الآية ، وقالوا : إن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه ، وقد كنا موجودين قبل دخولنا في هذا العالم واستدلت المجسمة بأنا أجسام ، فرجوعنا إلى الله تعالى يقتضي كون الله تعالى جسماً .

والجواب عنه قد تقدم في مواضع كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 147.142 ﴾

(122/509)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : محفوظاً من أن تسقط على الأرض .

الثاني : محفوظاً من الشياطين ، قاله الفراء .

الثالث : بمعنى مرفوعاً ، قاله مجاهد .

ويحتمل رابعاً : محفوظاً من الشرك والمعاصي .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن الفلك السماء ، قاله السدي .

الثاني : أن القطب المستدير الدائر بما فيه من الشمس والقمر والنجوم ومنه سميت فلكة المغزل لاستدارتها ، قال الشاعر :

باتت تقاسي الفلك الدّوار . . . حتى الصباح تعمل الأقتار

وفي استدارة الفلك قولان :

أحدهما : أنه كدوران الأكرة .

الثاني : كدوران الرحى قاله الحسن ، وابن جريج .

واختلف في الفلك على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه السماء تدور بالشمس والقمر والنجوم .

الثاني : أنه استدارة في السماء تدور فيها النجوم مع ثبوت السماء ، قاله قتادة .

الثالث : أنها استدارة بين السماء والأرض تدور فيها النجوم ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : يجرون ، قاله مجاهد .

الثاني : يدورون قاله ابن عباس ، فعلى الوجه الأول يكون الفلك مديرها ، وعلى الثاني تكون هي الدائرة في الفلك .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

فيها أربعة أوجه :

أحدها : بالشدة والرخاء ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الشر : الفقر والمرض ، والخير الغنى والصحة ، قاله الضحاك .

الثالث : أن الشر : غلبة الهوى على النفس ، والخير : العصمة من المعاصي ، قاله التستري .

الرابع : ما تحبون وما تكرهون . لنعلم شكركم لما تحبون ، وصبركم على ما تكرهون ، قاله ابن زيد .

﴿ فِتْنَةً ﴾ فيه وجهان : أحدهما : اختباراً . الثاني : ابتلاء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

و" السقف " ما علا ، و" الحفظ " هنا عام في الحفظ من الشياطين ومن الرمي وغير ذلك من الآفات ، و﴿ آياتها ﴾ كواكبها وأمطارها ، والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما يشبه ، وقرأت فرقة " وهو عن آيتها " بالإفراد الذي يراد به الجنس ، و" الفلك " الجسم الدائر دورة اليوم والليلة فالكل في ذلك سابح متصرف ، وعن بعض المفسرين أن الكلام فيما هو الفلك فقال بعضهم كحديد الرحى ، وقال بعضهم كالطاحونة ، مما لا ينبغي التسور عليه ، غير أنا نعرف أن الفلك جسم يستدير . و﴿ يسبحون ﴾ معناه يتصرفون ، وقالت فرقة " الفلك " موج مكفوف ورأوا قوله ﴿ يسبحون ﴾ من السباحة وهو العوم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾

قيل إن سبب هذه الآية أن بعض المسلمين قال إن محمداً لن يموت وإنما مخلد فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكره ونزلت هذه الآية والمعنى لم نخلد أحداً ولا أنت لا نخلدك وينبغي ان لا ينتقم أحد من المشركين عليك في هذا أهم مخلدون إن مت أنت فيصح لهم انتقام ، وقيل إن سبب الآية أن كفار مكة طعنوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه بشر وأنه يأكل الطعام ويموت فكيف يصبح إرساله فنزلت الآية رادة عليهم ، وألف الأستفهام داخلة في المعنى على جواب الشرط وقدمت في أول الجملة لأن الاستفهام له صدر الكلام والتقدير أفهم ﴿ الخالدون ﴾ إن مت ، والفاء في قوله " فإن " عاطفة جملة على جملة ، وقرأت فرقة " مُت " بضم الميم ، وفرقة " مِت " بكسرها ، وقوله ﴿ كل نفس ﴾ عموم يراد به الخصوص ، والمراد كل نفس مخلوقة ، و" الذوق " ها هنا مستعار ، ﴿ ونبلوكم ﴾ معناه نختبركم وقدم الشر لأن الابتداء به أكثر ولأن العرب من عادتها أن تقدم الأقل والأردى فمنه قوله تعالى : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ [الكهف : 49] ومنه قوله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] فبدأ في تقسيم أُمة محمد بالظلم وقال الطبري عن ابن عباس أنه جعل ﴿ الخير ﴾ و" الشر " هنا عاماً في الغنى والفقر والصحة والمرض والطاعة والمعصية والهدى والضلالة .

قال القاضي أبو محمد : إن المراد من ﴿ الخير ﴾ و" الشر " هنا ما يصح أن يكون فتنة وابتلاء وذلك خير المال وشره وخير الدنيا في الحياة وشرها ، وأما الهدى والضلال فغير داخل في هذا ولا الطاعة ولا المعصية لأن من هدى فليس نفس هداه اختبار بل قد تبين خبره ، فعلى هذا ففي الخير والشر ما ليس فيه اختبار ، كما يوجد أيضاً اختبار بالأوامر والنواهي ، وليس بداخل في هذه الآية . و﴿ فتنة ﴾ معناه امتحاناً وكشفاً ، ثم أخبر عز وجل عن الرجعة إليه والقيام من القبور ، وفي قوله ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ وعيد ، وقرأت فرقة " تُرجعون " بضم التاء ، وقرأت فرقة " تَرجعون " بفتحها ، وقرأت فرقة "يُرجعون " بالياء مضمومة على الخروج من الخطاب إلى الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ وجعلنا السماء سقفاً ﴾

أي : هي للأرض كالسقف .

وفي معنى ﴿ محفوظاً ﴾ قولان.

أحدهما: بالنجوم من الشياطين، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: محفوظاً من الوقوع إلا بإذن الله، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿ وهُمْ ﴾ يعني: كفار مكة ﴿ عن آياتها ﴾ أي: شمسها وقمرها ونجومها، قال الفراء: وقرأ مجاهد: "عن آيتها" فوحَّده، فجعل السماء بما فيها آية؛ وكلٌّ صوابٌ.

قوله تعالى: ﴿ كلٌّ ﴾ يعني: الطوالع ﴿ في فَلَك ﴾ قال ابن قتيبة: الفَلَك: مدار النجوم الذي يضمُّها، وسمَّاه فَلَكاً، لاستدارته.

ومنه قيل: فَلْكَة المِغْزَل، وقد فَلَكَ ثَدْيُ المرأة.

قال أبو سليمان: وقيل: إن الفَلَك كهيئة الساقية من ماء مستديرة دون السماء وتحت الأرض، فالأرض وسطها، والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار يجرون في الفَلَك، وليس الفَلَك يُديرها.

ومعنى "يَسْبَحون": يَجْرُون.

قال الفراء: لمَّا كانت السِّباحة من أفعال الآدميين، ذُكِرَتْ بالنون، كقوله: ﴿ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ [يوسف: 4]، لأن السجود من أفعال الآدميين.

قوله تعالى: ﴿ وما جعلنا لِبَشَرٍ مِنْ قبلك الخُلْدَ ﴾ سبب نزولها أن ناساً قالوا: إن محمداً لا يموت، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

ومعنى الآية : ما خلَّدنا قبلكَ أحداً من بني آدم ؛ والخُلْد : البقاء الدائم .

﴿ أفإن مِتّ فَهُمُ الخالدون ﴾ يعني : مشركي مكة ، لأنهم قالوا : ﴿ نتربَّص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] .

قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشرِّ والخير ﴾ قال ابن زيد : نختبركم بما تحبُّون لننظر كيف شكركم ، وبما تكرهون لننظر كيف صبركم .

قوله تعالى : ﴿ وإلينا يُرْجَعون ﴾ [قرأ ابن عامر : "تَرجعون" بتاء مفتوحة .

وروى ابن عباس عن أبي عمرو : "يُرجعون"] بياء مضمومة .

وقرأ الباقون بتاء مضمومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(127/509)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾

أي محفوظاً من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] .

وقيل : محفوظاً بالنجوم من الشياطين ؛ قاله الفرّاء .

دليله قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] .

وقيل : محفوظاً من الهدم والنقض ، وعن أن يبلغه أحد بحيلة .

وقيل : محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد .

وقال مجاهد : مرفوعاً .

وقيل : محفوظاً من الشرك والمعاصي .

﴿ وَهُمْ ﴾ يعني الكفار ﴿ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ قال مجاهد ! يعني الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها ، وقد أضاف الآيات إلى نفسه في مواضع ، لأنه الفاعل لها .

بين أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها وسحابها ، وما فيها من قدرة الله تعالى ، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً فيستحيل أن يكون له شريك .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل والنهار ﴾ ذَكَّرهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم .

﴿ والشمس والقمر ﴾ أي وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ؛ لتعلم الشهور والسنون والحساب ، كما تقدم في "سبحان" بيانه .

﴿ كُلٌّ ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴾ أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء .

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ [النازعات : 3] ويقال للفرس الذي يمد يده في الجري سابح .

وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحْن ولا تسبح ؛ فمذهب سيبويه : أنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل وجعلهنّ في الطاعة بمنزلة من يعقل ، أخبر عنهن بالواو والنون .

ونحوه قال الفرّاء .

وقد تقدم هذا المعنى في "يوسف" .

(128/509)

وقال الكسائي : إنما قال : "يسبحون" لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر : 44] ولم يقل منتصرون .

وقيل : الجري للفلك فنسب إليها .

والأصح أن السيارة تجري في الفلك ، وهي سبعة أفلاك دون السموات المطبقة ، التي هي مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر في الفلك الأدنى ، ثمّ عُطَارِد ، ثم الزُّهَرة ، ثم الشمس ، ثم المرِّيخ ، ثم المُشْتَرِي ، ثم زحَل ، والثامن فلك البروج ، والتاسع الفلك

الأعظم .

والفلك واحد أفلاك النجوم .

قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فُعْلٍ مثل أَسَدٍ وأُسْد وخَشَبٍ وخُشْب .

وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلْكة المِغزل ؛ لاستدارتها .

ومنه قيل : فَلَّك ثديُ المرأة تفليكاً ، وتَفَلَّك استدار .

وفي حديث ابن مسعود : تركت فرسي كأنه يدور في فلك .

كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم .

قال ابن زيد : الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر .

قال : وهي بين السماء والأرض .

وقال قتادة : الفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء .

وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرحى وهو قطبها .

وقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة مسيرها .

وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ أي دوام البقاء في الدنيا نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون .

وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوّته ويقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ، ولعله يموت

كما مات شاعر بني فلان ؛ فقال الله تعالى : قد مات الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك .

﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ أي أفهم ؛ مثل قول الشاعر :

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ . . .

فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

أي أهم ! فهو استفهام إنكار .

(129/509)

وقال الفرّاء : جاء بالفاء ليدل على الشرط ؛ لأنه جواب قولهم سيموت .

ويجوز أن يكون جيء بها ؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن مت ! قال الفرّاء : ويجوز حذف الفاء وإضمارها ؛ لأن "هم" لا يتبين فيها الإعراب .

أي إن مت فهم يموتون أيضاً ، فلا شماتة في الإماتة .

وقرىء "مِتّ" و"مُتّ" بكسر الميم وضمها لغتان .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ تقدم في "آل عمران" ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ "فِتْنَةً" مصدر على غير اللفظ .

أي نختبركم بالشدّة والرخاء والحلال والحرام، فننظر كيف شكركم وصبركم.

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي للجزاء بالأعمال. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(130/509)

وقال أبو حيان:

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

وما رفع وسمك على شيء فهو سقف.

قال قتادة: حفظ من البلى والتغير على طول الدهر.

وقيل: حفظ من السقوط لإمساكه من غير علاقة ولا عماد.

وقيل: حفظ من الشرك والمعاصي.

وقال الفراء: حفظ من الشياطين بالرجوم.

وعن ابن عباس: أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نظر إلى السماء فقال: "إن السماء سقف مرفوع وموج مكفوف يجري كما يجري السهم محفوظاً من الشياطين" وإذا صح هذا الحديث كان نصاً في معنى الآية.

﴿ وهم عن آياتها ﴾ أي عن ما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.

وقرأ الجمهور ﴿ عن آياتها ﴾ بالجمع .

وقرأ مجاهد وحميد عن آيتها بالإفراد ، فيجوز أنه جعل الجعل أو السقف أو الخلق أي خلق السماء آية واحدة تحوي الآيات كلها ، ويجوز أنه أراد بها الجمع فجعلها اسم الجنس ، ودل على ذلك كثرة ما في السماء من الآيات .

والمعنى ﴿ وهم عن ﴾ الاعتبار بآياتها ﴿ معرضون ﴾ وقال الزمخشري : هم يتفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنياوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها ﴿ وهم عن ﴾ كونها آية بينة على الخالق ﴿ معرضون ﴾ .

والتنوين في ﴿ كلٌّ ﴾ عوض من المضاف إليه ، والفلك الجسم الدائر دورة اليوم والليلة .

وعن ابن عباس والسدّي : الفلك السماء .

وقال أكثر المفسرين : الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر .

وقال قتادة : الفلك استدارة بين السماء والأرض يدور بالنجوم مع ثبوت السماء .

وقيل : الفلك القطب الذي تدور عليه النجوم وهو قطب الشمال .

وقيل : لكل واحد من السيارات فلك ، وفلك الأفلاك يحركها حركة واحدة من المشرق إلى المغرب .

(131/509)

وقال الضحاك : الفلك ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم ، والظاهر أنه جسم وفيه الاختلاف المذكور والظاهر أن كلاًّ يسبح في فلك واحد .

قيل : ولكل واحد فلك يخصه فهو كقولهم : كساهم الأمير حلة أي كسى كل واحد ، وجاء ﴿ يسبحون ﴾ بواو الجمع العاقل ، فأما الجمع فقيل ثم معطوف محذوف وهو والنجوم ، ولذلك عاد الضمير مجموعاً ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان يسبحان مثنى .

وقال الزمخشري : الضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعها بالشموس والأقمار ، وإلاّ فالشمس واحدة والقمر واحد انتهى .

وحسن ذلك كونه جاء فاصلة رأس آية ، وأما كونه ضمير من يعقل ولم يكن التركيب يسبحن .

فقال الفراء : لما كانت السباحة من أفعال الآدميين جاء ما أسند إليهما مجموعاً من يعقل

كقوله ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ قال أبو عبد الله الرازي : وعلى قول أبي عليّ بن سينا سبب ذلك أنها عنده تعقل انتهى .

وهذه الجملة يحتمل أن تكون استئناف إخبار فلا محل لها ، أو محلها النصب على الحال من ﴿ الشمس والقمر ﴾ لأن ﴿ الليل والنهار ﴾ لا يتصفان بأنهما يجريان ﴿ في فلك ﴾ فهو كقولك : رأيت زيداً وهنداً متبرجة والسباحة : العوم والذي يدل عليه الظاهر أن الشمس والقمر هما اللذان يجريان في الفلك ، وأن الفلك لا يجري .

﴿ وما جعلنا ﴾ الآية .

قيل : إن بعض المسلمين قال : إن محمداً لن يموت وإنما هو مخلد ، فأنكر ذلك الرسول (صلى الله عليه وسلم) فنزلت .

وقيل : طعن كفار مكة عليه بأنه بشر يأكل الطعام ويموت فكيف يصح إرساله .

وقال الزمخشري : كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله عنه الشماتة بهذا أي قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولا هم إلاّ عرضة للموت فإن مت أيبقى هؤلاء ؟ وفي معناه قول الإمام الشافعي رضي الله عنه :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت . . .

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى . . .

تزود لأخرى مثلها فكأن قد

وقول الآخر :

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . .

سيلقى الشامتون كما لقينا

والفاء في ﴿ أفإن متّ ﴾ للعطف قدّمت عليها همزة الاستفهام لأن الاستفهام له صدر الكلام ، دخلت على إن الشرطية والجملة بعدها جواب للشرط ، وليست مصب الاستفهام فتكون الهمزة داخلة عليها ، واعترض الشرط بينهما فحذف جوابه هذا مذهب سيبويه .

وزعم يونس أن تلك الجملة هي مصب الاستفهام والشرط معترض بينهما وجوابه محذوف .

قال ابن عطية : وألف الاستفهام داخلة في المعنى على جواب الشرط انتهى .

وفي هذه الآية دليل لمذهب سيبويه إذ لو كان على ما زعم يونس لكان التركيب ﴿ أفإن مت ﴾ هم ﴿ الخالدون ﴾ بغير فاء ، وللمذهبين تقرير في علم النحو .

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ تقدم تفسير هذه الجملة ﴿ ونبلوكم ﴾ نختبركم وقدم الشر

لأن الابتلاء به أكثر ، ولأن العرب تقدم الأقل والأردأ ، ومنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات .

وعن ابن عباس : الخير والشر هنا عام في الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال .

قال ابن عطية : هذان الأخيران ليسا داخلين في هذا لأن من هدى فليس هذه اختياراً ولا من أطاع .

بل قد تبين خيره .

والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما صح أن يكون فتنة وابتلاء انتهى .

وعن ابن عباس أيضاً : بالشدة والرخاء أتصبرون على الشدة وتشكرون على الرخاء أم لا .

وقال الضحاك : الفقر والمرض والغنى والصحة .

وقال ابن زيد : المحبوب والمكروه ، وانتصب ﴿ فتنة ﴾ على أنه مفعول له أو مصدر في موضع الحال ، أو مصدر من معنى ﴿ نبلوكم ﴾ ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ فنجازيكم على ما صدر منكم في حالة الابتلاء من الصبر والشكر ، وفي غير الابتلاء .

وقرأ الجمهور ﴿ تُرجعون ﴾ بتاء الخطاب مبنياً للمفعول .

وقرأت فرقة بالتاء مفتوحة مبنياً للفاعل .

وقرأت فرقة بضم الياء للغيبة مبنياً للمفعول على سبيل الالتفات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(133/509)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾

من الوقوع بقدرتنا القاهرةِ أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمعِ بالشُهُب ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها ﴾ الدالةِ على وحدانيته تعالى وعلمِه وحكمتِه وقدرتِه وإرادتِه التي بعضُها محسوسٌ وبعضُها معلومٌ بالبحث عنه في علمَي الطبيعة والهيئة ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يتدبرون فيها فيبقَون على ما هم عليه من الكفر والضلال .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ اللذين هما آيتاهما بيانٌ لبعض تلك الآياتِ التي هم عنها معرضون بطريق الالتفاتِ الموجب لتأكيد الاعتناءِ بفحوى الكلام ، أي هو الذي خلقهن وحده ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كلُّ واحد منهما على أن التنوينَ عوضٌ عن المضاف إليه ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يجْرون في سطح الفلك كالسبح في الماء ، والمرادُ بالفَلَك

الجنسُ كقولك : كساهم الخليفةُ حُلّةً ، والجملة حالٌ من الشمس والقمر وجاز انفرادُهما بها لعدم اللَّبْس ، والضميرُ لهما والجمعُ باعتبار المطالعِ ، وجُعل الضميرُ واوَ العقلاء لأن السباحة حالُهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ أي في الدنيا لكونه مخالفاً للحكمة التكوينيةِ والتشريعية ﴿ أَفَإِن مِّتَ ﴾ بمقتضى حكمتِنا ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ نزلت حين قالوا : نتربّص به ريبَ المَنون ، والفاءُ لتعليق الشرطيةِ بما قبلها والهمزةُ لإنكار مضمونِها بعد تقرّر القاعدةِ الكلية النافية لذلك بالمرة ، والمرادُ بإنكار خلودِهم ونفيه إنكارُ ما هو مدارٌ له وجوداً وعدماً من شماتتهم بموته عليه السلام ، فإن الشماتةَ بما يعتريه أيضاً مما لا ينبغي أن يصدُرَ عن العاقل كأنه قيل : أفإن متَّ فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ أي ذائقةٌ مرارةَ مفارقتِها جسدَها ، برهانٌ على ما أُنكِرَ من خلودهم .

﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ الخطابُ إما للناس كافة بطريق التلوينِ أو للكفرة بطريق الالتفات أي نعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿ بالشر والخير ﴾ بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أو لا

﴿ فِتْنَةً ﴾ مصدرٌ مؤكد لنبلوكم من غير لفظِه ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال ، فهو على الأول وعد ووعيدٌ وعلى الثاني وعيدٌ محضٌ وفيه إيماءٌ إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب ، وقرىء يُرجعون بالياء على الالتفات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(135/509)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

من البلى والتغير على طول الدهر كما روي عن قتادة ، والمراد أنها جعلت محفوظة عن ذلك الدهر الطويل ، ولا ينافيه أنها تطوي يوم القيامة طي السجل للكتب وإلى تغيرها ودثورها ذهب جميع المسلمين ومعظم أجلة الفلاسفة كما برهن عليه صدر الدين الشيرازي في اسفاره وسنذكره إن شاء الله تعالى في محله .

وقيل : من الوقوع ، وقال الفراء : من استراق السمع بالرجوم ، وقيل عليه : انه يكون ذكر السقف لغواً لا يناسب البلاغة فضلاً عن الإعجاز ، وذكر في وجهه أن المراد أن حفظها

ليس كحفظ دور الأرض فإن السراق ربما تسلقت من سقوفها بخلاف هذه ، وقيل : إنه للدلالة على حفظها عمن تحتها ويدل على حفظا عنهم على أتم وجه ، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى السماء فقال : " إن السماء سقف مرفوع وموج مكفوف تجري كما يجري السهم محفوظة من الشياطين " وهو إذا صح لا يكون نصاً في معنى الآية كما زعم أبو حيان ، وقيل : من الشرك والمعاصي ، ويرد عليه ما أورد على سابقه كما لا يخفى .

﴿ ﴾ من البلى والتغير على طول الدهر كما روي عن قتادة ، والمراد أنها جعلت محفوظة عن ذلك الدهر الطويل ، ولا ينافيه أنها تطوي يوم القيامة طي السجل للكتب وإلى تغيرها ودثورها ذهب جميع المسلمين ومعظم أجلة الفلاسفة كما برهن عليه صدر الدين الشيرازي في اسفاره وسنذكره إن شاء الله تعالى في محله .

وقيل : من الوقوع ، وقال الفراء : من استراق السمع بالرجوم ، وقيل عليه : انه يكون ذكر السقف لغواً لا يناسب البلاغة فضلاً عن الإعجاز ، وذكر في وجهه أن المراد أن حفظها

ليس كحفظ دور الأرض فإن السراق ربما تسلقت من سقوفها بخلاف هذه ، وقيل : إنه

للدلالة على حفظها عمن تحتها ويدل على حفظا عنهم على أتم وجه ، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى السماء فقال : " إن السماء سقف مرفوع وموج مكفوف تجري كما يجري السهم محفوظة من الشياطين " وهو إذا صح لا يكون نصاً في معنى الآية كما زعم أبو حيان ، وقيل : من الشرك والمعاصي ، ويرد عليه ما أورد على سابقه كما لا يخفى .

﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها ﴾ الدالة على وحدانيتنا وعلمنا وحكمتنا وقدرتنا وإرادتنا التي بعضها ظاهر كالشمس وبعضها معلوم بالبحث عنه ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ ذاهلون عنها لا يجيلون قداح الفكر فيها ، وقرأ مجاهد .

وحميد ﴿ عَنْ ءَايَتِهَا ﴾ بالافراد ووجه بأنه لما كان كل واحد مما فيها كافياً في الدلالة على وجوع الصانع وصفات كماله وحدت الآية لذلك ، وجعل الأعراض على هذه القراءة بمعنى إنكار كونها آية بينة دالة على الخالق معرضون وليس بلازم .

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾

اللذين هما آيتاهما ولذا لم يعد الفعل بياناً لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام ، ولما كان إيجاد الليل والنهار ليس على نمط إيجاد الحيوانات وإيجاد الرواسي لم يتحد اللفظ الدال على ذلك بل جيء بالجعل هناك

وبالخلق هنا كذا قيل وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، واعتبره صاحب الكشاف مفرداً نكرة أي كل واحد من الشمس والقمر .

واعترض بأنه قد صرح ابن هشام في المغنى بأن المقدر إذا كان مفرداً يجب الافراد في الضمير العائد على كل كما لو صرح به وهنا قد جمع فيجب على هذا اعتباره جمعاً معرفاً أي كلهم ومتى اعتبر كذلك وجب عند ابن هشام جمع العائد وإن كان لو ذكر لم يجب ، ووجوب الافراد في المسألة الأولى والجمع في الثانية للتنبيه على حال المحذوف .

وأبو حيان يجوز الافراد والجمع مطلقاً فيجوز هنا اعتبار المضاف إليه مفرداً نكرة مع جمع الضمير بعد كما فعل الزمخشري وهو من تعلم علو شأنه في العربية ، وقوله سبحانه : ﴿ فِى فَلَكٍ ﴾ خبره ، ووجه افراده ظاهر لأن النكرة المقدرة للعموم البدلي لا الشمولي ، ومن قدر جمعاً معرفاً قال : المراد به الجنس الكلي المؤل بالجمع نحو كساهم حلة بناءاً على أن المجموع ليس في فلك واحد .

وقوله عز وجل : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ حال ؛ ويجوز أن يكون الخبر و ﴿ فِى فَلَكٍ ﴾ حالاً أو متعلقاً به وجملة ﴿ كُلٌّ ﴾ الخ حال من الشمس والقمر والرابط الضمير دون واو بناء على

جواز ذلك من غير قبح ، ومن استقبحه جعلها مستأنفة وكان ضميرهما جمعا اعتباراً للتكثير بتكاثر المطالع فيكون لهما نظراً إلى مفهومهما الوضعي أفراد خارجية بهذا الاعتبار لا حقيقة ، ولهذا السبب يقال شموس وأقمار وإن لم يكن في الخارج الأشمس واحد وقمر واحد والذي حسن ذلك هنا توافق الفواصل ، وزعم بعضهم أنه غلب القمران لشرفهما على سائر الكواكب فجمع الضمير لذلك .

وقيل : الضمير للنجوم وإن لم تذكر لدلالة ما ذكر عليها .

(138/509)

وقيل : الضمير للشمس والقمر والليل والنهار ، وفيه أن الليل والنهار لا يحسن وصفهما بالسباحة وإن كانت مجازاً عن السير ، واختيار ضمير العقلاء اما لأنهما عقلاء حقيقة كما ذهب إليه بعض المسلمين كالفلاسفة ، واما لأنهما عقلاء ادعاء وتنزيلا حيث نسب إليهما السباحة وهي من صنائع العقلاء ، والفلك في الأصل كل شيء دائر ومنه فلكة المغزل والمراد به هنا على ما روي عن ابن عباس .

والسدى رضي الله تعالى عنهم السماء .

وقال أكثر المفسرين : هو موج مكفوف تحت السماء يجري فيه الشمس والقمر .

وقال الضحاك : هو ليس بجسم وإنما هو مدار هذه النجوم ، والمشهور ما روي عن ابن عباس .

والسدى وفيه القول باستدارة السماء وفي ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ رمز خفي إليه فإنه لا يستحيل بالانقلاب وعليه أدلة جمة وكونها سقفاً لا يأبى ذلك ، وقد وقع في كلام الفلاسفة اطلاق الفلك على السماء ووصفوه بأنه حي عالم متحرك بالإرادة حركة مستديرة لا غير ولا يقبل الكون والفساد والنمو والذبول والخرق والالتئام ونوعه منحصر في شخصه وأنه لا حار ولا بارد ولا رطب ولا يابس ولا خفيف ولا ثقيل ، وأكثر هذه الأوصاف متفرع على أنه ليس في طباعه ميل مستقيم ، وقد رد ذلك في الكتب الكلامية وبنوا على امتناع الخرق والالتئام أن الكوكب لا يتحرك إلا بحركة الفلك ولما رأوا حركات مختلفة قالوا بتعدد الأفلاك ، والمشهور أن الأفلاك الكلية تسعة سبعة للسبع السيارة وواحد للثوابت وآخر لتحريك الجميع الحركة اليومية ، والحق أنه لا قاطع على نفي ما عدا ذلك ألا ترى أن الشيخ الرئيس لم يظهر له أن الثوابت في كرة واحدة أو في كرات منطو بعضها على بعض ، وقولهم إن حركات الثوابت متشابهة ومتى كانت كذلك كانت مركوزة في فلك واحد غير يقيني أما صغراه

فلأن حركاتها وإن كانت في الحس متشابهة لكن لعلها لا تكون في الحقيقة كذلك لأنا لو قدرنا أن الواحدة منها تتمم الدورة في ست وثلاثين ألف سنة والأخرى تتممها في هذا الزمان لكن بنقصان عاشرة أو أقل فالذي يخص الدرجة الواحدة من هذا القدر من التفاوت يقل جداً بحيث لا تفي أعمارنا بضبطه وإذا احتمل ذلك سقط القطع بالتشابه ، ومما يزيد ذلك سقوطاً والاحتمال قوة وجدان المتأخرين من أهل الأرصاد كوكباً أسرع حركة من الثوابت وأبطأ من السيارة سموه بهرشل ولم يظفر به أحد من المتقدمين في الدهور الماضية ، وأما كبراه فلاحتمال اشتراك الأشياء المختلفة في كثير من اللوازم فيجوز أن لكل فلكاً على حدة وتكون تلك الأفلاك متوافقة في حركاتها جهة وقطباً ومنطقة وبطناً ، ثم إن الاحتمال غير مختص لفلك الثوابت بل حاصل في كل الأفلاك فيجوز أن

يكون بين أفلاك السيارة أفلاك أخر ، وما يقال في إبطاله من أن أقرب قرب كل كوكب يساوي أبعد بعد كل الكواكب التي فرضت تحته ليس بشيء لأن بين أبعد بعد القمر وأقرب قرب عطارد ثخن فلك جوزهر القمر ، وقد ذكر المحققون من أصحاب الهيئة أن لفلك التدوير لكل من العلوية ثلاث أكر محيط بعضها ببعض وجرم الكوكب مركوز في الكرة الداخلة

فيكون مقدار ثخن أربع كرات من تلك التداوير من كل واحد من السافل والعالي ثخن كرتين حائلاً بين أقرب قرب العالي وأبعد بعد السافل ، وأثبتوا للسفلية خمسة تداوير فيكون بين أقرب قرب الزهرة وأبعد بعد عطارد ثخن ثمان كرات على أنهم إنما اعتقدوا أن أقرب قرب العالي مساو لأبعد بعد السافل لاعتقادهم أولاً أنه ليس بين هذه الأفلاك ما يتخللها فليس يمكنهم بناء ذلك عليه والالزم الدور بل لا بد فيه من دليل آخر ، وقولهم لا فضل في الفلكيات مع أنه كما ترى يبطله ما قالوا في عظم ثخن المحدد ؛ ويجوز أيضاً أن يكون فوق التاسع من الأفلاك ما لا يعلمه إلا الله تعالى بل يحتمل إن يكون هذا الفلك التاسع بما فيه من الكرات مركوزاً في ثخن كرة أخرى عظيمة ويكون في ثخن تلك الكرة ألف ألف كرة مثل هذه الكرات وليس ذلك مستبعداً فإن تدوير المريخ أعظم من ممثل الشمس فإذا عقل ذلك فأي بأس بأن يفرض مثله مما هو أعظم منه ويجوز أيضاً كما قيل أن تكون الأفلاك الكلية ثمانية لإمكان كون جميع الثوابت مركوزة في محدب ممثل زحل أي في متممه الحاوي على أن يتحرك بالحركة البطيئة والفلك الثامن يتحرك بالحركة السريعة بل قيل من الجائز أن تكون سبعة بأن تفرض الثوابت ودوائر البروج على محدب ممثل زحل ونفسان تتصل إحداهما بمجموع السبعة وتحركها إحدى الحركتين السريعة والبطيئة والأخرى بالفلك السابع وتحركه الأخرى فلا قاطع أيضاً على نفي أن تكون الأفلاك أقل من تسعة .

ثم الظاهر من الآية أن كلاً من الشمس والقمر يجري في ثخن فلكه ولا مانع منه عقلاً ودليل امتناع الخرق والالتئام وهو أنه لو كان الفلك قابلاً لذلك لكان قابلاً للحركة المستقيمة وهي محال عليه غير تام وعلى فرض تمامه إنما يتم في المحدد على أنه يجوز أن يحصل الخرق في الفلك من جهة بعض أجزائه على الاستدارة فلا مانع من أن يقال : الكواكب مطلقاً متحركة فى أفلاكها حركة الحيتان في الماء ولا يبطل به علم الهيئة لأن حركاتها يلزم أن تكون متشابهة حول مراكز أفلاكها أي لا تسرع ولا تبطىء ولا تقف ولا ترجع ولا تنعطف ، وقول السهروردي في المطارحات : لو كانت الأفلاك قابلة للخرق وقد برهن على كونها ذات حياة فعند حصول الخرق فيها وتبدد الأجزاء فإن لم تحس فليس جزؤها المنخرق له نسبة إلى الآخر بجامع إدراكي ولا خبر لها عن أجزائها وما سرى لنفسها قوة في بدنها جامعة لتلك الأجزاء فلا علاقة لنفسها مع بدنها ، وقد قيل إنها ذات حياة وإن كانت تحس فلا بد من التألم بتبديد الأجزاء فإنه شعور بالمنافي وكل شعور بالمنافي إما ألم أو موجب لألم وإذا كان كذا وكانت الكواكب تخرقها بجريها كانت في عذاب دائم ، وسنبرهن على أن الأمور الدائمة غير الممكن الأشرف لا يتصور عليها لا يخفى أنه من الخطابيات بل مما هو أدون منها .

(142/509)

وزعم بعضهم أنه من البراهين القوية مما لا برهان عليه من الراهين الضعيفة ، وادعى الإمام أنها كما تدل على جري الكوكب تدل على سكون الفلك ، والحق أنها مجملة بالنسبة إلى السكون غير ظاهرة فيه ، وإلى حركته وسكون الفلك بأسره ذهب بعض المسلمين ويحكي عن الشيخ الأكبر قدس سره ، ويجوز أن يكون الفلك متحركاً والكوكب يتحرك فيه إما مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لها إما بحركة مساوية في السرعة والبطء لحركة الفلك أو مخالفة ، ويجوز أيضاً أن يكون الكوكب مغروزاً في الفلك ساكناً فيه كما هو عند أكثر الفلاسفة أو متحركاً على نفسه كما هو عند محققيهم والفكل بأسره متحركاً وهو الذي أوجبه الفلاسفة لما لا يسلم لهم ولا يتم عليه برهان منهم .

(143/509)

ويجوز أيضاً أن يكون الكوكب في جسم منفصل عن ثخن الفلك شبيه بحلقة قطره مساو لقطر الكوكب وهو الذي يتحرك به ويكون الفلك ساكناً ، ويجوز أيضاً أن يكون في ثخن

الفلك خلاء يدور الكوكب فيه مع سكون الفلك أو حركته وليس في هذا قول بالخرق والالتئام بل فيه القول بالخلاء وهو عندنا وعند أكثر الفلاسفة جائزة خلافاً لأرسطاطاليس وأتباعه ، ودليل الجواز أقوى من صخرة ملساء ، والقول بأن الفلك بسيط فبساطته مانعة من أن يكون في ثخنه ذلك ليس بشيء فما ذكروه من الدليل على البساطة على ضعفه لا يتأتى إلا في المحدد دون سائر الأفلاك ، وأيضاً متى جاز أن يكون الفلك مجوفاً مع بساطته فليجز ما ذكر معها ولا يكاد يتم لهم التقصي عن ذلك ، وجاء في بعض الآثار أن الكواكب جميعها معلقة بسلاسل من نور تحت سماء الدنيا بأيدي ملائكة يجرونها حيث شاء الله تعالى ، ولا يكاد يصح وإن كان الله عز وجل على كل شيء قديراً ، والذي عليه معظم الفلاسفة والهيئيين أن الحركة الخاصة بالكوكب الثابتة لفلكه أولاً وبالذات آخذة من المغرب إلى المشرق وهي الحركة على توالي البروج وتسمى الحركة الثانية والحركة البطيئة وهي ظاهرة في السيارات وفي القمر منها في غاية الظهور وفي الثواب خفية ولهذا لم يثبتها المتقدمون منهم ، وغير الخاصة به الثابتة لفلكه ثانياً وبالعرض آخذة من المشرق إلى المغرب وتسمى الحركة الأولى والحركة السريعة وهي بواسطة حركة المحدد وبها يكون الليل والنهار في سائر المعمورة ، وأما في عرض تسعين ونحوه ففي الحركة الثانية فعندهم للكوكب حركتان مختلفتان جهة وبطأ ومثلوهما بحركة رحى إلى جهة سريعاً وحركة نملة عليها إلى خلاف تلك الجهة بطيئاً .

وذهب بعض الأوائل إلى أنه لا حركة في الأجرام العلوية من المغرب إلى المشرق بل حركاتها كلها من المشرق إلى المغرب لأنها أولى بهذه الأجرام لكونها أقل مخالفة ولأن غاية الحركة للجرم الأقصى وغاية السكون للأرض فيجب أن يكون ما هو أقرب إلى الأقصى أسرع مما هو أبعد ولأنه لو كان بعضها من المشرق وبعضها من المغرب يلزم أن يترحك الكوكب بحركتين مختلفتين جهة وذلك محال لأن الحركة إلى جهة تقتضي حصول المتحرك في الجهة المنتقل إليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة في مكانين وهو محال ولا فرق في ذلك بين أن تكون الحركتان طبيعيتين أو قسريتين أو إحداهما طبيعية والأخرى قسرية.

ولا يدفع هذا بما يشاهد من حركة النملة على الرحى إلى جهة حال حركة الرحي إلى خلافها لأنه مثال والمثال لا يقدح في البرهان ولأن القطع على مثل هذه الحركات جائز إما على الحركة الفلكية فمحال، وما استدل به على أن غير الحركة السريعة من المغرب إلى المشرق لا يدل عليه لجواز أن تكون من المشرق ويظن أنها من المغرب وبيانه أن المتحركين إلى جهة واحدة حركة دورية متى كان أحدهما أسرع من حركة الآخر فإنهما إذا تحركا إلى

تلك الجهة رؤى الأبطأ منهما متخلفاً فيظن أنه متحرك إلى خلاف تلك الجهة لأنهما إذا اقترنا ثم تحركا في الجهة بما لهما من الحركة فسار السريع دورة الأقوسا يرى البطىء متخلفاً عن السريعة في الجهة المخالفة لجهة حركتهما بتلك القوس ، وقالوا : يجب المصير إلى ذلك لما أن البرهان يقتضيه ولا يبطله شيء من الأعمال النجومية .

(145/509)

وقد أورد الإمام في الملخص ما ذكر في الاستدلال على محالية الحركتين المختلفتي الجهة للجسم الواحد إشكالاً على القائلين بهما ثم قال : ولقوة هذا الكلام أثبت بعضهم الحركة اليومية لكرة الأرض لا لكرة السماء وإن كان ذلك باطلاً وأورده في التفسير وسماه برهاناً قاطعاً وذهب فيه إلى ما ذهب إليه هذا البعض من أن الحركات كلها من المشرق إلى المغرب لكنها مختلفة سرعة وبطأ وفيما ذكروه نظر لأن الشبهتين الأوليين إقناعيتان والثالثة وإن كانت برهانية لكن فسادها أظهر من أن يخفى ، وأما أن شيئاً من الأعمال النجومية لا يبطله فباطل لأن هذه الحركة الخاصة للكوكب أعني حركة القمر من المشرق إلى المغرب مثلاً دورة إلا قوساً لا يجوز أن تكون على قطبي البروج لأنها توجد موازية لمعدل النهار ولا على قطبي المعدل وإلا لما زالت عن موازاته ولما انتظمت من القسي التي تتأخر فيها كل يوم

دائرة عظيمة مقاطعة للمعدل كدائرة البروج من القسي التي تأخرت الشمس فيها بل انتظمت صغيرة موازية له اللهم إلا إذا كان الكوكب على المعدل مقدار ما يتمم بحركته دورة فإن المنتظمة حينئذ تكون نفس المعدل لكن هذا غير موجود في الكواكب التي نعرفها ولا على قطبين غير قطبيهما وإلا لكان يرى سميره فوق الأرض على دائرة مقاطعة للدوائر المتوازية ولم تكن دائرة نصف النهار تفصل الزمان الذي من حين يطلع إلى حين يغرب بنصفين لأن قطبي فلكه المائل لا يكون دائماً على طائرة نصف النهار فلا تنفصل قسي مداراته الظاهرة بنصفين ، ولأنه لو كان الأمر كما توهموا لكانت الشمس تصل إلى أوجها وحضيضها وبعديها الأوسطين بل إلى الشمال والجنوب فيجب أن تحصل جميع الأظلال اللائقة بكون الشمس في هذه المواضع في اليوم الواحد والوجود بخلافه .

وقول من قال يجوز أن يكون حركة الشمس في دائرة البروج إلى المغرب ظاهر الفساد لأنه لو كان كذلك لكان اليوم الواحد بليلته ينقص عن دور معدل النهار بقدر القوس التي قطعتها الشمس بالتقريب بخلاف ما هو الواقع لأنه يزيد على دور المعدل بذلك القدر ولكان يرى قطعها البروج على خلاف التوالي وليس كذلك لتأخرها عن الجزء الذي يتوسط معها من

المعدل في كل يوم نحو المشرق، فإذا حركات الأفلاك الشاملة للأرض ثنتان حركة إلى التوالي وأخرى إلى خلافه، وأما حركات التداوير فخارجة عن القسمين لأن حركات أعاليها مخالفة لحركات أسافلها لا محالة لكونها غير شاملة للأرض، فإن كانت حركة الأعلى من المغرب إلى المشرق فحركة الأسفل بالعكس كما في المتحيرة، وإن كانت حركة الأعلى من المشرق إلى المغرب كانت حركة الأسفل بالعكس كما هو القمر.

هذا وقصارى ما نقول في هذا المقام: إن ما ذكره الفلاسفة في أمر الأفلاك الكلية والجزئية وكيفية حركاتها وأوضاعها أمر ممكن في نفسه ولا دليل على أنه هو الواقع لا غير، وقد ذهب إلى خلافه أهل لندن وغيرهم من أصحاب الأرصاد اليوم، وكذا أصحاب الأرصاد القلبية والمعارج المعنوية كالشيخ الأكبر قدس سره وقد أطال الكلام في ذلك في الفتوحات المكية.

وأما السلف الصالح فلم يصح عنهم تفصيل الكلام في ذلك لما أنه قليل الجدوى ووقفوا حيث صح الخبر وقالوا: إن اختلاف الحركات ونحوه بتقدير العزيز العليم وتشبثوا فيما صح وخفي سببه بأذيال التسليم، والذي أميل إليه أن السموات على طبق ما صحت به

الأخبار النبوية في أمر الثخن وما بين كل سماء وسماء ولا أخرى عن دائرة هذا الميل ، وأقول يجوز أن يكون ثخن كل سماء فلك لكل واحدة من السيارات على نحو الفلك الذي أثبته الفلاسفة لها وحركته الذاتية على نحو حركته عندهم وحركته العرضية بواسطة حركة سمائه إلى المغرب الحركة اليومية فتكون حركات السموات متساوية ، وأن أبيت تحرك السماء بجميع ما فيها لإباء بعض الأخبار عنه مع عدم دليل قطعي يوجبه قلت : يجوز أن يكون هناك محرك في ثخن السماء أيضاً ويبقى ما يبقى منها ساكناً بقدرة الله تعالى على سطحه الأعلى ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

وللفسلافة في تحقيق أن المحيط كيف يحرك المحاط به كلام تعقبه الإمام ثم قال : الصحيح أن المحرك للكل هو الله تعالى باختياره وإن ثبت على قانون قولهم كون الحاوي محركاً للمحوي فإنه يكون محركاً بقوة نفسه لا بالمماسة .

(148/509)

وأما الثوابت فيحتمل أن تكون في فلك فوق السموات السبع ويحتمل أن يكون في ثخن السماء السابعة فوق فلك زحل بل إذا قيل بأن جميع الكواكب الثوابت والسيارات في ثخن السماء الدنيا تتحرك على أفلام مماثلة للأفلاك التي أثبتها لها الفلاسفة ويكون لها حركتان

على نحو ما يقولون لم يبعد ، وفيه حفظ لظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وما ذكروه في علم الأجرام والأبعاد على اضطرابه لا يلزمنا تسليمه فلا يرد أنهم قالوا بعد الثوابت عن مركز الأرض خمسة وعشرون ألف وأربعمائة واثنا عشر ألفاً وثمانمائة وتسع وتسعون فرسخاً ، وما ورد في "الخبر" من أن بين السماء والأرض خمسمائة عام وسمك السماء كذلك يقتضي أن يكون بين وجه الأرض والثوابت على هذا التقدير ألف عام وفراسخ مسيرة ذلك مع فراسخ نصف قطر الأرض وهي ألف ومائتان وثلاثة وسبعون تقريباً على ما قيل دون ما ذكر بكثير.

ولا حاجة إلى أن يقال : العدد لا مفهوم له واختيار خمسمائة لما أن الخمة عدد دائر فيكون في ذلك رمز خفي إلى الاستدارة كما قيل في كل فلك ، ويشير إلى صحة احتمال أن يكون الفلك في ثخن السماء ما أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : الشمس بمنزلة الساقية تجري في السماء في فلكها فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها وكذلك القمر ، والأخبار المرفوعة والموقوفة في أمر الكواكب والسموات والأرض كثيرة.

وقد ذكر الجلال السيوطي منها ما ذكر في رسالة ألفها في بيان الهيئة السنية ، وإذا رصدتها رأيت أكثرها مائلاً عن دائرة بروج القبول ، وفيها ما يشعر بأن للكوكب حركة قسرية نحو ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة ما طلعت الشمس حتى يوتر لها كما توتر القوس ، ثم الظاهر أن يراد بالسباحة الحركة الذاتية ويجوز أن يراد بها الحركة العرضية بل قيل هذا أولى لأن تلك غير مشاهدة هذه بل عوام الناس لا يعرفونها ، وقيل يجوز أن يراد بها ما يعم الحركتين ، واستنبط بعضهم من نسبة السباحة إلى الكوكب أن ليس هناك حامل له يتحرك بحركته مطلقاً بل هو متحرك بنفسه في الملك تحرك السمكة في الماء إذ لا يقال للجالس في صندوق أو على جذع يجري في الماء إنه يسبح ، واختار أنه يجري في مجرى قابل للخرق والالتئام كالماء ودون إثبات استحالة ذلك العروج إلى السماء السابعة ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وهو سبحانه ولي التوفيق وعلى محور هدايته تدور كرة التحقيق ، وهذه نبذة مما رأينا إيراده مناسباً لهذا المقام ، وسيأتي إن شاء الله تعالى نبذة أخرى مما يتعلق بكلام من الكلام .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ ﴾ كائناً من كان ﴿ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ أي الخلود والبقاء في الدنيا لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية ، وقيل الخلد المكث الطويل ومنه قولهم للأثافي : خوالد ، واستدل بذلك على عدم حياة الخضر عليه السلام ، وفيه نظر ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ نزلت حين قالوا ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [

الطور : 30] والفاء الأولى لتعليق الجملة الشرطية بما قبلها والهمزة لإنكار مضمونها وهي في الحقيقة لإنكار جزائها أعني ما بعد الفاء الثانية .

وزعم يونس أن تلك الجملة مصب الإنكار والشرطية بما قبلها والهمزة لإنكار مضمونها وهي في الحقيقة لإنكار جزائها أعني ما بعد الفاء الثانية .

وزعم يونس أن تلك الجملة مصب الإنكار والشرط معترض بينهما وجوابه محذوف تدل عليه تلك الجملة وليس بذاك ، ويتضمن إنكار ما ذكر إنكار ما هو مدار له وجوداً وعدماً من شماتتهم بموته صلى الله عليه وسلم كأنه قيل أفأن مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك ، وفي معنى ذلك قول الإمام الشافعي عليه الرحمة :

تمني رجال أن أموت وإن أمت . . .

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى . . .

تزود لأخرى مثلها فكأن قد

وقول ذي الأصبع العدواني :

إذا ما الدهر جر على أناس . . .

كلا كله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . .

سيلقى الشامتون كما لقينا

وذكر العلامة الطيبي ونقله "صاحب الكشف" بأدنى زيادة أن هذا رجوع إلى ما سيق له السورة الكريمة من حيث النبوة ليتخلص منه إلى تقرير مشرع آخر ، وذلك لأنه تعالى لما أفحم القائلين باتخاذ الولد والمتخذين له سبحانه شركاء وبكتهم ذكر ما يدل على إفحامهم وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَإِيْن ﴾ الخ لأن الخصم إذا لم يبق له متشبث تمنى هلاك خصمه .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾

برهان على ما أنكر من خلودهم وفيه تأكيد لقوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ [الأنبياء : 34] الخ ، والموت عند الشيخ الأشعري كيفية وجودية تضاد الحياة ، وعند الإسفرايني وعزي للأكثرين أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل فيكون عدم تلك الحياة كما في العمى الطارىء على البصر لا مطلق العمى فلا يلزم كون عدم الحياة عن الجنين عند استعداده للحساة موتاً ، وقيل عدم الحياة عما من شأنه الحياة مطلقاً فيلزم ذلك ولا ضير لقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] واستدل الأشعري على كونه وجودياً بقوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ الموت

والحياة ﴾ [الملك : 2] فإن الخلق هو الإيجاد والإخراج من العدم وبأنه جائز والجائز لا بد له من فاعل والعدم لا يفعل .

(151/509)

وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون بمعنى التقدير وهو أعم من الإيجاد ولو سلم كونه بمعنى الإيجاد فيجوز أن يراد بخلق الموت إيجاد أسبابه أو يقدر المضاف وهو غير عزيز في الكلام ، وعن الأستاذ أن المراد بالموت الآخرة والحياة الدنيا لما روى عن ابن عباس تفسيرهما بذلك ، وعن الثاني بأن الفاعل قد يريد العدم كما يريد الحياة فالفاعل يعدم الحياة كما يعدم البصر مثلاً .

وقال اللقاني : الظاهر قاض بما عليه الأشعري والعدول عن الظاهر من غير داع غير مرضي عند العدول ، وكلامه صريح في أنه عرض .

وتوقف بعض العلماء القائلين بأنه وجودي في أنه جوهر أو عرض لما أن في بعض الأحاديث أنه معنى خلقه الله تعالى في كف ملك الموت ، وفي بعضها أن الله تعالى خلقه على صورة كبش لا يمر بشيء يجد ريحه إلا مات ، وجل عبارات العلماء أنه عرض يعقب الحياة أو فساد بنية الحيوان ، والأول غير مانع والثاني رسم بالثمرة ، وقريب منه ما قاله بعض

الأفاضل : إنه تعطل القوى لانطفأ الحرارة الغريزية التي هي آلتها فإن كان ذلك لانطفأ الرطوبة الغريزية فهو الموت الطبيعي وإلا فهو الغير الطبيعي ، والناس لا يعرفون من الموت إلا انقطاع تعلق الروح بالبدن التعلق المخصوص ومفارقتها إياه ، والمراد بالنفس النفس الحيوانية وهي مطلقاً أعم من النفس الإنسانية كما أن الحيوان مطلقاً أعم من الإنسان .

والنفوس عند الفلاسفة ومن حذا حذوهم ثلاثة .

النباتية .

والحيوانية .

والفلكية والنفس مقولة على الثلاثة بالاشتراك اللفظي على ما حكاه الإمام في الملخص عن المحققين .

(152/509)

وبالاشتراك المعنوي على ما يقتضيه كلام الشيخ في الشفاء ، وتحقيق ذلك في محله ، وأرادة ما يشمل الجميع هنا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وقال بعضم : المراد بها النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفي خلود البشر ، واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر أنواع الحيوان ولا يضر ذلك بالسوق بل هو أنفع فيه ، ولا شك في موت كل من أفراد تلك الأنواع ،

نعم اختلف في أنه هل يصح إرادة عمومها بحيث تشمل نفس كل حي كالملك وغيره أم لا بناء على الاختلاف في موت الملائكة عليهم السلام والحور العين فقال بعضهم : إن الكل يموتون ولو لحظة لقوله تعالى :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] وقال بعضهم : إنهم لا يموتون لدلالة بعض الأخبار على ذلك ، والمراد من كل نفس النفوس الأرضية والآية التي استدل بها مؤولة بما ستعلمه إن شاء الله تعالى وهم داخلون في المستثنى في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] أو لا يسلم أن كل صعق موت ، وقال بعضهم : إن الملائكة يموتون والحور لا تموت ، وقال آخرون : إن بعض الملائكة عليهم السلام يموتون وبعضهم لا يموت كجبريل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام ورجح قول البعض ، ولا يرد أن الموت يقتضي مفارقة الروح البدن والملائكة عليهم السلام لا أبدان لهم لأن القائل بموتهم يقول بأن لهم أبداناً لكنها لطيفة كما هو الحق الذي دلت عليه النصوص ، وربما يمنع اقتضاء الموت البدن .

وبالغ بعضهم فادعى أن النفوس أنفسها تموت بعد مفارقتها للبدن وإن لم تكن بعد المفارقة ذات بدن ، وكأنه يلتزم تفسير الموت بالعدم والاضمحلال ، والحق أنها لا تموت سواء فسر الموت بما ذكر أم لا ، وقد أشار أحمد بن الحسين الكندي إلى هذا الاختلاف بقوله :

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم . . .

إلا على شجب والخلف في شجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة . . .

(153/509)

وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وذهب الإمام إلى العموم في الآية إلا أنه قال : هو مخصوص فإن له تعالى نفساً كما قال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : 116] مع أن الموت مستحيل عليه سبحانه ، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت ، ثم قال : والعام المخصوص حجة فيبقى معمولاً به على ظاهره فيما عدا ما أخرج منه ، وذلك يبطل قول الفلاسفة في الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية أنها لا تموت اه ، وفيه أنه إن أراد بالنفس الجوهر المتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصريف كما قاله الفلاسفة ومن وافقهم أو الجسم النوراني الخفيف الحي المتحرك النافذ في الأعضاء الساري فيها سريان ماء الورد في الورد كما عليه جمهور المحدثين وذكر له ابن القيم مائة دليل فالله تعالى منزه عن ذلك أصلاً .

وكذا الجمادات لا تتصف بها على الشائع ، وأيضاً ليس للأرواح البشرية والعقول المفارقة

عند الفلاسفة نفساً بأحد ذينك المعنيين فكيف يبطل بالآية الكريمة قولهم ، وإن أراد بها الذات كما هو أحد معانيها جاز أن تثبت لله تعالى وقد قيل به في الآية التي ذكرها ، وكذا هي ثابتة للجمادات لكن يرد عليه أنه إن أراد بالموت مفارقة الروح للبدن أو نحو ذلك يبطل قوله وذلك يبطل الخ لأن الأرواح والعقول المذكورة لا أبدان لها عند الفلاسفة فلا يتصور فيها الموت بذلك المعنى ، وإن أراد به العدم والاضمحلال يرد عليه أن الجمادات تتصف به فلا يصح قوله وهي لا تموت ، وبالجملة لا يخفى على المتذكر أن الإمام سها في هذا المقام ، ثم إن معنى كون النفس ذائقة الموت أنها تلابسه على وزجه تتألم به أو تلتذ من حيث أنها تخلص به من مضيق الدنيا الدنيئة إلى عالم الملكوت وحظائر القدس كذا قيل .

والظاهر أن كل نفس تتألم بالموت لكن ذلك مختلف شدة وضعفاً ، وفي الحديث " إن للموت سكرات " ولا يلزم من التخلص المذكور لبعض الناس عدم التألم ، ولعل في اختيار الذوق إيماء إلى ذلك لمن له ذوق فإن أكثر ما جاء في العذاب ، وقال الإمام : إن الذوق إدارك خاص وهو ههنا مجاز عن أصل الإدراك ولا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس الطعام حتى يذاق ، وذكر أن المراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة لأنه قبل

دخوله في الوجود ممتنع الإدراك وحال وجوده يصير الشخص ميتاً والميت لا يدرك .

وتعقب بأن المدرك النفس المفارقة وتدرك ألم مفارقتها البدن ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ الخطاب إما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة بطريق الالتفات أي نعاملكم معاملة من يختبركم ﴿ بالشر والخير ﴾ بالمكروه والمحبوب هل تصبرون وتشكرون أولاً .

وتفسير الشر والخير بما ذكر مروي عن ابن زيد ، وروى عن ابن عباس أنهما الشدة والرخاء ، وقال الضحاك : الفقر والمرض والغنى والصحة ، والتعميم أولى ، وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم أو لأنه ألصق بالموت المذكور قبله .

وذكر الراغب أن اختبار الله تعالى للعباد تار بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا فالمنحة والمحنة جميعاً بلاء فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فالمنحة أعظم البلاءين ، وبهذا النظر قال عمر رضي الله تعالى عنه : بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ، ولهذا قال علي كرم الله تعالى وجهه : من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله اه ، ولعله يعلم منه وجه لتقديم الشر ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاء فهو مصدر مؤكد لنبلوكم على غير لفظه .

وجوز أن يكون مفعولاً له أو حالاً على معنى نبلوكم بالشر والخير لأجل إظهار جودتكم ورداءتكم أو مظهرين ذلك فتأمل ولا تغفل ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال ، فهو على الأول من وجهي الخطاب وعد ووعيد وعلى الثاني منهما وعيد محض .

وفي الآية إيما إلى أن المراد من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب .

وقرىء ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بياء الغيبة على الالتفات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(156/509)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾

هؤلاء القائلون هم خزاعة ، فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدا .

وقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت طائفة من العرب : الملائكة بنات الله .

ثم نزه عزّ وجلّ نفسه .

فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك ، وهو مقول على ألسنة العباد .

ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي ليسوا كما قالوا ، بل هم عباد لله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقرّبون عنده .

وقرىء : " مكرمون " بالتشديد ، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى : بل اتخذ عباداً ، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله أو يأمرهم به .

كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم .

وقرىء : " لا يسبقونه " بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أي هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أي يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، أو يعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة ، وما خلفهم وهو الدنيا ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدّموا وأخروا ، لم يعملوا عملاً ولم يقولوا قولاً إلا بأمره ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ أي : يشفع الشافعون له ، وهو من رضي عنه ، وقيل : هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ

﴾ أي من خشيتهم منه فالمصدر مضاف إلى المفعول ، والخشية : الخوف مع التعظيم ، والإشفاق : الخوف مع التوقع والحذر ، أي لا يأمنون مكر الله .

(157/509)

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ ﴾ أي من يقل من الملائكة إني إله من دون الله .

قال المفسرون : عني بهذا إبليس ؛ لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إله إلا إبليس ؛ وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ﴿ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ أي فذلك القائل على سبيل الفرض ، والتقدير : نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذي قاله ، كما نجزي غيره من المجرمين ﴿ كذلك نَجْزِي الظالمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين ، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم ، فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعها ، والمراد بالظالمين : المشركون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدّر ، والرؤية هي القلبية ، أي ألم يتفكروا أو لم يعلموا ﴿ أن السموات والأرض * كَانَتَا رَتْقاً ﴾ قال الأخفش : إنما قال : ﴿ كانتا ﴾ ، لأنهما صنفان أي جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] وقال الزجاج : إنما قال

﴿ كانتا ﴾ لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد ، لأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون .

والرتق .

السد ضدّ الفتق ، يقال : رتقت الفتق أرتقه فارتتق ، أي التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ، يعني : أنهما كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ، وقال ﴿ رتقاً ﴾ ولم يقل " رتقين " لأنه مصدر ، والتقدير : كانتا ذواتي رتق ، ومعنى ﴿ ففتقناهما ﴾ ففصلناهما ، أي فصلنا بعضهما من بعض ، فرفعنا السماء ، وأبقينا الأرض مكانها ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أي أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء ، فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى : أن الماء سبب حياة كل شيء .

(158/509)

وقيل : المراد بالماء هنا : النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين ، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية ، والهمزة في ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ للإنكار عليهم ، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ الميد التحرّك

والدوران، أي لئلا تتحرك وتدور بهم، أو كراهة ذلك، وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الرواسي، أو في الأرض ﴿ فِجَاجاً ﴾ قال أبو عبيدة : هي المسالك.

وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج و﴿ سُبُلاً ﴾ تفسير للفجاج، لأن الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مصالح معاشهم، وما تدعو إليه حاجاتهم ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ عن أن يقع ويسقط على الأرض كقوله: ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ [الحج: 65].

وقال الفراء: محفوظاً بالنجوم من الشيطان كقوله: ﴿ وحفظناها مِن كُلِّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر: 17].

وقيل: محفوظاً: لا يحتاج إلى عماد، وقيل: المراد بالمحفوظ هنا: المرفوع.

وقيل: محفوظاً عن الشرك والمعاصي.

وقيل: محفوظاً عن الهدم والنقض ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما، ومعنى الإعراض: أنهم لا يتدبرون فيها، ولا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان.

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ اليل والنهار والشمس والقمر ﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم ، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه في معايشهم ، وخلق الشمس والقمر أي جعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدّم بيانه في سبحان ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في فلك يسبحون ، أي يجرون في وسط الفلك ، ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ، والجمع في الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل ، وجعلهنّ في الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهنّ ضمير العقلاء ، ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء .

وقال الكسائي : إنما قال : ﴿ يسبحون ﴾ لأنه رأس آية .

والفلك واحد أفلاك النجوم .

وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلكة المغزل لاستدارتها .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ أي دوام البقاء في الدنيا ﴿ أَفَإِيْن مّتَّ ﴾ بأجلك المحتوم ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ أي أفهم الخالدون ؟ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت .

قال : ويجوز حذف الفاء وإضمارها ، والمعنى : إن متّ فهم يموتون أيضاً ، فلا شماتة في

الموت .

وقرىء : " مت " بكسر الميم وضمها لغتان : وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : 30] .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي ذائقة مفارقة جسدها ، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائناً ما كان .

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي نختبركم بالشدّة والرخاء ، لننظر كيف شكركم وصبركم .

والمراد : أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم ، و﴿ فتنة ﴾ مصدر ﴿ لنبلوكم ﴾ من غير لفظه ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ .

(160/509)

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود : إن الله عزّ وجلّ صاهر الجنّ فكانت بنيهم الملائكة ، فقال الله تكذيباً لهم ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي الملائكة ليس كما قالوا ، بل عباد أكرمهم بعبادته .

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ يثني عليهم ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ ﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ قال : لأهل التوحيد وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ قال : لأهل التوحيد لمن رضي عنه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية قال : قول لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في الآية قال : الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن جابر ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتضى ﴾ قال : " إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " وأخرج الفريابي وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ قال : فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ قال : لا يخرج منهما شيء ، وذكر مثل ما تقدم .

وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً من طريق أخرى .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ قال : ملتصقتين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي

العالية في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْء حَيّ ﴾ قال : نطفة الرجل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ قال : بين الجبال .

(161/509)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ قال : دوران ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ قال : يجرون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عنه : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ قال : فلك كفلكة المغزل ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ قال : يدورون في أبواب السماء ، كما تدور الفلكة في المغزل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : هو فلك السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قال : دخل أبو بكر على النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد مات فقبّله وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه ، ثم تلا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ قال : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(162/509)

وقال القاسمى :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً ﴾

أي : على الأرض كالقبة عليها : ﴿ مَحْفُوظاً ﴾ أي : عالياً محروساً أن ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات ، مهما تطاول الزمان . كقوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] ، ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ . أي : عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ، على الحساب القويم . والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة . وأي جهل أعظم من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه

إلا هو ، عَزَّت قدرته ولطف علمه ؟ .

وقرئ : عن آيتها , على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس ، أي : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشري .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ ﴾ أي : ليسكنوا فيه : ﴿ وَالنَّهَارَ ﴾ ليتحركوا لمعاشهم وينشطوا لأعمالهم : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي : ضياء وحسباناً : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي : كل واحد منهما يجري في الفلك ، كالسابح في الماء . والفلك في اللغة كل شيء دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ [التكوير : 15 – 16] ، وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية [في المطبوع : ذاتبة] . لا كما يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة في أفلاكها التي تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . وقوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ نزلت حين قالوا : نتربص به ريب المنون , فكانوا يقدّرون أنه سيموت ، فيشمتون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد في الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحيٍّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليّاً ، أو نبيّاً أو رسولاً . انتهى . وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف فتذكر . وفي معنى الآية قول عروة الصحابيّ رضي الله عنه :

~إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كلاكِلَهُ أَنَاخَ بآخرينَا

~فقل للشَّامتينَ بنا : أفيقُوا سيلقى الشامِتُونَ كما لقِينَا

وقول الشافعيّ :

~تَمَنَّى أُنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ

~فقل للَّذِي يَبْغي خلافَ الَّذِي مضى تَهَيَّأْ لأُخْرَى مِثْلِهَا ، وَكَأَنْ قَدِ

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾ أي : نختبركم بما يجب فيه الصبر من

المصائب ، وما يجب فيه الشكر من النعم : ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي : اختباراً . وهو مصدر مؤكد لـ "لنبلوكم" من غير لفظه : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر .

(164/509)

قال الزمخشري : وإنما سمى ذلك ابتلاءً ، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم ، لأنه في صورة الاختبار ، أي : فهو استعارة تمثيلية . قال القاضي : وفي الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 201 ـ 203 ﴾

(165/509)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) ﴾

تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولى أن الله جل وعلا جعل السماء سقفاً ، أي لأنها للأرض كالسقف للبيت .

الثانية أنه جعل ذلك السقف محفوظاً .

الثالثة أن الكفار معرضون عما فيها " أي السماء " من الآيات ، لا يتعظون به ولا يتذكرون .

وقد أوضح هذه المسائل الثلاث في غير هذا الموضع :

أما كونه جعلها سقفاً فقد ذكره في سورة " الطور " أنه مرفوع وذلك من قوله : ﴿ والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع ﴾ [الطور : 1-5] الآية .

(166/509)

وأما كون ذلك السقف محفوظاً فقد بينه في مواضع من كتابه ، فبين أنه محفوظ من السقوط في قوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ [الحج : 65] ، وقوله : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : 25] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ [فاطر : 41] ، وقوله : ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ [البقرة : 255] ، وقوله

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 17] على قول من قال : وما كنا عن الخلق غافلين . إذ لو كنا نغفل لسقطت عليهم السماء فأهلكتهم . وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر ، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها . كقلوه تعالى : ﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] أي ليس فيها من شقوق ولا صدوع . وبين أن ذلك السقف المذكور محفوظ من كل شيطان رجيم . كقوله : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] ، وقد بينا الآيات الدالة على حفظها من جميع الشياطين في سورة " الحجر " . وأما كون الكفار معرضين عما فيها من الآيات فقد بينه في مواضع من كتابه . كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] ، وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ ﴾ [القمر : 2] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : 96-97] ، وقوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [

يونس : 101] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ .

قال بعض أهل العلم : كان المشركون ينكرون نبوته صلى الله عليه وسلم ويقولون : هو شاعر يتربّص به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان . فقال الله تعالى : قد مات الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دنيه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك .

وقال بعض أهل العلم : لما نعى جبريل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم نفسه قال : " فَمَنْ لأُمتي " ؟ فنزلت ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ والأول أظهر . لأن السورة مكية : ومعنى الآية : أن الله لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد . أي دوام البقاء في الدنيا ، بل كلهم يموت .

(168/509)

وقوله : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ استفهام ، إنكاري معناه النفي . والمعنى : أنك إن مت لهم فهم لن يخلدوا بعدك ، بل سيموتون . ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ . وما أشار إليه جل وعلا في هذه الآية من أنه صلى الله عليه وسلم سيموت ، وأنهم

سيموتون ، وأن الموت ستذوقه كل نفس أوضحه في غير هذا الموضع . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] ، كقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القيامة فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] ، وقوله في سورة " العنكبوت " : ﴿ ياعبادي الذين آمنوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 56-57] ، وقوله تعالى في سورة " النساء " : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا في سورة " الكهف " استدلال بعض أهل العلم بهذه الآية الكريمة على موت الخضر عليه السلام . وقال بعض أهل العلم في قوله : ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ : هو استفهام حذفت أداته . أي أفهم الخالدون . وقد تقرر في علم النحو أن حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها جائز ، وهو قياسي عند الأخفش مع " أم " ودونها ذكر الجواب أم لا : فمن أمثلته دون " أم " ودون ذكر الجواب قول الكميت :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب . . . ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

يعني : أو ذو الشيب يلعب . وقول أبي خراش الهذلي واسمه خويلد :

وَفَوني وقالوا يا خُوَيْلدُ لم ترُعْ . . . فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

يعني : أهم هم على التحقيق . ومن أمثلته دون " أم " مع ذكر الجواب قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ثم قالوا تحبها قلت بهراً . . . عدد النجم والحصى والتراب

يعني : أتحبها على الصحيح . وهو مع "أم" كثير جداً ، وأنشد له سيبويه قول الأسود يعفر التميمي :

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً . . . شعيث بن سهم أم شعيث بن منقر

يعني : أشعيث بن سهم ، ومنه قول ابن أبي ربيعة المخزومي :

بدا لي منها معصم يوم جمرت . . . وكف خضيب زينت ببنان

فوالله ما أدري وإني لحاسب . . . بسبعٍ رَمَيْتُ الجمرَ أم بثمان

يعني : أبسبع . وقول الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط . . . غلس الظلام من الرباب خيالا

يعني : أكذبتك عينك . كما نص سيبويه في كتابه على جواز ذلك في بيت الأخطل هذا ، وإن خالف في ذلك الخليل قائلاً : إن "كذبتك" صيغة خبرية ليس فيها استفهام محذوف ، وإن "أم" بمعنى بل . ففي البيت على قول الخليل نوع من أنواع البديع المعنوي يسمى "الرجوع" . وقد أوضحنا هذه المسألة وأكثرنا من شواهدها العربية في كتابنا (دفع إيهام

الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة " آل عمران " وذكرنا أن قوله تعالى في آية " الأنبياء " هذه ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ من أمثلة ذلك . والعلم عند الله تعالى .

ووقله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَفَإِنْ مّتَّ ﴾ قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي "مِتَّ" بكسر الميم . والباقون بضم الميم . وقد أوضحنا في سورة " مريم " وجه كسر الميم . وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ يُفهم منه أنه لا ينبغي للإنسان أن يفرح بموت أحد لأجل أمر دنيوي يناله بسبب موته . لأنه هو ليس مخلداً بعده .

وروي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد هذين البيتين مستشهداً بهما :

تمنّى رجالٌ أن أموتَ وإن أمُت . . . فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحد

فقل لِلذي يَبْقَى خِلاَفَ الذي مضى . . . تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

ونظير هذا قول الآخر :

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . . سيلقى الشامتون كما لقينا

قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

المعنى : ونختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا ، وبما يجب فيه الشكر من النعم ، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر ، وقوله ﴿ فِتْنَةً ﴾ مصدر مؤكد ل ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ من غير لفظة .

وما ذكره جل وعلا : من أنه يبتلي خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : 168] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 42-45] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 94-95] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير ﴾ يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنِّعم ، وبالمصائب والبلايا . وقال بعض العلماء : أكثر ما يستعمل في

الشرِّ بلا يبلو ، وفي الخير أبلى يبلى .

وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى :

(171/509)

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم . . . وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير ﴾ قال : أي نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(172/509)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ » .

وكما أوجد اللّه سبحانه الأرض على هذه الصورة ، وجعل فيها رواسى ، وفجاجا سبلا ، كذلك أقام السماء كما نرى ، سقفا محفوظا بيد القدرة ، فلا يقع علينا . .

وفى قوله تعالى : « وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » إشارة إلى ما فى السماء من آيات ناطقة بقدرة اللّه ، شاهدة على علمه وحكمته . . ببنائها القائم ، وبما تتزين به من كواكب ونجوم . . ولكن هؤلاء الضالين ، المشركين ، فى غفلة عن تلك الآيات الباهرة ، لا يلقون إليها نظرا ، ولا يديرون نحوها عقلا . .

وفى إضافة الآيات إلى السماء ، إشارة إلى عظمة هذا العالم العلوي ، وأن السماء كون عظيم ، وأن كل ما لاح فى هذا الكون ، هو آية من آيات هذا الكون العظيم . .

وفيما كشف العلم عنه من هذا العالم العلوىّ ، ما يبهر العقول ، ويعجز الخيال . . وهو إلى جانب ما لم ينكشف أشبه بذرة من عالم الرمال ، أو قطرة من عالم الماء فأين العقول التي تنظر ؟ وأين البصائر التي تستبصر ؟

قوله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

هو عرض لبعض مظاهر قدرة اللّه ، التي أشارت الآيات السابقة إلى بعض منها . . ومن مظاهر القدرة الإلهية خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وإجراء كل منها فى فلك خاص به ، ومدار لا يتعداه . .

وفى التعبير عن حركة الليل والنهار ، بالخلق ، إشارة إلى ما لهما من وجود ذاتىّ غير عارض ، وأن وجودهما مقصود لذاته ، حيث يأخذان من الوجود ويعطيان ، شأنهما فى

هذا شأن الإنسان المكلّف ، المطلوب منه رسالة يؤديها فى الحياة . .

وشأنهما كذلك شأن الشمس والقمر ، فهما أي الليل والنهار ، وإن كانا مظهرا من مظاهر حركة الأرض حول نفسها ، إلا أنهما صاحبا سلطان على كل ما يقع

(173/509)

فى فلكهما ، كما للشمس سلطان على كل ما يقع فى فلكها ، . ولهذا جاء قوله تعالى : « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » مسندا فيه الفعل إلى هذه المخلوقات بضمير العاقل ، ليشير بذلك إلى أنها كائنات تسير على هدى ، فلا تزلّ ، ولا تنحرف ، حتى لكأنها موجهة بإرادة عقل رشيد حكيم . . فهى وإن بدت لنا أنها غير عاقلة ، فإن نظامها الذي تجرى عليه ليدلّ على أنها تتحرك بتوجيه قوة عاقلة حكيمة ، إن لم تكن فى ذاتها فهى قائمة عليها . .

أما حين لا تراد هذه المخلوقات لذاتها ، وإنما تراد آثارها ، أو بعض آثارها ، فإن التعبير القرآنى عن ذلك يجىء بلفظ « الجعل » لا « الخلق » . .

مثل قوله تعالى : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً » (96 : الأنعام) وقوله سبحانه : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً » (12 : الإسراء) . .

وفى ضمير الجمع العاقل فى «يَسْبَحُونَ» إشارة إلى أنه وإن كان لكل مخلوق من هذه المخلوقات فلك يسبح فيه، فإنها جميعا ينتظمها فلك عام، هو فلك الوجود كله، الذي يحوى كل فلك! قوله تعالى:

«وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ».

كان المشركون يستثقلون مقام النبىّ الكريم فيهم، وقد ساقوا إليه من ضروب السّفه، وألوان الأذى، النفسي والمادي، فى نفسه، وفى أصحابه، ما لا يحتمله إلا أولو العزم من الرسل.. فلما ضاقوا به ذرعا، وأعيتهم الوسائل فى صده عن دعوته إلى اللّه. كان ممّا يعزّون به أنفسهم، ويمنّونها الأمانىّ فيه، أن ينتظروا به تلك الأيام أو السنين الباقية من عمره، وقد ذهب أكثره،

(174/509)

ولم يبق إلا قليله، فقد التقى بهم الرسول الكريم وقد جاوز الأربعين، وها هو ذا صلوات اللّه وسلامه عليه، لا يزال بينهم وقد نيّف على الخمسين، وإذن فهى سنوات قليلة ينتظرونها على مضض، حتى يأتيه النون! وهذا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» (30: الطور).

فجاء قوله تعالى : « وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ » مسفّها هذا المنطق السقيم ، الذي جعلوه أداة من أدوات الغلب فى أيديهم . . فالموت حكم قائم على كل نفس . . فإذا مات النبىّ ، فليس وحده هو الذي يصير إلى هذا المصير ، وإنما الناس جميعا ، صائرون إلى هذا المصير . . فكيف يكون الموت أداة من أدوات المعركة بينهم وبين النبي ؟ وكيف يكون سلاحا عاملا فى أيديهم على حين يكون سلاحا مفلولا فى يده ، إذا صحّ أن يكون من أسلحة المعركة ؟

ولهذا ردّ اللّه عليهم بقوله : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ ؟ » . . فما جوابهم على هذا ؟ إنهم لن يخلّدوا فى هذه الدنيا ، فما هذه الدنيا دار خلود لحىّ . .

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » (30 : الزمر) . . إن المعركة بين حق وباطل ، فما سلاحهم الذي يحاربون به فى هذا الميدان ؟ إنه الباطل ، وإنه لمهزوم مخذول : « إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً » قوله تعالى :

« كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ » هو جواب على هذا السؤال الذي جاء فى الآية السابقة : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ » ؟ وهو جواب ينطق به لسان الحال ويشهد له الواقع .

وفى قوله تعالى : « ذائِقَةُ الْمَوْتِ » إشارة إلى أن للموت طعما ، تجده النفوس حين تفارق

الأجساد . .

وهذا الطعم يختلف بين نفس ونفس . . فالنفس المؤمنة تستعذب ورده ،

(175/509)

وتستسيغ طعمه ، لما ترى فيه من خلاص لها من هذا القيد ، الذي أمسك بها عن الانطلاق إلى عالمها العلوي ، حيث تروى ظمأها ، وتبرّد نار أشواقها ، وتنعم فى جنات النعيم التي وعد اللّه المتقين . .

أما النفس الضالة الآثمة ، فإنما يحضرها عند الموت ، حصاد ما عملت من آثام ، وما ارتكبت من منكرات ، وتشهد ما يلقاها من غضب اللّه وعذابه ، فتكره الموت ، وتجد فيه ريح جهنم التي تنتظرها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ » (93 : الأنعام) وقوله سبحانه : « فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ » (55 : التوبة) .

وفى قوله تعالى : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ » إشارة إلى ما يقع للناس فى دنياهم مما يرونه شرا أو خيرا . . فذلك كله ابتلاء لهم ، واختبار لما يكون منهم مع الشرّ من

صبر أو جزع، ومع الخير من شكر أو كفر . .

فما تستقبله النفوس مما يكره، هو ابتلاء لها على الرضا بقضاء اللّه، والتسليم له . . وما تستقبله مما يحبّ، هو امتحان لها كذلك، على الشكر والحمد لما آتاها اللّه من فضله وإحسانه . .

فالنفوس المؤمنة، لا تجزع من المكروه، ولا تكفر أو تبطر بالمحبوب، لأن كلّا من عند اللّه، وما كان من عند اللّه فهو خير كله، محبوب جميعه . . هكذا تجده النفوس المؤمنة باللّه، العارفة لجلاله، وعظمته، وحكمته . .

أما النفوس الضالة عن اللّه، فإنها إن أصابها شىء من الضرّ، جزعت، وزادت كفرا وضلالا، وإن مسّها الخير، نفرت نفار الحيوان الشرس، واتخذت من نعمة اللّه سلاحا تحارب به اللّه، وتضرب فى وجوه عباد اللّه . .

وفى هذا يقول اللّه تعالى: «إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» (19.

27 : المعارج} .

ونحبّ أن نقف هنا وقفة ، مع قضية « الخير والشرّ » . . نعالج فيها ما يدور فى بعض الرءوس من تساؤلات عن « الشرّ » وعن الحكمة فى أن يقع فى هذه الحياة ، وعن ابتلاء الناس به ، وعن نسبته إلى اللّه . . إلى غير ذلك مما سنعرضه مفصلا فى المبحث التالي :

[الخير . . والشر] التّلازم بين الخير والشر :

ينزع العقل دائما إلى المزاوجة بين الأشياء التي تعرض له ، وتدور فى محيط تفكيره . . فلا يكاد أمر من الأمور يقع فى مجال النظر العقلي ، حتى يستثير له العقل من عالم الواقع ، أو عالم الخيال ، كائنا آخر ، يقف منه موقف التضادّ والعناد ، ليرى فيه كل الصفات السلبية للأمر الذي بين يديه . . فإذا ذاق المرء طعما حلوا ، ذكر الطعم المرّ ، وإذا لمس اللّين استشعر الخشن ، وإذا فكر فى الحق ، تذكّر الباطل . . وهكذا تعيش الأشياء ، من المعاني والمحسوسات ، فى عالم الحسّ والفكر ، مثنى . . مثنى . . الأمر وضدّه.

ومحال أن يعترف العقل فى عالم الواقع ، بالوجود الفردىّ لشىء من الأشياء ، أو معنى من المعاني . . حتى لكأن الأشياء والمعاني كائنات حيّة ، لا يضمن بقاءها ووجودها ، إلا هذه المزاوجة ! التي تجمع بين الشيء ومقابله ، كما تجمع فى عالم الأحياء بين الذكر والأنثى . . ! !

إن الحقيقة الفردية لا وجود لها فى منطق العقل ، فهو لا يعرف الشيء ، ولا يعترف به ، إلا إذا عرف المقابل له ، ولو كان هذا المقابل عدما وسلبا . . فهو إن عجز عن أن يجد فى عالم الواقع ما يقابل أو يضاد الشيء الذي بين يديه ، انتزع من صفات العدم والسلوب لهذا الشيء ، مشخّصات يقيم منها شخصية تقابله مقابلة التضاد والعناد . . فالوجود يقابله العدم ، والحياة يقابلها الموت . . وهكذا . .

يقول الفيلسوف الأمريكى « وليم چيمس » : « إننا لا ندرك تمام الإدراك القضية الصادقة ، حتى نعلم مضمون ما يناقضها من قضايا كاذبة . . فالغلط ضرورى ليظهر الحقيقة على أحسن منوال ، كما أن ظلام الجانب الخلفى ـ فى آلة التصوير ـ ضرورى ليظهر صفاء الصورة ونضارتها » .

ولعمر بن الخطاب ـ رضى اللّه عنه ـ كلمته المأثورة : « من لم يعرف الشرّ جدير بأن يقع فيه » .

وعن طريق هذه الثنائية للأشياء ، استطاع العقل أن يبعث الحياة فى الكائنات الجامدة ، وأن يقيم من المعاني المجرّدة مشخصات ، حين يجمع بين المتضادات ، ويقابل بين المتناقضات ، فتتعاند ، وتتصادم ، ويتولد من تعاندها وتصادمها واحتكاكها ، شرارات المعرفة ، التي تكشف للعقل عن حقيقتين فى وقت معا ، عند معالجته لحقيقة واحدة . . هما : الشيء

وضده ، أو الشيء ومقابله .

وعن هذه الثنائية ، نشأ هذا التلازم بين الخير والشر . . فإذا ذكر الخير ، ذكر معه الشرّ ، وظهرا معا فى مجال الفكر متقابلين ، تقابل الصورة وسالبها فى عمل للصورة « الفتوغرافية » .

والسؤال هنا هو : هل هذا التلازم بين الخير والشر أمر واقع فى الحياة ؟

أم أنه مجرد عملية من عمليات العقل ، وطريقة من طرائقه فى فهم الأشياء ، وكشف الحقائق ؟

وسؤال آخر . . هل هناك خير ؟ وإذا كان . . فما هو ؟ وهل الشر قائم إلى جانب الخير أبدا ؟ وإن كان . . فما هو ؟ وما الصلة بينه وبين الخير ؟

الخير والشر . . وواقع الحياة :

ولعلّ أكثر الكلمات دورانا على ألسنة الناس ، كلمتا الخير والشر . .

فما عرض لإنسان أمر ، أو وقع له شىء ، إلّا نظر إليه من جانبى الخير والشر ، وإلّا أخذه بأحد الوصفين : الخير والشر . . إن هاتين الكلمتين ، هما ميزان الحياة الذي يقدّر به

الإنسان كلّ شىء يأخذه أو يدعه . . الخير فى كفة ، والشرّ فى الكفة الأخرى . . هكذا تجرى حياة الناس ، وهكذا تجىء تصرفاتهم ويقع سلوكهم ، على حسب ما يشير إليه مؤشر الميزان ، من رجحان إحدى الكفتين على الأخرى . . فإذا تعادلتا ، توقف الإنسان ووقع فى حيرة بين ما يأخذ وما يدع ! إننا جميعا نقول بالخير والشر . . نعرفهما ، ونعمل ونتعامل فى حدودهما ، ونزن حظوظنا من كلّ شىء بهما . .

ومع هذا ، فإن من بعض الفلاسفة والمفكرين من ينكر وجودهما ، ولا يعترف بأن فى الحياة خيرا أو شرا . .

فهل يقبل واقع الحياة هذا الرأى ؟ وهل انطوت صفحات الخير والشر من هذا الوجود ، إذعانا لهذا الرأى ، ونزولا على حكمه ؟

ولكن . . مهلا . .

ما هو الخير ؟ وما هو الشرّ ؟

إننا نتحدث منذ أخذنا فى هذا الحديث ، عن الخير والشر ، كأنهما حقيقتان واقعتان ، متفق على ماهيتهما ، متعارف على الحدود القائمة بينهما . .

مع أن الواقع غير ذلك . .

فمع اعتراف المعترفين بالخير والشرّ ، فإن خلافا كبيرا قد وقع بينهم فى تحديد الصورة ، التى يكون بها الخير خيرا والشرّ شرّا . .

ما هى الضوابط التي تضبط معنى الخير؟ والتي إن تحققت فى أمر من الأمور عرف أنه خير؟ وإن تخلّف بعضها وتحقق بعضها عرفت نسبة الخير فيه؟

إنه بغير هذه الضوابط ستتفرق بالناس السّبل، حيث تعدد المفاهيم للخير والشرّ. على حسب تعدد الناس، وحسب ما يرون، وما يقدّرون. فلا يلتقون على طريق واحد فيما يأخذون أو يدعون، ولا فيما يحمدون أو يكرهون، ولا فيما يثيبون أو يعاقبون.

ما الخير إذن؟

(179/509)

يكاد يكون الخير أمرا بدهيا، لكثرة إلف الناس له، وإحساسهم به..

فهو لهذا لا يكاد يضبط أو يحصر داخل حدّ محدود.. إنه مشاع فى الناس، واقع فى إحساسهم.. كل يراه من الأفق الذي يعيش فيه.. فيبدو لبعض الناس فى صورة المتاع الجسدى من طعام وشراب، ولباس، وغير هذا مما هو من حظ الجسد، على حين يراه آخرون فى ألوان من الأدبيّات، التي تعلو بالروح، وتسمو بالوجدان.. وبين هذه الآفاق الصاعدة والآفاق النازلة، درجات لا تكاد تحصى، وتكاد تكون على تعداد الناس.. فردا فردا..

ولكن إذ قد اختلفت معايير الناس فى الخير. وهذا أمر طبيعى. لاختلاف رغباتهم ، وتنوع مطالبهم ، فليس معنى
هذا ألا يكون هناك خير ، وإنما هذا الاختلاف فى ذاته ، دليل على وجوده ! ولعل أول إحساس بالخير ، جاء عن طريق إحساس مادىّ ، يقع على الجسد من أمور تتصل بحاجات الإنسان الجسدية ، التي تمسك عليه الحياة ، وتدفع عنه أسباب الفناء فالشىء الذي كان يسدّ حاجة الإنسان البدائى ، ويشبع جوعته. أيا كان هذا الشيء. هو خير وخير كثير . .

من أجل هذا كانت تلك الموجودات من حيوان أو نبات أو جماد ، معبودات للإنسان الأول ، حيث ظهرت له ، فى صورة نافعة أو ضارة ، وذلك ليرجو خيرها ، ويدفع شرها . .
ومن هنا كان تعدد الآلهة التي عبدها الإنسان فى خطواته الأولى فى الحياة . . فعبد كل شىء ، إذ كان يرى مصيره مرتبطا به ، فى مجال النفع والضر على السواء . .

ثم حين خطا الإنسان خطوات إلى الحياة ، وتعرف على وجوه الأشياء ، وأخضعها لسلطانه. ترك عبادتها شيئًا فشيئًا ، ثم ما زال بها يدفعها عن مقام التأليه والتقديس حتى انتهى به الأمر إلى جمعها جميعا تحت دائرتين : دائرة تسع كل ما هو خير ، وأخرى تجمع كلّ ما هو شر . .

فالخير جميعه يصدر عن قوة عليا ، كما أن الشرّ كله يصدر عن جهة عليا كذلك ، تناظر قوة الخير ، وتقابلها . .

(180/509)

وهكذا انتهى الإنسان فى مرحلة متأخرة من حياته إلى عبادة الخير ، والشر ، ولم يستسغ أن يجمع بين الخير والشر فى دائرة واحدة ، فيجعلهما صادرين عن قوة واحدة عليا . . لأنه فهم أن الخير لا يلتقى أبدا مع الشر ، وأن الذي يصنع الخير ، لا يصنع الشر !

فلسفة المثنوية :

وقد اطمأن الإنسان إلى هذا المعتقد ، واجتمعت له فيه ، نفسه المشتتة ، وعاد إليه فكرة اللاهث ، الذي كان يجرى وراء كل هذه الآلهة التي لا حصر لها . .

ومنذ هذا الوقت استطاع الإنسان أن يتأمل ، وأن يطيل التأمل فى هذين الإلهين ، اللذين احتويا جميع الآلهة ، وانتزعا كل سلطان على هذا الوجود . .

ولقد نشأ عن هذا التأمل الطويل العميق فى هذين الإلهين ، فلسفة لها أسلوبها الذهني والمنطقي ، ولها أحكامها القائمة على البرهان والاستدلال . .

ولعلّ أقدم نظر لبس ثوب الفلسفة فى العقيدة « المثنوية » هو نظر حكماء الفرس ، الذين

انتهى بهم الرأى إلى القول بإلهين يحكمان العالم ، ويتحكمان فى مصيره ، وهما : إله الخير ، وإله الشر . . وقد رمزوا لإله الخير بالنور « يزدان » ولإله الشرّ بالظلام « أهرمن » .

وقد تفرقت بفلاسفة الفرس وحكمائها السبل حول النظر فى هذين الإلهين ، وسلطان كل منهما فى هذا العالم ، وفى الصدام والصراع الذي لا بد أن يقع بينهما ، إذ كانت طبيعة كل منهما على خلاف حادّ مع طبيعة الآخر .

فذهب فريق منهم إلى أن « يزدان » ـ وهو النور ـ أزلىُّ قديم ، وأما « أهرمن » ـ وهو الظلام ـ فحادث مخلوق . .

وفى زمن متأخر جاء « زرادشت » بمذهب يخالف هذا المذهب ، فقال : إن اللّه واحد قديم ، لا شريك له ولا ضد ولا ندّ . . وهو الذي خلق النور والظلام ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة . . ولكن الخير والشرّ ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حدث بامتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتزجا لما كان للعالم وجود ! !

(181/509)

وهما ـ أي النور والظلام ـ يتقاومان ، ويتغالبان ، إلى أن يغلب النور الظلام ، والخير الشرّ ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه . .

والبارئ تعالى هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها فى التركيب . . ويرى « زرادشت » أن النور هو الأصل ، وأن وجوده وجود حقيقى ، وأمّا الظلمة فتبع له . . كالظل بالنسبة إلى الشخص . . ولما كان الباري يرى أنه موجود ، وليس بموجود ، فقد أبدع النور ، وحصل الظلام تبعا . . لأن من ضرورة الوجود التضادّ » « 1 » .

ونلاحظ هنا أن هذا الرأى يقارب كثيرا ما تقول به التوراة فى سفر التكوين . . فما تحدّث به التوراة يكاد يكون نقلا حرفيًّا له ! كما يلاحظ أيضا أن قول « زرادشت » بأن الخير والشرّ ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حدثت من امتزاج النور والظلمة. يلاحظ أن هذا القول يتفق مع أحدث النظريات الفلسفية والأخلاقية التي تقول ، بأن الخير والشر لا يوجدان خالصين . . فالخير ممتزج بالشر ، والشرّ معه الخير . .

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً » . .

الخير والشر فى معايير الفلسفة الحديثة :

ولا بد لنا من نظرة إلى عصرنا هذا ، وإلى نظرته إلى الخير والشر ، عند العلماء ، والفلاسفة ، ورجال الدّين والأخلاق . .

فلقد عنيت الفلسفة الحديثة بالسلوك الإنسانى ، وجعلت الإنسان موضوعا بارزا من موضوعات الدراسة والنظر فى منهجها .

كان ما وراء الطبيعة فى الفلسفة القديمة ، هو كل ما يشغل الفلاسفة ، ويسيطر على

تفكيرهم . . فجاءت نظرياتهم تخطيطا لصور من المثاليات القائمة على

---

(1) انظر الملل والنحل للشهرستانى . . ج 2 ص 69 وما بعدها .

(182/509)

التصورات والفروض . . وطبيعىّ ألا يكون للإنسان حظ بارز فى هذه الفلسفة .

وكانت دعوة « أرسطو » إلى النظر فى عالم الواقع والحسّ ، فى كلمته المشهورة : « اعرف نفسك » . كانت هذه الدعوة جديرة بأن تؤتى ثمارها ، لو أنها تناولت الإنسان من حيث هو كائن حىّ من كائنات الطبيعة . . ولكن هذه الدعوة نقلت الفلسفة من النظر فى السماء ، إلى النظر فيما وراء المحسوس من الإنسان . . من روح ، ونفس ، وعقل ، ولم توجّه النظر إلى المادة ، ومظاهر الطبيعة التي يعيش الإنسان فيها ، بل ويعيش منها وعليها . .

أما فى هذا العصر ، ومنذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، فقد فتن الناس بالواقع التجربي ، الذي يقوم على الاختيار الحسىّ ، وأصبحت المعامل التجريبية لعلوم الطبيعة وظواهرها ، ميدان الصراع العقلي بين العلماء . .

فتلون التفكير الفلسفي بالصبغة العملية ، وتغير منهج الفلسفة . . فبعد أن كانت مراحل

التفكير الفلسفي تبدأ من السماء ، ثم تنتهى أو لا تكاد تنتهى إلى الأرض.أصبحت الفلسفة تبدأ من الأرض ، ثم تنتهى أو لا تنتهى إلى السماء . . !

وطبيعى أن يظفر الإنسان بالنّصيب الأوفر من عناية الفلاسفة المعاصرين . .

إذ كانت الطبيعة موضوع فلسفتهم ، وكان الإنسان هو أعلى ، وأعظم ظاهرة فيها . .

ولما كان الخير والشرّ جانبين بارزين فى تكفير الإنسان ، وفى سلوكه ، فقد عنيت بهما الفلسفة ، فيما عنيت به من شأن الإنسان ، وحاولت الفلسفة جهدها أن تحدد « القيمة » لكل من الخير والشرّ ، وأن تضع الموازين والضوابط لهما . .

وتصور . . كيف يكون الحال ، لو عرف الناس ميزانا دقيقا يزنون به تصرفاتهم.قبل أن تقع. وتبيّنوا جانب الخير ، وجانب الشر منها ؟ إن إنسانا لن يمدّ يده ، أو يسعى برجله ، إلى شر أبدا . . وكيف وقد استبان له وجه الخير والشرّ ، على الصورة التي يقعان بها ؟ .

وقد تقول : إن كثيرا من الأمور يعرف الناس وجه الخير والشرّ فيها ، ومع هذا ، فإنهم يواقعون الشرّ وعيونهم مفتوحة له ! فهناك شرّ صراح لا خفاء فيه ، ومع هذا فإنه واقع فى سلوك الناس . . قد تقول هذا ! ونحن نوافقك على هذا الاعتراض ، ولكن على شرط أن

تتفق معنا على أن مثل هذا الشرّ غير مصحوب « بالحتمية » التي تجعل وقوعه أمرا لازما ، لا مفرّ منه ، عند الذين يتلبّسون به على الأقل . . فإن هناك صورا من الاحتمالية تثور دائما فى وجه ما يبدو أنه شرّ محض ! وهذه « الاحتمالية » هى الضباب الذي يخفى كثيرا من وجوه الشرّ ، فيما هو شر ، وهى السراب الخادع الذي يضلل الإنسان ، ويغريه بفعل ما هو شر ، وإن كان يراه رأى العين ! ! ولا شك أن رغباتنا ، وعواطفنا ، تلعبان دورا هاما ، فى مجال العمليات الاحتمالية ، فتقويها أو تضعفها ، على حسب ما عندنا من رغبات وعواطف نحو الشر الذي نقف إزاءه ، وما عندنا من إرادة ، وعزم ، وثورة ، على ضبط هذه الرغبات ، وكبح جماح تلك العواطف ! ! ومع هذا ، فإننا نقول : إنه من الخير أن يظلّ الخير والشرّ فى هذه السّحب التي تحجب الكثير من معالمها ، فيكون « للاحتمالية » ومكانها فى الخير أن يكون شرا ، وفى الشرّ أن يكون خيرا . وبذلك تقوم دواعى العمل ، ويكون للحياة

دورانها ، وللناس سعيهم فى كل وجه ، فيعملون فيما يحسبون أنه خير ، وإن جاء بالشر ! ! « وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » ولو استبان للناس وجه الخير صريحا ، لكان ركب الحياة كلّه متجها إلى هذا الوجه وحده ، ولكان الناس على طريق واحد ! ! ولكن أي ركب هذا الذي يأخذ طريقا واحدا ؟ إنه ركب جامد صامت لا حركة فيه . . إنه أشبه بالتيار الموجب فى القوة الكهربائية . . لا يعمل ، ولا يتحرك ، ولا تصدر عنه فاعلية فى إحداث حرارة أو ضوء ، إلا إذا اتصل بالتيار السالب ، وتفاعل معه ! .

إن معالجتنا للأمور ، لا تظهر نتائجها إلا بعد أن نفرغ منها ، ونخرج من أيدينا ، ولو استدارت لنا عواقب الأمور ، فرأيناها قبل أن نعالجها ، لكان شأننا فى الحياة غير هذه الشأن ، فما أخطأ مخطئ ، ولا خسر خاسر ، ولا أصيب مصاب . . وهكذا ، مما يقع للناس ، مما يسوؤهم . . ولكان شاعرا كابن الرومىّ على غير ما كان عليه ، من الخوف ، والتردد ، والعجز ، عن لقاء الحياة . . ولما قال هذا القول ، مصورا به نفسه :

أقدّم رجلا رغبة فى رغيبة وأمسك أخرى رهبة للمعاطب

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب !

ونعود فنقول إن الفلسفة الحديثة ، وإن بدأت بالنظر إلى الإنسان ، ممثلا فى المجتمع الإنسانى ، فإنها انتهت بالإنسانية ممثلة فى الإنسان . . بمعنى أن الإنسان من حيث هو كائن له ذاتيته ، وله مدركاته ، ومشاعره . هذا الإنسان هو الذي أصبح مركز الدائرة التي تدور حولها الفلسفة الحديثة . . وإذا كان لها نظر إلى المجتمع الإنسانى ، وإلى الروابط التي تربط

الفرد بالجماعة، فهو نظر جانبى يجىء تبعا للنظرة المتجهة اتجاها مباشرا إلى الإنسان وحده.

(185/509)

ومن هنا كان الحكم على الخير والشر - فى تقدير الفلسفة الحديثة - قائما على أساس فردى بحت، بمعنى أن الفرد - والفرد وحده - هو الذي له أن يحكم على هذا الأمر بأنه خير أو شر، ثم إنه ليس هذا بالذي يمنع من أن يجىء غيره فينقض عليه حكمه، فيرى ما رآه غيره خيرا، شرا، وما رآه شرا، هو عنده خير..

وعلى هذا، فهناك - عند الفلسفة الحديثة - خير وشر، ولكن لا ذاتية للخير أو الشرّ، بل هما أمران اعتباريّان، فالخير ما رآه الإنسان خيرا. والشر ما رآه شرا.. وإنه لا خير ولا شرّ فى حقيقة الأمر!! وفى هذا يقول الفيلسوف الأمريكى «وليم جيمس»: «إن الإنسان هو مصدر الخير والشرّ، والفضيلة والرذيلة.. إن الخير خير بالنسبة له، والشرّ شر بالقياس إليه.. إن الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم فى ذلك العالم، وليس للأشياء من قيمة خلقية إلا باعتباره هو»!! ويمكن أن يكون هذا الرأى تلخيصا للفلسفة الحديثة، وإن دخلت عليه بعض الألوان والأصباغ، فإن اللون الغالب فيه هو هذا اللون الذي يجعل

للإنسان وحده تقييم الأشياء ، وتصنيفها ، ووضع كل شيء منها في موضعه من الخير والشر ، والحسن والقبح . . !

الخير والشرّ في نظر الإسلام :

لا تحفل الشريعة الإسلامية بالنظر الفلسفي في حقائق الأشياء ، ولا تعنى بالجدل اللفظي حول ماهيتها ، لأن غاية هذه الشريعة ليست تربية الملكات العقلية ، ولا تخريج الفلاسفة والحكماء ، وإنما رسالتها تقوم أساسا على تقويم السلوك ، وتهذيب النفوس ، وإقامة مجتمعات إنسانية على مبادئ الخير والعدل والإحسان .

ومن هنا ، لا نجد في الشريعة الإسلامية تلك التعريفات الجامعة المانعة - كما يقولون - للخير والشرّ ، والحقّ والباطل ، والحسن والقبيح ، وغير ذلك من الصور التي عنى الفلاسفة والأخلاقيون ، بتحليلها ، والتعرف على عناصرها ، وجمع الصفات المميزة لكل واحد منها . .

(186/509)

فإذا قال الفلاسفة والأخلاقيون : « إن الحق هو كذا ، والخير هو كذا ، والحسن كذا - لم نجد في كتاب اللّه ولا سنّة رسوله قولا عن الحق . . ما هو ؟

والخير ما هو؟ والحسن ما هو؟ وإنما نجد دعوات إلى الحق، والخير، والإحسان، وإغراء بها، وتحريضا عليها، ورصدا للجزاء الحسن لمن استقام عليها.. كذلك نجد عكس هذا، إزاء كل ما هو باطل، وشر، وخبيث!.

ولم يكن إغفال الشريعة الإسلامية لرسم حدود الفضائل، وتقويم الأخلاق عن تهوين لشأنها، أو استصغار لخطرها.. وكيف وغاية الشريعة ومقصدها أولا وأخيرا، إنما هو تقويم الأخلاق، وتربيتها، وإقامتها على منهج سليم مستقيم! وكيف والنبىّ الكريم يجعل عنوان رسالته، ويحصر مهمة نبوته فى هذا المجال وحده: فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»؟

فليس عن تهوين إذن من شأن الأخلاق، ولا عن استصغار لخطرها، هذا الاتجاه الذي اتجهت إليه الشريعة فى إغفالها البحث عن «ماهية» الأخلاق.. إذ كان مقصد الشريعة وهدفها - كما قلنا - هو الجانب العملي للأخلاق.. الجانب السلوكى، الذي لا يغنى فى تعديله وتقويمه، الجدل الفلسفي، أو النظر المنطقي، وإنما الذي يرجى منه النفع فى هذا المقام، هو إثارة مشاعر السموّ النفسي فى الإنسان، ووصله بالمجتمع الإنسانى بصلات الأخوة، والحنان والرحمة.. فذلك هو الذي يقيم من الإنسان إنسانا صالحا فى بناء مجتمع صالح.

فالقرآن الكريم يحضّ على الأعمال الصالحة ويزكيها، ويرفع منازل أهلها، ويعدهم بجنات

اللّه ورضوانه عليها . .

يذكر القرآن الكريم « التقوى » فى مواضع كثيرة ، مثل

(187/509)

قوله تعالى :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ »

. . (الأحزاب : 70 ـ 71) فما هو العمل الصالح ؟ وما هى التقوى ؟ وما القول السديد ؟ . . كل ذلك لم يشأ القرآن الكريم أن يعرض له بالكشف عن « ماهيته » ورسم حدوده . .

نعم ، هناك أمور واضحة صريحة فى باب الخير ، كما أن هناك أمورا واضحة صريحة فى باب الشر . . ولكنها على هذا الوضوح ، ومع تلك الصراحة ، لا تقع من النفوس موقعا واحدا . . فإذا اتفقت النفوس على أن العدل جميل . . فإنه فى نفس عمر بن الخطاب مثلا ، غيره فى نفس كثير من الناس . . هو خير لا شك فيه . . تدعو إليه الشريعة وتأمر به ، وتثيب عليه . . ولكنها لا تستطيع أن تضعه فى معادلة جبرية . أو تحلله تحليلا كيماويا . . إنه العدل ، وكفى ! وإنه الخير وكفى ! « الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما

أمور مشتبهات » هكذا يقول الرسول الكريم . . وليست الشبهة فى الحلال فى ذاته ، أو الحرام فى ذاته ، وإنما تقع الشبهة فى الملابسات التي تلابس الحلال أو الحرام ، وفى الوضع الذي يكون عليه الإنسان إزاء ما هو حلال وحرام . . !

أتترك الأمور إذن بلا ضابط هكذا ؟ . .

كلا . . ومن قال هذا ؟

إن ربّان السفينة إذا أدار محركها أو فرد قلوعها ، هو هالك لا محالة ، إذا هو لم يعرف الوجهة التي يتجه إليها ، وإذا لم يكن معه « بوصلة » أو ما يشبهها ، ليستعين بها على معرفة الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وإذا لم يكن معه « بوصلة » أخرى أو ما يشبهها ، يقيس بها الأعماق ، أو يستدلّ بها على مهابّ الرياح ! والإنسان هو سفينة فى محيط هذه الحياة . . ربّانه العقل ، وقلوعه النفس ، ونزعاته وأهواؤه ، هى التي تملأ قلوعها وتدفعها . . . !

لا بد إذن من « بوصلة » تضبط سيره ، وتحدد وجهته . .

وما غفلت قدرة الحكيم العليم عن هذا . . تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا . .

وكيف ، وهو الذي أعطى كلّ شىء خلقه . . ثم هدى » ؟

لقد أودع الخالق العظيم فى الإنسان أدقّ « بوصلة » وأضبطها . . إنها « القلب » . . وحسبك بالقلب السليم « بوصلة » عاملة فى سفينة الحياة ! لقد اعتمد الإسلام على القلب فى تقويم الأخلاق ، وفى التعرف على الخير والشر ، والحسن والقبيح . . ووكل إليه الفصل فى خير الأمور وشرها ، وحسنها وقبيحها . .

إن القلب فى نظر الإسلام ، هو العين الباصرة ، التي تكشف للإنسان مسالكه ، وتحديد المستقيم والمعوجّ من طرقه . .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تتجه إلى القلب وتتحدث إليه . . فيقول سبحانه وتعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » (37 : ق) ويقول سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ . . أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » (28 : الرعد) .

والرسول الكريم ، ينوّه بشأن القلب ، ويكشف عن آثاره فى الإنسان ، فيقول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ « ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صالحات صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه . . ألا وهى القلب » . .

ويقول الرسول الكريم فى تعريف الخير والشر ، وفى التعريف عليهما :

« البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردّد فى الصدر . . استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » . .

الإسلام إذن ، يعترف بالخير والشرّ . . لأنهما أمران واقعان فى الحياة ، يعيشان فى الناس

، ويعيش فيهما الناس . . وقد جاءت الشريعة الإسلامية آمرة بالخير ، ناهية عن الشر . . وأشارت إلى أمور بذاتها عدّتها خيرا ، وأخرى اعتبرتها شرّا . . ثم جمعت الخير كله فى دائرة واحدة هى « المعروف » وطوت الشر كله تحت حكم واحد ، هو « المنكر » : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » .

(189/509)

فالخير هو « المعروف » أو وجه بارز من وجوه المعروف ، والشر هو المنكر ، أو وجه كالح من وجوه « المنكر » . . والسؤال هنا ـ ونحن فى معرض البحث عن الخير والشر ـ إذا كان الخير أمرا محمودا ، ودعوة من دعوات السماء إلى لقائه ، والعمل به ـ فلم كان هذا الشرّ ؟ وما حكمة وجوده ؟

الشرّ موجود . . هذه حقيقة مسلّم بها ، لا سبيل إلى إنكارها ، أو تجاهلها ! أمّا ، لما ذا وجد ؟ وما حكمة وجوده ؟ وهلّا محضت الحياة للخير ، وخلصت الشرّ ؟ . .

أما هذا ، فهو الذي يدور حوله الخلاف ، ويكثر فيه الجدل . .

وقد تجنب الإسلام ـ منذ قام ـ إيقاظ هذه الفتنة ، فلم يطرق بابها من أية جهة ، ولم يشر إليها من قريب أو بعيد . . والحكمة فى هذا ظاهرة . .

إذ لا جدوى من أن يقيم الإسلام لوجود الشرّ علة أو عللا . . إنه موجود . . وكفى . . « وحسبك من شرّ سماعه » ! . . والحزم كل الحزم فى توقّيه ، ودفعه ، والخلاص منه . .

إنه لمن السفاهة الغليظة ، والخسران المبين ، أن يرى الإنسان حيوانا يريد أن ينقضّ عليه ويفترسه ، ثم لا يطلب النجاة لنفسه ، بل يستغرق فى تأملات سخيفة ليجيب على هذا السؤال : ما هذا الحيوان المؤذى ؟ ولم كان ؟

لم يرد الإسلام أن يسوق أتباعه إلى هذه المواقف الخاسرة . . بل صرفهم عنها صرفا ، وخلّى بينهم وبين الحياة بخيرها وشرها بعد أن أراهم منازل الخير وثمراته ، وأطمعهم فيه ، ودعاهم إليه ، ثم أراهم مزالق الشرّ ، ومغباته ، وخوّفهم منه ، وتوعدهم على الاتصال به . .

أليس ذلك هو النهج القاصد ، والطريق المستقيم فى تقديم الأخلاق وتربية النفوس ؟

لقد كان ذلك هو طريق الإسلام ، وكان ذلك هو موقفه حيال هذه القضية . . لم يوقد نارها ، ولم يلق لها وقودا . .

ولكن حين اتصل المسلمون بالأمم المجاورة ، وعرفوا شيئا من فلسفة اليونان والهند ، وشيئا من معتقدات الفرس ، تحركت فى نفوسهم هذه الفتنة « الخالدة » . . لماذا وجد الشر ؟

وقد فتحت الإجابة على هذا السؤال باب فتنة ، أخذ يتسع شيئًا فشيئًا ، حتى دخله المسلمون جميعا ، وانقسموا إلى فرق وطوائف ، ولكل فرقة مقولاتها ولكل طائفة حججها . . حتى كان من ذلك الجدل محصول وفير من الكلام ! ! ولا نريد أن نعرض لهذا الجدل ، فهو مبسوط فى كتب علم الكلام « 1 » .

والذي نحبّ أن نقرره هنا . . هو أن الإسلام يوجّه اهتمامه أولا وقبل كل شىء ، إلى مجاهدة الشر الذي يعيش فى مجال الناس فعلا ، وإلى محاولة التغلب عليه ، والانتصار للخير ، والانحياز إلى جانبه . . فذلك هو الجدير بالإنسان ، من حيث هو إنسان ، يحترم عقله ، ويستهدى بقلبه ، ومن حيث هو كائن اجتماعي ، يعيش فى المجتمع الإنسانى . . ومن خيره وخير الجماعة أن يكون عضوا فى هذا المجتمع الكبير ، يسعد بسعادته ، ويشقى بشقائه . .

إن الإسلام ، لا يضع الشرّ فى مجال العدم بالنسبة للخير ، بل يراه كيانا قائما بذاته إزاء الخير . . فللشر - فى نظر الإسلام - ذاتية قائمة فى الحياة ، وعلى الناس أن يأخذوا حذرهم منه ، وأن يعملوا له حسابا فى موازنة الأمور التي تعرض لهم .

لقد حاول كثير من مفكرى الإسلام، أن يهوّنوا من شأن الشرّ، وأن يجعلوا وجوده فى الحياة، شيئًا عارضا، يجىء فى ثنايا الخير! وكأنهم أرادوا بهذا أن يبرّئوا صنع اللّه من هذا النقص، الذي يلحق بالوجود، إذا قيل إن الشرّ قد نجم فيه!! وهذا دفاع غير موفق.. إذ أنه ينكر أمرا واقعا يعيش فى الناس.. وهو الشرّ.. وكان خيرا من هذا الدفاع أن يعترفوا بالشر.. ولكنه شرّ لا يرتفع

---

(1) انظر فى هذا كتابنا «القضاء والقدر.. بين الفلسفة والدين».

إلى أكثر من ضرورات الحياة.. الحياة الإنسانية، التي يعتبر الشرّ فيها عنصرا من العناصر العاملة فى دفع عجلة الحياة، ودوران دولاب العمل فيها..

يقول الجاحظ: «اعلم أن المصلحة فى ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها، والكثرة بالقلّة.. ولو كان الشرّ صرفا، لهلك الخلق، أو كان الخير محضا لسقطت المحنة، وتعطلت أسباب الفكرة..

ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير، ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التدبير، ولا دفع المضرّة، ولا اختلاف

المنفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل فى جانب، ولا تنافس فى درجة، وبطلت فرحة الظفر، وعزّة الغلبة . . ولم يكن على ظهرها (أي الدنيا) محقّ يجد عزّ الحقّ، ومبطل يجد ذلّ الباطل، وموفّق يجد برد اليقين . . ولم يكن للنفوس آمال، ولم تتشعّبها الأطماع « 1 » » .

فالجاحظ هنا يكشف عن الدور، الذي يؤديه التفاوت بين الأمور، فى امتداد مجال التنافس بين الناس . .

إن الاختلاف بين الأشياء فى مجال الخير والشرّ، هو الذي يملأ كل فراغ فى الحياة، ويفسح لكل إنسان مكانا فى قافلة الحياة، حسب استعداده، ونزعاته . . وهكذا تتحرك الحياة كلها، فى آفاقها الصاعدة والنازلة، على السواء ! .

والذي ينظر إلى الحياة نظرة فردية جانبية، يرى هذا التفاوت بين الناس

---

(1) الحيوان: للجاحظ . . جزء: 1 ص: 96.

وأوضاعهم فى هذه الحياة . . فيرى قمما عالية، بينما يرى سفوحا، ومنحدرات، بل وحفرا . . ولكنه إذا نظر إلى الحياة عامة شاملة، لم ير إلا وحدة منتظمة، وإلّا سطحا

مستويا ، لا نجود فيه ، ولا منحدرات . . كالذى ينظر من طائرة محلّقة فى آفاق السماء ، إلى مدينة واسعة الأرجاء . . إنه يرى دورها وقصورها ، وأكواخها ، ونواطح سحبها . فى مستوى واحد . . كسطح أملس ، لا فرق بين الأكواخ والقصور . .

يقول الفيلسوف الأمريكى « بوردن باركرباون » : « إن أفراد الناس يؤثّر بعضهم فى بعض ، وقد يعارض بعضهم بعضا . . لكن هذا التضادّ بينهم ، وهذا الانفصال والتجزؤ ، يذوب كله فى عنصر واحد يحويهم جميعا . .

وما قد يبدو فى عالم الجزئيات تضادّا ، إن هو فى حقيقة الأمر إلا اتساق ، لو نظر إليه من أعلى نظرة ترى تفصيلات الوجود كلها واحدة فى كلّ واحد » .

فهذا الفهم للحياة ، لا ينكر وجود الشرّ وذاتيته فى واقع الحياة الإنسانية ، ولكنه حين يرتفع بالنظر عن الحياة الإنسانية الفردية ، وعن مستوى هذه الأرض ، لا يرى إلا عالما مشرقا ، يفيض بالحسن والجمال .

إن حواسّنا ، ومشاعرنا ، ومداركنا ، مضبوطة على مستوى هذا الوجود الأرضى الذي نعيش فيه . . وهذا التناقض ، والتضادّ ، والتعاند ، الذي نراه ـ هو مما يقتضيه وجودنا ، وتولده حاجاتنا ، وتحققه مدركاتنا وحواسنا .

ويقول الجاحظ : « وأظنك ممن يرى الطاووس ، أكرم على اللّه من الغراب ، وأن الغزال أحبّ إلى اللّه من الذئب . . فإنما هذه أمور فرّقها اللّه اللّه تعالى فى عيون الناس ، وميّزها

فى طبائع العباد ، فجعل بعضها أقرب بهم شبها ، وجعل بعضها إنسيّا ، وجعل بعضها وحشيّا ، وبعضها عاديا ، وبعضها قاتلا . .

وكذلك الدرّة والخرزة ، والنمرة ، والجمرة . . فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يراك العقل . .

« وللأمور حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول . . والعقل هو الحجة . . وقد علمنا أن خزنة النار من الملائكة ، ليسوا بدون خزنة الجنة ، وأن ملك الموت ليس دون ملك السحاب ، وإن أتانا بالغيث ، وجلب الحياة » « 1 » .

والذي يعنينا من هذا الكلام ، أن الموجودات إنما تأخذ كيفيتها على حسب مدركاتنا ، أو بمعنى أصحّ ، أننا نكيّف الموجودات حسب وقوعها على حواسنا ومدركاتنا . .

وإذا كان الإسلام قد جعل معيار الأخلاق وتقويمها إلى بصيرة الإنسان ، يحتكم فيها إلى قلبه ، ويرجع فيها إلى ضميره. فإنه لم يغفل عن الجانب الضعيف فى الإنسان ، ذلك الجانب الذي تهبّ من جهته الأهواء الذاتية ، والشهوات الشخصية ، فتثير الاضطراب فى كيان الإنسان ، وتنذره بالهلاك الذي يتهدد سفينته الضاربة فى محيط الحياة . . ففى كيان

الإنسان نفس أمّارة بالسوء ، ورغبات نزّاعة إلى الهوى . .

لهذا كانت تعاليم الإسلام ، موجهة إلى تقوية هذا الجانب الضعيف فى الإنسان ، ودعمه بكل ما يضمن للإنسان الأمن والسلام من هذا الجانب ، لو أنه اتبع وصايا الشريعة ، وعمل بها ،

---

(1) الحيوان . . للجاحظ . جزء 1 ص 197 .

ومما جاء به الإسلام فى هذا :

أولا : أنه جعل الخير خيرا فى ذاته ، والشرّ شرّا فى ذاته ، ولم يلتفت إلى تلك التصورات الذهنية الطبيعة الشر والخير ، وإنما نظر إليهما على أنهما كائنان قائمان فى الحياة ، يشعر بهما المرء ، ويجد آثارهما فى نفسه . .

فالنار إذ يستدفىء الإنسان بها خير ، والنار إذ تحرقه ، شر . . إنها خير وخير محض فى حال ، وشر وشر محض فى حال . . هذا جانب الخير يراه الإنسان فى الأشياء حين يقيسها إلى نفسه ، ويحكم عليها بما تقتضيه مصلحته . . ومثل هذا جانب الشر ، الذي يراه الإنسان فى الأشياء ، حين يأخذها بمعياره الشخصي الذاتىّ أيضا .

ولا تحسبنّ الإسلام يجعل الخير والشر محصورين فى دائرة الإنسان الذاتية ، وفى الجانب الحسّىّ من هذه الدائرة . . أي جانب اللذة والألم . .

وكلّا . . فهذا جانب وإن لم ينكره الإسلام فى تقويم الخير والشر ، لأنه قائم فى الحياة ، لا يستطيع الناس الانفصال عنه ، إلا أن الإسلام ـ فوق هذا ـ يعلو بهذا الإحساس ، فيرتفع ، عن الجانب المادّى إلى الجانب الروحي ، ومن جانب الذاتية الفردية فى الإنسان ، إلى جانب المجتمع الإنسانى من أضيق حدوده إلى آخرها ، امتدادا واتساعا . . ومن أجل هذا كانت دعوة الإسلام إلى التخفيف من متاع الدنيا ، كما كانت دعوته إلى البذل ، والإيثار ، والتضحية ، ثم كان وعده بالثواب والعقاب ، والجنة والنار فى الآخرة .

وثانيا : كشف الإسلام للناس عن كثير من وجوه الخير والشرّ ، إذ نصّ على كثير من الأمور اعتبرها خيرا ، ودعا الناس إليها ، وأمرهم بها ، ووعدهم الجزاء الحسن عليها . . كالصدق ، والصبر ، وبرّ الوالدين ، والإحسان إلى الناس ، بالقول والعمل ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل . . وكثير غير هذا ، مما ثبت عند الناس خيره ، ووجدوا آثاره الطيبة فى حياتهم الخاصة والعامة على السّواء .

وكما كشف الإسلام عن كثير من وجوه الخير ، كشف كذلك عن كثير من وجوه الشرّ ، كالقتل ، والسرقة ، والخمر ، والميسر ، والزنا ، والربا ، والكذب ، وشهادة الزور ، والغيبة

، والنميمة ، والنفاق ، والغش ، والظلم والبغي ، والعدوان ، وكثير غير هذا ، مما جاء به القرآن ، وبيّنته السنّة المطهرة . .

(195/509)

ولا شك أن الإسلام إذ يكشف عن وجوه الخير والشر ، فإنما ليؤكد ما استقرّ فى ضمير الناس ، وما وقع لعقولهم وقلوبهم من هذه الوجوه كلها ، وبهذا تلتقى فى قلب المسلم كلمة السماء ، مع منطق العقل ، وواقع الحياة . . فيقبل على الخير ، ويعيش معه ، وينأى عن الشرّ ، ويحاذر الاتصال به ! وإنه لا حجة لذى عقل على أن اللّه سبحانه هو الذي أوجد الشرّ ، كما أوجد الإنسان الذي يتعامل معه ، وإذن فلا يحاسب على لقاء شىء كتب عليه أن يلقاه. لا حجة لذى عقل على هذا ، فإنه كما أوجد اللّه الشرّ ، أوجد الخير ، ثم دعا إلى الخير ، وحذّر من الشرّ ، وجعل للإنسان عقلا ينصرف به إلى الخير والشرّ . ثم جعل للخير أثرا طيبا فى عاجل الإنسان وآجله ، وجعل للشر أثرا سيئا فى عاجله وآجله . . فإذا انصرف الإنسان عما ينفعه إلى ما يضرّه ، وآثر ما يسوؤه على ما يسرّه ، فهو الذي جلب على نفسه ما جلب من مكروه ، لأنه هو الذي آثره ، ورضى به ! إن الحياة بخيرها وشرها ، أشبه بمائدة ممدودة ، عليها ألوان من الأطعمة ، بعضها طيب ، يفيد الجسم

وينمّيه ، وبعضها خبيث يعطب الجسم ويفسده . وعلى كل لون من ألوان الطعام لافتة

تحدد صفته ، وتكشف عن حقيقته ، وأثره

فيمن يتناوله . . وليس هذا فحسب ، بل إنه يقوم على هذه المائدة ناصح أمين ، يدعو إلى

الأكل من الطيب ، ويحذر من مدّ الأيدى إلى الخبيث : « يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ

حَلالًا طَيِّباً . . وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ . . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » (168 : البقرة)

على أنه ليس لهذا الناصح أن يمسك بأيدى الآكلين على هذا الطعام أو ذاك : « بَلِ الْإِنْسانُ

عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ »

: 14)

القيامة) . . « قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها » (104

: الأنعام) . .

(196/509)

إن الإسلام ليحترم الإنسان ، ويرفع قدره ، ويعلى منزلته ، ويخرج به عن دائرة الطفولة إلى

مجال الرشد ، وحمل المسئولية . . وقد أمدّه الإسلام بأمداد الرعاية والهداية ، بما بعث من

رسول كريم ، يحمل بين يديه آيات اللّه وكلماته وضيئة مشرقة ، تجلو غياهب الرّيب ،

وتكشف وجوه المنكر ، فالحلال بيّن والحرام بيّن . . وما على الإنسان إلا أن يجمع رأيه ، ويحزم أمره على اختيار الطريق السويّ . . طريق الخير ، والحق ، والإحسان . . واجتناب الطرق المليئة بالمعاثر والمهالك . . طرق الشر ، والبغي ، والعدوان . . أما التحكك بالمماحكات والسفسطات ، فجدل عقيم لا يلد إلّا البوار والهلاك . . والعاقل من دان نفسه قبل أن يدان ، وتوقّى الشرّ قبل أن يقع فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴾

التفسير القرآني للقرآن حـ 9 صـ 869.896 ﴾

(197/509)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه ، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس .

فعقب ذكرها بالامتنان بقوله تعالى : ﴿ أن تميد بهم ﴾ [الأنبياء : 31] وبقوله تعالى : ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ [الأنبياء : 31] .

وأمّا حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان ، ولكنه ذكر إعراضهم

عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقب بقوله تعالى : ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ .

فأُدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها ، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به .

والسقف ، حقيقته : غطاء فضاء البيت الموضوع على جدرانه ، ولا يقال السقف على غطاء الخباء والخيمة .

وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ ، أي جعلناها كالسقف لأن السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض ، قال تعالى : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ وقد تقدم في أول سورة الرعد (2) .

وجملة ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ في موضع الحال .

وآيات السماء ما تشتمل عليه السماء من الشمس والقمر والكواكب والشهب وسيرها وشروقها وغروبها وظهورها وغيبتها ، وابتناء ذلك على حساب قويم وترتيب عجيب ، وكلها دلائل على الحكمة البالغة فلذلك سماها آيات .

وكذلك ما يبدو لنا من جهة السماء مثل السحاب والبرق والرعد .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

لما كانت في إيجاد هذه الأشياء المعدودة هنا منافع للناس سيقت في معرض المنة بصوغها في صيغة الجملة الاسمية المعرّفة الجزأين لإفادة القصر ، وهو قصر إفراد إضافي بتنزيل المخاطبين من المشركين منزلة من يعتقد أن أصنامهم مشاركة لله في خلق تلك الأشياء ، لأنهم لما عبدوا الأصنام ، والعبادة شكر ، لزمهم أنهم يشكرونها وقد جعلوها شركاء لله فلزمهم أنهم يزعمون أنها شريكة لله في خلق ما خلق لينتقل من ذلك إلى إبطال إشراكهم إياها في الإلهية .

ولكون المنة والعبرة في إيجاد نفس الليل والنهار ، ونفس الشمس والقمر ، لا في إيجادها على حالة خاصة ، جيء هنا بفعل الخلق لا بفعل الجعل .

وخلق الليل هو جزئي من جزئيات خلق الظلمة التي أوجد الله الكائنات فيها قبل خلق الأجسام التي تُفيض النور على الموجودات ، فإن الظلمة عدم والنور وجودي وهو ضد الظلمة ، والعدم سابق للوجود فالحالة السابقة لوجود الأجرام النيرة هي الظلمة ، والليل ظلمة ترجع لجرم الأرض عند انصراف الأشعة عن الأرض .

وأما خلق النهار فهو بخلق الشمس ومن توجُّه أشعتها إلى النصف المقابل للأشعة من الكرة

الأرضية ، فخلْق النهار تبع لخلق الشمس وخلقِ الأرض ومقابلةِ الأرض لأشعة الشمس ، ولذلك كان لذكر خلق الشمس عقب ذكر خلق النهار مناسبة قوية للتنبيه على منشأ خلق النهار كما هو معلوم .

وأما ذكر خلق القمر فلمناسبة خلق الشمس ، وللتذكير بمنة إيجاد ما ينير على الناس بعض النور في بعض أوقات الظلمة .

وكل ذلك من المنن .

(199/509)

﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه لما ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكراً مجملاً في بعضها الذي هو آيات السماء ، ومفصلاً في بعض آخر وهو الشمس والقمر ، كان المقامُ مثيراً في نفوس السامعين سؤالاً عن كيفية سيرها وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلف عن الظهور في وقته المعلوم ، فأجيب بأن كل المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره .

وضمير ﴿ يسبحون ﴾ عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر .

وأجري عليها ضمير جماعة الذكور باعتبار تذكير أسماء بعضها مثل القَمر والكوكب .

وقال في "الكشاف" : "إنه روعي فيه وصفُها بالسباحة التي هي من أفعال العقلاء فأجري عليها أيضاً ضمير العقلاء ، يعني فيكون ذلك ترشيحاً للاستعارة" .

وقوله تعالى ﴿ في فلك ﴾ ظرف مستقر خبر عن ﴿ كلّ ﴾ ، و﴿ كل ﴾ مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، أي كل تلك ، فهو معرِفة تقديراً .

وهو المقصود من الاستئناف بأن يفاد أن كلاًّ من المذكورات مستقر في فلَك لا يصادم فلَك غيره ، وقد علم من لفظ (كل) ومن ظرفية (في) أن لفظ ﴿ فلك ﴾ عام ، أي لكل منها فلكُه فهي أفلاك كثيرة .

وجملة ﴿ يسْبحون ﴾ في موضع الحال .

والسبح : مستعار للسير في متسع لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض ، وهو تقريب لسير الكواكب في الفضاء العظيم .

والفلك فسره أهل اللغة بأنه مدار النجوم ، وكذلك فسره المفسرون لهذه الآية ولم يذكروا أنه مستعمل في هذا المعنى في كلام العرب .

ويغلِب على ظني أنه من مصطلحات القرآن ومنه أخذه علماء الإسلام وهو أحسن ما يعبر عنه عن الدوائر المفروضة التي يضبط بها سير كوكب من الكواكب وخاصة سير الشمس وسير القمر .

والأظهر أن القرآن نقله من فلك البحر وهو الموج المستدير بتنزيل اسم الجمع منزلة المفرد .

والأصل الأصيل في ذلك كله فَلْكَةُ المَغْزِل بفتح الفاء وسكون اللام وهي خشبة مستديرة في أعلاها مِسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفتل الغَزْل .

ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أن قوله تعالى : ﴿ كل في فلك ﴾ فيه محسّن بديعي فإن حروفه تُقرأ من آخرها على الترتيب كما تُقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ربك فكبِّر ﴾ [المدّثر : 3] بطرح واو العطف ، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف ، وهذا النوع سمّاه السكاكي "المقلوبَ المستوي" وجعله من أصناف نوع سمّاه القَلب .

وخص هذا الصنف بما يتأتى القلب في حروف كلماته .

وسمّاه الحريري في "المقامات" "ما لا يستحيل بالانعكاس" وبنَى عليه المقامة السادسة عشرَة ووضح أمثلة نثراً ونظماً ، وفي معظم ما وضعه من الأمثلة تكلف وتنافر وغرابة ، وكذلك ما وضعه غيره على تفاوتها في ذلك والشواهد مذكورة في كتب البديع فعليك بتتبعها ، وكلما زادت طولاً زادت ثقلاً .

قال العلامة الشيرازي في "شرح المفتاح" : وهو نوع صعب المسلك قليل الاستعمال .

قلت : ولم يذكروا منه شيئاً وقع في كلام العرب فهو من مبتكرات القرآن .

ذكر أهل الأدب أن القاضي الفاضل البيساني زارَ العمادَ الكاتب فلما ركب لينصرف من عنده قال له العماد : "سِرْ فلا كبَا بك الفرس" ففطن القاضي أن فيه محسن القلب فأجابه على البديهة : "دَام عُلا العماد" وفيه محسن القلب .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾

(201/509)

عُنيت الآيات من أول السورة باستقصاء مطاعن المشركين في القرآن ومن جاء به بقولهم ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون ﴾ [الأنبياء : 3] ، وقولهم : ﴿ أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ [الأنبياء : 5] وكان من جملة أمانيهم لما أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنون موت محمد صلى الله عليه وسلم أو يرجونه أو يُدبرونه قال تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ في سورة الطور (30) ، وقال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك في ﴾ [الأنفال : 30] .

وقد دلّ على أن هؤلاء هم المقصود من الآية قوله تعالى : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾

فلما كان تمنيهم موته وتربصهم به ريبَ المنون يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم

واثقون بأنهم يموتون بعده فتتمّ شماتتهم ، أو كأنهم لا يموتون أبداً فلا يشمت بهم أحد ، وجه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون .

وفي الآية إيماء إلى أن الذين لم يقدر الله لهم الإسلام ممن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبي عليه الصلاة والسلام فلا يشمتون به فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيتهم إلى الإسلام .

ففي قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ طريقةُ القول بالموجَب ، أي أنك تموت كما قالوا ولكنهم لا يرون ذلك وهم بحال من يزعمون أنهم مخلدون فأيقنوا بأنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم ، فالتفريع كان على ما في الجملة الأولى من القول بالموجَب ، أي ما هم بخالدين حتى يُوقنوا أنهم يرون موتك .

وفي الإنكار الذي هو في معنى النفي إنذارٌ لهم بأنهم لا يرى موتَه منهم أحد .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

جمل معترضات بين الجملتين المتعاطفتين .

ومضمون الجملة الأولى مؤكد لمضمون الجملة المعطوف عليها ، وهي ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ [الأنبياء : 34] .

ووجه إعادتها اختلاف القصد فإن الأولى للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين .

واستعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأن الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى بالباطن .

وذوقُ الموت ذوق آلامِ مقدماته وأما بعد حصوله فلا إحساس للجسد .

والمراد بالنفس النفوس الحالّة في الأجساد كالإنسان والحيوان .

ولا يدخل فيه الملائكة لأن إطلاق النفوس عليهم غير متعارف في العربية بل هو اصطلاح الحكماء وهو لا يطلق عندهم إلا مقيّداً بوصف المجرداتِ ، أي التي لا تحل في الأجساد ولا تلابس المادة .

وأما إطلاق النفس على الله تعالى فمشاكلة : إما لفظية كما في قوله تعالى ﴿ تَعْلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ في سورة المائدة (116) .

وإما تقديرية كما في قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ في آل عمران (28) .

وجملة ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ عطف على الجملة المعترضة بمناسبة أن ذوق الموت يقتضي سبق الحياة ، والحياة مدة يعتري فيها الخير والشرّ جميع الأحياء ، فعلّم الله تعالى المسلمين أن الموت مكتوب على كل نفس حتى لا يحسبوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم مخلد .

وقد عرض لبعض المسلمين عارض من ذلك ، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال يوم انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى : "ليرجعَنّ رسولُ الله فيُقطّع أيدي قوم وأرجلَهم" حتى حضر أبو بكر رضي الله عنه وثبته الله في ذلك الهول فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبّله وقال : "طبت حياً وميتاً والله لا يجمع الله عليك موتتين" .

وقد قال عبد بني الحسحاس وأجاد :

رأيت المنايا لم يدَعْنَ مُحمداً . . .

ولا باقياً إلاّ لَه الموتُ مرصدا

وأعقب الله ذلك بتعليمهم أن الحياة مشتملة على خير وشرّ وأن الدنيا دار ابتلاء .

والبلوى : الاختبار .

وتقدم غير مرة .

وإطلاق البلوى على ما يبدو من الناس من تجلد ووهن وشكر وكفر ، على ما ينالهم من اللذات والآلام مما بنى الله تعالى عليه نظام الحياة ، إطلاقٌ مجازي ، لأن ابتناء النظام عليه دل

على اختلاف أحوال الناس في تصرفهم فيه وتلقيهم إياه .

أشبهَ اختبارَ المختبِر ليعلم أحوال من يختبرهم .

و ﴿ فتنةً ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة توكيداً لفعل ﴿ نبْلوكم ﴾ لأن الفتنة ترادف البَلْوَى .

وجملة ﴿ وإلينا تُرجعون ﴾ إثبات للبعث ، فجمعت الآية الموت والحياة والنشر .

وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وإفادة تقوي الخبر .

وأمّا احتمال القصر فلا يقوم هنا إذ ليس ذلك باعتقاد للمخاطبين كيفما افترضتَهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(204/509)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

سمِّي السماء سقفاً ؛ لأن السماء كل ما علاك فأظلّك ، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم .. الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطي الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مَسْتوٍ لا نتوءَ ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام ، فالخَلْق جميعاً خُلِقوا بكُنْ من أب وأم ، أمّا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . ﴾ [ص : 75] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال في خَلْق السماء : ﴿ والسمآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ . . . ﴾ [الذاريات : 47] .

وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ والسمآءِ ذَاتِ الحبك . . . ﴾ [الذاريات : 7] يعني : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التي لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ؛ لذلك ترى السماء ملساء ؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النازعات : 28] .

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنيَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عو طوبة ، فيأتي عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد في الجدار تعاريج ، ثم يأتي عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له في الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله في إعداد بيته كما يحب تأتي بعد عدة أيام ، فترى الحق – سبحانه وتعالى – يُعدِّل على الجميع ، ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودَياً فيُريك بوضوح ما في الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحَذَقة في عمله، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذي يبني ويُسوِّي ويُزيِّن؟ ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ . . . ﴾ [الملك: 3] .

وانظر إلى أمهر الصُّنَّاع الآن، يُسوِّي سقفاً لعدة حجرات، ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد، لا بُدَّ أن تجد اختلافاً من واحدة للأخرى، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتي اللون مختلفاً، لماذا؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً، فإذا لم يكمل العمل في نفس اليوم تجد ما تبقَّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً في درجة اللون .

ومعنى: ﴿ مَّحْفُوظاً . . . ﴾ [الأنبياء: 32] أي: في بنية تكوينه؛ لأنه مُحْكَم لا اختلاف فيه، ولا يحفظ إلا الشيء النفيس، تحافظ عليه لنفاسته وأصالته . لكن من أيّ شيء يحفظه الله؟ يحفظها أن تمور، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه . ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: 65] .

وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ . . . ﴾

[الروم : 25] .

إذن : في خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

(206/509)

ومن المسائل التي بيَّنها لنا الحق - سبحانه وتعالى - في أمر السماء مسألة استراق السمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع ، لكن بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم شاء الحق سبحانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحِي إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : 16-18] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 32] كأن للسماء آيات خاصة بها ، ففي الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أن من كواكب السماء ما لم يَصِلْنا ضوؤه منذ خلق الله

الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر في الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا في ضوء قوله تعالى : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] .

لذلك يعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نُرهق أنفسنا بالتفكير فيها : " ما السماوات والأرض وما بينهما بالنسبة لمُلْك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة " .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حُبِّهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : 33] .
والمراد هنا : سلطان العلم الذي مكَّنهم من الصعود .

(207/509)

لكن ما داموا نفذوا بسلطن العلم ، فلماذا قال بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن : 35] إذن السلطان المراد ليس هو سلطان العلم كما يظنون ، إنما المراد سلطان مِنّى ، بإذني وإرادتي .

ولو كان الأمر كما يقولون لقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بالمعراج: كيف تقول ذلك يا محمد وربك هو القائل: ﴿ يا معشر الجن والإنس إنِ استطعتم أَن تنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: 33].

إذن: المراد هنا سلطان من الله تعالى هو سبحانه الذي يأذن بهذه المسألة، فتُفتّح له أبواب السماء.

ثم ما علاقة القمر بالسماء؟ والكلام عن النفاذ من أقطار السماوات، وأين القمر من السماء؟ إن المسافة بين الأرض والقمر سنتان ضوئيتان، فالقمر - إذن - ما هو إلا ضاحية من ضواحي الأرض، كالمعادي مثلاً بالنسبة للقاهرة، فأيُّ سماء هذه التي يتحدثون عنها؟!

وقوله تعالى: ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 33] سبق أن تحدّثنا عن الإعراض، وهو الانصارف عن الشيء مِنْ أعرض يعني: أعطاه ظهره.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل . . . . ﴾.

الحق - سبحانه وتعالى - يمتنّ ببعض خَلْقه، ولا يمتن الله إلا بشيء عظيم ونعمة من نعمه على عباده، ومن ذلك الليل والنهار، وقد أقسم سبحانه بهما في قوله تعالى: ﴿ والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى ﴾ [الليل: 1-2] وقال: ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى ﴾ [الضحى: 1-2] فالليل والنهار آيتان متكاملتان، ليستا متضادتين،

فالأرض خلقها الله ليعمرها خليفته فيها : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرض واستعمركم فِيهَا . . . ﴾ [هود : 61] .

(208/509)

أي : طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة ، فالعقل المدبر ، والجوارح الفاعلة ، والقوة ، والمادة كلها مخلوقة لله تعالى ، وما عليك إلا أنْ تستخدم نِعَم الله هذه في عمارة أرضه ، فإذا ما تَمَّتْ الحركة في النهار احتاج الجسم بعدها إلى الراحة في الليل .

لذلك كان النوم آية عُظْمى من آيات الله للإنسان تدلّ على أن الخالق - عز وجل - أمين على النفس أكثر من صاحب النفس .

لذلك نرى البعض مِنّا يُرهِق نفسه في العمل ، ولا يعطي لجسده راحته الطبيعية ، إلى أنْ يصيرَ غير قادر على العمل والعطاء ، وهنا يأتي النوم كأنه رادع ذاتيٌّ فيك يُجبرك على الراحة ، ويدقُّ لك ناقوس الخطر : أنت لست صالحاً الآن للعمل ، ارحم نفسك وأعطها حقَّها من الراحة ، فإنْ حاولتَ أنت أنْ تنام قبل وقت النوم يتأبَّى عليك ولا يطاوعك ، أما هو فإنْ جاء أخذك من أعتى المؤثرات . وغلبك على كل شيء فتنام حتى على الحصى .

وفي المثل العربي : (فراش المتعب وطيء ، وطعام الجائع هَنِيء) أي : هين ينام الإنسان

المتعَب المجهد ينام، ولو على الحصى، ولو دون أيِّ وسائل للراحة، ومع ذلك ينام نَوْمه مريحة .

وفي المَثَل أيضاً : (النوم ضيف، إنْ طلبتَه أعْنَتَكَ، وإنْ طلبك أراحك) والحق سبحانه يُحدِّثن عن آية النوم في موضع آخر : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار ﴾ [الروم : 23] .

وهنا احتياط ومَلْحظ، فإنْ كان النوم بالليل للسكن وللراحة، فهناك مَنْ يعملون بالليل، فينامون بالنهار كالحرّاس ورجال الشرطة والخبازين وغيرهم، وهؤلاء لا مانعَ أن يناموا بالنهار ليسايروا حركة الحياة .

(209/509)

ثم يقول تعالى : ﴿ والشمس والقمر . . . ﴾ [الأنبياء : 33] نعم هناك آيات أخرى كثيرة في كَوْن الله، لكن أوضحها وأشهرها : الشمس والقمر فهما تحت المشاهدة ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] فالليل والنهار والشمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْف الآخر ويخلقه، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً . . . ﴾ [الفرقان : 62] .

وكلمة ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] تعبير قرآني دقيق للأداء الحركي ، وهي مأخوذة من سبحة السمك في الماء حيث يسبح السمك في ليونة الماء بحركة انسيابية سهلة ؛ لأن الحركة لقطع المسافات إما حركة إنسيابية ، وإما حركة قفزية .

وتلاحظ هاتين الحركتين في عقارب الساعة ، فلو لاحظت عقرب الثواني مثلاً لوجدّته يتحرّك حركة قفزية ، يعني : ينطلق من الثبات إلى الحركة إلى الثبات ، فالزمن فيه جزء للحركة وجزء للسكون .

أما عقرب الدقائق فيسير بحركة إنسيابية مستمرة ، كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة ، وهكذا تكون سُبْحة السمك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ [النازعات : 3] .

وكذلك تكون حركة الظل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل . . . ﴾ [الفرقان : 45]

وأيضاً حركة نمو الطفل ، فلو أدَمْتَ النظر إلى طفلك الصغير لا تكاد تلاحظ عليه مظاهر النمو ، وكأنه لا يكبر أمام عينيك ، أمّا لو غِبْتَ عنه مثلاً عدة شهور يمكن أن تلاحظ نُموه ؛ ذلك لأن النمو حركة مُوزّعة على كل ثانية في الزمن ؛ لا أن النمو يتجمع ثم يظهر فجأة ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ . . . ﴾ .

ذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بإلقاء حجر عليه من مكان عالٍ

وهكذا يتخلَّصون منه صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يتمنون ذلك ، فيخاطبه ربه : يا محمد لست بدعاً من الرسل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

(210/509)

وهذه سُنَّة الله في خَلْقه ، بل موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحمّلْته من مشاقِّ الدعوة ، وعناء الحياة الدنيا .

لذلك " لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموت قال : " بل الرفيق الأعلى " أما نحن فنتشبث بالحياة ، ونطلب امتدادها .

فقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد . . . ﴾ [الأنبياء : 34] فأنت كغيرك من البشر قبلك ، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] فلا يفرحوا بموتك ؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم . . . ﴾ .

إذن : فالموت قضية كونية عامة ، وهي في حقيقتها خَيْر ، فإنْ كانوا أخياراً نُعجِّل لهم جزاءهم عند الله ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ الله منهم البلاد والعباد .

لكن ، كيف يُذَاق الموت ؟ الذَّوْق هنا يعني إحساسَ الإنسان بالألم من الموت ، فإنْ مات

فعلاً يستحيل أن يذوق، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت، والشاعر يقول:

وَالأَسَى بَعْد فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ . . . وَالأَسَى لاَ يكُونُ قَبْل الفِرَاقِ

فعلى أيِّ شيء يحزن الإنسان بعد أن يموت؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت؟

فالمراد - إذن - ذائقةٌ مقدمات الموت، التي يعرف بها أنه ميت، فالإنسان مهما كان صحيحاً لا بُدّ أنْ يأتي عليه وقت يدرك أنه لا محالة ميت، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقي * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ [القيامة: 26-28] فالموت في هذه الحالة أمر مقطوع به.

(211/509)

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً . . . ﴾ [الأنبياء: 35] أي: نختبركم، والإبتلاء لا يُذمُّ في ذاته، إنما تذم غية الابتلاء: أينجح فيه أم يفشل؟ كما نختبر الطلاب، فهل الاختبار في آخر العام شَرٌّ؟ لكن هل الحق سبحانه في حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم، ولكن ليقيم عليهم الحجة.

والمخاطب في ﴿ وَنَبْلُوكُم . . . ﴾ [الأنبياء: 35] الجميع: الغني والفقير، والصحيح والسقيم، والحاكم والمحكوم.. إلخ.

إذن : كلنا فتنة ، بعضنا لبعض : فالغنيّ فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغني ، كيف ؟ الفقير : هل يصبر على فقره ويرضى به ؟ هل سيحقد على الغني ويحسده ، أم يقول : بسم الله ما شاء الله ، اللهم بارك له ، وأعطني من خَيْرك ؟ والغني : هل يسير في ماله سَيْراً حسناً ، فيؤدي حقَّه وينفق منه على المحتاجين ؟

وهكذا ، يمكنك أنْ تُجري مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار ، ينتهي إما بالنجاح وإما بالفشل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : 35] لنجازي كُلاًّ على عمله ، فإنْ حالفك التوفيق فَلَكَ الأجر والمكافأة ، وإنْ أخفقت فَلَكَ العقوبة ، فلا بُدَّ أن تنتهي المسألة بالرجوع إلى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(212/509)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه قال : قالت اليهود : إن الله عز

وجل صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة . فقال الله تكذيباً لهم ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة ليس كما قالوا ، بل هم عباد أكرمهم الله بعبادته ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ يثني عليهم ﴿ ولا يشفعون ﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ قال : لأهل التوحيد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ قال : لمن رضي عنه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ قال : قول لا إله إلا الله .

واخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إلا لمن ارتضى ﴾ قال : الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث ، عن جابر رضي الله عنه : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ فقال : "إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسري بي مررت بجبريل ، وهو بالملأ الأعلى ملقى كالحلس البالي من خشية الله " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ ومن يقل منهم ﴾ يعني من

الملائكة ﴿ إني إله من دونه ﴾ قال : ولم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه . . . ﴾ الآية . قال : إنما كانت هذه خاصة لإبليس .

(213/509)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ قال : فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كانتا رتقاً ﴾ قال : لا يخرج منهما شيء ﴿ ففتقناهما ﴾ قال : فتقت السماء بالمطر وفتقت الأرض بالنبات .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية من طريق عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً أتاه فسأله عن ﴿ السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ قال : اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعالَ فأخبرني ما قال . فذهب إلى ابن عباس فسأله قال : نعم ، كانت السماء رتقاء لا تمطر وكانت الأرض رتقاء لا تنبت ،

فلما خلق الله الأرض فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات .

فرجع الرجل على ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : الآن علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً ، صدق ابن عباس هكذا كانت .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كانتا رتقاً ﴾ قال : ملتصقتين .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد حميد وابن المنذر وأبو الشيخ ، عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن الليل ، كان قبل أم النهار ؟ قال : الليل . ثم قرأ ﴿ إن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ فهل تعلمون كان بينهما إلا ظلمة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ قال : فتق من الأرض ست أرضين معها ، فتلك سبع أرضين بعضهن تحت بعض ، ومن السماء سبع سموات منها معها ، فتلك سبع سموات بعضهن فوق بعض ولم تكن الأرض والسماء مماستين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله : ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ قال : كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات ، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن وقتادة في قوله : ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ قال : كانتا جمعاً ففصل الله بينهما بهذا الهواء .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كانت السموات والأرضون ملتزقتين ، فلما رفع الله السماء وابتزها من الأرض ، فكان فتقها الذي ذكر الله .

وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات ، " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قلت : يا رسول الله ، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء ، قال : كل شيء خلق من الماء " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ قال : نطفة الرجل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ قال : خلق كل شيء من الماء ، وهو حياة كل شيء .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

﴿ (31) ﴾

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ قال: بين الجبال.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ فجاجاً ﴾ أي أعلاماً ﴿ سبلاً ﴾ أي طرقاً.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن مجاهد في قوله: ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ قال: مرفوعاً ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ قال: الشمس والقمر والنجوم من آيات السماء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، "أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يوم الجمعة؟ قال: خلق الله في ساعتين منه الليل والنهار".

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ كل في فلك ﴾ قال: دوران ﴿ يسبحون ﴾ قال: يجرون.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في

قوله : ﴿ كل في فلك ﴾ قال : فلكة كفلكة المغزل ﴿ يسبحون ﴾ قال : يدورون في أبواب السماء ما تدور الفلكة في المغزل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كل في فلك ﴾ قال : هو فلك السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حسان بن عطية قال : الشمس والقمر والنجوم مسخرة في فلك بين السماء والأرض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كل في فلك ﴾ قال : الفلك الذي بين السماء والأرض من مجاري النجوم والشمس والقمر . وفي قوله : ﴿ يسبحون ﴾ قال : يجرون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن الكلبي رضي الله عنه قال : كل شيء يدور فهو فلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ النجوم والشمس والقمر . قال : كفلكة المغزل ، قال : هو مثل حسبان ، قال : فلا يدور الغزل إلا بالفلكة ، ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل ، ولا يدور الرحى إلا بالحسبان ، ولا يدور الحسبان إلا بالرحى ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدرن إلا به ولا يدور إلا بهن ، قال : والحسبان والفلك يصيران إلى شيء واحد ، غير أن الحسبان في الرحى

كالفلكة في المغزل.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ كل في فلك ﴾ قال: الفلك كهيئة حديدة الرحى.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ قال: يجرون في فلك السماء كما رأيت.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ قال: هو الدوران.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ قال: المغزل قال كما تدور الفلكة في المغزل.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ قال: وكان عبد الله يقرأ "كل في فلك يعملون".

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ قال: يجرون.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) ﴾

أخرج ابن المنذر عن جريج قال : لما نعى جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه قال : يا رب ، فمن لأمتي فنزلت ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . . . ﴾ الآية .

(217/509)

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر رضي الله عنه في ناحية المدينة ، فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى فوضع فاه على جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يقبله ويبكي ويقول : بأبي وأمي طبت حياً وطبت ميتاً ، فلما خرج مرّ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقول : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين وحتى يخزي الله المنافقين . قال : وكانوا قد استبشروا بموت النبي صلى الله عليه وسلم فرفعوا رؤوسهم فقال : أيها الرجل ، أربع على نفسك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات . . . ألم تسمع الله يقول : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] وقال : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ قال : ثم أتى المنبر فصعده فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن كان محمد صلى الله عليه وسلم

إلهكم الذي تعبدون ، فإن محمداً قد مات ؛ وإن كان إلهكم الذي في السماء ، فإن إلهكم لم يمت ثم تلا ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ [آل عمران : 144] حتى ختم الآية . ثم نزل وقد استبشر المسلمون بذلك واشتد فرحهم وأخذت المنافقين الكآبة .

قال عبدالله بن عمر : فوالذي نفسي بيده ، لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وقد مات ، فقبله وقال : وانبياه ! . . . واخليلاه ! . . . واصفياه ! . . . ثم تلا ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ الآية . وقوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) ﴾

(218/509)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ قال : نبتليكم بالشدة والرخاء والصحة والسقم ،

والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة. والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(219/509)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) ﴾

قوله: ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا ﴾: جملةٌ استئنافيةٌ، ويَضْعُفُ جَعْلُها حالاً مقدرةً. وقرأ مجاهد وحميد "عن آيَتِها" بلفظِ الإِفراد. جَعَلَ الخلقَ آيةً، وهي مشتملةٌ على آياتٍ، أو أطلق الواحدَ وأراد به الجنسَ.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

قوله: ﴿ كُلٌّ ﴾: أي: كلٌّ منهما أي: من الشمس والقمر، أو منها أي: من الليل والنهار والشمس والقمر. و"يَسْبَحون" يجوز أن يكونَ خبرَ "كلٌّ" على المعنى. و"في فلك" متعلقٌ به، ويجوز أن يكونَ حالاً. والخبرُ الجارُّ وهو "في فَلَك". وهذا الذي: ذَكَرْتُه من كونِ المضافِ إليه يجوز أَنْ يُقَدَّرَ بالأربعةِ الأشياءِ المذكورةِ. ذكره أبو البقاء. وأمّا غيرُه فلم

يذكرْ إلاَّ أنَّ المضافَ إليه الشمسُ والقمرُ . وهو الظاهر؛ لأنَّ السباحةَ من صفتِهما دونَ الليلِ والنهار، وعلى هذا فيُعْتَذَر عن الإِتيانِ بضميرِ الجمع، وعن كونِه جَمْعَ مَنْ يَعْقِلُ .

أمَّا الأولُ فقيل: إنما جُمِع لأنَّ ثَمَّ معطوفاً محذوفاً تقديرُه: والنجومُ، كما دَلَّتْ عليه آياتٌ أُخَرُ . وقال الزمخشري: "الضميرُ للشمسِ والقمرِ، والمرادُ بهما جنسُ الطوالِع كلَّ يومٍ وليلةٍ، جعلوها متكاثرةً لتكاثُرِ مَطالِعها، وهو السببُ في جمعهما بالشموسِ والأقمارِ" . انتهى . والذي حَسَّن ذلك كونُه رأسَ آيةً .

(220/509)

وقال أبو البقاء: "يَسْبَحُون" خبر "كلٌ" على المعنى؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ إذا سَبَح فكلُّها تَسْبَحُ . وقيل: يَسْبَحُون على هذا الوجهِ حالٌ . والخبر "في فَلَكٍ" . وقيل: التقدير: كلُّها، والخبر "يَسْبَحُون"، أتى بضميرِ الجمع على معنى "كل" . وفي هذا الكلامِ نظرٌ: من حيث إنه لَمَّا جَوَّز أن يكونَ المضافُ إليه شيئَين جَعَل الخبرَ الجارَّ، و"يَسْبَحون" حالاً، فِراراً من عدم مطابقةِ الخبرِ للمبتدأ، فوقَعَ في تخالُفِ الحالِ وصاحبِها .

وأمَّا الثاني فلأنَّه لَمَّا أَسْنَدَ إليها السباحةَ التي هي مِنْ أفعالِ العقلاء جَمَعَها جَمْعَ العقلاءِ كقوله: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: 4] و﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: 11

] .

وهذه الجملةُ يجوز أن تكونَ لا محلَّ لها من الإِعرابِ لاستئنافِها . ويجوز أَنْ يكونَ محلُّها النصبَ على الحال . فإنْ قُلْنا : إن السباحةَ تُنْسَبُ إلى الليل والنهار ، كما تقدَّم نَقْلُه عن أبي البقاء في أحدِ الوجهين فتكونُ حالاً من الجميع . وإن كان لا يَصِحُّ نسبَتُها إليهما كانت حالاً من الشمسِ والقمرِ . وتأويلُ الجمعِ قد تقدَّم . قال الشيخ : " أو محلُّها النصبُ على الحالِ من الشمس والقمر ؛ لأنَّ الليلَ والنهارَ لا يَتَّصِفان بأنهما يَجْرِيان في فَلَكٍ ، فهو كقولك : رأيتُ زيداً وهنداً متبرِّجةً " انتهى . وهذا قد سبقه إليه الزمخشري فَنَقَلَه عنه ، يعني أنه قد دَلَّ دليلٌ على أنَّ الحالَ من بعضِ ما تقدَّم كما في المثالِ المذكور .

والسِّباحةُ : العَوْمُ في الماءِ . وقد يُعَبَّر به عن مطلقِ الذهابِ ، وقد تقدَّم اشتقاقُه في " سُبْحانك " .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34)

(221/509)

قوله : ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ : قد تقدَّم نظيرُ ذلك في آل عمران عند قوله : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم ﴾ [الآية : 144] . وفي هذه الآيةِ دليلٌ لمذهب سيبويه : وهو أنه إذا اجتمع

شرطٌ واستفهام أُجيب الشرطُ . فتكونُ الآيةُ قد دخَلَتْ فيها همزةُ الاستفهامِ على جملةِ الشرطِ . والجملةُ المقترنةُ بالفاءِ جوابُ الشرطِ ، وليسَتْ مَصَبَّ الاستفهامِ ، وزَعَمَ يونس أنَّ الاستفهامَ/ مُنْصَبٌّ على الجملةِ المقترنةِ بالفاء ، وأنَّ الشرطَ معترضٌ بين الاستفهام وبينَها ، وجوابه محذوف . وليس بشيءٍ إذ لو كان كما قال لكان التركيبُ : أفإن مِتَّ هم الخالدون ، بغير فاء . وكأنَّ ابنَ عطية نحا منحى يونسَ فإنه قال : " وألفُ الاستفهامِ داخلةٌ في المعنى على جواب الشرطِ " .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)

قوله : ﴿ فِتْنَةً ﴾ : في نصبه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه مفعولٌ من أجله . الثاني : أنه مصدرٌ في موضع الحالِ أي : فاتنين . الثالث : أنَّه مصدرٌ مِنْ معنى العاملِ لا من لفظِه ؛ لأن الابتلاءَ فتنةٌ فكأنَّه قيل : نَفْتُنكم فتنةً .

وقرأ العامَّة " تُرْجَعُوْن " بتاءِ الخطابِ مبنياً للمفعول . وغيرُهم بياءِ الغَيْبة على الالتفات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 152.154 ﴾

(222/509)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) ﴾

في ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . . كذلك للنفوس أراضٍ هي مساكن الطاعات ، وفي سماء القلوب نجومُ العقل وأقمارُ العلم وشموسُ التوحيد والعرفان . وكما جُعِلَتْ النجومُ رجوماً للشياطين جعَلَ من المعارفِ رجوماً للشياطين وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آياتِ القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لا يكاد يعرفها إلا الخواص .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

كما أن الحق – سبحانه – في الظاهر يكوِّر الليل على النهار ، ويكون النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ في نهارِ البسط ليلَ القبض . . والبسط في الزيادة والنقصان ، . فكما أنَّ الشمس أبداً في برجها لا تزيد ولا تنقص ، والقمرَ مرةً في المحاق ، ومرةً في الإشراق . . فصاحبُ التوحيدِ بنعت التمكين – يرتقي عن حدِّ تأمُّلِ البرهان إلى رَوْحِ البيان ، ثم هو متحققٌ بما هو كالعيان . وصاحبُ العِلْم مرةً يُرَدُّ إلى تجديد نَظَرِه وتَذَكُّرِه ، ومرةً يغشاه غَيْرٌ في حال غفلته فهو صاحب تلوين .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34)

إنك في هذه الدنيا عابرُ سبيلٍ ، لكننا لم نتركك فرداً في الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في الغار : " ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! " .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قوم ؛ لقوم انتهاءُ مدة الاشتياق ، والآخرين افتتاح باب الفراق ، لقوم وقوع فتنتهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 501.502 ﴾

(223/509)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ﴾

مطلع قوي يهز الغافلين هزاً . والحساب يقترب وهم في غفلة . والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى . والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار ، واستمعوه وهم هازلون يلعبون . . ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ . . والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير .

إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد ، فتلهو في أخطر المواقف ، وتهزل في مواطن الجد ؛ وتستهتر في مواقف القداسة . فالذكر الذي يأتيهم يأتيهم ﴿ من ربهم ﴾ فيستقبلونه لاعبين ، بلا وقار ولا تقديس . والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال ؛ فلا تصلح للنهوض بعبء ، ولا الاضطلاع بواجب ، ولا القيام بتكليف . وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة !

إن روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة . والاستهتار غير الاحتمال .

فالاحتمال قوة جادة شاعرة . والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء .

وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة ، ومنهاجاً للعمل ، وقانوناً للتعامل . . باللعب . ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة . وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان . فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن . والتي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ ، لا هدف له ولا قوام !

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذي يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها :

جاء في ترجمة الآمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه .

. ثم جاءه هذا الرجل وقد أصاب ارضاً فقال له : إني استقطعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وادياً في العرب . وقد اردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك . نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ . .

وهذا هو فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة . التي تكفن ميتتها باللهو ؛ وتواري خمودها بالاستهتار ؛ ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة .

﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ . . وقد كانوا يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية ، يقولون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟ ﴾ .

فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من ان تتزلزل بهذا القرآن ؛ فكانوا يلجأون في مقاومة تأثيره الطاغي إلى التعلات ، يقولون : إن محمداً بشر . فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ وإن ما جاء به السحر . فيف تجيئون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون ؟ !

عند ذلك وكل الرسول صلى الله عليه وسلم أمرهم وأمره إلى ربه ، وقد أخبره الله

بنجواهم التي أداروها بينهم خفية ؛ وأطلعه على كيدهم الذي يتقون به القرآن وأثره !

﴿ قال : ربي يعلم القول في السمآء والأرض ، وهو السميع العليم ﴾ .

فما من نجوى في مكان على الأرض إلا وهو مطلع عليها وهو الذي يعلم القول في السماء والأرض . . وما من مؤامرة يحدثونها إلا وهو كاشفها ومطلع رسوله عليها وهو السميع العليم .

ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه . فقالوا : إنه سحر . وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرويها . وقالوا : إنه شعر . وقالوا : إنه افتراه وزعم انه وحي من عند الله :

﴿ بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ﴾ . .

(225/509)

ولم يثبتوا على صفة له ، ولا على رأي يرونه فيه ، لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل في نفوسهم بشتى التعلات فلا يستطيعون ؛ فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء ، ومن تعليل إلى تعليل ، حائرين غير مستقرين . . ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التي جاء بها الأولون :

﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ . .

ولقد جاءت الخوارق من قبل ، فلم يؤمن بها من جاءتهم ، فحل بهم الهلاك ، وفقاً لسنة الله التي لا تتخلف في إهلاك من يكذبون بالخوارق :

﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ .

.

ذلك أن من يبلغ به العناد ألا يؤمن بالخارقة المادية المحسوسة ، لا يبقى له عذر ، ولا يرجى له صلاح . فيحق عليه الهلاك .

ولقد تكررت الآيات ، وتكرر التكذيب بها ، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين . . فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم ؛ وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين !

﴿ أفهم يؤمنون ﴾ . .

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ، فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين ﴾ . .

فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس . وما كان الرسل من قبل إلا رجالاً ذوي أجساد . وما جعل الله لهم أجساداً ثم جعلهم لا يأكلون الطعام . فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية . وهم بحكم انهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين . . هذه هي سنة الله المطردة فليسألوا أهل

الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل . إن كانوا هم لا يعلمون .

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ؛ فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم . وسلوكهم العملي نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية هي التي تؤثر وتهدي ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة .

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، ولا يعاشرون النساء . ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس . فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون .

وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول . لما بينه وبينهم من قطعية في الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب . مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ، ويؤيدها العمل . هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل .

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزهاً عن انفعالات البشر . . كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة . وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها . . لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص . وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر ، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس .

وهنالك اعتبار آخر ، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته ؛ لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية .

وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله ، باختيار الرسل منه ، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه .

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر ؛ وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت . ومن عواطف وانفعالات . ومن آلام وآمال . ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء . . وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم . . أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض ، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة .

تلك سنة الله في اختيار الرسل . ومثلها سنته في إنجائهم ومن معهم ، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين :

﴿ ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين ﴾ . .

فهي كذلك سنة جارية كسنة اختيارهم . وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنون معهم إيماناً حقيقياً يصدقه العمل ؛ فصدقهم وعده ، وأهلك ، الذين كانوا يسرفون عليهم ، ويتجاوزون الحد معهم .

هذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسراف عليه ، وتكذيبه ، وإيذائه والمؤمنين معه . وينبههم إلى أنه رحمة بهم لم يرسل إليهم بخارقة مادية ، يتبعها هلاكهم ، إذا هم كذبوا بها كما كذب من قبلهم . إنما أرسل إليهم بكتاب يشرفهم لأنه بلغتهم ، ويقوم حياتهم ، ويخلق منهم أمة ذات سيادة في الأرض وذكر في الناس . وهو مفتوح للعقول تدبره ، وترتفع به في سلم البشرية :

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

(228/509)

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا . فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به . ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قروناً طويلة ، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب . حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذيلاً للقافلة يتخطفهم الناس ، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون !

وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد . وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة . فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم ، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به . فأما إذا تقدموا إليها عرباً فحسب بجنسية العرب . فما هم ؟ وما ذاك ؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب ؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم

وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة .

. لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب . فذلك لا يساوي شيئاً في تاريخ البشرية ، ولا مدلول له في معجم الحضارة ! إنما عرفتهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومثله وفكرته . وهذا أمر له مدلول له في تاريخ البشرية ومعجم الحضارة !

. . ذلك ما كان يشير إليه القرآن الكريم ، وهو يقول للمشركين ، الذين كانوا يواجهون كل جديد يأتيهم منه باللهو والإعراض والغفلة والتكذيب : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

ولقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هذا القرآن . ولا يأتيهم بالخارقة التي يطلبونها . فلا يأخذهم وفق سنته بالقاصمة كالقرى التي كذبت فاستأصلت . . وهنا يعرض مشهداً حياً من القصم والاستئصال :

﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . . قالوا : يويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين

﴾ . .

والقصم أشد حركات القطع . وجرسها اللفظي يصور معناها ، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة . فإذا هي مدمرة محطمة . . ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ .

وهو عند القصم يوقع الفعل على القرى ليشمل ما فيها ومن فيها . وعند الإنشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى . . وهذه حقيقة في ذاتها .

فالدمار يحل بالديار والدّيار . والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور . . ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القصم والتدمير ، وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير !

ثم ننظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالفيران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود :

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ . .

يسارعون بالخروج من القرية ركضاً وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله . كأنما الركض ينجيهم من بأس الله . وكأنما هم أسرع عدواً فلا يلحق بهم حيث يركضون !

ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور .

عندئذ يتلقون التهكم المرير :

﴿ لا تركضوا ، وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ !

لا تركضوا من قريتكم . وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح . .

عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم انفقتموه ؟ !

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب . إنما هو التهكم والاستهزاء !

عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط . وانه لا ينفعهم ركض ، ولا ينقذهم فرار . فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار :

﴿ قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين ﴾ . .

(230/509)

ولكن لقد فات الأوان . فليقولوا ما يشاءون . فإنهم لمتركون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس :

﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ .

.

ويا له من حصيد آدمي ، لا حركة فيه ولا حياة ؛ وكان منذ لحظة يموج بالحركة ، وتضطرب فيه الحياة !

هنا يربط السياق بين العقيدة التي سبق الحديث عنها ، وسننها التي تجري عليها ، والتي تأخذ المكذبين بها . يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل ، اللذين يقوم بهما الكون كله ، ويتلبس بهما خلق السماوات والأرض في صميمه .

فإذا كان المشركون يستقبلون القرآن كلما جاءهم منه جديد باللعب واللهو ، غافلين عما في الأمر من حق وجد . وإذا كانوا يغفلون عن يوم الحساب القريب ، وعما ينتظر المكذبين المستهزئين . . فإن سنة الله مطردة نافذة مرتبطة بالحق الكبير والجد الأصيل :

﴿ وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنآ أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنآ . إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾ . .

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة ، لا لعباً ولا لهواً . ودبره بحكمة ، لا جزافاً ولا هوى ، وبالجد الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وفرض الفرائض ، وشرع التكاليف . . فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون ، أصيل في تدبيره ، أصيل في العقيدة التي أرادها الله للناس ، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات .

ولو أراد الله سبحانه أن يتخذ لهواً لاتخذه من لدنه . لهواً ذاتياً لا يتعلق بشيء من مخلوقاته الحادثة الفانية .

وهو مجرد فرض جدلي : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ . . ولو كما يقول النحاة حرف امتناع لامتناع . تفيد امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط . فالله سبحانه لم يرد أن يتخذ لهواً فلم يكن هناك لهو . لا من لدنه ولا من شيء خارج عنه .

(231/509)

ولن يكون لأن الله سبحانه لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلاً : ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ . . وإن حرف نفي بمعنى ما ، والصيغة لنفي إرادة الفعل ابتداء .

إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة . . هي أن كل ما يتعلق بذات الله سبحانه قديم لا حادث ، وباق غير فان . فلو أراد سبحانه أن يتخذ لهواً لما كان هذا اللهو حادثاً ، ولا كان متعلقاً بحادث كالسماء والأرض وما بينهما فكلها حوادث . . إنما كان يكون ذاتياً من لدنه سبحانه . فيكون أزلياً باقياً ، لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية .

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض :

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ . .

و﴿ بل ﴾ للإضراب عن الحديث في موضوع اللهو ؛ والعدول عنه إلى الحديث في الواقع

المقرر الذي تجري به السنة ويقتضيه الناموس .

وهو غلبة الحق وزهوق الباطل .

والتعبير يرسم هذه السنة في صورة حسية حية متحركة . فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة . تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب . .

هذه هي السنة المقررة ، فالحق أصيل في طبيعة الكون ، عميق في تكوين الوجود . والباطل منفي عن خلقه هذا الكون أصلاً ، طارئ لا أصالة فيه ، ولا سلطان له ، يطارده الله ، ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشيء يطارده الله ؛ ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه !

ولقد يخيل للناس أحياناً ان واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير . وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق منزوياً كأنه مغلوب . وإن هي إلا فترة من الزمان ، يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء . ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض ؛ وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده ؛ وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه ؛ وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه . . فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حيناً من الدهر عرفوا أنها الفتنة ؛ وأدركوا أنه الابتلاء ؛ وأحسوا أن ربهم يربيهم ، لأن فيهم ضعفاً أو نقصاً ؛ وهو يريد أن يعدهم لاستقبال الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف . . وكلما سارعوا إلى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء . أما العاقبة فهي مقررة : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ والله يفعل ما يريد .

هكذا يقرر القرآن الكريم تلك الحقيقة للمشركين ، الذين يتقولون على القرآن وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويصفونه بالسحر والشعر والافتراء . وهو الحق الغالب الذي يدمغ الباطل ، فإذا هو زاهق . . ثم يعقب على ذلك التقرير بإنذارهم عاقبة ما يتقولون : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ . .

ثم يعرض لهم نموذجاً من نماذج الطاعة والعبادة في مقابل عصيانهم وإعراضهم . نموذجاً ممن هم أقرب منهم إلى الله . ومع هذا فهم دائبون على طاعته وعبادته ، لا يفترون ولا يقصرون :

﴿ وله من في السماوات والأرض . ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ،

يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ . .

ومن في السماوات والأرض لا يعلمهم إلا الله ، ولا يحصيهم إلا الله . والعلم البشري لا يستيقن إلا من وجود البشر . والمؤمنون يستيقنون من وجود الملائكة والجن كذلك لذكرهما في القرآن . ولكننا لا نعرف عنهم إلا ما أخبرنا به خالقهم . وقد يكون هناك غيرهم من العقلاء في غير هذا الكوكب الأرضي ، بطبائع وأشكال تناسب طبيعة تلك الكواكب . وعلم ذلك عند الله .

فإذا نحن قرأنا : ﴿ وله من في السماوات والأرض ﴾ عرفنا منهم من نعرف ، وتركنا علم من لا نعلم لخالق السماوات والأرض ومن فيهن .

﴿ ومن عنده ﴾ المفهوم القريب أنهم الملائكة . ولكننا لا نحدد ولا نقيد ما دام النص عاماً يشمل الملائكة وغيرهم . والمفهوم من التعبير أنهم هم الاقرب إلى الله . فكلمة ﴿ عند ﴾ بالقياس إلى الله لا تعني مكاناً ، ولا تحدد وصفاً .

﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ﴾ كما يستكبر هؤلاء المشركون ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي يقصرون في العبادة . فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون

انقطاع ولا فتور . .

والبشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة . فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله . ولو كانت متاعاً ذاتياً بطيبات الحياة !

وفي ظل التسبيح الذي لا يفتر ولا ينقطع لله الواحد ، مالك السماوات والأرض ومن فيهن . يجيء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم في الآلهة . ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد ؛ ومن المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . .

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم . ووصف هؤلاء بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء . فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها . فمن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض . فهل الآلهة التي اتخذوها تفعل

هذا ؟ إنها لا تفعل ، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة . فهي إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله .

ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض . وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ . .

فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً ؛ وينسق بين أجزائه جميعاً ؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم . . هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد . فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات . ولتعددت النواميس تبعاً لها فالإرادة مظهر الذات المريدة . والناموس مظهر الإرادة النافذة ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله ، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق . . هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس .

وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله ، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون

المنظم المنسق ، الذي لا فساد في تكوينه ، ولا خلل في سيره :

﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ . .

وهم يصفونه بأن له شركاء . تنزه الله المتعالي المسيطر : ﴿ رب العرش ﴾ والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء . تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون .

﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ . .

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ؛ ومن ذا الذي يسأله ؛ وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى ، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذه حاكماً لنظام الوجود ؟ والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم ومقياس يوضع . والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس ، ولا تتقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد . والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون .

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المتعجب : ولماذا صنع الله كذا . وما الحكمة في هذا الصنيع ؟ وكأنما يريدون ليقولوا : إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع !

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب والواجب في حق المعبود ، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود . .

إن الذي يعلم كل شيء ، ويدبر كل شيء ، ويسيطر على كل شيء ، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم . ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ . .

وإلى جانب الدليل الكوني المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلي الذي يستندون إليه في دعوى الشرك التي لا تعتمد على دليل :

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ .

فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم وهناك ذكر من سبقه من الرسل . وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء . فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد . فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون ، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل :

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ . .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . .

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن يبعث الله الرسل للناس . لا تبديل فيها ولا تحويل . توحيد الإله وتوحيد المعبود . فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ؛ ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة . . قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية ، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها .

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولداً .

وهي إحدى مقولات الجاهلية السخيفة :

﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم : إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزي الظالمين ﴾ . .

ودعوى البنوة لله سبحانه دعوى اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة . فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله . وعند مشركي اليهود في صورة بنوة

العزيز لله . وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله . . وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور .

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة . وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة . فهم ليسوا بنات لله كما يزعمون ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ عند الله . لا يقترحون عليه شيئاً تأدباً وطاعة وإجلالاً . إنما يعملون بأمره لا يناقشون . وعلم الله بهم محيط . ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه . وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التي لا استثناء فيها ولا انحراف عنها . وهم لا يدعون الألوهية قطعاً . ولو ادعوها جدلاً لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائناً من كان ، وهو جهنم . فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ، ولكل أحد ، ولكل شيء في هذا الوجود .

وكذلك تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة ، لا يدعيها أحد . ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم !

وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله ، مشفقين من خشيته . بينما المشركون يتطاولون ويدعون !

وعند هذا الحد من عرض الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة ؛ والأدلة النقلية النافية للتعدد ؛ والأدلة الوجدانية التي تلمس القلوب . . يجول السياق بالقلب البشري في مجالي الكون

الضخمة ، ويد القدرة تدبره بحكمة ، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب :

(237/509)

﴿ أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شيء حي ؛ أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ؛ وجعلنا السمآء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل في فلك يسبحون ﴾ . .

إنها جولة في الكون المعروض للأنظار ، والقلوب غافلة عن آياته الكبار ، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ .

وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقتا ، مسألة جديرة بالتأمل ، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية ، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مائة وألف عام .

فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر . . كانت سديماً . ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية

وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت . .

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية . تقوم اليوم وقد تنقض غداً ، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية . .

ونحن أصحاب هذه العقيدة - لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة ، تقبل اليوم وترفض غداً . لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية . وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخاراً وتجمده بالبرودة . . إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية . وهي شيء آخر غير النظريات العلمية كما بينا من قبل في الظلال .

(238/509)

إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجيء ليكون علماً تجريبياً كذلك . إنما هو منهج للحياة كلها . منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده . ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق . دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة . فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه .

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا : ﴿ أن السماوات

والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن . وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض . أو فتق السماوات عن الأرض . ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن . ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية ، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر . وهو حقيقة مستيقنة ! وقصارى ما يقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال !

فأما شطر الآية الثاني : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة . يعد العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً . ويمجدون " دارون " لاهتدائه إليها ! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول .

وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً . وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا ، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن . فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله . لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له . وأقصى ما يقال هنا كذلك : إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات .

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله

في الكون ، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود : ﴿ أفلا يؤمنون ؟ ﴾ وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم ؟

ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة :

﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ .

.

فيقرر أن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب . وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى . فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها ، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة : وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر . . وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها . فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن فذلك مجالها الأصيل . ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحي ، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير :

﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ . .

وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين جواجزها العالية، وتتخذ سبلاً وطرقاً . . ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولاً ، ثم يشير من طرف خفي إلى شأن آخر في عالم العقيدة . فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان ، كما يهتدون في فجاج الجبال !

﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ . .

والسماء كل ما علا . ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف . والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ . محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق . ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذي تتنزل منه آيات الله . . ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ . .

﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ .

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة بحياة الإنسان في الأرض . وبالحياة كلها . . والتأمل في توالي الليل والنهار ، وفي حركة الشمس والقمر . بهذه الدقة التي لا تختل مرة ؛ وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة . . جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير .

وفي نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون في خلقه وتكوينه وتصريفه ؛ ونواميس الحياة البشرية في طبيعتها ونهايتها ومصيرها :

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . أفإن مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذآئقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون ﴾ . .

وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . فكل حادث فهو فان . وكل ما له بدء فله نهاية . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ . هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة . وهذه هي السنة التي ليست لها استثناء . فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق !

إنه الموت نهاية كل حي ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض .

وإلى الله يرجع الجميع . فأما ما يصيب الإنسان في أثناء الرحلة من خير وشر فهو فتنة له وابتلاء :

«وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» . .

والابتلاء بالشر مفهوم أمره . ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته في ربه ، ورجائه في رحمته . . فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان . .

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر . .

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة. ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم الجامحة في أوصالهم.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان. وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع!

(241/509)

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء! كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح. ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال. وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذلل الأرواح! إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها. أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة! لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء! وذلك شأن البشر.. إلا من عصم

اللّه فكانوا ممن قال فيهم رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – :

«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له «1»» . . وهم قليل ! فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر . والصلة باللّه في الحالين هي وحدها الضمان . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 2367. 2378﴾

---

(1) رواه مسلم بسنده ، في كتاب الزهد والرقائق .

(242/509)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (31)

وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الأول من سورة الأنبياء , وهي سورة مكية , يدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة . شأنها في ذلك شأن كل السور المكية . وسميت باسم الأنبياء لورود ذكر عدد كبير من أنبياء الله فيها , وقصصهم مع أممهم , والمعجزات التي أجراها الله (تعالي) علي أيدي كل منهم , وهم حسب تسلسل ورود أسمائهم في السورة الكريمة : إبراهيم , لوط , إسحاق , يعقوب , نوح , داود , سليمان , أيوب , إسماعيل , إدريس , ذا الكفل , ذا النون (يونس) , زكريا , يحيي , وعيسي بن مريم (علي نبينا وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم) .

وتبدأ سورة الأنبياء بتذكير الناس أن وقت الساعة قد اقترب , وهم في غفلة منشغلون عنها بالدنيا , وهي سوف تأتيهم بغتة , وقلوبهم لاهية عما أنزل إليهم ربهم من ذكر في رسالته الخاتمة , لذلك انطلقوا يشككون في بعثة الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) , واتهموه زورا (شرفه الله عن ذلك) بالكذب , والسحر , والشعر , استهزاء به كما استهزئ برسل من قبل فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون , فما من أمة رفضت الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا وعاقبها الله عقابا شديدا .

وطالبوه بالآيات المادية الملموسة , وآيات الله وسننه في الكون من المعجزات الدائمة لو تدبروها , فهي ناطقة بالشهادة لخالقها (سبحانه) بطلاقة القدرة , وعظيم الصنعة , وتمام

الحكمة , وبالوحدانية المطلقة , والربوبية والألوهية .

ومن رحمته بنا لم يكلنا ربنا (تبارك وتعالي) للتعرف عليه من

خلال التأمل في أنفسنا , وفي الخلق من حولنا , وفي الآفاق البعيدة عنا , فأرسل الرسل , وبعث الأنبياء برسالة الهداية لخلقه , واقتضت حكمته (تعالي) أن يكون الأنبياء والمرسلون كلهم من البشر , وعلي ذلك فليس بمستغرب أن يكون الرسول الخاتم بشرا (صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي جميع أنبياء الله ورسله) , وليس بمستغرب أيضا أن تنقطع المعجزات والخوارق بعد تمام الرسالة الخاتمة , وتعهد الله بحفظها بنفس لغة الوحي وإلي قيام الساعة .

ومن سنن الله في الكون غلبة الحق علي الباطل , وإن طالت دولته ,4 ونجاة المؤمنين وهلاك المسرفين , حتي يرث الأرض عباد الله الصالحون .

وتحد ثت السورة عن فضل إنزال القرآن الكريم , وعن عقاب الأمم الظالمة من السا بقين , واستبدالهم بآخرين , وعن موقف الذل الذي سوف يقفه الظالمون , وبأس الله محيط بهم من كل جانب .

واستعرضت السورة الكريمة بعض مشاهد القيامة , كما استعرضت لقطات سريعة من سير عدد من الأنبياء , وقصصهم مع أممهم , وبعض المعجزات التي أجراها ربنا (تبارك وتعالي) علي أيديهم .

وأكدت السورة وحدة الأمة المؤمنة عبر التاريخ , وتوحيدها لله (تعالي) , كما أكدت وحدة رسالة السماء مع تعدد الرسل , وتباعد أزمانهم , وربطت بين الإيمان بالله الواحد , الأحد , الفرد , الصمد , وبملائكته , وكتبه , ورسله , وباليوم الآخر وأحداثه ومشاهده , وبين الآيات الكونية التي استعرضتها , والتي تشهد بوحدانية الخالق (سبحانه) , فكما أن الكون قائم علي الحق الذي قامت به السماوات والأرض , فإن الإيمان بالله وتنزيهه عن الشبيه , والشريك , والمنازع , والولد هو حق كذلك , بل هو أحق الاعتقاد وأصدقه في هذا الوجود .

وتختتم سورة الأنبياء ببلاغ للناس كافة أن الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) , قد بعثه ربنا (تبارك وتعالي) رحمة للعالمين , بالدين الذي يرتضيه من

عباده , فمن أطاعه فقد نجا من فتن الدنيا , وعذاب الآخرة , ومن لم يستجب لندائه فقد نفض رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يده منه , وهؤلاء لا يعلم مصيرهم إلا الله الذي يعلم العلانية وما تخفي الصدور , وقد يكون في ذلك فتنة لهم ومتاع إلي حين ! !

لذلك يتوجه رسول الله (صلي الله عليه وسلم) إلي (ربه) طالبا حكمه . العادل الحق . بينه وبين المستهزئين به , والغافلين عن دعوته , ومستعينا بالله (تعالي) علي تكذيبهم وكيدهم , والله هو المستعان علي كل ما يصف الكفار وما يقولون .

ومن بديع آيات الله في الخلق التي استشهد بها (سبحانه وتعالي) في سورة الأنبياء : خلق السماوات والأرض بالحق من جرم واحد , فتقه ربنا (تبارك وتعالي) فتحول إلي سحابة من دخان , خلق منه (سبحانه) السماوات والأرض وما بينهما , وما فيهما من مخلوقات من مثل الملائكة الذين يسبحون الله ليلا ونهارا لا يفترون , ومنها خلق كل حي من الماء , والتأكيد علي وحدة الحياة مصدرا , وفناء , ومصيرا , وخلق الجبال رواسي للأرض , وشق السبل والفجاج من بينها , وحفظ السماء سقفا محفوظا , وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون , وإنقاص الأرض من أطرافها , وطي السماء يوم القيامة كطي السجل للكتب .

وهذه القضايا تحتاج إلي مجلدات لشرحها , ولذا فإني سوف أقتصر هنا علي آية واحدة منها , والتي اتخذتها عنوانا لهذا المقال , وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض الدلالة

اللغوية للألفاظ الأساسية الواردة في الآية الكريمة , واستعراض أقوال المفسرين فيها .

الدلالة اللغوية

(245/509)

---

(1) يقال في اللغة العربية : (خلق) , (يخلق) , (خلقا) , بمعني قدر , يقدر , تقديرا , و (الخلق) أصله التقدير المستقيم , ويستخدم في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء , أي علي غير مثال سابق , ولفظة (الخلق) تستخدم في معني (المخلوق) , و (الخليقة) والفطرة , والجمع (خلائق) , و (الخلائق) أيضا هم (خليقة) الله , وهم (خلق) الله , ومضغة (مخلقة) أي تامة (الخلق) , و (الخلق) بضم اللام وسكونها : السجية , ويقال : فلان (يتخلق) بغير (خلقه) أي يتكلفه , ويقال : فلان (خليق) بكذا , أي جدير به كأنه مخلوق فيه , و (الخلاق) : النصيب , أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه . ويقال : ثوب (خلق) أي بال , يستوي فيه المذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر (الأخلق) وهو الأملس , والجمع (خلقان) , ويقال : (خلق) أو (أخلق) الثوب أي بلي , و (أخلقه) صاحبه لأنه يتعدي ويلزم , و (الخلوق) ضرب من الطيب , ويقال : (خلقه) (تخليقا) أي طلاه به (فتخلق) .

ويقال (خلق) الإفك ,(اختلقه) و (تخلقه)(اختلاقا) أي افتراه افتراء .

(2) والفلك هو مجري أجرام السماء في المدار الذي يجري فيه كل جرم منها , وجمعه (أفلاك) و (فلك) .

3 .و (السبح) هو المر السريع في الماء أو في الهواء , يقال (سبح)(يسبح)(سبحا) و (سباحة) أي عام عوما , واستعير لحركة النجوم الانتقالية في أفلاكها , ولسرعة الذهاب والمنقلب في العمل , و (السبح) أيضا هو الفراغ , أو التصرف في المعاش .

شروح المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (الأنبياء :33)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه :(وهو الذي خلق الليل والنهار) أي هذا في ظلامه وسكونه , وهذا بضيائه (نوره)

وأنسه , يطول هذا تارة ثم يقصر أخري وعكسه الآخر , و (الشمس والقمر) هذه لها نور (ضياء) يخصها وحركة وسير خاص , وهذا بنور آخر وسير آخر وتقدير آخر ,(وكل في

فلك يسبحون) أي يدورون . قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة , قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل , كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله رحمة واسعة) ما نصه :

وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل) تنوينه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم ,(في فلك) أي : مستدير كالطاحونة في السماء وهو مدار النجوم ,(يسبحون) يسيرون بسرعة كالسابح في الماء , وللتشبيه به أتي بضمير جمع من يعقل (أي يسبحون) .

وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها رحمة واسعة) : والليل والنهار ظاهرتان كونيتان , الشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض , وبالحياة كلها . . وبالتأمل في توالي الليل والنهار , في حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة , وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة . . جدير بأن يهدي القلب إلي وحدة الناموس , ووحدة الإرادة , ووحدة الخالق المدبر القدير .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ما نصه :(كل في فلك يسبحون) أي كل واحد من الشمس والقمر يسير في فلكه بسرعة (كالسابح في الماء , من السبح وهو المر السريع في الماء أو الهواء . . .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه : والله هو الذي خلق الليل والنهار , والشمس والقمر , وكل من هذه يجري في مجاله الذي قدره الله له , ويسبح في فلكه لا يحيد عنه .

وجاء في الهامش التعليق التالي : لكل جرم سماوي مداره الخاص الذي يسبح فيه , وأجرام السماء كلها لا تعرف السكون , كما أنها تتحرك في مسارات خاصة هي

الأفلاك , ونحن نري هذه الحقيقة ممثلة واضحة في الشمس والقمر , كما أن دوران الأرض حول محورها يجعل الليل والنهار يتعاقبان عليها كأنهما يسبحان .

وجاء في صفوة التفاسير ما نصه : . . . أي وهو تعالي بقدرته نوع الحياة فجعل فيها ليلا ونهارا , هذا في ظلامه وسكونه , وهذا بضيائه (نوره) وأنسه , يطول هذا تارة ثم يقصر أخري وبالعكس , وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين علي وحدانيته ,(كل في فلك يسبحون أي كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء .

حركات الأرض في القرآن الكريم

في الوقت الذي ساد فيه اعتقاد الناس بثبات الأرض , وسكونها , تنزل القرآن الكريم بالتأكيد علي حركتها , وعلي حركة باقي أجرام السماء , ولكن لما كانت تلك الحركات خفية علي الإنسان بصفة عامة , جاءت الإشارات القرآنية إليها لطيفة , رقيقة , غير مباشرة , حتي لا تصدم أهل الجزيرة العربية وقت تنزل القرآن فيرفضوه , لأنهم لم يكونوا أهل معرفة علمية , أو اهتمام بتحصيلها , فلو أن الإشارات القرآنية العديدة إلي حركات الأرض جاءت صريحة صادعة بالحقيقة الكونية في زمن ساد فيه الاعتقاد بسكون الأرض وثباتها واستقرارها , لكذب أهل الجزيرة العربية القرآن , والرسول , والوحي , ولحيل بينهم وبين الهداية الربانية , ولحرمت الإنسانية من نور الرسالة الخاتمة , في وقت كانت قد حرمت فيه من أنوار الرسالات السماوية السابقة كلها فشقيت وأشقت ! ! !

من هنا فإن جميع الإشارات القرآنية إلي حقائق الكون التي كانت غائبة عن علم الناس كافة في عصر تنزل الوحي السماوي ومنها الإشارات المتعددة إلي حركات الأرض وإلي كرويتها , جاءت بأسلوب غير مباشر , ولكن بما أنها بيان من الله الخالق فقد صيغت صياغة محكمة بالغة الدقة في التعبير , والشمول , والإحاطة في الدلالة , حتي تظل مهيمنة علي المعرفة الإنسانية مهما

اتسعت دوائرها , لكي تبقي شاهدة علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , وعلي أن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , وأنه لا ينطق عن الهوي إن هو إلا وحي يوحي .

ومن تلك الإشارات القرآنية ما يتحدث عن جري الأرض في مدارها حول الشمس , ومنها ما يتحدث عن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس , وقد استعاض القرآن الكريم في الإشارة إلي تلك الحركات الأرضية بالوصف الدقيق لسبح كل من الليل والنهار , واختلافهما وتقلبهما , وإغشاء كل منهما للآخر , وإيلاج كل منهما في الآخر , وسلخ النهار من الليل , ومرور الجبال مر السحاب كما يتضح من الآيات القرآنية التالية :

أولا : سبح كل من الليل والنهار :

يقول ربنا تبارك وتعالي في وصف حركات كل من الأرض والشمس والقمر :

(1) وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (الأنبياء :33)

(2) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (يس :40) .

فالليل والنهار ظرفا زمان لابد لهما من مكان , والمكان الذي يظهران فيه هو الأرض , ولولا

كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس لما ظهر ليل ولا نهار , ولا تبادل كل منهما نصفا سطح الأرض , والدليل علي ذلك أن الآيات في هذا المعني تأتي دوما في صيغة الجمع كل في فلك يسبحون , ولو كان المقصود سبح كل من الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية يسبحان , كما أن السبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها , والسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم بحركة ذاتية فيه من مثل حركات كل من الأرض والشمس والقمر في جري كل منها في مداره المحدد له , فسبح كل من الليل والنهار في هاتين الآيتين الكريمتين إشارة ضمنية رقيقة إلي جري الأرض في

مدارها حول الشمس , وإلي تكورها ودورانها حول محورها أمام الشمس .

ثانيا : مرور الجبال مر السحاب :

وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالي : وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون *(النمل :88) .

ومرور الجبال مر السحاب هو كناية واضحة علي دوران الأرض حول محورها , وعلي جريها حول الشمس ومع الشمس , لأن الغلاف الهوائي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب

مرتبط بالأرض بواسطة الجاذبية وحركته منضبطة مع حركة الأرض , وكذلك حركة

السحاب فيه , فإذا مرت الجبال مر السحاب كان في ذلك إشارة ضمنية إلي حركات

الأرض المختلفة التي تمر كما يمر السحاب .

ثالثا : إغشاء كل من الليل والنهار بالآخر :

يقول الحق (تبارك وتعالي) في محكم كتابه :

. . . يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون *(الرعد :3)

ويقول (عز من قائل) :

والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها

* . . . (الشمس :1.4) .

ويقول (سبحانه وتعالي) :

والليل إذا يغشي * والنهار إذا تجلي *(الليل :1,2) .

وغشي في اللغة تأتي بمعني غطي وستر , يقال غشيه غشاوة وغشاء بمعني أتاه إتيان ما قد

غطاه وستره , لأن الغشاوة ما يغطي به الشيء .

والمقصود من يغشي الليل النهار أن الله تعالي يغطي بظلمة الليل مكان النهار علي الأرض

فيصير ليلا , ويغطي مكان الليل علي الأرض بنور النهار فيصير نهارا , وهي إشارة لطيفة

لحقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس دورة كاملة كل يوم (أي في كل أربع

وعشرين ساعة) يتعاقب فيه الليل والنهار بصورة تدريجية . أي يحل أحدهما محل الآخر في الزمان والمكان مما يجعل زمن كل منهما يتعاقب بسرعة علي الأرض .

والليل والنهار يشار بهما في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلي الزمان والمكان (أي الأرض) وإلي أسباب تبادلهما (أي دوران الأرض حول محورها

أمام الشمس) , كما يشار بهما إلي الظلمة والنور , وإلي العديد من لوازمهما ! ! ويتضح ذلك من قول الحق تبارك وتعالي : والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * أي يقسم ربنا تبارك وتعالي (وهو الغني عن القسم) بالنهار إذا أظهر الشمس واضحة غير محجوبة , وبالليل إذ يغيب فيه ضياء الشمس ويحتجب , وقوله (عز من قائل) : والليل إذا يغشي * والنهار إذا تجلي * حيث يقسم ربنا (تبارك وتعالي) بالليل الذي يحجب فيه ضوء الشمس فيعم الأرض الظلام , وبالنهار إذ تشرق فيه الشمس فيعم الأرض النور , ومن هنا كانت منة الله (تعالي) علي عباده أن جعل لهم الليل لباسا وسكنا , وجعل لهم النهار معاشا وحركة ونشاطا حيث يقول ربنا تبارك وتعالي :

هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * (

يونس :67) .

ويقول : وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا *(النبأ :11,10) .

ويقول (عز من قائل) :

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون *(القصص :71.73) .

رابعا : إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل :

يقول ربنا (تبارك وتعالي) في محكم كتابه :

(1) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل . . . (آل عمران :27) .

(2) ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير *

(الحج :61) .

(3) ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلي أجل مسمي وأن الله بما تعملون خبير *(لقمان :29) .

(4) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر

الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير *(فاطر :13) .

(5) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور *(الحديد :6) .

والولوج لغة هو الدخول , ولما كان من غير المعقول دخول زمن علي زمن اتضح أن المقصود بكل من الليل والنهار ليس الزمن ولكن المكان الذي يتغشاه كل من الليل والنهار , وهو الأرض . وعلي ذلك فمعني قوله تعالي : يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل أن الله تعالي يدخل الجزء من الأرض الذي يخيم عليه الليل بالتدريج في مكان الجزء الذي يعمه نور النهار , ويدخل الجزء من الأرض الذي يعمه نور النهار في مكان الجزء الذي يخيم عليه الليل وذلك باستمرار , وبطريقة متدرجة , إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وليس هنالك من إشارة أدق من ذلك في التأكيد علي حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس , وهذه الإشارة القرآنية تلمح أيضا إلي كروية الأرض , لأنه لو لم تكن الأرض كروية الشكل , ولو لم تكن الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما أمكن لليل والنهار أن يتعاقبا بطريقة تدريجية ومطردة .

خامسا : سلخ النهار من الليل :

يقول ربنا تبارك وتعالي :

وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون *(يس : 37)

والسلخ لغة هو نزع جلد الحيوان عن لحمه , ولما كان من غير المعقول أن يسلخ زمن النهار من زمن الليل , كان المقصود بكل من الليل والنهار هنا هو مكان كل منهما علي الأرض , الذي يتبادل فيه النور والظلام , وليس زمانه , وعلي ذلك فمعني قوله تعالي : وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون أن الله تعالي ينزع طبقة النهار من أماكن الأرض التي يتغشاها الليل كما ينزع جلد الحيوان عن لحمه , ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس , وفي تشبيه إزالة نور النهار من غلاف الأرض بنزع جلد الحيوان عن لحمه

تأكيد علي أن نور النهار إنما ينشأ في طبقة رقيقة من الغلاف الغازي للأرض تحيط بكوكبنا (كما يحيط جلد الحيوان بجسده) , وأن هذا النور مكتسب أصلا من ضوء الشمس وليس ذاتيا , وأنه ينعكس من سطح الأرض ويتشتت في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي المحيط بها , والذي يصبح ظلاما ببعده عن أشعة الشمس , كما أن الظلام سائد في الفضاء الكوني بصفة عامة لعدم وجود جسيمات كافية فيه لإحداث التشتت لضوء الشمس ولضوء غيرها من النجوم , وهذا الضوء لا يظهر إلا بالانعكاس علي أسطح

الكواكب وأسطح غيرها من الأجرام المعتمة أو بالتشتت في أغلفتها الجوية إن كانت بها جسيمات كافية للقيام بهذا التشتت .

سادسا : اختلاف الليل والنهار :

وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالي :

(1) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون *(البقرة :164) .

ويقول (عز من قائل) :

(2) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب *

(آل عمران :190) .

ويقول جل وعلا :

(3) إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون *(يونس :6) .

ويقول ربنا تبارك وتعالي :

(4) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون *(المؤمنون :80) .

ويقول :

(5) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون *

(الجاثية :5) .

ويقول عز من قائل :

(6) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا *(الفرقان :62) .

وفي تلك الآيات يؤكد القرآن الكريم كروية الأرض , ودورانها حول محورها أمام الشمس بالوصف الدقيق لتعاقب الليل

والنهار , كما سبق أن أكد ذلك في آيات سبح كل من الليل والنهار ,, ومرور الجبال مر السحاب , والتكوير والإغشاء , والولوج , والسلخ , وهي تصف حركة تولد الليل من النهار , والنهار من الليل , وصفا غاية في البلاغة والدقة العلمية .

سابعا : تقليب الليل والنهار :

دوران الأرض حول محورها أمام الشمس

كذلك يشير القرآن الكريم إلي ذلك أيضا بقول الحق (تبارك وتعالي) :

يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار *

(النور :44) .

حركات الأرض في العلوم الحديثة

الأرض هي أحد كواكب المجموعة الشمسية , وتمثل الكوكب الثالث بعدا عن الشمس , وتبعد عنها بمسافة تقدر بحوالي المائة وخمسين مليون كيلومتر . ولما كانت كل أجرام السماء في حركة دائبة , فإن للأرض عدة حركات منتظمة , منها دورتها حول محورها أمام الشمس والتي يتبادل بواسطتها الليل والنهار , وجريها في مدارها حول الشمس بمحور مائل فيتبادل كل من الفصول والأعوام , وحركتها مع الشمس حول مركز للمجرة , ومع المجرة حول مراكز أكبر إلي نهاية لا يعلمها إلا الله .

وقد عرف من حركات الأرض ما يلي :

أولا : حركات الأرض حول محور دورانها :

(1) الحركة المحورية (الدورانية أو المغزلية) للأرض : وفيها تدور الأرض حول محورها الوهمي من الغرب إلي الشرق أمام الشمس بسرعة (1674) كيلومترا في الساعة لتتم دورة كاملة في يوم مقداره حوالي الأربع وعشرين ساعة (23 ساعة ,56 دقيقة ,4 ثوان

) يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت في طول كل منهما نظرا لميل محور دوران الأرض بمقدار 23.5 درجة عن العمود النازل علي مستوي مدارها , ويعرف هذا اليوم باسم اليوم النجمي , أما اليوم الشمسي فيبلغ مدي زمنه 24 ساعة تماما .

(2) الحركة الترنحية للأرض

:(Precession)

وهي حركة بطيئة تمايل فيها الأرض من اليمين إلي اليسار بالنسبة إلي محورها العمودي , ونؤدي هذه الحركة إلي

تأرجح (زحزحة) محور دوران الأرض حول نفسها تدريجيا مما يؤدي إلي تغير موقع كل من قطبي الأرض الشمالي والجنوبي , وهما يمثلان نقطتي تقاطع المحور الوهمي لدوران الأرض مع السطح الخارجي لذلك الكوكب , ويتأرجح محور الأرض المائل بقدر يكفي لرسم دائرة كاملة مرة كل حوالي 26.000 سنة (25.800 سنة) , وبذلك يرسم المحور مخروطين متعاكسين تلتقي قمتاهما في مركز الأرض .

(3) حركة الميسان (النودان أو التذبذب) للأرض

:(Nutation)

وهي حركة تجعل من ترنح الأرض حول محورها مسارا متعرجا بسبب جذب كل من القمر والشمس للأرض , ويؤدي ذلك إلي ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض في أثناء ترنحها (كنهاية للمخروطين المتقابلين برأسيهما في مركز الأرض) عن كونها دائرة بسيطة إلي دائرة مؤلفة من أقواس متساوية , ويقدر عدد الذبذبات التي ترسمها الأرض في مدارها بهذه الحركة بدءا من مغادرة محورها لنقطة القطب السماوي وحتي عودته إليها بـ 1400 ذبذبة (قوس) نصفها إلي يمين الدائرة الوهمية , والنصف الآخر إلي يسارها , ويستغرق رسم القوس الواحد مدة 18.6 سنة , أي أن هذه الحركة تتم دورة كاملة في (26.040 سنة) تقريبا .

(4) حركة التباطؤ في سرعة دوران الأرض حول محورها : ويتم هذا التباطؤ بمقدار جزء من الثانية في كل قرن من الزمان , بينما يسرع القمر في دورته المحورية بنفس المعدل , ويؤدي ذلك إلي تغير تدريجي في حالة التوازن بين الأرض والقمر مما يؤدي في النهاية إلي انفلات القمر من عقال جاذبية الأرض , وارتمائه في أحضان الشمس , وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

وجمع الشمس والقمر . (القيامة 9)

(5) الحركة الانتقالية المدارية للأرض (سبح الأرض) : وفيها تجري الأرض في مدار

بيضاني (إهليلجي) حول الشمس بسرعة تقدر بحوالي الثلاثين كيلومترا في الثانية (29.76 كم / ث)

(255/509)

لتتم دورة كاملة في مدة سنة شمسية (مقدارها 365.24 يوم شمسي) يتقاسمها اثنا عشر شهرا قمريا , وأربعة فصول .

(6) حركة استدارة فلك الأرض : وبها يتم تقريب مدار الأرض الإهليلجي حول الشمس إلي مدار أقرب ما يكون إلي شكل الدائرة , وتستغرق هذه الحركة (92.000) سنة لكي تقترب بؤرتا مدار الأرض من بعضهما البعض حتي تتطابقا , ثم تعاودان التباعد من جديد .

(7) حركة جري الأرض مع المجموعة الشمسية في مسار باتجاه كوكبة الجاثي بسرعة تقدر بحوالي عشرين كيلومترا في الثانية .

(8) حركة جري الأرض مع بقية المجموعة الشمسية حول مركز المجرة التي تتبعها (سكة التبانة) في مدار لولبي بسرعة تقدر بحوالي 206 كيلومترات في الثانية (741.600 كيلومتر في الساعة) لتتم دورة كاملة في مدة تقدر بحوالي المائتين وخمسين مليون نسمة .

(9) حركة جري الأرض والمجموعة الشمسية والمجرة بسرعة تقدر بحوالي 980 كيلومترا في الثانية (3.528.000 كيلومتر في الساعة) لتؤدي إلي ظاهرة اتساع السماء بتباعد مجرتنا عن بقية المجرات في السماء الدنيا . وقد يكون للأرض حركات أخري لم تكتشف بعد .

من هذا الاستعراض يتضح أن حركات الأرض حول محورها, وجريها في مدارها حول الشمس, ومع الشمس في مدارات متعددة هي من حقائق الكون الثابتة, وإشارة القرآن الكريم إليها في أكثر من عشرين آية من آياته في زمن سيادة الاعتقاد بثبات الأرض وسكونها لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق, ويؤكد أن الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي, ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض. انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العاشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/510)

الجزء العاشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 50 ﴾ من نفس السورة

(4/510)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه عن إعراضهم عن الساعة تكذيباً ، واستدل على كونها منزهة عن الغيب في خلق هذا العالم وتعاليه عن جميع صفات النقص واتصافه بأوصاف الكمال إلى أن ختم ذلك بمثل ما ابتدأ به على وجه أصرح ، وكان فيه تنبيههم على الابتلاء وكان

الابتلاء على قدر النعم ، فكان -صلى الله عليه وسلم- أعظم شيء ابتلوا به لأنه لا نعمة أعظم من النعمة به ، ولا شيء أظهر من آياته عطف على قوله " وأسروا النجوى " قوله : ﴿ وإذا رءاك ﴾ أي وأنت أشرف الخلق وكلك جد وجلال وعظمة وكمال ﴿ الذين كفروا ﴾ فأظهر منبهاً على أن ظلمهم الذي أوجب لهم ذلك هو الكفر وإن كان في أدنى رتبة ، تبشيعاً له وتنبيهاً على أنه يطمس الفكر مطلقاً .

ولما كان من المعلوم أنه -صلى الله عليه وسلم- في غاية البعد عن الهزء ، قال منبهاً على أنهم أعرقوا في الكفر حتى بلغوا الذروة : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يتخذونك ﴾ أي حال الرؤية ، وسيعلم من يبقى منهم عما قليل أنك جد كلك ﴿ إلا هزواً ﴾ أي جعلوك بحمل أنفسهم على ضد ما يعتقد عين ما ليس فيك شيء منه ؛ ثم بين استزاءهم به بأنهم يقولون إنكاراً واستصغاراً : ﴿ أهذ الذي يذكر ﴾ أي بالسوء ﴿ ءالهتكم ﴾ قال أبو حيان : والذكر يكون بالخير والشر ، فإذا لم يذكر متعلقه فالقرينة تدل عليه – انتهى .

فإذا دلت القرينة على أحدهما أطلق عليه ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم على حال كانوا بها أصلاً في الهزء ، وهي أنهم ﴿ بذكر الرحمن ﴾ الذي لا نعمة عليهم ولا على غيرهم إلا منه ، وكرر الضمير تعظيماً بما أتوا به من القباحة فقال : ﴿ هم ﴾ أي بظواهرهم وبواطنهم ﴿ كافرون ﴾ أي ساترون لمعرفتهم به ، فلا أعجب ممن هو محل للهزء لكونه أنكر ذكر من لا نعمة منه ولا نقمة أصلاً بالسوء ، وهو يذكر من كل نعمة منه بالسوء ويهزأ به .

ولما كان من آيات الأولين التي طلبوها العذاب بأنواع الهول ، وكانوا هم أيضاً قد طلبوا ذلك واستعجلوا به ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ [ص : 26] ونحو ذلك ، وكان الذي جرأهم على هذا حلم الله عنهم بإمهاله لهم ، قال معللاً لذلك : ﴿ خلق ﴾ وبناه للمفعول لأن المقصود بيان ما جبل عليه والخالق معروف ﴿ الإنسان ﴾ أي هذا النوع .

ولما كان مطبوعاً على العجلة قال : ﴿ من عجل ﴾ فلذا يكفر ، لأنه إذا خولف بادر إلى الانتقام عند القدرة فظن بجهله أن خالقه كذلك ، وأن التأخير ما هو إلا عن عجز أو عن رضى ؛ ثم قال تعالى مهدداً للمكذبين : ﴿ سأوريكم ﴾ حقاً ﴿ ءاياتي ﴾ القاصمة والعاصمة ، بهجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن عندكم من أتباعه المستضعفين وخلافتهم بين أيديكم وجعلهم شجاً في حلوقكم حتى يتلاشى ما أنتم عليه وغيره ذلك من العظائم ﴿ فلا تستعجلون ﴾ أي تطلبوا أن أوجد العجلة بالعذاب أو غيره ، فإني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم .

ولما ذم العجلة وهي إرادة الشيء قبل أوانه ، ونهى عنها ، قال دالاً عليها عاطفاً على عامل ﴿ هذا ﴾ : ﴿ ويقولون ﴾ أي في استهزائهم بأولياء الله : ﴿ متى هذا ﴾ وتهكموا

بقولهم : ﴿ الوعد ﴾ أي بإتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها ، وزادوا في الإلهاب والتهييج تكذيباً فقالوا : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي عريقين في هذا الوصف جداً - بما دل عليه الوصف وفعل الكون .

(6/510)

ولما غلوا في الاستهزاء فكانوا أجهل الجهلة باستحالة الممكن ، استأنف الجواب عن كلامهم بنفي العلم عنهم في الحال والمآل دون المعاينة على طريق التهكم والاستهزاء بهم : ﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ وذكر المفعول به فقال : ﴿ حين ﴾ أي لو تجدد لهم علم ما بالوقت الذي يستعجلون به ؛ وذكر ما أضيف إليه ذلك الوقت فقال : ﴿ لا يكفون ﴾ أي فيه بأنفسهم ﴿ عن وجوههم ﴾ التي هي أشرف أعضائهم ﴿ النار ﴾ استسلاماً وضعفاً وعجزاً ﴿ ولا عن ظهورهم ﴾ التي هي أشد أجسادهم ، فعرف من هذا أنها قد أحاطت بهم وأنهم لا يكفون عن غير هذين من باب الأولى ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي ولا يتجدد لهم نصر ظاهراً ولا باطناً بأنفسهم ولا بغيرهم ، لم يقولوا شيئاً من ذلك الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكنهم لا يعلمون ذلك بنوع من أنواع العلم إلا عند الوقوع لأنه لا أمارة لها قاطعة بتعيين وقتها ولا تأتي بالتدريج كغيرها ، وهذا معنى ﴿ بل تأتيهم ﴾ أي الساعة

التي هي ظرف لجميع تلك الأحوال وهي معلومة لكل أحد فهي مستحضرة في كل ذهن ﴿ بغتة فتبهتهم ﴾ أي تدعهم باهتين حائرين ؛ ثم سبب عن بهتهم قوله : ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت ليأسهم عنه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي يمهلون من ممهل ما ليتداركوا ما أعد لهم فيها ، فيا شدة أسفهم على التفريط في الأوقات التي أمهلوا فيها في هذه الدار ، وصرفهم إياها في لذات أكثرها أكدار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 83.84 ﴾

(7/510)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هزوًا ﴾

قال السدي ومقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبي جهل ، فقال أبو جهل لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف ، فقال أبو سفيان : وما تنكر أن يكون نبياً في بني عبد مناف .

فسمع النبي صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لأبي جهل : " ما أراك تنتهي حتى ينزل بك ما

نزل بعمك الوليد بن المغيرة ، وأما أنت يا أبا سفيان : فإنما قلت ما قلت حمية " فنزلت هذه الآية ، ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ والذكر يكون بخير وبخلافه ، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل سمعت فلاناً يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدواً فهو ذم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 60] والمعنى أنه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كافرون ﴾ فالمعنى أنه يعيبون عليه ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء ، مع ﴿ أَنَّهُمْ بِذِكْرِ الرحمن ﴾ الذي هو المنعم الخالق المحيي المميت ﴿ كافرون ﴾ ولا فعل أقبح من ذلك ، فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ، ويحتمل أن يراد ﴿ بِذِكْرِ الرحمن ﴾ القرآن والكتب ، والمعنى في أعادة (هم) أن الأولى إشارة إلى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل ، والثانية إبانة لاختصاصهم به ، وأيضاً فإن في أعادتها تأكيداً وتعظيماً لفعلهم .

أما قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في المراد من الإنسان قولان : أحدهما : أنه النوع ، والثاني : أنه شخص معين .

أما القول الأول فتقريره أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ [الملك : 25] فأراد زجرهم عن ذلك ، فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : لا يبعد منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم ، فإن قيل : مقدمة الكلام لا بد وأن تكون مناسبة للكلام ، وكون الإنسان مخلوقاً من العجل يناسب كونه معذوراً فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ قلنا : لأن العائق كلما كان أشد ، كانت القدرة عليه مخالفته أكمل ، فكأنه سبحانه نبه بهذا على أن ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها .

أما القول الثاني : وهو أن المراد شخص معين فهذا فيه وجهان : أحدهما : أن المراد آدم عليه السلام ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي ومقاتل والضحاك ، وروى ابن جريج وليث بن أبي سليم عن مجاهد قال : خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شيء من آخر نهار الجمعة ، فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله ، قال : يا رب استعجل خلقي قبل غروب الشمس ، قال ليث : فذلك قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان

مِنْ عَجَلٍ ﴾ وعن السدي لما نفخ فيه الروح فدخل في رأسه عطس ، فقالت له الملائكة :

قل الحمد لله ، فقال ذلك : فقال الله له : يرحمك ربك .

فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام ،

فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه إلى ثمار الجنة .

وهذا هو الذي أورث أولاده العجلة .

وثانيهما : قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث والمراد بالإنسان هو ، واعلم أن القول الأول أولى لأن الغرض ذم القوم ، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الإنسان على النوع .

المسألة الثانية :

من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها ، أما الأولون فلهم فيها أقوال : أحدها : قول المحققين وهو أن قوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي خلق عجولاً ، وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكي : هو نار تشتعل ، والعرب قد تسمي المرء بما يكثر منه فتقول : ما أنت إلا أكل ونوم ، وما هو إلا إقبال وإدبار ، قال الشاعر :

أما إذا ذكرت حتى إذا غفلت . . فإنما هي إقبال وإدبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] قال المبرد : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي من شأنه العجلة كقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم : 54] أي ضعفاء .

وثانيها : قال أبو عبيد : العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا :

والنخل ينبت بين الماء والعجل . . وثالثها : قال الأخفش : (من عجل) أي من تعجيل من الأمر وهو قوله كن .

ورابعها : من عجل ، أي من ضعف عن الحسن .

أما الذين قلبوها فقالوا المعنى : خلق العجل من الإنسان ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار ﴾ [الأحقاف : 20] أي تعرض النار عليهم والقول الأول أقرب إلى الصواب وأبعد الأقوال هذا القلب لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب ، وأيضاً فإن قوله : خلقت العجلة من الإنسان فيه وجوه من المجاز .

فما الفائدة في تغيير النظم إلى ما يجري مجراه في المجاز .

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول : القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون

مستعجلاً على الحقيقة.

قلنا: استعجالهم على هذا الوجه أدخل في الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوماً له كان أولى، وأيضاً فإن استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين في الحقيقة.

(10/510)

أما قوله تعالى: ﴿ سأريكم ءاياتى فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فقد اختلفوا في المراد بالآيات على أقوال: أحدها: أنها هي الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولذلك قال: ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها.

وثانيها: أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول.

وثالثها: أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول أقرب إلى النظم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فاعلم أن هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ [العنكبوت: 53] فبين تعالى أنهم يقولون ذلك

لجهلهم وغفلتهم ، ثم إنه سبحانه ذكر في رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهين : الأول : بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذي يسألون عنه بقولهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضاً ناصراً ينصرهم لقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَاءنَا ﴾ [غافر : 29] لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عليهم وإنما حسن حذف الجواب لأن ما تقدم يدل عليه .

(11/510)

وهذا أبلغ ومثله : ﴿ وَلَوْ يَرَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [البقرة : 165] ، ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 50] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعاً ولكثرة ما يستعمل ذكرهما في دفع المضرة عن النفس ثم إنه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين أن وقت مجيئه غير معلوم

لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لأمرها مستعدين فتبهتهم أي تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة في ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفاً ولا هم ينظرون أي لا يمهلون لتوبة ولا معذرة ، واعلم أن الله تعالى إنما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لأن المرء مع كتمان ذلك أشد حذراً وأقرب إلى التلافي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 147.149 ﴾

(12/510)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن المعنيّ بالإِنسان آدم ، فعلى هذا في قوله : ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : أي معجل قبل غروب الشمس من يوم الجمعة وهو آخر الأيام الستة ، قاله مجاهد والسدي .

الثاني : أنه سأل ربه بعد إكمال صورته ونفخ الروح في عينيه ولسانه أن يعجل إتمام خلقه وإجراء الروح في جميع جسده ، قاله الكلبي .

الثالث : أن معنى ﴿ من عجل ﴾ أي من طين ، ومنه قول الشاعر :

والنبع في الصخرة الصماء منبته . . . والنخل ينبت بين الماء والعجل

والقول الثاني : أن المعنى بالإِنسان الناس كلهم ، فعلى هذا في قوله : ﴿ من عجل ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني خلق الإِنسان عجولاً ، قاله قتادة .

الثاني : خلقت العجلة في الإِنسان قاله ابن قتيبة .

الثالث : يعني أنه خلق على حُب العجلة .

والعجلة تقديم الشيء قبل وقته ، والسرعة تقديمه في أول أوقاته . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/510)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾

روي أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في المسجد فاستهزآ به فنزلت الآية بسببهما ، وظاهر الآية أن كفار قريش وعظماءهم يعمهم

هذا المعنى من أنهم ينكرون أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في أمر آلهتهم وذكره لهم بفساد ، و﴿ إن ﴾ بمعنى ما وفي الكلام حذف تقديره يقولون ﴿ أهذا الذي ﴾ وقوله ﴿ يذكر ﴾ لفظة تعم المدح والذم لكن قرينة المقال أبداً تدل على المراد من الذكر وتم ما حكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ آلهتكم ﴾ ، ثم رد عليهم بأن قرن بإنكارهم ذكر الأصنام كفرهم بذكر الله أي فهم أحق وهم المخطئون . وقوله تعالى : ﴿ بذكر ﴾ أي بما يجب ان يذكر به ولا إله إلا الله منه .

وقوله ﴿ بذكر الرحمن ﴾ روي أن الآية نزلت حين أنكروا هذه اللفظة وقالوا ما نعرف الرحمن إلا في اليمامة ، وظاهر الكلام أن الرحمن قصد به العبارة عن الله تعالى كما لو قال ﴿ وهم بذكر ﴾ الله وهذا التأويل أغرق في ضلالهم وخطاهم . وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ ، توطئة للرد عليهم في استعجالهم العذاب وطلبهم آية مقترحة وهي مقرونة بعذاب مجهز إن كفروا بعد ذلك ، ووصف تعالى الإنسان الذي هو اسم الجنس بأنه " خلق من عجل " وهذا على جهة المبالغة كما تقول للرجل البطال أنت من لعب ولهو وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لست من دد ولا دد مني " ، وهذا نحو قول الشاعر :

وإنا لمما نضرب الكبش ضربة . . . على رأسه تلقي اللسان على الفم

كأنه مما كانوا أهل ضرب الهام ، وملازمة الضرب قال إنهم من الضرب ع وهذا التأويل يتم به معنى الآية المقصود في أن ذمت عجلتهم وقيل لهم على جهة الوعيد إن الآيات ستأتي ﴿ فلا تستعجلون ﴾ وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ إنه على المقلوب كأنه أراد خلق العجل من الإنسان على معنى أنه جعل طبيعة من طبائعه وجزءاً من أخلاقه ع وهذا التأويل ليس فيه مبالغة وإنما هو إخبار مجرد وإنما حمل قائليه عليه عدمهم وجه التجوز والاستعارة في أن يبقى الكلام على ترتيبه ونظير هذا القلب الذي قالوه قول العرب : إذا طلعت الشعرى استوى العود على الحرباء ، وكما قالوا عرضت الناقة على الحوض وكما قال الشاعر : [البسيط]

حسرت كفي على السربال آخذه . . . فرداً يجر على أيدي المفدينا

وأما المعنى في تأويل من رأى الكلام من المقلوب فكالمعنى الذي قدمناه ، وقالت فرقة من المفسرين قوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ إنما أراد أن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى في آخر ساعة من يوم الجمعة فتعجل به قبل مغيب الشمس ، وروى بعضهم أن آدم عليه السلام قال يا رب أكمل خلقي فإن الشمس على الغروب أو غربت ع وهذا قول ضعيف ومعناه لا يناسب معنى الآية ، وقالت فرقة العجل الطين والمعنى خلق آدم من طين .

وأنشد النقاش : والنخل ينبت بين الماء والعجل . وهذا أيضاً ضعيف ومعناه مباين لمعنى الآية ، وقالت فرقة معنى قوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ أي بقوله كن فهو حال عجله وهذا أيضاً ضعيف وفيه تخصيص ابن آدم بشيء كل مخلوق يشاركه فيه ، وليس في هذه الأقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إلا القول الأول ، وقرأت فرقة " خُلق " على بناء الفعل للمفعول ، وقرأت فرقة " خَلَق الإنسانَ " على معنى خلق الله الإنسان ، فمعنى الآية بجملتها خلق الإنسان من عجل على معنى التعجب ، من تعجل هؤلاء المقصودين بالرد ، ثم توعدهم بقوله ﴿ سأوريكم آياتي ﴾ أي سآتي ما يسوءكم إذا دمتم على كفركم ، يريد يوم بدر وغيره ، ثم فسر استعجالهم بقولهم ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وكأن استفهامهم على جهة الهزء والتكذيب ، وقوله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ يريدون محمداً صلى الله عليه وسلم ومن آمن به لأن المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشرع وموضع ﴿ متى ﴾ رفع عند البصريين وقال بعض الكوفيين موضعه نصب على الظرف والعامل فعل مقدر تقديره يكون أو يجيء والأول أصوب .

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ ﴾

(16/510)

حذف جواب ﴿ لو ﴾ إيجازاً لدلالة الكلام عليه وأبهم قدر العذاب لأنه أبلغ وأهيب من النص عليه وهذا محذوف نحو قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ﴾ [الرعد : 31] ، ويقدر المحذوف في جواب هذه الآية لما استعجلوه ونحوه ، وقوله ﴿ حين لا يكفون عن وجوههم النار ﴾ يريد يوم القيامة ، وذكر " الوجوه " خاصة لشرفها من الإنسان وأنها موضع حواسه وهو أحرص على الدفاع عنه ، ثم ذكر " الظهور " ليبين عموم النار لجميع أبدانهم ، وقوله ﴿ بل يأتيهم ﴾ استدراك مقدر قبله نفي تقديره ان الآيات لا تأتي بحسب اقتراحهم ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ ، والضمير للساعة التي تصيرهم إلى العذاب ويحتمل أن يكون ل ﴿ النار ﴾ ، وقرأت فرقة " يأتيهم " بالياء على أن الضمير للوعد " فيبهتهم " بالياء أيضاً ، والبغتة الفجأة من غير مقدمة ، و﴿ ينظرون ﴾ معناه يؤخرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/510)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذا رآكَ الذين كَفَروا ﴾

قال ابن عباس : يعني المستهزئين ، وقال السدي : نزلت في أبي جهل ، مَرَّ به رسول الله ، فضحك وقال : هذا نَبِيُّ بني عبد مناف .

و"إِن" بمعنى "ما" ومعنى ﴿ هُزُواً ﴾ مهزوءاً به ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلهتكم ﴾ أي : يعيب أصنامكم ، وفيه إِضمار "يقولون" ، ﴿ وهم بِذِكْر الرحمن هم كافرون ﴾ وذلك أنهم قالوا : ما نعرف الرحمن ، فكفروا بالرحمن .

قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسانُ من عَجَلٍ ﴾ وقرأ أبو رزين العُقيلي ، ومجاهد ، والضحاك : "خلَقَ الإنسانَ" بفتح الخاء واللام ونصب النون .

وهذه الآية نزلت حين استعجلت قريش بالعذاب .

وفي المراد بالإِنسان هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : النضر بن الحارث ، وهو الذي قال : ﴿ اللهم إِن كان هذا هو الحقَّ من عندك .

. .

﴾ الآية [الانفال : 32] ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير ، والسدي في آخرين .

والثالث : أنه اسم جنس ، قاله علي بن أحمد النيسابوري ؛ فعلى هذا يدخل النضر ابن

الحارث وغيره في هذا وإِن كانت الآية نزلت فيه .

فأمَّا من قال : أُرِيدَ به آدم ، ففي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنه خُلق عجولاً ، قاله الأكثرون .

فعلى هذا يقول : لما طُبع آدم على هذا المعنى ، وُجد في أولاده ، وأورثهم العَجَل .

والثاني : خُلق بعَجَل ، استَعجل بخَلْقه قبل غروب الشمس من يوم الجمعة ، وهو آخر الأيام الستة ، قاله مجاهد .

فأما من قال : هو اسم جنس ، ففي معنى الكلام قولان .

أحدهما : خُلِقَ عَجُولاً ؛ قال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذي يكثر منه اللعب : إِنما خُلقتَ من لَعِب ، يريدون المبالغة في وصفه بذلك .

والثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والمعنى : خُلقتِ العجلة في الإِنسان ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ سأُريكم آياتي ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ما أصاب الأمم المتقدِّمة ؛ والمعنى : إِنكم تسافرون فترون آثار الهلاك في الماضين ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنها القتل ببدر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فلا تستعجلون ﴾ أثبت الياء في الحالين يعقوب .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ يعنون : القيامة .

﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ جوابه محذوف ، والمعنى : لو علموا صدق الوعد ما استعجلوا ، ﴿ حين لا يكفُّون ﴾ أي : لا يدفعون ﴿ عن وجوههم النار ﴾ إِذا دخلوا ﴿ ولا عن ظهورهم ﴾ لإِحاطتها بهم ﴿ ولا هم يُنصَرون ﴾ أي : يُمنَعون مما نزل بهم ، ﴿ بل تأتيهم ﴾ يعني : الساعة ﴿ بغتةً ﴾ فجاَةً ﴿ فَتَبْهَتُهم ﴾ تحيِّرهم ؛ وقد شرحنا هذا عند قوله : ﴿ فبُهت الذي كفر ﴾ [البقرة : 258] ، ﴿ فلا يستطيعون ردَّها ﴾ أي : صرفها عنهم ، ولا هم يُمْهَلون لتوبة أو معذرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(19/510)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾

أي ما يتخذونك.

والهزء السخرية؛ وقد تقدم.

وهم المستهزئون المتقدمو الذكر في آخر سورة "الحجر" في قوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين ﴾ [الحجر: 95].

كانوا يعيبون من جَحَد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن؛ وهذا غاية الجهل.

﴿ أهذا الذي ﴾ أي يقولون: أهذا الذي؟ فأضمر القول وهو جواب "إذا" وقوله: ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ كلام معترض بين "إذا" وجوابه ﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي بالسوء والعيب.

ومنه قول عَنْتَرَة:

لا تَذْكُرِي مُهْري وما أطعمتُه . . .

فيكون جلدُكِ مثلَ جلدِ الأَجْربِ

أي لا تعيبي مهري.

﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن ﴾ أي بالقرآن.

﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ "هم" الثانية توكيد كفرهم، أي هم الكافرون مبالغة في وصفهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي ركِّب على العَجَلة فخلق عَجُولاً؛ كما قال

الله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم : 54] أي خلق الإنسان ضعيفاً .

ويقال : خلق الإنسان من الشر أي شريراً إذا بالغت في وصفه به .

ويقال : إنما أنت ذهاب ومجيء .

أي ذاهب جائي .

أي طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة .

ثم قيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام .

قال سعيد بن جبير والسدي : لما دخل الروح في عيني آدم عليه السلام نظر في ثمار الجنة ، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام ، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة .

فذلك قوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ .

وقيل : خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار ، فلما أحيا الله رأسه استعجل ، وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس ؛ قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما .

وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : العَجَل الطين بلغة حِمير .

وأنشدوا :

والنخل يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ . . .

وقيل : المراد بالإنسان الناس كلهم .

وقيل المراد : النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار في تفسير ابن عباس ؛ أي لا ينبغي لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزىء بآيات الله ورسله .

وقيل : إنه من المقلوب ؛ أي خلق العجل من الإنسان .

وهو مذهب أبي عبيدة .

النحاس : وهذا القول لا ينبغي أن يجاب به في كتاب الله ؛ لأن القلب إنما يقع في الشعر اضطرارا كما قال :

كان الزِّناءُ فَرِيضةَ الرَّجْمِ . . .

ونظيره هذه الآية : "وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً" وقد مضى في "سبحان" .

﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ هذا يقوي القول الأول ، وأن طبع الإنسان العَجَلة ، وأنه خلق خلقاً لا يتمالك ، كما قال عليه السلام ، حسب ما تقدم في "سبحان" .

والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات ، وما جعله له من العاقبة المحمودة .

وقيل : ما طلبوه من العذاب فأرادوا الاستعجال وقالوا : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ ؟ وما علموا أن لكل شيء أجلاً مضروباً .

نزلت في النضر بن الحرث .

وقوله : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق ﴾ [الأنفال : 32] .

وقال الأخفش سعيد : معنى ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي قيل له كن فكان ، فمعنى ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون ، لا يعجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي الموعود ، كما يقال : الله رجاؤنا أي مرجوّنا .

وقيل : معنى "الوعد" هنا الوعيد ، أي الذي يعدنا من العذاب .

وقيل : القيامة .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يا معشر المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضي مفعولاً ثانياً مثل ﴿ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : 60] .

(21/510)

وجواب "لو" محذوف ، أي لو علموا الوقت الذي ﴿ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وعرفوه لما استعجلوا الوعيد .

وقال الزجاج : أي لعلموا صدق الوعد .

وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولآمنوا .

وقال الكسائي : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أي لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية .

ودل عليه ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة يعني القيامة .

وقيل : العقوبة .

وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ .

قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغتة ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ .

وقال الفراء : "فتبهتهم" أي تحيرهم ، يقال : بهته يبهته إذا واجهه بشيء يحيره .

وقيل : فتفجأهم .

﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي صرفها عن ظهورهم .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(22/510)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾

قال السدّي ومقاتل : " مرّ الرسول عليه الصلاة والسلام بأبي جهل وأبي سفيان ، فقال أبو جهل : هذا نبي عبد مناف ، فقال أبو سفيان : وما تنكرون أن يكون نبياً في بني عبد مناف ، فسمعهما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال لأبي جهل : "ما تنتهي حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة ، وأما أنت يا أبا سفيان فإنما قلت ما قلت حمية" " فنزلت .

ولما كان الكفار يغمهم ذكر آلهتهم بسوء شرعوا في الاستهزاء وتنقيص من يذكرهم على سبيل المقابلة و﴿ إن ﴾ نافية بمعنى ما ، والظاهر أن جواب ﴿ إذا ﴾ هو ﴿ إن يتخذونك ﴾ وجواب إذا بإن النافية لم يرد منه في القرآن إلا هذا وقوله في القرآن ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلاّ هزواً ﴾ ولم يحتج إلى الفاء في الجواب كما لم تحتج إليه ما إذا وقعت جواباً كقوله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ ما كان حجتهم بخلاف أدوات الشرط ، فإنها إذا كان الجواب مصدراً بما النافية فلا بد من الفاء ، نحو إن تزورنا فما نسيء إليك .

وفي الجواب لاذا بأن وما النافيتين دليل واضح على أن ﴿ إذا ﴾ ليست معمولة للجواب ، بل العامل فيها الفعل الذي يليها وليست مضافة للجملة خلافاً لأكثر النحاة .

وقد استدللنا على ذلك بغير هذا من الأدلة في شرح التسهيل .

وقيل : جواب ﴿ إذا ﴾ محذوف وهو يقولون المحكي به قولهم ﴿ أهذا الذي يذكر

آلهتكم ﴾ وقوله ﴿ إن يتخذونك إلاّ هزواً ﴾ كلام معترض بين ﴿ إذا ﴾ وجوابه و ﴿ يتخذونك ﴾ يتعدى إلى اثنين، والثاني ﴿ هزواً ﴾ أي مهزواً به، وهذا استفهام فيه إنكار وتعجيب.

والذكر يكون بالخير وبالشر، فإذا لم يذكر متعلقه فالقرينة تدل عليه، فإن كان من صديق فالذكر ثناء أو من غيره فذم، ومنه ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أي بسوء، وكذلك هنا ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾.

(23/510)

ثم نعى عليه إنكارهم عليه ذكر آلهتهم بهذه الجملة الحالية وهي ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي ينكرون وهذه حالهم يكفرون بذكر الرحمن، وهو ما أنزل من القرآن فمن هذه حاله لا ينبغي أن ينكر على من يغيب آلهتهم، والظاهر أن هذه الجملة حال من الضمير في يقولون المحذوف.

وقال الزمخشري: والجملة في موضع الحال أي ﴿ يتخذونك هزواً ﴾ وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله انتهى.

فجعل الجملة الحالية العامل فيها ﴿ يتخذونك هزواً ﴾ المحذوفة وكررهم على سبيل

التوكيد .

وروي أنها نزلت حين أنكروا لفظة ﴿ الرحمن ﴾ وقالوا : ما نعرف الرحمن إلاّ في اليمامة ، والمراد بالرحمن هنا الله ، كأنه قيل ﴿ وهم بذكر ﴾ الله ولما كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى الإقرار والعلم نهاهم تعالى عن الاستعجال وقدم أولاً ذم ﴿ الإنسان ﴾ على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ، والظاهر أنه يراد بالإنسان هنا اسم الجنس وكونه ﴿ خلق ﴾ ﴿ من عجل ﴾ وهو على سبيل المبالغة لما كان يصدر منه كثيراً .

كما يقول لمكثر اللعب أنت من لعب ، وفي الحديث " لست من دد ولا دد مني " وقال الشاعر :

وإنّا لمما يضرب الكبش ضربة . . .

على رأسه تلقى اللسان من الفم

لما كانوا أهل ضرب الهام وملازمة الحرب قال : إنهم من الضرب ، وبهذا التأويل يتم معنى الآية ويترتب عليه قوله ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي آيات الوعيد ﴿ فلا تستعجلون ﴾ في رؤيتكم العذاب الذي تستعجلون به ، ومن يدعي القلب فيه وهو أبو عمرو وإن التقدير خلق العجل من الإنسان وكذا قراءة عبد الله على معنى أنه جعل طبيعة من طبائعه وجزأ من أخلاقه ، فليس قوله بجيد لأن القلب الصحيح فيه أن لا يكون في كلام فصيح وإن بابه الشعر .

قيل : فمما جاء في الكلام من ذلك قول العرب : إذا طلعت الشعرى استوى العود على الحرباء .

وقالوا : عرضت الناقة على الحوض وفي الشعر قوله :

حسرت كفي عن السربال آخذه . . .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدّي والضحاك ومقاتل والكلبي ﴿ الإنسان ﴾ هنا آدم .

قال مجاهد : لما دخل الروح رأسه وعينيه رأى الشمس قاربت الغروب فقال : يا رب عجل تمام خلقي قبل أن تغيب الشمس .

وقال سعيد : لما بلغت الروح ركبتيه كاد يقوم فقال الله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ .

وقال ابن زيد : خلقه الله يوم الجمعة على عجلة في خلقه .

وقال الأخفش ﴿ من عجل ﴾ لأن الله قال له كن فكان .

وقال الحسن : ﴿ من عجل ﴾ أي ضعيف يعني النطفة .

وقيل : خلق بسرعة وتعجيل على غير ترتيب الآدميين من النطفة والعلقة والمضغة ، وهذا

يرجع لقول الأخفش .

وقيل : ﴿ من عجل ﴾ من طين والعجل بلغة حمير الطين .

وأنشد أبو عبيدة لبعض الحميريين :

النبع في الصخرة الصماء منبته . . .

والنخل منبته في الماء والعجل

وقيل : ﴿ الإنسان ﴾ هنا النضر بن الحارث والذي ينبغي أن تحمل الآية عليه هو القول الأول وهو الذي يناسب آخرها .

والآيات هنا قيل : الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أي يأتيكم في وقته .

وقيل : أدلة التوحيد وصدق الرسول .

وقيل : آثار القرون الماضية بالشام واليمن ، والقول الأول أليق أي سيأتي ما يسوؤكم إذا دمتم على كفركم ، كأنه يريد يوم بدر وغيره في الدنيا وفي الآخرة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ وقوله ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ أليس هذا من تكليف ما لا يطاق ؟ قلت : هذا كما ركب فيه من الشهوة وأمره أن يغلبها لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة انتهى .

وهو على طريق الاعتزال .

وقرأ مجاهد وحميد وابن مقسم ﴿ خَلَقَ ﴾ مبنياً للفاعل ﴿ الإنسان ﴾ بالنصب أي ﴿ خلق ﴾ الله ﴿ الإنسان ﴾ وقوله ﴿ متى هذا الوعد ﴾ استفهام على جهة الهزء ، وكان المسلمون يتوعدونهم على لسان الشرع و﴿ متى ﴾ في موضع الجر لهذا فموضعه دفع ، ونقل عن بعض الكوفيين أن موضع ﴿ متى ﴾ نصب على الظرف والعامل فيه فعل مقدر تقديره يكون أو يجيء ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه ، وحذفه أبلغ وأهيب من النص عليه فقدره ابن عطية لما استعجلوا ونحوه ، وقدره الزمخشري لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال .

وقيل : لعلموا صحة البعث .

وقيل : لعلموا صحة الموعود .

وقال الحوفي : لسارعوا إلى الإيمان .

وقال الكسائي : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة وحين يراد به وقت الساعة يدل على ذلك ، بل تأتيهم بغتة انتهى .

و﴿ حين ﴾ قال الزمخشري : مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون عنه

بقولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم النار من وراء وقدام ، ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم .

قال : ويجوز أن يكون ﴿ يعلم ﴾ متروكاً فلا تعدية بمعنى ﴿ لو ﴾ كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين ، و﴿ حين ﴾ منصوب بمضمر أي ﴿ حين لا يكفون عن وجوههم النار ﴾ يعلمون أنهم كانوا على الباطل ، وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم أي لا يكفونها انتهى .

والذي يظهر أن مفعول ﴿ يعلم ﴾ محذوف لدلالة ما قبله أي لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي سألوا عنه واستنبطوه .

و﴿ حين ﴾ منصوب بالمفعول الذي هو مجيء ويجوز أن يكون من باب الإعمال على حذف مضاف ، وأعمل الثاني والمعنى لو يعلمون مباشرة النار حين لا يكفونها عن وجوههم ، وذكر الوجوه لأنها أشرف ما في الإنسان وعجل حواسه ، والإنسان أحرص على الدفاع عنه من غيره من أعضائه ، ثم عطف عليها الظهور والمراد عموم النار لجميع أبدانهم ولا أحد يمنعهم من العذاب ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تفجؤهم .

قال ابن عطية ﴿ بل تأتيهم ﴾ استدراك مقدر قبله نفي تقديره إن الآيات لا تأتي بحسب اقتراحهم انتهى .

والظاهر أن الضمير في ﴿ تأتيهم ﴾ عائد على النار : وقيل : على الساعة التي تصيرهم إلى العذاب .

وقيل : على العقوبة .

وقال الزمخشري : في عود الضمير إلى النار أو إلى الوعد لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها ، أو على تأويل العدة والموعدة أو إلى الحين لأنه في معنى الساعة أو إلى البعثة انتهى .

وقرأ الأعمش بل يأتيهم بالياء بغتة بفتح الغين فيبهتهم بالياء والضمير عائد إلى الوعد أو الحين قاله الزمخشري .

وقال أبو الفضل الرازي : لعله جعل النار بمعنى العذاب فذكر ثم رد ردّها إلى ظاهر اللفظ ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي يؤخرون عما حل بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ ﴾

أي المشركون ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءاً به على معنى قصرِ معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم إياه هُزواً ، لا على معنى قصرِ اتخاذهم على كونه هزواً كما هو المتبادرُ ، كأنه قيل : ما يفعلون بك إلا اتخاذَك هزواً وقد مر تحقيقه في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ في سورة الأنعام ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ على إرادة القولِ أي ويقولون أو قائلين ذلك أي يذكرهم الخ ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كافرون ﴾ في حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدرِ والمعنى أنهم يَعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكُرَ آلهتَهم التي لا تضُرّ ولا تنفع بالسوء ، والحالُ أنهم بذكر الرحمن المنْعِم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسلِ وإنزال الكتب أو بالقرآن كافرون بذكر الرحمن ، والضمير الثاني تأكيدٌ لفظيٌّ للأول فوقع الفصلُ بين العامل ومعمولِه بالمؤكد ، وبين المؤكّد والمؤكَّد بالمعمول .

﴿ خُلِقَ الإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ جُعل لفرْطِ استعجالِه وقلة صبره كأنه مخلوقٌ منه تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق منزلَةَ ما طبع منه من الأركان إيذاناً بغاية لزومِه له وعدم انفكاكه عنه ، ومن عجلته مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُه بالوعيد ، روي أنها نزلت في النضْر بن الحارثِ حين استعجل العذابَ بقوله : ﴿ اللهمِ إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ ﴾ الآية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المراد بالإنسان آدمُ عليه السلام وأنه حين بلغ الروحُ صدرَه ولم يتبالغْ فيه أراد أن يقوم ، وروي أنه لما دخل الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ولما دخل جوفَه اشتهى الطعامَ ، وقيل : خلقه الله تعالى في آخر النهار يومَ الجمعة قبل غروبِ الشمس فأسرعَ في خلقه قبل غيبتِها ، فالمعنى خُلق الإنسان خلقاً ناشئاً من عجل فذكرُه لبيان أنه من دواعي عجلته في الأمور ، والأظهر أن المرادَ به الجنسُ وإن كان خلقُه عليه السلام سارياً إلى أولاده ، وقيل : العجلُ الطينُ بلغة حِمْير ، ولا تقريبَ له هاهنا وقوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُمْ ءاياتي ﴾ تلوينٌ للخطاب وصرفٌ له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المستعجلين بطريق التهديدِ والوعيد ، أي سأريكم نِقماتي في الآخرة كعذاب النار وغيره ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالإتيان بها والنهي عما جُبلت عليه نفوسُهم ليُقعِدوها عن مرادها .

﴿ ويَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي وقت مجيء الساعة التي كانوا يوعدون وإنما كانوا يقولونه استعجالاً لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجوابُ لا طلباً لتعيين وقتِه بطريق الإلزام كما في سورة الملك ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في وعدكم بأنه يأتينا ، والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآياتِ الكريمةَ المنبئةَ عن مجيء الساعة ، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدِلالة ما قبله عليه حسبما حُذف في مثل قوله تعالى : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ فإن قولهم : حتى هذا الوعدِ استبطاءٌ للموعود وطلبٌ لإتيانه بطريق العجلَة فإن ذلك في قوة الأمرِ بالإتيان عجلةً ، كأنه قيل : فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين .

(30/510)

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان شدةِ هول ما يستعجلونه وفظاعةِ ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه ، وإيثارُ صيغةِ المضارعِ في الشرط وإن كان المعنى المُضِيَّ لإفادة استمرارِ عدم العلم فإن المضارعَ المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنص في إفادة انتفاءِ استمرار الفعل بل يفيد استمرارَ انتفائه أيضاً بحسب المقام ، كما في قولك : لو

تحسن إلي لشكرتك ، فإن المعنى أن انتفاءَ الشكر لاستمرار انتفاءِ الإحسان لا لانتفاء استمرارِ الأحسان ووضعُ الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على علّة استعجالِهم ، وقوله تعالى : ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ مفعول يعلم وهو عبارةٌ عن الوقت الموعودِ الذي كانوا يستعجلونه وإضافتُه إلى الجملة الجارية مَجرى الصفة التي حقُّها أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضاً مع إنكار الكفرة لذلك للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به وإنما حقُّه الانتظامُ في سلك المسلّمات المفروغ عنها ، وجوابُ لو محذوفٌ أي لو لم يستمِرَّ علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم : متى هذا الوعد من الحين الذي تحيط بهم النار فيه من كل جانب ، وتخصيصُ الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القُدّام والخَلْف لكونهما أشهرَ الجوانب واستلزامِ الإحاطة بهما الإحاطةَ بالكمال بحيث يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم .

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ من جهة الغير في دفعها الخ ، لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون (يعلم) متروكَ المفعول مُنزّلاً منزلةَ اللازم ، أي لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى : ﴿ حِينِ ﴾ الخ ، استئنافٌ مقرر لجهلهم ومبينٌ لاستمراره إلى ذلك الوقت كأنه قيل : حين يرون ما يرَوْن يعلمون حقيقةَ الحال .

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ عطف على لا يكفون أي لا يكفّونها بل تأتيهم أي العدَةُ أو النار أو الساعة ﴿ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي تغلِبهم أو تحيّرهم ، وقرىء الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحينِ وكذا الهاء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ بتأويل الوعد بالنار أو العِدة والحينِ بالساعة ، ويجوز عَودُه إلى النار ، وقيل : إلى البغتة أي لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفةَ عين ، وفيه تذكيرٌ لإمهالهم في الدنيا . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(32/510)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

أي المشركون ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزواً به على معنى قصر معاملتهم معه صلى الله عليه وسلم على اتخاذهم إياه عاملهم الله تعالى بعدله هزواً لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزواً كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً .

والظاهر أن جملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ الخ جواب ﴿ إِذَا ﴾ ولم يحتج إلى الفاء كما لم يحتج جوابها المقترن بما إليها في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءايا تنا بينات مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ [الجاثية : 25] وهذا بخلاف جواب غير إذا من أدوات الشرط المقترن بما فإنه يلزم فيه الاقتران بالفاء نحو إن تزرنا فما نسيء إليك ، وقيل الجواب محذوف وهو يقولون المحكى به قوله تعالى : ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ ءالِهَتَكُمْ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ الخ اعتراض وليس بذاك ، نعم لا بد من تقدير القول فيما ذكر وهو إما معطوف على جملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ أو حال أي ويقولون أو قائلين والاستفهام للإنكار والتعجب ويفيدان أن المراد يذكر آلهتكم بسوء ؛ وقد يكتفي بدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 60] فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء وقد تحاشوا عن التصريح أدباً مع آلهتهم .

وفي "مجمع البيان" تقول العرب ذكرت فلاناً أي عبته ، وعليه قوله عنترة

: لا تذكري مهري وما أطعمته . . .

فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

انتهى ؛ والإشارة مثلها في قوله

: هذا أبو الصقر فرداً في محاسنه . . .

من نسل شيبان بين الضال والسلم

فيكون في ذلك نوع بيان للاتخاذ هزواً ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كافرون ﴾ في حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر ؛ والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بالقرآن الذي أنزل رحمة كافرون فهم أحقاء بالعيب والإنكار ، فالضمير الأول مبتدأ خبره ﴿ كافرون ﴾ وبه يتعلق ﴿ بِذِكْرِ ﴾ وقدم رعاية للفاصلة وإضافته لامية ، والضمير الثاني تأكيد لفظي للأول ، والفصل بين العامل والمعمول بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول جائز ، ويجوز أن يراد ﴿ بِذِكْرِ الرحمن ﴾ توحيده على أن ذكر مصدر مضاف إلى المفعول أي وهم كافرون بتوحيد الرحمن المنعم عليهم بما يستدعي توحيده والايمان به سبحانه ، وأن يراد به عظته تعالى وإرشاده الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب على أنه مصدر مضاف إلى الفاعل ، وقيل المراد بذكر الرحمن ذكره صلى الله عليه وسلم هذا اللفظ وإطلاقه عليه تعالى ، والمراد بكفرهم به قولهم ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمانة فهو مصدر مضاف إلى المفعول لا غير وليس بشيء كما لا يخفى .

وجعل الزمخشري الجملة حالاً من ضمير ﴿ يَتَّخِذُونَكَ ﴾ أي يتخذونك هزواً وهم على

حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بذكر الرحمن .

وسبب نزول الآية على ما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه صلى الله عليه وسلم مر على أبي سفيان .

وأبي جهل وهما يتحدثان فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبي فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة وقال لأبي سفيان : أما أنك لم تقل ما قلت إلا حمية ، وأنا أرى أن القلب لا يثلج لكون هذا سبباً للنزول والله تعالى أعلم .

﴿ خُلِقَ الْإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾

هو طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، والمراد بالإنسان جنسه جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من نفس العجل تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان إيذاناً بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ، وقال أبو عمرو .

وأبو عبيدة .

وقطرب : في ذلك قلب والتقدير خلق العجل من الإنسان على معنى أنه جعل من طبائعه وأخلاقه للزومه له ، وبقذلك قرأ عبد الله وهو قلب غير مقبول ، وقد شاع في كلامهم في مثل ذلك عند أرادة المبالغة فيقولون لمن لازم اللعب أنت من لعب ، ومنه قوله

: وإنا لمما يضرب الكبش ضربة . . .

على رأسه يلقى اللسان من الفم

وقيل بالمراد بالإنسان النضر بن الحرث لأن الآية نزلت فيه حين استعجل العذاب بقوله : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَالحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ ﴾ [الأنفال : 32] الخ ، وقال مجاهد :

وسعيد بن جبير .

وعكرمة .

والسدي .

والضحاك .

ومقاتل .

والكلبي : المراد به آدم عليه السلام أراد أن يقوم قبل أن يتم نفخ الروح فيه وتصل إلى رجليه ، وقيل خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة فلما أجرى الروح في عينيه ولسانه ولم يبلغ أسفله قال : يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وروى ذلك عن مجاهد ، وقيل : المراد أنه خلق بسرعة على غير ترتيب خلق بنيه حيث تدرج في خلقهم ، وذكر لبيان أن

خلقه كذلك من دواعي عجلته في الأمور ، والأظهر إرادة الجنس وإن كان خلقه عليه السلام وما يقتضيه سارياً إلى أولاده وما تقدم في سبب النزول لا يأباه كما لا يخفى ، وقيل العجل الطين بلغة حمير ، وأنشد أبو عبيدة لبعضهم

: النبع في الصخرة الصماء منبته . . .

والنخل منبته في الماء والعجل

(35/510)

واعترض بأنه لا تقريب لهذا المعنى ههنا ، وقال الطيبي : يكون القصد عليه تحقير شأن جنس الإنسان تتميماً لمعنى التهديد في قوله تعالى : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءاياتي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ والمعول عليه المعنى الأول ، والخطاب للكفرة المستعجلين ، والمراد بآياته تعالى نقماته عز وجل ، والمراد بإراءتهم إياها إصابته تعالى إياهم بها ، وتلك الإراءة في الآخرة على ما يشير إليه ما بعد ، وقيل فيها وفي الدنيا ، والنهي عن استعجالهم إياه تعالى بالإتيان بها مع أن نفوسهم جبلت على العجلة ليمنعوها عما تريده وليس هذا من التكليف بما لا يطاق لأن الله تعالى أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ويرجع هذا النهي إلى الأمر بالصبر .

وقرأ مجاهد .

وحميد وابن مقسم ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ ببناء ﴿ خُلِقَ ﴾ للفاعل ونصب ﴿ الإنسان ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾

أي وقت وقوع الساعة الموعود بها ، وكانوا يقولون ذلك استعجالاً لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجواب لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام كما في سورة الملك ، و ﴿ متى ﴾ في موضع رفع على أنه خبر لهذا .

ونقل عن بعض الكوفيين أنه في موضع نصب على الظرفية والعامل فيه فعل مقدر أي متى يأتي هذا الوعد ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بأنه يأتي ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن إتيان الساعة ، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه فإن قولهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ حيث كان استبطاء منهم للموعود وطلباً لإتيانه بطريق العجلة في قوة طلب إتيانه بالعجلة فكأنه قيل إن كنتم صادقين فليأتنا بسرعة

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ ﴾

استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه ، وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم بحسب المقام وإلا فكثيراً ما يفيد المضارع المنفي انتفاء الاستمرار ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على علة استعجالهم .

وقوله تعالى : ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ مفعول ﴿ يَعْلَمْ ﴾ على ما اختاره الزمخشري وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه ، وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التي حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضاً مع إنكار الكفرة ذلك للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة إلى الإخبار به وإنما حقه الانتظام في سلك المسلمات المفروغ عنها ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف أي لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [الأنبياء : 38] وهو الوقت الذي تحيط بهم النار فيه من كل جانب ، وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الإحاطة بهما للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على رفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ من جهة الغير في دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ، وقدر

الحوفي لسارعوا إلى الإيمان وبعضهم لعلموا صحة البعث وكلاهما ليس بشيء ، وقيل إن ﴿ لَوْ ﴾ للتمني لا جواب لها وهو كما ترى.

(37/510)

وجوز أن يكون ﴿ يَعْلَمْ ﴾ متروك المفعول منزلاً منزلة اللازم أي لو كان لهم علم لما فعلوا ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ حِينِ ﴾ الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره إلى ذلك الوقت كأنه قيل : حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال ، وفي "الكشف" كأنه استئناف بياني وذلك أنه لما نفى العلم كان مظنة أن يسأل فأي وقت يعلمون ؟ فأجيب حين لا ينفعهم ، والظاهر كون ﴿ حِينِ ﴾ الخ مفعولاً به ليعلم.

وقال أبو حيان : الذي يظهر أن مفعوله محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لو يعلم الذي كفروا مجيء الموعود الذي سألوا عنه واستبطؤوه و ﴿ حِينِ ﴾ منصوب بذلك المفعول وليس عندي بظاهر.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ عطف على ﴿ لاَ يَكُفُّونَ ﴾ [الأنبياء : 39] وزعم ابن عطية أنه استدراك مقدر قبله نفي والتقدير إن الآيات لا تأتي بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغتة ، وقيل : إنه استدراك عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ﴾ [الأنبياء : 39] الخ وهو منفي معنى كأنه

قيل : لا يعلمون ذلك بل تأتيهم الخ ، وبينه وبين ما زعمه ابن عطية كما بين السماء والأرض .

والمضمر في ﴿ تَأْتِيهُمْ ﴾ عائد على ﴿ الوعد ﴾ [الأنبياء : 38] لتأويله بالعدة أو الموعدة أو الحين لتأويله بالساعة أو على ﴿ النار ﴾ [الأنبياء : 39] واستظهره في "البحر" ، و﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة مصدر في موضع الحال أو مفعول مطلق لتأتيهم وهو مصدر من غير لفظه ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ تدهشهم وتحيرهم أو تغلبهم على أنه معنى كنائي .

وقرأ الأعمش ﴿ بَلْ تَأْتِيهم ﴾ بياء الغيبة ﴿ بَغَتَةً ﴾ بفتح الغين وهو لغة فيها ، وقيل : إنه يجوز في كل ما عينه حرف حلق ﴿ فيبهتهم ﴾ بياء الغيبة أيضاً ، فالضمير المستتر في كل من الفعلين للوعد أو للحين على ما قال الزمخشري .

(38/510)

وقال أبو الفضل الرازي : يحتمل أن يكون للنار بجعلها بمعنى العذاب ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ الضمير المجرور عائد على ما عاد عليه ضمير المؤنث فيما قبله ، وقيل : على البغتة أي لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين ، وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ عنى بهذه الآية مستهزئوا قريش ، كأبي جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيظ لسبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 41 - 42] ، وإضافة ذكر للرحمن من إضافة المصدر لمفعوله أي : بتوحيده . أو للفاعل ، أي : بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن . هم كافرون ، أي : فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص .

وقوله تعالى :

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] ، جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك : خلق زيد من الكرم ، تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ما طبع هو منه من الأركان ، إيذاناً بغاية لزومه له ،

وعدم انفكاكه عنه فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بمادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ أي : نقماتي في الدنيا كوقعة بدر . وفي الآخرة عذاب النار : ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي : بالإتيان بها .

(40/510)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أي : الموعود من العذاب الأخروي ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لا لتعيين وقته : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إتيانه . قال الزمخشري : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم . كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه ، وأن عجلتهم لجهلهم بمغبته ، بقوله تعالى :

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ أي : لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من

غيره أيضاً : ﴿ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي : بدفع أحد عنهم . وجواب لو محذوف أي : لما استعجلوا . وقيل لو للتمني . لا جواب لها : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي : فجأة فتحيّرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردّها : ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي : بسبب من الأسباب : ﴿ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي : يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 203. 205 ﴾

(41/510)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا رأوا النّبي صلى الله عليه وسلم ما يتخذونه إلا هزواً ، أي مُستهزأً به مستخفاً به . والهزؤ : السخرية ، فهو مصدر وصف به . ويقولون : أهذا الذي يذكر آلهتكم أي يعيبها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى الله زلفى ، ويقول : إنها لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من لم يعبدها ، وهم مع هذا كله كافرون

بذكر الرحم. فالخطاب في قوله ﴿ وَإِذَا رَآكَ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم. و"إن" في قوله ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ نافية. والاستفهام في قوله ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ قال فيه أبو حيان في البحر: إنه للإنكار والتعجيب. والذي يظهر لي أنهم يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنَّبي صلى الله عليه وسلم، كما تدلّ عليه قرينة قوله ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾. وقد تقرر في فن المعاني: أن من الأغراض التي تؤدي بالاستفهام التحقير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن جواب "إِذَا" هو القول المحذوف، وتقديره: وإذا رءاك الذين كَفَرَوا يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم. وقال: إن جملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ جملة معترضة بين إذا وجوابها. واختار أبو حيان في البحر أن جواب "إِذَا" هو جملة ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ وقال: إن جواب إذا بجملة مصدرة ب"إن" أو ما النافيتين لا يحتاج إلى الاقتران بالفاء. وقوله ﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي يعيبها. ومن إطلاق الذكر بمعنى العَيْب قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: 60] أي يعيبهم.

وقول عنترة:

لا تَذْكُرِي مُهْرِي وما أَطْعَمْتُه... فيكون جلدُكِ مثل جلدِ الأَجْرَبِ

أي لا تعيبي مهري، قاله القرطبي.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: الذِّكر يكون بخير وبخلافه. فإذا دلت الحال على أحدهما أُطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء. وإن كان عدواً فذم، ومنه قوله تعالى: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبياء: 60]، وقوله: ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء: 36] انتهى محل الغرض منه. والجملة في قوله: ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ حالية. وقال بعض أهل العلم: معنى كفرهم بذكر الرحمن هو الموضح في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ [الفرقان: 60]، وقولهم: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وقد بين ابن جرير الطبري وغيره: أن إنكارهم لمعرفتهم الرحمن تجاهل منهم ومعاندة مع أنهم يعرفون أن الرحمن من أسماء الله تعالى. قال: وقال بعض شعراء الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها... ألا قطع الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم... وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار.

لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر، ويسوءهم أن تذكر بسوء، أو يقال إنها لا

تشفع ولا تقرب إلى الله . وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به ، فهم أ ؛ ق بأن يتخذوا هزؤا من النَّبي صلى الله عليه وسلم الذي اتخذوه هزؤا ، فإنه محق وهم مبطلون .

(43/510)

فإذا عزمت معنى هذه الآية الكريمة فاعلم أن هذا المعنى الذي دلت عليه جاء أيضاً مبيناً في سورة " الفرقان " في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبْرَنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 41-42] فتحقيرهم لعنهم الله له صلى الله عليه وسلم المذكور في قوله في " الأنبياء " في قوله : ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ هو المذكور في " الفرقان " في قوله : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبْرَنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : 42] أي لما يبين من معائبها ، وعدم فائدتها ، وعظم ضرر عبادتها .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول . فإذا علمت

ذلك فاعلم أن في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما. أما القول الذي دلت القرينة المذكورة على عدم صحته: فهو قول من قال: العجل الطين وهي لغة حميرية. كما قال شاعرهم:

البيع في الصخرة الصماء منبته... والنخل ينبت بين الماء والعَجَل

(44/510)

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية: خلق الإنسان من طين، كقوله تعالى ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء: 61]، وقوله: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: 7]. والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله بعده: ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: 37]، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء: 38]. فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف. كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم: 54] على الأظهر. ويوضح هذا

المعنى قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] أي ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر . قال بعض العلماء : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار ، ويقولون متى هذا الوعد . فنزل قوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ للزجر عن ذلك . كأنه يقول لهم : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك ، وهو طبعكم وسجيتكم . ثم وعدهم بأنه سيريهم آياته ، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] . وقال بعض أهل العلم : المراد بالإنسان في قوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ آدم . وعن سعيد بن جبير والسدي : لما دخل الروح في عَينَي آدم نظر في ثمار الجن ، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام ، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ . وعن مجاهد

والكلبي وغيرهما : خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار . ، فلما أحيا الله رأسه استعجل وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس . والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من

الإسرائيليات . وأظهر الأقول أن معنى الآية : أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم التأني كما بينا ، والعلم عند الله تعالى .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلى الله لعيه وسلم ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم ، واستعجلت ذلك . فقال الله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأَنَّه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر . ولهذا قال : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ أي نقمي وحكمي ، واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون . انتهى منه .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)

جواب " لَوْ " في هذه الآية محذوف ، وقد قدمنا أدلة ذلك وشواهده من " العربية " في سورة " البقرة " ، وأشرنا إليه في سورة " إبراهيم " وسورة " يوسف " . ومعنى الآية الكريمة : لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم : متى هذا الوعد ؟ وهو وقت صعب شديد ، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام . فلا يقدرون على منعها ودفعها عن أنفسهم ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم ، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن

جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني جاء مبيناً في مواضع أخر من كتاب الله تعالى .

(46/510)

أما إحاطة النار بهم في ذلك اليوم فقد جاءت موضحة في آيات متعددة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 29] ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ ياعباد فاتقون ﴾ [الزمر : 16] ، وقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم : 50] . وقوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 104] إلى غير ذلك من الآيات . نرجو الله الكريم العظيم أن يعيذنا منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل ، إنه قريب مجيب . وما تضمنته من كونهم في ذلك اليوم ليس لهم ناصر ولا قوة يدفعون بها عن أنفسهم جاء مبيناً في مواضع أخر . كقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : 10] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات :

25-26] والآيات في ذلك كثيرة .

وما أشارت إليه هذه الآية من أن الذي هون عليهم ذلك اليوم العظيم حتى استعجلوه واستهزءوا بمن يخوفهم منه إنما هو جهلهم به جاء مبيناً أيضاً في مواضع أخر . كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ [الشورى : 18] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ [يونس : 50] إلى غير ذلك من الآيات .

(47/510)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ﴾ قال بعض أهل العلم : هو فعل متعد ، والظاهر أنها عرفانية ، فهي تتعدى إلى مفعول واحد . كما أشار له في الخلاصة بقوله :

لعلم عرفان وظن تهمه . . . تعدية لواحد ملتزمه

وعلى هذا فالمفعول هذا قوله : ﴿ حِينَ ﴾ أي لو يعرفون حين وقوع العذاب بهم وما فيه من الفظائع لما استخفوا به واستعجلوه . وعلى هذا فالحين مفعول به لا مفعول فيه . لأن العلم الذي هو بمعنى المعرفة واقع على نفس الحين المذكور . وقال بعض أهل العلم : فعل العلم في هذه الآية منزل منزلة اللازم ، فليس واقعاً على مفعول .

وعليه فالمعنى : لو كان لهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين . وعلى هذا فالآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] والمعنى : لا يستوي من عنده علم ومن لا علم عنده . وقد تقرر في فن المعاني : أنه إذا كان الغرض إثبات العفل لفاعله في الكلام المثبت ، أو نفيه عنه في الكلام المنفي مع قطع النظر عن اعتبار تعلق الفعل بمن وقع عليه ، فإنه يجري مجرى اللازم ، كقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنه يراد منه أن من ثبتت له صفة العلم لا يستوي هو ومن انتفت عنه ، ولم يعتبر هنا وقوع العلم على معلومات من اتصف بذلك العلم . وعلى هذا القول فقوله : ﴿ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ ﴾ منصوب بمضمر . أي حين لا يكفون عن وجههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل . والأول هو الأظهر . واستظهر أبو حيان أن مفعول "يعلم" محذوف ، وأنه هو العال في الظرف الذي هو "حِينَ" ، والتقدير : لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي استعجلوه حتى لا يكفُّون لما كفروا واستعجلوا واستهزءوا .

(48/510)

واعلم أنه لا إشكال في قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] مع قوله ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] فلا يقال : كيف يقول : إن الإنسان خلق من

العجل وجبل عليه ، ثم ينهاه عما خلق منه وجبل عليه ، لأنه تكليف بمحال ! ؟ لأنا نقول :

نعم هو جبل على العجل ، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها . كما قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40-41] . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(49/510)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾

هذا وصف آخر لما يؤذي به المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه فهو أخص من أذاهم إياه في مغيبه ، فإذا رأوه يقول بعضهم لبعض : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ .

والهُزُؤ بضم الهاء وضم الزاي مصدر هَزَأ به ، إذا جعله للعبث والتفكه .

ومعنى اتِّخاذه هُزْؤاً أنهم يجعلونه مستهزأ به فهذا من الإخبار بالمصدر للمبالغة ، أو هو مصدر بمعنى المفعول كالخَلق بمعنى المخلوق .

وتقدم في سورة [الكهف : 106] قوله تعالى : ﴿ واتخذوا آياتي ورسلي هزؤاً ﴾

وجملة ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ إن يتخذونك إلا هزؤاً ﴾ فهي في معنى قول محذوف دل عليه ﴿ إن يتخذونك إلا هزؤاً ﴾ لأن الاستهزاء يكون بالكلام.

وقد انحصر اتخاذُهم إياه عند رؤيته في الاستهزاء به دون أن يخلطوه بحديث آخر في شأنه.

والاستفهام مستعمل في التعجيب، واسم الإشارة مستعمل في التحقير، بقرينة الاستهزاء.

ومعنى ﴿ يذكر آلهتكم ﴾ يذكرهم بسوء، بقرينة المقام، لأنهم يعلمون ما يذكر به آلهتهم مما يسوءهم، فإن الذكر يكون بخير وبشر َفإذا لم يصرح بمتعلقه يصار إلى القرينة كما هنا وكما في قوله تعالى الآتي: ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم ﴾ [الأنبياء: 60].

وكلامهم مسوق مساق الغيظ والغضب، ولذلك أعْقبه الله بجملة الحال وهي ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾، أي يغضَبون من أن تذكر آلهتهم بما هو كشف لكُنهِها المطابق للواقع في حال غفلتهم عن ذكر الرحمان الذي هو الحقيق بأن يذكروه.

فالذكر الثاني مستعمل في الذكر بالثناء والتمجيد بقرينة المقام.

والأظهر أن المراد بذكر الرحمان هنا القرآن، أي الذكر الوارد من الرحمان.

والمناسبة الانتقال من ذكر إلى ذكر.

ومعنى كفرهم بذكر الرحمان إنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] .

وأيضاً كفرهم بما جاء به القرآن من إثبات البعث .

وعبر عن الله تعالى باسم ﴿ الرحمان ﴾ تورُّكاً عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمان اسماً لله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ في سورة [الفرقان : 60] .

وضمير الفصل في قوله تعالى : ﴿ هم كافرون ﴾ يجوز أن يفيد الحصر ، أي هم كافرون بالقرآن دون غيرهم ممن أسلم من أهل مكة وغيرهم من العرب لإفادة أنّ هؤلاء باقون على كفرهم مع توفر الآيات والنذر .

ويجوز أن يكون الفصل لمجرد التأكيد تحقيقاً لدوام كفرهم مع ظهور ما شأنه أن يقلعهم عن الكفر .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

جملة ﴿ خُلِق الإنسان من عَجَل ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ [الأنبياء : 36] وبين جملة ﴿ سأريكم آياتي ﴾ ، جعلت مقدمة لجملة ﴿ سأُريكم آياتي ﴾ .

أمّا جملة ﴿ سَأُرِيكم آياتي ﴾ فهي معترضة بين جملة ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخِذونك إلاّ هزُوًا ﴾ [الأنبياء : 36] وبين جملة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ [الأنبياء : 38] ، لأن قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوًا ﴾ [الأنبياء : 36] يثير في نفوس المسلمين تساؤلاً عن مدى إمهال المشركين ، فكان قوله تعالى : ﴿ سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾ استئنافا بيانياً جاء معترضاً بين الجُمل التي تحكي أقوال المشركين وما تفرع عليها .

فالخطاب إلى المسلمين الذين كانوا يستبطئون حلول الوعيد الذي توعد الله تعالى به المكذبين .

(51/510)

ومناسبة موقع الجملتين أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم يُهيج حنق المسلمين عليهم فيودُّوا أن ينزِل بالمكذبين الوعيد عاجلاً فخوطبوا بالتريث وأن لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد وما في تأخير نزوله من المصالح للدين .

وأهمها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام .

والوجه أن تكون الجملة الأولى تمهيداً للثانية .

والعَجَل : السرعة .

وخَلْق الإنسان منه استعارة لتمكن هذا الوصف من جِبلّة الإنسانية .

شبهت شدة ملازمة الوصف بكونه مادة لتكوين موصوفه ، لأن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكراهية .

فإذا فَكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله بداعي المحبة ، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهية ، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين ، فلا جرَم كان الإنسان عَجولاً بالطبع فكأنه مخلوق من العَجْلة .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان عَجولاً ﴾ [الإسراء : 11] وقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ [المعارج : 19] .

ثم إن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والفكر ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه .

وأما من فسر العَجل بالطين وزعم أنها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد .

وجملة ﴿ سأُريكم آياتي ﴾ هي المقصود من الاعتراض .

وهي مستأنفة .

والمعنى : وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين ، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر

وهلك أئمة الشرك وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين .

وتفرع على هذا الوعد نهي عن طلب التعجيل ، أي عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يوقته الله ويؤجله ، ولكل أجل كتاب .

فهو نهي عن التوغل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد .

وحذفت ياء المتكلم من كلمة ﴿ تستعجلونِ ﴾ تخفيفاً مع بقاء حركتها فإذا وُقف عليه حذفت الحركة من النونِ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) ﴾

نشأ عن ذكر استبطاء المسلمين وعد الله بنصرهم على الكافرين ذِكر نظيره في جانب المشركين أنهم تساءلوا عن وقت هذا الوعد تهكماً ، فنشأ به القولان واختلف الحالان فيكون قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ عطفاً على جملة ﴿ سأريكم آياتي ﴾ [الأنبياء : 37] .

وهذا معبّر عن مقالة أخرى من مقالاتهم التي يتلقون بها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء وعناداً .

وذكر مقالتهم هذه هنا مناسب لاستبطاء المسلمين النصرْ .

وبهذا الاعتبار تكون متصلة بجملة ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزؤاً ﴾ [الأنبياء : 36] فيجوز أن تكون معطوفة عليها .

وخاطبوا بضمير الجماعة النبيءَ صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ولأجل هذه المقالة كان المسلمون يستعجلون وعيد المشركين .

واستفهامُهم استعملوه في التهكم مجازاً مرسلاً بقرينة إن كنتم صادقين لأن المشركين كانوا موقنين بعدم حصول الوعد .

والمراد بالوعد ما تَوعدهم به القرآن من نصرِ رسوله واستئصال معانديه .

وإلى هذه الآية ونظيرها ينظرُ قولُ النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين وقف على القليب الذي دفنت فيه جثث المشركين وناداهم بأسمائهم ﴿ قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ [الأعراف : 44] أي ما وعدنا ربنا من النصر وما وعدكم من الهلاك وعذاب النار .

وجملة ﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ مستأنفة للبيان لأن المسلمين يترقبون من حكاية جملة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

ماذا يكون جوابهم عن تهكمهم .

وحاصل الجواب أنه واقع لا محالة ولا سبيل إلى إنكاره .

وجواب (لو) محذوف ، تقديره : لَمَا كانوا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء برسولكم وبدينكم ، ونحو ذلك مما يحتمله المقام .

وقد يؤخذ من قرينة قوله تعالى : { وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلاّ هُزؤاً } [الأنبياء : 36] .

وحذْف جواب (لو) كثير في القرآن .

ونكتته تهويل جنسه فتذهب نفس السامع كل مذهب .

و (حينَ) هنا : اسم زمان منصوب على المفعولية لا على الظرفية ، فهو من أسماء الزمان المتصرفة ، أي لو علموا وقته وأيقنوا بحصوله لما كذبوا به وبمن أنذرهم به ولما عَدوا تأخيره دليلاً على تكذيبه .

6

وجملة { لا يكفون } مضاف إليها (حينَ) .

وضمير { يكفون } فيه وجهان : أحدهما بدا لي أن يكون الضمير عائداً إلى ملائكة العذاب فمعاد الضمير معلوم من المقام ، ونظائر هذا المعاد كثيرة في القرآن وكلام العرب .

ومعنى الكف على هذا الوجه : الإمساك وهو حقيقته ، أي حين لا يمسك الملائكة اللفح

بالنار عن وجوه المشركين .

وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى في سورة [الأنفال : 50] ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ فإن ذلك ضرب بسياط من نار ويكون ما هنا إنذار بما سيلقونه يوم بدر كما أن آية الأنفال حكاية لما لَقُوه يوم بدر .

وذكر الوجوه والأدبار للتنكيل بهم وتخويفهم لأن الوجوه أعز الأعضاء على الناس كما قال عباس بن مرداس:

نُعرِّض للسيوف إذا التقينا . . .

وجوهاً لا تعرض لللطام

ولأن الأدبار يأنف الناسُ من ضربها لأن ضربها إهانة وهزي ، ويسمى الكسع .

والوجه الثاني : أن يكون ضمير ﴿ يكُفُّون ﴾ عائداً إلى الذين كفروا ، والكَفّ بمعنى الدّرْءِ والستر مجازاً بعلاقة اللزوم ، أي حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم .

أي حين تحيط بهم النار مواجهَةً ومدابرةً .

وذِكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهم أنهم قد يكفّون عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميعُ من لدينا كُتبهم من المفسرين.

والوجه الأول أرجح معنى، لأنه المناسب مناسبة تامة للكافرين الحاضرين المقرعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ ولقوله تعالى ﴿ سأريكم آياتي ﴾ [الأنبياء: 37] كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ عطف على ﴿ لا يكفون ﴾ أي لا يكف عنهم نفح النار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار ولا يجدون لهم ناصراً ينصرهم فهم واقعون في ورطة العذاب.

وفي هذا إيماء إلى أنهم ستحل بهم هزيمة بدر فلا يستطيعون خلاصاً منها ولا يجدون نصيراً من أحلافهم.

و(بل) للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعد لهم، إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة وفجأة، وهو أشدّ على النفوس لعدم التهيُّؤ له والتوطن عليه، كما قال كُثَيِّر:

فقلت لها يا عز كل مصيبة...

إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وإن كان المراد عذاب الآخرة فنفي الناصر تكذيب لهم في قولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] .

وفاعل ﴿ تأتيهم ﴾ ضمير عائد إلى الوعد .

وإنما قرن الفعل بعلامة المؤنث على الوجه الأول المتقدم في قوله تعالى : ﴿ حين لا يكفون عن وجوههم النار ﴾ باعتبار الوقعة أو نحو ذلك ، وهو إيماء إلى أن ذلك سيكون فيما اسمه لفظ مؤنث مثل الوقعة والغزوة .

وأمّا على الوجه الثاني المتقدم الذي درج عليه سائر المفسرين فيما رأينا فلتأويل الوعد بالساعة أو القيامة أو الحين لأن الحين في معنى الساعة .

والبغتة : المفاجأة ، وهي حدوث شيء غير مترقب .

والبَهت : الغلب المفاجئ المعجز عن المدافعة ، يقال : بَهَتَهَ فبُهِتَ .

قال تعالى في سورة [البقرة : 258] ﴿ فبهت الذي كفر أي غُلِب .

وهو معنى التفريع في قوله تعالى : فلا يستطيعون ردها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا تؤخر عنهم .

وفيه تنبيه لهم إلى أنهم أُنظِروا زمناً طويلاً لعلهم يقلعون عن ضلالهم .

وما أشدّ انطباق هذه الهيئة على ما حصل لهم يوم بدر قال تعالى : ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ في [الأنفال : 42] ، وقال تعالى : ﴿ ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ [الأنفال : 44] .

ولا شك في أن المستهزئين مثلَ أَبي جهل وشيبة ابني ربيعة وعتبة ابن ربيعة وأمية بن خلف ، كانوا ممن بَغتهم عذاب السيف وكان أنصارهم من قريش ممن بهتهم ذلك .

وأما إذا أريد بضمير ﴿ تأتيهم ﴾ الساعة والقيامة فهي تأتي بغتة لمن هم من جنس المشركين أو تأتيهم النفخة والنشرة بغتة .

وأما أولئك المستهزئون فكانوا قد انقرضوا منذ قرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(56/510)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾

هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن واقعٍ حدثَ له مع الكفار : ﴿ وَإِذَا رَآَكَ

الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً . . . ﴾ [الأنبياء : 36] و(إِنْ) هنا ليست شرطية، إنما للنفي كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ . . . ﴾ [المجادلة : 2] أي : ما أمهاتهم إلا اللائي ولدْنهم . فالمعنى : إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا هُزُواً، أي : يهزأون بك، لكن ما وَجْه الهُزْو هنا؟

قولهم : ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 36] أي : يعيبها ويسبُّها، ويقول عنها : إنها باطلة ومعنى ﴿ أهذا . . . ﴾ [الأنبياء : 36] كأنهم يستقلّونه، ويستقلّون أنْ يقول هذا عن آلهتهم .

والذكر قد يكون بالخير، وقد يكون بالشر، فإنْ ذكرك صديق تتوقع أنْ يذكرك بخير، وإنْ ذكرك عدو تتوقع أنْ يذكرك بشرٍّ، وطالما أن محمداً سيذكر آلهتهم، فلا بُدَّ أنه سيذكرها بشرٍّ، والشر الذي ذكره محمد عن آلهتكم أنها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع . ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ . . . ﴾ [فاطر : 14] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 36] فكيف تتعجبون وتغضبون أنْ يسُبّ محمد آلهتكم الباطلة، وأنتم تسبُّون الإله الحق، وتكفرون به، ونلحظ أن السياق ذكر الضمير العائد عليهم مرتين : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [

الأنبياء : 36] ليؤكد أن ذلك حدث منهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ . . . ﴾ .

(57/510)

معنى : ﴿ مِنْ عَجَلٍ . . . ﴾ [الأنبياء : 37] أي : مُتعجِّلاً كأن في طينته عجلة ، والعجلة أن تريد الشيء قبل نُضْجه ، وقبل أوانه ، وقد يتعجَّل الإنسان الخير ، وهذا أمر جائز ، أما أنْ يتعجّل الشر فهذا هو الحمق بعينه والغباء ، ألم يقولوا لرسول الله : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء : 38] .

ألم يقولوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

إذن : تعجَّل هؤلاء العذاب ؛ لأنهم غير مؤمنين به ، لا يُصدّقون أن شيئاً من هذا سيحدث ؛ لذلك يردُّ عليهم : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] وخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] .

أي : سنريك فيهم آياتنا ، وسترى ما وعدناهم من العذاب ، فإنْ قبضناك إلينا فسترى ما

ينزل بهم في الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد . . . ﴾ .

وهذا استبطاء منهم لوَعْد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأن سيُعذّبهم بالنار التي تُنضج جلوددهم ، ويُبدّلهم الله جلوداً غيرها . . إلخ ؛ لأنهم لا يُصدّقون هذا ولا يؤمنون به ، وسبق أنْ قالوا لرسول الله : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 92] .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ . . . ﴾ .

(58/510)

أي : لو يعلمون ما يحدث لهم في هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النار عن وجوههم ، وذَكر الوجه بالذات لأنه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها ؛ لذلك إذا أصابك أذىً في وجهك تحرص على إزالته بيدك ، وأنت لم تفعل أكثر من أنك نقلْتَ الأذى من وجهك إلى يدك ، لماذا ؟ لأن الوجه عزيز عليك ، لا تقبل إهانته ، ولا تتحمَّل عليه أيّ سوء .

فقوله تعالى : ﴿ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار . . . ﴾ [الأنبياء : 39] دلالَة على إهانتهم ﴿ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 39] لأنها تأتيهم من كل مكان : ﴿

وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ . . ﴾ [الأنبياء : 39] أي : لا يجدون مَنْ ينقذهم ، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم .

حتى الشيطان الذي أغواهم في الدنيا سيتبرّأ منهم يوم القيامة ، ويقول : ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] وأصرخه : أزال سبب صراخه ، والهمزة في أصرخه تسمى همزة إزالة ، تقول : صرخ فلان إذا وقع عليه ما هو فوق طاقته واحتماله ، فيصرخ صرخةً يستدعي بها مَنْ يغيثه ويُعينه ، فإنْ أجابه وأزال ما هو فيه فقد أصرخه ، يعني : أزال سبب صراخه . فالمعنى : لا أدافع عنكم ، ولا تدافعون عني ، ولا أنقذكم من العذاب ، ولا تنقذونني .

وفي موضع آخر : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي برياء مِّنكَ إني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ [الحشر : 16] فحظُّ الشيطان أنْ يُوقِعك في المعصية ، ثم يتبرأ منك .

فما جواب (لو) هنا ؟ المعنى : لو يعلم الذين كفروا الوقت الذي لا يكُفُّون فيه النار عن وجوههم ، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفّوا عما يُؤدّي بهم إلى ذلك ، وانتهَوْا عن أسبابه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . . . ﴾ .

أي : القيامة ، والبغتة : نزول الحدث قبل توقعه لذلك ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 40] من البهت : أي : الدهشة والحيرة ، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيرون ماذا يفعلون ؟ وأين يفرون ؟

والبغتة تمنع الاستعداد والتأهُّب ، وتمنع المحافظة على النفس . ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار التي تُنبّه الناس إلى حدوث غارة مثلاً ، فيأخذ الناس استعدادهم ، ويلجئون إلى المخابئ ، أمّا إن داهمهم العدو فجأة فلن يتمكنوا من ذلك ، ولن يجدوا فرصة للنجاة من الخطر .

ومن البَهْت قوله تعالى في قصة الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام في ربه : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . . . ﴾ [البقرة : 258] .

وقوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 40] أي : لا يُمهَلون ولا يُؤخَّرون ، فليست المسألة تهديداً ونصرف عنهم إلى وقت آخر ، إنما هي الأَخْذة الكُبْرى التي لا تُرَدُّ عنهم ولا تُؤخَّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(60/510)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء : 36) ، وفي سورة الفرقان : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . .) (الفرقان : 41-42) ، هنا سؤالان : أحدهما ظهور الفاعل في الآية الأولى وإضماره في الثانية ، والثاني ما وجه تعقيب الآية الثانية بما أعقبت به ؟

والجواب عن الأول ، والله أعلم : أن الكفار المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتقدم قبل آية الأنبياء أو فيما يليها من آي السورة أو يقرب منها خطاب يعنيهم ويخصهم من غيرهم ، إنما تقدم قبلها قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء : 30) ، وهذا يتناول كل كافر ملف ذي عقل كان من العرب أو من غيرهم معاصر أو غير معاصر ، ثم لم يقع بعد هذه الآية ما يعارض عمومها ، فلهذا تعين إظهار الفاعل في قوله : (وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) (الأنبياء : 36) إذ قيل : وإذا رأوك ، لما كان يمكن رجوعه إلا للمذكورين قبل في قوله : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) (الأنبياء : 30) ، وليس خاصاً بالمعاصرين ، فلم يكن ليناسب .

أما آية الفرقان فإن قبلها قوله تعالى : (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) (الفرقان : 32) ، والمنزل عليه القرآن معلوم صلى الله عليه وسلم ، فالقائلون معاصرون وهم الذين عنوا على القطع بقوله : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) ، فلما تقدم ذكرهم غير متناول غيرهم ، وعنوا بالذكر ، واحتيج بعد إلى الإخبار عنهم ، أتى بضميرهم ، إذ هو أوجز وقد علم ، (فقيل) : (وَإِذَا رَآكَ) ، ولم يكن الإضمار ليناسب في آية الأنبياء ، ولم يمكن الإظهار هنا ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثاني : أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى : (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) (الأنبياء : 21) ، وقوله : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء : 22) ، وقوله : (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) (الأنبياء : 24) ، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبوادات لا تغني عنهم ، ناسبه قولهم : (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) (الأنبياء : 36) .

أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله : (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان : 7) ، فأنكروا كون الرسول من البشر ، (فجرى مع ذلك وناسبه قولهم : (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) (الفرقان : 41) تعجباً واستبعاداً أن يكون الرسل من البشر) ، وقد رد ذلك عليهم بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ

فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان : 20) ، فوضح التناسب فيها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 346 .347 ﴾

(62/510)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : " مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف . فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي . فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك . وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية " فنزلت هذه الآية ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ الآية .

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن عكرمة قال : لما نفخ في آدم الروح

ماد في رأسه فعطس فقال : الحمد لله . فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور في رجليه فوقع فقال الله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : أول ما نفخ فيه الروح نفخ في رأسه ثم في ركبتيه ، فذهب ليقوم قال : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ قال : آدم حين خلق بعد كل شيء آخر النهار من يوم خلق الخلق ، فلما أجرى الروح في عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله ، قال : يا رب ، استعجل بخلقي قبل غروب الشمس .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نفخ الرب تبارك وتعالى الروح في نافوخ آدم ، فأبصر ولم يعقل حتى إذا بلغ الروح قلبه ونظر فرأى الجنة ، فعرف أنه إن قام دخلها ولم يبلغ الروح أسفله فتحرك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ .

(63/510)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ قال : خلق عجولاً . والله أعلم .

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) ﴾

أخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب يحجبه ولا ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم أوتك مالاً ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أرسل إليك رسولاً ؟ فيقول : بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا النار ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة " . انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(64/510)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾

قوله : ﴿ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ ﴾ : " إنْ " هنا نافية ، وهي وما في حَيِّزها جوابُ الشرط ب إذا ، و " إذا " مخالفةٌ لأدواتِ الشرطِ في ذلك ، فإنَّ أدواتِ الشرطِ متى أُجيبت ب " إنْ "

النافيةِ أو ب " ما " النافيةِ وجَبَ الإتيانُ بالفاءِ تقول : إن أَتَيْتَني فإنْ أَهَنْتُك وفما أَهَنْتُك .

وتقول : إذا أَتَيْتَني ما أَهَنْتُك بغير فاءٍ يَدُلُّ له قولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الجاثية : 25] .

و" اتَّخَذَ " هنا متعديةٌ لاثنين . و" هُزُوا " هو الثاني : إمَّا على حَذْفِ مضافٍ ، وإمَّا على الوصفِ بالمصدرِ مبالغةً ، وإمّا على وقوعِه مَوْقَعَ اسمِ المفعول .

وفي جواب " إذا " قولان ، أحدهما : أنه " إنْ " النافيةُ ، وقد تقدَّم ذلك . والثاني : أنه محذوفٌ ، وهو القولُ الذي قد حكى به الجملةَ الاستفهاميةَ في قوله : ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ إذ التقديرُ : وإذا رآك الذين كفروا يقولون : أهذا الذي . وتكونُ الجملةُ المنفيةُ معترضةً بين الشرطِ وبين جوابِه المقدَّرِ .

قوله : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ " هم " الأولى مبتدأٌ مخبرٌ عنه ب " كافرون " ، و" بذِكْر " متعلقٌ بالخبرِ . والتقديرُ : وهم كافرون بذِكْر . و" هم " الثاني تأكيدٌ للأولِ تأكيداً لفظياً ، فوقع الفصل بين العاملِ ومعمولِه بالمؤكِّد ، وبين المؤكَّدِ والمؤكِّدِ بالمعمولِ .

وفي هذه الجملةِ قولان، أحدُهما: أنَّه في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعلِ القولِ المقدَّرِ أي: يقولون ذلك وهم على هذه الحالةِ. والثاني: أنها حالٌ مِنْ فاعلِ "يَتَّخِذونك"، وإليه نحا الزمخشريُّ، فإنه قال: "والجملةُ في موضعِ الحالِ أي: يَتَّخِذونك هُزُواً وهم على حالٍ هي أصلُ الهزْءِ والسخريةِ، وهي الكفرُ بالله".

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

قوله: ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾: فيه قولان، أحدهما: أنه من بابِ القلبِ. والأصلُ: خُلِقَ العَجَلُ من الإِنسانِ لشدةِ صدورِه منه وملازَمتِه له. وإلى هذا ذهب أبو عمرو. وقد يتأيَّد هذا بقراءةِ عبدِ الله "خُلِقَ العَجَلُ من الإِنسانِ" والقلبُ موجودٌ. قال الشاعر:

3340 حَسَرْتُ كَفِّيْ عن السِّربالِ آخُذُه ....

....

يريد: حسرت السِّرْبالَ عن كفي. ومثلُه في الكلامِ: "إذا طَلَعَت الشِّعْرى استوى العُوْدُ على الحِرْباء" وقالوا: عَرَضْتُ الناقةَ على الحَوْضِ. وقد قَدَّمْتُ منه أمثلةً غيرَ هذه. إلاَّ أن بعضَهم يَخُصُّه بالضرورةِ، وقد قَدَّمْتُ فيه مذاهبَ ثلاثةً.

والثاني: أنه لا قلبَ فيه وفيه تأويلاتٌ، أَحسنُها: أن ذلك على المبالغةِ، جَعَلَ ذاتَ الإِنسانِ كأنها خُلِقَتْ من نفسِ العَجَلة، دلالةً على شدةِ اتصاف الإِنسانِ بها، وأنها مادتُه التي أُخِذ منها. ومثلُه في المبالغة من جانب النفي قولُه عليه السلام: "لستُ من الدَّدِ، ولا

الدَّدُ مني " والدَّدُ : اللِّعِبُ . وفيه لغاتٌ : " دَدٌ " محذوفُ اللامِ و" ددا " مَقْصوراً كـ " عصا " و" دَدَن " بالنون . وألفه في إحدى لغاتِه مجهولةُ الأصل لا ندري : أهي عن ياءٍ أو واوٍ ؟ .

وقيل : العَجَلُ : الطين بلغة حمير ، أنشد أبو عبيدة على ذلك لشاعرٍ منهم :

(66/510)

3341 النَّبْعُ في الصَّخْرةِ الصَّمَّاء مَنْبِتُه . . . والنَّخْلُ مَنْبُتُه في الماءِ والعَجَلِ

قال الزمخشري بعد إنشادِه عَجُزَ هذا البيتِ : واللَّهُ أُعلمُ بصحتِه " وهو معذورٌ .

وهذا الجارُّ يحتمل تَعَلُّقُه بـ " خُلِقَ " على المجاز أو الحقيقةِ المتقدِّمَيْن ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حال كأنه قيل : خُلِق الإِنسانُ عَجِلاً . كذا قال أبو البقاء . والأول أُولى .

وقرأ العامَّة " خُلِق " مبنيا للمفعول . " الإِنسانُ " مرفوعاً لقيامِه مقامَ الفاعلَ . وقرأ مجاهد وحميد وابن مقسم " خَلَقَ " مبنياً للفاعل . " الإِنسانَ " نصباً مفعولاً به .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)

قوله : { متى هذا } : " متى " خبرٌ مقدمٌ ، فهي في محلِّ رفعٍ . وزعم بعضُ أهلِ الكوفةِ أنها في محلِّ نصبٍ على الظرفِ . والعامل فيها فعلٌ مقدرٌ رافعٌ لهذا . والتقديرُ : متى يجيءُ هذا الوعدُ ، أو متى يأتي ؟ ونحوُه . والأولُ هو المشهورُ .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)

قوله: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ﴾ : جوابُها مقدَّرٌ لأنه أبلغُ في الوعيدِ . فقدَّره الزمخشريُّ : "لَما كانوا بتلك الصفةِ/ من الكفرِ والاستهزاءِ والاستعجالِ ، ولكنَّ جَهْلَهم به هو الذي هَوَّنَه عندهم " . وقَدَّره ابنُ عطية : "لَما استعجلوا " . وقدَّره الحوفي "لَسارعوا " . وقَدَّره غيرُهم " لَعَلِموا صحةَ البعث " .

(67/510)

و " حينَ " مفعولٌ به ل " عَلِموا " وليس منصوباً على الظرفِ . أي : لو يَعْلمون وقتَ عدمِ كفِّ النار . وقال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يكونَ " يعلمُ " متروكاً بلا تَعْدِيةٍ بمعنى : لو كان معهم علمٌ ولم يكونوا جاهلين لَما كانوا مستَعْجلين . و " حينَ " منصوبٌ بمضمرٍ أي : حين لا يَكُفُّون عن وجوهِهم النارَ يعلمون أنهم كانوا على الباطل " ، وعلى هذا ف " حين " منصوبٌ على الظرفِ لأنه جَعَلَ مفعولَ العلمِ " أنَّهم كانوا " .

وقال الشيخ : " والظاهرُ أنَّ مفعولَ " يعلم " محذوفٌ لدلالةِ ما قبلَه أي : لو يعلم الذين كفروا مجيْءَ الموعودِ الذي سَأَلوا عنه واستَنْبطوه . و " حين " منصوبٌ بالمفعولِ الذي هو " مجيءَ

" . ويجوزُ أَنْ يكونَ من بابِ الإعمالِ على حَذْفِ مضافٍ ، وأعملَ الثاني . والمعنى : لو يعلمون مباشرةَ النارِ حين لا يَكُفُّونها عن وجوهِهم " .

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

قوله : ﴿ بَغْتَةً ﴾ : في موضعِ نصبٍ على الحالِ أي مباغتةً . والضميرُ في " تَأْتيهم " يعودُ على النار . وقيل : يعودُ على الحين لأنه في معنى الساعة . وقيل : على الساعةِ التي يُصَيِّرهم فيها إلى العذاب . وقيل : على الوعد ؛ لأنَّه في معنى النار التي وُعِدُوها ، قاله الزمخشري وفيه تكلُّفٌ .

وقرأ الأعمش : " بل يَأْتيهم " بياء الغَيْبة . " بغَتَة " بفتح الغين . " فيَبْهَتُهُمْ " بالياء أيضاً . فأمَّا الياءُ فأعاد الضميرَ على الحين أو على الوعد . وقال بعضُهم : " هو عائدٌ على النار ، وإنما ذكَّر ضميرها لأنها في معنى العذاب ، ثم راعى لفظ النار فأنَّث في قوله : " رَدَّها " .

وقوله : ﴿ بَلْ تَأْتِيهم ﴾ إضرابُ انتقالٍ . وقال ابن عطية : " بل " استدراكٌ مقدرٌ قبلَه نفيٌ ، تقديرُه : " إنَّ الآياتِ لا تأتي على حَسَب اقتراحهم " . وفيه نظرٌ ؛ لأنه يَصيرُ التقديرُ : لا تأْتيهم الآياتُ على حسبِ اقتراحِهم ، بل تأتيهم بغتةً ، فيكون الظاهرُ أن الآياتِ تأتي

بغتةً ، وليس ذلك مُراداً قطعاً . وإنْ أراد أن يكونَ التقديرُ : بل تأتيهم الساعةُ أو النارُ فليس مطابقاً لقاعدةِ الإِضراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 155 . 160 ﴾

(69/510)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) ﴾

لو شهدوا بما هو به نم أوصاف التخصيص وما رقَّاه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين ، ولكنهم حُجبُوا عن معانية وسريرته ، وعاينوا منه جسمه وصورته .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

العَجَلَةُ مذمومةٌ والمُسَارَعَةُ محمودةٌ ؛ فالمسارعة البدارُ إلى الشيء في أول وقته ، والعَجَلَةُ استقباله قبل وقته ، والعجلة نتيجةُ وسوسة الشيطان ، والمسارعة قضيةُ التوفيق .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم ، فاستعجلوا حصولَ ما توعدوهم به . ولو علموا ما ينالهم لكان السكونُ منهم ، فالفَزَعُ يدُلُّ على استعجالهم .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)

لأمسكوا اليوم عن الانخراط في عذاب الظنون ، والاغترار بمواعيد الشيطان .

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنكى وأشد وسُنَّةُ الله في الانتقام أن يُثِيرَ ريحَ البغتةِ في حال الانغماس في النِّعْمة والمِنَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 502 . 503 ﴾

(70/510)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ

أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك ، تبعه ما يدل على أن الرسل في ذلك شرع واحد ، تسلية له . صلى الله عليه وسلم . وتأسية ، فقال عاطفاً على ﴿ وإذا رءاك ﴾ : ﴿ ولقد ﴾ مؤكداً له لمزيد التسلية بمساواة إخوانه من الرسل وبتعذيب أعدائه .

ولما كان المخوف نفس الاستهزاء لا كونه من معين ، بني للمفعول قوله : ﴿ استهزئ برسل ﴾ أي كثيرين .

ولما كان معنى التنكير عدم الاستغراق ، أكده بالخافض فقال : ﴿ من قبلك فحاق ﴾ أي فأحاط ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ لكفرهم ﴿ ما كانوا ﴾ بما هو لهم كالجبلة ﴿ به يستهزءون ﴾ من الوعود الصادقة كبعض من سألوه الإتيان بمثل آياتهم كقوم نوح ومن بعدهم .

ولما هددهم بما مضى مما قام الدليل على قدرته عليه ، وختمه – لوقوفهم مع المحسوسات – بما وقع لمن قبلهم ، وكان الأمان عن مثل ذلك لا يكون إلا بشيء يوثق به ، أمره أن يسألهم عن ذلك بقوله : ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ أي يحفظكم ويؤخركم ويكثر رزقكم ، وهو استفهام توبيخ .

ولما استوى بالنسبة إلى قدرته حذرهم وغفلتهم، قال: ﴿ بالّيل ﴾ أي وأنتم نائمون.

ولما كانت مدافعة عذابه سبحانه غير ممكنة لنائم ولا يقظان قال: ﴿ والنهار ﴾ أي وأنتم مستيقظون.

(71/510)

ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواه سبحانه، ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: ﴿ من الرحمن ﴾ الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه حتى أمنتم مكره ولو بقطع إحسانه، فكيف إذا ضربتم بسوط جبروته وسطوة قهرة وعظموته.

ولما كان الجواب قطعاً: ليس لهم من يكلؤهم منه وهو معنى الاستفهام الإنكاري، قال مضرباً عنه: ﴿ بل هم ﴾ أي في أمنهم من سطواته ﴿ عن ذكر ربهم ﴾ الذي لا يحسن إليهم غيره ﴿ معرضون ﴾ فهم لا يذكرون أصلاً فضلاً عن أن يخشوا بأسه وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان.

ولما أرشد السياق إلى أن التقدير: أصحيح هذا الذي أشرنا إليه من أنه لا مانع لهم منا، عادله بقوله إنكاراً عليهم: ﴿ أم لهم ءالهة ﴾ موصوفة بأنها ﴿ تمنعهم ﴾ نوبَ الدهر.

ولما كانت جميع الرتب تحت رتبته سبحانه، أثبت حرف الابتداء فقال محقراً لهم: ﴿ من

دوننا ﴾ أي من مكروه هو تحت إرادتنا ومن جهة غير جهتنا .

ولما كان الجواب قطعاً : ليس لهم ذلك ، وهو بمعنى الاستفهام ، استأنف الإخبار بما يؤيد هذا الجواب ، ويجوز أن يكون تعليلاً ، فقال : ﴿ لا يستطيعون ﴾ أي الآلهة التي يزعمون أنها تنفعهم ، أو هم - لأنهم لا مانع لهم من دوننا - ﴿ نصر أنفسهم ﴾ من دون إرادتنا فكيف بغيرهم ، أو يكون ذلك صفة الآلهة على طريق التهكم ﴿ ولا هم ﴾ أي الكفار أو الآلهة ﴿ منا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ يصحبون ﴾ بوجه من وجوه الصحبة حتى يصير لهم استطاعة بنا ، فانسدت عليهم أبواب الاستطاعة أصلاً ورأساً .

(72/510)

ولما لم يصلح هذا لأن يكون سبباً لاجترائهم ، أضرب عنه قائلاً في مظهر العظمة ، إشارة إلى أن اغترارهم به سبحانه - مع ما له من دلائل الجلال - من أعجب العجب ، بانياً على نحو "لا كالىء لهم منه ولا مانع" : ﴿ بل متعنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ هؤلاء ﴾ أي الكفار على حقارتهم ، أو الإضراب عن عدم استطاعتهم للنصر ، والمعنى أن ما هم فيه من الحفظ إنما هو منا لأجل تمتيعهم بما لا يتغير به إلا مغرور ، لا من مانع يمنعهم ﴿ وءاباءهم ﴾ من قبلهم بالنصر وغيره ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ فكان طول سلامتهم غاراً لهم بنا ، فظنوا أنه لا

يغلبهم على ذلك التميع شيء ، ولا ينزع عنهم ثوب النعمة .

ولما أقام الأدلة ونصب الحجج على أنه لا مانع لهم من الله ، تسبب عن ذلك الإنكار عليهم في اعتقاد غيره فقال : ﴿ أفلا يرون ﴾ أي يعلمون علماً هو في وضوحه مثل الرؤية بالبصر ﴿ أنا ﴾ بما لنا من العظمة ، وصور ما كان يجريه من عظمته على أيدي أوليائه فقال : ﴿ نأتي الأرض ﴾ أي التي أهلها كفار ، إتيانَ غلبة لهم بتسليط أوليائنا عليهم .

ولما كان الإتيان على ضروب شتى ، بيّنه بقوله : ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ بقتل بعضهم وردّ من بقي عن دينه إلى الإسلام ، فهم في نقص ، وأولياؤنا في زيادة .

ولما كانت مشاهدتهم لهذا مرة بعد مرة قاضية بأنهم المغلبون ، تسبب عنه إنكار غير ذلك فقال : ﴿ أفهم ﴾ أي خاصة ﴿ الغالبون ﴾ أي مع مشاهدتهم لذلك أم أولياؤنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 86.85 ﴾

(73/510)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه سبحانه ذكر الوجه الثاني في دفع الحزن عن قلب رسوله فقال : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهزِىءَ

بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك يا محمد كما استهزأ بك قومك ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي نزل وأحاط ﴿ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم في الدنيا أيضاً لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة فقال لرسوله : قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزءون ويغترون بما هم عليه : ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار ﴾ وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته ولا مخلص له منه إلى أين مفرّك منى ! هل لك محيص عني ! والكالىء الحافظ .

وأما قوله : ﴿ مِّنَ الرحمن ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في معناه وجوه : أحدها : ﴿ مَن يَكْلَؤُكم مِنَ الرحمن ﴾ أي مما يقدر على إنزاله بكم من عذاب تستحقونه .

وثانيها : من بأس الله في الآخرة .

وثالثها : من القتل والسبي وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه أنه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الأمور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما متعوا بالدنيا .

المسألة الثانية :

إنما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقيناً للجواب حتى يقول العاقل : أنت الكالىء يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك ، كما في قوله : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الانفطار : 6] إنما خص اسم الكريم بالذكر تلقيناً للجواب .

المسألة الثالثة :

إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرفتم في معايشكم .

أما قوله : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلاً ونهاراً بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذي هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون في شيء منها ليعرفوا أنه لا كالىء لهم سواه ويتركون عبادة الأصنام التي لا حظ لها في حفظهم ولا في الإنعام عليهم .

أما قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ فاعلم أن الميم صلة يعني ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا ، والتقدير ألهم آلهة من تمنعهم .

وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهذا خبر مبتدأ محذوف أي فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات ، وحماية النفس أولى من حماية الغير .

فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها ، وفي قوله : ﴿ وَلا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قولان : الأول : قال المازني : أصحبت الرجل إذا منعته فقوله : ﴿ وَلا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ من ذلك لا من الصحبة .

الثاني : أن الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلها سواء في المعنى يقال : صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر : في صحبة الله وفي حفظ الله فالمعنى ولا هم منا في نصرة ولا إعانة ، والحاصل أن من لا يكون قادراً على دفع الآفات ولا يكون مصحوباً من الله بالإعانة ، كيف يقدر على شيء ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَءابَاءهُمْ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ يعني ما حملهم على الإعراض إلا الإغترار بطول المهلة .

يعني طالت أعمارهم في الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع مواقع نعمتنا واغتروا بذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا ﴾ فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها في ملك محمد صلى الله عليه وسلم ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا وننقص من الشرك بإهلاك أهله أما كان لهم في ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من الله وإرادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال : ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ أي فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام في هذه الآية في سورة الرعد .

وفي تفسير النقصان وجوه : أحدها : قال ابن عباس ومقاتل والكلبي رضي الله عنهم ننقصها بفتح البلدان .

وثانيها : قال ابن عباس في رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها .

وثالثها : قال عكرمة : تخريب القرى عند موت أهلها .

ورابعها : بموت العلماء وهذه الرواية إن صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا

يعدل عنها وإلا فالأظهر من الأقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال : ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ والذي يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الإسلام ، قال القفال : نزلت هذه الآية في كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى أن كل ذلك من العبر التي لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 149.151 ﴾

(76/510)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم . . . ﴾ الآية .

أي يحفظكم ، قال ابن هرمة :

إن سليمى والله يكلؤها . . . ضنت بشيء ما كان يرزؤها

ومخرج اللفظ مخرج الاستفهام ، والمراد به النفي ، تقديره : قل لا حافظ لكم بالليل والنهار من الرحمن . قوله تعالى : ﴿ . . وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يجارون ، قاله ابن عباس ، من قولهم : إن لك من فلان صاحباً ، أي مجيراً ، قال الشاعر :

ينادي بأعلى صوته متعوذاً . . . ليصحب منها والرماح دواني

الثاني : يحفظون ، قاله مجاهد .

الثالث : ينصرون ، وهو مأثور .

الرابع : ولا يصحبون من الله بخير ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : ننقصها من أطرافها عند الظهور عليها أرضاً بعد أرض وفتحها بلداً بعد بلد ، قاله الحسن .

الثاني : بنقصان أهلها وقلة بركتها ، قاله ابن أبي طلحة .

الثالث : بالقتل والسبي ، حكاه الكلبي .

الرابع : بموت فقهائها وعلمائها ، قاله عطاء ، والضحاك .

ويحتمل خامساً : بجور ولاتها وأمرائها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم آنس تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بما جرى على سائر الأنبياء من استهزاء قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين ، و" حاق " معناه نزل وحل وهي مستعملة في العذاب والمكاره ، وقوله ﴿ ما كانوا ﴾ فيه محذوف تقديره جزاء ما كانوا أو نحوه ومع هذا التأنيس الذي لمحمد صلى الله عليه وسلم وعيد للكفرة وضرب مثل لهم بمن سلف من الأمم .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾

(78/510)

المعنى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة المستهزئين بك وبما جئت به الكافرين بذكر الرحمن الجاهلين به قل لهم على جهة التوبيخ والتقريع من يحفظكم ، و" كلأ " معناه حفظ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لبلال " اكلأ لنا الفجر " وفي آخر الكلام تقدير محذوف كأنه قال ليس لهم مانع ولا كالئ وعلى هذا النفي تركبت ﴿ بل ﴾ في قوله ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ ثم يقضي عليهم التقدير في أنه لا مانع لهم من الله بأن كشف أمر آلهتهم والمعنى أيظنون أن آلهتهم التي هي بهذه الصفة ﴿ تمنعهم من دوننا ﴾ بل ما يمنعهم أحد إلا نحن ،

وقوله تعالى : ﴿ ولا هم يصحبون ﴾ يحتمل تأويلين أحدهما يجارون ويمنعون ، والآخر ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ بخير ولا تزكية ونحو هذا ، وفي الكلام تقدير بعد محذوف كأنه قال ليس ثم شيء من هذا كله بل ضل هؤلاء لأنا متعناهم ومتعنا آباءهم فنسوا عقاب الله وظنوا أن حالهم لا تبيد والمعنى ﴿ طال العمر ﴾ في رخاء ثم وقفهم الله تعالى على مواضع العبر في الأمم وفي البشر بحسب الخلاف والأطراف ، والرؤية في قوله ﴿ يرون ﴾ رؤية العين تتبعها رؤية القلب ، و﴿ نأتي ﴾ معناه بالقدرة والبأس ، و﴿ الأرض ﴾ عامة في الجنس . وقوله ﴿ من أطرافها ﴾ إما أن يريد فيما يخرب من المعمور فذلك نقص للأرض وإما أن يريد موت البشر فهو تنقص للقرون ويكون المراد حينئذ نأتي أهل الأرض ، وقال قوم النقص من الأطراف موت العلماء ثم وقفهم على جهة التوبيخ أهم يعلمون من غلب أهل الأرض قهر الكل بسلطانه وعظمته أي إن ذلك محال بين بل هم مغلوبون مقهورون .

انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

ثم عزّى نبيّه ، فقال : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ أي : كما فعل بك قومك ﴾

فحاق ﴾ أي نزل ﴿ بالذين سَخِروا منهم ﴾ أي : من الرسل ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ يعني : العذاب الذي كانوا استهزؤوا به .

قوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ المعنى : قل لهؤلاء المستعجلين بالعذاب : من يحفظكم من بأس الرحمن إِن أَراد إِنزاله بكم ؟ ! وهذا استفهام إِنكار ، أي : لا أحد يفعل ذلك ، ﴿ بل هم عن ذِكْر ربِّهم ﴾ أي : عن كلامه ومواعظِه ﴿ مُعْرِضون ﴾ لا يتفكَّرون ولا يعتبرون .

﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ فيه تقديم وتأخير ، وتقديره : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ؟ وها هنا تم الكلام .

ثم وصف آلهتهم بالضعف ، فقال : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ والمعنى : من لا يقدر على نصر نفسه عمّا يُراد به ، فكيف ينصُر غيره ؟ !

قوله تعالى : ﴿ ولا هم ﴾ في المشار إِليهم قولان .

أحدهما : أنهم الكفار وهو قول ابن عباس .

والثاني : أنهم الأصنام ، قاله قتادة .

وفي معنى ﴿ يُصْحَبُونَ ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : يُجارُون ، رواه العوفي عن ابن عباس .

قال ابن قتيبة : والمعنى : لا يجيرهم منّا أحدٌ ، لأن المجير صاحب لجاره .

والثاني : يُمنعون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : يُنصرون ، قاله مجاهد .

والرابع : لا يُصحبون بخير ، قاله قتادة .

ثم بيَّن اغترارهم بالإمهال ، فقال : ﴿ بل متَّعنا هؤلاء وآباءَهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ حتى طال عليهم العُمُر ﴾ فاغترُّوا بذلك ، ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض نَنْقُصُها من أطرافها ﴾ قد شرحناه في [الرعد : 41] ، ﴿ أفَهُمُ الغالبون ﴾ أي : مع هذه الحال ، وهو نقص الأرض ، والمعنى : ليسوا بغالبين ، ولكنَّهم المغلوبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(80/510)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾

هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له .

يقول : إن استهزأ بك هؤلاء ، فقد استهزىء برسل من قبلك ، فاصبر كما صبروا .

ثم وعده النصر فقال : ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط ودار ﴿ بالذين ﴾ كفروا و ﴿ سَخِرُواْ

مِنْهُمْ ﴾ وهزءوا بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي جزاء استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أي يحرسكم ويحفظكم.

والكلاءة الحراسة والحفظ؛ كلاه الله كِلاَءً (بالكسر) أي حفظه وحرسه.

يقال: اذهب في كِلاءة الله؛ واكتلأت منهم أي احترست، قال الشاعر هو ابن هَرْمة:

إنّ سليمى واللَّهُ يَكلأُهَا . . .

ضَنَّت بشيء ما كان يَرْزَأُهَا

وقال آخر:

أَنَخْتُ بَعِيري وَاكْتَلأْتُ بعَيْنِه . . .

وحكى الكسائي والفراء "قُلْ مَنْ يَكْلَوْكُمْ" بفتح اللام وإسكان الواو.

وحكيا "مَنْ يَكْلاَكُمْ" على تخفيف الهمزة في الوجهين، والمعروف تحقيق الهمزة وهي قراءة العامة.

فأما "يَكْلاَكُمْ" فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس: أحدهما: أن بدل الهمزة إنما يكون في الشعر.

والثاني: أنهما يقولان في الماضي كَلَيْتُه، فينقلب المعنى؛ لأن كَلَيْته أوجعت كليته، ومن قال لرجل: كَلاَكَ الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كُلْيته.

ثم قيل: مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفي.

وتقديره: قل لا حافظ لكم ﴿ بالليل ﴾ إذا نمتم ﴿ و ﴾ ب ﴿ بِالنَّهَارِ ﴾ إذا قمتم وتصرفتم في أموركم.

﴿ مِنَ الرحمن ﴾ أي من عذابه وبأسه؛ كقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ ﴾ [هود: 63] أي من عذاب الله.

والخطاب لمن اعترف منهم بالصانع؛ أي إذا أقررتم بأنه الخالق، فهو القادر على إحلال العذاب الذي تستعجلونه.

﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي عن القرآن.

وقيل: عن مواعظ ربهم.

وقيل: عن معرفته.

﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون.

(81/510)

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ المعنى: ألهم والميم صلة.

﴿ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ أي من عذابنا.

﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعني الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون ﴿ نَصْرَ

أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم .

﴿ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُمنَعون .

وعنه : يُجَارون ؛ وهو اختيار الطبري .

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أي مجير منه ؛ قال الشاعر :

يُنادِي بأعلى صوتِه متعوِّذاً . . .

ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دوَانِي

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : "يُنْصَرُونَ" أي يحفظون .

قتادة : أي لا يصحبهم الله بخير ، ولا يجعل رحمته صاحباً لهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء وَآبَآءَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل مكة .

أي بسطنا لهم ولآبائهم في نعيمها و ﴿ طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم ، فاغتروا وأعرضوا عن تدبير حجج الله عز وجل .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ أي بالظهور عليها لك يا محمد أرضاً بعد أرض ، وفتحها بلداً بعد بلدٍ مما حول مكة ؛ قال معناه الحسن وغيره .

وقيل : بالقتل والسبي ؛ حكاه الكلبي .

والمعنى واحد .

وقد مضى في "الرعد" الكلام في هذا مستوفى .

﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ يعني كفار مكة بعد أن نقصنا من أطرافهم ، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(82/510)

وقال أبو حيان :

ولما تقدم قوله ﴿ إن يتخذونك إلاّ هزواً ﴾ سلاه تعالى بأن من تقدمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جنوها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة ، فكذلك حال هؤلاء المستهزئين .

وتقدم تفسير مثل هذه الآية في الأنعام .

ثم أمره تعالى أن يسألهم من الذي يحفظكم في أوقاتكم من بأس الله أي لا أحد يحفظكم منه ، وهو استفهام تقريع وتوبيخ .

وفي آخر الكلام تقدير محذوف كأنه ليس لهم مانع ولا كالىء ، وعلى هذا النفي تركيب بل في قوله ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : بل هم معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء وصلحوا للسؤال عنه ، والمراد أنه أمر رسوله

بسؤالهم عن الكالىء ثم بيّن أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم انتهى .

وقرأ أبو جعفر والزهري وشيبة : يكلُوكم بضمة خفيفة من غير همز .

وحكى الكسائي والفراء يكلَوكم بفتح اللام وإسكان الواو .

﴿ أم لهم آلهة ﴾ بمعنى بل ، والهمزة كأنه قيل بل ألهم آلهة فأضرب ثم استفهم ﴿ تمنعهم من العذاب ﴾ .

وقال الحوفي ﴿ من دوننا ﴾ متعلق بتمنعهم انتهى .

قيل : والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز من أن ينالهم مكروه من جهتنا .

وقال ابن عباس : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم تقول : منعت دونه كففت أذاه فمن دوننا هو من صلة ﴿ آلهة ﴾ أي أم لهم آلهة دوننا أو من صلة ﴿ تمنعهم ﴾ أي ﴿ أم لهم ﴾ مانع من سوانا .

ثم استأنف الإخبار عن آلهتهم فبيَّن أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره ؟ وقال ابن عباس ﴿ يصحبون ﴾ يمنعون .

وقال مجاهد : ينصرون .

وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير .

وقال الشاعر :

ينادي بأعلى صوته متعوذاً . . .

ليصحب منا والرماح دوان

وقال مجاهد : يحفظون.

(83/510)

وقال السدّي : لا يصحبهم من الملائكة من يدفع عنهم ، والظاهر عود الضمير في ﴿ ولا هم ﴾ على الأصنام وهو قول قتادة.

وقيل : على الكفار وهو قول ابن عباس ، وفي التحرير مدار هذه الكلمة يعني ﴿ يصحبون ﴾ على معنيين أحدهما أنه من صحب يصحب ، والثاني من الإصحاب أصحب الرجل منعه من الآفات.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾

﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى المخاطبين قبل وهم كفار قريش ، ومن اتخذ آلهة من دون الله أخبر تعالى أنه متع ﴿ هؤلاء ﴾ الكفار ﴿ وآباءهم ﴾ من قبلهم بما رزقهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة ، وتدعسوا في الضلالة بإمهاله تعالى إياهم وتأخيرهم إلى الوقت الذي يأخذهم فيه ﴿ أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها

أفهم الغالبون ﴾ تقدم تفسير هذه الجملة في آخر الرعد .

واقتصر الزمخشري من تلك الأقوال على معنى أنّا ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام قال : فإن قلت : أي فائدة في قوله ﴿ نأتي الأرض ﴾ ؟ قلت : الفائدة فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها انتهى .

وفي ذلك تبشير للمؤمنين بما يفتح الله عليهم ، وأكثر المفسرين على أنها نزلت في كفار مكة وفي قولهم : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ دليل على ذلك إذ المعنى أنهم هم الغالبون ، فهو استفهام فيه تقريع وتوبيخ حيث لم يعتبروا بما يجري عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(84/510)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام في ضمن الاستعجال

وعِدةٌ ضمنيةٌ بأنه يصيبهم مثلُ ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفةِ عليهم الصلاة والسلام ، وتصديرُها بالقسم لزيادة تحقيقِ مضمونها ، وتنوينُ الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقةٌ بمحذوف هو صفة له ، أي وبالله لقد استُهزىء برسل أولي شأنٍ خطير وذوي عددٍ كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه .

﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط عَقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يُستعمل إلا في الشر ، والحيقُ ما يشتمل على الإنسان من مكروهٍ فَعَله ، وقوله تعالى : ﴿ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ ﴾ للمسارعة إلى بيان لحوقِ الشرّ بهم ، وما إما موصولة مفيدةٌ للتهويل والضمير المجرورُ عائدٌ إليها والجار متعلق بالفعل وتقديمُه عليه لرعاية الفواصلِ ، أي فأحاط بهم الذي كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لأجله ، وإما مصدريةٌ فالضمير المجرور راجعٌ حينئذ إلى جنس الرسول المدلولِ عليه بالجمع كما قالوا ، ولعل إيثارَه على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاءُ استهزائهم بكل واحدٍ واحدٌ منهم عليهم السلام لا جزاءُ استهزائهم بكلهم من حيث هو كلٌّ فقط ، أي فنزل بهم جزاءُ استهزائهم على وضع السبب موضعَ المسبب إيذاناً بكمال الملابسةِ بينهما أو عينُ استهزائهم إن أريد بذلك العذابُ الأخرويُّ بناء على تجسيم الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرُز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبةٍ لها في الحسن والقبح

وعلى ذلك بني الوزن ، وقد مر تفصيله في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية إلى آخرها .

(85/510)

﴿ قُلْ ﴾ خطابٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم إثرَ تسليته بما ذكر من مصيرِ أمرهم إلى الهلاك وأمرٌ له عليه السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت : ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أي يحفظكم ﴿ بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾ أي من بأسه الذي تستحقون نزولَه ليلاً أو نهاراً ، وتقديمُ الليل لما أن الدواهيَ أكثرُ فيه وقوعاً وأشدُّ وقعاً ، وفي التعرض لعنوان الرحمانيةِ إيذانٌ بأن كالِئَهم ليس إلا رحمتُه العامةُ ، وبعد ما أُمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالُهم لأنهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم في المَلَوَيْن لحل بهم فنون الآفاتِ ، فهم أحقّاءُ بأن يكلفوا الاعترافَ بذلك فيوبخوا على ما هم عليه من الإشراك ، أُضرب عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ببيان أن لهم حالاً أخرى مقتضيةً لصرف الخطابِ عنهم هي أنهم لا يُخطِرون ذكرَه تعالى ببالهم ، فضلاً أن يخافوا بأسَه ويعدّوا ما كانوا عليه من الأمن والدعةِ حفظاً وكَلاءةً حتى

يسألوا عن الكالىءِ على طريقة قول من قال

عُوجوا فحيُّوا لنعمى دِمنةَ الدار . . . ماذا تُحيُّون من نُؤْيٍ وأحجارِ

(86/510)

وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيرادِ اسمِ الرب المضافِ إلى ضميرهم المنبىء عن كونهم تحت ملكوتِه وتدبيره وتربيتِه تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصيةِ من الضلالة والغيّ ما لا يخفى ، وكلمةُ أمْ في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مّن دُونِنَا ﴾ منقطعةٌ وما فيها من معنى بل للإضراب والانتقالِ عما قبله من بيان أن جهلَهم بحفظه تعالى إياهم لعدم خوفِهم الناشىءِ عن إعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادِهم الحفظَ إليها ، والهمزةُ لإنكار أن يكون لهم آلهةٌ تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهةٌ تمنعهم من العذاب تتجاوز منْعنا أو حفظَنا ، أو من عذاب كائنٍ من عندنا فهم معوّلون عليها واثقون بحفظها ، وفي توجيه الإنكارِ والنفيِ إلى وجود الآلهةِ الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفةِ بأن يقال : أم تمنعهم آلهتُهم الخ ، من الدِلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلاً عن رتبة المنع ما لا يخفى ، وقوله عز وعلا : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ استئنافٌ مقرّر لما قبله من الإنكار وموضّحٌ لبُطلان اعتقادِهم أي

هم لا يستطيعون أن ينصُروا أنفسهم ولا يُصحَبون بالنصر من جهتنا ، فكيف يتوهم أن ينصُروا غيرهم ؟ وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءهُمْ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ إضرابٌ عما توهموا ببيان أن الداعيَ إلى حفظهم تمتيعُنا إياهم بما قدّر لهم من الأعمار أو عن الدِلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك ، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارُهم فحسِبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ، ولذلك عقّب بما يدل على أنه طمعٌ فارغٌ وأمل كاذبٌ حيث قيل : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ ﴾ أي ألا ينظرون فلا يرون ﴿ أَنَّا نَأْتِى الأرض ﴾ أي أرضَ الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ فكيف يتوهمون أنهم

ناجون من بأسنا ، وهو تمثيلٌ وتصويرٌ لما يُخْربه الله عز وجل من ديارهم على أيدي المسلمين ويُضيفها إلى دار الإسلام ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، والفاء لإنكار ترتيب الغالبيةِ على ما ذكر من نفس أرضِ الكفرة بتسليط المسلمين عليها ، كأنه قيل : أبعد ظهورِ ما ذكر ورؤيتِهم له يتوهم غلَبتُهم ؟ كما مر في قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ وفي التعريف تعريضٌ بأن المسلمين هم المتعيِّنون للغلَبة المعروفون بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(88/510)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الخ

تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم بعد أن قضى الوطر من ذكر الأجوبة الحكمية عن مطاعنهم في النبوة وما أدمج فيها من المعاني التي هي لباب المقاصد وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قضى ما عليه من عهدة الإبلاغ وأنه المنصور في العاقبة ولهذا بدىء بذكر أجلة الأنبياء عليهم السلام للتأسي وختم بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾ [الأنبياء : 105] الخ، وتصدير ذلك بالقسم لزيادة تحقيق مضمونه .

وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير .

ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أي وبالله لقد استهزىء إليه مقامه ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد

يستعمل إلا في الشر .

والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله .

وقيل : أصل حاق حق كزال وزل وذام وذم .

وقوله تعالى : ﴿ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق .

وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم .

و﴿ مَا ﴾ إما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد عليها والجار متعلق بالفعل بعده وتقديمه لرعاية الفواصل أي فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله .

وإما مصدرية فالضمير راجع إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا .

ولعل إيثار الإفراد على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد منهم عليهم السلام لأجزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو فقط أي فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب إيذاناً بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم إن أريد بذلك العذاب الأخروي بناءً على ظهور الأعمال في النشأة الأخروية بصور مناسبة لها في الحسن والقبح .

﴿ قُلْ ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم أن يسأل أولئك المستهزئين سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغتروا بما غشيهم من نعم الله تعالى ويقول : ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أي يحفظكم ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل ﴾ أي من بأسه بقرينة الحفظ ، وتقديم الليل لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً .

وفي التعرض لعنوان الرحمانية تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته تعالى وتلقين للجواب كما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الانفطار : 6] وقيل إن ذلك إيماءً إلى أن بأسه تعالى إذا أراد شديد أليم ولذا يقال نعوذ بالله عز وجل من غضب الحليم وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته ودلالة على شدة خبثهم .

وقرأ أبو جعفر .

والزهري .

وشيبة ﴿ يكلوكم ﴾ بضمة خفيفة من غير همز ، وحكى الكسائي .

والفراء ﴿ يكلوكم ﴾ بفتح اللام وإسكان الواو ، وقوله تعالى : ﴿ الرحمن بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ إضراب عن ذلك تسجيلاً عليهم بأنهم ليسوا من أهل السماع وأنهم قوم ألهتهم النعم عن المنعم فلا يذكرونه عز وجل حتى يخافوا بأسه أو يعدوا ما كانوا فيه من الأمن وال ، عة حفظاً وكلاءة ليسألوا عن الكالىء على طريقة قوله

: عوجوا فحيوا لنعمي دمنة الدار . . .

ماذا تحيون من نوء وأحجار

وفيه أنهم مستمرون على الإعراض ذكروا ونبهوا أولاً ، وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميره المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغي ما لا يخفى ، وقيل إنه إضراب عن مقدر أي أنهم غير غافلين عن الله تعالى حتى لا يجدي السؤال عنه سبحانه كيف وهم إنما اتخذوا الآلهة وعبدوها لتشفع لهم عنده تعالى وتقربهم إليه زلفى بل هم معرضون عن ذكره عز وجل فالتذكير يناسبهم ، وهذا مع ظهوره من مساق الكلام ووضوح انطباقه على مقتضى المقام قد خفي عن الناظرين وغفلوا عنه أجمعين اه .

(90/510)

وتعقب بأن السياق لتجهيلهم والتسجيل عليهم بأنهم إذا ذكروا لا يذكرون ألا يرى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعاء ﴾ [الأنبياء : 45] وما ذكر يقتضي العكس لتضمنه وصفهم بإجداء الإنذار والدعاء مع أن قوله غير غافلين مناف لما يدل عليه النظم الكريم فالحق ما تقدم

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾

إعراض عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها ، فأم منقطعة مقدرة ببل والهمزة و﴿ لَهُمْ ﴾ خبر مقدم و﴿ ءَالِهَةٌ ﴾ مبتدأ وجلمة ﴿ تَمْنَعُهُمْ ﴾ صفته و﴿ مِّن دُونِنَا ﴾ قيل صفة بعد صفة أي بل ألهم آلهة مانعة لهم متجاوزة منعنا أو حفظنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والأصل أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ، وعليه يكون ﴿ مِّن دُونِنَا ﴾ صفة أيضاً ، وقال الحوفي : أنه متعلق بتمنعهم أي بل ألهم آلهة تمنعهم من عذاب من عندنا ، والاستفهام لإنكار أن يكون لهم آلهة كذلك ، وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر لا إلى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلاً عن رتبة المنع ما لا يخفى .

وقال بعض الأجلة : إن الإضراب الذي تضمنته ﴿ أَمْ ﴾ عائد على الأمر بالسؤال كالإضراب السابق لكنه أبلغ منه من حيث أن سؤال الغافل عن الشيء بعيد وسؤال المعتقد لنقيضه أبعد ، وفهم منه بعضهم أن الهمزة عليه للتقرير بما في زعم الكفرة تهكماً . وتعقب أنه ليس بمتعين فيجوز أن يكون للإنكار لا بمعنى أنه لم يكن منهم زعم ذلك بل بمعنى أنه لم كان مثله مما لا حقيقة له ، والأظهر عندي جعله عائداً على الوصف بالإعراض كما سمعت أولاً .

وفي "الكشف" ضمن الإعراض عن وصفهم بالإعراض إنكاره أبلغ الإنكار بأنهم في إعراضهم عن ذكره تعالى كمن له كالىء يمنعه عن بأسنا معرضاً فيه بجانب آلهتهم وأنهم أعرضوا عنه تعالى واشتغلوا بهم ولهذا رشح بما بعد كأنه قيل دع حديث الإعراض وانظر إلى من أعرضوا عن ربهم سبحانه إليه فإن هذا أطم وأطم فتأمله فإنه دقيق.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الإنكار أي لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ويدفعوا عنها ما ينزل بها ولا هم منا يصحبون بنصر أو بمن يدفع عنهم ذلك من جهتنا فهم في غاية العجز وغير معتنى بهم فكيف يتوهم فيهم ما يتوهم، فالضمائر للآلهة بتنزيلهم منزلة العقلاء وروي عن قتادة، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها للكفرة على معنى لا يستطيع الكفار نصر أنفسهم بآلهتهم ولا يصحبهم نصر من جهتنا، والأول أولى بالمقام وإن كان هذا أبعد عن التفكيك، و﴿ مِنَّا ﴾ على القولين يحتمل أن يتعلق بالفعل بعده وأن يتعلق بمقدر وقع صفة لمحذوف.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ الخ

إضراب على ما في "الكشف" عن الضرب السابق من الكلام إلى وعيدهم وأنهم من أهل الاستدراج وأخرجهم عن الخطاب عدم مبالاة بهم ، وفي العدول إلى الإشارة عن الضمير إشارة إلى تحقيرهم .

وفي غير كتاب أنه إضراب عما توهموه من أن ما هم فيه من الكلاءة من جهة أن لهم آلهة تمنعهم من تطرق البأس إليهم كأنه قيل دع ما زعموا من كونهم محفوظين بكلاءة آلهتهم بل ما هم فيه من الحفظ منا لا غير حفظنا هم من البأساء ومتعناهم بأنواع السراء لكونهم من أهل الاستدراج والانهماك فيما يؤديهم إلى العذاب الأليم .

(92/510)

ويحتمل أن يكون إضراباً عما يدل عليه الاستئناف السابق من بطلان توهمهم كأنه قيل دع ما يبين بطلان توهمهم من أن يكون لهم آلهة تمنعهم واعلم أنهم إنما وقعوا في ورطة ذلك التوهم الباطل بسبب أنا منعناهم بما يشتهون حتى طالت مدة عمارة أبدانهم بالحياة فحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا وأعرضوا عن الحق واتبعوا ما سولت لهم أنفسهم وذلك طمع فارغ وأمل كاذب ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي ألا ينظرون فلا يرون ﴿ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ ﴾ أي أرض الكفرة أو أرضهم ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بتسليط المسلمين عليها وحوز ما يحوزونه منها ونظمه

في سلك ملكهم ، والعدول عن أنا ننقص الأرض من أطرافها إلى ما في "النظم الجليل" لتصوير كيفية نقصها وانتزاعها من أيديهم فإنه بإتيان جيوش المسلمين واستيلائهم ، وكان الأصل يأتي جيوش المسلمين لكنه أسند الإتيان إليه عز وجل تعظيماً لهم وإشارة إلى أنه بقدرته تعالى ورضاه ، وفيه تعظيم للجهاد والمجاهدين .

والآية كما قدمنا أول السورة مدنية وهي نازلة بعد فرض الجهاد فلا يرد أن السورة مكية والجهاد فرض بعدها حتى يقال : إن ذلك إخبار عن المستقبل أو يقال : إن المراد ننقصها بإذهاب بركتها كما جاء في رواية عن ابن عباس أو بتخريب قراها وموت أهلها كما روي عن عكرمة ، وقيل ننقصها بموت العلماء وهذا إن صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا معدل عنه وإلا فالأظهر نظراً إلى المقام ما تقدم ويؤيده قوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، وفي التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ ﴾

أي : نزل : ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي عذابه أو جزاؤه ، على وضع السبب موضع المسبب ، إيذاناً بكمال الملابسة بينهما ، أو عين استهزائهم ، إن أريد بذلك العذاب الأخرويّ ، بناءً على تجسم الأعمال . فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز في النشأة الأخرى بصور جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

(94/510)

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلأُكُمْ ﴾ أي : يحفظكم : ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : من بأسه أي : يفجأكم . وتقديم الليل لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً . وفي لفظ الرحمن تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته . كغضب الحليم . وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايميّ : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومَن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يغترون في ذلك بعموم رحمته حتى

يرجى منعها عن ذلك : ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يخطرونه ببالهم ، فضلاً أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسْأَلُوا عن الكالئ : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي : لهؤلاء المستعجلي ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هي به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالنصر والتأييد . أفاده ابن جرير . فـ " فيصحبون " بمعنى يجارون يقال : صحبك الله , أي : أجارك وسلمك ، كما في " الأساس " . قال ابن جرير : أي : لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكي عنها : أنا لك جار من فلان وصاحب , بمعنى : أجيرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار لم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ إضراب عما توهموا ، ببيان أن الداعي إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به في الحياة الدنيا ونعّموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لا تأتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شيء وأنهم لا يغلبون : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي : ننقص أرض الكفر فنخربها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلائهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف . أفاده ابن جرير . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : 27] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أي : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب ، الغالبون لنا ، وقد رأوا قهرنا مَن أحللنا بساحته بأسنا في أطراف الأرض ؟

وفي التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 11 صـ 205. 207 ﴾

(96/510)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) ﴾

في هذه الآية الكريمة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن إخوانه من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم استهزأ بهم الكفار ، كما استهزءوا به صلى الله عليه وسلم . يعني : فاصبر كما صبروا ، ولك العاقبة الحميدة ، والنصر النهائي كما كان لهم . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من ذلك جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله . كقوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين ﴾ [الأنعام : 34] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر : 25-26] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ [فاطر : 4] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَحَاقَ بالذين ﴾ أي أحاط بهم . ومادة حاق يائية العين .

بدليل قوله في المضارع : ﴿ وَلَا يَحِيقُ المكر السيىء إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] ولا تستعمل هذه المادة إلا في إحاطة المكروه خاصة .

(97/510)

فلا تقول : حاق به الخير بمعنى أحاط به . والأظهر في معنى الآية : أن المراد : وحاق بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ويستهزؤون به ، وعلى هذا اقتصر ابن كثير . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط ودار ﴿ بالذين ﴾ كفروا و ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ وهزءوا بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي جزاء استهزائهم . والأول أظهر ، والعلم عند الله تعالى . والآية تدل على أن السخرية من الاستهزاء وهو معروف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم : ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم ﴿ بالليل ﴾ في حال نومكم ﴿ والنهار ﴾ في حال تصرفكم في أموركم . والكِلاءة بالكسر : الحفظ والحِراسة . يقال : اذهب في كِلاءة الله . أي في حفظه ، واكتلأت منهم : احترست . ومنه

قول ابن هرمة :

إنّ سُلَيمى والله يكلؤها . . . ضنَّت بشيء ما كان يَرْزَؤُها

وقول كعب بن زهير :

أَنَخْت بَعيري واكْتَلأَت بعَيْنِه . . . وآمرت نفسي أي أمري أفعلُ

و" من " في قوله ﴿ مِنَ الرحمن ﴾ فيها للعلماء وجهان معروفان : أحدهما وعليه اقتصر ابن كثير : أن " من " هي التي بمعنى بدل . وعليه فقوله ﴿ مِنَ الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن ، يعني غيره . وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز :

جارية لم تلبس المرققا . . . ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق . وعلى هذا القول فالآية كقوله تعالى : ﴿ أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة ﴾ [التوبة : 38] أي بدلها ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر .

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة . . . ظلما ويكتب للأمير أفيلا

(98/510)

يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل . والوجه الثاني أن المعنى ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾

قال أبو حيان في البحر : هو استفهام تقريع وتوبيخ . وهو عندي يحتمل الإنكار والتقرير .

فوجه كونه إنكاريا ً أن المعنى : لا كالئ لكم يحفظكم من عذاب الله البتَّة إلاَّ الله تعالى . أي فكيف تعبدون غيره . ووجه كونه تقريريّا ً أنهم إذا قيل لهم : من يكلؤكم ؟ اضطروا إلى أن يقروا بأن الذي يكلؤهم هو الله . لأنهم يعلمون أنه لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى ، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب ، ولا يدعون معه غيره ، كما قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة " الإسراء " وغيرها . فإذا أقروا بذلك توجه إليهم التوبيخ والتقريع ، كيف يصرفون حقوق الذي يحفظهم بالليل والنهار إلى ما لا ينفع ولا يضر . وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة : أنه لا أحد يمنع أحداً من عذاب الله ، ولا يحفظه ولا يحرسه من الله ، وأن الحافظ لكل شيء هو الله وحده جاء مبيناً في مواضع أخر . كقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : 11] على أظهر التفسيرات ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ [الفتح : 11] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الذي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سواءا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ [الأحزاب : 17] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [المائدة : 17] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُجْيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : 88] إلى غير ذلك من الآيات .

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ أَمْ ﴾ هي المنقطعة ، وهي بمعنى بل والهمزة ، فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار ، والمعنى : ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعزّ حتى لا ينالهم عذابنا . ثم بين أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسها ، فكيف تنفع غيرها بقوله : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . وقوله ﴿ مِّن دُونِنَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه متعلق . ﴿ آلِهَةٌ ﴾ أي ألهم آلهة ﴿ مِّن دُونِنَا ﴾ أي سوانا ﴿ تَمْنَعُهُمْ ﴾ مما نريد أن نفعله بهم من العذاب ! كلا ! ليس الأمر كذلك . الوجه الثاني أنه متعلق . ﴿ تَمْنَعُهُمْ ﴾ لقول العرب : منعت دونه ، أي كففت أذاه . والأظهر عند الأول . ونحوه كثير في القرآن كقوله : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ ﴾ [الأنبياء : 29] الآية وقوله : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ [الفرقان : 3] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(100/510)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة : من كون الآلهة التي اتخذوها لا تستطيع نصر أنفسها فكيف تنفع غيرها جاء مبيناً في غير هذا الموضع ؟ كقوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا

وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [الأعراف: 191-195]، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 197-198]، وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ [فاطر: 13-14] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأحقاف: 5] الآية، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع البتة.

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي يجارون : أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا . لأن الله يجير ولا يجاز عليه كما صرح بذلك في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] في قوله : ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : 88] . والعرب تقول : أنا جار لك وصاحب من فلان . أي مجير لك منه . ومنه قول الشاعر :

_@_ينادي بأعلى صوته متعوِّذاً _@_ليصحب منا والرماح دواني_@_يعني ليجار ويُغاث منا . وأغلب أقوال العلماء في الآية راجعة إلى ما ذكرنا . كقول بعضهم ﴿ يُصْحَبُونَ ﴾ يُمنعون . وقول بعضهم يُنصرون . وقول بعضهم ﴿ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي لا يصحبهم الله بخير ، ولا يجعل الرحمة صاحباً لهم . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء وَآبَآءَهُمْ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ .

الظاهر أن الإضراب . ﴿ بَلْ ﴾ في هذه الآية الكريمة انتقالي . والإشارة في قوله ﴿ هؤلاء ﴾ راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾ [الأنبياء : 42] الآية ، وهم كفَّار قريش ، ومن اتخذ آلهة من دون الله . والمعنى : أنه متَّع هؤلاء الكفار وآباءهم قبلهم بما رزقهم من نعيم الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان واللجاج في الكفر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة : من أنه تعالى يمهل الكفار ويملي لهم في النعمة ، وأن ذلك يزيدهم كفراً وضلالاً جاء موضحاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى ، كقوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] ، وقوله تعالى : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : 182-183] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حتى نَسُواْ الذكر وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفرقان : 18] ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء وَآبَآءَهُمْ حتى جَآءَهُمُ الحق وَرَسُولٌ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف : 29-30] والآيات بمثل ذلك كثيرة . والعمر يطلق على مدة العيش .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ .

في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء : وبعضها تدل له قرينة قرآنية :

قال بعض العلماء : نقصها من أطرافها : موت العلماء ، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن

أبي هرير . وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ظاهر كما ترى .

وقال بعض أهل العلم : نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها .

(103/510)

وقال بعض أهل العلم : نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات ، إلى غير ذلك من الأقوال ، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية : فهو أن معنى ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ أي ننقص أرض الكفر ودار الحرب ، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها ، وردها دار إسلام . والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ . والاستفهام لإنكار غلبتهم . وقيل : لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا غالبون ، فقوله : ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار ، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور . ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ [الرعد : 31] على قول من قال : إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النَّبي صلى الله عليه وسلم تفتح أطراف بلادهم ، أو تحل أنت يا نبي الله قريباً من دارهم .

وممن يروى عنه هذا القول : ابن عباس وأبو سعيد وعكرمة ومجاهد وغيرهم . وهذا

المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر سورة " الرعد " أيضاً في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ [الرعد : 41] .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية " الأنبياء " هذه : إن أحسن ما فُسِّر به قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ [الأنبياء : 44] هو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ القرى وَصَرَّفْنَا الآيات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : 27] .

(104/510)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ما ذكره ابن كثير رحمه الله صواب ، واستقراء القرآن العظيم يدل عليه . وعليه فالمعنى : أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله ، والكفر بما جئت به ﴿ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط ، وهم يمرون بديارهم . وكما أهلكنا قوم هود ، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل مُمَزَّق كل ذلك بسبب تكذيب الرسل ، والكفر بما جاءوا به . وهذا هو معنى قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ القرى ﴾ [الأحقاف : 27] كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد صلى الله

عليه وسلم . لئلا ننزل بكم مثل ما أنزلنا بهم . وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ والمعنى : أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء ، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم ، وأنتم لستم بأقوى منهم ، ولا أكثر أموالاً ولا أولاداً . كما قال تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والذين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الدخان : 37] الآية . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض فَمَآ أغنى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر : 82] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَآ ﴾ [الروم : 9] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وإنذار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جداً في القرآن . وبه تعلم اتجاه ما استحسنه ابن كثير رحمه الله من تفسير آية " الأنبياء " هذه بآية " الأحقاف " المذكورة كما بينا .

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت : أي فائدة في قوله ﴿ نَأْتِي الأرض ﴾ ؟ قلت : فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين ، وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها (اه منه) . والله جل وعلا أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(106/510)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

عطف على جملة ﴿ سأريكم آياتي ﴾ [الأنبياء : 37] تطمين للنبيء صلى الله عليه وسلم وتسلية له .

ومناسبة عطفها على جملة ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ﴾ [الأنبياء : 39] إلى آخرها ظاهرة .

وقد تقدم نظير هذه الآية في أوائل سورة الأنعام .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾

بعد أن سُلِّيَ الرسول صلى الله عليه وسلم على استهزائهم بالوعيد أُمر أن يذكرهم بأن

غرورهم بالإمهال من قِبل الله رحمة منه بهم كشأنه في الرحمة بمخلوقاته بأنهم إذا نزل بهم عذابه لا يجدون حافظاً لهم من العذاب غيره ولا تمنعهم منه آلهتهم .

والاستفهام إنكار وتقريع ، أي لا يكلؤُهم منه أحد فكيف تجهلون ذلك ، تنبيهاً لهم إذ نسوا نعمه .

وذكر الليل والنهار لاستيعاب الأزمنة كأنه قيل : من يكلؤكم في جميع الأوقات .

وقدم الليل لأنه زمن المخاوف لأن الظلام يُعين أسباب الضر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان وعلل الأجسام .

وذكر النهار بعده للاستيعاب .

ومعنى ﴿ من الرحمان ﴾ من بأسه وعذابه .

وجيء بعد هذا التقريع بإضرابات ثلاثة انتقالية على سبيل التدريج الذي هو شأن الإضراب .

فالإضراب الأول قوله تعالى : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ ، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح إلى التأييس من صلاحهم بأنهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يُرجَى منهم الانتفاع بالقوارع ، أي أخِّرْ السؤال والتقريع واتركهم حتى إذا تورّطوا في العذاب عرفوا أن لا كالىء لهم .

ثم أضرب إضراباً ثانياً بـ (أم) المنقطعة التي هي أخت (بل) مع دلالتها على الاستفهام

لقصد التقريع فقال : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ ، أي بل ألهم آلهة .

والاستفهام إنكار وتقريع ، أي ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا .

وهذا إبطال لمعتقدهم أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء .

وجملة ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ مستأنفة معترضة .

وضمير ﴿ يستطيعون ﴾ عائد إلى آلهة أجري عليهم ضمير العقلاء مجاراة لما يجريه العرب في كلامهم .

والمعنى : كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم مؤيدون من الله بالقبول .

ثم أضرب إضراباً ثالثاً انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إياهم بالعذاب فجرّأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم ﴾ ، أي فما هم مستمرون فيه من النعمة إنما هو تمتيع وإمهال كما متعنا آباءهم من قبل ، وكما كان لآبائهم آجال انتهوا إليها كذلك يكون لهؤلاء ، ولكن الآجال تختلف بحسب ما علم الله من الحكمة في مَداها حتى طالت أعمار آبائهم .

وهذا تعريض بأن أعمار هؤلاء لا تبلغ أعمار آبائهم ، وأن الله يحل بهم الهلاك لتكذيبهم إلى أمدٍ عَلِمَه .

وقد وُجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ ، ثم أُعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم كما في قوله تعالى:

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾ الآية في سورة [يونس : 22] .

و﴿ يصحبون ﴾ إما مضارع صحبهُ إذا خالطه ولازمه ، والصحبة تقتضي النصر والتأييد ، فيجوز أن يكون الفاعل الذي ناب عنه من أسند إليه الفعل المبنيّ للنائب مراداً به الله تعالى ، أي لا يصحبهم الله ، أي لا يؤيدهم ؛ فيكون قوله تعالى : ﴿ منا ﴾ متعلقاً بـ ﴿ يصحبون ﴾ على معنى (مِن) الاتصالية ، أي صحبة متصلةً بنا بمعنى صحبة متينة .

وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفاً لقصد العموم، أي لا يصحبهم صاحب، أي لا يجيرهم جار فإن الجوار يقتضي حِماية الجار فيكون قوله تعالى: ﴿ منا ﴾ متعلقاً بـ ﴿ يصحبون ﴾ على معنى (مِن) التي بمعنى (على) كقوله تعالى: ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ [غافر: 29].

وإما مضارع أصحبه المهموز بمعنى حفظه ومنعه، أي من السوء.

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ لحَاضرين في الأذهان وهم كفار قريش.

وقد استقريْت أن القرآن إذا ذكرت فيه هذه الإشارة دون وجود مشار إليه في الكلام فهو يعني بها كفارَ قريش.

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الغالبون ﴾

قريع على إحالتهم نصر المسلمين وعدّهم تأخير الوعد به دليلاً على تكذيب وقوعه حتى قالوا: ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الأنبياء: 38] تهكماً وتكذيباً.

فلما أنذرهم بما سيحل بهم في قوله تعالى: ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الأنبياء: 3941] فرّع على ذلك كله استفهاماً تعجيبياً من عدم اهتدائهم إلى إمارات اقتران الوعد بالموعود استدلالاً على قربه بحصول أماراته.

والرؤية علمية، وسَدت الجملة مسَدّ المفعولين لأنها في تأويل مصدر، أي أعجبوا من عدم

اهتدائهم إلى نقصان أرضهم من أطرافها ، وأن ذلك من صنع الله تعالى بتوجه عناية خاصة ، لكونه غير جار على مقتضى الغالب المعتاد ، فمَن تأمّل علم أنه من عجيب صنع الله تعالى ، وكفى بذلك دليلاً على تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صدق ما وعدهم به وعنايةِ ربه به كما دلّ عليه فعل ﴿ نأتي .

فالإتيان تمثيل بِحال الغازي الذي يسعى إلى أرض قوم فيقتُل ويأسِرُ كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ [النحل : 26] .

(109/510)

والتعريف في ﴿ الأرض ﴾ تعريف العهد ، أي أرض العرب كما في قوله تعالى في [سورة يوسف : 80] ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي أرضَ مصر .

والنقصان : تقليل كمية شيء .

والأطراف : جمع طَرَف بفتح الطاء والراء .

وهو ما ينتهي به الجسم من جهة من جهاته ، وضده الوسط .

والمراد بنقصان الأرض : نقصان مَن عليها من الناس لا نقصان مساحتها لأن هذه السورة مكية فلم يكن ساعتئذ شيء من أرض المشركين في حوزة المسلمين ، والقرينة المشاهدة .

والمراد : نقصان عدد المشركين بدخول كثير منهم في الإسلام ممن أسلم من أهل مكة ، ومن هاجر منهم إلى الحبشة ، ومَن أسلم من أهل المدينة إن كانت الآية نزلت بعد إسلام أهل العقبة الأولى أو الثانية ، فكان عدد المسلمين يومئذ يتجاوز المائتين .

وتقدم نظير هذه الجملة في ختام سورة الرعد .

وجملة ﴿ أفَهُمُ الغالبون ﴾ مفرعة على جملة التعجيب من عدم اهتدائهم إلى هذه الحالة .

والاستفهام إنكاري ، أي فكيف يحسبون أنهم غلَبوا المسلمين وتمكنوا من الحجة عليهم .

واختيار الجملة الاسمية في قوله تعالى : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ دون الفعلية لدلالتها بتعريف جُزْأيهَا على القصر ، أي ما هم الغالبون بل المسلمون الغالبون ، إذ لو كان المشركون الغالبين لما كان عددهم في تناقص ، ولَمَا خلت بلدتهم من عدد كثير منهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(110/510)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

سبق أنْ خاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين

كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً . . ﴾ [الأنبياء : 36] لذلك يُسلّيه هنا : لست بدعاً من الرسل، فَخُذْ هذه المسألة بصدر رَحْب، فلقد استهزئ بالرسل من قبلك فلا تحزن، فسوف يحيق بهم ما صنعوا، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء .

كما جاء في قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . . ﴾ [هود : 38] فيردُّ نوح : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 38] أي : انتظروا النهاية، وسوف ترون ! ! .

ومعنى : ﴿ فَحَاقَ . . . ﴾ [الأنبياء : 41] أي : حَلَّ ونزل بقسوة ﴿ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنبياء : 41] .

وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : 29-31] أي : مسرورين فرحين، وهذا دليل على لُؤْمهم ورذالة طباعهم، فلم يكتفوا بالاستهزاء، وإنما يحكونه ويتبجحون به . ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 32-36] .

هل استطعنا أنْ نُجازيهم بما عملوا ؟ نعم يا ربّ .

ولا ننسى أن استهزاء الكفار بأهل الحق استهزاء موقوت بوقته في الدنيا ، أمّا استهزاء الله بهم فاستهزاء أبديّ لا نهايةَ له . ويجب هنا أن تتنبه لهذه المسألة ، فكثيراً ما يتعرض أهل الإيمان للاستهزاء وللسخرية من أهل الباطل ، وهؤلاء الذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب ، كما جاء في الحديث القدسي : " فلولا أطفال رُضَّع ، وشيوخ رُكّع ، وبهائم رُتَّع لصببتُ عليكم العذاب صباً " .

فحين ترى تقياً ، فإذا لم تشكره على تقواه وتقتدي به فلا أقلَّ من أنْ تدعَه لحاله ، لا تهزأ به ، ولا تسخر منه ؛ لأن في وجوده استبقاءً لحياتك وأَمْنِكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيِم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلن يعتدي عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسؤوك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار . . . ﴾ .

أي : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يُجري مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤْذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذي ﴿ يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار . . . ﴾ [الأنبياء : 42] أي : كلاءة صادرة من الله الرحمن .

كما في قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . . ﴾ [الرعد : 11] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذي أراده الله فيه ؛ لأن الحِفْظَ صادر من الله ، والحَفَظة مكلّفون من

قبله تعالى بحفظكم، وليس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك في النهار وفي الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك، ويدفعون عنك الأذى .

(112/510)

وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً في فراشه، ولم يُصِبْه بسوء، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن: لا أحدَ يرقبك ويحفظك في نومك مِمَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .

وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحِفْظ من المعاطب، فمن كلاءته سبحانه أن يمدّكم بمقوّمات الحياةَ، فالشمس بضوئها، والقمر بنوره، والأرض بنباتها، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به، وتسخرون من رسله وأهل طاعته؛ لذلك يقول بعدها: ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 42] وما كان يصحّ أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا . . . ﴾ .

أَلهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله؛ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم، وكيف ينصرون أنفسهم، وهي أصنام من حجارة نحتَها عُبَّادها على أشكال اختاروها؟ كيف

ينصرون أنفسهم، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه ويقيمه؟

وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء: 43] كانوا قديماً في البادية، إذا فعل أحدهم ذنباً، أو فعل فعْله في إحدى القبائل، واحتاج إلى المرور عليهم في طريقه يذهب إلى واحد قويٍّ يصاحبه في مشواره، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: 14].

فالمراد: يصحبه كي يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب، فهؤلاء لن نكون في صُحْبتهم لننجيهم، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا، لا هذه ولا تلك.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء وَآبَآءَهُمْ .... ﴾.

(113/510)

أي: أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلّبون في نعَم الله، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك، فخذوا منهم عبرةً: ﴿ أَوَلَمْ يَسيرُوا فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴾ [الروم: 9].

ومع ذلك أُخذوا أَخْذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن

قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 6] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [الأنبياء : 44] .

وفي موضع آخر : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : 41] .

وهذه آية من الآيات التي وقف عندها بعض علماءنا من النبيين من بعمليات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية ، لشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعني : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صِدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذِكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الإكتشاف في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [الأنبياء : 44] يعني : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ . . ﴾ [الأنبياء : 44] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمِثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن في القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ . . . ﴾ [الأنبياء : 44] رأي هنا علمية أم بصرية ؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا في القرن العشرين ، ولم ينتبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهي ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمةَ علم ، ولا أمة ثقافة ، ولا شيء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب ؟

نقول : إنْ كانت رأي بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرية في الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه ؛ لأنه جاء ليقضي على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التي تُهدم وتخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص الناس ، وننقص مظاهر العمران في جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة في أرض الإيمان . وهذه الظاهرة حدثت في جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ،

والآية مكية؟ تقول: كَوْن الآية مكية لا يقدح في المعنى هنا، فليس من الضروري أن يَرَوْا ذلك في أنفسهم، ويكفي أنْ يروها في الأمم السابقة، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات: 137].

وقال: ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ [الفجر: 9-12].

وإن اعتبرنا (رأي) علمية، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب مِمَّنْ تحالفوا معهم، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم.

(115/510)

وقوله تعالى: ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ [الأنبياء: 44] يعني: أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها، أم أن هذا لم يحدث، وهم الغالبون؟ أيهما الغالب: رسل الله، أم الكافرون؟ الإجابة أنهم غُلِبوا واندحروا، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات: 173] وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا . . . ﴾ [غافر: 51]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/510)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

{ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ }

قوله : { مِنَ الرحمن } : متعلقٌ ب " يَكْلَؤكم " على حذفِ مضافٍ أي من أمرِ الرحمنِ أو بَأْسِه كقوله : { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله } [الرعد : 11] . و" بالليل " بمعنى في الليل . والكِلاءَةُ : الحِفْظ يقال : كَلأَه يَكْلَؤُه اللهُ كِلاءة بالكسر . كذا ضبطه الجوهري فهو كالِىءٌ ومَكْلُوْءٌ . قال ابنُ هَرْمة :

3342 إنَّ سُلَيْمى واللهُ يَكْلَؤُها . . . ضَنَّتْ بشَيْءٍ ما كان يَرْزَؤُها

واكْتَلأْتُ منه : احترَسْتُ ، ومنه سُمِّي النباتُ كَلأً ؛ لأنَّ به تقومُ بُنْيَةُ البهائمِ وتُحْرس . ويقال : " بَلَّغَ اللهُ بك أَكْلأَ العُمُرِ " والمُكَلأُ : موضعٌ تُحْفظ فيه السفن . وفي الحديث : " نهى عن بيع الكالِىء بالكالِىءِ " أي : بَيْعِ الدَّيْن بالدَّيْن ؛ كأنَّ كلاً من ربِّ الدَّيْنَيْنِ يكلأُ الآخَرَ أي : يراقبه .

وقوله : { بَلْ هُمْ } إضرابٌ عن ما تَضمَّنه الكلامُ الأول من النفي ، إذ التقدير : ليس لهم كالىءٌ ولا مانعٌ غيرُ الرحمنِ .

وقرأ الزهري وابن القعقاع " يَكْلُوكم " بضمةٍ خفيفةٍ دونَ همزٍ . وحكى الكسائي والفراء "

يَكْلَوْكم " بفتح اللامِ وسكونِ الواو ولم أعرفْها قراءةً ، وهو قريبٌ من لغةِ مَنْ يخفِّف " أكَلْتُ الكلا على الكَلَوْ " وقفاً إلاَّ أنه أجرى الوصل مُجْرَى الوقف .

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

(117/510)

قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ : " أم " منقطعةٌ أي : بل ألهم آلهةٌ . وقد تقدم ما فيها . وقوله : ﴿ مِّن دُونِنَا ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه متعلقٌ ب " تَمْنَعُهم " قيل : والمعنى : ألهم آلهةٌ تجعلهم في مَنْعَةٍ وعزٍّ . وإلى هذا ذهب الحوفي . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ لأنه صفةٌ ل " آلهة " أي : آلهةٌ من دونِنا تمنعُهم ؛ ولذلك قال ابن عباس : " إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً " . وقوله : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ مستأنفٌ فلا محلَّ له ، ويجوز أن يكون صفةً ل " آلهة " وفيه بُعْدٌ من حيث المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 160 . 161 ﴾

(118/510)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) ﴾

تسليةٌ له ، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين ؛ أي عن قريب ستجدون وَبالَ ما استوجبوه من العقوبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم ، وقد جرَّبوا ذلك في أحوال محنتهم ، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء ، ومما ليس منه نَفْعٌ ولا ضرٌّ ؟ وفي ذلك تنبيه للمؤمنين بأن ما آربهم إلى الخيرات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل ، فالواجبُ دوامُ اعتكافِهم بقلوبهم بقوة كَرمِه وجُوده .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ .

بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات ؛ وأصنامُهم التي عبدوها من تلك الجملة ، ولم يَرِدْ منهم - على تكرار هذه الألفاظ - إلاَّ عجزٌ وانقطاعُ قول .

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44)

طولُ الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق ، مشفوعاً بالعصمة كان مكراً واستدراجاً ، وزيادةً في العقوبة . والحقّ كما يعاقِبُ بالآلام والأهوال يعاقِب بالإملاء والإمهال .

وقال : ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ﴾ تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ ، للصفوة ؛ فيتعاقبُ الخذلانُ حتى يتواتر العصيان ، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل . . وفي هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل :

آخِرُ الأمر ما ترَى . . . القبرُ واللَّحدُ والثرى

(119/510)

وكما قيل :

طوى العصران ما نَشْرَاه مني . . . وأبلى جدتي نَشْرٌ وطيُّ

أراني كلَّ يومٍ في انتقاص . . . ولا يبقى – مع النقصان – شيٌّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 503.504 ﴾

(120/510)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تبين الخلف في قولهم على كثرته وادعائهم الحكمة والبلاغة ، وفعلهم على كثرتهم وزعمهم القوة والشجاعة ، ثبت أن أقواله الناقضة لذلك من عند الله بما ثبت من استقامة معانيها وإحكامها ، بعدما اتضح من إعجاز نظومها وحسن التئامها ، فأمره أن يبين لهم ذلك بقوله : ﴿ قل إنما أنذركم ﴾ أيها الكفار ﴿ بالوحي ﴾ أي الآتي به الملك عن الله فلا قدح في شيء من نظمه ولا معناه والحال أنكم لا تسمعون – على قراءة الجماعة والحال أنك لا تسمعهم – على قراءة ابن عامر بضم الفوقانية وكسر الميم ونصب الصم خاصة ، ولكنهم لما كانوا لا ينتفعون بإنذاره لتصامّهم وجعلهم أصابعهم في آذانهم وقت الإنذار عدهم صماً ، وأظهر الوصف لتعليق الحكم به فقال : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ أي ممن يدعوهم ، أو يكون معطوفاً على ما تقديره : فإن كانت أسماعكم صحيحة سمعتم

فأجبتم ، ونبه بقوله : ﴿ إذا ما ينذرون ﴾ على أن المانع لهم مع الصمم كراهة الإنذار ، وبالبناء للمفعول على منذر .

ولما كان المنذر لا يترك الاستعداد لما ينذر به من العذاب إلا إذا كان قوياً على دفعه .

بيّن أنهم على غير ذلك فقال : ﴿ ولئن ﴾ أي لا يسمعون والحال أنه لا قوة بهم ، بل إن ﴿ مستهم ﴾ أي لاقتهم أدنى ملاقاة ﴿ نفحة ﴾ أي رائحة يسيرة مرة من المرات ﴿ من عذاب ربك ﴾ المحسن إليك بنصرك عليهم ﴿ ليقولن ﴾ وقد أذهلهم أمرها عن نخوتهم . وشغلهم قدرها عن كبرهم وحميتهم : ﴿ يا ويلنا ﴾ الذي لا نرى الآن بحضرتنا غيره ﴿ إنا كنا ﴾ أي بما لنا مما هو في ثباته كالجبلات ﴿ ظالمين ﴾ أي عريقين في الظلم في إعراضنا وتصامّنا ترفقاً وتذللاً لعله يكف عنهم .

(121/510)

ولما بيّن ما افتتحت السورة من اقتراب الساعة بالقدرة عليه واقتضاء الحكمة له ، وأن كل أحد ميت لا يستطيع شيئاً من الدفع عن نفسه فضلاً عن غيره ، وختمت الآيات بإقرار الظالم بظلمه ، وكانت عادة كثير من الناس الجور عند القدرة ، بين أنه سبحانه بخلاف ذلك فذكر بعض ما يفعل في حساب الساعة من العدل فقال عاطفاً على قوله ﴿ بل تأتيهم

بغتة ﴾ : ﴿ ونضع ﴾ فأبرزه في مظهر العظمة إشارة إلى هوانه عنده وإن كان لكثرة الخلائق وأعمال كل منهم متعذراً عندنا ﴿ الموازين ﴾ المتعددة لتعدد الموزونات أو أنواعها .

ولما كانت الموازين آلة العدل ، وصفها به مبالغة فقال ﴿ القسط ﴾ أي العدل المميز للأقسام على السوية .

ولما كان الجزاء علة في وضع المقادير ، عبر باللام ليشمل – مع ما يوضع فيه – ما وضع الآن لأجل الدنيوية فيه فقال : ﴿ ليوم القيامة ﴾ الذي أنتم عنه – لإعراضكم عن الذكر – غافلون .

ولما جرت العادة بأن الملك قد يكون عادلاً فظلم بعض أتباعه ، بين أن عظمته في إحاطة علمه وقدرته تأبى ذلك ، فبنى الفعل للمجهول فقال : ﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن هذا الوضع أنه لا ﴿ تظلم ﴾ أي من ظالم ما ﴿ نفس شيئاً ﴾ من عملها ﴿ وإن كان ﴾ أي العمل ﴿ مثقال حبة ﴾ هذا على قراءة الجماعة بالنصب .

والتقدير على قراءة نافع بالرفع : وإن وقع أو وجد ﴿ من خردل ﴾ أو أحقر منه ، وإنما مثل به لأنه غاية عندنا في القلة ، وزاد في تحقيره بضمير التأنيث لإضافته إلى المؤنث فقال : ﴿ أتينا بها ﴾ بما لنا من العظمة في العلم والقدرة وجميع صفات الكمال فحاسبناه عليها ،

والميزان الحقيقي .

ووزن الأعمال على صفة يصح وزنها معها بقدرة من لا يعجزه شيء .

(122/510)

ولما كان حساب الخلائق كلهم على ما صدر منهم أمراً باهراً للعقل ، حقره عند عظمته فقال : ﴿ وكفى بنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ حاسبين ﴾ أي لا يكون في الحساب أحد مثلنا ، ففيه توعد من جهة أن معناه أنه لا يروج عليه شيء من خداع ولا يقبل غلطاً ، ولا يضل ولا ينسى ، إلى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس أو شوب نقص ، ووعد من جهة أنه لا يطلع على كل حسن فقيد وإن دق وخفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 88.87﴾

(123/510)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما كرر في القرآن الأدلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحى ﴾ أي بالقرآن الذي هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلي بل الله آتيكم به وأمرني بإنذاركم فإذا قمت بما ألزمني ربي فلم يقع منكم القبول والإجابة فالوبال عليكم يعود ، ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلاً إذ الغرض بالإنذار ليس السماع بل التمسك به في إقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق .

فإذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع .

قال صاحب "الكشاف" : قرئ ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أي لا تسمع أنت أو لا يسمع رسول الله أو لا يسمع الصم من أسمع ، فإن قلت : الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر .

فكيف قال إذا ما ينذرون ؟ قلت : اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس ، والأصل ولا يسمعون الدعاء إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا أنذروا أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامم عن آيات الإنذار .

ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده

يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم .

قال صاحب "الكشاف" في المس والنفحة ثلاث مبالغات : لفظ المس وما في النفح من معنى القلة والنزارة ، يقال : نفحته الدابة وهو رمح يسير ونفحه بعطية رضخه ، ولفظ المرة .

(124/510)

ثم بين سبحانه وتعالى أن جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلا عدلاً فهم وإن ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط ﴾ وصفها الله تعالى بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيماً وقد يكون بخلافه ، فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

معنى وضعها إحضارها ، قال الفراء : القسط صفة الموازين وإن كان موحداً وهو كقولك للقوم : أنتم عدل ، وقال الزجاج : ونضع الموازين ذوات القسط وقوله : ﴿لِيَوْمِ القيامة﴾ قال الفراء في يوم القيامة وقيل لأهل يوم القيامة .

المسألة الثانية :

في وضع الموازين قولان : أحدهما : قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم في الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعني أن حسناته تذهب بسيئاته ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه أي أن سيئاته تذهب بحسناته ، حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الثاني : وهو قول أئمة السلف أنه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الأعمال ، وعن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام .

ويروى :

"أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه ، فلما أفاق قال : يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال : يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة" ثم على هذا القول في كيفية وزن الأعمال طريقان .

أحدهما : أن توزن صحائف الأعمال .

والثاني : يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة

فإن قيل : أهل القيامة إما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلاً غير ظالم أو لا يعلمون ذلك .

فإن علموا ذلك كان مجرد حكمة كافياً في معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون في وضع الميزان فائدة ألبتة ، وإن لم يعلموا لم تحصل الفائدة في وزن الصحائف لاحتمال أنه سبحانه جعل إحدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلماً فثبت أن وضع الميزان على كلا التقديرين خالٍ عن الفائدة .

وجوابه على قولنا قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23]

وأيضاً ففيه ظهور حال الولي من العدو في مجمع الخلائق ، فيكون لأحد القبيلين في ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم ، ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره .

إذا ثبت هذا فنقول : الدليل على وجود الموازين الحقيقية أن حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة غير جائز ، لا سيما وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة في هذا الباب .

المسألة الثالثة :

قال قوم : إن هذه الآية يناقضها قوله تعالى : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] ، والجواب : أنه لا يكرمهم ولا يعظمهم .

المسألة الرابعة :

إنما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ، ويجوز أن يرجع إلى الموزونات .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ فالمعنى أنه لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيىء ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ على كان التامة كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء ، وقرأ حميد : أثبنا بها من الثواب ، وفي حرف أبي جئنا بها .

المسألة الثانية :

لم أنث ضمير المثقال ؟ قلنا : لإضافته إلى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه .

المسألة الثالثة :

زعم الجبائي أن من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزء من الثواب فهذا الأقل يتحبط بالأكثر ويبقى الأكثر كما كان .

واعلم أن هذه الآية تبطل قوله لأن الله تعالى تمدح بأن اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الأمر كما قال الجبائي لسقطت الطاعة من غير فائدة .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة قوله : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ فيه دلالة على أن مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم ، فدل هذا الوجه على أنه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار في الدنيا إلا للمنافع والمصالح .

والجواب : الظلم هو التصرف في ملك الغير وذلك في حق الله تعالى محال لأنه المالك المطلق ، ثم الذي يدل على استحالة الظلم عليه عقلاً أن الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال ، فالظلم على الله تعالى محال .

وأيضاً فإن الظالم سفيه خارج عن الإلهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الإلهية ، فحينئذ يكون كونه إلهاً من الجائزات لا من الواجبات ، وذلك يقدح في إلهيته .

المسألة الخامسة :

إن قيل الحبة أعظم من الخردلة ، فكيف قال حبة من خردل ؟ قلنا : الوجه فيه أن تفرض

الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار .

والغرض المبالغة في أن شيئاً من الأعمال صغيرا كان أو كبيرا غير ضائع عند الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ وكفى بِنَا حاسبين ﴾ فالغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء ، حقيق بالعاقل أن يكون في أشد الخوف منه ، ويروي عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه رئي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك فقال :

حاسبونا فدققوا . . ثم منوا فأعتقوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 154.152 ﴾

(127/510)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

المعنى ﴿ قل ﴾ أيها المقترحون المتشططون ﴿ إنما أنذركم ﴾ بوحي يوحيه الله إلي وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى لينظر فيها كنقصان الأرض من أطرافها وغيره ولم أبعث بآية مضطرة ولا ما تقترحون ، ثم قال ﴿ ولا يسمع ﴾ بمعنى وأنتم معرضون عما

أنذر به فهو غير نافع لكم ومثل أمرهم ب ﴿ الصم ﴾ ، وقرأ جمهور القراء " ولا يسمع " بالياء وإسناد الفعل إلى الصُّم وقرأ ابن عامر وحده " ولا تُسمِع " بضم التاء وكسر الميم ونصب " الصمَّ " وقرأت فرقة " ولا تُسمَع " بتاء مضمومة وفتح الميم وبناء الفعل للمعفول والفرقتان نصبت ﴿ الدعاء ﴾ ، وقرأت فرقة " ولا يسمع الصم الدعاء " بإضافة " الصم " إلى " الدعاء " وهي قراءة ضعيفة وإن كانت متوجهة ، ثم خاطب تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم متوعداً لهم بقوله ﴿ ولئن مستهم نفحة ﴾ ، والنفحة الخطرة والمسة كما تقول نفح بيده إذا قال بها هكذا ضارباً إلى جهة ، ومنه نفحة الطيب كأنه يخطر خطرات على الحاسة ، ومنه نفح له من عطايا إذا أجراه منها نصيباً ، ومنه نفح الفرس برجله إذا ركض ، والمعنى ولئن مس هؤلاء الكفرة صدمة عذاب في دنياهم ليندمن وليقرن بظلمهم .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾

(128/510)

لما توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا عقب ذلك بتوعد بوضع ﴿ الموازين ﴾ وإنما جمعها وهو ميزان واحد من حيث لكل أحد وزن يخصه ووحد ﴿ القسط ﴾ وهو جاء بلفظ ﴿ الموازين ﴾ مجموعاً من حيث ﴿ القسط ﴾ مصدر وصف به كما تقول قوم عدل

ورضى وقرأت فرقة " القصط " بالصاد ، وقوله تعالى : ﴿ ليوم القيامة ﴾ أي لحساب يوم القيامة أو لحكم يوم القيامة فهو بتقدير حذف مضاف والجمهور على أن الميزان في يوم القيامة بعمود وكفتين توزن به الأعمال ليبين المحسوس المعروف عندهم ، والخفة والثقل متعلقة بأجسام ويقرنها الله تعالى يومئذ بالأعمال فإما أن تكون صحف الأعمال أو مثالات تخلق أو ما شاء الله تعالى . وقرأ نافع وحده " مثقالُ " بالرفع على أن تكون ﴿ كان ﴾ تامة ، وقرأ الجمهور الناس " مثقالَ " بالنصب على معنى وأن كان الشيء أو العمل ، وقرأ الجمهور " أتينا " على معنى جئنا ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وغيرهما " آتينا " على معنى " وآتينا " من المواتاة ولا يقدر تفسير آتينا بأعطينا لما تعدت بحرف جر .

قال القاضي أبو محمد : ويوهن هذه القراءة أن بدل الواو المفتوحة همزة ليس بمعروف وإنما يعرف ذلك في المضمومة والمكسورة ، وفي قوله ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ توعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(129/510)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قل إِنما أُنذرِكُم ﴾ أي : أُخوِّفكم ﴿ بالوحي ﴾ أي : بالقرآن ، والمعنى : إنني ما

جئتُ به من تلقاء نفسي ، إنما أُمِرْتُ فبلَّغتُ ، ﴿ ولا يسمع الصُّمُّ الدُّعاءَ ﴾ وقرأ ابن عامر : "ولا تُسْمِعُ" بالتاء مضمومة "الصُّمَّ" نصباً .

وقرأ ابن يعمر ، والحسن : "ولا يُسْمَعُ" بضم الياء وفتح الميم "الصُّمُّ" بضم الميم .

شبَّه الكفار بالصُمّ الذين لا يسمعون نداء مناديهم ؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا ، كالصُمِّ لا يفيدهم صوت مناديهم .

﴿ ولئن مسَّتهم ﴾ أي : أصابتهم ﴿ نَفْحَةٌ ﴾ قال ابن عباس : طرف .

وقال الزجاج : المراد أدنى شيء من العذاب ، ﴿ ليقولُنَّ يا ويلنا ﴾ والويل ينادي به كلُّ من وقع في هلَكة .

قوله تعالى : ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ﴾ قال الزجاج : المعنى : ونضع الموازين ذوات القسط ، والقسط : العدل ، وهو مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط .

قال الفراء : القسط من صفة الموازين وإِن كان موحَّداً ، كما تقول : أنتم عدل ، وأنتم رضىً .

وقوله : ﴿ ليوم القيامة ﴾ و"في يوم القيامة" سواء .

وقد ذكرنا الكلام في الميزان في أول [الأعراف : 8] .

فإن قيل : إِذا كان الميزان واحداً ، فما المعنى بذكر الموازين ؟

فالجواب : أنه لما كانت أعمال الخلائق توزن وزنة بعد وزنة ، سمِّيت موازين .

قوله تعالى : ﴿ فلا تُظْلَم نفس شيئاً ﴾ أي : لا يُنْقَص محسن من إِحسانه ، ولا يُزاد مسيء على إِساءته ﴿ وإِن كان مثقالَ حَبَّة ﴾ أي : وزن حبة .

وقرأ نافع : "مثقالُ" برفع اللام .

قال الزجاج : ونصب "مثقالَ" على معنى : وإِن كان العمل مثقال حبة .

وقال أبو علي الفارسي : وإِن كان الظُّلامة مثقال حبة ، لقوله تعالى : ﴿ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً ﴾ .

قال : ومن رفع ، أسند الفعل إِلى المثقال ، كما أسند في قوله تعالى : ﴿ وإِن كان ذو عُسْرة ﴾ [البقرة : 280] .

(130/510)

قوله تعالى : ﴿ أتينا بها ﴾ أي : جئنا بها .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد : "آتينا" ممدودة ، أي : جازينا بها .

قوله تعالى : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على وجهين ، أحدهما : التمييز ، والثاني : الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بالوحي ﴾

أي أخوّفكم وأحذّركم بالقرآن .

﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء ﴾ أي من أصم الله قلبه ، وختم على سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، عن فهم الآيات وسماع الحق .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السَّمَيقع "وَلاَ يُسْمَعُ" بياء مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله "الصُّمُّ" رفعاً أي إن الله لا يُسمعهم .

وقرأ ابن عامر والسلمي أيضاً ، وأبو حيوة ويحيى بن الحرث "وَلاَ تُسْمِعُ" بتاء مضمومة وكسر الميم "الصُّمَّ" نصباً ؛ أي إنك يا محمد "لاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ" ؛ فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

ورد هذه القراءة بعض أهل اللغة .

وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ما تنذرهم .

قال النحاس : وذلك جائز ؛ لأنه قد عرف المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف .

قال قتادة : عقوبة .

ابن كيسان : قليل وأدنى شيء ؛ مأخوذة من نفح المسك .

قال :

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّساء . . .

تَنَفَّحُ بالمسكِ أَرْدَانُها

ابن جريج : نصيب ؛ كما يقال : نفح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيباً من المال .

قال الشاعر :

لَمّا أَتيتك أرجو فَضْلَ نَائِلكُمْ . . .

نَفَحْتِني نَفْحةً طابتْ لها العَرَبُ

أي طابت لها النفس .

والنفحة في اللغة الدفعة اليسيرة ؛ فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب .

﴿ لَيَقُولُنَّ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي متعدين فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف .

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسطَ لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾

الموازين جمع ميزان .

فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلّف ميزاناً توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة

، والسيئات في كفة .

وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ؛ كما قال :

(132/510)

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعدْلِه . . .

فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبر عنه بلفظ الجمع .

وخرج اللاَّلْكَائيّ الحافظ أبو القاسم في سننه عن أنس يرفعه : "إن مَلَكاً موكَّلاً بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن رجح نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً وإن خفَّ نادى الملك شَقِي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً" .

وخرج عن حذيفة رضي الله عنه قال : "صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام"

وقيل : للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ؛ فالجمع يرجع إليها .

وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مَثَل وليس ثَمَّ ميزان وإنما هو العدل .

والذي وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأوّل .

وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا ، وفي "الكهف" أيضاً .

وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" مستوفى والحمد لله .

و"القِسط" العدل أي ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا .

و"الْقِسْطَ" صفة الموازين ووحد لأنه مصدر ؛ يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط .

مثل رجال عدل ورضا .

وقرأت فرقة "الْقِصْطَ" بالصاد .

﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ أي لأهل يوم القيامة .

وقيل : المعنى في يوم القيامة .

﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء .

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر "مِثْقَالُ حَبَّةٍ" بالرفع هنا ؛ وفي "لقمان" على معنى إن وقع أو حضر ؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر .

الباقون "مِثْقَالَ" بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مثقالَ .

ومثقال الشيء ميزانه من مثله .

﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ مقصورة الألف قراءة الجمهور أي أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها

ولها .

يجاء بها أي بالحبة ولو قال به أي بالمثقال لجاز .

وقيل : مثقال الحبة ليس شيئاً غير الحبة فلهذا قال : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ .

(133/510)

وقرأ مجاهد وعكرمة "آتَيْنَا" بالمد على معنى جازينا بها .

يقال : آتى يؤاتي مؤاتاة .

﴿ وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ أي مجازين على ما قدموه من خير وشر .

وقيل : "حاسِبِين" أي لا أحد أسرع حساباً منا .

والحساب العدّ .

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : "أن رجلاً قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : "يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كَفَافاً لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك إيّاهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل" قال : فتنحّى

الرجل فجعل يبكي ويهتف .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما تقرأ كتاب الله تعالى ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ " فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار كلهم " قال حديث غريب . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(134/510)

وقال أبو حيان :

ثم أمره تعالى أن يقول ﴿ إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي أعلمكم بما تخافون منه بوحي من الله لا من تلقاء نفسي ، وما كان من جهة الله فهو الصدق الواقع لا محالة كما رأيتم بالعيان من نقصان الأرض من أطرافها ، ثم أخبر أنهم مع إنذارهم معرضون عما أنذروا به فالإنذار لا يجدي فيهم إذ هم صم عن سماعه .

ولما كان الوحي من المسموعات كان ذكر الصمم مناسباً و﴿ الصم ﴾ هم المنذرون ، فأل فيه للعهد وناب الظاهر مناب المضمر لأن فيه التصريح بتصامهم وسد أسماعهم إذا أنذروا ، ولم يكن الضمير ليفيد هذا المعنى ونفي السماع هنا نفي جدواه .

وقرأ الجمهور ﴿ يَسمع ﴾ بفتح الياء والميم ﴿ الصم ﴾ رفع به و﴿ الدعاء ﴾ نصب.

وقرأ ابن عامر وابن جبير عن أبي عمرو وابن الصلت عن حفص بالتاء من فوق مضمومة وكسر الميم ﴿ الصم الدعاء ﴾ بنصبهما والفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وقرأ كذلك إلا أنه بالياء من تحت أي ﴿ ولا يسمع ﴾ الرسول وعنه أيضاً ﴿ ولا يسمع ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ الصم ﴾ رفع به ذكره ابن خالويه.

وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي عن اليزيدي عن أبي عمرو ﴿ يُسمِع ﴾ بضم الياء وكسر الميم ﴿ الصم ﴾ نصباً ﴿ الدعاء ﴾ رفعاً بيسمع، أسند الفعل إلى الدعاء اتساعاً والمفعول الثاني محذوف، كأنه قيل: ولا يسمع النداء الصم شيئاً.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء الذين صموا عن سماع ما أنذروا به إذا نالهم شيء مما أنذروا به، ولو كان يسيراً نادوا بالهلاك وأقروا بأنهم كانوا ظالمين، نبهوا على العلة التي أوجبت لهم العذاب وهو ظلم الكفر وذلوا وأذعنوا.

قال ابن عباس: ﴿ نفحة ﴾ طرف وعنه هو الجوع الذي نزل بمكة.

وقال ابن جريج : نصيب من قولهم نفح له من العطاء نفحة إذا أعطاه نصيباً وفي قوله ﴿ ولئن مستهم نفحة ﴾ ثلاث مبالغات لفظ المس ، وما في مدلول النفح من القلة إذ هو الربح اليسير أو ما يرضخ من العطية ، وبناء المرة منه ولم يأت نفح فالمعنى أنه بأدنى إصابة من أقل العذاب أذعنوا وخضعوا وأقروا بأن سبب ذلك ظلمهم السابق .

ولما ذكر حالهم في الدنيا إذا أصيبوا بشيء استطرد لما يكون في الآخرة التي هي مقر الثواب والعقاب ، فأخبر تعالى عن عدله وأسند ذلك إلى نفسه بنون العظمة فقال ﴿ ونضع الموازين ﴾ وتقدم الكلام في الموازين في أول الأعراف ، واختلاف الناس في ذلك هل ثم ميزان حقيقة وهو قول الجمهور أو ذلك على سبيل التمثيل عن المبالغة في العدل التام وهو قول الضحاك وقتادة ؟ قالا : ليس ثم ميزان ولكنه العدل والقسط مصدر وصفت به الموازين مبالغة كأنها جعلت في أنفسها القسط ، أو على حذف مضاف أي ذوات ﴿ القسط ﴾ ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله أي لأجل ﴿ القسط ﴾ .

وقرىء القصط بالصاد .

واللام في ﴿ ليوم القيامة ﴾ قال الزمخشري : مثلها في قولك : جئت لخمس ليال خلون من الشهر .

ومنه بيت النابغة :

ترسمت آيات لها فعرفتها . . .

لستة أعوام وذا العام سابع

انتهى .

وذهب الكوفيون إلى أن اللام تكون بمعنى في ووافقهم ابن قتيبة من المتقدمين ، وابن مالك من أصحابنا المتأخرين ، وجعل من ذلك قوله ﴿ القسط ليوم القيامة ﴾ أي في يوم ، وكذلك لا يجليها لوقتها إلاّ هو أي في وقتها وأنشد شاهداً على ذلك لمسكين الدارمي :

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم . . .

كما قد مضى من قبل عاد وتبع

وقول الآخر :

وكل أب وابن وإن عمرا معاً . . .

مقيمين مفقود لوقت وفاقد

وقيل اللام هنا للتعليل على حذف مضاف ، أي لحساب يوم القيامة و﴿ شيئاً ﴾ مفعول ثان أو مصدر .

وقرأ الجمهور : ﴿ مثقال ﴾ بالنصب خبر ﴿ كان ﴾ أي وإن كان الشيء أو وإن كان العمل وكذا في لقمان ، وقرأ زيد بن عليّ وأبو جعفر وشيبة ونافع ﴿ مثقال ﴾ بالرفع على الفاعلية و﴿ كان ﴾ تامة .

وقرأ الجمهور ﴿ أتينا ﴾ من الإتيان أي جئنا بها ، وكذا قرأ أُبي أعني جئنا وكأنه تفسير لأتينا .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن جبير وابن أبي إسحاق والعلاء بن سيابة وجعفر بن محمد وابن شريح الأصبهاني آتينا بمده على وزن فاعلنا من المواتاة وهي المجازاة والمكافأة ، فمعناه جازينا بها ولذلك تعدى بحرف جر ، ولو كان على أفعلنا من الإيتاء بالمد على ما توهمه بعضهم لتعدى مطلقاً دون جاز قاله أبو الفضل الرّازي .

وقال الزمخشري : مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء انتهى .

وقال ابن عطية على معنى : و﴿ أتينا ﴾ من المواتاة ، ولو كان آتينا أعطينا لما تعدت بحرف جرّ ، ويوهن هذه القراءة أن بدل الواو المفتوحة همزة ليس بمعروف ، وإنما يعرف ذلك في المضمومة والمكسورة انتهى .

وقرأ حميد : أثبنا بها من الثواب وأنث الضمير في ﴿ بها ﴾ وهو عائد على مذكر وهو ﴿ مثقال ﴾ لإضافته إلى مؤنث ﴿ كفى بنا حاسبين ﴾ فيه توعد وهو إشارة إلى ضبط

أعمالهم من الحساب وهو العدّ والإحصاء ، والمعنى أنه لا يغيب عنا شيء من أعمالهم .

وقيل : هو كناية عن المجازاة ، والظاهر أن ﴿ حاسبين ﴾ تمييز لقبوله من ، ويجوز أن يكون حالاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(137/510)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم ﴾ بعد ما بُيّن من جهته تعالى غايةُ هول ما يستعجله ونهايةُ سوءِ حالهم عند إتيانه ونُعيَ عليهم جهلُهم بذلك وإعراضُهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغيرُ ذلك من مساوي أحوالهم ، أُمر عليه السلام بأن يقول لهم : إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بالوحى ﴾ الصادق الناطق بإتيانها وفظاعةِ ما فيها من الأهوال ، أي إنما شأني أن أنذركم بالإخبار بذلك لا بالإتيان بها فإنه مزاحمٌ للحكمة التكوينية والتشريعية إذ الإيمانُ برهانيٌّ لا عياني ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعاء ﴾ إما من تتمة الكلامِ الملقّن تذييلٌ له بطريق الاعتراض ، قد أُمر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخاً وتقريعاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهلِ والعِناد ، واللامُ للجنس المنتظِم للمخاطبين انتظاماً أولياً أو للعهد فوضعُ المظهر موضعَ المضمر للتسجيل عليهم بالتصامّ ، وتقييدُ نفي

السماعِ بقوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ مع أن الصمّ لا يسمعون الكلام إنذاراً كان أو تبشيراً لبيان كمال شدةِ الصَّمَمِ ، كما أن إيثارَ الدعاء الذي هو عبارةٌ عن الصوت والنداءِ على الكلام لذلك فإن الإنذارَ عادةً يكون بأصوات عاليةٍ مكررةٍ مقارنةٍ لهيئات دالةٍ عليه ، فإذا لم يسمعوها يكون صَمَمُهم في غايةٍ لا غايةَ وراءها ، وإما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ويؤيده القراءةُ على خطاب النبي عليه الصلاة والسلام من الإسماع بنصب الصمِّ والدعاءَ ، كأنه قيل : قل لهم ذلك وأنت بمعزل من إسماعهم ، وقرىء بالياء أيضاً على أن الفاعلَ هو عليه السلام ، وقرىء على البناء للمفعول أي لا يقدر أحدٌ على إسماع الصمِّ .

(138/510)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ بيان لسرعة تأثرهم من مجيء نفس العذابِ إثرَ بيان عدمِ تأثرهم من مجيء خبرِه على نهج التوكيد القسمي ، أي وبالله لئن أصابهم أدنى شيءٍ من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فإن أصلَ النفحِ هبوبُ رائحة الشيء ﴿ لَيَقُولُنَّ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ ليدْعُنّ على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترِفنّ عليها بالظلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط ﴾ بيانٌ لما سيقع عند إتيانِ ما أُنذروه ، أي نقيم الموازينَ العادلةَ التي توزن بها صحائفُ الأعمال ، وقيل : وضعُ الموازين تمثيلٌ لإرصاد الحسابِ السويّ والجزاء على حسب الأعمال ، وقد مر تفصيلُ ما فيه من الكلام في سورة الأعراف ، وإفرادُ القسطِ لأنه مصدرٌ وُصفَ به مبالغةً ﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ التي كانوا يستعجلونها أي لجزائه أو لأجل أهلِه أو فيه كما في قولك : جئت لخمسٍ خلَوْن من الشهر ﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ شَيْئاً ﴾ حقاً من حقوقها أو شيئاً ما من الظلم ، بل يوفى كلُّ ذي حق حقَّه إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشر ، والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين ﴿ وَإِن كَانَ ﴾ أي العملُ المدلولُ عليه بوضع الموازين ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي مقدارَ حبة كائنةٍ من خردل ، أي وإن كان في غاية القِلة والحَقارة فإن حبة الخردل مَثَلٌ في الصِغر ، وقرىء مثقالُ حبة بالرفع على أن كان تامةٌ ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي أحضرنا ذلك العملَ المعبَّر عنه بمثقال حبةِ الخردل للوزن ، والتأنيث لإضافته إلى الحبة وقرىء آتينا بها أي جازينا بها من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأةِ لأنهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء ، وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها ﴿ وكفى بِنَا حاسبين ﴾ إذ لا مزيدَ على علمنا وعدلِنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم ﴾

بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند إتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك وإعراضهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار وغير ذلك من مساويهم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم : إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بالوحى ﴾ الصادق الناطق بإثباتها وفظاعة ما فيها من الأهوال أي إنما شأني أن أنذركم بالإخبار بذلك لا بالإتيان بها فإنه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية فإن الإيمان برهاني لا عياني .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعاء ﴾ إما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم توبيخاً وتقريعاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد ، وإما من جهته تعالى على طريقة قوله سبحانه : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 42] كأنه قيل قل لهم ذلك وهم بمعزل عن السماع ، واللام في الصم إما للجنس المنتظم لهؤلاء الكفرة انتظاماً أولياً وإما للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصامم ، وتقييد نفي السماع بقوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ مع أن الصم لا يسمعون مطلقاً لبيان كمال شدة الصمم كما أن إيثار الدعاء الذي هو عبارة

عن الصوت والنداء على الكلام لذلك ، فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه فإذا لم يسمعوها يكن صممهم في غاية لم يسمع بمثلها ، وقيل لأن الكلام في الإنذار ألا ترى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحى ﴾ وفيه دغدغة لا تخفى .

وقرأ ابن عامر .

وابن جبير عن أبي عمرو .

وابن الصلت عن حفص ﴿ تُسْمِعُ ﴾ بالتاء عن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من الاسماع ﴿ الصم الدعاء ﴾ بنصبهما على المفعولية ، وهذه القراءة تؤيد احتمال كون الجملة من جهته تعالى .

(140/510)

وقرىء ﴿ يَسْمَعُ ﴾ بالياء على الغيبة وإسناد الفعل إلى ضميره صلى الله عليه وسلم ﴿ الصم الدعاء ﴾ بنصبهما على ما مر .

وذكر ابن خالويه أنه قرىء ﴿ يَسْمَعُ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ الصم ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل ﴿ الدعاء ﴾ بالنصب على المفعولية .

وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي عن اليزيدي عن أبي عمرو ﴿ يَسْمَعُ ﴾ بضم ياء الغيبة وكسر الميم ﴿ الصم ﴾ بالنصب على المفعولية ﴿ الدعاء ﴾ بالرفع على الفاعلية بيسمع ، وإسناد الإسماع إليه من باب الاتساع والمفعول الثاني محذوف كأنه قيل ولا يسمع الصم الدعاء شيئاً

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾

بيان لسرعة تأثرهم من مجيء نفس العذاب إثر بيان عدم تأثرهم من مجيء خبره على نهج التوكيد القسمي أي وبالله لئن مسهم أدنى شيء من عذابه تعالى : ﴿ لَيَقُولُنَّ يا ويلنا قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم السابق ، وفي ﴿ مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ ثلاث مبالغات كما قال الزمخشري وهي كما في "الكشف" ذكر المس وهو دون النفوذ ويكفي في تحققه إيصال ما ، وما في النفح من معنى النزارة فإن أصله هبوب رائحة الشيء ويقال نفحته الدابة ضربته بحد حافرها ونفحه بعطية رضخه وأعطاه يسيراً ، وبناء المرة وهي لأقل ما ينطلق عليه الاسم ، وجعل السكاكي التنكير رابعتها لما يفيده من التحقير ، واستفادة ذلك إن سلمت من بناء المرة ونفس الكلمة لا يعكر عليه كما زعم صاحب الإيضاح .

واعترض بعضهم المبالغة في المس بأنه أقوى من الإصابة لما فيه من الدلالة على تأثر حاسة الممسوس ومما ذكر في "الكشف" يعلم اندفاعه لمن مسته نفحة عناية ، ولعل في الآية مبالغة

خامسة تظهر بالتأمل ؛ ثم الظاهر أن هذا المس يوم القيامة كما رمزنا إليه ، وقيل في الدنيا بناءً على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من تفسير النفحة بالجوع الذي نزل بمكة

(141/510)

﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط ﴾ بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه .

وجعل الطيبي الجملة حالاً من الضمير في ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ [الأنبياء : 46] بتقدير ونحن نضع ، وهي في الخلو عن العائد نحو جئتك والشمس طالعة ، ويجوز أن يقال : أقيم العموم في ﴿ نَفْسٌ ﴾ الآتي بعد مقام العائد وهو كما ترى أي ونحضر الموازين العادلة التي توزن بها بها صحائف الأعمال كما يقضي بذلك حديث السجلات والبطاقة التي ذكره مسلم وغيره أو نفس الأعمال كما قيل ، وتظهر بصور جوهرية مشرفة إن كانت حسنات ومظلمة إن كانت سيئات ، وجمع الموازين ظاهر في تعدد الميزان حقيقة وقد قيل به فقيل لكل أمة ميزان ، وقيل لكل مكلف ميزان ، وقيل للمؤمن موازين بعدد خيراته وأنواع حسناته ، والأصح الأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال كفتاه كإطباق السموات والأرض لصحة الإخبار بذلك ، والتعدد اعتباري وقد يعبر عن الواحد بما يدل على الجمع للتعظيم

كقوله تعالى : ﴿ رَبِّ ارجعون لَّعَلّى أَعْلَمُ صالحا ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] وقوله : فارحموني يا إله محمد . . .

وإحضار ذلك تجاه العرش بين الجنة والنار ويأخذ جبريل عليه السلام بعموده ناظراً إلى لسانه وميكائيل عليه السلام أمين عليه كما في "نوادر الأصول" ، وهل هو مخلوق اليوم أو سيخلق غداً ؟ .

قال اللقاني : لم أقف على نص في ذلك كما لم أقف على نص في أنه من أي الجواهر هو اه ، وما روي من أن داود عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال : يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ؟ فقال تعالى : يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة نص في أنه مخلوق اليوم لكن لا أدري حال الحديث فلينقر .

(142/510)

وأنكر المعتزلة الميزان بالمعنى الحقيقي وقالوا : يجب أن يحمل ما ورد في القرآن من ذلك على رعاية العدل والإنصاف ، ووضع الموازين عندهم تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال ، وروي هذا عن الضحاك .

وقتادة .

ومجاهد .

والأعمش ولا داعي إلى العدول عن الظاهر ، وإفراد القسط مع كونه صفة الجمع لأنه مصدر ووصف به مبالغة ، ويجوز أن يكون على حذف مضاف أي ذوات القسط ، وجوز أبو حيان أن يكون مفعولاً لأجله نحو قوله

: لا أقعد الجبن عن الهيجاء . . .

وحينئذٍ يستغني عن توجيه إفراده ، وقرىء ﴿ القصط ﴾ بالصاد ، واللام في قوله تعالى : ﴿ القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ بمعنى في كما نص عليه ابن مالك وأنشد لمجيئها كذلك قول مسكين الدارمي

: أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم . . .

كما قد مضى من قبل عاد وتبع

وهو مذهب الكوفيين ووافقهم ابن قتيبة أي نضع الموازين في يوم القيامة التي كانوا يستعجلونها ؛ وقال غير واحد : هي للتعليل أي لأجل حساب يوم القيامة أو لأجل أهله وجعلها بعضهم للاختصاص كما هو أحد احتمالين في قولك جئت لخمس ليال خلون من الشهر ، والمشهور فيه وهو الاحتمال الثاني أن اللام بمعنى في .

﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ شَيْئاً ﴾ من الظلم فلا ينقص ثوابها الموعود ولا يزاد عذابها المعهود .

فالشيء منصوب على المصدرية والظلم هو بمعناه المشهور .

وجوز أن يكون ﴿ شَيْئًا ﴾ مفعولاً به على الحذف والإيصال والظلم بحاله أي فلا تظلم في شيء بأن تمنع ثواباً أو تزاد عذاباً ، وبعضهم فسر الظلم بالنقص وجوز في ﴿ شَيْئًا ﴾ المصدرية والمفعولية من غير اعتبار الحذف والإيصال أي فلا تنقص شيئاً من النقص أو شيئاً من الثواب ، ويفهم عدم الزيادة في العقاب من إشارة النص واللزوم المتعارف ، واختير ما لا يحتاج فيه إلى الإشارة واللزوم .

والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين .

(143/510)

وربما يفهم من ذلك أن كل أحد توزن أعماله ، وقال القرطبي : الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل الحديث الصحيح فيقال : "يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن "الحديث وأحرى الأنبياء عليهم السلام ، وقوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فيُؤْخَذُ بالنواصى والاقدام ﴾ [الرحمن : 41] وقوله تعالى : ﴿ فلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105] وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] وإنما يبقى الوزن لمن شاء الله سبحانه

من الفريقين.

وذكر القاضي منذر بن سعيد البلوطي أن أهل الصبر لا توزن أعمالهم وإنما يصب لهم الأجر صباً ، وظواهر أكثر الآيات والأحاديث تقتضي وزن أعمال الكفار ، وأول لها ما اقتضى ظاهره خلاف ذلك وهو قليل بالنسبة إليها ، وعندي لا قاطع في عموم الوزن وأميل إلى عدم العزوم ، ثم إنه كما اختلف في عمومه بالنسبة إلى أفراد الأنس اختلف في عمومه بالنسبة إلى نوعي الإنس والجن ، والحق أن مؤمني الجن كمؤمني الإنس وكافرهم ككافرهم كما بحثه القرطبي واستنبطه من عدة آيات ، وبسط اللقاني القول في ذلك في شرحه الكبير للجوهرة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان الخلاف في كيفية الوزن ﴿ وَإِن كَانَ ﴾ أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين ، وقيل الضمير راجع لشيئاً بناءً على أن المعنى فلا تظلم جزاء عمل من الأعمال ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي مقدار حبة كائنة من خردل فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لحبة ، وجوز أن يكون صفة لمثقال والأول أقرب ، والمراد وإن كان في غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثل في الصغر.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما.

وأبو جعفر.

وشيبة.

ونافع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ بالرفع على أن كان تامة ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي جئنا بها وبه قرأ أبي ، والمراد أحضرناها ، فالباء للتعدية والضمير للمثقال وأنث لاكتساب التأنيث من المضاف إليه والجملة جواب إن الشرطية ، وجوز أن تكون إن وصلية والجملة مستأنفة وهو خلاف الظاهر .

وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

وابن جبير .

وابن أبي إسحاق .

والعلاء بن سيابة .

وجعفر بن محمد .

وابن شريح الأصبهاني ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ بمدة على أنه مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه تعالى بالأعمال وأتاهم بالجزاء ، وقيل هو من الإيتاء وأصله أأتينا فأبدلت الهمزة الثانية ألفاً ، والمراد جازينا أيضاً مجازاً ولذا عدى بالباء ولو كان المراد أعطينا كما قال بعضهم لتعدى بنفسه كما قال ابن جني وغيره .

وقرأ حميد ﴿ أثبنا ﴾ من الثواب ﴿ بِهَا وكفى بِنَا حاسبين ﴾ قيل أي عادين ومحصين

أعمالهم على أنه من الحساب مراداً به معناه اللغوي وهو العد وروي ذلك عن السدي ، وجوز أن يكون كناية عن المجازاة .

وذكر اللقاني أن الحساب في عرف الشرع توقيف الله تعالى عباده إلا من استثنى منهم قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً تفصيلاً لا بالوزن ، وأنه كما ذكر الواحدي وغيره وجزم به صاحب كنز الإسرار قبل الوزن ، ولا يخفى أن في الآية إشارة ما إلى أن الحساب المذكور فيها بعد وضع الموازين فتأمل ، ونصب الوصف إما على أنه تمييز أو على أنه حال واستظهر الأول في "البحر" . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(145/510)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ ﴾

يعني المستهزئين من المشركين ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هزواً ﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك ، والهزؤ : السخرية ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ المشركين إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ [الحجر : 95] والمعنى : ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزؤاً ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ

﴾ هو على تقدير القول ، أي يقولون : أهذا الذي ، فعلى هذا هو جواب إذا ، ويكون قوله : ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هزواً ﴾ اعتراضاً بين الشرط وجوابه ، ومعنى يذكرها : يعيبها .

قال الزجاج : يقال فلان يذكر الناس ، أي يغتابهم ، ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله ، أي يصفه بالتعظيم ويثني عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر في كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، قيل : ومن هذا قول عنترة :

لا تذكري مهري وما أطعمته . . . فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أي لا تعيبي مهري ، وجملة ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كافرون ﴾ في محل نصب على الحال ، أي وهم بالقرآن كافرون ، أو هم بذكر الرحمن الذي خلقهم كافرون ، والمعنى : أنهم يعيبون على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يذكر آلهتهم التي لا تضرّ ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو القرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم ، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره كافرون ، وبذكر متعلق بالخبر ، والضمير الثاني تأكيد .

﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل .

قال الفراء : كأنه يقول : بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة .

وقال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء : خلقت منه كما تقول : أنت من لعب ، وخلقت من لعب ، تريد المبالغة في وصفه بذلك .

(146/510)

ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] .

والمراد بالإنسان : الجنس .

وقيل : المراد بالإنسان : آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه ، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقع ، فقيل : خلق الإنسان من عجل ، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسديّ والكلبي ومجاهد وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : العجل : الطين بلغة حمير .

وأنشدوا :

والنخل تنبت بين الماء والعجل . . . وقيل : إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث ، وهو القائل : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] .

وقيل : نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب .

وقال الأخفش : معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان .

وقيل : إن هذه الآية من المقلوب ، أي خلق العجل من الإنسان وقد حكي هذا عن أبي عبيدة والنحاس ، والقول الأول أولى ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي : سأريكم نقماتي منكم بعذاب النار ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي لا تستعجلوني بالإتيان به ، فإنه نازل بكم لا محالة ، وقيل : المراد بالآيات ما دل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأوّل أولى ، ويدل عليه قولهم : ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي متى حصول هذا الوعد ، الذي تعدنا به من العذاب ، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية .

وقيل : المراد بالوعد هنا : القيامة ، ومعنى ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ : إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين في وعدكم ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

(147/510)

وجملة : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وما بعدها مقرّرة لما قبلها ، أي لو عرفوا ذلك الوقت ، وجواب لو محذوف ، والتقدير : لو علموا الوقت الذي ﴿ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ لما استعجلوا الوعيد .

وقال الزجاج: في تقدير الجواب لعلموا صدق الوعد.

وقيل: لو علموه ما أقاموا على الكفر.

وقال الكسائي: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أي لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، ويدلّ عليه قوله: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى الأمام والخلف لكونهما أشهر الجوانب الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكلّ، بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، ومحل ﴿ حين لا يكفون ﴾ النصب على أنه مفعول العلم، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه، ومعنى ﴿ ولا هم ينصرون ﴾: ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم، وجملة ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ معطوفة على ﴿ يكفون ﴾ أي لا يكفونها بل تأتيهم العدّة أو النار أو الساعة بغتة، أي فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ قال الجوهري: بهته بهتاً أخذه بغتة، وقال الفراء: فتبهتهم، أي تحيرهم.

وقيل: فتفجؤهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم، فالضمير راجع إلى النار.

وقيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة.

وقيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار.

وجملة ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزيته ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي أحاط ودار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزئوا بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ : "ما" موصولة ، أو مصدرية ، أي فأحاط بهم الأمر الذي كانوا يستهزئون به ، أو فأحاط بهم استهزاؤهم ، أي جزاؤه على وضع السبب موضع المسبب ، أو نفس الاستهزاء ، إن أريد به العذاب الأخروي .

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي يحرسكم ويحفظكم .

والكلاءة : الحراسة والحفظ ، يقال : كلأه الله كلاء بالكسر ، أي حفظه وحرسه .

قال ابن هرمة :

إن سليمى والله يكلؤها . . . ضنت بشيء ما كان يرزؤها

أي قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ : من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذي تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم ؟ وقال الزجاج

: معناه : من يحفظكم من بأس الرحمن .

وقال الفراء : المعنى : من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة .

وحكى الكسائي والفراء : من يكلوكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولا يخطرونه ببالهم ، بل يعرضون عنه ، أو عن القرآن ، أو عن مواعظ الله ، أو عن معرفته .

﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ : " أم " هي المنقطعة التي بمعنى بل ، والهمزة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه ، والدفع عنها .

والمعنى : بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم .

ثم وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرهم بما يدلّ على الضعف والعجز فقال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ أي ولا هم يجارون من عذابنا .

قال ابن قتيبة : أي لا يجيرهم منا أحد ، لأن المجير صاحب الجار ، والعرب تقول : صحبك الله ، أي حفظك وأجارك ، ومنه قول الشاعر :

ينادي بأعلى صوته متعوّذا . . . ليصحب منا والرماح دواني

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ، أي مجير منه .

قال المازني : هو من أصحبت الرجل : إذا منعته .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ قال : " مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبيّ بني عبد مناف ، فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبيّ ، فسمعها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك ، وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية " ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

قلت : ينظر من الذي روى عنه السديّ ؟ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نفخ في آدم الروح صار في رأسه فعطس فقال : الحمد لله ، فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور في رجليه فوقع ، فقال الله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ .

وقد أخرج نحو هذا ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

وأخرج نحوه أيضاً ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد ، وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج .

(150/510)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ قال : يحرسكم ، وفي قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال : لا ينصرون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال : لا يجارون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في الآية : قال لا يمنعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(151/510)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

أي : تنزيل الله الذي يوحيه إليّ من عنده وأخوفكم به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون ، لأن ذلك ليس إليّ ، على ما فيه من الحكمة في هذه البعثة التي بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم وعنادهم ، بأن هذا الإنذار لا يجديهم ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ أي : فهم لا يصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر ما في وحي الله من المواعظ والذكرى ، فيتذكرون بها ويعتبرون فينزجرون إذا تلي عليهم ، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه ، فعل الأصم الذي لا يسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله : ﴿ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ مع أنهم لا يسمعون نذارة ولا بشارة ، إما لأن المقام مقام إنذار ، أو لأن من لا يسمع إذا خوف ، كيف يسمع في غيره ، فهو أبلغ .

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي : ولئن أصابهم شيء أدنى من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم في التصامّ والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

في صدر الآية مبالغات . ذكر المس . وما في النفحة من معنى القلة . فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء . والبناء الدال على المرة . والتنكير . وقوله تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه . أي : نقيم الموازين العادلة الحقيقية التي توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السويّ والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة ، من غير أن يظلم مثقال ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للمبالغة ، كأنها في نفسها قسط . أو على حذف المضاف أي : ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام في ليوم القيامة للتعليل أو بمعنى في أي : لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي : من حقوقها . أي : شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذي حق حقه : ﴿ وَإِنْ كَانَ ﴾ العمل أو الظلم : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي : أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل . للوزن . وأنث لإضافته إلى الحبة : ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ أي : وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف في الدنيا من صالح أو سيء ، منا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 207. 208 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة . فتوزن أعمالهم وزناً في غاية العدالة والإنصاف : فلا يظلم الله أحداً شيئاً ، وأن عمله من الخير أو الشر ، وإن كان في غاية القلة والدقة كمثقال حبة من خردل ، فإن الله يأتي به . لأنه لا يخفى عليه شيء وكفى به جل وعلا حاسباً . لاحاطة علمه بكل شيء .

وبين في غير هذا الموضع : أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف ، ومنها ما يثقل . وأن من خفت موازينه هلك ، ومن ثقلت موازينه نجا . كقوله تعالى : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 8-9] وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 101-103] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 6-9] إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أن موازين يوم القيامة موازين قسط ذكره في " الأعراف " في قوله : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ [الأعراف : 8] لأن الحق عدل وقسط .

وما ذكره فيها : من أنه لا تظلم نفس شيئاً بينه في مواضع أخر كثيرة ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة " الكهف " .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من كون العمل وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر أتى به جل وعلا أوضحه في غير هذا الموضع ، كقوله عن لقمان مقرراً له : ﴿ يا بني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16] ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَنَضَعُ الموازين ﴾ جمع ميزان . وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص ، لقوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [الأعراف : 8] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [الأعراف : 9] فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين

يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله ، كما قال الشاعر :

ملك تقوم الحادثات لعدله . . . فلكل حادثة لها ميزان

(155/510)

والقاعدة المقررة في الأصول : أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة : الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأ'مال الموزونة فيه .

وقد قدمنا في آخر سورة " الكهف " كلام العلماء في كيفية وزن الأعمال ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله في هذه الآية ﴿ القسط ﴾ أي العدل ، وهو مصدر ، وصف به ، ولذا لزم إفراده كما قال في الخلاصة :

ونعتوا بمصدر كثيراً . . . فالتزموا الإفراد والتذكيرا

كما قدمناه مراراً . ومعلوم أن النعت بالمصدر يقول فيه بعض العلماء : إنه للمبالغة .

وبعضهم يقول : هو بنية المضاف المحذوف ، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتَّى

سماها القسط الذي هو العدل. وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط.

واللام في قوله: ﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ فيها أوجه معروفة عند العلماء:

(منها) أنها للتوقيت، أي الدلالة على الوقت، كقول العرب: جئت لخمس ليال بقين من الشهر، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفتها... لستة أعوام وذا العام سابع

(منها) أنها لام كي، أي نضع الموازين القسط لأجل يوم القيامة، أي لحساب الناس فيه حساباً في غاية العدالة والإنصاف.

(منها) أنها بمعنى في، أي نضع الموازين القسط في يوم القيامة.

والكوفيون يقولون: إن اللام تأتي بمعنى في، ويقولون: إن من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ أي في يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف: 187] أي في وقتها. ووافقهم في ذلك ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخرين، وأنشد مستشهداً لذلك قول مسكين الدارمي:

أُولئك قومي قد مَضوا لسبيلهم... كما قد مَضَى من قَبل عاد وتبَّع

يعني مضوا في سبيلهم. وقول الآخر:

وكل أب وابن وإن عَمَّرا معاً... مقيمَيْن مفقود لوقتٍ وفاقد

أي في وقت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ يجوز أن يكون ﴿ شَيْئًا ﴾ هو المفعول الثاني ل ﴿ تُظْلَمُ ﴾ ويجوز أن يكون ما ناب عن المطلق. أي شيئاً من الظلم لا قليلاً ولا كثيراً. ومثقال الشيء: وزنه. والخردل: حب في غاية الصغر والدقة. وبعض أهل العلم يقول: هو زريعة الجرجير. وأنث الضمير في قوله ﴿ بِهَا ﴾ هو راجع إلى المضاف الذي هو ﴿ مِثْقَالَ ﴾ وهو مذكر لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو ﴿ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ على حد قوله في الخلاصة:

وربما أكسب ثان أولا... تأنيثاً إن كان لحذف مؤهلا

ونظير ذلك من كلام العرب قول عنترة في معلقته:

جاد عليه كل عين ثرة... فتركن كل قرارة كالدرهم

وقول الراجز:

طول الليالي أسرعت في نقضي... نقضن كلي ونقضن بعضي

وقول الأعشى:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته... كما شرقت صدر القناة من الدم

وقول الآخر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت . . . أعاليها مر الرياح النواسم

فقد أنث في البيت الأول لفظة "كل" لإضافتها إلى "عين" . وأنث في البيت الثاني لفظة " طول " لإضافتها إلى " الليالي " وأنث في البيت الثالث الصدر لإضافته إلى " القناة " وأنث في البيت الرابع " مر " لإضافته إلى " الرياح " . والمضافات المذكورة لو حذفت لبقي الكلام مستقيماً . كما قال في الخلاصة :

. . . . إن كان لحذف مؤهلا

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ بنصب ﴿ مِثْقَالَ ﴾ على أنه خبر ﴿ كَانَ ﴾ أي وإن كان العمل الذي يراد وزنه مثقال حبة من خردل .

وقرأ نافع وحده ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ ﴾ بالرفع فالع ﴿ كَانَ ﴾ على أنها تامة . كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ [البقرة : 280] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(157/510)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

استئناف ابتدائي مقصود منه الإتيان على جميع ما تقدم من استعجالِهم بالوعد تهكماً بقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ [الأنبياء : 38] ، من التهديدِ الذي وُجه إليهم بقوله تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ [الأنبياء : 39] الخ . . .

ومن تذكيرهم بالخالق وتنبيههم إلى بطلان آلهتهم بقوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ [الأنبياء : 4244] ، ومن الاحتجاج عليهم بظهور بوارق نصْر المسلمين ، واقتراب الوعد بقوله تعالى : ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الأنبياء : 44] ، عُقب به أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته ، وهي قصره على الإنذار بما سيحلّ بهم في الدنيا والآخرة إنذاراً من طريق الوحي المنزل عليه من الله تعالى وهو القرآن ، أي فلا تعرضوا عنه ، ولا تطلبوا مني آية غير ذلك ، ولا تسألوا عن تعيين آجال حلول الوعيد ، ولا تحسبوا أنكم تغيظونني بإعراضكم والتوغل في كفركم .

فالكلام قصر موصوف على صفة ، وقصره على المتعلِّق بتلك الصفة تبعاً لمتعلقه فهو قائم مقام قصرين .

ولم يظهر لي مِثال له من كلام العرب قبل القرآن .

وهذا الكلام يستلزم متاركة لهم بعد الإبلاغ في إقامة الحجة عليهم وذلك ذيل بقوله تعالى :

﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ .

والواو للعطف على ﴿ إنما أنذركم بالوحي ﴾ عطف استئناف على استئناف لأن التذييل من قبيل الاستئناف.

والتعريف في ﴿ الصُّم ﴾ للاستغراق.

والصمم مستعار لعدم الانتفاع بالكلام المفيد تشبيهاً لعدم الانتفاع بالمسموع بعدم ولوج الكلام صماخ المخاطب به.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿ صم بكم عمي ﴾ في [سورة البقرة: 18].

ودخل في عمومه المشركون المعرضون عن القرآن وهم المقصود من سوق التذييل ليكون دخولهم في الحكم بطريقة الاستدلال بالعموم على الخصوص.

(158/510)

وتقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفظيع إعراضهم عن الإنذار لأنه إعراض يُفضي بهم إلى الهلاك فهو أفظع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذييل مسوق عقب إنذارات كثيرة.

واختير لفظ الدعاء لأنه المطابق للغرض إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم داعياً كما قال: ﴿ أدْعُوا إلى الله على بصيرةٍ ﴾ [يوسف: 108] والأظهر أن جملة ﴿ ولا يسمع الصم

الدعاء ﴾ كلام مُخاطَب به الرسول صلى الله عليه وسلم وليس من جملة المأمور بأن يقوله لهم .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا يَسمع بتحتية في أوله ورفعِ الصمُّ .

وقرأه ابن عامر ولا تُسمِع بالتاء الفوقية المضمومة ونصب الصمّ خطاباً للرسول .

وهذه القراءة نص في انفصال الجملة عن الكلام المأمور بقوله لهم .

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) ﴾

عطف على جملة ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ [الأنبياء : 45] والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم أي أنذرهم بأنهم سيندمون عندما ينالهم أول العذاب في الآخرة .

وهذا انتقال من إنذارهم بعذاب الدنيا إلى إنذارهم بعذاب الآخرة .

وأكد الشرط بلام القسم لتحقيق وقوع الجزاء .

والمسُّ : اتصال بظاهر الجسم .

والنفحة : المرة من الرضخ في العطية ، يقال نفحه بشيء إذا أعطاه .

وفي مادة النفح أنه عطاء قليل نزر ، وبضميمة بناء المرة فيها ، والتنكير ، وإسناد المسّ إليها دون فعل آخر أربعُ مبالغات في التقليل ، فما ظنك بعذاب يدفع قليله من حلّ به إلى الإقرار باستحقاقه إياه وإنشاء تعجبه من سوء حال نفسه .

والويل تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في [سورة البقرة :

79]، وعند قوله تعالى : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ في أول [سورة إبراهيم : 2].

(159/510)

ومعنى ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ إنا كنا معتدين على أنفسنا إذ أعرضنا عن التأمل في صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فالظلم في هذه الآية مراد به الإشراك لأن إشراكهم معروف لديهم فليس مما يعرفونه إذا مستهم نفحة من العذاب.

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

يجوز أن تكون الواو عاطفة هذه الجملة على جملة ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ [الأنبياء : 46] الخ لمناسبة قولهم ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ [الأنبياء : 46]، ولبيان أنهم مجازون على جميع ما أسلفوه من الكفر وتكذيب الرسول بياناً بطريق ذكر العموم بعد الخصوص في المُجَازَيْن، فشابه التذييل من أجل عموم قوله تعالى ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾، وفي المجازَى عليه من أجل قوله تعالى ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ .

ويجوز أن تكون الواو للحال من قوله ﴿ ربّك ﴾ [الأنبياء : 46]، وتكون نون المتكلم المعظّم التفاتاً لمناسبة الجزاء للأعمال كما يقال : أدّى إليه الكيل صاعاً بصاع، ولذلك فرع

عليه قوله تعالى : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ .

ويجوز أن تكون الجملة معترضة وتكون الواو اعتراضية .

والوضع حقيقته : حط الشيء ونَصْبه في مكان ، وهو ضد الرفع .

ويطلق على صنع الشيء وتعيينه للعمل به وهو في ذلك مجاز .

والميزان : اسم آلة الوزن .

(160/510)

وله كيفيات كثيرة تختلف باختلاف العوائد ، وهي تتّحد في كونها ذات طبقين متعادلَيْن في الثقل يُسميان كِفتين بكسر الكاف وتشديد الفاء تكونان من خشب أو من حديد ، وإذا كانتا من صُفر سُميتا صنجتين بصاد مفتوحة ونون ساكنة ، معلق كل طبق بخيوط في طرف يجمعهما عود من حديد أو خشب صلب ، في طرفيه عروتان يشد بكل واحدة منهما طبق من الطبقين يسمى ذلك العود (شَاهين) وهو موضوع مَمدوداً ، وتجعَل بوسطه على السواء عروة لتمسكه مِنها يدُ الوازن ، وربما جعلوا تلك العروة مستطيلة من معدن وجعلوا فيها إبرة غليظة من المعدن منوطة بعروة صغيرة من معدن مَصُوغَة في وسط (الشاهين) فإذا ارتفع الشاهين تحركتْ تلك الإبرة فإذا ساوت وسط العروة الطويلة على

سواء عُرف اعتدال الوزن وإن مالت عرف عدم اعتداله ، وتسمى تلك الإبرة لساناً ، فإذا أريد وزن شيئين ليعلم أنهما مستويان أو أحدهما أرجح وضع كلّ واحد منهما في كِفّة ، فالتي وضع فيها الأثقل منهما تنزل والأخرى ذات الأخف ترتفع وإن استويتا فالموزونان مستويان ، وإذا أريد معرفة ثِقل شيء في نفسه دون نسبته إلى شيء آخر جعلوا قطعاً من معدن : صُفرٍ أو نُحَاس أو حديدٍ أو حَجر ذات مقادير مضبوطةٍ مصطلح عليها مثل الدرهم والأوقية والرّطل ، فجعلوها تقديراً لثقل الموزون ليعلم مقدار ما فيه لدفع الغبن في التعاوض ، ووحدتها هو المثقال ، ويسمى السَّنْج بفتح السين المهملة وسكون النون بعدها جيم .

والقِسْط بكسر القاف وسكون السين اسم المفعول ، وهو مصدر وفعله أقسط مهموزاً . وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾ في [سورة آل عمران : 18] .

(161/510)

وقد اختلف علماء السلف في المراد من الموازين هنا : أهو الحقيقة أمُ المجاز ، فذهب الجمهور إلى أنه حقيقة وأن الله يجعل في يوم الحشر موازين لوزن أعمال العباد تشبه الميزان المتعارف ، فمنهم من ذهب إلى أن لكل أحد من العباد ميزاناً خاصاً به توزن به أعماله ،

وهو ظاهر صيغة الجمع في هذه الآية وقوله تعالى:

﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ﴾ في [سورة القارعة : 67] .

ومنهم من ذهب إلى أنه ميزان واحد توزن فيه أعمال العباد واحداً فواحداً ، وأنه بيد جبريل ، وعليه فالجَمع باعتبار ما يوزن فيها ليوافق الآثار الواردة في أنه ميزان عام .

واتفق الجميع على أنه مناسب لعظمة ذلك لا يشبه ميزانَ الدنيا ولكنه على مثاله تقريباً .

وعلى هذا التفسير يكون الوضع مستعملاً في معناه الحقيقي وهو النصْبُ والإرصاد .

وذهب مجاهد وقتادة والضحّاك وروي عن ابن عباس أيضاً أن الميزان الواقع في القرآن مَثَلٌ للعدل في الجزاء كقوله ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ في [سورة الأعراف : 8] ، ومال إليه الطبري .

قال في "الكشاف" : "الموازين الحساب السوي والجزاء على الأعمال بالنّصفَة من غير أن يُظلم أحدٌ" ه .

أي فهو مستعار للعدل في الجزاء لمشابهته للميزان في ضبط العدل في المعاملة كقوله تعالى ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ [الحديد : 25] .

والوضع : ترشيحٌ ومستعار للظهور .

وذهب الأشاعرة إلى أخذ الميزان على ظاهره .

وللمعتزلة في ذلك قولان ففريق قالوا : الميزان حقيقة ، وفريق قالوا : هو مجاز .

وقد ذكر القولين في "الكشاف" فدل صنيعه على أن القولين جاريان على أقوال أيمتهم

وصرح به في "تقرير المواقف" .

وفي "المقاصد" : "ونسبة القول بانتفاء حقيقة الميزان إلى المعتزلة على الإطلاق قصور من

بعض المتكلمين" ه .

قلت : لعلّه أراد به النسفيّ في "عقائده" .

(162/510)

قال أبو بكر بن العربي في كتاب "العواصم من القواصم" : "انفرد القرآن بذكر الميزان ،

وتفردت السنة بذكر الصراط والحوض ، فلما كان هذا الأمر هكذا اختلف الناس في ذلك

، فمنهم من قال إن الأعمال توزن حقيقة في ميزان له كفّتان وشاهين وتجعل في الكفتين

صحائف الحسنات والسيئات ويخلق الله الاعتماد فيها على حسب علمه بها .

ومنهم من قال إنما يرجع الخبر عن الوزن إلى تعريف الله العبادَ بمقادير أعمالهم .

ونقل الطبري وغيره عن مجاهد أنه كان يميل إلى هذا .

وليس بممتنع أن يكون الميزان والوزن على ظاهره وإنما يبقى النظر في كيفية وزن الأعمال

وهي أعراض فها هنا يقف من وقف ويمشي على هذا من مشى .

فمن كان رأيه الوقوف فمن الأول ينبغي أن يقف ، ومن أراد المشي ليجدَنّ سبيلاً مِئْتاء إذ يجد ثلاثة معان ميزاناً ووزناً وموزوناً ، فإذا مشى في طريق الميزان والوزن ووجده صحيحاً في كلّ لفظةٍ حتى إذا بلغ تمييز الموزون ولم يتبين له لا ينبغي أن يرجع القهقرى فيبطل ما قد أثبت بل يُبقي ما تقدم على حقيقته وصحته ويسعى في تأويل هذا وتبيينه أ هـ .

وقلت : كلا القولين مقبول والكلّ متفقون على أن أسماء أحوال الآخرة إنما هي تقريب لنا بمتعارفنا والله تعالى قادر على كل شيء .

وليس بمثل هذه المباحث تعرف قدرة الله تعالى ولا بالقياس على المعتاد المتعارف تُحدد تصرفاته تعالى .

ويظهر لي أن التزام صيغة جمع الموازين في الآيات الثلاث التي ذكر فيها الميزان يرجح أن المراد بالوزن فيها معناه المجازي وأن بيانه بقوله ﴿ القسط ﴾ في هذه الآية يزيد ذلك ترجيحاً .

وتقدم ذكر الوزن في قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ في [سورة الأعراف : 8] .

والقسط : العدل ، ويقال : القسطاس ، وهو كلمة معرّبة من اللغة الرومية (اللاطينية) .

وقد نقل البخاري في آخر "صحيحه" ذلك عن مجاهد .

فعلى اعتبار جعل الموازين حقيقة في آلات وزن في الآخرة يكون لفظ القسط الذي هو مصدر بمعنى العدل للموازين على تقدير مضاف ، أي ذات القسط ، وعلى اعتبار في الموازين في العدل يكون لفظ القسط بدلاً من الموازين فيكون تجريداً بعد الترشيح .

ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله فإنه مصدر صالح لذلك .

واللام في قوله تعالى ﴿ ليوم القيامة ﴾ تحتمل أن تكون للعلة مع تقدير مضاف ، أي لأجل يوم القيامة ، أي الجزاء في يوم القيامة .

وتحتمل أن تكون للتوقيت بمعنى (عند) التي هي للظرفية الملاصقة كما يقال : كتبَ لثلاث خلون من شهر كذا ، وكقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق : 1] أي نضع الموازين عند يوم القيامة .

وتفريع ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ على وضع الموازين تفريع العلة على المعلول أو المعلول على العلة .

والظلم : ضد العدل ، ولذلك فرع نفيه على إثبات وضع العدل .

و ﴿ شيئاً ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ، أي شيئاً من الظلم .

ووقوعه في سياق النفي دل على تأكيد العموم ، أي شيئاً من الظلم .

ووقوعه في سياق النفي دلّ على تأكيد العموم من فعل ﴿ تُظلم الواقع أيضاً في سياق النفي ، أي لا تظلم بنقص من خير استحقته ولا بزيادة شيء لم تستحقه ، فالظلم صادق بالحالين

والشيء كذلك .

وهذه الجملة كلمة جامعة لمعان عدة مع إيجاز لفظها ، فنُفِيَ جنس الظلم ونُفي عن كل نفس فأفاد أن لا بقاء لظلم بدون جزاء .

وجملة ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل ﴾ في موضع الحال .

و(إنْ) وصلية دالة على أن مضمون ما بعدها من شأنه أن يُتوهم تخلف الحكم عنه فإذا نُصّ على شمول الحكم إياه علم أن شموله لما عداه بطريق الأولى .

وقد يرد هذا الشرط بحرف (لو) غالباً كما في قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في [آل عمران : 91] .

ويرد بحرف (إن) كما هنا ، وقول عمرو بن معد يكرب:

ليس الجمال بمِئْزَر . . .

فاعلم وإن رديتَ بُردا

وقد تقدم في سورة آل عمران .

وقرأ الجمهور ﴿ مثقالَ ﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿ كان ﴾ وأن اسمها ضمير عائد إلى ﴿ شيئاً ﴾ .

وجواب الشرط محذوف دل عليه الجملة السابقة .

وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ مثقالُ ﴾ مرفوعاً على أن ﴿ كان ﴾ تامّة و ﴿ مثقال ﴾ فاعل .

ومعنى القراءتين متّحد المآل ، وهو : أنه إن كان لنفس مثقال حبّة من خردل من خير أو من شرّ يؤتَ بها في ميزان أعمالها ويجازَ عليها .

وجملة ﴿ أتينا بها ﴾ على القراءة الأولى مستأنفة ، وعلى القراءة الثانية إما جواب للشرط أو مستأنفة وجواب الشرط محذوف .

وضمير ﴿ بها ﴾ عائد إلى ﴿ مثقال حبة ﴾ .

واكتسب ضميرُ التأنيث لإضافة معاده إلى مؤنث وهو ﴿ حبَة .

والمثقال : ما يماثل شيئاً في الثقل ، أي الوزن ، فمِثقال الحبة : مقدارها .

والحبَة : الواحدة من ثمر النبات الذي يخرج من السنبل أو في المزادات التي كالقرون أو العبَابيد كالقطاني .

والخردل : حبوب دقيقة كحَبّ السمسم هي بزور شجر يسمى عند العرب الخَردل .

واسمه في علم النبات (سينَابيس) .

وهو صنفان بري وبستاني .

وينبت في الهند ومصر وأوروبا .

وشجرته ذات ساق دقيقة ينتهي ارتفاعها إلى نحو متر .

وأوراقها كبيرة .

يُخرج أزهاراً صُفراً منها تتكون بزوره إذْ تخرج في مزادات صغيرة مملوءة من هذا الحب ،

تخرج خضراء ثم تصير سوداء مثل الخرنوب الصغير .

وإذا دُقّ هذا الحب ظهرت منه رائحة معطّرة إذا قُربت من الأنف شماً دَمَعت العينان ،

وإذا وضع معجونها على الجلد أحدث فيه بعد هنيهة لذعاً وحرارة ثم لا يستطيع الجلد

تحملها طويلاً ويترك موضعه من الجلد شديد الحمرة لتجمُّع الدم بظاهر الجلد ولذلك يجعل

معجونُه بالماء دَواء يوضع على المحل المصاب باحتقان الدم مثل ذات الجَنب والنُزلات

الصدرية .

وجملة وكفى بنا حاسبين ﴿ عطف على جملة ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل ﴾

ومفعول ﴿ كفى ﴾ محذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ .

والتقدير : وكفى الناسَ نحن في حال حسابهم .

ومعنى كفاهم نحن حاسبين أنهم لا يتطلعون إلى حاسب آخر يعدل مثلَنا .

وهذا تأمين للناس من أن يجازى أحد منهم بما لا يستحقه .

وفي ذلك تحذير من العذاب وترغيب في الثواب .

وضمير الجمع في قوله تعالى ﴿ حاسبين ﴾ مراعىً فيه ضمير العظمة من قوله تعالى ﴿ بنا ﴾ ، والباء مزيدة للتوكيد ، وأصل التركيب : كَفينا الناسَ ، وهذه الباء تدخل بعد فعل (كفَى) غالباً فتدخل على فاعله في الأكثر كما هنا وقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ في [سورة النساء : 79] .

وتدخل على مفعوله كما في الحديث : "كفى بالمرء إثماً أن يحدّث بكل ما سمع " .

وانتصب ﴿ حاسبين ﴾ على الحال أو التمييز لنسبة ﴿ كفى ﴾ .

وتقدمت نظائر هذا التركيب غير مرّة منها في قوله تعالى ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ في [سورة النساء : 79] . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

أي : أن رسول الله ما أبلغكم بشيء من عند نفسه ، إنما كل ما جاء به من وعد ووعيد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيئاً كما تقولون ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، إنما ربه يوحي إليه .

فلو قال محمد : إنما أنذركم . . لكان لكم حق أنْ تتشككّوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذي يملك أَعِنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 45]

وحاسّة السمع هي أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسمع أولاً ، لينطق ما سمعه ؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن - كما قلنا - تسبق العين في أداء مهمتها .

لذلك قدّمه الحق سبحانه ، فقال : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] .

والسمع هو الآلة التي لا تتعطّل عن مهمتها ، حتى ولو كان الإنسان نائماً ؛ لأن به يتم الاستدعاء ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ضرب على آذانهم ، وعطّل عندهم حاسة السمع حتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خارج الغار

، فقال : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَدَاً ﴾ [الكهف : 11] .

ومعنى : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء . . . ﴾ [الأنبياء : 45] صحيح أنهم يسمعون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سماعٌ لا فائدة منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرت العامل مثلاً بشيء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش ؟ ولذلك سماهم القرآن : صُماً .

(167/510)

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 45] أي : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادي ، إنما يتغافلون وينصرفون ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 45] حين يُخوِّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٍّ قبل أوانه ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره ساعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعية في التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلِّم شخصاً في أمر لا

يعجبه، فتجده "أذن من طين، وأذن من عجين" ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً،

كأحدهم لما قال لصاحبه: فيك مَنْ يكتم السر؟ قال: نعم سِرُّك في بير، قال: أعطني عشرة جنيهات، فردَّ عليه: كأنِّي لم أسمع شيئاً!!!

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ . . . ﴾.

الآن فقط تنبهتم ووَعَيْتُم؟ الآن بعد أن مسّكم العذاب؟

ومعنى: ﴿ مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ . . . ﴾ [الأنبياء: 46] أي: مساً ولمساً خفيفاً، والنفخة: هي الريح الليِّنة التي تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها، كأن تحمل لك الريحُ رائحة الورود مثلاً، هي لا تحمل لك الوورد نفسها، إنما رائحتها، وتظل الورود كما هي.

كذلك هذه المسَّة من العذاب، إنها مجرد رائحة عذاب، كما نقول لفح النار الذي نشعر به، ونحن بعيدون عنها.

والنفحة: اسم مرّة أي: تدل على حدوثها مرة واحدة، كما تقول: جلس جَلسة أي: مرة واحدة، وهذا أيضاً دليل على التقليل. (فمسَّتْهُمْ) تقليل و(نَفْحَة) تقليل، وكونها مرة

واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبديّ ؟ !

وقوله تعالى : ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 46] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التي طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل ؟ إذن : المسألة - كما قلنا - ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : ﴿ يَا وَيْلَنَا . . . ﴾ [الأنبياء : 46] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد في النفس وفي الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقرُّون على أنفسهم ويعترفون : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 46] . ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ . . . ﴾ .

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحي ، وصَمِّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط ، فلماذا هذه النَّقْلة ؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذي قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شيء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتكم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة تُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ، لأن التقدير

يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس . . الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن - تقريباً - في باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل . . إلخ .

(169/510)

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً من الحجارة تساوي كيلو مثلاً ، ويستعملونها في الوزن ؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

وهنا تكلَّم عن الشيء الذي يوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التي لها كثافة هي الأكثر ، وكانوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن ؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشّاً مُنتفِشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد في الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض . إذن : العُمْدة في التقدير : الثقل .

وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] فهل هي موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره، بل في وقت واحد؛ لذلك لما سُئِل الإمام علي - كرّم الله وجهه: كيف يُحاسب الله الخَلْق جميعاً في وقت واحد؟ قال: كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد. فالمسألة صعبة بالنسبة لك، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه.

والقِسْط: صفة للموازين، وهي مصدر بمعنى عدل، كما تقول في مدح القاضي: هذا قاضٍ عادل. أي: موصوف بالعدل، فإذا أردتَ المبالغة تقول: هذا قاضٍ عَدْل، كأنه هو نفسه عَدْل أي (معجون بالعدل)؛ لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه: الحكم العدل. ولا نقول: العادل.

وهذه المادة (قسط) لها دور في اللغة، فهي من الكلمات المشتركة التي تحمل المعنى وضده، مثل (الزوج) تُطلق على الرجل والمرأة، و(العَيْن) تطلق على العين: العين الباصرة، وعلى عين الماء، وعلى الجاسوس، وعلى الذهب والفضة.

كذلك (القِسْط) نقول: القِسْط بالكسر مثل: حِمْل بمعنى العدل من قَسَط قِسْطاً. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ [المائدة: 42] ونقول: القَسْط بالفتح يعني:

الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15] أي : الجائرون الظالمون .

والقِسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعني كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل في الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله . . . ﴾ [الأحزاب : 5] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد صلى الله عليه وسلم في مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال : ﴿ أَقْسَطُ عِندَ الله . . . ﴾ [الأحزاب : 5] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبَآئِهِمْ . . ﴾ [الأحزاب : 5] جاء ليبطل التبني ؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد في الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة في شرع الله لا تستقيم في

وجود هذه المسألة، وإلاّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنّي ويبلغ مَبْلَغَ الرجال؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت، وهو في الحقيقة غريب عن الأسرة؟

(171/510)

ومسألة الموازين هذه من المسائل التي وجد فيها المستشرقون تعارضاً في ظاهر الآيات، فجعلوا منها مَأخَذاً على كتاب الله، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين: ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة . . . ﴾ [الأنبياء: 47] وقوله تعالى: ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف: 105] حيث أثبت الميزان في الأولى، ونفاه في الثانية.

وقلنا: إن هؤلاء معذورون؛ لأنهم لا يملكون الملكَة اللغوية التي تمكّنهم من فَهْم كلام الله.

ولو تأملنا اللام في ﴿ نُقِيمُ لَهُمْ . . . ﴾ [الكهف: 105] لانحلَّ هذا الإشكال، فاللام للملك والانتفاع، كما يقولون في لغة البنوك: له وعليه. والقرآن يقول: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . ﴾ [البقرة: 286].

فالمعنى: ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف: 105] أي: وزناً في صالحهم، إنما نقيم عليهم وندينهم. كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل في اللغة إمّا لوزن الماديّ، أو لوزن المعنى، كما نقول: فلان لا وَزْنَ له في الرجال.

وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة في قصة ابن نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . ﴾ [هود : 46] .

فالنبوة هنا بُنوّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

(172/510)

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم في الآخرة ، كما كانت لهم في الدنيا ، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً . ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نفراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبداً * وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾

[الكهف : 34-36] .

لكن هيهات أنْ يكون لهم وزْنٌ في الآخرة ، فالوزن في القيامة للأعمال ، لا للأعيان .

إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم ؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقرابته : " لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأحسابكم " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " يا فاطمة بنت محمد اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً

" فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمة لها في هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً . . . ﴾ [الأنبياء : 47] مع أن القاعدة : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . ﴾ [البقرة : 194]

وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا . . . ﴾ [الأنبياء : 47]

والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شيء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمي للكيلو ، فقد وجدوا حبَّ الخردل مُتَساوياً في الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

(173/510)

ومعنى : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا . . . ﴾ [الأنبياء : 47] أي : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصي كل شيء في الحساب ، وحبّة الخردل تدل على صِغَرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : ﴿ وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] فلا أحد يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضبْط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزِنَ الوزن المضبوط ؛ لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضة في استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضيئلاً ، وهذا في صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها . إذن : أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى في الموازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية ، وهذا معنى ﴿ وكفى بالله حَسِيباً ﴾ [الأحزاب : 39] ﴿ وكفى بِنا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) (الأنبياء : 45) ، قراءة الجماعة إلا ابن عامر : (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ) ، وقرأ ابن عامر : (وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) بضم التاء وفتح الميم من الصم ، وفي النمل والروم : (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) (النمل : 80) . قراءة ابن كثير بضم الياء وفتح الميم كقراءة الجماعة في آية الأنبياء ، وقراءة الباقين : (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) بضم التاء وفتح الميم كقراءة ابن عامر في الأنبياء ، فاستوت الآي الثلاث في ورود القراءتين على الجملة وفي المعنى المقصود ، ثم ختمت الأولى بقوله : (إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) ، وآيتا النمل والروم بقوله : (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) ، فيسأل عن ذلك .

والجواب ، والله أعلم : أن آية الأنبياء قد تقدمها أمره ، عليه السلام ، بخطاب حاضريه ، وإنذارهم بما أوحي إليه ، وإعلامهم بأن إنذاره إياهم لا يجدي عليهم ، تسلية له ، عليه السلام ، وإعلاماً بما سبق لهم أزلاً ، فقال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) ، ثم قال لهم : (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) (الأنبياء : 45) ، فأعلمهم بإعلام الله تعالى بأنهم صموا عن سماعه ، ومنعوا ثمرته من الإجابة لما سبق عليهم فقيل : (إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) ، أي أنهم وقت إنذارهم ممنوعون عن السمع ، كما قال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) (الكهف : 57) ، وكما ورد قبل آيتي النمل والروم وقوله تعالى : (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) (الروم : 52) إلحاقاً لحال المخاطبين بهم في عدم الجدوى عليهم ، ناسب ذلك قوله : (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) ، فوضح التناسب في نظام هذه الآي ، وإن العكس لا يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 347 . 348 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ قال : يحرسكم . وفي قوله : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال : لا ينصرون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال : لا ينصرون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ قال : يحفظكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال : لا يجارون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال : لا يمنعون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ يعني الآلهة ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ يقول : لا يصحبون من الله بخير . وفي قوله : ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال : كان الحسن يقول : ظهور النبي صلى الله عليه وسلم على من قاتله أرضاً أرضاً وقوماً قوماً ، وقوله : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ أي ليسوا بغالبين ، ولكن الرسول هو الغالب . وفي قوله : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي بهذا القرآن ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ يقول : إن الكافر أصم عن كتاب الله ، لا يسمعه ولا ينتفع به ولا يعقله كما يسمعه أهل الإيمان . وفي قوله : ﴿ ولئن مستهم نفحة ﴾ يقول : لئن أصابتهم عقوبة .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47) ﴾

(177/510)

أخرج أحمد والترمذي وابن جرير في تهذيبه، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، "عن عائشة أن رجلاً قال: "يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك؛ وإن عقابك إياك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل. فجعل الرجل يبكي ويهتف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما تقرأ كتاب الله ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم... أشهدك أنهم أحرار"".

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم، عن رفاعة بن رافع الزرقي قال:

" قال رجل : يا رسول الله ، كيف ترى في رقيقنا نضربهم ؟ فقال : توزن ذنوبهم وعقوبتكم إياهم ، فإن كانت عقوبتكم أكثر من ذنوبهم أخذوا منكم . قال : أفرأيت سبّنا إياهم ؟ قال : توزن ذنوبهم وأذاكم إياهم ، فإن كان أذاكم إياهم أكثر أعطوا منكم . قال : أرأيت يا رسول الله ولدي أضربهم ؟ قال : إنك لا تتهم في ولدك ولا تطيب نفسك ، تشبع ويجوعون وتكسى ويعرون " .

وأخرج الحكيم عن زيد بن أسلم قال : " قال رجل : يا رسول الله ، ما تقول في ضرب المماليك ؟ قال : إن كان ذلك في كنهه ، وإلا أقيد منكم يوم القيامة . قيل : يا رسول الله ، ما تقول في سبهم ؟ قال : مثل ذلك . قال : يا رسول الله ، فإنا نعاقب أولادنا ونسبهم ! قال : إنهم ليسوا أولادكم ؛ لأنكم لا تتهمون على أولادكم " .

(178/510)

وأخرج الحكيم عن زياد بن أبي زياد قال : " قال رجل : يا رسول الله ، إن لي مالاً وإن لي خدماً ، وإني أغضب فأعرم وأشتم وأضرب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : توزن ذنوبه بعقوبتك ، فإن كانت سواء فلا لك ولا عليك ؛ وإن كانت العقوبة أكثر فإنما هو شيء يؤخذ من حسناتك يوم القيامة . فقال الرجل : أوه . . . أوه ! . . . يؤخذ من

حسناتي ؟ ! أشهدك يا رسول الله أن مماليكي أحرار ، أنا لا أمسك شيئاً يؤخذ من حسناتي له . قال : فحسبت ماذا ؟ ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود قال : يجاء بالناس يوم القيامة إلى الميزان فيتجادلون عنده أشد الجدال .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ونضع الموازين القسط . . . ﴾ الآية . قال : هو كقوله : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ [الأعراف : 8] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد أنه كان يقرأ " وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها " بمد الألف . قال : جازينا بها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم بن أبي النجود ، أنه كان يقرأ ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ على معنى جئنا بها لا يمد أتينا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ وإن كان مثقال حبة ﴾ قال : وزن حبة .

وفي قوله : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ قال : محصين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور ح 5 ص ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) ﴾

قوله : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ ﴾ : قرأ ابنُ عامر هنا " ولا تُسْمِعُ " بضمّ التاءِ للخطابِ وكسر الميم ، " الصُّمَّ الدعاءَ " منصوبين . وقرأ ابنُ كثير كذلك في النمل والروم . وقرأ باقي السبعةِ بفتح ياء الغَيْبة والميمِ ، " الصُّمُّ " بالرفع ، " الدعاءَ " بالنصب في جميع القرآن .

وقرأ الحسن كقراءة ابن عامر إلاَّ أنه بياءِ الغَيْبة وروى عنه ابنُ خالويه " ولا يُسْمَعُ " بياءٍ الغيبة مبنياً للمفعول ، " الصُّمُّ " رفعاً ، " الدعاءَ " نصباً . ورُوي عن أبي عمرو بن العلاء " ولا يُسْمِعُ " بضمّ الياءِ مِنْ تحتُ وكسرِ الميمِ " الصُّمَّ " ، نصباً " الدعاءُ " رفعاً .

فأمَّا قراءةُ ابنِ عامر وانب كثير فالفاعل فيها ضميرُ المُخاطبِ وهو الرسولُ عليه السلام ، فانتصب " الصُّمَّ " و" الدعاءَ " على المفعولين ، وأَوَّلُهما هو الفاعلُ المعنوي . وأمَّا قراءةُ الجماعةِ فالفعلُ مسندٌ ل " الصُّمَّ " فانتصب الدعاء مفعولاً به/ وأمَّا قراءةُ الحسنِ الأولى فَأُسْند الفعلُ فيها إلى ضميرِ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم . وهي كقراءةِ ابنِ عامر في المعنى . وأمَّا قراءته الثانية فإنه أُسْنِدَ الفعلُ فيها إلى " الصُّمُّ " قائماً مقامَ الفاعلِ ، فانتصب الثاني وهو " الدعاء " .

وأمّا قراءةُ أبي عمرو فإنه أُسْند الفعلُ فيها إلى الدعاء على سبيل الاتساع، وحُذِف المفعولُ الثاني للعلمِ به. والتقديرُ: ولا يُسْمِعُ الدعاءُ الصمَّ شيئاً البتة. ولمَّا وصل أبو البقاء هنا قال: "ولا يَسْمَعُ" فيه قراءاتٌ وجوهها ظاهرة" ولم يَذْكُرْها.

(180/510)

و[قوله]: "إذا" في ناصِبه وجهان، أحدُهما: أنَّه "يَسْمَعُ". الثاني: أنه "الدعاءُ" فأَعمل المصدرَ المعرَّفَ بأل، وإذا أعملوه في المفعولِ الصريحِ ففي الظرفِ أحرى.

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46)

قوله: ﴿ نَفْحَةٌ ﴾: قال الزمخشري: "في هذا ثلاثُ مبالغاتٍ: لفظُ المَسِّ وما النفحِ مِنْ معنى القلَّةِ والنَّزَارةِ. يقال: نَفَحَتْه الدابَّة: رَمَحَتْه رَمْحاً يسيراً. ونَفَحه بعَطيَّةٍ أي: بنائلٍ قليلٍ، ولبناء المَرَّةِ منه أي: بأدنى إصابة يخضعون. والنَّفْحُ: الخَطْرة. ونَفَحَ له من عطائِه: أي رَضَخَ له بشيءٍ. قال الشاعر:

3343 إذا رِيْدَةٌ من حيث ما نَفَحَتْ له... أتاه برَيَّاها خليلٌ يواصِلُهْ

و﴿ مِّنْ عَذَابِ ﴾ صفةٌ لـ "نَفْحَة".

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا

بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)

قوله : ﴿ القسط ﴾ : في نصب " القِسْطَ " وجهان أحدهما : أنه نعتٌ للموازين ، وعلى هذا : فلِمَ أُفْرِد ؟ وعنه جوابان ، أحدهما : أنه في الأصلِ مصدرٌ ، والمصدر يوحَّد مطلقاً . والثاني : أنَّه على حَذْفِ مضاف . الوجه الثاني : أنه مفعولٌ من أجله أي : لأجلِ القسطِ . إلاَّ أنَّ في هذا نظراً من حيث إن المفعولَ له إذا كان معرَّفاً بأل يَقِلُّ تجرُّده من حرف العلة تقول : جئتُ للإكرام ، ويَقِلُّ : جئت الإكرامَ ، كقول الآخر :

3344 لا أَقْعُدُ الجبنَ عن الهَيْجاءِ . . . ولو توالَتْ زُمَرُ الأعداءِ

وقرىء " القِصْطَ " بالصاد لأجل الطاء ، وقد تقدم .

قوله : ﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ في هذه اللام أوجه ، أحدها : قال الزمخشري : " مثلُها في قولك : جِئْتُ لخمسٍ خَلَوْنَ من الشهر ، ومنه بيتُ النابغة .

3345 تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فعَرَفْتُها . . . لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

والثاني : أنها بمعنى في . وإليه ذهب ابن قتيبة وابن مالك . وهو رأيُ الكوفيين ومنه عندهم : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] وكقول مسكين الدارمي :

3346 أولئك قومي قد مضَوْا لسبيلِهم . . . كما قد مضى مِنْ قبل ُعادٌ وتُبَّعُ

وكقول الآخر :

3347 وكلُّ أبٍ وابنٍ وإنْ عُمِّرا معاً . . . مُقِيْمَيْنِ مفقودٌ لوقتٍ وفاقدُ

والثالث : أنَّها على بابِها مِنَ التعليل ، ولكنْ على حَذْفِ مضاف .

أي : لحسابِ يومِ القيامة .

قوله : ﴿ شَيْئاً ﴾ يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً ، وأن يكون مصدراً ، أي : شيئاً من الظلم .

قوله : ﴿ مِثْقَال ﴾ قرأ نافعٌ هنا وفي لقمان برفع " مِثْقال " على أنَّ " كان " تامة ، أي : وإنْ وُجِد مثقال . والباقون بالنصب على أنَّها ناقصةٌ ، واسمها مضمر أي : وإنْ [كان] العملُ . و ﴿ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ صفةٌ لِحَبَّة .

(182/510)

وقرأ العامَّة " أَتَيْنَا " من الإِتيان بقَصْرِ الهمزة أي : جِئْنا بها ، وكذا قرأ ابن مسعود وهو تفسيرُ معنى لا تلاوة . وقرأ ابنُ عباس ومجاهدٌ وسعيد وابن أبي إسحاق والعلاء بن سيابة وجعفر بن محمدٍ " آتَيْنا " بمدّ الهمزة وفيها أوجهٌ ، أحدُها : وهو الصحيحُ أنه فاعَلْنا من المؤاتاة وهي المجازاةُ والمكافَأة . والمعنى : جازَيْنا بها ، ولذلك تعدى بالباء . الثاني :

أنها مُفاعَلَةٌ من الإِتيان بمعنى المجازاة والكافأةِ لأنهم أَتَوْه بالأعمال وأتاهم بالجزاءِ ، قاله الزمخشري . الثالث : أنه أفْعَل من الإِيتاء . كذا توهَّمَ بعضُهم وهو غلطٌ . قال ابن عطية : " ولو كان آتَيْنا أعطينا لَما تعدَّى بحرفِ جرّ . ويُوْهِنُ هذه القراءةَ أنَّ بدلَ الواوِ المفتوحةِ همزةً ليس بمعروفٍ ، وإنما يُعْرَفُ ذلك في المضمومةِ والمكسورة " يعني أنَّه كان مِنْ حَقِّ هذا القارىءِ أَنْ يَقْرَأَ " واتَيْنا " مثل واظَبْنا ؛ لأنها من المُواتاةِ على الصحيح ، فأبدل هذا القارىءُ الواوَ المفتوحةَ همزةً . وهو قليلٌ ومنه أَخَذَ " واتاه " .

وقال أبو البقاء : " ويُقرأ بالمدِّ بمعنى جازَيْنا بها ، فهو يَقْرُبُ مِنْ معنى أَعْطَيْنا ؛ لأنَّ الجزاءَ إعطاءٌ ، وليس منقولاً مِنْ أَتَيْنا ، لأن ذلك لم يُنْقَلْ عنهم .

وقرأ حميد " أَثَبْنا " من الثواب . والضمير في " بها " عائد على المِثْقال ، وأَنَّث ضميرَه لإِضافتِه لمؤنث فهو كقوله :

3348 . . . .

كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ

في اكتسابِه بالإِضافةِ التأنيثَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 161 . 167﴾

فصل

قال القرطبى :

أبواب الميزان باب ما جاء في الميزان وأنه حق

قال الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وقال فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية . قال العلماء : وإذا انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها .

قال الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً الآية .

وقال فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه إلى آخر السورة .

وقال ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم الآيتين . في الأعراف والمؤمنين .

وهذه الآيات إخبار لوزن أعمال الكفار لأن عامة المعنيين بقوله خفت موازينه في هذه الآيات هم الكفار وقال في سورة المؤمنين فكنتم بها تكذبون وفي الأعراف بما كانوا بآياتنا يظلمون وقال فأمه هاوية وهذا الوعيد بإطلاقه للكفار ، وإذا جمع بينه وبين قوله وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ثبت أن الكفار يسألون عما خالفوا فيه

الحق من أصل الدين وفروعه إذ لم يسألوا عما خالفوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم ولم يحاسبوا به ولم يعتد بها في الوزن أيضاً ، فإذا كانت موزونة دل على أنهم يحاسبون بها وقت الحساب ، وفي القرآن ما يدل أنهم مخاطبون بها مسؤولون عنها محاسبون بها مجزيون على الإخلال بها لأن الله تعالى يقول : وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة فتوعدهم على منعهم الزكاة وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم ما سلككم في سقر الآية . فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأنهم مسؤولون عنها محتسبون مجزيون على الإخلال بها .

وفي البخاري ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم

(184/510)

القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة واقرأوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

قال العلماء : معنى هذا الحديث أنه لا ثواب لهم وأعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين يوم القيامة ، ومن لا حسنة له فهو في النار . قال أبو سعيد الخدري : يؤتى بأعمال كجبال تهامة فلا تزن شيئاً . وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه قال : فلا

قدر لهم عندنا يومئذ والله أعلم . وفيه من الفقه ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم ، بل يدل على تحريم كثرة الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن وقد قال صلى الله عليه وسلم إن أبغض الرجال إلى الله الحبر السمين .

باب منه وبيان كيفية الميزان ووزن الأعمال فيه ومن قضى لأخيه حاجة

الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب . فيقول : أفلك عذر ؟ فقال : لا يا رب فيقول : بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم . قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء قال حديث حسن غريب وأخرجه ابن ماجه في سننه وقال بدل قوله في أول الحديث إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق وذكر الحديث

وقال محمد بن يحيى : البطاقة : الرقعة . أهل مصر يقولون للرقعة بطاقة . وفي الخبر إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك فمن أنت ؟ فيقول : أنا نبيك محمد وهذه صلاتك علي التي كنت تصلي علي قد وفيتك إياها أحوج ما تكون إليها . ذكره القشيري في تفسيره ، وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس والعمري عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه فإن رجح وإلا شفعت له .

فصل : قال المؤلف : الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله عليه السلام فيقال يا محمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه . الحديث ، وقوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم الآية ، وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين وقد يكون للكافرين على ما ذكرنا ويأتي .

وقال أبو حامد : والسبعون الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً ، وإنما هي براءات مكتوبة لا إله إلا الله محمد رسول الله . هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر له وسعد سعادة لا يشقى بعدها فما مر عليه شيء أسر من ذلك لمقام .

قلت : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن قال : تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب ذكره القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله .

(186/510)

وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ، ويؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسامهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله تعالى لهم . هذا حديث غريب من حديث جابر الجعفي وقتادة وتفرد به قتادة عن جابر عن ابن عباس عن مجاعة ابن الزبير .

وروى الحسين بن علي رضوان الله عليهما قال : قال لي جدي صلى الله عليه وسلم : يا بني عليك بالقناعة تكن أغنى الناس وأد الفرائض تكن أعبد الناس . يا بني إن في الجنة شجرة

يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صباً وقرأ صلى الله عليه وسلم إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ذكره أبو الفرج الجوزي في كتاب

روضة المشتاق.

فصل: فإن قيل: أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن والكافر لا يكون له حسنات، فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأن يتحقق في أعماله الوزن؟.

فالجواب: إن ذلك على الوجهين.

أحدهما: أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره أو كفره وسيئاته في إحدى كفتيه، ثم يقال له: هل لك من طاعة تضعها في الكفة الآخرى؟ فلا يجدها فيشال الميزان فترتفع الكفة الفارغة وتقع الكفة المشغولة، فذلك خفة ميزانه وهذا ظاهر الآية، لأن الله تعالى وصف الميزان بالخفة لا الموزون، وإذا كان فارغاً فهو خفيف.

والوجه الآخر : أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومؤاساة الناس وعتق المملوك ونحوهما مما لو كانت من المسلم لكانت قربة وطاعة ، فمن كان له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه ، غير أن الكفر إذا قابلها رجح بها ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانه خفيفاً ولو لم يكن له إلا خيراً واحد أو حسنة واحدة لأحضرت ووزنت كما ذكرنا .

فإن قيل : لو احتسبت خيراته حتى يوزن لجوزي بها جزاء مثلها وليس له منها جزاء ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عبد الله ابن جدعان وقيل له : إنه كان يقري الضيف ويصل الرحم ويعين في النوائب ، فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : لا لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين وسأله عدي بن حاتم عن أبيه مثل ذلك ، فقال : إن أباك طلب أمراً فأدركه يعني الذكر فدل أن الخيرات من الكافر ليست بخيرات وأن وجودها وعدمها بمنزلة واحدة سواء .

والجواب : أن الله تعالى قال ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ولم يفصل بين نفس ونفس ، فخيرات الكافر توزن ويجزى بها ، إلا أن الله تعالى حرم عليه الجنة فجزاؤه أن يخفف عنه بدليل حديث أبي طالب فإنه قيل له : يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل

نفعه ذلك ؟ فقال نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح ولولا أنا لكان في

الدرك الأسفل من النار وما قاله عليه السلام في ابن جدعان وأبي عدي إنما هو في أنهما لا يدخلان الجنة ولا يتنعمان بشيء من نعيمها والله أعلم .

فصل : أصل ميزان موزان قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . قال ابن فورك : وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها ، ومن المتكلمين من يقول كذلك ، وروي ذلك عن ابن عباس أن الله تعالى يقالب الأعراض أجساماً فيزنها يوم القيامة وقد تقدم بهذا المعنى .

والصحيح ان الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز . قال الله عز وجل وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين وهذا نص . قال ابن عمر : توزن صحائف الأعمال وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار . وروي عن مجاهد والضحاك والأعمش أن الميزان هنا بمعنى العدل والقضاء ، وذكر الوزن والميزان ضرب مثل كما يقول هذا الكلام في وزن هذا وفي وزنه أي يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

قلت : وهذا القول مجاز وليس بشيء وإن كان شائعاً في اللغة للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي ووصفه بكفتين ولسان ، وإن كل كفة منهما طباق السموات والأرض .

وقد جاء أن كفة الحسنات من نور ، والأخرى من ظلام ، والكفة النيرة للحسنات والكفة المظلمة للسيئات ، وجاء في الخبر أن الجنة توضع عن يمين العرش والنار عن يسار العرش ، ويؤتى بالميزان فينصب بين يدي الله تعالى كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجن ، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار . وذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول .

وروي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال : توضع الموازين يوم القيامة فلو وضعت فيهن

السموات والأرض لوسعهن ، فتقول الملائكة : يا ربنا ما هذا ؟ فيقول : أزن به لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة عند ذلك : ربنا ما عبدناك حق عبادتك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان . قال علماؤنا : ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه لجاز حمل الصراط على الدين الحق والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح والشياطين والجن على الأخلاق

المذمومة والملائكة على القوى المحمودة ، وهذا كله فاسد لأنه رد لما جاء به الصادق . وفي الصحيحين : فيعطي صحيفة حسناته . فيخرج له بطاقة وذلك يدل على الميزان الحقيقي وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا ، وبالله توفيقنا .

ولقد أحسن من قال :

تذكر يوم تأتي الله فرداً وقد نصبت موازين القضاء

وهتكت الستور عن المعاصي وجاء الذنب منكشف الغطاء

فصل : قال علماؤنا رحمهم الله : الناس في الآخر ، ثلاث طبقات . متقون لا كبائر لهم ، ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر ، والثالث الكفار .

فأما المتقون : فإن حسناتهم توضع في الكفة النيرة وصغائرهم إن كانت لهم الكفة الآخرى ، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزناً وتثقل الكفة النيرة حتى لا تبرح ، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي .

وأما المخلطون ، فحسناتهم توضع في الكفة النيرة وسيئاتهم في الكفة المظلمة ، فيكون لكبائرهم ثقل ، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة دخل الجنة وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله ، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتي هذا إن كانت للكبائر فيما بينه وبين الله ، وأما إن كانت عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات لكثرة ما عليه من التبعات فيحمل

عليه من أوزار من ظلمه ، ثم يعذب على الجميع . هذا ما تقتضيه الأخبار على ما تقدم

ويأتي .

قال

(190/510)

أحمد بن حرب : تبعث الناس يوم القيامة على ثلاث فرق : فرقة أغنياء بالأعمال الصالحة ، وفرقة فقراء ، وفرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس في شأن التبعات .

وقال سفيان الثوري : إنك أن تلقى الله عز وجل بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد .

قال المؤلف : هذا صحيح لأن الله غني كريم وابن آدم فقير مسكين محتاج في ذلك اليوم إلى حسنة يدفع بها سيئة إن كانت عليه ، حتى ترجح ميزانه فيكثر خيره وثوابه .

وأما الكافر ، فإنه يوضع كفره في الكفة المظلمة ولا يوجد له حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فتبقى فارغة لفراغها وخلوها عن الخير ، فيأمر الله بهم إلى النار ويعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره وآثامه .

وأما المتقون ، فإن صغائرهم تكفر باجتنابهم الكبائر ويؤمر بهم إلى الجنة ويثاب كل واحد

منهم بقدر حسناته وطاعته ، فهذان الصنفان هما المذكوران في القرآن في آيات الوزن ، لأن الله تعالى لم يذكر إلا من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه ، وقطع لمن ثقلت موازينه بالإفلاح والعيشة الراضية ولمن خفت موازينه بالخلود في النار بعد أن وصفه بالكفر ، وبقي الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فبينهم النبي صلى الله عليه وسلم حسب ما ذكرناه .

وإنما توزن أعمال المؤمن المتقي لإظهار فضله ، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذله ، فإن أعماله توزن تبكيتاً له على فراغه وخلوه عن كل خير ، فكذلك توزن أعمال المتقي تحسيناً لحاله وإشارة لخلوه من كل شر وتزييناً لأمره على رؤوس الأشهاد . وأما المخلط السيء بالصالح فإن دخل النار فيخرج بالشفاعة على ما يأتي .

فصل : فإن قيل : أخبر الله عن الناس أنهم محاسبون مجزيون ، وأخبر أنه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ولم يخبر عن ثواب الجن ولا عن حسابهم بشيء . فما القول في ذلك عندكم وهل توزن أعمالهم ؟ .

فالجواب : أنه قد قيل إن الله

تعالى لما قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون دخل في الجملة الجن والإنس ، فثبت للجن من وعد الجنة بعموم الآية ما ثبت للإنس وقال أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ثم قال ولكل درجات مما عملوا وإنما أراد لكل من الجن والإنس فقد ذكروا في الوعد والوعيد مع الإنس ، وأخبر تعالى أن الجن يسألون فقال خبراً عما يقال لهم : يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وهذا سؤال ، وإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله وقد تقدم هذا ، وقال تعالى وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن إلى قوله يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين وهذا يدل صريحاً على أن حكمهم في الآخرة كالمؤمنين . وقال حكاية عنهم وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون الآيتين .

ولما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم زادهم كل عظيم وعلف دوابهم كل روث فلا تستنجوا بهما . فإنهما طعام إخوانكم الجان فجعلهم إخواننا ، وإذا كان كذلك فحكمهم كحكمنا في الآخرة سواء والله أعلم . وقد تقدمت الإشارة إلى هذا في باب ما جاء أن الله يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان .

فصل : قوله في الحديث : فيخرج له بطاقة فيه أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده

ورسوله ليست هذه شهادة التوحيد لأن من شأن الميزان أن يوضع في كفة شيء وفي أخرى ضده ، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة ، فهذا غير مستحيل لأن العبد يأتي بهما جميعاً ، ويستحيل أن يأتي الكفر والإيمان جميعاً عند واحد حتى يوضع الإيمان في كفة والكفر في كفة ، فلذلك استحال أن توضع شهادة التوحيد في الميزان وأما بعد ما آمن

(192/510)

العبد فإن النطق منه بلا إله إلا الله حسنة توضع في الميزان مع سائر الحسنات . قاله الترمذي الحكيم رحمه الله .

وقال غيره : إن النطق بها زيادة ذكر على حسن نية وتكون طاعة مقبولة قالها على خلوة وخفية من المخلوقين ، فتكون له عند الله تبارك وتعالى وديعة يردها عليه في ذلك اليوم بعظم قدرها ومحل موقعها وترجح بخطاياه وإن كثرت ، وبذنوبه وإن عظمت ، ولله الفضل على عباده ويتفضل على من يشاء بما شاء .

قلت : ويدل على هذا قوله في الحديث فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة ولم يقل إن لك إيماناً ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لا إله إلا الله أمن الحسنات هي ؟ فقال : من أعظم الحسنات خرجه البيهقي وغيره .

ويجوز أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا كما في حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله وجبت له الجنة رواه صالح بن أبي غريب عن كثير بن مرة عن معاذ وقد تقدم أول الكتاب .

وقيل : يجوز حمل هذه الشهادة على الشهادة التي هي الإيمان ، ويكون ذلك في كل مؤمن ترجح حسناته ويوزن إيمانه كما توزن سائر حسناته وإيمانه يرجح سيئاته كما في هذا الحديث ، ويدخله النار بعد ذلك فيطهره من ذنوبه ويدخله الجنة بعد ذلك ، وهذا مذهب قوم يقولون : إن كل مؤمن يعطى كتابه بيمينه وكل مؤمن يثقل ميزانه ويتأولون قوله الله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون أي الناجون من الخلود وهو في قوله فهو في عيشة راضية يوماً ما وكذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة إنه صائر إليها لا محالة أصابه قبل ذلك ما أصابه .

قلت : هذا تأويل فيه نظر يحتاج إلى دليل من خارج ينص عليه ، والذي تدل عليه الآي والأخبار أن من ثقل ميزانه فقد نجا وسلم وبالجنة أيقن وعلم أنه لا يدخل النار بعد ذلك والله أعلم . وقال

عليه السلام : ما شيء يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن خرجه الترمذي عن أبي الدرداء وقال فيه حديث حسن صحيح ، وقد تقدم من حديث سمرة بن جندب : ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه فجاء أفراطه فثقلوا ميزانه وكذلك الأعمال الصالحة دليل على فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

وذكر القشيري في التحبير له : يحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت بعضهم في المنام فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال : وزنت حسناتي فرجحت السيئات على الحسنات ، فجاءت صرة من السماء وسقطت في كفة الحسنات فرجحت فحللت الصرة ، فإذا فيها كف تراب ألقيته في قبر مسلم ، وذكر أبو عمر في كتاب جامع بيان العلم بإسناده عن حماد بن زيد عن أبي حنيفة عن حماد بن إبراهيم في قوله عز وجل ونضع الموازين القسط ليوم القيامة قال : يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فتخفف ، فيجاء بشيء أمثال الغمام أو قال مثل السحاب فيوضع في ميزانه فترجح فيقال له : أتدري ما هذا فيقول : لا . فيقال له : هذا فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس أو نحو ذلك .

باب منه

الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : بحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم

منك الفضل قال : فتنحى الرجل فجعل يبكى ويهتف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تقرأ كتاب الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً الآية ؟ فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجد لي وهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم . أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان .

وقد روى أحمد بن حنبل عن عبد الرحمن بن غزوان هذا الحديث ، وعن وهب بن منبه في قوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم

القيامة قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذ أراد الله بعبد خيراً ختم له بخير وإذا أراد الله به شراً ختم له بشر عمله . ذكره أبو نعيم .

قال المؤلف هذا صحيح يدل عليه قوله عليه السلام وإنما الأعمال بالخواتيم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 359 . 370 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾

أي بأمر الله أُعْلِمكم بموضع المخافة ، ويُوحى إليَّ في بابكم أنْ أُخوِّفَكُم بأليم عقابه ، ولكنَّ الذي عَدِمَ سمْعَ التوفيقِ . . . أنى ينفعه تكرارُ الأمر بالقبول عليه ؟ !

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46)

أي إنهم لا يصبرون على أقلِّ شيءٍ من العقوبة ؛ وإن الحقَّ إذا شاء أن يؤلِمَ أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)

توزن الأعمالُ بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقْبَل ، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقْبَل ، وتوزن الأنفاسُ بميزان (. . .) فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقْبَل .

ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم ، وينتقم الضعيفُ من القوي .

ويقال ما كان لغير الله يَصْلُح للقبول

ويقال يكافىء كلاًّ بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عباده في دنياه لا يَرْحَمهُ الله ، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، ومَنْ ظلم غيره كوفىء بما يليق بسوء فعله .

قوله : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ : أي يُجازي المظلومين وينتقم من الظالمين ، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة ، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقدار فسيلقى جزاءه ، ويجد عِوَضَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 505.504 ﴾

(196/510)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) ﴾

بعد ذلك الشوط البعيد المديد في أرجاء الكون ، وفي نواميس الوجود ، وفي سنن الدعوات ، وفي مصائر البشر ، وفي مصارع الغابرين . . يرتد السياق إلى مثل ما بدأ به في مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم وما معه من الوحي ؛ واستهزائهم به وإصرارهم على الشرك . .

ثم يتحدث عن طبيعة الإنسان العجول، واستعجالهم بالعذاب. فيحذرهم ما يستعجلون به. وينذرهم عاقبة الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم ويعرض لهم مشهداً من تقلص ظلال الغالبين المسيطرين في الدنيا. ومشهداً من عذاب المكذبين في الآخرة. ويختم الشوط بدقة الحساب والجزاء في يوم القيامة. فيربط الحساب والجزاء بنواميس الكون وفطرة الإنسان وسنة الله في حياة البشر وفي الدعوات..

﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً. أهذا الذي يذكر آلهتكم؛ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾.

إن هؤلاء الكفار يكفرون بالرحمن، خالق الكون ومدبره، ليستنكرون على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء، بينما هم يكفرون بالرحمن دون أن يتحرجوا أو يتلوموا.. وهو أمر عجيب جد عجيب!

وإنهم ليلقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهزء، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك: ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ ﴾ ولا يستكثرون على أنفسهم وهم عبيد من عبيد الله أن يكفروا به، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن.. وهي مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور!

ثم هم يستعجلون بما ينذرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عذاب؛ ويحذرهم من عاقبته. والإنسان بطبعه عجول:

﴿ خلق الإنسان من عجل . سأريكم آياتي فلا تستعجلون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ! ﴾ . .

(197/510)

﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ . . فالعجلة في طبعه وتكوينه . وهو يمد ببصره دائماً إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد ان يستحضر كل ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه . ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه . والإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب ، ويسألون متى هذا الوعد . الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا . . فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ، ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من عذاب الدنيا :

﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون . . ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

لو يعلمون ما سيكون لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم . .

فلينظروا ماذا سيكون .

ها هم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون في حركة مخبلة يرسمها التعبير من وراء السطور أن يكفوا النار عن وجوههم وعن ظهورهم ، ولكنهم لا يستطيعون . وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب ، فلا هم يستطيعون ردها ، ولا هم يؤخرون عنها ، ولا هم يمهلون إلى أجل قريب .

وهذه المباغتة جزاء الاستعجال . فلقد كانوا يقولون : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ فكان الرد هو هذه البغتة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتعجزهم عن التفكير والعمل ، وتحرمهم مهلة الإنظار والتأجيل .

ذلك عذاب الآخرة . فأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم . فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال ، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع . وليحذروا الاستهزاء برسولهم . وإلا فمصير المستهزئين بالرسل معروف ، جرت به السنة التي لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين .

أم إن لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمن ، ويمنعهم من العذاب في الدنيا أو الآخرة من دون الله ؟

﴿ قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم منا يصبحون ﴾ .

إن الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار . وصفته هي الرحمة الكبرى ، وليس من دونه راع ولا حام . فاسألهم : هل لهم حارس سواه ؟

وهو سؤال للإنكار ، وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله ، وهو الذي يكلؤهم بالليل والنهار ، ولا راعي لهم سواه : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ .

ثم يعيد عليهم السؤال في صورة أخرى : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ ﴾ فتكون هي التي تحرسهم إذن وتحفظهم ؟ كلا فهؤلاء الآلهة ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ فهم من باب أولى لا يستطيعون نصر سواهم . ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ فيستمدوا القوة من صحبة القدرة لهم كما استمدها هارون وموسى وربهما يقول لهما : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ إن هذه الآلهة مجردة من القوة بذاتها ؛ وليس لها مدد من الله تستمد منه القوة . فهي عاجزة عاجزة .

وبعد هذا الجدل التهكمي الذي يكشف عن سخف ما يعتقده المشركون وخوائه من المنطق والدليل . . يضرب السياق عن مجادلتهم ؛ ويكشف عن علة لجاجتهم ؛ ثم يلمس

وجدانهم لمسة تهز القلوب ، وهو يواجهها إلى تأمل يد القدرة ، وهي تطوي رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين ، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيز منها منزو صغير ، بعد السعة والمنعة والسلطان !

﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟ ﴾ . .

فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم .

(199/510)

والمتاع ترف . والترف يفسد القلب ويبلد الحس . وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله ، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته . وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائما بالله ، فلا تنساه .

ومن ثم يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذي يقع كل يوم في جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتتقلص . فإذا هي دويلات صغيرة وكانت امبراطوريات . وإذا هي مغلوبة على أمرها وكانت غالبة . وإذا هي قليلة العدد وكانت كثيرة . قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات . .

والتعبير يرسم يد القدرة وهي تطوي الرقعة وتنقص الأطراف وتزوي الأبعاد . . . فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة ، وفيه الرهبة المخيفة ! «أَفَهُمُ الْغالِبُونَ» ؟ فلا يجري عليهم ما يجري على الآخرين ؟

وفي ظل هذا المشهد الذي ترتعش له القلوب يؤمر الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - أن يلقي كلمة الإنذار :

«قُلْ : إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ» . .

(4731/1)

فليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لا يسمعون ! فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم ، وتقص يد القدرة أطرافهم ، وتحيفهم وما هم فيه من متاع ! ! ويتابع السياق إيقاعه المؤثر في القلوب ، فيصورهم لأنفسهم حين يمسهم العذاب :

«وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» . .

والنفحة تطلق غالبا في الرحمة . ولكنها هنا تطلق في العذاب . كأنما ليقال : إن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف . ولكن حيث لا يجدي الاعتراف . فلقد سبق في سياق السورة مشهد القرى التي أخذها بأس اللّه ، فنادى أهلها : «يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ . فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ» . .

وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان . ولخير منه أن يسمعوا نذير الوحي وفي الوقت متسع ،

قبل أن تمسهم نفحة من العذاب ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2378 . 2381 ﴾

(200/510)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] الخ فيه إشارة إلى سوء حال المحجوبين بحب الدنيا عن الاستعداد للأخرى فغفلوا عن إصلاح أمرهم وأعرضوا عن طاعة ربهم وغدت قلوبهم عن الذكر لاهية وعن التفكير في جلاله وجماله سبحانه ساهية ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 3] إشارة إلى سوء حال بعض المنكرين على أولياء الله تعالى فإن نفوسهم الخبيثة الشيطانية تأبى اتباعهم لما يرون من المشاركة في العوارض البشرية ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظالمة ﴾ [الأنبياء : 11] فيه إشارة إلى أن في الظلم خراب العمران فمتى ظلم الإنسان خرب قلبه وجر ذلك إلى خراب بدنه وهلاكه بالعذاب ، وفي قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ

﴾ [الأنبياء : 18] إشارة إلى أن مداومة الذكر سبب لانجلاء الظلمة عن القلب وتطهره من دنس الأغيار بحيث لا يبقى فيه سواه سبحانه ديار ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ [الأنبياء : 19] قيل هم الكاملون الذين في الحضرة فإنهم لا يتحركون ولا يسكنون إلا مع الحضور ولا تشق عليهم عبادة ولا تلهيهم عنه تعالى تجارة بواطنهم مع الحق وظواهرهم مع الخلق أنفاسهم تسبيح وتقديس وهو سبحانه لهم خير أنيس ، وفي قوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] إشارة إلى أن الكامل لا يختار شيئاً بل شأنه التفويض والجريان تحت مجاري الأقدار مع طيب النفس ، ومن هنا قيل إن القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره وغمرنا بره لم يتوف حتى ترقى عن مقام الإدلال إلى التفويض المحض ، وقد نص على ذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه "الجواهر واليواقيت"

(201/510)

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيّ ﴾ [الأنبياء : 30] قد تقدم ما فيه من الإشارة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ قال الجنيد قدس سره : من كانت حياته بروحه يكون مماته بذهابها ومن كانت حياته بربه تعالى فإنه ينقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل وهي الحياة

على الحقيقة ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] قيل أي بالقهر واللطف والفراق والوصال والإدبار والإقبال والجهل والعلم إلى غير ذلك ، ولا يخفى أنه كثيراً ما يمتحن السالك بالقبض والبسط فينبغي له التثبت في كل عما يحطه عن درجته ، ولعل فتنة البسط أشد من فتنة القبض فليتحفظ هناك أشد تحفظ ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ [الأنبياء : 41] قال بعض الصوفية : الموازين متعددة فللعاشقين ميزان وللوالهين ميزان وللعاملين ميزان وهكذا ، ومن ذلك ميزان للعارفين توزن به أنفاسهم ولا يزن نفساً منها السموات والأرض .

وذكروا أن في الدنيا موازين أيضاً وأعظم موازينها الشريعة وكفتاه الكتاب والسنة ، ولعمري لقد عطل هذا الميزان متصوفة هذا الزمان أعاذنا الله تعالى والمسلمين مما هم عليه من الضلال أنه عز وجل المتفضل بأنواع الإفضال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(202/510)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ

مُنْكِرُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم في قوله ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم ﴾ -الآية وغيره أنهم أعرضوا عن هذا الذكر تعللاً بأشياء منها طلب آيات الأولين ، ونبه على إفراطهم في الجهل بما ردوا من الشرف بقوله ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ ومر إلى أن ختم بالتهديد بعذابه ، وأنه يحكم بالقسط ، وكان كتاب موسى عليه السلام بعد القرآن أعظم الكتب السماوية ، وكان أهل الكتاب قد أعرضوا عنه غير مرة على زمن موسى عليه السلام بعبادة العجل وغيره وبعد موته مع كون المرسل ، به اثنان تعاضدا على إبلاغه وتقرير أحكامه بعد أن بهرا العقول بما أتيا به من الآيات التي منها - كما بين في سورة البقرة والأعراف - التصرف في العناصر الأربعة التي هي أصل الحيوان الذي بدأ الله منها خلقه .

ومقصود السورة الدلالة على إعادته ، ومنها ما عذب به من أعرض عن ذكر موسى وهارون عليهما السلام الذي هو ميزان العدل لما نشر من الضياء المورث للتبصرة الماحقة للظلام ، فلا يقع متبعه في ظلم ، وكان الحساب تفصيل الأمور ومقابلة كل منها بما يليق به ، وذلك بعينه هو الفرقان ، قال سبحانه بعد آية الحساب عاطفاً على " لقد أنزلنا " :

﴿ ولقد ءاتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ موسى وهارون ﴾ أي أخاه الذي سأل أن يشد

أزره به ﴿ الفرقان ﴾ الذي تعاضدا على إبلاغه والإلزام بما دعا إليه حال لكونه مبيناً لسعادة الدارين ، لا يدع لبساً في أمر من الأمور ﴿ وضياء ﴾ لا ظلام معه ، فلا ظلم للمستبصر به ، لأن من شأن من كان في الضياء أن لا يضع شيئاً إلا في موضعه ﴿ وذكراً ﴾ أي وعظاً وشرفاً .

ولما كان من لا ينتفع بالشيء لا يكون له منه شيء ، قال : ﴿ للمتقين ﴾ أي الذين صار هذا الوصف لهم شعاراً حاملاً لهم على التذكير لما يدعو إليه الكتاب من التوحيد الذي هو أصل المراقبة ؛ ثم بين التقوى بوصفهم بقوله : ﴿ الذين يخشون ﴾ أي يخافون خوفاً عظيماً ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بعد الإيجاد بالتربية وأنواع الإحسان ﴿ بالغيب ﴾ أي في أن يكشف لهم الحجاب ﴿ وهم من الساعة ﴾ التي نضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ، مبعد من كل ضير ﴿ مشفقون ﴾ لأنهم لقيامها متحققون ، وبنصب الموازين فيها عالمون .

(203/510)

ولما ذكر فرقان موسى عليه السلام ، وكان العرب يشاهدون إظهار اليهود للتمسك به والمقاتلة على ذلك والاغتباط ، حثهم على كتابهم الذي هو أشرف منه فقال :

﴿ وهذا ﴾ فأشار إليه بأداة القرب إيماء إلى سهولة تناوله عليهم ﴿ ذكر ﴾ أي عظيم ، ودلهم على أنه أثبت الكتب وأكثرها فوائد بقوله : ﴿ مبارك ﴾ ودلهم على زيادة عظمته بما له من قرب الفهم والإعجاز وغيره بقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ ثم أنكر عليهم رد ووبخهم في سياق دال على أنهم أقل من أن يجترئوا على ذلك ، منبه على أنهم أولى بالمجاهدة في هذا الكتاب من أهل الكتاب في كتابهم فقال : ﴿ أفأنتم له ﴾ أي لتكونوا دون أهل الكتاب برد ما أنزل لتشريفكم عليهم وعلى غيرهم مع أنكم لا تنكرون كتابهم ﴿ منكرون ﴾ أي أنه لو أنكره غيركم لكان ينبغي لكم مناصبته ، فكيف يكون الإنكار منكم ؟ . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 88. 89 ﴾

(204/510)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام ، تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة

والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا منها قصصاً .

(القصة الأولى ، قصة موسى عليه السلام)

ووجه الإتصال أنه تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحى ﴾ [الأنبياء : 45] أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى في الأنبياء قبله فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء وَذِكْراً لّلْمُتَّقِينَ ﴾ واختلفوا في المراد بالفرقان على أقوال : أحدها : أنه هو التوراة ، فكان فرقاناً إذ كان يفرق به بين الحق والباطل ، وكان ضياء إذ كان لغاية وضوحه يتوصل به إلى طرق الهدى وسبل النجاة في معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع ، وكان ذكرى أي موعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو في قوله : ﴿ وَضِيَاء ﴾ فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان ، وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين .

والمعنى أنه في نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى .

(1)

القول الثاني : أن المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه : أحدها : عن ابن عباس رضي الله عنهما الفرقان هو النصر الذي أوتي موسى عليه السلام كقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] يعني يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من

الأديان الباطلة .

وثانيها : هو البرهان الذي فرق به دين الحق عن الأديان الباطلة عن ابن زيد .

وثالثها : فلق البحر عن الضحاك .

---

(1) رسمت في الأصل (ذكري) هكذا بالياء وجاء رسمها في المصحف وَذِكْراً بالتنوين وقد جرى المصنف على تفسيرها بالذكرى لا بالذكر . لهذا فإننا أثبتناها في الآيات : ذِكْراً متابعة لرسم المصحف . وأثبتناها في التفسير (ذكري) متابعة للتفسير ، ولعل المفسر رحمه اللَّه جرى على قراءة غير قراءة حفص المشهورة بيننا . واللَّه أعلم وأحكم .

(205/510)

ورابعها : الخروج عن الشبهات ، قال محمد بن كعب واعلم أنه تعالى إنما خصص الذكرى بالمتقين لما في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] أما قوله تعالى : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفي معنى الغيب وجوه : أحدها : يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وإيمانهم بالله غيبي استدلالي ، فالعباد يعملون لله في الغيب والله لا يغيب عنه شيء عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وثانيها : يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها .

وثالثها : يخشون ربهم في الخلوات إذا غابوا عن الناس وهذا هو الأقرب ، والمعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم إلا أن ذلك مما يظهرونه في الملا دون الخلا ﴿ وَهُمْ مِّنَ ﴾ عذاب ﴿ الساعة ﴾ وسائر ما يجري فيها من الحساب والسؤال ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ فيعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله تعالى ، ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك وهو معنى قوله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله : ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ فالمعنى أنه لا إنكار في إنزاله وفي عجائب ما فيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ، ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الأدلة العقلية وبيان الشرائع ، فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 155.154 ﴾

(206/510)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : التوراة التي فرق فيها بين الحق والباطل ، قاله مجاهد ، وقتادة .

الثاني : هو البرهان الذي فرق بين حق موسى وباطل فرعون ، قاله ابن زيد .

الثالث : هو النصر والنجاة فنصر موسى وأشياعه ، وأهلك فرعون وأتباعه قال الكلبي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(207/510)

وقال ابن عطية :

ثم عقب بالتمثيل بأمر موسى عليه السلام ، و﴿ الفرقان ﴾ فيما قالت فرقة التوراة وهي الضياء والذكر ، وقرأ ابن كثير وحده " ضيئاء " بهمزتين قبل الألف وبعدها ، وقرأ الباقون " ضياء " بهمزة واحدة بعد الألف ، وقرأ ابن عباس " ضياء " بغير واو وهي قراءة عكرمة والضحاك وهذه القراءة تؤيد قول من قال المراد بذلك كله التوراة ، وقالت فرقة ﴿ الفرقان ﴾ هو ما رزقه الله من نصر وظهور حجة وغير ذلك مما فرق بين أمره وأمر فرعون ، و" الضياء " التوراة و" الذكر " بمعنى التذكرة ، وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ يحتمل ثلاث تأويلات أحدها في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد وهذا أرجحها ، والثاني

أنهم يخشون الله تعالى على أمره تعالى غائب وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة ، والثالث أنهم يخشون الله ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم ، و" الإشفاق " أشد الخشية و﴿ الساعة ﴾ القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ وهذا ﴾ إشارة إلى القرآن ، و﴿ أنزلناه ﴾ إما أن يكون بمعنى أتيناه بمعنى كما تقول أنزل السلطان فلاناً بمكان كذا إذا أثبته له ، وإما أن يتعلق النزول بالملك ، ثم وقفهم الله تعالى تقريراً وتوبيخاً هل يصح لهم إنكار بركته وما فيه من الدعاء إلى الله تعالى وإلى صالح العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(208/510)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التوارة التي فرّق بها بين الحلال والحرام ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : البرهان الذي فرق به بين حق موسى وباطل فرعون ، قاله ابن زيد .

والثالث : النصر والنجاة لموسى ، وإهلاك فرعون ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ وضياءً ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يرى الواو زائدة ؛ قال الزجاج : وكذلك قال بعض النحويين أن المعنى : الفرقان ضياء ، وعند البصرين : أن الواو لا تُزاد ولا تأتي إلا بمعنى العطف ، فهي هاهنا مثل قوله تعالى : ﴿ فيها هدىً ونورٌ ﴾ [المائدة : 44] .

قال المفسرون : والمعنى أنهم استضاؤوا بالتوراة حتى اهتدَوا بها في دينهم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وذِكْراً للمتَّقين ﴾ أنهم يذكرونه ويعملون بما فيه .

﴿ الذين يخشون ربَّهم بالغيب ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : يخافونه ولم يرَوه ، قاله الجمهور .

والثاني : يخشَون عذابه ولم يروه ، قاله مقاتل .

والثالث : يخافونه من حيث لا يراهم أحد ، قاله الزجاج .

والرابع : يخافونه إِذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم إِذا كانوا بين الناس ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

ثم عاد إِلى ذِكْر القرآن ، فقال : ﴿ وهذا ﴾ يعني : القرآن ﴿ ذِكْرٌ ﴾ لمن تذكَّر به ، وعظة لمن اتَّعظ ﴿ مباركٌ ﴾ أي : كثير الخير ﴿ أفأنتم ﴾ يا أهل مكة ﴿ له مُنْكِرون ﴾ أي : جاحدون ؟ ! وهذا استفهام توبيخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِيَآءً ﴾

وحكي عن ابن عباس وعكرمة "الْفُرْقَانَ ضِيَاءً" بغير واو على الحال .

وزعم الفراء أن حذف الواو والمجيء بها واحد ، كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً ﴾ [الصافات : 76] أي حفظاً .

ورد عليه هذا القول الزجاج.

قال : لأن الواو تجيء لمعنى فلا تزاد .

قال : وتفسير "الفرقان" التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال .

قال : "وَضِيَاءً" مثل "فِيهِ هُدًى وَنُورٌ" وقال ابن زيد : "الفرقان" هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] يعني يوم بدر .

قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لدخول الواو في الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهارون النصر والتوراة التي هي الضياء والذكر .

﴿ لِّلْمُتَّقِينَ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ أي غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً قادراً ، يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم ،

وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس .

﴿ وَهُم مِّنَ الساعة ﴾ أي من قيامها قبل التوبة .

﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون وجلون .

﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : 50] يعني القرآن ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ ﴾ يا معشر العرب ﴿ مُنكِرُونَ ﴾ وهو معجز لا تقدرون على الإتيان بمثله .

وأجاز الفراء "وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكاً أَنْزَلْنَاهُ" بمعنى أنزلناه مباركاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(210/510)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر ما أتى به رسوله (صلى الله عليه وسلم) من الذكر وحال مشركي العرب معه ، وقال : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أتبعه بأنه عادة الله في أنبيائه فذكر ما آتى ﴿ موسى وهارون ﴾ إشارة إلى قصتهما مع قومهما مع ما أوتوا من الفرقان والضياء والذكر ، ثم نبه على ما آتى رسوله من الذكر المبارك ثم استفهم على سبيل الذكر على إنكارهم ثم نبه على ما آتى رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

و﴿ الفرقان ﴾ التوراة وهو الضياء ، والذكر أي كتاباً هو فرقان وضياء ، وذكر ويدل على هذا المعنى قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك ضياء وذكراً بغير واو في ضياء .

وقالت فرقة : القرآن ما رزقه الله من نصره وظهور حجته وغير ذلك ، مما فرق بين أمره وأمر فرعون والضياء التوراة ، والذكر التذكرة والموعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم أو الشرف والعطف بالواو يؤذن بالتغاير .

وعن ابن عباس ﴿ الفرقان ﴾ الفتح لقوله ﴿ يوم الفرقان ﴾ وعن الضحاك : فلق البحر .

وعن محمد بن كعب : المخرج من الشبهات و﴿ الذين ﴾ صفة تابعة أو مقطوعة برفع أو نصب أو بدل .

ولما ذكر التقوى ذكر ما أنتجته وهو خشية الله والإشفاق من عذاب يوم القيامة والساعة القيامة وبالغيب .

قال الجمهور : يخافونه ولم يروه .

وقال مقاتل : يخافون عذابه ولم يروه .

وقال الزجاج : يخافونه من حيث لا يراهم أحد ورجحه ابن عطية .

وقال أبو سليمان الدمشقي : يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس ، والإشفاق شدة الخوف ، واحتمل أن يكون قوله ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ استئناف إخبار عنهم ، وأن

يكون معطوفاً على صلة ﴿ الذين ﴾ ، وتكون الصلة الأولى مشعرة بالتجدّد دائماً كأنها حالتهم فيما يتعلق بالدنيا ، والصلة الثانية من مبتدأ وخبر عنه بالاسم المشعر بثبوت الوصف كأنها حالتهم فيما يتعلق بالآخرة .

(211/510)

ولما ذكر ما آتى موسى وهارون عليهما السلام أشار إلى ما آتى محمداً (صلى الله عليه وسلم) فقال ﴿ وهذا ﴾ أي القرآن ﴿ ذكر مبارك ﴾ أي كثير منافعه غزير خبره ، وجاء هنا الوصف بالاسم ثم بالجملة جرياً على الأشهر وتقدم الكلام على قوله في الأنعام ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ وبينا هناك حكمة تقديم الجملة على الاسم ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وهو خطاب للمشركين ، والضمير في ﴿ له ﴾ عائد على ذكر وهو القرآن ، وفيه تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا أنكر ذلك المشركون كما أنكر أسلاف اليهود ما أنزل الله على موسى عليه السلام . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(212/510)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ وإشارةٌ إلى كيفية إنجائهم وإهلاكِ أعدائهم ، وتصديرُه بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناءِ بمضمونه ، والمرادُ بالفرقان هو التوارةُ وكذا بالضياء والذكر ، أي وبالله لقد آتيناهم وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحقّ والباطل وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهلِ والغَواية وذِكْراً يتعظ به الناسُ ، وتخصيصُ المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثارِه أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكامِ ، وقيل : الفرقانُ النصرُ ، وقيل : فلقُ البحر والأول هو اللائقُ بمساق النظمِ الكريم فإنه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتبِ الإلهية لا سيما التوراةِ فيما ذكر من الصفات ، ولأن فلقَ البحر هو الذي اقترح الكفرةُ مثله بقولهم : فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون ، وقرىء ضياءً بغير واو على أنه حالٌ من الفرقان .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أي عذابَه ، مجرورُ المحل على أنه صفةٌ مادحة للمتقين أو بدلٌ أو بيان أو منصوب أو مرفوعٌ على المدح ﴿ بالغيب ﴾ حال من المفعول أي يخشَون عذابه تعالى وهو غائبٌ عنهم غيرُ مشاهد لهم ، ففيه تعريضٌ بالكفرة حيث لا

يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهِدوا ما أنذروه ، وقيل : من الفاعل ﴿ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون منها بطريق الاعتناء ، وتقديمُ الجار لمراعاة الفواصل وتخصيصُ إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفِهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظمَ المَخُوفاتِ وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون ، وإيثارُ الجملة الاسميةِ للدِلالة على ثبات الإشفاق ودوامِه .

(213/510)

﴿ وهذا ﴾ أي القرآنُ الكريم أشير إليه بهذا إيذاناً بغاية وضوحِ أمرِه ﴿ ذِكْرَ ﴾ يُتذكّر ، وُصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقتِه لما مر في صدر السورةِ الكريمة ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثيرُ الخير غزيرُ النفع يُتبرّك به ﴿ أنزلناه ﴾ إما صفةٌ ثانيةٌ لذكر أو خبر ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ إنكارٌ لإنكارهم بعد ظهورِ كونِ إنزالِه كإيتاء التوراة ، كأنه قيل : أبعد أن علمتم أن شأنَه كشأن التوراة في الإيتاء والإيحاءِ أنتم منكرون لكونه منزّلاً من عندنا ؟ فإن ذلك بعد ملاحظةِ حالِ التوراة مما لا مساغَ له أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(214/510)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف : 109] إلى قوله سبحانه : ﴿ وَأَهْلَكْنَا المسرفين ﴾ [الأنبياء : 9] وإشارة إلى كيفية انجائهم وإهلاك أعدائهم ، وتصديره بالتوكيد القسمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه ، والمراد بالفرقان التوراة وكذا بالضياء والذكر ، والعطف كما في قوله

: إن الملك القرم وابن الهمام . . .

وليس الكتيبة في المزدحم

ونقل الطيبي أنه أدخل الواو على ﴿ ضِيَاء ﴾ وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ كما يدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً كقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الأنفال : 49] وقال سيبويه : إذا قلت مررت بزيد وصاحبك جاز وإذا قلت ومررت بزيد فصاحبك بالفاء لم يجز كما جاز بالواو لأن الفاء تقتضي التعقيب وتأخير الاسم عن المعطوف عليه بخلاف الواو ، وأما قول القائل

: يا لهف زيابة للحارث الصا . . .

بح فالغانم فالآيب

فإنما ذكر بالفاء وجاء لأنه ليس بصفة على ذلك الحد لأن أل بمعنى الذي أي فالذي صبح فالذي غنم فالذي آب .

وأبو الحسن يجيز المسألة بالفاء كما يجيزها بالواو انتهى ، والمعنى وبالله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل وضياء يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس ويتذكرون ، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به أو ذكر ما يحتاجون به من الشرائع والأحكام أو شرف لهم .

وقيل : الفرقان النصر كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] وأطلق عليه لفرقه بين الولي والعدو وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس ، والضياء حينئذ إما التوراة أو الشريعة أو اليد البيضاء ، والذكر بأحد المعاني المذكورة .

(215/510)

وعن الضحاك أن الفرقان فلق البحر والفلق إخوان ، وإلى الأول ذهب مجاهد .

وقتادة وهو اللائق بمساق النظم الكريم فإنه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولأن فلق البحر هو الذي اقترح الكفرة مثله بقولهم : ﴿ بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ ﴾ [الأنبياء : 5] .

وقرأ ابن عباس.

وعكرمة.

والضحاك ﴿ ضِيَاء ﴾ بغير واو على أنه حال من ﴿ الفرقان ﴾ وهذه القراءة تؤيد أيضاً التفسير الأول

﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ مجرور المحل على أنه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح، والمراد على كل تقدير يخشون عذاب ربهم.

وقوله سبحانه: ﴿ بالغيب ﴾ حال من المفعول أي يخشون ذلك وهو غائب عنهم غير مرئي لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه.

وقال الزجاج: حال من الفاعل أي يخشونه غائبين عن أعين الناس ورجحه ابن عطية.

وقيل: يخشونه بقلوبهم ﴿ وَهُمْ مّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون بطريق الاعتناء، والجملة تحتمل العطف على الصلة وتحتمل الاستئناف، وتقديم الجار لرعاية الفواصل، وتخصيص إشفاقهم من الساعة بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونه معظم المخلوقات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على أن حالتهم فيما يتعلق بالآخرة الاشفاق الدائم.

﴿ وهذا ﴾ أي القرآن الكريم أشير إليه بهذا للإيذان بسهولة تناوله ووضوح أمره، وقيل: لقرب مزمانه ﴿ ذِكْرَ ﴾ يتذكر به من تذكر وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام

وموافقته لما مر في صدر السورة الكريمة مع انطواء جميع ما تقدم في وصفه بقوله تعالى : ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ أي كثير الخير غزير النفع ؛ ولقد عاد علينا ولله تعالى الحمد من بركته ما عاد .

(216/510)

وقوله تعالى : ﴿ أنزلناه ﴾ إما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر لهذا ، وفيه على التقديرين من تعظيم أمر القرآن الكريم ما فيه ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ إنكار لإنكارهم بعد ظهور كونه كالتوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة أنتم منكرون لكونه منزلاً من عندنا فإن ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلاً وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل أو للحصر لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(217/510)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾

شروع في قصص الأنبياء ، تسلية له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [7 – 9] ، وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم . وتصديره بالتوكيد القسميّ لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه . والمراد بالفرقان التوراة وكذا بالضياء والذكر . أي : وبالله لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل . وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل وذكراً يتعظ به الناس . وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : يخافون عذابه وهو غير مشاهد لهم . وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون في الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه : ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي : وجلون أن تأتي الساعة التي تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم ، قد فرّطوا في الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

﴿ وَهَذَا ﴾ أي : القرآن الكريم : ﴿ ذِكْرٌ ﴾ أي : يتذكر به من يتذكر : ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أي : كثير الخير والنفع : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ أي : مع ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة . وفي الاستفهام الإنكاريّ توبيخ لهم بأنه لا ينبغي لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا

إعجازه . وتقديم لَهُ للفاصلة أو للحصر . لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 209.208 ﴾

(218/510)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن العظيم ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ أي كثير البركات والخيرات . لأن فيه خير الدنيا والآخرة . ثم وبخ من ينكرونه منكِرًا عليهم بقوله ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أن هذا القرآن مبارك بينه في مواضع متعدّدة من كتابه . كقوله تعالى في " الأنعام " : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فاتبعوه واتقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : 155] ، وقوله فيها أيضاً : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام : 92] الآية . وقوله تعالى في " ص " ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ [ص : 29] ، إلى غير ذلك من الآيات . فنرجو الله تعالى القريب المجيب : أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته ، والعمل بما فيها من الحلال والحرام ، والأوامر

والنواهي . والمكارم والآداب : امتثالاً واجتناباً ، إنه قريب مجيب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(219/510)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

عطف على جملة ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام إلى قوله تعالى : فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] لإقامة الحجة على المشركين بالدلائل العقلية والإقناعية والزجرية ، ثم بدلائل شواهد التاريخ وأحوال الأمم السابقة الشاهدة بتنظير ما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم بما أوتيه سلفه من الرسل والأنبياء ، وأنه ما كان بِدْعاً من الرسل في دعوته إلى التوحيد تلك الدعوة التي كذبه المشركون لأجلها مع ما تخلل ذلك من ذكر عناد الأقوام ، وثبات الأقدام ، والتأييد من الملك العلاّم ، وفي ذلك تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه بأن تلك سنة الرسل السابقين كما قال تعالى : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾ في سورة [الإسراء : 77] .

فجاء في هذه الآيات بأخبار من أحوال الرسل المتقدمين .

وفي سَوق أخبار هؤلاء الرسل والأنبياء تفصيل أيضاً لما بُنيت عليه السورة من قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم ﴾ [الأنبياء : 7] الآيات ، ثم قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] ، ثم قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ [الأنبياء : 45] .

واتصالها بجميع ذلك اتصال محكم ولذلك أعقبت بقوله تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ .

وابتدىء بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب ولأن أثر إتيان موسى عليه السلام بالشريعة هو أوسع أثر لإقامة نظام أمة يلي عظمة شريعة الإسلام .

وافتتاح القصة بلام القسم المفيدة للتأكيد لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك وذهول بعضهم عنه وتناسي بعضهم إياه منزلة من ينكر تلك القصة .

ومحل التنظير في هذه القصة هو تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم بكتاب مبين وتلقي القوم ذلك الكتاب بالإعراض والتكذيب .

والفُرقَان : ما يُفرّق به بين الحق والباطل من كلام أو فعل .

وقد سمى الله تعالى يوم بدر يوم الفرقان لأن فيه كان مبدأ ظهور قوة المسلمين ونصرهم .

فيجوز أن يراد بالفرقان التوراة كقوله تعالى : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ﴾ في [سورة الصافات : 117] .

والإخبار عن الفرقان بإسناد إيتائه إلى ضمير الجلالة للتنبيه على أنه لم يَعْد كونَه إيتاء من الله تعالى ووحياً كما أوتي محمد عليه الصلاة والسلام القرآن فكيف ينكرون إيتاء القرآن وهم يعلمون أن موسى عليه السلام ما جاء إلا بمثله .

وفيه تنبيه على جلالة ذلك المُوتَى .

ويجوز أن يراد بالفرقان المعجزات الفارقة بين المعجزة والسحر كقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ في [سورة غافر : 23] .

ويجوز أن يراد به الشريعة الفارقة بين العدل والجور كقوله تعالى : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ في [سورة البقرة : 53] .

وعلى الاحتمالات المذكورة تجيء احتمالات في قوله تعالى الآتي : ﴿ وضياء وذكراً للمتقين ﴾ .

وليس يلزم أن تكون بعض هذه الصفات قسيماً لبعض بل هي صفات متداخلة ، فمجموع ما أوتيه موسى وهارون تتحقق فيه هذه الصفات الثلاث .

والضياء : النور .

يستعمل مجازاً في الهدى والعلم ، وهو استعمال كثير ، وهو المراد هنا وقد قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ في [سورة المائدة : 44] .

والذكر أصله : خطور شيء بالبال بعد غفلة عنه .

ويطلق على الكتاب الذي فيه ذكر الله ، فقوله تعالى ﴿ للمتقين ﴾ يجوز أن يكون الكلام فيه للتقوية فيكون المجرور باللام في معنى المفعول ، أي الذين اتصفوا بتقوى الله ، أي امتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه ، لأنه يذكرهم بما يجهلون وبما يذهلون عنه مما علموه ويجدد في نفوسهم مراقبة ربّهم .

(221/510)

ويجوز أن يكون اللام للعلة ، أي ذكر لأجل المتقين ، أي كتاب ينتفع بما فيه المتقون دون غيرهم من الضالين .

ووصفهم بما يزيد معنى المتقين بياناً بقوله تعالى : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ وهو على نحو قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في [سورة البقرة : 23] .

والباء في قوله تعالى ﴿ بالغيب ﴾ بمعنى (في) .

والغيب : ما غاب عن عيون الناس ، أي يخشون ربهم في خاصتهم لا يريدون بذلك رياء ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية والمذمة من الناس .

والإشفاق : رجاء حادث مخوف .

ومعنى الإشفاق من الساعة : الإشفاق من أهوالها ، فهم يعدُّون لها عُدَّتها بالتقوى بقدر الاستطاعة .

وفيه تعريض بالذين لم يهتدوا بكتاب الله تعالى بدلالة مفهوم المخالفة لقوله تعالى : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ .

فمن لم يهتد بكتاب الله فليس هو من الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهؤلاء هم فرعون وقومه .

وقد عقب هذا التعريض بذكر المقصود من سوق الكلام الناشئ هو عنه ، وهو المقابلة بقوله تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ .

واسم الإشارة يشير إلى القرآن لأن حضوره في الأذهان وفي التلاوة بمنزلة حضور ذاته .

ووصفه القرآن بأنه ذكر لأن لفظ الذكر جامع لجميع الأوصاف المتقدمة كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ في [سورة النحل : 44] .

ووصف القرآن بالمبارك يعمّ نواحي الخير كلها لأن البركة زيادة الخير ؛ فالقرآن كلّه خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته ، وهو أيضاً خير لما اشتمل

عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة واللطائف البلاغية ، وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به لأن البشر عجزوا عن الإتيان بمثله وتحدّاهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فما استطاعوا .

وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان ، وانتفع به مَن آمنوا به وفريق ممن حرموا الإيمان .

فكان وصفه بأنه مبارك وافياً على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنه فرقان وضياء .

وزاده تشريفاً بإسناد إنزاله إلى ضمير الجَلالة .

وجُعل الوحي إلى الرسول إنزالاً لما يقتضيه الإنزال من رفعة القدر إذْ اعتبر مستقِرّاً في العالم العلوي حتى أنزل إلى هذا العالم .

وفُرّع على هذه الأوصاف العظيمة استفهام توبيخي تعجيبي من إنكارهم صدق هذا الكتاب ومن استمرارهم على ذلك الإنكار بقوله تعالى : ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ .

ولكون إنكارهم صدقه حاصلاً منهم في حال الخطاب جيء بالجملة الاسمية ليتأتى جعل

المسند اسماً دالاً على الاتّصاف في زمن الحال وجَعْل الجملة دالة على الثبات في الوصف وفاءً بحق بلاغة النظم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(223/510)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يُسلّي رسوله صلى الله عليه وسلم ويُخفّف عنه مَا لاقاه من قومه، فيذكر له نماذج من إخوانه أُولِي العزم من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه.

فبدأ بموسى - عليه السلام - لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان . . . ﴾ [الأنبياء: 48] لأن رسالتهما واحدة، وهم فيها شركاء: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً . . . ﴾ [القصص: 34] وقال: ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي ﴾ [طه: 31-32].

والفرقان: هو الفارق القوي بين شيئين؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، كما

تقول : غفر الله لفلان غفراناً ، وتقول : قرأت قراءة ، وقرأة قرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسماء القرآن : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] .

فالفرقان – إذن – مصدر يدلُّ على المبالغة ، تقول : فرّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة في المعنى ، وأن الفَرْق في هذه المسألة فَرْق جليل وفَرْق واضح ؛ لأن كونك تُفرِّق بين شيئين يترتب على ذلك خطورة في تكوين المجتمع وخطورة في حركة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّي القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

(224/510)

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . ﴾ [الأنفال : 29] وتقوى الله لا تكون إلا بتنفيذ أوامره وتعاليمه الواردة في القرآن الذي نزل على محمد ، والفرقان هنا يعني : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر ما تتقي الله باتباع الفرقان الأول يجعل لكم الفرقان الثاني ، وتتكوّن لديكم فراسة المؤمن وبصيرته ، وتنزل عليكم الإشراقات التي تُسعِف المؤمن عندما يقع في مأزق

.

ألاَ تراهم يقولون : فلان ذكي ، فلان حاضر البديهة . أي : يستحضر الأشياء البعيدة وينتفع بها في الوقت الحاضر ، وهذا من توفيق الله له ، ونتيجة لبصيرته وفراسته ، وكانت العرب تضرب المثل في الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر :

إقْدامُ عَمْروٍ في سَمَاحَةِ حَاتِمِ . . . في حِلْمِ أَحنفَ في ذَكَاءِ إِيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله في آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثوري يتناوله وتنقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العم ، وأريد أنْ أراه مصلوباً في مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثوري يقيم بها في جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدِلّلان الثوري ويعتزان به .

وفي يوم كان الثلاثة في المسجد والثوري مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه في حِجْر أحدهما ، ورِجْليْه في حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثوري : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يَضعف اعتقاد الناس في المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثوري : والذي نفسي بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأَتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثوري .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذي يرى بنور الله ، ولا يصدر في أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدي الخليفة العباسي أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحي والهَيْبة والوقار ، والصبي يُلْقِي عليهم درساً ، فتعجب المهدي وقال : أُفٍّ لهذه السعانين يعني الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم ؟ ! ثم دنا من الصبي يريد أن يُقرِّعه ويؤنِّبه فقال له : كم سِنّك يا غلام ؟ فقال الصبي : سني سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدي - معترفاً بذكائه وأحقيقته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان - إذن - لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصضبح عَلَماً على القرآن ، فهناك بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمّا إنْ سُمِّي به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل في مادة (فَرَق) في القرآن يجد أن لها دوراً في قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر . . . ﴾ [البقرة : 50] .

والفَرْق أنْ تفصل بين شيء مُتصل مع اختلاف هذا الشيء ، وفي علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهي مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

(226/510)

إذن : ففَرْق البحر لموسى - عليه السلام - ليس فَرْقاً بل فرقاناً ، لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفرِق السائل إلى فِرْقيْن ، كل فِرق كالطود العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : 48] أي : نوراً يهدي الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون في دروب الحياة ؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتطحم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء - إذن - هام وضروري في مسيرة الإنسان ، وبه يهتدي لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بينة ، فلا يَتعب ، ولا يُتعِب الآخرين .

﴿ وَذِكْراً . . . ﴾ [الأنبياء : 48] أي : يذكِّر ويُنبِّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات

تكوّنَ الران الذي يحجب الرؤية ويُعمى البصيرة ، لذلك لما شبه النبي صلى الله عليه وسلم غفلة الناس قال : " تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً " .

وفي رواية " عوذاً عوذاً " أي يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوّن الحصير ؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير في البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

" فأيُّما قلب أُشْرِبها – يعني قَبلَها – العود تلو العود – نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين – صدق رسول الله – على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ، ما دامت السماوات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً – يعني منكُوساً – لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً " .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذي يقول الله فيه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : 14] والذكر هو الذي يُجلِّي هذا الران .

(227/510)

﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : 48] ومن صفاتهم أنهم : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب . . . ﴾

الخشية: الخوف بتعظيم ومهابة، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه أو تحتقره. فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذ كأن يراك مُقصِّراً، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير. فمعنى الخوف من الله: أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلِب منك، وفيما كلَّفك به؛ لأن مقاييسه تعالى عالية، وربما فاتكَ من ذلك شيء.

وفي موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة، فيقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء... ﴾ [فاطر: 28] لماذا؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته في كونه، وكلما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية، ومنه مهابة وإجلالاً؛ لذلك قال عنهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ... ﴾ [النحل: 50] أي: أعلى منهم وعلى رؤوسهم، لكن بحُبٍّ ومهابة.

ومعنى: ﴿ بالغيب... ﴾ [الأنبياء: 49] أنهم يخافون الله، مع أنهم لا يَروْنه بأعينهم، إنما يَرَوْنَه في آثار صُنْعه، أو بالغيب يعني: الأمور الغيبية التي لا يشاهدونها، لكن أخبرهم الله بها فأصبحت بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنها بأعينهم.

أو يكون المعنى: يخشون ربهم في خَلَواتِهم عن الخَلْق، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى في خَلْوتهم وانفرادهم، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السلوك أمام الناس رياءً، وهو نمرود في خَلْوته.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 49] والإشفاق بمعنى الخوف

أيضاً ، لكنه خَوْفَ يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه . ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . ﴾ .

(228/510)

أي : كما جاءت التوراة ﴿ ذِكْراً . . . ﴾ [الأنبياء : 48] كذلك القرآن الذي نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . ﴾ [الأنبياء : 50] يقولون : هذا شيء مبارك يعني : فيه البركة ، والبركة في الشيء أنْ يعطي من الخير فوق ما يتوقع فيه . كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسقي صحابته من قَعْب واحد من اللبن ، ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل . وتسمعهم يقولون : فلان راتبة ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده في كذا وكذا فنقول : لأن الله تبارك له في هذا القليل .

فمعنى ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . ﴾ [الأنبياء : 50] أي : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار ما لا ينتهي ، فبركته تشمل جميع النواحي وجميع المجالات إلى أنْ تقوم الساعة .

فمهما رددنا آياته نجدها جميلة مُوحِية مُعبِّرة . فكل عصر يأتي بجديد ، لا يخلق على كثرة

الرد ولا تنقَضي عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وكل العصور والأعمار والقرون فيعطي كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .

إذن : فالقرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . . ﴾ [الأنبياء : 50] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذي نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطي كل يوم لَوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلّم به ؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له : ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 50] أَمِثْل هذا الكلام يُنكر ؟

وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم في القرآن .

منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس في الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

(229/510)

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] إذن : هم يعرفون صِدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه في شيء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفي هذا دليل على أنهم ليست عندهم

يقظة في تغفيلهم .

وتأمل : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ . . ﴾ [الأنبياء : 50] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(230/510)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ﴾ ويقول : خذوا هذه الواو واجعلوها ههنا ﴿ والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ﴾ قال : انزعوا هذه الواو واجعلوها في ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾ [غافر : 7] .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ قال :

التوراة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ قال : الفرقان ، التوراة حلالها وحرامها مما فرق الله بين الحق والباطل .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ قال : الفرقان ، الحق آتاه الله موسى وهارون فرق بينهما وبين فرعون ، فصل بينهم بالحق . وقرأ ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] قال : يوم بدر .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تبارك وتعالى : وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ أي هذا القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال : خصلتان فيهما البركة : القرآن والمطر . وتلا ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ ﴿ وهذا ذكر مبارك ﴾ والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

قوله : ﴿ وَضِيَآءً وَذِكْراً ﴾ : يجوزُ أن يكونَ من باب عطفِ الصفاتِ ، فالمرادُ به شيءٌ واحدٌ أي : آتَيْناه الجامعَ بين هذه الأشياءَ . وقيل : الواوُ زائدةٌ . قال أبو البقاء : " ف ضياءً " حالٌ على هذا " / .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

قوله : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ ﴾ : في محلِّه ثلاثةُ الأوجهِ : وهي الجرُّ على النعتِ أو البدلِ أو البيانُ . والرفعُ والنصبُ على القطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 167 ﴾

(232/510)

فصل فى منزلة الإشفاق

قال ابن القيم :

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة (الإشفاق) .

قال الله تعالى: 21 :49 ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾

وقال تعالى: 52 :25 ، 27 ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ .

(الإشفاق) رقة الخوف وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة فإنها ألطف الرحمة وأرقها ولهذا قال صاحب المنازل:

"الإشفاق: دوام الحزن مقرونا بالترحم وهو على ثلاث درجات الأولى: إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد" .

أي تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية .

"وإشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع" .

أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله تعالى فيها : 25 :23 ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ وهي الأعمال التي كانت لغير الله وعلى غير أمره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويخاف أيضا أن يضيع عمله في المستقبل إما بتركه

وإما بمعاصى تفرقه وتحبطه فيذهب ضائعا ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها 2 :265 ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم: "فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ فقالوا : الله أعلم فغضب عمر وقال: قولوا : نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال: يا ابن أخي قل ولا تحقرن نفسك قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس لعمل قال عمر : لرجل غني يعمل بطاعة الله فبعث الله إليه الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله" .

قال: "وإشفاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها" .

هذا قد يوهم نوع تناقض فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر ؟ وليس بمتناقض .

فإن الإشفاق كما تقدم خوف مقرون برحمة فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهي مع نوع رحمة بملاحظة جريان القدر عليهم .

قال "الدرجة الثانية: إشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق" .

أى يحذر على وقته: أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل .

قال: "وعلى القلب: أن يزاحمه عارض" .

والعارض المزاحم: إما فترة وإما شبهة وإما شهوة كل سبب يعوق السالك.

قال "وعلى اليقين: أن يداخله سبب".

(234/510)

هو الطمأنينة إلى من بيده الأسباب كلها فمتى داخل يقينه ركون إلى سبب وتعلق به واطمأن إليه: قدح ذلك في يقينه وليس المراد: قطع الأسباب عن أن تكون أسبابا والإعراض عنها فإن هذا زندقة وكفر ومحال فإن الرسول سبب في حصول الهداية والإيمان والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة ودخول الجنة والكفر سبب لدخول النار والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها ولكن الذي يريد أن يحذر منه: إضافة يقينه إلى سبب غير الله ولا يتعلق بالأسباب بل يفنى بالمسبب عنها.

والشيخ ممن يبالغ في إنكار الأسباب ولا يرى وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب: يرجع إلى هذين الأصلين وقد عرفت ما فيهما وأن الصواب خلافهما وهو إثبات الأسباب والقوى وأن الفناء في توحيد الربوبية ليس هو غاية الطريق بل فوقه ما هو أجل منه وأعلى وأشرف.

ومن هاتين القاعدتين عرض في كتابه من الأمور التي أنكرت عليه ما عرض قال: "الدرجة

الثالثة: إشفاق يصون سعيه عن العجب ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ويحمل المريد على حفظ الجدِّ" .

الأول: يتعلق بالعمل والثاني: بالخلق والثالث: بالإرادة وكل منها له ما يفسده .

فالعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

والمخاصمة للخلق: مفسدة للخلق فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

والإرادة: يفسدها عدم الجد وهو الهزل واللعب فيشفق على إرادته مما يفسدها .

فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته: استقام سلوكه وقلبه وحاله والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 1 صـ 517 . 520 ﴾

(235/510)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والنُّور ، والحُجَّةِ والبرهان يشاركهم المستجيبون من أُمَمِهم في الاستبصار به . .

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا في الاستبصار بنور اليقين . و" المُتَّقِي " هو المُجَانِبُ لما يشغله ويحجبه عن الله ، فيتقي أسبابَ الحجاب وموجباتها .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

صار لهم في استحقاق هذه البصائرِ والخشية بالغيب إطراقُ السريرة ، وفي أوان الحضور استشعارُ الوَجَلِ من جريان سوء الأدب ، الحذَرُ من أن يبدو من الغيبِ من خفايا التقدير ما يوجبُ حجبةَ العبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للعامة ، وخوفُ قيام الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم ؛ فإنَّما يستأهل الكافة في الحشر مُعَجَّلٌ لهم في الوقت من تقريبٍ ومن تبعيد ، ومن مَحْوٍ ومن إثبات .

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

وَصَفَ القرآن بأنه ﴿ مبارك ﴾ ، وهو إخبارٌ عن دَوَامه ، من قولهم : بَرَكَ الطائرُ على الماءِ أي دَامَ .

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلْفَهِ وما لا ابتداء له – هو كلامه

القديم – فلا انتهاء للكتاب الدالِّ عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 506.505 ﴾

(236/510)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾

يعني : من الملائكة : ﴿ إِنّى إله مّن دُونِهِ ﴾ ، يعني : من دون الله ، ولم يقل ذلك غير إبليس عدو الله .

﴿ فَذَلِكَ ﴾ ، يعني : ذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظالمين ﴾ ، أي : الكافرين .

قوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ، يعني : أولم يخبروا في الكتاب ؟ قرأ ابن كثير : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ بغير واو والباقون ﴿ أَوَلَمْ ﴾ بالواو ومعناهما قريب .

﴿ أن السموات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ، يعني : فرقناهما وأبنا بعضها من بعض ؛ وقال مجاهد : كانت السماء لا تمطر والأرض لا تنبت ، ففتقناهما بالمطر والنبات ، وقال

القتبي : كانتا منضمتين ففتقناهما ، ففتقنا السماء بالمطر ، والأرض بالنبات وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : كانت السموات واحدة والأرض واحدة ، ففتقت السماء سبعاً ، والأرض مثلهن ؛ وقال الزجاج : ذكر السموات والأرض ثم قال : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ ففتقناهما ، لأن السموات يعبر عنها بالسماء بلفظ الواحد ، وأن السموات كانت سماء واحدة وكذلك الأرض ؛ والمعنى أن السموات كانت واحدة ففتقتها وجعلتها سبعاً ، وكذلك الأرض .

وقيل : إنما فتقت السماء بالمطر والأرض بالنبات بدليل قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْء حَىّ ﴾ ، فقال : رتقاً ولم يقل رتقين ، لأن الرتق مصدر ، والمعنى كانتا ذواتي رتق ، ودلهم بهذا على توحيده حيث قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْء حَىّ ﴾ يعني : جعلنا الماء حياة كل شيء وهو قول مقاتل ؛ وقال قتادة : خلق كل شيء حي من الماء ؛ وقال أبو العالية رحمه الله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء ﴾ يعني : من النطفة .

﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ يعني : أفلا يصدقون بتوحيد الله بعد هذه العجائب .

وقوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ ، يعني : الجبال الثقال الثوابت .

﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ ، يعني : كيلا تميل ؛ ويقال : كراهية أن تميل بكم .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ ، يعني : في الأرض وفي الجبال أودية .

والفجاج : جمع فج وهو كل شيء مخترق بين جبلين ﴿ سُبُلاً ﴾ يعني : طرقاً .

﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ، أي لكي يعرفوا الطرق .

﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ من الشياطين ويقال : محفوظاً من السقوط كيلا تسقط عليهم .

﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ يعني : عن شمسها وقمرها ونجومها وما فيها من الأدلة والعبر معرضون ، يعني : لا يتفكرون فيها .

وقرأ بعضهم : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ ومعناه إن السماء بنفسها أعظم آية ، لأنها متمسكة بقدرته .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل والنهار ﴾ ، يعني : الظلمة والضوء .

﴿ والشمس والقمر كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ، أي في دوران يجرون .

وقال قتادة : يعني : يجرون في فلك السلام ، وقال الكلبي : كل شيء يدور فهو فلك ؛ وقال القتبي : الفلك القطب الذي تدور به النجوم ، وهو كوكب خفي بقرب الفرقدين وبنات نعش عليه تدور السماء فقد ذكر بلفظ النعل يسبحون ، لأنه وصف منهم الفعل كما ذكر من العقلاء .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ ، يعني : في الدنيا ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن ﴾ ؛ وذلك أن أناساً من الكفار قالوا ؛ إن محمداً يموت ، فنزل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ ، يعني : بالغنى والفقر والرخاء والشدة ﴿ فِتْنَةً ﴾ ، يعني : اختباراً لهم .

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة .

قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بالياء بلفظ المغايبة ، وقرأ الباقون ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة ، وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ يَرجِعُونَ ﴾ بنصب الياء .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأبي سفيان بن حرب ، وأبي جهل بن هشام ، فقال أبو جهل لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف .

يقول ذلك كالمستهزىء ، فنزل قوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ ، يعني : ما يقولون لك إلا سخرية .

ثم قال : ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ بالسوء ؟ ويقال : أهذا الذي يعيب آلهتكم ؟ ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كافرون ﴾ ، يعني : جاحدون تاركون ؛ وهذا كقوله عز وجل ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزت قلوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : 45] قال الكلبي : وذلك حين نزل ﴿ إِنى أَنَاْ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ﴾ [الإسراء : 110] فقال أهل مكة : ما يعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب ، فنزل : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أهذا الذى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كافرون ﴾

قوله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، أي مستعجلاً بالعذاب وهو النضر بن الحارث ، وقال القتبي : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي خلقت العجلة في الإنسان ؛ ويقال : إن آدم عليه السلام استعجل حين خلق ، واستعجل كفار قريش نزول العذاب ، كما استعجل آدم عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ عَنْ ءاياتي ﴾ ؛ قال الكلبي رحمه الله : هو ما أصاب قوم نوح وقوم هود وصالح ، وكانت قريش يسافرون في البلدان فيرون آثارهم ومنازلهم ، ويقال : يعني : القتل ببدر ، ويقال : يعني : يوم القيامة .

﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بنزول العذاب .

ثم قال عز وجل: ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ ؟ يعني: البعث ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ ؟ يعني: إن كنت صادقاً فيما تعدنا أن نبعث؟ فنزل قوله عز وجل: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ ﴾ ، يعني: لا يصرفون ولا يرفعون.

﴿ عَن وُجُوهِهِمُ النار ﴾ ، لأن أيديهم تكون مغلولة، ﴿ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ في الآخرة، ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ؛ يعني: لا يمنعون عما نزل بهم من العذاب.

وجوابه مضمر، يعني: لو علموا ذلك الآن لامتنعوا من الكفر والتكذيب.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ ، يعني: الساعة تأتيهم فجأة، ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ ؛ يعني: فتفجؤهم، ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ ، أي صرفها عن أنفسهم.

﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، يعني: لا يمهلون ولا يؤجلون.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ كما استهزأ بك قومك، ﴿ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي نزل بالذين سخروا منهم، ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ ، يعني: العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

قوله عز وجل ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يعني: من يحفظكم ﴿ بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾ يعني: من عذاب الرحمن، معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن إلا الرحمن؟ ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبّهِمْ ﴾ ، يعني: عن التوحيد والقرآن.

﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ مكذبون تاركون.

قوله عز وجل: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾؛ الميم صلة يعني: ألهم آلهة.

﴿ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾، يعني: من عذابنا.

﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾، يعني: لا تقدر الآلهة أن تمنع نفسها من العذاب أو السوء، إن أرادوا بها فكيف ينصرونكم؟ ﴿ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾، يعني: يأمنون من عذابنا، وقال مجاهد: يعني: ولا هم منا ينصرون؛ وقال السدي: لا نصحبهم فندفع عنهم في أسفارهم؛ وقال القتبي: أي لا يجارون، لأن المجير صاحب لجاره.

ثم قال عز وجل: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ ﴾، يعني: أجلناهم وأمهلناهم ﴿ وَءابَاءهُمْ ﴾ من قبلهم.

﴿ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾، يعني: الأجل.

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ ﴾، يعني: أفلا ينظر أهل مكة؟ ﴿ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا ﴾، أي نأخذ ونفتح الأرض ننقصها.

﴿ مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾؟ ما حول مكة، أي ننقصها بمحمد صلى الله عليه وسلم من نواحيها

؛ ويقال : يعني : نقبض أرواح أشراف أهل مكة ورؤسائها ؛ وقال الحسن : هو ظهور المسلمين على المشركين ؛ وروى عكرمة عن ابن عباس قال : هو موت فقهائها وذهاب خيارها ؛ وقال الكلبي : يعني : السبي والقتل والخراب .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ ؟ يعني : أن الله تعالى هو الغالب وهم المغلوبون .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحى ﴾ ، يعني : بما نزل من القرآن .

﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ ، يعني : أن من يتصامم لا يسمع الدعاء إذا ما يخوّفون .

قرأ ابن عامر ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ بالتاء بلفظ المخاطبة ، ومعناه أن لا تقدر أن تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ، يعني : إذا خوفوا ؛ والباقون ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ ﴾ بالياء على وجه الحكاية .

ثم أخبر عن قلة صبرهم عند العذاب فقال : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مّنْ عَذَابِ رَبّكَ ﴾ ، يعني : من أصابتهم عقوبة من عذاب ربك ، ويقال : لئن أصابهم العذاب أي طرف من العذاب ، ويقال : أدنى شيء من عذاب ربك .

﴿ لَيَقُولُنَّ يا ويلنا قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ ، أي ظلمنا أنفسنا بترك الطاعة لله .

﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط ﴾ ، يعني : ميزان العدل ﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ ، يعني : في يوم القيامة .

قال ابن عباس : هو ميزان له كفتان ، وله لسانان يوزن به الأعمال الحسنات والسيئات ، فيجاء بالحسنات في أحسن صورة ويجاء بالسيئات في أقبح صورة .

(241/510)

﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ ، يعني : لا ينقص من ثواب أعمالهم شيئاً ؛ ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ ، يعني : وزن حبة ﴿ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ .

قرأ نافع ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ بضم اللام ؛ وقرأ الباقون بالنصب ؛ فمن قرأ بالرفع فمعناه وإن حصل للعبد مثقال حبة من خردل ، ومن قرأ بالنصب معناه وإن كان العمل مِثْقَالَ حَبَّة يصير خبر كان ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ ، يعني : جئنا بها وأحضرناها ، وقرأ بعضهم ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ بالمد ، يعني : جازينا بها وأعطينا بها ، وقراءة العامة بغير مد .

ثم قال : ﴿ وكفى بِنَا حاسبين ﴾ ، يعني : مجازين .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان ﴾ ؛ يقول : النصرة والنجاة ، فنصر موسى وهارون وأهلك عدوهما فرعون .

﴿ وَضِيَاء ﴾ ، يعني : الذي أنزل عليهما من الحلال والحرام في الكتاب .

قرأ ابن كثير ﴿ وَضِئَاءً ﴾ بهمزتين ، والباقون بهمزة واحدة .

﴿ وَضِيَاء وَذِكْراً ﴾ ، يعني : عظة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون الكفر والفواحش والكبائر ، وقال مجاهد : الفرقان الكتاب ، وقال السدي : الفرقان والنصر والضياء النور وذكراً قال التوراة ، وقال مقاتل : الفرقان والتوراة ؛ وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان ضِيَاء وَذِكْراً ﴾ ، يعني : أعطيناهما التوراة نوراً وعظة ؛ ويروى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان ضِيَاء ﴾ بغير واو وقال : اجعلوا هذه الواو عند قوله : ﴿ والذين استجابوا لِلَّهِ ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ ، يعني : يعملون لربهم في غيب عنه ، والله تعالى لا يغيب عنه شيء .

﴿ وَهُمْ مّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ ، يعني : من عذاب الساعة خائفون .

قوله عز وجل : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ ، يعني : هذا القرآن ذكر مبارك ، يعني : فيه السعادة والمغفرة للذنوب والنجاة لمن آمن به .

﴿ أنزلناه ﴾ لكم ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ ؟ يعني : أفأنتم للقرآن مكذبون جاحدون ؟ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 424 . 429 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِني إِله مِّن دُونِهِ ﴾

قال قتادة : عنى بهذه الآية إبليس لعنه الله حيث ادّعى الشركة ، ودعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعته ، قال : لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنّي إله من دون الله .

﴿ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾ الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾ قرأه العامّة بالواو ، وقرا ابن كثير ألم وكذلك هو في مصاحفهم . "ير" يعلم ﴿ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ .

قال ابن عباس والضحاك وعطاء وقتادة : يعني كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله سبحانه بينهما بالهواء .

قال كعب : خلق الله سبحانه السماوات والأرضين بعضها على بعض ثمّ خلق ريحاً توسّطتها ففتحها بها .

وقال مجاهد وأبو صالح والسدُّي : كانت السماوات مرتقة طبقة واحدة ، ففتقها فجعلها سبع سماوات ، وكذلك الأرضون كانت مرتقة طبقاً واحداً ففتقها فجعلها سبع أرضين .

عكرمة وعطية وابن زيد : كانت السماء رتقاً لا تمطر ، والأرض رتقاً لا تنبت ففتق

السماء بالمطر والأرض بالنبات ، نظيره قوله سبحانه ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع * والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ [الطارق : 1112] وأصل الرتق السدّ ومنه قيل للمرأة التي فرجها ملتحم رتقاً ، وأصل الفتق الفتح ، وإنّما وحّد الرتق وهو من نعت السموات والأرض لأنّه مصدر ، وضع موضع الاسم مثل الزور والصوم والفطر والعدل ونحوها .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ يعني أنّ كل شيء حيّ فإنّه خُلق من الماء ، نظيره قوله سبحانه ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور : 45] .

(243/510)

﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الرواسي ﴿ فِجَاجاً ﴾ طرقاً ومسالك واحدها فج ثمّ ، فسّر فقال ﴿ سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ من أن تسقط ، دليله قوله سبحانه ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] وقيل : محفوظاً من الشياطين ، دليله قوله سبحانه ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] .

﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ فلا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها يعني الكفار .

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ اليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يجرون ويسيرون ، والفلك مدار النجوم الذي يضمّها ، ومنه فلكة المغزل.

قال مجاهد : كهيئة حديدة الرّحا ، الضحّاك : فلكها : مجراها وسرعة سيرها .

وقال آخرون : الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه .

وقال بعضهم : الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب ، وكلّ كوكب يجري في السّماء الذي قدّر فيه وهو بمعنى قول قتادة .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ دوام البقاء في الدنيا ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ أي أفهم الخالدون ؟

كقول الشاعر :

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع . . . فقلت وأنكرت الوجوه هُمُ هُمُ

أي أهمُ ؟ نزلت هذه الآية حين قالوا : نتربّص بمحمد ريب المنون .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ منفوسة ﴿ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم ﴾ نختبركم ﴿ بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبّون ، وكيف صبركم فيما تكرهون .

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ ما يتّخذونك ﴿ إِلاَّ هُزُواً ﴾ سخريّاً ويقول بعضهم لبعض ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ بسوء ويعيبها ، قال عنترة

:

لا تذكري فرسي وما أطعمته . . . فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أي لا تعيبي مهري .

﴿ خُلِقَ الإنسان ﴾ يعني آدم ، قرأ العامّة : بضم الخاء وكسر اللام على غير تسمية الفاعل ، وقرأ حميد والأعرج بفتح الخاء واللام يعني خلق الله الانسان ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ اختلفوا فيه فقال بعضهم : يعني أنّ بنيته وخلقته من العجلة وعليها طُبع ، نظيره قوله ﴿ وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] .

قال سعيد بن جبير والسدي : لمّا دخل الروح في عيني آدم نظر إلى ثمار الجنّة ، فلمّا دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ .

وقال آخرون : معناه خلق الإنسان من تعجيل في خلق الله إيّاه ، وقالوا : خلقه في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع في خلقه قبل مغيبها .

قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كلّ شيء آخر النهار من يوم خلق الخلق ، فلمّا أحيا الروح

رأسه ولم يبلغ أسفله قال : يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس .

وقال بعضهم : هذا من المقلوب مجازه : خُلق العجل من الإنسان كقول العرب : " عرضت الناقة على الحوض " يريدون : عرضت الحوض على الناقة وكقولهم : إذا طعلت الشمس الشعرى ، واستوى العود على الحربا أي استوى الحربا على العود . وقال ابن مقبل :

حسرتُ كفّي عن السربالِ آخذه . . . فرداً يجرّ على أيدي المفدينا

يريد حسرت السربال عن كفّي ، ونحوها كثير .

وقال أبو عبيد : وكثير من أهل المعاني يقولون : العجل الطين بلغة حمير ، وانشدوا :

النبع تنبت بين الصخر ضاحية . . . والنخل ينبت بين الماء والعجل

أي الطين .

﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالعذاب وسؤال الآيات ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدنا من العذاب ، وقيل : القيامة ، وتقديره الموعود ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قال الله سبحانه ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ ﴾ يمنعون ﴿ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ السياط ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وفي الآية اختصار يعني لمّا أقاموا على كفرهم ولم يتوبوا .

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ يعني الساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تفجأهم ، وقال الفرّاء : تحيّرهم . ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم ويحرسكم ﴿ بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾ إذا انزل بكم عذابه ، ومعنى الآية : من أمر الرّحْمن وعذابه .

ثم قال سبحانه ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ كتاب ربّهم ﴿ مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ ﴾ الميم صلة فيه وفي أمثاله ﴿ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم .

﴿ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يمنعون ، عطية عنه : يُجارون ، يقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان أي مجير عنه .

مجاهد : ينصرون ويحفظون ، قتادة : لا يصحبون من الله بخير .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء ﴾ الكفّار ﴿ وَآبَآءَهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ يعني ما ننقص من أطراف المشركين ونزيد في

أطراف المؤمنين .

﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ أم نحن ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحي ﴾ بالقرآن ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء ﴾ قرأ أبو عبد الرَّحْمن السلمي بضم الياء وفتح الميم ، الضم رفع بمعنى أنّه لا يفعل بهم ذلك على مذهب ما لم يبين فاعله .

وقرأ ابن عامر "تُسمع" بتاء مضمومة وكسر الميم والصُمَّ نصباً ، جعل الخطاب للنبي (عليه السلام) ، وقرأ الآخرون : "يسمع" بياء مفتوحة وفتح الميم الصمُّ رفع على أنّ الفعل لهم ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ يخوّفون ويحذّرون .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ ﴾ أصابتهم ﴿ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف ، مقاتل وقتادة : عقوبة ، ابن كيسان : قليل ، ابن جريج : نصيب ، من قولهم : نفح فلان لفلان إذا أعطاه قسماً وحظّاً منه ، بعضهم : ضربة ، من قول العرب : نفحت الدابة برجلها إذا ضربت بها . قال الشاعر :

وعمرة من سروات النساء . . . تنفح بالمسك أردانها

﴿ لَيَقُولُنَّ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الموازين القسط ﴾ العذاب وإنّما وحدّ القسط

وهو جمع الموازين لأنّه في مذهب عدل ورضىً.

قال مجاهد : هذا مَثَل ، وإنّما أراد بالميزان العدل.

﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ لا ينقص من حسناته ولا يزاد على سيّئاته.

يروى أنّ داود (عليه السلام) سأل ربّه أن يريه الميزان فأراه ، فلمّا رآه غشي عليه ثم أفاق ، فقال : يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال : يا داود إنّي إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة.

فان قيل : كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ﴾ [الكهف : 105]؟ فالجواب : إن المعنى فيه : لا نقوّمها ولا تستقيم على الحقّ ، [من ناقصه سائله] لأنها باطلة.

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ رفع أهل المدينة المثقال بمعنى : وان وقع ، وحينئذ لا خبر له ونصبها الباقون على معنى : وإن كان ذلك الشيء مثقال ، ومثله في سورة لقمان ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أحضرناها ، وقرأ مجاهد : آتينا بالمدّ أي جازينا بها.

﴿ وكفى بِنَا حَاسِبِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان ﴾ يعني الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة.

وقال ابن زيد : النصر على الأعداء ، دليله قوله ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان ﴾ [الأنفال : 41] يعني يوم بدر ، وهذا القول أشبه بظاهر الآية لدخول الواو في الضياء والذكر للمتّقين ، وعلى هذا التأويل تكون الواو مقحمة زائدة كقوله سبحانه وتعالى ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب * وَحِفْظاً ﴾ [الصافات : 6-7] .

ويروى أنّ عكرمة كان يقول في هذه الآية : معناها : ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء ، ويقول : انقلوا هذه الواو إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ [غافر : 7] .

﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ أي يخافونه ولم يروه ﴿ وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُونَ * وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ جاحدون . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 273. 278 ﴾

(248/510)

وقال الزمخشري :

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾

وبعد أن وصف كرامتهم عليه ، وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية .

فاجأ بالوعيد الشديد ، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان «1» ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون ، كما قال وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد .

[سورة الأنبياء (21) : آية 30]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30)

قرئ «ا لم تر» بغير واو . ورتقا بفتح التاء ، وكلاهما في معنى المفعول ، كالخلق والنقض ، أى : كانتا مرتوقتين . فإن قلت : الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر ، ؟ ؟ ؟ بال الرتق ؟ قلت : هو على تقرير موصوف ، أى : كانتا شيئا رتقا . ومعنى ذلك : أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما . أو كانت السماوات متلاصقات ، وكذلك الأرضون لا فرج بينها ففتقها اللّه وفرّج بينها . وقيل : ففتقناهما بالمطر والنبات بعد ما كانت مصمتة ، وإنما قيل : كانتا دون كنّ ، لأنّ المراد جماعة السماوات وجماعة الأرض ، ونحوه قولهم : لقاحان سوداوان ، أى : جماعتان ، فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر .

فإن قلت : متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه

وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه، فقام مقام المرئىّ المشاهد. والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل، فلا بدّ للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه وَجَعَلْنا لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدّى إلى واحد، فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه، كقوله تعالى خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيء حىّ بسبب من الماء لا بدّ له منه. و«من» هذا «2» نحو «من» في قوله عليه السلام «3» «ما أنا من

---

(1). قوله «إن كان» لعله: إذ كان. (ع)

(2). قوله «و من هذا» لعله «و من هنا». (ع)

(3). أخرجه البخاري في الأدب المفرد والبزار والطبراني من رواية يحيى بن محمد بن قيس عن عمرو بن أبى عمرو عن أنس. زاد البزار قال يحيى: يقول: «لست من الباطل ولا الباطل منى» قال: لا نعلمه إلا عن أنس من هذا الوجه. واستنكره ابن عدى ليحيى بن محمد بن قيس. وقال ابن أبى حاتم: رواه الدراوردي عن عمرو عن المطلب عن معاوية نحوه مرفوعا ونقل عن أبيه وأبى زرعة أن رواية الدراوردي أشبه بالصواب.

دد ولا الدد منى» «1» وقرئ: حيا، وهو المفعول الثاني. والظرف لغو.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 31 إلى 32]

وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32)

أى كراهة أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وتضطرب. أو لئلا تميد بهم، فحذف «لا» واللام. وإنما جاز حذف «لا» لعدم الالتباس «2»، كما تزاد لذلك في نحو قوله لِئَلَّا يَعْلَمَ وهذا مذهب الكوفيين.

الفج: الطريق الواسع. فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً؟ قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالا كقوله:

لعزّة موحشا طلل قديم «3»

إن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة.

والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة، محفوظا حفظه بالإمساك

(1) . قوله عليه السلام : «ما أنا من دد» في الصحاح : الدد : اللهو واللعب . (ع)

(2) . قال محمود : «معناه كراهة أن تميد بهم ، أو تكون لا محذوفة لأمن الإلباس» قال أحمد : وأولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم : أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه . قال سيبويه : ومعناه أن أدعم الحائط إذا مال . وإنما قدم ذكر الميل اهتماما بشأنه ، ولأنه أيضا هو السبب في الادعام ، والادعام سبب في إعداد الخشبة ، فعامل سبب السبب معاملة السبب . وعليه حمل قوله تعالى أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى كذلك ما نحن فيه يكون الأصل : وجعلنا في الأرض رواسى لأجل أن تثبتها إذا مادت بهم «فجعل الميد هو السبب» كما جعل الميل في المثل المذكور سببا ، وصار الكلام : وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد فنثبتها ، ثم حذف قوله «فنثبتها» لأمن الإلباس إيجازا واختصارا ، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزمخشري الآية عليه ، فان مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها ، لأن اللّه كره ذلك ، ومكروه اللّه تعالى محال أن يقع ، كما أن مراده واجب أن يقع ، والمشاهد خلاف ذلك ، فكم من زلزلة مادت لها الأرض وكادت تقلب عاليها سافلها . وأما على تقريرنا فالمراد أن اللّه تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت ، وهذا لا يأبى وقوع الميد ، كما أن قوله أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى لا يأبى وقوع الضلال والنسيان من إحداهما ، لكنه ميد يستعقبه التثبيت ، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللمحة ثم يثبتها اللّه تعالى .

(3) لعزة موحشا طلل قديم عفاه كل أسحم مستديم

لكثير. والطلل: ما شخص من آثار الدار، والصفة إذا تقدمت على موصوفها كانت حالا منه كما هنا، لأن مذهب الكوفيين والأخفش أن «طلل» فاعل الظرف قبله وأن يعتمد. و«موحشا» حال منه مقدمة عليه. ويجوز أنه مبتدأ. وموحشا حال من الضمير المستتر في الظرف. وأجاز سيبويه أنه حال من المبتدإ المؤخر. وعاملها الاستقرار المحذوف، ولا يمتنع عنده اختلاف عامل الحال وعامل صاحبها، خلافا للجمهور. والموحش: الموقع في الوحشة، ضد المؤنس: الموقع في الأنس. ويجوز أن معناه كثير الوحوش. وعفاه: أهلكه. والاسم: صفة السحاب، أى: كل أسود دائم الأمطار.

ويروى هكذا

لمية موحشا طلل يلوح كأنه خلل

وهي بالكسر:

جمع خلة، وهي بطانة مخططة تغشى بها جفان السيوف، وسيور تلبس ظهور القسي.

بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل «1» ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة عَنْ آياتِها أى عما وضع اللّه فيها من الأدلة والعبر بالشمس «2» والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ، على الحساب القويم والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة ، وأىّ جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها ، والاعتبار بها ، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه . وقرئ عن آيتها ، على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أى : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية ، كالاستضاءة بقمريها ، والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها ، وهم عن كونها آية بينة على الخالق مُعْرِضُونَ .

[سورة الأنبياء (21) : آية 33]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

كُلٌّ التنوين فيه عوض من المضاف إليه ، أى : كلهم فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ والضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة ، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار ، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد ، وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة . فإن قلت : الجملة ما محلها ؟ قلت :

محلها النصب على الحال من الشمس والقمر. فإن قلت: كيف استبدّ بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ قلت: كما تقول: رأيت زيدا وهندا متبرجة ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل. ومنه قوله تعالى في هذه السورة وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً أو لا محل لها لاستئنافها. فإن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة، فكيف قيل:

جميعهم يسبحون في فلك؟ قلت: هذا كقولهم «كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفا» أى كل واحد منهم، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا، ولأنّ الغرض الدلالة على الجنس.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 34 إلى 35]

وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (35)

كانوا يقدّرون أنه سيموت فيشمتون بموته، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا، أى: قضى الله

---

(1). قوله «ويتزلزل» لعله: أو يتزلزل. (ع)

(2). قوله «والعبر بالشمس» لعله «كالشمس ... الخ» كعبارة النسفي. (ع)

أن لا يخلد في الدنيا بشرا، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت. فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فقل للشّامتين بنا أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا «1»

أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وإنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختبار. وفِتْنَةً مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

[سورة الأنبياء (21): آية 36]

وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36)

الذكر يكون بخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: سمعت فلانا يذكرك، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء، وإن كان عدوّا فذمّ «2». ومنه قوله تعالى سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ وقوله أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ والمعنى أنهم عاكفون على

ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب أن لا تذكر به، من كونهم شفعاء وشهداء. ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك. وأما ذكر اللّه وما يجب أن يذكر به من الوحدانية، فهم به كافرون لا يصدّقون به أصلا فهم

---

(1) وما أن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

لذي الأصبع العدواني. وقيل: لفروة بن مسبك المرادي. وقيل للفرزدق. والطب - بالكسر -: العادة والعاهة.

وأن زائدة، ويمكن أنها لتوكيد النفي، أى: ليست عادتنا أو علتنا الجبن، ولكن تلك المصيبات منايانا المقدرة لنا أو لكن علتنا منايانا. والدولة: النوبة من النصر، لأنه يتداول بين الجيشين. والشامت: المتشفى من غيظه بما أصاب عدوه. وشبههم بالسكارى على سبيل المكنية لعدم تيقظهم للعواقب، وأمرهم بالافاقة تخبيل، وبين ذلك بقوله: سيلقون من الهزيمة مثل ما لقينا، وتكون الدولة لنا عليهم فليفيقوا من سكرتهم.

(2). قال محمود: «الذكر يكون بخير وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد بقيد القرينة، فان كان الذاكر صديقا فهم منه الخير، وإن كان عدوا فهم منه الذم»

قال أحمد: وكذلك القول. ومنه قول موسى عليه السلام:

أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ معناه أتعيبون الحق لما جاءكم، ثم ابتدأ فقال أَسِحْرٌ هذا وإنما لم

يجعله معمولا للقول ومحكيا به ، لأنهم قفوا القول بأنه سحر فقالوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ولم يشككوا أنفسهم ، ولا استفهموا ، وقد مضى فيه غير هذا ، وإنما أطلقوا في قولهم أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ولم يقولوا : هذا الذي يذكر آلهتكم بكل سوء ، لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم ، رميا بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وحاشوها من نقل ذمها مفصلا ، فأوموا إليه بالاشارة المذكورة ، كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر ، فيومى إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض . فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساؤا الأدب على الرحمن .

(252/510)

أحق بأن يتخذوا هزؤا منك ، فإنك محق وهم مبطلون . وقيل معنى بِذِكْرِ الرَّحْمنِ قولهم : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة ، وقولهم وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وقيل بِذِكْرِ الرَّحْمنِ بما أنزل عليك من القرآن . والجملة في موضع الحال ، أى : يتخذونك هزؤا ، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 37 إلى 38]

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

كانوا يستعجلون عذاب اللّه وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة، وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم، كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه: أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم. وروى أنه لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام. وقيل خلقه اللّه تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خلقه قبل مغيبها. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنه النضر بن الحرث. والظاهر أن المراد الجنس. وقيل «العجل»: الطين، بلغة حمير. وقال شاعرهم:

والنّخل ينبت بين الماء والعجل «1»

واللّه أعلم بصحته. فإن قلت: لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ وقوله وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ قلت: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة. وقرئ: خلق الإنسان.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 39 إلى 40]

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

---

(1) النبع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يقول: النبع وهو شجر تتخذ منه القسي، في الصخرة الصماء الصلبة لا في غيرها، منبته أى نباته، والنخل ينبت في الأرض اللينة الريانة، فهو بين الماء والعجل، أى: الطين. وهذه لغة حمير كما قيل. والظاهر أن الشطر الأول التمثيل للصعب البخيل. والثاني للسهل الجواد. ويجوز أن الأول للشجاع. والثاني للجبان لشدة الأول ورخاوة الثاني.

[.....]

جواب لَوْ محذوف. وحِينَ مفعول به ليعلم، أى: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم مَتى هذَا الْوَعْدُ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدّام، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرا ينصرهم: لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم. ويجوز أن يكون يَعْلَمُ متروكا بلا تعدية، بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا

مستعجلين.

وحين: منصوب بمضمر، أى حين لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم، أى: لا يكفونها، بل تفجؤهم فتغلبهم. يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت. ومنه: فبهت الذي كفر، أى: غلب إبراهيم عليه السلام الكافر. وقرأ الأعمش: يأتيهم. فيبهتهم، على التذكير. والضمير للوعد أو للحين. فإن قلت: فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة؟ قلت: إلى النار أو إلى الوعد، لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها أو على تأويل العدة أو الموعدة. أو إلى الحين، لأنه في معنى الساعة. أو إلى البغتة. وقيل في القراءة الأولى: الضمير للساعة. وقرأ الأعمش: بغتة، بفتح الغين وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله، وتفسيح وقت التذكر عليهم، أى: لا يمهلون بعد طول الإمهال.

[سورة الأنبياء (21): آية 41]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (41)

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

[سورة الأنبياء (21): آية 42]

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42)

مِنَ الرَّحْمنِ أي من بأسه وعذابه بَلْ هُمْ معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم، فضلا أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه.

والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالئ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم

[سورة الأنبياء (21) : آية 43]

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

ثم أضرب عن ذلك بما في «أم» من معنى «بل» وقال أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ من العذاب تتجاوز

منعنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره؟

[سورة الأنبياء (21) : آية 44]

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (44)

ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما

كلا، أنا هم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْأمد، وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة، فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم، وذلك طمع فارغ وأمد كاذب أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام. فإن قلت: أى فائدة في قوله نَأْتِي الْأَرْضَ؟ قلت فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها، ناقصة من أطرافها.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 45 إلى 46]

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46)

قرئ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ ولا تسمع الصم، بالتاء والياء، أى: لا تسمع أنت الصم، ولا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يسمع الصم، من أسمع. فإن قلت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل إِذا ما يُنْذَرُونَ؟ قلت: اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين، كائنة للعهد لا للجنس. والأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا. أى: هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامّ من آيات الإنذار وَلَئِنْ

مَسَّتْهُمْ من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء ، لأذعنوا وذلوا ، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا .

وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات ، لأنّ النفح في معنى القلة والنزارة . يقال : نفحته الدابة وهو رمح يسير «1» ، ونفحه بعطية : رضخه ، ولبناء المرة .

(1) . قوله «وهو رمح يسير» في الصحاح : رمحه الفرس والبغل والحمار : إذا ضربه برجله . (ع)

(255/510)

[سورة الأنبياء (21) : آية 47]

وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (47)

وصفت الْمَوازِينَ بالقسط وهو العدل ، مبالغة ، كأنها في أنفسها قسط . أو على حذف المضاف ، أى : ذوات القسط . واللام في لِيَوْمِ الْقِيامَةِ مثلها في قولك : جئته لخمس ليال خلون من الشهر . ومنه بيت النابغة :

ترسّمت آيات لها فعرفتها لستّة أعوام وذا العام سابع «1»

وقيل : لأهل يوم القيامة ، أى لأجلهم . فإن قلت : ما المراد بوضع الموازين ؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : إرصاد الحساب السوىّ ، والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة ، من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة ، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات . والثاني : أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال . عن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان . ويروى : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فلما رآه غشى عليه ، ثم أفاق فقال : يا إلهى من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال : يا داود ، إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة .

فإن قلت : كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض ؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : توزن صحائف الأعمال . والثاني : تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة ، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة . وقرئ مِثْقالَ حَبَّةٍ على «كان» التامة ، كقوله تعالى وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ .

وقرأ ابن عباس ومجاهد : أَتَيْنا بِها وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة ، لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء . وقرأ حميد : أثبنا بها ، من الثواب . وفي حرف أبىّ : جئنا بها .

وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه ، أى : آتيناهما .

---

(1) عفا قسم من فرتنا فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدواقع

توسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

للنابغة . وعفا : بلى وخلا . وفرتنا اسم محبوبته . وقسم ، والفوارع ، وأريك : أسماء مواضع . والتلاع : المواضع المرتفعة . والدواقع – بالقاف – : المقفرة كثيرة التراب . ودقع الرجل دقعا ، كتعب ، إذا التصق بالدقعاء وهي الأرض الكثيرة التراب من شدة فقره . وأما بالفاء فهي التي يدفع فيها السيل بكثرة . وتوسمت بالواو تتبعت سمانها وعلاماتها فعرفتها بها . ويروى بالراء ، أى : تتبعت رسومها وآثارها فعرفتها ، أى : تلك المواضع السابقة .

وقوله «لستة أعوام» أى مستقبلا تمام ستة أعوام مضت من عهدها ، وهذا العام الحاضر الذي نحن فيه هو السابع .

ولو قال : لسبعة أعوام ، لأفاد أن السبعة كلها مضت وليس مرادا . فقول بعضهم : إنه كان يكفيه أن يقول :

لسبعة أعوام ، فعجز عن إتمامه ، وكمله بما لا معنى له ، لا وجه له إلا عدم التبصر .

[سورة الأنبياء (21) : آية 48]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48)

الْفُرْقانَ وهو التوراة وآتينا به ضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ والمعنى: أنه في نفسه ضياء وذكر. أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرا. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: الفرقان: الفتح، كقوله يَوْمَ الْفُرْقانِ وعن الضحاك: فلق البحر. وعن محمد ابن كعب: المخرج من الشبهات. وقرأ ابن عباس: ضياء، بغير واو: وهو حال عن الفرقان. والذكر: الموعظة، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم. أو الشرف.

[سورة الأنبياء (21) : آية 49]

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

محل الَّذِينَ جرّ على الوصفية. أو نصب على المدح. أو رفع عليه.

[سورة الأنبياء (21) : آية 50]

وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ هو القرآن. وبركته: كثرة منافعه، وغزارة خيره. انتهى انتهى. ا هـ

﴿الكشاف حـ 3 صـ 112. 121﴾

وقال الخازن :

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾

قيل عنى به إبليس حيث دعا إلى عبادة نفسه فإن أحداً من الملائكة لم يقل إني إله من دون الله ﴿ فذلك نجزيه جنهم كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها .

قوله عزّ وجلّ ﴿ أولم ير الذين كفروا ﴾ أي ألم يعلم الذين كفروا ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ قال ابن عباس كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ﴿ ففتقناهما ﴾ أي فصلنا بينهما بالهواء .

قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ، ثم خلق ريحاً بوسطهما ففتحهما بها ، وقيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ، ففتقها وجعلها سبع سموات وكذلك الأرض ، وقيل كانت السماء رتقاً لا تمطر ، والأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء ، من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر ، وذلك لأنه سبب لحياة كل شيء ، وقال المفسرون : معناه أن كل شيء حي فهو مخلوق من الماء وقيل يعني

النطفة .

فإن قلت قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان .

قلت خرج هذا الأمر مخرج الأغلب والأكثر يعني أن أكثر ما على وجه الأرض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ أي أفلا يصدقون ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ أن تميد بهم ﴾ أي لئلا تميد بهم ، قيل إن الأرض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة في الماء فأرساها الله فأثبتها بالجبال ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الرواسي ﴿ فجاجاً ﴾ أي طرقاً ومسالك والفج الطريق الواسع بين جبلين ﴿ سبلاً ﴾ وهو تفسير الفجاج ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أي إلى مقاصدهم ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ أي من أن يسقط ويقع وقيل محفوظاً من الشياطين بالشهب ﴿ وهم ﴾ يعني الكفار ﴿ عن آياتها معرضون ﴾ أي عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم ، وكيفية حركتها في أفلاكها ومطالعها ومغاربها ، والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة القدرة القاهرة ، لا يتفكرون ولا يعتبرون بها ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس كل في فلك يسبحون ﴾ أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء .

وإنما قال يسبحون ولم يقل تسبح ، على ما يقال لما لا يعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء ، وهو السباحة والجري .

والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شيء مستدير ، وجمعه أفلاك وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل ، يريد أن الذي تجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى ، وقيل الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيهن وقيل الفلك استدارة السماء ، وقيل الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم وقال أصحاب الهيئة الأفلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول ، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفة السموات إلا بأخبار الصادق فسبحان الخالق المدبر لخلقه بالحكمة والقدرة الباهرة غير المتناهية .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ يعني الدوام والبقاء في الدنيا ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون نشمت بموته ، فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى أن الله تعالى قضى أن لا يخلد في الدنيا بشراً لا أنت ولاهم فإن مت أنت أفيبقى هؤلاء وفي معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . .

سيلقى الشامتون كما لقينا

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ هذا العموم مخصوص بقوله تعالى : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك فإن الله تعالى حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت .

والذوق ها هنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله ﴿ ونبلوكم ﴾ أي نختبركم ﴿ بالشر والخير ﴾ أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر ، وقيل مما تحبون وما تكرهون ﴿ فتنة ﴾ أي ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ أي للحساب والجزاء .

(260/510)

قوله عزّ وجلّ ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن ﴾ أي ما ﴿ يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي سخرياً قيل نزلت في أبي جهل مر به النبي (صلى الله عليه وسلم) فضحك وقال هذا نبي بني عبد مناف ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ أي يقول بعضهم لبعض أهذا الذي يعيب آلهتكم والذكر يطلب على المدح والذم مع القرينة ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة وهو مسيلمة الكذاب قوله تعالى

﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ قيل معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع ، وقيل لما دخل الروح في رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة ، فوقع فقيل خلق الإنسان من عجل وأورث بنيه العجلة وقيل معناه خلق الإنسان من تعجيل في خلق الله إياه ، لأن خلقه كان بعد كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة ، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس فلما أحيا الروح رأسه قال يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس ، وقيل خلق بسرعة وتعجيل على غير قياس خلق بنيه لأنهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أطواراً أطواراً طوراً بعد طور وقيل خلق الإنسان من عجل أي من طين قال الشاعر :

والنخل ينبت بين الماء والعجل . . .

أي بين الماء والطين .

وقيل أراد بالإنسان النوع الإنساني يدل عليه قوله ﴿ سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يستعجلون العذاب ، وقيل نزلت في النظر بن الحرث ، ومعنى سأريكم آياتي أي مواعيدي فلا تطلبوا العذاب قبل وقته فأراهم يوم بدر ، وقيل كانوا

يستعجلون القيامة فلذلك قال تعالى ﴿ ويقولون ﴾ يعني المشركين ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أنهم إنما يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم، بين ما لهؤلاء المستهزئين فقال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون ﴾ يعني لا يدفعون ﴿ عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ قيل السياط ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا يمنعون من العذاب والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا بالعذاب ولما قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿ بل تأتيهم ﴾ يعني الساعة ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ أي تحيرهم ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ اي صرفها ودفعها عنهم ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يمهلون للتوبة والمعذرة ﴿ وقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ أي يا محمد كما استهزأ بك قومك ﴿ فحاق ﴾ أي نزل وأحاط ﴿ بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي عقوبة استهزائهم وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم.

قوله تعالى ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ أي يحفظكم ﴿ بالليل ﴾ إذ نمتم ﴿ والنهار ﴾ إذا انصرفتم في معايشكم ﴿ من الرحمن ﴾ قال ابن عباس معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن ﴿ بل هم عن ذكر ربهم ﴾ أي عن القرآن ومواعظه ﴿ معرضون ﴾ أي لا يتأملون في شيء منها ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ معناه ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي لا يقدرون على نصر

أنفسهم فكيف ينصرون من عبدهم ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال ابن عباس يمنعون وقيل يجارون وقيل ينصرون وقيل معناه لا يصحبون من الله بخير .

(262/510)

﴿ بل متعنا هؤلاء ﴾ يعني الكفار ﴿ وآباءهم ﴾ أي في الدنيا بأن أنعمنا عليهم وأمهلناهم ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ أي امتد بهم الزمان فاغتروا ﴿ أفلا يرون ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ يعني ننقص من أطراف المشركين ، ونزيد من أطراف المؤمنين يريد بذلك ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) وفتحه ديار الشرك أرضاً فأرضاً وقرية فقرية ، والمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها بأخذ الواحد ، بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وإدخالها في ملك محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وموت رؤوس المشركين المتنعمين بالدنيا .

أما كان لهم عبرة في ذلك فيؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع منا ومن إرادتنا فيهم ثم قال ﴿ أفهم الغالبون ﴾ استفهام بمعنى التقريع معناه بل نحن الغالبون وهم المغلوبون ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي أخوفكم

بالقرآن ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ أي يخوفون ﴿ ولئن مستهم ﴾ أي أصابتهم ﴿ نفحة من عذب ربك ﴾ قال ابن عباس طرف وقيل شيء قليل ﴿ ليقولن يا ويلنا إن كنا ظالمين ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل بعد ما أقروا على أنفسهم بالظلم والشرك.

وقوله عزّ وجلّ ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ أي ذوات العدل ومعنى وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيماً وقد يكون بخلافه فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل ومعنى وضعها إحضارها ﴿ ليوم القيامة ﴾ أي لأهل يوم القيامة قيل المراد بالميزان العدل والقسط بينهم في الأعمال، فمن أحاطت حسناته بسيئاته فاز ونجا وبالعكس ذل وخسر، والصحيح الذي عليه أئمة السلف أن الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد، وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وأكثر الأقوال أنه ميزان واحد وإنما جمع لاعتبار عدد الأعمال الموزونة به.

وروي أن داود سأل ربه عزّ وجلّ أن يريه الميزان فأراه كل كفته ما بين المشرق والمغرب فلما رآه غشي عليه، ثم فاق فقال إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ قال يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة.

فعلى هذا ففي كيفية وزن الأعمال مع أنها أعراض طريقان : أحدهما : أن توضع صحائف الأعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة ، وصحائف السيئات في كفة .

والثاني : أن يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة ، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة .

فإن قلت كيف تصنع بقوله ونضع الموازني القسط مع قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

قلت هذه في حق الكفار لأنهم ليس لهم أعمال توزن مع الكفر .

وقوله تعالى ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ يعني لا تبخس مما لها وما عليها من خير وشر شيئاً ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ معناه أنه لا ينقص من إحسان محسن ، ولا يزاد في إساءة مسيء ، وأراد بالحبة الجزء اليسير من الخردل ، ومعنى أتينا بها يعني أحضرناها لنجازي بها .

وعن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ، فيقول لا يارب ، فيقول أفلك عذر ، فيقول لا يا رب .

فيقول الله تعلى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب

ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء " أخرجه الترمذي .

السجل الكتاب الكبير ، وأصله من التسجيل لأنه يجمع أحكاماً والبطاقة ورقة صغيرة تجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه ، والطيش الخفة ، قلت في الحديث دليل على أن صحائف الأعمال هي التي توزن لا أن الأعمال تتجسد جواهر فتوزن والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ قال ابن عباس معناه كفى بنا عالمين حافظين لأن من حسب شيئاً فقد علمه وحفظه ، والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشبته عليه شيء وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه ويروى عن الشبلي أنه رؤي في المنام فقيل لهم ما فعل الله بك فقال :

حاسبونا فدققوا . . .

ثم منوا فأعتقوا

هكذا سيمة الملو . . .

ك بالمماليك يرفقوا

قوله عزّ وجلّ ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ يعني الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة ، وقيل الفرقان النصر على الأعداء فعلى هذا يكون ﴿ وضياء ﴾ يعني التوراة ومن قال الفرقان هو التوراة جعل الواو زائدة في وضياء والمعنى آتينا موسى التوراة ضياء ﴿ وذكراً للمتقين ﴾ يعني يتذكرون بمواعظها ويعملون بما فيها ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ أي يخافونه ولم يروه ، وقيل يخافونه في الخلوات إذا غابوا عن أعين الناس ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي خائفون ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ أي كما آتينا موسى التوراة ، فكذلك أنزلنا القرآن ذكراً مباركاً ، أي هو ذكر لمن آمن به مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير ﴿ أفأنتم ﴾ يا أهل مكة ﴿ له منكرون ﴾ أي جاحدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 293 . 297 ﴾

(265/510)

وقال النسفى :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾

من الملائكة ﴿ إِنّى إله مّن دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ إني ﴾ مدني وأبو عمرو ﴿ فَذَلِكَ ﴾ مبتدأ أي فذلك القائل خبره ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ وهو جواب الشرط ﴿ كذلك نَجْزِى

الظالمين ﴾ الكافرين الذين وضعوا الإلهية في غير موضعها وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والضحاك : قد ﴿ تحقق الوعيد في إبليس فإنه ادعى الإلهية لنفسه ودعا إلى طاعة نفسه وعبادته .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ﴿ ألم ير ﴾ مكي ﴿ أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا ﴾ أي جماعة السماوات وجماعة الأرض فلذا لم يقل كن ﴿ رَتْقاً ﴾ بمعنى المفعول أي كانتا مرتوقتين وهو مصدر فلذا صلح أن يقع موقع مرتوقتين ﴿ ففتقناهما ﴾ فشققناهما ، والفتق الفصل بين الشيئين والرتق ضد الفتق .

فإن قيل : متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك ؟ قلنا : إنه وارد في القرآن الذي هو معجزة فقام مقام المرئي المشاهد ، ولأن الرؤية بمعنى العلم وتلاصق الأرض والسماء وتباينهما جائزان في العقل ، فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بد له من مخصص وهو القديم جل جلاله .

ثم قيل : إن السماء كانت لاصقة بالأرض لافضاء بينهما ففتقناهما أي فصلنا بينهما بالهواء .

وقيل : كانت السماوات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله تعالى وجعلها سبع سماوات ، وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين .

وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ أي خلقنا من الماء كل حيوان كقوله ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مّن مَّاء ﴾ [النور: 45] أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: 37] ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون بما يشاهدون.

﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت من رسا إذا ثبت ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ لئلا تضطرب بهم فحذف "لا" واللام، وإنما جاز حذف "لا" لعدم الالتباس كما تزاد لذلك في ﴿ لّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد: 29] ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً ﴾ أي طرقاً واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب على الحال من ﴿ سُبُلاً ﴾ متقدمة، فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى ﴿ لّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح: 20] وبين هذه؟ قلت: الأول للإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني لبيان أنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة.

﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ في موضعه عن السقوط كما قال ﴿ وَيُمْسِكُ

السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] أو محفوظاً بالشهب عن الشياطين كما قال : ﴿ وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الكفار ﴿ عَنْ ءاياتها ﴾ عن الأدلة التي فيها كالشمس والقمر والنجوم ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ غير متفكرين فيها فيؤمنون .

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل ﴾ لتسكنوا فيه ﴿ والنهار ﴾ لتتصرفوا فيه ﴿ والشمس ﴾ لتكون سراج النهار ﴿ والقمر ﴾ ليكون سراج الليل ﴿ كُلٌّ ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أي كلهم والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع ، وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة ﴿ فِى فَلَكٍ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : الفلك السماء .

(267/510)

والجمهور على أن الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم و﴿ كل ﴾ مبتدأ خبره ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ يسيرون أي يدورون والجملة في محل النصب على الحال من الشمس والقمر ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ البقاء الدائم ﴿ أَفَأَين مِتَّ ﴾ بكسر الميم مدني وكوفي غير أبي بكر ﴿ فَهُمُ الخالدون ﴾ والفاء الأول

لعطف جملة على جملة والثاني لجزاء الشرط ، كانوا يقدرون أنه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا أي قضي الله أن لا يخلد في الدنيا بشر أفإن مت أنت أبيقى هؤلاء

.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم ﴾ ونختبركم سمي ابتلاء وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لأنه في صورة الاختبار ﴿ بالشر ﴾ بالفقر والضر ﴿ والخير ﴾ الغني والنفع ﴿ فِتْنَةً ﴾ مصدر مؤكد ل ﴿ نبلوكم ﴾ من غير لفظه ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر .

وعن ابن ذكوان ﴿ ترجعون ﴾ .

﴿ وَإِذَا رَاكَ الذين كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ ما يتخذونك ﴿ إِلاَّ هُزُواً ﴾ مفعول ثان ل ﴿ يتخذونك ﴾ نزلت في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم فضحك وقال : هذا نبي بني عبد مناف ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ ﴾ يعيب ﴿ ءالِهَتَكُمْ ﴾ والذكر يكون بخير وبخلافه فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء وإن كان عدواً فذم ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن ﴾ أي بذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ﴿ هُمْ كافرون ﴾ لا يصدقون به أصلاً فهم أحق أن يتخذوا هزواً منك فإنك محق وهم مبطلون .

وقيل : بذكر الرحمن أي بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون ، والجملة في موضع الحال أي يتخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله تعالى

، وكرر ﴿ هُمْ ﴾ للتأكيد ، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر فأعيد المبتدأ ﴿ خُلِقَ الإِنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ فسر بالجنس .

وقيل : نزلت حين كان النضر بن الحارث يستعجل بالعذاب .

والعجل والعجلة مصدران ، وهو تقديم الشيء على وقته ، والظاهر أن المراد الجنس وأنه ركب فيه العجلة فكأنه خلق من العجل ولأنه يكثر منه ، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم "خلق من الكرم" فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ثم منعه وزجره كأنه قال : ليس ببدع منه أن يستعجل فإنه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته فقد ركب فيه .

وقيل : العجل الطين بلغه حمير قال شاعرهم

والنخل ينبت بين الماء والعجل . . .

وإنما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه ، لأنه أعطاه القوة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة و ﴿ من عجل ﴾ حال أي عجلاً ﴾

سأوريكم آياتي ﴾ نقماتي ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالإتيان بها وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعياش في الوصل .

(269/510)

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ إتيان العذاب أو القيامة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ قيل : هو أحد وجهي استعجالهم ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ جواب "لو" محذوف و ﴿ حين ﴾ مفعول به ل ﴿ يعلم ﴾ أي لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ولا يجدون ناصراً ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ الساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ فتحيرهم أي لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ فلا يقدرون على دفعها ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ فَحَاقَ ﴾ فحل ونزل ﴿ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ جزاء ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ سلي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق

بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا .

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم ﴿ بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾ أي من عذابه إن أتاكم ليلاً أو نهاراً ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي بل هم معرضون عن ذكره ولا يخطورنه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء فصلحوا للسؤال عنه ، والمعنى أنه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالىء ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم .

ثم أضرب عن ذلك بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ ءالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مّن دُونِنَا ﴾ لما في "أم" من معنى "بل" فقال : ألهم الهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا .

ثم استأنف بقوله ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره .

ثم قال ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَءابَاءهُمْ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ أي ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا ، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً

لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلنا هم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وظنوا أنهم دائمون على ذلك وهو أمل كاذب ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي نقص أرض الكفر ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام ، وذكر ﴿ نَأْتِي ﴾ يشير بأن الله يجريه على أيدي المسلمين وإن عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم أي ليس كذلك بل يغلبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنصرنا .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحى ﴾ أخوفكم من العذاب القرآن ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصم الدعاء ﴾ بفتح الياء والميم ورفع الصم ، ﴿ ولا تسمع الصم ﴾ شامي على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ يخوفون .

واللام في ﴿ الصم ﴾ للمعهد وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين ، والأصل ولا يسمعون إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا ما أنذروا .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ دفعة يسيرة ﴿ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ صفة ل ﴿ نفحة ﴾ ﴿ لَيَقُولُنَّ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي ولئن مسهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم وأقروا أنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا ، وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة لأن النفح يدل على القلة يقال نفحه بعطية : رضخه بها مع أن بناءها للمرة .

وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال : نفحته الدابة وهو رمح لين ، ونفحه بعطية رضخه والبناء للمرة .

﴿ وَنَضَعُ الموازين ﴾ جمع ميزان وهو ما يوزن به الشيء فتعرف كميته .

وعن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان .

وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما في قوله ﴿ يا أيها الرسل ﴾ [المؤمنون : 51] والوزن لصحائف الأعمال في قول ﴿ القسط ﴾ وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها في نفسها قسط ، أو على حذف المضاف أي ذوات القسط ﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ لأهل يوم القيامة أي لأجلهم ﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ من الظلم ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ وإن كان الشيء مثقال حبة ﴿ مثقال ﴾ بالرفع : مدني وكذا في "لقمان" على "كان" التامة ﴿ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ صفة ل ﴿ حبة ﴾ ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أحضرناها .

وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم "ذهبت بعض أصابعه" ﴿ وكفى بِنَا

حاسبين ﴾ عالمين حافظين ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : لأن من حفظ شيئاً حسبه وعلّه .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء وَذِكْراً ﴾ قيل : هذه الثلاثة هي التوراة فهي فرقان بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به ويتوصل به إلى سبيل النجاة ، وذكر أي شرف أو وعظ وتنبيه أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دينهم .

ودخلت الواو على الصفات كما في قوله ﴿ وَسَيّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ﴾ [آل عمران : 39] وتقول "مررت بزيد الكريم والعالم والصالح" .

(272/510)

ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله : ﴿ لّلْمُتَّقِينَ ﴾

ومحل ﴿ الذين ﴾ جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ يخافونه ﴿ بالغيب ﴾ حال أي يخافونه في الخلاء ﴿ وَهُمْ مّنَ الساعة ﴾ القيامة وأهوالها ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير الخير غزير النفع ﴿ أنزلناه ﴾ على محمد ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ استفهام توبيخ أي جاحدون أنه منزل من عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 81.76 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾

من الملائكة أو من الخلائق . ﴿ إِنِّى إله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ يريد به نفي النبوة وادعاء ذلك عن الملائكة وتهديد المشركين بتهديد مدعي الربوبية . ﴿ كذلك نَجْزِى الظالمين ﴾ من ظلم بالإشراك وادعاء الربوبية .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أو لم يعلموا ، وقرأ ابن كثير بغير واو . ﴿ أَنَّ السموات والارض كَانَتَا رَتْقاً ﴾ ذات رتق أو مرتوقتين ، وهو الضم والالتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقة متحدة . ﴿ ففتقناهما ﴾ بالتنويع والتمييز ، أو كانت السموات واحدة ففتقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً ، وكانت الأرضون واحدة فجعلت باختلاف كيفياتها وأحوالها طبقات أو أقاليم . وقيل ﴿ كَانَتَا ﴾ بحيث لا فرجة بينهما ففرج.

وقيل ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ لا تمطر ولا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات ، فيكون المراد ب ﴿ السموات ﴾ سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو ﴿ السموات ﴾ بأسرها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار ، والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتق

عارض مفتقر إلى مؤثر واجب وابتداء أو بوسط ، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب ، وإنما قال ﴿ كَانَتَا ﴾ ولم يقل كن لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض . وقرىء ﴿ رَتْقاً ﴾ بالفتح على تقدير شيئاً رتقاً أي مرتوقاً كالرفض بمعنى المرفوض . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَىْءٍ حَيّ ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى ﴿ الله خالق كُلّ دَابَّةٍ مّن مَّاء ﴾ وذلك لأنه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه ، أو صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا يحيا دونه . وقرىء "حياً" على أنه صفة ﴿ كُلَّ ﴾ أو مفعول ثان ، والظرف لغو والشيء مخصوص بالحيوان . ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ مع ظهور الآيات .

(274/510)

﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ ثابتات من رسا الشيء إذا ثبت . ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ كراهة أن تميل بهم وتضطرب ، وقيل لأن لا تميد فحذف لا لأمن الإلباس . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ في الأرض أو الرواسي . ﴿ فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ مسالك واسعة وإنما قدم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك ، أو ليبدل منها ﴿ سُبُلاً ﴾ فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسعها للسابلة مع ما يكون فيه من التوكيد . ﴿ لَعَلَّهُمْ

يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مصالحهم .

﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ عن الوقوع بقدرته أو الفساد والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته ، أو استراق السمع بالشهب . ﴿ وَهُمْ عَنْ ءاياتها ﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته التي يحس ببعضها ويبحث عن بعضها في علمي الطبيعة والهيئة . ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ غير متفكرين .

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ اليل والنهار والشمس والقمر ﴾ بيان لبعض تلك الآيات . ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ ﴾ أي كل واحد منهما ، والتنوين بدل من المضاف إليه والمراد بالفلك الجنس كقولهم : كساهم الأمير حلة . ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ يسرعون على سطح الفلك إسراع السابح على سطح الماء ، وهو خبر ﴿ كُلٌّ ﴾ والجملة حال من ﴿ الشمس والقمر ﴾ ، وجاز إنفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما ، وإنما جمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة فعلهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الخلد أَفَإِيْن مّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون وفي معناه قوله :

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا . . . سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

والفاء لتعلق الشرط بما قبله والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ ذائقة مرارة مفارقتها جسدها ، وهو برهان على ما أنكروه . ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ ونعاملكم معاملة المختبر . ﴿ بالشر والخير ﴾ بالبلايا والنعم . ﴿ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء مصدر من غير لفظه . ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر ، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة والابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق .

﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾ ما يتخذونك . ﴿ إِلاَّ هُزُواً ﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون : ﴿ أهذا الذى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي بسوء ، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء . ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن ﴾ بالتوحيد أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم أو بالقرآن . ﴿ هُمْ كافرون ﴾ منكرون فهم أحق أن يهزأ بهم ، وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر .

﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك : خلق زيد من الكرم ، جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ولذلك قيل : إنه على القلب ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد . روي أنها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب . ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءاياتي ﴾ نقماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار . ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالإتيان بها ، والنهي عما جبلت عليه

نفوسهم ليقعدوها عن مرادها .

﴿ ويَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ وقت وعد العذاب أو القيامة . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم .

(276/510)

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ محذوف الجواب و ﴿ حِينَ ﴾ مفعول ﴿ يَعْلَمُ ﴾ أي : لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون منه بقولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرون على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا ، ويجوز أن يترك مفعول ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ويضمر لحين فعل بمعنى : لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بطلان ما هم عليه حين لا يكفون ، وإنما وضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك .

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ العدة أو النار أو الساعة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة مصدر أو حال . وقرىء بفتح الغين . ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم . وقرىء الفعلان بالياء والضمير ل ﴿ الوعد ﴾ أو ال ﴿ حِينَ ﴾ وكذا في قوله : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ لأن الوعد بمعنى

النار أو العدة والحين بمعنى الساعة ، ويجوز أن يكون ل ﴿ النار ﴾ أو لل ﴿ بَغْتَةً ﴾ .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا .

﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وعد له بأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا يعني جزاءه .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمستهزئين . ﴿ مَن يَكْلَؤُكُمْ ﴾ يحفظكم . ﴿ باليل وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ من بأسه إن أراد بكم ، وفي لفظ ﴿ الرحمن ﴾ تنبيه على أن لا كالئ غير رحمته العامة وأن اندفاعه بمهلته ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا كلئوا منه عرفوا الكالي . وصلحوا للسؤال عنه .

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا ، أو من عذاب يكون من عندنا والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب ، فإنه عن المعرض الغافل عن الشيء بعيد وعن المعتقد لنقيضه أبعد . ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ استئناف بإبطال ما اعتقدوه فإن من لا يقدر على نصر نفسه ولا يصحبه

نصر من الله فكيف ينصر غيره .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَآءِ وَءَابَاءَهُمْ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم وهو الاستدراج والتمتع بما قدر لهم من الأعمار ، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك ، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأرض ﴾ أرض الكفرة . ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بتسليط المسلمين عليها ، وهو تصوير لما يجريه الله تعالى على أيدي المسلمين . ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ رسول الله والمؤمنين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بالوحى ﴾ بما أوحي إلي . ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعاء ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تسمع الصم على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرىء بالياء على أن فيه ضميره ، وإنما سماهم ﴿ الصم ﴾ ووضعه موضع ضميرهم للدلالة على تصامهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون . ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ منصوب ب ﴿ يَسْمَعُ ﴾ أو ب ﴿ الدعاء ﴾ والتقييد به لأن الكلام في الإنذار أو للمبالغة في تصامهم وتجاسرهم .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ أدنى شيء ، وفيه مبالغات ذكر المس وما فيه النفحة من معنى القلة ، فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء والبناء الدال على المرة . ﴿ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ من الذي ينذرون به . ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لدعوا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ العدل توزن بها صحائف الأعمال . وقيل وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل ، وإفراد ﴿ الْقِسْطَ ﴾ لأنه مصدر وصف به للمبالغة . ﴿ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله ، أو فيه كقولك : جئت لخمس خلون من الشهر . ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ من حقها أو من الظلم . ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة ، ورفع نافع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ على ﴿ كَانَ ﴾ التامة . ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أحضرناها ، وقرئ ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾ بمعنى جازينا بها من الإيتاء فإنه قريب من أعطينا ، أو من المؤاتاة فإنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء وأثبنا من الثواب وجئنا ، والضمير للمثقال وتأنيثه لإضافته إلى ال ﴿ حَبَّةٍ ﴾ . ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل ، ﴿ وَضِيَاءً ﴾ يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة ، ﴿ وَذِكْرًا ﴾ يتعظ به المتقون أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع . وقيل ﴿ الفرقان ﴾ النصر ،

وقيل فلق البحر وقرىء ﴿ ضِيَاء ﴾ بغير واو على أنه حال من ﴿ الفرقان ﴾ .

﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ صفة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أو مدح لهم منصوب أو مرفوع . ﴿ بالغيب ﴾ حال من الفاعل أو المفعول . ﴿ وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض .

﴿ وهذا ذِكْرٌ ﴾ يعني القرآن . ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير خيره . ﴿ أنزلناه ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ استفهام توبيخ . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 90 . 96 ﴾

(279/510)

وقال ابن جزى :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ الآية

على فرض أن لو قالوا ذلك ، ولكنهم لا يقولونه ، وإنما مقصد الآية الردّ على المشركين وقيل : إن الذي قال : إني إله هو إبليس لعنه الله .

﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ الرتق مصدر وصف به ، ومعناه الملتصق بعضه ببعض الذي لا صدع فيه ولا فتح ، والفتق : الفتح فقيل : كانت السموات ملصقة بالأرض ففتقها الله

بالهواء ، وقيل كانت السموات ملتصقة بعضها ببعض ، والأرضون كذلك ففتقهما الله سبعاً سبعاً ، والرؤية في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾ على هذه رؤية قلب ، وقيل : فتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات ، فالرؤية على هذه رؤية عين .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أي خلقنا من الماء كل حيوان ، ويعني بالماء المنيّ . وقيل : الماء الذي يشرب لأنه سبب لحياة الحيوان ، ويدخل في ذلك النبات باستعارة ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ يعني الجبال ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ تقديره كراهية أن تميد ﴿ فِجَاجاً ﴾ يعني الطرق الكبار ، وإعرابه عند الزمخشري حال من السبل ، لأنه صفة تقدّمت على النكرة ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني في طريقهم وتصرفاتهم .

(280/510)

﴿ سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ أي حفظ من السقوط ومن الشياطين ﴿ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يعني الكواكب والأمطار والرعد والبرق وغير ذلك ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ التنوين في ﴿ كُلٌّ ﴾ عوض عن الإضافة أي : كلهم في فلك يسبحون يعني ؛ الشمس والقمر ، دون الليل والنهار ، إذ لا يوصف الليل والنهار بالسبح في الفلك فالجملة في موضع حال من الشمس والقمر أو مستأنفاً ، فإن قيل : لفظ كلّ ويسبحون جمع ، فكيف يعني الشمس

والقمر وهما اثنان ؟ فالجواب : أنه أراد جنس مطالعها كل يوم وليلة ، وهي كثيرة قاله الزمخشري وقال القزنوي : أراد الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة ، وعبر عنهما بضمير الجماعة العقلاء في قوله : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ ، لأنه وصفهم بفعل العقلاء وهو السبح ، فإن قيل : كيف قال في فلك ، وهي أفلاك كثيرة ؟ فالجواب أنه أراد كل واحد يسبح في فلكه ، وذلك كقولهم : كساهم الأمير حلة أي كسا كل واحد منهم حلة ، ومعنى الفلك جسم مستدير ، وقال بعض المفسرين : إنه من موج ، وذلك بعيد ، والحق أنه لا يُعلم صفته وكيفيته إلا بإخبار صحيح عن الشارع ، وذلك غير موجود ، ومعنى يسبحون يجرون ، أو يدورون ، وهو مستعار من السبح بمعنى العوم في الماء ، وقوله : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ من المقلوب الذي يقرأ من الطرفين .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ﴾ سببها أن الكفار طعنوا على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه بشر يموت ، وقيل : إنهم تمنوا موته ليشمتوا به ، وهذا أنسب لما بعده ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ موضع دخول الهمزة فهم الخالدون وتقدمت لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ أي كل نفس مخلوقة لا بدّ لها أن تذوق الموت ، والذوق هنا استعارة ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير ﴾ أي نختبركم بالفقر والغنى والصحة والمرض وغير ذلك من أحوال الدنيا ، ليظهر الصبر على الشر والشكر على الخير ، أو خلاف ذلك ﴿ فِتْنَةً ﴾ مصدر من معنى نبلوكم .

﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي يذكرهم بالذم دلت على ذلك قرينة الحال فإن الذكر قد يكون بذمّ أو مدح ، والجملة تفسير للهزء أي يقولون : أهذا الذي ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ الجملة في موضع الحال أي كيف ينكرون ذمّك لآلهتهم وهم يكفرون بالرحمن ، فهم أحق بالملامة ، وقيل : معنى بذكر الرحمن تسميته بهذا الاسم ، لأنهم أنكروها ، والأول أغرق في ضلالهم .

﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ خلق شديد الاستعجال وجاءت هذه العبارة للمبالغة : كقولهم خلق حاتم من جود ، والإنسان هنا جنس ، وسبب الآية : أن الكفار استعجلوا الآيات التي اقترحوها والعذاب الذي طلبوه ، فذكر الله هذا توطئة لقوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ، وقيل : المراد هنا آدم ، لأنه لما وصلت الروح إلى صدره أراد أن يقوم . وهذا ضعيف ، وقيل ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ : أي من طين ، وهذا أضعف ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ وعيد وجواب على ما طلبوه من التعجيل ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ الآية : تفسير لاستعجالهم ﴿ الوعد ﴾ القيامة وقيل : نزول العذاب بهم .

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ﴾ جواب لو محذوف ﴿ حِينَ ﴾ مفعول به ليعلموا : أي لو يعلمون الوقت الذي يحيط بهم العذاب لآمنوا وما استعجلوا ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ الضمير الفاعل للنار ، وقيل للساعة ﴿ تَبْهَتُهُمْ ﴾ أي تفجؤهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يؤخرون عن العذاب ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ ﴾ الآية تسلية بالتأسي ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط .

﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أي من يحفظكم من أمر الله ، ومن استفهامية ، والمعنى تهديد ، وإقامة حجة ، لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا أنهم ليس لهم مانع ولا حافظ ، ثم جاء قوله ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ بمعنى أنهم إذا سئلوا عن ذلك السؤال لم يجيبوا عنه لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا ، ولكنهم يعرضون عن ذكر الله : أي عن الجواب الذي فيه ذكر الله ، وقال الزمخشري : معنى الإضراب هنا أنهم معرضون عن ذكره ، فضلاً عن أن يخافوا بأسه .

﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ أي تمنعهم من العذاب ، وأم هنا للاستفهام ، والمعنى الانكار والنفي ، وذلك أنه لما سألهم عمن يكلؤهم : أخبر بعد ذلك أن آلهتهم لا تمنعهم ولا تحفظهم ثم احتج عن ذلك بقوله : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، فإن من لا ينصر

نفسه أولى أن لا ينصر غيره ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ الضمير للكفار : أي لا يصحبون منا بنصر ولا حفظ .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء ﴾ أي متعناهم بالنعم والعافية في الدنيا ، فطغوا بذلك ونسوا عقاب الله ، والإضراب ببل عن معنى الكلام المتقدم : أي لم يحملهم على الكفر والاستهزاء نصر ولا حفظ ، بل حملهم على ذلك أنا متعناهم وآباءهم .

(283/510)

﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ذكر في [الرعد : 43] ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصم الدعآء ﴾ إشارة إلى الكفار ، والصم استعارة في إفراط إعراضهم ﴿ نَفْحَةٌ ﴾ أي خطرة وفيها تقليل العذاب ، والمعنى أنهم لو رأوا أقل شيء من عذاب الله لأذعنوا واعترفوا بذنوبهم ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط ﴾ أي العدل ، وإنما أفرد القسط وهو صفة للجمع ، لأنه مصدر وصف به كالعدل والرضا ، وعلى تقدير ذوات القسط ، ومذهب أهل السنة أن الميزان يوم القيامة حقيقة ، له كفتان ولسان وعمود توزن فيه الأعمال ، والخفة والثقل متعلقة بالأجسام ، وإما صحف الأعمال ، أو ما شاء الله ، وقالت : المعتزلة : إن الميزان عبارة عن العدل ، في الجزاء ﴿ لِيَوْمِ القيامة ﴾ ، وقال ابن عطية تقديره : لحساب يوم القيامة ، أو

لحكمة ، فهو على حذف مضاف وقال الزمخشري : هو كقولك كتبت الكتاب لست خلون من الشعر ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ أي وزنها والرفع على أن كان تامة ، والنصب على أها ناقصة واسمها مضمر ﴿ الفرقان ﴾ هنا التوراة ، وقل التفرقة بين الحق والباطل بالنصر وإقامة الحجة .

﴿ وهذا ذِكْرٌ ﴾ يعني القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 25. 27 ﴾

(284/510)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) ﴾

التفسير : إنه سبحانه بدأ في أول السورة بذكر المعاد ثم انجر الكلام إلى النبوات وما يتصل بها سؤالاً وجواباً فختم الكلام بالإلهيات لأنها المقصود بالذات فقال على سبيل الإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها بواسطة "أم" المنقطعة ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ نسبت إلى الأرض كما يقال " فلان من مكة " لأنها اصنام تعبد من الأرض ، لأن الالهة على ضربين أرضية وسماوية . أو أراد أنها من جنس الأرض لأنها تنحت من حجر أو تعمل من جوهر آخر أرضي . ويقال : أنشر الله الموتى ونشرها اي أحياها . ومن أعظم المنكرات

أن ينشر الموتى بعض الموات كأنهم بإدعائهم لها الإلهية أدعوا لها الإنشار وإن كانوا منكرين البعث فضلاً عن قدرة الأصنام عليه لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور .

والإنشار من جملة المقدورات بالدلائل الباهرة وفيه باب من التهكم والتسجيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الاقتدار على الإبداء والإعادة من لوازم الإلهية . ومعنى ﴿ هم ﴾ افادت الخصوصية كأنه قيل : أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم ، وفيه رمز إلى أن الأمر المختص بالاهتداء هو وحده . ولما قدم الإنكار شرع في دليل التوحيد فقال : ﴿ لو كان فيهما ﴾ أي في السموات والأرض وقد مر ذكرهما ﴿ آلهة إلا الله ﴾ اي غير الله . قال النحويون : إلا ههنا بمعنى لتعذر حمل إلا على الاستثناء لأنها تابعة لجمع منكور غير محصور ، والاستثناء لا يصح إلا إذا كان المستثنى داخلاً في المستثنى منه لولا الاستثناء وقد يقال : إن " إلا " في هذه المادة لا يمكن أن تكون للاستثناء لأنا لو حملناها على الاستثناء لصار المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله لم يحصل الفساد . وللمفسرين في

تفسير الآية طريقان : أحدهما حمل الغائب على الشاهد والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة غير الواحد الذي هو فاطرهما ﴿ لفسدتا ﴾ وفيه دلالة على أمرين : الأول وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً ، والثاني أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه لقوله ﴿ غير الله ﴾ وإنما وجب الأمر أن لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف . وثانيهما طريق التمانع بأن يقال : لو فرضنا إلهين وأراد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه ، فإن وقع مرادهما لزم اجتماع الضدين في محل واحد ، وإن لم يقع مرادهما لزم عجزهما ، وإن وقع مراد أحدهما دون الآخر فذلك الآخر عاجز لا يصلح لإلهية . والاعتراض على هذا التقدير من وجهين : الأول أن اختلافهما في الإرادة أمر ممكن والممكن لا يجب أن يقع .

والثاني أن الفساد في السموات والأرض كيف يترتب على اختلافهما وفي الجواب طريقان : أحدهما الرجوع إلى التفسير الأول وهو إحالة الأمر على ما هو الغالب المعتاد من أن الملك عقيم ولا يجتمع فحلان على شول ، والشول جماعة النوق التي جف لبنها وارتفع ضرعها وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية ، فلا بد من وقوع التنازع والاختلاف وحدوث

الهرج والمرج عند ذلك. الطريق الثاني العدول إلى ضرب آخر من البيان، وهو أن اتفاق الإلهين على مقدور واحد محال لأن كلاً منهما مستقل بالتأثير كامل في القدرة، فإذا وقع المقدور بأحدهما استحال أن يقع بالآخر مرة أخرى على أنه لو اراد كل واحد منهما أن يوجده هو فهذا أيضاً اختلاف.

ولو قيل: إنه يريد كل واحد منهما أن يكون الموجد له أحدهما لا بعينه فهذه إرادة مبهمة لا تصلح للتأثير، فلا بد من الاختلاف وقد عرفت حاله ولزوم الفساد حينئذ ظاهر، لأن كل ما يصدر عن إلهين عاجزين أو إله عاجز لم يكن على الوجه الأصلح والنمط الأصوب، بل العاجز لا يصلح للإيجاد اصلاً فلا يوجد على ذلك التقدير شيء من الممكنات وهو الفساد الكلي. ومنهم من يقرر دليل التمانع على وجوه أخر منها: أنا لو قدرنا إلهين فهل يقدر كل واحد منهما على أن يمنع صاحبه عن مراده أم لا؟ فإن قلت: يقدر. كان كل منهما مقهوراً للآخر، وإن قلت: لا يقدر فقد ثبت عجز كل واحد منهما. ومنها أن أحدهما هل يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا؟ فإن قدر فالمستور عنه جاهل عاجز وإلا فالأول عاجز. ولا يخفى ما في أمثال هذين الوجهين من الضعف لأن عدم القدرة على

المحال لا يسمى عجزاً ولهذا لا يمكن أن يقال : إنه تعالى عاجز عن خلق مثله أو إنه إذا أوجد شيئاً نفذت قدرته عن خلق ذلك الشيء وحصل له عجز . ومن الطاعنين في دليل التمانع من فسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والأرض آلهة غير الله كما تزعم عبدة الأصنام لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على وجوه التدبير والتصرف لأنفسها فضلاً عن غيرها . ولقائل أن يقول : إن الآلهة لو كانت منفردة بالتدبير يلزم الفساد . أما أنها لو كانت وسائط أو معاونة للإله الأعظم كما تزعم عبدة الأوثان فمن أين يلزم الفساد . واعلم أنا قد بينا دلائل التوحيد في مواضع من هذا الكتاب ولا سيما في سورة البقرة في تفسير قوله ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ [الآية : 163] ولنا في هذا المقام طريقة أخرى ما أظنها وطئت قبلي فأقول وبالله التوفيق : إن الوحدة من صفات الكمال وقد ركز ذلك في العقول حتى إن كل عامل مهما تم له أمر بواحد لم يتعد فيه إلى اثنين ، وإذا اضطر إلى الشركة والتعاون راعى فيه الأبسط فالأبسط لا يزيد العدد إلا بقدر

(288/510)

الافتقار وعلى هذا مدار الأمور السياسية والمنزلية هذا في المؤثر . وأما في الأثر فلا ريب أنه استند إلى ما هو بسيط حقيقي لم يكن فيه إلا جهة واحدة افتقارية وإذا استند إلى ما

فوق ذلك كان فيه من الجهات الافتقارية بحسب ذلك فيكون النقص تابعاً لقلة جهات الافتقار وكثرتها ، وكل مرتبة للممكنات تفرض من العقول والنفوس والأفلاك والعناصر والمواليد ، فإن كان مبدأ تلك السلسلة الطويلة واحداً كانت الجهات الاعتبارية الافتقارية فيها أقل مما لو كان المبدأ أزيد من واحد . وهذه قضية يقينية إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إنه سبحانه أراد أن يدفع هذا النقص من الممكنات و" لو" هذه بمعنى " أن " والمراد أن هذا النقص والفساد لازم لوجود آلهة غير الله سواء كان الله من جملتهم أم لا ، ولن يرضى العاقل بما فيه نقصه وفساده فوجب أن لا يعتقد إلهاً غير الله وهذه النتيجة هي المراد بقوله ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ من الأنداد والشركاء فتكون هذه الآية نظيره قوله

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾ [الزمر : 29] وفيه قول زيد بن عمرو بن انفيل حين فارق قومه :

أرباً واحداً أم الف رب . . . أدين إذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعاً . . . كذلك يفعل الرجل البصير

ثم أكد تفرده بالإلهية بقوله ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ وفيه رد على الثنوية والمجوس الذين أثبتوا لله شريكاً فاعلاً للشرور والآلام ، وذلك أنهم طلبوا الحكمة في أفعال الله تعالى فقالوا : لو كان مدبر العالم واحداً لم يخص هذا بأنواع الخيرات من الصحة والغنى وذلك بأصناف الشرور من المرض والفقر ، فذكر سبحانه أن الاعتراض على أفعاله ينافي الديانة وأن له أن يفعل ما يشاء ولا مجال للسؤال عن أفعاله ، فكل من الأشاعرة والمعتزلة سلموا أنه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت ، ولكنهم حملوا عدم جواز السؤال على مأخذ آخر . أما الأشاعرة فذهبوا إلى أن أفعاله لا تعلل بالمصالح والأغراض ولم بحكم المالكية أن يفعل في مخلوقاته ما شاء فإن من تصرف في ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ، وكيف يتصور في حقه استحقاق الذم واستحقاق المدح له قديم ؟ وما يثبت للشيء لذاته يستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات . وكما أن ذاته غير معللة بشيء فكذلك صفاته وأفعاله ، وإنه غير محتاج إلى الأسباب والوسائط والأغراض والمقاصد . وأما المعتزلة فقد قالوا : إنه تعالى عالم بقبح المقابح وعالم بكونه غنياً عنها ، ومن كان كذلك فإنه يستحيل أن يفعل القبيح . وإذا عرف المكلف إجمالاً أن كل ما يفعله الله فهو حكمة وصواب وجب أن يسكت عن " لم " وإذا كان الملوك المجازيون لا يسألهم من في مملكتهم عما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيباً وإجلالاً لهم مع جواز الخطأ والزلل عليهم ، فملك الملوك ورب الأرباب أولى بأن لا يسال عن أفعاله مع ما ركز في العقول من أن كل ما يفعله فهو حسن مشتمل على الغايات الصحيحة .

ثم زاد الإلهية تأكيداً بقوله ﴿ وهم يسألون ﴾ وفيه رد على منكري التكليف الذاهبين إلى أن العباد لا يسألون عما فعلوا في دار الدنيا قالوا : إن التكليف أمر غير معقول لأنه إما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته إلى الفعل والترك وهو محال لأن صدور الفعل عن المكلف يستدعي الترجيح فالتكليف

بالترجيح في حال عدم الترجيح تكليف بالمحال ، وإما أن يتوجه حال الرجحان ويكون الفعل حينئذ واجب الوقوع فيكون التكليف عبثاً .

وأيضاً التكليف بما هو معلوم الوقوع لله عبث لأنه واجب الوقوع وبما هو غير معلوم الوقوع تكليف بما لا يطاق ، وأيضاً سؤال العبد لعبد إن لم يكن فيه فائدة فعبث ، وإن كان فيه فائدة فإن عادت إلى الله تعالى كان محتاجاً مستكملاً ، وإن عادت إلى العبد فالله تعالى قادر على إيصالها إليه من غير واسطة التكليف ، على أن السؤال إن كان لأجل إيصال

الضرر فذلك لا يليق بالكريم الرحيم ، وجوابهم أن الأسباب والوسائط معتبرة في كل شيء من عالم الأسباب حتى الثواب والعقاب ، على أن حاصل الشبهات يرجع إلى أن المنكر كأنه قال : إنه تعالى لم كلف عباده ولم كلفهم مالا يطيقون وهو يناقص القاعدة الممهدة أنه لا يسال عما يفعل . ثم كرر ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ استفظاعاً لكفرهم وليرتب عليه قوله ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على ذلك عقلاً أو نقلاً . أما العقل فقد مر أنه يقضي بعدم الشريك حذراً من الفساد ، وأما النقل فقوله ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ هو من إضافة المصدر إلى المفعول أي عظة لأمتي . عن ابن عباس واختاره القفال والزجاج أنه اراد هذا هو الكتاب المنزل على من معي من الأمة وهذا هو الكتاب المنزل على من تقدمني من الأنبياء وأممهم يعني التوراة والإنجيل والزبور والصحف والكل وارد في معنى التوحيد ونفي الشركاء . وعن سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل والسدي أن قوله ﴿ وذكر من قبلي ﴾ صفة للقرآن ايضاً لأنه اشتمل على أحوال الأمم الماضية كما اشتمل على أحوال هذه الأمة . ثم ختم الآية بقوله ربل أكثرهم ﴾ تنبيهاً على أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه بل لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد وهو عدم العلم وفقد التمييز بين الحق والباطل ، فلذلك أعرضوا عن استماع الحق وطلبه ، وفي لفظ الأكثر إشارة إلى أن فيهم من يعلم ولكنه يعاند ، أو أجري لفظ الأكثر على الكل على عادة الفصحاء كي لا يكون الكلام بصدد المنع .

(292/510)

ثم قرر آي التوحيد خصوصاً قوله ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ على أحد التفسيرين بقوله ﴿ وما أرسلناك ﴾ الآية. ثم رد على خزاعة وأمثالهم القائلين بأن الملائكة بنات الله بقوله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ ثم نزه نفسه عن ذلك بقوله ﴿ سبحانه ﴾ ثم أخبر عما هم عليه في الواقع وهو أن الملائكة عباد الله ﴿ مكرمون ﴾ مقربون ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ أي بقولهم اي يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ فهم التابعون لأمر الله في أقوالهم وافعالهم ﴿ يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ﴾ وقد مر تفسيره في "طه" وفي آية الكرسي ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله في طه

(293/510)

﴿ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ [طه: 109] وقد مر البحث فيه. قال في الكشاف ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أي متوقعون من أمارة

بخلاف البشر فإنهم لا يتوقعون ذلك إلا من أمارة قوية . ويحتمل أن يقال : إنهم يخشون الله ومع ذلك يحذرون من أن تلك الخشية يقع فيها تقصير . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبرئيل عليه السلام ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله عز وجل . ثم نبه على غاية عظمته ونهاية جبروته بقوله ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ فيحتمل أن يدعي الإلهية لنفسه دون الله أو يدعي أنه إله مع الله أي بعد مجاوزة إلهيته وهذا على سبيل الفرض والتقدير كقوله ﴿ ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام : 88] وفي قوله ﴿ فذلك ﴾ دون أن يقول فهو تبعيد للمشرك الجاحد عن ساحة عزته وفيه تفظيع لأمر الشرك وتهديد عظيم لمن أشرك ، وأراد بالظلم ههنا الشرك ، والمعتزلة عمموه والأول أظهر . ثم عدل في أدلة التوحيد إلى منهج آخر من البيان وهو الاستدلال بالآفاق والأنفس قائلاً ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض ﴾ أي جماعة السموات وجماعة الأرض ﴿ كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ الرتق بالسكون السد . رتقت الشيء فارتتق أي التأم ومنه امرأة رتقاء ومصدرها الرتق بالتحريك ، والفتقاء ضدها أي كانتا مرتوقتين فجعلناهما مفتوقتين . عن ابن عباس في رواية عكرمة وهو قول الحسن ، وقتادة أن المراد كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض . ومثله قول كعب : خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ، ثم خلق ريحاً توسطتهما فحصل الفتق ، وقال أبو صالح ومجاهد : كانت السموات متلاصقات لا فرج بينها ففتقها الله بأن

جعلها سبعاً وكذلك الأرضون . وعن ابن عباس في رواية أخرى وعليه كثير من المفسرين ، أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر .

ويشبه أن يراد بالسموات على هذا التفسير السحب نظيره قوله ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع ﴾ [الطارق : 1112] ويؤيده قوله عقيبه ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ وقيل : إنهما جمع السموات وإن كان نزول المطر من السماء الدنيا فقط باعتبار الجهة لأن جهتها هي جهتهن ، أو باعتبار أن كل قطعة منها سماء فيكون كقولهم " ثوب أخلاق " " وبرمة أعشار " وقريب من هذا قول من قال : المعنى أن السموات والأرض كانتا مظلمتين ففتقهما الله تعالى بإظهار النور فيهما كقوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس : 37] وقال أبو مسلم الاصفهاني : الرتق حالة العدم إذ ليس فيها ذوات متميزة فكأنها أمر واحد متصل متشابه ، والفتق الإيجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقائق عن البعض فيكون كقوله

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 14] والفطر الشق . وعن بعض علماء الإسلام أن الرتق انطباق منطقتي الحركتين الأولى والثانية الموجب لبطلان العمارات وفصول السنة ، والفتق افتراقهما المقتضي لإمكان العمارة ولتغير الفصول وفيه بعد . وههنا سؤال : وهو أن الكفار متى رأوهما رتقاً حتى صح هذا الاستفهام للتقرير ؟ كيف وقد قال الله تعالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ ؟ [الكهف : 51] والجواب على الأقوال الأخيرة ظاهر فإن فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات أو فتقهما بتنفيذ النور فيهما وإظهاره عليهما أمور محسوسة ، وكذا إدخالهما من العدم إلى الوجود مما يشهد به الحس السليم والعقل المستقيم . وأما على القولين الأولين فلعلهم علموا ذلك من أهل الكتاب وكانوا يقبلون قولهم لما بينهما من التوافق في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال صاحب الكشاف في الجواب : إنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد ، أو أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه . قوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ قال السكاكي صاحب المفتاح : اي جعلنا مبدأ كل حي من هذا الجنس الذي هو جنس الماء . واعترض عليه بأنه كيف يصح ذلك وآدم من تراب والجن من نار والمشهور أن الملائكة ليست أجساماً مائية ؟ وأجاب بأنه يأتي في الروايات أنه جل وعز

خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء ، والجن من نار خلقها منه ، وآدم من تراب خلقه منه .
وقال صاحب الكشاف : إنما قال خلقنا كل شيء حي من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ وجوز أن لا يكون الجعل بمعنى الخلق بل يكون بمعنى التصيير متعدياً إلى مفعولين ، فالمعنى صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه . وقال في التفسير الكبير : اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة قائمة فإن الدليل لا بد أن يكون

مشاهداً محسوساً ليكون أقرب إلى المقصود ، فبهذا الطريق تخرج الملائكة والجن وآدم لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك : قلت : فعلى هذا يكون قوله ﴿ وجعلنا ﴾ داخلاً في حيز الاستفهام كأنه قيل : ألم يروا أنا فتقنا السموات والأرض بعد رتقهما وجعلنا من الماء كل حيوان . ومن المفسرين من جعل الحي شاملاً للنبات أيضاً كقوله ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ [الجاثية : 5] قوله ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ قد مر تفسيره في أول " النحل " وباقي الآية كقوله في طه ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ [الاية : 53]

والفجاج جمع الفج وهو الطريق الواسع وهي صفة ﴿ سبلاً ﴾ قدمت عليه فصارت حالاً عنه أراد أنه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذا كالبيان لما أبهم في قوله :

(297/510)

﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ [نوح : 20] والاهتداء إما حسي أي تهتدون إلى البلاد ، وإما عقلي وهو الاهتداء إلى وحدانية الله تعالى . ومنهم من زعم أن الضمير في قوله ﴿ وجعلنا ﴾ فيها عائد إلى الجبال وهذا قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وروي عن ابن عمر أنه قال : كانت الجبال منضمة فلما أغرق قوم نوح فرقها فجاجاً وجعل فيها طرقاً . قال علماء الإسلام : ليس في قوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً ﴾ إن السماء للأرض كالسقف للبيت لأنها فوق لا يقابله مثله ، ولكنه أطلق عليها اسم السيقف لأنها كذلك في النظر بالنسبة إلى سكان كل بقعة . وفي المحفوظ وجهان : أي ﴿ محفوظاً ﴾ بقدرته من أن يقع على الأرض أو محفوظ بالشهب عن الشياطين . ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ فلا يتدبرون في ترتيبها ومسيراتها وطلوع أجرامها وغروبها واتصالاتها وانصرافاتها وتأثيراتها فيما دونها بإذن خالقها ومبدعها . قوله ﴿ كل في فلك ﴾ من مقلوب الكل . والفلك في اللغة كل شيء دائر وجمعه أفلاك . وزعم الضحاك أنه ليس بجسم

وإنما هو مدار هذه النجوم . والأكثرون على أن الفلك جسم تدور النجوم عليه . ثم اختلفوا في حقيقته فقال الكلبي : ماء مكفوف أي مجموع تجري فيه الكواكب بدليل قوله ﴿ يسبحون ﴾ والسباحة لا تكون إلا في الماء . ورد بأنه يقال فرس سابح إذا امتد في الجري . وقالت الحكماء : هو جسم كروي لا ثقيل ولا خفيف غير قابل للخرق والالتئام والنمو والذبول ، ولذلك منعوا من كون الفلك ساكناً ، والكواكب متحركة فيه كالسمك في الماء واعتذروا عن السباحة بأنها في النظر كذلك .

قال صاحب الكشاف : التنوين في كل عوض من المضاف إليه أي كلهم فورد عليه إشكالان : أحدهما أنه لم يسبق إلا ذكر الشمس والقمر فكيف يعود ضمير الجمع إليهما ؟ وأجاب بأن ذلك باعتبار كثرة مطالعهما كما يجمع بالشموس والقمار لذلك . ويمكن أن يقال : أقل الجمع اثنان أو أنه جعل النجوم تبعاً لذكرهما . الثاني أن كلهم ليسوا في فلك ولكن كل منهم في فلك آخر على ما يشهد به علم الهيئة ، وأجاب بأنه اراد جنس الفلك كقولك "كسانا الأمير حلة" ، أو اراد كل واحد . قلت : لو صح هذا التقدير الثاني لم يرد الإشكال الأول ولكنه ينافي قوله ﴿ يسبحون ﴾ مجموعاً . قال بعض الحكماء في هذا الجمع دلالة على أن

الكواكب أحياء ناطقة . وأجيب بأنه إنما جمع جمع العقلاء لأن السباحة من فعلهم . قلت : قد يسبح كثير من الحيوانات ، فلعل المختص بالعقلاء هو السباحة الصناعية المكتسبة . وههنا بحث وهو أن الإمام فخر الدين الرازي استحسن قول بعض الأوائل أن الحركة السماوية صنف واحد وهي الآخذة من المشرق إلى المغرب إلا أن بعضها أبطأ من البعض كالحركات الغربية ، وكذا اختلافات تلك الحركات بسبب تلك المختلفات .

قال : وهذا أقرب ليكون غاية سرعة الحركة للفلك الأعظم وغاية السكون للجرم الذي هو أبعد عن المحيط وهو الأرض ، ولئلا يلزم بسبب حركة ما دون الفك الأعظم بحركته وبحركتها الخاصة تحرك الجرم الواحد في زمان واحد بحركتين مختلفتين إلى جهتين فإنه يستلزم كون الجسم دفعة واحدة في مكانين . قلت : أما حديث كون ما هو أبعد عن المركز اسرع حركة فإقناعي ، وأما لزوم كون الجسم دفعة واحدة في مكانين فممنوع لأن التي تظهر في المتحرك هي الحركة المركبة الحاصلة من فضل الأسرع على الأبطأ لا كل من الحركتين ، وهذا مشاهد من حركة النملة إلى خلاف جهة حركة الرحى ، ومن حركة راكب السفينة فيها إلى خلاف جهة حركتها . وأما الذي استحسنه من كلام الأوائل فباطل لأنه لو كا ن

كذلك لحصلت الأظلال اللائقة بكل جزء من أجزاء فلك البروج في يوم بليلة ، وكذا الارتفاعات المناسبة لها في البلاد المتفقة العرض وليس كذلك ، وقد ذكرنا هذا المعنى في كتبنا النجومية ايضاً . وحين فرغ من بيان طرف من هيئة الأجرام السماوية ومنافعها الدنيوية نبه بقوله ﴿ وما جعلنا البشر من قبل الخلد ﴾ على أن هذه الآثار لا تدوم ولا تخلق للبقاء وإنما خلقت للابتداء والامتحان ولكي يتوصل بها المكلفون إلى السعادات المدخرة لهم في الآخرة وهي دار الخلود . وبوجه آخر لما فرغ من دلائل الآفاق شرع في دلائل الأنفس فقال : ﴿ وما جعلنا ﴾ الآية ، عن مقاتل أن ناساً كانوا يقولون إن محمداً لا يموت فنزلت وقيل : لعلهم ظنوا أنه لو مات لتغير الشرع وهذا ينافي كونه خاتم الأنبياء ، فبين الله سبحانه أن حاله كحال من تقدمه من الأنبياء في المفارقة من دار الدنيا . والأكثرون على أن سبب النزول هو أنهم كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله عنه الشماتة لهذه وفي معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا . . . سيلقى الشامتون كما لقينا .

قوله ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ قد تقدم في آخر آل عمران تفسيره .

قوله ﴿ ونبلوكم ﴾ أي نعاملكم معاملة المختبر بما نسوق إليكم من الشرور والخيرات فيظهر عندهما صبركم وشكركم . وقدم الشر لأن الموت من باب الشرور في نظر أهل الظاهر . و﴿ فتنة ﴾ مصدر مؤكد ﴿ لنبلوكم ﴾ من غير لفظه . وحين أثبت الموت الذي هو الفراق عن دار التكليف بين بقوله ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ أن الجزاء على الأعمال ثابت مرئي ألبتة بعد المفارقة . استدلت المجسمة بقوله ﴿ وإلينا ﴾ أنه تعالى جسم ليمكن الرجوع إلى حيث هو ، والتناسخية بأن الرجوع مسبوق بالكون في المكان المرجوع إليه ، وجواب الأولين أنه أراد الرجوع إلى حيث لا حكم إلا له ، وجواب الآخرين التسليم لكنه لا يفيد مطلوبهم لأن الرجوع إلى المبدأ غير الرجوع إلى دار الدنيا ، واعلم أن مثل هذه الآية سيجيء في سورة العنكبوت إلا أنه قال هناك ﴿ ثم إلينا ﴾ ولم يذكر قوله ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ فكأن هذه الفاصلة قامت مقام التراخي في " ثم " قال السدي ومقاتل : مر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي جهل وأبي سفيان فقال ابو جهل لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف .

فقال أبو سفيان : وما تنكر أن يكون نبياً في بني عبد مناف ! فسمع النبي صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لأبي جهل : ما اراك تنتهي حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة ، وأما أنت يا أبا سفيان فإنما قلت ما قلت حمية فأنزل الله تعالى ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك ﴾ اي ما يتخذونك ﴿ إلا هزوا ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ والذكر أعم من أن يكون بالخير أو بالشر إلا أنه إذا كان من العدو يفهم منه الذم لا الثناء ، والمعنى أنه يبطل معبوديتها وينكر عبادتها ويقبح أمرها ثم يبين غاية جهالتهم وتعكيس قضيتهم بقوله ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ قدم الجار والمجرور وكرر الضمير ليفيد أنهم عاكفون هممهم على ذكر آلهتهم من كونها شفعاء وشهداء ، ولو ذكرها بخلاف ذلك ساءهم . وأما ذكر الرحمن الذي منه جلائل النعم ودقائقها وأصولها وفروعها فلا يخطر منهم ببال ، ولو ذكره ذاكر استهزؤا به حتى إن بعضهم يقولون : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة فهم أحق أن يتخذوا هزواً . ويحتمل أن تكون الباء للسببية أي هم كافرون بسبب ذكرهم الرحمن لا على ما ينبغي ، فيكون الذكر في الموضعين بمعنى واحد . وقيل ﴿ بذكر الرحمن ﴾ أي بما أنزل إليك من القرآن وكانوا يستعجلون بعذاب الله كما يجيء من قوله ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ فقدم لذلك أولاً مقدمة هي قوله ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي هذا الجنس ﴿ من عجل ﴾ أراد أنه مجبول على إفراط العجلة كما مر في قوله ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ [الإسراء : 11] وعن ابن عباس أنه آدم اراد أن يقوم حين بلغ

الروح صدره، وعن مجاهد أن آدم لما دخل الروح رأسه وعينيه رأى الشمس قاربت الغروب فقال: يا رب عجل خلقي قبل أن تغيب الشمس. وعن ابن عباس أيضاً أنه النضر بن الحرث والأول أظهر. وقيل: العجل الطين بلغة حمير، وقال الأخفش: اي من العجل في الأمر وهو قوله ﴿ كن ﴾ وقيل: هو على القلب أي خلق العجل من الإنسان ﴿ سأريكم آياتي ﴾ وهي

(302/510)

الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ فلا تستعجلون ﴾ فإنها كائنة لا محالة في وقتها وقيل: هي أدلة التوحيد وصدق الرسول. وقيل: آثار القرون الخالية بالشام واليمن.

سؤال: ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ فيه أن الآدمي معذور على الستعجال لأنه له كالأمر الطبيعي الذي لا بد منه، فلم رتب عليه النهي بقوله ﴿ فلا تستعجلون ﴾ ؟

وأجيب بأن فيه تنبيهاً على أن ترك العجلة حالة شريفة وخصلة عزيزة.

وقال جار الله: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها.

(303/510)

آخر : القوم استعجلوا الوعد على جهة التكذيب ، ومن هذا حاله لا يكون مستعجلاً في الحقيقة ؟ أجيب بأن الاستعجال على هذا الوجه أدخل في الذم لأنه استعجال على أمر موهوم عندهم لا معلوم ﴿ لو يعلم ﴾ جواب "لو" محذوف و ﴿ حين ﴾ مفعول به ﴿ ليعلم ﴾ والمعنى لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه وهو وقت إحاطة النار بهم ، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال . ويجوز أن يكون ﴿ يعلم ﴾ متروك المفعول أي لو كانوا من أهل العلم لما كانوا مستعجلين ، وعلى هذا يكون ﴿ حين ﴾ منصوباً بمضمر أي حين لا يكفون يعلمون أنهم كانوا على الباطل ، وخص الوجوه والظهور بالذكر لأن نكاية النار في هذين العضوين اشد مع أن الإحاطة التامة تفهم منهما . ثم بين أن وقت مجيء العذاب غير معلوم لهم فإن مجيء الساعة مخفي عن المكلفين ليكونوا أقرب إلى تلاقي الذنوب فقال ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ﴾ قال جار الله : أي لا يكفونها بل تفجؤهم فتغلبهم . قلت : فائدة "بل" في هذه المقامات للانتقال من جملة إلى أخرى أهم من الأولى ، ويحتمل أن تكون "لو" لظاهر التمني والضمير للنار . وقيل : للساعة . وفي قوله ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ تذكير بإمهالهم في دار الدنيا أي ثم يهلكون بعد طول الإمهال . ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ ولقد استهزئ ﴾ الآية . وقد مرت في أول الأنعام . ولما بين أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ذكر أنهم في الدنيا ايضاً مفترقون إلى

حراسة الله وكلاءته فقال ﴿ قل من يكلؤكم بالليل ﴾ إذا نمتم ﴿ والنهار ﴾ إذا تقلبتم في وجوه المصالح ﴿ من الرحمن ﴾ أي من بأسه وعذابه كالقتل والسبي ونحوهما . قيل : إنما خص الرحمن بالذكر تلقيناً للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالئ يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك ونظيره ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ [الإنفطار : 6] ثم أضرب عن الأمر بالاستفهام قائلاً ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه

كأنه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالئ ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم . أما قوله ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم ﴾ فذكر في الكشاف أنه إضراب عن الكلام السابق بما في " أم " من معنى " بل " . وقال غيره : الميم زائدة وإنه استفهام مستأنف والتقدير ألهم آلهة تمنعهم من دوننا من العذاب ، ومعنى ﴿ من دوننا ﴾ أن تلك الآلهة لا تتجاوز منعنا وحفظنا ثم استأنف فقال ﴿ لا يستطيعون ﴾ ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف اي تلك الآلهة ليست تقدر على نصر أنفسها فكيف تحفظ غيرها وتنصرها . وقوله ﴿ ولا هم منا يصبحون ﴾ قال المازني : هو من أصحبت الرجل إذا منعته .

والأكثرون على أنه من الصحبة بمعنى النصرة والمعونة ومنه قولهم " صبحك الله " .

والحاصل أن من لا يكون قادراً على دفع الآفات ولا يكون مصحوباً من الله بالإعانة والنصرة كيف يتوقع منه دفع ضر أو جلب نفع ! ولما ابطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الحفظ والكلاءة والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله لا من مانع يمنعهم من الإهلاك ولا من ناصر يعينهم على أسباب التمتع سوى الله . وفي قوله ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ إشارة إلى أنه لما امتدت أيام الروح والطمأنينة حسبوا أن ذلك لن يزول عنهم فاغتروا به ونسوا المنعم فاستأهلوا العقاب كما أشار إليه بقوله ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ وفي لفظ الإتيان تصوير ما كان الله يجريه على أيدي السلمين الذين هم حزب الله من نقص ديار الكفر وتخريبها وعمارة حوزة الإسلام وتشييد مبانيه وقد مر مثله في آخر سورة الرعد . والاستفهام في قوله ﴿ أفهم الغالبون ﴾ للتقرير أي لنحن الغالبون وهم المغلوبون .

ثم بين أن هذه الإنذارات ليست من قبل الرسول ولكنه بالوحي ، ثم مهد عذر الرسول إن لم تنجع فيهم رسالته بأن الصم لا يسمعون دعاء المنذر . واللام في ﴿ الصم ﴾ للعهد أي لا

يسمع هؤلاء الإنذار فوضع ﴿ الصم ﴾ في موضع اسم الإشارة إيذاناً بأنهم هم الموسومون بالصمم عن استماع الحق ، ولو كان اللام للجنس لكان الأنسب إطلاق الدعاء لأن الصم لا تسمع الدعاء بشروا أو أنذروا . ثم ذكر أنهم لا يعترفون بالتقصير والظلم إلا عند معاينة العذاب فقال : ﴿ ولئن مستهم نفحة ﴾ وفي ذكر المس وبناء المرة من النفح الذي هو بمعنى القلة والنزارة . منه قولهم " نفحه بعطية " اي رضخة ، " ونفحته الدابة " وهو رمح يسير دليل على أنهم في غاية الضعف يجزعون من أدنى أثر من عذاب الله . قوله ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ المراد من الوضع الإحضار والقسط اي العدل صفة الموازين وإن كان موحداً كقولهم للقوم " إنهم عدل " قاله الفراء . وعن الزجاج أراد ذوات القسط . واللام في ﴿ ليوم القيامة ﴾ بمعنى الوقت كما يقال " جئت لتاريخ كذا " . وقيل : أراد لأجل الحساب يوم القيامة . وقد مر تحقيق الوزن وما يتعلق به من الأبحاث في أول سورة الأعراف . يروي أن داود عليه السلام سال ربه أن يريه الميزان ، فلما رآه غشي عليه ثم افاق فقال : يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ؟ فقال : يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة .

وفي قوله ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ بحث بين المعتزلة والأشاعرة وقد مر مراراً ﴿ وإن كان ﴾ أي الوزن والعمل ﴿ مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ أنث ضمير المثقال باعتبار إضافته إلى الحبة. قيل: الحبة أعظم من الخردلة فكيف قال: حبة من خردل؟ وأجيب بأن الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار، والظاهر أنه أراد الحبة من حيث اللغة. وقوله ﴿ من خردل ﴾ بيان لها لأن الحبة أعم من أن تكون من الخردل أو من الحنطة أو من غيرهما ولكن المبالغة في الأول أكثر، وذلك أن الخردلة سدس شعيرة وهي نصف سدس ثمن الدينار عند الحساب ونصف سدس سدسه في الشرع، والحبة ثمن تسع الدينار في عرف حساب فارس والعراق، فمثقال حبة من خردل يكون على الوجه الأول ثمن تسع خردلة، وعلى ما قلنا يكون هو الخردل بعينه. والحاصل أن شيئاً من الأعمال صغيراً كان أو كبيراً غير ضائع من علم الله وأنه يجازي عليه. رؤي الشبلي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

حاسبوني فدققوا . . . ثم منوا فأعتقوا

قال في التفسير الكبير : زعم الجبائي أن من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزءاً من الثواب فهذا الأقل منحبط بالأكثر كما كان .

والآية تبطل قوله لأن الله تعالى تمدح بأن اليسير من الطاعة لا يسقط ، ولو كان الأمر كما قاله الجبائي لسقطت الطاعة من غير فائدة . قلت : للجبائي أن يقول : الإتيان بالطاعة مشروط عندي بعدم الإحباط كما أن العقاب على المعصية مشروط عندكم بعدم العفو .

﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ كقوله ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ [النساء : 6] وحين فرغ من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء تسلية لنبيه وتثبيتاً وعظة لأمته وتذكيراً ، وقد مر قصة موسى إلا أنه أوجز فيها ههنا والموجز تقدمه الفصحاء غالباً ، ولأن موسى أقوى حالاً ومعجزة ، ولأن ذكر التوراة يناسب ما تقدم من قوله ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ وصف التوراة بأنها جامعة لكونها فرقانا يفرق به بين الحق والباطل ، وقد مر سائر تفاسير الفرقان في أول البقرة ﴿ وضياء ﴾ كقوله ﴿ فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : 44] ﴿ وذكراً للمتقين ﴾ اي شرفاً وموعظة ، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم وقوله ﴿ بالغيب ﴾ إما حال من الرب أي حال كونه غائباً عن حسهم والله لا يغيب عنه شيء فيكون كقوله صلى الله عليه وسلم " فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وإما حال منهم أي حال كونهم غائبين عن عذاب الآخرة وأهوالها ، أو غائبين عن الناس أي يخشون ربهم في الخلوات . ثم عظم شأن القرآن بقوله ﴿ وهذا ذكر مبارك ﴾ أي كثير البركة ﴿

أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ أي أنتم دون سائر الناس مع علمكم بفصاحته وإعجازه تخصونه بالإنكار .

ولا يخفى ما فيه من التوبيخ للعرب ومن داناهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 24.12 ﴾

(308/510)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما نفى تعالى الشريك مطلقاً ، ثم مقيداً بالولدية أتبعه التهديد على ادّعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى :

﴿ ومن يقل منهم ﴾ أي : من الخلائق حتى العباد المكرمين الذين وصف كرامتهم وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ﴿ إني إله من دونه ﴾ أي : الله أي غيره ، والذي قال ذلك كما قال الجلال المحلي هو إبليس دعا إلى عبادة نفسه ، وأمر بطاعتها ﴿ فذلك ﴾ أي : اللعين الذي لا يصلح للتقريب أصلاً ﴿ نجزيه جهنم ﴾ لظلمه ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الجزاء الفظيع جداً ﴿ نجزي الظالمين ﴾ أي : المشركين ، ثم إنه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدّالة على وجود الصانع ، فذكر منها ستة أنواع ؛ النوع الأوّل : قوله تعالى :

﴿ أولم ير ﴾ أي : يعلم ﴿ الذين كفروا ﴾ علماً هو كالمشاهدة ﴿ أن السموات والأرض كانتا ﴾ ولم يقل : كنّ ؛ لأنّ المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ﴿ رتقاً ﴾ قال ابن عباس والضحاك : كانتا شيئًا واحداً ملتزقتين زبدة واحدة ﴿ ففتقناهما ﴾ أي : فصلنا بينهما بالهواء ، والرتق في اللغة السد ، والفتق الشق ، قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ، ثم خلق ريحاً توسطتهما ، ففتحهما بها ، وقال مجاهد والسدّي : كانت السموات رتقاً طبقة ، ففتقها ، فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرض كانت رتقاً طبقة ، ففتقها ، فجعلها سبع أرضين ، وقال عكرمة وعطية : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، والأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ، فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا ، وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلاً في الأمطار ، وإنما قال تعالى : رتقاً على التوحيد ، وهو نعت للسموات والأرض لأنه مصدر ، والكفرة وإن لم يعلموا ذلك ، فهم متمكنون من العلم بالنظر ، أو باستفسار من العلماء ، أو مطالعة الكتب ، وقرأ ابن كثير ألم بغير واو بين الهمزة ولم ، والباقون بالواو بين الهمزة واللام .

النوع الثاني من الدلائل: قوله تعالى: ﴿ وجعلنا ﴾ أي: خلقنا بما اقتضته عظمتنا ﴿ من الماء ﴾ الماء هو الدافق وغيره ﴿ كل شيء حي ﴾ مجازاً في النبات وحقيقة في الحيوان فإن قيل: قد خلق الله تعالى بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة ؟ أجيب: بأن هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر، أي: أن أكثر ما خلق الله خلق من الماء وبقاؤه بالماء، وقيل: المراد بالماء ما نزل من السماء أو نبع من الأرض ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ مع ظهور هذه الآيات الواضحات بتوحيدي، النوع الثالث من الدلائل: قوله تعالى:

﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي: جبالاً ثوابت كراهة ﴿ أن تميد ﴾ أي: تتحرك ﴿ بهم ﴾ قيل: إن الأرض بسطت على الماء، فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة في الماء، فأرساها الله وأثبتها بالجبال، النوع الرابع من الدلائل: قوله تعالى: ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي: في الرواسي ﴿ فجاجاً ﴾ أي: مسالك واسعة سهلة، ثم أبدل منها ﴿ سبلاً ﴾ أي: مذللة للسلوك، ولولا ذلك لتعسر أو تعذر الوصول إلى بعض البلاد ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ إلى منافعهم من ديارهم وغيرها، وإلى ما فيها من دلائل الوحدانية، النوع الخامس من الدلائل: قوله تعالى:

﴿ وجعلنا السماء ﴾ وأفردها مع إرادة الجنس؛ لأن أكثر الناس لا يشاهدون منها إلا السماء الدنيا، ولأن الحفظ للشيء الواحد أتقن ﴿ سقفاً ﴾ أي: للأرض كالسقف للبيت ﴿ محفوظاً ﴾ أي: عن السقوط بالقدرة، وعن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم

بالمشيئة ، وعن الشياطين بالشهب ﴿ وهم ﴾ أي : أكثر الناس ﴿ عن آياتها ﴾ أي : من الكواكب الكبار والصغار ، والرياح والأمطار وغير ذلك من الدلائل التي تفوت الانحصار الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره ، وعلى عظمتنا بالتفرد بالإلهية وغير ذلك من أوصاف الكمال من الجلال والجمال ﴿ معرضون ﴾ لا يتفكرون فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك ، فيعلمون أنّ خالقها لا شريك له ، النوع السادس من الدلائل : قوله تعالى:

﴿ وهو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الذي خلق الليل والنهار ﴾ ثم أتبعهما أعظم آيتهما بقوله تعالى : ﴿ والشمس ﴾ التي هي أعظم آية النهار ﴿ والقمر ﴾ الذي هو أعظم آية الليل ﴿ كل ﴾ أي : من الشمس والقمر ، وتابعه وهو النجوم ﴿ في فلك ﴾ أي : مستدير كالطاحونة في السماء ﴿ يسبحون ﴾ أي : يسيرون بسرعة كالسابح في الماء ، وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل والمراد بالفلك الجنس كقولك : كساهم الأمير حلة ، وقلدهم سيفاً ، أي : كل واحد منهم ، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين ، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً ، ولأن الغرض الدلالة على الجنس ، ونزل لما قال الكفار : إن محمداً سيموت:

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ أي : البقاء في الدنيا ﴿ أفإن ﴾ أي : أيتمنون موتك ، فإن ﴿ مت فهم الخالدون ﴾ فيها لا والله ليسوا بخالدين ، فالجملة الأخيرة هي محل الاستفهام الإنكاري ، وفي معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابي:

*وقل للشامتين بنا أفيقوا

** سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرأ نافع وحفص والكسائي بكسر الميم والباقون بضمها ، ثم بيّن تعالى أن أحداً لا يبقى في هذه الدنيا بقوله تعالى:

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أي : ذائقة مرارة الموت ، أي : مرارة مفارقة روحها جسدها ، فلا يفرح أحد ، ولا يحزن لموت أحد بل يشتغل بما يهمه ، وإليه الإشارة بقوله :

﴿ ونبلوكم ﴾ أي : نعاملكم معاملة المبتلي المختبر ليظهر في عالم الشهادة الشاكر والصابر ، والمؤمن والكافر كما هو عندنا في عالم الغيب بأن نخالطكم ﴿ بالشر ﴾ ، وهو المضارّ الدنيوية من الفقر والألم ، وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين ﴿ والخير ﴾ وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور ، والتمكن من المرادات ، وقوله تعالى : ﴿ فتنة ﴾ مفعول له أي :

لننظر أتصبرون وتشكرون أم لا كما يفتن الذهب إذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش ، فبين تعالى أنّ العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكي يشكر على المنح ويصبر على المحن ، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم ﴿ وإلينا ﴾ بعد الموت لا إلى غيرنا ﴿ ترجعون ﴾ فنجازيكم بما فعلتم ، ثم عطف تعالى على قوله : ﴿ وأسرّوا النجوى ﴾

قوله تعالى:

﴿ وإذا رآك ﴾ أي : وأنت أشرف الخلق ﴿ الذين كفروا إن ﴾ أي : ما ﴿ يتخذونك ﴾ أي : حال الرؤية ﴿ إلا هزواً ﴾ أي : مهزواً به يقولون إنكاراً واستصغاراً ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ أي : بسوء ، والذكر يكون بالخير والشر ، فإذا دلت القرينة على أحدهما أطلق عليه وذكر العدوّ لا يكون إلا بسوء ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ بذكر الرحمن ﴾ أي : إذا ذكر لهم الرحمن ﴿ هم كافرون ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون : لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة ، وهم الثانية للتأكيد ، ونزل في استعجالهم العذاب

﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته ، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء : خلقت منه كقولك : خلق زيد من الكرم ، فجعل ما طبع عليه

بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة في لزومه له ، ولذلك قيل : إنه على القلب أي : خلق العجل من الإنسان ، ومن عجلته مبادرته إلى الكفر ، واستعجال الوعد ، وقال سعيد بن جبير والسدّي : لما دخل الروح في رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة ، فوقع ، فقيل : خلق الإنسان من عجل ، والمراد بالإنسان آدم وأورث أولاده العجلة ، وقال قوم : معناه خلق الإنسان يعني آدم عليه السلام من تعجيل في خلق الله تعالى إياه لأن خلقه كان بعد خلق كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة ، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس ، قال مجاهد : فلما أحيا الروح رأسه قال : يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها ، وقال قوم : من عجل أي : من طين قال الشاعر :

*والنبع في الصخرة الصماء منبته

** والنخل ينبت بين الماء والعجل

ثم قال تعالى مهدداً للمكذبين : ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي : مواعيدي بالعذاب ﴿ فلا تستعجلون ﴾ أي : تطلبون أن أوجد العجلة بالعذاب ، أو غيره فإني منزه عن العجلة التي هي من جملة نقائصكم ؛ لأنها إرادة الشيء قبل أوانه فإن قيل : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله : خلق الإنسان من عجل وقوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ ، أليس هذا من

تكليف ما لا يطاق ؟

أجيب : بأن هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ، وقد أراهم بعض آياته وهو القتل ببدر .

(313/510)

﴿ ويقولون ﴾ في استهزائهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي : بإتيان الآيات من الساعة ومقدّماتها وغيرها ﴿ إن كنتم ﴾ فيما توعدون به ﴿ صادقين ﴾ أي : عريقين في هذا الوصف يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء ، ثم بيّن تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى:

﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ وذكر المفعول به بقوله تعالى : ﴿ حين ﴾ أي : وقت ﴿ لا يكفون ﴾ أي : لا يدفعون ﴿ عن وجوههم ﴾ التي هي أشرف أعضائهم ﴿ النار ﴾ استسلاماً وعجزاً ﴿ ولا عن ظهورهم ﴾ التي هي أشدّ أجسامهم السياطَ ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي : لا يمنعون من العذاب في القيامة وجواب لو محذوف والمعنى : لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ، ولا قالوا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين .

﴿ بل تأتيهم ﴾ أي : القيامة ﴿ بغتة ﴾ أي : فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ أي : تحيرهم ، يقال :

فلان مبهوت أي : متحير ﴿ فلا يستطيعون ردّها ﴾ أي : لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت ليأسهم منه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي : يمهلون لتوبة أو معذرة ، ولما كان التقدير حاق بهم هذا باستهزائهم بك أتبعه ما يدل على أنّ الرسل في ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفاً على وإذا رآك:

﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ أي : كثيرين فلك بهم أسوة ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر الدال والباقون بالضم وإذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء ساكنة ﴿ فحاق ﴾ أي : نزل ﴿ بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ وهو العذاب فكذا يحيق بمن استهزأ بك ، ولما أعلم الله تعالى أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به . أتبعه بأنهم في الدنيا أيضاً لولا أنّ الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة ، فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ يا أشرف المرسلين للمستهزئين ﴿ من يكلؤكم ﴾ أي : يحفظكم ﴿ بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي : من عذابه إن نزل بكم أي : لا أحد يفعل ذلك ﴿ بل هم عن ذكر ربهم ﴾ أي : القرآن ﴿ معرضون ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا

بأسه.

﴿أم﴾ فيها معنى الهمزة للإنكار أي: الله ﴿لهم آلهة﴾ ﴿موصوفة بأنها تمنعهم﴾ مما يسوءهم ﴿من دوننا﴾ ليس لهم ذلك ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال تعالى: ﴿لا يستطيعون﴾ أي: الآلهة ﴿نصر أنفسهم﴾ فكيف ينصرون عابديهم ﴿ولا هم﴾ أي: الكفار ﴿منّا﴾ أي: من عذابنا ﴿يصحبون﴾ أي: يجارون يقال: صحبك الله أي: حفظك وأجارك.

﴿بل متعنا هؤلاء﴾ أي: الكفار على حقارتهم ﴿وآباءهم﴾ من قبلهم بالنعم استدراجاً ﴿حتى طال عليهم العمر﴾ أي: امتدّت بهم أيام الدنيا بالروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وأمل كاذب، وغلظ ورش اللام بخلاف عنه ﴿أفلا يرون﴾ أي: يعلمون علماً هو في وضوحه مثل الرؤية بالبصر ﴿أنّا نأت الأرض﴾ أي: أرض الكفرة ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها بقتل بعض وردّ بعض عن دينه إلى الإسلام فهم في نقص وأولياؤنا في زيادة ﴿أفهم الغالبون﴾ أي: مع مشاهدتهم لذلك أم أولياؤنا. ولما كرّر سبحانه وتعالى في القرآن الأدلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله تعالى:

﴿قل﴾ يا أشرف الخلق لهؤلاء المشركين ﴿إنما أنذركم﴾ أي: أخوّفكم ﴿بالوحي﴾

أي : بالقرآن الذي هو كلام ربكم فلا تظنوا أنه من قبل نفسي ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ أي : ممن يدعوهم ﴿ إذا ما ينذرون ﴾ أي : يخوّفون فهم لترك العمل بما سمعوه كالصم فإن قيل : الصم لا يسمعون دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر ، فكيف قيل : إذا ما ينذرون ؟

أجيب : بأنه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامّهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا ، أي : هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة وعلى التصامّ عن آيات الإنذار ، وقرأ ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم على الخطاب النبوي والباقون بالياء التحتية وفتح الميم ورفع ميم الصم وفي الدعاء ، وإذا همزتان مختلفتان من كلمتين ؛ الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين ، وهذا في حال الوصل ، فإن وقف على الهمزة الأولى فالجميع يبتدئون الثانية بالتحقيق ، ويقف حمزة وهشام بإبدال الهمزة ألفاً مع المدّ والتوسط والقصر .

﴿ ولئن مستهم ﴾ أي : أصابتهم ﴿ نفحة ﴾ أي : دفعة خفيفة وفي ذلك مبالغات ذكر

المس وما في النفحة من معنى القلة فإنّ أصل النفح هبوب رائحة الشيء والتاء الدالة على المرّة ﴿ من عذاب ربك ﴾ المحسن إليك بنصرك عليهم من الذي ينذرون به ﴿ ليقولنّ ﴾ وقد أذهلهم أمرها ﴿ يا ويلنا ﴾ الذي لا نرى بحضرتنا الآن غيره ﴿ إنّا كنّا ظالمين ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل بعد ما أقرّوا بالظلم، ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل في حساب الساعة من العدل، فقال عاطفاً على قوله تعالى: ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾:

(316/510)

﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ أي: ذوات العدل ﴿ ليوم القيامة ﴾ أي: فيه وإنما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم ويجوز أن يرجع إلى الوزنات وقيل: وضع الموازين تمثيلاً لإرصاد الحساب السويّ والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والصحيح الذي عليه أئمة السلف أن الله تعالى يضع ميزاناً حقيقة توزن به أعمال العباد وعن الحسن هو الميزان له كفتان ولسان، ويروى أنّ داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب، فغشي عليه ثم أفاق فقال: إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات، قال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة فإن قيل: كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض؟

أجيب : بأن فيه طريقين ؛ أحدهما أن توزن صحائف الأعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيئات في كفة والثاني أن توضع في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة فإن قيل : هذه الآية يناقضها قوله تعالى في الكفار : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ (الكهف ،)

(317/510)

أجيب : بأن المراد منه أنا لا نكرمهم ولا نعظمهم ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي : من نقص حسنة أو زيادة سيئة ﴿ وإن كان ﴾ أي : العمل ﴿ مثقال ﴾ أي : وزن ﴿ حبة من خردل ﴾ أو أصغر منه وإنما مثل به لأنه غاية عندنا في القلة ، وقرأ نافع برفع اللام على أنّ كان تامّة والباقون بالنصب وكذا في لقمان ﴿ أتينا بها ﴾ أي : بوزنها ولما كان حساب الخلائق كلهم في كل ما صدر منهم أمراً باهراً للعقل حقره عند عظمته فقال : ﴿ وكفى بنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ حاسبين ﴾ أي : محصين في كل شيء ، فلا يكون في الحساب أحد مثلنا ، ففيه توعد من جهة أن معناه أن لا يروج عليه شيء من خداع ، ولا يقبل غلطاً ولا يضل ولا ينسى إلى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس وشوب منقص ووعد من جهة أنه مطلع على حسن قصد وإن دق وخفي . ولما تكلم سبحانه وتعالى في

دلائل التوحيد والنبوّة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكر منها عشراً : القصة الأولى : قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولقد آتينا موسى وهرون ﴾ أي : أخاه الذي سأل ربه أن يشدّ أزره به ﴿ الفرقان ﴾ أي : التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام ﴿ وضياء ﴾ بهاء لا ظلام معه أي : ليستضاء بها في ظلمات الحيرة والجهل وقرأ قنبل بعد الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها ألف ﴿ وذكراً ﴾ أي : عظة ﴿ للمتقين ﴾ أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ويراد بالضياء على هذين التوراة ، ثم بيّن المتقين بوصفهم بقوله تعالى:

﴿ الذين يخشون ﴾ أي : يخافون خوفاً عظيماً ﴿ ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بعد الإيجاد بالتربية وأنواع الإحسان ﴿ بالغيب ﴾ عن الناس أي : في الخلاء عنهم أو بالغيب قبل أن يكشف لهم الحجاب في الجنة ﴿ وهم من الساعة ﴾ التي توضع فيها الموازين وقد أعرض عنها الجاهلون مع كونها أعظم حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير ﴿ مشفقون ﴾

أي : خائفون لأنهم لقيامها متحققون ولنصب الموازين فيها عالمون ، ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم هو أشرف منه بقوله تعالى:

﴿ وهذا ﴾ أي : القرآن وأشار إليه بأداة القرب إيماء إلى سهولة تناوله عليهم ﴿ ذكر ﴾ أي : موعظة ﴿ مبارك ﴾ أي : كثير خيره ﴿ أنزلناه ﴾ على أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي : جاحدون استفهام توبيخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 227.234 ﴾

(319/510)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ من ارض البشرية ثم هم يحيون القلوب الميتة بل الله يحييها بنور ذكره وطاعته لو كان في سماء الروحانية وأرض البشرية ﴿ آلهة إلا الله ﴾ كالعقل والهوى ﴿ لفسدتا ﴾ كما فسد سماء أرواح الفلاسفة حين اثبتت عقولهم للواجب صفات لا تليق به ، وفسد أرض بشرية الطبائعية حين زلت قدمهم عن استعمال قوانين

الشريعة بمقتضى هوى الطبيعة ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ لأن أفعاله تعالى صادرة عن الحكمة والقدرة ﴿ وهم يسألون ﴾ لأن أفعالهم منشؤها الظلومية والجهولية ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ لأنه ليس فيهم ما يخالف داعية العقل وهو الطبع الذي يجذب صاحبه إلى السفل ، ولهذا وصفهم بالإكرام ووصف بني آدم بالتكريم في قوله ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ [الإسراء : 70] ففي التكريم تكثير ليس في الإكرام والسبب أن أمر بني آدم أشكل وحالهم أصعب ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ من خجالة قولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] ﴿ وما خلفهم ﴾ من الأمر بسجود آدم والاستغفار لمن في الأرض ﴿ أو لم ير الذين كفروا ﴾ يعني أنهم رأوها في عالم الأرواح لأنها خلقت قبل الأجساد بألفي عام ، وفي رواية بأربعة آلاف سنة ﴿ كانتا رتقاً ﴾ أي كانت سموات الأرواح متعلقة بأرض القوالب ﴿ ففتقناهما ﴾ بالمفارقة وقطع التعلق ﴿ وجعلنا من ﴾ ماء حياة العلم ﴿ كل شيء حي ﴾ بالحياة الأبدية ﴿ وجعلنا في الأرض ﴾ أرض القالب ﴿ رواسي ﴾ هي هموم العلائق البدنية ﴿ أن تميد بهم ﴾ فلولاها لمالت كل نفس إلى عمالها وبطل الغرض من التكليف ، ويمكن أن يكون الرواسي إشارة إلى الأبدال الذين هم أوتاد الأرض بهم يرزق ويمطر الناس ﴿ فجاجاً سبلاً ﴾ هي طرق الإرشاد والتسليك ﴿ وجعلنا ﴾ سماء القلب ﴿ سقفاً محفوظاً ﴾ من وساوس شياطين الإنس والجن ﴿ وهو الذي

خلق ﴾ ليل البشرية ونهار الروحانية وشمس المعرفة وقمر الإسلام ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ فأهل الإسلام

(320/510)

في فلك الشريعة ، وأهل الإيمان في فلك الطريقة ، وأهل الولاية في فلك اطوار الحقيقة ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أما النفس الحيوانية فلأن من خواصها أن تصير الغذاء من جنسها فلا جرم إذا عجز الغذاء عن التشبيه بها لعجز القوة الغاذية حل أجلها ، وأما النفس الناطقة فلأن من خواصها أنها تصير من جنس غذائها وهو الكمالات العلمية والعملية التي هي فيوض ربانية يتجوهر الروح بجوهرها فيحصل له الفناء عن وجوده والبقاء بشهود ربه ﴿ ونبلوكم ﴾ بالمكروهات التي تسمونها شراً بالمحبوبات التي تحسبونها خيراً ﴿ فتنة ﴾ فربما كان الأمر عكس ما تصورتم ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ اختياراً وقهراً ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ فيه أن الأغيار لا ينظرون إلى الأخيار إلا بعين الإنكار ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ بالنسبة إلى خلق السموات والأرض وما بينهما فإنها خلقت في ستة أيام وخمرت طينة آدم أربعين صباحاً مع أن فيها أنموذجاً من الكل واستعداداً لقبول الخلافة وقابلية تجلي الذات والصفات ومظهرية الكنز الخفي وأشار إلى هذه المعاني بقوله ﴿ سأريكم

آياتي ﴾ اي في مظاهر الآفاق ومرايا أنفسكم بالتدريج وبالتربية في كل طور ﴿ فلا تستعجلون ﴾ فإن حد الاستكمال من المهد إلى اللحد بل من الأزل إلى الأبد وهذا منطق الطير لا يفهمه إلا سليمان الوقت .

(321/510)

ويمكن أيضاً أن يقال : إن الروح الإنساني أول شيء تعلقت به القدرة وهذا معنى العجلة ﴿ قل من يكلؤكم ﴾ فيه أن ملوك الأرض لو حرسوهم ﴿ بالليل والنهار ﴾ من الخصوم والأعداء فمن لهم حتى يحفظونهم في ليل البشرية ونهار الروحانية من سطوات قهر الجلال الذي الرحمانية من صفاته كما أن الرحيمية من صفات الجمال ، فلو وكلهم بالخذلان إلى ظلمة البشرية بقوا في الجهل ، ولو وكلهم بالإضلال في نور المعقولات تاهوا في أودية الحيرة والحجب النورية ، والمنع من الحجب الظلمانية والجهل البسيط أسرع من إزالة الجهل المركب ﴿ بل متعنا هؤلاء ﴾ الجهال ﴿ وآباءهم ﴾ الذين علموهم تلك المعقولات التي صارت حجباً نورية لهم حتى اغتروا بظاهر الحال وأنكروا المعاد والشريعة . ثم بين أن الحق يغلب على الباطل ألبتة فقال ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ﴾ البشرية ﴿ ونضع الموازين ﴾ ميزان الفضل قد نصب في الأزل ﴿ نحن قسمنا ﴾ ﴿ تلك الرسل فضلنا ﴾

وميزان العدل ينصب في الأبد ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ فالأول كالبزرة والثاني كالثمرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 24.26 ﴾

(322/510)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

الإعراب :

(للناس) متعلّق بـ (اقترب) ، (الواو) واو الحال (في غفلة) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ هم " 1 " ، (معرضون) خبر ثان مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " اقترب . . حسابهم " لا محلّ لها ابتدائيّة وجملة : " هم في غفلة . . . " في محلّ نصب حال من الناس (ما) نافية (ذكر) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يأتيهم (من ربّهم)

متعلّق بـ (يأتيهم) " 2 " ، (محدث) نعت لذكر مجرور (إلّا) أداة حصر (الواو) حاليّة .

---

(1) أو متعلّق بحال من الضمير في (معرضون) .

(2) أو متعلّق بنعت لذكر . . وقيل هو حال ذكره لأنّه وصف بكلمة محدث ، وقيل هو متعلّق بحال من الضمير في محدث ، وقيل متعلّق بمحدث .

وجملة : " ما يأتيهم من ذكر . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل لما سبق .

وجملة : " استمعوه . . . " في محلّ نصب حال من مفعول يأتيهم بتقدير قد .

وجملة : " هم يلعبون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل استمعوه .

وجملة : " يلعبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(لاهية) حال منصوبة من فاعل يلعبون " 1 " ، (قلوبهم) فاعل اسم الفاعل لاهية (الواو) استئنافيّة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع بدل من الضمير فاعل أسرّوا " 2 " ، (هل) حرف استفهام فيه معنى النفي (هذا) مبتدأ (إلّا) أداة حصر (بشر) خبر مرفوع (مثلكم) نعت لبشر مرفوع " 3 " ، (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (الواو) حاليّة .

وجملة : " أسرّوا النجوى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هل هذا إلّا بشر . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 5 " .

وجملة : " تأتون . . . " معطوفة على استئناف مقدّر أي تخطئون فتأتون . .

---

(1) أو من فاعل استمعوه ، فيكون حالا ثانية .

(2) هذا أحد أوجه كثيرة في إعراب هذه الآية . . وأجازوا أيضا : أن يكون الموصول مبتدأ خبره جملة أسرّوا المتقدّمة - وهو اختيار ابن هشام - أو جملة مقدّرة فعلها عامل في الاستفهام أي :

الذين ظلموا يقولون هل هذا . . . وأجازوا أن يكون الموصول خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هم . . أو هو فاعل لفعل محذوف تقديره يقول . . . أو هو بدل من فاعل استمعوه . . أو بدل من مفعول يأتيهم . . أو مفعول به لفعل محذوف على الذمّ . . أو هو فاعل أسرّوا و(الواو) فيه علامة جمع لا محلّ لها . . إلخ .

(3) لم تزده الإضافة إلى الضمير معرفة لأنّه موغل في التنكير .

(4) اختار ابن هشام أن تكون الجملة خبرا مقدّما و(الذين) ظلموا مبتدأ مؤخّر .

(5) وجملة القول المقدّرة استئناف بيانيّ وكأنّه قيل : فما قالوا في نجواهم فالجواب : قالوا هل هذا . . ويجوز أن تكون الجملة بدلا من النجوى في محلّ نصب . . أو لا محلّ لها تفسير للنجوى .

(324/510)

وجملة : " أنتم تبصرون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تأتون .

وجملة : " تبصرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

الصرف :

(محدث) ، اسم مفعول من أحدث الرباعيّ فهو على وزن مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(لاهية) مؤنّث لاه ، اسم فاعل من لها يلهو ، وفي لاه إعلال بالحذف ، وفي لاهية إعلال بالقلب ، أصله لاهوة ، جاءت الواو متحرّكة بعد كسر قلبت ياء .

البلاغة

1 - التنكير :

في قوله تعالى " وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ " التنكير في غفلة للتعظيم والتفخيم .

الفوائد

(325/510)

- قوله تعالى وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا " فالذين ظلموا " في إعرابها أقوال قد شملت أحوال الإعراب الثلاثة، لن نتعرض لسائر الوجوه التي ذهب إليها علماء النحو والتفسير. والتي منها: البدل، والمبتدأ، والفاعلية، والخبر، والمفعول، والمجرور. أقول: لن نتعرض إلا لمن زعم أنها فاعل: وهذا الفرض يقتضي أن نجمع الفعل في قوله تعالى أَسَرُّوا. وهذا الفرض من اللغات الضعيفة والتي أسماها النحويون " لغة أكلوني البراغيث " وكان حقه أن يقول: أكلني البراغيث. وكذلك كان المنتظر على فرض الذين فاعل أن يرد النص وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا " الآية ".

وعندنا أن هذا الفرض مرفوض تحاشيا للغات الضعيفة في القرآن الكريم، وطالما لدنيا في إعراب الذين وجوه تبعدنا عن مواطن الضعف.

[سورة الأنبياء (21): آية 4]

قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)

الإعراب:

(في السماء) متعلّق بمحذوف حال من القول (الواو) عاطفة (العليم) خبر ثان مرفوع.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ربّي يعلم... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يعلم... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ربّي).

وجملة: " هو السميع . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

[سورة الأنبياء (21) : آية 5]

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

الإعراب:

(326/510)

(بل) للإضراب الانتقاليّ في المواضع الثلاثة (أضغاث) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي ما أتى به من القرآن (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر، وعلامة الجزم في (يأتنا) حذف حرف العلّة (بآية) متعلّق ب (يأتنا) ، (الكاف) حرف جرّ وتشبيه " 1 "، (ما) حرف مصدريّ " 2 "، (أرسل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (الأوّلون) نائب الفاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو.

---

(1) أو هي اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر عامله يأتنا.

[. . . . . .]

(2) يجوز أن يكون موصولا، والعائد محذوف أي كما أرسل بها الأوّلون، والجارّ والمجرور نعت لآية.

والمصدر المؤوّل (ما أرسل . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يأتنا أي فليأتنا بآية إتيانا كإرسال الأولين.

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " (هو) أضغاث . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " افتراه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هو شاعر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يأتنا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن لم يكن كما قلنا وكان رسولا فليأتنا بآية.

الفوائد

قوله تعالى بَلْ قالُوا: أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ لقد أضربوا عن رأيهم ثلاث مرات، باستعمال حرف الاضراب " بل ". وهذا يدل على مبلغ تخفظهم وترددهم وعدم ثبوتهم على رأي، وحيرتهم من أي باب يدخلون على النبي، ليضعفوا موقفه، ويثبطوا عزيمته، ويسفهوا رأيه. ألا ساء ما يفعلون

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

9 - 6

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 6 إلى 9]

(328/510)

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

الإعراب:

(ما) نافية (قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (آمنت) ، (قرية) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل آمنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة.

وجملة: "أهلكناها .. " نعت لقرية في محلّ جرّ - على اللفظ - وجملة: "هم يؤمنون ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنت، لاتفاق الجملتين بمعنى النفي، إذ الاستفهام إنكاريّ.

وجملة: "يؤمنون ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم.

(ما أرسلنا قبلك) مثل ما آمنت قبلهم (إلّا) أداة حصر (رجالا) مفعول به منصوب (إليهم) متعلّق بـ (نوحي) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير اسم كان (لا) نافية .

وجملة : " ما أرسلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما آمنت .

وجملة : " نوحي إليهم . . . " في محلّ نصب نعت لـ (رجالا) وجملة : " اسألوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر يفسّره ما بعده أي : إن كنتم لا تعلمون فاسألوا . .

وجملة : "كنتم لا تعلمون . . . " لا في محلّ لها استئناف بيانيّ . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الجواب الأول .

(الواو) عاطفة (ما جعلنا) مثل ما أرسلنا . . و(هم) ضمير مفعول به (جسدا) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، وجملة : " ما جعلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أرسلنا .

وجملة : " لا يأكلون الطعام " في محلّ نصب نعت لـ (جسدا) .

---

(1) أو حال منصوبة من ضمير المفعول في جعلناهم بمعنى خلقناهم أو أنشأناهم ، و(جسدا) إمّا مفرد يراد به الجمع أو على حذف مضاف أي ذوي جسد .

جملة: " ما آمنت.. من قرية " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما كانوا خالدين... " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما جعلناهم..

(ثمّ) حرف عطف (الوعد) مفعول به ثان عامله صدقناهم (الفاء) عاطفة (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على ضمير الغائب في (أنجيناهم).

وجملة: " صدقناهم... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناهم.

وجملة: " أنجيناهم... " لا محلّ لها معطوفة على جملة صدقناهم.

وجملة: " نشاء... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " أهلكنا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجيناهم.

13 - 10

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 10 إلى 13]

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (13)

الإعراب:

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (فيه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ذكركم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة.

جملة: "أنزلنا ... " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر.. وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة لا محلّ لها.

وجملة: "فيه ذكركم ... " في محلّ نصب نعت لـ (كتابا).

وجملة: "تعقلون ... " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي: أغاب عنكم ذلك فلا تعقلون..

(330/510)

(الواو) عاطفة (كم) خبريّة كناية عن عدد في محلّ نصب مفعول به مقدّم (من قرية) تمييز (بعدها) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أنشأنا)، وعلامة النصب في (آخرين) الياء.

وجملة: "قصمنا ... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة - أو على جملة جواب القسم - وجملة: "كانت ظالمة ... " في محلّ جرّ نعت لقرية.

وجملة: "أنشأنا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة قصمنا.

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب أي:

فوجئوا بالركض منها والضمير في (أحسّوا) يعود على أهل القرية (إذا) فجائيّة لا محلّ لها (منها) متعلّق بـ (يركضون) " 1 " .

وجملة : " أحسّوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم منها يركضون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يركضون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(لا) ناهية جازمة ، وعلامة الجزم في (تركضوا) حذف النون (إلى ما) متعلّق بـ (ارجعوا) ، و(ما) موصول (فيه) متعلّق بـ (أترفتم) ، (مساكنكم) معطوف على اسم الموصول بالواو ، مجرور .

وجملة : " لا تركضوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : " ارجعوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تركضوا .

وجملة : " أترفتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أو متعلّق بحال من فاعل يركضون .

وجملة : " لعلّكم تسألون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تسألون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

البلاغة

- التهكم :

في قوله تعالى وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ .

هذا التهكم : إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس ، وطلب الثناء ، أو كانوا بخلاء ، فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى توبيخ . والمعنى أي ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم ، لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .

الفوائد

- لمّا ، ووجوهها الثلاثة :

نوهنا فيما سبق عن " لما الظرفية أو الحينية " . وسوف نقدم هنا للقارىء " لما في سائر وجوهها " أ - تختص بالمضارع ، فتجزمه وتنفيه وتنقله من الزمن الحاضر إلى الماضي ، شأنها شأن " لم " الجازمة .

ب - تختص بالماضي ، فتقتضي جملتين وجدت ثانيتها لوجود أولاهما ، نحو " لما جاءني أكرمته " . ولذلك تسمى حرف وجود لوجود ، وهذه هي الحينية .

ج - أن تأتي حرف استثناء بمعنى " إلا " ، وهذه تدخل على الجملة الاسمية ، نحو " إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ " .

هذه أقسامها الثلاثة أوردناها لك موجزة . وهذا لا يمنعنا من الإشارة إلى أن ثمة شؤونا جزئية أخرى ، يمكن لمن يشاء . أن يطلبها في المطولات .

14 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 14]

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (14)

الجدول ج 17 ، ص : 12

الإعراب :

(يا) أداة تنبيه " 1 " ، (ويلنا) مفعول مطلق لفعل محذوف ، منصوب .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا ويلنا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للتحسّر .

وجملة : " إنّا كنّا ظالمين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنّا ظالمين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

15 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 15]

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (15)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ما زالت) فعل ماض ناقص . . . و(ما) نافية (تلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع اسم ما زالت (دعواهم) خبر منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف . . (حتّى) حرف غاية وجرّ (حصيدا) مفعول به ثان منصوب (خامدين) نعت لـ (حصيدا) " 2 " ، منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " ما زالت تلك دعواهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن المضمر) .

والمصدر المؤوّل (أن جعلناهم) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (دعواهم) .

---

(1) أو أداة نداء وتحسّر (ويلنا) منادى مضاف متحسّر به منصوب .

(2) أو حال من الضمير في (جعلناهم) . . ويجوز أن يكون بدلا من (حصيدا) .

الصرف :

(زالت) ، فيه إعلال بالقلب أصله زولت ، تحركت الواو بعد فتح قلبت ألفا وزنه فعلت .

(خامدين) ، جمع خامد ، اسم فاعل من خمد الثلاثي وزنه فاعل .

البلاغة

- التشبيه البليغ :

في قوله تعالى " حَصِيداً خامِدِينَ " .

أي جعلناهم كالزرع المحصود ، وكالنار الخامدة ، شبههم به في استئصالهم ، كما تقول :

جعلناهم رمادا ، أي مثل الرماد .

16 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 16]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) الأول للنفي و(ما) الثاني اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على السماء (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (لاعبين) حال منصوبة من فاعل خلقنا ، وجاءت في الجمع للتعظيم .

جملة : " ما خلقنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(لاعبين) ، جمع لاعب اسم فاعل من لعب الثلاثيّ وزنه فاعل .

17 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 17]

لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17)

الإعراب :

(333/510)

(لو) حرف شرط غير جازم (لهوا) مفعول به أوّل منصوب ، والمفعول الثاني مقدّر أي ما يلهى به .

والمصدر المؤوّل (أن نتّخذ . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أردنا .

(لدنّا) اسم ظرفيّ مبنيّ على السكون في محلّ جرّ بمن متعلّق بمحذوف مفعول ثان عامله اتّخذناه أي كائنا (إن) حرف شرط جازم " 1 " ، (كنّا) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط ، و(نا) اسم كان .

جملة : " أردنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اتّخذناه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة: "كنّا فاعلين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف أي إن كنّا فاعلين لاتّخذناه.

18 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 18]

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

الإعراب:

(بل) للإضراب الانتقاليّ (بالحقّ) متعلّق بـ (نقذف) ، (على الباطل) متعلّق بـ (نقذف) ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (إذا) الفجائيّة (الواو) استئنافيّة (لكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (الويل) ، (ما) حرف مصدريّ " 2 " .

والمصدر المؤوّل (ما تصفون) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بالويل - أو بالاستقرار - جملة: " نقذف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يدمغه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نقذف.

---

(1) أجاز العكبريّ أن تكون نافية.

(2) أو اسم موصول . . أو نكرة موصوفة، والعائد محذوف لهما، أي مما تصفونه به.

وجملة: " هو زاهق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يدمغه.

وجملة: " لكم الويل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تصفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) " 1 " .

الصرف:

(زاهق) ، اسم فاعل من زهق الثلاثيّ، وزنه فاعل.

البلاغة

الاستعارة التمثيلية:

في قوله تعالى " بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ " حيث شبه الحق بشيء صلب، والباطل بشيء رخو، وأستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل، بطريق التمثيل، فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل، فشقه. وفيه إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل، وأن جانب الأول باق والثاني فان.

19 - 20

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 19 إلى 20]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ
(19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (من) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من (الواو) عاطفة (من) الثاني موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة لا يستكبرون (عنده) ظرف منصوب

---

(1) أو صلة الموصول الاسميّ . . أو هي في محلّ جرّ نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة .

الجدول ج 17 ، ص : 16

متعلّق بمحذوف صلة من (عن عبادته) متعلّق بـ (يستكبرون) ، و(لا) نافية في الموضعين .

جملة : " له من في السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من عنده لا يستكبرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا يستكبرون . . . " في محل رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " لا يستحسرون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يستكبرون .

(الليل) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يسبّحون) ، (لا) نافية .

وجملة : " يسبّحون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " لا يفترون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يسبّحون .

21 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 21]

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21)

الإعراب:

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (من الأرض) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان "2" .

جملة: "اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هم ينشرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة "3"

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل (يستكبرون) .

(2) أو متعلّق بنعت لآلهة بتضمين اتّخذوا معنى عبدوا .

(3) وذلك على تقدير همزة الاستفهام الإنكاريّ قبلها . . ويجوز أن تكون في محلّ نصب نعت لآلهة.

وجملة: "ينشرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

البلاغة

التصريح بالضمير:

في قوله تعالى "هُمْ يُنْشِرُونَ" .

لا بد لقوله " هم " من فائدة ، وإلا فالكلام مستقل بدونها . والفائدة هي أنها تفيد معنى الخصوصية أولا ، كأنهم قالوا : ليس هنا من يقدر على الإنشاء غيرهم ، وثانيا لتسجيل إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم ، وهذا الادعاء قد أبطله اللّه تعالى في الآية التالية لهذه الآية ، بدليل التمانع ، وهي " لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا " .

- 22 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 22]

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

الإعراب :

(لو) حرف شرط غير جازم (كان) تامّ أو ناقص (فيهما) متعلّق ب (كان) ، أو بخبر له (آلهة) فاعل - أو اسم كان - (إلّا) اسم بمعنى غير ، وهي ولفظ الجلالة صفة لآلهة ، وظهر أثر الإعراب في لفظ الجلالة " 1 " .

(اللام) واقعة في جواب لو (الفاء) استئنافيّة (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (ربّ) نعت للفظ الجلالة مجرور (عمّا) متعلّق بالمصدر سبحان . . و(ما) حرف مصدريّ " 2 " .

جملة : "كان فيهما آلهة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) المراد من الآية نفي الآلهة المتعدّدة ، وإثبات الإله الواحد الفرد ، ولا يصحّ الاستثناء

بالنصب لأنّ المعنى حينئذ : " لو كان فيهما آلهة ، ليس اللّه فيهم ، لفسدتا وذلك يقتضي أنّه لو كان فيهما آلهة فيهم اللّه لم تفسدا وهذا ظاهر الفساد ، وكذلك لا يصحّ أن يعرب لفظ الجلالة بدلا من آلهة لأنّه لم يصحّ الاستثناء فلا تصحّ البدليّة .

(2) أو اسم موصول ، والعائد محذوف .

وجملة : " فسدتا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " (نسبّح) سبحان اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يصفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما يصفون) في محلّ جرّ بـ (عن) متعلّق بالمصدر سبحان .

الفوائد

الأدلّة الكلامية أو الفلسفية : قوله تعالى لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . قال علماء الكلام : إذا تعددت الآلهة ، فإما أن تتفق ، وإما أن تختلف . فإن اتفقت ، فيكون ذلك على حساب حرية أحدهما أو كليهما ، وإن اختلفت فسوف تتناقض أفعالهما . وفي كلا الحالين فساد للكون ودمار . وهناك أدلة فلسفية علمية مركبة ، يطلق عليها علماء الكلام برهان الوجوب وبرهان الحدوث . وقد استخدمها علماء الكلام للبرهنة على وجود اللّه .

ويغلب على الظن أنها مستقاة من فلسفة الإغريق وكثير من الفلاسفة القدامى والمعاصرين ، مسلمين وغير مسلمين لم يرق لهم التوصل إلى حقيقة الإله بواسطة البراهين العلمية فلجئوا إلى الفطرة من جهة ، وإلى التأمل في آثار الإله ، من تنظيم وإبداع ، سواء في أوصاف الطبيعية وأشكالها ، أم في جسم الإنسان ونفسه ، أم في أصناف الحيوان وما في خلقها من دقة وإبداع . وقد أطلقوا على هذه الوسيلة لمعرفة اللّه أسماء متعددة ، أهمها " قانون الإبداع والاختراع " . ولعل الفكر والقلب يرتاحان لهذا المجال من التأمل ، لإدراك عظمة الخالق ، أكثر من تلك القوانين العلمية المركبة .

(لو) تأتي بعدة معان :

1 – لو : حرف عرض ، وهو الطلب بلين ورفق ، مثل : لو تنزل عندنا فتصيب خيرا .

2 – لو : حرف تمنّ (تمني) ، مثل : لو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين .

3 – لو : حرف امتناع لامتناع ، حرف شرط لما مضى ، فتفيد امتناع شيء لامتناع غيره

، كما في الآية التي نحن بصددها ، (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا)

فالمعنى : قد امتنع الفساد لامتناع وجود غير اللّه ، وتحتاج لو هنا لجواب ، ويجوز في جوابها

أن يقترن باللّام .

4 - لو حرف مصدريّ ، ويسمى موصولا حرفيا لأنّه يوصل بما بعده فيجعله في تأويل

مصدر ، مثل : أودّ لو تجتهد ، أي اجتهادك .

- 23 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 23]

(338/510)

لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23)

الإعراب :

(لا) نافية ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (عمّا) متعلّق ب (يسأل) . .

و(ما) حرف مصدريّ (الواو) عاطفة .

جملة : " لا يسأل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة للتقرير .

وجملة : " يفعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: " هم يسألون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " يسألون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

24 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 24]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

الإعراب:

(أم اتّخذوا . . آلهة) مرّ إعرابها " 1 "، (من دونه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (هاتوا) فعل أمر جامد مبني على حذف النون . .

و(الواو) فاعل (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (معي) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل

---

(1) في الآية (21) من هذه السورة. [. . . . .]

الياء ، و(الياء) مضاف إليه (من قبلي) مثل من معي (بل) للإضراب الانتقاليّ (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب.

جملة: "اتّخذوا ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قل ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "هاتوا ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "هذا ذكر ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة: "أكثرهم لا يعلمون ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يعلمون ... "في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم).

وجملة: "هم معرضون ... "في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يعلمون.

الصرف:

(340/510)

(هاتوا)، هو أمر لأنّه يدلّ على الطلب، ويقبل دخول ياء المخاطبة فيقال هاتي، ولكن لا يأتي منه الماضي ولا المضارع فهو في حكم الفعل الجامد، وعدّه بعضهم اسم فعل، ولكنّ

اسم الفعل لا يقبل علامات الفعل، وهذا يقبلها.

25 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 25]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من قبلك) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (رسول) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (إلّا) أداة حصر (إليه) متعلّق بـ (نوحي) ، (إلّا) الثانية للاستثناء (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع بدل من الضمير الخبر المحذوف " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر و (النون) نون الوقاية، و (الياء) المحذوفة للتخفيف مفعول به.

---

(1) أو بدل من محلّ لا واسمها ومحلّه الرفع.

جملة: " ما أرسلنا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " نوحي ... " في محلّ نصب حال من فاعل أرسلنا أو من رسول.

وجملة: "لا إله إلّا أنا... " في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّه لا إله...) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء متعلّق بـ (نوحي)

أي نوحي إليه بأنّه لا إله...

وجملة: "اعبدون... " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن صدّقتموني

فاعبدوني.

26 - 29

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 26 إلى 29]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ

يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ

مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

(29)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة ومفعول اتّخذ الثاني مقدّر أي من الملائكة (سبحانه) مفعول مطلق لفعل محذوف (بل) للإضراب الإبطاليّ (عباد) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم، مرفوع (مكرمون) نعت لعباد مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: "قالوا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اتّخذ الرحمن ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " (نسبّح) سبحانه ... " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: " (هم) عباد ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(لا) نافية (بالقول) متعلّق بحال من فاعل يسبقونه (الواو) عاطفة (بأمره) متعلّق بـ (يعملون).

وجملة: "لا يسبقونه ... " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هم) "1".

وجملة: "هم .. يعملون" لا محلّ لها معطوفة على جملة هم عباد.

وجملة: "يعملون" في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) الثاني.

(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (ما خلفهم) مثل ما بين ومعطوف عليه (إلّا) أداة حصر (لمن) متعلّق بـ (يشفعون)، (الواو) عاطفة (من خشيته) متعلّق بـ (مشفقون).

وجملة: "يعلم ... " لا محلّ لها تعليل لما قبلها "2".

وجملة: "لا يشفعون . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة هم بأمره يعملون.

وجملة: "ارتضى . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "هم . . مشفقون "لا محلّ لها معطوفة على جملة هم بأمره يعملون.

(الواو) عاطفة (من) اسم شرط مبتدأ (منهم) متعلّق بحال من فاعل يقل (من دونه) متعلّق بنعت لإله (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ذلك) اسم إشارة مبتدأ خبره جملة نجزيه (جهنّم) مفعول به ثان منصوب (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي "3".

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(2) أو اعتراضيّة.

(3) يجوز أن تكون الكاف اسما بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر.

وجملة: "من يقل . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة هم . . مشفقون.

وجملة: "يقل . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "إنّي إله . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ذلك نجزيه . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "نجزيه... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلك).

وجملة: "نجزي الظالمين... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(مكرمون)، جمع مكرم اسم مفعول من (أكرم) الرّباعيّ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين.

(ارتضى)، فيه إعلال بالقلب، أصله ارتضي، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا.

و(الياء) في المجرد رضي منقلبة عن واو، أصله رضو - بضم الضاد - لأنّ مصدره الرّضوان ثم كسرت الضاد للاستثقال ثم قلبت الواو ياء لمجيئها متطرفة بعد كسر.

30 - 32

[سورة الأنبياء (21): الآيات 30 إلى 32]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) استئنافيّة "1"، وعلامة الجزم في (ير) حذف حرف العلّة..

---

(1) هي عند المعربين للعطف على مقدّر.

والمصدر المؤوّل (أنّ السموات . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يرى .

(الواو) استئنافيّة (من الماء) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا " 1 " ، (الهمزة)

للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية . .

جملة : " لم ير الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانتا رتقا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " ففتقناهما . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانتا .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤمنون . . . " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي :

أجهلوا فلا يؤمنون .

(الواو) عاطفة (في الأرض) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 2 " ، (أن) حرف مصدريّ

ونصب (بهم) متعلّق بـ (تميد) .

والمصدر المؤوّل (أن تميد . .) في محلّ نصب مفعول لأجله " 3 " بحذف مضاف أي

خشية أن تميد بهم .

(فيها) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 4 " ، (سبلا) بدل من (فجاجا) " 5 " .

وجملة : " جعلنا . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا . .

(الأولى) .

وجملة : " تميد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) يتعلّق الجارّ بـ (جعلنا) بتضمينه معنى خلقنا ، أو بحال .

(2 ، 4) أو متعلّق بـ (جعلنا) بتضمينه معنى خلقنا . . أو متعلّق بحال من فجاج .

(3) أو في محل جرّ بلام مقدّرة مع لا أي : لئلّا تميد ، والجارّ والمجرور متعلّق بـ (جعلنا) .

(5) يجوز أن يكون (سبلا) المفعول الأول و(فجاجا) حالا منه - نعت تقدّم على المنعوت

- .

الجدول ج 17 ، ص : 25

وجملة : " جعلنا . . . (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا (الأولى) .

وجملة : " لعلّهم يهتدون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " يهتدون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(سقفا) مفعول به ثان منصوب (الواو) استئنافيّة (عن آياتها) متعلّق بـ (معرضون) .

وجملة : " جعلنا . . (الرابعة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا الأولى .

وجملة: " هم . . معرضون " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(رتقا)، هو بلفظ المصدر لفعل رتق الثلاثيّ وهو بمعنى المفعول أو على تقدير ذواتي رتق

. . وزنه فعل بفتح فسكون.

(345/510)

(فجاجا)، جمع فجّ اسم للطريق الواسع بين جبلين، وزنه فعل بفتح فسكون، وقد يحمل معنى الوصف كما جاء في قوله تعالى: لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً (سورة نوح- الآية 20)، ووزن فجاج فعال بكسر الفاء.

(محفوظا)، اسم مفعول من حفظ الثلاثيّ باب فرح، وزنه مفعول، وهو إمّا أن يكون على حقيقته أي محفوظا عن كلّ فساد، أو هو مجاز عقليّ بمعنى حافظ.

الفوائد

كل وبعض:

يرى سيبويه والجمهور، أن هاتين اللفظتين معرفتان. واستدل على ذلك بمجيء الحال فيهما.

وأنكر الفارسي ذلك، وقال: لو كانا معرفتين لكان النصف والثلث والربع معارف، فهي على تقدير مضاف أيضا. وقد ردّ الجمهور كلام الفارسي بأن العرب كثيرا ما تحذف المضاف وتلحظه أو لا تلحظه، فإذا لحظته بقي المضاف معرفة، وصحّ مجيء الحال فيه، وإلا فلا..

33 -

[سورة الأنبياء (21): آية 33]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (الذي) موصول خبر للمبتدأ هو (كلّ) مبتدأ مرفوع "1"، (في فلك) متعلّق بـ (يسبحون) جملة: "هو الذي..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "خلق الليل..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "كلّ.. يسبحون" في محلّ نصب حال.

وجملة: "يسبحون" في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) "2".

الصرف:

(فلك)، اسم لمدار الكواكب في السماء، وهو في كلام العرب كلّ شيء مستدير، وزنه فعل بفتحتين، جمعه أفلاك زنة أفعال.

34 - 35

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 34 إلى 35]

وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (35)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (لبشر) متعلّق بمحذوف مفعول

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة دلالتها على عموم أو على تقدير مضاف.

(2) يجوز أن تكون خبرا ثانيا والجارّ (في فلك) الخبر الأول.

به ثان (من قبلك) متعلّق بمحذوف نعت لبشر " 1 "، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (متّ) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط.. و(التاء) فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط.

جملة: " ما جعلنا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إن متّ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هم الخالدون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

(بالشرّ) متعلّق بـ (نبلوكم)، (فتنة) مفعول لأجله منصوب " 2 "، (الواو) عاطفة (إلينا) متعلّق بـ (ترجعون).

وجملة: "كلّ نفس ذائقة ... " لا محلّ لها تعليل لما سبق.

وجملة: " نبلوكم ... " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة - أو استئنافيّة - وجملة: " ترجعون ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبلوكم.

البلاغة

الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى " ذائِقَةُ الْمَوْتِ ":

الموت لا يذاق، فقد شبهه بطعام غير مريء ولا مستساغ، ولكن وقوعه وكونه أمرا لا بد منه أصبح بمثابة المريء المستساغ، فلا مفر لنفس من ذوقه.

[سورة الأنبياء (21): آية 36]

وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36)

---

(1) أو متعلّق بـ (جعلنا).

(2) أو مصدر في موضع الحال أي فاتنين لكم . . أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو يلتقي مع معنى الفعل . .

(347/510)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف نفي (إلّا) أداة حصر (هزوا) مفعول به ثان منصوب بحذف مضاف أي ذا هزو ، (الهمزة) للاستفهام (هذا) اسم إشارة مبتدأ خبره الموصول (الذي) ، (الواو) حاليّة (بذكر) متعلّق بـ (كافرون) ، و(هم) الثاني توكيد للضمير الأول في محلّ رفع .

جملة : " رآك الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "يتّخذونك . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (إذا) " 1 " .

وجملة : " هذا الذي . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : يقولون أهذا الذي . . . وجملة القول المقدّرة حال من فاعل يتّخذونك .

وجملة : "يذكر . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هم . . . كافرون " في محلّ نصب حال من فاعل يتّخذونك .

البلاغة

الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى "أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ":

الاستفهام للإنكار والتعجب. ويفيد أن المراد يذكر آلهتكم بسوء، وقد يكتفى بدلالة الحال عليه، كما في قوله تعالى "سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ"، فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء، وقد تحاشوا عن التصريح أدبا مع آلهتكم.

الفوائد

1 - "إذا" تخالف أدوات الشرط بوجوب ارتباط الجواب بالفاء أو عدمه.

سائر أدوات الشرط إذا وقع في جوابها "إن" أو "ما" وجب ارتباطه بالفاء "بخلاف إذا" فقد يأتي الجواب مجردا من الفاء، كما في هذه الآية وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً

---

(1) يجوز أن تكون جملة الاستفهام المحكية بالقول (أ هذا الذي...) جواب إذا، وحينئذ تكون جملة يتخذونك اعتراض. [.....]

الجدول ج 17، ص: 29

2 - هل يأتي المصدر والنكرة حالا؟ وحصيلة ما قاله النحاة ثلاثة أقوال:

أ- مذهب سيبويه: أن المصدر هو الحال، وهو الأصل.

ب - مذهب المبرد والأخفش : أنه مفعول مطلق منصوب بالعامل المحذوف ، وذلك المحذوف هو الحال .

ج - مذهب الكوفيين : أنه مفعول مطلق منصوب بالعامل قبله ، وليس فيه موضع للحال .

ومنه قول أبي الطيب :

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والوسن

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لو لا مخاطبتي إياك لم ترني

فأسفا مفعول مطلق . التقدير : أسفت أسفا

[سورة الأنبياء (21) : آية 37]

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37)

الإعراب :

(من عجل) جارّ ومجرور حال من الإنسان (السين) حرف استقبال (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة و(النون) للوقاية . . و(الياء) المحذوفة للتخفيف - أو مناسبة فواصل الآيات - مفعول به .

جملة: "خلق الإنسان... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "سأريكم... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا تستعجلون... "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن سألتم شيئا فلا تستعجلوا.

الصرف:

(عجل)، مصدر سماعيّ لفعل عجل يعجل باب فرح، وزنه فعل بفتحتين، والعجل والعجلة ضدّ البطء.

[سورة الأنبياء (21): آية 38]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (متى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ هذا (الوعد) بدل من ذا - أو عطف بيان - مرفوع (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط.

جملة: "يقولون... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "متى هذا الوعد... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنتم صادقين" لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه

الكلام المتقدّم أي إن كنتم صادقين بقولكم فمتى هذا الوعد ؟

[سورة الأنبياء (21) : آية 39]

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)

الإعراب :

(لو) حرف شرط غير جازم (حين) ظرف زمان منصوب متعلّق بمفعول يعلم المحذوف " 1 " ، (لا) نافية (عن وجوههم) متعلّق ب (يكفّون) ، (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (عن ظهورهم) مثل عن وجوههم فهو معطوف عليه (لا) الثالثة لتأكيد النفي (ينصرون) مضارع مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل جملة : " يعلم الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط لو محذوف تقديره لما استعجلوا العذاب أو قيام الساعة " 2 " .

---

(1) أي لو يعلم الكافرون مجيء الموعود حي لا يكفّون . . وقد جعل العكبريّ (حين) مفعولا به عامله يعلم أي لو يعلمون وقت عدم كفّ النار عن وجوههم . .

(2) قدّره الزمخشريّ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستعجال . . وقدّره ابن عطيّة لما

وجملة: "كفروا ... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "لا يكفّون" في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "هم ينصرون" في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا يكفّون.

وجملة: "ينصرون" في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

40 -

[سورة الأنبياء (21) : آية 40]

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

الإعراب:

(بل) للإضراب الانتقالي، وفاعل (تأتيهم) ضمير يعود على القيامة المدلّل عليها بسؤالهم (بغتة) مصدر في موضع الحال "1" منصوب (الفاء) عاطفة في الموضعين (لا هم ينظرون) مثل لا هم ينصرون "2".

جملة: "تأتيهم ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تبهتهم ... "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة: "لا يستطيعون ...

" لا محلّ لها معطوفة على جملة تبهتهم.

وجملة: " هم ينظرون... " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يستطيعون.

وجملة: " ينظرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم)

[سورة الأنبياء (21) : آية 41]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (41)

- استعجلوا.. وقدّره الحوفيّ لسارعوا.. وقدّره غيرهم لعلموا صحة البعث، وجعلوا (حين) مفعولا للمقدّر لا ظرفا.

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر بتضمين تأتيهم معنى تبغتهم.

(2) في الآية السابقة (39).

(351/510)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (برسل) جارّ ومجرور نائب الفاعل لفعل استهزئ (من قبلك) متعلّق بنعت لرسل " 1 "، (بالّذين) متعلّق بـ (حاق)، (منهم) متعلّق بحال من فاعل سخروا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل

حاق (به) متعلّق بـ (يستهزئون) .

جملة : " استهزئ برسل . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " حاق . . . ما كانوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " سخروا . . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانوا به يستهزئون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا . .

[سورة الأنبياء (21) : آية 42]

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42)

الإعراب :

(من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة يكلؤكم ، وفاعل (يكلؤكم) ضمير مستتر يعود على من (بالليل) متعلّق بـ (يكلؤكم) ، (من الرحمن) متعلّق بـ (يكلؤكم) بحذف مضاف أي من عذاب الرحمن (بل) حرف إضراب (عن ذكر) متعلّق بـ (معرضون) .

جملة : " قل . . . " لا محل لها استئنافيّة .

وجملة : " من يكلؤكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكلؤكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

---

(1) أو متعلّق بـ (استهزئ) .

وجملة: " هم . . معرضون " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة الأنبياء (21) : آية 43]

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

الإعراب:

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ آلهة (من دوننا) متعلّق بمحذوف نعت ثان لآلهة (الواو) عاطفة (لا) لتأكيد النفي (منّا) متعلّق ب (يصحبون) على حذف مضاف أي من عذابنا (لا هم يصحبون) مثل لا هم ينصرون " 1 ".

جملة: " لهم آلهة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تمنعهم . . . " في محلّ رفع نعت لآلهة.

وجملة: " لا يستطيعون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تمنعهم " 2 ".

وجملة: " لا هم منّا يصحبون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

وجملة: " يصحبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

[سورة الأنبياء (21) : آية 44]

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (44)

الإعراب:

(بل) للإضراب الانتقاليّ (هؤلاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آباءهم) معطوف على اسم الإشارة بالواو، منصوب (حتّى) حرف غاية وجرّ (عليهم) متعلّق بـ (طال).

---

(1) في الآية (39) من هذه السورة.

(2) أو استئناف مقرّر لما قبله من الإنكار ومبيّن بطلان اعتقادهم.

والمصدر المؤوّل (أن طال..) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (متّعنا).

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) استئنافيّة - أو عاطفة - (من أطرافها) متعلّق بـ (ننقصها).

والمصدر المؤول (أنّا نأتي...) في محلّ نصب مفعول به عامله يرون.

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ الإنكاريّ (الفاء) عاطفة.

جملة: "متّعنا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "طال.. العمر" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "لا يرون... " لا محلّ لها استئنافيّة"

.

وجملة: "نأتي... " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: "ننقصها... " في محلّ نصب حال من فاعل نأتي.

وجملة: "هم الغالبون" لا محلّ لها معطوفة على جملة يرون "2".

الصرف:

(طال)، فيه إعلال بالقلب، أصله طول - مضارعه يطول - تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا.

[سورة الأنبياء (21): آية 45]

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (45)

الإعراب:

(إنّما) كافّة ومكفوفة (بالوحي) متعلّق ب (أنذركم)، (الواو) استئنافيّة (إذا) مجرّد من الشرط فهو متعلّق ب (يسمع)، أو بالمصدر الدعاء "3"،

---

(1) أو معطوفة على استئناف مقدّر أي أغفلوا فلا يرون . .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة .

(3) أو متضمّن معنى الشرط فيتعلّق بالجواب المقدّر أي إذا ما ينذرون لا يسمعون .

الجدول ج 17 ، ص : 35

(ما) زائدة (ينذرون) مثل ينصرون " 1 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنذركم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا يسمع الصمّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينذرون " في محلّ جرّ مضاف إليه .

البلاغة

وضع الظاهر موضع المضمر :

في قوله تعالى " قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ " والفائدة من هذا الفن التسجيل عليهم بالتصامم ، وتقيد نفي السماع ، فقد كان مقتضى السياق أن يقول : ولا يسمعون .

[سورة الأنبياء (21) : آية 46]

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (46)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (مسّتهم) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط (من عذاب) متعلّق بنعت لنفحة (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، و(النون) نون التوكيد (يا) أداة تنبيه (ويلنا) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب.. و(نا) مضاف إليه "2".

جملة: "مسّتهم نفحة..." لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (39) من هذه السورة.

(2) انظر إعراب الجزء الأخير من هذه الآية في الآية (14) من هذه السورة.

وجملة: "يقولنّ..." لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

جملة: "ويلنا" لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: "إنّا كنّا..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : "كنّا ظالمين " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(نفحة) ، مصدر مرّة من نفح الثلاثيّ وزنه فعلة بفتح فسكون .

البلاغة

في قوله تعالى " مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ " ثلاث مبالغات : آ - ذكر المس ، وهو دون النفوذ ، ويكفي في تحققه إيصال ما .

ب - وما في النفح من معنى النزارة ، فإنّ أصله هبوب رائحة الشي ء . ويقال نفحته الدابة ، ضربته بحد حافرها ، ونفحة بعطية أعطاه يسيرا .

ج - بناء المرة ، وهي لأقل ما ينطلق عليه الاسم .

الفوائد

نفحة : اسم مرة :

هنا يجمل بنا أن نتعرض لذكر المرّة والهيئة ، وبيان وسائل اشتقاقهما :

أ - اسم المرة أو مصدر المرة : كلاهما واحد . ويبنى من الثلاثي المجرّد على وزن فعلة ، لبيان عدد المرات التي حدث بها الفعل ، نحو : وقفت وقفة ، وقفت وقفتين ، ووقفت ثلاث وقفات إلخ .

ويصاغ من فوق الثلاثي ، بإضافة تاء إلى المصدر ، مثل : أكرمته إكرامة ، وسفّرته تسفيرة .

وإن كان المصدر فيه التاء من الأصل ، فيذكر بعده ما يدل على عدده ، مثل :

رحمته رحمة واحدة أو رحمتين .

ب - أما اسم الهيئة أو مصدر الهيئة : فهو المصدر الذي يذكر لبيان نوع الفعل أو صفته ، فيذكر من الثلاثي على وزن فعلة ، بكسر أوّله ، مثل مات ميتة سيئة . وفلان يمشي مشية الأسد .

وإذا كان فعله فوق الثلاثي ، يوصف مصدره ، فيصبح مصدر نوع ، أو اسم هيأة ، مثل أكرمته إكراما جيدا .

ملاحظة هامة :

لا تدخل التاء الدالة على المرة الواحدة على الأفعال القلبية والباطنية والتي لا تدرك بالحسّ ، كالحسن والجبن والعلم ، فلا يقال : علمته علمة ، ولا فهمته فهمة ، ولا صبرته صبرة إلخ .

[سورة الأنبياء (21) : آية 47]

وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (47)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (القسط) نعت للموازين بحذف مضاف أي ذوات القسط ، منصوب (ليوم) متعلّق بـ (نضع) ، (الفاء) عاطفة (تظلم) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (نفس) نائب الفاعل مرفوع (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي ظلما ما كبيرا أو صغيرا " 1 " ، (الواو) عاطفة ، واسم كان ضمير مستتر تقديره هو يعود على مضمون ما تقدّم أي العمل (من خردل) متعلّق بنعت لمثقال " 2 " (بها) متعلّق بـ (أتينا) ، (الواو) استئنافيّة (بنا) حرف جرّ زائد وضمير محلّه البعيد فاعل كفى . . (حاسبين) حال من ضمير المتكلّم الجمع " 3 " ، منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " نضع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به أي شيئا من الحسنات أو السيّئات . [. . . . .]

(2) أو نعت لحبّة .

(3) أو تمييز جملة كفى بنا .

(356/510)

وجملة : " لا تظلم نفس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نضع .

وجملة : " إن كان مثقال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نضع .

وجملة: "أتينا "لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء " 1 " .

وجملة: "كفى بنا حاسبين "لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(خردل)، اسم جمع لنبات له حبّ صغير جدّا واحدته خردلة، وزنه فعلل بفتح الفاء واللام الأولى.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 48 إلى 49]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الفرقان) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (ضياء) معطوف على الفرقان منصوب ومثله (ذكرا)، (للمتّقين) متعلّق بـ (ذكرا).

جملة: "آتينا ... "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

(الذين) موصول في محلّ جرّ نعت للمتّقين " 2 "، (بالغيب) متعلّق بحال من الفاعل في (يخشون)، (الواو) عاطفة (من الساعة) متعلّق بالخبر بـ (مشفقون)، وهو خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو.

وجملة: " يخشون... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " هم... مشفقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

البلاغة

العدول عن الفعلية إلى الاسمية:

في قوله تعالى " وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ " عدول عن الخطاب بالجملة الفعلية،

---

(1) لأنّ الفعل هنا مبنيّ في محلّ جزم جواب الشرط.

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم.

كما هو مقتضى السياق، إلى الخطاب بالجملة الاسمية، للدلالة على أن حالتهم فيما يتعلّق بالآخرة الإشفاق الدائم.

[سورة الأنبياء (21): آية 50]

وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (مبارك) نعت للخبر ذكر مرفوع مثله (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ

(الفاء) للاستئناف (له) متعلّق بـ (منكرون) وهو خبر أنتم.

جملة: "هذا ذكر..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أنزلناه..." في محلّ رفع نعت ثان لذكر "1".

وجملة: "أنتم له منكرون" لا محلّ لها استئنافيّة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 17 صـ 39.3﴾

(358/510)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(21) سورة الأنبياء

مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة

[سورة الأنبياء (21): الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

اللغة :

(النَّجْوَى) : الكلام السرّ وهي اسم من التناجي ولا تكون إلا خفية ، وفي القاموس : " وهو وصف بالمصدر يستوفى فيه المفرد والجمع يقال : هم نجوى " .

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) : أخلاط رآها في النوم وقد تقدم بحثها .

(359/510)

الإعراب :

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) اقترب فعل ماض مبني على الفتح وللناس متعلقان باقترب ويجوز أن تكون تأكيدا لإضافة الحساب إليهم كقولك أزف للحي رحيلهم . والأصل أزف رحيل الحي ثم أزف للحي الرحيل ثم أزف للحي رحيلهم ، وحسابهم فاعل اقترب لأن كل آت قريب مهما يطل الأمد والواو للحال وهم مبتدأ وفي غفلة خبر ومعرضون خبر ثان . (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) الجملة تعليل للجملة السابقة فلا محل لها وما نافية ويأتيهم فعل مضارع والهاء

مفعول به ومن حرف جر زائد لسبقه بالنفي وذكر مجرور لفظا مرفوع محلا على الفاعلية ومن ربهم صفة لذكر ومحدث صفة ثانية ويجوز تعليق من ربهم بيأتيهم أو بمحذوف حال من ذكر لأنه وصف بمحدث وإلا أداة حصر لأن الاستثناء مفرغ وجملة استمعوه في محل نصب على الحال من مفعول يأتيهم وقد مقدرة وهم الواو حالية وهم مبتدأ وجملة يلعبون خبرهم والجملة نصب على الحال من فاعل استمعوه ، هذا وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثا على أن القرآن محدث لأن الذكر هنا هو القرآن وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف لأنه متجدد في النزول فالمعنى محدث تنزيله وإنما النزاع في الكلام النفسي.

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) لاهية حال من فاعل يلعبون أيضا فتكون حالا متداخلة ويجوز أن تكون حالا من فاعل استمعوه فتكون الحالان مترادفتين لأن الحال يجوز تعددها وقلوبهم فاعل لاهية وأسروا فعل وفاعل والنجوى مفعول به والذين بدل من واو وأسروا النجوى

إشعارا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش الذي جاءوا به وسيأتي المزيد من إعراب هذه الكلمة في باب الفوائد ، وجملة ظلموا صلة وهل حرف استفهام وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر . ومثلكم صفة والجملة الاستفهامية في محل نصب بدل من النجوى لأنها بمثابة التفسير لها وأجاز الزمخشري أن تكون في محل نصب مقول قول محذوف ويجوز أن تكون في محل نصب محكية للنجوى لأنها في معنى القول ، ولا أرى مانعا من أتكون جملة لا محل لها لأنها مفسرة . (أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) وهذه الجملة تنطبق عليها الأوجه المتقدمة والهمزة للاستفهام والفاء عاطفة على مقدر وتأتون السحر فعل مضارع وفاعل ومفعول به والواو للحال وأنتم مبتدأ وجملة تبصرون خبر وجملة وأنتم تبصرون حالية من فاعل تأتون مقررة للانكار . (قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ربي مبتدأ وجملة يعلم القول خبر والجملة مقول القول وفي السماء والأرض متعلقان بمحذوف حال من القول أو بيعلم وهو الواو عاطفة وهو مبتدأ والسميع العليم خبران لهو وحذف متعلقهما للعلم به أي السميع لما أسروه والعليم به .

(بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ) أضربوا عن قولهم هو سحر فقالوا هو أضغاث أحلام فأضغاث أحلام خبر لمبتدأ محذوف والجملة في محل نصب مقول قالوا بل افتراه ثم أضربوا عن ذلك فقالوا اختلقه فافتراه فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ثم أضربوا أيضا فقالوا هو شاعر مبتدأ وخبر . (فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) الفاء

الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر كأنه قيل وإن لم يكن كما قلنا فليأتنا واللام لام الأمر ويأت فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره هو ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به كما يجوز في الكاف أن تكون نعتا لآية أي

كائنة مثل الآية التي أرسل بها الأولون وعندئذ فما موصولة ويجوز أن تكون نعتا لمصدر محذوف وما مصدرية أي فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل إرسال الأولين.

الفوائد :

قوله تعالى «وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» قال أبو البقاء :

«الذين ظلموا في موضعه ثلاثة أوجه : أحدها : الرفع ، وفيه أربعة أوجه :

آ- أن يكون بدلا من الواو في وأسروا .

ب- أن يكون فاعلا والواو حرف للجمع لا اسم .

ج- أن يكون مبتدأ والخبر هل هذا والتقدير يقولون : هل هذا ؟

د- أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين ظلموا .

وثانيها : أن يكون منصوبا على إضمار أعني .

وثالثها : أن يكون مجرورا صفة للناس .

والمعروف أن الفعل يجب أن يبقى مع الفاعل بصيغة الواحد وان كان مثنى أو مجموعا قال ابن مالك :

وجرد الفعل إذا ما أسندا لاثنين أو جمع كفاز الشهدا

إلا على لغة ضعيفة لبعض العرب فيطابق فيها الفعل الفاعل ، وحكى البصريون عن طيء وحكى بعضهم عن ازدشنوءة نحو ضربوني قومك

وضربنني نسوتك وضرباني أخواك وفي الحديث «أو مخرجيّ هم» وقال عمرو بن ملقط الجاهلي :

ألفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقيه

فألفيتا بالبناء للمجهول فعل ماض وعيناك نائب الفاعل فألحق الفعل علامة التثنية مع اسناده الى الظاهر ونائب الفاعل كالفاعل وعند ظرف بمعنى قرب متعلق بألفيتا وذا واقية حال من المضاف إليه وهو الكاف وواقية مصدر معناه الوقاية كالكاذبة مصدر معناه

الكذب وأولى ، فأولى لك دعاء أي قاربك ما يهلكك قال العيني : فإن قلت : ما موقع أولى من الاعراب ؟ قلت : يجوز أن يكون في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره دعائي أولى لك ، فأولى لك عطف على أولى الأول كرر للتأكيد وقال أبو البقاء في إعراب أولى لك فأولى فيه قولان أحدهما فعلى والألف فيه للإلحاق لا للتأنيث والثاني أفعل وهو على القولين هنا ولذلك لم ينون ويدل عليه ما حكى أبو زيد في النوادر وهي أولات بالتاء غير مصروف لأنه صار علما للوعيد فصار كرجل اسمه أحمد فعلى هذا يكون أولى مبتدأ ولك الخبر والثاني أن يكون اسما للفعل مبنيا ومعناه ويلك شر بعد شر ولك تبيين ، وهذا البيت يصف به رجلا إذا اشتد الوطيس فهو يلتفت الى ورائه مخافة أن يتبع فتلفى عيناه عند قفاه من شدة الالتفات ، وقال أبو فراس :

تنج الربيع محاسنا ألقحنها غر السحائب

وأبو فراس من المولدين والغرض من كلامه التمثيل لا الاستشهاد .

وارتأى الشيخ مصطفى الغلاييني رأيا جميلا وسنورد نص كلامه :

" وما ورد من ذلك من فصيح الكلام فيعرب الظاهر بدلا من المضمر وعليه قوله تعالى (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أو يعرب الظاهر مبتدأ والجملة قبله خبر مقدم، أو يعرب فاعلا لفعل محذوف فكأنه قيل بعد قوله وأسروا النجوى: من أسرها؟ فيقال أسرها الذين ظلموا وهو الحق وهذا لا يكون إلا حيث يستدعي المقام تقدير كلام استفهامي كما ترى في الآية الكريمة" ونحسب أن القول قد أشبع فحسبنا ما تقدم.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 6 إلى 13]

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ
فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (7) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا
خالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنْزَلْنا
إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (10)
وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا
هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (12) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ
(13)

اللغة:

(قَصَمْنا) : القصم أبلغ من الكسر وفي القاموس" قصم من باب

صرب قصما الشيء : كسره ، وقصم الرجل : أهلكه ، ويقال : قصم اللّه ظهر الظالم أي أنزل به البلية " وللقاف مع الصاد فاء وعينا للكلمة سر عجيب ، انهما تدلان على الكسر والمحق والإهلاك فقولهم : قصب الشاة يعني قطعها قطعا أو عضوا عضوا ومنه سمي القصاب أي الجزار والقصّابة مؤنث القصاب ولها معنى آخر وهو ما نسميه اليوم " الناي " أي قصبة ينفخ بها للغناء وعن بعض العرب : قلت أبياتا فغنى بها حكم الوادي فواللّه ما حرك بها قصّابة إلا خفت النار فتركت قول الشعر ، وهي الوتر ، ونفخ في القصابة : في المزمار ، وأقصدته المنية أهلكته ومنه قصد الرجل أتى اليه ونحا نحوه ، وقصرته حبسته وقصرت نفسي على هذا الأمر إذا لم تطمح إلى غيره وقصرت طرفي لم أرفعه إلى مالا ينبغي وهنّ قاصرات الطرف : قصرنه على أزواجهنّ ، وقص الشعر والريش وقصّصه معروف وجناح مقصوص ومقصص ، وقصع الصّؤاب بين ظفريه قتله وقصعت الرحى الحب فضخته وصبي قصيع قميء لا يشب ، وقصف القناة والعود كسرهما وقصف ظهره ورجل مقصوف والعامة تقول لمن تدعو عليه يا مقصوف وهي فصيحة لا غبار عليها وعصفت ريح فقصفت السفينة وعود قصف : سريع الانكسار ، قال الطرماح :

تميم تمنّى الحرب ما لم ألاقها وهم قصف العيدان في الحرب خورها

وقصله قطعه قطعا وحيّا وسيف قاصل وقصّال ومقصل وقصل فرسه يقصله : علفه

القصيل ومنه المقصلة وهي آلة للاعدام قوامها سكين تسقط على رأس المجرم فتقطعه ، وقصا يقصو قصوا وقصوا وقصا وقصاء الرجل تباعد وفي البعد اشارة إلى الهلكة لأنها بعد أيضا .

(أُتْرِفْتُمْ) : نعمتم من العيش الرافه والحال الناعمة والإتراف ابطار النعمة .

الاعراب :

(

(365/510)

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) ما نافية وآمنت فعل ماض والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم واستبعاد إيمانهم وقبلهم ظرف متعلق بآمنت ومن حرف جر زائد وقرية مجرور لفظا فاعل آمنت محلا وجملة أهلكناها صفة لقرية والمراد بالقرية أهلها كما سيأتي في باب البلاغة ، أفهم الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة يؤمنون خبر . (وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) الواو عاطفة وما نافية وأرسلنا فعل ماض وفاعل إلا أداة حصر ورجالا مفعول أرسلنا وجملة نوحي إليهم صفة لرجالا ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية . (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا

تَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة واسألوا فعل أمر وفاعل وأهل الذكر مفعول به وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وجملة لا تعلمون خبرها وجواب الشرط محذوف دلت عليه الفاء الفصيحة. (وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ) الواو عاطفة وما نافية وجعلناهم فعل وفاعل ومفعول به وجسدا مفعول ثان إذا كانت جعل بمعنى التصيير وإن كانت بمعنى الخلق فجسدا حال مؤولة بالمشتق أي متغذين، وجملة لا يأكلون الطعام في محل نصب نعت لجسدا وجسد مفرد أريد به الجمع وانما وحدّه ليشمل الجنس عامة لأن الجسد لا بد له من غذاء، والواو عاطفة وما نافية وكانوا خالدين كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة

على لا يأكلون. (ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) ثم حرف عطف وصدقناهم فعل وفاعل ومفعول والوعد منصوب بنزع الخافض لأن صدق يتعدى لاثنين إلى ثانيهما بحرف الجر والأصل في الوعد، فأنجيناهم عطف على صدقناهم ومن نشاء عطف على الهاء وجملة نشاء صلة وأهلكنا المسرفين عطف على أنجيناهم والمسرفين مفعول به. (لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ) اللام جواب لقسم

محذوف وقد حرف تحقيق وأنزلنا فعل وفاعل وإليكم متعلقان بأنزلنا وكتابا مفعول به وفيه خبر مقدم وذكركم مبتدأ مؤخر والجملة صفة لكتابا وسيأتي معنى فيه ذكركم في باب الفوائد والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والفاء عاطفة على مقدر ينسحب عليه الكلام أي ألا تتفكرون فلا تعقلون شيئا من الأشياء المذكورة لكم ، (وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ) الواو عاطفة أو استئنافية مسوقة للتمثيل بالأمم التي هلكت قبلهم وكم خبرية مفعول به مقدم لقصمنا ومن قرية تمييز لكم الخبرية مجرور بمن وقد تقدم ذلك وجملة كانت ظالمة صفة لقرية والمراد بالقرية أهلها وكانت ظالمة كان واسمها المستتر وخبرها وأنشأنا عطف على قصمنا وبعدها ظرف متعلق بأنشأنا وقوما مفعول به وآخرين صفة لقوما . (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة وإذا الفجائية وقد تقدم الكلام حولها والخلاف فيها مشبعين وهم مبتدأ وجملة يركضون خبرهم ومنها متعلقان بيركضون وقد استدل بعضهم بهذه الآية على أن لما حرف وسماها ابن هشام رابطة لأنه لا عامل لها إذا أعربت ظرفا بمعنى حين ونرى أن معنى المفاجأة التي دلت عليه إذا هو العامل وسيأتي مزيد بحث عن لما في باب الفوائد .

)

لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ)

لا ناهية وتركضوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وجملة لا تركضوا مقول قول محذوف والقائل اختلف فيه فقيل هم الملائكة وقيل هم من كان هناك من المؤمنين وهذا القول على سبيل الاستهزاء بهم طبعا ، وارجعوا فعل أمر معطوف على لا تركضوا والى ما متعلقان بارجعوا وجملة أترفتم صلة وفيه متعلقان بأترفتم ومساكنكم بالجر عطف على ما ، ولعلكم تسألون لعل واسمها وخبرها والترجي هنا استهزاء بهم وتهكم بما كانوا يظنونه بأنفسهم من أنهم مظنة السخاء ومطلع الكرم والمعنى ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون شيئا من دنياكم حسبما تتصورون أنفسكم من أنكم أهل النوال والعطاء حيث يسألكم الناس في العوادي والنوازل ويندبونكم للملمات ويستشيرونكم في المعضلات وسيأتي المزيد عن هذا البحث الشيق في باب البلاغة .

البلاغة :

1- المجاز المرسل في قوله " قرية " إذ المراد أهلها وقد تقدم مثال ذلك كثيرا .

2- التهكم بقوله " وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ " وقد ألمعنا إلى المراد من هذا التهكم ونزيد عليه هنا احتمالين هامين مترتبين على هذا التهكم :

آ- انهم كانوا أسخياء حقيقة يجودون بالنوال ويبسطون أيديهم بالعطايا ولكنهم كانوا

يفعلون ذلك رئاء الناس واكتسابا للشهرة والثناء وفي ذلك من الإيلام والايجاع ما فيه ، إذ يرون أن ما أنفقوه وما بذلوه لم يكن إلا زيادة في برحائهم وإمعانا في عذابهم :

ب- انهم كانوا بخلاء يكرهون البذل ويصدون عمن جاء يستندي سحاب أكفهم ويمتري اخلاف جدواهم فقيل لهم ذلك ليزيدهم إيلاما على إيلام وايجاعا على إيجاع .

الفوائد :

1- قوله "كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ"

(368/510)

أي فيه ما يوجب الثناء عليكم لكونه نازلا بلسانكم وبين ظهرانيكم وعلى رسول منكم وقيل فيه ما تنشدونه من حسن الذكر وبعد الصيت وطيب الأحدوثة وقيل فيه الموعظة لكم والإرشاد لما ينفعكم في دينكم ودنياكم وجميع ذلك محتمل .

2- بحث لما :

تقع لما في العربية على ثلاثة أوجه :

الأول :

أن تختص بالمضارع فتجزمه وتنفيه وتقلبه ماضيا كـ " لم " إلا أنها تفارقها في خمسة أمور :

1- انها لا تقترن بأداة شرط فلا يقال : إن لما تقم ويقال : إن لم تقم .

2- ان منفيها مستمر النفي إلى الحال أما منفي لم فيحتمل الاتصال والانقطاع مثل : " لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا " ولهذا جاز أن تقول : لم يكن ثم كان ، ولكن لا يجوز أن تقول : لما يكن ثم كان .

3- ان الغالب في منفي لما ان يكون قريبا من الحال بخلاف منفي لم .

4- ان منفي لما متوقع ثبوته بخلاف منفي لم .

5- ان منفي لما جائز الحذف لدليل كقوله : " فجئت قبورهم بدءا ولما " أي ولما أكن بدءا قبل ذلك أي سيدا ولا يجوز :

" وصلت إلى حمص ولم " تريد ولم أدخلها .

الثاني :

أن تختص بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما نحو : لما جاءني أكرمته ويقال فيها حرف وجود لوجود وبعضهم يقول وجوب لوجوب وقيل هي ظرف لفعل وقع لوقوع غيره وقال جماعة : انها ظرف بمعنى حين .

الثالث :

أن تكون حرف استثناء بمعنى إلا فتدخل على الجملة الاسمية نحو : " إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حافِظٌ " فيمن شدد الميم وعلى الماضي لفظا لا معنى نحو أنشدك اللّه لما فعلت أي

ما أسألك إلا فعلك.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 14 إلى 23]

(369/510)

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (14) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً

خامِدِينَ (15) وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً

لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ

وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ

(19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ

(21) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لا

يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23)

اللغة:

(حَصِيداً) : فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد وغيره وستأتي قاعدته في باب الفوائد

وهو الزرع المحصود.

(خامِدِينَ) : يقال خمدت النار وهمدت كل منهما من باب دخل لكن الاول عبارة عن سكون لهبها مع بقاء الجمر والثاني عبارة عن ذهابها بالكلية .

(لَهْواً) : في المصباح : " اللهو معروف ، تقول أهل نجد : لهوت عنه ألهو لهيّا والأصل على فعول من باب قعد ، وأهل العالية لهيت عنه ألهى من باب تعب ومعناه السلوان والترك ولهوت به لهوا من باب قتل أولعت به أيضا ، قال الطرطوشي : وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقضيه الحكمة وألهاني الشيء بالألف شغلني " اه .

(370/510)

وفي القاموس والتاج : " لهى لهوا لعب كالتهى وألهاه ذلك والملاهي آلاته وتلاهى بذاك والألهوة والألهية والتلهية ما يتلاهى به ولهت المرأة إلى حديثه لهوا ولهوّا : أنست به وأعجبها واللّهوة المرأة الملهو بها كاللهو وبالضم والفتح ما ألقيته في فم الرحى والعطية أو أفضل العطايا وأجزلها كاللهية والحفنة من المال أو الألف من الدنانير

والدراهم لا غير ولهي به كرضي أحبه وعنه سلا وغفل وترك ذكره كلها كدعا لهيا ولهيانا ، وقال شارح القاموس قوله : لها لهوا لعب قضية اتحادهما وقد فرق بينهما جماعة فقيل يشتركان في أنهما اشتغال بما لا يعني حراما أو لا قيل واللهو أعم مطلقا فاستماع الملاهي لهو

لا لعب وقال الجوهري: قد يكنى باللهو عن الجماع ويدل على ما قاله امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وان لا يحسن اللهو أمثالي

(فَيَدْمَغُهُ): فيذهبه وبابه قطع وفي القاموس: دمغة قهره ودمغ الحق بالباطل: أبطله ومحقه وسيأتي تفصيل ذلك في باب البلاغة.

(يَسْتَحْسِرُونَ) يكلون ويتعبون يقال: استحسر البعير أي كلّ وتعب ويقال حسر البعير وحسرته أنا فيكون لازما ومتعديا وأحسرته أيضا فيكون فعل وأفعل بمعنى واحد وسيأتي مزيد بيان عن الاستحسار في باب البلاغة.

الاعراب:

(قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ) يا أداة نداء وويلنا منادى مضاف يدعون الويل والثبور لأن هذا وقته ويجوز أن تكون يا للتنبيه وويلنا مصدر لفعل محذوف والجملة مقول قولهم وإن واسمها وجملة كنا ظالمين خبرها وكان واسمها وظالمين خبرها. (فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ) الفاء عاطفة وما زالت فعل ماض ناقص والتاء علامة التأنيث وتلك اسم اشارة اسمها في محل رفع ودعواهم

خبرها منصوب بفتحة مقدرة على الألف والهاء مضاف اليه والميم حرف دال على جمع الذكور والمراد بالدعوى تلك الكلمات وهي "يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ" وحتى حرف غاية وجر وجعلناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وحصيدا خامدين مفعول به ثان لأن حكمهما حكم الواحد . إذ أن معنى جعلناهم حصيدا خامدين : جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود ومثال ذلك قولك جعلته حلوا حامضا أي جامعا للطعين أي مزا ، ولك أن تجعل خامدين صفة لحصيدا . (وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ) الواو حرف عطف أو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لعرض البدائع والعجائب التي انطوى عليها خلق السموات والأرض وما فيهما للعظة ولتكون مطارح اعتبار وحافزا للتفكير والاستدلال وما نافية وخلقنا فعل وفاعل والسماء مفعول به والأرض عطف على السماء وما عطف على السماء والأرض وبينهما ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول ولاعبين حال من فاعل خلقنا . (لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ) لو شرطية امتناعية وأردنا فعل وفاعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول أردنا وفاعل نتخذ ضمير مستتر تقديره نحن ولهوا مفعول به ولاتخذناه اللام واقعة في جواب لو واتخذناه فعل وفاعل ومفعول به من لدنا متعلقان بمحذوف مفعول به ثان لاتخذ وإن يجوز أن تكون نافية بمعنى ما وكنا فاعلين كان واسمها وخبرها والجملة حالية من فاعل اتخذناه أي حال كوننا غير فاعلين ويجوز أن تكون إن شرطية وجوابها محذوف يدل عليه جواب لو ولعل هذا

أولى وأشبه الوجهين بمذهب العربية . (

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) بل إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه تعالى لذاته ونقذف فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن وبالحق جار ومجرور متعلقان بنقذف وعلى الباطل متعلقان

(372/510)

بمحذوف حال أي مستعليا على الباطل ، فيدمغه عطف على نقذف فإذا الفاء عاطفة وإذا فجائية وقد تقدم ذكرها وهو مبتدأ وزاهق خبرها ولكم الواو استئنافية ولكم خبر مقدم والويل مبتدأ مؤخر ومما متعلقان بالاستقرار الذي تعلق به الخبر وهوما ، أي استقر لكم الويل من كل ما تصفون ومما يجوز أن تكون موصولة وأن تكون مصدرية وعلى كل جملة تصفون لا محل لها . (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الواو عاطفة وله خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وفي السموات والأرض صلة . (وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) الواو عاطفة ومن معطوفة على من الأولى وعنده ظرف متعلق بمحذوف صلة وجملة لا يستكبرون حالية من من الأولى وعن عبادته متعلقان بيستكبرون وجملة لا يستحسرون عطف على جملة لا يستكبرون ويجوز أن تكون الواو للاستئناف ومن عنده

أي الملائكة مبتدأ خبره جملة لا يستكبرون والجملة مستأنفة. (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما يصنعه من عند اللّه في عبادتهم ويسبحون فعل مضارع وفاعل ويجوز أن تكون الجملة حالية والليل والنهار ظرفان متعلقان بيسبحون وجملة لا يفترون حال من فاعل يسبحون. (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) أم المنقطعة عاطفة وتفيد الإنكار واتخذوا فعل وفاعل وآلهة مفعول به ومن الأرض صفة وهم مبتدأ وجملة ينشرون خبر وجملة هم ينشرون صفة لآلهة ومفعول ينشرون محذوف أي يحيون الموتى ويجوز جعلها جملة مستأنفة لم يدعوا لآلهتهم انها تنشر الموتى ولكنهم بمجرد دعواهم ألوهيتها يترتب عليهم أن يدعوا ضمنا انها تنشر الموتى وسيأتي مزيد بحث حول الضمير الذي هو "هم" في باب البلاغة. (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) لو

شرطية

امتناعية وكان فعل ماض ناقص وفيهما خبر كان المقدم وآلهة اسمها المؤخر وإلا بمعنى غير صفة لآلهة ظهر اعرابها على ما بعدها ولا يصح أن تكون استثنائية لأن مفهوم الاستثناء

فاسد هنا إذ حاصله انه لو كان فيهما آلهة لم يستثن الله منهم لم تفسدا وليس كذلك فإن مجرد تعدد الآلهة يوجب لزوم الفساد مطلقا وسيأتي مزيد بسط لهذا المبحث الهام، ولفسدتا اللام واقعة في جواب لو وجملة فسدتا لا محل لها من الاعراب فسبحان الله الفاء عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف ولفظ الجلالة مضاف اليه ورب العرش بدل أو صفة للفظ الجلالة وعما متعلقان بسبحان وجملة يصفون لا محل لها لأنها صلة ما ويجوز أن تكون ما مصدرية. (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تفرده سبحانه بالسلطان، بحيث لا يسأله أحد عما يفعله ولا نافية ويسأل فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وعما متعلقان بيسأل وهم الواو عاطفة أو حالية وهم مبتدأ وجملة يسألون خبر.

البلاغة:

في هذه الآيات فنون عديدة أولها:

1- الاستعارة في قولهم "يا ويلنا" فقد خاطبوا الويل وهو الهلاك كأنه شخص حي يدعونه لينقذهم مما هم فيه.

2- التشبيه البليغ في قوله "جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ".

فقد شبههم بعد حلول العذاب بهم بالحصيد أولا وهو الزرع المحصود ووجه الشبه بين

المشبه والمشبه به هو الاستئصال من المنابت ثم شبههم

ثانيا بالنار المنطفئة ولم يبق منها إلا جمر منطفىء لا نفع فيه ولا قابلية لشيء من النفع منه فلا

ترى إلا أشلاء متناثرة وأجزاء متفرقة قد تمددت وقدران عليها البلى .

(374/510)

3- الاستعارة المكنية في قوله " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " فقد

شبه الحق والباطل وهما معنويان بشيئين ماديين محسوسين يقذفان ويدفعان ثم حذف

هذين الشيئين واستعار ما هو من لوازمهما وهما القذف والدمغ لتجسيد الاطاحة بالباطل

واعتلاء الحق عليه وتصوير إبطاله وإهداره ومحقه كأنه جرم صلب كصخرة أو ما يماثلها في

القوة والصلابة قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه وهي من استعارة المحسوس للمعقول

وقد تقدم بحث ذلك مفصلا مع استيفاء أقسام الاستعارة بالنسبة لطرفي التشبيه .

4- قوة اللفظ لقوة المعنى : وقد تقدم الكلام عن هذا الفن ونعني به نقل اللفظ من وزن إلى

وزن آخر أكثر منه ليتضمن من المعنى الدال عليه أكثر مما تضمنه أولا لأن الألفاظ أدلة على

المعاني وأمثلة للابانة عنها فاذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا الضرب

من الزيادة لا يستعمل إلا في مقام المبالغة وهو هنا في قوله تعالى " وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ " فقد

عدل عن الثلاثي وهو حسر إلى السداسي وهو استحسر وقد كان ظاهر الكلام أن يقال يحسرون أي يكلون ويتعبون ، لأن أقل ملل منهم أو كلال إزاء الملائكة وإزاء عبادتهم للّه سبحانه لا يتصور منهم ولكنه عدل عن ذلك لسرّ يخفى على النظرة السطحية الأولى وهو أن ما هم فيه من انهماك بالعبادة وانصراف بالكلية لها يوجب غاية الحسور وأقصاه .

5- التصريح بالضمير : وذلك في قوله : " هم ينشرون " وقد كان يكفي أن يقول ينشرون ولكنه عدل عن ذلك إلى التصريح بالضمير لإفادة معنى الخصوصية أولا كأنهم قالوا ليس هنا من يقدر على الإنشار غيرهم وثانيا لتسجيل إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم وهذا الادعاء قد أبطله الله في الآية التالية لهذه الآية بدليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية وهي " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا " كما سيوضح في الاعراب ، وهذا من جوهر الكلام وخالصه .

6- المذهب الكلامي : وذلك في قوله " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا " وذكر ابن المعتز أن الذي سماه هذه التسمية هو الجاحظ والكتاب الكريم مشحون به وتعريفه هو انه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام وله

طرق متعددة وقد أوصلها الرماني في تفسيره المسمى بالنكت في اعجاز القرآن إلى خمسة ضروب ومنها إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل فملزوم قوله " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا " انهما ما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا اللّه ، وإيضاح ذلك إن دليل التمانع هو انه لو وجد مع اللّه إله آخر ربما قالوا لو فرضنا وجود إلهين فإما أن يكونا جميعا موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على احياء الموتى وانشارهم وغير ذلك من الممكنات أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر وعندئذ تفسد الرعية بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : "كان واللّه أعز علي من دم ناظري ولكن لا يجتمع فحلان في شول " وللمتكلمين في طريقة التمانع جولات واسعة تؤخذ في مظانها ، وسيرد إيضاحها في باب الفوائد .

الفوائد :

«إلا» بمعنى «غير» :

الأصل في «إلا» أن تكون للاستثناء وفي «غير» أن تكون وصفا ثم قد تحمل إحداهما على

الأخرى فيوصف بإلا ويستثنى بغير فإن كانت إلا بمعنى غير وقعت هي وما بعدها صفة لما قبلها وذلك حيث لا يراد بها الاستثناء وانما يراد بها وصف ما قبلها بما يغاير ما بعدها كقوله تعالى «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» فإلا وما بعدها صفة لآلهة لأن المراد نفي الآلهة المتعددة واثبات الإله الواحد الفرد ولا يصح الاستثناء بالنصب لأن المعنى يكون حينئذ : لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا وذلك يقتضي أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا وهذا ظاهر الفساد ، وسامح الله ابن يعيش شارح مفصل الزمخشري حيث أجاز النصب على الاستثناء في الآية الكريمة غير مقدر ما يترتب على النصب من فساد وعبارة ابن يعيش «قال الله تعالى : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والمراد غير الله فهذا لا يكون إلا وصفا ولا يجوز أن يكون بدلا يراد به الاستثناء لأنه يصير في تقدير لو كان فيهما إلا الله لفسدتا وذلك فاسد لأن لو شرط فيما مضى فهي بمنزلة إن في المستقبل وأنت لو قلت إن أتاني إلا زيد لم يصح لأن الشرط في حكم الموجب فكما لا يصح أتاني إلا زيد كذلك لا يصح إن أتاني إلا زيد فلو نصب على الاستثناء فقلت لو كان فيهما إلا الله لجاز» . ثم لا يصح أيضا أن يعرب لفظ الجلالة بدلا من آلهة لأنه حيث لا يصح الاستثناء لا تصح البدلية ثم إن الكلام موجب فلا تجوز البدلية ولو صح الاستثناء لأن النصب واجب في الكلام الموجب التام وأيضا لو جعلته بدلا لكان التقدير :

لو كان فيهما إلا اللّه لفسدتا لأن البدل على نية طرح المبدل منه كما هو معلوم ولعدم صحة الاستثناء هنا وعدم جواز البدلية تعين أن تكون إلا بمعنى غير.

ولتتمة هذا المبحث الدقيق ننقل الفصل الممتع الذي أورده العلامة ابن هشام في مغني اللبيب ورده على المبرد مع تعليقات مناسبة ليستوفي الموضوع حقه قال ابن هشام بعد أن ذكر أن لإلا أربعة أوجه:

«والثاني أن تكون صفة بمنزلة غير فيوصف بها وبتاليها جمع منكر أو شبهه فمثال الجمع المنكر: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» فلا يجوز في إلا هذه أن تكون للاستثناء من جهة المعنى إذ التقدير حينئذ لو كان فيهما آلهة ليس فيهم اللّه لفسدتا وذلك يقتضي بمفهومه أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا وليس ذلك المراد، ولا من جهة اللفظ لأن آلهة جمع منكر في الإثبات فلا عموم له فلا يصح الاستثناء منه فلو قلت قام رجال إلا زيدا لم يصح اتفاقا، وزعم المبرد أن «إلا» في الآية للاستثناء وان ما بعدها بدل محتجا بأن «لو» تدل على الامتناع وامتناع الشيء انتفاؤه وزعم أن التفريغ بعدها جائز وان نحو «لو كان معنا إلا زيد» أجود كلام ويرده انهم لا يقولون «لو جاءني ديّار أكرمته» ولا «لو جاءني من أحد أكرمته» ولو كانت بمنزلة النافي لجاز ذلك كما يجوز ما فيها ديار وما جاءني من أحد ولما لم يجز ذلك دل على أن الصواب قول سيبويه إن إلا وما بعدها صفة». الى أن يقول:

«و شرط ابن الحاجب في وقوع إلا صفة تعذر الاستثناء وجعل من الشاذ قول حضرمي بن عامر الصحابي وقيل عمرو بن معدى كرب :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

ومعنى الشذوذ فيه انه ليس استثناء إذ لم ينصب بعد الكلام التام الموجب فتعين أنه صفة ولم يتعذر الاستثناء فهو شاذ إذ كان يمكنه أن يقول إلا الفرقدين ، ونحسب أن البحث طال فحسبنا ما تقدم .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 24 الى 29]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28)

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

الاعراب:

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» أم حرف عطف للاضراب والانتقال الى إظهار بطلان ما اتخذوه آلهة مع خلوها من خصائص الألوهية، واتخذوا فعل ماض وفاعل ومن دونه في محل نصب مفعول به ثان لاتخذوا وآلهة هو المفعول الأول. (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ) هاتوا فعل

أمر مبني على الكسر دائما إلا مع واو الجماعة فيضم وواو الجماعة فاعل وبرهانكم مفعول به. (هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) هذا مبتدأ والاشارة للقرآن وجميع الكتب السماوية وذكر خبر ومن مضاف اليه ومعي ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول وذكر عطف على ذكر الأولى ومن مضاف اليه والظرف صلة والجملة مستأنفة.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) بل حرف إضراب وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعلمون خبر والواو فاعل والحق مفعول به، فهم الفاء للتعليل وهم مبتدأ ومعرضون خبر.

(وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) الواو استئنافية وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك حال ومن حرف جر زائد ورسول مجرور لفظا منصوب محلا على انه مفعول به وإلا أداة حصر ونوحي فعل وفاعل واليه متعلقان بنوحي

ولا إله إلا أنا تقدم اعرابها كثيرا والفاء الفصيحة واعبدوني فعل أمر والواو فاعل والياء المحذوفة تبعا لرسم المصحف مفعول به والجملة مستأنفة مقررة لما سبق اجماله من توحيد اللّه كما نطقت بذلك الكتب السماوية استدلالا بمقتضيات العقل والمنطق. (وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً، سُبْحانَهُ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) استئناف آخر مسوق لحكاية أقوال بعض القبائل العربية الذين قالوا:

الملائكة بنات اللّه ويقال انهم بنو خزاعة وبنو جهينة وبنو سلمة وبنو مليح وجملة اتخذ الرحمن ولدا مقول القول وسبحانه مصدر لفعل محذوف وقد مر والجملة معترضة وبل حرف إضراب وعباد خبر لمبتدأ محذوف ومكرمون صفة وقد وصف الملائكة بسبع صفات تقدمت الأولى. (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وهاتان صفتان ثانيتان الأولى جملة لا يسبقونه بالقول والثانية جملة هم بأمره يعملون، وبأمره متعلقان بيعملون وجملة يعملون خبرهم.

(يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ)

وهذه هي الصفة الرابعة وما موصول مفعول به وبين ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول

وأيديهم مضاف اليه وما خلفهم عطف على ما بين أيديهم. (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) وهاتان صفتان أخريان ويشفعون فعل مضارع وفاعل وإلا أداة حصر ولمن متعلقان بيشفعون وارتضى صلة الموصول وهم مبتدأ ومن خشيته جار ومجرور متعلقان بمشفقون ومشفقون خبرهم. (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) وهذه هي الصفة السابعة والأخيرة ومن شرطية مبتدأ ويقل فعل الشرط مجزوم ومنهم حال وان واسمها وإله خبرها والفاء رابطة لجواب الشرط لأنه وقع جملة اسمية وذلك اسم اشارة مبتدأ وجملة نجزيه خبر والهاء مفعول نجزي وجهنم مفعول نجزي الثاني والجملة جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر ذلك وكذلك نجزي الظالمين الكاف نعت لمصدر محذوف أي نجزي الظالمين جزاء مثل ذلك.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 30 إلى 33]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

اللغة:

(

(رَتْقاً) : في المختار : " الرتق : ضد الفتق وقد رتقت الفتق من باب نصر سددته فارتتق أي التأم ومنه قوله تعالى : كانتا رتقا ففتقناهما ، والرتق بفتحتين مصدر قولك امرأة رتقاء أي لا يستطاع جماعها لارتتاق ذلك الموضع منها " وفي الأساس : " رتق الفتق حتى ارتتق وقرئ كانتا رتقا ورتقا وعن ابن الكلبي كانتا رتقاوين ففتق اللّه السماء بالماء وفتق الأرض بالنبات وامرأة رتقاء بيّنة الرّتق إذا لم يكن لها خرق إلا المبال " .

(رَوَاسِيَ) : جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ وفي المختار : " والرواسي من الجبال الرواسخ واحدتها راسية " وفي المصباح : " رسا الشيء يرسو رسوا ورسوّا ثبت فهو راس وجبال راسية وراسيات ورواس " .

(تَمِيدَ) : في المصباح : " ماد يميد ميدا من باب باع وميدانا بفتح الياء تحرك " وفي الأساس : " غصن مائد مائل وماد يميد ميدانا ومن المجاز مادت المرأة وماست وتميّدت وتميّست ومادت به الأرض دارت ، ورجل مائد : يدار به والمطعون يميد في الرمح " .

(فِجاجاً) : في المختار : " الفج بالفتح : الطريق الواسع بين الجبلين والجمع فجاج بالكسر مثل سهم وسهام والفج بالكسر البطيخ الشامي وكل شيء من البطيخ والفواكه لم ينضج فهو

فج بالكسر " وفي القاموس : الفج وجمعه فجاج ، والفجاج : الطريق الواسع بين جبلين .

الاعراب :

)

(382/510)

أَ وَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو حرف عطف على مقدر ولم حرف نفي وقلب وجزم والذين فاعل وجملة كفروا صلة وان وما بعدها سدت مسد مفعولي رأى لأن الرؤية قلبية وان واسمها وجملة كانتا خبرها والالف اسم كان ورتقا خبرها وفي الاخبار به ما تقدم في زيد عدل أي كانت الشمس والأرض نفس الرتق ، ففتقناهما الفاء عاطفة وفتقناهما فعل وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة على كانتا والميم والالف حرفان دالان على التثنية ، قال الأخفش : إنما قال كانتا لأنهما صنفان أي جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه : " إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا " وقال الزجاج : انما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد لأن السموات كانت سماء واحدة وكذلك الأرضون . (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ) وجعلنا عطف على ما تقدم وجعلنا فعل وفاعل بمعنى خلق ومن الماء

متعلقان بجعلنا لأنها بمعنى خلقنا أو بمحذوف حال من كل شيء لأنه كان في الأصل وصفا له فلما قدم عليه نصب على الحال ولك أن تجعل وجعلنا بمعنى صير متعديا لاثنين فيكون من الماء في محل نصب على أنه مفعول ثان وكل شيء مفعول أول ، أفلا الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف ولا نافية ويؤمنون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل .

(وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) وجعلنا عطف على جعلنا وفي الأرض إما مفعول ثان ورواسي هو المفعول الاول وإما متعلقان بجعلنا أو بمحذوف حال ورواسي مفعول به وان وما في حيزها في محل نصب مفعول لأجله أي كراهة أن تميد أو لئلا تميد وبهم متعلقان بتميد .

(383/510)

)

وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) وجعلنا عطف على ما تقدم وفيها هو المفعول الثاني أو متعلق بجعلنا وفجاجا حال لأنه كان صفة لسبلا وتقدم عليه وسبلا مفعول به ولعل واسمها وجملة يهتدون خبرها .

(وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ) وجعلنا السماء فعل وفاعل

ومفعول به أول وسقفا مفعول به ثان وهم مبتدأ وعن آياتها متعلقان بمعرضون ومعرضون خبرهم والجملة حالية أو استئنافية .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) الواو عاطفة وهو مبتدأ والذي خبر وجملة خلق صلة وفاعل خلق ضمير مستتر تقديره هو والليل مفعول به وما بعده عطف عليه وكل مبتدأ وساغ الابتداء لما فيه من معنى العموم وفي فلك متعلقان بيسبحون وجملة يسبحون خبر كل وجملة كل في فلك يسبحون محلها النصب على الحال من الشمس والقمر ، وانما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعل هو من خصائص العقلاء هو السباحة وتقدم نظيره في قوله " رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ " .

الفوائد :

1- بحث شيق في المفعول لأجله :

هذا بحث طريف أفرد له سيبويه فصلا خاصا في كتابه وهو يتعلق بالمفعول لأجله المؤول وهو هنا في قوله " وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ " قال ما خلاصته : هو من وادي قولهم : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه قال ومعناه " ان ادعم الحائط إذا مال " وانما قدم ذكر الميل اهتماما بشأنه ولأنه أيضا هو السبب في الإدغام ، وادعام سبب في إعداد الخشبة فعامل سبب السبب معاملة

السبب وعليه حمل قوله تعالى "أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى "كذلك ما نحن بصدده يكون الأصل وجعلنا في الأرض رواسي لأجل أن تثبتها إذا مادت بهم فجعل الميد هو السبب كما جعل الميل في المثل المذكور سببا وصار الكلام وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد فتثبتها ثم حذف فتثبتها لأمن الإلباس إيجازا واختصارا " وهذا لعمري أولى مما درجنا عليه في الاعراب لأن مقتضى ما ذكرناه وذكره أكثر المعربين والمفسرين يقتضي أن لا تميد الأرض بأهلها لأن اللّه كره ذلك ومكروه اللّه تعالى محال أن يقع كما أن مراده واجب أن يقع والمشاهد خلاف ذلك فكم من زلزلة مادت لها الأرض وكادت تقلب عاليها سافلها واما على تقرير سيبويه فالمراد أن اللّه تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت وهذا لا يأبى وقوع الميد ، وهذا بحث جليل قلّ من ينتبه له إلا بعد هذا التفصيل فتأمله تر السحر الحلال وان من البيان لسحرا .

2- ذهب سيبويه والجمهور إلى القول بأن لفظي كل وبعض معرفتان بنية الاضافة ولذلك يأتي الحال منهما كقولهم مررت بكل قائما وببعض جالسا ، وأصل صاحب الحال التعريف وذهب الفارسي إلى أنهما نكرتان وألزم من قال بتعريفهما أن يقول إن نصفا وسدسا وثلثا وربعا ونحوها معارف لأنها في المعنى مضافات وهي نكرات بإجماع ، ورد بأن العرب تحذف المضاف وتريده وقد لا تريده ودلّ مجيء الحال بعد كل وبعض على إرادته ، بقي هنا

سؤال واحد وهو لم أتى بصيغة الجمع وهما اثنان؟ والجواب ان الضمير عائد عليهما مع الليل والنهار وذلك لأن الليل والنهار يسبحان أيضا لأن الليل ظل الأرض وهو يدور على محيط كرة الأرض على حسب دوران الأرض وكذلك النهار يدور أيضا لأنه يخلف الليل في المحيط.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 34 إلى 40]

وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

الإعراب:

(وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير عدم خلود البشر جوابا لقولهم أن محمدا سيموت، وما نافية وجعلنا فعل وفاعل ولبشر في محل نصب مفعول ثان ومن قبلك صفة لبشر والخلد مفعول جعلنا الاول والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة وإن شرطية ومت فعل ماض وفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وهم مبتدأ والخالدون خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وهي بنية التقديم لأن أصل الكلام أفهم

الخالدون إن مت، قال الفراء: جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت قال ويجوز حذف الفاء واضمارها والمعنى إن مت فهم يموتون أيضا فلا شماتة في الموت.

(كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ) كل مبتدأ ونفس مضاف اليه وذائقة الموت خبر والجملة مستأنفة مسوقة للتدليل على عدم الخلود فلا مجال للشماتة ورحم اللّه القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

)

وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ) الواو استئنافية أيضا ونبلوكم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وبالشر متعلقان بنبلوكم والخير عطف على الشر أي نختبركم بما يجب فيه الصبر وبما يجب فيه الشكر وفتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه لأن الابتلاء فتنة فكأنه قيل نفتنكم فتنة ويجوز أن يعرب مفعولا من أجله أو نصبا على الحال من فاعل نبلوكم أي فاتنين لكم وإلينا متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على نبلوكم أو حالية. (وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً) لك أن تجعل الواو استئنافية فتكون الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير موقفهم من النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم وأن تجعلها عاطفة فتكون الجملة معطوفة على قوله الآنف " وَأَسَرُّوا النَّجْوَى " وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة رآك مضاف لها الظرف وفاعل رآك الذين والكاف مفعول به وجملة كفروا صلة وإن نافية ويتخذونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به وإن النافية وما في حيزها جواب إذا وسيأتي ذكر السبب في عدم اقتران الجواب بالفاء في باب الفوائد وإلا أداة حصر وهزوا مفعول به ثان اما على الوصف بالمصدر مبالغة

وقد مرت له نظائر واما على حذف مضاف، هذا ويجوز ان تكون ان النافية وما بعدها جملة معترضة فيكون الجواب قوله الآتي :

(

أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ) الهمزة للاستفهام والاستفهام معناه السخرية والجملة اما جواب إذا كما تقدم وإما مقول قول محذوف أي يقول بعضهم لبعض على سبيل السخرية والهزء أهذا ، وهذا مبتدأ والذي خبره وجملة يذكر صلة وآلهتكم مفعول به والواو حالية وهم مبتدأ وبذكر متعلقان بكافرون والرحمن مضاف اليه وهم تأكيد لهم الأولى تأكيدا لفظيا وكافرون خبر هم والجملة حال إما من فاعل يتخذونك وإما من فاعل القول المقدر كما أسلفنا ومفعول يذكر محذوف وسيرد بحثه في باب البلاغة .

(خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ) الجملة مستأنفة مسوقة للرد على استعجالهم العذاب وخلق فعل ماض مبني للمجهول والإنسان نائب فاعل ومن عجل متعلقان بخلق أو بمحذوف حال وسيأتي معنى هذا التركيب في باب البلاغة وسأريكم السنين للاستقبال وأريكم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به أول وآياتي مفعول به ثان والفاء عاطفة ولا ناهية وتستعجلون فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والياء المحذوفة للرسم مفعول به وجملة سأريكم

مستأنفة أيضا مسوقة لتأكيد العجلة وعاقبتها التي هي رؤية العذاب . (وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لإيراد نمط من استعجالهم المذموم ويقولون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل ومتى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والوعد بدل وإن شرطية وكنتم كان

واسمها في محل جزم فعل الشرط وصادقين خبر كنتم وجواب ان محذوف تقديره فعينوا موعده وخطابهم للنبي وأصحابه .

)

(388/510)

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) لو شرطية ويعلم فعل مضارع والذين فاعل وجملة كفروا صلة وحين يجوز أن يكون مفعول يعلم أي الوقت الذي يستعجلون فيه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت صعب ضنك تحيط بهم النار من كل مكان لما كانوا بتلك المثابة من الكفر فجواب لو محذوف وقد تقدمت الاشارة اليه كثيرا ويجوز أن يكون يعلم متروكا بلا تعدية بمعنى لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما

كانوا متعجلين وحين منصوب بمضمر أي حين لا يكفوا عن وجوههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل والأرجح ان مفعول يعلم محذوف لدلالة ما قبله عليه أي لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي سألوا عنه واستبطئوه وحين منصوب بالمفعول الذي هو مجيء وجملة لا يكفون مضافة إلى الظرف وعن وجوههم متعلقان بيكفون والنار مفعول به ولا عن ظهورهم معطوفة ، والواو حرف عطف ولا نافية وهم مبتدأ وجملة ينصرون خبر وينصرون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل . (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) بل حرف إضراب وعطف وتأتيهم فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على النار وبغتة حال أتى مصدرا وقيل مفعول مطلق وسيأتي مزيد بحث عنه في باب الفوائد ، فتبهتهم عطف على تأتيهم فلا يستطيعون عطف أيضا وردها مفعول يستطيعون ولا هم ينظرون عطف أيضا وهم مبتدأ وجملة ينظرون خبر كما أنظروا وأمهلوا من قبل .

البلاغة :

1- التذييل : في قوله تعالى : " وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ " فن طريف من فنون البلاغة أطلق عليه علماؤها اسم " التذييل "

وعرفوه بأنه تذييل الكلام بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدا وتخرجه مخرج المثل السائر ليشيع الكلام بعد دورانه على الألسنة فإن لم تكن الزيادة تفيد ذلك فلا يسمى تذييلا وبعضهم يسميه آنذاك تذييلا ولكنه يقول عنه أنه معيب وما أجدر المعيب أن ينتفى عن فنون البلاغة أو يندرج في سلكها وهو شائع في القرآن الكريم وستأتي أمثلة كثيرة منه ، أما في الآية التي نحن بصددها فإن المعنى مستوفى في الاخبار بأنه سبحانه لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد ثم ذيل ذلك الاخبار بما أخرجه مخرج تجاهل العارف وهو قوله " أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ " ثم ذيل هذا التذييل بما أخرجه مخرج المثل السائر حيث قال : "كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ " .

ومن أروع أمثلة التذييل في الشعر قول شاعر الخلود أبي الطيب :

تمسي الأماني صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي

يقول أبو الطيب : لا تصل الأماني إلى قلبه فتستميله ، ولا إلى لسانه فتجري عليه لأنه لا يحتاج أن يتمنى شيئا إلا وله خير منه أو صار له ذلك الشيء فالأماني تقصر عن بلوغ قدره ، وتقصر عن جلالة أمره وتمسي صرعى دون إدراك مجده فما يتمنى في الرفعة أكثر مما قد بلغه ، ولم يزل سيف الدولة لهجا بهذا البيت معظما له ، مثنيا عليه ، مقرا له بأنه لا يلحق سبقا ولا يأتي أحد في بابه من المبالغة بمثل ما أتى به .

وقال ابن نباتة السعدي وأجاد :

لم يبق جودك لي شيئا أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

لقد حقق له جميع آماله ومشتهياته فلم يعد لديه ما يؤمله وهبه صبا إلى شيء فإنه واثق بحضوره فغدا بلا آمال .

(390/510)

2- الإيجاز بالحذف : وذلك في حذف مفعول يذكر في قوله تعالى :

" أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ " والذكر يكون بالخير والشر فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل : سمعت فلانا يذكرك فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء وإن كان عدوا فذم ومن جهة ثانية لم يقولوا : أهذا الذي يذكر آلهتكم بكل سوء لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم رميا بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ورئبوا بها عن نقل ذمها تفصيلا وتصريحا فنقلوه إجمالا وتلميحا ، بل أومئوا اليه بالاشارة المذكورة كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر وان كان قائلها غير كافر فيومىء إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساءوا الأدب على الرحمن .

3- الاستعارة المكنية في قوله " خُلِقَ الْإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ " فقد شبه العجل الذي طبع عليه

الشخص وصار له كالجبلة بأصل مادته وهي الطين ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو قوله " خلق " وقيل لا استعارة فيه وانما هو من باب القلب والأصل خلق العجل من

الإنسان لشدة صدوره عنه وملازمته له والقلب موجود كثيرا في كلامهم وقد تقدمت الإشارة اليه والأول أولى وأقعد بالبلاغة ومن بدع التفاسير ما قالوه من أن العجل هو الطين بلغة حمير وقال شاعرهم :

النبع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يقول النبع وهو شجر تتخذ منه القسي في الصخرة الصماء الصلبة لا في غيرها منبته أي نباته والنخل ينبت في الأرض اللينة الريانة فهو بين الماء والعجل أي الطين وهذه لغه حمير كما قيل والظاهر أن الشطر الأول تمثيل للصعب البخيل والثاني للسهل الجواد أو الاول للشجاع والثاني للجبان لشدة الاول ورخاوة الثاني وعلى كل حال هذا المعنى غير وارد في الآية الكريمة لأن السياق يأباها فهم يستعجلون والله سبحانه ينعى عليهم عجلتهم .

وفي هذه الآية الاستعارة المكنية بقوله " ذائقة الموت " وليس الموت مما يذاق ولكنه شبهه

بطعام غير مريء ولا مستساغ ولكنه لحتمية وقوعه وكونه أمرا لا بد منه أصبح بمثابة المريء المستساغ فلا مندوحة لنفس عن ذوقه وقد تقدمت نظائر لهذه الاستعارة .

الفوائد :

1- جواب " إذا " :

تخالف " إذا " أدوات الشرط جيمعا ، فإن أدوات الشرط متى أجيبت بأن النافية أو بما النافية وجب الإتيان بالفاء كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى أيضا : " وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا " .

2- مجيء المصدر حالا :

جاءت مصادر تعرب أحوالا بكثرة في النكرات كطلع زيد بغتة وجاء ركضا وقتلته صبرا وهو أن تحبسه حيا ثم يرمى حتى يقتل وذلك كله على كثرته مؤول بالوصف فيؤول بغتة بوصف من باغت لأنها بمعنى مفاجأة أي مباغتا ويؤول ركضا بوصف الفاعل من ركض أي راكضا ويؤول صبرا بوصف المفعول من صبر أي مصبورا محبوسا ومع كثرة وروده قال سيبويه : لا ينقاس مطلقا وقاسه بعضهم بما يمكن الرجوع اليه في المطولات .

ونعود إلى بغتة فقد أكد بعضهم أنه يجوز جعلها مفعولا مطلقا وكذلك القول في الأمثلة المتقدمة إذ هي نوع من عاملها فهي كرجع ال

)

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي صلى اللّه عليه وسلم ومواساته واللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق واستهزئ فعل ماض مبني للمجهول وبرسل قام مقام نائب الفاعل ومن قبلك نعت لرسل .

(فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الفاء عاطفة وحاق فعل ماض وبالذين متعلقان بحاق وجملة سخروا لا محل لها لأنها صلة

الموصول ومنهم حال من فاعل سخروا وما فاعل حاق وجملة كانوا صلة الموصول وكان واسمها وبه متعلقان بقوله يستهزئون ويستهزئون جملة فعلية في محل نصب خبر كانوا . (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ) من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة يكلؤكم خبر والجملة مقول القول وبالليل متعلقان بيكلؤكم والنهار عطف على الليل ومن الرحمن أي من عذابه وأمره وهما متعلقان بيكلؤكم . (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) بل حرف إضراب وهم مبتدأ وعن ذكر ربهم متعلقان بمعرضون ، ومعرضون خبر هم وهو إضراب عما تضمنه الكلام من النفي والتقدير ليس لهم كالىء ولا مانع غير الرحمن مع انهم لا يخطرونه في بالهم فضلا عن أن يخافوا بأسه وعذابه . (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا) أم

حرف عطف وإضراب فهي بمعنى بل ولهم خبر مقدم وآلهة مبتدأ مؤخر وهمزة الاستفهام مقدرة والتقدير ألهم آلهة تمنعهم وجملة تمنعهم صفة لآلهة ومن دوننا صفة لآلهة أيضا .

)

(393/510)

لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير أن من ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من اللّه بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره ولا نافية ويستطيعون فعل مضارع وفاعل ونصر أنفسهم مفعول به ولا الواو عاطفة ولا نافية وهم مبتدأ ومنا متعلقان بيصحبون ويصحبون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وجملة يصحبون خبرهم ، تقول العرب أنا لك صاحب من فلان أي مجير لك منه وتقول أيضا : صحبك اللّه أي حفظك وأجارك . (بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) بل حرف إضراب انتقالي ومتعنا فعل وفاعل وهؤلاء اسم اشارة مبني على الكسر في محل نصب مفعول به وآباءهم عطف على هؤلاء وحتى حرف غاية وجر وطال فعل ماض وعليهم متعلقان بطال والعمر فاعل طال .

(394/510)

(

أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على مقدر وقد تكرر هذا التعبير حتى لم يعد ثمة موجب لإعادته ولا نافية ويرون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي يرون لأن الرؤية هنا علمية ويجوز أن تكون بصرية وان واسمها وجملة نأتي الأرض خبرها وجملة ننقصها من أطرافها حالية من فاعل نأتي أو من مفعوله أي نفتحها أرضا بعد أرض بما ينقص من أطراف المشركين ويزيد في أطراف المؤمنين وقد تقدم بسط هذا مفصلا في سورة الرعد فجدد به عهدا وسيأتي السر في اسناد الفعل إلى نفسه في باب البلاغة وقوله أفهم الهمزة للاستفهام الانكاري التقريعي والفاء عاطفة على مقدر وهم مبتدأ والغالبون خبر (قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ) إنما كافة ومكفوفة وأنذركم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وبالوحي متعلقان بأنذركم ولا يسمع الواو عاطفة ويجوز أن تكون حالية ولا نافية ويسمع الصم الدعاء فعل مضارع وفاعل ومفعول به وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وهي لمجرد الظرفية متعلقة بيسمع أي وقت إنذارهم، وما زائدة وينذرون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وجملة ينذرون في محل جر باضافة الظرف إليها وسيأتي تفصيل لهذه الآية في باب البلاغة.

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية ومستهم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والهاء مفعول به ونفحة فاعل والمراد بالنفحة القليل مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ومنه قول النعمان بن بشير :

وعمرة من سروات النساء تنفح بالمسك أردانها

(395/510)

و قال المبرد : النفحة الدفعة من الشيء التي دون معظمه يقال نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة ، وقيل : هي النصيب ، وقيل هي الطرف والمعنى متقارب أي ولئن مسهم أقل شيء من العذاب ، ومن عذاب ربك صفة لنفحة ، ليقولن اللام واقعة في جواب القسم لأنه سبق ويقولنّ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون للتوكيد ويا ويلنا إما نداء للويل ليحضر فهذا أوانه واما ان يا للتنبيه وويلنا مفعول مطلق لفعل محذوف وإنا إن واسمها وجملة كنا خبرها ونا اسم كان وظالمين خبرها . (وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سيقع عند إتيان ما أنذروه ونضع فعل مضارع وفاعله مستتر

تقديره نحن والموازين مفعول به والقسط وصف الموازين وقد وصفت بنفس المصدر مبالغة من قسط إذا عدل وليوم القيامة متعلق بنضع واللام بمعنى " في "كقولهم مضى لسبيله وقيل بمعنى عند قال الزمخشري : " مثلها في قولك جئته لخمس خلون من الشهر ومنه بيت النابغة :

توسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ومعناه تتبعت رسومها وآثارها فعرفتها أي في تلك المواضع المذكورة في البيت قبله وقوله لستة أعوام أي تمام ستة أعوام مضت من عهدها وهذا العام الحاضر الذي نحن فيه هو السابع ولو قال لسبعة أعوام لأفاد أن السبعة كلها مضت وليس مرادا فقول بعضهم انه كان يكفيه أن يقول لسبعة أعوام فعجز عن إتمامه وكمله بما لا معنى له ولا وجه إلا عدم التبصر . فلا الفاء عاطفة وتظلم فعل مضارع مبني للمجهول ونفس نائب فاعل وشيئًا مفعول مطلق أو مفعول ثان لتظلم .

)

وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ) الواو عاطفة وإن شرطية وكان

فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط واسمها مستتر تقديره هو يعود على العمل ومثقال حبة خبر كان ومن خردل صفة لحبة وأتينا بها في محل جزم جواب الشرط وكفى الواو عاطفة وكفى فعل ماض والباء حرف جر زائد وحاسبين تمييز أو حال وأنث ضمير المثقال لأنه أضيف إلى الحبة وقد مرت قاعدته.

البلاغة:

1- وضع الظاهر موضع المضمر: في قوله تعالى: " قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ " فن لطيف يمكن تسميته وضع الظاهر موضع المضمر والفائدة منه التسجيل عليهم فقد كان مقتضى السياق أن يقول ولا يسمعون ولكنه صرح بالصم وتجاوز بالظاهر عن ضميره للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إن أنذروا، وللدلالة على صدور إنكار شديد وغضب عظيم وتعجب من نبو أسماعهم عن الوحي وعدم إصاختهم لما ينفعهم وإمعانهم في ركوب الغي والتعسف في متاهات الضلال وهذا فن عجيب تميز به القرآن الكريم وسيرد عليك الكثير من نماذجه.

2- اسناد الضمير إلى الله تعالى في قوله تعالى: " أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا " أسند سبحانه الضمير إلى نفسه تعظيما للمسلمين الذين أجرى على أيديهم الانتصار العظيم وافتتاح البلاد والأمصار وان عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها

ناقصة من أطرافها فأصله تأتي جيوش المسلمين ولكنه أسند الإتيان إلى نفسه تنويها بقدر المجاهدين وتعظيما لما أتوا به من جلائل الأعمال وناهيك بمن يعمل عملا ينسبه اللّه إلى نفسه ألا يصح فيه أن يكون مصداقا لقوله في حديثه "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها " إلى آخر الحديث القدسي .

3- مبالغات ثلاث :

(397/510)

وفي قوله تعالى : " وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا " ثلاث مبالغات :

آ- ذكر المس وهو أقل شيء بل هو شيء رفيق جدا فما بالك إذا انثال عليهم ؟ أي يكفي للدلالة على ذلهم وهوان أمرهم ووهن عزيمتهم أن أقل مس يكفيهم ليذعنوا ويتطامنوا ويعلنوا ذلهم وخضوعهم والإقرار على أنفسهم بأنهم تصاموا وأعرضوا وقد رمق المتنبي سماء هذه المبالغة فقال في وصف قوم جبناء :

وضاقت الأرض حتى كاد هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

ب- وما في النفحة من معنى القلة والنزارة يقال : نفحته الدابة ونفحه بعطية .

ج- بناء المرة من النفح فمصدر المرة يأتي على فعلة أي نفحة واحدة لا ثاني لها تكفي

لتشتيت أمرهم وتوهين كيانهم وتصدع صفوفهم فكيف إذا عززت بثانية أو ثالثة ؟ .

الفوائد :

مصدرا المرة والهيئة :

مصدر المرة هو ما يذكر لبيان عدد الفعل ويبنى من الثلاثي المجرّد على وزن فعلة بفتح الفاء وسكون العين مثل : وقفت وقفة ووقفتين ووقفات فإن كان الفعل فوق الثلاثي ألحقت بمصدره التاء مثل أكرمته إكرامة وفرّحته تفريحة وتدحرج تدحرجة إلا ان كان المصدر ملحقا في الأصل بالتاء فيذكر بعده ما يدلّ على العدد مثل رحمته رحمة واحدة وأقمت إقامة واحدة واستقمت استقامة واحدة .

أما مصدر النوع أو الهيئة فهو ما يذكر لبيان نوع الفعل وصفته نحو وقفت وقفة ويبنى من الثلاثي المجرد على وزن فعلة بكسر الفاء مثل عاش عيشة حسنة ومات ميتة سيئة وفلان حسن الجلسة وفلانة هادئة المشية فإن كان الفعل فوق الثلاثي يصير مصدره بالوصف مصدر نوع مثل أكرمته إكراما عظيما .

هذا وهنا تنبيه هام نبه عليه الشيخ أبو حيان وهو أن هذه التاء الدالة على المرة الواحدة لا تدخل على كل مصدر بل على المصادر الصادرة عن الجوارح المدركة بالحس نحو قومة وضربة وقعدة وأكلة، وأما مصادر الأفعال الباطنة والخصال الجليلة الثابتة نحو الظرف والحسن والجبن والعلم فلا يقال من ذلك علمته علمة ولا فهمته فهمة ولا صبرته صبرة.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 48 إلى 55]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50) وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (51) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (52)

قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (53) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (54) قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (55)

اللغة:

(التَّماثِيلُ) : جمع تمثال بكسر التاء أي الصورة المصورة أو ما تصنعه وتصوره مشبها بخلق الله من ذوات الروح والصورة وهذا الوزن فيه زائدان أحدهما قبل الفاء والآخر قبل اللام وقد جاء اسما وصفة. فالاسم تمثال للصورة ويجمع على تماثيل وقالوا تجفاف وتبيان فالتجفاف واحد تجافيف الفرس وهو ما يلبس عند الحرب والزينة وتبيان بمعنى البيان

فمنهم من يجعله مصدرا من قبيل الشاذ لأن المصادر إنما تجيء على تفعال بالفتح نحو التلعاب والتهدار ولم يجيء بالكسر إلا تبيان وتلقاء ، وسيبويه يجعلهما من الأسماء التي وضعت

(399/510)

موضع المصادر كالغارة وضعت موضع الإغارة . وقال غير واحد من علماء اللغة : التمثال هو الصورة المصنوعة من رخام أو نحاس أو خشب شبيهة بخلق الآدمي .

الاعراب :

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم فيما يكابده من قومه وتقوية لقلبه وحفزا لاستدامته في تأدية الرسالة وذكر منها في هذه السورة عشر قصص وستأتي . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وموسى مفعول به وهارون معطوف على موسى والفرقان مفعول به ثان وضياء عطف على الفرقان وذكرا عطف على ضياء وللمتقين متعلقان بضياء وعطف الصفات جائز فهو من هذا الوادي واختار الزمخشري أن يعرب حالا وعامله محذوف دل

عليه ما قبله وقدره : وآتينا به ضياء ، أما ما ارتآه بعضهم من أن الواو زائدة وضياء حال من الفرقان فهذا مجرد تحكم لا نتردد في رده .

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) الذين اسم موصول في محل جر صفة للمتقين ولك أن تعربه خبرا لمبتدأ محذوف أي هم الذين وجملة يخشون صلة والواو فاعل وربهم مفعول به وبالغيب حال من الفاعل في يخشون وهم الواو عاطفة أو حالية وهم مبتدأ ومن الساعة جار ومجرور متعلقان بمشفقون ومشفقون خبرهم وسيأتي سر التعبير بالاسمية في باب البلاغة . (وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لخطاب أهل مكة ومحاورتهم حول القرآن الكريم الذي أنزل بلسانهم ، وهذا مبتدأ وذكر خبر ومبارك صفة وجملة أنزلناه صفة لذكر وهو فعل وفاعل

(400/510)

ومفعول به والهمزة للاستفهام التوبيخي لأنه خطاب للعرب وهم أهل اللسان العربي ومعادن الفصاحة فما أجدرهم باكتناه أسرار القرآن وإدراك بلاغته والفاء عاطفة على محذوف وأنتم مبتدأ وله متعلقان بمنكرون ومنكرون خبر أنتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 279 . 326﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 51 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 73 ﴾ من نفس السورة

(4/511)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان مقصود السورة الدلالة على القدرة على ما استبعده العرب من إعادة الحيوان بعد كونه تراباً ، وبدأ ذكر الأنبياء بمن صرفه في العناصر الأربعة كما تقدم قص ذلك من التوراة في سورتي البقرة والأعراف إشارة إلى من استبعد عليه ما جعله إلى بعض عبيده أعمى الناس ، تلاه من الأنبياء بمن سخر له واحداً من تلك العناصر ، مرتباً لهم على الأخف في ذلك فالأخف على سبيل الترقي ، فبدأهم بذكر من سخر له عنصر النار ، مع التنبيه

للعرب على عماهم عن الرشد بإنكاره للشرك بعبادة الأوثان على أبيه وغيره ، ودعائهم إلى التوحيد ، والمجاهدة في الله على ذلك حق الجهاد ، وهو أعظم آباء الرادين لهذا الذكر ، والمستمسكين بالشرك تقليداً للآباء ، إثباتاً للقدرة الباهرة الدالة على التوحيد الداعي إليه جميع هؤلاء الأصفياء ، هذا مع مشاركته بإنزال الصحف عليه لموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومشاركته لهما في الهجرة ، وإذا تأملت ما في سورتي الفرقان والشعراء ازداد ما قلته وضوحاً ، فإنه لما أخبر تعالى أنهم قالوا ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] بدأ بقصة موسى الذي كتب له ربه في الألواح من كل شيء ، وقومه مقرّون بعظمة كتابه وأنه أوتي من الآيات ما بهر العقول ، وكفر به مع ذلك كثير منهم . ولما قال في الشعراء ﴿ ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ [الآية : 5] كما هنا ، صنع كما صنع هنا من البداءة بقصة موسى عليه السلام وإيلائها ذكر إبراهيم عليه السلام فقال تعالى : ﴿ ولقد ءاتينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ إبراهيم رشده ﴾ أي صلاحه وإصابته وجه الأمر واهتداءه إلى عين الصواب وأدل الدلالة وأعرف العرف وأشرف القصد الذي جلبناه عليه ؛ وقال الرازي في اللوامع : والرشد قوة بعد الهداية - انتهى .

وأضافة إليه إشارة إلى أنه رشد يليق به على علو مقامه وعظم شأنه لا جرم ظهر عليه أثر ذلك من بين أهل ذلك الزمان كلهم فآثر الإسلام على غيره من الملل ﴿ من قبل ﴾ أي قبل موسى وهارون عليهما السلام ﴿ وكنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ به ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ عالمين ﴾ بأنه جبلة خير يدوم على الرشد ويترقى فيه إلى أعلى درجاته لما طبعناه عليه بعظمتنا من طبائع الخير ؛ وتعليقُ ﴿ إذ قال ﴾ أي إبراهيم ﴿ لأبيه وقومه ﴾ ب ﴿ عالمين ﴾ إشارة إلى أن قوله لما كان بإذن منا ورضى لنا نصرناه - وهو وحده - على قومه كلهم ، ولو لم يكن يرضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ، فهو مثل ما مضى في قوله ﴿ قل ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ ومفهوم هذا القيد لا يضر لأنه لا يحصي ما ينفيه من المنطوقات ، وإن شئت فعلقه ب ﴿ آياتنا ﴾ ؛ ثم ذكر مقول القول في قوله منكراً عليهم محقراً لأصنامهم في أسلوب التجاهل لإثبات دعوى جهلهم بدليل : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ أي الصور التي صنعتموها مماثلين بها ما فيه روح ، جاعلين بها ما لا يكون إلا لمن لا مثل له ، وهي الأصنام ﴿ التي أنتم لها ﴾ أي لأجلها وحدها ، مع كثرة ما يشابهها وما هو أفضل منها ﴿ عاكفون ﴾ أي موقعون الإقبال عليها مواظبون على ذلك ، فبأي معنى استحقت منكم هذا الاختصاص ، وإنما هي مثال للحي في الصورة وهو أعلى منها بالحياة التي أفاضها الله عليه .

ولما أتاهم بهذا القاصم ، استأنف الخبر سبحانه عن جوابهم بقوله : ﴿ قالوا ﴾ مسوين

أنفسهم بالبهائم التي تقاد ولا علم بما قيدت له : ﴿ وجدنا ءاباءنا لها ﴾ خاصة ﴿ عابدين ﴾ فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك .

(6/511)

ولما غلوا في الجهل غير محتشمين من إقرارهم على أنفسهم به ، بالاستناد إلى محض التقليد بعد إفلاسهم من أدنى شبهة فضلاً عن الدليل ، استأنف الله تعالى الإخبار عن جوابه بقوله : ﴿ قال ﴾ أي منبهاً لهم بسوط التقريع على أن الكلام مع آبائهم كالكلام معهم : ﴿ لقد كنتم ﴾ وأكد بقوله : ﴿ أنتم ﴾ لأجل صحة العطف لأن الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل ، هذا مع الإشارة إلى الحكم على ظواهرهم وبواطنهم ﴿ وءاباؤكم ﴾ أي من قبلكم ﴿ في ضلال ﴾ قد أحاط بكم إحاطة الظرف بالمظروف والمسلوك بالسلك ﴿ مبين ﴾ ليس به نوع من الخفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 89 . 91 ﴾

(7/511)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ جذاذاً ﴾ بكسر الجيم : علي . الآخرون بضمها ﴿ اف ﴾ بفتح الفاء : ابن كثير وابن عامر وسهل ويعقوب ﴿ أف ﴾ بالكسر والتنوين : ابو جعفر ونافع وحفص . الباقون بالكسر من غير تنوين ﴿ لنحصنكم ﴾ بالنون : أبو بكر وحماد ورويس وبالتاء الفوقانية والضمير للصنعة أو للدرع لأنها مؤنثة سماعاً : ابن عامر ويزيد وحفص والمفضل وروح وزيد . الباقون بالياء التحتانية والضمير لداود عليه السلام أو للبوس والكل بتخفيف الصاد والرياح على الجمع : يزيد بطريق المفضل الآخرون على التوحيد . ﴿ مسني الضر ﴾ و﴿ عبادي الصالحون ﴾ في آخر السورة مرسلة الياء : حمزة . الباقون بفتحها ﴿ وأن لن ﴾ يقدر بالياء مجهولاً : يعقوب ﴿ ننجي ﴾ بضم النون الواحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء : ابن عامر وعباس وأبو بكر وحماد . الآخرون من الإنجاء مخففاً .

الوقوف : ﴿ عالمين ﴾ ج5 لأن " إذ " يصلح ظرفاً لآتينا أو ﴿ لرشده ﴾ أو للعلم به مفعولاً لأذكر محذوفاً ﴿ عاكفون ﴾ 5 ﴿ عابدين ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ اللاعبين ﴾ 5 ﴿ فطرهن ﴾ . ز لواو الابتداء والحال أولى ﴿ الشاهدين ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ إبراهيم ﴾ 5 ﴿ يشهدون ﴾ 5 ﴿ يا إبراهيم ﴾ 5ط ﴿ فعله ﴾ . وفيه بعد ويجيء في التفسير ﴿ ينطقون ﴾ 5 ﴿ الظالمون ﴾ 5 لا للعطف ﴿ على رؤوسهم ﴾ ج لاتحاد المقصود مع إضمار القول ﴿ ينطقون ﴾ 5 ﴿ ولا يضركم ﴾ ط لاستئناف الدعاء عليهم ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ فاعلين ﴾ 5 ﴿ على إبراهيم ﴾ 5 لا بناء على أن التقدير وقد أرادوا ﴿ الأخسرين ﴾ ج5 للعطف والآية ﴿ للعالمين ﴾ 5 ﴿ إسحق ﴾ ط بناء على أن المراد ووهبنا له يعقوب حال كونه نافلة ﴿ نافلة ﴾ ط ﴿ صالحين ﴾ 5 ﴿ الزكاة ﴾ ج لاحتمال الاستئناف والحال ﴿ عابدين ﴾ 5 وكان ينبغي أن لا يوقف للعطف ولكنهم حكموا بالوقف لتمام القصة وكذلك أمثالها ﴿ الخبائث ﴾ ط ﴿ فاسقين ﴾ 5 لا بناء على أن التقدير وقد أدخلناه ﴿ رحمتنا ﴾ ط ﴿ الصالحين ﴾ 5 ﴿ العظيم ﴾ 5ج للعطف مع الآية ﴿ بآياتنا ﴾ ط ﴿ أجميعن ﴾ 5 ﴿ غنم القوم ﴾ ج لاحتمال الواو بعده الاستئناف والحال ﴿ شاهدين ﴾ 5 لا للعطف بالفاء ﴿ سليمان ﴾ ج لانقطاع النظم بتقديم المفعول مع اتحاد الكلام ﴿ وعلماً ﴾ ز لعطف المتفقين مع نوع عدول ﴿ والطير

﴿ ط ﴾ فاعلين ﴿ 5 ﴾ من بأسكم ﴿ج للاستفهام مع الفاء ﴾ شاكرون ﴿ 5 ﴾ فيها ﴿ ط ﴾ عالمين ﴿ 5 ﴾ دون ذلك ﴿ج لاحتمال الاستئناف والحال ﴾ حافظين ﴿ 5 ﴾ الراحمين ﴿ 5 ط للفاء وللآية ﴾ للعابدين ﴿ 5 ﴾ وذا الكفل ﴿ ط ﴾ الصابرين ﴿ 5 وقد يوصل لعطف ﴾ وأدخلناهم ﴿ على ﴾ نجينا ﴿ للقدرة ﴾ في رحمتنا ﴿ ط الصالحين 5 ﴾ سبحانك ﴿ قد يوقف لأجل "أن" ولكنه داخل في حكم النداء ﴾ الظالمين ﴿ج 5 على ما ذكر في الوجهين ﴾ فاستجبنا له ﴿ لا لاتفاق الجملتين واتصال النجاة بالاستجابة ﴾ من الغم ﴿ ط ﴾

(9/511)

المؤمنين ﴿ 5 ﴾ الوارثين ﴿ 5 ﴾ فاستجبنا له ﴿ 5 لا مكان الفصل بين الإستجابة المعجلة وحصول الولد الموهوب على المهلة ﴾ زوجه ﴿ ط ﴾ ورهباً ﴿ ط ﴾ خاشعين ﴿ ط ﴾ للعالمين ﴿ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 27 . 28﴾

(10/511)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

(القصة الثانية ، (قصة) إبراهيم عليه السلام)

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الرشد قولان : الأول : أنه النبوة واحتجوا عليه بقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ قالوا : لأنه تعالى إنما يخص بالنبوة من يعلم من حاله أنه في المستقبل يقوم بحقها ويجتنب ما لا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول .

والثاني : أنه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ وفيه قول ثالث وهو أن تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد إذ لا يجوز أن يبعث نبي إلا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضاً على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا في أن الإيمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فإنه لو كان الرشد هو التوفيق

والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم .

أجاب الكعبي : بأن هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد ، وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه .

فيقال : أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ، ولا يقال مثله فيمن ضيع .

والجواب عنه : هذا الجواب لا يتم إلا إذا جعلنا قبوله جزءاً من مسمى الرشد وذلك باطل ، لأن المسمى إذا كان مركباً من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل لم يجز إضافة ذلك المسمى إلى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لا يجوز إضافة الرشد إلى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ صريح في أن ذلك الرشد إنما حصل من الله تعالى فبطل ما قالوه .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : قرئ رشده كالعدم والعدم ، ومعنى إضافته إليه أنه رشد مثله وأنه رشد له شأن .

أما قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ففيه وجوه : أحدها ؛ آتينا إبراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير .

وثانيها : في صغره قبل بلوغه حين كان في السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها .

وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء وإلا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل .

وثالثها : يعني حين كان في صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ فالمراد أنه سبحانه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهله لأن يكون خليلاً له ، وهذا كقولك في رجل كبير : أنا عالم بفلان فإن هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه أدل مما إذا شرحت جلال كماله .

أما قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : إذ إما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أي اذكر من أوقات رشده هذا الوقت .

أما قوله : ﴿ مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

التمثال اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى ، وأصله من مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال .

المسألة الثانية :

أن القوم كانوا عباد أصنام على صور مخصوصة كصورة الإنسان أو غيره ، فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها ، قال : فإن قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله : ﴿ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ ؟ قلت : لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي علي .

(12/511)

أما قوله : ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءَابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾ فاعلم أن القوم لم يجدوا في جوابه إلا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد النكير لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضاً سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ فبين أن الباطل لا يصير حقاً بسبب كثرة المتمسكين به ، فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصاً ورأوه ثابتاً على الإنكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجري مثل هذا الإنكار عليهم مع كثرتهم

وطول العهد بمذهبهم ، فعند ذلك قالوا له : ﴿ أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 155 . 157 ﴾

(13/511)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : رشْده : النبوة ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : هو أن هداه صغيراً ، قاله مجاهد ، وقتادة .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من قبل أن يرسل نبياً .

الثاني : من قبل موسى وهارون .

﴿ وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عالمين أنه أهل لإِيتاء الرشد .

الثاني : أنه يصلح للنبوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾

أي : هُداه ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من قبل بلوغه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : آتيناه ذلك في العِلْم السابق ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : مِنْ قَبْل موسى وهارون ، قاله الضحاك .

وقد أشرنا إلى قصة إبراهيم في [الأنعام : 75] .

قوله تعالى : ﴿ وكُنَّا به عالِمين ﴾ أي : علمنا أنه موضع لإِيتاء الرُّشد .

ثم بيَّن متى آتاه فقال : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ﴾ يعني : الأصنام .

والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبَّهاً بخَلْق من خَلْق الله تعالى ، وأصله من مثَّلت الشيء بالشيء : إذا شبَّهته به .

وقوله : ﴿ التي أنتم لها ﴾ أي : على عبادتها ﴿ عاكفون ﴾ أي : مقيمون ، فأجابوه أنهم

رأوا آباءهم يعبدونها فاقتدوا بهم ، فأجابهم بأنهم فيما فعلوا وآباءهم في ضلال مبين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(15/511)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾

قال الفراء : أي أعطيناه هداه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل النبوة ؛ أي وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر .

وقيل : "مِنْ قَبْلُ" أي من قبل موسى وهارون .

والرشد على هذا النبوة .

وعلى الأول أكثر أهل التفسير ؛ كما قال ليحيى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] .

وقال القرظي : رشده صلاحه .

﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي إنه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ قيل : المعنى أي اذكر حين قال لأبيه ؛ فيكون الكلام قد تم

عند قوله : "وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ" .

وقيل : المعنى ؛ "وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ" فيكون الكلام متصلاً ولا يوقف على قوله :

"عالِمين" .

"لِأَبِيهِ" وهو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمروذ ومن اتبعه .

﴿ مَا هذه التماثيل ﴾ أي الأصنام .

والتمثال اسم موضوع للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى .

يقال : مثّلت الشيء بالشيء أي شبّهته به .

واسم ذلك الممثَّل تمثال .

﴿ التي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أي مقيمون على عبادتها .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أي نعبدها تقليداً لأسلافنا .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في خسران بعبادتها ؛ إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(16/511)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ أي الرشدَ اللائقَ به وبأمثاله من الرسل الكبارِ وهو الاهتداءُ الكاملُ المستند إلى الهداية الخاصةِ الحاصلةِ بالوحي والاقتدار على إصلاح الأمةِ باستعمال النواميسِ الإلهية ، وقرىء رَشَدَه وهما لغتان كالحُزْن والحَزَن ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إيتاءِ موسى وهارونَ التوراةَ ، وتقديمُ ذكر إيتائها لما بينه وبين إنزال القرآن من الشبه التامّ ، وقيل : من قبل استنبائِه أو قبلَ بلوغِه وبأباه المقام ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ أي بأنه أهلٌ لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالمٌ بالجزئيات مختارٌ في أفعاله ما لا يخفى .

(17/511)

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ ظرفٌ لآتينا على أنه وقت متّسعٌ وقع فيه الإيتاءُ وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله ، وقيل : مفعولٌ لمضمر مستأنَفٍ وقع تعليلاً لما قبله أي اذكر وقتَ قولِه لهم : ﴿ مَا هذه التماثيل التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ لتقف على كمال رشدِه وغايةِ فضله ، والتِمثالُ اسمٌ لشيء مصنوعٍ مشبَّهٍ بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهلٌ منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بغير التي يُطلب بها بيانُ الحقيقة ، أو شرحُ الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع إحاطته بأن حقيقتها حجرٌ أو شجرٌ اتخذوها معبوداً ، وعبّر عن عبادتهم لها

بمطلق العكوف الذي هو عبارةٌ عن اللزوم والاستمرار على الشير لغرض من الأغراض قصداً إلى تحقيرها وإذلالها وتوبيخاً لهم على إجلالها ، واللام في لها للاختصاص دون التعديةِ وإلا لجيء بكلمة على ، والمعنى أنتم فاعلون العكوفَ لها ، وقد جُوّز تضمينُ العكوف معنى العبادة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾ أجابوا بذلك لما أن مآلَ سؤاله عليه السلام الاستفسارُ عن سبب عبادتِهم لها كما ينبىء عنه وصفه عليه السلام إياهم بالعكوف لها ، كأنه قال : ما هي ؟ هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها ؟ فلما لم يكن لهم ملجأ يعتدّ به التجأوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمي حيث ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ ﴾ الذين سنّوا لكم هذه السنةَ الباطلة ﴿ فِى ضلال ﴾ عجيبٍ لا يقادَر قدرُه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر بيّن بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونُه كذلك ، ومعنى كنتم مطلقُ استقرارِهم على الضلال لا استقرارُهم الماضي الحاصلِ قبل زمانِ الخطاب المتناوِل لهم ولآبائهم ، أي والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهرٍ لعدم استنادِه إلى دليل ما ، والتقليدُ إنما يجوز فيما يحتمل الحقية في الجملة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(18/511)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾

أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الرشد الكامل أعني الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية ؛ وقيل الصحف ، وقيل : الحكمة ، وقيل : التوفيق للخير صغيراً ، واختار بعضهم التعميم .

وقرأ عيسى الثقفي ﴿ رُشْدَهُ ﴾ بفتح الراء والشين وهما لغة كالحزن والحزن ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل موسى وهارون ، وقيل من قبل البلوغ حين خرج من السرب ، وقيل من قبل أن يولد حين كان في صلب آدم عليه السلام ، وقيل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والأول مروي عن ابن عباس .

وابن عمر رضي الله تعالى عنهم قال في "الكشف" : وهو الوجه الأوفق لفظاً ومعنى ، أما الأول فللقرب ، وأما الثاني فلأن ذكر الأنبياء عليهم السلام للتأسي فقد ذكر موسى عليه السلام لأن حاله وما قاساه من قومه وكثرة آياته وتكاثف أمته أشبه بحال نبينا عليه الصلاة والسلام ثم ثنى بذكر إبراهيم عليه السلام ، وقيل : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ لهذا ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : 76] أي من قبل هؤلاء المذكورين ، وقيل من قبل إبراهيم ولوطاه ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ أي بأحواله وما فيه من الكمالات ،

وهذا كقولك في خير من الناس : أنا عالم بفلان فإنه من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل .

(19/511)

وجوز أن يكون هذا كناية عن حفظه تعالى إياه وعدم إضاعته ، وقد قال عليه السلام يوم إلقائه في النار وقول جبريل عليه السلام له سل ربك : علمه بحالي يغني عن سؤالي وهو خلاف الظاهر ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ ظرف ل ﴿ آتينا ﴾ [الأنبياء : 51] على أنه وقت متسع وقع فيه الإيتاء وما يترتب عليه من أقواله وأفعاله ، وجوز أن يكون ظرفاً لرشد أو لعالمين ، وأن يكون بدلاً من موضع ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : 51] وأن ينتصب بإضمار أعني أو اذكر ، وبدأ بذكر الأب لأنه كان الأهم عنده عليه السلام في النصيحة والانقاذ من الضلال .

والظاهر أنه عليه السلام قال له ولقومه مجتمعين : ﴿ مَا هذه التماثيل التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ أراد عليه السلام ما هذه الأصنام إلا إنه عبر عنها بالتماثيل تحقيراً لشأنها فإن التمثال الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى من مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به ، وكانت على ما قيل صور الرجال يعتقدون فيهم وقد انقرضوا ، وقيل كانت

صور الكواكب صنعوها حسبما تخيلوا ، وفي الإشارة إليها بما يشار به القريب إشارة إلى التحقير أيضاً ، والسؤال عنها بما التي يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم من باب تجاهل العارف كأنه لا يعرف أنها ماذا وإلا فهو عليه السلام محيط بأن حقيقتها حجر أو نحوه ، والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له ، وقيل اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض وهو على التفسيرين دون العبادة ففي اختياره عليها إيماء إلى تفظيع شأن العبادة غاية التفظيع ، واللام في ﴿ لَهَا ﴾ للبيان فهي متعلقة بمحذوف كما في قوله تعالى :

﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] أو للتعليل فهي متعلقة بعاكفون وليست للتعدية لأن عكف إنما يتعدى بعلى كما في قوله تعالى : ﴿ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ [الأعراف : 138] وقد نزل الوصف هنا منزلة اللازم أي التي أنتم لها فاعلون العكوف.

واستظهر أبو حيان كونها للتعليل وصلة ﴿ عاكفون ﴾ محذوفة أي عاكفون على عبادتها ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى على كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الاسراء : 7] وتتعلق حينئذ بعاكفون على أنها للتعدية.

وجوز أن يؤول العكوف بالعبادة فاللام حينئذ كما قيل دعامة لا معدية لتعديه بنفسه ورجح هذا الوجه بما بعد ، وقيل لا يبعد أن تكون اللام للاختصاص والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً و ﴿ عاكفون ﴾ خبر بعد خبر ، وأنت تعلم أن نفي بعده مكابرة .

ومن الناس من لم يرتض تأويل العكوف بالعبادة لما أخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الشعب عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفى خير له من أن يمسها ، وفيه نظر لا يخفى ، نعم لا يبعد أن يكون الأولى إبقاء العكوف على ظاهره ، ومع ذلك المقصود بالذات الاستفسار عن سبب العبادة والتوبيخ عليها بالطف أسلوب ولما لم يجدوا ما يعول عليه في أمرها التجؤا إلى التشبث بحشيش التقليد المحض حيث .

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾

وأبطل عليه السلام ذلك على طريقة التوكيد القسمي حيث .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ الذين وجدتموهم كذلك ﴿ فِى ضلال ﴾ عجيب لا يقادر قدره ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه ضلالاً لاستنادكم وأياهم إلى غير دليل بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع ، و﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيد للضمير المتصل في ﴿ كُنتُمْ ﴾ ولا بد منه عند البصريين لجواز العطف على مثل هذا الضمير ، ومعنى كنتم في ضلال مطلق استقرارهم وتمكنهم فيه لا استقرارهم الماضي الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم ، وفي اختيار ﴿ فِى ضلال ﴾ على ضالين ما لا يخفى من المبالغة في ضلالهم ، وفي الآية دليل على أن الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(22/511)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ أي : هدايته للحق وهو التوحيد الخالص : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل موسى وهارون : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي : علمنا أنه أهل لما آتيناه [في المطبوع : آيتناه] . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التي آتيناه إياها ، فأهّلناه لخلتنا

وأخلصناه لاصطفائنا .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أي : ما هذه الصور الحقيرة التي عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها ، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟ .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أي : فقلدناهم وتأسينا بهم ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي : لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوى متَّبَع وشيطان مطاع . وفي الإتيان بفي الظرفية دلالة على تمكنهم في ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من ضالين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 209. 210 ﴾

(23/511)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

أعقبت قصة موسى وهارون بقصة إبراهيم فيما أوحي إليه من مقاومة الشرك ووضوح الحجة على بطلانه ، لأن إبراهيم كان هو المَثَل الأول قبل مجيء الإسلام في مقاومة الشرك إذ

قاومه بالحجة وبالقوة وبإعلان التوحيد إذْ أقام للتوحيد هيكلاً بمكة هو الكعبة وبجَبل (نابو) من بلاد الكنعانيين حيث كانت مدينةٌ تسمى يومئذ (لوزا) ثم بنى بيت ايل بالقرب من موضع مدينة (أورشليم) في المكان الذي أقيم به هيكل سليمان من بعد ، فكانت قصة إبراهيم مع قومه شاهداً على بطلان الشرك الذي كان مماثلاً لحال المشركين بمكة الذين جاء محمد صلى الله عليه وسلم لقطع دابره .

وفي ذكر قصة إبراهيم تورك على المشركين من أهل مكة إذ كانوا على الحالة التي نعاها جدُّهم إبراهيم على قومه ، وكفى بذلك حجة عليهم .

وأيضاً فإن شريعة إبراهيم أشهر شريعة بعد شريعة موسى .

وتأكيد الخبر عنه بلام القَسم للوجه الذي بيناه آنفاً في تأكيد الخبر عن موسى وهارون ، وهو تنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم إبراهيم منزلة المنكر لكون إبراهيم أوتي رشداً وهدياً .

وكذلك الإخبار عن إيتاء الرشد إبراهيم بإسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة لمثل ما قرّر في قصة موسى وهارون للتنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه .

والرشد : الهدى والرأي الحق ، وضده الغي ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾ في [سورة البقرة : 256] .

وإضافة ﴿ الرشد ﴾ إلى ضمير إبراهيم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي الرشد الذي أرْشِده.

(24/511)

وفائدة الإضافة هنا التنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي رشداً يليق به؛ ولأن رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم، أي هو الذي علمتم سمعته التي طبقت الخَافقين فما ظنكم برشد أوتيه من جانب الله تعالى، فإن الإضافة لما كانت على معنى اللام كانت مفيدة للاختصاص فكأنه انفرد به.

وفيه إيماء إلى أن إبراهيم كان قد انفرد بالهدى بين قومه.

وزاده تنويهاً وتفخيماً تذييله بالجملة المعترضة قوله تعالى: ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي آتيناه رشداً عظيماً على عِلم منا بإبراهيم، أي بكونه أهلاً لذلك الرشد، وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من قرآنه، أي علم من سريرته صفات قد رَضيها وأحمدَهَا فاستأهل بها اتخاذه خليلاً.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ [الدخان: 32] وقوله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام: 124].

وقوله ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً .

ووجه ذكر هذه القبلية التنبيه على أنه ما وقع إيتاء الذكر موسى وهارون إلا لأن شريعتهما لم تزل معروفة مدروسة .

و﴿ إذ قال ﴾ ظرف لِفعل ﴿ آتينا ﴾ أي كان إيتاؤه الرشد حينَ قال لأبيه وقومه : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ الخ ، فذلك هو الرشد الذي أوتيه ، أي حينَ نزول الوحي إليه بالدَعوة إلى توحيد الله تعالى ، فذلك أول ما بُدىء به من الوحي .

وقوم إبراهيم كانوا من (الكَلدان) وكان يسكن بلداً يقال له (كوثى) بمثلثة في آخره بعدها ألف .

وهي المسماة في التوراة (أور الكلدان) ، ويقال : أيضاً إنها (أورفة) في (الرها) ، ثم سكن هو وأبوه وأهله (حاران) وحاران هي (حرّان) ، وكانت بعد من بلاد الكلدان كما هو مقتضى الإصحاح 12 من التكوين لقوله فيه : "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك" .

ومات أبوه في (حاران) كما في الإصحاح 11 من التكوين فيتعين أن دعوة إبراهيم كانت من (حاران) لأنه من حاران خرج إلى أرض كنعان .

وقد اشتهر حرّان بأنه بلد الصابئة وفيه هيكل عظيم للصابئة ، وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب ويجعلون لها صوراً مجسمة .

والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ يتسلط على الوصف في قوله تعالى : ﴿ التي أنتم لها عاكفون ﴾ فكأنه قال : ما عبادتكم هذه التماثيل ؟ .

ولكنه صيغ بأسلوب توجه الاستفهام إلى ذات التماثيل لإبهام السؤال عن كنه التماثيل في بادىء الكلام إيماء إلى عدم الملاءمة بين حقيقتها المعبر عنها بالتماثيل وبين وصفها بالمعبودية المعبر عنه بعكوفهم عليها .

وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيداً لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنونه سائلاً مستعلماً ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم ﴿ وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ ؛ فإن شأن السؤال بكلمة (مَا) أنّه لطلب شرح ماهية المسؤول عنه .

والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية .

والتعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال الذاتي .

والأصنام التي كان يعبدها الكلدان قوم إبراهيم هي (بَعْل) وهو أعظمها ، وكان مصوغاً من ذهب وهو رمز الشمس في عهد سميرميس ، وعبدوا رموزاً للكواكب ولا شك أنهم

كانوا يعبدون أصنام قوم نوح: ودّاً ، وسُواعاً ، ويغوثَ ، ويعوقَ ، ونسْراً ، إما بتلك الأسماء وإما بأسماء أخرى.

وقد دلت الآثار على أن من أصنام أشور (إخوان الكلدان) صنماً اسمه (نَسْروخ) وهو نَسْر لا محالة.

وجعْل العكوفِ مسنداً إلى ضميرهم مؤذن بأن إبراهيم لم يكن من قبل مشاركاً لهم في ذلك فيعلم منه أنّه في مقام الرد عليهم، ذلك أن الإتيان بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿ أنتم لها عاكفون ﴾ فيه معنى دوامهم على ذلك.

وضمن ﴿ عاكفون ﴾ معنى العبادة، فلذلك عدّي باللام لإفادة ملازمة عبادتها.

(26/511)

وجاءوا في جوابه بما توهّموا إقناعه به وهو أن عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم فحسبوه مثلَهم يقدس عمل الآباء ولا ينظر في مصادفته الحق، ولذلك لم يلبث أن أجابهم: ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ مؤكداً ذلك بلام القسم.

وفي قوله تعالى: ﴿ كنتم في ضلال ﴾ من اجتلاب فعل الكون وحرف الظرفية، إيماءٌ إلى تمكنهم من الضلال وانغماسهم فيه لإفادة أنّه ضلال بَواح لا شبهة فيه، وأكدَ ذلك بوصفه بـ

﴿ مبين ﴾ . فلما ذكروا له آباءَهم شرّكهم في التخطئة بدون هوادة بعطف الآباء عليهم في ذلك ليعلموا أنهم لا عذر لهم في اتّباع آبائهم ولا عذر لآبائهم في سن ذلك لهم لمنافاة حقيقة تلك الأصنام لحقيقة الألوهية واستحقاق العبادة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(27/511)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله صلى الله عليه وسلم بذِكْر طرف من قصة موسى، ثم ثنّى بقصة إبراهيم، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى، فلماذا ؟ لأن موسى له صِلَة مباشرة باليهود وقريب منهم، وكان اليهود معه أهل جَدَل وعناد .

ومعنى ﴿ رُشْدَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 51] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل في الصلاح والأعلى في الخير، بحيث لا يأتي بعد الصلاح فسادٌ، ولا بعد الخير شر، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يحرِّك الصلاح الظاهر إلى فساد، أو يُسلِمك الخير إلى شر، فليس في ذلك رُشْدٌ .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل . . سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميل ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدِي من مفاتنها وحركاتها ما لا تُحسنه زوجته في البيت ؟ كم بيوت خَرِبَتْ وأُسَرَ تهدمت بسبب راقصة ، فأيُّ رقيٍّ ؟ وأيُّ جمال في هذا الفن ؟ !

لذلك ؛ فالإمام علي - كرَّم الله وجهه - لخَّص هذه المسألة فقال : " لا شَرَّ في شرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ في خير بعده النار " .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذي هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

(28/511)

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّي كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سِنّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح في الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق – سبحانه وتعالى – فنأكل الثمرة ونستبقي نوعها ببذرتها الصالحة ، أما لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها في الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ في التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التي لا تعرفها ولا تدركها ، وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربّ وقد جاءتني هذه الغريزة ففعلتْ بي كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز في جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل في المرحلة التي لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه في صِغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبر واستطاع أنْ يُنَظّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى، رُشْد فكري معنوي، رُشْد يستوي فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهنْ الذي يختار ويُفَاضل بين البدائل، فقد يكتمل للمرء رُشْد البُنياني الجسماني دون أنْ يكتملَ عقله وفِكْره، وفي هذه الحالة لا نُمكِّنه من التصرف حتى نختبره، لنعلم مدى إحسانه للتصرف فيما يملك، فإنْ نجح في الاختبار فَلْنُعْطِه المال الذي له، يتصرف فيه كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . . . ﴾ [النساء: 6] أي: لا تنتظر حتى يكبر، ثم تعطيه ماله، يفعل فيه ما يشاء دون خِبْرة ودون تجربة، إنما تختبره وتَشْركه في خِضَمِّ الحياة ومعتركها، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم.

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . . ﴾ [النساء: 5] لأنهم إن بلغوا الرشْد البدنيّ فلم يبلغوا الرُّشد العقلي، وإياك أن تقول: هو ماله يتصرف فيه كما يشاء، فليس للسفيه مال بدليل: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . . ﴾ [النساء: 5] ولم يقُلْ: أموالهم، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك، وأنت مسئول عنه أمام الله، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه.

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشُدّ: ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ . . . ﴾ [الأحقاف: 15].

والأَشُدُّ هو : التسامي في الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سِنِّ البلوغ في الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أَوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق في عنفوانه شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره ؟

وإذا لم يتلقَّ مبادئ الرُّشْد في صِغَره وفي شبابه ، فلا شَكَّ أنه سيجد في أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ، حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغي أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً في الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون " الرشد السياسي " ويقولون " ترشيد الاستهلاك " ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد في مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجأتْهم إلى التفكير في ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل في ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشي ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا في ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصِرْنا

نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله في وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه فتجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتي ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرِج منه هذه البابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها في الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال في " ترشيد الخبز " يقال في " ترشيد الماء " ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى في الوضوء الذي هو قربي إلى الله .

(31/511)

هذا الرُّشْد الذي وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدي إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح في الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى في حَقّ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [الأنبياء : 51] وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل في النجوم ويبحث عن ربه : ﴿ فَلَمَّا رَأَى

القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين * فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 77-78].

فكان - عليه السلام - مُؤهّلاً للرسالة منذ صِغَره، ولما أُرسل ونُبِّيء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقِي في النار، وجاءه جبريل - عليه السلام - يعرض عليه المساعدة، فيقول إبراهيم: أما إليك فلا. وهذه أول بشائر الرشد الفكري والعقدي عند إبراهيم.

(32/511)

وفي حَقِّه قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . ﴾ [البقرة: 124] أي: اختبره في أشياء فأتمهُنَّ وأتى بهنّ على أكمل وجه، منها: أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت، وكان يلفي أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده، إنما إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه، فيفكر ويحتال في أنْ يأتيَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه، فيحتال على هذا الأمر فيحفر في الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت،

وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن في حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 51] هذا واضح في قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . ﴾ [الأنعام : 124] . ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ . . . ﴾ .

أي : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿ مَا هذه التماثيل . . . ﴾ [الأنبياء : 52] .

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشيء يعني : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التي لها جِرْم ويُصوِّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون في ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون في عينيه خرزتين ليظهر للرائي أن له نظراً ، وهي ألوان من التفنن في هذه الصناعة .

فإبراهيم – عليه السلام – يقول مستنكراً لأبيه وقومه ﴿ مَا هذه التماثيل التي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 52] .

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكاري يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولا بد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائي يُوحي بالتقريع .

وسبق أنْ تحدّثنا في معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ، بدليل قوله في موضع آخر : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ . . . ﴾ [الأنعام : 74] فقد بدأ المسألة بأبيه أو عمه ، وهو أقربُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القوم قد لا يكونُ لهم في نفسه تأثير هَيْبة أو حُبٍّ إنما الهيبة والحب موجود بالنسبة لأبيه أو لعمه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقترفتموها وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : 24] .

وقد وقف المفسرون عند اللام في قوله تعالى : ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 52] مع أن المعنى : يعكفون على عبادتها ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على

أَصْنَامٍ لَّهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 138] وهنا جاءت باللام ؛ لذلك قال بعضهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدل عن علي إلى اللام ؟

(34/511)

ولو تنبّهنا لمعطيات الألفاظ ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 52] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة . فلان عاكف في المسجد يعني : على الإقامة في المسجد ، فكلمة عاكفون وحدها تعطي معنى (على) أي : لصالح هذه الآلهة . أمّا اللام فلشيء آخر ، اللام هنا لام الملكية والنفعية . وذكروا لها مثالاً آخر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ . . . ﴾ [الأنبياء : 104] .

السِّجل هو : القرطاس والورق الذي نكتب فيه ، ومنه قولهم : نُسجِّل كذا يعني : نكتبه في السِّجل أو الورق لتحفظ ، ومعنى ﴿ لِلْكُتُبِ . . . ﴾ [الأنبياء : 104] يعني : الشيء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوي الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا آبَآءَنَا . . . . ﴾ .

إذن : لا حُجَّة لهم في عبادتهم لهذه التماثيل التي صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رأَوْا آباءهم يعبدونها ، فحُجَّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها

.

وفي موضع آخر قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] إذن : نعيب عليهم هذا التقليد ونعيب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون رَدُّ إبراهيم إذن ؟

وكلمة ﴿ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 53] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عباد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه : ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ . . . ﴾ .

أراد أنْ يُرشِّد هذا السَّفَه فقال : أنتم في ضلال ؛ لأنكم قلّدتم في الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسَنُّوها لكم .

(35/511)

ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم في هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذي يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتي بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .

لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم في ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما تحب أنت ، فإذا ما

شبَّ وكَبِر صارتْ له شخصيته الخاصة وفِكْره المستقِلّ ، فيختار هو مأكله ومَلْبسه ، والكلية التي يدخلها ، وربما انتقدك في بعض الأمور .

إذن : هؤلاء قلَّدوا آباؤهم في هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تمسّكون فيها بالتقليد ؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طِبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففي هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفِكْره الخاص .

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم في هذه العبادة دون غيرها من الأمور ؛ لأنها عبادة وتدُّين بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم في شيء ، ولا تمنعهم شيئاً مما أَلِفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تبعة .

لذلك ؛ فالحق سبحانه يردُّ عليهم في أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] .

وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : 104] .

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : ﴿ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً . . . ﴾ [البقرة : 170]

ومرة : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . ﴾ [المائدة : 104] فلماذا ؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففي الأولى قالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ . . . ﴾ [البقرة : 170] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد .

وفي الثانية قالوا : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ . . . ﴾ [المائدة : 104] يعني : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فقَصَروا أنفسهم على ما وجدوا عليه آباؤهم .

لذلك قال في عَجُز الأولى : ﴿ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً . . . ﴾ [البقرة : 170] وفي عَجُز الثانية ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . ﴾ [المائدة : 104] لأن العاقل هو الذي يهتدي إلى الأمر بذاته .

أمّا الذي يعلم فيعلم ما عَقِله هو ، وما عَقِله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل ؛ لأن العقل يهتدي للشيء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(37/511)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى في إبراهيم : (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) (الأنبياء : 52-53) ، وفي سورة الشعراء : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء : 69-74) ، فورد في الأولى : (وَجَدْنَا آبَاءَنَا) وفي الثانية : (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا) ، فيسأل عن زيادة (بل) في الثانية ؟ وقد يسأل عن المختلف من حكاية قول إبراهيم ، عليه السلام في الأولى : (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (الأنبياء : 52) وفي الثانية : (مَا تَعْبُدُونَ) وظاهر القصة أنها واحدة وقد اختلف المحكي ؟

والجواب عن الأول ، والله أعلم : أن جوابهم في الموضعين ليس جواباً لسؤال واحد ، وإنما ورد (جواباً) لسؤالين ، فاختلف بحسبهما ، فسؤاله في آية الأنبياء سؤال مطلع على معبوداتهم ما هي ؟ بعد أن شاهد عبادتهم لها ، ولزومهم إياها ، وكيفية صورها . فقال : (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) أي ملازمون ، فلم يجدوا جواباً إلا اعترافهم بأنها تماثيل مصورة منحوته ، والتماثيل ما جعل من الصور مثالاً لغيره ونحي به نحوه ، فأقروا

بالعجز عن جواب مقنع ، واستشعروا ما يلزمهم في عبادة ما يصنعونه بأيديهم ، وتقدم وجودهم وجوده ، فرجعوا إلى التقليد فوقع جوابهم على ما تقدم .

(38/511)

وأما آية الشعراء فإن سؤال إبراهيم ، عليه السلام ، إياهم بقوله : (مَا تَعْبُدُونَ) ورد (مورد) سؤال عن ماهية معبوادتهم وكيفيتها ، وكأنه ، عليه السلام ، لم يشاهدها ، وعلم أنهم يعبدون ما لا يعبد ، فسألهم عن ما هيته فجاوبوه : (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) فجاوبوه معترفين بماهية معبوداتهم على ما أمرهم عليه ، وطابق جوابهم سؤاله ، فأردف ، عليه السلام ، بسؤال آخر ، قاصداً تعجيزهم والقطع بهم فقال : (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) (الشعراء : 72-73) أي إذا كانوا هكذا مستبدين غير مفترقين فذلك عذر في عبادتكم إياهم ، فلما استشعروا ما يلزمهم عدلوا عن الجواب ،

وأضربوا عن طرفي الإثبات والنفي إلى تقليد الآباء وقالوا : (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء : 74) ، وحصل من جوابهم بمفهوم الإضراب ببل أن آلهتهم لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، إذ لو اتصفت بوجود هذه الصفات لما عدلوا إلى الإضراب .

(39/511)

فإن قيل إنما أضربوا عن أن يجيبوا بنفي أو بإثبات فكيف يقال : إن اعترافهم حاصل بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ؟ فأقول : لو وجدوا أدنى شبهة لتراموا عليها ، فقد وضح أن جوابهم هنا بناء على ما بنوه جواباً عليه لا يمكن غيره إلا بمخالفتهم المحسوس لو أنهم قالوا : إنها تسمع أو تنفع أو تضر ، أو نسبتهم أنفسهم إلى ما عذر لعاقل في ارتكابه ، ولا شبهة لو أفصحوا جواباً بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، ثم استمروا على عبادتهم إياها ، فأضربوا عن ذلك إلى اعتمادهم على تعبد آبائهم ، وجعلوا ذلك حجة على مرتكبهم على وهن هذا التعليق ، ولهذا قيل لهم : (قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (الأنبياء : 54) ، إن جوابهم هنا ببل لازم لما قصده ، ولا يمكن بسقوطها ، وإن جوابهم في آية الأنبياء لا يمكن فيه بل بوجه ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثاني أنه لا حامل على القول بأن القصة واحدة ، وإذا أمكن أن يكون ذلك في محلين ووقتين لم يلزم اتحاد الجواب ، فلا سؤال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 348 . 349 ﴾

(40/511)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

قوله : ﴿ رُشْدَهُ ﴾ : مفعول ثان . وقرأ العامَّة " رُشْدَه " بضم الراء وسكونِ الشين . وعيسى الثقفي بفتحِهما . وقد تقدَّم الكلامُ عليهما .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبلِ موسى وهارون . وهذا أحسنُ ما قُدِّر به المضافُ إليه . وقيل : من قبلِ بلوغِه أو نبوَّتِه . والضميرُ في " به " يعودُ على إبراهيم . وقيل : على " رُشْدَه " .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ : يجوزُ أن يكونَ منصوباً ب " آتَيْنا " أو ب " رُشْدَه " أو بعالِمين أو بمضمر أي : اذكر وقت قوله . وجوَّز أبو البقاء فيه أن يكونَ بدلاً من موضع قبلُ أي : إنه يَحُلُّ مَحَلَّه فيَصِحُّ المعنى ، إذ يصير التقديرُ : ولقد آتَيْناه رُشْدَه إذ قال . وهو بعيدٌ من المعنى بهذا التقديرِ .

قوله : ﴿ لَهَا ﴾ قيل : اللامُ للعلةِ أي : عاكفون لأجلها . وقيل : بمعنى على أي : عاكفون عليها . وقيل : ضَمَّنَ " عاكفون " معنى عابِدين فلذلك أتى باللام . وقال أبو البقاء : وقيل

: أفادت معنى الاختصاصِ . وقال الزمخشري : " لم يَنْوِ للعاكفين محذوفاً " ، وأَجْراه مُجْرى ما لا يَتَعدَّى كقوله : فاعِلون العكوفَ " . قلت : الأَولى أن تكونَ اللامُ للتعليل ، وصلةُ " عاكفون " محذوفةٌ أي : عاكفون عليها لأجلها لا لشيءٍ آخرَ .

والتماثيل : جمع تِمْثال ، وهو الصورةُ المصنوعةُ من رُخامٍ أو نحاسٍ أو خَشَبٍ ، يُشَبَّه بخَلْقِ الآدميِّ وغيرِه من الحيوانات . قال امرؤ القيس :

3349 فيا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ وليلةٍ . . . بآنِسَةٍ كأنَّها خطُّ تِمْثالِ

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53)

(41/511)

قوله : ﴿ لَهَا عَابِدِينَ ﴾ : " عابدين " مفعولٌ ثانٍ ل " وَجَدْنا " و " لها " لا تَعَلُّقَ له ؛ لأنَّ اللامَ زائدةٌ في المفعول به لتقدُّمه .

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54)

قوله : ﴿ أَنتُمْ ﴾ : تأكيدٌ للضميرِ المتصلِ . قال الزمخشري : " وأنتم من التأكيدِ الذي لا يَصِحُّ الكلامُ مع الإِخلال به ؛ لأنَّ العطفَ على ضميرٍ هو في حكمِ بعضِ الفعلِ ممتنعٌ . ونحوه ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [البقرة : 35] . قال الشيخ : " وليس هذا حكماً

مُجْمعاً عليه ؛ فلا يَصِحُّ الكلامُ مع الإِخلالِ به ؛ لأنَّ الكوفيين يُجيزون العطفَ على الضمير المتصلِ المرفوعِ من غير تأكيدٍ بالضمير المنفصل ولا فصلٍ . وتنظيرُ ذلك ب ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ مخالِفٌ لمذهبِه في ﴿ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾ لأنَّ مذهبَه يزعم أنَّ " وزوجُك " ليس معطوفاً على الضمير المستكنِّ في " اسكُنْ " ، بل مرفوعٌ بفعلٍ مضمر أي : ولْتَسْكُنْ ، فهو عنده من قبيل عطفِ الجمل ، وقوله هذا مخالفٌ لمذهبِ سيبويه " .

قلت : لا يَلْزَمُ من ذلك أنه خالفَ مذهبَه ، إذ يجوز أن يُنَظِّر بذلك عند مَنْ يعتقدُ ذلك ، وإنْ لم يعتقدْه هو .

و ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ خبراً إنْ كانَتْ " كان " ناقصةً ، أو متعلقاً ب " كنتم " إن كانَتْ تامةً . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 167. 169 ﴾

(42/511)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

أراد به ما تعرّف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول ، لولا أنّه خصّه في

الابتداء بالتعريف . . وإلاَّ متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خَلْقِه لولا ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق ؟

ويقال هو ما كاشَفَ به رُوحَهُ قبل إبداعها من تجلِّي الحقيقة .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)

خاطبَ قومه وأباه ببيان التنبيه طمعاً في استفاقتهم من سَكْرَةِ الغفلة ، ورجوعهم من ظلمة الغلظة ، وخروجهم من ضيقِ الشُّبْهَة .

ثم سأل الله إعانَتَهم بطلب الهداية لهم . فلمَّا تَبَيَّنَ له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم يُصِرُّون تَبَرَّأ منهم أجمعين .

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53)

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد ، فكان من جوابه الحُكْمُ بالتسوية بينهم وبين آبائهم في الضلال ، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 506.507 ﴾

(43/511)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم تكن عادته مواجهة أحد بما يكره ، استأنف الإخبار عنهم بما يدل عليه فقال :

﴿ قالوا ﴾ ظناً منهم أنه لم يقل ذلك على ظاهره : ﴿ أجئتنا ﴾ في هذا الكلام ﴿ بالحق ﴾ الذي يطابقه الواقع ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ فظاهر كلامك غير حق ﴿ قال ﴾ بانياً على ما تقديره : ليس كلامي لعباً ، بل هو جد ، وهذه التماثيل ليست أرباباً ﴿ بل ربكم ﴾ الذي يستحق منكم اختصاصه بالعبادة ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ أي مدبرهن القائم بمصالحهن ﴿ الذي فطرهن ﴾ أي أوجدهما وشق بهما ظلمة العدم ، وأنتم وتماثيلكم مما فيهما من مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك إذا رجعتم إلى عقولكم مجردة عن الهوى ﴿ وأنا على ذلكم ﴾ الأمر البين من أنه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره ﴿ من الشاهدين ﴾ أي الذين يقدرون على إقامة الدليل على ما يشهدون به لأنهم لم يشهدوا إلا على ما هو عندهم مثل الشمس ، لا كما فعلتم أنتم حين اضطركم السؤال إلى الضلال .

ولما أقام البرهان على إثبات الإله الحق، أتبعه البرهان على إبطال الباطل فقال:

﴿ وتالله ﴾ وهو القسم، والأصل في القسم الباء الموحدة، والواو بدل منها، والتاء بدل من الواو، وفيها - مع كونها بدلاً - زيادة على التأكيد بالتعجب: قال الأصبهاني: كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده - انتهى.

وفيها أيضاً أنها تدل على رجوع التسبب باطناً، فكأنها إشارة إلى أنه بعد أن تسبب في ردهم عن عبادتها ظاهراً بما خاطبهم به، تسبب من ذلك ثانياً باطناً بإفسادها

﴿ لأكيدن ﴾ أكد لأنه مما ينكر لشدة عسره؛ والكيد: الاحتيال في الضرر

﴿ أصنامكم ﴾ أي هذه التي عكفتم عليها ناسين الذي خلقكم وإياها، أي لأفعلن بها ما يسوءكم بضرب من الحيلة.

(44/511)

ولما كان عزمه على إيقاع الكيد في جميع الزمان الذي يقع فيه توليهم في أيّ جزء تيسر له منه، أسقط الجارّ فقال: ﴿ بعد أن تولوا ﴾ أي توقعوا التولي عنها، وحقق مراده بقوله:

﴿ مدبرين ﴾ لأنزلكم من الدليل العقلي على تحقيق الحق إذ لم تكونوا من أهله إلى الدليل الحسي على إبطال الباطل.

ولما كانوا في غاية التعظيم لأصنامهم لرسوخ أقدامهم في الجهل ، لم يقع في أوهامهم قط أن إبراهيم عليه السلام يقدم على ما قال ، وعلى تقدير إقدامه الذي هو عندهم من قبيل المحال لا يقدر على ذلك ، فتولوا إلى عيدهم ، وقصد هو ما كان عزم عليه فشمر في إنجازه تشميراً يليق بتعليقه اليمين بالاسم الأعظم ﴿ فجعلهم ﴾ أي عقب توليهم ﴿ جذاذاً ﴾ قطعاً مهشمة مكسرة مفتتة ، من الجذ وهو القطع ﴿ إلا كبيراً ﴾ واحداً ﴿ لهم ﴾ أي للأصنام أو لعبادها فإنه لم يكسر وجعل الفأس معه ﴿ لعلهم ﴾ أي أهل الضلال ﴿ إليه ﴾ وحده ﴿ يرجعون ﴾ عند إلزامه لهم بالسؤال فتقوم عليهم الحجة ، إذ لو ترك غيره معه لربما زعموا أن كلاًّ يكل الكلام إلى الآخر عند السؤال لغرض من الأغراض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 91.92 ﴾

(45/511)

فصل

قال الفخر :

﴿ قالوا أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ .

موهمين بهذا الكلام أنه يبعد أن يقدم على الإنكار عليهم جاداً في ذلك فعنده عدل صلى

الله عليه وسلم إلى بيان التوحيد .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) ﴾

اعلم أن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول أولاً وبالفعل ثانياً ، أما الطريقة القولية فهي قوله : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض الذي فطَرَهُنَّ ﴾ وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب .

فيرجع حاصل هذه الطريقة إلى الطريقة التي ذكرها لأبيه في قوله : ﴿ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] قال صاحب "الكشاف" : الضمير في فطرهن للسموات والأرض أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في الاحتجاج عليهم .

أما قوله : ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق كقول الرجل إذا بالغ في مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم .

والثاني : أنه عليه السلام عنى بقوله : ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ ادعاء أنه قادر على إثبات ما ذكره بالحجة ، وأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة ، كما لم

تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم ، وأما الطريقة الفعلية فهي قوله : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(46/511)

قال صاحب "الكشاف" : قرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه وبالله ، وقرىء تولوا بمعنى تتولوا ويقويها قوله : ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتاء ؟ قلت : إن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته .

المسألة الثانية :

إن قيل لماذا قال : ﴿ لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام .

وجوابه : قال ذلك توسعاً لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها ، وقيل : المراد لأكيدنكم في أصنامكم لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم .

المسألة الثالثة :

في كيفية أول القصة وجهان : أحدهما : قال السدي : كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم عليه السلام : لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إني سقيم أشتكي رجلي فلما مضوا وبقي ضعفاء الناس نادى وقال : ﴿ تالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ واحتج هذا القائل بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ .

وثانيها : قال الكلبي : كان إبراهيم عليه السلام من أهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً فلما هم إبراهيم بالذي هم به من كسر الأصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال لأصحابه : أراني أشتكي غداً فذلك قوله ؛

(47/511)

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم * فَقَالَ إِنّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 88 ، 89] وأصبح من الغد معصوباً رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال : أما والله لأكيدن أصنامكم ، وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم إن ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر

ذلك في جماعة فلذلك قال تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ واعلم أن كلا الوجهين ممكن .

ثم تمام القصة أن إبراهيم عليه السلام لما دخل بيت الأصنام وجد سبعين صنماً مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس في يده حتى لم يبق إلا الكبير ، ثم علق الفأس في عنقه .

أما قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

إن قيل لم قال : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ وهذا جمع لا يليق إلا بالناس ، جوابه : من حيث اعتقدوا فيها أنها كالناس في أنها تعظم ويتقرب إليها ، ولعل كان فيهم من يظن أنها تضر وتنفع .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : جذاذاً قطعاً من الجذ وهو القطع ، وقرىء بالكسر والفتح وقرىء جذاذاً جمع جذيذ وجذذاً جمع جذة .

المسألة الثالثة :

إن قيل ما معنى : ﴿ إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ قلنا : يحتمل الكبير في الخلقة ويحتمل في التعظيم ويحتمل في الأمرين .

وأما قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ فيحتمل رجوعهم إلى إبراهيم عليه السلام ، ويحتمل رجوعهم إلى الكبير .

أما الأول : فتقريره من وجهين : الأول : أن المعنى أنهم لعلهم يرجعون إلى مقالة إبراهيم ويعدلون عن الباطل .

(48/511)

والثاني : أنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فبكتهم بما أجاب به من قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْئَلُوهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] أما إذا قلنا : الضمير راجع إلى الكبير ففيه وجهان : الأول : أن المعنى لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحاً والفأس على عاتقك .

وهذا قول الكلبي ، وإنما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تجيب وتتكلم .

والثاني : أنه عليه السلام قال ذلك مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم ، وإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكلات .

المسألة الرابعة :

إن قيل أولئك الأقوام إما أن يقال إنهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء .

فإن كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أن تلك الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، فأي حاجة في إثبات ذلك إلى كسرها ؟ أقصى ما في الباب أن يقال : القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب ، وكسرها لا يقدح في كونها معظمة من هذا الوجه .

وإن قلنا : إنهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل إليهم .

الجواب : أنهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة أنها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تماثيل الكواكب وأنها طلسمات موضوعة بحيث أن كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ، ثم إن إبراهيم عليه السلام كسرها مع أنه ما ناله منها ألبتة ضرر فكان فعله دالاً على فساد مذهبهم من هذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 157. 159 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾

قراءة الجمهور بضم الجيم ، وقرأ الكسائي وحده بكسرها ، وفيه وجهان :

أحدهما : حُطاماً ، قاله ابن عباس ، وهو تأويل من قرأ بالضم .

الثاني : قِطعاً مقطوعة ، قال الضحاك : هو أن يأخذ من كل عضوين عضواً ويترك عضواً

وهذا تأويل من قرأ بالكسر ، مأخوذ من الجذ وهو القطع ، قال الشاعر :

جَّذذ الأصنام في محرابها . . . ذاك في الله العلي المقتدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(50/511)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

الرشد عام في هدايته إلى رفض الأصنام وفي هدايته في أمر الكوكب والشمس والقمر وغير ذلك من النبوءة فما دونها ، وقال بعضهم معناه وفق للخير صغيراً وهذا كله متقارب ، و ﴿ من قبل ﴾ معناه من قبل موسى وهارون ، فبهذه الإضافة هو قبل كما هي نسبة نوح

منه ، قوله ﴿ وكنا به عالمين ﴾ مدحل ﴿ إبراهيم ﴾ أي بأنه يستحق ما أهل له وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] والعامل في ﴿ إذ ﴾ قوله ﴿ آتينا ﴾ و﴿ التماثيل ﴾ الأصنام لأنها كانت على صورة الإنسان من خشب ، و" العكوف " الملازمة للشيء وقوله ﴿ فطرهن ﴾ عبارة عنها كأنها تعقل وهذه من حيث لها طاعة وانقياد وقد وصفت من مواضع بما يوصف به من يعقل ، وقوله ﴿ تالله لأكيدن ﴾ الآية ، روي أنه حضرهم عيد لهم فعزم قوم منهم على إبراهيم في حضوره طمعاً منهم أن يستحسن شيئاً من أخبارهم فمشى معهم فلما كان في الطريق أثنى عزمه على التخلف عنهم فقعد وقال لهم إني سقيم فمر به جمهورهم ثم قال في خلوة من نفسه ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وسمعه قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس ، وقوله ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ معناه إلى عيدهم ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم فدخله ومعه قدوم فوجد الأصنام وقفت أكبرها أول ثم الذي يليه فالذي يليه وقد جعلوا أطعمتهم في ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً لينصرفوا من ذلك العيد إلى أكله ، فجعل عليه السلام يقطعها بذلك القدوم حتى أفسد أشكالها كلها حاشى الكبير فإنه تركه بحاله وعلق القدوم من يده وخرج عنها ، و﴿ جذاذاً ﴾ معناه قطعاً صغاراً ، والجذ القطع . وقرأ الجمهور " جُذاذاً " بضم الجيم ، وقرأ الكسائي وحده بكسرها ، وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال بفتحها وهي لغات والمعنى واحد ، وقوله ﴿ فجعلهم

﴾ ونحوه معاملة للأصنام بحال من يعقل من حيث كانت تعبد وتنزل منزلة من يعقل ، والضمير في ﴾ إليه ﴿ أظهر ما فيه أنه عائد على ﴾

(51/511)

إبراهيم ﴿ أي فعل هذا كله توخياً منه أن يعقب ذلك منهم رجعة إليه وإلى شرعه ويحتمل أن يعود الضمير على الكبير المتروك ولكن يضعف ذلك دخول الترجي في الكلام . انتهى انتهى . اهـ ﴾ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴿

(52/511)

وقال ابن الجوزى :

﴾ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴿ يعنون : أجادٌّ أنتَ ، أم لاعب ؟ !

قوله تعالى : ﴾ لأكيدنَّ أصنامكم ﴿ الكيد : احتيال الكائد في ضرّ المكيد .

والمفسرون يقولون : لأكيدنها بالكسر ﴾ بعد أن تولُّوا ﴿ أي : تذهبوا عنها ، وكان لهم عيد في كل سنة يخرجون إِليه ولا يخلِّفون بالمدينة أحداً ، فقالوا لإِبراهيم : لو خرجتَ معنا

إلى عيدنا أعجبكَ دِيننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ، قال : إِني سقيم ، وألقى نفسه ، وقال سِرّاً منهم : "وتالله لأكيدنَّ أصنامكم" ، فسمعه رجل منهم ، فأفشاه عليه ، فرجع إِلى بيت الأصنام ، وكانت فيما ذكره مقاتل بن سليمان اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، فكسرها ، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير ، فذلك قوله : ﴿ فجعلهم جُذاذاً ﴾ قرأ الأكثرون : "جُذاذاً" بضم الجيم .

وقرأ أبو بكر الصدّيق ، وابن مسعود ، وأبو رزين ، وقتادة ، وابن محيصن ، والأعمش ، والكسائي : "جِذاذاً" بكسر الجيم .

وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وأيوب السختياني ، وعاصم الجحدري : "جَذاذاً" بفتح الجيم .

وقرأ الضحاك ، وابن يعمر : "جَذذاً" بفتح الجيم من غير ألف .

وقرأ معاذ القارىء ، وأبو حيوة ، وابن وثّاب : "جُذذاً" بضم الجيم من غير ألف .

قال أبو عبيدة : أي : مستأصَلين ، قال جرير :

بَني المهلَّب جَذَّ اللهُ دَابِرَهُم . . .

أَمْسَوْا رَمَاداً فلا أصلٌ ولا طَرَفُ

أي : لم يَبْقَ منهم شيء ، ولفظ "جُذاذ" يقع على الواحد والاثنين والجميع من المذكَّر والمؤنَّث .

وقال ابن قتيبة : "جُذاذاً" أي : فُتاتاً ، وكلُّ شيء كسرتَه فقد جَذَذْتَه ، ومنه قيل للسَّويق : الجذيذ .

وقرأ الكسائي : "جِذاذاً" بكسر الجيم على أنه جمع جَذيذ ، مثل ثَقيل وثِقال ، وخَفيف وخِفاف .

والجذيذ بمعنى : المجذوذ ، وهو المكسور .

﴿ إِلا كبيراً لهم ﴾ أي : كسر الأصنامَ إِلا أكبرها .

(53/511)

قال الزجاج : جائز أن يكون أكبرها في ذاته ، وجائز أن يكون أكبرها عندهم في تعظيمهم إِياه ، ﴿ لعلَّهم إِليه يَرْجِعون ﴾ ، في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إِلى الصنم .

ثم فيه قولان .

أحدهما : لعلهم يرجعون إِليه فيشاهدونه ، هذا قول مقاتل .

والثاني : لعلهم يرجعون إِليه بالتهمة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثاني : أنها ترجع إِلى إِبراهيم .

والمعنى : لعلهم يرجعون إلى دين إبراهيم بوجوب الحُجَّة عليهم ، قاله الزجاج . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(54/511)

وقال القرطبى :

﴿ قالوا أَجِئْتَنَا بالحق ﴾

أي أجاءٍ أنت بحقّ فيما تقول ؟ ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ أي لاعب مازح .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض ﴾ أي لست بلاعب ، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض .

﴿ الذي فطَرَهُنَّ ﴾ أي خلقهن وأبدعهن .

﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين ﴾ أي على أنه رب السموات والأرض .

والشاهد يبين الحكم ، ومنه "شَهِدَ اللَّهُ" بَيَّنَ الله ؛ فالمعنى : وأنا أبيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أخبر أنه لم يكتف بالمحاجّة باللسان بل كسر أصنامهم فِعل واثق بالله تعالى ، موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذبّ عن الدين .

والتاء في "تَاللَّهِ" تختص في القسم باسم الله وحده ، والواو تختص بكل مظهر ، والباء بكل

مضمر ومظهر .

قال الشاعر :

تاللَّهِ يَبْقَى على الأيام ذو حِيَدٍ . . .

بمُشْمَخِرٍّ به الظَّيَّانُ والآسُ

وقال ابن عباس : أي وحرمة الله لأَكِيدن أصنامكم ، أي لأمكرنّ بها .

والكيد المكر .

كاده يكيده كيداً ومكيدة ، وكذلك المكايدة ؛ وربما سمي الحرب كيدا ؛ يقال : غزا فلان فلم يَلق كيداً ، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده .

﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أي منطلقين ذاهبين .

وكان لهم في كل سنة عيد يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا روي ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانه في "والصافاتِ" فقال إبراهيم في نفسه : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم في سر من قومه ، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذي أفشاه عليه .

والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أخبر به مما يرضى به غيره .

ومثله ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] .

وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه .

(55/511)

وكان إبراهيم احتال في التخلف عنهم بقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] أي ضعيف عن الحركة .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ أي فتاتاً .

والجذ الكسر والقطع ؛ جذذت الشيء كسرته وقطعته .

والجِذاذ والجُذاذ ما كسر منه ، والضم أفصح من كسره .

قاله الجوهري .

الكسائي : ويقال لحجارة الذهب جُذاذ ؛ لأنها تكسر .

وقرأ الكسائي والأعمش وابن محيصن "جِذَاذاً" بكسر الجيم ؛ أي كسراً وقطعاً جمع جَذيذ وهو الهشيم ، مثل خَفيف وخِفاف وظَريف وظِراف .

قال الشاعر :

جَذَّذ الأصنام في مِحْرابها . . .

ذاك في الله العليِّ المقتدِر

الباقون بالضم ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

(مثل) الحُطام والرُّفات الواحدة جُذَاذة .

وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعلنه بها .

وقال : "فجعلهم" ؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية .

وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال "جَذَاذاً" بفتح الجيم ؛ والفتح والكسر لغتان

كالحَصاد والحِصاد .

أبو حاتم : الفتح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاه قطرب .

﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ أي عظيم الآلهة في الخلق فإنه لم يكسره .

وقال السدي ومجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ؛

ليحتج به عليهم .

﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى إبراهيم ودينه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا قامت الحجة عليهم .

وقيل : "لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ" أي إلى الصنم الأكبر "يَرْجِعُونَ" في تكسيرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

التمثال : الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى ، مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به .

قال الشاعر :

ويا رب يوم قد لهوت وليلة . . .

بآنسة كأنها خط تمثال

الجذ : القطع .

قال الشاعر :

بنو المهلب جذ الله دابرهم . . .

أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا

كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

لما تقدم الكلام في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بثلاثة عشر نبياً غير مراعي في ذكرهم الترتيب الزماني ، وذكر بعض ما نال كثيراً منهم من الابتلاء كل ذلك تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) وليتأسى بهم فيما جرى عليه من قومه .

وقرأ الجمهور ﴿ رُشْدَه ﴾ بضم الراء وسكون الشين .

وقرأ عيسى الثقفى ﴿ رَشَدَه ﴾ بفتح الراء والشين وأضاف الرشد إلى ﴿ إبراهيم ﴾ بمعنى أنه رشد مثله وهو رشد الأنبياء وله شأن أيّ شأن ، والرشد النبوة والاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا ، أو هما داخلان تحت الرشد أو الصحف والحكمة أو التوفيق للخير صغيراً أقوال خمسة ، والمضاف إليه من قبل محذوف وهو معرفة ولذلك بنى ﴿ قبل ﴾ أي ﴿ من قبل ﴾ موسى وهارون قاله الضحاك كقوله في الأنعام ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ أي من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأبعد من ذهب إلى أن التقدير ﴿ من قبل ﴾ بلوغه أو ﴿ من قبل ﴾ نبوته يعني حين كان في صلب آدم .

وأخذ ميثاق الأنبياء ، أو من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنها محذوفات لا يدل على حذفها دليل بخلاف ﴿ من قبل ﴾ موسى وهارون لتقدم ذكرهما .

وقربه ، والضمير في ﴿ به ﴾ الظاهر أنه عائد على إبراهيم .

وقيل : على الرشد وعلمه تعالى أنه علم منه أحوالاً عجيبة وأسراراً بديعة فأهله لخلته كقوله : الله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وهذا من أعظم المدح وأبلغه إذ أخبر تعالى أنه آتاه الرشد وأنه عالم بما آتاه به عليه السلام .

ثم استطرد من ذلك إلى تفسير الرشد وهو الدعاء إلى توحيد الله ورفض ما عبد من دونه .

و ﴿ إذ ﴾ معمولة لآتينا أو ﴿ رشدة ﴾ و ﴿ عالمين ﴾ وبمحذوف أي اذكر من أوقات رشده هذا الوقت ، وبدأ أولاً بذكر أبيه لأنه الأهم عنده في النصيحة وإنقاذه من الضلال ثم عطف عليه ﴿ قومه ﴾ كقوله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وفي قوله ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ تحقير لها وتصغير لشأنها وتجاهل بها مع علمه بها وبتعظيمهم لها .

وفي خطابه لهم بقوله ﴿ أنتم ﴾ استهانة بهم وتوقيف على سوء صنيعهم ، وعكف يتعدى بعلى كقوله ﴿ يعكفون على أصنام لهم ﴾ فقيل ﴿ لها ﴾ هنا بمعنى عليها كما قيل في قوله ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ والظاهر أن اللام في ﴿ لها ﴾ لام التعليل أي لتعظيمها ، وصلة ﴿ عاكفون ﴾ محذوفة أي على عبادتها .

وقيل : ضمن ﴿ عاكفون ﴾ معنى عابدين فعداه باللام .

وقال الزمخشري : لم ينو للعاكفين محذوفاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقوله فاعلون العكوف لها أو واقفون لها انتهى .

(58/511)

ولما سألهم أجابوه بالتقليد البحت ، وأنه فعل آبائهم اقتدوا به من غير ذكر برهان ، وما أقبح هذا التقليد الذي أدى بهم إلى عبادة خشب وحجر ومعدن ولجاجهم في ذلك ونصرة تقليدهم وكان سؤاله إياهم عن عبادة التماثيل وغايته أن يذكروا شبهة في ذلك فيبطلها ، فلما أجابوه بما لا شبهة لهم فيه وبدا ضلالهم ﴿ قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي في حيرة واضحة لا التباس فيها ، وحكم بالضلال على المقلدين والمقلدين وجعل الضلال مستقراً لهم و﴿ أنتم ﴾ توكيد للضمير الذي هو اسم ﴿ كان ﴾ قال الزمخشري : و﴿ أنتم ﴾ من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ انتهى ، وليس هذا حكماً مجمعاً عليه فلا يصح الكلام مع الإخلال به لأن الكوفيين يجيزون العطف على الضمير المتصل المرفوع من غير تأكيد بالضمير المنفصل المرفوع ، ولا فصل ونظيره ذلك :

باسكن أنت وزوجك الجنة مخالف لمذهبه في ﴿ اسكن أنت وزوجك ﴾ لأنه يزعم أن وزوجك ليس معطوفاً على الضمير المستكن في ﴿ اسكن ﴾ بل قوله : ﴿ وزوجك ﴾ مرتفع على إضمار ، وليسكن فهو عنده من عطف الجمل وقوله هذا مخالف لمذهب سيبويه .

ولما جرى هذا السؤال وهذا الجواب تعجبوا من تضليله إياهم إذ كان قد نشأ بينهم وجوزوا أن ما قاله هو على سبيل المزاح لا الجد ، فاستفهموه أهذا جد منه أم لعب والضمير في ﴿ قالوا ﴾ عائد عى أبيه وقومه و ﴿ بالحق ﴾ متعلق بقولهم ﴿ أجئتنا ﴾ ولم يريدوا حقيقة المجيء لأنه لم يكن عنهم غائباً فجاءهم وهو نظير ﴿ قال أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ والحق هنا ضد الباطل وهو الجد ، ولذلك قابلوه باللعب ، وجاءت الجملة اسمية لكونها أثبت كأنهم حكموا عليه بأنه لاعب هازل في مقالته لهم ولكونها فاصلة .

ثم أضرب عن قولهم وأخبر عن الجد وأن المالك لهم والمستحق العبادة هو ربهم ورب هذا العالم العلوي والعالم السفلي المندرج فيه أنتم ومعبوداتكم نبه على الموجب للعبادة وهو منشىء هذا العالم ومخترعه من العدم الصرف .

والظاهر أن الضمير في ﴿ فطرهن ﴾ عائد على السموات والأرض ، ولما لم تكن السموات والأرض تبلغ في العدد الكثير منه جاء الضمير ضمير القلة .

وقيل في ﴿ فطرهن ﴾ عائد على التماثيل .

قال الزمخشري : وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم انتهى .

وقال ابن عطية : ﴿ فطرهن ﴾ عبارة عنها كأنها تعقل ، هذه من حيث لها طاعة وانقياد وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل .

وقال غير ﴿ فطرهن ﴾ أعاد ضمير من يعقل لما صدر منهن من الأحوال التي تدل على أنها من قبيل من يعقل ، فإن الله أخبر بقوله ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " أطلت السماء وحق لها أن تئط " انتهى .

وكأن ابن عطية وهذا القائل تخيلا أن هن من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات وليس كذلك بل هو لفظ مشترك بين من يعقل وما لا يعقل من المؤنث المجموع ومن ذلك قوله ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ والضمير عائد على الأربعة الحرم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى ربوبيته تعالى ووصفه بالاختراع لهذا العالم و ﴿ من ﴾ للتبعيض أي الذين يشهدون بالربوبية كثيرون ، وأنا بعض منهم أي ما قلته أمر مفروغ منه عليه شهود كثيرون فهو مقال مصحح بالشهود .

و ﴿ على ذلكم ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ﴿ وأنا ﴾ شاهد ﴿ على ذلكم من الشاهدين ﴾ أو على جهة البيان أي أعني ﴿ على ذلكم ﴾ أو باسم الفاعل وإن كان في صلة أل لاتساعهم في الظرف والمجرور أقوال تقدمت في ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ وبادرهم أولاً بالقول المنبه على دلالة العقل فلم ينتفعوا بالقول ، فانتقل إلى القول الدال على الفعل الذي مآله إلى الدلالة التامّة على عدم الفائدة في عبارة ما يتسلط عليه بالكسر والتقطيع وهو لا يدفع ولا يضر ولا ينفع ولا يشعر بما ورد عليه من فك أجزائه فقال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وقرأ الجمهور ﴿ وتالله ﴾ بالتاء .

وقرأ معاذ بن جبل وأحمد بن حنبل بالله بالباء بواحدة من أسفل .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما الفرق بين التاء والباء ؟ قلت : إن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدل منها ، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره ، ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصاً في زمن نمرود مع عتوّه واستكباره وقوّة سلطانه وتهالكه على نصر دينه ولكن :

إذا الله سنى عقد شيء تيسرا . . .

انتهى .

أما قوله الباء هي الأصل إنما كانت أصلاً لأنها أوسع حروف القسم إذ تدخل على الظاهر ، والمضمر ويصرح بفعل القسم معها وتحذف وأما أن التاء بدل من واو القسم الذي أبدل من باء القسم فشيء قاله كثير من النحاة ، ولا يقوم على ذلك دليل وقد رد هذا القول السهيلي والذي يقتضيه النظر أنه ليس شيء منها أصلاً لآخر .

وأما قوله : إن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب فنصوص النحاة أن التاء يجوز أن يكون معها تعجب ، ويجوز أن لا يكون واللام هي التي يلزمها التعجب في القسم .

والكيد الاحتيال في وصول الضرر إلى المكيد ، والظاهر أن هذه الجملة خاطب بها أباه وقومه وأنها مندرجة تحت القول من قوله ﴿ قال بل ربكم ﴾ .

(61/511)

وقيل : قال ذلك سراً من قومه وسمعه رجل واحد .

وقيل : سمعه قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس يوم خرجوا إلى العيد وكانت الأصنام سبعين .

وقيل : اثنين وسبعين .

وقرأ الجمهور ﴿ تولوا مدبرين ﴾ مضارع ولّى .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ تولوا ﴾ فحذف إحدى التاءين وهي الثانية على مذهب البصريين .

والأولى على مذهب هشام وهو مضارع تولى وهو موافق لقوله ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ ومتعلق ﴿ تولوا ﴾ محذوف أي إلى عيدكم .

وروي أن آزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم ، وقالوا : لن ترجع بركة الآلهة على طعامنا فذهبوا ، فلما كان في الطريق ثنى عزمه عن المسير معهم فقعد وقال : إني سقيم .

وقال الكلبي : كان إبراهيم من أهل بيت ينظرون في النجوم ، وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً فأتاهم إبراهيم بالذي هم فيه فنظر قبل يوم العيد إلى السماء وقال لأصحابه : إني أشتكي غداً وأصبح معصوب الرأس فخرجوا ولم يتخلف أحد غيره ، وقال ﴿ وتالله لأكيدن ﴾ إلى آخره وسمعه رجل فحفظه ثم أخبر به فانتشر انتهى .

وفي الكلام حذف تقديره فتولوا إلى عيدهم فأتى إبراهيم الأصنام ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ قال ابن عباس : حطاماً .

وقال الضحاك : أخذ من كل عضوين عضواً .

وقيل : وكانت الأصنام مصطفة وصنم منها عظيم مستقبل الباب من ذهب وفي عينيه درتان مضيئتان ، فكسرها بفأس إلا ذلك الصنم وعلق الفأس في عنقه .

وقيل : علقه في يده .

وقرأ الجمهور ﴿ جُذاذاً ﴾ بضم الجيم والكسائي وابن محيصن وابن مقسم وأبو حيوة وحميد والأعمش في رواية بكسرها ، وابن عباس وأبو نهيك وأبو السماك بفتحها وهي لغات أجودها الضم كالحطام والرفات قاله أبو حاتم .

وقال اليزيدي ﴿ جذاذاً ﴾ بالضم جمع جذاذة كزجاج وزجاجة .

وقيل : بالكسر جمع جذيذ ككريم وكرام .

وقيل : الفتح مصدر كالحصاد بمعنى المحصود فالمعنى مجذوذين .

(62/511)

وقال قطرب في لغاته الثلاث هو مصدر لا يثنى ولا يجمع .

وقرأ يحيى بن وثاب : جذاذاً بضمتين جمع جذيذ كجديد وجدد .

وقرىء جُذَذاً بضم الجيم وفتح الذال مخففاً من فعل كسر وفي سرر جمع سرير وهي لغة لكلب ، أو جمع جذة كقبة وقبب .

وأتى بضمير من يعقل في قوله ﴿ فجعلهم ﴾ إذ كانت تعبد وقوله ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ استثناء من الضمير في ﴿ فجعلهم ﴾ أي فلم يكسره ، والضمير في ﴿ لهم ﴾ يحتمل أن

يعود على الأصنام وأن يعود على عباده ، والكبر هنا عظم الجثة أو كبيراً في المنزلة عندهم لكونهم صاغوه من ذهب وجعلوا في عينيه جوهرتين تضيئان بالليل ، والضمير في ﴿ إليه ﴾ عائد على إبراهيم أي فعل ذلك ترجياً منه أن يعقب ذلك رجعه إليه وإلى شرعه .

قال الزمخشري : وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكار لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بما أجاب به من قوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ﴾ وقال ابن عطية : يحتمل أن يعود إلى الكبير المتروك ولكن يضعف ذلك دخول الترجي في الكلام انتهى وهو قول الكلبي .

قال الزمخشري : ومعنى هذا لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات ، فيقولون ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً والفأس على عاتقك قال : هذا بناء على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستجهالاً ، وإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكل فإن قلت : فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم فأي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضاً ؟ قلت : إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر وظهر أنهم في عبادته على أمر عظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً وتعجباً من تضليله عليه السلام إياهم بطريق التوكيدِ القسمي ، وتردداً في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد ﴿ أَجِئْتَنَا بالحق ﴾ أي بالجِد ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ فتقول ما تقول على وجه المداعبةِ والمزاحِ ، وفي إيراد الشّقِّ الأخير بالجملة الاسميةِ الدالة على الثبات إيذانٌ برُجْحانه عندهم . ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام إضراباً عما بنَوا عليه مقالتَهم من اعتقاد كونِها أرباباً لهم كما يُفصح عنه قولُهم : نعبدُ أصناماً فنظل لها عاكفين ، كأنه قيل : ليس الأمر كذلك ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض الذى فطَرَهُنَّ ﴾ وقيل : هو إضرابٌ عن كونه لاعباً بإقامة البرهانِ على ما ادّعاه ، وضميرُهن للسموات والأرض ، وصَفه تعالى بإيجادهن إثرَ وصفِه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية ، أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يَحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه ، ورجْعُ الضمير إلى التماثيل أدخلُ في تضليلهم وأظهرُ في إلزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغني عن التأمل في كون ما يعبُدونه من جملة المخلوقات ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم ﴾ الذي ذكرتُه من كون ربكم ربَّ السموات والأرض فقط دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ مّنَ الشاهدين ﴾ أي العالِمين به

على سبيل الحقيقةِ المُبرهنين عليه فإن الشاهدَ على الشيء مَنْ تحققه وحقّقه ، وشهادتُه على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وإثباتُه بها ، كأنه قال : وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه ﴿ وتالله ﴾ وقرى بالباء وهو الأصلُ والتاء بدل من الواو التي هي بدل من الأصل وفيها تعجب ﴿ لأكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ أي لأجتهدنّ في كسرها وفيه إيذانٌ بصعوبة الانتهاز وتوقّفِه على استعمال الحيل وإنما قاله عليه السلام سرًّا ، وقيل : سمعه رجل واحد ﴿

(64/511)

بَعْدَ أَن تولّوا مُدْبِرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم ، وقرىء تَوَلّوا من التولي بحذف إحدى التاءين ويعضُدها قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ فصيحةٌ أي فولَّوا فجعلهم ﴿ جُذَاذاً ﴾ أي قُطاعاً فُعالٌ بمعنى مفعول من الجذّ الذي هو القطعُ كالحُطام من الحطْم الذي هو الكسرُ ، وقرىء بالكسر وهي لغة أو جمعُ جذيذ كخِفاف وخفيف ، وقرىء بالفتح وجُذُذاً جمع جذيذ وجُذَذاً جمع جُذة . روي أن آزر خرج به في يوم عيدٍ لهم فبدأوا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا : إلى أن ترجعَ بركتُه الآلهة على طعامنا ، فذهبوا وبقيَ إبراهيمُ عليه السلام فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنماً مصطفّاً وثمّة صنمٌ عظيم مستقبلَ الباب ،

وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكلَّ بفأس كانت في يده ولم يبق إلا الكبيرُ وعلّق الفأس في عنقه وذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ أي للأصنام ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى إبراهيمَ عليه السلام ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ فيحاجّهم بما سيأتي فيحجّهم ويبكّتهم ، وقيل : يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبودِ أن يُرجَعَ إليه في المُلمّات ، وقيل : يرجِعون إلى الله تعالى وتوحيدِه عند تحقّقهم عجزَ آلهتِهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(65/511)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ ﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً وتعجباً من تضليله عليه السلام أياهم على أتم وجه ﴿ أَجِئْتَنَا بالحق ﴾ أي بالجد ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ أي الهازلين فالاستفهام ليس على ظاهره بل هو استفهام مستبعد متعجب ، وقولهم : ﴿ أَمْ أَنتَ ﴾ الخ عدله كلام منصف مومىء فيه بالطف وجه أن الثابت هو القسم الثاني لما فيه من أنواع المبالغة ، وأشار في "الكشاف" كما في "الكشف" إلى أن

الأصل هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل إلا أنه عدل عنه إلى ما عليه النظم الكريم لما أشير إليه .

وقال "صاحب المفتاح" : أي أجددت وأحدثت عندنا تعاطى الحق أم أحوال الصبا بعد على الاستمرار وهو أقرب إلى الظاهر وفيه الإشارة إلى فائدة العدول عن المعادل ظاهراً وبيان المراد بالمجيء ، وظاهر كلام الشيخين أن أم متصلة .

واختار العلامة الطيبي أنها منقطعة فقال : إنهم لما سمعوا منه عليه السلام ما يدل على تحقير آلهتهم وتضليلهم وآبائهم على أبلغ وجه وشاهدوا منه الغلظة والجد طلبوا منه عليه السلام البرهان فكأنهم قالوا هب إنا قد قلدنا آباءنا فيما نحن فيه فهل معك دليل على ما ادعيت أجئتنا بالحق ثم أضربوا عن ذلك وجاؤا بأم المتضمنة لمعنى بل الإضرابية والهمزة التقديرية فاضربوا ببل عما أثبتوا له وقرروا بالهمزة خلافه على سبيل التوكيد والبت ، وذلك أنهم قطعوا أنه لاعب وليس بمحق البتة لأن إدخالهم إياه في زمرة اللاعبين أي أنت غريق في اللعب داخل في زمرة الذين قصارى أمرهم في إثبات الدعاوي اللعب واللهو على سبيل الكناية الإيمائية دل على إثبات ذلك بالدليل والبرهان ، وهذه الكناية توقفك على أن أم لا يجوز أن تكون متصلة قطعاً وكذا بل فيما بعد انتهى ؛ والحق أن جواز الانقطاع مما لا ريب فيه ، وأما وجوبه ففيه ما فيه .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض الذى فطَرَهُنَّ ﴾

أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جعلتها أنتم وآباؤكم وما تعبدون من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ، وهذا انتقال عن تضليلهم في عبادة الأصنام ونفي عدم استحقاقها لذلك إلى بيان الحق وتعيين المستحق للعبادة ، وضمير ﴿ فَطَرَهُنَّ ﴾ أما للسموات والأرض واستظهره أبو حيان ، ووصفه تعالى بإيجادهن إثر وفه سبحانه بربوبيته لهن تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل عن الربوبية التي هي منشأ استحقاق العبادة ، وإما للتماثيل ورجح بأنه أدخل في تحقيق الحق وإرشاد المخاطبين إليه ، وليس هذا الضمير من الضمائر التي تخص من يعقل من المؤنثات كما ظنه ابن عطية فتكلف لتوجيه عوده لما لا يعقل ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ تذييل متضمن لرد نسبتهم إياه عليه السلام إلى اللعب والهزل ، والإشارة إلى المذكور ، والجار الأول متعلق بمحذوف أي وأنا شاهد على ذلك من الشاهدين أو على جهة البيان أي أعني على ذلكم أو متعلق بالوصف بعده وإن كان في صلة أل لا تساعهم في المظروف أقوال مشهورة ، والمعنى وأنا على ذلكم الذي ذكرته من العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين

عليه ولست من اللاعبين ، فإن الشاهد على الشيء من تحققه وحققه وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليها وإثباته بها .

(67/511)

وقال شيخ الإسلام : إن قوله : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ ﴾ الخ إضراب عما بنوا عليه مقالهم من اعتقاد كون تلك التماثيل أرباباً لهم كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل ربكم الخ ؛ وقال القاضي : هو إضراب عن كونه عليه السلام لاعباً بإقامة البرهان على ما أدعاه ، وجعله الطيبي إضراباً عن ذلك أيضاً قال : وهذا الجواب وارد على الأسلوب الحكيم ، وكان من الظاهر أن يجيبهم عليه السلام بقوله بل أنا من المحقين ولست من اللاعبين فجاء بقوله : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ ﴾ الآية لينبه به على أن إطالي لما أنتم عاكفون عليه وتضليلي إياكم مما لا حاجة فيه لوضوحه إلى الدليل ولكن انظروا إلى هذه العظيمة وهي أنكم تتركون عبادة خالقكم ومالك أمركم ورازقكم ومالك العالمين والذي فطر ما أنتم لها عاكفون وتشتغلون بعبادتها دونه فأي باطل أظهر من ذلك وأي ضلال أبين منه .

وقوله : ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ تذييل للجواب بما هو مقابل لقولهم ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ [الأنبياء : 55] من حيث الأسلوب وهو الكناية ومن حيث التركيب

وهو بناء الخبر على الضمير كأنه قال : لست من اللاعبين في الدعاوي بل من العالمين فيها بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدعاوي اه ، ولا يخفى أنه يمكن إجراء هذا على احتمال كون أم متصلة فافهم وتأمل ليظهر لك أي التوجيهات لهذا الإضراب أولى .

(68/511)

﴿ وتالله لأكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ أي لأجتهدن في كسرها ، وأصل الكيد الاحتيال في إيجاد ما يضر مع إظهر خلافه وهو يستلزم الاجتهاد فتجوز به عنه ، وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل ليختاطوا في الحفظ فيكون الظفر بالمطلوب أتم في التبكيت ، وكان هذا منه عليه السلام عزماً على الإرشاد إلى ضلالهم بنوع آخر ، ولا يأباه ما روى عن قتادة أنه قال : نرى أنه عليه السلام قال ذلك من حيث لا يسمعون وقيل سمعه رجل واحد منهم ، وقيل : قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس يوم خرجوا إلى العيد وكانت الأصنام سبعين : وقيل إثنين وسبعين .

وقرأ معاذ بن جبل .

وأحمد بن حنبل ﴿ بالله ﴾ بالباء ثانية الحروف وهي أصل حروف القسم إذ تدخل على

الظاهر والمضمر ويصرح بفعل القسم معها ويحذف والتاء بدل من الواو كما في تجاه والواو قائمة مقام الباء للمناسبة بينهما من حيث كونهما شفويتين ومن حيث أن الواو تفيد معنى قريباً من معنى الإلصاق على ما ذكره كثير من النحاة.

وتعقبه في "البحر" بأنه لا يقوم على ذلك دليل، وقد رده السهيلي، والذي يقتضيه النظر إنه ليس شيء من هذه الأحرف أصلاً لآخر، وفرق بعضهم بين الباء والتاء بأن في التاء المثناة زيادة معنى وهو التعجب، وكان التعجب هنا من إقدامه عليه السلام على أمر فيه مخاطرة.

ونصوص النحاة أن التاء يجوز أن يكون معها تعجب ويجوز أن لا يكون واللام هي التي يلزمها التعجب في القسم، وفرق آخرون بينهما استعمالاً بأن التاء لا تستعمل إلا مع اسم الله الجليل أو مع رب مضافاً إلى اللكعبة على قلة ﴿ بَعْدَ أَن توَلوا مُدْبِرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم.

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ توَلَّوْا ﴾ من التولي بحذف إحدى التاءين وهي الثانية عند البصريين والأولى عند هشام، ويعضد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿ فَتوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [الصافات: 90] والفاء في

﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ فصيحة أي فولوا فأتى إبراهيم عليه السلام الأصنام فجعلهم ﴿ جُذَاذاً ﴾ أي قطعاً فعال بمعنى مفعول من الجذ الذي هو القطع ، قال الشاعر

: بنو المهلب جذ الله دابرهم . . .

أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف

فهو كالحطام من الحطم الذي هو الكسر ، وقرأ الكسائي .

وابن محيصن .

وابن مقسم .

وأبو حيوة .

وحميد والأعمش في رواية ﴿ جُذَاذاً ﴾ بكسر الجيم ، وابن عباس .

وابن نهيك .

وأبو السمال ﴿ جُذَاذاً ﴾ بالفتح ، والضم قراءة الجمهور ، وهي كما روى ابن جني عن أبي حاتم لغات أجودها الضم ؛ ونص قطرب أنه في لغات أجودها الضم ؛ ونص قطرب أنه في لغاته الثلاث مصدر لا يثنى ولا يجمع ، وقال اليزيدي : جذاذاً بالضم جمع جذاذة كزجاج وزجاجة ، وقيل : بالكسر جمع جذيذ ككريم وكرام ، وقيل : هو بالفتح مصدر كالحصاد بمعنى المحصود .

وقرأ يحيى بن وثابت ﴿ جُذَاذاً ﴾ بضمتين جمع جذيذ كسرير وسرر ، وقرىء ﴿ جذذاً ﴾ بضم ففتح جمع جذة كقبة وقبب أو مخفف فعل بضمتين .

روى أن آزر خرج به في عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا فلما كان إبراهيم عليه السلام في الطريق ثنى عزمه عن المسير معهم فقعد وقال ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] فدخل على الأصنام وهي مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كان في يده ولم يبق إلا الكبير وعلق الفأس في عنقه ، وقيل : في يده وذلك قوله تعالى : ﴿ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ أي الأصنام كما هو الظاهر مما سيأتي إن شاء الله تعالى .

(70/511)

وضمير العقلاء هنا وفيما مر على زعم الكفرة ، والكبر إما في لمنزلة على زعمهم أيضاً أو في الجثة ، وقال أبو حيان : يحتمل أن يكون الضمير للعبدة ، قيل : ويؤيده أنه لو كان للأصنام لقيل إلا كبيرهم ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ استئناف لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير ، وضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عند الجمهور عائد على إبراهيم عليه السلام أي لعلهم يرجعون إلى

إبراهيم عليه السلام لا إلى غيره فيحاجهم ويبكتهم بما سيأتي من الجواب إن شاء الله تعالى ، وقيل : الضمير لله تعالى أي لعلهم يرجعون إلى الله تعالى وتوحيده حين يسألونه عليه السلام فيجيبهم ، ويظهر عجز آلهتهم ويعلم من هذا أن قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ ليس أجنبياً في البين على هذا القول كما توهم نعم لا يخفى بعده .

وعن الكلبي أن الضمير للكبير أي لعلهم يرجعون إلى الكبير كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون له ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً والفأس في عنقك أو في يدك ؟ وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ويظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم ، وكأن هذا بناء على ظنه عليه السلام بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها .

ويحتمل أنه عليه السلام يعلم أنهم لا يرجعون إليه لكن ذلك من باب الاستهزاء والاستجهال واعتبار حال الكبير عندهم فإن قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع إليه في حل المشكل ، وعلى الاحتمالين لا إشكال في دخول لعل في الكلام ، ولعل هذا الوجه أسرع الأوجه تبادراً لكن جمهور المفسرين على الأول ، والجار والمجرور متعلق بيرجعون ، والتقديم للحصر على الأوجه الثلاثة على ما قيل ، وقيل : هو متعين لذلك في الوجه الأول وغير متعين له في الأخيرين بل يجوز أن يكون لأداء حق الفاصلة فتأمل .

وقد يستأنس بفعل إبراهيم عليه السلام من كسر الأصنام لمن قال من أصحابنا إنه لا ضمان على من كسر ما يعمل من الفخار مثلاً من الصور ليلعب به الصبيان ونحوهم وهو القول المشهور عند الجمهور. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(72/511)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44) ﴾

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله، لا من مانع يمنعهم من الهلاك، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَءَابَاءهُمْ ﴾ يعني: أهل مكة متعهّم الله بما أنعم عليهم ﴿ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ فاغترّوا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك، فرد سبحانه عليهم قائلاً: ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ ﴾ أي أفلا ينظرون فيرون ﴿ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي أرض الكفر ننقصها بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلداً بعد بلد

وأرضاً بعد أرض ، وقيل : ننقصها بالقتل والسبي ، وقد مضى في الرعد الكلام على هذا مستوفى ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَهُمُ الغالبون ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، أي كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ وفي هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحي ﴾ أي أخوّفكم وأحذركم بالقرآن ، وذلك شأني وما أمرني الله به ، وقوله : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعاء ﴾ إما من تتمة الكلام الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم ، أو من جهة الله تعالى .

والمعنى : أن من أصمّ الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء .

قرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميفع " ولا يسمع " بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله .

وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ، أي إنك يا محمد لا تسمع هؤلاء .

قال أبو علي الفارسي : ولو كان كما قال ابن عامر لكان : إذا ما تنذرهم ، فيحسن نظم الكلام ، فأما ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ فحسن أن يتبع قراءة العامة .

وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ المراد بالنفحة : القليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، ومنه قول الشاعر :

وعمرة من سروات النساء . . . تنفَّحُ بالمسك أردانها

وقال المبرد : النفحة : الدفعة من الشيء التي دون معظمه ، يقال : نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة .

وقيل : هي النصيب ، وقيل هي الطرف .

والمعنى متقارب ، أي ولئن مسهم أقلّ شيء من العذاب ﴿ لَيَقُولُنَّ يَاوِيلنا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة ﴾ الموازين جمع ميزان ، وهو يدل على أن هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان واحد ، عبر عنه بلفظ الجمع ، وقد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى في الأعراف ، وفي الكهف في هذا ما يغني عن الإعادة . والقسط : صفة للموازين .

قال الزجاج : قسط : مصدر يوصف به ، تقول : ميزان قسط وموازين قسط ، والمعنى :

ذوات قسط ، والقسط : العدل .

وقرئ " القصط " بالصاد والطاء ، ومعنى ﴿ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لأهل يوم القيامة .

وقيل : اللام بمعنى في ، أي في يوم القيامة ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة ، أي إن وقع أو وجد مثقال حبة .

وقرأ الباقون بنصب المثقال على تقدير : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج .

وقال أبو عليّ الفارسي : وإن كان الظلامة مثقال حبة .

(74/511)

قال الواحدي : وهذا أحسن لتقدّم قوله : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ ، ومثقال الشيء ميزانه ، أي وإن كان في غاية الخفة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل في الصغر ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ قرأ الجمهور بالقصر ، أي أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ، و﴿ بها ﴾ أي بحبة الخردل .

وقرأ مجاهد وعكرمة : " آتينا " بالمدّ على معنى : جازينا بها ، يقال : آتى يؤاتي مؤاتاة

جازى ﴿ وكفى بِنَا حاسبين ﴾ أي كفى بنا محصين.

والحسب في الأصل معناه: العدّ؛ وقيل: كفى بنا عالمين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه، وقيل: كفى بنا مجازين على ما قدّموه من خير وشرّ.

ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمله سابقاً بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمُ ﴾ [الأنبياء: 7] فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ المراد بالفرقان: هنا: التوراة، لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام، وقيل: الفرقان هنا هو: النصر على الأعداء كما في قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان ﴾ [الأنفال: 41].

قال الثعلبي: وهذا القول أشبه بظاهر الآية، ومعنى ﴿ وضياء ﴾: أنهم استضاؤوا بها في ظلمات الجهل والغواية، ومعنى ﴿ وذكرا ﴾ الموعظة، أي أنهم يتعظون بما فيها، وخصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك، ووصفهم بقوله: ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى.

ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من المتقين أو بياناً له، ومحل ﴿ بالغيب ﴾ النصب على الحال، أي يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو هم غائبون عنه لأنهم في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

وقرأ ابن عباس وعكرمة: ﴿ ضياء ﴾ بغير واو.

قال الفراء : حذف الواو والمجيء بها واحد ، واعترضه الزجاج بأن الواو تجيء لمعنى فلا تزاد ﴿ وَهُمْ مّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ أي وهم من القيامة خائفون وجلون ، والإشارة بقوله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ إلى القرآن .

قال الزجاج : المعنى : وهذا القرآن ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ، والمبارك كثير البركة والخير .

وقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ صفة ثانية للذكر ، أو خبر بعد خبر ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار ، أي كيف تنكرون كونه منزلاً من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ أي الرشد اللائق به وأمثاله من الرسل ، ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ : أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهارون التوراة .

وقال الفراء : المعنى : أعطيناه هداه من قبل النبوّة ، أي وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وبالأوّل قال أقلهم ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ أنه موضع لإيتاء الرشد ، وأنه يصلح لذلك ، والظرف في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ

لأبيه ﴾ متعلق بآتينا أو بمحذوف، أي اذكر حين قال، وأبوه هو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمروذ ومن اتبعه، والتماثيل: الأصنام.

وأصل التمثال: الشيء المصنوع مشابهاً لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال: مثلت الشيء بالشيء: إذا جعلته مشابهاً له، واسم ذلك الممثل تمثال، أنكر عليهم عبادتها بقوله: ﴿ مَا هذه التماثيل التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، واللام في ﴿ لها ﴾ للاختصاص، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على، أي ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟ وقيل: إن العكوف مضمن معنى العبادة.

(76/511)

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾ أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء، أي وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقتهم، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، وإن العالم بالكتاب والسنّة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين

وبرأيه آخذين ، وجوابهم : هو ما أجاب به الخليل ها هنا ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوي هذا الخسران خسران ، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنّة رسوله كتاباً قد دوّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها ، إما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار :

كأنه علم في رأسه نار . . . وقال : هذا كتاب الله أو هذه سنّة رسوله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد . . . فما آمن في دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأوّل :

ما أنا إلا من غزية إن غوت . . . غويت وأن ترشد غزية أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى . . . ومنهج الحقّ له واضح

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ أي أجادّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ قال : مضرباً عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض *الذى فطَرَهُنَّ ﴾ أي خلقهنّ وأبدعهنّ ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم ﴾ الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات والأرض دون ما عداه ﴿ مّنَ الشاهدين ﴾ أي العالمين به المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به مبرهناً عليه مبيناً له .

وقد أخرج أحمد والترمذي ، وابن جرير في تهذيبه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عائشة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل " ، فجعل الرجل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما تقرأ كتاب الله : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حاسبين ﴾ " فقال له الرجل : يا رسول الله ، ما أجد لي ولهم خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار .

رواه أحمد هكذا : حدّثنا أبو نوح قراد ، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة ، عن عائشة فذكره ، وفي معناه أحاديث .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان وَضِيَاء ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى وهارون الفرقان ﴾ قال : التوراة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه .

(78/511)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : ﴿ الفرقان ﴾ : الحقّ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ أي القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ قال : هديناه صغيراً ، وفي قوله : ﴿ مَا هذه التماثيل ﴾ قال : الأصنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالجد في دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال : ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ قال الزمخشريّ رحمه الله : الضمير في فَطَرَهُنَّ للسماوات والأرض أو للتماثيل . وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أي : لدلالته صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالتهم في اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم : ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء : 71] ، كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل : ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ الآية . أو إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله : ﴿ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : المبرهنين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاطل منها .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها : ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أي : عنها بفراغكم من عبادتها .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ أي : قطعاً مكسرة ، بعد أن ولوا عنها ، ليعلموا أنها لا تتحلم إلى

هذا الحدّ . فهو عجّزهم في الدفع عن أنفسهم . فتوقعُ عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه : ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : فيسألونه : لم فعل بآلهتهم ؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق ، فمن دونه أعجز منه في ذلك . فضلاً عن الدفع للذي أظهر عجزهم فيه .

فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 210.211 ﴾

(80/511)

وقال ابن عاشور :

ولإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالاً ، وإيقانِهم أن آباءهم على الحق ، شكُّوا في حال إبراهيم أنطَق عن جِد منه وأن ذلك اعتقاده فقالوا ﴿ أجئتنا بالحق ﴾ ، فعبروا عنه ﴿ بالحق ﴾ المقابل للعب وذلك مسمى الجِدّ .

فالمعنى : بالحق في اعتقادك أم أردت به المزح ، فاستفهموا وسألوه ﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ .

والباء للمصاحبة .

والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المسمّى مزحاً ، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح التلطّفَ

معه وتجنبَ نسبته إلى الباطل استجلاباً لخاطره لما رأوا من قوة حجته .

وعُدل عن الإخبار عنه بوصف لاعب إلى الإخبار بأنه من زمرة اللاعبين مبالغة في توغل كلامه ذلك في باب المزح بحيث يكون قائله متمكناً في اللعب ومعدوداً من الفريق الموصوف باللعب .

وجاء هو في جوابهم بالإضراب عن قولهم ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ لإبطال أن يكون من اللاعبين ، وإثبات أن ربهم هو الرب الذي خلق السماوات ، أي وليست تلك التماثيل أرباباً إذ لا نزاع في أنها لم تخلق السماوات والأرض بل هي مصنوعة منحوتة من الحجارة كما في الآية الأخرى ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : 95] فلما شذّ عنها خلق السماوات والأرض كما هو غير منكَر منكم فهي منحوتة من أجزاء الأرض فما هي إلاّ مربوبة مخلوقة وليست أرباباً ولا خالقة .

فضمير الجمع في قوله تعالى ﴿ فطرهنّ ﴾ ضمير السماوات والأرض لا محالة .

فكان جواب إبراهيم إبطالاً لقولهم ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ معَ مستند الإبطال بإقامة الدليل على أنه جاءهم بالحق .

وليس فيه طريقة الأسلوب الحكيم كما ظنه الطيبي .

وقوله تعالى : ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ إعلام لهم بأنه مُرسل من الله لإقامة دين التوحيد لأن رسول كلّ أمة شهيد عليها كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] ، ولم يكن يومئذ في قومه من يشهد ببطلان إلهية أصنامهم ، فتعين أن المقصود من الشاهدين أنه بعض الذين شهدوا بتوحيد الله بالإلهية في مختلف الأزمان أو الأقطار .

ويحتمل معنى التأكيد لذلك بمنزلة القَسَم ، كقول الفرزدق:

شهد الفرزدق حين يلقى ربه . . .

أن الوليد أحقُّ بالعذر

ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلناً عزمه على ذلك بقوله : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ مؤكداً عزمه بالقسم ، فالواو عاطفة جملة القسم على جملة الخبر التي قبلها .

والتاء تختص بقسمٍ على أمر متعجب منه وتختص باسم الجلالة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف ﴾ [يوسف : 85] .

وسمى تكسيره الأصنام كَيْداً على طريق الاستعارة أو المشاكلة التقديرية لاعتقاد المخاطبين أنهم يزعمون أن الأصنام تدفع عن أنفسها فلا يستطيع أن يمسها بسوء إلا على

سبيل الكيد .

والكيْد : التحيل على إلحاق الضر في صورة غير مكروهة عند المتضرر .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ في [سورة يوسف : 28] .

وإنما قيد كيده بما بعد انصراف المخاطبين إشارة إلى أنه يلحق الضر بالأصنام في أول وقت التمكن منه ، وهذا من عزمه عليه السلام لأن المبادَرة في تغيير المنكر مع كونه باليد مقام عزم وهو لا يتمكن من ذلك مع حضور عبدة الأصنام فلو حاول كسرها بحضرتهم لكان عمله باطلاً ، والمقصود من تغيير المنكر : إزالته بقدر الإمكان ، ولذلك فإزالته باليد لا تكون إلا مع المكنة .

﴿ ومدبرين ﴾ حال مؤكدة لعاملها .

وقد تقدم نظيره غير مرة منها عند قوله تعالى ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ في [سورة براءة : 25].

(82/511)

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) ﴾

الضميران البارزان في ﴿ جعلهم ﴾ وفي ﴿ لهم ﴾ عائدان إلى الأصنام بتنزيلها منزلة

العاقل، وضمير ﴿ لعلهم ﴾ عائد إلى قوم إبراهيم، والقرينة تصرف الضمائر المتماثلة إلى مصارفها مثل ضميري الجمع في قوله تعالى ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ [الروم : 9].

والجُذاذ بضم الجيم في قراءة الجمهور : اسم جمع جُذاذة، وهي فُعالة من الجذّ، وهو القطع مثل قُلامة وكُناسة، أي كسرهم وجعلهم قطعاً.

وقرأ الكسائي ﴿ جِذاذاً ﴾ بكسر الجيم على أنه مصدر، فهو من الإخبار بالمصدر للمبالغة.

قيل : كانت الأصنام سبعين صنماً مصطفة ومعها صنم عظيم وكان هو مقابل باب بيت الأصنام، وبعد أن كسرها جعل الفأس في رقبة الصنم الأكبر استهزاء بهم.

ومعنى ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ رجاء أن يرجع الأقوام إلى استشارة الصنم الأكبر ليخبرهم بمن كسر بقية الأصنام لأنه يعلم أن جهلهم يطمعهم في استشارة الصنم الكبير.

ولعل المراد استشارة سدنته ليخبروهم بما يتلقونه من وحيه المزعوم.

وضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى الأصنام من قوله ﴿ أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57].

وأجري على الأصنام ضمير جمع العقلاء محاكاة لمعنى كلام إبراهيم لأن قومه يحسبون الأصنام عقلاء، ومثله ضمائر قوله بعده ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ [الأنبياء : 63].

وهذا العمل الذي عمله إبراهيم عمله بعد أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام والكواكب ورأى جماحهم عن الحجة الواضحة كما ذكر في سورة الأنعام. انتهى انتهى. ا. هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(83/511)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) ﴾

يعني : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ ؟ أم أنك تهْزر معنا ؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جِدّاً ؛ لأنه بعيد عن مداركهم . ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات . . . ﴾ .

يردّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذي يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذي يستحق العبادة هو الله ربُّ السماوات والأرض : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ . . . ﴾ [الأنبياء : 56] ف (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبِت الحكم لما بعدها ﴿ الذي فطَرَهُنَّ . . . ﴾ [الأنبياء : 56] يعني : خَلَق السماوات والأرض والأصنام ، وكل ما في الوجود .

﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين ﴾ [الأنبياء : 56] والشاهد هو الذي اهتدى إلى

الحق ، كأنه رأى العَيْن ، وليس مع العين أَين ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السماوات والأرض ومعي الدليل على هذه الحقيقة . ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ . . . ﴾ .

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام ﴿ وتالله . . . ﴾ [الأنبياء : 57] والتاء هنا للقسم ﴿ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 57] وهل الأصنام تُكَاد ؟ أم أن المراد : لأكيدنكم في أصنامكم ؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار في غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حِراء ؛ لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحِراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور ؛ لأنه صار في منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى . . . الرُّوحَ أَمِيناً يغزُوك بالأَنْوارِ

(84/511)

فَحِرَاءُ وَثَوْرٌ صَارَا سَوَاءً . . . بِهِمَا تشفع لدولةِ الأَحْجَارِ

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ . . . للهِ مِنَ القَائِمينَ بالأَسْحَارِ

تخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دَليلاً . . . فَغَدَوْنَا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

لأن الله قال : ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة . . . ﴾ [البقرة : 24] .

قَدْ تجَنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ . . . تَجنَّوْهُ على ابْنِ مريم والحَوارِي

لِلْمُغَالِي جزَاؤُهُ والمغالَي فِيهِ . . . تُنْجيهِ رَحْمَةُ الغَفَّارِ

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم – عليه السلام – يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملي الذي لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُوني وليردّوا الفأْسَ من يدي ، وإنْ كنتُ على حق تركوني وما أفعل .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ أَن تولّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : 57] أي : بعد أنْ تنصرفوا عنها .

يعني : على حين غَفْلة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً . . . ﴾ .

ونلحظ هنا أن السياق القرآني يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما في قصة سليمان – عليه السلام – والهدهد : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28] وحَذْف ما كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها

، وأنها أخذَتْه وعرضَتْه على مستشاريها : ﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأإني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 29] .

(85/511)

ومعنى ﴿ جُذَاذاً . . . ﴾ [الأنبياء : 58] أي : قطعاً متناثرة وحطاماً ، بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة ﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 58] أي : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور) ، بحيث يكون الكبير في الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعني : كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون في عينه الزبرجد ، حتى يُخيَّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 58] فيسألونه عَمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأْس على كتفه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(86/511)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) ﴾

قوله : ﴿ بالحق ﴾ : متعلقٌ ب " جِئْتَ " . وليس المرادُ به حقيقةَ المجيء ؛ إذ لم يكنْ غائباً . و " أم أنت " " أم " متصلةٌ وإنْ كان بعدها جملةٌ لأنها في حكم المفردِ ، إذ التقديرُ : أيُّ الأمرَيْن واقعٌ : مجيئُك بالحقِّ أم لَعِبُك ؟ كقوله :

3350 ما أبالي أَنَبَّ بالحَزْنِ تَيْسٌ . . . أم جفاني بظهرِ غَيْبٍ لئيمُ

وقوله :

3351 لَعَمْرُك ما أَدْرِي وإن كنتُ دارياً . . . شُعَيْثُ بنُ سَهْمٍ أم شُعَيْثُ بنُ مِنْقَرِ

يريد : أيُّ الأمرَيْنِ واقع ؟ ولو كانَتْ منقطعةً لقُدِّرَتْ ب بل والهمزةِ ، وليس ذلك مُراداً .

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56)

قوله : ﴿ الذي فطَرَهُنَّ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مرفوعَ الموضعِ ، أو منصوبَه على القطع . والضميرُ المنصوبُ في " فَطَرَهُنَّ " للسماواتِ والأرض . قال الشيخ : " ولَمَّا لم تكنْ السماواتُ والأرضُ تبلغُ في العددِ الكثيرِ منه جاء الضميرُ ضميرَ القلة " . قلت : إنْ عنى لم يَبْلُغْ كلُّ واحدٍ من السماواتِ والأرض فمُسَلَّم ، ولكنه غيرُ مرادٍ بل المرادُ المجموعُ . وإنْ عنى لم يبلُغْ المجموعُ منهما فغيرُ مُسَلَّمٍ ؛ لأنه يبلغ أربعَ عشرةَ ، وهو في حدِّ جمع الكثرةِ ، اللهم

إلاَّ أَنْ نقولَ : إنَّ الأرضَ شخصٌ واحدٌ ، وليسَتْ بسبعٍ كالسماءِ على ما رآه بعضُهم فَيَصِحُّ له ذلك ولكنه غيرُ مُعَوَّلٍ عليه .

(87/511)

وقيل : على التماثيل . قال الزمخشري : " وكونُه للتماثيل أثبتُ لتَضْليلِهم ، وأدخلُ في الاحتجاجِ عليهم " . وقال ابن عطية : فَطَرَهُنَّ عبارةٌ عنها كأنها تَعْقِلُ ، وهذه من حيث لها طاعةٌ وانقيادٌ ، وقد وُصِفَتْ في مواضعَ بوصْفِ مَنْ يَعْقِل " . وقال غيرُه : " فَطَرَهُنَّ : أعادَ ضميرَ مَنْ يَعْقِل لَمَّا صَدَرَ منهنَّ من الأحوالِ التي تَدُلُّ على أنَّها من قبيل مَنْ يَعْقِلُ ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى أخبر بقوِله : { أَتَيْنَا طَآئِعِينَ } [فصلت : 11] . وقوله عليه السلام : " أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ " .

قلت : كأنَّ ابنَ عطيةَ وهذا القائلَ تَوَهَّما أن " هُنَّ " ، من الضمائرِ المختصةِ بالمؤنثات العاقلاتِ ، وليس كذلك بل هو لفظٌ مشتركٌ بين العلاقاتِ وغيرها . قال تعالى : { مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } [التوبة : 36] ثم قال تعالى : { فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ } .

قوله : { على ذلكم } متعلقٌ بمحذوفٍ ، أو ب " الشاهدين " اتساعاً ، أو على البيان . وقد تقدَّم نظيرُه نحو : { لَكُمَا لَمِنَ الناصحين } [الأعراف : 21] .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

قوله : ﴿ وتالله ﴾ : قرأ العامَّة بالتاءِ مثنَّاةً من فوقُ . وقرأ معاذ بن جبل وأحمد بن حنبل بالباء موحدة . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : ما الفرقُ بين الباءِ والتاءِ ؟ قلت : الباءُ هي الأصلُ ، والتاءُ بدلٌ من الواو المُبْدَل منها ، وإنَّ التاءَ فيها زيادةُ معنىً ، وهو التعجبُ ، كأنه تَعَجَّبَ من تسهيلِ الكيدِ على يدِه وتَأَتِّيه " . أمَّا قولُه : " إن الباءَ هي الأصلُ " فيدلُّ على ذلك تَصَرُّفُها في الباب ، بخلافِ الواوِ والتاءِ ، وإن كان السهيليُّ قد ردَّ كونَ الواوِ بدلاً منها .

(88/511)

وقال الشيخ : " النظرُ يقتضي أنَّ كلاًّ منها أصلٌ . وأمَّا قولُه " التعجبُ " فنصوصُ النَّحْويين أنه يجوزُ فيها التعجبُ وعدمُه ، وإما يلزمُ ذلك مع اللامِ كقوله :

3352 للهِ يَبْقى على الأيَّامِ ذو حِيَدٍ . . . بمُشْمَخِرٍّ به الظَّيَّانُ والآوسُ

و" بعدَ " منصوبٌ ب " لأَكِيْدَنَّ " . و" مُدْبرِين " حالٌ مؤكِّدةٌ ، لأنَّ " تُوَلُّوا " تُفْهِمُ معناها . وقرأ العامَّة " تُوَلُّوا " بضم التاءِ واللامِ مضارعَ " ولى " مشددا . وقرأ عيسى بن عمر " تَوَلَّوا " بفتحِهما مضارعَ " تولى " والأصل " تَتَوَلَّوا " فحذف إحدى التاءين : إمَّا الأولى على رأي

هشام، وإمَّا الثانية على رأي البصريين. ويَنْصُرُها قراءةُ الجميع ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [الصافات: 90] ولم يقرأ أحدٌ "فَوَلَّوْا" وهي قياسُ قراءةِ الناس هنا. وعلى كلتا القراءتين فلامُ الكلمةِ محذوفٌ وهو الياءُ لأنه مِنْ وَلِي.

ومتعلَّقُ هذا الفعلِ محذوفٌ تقديرُه: تُوَلُّوا إلى عيدكم، ونحوُه.

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

قوله: ﴿ جُذَاذاً ﴾: قرأ العامَّة "جُذاذاً" بضمِّ الجيم. والكسائيُّ بكسرِها، وابن عباس وأبو نهيك وأبو السَّمَّال بفتحِها. قال قطرب: هي في لغاتها كلِّها مصدرٌ فلا يثنَّى ولا يُجمع ولا يؤنَّثُ. والظاهرُ أن المضمومَ اسمٌ للشيءِ المكسَّرِ كالحُطام والرُّفات والفُتاتِ بمعنى الشيء المحطَّمِ والمفتَّتِ. وقال اليزيديُّ: "المضمومُ جمع جُذاذة بالضم نحو: زُجاج في زُجاجة، والمكسورُ جمع جَذيذ نحو: كِرام في كريم". وقال بعضُهم: المفتوحُ مصدرٌ بمعنى المفعولِ أي: مَجْذوذين. ويجوز على هذا أن يكونَ على حَذْفِ مضافٍ أي: ذوات جُذاذ. وقيل: المضمومُ جمع جُذاذة بالضمِّ، والمسكورُ جمع جِذاذة بالكسر، والمفتوح مصدرٌ.

وقرأ ابن وثاب " جُذُذاً " بضمَّتين دون إلفٍ بين الذَّالَيْن ، وهو جمع جَذِيذ كقَلِيب وقُلُب .

وقُرِىء بضمِّ الجيمِ وفتحِ الذال . وفيها وجهان ، أحدهما : أن يكونَ أصلُها ضمتين ، وإنما خُفِّف بإبدال الضمةِ فتحةً نحو : سُرَر وذُلَل في جمع سَرِير وذَليل ، وهي لغةٌ لبني كَلْب .

والثاني : أنه جمع جُذَّة نحو : قُتَت في قُتَّة ، ودُرَر في دُرَّة .

والجَذُّ : القطعُ والتكسير ، وعليه قوله :

3353 بنو المهلبِ جَذَّ اللهُ دابِرَهُمْ . . . أَمْسَوْا رَماداً فلا أَصْلٌ ولا طَرَفُ

وقد تقدَّم هذا مستوفىً في هود .

وأتى ب " هم " وهو ضميرُ العقلاءِ معاملةً للأصنام معاملةَ العقلاءِ ، حيث اعتقدوا فيها ذلك .

قوله : ﴿ إِلاَّ كَبِيراً ﴾ استثناءٌ من المنصوب في " فَجَعَلَهم " ، أي : لم يكسِرْه بل تركه . و" لهم " صفةٌ له ، والضمير يجوز أن يعود على الأصنام . وتأويلُ عودِ ضميرِ العقلاءِ عليها تقدَّم . ويجوز أن يكون عائداً على عابديها . والضميرُ في " إليه " يجوز أن يعود إلى إبراهيم أي : يَرْجِعون إلى مقالتِه حين يظهر لهم الحقُّ ، ويجوز أَنْ يكونَ عائداً على الكبير ، وبكلٍ قِيل . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 169.174 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

لم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴾ .

فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) ﴾

فأحالهم على النظر والاستدلال والتعرُّف من حيث أدلة القول لأنَّ إثباتَ الصانع لا يُعْرَفُ بالمعجزاتُ ، وإنما المعجزاتُ علم بصدق الأنبياء عليهم السلام ، وذلك فرع لمعرفة الصانع .

ثم بيّن لهم أنَّ ما عبدوه من دون الله لا يستحق العبادة ، ثم إنه لم يَحْفِلْ بما يُصيبه من البلاء ثقةً منه بأنَّ الله هو المتفرِّدُ بالإبداع ، فلا أحد يملك له ضراً من دون الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 507 . 508 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما عادوا إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال علم أنه لا بد لهم عند ذلك من أمر هائل ، فاستؤنف الإخبار عنه بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي أهل الضلال : ﴿ من فعل هذا ﴾ الفعل الفاحش ﴿ بآلهتنا ﴾ ثم استأنفوا الخبر عن الفاعل فقالوا مؤكدين لعلمهم أن ما أقامه الخليل عليه السلام على بطلانها يميل القلوب إلى اعتقاد أن هذا الفعل حق : ﴿ إنه من الظالمين ﴾ حيث وضع الإهانة في غير موضعها ، فإن الآلهة حقها الإكرام ، لا الإهانة والانتقام ﴿ قالوا ﴾ أي بعضهم لبعض : ﴿ سمعنا ﴾ ولم يريدوا تعظيمه مع شهرته وشهرة أبيه وعظمتهما فيهم ليجترىء عليه من لا يعرفه فنكروه بقولهم : ﴿ فتى ﴾ أي شاباً من الشبان ﴿ يذكرهم ﴾ أي بالنقص والعيب ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ يعنون : فهو الذي يظن أنه فعله ﴿ قالوا ﴾ مسببين عن هذا كارهين لأن يأخذوه سراً فيقال : أخذ بغير بينة ، وهم كفرة وهو قد خالفهم في دينهم فإلى الله المشتكى من قوم يأخذون أكابر أهل دينهم بغير بينة بل ولا ظنة ﴿ فأتوا به ﴾ إلى هنا أي إلى بيت الأصنام ﴿ على أعين الناس ﴾ أي جهرة ، والناس ينظرون إليه نظراً لا خفاء معه حتى كأنه ماشٍ على أبصارهم ، متمكناً منها تمكن

الراكب على المركوب ، وعبر بالعين عن البصر ليفهم الأكابر ، ويجمع القلة لإفادة السياق الكثرة ، فيفيد الأمران قلة ما ، لئلا يتوهم من جمع الكثرة جميع الناس مطلقاً ﴿ لعلهم ﴾ إذا رأوه ﴿ يشهدون ﴾ أي أنه فعل بالآلهة هذا الفعل ، أو أنه ذكرها بسوء ، فيكون ذلك مسوغاً لأخذه بذلك ، أو يشهد بفعله بعضهم ، لأن الشيء إذا حضر كانت أحواله بالذكر أولى منها إذا كان غائباً ، وكان هذا عين ما قصده الخليل عليه السلام أن يبين – في هذا المحفل الذي لا يوجد مثله – ما هم عليه من واضح الجهل المتضمن قلة العقل . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 92.93 ﴾

(92/511)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِئَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾

أي [أن] من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود في الظلمة إما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والإعظام ، وإما لأنهم رأوا إفراطاً في كسرها وتمادياً في الاستهانة بها .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبراهيم ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : ارتفع إبراهيم على وجهين : أحدهما : على معنى يقال هو إبراهيم .

والثاني : على النداء على معنى يقال له يا إبراهيم ، قال صاحب "الكشاف" والصحيح أنه فاعل يقال لأن المراد الاسم دون المسمى .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد ، فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله في آلهتهم فغلب على قلوبهم أنه الفاعل ولو لم يكن إلا قوله ما هذه التماثيل إلى غير ذلك لكفى .

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) ﴾

اعلم أن القوم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل إن فاعله إبراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم : ﴿ فَأْتُوا بِهِ على أَعْيُنِ الناس ﴾ قال صاحب "الكشاف" : على أعين الناس في محل الحال أي فأتوا به مشاهداً أي بمرأى منهم ومنظر .

فإن قلت : ما معنى الاستعلاء في على ؟ قلت : هو وارد على طريق المثل أي يثبت إتيانه في الأعين ثبات الراكب على المركوب .

أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أنهم كرهوا أن يأخذوه بغير

بينة فأرادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل .

وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم .

(93/511)

وثانيهما : وهو قول محمد ابن إسحق أي يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله ، وفيه قول ثالث : وهو قول مقاتل والكلبي أن المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 159 . 160 ﴾

(94/511)

وقال الماوردى :

﴿ قَالُواْ فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾

أي بمرأى من الناس .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يشهدون عقابه ، قاله ابن عباس .

الثاني : يشهدون عليه بما فعل ، لأنهم كرهوا أن يعاقبوه بغير بينة ، قاله الحسن ، وقتادة ، والسدي .

الثالث : يشهدون بما يقول من حجة ، وما يقال له من جواب ، قاله ابن كامل . انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(95/511)

وقال ابن الجوزى :

فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ﴿ قالوا مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ أي : قد فعل ما لم يكن له فِعْلُه ، فقال الذي سمع إِبراهيم يقول : "لأكيدن أصنامكم" : ﴿ سمعنا فتى يَذْكرهم ﴾ قال الفراء : أي : يَعيبهم ؛ تقول للرجل : لئن ذكرتَني لتندمنَّ ، تريد : بسوء .

قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا به على أعيُن الناس ﴾ أي : بمرأىً منهم ، لا تأتُوا به خفْيةً .

قال أبو عبيدة : تقول العرب إِذا أُظهر الأمر وشُهر : كان ذلك على أعين الناس .

قوله تعالى : ﴿ لعلهم يَشهدون ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثاني : يشهدون أنه فعل ذلك ، قاله السدي .

والثالث : يشهدون عقابه وما يُصنَع به ، قاله محمد بن إِسحاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(96/511)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾

المعنى لما رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بآلهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ .

وقيل : "من" ليس استفهاماً ، بل هو ابتداء وخبره "لَمِنَ الظالِمِينَ" .

أي فاعل هذا ظالم .

والأوّل أصح لقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ وهذا هو جواب "مَنْ فَعَلَ هَذا" .

والضمير في "قالوا" للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدّم .

ومعنى "يذكرهم" يعيبهم ويسبّهم فلعله الذي صنع هذا .

واختلف الناس في وجه رفع إبراهيم ؛ فقال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون (خبر مبتدأ) محذوف ، والجملة محكية .

قال : ويجوز أن يكون رفعاً على النداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله .

وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالاً على بناء هذه اللفظة .

أي يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، وهذا كما تقول زيد وزن فَعْل ، أو زيد ثلاثة أحرف ، فلم تدل بوجه على الشخص ، بل دللت بنطقك على نفس اللفظة .

وعلى هذه الطريقة تقول : قلت إبراهيم ، ويكون مفعولاً صحيحاً نزلته منزلة قول وكلام ؛ فلا يتعذر بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للمفعول .

هذا اختيار ابن عطية في رفعه .

وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلي الأعلم : هو رفع على الإهمال .

قال ابن عطية : لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذي قصدوه ، ذهب إلى رفعه بغير شيء ، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتداء .

والفتى الشاب والفتاة الشابة .

وقال ابن عباس : ما أرسل الله نبياً إلا شاباً .

ثم قرأ ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ على أَعْيُنِ الناس ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهي :

(97/511)

أنه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه ، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا : ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما قال ؛ ليكون ذلك حجة عليه .

وقيل : "لعلهم يشهدون" عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه .

أو لعل قوماً "يشهدون" بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو "لعلهم يشهدون" طعنه على آلهتهم ؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب .

قلت : وفي هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدّم ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِهِ على أَعْيُنِ الناس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلاف فيه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(98/511)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي حين رجعوا من عيدهم ورأَوا ما رأوا ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِئَالِهَتِنَا ﴾ على طريقة الإنكارِ والتوبيخِ والتشنيع ، وإنما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا إليها بهؤلاء وهي بين أيديهم مبالغةً في التشنيع وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ استئنافٌ مقرر لما قبله ، وقيل : مَنْ موصولةٌ وهذه الجملةُ في حيز الرفع على أنها خبرٌ لها ، والمعنى الذي فعل هذا الكسرَ والحطْمَ بآلهتنا إنه معدودٌ من جملة الظَّلَمة إما لجُرأته على إهانتها وهي حقيقةٌ بالإعظام أو لإفراطه في الكسر والحطْمِ وتماديه في الاستهانة بها ، أو بتعريض نفسِه للهلكة ﴿ قَالُواْ ﴾ أي بعضٌ منهم مجيبين للسائلين ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ أي يَعيبُهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى : ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ إما مفعولٌ ثانٍ لسمِع لتعلّقه بالعين أو صفةٌ لفتى مصحِّحةٌ لتعلقه به ، إذا كان القائلون سمِعوه عليه السلام بالذات يذْكُرهم وإن كانوا قد سمِعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحّح ﴿ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ صفةٌ أخرى لفتى أي يطلق عليه هذا الاسم .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السائلون ﴿ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس ﴾ أي بمرأىً منهم بحيث نصبَ أعينهم في مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي يحضُرون عقوبتنا له ، وقيل : لعلهم يشهدون أي بفعله أو بقوله ذلك فالضميرُ حينئذ ليس للناس بل

لبعض منهم مُبهم أو معهود ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال نشأ من حكاية قولهم ، كأنه قيل : فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك ؟ هل أتَوا به أو لا ؟ فقيل : أتوا به ثم قالوا : ﴿ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِئَالِهَتِنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ اقتصاراً على حكاية مخاطبِتهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانَهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمرٌ محقق غني عن البيان . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(99/511)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿ مَن فَعَلَ هذا ﴾ الأمر العظيم ﴿ بِآلِهَتِنَا ﴾ قالوه على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع ، والتعبير عنها بالآلهة دون الأصنام أو هؤلاء للمبالغة في التشنيع ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ استئناف مقرر لما قبله ، وجوز أبو البقاء أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ موصولة مبتدأ وهذه الجملة في محل الرفع خبره أي الذي فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة أما لجرأته على إهانتها وهي الحقية بالإعظام أو لتعريض نفسه للهلكة أو لإفراطه في الكسر والحطم ، والظلم على الأوجه الثلاثة بمعنى وضع الشيء في غير موضعه .

﴿ قَالُوا ﴾ أي بعض منهم وهم الذين سمعوا قوله عليه السلام ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] عند بعض ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ يعيبهم فلعله الذي فعل ذلك بهم ، وسمع كما قال بعض الأجلة حقه أن يتعدى إلى واحد كسائر أفعال الحواس كما قرره السهيلي ويتعدى إليه بنفسه كثيراً وقد يتعدى إليه بإلى أو اللام أو الباء ، وتعديه إلى مفعولين مما اختلف فيه فذهب الأخفش .

والفارسي في الإيضاح .

وابن مالك .

وغيرهم إلى أنه إن وليه ما يسمع تعدى إلى واحد كسمعت الحديث وهذا متفق عليه وإن وليه ما لا يسمع تعدي إلى اثنين ثانيهما مما يدل على صوت .

واشترط بعضهم كونه جملة كسمعت زيداً يقول كذا دون قائلاً كذا لأنه دال على ذات لا تسمع ، وأما قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ [الشعراء : 72] فعلى تقدير مضاف أي هل يسمعون دعاءكم ، وقيل : ما أضيف إليه الظرف مغن عنه ، وفيه نظر ، وقال بعضهم : إنه ناصب لواحد بتقدير مضاف مسموع قبل اسم الذات ، والجملة أن كانت حال بعد المعرفة صفة بعد النكرة ولا تكون مفعولاً ثانياً لأنها لا تكون كذلك إلا في الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر وليس هذا منها .

وتعقب بأنه من الملحقات برأي العلمية لأن السمع طريق العلم كما في "التسهيل وشروحه" فجوز هنا كون ﴿ فَتًى ﴾ مفعولاً أولاً وجملة ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ مفعولاً ثانياً ، وكونه مفعولاً والجملة صفة له لأنه نكرة ، وقيل إنها بدل منه ، ورجحه بعضهم باستغنائه عن التجوز والإضمار إذ هي مسموعة والبدل هو المقصود بالنسبة وإبدال الجملة من المفرد جائز .

وفي "الهمع" أن بدل الجملة من المفرد بدل اشتمال ، وفي التصريح قد تبدل الجملة من المفرد بدل كل من كل فلا تغفل ، وقال بعضهم إن كون الجملة صفة أبلغ في نسبة الذكر إليه عليه السلام لما في ذلك من إيقاع الفعل على المسموع منه وجعله بمنزلة المسموع مبالغة في عدم الواسطة فيفيد أنهم سمعوه بدون واسطة .

ووجه بعضهم الأبلغية بغير ما ذكر مما بحث فيه ، ولعله الوجه المذكور مما يتأتى على احتمال البدلية فلا تفوت المبالغة عليه ، وقد يقال : إن هذا التركيب كيفما أعرب أبلغ من قولك سمعنا ذكر فتى ونحوه مما لا يحتاج فيه إلى مفعولين اتفاقاً لما أن ﴿ سَمِعْنَا ﴾ لما تعلق بفتى أفاد إجمالاً أن المسموع نحو ذكره إذ لا معنى لأن يكون نفس الذات مسموعاً ثم إذا ذكر ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ علم ذلك مرة أخرى ولما فيه من تقوى الحكم بتكرر الإسناد على ما بين في علم المعاني ولهذا رجح أسلوب الآية على غيره فتدبر .

وقوله تعالى : ﴿ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ صفة لفتى ، وجوز أن يكون استئنافاً بيانياً والأول

أظهر ، ورفع ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ على أن نائب الفاعل ليقال على اختيار الزمخشري .

وابن عطية ، والمراد لفظه أي يطلق عليه هذا اللفظ ، وقد اختلف في جواز كون مفعول

القول مفرداً لا يؤدي معناه جملة كقلت قصيدة وخطبة ولا هو مصدراً لقول أو صفته كقلت

قولاً أو حقاً فذهب الزجاج .

والزمخشري .

وابن خروف .

وابن مالك إلى الجواز إذ أريد بالمفرد لفظه بل ذكر الدنوشري أنه إذا كان المراد بالمفرد

الواقع بعد القول نفس لفظه تجب حكايته ورعاية إعرابه ، وآخرون إلى المنع قال أبو حيان :

وهو الصحيح إذ لا يحفظ من لسانهم قال فلان زيد ولا قال ضرب وإنما وقع القول في كلامهم

لحكاية الجمل وما في معناها ، وجعل المانعون ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ

محذوف أي هو أو هذا إبراهيم والجملة محكية بالقول كما في قوله

: إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة . . .

وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي إبراهيم فاعله ؛ وأن يكون منادي حذف منه

حرف النداء أي يقال له حين يدعي يا إبراهيم ، وعندي أن الآية ظاهرة فيما اختاره الزمخشري .

وابن عطية ويكفي الظهور مرجحاً في أمثال هذه المطالب ، وذهب الأعلم إلى أن ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ارتفع بالإهمال لأنه لم يتقدمه عامل يؤثر في لفظه إذ القول لا يؤثر إلا في المفرد المتضمن لمعنى الجملة فبقي مهملاً والمهمل إذا ضم إلى غيره ارتفع نحو قولهم واحد واثنان إذا عدوا ولم يدخلوا عاملاً لا في اللفظ ولا في التقدير وعطفوا بعض أسماء العدد على بعض ، ولا يخفى أن كلام هذا الأعلم لا يقوله إلا الأجهل ولأن يكون الرجل أفلح أعلم خير له من أن ينطق بمثله ويتكلم .

﴿ قَالُواْ ﴾ أولئك القائلون ﴿ مَن فَعَلَ ﴾ [الأنبياء : 59] الخ إذا كان الأمر كذا ﴿ فَأْتُواْ بِهِ ﴾ أي أحضروه ﴿ على أَعْيُنِ الناس ﴾ مشاهداً معايناً لهم على أتم وجه كما تفيده على المستعارة لتمكن الرؤية ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له ، وقيل يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود والأول مروي عن ابن عباس .

والضحاك ، والثاني عن الحسن .

وقتادة ، والترجي أوفق به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا ﴾

أي : هذا الفعل الفظيع : ﴿ بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : لجرأته على إهانتها وهي الجديرة عندهم بالتعظيم . أو لإفراطه في التجذيذ والحطم ، وتماديه في الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي : يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثيرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 211 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقول قومه ﴿ من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾

يدل على أنهم لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فَعل ذلك ، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع

توعد إبراهيم إياهم بأن يكيد أصنامهم والذين ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم ﴾ هم الذين

توعد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم .

والفتى : الذكر الذي قوي شبابه .

ويكون من الناس ومن الإبل .

والأنثى : فتاة ، وقد يطلقونه صفة مدح دالة على استكمال خصال الرجل المحمودة .

والذكر : التحدث بالكلام .

وحذف متعلق "يذكر" لدلالة القرينة عليه ، أي يذكرهم بتوعد .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ [الأنبياء : 36] كما تقدم .

وموضع جملتي ﴿ يذكرهم ﴾ و ﴿ يقال له ﴾ في موضع الصفة ل ﴿ فتىً ﴾ .

وفي قولهم يقال له إبراهيم ﴾ دلالة على أن المنتصبين للبحث في القضية لم يكونوا يعرفون

إبراهيم ، أو أن الشهداء أرادوا تحقيره بأنه مجهول لا يعرف وإنما يُدعى أو يسمى إبراهيم ،

أي ليس هو من الناس المعروفين .

ورُفع ﴿ إبراهيمُ ﴾ على أنه نائب فاعلِ ﴿ يُقال ، ﴾ لأن فعل القول إذا بني إلى المجهول

كثيراً ما يضمن معنى الدعوة أو التسمية ، فلذلك حصلت الفائدة من تعديته إلى المفرد البحت وإن كان شأن فعل القول أن لا يتعدّى إلا إلى الجملة أو إلى مفرد فيه معنى الجملة مثل قوله تعالى : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] .

ومعنى ﴿ على أعين الناس ﴾ على مشاهدة الناس ، فاستعير حرف الاستعلاء لتمكن البصر فيه حتى كأنّ المرئي مظروف في الأعين .

ومعنى ﴿ يشهدون ﴾ لعلهم يشهدون عليه بأنه الذي توعد الأصنام بالكيد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(104/511)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) ﴾

أي : لما ذهبوا إلى المعبد الذي يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 59] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه

المسألة ، كيف يقبلون عبادتها ، ولو أوقعت الريحُ أحدهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه ، فأيُّ ألوهية هذه التي يدافعون عن حقوقها ؟ !

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) ﴾

أي : تطوع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلّ الآلهة تجذبه فيهتدي وينصرف عَمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : ﴿ وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : 57] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 60] والذكر هنا يعني بالشر بالنسبة لهم ، ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : 60] يعني : اسمه إبراهيم ، أو حين نناديه نقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ . . . ﴾ .

ومعنى ﴿ على أَعْيُنِ الناس . . . ﴾ [الأنبياء : 61] يعني : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 61] أي : يشهدون ما نُوقِعه به من العذاب حتى لا يجترئ أحد آخر أنْ يفعل هذه الفِعْلة ، ويكون عبرةً لغيره . انتهى ا . هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(106/511)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) ﴾

قوله : ﴿ مَن فَعَلَ ﴾ : يجوز في " مَنْ " أن تكونَ استفهاميةً . وهو الظاهر . فعلى هذا تكونُ الجملةُ مِنْ قولِه " إنَّه لِمن الظالمين " استئنافاً لا محلَّ لها من الإِعراب ، ويجوز أَنْ تكونَ موصولةً بمعنى الذي ، وعلى هذا فالجملةُ من " إنَّه " في محلِ رفع خبراً للموصول . والتقديرُ : الذي فَعَلَ هذا بآلهتنا إنه .

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60)

قوله : ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ : في هذه الجملةِ [وجوهٌ] أحدُها : أنَّ " سمع " هنا تتعدَّى لاثنين لأنها متعلقةٌ بعين ، فيكونُ " فتىً " مفعولاً أول ، و " يَذْكُرُهم " هذه الجملةُ في محلِّ نصبٍ / مفعولاً ثانياً ، ألا ترى أنَّك لو قلتَ : " سمعتُ زيداً " وسكتَّ لم يكن كلاماً بخلافِ سمعت قراءتَه وحديثَه . والثاني : أنَّها في محلِ نصب أيضاً صفةً لإبراهيم ، قال الزمخشري : " فإن قلتَ : ما حكمُ الفعلَيْن بعد " سمعنا " وما الفرقُ بينهما ؟ قلت : هما صفتان ل " فَتَىً " ؛ إلاَّ أنَّ الأولَ وهو " يَذْكُرهم " لا بُدَّ منه ل " سَمِعَ " ؛ لأنك لا تقول : سمعت زيداً ، وتسكتُ ، حتى تذكرَ شيئاً مَّمَّا يُسمع ، وأمَّا الثاني فليس كذلك " .

(107/511)

قلت : هذا الذي قاله لا يتعيَّنُ ؛ لِما عرفْتَ أنَّ " سَمِعَ " إنْ تعلَّقَتْ بما يُسمع نحو " سمعت مقالةَ بكرٍ " فلا خلافَ أنها تتعدَّى لواحدٍ ، وإن تَعَلَّقَتْ بما لا يُسْمَع فلا يُكْتفى به أيضاً بلا خلافٍ ؛ بل لا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ شيءٍ يُسْمَعُ فلو قلت : " سمعتُ زيداً " وسَكَتَّ ، أو " سمعتُ زيداً يركبُ " لم يَجُزْ . فإنْ قلتَ : سمعتُه يَقْرأ صَحَّ . وجرى في ذلك خلافٌ بين النحاةِ ، فأبوا علي يجعلُها متعديةً لاثنين ولا يتمشى عليه قولُ الزمخشري ، وغيرُه يَجْعلها متعديةً لواحد ، ويجعلُ الجملةَ بعد المعرفةِ حالاً ، وبعد النكرةِ صفةً ، وهذا أراد الزمخشري .

قوله : ﴿ إِبْرَاهِيمُ ﴾ في رفع " ابراهيمُ " أوجهٌ أحدُها : أنه مرفوعٌ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه أي : قال له هذا اللفظَ ، ولذلك قال أبو البقاء : " فالمرادُ الاسمُ لا المُسَمَّى " وفي هذه المسألةِ خلافٌ بين النحويين : أعني تَسَلُّطَ القولِ على المفردِ الذي لا يؤدي معنى جملة ، ولا هو مقتطعٌ من جملة ، ولا هو مصدرٌ ل " قال " ، ولا هو صفةٌ لمصدرِه نحو : قلتُ زيداً ، أي : قلت هذا اللفظ ، فاختاره جماعة كالزجاجيِّ والزمخشريِّ وابنِ خروف وابنِ مالك ، ومنعه آخرون . ومِمَّن اختار رَفعَ " إبراهيمُ " على ما ذكرْتُ الزمخشري وابنُ عطية . أمَّا إذا كان المفردُ مؤدياً معنى جملةٍ كقولهم : قلتُ خطبةً وشعراً وقصيدةً ، أو اقْتُطِع من جملة كقوله :

3354 إذا ذُقْتُ فاها قلت طعمُ مُدامَةٍ . . . مُعَتَّقَةٍ مِمَّا يجيءُ به التُّجُرْ

أو كان مصدراً نحو : قلتُ قولاً ، أو صفةً له نحو : قلتُ حقاً أو باطلاً ، فإنَّه يَتَسَلَّطُ عليه . كذا قالوا : وفي قولهم " المفردُ المقتطعُ من الجملة " نظرٌ لأن هذا لم يَتَسَلَّطْ عليه القولُ ، إنما يتسلَّطُ على الجملةِ المشتملةِ عليه .

الثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : يقال له : هذا إبراهيمُ ، أو هو إبراهيمُ . الثالث : أنه مبتدأٌ محذوفُ الخبر أي : يقال له : إبراهيمُ فاعلُ ذلك . الرابع : أنّه منادى وحرف النداءِ محذوفٌ أي : يا إبراهيمُ ، وعلى الأوجه الثلاثةِ فهو مقتطعٌ من جملةٍ ، وتلك الجملة مَحْكِيَّةٌ بيُقال . وقد تقدَّم تقريرُ هذا في البقرة عندَ ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [الآية : 58] رفعاً ونصباً . وفي الأعرافِ عند قوله ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً ﴾ [الآية : 164] رفعاً ونصباً .

والجملة من " يُقال له " يحتمل أَنْ تكونَ مفعولاً آخرَ نحو قولك : " ظننتُ زيداً كاتباً شاعراً " وأن تكونَ صفةً على رأيِ الزمخشريِّ ومَنْ تابعه ، وأَنْ تكونَ حالاً مِنْ " فتى " . وجاز ذلك لتخصُّصِها بالوصف .

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

قوله : ﴿ على أَعْيُنِ ﴾ : في محلِّ نصبٍ على الحال من الهاء في " به " أي : ائتُوا به ظاهراً مكشوفاً بمَرْأَىً منهم ومَنْظَرٍ . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى الاستعلاء في " على " ؟ قلت : هو واردٌ على طريقِ المثلِ أي : يَثْبُتُ إتيانُه في الأعين ويتمكَّنُ ثباتَ الراكبِ على المركوبِ وتَمكُّنه منه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 174 . 177 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

فتساءلوا فيا بينهم وقالوا :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) ﴾

أي يذكرهم بالسوء . ويحتمل أن يكون مَنْ فعله . . فاسألوه ، فسألوه فقال : بل فعَلَه كبيرُهم .

فقالوا : كيف ندرك الذنب عليه ؟ وكيف تحيلنا في السؤال عليه – وهو جماد ؟

فقال : وكيف تستجيزون عبادة ما هو جمادٌ لا يدفع عن نَفْسِه السوء ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 508 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان إحضاره معلوماً أنهم لا يتأخرون عنه ، استأنف أخباره لما يقع التشوف له فقال :

﴿ قالوا ﴾ منكرين عليه مقررين ، له بعد حضوره على تلك الهيئة : ﴿ ءأنت فعلت هذا ﴾ الفعل الفاحش ﴿ بآلهتنا يا إبراهيم قال ﴾ متهكماً لهم وملزماً بالحجة : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ غيره من أن يعبد معه من هو دونه ، وهذا على طريق إلزام الحجة ؛ وتقييده بقوله : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الذي تركه بغير كسر يدل على أنه كان فيهم كبير غيره .

وكذا التنكير فيما مضى من قوله ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ وهذا - مع كونه تهكماً بهم وكناية عن أنهم لا عقل لهم لعبادتهم من يعلمون أنه لا يقدر على فعل ما - تنبيه على قباحة الشرك ، وأنه لا يرضى به إله بل يهلك من عبد غيره وكل ما عبد من دونه إن كان قادراً ، غيره على مقامه العظيم ، ومنصبه الجسيم .

ولما أخبر بذلك ، ولم يكن أحد رآه حتى يشهد على فعله ، وكانوا قد أحلوهم بعبادتهم ووضع الطعم لهم محل من يعقل ، سبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال : ﴿ فاسألوهم ﴾ أي عن الفاعل ليخبروكم به ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ على زعمكم أنهم آلهة يضرون وينفعون ، فإن قدروا على النطق أمكنت منهم القدرة وإلا فلا ، أما سؤال الصحيح فواضح ، وأما غيره فكما يسأل الناس من جرح أو قطعت يده أو رجله أو ضرب وسطه وبقيت فيه بقية من رمق ، وإسناده الفعل ما لا يصح إسناده إليه وأمره بسؤاله بعد الإضراب عن فعله متضمن لأنه هو الفاعل .

ولما كان روح الكلام إقراره بالفعل وجعلهم موضع الهزء لأنهم عبدوا ما لا قدرة له على دفاع أصلاً تسبب عنه قوله تعالى الدال على خزيهم : ﴿ فرجعوا ﴾ أي الكفرة ﴿ إلى أنفسهم ﴾ بمعنى أنهم فكروا فيما قال فاضطرهم الدليل إلى أن تحققوا أنهم على محض الباطل وأن هذه الشرطية الممكنة عقلاً غير ممكنة عادة ﴿ فقالوا ﴾ يخاطب بعضهم بعضاً مؤكدين لأن حالهم يقتضي إنكارهم لظلمهم : ﴿ إنكم أنتم ﴾ خاصة ﴿ الظالمون ﴾ لكونكم وضعتم العبادة في غير موضعها ، لا إبراهيم فإنه أصاب في إهانتهم سواء المحزّ ووافق عين الغرض ، وفي أنكم بعد أن عبدتموها ولا قدرة لها تركتموها بلا حافظ .

ولما كان رجوعهم إلى الضلال بعد هذا الإقرار الصحيح الصريح في غاية البعد ، عبر بأداته

مشيراً إلى ذلك فقال : ﴿ ثم نكسوا ﴾ أي انقلبوا في الحال غير مستحيين مما يلزمهم من الإقرار بالسفه حتى كأنهم قلبهم قالب لم يمكنهم دفعه ﴿ على رءوسهم ﴾ فصار أعلاهم أسفلهم برجوعهم عن الحق إلى الباطل ، من قولهم : نكس المريض - إذا رجع إلى حاله الأول ، قائلين في مجادلته عن شركائهم : ﴿ لقد علمت ﴾ يا إبراهيم ! ﴿ ما هؤلاء ﴾ لا صحيحهم ولا جريحهم ﴿ ينطقون ﴾ فكانوا بما فاهوا به ظانين أنه ينفعهم ، ممكنين لإبراهيم عليه السلام من جلائل المقاتل .

(112/511)

ولما تسبب عن قولهم هذا إقرارهم بأنهم لا فائدة فيهم ، فاتجهت لإبراهيم عليه السلام الحجة عليهم ، استأنف سبحانه الإخبار عنها بقوله : ﴿ قال ﴾ منكراً عليهم موبخاً لهم مسبباً عن إقرارهم هذا : ﴿ أفتعبدون ﴾ ونبههم على أن جميع الرتب تتضاءل دون رتبة الإلهية بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي من أدنى رتبة من تحت رتبة الملك الذي لا ضر ولا نفع إلا بيده لاستجماعه صفات الكمال .

ولما كانوا في محل ضرورة بسبب تكسير أصنامهم ، راجين من ينفعهم في ذلك ، قدم النفع فقال : ﴿ ما لا ينفعكم شيئاً ﴾ لترجوه ﴿ ولا يضركم ﴾ شيئاً لتخافوه .

ولما أثبت أن معبوداتهم هذه في حيز العدم ، فكانوا لعبادتها دونها ، استأنف تبكيتهم لذلك بأعلى كلمات التحقير التي لا تقال إلا لما هو غاية في القذارة فقال : ﴿ أف ﴾ أي تقذر وتحقير مني ، وفي الأحقاف ما يتعين استحضاره هنا ، ثم خص ذلك بهم بقوله : ﴿ لكم ولما تعبدون ﴾ ولما كانت على وجه الإشراك ، وكانت جميع الرتب تحت رتبته تعالى ، وكانت أصنامهم هذه في رتب منها سافلة جداً أثبت الجار فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى لدناءتكم وقذارتكم .

ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح أنه لا يقر به عاقل ، أنكر عليهم ووبخهم على ترك الفكر تنبيهاً على أن فساد ما هم عليه يدرك ببديهة العقل فقال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي وأنتم شيوخ قد مرت بكم الدهور وحنكتكم التجارب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 93.95 ﴾

(113/511)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا ﴾

فاعلم أن في الكلام حذفاً ، وهو : فأتوا به وقالوا أأنت فعلت ، طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه ، فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه ، فقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ وقد علق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم في عبادة الأوثان ، فإن قيل قوله : بل فعله كبيرهم كذب .

والجواب للناس فيه قولان : أحدهما : وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب ، وذكروا في الاعتذار عنه وجوهاً .

أحدها : أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، إنما قصد تقرير لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش ، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر .

وثانيها : أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة . وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب في استهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسد إلى الحامل عليه .

وثالثها : أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن من حق من يعبد ويدعي إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه .

وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب "الكشاف" .

ورابعها : أنه كناية عن غير مذكور ، أي فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدىء كبيرهم هذا .

وخامسها : أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدىء فيقول هذا فاسألوهم ، والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم .

وسادسها : أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال : بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين .

وسابعها : قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أي فلعل الفاعل كبيرهم .

القول الثاني : وهو قول طائفة من أهل الحكايات ، أن ذلك كذب واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

"لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى ، قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ وقوله لسارة هي أختي " وفي خبر آخر : " أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال : إني كذبت ثلاث كذبات " ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا : الكذب ليس قبيحاً لذاته ، فإن النبي عليه السلام إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان ، وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب فيه ، وإذا كان كذلك فأي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو ، واعلم أن هذا القول مرغوب عنه .

أما الخبر الأول وهو الذي رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه ، فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه ، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها ، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام : " إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب "

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه .

وأما قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ فقد ظهر الجواب عنه .

أما قوله لسارة : إنها أختي ، فالمراد أنها أخته في الدين ، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق .

أما قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ الظالمون ﴾ ففيه وجوه : الأول : أن إبراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا أن عبادة الأصنام باطلة ، وأنهم على غرور وجهل في ذلك .

والثاني : قال مقاتل : فرجعوا إلى أنفسهم فلاموها وقالوا إنكم أنتم الظالمون لإبراهيم حيث تزعمون أنه كسرها مع أن الفأس بين يدي الصنم الكبير .

وثالثها : المعنى أنكم أنتم الظالمون لأنفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم في الجواب ، والأقرب هو الأول .

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في المعنى وجوه : أحدها : أن المراد استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا [في] المجادلة بالباطل وأن هؤلاء مع

تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة .

وثانيها : قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلاً وانكساراً وانخذالاً مما بهتهم به إبراهيم فما أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم .

وثالثها : قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم . أي قلبوا في الحجة واحتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ فأقروا بهذه للحيرة التي لحقتهم ، قال والمعنى نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم .

المسألة الثانية :

(116/511)

قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله ، أي نكسوا أنفسهم على رؤوسهم وهي قراءة رضوان بن عبد المعبود .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فالمعنى ظاهر .

قال صاحب "الكشاف" : أف صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر ، وإن

إبراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم ، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم .

ثم يحتمل أنه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله .

ويحتمل أنه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وإن لم يعقلوا .

وهذا هو الأقرب لقوله : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ ﴾ ولقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 160. 162 ﴾

(117/511)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ ، وَاللَّفْظُ لَهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيمُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إلَّا فِي ثَلَاثٍ : قَوْلُهُ : إنِّي سَقِيمٌ ، وَلَمْ يَكُنْ سَقِيمًا ، وَقَوْلُهُ لِسَارَةَ : أُخْتِي ؛ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ ﴾ .

وَثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَمْ

يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كِذْبَاتٍ : ثِنْتَيْنِ مِنْهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ ، قَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ : إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : أُخْتِي .

فَأَتَى سَارَةَ فَقَالَ : يَا سَارَةُ ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي ، فَلَا تُكَذِّبِينِي .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ ، فَأُخِذَ ، فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ ، فَدَعَتْ اللَّهَ ، فَأُطْلِقَ .

ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ .

فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ ، فَأُطْلِقَ ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ : لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ ، إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ظَاهِرِ الْمَقْصُودِ بِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هَذَا تَعْرِيضٌ ، وَفِي التَّعَارِيضِ مَنْدُوحَةٌ عَنْ الْكَذِبِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ؛ فَشَرَطَ النُّطْقَ فِي الْفِعْلِ.

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ: لِأَنَّهُ عَدَّدَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّعْرِيضِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ، وَهُمْ كَمَا قَالَ إبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْك شَيْئًا؟ فَقَالَ إبْرَاهِيمُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، لِيَقُولُوا إنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ وَلَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: فَلِمَ تَعْبُدُونَ؟ فَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ.

وَلِهَذَا يَجُوزُ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ فَرْضُ الْبَاطِلِ مَعَ الْخَصْمِ حَتَّى يَرْجِعَ إلَى الْحَقِّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ فِي الْحُجَّةِ وَأَقْطَعُ لِلشُّبْهَةِ، كَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ: هَذَا رَبِّي، عَلَى مَعْنَى الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى إذَا أَفَلَ مِنْهُمْ تَبَيَّنَ حُدُوثُهُ، وَاسْتِحَالَةُ كَوْنِهِ إلَهًا.

(119/511)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: هَذَا رَبِّي، هَذِهِ أُخْتِي، وَإِنِّي سَقِيمٌ، وَبَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ: هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَعَارِيضَ وَحَسَنَاتٍ، وَحُجَجًا فِي الْحَقِّ، وَدَلَالَاتٍ، لَكِنَّهَا أَثَّرَتْ فِي الرُّتْبَةِ، وَخَفَضَتْ عَنْ مُحَمَّدٍ مِنْ الْمَنْزِلَةِ، وَاسْتَحْيَا مِنْهَا قَائِلُهَا عَلَى مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ؛ لِأَنَّ الَّذِي كَانَ يَلِيقُ بِمَرْتَبَتِهِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْخُلَّةِ أَنْ يَصْدَعَ بِالْحَقِّ، وَيُصَرِّحَ بِالْأَمْرِ فَيَكُونُ مَا

كَانَ ، وَلَكِنَّهُ رُخِّصَ لَهُ فَقَبِلَ الرُّخْصَةَ ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ الْقِصَّةِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : ﴿ إنَّمَا اتُّخِذْت خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ ﴾ يَعْنِي بِشَرْطِ أَنْ تُتَّبَعَ عَثَرَاتِي ، وَتُخْتَبَرَ أَحْوَالِي ، وَالْخِلَّةُ الْمُطْلَقَةُ لِمُحَمَّدٍ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِك وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وَلِذَلِكَ تَقُولُ الْعَرَبُ فِي أَمْثَالِهَا : ابْغِنِي مِنْ وَرَائِي ، أَيْ اخْتَبِرْ حَالِي .

(120/511)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي هَذَا الْحَدِيثِ نُكْتَةٌ عُظْمَى تَقْصِمُ الظَّهْرَ ، وَهِيَ أَنَّهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيمُ إلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ : ثِنْتَيْنِ مِنْهَا مَاحَلَ بِهِمَا عَنْ دِينِ اللَّهِ ﴾ وَهِيَ قَوْلُهُ : إنِّي سَقِيمٌ ، وَبَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، وَلَمْ يَعُدَّ قَوْلَهُ : هَذِهِ أُخْتِي فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ دَفَعَ بِهَا مَكْرُوهًا ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ فِيهَا حَظٌّ مِنْ صِيَانَةِ فِرَاشِهِ ، وَحِمَايَةِ أَهْلِهِ ، لَمْ يَجْعَلْ فِي جَنْبِ اللَّهِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُجْعَلُ فِي ذَاتِ اللَّهِ إلَّا الْعَمَلُ الْخَالِصُ مِنْ شَوَائِبِ الْحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، أَوْ الْمَعَانِي الَّتِي تَرْجِعُ إلَى النَّفْسِ ، حَتَّى إذَا خَلَصَتْ لِلدِّينِ كَانَتْ لِلَّهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ وَهَذَا لَوْ صَدَرَ مِنَّا لَكَانَ لِلَّهِ ، وَلَكِنَّ مَنْزِلَةَ إبْرَاهِيمَ اقْتَضَتْ هَذَا ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(121/511)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ الآية .

فيه وجهان :

أحدهما : بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، فجعل إضافة الفعل إليهم مشروطاً بنطقهم تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم .

الثاني : أن هذا القول من إبراهيم سؤال إلزام خرج مخرج الخبر وليس بخبر ، ومعناه : أن من اعتقد أن هذه آلهة لزمه سؤالها ، فلعله فعله [كبيرهم] فيجيبه إن كان إلهاً ناطقاً .

﴿ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ أي يخبرون ، كما قال الأحوص :

ما الشعر إلا خطبةٌ من مؤلفٍ . . . لمنطق حق أو لمنطق باطل

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن رجع بعضهم إلى بعض .

الثاني : أن رجع كل واحد منهم إلى نفسه متفكراً فيما قاله إبراهيم ، فحاروا عما أراده من الجواب فأنطقهم الله تعالى الحق ﴿ فَقَالُواْ : إِنَّكم أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ يعني في سؤاله ، لأنها لو كانت آلهة لم يصل إبراهيم إلى كسرها ، ولو صحبهم التوفيق لآمنوا هذا الجواب لظهور الحق فيه على ألسنتهم .

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أنها رجعوا إلى شِركهم بعد اعترافهم بالحق .

الثاني : يعني أنهم رجعوا إلى احتجاجهم على إبراهيم بقولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاَءِ يَنطِقُونَ ﴾ .

الثالث : أنهم نكسوا على رؤوسهم واحتمل ذلك منهم واحداً من أمرين : إما انكساراً بانقطاع حجتهم ، وإما فكراً في جوابهم فأنطقهم الله بعد ذلك بالحجة إذعاناً لها وإقراراً بها ، بقولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فأجابهم إبراهيم بعد اعترافهم بالحجة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(122/511)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) ﴾

المعنى فانصرفوا من عيدهم فرأوا ما حدث بآلهتهم فأكبروا ذلك وحينئذ ﴿ قالوا من فعل هذا ﴾ على جهة البحث والإنكار ، و﴿ قالوا ﴾ الثانية الضمير فيها للقوم الضعفة الذي سمعوا إبراهيم حيث قال ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] واختلف في

وجه رفع قوله ﴿ إبراهيم ﴾ فقالت فرقة هو مرتفع بتقدير النداء كأنهم أرادوا الذي يقال له عندما يدعى يا إبراهيم ، وقالت فرقة رفعة على إضمار الابتداء تقديره هو إبراهيم .

(123/511)

قال القاضي أبو محمد : والأول أرجح ، وقال الأستاذ ابو الحجاج الإشبيلي الأعلم هو رفع على الإهمال لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذي قصدوه ذهب إلى رفعه بغير شيء كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتداء والوجه عندي أنه مفعول لم يسم فاعله على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص بل تجعل النطق به دالاً على بناء هذه اللفظة وهذا كما تقول زيد وزن فعل أو زيد ثلاثة أحرف فلم تدخل بوجه على الشخص بل دللت بنطقك على نفس اللفظة وعلى هذه الطريقة تقول قلت إبراهيم ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلة قول وكلام فلا يتعذر بعد ذلك أن بني الفعل للمفعول ، وقوله ﴿ على أعين الناس ﴾ يريد في الحفل وبمحضر الجمهور ، وقوله ﴿ يشهدون ﴾ يحتمل أن يراد به الشهادة عليه يريدون بفعله أو بقوله ﴿ لأكيدن ﴾ [الأنبياء : 57] ويحتمل أن يريد به المشاهدة أي يشاهدون عقوبته أو غلبته المؤدية إلى عقوبته ، المعنى فجاء إبراهيم حين أوتي به فقالوا له أنت فعلت هذا بالآلهة فقال لهم إبراهيم عليه السلام ﴿ بل فعله كبيرهم

﴾ هذا على معنى الاحتجاج عليهم أي إنه غار من أن يعبد وتعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ، وقالت فرقة هي الأكثر إن هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام لأنها كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم كافرين والحديث الصحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم ، " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله للملك هي اختي " ثم تطرق إلى موضع خزيهم بقوله ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ على جهة التوقيف ع وذهبت فرقة إلى نفي الكذب عن هذه المقالات ، وقالت فرقة معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لم يكذب إبراهيم " أي لم يقل كلاماً ظاهره الكذب أو يشبه الكذب وذهبت إلى تخريج هذه المقالات فخرجت هذه الآية على معنى أنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين كأنه قال

(124/511)

بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء ولم يخرج الخبر ، على أن الكبير فعل ذلك ، وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله ﴿ فاسألوهم ﴾ وذهب الفراء إلى جهة أخرى بأن قال قوله ﴿ فعله ﴾ ليس من الفعل وإنما هو فلعله على جهة التوقع حذف اللام على قولهم عله بمعنى لعله ثم خففت اللام ع وهذا تكلف .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ﴾

المعنى فظهر لهم ما قال إبراهيم من أن الأصنام التي قد أهلوها للعبادة ينبغي ان تسأل وتستفسر " فقالوا إنكم الظالمون " في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأنتم معكم من تسألون ، ثم ارتكبوا في ضلالهم ورأوا بالفكرة وبديهة العقل أن الأصنام لا تنطق فساءهم ذلك حتى نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجة عليهم ، وقوله تعالى : ﴿ نكسوا على رؤوسهم ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيه كأنه منكوس على رأسه فهي أقبح هيئة للإنسان وكذلك هذا هو في أسوأ حالات النظر فقال لإبراهيم حين نكسوا في حيرتهم ﴿ ولقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أي فما بالك تدعو إلى ذلك فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة ووقفهم موبخاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر ثم حقر شأنها وأزرى بها في قوله ﴿ أف لكم ﴾ وقرأ ابن كثير " أفّ لكم " بالفتح ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر " أفِ لكم " بالكسر وترك التنوين فيهما ، وقرأ نافع وحفص عن عاصم " أفٍّ " بالكسر والتنوين و ﴿ أف ﴾ لفظة تقال عند المستقذرات من الأشياء فيستعار ذلك للمكروه من المعاني كهذا وغيره فلما غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجة نسكوا رؤوسهم وأخذتهم عزة بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة ف ﴿ قالوا حرقوه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قال المفسرون : فانطلَقوا به إلى نمرود ، فقال له : ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ غضب أن تُعبَد معه الصغار ، فكسرها ، ﴿ فاسألوهم إن كانوا يَنْطِقون ﴾ من فَعَلَه بهم ؟ ! وهذا إلزام للحُجَّة عليهم بأنهم جماد لا يقدرون على النُّطق .

واختلف العلماء في وجه هذا القول من إبراهيم عليه السلام على قولين .

أحدهما : أنه وإن كان في صورة الكذب ، إلا أن المراد به التنبيه على أن من لا قدرة له ، لا يصلح أن يكون إلهاً ، ومثله قول الملَكين لداود : ﴿ إنَّ هذا أخي ﴾ [ص : 23] ولم يكن أخاه ﴿ له تسع وتسعون نعجة ﴾ [ص : 23] ، ولم يكن له شيء ، فجرى هذا مجرى التنبيه لداود على ما فعل ، وأنه هو المراد بالفعل والمَثَل المضروب ؛ ومِثْل هذا لا تسمّيه العرب كذباً .

والثاني : أنه من معاريض الكلام ؛ فروي عن الكسائي أنه [كان] يقف عند قوله تعالى : ﴿ بل فعله ﴾ ويقول معناه : فعله مَنْ فعله ، ثم يبتدىء ﴿ كبيرهم هذا ﴾ .

قال الفراء : وقرأ بعضهم : "بل فعلّه" بتشديد اللام ، يريد : فلعلَّه كبيرهم هذا .

وقال ابن قتيبة : هذا من المعاريض ، ومعناه : إن كانوا ينطقون ، فقد فعله كبيرهم ، وكذلك

قوله : ﴿ إِني سقيم ﴾ [الصافات : 89] أي : سأسقم ، ومثله ﴿ إِنكَ ميّت ﴾ [الزمر : 30] أي : ستموت ، وقوله : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيتُ ﴾ [الكهف : 74] قال ابن عباس : لم ينس ، ولكنه من معاريض الكلام ، والمعنى : لا تؤاخذني بنسياني ، ومن هذا قصة الخصمين ﴿ إِذ تسوروا المحراب ﴾ [ص : 21] ، ومثله ﴿ وإِنّا أو إِيّاكم لعلى هُدىً ﴾ [سبأ : 24] ، والعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيراً ، فتبلغ إِرادتها بوجهٍ هو ألطف من الكشف وأحسن من التصريح .

(126/511)

وروي أن قوماً من الأعراب خرجوا يمتارون ، فلما صدروا ، خالف رجل في بعض الليل إِلى عكْم صاحبه ، فأخذ منه بُرّاً وجعله في عِكْمه ، فلما أراد الرحلة وقاما يتعاكمان ، رأى عِكْمه يشول ، وعِكْم صاحبه يثقل ، فأنشأ يقول :

عِكْم تغشّى بعضَ أعكام القوم . . .

لَمْ أَرَ عِكْماً سَارقاً قبل اليوم

فخوّن صاحبه بوجهٍ هو ألطف من التصريح .

قال ابن الأنباري : كلام إِبراهيم كان صدقاً عند البحث ، ومعنى قول النبي صلى الله عليه

وسلم : "كذب إبراهيم ثلاث كذبات" قال قولاً يشبه الكذب في الظاهر ، وليس بكذب .

قال المصنف : وقد ذهب جماعة من العلماء إلى هذا الوجه ، وأنه من المعاريض ، والمعاريض لا تُذم ، خصوصاً إذا احتيج إليها ، روى عمران بن حصين ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب" ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما يسرُّني أنّ لي بما أعلم من معاريض القول مِثْل أهلي ومالي ، وقال النخعي : لهم كلام يتكلّمون به إذا خشوا من شيء يدرؤون به عن أنفسهم .

وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يكذب ظريف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعجوز : "إن الجنَّة لا تدخلها العجائز" ، أراد قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ [الواقعة : 35] ، "وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يمازح بلالاً ، فيقول : "ما أُخت خالك منك"؟ ، وقال لامرأة : "مَنْ زوجُك"؟ فسمَّته له ، فقال : "الذي في عينيه بياض"؟ ، وقال لرجل : "إنا حاملوك على ولد ناقة" ، وقال له العباس : ما ترجو لأبي طالب؟ فقال : "كل خير أرجوه من ربّي" " ، وكان أبو بكر حين خرج من الغار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سأله أحد : مَنْ هذا بين يديك؟ يقول : هادٍ يهديني .

وكانت امرأة ابن رواحة قد رأته مع جارية له ، فقالت له : وعلى فراشي أيضا ؟ ! فجحد ، فقالت له : فاقرأ القرآن ، فقال :

وفينا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كتابَه . . .

إذا انشقَّ مشهورٌ مِنَ الصُّبْح طالِع

يَبيتُ يُجَافي جنْبَهُ عن فِراشه . . .

إذا استثقلتْ بالكافرين المَضاجعُ

فقالت : آمنتُ بالله ، وكذبت بصري ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فضحك وأعجبه ما صنع .

وعرض شريح ناقة ليبيعها فقال له المشتري : كيف لبنها ؟ قال : احلبْ في أيِّ إناءٍ شئتَ ، قال : كيف الوِطاء ؟ قال افرش ونم ، قال : كيف نجاؤها ؟ قال : إذا رأيتَها في الإبل عرفتَ مكانها ، علِّق سوطكَ وسِرْ ، قال : كيف قوَّتُها ؟ قال : احمل على الحائط ما شئتَ ؛ [فاستصراها] فلم يَرَ شيئاً مما وصف ، فرجع إليه ، فقال : لم أرَ فيها شيئاً مما وصفتَها به ، قال : ما كذبتك ، قال : أَقِلْني ، قال : نعم .

وخرج شريح من عند زياد وهو مريض ، فقيل له : كيف وجدت الأمير ؟ قال : تركتُه يأمر ويَنهى ، فقيل له : ما معنى يأمر وينهى ؟ قال : يأمر بالوصية ، وينهى عن النَّوح .

وأخذ محمد بن يوسف حجراً المدري فقال : العن علياً ، فقال : إن الأمير أمرني أن ألعن علياً محمد بن يوسف ، فالعنوه ، لعنه الله .

وأمر بعض الأمراء صعصعة بن صوحان بلعن عليّ ، فقال : لعن اللهُ من لعن اللهَ ولعن عليٍّ ، ثم قال : إن [هذا] الأمير قد أبى إلا أن ألعن علياً ، فالعنوه ، لعنه الله .

وامتحنت الخوارج رجلاً من الشيعة ، فجعل يقول : أنا مِنْ عليّ ومِنْ عثمان بريء .

وخطب رجل امرأةً وتحته أخرى ، فقالوا : لا نزوِّجك حتى تطلِّق امرأتك ، فقال : اشهدوا أني قد طلقت ثلاثاً ، فزوَّجوه ، فأقام مع المرأة الأولى ، فادَّعوا أنه قد طلَّق ، فقال : أما تعلمون أنه كان تحتي فلانة فطلَّقتُها ، ثم فلانة فطلَّقتُها ، ثم فلانة فطلَّقتُها ؟ قالوا : بلى ، قال : فقد طلَّقتُ ثلاثاً .

وحكي أن رجلاً عثر به الطائف ليلة ، فقال له : من أنت ؟ فقال :

أنا ابنُ الذي لا يُنْزَل الدهرَ قِدرُه . . .

وإِن نزلتْ يوماً فسوف تعود

(128/511)

ترى الناسَ أفواجاً إلى ضوءِ ناره . . .

فمنهم قيام حولها وقعود

فظنَّ الطائف أنه ابن بعض الأشراف بالبصرة ، فلما أصبح سأل عنه ، فإذا هو ابن

باقلائي .

ومثل هذا كثير .

قوله تعالى : ﴿ فرجعوا إِلى أنفسهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : رجع بعضهم إِلى بعض .

والثاني : رجع كلٌّ منهم إِلى نفسه متفكّراً .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا إِنكم أنتم الظالمون ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : حين عبدتم من لا يتكلم ، قاله ابن عباس .

والثاني : حين تتركون آلهتكم وحدها ، وتذهبون ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : في عبادة هذه الأصاغر مع هذا الكبير ، روي عن وهب أيضاً .

والرابع : لإِبراهيم حين اتهمتموه والفأس في يد كبير الأصنام ، قاله ابن إِسحاق ، ومقاتل .

والخامس : أنتم ظالمون لإِبراهيم حين سألتموه ، وهذه أصنامكم حاضرة ، فاسألوها ، ذكره ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ ثم نُكِسوا على رؤوسهم ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة : "نُكِّسوا" برفع النون وكسر الكاف مشددة .

وقرأ سعيد بن جبير ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : "نَكَسوا" بفتح النون والكاف مخفّفة .

قال أبو عبيدة : "نُكِسوا" : قُلِبوا ، تقول : نكستُ فلاناً على رأسه : إِذا قهرته وعلوته .

ثم في المراد بهذا الانقلاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أدركتْهم حيرةٌ ، فقالوا : ﴿ لقد علمتَ ما هؤلاءِ يَنْطِقُون ﴾ ، قاله قتادة .

والثاني : رجعوا إِلى أول ما كانوا يعرفونها به من أنها لا تنطق ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : انقلبوا على إِبراهيم يحتجُّون عليه بعد أن أقرُّوا له ولاموا أنفسهم في تهمته ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

(129/511)

وفي قوله : ﴿ لقد علمتَ ﴾ إِضمار "قالوا" ، وفي هذا إِقرار منهم بعجز ما يعبدونه عن النُّطق ، فحينئذ توجهت لإِبراهيم الحُجَّة ، فقال موبِّخاً لهم : ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ﴾ أي : لا يرزقكم ولا يعطيكم شيئاً ﴿ ولا يضرُّكم ﴾ إِذا لم تعبدوه ، وفي هذا حثٌّ لهم على عبادة من يملك النفع والضُّر ، ﴿ أفٍّ لكم ﴾ قال الزجاج : معناه : النتن لكم ؛ فلما ألزمهم الحجة غضبوا ، فقالوا : ﴿ حرِّقوه ﴾ .

وذُكر في التفسير أن نمرود استشارهم ، بأيِّ عذاب أعذِّبه ، فقال رجل : حرِّقوه ،

فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إِلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(130/511)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا يا إبراهيم ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : لما لم يكن السماع عاماً ولا ثبتت الشهادة ، استفهموه هل فعل أم لا ؟ وفي الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتي به فقالوا : أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ أي إنه غار وغضب من أن يعبد هو ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم .

فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين ؛ تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم .

كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء .

وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ﴾ .

وقيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون .

يبين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد .

وكان قوله من المعاريض ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب .

أي سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل .

وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض .

وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : ﴿ ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ ﴾ [مريم : 42] الآية فقال إبراهيم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون ؛ فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ؛ فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : "هَذَا رَبِّي" وهذه أختي و"إِنِّي سَقِيمٌ" و"بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا" وقرأ ابن السميقع "بل فَعَلَّهُ" بتشديد اللام بمعنى فلعل الفاعل كبيرهم .

وقال الكسائي ؛ الوقف عند قوله : "بل فعله" أي فعله من فعله ؛ ثم يبتدىء "كَبِيُرُهم هذا" .

وقيل : أي لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر .

أي من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً ؛ والمعنى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانية : روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث ، قوله : "إِني سقِيم" وقوله : لسارة أختي وقوله : "بل فعله كبِيرهم" " لفظ الترمذي .

وقال : حديث حسن صحيح .

ووقع في الإسراء في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة إبراهيم قال : وذكر قوله في الكوكب "هذا ربي" .

فعلى هذا تكون الكذبات أربعاً إلا أن الرسول عليه السلام قد نفى تلك بقوله : " لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا في ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله : "بل فعله كبِيرهم" وواحدة في شأن سارة"

الحديث لفظ مسلم .

وإنما لم يعد عليه قوله في الكوكب : "هذا ربي" كذبة وهي داخلة في الكذب ؛ لأنه والله أعلم كان حين قال ذلك في حال الطفولية ، وليست حالة تكليف .

أو قال لقومه مستفهماً لهم على جهة التوبيخ والإنكار ، وحذفت همزة الاستفهام .

أو على طريق الاحتجاج على قومه : تنبيهاً على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية .

وقد تقدمت هذه الوجوه كلها في "الأنعام" مبينة والحمد لله .

(132/511)

الثالثة : قال القاضي أبو بكر بن العربي : في هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر ، وهي أنه عليه السلام قال : " لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات ثنتين مَا حَلَ بهما عن دين الله وهما قوله : "إِني سقِيم" وقوله : "بل فعله كبيرهم" ولم يعدّ (قوله) هذه أختي في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروهاً ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها في ذات الله ؛ وذلك لأنه لا يجعل في جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعاريض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه ، كما قال : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ [الزمر : 3] .

وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا .

والله أعلم .

الرابعة : قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه .

والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض ، وإن كانت

معاريض وحسنات وحججاً في الخلق ودلالات ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن محمد المنزلة ، واستحيا منها قائلها ، على ما ورد في حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالاً لله ؛ فإن الذي كان يليق بمرتبته في النبوّة والخُلَّة ، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيفما كان ، ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة " إنما اتخذت خليلاً من وراء وراء " بنصب وراء فيهما على البناء كخمسة عشر ، وكما قالوا : جاري بَيْتَ بَيْتَ ، ووقع في بعض نسخ مسلم "من وراءُ من وراءُ" بإعادة من ، وحينئذٍ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن ألفه للتأنيث ؛ لأنهم قالوا في تصغيرها وربية ؛ قال الجوهري : وهي شاذة .

فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود "مِن" فيهما .

والمعنى إني كنت خليلاً متأخراً عن غيري .

ويستفاد من هذا أن الخُلَّة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود كما

تقدم .

وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه .

﴿ فقالوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ أي بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ ﴾ أي عادوا إلى جهلهم وعنادهم فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ ف ﴿ قَالَ ﴾ قاطعاً لما به يهذون ، ومفحماً لهم فيما يتقوّلون ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ أي النَّتَن لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وقيل : "نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ" أي طأطؤا رءوسهم خجلاً من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم ، بفتح الكاف بل قال : "نُكِسُوا عَلَى رَءُوسِهِمْ" أي ردوا على ما كانوا عليه في أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان في الآيات السابقة :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) ﴾

النكس : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ، ونكس رأسه بالتشديد والتخفيف طأطأ حتى صار أعلاه أسفل .

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فائتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

في الكلام محذوف تقديره : فلما رجعوا من عيدهم إلى آلهتهم ورأوا ما فعل بها استفهموا على سبيل البحث والإنكار فقالوا : ﴿ من فعل هذا ﴾ أي التكسير والتحطيم إنه لظالم في اجترائه على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿ قالوا ﴾ أي قال الذين سمعوا قوله ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ ﴿ يذكرهم ﴾ أي بسوء .

قال الفراء : يقول الرجل للرجل لئن ذكرتني لتندمن أي بسوء .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما حكم الفعلين بعد ﴿ سمعنا فتى ﴾ وأي فرق بينهما ؟

قلت : هما صفتان لفتى إلا أن الأول وهو يذكرهم لا بد منه لسمع لأنك لا تقول : سمعت زيداً وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع ، وأما الثاني فليس كذلك انتهى .

وأما قوله : هما صفتان فلا يتعين ذلك لما أذكره إما سمع فإما أن يدخل على مسموع أو غيره إن دخلت على مسموع فلا خلاف أنها تتعدى إلى واحد نحو : سمعت كلام زيد ومقالة خالد ، وإن دخلت على غير مسموع فاختلف فيها .

فقيل : إنها تتعدى إلى اثنين وهو مذهب الفارسي ، ويكون الثاني مما يدل على صوت فلا يقال سمعت زيداً يركب ، ومذهب غيره أن سمع يتعدى إلى واحد والفعل بعده إن كان معرفة في موضع الحال منها أو نكرة في موضع الصفة ، وكلا المذهبين يستدل لهما في علم النحو فعلى هذا المذهب الآخر يتمشى قول الزمخشري أنه صفة لفتى ، وأما على مذهب أبي عليّ فلا يكون إلاّ في موضع المفعول الثاني لسمع .

وأما ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ فيحتمل أن يكون جواباً لسؤال مقدر لما قالوا ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ وأتوا به منكراً قيل : من يقال له فقيل له إبراهيم ، وارتفع ﴿ إبراهيم ﴾ على أنه مقدر بجملة تحكى بقال ، إما على النداء أي ﴿ يقال له ﴾ حين يدعى يا ﴿ إبراهيم

﴿ وإما على خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿ إبراهيم ﴾ أو على أنه مفرد مفعول لما لم يسم فاعله ، ويكون من الإسناد للفظ لا لمدلوله ، أي يطلق عليه هذا اللفظ وهذا الآخر هو اختيار الزمخشري وابن عطية ، وهو مختلف في إجازته فذهب الزجاجي والزمخشري وابن خروف وابن مالك إلى تجويز نصب القول للمفرد مما لا يكون مقتطعاً من جملة نحو قوله :

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة . . .

ولا مفرداً معناه معنى الجملة نحو قلت : خطبة ولا مصدراً نحو قلت قولاً ، ولا صفة له نحو : قلت حقاً بل لمجرد اللفظ نحو قلت زيداً .

ومن النحويين من منع ذلك وهو الصحيح إذ لا يحفظ من لسانهم قال : فلان زيداً ولا قال ضرب ولا قال ليت ، وإنما وقع القول في كلام العرب لحكاية الجمل وذهب الأعلم إلى أن ﴿ إبراهيم ﴾ ارتفع بالإهمال لأنه لم يتقدمه عامل يؤثر في لفظه ، إذ القول لا يؤثر إلاّ في المفرد المتضمن لمعنى الجملة فبقي مهملاً والمهمل إذا ضم إلى غيره ارتفع نحو قولهم : واحد واثنان إذا عدّوا ولم يدخلوا عاملاً لا في اللفظ ولا في التقدير ، وعطفوا بعض أسماء العدد على بعض ، والكلام على مذهب الأعلم وإبطاله مذكور في النحو .

﴿ قالوا فأتوا ﴾ أي أحضروه ﴿ على أعين الناس ﴾ أي معايناً بمرأى منهم فعلى أعين الناس في موضع الحال و ﴿ على ﴾ معناها الاستعلاء المجازي كأنه لتحديقهم إليه وارتفاع أبصارهم لرؤيته مستعل على أبصارهم ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بما سمع منه أو بما صدر منه من تكسير أصنامهم، أو يشهدون ما يحل به من عذابنا أو غلبنا له المؤدي إلى عذابه.

وقيل: ﴿ الناس ﴾ هنا خواص الملك وأولياؤه وفي الكلام حذف تقديره ﴿ فأتوا به ﴾ على تلك الحالة من نظر الناس إليه.

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا ﴾ أي الكسر والتهشيم ﴿ بآلهتنا ﴾ وارتفاع ﴿ أنت ﴾ المختار أنه بفعل محذوف يفسره ﴿ فعلت ﴾ ولما حذف انفصل الضمير، ويجوز أن يكون مبتدأ وإذا تقدم الاسم في نحو هذا التركيب على الفعل كان الفعل صادراً واستفهم عن فاعله وهو المشكوك فيه، وإذا تقدم الفعل كان الفعل مشكوكاً فيه فاستفهم عنه أوقع أو لم يقع، والظاهر أن ﴿ بل ﴾ للإضراب عن جملة محذوفة أي قال لم أفعله إنما الفاعل حقيقة هو الله ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ وأسند الفعل إلى ﴿ كبيرهم ﴾ على جهة المجاز لما كان سبباً في كسر هذه الأصنام هو تعظيمهم وعبادتهم له ولما دونه من الأصنام كان ذلك حاملاً على تحطيمها وكسرها فأسند الفعل إلى الكبير إذ كان تعظيمهم له أكثر من تعظيمهم ما دونه، وقال قريباً من هذا الزمخشري.

ويحتمل أن يكون فعل الكبير متقيداً بالشرط فيكون قد علق على ممتنع أي فلم يكن وقع أي إن كان هؤلاء الأصنام ﴿ ينطقون ﴾ ويخبرون من الذي صنع بهم ذلك فالكبير هو الذي صنع ذلك وأشار إلى نحو من هذا ابن قتيبة.

(137/511)

وقال الزمخشري: هذا من تعاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، والقول فيه إن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما قال لك صاحبك وقد كتبت إليه كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا وصاحبك أميّ لا يحسن الخط أو لا يقدر إلاّ على خرمشة فاسدة؟ فقلت له: بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك ولا إثباته للأمي أو المخرمش لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاءً وإثبات للقادر، ويجوز أن يكون حكاية لما يعود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعي إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه.

ويحكى أنه قال ﴿ فعله كبيرهم ﴾ هذا غضب أن يعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها انتهى .

(138/511)

ومن جعل الفاعل بفعله ضميراً يعود على قوله فتى أو على ابراهيم أو قال آخر بغير المطابق لمصلحة دينية ، واستدل بما روي في الحديث أو وقف على ﴿ بل فعله ﴾ أي فعله من فعله وجعل ﴿ كبيرهم هذا ﴾ مبتدأ وخبراً وهو الكسائي أو أصله ﴿ فعلة ﴾ بمعنى لعله وخفف اللام وهو الفراء مستدلاً بقراءة ابن السميفع ﴿ فعله ﴾ بمعنى لعله مشدد اللام فهم بعداء عن طريق الفصاحة ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أي إلى عقولهم حين ظهر لهم ما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن الأصنام التي أهّلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر قبل ، ويحتمل أن يكون ﴿ فرجعوا ﴾ أي رجع بعضهم إلى بعض ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم تسألوها ذكره ابن جرير ، أو حين عبدتم ما لا ينطق قاله ابن عباس ، أو حين لم تحفظوا آلهتكم قاله وهب ، أو في عبادة الأصاغر مع هذا الكبير قاله وهب أيضاً ، أو حين أبهتهم إبراهيم والفأس في عنق الكبير قاله مقاتل وابن إسحاق أو ﴿ الظالمون ﴾ حقيقة حيث نسيتم إبراهيم إلى الظلم في

قولكم ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ إذ هذه الأصنام مستحقة لما فعل بها .

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي ارتكبوا في ضلالهم وعلموا أن الأصنام لا تنطق فساءهم ذلك حين نبه على قيام الحجة عليهم وهي استعارة للذي يرتطم في غيه كأنه منكوس على رأسه وهي أقبح هيئة للإنسان ، فكان عقله منكوس أي مقلوب لانقلاب شكله ، وجعل أعلاه أسفله فرجوعهم إلى أنفسهم كناية عن استقامة فكرهم ونكسهم كناية عن مجادلتهم ومكابرتهم .

ويحتمل أن يكون ﴿ نكسوا على رؤوسهم ﴾ كناية عن تطأطىء رؤوسهم وتنكيسها إلى الأرض على سبيل الخجل والانكسار مما بهتهم به إبراهيم من قول الحق ودمغهم به فلم يطيقوا جواباً .

(139/511)

و ﴿ لقد علمت ﴾ جواب قسم محذوف معمول لقول محذوف في موضع الحال أي قائلين ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تقول لنا ﴿ فاسألوهم ﴾ إنما قصدت بذلك توبيخاً ويحتمل أن يكون النكس للفكرة فيما يجيبون به .

وقال مجاهد ﴿ نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي ردّت السفلة على الرؤساء و ﴿ علمت

﴿ هنا معلقة ، والجملة المنفية في موضع مفعولي علمت إن تعدت إلى اثنين أو في موضع مفعول واحد إن تعدت لواحد .

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم وابن الجارود والبكراوي كلاهما عن هشام بتشديد كاف ﴿ نكّسوا ﴾ وقرأ رضوان بن المعبود ﴿ نكسوا ﴾ بتخفيف الكاف مبنياً للفاعل أي نكسوا أنفسهم .

ولما ظهرت الحجة عليهم أخذ يقرعهم ويوبخهم بعباده تماثيل ما لا ينفع ولا يضر ، ثم أبدى لهم التضجر منهم ومن معبوداتهم وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ أف ﴾ واللغات فيها واللام في ﴿ لكم ﴾ لبيان المتأفف به أي لكم ولآلهتكم ، هذا التأفف ثم نبههم على ما به يدرك حقائق الأشياء وهو العقل فقال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي قبح ما أنتم عليه وهو استفهام توبيخ وإنكار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(140/511)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾

مشيراً إلى الذي لم يكسِرْه ، سلك عليه السلام مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصِده الذي هو

إلزامُهم الحجّةَ على ألطف وجهٍ وأحسنِه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب ، حيث أبرز الكبيرَ قولاً في معرض المباشِر للفعل بإسناده إليه كما أبرزه في ذلك المعرِض فعلاً بجعل الفأسَ في عنقه ، وقد قصد إسنادَه إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنامُ غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفةً مرتّبةً للعبادة من دون الله سبحانه ، وكان غيظ كُبيرِها أكبرَ وأشدَّ حسب زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعلَ باعتبار أنه الحاملُ عليه ، وقيل : هو حكايةٌ لما يقود إلى تجويزه مذهبُهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرُهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدِر على ما هو أشدُّ من ذلك ، ويحكى أنه عليه السلام قال : فعله كبيرُهم هذا ، غضِبَ أن تُعبدَ معه هذه الصغارُ وهو أكبرُ منها فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيهَهم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنامَ ، وأما ما قيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادرِ عنه إلى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلُغ فيه غرضه من إلزامهم الحجةَ وتبكيتِهم ومُثّل لذلك بما لو قال لك أمي فيما كتبتُه بخط رشيقٍ وأنت شهيرٌ بحسن الخطِّ : أأنت كتبْتَ ؟ كان قصدُك تقريرَ الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لا نفيَها عنك وإثباتَها له فبمعزل من التحقيق لأن خلاصةَ المعنى في المثال المذكور مجردُ تقريرِ الكتابة لنفسك وإدعاءُ ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيلِه في السؤال لابتنائه على أن صدورَها عن غيرك محتملٌ عنده مع استحالته عندك ، ولا ريب في أن مرادَه عليه السلام

من إسناد الكسرِ إلى الصنم ليس مجردَ تقريرِه لنفسه ولا تجهيلَهم في سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم ، بل إنما مرادُه عليه السلام توجيهُهم نحو

(141/511)

التأملِ في أحوال أصنامهم كما ينبىء عنه قوله : ﴿ فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطِقوا وإنما لم يقل عليه السلام : إن كانوا يسمعون أو يعقِلون مع أن السؤال موقوفٌ على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجةَ السؤال هو الجوابُ وأن عدم نطقِهم أظهرُ وتبكيتَهم بذلك أدخلُ ، وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى :

﴿ فَرَجَعُواْ إلى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي راجعوا عقولَهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسَره بوجه من الوجوه ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرّةٍ عن غيره أو جلبِ منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبوداً ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ أي بهذا السؤالِ لأنه كان على طريقة التوبيخِ المستتبِع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام ، لا من ظلمتوه بقولكم : إنه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادتها لا مَنْ كسرها .

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُؤُوسِهِمْ ﴾ أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة ، شبّه

عودَهم إلى الباطل بصيرورة أسفلِ الشيءِ أعلاه ، وقرئ نُكّسوا بالتشديد ونكَّسوا على البناء للفاعل أي نكّسوا أنفسهم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ على إرادة القول أي قائلين : والله لقد علمت أنْ ليس شأنهم النطقُ فكيف تأمرُنا بسؤالهم ؟ على أن المرادَ استمرارُ نفي النطقِ لا نفيُ استمراره كما تُوهمه صيغةُ المضارع .

﴿ قَالَ ﴾ مبكّتاً لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ ﴾ أي أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي متجاوزين عبادتَه تعالى : ﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا ﴾ من النفع ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ فإن العلمَ بحاله المنافيةِ للألوهية مما يوجب الاجتنابَ عن عبادته قطعاً .

(142/511)

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ تضجُّرٌ منه عليه الصلاة والسلام من إصرارهم على الباطل البيّن ، وإظهارُ الاسم الجليلِ في موضع الإضمارِ لمزيد استقباحِ ما فعلوا ، وأفَ صوتُ المتضجّرِ ومعناه قُبحاً وتَبّاً واللامُ لبيان المتأَفَّفِ له ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي ألا تتفكرون فلا تعقِلون قبحَ صنيعكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(143/511)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به بعد ذلك هل أتوا به أولاً؟ فقيل قالوا :

﴿ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا قَالُواْ ءأَنتَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ اقتصاراً على حكاية مخاطبتهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غني عن البيان ، والهمزة كما قال العلامة التفتازاني للتقرير بالفاعل إذ ليس مراد الكفرة حمله عليه السلام على الإقرار بأن كسر الأصنام قد كان بل على الإقرار بأنه منه كيف وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم : ﴿ فَعَلْتَ هذا بِئَالِهَتِنَا ﴾ وأيضاً .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب فعلت أو لم أفعل .

واعترض ذلك الخطيب بأنه يجوز أن يكون الاستفهام على أصله إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام حتى يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام .

وأجيب عليه بأنه يدل عليه ما قبل الآية وهو أنه عليه السلام قد حلف بقوله ﴿ تالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] الخ ثم لما رأوا كسر الأصنام قالوا ﴿ مَن فَعَلَ هذا ﴾ الخ فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه الأصنام .

ولقائل أن يقول : إن الحلف كما قاله كثير كان سراً أو سمعه رجل واحد ، وقوله سبحانه :

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا ﴾ [الأنبياء : 60] الخ مع قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا ﴾ [الأنبياء : 59] الخ يدل على أن منهم من لا يعلم كونه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام فلا يبعد أن يكون ﴿ أأنت فَعَلْتَ هذا ﴾ [الأنبياء : 62] كلام ذلك البعض .

وقد يقال : إنهم بعد المفاوضة في أمر الأصنام وإخبار البعض البعض بما يقنعه بأنه عليه السلام هو الذي كسرها تيقنوا كلهم أنه الكاسر فأأنت فعلت ممن صدر للتقرير بالفاعل .

وقد سلك عليه السلام في الجواب مسلكاً تعريضياً يؤدي به إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه يحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب فقد أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه كما أبرزه في ذلك المعرض فعلاً بجعل الفاس في عنقه أو في يده وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبب حيث رأى تعظيمهم إياه أشد من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام المصطفة المرتبة للعبادة من دون الله تعالى فغضب لذلك زيادة الغضب فأسند الفعل إليه إسناداً مجازياً عقلياً باعتبار أنه الحامل عليه والأصل فعلته لزيادة غضبي من زيادة تعظيم هذا ، وإنما لم يكسره وإن كان

مقتضى غضبه ذلك لتظهر الحجة ، وتسمية ذلك كذباً كما ورد في الحديث الصحيح من باب المجاز لما أن المعاريض تشبه صورتها صورته فبطل الاحتجاج بما ذكر على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام ، وقيل في توجيه ذلك أيضاً : إنه حكاية لما يلزم من مذهبهم جوازه يعني أنهم لما ذهبوا إلى أنه أعظم الآلهة فعظم ألوهيته يقتضي أن لا يعبد غيره معه ويقتضي إفناء من شاركه في ذلك فكأنه قيل فعله هذا الكبير على مقتضى مذهبكم والقضية ممكنة .

ويحكى أنه عليه السلام قال : فعله كبيرهم هذا غضب أن يعبد معه هذه وهو أكبر منها ، قيل : فيكون حينئذٍ تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنام ، وقيل إنه عليه السلام لم يقصد بذلك إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل كما إذا قال لك أمي فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا ؟ فقلت له : بل كتبته أنت فإنك لم تقصد نفيه عن نفسك وإثباته للأمي وإنما قصدت إثباته وتقريره لنفسك مع الاستهزاء بمخاطبك .

وتعقبه صاحب الفرائد بأنه إنما يصح إذا كان الفعل دائراً بينه عليه السلام وبين كبيرهم ولا يحتمل ثالثاً .

ورد بأنه ليس بشيء لأن السؤال في ﴿ أأنت فعلت هذا ﴾ [الأنبياء : 62] تقرير لا استفهام كما سمعت عن العلامة وصرح به الشيخ عبد القاهر والإمام السكاكي فاحتمال الثالث مندفع ، ولو سلم أن الاستفهام على ظاهره فقرينة الإسناد في الجواب إلى ما لا يصلح له بكلمة الإضراب كافية لأن معناه أن السؤال لا وجه له وأنه لا يصلح لهذا الفعل غيري ، نعم يرد أن توجيههم بذلك نحو التأمل في حال آلهتهم وإلزامهم الحجة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا غير ظاهر على هذا ، وقيل إن ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ جواب قوله : ﴿ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ معنى وقوله : ﴿ فاسألوا ﴾ جملة معترضة مقترنة بالفاء كما في قوله

: فاعلم فعلم المرء ينفعه . . .

فيكون كون الكبير فاعلاً مشروطاً بكونهم ناطقين ومعلقاً به وهو محال فالمعلق به كذلك ، وإلى نحو ذلك أشار ابن قتيبة وهو خلاف الظاهر ، وقيل : إن الكلام تم عند قوله : ﴿ فَعَلَهُ ﴾ والضمير المستتر فيه يعود على ﴿ فَتًى ﴾ [الأنبياء : 60] أو إلى إبراهيم ، ولا يخفى أن كلاً من فتى وإبراهيم مذكور في كلام لم يصدر بمحضر من إبراهيم عليه السلام حتى يعود عليه الضمير وأن الإضراب ليس في محله حينئذٍ والمناسب في الجواب نعم ، ولا مقتضى للعدول عن الظاهر هنا كما قيل وعزى إلى الكسائي أنه جعل الوقف على ﴿

فَعَلَهُ ﴾ أيضاً إلا أنه قال : الفاعل محذوف أي فعله من فعله .

وتعقبه أبو البقاء بأنه بعيد لأن حذف الفاعل لا يسوغ أي عند الجمهور وإلا فالكسائي يقول بجواز حذفه .

وقيل يجوز أن يقال : أنه أراد بالحذف الإضمار ، وأكثر القراء اليوم على الوقف على ذلك وليس بشيء ، وقيل الوقف على ﴿ كَبِيرُهُمْ ﴾ وأراد به عليه السلام نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم ، وهذا التوجيه عندي ضرب من الهذيان ، ومثله أن يراد به الله عز وجل فإنه سبحانه كبير الآلهة ولا يلاحظ ما أرادوه بها ، ويعزى للفراء أن الفاء في ﴿ فَعَلَهُ ﴾ عاطفة وعله بمعنى لعله فخفف .

واستدل عليه بقراءة ابن السميقع ﴿ فَعَلَهُ ﴾ مشدد اللام ، ولا يخفى أن يجل كلام الله تعالى العزيز عن مثل هذا التخريج ، والآية عليه في غاية الغموض وما ذكر في معناها بعيد بمراحل عن لفظها ، وزعم بعضهم أن الآية على ظاهرها وادعى أن صدور الكذب من الأنبياء عليهم السلام لمصلحة جائز ، وفيه أن ذلك يوجب رفع الوثوق بالشرائع لاحتمال الكذب فيها لمصلحة فالحق أن لا كذب أصلاً وأن في المعاريض لمندوحة عن الكذب ،

وإنما قال عليه السلام : ﴿ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ دون إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وإن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل ، وقد حصل ذلك حسبما نطق به

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فتفكروا وتدبروا وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا .

(147/511)

﴿ فَقَالُوٓاْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ أي بعبادة ما لا ينطق قاله ابن عباس أو بسؤالكم إبراهيم عليه السلام وعدولكم عن سؤالها وهي آلهتكم ذكره ابن جرير أو بنفس سؤالكم إبراهيم عليه السلام حيث كان متضمناً التوبيخ المستتبع للمؤاخذة كما قيل أو بغفلتكم عن آلهتكم وعدم حفظكم إياها أو بعبادة الأصاغر مع هذا الكبير قالهما وهب أو بأن اتهمتم إبراهيم عليه السلام والفأس في عنق الكبير قاله مقاتل . وابن إسحاق ، والحصر إضافي بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام .

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ ﴾ أصل النكس قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفله ، ولا يلغو ذكر

الرأس بل يكون من التأكيد أو يعتبر التجريد ، وقد يستعمل النكس لغة في مطلق قلب الشيء من حال إلى حال أخرى ويذكر الرأس للتصوير والتقبيح .

وذكر الزمخشري على ما في "الكشف" في المراد به هنا ثلاثة أوجه ، الأول : أنه الرجوع عن الفكرة المستقيمة الصالحة في تظليم أنفسهم إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها مع الاعتراف بتقاصر حالها عن الحيوان فضلاً أن تكون في معرض الإلهية فمعنى ﴿ رُءوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾ لا يخفى علينا وعليك أيها المبكت بأنها لا تنطق أنها كذلك وإنا إنما اتخذناها آلهة مع العلم بالوصف ، والدليل عليه جواب إبراهيم عليه السلام الآتي ، والثاني : أنه الرجوع عن الجدال معه عليه السلام بالباطل في قولهم : ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِئَالِهَتِنَا ﴾ [الأنبياء : 59] وقولهم : ﴿ أأنت فَعَلْتَ هذا ﴾ [الأنبياء : 62] إلى الجدال عنه بالحق في قولهم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ لأنه نفى للقدرة عنها واعتراف بعجزها وأنها لا تصلح للإلهية وسمي نكساً وإن كان حقاً لأنه ما أفادهم عقداً فهو نكس بالنسبة إلى ما كانوا عليه من الباطل حيث اعترفوا بعجزها وأصروا .

وفي لباب التفسير ما يقرب منه مأخذاً لكنه قدر الرجوع عن الجدال عنه في قولهم : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ [الأنبياء : 64] إلى الجدال معه عليه السلام بالباطل في قولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ والثالث : أن النكس مبالغة في إطراقهم رؤوسهم خجلاً وقولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ الخ رمى عن حيرة ولهذا أتوا بما هو حجة عليهم وجاز أن يجعل كناية عن مبالغة الحيرة وانخذال الحجة فإنها لا تنافي الحقيقة ، قال في "الكشف" .

وهذا وجه حسن وكذلك الأول ، وكون المراد النكس في الرأي رواه أبو حاتم عن ابن زيد وهو للوجهين الأولين ، وقال مجاهد : ﴿ نُكِسُواْ على رُءوسِهِمْ ﴾ ردت السفلة على الرؤساء فالمراد بالرؤوس الرؤساء ، والأظهر عندي الوجه الثالث ، وأياً ما كان فالجار متعلق بنكسوا .

وجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالاً ، والجملة القسمية مقولة لقول مقدر أي قائلين ﴿ لَقَدِ ﴾ الخ ، والخطاب في ﴿ عَلِمَتِ ﴾ لإبراهيم عليه السلام لا لكل من يصلح للخطاب ، والجملة المنفية في موضع مفعولي علم إن تعدت إلى اثنين أو في موضع مفعول واحد إن تعدت لواحد ، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار كما يوهمه صيغة المضارع ، وقرأ أبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وابن مقسم .

وابن الجارود .

والبكراوي كلاهما عن هشام بتشديد كاف ﴿ نُكِسُواْ ﴾ ، وقرأ رضوان بن عبد المعبود ﴿ نُكِسُواْ ﴾ بتخفيف الكاف مبنياً للفاعل أي نكسوا أنفسهم وقيل : رجعوا على رؤسائهم بناءاً على ما يقتضيه تفسير مجاهد .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبكتاً لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ ﴾ أي أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي مجاوزين عبادته تعالى : ﴿ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ﴾ من النفع ، وقيل : بشيء ﴿ وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ فإن العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعاً .

(149/511)

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ تضجر منه عليه السلام من إصرارهم على الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحق ، وأصل أف صوت المتضجر من استقذار شيء على ما قال الراغب ثم صار اسم فعل بمعنى أتضجر وفيه لغات كثيرة ، واللام لبيان المتأفف له ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لمزيد استقباح ما فعلوا ﴿ أَفَلاَ

تَعْقِلُونَ ﴾ أي ألا تتفكروا فلا تعقلون قبح صنيعكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(150/511)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾

(151/511)

يعني الذي تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلي أو فعله : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ ﴾ أي : يجيبوكم : ﴿ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ أي : والأظهر عجزهم الكليّ المانع من القول بإلهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضيّ يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة ، وتبكيتهم . ولقائل أن يقول : عاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو

الذي متسبب لاستهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال: فعله كبيرهم هذا، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل: فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم، والقضية ممكنة .

وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم في كتابه "الفصل" في الرد على من جوز على الأنبياء المعاصي، وعبارته: وأما قوله عليه السلام: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: 49]، وهو في الحقيقة مهان ذليل مهين معذب في النار . فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب في نفسه في الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على أنه محقق لأن كبيرهم فعله . إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وقصداً إلى تحقيق ذلك . وجليٌّ أن مراده عليه السلام، على كلٍّ، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله: ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ أي: إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا

. قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام : إن كانوا يسمعون أو يعقلون , مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأن عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى :

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : فراجعوا عقولهم ، ومراجعة العقل مجاز عن التفكير والتدبر ، والمراد بالنفس النفس الناطقة ، والرجوع إليها عبارة عما ذكر : ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع ، لا مَن كسرها ، فَلِمَ تنسبوه إلى الظلم بقولكم : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴾ أي : حياءً من نقصهم ، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم ، قائلين : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ أي : ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ .

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : قبح صنيعكم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر في الكشاف في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴾ أربعة أوجه . وحاصله كما في العناية – أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة في تظليم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها في معرض الألوهية . فقوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ ﴾ الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق في قولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ لأنه نفي لقدرتها واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية ، وسمي نكساً وإن كان حقاً ، لأنه ما أفادهم مع الإصرار . ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة في إطراقهم خجلاً وقولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ لحيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم . أو النكس مبالغة في الحيرة وانقطاع الحجة ﴿ أُفٍّ ﴾ صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما في كتب اللغة . قال الزمخشري : أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ولما عجزوا عن المحاجّة أخذوا في المضارّة ، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من المحقّ ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 214.211 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) ﴾

وقع هنا حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء .

والتقدير : فأَتوا به فقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا .

وقوله تعالى ﴿ بل ﴾ إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك ، فنفى أن يكون فعَل ذلك ، لأن (بل) تقتضي نفي ما دل على كلامهم من استفهامه .

وقوله تعالى ﴿ فعله كبيرهم هذا ﴾ الخبر مستعمل في معنى التشكيك ، أي لعله فعله كبيرهم إذ لم يقصد إبراهيم نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر لأنه لم يدع أنه شاهد ذلك ولكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك حيث لم يَبق صحيحاً من الأصنام إلا الكبير .

وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار دليل انتفاء تعدد الآلهة لأنه أوهمهم أن كبيرهم غضب من مشاركة تلك الأصنام له في المعبودية ، وذلك تدرّج إلى دليل الوحدانية ، فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم ، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة بطريق الأوْلى على نية أن يكر على ذلك كله بالإبطال ويوقنهم بأنه الذي حطم الأصنام وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته وحرفائه ، ولذلك قال ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون

﴾ تهكُّماً بهم وتعريضاً بأن ما لا ينطق ولا يعرب عن نفسه غير أهل للآلهية .

وشمل ضمير ﴿ فاسألوهم ﴾ جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائماً .

والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثاً عظيماً مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعلَه بهم .

وهذا نظير استدلال علماء الكلام على دلالة المعجزة على صدق الرسول بأن الله لا يخرق عادة لتصديق الكاذب ، فخلقه خارق العادة عند تحدّي الرسول دليل على أن الله أراد تصديقه .

وأما ما روي في "الصحيح" عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كَذبات ثنتين منه في ذات الله عزّ وجل قوله ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ .

وبيْنَا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فقال : من هذه ؟ قال : أختي .

فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وأن هذا سألني

فأخبرته أنكِ أختي فلا تكذبيني . . .

" وساق الحديث .

فمعناه أنه كذب في جوابه عن قول قومه : ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا ﴾ حيث قال : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ ، لأن (بل) إذا جاء بعد استفهام أفاد إبطال المستفهم عنه .

فقولهم : ﴿ أأنت فعلتَ هذا ﴾ سؤال عن كونه محطمَ الأصنام ، فلما قال : ﴿ بل ﴾ فقد نفى ذلك عن نفسه ، وهو نفي مخالف للواقع ولاعتقاده فهو كذب .

غير أن الكذب مذموم ومنهي عنه ويرخص فيه للضرورة مثل ما قاله إبراهيم ، فهذا الإضراب كان تمهيداً للحجة على نية أن يتضح لهم الحق بآخره .

ولذلك قال : ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم ﴾ الآية .

أما الإخبار بقوله ﴿ فعله كبيرهم هذا ﴾ فليس كذباً وإن كان مخالفاً للواقع ولاعتقاد المتكلم لأن الكلام والأخبار إنما تستقر بأواخرها وما يعقبها ، كالكلام المعقب بشرط أو استثناء ، فإنه لما قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام مهدّ لذلك كلاماً هو جار على الفرض والتقدير فكأنه قال : لو كان هذا إلهاً لما رضي بالاعتداء على شركائه ، فلما حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم تعين أن يكون هو الفاعلَ لذلك ، ثم ارتقى في الاستدلال بأن سلبَ الإلهية عن جميعهم بقوله ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ كما تقدم .

فالمراد من الحديث أنها كذبات في بادىء الأمر وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها .

وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقعُ بخلافه .

فإذا كان الخبر يُعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل كان تعريضاً أو مزحاً أو نحوهما .

وأما ما ورد في حديث الشفاعة "فيقول إبراهيم : لست هناكم ويذكر كذَبات كذبها"

فمعناه أنه يذكر أنه قال كلاماً خِلافاً للواقع بدون إذن من الله بوحي ، ولكنه ارتكب قولَ خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده فخشي أن لا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله فخشي عتاب الله فتخلص من ذلك الموقف .

وقوله تعالى ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم إلى بعض ، أي أقبل بعضهم على خطاب بعض وأعرضوا عن مخاطبة إبراهيم على نحو قوله تعالى : ﴿ فسلِّموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] ، أي فقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون .

وضمائر الجمع مراد منها التوزيع كما في : ركب القومُ دوابهم ، ويجوز أن يكون معناه فرجع كل واحد إلى نفسه ، أي ترك التأمل في تهمة إبراهيم وتدبر في دفاع إبراهيم .

فلاح لكل منهم أن إبراهيم بريء فقال بعضهم لبعض ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ .

وضمائر الجمع جارية على أصلها المعروف .

والجملة مفيدة للحصرْ ، أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به التهمة بأنه ظَلَمَ أصنامنا مع أن الظاهر أن نسألها عمّن فعلَ بها ذلك ، ويظهر أن الفاعل هو كبيرهم .

والرجوع إلى أنفسهم على الاحتمالين السابقين مستعار لشغل البال بشيء عقب شغله بالغير ، كما يرجع المرء إلى بيته بعد خروجه إلى مكان غيره .

وفعل ﴿ نُكِسوا ﴾ مبني للمجهول ، أي نَكسهم ناكس ، ولمّا لم يكن لذلك النكس فاعل إلاّ أنفسهم بني الفعل للمجهول فصار بمعنى : انتَكَسوا على رؤوسهم .

وهذا تمثيل .

(157/511)

والنكس : قلب أعلى الشيء أسفلَه وأسفله أعلاه ، يقال : صُلب اللص منكوساً ، أي مجعولاً رأسه مباشراً للأرض ، وهو أقبح هيئات المصلوب .

ولما كان شأن انتصاب جسم الإنسان أن يكون منتصباً على قدميه فإذا نُكِّس صار انتصابه كأنه على رأسه ، فكان قوله هنا ﴿ نكسوا على رؤوسهم ﴾ تمثيلاً لتغيّر رأيهم

عن الصواب كما قالوا ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ إلى معاودة الضلال بهيئة من تغيرت أحوالهم من الانتصاب على الأرجل إلى الانتصاب على الرؤوس منكوسين .

فهو من تمثيل المعقول بالمحسوس والمقصود به التشنيع .

وحرف (على) للاستعلاء أي علت أجسادهم فوق رؤوسهم بأن انكبوا انكباباً شديداً بحيث لا تبدو رؤوسهم .

وتحتمل الآية وجوهاً أخرى أشار إليها في "الكشاف" .

والمعنى : ثم تغيرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام ، فقالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ ، أي أنت تعلم أن هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ إلا التنصل من جريمتك .

فجملة ﴿ لقد علمت ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف دل عليه ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ .

وجملة ﴿ ما هؤلاء ينطقون ﴾ تفيد تقوي الاتصاف بانعدام النطق ، وذلك بسبب انعدام آلته وهي الألسُن .

وفعل ﴿ عَلمت ﴾ معلق عن العمل لوجود حرف النفي بعده ، فلما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم مفرعاً على اعترافهم بأنها لا تنطق

استفهاماً إنكارياً على عبادتهم إياها وزائداً بأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر .

وجعل عدم استطاعتها النفع والضر ملزوماً لعدم النطق لأن النطق هو واسطة الإفهام ،

ومن لا يستطيع الإفهام تبين أنه معدوم العقل وتوابعه من العلم والإرادة والقدرة .

و﴿ أُفّ ﴾ اسم فعل دالّ على الضجَر ، وهو منقول من صورة تنفس المتضجّر لضيق

نفسه من الغضب .

وتنوين ﴿ أف ﴾ يسمى تنوين التنكير والمرَاد به التعظيم ، أي ضجراً قوياً لكم .

(158/511)

وتقدم في [سورة الإسراء : 23] ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ واللام في ﴿ لكم ﴾ لبيان

المتأفّف بسببه ، أي أف لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله .

وإظهار اسم الجلالة لزيادة البيان وتشنيع عبادة غيره .

وفَرَّع على الإنكار والتضجر استفهاماً إنكارياً عن عدم تدبرهم في الأدلة الواضحة من

العقل والحس فقال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17

صـ ﴾

(159/511)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) ﴾

هنا أيضاً كلام محذوف : فأَتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا ﴾ [الأنبياء : 62] استفهام عن الفاعل ؛ لأن الفعلَ وضاح لا يحتاج إلى استفهام ؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا . . ﴾ [الأنبياء : 62] كما تقول : أبنيتَ الدار التي كنت تنوي بناءها ؟ فهذا استفهام عن الفِعْل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل . ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ . . . ﴾ .

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا - إذن - تعبدونهم ؟

وقَوْل إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا . . . ﴾ [الأنبياء : 63] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث ردَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتّى منه ، وقد ضرب الزمخشري - رحمه الله - مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسِن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة ؟ فيقول : لا بل أنت الذي كتبتَها ! ! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 63] وهم لن يسألوهم ؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم . ﴿ فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ .

أي : تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم، ونطقوا بالحق : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ [الأنبياء : 64] يعني : بعبادتكم هذه الأصنام، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ، ولا ترى ولا تتكلم .

(160/511)

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه العبادة، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم، وخسارتهم بها ستكون كبيرة، هذه الصحوة ستُفقِدهم السُّلْطة الزمنية التي يعيشون في ظلها، وينتفعون من ورائها بما يُهدَي للأصنام؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة . ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ . . . ﴾ .

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 65]

والنكسة : أن الأعلى يأتي في الأسفل، وأنتم تعلمونها طبعاً ! ! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 65] وهذا هو التغفيل بعينه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ . . . ﴾ .

يعني : لا ينفعكم بشيء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشيء إنْ تركتم عبادته . ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا

تَعْبُدُونَ . . . ﴾ .

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية ؛ لذلك يسمونها " الخالفة " لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم – عليه السلام – يعبِّر بهذه الكلمة (أُفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(161/511)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ قال : هديناه صغيراً . وفي قوله : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ قال : الأصنام .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ يقول : آتيناه هداه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ التي أنتم لها عاكفون ﴾ قال : عابدون . وفي قوله : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ أي على دين ، وإنا متبعوهم على ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن علي بن أبي طالب أنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها .

وأخرج ابن عساكر عن علي قال : لا يسلم على أصحاب النردشير والشطرنج .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا : يا إبراهيم ، ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فسمعه ناس منهم ، فلما خرجوا انطلق إلى أهله فأخذ طعاماً ثم انطلق إلى آلهتهم فقرّبه إليهم فقال : ألا تأكلون ؟ فكسرها إلا كبيرهم ، ثم ربط في يده الذي كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر به الأصنام ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال

الذين سمعوا إبراهيم قال : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ سمعنا فتى يذكرهم . فجادلهم عند ذاك إبراهيم .

(162/511)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ قال : قول إبراهيم حين استتبعه قومه إلى عيدهم فأبى وقال : إني سقيم ، فسمع منه وعيده أصنامهم رجل منهم استأخر ، وهو الذي قال : ﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ ، وجعل إبراهيم الفأس التي أهلك بها أصنامهم مسندة إلى صدر كبيرهم الذي تُرِك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ، أن أبا إبراهيم خليل الرحمن كان يعمل هذه الأصنام ثم يشكها في حبل ويحمل إبراهيم على عنقه ويدفع إليه المشكوك يدور يبيعها ، فجاء رجل يشتري فقال له إبراهيم : ما تصنع بهذا حين تشتريه ؟ قال : أسجد له . قال له إبراهيم : أنت شيخ تسجد لهذا الصغير ! إنما ينبغي للصغير أن يسجد للكبير فعندها ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وتالله لأكيدن

أصنامكم ﴾ قال : ترى أنه قال ذلك من حيث لا يسمعون ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ قال : قطعاً ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ يقول : إلا كبير آلهتهم وأنفسها وأعظمها في أنفسهم . ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ قال : كايدهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون . وفي قوله : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ قال : كرهوا أن يأخذوه بغير بينة . وفي قوله : ﴿ أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ أنتم الظالمون ﴾ قال : وهذه هي الخصلة التي كايدهم بها ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ قال : أدركت القوم غيرة سوء فقالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ جذاذاً ﴾ قال : حطاماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جذاذاً ﴾ قال : فتاتاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ قال : عظيم آلهتهم .

وأخرج أبو داود والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله : قوله إني سقيم ولم يكن سقيماً ، وقوله لسارة أختي ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ " .

وأخرج أبو يعلى عن أبي سعيد ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يأتي الناس إبراهيم فيقولون له : اشفع لنا إلى ربك . فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ، قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله لسارة إنها أختي " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ قال : نظر بعضهم إلى بعض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ قال : في الرأي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿ أف ﴾ يعني الرديء من الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) ﴾

قوله : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ ﴾ : في " أنت " وجهان ، أحدهما : أنه فاعلٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّرُه الظاهرُ بعدَه . والتقدير : أفعلتَ هذا بآلهتِنا ، فلمَّا حُذِفَ الفعلُ انفصَلَ الضميرُ . والثاني : أنه مبتدأٌ ، والخبرُ بعده الجملةُ . والفرقُ بين الوجهين من حيثُ اللفظُ واضحٌ : فإنَّ الجملةَ مِنْ قولِه " فَعَلْتَ " الملفوظِ بها على الأولِ لا محلَّ لها لأنها مُفَسِّرةٌ ، ومحلُّها الرفعُ على الثاني ، ومن حيث المعنى : إن الاستفهامَ إذا دَخَلَ على الفعلِ أَشْعَرَ بأن الشَّكَّ إنما تعلَّق به : هل وقع أم لا ؟ من غيرِ شكٍ في فاعِله . وإذا دخل على الاسم وقع الشكُّ فيه : هل هو الفاعلُ أم غيرُه ، والفعل غيرُ مشكوكٍ في وقوعه ، بل هو واقعٌ فقط . فإذا قلت : " أقام زيدٌ " ؟ كان شكُّك في قيامِه . وإذا قلتَ : " أزيدٌ قام " وجعلتَه مبتدأً كان شُكَّكَ في صدورِ الفعل منه أم من عمروٍ . والوجه الأولُ هو المختارُ عند النحاةِ لأنَّ الفعلَ تقدَّم ما يطلبُه وهو أداةُ الاستفهام .

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63)

قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ ﴾ : هذا الإِضرابُ عن جملةٍ محذوفةٍ تقديرُه : لم أفعَلْه ، إنما الفاعلُ حقيقةً اللهُ تعالى ، بل فعله . وإسنادُ الفعلِ إلى "كبيرهم " مِنْ أبلغِ/المعاريض .

قوله : ﴿ هذا ﴾ فيه ستةُ أوجه ، أحدُها : أن يكونَ نعتاً ل "كبيرُهم" ، الثاني : أن يكونَ بدلاً من "كبيرُهم" . الثالث : أن يكونَ خبراً ل "كبيرهم" على أنَّ الكلامَ يَتِمُّ عند قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ ﴾ ، وفاعل الفعلِ محذوفٌ ، كذا نقله أبو البقاء ، وقال : " وهذا بعيدٌ لأنَّ حَذْفَ الفاعلِ لا يَسُوغ " ، قلت : وهذا القولُ يعزى للكسائي ، وحينئذٍ لا يَحْسُن الردُّ عليه بحذفِ الفاعلِ فإنه يُجيز ذلك ويلتزمُه ، ويجعلُ التقديرَ : بل فعله مَنْ فعله . ويجوز أَنْ يكونَ أراد بالحذفِ الإِضمارَ لأنه لَمَّا لم يُذكر الفاعلُ لفظاً سُمِّي ذلك حَذْفاً .

الرابع : أن يكونَ الفاعلُ ضميرَ "فتى" . الخامس : أن يكون الفاعلُ ضميرَ "إبراهيمُ" .

وهذان الوجهان يؤيِّدان ما ذكَرْتُ من أنه قد يكون مرادُ القائلِ بحذفِ الفاعل إنما هو الإِضمارُ . السادس : أنَّ "فَعَلَه" ليس فعلاً ، بل الفاء حرف عطف دخلَتْ على "عَلَّ" التي أصلها "لعلَّ" حرف تَرَجٍّ . وحَذْفُ اللامِ الأولى ثابتٌ ، فصار اللفظُ فَعَلَّه أي فَلَعَلَّه ، ثم حُذفت اللامُ الأولى وخُفِّفت الثانيةُ . وهذا يُعْزَى للفراء . وهو قولٌ مرغوبٌ عنه وقد اسْتَدَلَّ على مذهبه بقراءةِ ابن السَّمَيْفَع "فَعَلَّه" بتشديدِ اللام وهذه شاذةٌ ، لا يُرْجَعُ بالقراءة المشهورة إليها ، وكأن الذي حَمَلَهم على هذا خفاءُ وجهِ صدورِ هذا الكلامِ من

النبيّ عليه السلام .

قوله : ﴿ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ جوابُه محذوفٌ لدلالة ما قبلَه . ومَنْ يجوِّزْ التقديمَ يجعلْ " فسألوهم " هو الجوابَ .

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65)

(166/511)

قوله : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ ﴾ : قرأ العامَّةُ " نُكِسُوا " مبنياً للمفعول مخففةَ الكاف أي : نَكَسَهم اللهُ أو خَجَّلهم . و﴿ على رُءُوسِهِمْ ﴾ حالٌ أي : كائنين على رؤوسهم . ويجوز أن يتعلَّق بنفسِ الفعل .

والنَّكْسُ والتَّنْكيسُ : القَلْبُ يقال : نَكَس رأسَه ونَكَّسه مخففاً ومشدداً أي : طَأْطأه حتى صار أعلاه أسفله . وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وابن الجارود وابن مقسم " نُكِّسوا " بالتشديد . وقد تقدَّم أنه لغةٌ في المخفف ، فليس التشديدُ لتعديةٍ ولا تكثيرٍ . وقرأ رضوان بن عبد المعبود " نَكَسُوا " مخففاً مبنياً للفاعل ، وعلى هذا فالمفعولُ محذوفٌ تقديرُه : نَكَسوا أنفسَهم على رؤوسهم .

قولهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ هذه الجملةُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ ، والقسمُ وجوابُه معمولان

لقولٍ مضمرٍ ، وذلك القولُ المضمرُ حالٌ من مرفوع " نُكِسُوا " أي : نُكِسُوا قائلين واللهِ لقد علمتَ .

قوله : ﴿ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ " ما " هذه حجازيةً فيكونَ " هؤلاء " اسمَها و" يَنْطِقون " في محلِّ نصب خبرَها ، أو تميميةً فلا عملَ لها . والجملةُ المنفيةُ بأَسْرِها سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولَيْن ، إن كانت " عَلِمْتَ " على بابِها ، ومَسَدَّ واحدٍ إن كَانَتْ عِرْفانية .

أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)

وقد تقدَّم الكلامُ على " أف " في سبحان ولغاتها . واللامُ في " لكم " وفي " لِما " لامُ التبيينِ أي : التأفيفُ لكم لا لغيرِكم وهي نظيرةُ ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 177.180 ﴾

(167/511)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) ﴾

فقال : شرٌّ وأَمَرُّ . . كيف تستحق أمثالُ هذه . . . العبادة ؟ !

فلمّا توجّهتْ الحجةُ عليهم ولم يكن لهم جواب داخَلْتهم الأُنَفَةُ والحمية فقالوا : سبيلنا أن نقتله شرَّ قتله ، وأن نعامِله بما يخوفنا به من النار . فقالوا : ﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : 97] ، فلما رموه في النار . . . ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 508 ﴾

(168/511)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصل بهم إلى هذا الحد من البيان ، فدحضت حجتهم ، وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، فانقطعوا انقطاعاً فاضحاً ، أشار سبحانه إلى الإخبار عن ذلك بقوله

استئنافاً : ﴿ قالوا ﴾ عادلين إلى العناد واستعمال القوة الحسية : ﴿ حرقوه ﴾ بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلاً هو أعظم مما فعل بآلهتكم ﴿ وانصروا آلهتكم ﴾ التي جعلها جذاذاً ؛ وأشاء التعبير - بأداة الشك وفعل الكون واسم الفاعل إلى أن أذاه لا يسوغ ، وليس الحامل عليه إلا حيلة غلبت على الفطرة الأولى السليمة - في قوله : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي النصرة لها ، فإن النار أهول المعاقبات وأفظعها ، فهي أزجر لمن يريد مثل هذا الفعل ، واتركوا الجدال فإنه يورث ضد ما تريدون ، ويؤثر عكس ما تطلبون ، فعزموا على ذلك فجمعوا الحطب شهراً ووضعوه في جوبة من الأرض أحاطوا بها جداراً كما في الصافات حتى كان ذلك الحطب كالجبل ، وأضرموا فيه النار حتى كان على صفة لم يوجد في الأرض قط مثلها ، حتى إن كان الطائر ليمر بها في الجو فيحترق ، ثم ألقوه فيها بالمنجنيق فقال : حسبي الله ونعم الوكيل - أخرجه البخاري عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، ولأبي يعلى عن أبي هريرة - رضى الله عنهم - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

(169/511)

" لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال : اللهم ! إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد ، عبدك " وقال البغوي : أتاه خازن المياه فقال : إن أردت أخمدت النار ، وأتاه

خازن الرياح فقال : إن شئت طيرت النار في الهواء ، فقال إبراهيم : لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل .

فأراد الله الذي له القوة جميعاً سلامته منها ، فعبر عن ذلك بقوله سبحانه استئنافاً لجواب من زاد تشوفه إلى ما كان من أمره بعد الإلقاء فيها : ﴿ قلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ يا نار كوني ﴾ بإرادتنا التي لا يتخلف عنها مراد ﴿ برداً ﴾ .

ولما كان البرد قد يكون ضاراً قال : ﴿ وسلاماً ﴾ فكانت كذلك ، فلم تحرق منه إلا وثاقه .

ولما كان المراد اختصاصه عليه السلام بهذا قيده به ، ولما كان المراد حياته ولا بد ، عبر بحرف الاستعلاء فقال : ﴿ على إبراهيم ﴾ أي فكان ما أردنا من سلامته ، وروى البغوي من طريق البخاري عن أم شريك . رضى الله عنهم . ا " أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أمر بقتل الوزغ وقال : كان ينفخ النار على إبراهيم "

وقال ابن كثير : وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عبيد الله بن أخي وهب ثنا عمي عن جرير بن حازم أن نافعاً حدثه قال : حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت : دخلت على عائشة . رضى الله عنهم . ا فرأيت في بيتها رمحاً فقلت : يا أم المؤمنين ! ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به هذه الأوزاغ ، إن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال : " إن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفىء عنه غير الوزغ ، فإنه

كان ينفخ على إبراهيم فأمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقتله " .

ولما قدم ما نبه على شدة الاهتمام به لإفهامه أنه حكم بسلامته من كيدهم عند همهم به فكيف بما بعده ! قال عاطفاً على ما تقديره : فألقوه فيها : ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ أي مكراً بإضراره بالنار وبعد خروجه منها ﴿ فجعلناهم ﴾ أي بما لنا من الجلال .

(170/511)

ولما كانوا قد أرادوا بما صنعوا له من العذاب أن يكون أسفل منهم أهل ذلك الجمع ، وكان السياق لتحقيق أمر الساعة الذي هو مقصود السورة ، وكان الصائر إليها المفرط فيها بالتكذيب بها قد خسر خسارة لا جبر لها لفوات محل الاستدراك ، قال :

﴿ الأخسرين ﴾ لأن فضيحتهم في الدنيا الموجبة للعذاب في الأخرى كانت بنفس فعلهم الذي كادوه به ، ولم يذكر سبحانه شعيباً عليه السلام مع أنه سخر له النار في يوم الظلة فأحرقت عصاه ، لأن فعل النار بقومه كان على ما هو المعهود من أمرها بخلاف فعلها مع إبراهيم عليه السلام ، فإنه على خلاف المعتاد ، وقد وقع مثل هذا لبعض أتباع نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو أبو مسلم الخولاني ، طلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم !

فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً ، وقدم المدينة بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم- فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر -رضى الله عنهما- وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله .

(171/511)

ولما كان إنجاؤه – وهو وحده – ممن أرادوا به هذا الأمر العظيم من العجائب فكيف إذا انضم إليه غيره ، ولم يكن في ذلك الغير آية تمنعهم عنه كما كان في إبراهيم عليه السلام ، قال : ﴿ ونجيناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ ولوطاً ﴾ أي ابن أخيه وصديقه لكونه آمن به وصدقه ، من بلادهما كوثى بلاد العراق ، منتهيين إلى الأرض المقدسة ، ولعله عبر بإلى الدالة على تضمين " انتهى " للدلالة على أن هناك غاية طويلة ، فإنهما خرجا من كوثى من أرض العراق إلى حران ثم من حران ﴿ إلى الأرض ﴾ المقدسة ﴿ التي باركنا فيها ﴾ بأن ملأناها من الخيرات الدنيوية والأخروية بما فيها من المياه التي بها حياة كل شيء من الأشجار والزروع وغيرها ، وما ظهر منها من الأنبياء عليهم السلام الذي ملؤوا الأرض نوراً ﴿ للعالمين ﴾ كما أنجيناك أنت يا أشرف أولاده وصديقك أبا بكر -رضى الله عنهم- إلى طيبة التي

شرفناها بك، وبثثنا من أنوارها في أرجاء الأرض وأقطارها ما لم نبث مثله قط، وباركنا فيها للعالمين، بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين، الذين انبثت خيراتهم العلمية والعملية والمالية في جميع الأقطار.

(172/511)

ولما أولد له في حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيماً، وكان ذلك دالاً على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له، قال: ﴿ ووهبنا ﴾ دالاً على ذلك بنون العظمة ﴿ له إسحاق ﴾ أي من شبه العدم، وترك شرح حاله لتقدمه، أي فكان ذلك دالاًّ على اقتدارنا على ما نريد لا سيما من إعادة الخلق في يوم الحساب؛ ولما كان قد يظن أنه - لتولده بين شيخ فانٍ وعجوز مع يأسها عقيم - كان على حالة من الضعف، لا يولد لمثله معها، نفى ذلك بقوله: ﴿ ويعقوب نافلة ﴾ أي ولد إسحاق زيادة على ما دعا به إبراهيم عليهما السلام؛ ثم نمى سبحانه أولاد يعقوب - وهو إسرائيل - وذرياتهم إلى أن ساموا النجوم عدة، وباروا الجبال شدة ﴿ وكلاًّ ﴾ من هؤلاء الأربعة؛ وعظم رتبتهم بقوله: ﴿ جعلنا صالحين ﴾ أي مهيئين - لطاعتهم لله - لكل ما يريدونه أو يرادون له أو يراد منهم، وهذا إشارة إلى أن العاصي هالك، لا يصلح لشيء وإن طال عمره، واشتد أمره، لأن العبرة

بالعاقبة .

ولما ذكر أنه أعطاهم رتبة الصلاح في أنفسهم ، ذكر أنه أعطاهم رتبة الإصلاح لغيرهم ، فقال معظماً لإمامتهم : ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ أي أعلاماً ومقاصد يقتدى بهم في الدين بما أعطاهم من النبوة .

ولما كان الإمام قد يدعو إلى الردى ، ويصد عن الهدى ، إذا كانت إمامته ظاهرة لا يصحبها صلاح باطن ، احترز عن ذلك بقوله : ﴿ يهدون ﴾ أي يدعون إلينا من وفقناه للهداية ﴿ بأمرنا ﴾ وهو الروح الذي هو العمل المؤسس على العلم بإخبار الملائكة به عنا ، ولإفهام ذلك عطف عليه قوله معظماً لوحيه إليهم : ﴿ وأوحينا إليهم ﴾ أي أيضاً ﴿ فعل ﴾ أي أن يفعلوا ﴿ الخيرات ﴾ كلها وهي شرائع الدين ، ولعله عبر بالفعل دلالة على أنهم امتثلوا كل ما أوحي إليهم .

ولما كانت الصلاة أم الخيرات ، خصها بالذكر فقال : ﴿ وإقام الصلاة ﴾ قال الزجاج : الإضافة عوض عن تاء التأنيث .

يعني فيكون من الغالب لا من القليل ، وكان سر الحذف تعظيم الصلاة لأنها مع نقصها عن صلاتنا – لما أشار إليه الحذف – بهذه المنزلة من العظمة فما الظن بصلاتنا .

ولما كانت الصلاة بين العبد والحق ، وكان روحها الإعراض عن كل فان ، عطف عليها قوله : ﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ أي التي هي مع كونها إحساناً إلى الخلق بما دعت الصلاة إلى الانسلاخ عنه من الدنيا ، ففعلوا ما أوحيناه إليهم ﴿ وكانوا لنا ﴾ دائماً جبلة وطبعاً ﴿ عابدين ﴾ أي فاعلين لكل ما يأمرون به غيرهم ، فعل العبد مع مولاه من كل ما يجب له من الخدمة ، ويحق له من التعظيم والحرمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 95 . 98 ﴾

(174/511)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما أظهره إبراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وإبطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم ، وأنهم : ﴿ قَالُواْ حَرّقُوهُ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾

وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

ليس في القرآن من القائل لذلك والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح ، وقال مجاهد : سمعت ابن عمر يقول : إنما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس ، وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائي قال : إن الذي قال حرقوه رجل اسمه هيرين ، فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

المسألة الثانية :

أما كيفية القصة فقال مقاتل : لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة ، وذلك قوله : ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ [الصافات : 97] ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى أن المرأة لو مرضت قالت : إن عافاني الله لأجعلن حطباً لإبراهيم ، ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوماً ، فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق ، ثم أخذوا إبراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ، ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً ، فصاحت

السماء والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة ، أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم ، وإنه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته ، فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أتاه خازن الرياح فقال : إن شئت طيرت النار في الهواء ، فقال إبراهيم عليه السلام : لا حاجة بي إليكم ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : "اللهم أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، أنت حسبنا ونعم الوكيل" وقيل إنه حين ألقي في النار قال : "لا إله إلا أنت سبحانك ربك العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك" ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به النار ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ، قال : أما إليك فلا ؟ قال : فاسأل ربك ، قال : حسبي من سؤالي ، علمه بحالي .

فقال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ وقال السدي : إنما قال ذلك جبريل عليه السلام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية مجاهد : ولو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، قال : ولم يبق يومئذ في الدنيا نار إلا طفئت ، ثم قال السدي

: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه في الأرض ، فإذا عين ماء عذب ، وورد أحمر ، ونرجس .

ولم تحرق النار منه إلا وثاقه ، وقال المنهال بن عمرو أخبرت أن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار كان فيها إما أربعين يوماً أو خمسين يوماً ، وقال : ما كنت أياماً أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها ، وقال ابن إسحق : بعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم ، فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه ، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة ، وقال : يا إبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبابي ، ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على إبراهيم فرآه جالساً في روضة ، ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب ، فناداه نمروذ : يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال : قم فاخرج ، فقام يمشي حتى خرج منها ، فلما خرج قال له نمروذ : من الرجل الذي رأيته معك في صورتك ؟ قال : ذاك ملك الظل أرسله ربي ليؤنسني فيها .

فقال نمروذ : إني مقرب إلى ربك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك .

فإني ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال إبراهيم عليه السلام : لا يقبل الله منك ما دمت على دينك ، فقال نمروذ : لا أستطيع ترك ملكي ، ولكن سوف أذبحها له ، ثم ذبحها له وكف عن إبراهيم عليه السلام ، ورويت هذه القصة على وجه آخر ، وهي أنهم بنوا لإبراهيم بنياناً وألقوه فيه ، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عليه من الغد ، فإذا هو غير محترق يعرق عرقاً ، فقال لهم هاران أبو لوط : إن النار لا تحرقه لأنه سحر النار ، ولكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله ، فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته ، فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته .

المسألة الثالثة :

إنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات ، ولهذا قيل : ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي إن كنتم تنصرون آلهتكم نصراً شديداً ، فاختاروا أشد العقوبات وهي الإحراق .

أما قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا نارُ كُونِي بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو مسلم الأصفهاني في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا نارُ كُونِي بَرْداً ﴾ المعنى أنه سبحانه جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً كقوله : ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي يكونه ، وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه ، والأكثرون على أنه وجد ذلك القول .

ثم هؤلاء لهم قولان : أحدهما : وهو قول سدي : أن القائل هو جبريل عليه السلام .

والثاني : وهو قول الأكثرين أن القائل هو الله تعالى ، وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر ، وقوله : النار جماد فلا يكون في خطابها فائدة ، قلنا : لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الأمر مصلحة عائدة إلى الملائكة .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال : أحدها : أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق ، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق والله على كل شيء قدير .

وثانيها : أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه ، كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة ، وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار .

وثالثها : أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه ، قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله : ﴿ يانار كُونِي بَرْداً ﴾ أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت ، فإن قيل : النار جسم موصوف بالحرارة

واللطافة ، فإذا كانت الحرارة جزء من مسمى النار امتنع كون النار باردة ، فإذاً وجب أن يقال : المراد من النار الجسم الذي هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين ؟ قلنا : المجاز الذي ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفي المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى .

أما قوله تعالى : ﴿كُونِي بَرْداً وسلاما على إبراهيم﴾ فالمعنى أن البرد إذا أفرط أهلك كالحر بل لا بد من الإعتدال ثم في حصول الاعتدال ثلاثة أوجه : أحدها : أنه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذي لا يؤثر .

وثانيها : أن بعض النار صار برداً وبقي بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد .

وثالثها : أنه تعالى جعل في جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول : أو كل النار زالت وصارت برداً .

الجواب : أن النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد في الماهية ويلزم منه عمومه في كل أفراد الماهية ، وقيل : بل اختص بتلك النار لأن الغرض إنما تعلق ببرد تلك النار وفي النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها ، والمراد خلاص إبراهيم عليه السلام لا إيصال الضرر إلى سائر الخلق .

السؤال الثاني : هل يجوز ما روي عن الحسن من أنه سلام من الله تعالى على إبراهيم عليه السلام .

(179/511)

الجواب الظاهر كما أنه جعل النار برداً جعلها سلاماً عليه حتى يخلص ، فالذي قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب .

السؤال الثالث : أفيجوز ما روي من أنه لو لم يقل وسلاماً لأتى البرد عليه .

والجواب : ذلك بعيد لأن برد النار لم يحصل منها وإنما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال : كان البرد يعظم لولا قوله سلاماً .

السؤال الرابع : أفيجوز ما قيل من أنه كان في النار أنعم عيشاً منه في سائر أحواله .

والجواب : لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ، ويجوز أن يكون إنما صار أنعم عيشاً هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الأمر العظيم ولعظم شروره بظفره بأعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ أي أرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلا مغلوبين ، غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ، ثم عدلوا القوة والجبروت

فنصره وقواه عليهم، ثم إنه سبحانه أتم النعمة عليه بأن نجاه ونجى لوطاً معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

وفي الأخبار أن هذه الواقعة كانت في حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة إلى الأرض المباركة، ثم قيل: إنها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى: ﴿إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1] والسبب في بركتها، أما في الدين فلأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها، وأما في الدنيا فلأن الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش، وقيل: ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)﴾

(180/511)

اعلم أنه تعالى بعد ذكره لإنعامه على إبراهيم وعلى لوط بأن نجاهما إلى الأرض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم، وإنما جمع بينهما لأن في كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة في النبوة مزيد إنعام، ثم إنه سبحانه ذكر النعم التي أفاضها على إبراهيم عليه السلام ثم النعم التي أفاضها على لوط، أما الأول فمن وجوه؛ أحدها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ

إسحاق ويَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ واعلم أن النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلاً ، ثم للمفسرين ههنا قولان : الأول : أنه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ هبة أي وهبناهما له عطية وفضلاً من غير أن يكون جزاء مستحقاً ، وهذا قول مجاهد وعطاء .

والثاني : وهو قول أبي بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج : أن إبراهيم عليه السلام لما سأل الله ولداً قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 100] فأجاب الله دعاءه : ووهب له إسحق وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك : ﴿ نَافِلَةً ﴾ كالشيء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ إجابة لدعائه : ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة .

والوجه الأول : أقرب لأنه تعالى جمع بينهما ، ثم ذكر قوله : ﴿ نافلة ﴾ فإذا صلح أن يكون وصفاً لهما فهو أولى .

النعمة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صالحين ﴾ أي وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب أنبياء مرسلين ، هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه .

والوجه الثاني : أقرب لأن لفظ الصلاح يتناول الكل لأنه سبحانه قال بعد هذه الآية : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لأن قوله ؛ ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صالحين ﴾ يدل على أن ذلك الصلاح من قبله ، أجاب الجبائي بأنه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين .

ولما مدحهم بذلك ، ولما أثنى عليهم ، وإذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين :

الأول : أن يكون المراد أنه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به .

والثاني : أن يكون المراد أنه سماهم بذلك كما يقال : زيد فسق فلاناً وضلله وكفره إذا وصفه بذلك وكان مصدقاً عند الناس ، وكما يقال في الحاكم : زكى فلاناً وعدله وجرحه إذا حكم بذلك .

واعلم أن هذه الوجوه مختلة ، أما اعتمادهم على المدح والذم .

فالجواب المعهود أن نعارضه بمسألتي الداعي والعلم ، وأما الحمل على اللطف فباطل لأن فعل الإلطاف عام في المكلفين فلا بد في هذا التخصيص من مزيد فائدة ، وأيضاً فلأن قوله : جعلته صالحاً ، كقوله جعلته متحركاً ، فحمله على تحصيل شيء سوى الصلاح ترك للظاهر ، وأما الحمل على التسمية فهو أيضاً مجاز أقصى ما في الباب أنه قد يصار إليه عند

الضرورة في بعض المواضع وههنا لا ضرورة إلا أن يرجعوا مرة أخرى إلى فصل المدح والذم ، فحينئذ نرجع أيضاً إلى مسألتي الداعي والعلم .

النعمة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ وفيه قولان : أحدهما : أي جعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا وإذننا .

الثاني : قول أبي مسلم أن هذه الإمامة هي النبوة ، والأول أولى لئلا يلزم التكرار ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين : أحدهما : على خلق الأفعال بقوله : ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ وتقريره ما مضى .

(182/511)

والثاني : على أن الدعوة إلى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز إلا بأمر الله تعالى لأن الأمر لو لم يكن معتبراً لما كان في قوله بأمرنا فائدة .

النعمة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ وهذا يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الأب ، قال الزجاج : حذف الهاء من إقامة الصلاة لأن الإضافة عوض عنه ، وقال غيره : الإقام والإقامة مصدر ، قال أبو القاسم الأنصاري : الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى ، والزكاة أشرف

العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، واعلم أنه سبحانه وصفهم أولاً بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالإمامة .

ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي .

وإذا كان الصلاح الذي هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون فإن المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية ، ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال : ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا عَابِدِينَ ﴾ كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 162 . 166 ﴾

(183/511)

وقال الماوردى :

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

وفي الذي أشار عليهم بذلك قولان :

أحدهما : أنه رجل من أعراب فارس يعني أكراد فارس ، قاله ابن عمر ، ومجاهد . وابن جريج .

الثاني : أنه هيزون فخسف الله به الأرض وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وقيل إن إبراهيم حين أوثق ليلقى في النار فقال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .

وقال عبد الله بن عمر : كانت كلمة إبراهيم حين أُلقي في النار : حسبي الله ونعم الوكيل .

قال قتادة : فما أحرقت النار منه إلا وثاقه .

قال ابن جريج : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة .

وقال كعب : لم يبق في الأرض يومئذ إلا من يطفىء عن إبراهيم النار ، إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ، فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلها .

قال الكلبي : بنوا له أتوناً ألقوه فيه ، وأوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوه عليه وفتحوه من الغد ، فإذا هو عرق أبيض لم يحترق ، وبردت نار الأرض فما أنضجت يومئذ كراعاً .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ جعل الله فيها برداً يدفع حرها ، وحراً يدفع بردها ، فصارت سلاماً عليه .

قال أبو العالية : ولو لم يقل " سلاماً " لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل " على إبراهيم " لكان بردها باقيا على الأبد .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً ﴾

قيل إن لوط كان ابن أخي إبراهيم فآمن به ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] فلذلك نجاهما الله .

﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [فيه] ثلاثة أقاويل :

أحدها : من أرض العراق إلى أرض الشام قاله قتادة ، وابن جريج .

الثاني : إلى أرض بيت المقدس ، قاله أبو العوام .

الثالث : إلى مكة ، قاله ابن عباس .

(184/511)

وفي بركتها ثلاثة أقاويل : أحدها : أن منها بعث الله أكثر الأنبياء .

الثاني : لكثرة خصبها ونمو نباتها .

الثالث : عذوبة مائها وتفرقه في الأرض منها . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التي ببيت المقدس ، ثم يتفرق في الأرض .

قال كعب الأحبار ، والذي نفسي بيده إن العين التي بدارين لتخرج من تحت هذه الصخرة ، يعني عيناً في البحر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾

فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن النافلة الغنيمة ، قال لبيد :

لله نافلة الأفضل . . . . الثاني : أن النافلة الابن ، حكاه السدي .

الثالث : أنها الزيادة في العطاء . وفيما هو زيادة قولان :

أحدهما : أن يعقوب هو النافلة ، لأنه دعا بالولد فزاده الله ولد الولد ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : أن إسحاق ويعقوب هما جميعاً نافلة ، لأنهما زيادة على ما تقدم من النعمة عليه ، قاله مجاهد ، وعطاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(185/511)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ ﴾

وروي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس أي من باديتها فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾

تحريض كما تقول أعزم على كذا إن كنت عازماً ، وروي أنهم لما أجمع رأيهم على تحريقه حبسه نمرود الملك وأمر بجمع الحطب فجمع في مدة أشهر وكان المريض يجعل على نفسه نذراً إن هو برىء أن يجمع كذا وكذا حزمة حتى اجتمع من الحطب مما تبرع به الناس ومما جلب الملك من أهل الرساتين كالجبل من الحطب ثم أضرم ناراً فلما أرادوا طرح إبراهيم فيه لم يقدروا على القرب منه ، فجاءهم إبليس في صورة شيخ فقال لهم أنا أصنع لكم آلة يلقى بها في النار ، فعلمهم صنعة المنجنيق ، ثم أخرج إبراهيم عليه السلام فشد رباطاً ووضع في كفه المنجنيق ورمي به فوقع في النار وقد قيل لها ﴿ كوني برداً وسلاماً ﴾ فاحترق الحبل الذي ربط به فقط .

وروي أن جبريل عليه السلام جاءه وهو في الهواء فقال له ألك حاجة فيروى أنه قال أما إليك فعلا .

ويروى أنه قال إني خليل وإنما أطلب حاجتي من خليلي لا من رسوله فقال الله تعالى : يا إبراهيم قطعت الواسطة بيني وبينك لأقطعنها بيني وبين النار ، يا نار .

وروي أنه حين خوطبت النار خمدت كل نار في الأرض .

وروي أن الغراب كان ينقل الحطب إلى نار إبراهيم .

وروي أن الوزغة كانت تنفخ عليه لتضرم وكذلك البغل .

وروي أن العضرفوط والخطافة والضفدع كانوا ينقلون الماء لتطفأ النار فأبقى الله على هذه

الوقاية وسلط الله على تلك الأخرى النوائب والأيدي وقال بعض العلماء إن الله تعالى لو لم يقل ﴿ وسلاماً ﴾ لهلك إبراهيم من برد النار .

(186/511)

قال القاضي أبو محمد : وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه ما رأيت اختصاره لقلة صحته ، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه ﴿ برداً وسلاماً ﴾ فخرج منها سالماً وكانت أعظم آية .

وروي انهم قالوا إنها نار مسحورة لا تحرق فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق .

وروي أن العيدان أينعت وأثمرت له هنالك ثمارها التي كانت أُصولها ، وقوله ﴿ وسلاماً ﴾ معناه وسلامة ، وقال بعضهم هي تحية من الله تعالى لإبراهيم (ع) : وهذا ضعيف وكان الوجه أن يكون مرفوعاً ، و" الكيد " هو ما أرادوه من حرقه وكانوا في خسارة من كفرهم وغلبته لهم وحرق الشيخ الذي جربوا به النار .

وروي أن الملك بنى بناء واطلع منه على النار فرأى إبراهيم عليه السلام ومعه ناس فعجب وسأل هل طرح معه أحد فقيل له فناداه فقال من أولئك فقال هم ملائكة ربي ع والمروي في

هذا كثير غير صحيح.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) ﴾

(187/511)

روي أن إبراهيم عليه السلام لما أخرج من النار أحضره النمرود وكلمه ثم ختم الله عليه بالكفر فلج وقال لإبراهيم في بعض قوله يا إبراهيم أين جنود ربك الذي تزعم، فقال له سيريك فعل أضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من بعوض، فأكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاً، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود فكان رأسه يضرب بالعيدان ودام يعذب بها زماناً طويلاً وهلك منها وخرج إبراهيم عليه السلام وابن أخيه لوط من تلك الارض مهاجرين وهي كوثا من العراق ومع إبراهيم ابنة عمه سارة زوجته، وفي تلك السفرة لقى الجبار الذي رام أخذها واختلف الناس في ﴿ الأرض ﴾ التي بورك فيها ولجأ إليها إبراهيم ولوط عليهما السلام، فقالت فرقة هي مكة وذكروا قول الله تعالى: ﴿ للذي ببكة مباركاً ﴾ [آل عمران: 96] وقال الجمهور من أرض الشام وهي الأرض التي بارك فيها أما من جهة الآخرة فبالنبوءة وأما من جهة الدنيا ففي أطيب بلاد الله أرضاً وأعذبها ماء وأكثرها ثمرة ونعمة وهو الموضع المعروف بسكنى

إبراهيم وعقبه.

وروي أنه ليس في الأرض ماء عذب إلا وأصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس ع وهذا ضعيف وهي أرض المحشر وبها مجمع الناس وبها ينزل عيسى ابن مريم وبها يهلك المسيح الدجال.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال يوماً في خطبته: "إنه كان بالشام جند وبالعراق جند وباليمن جند فقال رجل يا رسول الله خر لي فقال عليك بالشام فإن الله تعالى قد تكفل لي الشام وأهله فمن بقي فليلحق ما منه وليس بعدره"، وقال عمر لكعب الأحبار ألا تتحول إلى المدينة، فقال يا أمير المؤمنين إني أجد في كتاب الله تعالى المنزل أن الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده.

(188/511)

وروي أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من كوثا ومرا بمصر وليست بالطريق ولكنهم نكبوا خوف الإتباع حتى جاؤوا الشام فنزل إبراهيم السبع من أرض فلسطين وهي برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة، و﴿ إسحاق ﴾ بن إبراهيم و﴿ يعقوب ﴾ ولد إسحاق و"النافلة" العطية كما تقول نفلني الإمام ونافلة الطاعة كأنها عطية من الله تعالى لعباده يثيبهم عليها، وقالت

فرقة الموهوب ﴿ إسحاق ﴾ و" النافلة " ﴿ يعقوب ﴾ والأول أبين ، و ﴿ يهدون ﴾ معناه يرشدون غيرهم و" الإقام " مصدر وفي هذا نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(189/511)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وانصروا آلهتكم ﴾ أي : بتحريقه ، لأنه يَعيبها ﴿ إِن كنتم فاعلين ﴾ أي : ناصريها .

الإِشارة إِلى القصة

ذكر أهل التفسير أنهم حبسوا إِبراهيم عليه السلام في بيت ثم بنَوا له حَيْراً طول جداره ستون ذراعاً إِلى سفح جبل منيف ، ونادى منادي الملك : أيها الناس احتطبوا لإِبراهيم ، ولا يتخلفنَّ عن ذلك صغير ولا كبير ، فمن تخلَّف أُلقي في تلك النار ، ففعلوا ذلك أربعين ليلة ، حتى إِن كانت المرأة لتقول : إِن ظفرتُ بكذا لأحتطبَنَّ لنار إِبراهيم ، حتى إِذا كان الحطب يساوي رأس الجدار سدوا أبواب الحَيْر وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها ، حتى إِن كان الطائر ليمرُّ بها فيحترق من شدة حرِّها ، ثم بنَوا بنياناً شامخاً ، وبنَوا فوقه منجنيقاً ،

ثم رفعوا إِبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إِبراهيم رأسه إِلى السماء ، فقال : اللهم أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل ؛ فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة : ربَّنا إِبراهيم يُحرَق فيكَ ، فائذن لنا في نصرته ؛ فقال : أنا أعلمُ به ، وإِن دعاكم فأغيثوه ؛ فقذفوه في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وقيل : ست وعشرين ، فقال : "حسبي الله ونعم الوكيل" .

فاستقبله جبريل ، فقال : يا إِبراهيم ألكَ حاجة ؟ قال : أمّا إِليك فلا ، قال جبريل : فسل ربّك ، فقال : "حسبي من سؤالي علْمُه بحالي" ، فقال الله عز وجل : ﴿ يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إِبراهيم ﴾ ، فلم تبق نار على وجه الأرض يومئذ إِلا طُفِئت وظنّت أنها عُنيت .

وزعم السدي أن جبريل هو الذي ناداها .

وقال ابن عباس : لو لم يُتبع بردها سلاماً لمات إِبراهيم من بردها .

قال السدي : فأخذت الملائكة بضَبْعَي إِبراهيم فأجلسوه على الأرض ، فإِذا عين من ماءٍ عذْب ، وورد أحمر ، ونرجس .

قال كعب ووهب : فما أحرقت النار من إبراهيم إلا وَثاقه ، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام ، وقال غيرهما : أربعين أو خمسين يوماً ، فنزل جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص ، وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه .

وإن آزر أتى نمرود فقال : ائذن لي أن أُخرِج عظام إبراهيم فأدفنها ، فانطلق نمرود ومعه الناس ، فأمر بالحائط فنُقب ، فإذا إبراهيم في روضة تهتزُّ وثيابه تندى ، وعليه القميص وتحته الطنفسة والمَلَك إلى جنبه ، فناداه نمرود : يا إبراهيم ، إن إلهك الذي بلغتْ قُدرته هذا لكبيرٌ ، هل تستطيع أن تخرج ؟ قال : نعم ، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج ، فقال : مَن الذي رأيتُ معك ؟ قال ملَك أرسله إليَّ ربّي ليؤنسني ، فقال نمرود : إني مقرِّب لإلهك قرباناً لما رأيتُ من قدرته ، فقال : إذن لا يقبل الله منكَ ما كنتَ على دينك ، فقال : يا إبراهيم ، لا أستطيع ترك ملكي ، ولكن سوف أذبح له ، فذبح القربان وكفَّ عن إبراهيم .

قال المفسرون : ومعنى "كُوني بَرْداً" أي : ذات برد "وسلاماً" أي : سلامة .

﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ وهو التحريق بالنار ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ وهو أن الله تعالى سلَّط البعوض عليهم حتى أكل لحومهم وشرب دماءهم ، ودخلت واحدة في دماغ نمرود حتى أهلكته ، والمعنى : أنهم كادوه بسوء ، فانقلب السوء عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ونجَّيناه ﴾ أي : من نمرود وكيده ﴿ ولوطاً ﴾ وهو ابن أخي إبراهيم ، وهو لوط بن هاران بن تارح ، وكان قد آمن به ، فهاجرا من أرض العراق إلى الشام .

وكانت سارة مع ابراهيم في قول وهب .

وقال السدي : إِنما هي إبنة ملك حرّان ، لقيها إِبراهيم فتزوجها على أن لا يغيرها ، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم .

فأما قوله تعالى ﴿ إِلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ ، ففيها قولان .

أحدهما : أنها أرض الشام ، وهذا قول الأكثرين .

(191/511)

وبَركَتها : أن الله عزّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها ، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار .

والثاني : أنها مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ ووَهبْنا له ﴾ يعني : إِبراهيم ﴿ إِسحاق ويعقوب نافلة ﴾ ، وفي معنى النافلة قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الزيادة ، والمراد بها : يعقوب خاصة ، فكأنه سأل واحداً ، فأُعطي اثنين ، وهذا مذهب ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، والفراء .

والثاني : أن النافلة بمعنى العطية ، والمراد : بها إِسحاق ويعقوب ، وهذا مذهب مجاهد ،

وعطاء .

قوله تعالى : ﴿ وكُلاًّ جعلنا صالحين ﴾ يعني : إِبراهيم وإِسحاق ويعقوب .

قال أبو عبيدة : "كُلّ" يقع خبره على لفظ الواحد ، لأن لفظه لفظ الواحد ، ويقع خبره على لفظ الجميع ، لأن معناه معنى الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ أي : رؤوساً يُقتدى بهم في الخير ﴿ يَهْدون بأمرنا ﴾ أي : يَدْعون الناس إِلى ديننا بأمرنا إِيّاهم بذلك ﴿ وأوحينا إِليهم فعل الخيرات ﴾ قال ابن عباس : شرائع النبوّة .

وقال مقاتل : الأعمال الصالحة .

﴿ وإِقامَ الصلاة ﴾ قال الزجاج : حذفُ الهاء من "إِقامة الصلاة" قليلٌ في اللغة ، تقول : أقام إِقامة ، والحذف جائز ، لأن الإِضافة عوض من الهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(192/511)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ ﴾

لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وانصرفوا إلى طريق الغَشْم والغلبة وقالوا حرّقوه .

روي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ؛ أي من باديتها ؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج .

ويقال : اسمه هيزر فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وقيل : بل قاله ملكهم نمروذ .

﴿ وانصروا آلِهَتَكُمْ ﴾ بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها .

وجاء في الخبر : أن نمروذ بنى صرحاً طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً .

قال ابن إسحاق : وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدّة وهجها .

ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً .

ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذٍ .

فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين ضجة واحدة : ربنا إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يُحرَق فيك فأذنْ لنا في نُصرته .

فقال الله تعالى : إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه .

فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أتاه خُزَّان الماء وهو في الهواء فقالوا : يا إبراهيم إن أردت

أخمدنا النار بالماء .

فقال : لا حاجة لي إليكم .

وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار .

فقال : لا .

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : "اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل" .

وروى أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " "إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك" قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع ، فاستقبله جبريل ؛ فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك فلا .

فقال جبريل : فاسأل ربك .

فقال : "حسبي من سؤالي علمه بحالي" .

فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يا نار كُونِي بَرْداً وَسَلاَمًا على إِبْرَاهِيمَ ﴾ " قال بعض العلماء : جعل الله فيها برداً يرفع حرها ، وحراً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه .

قال أبو العالية : ولو لم يقل "بَرْداً وَسَلاَماً" لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل "على إِبراهيم" لكان بردها باقياً على الأبد .

وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زربية من الجنة فبسطها في الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة .

وقال عليّ وابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذٍ نار إلا طفئت ظنت أنها تعنى .

قال السدي : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته .

وقال كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وِثاقه .

فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار ثم جاؤوا فإذا هو قائم يصلي .

وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : "ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار" .

وقال كعب وقتادة والزهري : ولم تبق يومئذٍ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة .

وقال شعيب الحِمَّاني : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة .

وقال ابن جريج : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة .

ذكر الأوّل الثعلبي ، والثاني الماوردي ؛ فالله أعلم .

وقال الكلبي : بردت نيران الأرض جميعاً فما أنضجت كراعاً ، فرآه نمروذ من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل .

فقال : نعم الربّ ربّك ! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكفّ عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ أي أراد نمروذ وأصحابه أن يمكروا به ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين ﴾ أي في أعمالهم ، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا .

(194/511)

قال ابن عباس : سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض ، فما برح نمروذ حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح ، أكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ، وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد .

فأقام بهذا نحواً من أربعمائة سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطاً إلى الأرض أرض الشام وكانا بالعراق ، وكان (إبراهيم) عليه السلام عمّ لوط ؛ قاله

ابن عباس .

وقيل : لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ؛ ولأنها معادن الأنبياء .

والبركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح .

وقال ابن عباس : الأرض المباركة مكة .

وقيل : بيت المقدس ؛ لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء وهي أيضاً كثيرة الخصب والنموّ ، عذبة الماء ، ومنها يتفرّق في الأرض .

قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التي ببيت المقدس ، ثم يتفرّق في الأرض .

ونحوه عن كعب الأحبار .

وقيل : الأرض المباركة مصر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي زيادة ؛ لأنه دعا في إسحاق وزيد يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ؛ أي زيادة على ما سأل ؛ إذ قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 100] .

ويقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد .

﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله .

وجَعْلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات .

ومعنى "بِأَمْرِنَا" أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي ؛ فكأنه قال يهدون بكتابنا .

(195/511)

وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق ، ودعائهم إلى التوحيد .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أي أن يفعلوا الطاعات .

﴿ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أي مطيعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(196/511)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) ﴾

ولما نبههم على قبيح مرتكبهم وغلبهم بإقامة الحجة عليهم لاذوا بالإيذاء له والغضب لآلهتهم واختاروا أشد العذاب وهو الإحراق بالنار التي هي سبب للإعدام المحض والإتلاف بالكلية وكذا كل من أقيمت عليه الحجة وكانت له قدرة يعدل إلى المناصبة والإذاية كما كانت قريش تفعل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين دمغهم بالحجة وعجزوا عن معارضة ما آتاهم به عدلوا إلى الانتقام وإيثار الاغتيال ، فعصمه الله والظاهر أن قول ﴿ قالوا حرّقوه ﴾ أي قال بعضهم لبعض .

وقيل : أشار بإحراقه نمروذ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : رجل من أعراب العجم .

قال الزمخشري : يريد الأكراد .

وقال ابن عطية : روي أنه رجل من الأكراد من أعراب فارس أي باديتها فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، وذكروا لهذا القائل اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط ، وهكذا تقع أسماء كثيرة أعجمية في التفاسير لا يمكن الوقوف منها على حقيقة لفظ لعدم الشكل والنقط فينبغي اطراح نقلها .

وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى واختلفوا في عدة حبسه

وفي عرض الحظيرة وطولها ، ومدة جمع الحطب ، ومدة الإيقاد ، ومدة سنه إذ ذاك ، ومدة إقامته في النار وكيفية ما صارت أماكن النار اختلافاً متعارضاً تركنا ذكره واتخذوا منجنيقاً .

قيل : بتعليم إبليس إذ كان لم يصنع قبل فشد إبراهيم رباطاً ووضع في كفة المنجنيق ورمى به فوقع في النار .

وروي أن جبريل عليه السلام جاءه وهو في الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وذكر المفسرون أشياء صدرت من الوزغ والبغل والخطاف والضفدع والعضرفوط الله أعلم بذلك .

وعن ابن عباس : إنما نجا بقوله حسبي الله ونعم الوكيل .

(197/511)

قيل : وأطل نمروذ من الصرح فإذا إبراهيم في روضة ومعه جليس له من الملائكة فقال إني مقرب إلى آلهك فذبح أربعة آلاف بقرة .

وكف عن ابراهيم ، وكان إبراهيم إذ ذاك ابن ست عشرة سنة ، وقد أكثر الناس في حكاية ما جرى لإبراهيم والذي صح هو ما ذكره تعالى من أنه ألقي في النار فجعلها الله

عليه ﴿ برداً وسلاماً ﴾ وخرج منها سالماً فكانت أعظم آية والظاهر أن القائل ﴿ قلنا يا نار ﴾ هو الله تعالى.

وقيل: جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى.

وعن ابن عباس: لو لم يقل: ﴿ وسلاماً ﴾ لهلك إبراهيم من البرد، ولو لم يقل على إبراهيم لما أحرقت نار بعدها ولا اتقدت انتهى.

ومعنى ﴿ وسلاماً ﴾ سلامة، وأبعد من ذهب إلى أنها هنا تحية من الله ولو كانت تحية لكان الرفع أولى بها من النصب.

والمعنى ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كان ذاتها برد وسلام، ولما كانت النار تنفعل لما أراده الله منها كما ينفعل من يعقل عبر عن ذلك بالقول لها والنداء والأمر.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف بردت النار وهي نار؟ قلت: نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال، كما كانت والله على كل شيء قدير، ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم أذنى حرها ويذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنم، ويدل عليه قوله ﴿ على إبراهيم ﴾ انتهى.

وروي أنهم قالوا هي نار مسجورة لا تحرق فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق وأرادوا به كيداً.

قيل: هو إلقاؤه في النار ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أي المبالغين في الخسران وهو إبطال ما

راموه جادلوا إبراهيم فجدلهم وبكَّتهم وأظهر لهم وأقر عقولهم ، وتقووا عليه بالأخذ والإلقاء فخلصه الله .

وقيل : سلط عليهم ما هو من أحقر خلقه وأضعفه وهو البعوض يأكل من لحومهم ويشرب من دمائهم ، وسلط الله على نمروذ بعوضة واختلف في كيفية إذايتها له وفي مدة إقامتها تؤذيه إلى أن مات منها .

(198/511)

والضمير في ﴿ ونجيناه ﴾ عائد على إبراهيم وضمن معنى أخرجناه بنجاتنا إلى الأرض ولذلك تعدى ﴿ نجيناه ﴾ بإلى ويحتمل أن يكون ﴿ إلى ﴾ متعلقاً بمحذوف أي منتهياً ﴿ إلى الأرض ﴾ فيكون في موضع الحال ، ولا تضمين في ﴿ ونجيناه ﴾ على هذا و ﴿ الأرض ﴾ التي خرجا منها هي كوثى من أرض العراق ، والأرض التي صار إليها هي أرض الشام وبركتها ما فيها من الخصب والأشجار والأنهار وبعث أكثر الأنبياء منها .

وقيل : مكة قاله ابن عباس ، كما قال ﴿ إن أول بيت ﴾ الآية .

وقيل أرض مصر وبركتها نيلها وزكاة زروعها وعمارة مواضعها .

وروي أن ابراهيم خرج مهاجراً إلى ربه ومعه لوط وكان ابن أخيه ، فآمنت به سارة وهي

ابنة عمه فأخرجها معه فارًّا بدينه ، وفي هذه الخرجة لقي الجبار الذي رام أخذها منه فنزل حران ومكث زماناً بها .

وقيل : سارة ابنة ملك حرّان تزوجها إبراهيم وشرط عليه أبوها أن لا يغيرها ، والصحيح أنها ابنة عمه هاران الأكبر ، ثم قدم مصر ثم خرج منها إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب فبعثه الله نبياً .

والنافلة العطية قاله مجاهد وعطاء أو الزيادة كالمتطوع به إذا كان إسحاق ثمرة دعائه رب هب لي من الصاحين ، وكان ﴿ يعقوب ﴾ زيادة من غير دعاء .

وقيل : النافلة ولد الولد فعلى الأول يكون مصدراً كالعاقبة والعافية وهو من غير لفظ ﴿ وهبنا ﴾ بل من معناه ، وعلى الآخرين يراد به ﴿ يعقوب ﴾ فينتصب على الحال ، و ﴿ كلاًّ ﴾ يشمل من ذكر إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب .

﴿ يهدون بأمرنا ﴾ يرشدون الناس إلى الدين .

و ﴿ أئمة ﴾ قدوة لغيرهم .

﴿ وأوحينا إليهم ﴾ أي خصصناهم بشرف النبوة لأن الإيحاء هو التنبئة .

قال الزمخشري : ﴿ فعل الخيرات ﴾ أصله أن يفعل ﴿ فعل الخيرات ﴾ ثم فعلا الخيرات وكذلك ﴿ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ انتهى .

وكان الزمخشري لما رأى أن ﴿ فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ ليس من الأحكام المختصة بالموحي إليهم بل هم وغيرهم في ذلك مشتركون ، بني الفعل للمفعول حتى لا يكون المصدر مضافاً من حيث المعنى إلى ضمير الموحى ، فلا يكون التقدير فعلهم الخيرات وإقامهم الصلاة وإيتاؤهم الزكاة ، ولا يلزم ذلك إذ الفاعل مع المصدر محذوف ، ويجوز أن يكون مضافاً من حيث المعنى إلى ظاهر محذوف يشمل الموحى إليهم وغيرهم ، أي فعل المكلفين الخيرات ، ويجوز أن يكون ذلك مضافاً إلى الموحى إليهم أي أن يفعلوا الخيرات ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وإذا كانوا قد أُوحِي إليهم ذلك فأتباعهم جارون مجراهم في ذلك ولا يلزم اختصاصهم به ثم اعتقاد بناء المصدر للمفعول الذي لم يسم فاعله مختلف فيه أجاز ذلك الأخفش والصحيح منعه ، فليس ما اختاره الزمخشري مختاراً .

وقال ابن عطية : والإقام مصدر وفي هذا نظر انتهى .

وأي نظر في هذا وقد نص سيبويه على أنه مصدر بمعنى الإقامة ، وإن كان الأكثر الإقامة بالتاء وهو المقيس في مصدر أفعل إذا اعتلت عينه وحسن ذلك هنا أنه قابل ﴿ وإيتاء ﴾ وهو بغير تاء فتقع الموازنة بين قوله ﴿ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وقال الزجّاج : فحذفت الهاء من إقامة لأن الإضافة عوض عنها انتهى .

وهذا قول الفراء زعم أن تاء التأنيث قد تحذف للإضافة وهو مذهب مرجوح. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(200/511)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضُهم لبعض لما عجَزوا عن المُحاجّة وضاقت عليهم الحِيلُ وعيَّت بهم العللُ ، وهكذا دَيدنُ المبطِلِ المحجوجِ إذا قَرَعْتَ شبُهتَه بالحجة القاطعة وافتُضِح لا يبقى له مفزِعٌ إلا المناصبة ﴿ حَرّقُوهُ ﴾ فإنه أشدُّ العقوبات ﴿ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي للنصر أو لشيء يُعتدّ به ، قيل : القائلُ نمرودُ بنُ كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوسِ بن حام بن نوح ، وقيل : رجلٌ من أكراد فارسَ اسمُه هيون ، وقيل : هدير خُسِفت به الأرض ، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنَوا له حظيرةً بكُوثَى ، قرية من قرى الأنباط وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ فجمعوا له صِلاب الحطب من أصناف الخشب مدةَ أربعين يوماً فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحدٌ ، حتى إن كانت الطير لتمرّ بها وهي في أقصى الجو فتحترق من شَلْوة وهَجِها ولم يكد أحد يحوم حولها . فلم يعلموا كيف يُلقونه

عليه السلام فيها فأتى إبليسُ وعلمهم عمل المِنْجنيق فعمِلوه ، وقيل : صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرضَ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، ثم عَمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولاً فرمَوا به فيها فقال له جبريلُ عليهما السلام : هل لك حاجةٌ؟ قال : أما إليك فلا ، قال : فاسأل ربك ، قال : حسبي من سؤالي علمُه بحالي ، فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرةَ روضةً وذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ أي كوني ذاتَ بردٍ وسلامٍ أي ابرُدي برداً غيرَ ضارٍّ وفيه مبالغات : جعلُ النارِ المسخرةِ لقدرته تعالى مأمورةً مطاوعةً وإقامةَ كوني ذاتَ بردٍ مقامَ ابردي ، ثم حذفُ المضافِ وإقامةُ المضاف إليه مُقامَه ، وقيل : نصب سلاماً بفعله أي وسلمنا عليه . روي أن الملائكة أخذوا بضَبْعَي إبراهيمَ وأقعدوه على

(201/511)

الأرض فإذا عينُ ماءٍ عذبٍ ووردٌ أحمرُ ونرجسٌ ولم تحرق النارُ إلا وَثاقه ، وروي أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوماً أو خمسين وقال : ما كنت أطيبَ عيشاً مني إذ كنت فيها ، قال ابن يسار : وبعث الله تعالى ملَكَ الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه ، فنظر نمرودُ من صَرْحه فأشرف عليه فرآه جالساً في روضة مُونِقة ومعه جليسٌ على أحسن ما يكون من الهيئة

والنارُ محيطةٌ به ، فناداه : يا إبراهيمُ هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال : فقم فاخرُج ، فقام يمشي فخرج منها فاستقبله نمرودُ وعظّمه وقال : مَن الرجلُ الذي رأيته معك ؟ قال : ذلك ملَك الظلّ أرسله ربي ليؤنسني ، فقال : إني مقرِّبٌ إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك ، فقال عليه السلام : لا يقبل الله منك ما دمت على دينك هذا ، قال : لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبح له أربعةَ آلافِ بقرة ، فذبحها وكف عن إبراهيم عليه السلام وكان إذا ذاك ابنَ ستَّ عشْرةَ سنة .

وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فإن انقلابَ النار هواء طيباً وإن لم يكن بدعاً من قدرة الله عز وجل لكن وقوعَ ذلك على هذه الهيئة مما يخرِق العاداتِ ، وقيل : كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه في السَّمَنْدل كما يشعر به ظاهرُ قوله تعالى : ﴿ على إبراهيم ﴾ .

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ مكراً عظيماً في الإضرار به ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أي أخسرَ من كل خاسر حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل ، وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقِهم لأشد العذاب .

﴿ ونجيناه ولُوطاً إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ أي من العراق إلى الشام وبركاته العامة فإن أكثر الأنبياءِ بُعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعُهم التي هي مبادي الكمالات والخيراتِ الدينية والدنيويةِ ، وقيل : كثرةُ النعم والخِصْبُ الغالب ، روي أنه عليه السلام نزل بفِلَسطين ولوطٌ عليه السلام بالمؤتفكة وبيهما مسيرةُ يومٍ وليلة .

﴿ ووَهَبْنَا لَهُ إسحاق ويَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي عطيةً فهي حالٌ منهما أو ولدٌ أو زيادةٌ على ما سأل وهو إسحاق فتختص بيعقوبَ ولا لَبْس فيه للقرنية الظاهرة ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كلُّ واحدٍ من هؤلاء الأربعة لا بعضُهم دون بعض ﴿ جعَلْنَا صالحين ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين .

﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم في أمور الدين إجابةً لدعائه عليه السلام بقوله : ﴿ وَمِن ذُرّيَتِى ﴾ ﴿ يَهْدُونَ ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ لهم بذلك وإرسالِنا إياهم حت صاروا مكملين ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ ليحثوّهم عليه فيتم كما لهم بانضمام العملِ إلى العلم ، وأصلُه أن تفعل الخيراتِ ثم فعل الخيرات وكذا قوله تعالى : وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة ﴾ وهو من عطف الخاصِّ على العام دَلالةً على فضله وإنافته وحُذفت تاءُ الأقامة المعوّضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مَقامة ﴿ وَكَانُواْ لَنَا ﴾ خاصة دون

غيرنا ﴿ عابدين ﴾ لا يخطر ببالهم غيرُ عبادتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(203/511)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت بهم الحيل وهذا ديدن المبطل المحجوج إذا بهت بالحجة وكانت له قدرة يفزع إلى المناصبة ﴿ حَرّقُوهُ ﴾ فإن النار أشد العقوبات ولذا جاء لا يعذب بالنار إلا خالقها ﴿ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له ذلك وإلا فرطتم في نصرتها وكأنكم لم تفعلوا شيئاً ما فيها ، ويشعر بذلك العدول عن إن تنصروا آلهتكم فحرقوه إلى ما في "النظم الكريم" ، وأشار بذلك على المشهور ورضي به الجميع نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن نمروذ بن كوس بن حام بن نوح عليه السلام .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال : أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار ؟ قلت : لا قال : رجل من أعراب فارس يعني الأكراد ونص على أنه من الأكراد ابن عطية ، وذكر أن الله تعالى خسف

به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، واسمه على ما أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن شعيب الجباري هيون ، وقيل : هدير .

وفي "البحر" أنهم ذكروا له اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة ، وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى قرية من قرى الأنباط في حدود بابل من العراق وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بنيانا فَأَلْقُوهُ فِى الجحيم ﴾ [الصافات : 97] فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوماً فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يمر عليها طائر في أقصى الجو لشدة وهجها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى إبليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ، وقيل : صنعه الكردي الذي أشار بالتحريق ثم خسف به ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فصاحت ملائكة السماء والأرض إلهنا ما في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم عليه السلام وأنه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته فقال جل وعلا : أن استغاث بأحد منكم فلينصره وأن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فإنه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري فأتاه خازن الرياح وخازن المياه يستأذنانه في إعدام النار فقال عليه السلام لا حاجة لي

إليكم حسبي الله ونعم الوكيل ، وروي عن أبي بن كعب قال : حين أوثقوه ليلقوه في النار قال عليه السلام : لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا قال : جبريل عليه السلام فاسأل ربك فقال : حسبي من سؤال علمه بحالي ، ويروى أن الوزغ كان ينفخ في النار ، وقد جاء ذلك في رواية البخاري .

وفي "البحر" ذكر المفسرون أشياء صدرت عن الوزغ والبغل والخطاف والضفدع والعضرفوط والله تعالى أعلم بذلك ، فلما وصل عليه السلام الحظيرة جعلها الله تعالى ببركة قوله عليه السلام روضة ، وذلك

قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

(205/511)

أي كوني ذات برد وسلام أي ابردي برداً غير ضار ، ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه فيما أخرجه عنه أحمد وغيره : لو لم يقل سبحانه : ﴿ وسلاما ﴾ لقتله بردها .

وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأسورة مطاوعة وإقامة كوني ذات برد

مقام ابردي ثم حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وقيل : نصب ﴿ سَلَامًا ﴾ بفعله أي وسلمنا سلاماً عليه ، والجملة عطف على ﴿ قُلْنَا ﴾ وهو خلاف الظاهر الذي أيدته الآثار .

(206/511)

روي أن الملائكة عليهم السلام أخذوا بضبعي إبراهيم عليه السلام فاقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار إلا وثاقه كما روي عن كعب ، وروي أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوماً أو خمسين يوماً ، وقال عليه السلام : ما كنت أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها ، قال ابن إسحاق : وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة إبراهيم عليهما السلام يؤنسه ، قالوا : وبعث الله عز وجل جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه ، وقال جبريل عليه السلام : يا إبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبابي ، ثم أشرف نمروذ ونظر من صرح له فرآه جالساً في روضة والملك قاعد إلى جنبه والنار محيطة به فنادى يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال إبراهيم عليه السلام : نعم قال : هل تخشى إن نمت فيها أن

تضرك ؟ قال : لا قال : فقم فاخرج منها فقام عليه السلام يمشي فيها حتى خرج منها فاستقبله نمروذ وعظمه ، وقال له : يا إبراهيم من الرجل الذي رأيته معك في صورتك قاعداً إلى جنبك ؟ قال : ذلك ملك الظل أرسله إلى ربي ليؤنسني فيها فقال : يا إبراهيم إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إني ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال له إبراهيم عليه السلام : إنه لا يقبل الله تعالى منك ما كنت على دينك حتى تفارقه وترجع إلى ديني فقال : لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له فذبحها وكف عن إبراهيم عليه السلام ، وكان إبراهيم عليه السلام إذ ذاك ابن ستة عشرة سنة ، وفي بعض الآثار أنهم لما رأوه عليه السلام لم يحترق قالوا : إنه سحر النار فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق ، وفي بعضها أنهم لما رأوه عليه السلام سالماً لم يحرق منه غير وثاقه قال هاران أبو لوط عليه السلام : إن النار لا تحرقه

لأنه سحرها لكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله فجعلوه فوق تبن وأوقدوا تحته فطارت شرارة إلى لحية هارون فأحرقته ، وأخرج عبد بن حميد عن سليمان بن صرد وكان قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن أبا لوط قال وكان عمه : إن

النار لم تحرقه من أجل قرابته مني فأرسل الله تعالى عنقاً من النار فأحرقه ، والأخبار في هذه القصة كثيرة لكن قال في "البحر" : قد أكثر الناس في حكاية ما جرى لإبراهيم عليه السلام ، والذي صح هو ما ذكره تعالى من أنه عليه السلام ألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه عليه السلام برداً وسلاماً .

ثم الظاهر أن الله تعالى هو القائل لها ﴿ كُونِى بَرْداً ﴾ الخ وأن هناك قولاً حقيقة ، وقيل القائل جبرائيل عليه السلام بأمره سبحانه ، وقيل قول ذلك مجاز عن جعلها باردة ، والظاهر أيضاً أن الله عز وجل سلبها خاصتها من الحرارة والإحراق وأبقى فيها الإضاءة والإشراق ، وقيل إنها انقلبت هواءً طيباً وهو على هذه الهيئة من أعظم الخوارق ، وقيل كانت على حالها لكنه سبحانه جلت قدرته دفع أذاها كما ترى في السمندر كما يشعر به قوله تعالى : ﴿ على إبراهيم ﴾ وذلك لأن ما ذكر خلاف المعتاد فيختص بمن خص به ويبقى بالنسبة إلى غيره على الأصل لا نظراً إلى مفهوم اللقب إذ الأكثرون على عدم اعتباره .

وفي بعض الآثار السابقة ما يؤيده ، وأياً ما كان فهو آية عظيمة وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وما يشاهد

من وقوعه لبعض المنتسبين إلى حضرة الولي الكامل الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره من الفسقة الذين الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفاراً فقيل إنه باب من السحر المختلف في كفر فاعله وقتله فإن لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ولا يبعد أن تكون كفراً وإن كان معها ما لا كفر فيه ، وقد ذكر بعضهم أنهم يقولون عند ذلك تلسف تلسف هيف هيف أعوذ بكلمات الله تعالى التامة من شر ما خلق أقسمت عليك يا أيتها النار أو أيها السلاح بحق حي حلي ونور سبحي ومحمد صلى الله عليه وسلم أن لا تضري أو لا تضر غلام الطريقة ، ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعي قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعاً للسنة وأشدهم تجنباً عن مظان البدعة وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل اتباعه قدس سره ثم طرأ على بعض المنتسبين إليه ما طرأ ، قال في "العبر" : قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التاتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم انتهى .

(209/511)

والحق أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطاً لعدم التأثر بالدخول في النار ونحوه فكثير منهم من ينادي إذا أوقدت له النار وضربت الدفوف يا شيخ أحمد يا رفاعي أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر من دون تلاوة شيء أصلاً ، والأكثر منهم إذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادي من ينادي من المشايخ فيدخل ويتأثر ، والحاصل أنا لم نر لهم قاعدة مضبوطة بيد أن الأغلب أنهم إذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويستغيث بمن يستغيث ويدخل تنوراً كبيراً تضطرم فيه النار فيقعد في النار فيشرب الخمر ويبقى حتى تخمد النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء ، وأقرب ما يقال في مثل ذلك : إنه استدراج وابتلاء ، وأما أن يقال : إن الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعي قدس سره بعدم تأثر المنتسبين إليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره إذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب إليه في بعض الأحوال فبعيد بل كأني بك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الأحوال إعانة له ، وقد يأخذ بعض الناس النار بيده ولا يتأثر لأجزاء يطلي بها يده من خاصيتها عدم إضرار النار للجسد إذا طلي بها فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة .

هذا واستدل بالآية من قال : إن الله تعالى أودع في كل شيء خاصة حسبما اقتضته

حكمته سبحانه فليس الفرق بين الماء والنار مثلاً بمجرد أنه جرت عادة الله تعالى بأن يخلق الإحراق ونحوه عند النار والري ونحوه عند الماء بل أودع في هذا خاصة الري مثلاً وفي تلك خاصة الإحراق مثلاً لكن لا تحرق هذه ولا يروى ذاك إلا بإذنه عز وجل فإنه لو لم يكن أودع في النار الحرارة والإحراق ما قال لها ما قال.

ولا قائل بالفرق فتأمل.

(210/511)

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ مكراً عظيماً في الإضرار به ومغلوبيته ﴿ فجعلناهم الاخسرين ﴾ أي أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفار نور الحق قولاً وفعلاً برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجباً لارتفاع درجته عليه السلام واستحقاقهم لأشد العذاب، وقيل جعلهم الأخسرين من حيث أنه سبحانه سلط عليهم ما هو من أحقر خلقه وأضعفه وهو البعوض يأكل من لحومهم ويشرب من دمائهم وسلط على نمروذ بعوضة أيضاً فبقيت تؤذيه إلى أن مات لعنه الله تعالى، والمعول عليه التفسير الأول.

﴿ ونجيناه ولُوطاً ﴾ وهو على ما تقدم ابن عمه، وقيل: هو ابن أخيه وروي ذلك في

"المستدرك" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقد ضمن ﴿ نجيناه ﴾ معنى أخرجناه فلذا عدى بإلى في قوله سبحانه :

﴿ إِلَى الأَرض التى بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ وقيل : هي متعلقة بمحذوف وقع حالاً أي منتهياً إلى الأرض فلا تضمين ، والمراد بهذه الأرض أرض الشام ، وقيل : أرض مكة ، وقيل : مصر والصحيح الأول ، ووصفها بعموم البركة لأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيها وانتشرت في العالم شرائعهم التي هي مبادىء الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية ولم يقل التي باركناها للمبالغة بجعلها محيطة بالبركة ، وقيل : المراد بالبركات النعم الدنيوية من الخصب وغيره ، والأول أظهر وأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام ، روي أنه عليه السلام خرج من العراق ومعه لوط وسارة بنت عمه هاران الأكبر وقد كانا مؤمنين به عليه السلام يلتمس الفرار بدينه فنزل حران فمكث بها ما شاء الله تعالى .

وزعم بعضهم أن سارة بنت ملك حران تزوجها عليه السلام هناك وشرط أبوها أن لا يغيرها عن دينها والصحيح الأول ، ثم قدم مصر ثم خرج منها إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب ، وفي الآية من

مدح الشام ما فيها ، وفي الحديث " ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم " أخرجه أبو داود .

وعن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طوبى لأهل الشام فقلت : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : لأن الملائكة عليهم السلام باسطة أجنحتها عليها " أخرجه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

وأما العراق فقد ذكر الغزالي عليه الرحمة في باب المحنة من الاحياء اتفاق جماعة من العلماء على ذمة وكراهة سكناه واستحباب الفرار منه ولعل وجه ذلك غني عن البيان فلا ننقب فيه البنان .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾

أي عطية كما روي عن مجاهد .

وعطاء من نقله بمعنى أعطاه ، وهو على ما اختاره أبو حيان مصدر كالعاقبة والعافية منصوب بوهبنا على حد قعدت جلوساً ، واختار جمع كونه حالاً من إسحاق ويعقوب أو ولد ولد أو زيادة على ما سأل عليه السلام وهو إسحاق فيكون حالاً من يعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة ﴿ وَكُلاًّ ﴾ من المذكورين وهم إبراهيم .

ولوط .

وإسحاق .

ويعقوب عليهم السلام لا بعضهم دون بعض ﴿ جَعَلْنَا صالحين ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين.

(212/511)

﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم في أمور الدين ﴿ يَهْدُونَ ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ ليتم الكمال بانضمام العمل إلى العلم، وأصله على ما ذهب إليه الزمخشري ومن تابعه أن يفعل الخيرات ببناء الفعل لما لم يسم فاعله، ورفع الخيرات على النيابة عن الفاعل ثم فعلا الخيرات بتنوين المصدر ورفع الخيرات أيضاً على أنه نائب الفاعل لمصدر المجهول ثم فعل الخيرات بحذف التنوين وإضافة المصدر لمعموله القائم مقام فاعله، والداعي لذلك كما قيل أن ﴿ فِعْلَ الخيرات ﴾ بالمعنى المصدري ليس موحى إنما الموحى أن يفعل، ومصدر المبني للمفعول والحاصل بالمصدر كالمترادفين، وأيضاً الوحي عام للأنبياء المذكورين عليهم السلام وأممهم فلذا بني للمجهول.

وتعقب ذلك أبو حيان بأن بناء المصدر لما لم يسم فاعله مختلف فيه فأجاز ذلك الأخفش والصحيح منعه، وما ذكر من عموم الوحي لا يوجب ذلك هنا إذ يجوز أن يكون المصدر

مبنياً للفاعل ومضافاً من حيث المعنى إلى ظاهر محذوف يشمل الموحى إليهم وغيرهم أي فعل المكلفين الخيرات ، ويجوز أن يكون مضافاً إلى الموحى إليهم أي أن يفعلوا الخيرات وإذا كانوا قد أوحى إليهم ذلك فاتباعهم جارون مجراهم في ذلك ولا يلزم اختصاصهم به انتهى .

(213/511)

وانتصر للزمخشري بأن ما ذكره بيان لأمر مقرر في النحو والداعي إليه أمران ثانيهما ما ذكر من عموم الموحى الذي اعترض عليه والأول سالم عن الاعتراض ذكر أكثر ذلك الخفاجي ثم قال : الظاهر أن المصدر هنا للأمر كضرب الرقاب ، وحينئذٍ فالظاهر أن الخطاب للأنبياء عليهم السلام فيكون الموحى قول الله تعالى افعلوا الخيرات ، وكان ذلك لأن الوحي مما فيه معنى القول كما قالوا فيتعلق به لا بالفعل إلا أنه قيل يرد عليه ما أشير أولاً إليه من أن ما ذكر ليس من الأحكام المختصة بالأنبياء عليهم السلام ولا يخفى أن الأمر فيه سهل ، وجوز أن يكون المراد شرعنا لهم فعل ذلك بالإيحاء إليهم فتأمل ، والكلام في قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَاء الزكواة ﴾ على هذا الطرز ، وهو كما قال غير واحد من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وإنافته ، وأصل ﴿ إقام ﴾ أقوام فقلبت واوه ألفاً بعد نقل حركتها لما قبلها وحذف إحدى الفيه لالتقاء الساكنين ، والأكثر تعويض التاء عنها فيقال

إقامة وقد تترك التاء إما مطلقاً كما ذهب إليه سيبويه والسماع يشهد له ، وإما بشر الإضافة ليكون المضاف ساداً مسدها كما ذهب إليه الفراء وهو كما قال أبو حيان مذهب مرجوح ، والذي حسن الحذف هنا المشاكلة ، والآية ظاهرة في أنه كان في الأمم السالفة صلاة وزكاة وهو مما تضافرت عليه النصوص إلا أنهما ليسا كالصلاة والزكاة المفروضتين على هذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية ﴿ وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا ﴾ خاصة دون غيرنا ﴿ عابدين ﴾ لا يخطر ببالهم غير عبادتنا كأنه تعالى أشار بذلك إلى أنهم وفوا بعهد العبودية بعد أن أشار إلى أنه سبحانه وفى لهم بعهد الربوبية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(214/511)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾

أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه .

والكيد : المكر ، يقال : كاده يكيده كيداً ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد في كسر

الأصنام .

قيل : إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرّاً .

وقيل : سمعه رجل منهم ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ أي بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين .

قال المفسرون : كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة .

والفاء في قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ فصيحة ، أي فولوا ، فجعلهم جذاذاً ، الجذّ : القطع والكسر ، يقال : جذذت الشيء قطعته وكسرته ، والواحد : جذاذة ، والجذاذ ما كسر منه .

قاله الجوهري .

قال الكسائي : ويقال لحجارة الذهب : الجذاذ ؛ لأنها تكسر .

قرأ الكسائي والأعمش وابن محيصن : " جذاذاً " بكسر الجيم ، أي كسراً وقطعاً ، جمع جذيذ ، وهو الهشيم ، مثل خفيف وخفاف ، وظريف وظراف .

قال الشاعر :

جذذ الأصنام في محرابها . . . ذاك في الله العليّ المقتدر

وقرأ الباقون بالضم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، أي الحطام والرفات ، فعال

بمعنى مفعول ، وهذا هو الكيد الذي وعدهم به .

وقرأ ابن عباس وأبو السماك " جذاذاً " بفتح الجيم ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ أي للأصنام ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى إبراهيم ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ فيحاجهم بما سيأتي فيحجهم ؛ وقيل : لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر ، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه في المهمات ، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبراً ، فيعلمون حينئذٍ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، ولا تعلم بخير ولا شرّ ، ولا تخبر عن الذي ينوبها ؛ من الأمر ، وقيل : لعلهم إلى الله يرجعون ، وهو بعيد جدّاً .

(215/511)

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ .

وقيل : إن " من " ليست استفهامية ، بل هي مبتدأ وخبرها ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ أي فاعل هذا ظالم ، والأوّل أولى لقولهم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى ﴾ إلخ ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيباً للمستفهمين لهم ، وهذا القائل هو الذي سمع إبراهيم يقول : ﴿ تالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ ومعنى ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ : يعيبهم ، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة ، وجملة : ﴿ يُقَالُ لَهُ

إبراهيم ﴾ صفة ثانية لفتى .

قال الزجاج : وارتفع إبراهيم على معنى : يقال له هو إبراهيم ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : ارتفاعه على أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله ، وقيل : مرتفع على النداء .

ومن غرائب التدقيقات النحوية ، وعجائب التوجيهات الإعرابية ، أن الأعلم الشنتمري الأشبيلي قال : إنه مرتفع على الإهمال .

قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شيء .

والفتى : هو الشاب ، والفتاة الشابة .

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس .

قيل : إنه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا هذه المقالة ، ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به .

ومعنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ : لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا .

وقيل : لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم .

وجملة : ﴿ قَالُواْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِئَالِهَتِنَا يإبراهيم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وفي

الكلام حذف تقديره : فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم .

(216/511)

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ أي قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم مبكتاً لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أي إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له ، فيجيب عنه بما يطابقه .

أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله .

فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم إذا قالوا : إنهم لا ينطقون ، قال لم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق ، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته .

وقيل : أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا

تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم ، والأوّل أولى .

وقرأ ابن السميفع : " بل فعله " بتشديد اللام على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم .

﴿ فَرَجَعُوا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام ، يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة ، ولهذا ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ أي قال بعضهم لبعض : أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم : إنه لمن الظالمين ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رجعوا إلى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه .

وقيل : المعنى : أنهم طأطئوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم ، وهو ضعيف ؛ لأنه لم يقل : نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال :

نكسوا على رؤوسهم ، وقرئ " نكسوا " بالتشديد ، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي : قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام ، فقال إبراهيم مبكتاً لهم ومزرياً عليهم : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ﴾ من النفع ﴿ وَلا يَضُرُّكُمْ ﴾ بنوع من أنواع الضرر ، ثم تضجر عليه السلام منهم ، فقال : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم ، واللام في ﴿ لكم ﴾ لبيان المتأفف به ، أي لكم ولآلهتكم ، والتأفف : صوت يدلّ على التضجر ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي ليس لكم عقول تتفكرون بها ، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ أي قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في دفع إبراهيم ، وعجزوا عن مجادلته ، وضاقت عليهم مسالك المناظرة ، حرّقوا إبراهيم .

انصرافاً منهم إلى طريق الظلم والغشم ، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان ، وعلى أيّ أمر اتفق ، ولهذا قالوا : ﴿ وانصروا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي انصروها بالانتقام من هذا الذي فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر .

وقيل : هذا القائل هو نمروذ ؛ وقيل : رجل من الأكراد .

﴿ قُلْنَا يا نار كُونِي بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ في الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار ، وذهبوا بإبراهيم إليها ، فعند ذلك قلنا : يا نار كوني ذات بردٍ وسلامٍ .

وقيل : إن انتصاب ﴿ سلاماً ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أي وسلمنا سلاماً عليه ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ أي مكراً ﴿ فجعلناهم الاخسرين ﴾ أي أخسر من كل خاسر ؛ ورددنا مكرهم عليهم ؛ فجعلنا لهم عاقبة السوء ؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال : ﴿ تالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ فسمعه ناس منهم .

فلما خرجوا انطلق إلى أهله ، فأخذ طعاماً ثم انطلق إلى آلهتهم فقرّبه إليهم ، فقال : ألا تأكلون ؟ فكسرها إلا كبيرهم ، ثم ربط في يده الذي كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر به الأصنام ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول : ﴿ تالله * لأكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جُذَاذاً ﴾ قال : حطاماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : فتاتاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ قال : عظيم آلهتهم .

(219/511)

وأخرج أبو داود والترمذي [وابن المنذر] وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهنّ في الله : قوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ولم يكن سقيماً ، وقوله لسارة : أختي ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ " وهذا الحديث هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة بأطول من هذا .

وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبي سعيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ كُونِي بَرْداً وسلاما ﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفئت .

وأخرج أحمد وابن ماجه وابن حبان وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني عن عائشة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم حين ألقي في النار لم تكن دابة إلا تطفىء عنه النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم " " فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بقتله .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر عن ابن عمر ، قال : أوّل كلمة قالها إبراهيم حين ألقي في النار ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي ﴾ قال : كان جبريل هو الذي ناداها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد ، وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عليّ نحوه .

وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى في النار ، فقال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقي في النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أياماً ولياليٍ قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(221/511)

وقال القاسمى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ أي : لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به : ﴿ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ أي : بالانتقام لها : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي : به شيئاً من السياسة ، فلا يليق به غيرها .

﴿ قُلْنَا ﴾ أي : تعجيزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له في إنجاء من آمن به : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا ﴾ أي : باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب : ﴿ وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي : ولا تنتهي في البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة . وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما في قوله : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ [البقرة : 65] ، ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بمأمور مطيع ، وتخييلها الأمر والنداء

، ولذا قال أبو مسلم : المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً ، كقوله : ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يّس : 82] ، أي : فيكونه . فإن النار جماد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازي : لهم في كيفية برودة النار ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحرّ والاحتراق ، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شيء قدير .

وثانيها : أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه . كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة . وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار .

ثالثها : أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه .

قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْداً ﴾ أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أي : أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشري : غالبوه بالجدال فغلّبه الله ولقنه بالمبكّت . وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقوّاه : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً ﴾ أي : لأنه هاجر معه : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ وهي أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنيّ والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم . ثم بين بركته تعالى على إبراهيم بقوله :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ أي : بدعوته : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات : 100] ، ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي : زيادة وفضلاً من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح بقوله : ﴿ وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ بالاستقامة والتمكين في الهداية .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي : قدوة يقتدى بهم في أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] ، ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي : يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذننا . قال الزمخشريّ : فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يخلّ بها ويتثاقل عنها . وأول ذلك أن يهتدي بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أي : أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح :

﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أي : بالتوحيد الخالص والعمل الصالح.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 214.216 ﴾

(223/511)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة ، لجؤوا إلى استعمال القوة فقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة ، وهي الإحراق بالنار .

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق : ولكنه تعالى ذكر في سورة " العنكبوت " أنهم ﴿ قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت : 24] وذلك في قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت : 24] الآية .

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحريق .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزرا . فاختاروا له أفظع قتلة ، وهي الإحراق بالنار . وإلا فقد فرطتم في نصرها .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

في الكلام حذف دل المقام عليه ، وتقديره : قالوا حرقوه فرموه في النار ، فلما فعلوا ذلك ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَا ﴾ وقد بين في " الصافات " أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنياناً ليلقوه فيه .

وفي القصة : أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد) ، وأن الله خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ قَالُواْ ابنوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم ﴾ [الصافات : 97] . والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها ، وكثرة حطبها شيئاً عظيماً هائلاً . وذكروا عن نبي الله إبراهيم أنهم لما كتفوه مجرداً ورموه إلى النار ، قال له جبريل : هل كل حاجة؟ قال : أما إليك فلا ، وأما الله فنعم ! قال : لم لا تسأله؟ قال : علمه بحالي كاف عن سؤالي .

وما ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون

برداً وسلاماً على إبراهيم يدل على أنه أنجاه من تلك النار . لأن قوله تعالى : ﴿ كُونِي بَرْداً ﴾ يدل على سلامته من حرّها . وقله : ﴿ وَسَلاَمًا ﴾ . يدل على سلامته من شرِّ بردها الذي انقلبت الحرارة إليه . وانجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحاً به في " العنكبوت " في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ [العنكبوت : 24] وأشار إلى ذلك هنا بقوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ ولُوطاً ﴾ [الأنبياء : 71] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين ﴾ [الأنبياء : 70] يوضحه ما قبله . فالكيد الذي أرادوه به إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم في زعمهم ، وجعله تعالى إياهم الأخسرين . أي الذين هم أكثر خسراناً لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم .

(225/511)

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً في سورة " الصافات " في قوله : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين ﴾ [الصافات : 98] وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من شرهم . وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وفي القصة : أن الله سلط عليهم خلقاً من أضعف خلقه فأهلكهم وهو البعوض . وفيها

أيضاً : أن كل الدواب تطفئ عن إبراهيم النار ، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه .

وقد قدمنا الأحاديث الواردة بالأمر بقتل الأوزاغ في سورة " الأنعام " وعن أبي العالية : لو لم يقل الله ﴿ وَسَلَامًا ﴾ لكان بردها أشد عليه من حرها . ولو لم يقل على " إِبْراهِيمَ " لكان بردها باقياً إلى الأبد . وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم لو لم يقل " وسلاماً " لمات إبراهيم من بردها . وعن السدي : لم تبق في ذلك اليوم نار إلا طفئت . وعن كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . وعن المنهال بن عمرو : قال إبراهيم ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار .

وعن شعيب الحماني : أنه ألقي في النار وهو ابن ست عشر سنة . وعن ابن جريج : ألقي فيها وهو ابن ست وعشرين . وعن الكلبي بردت نيران الأرض جميعاً ، فما أنضجت ذلك اليوم كراعاً . وذكروا في القصة : أن نمروذ أشرف على النار من الصرح فرأى إبراهيم جالساً على السرير يؤنسه ملك الظل ، فقال : نعم الرب ربك ، لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكف عنه . وكل هذا من الاسرائيليات . والمفسرون يذكرون كثيراً منها في هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء .

وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أحمد بن يونس، أُرَاهُ قال: حدثنا أبو بكر عن أبي حَصِين عن أبي الضُّحَى عن ابن عباس "حسبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النَّار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران: 173] حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل عن أبي حَصِين عن أبي الضُّحَى عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار: "حسبي الله ونعم الوكيل" انتهى.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) ﴾

الضمير في قوله: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ ﴾ عائد إلى إبراهيم. قال أبو حيان في البحر المحيط: وضمن قوله ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ ﴾ معنى أخرجناه بنجاتنا إلى الأرض. ولذلك تعدى "نجَّيناه" بإلى. ويحتمل أن يكون "إلى" متعلقاً بمحذوف. أي منتهياً إلى الأرض، فيكون في موضع الحال. ولا تضمين في "ونجَّيناه" على هذا. والأرض التي خرجا منها: هي كوثى من أرض العراق، والأرض التي خرجا إليها: هي أرض الشام ه‍ ه منه. وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط من أرض العراق إلى الشام فراراً بدينهما.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في غير هذا الموضع . كقوله في " العنكبوت " ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [العنكبوت : 26] الآية ، وقوله في " الصافات " : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : 99] على أظهر القولين . لأنه فار إلى ربه بدينه من الكفار . وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ : هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة ، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : 27] فيما نويت إلى الصواب . وما أشار إليه جل وعلا من أنه بارك العالمين في الأرض المذكورة ، التي هي الشام على قول الجمهور في هذه الآية بقوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ بينه في غير الموضع . كقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء : 81] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] الآية . ومعنى كونه (بارك فيها) . هو ما جعل فيها من الخصب والأشجار والأنهار والثمار . كما قال تعالى : ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : 96] ومن ذلك أنه بعث أكثر الأنبياء منها .

وقال بعض أهل العلم : ومن ذلك أن كل ماء عذب أصل منبعه من تحت الصخرة التي عند بيت المقدس . وجاء في ذلك حديث مرفوع ، والظاهر أنه لا يصح . وفي قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء : 71] أقوال أخر تركناها لضعفها في نظرنا .

(228/511)

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامته دينه واجب . وهذا النوع من الهجرة وجوبه باق بلا خلاف بين العلماء في ذلك .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه وهب لإبراهيم ابنه إسحاق ، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وأنه جعل الجميع صالحين . وقد أوضح البشارة بهما في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] ، وقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 112] . وقد أشار تعالى في سورة " مريم " إلى أنه لما هجر الوطن والأقارب عوضه الله من ذلك قرة العين بالذرية الصالحة ، وذلك في قوله : ﴿ فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ [مريم : 49] .

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ نَافِلَةً ﴾ قال فيه ابن كثير: قال عطاء ومجاهد: نافلة عطية. وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عتيبة: النافلة: ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أصل النافلة في اللغة: الزيادة على الأصل، ومنه النوافل في العبادات، لأنها زيادات على الأصل الذي هو الفرض. وولد الولد زيادة على الأصل، الذي هو ولد الصلب، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

فإن تك أنثى من معد كريمة... علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

(229/511)

أي أعطيت الفضل عليها والزيادة علينا، كما هو التحقيق في معنى بيت أبي ذؤيب هذا، وكما شرحه به أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرحه لأشعار الهذليين. وبه تعلم أن إيراد صاحب اللسان بيت أبي ذؤيب المذكور مستشهداً به لأن النافلة الغنيمة غير صواب، بل هو غلط. مع أن الأنفال التي هي الغنائم راجعة في المعنى إلى معنى الزيادة، لأنها زيادة تكريم أكرم الله بها هذا النبي الكريم فأحلها له ولأمته. أو لأن الأموال المغنومة أموال أخذوها زيادة على أموالهم الأصلية بلا ثمن.

وقوله : ﴿ نَافِلَةً ﴾ فيه وجهان من الإعراب ، فعلى قول من قال : النافلة العطية فهو ما ناب عن المطلق من " وَهَبْنا " أي وهبنا له إسحاق ويعقوب هبة . وعليه فالنافلة مصدر جاء بصيغة اسم الفاعل كالعاقبة والعافية . وعلى أن النافلة بمعنى الزيادة فهو حال من " يَعْقُوبَ " أي وهبنا له يعقوب في حال كونه زيادة على إسحاق .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾

الضمير في قوله ﴿ جَعَلْنَاهُمْ ﴾ يشمل كل المذكورين : إبراهيم ، ولوطاً وإسحاق ، ويعقوب ، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط ، وهو الظاهر .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة ، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات وقوله " بِأَمْرِنَا " أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي ، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم ، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد .

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة " البقرة " أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها ، وضابط ذلك : أن الظالمين من ذريته لا ينالون

الإمامة بخلاف غيرهم . كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ . وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : 124] . فقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير . فأجابه الله بقوله ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة . على الأصوب . ومفهوم قوله ﴿ الظالمين ﴾ أن غيرهم يناله عهده بالإمامة ، كما صرح به هنا . وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في " الصافات " بقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : 113] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : 73] أي أن يفعلوا الطاعات ، ويأمروا الناس بفعلها . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة الخيرات ، فهو من عطف الخاص على العام . وقد قدمنا مراراً النكتة البلاغية المسوغة للاطناب في عطف الخاص على العام . وعكسه في القرآن . فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 73] أي مطيعين باجتناب النواهي وامتثال الأوامر بإخلاص . فهم يفعلون ما يأمرون الناس به ، ويجتنبون ما ينهونهم عنه . كما قال نبي الله شعيب : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] الآية . وقوله : ﴿ أَئِمَّةً ﴾ معلوم أنه جمع إمام ، والإمام : هو المقتدى به ، ويطلق في الخير كما هنا ، وفي الشر كما في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : 41] الآية . وما ظنه الزمخشري من الإشكال في هذه الآية ليس بواقع : كما نبه عليه أبو حيان . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِقَامَ الصلاة ﴾ [الأنبياء : 73] لم تعوض هنا تاء عن العين الساقطة بالاعتلال على القاعدة التصريفية المشهورة . لأن عدم تعويضها عنه جائز كما هنا ، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله :

. . . . وألف بالإفعال واستفعال

أزل لذا الإعلال والتا الزم عوض . . . وحذفها بالنقل ربما عرض

وقد أشار في أبنية المصادر إلى أن تعويض التاء المذكورة من العين هو الغالب بقوله :

واستعذ استعاذة ثم أقم . . . إقامة وغالباً ذا التا لزم

وما ذكرناه من أن التاء المذكورة عوض عن العين أجود من قول من قال : إن العين باقية وهي

الألف الباقية ، وأن التاء عوض عن ألف الإفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(232/511)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) ﴾

لما غلبهم بالحجة القاهرة لم يجدوا مَخلَصاً إلا بإهلاكه .

وكذلك المبطل إذا قَرعَت باطلَه حجة فساده غضب على المحقّ ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبتَه والتشفّي منه ، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة .

واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق لأن النار أهول ما يعَاقب به وأفظعه .

والتحريق : مبالغة في الحرق ، أي حرقاً متلفاً .

وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم لأنهم قبلوا هذا القول وسألوا مِلكهم ، وهو (النمروذ) ، إحراق إبراهيم فأمر بإحراقه لأن العقاب بإتلاف النفوس لا يملكه إلا ولاة أمور الأقوام .

قيل الذي أشار بالرأي بإحراق إبراهيم رجل من القوم كُردي اسمه (هينون) ، واستحسن

القومُ ذلك ، والذي أمر بالإحراق (نمروذ) ، فالأمر في قولهم ﴿ حرقوه مستعمل في المشاورة .

ويظهر أن هذا القول كان مؤامرة سرية بينهم دون حضرة إبراهيم ، وأنهم دبّروه ليبغتوه به خشيةَ هروبه لقوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ [الأنبياء : 70] .

ونمروذ هذا يقولون : إنه ابن (كوش) بن حَام بن نوح ، ولا يصح ذلك لبعد ما بين زمن إبراهيم وزمن (كوش) .

فالصواب أن (نمروذ) من نسِل (كوش) .

ويحتمل أن تكون كلمة (نمروذ) لقباً لملك (الكلدان) وليست عَلَماً .

والمقدر في التاريخ أن مَلك مدينة (أور) في زمن إبراهيم هو (ألغى بن أورخ) وهو الذي تقدم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ﴾ في [سورة البقرة : 258] .

ونصر الآلهة بإتلاف عدوّها .

ومعنى ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ إن كنتم فاعلين النصر ، وهذا تحريض وتلهيب لحميتهم .

وجملة ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ مفصولة عن التي قبلها إما لأنها وقعت كالجواب عن قولهم ﴿ حرقوه ﴾ فأشبهت جمل المحاورة ، وإما لأنها استئناف عن سؤال ينشأ عن قصة التآمر على الإحراق .

وبذلك يتعين تقدير جملة أخرى ، أي فألقَوْه في النار قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد أظهر الله ذلك معجزة لإبراهيم إذ وَجّه إلى النار تعلّقَ الإرادة بسلب قوة الإحراق ، وأن تكون برداً وسلاماً إن كان الكلام على الحقيقة ، أو أزال عن مزاج إبراهيم التأثر بحرارة النار إن كان الكلام على التشبيه البليغ ، أي كوني كبرد في عدم تحريق الملقَى فيكِ بحَرّك .

وأما كونها سلاماً فهو حقيقة لا محالة ، وذِكر ﴿ سلاماً ﴾ بعد ذكر البرد كالاحتراس لأن البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد ، فعُقب ذكره بذكر السلام لذلك .

وعن ابن عباس : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببَردها .

وإنما ذكر ﴿ برداً ﴾ ثمّ أتبع بـ ﴿ سلاماً ﴾ ولم يقتصر على ﴿ برداً ﴾ لإظهار عجيب صنع القدرة إذ صيّر النار برداً .

و ﴿ على إبراهيم ﴾ يتنازعه ﴿ برداً وسلاماً ﴾ .

وهو أشد مبالغة في حصول نفعهما له ، ويجوز أن يتعلق بفعل الكون .

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) ﴾

تسمية عزمهم على إحراقه كَيْداً يقتضي أنهم دبروا ذلك خفية منه .

ولعلّ قصدهم من ذلك أن لا يفرّ من البلد فلا يتم الانتصار لآلهتهم .

والأخسر : مبالغة في الخاسر ، فهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة .

وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر ، وهو قصرٌ للمبالغة كأنّ خسارتهم لا تدانيها خسارة وكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم .

والمراد بالخسارة الخيبة .

وسميت خيبتُهم خسارةً على طريقة الاستعارة تشبيهاً لخيبة قصدهم إحراقَه بخيبة التاجر في تجارته ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ ، أي فخابوا خيبة عظيمة .

(234/511)

وذلك أن خيبتهم جُمع لهم بها سلامةُ إبراهيم من أثر عقابهم وإن صار ما أَعَدوه للعقاب معجزة وتأييداً لإبراهيم عليه السلام .

وأما شدة الخسارة التي اقتضاها اسم التفضيل فهي بما لحقهم عقب ذلك من العذاب إذ سلط الله عليهم عذاباً كما دلّ عليه قوله تعالى في [سورة الحج : 44] ﴿ فأمليت

للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ وقد عَدّ فيهم قومَ إبراهيم ، ولم أرَ من فسر ذلك الأخذ بوجه مقبول .

والظاهر أن الله سلّط عليهم الأشوريين فأخذوا بلادهم ، وانقرض ملكهم وخلفهم الأشوريون ، وقد أثبت التاريخ أن العيلاميين من أهل السوس تسلّطوا على بلاد الكلدان في حياة إبراهيم في حدود سنة 2286 قبل المسيح .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) ﴾

هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار ، هي نجاته من الحلول بين قوم عدّو له كافرين بربّه وربهم ، وهي نجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد .

وتلك بأن سهل الله له المهاجرة من بلاد (الكلدان) إلى أرض (فلسطين) وهي بلاد (كنعان) .

وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين .

واستصحب إبراهيم معه لوطاً ابنَ أخيه (هَاران) لأنه آمن بما جاء به إبراهيم .

وكانت سارة امرأةُ إبراهيم معهما ، وقد فهمت معيتها من أن المرء لا يهاجر إلا ومعه امرأته .

وانتصب ﴿ لوطاً ﴾ على المفعول معه لا على المفعول به لأن لوطاً لم يكن مهدداً من الأعداء لذاته فيتعلّقَ به فعل الإنجاء .

وضمن ﴿ نجيْناه ﴾ معنى الإخراج فعدّي بحرف (إلى) .

والأرض : هي أرض فلسطين .

ووصفها الله بأنه باركها للعالَمين ، أي للناس ، يعني الساكنين بها لأن الله خلقها أرض خصب ورخاء عيش وأرض أمن .

وورد في التوراة : أن الله قال لإبراهيم : إنها تفيض لبناً وعسلاً .

والبركة : وفرة الخير والنفع .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ في [سورة آل عمران : 96] .

(235/511)

وهبة إسحاق له ازدياده له على الكبر وبعد أن يئست زوجه سارة من الولادة .

وهبة يعقوب ازدياده لإسحاق بن إبراهيم في حياة إبراهيم ورؤيته إياه كهلاً صالحاً .

والنافلة : الزيادة غير الموعودة ، فإن إبراهيم سأل ربه فقال ﴿ رب هب لي من الصالحين أراد الولد فولُد له إسماعيل ﴾ كما في [سورة الصافات : 100] ، ثم ولُد له إسحاق عن غير مسألة كما في سورة هود فكان نافلة ، وولد لإسحاق يعقوب فكان أيضاً نافلة .

وانتصب ﴿ نافلة ﴾ على الحال التي عاملها ﴿ وهبنا ﴾ فتكون حالاً من إسحاق ويعقوب شأن الحال الواردة بعد المفردات أن تعود إلى جميعها .

وتنوين ﴿ كُلاً ﴾ عوض عن المضاف إليه .

والمعنى : وكلَّهم جعلنا صالحين ، أي أصلحنا نفوسهم .

والمراد إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، لأنهم الذين كان الحديث الأخير عنهم .

وأما لوط فإنما ذكر على طريق المعية وسيُخص بالذكر بعد هذه الآية .

وإعادة فعل "جعل" في قوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ دون أن يقال : وأيمةً يهْدُون ، بعطف ﴿ أئمة ﴾ على ﴿ صالحين ، ﴾ اهتماماً بهذا الجعل الشريف ، وهو جعلهم هادين للناس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم فأعيد الفعل ليكون له مزيد استقرار .

ولأن في إعادة الفعل إعادة ذكر المفعول الأول فكانت إعادته وسيلة إلى إعادة ذكر المفعول الأول .

وفي تلك الإعادة من الاعتناء ما في الإظهار في مقام الإضمار كما يظهر بالذوق .

والأيمة : جمع إمام وهو القدوة والذي يُعمل كعمله .

وأصل الإمام المثال الذي يصنع الشيء على صورته في الخير أو في الشر .

وجملة ﴿ يهدون ﴾ في موضع الحال مقيدة لمعنى الإمامة ، أي أنهم أئمة هُدى وإرشاد .

وقوله ﴿ بأمرنا ﴾ أي كانوا هادين بأمر الله ، وهو الوحي زيادة على الجعل .

وفي "الكشاف" : "فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هُو بها ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها .

(236/511)

وأول ذلك أن يهتدي بنفسه لأن الانتفاع بهداه أعم والنفوس إلى الاهتداء بالمهدي أميل" أُ هـ .

وهذا الهدي هو تزكية نفوس الناس وإصلاحها وبث الإيمان ويشمل هذا شؤون الإيمان وشُعبه وآدابه .

وأما قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ فذلك إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات .

وقد شملها قوله تعالى ﴿ فعل الخيرات ﴾ .

و ﴿ فعل الخيرات ﴾ مصدر مضاف إلى ﴿ الخيرات ﴾ ، ويتعين أنه مضاف إلى مفعوله لأن الخيرات مفعولة وليست فاعلة فالمصدر هنا بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن المقصود هو مفعوله ، وأما الفاعل فتبع له ، أي أن يفعلوا هُم ويفعَل قومهم الخيرات ، حتى تكون

الخيرات مفعولة للناس كلهم ، فحذف الفاعل للتعميم مع الاختصار لاقتضاء المفعول إياه .

واعتبارُ المصدر مصدراً لفعل مبني للنائب جائزٌ إذا قامت القرينة .

وهذا ما يؤذن به صنيع الزمخشري .

على أن الأخفش أجازه بدون شرط .

ويجوز أن يكون ﴿ فعل الخيرات ﴾ هو الموحى به ، أي وأوحينا إليهم هذا الكلام ،

فيكون المصدر قائماً مقام الفعل مراداً به الطلب ، والتقدير : افعلوا الخيرات ، كقوله تعالى :

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ [محمد : 4] .

وتخصيص ﴿ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما

لأن بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبالزكاة صلاحَ المجتمع

لكفاية عوز المعوزين .

وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام .

ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحي إليهم الأمر بذلك كما هو

بيّن .

ثم خصّهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دلّ عليه فعل الكَون المفيد تمكُّن الوصف ، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوءة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف كما قال يوسف : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ [يوسف : 38] وقال تعالى في الثناء على إبراهيم : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ [البقرة : 135] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(238/511)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) ﴾

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ . . ﴾ [الأنبياء : 68] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرِقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكثوا أربعين يوماً يسجرونها بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذي يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها .

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة

لَفْحها ، فصنعوا له مِنجنيقاً لِيُلْقُوه به في النار من بعيد .

وقولهم : ﴿ وانصروا آلِهَتَكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 68] حسب اعتقادهم كأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التي يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة - إذن - بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .

وقولهم : ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 68] يعني : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه .

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم - عليه السلام - من هذه المَحْرَقَة : ﴿ قُلْنَا يا نار كُونِي . . . ﴾ .

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ؛ ليخرق بالمعجزة نواميس الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا في قصة موسى عليه السلام : الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه ؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً - كما قلنا - كلُّ فِرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطّل قانون الأشياء إلا خالقها ؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّي مهمة ، والذي خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها .

وفَرْق بين فِعْل العبد وفِعْل الحق سبحانه : فلو أنّ في يدك مسدساً ، وأنت تُحسِن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصة ، أَلَكَ تحكُّم فيها بعد ذلك ؟ أيمكن أنْ تأمرها أن تميل يميناً أو شمالاً ؟

لكن الحق سبحانه يتحكّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سَلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : ﴿ يانار كُونِي بَرْداً وسلاما . . . ﴾ [الأنبياء : 69] انطفأت كل نار في الدنيا ، فلما قال : ﴿ على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام ؛ لأن البرد المطلق يؤذي .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً . . . ﴾ .

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفيّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالح الشيء ، ويكون ضده ، ففي قوله تعالى :

﴿ كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ . . . ﴾ [يوسف : 76] .

أي : لصالحه فلم يقُلْ : كِدْنا يوسف إنما كِدْنا له ، وقالوا في الكيد : إنه دليل ضعف وعدم

قدرة على المواجهة ، فالذي يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنّي قويٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها ؛ لأنه لا يضمنها في كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه في أيِّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً . . . قتلتْ كَذلِكَ قُدْرَةُ الضّعفاءِ

(240/511)

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفُهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم قول تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين ﴾ [الأنبياء : 70] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة في الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم في مسألة حَرْق إبراهيم من عِدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصِبْه سوء رغم إلقائه في النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيجازون على فِعْلهم ، هذا في الآخرة ، فأيُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى . . . ﴾ .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ . . . ﴾ [الأنبياء: 71] يعني: كان هناك شرٌّ يصيبه، وأذىً يلحق به، فنجّاه الله منه، وهذه النجاة مستمرة، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً مِمَّا تعرَّض له من أذاهم.

﴿ وَلُوطاً . . . ﴾ [الأنبياء: 71] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 71] أي: قلنا لإبراهيم: اترك هذه الأرض - وهي أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام، وخُذْ معك ابن أخيك، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما في هذا المكان، بل اختار لهما هذا المكان المقدس.

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أيضاً مُحدَّدة مخصوصة، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال، فمثلاً لما قال أخو يوسف: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي . . . ﴾ [يوسف: 80] فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر.

لكن قوله: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . ﴾ [الإسراء: 104] فلم تُعيَّن، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة، اسكنوا كُلَّ الأرض، يعني: تبعثروا فيها، ليس لكم فيها وطن مستقل، كما قال في آية أخرى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . . ﴾ [الأعراف: 168].

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة . . . ﴾ [الإسراء: 104] أي: المرة التي سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء: 104] وهكذا يتجمَّعون في مكان واحد، فيسْهُل القضاء عليهم.

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا . . . ﴾ [الأنبياء: 71] البركة قد تكون مادية أو معنوية، وهي الزروع والثمار والأنهار والخيرات، أو بركة معنوية، وهي بركة القِيَم في الأرض المقدسة، وهي أرض الأنبياء، ومعالم النبوة والرسالات.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ . . . ﴾.

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمّا نحن بصدده من الحديث عنه، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ [الصافات: 100] مع أنه كان عنده إسماعيل، لكن إسماعيل من هاجر، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة، ووجدت في نفسها ما تجده النساء في مسألة الولد، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التي زوَّجتها له دون أن يكون لها مِثْله.

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقّق له له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد في ملحظ عقدي يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

(242/511)

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم في الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ يا بني إني أرى فِي المنام أَنّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى . . . ﴾ [الصافات : 102] .

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه في هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غِرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبني عليها ، بل نراه يقول : ﴿ ياأبت افعل مَا تُؤْمَرُ ﴾ [الصافات : 102] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ

الصابرين ﴾ [الصافات : 102] .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا . . . ﴾ [الصافات : 103] أي : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . . . ﴾ [الصافات : 103] يقال : تله يعني جعل رأسه على التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و﴿ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : 103] يعني : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا . . . ﴾ [الصافات : 104-105]

وما دُمْتَ صدّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى في تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلّم بقضائه ، وصدق القائل :

سَلّم لربّكَ حُكْمَهُ فلحكمةٍ يَقْضِي . . . حتى تستريح وتنْعما

واذْكُرْ خليلَ اللهِ في ذَبْحِ ابنِه . . . إذ قال خالقه فلما أسلما

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضيَ به ، فلا أحدَ يجبر الله على شيء ، وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثَل الأعلى - بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه

، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة ، تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجَّح في وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعِف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 107] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ . . . ﴾ [الصافات : 112] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هي مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً . . ﴾ [الأنبياء : 72] والنافلة : الزيادة ، وقط طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿ نَافِلَةً . . . ﴾ [الأنبياء : 72] يعني : أمر زائد عما طلبتَ ؛ فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : " أعز من الوِلْد وِلْد الولد " والإنسان يضمن بقاء ذِكْره في ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمِن ذِكْره لجيل آخر .

والهبة جاءت من الله ؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : 29] فردَّ عليها :

﴿ قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله . . . ﴾ [هود : 73] أي : أنه سبحانه قادر على كل شيء .

(244/511)

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [الأنبياء : 72] فالحفيد نافلة وزيادة في عطاء الذرية ، ومبالغة في الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ [مريم : 49] . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . . ﴾ .

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . ﴾ [الأنبياء : 73] فهم لا يصدرون في شيء إلا على هُدًى من الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات . . . ﴾ [الأنبياء : 73] أي : يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه ؛ لأن الموفّق الذي يتوفر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه .

﴿ وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة . . ﴾ [الأنبياء : 73] وإقامة الصلاة هي : عَيْن الخيرات كلها ؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة في جانب المنعم سبحانه ، فالصلاة هي

خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت . . الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا ؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا – إذن – تحتال في هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال في وقت الصلاة ؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففي إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامي في المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحي ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه في هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين في بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم في حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوّلُ المستفيدين من تدريس الدين الإسلامي لأولاد المسلمين .

وفعلاً في اليوم التالي أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامي في مدارسهم لأولاد المسلمين ؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابي تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه في أول أفعال الخيرات ، وفي مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذي يهبُكَ هذه الخيرات .

﴿ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ . . . ﴾ [الأنبياء : 73] والزكاة تطبيق عمليٌّ للاستجابة لله حين تُخرج جزءاً من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال في الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهي تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 73] أي : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عباد لمعبوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(246/511)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) (الأنبياء : 70) ، وفي الصافات : (

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) (الصافات : 98) ، هنا سؤالان : أحدهما : ما وجه الاختلاف مع اتحاد المقصود في الموضعين ؟ والثاني : ما وجه اختصاص كل من الموضعين بما ورد فيه ؟

والجواب عن السؤالين معاً : أن الخاسر عندنا من فقد ما بيده من مال أو سبب كان يعتمده لدنياه ومعاشه ، أو محاولة فسدت عليه فساءت حاله ، لذلك ومهما استحكمت حاله في ذلك كان أخسر ، وقد جعل سبحانه في الخسران المبين من خسر الدنيا والآخرة ، وأعلمنا تعالى أن الأخسرين لا يقام لهم (وزن في القيامة ، قال تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) (الكهف : 103) إلى قوله : (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (الكهف : 105) ، فلا أدون حالاً من هؤلاء . ولما أراد قوم إبراهيم ، عليه السلام ، به الكيد ألحقهم تعالى بهؤلاء عقوبة توافق مرتكبهم وسوء انتحالهم ، والأخسرون هم الأسفلون ، وهذا كان مطلب الكافر في الآخرة وتمنيه لو بلغه إلحاق من أضله من الجن

والإنس بهذا النمط ، قال تعالى مخبراً عن حالهم في الآخرة : (رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) (فصلت : 29) ، فالصفتان من الخسران والسفالة غاية حالة الكافر ، ومن كان من الأسفلين فقد خسر خسراناً مبيناً ، فلا تضاد بين الصفتين سوى أن السفول لاحق في ذات المسفل ، والخسران حقيقة في خارج عنه ، فالسفول أبلغ ، فقد ما هو لاحق خارجي ، وأخر ما لا يتعدى ذات المتصف تكملة وتتمة ، إذ هو أبلغ على ما يجب وعلى ما قدمنا من رعي الترتيب ، والتسفل (ضد) التّعالي ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، وقيل روعي في آية والصافات مقابلة قولهم : ابنوا له بنياناً ، لأنه يفهم منه إرادتهم علو أمرهم بفعلهم ذلك ، فقوبلوا بالضد ، فجعلوا الأسفلين . قال معناه صاحب الدرة ، وهو حسن ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 349.350 ﴾

(248/511)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) ﴾

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار؟ قلت: لا. قال: رجل من أعراب فارس، يعني الأكراد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما جمع لإبراهيم عليه السلام ما جمع وألقي في النار، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ فكان أمر الله أسرع، قال الله: ﴿كوني برداً وسلاماً﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفئت.

وأخرج أحمد والطبراني وأبو يعلى وابن أبي حاتم، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن إبراهيم حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم" فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله.

وأخرج ابن مردويه عن أم شريك، "أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الأوزاغ وقال: "كانت تنفخ على إبراهيم"".

وأخرج عبد الرزاق في المصنف، أخبرنا معمر عن قتادة عن بعضهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت الضفدع تطفئ النار عن إبراهيم، وكانت الوزغ تنفخ عليه، ونهى عن قتل هذا وأمر بقتل هذا".

وأخرجه ابن المنذر فقال: أخبرنا أبو سعيد الشامي عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الضفدع، فإن صوته تسبيح وتقديس وتكبير، إن

البهائم استأذنت ربها في أن تطفئ النار عن إبراهيم فأذن للضفادع ، فتراكبت عليه فأبدلها الله بحر النار برد الماء " .

وأخرج أبو يعلى وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما ألقي إبراهيم في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك " .

(249/511)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر ، عن ابن عمرو قال : أول كلمة قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقي في النار فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أياماً ولياليَ قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : لما ألقي إبراهيم خليل الرحمن في النار قال الملك

خازن المطر : يا رب ، إن خليلك إبراهيم رجا أن يؤذن له فيرسل المطر ، فكان أمر الله أسرع من ذلك فقال : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ فلم يبق في الأرض نار إلا طفئت .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : الذي قال حرقوه ، هبون . فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ قلنا يا نار ﴾ قال : كان جبريل هو الذي قالها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها ﴿ سلاماً ﴾ لمات إبراهيم من بردها ، فلم يبق في الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظننت أنها هي تعنى .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن علي في قوله : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً ﴾ قال : لولا أنه قال : ﴿ وسلاماً ﴾ لقتله بردها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شمر بن عطية قال : لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار ، نادى الملك الذي يرسل المطر : رب ، خليلك رجا أن يؤذن له فيرسل المطر . فقال الله : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ فلم يبق في الأرض يومئذ نار إلا بردت .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد من طريق أبي هلال ، عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار ، جاءت عامة الخليقة فقالت : " يا رب ، خليلك يلقى في النار فائذن لنا نطفئ عنه . قال : هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره ، وأنا آلهه ليس له إله غيري ، فإن استغاثكم فأغيثوه ، وإلا فدعوه " قال : وجاء ملك القطر قال : " يا رب ، خليلك يلقى في النار فائذن لي أن أطفئ عنه بالقطر . قال : هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره ، وأنا إلهه ليس له إله غيري ، فإن استعان بك فأعنه وإلا فدعه " . قال : فلما ألقي في النار دعا بدعاء نسيه أبو هلال فقال الله عز وجل : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ قال : فبردت في المشرق والمغرب فما أنضجت يومئذ كراعاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة قال : قال كعب : ما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار يومئذ شيئاً ، إلا وثاق إبراهيم .

وقال قتادة : لم تأت دابة يومئذ إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : يذكرون أن جبريل كان مع إبراهيم في النار يمسح عنه العرق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال : لما ألقي إبراهيم في النار قعد فيها ، فأرسلوا إلى ملكهم فجاء ينظر متعجباً . . . ! فطارت منه شرارة فوقعت على إبهام رجله فاشتعل كما تشتعل الصوفة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : خرج إبراهيم من النار يعرق لم تحرق النار إلا وثاقه ، فأخذوا شيخاً منهم فجعلوه على نار كذلك فاحترق .

(251/511)

وأخرج عبد بن حميد عن سليمان بن صرد . وكان قد أدرك النبي – صلى الله عليه وسلم – أن إبراهيم لما أرادوا أن يلقوه في النار ، جعلوا يجمعون له الحطب فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها ، فيقال لها : أين تريدين ؟ فتقول : أذهب إلى هذا الذي يذكر آلهتنا .

فلما ذهب به ليطرح في النار ﴿ قال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99]

فلما طرح في النار قال : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال الله : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ فقال أبو لوط – وكان عمه – إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني . فأرسل الله عنقاً من النار فأحرقته .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير ، عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ قلنا يا نار

كوني برداً ﴾ قال : بردت عليه حتى كادت تؤذيه ، حتى قيل : ﴿ وسلاماً ﴾ قال : لا تؤذيه .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يقل : ﴿ وسلاماً ﴾ لقتله البرد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إن أحسن شيء قاله أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار ، وجده يرشح جبينه فقال عند ذلك : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

وأخرج ابن جرير عن شعيب الجبائي قال : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق وهو ابن سبع سنين .

وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمي ، عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى في النار قال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا .

وأخرج ابن جرير عن أرقم ، أن إبراهيم عليه السلام قال : حين جعلوا يوثقونه ليلقوه في النار : " لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك " .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً ﴾ قال : السلام لا يؤذيه بردها ، ولولا أنه قال : ﴿ سلاماً ﴾ لكان البرد أشد عليه من الحر .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله : ﴿ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ قال : ألقوا شيخاً في النار منهم لأن يصيبوا نجاته كما نجا إبراهيم فاحترق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مالك في قوله : ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ قال : الشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في قوله : ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ قال : الشام . وما من ماء عذب إلا يخرج من تلك الصخرة التي ببيت المقدس ، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق في الأرض .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام قال : بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر ، وإن دمشق معقل الناس في آخر الزمان من الملاحم .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ، قال لوط : كان ابن أخي إبراهيم عليهما السلام .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال : لما هرب إبراهيم من كوثي وخرج من النار ، ولسانه يومئذ سرياني ، فلما عبر الفرات من حران غيّر الله لسانه فقلب عبرانياً حيث عبر الفرات ، وبعث نمرود في نحو أثره وقال : لا تدعوا أحداً يتكلم بالسريانية إلا جئتموني به ، فلقوا إبراهيم يتكلم بالعبرانية فتركوه ولم يعرفوا لغته .

وأخرج ابن عساكر عن حسان بن عطية قال : أغار ملك نبط على لوط عليه السلام

فسباه وأهله ، فبلغ ذلك إبراهيم فأقبل في طلبه في عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فالتقى هو وتلك النبط في صحراء معفور ، فعبى إبراهيم ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان أول من عبى الحرب هكذا ، فاقتتلوا فهزمهم إبراهيم واستنقذ لوطاً وأهله .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ ونجيناه ﴾ يعني إبراهيم ﴿ ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ قال : هي الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين ؛ لأن كل ماء عذب في الأرض منها يخرج ، يعني من أصل الصخرة التي في بيت المقدس ، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق في الأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ونجيناه ولوطاً ﴾ قال : كانا بأرض العراق ، فأنجيا إلى أرض الشام . وكان يقال : الشام عماد دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين . وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وفيها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك الله شيخ الضلالة الدجال .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾

قال : الشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾

قال : إلى حران .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ووهبنا له إسحاق ﴾ قال : ولداً

﴿ ويعقوب نافلة ﴾ قال : ابن ابن .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد

رضي الله عنه ﴿ ووهبنا له إسحاق ﴾ قال : أعطاه ﴿ ويعقوب نافلة ﴾ قال :

عطية .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي في الآية قال : دعا بالحق فاستجيب له وزيد

يعقوب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحكم قال : النافلة ابن الابن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿

وجعلناهم أئمة يهدون ﴾ الآية . قال : جعلهم الله أئمة يقتدى بهم في أمر الله . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

قوله : ﴿ بَرْداً ﴾ : أي : ذاتَ بَرْد . والظاهر في " سلاماً " أنه نَسَقٌ على " بَرْدا " فيكونُ خبراً عن " كُوني " . وجَوَّز بعضُهم أن ينتصِبَ على المصدرِ المقصودِ به التحيةُ في العُرْفِ . وقد رُدَّ هذا بأنَّه لو قُصِد ذلك لكان الرفعُ فيه أولى نحو قولِ إبراهيم : ﴿ سَلاَمٌ ﴾ [هود : 69] . وهذا غيرُ لازمٍ ؛ لأنه يجوز أَنْ يأتيَ القرآنُ على الفصيحِ والأفصحِ . ويَدُلُّ على ذلك أنه جاء منصوباً ، والمقصودُ به التحيةُ نحو قول الملائكة : ﴿ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [هود : 69] .

وقوله : ﴿ على إِبْرَاهِيمَ ﴾ متعلق بنفس " سلام " إنْ قُصِد به التحيةُ . ويجوز أن يكونَ صفةً فيتعلَّقَ بمحذوفٍ . وعلى هذا فيُحْتمل أَنْ يكونَ قد حَذَفَ صفةَ الأول لدلالةِ صفةِ الثاني عليه تقديرُه : كوني بَرْداً عليه وسلاماً عليه .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

قوله : ﴿ ولُوطاً ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ معطوفاً على المفعولِ قبلَه ، والثاني : أن يكونَ مفعولاً معه . والأول أَوْلى . وقوله : ﴿ إِلَى الأرض ﴾ يجوز فيه وجهان

، أحدهما : أَنْ يتعلَّق بِنَجَّيْناه على أن يُضمَّنَ معنى أخرَجناه بالنجاة . فلمّا ضُمِّنَ معنى أخرج تعدَّى تعديتَه . والثاني : أنه لا تضمينَ فيه ، وأنَّ حرفَ الجرِّ يتعلَّقُ بمحذوفٍ على أنه/ حالٌ من الضمير في " نَجَّيْناه " أي : نَجَّيْناه مُنْتَهِياً إلى الأرض . كذا قدَّره الشيخ . وفيه نظرٌ : من حيث إنه قدَّر كوناً مقيَّداً ، وهو كثيراً ما يَرُدُّ على الزمخشري وغيرِه ذلك .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)

(255/511)

قوله : ﴿ نَافِلَةً ﴾ : قيل في تفسير النافلة : إنها العَطِيَّةُ . وقيل : الزيادةُ . وقيل : وَلَدُ الولد . فعلى الأول تنتصِبُ انتصابَ المصادر من معنى العامل وهو " وهبنا " ، لا من لفظِه ؛ لأنَّ الهِبَةَ والإِعطاءَ متقاربان فهي كالعاقبةِ والعافية . وعلى الأخيرين تنتصِبُ على الحال ، والمرادُ بها يعقوب . والنافِلَةُ مختصةٌ بـ يعقوب على كلِّ تقديرٍ ؛ لأن إسحاقَ ولدُه لصُلْبه .

قوله : ﴿ وَكُلاًّ ﴾ مفعولٌ أولُ لـ " جَعَلْنا " و " صالحين " هو الثاني ، توسَّط العاملُ بينهما . والأصل : وجَعَلْنا أي : صيَّرْنا كُلاًّ من إبراهيم ومَنْ ذُكر معه صالحِين .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ : كما تقدَّم إلاَّ أنه لم يُوَسَّطِ العامل . و "يَهْدون" صفةٌ ل "أئمة" . و "بأَمْرِنا" متعلق ب "يَهْدُون" . وقد تقدَّم التصريفُ المتعلِّق بلفظ أئمة وقراءةُ القراءِ فيها .

(256/511)

قوله : ﴿ فِعْلَ الخيرات ﴾ قال الزمخشري : "أصلُه أن تُفْعَلَ الخيراتُ ، ثم فِعْلاً الخيراتِ ، ثم فِعْلَ الخيراتِ ، وكذلك "وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاةِ" . قال الشيخ : "كأنَّ الزمخشريَّ لَمَّا رأى أنَّ فِعْلَ الخيراتِ وإقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ ليس من الأحكامِ المختصةِ بالموحى إليهم ، بل هم وغيرُهم في ذلك مشتركون بُني الفعلُ للمفعولِ ، حتى لا يكونَ المصدرُ مضافاً من حيث المعنى إلى ضميرِ المُوْحَى إليهم ، فلا يكونُ التقدير : فِعْلَهم الخيراتِ ، وإقامَتَهم الصلاةَ ، وإيتاءَهم الزكاةَ . ولا يلزمُ ذلك ؛ إذ الفاعلُ مع المصدرِ محذوفٌ . ويجوزُ أَنْ يكونَ من حيث المعنى مضافاً إلى ظاهرٍ محذوفٍ ، ويشملُ الموحى إليهم وغيرَهم . والتقديرُ : فِعْلَ المكلَّفين الخيراتِ . ويجوز أن يكونَ مضافاً إلى ضمير الموحى إليه أي : [أن] يفعلوا الخيراتِ ، ويُقيموا الصلاةَ ، ويُؤْتُوا الزكاةَ ، وإذا كانوا هم قد أُوْحي إليهم ذلك فأتباعُهم جارُوْن مَجْراهم في ذلك ، ولا يَلْزَمُ اختصاصُهم به . ثم اعتقادُ بناءِ المصدرِ للمفعولِ

مختلَفٌ فيه . أجاز ذلك الأخفشُ . والصحيحُ مَنْعُه فليس ما اختاره الزمخشريُّ بمختارٍ "

.

قلت : الذي يَظْهر أنَّ الزمخشريَّ لم يُقَدِّرْ هذا التقديرَ ، لِما ذكره الشيخ ، حتى يُلْزِمَه ما قاله ، بل إنما قَدَّر ذلك لأنَّ نفسَ الفعلِ الذي هو معنى صادرٌ مِنْ فاعِله لا بوَحْيٍ ، إنما بوحيَ ألفاظٍ تَدُلُّ عليه ، وكأنه قيل : وأَوْحَيْنا هذا اللفظ ، وهو أن تُفْعَلَ الخيراتُ ، ثم صاغ ذلك الحرفَ المصدريَّ مع ما بعده مصدراً منوَّناً ناصباً لِما بعده ، ثم جَعَلَه مصدراً مضافاً لمفعولِه .

(257/511)

وقال ابن عطية : " والإِقام مصدرٌ . وفي هذا نظر " . انتهى . يعني ابن عطية بالنظر أنَّ مصدرَ أَفْعَل على الإِفعال . فإن كان صحيحَ العينِ جاء تامَّاً كالإِكرام ، وإنْ كان معتلَّها حُذِف منه إحدى الألفين ، وعُوِّض منه تاءُ التأنيث فيقال إقامة . فلمَّا لم يُقَلْ كذلك جاء فيه النظر المذكور . قال الشيخ : " وأيُّ نظرٍ في هذا ؟ وقد نَصَّ سيبويه على أنَّه مصدرٌ بمعنى الإِقامة وإنْ كان الأكثرُ الإِقامةَ بالتاء ، وهو المقيسُ في مصدر أَفْعَل إذا اعتلَّتْ عينُه . وحَسَّن ذلك أنه قابَلَ ﴿ وَإِيتَآءَ الزكاة ﴾ وهو بغير تاءٍ ، فتقع الموازنةُ بين قولِه ﴿ وَإِقَامَ

الصلاةِ وإِيتَاءَ الزكاةِ ﴾ .

وقال الزجاج : " حُذِفَتِ التاءُ مِنْ إقامة لأنَّ الإِضافةَ عوضٌ عنها " وهذا قولُ الفراءِ : زعم أنَّ التاءَ تُحْذَفُ للإِضافةِ كالتنوين . وقد تقدم بَسْطُ القولِ في ذلك عند قراءةِ مَنْ قرأ في براءة ﴿ عُدَّةً ولكن كَرِهَ ﴾ [التوبة : 46] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 183.180 ﴾

(258/511)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

لو عَصَمَه من نار نمرود ولم يمكنه مِنْ رَمْيه في النار من المنجنيق لكان - في الظاهر - أقرب من النصر ، ولكنَّ حِفْظَه في النار من غير أنْ يَمَسَّه ألَمٌ أتمُّ في باب النصرة والمعجزة والكرامة .

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان كثيراً ما يقول : أواه من النار !

قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] .

فلمّا رُمِيَ في النار ، وجعل اللَّهُ عليه النارَ بَرْدًا قيل له : لا تقُلْ بعد هذا . أواه من النار !

فالاستعاذةُ بالله مِنَ الله . . . لا من غيره .

قوله : ﴿ وسلاماً ﴾ : أي وسلامةً عليه وله ، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنارُ والبَرْدُ عنده سِيّان .

ويقال إن الذي يحرق في النار مَنْ في النار يقدر على حِفْظِه في النار .

ولمَّا سَلِمَ قلبُه من غير الله بكل وجهٍ في الاستنصار والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شيءٍ بكلِّ وجهٍ . . . تعرَّض له جبريلُ – عليه السلام – في الهواء وقد رمي من المنجنيق وقال له : هل مِنْ حاجة ؟

فقال : أمَّا إليكَ . . فلاَ !

فجعل اللَّهُ النار عليه برداً وسلاماً ؛ إذ لمَّا كان سليمَ القلبِ من الأغيار وَجَد سلامةَ النَّفْسِ من البلايا والأعلال .

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)

مَنْ حفَرَ لأوليائه وقع فيما حفَر ، ومَنْ كان مشغولاً بالله لم يَتَوَلَّ الانتقام منه سوى الله .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ في أنبيائه – عليهم السلام – أنه إذا نَجَّى منهم واحداً أَشرك معه مَنْ كان

مُسَاهِماً له في ضُرِّه ومُقَاساةِ مشقته .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)

(259/511)

مَنَّ عليه بأن أخرج مِنْ صلبه مَنْ كان عابداً لله ، ذاكراً له ، فإنَّ مفاخِرَ الأبناءِ مناقِبُ للآباء ، كما أنَّ مناقبَ الآباء شرفٌ للأبناء .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)

الإمامُ مُقَدَّمُ القوم ، واستحقاقُ رتبةِ الإمامة باستجماع الخصال المحمودة التي في الأمة فيه ، فَمَنْ لم تتجمعْ فيه مُتَفَرِّقَاتُ الخِصالِ المحمودةِ لم يستحق منزلةَ الإمامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 509.510 ﴾

(260/511)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثاني عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 74 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 80 ﴾ من نفس السورة

(4/512)

قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان سبحانه قد سخر لصديقه لوط عليه السلام إهلاك من عصاه في أول الأمر بحجارة الكبريت التي هي من النار ، وفي آخره بالماء الذي هو أقوى من النار ، تلاه به فقال : ﴿ ولوطاً ﴾ أي وآتيناه أو واذكر لوطاً ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ ءاتيناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ حكماً ﴾ أي نبوة وعملاً محكماً بالعلم ﴿ وعلماً ﴾ مزيناً بالعمل ﴿ ونجيناه ﴾ بانفرادنا بالعظمة.

ولما كانت مادة " قرا " تدل على الجمع ، قال : ﴿ من القرية ﴾ المسماة سدوم ، أي من

عذابهم وجميع شرورهم ، وأفرد تنبيهاً على عمومها بالقلع والقلب وأنه كان في غاية السهولة والسرعة ، وقال أبو حيان : وكانت سبعاً ، عبر عنها بالواحدة لاتفاق أهلها على الفاحشة .

﴿ التي كانت ﴾ قبل إنجائنا له منها ﴿ تعمل الخبائث ﴾ بالذكران ، وغير ذلك من الطغيان ، فاستحقوا النار التي أمر المؤلفات ، بما ارتكبوا من الشهوة المحظورة لعدهم لها أحلى الملذذات ، والغمر بالماء القذر المنتن الذي جعلناه – مع أنا جعلنا من الماء كل شيء حي – لا يعيش فيه حيوان ، فضلاً عن أن يتولد منه ، ولا ينتفع به ، لما خامروا من القذر الذي لا ثمرة له .

ولما كان في هذا إشارة إلى إهلاك القرية ، وأن التقدير : ودمرنا عليهم بعد انفصاله عنهم ، علله بقوله : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي بما جلبوا عليه ﴿ قوم سوء ﴾ أي ذوي قدرة على الشر بانهماكهم في الأعمال السيئة ﴿ فاسقين ﴾ خارجين من كل خير ، ثم زاد الإشارة وضوحاً بقوله : ﴿ وأدخلناه ﴾ أي دونهم بعظمتنا ﴿ في رحمتنا ﴾ أي في الأحوال السنية ، والأقوال العلية ، والأفعال الزكية ، التي هي سبب الرحمة العظمى ومسببة عنها ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه من الصالحين ﴾ أي لما جلبناه عليه من الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 98.99 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

القصة الثالثة ، قصة لوط عليه السلام

اعلم أنه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على إبراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل ، وههنا مسألتان :

المسألة الأولى :

في الواو في قوله : ﴿ وَلُوطاً ﴾ قولان : أحدهما : وهو قول الزجاج أنه عطف على قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء : 73] .

والثاني : قول أبي مسلم أنه عطف على قوله : ﴿ آتينا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ [الأنبياء : 51] ولا بد من ضمير في قوله : ﴿ وَلُوطاً ﴾ فكأنه قال وآتينا لوطاً فأضمر ذكره .

المسألة الثانية :

في أصناف النعم وهي أربعة وجوه : أحدها : الحكم أي الحكمة وهي التي يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هي النبوة .

وثانيها : العلم ، واعلم أن إدخال التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم وذلك

الحكم .

وثالثها : قوله : ﴿ ونجيناه مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ والمراد أهل القرية لأنهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولأن الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ، ثم بين سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين ﴾ ما أراده بالخبائث ، وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر .

ورابعها : قوله : ﴿ وأدخلناه فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ وفي تفسير الرحمة قولان :

الأول : أنه النبوة أي أنه لما كان صالحاً للنبوة أدخله الله في رحمته لكي يقوم بحقها عن مقاتل .

الثاني : أنه الثواب عن ابن عباس والضحاك ، ويحتمل أن يقال : إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الإلهية وهي بحر لا ساحل له وهي الرحمة في الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 166 . 167 ﴾

(6/512)

وقال الماوردى :

قوله وجل : ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾

فيه تأويلان :

أحدهما : أنه القضاء بالحق بين الخصوم قاله ابن عيسى .

الثاني : النبوة ، قاله . . . .

﴿ عِلْمَاً ﴾ يعني فهماً .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَآئِثَ ﴾ وهي قرية سدوم .

وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان :

أحدهما : اللواط .

الثاني : الضراط ﴿ ونجيناه ﴾ قيل من قلب المدائن ورمي الحجارة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(7/512)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً ﴾

قال الزجاج : انتصب "لوط" بفعل مضمر ، لأن قبله فعلاً ، فالمعنى : وأوحينا إِليهم وآتينا لوطاً .

وذكر بعض النحويين: أنه منصوب على "واذكر لوطاً"، وهذا جائز، لأن ذِكْرَ إِبراهيم قد جرى، فحُمل لوط على معنى: واذكر.

قال المفسرون: لمَّا هاجر لوط مع إِبراهيم، نزل إِبراهيم أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة أو نحو ذلك من إِبراهيم، فبعثه الله نبيّاً.

فأما "الحُكم" ففيه قولان.

أحدهما: أنه النبوّة، قاله ابن عباس.

والثاني: الفهم والعقل، قاله مقاتل.

وقد ذكرنا فيه أقوالاً في سورة [يوسف: 22].

وأما "القرية" هاهنا، فهي سَدُوم، والمراد أهلها، والخبائث: أفعالهم المنكَرة، فمنها إِتيان الذكور وقطع السبيل، إِلى غير ذلك مما قد ذكره الله عز وجل عنهم في مواضع [هود: 78 والحجر: 69].

قوله تعالى: ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ أي: بانجائه من بينهم. انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(8/512)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾

"لوطاً" منصوب بفعل مضمر دل عليه الثاني ؛ أي وآتينا لوطاً آتيناه .

وقيل : أي واذكر لوطاً .

والحكم النبوّة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم .

وقيل : "عِلْماً" فهما ؛ والمعنى واحد .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يريد سَدُوم .

ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ست وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهي زغَر التي فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حد الشراة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز .

وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان : أحدهما : اللواط على ما تقدّم .

والثاني : الضراط ؛ أي كانوا يتضارطون في ناديهم ومجالسهم .

وقيل : الضراط وخذف الحصى وسيأتي .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدّم .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ في النبوّة .

وقيل : في الإسلام .

وقيل : الجنة .

وقيل : عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(9/512)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى ما أنعم على إبراهيم ما أنعم به على من هاجر معه فارًّا بدينه وهو لوط ابن أخيه وانتصب ﴿ ولوطاً ﴾ على الاشتغال والحكم الذي أوتيه النبوة .

وقيل : حسن الفصل بين الخصوم في القضاء .

وقيل : حفظ صحف إبراهيم ، ولما ذكر الحكم ذكر ما يكون به وهو العلم و﴿ القرية ﴾ سدوم وكانت قراهم سبعاً وعبر عنها بالواحدة لاتفاق أهلها على الفاحشة ، وكانت من كورة فلسطين إلى حد السراة إلى حد نجد بالحجاز ، قلب منها تعالى ستاً وأبقى منها زغر لأنها كانت محل لوط وأهله ومن آمن به أي ﴿ ونجيناه من ﴾ أهل ﴿ القرية ﴾ أي خلصناه منهم أو من العذاب الذي حل بهم ، ونسب عمل ﴿ الخبائث ﴾ إلى القرية مجازاً

وهو لأهلها وانتصب ﴿ الخبائث ﴾ على معنى ﴿ تعمل ﴾ الأعمال أو الفعلات الخبيثة وهي ما ذكره تعالى في غير هذه السورة مضافاً إلى كفرهم بالله وتكذيبهم نبيه ، وقوله ﴿ إنهم ﴾ يدل على أن التقدير من أهل القرية ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ أي في أهل رحمتنا أو في الجنة ، سماها رحمة إذ كانت أثر الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(10/512)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلُوطاً ﴾ قيل : هو منصوبٌ بمضمر يفسّره قوله تعالى : ﴿ ءاتيناه ﴾ أي وآتينا لوطاً ، وقيل : باذكُرْ ﴿ حُكْمًا ﴾ أي حكمةً أو نبوةً أو فصلاً بين الخصوم بالحق ﴿ وَعِلْماً ﴾ بما ينبغي علمُه للأنبياء عليهم السلام ﴿ ونجيناه مِنَ القرية التى كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ أي اللّواطةَ ، وُصفت بصفة أهلها وأُسندت إليها على حذف المضاف وإقامتها مُقامه كما يُؤذِن به قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْء فاسقين ﴾ فإنه كالتعليل له .

﴿ وأدخلناه فِى رَحْمَتِنَا ﴾ أي في أهل رحمتِنا أو في جنتنا ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى : ﴿ ءاتيناه ﴾ أي وآتينا لوطاً آتيناه والجملة عطف على ﴿ وَهَبْنَا لَهُ ﴾ [الأنبياء : 72] جمع سبحانه إبراهيم ولوطاً في قوله تعالى : ﴿ ونجيناه ولُوطاً ﴾ [الأنبياء : 71] ثم بين ما أنعم به على كل منهما بالخصوص وما وقع في البين بيان على وجه العموم .

والطبرسي جعل المراد من قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ ﴾ [الأنبياء : 72] الخ أي كلاً من إبراهيم وولديه إسحاق .

ويعقوب جعلنا الخ فلا اندراج للوط عليه السلام هناك وله وجه ، وأما كون المراد وكلاً من إسحاق ويعقوب فلا وجه له ويحتاج إلى تكليف توجيه الجمع فيما بعده ، وقيل باذكر مقدراً وجملة ﴿ ءاتيناه ﴾ مستأنفة ﴿ حُكْمًا ﴾ أي حكمة ، والمراد بها ما يجب فعله أو نبوة فإن النبي حاكم على أمته أو الفصل بين الخصوم في القضاء ، وقيل حفظ صحف إبراهيم عليه السلام وفيه بعد ﴿ وَعِلْماً ﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام ﴿ ونجيناه مِنَ القرية التى كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ قيل أي اللواطة ، والجمع باعتبار تعدد المواد

، وقيل المراد الأعمال الخبيثة مطلقاً إلا أن أشنعها اللواطة ، فقد أخرج إسحاق بن بشر . والخطيب : وابن عساكر عن الحسن قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر خصال عملتها قوم لوط بها أهلكوا إتيان الرجال بعضهم بعضاف ورميهم بالجلاهق والخذف ولعبهم بالحمام وضرب الدفوف وشرب الخمور وقص اللحية وطول الشارب والصفر والتصفيق ولباس الحرير وتزيدها أمتي بحلة إتيان النساء بعضهن بعضاً " .

وأسند ذلك إلى القرية على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فالنعت سببي نحو جاءني رجل زنى غلامه ، ولو جعل الإسناد مجازياً بدون تقدير أو القرية مجازاً عن أهلها جاز ، واسم القرية سدوم ، وقيل كانت قراهم سبعاً فعبر عنها ببعضها لأنها أشهرها .

(12/512)

وفي "البحر" أنه عبر عنها بالواحدة لاتفاق أهلها على الفاحشة ويروى أنها كلها قلبت إلا زغر لأنها كانت محل من آمن بلوط عليه السلام ، والمشهور قلب الجميع .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين ﴾ أي خارجين عن الطاعة غير منقادين للوط عليه السلام ، والجملة تعليل لتعمل الخبائث ، وقيل : لنجيناه وهو كما ترى .

﴿ وأدخلناه فِى رَحْمَتِنَا ﴾ أي في أهل رحمتنا أي جعلناه في جملتهم وعدادهم فالظرفية

مجازية أو في جنتنا فالظرفية حقيقية والرحمة مجاز كما في حديث الصحيحين : " قال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي " ويجوز أن تكون الرحمة مجازاً عن النبوة وتكون الظرفية مجازية أيضاً فتأمل ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى ، والجملة تعليل لما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(13/512)

وقال القاسمى :

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ أي : حكمة . وهو ما يجب فعله : ﴿ وَعِلْماً ﴾ أي : بما ينبغي علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم في غير ما موضع في كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك في ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ ﴾ أي : من عذابها : ﴿ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يعني اللواطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمي اللوطي منكساً من مكان عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أي : في أهلها : ﴿

إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 216 ﴾

(14/512)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

قوله ﴿ وَلُوطاً ﴾ منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسر ﴿ آتَيْنَاهُ ﴾ كما قال في الخلاصة :

فالسابق انصبه بفعل أضمرا . . . حتماً موافق لما قد أظهرا

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : الحكم : النبوة . والعلم : المعرفة بأمر الدين ، وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : علماً فهماً . وقال الزمخشري : حكماً : حكمة ، وهو ما يجب فعله ، أو فصلاً بين الخصوم ، وقيل : هو النبوة .

(15/512)

قال مقيده عفا الله عنه : أصل الحكم في اللغة : المنع كما هو معروف . فمعنى الآيات : أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتريها الخلل . والقرية التي كانت تعمل الخبائث : هي سدوم وأعمالها ، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله : منها اللواط ، وأنهم هم أول من فعله من الناس ، كما قال تعالى ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 80] ، وقال : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : 165–166] . ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديهم ، وقطعهم الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنْكَرَ ﴾ [العنكبوت : 29] الآية . ومن أعظم خبائثهم : تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن . كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : 167] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] إلى غير ذلك من الآيات . وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه : أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] والآيات بنحو ذلك كثيرة . والخبائث : جمع خبيثة ، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك .

(16/512)

وقوله ﴿ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ أي أصحاب عمل سيئ ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم : وقوله : ﴿ فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله . وقوله ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ ﴾ يعني لوطاً ﴿ فِي رَحْمَتِنَآ ﴾ شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم ، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة ، كما في الحديث الصحيح : " تحاجّت النّار والجنة " الحديث . وفيه : " فقال للجنة أنت رَحْمَتي أرحم بها من أَشَاء من عبَادي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(17/512)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

عطف على جملة ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ [الأنبياء : 51] .

وقدّم مفعول ﴿ آتيناه ﴾ اهتماماً به لينبه على أنه محل العناية إذ كان قد تأخر ذكر قصته

بعد أن جرى ذكره تبعاً لذكر إبراهيم تنبيهاً على أنه بعث بشريعة خاصة، وإلى قوم غير القوم الذين بعث إليهم إبراهيم، وإلى أنه كان في مواطنَ غير المواطن التي حلّ فيها إبراهيم، بخلاف إسحاق ويعقوب في ذلك كله.

ولأجل البُعد أُعيد فعل الإيتاء ليظهر عطفه على ﴿ آتينا إبراهيم رشده ﴾ [الأنبياء: 51]، ولم يُعَد في قصة نوح عَقِب هذه.

وأعقبت قصة إبراهيم بقصة لوط للمناسبة.

وخص لوط بالذكر من بين الرسل لأن أحواله تابعة لأحوال إبراهيم في مقاومة أهل الشرك والفساد.

وإنما لم يذكر ما هم عليه قوم لوط من الشرك استغناء بذكر الفواحش الفظيعة التي كانت لهم سنة فإنها أثر من الشرك.

والحُكم: الحكمة، وهو النبوءة، قال تعالى: ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ [مريم: 12]

والعِلم: علم الشريعة، والتنوين فيها للتعظيم.

والقرية (سدوم).

وقد تقدم ذكر ذلك في سورة هود والمراد من القرية أهلها كما مر في قوله تعالى: ﴿ واسأل القرية ﴾ في [سورة يوسف: 82].

والخبائث: جمع خبيثة بتأويل الفَعلة، أي الشنيعة.

والسّوْء بفتح السين وسكون الواو مصدر ، أي القبيح المكروه .

وأما بضم السين فهو اسم مصدر لما ذكر وهو أعم من المفتوح لأن الوصف بالاسم أضعف من الوصف بالمصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(18/512)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

﴿ وَلُوطاً . . . ﴾ [الأنبياء : 74] جاءتْ منصوبة ؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 51] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده .

والحُكْم : يعني الحكمة ، وأصله من الحكمة التي تُوضَع في حنك الفَرَس ؛ لأن الفَرَس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه ؛ لذلك يوضع في حنكه اللجام أو الحَكمة ، وهي قطعة من الحديد لها طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .

ومن ذلك الحِكْمة ، وهي وَضْع الشيء في موضعه ، ومنه الحُكْمْ ، وهو : وضع الحق في مَوْضعه من الشاكي أو المشكو أي : الخصمين .

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً . . ﴾ [الأنبياء : 74] وفرْقٌ بين العلْم والحكم : العلم أن

تُحقّق وتعرف ، أمّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث . . . ﴾ [الأنبياء : 74] فقد نجّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجّى لوطاً من أهل القرية التي كانت تعمل الخبائث ، والخبائث في قوم لوط معروفة .

لذلك يقول بعدها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء : 74] ورجل السَّوْء هو الذي يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسؤوه .

والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلّ التعابير القرآنية مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفِسْق من فَسقَتِ الرُّطبة عن قشرتها حين تستوي البلحة فتنفصل عنها القشرة حتى تظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدي مهمة ، وهي حِفْظ الثمرة ، كذلك نقول في الفسق عن المنهج الديني الذي جاء ليؤدي مهمة في حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ . . . ﴾ .

كيف؟ ألسنا جميعاً في رحمة الله؟ قالوا: لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر، وهناك رحمة خاصة تعدي الرحمة منه إلى الغير، وهذه يعنُون بها النبوة، بدليل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31] فردّ الله عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . . ﴾ [الزخرف: 32] أي: النبوة: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا . . ﴾ [الزخرف: 32] .

فكيف يقسمون رحمة الله التي هي النبوة، وهي قمة حياتهم، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم في الدنيا؟

فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ . . . ﴾ [الأنبياء: 75] أي: في ركْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ [الأنبياء: 75] أي: للنبوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، لكن قمة هذه الرحمة جاءت في النبي الخاتم والرسول الذي لا يُستدْرك عليه برسول بعده؛ لذلك خاطبه ربه بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] .

فالرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا رحمة لأممهم، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي قال : كان في قوم لوط عشر خصال يعرفون بها : لعب الحمام ، ورمي البندق ، والمكاء ، والخذف في الأنداء ، وتسبيط الشعر ، وفرقعة العلك ، واسبال الإزار ، وحبس الأقبية ، وإتيان الرجال ، والمنادمة على الشراب ، وستزيد هذه الأمة عليها .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن عساكر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ستة من أخلاق قوم لوط في هذه الأمة : الجلاهق ، والصفر ، والبندق ، والخذف ، وحل إزار القباء ، ومضغ العلك .

وأخرج إسحاق بن بشر والخطيب وابن عساكر ، عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عشر خصال عملتها قوم لوط ، بها اهلكوا ، وتزيدها أمتي بخلة : إتيان الرجال بعضهم بعضاً ، ورميهم بالجلاهق ، والخذف ، ولعبهم الحمام ، وضرب الدفوف ، وشرب الخمور ، وقص اللحية ، وطول الشارب ، والصفر ، والتصفيق ، ولباس الحرير ، وتزيدها أمتي بخلة : إتيان النساء بعضهم بعضاً " .

وأخرج ابن عساكر عن الزبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل سنن قوم لوط قد فقدت إلا ثلاثاً: جر نعال السيوف، وقصف الأظفار، وكشف العورة".

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله: ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ قال: في الإسلام. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(21/512)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

قوله: ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ ﴾: "لُوْطاً" منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ يُفَسِّره الظاهرُ بعدَه، تقديره: وآتَيْنا لوطاً آتَيْناه، فهي من الاشتغال. والنصبُ في مِثْلِه هو الراجحُ؛ ولذلك لم يُقْرأْ إلاَّ به لعَطْفِ جملِته على جملةٍ فعليةٍ، وهو أحدُ المُرَجِّحات.

قوله: ﴿ مِنَ القرية ﴾ أي: من أهلِ. يدلُّ على ذلك قولُه بعد ذلك: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ ﴾، وكذلك إسنادُ عملِ الخبائثِ أليها، والمرادُ أهلُها. وقد تقدَّم تحقيقُ هذا. والخبائثُ: /

صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ أي : تعملُ الأعمالَ الخبائثَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 183 ﴾

(22/512)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلُوطًا آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

أكمل له الأنعام بعصمته مِنْ مِثْلِ ما امْتُحِنَ به قومُه ، ثم بخلاصِه منهم بإخراجه إيَّاه مِنْ بينهم ، فميزه عنهم ظاهراً وباطناً .

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

بيَّن أنه أدخله في رحمته ثم قال : ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ فلا محالة مَنْ أدخله في رحمته كان صالحاً .

وقوله : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا ﴾ إخبارٌ عن عين الجمع ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ : إخبار عن عين الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 510 . 511 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم سبحانه قصة لوط المناسبة لقصة الخليل عليهما السلام بحجارة الكبريت ، ولقصة نوح عليه السلام بالماء الذي غمرت به قراه السبع ، أتبع ذلك قصة نوح عليه السلام الذي سخر له من الماء ما لم يسخره لغيره لغمره جميع الأرض دانيها وقاصيها ، واطيها وعاليها ، فقال : ﴿ ونوحاً إذ ﴾ أي اذكره حين ﴿ نادى ﴾ أي دعا ربه ﴿ إني مغلوب فانتصر ﴾ [القمر : 10] و﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] ونحوه من الدعاء .

ولما كان دعاؤه لم يستغرق الأزمنة الماضية ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل لوط ومن تقدمه ﴿ فاستجبنا ﴾ أي أردنا الإجابة وأوجدناها بعظمتنا ﴿ له ﴾ في ذلك

النداء ؛ ثم سبب عن ذلك قوله : ﴿ فنجيناه ﴾ أي بعظمتنا تنجية عظيمة ﴿ وأهله ﴾ الذين أدام ثباتهم على الإسلام وصلتهم به ﴿ من الكرب العظيم ﴾ من الأذى والغرق ؛ قال أبو حيان : والكرب : أقصى الغم ، والأخذ بالنفس ، وهو هنا الغرق ، عبر عنه بأول أحوال ما يأخذ الغريق .

﴿ ونصرناه ﴾ أي مخلصين له ومانعين ومنتقمين ﴿ من القوم ﴾ أي المتصفين بالقوة ﴿ الذين كذبوا ﴾ أي أوقعوا التكذيب له ﴿ بآياتنا ﴾ أي بسبب إتيانه بها ، وهي من العظمة على أمر لا يخفى .

ولما كان التقدير : ثم أهلكناهم ، علله بقوله : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ لا عمل لهم إلا ما يسوء ﴿ فأغرقناهم ﴾ أي بعظمتنا التي أتت عليهم كلهم ﴿ أجمعين ﴾ حتى من قطع الكفر بين نوح عليه السلام وبينه من أهله فصار لا يعد من أهله ، لاختلاف الانتساب بالدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 99 ﴾

(24/512)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) ﴾

(القصة الرابعة ، قصة نوح عليه السلام)

أما قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لا شبهة في أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الإجمال وهو قوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [القمر : 10] وتارة على التفصيل وهو قوله : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى أجابه بقوله : ﴿ فاستجبنا لَهُ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد عليه وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم .

فلذلك قال بعده : ﴿ ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ .

المسألة الثانية :

أجمع المحققون على أن ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لأنه لو لم يكن بأمره لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب إليه فيصير ذلك سبباً لنقصان حال الأنبياء ، ولأن الإقدام على أمثال هذه المطالب لو لم يكن بالأمر لكان ذلك مبالغة في الإضرار ، وقال آخرون : إنه عليه السلام

لم يكن مأذوناً له في ذلك .

وقال أبو أمامة : لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح ، فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس ، وحسرة نوح على دعائه على قومه .

فأوحى الله تعالى إليه أن لا تتحسر فإن دعوتك وافقت قدري .

أما قوله تعالى : ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ فالمراد بالأهل ههنا أهل دينه ، وفي تفسير الكرب وجوه : أحدها : أنه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين .

وثانيها : أنه تكذيب قومه إياه وما لقي منهم من الأذى .

(25/512)

وثالثها : أنه مجموع الأمرين وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو الأقرب لأنه عليه السلام كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه ، وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضاً على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه .

أما قوله تعالى : ﴿ ونصرناه مِنَ القوم ﴾ فقراءة أبي بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد : تقديره ونصرناه من مكروه القوم ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ ﴾ [غافر : 29] أي يعصمنا من عذابه ، قال أبو عبيدة : من بمعنى على .

وقال صاحب "الكشاف" : إنه نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذلياً يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ، أي اجعلهم منتصرين منه .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ فالمعنى أنهم كانوا قوم سوء لأجل ردهم عليه وتكذيبهم له فأغرقناهم أجمعين ، فبين ذلك الوجه الذي به خلصه منهم . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 167.168 ﴾

(26/512)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ ﴾

يعني إذ دعانا على قومه من قبل إبراهيم .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ويحتمل وجهاً آخر إذ نجيناه من أذية قومه حين أغرقهم الله .

ويحتمل ثالثاً : نجاته من مشاهدة المعاصي في الأرض بعد أن طهرها الله بالعذاب .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نصرناه عليهم بإجابة دعائه فيهم . الثاني : معناه خلصناه منهم بسلامته دونهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(27/512)

وقال ابن عطية :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) ﴾

و﴿ الكرب العظيم ﴾ الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب ، وقوله تعالى : ﴿ ونصرناه ﴾ لما كان جل نصرته النجاة وكانت غلبة قومه بغير يديه بل بأمر أجنبي منه حسن أن يكون " نصرناه من " ولا يتمكن هنا " على "كما يتمكن في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، مع قومه ع وذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ضرب لمثل لقصة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع قومه ونجاة الأنبياء وهلاك مكذبيهم ضمنها توعد للكفار من قريش . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(28/512)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ونوحاً ﴾ المعنى : واذكر نوحاً ، وكذلك ما يأتيك من ذِكْر الأنبياء ﴿ إذ نادى ﴾ أي : دعا على قومه ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قبل إبراهيمَ ولوطٍ .

فأما الكرب العظيم ، فقال ابن عباس : هو الغرق وتكذيب قومه .

قوله تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي : منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوءٍ .

وقيل : "من" بمعنى "على" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(29/512)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ ﴾

أي واذكر نوحاً إذ نادى ؛ أي دعا .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] وقال لما كذبوه : "أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر" .

﴿ فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ أي من الغرق .

والكرب الغم الشديد "وأَهْلَهُ" أي المؤمنين منهم .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ قال أبو عبيدة : "مِن" بمعنى على .

وقيل : المعنى فانتقمنا له ﴿ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ .

﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي الصغير منهم والكبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(30/512)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى قصة إبراهيم وهو أبو العرب وتنجيته من أعدائه ذكر قصة أبي العالم الإنسي كلهم وهو الأب الثاني لآدم لأنه ليس أحد من نسله من سام وحام ويافث ، وانتصب ﴿ نوحاً ﴾ على إضمار اذكر أي واذكر ﴿ نوحاً ﴾ أي قصته ﴿ إذ نادى ﴾ ومعنى نادى دعا مجملاً بقوله ﴿ إني مغلوب ﴾ فانتصر مفصلاً بقوله ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ والكرب أقصى الغم والأخذ بالنفس ، وهو هنا الغرق عبر عنه بأول أحوال ما يأخذ الغريق ، وغرقت في بحر النيل ووصلت إلى قرار الأرض ولحقني من الغم والكرب ما أدركت أن نفسي صارت أصغر من البعوضة ، وهو أول أحوال مجيء الموت .

﴿ ونصرناه من القوم ﴾ عداه بمن لتضمنه معنى ﴿ نجيناه ﴾ بنصرنا ﴿ من القوم ﴾ أو عصمناه ومنعناه أي من مكروه القوم لقوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ وقال الزمخشري : هو نصر الذي مطاوعه انتصر ، وسمعت هذلياً يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه أي اجعلهم منتصرين منه ، وهذا معنى في نصر غير المتبادر إلى الذهن .

وقال أبو عبيدة ﴿ من ﴾ بمعنى على أي ﴿ ونصرناه ﴾ على ﴿ القوم ﴾ ﴿ فأغرقناهم ﴾ أي أهلكناهم بالغرق .

و﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للضمير المنصوب .

وقد كثر التوكيد بأجمعين غير تابع لكلهم في القرآن ، فكان ذلك حجة على ابن مالك في زعمه أن التأكيد بأجمعين قليل ، وأن الكثير استعماله تابعاً لكلهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(31/512)

وقال أبو السعود :

﴿ وَنُوحاً ﴾ أي اذكر نوحاً أي خبرَه وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى ﴾ أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ، ظرف للمضاف أي اذكر نبأه الواقعَ وقت دعائه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل

هؤلاء المذكورين ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي دعاءَه الذي من جملته قولُه : إني مغلوبٌ فانتصر ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ وهو الطوفانُ ، وقيل : أذيّة قومِه وأصلُ الكرب الغمُّ الشديد .

﴿ ونصرناه ﴾ نصراً مستتبِعاً للانتقام والانتصار ولذلك قيل : ﴿ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ وحملُه على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فإنه ظاهرَه يوجب إسنادَ الانتصارِ إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تعليلٌ لما قبله وتمهيد لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى : ﴿ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ فإن الإصرارَ على تكذيب الحقِ والانهماكَ في الشر والفساد مما يوجب الإهلاكَ قطعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(32/512)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنُوحًا ﴾ أي واذكر نوحاً أي نبأه عليه السلام ، وزعم ابن عطية أن نوحاً عطف على ﴿ لوطاً ﴾ [الأنبياء : 74] المفعول لآتينا على معنى وآتينا نوحاً ولم يستبعد ذلك أبو حيان وليس بشيء ، قيل ولما ذكر سبحانه ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عليه السلام وهو أبو

العرب أردفها جل شأنه بقصة أبي البشر وهو الأب الثاني كما أن آدم عليه السلام الأب الأول بناءً على المشهور من أن جميع الناس الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام وهو ابن لملك ابن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس فيما يقال وهو أطول الأنبياء عليهم السلام على ما في التهذيب عمراً، وذكر الحاكم في "المستدرك" أن اسمه عبد الغفار وأنه قيل له نوح لكثرة بكائه على نفسه، وقال الجواليقي: إن لفظ نوح أعجمي معرب زاد الكرماني ومعناه بالسريانية الساكن ﴿ إِذْ نادى ﴾ أي دعا الله تعالى بقوله: ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [القمر: 10] وقوله: ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح: 26] وإذ ظرف للمضاف المقدر كما أشرنا إليه ومن لم يقدر يجعله بدل اشتمال من نوح.

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين، وذكرنا قبل قولاً آخر ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ دعاءه ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ وهو الطوفان أو أذية قومه؛ وأصل الكرب الغم الشديد وكأنه على ما قيل من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر إذ الغم يثير النفس إثارة ذلك أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب فإن الغم الشديد تكاد شمس الروح تغرب منه أو من الكرب وهو عقد غليظ في رشاء الدلو فإن الغم كعقدة على القلب، وفي وصفه بالعظيم تأكيد لما يدل عليه.

﴿ ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾

أي منعناه وحميناه منهم بإهلاكهم وتخليصه ، وقيل : أي نصرناه عليهم فمن بمعنى على ، وقال بعضهم : إن النصر يتعدى بعلى ومن ، ففي الأساس نصره الله تعالى على عدوه ونصره من عدوه ، وفرق بينهما بأن المتعدي بعلى يدل على مجرد الأعانة والمتعدي بمن يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ منهمكين في الشر ، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعد من قوله تعالى : ﴿ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ فإن تكذيب الحق والانهماك في الشر مما يترتب عليه الإهلاك قطعاً في الأمم السابقة ، ونصب ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ قيل على الحالية من الضمير المنصوب وهو كما ترى ، وقال أبو حيان : على أنه تأكيد له وقد كثير التأكيد بأجمعين غير تابع لكل في القرآن فكان ذلك حجة على ابن مالك في زعكمه أن التأكيد به كذلك قليل والكثير استعماله تابعاً لكل انتهى . انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(34/512)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) ﴾

قد تقدّم أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم ، فحكى الله سبحانه ها هنا أنه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين .

قال المفسرون : وهي أرض الشام ، وكانا بالعراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء ؛ وأصل البركة : ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح .

وقيل : الأرض المباركة : مكة ، وقيل : بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهي أيضاً كثيرة الخصب ، وقد تقدّم تفسير العالمين .

ثم قال سبحانه ممتناً على إبراهيم ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ النافلة : الزيادة ، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولداً ، فوهب له إسحاق ، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أي زيادة ؛ وقيل : المراد بالنافلة هنا : العطية ، قاله الزجاج .

وقيل : النافلة هنا : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وانتصاب ﴿ نافلة ﴾ على الحال .

قال الفراء : النافلة : يعقوب خاصة ، لأنه ولد الولد ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صالحين ﴾ [الأنبياء : 72] أي وكل واحد من هؤلاء الأربعة : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله تاركاً لمعاصيه .

وقيل : المراد بالصلاح هنا : النبوّة .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات، ومعنى ﴿ بأمرنا ﴾ بأمرنا لهم بذلك، أي بما أنزلنا عليهم من الوحي ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ أي أن يفعلوا الطاعات.

وقيل: المراد بالخيرات: شرائع النبوّات ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ أي كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين، فاعلين لما نأمرهم به، تاركين ما ننهاهم عنه.

(35/512)

﴿ وَلُوطاً آتيناه حُكْماً وَعِلْماً ﴾ انتصاب ﴿ لوطاً ﴾ بفعل مضمر دلّ عليه قوله: ﴿ آتيناه ﴾ أي وآتينا لوطاً آتيناه.

وقيل: بنفس الفعل المذكور بعده.

وقيل: بمحذوف هو: اذكر، والحكم: النبوّة.

والعلم: المعرفة بأمر الدين.

وقيل: الحكم: هو فصل الخصومات بالحق.

وقيل: هو الفهم.

﴿ ونجيناه مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ القرية هي سدوم كما تقدّم، ومعنى ﴿

تعمل الخبائث ﴾ : يعمل أهلها الخبائث ، فوصفت القرية بوصف أهلها ، والخبائث التي كانوا يعملونها هي اللواطة والضراط وخذف الحصى كما سيأتي ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله .

والفسوق : الخروج كما تقدّم .

﴿ وأدخلناه فِي رَحْمَتِنَا ﴾ بإنجائنا إياه من القوم المذكورين ، ومعنى في ﴿ رحمتنا ﴾ : في أهل رحمتنا .

وقيل : في النبوّة .

وقيل : في الإسلام .

وقيل : في الجنة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منّا الحسنى .

﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى ﴾ أي واذكر نوحاً إذ نادى ربه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ دعاءه ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ أي من الغرق بالطوفان ، والكرب : الغمّ الشديد ، والمراد بأهله : المؤمنون منهم .

﴿ ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ أي نصرناه نصراً مستتبعاً للانتقام من القوم المذكورين .

وقيل : المعنى منعناه من القوم .

وقال أبو عبيدة : من بمعنى على ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ

فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ أي لم نترك منهم أحداً ، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : الشام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مالك نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لوط كان ابن أخي إبراهيم .

(36/512)

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ قال : ولداً ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال : ابن الابن .

وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم نحوه أيضاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ قال : أعطيناه ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال : عطية . انتهى ا . هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(37/512)

وقال القاسمى :

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : دعا ربه في إهلاك قومه لما كذبوه بقوله : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر : 10] ، ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] ، ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ يؤمن به إلا القليل .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي : نصرناه نصراً مستتبعاً للانتصار والانتقام من قومه : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيّهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 216 . 217 ﴾

(38/512)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾

قوله : ﴿ وَنُوحاً ﴾ منصوب ب " اذكر " مقدرا ، أي واذكر نوحاً حين نادى من قبل ، أي من قبل إبارهيم ومن ذكر معه . ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ﴾ [الصافات : 75-77] وقد أوضح الله هذا النداء بقوله : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 26-27] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وازدجر فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ [القمر : 9-11] الآية . والمراد بالكرب العظيم في الآية : الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام ، كما قال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال ﴾ [هود : 42] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السفينة ﴾ [العنكبوت : 15] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . والكرب : هو أقصى الغم ، والأخذ بالنفس .

(39/512)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [الأنبياء: 76] يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين، كما قال تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هود: 40] الآية. ومن سبق عليه القول منهم: ابنه المذكور في قوله: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: 43] وامرأته المذكورة في قوله ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ ﴾ إلى قوله ﴿ وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم: 10]. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(40/512)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾

لما ذكر أشهر الرسل بمناسبات أعقب بذكر أول الرسل.

وعطف ﴿ ونوحاً ﴾ على ﴿ لوطاً ﴾ [الأنبياء: 74]، أي آتينا نوحاً حُكماً وعلماً، فحذف المفعول الثاني لـ ﴿ آتينا ﴾ [الأنبياء: 74] لدلالة ما قبله عليه، أي آتيناه النبوءة حين نادى، أي نادانا.

ومعنى ﴿ نادى ﴾ دعا ربه أن ينصره على المكذبين من قومه بدليل قوله ﴿ فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ .

وبناء ﴿ قبلُ ﴾ على الضمّ يدل على مضاف إليه مقدر ، أي من قبل هؤلاء ، أي قبل الأنبياء المذكورين .

وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنتُه المرادة له تعريضاً بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكروا أنه لم تشذ عن نصر الله رسلَه شاذّة ولا فاذّة .

وأهل نوح : أهل بيْتِه عدا أحد بنيه الذي كفر به .

والكرب العظيم : هو الطوفان .

والكَرب : شدّة حزن النفس بسبب خوف أو حزن .

ووجه كون الطوفان كرباً عظيماً أنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مَدّه ولا يزال لاحقاً بمواقع هروبهم حتى يعمهم فيبقَوا زمناً يذوقون آلام الخوف فالغرق وهم يغرقون ويَطفَوْن حتى يموتوا بانحباس التنفس ؛ وفي ذلك كله كرب متكرر ، فلذلك وصف بالعظيم .

وعدي ﴿ نصرناه ﴾ بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إنكم منا لا تنصرون ﴾ [المؤمنون : 65] ، وهو أبلغ من تعديته بـ (علَى) لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المَنعَةُ والحماية فلا يناله العدوّ بشيء .

وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة .

ووصف القوم بالموصول للإيماء إلى علة الغرق الذي سيذكر بعد .

وجملة ﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ علة لنصر نوح عليه السلام لأن نصره يتضمن إضرار القوم المنصور عليهم .

والسّوء بفتح السين تقدم آنفاً .

وإضافة قوم إلى السوء إشارة إلى أنهم عرفوا به .

والمراد به الكفر والتكبر والعناد والاستسخار برسولهم .

(41/512)

و ﴿ أجمعين ﴾ حال من ضمير النصب في ﴿ أغرقناهم ﴾ لإفادة أنه لم ينج من الغرق أحد من القوم ولو كان قريباً من نوح فإن الله قد أغرق ابن نوح .

وهذا تهديد لقريش لئلا يتكلوا على قرابتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كما رُوي أنه لما قرأ على عتبة بن ربيعة [سورة فصّلت : 13] حتى بلغ ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فزع عتبة وقال له : ناشدْتُك الرّحمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(42/512)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحاً . . . ﴾ [الأنبياء : 76] مثلما ثلنا في ﴿ وَلُوطاً . . . ﴾ [الأنبياء : 74] أي : آتيناه هو أيضاً رُشْده ﴿ إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 76] والنداء في حقيقته : طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُسَاوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبِّ اغفر لي ، فلو كان نبيهاً يقول : ربّ مدعو . والتقدير يا رب ، ومن قال : منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً ، فالياء في أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق في الأداء . كذلك في : اغفر لي ، إنْ قال فِعْل أمر نعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فَلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام في ندائه ؟ المراد قوله : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ [الأنبياء : 76] والمراد بالكرب ما لبثه نوح في دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمّله في سبيل دعوته من عَنَتٍ ومشقّة قال الله فيها : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ

واستكبروا استكبارا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إني أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [نوح : 7-9] .

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلْك أخذوا يسخرون منه : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . ﴾ [هود : 38]

(43/512)

إذن : استجاب الله دُعَاءه ونداءه ﴿ فاستجبنا لَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 76] وفي موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾ [الصافات : 75] فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح ب (نِعْم) الدالة على المدح .

فهل يعني ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك ، أمّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان في دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية عِلْمي أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك ألاَّ أجيبك؛ لأنني نِعْمَ المجيب .

وهَبْ أن الله تعالى يجيب كُلاًّ منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التي تغضب مثلاً من وحيدها ، وفي لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهي أشرب نارك) ؟ فالحق – تبارك وتعالى – حين يردُّ مِثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب ؛ لأنه نِعْم المانع .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] أي : يدعو ويُلِحُّ في الدعاء بما يظنّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك . ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم . . . ﴾ .

مازالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من ركْب النبوات ، ونحن في سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضِدّان لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

(44/512)

وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثَا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ، ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شيء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَنُوحاً ﴾ : فيه وجهان : أحدُهما : أنَّه منصوبٌ عَطْفاً على " لُوْطاً " فيكونُ مشتركاً معه في عامِلِه الذي هو " آتَيْنا " المفسَّرِ " آتيناه " الظاهرِ . وكذلك ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الآية : 78] والتقدير : ونوحاً آتيناه حُكْماً ، وداودَ وسليمانَ آتيناهما حكماً . وعلى هذا ف " إذ " بدلٌ مِنْ " نوحاً " ومِنْ " داود وسليمان " بدلُ اشتمالٍ . وقد تقدَّم تحقيقُ مثلِ هذا في طه .

الثاني : أنَّه منصوبٌ بإضمارِ " اذكُرْ " أي : اذكر نوحاً وداودَ وسليمانَ أي : اذْكُرْ خبرَهم وقصتَهم ، وعلى هذا فتكونُ " إذ " منصوبةً بنفسِ المضافِ المقدَّرِ أي : خبرَهم الواقعَ في وقتٍ كان كيتَ وكيتَ .

وقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قبل هؤلاءِ المذكورين .

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

قوله : ﴿ مِنَ الْقوم ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أن يُضمَّنَ " نَصَرْناه " معنى منَعْناه وعصَمْناه

. ومثله ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ ﴾ [غافر : 29] فلمّا ضُمِّنَ معناه تَعَدَّى تعَديته .

الثاني : أنَّ نَصر مطاوِعُهُ انتصر ، فتعدى تعديةً ما طاوعه . قال الزمخشري : " وهو نَصَر الذي مطاوِعُه انتصر . وسمعتُ هُذَلِيّاً يدعو على سارِقٍ " اللهم انْصُرْهم منه " أي : اجْعَلْهم منتصِرين منه " . ولم يظهر فرقٌ بالنسبةِ إلى التضمين المذكور ؛ فإنَّ معنى قولِه " منتصرين منه " أي : ممتنعين أو مَعْصُوْمين منه .

الثالث : أن " مِنْ " بمعنى على أي : على القوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 184.183 ﴾

(46/512)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) ﴾

كان نوح – عليه السلام – أطولهم عمراً ، وأكثرهم بلاءً . ففي القصة أنه كان يُضْرَبُ سبعين مرةً ، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول . لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته . وكان نوح – عليه – يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوهم إلى الله ، فلمّا أيِسَ من

إيمانهم ، وأُوحِيَ إليه : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود : 36] دعا عليهم فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : 26] فقال تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل ﴾ فأُزْهِقَ الشِّرْكُ وأُغْرِقَ أَهلُه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 511 ﴾

(47/512)

قوله تعالى ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ربما قيل : لم قدم إبراهيم ومن معه على نوح وهو أبوهم ومن أولي العزم ، وموسى وهارون على إبراهيم وهو كذلك ، أشار بقصة داود وسليمان - على جميعهم الصلاة والسلام - إلى أنه ربما يفضل الابن الأب في أمر ، فربما قدم لأجله وإن كان لا يلزم منه تقديمه

مطلقاً ، مع ما فيها من أمر الحرث الذي هو أنسب شيء لما بعد غيض الماء في قصة نوح عليه السلام ، هذا في أوله وأما في آخره فما ينبته مثال للدنيا في بهجتها وغرورها ، وانقراضها ومرورها ، ومن تصريف داود عليه السلام في الجبال وهي أشد التراب الذي هو أقوى من الماء ، وفي الحديد وهو أقوى من تراب الجبال ، وسليمان عليه السلام في الريح وهي أقوى من التراب فقال : ﴿ وداود ﴾ أي أول من ملك ابنه من أنبياء بني إسرائيل ﴿ وسليمان ﴾ ابنه ، أي اذكرهما واذكر شأنهما ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ يحكمان في الحرث ﴾ الذي أنبت الزرع ، وهو من إطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت ، قيل : كان ذلك كرماً ، وقيل : زرعاً ﴿ إذ نفشت ﴾ أي انتشرت ليلاً بغير راع ﴿ فيه غنم القوم ﴾ الذي لهم قوة على حفظها فرعته ؛ قال قتادة : النفش بالليل ، والهمل بالنهار .

﴿ وكنا ﴾ أي بعظمتنا التي لا تقر على خلاف الأولى في شرع من الشروع ﴿ لحكمهم ﴾ أي الحكمين والمتحاكمين إليهما ﴿ شاهدين ﴾ لم يغب عنا ذلك ولا شيء من أمرهم هذا ولا غيره ، فذلك غيرنا على داود عليه السلام تلك الحكومة مع كونه ولينا وهو مأجور في اجتهاده لأن الأولى خلافها ، فإنه حكم بأن يمتلك صاحب الحرث الغنم بما أفسدت من الكرم ، فكأنه رأى قيمة الغنم قيمة ما أفسدت ﴿ ففهمناها ﴾ أي الحكومة بما لنا من العلم الشامل والقدرة الكاملة على رفع من نشاء ﴿ سليمان ﴾ فقال : تسلم الغنم لصاحب

الكرم ليرتفق بلبنها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويعمل صاحبها في الكرم حتى يعود كما كان فيأخذ حرثه ، وترد الغنم إلى صاحبها ، وهذا أرفق بهما .

(48/512)

وهذا أدل دليل على ما تقدمت الإشارة إليه عند ﴿ قل ربي يعلم القول ﴾ ، و﴿ كنا به عالمين إذ قال لأبيه ﴾ وفيه رد عليهم في غيظهم من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تسفيه الآباء والرد عليهم كما في قصة إبراهيم عليه السلام لأنه ليس بمستنكر أن يفضل الابن أباه ولو في شيء ، والآية تدل على أن الحكم ينقض بالاجتهاد إذا ظهر ما هو أقوى منه .

ولما كان ذلك ربما أوهم شيئاً في أمر داود عليه السلام ، نفاه بقوله دالاً على أنهما على الصواب في الاجتهاد وإن كان المصيب في الحكم إنما هو أحدهما ﴿ وكلاًّ ﴾ أي منهما ﴿ ءاتينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ حكماً ﴾ أي نبوة وعملاً مؤسساً على حكمة العلم ، وهذا معنى ما قالوه في قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن من الشعر حكماً - أي قولاً صادقاً مطابقاً للحق ﴿ وعلماً ﴾ مؤيداً بصالح العمل ، وعن الحسن رحمه الله : لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ، ولكنه أثنى على سليمان عليه السلام بصوابه ، وعذر داود عليه السلام باجتهاده انتهى .

وأتبعه من الخوارق ما يشهد له بالتقدم والفضل فقال : ﴿ وسخرنا ﴾ أي بعظمتنا التي لا يعيبها شيء .

(49/512)

ولما كان هذا الخارق في التنزيه ، لم يعد الفعل اللام زيادة في التنزيه وإبعاداً عما ربما أوهم غيره فقال مقدماً ما هو أدل على القدرة في ذلك لأنه أبعد عن النطق : ﴿ مع داود الجبال ﴾ أي التي هي أقوى من الحرث ، حال كونهن ﴿ يسبحن ﴾ معه ، ولو شئنا لجعلنا الحرث أو الغنم يكلمه بصواب الحكم ، ولم يذكر ناقة صالح لأنها مقترحة موجبة لعذاب الاستئصال ، فلم يناسب ذكرها هنا ، لما أشار إليه قوله تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ ، " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " وهذه الآيات التي ذكرت هنا ليس فيها شيء مقترح ﴿ والطير ﴾ التي سخرنا لها الرياح التي هي أقوى من الجبال وأكثر سكناها الجبال ، سخرناها معه تسبح ﴿ وكنا فاعلين ﴾ أي من شأننا الفعل لأمثال هذه الأفاعيل ، ولكل شيء نريده بما لنا من العظمة المحيطة ، فلا تستكثروا علينا أمراً وإن كان عندكم عجباً ، وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الأمة ، كان مطرف بن عبد الله ابن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه ابنته ، هذا مع أن الطعام كان يسبح بحضرة النبي ـ صلى الله عليه

وسلم.والحصا وغيره.

ولما ذكر التسخير بالتسبيح، أشار إلى تسخير الحديد الذي هو أقوى تراب الجبال وأصلبه وأصفاه فقال: ﴿ وعلمناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ صنعة لبوس ﴾ قال البغوي: وهو في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها، وهو كالجلوس والركوب.

﴿ لكم ﴾ أي لتلبسوه في حربكم، وألنا له في عمله الحديد ليجتمع له إلى العلم سهولة العمل فيأتي كما يريد ﴿ لتحصنكم ﴾ أي اللبوس أو داود أو الله على قراءة الجماعة في حصن مانع، وهو معنى قراءة النون الدال على مقام العظمة عند أبي بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب، وقراءة أبي جعفر وابن عامر وحفص بالفوقانية للدروع نظراً إلى الجنس ﴿ من بأسكم ﴾ الكائن مما يحصل من بعضكم لبعض من شدائد الحرب لا من البأس كله ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ لنا على ذلك لتوحدنا وتؤمنوا بأنبيائنا؛ قال البغوي: قال قتادة: أول من صنع الدروع وسردها وحلقها داود عليه السلام، وكانت من قبل صفائح، والدرع يجمع الخفة والحصانة. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 99.102 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾

(القصة الخامسة ، قصة داود وسليمان عليهما السلام)

اعلم أن قوله تعالى : وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون ، كله نسق على ما تقدم من قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : 51] ومن قوله : ﴿ وَلُوطاً اتيناه حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء : 74] واعلم أن المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولاً النعمة المشتركة بينهما ، ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم .

أما النعمة المشتركة فهي القصة المذكورة وهي قصة الحكومة ، ووجه النعمة فيها أن الله تعالى زينهما بالعلم والفهم في قوله : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ ثم في هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها ، وذلك لأن الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن .

وإذا كان العلم مقدماً على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن السكيت النفش أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع ، وهذا قول جمهور المفسرين ، وعن الحسن أنه يجوز ذلك ليلاً ونهاراً .

المسألة الثانية :

أكثر المفسرين على أن الحرث هو الزرع ، وقال بعضهم : هو الكرم والأول أشبه بالعرف .

المسألة الثالثة :

احتج من قال : أقل الجمع اثنان بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ مع أن المراد داود وسليمان .

جوابه : أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له ، فإذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الإثنين ، وقرىء وكنا لحكمهما شاهدين .

المسألة الرابعة :

في كيفية القصة وجهان .

(52/512)

الأول : قال أكثر المفسرين : دخل رجلان على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت

منه شيئاً ، فقال داود عليه السلام : اذهب فإن الغنم لك .

فخرجا فمرا على سليمان ، فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه : فقال : لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا .

فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال : كيف كنت تقضي بينهما ، فقال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه .

الثاني : قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله : أن راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم ، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فذهب صاحب الكرم من الغد إلى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت ، فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه به ، فقال غير هذا أرفق بالفريقين ، فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له : بحق الأبوة والنبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ، فقال : تسلم الغنم إلى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعي في إصلاح الكرم حتى يصير كما كان ، ثم ترد الغنم إلى صاحبها ، فقال داود عليه السلام : إنما القضاء ما قضيت وحكم بذلك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : حكم سليمان بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وههنا أمور ولا بد من البحث عنها .

السؤال الأول : هل في الآية دلالة على أنهما عليهما السلام اختلفا في الحكم أم لا ؟ فإن أبا بكر الأصم قال : إنهما لم يختلفا ألبتة ، وأنه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام .

(53/512)

الجواب : الصواب أنهما اختلفا والدليل إجماع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم على ما رويناه ، وأيضاً فقد قال الله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ ثم قال : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقاً على هذا التفهيم ، وذلك الحكم السابق إما أن يقال : اتفقا فيه أو اختلفا فيه ، فإن اتفقا فيه لم يبق لقوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ فائدة وإن اختلفا فيه فذلك هو المطلوب .

السؤال الثاني : سلمنا أنهما اختلفا في الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد .

الجواب : الأمران جائزان عندنا وزعم الجبائي أنهما كانا صادرين عن النص ، ثم إنه تارة يبني ذلك على أن الاجتهاد غير جائز من الأنبياء ، وأخرى على أن الاجتهاد وإن كان جائزاً منهم في الجملة ، ولكنه غير جائز في هذه المسألة .

أما المأخذ الأول : فقد تكلمنا فيه في الجملة في كتابنا المسمى بالمحصول في الأصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائي على أن الاجتهاد غير جائز من الأنبياء عليهم السلام بأمور : أحدها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [يونس : 15] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] .

وثانيها : أن الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على إدراكه يقيناً فلا يجوز مصيره إلى الظن كالمعاين للقبلة لا يجوز له أن يجتهد .

ثالثها : أن مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : 65] ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر .

ورابعها : لو جاز أن يجتهد في الأحكام لكان لا يقف في شيء منها ، ولما وقف في مسألة الظهار واللعان إلى ورود الوحي دل على أن الاجتهاد غير جائز عليه .

(54/512)

وخامسها : أن الاجتهاد إنما يجوز المصير إليه عند فقد النص ، لكن فقدان النص في حق الرسول كالممتنع فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه .

وسادسها : لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضاً من جبريل عليه السلام وحينئذ لا

يحصل الأمان بأن هذه الشرائع التي جاء بها أهي من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل ؟

والجواب عن الأول : أن قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [يونس : 15] لا يدل على قولكم لأنه وارد في إبدال آية بآية لأنه عقيب قوله : ﴿ قَالَ الذين لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائت بِقُرْءانٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس : 15] ولا مدخل للاجتهاد في ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] فبعيد لأن من يجوز له الاجتهاد يقول إن الذي اجتهد فيه هو عن وحي على الجملة وإن لم يكن كذلك على التفصيل ، وإن الآية واردة في الأداء عن الله تعالى لا في حكمه الذي يكون بالعقل .

والجواب عن الثاني : أن الله تعالى إذا قال له إذا غلب على ظنك كون الحكم معللاً في الأصل بكذا ، ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى في صورة أخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل في طريقه .

والجواب عن الثالث : أنا لا نسلم أن مخالفة المجتهدات جائزة مطلقاً بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم والدليل عليه أنه يجوز على الأمة أن يجمعوا اجتهاداً ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد .

والجواب عن الرابع : لعله عليه السلام كان ممنوعاً من الاجتهاد في بعض الأنواع أو كان مأذوناً مطلقاً لكنه لم يظهر له في تلك الصورة وجه الاجتهاد ، فلا جرم أنه توقف .

والجواب عن الخامس : لم لا يجوز أن يحبس النص عنه في بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد .

(55/512)

والجواب عن السادس : أن هذا الاحتمال مدفوع بإجماع الأمة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذي يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه : أحدها : أنه عليه السلام إذا غلب على ظنه أن الحكم في الأصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل ، وعنده مقدمة يقينية وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون .

وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معاً وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين .

أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين ، أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس .

وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس وهي قائمة أيضاً في حق الأنبياء عليهم السلام .

وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا ﴾ أمر للكل بالإعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لأنه إمام المعتبرين وأفضلهم .

وثالثها : أن الإستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب .

فإن قيل هذا إنما يلزم لو لم تكن درجة أعلى من الإعتبار ، وليس الأمر كذلك ، لأنه كان يستدرك الأحكام وحياً على سبيل اليقين ، فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذي ليس قصاراه إلا الظن .

قلنا : لا يمتنع أن لا يجد النص في بعض المواضع ، فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذي يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الإجتهاد ، وأيضاً قد بينا أن الله تعالى لما أمره بالإجتهاد كان ذلك مفيداً للقطع بالحكم .

ورابعها : قال عليه السلام : " العلماء ورثة الأنبياء " فوجب أن يثبت للأنبياء درجة الإجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك .

هذا تمام القول في هذه المسألة .

وخامسها : أنه تعالى قال : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] فذاك الإذن إن كان بإذن الله تعالى استحال أن يقول : لم أذنت لهم ، وإن كان بهوى النفس فهو غير جائز ، وإن كان بالاجتهاد فهو المطلوب .

المأخذ الثاني : قال الجبائي : لو جوزنا الاجتهاد من الأنبياء عليهم السلام ففي هذه المسألة يجب أن لا يجوز لوجوه ؛ أحدها : أن الذي وصل إلى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار ، فكيف يجوز في الاجتهاد جعل أحدهما عوضاً عن الآخر .

وثانيها : أن اجتهاد داود عليه السلام إن كان صواباً لزم أن لا ينقض لأن الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد .

وإن كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الأنبياء عليهم السلام ، فلما مدحهما بقوله : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ دل على أنه لم يقع الخطأ من داود .

وثالثها : لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظناً لا علماً لأن الله تعالى قال : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ .

ورابعها : كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد من مع قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ .

والجواب عن الأول : أن الجهالة في القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة .

وعن الثاني : لعله كان خطأ من باب الصغائر .

وعن الثالث : بينا أن من تمسك بالقياس فالظن واقع في طريق إثبات الحكم فأما الحكم فمقطوع به .

وعن الرابع : أنه إذا تأمل واجتهد فأداه اجتهاده إلى ما ذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك .

فهذه جملة الكلام في بيان أنه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام في ذلك الحكم إنما كان بسبب الاجتهاد .

وأما بيان أنه لا يمتنع أيضاً أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال : إن داود عليه السلام كان مأموراً من قبل الله تعالى في هذه المسألة بالحكم الذي حكم به ، ثم إنه سبحانه نسخ ذلك بالوحي إلى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعاً فقوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أي أوحينا إليه فإن قيل هذا باطل لوجهين : الأول : لما أنزل الله تعالى الحكم الأول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضاً على داود لا على سليمان .

الثاني : أن الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن في

فهمه كثير مدح إنما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة في الاستنباط .

المسألة الثالثة :

إذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لأجل النص وأن يكون لأجل الاجتهاد فأي القولين أولى .

والجواب : الاجتهاد أرجح لوجوه : أحدها : أنه روى في الأخبار الكثيرة أن داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان أن غير ذلك أولى ، وفي بعضها أن داود عليه السلام ناشده لكي يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص ، لأنه لو كان نصاً لكان يظهره ولا يكتمه .

السؤال الرابع : بينوا أنه كيف كان طريق الاجتهاد .

(58/512)

الجواب : أن وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساوياً لقيمة الغنم فكان عنده أن الواجب في ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم إلى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله في العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه ، وأما سليمان عليه السلام فإن

اجتهاده أدى إلى أن يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد ، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائز لأنه يقتضي الحيف والجور ، ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر ترادا .

السؤال الخامس : على تقدير أن ثبت قطعاً أن تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد ، فهل تدل هذه القصة على أن المصيب واحد أو الكل مصيبون .

الجواب : أما القائلون بأن المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ قال ولو كان الكل مصيباً لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة ، وأما القائلون بأن الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ ولو كان المصيب واحداً ومخالفه مخطئاً لما صح أن يقال : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ واعلم أن الإستدلالين ضعيفان .

أما الأول : فلأن الله تعالى لم يقل إنه فهمه الصواب فيحتمل أنه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لأنه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به ، على أن أكثر ما في الآية أنها دالة على أن داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الأمر كذلك في شرعنا .

وأما الثاني : فلأنه تعالى لم يقل إن كلا آتيناه حكماً وعلماً بما حكم به ، بل يجوز أن يكون آتيناه حكماً وعلماً بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام ، على أنه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيباً في شرعهم أن يكون الأمر كذلك في شرعنا .

السؤال السادس : لو وقعت هذه الواقعة في شرعنا ما حكمها ؟ الجواب : قال الحسن البصري : هذه الآية محكمة ، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة ، واعلم أن كثيراً من العلماء يزعمون أنه منسوخ بالإجماع ثم اختلفوا في حكمه فقال الشافعي رحمه الله : إن كان ذلك بالنهار لا ضمان لأن لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار ، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه .

وإن كان ليلاً يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا ضمان عليه ليلاً كان أو نهاراً إذا لم يكن متعدياً بالإرسال ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "جرح العجماء جبار" واحتج الشافعي رحمه الله بما روي عن البراء بن عازب أنه قال : "كانت ناقة ضارية فدخلت حائطاً فأفسدته فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن حفظ

الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل " وهذا تمام القول في هذه الآية .

ثم إن الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التي خص بها داود عليه أمرين : الأول : قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبّحْنَ والطير وكُنَّا فاعلين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير هذا التسبيح وجهان : أحدهما : أن الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوهاً .

أحدها : قال مقاتل إذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه .

وثانيها : قال الكلبي : إذا سبح داود أجابته الجبال .

وثالثها : قال سليمان بن حيان : كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطاً واشتياقاً .

القول الثاني : وهو اختيار بعض أصحاب المعاني أنه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله : ﴿ وَإِن مّن شَيْء إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وتخصيص داود عليه السلام بذلك إنما كان بسبب أنه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقيناً وتعظيماً

، والقول الأول أقرب لأنه لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره .

وأما المعتزلة فقالوا : لو حصل الكلام من الجبل لحصل إما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه .

والأول : محال لأن بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة ، وما لا يكون حياً عالماً قادراً يستحيل منه الفعل .

والثاني : أيضاً محال لأن المتكلم عندهم من كان فاعلاً للكلام لا من كان محلاً للكلام ، فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل ، فثبت أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا في : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبّحْنَ ﴾ ومثله قوله تعالى : ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبإ : 10] معناه تصرفي معه وسيري بأمره ويسبحن من السبح الذي السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولو لم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه ، أي سيرى وهو كقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ [المزمل : 7] أي تصرفاً ومذهباً .

إذا ثبت هذا فنقول : إن سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ما تنزه عنه واعلم أن مدار هذا القول على أن بنية الجبل لا تقبل الحياة ، وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضاً ممنوع .

المسألة الثانية :

أما الطير فلا امتناع في أن يصدر عنها الكلام ، ولكن أجمعت الأمة على أن المكلفين إما الجن أو الإنس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ في العقل إلى درجة التكليف ، بل تكون على حالة كحال الطفل في أن يؤمر وينهي وإن لم يكن مكلفاً فصار ذلك معجزة من حيث جعلها في الفهم بمنزلة المراهق ، وأيضاً فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول في الجبال .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلاً قال : كيف سخرهن ؟ فقال : يسبحن .

والطير إما معطوف على الجبال وإما مفعول معه .

فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان ناطق .

أما قوله : ﴿ وكُنّا فاعلين ﴾ فالمعنى أنا قادرون على أن نفعل هذا وإن كان عجباً عندكم وقيل نفعل ذلك بالأنبياء عليهم السلام .

الإنعام الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اللبوس اللباس ، قال ألبس لكل حالة لبوسها .

المسألة الثانية :

لتحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها ، فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس .

المسألة الثالثة :

قال قتادة : أول من صنع الدرع داود عليه السلام ، وإنما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقاً ، ذكر الحسن أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع ، فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه ، فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا إن الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين .

المسألة الرابعة :

البأس ههنا الحرب وإن وقع على السوء كله ، والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم أي من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح .

المسألة الخامسة :

فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه ، فتوارث الناس عنه ذلك .

فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر ، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكرون ﴾ أي اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 168 . 174 ﴾

(63/512)

وقال الجصاص :

﴿ وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ إذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ الْمَرْوَزِيّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ الْجُرْجَانِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ : ﴿ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ قَالَ : " فِي حَرْثِ قَوْمٍ " .

وَقَالَ مَعْمَرٌ : قَالَ الزُّهْرِيُّ : " النَّفْشُ لَا يَكُونُ إلَّا بِاللَّيْلِ وَالْهَمْلُ بِالنَّهَارِ " .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " فَقَضَى أَنْ يَأْخُذُوا الْغَنَمَ فَفَهَّمَهَا اللَّهُ سُلَيْمَانَ ، فَلَمَّا أُخْبِرَ بِقَضَاءِ دَاوُد عَلَيْهِ

السَّلَامُ قَالَ لَا وَلَكِنْ خُذُوا الْغَنَمَ فَلَكُمْ مَا خَرَجَ مِنْ رَسْلِهَا وَأَوْلَادِهَا وَأَصْوَافِهَا إلَى الْحَوْلِ " .

وَرَوَى أَبُو إسْحَاقَ عَنْ مُرَّةَ عَنْ مَسْرُوقٍ : ﴿ وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ ﴾ قَالَ : كَانَ الْحَرْثُ كَرْمًا فَنَفَشَتْ فِيهِ لَيْلًا فَاجْتَمَعُوا إلَى دَاوُد فَقَضَى بِالْغَنَمِ لِأَصْحَابِ الْحَرْثِ ، فَمَرُّوا بِسُلَيْمَانَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : أَوَّلًا تَدْفَعُ الْغَنَمُ إلَى هَؤُلَاءِ فَيُصِيبُونَ مِنْهَا وَيَقُومُ هَؤُلَاءِ عَلَى حَرْثِهِمْ حَتَّى إذَا عَادَ كَمَا كَانَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ الْأَحْنَفِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوُهُ فِي قِصَّةِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ .

(64/512)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إذَا نَفَشَتْ لَيْلًا فِي زَرْعِ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْهُ أَنَّ عَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ ضَمَانَ مَا أَفْسَدَتْ ، وَإِنْ كَانَ نَهَارًا لَمْ يَضْمَنْ شَيْئًا ، وَأَصْحَابُنَا لَا يَرَوْنَ فِي ذَلِكَ ضَمَانًا لَا لَيْلًا وَلَا نَهَارًا إذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ الْغَنَمِ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهَا فِيهَا .

وَاحْتَجَّ الْأَوَّلُونَ بِقَضِيَّةِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

وَاجْتِمَاعِهِمَا عَلَى إيجَابِ الضَّمَانِ ، وَبِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ ثَابِتٍ الْمَرْوَزِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ

قَالَ : حدَّثنا معْمرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ حرامِ بْنِ مُحيّصة عَنْ أَبِيه : ﴿ أَنَّ نَاقَةً لِلْبراءِ بْنِ عَازِبٍ دَخَلَتْ حَائِطَ رجُلٍ فَأَفْسَدَتْهُ ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْأَمْوَالِ حِفْظَهَا بِالنَّهَارِ وَعَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي حِفْظَهَا بِاللَّيْلِ ﴾ .

(65/512)

وحدَّثنا مُحمَّدُ بْنُ بكْرٍ قَالَ : حدَّثنا أَبُو داوُد قَالَ : حدَّثنا مَحْمُودُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ : حدَّثنا الْفِرْيَابِيُّ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ حرامِ بْنِ مُحيِّصة الْأَنْصَارِيِّ عَنْ الْبراءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : ﴿ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ ضَارِيَةٌ فَدَخَلَتْ حَائِطًا فَأَفْسَدَتْ فِيهِ ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا فَقَضَى أَنَّ حِفْظَ الْحَوَائِطِ بِالنَّهَارِ عَلَى أَهْلِهَا وَأَنَّ حِفْظَ الْمَاشِيَةِ بِاللَّيْلِ عَلَى أَهْلِهَا وَأَنَّ عَلَى أَهْلِ الْمَاشِيَةِ مَا أَصَابَتْ مَاشِيَتُهُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ قَالَ أَبُو بكْرٍ : ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ حرامُ بْنُ مُحيِّصة عَنْ أَبِيه أَنَّ نَاقَةً لِلْبراءِ ، وذَكَرَ فِي هذا الْحَدِيثِ حرامُ بْنُ مُحيِّصة عَنْ الْبراءِ بْنِ عَازِبٍ ، ولَمْ يذْكُرْ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ ضمانَ مَا أَصَابَتْ الْمَاشِيَةُ لَيْلًا وإِنَّمَا ذَكَرَ الْحِفْظَ فَقَطْ ، وهذا يدُلُّ عَلَى اضْطِرَابِ الْحَدِيثِ بِمَتْنِهِ وسَنَدِهِ .

وذَكَرَ سُفْيانُ بْنُ حُسيْنٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ حرامِ بْنِ مُحيِّصة فَقَالَ : ولَمْ يجْعلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَيْئًا ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَدَاوُد

وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ حُكْمَ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ بِمَا حَكَمَا بِهِ مِنْ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ ،

(66/512)

وَذَلِكَ لِأَنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ حَكَمَ بِدَفْعِ الْغَنَمِ إلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ وَحَكَمَ سُلَيْمَانُ لَهُ بِأَوْلَادِهَا وَأَصْوَافِهَا ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَنْ نَفَشَتْ غَنَمُهُ فِي حَرْثِ رَجُلٍ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَسْلِيمُ الْغَنَمِ وَلَا تَسْلِيمُ أَوْلَادِهَا وَأَلْبَانِهَا وَأَصْوَافِهَا إلَيْهِ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْحُكْمَيْنِ جَمِيعًا مَنْسُوخَانِ بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ تَضَمَّنَتْ الْقِصَّةُ مَعَانِ ، مِنْهَا : وُجُوبُ الضَّمَانِ عَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ ، وَمِنْهَا كَيْفِيَّةُ الضَّمَانِ ، وَإِنَّمَا الْمَنْسُوخُ مِنْهُ كَيْفِيَّةُ الضَّمَانِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ الضَّمَانَ نَفْسَهُ مَنْسُوخٌ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ ثَبَتَ نَسْخُ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَبَرٍ قَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ بِالْقَبُولِ وَاسْتَعْمَلُوهُ ، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ وَهُزَيْلُ بْنُ شُرَحْبِيلَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ ﴾ وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ ﴿ جُرْحُ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ ﴾ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي اسْتِعْمَالِ هَذَا الْخَبَرِ فِي الْبَهِيمَةِ الْمُنْفَلِتَةِ إذَا أَصَابَتْ إنْسَانًا أَوْ مَالًا أَنَّهُ لَا ضَمَانَ عَلَى صَاحِبِهَا إذَا لَمْ يُرْسِلْهَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْخَبَرُ مُسْتَعْمَلًا عِنْدَ

الْجَمِيعِ وَكَانَ عُمُومُهُ يَنْفِي ضَمَانَ مَا تُصِيبُهُ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ثَبَتَ بِذَلِكَ نَسْخُ مَا ذُكِرَ فِي قِصَّةِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَنُسِخَ مَا ذُكِرَ فِي قِصَّةِ الْبَرَاءِ أَنَّ فِيهَا إيجَابَ الضَّمَانِ لَيْلًا .

(67/512)

وَأَيْضًا سَائِرُ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِلضَّمَانِ لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا الْحُكْمُ بِالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ فِي إيجَابِ الضَّمَانِ أَوْ نَفْيِهِ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى نَفْيِ ضَمَانِ مَا أَصَابَتْ الْمَاشِيَةُ نَهَارًا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمَهَا لَيْلًا ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا أَوْجَبَ الضَّمَانَ فِي حَدِيثِ

الْبَرَاءِ إذَا كَانَ صَاحِبُهَا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهَا فِيهِ وَيَكُونُ فَائِدَةُ الْخَبَرِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ السَّائِقَ لَهَا بِاللَّيْلِ بَيْنَ الزُّرُوعِ وَالْحَوَائِطِ لَا يَخْلُو مِنْ نَفْشِ بَعْضِ غَنَمِهِ فِي زُرُوعِ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ ، فَأَبَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حُكْمِهَا إذَا أَصَابَتْ زَرْعًا ، وَيَكُونُ فَائِدَةُ الْخَبَرِ إيجَابَ الضَّمَانِ بِسَوْقِهِ وَإِرْسَالِهِ فِي الزُّرُوعِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ ، وَبَيَّنَ تَسَاوِيَ حُكْمِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ فِيهِ .

وَجَائِزٌ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ قَضِيَّةُ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ كَانَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، بِأَنْ يَكُونَ صَاحِبُهَا

أَرْسَلَهَا لَيْلًا وَسَاقَهَا وَهُوَ غَيْرُ عَالِمٍ بِنَفْشِهَا فِي حَرْثِ الْقَوْمِ ، فَأَوْجَبَا عَلَيْهِ الضَّمَانَ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مُحْتَمَلًا لَمْ تَثْبُتْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى مَوْضِعِ الْخِلَافِ .

(68/512)

وَقَدْ تَنَازَعَ الْفَرِيقَانِ مِنْ الْمُخْتَلِفِينَ فِي حُكْمِ الْمُجْتَهِدِ فِي الْحَادِثَةِ الْقَائِلُونَ مِنْهُمْ بِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْحَقَّ فِي جَمِيعِ أَقَاوِيلِ الْمُخْتَلِفِينَ ، فَاسْتَدَلَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِالْآيَةِ عَلَى قَوْلِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا بِأَنَّ الْحَقَّ فِي وَاحِدٍ زَعَمُوا أَنَّهُ لَمَّا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ الْمُصِيبُ لِلْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ دُونَ دَاوُد ، ؛ إذْ لَوْ كَانَ الْحَقُّ فِي قَوْلَيْهِمَا لَمَا كَانَ لِتَخْصِيصِ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ دُونَ دَاوُد مَعْنًى .

وَقَالَ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ : لَمَّا لَمْ يُعَنِّفْ دَاوُد عَلَى مَقَالَتِهِ وَلَمْ يُحْكَمْ بِتَخْطِئَتِهِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا جَمِيعًا كَانَا مُصِيبَيْنِ ، وَتَخْصِيصُهُ لِسُلَيْمَانَ بِالتَّفْهِيمِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دَاوُد كَانَ مُخْطِئًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ أَصَابَ حَقِيقَةَ الْمَطْلُوبِ فَلِذَلِكَ خُصَّ بِالتَّفْهِيمِ وَلَمْ يُصِبْ دَاوُد عَيْنَ الْمَطْلُوبِ ، وَإِنْ كَانَ مُصِيبًا لِمَا كُلِّفَ .

(69/512)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ حُكْمَ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ جَمِيعًا كَانَ مِنْ طَرِيقِ النَّصِّ لَا مِنْ جِهَةِ الِاجْتِهَادِ ، وَلَكِنَّ دَاوُد لَمْ يَكُنْ قَدْ أَبْرَمَ الْحُكْمَ وَلَا أَمْضَى الْقَضِيَّةَ بِمَا قَالَ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْفُتْيَا لَا عَلَى جِهَةِ إنْفَاذِ الْقَضَاءِ بِمَا أَفْتَى بِهِ ، أَوْ كَانَتْ قَضِيَّةً مُعَلَّقَةً بِشَرِيطَةٍ لَمْ تُفَصَّلْ بَعْدُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إلَى سُلَيْمَانَ بِالْحُكْمِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ وَنُسِخَ بِهِ الْحُكْمُ الَّذِي كَانَ دَاوُد أَرَادَ أَنْ يُنْفِذَهُ ، قَالُوا : وَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُمَا قَالَا ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الرَّأْيِ ، قَالُوا : وَقَوْلُهُ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ يَعْنِي بِهِ تَفْهِيمَهُ الْحُكْمَ النَّاسِخَ .

وَهَذَا قَوْلُ مَنْ لَا يُجِيزُ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرِيقِ الِاجْتِهَادِ وَالرَّأْيِ وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ طَرِيقِ النَّصِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(70/512)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ إذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ وَالنَّسَائِيِّ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَدَاوُد وَسُلَيْمَانَ إذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ لَمْ يُرِدْ إذْ جَمَعَهُمَا فِي الْقَوْلِ اجْتِمَاعَهُمَا فِي الْحُكْمِ ، فَإِنَّ حَاكِمَيْنِ عَلَى حُكْمٍ وَاحِدٍ لَا يَجُوزُ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، وَإِنَّمَا حَكَمَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى انْفِرَادٍ بِحُكْمٍ ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ هُوَ الْفَاهِمُ لَهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي دُسْتُورٍ فِي قَصَصِ الْقُرْآنِ : وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ لِرَسُولِهِ مَا جَرَى مِنْ الْأُمَمِ وَعَلَيْهَا ، وَأَقْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَفْعَالَهَا ، فَأَحْسَنَ الْقَصَصَ وَهُوَ أَصْدَقُهُ ؛ فَإِنَّ الإسرائليات ذَكَرُوهَا مُبَدَّلَةً وَبِزِيَادَةٍ بَاطِلَةٍ مَوْصُولَةً ، أَوْ بِنُقْصَانٍ مُحَرِّفٍ لِلْمَقْصِدِ مَنْقُولَةً ، وَمَا نُقِلَ مِنْ حَدِيثِ نَفْشِ الْغَنَمِ ، وَقَضَاءِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ فِيهَا ، انْظُرُوا إلَيْهِ ، فَمَا وَافَقَ مِنْهُ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ فَهُوَ صَحِيحٌ ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَمَا لَمْ يَرِدْ لَهُ فِيهِ ذِكْرٌ فَهُوَ مُحْتَمَلٌ ، رَبُّك أَعْلَمُ بِهِ .

.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي ذِكْرِ وَصْفِ مَا قَضَاهُ النَّبِيَّانِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ فِيهِ : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَانَ زَرْعًا وَقَعَتْ فِيهِ الْغَنَمُ لَيْلًا ، قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ كَرْمًا نَبَتَتْ عَنَاقِيدُهُ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَشُرَيْحٍ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّفْشَ رَعْيُ اللَّيْلِ ، وَالْهَمَلَ رَعْيُ النَّهَارِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي اللُّغَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي ذِكْرِ وَصْفِ قَضَائِهِمَا : أَمَّا حُكْمُ دَاوُد فَإِنَّهُ يُرْوَى أَنَّهُ قَضَى لِصَاحِبِ الْحَرْثِ بِالْغَنَمِ .

وَأَمَّا حُكْمُ سُلَيْمَانَ فَإِنَّهُ قَضَى بِأَنْ تُدْفَعَ الْغَنَمُ لِصَاحِبِ الْحَرْثِ عَلَّهُ يَغْتَلُّهَا ، وَيُدْفَعُ الْحَرْثُ إلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ لِيَقُومَ بِعِمَارَتِهِ ، فَإِذَا عَادَ فِي السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ إلَى مِثْلِ حَالَتِهِ رُدَّ إلَى كُلِّ أَحَدٍ مَالُهُ قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، فَرَجَعَ دَاوُد إلَى حُكْمِ سُلَيْمَانَ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فِي صِفَةِ حُكْمِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا : رَوَى الزُّهْرِيُّ ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ ، وَحَرَامُ بْنُ سَعْدِ بْنِ مُحَيِّصَةَ ﴿ أَنَّ نَاقَةً لِلْبَرَاءِ دَخَلَتْ حَائِطًا ، فَأَفْسَدَتْ ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْحَوَائِطِ حِفْظَهَا بِالنَّهَارِ ، وَأَنَّ مَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَامِنٌ عَلَى أَهْلِهَا ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ وَعَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي حِفْظُهَا بِاللَّيْلِ ﴾ .

وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ لَا كَلَامَ فِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: فِي هَذِهِ دَلِيلٌ عَلَى رُجُوعِ الْقَاضِي عَمَّا حَكَمَ بِهِ، إذَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْحَقَّ فِي غَيْرِهِ، وَهَكَذَا فِي رِسَالَةِ عُمَرَ إلَى أَبِي مُوسَى: فَأَمَّا أَنْ يَنْظُرَ قَاضٍ فِيمَا حَكَمَ بِهِ قَاضٍ فَلَا يَجُوزُ لَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَدَاعَى إلَى مَا لَا آخِرَ لَهُ، وَفِيهِ مَضَرَّةٌ عُظْمَى مِنْ جِهَةِ نَقْضِ الْأَحْكَامِ، وَتَبْدِيلِ الْحَلَالِ بِالْحَرَامِ، وَعَدَمِ ضَبْطِ قَوَانِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ أَحَدٌ مِنْ الْخُلَفَاءِ إلَى نَقْضِ مَا رَآهُ الْآخَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَحْكُمُ بِمَا يَظْهَرُ إلَيْهِ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ دَاوُد لَمْ يَكُنْ أَنْفَذَ الْحُكْمَ، وَظَهَرَ لَهُ مَا قَالَ غَيْرُهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَمْ يَكُنْ حُكْمًا، وَإِنَّمَا كَانَتْ فُتْيَا، فَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ دَاوُد كَانَ فُتْيَا فَهُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ النَّبِيَّ، وَفُتْيَاهُ حُكْمٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ الْآخَرُ: إنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَنْفَذَ الْحُكْمَ فَظَهَرَ لَهُ مَا قَالَ غَيْرُهُ.

فَهُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إذْ يَحْكُمَانِ﴾، فَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَ قَدْ حَكَمَ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ قِيلَ: إنَّ الْفُتْيَا حُكْمٌ، وَهُوَ صَحِيحٌ لَفْظًا، وَفِي بَعْضِ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ الْمُقَلِّدَ قَوْلُهُ، وَلَا يَلْزَمُ الْمُجْتَهِدَ قَوْلُ غَيْرِهِ.

وَقَدْ قِيلَ: إنَّ اللَّهَ أَوْحَى أَنَّ الْحُكْمَ حُكْمُ سُلَيْمَانَ، فَعَلَى هَذَا كَانَ الْقَضَاءُ مِنْ اللَّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحْتَمَلٌ.

وَهَذَا كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَجُوزُ لَهُمُ الْحُكْمُ بِالِاجْتِهَادِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ التَّمْحِيصِ أَنَّ اجْتِهَادَهُمْ صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّهُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ ، فَلَا إحَالَةَ فِي أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا يَكُونُ دَلِيلًا إذَا عُدِمَ النَّصُّ ، وَهُمْ لَا يَعْدَمُونَهُ ، لِأَجْلِ نُزُولِ الْمَلَكِ .

قُلْنَا : إذَا لَمْ يَنْزِلْ الْمَلَكُ فَقَدْ عَدِمُوا النَّصَّ .

جَوَابٌ آخَرُ : وَذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَنَا دَلِيلٌ مَعَ عَدَمِ النَّصِّ ، وَعِنْدَهُمْ هُوَ دَلِيلٌ مَعَ وُجُودِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : فِي تَحْرِيرِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كُلِّهَا : وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا إشْكَالَ فِي أَنَّ مَنْ أَتْلَفَ شَيْئًا فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ ، لَكِنَّ الْمَوَاشِيَ جَاءَ فِيهَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْعَجْمَاءُ جَرْحُهَا جُبَارٌ ﴾ .

فَحَكَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّ فِعْلَ الْبَهَائِمِ هَدَرٌ ، وَهَذَا عُمُومٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ سَنَدًا وَمَتْنًا ، وَحَدِيثُ نَاقَةِ الْبَرَاءِ خَاصٌّ ، وَمَا قَضَى بِهِ دَاوُد وَسُلَيْمَانُ غَيْرُ مَعْلُومٍ

عَلَى التَّعْيِينِ مِمَّنْ يَقْطَعُ بِصِدْقِهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ نَعْتَنِيَ بِشَرْعِنَا ، فَنَقُولُ : لَا خِلَافَ أَنَّ الْعَامَّ يَقْضِي عَلَيْهِ الْخَاصُّ ، وَقَضَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَاقَةِ الْبَرَاءِ بِأَنَّ حِفْظَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ بِالنَّهَارِ عَلَى أَرْبَابِهَا ؟ لِمَا عَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي مِنْ الْمَشَقَّةِ فِي حِفْظِهَا بِالنَّهَارِ ، وَبِأَنَّ حِفْظَ الْكُلِّ بِاللَّيْلِ عَلَى أَرْبَابِ الْمَوَاشِي ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ شَاقٌّ عَلَى أَرْبَابِهَا ، فَجَرَى الْحُكْمُ عَلَى الْأَوْفَقِ وَالْأَسْمَحِ بِمُقْتَضَى الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ، وَمَجْرَى الْمَصْلَحَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوْفَقَ لِلْفَرِيقَيْنِ ، وَأَسْهَلَ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَأَحْفَظَ لِلْمَالِكَيْنِ .

وَلَيْسَ فِي هَذَا اخْتِلَافٌ ؛ لِمَا يُرْوَى عَنْ النَّبِيَّيْنِ الْمُتَقَدِّمِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ فِي أَصْلِ الضَّمَانِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خِلَافٌ فِي صِفَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَالَ مَالِكٌ ، وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَالشَّافِعِيُّ : لَا ضَمَانَ عَلَى أَرْبَابِ الْمَوَاشِي فِيمَا أَصَابَتْ بِالنَّهَارِ وَقَالَ اللَّيْثُ : يَضْمَنُ أَرْبَابُ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إذَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي لَيْلًا أَوْ نَهَارًا لَمْ يَكُنْ عَلَى صَاحِبِهَا ضَمَانٌ .

وَتَحْقِيقُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ مَعْنَى حَدِيثِ ﴿ الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ ﴾ وَهَذَا يَنْفِي الضَّمَانَ كُلَّهُ ، وَمَعْنَى حَدِيثِ الْبَرَاءِ ، وَهُوَ نَصٌّ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَوَجَبَ تَخْصِيصُ حَدِيثِ

الْبَرَاءِ بِحَدِيثِ الْعَجْمَاءِ ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا بِقَضَاءِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ نَصٌّ ، فَنَقُولُ : إنَّهُ يُعَارِضُ هَذَا عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا ، فَيُفْتَقَرُ حِينَئِذٍ إلَى الْكَلَامِ عَلَيْهِ ، وَالتَّرْجِيحِ فِيهِ ، فَوَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَقْفَ بِنَاءِ النَّصِّ عَلَيْهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : إذَا قُلْنَا : إنَّ أَرْبَابَ الْمَوَاشِي يَضْمَنُونَ مَا أَفْسَدَتْ مَاشِيَتُهُمْ بِاللَّيْلِ ، فَإِنَّهُمْ يَضْمَنُونَ قِيمَةَ الزَّرْعِ عَلَى رَجَاءِ أَنْ يَتِمَّ أَوْ لَا يَتِمَّ قَالَ عَنْهُ مُطَرِّفٌ ، وَلَا يُسْتَأْنَى بِالزَّرْعِ أَنْ يَنْبُتَ أَوْ لَا يَنْبُتَ كَمَا يُفْعَلُ فِي سِنِّ الصَّغِيرِ .

وَقَالَ عِيسَى ، عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ : قِيمَتُهُ لَوْ حَلَّ بَيْعُهُ .

وَقَالَ أَشْهَبُ ، وَابْنُ نَافِعٍ عَنْهُ فِي الْمَجْمُوعَةِ : وَإِنْ لَمْ يَبْدُ صَلَاحُهُ .

وَالْأَوَّلُ أَقْوَى ؛ لِأَنَّهَا صِفَتُهُ ، فَيُقَوَّمُ كَذَلِكَ لَوْ تَمَّ أَوْ لَمْ يَتِمَّ ، كَمَا يُقَوَّمُ كُلُّ مُتْلَفٍ عَلَى صِفَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : إذَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي ذَلِكَ فَعَلَى أَرْبَابِهَا قِيمَةُ مَا أَفْسَدَتْ ، وَإِنْ زَادَ عَلَى قِيمَتِهَا .

وَقَالَ اللَّيْثُ: تَسْقُطُ الزِّيَادَةُ عَلَى الْقِيمَةِ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْقِيمَةَ إِنَّمَا هِيَ عَلَى أَرْبَابِ الْمَوَاشِي، وَلَيْسَتْ عَلَى الْمَوَاشِي، وَتُخَالِفُ هَذَا جِنَايَةُ الْعَبْدِ، فَإِنَّهَا عَلَيْهِ، فَيَحْمِلُ السَّيِّدُ مِنْهَا إِنْ أَرَادَ فِدَاءَهُ قِيمَتَهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: لَوْ لَمْ يُقْضَ فِي الْمُفْسِدِ بِشَيْءٍ حَتَّى نَبَتَ أَوْ انْجَبَرَ فَإِنْ كَانَتْ فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ مَنْفَعَةُ رَعْيٍ أَوْ شَيْءٍ ضَمِنَ تِلْكَ الْمَنْفَعَةَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ فَلَا ضَمَانَ رَوَاهُ ابْنُ حَبِيبٍ.

وَقَالَ أَصْبَغُ: يَضْمَنُ؛ لِأَنَّ التَّلَفَ قَدْ تَحَقَّقَ، وَالْجَبْرُ لَيْسَ مِنْ جِهَتِهِ، فَلَا يُعْتَدُّ لَهُ بِهِ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: قَالَ أَصْبَغُ فِي الْمَدِينَةِ: لَيْسَ لِأَهْلِ الْمَوَاشِي أَنْ يُخْرِجُوا مَوَاشِيَهُمْ إِلَى قُرَى الزَّرْعِ بِغَيْرِ ذُوَّادٍ، فَرَكَّبَ الْعُلَمَاءُ عَلَى هَذَا أَنَّ الْبُقْعَةَ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ بُقْعَةَ زَرْعٍ أَوْ بُقْعَةَ سَرْحٍ، فَإِنْ كَانَتْ بُقْعَةَ زَرْعٍ فَلَا تَدْخُلُهَا مَاشِيَةٌ إِلَّا مَاشِيَةٌ تَحْتَاجُ فِي الزَّرْعِ، وَعَلَى أَرْبَابِهَا حِفْظُهَا، وَمَا أَفْسَدَتْ [فَصَاحِبُهَا] ضَامِنٌ عَلَى أَهْلِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، وَإِنْ كَانَتْ بُقْعَةَ سَرْحٍ فَعَلَى صَاحِبِ الزَّرْعِ الَّذِي يَحْرُثُهُ فِيهَا حِفْظُهُ، وَلَا شَيْءَ عَلَى أَرْبَابِ الْمَوَاشِي.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: قَالَ أَشْهَبُ، وَابْنُ نَافِعٍ فِي الْعُتْبِيَّةِ عَنْ مَالِكٍ: سَوَاءٌ كَانَتْ الثِّمَارُ وَالزُّرُوعُ مُحْظَرًا عَلَيْهَا أَوْ بِغَيْرِ حِظَارٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ بِالْحِظَارِ.

وَقَالَ غَيْرُهُ : يَخْتَلِفُ .

وَهَذَا أَصْوَبُ ، فَإِنَّ الْعَجْمَاءَ لَا يَرُدُّهَا حِظَارٌ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : الْمَوَاشِي عَلَى قِسْمَيْنِ ضَوَارِي ، وَحَرِيسَةٌ ، وَعَلَيْهَا قَسَّمَهَا مَالِكٌ ، فَالضَّوَارِي هِيَ الْمُعْتَادَةُ لِلزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، فَقَالَ مَالِكٌ : تُغَرَّبُ وَتُبَاعُ فِي بَلَدٍ لَا زَرْعَ فِيهِ رَوَاهُ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ .

قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ : وَإِنْ كَرِهَ ذَلِكَ رَبُّهَا ، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ فِي الدَّابَّةِ الَّتِي ضَرِيَتْ إِفْسَادَ الزَّرْعِ : تُغَرَّبُ وَتُبَاعُ .

وَأَمَّا مَا يُسْتَطَاعُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ فَلَا يُؤْمَرُ صَاحِبُهُ بِإِخْرَاجِهِ ، هَذَا بَيِّنٌ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَالَ أَصْبَغُ : النَّحْلُ ، وَالْحَمَامُ ، وَالْإِوَزُّ ، وَالدَّجَاجُ ، كَالْمَاشِيَةِ ، لَا يُمْنَعُ صَاحِبُهَا مِنْ اتِّخَاذِهَا ، وَإِنْ أَضَرَّتْ ، وَعَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ حِفْظُ زُرُوعِهِمْ .

وَهَذِهِ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِمَّا لَا يَضُرُّ بِغَيْرِهِ مُكِّنَ مِنْهُ ، وَأَمَّا انْتِفَاعُهُ بِمَا يَتَّخِذُهُ بِإِضْرَارِهِ بِأَحَدٍ فَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، وَهَذِهِ الضَّوَارِي عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ فِي الْمَدِينَةِ أَنَّهُ لَا ضَمَانَ عَلَى أَرْبَابِهَا إِلَّا بَعْدَ التَّقَدُّمِ .

وَأَرَى الضَّمَانَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ التَّقَدُّمِ ، إِذَا كَانَتْ ضَوَارِي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : قَالَ الْحَسَنُ : لَوْلَا هَذِهِ الْآيَةُ لَرَأَيْت الْقُضَاةَ قَدْ هَلَكُوا ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى سُلَيْمَانَ بِصَوَابِهِ ، وَعَذَرَ دَاوُد بِاجْتِهَادِهِ .

(78/512)

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْفُرُوعِ إذَا اخْتَلَفُوا ، هَلْ الْحَقُّ فِي قَوْلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ غَيْرَ مُعَيَّنٍ ، أَمْ جَمِيعُ أَقْوَالِهِمْ حَقٌّ ؟ وَاَلَّذِي نَرَاهُ أَنَّ جَمِيعَهَا حَقٌّ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ التَّمْحِيصِ ، فَلْيُنْظَرْ فِيهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(79/512)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾

فيه قولان :

أحدها : أنه كان زرعاً وقعت فيه الغنم ليلاً ، قاله قتادة .

الثاني : كان كرماً نبتت عناقيده ، قاله ابن مسعود ، وشريح .

﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ قال قتادة : النفش رعي الليل ، والهمل : رعي النهار ، قال الشاعر :

متعلقة بأفناء البيوت . . . ناقشاً في عشا التراب

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ وفي حكمهما قولان :

أحدهما : أنه كان متفقاً لم يختلفا فيه ، لأن الله حين أثنى عليهم دل على اتفاقهما في الصواب ويحتمل قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ على أنه فضيلة له على داود لأنه أوتي الحكم في صغره ، وأوتي داود الحكم في كبره ، وإن اتفقا عليه ولم يختلفا فيه لأن الأنبياء معصومون من الغلط والخطأ لئلا يقع الشك في أمورهم وأحكامهم ، وهذا قول شاذ من المتكلمين .

والقول الثاني : وهو قول الجمهور من العلماء والمفسرين أن حكمهما كان مختلفاً أصاب فيه سليمان ، واخطأ داود ، فأما حكم سليمان فإنه قضى لصاحب الحرث ، وأما حكم سليمان فإنه رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بدرّها ونسلها ، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليأخذ بعمارته ، فإذا عاد في السنة ابن مسعود ، ومجاهد . فرجع داود إلى قضاء سليمان فحكم به ، فقال الله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فجعل الحق معه وفي حكمه ، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم . لكن لا يقرون

عليه وإن أقر عليه غيرهم ، ليعود الله بالحقائق لهم دون خلقه ، ولذلك تسمى بالحق وتميز به عن الخلق . واختلف القائلون بهذا في حمله على العموم في جميع الأنبياء على قولين :

(80/512)

أحدهما : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم بجواز الخطأ عليهم دونه قاله أبو علي بن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفرق بينه وبين غيره من جميع الأنبياء ، لأنه خاتم الأنبياء فلم يكن بعده من يستدرك غلطه ، ولذلك عصمه الله منه ، وقد بعث بعد غيره من الأنبياء مَنْ يستدرك غلطه .

والقول الثاني : أنه على العموم في جميع الأنبياء ، وأن نبينا وغيره من الأنبياء في تجويز الخطأ على سواء ، إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه استدراك مَنْ بعدهم من الأنبياء ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سألته امرأة عن العدة ، فقال لها : " اعْتَدّي حَيْثُ شِئْتِ " ثم قال : "يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ، امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ" وقال رجل : أرأيتَ إن قُتلتُ صابراً محتسباً أيحجزني عن الجنة شيء ؟ فقال : (لاَ) ، ثم دعاه فقال : " إِلاَّ الدَّيْنَ كَمَا أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ " . ولا يوجد منه إلاّ ما جاز عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة

قد هلكوا ، ولكنه أثنى على سليمان على صوابه وعذر داود باجتهاده .

فإن قيل : فكيف نقض داود حكمه باجتهاد سليمان ؟ فالجواب عنه من وجهين :

أحدهما : يجوز أن يكون داود ذكر حكمه على الإِطلاق وكان ذلك منه على طريق الفتيا فذكره لهم ليلزمهم إياه ، فلما ظهر له ما هو أقوى في الاجتهاد منه عاد إليه .

الثاني : أنه يجوز أن يكون الله أوحى بهذا الحكم إلى سليمان فلزمه ذلك ، ولأجل النص الوارد بالوحي رأى أن ينقض اجتهاده ، لأن على الحاكم أن ينقض حكمه بالاجتهاد إذا خالف نصاً .

على أن العلماء قد اختلفوا في الأنبياء ، هل يجوز لهم الاجتهاد في الأحكام ؟ فقالت طائفة يجوز لهم الاجتهاد لأمرين :

أحدهما : أن الاجتهاد في الاجتهاد فضيلة ، فلم يجز أن يحرمها الأنبياء .

الثاني : أن الاجتهاد أقوى فكان أحبها ، وهم [في] التزام الحكم به أولى ، وهذا قول من جوز من الأنبياء وجود الغلط .

وقال الآخرون : لا يجوز للأنبياء أن يجتهدوا في الأحكام ، لأن الاجتهاد إنما يلجأ إليه الحاكم

لعدم النص ، والأنبياء لا يعدمون النص لنزول الوحي عليهم ، فلم يكن لهم الإجتهاد وهذا قول من قال بعصمة الأنبياء من الغلط والخطأ

فأما ما استقر عليه شرعنا فيما أفسدته البهائم من الزرع فقد روى سعيد بن المسيب أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً وأفسدته ، فقضى النبي صلى الله عليه وسلم على أهل المواشي بحفظ مواشيهم ليلاً ، وعلى أهل الحوائط بحفظ حوائطهم نهاراً ، فصار ما أفسدته البهائم بالليل مضموناً ، وما أفسدته نهاراً غير مضمون لأن حفظها شاق على أربابها ، ولا يشق عليهم حفظها نهاراً ، فصار الحفظ في الليل واجباً على أرباب المواشي فضمنوا ما أفسدته مواشيهم ، والحفظ في النهار واجباً على أرباب الزروع ، فلم يحكم لهم – مع تقصيرهم – بضمان زرعهم ، وهذا من أصح قضاء وأعدل حكم ، رفقاً بالفريقين ، وتسهيلاً على الطائفتين ، فليس ينافي هذا ما حكم داود [به] وسليمان عليهما السلام من أصل الضمان ، لأنهما حكما به في رعي الليل ، وإنما يخالف من صفته ، فإن الزرع في شرعنا مضمون لأنهما حكما بنقصانه من زائد وناقص ، ولا تعرض للبهائم المفسدة إذا وصل الضمان إلى المستحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه أتى كل واحد منهما من الحكم والعلم مثل ما آتى الآخر وفي المراد بالحكم والعلم وجهان محتملان :

أحدهما : أن الحكم القضاء ، والعلم الفتيا .

الثاني : أن الحكم الاجتهاد ، والعلم النص .

قوله عز وجل : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ذللنا .

الثاني : ألهمنا .

﴿ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ وفي تسبيحها ثلاثة أوجه :

(82/512)

أحدها : أن سيرها معه هو تسبيحها ، قاله ابن عيسى ، والتسبيح مأخوذ من السباحة .

الثاني : أنها صلواتها معه ، قاله قتادة .

الثالث : أنه تسبيح مسموع كان يفهمه ، وهذا قول يحيى بن سلام .

قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ . . . ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اللبوس الدرع الملبوس ، قاله قتادة .

الثاني : أن جميع السلاح لبوس عند العرب .

﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من سلاحكم ، قاله ابن عباس .

الثاني : حرب أعدائكم ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(83/512)

وقال ابن عطية :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾

المعنى " واذكر داود وسليمان " هكذا قدره جماعة من المفسرين .

(84/512)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل عندي ويقوي أن يكون المعنى وآتينا داود عطفاً على قوله تعالى : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ [الأنبياء : 74] والمعنى على هذا التأويل متسق ، ﴿ وسليمان ﴾ هو ابن داود ﴿ وداود ﴾ من بني إسرائيل وكان ملكاً عدلاً نبياً يحكم بين الناس فوقعت بين يديه هذه النازلة ، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر وكان يجلس

على الباب الذي يخرج منه الخصوم وكانوا يدخلون إلى داود على باب آخر فتخاصم إلى داود عليه السلام رجل له زرع وقيل كرمٌ و﴿ الحرث ﴾ يقال فيهما وهو في الزرع أبعد عن الاستعارة ، دخلت حرثه غنم رجل آخر فأفسدت عليه ، فرأى داود عليه السلام أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فقالت فرقة على أن يبقى كرمه بيده ، وقالت فرقة بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنمع فيشبه على هذا القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أفسدت ، وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحرث وغلتهع ولا يظن بداود عليه السلام إلا أن حكمه بنظر متوجه فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام تشكى له صاحب الغنم فجاء سليمان إلى داود فقال يا نبي الله إنك حكمت بكذا وإني رأيت ما هو أوفق بالجميع ، قال وما هو ، قال أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل وغير ذلك فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله صرف كل واحد مال صاحبه فرجعت الغنم إلى ربها ، والحرث إلى ربه ، فقال داود : وفقت يا بني وقضى بينهما بذلك . ع ولا شك أن سليمان رأى أن ما يتحمله صاحب الغنم من فقد مرافق غنمه تلك المدة ومن مؤونة إصلاح الحرث يوازي ما فسد في الحرث وفضل حكمه حكم أبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه وتبقى نفسه بذلك طيبةع وذهبت فرقة

إلى أن هذه النازلة لم يكن الحكم فيها باجتهاد وإنما حكم داود بوحي وحكم سليمان بوحي نسخ الله تعالى به حكم داود

وجعلت فرقة ومنها ابن فورك ، قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أي فهمناه القضاء الفاصل الناسخ الذي أراد الله تعالى أن يستقر في النازلةع وتحتاج هذه الفرقة في هذا اللفظة إلى هذا التعب ويبقى لها المعنى بعد قلقاً ، وقال جمهور الأمة إن حكمها كان باجتهاد ، وأدخل العلماء هذه الآية في كتبهم على مسألة اجتهاد العالمين فينبغي أن نذكر هنا تلخيص مسألة الاجتهاد ، اختلف أهل السنة في العالمين فما زاد يفتيان من الفروع والأحكام في المسألة فيختلفان ، فقالت فرقة الحق في مسائل الفروع في طرف واحد عند الله تعالى وقد نصب على ذلك أدلة وحمل المجتهدين على البحث عنها والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو المصيب على الإطلاق وله أجران أجر في الأجتهاد وأجر في الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده ، مخطئ في أن لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور ، وهذا هو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه

" إذا اجتهد العالم فأخطأ فله أجر " وكذلك أيضاً يدخل في قوله عليه السلام " إذا اجتهد العالم فأخطأ " ، العالم يجتهد فيخالف نصاً يمر به كقول سعيد بن المسيب في النكاح إنه العقد في مسألة التحليل للزوج المطلق ونحوه وهذا يجمع بين قوله " إذا اجتهد العالم فأخطأ " وبين قوله " كل مجتهد مصيب " أي أخطأ العين المطلوب وأصاب في اجتهاده ، ورأت هذه الفرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه في خطئه وإن كان غير معذور ، وقالت فرقة الحق في طرف واحد ، ولم ينصب الله تعالى عليه دليلاً ، بل وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه ، أصابه ومن أخطأ فهو معذور ومأجور ، ولم يتعبد بإصابة العين بل تعبد بالاجتهاد فقط ، وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه الحق في مسائل الفروع في الطرفين وكل مجتهد مصيب والمطلوب إنما هو الأَفضل في ظنه والدليل على هذه المقالة ممن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون مخالف قوله ، ومن رد مالك رحمه الله للمنصور عن حمل الناس على الموطأ إلى كثير من هذا المعنى ، وإذا قال عالم في أمر ما حلال فذلك هو الحق فيما يخص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله ، فأما من قال إن الحق في طرف فرأى مسألة داود وسليمان مطردة على قوله وأن سليمان صادف العين المطلوبة وهي التي فهم ، ومن رأى الحق في الطرفين رأى أن سليمان عليه السلام فهم القضية المثلى والتي هي أرجح ، لا أن الأُولى خطأ وعلى هذا

يحملون قول النبي صلى الله عليه وسلم ، " إذا اجتهد العالم فأخطأ " أي فأخطأ الأفضل ع وكثير ما يكون بين الأقوال في هذه المسائل قيل تباين إلا أن ذلك الشفوف يشرف القول ، وكثيراً ما يبين الفضل بين القولين بأدنى نظر ومسائل الفروع تخالف مسائل الأصول في هذا ومسألة المجتهدين في نفسها مسألة أصل ، والفرق بين مسائل الفروع ومسائل الأصول أن مسائل الأُصول الكلام فيها إنما هو وجود شيء ما

(87/512)

كيف هو كقولنا يرى الله تعالى يوم القيامة ، وقالت المعتزلة لا يرى ، وكقولنا الله واحد ، وقالت النصارى ثلاثة ، وهكذا هل للمسائل عين أو ليس لها عين مطلوبة .

ومسائل الفروع إنما الكلام فيها على شيء متقرر الوجود كيف حكمه من تحليل أو تحريم ونحو هذا ، والأحكام خارجة عن ذات وجوده وإنما هي بمقاييس واستدلالات ، وتعتبر مسائل الفروع بأنها كل ما يمكن أن ينسخ بعضه بعضاً ومسائل الأصول ما لو تقرر الوجه الواحد لم يصح أن يطرأ الآخر ناسخاً عليه .

(88/512)

قال القاضي أبو محمد : ومسألة الاجتهاد طويلة متشعبة إلا أن هذه النبذة تليق بالآية ويقتضيها حرصنا على الإيجاز ، ويتعلق بالآية فصل آخر لا بد من ذكره وهو رجوع الحاكم بعد قضاء من اجتهاد إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول ، فإن داود عليه السلام ، فعل ذلك في هذه المنازلة ، واختلف فقهاء المذهب المالكي في القاضي يحكم في قضية ثم يرى بعد ذلك أن غير ما حكم به أصوب فيريد أن ينقض الأَول ويقضي بالثاني ، فقال عبد الملك ومطرف في الواضحة ذلك لم ما دام في ولايته ، فأما إن كانت ولاية أُخرى فليس ذلك له وهو بمنزلة غيره من القضاة ، وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في المدونة ، وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس ذلك له وقاله ابن عبد الحكم قالا ويستأنف الحكم بما قوي عنده أحرى من ذي قبل ، قال سحنون إلا أن يكون نسي الأَقوى عنده أو وهم فحكم بغيره فله نقضه ، وأما إن حكم بحكم وهو الأَقوى عنده في ذلك الوقت ثم قوي عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل له إِلى نقض الأول ، قال سحنون في كتاب ابنه وقال أشهب في كتاب ابن المواز إن كان رجوعه إلى الأصوب في مال فله نقض الأول وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه ، وقد تقدم القول في ﴿ الحرث ﴾ روت فرقة أنه كان زرعاً وروت فرقة أنه كان كرماً . و" النفش " تسرب البهائم في الزرع وغيرها بالليل والهمل تسربها في ذلك بالنهار والليل ، قال ابن سيده لا يقال الهمل في الغنم وإنما هو في الإبل

ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أرباب النعم ما أفسدت بالليل لأن على أهلها أن يثقفوها وعلى أهل الزرع وغيرهم حفظها بالنهار هذا هو مقتضى الحديث في ناقة البراء بن عازب وهو مذهب مالك وجمهور الأمة ، ووقع في كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان محدقة ، وأَما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة وبساتين كذلك فيضمن أرباب الغنم ما أفسدت من ليل أو نهار ع كأنه ذهب

(89/512)

إلى أن ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد بعيد لأَنها ولا بد تفسد وقال أبو حنيفة في ذلك لا ضمان وأدخله في عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار فقاس جميع أفعالها على جرحها .

وقوله تعالى : ﴿ وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً ﴾ تأول قوم منهم أن داود لم يخطىء في هذه النازلة بل فيها أوتي الحكم ، والعلم ، وقالت فرقة بل لأَنه لم يصب العين المطلوبة في هذه مدحه الله تعالى بأن له ﴿ حكماً وعلماً ﴾ يرجع إليه في غير هذه النازلة ، وقوله ﴿ وكنا فاعلين ﴾ مبالغة في الخير وتحقيق له ، وفي اللفظ معنى ، وكان ذلك في حقه وعند مستوجبه منا فكأنه قال ﴿ وكنا فاعلين ﴾ لأجل استجابة ذلك ، وحذف اختصاراً

لدلالة ظاهر القول عليه على ما حذف منه . وقوله تعالى : ﴿ لحكمهم ﴾ يريد ﴿ داود سليمان ﴾ والخصمين لأن الحكم يضاف إلى جميعهم وأن اختلفت جهات الإضافة .

وقرأت فرقة " لحكمهما " واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ يسبحن ﴾ فذهبت فرقة وهي الأكثر إلى أَنه قول سبحان الله وذهبت فرقة ، منها منذر بن سعيد إلى أَنه بمعنى يصلين معه بصلاته .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾

عدد الله تعالى على البشر أن علم داود ﴿ صنعة ﴾ الدروع فكان يصنعها أحكم صنعة لتكوين وقاية من الحرب وسبب نجاة من العدو ، و" اللبوس " في اللغة السلاح فمنه الدرع والسيف والرمح وغير ذلك ومنه قول الشاعر [عامر بن الحليس] : [الكامل]

ومعي لبوس للبئيس كأنه . . . روق بجبهة ذي لقاح مجفل

يعني الرمح . وقرأ نافع والجمهور " ليحصنكم " بالياء على معنى ليحصنكم داود اللبوس ، وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم " لتحصنكم " بالتاء على معنى الصنعة أو الدروع التي أوقع عليها اللبوس ، وقرأ أبو بكر عن عاصم " لنحصنكم " على معنى رد الفعل إلى الله

تعالى ، ويروى أَنه كان الناس قبل تتخذ القوي لباساً من صفائح الحديد فكان ثقله يقطع بأكثر الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(91/512)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إِذ يحكمان في الحرث ﴾

وفيه قولان .

أحدهما : أنه كان عنباً ، قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وشريح .

والثاني : كان زرعاً ، قاله قتادة .

﴿ إِذ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوم ﴾ قال ابن قتيبة : أي : رَعَتْ ليلاً ، يقال : نَفَشَت الغنمُ بالليل ، وهي إِبل نَفَشٌ ونُفَّاشٌ ونِفَاشٌ ، والواحد : نَافِشٌ ، وَسَرَحَتْ وسَرَبَتْ بالنهار .

قال قتادة : النَّفَش بالليل ، والهَمَل بالنهار .

وقال ابن السكّيت : النَّفَش : أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راعٍ .

الإِشارة إِلى القصة

ذكر أهل التفسير أن رجلين كانا على عهد داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ،

والآخر صاحب غنم ، فتفلّتت الغنم فوقعت في الحرث فلم تُبق منه شيئاً ، فاختصما إلى داود ، فقال لصاحب الحرث : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أوَغير ذلك؟ قال : ما هو؟ قال : ينطلق أصحاب الحرث بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ، ويُقبل أصحاب الغَنَم على الكَرْم ، حتى إذا كان كليلة نفشت فيه الغَنَم ، دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كَرْمهم ، فقال داود : قد أصبتَ القضاءَ ، ثم حكم بذلك ، فذلك قوله : ﴿ وكُنّا لِحُكمهم شاهدين ﴾ وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : داود وسليمان ، فذكرهما بلفظ الجمع ، لأن الاثنين جمع ، هذا قول الفراء .

والثاني : أنهم داود وسليمان والخصوم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة : "وكنا لِحُكمها" على التثنية .

ومعنى "شاهدِين" : أنه لم يَغِب عنّا من أمرهم شيء .

﴿ ففهَّمْناها سليمان ﴾ يعني : القضية والحكومة .

وإنما كنى عنها ، لأنه قد سبق ما يدل عليها من ذِكْر الحُكم ، ﴿ وكُلاًّ ﴾ منهما ﴿ آتينا حُكماً ﴾ وقد سبق بيانه .

قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة قد هلكوا ، ولكنه أثنى على سليمان لصوابه ، وعَذَر دواد باجتهاده .

فصل

قال أبو سليمان الدمشقي : كان قضاء داود وسليمان جميعاً من طريق الاجتهاد ، ولم يكن نصّاً ، إذ لو كان نصاً ما اختلفا .

قال القاضي أبو يعلى : وقد اختلف الناس في الغنم إذا نفشت ليلاً في زرع رجل فأفسدْته ، فمذهب أصحابنا أن عليه الضمان ، وهو قول الشافعي ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا ضمان عليه ليلاً ونهاراً ، إلا أن يكون صاحبها هو الذي أرسلها ، فظاهر الآية يدل على قول أصحابنا ، لأن داود حكم بالضمان ، وشرع مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لنا ما لم يَثْبُت نَسْخُه .

فإن قيل : فقد ثبت نسخ هذا الحكم ، لأن داود حكم بدفع الغَنَم إلى صاحب الحرث ، وحكم سليمان له بأولادها وأصوافها ، ولا خلاف أنه لا يجب على من نفشتْ غنمه في حرث رجل شيءٌ من ذلك ؛ قيل : الآية تضمنت أحكاماً ، منها وجوب الضمان وكيفيته ، فالنسخ حصل على كيفيَّته ، ولم يحصل على أصله ، فوجب التعلُّق به ، وقد روى حرام بن محيّصة عن أبيه : أن ناقةً للبراء دخلت حائط رجل فأفسدتْ ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل .

قوله تعالى : ﴿ وسخَّرْنا مع داود الجبال يسبِّحن ﴾ تقدير الكلام : وسخَّرْنا الجبال

يسبِّحن مع داود .

قال أبو هريرة : كان إِذا سبَّح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذِّكْر ، وقال غيره : كان إِذا وجد فترةً ، أمر الجبال فسبَّحت حتى يشتاق هو فيسبِّح .

قوله تعالى : ﴿ وكُنَّا فاعلين ﴾ أي : لذلك .

قال الزجاج : المعنى : وكنّا نقدر على ما نريده .

قوله تعالى : ﴿ وعلَّمْناه صنعةَ لَبُوس لكم ﴾ في المراد باللَّبوس قولان .

أحدهما : الدُّروع ، وكانت قبل ذلك صفائح ، وكان داود أول من صنع هذه الحلق وسرد ، قاله قتادة .

والثاني : أن اللَّبوس : السلاح كلُّه من درع إِلى رمح ، قاله أبو عبيدة .

وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : "لُبوس" بضم اللام .

قوله تعالى : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ قرأ ابن كثير .

ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "لِيُحْصِنَكُمْ" بالياء .

وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : "لِتُحْصِنَكُمْ" بالتاء .

وروى أبو بكر عن عاصم : "لِنُحْصِنَكُمْ" بالنون خفيفة .

وقرأ أبو الدرداء ، وأبو عمران الجوني ، وأبو حيوة : "لِتُحَصِّنَكُمْ" بتاء مرفوعة وفتح الحاء وتشديد الصاد .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو الجوزاء ، وحميد بن قيس : "لِتَحَصُّنِكُمْ" بتاء مفتوحة مع فتح الحاء وتشديد الصاد مع ضمها .

وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو المتوكل ، ومجاهد : "لِنُحَصِّنَكُمْ" بنون مرفوعة وفتح الحاء وكسر الصاد مع تشديدها .

وقرأ معاذ القارىء ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : "لِيُحْصِنَّكُمْ" بياء مرفوعة وسكون الحاء وكسر الصاد مشددة النون .

فمن قرأ بالياء ففيه أربعة أوجه .

قال أبو علي الفارسي : أن يكون الفاعل اسم الله ، لتقدُّم معناه ، ويجوز أن يكون اللباس ، لأن اللبوس بمعنى اللباس من حيث كان ضرباً منه ، ويجوز أن يكون داود ، ويجوز أن يكون التعليم ، وقد دل عليه "علَّمْناه" .

ومن قرأ بالتاء ، حمله على المعنى ، لأنه الدرع .

ومن قرأ بالنون ، فلتقدُّم قوله : "وعلَّمناه" .

ومعنى "لِتُحْصِنَكُمْ" : لِتُحْرِزَكم وتمنعكم ﴿ مِنْ بأسكم ﴾ يعني : الحرب . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(94/512)

وقال القرطبى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) ﴾

فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أي واذكرهما إذ يحكمان ، ولم يرد بقوله "إذ يحكمان" الاجتماع في الحكم وإن جمعهما في القول ؛ فإن حَكَمين على حكم واحد لا يجوز .

وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه .

﴿ فِي الحرث ﴾ اختلف فيه على قولين : فقيل : كان زرعاً ؛ قاله قتادة .

وقيل : كرماً نبتت عناقيده ؛ قاله ابن مسعود وشريح .

و"الحرث" يقال فيهما ، وهو في الزرع أبعد من الاستعارة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ أي رعت فيه ليلاً ؛ والنفش الرعي بالليل .

يقال : نفشت بالليل ، وهَمَلت بالنهار ، إذا رعت بلا راعٍ .

وأنفشها صاحبها .

وإبل نُفّاش .

وفي حديث عبد الله بن عمرو : الحبة في الجنة مثل كرِش البعير يبيت نافِشاً ؛ أي راعياً ؛ حكاه الهروي .

وقال ابن سيده : لا يقال الهَمَل في الغنم ، وإنما هو في الإبل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ دليل على أن أقل الجمع اثنان .

وقيل : المراد الحاكمان والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال "لحكمِهِم" .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أي فهمناه القضية والحكومة ، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها .

وفضل حكم سليمان حكم أبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث .

وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم .

قال ابن عطية : فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أفسدت .

(95/512)

وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحرث والغلة ؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم ، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال : بم قضى بينكما نبي الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحرث .

فقال لعل الحكم غير هذا انصرفا معي .

فأتى أباه فقال : يا نبيّ الله إنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع .

قال : وما هو؟ قال : ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها ، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه ، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة ، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه .

فقال داود : وفقت يا بنيّ لا يقطع الله فهمك .

وقضى بما قضى به سليمان ؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما .

قال الكلبي : قوّم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء ، فدفع الغنم

إلى صاحب الكرم .

وهكذا قال النحاس ؛ قال : إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث ؛ لأن ثمنها كان قريباً منه .

وأما في حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضاً .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ تأوّل قوم أن داود عليه السلام لم يخطىء في هذه النازلة ، بل فيها أوتي الحكم والعلم .

وحملوا قوله : "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ" على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود ، والوالد تسره زيادة ولده عليه .

وقالت فرقة : بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة ، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلماً يرجع إليه في غير هذه النازلة .

وأما في هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام ، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم ، لكن لا يقرّون عليه ، وإن أقرّ عليه غيرهم .

ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم : إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها ، فإن كنت مصيباً فقد أخطأ أبوك ، وإن كان أبوك مصيبا ففقد أخطأت أنت ؛ فأجابه الوليد ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ .

وقال قوم : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى إليهما ، فحكم داود بوحي ، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود ، وعلى هذا ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أي بطريق الوحي الناسخ لما أوحي إلى داود ، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ .

هذا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك .

وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وهي :

السادسة : واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم ، وجوّزه المحققون ؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعي فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء ، كما لو قال له الربّ سبحانه وتعالى : إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمي فبلغه الأمة ؛ فهذا غير مستحيل في العقل .

فإن قيل : إنما يكون دليلاً إذا عدم النص وهم لا يعدمونه .

قلنا : إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم ، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين

عن معاني النصوص التي عندهم .

والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ ، وعن الغلط ، وعن التقصير في اجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك .

كما ذهب الجمهور في أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم .

(97/512)

وذهب أبو علي ابن أبي هريرة من أصحاب الشافعي إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم في جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه ، ولذلك عصمه الله تعالى منه ، وقد بُعِث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه .

وقد قيل : إنه على العموم في جميع الأنبياء ، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ على سواء إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه استدراك من بعدهم من الأنبياء .

" هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سألته امرأة عن العِدَّة فقال لها : "اعتدّي

حيث شئت" ثم قال لها : "امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" " .

" وقال له رجل : أرأيت لو قُتِلت صبراً محتسباً أيحجزني عن الجنة شيء ؟ فقال : "لا" ثم دعاه فقال : "إلا الدَّين كذا أخبرني جبريل عليه السلام" " .

السابعة : قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أنّ القضاة هلكوا ، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده .

وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا اختلفوا ؛ فقالت فرقة : الحق في طرف واحد عند الله ، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطىء في أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور .

وهذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهي التي فهم .

ورأت فرقة أن العالم المخطىء لا إثم عليه في خطئه وإن كان غير معذور .

وقالت فرقة : الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل (بل) وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور ، ولم يتعبد بإصابة العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط .

وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضي الله عنهم : إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، المطلوب إنما هو الأفضل في ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه ؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قرّر بعضهم خلاف بعض ، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه .

ومنه ردّ مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حمل الناس على "الموطأ" ؛ فإذا قال عالم في أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله ، وكذا في العكس .

قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المثلى والتي هي أرجح فالأولى ليست بخطأ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : "إذا اجتهد العالم فأخطأ" أي فأخطأ الأفضل .

الثامنة : روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر" هكذا لفظ الحديث في كتاب مسلم "إذا حكم فاجتهد"

فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد ، والأمر بالعكس ؛ فإن الاجتهاد مقدّم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع .

وإنما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ ﴾ [النحل: 98] فعند ذلك أراد أن يجتهد في النازلة.

ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون: إن المجتهد يجب عليه أن يجدد نظراً عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدّم لإمكان أن يظهر له ثانياً خلاف ما ظهر له أوّلاً، اللهم إلا أن يكون ذاكراً لأركان اجتهاده، مائلاً إليه، فلا يحتاج إلى استئناف نظر في أمارة أخرى.

(99/512)

التاسعة: إنما يكون الأجر للحاكم المخطىء إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى؛ لأن اجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط، فأما من لم يكن محلاً للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ في الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر.

يدل على ذلك حديثه الآخر؛ رواه أبو داود: "القضاة ثلاثة" الحديث.

قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ، مما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ الآية.

قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة : ذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين ، وليس ذلك في أقاويل المختلفين ، وبه قال أكثر الفقهاء .

قال : وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكاً عن اختلاف الصحابة ، فقال : مخطىء ومصيب ، وليس الحق في جميع أقاويلهم .

وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين .

واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو ؛ قالوا : وهو نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئاً ومصيباً ؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدّي إلى كون الشيء حلالاً حراماً ، وواجباً ندباً .

واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : " نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب "ألا لا يصلينّ أحدٌ العصر إلا في بني قُرَيظة" " فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قُرَيظة ، وقال الآخرون : لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحداً من الفريقين ؛ قالوا : فلو كان أحد الفريقين مخطئاً لعيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم .

ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور ، فاستغنى عن

تعيينه .

والله أعلم .

ومسألة الاجتهاد طويلة متشعبة ، وهذه النبذة التي ذكرناها كافية في معنى الآية ، والله الموفق للهداية .

(100/512)

الحادية عشرة : ويتعلق بالآية فصل آخر : وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأوّل ؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك .

وقد اختلف في ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى ؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّف في "الواضحة" : ذلك له ما دام في ولايته ؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك ، وهو بمنزلة غيره من القضاة .

وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في "المدونة" .

وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك ؛ وقاله ابن عبد الحكم .

قالا : ويستأنف الحكم بما قوي عنده .

قال سحنون : إلا أن يكون نسي الأقوى عنده في ذلك الوقت ، أو وهم فحكم بغيره فله نقضه ؛ وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده في ذلك الوقت ثم قوي عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأوّل ؛ قاله سحنون في كتاب ابنه .

وقال أشهب في كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب في مال فله نقض الأوّل ، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره ما دام في ولايته أولى .

وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما ؛ رواها الدارقطني ، وقد ذكرناها في "الأعراف" ولم يفصل ؛ وهي الحجة لظاهر قول مالك .

ولم يختلف العلماء أن القاضي إذا قضى تجوّزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود ، وإن كان على وجه الاجتهاد ؛ فأما أن يتعقب قاضٍ حكم قاضٍ آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة نقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام ، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر ، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة : قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره .

وقال آخرون : لم يكن حكماً وإنما كانت فتيا .

قلت : وهكذا تؤوّل فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك أنت .

وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ؛ فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ؛ فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه ؛ فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى : لا يرحمكَ الله هو ابنها ؛ فقضى به للصغرى ؛ قال أبو هريرة : إنْ سمعتُ بالسكين قط إلا يومئذٍ ، ما كنا نقول إلا المُدْية ؛ أخرجه مسلم .

فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو ضعيف ؛ لأنه كان النبي صلى الله عليه وسلم وفتياه حكم .

وأما القول الآخر فبعيد ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم .

وكذا قوله في الحديث : فقضى به للكبرى ؛ يدل على إنفاذ القضاء وإنجازه .

ولقد أبعد من قال : إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى ؛ لأن الكبر والصغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك .

وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع .

والذي ينبغي أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها .

ولم يذكر في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ؛ فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان .

وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا الحديث .

وهو الذي تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها .

(102/512)

لا يقال : فإن كان داود قضى بسبب شرعي فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ؛ فالجواب : أن سليمان عليه السلام لم يتعرّض لحكم أبيه بالنقض ، وإنما احتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق الصغرى ؛ وهي أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ؛ فظهر له من قرينة الشفقة في الصغرى ، وعدم ذلك في الكبرى ، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها .

ولعله كان ممن سوّغ له أن يحكم بعلمه .

وقد ترجم النسائي على هذا الحديث "حكم الحاكم بعلمه" .

وترجم له أيضاً "السعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يَفعله أَفْعلُ ليستبين الحق" .

وترجم له أيضاً "نقض الحاكم لا يَحكم به غيرُه ممن هو مثله أو أجلّ منه" .

ولعل الكبرى اعترفت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد في ذلك ، فقضى بالولد للصغرى ؛ ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين ، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره ، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها ، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأوّل ، لكن من باب تبدّل الأحكام بحسب تبدّل الأسباب .

والله أعلم .

وفي هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالاجتهاد ؛ وقد ذكرناه .

وفيه من الفقه استعمال الحكام الحيل التي تستخرج بها الحقوق ، وذلك يكون عن قوّة الذكاء والفطنة ، وممارسة أحوال الخلق ؛ وقد يكون في أهل التقوى فراسة دينية ، وتوسمات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تُستلحَق ؛ وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره .

وعلى الجملة فقضاء سليمان في هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا

سُلَيْمَانَ ﴾ .

الثالثة عشرة : قد تقدّم القول في الحرث والحكم في هذه الواقعة في شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار ، ثم الضمان في المثل بالمثليات ، وبالقيمة في ذوات القيم .

(103/512)

والأصل في هذه المسألة في شرعنا ما حكم به محمد صلى الله عليه وسلم في ناقة البراء بن عازب .

رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن مُحيّصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل ، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها .

هكذا رواه جميع الرواة مرسلاً .

وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب ، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهري عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحيِّصة : أن ناقة ؛ فذكر مثله بمعناه .

ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ؛ مثل حديث

مالك سواء ، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره .

قال أبو عمر : لم يصنع ابن أبي ذئب شيئاً ؛ إلا أنه أفسد إسناده .

ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه .

ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت في حائط قوم فأفسدت ؛ فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة ، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء .

وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن مُحَيصة ، وعن سعيد بن المسيّب ، وعن أبي أمامة والله أعلم فحدَّث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات .

قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديث مشهور أرسله الأئمة ، وحدَّث به الثقات ، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى في المدينة العمل به ، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة : ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم ، إذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء ، وأدخل فسادها في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : " جُرح العجماء جُبَار " فقاس جميع أعمالها على جرحها .

ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول ، ولا حجة له ولا لمن اتبعه في حديث العجماء ، وكونه ناسخاً لحديث البراء ومعارضاً له ؛ فإن النسخ شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بنفي الآخر ، وحديث " العجماء جرحها جبار " عموم متفق عليه ، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد : العجماء جرحها جبار نهاراً لا ليلاً وفي الزرع والحوائط والحرث ، لم يكن هذا مستحيلاً من القول ؛ فكيف يجوز أن يقال في هذا متعارض ؟ ! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور في الأصول .

الخامسة عشرة : إن قيل : ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار ، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفسدت ، ولا يضمن أكثر من قيمة

الماشية؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم ترعى بالنهار ، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده ، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع ؛ لأنه وقت التصرف في المعاش ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 11] فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ [القصص : 72] وقال : ﴿ وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ [الأنعام : 96] ويرد أهل المواشي مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها ، فإذا فرّط صاحب الماشية في ردها إلى منزله ، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً فعليه ضمان ذلك ، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح ، وكان ذلك أرفق بالفريقين ، وأسهل على الطائفتين ، وأحفظ للمالين ، وقد وضح الصبح لذي عينين ، ولكن لسليم الحاستين ؛ وأما قول الليث : لا يضمن أكثر من قيمة الماشية ، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد ، إلا أن يجعله قياسا على العبد الجاني لا يفتك بأكثر من قيمته ، ولا يلزم سيده في جنايته أكثر من قيمته ، وهذا ضعيف الوجه ؛ كذا قال في "التمهيد" وقال في "الاستذكار" فخالف الحديث في " العجماء جرحها جبار " وخالف ناقة البراء ، وقد تقدّمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء .

قال ابن جريج قلت لعطاء : الحرث تصيبه الماشية ليلاً أو نهاراً ؟ قال : يضمن صاحبها

ويغرم .

قلت : كان عليه حظراً أو لم يكن ؟ قال : نعم ! يغرم .

قلت : ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته .

(106/512)

وقال معمر عن ابن شُبْرُمة : يُقوّم الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهم .

وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلاً أو نهاراً ، من طرق لا تصح .

السادسة عشرة : قال مالك : ويقوم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف .

قال : والحوائط التي تحرس والتي لا تحرس ، والمحظر عليها وغير المحظر سواء ، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغاً ما بلغ ، وإن كان أكثر من قيمتها .

قال : وإذا انفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئاً ، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرث ؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم .

وقال ابن القاسم : ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربها ، وإن كان أضعاف ثمنها ؛ لأن

الجناية من قبله إذ لم يربطها ، وليست الماشية كالعبيد ؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة : ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل في سنّ الصغير .

وقال عيسى عن ابن القاسم : قيمته لو حل بيعه .

وقال أشهب وابن نافع في المجموعة عنه : وإن لم يبد صلاحه .

ابن العربي : والأوّل أقوى لأنها صفته فتقوّم كما يقوم كل متلف على صفته .

الثامنة عشرة : لو لم يقض للمفسد له بشيء حتى نبت وانجبر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعي أو شيء ضمن تلك المنفعة ، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان .

وقال أصبغ : يضمن ؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة : وقع في كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان محدقة ، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير مُحظَرة ، وبساتين كذلك ، فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليل أو نهار ؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تعدّ ؛ لأنها ولا بد تفسد .

وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين : قال أصبغ في المدينة : ليس لأهل المواشي أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد ؛ فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة زرع ، أو بقعة سرح ، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح ، وعلى أربابها حفظها ، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلاً أو نهاراً ؛ وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذي حَرْثه فيها حفظه ، ولا شيء على أرباب المواشي .

الحادية والعشرون : المواشي على قسمين : ضواري وحَريسة وعليهما قسمها مالك .

فالضواري هي المعتادة للزرع والثمار ، فقال مالك : تُغرَّب وتباع في بلد لا زرع فيه ؛ رواه ابن القاسم في الكتاب وغيره .

قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربها ، وكذلك قال مالك في الدابة التي ضريت في إفساد الزرع : تغرّب وتباع .

وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانية والعشرون : قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية ، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن (ضريت) ، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم .

قال ابن العربي : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يتخذ ما ينتفع به مما لا يضره بغيره مُكّنِ منه ، وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيل إليه .

قال عليه السلام : " لا ضرر ولا ضرار " وهذه الضواري عن ابن القاسم في المدينة لا ضمان على أربابها إلا بعد التقدّم .

ابن العربي : وأرى الضمان عليهم قبل التقدّم إذا كانت ضواري .

الثالثة والعشرون : ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيح ، فقال الشّعبي : انظروه فإنه سيسألهم ليلاً وقعت فيه أو نهاراً ؛ ففعل .

ثم قال : إن كان بالليل ضمن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ قال : والنَّفش بالليل والهَمَل بالنهار .

قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " العجماء جرحها جبار " الحديث .

قال ابن شهاب : والجبار الهدر ، والعجماء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : " العجماء جرحها جبار " أن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء ، وهذا مجمع عليه .

فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف ؛ فإن كانت جناية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمداً كان فيه القصاص ولا يختلف فيه

؛ لأن الدابة كالآلة .

وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة .

وفي الأموال الغرامة في مال الجاني .

الرابعة والعشرون : واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها ، فلم يضمّن مالك والليث والأوزاعي صاحبها ، وضمّنه الشافعي وابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة .

واختلفوا في الضارية فجمهورهم أنها كغيرها ، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسة والعشرون : روى سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرِّجل جبار " قال الدارقطني : لم يروه غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه ، وخالفه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن عيينة ويونس ومعمر وابن جريج والزبيدي وعقيل وليث بن سعد ، وغيرهم كلهم رووه عن الزهري فقالوا : " العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار " ولم يذكروا الرِّجل وهو الصواب .

وكذلك رواه أبو صالح السمان ، وعبد الرحمن الأعرج ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة ، ولم يذكروا فيه "والرِّجل جبار" وهو المحفوظ عن أبي هريرة .

السادسة والعشرون : قوله : "والبئر جُبار" قد روي موضعه "والنار جبار" قال الدارقطني : حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدّثنا حنبل بن إسحاق قال : سمعت أبا

عبد الله أحمد بن حنبل يقول في حديث عبد الرزاق : حديث أبي هريرة "والنار جبار" ليس بشيء ، لم يكن في الكتاب ، باطل ليس هو بصحيح .

(109/512)

حدّثنا محمد بن مخلد حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن هانئ قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير ؛ يعني مثل ذلك .

وإنما لقن عبد الرزاق "النار جبار" .

وقال الرمادي : قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وَهَماً .

قال أبو عمر : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جُبار " وقال يحيى بن معين : أصله البئر ولكن معمراً صحّفه .

قال أبو عمر : لم يأتِ ابن معين على قوله هذا بدليل ، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات .

ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغساني قال : أحرق رجل سافي قَرَاح له فخرجت شرارة من نار حتى أحرقت شيئاً لجاره .

قال : فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ابن حصين فكتب إليّ أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " العجماء جبار " وأرى أن النار جبار .

وقد روي " والسائمة جبار " بدل العجماء فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتب الفقه .

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبّحاً والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير .

وقيل : كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَسَخَّرْنَا ﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح .

وقيل : إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ [سبأ : 10] .

وقال قتادة : "يُسَبِّحْنَ" يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة .

وكل محتمل .

وذلك فعل الله تعالى بها ؛ ذلك لأن الجبال لا تعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ يعني اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله ؛ درعاً كان أو جَوْشناً أو سيفاً أو رمحاً .

قال الهُذَلي يصف رمحاً :

ومَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كأَنَّهُ . . .

رَوْقٌ بجبهة ذِي نعَاجٍ مُجْفِلِ

واللبوس كل ما يلبس ، وأنشد ابن السكيت :

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَهَا . . .

إمّا نَعيمَهَا وإمّا بُوسَهَا

وأراد الله تعالى هنا الدّرع ، وهو بمعنى الملبوس نحو الرّكوب والحلوب .

قال قتادة : أوّل من صنع الدروع داود .

وإنما كانت صفائح ، فهو أوّل من سردها وحلقها .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ ليحرزكم .

﴿ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ أي من حربكم .

وقيل : من السيف والسهم والرمح ، أي من آلة بأسكم فحذف المضاف .

ابن عباس : "مِنْ بَأْسِكُمْ" من سلاحكم .

الضحاك : من حرب أعدائكم .

والمعنى واحد .

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح "لِتُحْصِنَكُمْ" بالتاء رداً على الصنعة .

وقيل : على اللبوس والمنعة التي هي الدروع .

وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحاق "لِنُحْصِنَكُمْ" بالنون لقوله : "وَعَلَّمْنَاهُ" .

وقرأ الباقون بالياء جعلوا الفعل للبوس ، أو يكون المعنى ليحصنكم الله .

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أي على تيسير نعمة الدروع لكم .

وقيل : "هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ" بأن تطيعوا رسولي .

الثالثة : هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة .

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع ، وكان أيضاً يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثاً ، ونوح نجاراً ، ولقمان خياطاً ، وطالوت دباغاً .

وقيل : سقاء ؛ فالصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس .

وفي الحديث : " إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفِّف ويبغض السائل الملحِف "

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة "الفرقان" .

وقد تقدم في غير ما آية ، وفيه كفاية والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(112/512)

وقال أبو حيان :

﴿ وداود وسليمان ﴾ عطف على ﴿ ونوحاً ﴾ .

قال الزمخشري : ﴿ وإذ ﴾ بدل منهما انتهى .

والأجود أن يكون التقدير واذكر ﴿ داود وسليمان ﴾ أي قصتهما وحالهما ﴿ إذ يحكمان ﴾ وجعل ابن عطية ﴿ وداود وسليمان ﴾ معطوفين على قوله ﴿ ونوحاً ﴾ ﴿ ونوحاً ﴾ معطوفاً على قوله ﴿ ولوطاً ﴾ فيكون ذلك مشتركاً في العامل الذي هو

﴿ آتينا ﴾ المقدرة الناصبة للوط المفسرة بآتينا فالتقدير وآتينا نوحاً وداود وسليمان أي آتيناهم ﴿ حكماً وعلماً ﴾ ولا يبعد ذلك وتقدير اذكر قاله جماعة .

وكان داود ملكاً نبياً يحكم بين الناس فوقعت هذه النازلة ، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر ، فتخاصم إليه رجل له زرع وقيل كرم و ﴿ الحرث ﴾ يقال فيهما وهو في الزرع أكثر ، وأبعد عن الاستعارة دخلت حرثه غنم رجل فأفسدت عليه ، فرأى داود دفعها إلى صاحب الحرث فعلى أنه كرم رأى أن الغنم تقاوم ما أفسدت من الغلة وعلى أنه زرع رأى أنها تقاوم الحرث والغلة ، فخرجا على سليمان فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال : يا نبيّ الله إني أرى ما هو أرفق بالجميع ، أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان ، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل ، فإذا عاد الحرث إلى حاله صرف كل مال صاحبه إليه فرجعت الغنم إلى ربها والحرث إلى ربه فقال داود : وفقت يا بني وقضى بينهما بذلك .

والظاهر أن كلاًّ من داود وسليمان حكم بما ظهر له وهو متوجه عنده فحكمهما باجتهاد وهو قول الجمهور ، واستدل بهذه الآية على جواز الاجتهاد .

وقيل : حكم كل واحد منهما بوحي من الله ونسخ حكم داود بحكم سليمان ، وإن معنى

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أي فهمناه القضاء الفاصل الناسخ الذي أراد الله أن يستقر في النازلة .

(113/512)

وقرأ عكرمة فأفهمناها عُدِّي بالهمزة كما عُدِّي في قراءة الجمهور بالتضعيف والضمير في ﴿ ففهمناها ﴾ للحكومة أو الفتوى ، والضمير في ﴿ لحكمهم ﴾ عائد على الحاكمين والمحكوم لهما وعليهما ، وليس المصدر هنا مضافاً لا إلى فاعل ولا مفعول ، ولا هو عامل في التقدير فلا ينحل بحرف مصدري .

والفعل به هو مثل له ذكاء الحكماء وذهن ذهن الأذكياء وكان المعنى وكنا للحكم الذي صدر في هذه القضية ﴿ شاهدين ﴾ فالمصدر هنا لا يراد به العلاج بل يراد به وجود الحقيقة .

وقرأ ﴿ لحكمهما ﴾ ابن عباس فالضمير لداود وسليمان .

ومعنى ﴿ شاهدين ﴾ لا يخفى علينا منه شيء ولا يغيب .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما وجه كل واحدة من الحكومتين ؟ قلت : أمّا وجه حكومة داود فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجني عليه كما قال أبو حنيفة في العبد

إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه ، وعند الشافعي يبيعه في ذلك أو يفديه ، ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ، ووجه حكومة سليمان أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم ، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان .

فإن قلت : فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه لا يرون فيه ضماناً بالليل والنهار إلاّ أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد ، والشافعي يوجب الضمان انتهى .

والظاهر أن كلاًّ من الحكمين صواب لقوله ﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ .

والظهر أن ﴿ يسبحن ﴾ جملة حالية من ﴿ الجبال ﴾ أي مسبحات .

وقيل : استئناف كأن قائلاً قال : كيف سخرهن ؟ فقال : ﴿ يسبحن ﴾ قيل : كان يمر بالجبال مسبحاً وهي تجاوبه .

(114/512)

وقيل : كانت تسير معه حيث سار ، والظاهر وقوع التسبيح منها بالنطق خلق الله فيها الكلام كما سبح الحصى في كف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسمع الناس ذلك ،

وكان داود وحده يسمعه قاله يحيى بن سلام .

وقيل : كل واحد .

قال قتادة : ﴿ يسبحن ﴾ يصلين .

وقيل : يسرن من السباحة .

وقال الزمخشري : كما خلقه يعني الكلام في الشجرة حين كلم موسى انتهى .

وهو قول المعتزلة ينفون صفة الكلام حقيقة عن الله تعالى .

وقيل : إسناد التسبيح إليهن مجاز لما كانت تسير بتسيير الله حملت من رآها على التسبيح فأسند إليها ، والأكثرون على تسبيحهن هو قول سبحان الله .

وانتصب ﴿ والطير ﴾ عطفاً على ﴿ الجبال ﴾ ولا يلزم من العطف دخوله في قيد التسبيح .

وقيل : هو مفعول معه أي يسبحن مع الطير .

وقرىء ﴿ والطيرُ ﴾ مرفوعاً على الابتداء والخبر محذوف أي مسخر لدلالة سخرنا عليه ، أو على الضمير المرفوع في ﴿ يسبحن ﴾ على مذهب الكوفيين وهو توجيه قراءة شاذة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قدمت ﴿ الجبال ﴾ على ﴿ الطير ﴾ ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة ، وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير

حيوان ناطق انتهى .

وقوله : ناطق إن عنى به أنه ذو نفس ناطقة كما يقولون في حد الإنسان أنه حيوان ناطق فيلزم أن يكون الطير إنساناً ، وإن عنى أنه متكلم كما يتكلم الإنسان فليس بصحيح وإنما عنى به مصوّت أي له صوت ، ووصف الطير بالنطق مجاز لأنها في الحقيقة لا نطق لها .

وقوله ﴿ وكنا فاعلين ﴾ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهنّ والطير لمن نخصه بكرامتنا ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ اللبوس الملبوس فعول بمعنى مفعول كالركوب بمعنى المركوب ، وهو الدرع هنا .

واللبوس ما يلبس .

قال الشاعر :

عليها أسود ضاريات لبوسهم . . .

سوابغ بيض لا يخرّقها النبل

قال قتادة : كانت صفائح فأول من سردها وحلقها داوود فجمعت الخفة والتحصين .

وقيل : اللبوس كل آلة السلاح من سيف ورمح ودرع وبيضة وما يجري مجرى ذلك ، وداود أول من صنع الدروع التي تسمى الزرد .

قيل : نزل ملكان من السماء فمرا بداود فقال أحدهما للآخر : نعم الرجل إلاّ أنه يأكل من بيت المال ، فسأل الله أن يرزقه من كسبه فألان له الحديد فصنع منه الدروع امتن تعالى عليه بإيتائه حكماً وعلماً وتسخير الجبال والطير معه وتعليم صنعة اللبوس ، وفي ذلك فضل هذه الصنعة إذ أسند تعليمها إياه إليه تعالى .

ثم امتن علينا بها بقوله ﴿ ليحصنكم من بأسكم ﴾ أي ليكون وقاية لكم في حربكم وسبب نجاة من عدوّكم .

وقرىء ﴿ لُبوس ﴾ بضم اللام والجمهور بفتحها .

وقرأ الجمهور : ليحصنكم بياء الغيبة أي الله فيكون التفاتاً إذ جاء بعد ضمير متكلم في ﴿ وعلمناه ﴾ ويدل عليه قراءة أبي بكر عن عاصم بالنون وهي قراءة أبي حنيفة ومسعود بن صالح ورويس والجعفي وهارون ويونس والمنقري كلهم عن أبي عمرو ليحصنكم داود ، واللبوس قيل أو التعليم .

وقرأ ابن عامر وحفص والحسن وسلام وأبو جعفر وشيبه وزيد بن علي بالتاء أي ﴿ لتحصنكم ﴾ الصنعة أو اللبوس على معنى الدرع ودرع الحديد مؤنثة وكل هذه القراءات الثلاث بإسكان الحاء والتخفيف .

(116/512)

وقرأ الفقيمي عن أبي عمرو وابن أبي حماد عن أبي بكر بالياء من تحت وفتح الحاء وتشديد الصاد ، وابن وثاب والأعمش بالتاء من فوق والتشديد واللام في ﴿ لكم ﴾ يجوز أن تكون للتعليل فتتعلق بعلمناه ، أي لأجلكم وتكون ﴿ لتحصنكم ﴾ في موضع بدل أعيد معه لام الجراذ الفعل منصوب بإضمار إن فتتقدّر بمصدر أي ﴿ لكم ﴾ لإحصانكم ﴿ من بأسكم ﴾ ويجوز أن تكون ﴿ لكم ﴾ صفة للبوس فتتعلق بمحذوف أي كائن لكم ، واحتمل أن يكون ليحصنكم تعليلاً للتعليم فيتعلق بعلمناه ، وأن يكون تعليلاً للكون المحذوف المتعلق به ﴿ لكم ﴾ ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ استفهام يتضمن الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم كقوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ أي انتهوا عما حرم الله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(117/512)

وقال أبو السعود :

﴿ وَدَاوُودَ وسليمان ﴾

إما عطفٌ على نوحاً معمولٌ لعامله وإما لمضمر معطوفٍ على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ ظرفٌ للمضاف المقدر وصيغةُ المضارع حكايةٌ للحال الماضيةِ لاستحضار صورتِها ، أي اذكر خبرَهما وقت حُكمِهما ﴿ فِى الحرث ﴾ أي في حق الزرعِ أو الكرم المتدّلي عناقيدُه كما قيل ، أو بدلُ اشتمال منهما وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ أي تفرّقت وانتشرت ﴿ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ ليلاً بلا راعٍ فرعَتْه وأفسدتْه ظرفٌ للحكم ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أي لحُكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، فإن الإضافةَ لمجرد الاختصاص المنتظمِ لاختصاص القيامِ واختصاصِ الوقوع ، وقرىء لحكمهما ﴿ شاهدين ﴾ حاضرين علماً والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ للحكم ومفيدٌ لمزيد الاعتناءِ بشأنه .

(118/512)

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ عطفٌ على يحكمان فإنه على حكم الماضي ، وقرىء فأفهمناها والضميرُ للحكومة أو الفُتيا ، روي أنه دخل على داودَ عليه السلام رجلان ، فقال أحدهما : إن غنَمَ هذا دخلت في حرثي ليلاً فأفسدتْه فقضى له بالغنم فخرجا فمرّا

على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك ، فقال : غيرُ هذا أرفقُ بالفريقين فسمعه داودُ فدعاه ، فقال له : بحق النبوةِ والأبوة إلا أخبرتَني بالذي أرفقُ بالفريقين ، فقال : أرى أن تُدفع الغنَمُ إلى صاحب الأرض لينتفعَ بدرها ونسلِها وصوفِها ، والحرثَ إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعودَ إلى ما كان ثم يترادّا ، فقال : القضاءُ ما قضيتَ وأمضى الحُكْمَ بذلك ، والذي عندي أن حكْمَهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فإن قولَ سليمان عليه الصلاة والسلام : غيرُ هذا أرفقُ بالفريقين ، ثم قولُه : أرى أن تُدفع الخ ، صريحٌ في أنه ليس بطريق الوحي وإلا لبتّ القولَ بذلك ولما ناشده داودُ عليهما السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يُظهِره بدْأً وحرُم عليه كتمُه ، ومن ضرورته أن يكون القضاءُ السابقُ أيضاً كذلك ضرورةَ استحالة نقضِ حكم النصِ بالاجتهاد ، بل أقول : والله تعالى أعلم إن رأْيَ سليمان عليه السلام استحسانٌ كما ينبىء عنه قوله : أرفقُ بالفريقين ورأيَ داودَ عليه السلام قياسٌ كما أن العبدَ إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة إلى المجنيِّ عليه أو يفديه ويبيعُه في ذلك أو يفديه عند الشافعي ، وقد روي أنه لم يكن بين قيمة الحرثِ وقيمة الغنمِ تفاوتٌ ، وأما سليمانُ عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاعَ بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول مُلكُ المالك عن الغنم ، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى أن يزولَ الضررُ الذي أتاه من قِبله كما قال أصحابُ الشافعيِّ فيمن

غصب عبداً فأَبَقَ منه : أنه يضمن القيمةَ فينتفعَ بها المغصوبُ منه بإزاء ما فوّته الغاصبُ من

(119/512)

المنافع فإذا ظهر الآبقُ ترادّا وفي قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ دليلٌ على رجحان قولِه ورجوعِ داودَ عليه السلام إليه مع أن الحكمَ المبنيَّ على الاجتهاد لا يُنقَض باجتهاد آخرَ وإن كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتِنا ، على أنه ورد في الأخبار أن داودَ عليه السلام لم يكن بتّ الحكمَ في ذلك حتى سمع من سليمانَ وأما حكمُ المسألةِ في شريعتنا فعند أبي حنيفة رحمه الله لا ضمانَ إن لم يكن معها سائقٌ أو قائد ، وعند الشافعي يجب الضمانُ ليلاً لا نهاراً وقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيصُ سليمانَ عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داودَ عليه السلام حكماً شرعياً ، أي وكلُّ واحد منهما آتينا حكماً وعلماً كثيراً لا سليمانُ وحده ، وهذا إنما يدل على أن خطأَ المجتهدِ لا يقدح في كونه مجتهداً ، وقيل : بل على أن كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ وهو مخالفٌ لقوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ ولولا النقل لاحتمل توافقُهما على أن قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ لإظهار ما تفضّل عليه في صِغره فإنه عليه السلام كان

حيئنذ ابن إحدى عشرة سنةً ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودُ الجبال ﴾ شروعٌ في بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى إثرَ بيان كرامتِه العامة لهما ﴿ يُسَبّحْنَ ﴾ أي يقدّسْن الله عز وجل معه بصوت يتمثّل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلامَ ، وقيل : يسِرْن معه من السباحة وهو حالٌ من الجبال أو استئنافٌ مبين لكيفية التسخيرِ ومع متعلقةٌ بالتسخير ، وقيل : بالتسبيح وهو بعيد ﴿ والطير ﴾ عطفٌ على الجبال أو مفعولٌ معه ، وقرىء بالرفع على الابتداء والخبرُ محذوفٌ ، أي والطيرُ مسخراتٌ ، وقيل : على العطف على الضمير في يسبحن وفيه ضعفٌ لعدم التأكيد والفصلِ ﴿ وَكُنَّا فاعلين ﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثالَه فليس ذلك ببِدْعٍ منا وإن كان بديعاً عندكم .

(120/512)

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ أي عملَ الدِّرْعِ وهو في الأصل اللباسُ قال قائلهم

إلبَسْ لكل حالة لَبوسَها . . . إما نعيمَها وإما بوسَها

وقيل : كانت صفائح فحلقها وسرَدَها ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلقٌ بعلّمنا أو بمحذوف هو صفةُ لَبوس ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ أي اللبوسُ بتأويل الدرع ، وقرىء بالتذكير على أن الضمير لداودَ عليه السلام أو للّبوس ، وقرىء بنون العظمة وهو بدلُ اشتمال من لكم بإعادة الجارّ مبينٌ

لكيفية الاختصاصِ والمنفعةِ المستفادةِ من لام لكم ﴿ مّن بَأْسِكُمْ ﴾ قيل : من حرب عدوِّكم ، وقيل : من وقع السلاح فيكم ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهامِ للمبالغة أو التقريع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(121/512)

وقال الآلوسى :

﴿ وَدَاوُودَ وسليمان ﴾

إما عطف على ﴿ نُوحاً ﴾ [الأنبياء : 76] معمول لعامله أعني اذكر عليه على ما زعم ابن عطية ، وأما مفعول لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف أي نبأ داود وسليمان .

وداود بن إيشا بن عوبر بن باعر بن سلمون بن يخشون بن عمى بن يارب بن حضرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام ، كان كما روى عن كعب أحمر الوجه سبط الرأس أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت وجمع له بين النبوة والملك ، ونقل النووي عن أهل التاريخ أنه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون وكان له إثنا عشر ابناً وسليمان عليه السلام أحد أبنائه وكان عليه السلام يشاور في كثير من أموره مع صغر سنه

لوفور عقله وعلمه .

وذكر كعب أنه كان أبيض جسيماً وسيماً وضيئاً خاشعاً متواضعاً ، وملك كما قال المؤرخون وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وله ثلاث وخمسون سنة ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ ظرف لذلك المقدر ، وجوزت البدلية على طرز ما مر ، والمراد إذ حكماً ﴿ فِي الحرث ﴾ إلا أنه جيء بصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها ، والمراد بالحرث هنا الزرع .

(122/512)

وأخرج جماعة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه الكرم ، وقيل : إنه يقال فيهما إلا أنه في الزرع أكثر ، وقال الخفاجي : لعله بمعنى الكرم مجاز على التشبيه بالزرع ، والمعنى إذ يحكمان في حق الحرث ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ ظرف للحكم ، والنفش رعي الماشية في الليل بغير راع كما أن الهمل رعيها في النهار كذلك ، وكان أصله الانتشار والتفرق أي إذ تفرقت وانتشرت ﴿ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ ليلاً بلا راع فرعته وأفسدته ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ أي حاضرين علماً ، وضمير الجمع قيل : لداود وسليمان ويؤيده قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ لحكمهما ﴾ بضمير التثنية ، واستدل بذلك من قال : إن أقل

الجمع اثنان، وجوز أن يكون الجمع للتعظيم كما في ﴿ قَالَ رَبِّ ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] ﴾ .

وقيل : هو للحاكمين والمتحاكمين، واعترض بأن إضافة حكم إلى الفاعل على سبيل القيام وإلى المفعول على سبيل الوقوع وهما في المعنى معمولان له فكيف يصح سلكهما في قرن.

وأجيب بأن الحكم في معنى القضيلا لا نظر ههنا إلى علمه وإنما ينظر إليه إذا كان مصدراً صرفاً، وأهظر منه كما في "الكشف" أن الاختصاص يجمع القيام والوقوع وهو معنى الإضافة ولم يبق النظر إلى العمل بعدها لا لفظاً ولا معنى فالمعنى وكنا للحكم الواقع بينهم شاهدين، والجملة اعتراض مقرر للحكم، وقد يقال : إنه مادح له كأنه قيل : وكنا مراقبين لحكمهم لا نقرهم على خلل فيه، وهذا على طريقة قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : 48] في إفادة العناية والحفظ، وقوله تعالى :

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ عطف على ﴿ يَحْكُمَانِ ﴾ [الأنبياء : 78] فإنه في حكم الماضي كما مضى.

وقرأ عكرمة ﴿ فافهمناها ﴾ بهمزة التعدية والضمير للحكومة أو الفتيا المفهومة من السياق.

روى أنه كانت امرأة عابدة من بني إسرائيل وكانت قد تبتلت وكان لها جاريتان جميلتان فقالت أحدهما للأخرى : قد طال علينا البلاء أما هذه فلا تريد الرجال ولا نزال بشر ما كنا لها فلو أنا فضحناها فرجمت فصرنا إلى الرجال فأخذا ماء البيض فأتياها وهي ساجدة فكشفتا عنها ثوبها ونضحتاه في دبرها وصرختا انها قد بغت وكان من زنى فيهم حدّه الرجم فرفعت إلى داود وماء البيض في ثيابها فأراد رجمها فقال سليمان : ائتوا بنار فإنه إن كان ماء الرجل تفرق وإن كان ماء البيض اجتمع فأتى بنار فوضعها عليه فاجتمع فدرأ عنها الرجم فعطف عليه داود عليه السلام فأحبه جداً فاتفق أن دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما : إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال : كيف قضى بينكما أبي ؟ فأخبراه فقال : غير هذا أرفق بالجانبين فسمعه داود عليه السلام فدعاه فقال له : بحق النبوة والابوه إلا أخبرتني بالذي هو أرفق فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ثم يترادا فقال : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك ، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، ومال كثير إلى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد وهو جائز على الأنبياء عليهم السلام كما بين في الأصول وبذلك أقول فإن قول سليمان عليه

السلام غير هذا أرفق ، ثم قوله : أرى أن تدفع الخ صريح في أنه ليس بطريق الوحي وإلا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليه السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بداء وحرم عليه كتمه ، مع أن الظاهر أنه عليه السلام لم يكن نبياً في ذلك السن ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضاً كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد ، وفي "الكشف" أن القول بأن كلا الحكمين عن اجتهاد باطل لأن حكم سليمان نقض حكم داود عليهما

السلام والاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد البتة فدل على أنهما جميعاً حكماً بالوحي ، ويكون ما أوحى به لسليمان عليه السلام ناسخاً لحكم داود عليه السلام أو كان حكم سليمان وحده بالوحي ، وقوله تعالى : ﴿ شاهدين ففهمناها ﴾ لا يدل على أن ذلك اجتهاد .

وتعقب بأنه إن أراد بعدم نقض الاجتهاد بالاجتهاد عدم نقضه باجتهاد غيره حتى يلزم تقليده به فليس ما نحن فيه ، وإن أراد عدم نقضه باجتهاد نفسه ثانياً وهو عبارة عن تغير اجتهاده لظهور دليل آخر فهو غير باطل بدليل أن المجتهد قد ينقل عنه في مسألة قولان كمذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه القديم والجديد ورجوع كبار الصحابة رضي الله

تعالى عنهم إلى آراء بعضهم وهم مجتهدون ، وقيل : يجوز أن يكون أوحى إلى داود عليه السلام أن يرجع عن اجتهاده ويقضي بما قضى به سليمان عليه السلام عن اجتهاد ، وقيل : إن عدم نقض الاجتهاد بالاجتهاد من خصائص شريعتنا ، على أنه ورد في بعض الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان عليه السلام ما سمع ، وممن اختار كون كلا الحكمين عن اجتهاد شيخ الإسلام مولانا أبو السعود قدس سره ثم قال : بل أقول والله تعالى أعلم .

إن رأي سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله : أرفق بالجانبين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه إلى المجني عليه أو يفديه ويبيعه في ذلك أو يفديه عند الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه .

وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت ، وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك من الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى أن يزول الضرر

الذي آتاه من قبله كما قال بعض أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً فأبق منه إنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من المنافع فإذا ظهر الآبق ترادا انتهى .

وأما حكم المسألة في شريعتنا فعند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه لا ضمان إذا لم يكن معها سائق أو قائد لما روى الشيخان من قوله صلى الله عليه وسلم : " رجح العجماء جبار " ولا تقييد فيه بليل أو نهار ، وعند الشافعي يجب الضمان ليلاً لا نهاراً لما في "السنن" من أن ناقة البراء دخلت حائط رجل فأفسدته فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الأموال بحفظها بالنهار وعلى أهل المواشي بحفظها بالليل .

وأجيب بأن في الحديث اضطراباً ، وفي رجال سنده كلاماً ، مع أنه يجوز أن يكون البراء أرسلها كما يجوز في هذه القصة أن يكون كذلك فلا دليل فيه ﴿ وَكُلاًّ ﴾ من داود وسليمان ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ ه ﴿ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ كثيراً ومنه العلم بطريق الاجتهاد لا سليمان عليه السلام وحده ، فالجملة لدفع هذا التوهم وفيها دلالة على أن خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهداً ، وقيل : إن الآية دليل على أن كل مجتهد في مسألة لا قاطع فيها مصيب فحكم الله تعالى في حقه وحق مقلده ما أدى إليه اجتهاده فيها ولا حكم له سبحانه قبل الاجتهاد وهو قول جمهور المتكلمين منا كالأشعري .

والقاضي ، ومن المعتزلة كأبي الهذيل .

والجبائي وأتباعهم ، ونقل عن الأئمة الأربعة رضي الله تعالى عنهم القول بتصويب كل مجتهد والقول بوحدة الحق وتخطئة البعض ، وعد في الأحكام الأشعري ممن يقول كذلك .

(126/512)

ورد بأن الله تعالى خصص سليمان بفهم الحق في الواقعة بقوله سبحانه : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وذلك يدل على عدم فهم داود عليه السلام ذلك فيها وإلا لما كان التخصيص مفيداً .

وتعقبه الآمدي بقوله : ولقائل أن يقول : إن غاية ما في قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ تخصيصه عليه السلام بالتفهيم ولا دلالة له على عدم ذلك في حق داود عليه السلام إلا بطريق المفهوم وليس بحجة وإن سلمنا أنه حجة غير أنه قد روي أنهما حكما بالنص حكماً واحداً ثم نسخ الله تعالى الحكم في مثل تلك القضية في المستقبل وعلم سليمان بالنص الناسخ دون داود عليهما السلام فكان هذا هو الفهم الذي أضيف إليه ، والذي يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ ولو كان أحدهما مخطئاً لما كان قد أوتي في تلك الواقعة حكماً وعلماً وأن سلمنا أن حكمهما كان مختلفاً لكن يحتمل أنهما حكماً بالاجتهاد مع الأذن فيه وكانا محقين في الحكم إلا أنه نزل الوحي على وفق ما حكم به حقاً

متعيناً بنزول الوحي به ونسب التفهيم إلى سليمان عليه السلام بسبب ذلك ، وإن سلمنا أن داود عليه السلام كان مخطئاً في تلك الواقعة غير أنه كان فيها نص اطلع عليه سليمان دون داود ، ونحن نسلم الخطأ في مثل هذه الصورة وإنما النزاع فيما إذا حكما بالاجتهاد وليس في الواقعة نص انتهى .

(127/512)

وأكثر الأخبار تساعد أن الذي ظفر بحكم الله تعالى في هذه الواقعة هو سليمان عليه السلام ، وما ذكر لا يخلو مما فيه نظر فانظر وتأمل ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودُ الجبال ﴾ شروع في بيان ما يختص بكل منهما عليهما السلام من كراماته تعالى إثر ذكر الكرامة العامة لهما عليهما السلام ﴿ يُسَبّحْنَ ﴾ يقدسن الله تعالى بلسان القال كما سبح الحصا في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه الناس ، وكان عند الأكثرين يقول : سبحان الله تعالى ، وكان داود عليه السلام وحده يسمعه على ما قاله يحيى بن سلام ، وقيل : يسمعه كل أحد ، وقيل : بصوت يظهر له من جانبها وليس منها وهو خلاف الظاهر وليس فيه من إظهار الكرامة ما في الأول بل إذا كان هذا هو الصدا فليس بشيء أصلاً ؛ ودونه ما قيل إن ذلك بلسان الحال ، وقيل : ﴿ يُسَبّحْنَ ﴾ بمعنى يسرن من السباحة .

وتعقب بمخالفته للظاهر مع أن هذا المعنى لم يذكره أهل اللغة ولا جاء في آية أخرى وأو خبر سير الجبال معه عليه السلام.

وقيل: إسناد التسبيح إليهن مجاز لأنها كانت تسير معه فتحمل من رآها على التسبيح فأسند إليها وهو كما ترى.

وتأول الجبائي.

وعلي بن عيسى جعل التسبيح بمعنى السير بأنه مجاز لأن السير سبب له فلا حاجة إلى القول بأنه من السباحة ومع هذا لا يخفى ما فيه، والجملة في موضع الحال من ﴿ الجبال ﴾ أو استئناف مبين لكيفية التسخير و﴿ مَّعَ ﴾ متعلقة بالتسخير، وقال أبو البقاء: بيسبحن وهو نظير قوله تعالى: ﴿ فَضْلاً يا جبال أَوِّبِى مَعَهُ ﴾ [سبأ: 10] والتقديم للتخصيص ويعلم منه ما في حمل التسبيح على التسبيح بلسان الحال وعلى ما يكون بالصدا ﴿ والطير ﴾ عطف على ﴿ الجبال ﴾ أو مفعول معه، وفي الآثار تصريح بأنها كانت تسبح معه عليه السلام كالجبال.

وقرىء ﴿ والطير ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والطير مسخرات ، وقيل : على العطف على الضمير في ﴿ يُسَبّحْنَ ﴾ ومثله جائز عند الكوفيين ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا فاعلين ﴾ تذييل لما قبله أي من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعاً عندكم .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ أي عمل الدرع وأصله كل ما يلبس ، وأنشد ابن السكيت

.

البس لكل حالة لبوسها . . .

أما نعيمها وإما بوسها

وقيل : هو اسم للسلاح كله درعاً كان أو غيره ، واختاره الطبرسي وأنشد للهذلي يصف رمحاً

: ومعي لبوس للبئيس كأنه . . .

روق بجبهة ذي نعاج مجفل

قال قتادة : كانت الدروع قبل ذلك صفائح فأول من سردها وحلقها داود عليه السلام فجمعت الخفة والتحصين ، ويروى أنه نزل ملكان من السماء فمرا به عليه السلام فقال أحدهما للآخر : نعم الرجل داود إلا أنه يأكل من بيت المال فسأل الله تعالى أن يرزقه من كسبه فألان له الحديد فصنع منه الدرع .

وقرئ ﴿ لَبُوسٍ ﴾ بضم اللام ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة للبوس ، وجوز أبو البقاء تعلقه بعلمنا أو بصنعة .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ متعلق بعلمنا أو بدل اشتمال من ﴿ لَكُمْ ﴾ بإعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام ﴿ لَكُمْ ﴾ والضمير المستتر للبوس ، والتأنيث بتأويل الدرع وهي مؤنث سماعي أو للصنعة .

وقرأ جماعة ﴿ ليحصنكم ﴾ بالياء التحتية على أن الضمير للبوس أو لداود عليه السلام قيل أو التعليم ، وجوز أن يكون لله تعالى على سبيل الالتفات ، وأيد بقراءة أبي بكر عن عاصم ﴿ لنحصنكم ﴾ بالنون ، وكل هذه القراءات بإسكان الحاء والتخفيف .

وقرأ الفقيمي عن أبي عمرو ، وابن أبي حماد عن أبي بكر بالياء التحتية وفتح الحاء وتشديد الصاد ، وابن وثاب .

والأعمش بالتاء الفوقية والتشديد ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مّن بَأْسِكُمْ ﴾ قيل أي من جرب عدوكم ، والمراد مما يقع فيها ، وقيل الكلام على تقدير مضاف أي من آلة بأسكم كالسيف ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ أمر وارد صورة الاستفهام لما فيه من التقريع بالإيماء إلى التقصير في

الشكر والمبالغة بدلالته على أن الشكر مستحق الوقوع بدون أمر فسأل عنه هل وقع ذلك الأمر اللازم الوقوع أم لا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(130/512)

وقال القاسمى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾

أي : الزرع : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أي : رعته ليلاً : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ أي : لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [79] .

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أي : الفتوى أو الحكومة المفهومين من السياق : ﴿ سُلَيْمَانَ ﴾ أي : فكان القضاء فيها قضاءه ، لا قضاء أبيه . روي عن ابن عباس أن غنماً أفسدت زرعاً بالليل ، فقضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع

مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه، فإذا بلغ الزرع الذي كان عليه، ليلة نفشت فيه الغنم، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روي عن ابن مسعود موقوفاً لا مرفوعاً . والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ أي : وكل واحد منهما آتيناه حكمة وعلماً كثيراً ، لا سليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم، من عدم كون حكم داوُد عليه السلام حكماً شرعيّاً .

تنبيهات :

الأول : استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة، كما بيّن في الأصول . وردّ بأن مفهوم قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام، يدل على أنه المصيب للحق عند الله . ولولاه لما

كان لتخصيصه بالفهم معنى . والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه ، دل على أن كلاً منهما مصيب . وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داوُد عليه السلام ، لجواز كون كلٍّ مصيباً . ولكن هذا أرفق وذاك أوفق ، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدل بهذه الآية كلٌّ . فكما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا في " العناية " .

وجاء في " فتح البيان " ما مثاله : لا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما : أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبيّ صلى الله عليه وسلم مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين . وإلا لَزم توقف حكمه عزَّ وجلَّ على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله . وأيضاً يستلزم أن يكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين ، بالحلّ والحرمة ، حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه . وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله . وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا

يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاد في تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانقطاع المجتهدين . واللازم باطل فالملزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق في كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب .

قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الحكام قد هلكوا ، ولكن الله حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاد .

الثاني : دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مسند له . لأن قضاء داود لو كان بوحي لما أوثر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] ، فعاتبه على ما وقع منه . ولو كان ذلك بالوحي لم يعاتبه . ومنه ما صح عنه صلوات الله عليه من قوله : < لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدْي > ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحي ، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة . وأيضاً ، فالاستنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل

واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب .

قال الرازي : إذا غلب على ظن نبيّ أن الحكم في الأصل معلل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك معنى في صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب ، فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معاً ، وهو محال ، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلّو عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس – وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس . وهي قائمة أيضاً في حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

(134/512)

الثالث : قال السيوطي في " الإكليل " : استدل بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثنى عليهما . وقد تقدم أولاً . واستدل

بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفش لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهري وقتادة . ومن عمم الضمان فسره بالرعي مطلقاً . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية , ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان في هذه الواقعة . إذ لم يرد في شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلاً لي . فقال شريحُ : نهاراً أم ليلاً ؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه . وإن كان ليلاً فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة من حديث الليث بن سعد عن الزهري عن حرام بن محيّصة . أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً . فأفسدت فيه . فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسد المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلّل هذا الحديث .

وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضى أتاه الحسن ، فبكى . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصريّ : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ [78] الآية . فأثنى الله على سليمان ، ولم يذمّ داود .

ثم قال يعني الحسن : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلاً . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحداً . ثم تلا : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [صّ : 26] ، وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : 44] ، وقال : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة : 41] .

ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح البخاري عن عَمْرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر > فهذا الحديث يردّ نصّاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار .

وفي السنن : < القضاة ثلاثة : قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار . رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة . ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار > .

ثم بيّن سبحانه ما خص كلاً من داود وسليمان من كراماته ، إثر بيان كرامته العامة لهما ، بقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي : سخرنا الجبال والطير يقدسن الله معه ، بصوت يتمثل له أو يُخْلَقُ فيها . قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه " الزبور " وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه . وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أبي موسى الأشعريّ وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيّب جداً ، فوقف واستمع لقراءته وقال : < لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود > . قال : يا رسول الله ! لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيراً .

قال أبو عثمان الهنديّ : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه . انتهى .

وتقديم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أعجب وأدل القدرة ، وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد . والتذييل بقوله : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ إشارة إلى أنه ليس ببدع في جانب القدرة

الإلهية ، وإن كان عند المخاطبين عجيباً . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة ص : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 17 - 19] .

(137/512)

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ أي : عمل الدروع الملبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفائح ، فحلقها وسردها . أي : جعلها حلقاً وأدخل بعضها في بعض كما قال تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ : 10 - 11] ، أي : لا توسع الحلقة فتقلق المسمار . ولا تغلظ المسمار فتقدّ الحلقة . ولهذا قال : ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ أي : لتحفظكم من جراحات قتالكم : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أي : لنعم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم في المعامع حياتكم . وفي إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة في التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيماء إلى التقصير في الشكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 222.217 ﴾

(138/512)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ ﴾ منصوب ب " اذكر " مقدراً . وقيل : معطوف قوله : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : 76] أي واذكر نوحاً إذ نادى من قبل ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ إِذْ ﴾ بدل من " دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ " بدل اشتمال كما أوضحناه في سورة " مريم " وذكرنا بعض المناقشة فيه ، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول . وذكرنا في هذا الكتاب مسائل كثيرة من ذلك . فإذا علمت ذلك فاعلم أن جماعة من العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحي : إلا أن ما أوحى سليمان كان ناسخاً لما أوحى إلى داود .

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي ، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده ، وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق لاثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوماً ولا ذماً بعدم إصابته . كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ، وأثنى عليهما في قوله : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ فدل قوله ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ على أنهما حكما فيها معاً ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحياً لما ساغ الخلاف . ثم قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهماً إياها كما ترى . فقوله ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ مع قوله ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد ، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك .

والقرينة الثانية هي أن قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ الآية يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع . لا أنه أنزل عليه فيها وحياً جديداً ناسخاً . لأن قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أليق بالأول من الثاني ، كما ترى .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى اعلم أن هذا الذي ذكرنا أن القرينة تدل عليه في هذه الآية من أنهما حكما فيها باجتهاد ، وأن سليمان أصاب في اجتهاده جاءت السنة الصحيحة بوقوع مثله منهما في غير هذه المسألة . فدل ذلك على إمكانه في هذه المسألة ، وقد دلت القرينة القرآنية

على وقوعه ، قال البخاري في صحيحه (باب إذا ادعت المرأة ابناً) حدثنا أبو اليَمَان ، أخبرنا شُعَيْب ، حدثنا أبو الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"كانت امْرَأتان مَعَهما ابْنَاهما ، جاء الذِئب فَذَهب بابن إحداهما ، فقالت لِصَاحِبَتِها : إنما ذَهَب بابْنِك . فقالت الأُخْرَى : إنَّما ذَهَبَ بابْنِك . فتَحَاكَمَتَا إلى دَاوُد عليه السَّلام ، فَقَضَى بِهِ للْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا على سُلَيْمان بن دَاوُد عليهما السَّلام ، فَأَخْبَرَتَاه فقَال : ائْتُوني بالسِّكِين أَشُقُّه بيْنَهُمَا . فَقَالَتِ الصُّغْرَى : لاَ تَفعَل يَرحَمُكَ الله هُو ابْنُهَا . فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى . قَالَ أبو هُرَيرَة : والله إنْ سَمِعْتُ بالسِّكِين قط إلا يومَئذ ، ومَا كُنَّا نَقُولُ إلاَّ الْمُدْيَة "انتهى من صحيح البخاري . وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثني زُهَيْر بن حَرْب ، حدثني شَبَابَة " حدثني وَرْقَاء عن أبِي الزِّناد ، عن الأَعْرَج عن أبي هُرَيرَة ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذِّئب فذهب بابْن احداهما . فَقَالَتْ هَذِهِ لصاحبتها : إنما ذَهَبَ بابْنِك أنتِ . وَقالت الأُخرَى : إنما ذَهَب بابنك ، فتَحَاكَمَتا إلى دَاود فَقَضَى بِهِ لِلْكُبرى . فَخرجتَا عَلى سُلَيْمانَ بن داود عليهما

السلام . فَأخبرتاه فقال : ائتونِي بالسِّكين أشقُّه بينَكما فقالت الصغرى : لاَ يَرْحَمُكَ اللهُ "

انتهى منه فهذا الحديث الصحيح يدل دلالة واضحة على أنهما قضيا معاً بالاجتهاد في شأن الولد المذكور ، وأن سليمان أصاب في ذلك ، إذ لو كان قضاء داود بوحي لما جاز نقضه بحال . وقضاء سليمان واضح أنه ليس بوحي ، لأنه أوهم المرأتين أنه يشقه بالسكين ، ليعرف أمه بالشفقة عليه ، ويعرف الكاذبة برضاها بشقه لتشاركها أمه في المصيبة لعرف الحق بذلك . وهذا شبيه جداً بما دلت عليه الآية حسبما ذكرنا ، وبينا دلالة القرينة القرآنية عليه . ومما يشبه ذلك من قضائهما القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة "سليمان" عليه

السلام من تاريخه ، من طريق الحسن بن سفيان ، عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، وعن سعيد بن بشر ، عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس فذكر قصة مطولة ، ملخصها : أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم ، فامتنعت على كل منهم ، فاتفقوا فيما بينهم عليها . فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها ، قد عودته ذلك منها ، فأمر برجمها فلما كان عشية ذلك اليوم

جلس سليمان، واجتمع معه ولدان مثله. فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فسأل أولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال أسود، فعزله. واستدعى الآخر فسأله عن لونه؟ فقال أحمر. وقال الآخر أغبش. وقال الآخر أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكى ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم انتهى بواسطة نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة.

(142/512)

وكل هذا مما يدل على صحة ما فسرنا به الآية، لدلالة القرينة القرآنية عليه. وممن فسّرها بذلك الحسن البصري رحمه الله كما ذكره البخاري وغيره عنه. قال البخراي رحمه الله في صحيحه (باب متى يستوجب الرجل القضاء): وقال الحسن: أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى ولا يخشوا الناس، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً إلى أن قال وقرأ ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء: 78-79] فحمد سليمان ولم يلم

داود . ولولا ما ذكره الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا ، فإنه أثنى على هذا بعلمه ، وعذر هذا باجتهاده انتهى محل الغرض منه . وبه تعلم أن الحسن رحمه الله يرى أن معنى الآية الكريمة كما ذكرنا ، ويزيد هذا إيضاحاً ما قدمناه في سورة " بني إسرائيل " من الحديث المتفق عليه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة رضي الله عنهما " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر "كما قدمنا إيضاحه .

المسألة الثانية

(143/512)

اعلم أن الاجتهاد في الأحكام في الشرع دلت عليه أدلة من الكتاب والسنة ؟ منها هذا الذي ذكرنا هنا . وقد قدمنا في سورة بني " اسرائيل " طرفاً من ذلك ، ووعدنا بذكره مستوفى في هذه السورة الكريمة ، وسورة " الحشر " وهذا أوان الوفاء بذلك الوعد في هذه السورة الكريمة . وقد علمت مما مر في سورة " بني إسرائيل " أنا ذكرنا طرفاً من الأدلة على الاجتهاد فبينا إجماع العلماء على العمل بنوع الاجتهاد المعروف بالإلحاق بنفي الفارق الذي يسميه الشافعي القياس في معنى الاصل ، وهو تنقيح المناط . وأوضحنا أنه لا ينكره

إلا مكابر ، وبينا الإجماع أيضاً على العمل بنوع الاجتهاد المعروف بتحقيق المناط ، وأنه لا ينكره إلا مكابر ، وذكرنا أمثلة له في الكتاب والسنة ، وذكرنا أحاديث دالة على الاجتهاد ، منها الحديث المتفق عليه المتقدم ومنها حديث معاذ حين بعثه النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، وقد وعدنا بأن نذكر طرقه هنا إلى آخر ما ذكرنا هناك .

اعلم أن جميع روايات هذا الحديث في المسند والسنن ، كلها من طريق شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة عن أناس من أصحاب معاذ ، عن معاذ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الرواية المتصلة الصحيحة التي ذكرنا سابقاً عن ابن قدامة (روضة الناظر) أن عبادة بن نسي رواه عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ ، فهذا الإسناد وإن كان متصلاً ورجاله معروفون بالثقة ، فإني لم أقف على من خرج هذا الحديث من هذه الطريق ، إلا ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين) عن أبي بكر الخطيب بلفظ : وقد قيل ، إن عبادة بن نسي رواه عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ اهـ منه .

ولفظة " قيل " صيغة تمريض كما هو معروف . وإلا ما ذكره ابن كثير في تاريخه ، فإنه لما ذكر فيه حديث معاذ المذكور باللفظ الذي ذكرنا بالإسناد الذي أخرجه به الإمام أحمد قال : وأخرجه أبو داود ، والترمذي من حديث شعبة به . وقال الترمذي : لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل . ثم قال ابن كثير : وقد رواه ابن ماجه من وجه آخر عنه ، إلا أنه من طريق محمد بن سعيد بن حسان وهو المصلوب أحد الكذابين ، عن عبادة بن نسي عن عبد الرحمن عن معاذ به نحوه .

واعلم أن النسخة الموجودع بأيدينا من تاريخ ابن كثير التي هي من الطبعة الأولى سنة 1351 فيها تحريف مطبعي في الكلام الذي ذكرنا . ففيها محمد بن سعد بن سحان ، والصواب محمد بن سعيد لا سعد . وفيها : عن عياذ بن بشر ، والصواب عن عبادة بن نسي .

وما ذكره ابن كثير رحمه الله من إخراج ابن ماجه لحديث معاذ المذكور من طريق محمد بن سعيد المصلوب ، عن عبادة نسي ، عن بعد الرحمن وهو ابن غنم عن معاذ لم أره في سنن ابن ماجه ، والذي في سنن ابن ماجه بالإسناد المذكور من حديث معاذ غير المتن المذكور ،

وهذا لفظه : حدثنا الحسن بن حماد سجادة ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن محمد بن سعيد بن حسان ، عن عبادة بن نسي ، عن عبد الرحمن بن غنم ، حدثنا معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال : "لا تقضين ولا تفصلن إلا بما تعلم ، وإن أشكل عليك أمر فقف حتى تبينه أو تكتب إليّ فيه" اه منه . وما أدري أوهم الحافظ ابن كثير فيما ذكر ؟ أو هو يعتقد أن معنى "تبيينه" في الحديث أي تعلمه باجتهادك في استخراجه من المنصوص ، فيرجع إلى معنى الحديث المذكور وعلى كل حال فالرواية المذكورة من طريق عبادة بن نسي عن ابن غنم عن معاذ فيها كذاب وهو محمد بن سعيد المذكور الذي قتله أبو جعفر المنصور في الزندقة وصلبه . وقال أحمد بن صالح : وضع أربعة آلاف حديث . فإذا علمت بهذا انحصار طرق الحديث المذكور الذي فيه أن معاذاً قال للنبي صلى لاله لعيه وسلم إنه إن لم يجد المسألة في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله لعيه وسلم اجتهد فيها رأيه . وأقره النبي صلى الله لعيه وسلم على ذلك في الطريقتين المذكورتين علمت وجه تضعيف الحديث ممن ضعفه ، وأنه يقول طريق عبادة بن نسي عن ابن غنم لم تسندوها ثابتة من وجه صحيح إليه .

والطرق الأخرى التي في المسند والسنن فيها الحارث بن أخي المغيرة وهو مجهول ، والرواة فيها أيضاً عن معاذ مجاهيل . فمن أين قلتم بصحتها ؟ وقد قدمنا أن ابن كثير رحمه الله قال في مقدمة تفسيره : إن الطريقة المذكورة في المسند والسنن بإسناد جيد . وقلنا : لعله يرى

أن الحرث المذكور ثقة ، وقد وثقه ابن حبان ، وأن أصحاب معاذ لا يعرف فيهم كذاب ولا متهم .

(146/512)

قال مقيده عفا لاله عنه وغفر له : ويؤيد ما ذكرنا عن مراد ابن كثير بجودة الإسناد ما قاله العلامة ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين) ، قال فيه : وقد أقر النَّبي صلى الله عليه وسلم معاذاً على اجتهاد رأيه فيما لم يجد فيه نصاً عن الله ورسوله ، فقال شعبة : حدثني أبو عون عن الحارث بن عمرو ، عن أناس من أصحاب معاذ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال : "كيف تصنع إن عرض لك قضاء " ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : " فإن لم يكن في كتاب الله " ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال " فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم " ؟ قال : أجتهد رأي ، لا آلو . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال : " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله " هذا حديث إن كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك . لأنه يدل على شهرة الحديث . وأن الذي حدث له الحرث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم ، وهذا أبلغ في

الشهرة من أن يكون عن واحد منهم ولو سمي ، كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى ، ولا يعرف في أصحابه منهم ولا كذاب ، ولا مجروح . بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم ، لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك ، كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث ؟ ؟ وقال بعض أئمة الحديث : إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يديك به . قال أبو بكر الخطيب : وقد قيل إن عبادة بن نسي رواه عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ ، وهذا إسناد متصل ، ورجاله معروفون بالثقة على أن أهل العلم قد نقلوه ، واحتجوا به . فوقفنا بذلك على صحته عندهم ، كما وقفنا بذلك على صحة قول رسول الله صلى الله لعيه وسلم : " لا وصية لوارث " وقوله في البحر : " هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته " وقوله : " إذا اختلف المتبايعان في الثمن والسلعة قائمة تحالفا وترادا البيع

"

، وقوله : " الدية على العاقلة " . وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد ولكن لما تلقتها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها . فكذلك

حديث معاذ لما احتجوا به جميعاً غنوا عن طلب الإسناد له انتهى منه . وحديث عمرو بن العاص وأبي هريرة الثابت في الصحيحين شاهد له كما قدمنا ، وله شواهد غير ذلك ستراها إن شاء الله تعالى .

المسألة الثالثة

اعلم أن الاجتهاد الذي دلت عليه نصوص الشرع أنواع متعددة :

(منها) الاجتهاد في تحقيق المناط ، وقد قدمنا كثيراً من أمثلته في " الإسراء " .

(ومنها) الاجتهاد في تنقيح المناط ، ومن أنواعه : السبر ، والتقسيم ، والإلحاق بنفي الفارق .

واعلم أن الاجتهاد بإلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به قسمان :

الأول الإلحاق بنفي الفارق ، وهو قسم من تنقيح المناط كما ذكرناه آنفاً . ويسمى عند الشافعي القياس في معنى الأصل ، وهو بعينه مفهوم الموافقة . ويسمى أيضاً القياس الجلي .

والثاني من نوعي الإلحاق هو القياس المعروف بهذا الاسم في اصطلاح أهل الأصول .

أما القسم الأول الذي هو الإلحاق بنفي الفارق فلا يحتاج فيه إلى وصف جامع بين الأصل والفرع وهو العلة . بل يقال فيه : لم يوجد بين هذا المنطوق به وهذا المسكوت عنه فرق فيه يؤثر في الحكم البتة فهو مثله في الحكم . وأقسامه أربعة : لأن المسكوت عنه إما أن يكون

مساوياً للمنطق به في الحكم ، أو أولى به منه ، وفي كل منهما إما أن يكون نفي الفارق بينهما مقطوعاً به أو مظنوناً . فالمجموع أربعة :

(الأول منها) أن يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به مع القطع بنفي الفارق كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] فالضرب المسكوت عنه أولى بالحكم الذي هو التحريم من التأفيف المنطوق به مع القطع بنفي الفارق ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] فشهادة أربعة عدول المسكوت عنها أولى بالحكم وهو القبول من المنطوق به وهو شهادة العدلين مع القطع بنفي الفارق .

(والثاني منها) أن يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به أيضاً ، إلا أن نفي الفارق بينهما ليس قطعياً بل مظنوناً ظناً قوياً مزاحماً لليقين . ومثاله نهيه صلى الله عليه وسلم عن التضحية بالعوراء . فالتضحية بالعمياء المسكوت عنها أولى بالحكم وهو المنع من التضحية بالعوراء المنطوق بها ، إلا أن نفي الفارق بينهما ليس قطعياً بل مظنوناً ظناً قوياً . لأن علة النهي عن التضحية بالعوراء كونها ناقصة ذاتاً وثمناً وقيمة ، وهذا هو الظاهر . وعليه فالعمياء أنقص منها ذاتاً وقيمة . وهناك احتمال آخر : هو الذي منع من

القطع بنفي الفارق ، وهو احتمال أن تكون علة النهي عن التضحية بالعوراء : أن العور مظنة الهزال .

لأن العوراء ناقصة البصر ، وناقصة البصر تكون ناقصة الرعي لأنها لا ترى إلا ما يقابل عيناً واحدة ، ونقص الرعي مظنة للهزال . وعلى هذا الوجه فالعمياء ليست كالعوراء . لأن العمياء يختار لها أحسن العلف . فيكون ذلك مظنة لسمنها .

(والثالث منها) أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق به في الحكم مع القطع بنفي الفارق . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً ﴾ [النساء : 10] الآية . فإحراق أموال اليتامى وإغراقها المسكوت عنه مساو للأكل المنطوق به في الحكم الذي هو التحريم والوعيد بعذاب النار مع القطع بنفي الفارق .

(والرابع منها) أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق به في الحكم أيضاً : إلا أن نفي الفارق بينهما مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين ، ومثاله الحديث الصحيح " من أعتق شركاً له في عبد . . . " الحديث المتقدم في " الإسراء والكهف " فإن المسكوت عنه وهو عتق بعض الأمة مساو للمنطوق به وهو عتق بعض العبد في الحكم الذي هو سراية العتق المبينة

في الحديث المتقدم مرارا ً . إلا أن نفي الفارق بينهما مظنون ظنا ً قويا ً ، لأن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى العتق وصفان طرديان لا يناط بهما حكم من أحكام العتق . كما قدمناه مستوفى في سورة " مريم " وهناك احتمال آخر هو الذي منع من القطع بنفي الفارق ، وهو احتمال أن يكون الشارع نص على سراية العتق في خصوص العبد الذكر ، مخصصا ً له بذلك الحكم دون الأنثى . لأن عتق الذكر تترتب عليه من الآثار الشرعية ما لا يترتب على عتق الأنثى ، كالجهاد والإمامة والقضاء . ونحو ذلك من المناصب المختصة بالذكور دون الإناث . وقد أكثرنا من أمثلة هذا النوع الذي هو الإلحاق بنفي الفارق في سورة " بني إسرائيل " .

(وأما النوع الثاني من أنواع الإلحاق) فهو القياس المعروف في الأصول ، وهو المعروف بقياس التمثيل . وسنعرفه هنا لغة واصطلاحا ، ونذكر أقسامه ، وما ذكره بعض أهل العلم من أمثلته في القرآن :

اعلم أن القياس في اللغة : التقدير والتسوية . يقال : قاس الثوب بالذراع ، وقاس الجرح بالميل (بالكسر) وهو المرود : إذا قدر عمقه به : ولهذا سمي الميل مقياسا ً ، ومن هذا المعنى قول البعيث بن بشر يصف جراحة أو شجة :

إذا قاسها الآسي النطاسي أدبرت . . . غشيتها وازداد وهيا هزومها

فقوله " قاسها " يعني قدر عمقها بالميل. والآسي: الطبيب، والنطاسي (بكسر النون وفتحها) : الماهر بالطب: والغثيثة (بثائين مثلثتين) : مدة الجرح وقيحه، وما فيه من لحم ميت. والوهي: التخرق والتشقق. والهزوم: غمز الشيء باليد فيصير فيه حفرة كما يقع في الورم الشديد.

وتعريف القياس المذكور في اصطلاح أهل الأصول كثرت فيه عبارات الأصوليين، مع مناقشات معروفة في تعريفاتهم له. واختار غير واحد منهم تعريفه بأنه: حمل معلوم على معلوم. أي إلحاقه به في حكمه لمساواته له في علة الحكم.

وهذا التعريف إنما يشمل القياس الصحيح دون الفاسد. والتعريف الشامل للفاسد: هو أن تزيد على تعريف الصحيح لفظة عند الحامل. فتقول: هو إلحاق معلوم في حكمه لمساواته له في علة الحكم عند الحامل، فيدخل الفاسد في الحد مع الصحيح، كما أشار إليه صاحب مراقي السعود بقوله معرفاً للقياس:

بحمل معلوم على ما قد علم . . . للاستوا في علة الحكم وسم

وإن ترد شموله لما فسد . . . فزد لدى الحامل والزيد أسد

ومعلوم أن أركان القياس المذكور أربعة: وهي الأصل المقيس عليه، والفرع المقيس، والعلة الجامعة بينهما، وحكم الأصل المقيس عليه.

فلو قسنا النَّبيذ على الخمر فالأصل الخمر ، والفرع النَّبيذ ، والعلة الإسكار ، وحكم الأصل الذي هو الخمر التحريم . وشروط هذه الأركان الأربعة ، والبحث فيها مستوفى في أصول الفقه ، فلا نطيل به الكلام هنا .

واعلم أن القياس المذكور ينقسم بالنظر إلى الجامع بين الفرع والأصل إلى ثلاثة أقسام :

الأول قياس العلة .

والثاني قياس الدلالة .

والثالث قياس الشبه .

أما قياس العلة فضابطه : أن يكون الجمع بين الفرع والأصل بنفس علة الحكم ، فالجمع بين النَّبيذ والخمر بنفس العلة التي هي الإسكار . والقصد مطلق التمثيل ، لأنا قد قدمنا أن قياس النَّبيذ على الخمر لا يصح ، لوجود النص على أن "كل مسكر خمر ، وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام" . والقياس لا يصح مع التنصيص على أن حكم الفرع المذكور كحكم الأصل ، إلا أن المثال يصح بالتقدير والفرض ومطلق الاحتمال كما تقدم . وكالجمع بين البر والذرة بنفس العلة التي هي الكيل مثلاً عند من يقول بذلك ، وإلى هذا أشار في المراقي

بقوله :

وما بذات علة قد جمعا . . . فيه فقيس علة قد سمعا

وأما قياس الدلالة فضابطه : أن يكون الجمع فيه بدليل العلة لا بنفس العلة ، كأن يجمع بين الفرع والأصل بملزوم العلة أو أثرها أو حكمها . فمثال الجمع بملزوم العلة أن يقال : النَّبيذ حرام كالخمر بجامع الشد المطربة ، وهي ملزوم للإسكار ، بمعنى أنها يلزم من وجودها الإسكار . ومثال الجمع بأثر العلة أن يقال : القتلى بالمثقل يوجب القصاص كالقتل بمحدد بجامع الإثم ، وهو أثر العلة وهي للقتل العمد العدوان . ومثال الجمع بحكم العلة أن يقال : تقطع الجماعة بالواحد كما يقتلون به ، بجامع وجوب الدية عليهم في ذلك حيث كان غير عمد ، وهو حكم العلة التي هي القطع منهم في الصورة الأولى ، والقتل منهم في الثانية . وإلى تعريف قياس الدلالة المذكور أشار في مراقي السعود بقوله :

جامع ذي الدلالة الذي لزم . . . فأثر فحكمها كما رسم

وقوله : " الذي لزم " بالبناء للفاعل يعني اللازم ، وتعبيره هنا باللازم تبعاً لغيره غلط منه رحمه الله ، وممن تبعه هو لأن وجود اللازم لا يكون دليلاً على وجود الملزوم بإطباق العقلاء .

لاحتمال كون اللازم أعم من الملزوم ، ووجود الأعم لا يقتضي وجود الأ×ص كما هو معروف . ولذا أجمع النظار على استثناء عين التالي في الشرطي المتصل لا ينتج عين المقدم . لأن وجود اللازم لا يقتضي وجود الملزوم . والصواب ما مثلنا به من الجمع بملزوم العلة ، لأن الملزوم هو الذي يقتضي وجوده وجود اللام كما هو معروف . فالشدة المطربة والإسكار متلازمان ، ودلالة الشدة المطربة على الإسكار إنما هي من حيث إنها ملزوم له لا لازم ، لما عرفت من أن وجود اللازم لا يقتضي وجود الملزم . واقتضاؤه له هنا إنما هو للملازمة بين الطرفين . لأن كلا منهما لازم للآخر وملزوم له للملازمة بينهما من الطرفين .

وأما قياس الشبه فقد اختلفت فيه عبارات أهل الأصول . فعرف بعضهم الشبه بأنه منزلة بين المناسب والطرد . وعرفه بعضهم بأنه المناسب بالتبع لا بالذات . ومعنى هذا كمعنى تعريف من عرفه بأنه المستلزم للمناسب .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : عبارات أهل الأصول في الشبه الذي هو المسلك السادس من مسالك العلة عند المالكية والشافعية ، كلها تدور حول شيء واحد ، وهو

أن الوصف الجامع في قياس الشبه يشبه المناسب من وجهه ، ويشبه الوصف الطردي من جهة أخرى . وقد قدمنا في سورة " مريم " أن المناسب هو الوصف الذي تتضمن إناطة الحكم به مصلحة من جلب نفع أو دفع ضر ، والطردي هو ما ليس كذلك ، إما في جميع الأحكام وإما في بعضها : ولا خلاف بين أهل الأصول في أن ما يسمى بغلبة الأشباه لا يخرج عن قياس الشبه . لأن بعضهم يقول إنه داخل فيه ، وهو الظاهر . وبعضهم يقول هو بيعنه لا شيء آخر . وغلبة الأشبه هي إلحاق فرع متردد بين أصلين بأكثرهما شبهاً به . كالعبد فإنه متردد بين أصلين لشبهه بكل واحد منهما . فهو يشبه المال لكونه يباع ويشترى ويوهب ويورث إلى غير ذلك من أحوال المال . ويشبه الحر من حيث إنه إنسان ينكح ويطلق ويثاب ويعاقب ، وتلزمه أوامر الشرع ونواهيه . وأكثر أهل العلم يقولون : إن شبهه بالمال أكثر من شبهه بالحر . لأنه يشبه المال في الحكم والصفة معاً أكثر مما يشبه الحر فيهما .

فمن شبهه بالمال في الحكم كونه يباع ويشترى ويورث ، ويوهب ويعار ، ويدفع في الصداق والخلع ، ويرهن إلى غير ذلك من التصرفات المالية .

ومن شبهه بالمال في الصفة كونه تتفاوت قيمته بحسب تفاوت أوصافه جودة ورداءة .

كسائر الأموال . فلو قتل إنسان عبداً لآخر لزمته قيمته نظراً إلى أن شبهه بالمال أغلب .

وقال بعض أهل العلم : تلزمه ديته كالحر زعماً منه أن شبهه بالحر أغلب ، فإن قيل : بأي طريق يكون هذا النوع الذي هو غلبة الأشباه من الشبه .

لأنكم قررتم أنه مرتبة بين المناسب والطردي ، فما وجه كونه مرتبة بين المناسب والطردي ؟ فالجواب : أن إيضاح ذلك فيه أن أوصافه المشابهة للمال ككونه يباع ويشترى إلخ طردية بالنسبة إلى لزوم الدية ، لأن كونه كالمال ليس صالحاً لأن يناط به لزوم ديته إذا قتل ، وكذلك أوصافه المشابهة للحر ككونه مخاطباً يثاب ويعاقب إلخ . فهي طردية بالنسبة إلى لزوم القيمة : لأن كونه كالحر ليس صالحاً لأن يناط به لزوم القيمة ، فهو من هذه الحيثية يشبه الطردي كما ترى . أما ترتب القيمة على أوصافه المشابهة لأوصاف المال فهو مناسب كما ترى . وكذلك ترتب الدية على أوصافه المشابهة لأوصاف الحر مناسب ، وبهذين الاعتبارين يتضح كونه مرتبة بين المناسب والطردي .

ومن أمثلة أنواع الشبه غير غلبة الأشباه الشبه الذي الوصف الجامع فيه لا يناسب لذاته ، ولكنه يستلزم المناسب لذاته ، وقد شهد الشرع بتأثير جنسه القريب في جنس الحكم القريب . كقولك في الخل مائع لا تبنى القنطرة على جنسه ، فلا يرفع به الحدث ، ولا حكم الخبث قياساً على الدهن . فقولك "لا تبنى القنطرة على جنسه" ليس مناسباً في ذاته . لأن بناء القنطرة على المائع في حد ذاته وصف طردي إلا أنه مستلزم للمناسب : لأن العادة

المطردة أن القنطرة لا تبنى على المائع القليل ، بل على الكثير كالأنهار ، والقلة مناسبة ، لعدم مشروعية المتصف بها من المائعات للطهارة العامة . فإن الشرع العام يقتضي أن تكون أسبابه عامة الوجود . أما تكليف الجميع بما لا يجده إلا البعض فبعيد من القواعد . فصار قولك " لا تبنى القنطرة على جنسه " ليس بمناسب ، وهو مستلزم للمناسب . وقد شهد الشرع بتأثير جنس القلة والتعذر في عدم مشروعية الطهارة ، بدليل أن الماء إذا قل واشتدت إليه الحاجة فإنه يسقط الأمر بالطهارة به وينتقل إلى التيمم .

(155/512)

وأما الشبه الصوري فقد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة " النحل " في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : 66] وقد قدمنا في أول سورة " براءة " كلام ابن العربي الذي قال فيه : ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجؤوا إلى قياس النسبة عند عدم النص ، ورأوا أن قصة " براءة " شبيهة بقصة " الأنفال " فألحقوها بها ، فإذا كان القياس يدخل في تأليف القرآن : فما ظنك بسائر الأحكام ؟ وإلى الشبه المذكور أشار في مراقي السعود بقوله :

والشبه المستلزم المناسبا . . . مثل الوضو يستلزم التقربا

مع اعتبار جنسه القريب . . . في مثله للحكم لا للغريب

صلاحه لم يدر دون الشرع . . . ولم ينط مناسب بالسمع

وحيثما أمكن قيس العلة . . . فتركه بالاتفاق أثبت

إلا ففي قبوله تردد . . . غلبة الأشباه هو الأجود

في الحكم والصفة ثم الحكم . . . فصفة فقط لدى ذي العلم

وابن علية يسرى للصوري . . . كالقيس للخيل على الحمير

واعلم أن قياس الطرد يصدق بأمرين . لأن الطرد يطلق إطلاقين : يطلق على الوصف الطردي الذي لا يصلح لإناطة حكم به لخلوه من الفائدة . كما لو ظن بعض القائلين بنقض الوضوء بلحم الجزور : أن علة النقض به الحرارة فألحق به لحم الظبي قائلاً : إنه ينقض الوضوء قياساً على لحم الجزور بجامع الحرارة . فهذا القياس باطل . لأنه الوصف الجامع فيه طردي . ومثله كل ما كان الوصف الجامع فيه طردنا وهو أحد الأمرين للذين يطلق عليهما قياس الطرد .

والأمر الثاني منهما هو القياس الذي الوصف الجامع فيه مستنبطاً بالمسلك الثامن المعروف (بالطرد) وهو الدوران الوجودي ، وإيضاحه . أنه مقارنة الحكم للوصف في جميع صورة

غير الصورة التي فيها النزاع في الوجود فقط دون العدم. والاختلاف في إفادته العلة معروف في الأصول.

(156/512)

واعلم أن القياس وما يتعلق به موضح في فن أصول الفقه والأدلة التي تدل على أن الوصف المعين علة للحكم المعين هي المعروفة بمسالك العلة، وهي عشرة عند من يعد منها إلغاء الفارق، وتسعة عند من لا يعده منها، وهي: النص، والإجماع، والإيماء، والسبر والتقسيم، والمناسبة، والشبه، والدوران، والطرد، وتنقيح المناط، وإلغاء الفارق، والتحقيق أنه نوع من تنقيح المناط كما قدمنا. وقد نظمها بعضهم بقوله:

مسالك علة رتب فنص... فإجماع فإيماء فسبر

مناسبة كذا مشبه فيتلو... له الدوران طرد يستمر

فتنقيح المناط فألغ فرقاً... وتلك لمن أراد الحصر عشر

ومحل إيضاحها فن أصول الفقه، وقد أوضحناها في غير هذا المحل. وأما القوادح في الدليل من قياس وغيره، فهي معروفة في فن الأصول وقد نظمها باختصار الشيخ عمر الفاسي بقوله:

القدح بالنقض وبالكسر معاً . . . نخلف العكس وبالقلب اسمعا

وعدم التأثير بالوصف وفي . . . أصل وفرع ثم حكم فاقتفي

والمنع والفرق وبالتقسيم . . . وباختلاف الضابط المعلوم

وفقد الانضباط والظهور . . . والخدش في تناسب المذكور

وكون ذاك الحكم لا يفضي إلى . . . مقصود ذي الشرع العزيز فاقبلا

والخدش في الوضع والاعتبار . . . والقول بالموجب ذو اعتبار

وابدأ باستفسار في الإجمال . . . أو الغرابة بلا إشكال

وإنما لم نوضح هنا المسالك والقوادح. لأن ذلك يفضي إلى الإطالة المملة، مع أن الجميع موضح في أصول الفقه، وقد أوضحناه في غير هذا الموضع، وقصدنا هنا التنبيه عليه في الجملة من غير تفصيل. فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى شفى الغليل بما لا مزيد عليه في هذه المسائل في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً وافية مفيدة من كلامه في هذا الموضوع الذي نحن بصدده.

قال رحمه الله في كلامه على قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته المشهورة إلى أبي موسى : (ثم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس بين الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق) ما نصه :

(158/512)

هذا أحد ما اعتمد عليه القياسيون في الشريعة ، قالوا هذا كتاب عمر إلى أبي موسى ولم ينكره أحد من الصحابة ، بل كانوا متفقين على القول بالقياس وهو أحد أصول الشريعة ، ولا يستغنى عنه فقيه . وقد أرشد الله تعالى عباده إليه في غير موضع من كتابه ، فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان ، وجعل النشأة الأولى أصلاً ، والثانية فرعا عليها ، وقاس حياة الأموات على حياة الأرض بعد موتها بالنبات ، وقاس الخلق الجديد الذي أنكره أعداؤه على خلق السموات والأرض ، وجعله من قياس الأولى ، كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأولى ، وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم . وضرب الأمثال وصرفها في الأنواع المختلفة ، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله ، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل

به . وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلاً تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاس وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] بالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل ، وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما ، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما قالوا : ومدار الاستدلال جمعية على التسوية بين المتماثلين ، والفرق بين المختلفين : فإنه إما استدلال بمعين على معين ، أو بمعين على عام ، أو بعام على معين ، أو بعام على عام . فهذه الأربعة هي مجامع ضروب الاستدلال . فالاستدلال بالمعين على المعين هو الاستدلال بالملزوم على لازمه ، بكل ملزوم دليل على لازمه ، فإن كان التلازم من الجانبين كان كل منهما دليلاً على الآخر ومدلولاً له . وهذا النوع ثلاثة أقسام : أحدها الاستدلال بالمؤثر على الأثر ، والثاني الاستدلال بالأثر على المؤثر . والثالث الاستدلال بأحد الأثرين

على الآخر . فالأول كالاستدلال بالنار على الحريق . والثاني كالاستدلال بالحريق على النار . والثالث كالاستدلال بالحريق على الدخان . ومدار ذلك كله على التلازم : ولتسوية

بين المماثلين هو الاستدلال بثبوت أحد الأثرين على الآخر وقياس الفرق هو استدلال بانتفاء أحد الأثرين على انتفاء الآخر، أو بانتفاء اللازم على انتفاء ملزومه: فلو جاز التفريق بين المتماثلين لانسدت طريق الاستدلال، وغلقت أبوابه.

قالوا: وأما الاستدلال بالمعين على العام فلا يتم إلا بالتسوية بين المتماثلين، إذ لو جاز الفرق لما كان هذا المعين دليلاً على الأمر العام المشترك بين الأفراد.

ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمره، على أن هذا الحكم عام شامل على من سكل سبيلهم، واتصف بصفتهم، وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال تعالى عقب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم وما حل بهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزبر ﴾ [القمر: 43] فهذا محض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية. ولا تمت الحجة. ومثل هذا قوله تعالى عقيب إخباره عن عقوبة قوم هود حين رأوا العارض في السماء: ﴿ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: 24] فقال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا

استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ﴾ [الأحقاف : 24-25] ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وجعلنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِه مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : 26] فتأمل قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ تجد المعنى : أن حكمكم كحكمهم ، وأنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسولنا ولم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش . فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين . وأن هذا محض عدل الله بين عباده .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : 10] فأخبر أن حكم الشيء

(161/512)

حكم مثله . وكذلك كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب ، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار ، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب ، فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار باعتبار بما حل بالمكذبين ، ولولا أن حكم النظير حكم نظيره حتى

تعبر العقول منه إليه لما حصل الاعتبار، وقد نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: 35-36] وأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول، لا تليق نسبته إليه سبحانه. وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَنَّ نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 12]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص: 28] أفلا تراه كيف ذكر العقول، ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بني الشيء ومخالفه في الحكم. وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه، وجعله قرينه ووزيره. فقال تعالى:

(162/512)

﴿ الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى: 17]، وقال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد: 25]، وقال تعالى: ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن ﴾ [الرحمن: 1-2] فهذا الكتاب ثم قال: ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن: 7] والميزان يراد به العدل، والآلة التي يعرف

بها العدل وما يضاده. والقياس الصحيح هو الميزان، فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به. فإنه يدل على العدل، وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان. بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل، وممدوح ومذموم، ولهذا لم يجئ في القرآن مدحه ولا ذمه، ولا الأمر به ولا النهي عنه، فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد. فالصحيح هو الميزان الذي أنزله الله مع كتابه، والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع على الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية، وقاس الذين قاسوا الميتة على المذكى في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح، هذا بسبب من الآدميين، وهذا بفعل الله. ولهذا تجد في كلام السلف ذم القياس، وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به، وهذا حق وهذا حق. كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

والأقيسة في الاستدلال ثلاثة: قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه، وقد وردت كلها في القرآن.

فأما قياس العلة فقد جاء في كتاب الله عز وجل في مواضع . منها قوله تعالى ، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين ، بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات ، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه ، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ، ووجود حواء من غير أم . فآدم وعيسى نظيران يجمعهما الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ [آل عمران : 137] أي قد كان من قبلكم أمم أمثالكم ، فانظروا إلى عواقبهم السيئة ، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله ، وهم الأصل وأنتم الفرع ، والعلة الجامعة التكذيب ، والحكم الهلاك .

ومنها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 6] فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون ، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس وهو ذنوبهم ، فهم الأصل ونحن الفرع ، والذنوب العلة الجامعة ، والحكم الهلاك . فهذا محض قياس العلة ، وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى ، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ [التوبة : 69] وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به ، فقيل : هو رفع خبر مبتدأ محذوف ، أي أنتم كالذين من قبلكم . وقيل نصب بفعل محذوف تقديره : فعلتم كفعل الذين من قبلكم . والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل ، وقيل التشبيه في العذاب . ثم قيل : العامل محذوف . أي لعنهم وعذبهم كما لعن ابن من قبلهم . وقيل بل العامل ما تقدم . أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم ، ولعنهم كلعنهم ، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم .

والمقصود أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد ، وسوى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال ، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر ، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر ، وألغى الوصف الفارق ، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ

وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ﴾ فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع ، وقوله : ﴿ أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ هو الحكم ، والذين من قبلهم الأصل ، والمخاطبون الفرع .

قال عبد الرزاق في تفسيره : أنا معمر عن الحسن في قوله ﴿ فاستمتعوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ قال بدينهم . ويروى عن أبي هريرة .

(165/512)

وقال ابن عباس : استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا . وقال آخرون : بنصيبهم من الدنيا . وحقيقة الأمر : أن الخلاق هو النصيب والحظ ، كأنه الذي خلق للإنسان وقدر له ، كما يقال : قسمه الذي قسم له ، ونصيبه الذي نصب له أي أثبت . وقطه الذي قط له أي قطع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة : 200] وقول النّبي صلى الله عليه وسلم " إنَّما يَلْبَسُ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا من لا خَلَاقَ لَهُ في الآخِرَةَ " والآية تتناول ما ذكره السلف كله ، فإنه سبحانه قال : ﴿ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [الروم : 9] فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة ، وكذلك الأموال والأولاد ، وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخلاق ، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم في الدنيا ، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به . ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة

لكان لهم خلاق في الآخرة، فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجل، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها . ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ [التوبة : 69] فدل هذا على أن حكمهم حكمهم، وأنهم ينالهم ما ينالهم، لأن حكم النظير حكم نظيره. ثم قال : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69]. فقيل "الذي" صفة لمصدر محذوف، أي كالمخوض الذي خاضوا وقيل : لموصوف محذوف.

أي كخوض القوم الذي خاضوا وهو فاعل الخوض.

(166/512)

وقيل : "الذي" مصدرية ك "ما" أي كخوضهم. وقيل : هي موضع الذين. والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل. لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد بالباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع بالعمل، بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع. والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل وعصى الرب، ودخلت النار وحلت العقوبات.

فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون :

احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى فتنة هواه ، وصابح دنيا أعجبته دنياه ! وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعملون الحق ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .

وفي صفة الإمام رحمه الله عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ! أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها . وهذه حال أئمة المتقين ، الذين وصفهم الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] فبالصبر تترك الشهوات ، وباليقين تدفع الشبهات ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالحق وَتَوَاصَوْا بالصبر ﴾ [العصر : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ واذكر عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : 45] .

(167/512)

وفي بعض المراسيل : " إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات . فقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ ﴾ [التوبة : 69] إشارة إلى اتباع الشهوات ، وهوداء العصاة . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ﴾ [

التوبة : 69] إشارة إلى الشبهات ، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات ، وكثيراً ما يجتمعان . فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله . والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم ، ويخوض كخوضهم ، وأن لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم ، ثم حضهم على القياس والاعتبار بمن قبلهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ والمؤتفكات أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : 70] فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لما علق عليه من الحكم ، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي علق به العقاب وأكده كما تقدم بضرب من الأولى وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد ، فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغني ذُو الرحمة إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 133] . فهذا قياس جلي ، يقول سبحانه : إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم ، كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم ، بذكر أركان القياس الأربعة : علة الحكم وهي عموم مشيئته وكمالها ، والحكم وهو إذهابه إياهم وإتيانه بغيرهم ، والأصل وهو ما كان من قبل والفرع وهم المخاطبون ، ومنه قوله تعالى :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ [يونس : 39] فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به ، والفرع نفوسهم . فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فعصى فِرْعَوْنُ الرسول فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ [المزمل : 15-16] فأخبر سبحانه أنه أرسل موسى إلى فرعون ، وأن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذاً وبيلا . فهكذا من عصى منكم محمداً صلى الله عليه وسلم . وهذا في القرآن كثير جداً فقد فتح لك بابه .

فصل

وأما قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع ، بدليل العلة وملزومها ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : 39] فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه ، على الإحياء الذي استبعدوه ، وذلك قياس إحياء على إحياء ، واعتبار الشيء فنظيره ، والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته ، وإحياء الأرض دليل العلة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وكذلك تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 19] .

فدل بالنظير على النظير ، وقرب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج ، أي يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 36-40] فبين سبحانه كيفية الخلق واختلاف أحوال الماء في الرحم إلى أن صار منه الزوجان الذكر والأنثى ، وذلك أمارة وجود صانع قادر على ما شاء ، ونبه سبحانه عباده بما أحدثه في النطفة المهينة الحقيرة من الأطوار ، وسوقها في مراتب الكمال ، من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها ، حتى صارت بشراً سوياً في أحسن خلقة وتقويم ، على أنه لا يحسن به أن يترك هذا البشر سدى مهملاً معطلاً . لا يأمره ولا ينهاه ، ولا يقيمه في عبوديته ، وقد ساقه في مراتب الكمال من حين كان نطفة إلى أن صار بشراً سوياً ، فكذلك يسوقه في مراتب كماله طبقاً بعد طبق ، وحالاً بعد حال ، إلى أن يصير جاره في داره يتمتع بأنواع النعيم ، وينظر إلى وجهه ، ويسمع كلامه إلى آخر كلام ابن القيم رحمه الله تعالى ، فإنه أطال في ذكر الأمثلة على النحو المذكور ، ولم نذكر جميع كلامه خوفاً من الإطالة المملة ، وفيما

ذكرنا من كلامه تنبيه على ما لم نذكره ، وقد تكلم على قياس الشبه فقال فيه :

وأما قياس الشبه فلم يحكه الله سبحانه إلا عن المبطلين .

(170/512)

فمنه قوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم . ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] فلم يجمعوا بين الفرع والأصل بعلة ولا دليلها ، وإنما ألحقوا بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف ، فقالوا هذا مقيس على أخيه بينهما شبه من وجوه عديدة ، وذلك قد سرق فكذلك هذا ، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي ، وهو قياس فاسد ، والتساوي في قرابة الإخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كان حقاً ولا دليل على التساوي فيها فيكون الجمع لنوع شبه خال من العلة ودليلها .

(171/512)

ثم ذكر رحمه الله لقياس الشبه الفاسد أمثلة أخرى في الآيات الدالة على أن الكفار كذبوا الرسل بقياس الشبه حيث شبهوهم بالبشر ، وزعموا أ ، ذلك الشبه مانع من رسالتهم. كقوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود : 27] ، وقوله تعالى عنهم : ﴿ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ﴾ [المؤمنون : 33] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. فالمشابهة بين الرسل وغيرهم في كون الجميع بشراً لا تقتضي المساواة بينهم في انتفاء الرسالة عنهم جميعاً ، ولما قالوا للرسل ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : 15] أجابوهم بقولهم : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : 11]. وقياس الكفار الرسل على سائر البشر في عدم الرسالة قياس ظاهر البطلان. لأن الواقع من التخصيص والتفضيل ، وجعل بعض البشر شريفاً وبعضه دنيا وبعضه مرؤوساً وبعضه رئيساً وبعضه ملكاً. وبعضه سوقاً يبطل هذا القياس. كما أشار إليه جواب الرسل المذكور آنفاً ، يشير إليه قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : 32] وهذه الأمثلة من قياس الشبه ليس فيها وصف مناسب بالذات ولا بالتبع. فلذلك كانت باطلة.

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله : أن جميع الأمثال في القرآن كلها قياسات شبه صحيحة. لأن

حقيقة المثل تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر . ثم سرد الأمثال القرآنية ذلك فيها واحداً واحداً ، وأطال الكلام في ذلك فأجاد وأفاد .

وقال في آخر كلامه : قالوا فهذا بعض ما اشتمل عليه القرآن من التمثيل والقياس ، والجمع والفرق ، واعتبار العلل والمعاني وارتباطها بأحكامها تأثيراً واستدلالاً . قالوا : وقد ضرب الله سبحانه الامثال ، وصرفها قدراً وشرعاً ، ويقظة ومناماً ، ودل عباده على الاعتبار بذلك . وعبورهم من الشيء إلى نظيره ، واستدلالهم بالنظير على النظير . بل هذا أصل عبارة الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة ، ونوع من أنواع الوحي . فإنها مبنية على القياس والتمثيل ، واعتبار المعقول بالمحسوس .

ألا ترى أن الثياب في التأويل كالقمص تدل على الدين ! فما كان فيها من طول أو قصر ، أو نظافة أو دنس فهو في الدين . كما أول النَّبي صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم ، والقدر المشترك بينهما أن كلا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس .

ومن هذا التأويل اللبن بالفطرة لما في كل منهما من التغذية الموجبة للحياة وكمال النشأة ، وأن

الطفل إذا خلى وفطرته لم يعدل عن اللبن. فهو مفطور على إيثاره على ما سواه، وكذلك فطرة الإسلام التي فطر الله عليها الناس.

ومن هذا تأويل البقر بأهل الدين والخير الذين بهم عمارة الأرض، كما أن البقر كذلك، مع عدم شرها وكثرة خيرها، وحاجة الأرض وأهلها إليها. ولهذا لما رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم بقراً تنحر كان ذلك نحراً في أصحابه.

ومن ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل. لأن العامل زارع للخير والشر، ولا بد أن يخرج له ما بذره كما يخرج للباذر زرع ما بذره، فالدنيا مزرعة، والأعمال البذر، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده.

(173/512)

ومن ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين، والجامع بينهما أن المنافق لا روح فيه ولا ظل ولا ثمر، فهو بمنزلة الخشب الذي هو كذلك. ولهذا شبه تعالى المنافقين بالخشب المسندة. لأنهم أجسام خالية عن الإيمان والخير. وفي كونها مسندة نكتة أخرى: وهي أن الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به جعل مسنداً بعضه إلى بعض. فشبه المنافقين بالخشب في الحالة التي لا

ينتفع فيها بها إلى آخر كلامه رحمه الله . وقد ذكر أشياء كثيرة من عبارة الرؤيا فأجاد وأفاد رحمه الله ، وكلها راجعة إلى اعتبار النظير بنظيره ، وذلك كله يدل دلالة واضحة على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل .

(174/512)

ثم قال ابن القيم رحمه الله : فهذا شرع الله وقدره ووحيه ، وثوابه وعقابه ، كله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظير بالنظير ، واعتبار المثل بالمثل : ولهذا يذكر الشارع العلل والأوصاف المؤثرة . والمعاني المعتبرة في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية . ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت ، واقتضائها لأحكامها ، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها ويوجب تخلف آثارها عنها ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الحشر : 4] ، ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ [غافر : 12] ، ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم آيَاتِ اللهِ هُزُواً ﴾ [الجاثية : 35] ، ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرضِ بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر : 75] ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : 28] ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ﴾ [محمد : 26] ، ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ

الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ [فصلت : 23] .

وقد جاء التعليل في الكتاب العزيز بالباء تارة ، وباللام تارة ، وب " أَن " تارة وبمجموعهما تارة ، وب "كَيْ " تارة و" مِنْ أَجْلِ " تارة ، وترتيب الجزاء على الشرط تارة ! وبالفاء المؤذنة بالسببية تارة ، وترتيب الحكم على الوصف المقتضي له تارة ، وب " لما " تارة ، وب " أن " المشددة تارة وب " لَعل " ، وبالمفعول له تارة .

(175/512)

فالأول كما تقدم . واللام كقوله : ﴿ ذلك لتعلموا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأَرض ﴾ [المائدة : 97] ، وأن كقوله : ﴿ أَن تقولوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام : 156] . ثم قيل : التقدير لئلا تقولوا ، وقيل كراهة أن تقولوا . وأن اللام كقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] وغالب ما يكون هذا النوع في النفي فتأمله . وكي كقوله : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً ﴾ [الحشر : 7] والشرط والجزاء كقوله : ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 120] ، والفاء كقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الشعراء : 139] ، ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة : 10] ،

﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ [المزمل : 16] ، وترتيب الحكم على الوصف كقوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ ﴾ [المائدة : 16] ، وقوله : ﴿ يَرْفَعِ الله الذين آمَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : 11] ، وقوله : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ﴾ [الأعراف : 170] ، ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [يوسف : 56] ، ﴿ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين ﴾ [يوسف : 52] ، ولما كقوله : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 55] . ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف : 166] . وإن المشددة كقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : 77] ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء : 74] . ولعل كقوله : ﴿

(176/512)

لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 73] ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] والمفعول له كقوله : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ [الليل : 19-21] أي لم يفعل ذلك جزاء نعمة أحد من الناس : وإنما فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى . ومن أجل كقوله : ﴿ مِنْ

أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيل ﴾ [المائدة : 32] .

وقد ذكر النَّبي صلى الله عليه وسلم علل الأحكام والأوصاف المؤثرة فيها ليدل على ارتباطها بها : وتعديها بتعدي أوصافها وعللها كقوله في نبيذ التمر " تمرة طيبة . وماء طهور " وقوله " إنما جعل الاستئذان من أجل البصر " وقوله : " إنما نهيتكم من أجل الدافة " وقوله في الهرة " ليست بنجش إنها من الطوافين عليكم والطوافات " ، ونهيه عن تغطية رأس المحرم الذي وقصته ناقته وتقريبه الطيب : وقوله " فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً " وقوله " إنكم إذا فعلتم ذلكم قطعتم أرحامكم " ذكره تعليلاً لنهيه عن نكاح المرأة على عمتها وخالتها . وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء فِي المحيض ﴾ [البقرة : 222] ، وقوله في الخمر والميسر : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] وقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن بيع الرطب بالتمر " أينقص الرطب إذا جف " ؟ قالوا نعم . فنهى عنه . وقوله : " لا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه " وقوله :

" إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء . وإنه يتقي بالجناح الذي فيه الداء " وقوله : " إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس " وقال وقد سئل عن مس الذكر هل ينقض الوضوء " هل هو إلا بضعة منك " وقوله في ابنة حمزة " إنها لا تحل لي إنها ابنة أخي من الرضاعة " ، وقوله في الصدقة : " إنها لا تحل لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس " وقد قرب النّبي صلى الله عليه وسلم الأحكام لأمته بذكر نظائرها وأسبابها ، وضرب لها الأمثال . إلى آخر كلامه رحمه الله .

وقد ذكر فيه أقيسة فعلها النّبي صلى الله عليه وسلم . منها قياس القبلة على المضمضة في حديث عمر المتقدم . وقياس دين الله على دين الآدمي في وجوب القضاء . وقد قدمناه مستوفى ما قبله في سورة " بني إسرائيل " .

ومنها قياس العكس في حديث : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : " أرأيتم لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر " وقد قدمناه مستوفى في سورة " التوبة " .

ومنها قصة الذي ولدت امرأته غلاماً أسود ، وقد قدمنا ذلك مستوفى في سورة " بني إسرائيل " .

ومنها حديث المستحاضة الذي قاس فيه النّبي صلى الله عليه وسلم دم العرق الذي هو دم الاستحاضة على غيره من دماء العروق التي لا تكون حيضاً . وكذل ذلك يدل على أن إلحاق النظير بالنظير من الشرع ، لا مخالف له كما يزعمه الظاهرية ومن تبعهم .

المسألة الرابعة

اعلم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يجتهدون في مسائل الفقه في حياة النَّبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم ، وبعد وفاته من غير نكير . وسنذكر هنا إن شاء الله تعالى أمثلة كثيرة لذلك .

فمن ذلك أمره صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يصلوا العصر في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق وقال : لم يرد منا تأخير العصر ، وإنما أراد سرعة النهوض . فنظروا إلى المعنى . واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة فصلوها ليلاً . وقد نظروا إلى اللفظ ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر . وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس .

ومنها أن علياً رضي الله عنه لما كان باليمن أتاه ثلاثة نفر يختصمون في غلام . فقال كل منهم : هو ابني . فأقرع بينهم ، فجعل الولد للقارع وجعل عليه الرجلين الآخرين ثلثي الدية . فبلغ ذلك النَّبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء علي رضي الله عنه .

ومنها اجتهاد سعد بن معاذ رضي الله عنه في حكمه في بني قريظة ، وقد صوبه النَّبي صلى

الله عليه وسلم وقال : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات " .

ومنها اجتهاد الصحابيين اللذين خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء ، فصليا ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر . فصوبهما النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وقال للذي لم يعد " أصبت السنة وأجزأتك صلاتك " ، وقال للآخر : " لك الأجر مرتين " .

ومنها اجتهاد مجزز المدلجي بالقيافة ، قوال : إن أقدام زيد وأسامة بعضها من بعض ، وقد سر النَّبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى برقت أسارير وجهه . وذلك دليل على صحة إلحاق ذلك القائف الفرع بالأصل ، مع أن زيداً أبيض وأسامه أسود . فألحق هذا القائف الفرع بنظيره وأصله . وألغى وصف السواد والبياض الذي لا تأثير له في الحكم .

ومنها اجتهاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الكلالة قال : أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان (أراه ما خلا الوالد والولد) فلما استخلف عمر قال : إني لأستحيي من الله أن أرد شيئاً قاله أبو بكر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومن أغرب الأشياء عندي ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . من أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أشار له إلى معنى الكلالة إشارة واضحة جداً . ولم يفهمها عنه مع كمال فهمه وعلمه ، وأن الوحي ينزل مطابقاً لقوله مراراً . وذلك أنه رضي الله عنه قال : ما سألت النَّبي صلى الله لعيه وسلم عن شيء أكثر ما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : " تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء " وهذا الإرشاد من النَّبي صلى الله عليه وسلم واضح كل الوضوح في أنه يريد : أن الكلالة هي ما عدا الولد والوالد . لأن آية الصيف المكذورة التي أخبره أنها تكفيه دلت على ذلك دلالة كافية واضحة فقوله تعالى فيها : ﴿ إِنِ امرؤ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء : 176] صريح في أن الكلالة لا يكون فيها ولد . وقوله فيها : ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ [النساء : 12] يدل بالالتزام على أنها لا أب فيها ، لأن الإخوة والأخوات لا يرثون مع الأب . وذلك مما لا نزاع فيه . فظهر أن آية الصيف المذكورة تدل بكل وضوح على أن الكلالة ما عدا الولد والوالد ، ولم يفهم عمر رضي الله عنه الإشارة النبوية المذكورة ، فالكمال التام له جل وعلا وحده ، سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

ومنها اجتهاد ابن مسعود رضي الله عنه في المرأة التي توفي زوجها ولم يفرض لها صداقاً ولم يدخل بها . فقال : أقول فيها برأيي ، فإن كان صواباً فمن الله : لها كمهر نسائها لا وكس ولا شطط ، ولها الميراث وعليها العدة . وقد شهد لابن مسعود بعض الصحابة أن النَّبي صلى

الله عليه وسلم قضى بنحو ذلك في بروع بنت واشق ، ففرح بذلك .

ومنها اجتهاد الصحابة في أن أبا بكر رضي الله عنه أولى من غيره بالإمامة ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قدمه على غيره في إمامة الصلاة .

ومنها اجتهاد أبي بكر في العهد بالخلافة إلى عمر ، سواء قلنا إنه من المصالح المرسلة ، أو قلنا إنه قاس العهد بالولاية على العقد لها . ومن ذلك اجتهادهم في جمع المصحف بالكتابة . ومن ذلك اجتهادهم في الجد والإخوة ، والمشتركة المعروفة بالحمارية واليمية .

ومنها اجتهاد أبي بكر في التسوية بين الناس في العطاء ، واجتهاد عمر في تفضيل بعضهم على بعض فيه .

ومنها اجتهادكم فى جلد سكران ثمانين ، قالوا : إذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى فحدوه حد الفرية . وأمثال هذا كثيرة جداً . وهي تدل على أن اجتهاد الصحابة في مسائل الفقه متواتر معنى ، فإن الوقائع منهم في ذلك وإن لم تتواتر آحادها فمجموعها يفيد العلم اليقيني لتواترها معنى ، كما لا يخفى على من ذلك . ورسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى المتضمنة لذلك مشهورة . وقال ابن القيم في (إعلام الموقعين) : وقال الشعبي عن

شريح قال لي عمر : اقض بما استبان لك من كتاب الله ، فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح . . إلى أن قال : وقايس علي بن أبي طالب رضي الله عنه زيد بن ثابت في المكاتب ، وقايسه في الجد والإخوة ، وقاس ابن عباس الأضراس بالأصابع وقال : عقلها سواء ، اعتبروها بها . قال المزني : الفقهاء من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا وهلم جرا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم ، وأجمعوا بأن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها .

(181/512)

قال أبو عمر بعد حكاية ذلك عنه : ومن القياس المجمع عليه صيد ما عدا الكلب من الجوارح قياساً على الكلاب بقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجوارح مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة : 4] ، وقال عز وجل : ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ﴾ [النور : 4] فدخل في ذلك المحصنون قياساً . وكذلك قوله في الإماء ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى

المحصنات مِنَ العذاب ﴾ [النساء : 25] فدخل في ذلك العبد قياساً عند الجمهور إلا من شذ ممن لا يكاد يعد قوله خلافاً . وقال في جزاء الصيد المقتول في الإحرام : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾ [المائدة : 95] فدخل فيه قتل الخطأ قياساً عند الجمهور إلا من شذ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾

[الأحزاب : 49] فدخل في ذلك الكتابيات قياساً .

وقال في الشهادة في المداينات : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] فدخل في معنى إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى قياساً للمواريث والودائع والغصوب وسائر الأموال . وأجمعوا على توريث البنتين الثلثين قياساً على الأختين . وقال عمن أعسر بما عليه من الربا : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : 280] فدخل في ذلك كل معسر بدين حلال ، وثبت ذلك قياسة .

ومن هذا الباب توريث الذكر ضعفي ميراث الأنثى منفرداً ، وإنما ورد النص في اجتماعهما بقوله : ﴿ يُوصِيكُمُ الله في أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ﴾ [النساء : 11] ، وقال : ﴿ وَإِن كانوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ﴾ [النساء : 176] .

ومن هذا الباب قياس التظاهر بالبنت على التظاهر بالأم فيم لو قال لزوجته : أنت علي كظهر بنتي . وقياس الرقبة في الظهار على الرقبة في القتل بشرط الإيمان . وقياس تحريم الأختين وسائر القرابات من الإماء على الحرائر في الجمع في التسري . قال : وهذ لو تقصيته لطال به الكتاب .

قلت . بعض هذه المسائل فيها نزاع ، وبعضها لا يعرف فيها نزاع بين السلف . وقد رام بعض نفاة القياس إدخال هذه المسائل المجمع عليها في العمومات اللفظية ، فأدخل قذف الرجال في قذف المحصنات ، وجعل المحصنات صفة للفروج لا للنساء . وأدخل صيد الجوارح كلها في قوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجوارح ﴾ [المائدة : 4] وقوله : ﴿ مُكَلِّبِين ﴾ [المائدة : 4] وإن كان من لفظ الكلب فمعناه مغرين لها على الصيد . قاله مجاهد والحسن ، وهو رواية عن ابن عباس . وقال أبو سليمان الدمشقي ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ معناه معلمين ، وإنما قيل لهم ﴿ مُكَلِّبِين ﴾ لأن الغالب من صيدهم إنما يكون بالكلاب . وهؤلاء وإن أمكنهم ذلك في بعض المسائل ، كما جزموا بتحريم أجزاء الخنزير لدخوله في قوله : ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ [الأنعام : 145] وأعادوا الضمير إلى المضاف إليه دون المضاف فلا يمكنهم ذلك في كثير من المواضع ، وهم يضطرون فيها ولا بد إلى القياس أو القول بما لم يقل به غيرهم ممن تقدمهم . فلا يعلم أحد من أئمة الفتوى يقول في قول النّبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن فأرة

وقعت في سمن : " ألقوها وما حولها وكلوه " إن ذلك يختص بالسمن دون سائر الأدهان والمائعات . هذا مما يقطع بأن الصحابة والتابعين وأئمة الفتيا لا يفرقون فيه بين السمن والزيت والشيرج والدبس . كما لا يفرق بين الفأرة والهرة في ذلك .

(183/512)

وكذلك نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الرطب بالتمر ، لا يفرق عالم يفهم عن الله رسوله بين ذلك وبين العنب بالزبيب . ومن هذا أن الله سبحانه قال في المطلقة ثلاثاً : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾

[البقرة : 230] أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا . والمراد به تجديد العقد ، وليس ذلك مختصاً بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط ، بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق حلت للأول قياساً على الطلاق .

ومن ذلك قول النَّبي صلى الله عليه وسلم : " لاَ تَأْكُلُوا فِي آنِيَة الذَّهب والفِضّة ولاَ تَشْرَبُوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة " وقوله : " الذي يَشْرَبُ فِي آنِيَة الذَّهَب والفِضّة : إنما يُجَرْجِر فِي بَطْنِه نارَ جهنَم " وهذا التحريم لا يختص بالأكل والشرب ، بل يعم

سائر وجوه الانتفاع ، فلا يحل له أن يغتسل بها ، ولا يتوضأ بها ، ولا يكتحل منها وهذا أمر لا يشك فيه عالم .

ومن ذلك نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم المحرم عن لبس القميص والسراويل والعمامة والخفين ، ولا يختص ذلك بهذه الأشياء فقط ، بل يتعدى النهي إلى الجباب والأقبية والطيلسان والقلنسوة ، وما جرى مجرى ذلك من الملبوسات .

ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " إِذَا ذَهَبَ أَحَدُكُم إِلى الغائط فليذهب معه بثَلَاثَة أَحْجَار " فلو ذهب معه بخرقة تنظيف أكثر من الأحجار ، أو بطن أو صوف أو خز ونحو ذلك جاز . وليس للشارع غرض في غير التنظيف والإزالة ، فما كان أبلغ في ذلك كان مثل الأحجار في الجواز أو أولى .

(184/512)

ومن ذلك أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم " نهى أن يبيع الرجل على بيع أخيه أو يخطب على خطبته " . معلوم أن المفسدة التي نهى عنها في البيع والخطبة موجودة في الإجارة . فلا يحل له أن يؤجر على إجارته . وإن قدر دخول الإجارة في لفظ البيع العام وهو بيع المنافع فحقيقتها غير حقيقة البيع ، وأحكامها غير أحكامه .

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى في آية التيمم : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا وَإِن كُنتُم مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الغائط أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ [المائدة : 6] فألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر على اختلافها في نقضها بالغائط . والآية لم تنص من أنواع الحدث الأصغر إلا عليه وعلى اللمس ، على قول من فسره بما دون الجماع . وألحقت الاحتلام بملامسة النساء ، وألحقت واجد ثمن الماء بواجده . وألحقت من خاف على نفسه أو بهائمه من العطش إذا توضأ بعادم الماء . فجوزت له التيمم وهو واجد للماء . وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمريض في العدول عنه إلى البدل . وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها وتعليق الحكم به ، وكونه متعلقاً بمصلحة العبد أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة التناول لها ليست بجرية الفهم مما لا ينكر تناول العموميين لها .

فمن الناس من يتنبه لهذا ، ومنهم من يتفطن لتناول العموميين لها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ على سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة : 283] قاست الأمة الرهن في الحضر على الرهن في السفر مع وجود الكاتب على الرهن مع عدمه . فإن استدل على ذلك بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم رهن درعه في الحضر فلا عموم في ذلك . فإنما رهنا على شعير استقرضه من يهودي فلا بد من القياس : إما على الآية ، وإما على السنة .

ومن ذلك أن سمرة بن جندب لما باع خمر أهل الذمة وأخذ ثمنها في العشور التي عليهم . فبلغ ذلك عمر قال : قاتل الله سمرة ؟ أما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ حُرِمَت عليهم الشُّحُوم فجملوها وَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا " وهذا محض القياس من عمر رضي الله عنه . فإن تحريم الشحوم على اليهود كتحريم الخمر على المسلمين . وكما يحرم ثمن الشحوم المحرمة فكذلك يحرم ثمن الخمر الحرام .

ومن ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم جعلوا العبد على النصف من الحر في النكاح والطلاق والعدة ، قياساً على ما نص الله عليه من قوله : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب ﴾ [النساء : 25] ثم ذكر رحمه الله آثاراً دالة على أن الصحابة جعلوا العبد على النصف من الحر فيما ذكر قياساً على ما نص الله عليه من تنصيف الحد على الأمة .

ومن ذلك توريث عثمان بن عفان رضي الله عنه المبتوتة في مرض الموت برأيه ، ووافقه

الصحابة على ذلك.

ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما في نهي النَّبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام قبل قبضه، قال: أحسب كل شيء بمنزلة الطعام.

(186/512)

ومن ذلك أن عمر وزيداً رضي الله عنهما لما قالا: إن الأم ترث ما بقي بعد أحد الزوجين في مسألة زوج أو زوجة مع الأبوين، قاسا وجود أحد الزوجين مع الأبوين على ما إذا لم يكن هناك زوج ولا زوجة، فإنه حينئذ يكون للأب ضعف ما للأم، فقدرا أن الباقي بعد الزوج أو الزوجة كل المال. وهذا من أحسن القياس. فإن قاعدة الفرائض: أن الذكر والأنثى إذا اجتمعا وكانا في درجة واحدة، فإما أن يأخذ الذكر ضعف ما تأخذه الأنثى كالأولاد وبني الأب، وإما أن تساويه كولد الأم. وأما أن الأنثى تأخذ ضعف ما يأخذ مع مساواته لها في درجته فلا عهد به في الشريعة. فهذا من أحسن الفهم عن الله ورسوله.

ومن ذلك أخذ الصحابة رضي الله عنهم في الفرائض بالعول، وإدخال النقص على جميع ذوي الفرائض قياساً على إدخال النقص على الغرماء إذا ضاق مال المفلس عن توفيتهم.

ولا شك أن العول الذي أخذ به الصحابة رضي الله عنهم أعدل من توفية بعض المستحقين

حقه كاملاً ونقص بعضهم بعض حقه ، فهذا ظلم لا شك فيه ، وأمثال هذا كثيرة ، فلو تقصيناها لطال الكلام جداً .

وهذه الوقائع التي ذكرنا وأمثالها مما لم نذكر تدل دلالة قطعية على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يستعملون القياس في الأحكام ، ويعرفونها بالأمثال والأشباه والنظائر ، ولا يلتفت إلى من يقدح في كل سند من أسانيدها ، فإنها في كثرة طرقها واختلاف مخارجها وأنواعها جارية مجرى التواتر المعنوي الذي لا شك فيه وإن لم يثبت كل فرد من الإخبار بها كما هو معروف في أصول الفقه وعلى الحديث .

المسألة الخامسة

اعلم أن القياس جاءت على منعه في الجملة أدلة كثيرة ، وبها تمسك الظاهرية ومن تبعهم ، وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً وافية من ذلك ثم نبين الصواب فيه إن شاء الله تعالى .

قالوا : فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليومِ الآخرِ ﴾ [النساء : 59] وأجمع المسلمون على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه

هو الرد إليه في حضوره وحياته ، وإلى سنته في غيبته وبعد مماته ، والقياس ليس بهذا ولا هذا ، ولا يقال الرد إلى القياس هو من الرد إلى الله ورسوله . لدلالة كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام كما تقدم تقريره . لأن الله سبحانه إنما ردنا إلى كتابه وسنة رسوله ، ولم يردنا إلى قياس عقولنا وآرائنا فقط . بل قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله ﴾ [المائدة : 49] ، وقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله ﴾ [النساء : 105] ولم يقل بما رأيت أنت . وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أنزَلَ الله فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ [المائدة : 45] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [المائدة : 47] ، وقال تعالى : ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 3] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 51] ، وقال : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ على نَفْسِي وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يوحي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ : 50] فلو كان القياس هدى لم ينحصر الهدى في الوحي . وقال : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى

﴿ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : 65] فنفى الإيمان حتى يوجد تحكيمه وحده ، وهو تحكيمه في حال حياته وتحكم سنته فقط بعد وفاته ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات : 1] أي لا تقولوا حتى يقول : قال نفاة القياس : والإخبار عنه بأنه حرم ما سكت عنه ، أو أوجبه قياساً على ما تكلم بتحريمه أو إيجابه تقدم بين يديه . فإنه إذا قال : حرمت عليكم الربا في البر ، فقلنا : ونحن نقيس على قولك البلوط ، فهذا محض التقدم ، قالوا : وقد حرم سبحانه أن نقول عليه ما لا نعلم . فإذا قلنا ذلك فقد واقعنا هذا المحرم يقيناً ، فإنا غير عالمين بأنه أراد من تحريم الربا في الذهب والفضة تحريمه في القديد من اللحوم ، وهذا قفو منا ما ليس لنا به علم ، وتعد لما حد لنا ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . والواجب أن نقف عند حدوده ، ولا نتجاوزها ولا نقصر بها . ولا يقال : فإبطال القياس وتحريمه والنهي عنه تقدم بين يدي الله ورسوله ، وتحريم لما لم ينص على تحريمه ، وقفو منكم لما ليس لكم به علم . لأنا نقول : الله سبحانه وتعالى أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، وأنزل علينا كتابه ، وأرسل إلينا رسوله يعلمنا الكتاب والحكمة . فما علمناه وبينه لنا فهو من الدين ، وما لم يعلمناه ولا بين لنا أنه من الدين فليس من الدين ضرورة ، وكل ما ليس من الدين فهو باطل ، فليس بعد الحق إلا الضلال . وقال تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] فالذي أكمله الله

سبحانه ، وبينه هو ديننا لا دين لنا سواه . فأين فيما أكمله لنا . قيسوا ما سكت عنه على ما تكلمت بإيجابه أو تحريمه أو إباحته ، سواء كان الجامع بينهما علة أو دليل علة ، أو وصفا شبيهاً . فاستعملوا ذلك كله ، وانسبوه إلي وإلى رسولي وإلى ديني ، وأحكموا به علي .

قالوا : وقد أخبر سبحانه أن الظن لا يغني من الحق شيئًا ، وأخبر رسوله " أن الظَّنَّ أَكْذَبَ الحَدِيث " ونهى عنه ، ومن أعظم الظن ظن القياسين . فإنهم ليسوا على يقين أن الله سبحانه وتعالى حرم بيع السمسم بالشيرج ، والحلوى بالعنب ، والنشا بالبر ، وإنما هي ظنون مجردة لا تغني من الحق شيئًا .

قالوا : وإن لم يكن قياس الضراط على السلام عليكم من الظن الذي نهينا عن اتباعه وتحكيمه ، وأخبرنا أنه لا يغني من الحق شيئًا فليس في الدنيا ظن باطل . فأين الضراط من السلام عليكم . وإن لم يكن قياس الماء الذي لاقى أخبث العذرات والميتات والنجاسات ظناً . فلا ندري ما الظن الذي حرم الله سبحانه القول به ، وذمه في كتابه ، وسلخه من الحلق ، وإن لم يكن قياس أعداء الله ورسوله من عباد الصلبان واليهود الذين هم أشد

الناس عداوة للمؤمنين على أوليائه وخيار خلقه ، وسادات الأمة وعلمائها وصلحائها في تكاثر دمائهم وجريان القصاص بينهم ظناً . فليس في الدنيا ظن يذم اتباعه .

قالوا من العجب أنكم قستم أعداء الله على أوليائه في جريان القصاص بينهم ، فقتلتم ألف ولي لله تعالى قتلوا نصرانياً واحداً ، ولم تقيسوا من ضرب رجلاً بدبوس فنثر دماغه بين يديه على من طعنه بمسلة فقتله .

قالوا : وسنبين لكن من تناقض أقيستكم واختلافها وشدّة اضطرابها ما يبين أنها من عند غير الله .

(190/512)

قالوا : والله تعالى لم يكل بيان شريعته إلى آرائنا وأقيستنا واستنباطنا ، وإنما وكلها إلى رسوله المبين عنه ، فما بينه عنه وجب اتباعه ، وما لم يبينه فليس من الدين ، ونحن نناشدكم الله هل اعتمادكم في هذه الأقيسة الشبيهة والأوصاف الحدسية التخمينية على بيان الرسول ، أو على آراء الرجال ، وظنونهم وحدسهم . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] فأين بين النَّبي صلى الله عليه وسلم ؟

إني إذا حرمت شيئاً أو أوجبته أو أبحته ، فاستخرجوا وصفاً ما شبيهاً جامعاً بين ذلك وبين جميع ما سكت عنه فألحقوه به وقيسوه عليه .

(191/512)

قالوا : والله تعالى قد نهى عن ضرب الأمثال له ، فكما لا تضرب له الأمثال لا تضرب لدينه ، وتمثيل ما لم ينص على حكمه بما نص عليه لشبه ما ضرب الأمثال لدينه . قالوا : وما ضربه الله ورسوله من الأمثال فهو حق ، خارج عما نحن بصدده من إثبات الأحكام بالرأي والقياس من غير دليل من كتاب ولا سنة . وذكروا شيئاً كثيراً من الأمثال التي ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم معترفين بأنها حق . قالوا : ولا تفيدكم في محل النزاع ، قالوا : فالأمثال التي ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي لتقريب المراد ، وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع . وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به . فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه ، وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره . فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير . ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره . وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً . فالأمثال شواهد

المعنى المراد ، وتزكية له . وهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته ، ولكن أين في الأمثال التي ضربها الله ورسوله على هذا الوجه ؟ فهمنا أن الصداق لا يكون أقل من ثلاثة دراهم أو عشرة ، قياساً وتمثيلاً على أقل ما يقطع فيه السارق . هذا بالألغاز والأحاجي أشبه منه بالأمثال المضروبة للفهم . كما قال إمام الحديث محمد بن إسماعيل البخاري في جامعه الصحيح : (باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السامع) .

(192/512)

قالوا : فنحن لا ننكر هذه الأمثال التي ضربها الله ورسوله ، ولا نجهل ما أريد بها ، وإنما ننكر أن يستفاد وجوب الدم على من قطع من جسده أو رأسه ثلاث شعرات أو أربعاً من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾

[البقرة : 196] وأن الآية تدل على ذلك . وأن قوله صلى الله عليه وسلم في صدقة الفطر : صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من أقط أو صاع من بر ، أو " صاع من زبيب " يفهم منه أنه لو أعطى صاعا من إهليج جاز ، وأنه يدل على ذلك بطريق التمثيل

والاعتبار . وأن قوله صلى الله عليه وسلم : " الولد للفراش " يستفاد منه ومن دلالته أنه لو قال الولي بحضرة الحاكم : زوجتك ابنتي وهو بأقصى الشرق وهي بأقصى الغرب ، فقال : قبلت هذا التزويج وهي طالق ثلاثاً ، ثم جاءت بعد ذلك بولد لأكثر من ستة أشهر أنه ابنه ، وقد صارت فراشاً بمجرد قبوله قبلت هذا التزويج ، ومع هذا لو كانت له سرية يطؤها ليلاً ونهاراً لم تكن فراشاً له ولو أتت بولد لم يلحقه نسبه إلا أن يدعيه ويستلحقه ، فإن لم يستلحقه فليس بولده ؟

وأين يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن في قتل الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل " أنه لو ضربه بحجر المنجنيق أو بكور الحداد أو بمرزاب الحديد العظام ، حتى خلط دماغه بلحمه وعظمه أن هذا خطأ شبه عمد لا يوجب قوداً .

(193/512)

وأين يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم : " ادْرَءُوا الْحُدُود عن الْمُسْلِمِين ما اسْتَطَعْتُم فإن لم يكن له مَخْرَج فَخَلُّوا سَبِيله ، فإن الإمام إن يُخْطِئ في العَفْو خَيْر له من أن يُخْطِئ في العُقُوبة " أن من عقد على أمه أو ابنته أو أخته ووطئها فلا حد عليه . وأن هذا المفهوم من قوله " ادْرَءُوا الْحُدُود بالشُّبُهات " فهذا في معنى الشبهة التي تدرأ بها الحدود ، وهي الشبهة في

المحل أو في الفاعل أو في الاعتقاد . ولو عرض هذا على فهم من فرض من العالمين لم يفهمه من هذا اللفظ بوجه من الوجوه. وأن من يطأ خالته أو عمته بملك اليمين فلا حد عليه مع علمه بأنها خالته أو عمته وتحريم الله لذلك ، ويفهم هذا من " ادْرَءُوا الحُدُود بالشُّبُهات " ، وأضعاف أضعاف هذا مما لا يكاد ينحصر .

قالوا : فهذا التمثيل والتشبيه هو الذي ننكره ، وننكر أن يكون في كلام الله ورسوله دلالة على فهمه بوجه ما .

قالوا : ومن أين يفهم من قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ [النحل : 66] ، ومن قوله : ﴿ فاعتبروا ﴾ [الحشر : 2] تحريم بيع الكشك باللبن . وبيع الخل بالعنب ، ونحو ذلك . قالوا : وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ [الشورى : 10] ولم يقل إلى قياساتكم وآرائكم . ولم يجعل الله آراء الرجال وأقيستها حاكمة بين الأمة أبداً .

قالوا : وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

[الأحزاب : 36] فإنما منعهم من الخيرة عند حكمه وحكم رسوله . لا عند آراء الرجال وأقيستهم وظنونهم .

وقد أمر سبحانه رسوله باتباع ما أوحاه إليه خاصة، وقال: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: 50]، وقال: ﴿ وَأَنِ احكم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ الله ﴾ [المائدة: 49]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ [الشورى: 21] قالوا: فدل هذا النص على أن ما لم يأذن به الله من الدين فهو شرع غيره الباطل.

(195/512)

قالوا: وقد أخبر النَّبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى: أن كل ما سكت عن إيجابه أو تحريمه فهو عفو عفا عنه لعباده، مباح إباحة العفو، فلا يجوز تحريمه ولا إيجابه قياساً على ما أوجبه أو حرمه بجامع بينهما، فإن ذلك يستلزم رفع هذا القسم بالكلية وإلغاؤه، إذ المسكوت عنه لا بد أن يكون بينه وبين المحرم شبه ووصف جامع، وبينه وبين الواجب. فلو جاز إلحاقه به لم يكن هناك قسم قد عفا عنه. ولم يكن ما سكت عنه قد عفا عنه بل يكون ما سكت عنه قد حرمه قياساً على ما حرمه، وهذا لا سبيل إلى دفعه، وحينئذ فيكون تحريم ما سكت عنه تبديلاً لحكمه. وقد ذم الله تعالى من بدل غير القول الذي أمر به فمن بدل غير الحكم الذي شرع له فهو أولى بالذم، وقد قال النَّبي صلى الله عليه

وسلم : " إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً : من سأل عن شيء لم يحرم فحرم على الناس من أجل مسألته " فإذا كان هذا فيمن تسبب إلى تحريم الشارع صريحاً بمسألته عن حكم ما سكت عنه ، فكيف بمن حرم المسكوت عنه بقياسه ورأيه ! ! يوضحه أن المسكوت عنه لما كان عفواً عفا الله لعباده عنه ، وكان البحث عنه سبباً لتحريم الله إياه لما فيه من مقتضى التحريم لا لمجرد السؤال عن حكمه ، وكان الله قد عفا عن ذلك وسامح به عباده كما يعفو عما فيه مفسدة من أعمالهم وأقوالهم . فمن المعلوم أن سكوته عن ذكر لفظ عام يحرمه يدل على أنّه عفو منه ، فمن حرمه بسؤاله عن علة التحريم وقياسه على المحرم بالنص ، كان أدخل في الذم ممن سأله عن حكمه لحاجته إليه ، فحرم من أجل مسألته ، بل كان الواجب عليه ألا يبحث عنه . ولا يسأل عن حكمه اكتفاء بسكوت الله عن عفوه عنه . فهكذا الواجب عليه ألا يحرم المسكوت عنه بغير النص الذي حرم أصله الذي يلحق به .

(196/512)

قالوا : وقد دل على هذا كتاب الله حيث يقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ عَفَا الله عَنْهَا والله غَفُورٌ

حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ﴾

[المائدة : 101-102] . وقد قال النّبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح " ذَرُونِي ما تَرَكْتُكم فإنما هَلَكَ الَّذِينَ من قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أَنْبِيَائهم ، فإذا نَهَيْتُكم عن شيء فَاجْتَنِبُوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " فأمرهم أن يتركوه من السؤال ما تركهم . ولا فرق في هذا بين حياته وبين مماته . فنحن مأمورون أن نتركه صلى الله عليه وسلم وما نص عليه ، فلا نقول له لم حرمت كذا لنلحق به ما سكت عنه بل هذا أبلغ في المعصية من أن نسأله عن حكم شيء لم يحكم فيه فتأمله فإنه واضح ، ويدل عليه قوله في نفس الحديث : " وَإِذا نَهَيْتُكُمْ عن شيء فاجْتَنِبُوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما اسْتَطَعْتُم " فجعل الأمور ثلاثة لا رابع لها : (مأمور به) فالفرض عليهم فعله بحسب الاستطاعة (ومنهي عنه) فالفرض عليهم اجتنابه بالكلية . (ومسكوت عنه) فلا يتعرض للسؤال والتفتيش عليه .

وهذا حكم لا يختص بحياته فقط ، ولا يخص الصحابة دون من بعدهم ، بل فرض علينا نحن امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وترك البحث والتفتيش عما سكت عنه . وليس ذلك الترك جهلاً . وتجهيلاً لحكمه ، بل إثبات لحكم العفو وهو الإباحة العامة ، ورفع الحرج عن فاعله .

فقد استوعب الحديث أقسام الدين كلها ، فإنها : إما واجب ، وإما حرام ، وإما مباح. والمكروه والمستحب فرعان على هذه الثلاثة غير خارجين عن المباح. وقد قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 18-19] فوكل بيانه إليه سبحانه لا إلى القياسيين والآرائيين.

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] فقسم الحكم إلى قسمين : قسم أذن فيه وهو الحق ، وقسم افترى عليه وهو ما لم يأذن فيه. فأين إذا لنا أن نقيس البلوط على التمر في جريان الربا فيه ، وأن نقيس القزدير على الذهب والفضة ، والخردل على البر : فإن كان الله ورسوله وصانا بهذا فسمعا وطاعة لله ورسوله. وإلا فإنا قائلون لمنازعينا ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ﴾ [الأنعام : 144] فما لم تأتونا به وصية من عند الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فهو عين الباطل ، وقد أمرنا الله برد ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبح لنا قط أن نرد ذلك إلى رأي ولا قياس ، ولا تقليد إمام ولا منام ، ولا كشوف ولا إلهام ، ولا حديث قلب ولا استحسان ، ولا معقول ولا شريعة الديوان ، ولا سياسة الملوك ، ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المرسلين أضر منها. فكل هذه طواغيت ! من تحاكم إليها أو دعا منازعه إلى التحاكم إليها فقد

حاكم إلى الطاغوت ! وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 74] .

(198/512)

قالوا : ومن تأمل هذه الآية حق التأمل تبين له أنها نص على إبطال القياس وتحريمه ، لأن القياس كله ضرب الأمثال للدين وتمثيل ما لا نص فيه بما فيه نص . ومن مثل ما لم ينص الله سبحانه على تحريمه أو إيجابه بما حرمه أو أوجبه فقد ضرب لله الأمثال ، ولو علم سبحانه أن الذي سكت عنه مثل الذي نص عليه لأعلمنا بذلك ، ولما أغفله سبحانه ، وما كان ربك نسياً وليبين لنا ما نتقي كما أخبر عن نفسه بذلك إذ يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : 115] . ولما وكله إلى آرائنا ومقاييسنا التي ينقض بعضها بعضاً ، فهذا يقيس ما يذهب إليه على ما يزعم أنه نظيره ، فيجيئ منازعه فيقيس القياسان معاً من عند الله ، وليس أحدهما أولى من الآخر فليسا من عنده ، وهذا وحده كاف في إبطال القياس ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : 4] ، وقال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

﴾ [النحل : 44] . فكل ما بينه رسوله الله صلى الله عليه وسلم فعن ربه سبحانه ، بينه بأمره وإذنه . وقد علمنا يقيناً وقوع كل اسم في اللغة على مسماه فيها ، وأن اسم البر لا يتناول الخردل ، واسم التمر لا يتناول البلوط ، واسم الذهب والفضة لا يتناول القزدير ، وأن تقدير نصاب السرقة لا يدخل فيه تقدير المهر ، وأن تحريم أكل امية لا يدل على أن المؤمن الطيب عند الله حياً وميتاً إذا مات صار نجساً خبياً . وأن هذا عن البيان الذي ولاه الله رسوله وبعثه به أبعد شيء وأشده منافاة له . فليس هو مما بعث به الرسول قطعاً ، فليس إذاً من الدين . وقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : "مَا بَعَثَ الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم" ولو كان الرأي والقياس خيراً لهم لدلهم

عليه ، وأرشدهم إليه" ولقال لهم إذا أوجبت عليكم شيئًا أو حرته فقيسوا عليه ما كان بينه وصف جامع ، أو ما أشبهه . أو قال ما يدل على ذلك أو يستلزمه ، ولما حذرهم من ذلك أشد الحذر . وقد أحكم اللسان كل اسم على مسماه لا على غيره . وإنما بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بالعربية التي يفهمها العرب من لسانها ، فإذا نص

سبحانه في كتابه أو نص رسوله على اسم من الأسماء ، وعلق عليه حكماً من الأحكام وجب ألا يوقع ذلك الحكم إلا على ما اقتضاه ذلك الاسم ، ولا يتعدى به الوضع الذي وضعه الله ورسوله فيه ، ولا يخرج عن ذلك الحكم شيء ، مما يقتضيه الاسم ، فالزيادة عليه زيادة في الدين ، والنقص منه نقص في الدين .

فالأول القياس ، والثاني التخصيص الباطل ، وكلاهما ليس من الدين . ومن لم يقف مع النصوص فإنه تارة يزيد في النص ما ليس منه ، ويقول هذا قياس . ومرة ينقص منه بعض ما يقتضيه ويخرجه عن حكمه ويقول هذا تخصيص . ومرة يترك النص جملة ويقول ليس العلم عليه . أو يقول هذا خلاف القياس ، أو خلاف الأصول .

(200/512)

قالوا : ولو كان القياس من الدين لكان أهله أتبع الناس للأحاديث ، وكان كلما توغل فيه الرجل كان أشد اتباعاً للأحاديث والآثار . قالوا : ونحن نرى أن كلما اشتد توغل الرجل فيه اشتدت مخالفته للسنن ولا ترى خلاف السنن والآثار إلا عند أصحاب الرأي والقيسا . فلله كم من سنة صحيحة صريحة قد عطلت به ، وكم من أثر درس حكمه بسببه فالسنن والآثار عند الآرائيين والقياسيين خلوية على عروشها ، معطلة أحكامها ،

معزولة عن سلطانها وولايتها ، لها الاسم ولغيرها الحكم ، لها السكة والخطبة ولغيرها الأمر والنهي . وإلا فلماذا ترك حديث العرايا ، وحديث قسم الابتداء ، وأن للزوجة حق العقد سبع ليال إن كانت بكراً ، أو ثلاثاً إن كانت ثيباً . ثم يقسم بالسوية ، وحديث تغريب الزاني غير المحصن ، وحديث الاشتراط في الحج ، وجواز التحلل بالشرط ، وحديث المسح على الجوربين ، وحديث عمران بن حصين وأبي هريرة في أن كلام الناس والجاهل لا يبطل الصلاة ، وحديث دفع اللقطة إلى من جاء فوصف وعاءها ووكاءها وعفاصها ، وحديث المصراة . وحديث القرعة بين العبيد إذا أعتقوا في المرض ولم يحملهم الثلث . وحديث خيار المجلس . وحديث إتمام الصوم لمن أكل ناسياً . وحديث إتمام الصبح لمن طلعت عليه الشمس وقد صلى منها ركعة . وحديث الصوم عن الميت . وحديث الحج عن المريض المأيوس من برئه . وحديث الحكم بالقافة . وحديث " من وجد متاعا عند رجل قد أفلس " . وحديث النهي عن بيع الرطب بالتمر . وحديث بيع المدبر . وحديث القضاء بالشاهد مع اليمين ، وحديث " الولد للفراش إذا كان من أمه " وهو سبب الحديث تخيير الغلام بين أبويه إذا افترقا . وحديث قطع الساق في ربع دينار . وحديث رجم الكتابيين في الزنى ، وحديث " من تزوج امرأة أبيه أمر بضرب عنقه وأخذ ماله " وحديث " لا يقتل مؤمن بكافر " ، وحديث " لعن الله المحلل والمحلل له " وحديث " لا نكاح إلى بولي " وحديث " المطلقة ثلاثا لا سكنى لها ولا نفقة " ، وحديث

(201/512)

عتق صفية وجعل عتقها صداقها ، وحديث " اصدقوا ولو خاتماً من حديد " ، وحديث " إباحة لحوم الخيل " ، وحديث " كل مسكر حرام " ، وحديث " ليس فيما دون خمسة أوسق صداقة " وحديث المزارعة والمساقاة ، وحديث " ذكاة الجنين ذكاة أمه " وحديث " الرهن مركوب ومحلوب "

(202/512)

وحديث النهي عن تخليل الخمر ، وحديث قسمة الغنيمة " للراجل سهم وللفارس ثلاثة " ، وحديث " لا تحرم المصة والمصتان " ، وأحاديث حرمة المدينة ، وحديث إشعار الهدى وحديث " إذا لم يجد المحرم الإزار فليلبس السراويل " ، وحديث الوضوء من لحوم الإبل ، وأحاديث المسح على العمامة ، وحديث الأمر بإعادة الصلاة لمن صلى خلف الصف وحده ، وحديث السراويل ، وحديث منع الرجل من تفضيل بعض ولده على بعض . وأنه جوز لا تجوز الشهادة عليه ، وحديث " أنت ومالك لأبيك " وحديث " من دخل والإمام

يخطب يصلي تحية المسجد " ، وحديث الصلاة على الغائب ، وحديث الجهر ب " آمين " في الصلاة ، وحديث جواز رجوع الأب فيما وهبه لولده ولا يرجع غيره ، وحديث " الكلب الأسود يقطع الصلاة " وحديث الخروج إلى العيد من الغد إذا علم بالعيد بعد الزوال ، وحديث نضح بول الغلام الذي لم يأكل الطعام ، وحديث الصلاة على القبر ، وحديث " من زرع في أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيئ وله نفقته " ، وحديث بيع جابر بعيره واشتراط ظهره ، وحديث النهي عن جلود السباع ، وحديث " لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره " ، وحديث " إذا أسلم وتحته أختان اختار أيتهما شاء " ، وحديث الوتر على الراحلة ، وحديث "كل ذي ناب من السباع حرام " ، وحديث " من السنة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة ، وحديث " لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيه صلبه من ركوعه وسجوده " ، وأحاديث رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه ، وأحاديث الاستفتاح ، وحديث : كان للنّبي صلى الله عليه وسلم سكتتان في الصلاة ، وحديث " تحريمها التكبير وتحليلها التسليم " ، وحديث حمل الصبية في الصلاة ، وأحاديث القرعة ، وأحاديث العقيقة ، وحديث " لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذنك " ، وحديث " أيدع يده في فيك تقضمها كما يقضم الفحل " ، وحديث " إن بلالاً يؤذن بليل " ، وحديث النهي عن صوم يوم الجمعة ، وحديث النهي عن الذبح

بالسن والظفر ، وحديث صلاة الكسوف والاستسقاء ، وحديث النهي عن عسيب الفحل ، وحديث " المحرم إذا مات لم يخمر رأسه ، ولم يقرب طيباً " إلى أضعاف ذلك من الأحاديث التي كان تركها من أجل القول بالقياس والرأي .

فلو كان القياس حقاً لكان أهله أتبع الأمة للأحاديث ، ولا حفظ لهم ترك حديث واحد إلا لنص ناسخ له : فحيث رأينا كل من كان أشد توغلاً في القياس والرأي كان أشد مخالفة للأحاديث الصحيحة الصريحة علمنا أن القياس ليس من الدين ، وأن شيئًا تترك له السنن لأبين شيئ منافاة للدين . فلو كان القياس حقاً لكان أهله أتبع الأمة للأحاديث ، ولا حفظ لهم ترك حديث واحد إلا لنص ناسخ له : فحيث رأينا كل من كان أشد توغلاً في القياس والرأي كان أشد مخالفة للأحاديث الصحيحة الصريحة علمنا أن القياس ليس من الدين ، وأن شيئًا تترك له السنن لأبين شيء منافاة للدين .

فلو كان القياس من عند الله لطابق السنة أعظم مطابقة ، ولم يخالف أصحابه حديثاً واحداً منها ، ولكانوا أسعد بها من أهل الحديث . فليروا أهل الحديث والأثر حديثاً واحداً صحيحاً قد خالفوه . كما أريناهم آنفاً ما خالفوه من السنة بجريرة القياس .

قالوا : وقد أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب وعلينا بعدهم : ألا نقول على الله إلا بالحق .

فلو كانت هذه الأقيسة المتعارضة المتناقضة التي ينقض بعضها بعضاً بحيث لا يدري الناظر فيها أيها الصواب حقاً لكانت متفقة بصدق بعضها بعضاً كالنسة التي يصدق بعضها بعضاً ، وقال تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحق بِكَلِمَاتِهِ ﴾ [يونس : 82] لا بآرائنا ولا مقاييسنا ، وقال : ﴿ والله يَقُولُ الحق وَهُوَ يَهْدِي السبيل ﴾ [الأحزاب : 4] فما لم يقله سبحانه ولا هدى إليه فليس من الحق ، قوال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص : 50] فقسم الأمور إلى قسمين لا ثالث لهما : اتباع لما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتباع الهوى .

قالوا : والرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع أمته إلى القياس قط ، بل قد صح عنه أنّه أنكر على عمر وأسامة محض القياس في شأن الحلتين اللتين أرسل بهما إليهما فلبسها أسامة قياساً للبس على التملك والانتفاع والبيع ، وكسوتها لغيره ، وردها عمر قياساً لتملكها على لبسها . فأسامة أباح ، وعمر حرم قياساً . فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحد من القياسين . وقال لعمر : " إنما بَعَيْتُ بِهَا إِلَيْكِ لِتَسْتَمِعَ بِهَا " وقال لأسامة : " إِني لم أَبْعَث إِلَيْك بِها لِتَلْبسَهَا ولكن بَعَثتها إِلَيْك لتشقها خُمُراً لِنسائِك " ، والنّبي صلى الله عليه وسلم إنما تقدم إليهم في الحرير بالنص على تحريم لبسه فقط . لقاسا قياساً أخطأ فيه .

فأحدهما قاس اللبس على الملك ، وعمر قاس التملك على اللبس ، والنَّبي صلى الله عليه وسلم بين أن ما حرمه من اللبس لا يتعدى إلى غيره ، وما أباحه من التملك لا يتعدى إلى اللبس .

قالوا : وهذا عين إبطال القياس . وقالوا : وقد صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي ثعلبة الخشني ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله فَرَضَ فَرَائض فلا تُضَيِّعُوها ، وحَدَ حُدُوداً فلا تَعْتَدُوهَا ، ونَهَى عن أَشْيَاء فلا تَنْتَهِكُوها ، وسكت عن أشياء رَحْمَةً لَكُم غَيْرِ نسْيَان فلا تَبْحَثُوا عنها " ، قالوا : وهذا الخطاب عام لجميع الأمة أولها وآخرها .

قالوا : وقد جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بإسناد جيد من حديث سلمان رضي الله قال : سئل النَّبي صلى الله عليه وسلم أَشْيَاء فقال :

" الحَلاَل ما أَحَلَّه الله ، والحَرَام ما حرَمَ الله ، ومَا سَكَتَ عَنْه فهو مِمَّا عَفَا عَنْه " قالوا : وكل ذلك يدل على أن المسكوت عنه معفو عنه . فلا يجوز تحريمه ولا إيجابه بإلحاقه بالمنطوق به .

قالوا : وقال عبدالله بن المبارك : ثنا عيسى بن يونس ، عن جرير بن عثمان ، عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه عن عوض بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم . فيحلون الحرام ويحرمون الحلال " قال قاسم بن أصبغ : حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذي ، ثنا نعيم بن حماد ، حدثنا عبدالله . . فذكره وهؤلاء كلهم أئمة ثقات حفاظ . إلا جرير بن عثمان فإنه كان منحرفاً عن علي رضي الله عنه ، ومع ذلك فقد احتج به البخاري في صحيحه ، وقد روي عنه أنه تبرأ مما نسب إليه من الانحراف عن علَي ، ونعيم بن حماد إمام جليل ، وكان سيفاً على الجهمية ، روى عنه البخاري في صحيحه .

(206/512)

قالوا : وقد صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم تقرب من التواتر أنه قال : " ذرني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " وقد قدمنا إيضاح مرادهم بالاستدلال بالحديث .

وقد ذكروا عن الصحابة والتابعين آثاراً كثيرة في ذم الرأي والقياس ، والتحذير من ذلك .

وذلك كثير معروف عن الصحابة فمن بعدهم . وذكروا كثيراً من أقيسة الفقهاء التي يزعمون أنها باطلة ، وعارضوها بأقيسة تماثلها في زعمهم . وذكروا أشياء كثيرة يزعمون أن الفقهاء فرقوا فيها بين المجتمع ، وجمعوا فيها بين المفترق ، إلى غير ذلك من أدلتهم الكثيرة على إبطال الرأي والقياس .

وقد ذكرنا في هذا الكلام جملاً وافية من أدلتهم على ذلك بواسطة نقل العلامة ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين عن رب العالمين) ولم نتتبع جميع أدلتهم لئلا يؤدي ذلك إلى الإطالة المملة . وقد رأيت فيما ذكرنا حجج القائلين بالقياس والاجتهاد فيما لا نص فيه ، وحجج المانعين لذلك .

المسألة السادسة

اعلم أن تحقيق المقام في هذه المسألة التي وقع فيها من الاختلاف لما رأيت أن القياس قسمان : قياس صحيح ، وقياس فاسد .

أما القياس الفاسد فهو الذي ترد عليه الأدلة التي ذكرها الظاهرية وتدل على بطلانه ، ولا شك أنه باطل ، وأنه ليس من الدين كما قالوا ، وكما هو الحق .

وأما القياس الصحيح فلا يرد عليه شيء من تلك الأدلة ، ولا يناقض بعضه بعضاً ، ولا يناقض البتة نصاً صحيحاً من كتاب أو سنة . فكما لا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ،

فإنه لا تتناقض دلالة الأقيسة الصحيحة ، ولا دلالة النص الصريح والقياس الصحيح ، بل كلها متصادقة متعاضدة متناصرة ، يصدق بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض .

فلا يناقض القياس الصحيح النص الصحيح أبداً .

وضابط القياس الصحيح هو أن تكون العلة التي علق الشارع بها الحكم وشرعه من أجلها موجودة بتمامها في الفرع من غير معارض في الفرع يمنع حكمها فيه . وكذلك القياس المعروف ب " القياس في معنى الأصل " الذي هو الإلحاق بنفي الفارق المؤثر في الحكم .

فمثل ذلك لا تأتي الشريعة بخلافه ، ولا يعارض نصاً ، ولا يتعارض هو في نفسه .

وسنضرب لك أمثلة من ذلك . تستدل بها على جهل الظاهرية القادح الفاضح ، وقولهم على الله وعلى رسوله وعلى دينه أبطل الباطل ، الذي لا يشك عاقل في بطلانه ، وعظم ضرره على الدين . بدعوى أنهم واقفون مع النصوص ، وأن كل ما لم يصرح بلفظه في كتاب أو سنة فهو معفو عنه ، ولو صرح بعلة الحكم المشتملة على مقصود الشارع من حكمة التشريع ، فأهدروا المصالح المقصودة من التشريع .

وقالوا على الله ما يقتضي أنه يشرع المضار الظاهرة لخلقه . فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه : من أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان " فالنَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح نهى عن الحكم في وقت الغضب ، ولا يشك عاقل أنه خص وقت الغضب بالنهي دون وقت الرضا . لأن الغضب يشوش الفكر فيمنع من استيفاء النظر في الحكم . فيكون ذلك سبباً لضياع حقوق المسلمين . فيلزم على قول الظاهرية كما قدمنا إيضاحه : أن النهي يختص بحالة الغضب ولا يتعداها إلى غيرها من حالات تشويش الفكر المانعة من استيفاء النظر في الحكم . فلو كان القاضي في حزن مفرط يؤثر عليه تأثيراً أشد من تأثير الغضب بأضعاف ، أو كان في جوع أو عطش مفرط يؤثر عليه أعظم من تأثير الغضب . فعلى قول الظاهرية فحكمه بين الناس في تلك الحالات المانعة من استيفاء النظر في الحكم عفو جائز . لأن الله سكت عنه في زعمهم ، فيكون الله قد عفا للقاضي عن التسبب في إضاعة حقوق المسلمين التي نصبه الإمام من أجل صيانتها وحفظها من الضياع ، مع أن تنصيص النَّبي صلى الله عليه وسلم على النهي عن الحكم في حالة الغضب دليل واضح على المنع من الحكم في حالة تشويش الكفر تشويشاً كتشوييش الغضب أو أشد منه كما لا يخفى على عاقل ! ! فانرظ عقول الظارهية وقولهم على الله ما يقتضي أنه أباح للقضاة الحكم في

حقوق المسلمين في الأحوال المانعة من القدرة على استيفاء النظر في الأحكام ، مع نهي النّبي صلى الله عليه وسلم الصريح عن ذلك في صورة من صورة وهي الغضب بزعمهم أنهم واقفون مع النصوص .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ثمّ لَمْ يَأْتُوا بأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً ولاَ تقبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وأولئك هُمُ الفاسقون إلاَّ الذين تَابُوا مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ الله غفورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : 4-5] فالله جل وعلا في هذه الآية الكريمة نص على أن الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يجلدون ثمانين جلدة ، وترد شهادتهم ويحكم بفسقهم . ثم استثنى من ذلك من تاب من القاذفين من بعد ذلك وأصلح . ولم يتعرض في هذا النص لحكم الذين يرمون المحصنين الذكور .

فيلزم على قول الظاهرية أن من قذف محصناً ذكراً ليس على أئمة المسلمين جلده ولا رد شهادته ، ولا الحكم بفسقه . لأن الله سكت عن ذلك في زعمهم ، وما سكت عنه فهو عفو !

فانظر عقول الظاهرية وما يقولون على الله ورسوله من عظائم الأمور ، بدعوى الوقوف مع

النص ! ! ودعوى بعض الظاهرية : أن آية ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ﴾ شاملة للذكور بلفظها ، بدعوى أن المعنى : يرمون الفروج المحصنات من فروج الإناث والذكور ، من تلاعبهم وجهلهم بنصوص الشرع ؟ وهل تمكن تلك الدعوى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَرْمُونَ المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ [النور : 23] الآية . فهل يمكنهم أن يقولوا إن الفروج هي الغافلات المؤمنات . وكذلك قوله تعالى : ﴿ والمحصنات مِنَ النسآء ﴾ [النساء : 24] الآية . وقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : 25] كما هو واضح ؟ ؟

(210/512)

ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن البول في الماء الراكد : فإنه لا يشك عاقل أن علة نهيه عنه أن البول يستقر فيه لركوده فيقذره . فيلزم على قول الظاهرية : أنه لو ملأ آنية كثيرة من البول ثم صبها في الماء الراد ، أو تغوط فيه أن كل ذلك عفو لأنه مسكوت عنه . فيكون الله على قولهم ينهى عن جعل قليل من البول فيه إذا باشر البول فيه ، ويأذن في جعل أضعاف ذلك من البول فيه بصبه فيه من الآنية . وكذلك يأذن في الغوط فيه !

وهذا لو صدر من أدنى عاقل لكان تناقضاً معيباً عند جميع العقلاء . فكيف بمن ينسب

ذلك إلى الله ورسوله عياذاً بالله تعالى بدعوى الوقوف مع النصوص ! ! وربما ظن الإنسان الأجر والقربة فيما هو إلى الإثم والمعصية أقرب . كما قيل :

أمنفقضة الأيتام من كد فرجها . . . لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن التضحية بالعوراء مع سكوته عن حكم التضحية بالعمياء . فإنه يلزم على قول الظاهرية : أن يناط ذلك الحكم بخصوص لفظ العور خاصة . فتكون العمياء مما سكت الله عن حكم التضحية به فيكون ذلك عفواً . وإدخال العمياء في اسم العوراء لغة غير صحيح . لأن المفهوم من العور غير المفهوم من العمى .

لأن العور لا يطلق إلا في صورة فيها عين تبصر . بخلاف العمى فلا يطلق في ذلك . وتفسير العور : بأنه عمى إحدى العينين لا ينافي المغايرة . لأن العمى المقيد بإحدى العينين غير العمى الشامل للعينين معاً . وبالجملة فالمعنى المفهوم من لظف العور غير المعنى المفهوم من لفظ العمى . فوقوف الظاهرية مع لفظ النص يلزمه جواز التضحية بالعمياء لأنها مسكوت عنها وأمثال هذا منهم كثيرة جداً . وقصدنا التنبيه على بطلان أساس دعواهم ، وهو الوقوف مع اللفظ من غير نظر إلى معاني التشريع والحكم والمصالح التي هي مناط الأحكام ، وإلحاق النظير بنظيره الذي لا فرق بينه وبينه يؤثر في الحكم .

واعلم أن التحقيق الذي لا شك فيه : أن الله تعالى يشرع الأحكام لمصالح الخلق . فأفعاله وتشريعاته كلها مشتملة على الحكم والمصالح من جلب المنافع ، ودفع المضار . فما يزعمه كثير من متأخري المتكلمين تقليداً لمن تقدمهم : من أن أفعاله جل وعلا لا تعلل بالعلل الغائية ، زاعمين أ ، التعليل بالأغراض يستلزم الكمال بحصول الغرض المعلل به ، وأن الله جل وعلا منزه من ذلك لاسلتزامه النقص كله كلام باطل ! ولا حاجة إليه البتة ! لأنه من المعلوم بالضرورة من الدين : أن اللج جل وعلا غني لذاته الغنى المطلق ، وجميع الخلق فقراء إليه غاية الفقر والفاقة والحاجة : ﴿ يا أيها الناس أَنْتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] ، ولكنه جل وعلا يشرع ويفعل لأجل مصالح الخلق المحتاجين الفقراء إليه . لا لأجل مصلحة تعود إليه هو سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وادعاء كثير من أهل الأصول : أن العلل الشرعية مطلق أمارات وعلامات للأحكام ناشئ عن ذلك الظن الباطل . فالله جل وعلا يشرع الأحكام لأجل العلل المشتملة على المصالح التي يعود نفعها إلى خلقه الفقراء إليه . لا إلى الله جل وعلا ﴿ إِن تكفروا أَنْتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] . وقد صرح تعالى وصرح رسوله صلى الله عليه وسلم : بأنه يشرع الأحكام من أجل الحكم المنوطة بذلك التشريع . وأصرح لفظ في ذلك لفظة (من أجل) وقد قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني

إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة : 32] الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إنما جعل الاستئذان من أجل البصر " .

وقد قدمنا أمثلة متعددة لحروف التعليل في الآيات القرآنية الدالة على العلل الغائية المشتملة على مصالح العباد ، وهو أمر معلوم عند من له علم بحكم التشريع الإسلامي .

(212/512)

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في (إعلام الموقعين عن رب العالمين) بعد أن ذكر قول من منع القياس مطلقاً ، وقول من غلا فيه ، وذكر أدلة الفريقين ما نصه :

قال المتوسطون بين الفريقين : قد ثبت أن الله سبحانه قد أنزل الكتاب والميزان . فكلاهما في الإنزال أخوان ، وفي معرفة الإحكام شقيقان ، وكما لا يتناقض الكتاب في نفسه ، فالميزان الصحيح لا يتناقض في نفسه ، ولا يتناقض الكتاب والميزان ، فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ولا دلالة الأقيسة الصحيحة ، ولا دلالة النص الصريح والقياس الصحيح .

بل كلها متصادقة متعاضدة متناصرة ، يصدق بعضها بعضاً ويشهد بعضها لبعض . فلا يناقض القياس الصحيح ، النص الصريح أبداً .

ونصوص الشارع نوعان : أخبار ، وأوامر ، فكما أن أخباره لا تخالف العقل الصحيح ، بل هي نوعان : نوع يوافقه ويشهد على ما يشهد به جملة ، أو جملة وتفصيلاً . ونوع يعجز عن الاستقلال بإدراك تفصيله وإن أدركه من حيث الجملة . فهكذا أوامره سبحانه نوعان : نوع يشهد به القياس والميزان ، ونوع لا يستقل بالشهادة به ولكن لا يخالفه

وكما أن القسم الثالث في الأخبار محال وهو ورودها بما يرده العقل الصحيح ، فكذلك الأوامر ليس فيها ما يخالف القياس والميزان الصحيح . وهذه الجملة إنما تنفصل بتمهيد قاعدتين عظيمتين .

(213/512)

إحداهما أن الذكر الأمري محيط بجميع أفعال المكلفين أمراً ونهياً ، وإذناً وعفواً . كما أن الذكر القدري محيط بجميعها علماً وكتابة وقدراً . فعلمه وكتابته وقدره قد أحصى جميع أفعال عباده الواقعة تحت التكليف وغيرها . وأمره ونهيه وإباحته وعفوه قد أحاط بجميع أفعالهم التكليفية . فلا يخرج فعل من أفعالهم عن أحد الحكمين : إما الكوني ، وإما الشرعي الأمري . فقد بين الله سبحانه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بكلامه وكلام رسوله جميع ما أمر به ، وجميع ما نهى عنه ، وجميع ما أحله ، وجميع ما حرمه ،

وجميع ما عفا عنه . وبهذا يكون دينه كاملاً كما قال تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : 3] ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص ، وعن وجه الدلالة وموقعها ، وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله جل وعلا . ولو كانت الأفهام متساوية لتساوت أقسام العلماء في العلم ، ولما خص سبحانه سليمان بفهم الحكومة في الحرث ، وقد أثنى عليه وعلى داود بالحكم والعلم . وقد قال عمر لأبي موسى في كتابه إليه : الفهم الفهم فيما أدلى إليك . وقال علي رضي الله عنه : إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه . وقال أبو سعيد : كان أبو بكر رضي الله عنه : أعلمنا برسول الله صلى الله عليه وسلم . ودعا النَّبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس : " أن يفقه في الدين ويعلمه التأويل " والفرق بين الفقه والتأويل : أن الفقه هو فهم المعنى المراد والتأويل إدراك الحقيقة التي يؤول إليها المعنى التي هي آخيته وأصله ، وليس كل من فقه في الدين عرف التأويل . فمعرفة التأويل يختص بها الراسخون في العلم ، وليس المراد به تأويل التحريف وتبديل المعنى ، فإن الراسخين في العلم يعلمون بطلانه ، والله يعلم بطلانه إلى أن قال رحمه الله :

وكل فرقة من هؤلاء الفرق الثلاث : يعني نفاة القياس بالكلية ، والغالين فيه .

والقائلين بأن العلل الشرعية أمارات وعلامات فقط ، لا مصالح أنيطت بها الأحكام وشرعت من أجلها سدوا على أنفسهم طريقاً من طرق الحق . فاضطروا إلى توسعة طريق أخرى أكثر مما تحتمله . فنفاة القياس لما سدوا على نفوسهم باب التمثيل والتعليل ، واعتبار الحكم والمصالح ، وهو من الميزان والقسط الذي أنزله الله احتاجوا إلى توسعة الظاهر والاستصحاب ، فحملوهما فوق الحاجة ، ووسعوها أكثر مما يسعانه . فحيث فهموا من النص حكماً أثبتوه ولم يبالوا بما وراءه ، وحيث لم يفهموه منه نفوه وحملوا الاستصحاب . وأحسنوا في اعتنائهم بالنصوص ونصرها . والمحافظة عليها ، وعدم تقديم غيرها عليها من رأي أو قياس أو تقليد . وأحسنوا في رد الأقيسة الباطلة ، وبيانهم تناقض أهلها في نفس القياس ، وتركهم له ، وأخذوا بقياس تركهم وما هو أولى منه . ولكن أخطؤوا من أربعة أوجه :

أحدها رد القياس الصحيح ، ولا سيما النصوص على علته التي يجري عليها مجرى التنصيص على التعميم باللفظ ، ولا يتوقف عاقل في أن قول النّبي صلى الله عليه وسلم لما

لعن عبد الله خماراً على كثرة شربه للخمر : " لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله " بمنزلة قوله : لا تلعنوا كل من يحب الله ورسوله . وفي قوله : " إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس " بمنزلة قوله : ينهيانكم عن كل رجس . وفي أن قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ [الأنعام : 145] : نهى عن كل رجس . وفي أن قوله في الهرة : " ليست بنجس لأنها من الطوافين عليكم والطوافات " . بمنزلة قوله : كل ما هو من الطوافين عليكم والطوافات فإنه ليس بنجس ، ولا يستريب أحد في أن من قال لغيره : لا تأكل من هذا الطعام فإنه مسموم نهي له عن كل طعام كذلك ، وإذا قال : لا تشرب هذا الشراب فإنه مسكر فهو نهي له عن كل مسكر . ولا تتزوج هذه المرأة فإنها فاجرة ، وأمثال ذلك الخطأ .

الثاني تقصيرهم في فهم النصوص . فكم من حكم دل عليه النص ولم يفهموا دلالته عليه . وسبب هذا الخطأ حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ دون إيمائه وتنبيهه ، وإشارته وعرفه عند المخاطبين . فلم يفهموا من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] ضرباً ولا سباً ولا إهانة غير لفظة : " أُفٍّ " فقصروا في فهم الكتاب كما قصروا في اعتبار الميزان الخطأ .

الثالث تحميل الاستصحاب فوق ما يستحقه ، وجزمهم بموجبه لعدم علمهم بالناقل . وليس عدم العلم علماً بالعدم .

وقد تنازع الناس في الاستصحاب، ونحن نذكر أقسامه، ثم شرع رحمه الله يبين أقسام الاستصحاب، وقد ذكرنا بعضها في سورة " براءة " وجعلها هو رحمه الله ثلاثة أقسام، وأطال فيها الكلام.

والمعروف في الأصول أن الاستصحاب أربعة أقسام:

الأول استصحاب العدم الأصلي حتى يرد الناقل عنه وهو البراءة الأصلية والإباحة العقلية. كقولنا: الأصل براءة الذمة من الدين فلا تعمر بدين إلا بدليل ناقل عن الأصل يثبت ذلك. والأصل براءة الذمة من وجوب صوم شهر آخر غير رمضان فيلزم استصحاب هذا العدم حتى يرد ناقل عنه، وهكذا.

النوع الثاني استصحاب الوصف المثبت للحكم حتى يثبت خلافه، كاستصحاب بقاء النكاح وبقاء الملك وبقاء شغل الذمة حتى يثبت خلافه.

الثالث استصحاب حكم الإجماع في محل النزاع، والأكثر على أن هذا الأخير ليس بحجة. وهو رحمه الله يرى أنه حجة. وكلا الأولين حجة بلا خلاف في الجملة.

الرابع الاستصحاب المقلوب، وقد قدمنا إيضاحه وأمثلته في سورة " التوبة ".

الخطأ الرابع لهم هو اعتقادهم أن عقود المسلمين وشروطهم ومعاملاتهم كلها على الباطل حتى يقوم دليل على الصحة ، فإذا لم يقم عندهم دليل على صحة شرط أو عقد أو معاملة استصحبوا بطلانه . فأفسدوا بذلك كثيراً من معاملات الناس وعقودهم وشروطهم بلا برهان من الله . بناء على هذا الأصل وجمهور الفقهاء على خلافه ، وأن الأصل في العقود والشروط الصحة إلا ما أبطله الشاعر أو نهى عنه . وهذا القول هو الصحيح . فإن الحكم ببطلانها حكم بالتحريم والتأثيم . ومعلوم أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولا تأثيم إلا ما أثم الله ورسوله به فاعله . كما أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله : ولا دين إلا ما شرعه الله ، فالأصل في العبادات البطلان حتى يقوم دليل على الأمر .

والأصل في العقود والمعاملات الصحة حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم . والفرق بينهما : أن الله سبحانه لا يعبد إلا بما شرعه على ألسنة رسله . فإن العبادة حقه على عباده ، وحقه الذي أحقه هو ورضي به وشرعه . وأما العقود والشروط والمعاملات فهي عفو حتى يحرمها ، ولذا نعى الله سبحانه على المشركين مخالفة هذين الأصلين : وهو تحريم ما لم يحرمه ، والتقرب إليه بما لم يشرعه ، وهو سبحانه لو سكت عن إباحة ذلك وتحريمه

لكان ذلك عفواً لا يجوز الحكم بتحريمه وإبطاله . فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، وما سكت عنه فهو عفو . فكل شرط وعقد ومعاملة سكت عنها ، فإنه لا يجوز القول بتحريمها . فإنه سكت عنها رحمة منه من غير نسيان وإهمال . فكيف وقد صرحت النصوص بأنها على الإباحة فيما عدا ما حرمه ! وقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعقود والعهود كلها فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ [الإسراء : 34] ، وقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا أَوْفُوا بالعقود ﴾ [المائدة : 1] ، وقال : ﴿ والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون : 8] ، وقال تعالى

(218/512)

: ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : 177] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2-3] ، وقال : ﴿ بلى مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ واتقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 76] ، وقال : ﴿ إِنَّ الله لا يُحِبُّ الخائنين ﴾ [الأنفال : 58] وهذا كثير في القرآن .

وفي صحيح مسلم من حديث الأعمش عن عبد الله بن مُرَّة عن مسروق عن عبد الله بن

عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر " وفيه عن أبي هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : " من علامات المنافق ثلاث وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وأذا ائتُمِنَ خان " من حديث سعيد بن المسيب .

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النّبي صلى الله عليه وسلم : " يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته فيقال : هذه غدرة فلان ابن فلان " وفيهما من حديث عقبة بن عامر عن النّبي صلى الله عليه وسلم : " إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج " وفي سنن أبي داود عن أبي رافع قال : بعثني قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيته أُلْقِيَ في قلبي الإسلام فقلت : يا رسول الله والله إني لا أرجع إليهم أبداً ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لا أخِيسُ بالعهد ، ولا أحبس البُردَ ، ولكن ارجع إليهم فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع " قال : فذهبت ثم أتيت النّبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيْلٌ فأخذنا كفار قريش قالوا : إنكم تريدون محمداً ؟ فقلنا : ما نريده . ما نريد إلا المدينة . فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه . فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر فقال : " انصرِفا ، نَفي لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم " إلى آخر كلامه رحمه الله في هذا المبحث . والمقصود عنده دلالة النصوص على الوفاء بالعهود والشروط ، ومنع الإخلاف في ذلك ، إلا ما دل عليه دليل خاص ، وذلك واضح من النصوص التي ساقها كما ترى .

ثم بين رحمه الله أن المخالفين في ذلك يجيبون عن الحجج المذكورة تارة بنسخها ، وتارة بتخصيصها ببعض العهود والشروط ، وتارة بالقدح في سند ما يمكنهم القدح فيه ، وتارة بمعارضتها بنصوص أخر ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . كتاب الله أحق وشرط الله أوثق "

وكقوله صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : 229] .

وأمثال ذلك في الكتاب والسنة . قال : وأجاب الجمهور عن ذلك بأن دعوى النسخ والتخصيص تحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه ولا دليل عليها ، وبأ ، القدح في بعضها لا

يقدح في سائرها ، ولا يمنع من الاستشهاد بالضعيف وإن لم يكن عمدة لاعتضاده بالصحيح ، وبأنها لا تعارض بينها وبين ما عارضوها به من النصوص .

(220/512)

ثم بين أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " وما كان من شرط ليس في كتاب الله " أي في حكمه وشرعه ، كقوله تعالى : ﴿ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : "كتاب الله القصاص " في كسر السن . قال : فكتابه سبحانه يطلق على كلامه وعلى حكمه الذي حكم به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن كل شرط ليس في حكم الله فهو مخالف له ، فيكون باطلاً . فإذا كان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حكم بأن الولاء للمعتق ، فشرط خلاف ذلك يكون شرطاً مخالفاً لحكم الله . ولكن أين في هذا : أن ما سكت عن تحريمه من العقود والشروط يكون باطلاً حراماً ، وتعدي حدود الله هو تحريم ما أحله ، أو إباحة ما حرمه ، أو إسقاط ما أوجبه لا إباحة ما سكت عنه ، وعفا عنه ، بل تحريمه هو نفس تعدي حدوده . إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

ثم بين رحمه الله : أن دلالة النصوص عامة في جميع الأحكام ، إلا أن الناس يتفاوتون في ذلك

تفاوتاً كثيراً . وبين مسائل كثيرة مما فهم فيه بعض الحصابة من النصوص خلاف المراد .

قال : وقد أنكر النَّبي صلى الله عليه وسلم على عمر فهمه إتيان البيت الحرام عام الحديبية من إطلاق قوله : " فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به " لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه .

وأنكر على عدي بن حاتم فهمه من الخيط الأبيض والخيط الأسود نفس العقالين .

وأنكر على فهم من قوله : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردلة من كبر " شمول لفظه لحسن الثوب وحسن النعل . وأخبرهم أنه " بطر الحق وغمط الناس " وأنكر على من فهم من قوله : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " أنه كراهة الموت ، وأخبرهم أن هذا للكافر إذا احتضر وبشر بالعذاب ، فإنه حينئذ يكره لقاء الله والله يكره لقاءه . وأن المؤمن إذا احتضر وبشر بكرامة الله أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه .

وأنكر على عائشة إذ فهمت من قوله تعالى :

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [الانشقاق : 8] معارضته لقوله صلى الله عليه

وسلم : " من نوقش الحساب عذب " وبين لها أن الحساب اليسير هو العرض ، أي حساب العرض لا حساب المناقشة .

وأنكر على من فهم من قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سوءا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123] أن هذا الجزاء إنما هو في الآخرة ، وأنه لا يسلم أحد من عمل السوء . وبين أن هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن ، والمرض والنصب ، وغير ذلك من مصائبها ، وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة .

وأنكر على من فهم من قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : 82] أنه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين أنه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] وأوضح رحمه الله وجه ذلك بسياق القرآن .

قال : ثم سأله عمر بن الخطاب عن الكلالة وراجعه فيها مراراً فقال : " يكفيك آية الصيف " واعترف عمر رضي الله عنه بأنه خفي عليه فهمها ، وفهمها الصديق .

وقد نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية ، ففهم بعض الصحابة من نهيه أنه لكونها لم تخمس . وفهم بعضهم أن النهي لكونها كانت حملة القوم وظهرهم . وفهم بعضهم أنه لكونها كانت جوال القرية . وفهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكبار الصحابة ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي وصرح بعلته لكونها رجساً .

وفهمت المرأة من قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ﴾ [النساء : 20] جواز المغالاة في الصداق ، فذكرته لعمر فاعترف به .

(222/512)

وفهم ابن عباس من قوله تعالى : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 233] أن المرأة قد تلد لستة أشهر ، ولم يفهمه عثمان فهم برجم امرأة ولدت لها ، حتى ذكره ابن عباس فأقر به .

ولم يفهم عمر من قوله : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقهم " قتال مانعي الزكاة ، حتى بين له الصديق فأقر به .

وفهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا إِذَا مَا اتقوا وَآمَنُواْ ﴾ [المائدة : 93] رفع الجناح عن الخمر ، حتى بين له عمر أنه لا يتناول الخمر ، ولو تأمل سياق الآية لهم المراد منها ، فإنه إنما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه ، وذلك إنما يكون باجتناب ما حرمه من المطاعم . فالآية لا تتناول المحرم بوجه .

وقد فهم من فهم من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195]

انغماس الرجل في العدو . حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة ، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وأن الإلقاء إلى التهلكة هو ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها .

وقال الصديق رضي الله عنه : أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ [المائدة : 105] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده " فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها . وأشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة التي لم ترتكب ما نيت عنه من اليهود ، هل عذبوا أو نجوا حتى بين له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين ، وهذا هو الحق ، لأنه سبحانه قال عن الساكتين . ﴿ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [الأعراف : 164] فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم ، وإن لم يواجهوهم بالنهي ، فقد واجههم به من أدى الواجب

عنهم . فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم .

وأيضاً فإنه سبحانه إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به ، وعتوا عما نهوا عنه ، وهذا لا يتناول الساكتين قطعاً . فلما بين عكرمة لابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين كساه برده وفرح به .

وقد قال عمر بن الخطاب للصحابة : ما تقولون في ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ [النصر : 1] السورة ؟ قالوا : أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفر . فقال لابن عباس : ما تقول أنت ؟ قال : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه إياه . فقال : ما أعلم منها غير ما تعلم . إلى أن قال رحمه الله :

والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص . وأن منهم من يفهم في الآية حكماً أو حكمين . ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك . ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره . وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به ، فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ

بمفرده .

وهذا باب عجيب من فهم القرآن ، لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم ، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به : كما فهم ابن عباس من قوله تعالى : ﴿ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] مع قوله : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : 233] أن المرأة قد تلد لستة أشهر . . إلى آخر كلامه رحمه الله .

وإنما أكثرنا في هذه المباحث من نقل كلام ابن القيم رحمه الله كما رأيت . لأنه جاء فيها بما لم يأت به من تقدمه ولا من تأخر عنه تغمده الله برحمته الواسعة ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً . وقد تركنا كثيراً من نفائس كلامه في هذه المواضيع خشية الإطالة الكثيرة .

المسألة السابعة

اعلم أن استهزاء الظاهرية وسخريتهم بالأئمة المجتهدين رحمهم الله ، ودعواهم أن قياساتهم متناقضة ينقض بعضها بعضاً ، وأن ذلك دليل على أنها كلها باطلة وليست من الدين في شيء إذا تأمل فيه المنصف العارف وجد الأئمة رحمهم الله أقرب في أغلب ذلك إلى الصواب ، والعمل بما دلت عليه النصوص من الظاهرية الساخرين المستهزئين .

وسنضرب لك بعض الأمثلة لذلك لتستدل به على غيره .

اعلم أن من أعظم المسائل التي قال فيها الظاهرية بتناقض أقيسة الأئمة ، وتكذيب بعضها لبعض ، وأن ذلك يدل على بطلان كل قياس من أقيستهم ، هي مسألة الربا التي قال فيها النَّبي صلى الله عليه وسلم : " الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، يداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى " .

قال الظاهرية : فالنَّبي صلى الله عليه وسلم إنما حرم الربا في الستة المذكورة . فتحريمه في شيء غيرها قول على الله وعلى رسوله ، وتشريع زائد على ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : والذين زادوا على النص أشياء يحرم فيها الربا اختلفت أقوالهم ، وتناقضت أقيستهم . فبعضهم يقول : التمر ، والبلوط ثمر شجر يؤكل ويدبغ بقشره . وبعضهم يقول هي الكيل . وبعضهم يقول هي الاقتيات والادخار الخ .

فهذه أقيسة متضاربة متناقضة فليست من عند الله ، وإذا تأملت في هذه المسألة التي سخروا بسببها من الأئمة ، وادعوا عليهم أنهم حرموا الربا في أشياء لا دليل على تحريمه

فيها كالتفاح عند من يقول العلة الطعم كالشافعي ، وكالأشنان عند من يقول العلة الكيل علمت أن الأئمة أقرب إلى العمل بالنص في ذلك من الظاهرية المدعين الوقوف مع ظاهر النص . أما الشافعي الذي قال : العلة في تحريم الربا الطعم فقد استدل لذلك بما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا عبدالله بن وهب ، أخبرني عمرو (ح) وحدثني أبو الطاهر ، أخبرنا ابن وهب عن عمرو بن الحرث : أن أبا النضر حدثه أن بسر بن سعيد حدثه عن معمر بن عبدالله : أنه أرسل غلامه بصاع قمح . . الحديث ، وفيه . فإني كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الطعام بالطعام مثلاً بمثل " وكان طعامنا يومئذ الشعير فهذا حديث صحيح صرح فيه النّبي صلى الله عليه وسلم بأن الضطعام إذا بيع بالطعام بيع مثلاً بمثل . والطعام في اللغة العربية : اسم لكل ما يؤكل . قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ [آل عمران : 93] الآية ، وقال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [عبس : 24-28] ، وقال تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [المائدة : 5] ولا خلاف في ذبائحهم في ذلك . وفي صحيح مسلم : أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال في زمزم : " إنها طعام طعم " وقال لبيد في معلقته :

لمعفر فهد تنازع شلوه . . . غبش كواسب ما يمن طعامها

يعني بطعامها فريستها . كما قدمنا هذا مستوفى في سورة " البقرة " .

(227/512)

فالشافعي رحمه الله وإن سخر الظاهرية منه في تحريمه الربا في التفاح فهو متمسك في ذلك بظاهر حديث صحيح ، يقول فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم : " الطعام بالطعام مثلاً بمثل " فما المانع للظاهرية من القول بظاهر هذا الحديث الصحيح على عادتهم التي يزعمون فيحكمون على الطعام بأنه مثل بمثل ؟ وما مستندهم في مخالفة ظاهر هذا الحديث الصحيح ؟ وحكمهم بالربا في البر والشعير والتمر والملح دون غيرها من سائر المطعومات ، مع أن لفظ الطعام في الحديث المذكور عام للأربعة المذكورة وغيرها كما ترى ، فهل الشافعي في تحريم الربا في التفاح أقرب إلى ظاهر النص أو الظاهرية ؟ وكذلك سخريتهم من الإمام أبي حنيفة وأحمد رحمهما الله في قولهما بدخول الربا في كل مكيل وموزون ، مستهزئين بمن يقول بالربا في الأشنان قياساً على التمر . إذا تأملت فيه وجدت الإمامين رحمهما الله أقرب في ذلك إلى ظاهر النص من الظاهرية .

(228/512)

قال الحاكم في (المستدرك) : حدثنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ، ثنا الحسن بن مكرم روح بن عبادة ، ثنا حيان بن عبيد الله العدوي قال : سألت أبا مجلز عن الصرف فقال : كان ابن عباس رضي الله عنهما لا يرى به بأساً زماناً من عمره ما كان منه عيناً يعني يداً بيد ، فكان يقول : إنما الربا في النسيئة . فلقيه أبو سعيد الخدري فقال : يا ابن عباس ، ألا تتقي الله إلى متى تؤكل الناس الربا ؟ أما بلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم وهو عند زوجته أم سلمة : "إني لأشتهي تمر عجوة" فبعثت صاعين من تمر إلى رجل من الأنصار فجاء بدل صاعين صاع من تمر عجوة . فقامت فقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه أعجبه ، فتناول تمرة ثم أمسك فقال : "من أين لكم هذا" ؟ فقالت أم سلمة : بعثت صاعين من تمر إلى رجل من الأنصار فأتانا بدل صاعين هذا الصاع الواحد ، وها هو ، كل ، فألقى التمرة بين يديه فقال : "ردوه لا حاجة لي فيه . التمر بالتمر ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، يداً بيد ، عيناً بعين ، مثلاً بمثل فمن زاد فهو رباً" ثم قال "كذلك ما يكال ويوزن أيضاً" إلى آخره .

ثم قال الحاكم رحمه الله : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه بهذه السياقة . وهذا الحديث الذي قال الحاكم إنه صحيح الإسناد ، فيه التصريح بأن ما يكال ويوزن يباع مثلاً بمثل ، يداً بيد . وقد قدمنا مراراً أن الموصولات من صيغ العموم لعمومها في كل ما تشمله صلاتها .

فأبو حنيفة مثلاً القائل بالربا في الأشنان متمسك بظاهر هذا الحديث . فهو أقرب إلى ظاهر النص من الظاهرية المستهزئين به الزاعمين أنه بعيد في ذلك عن النص .

(229/512)

فإن قيل : هذا الحديث لا يحتج به لضعفه ، وقد قال الذهبي متعقباً على الحاكم تصحيحه للحديث المذكور ما نصه : قلت : حيان فيه ضعف وليس بالحجة ، وقد أشار البيهقي إلى تضعيف هذا الحديث ، وأعله ابن حزم من ثلاثة أوجه : الأول زعمه أنه منقطع . لأن أبا مجلز لم يسمع من أبي سعيد ولا من ابن عباس . الثاني أن في الحديث أن ابن عباس رجع عن القول بإباحة ربا الفضل . واعتقاد ابن حزم أن ذلك باطل لقول سعيد بن جبير إن ابن عباس لم يرجع عن ذلك . والثالث أن حيان بن عبيد الله المذكور في سند هذا الحديث مجهول .

فالجواب عن ذلك كله هو ما ستراه الآن إن شاء الله ، وهو راجع إلى شيئين : الأول مناقشة من ضعف الحديث ، وبيان أنه ليس بضعيف . والثاني أنا لو سلمنا ضعفه تسليماً جدلياً فهو معتضد بما يثبت الاحتجاج به من الشواهد .

أما المناقشة في تضعيفه ، فقول الذهبي : إن حيان فيه ضعف وليس بالحجة معارض بقول

أبي حاتم فيما ذكره عن ابنه في كتاب الجرح والتعديل : إنه صدوق ، ومعلوم أن الصحيح أن التعديل يقبل مجملاً ، والتجريح لا يقبل إلا مبيناً مفصلاً كما هو مقرر في علوم الحديث . وقد ترجم له البخاري في تاريخه الكبير ولم يذكر فيه جرحاً . وإعلال ابن حزم له بأنه منقطع . وأن حيان مجهول قد قدمنا مناقشته فيه في سورة " البقرة " لأن أبا مجلز أدرك ابن عباس وسمع عنه .

(230/512)

قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل في أبي مجلز المذكور : وهو لاحق بن حميد السدوسي البصري ، توفي أيام عمر بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عمر وابن عباس وأنس وجندب الخ ، وتصريحه بروايته عن ابن عباس يدل على عدم صحة قول ابن حزم : إنه لم يسمع من ابن عباس ، وقال البخاري في تاريخه الكبير في لاحق بن حميد المذكور : أبو مجلز السدوسي البصري مات قبل الحسن بقليل ، ومات الحسن سنة عشر ومائة ، سمع ابن عمر وابن عباس وأنس بن مالك الخ . وفيه تصريح البخاري بسماع أبي مجلز من ابن عباس ، ومع هذا فابن حزم يقول : هو منقطع لعدم سماعه منه . وأما أبو سعيد فلا شك أنه أدركه أبو مجلز المذكور ، والمعاصرة تكفي ولا يشترط ثبوت اللقي على التحقيق . كما أوضحه مسلم بن

الحجاج رحمه الله في مقدمة صحيحه .

وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب في أبي مجلز المذكور : روى عن أبي موسى الأشعري ، والحسن بن علي ، ومعاوية . وعمران بن حصين ، وسمرة بن جندب ، وابن عباس ، والمغيرة بن شعبة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وأنس ، وجندب بن عبد الله ، وسلمة بن كهيل ، وقيس بن عباد وغيرهم .

وأرسل عن عمر بن الخطاب . وحذيفة الخ . ومما يوضح معاصرة أبي مجلز لأبي سعيد : أن جماعة من هؤلاء الصحابة الذين ذكر ابن حجر أنه روى عنهم ما توا قبل أبي سعيد رضي الله عنهم . فأبو سعيد رضي الله عنه توفي سنة ثلاث أو أربع أو خمس بعد الستين ، وقد مات قبله الحسن بن علي ، وأبو موسى الأشعري ، وعمران بن حصين ، ومعاوية وسمرة بن جندب كما هو معلوم .

وأما قول ابن حزم : إنه مجهول فقد قدمنا مناقشة السبكي له في تكملة المجموع ، وأنه قال : فإن أراد ابن حزم أنه مجهول العين فليس بصحيح ، بل هو رجل مشهور ، روي عنه حديث الصرف هذا روح بن عبادة ، ومن جهته أخرجه الحاكم ، وذكره ابن حزم وإبراهيم بن

الحجاج الشامي ، ومن جهته رواه ابن عدي ويونس بن محمد ، ومن جهته رواه البيهقي وهو حيان بن عبيد الله بن حيان بن بشر بن عدي بصري ، سمع أبا مجلز لاحق بن حميد والضحاك وعن أبيه ، وروى عن عطاء وابن بريدة ، روى عنه موسى بن إسماعيل ومسلم بن إبراهيم ، وأبو داود وعبيد الله بن موسى ، عقد له البخاري وابن أبي حاتم ترجمة فذكر كل منهما بعض ما ذكرته . وله ترجمة في كتاب ابن عدي كما أشرت إليه ، فزال عنه جهالة العين . وإن أراد جهالة الحال فهو قد رواه من طريق إسحاق بن راهويه فقال في إسناده : أخبرنا روح قال : حدثنا حيان بن عبيد الله ، وكان رجل صدق . فإن كانت هذه الشهادة له بالصدق من روح بن عبادة فروح محدث نشأ في الحديث ، عارف به ، مصنف متفق على الاحتجاج به ، بصري بلدي للمشهور له فتقبل شهادته له . وإن كان هذا القول من إسحاق بن راهويه فناهيك به ، ومن يثني عليه إسحاق ! وقد ذكر ابن أبي حاتم حيان بن عبيد الله هذا ، وذكر جماعة من المشاهير ممن رووا عنه وممن روى عنهم ، قال : إن سأل أباه عنه فقال : صدوق اهـ من تكملة المجموع كما قدمناه في سورة " البقرة " . والذي رأيت في سنن البيهقي الكبرى : أن الراوي عن حيان المذكور في إسناده له إبراهيم بن الحجاج ، وقال صاحب الجوهر النقي : وحيان هذا ذكره ابن حيان في الثقات من أتباع التابعين . وقال الذهبي في الضعفاء : جائز الحديث . وقال عبد الحق في أحكامه : قال أبو بكر الزار : حيان رجل من أهل البصرة مشهور وليس به بأس . وقال فيه أبو حاتم : صدوق . وقال

بعض المتأخرين فيه : مجهول . ولعله اختلط عليه بحيان بن عبيد الله المروي ، وبما ذكر تعلم

أن دعوى ابن حزم

(232/512)

أن الحديث منقطع ، وأن حيان المذكور مجهول ليست بصحيحة .

وأما دعواه عدم رجوع ابن عباس لقول سعيد بن جبير : إنه لم يرجع عن القول بإباحة ربا الفضل فقد قدمنا الروايات الواردة برجوعه مستوفاة في سورة " البقرة " عن جماعة من أصحابه ، ولا شك أنها أولى من قول سعيد بن جبير . لأنهم جماعة وهو واحد ، ولأنهم مثبتون رجوعه وهو نافيه ، والمثبت مقدم على النافي . وأما شواهد حديث حيان المذكور الدال على أن الربا في كل ما يكال ويوزن فمنها ما قدمنا في سورة " البقرة " من حديث أنس وعبادة بن الصامت عند الدارقطني : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما وزن مثل بمثل إذا كان نوعاً واحد ، وما كيل فمثل ذلك . فإذا اختلف النوعان فلا بأس به " وقد قدمنا في سورة " البقرة " قول الشوكاني : إن حديث أنس وعبادة هذا أشار إليه ابن حجر في التلخيص ولم يتكلم عليه ، وفي إسناده الربيع بن صبيح وثقه أبو زرعة وغيره ، وضعفه جماعة ، وقد أخرج هذا الحديث البزار أيضاً . ويشهد لصحته حديث عبادة

المذكور أولاً وغيره من الأحاديث انتهى منه كما تقدم . وفي هذا الحديث المذكور دليل واضح على أن كل ما يكال أو يوزن فيه الربا وإن سخر الظاهرية ممن يقول بذلك ، ومن شواهد حديث حيان المذكور الحديث المتفق عليه . قال البخاري في صحيحه في (كتاب الوكالة) : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن عبد المجيد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على خيبر فجاءهم بتمر جَنِيبٍ ، فقال : "أَكُلُّ تمر خيبر هكذا " ؟ فقال : إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصَّاعين ، والصَّاعين بالثلاثة ، فقال : "لا تفعل بع الجميع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً " ، وقال في الميزان مثل ذلك . انتهى منه .

(233/512)

ومحل الشاهد منه قوله : وقال في الميزان مثل ذلك ، ومعناه ظاهرٌ جداً في أن ما يوزن بالميزان مثل ذلك في منع الربا . وقد قدمنا أقوال من أول هذا الحديث وصرفه عن المعنى المذكور في سورة "البقرة" . وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه : أنه سمع سعيد بن المسيب يحدث أن أبا هريرة وأبا سعيد حدثاه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث

أخا بني عدي الأنصاري فاستعمله على خيبر، فقدم بتمر جنيب. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟" قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تفعلوا ولكن مثلاً بمثل، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا، وكذلك الميزان"

انتهى منه. وقوله في هذه الحديث المتفق عليه "وكذلك الميزان" ظاهر جداً في أن ما يوزن كما يكال، وأن في ذلك كله الربا. ولا شك أن هذه الأحاديث التي عمل بها بعض الأئمة وإن استهزأ بهم الظاهرية في ذلك أقرب إلى ظاهر النص من قول الظاهرية: إنه لا ربا إلا في الستة المذكورة قبل. والمقصود التمثيل لأحوالهم مع الأئمة المجتهدين رحمهم الله.

تنبيه

اعلم أنا نقول بموجب الأحاديث التي استدل بها الظاهرية، على أن ما سكت عنه الشارع فهو عفو، ونقول مثلاً: إن صوم شهر آخر غير رمضان لم يوجب علينا فهو عفو. ولكن لا نسلم أن آية: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: 23] ساكتة عن تحريم ضرب الوالدين. بل نقول هي دالة عليه، وادعاء أنها لم تتعرض لذلك باطل كما ترى. ولا نقول:

إن آية ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الزلزلة : 7] الآية ساكتة عن مؤاخذة من عمل مثقال جبل . بل هي دالة على المؤاخذة بذلك . وهكذا إلى آخر ما ذكرنا من أمثلة ذلك في هذه المباحث ، وفي سورة " بني إسرائيل " . وما ذكرنا سابقاً من أن الصواب في مسألة القياس أنه قسمان . صحيح ، وفاسد . كما بينا وكما أوضحه ابن القيم رحمه الله في كلامه الذي نقلنا اعتمده صاحب مراقي السعود في قوله في القياس :

وما روي من ذمه فقد عني . . . به الذي على الفساد قد بني

المسألة الثامنة

اعلم أن جماهير القائلين بالقياس يقولون : إنه إن خالف النص فهو باطل ، ويسمون القدح فيه بمخالفته للنص فساد الاعتبار . كما أشار إليه صاحب مراقي السعود بقوله :

والخلف للنص أو إجماع دعا . . . فساد الاعتبار كل من وعى

كما قدمناه في سورة " البقرة " .

واعلم أن ما يذكره بعض علماء الأصول من المالكية وغيرهم عن الإمام مالك رحمه الله : من أنه يقدم القياس على أخبار الآحاد خلاف التحقيق . والتحقيق : أنه رحمه الله يقدم

أخبار الآحاد على القياس . واستقراء مذهبه يدل على ذلك دلالة واضحة ، ولذلك أخذ بحديث المصراة في دفع صاع التمر عوض اللبن . ومن أصرح الأدلة التي لا نزاع بعدها في ذلك : أنه رحمه الله يقول : إن في ثلاثة أصابع من أصابع المرأة ثلاثين من الإبل ، وفي أربعة أصابع من أصابعها عشرين من الإبل . كما قدمناه مستوفى في سورة " بني إسرائيل " . ولا شيء أشد مخالفة للقياس من هذا كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن لسعيد بن المسيب حين عظم جرحها ، واشتدت مصيبتها : نقص عقلها . ومالك خالف القياس في هذا لقول سعيد بن المسيب : إنه السنة كما تقدم .

وبعد هذا فلا يمكن لأحد أن يقول : إن مالكاً يقدم القياس على النص ، ومسائل الاجتهاد والتقليد مدونة في أصول الفقه ، ولأجل ذلك نكتفي بما ذكرنا من ذلك هنا .

المسألة التاسعة

اعلم أن أكثر أهل العلم قالوا : إن الحرث الذي حكم فيه سليمان وداود إذ نفشت فيه غنم القوم بستان عنب : والنفش : رعي الغنم ليلاً خاصة . ومنه قول الراجز :

بدلسن بعد النفش الوجيفا . . . وبعد طول الجرة الصريفا

وقيل : كان الحرث المذكور زرعاً ، وذكروا أن داود حكم بدفع الغنم لأهل الحرث عوضاً من حرثهم الذي نفشت فيه فأكلته . وقال بعض أهل العلم : اعتبر قيمة الحرث فوجد الغنم بقدر القيمة فدفعها إلى أصحاب الحرث . إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ، ورضوا بدفعها ورضي أولئك بأخذها بدلاً من القيمة . وأما سليمان فحكم بالضمان على أصحاب الغنم ، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان حين نفشت فيه غنمهم . ولم يضيع عليهم غلته من حين الإتلاف إلى حين العود ، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم . وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء ، قالوا : وهذا هو العلم الذي خصه الله به ، وأثنى عليه بإدراكه . هكذا يقولون ، والله تعالى أعلم .

المسألة العاشرة

اعلم أن العلماء اختلفوا في مثل هذه القصة . فلو نفشت غنم قوم في حرث آخرين فتحاكموا إلى حاكم من حكام المسلمين فماذا يفعل ؟ اختلف العلماء في ذلك . فذهب أكثر أهل العلم إلى أن ما أفسدته البهائم ليلاً يضمنه أرباب الماشية بقيمته ، وهو المشهور من مذهب

مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله. وقيل: يضمنونه بمثله كقضية سليمان. قال ابن القيم: وهذا هو الحق. وهو أحد القولين في مذهب أحمد، ووجه الشافعية والمالكية، والمشهور عنهم خلافه. والآية تشير إلى اختصاص الضمان بالليل. لأن النفش لا يطلق لغة إلا على الرعي بالليل كما تقدم. واحتج الجمهور لضمان أصحاب ما أفسدته ليلاً بحديث حرام بن مُحيِّصة: أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه. فقضى نبي الله صلى الله عليه وسلم: "أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها" رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد وأبو داود، وابن ماجه والدارقطني، وابن حبان. وصححه الحاكم فقال بعد أن ساق الحديث المذكور: هذا حديث صحيح الإسناد على خلاف فيه بين معمر والأوزاعي: فإن معمراً قال: عن الزهري عن حرام بن محيصة عن أبيه، وأقره الذهبي على تصحيحه ولم يتعقبه.

وقال الشوكاني رحمه الله في (نيل الأوطار) في الحديث المذكور: صححه الحاكم والبيهقي. قال الشافعي: أخذنا به لثبوته واتصاله ومعرفة رجاله اهـ منه. والاختلاف على الزهري في رواية هذا الحديث كثير معروف.

وقال ابن عبد البر: وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديث مشهور، أرسله الأئمة، وحدث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث، وعلى كل حال

فالحديث المذكور احتج به جمهور العلماء ، منهم الأئمة الثلاثة المذكورون على أن ما أفسدته البهائم بالليل على أربابها ، وفي النهار على أهل الحوائط حفظها .

(238/512)

ومشهور مذهب مالك وأحمد والشافعي أنه يضمن بقيمته كما تقدم . وأبو حنيفة يقول : لا ضمان مطلقاً في جناية البهائم ، ويستدل بالحديث الصحيح : " العَجْمَاءُ جُبَارٌ " أي جرحها هدر . والجمهور يقولون : إن الحديث المذكور عام وضمان ما أفسدته ليلاً مخصص له . وذهب داود ومن وافقه إلى أن ما أتلفته البهائم بغير علم مالكها ولو ليلاً لا ضمان فيه ، وأما إذا رعاها صاحبها باختياره في حرث غيره فهو ضامن بالمثل .

واعلم أن القائلين بلزم قيمة ما أفسدته البهائم ليلاً يقولون : يضمنه أصحابها ولو زاد على قيمتها . خلافاً لليث القائل : لا يضمنون ما زاد على قيمتها . وفي المسألة تفاصيل مذكورة في كتب الفروع . وصيغة الجمع في الضمير في قوله ﴿ لِحُكْمِهِم ﴾ [الأنبياء : 78] الظاهر أنها مراد بها سليمان وداود وأصحاب الحرث وأصحاب الغنم ، وأضاف الحكم إليهم لأن منهم حاكماً ومحكوماً له ومحكوماً لعيه .

وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ [الأنبياء : 79] أي القضية أو الحكومة المفهومة من قوله : ﴿

إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ [الأنبياء : 78] وقوله : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا ﴾ [الأنبياء : 79]

أي أعطينا كلا من داود وسليمان حكماً وعلماً . والتنوين في قوله : ﴿ وَكُلاًّ ﴾ عوض عن كلمة أي كل واحد منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

(239/512)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه سخر الجبال أي ذللها ، وسخر الطير تسبح مع داود . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من تسخيره الطير ، والجبال تسبح مع نبيه داود بينه في غير هذا الموضع . كقوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ والطير ﴾ [سبأ : 10] الآية . وقوله : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أي رجعي معه التسبيح . ﴿ والطير ﴾ أي وناديناالطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه . وقول من قال ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ : أي سيرى معه ، وأن التأويب سير النهار ساقط كما ترى . وكقوله تعالى : ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق والطير مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 17-19] .

والتحقيق : أن تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي . لأن الله جل وعلا

يجعل لها إدراكات تسبح بها ، يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها . كما قال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] الآية ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾

(240/512)

[الأحزاب : 72] الآية . وقد ثبت في صحيح البخاري : أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين . وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأعرف حجراً كان يسلم عَلَيّ في مكة قبل أن أُبعث . إني لأعرفه الآن " وأمثال هذا كثيرة والقاعدة المقررة عند العلماء : أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه . والتسبيح في اللغة : الإبعاد عن السوء ، وفي اصطلاح الشرع : تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال ﴾ أي جعلناها بحيث

تطيعه إذا أمرها بالتسبيح والظاهر أن قوله ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ مؤكد لقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ والموجب لهذا التأكيد : أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة .

وقال الزمخشري : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا . وقيل : كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك . وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط . لأن تأويل ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ بمعنى كنا قادرين بعيد ، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى .

وقال أبو حيان ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا . وقيل : كنا نفعل بالأشياء مثل ذلك . وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط . لأن تأويل ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ بمعنى كنا قادرين بعيد ، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى .

وقال أبو حيان ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن ، والطير لمن نخصه بكرامتنا اهـ ، وأظهرها عندي هو ما تقدم ، والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) ﴾

الضمير في قوله ﴿ عَلَّمْنَاهُ ﴾ راجع إلى داود ، والمراد بصنعة اللبوس : صنعة الدروع ونسجها . والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع : أنه أتبعه بقوله ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف ، والرمي بالرمح والسهم ، كما هو معروف . وقد أوضح هذا المعنى بقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحديد أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السرد ﴾ [سبأ : 10-11] فقوله : ﴿ أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ ﴾ أي أن اصنع دروعاً سابغات من الحديد الذي ألناه لك . والسرد : نسج الدرع . ويقال فيه الزرد ، ومن الأول قول أبي ذؤيب الهذلي :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . . داود أو اصنع السوابغ تبع

ومن الثاني قول الآخر :

نقريبهم لهذميات نقد بها . . . ما كان خاط عليهم كل زراد

ومراده بالزرادة : ناسج الدرع . وقوله ﴿ وَقَدِّرْ فِي السرد ﴾ أي اجعل الحلق والمسامير في نسجك الدرع بأقدار متناسبة . فلا تجعل المسمار دقيقاً لئلا ينكسر ، ولا يشد بعض الحلق ببعض ، ولا تجعله غليظاً غلظاً زائداً فيفصم الحلقة . وإذا عرفت أن اللبوس في الآية الدروع فاعلم أن العرب تطلق اللبوس على الدروع كما في الآية . ومنه قول الشاعر :

عليها أسود ضاويات لبوسهم . . . سوابغ بيض لا يخرقها النبل

فقوله " سوابغ " أي دروع سوابغ ، وقول كعب بن زهير :

شم العرانين أبطال لبوسهم . . . من نسج داود في الهيجا سرابيل

ومراده باللبوس التي عبر عنها بالسرابيل : الدروع . والعرب تطلق اللبوس أيضاً على جميع السلاح درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً . ومن إطلاقه على الرمح قول أبي كبير الهذلي يصف رمحاً :

ومعي لبوس للبئيس كأنه . . . روق بجبهة ذي نعاج مجفل

وتطلق اللبوس أيضاً على كل ما يلبس . ومنه قول بيهس :

البس كل حالة لبوسها . . . إما نعيمها وإما بوسها

وما ذكره هنا من الامتنان على الخلق بتعليمه صنعة الدروع ليقيهم بها من بأس السلاح تقدم إيضاحه في سورة " النحل " في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : 81] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ الظاهر فيه أن صيغة الاستفهام هنا يراد بها الأمر ، ومن إطلاق الاستفهام بمعنى الأمر في القرآن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ

الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: 91] أي انتهوا. ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران: 20] الآية، أي أسلموا. وقد تقرر في فن المعاني: أن من المعاني التي تؤدي بصيغة الاستفهام: الأمر، كما ذكرنا.

وقوله ﴿ شَاكِرُونَ ﴾ شكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل. ومادة "شكر" لا تتعدى غالباً إلا باللام، وتعديتها بنفسها دون اللام قليلة، ومنه قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر حبل من التقى... وما كل من أوليته نعمة يقضى

وفي قوله ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ ثلاث قراءات سبعية: قرأه عامة السبعة ما عدا ابن عامر وعاصماً ﴿ لِيُحْصِنَكُمْ ﴾ بالياء المثناة التحتية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل عائد إلى داود، أو إلى اللبوس، لأن تذكيرها باعتبار معنى ما يلبس من الدروع جائز. وقرأن ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ بالتاء المثناة الفوقية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل راجع إلى اللبوس وهي مؤنثة، أو إلى الصنعة المذكورة في قوله: ﴿ صَنْعَةَ

لَبُوسٍ ﴾ ، وقرأه شعبة عن عاصم ﴿ لِنُحْصِنَكُمْ ﴾ بالنون الدالة على العظمة وعلى هذه القراءة فالأمر واضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(244/512)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَدَاوُودَ وسليمان إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين * ففهمناها ﴾

شروع في عداد جمع من الأنبياء الذين لم يكونوا رسلاً .

وقد روعي في تخصيصهم بالذكر ما اشتهر به كل فرد منهم من المزية التي أنعم الله بها عليه ، بمناسبة ذكر ما فضل الله به موسى وهارون من إيتاء الكتاب المماثل للقرآن وما عقب ذلك .

ولم يكن بعد موسى في بني إسرائيل عصر له ميزة خاصة مثل عصر داوود وسليمان إذ تطور أمر جامعة بني إسرائيل من كونها مسوسة بالأنبياء من عهد يوشع بن نون .

ثم بما طرأ عليها من الفوضى من بعد موت (شمشون) إلى قيام (شاول) حَمِيّ داوود إلا أنه كان مَلِكاً قاصراً على قيادة الجند ولم يكن نبيًا ، وأما تدبير الأمور فكان للأنبياء

والقضاة مثل (صمويل)

فداوودُ أول من جمعت له النبوءة والمُلك في أنبياء بني إسرائيل .

وبلغ مُلك إسرائيل في مدة داوود حدّاً عظيماً من البأس والقوة وإخضاع الأعداء .

وأوتي داوود الزبور فيه حكمة وعظة فكان تكملة للتوراة التي كانت تعليم شريعة ،

فاستكمل زمنُ داوود الحكمة ورقائق الكلام .

وأوتي سليمان الحكمة وسَخر له أهل الصنائع والإبداع فاستكملت دولة إسرائيل في زمانه

عظمة النظام والثروة والحكمة والتجارة فكان في قصتها مثّل .

وكانت تلك القصة منتظمة في هذا السلك الشريف سلك إيتاء الفرقان والهدى والرشد

والإرشاد إلى الخير والحكم والعلم .

وكان في قصة داوود وسليمان تنبيه على أصل الاجتهاد وعلى فقه القضاء فلذلك خُص

داوود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما فيكون ﴿ داوود ﴾ عطفاً على ﴿ نوحاً

في قوله ونُوحاً ﴾ [الأنبياء : 76] ، أي وآتينا داوود وسليمان حكماً وعلماً إذ

يحكمان . . .

إلى آخره .

ف ﴿ إذْ يحكمان ﴾ متعلِّق بـ (آتينا) المحذوف ، أي كان وقتُ حكمهما في قضية الحرث

مظهَراً من مظاهر حُكمهما وعلمهِما .

والحُكم : الحِكمة ، وهو النبوءة .

(245/512)

والعلمُ : أصالة الفهم .

و ﴿ وإذ نفشت ﴾ متعلق بـ ﴿ يحكمان ﴾ .

فهذه القضية التي تضمنتها الآية مظهر من مظاهر العدل ومبالغ تدقيق فقه القضاء ، والجمع بين المصالح والتفاضل بين مراتب الاجتهاد ، واختلاف طرق القضاء بالحق مع كون الحق حاصلاً للمحِق ، فمضمونها أنها الفقه في الدين الذي جاء به المرسلون من قبل .

وخلاصتها أن داوود جلس للقضاء بين الناس ، وكان ابنه سُليمان حينئذ يافعاً فكان يجلس خارج باب بيت القضاء .

فاختصم إلى داوودَ رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم ، والآخر راعِي غنم لجماعة ، فدخلت الغنم الحرث ليلاً فأفسدت ما فيه فقضى داوود أن تُعطى الغنم لأصحاب الحرث إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما تلف من ذلك الحرث ، فلما حكم بذلك وخرج الخصمان فَقُصّ أمرُهما على سليمان ، فقال : لو كنتُ أنا قاضياً لحكمت بغير

هذا .

فبلغ ذلك داوودَ فأحضره وقال له : بماذا كنت تقضي ؟ قال : إني رأيت ما هو أرفق بالجميع .

قال : وما هو ؟ قال : أن يأخذ أصحابُ الغنم الحرثَ يقوم عليه عاملُهم ويُصلحه عاماً كاملاً حتى يعود كما كان ويرده إلى أصحابه ، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تُسلم لراعيهم فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدة فإذا كَمل الحرث وعاد إلى حاله الأول صرف إلى كل فريق ما كان له .

فقال داوود : وُفّقت يا بُني .

وقضى بينهما بذلك .

فمعنى ﴿ نفشت فيه ﴾ دخلته ليلاً ، قالوا : والنفش الانفلات للرعي ليلاً .

وأضيف الغنم إلى القوم لأنها كانت لجماعة من الناس كما يؤخذ من قوله تعالى ﴿ غنم القوم ﴾ .

وكذلك كان الحرث شركة بين أناس .

كما يؤخذ مما أخرجه ابن جرير في "تفسيره" من كلام مجاهد ومرة وقتادة ، وما أخرجه ابن كثير في "تفسيره" عن مسروق من رواية ابن أبي حاتم .

وهو ظاهر تقرير "الكشاف" .

وأما ما ورد في الروايات الأخرى من ذكر رجلين فإنما يحمل على أن اللذين حضرا للخصومة هما راعي الغنم وعامل الحرث .

(246/512)

واعلم أن مقتضى عطف داوود وسليمان على إبراهيم ومقتضى قوله ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ أي عالمين وقوله تعالى : ﴿ وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً ﴾ ومقتضى وقوع الحُكمين في قضية واحدة وفي وقت واحد ، إذ أن الحُكمين لم يكونا عن وحي من الله وأنهما إنما كانا عن علم أُوتيه داوود وسليمان ، فذلك من القضاء بالاجتهاد .

وهو جار على القول الصحيح من جواز الاجتهاد للأنبياء ولنبينا عليهم الصلاة والسلام ووقوعِه في مختلف المسائل .

وقد كان قضاء داوود حقاً لأنه مستند إلى غرْم الأضرار على المتسببين في إهمال الغنم ، وأصل الغرْم أن يكون تعويضاً ناجزاً فكان ذلك القضاء حقاً .

وحسبك أنه موافق لما جاءت به السنة في إفساد المواشي .

وكان حكم سليمان حقاً لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء مالهم إلى حين فهو يشبه الصلح .

ولعل أصحاب الغنم لم يكن لهم سواها كما هو الغالب ، وقَد رضي الخصمان بحكم سليمان لأن الخصمين كانا من أهل الإنصاف لا من أهل الاعتساف ، ولو لم يرضيا لكان المصير إلى حكم داوود إذ ليس الإرفاق بواجب .

ونظير ذلك قضاء عمر بن الخطاب على محمد بن مسلمة بأن يمر الماء من (العُرَيض) على أرضه إلى أرض الضحاك بن خليفة وقال لمحمد بن مسلمة : لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع ؟ فقال محمد : لا والله ، فقال عمر : والله ليَمرنّ به ولو على بَطنك ، ففعل الضحاك . وذلك أن عمر علم أنهما من أهل الفضل وأنهما يرضيان لما عزم عليهما ، فكان قضاء سليمان أرجح .

وتشبه هذه القضية قضاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الزبير والأنصاري في السقي من ماء شراج الحَرّة إذ قضى أول مرة بأن يُمسك الزبيرُ الماء حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل الماء إلى جاره ، فلما لم يرض الأنصاري قضى رسول الله بأن يمسك الزبير الماء حتى يبلغ الجَدر ثم يُرسل ، فاستوفى للزبير حقه .

وإنما ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالأرفق ثم لما لم يرض أحد الخصمين قضى بينهما بالفصل ، فكان قضاء النبي مبتدأ بأفضل الوجهين على نحو قضاء سليمان .

فمعنى قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أنه ألهمهُ وجهاً آخر في القضاء هو أرجح لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام ، فدل على أن فهم سليمان في القضية كان أعمق .

وذلك أنه أرفقُ بهما فكانت المسألة مما يتجاذبه دليلان فيصار إلى الترجيح ، والمرجحات لا تنحصر ، وقد لا تبدو للمجتهد ، والله تعالى أراد أن يظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به ، وليتعزى على مَن فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان .

وحسبك أنّه الموافق لقضاء النبي في قضية الزبير ، وللاجتهادات مجال في تعارض الأدلة .

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد ، وفي العمل بالراجح ، وفي مراتب الترجيح ، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد أو لم يهتد إلى المُعارض لقوله تعالى : ﴿ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ في معرض الثناء عليهما .

وفي بقية القصة ما يصلح لأن يكون أصلاً في رجوع الحاكم عن حكمه ، كما قال ابن عطية وابن العربي ؛ إلا أن ذلك لم تتضمنه الآية ولا جاءت به السنّة الصحيحة ، فلا ينبغي أن يكون تأصيلاً وأن ما حَاولاه من ذلك غفلة .

وإضافة (حكم) إلى ضمير الجمع باعتبار اجتماع الحاكمين والمتحاكمين .

وتأنيث الضمير في قوله ﴿ ففهمناها ﴾ ، ولم يتقدم لفظ معاد مؤنث اللفظ ، على تأويل الحكم في قوله تعالى : ﴿ لحكمهم ﴾ بمعنى الحكومة أو الخصومة .

وجملة ﴿ وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً ﴾ تذييل للاحتراس لدفع توهم أن حكم داوود كان خطأً أو جوراً وإنما كان حكم سليمان أصوب .

وتقدمت ترجمة داوود عليه السلام عند قوله تعالى : ﴿ وآتينا داوود زبورا ﴾ في [سورة النساء : 163] ، وقوله تعالى : ﴿ ومن ذريته داوود ﴾ في [سورة الأنعام : 84] .

(248/512)

وتقدمت ترجمة سليمان عليه السلام عند قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ في [سورة البقرة : 102] .

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير وكُنَّا فاعلين ﴾ هذه مزية اختصّ بها داوود وهي تسخير الجبال له وهو الذي بينته جملة ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ فهي إما بيان لجملة ﴿ سخرنا ﴾ أو حال مبينة .

وذكرها هنا استطراد وإدماج .

﴿ والطير ﴾ عطف على ﴿ الجبال ﴾ أو مفعول معه ، أي مع الطير يعني طير الجبال .

و﴿ مع ﴾ ظرف متعلق بفعل ﴿ يسبحن ، ﴾ وقُدم على متعلّقه للاهتمام به لإظهار كرامة داوود ، فيكون المعنى : أن داوود كان إذا سبح بين الجبال سمع الجبالَ تسبّح مثل تسبيحه .

وهذا معنى التأويب في قوله في الآية الأخرى : ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ [سبأ : 10] إذ التأويب الترجيع ، مشتق من الأوب وهو الرجوع .

وكذلك الطير إذا سمعت تسبيحه تغرّد تغريداً مثل تسبيحه وتلك كلها معجزة له .

ويتعين أن يكون هذا التسخير حاصلاً له بعد أن أُوتي النبوءة كما يقتضيه سياق تعداده في عداد ما أوتيه الأنبياء من دلائل الكرامة على الله ، ولا يعرف لداوود بعد أن أُوتي النبوءة مزاولة صعود الجبال ولا الرعي فيها وقد كان من قبل النبوءة راعياً .

فلعل هذا التسخير كان أيام سياحته في جبل برية (زيف) الذي به كهف كان يأوي إليه داوود مع أصحابه الملتفّين حوله في تلك السياحة أيام خروجه فاراً من الملك شاول (طالوت) حين تنكر له شاول بوشاية بعض حُساد داوود ، كما حكي في الإصحاحين 23 24 من سفر صمويل الأول .

وهذا سرّ التعبير بـ (مع) متعلقةً بفعل ﴿ سخرنا ﴾ هنا .

وفي آية سورة ص إشارة إلى أنه تسخير متابعة لا تسخير خدمة بخلاف قوله الآتي ﴿

ولسليمان الريح ﴾ [الأنبياء : 81] إذ عدي فعل التسخير الذي نابَت عنه واو العطف بلام الملك .

(249/512)

وكذلك جاء لفظ (مع) في آية [سورة سبأ : 10] ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة له كرامة وعناية من الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده .

وجملة وكنا فاعلين ﴾ معترضة بين الإخبار عما أوتيه داوود .

وفاعل هنا بمعنى قادر ، لإزالة استبعاد تسبيح الجبال والطير معه .

وفي اجتلاب فعل الكون إشارة إلى أن ذلك شأن ثابت لله من قبل ، أي وكنا قادرين على ذلك .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾

وامتن الله بصنعة علّمها داوود فانتفع بها الناس وهي صنعة الدروع ، أي درُوع السرد .

قيل كانت الدروع من قبلِ داوود ذات حَراشف من الحديد ، فكانت تثقل على الكُماة إذا لبسوها فألهم الله داوود صنع دُروع الحَلَق الدقيقة فهي أخف محملاً وأحسن وقاية .

وفي الإصحاح السابع عشر من سفر صمويل الأول أن جالوت الفلسطيني خرج لمبارزة داوود لابساً درعاً حَرشفياً ، فكانت الدروع الحرشفية مستعملة في وقت شباب داوود فاستعمل العرب دروع السرد .

واشتهر عند العرب ، ولقد أجاد كعب بن زهير وصفها بقوله:

شمّ العَرانين أَبطال لَبُوسُهم . . .

من نَسج دَاوودَ في الهيجا سرابيل

بيض سَوابغ قد شُكت لها حلَق . . .

كأنها حلَق القَفعاء مجدول

وكانت الدروع التُّبَّعية مشهورة عند العرب فلعل تُبّعاً اقتبسها من بني إسرائيل بعد داوود أو لعل الدروع التبعية كانت من ذات الحراشف ، وقد جمعها النابغة بقوله:

وكلَ صموت نِثلة تبّعية . . .

ونَسْج سُلَيْم كلّ قَمصاء ذَائِل

أراد بسليم ترخيم سليمان ، يعني سليمان بن داوود ، فنسب عمل أبيه إليه لأنه كان مدخِراً لها .

واللبوس بفتح اللام أصله اسم لكل ما يُلبس فهو فَعول بمعنى مفعول مثل رَسول .

وغلب إطلاقه على ما يُلبس من لامة الحرب من الحديد ، وهو الدرع فلا يطلق على الدرع لِباس ويطلق عليها لبوس كما يطلق لَبوس على الثياب .

(250/512)

وقال ابن عطية : اللبوس في اللغة السلاح فمنه الرمح ومنه قول الشاعر وهو أبو كبير الهذلي .

ومعي لَبُوس للبئيس كأنه . . .

رَوق بجبهة ذي نِعاج مجفل

وقرأ الجمهور ﴿ لِيُحْصِنكم ﴾ بالمثناة التحتية على ظاهر إضمار لفظ ﴿ لَبوس ﴾ .

وإسناد الإحصَان إلى اللبوس إسناد مجازي .

وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر بالمثناة الفوقية على تأويل معنى ﴿ لَبوس ﴾ بالدرع ، وهي مؤنثة ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ، ورويس عن يعقوب ﴿ لنحصنكم ﴾ بالنون .

وضمائر الخطاب في ﴿ لكم ، ليحصنكم ، من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ﴾ موجهة إلى المشركين تبعاً لقوله تعالى قبل ذلك : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ [

الأنبياء : 50] لأنهم أهملوا شكر نعم الله تعالى التي منها هذه النعمة إذ عبدوا غيره .

والإحصان : الوقاية والحماية .

والبأس : الحرب .

ولذلك كان الاستفهام في قوله تعالى ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ مستعملاً في استبطاء عدم الشكر ومكنّى به عن الأمر بالشكر .

وكان العدول عن إيلاء (هل) الاستفهامية بجملة فعلية إلى الجملة الاسمية مع أن ل (هل) مزيد اختصاص بالفعل ، فلم يقل : فهل تشكرون ، وعدل إلى ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ ليدلّ العدول عن الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار ، أي فهل تقرر شكركم وثبت لأن تقرر الشكر هو الشأن في مقابلة هذه النعمة نظير قوله تعالى ﴿ فهل أنتم منتهون في آية تحريم الخمر ﴾ [المائدة : 91] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(251/512)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾

يحكمان تعني أن هناك خصومة بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة ؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَيُهْلِكَ الحرث والنسل . . . ﴾ [البقرة : 205] .

والحرْث ذته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً ؛ لأنه ناشيء عنه ، كما في قوله تعالى أيضاً : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . . . ﴾ [آل عمران : 117] .

لكن ، لماذا سَمَّي الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة ؟ قالوا : ليُبيِّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث ؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتخفيفها من الماء الزائد ؛ لأن الأرض بعد عملية الريِّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسَام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التي تُسبِّب عطباً في جذور النبات .

لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهي التي تجمع بين هذه وهذه ، فتمسح للنبات بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

لذلك سَمَّي الزرْع حَرْثاً ؛ لأنه سبب نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع

بدون حَرْث، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة: 63-64].

(252/512)

ففي هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله في الكون، هي أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد، وقبل أن يُكلِّفك بشيء، ومكَّنت إلى سِنّ البلوغ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شيء من تصرفاتك.

وكذلك الأمر في الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهي، دون أن تتعب في طلبه، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه في الأمور الاختيارية في سِنّ التكليف.

إذن: لقد نِلْتَ قبل أن تعمل، وستنال في الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل، فلا بُدَّ لك من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة.

لذلك، في الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم: "أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه" ما دام قد عمل فقد استحق الأجر، والأمر كذلك في مسألة الحرث.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم . . . ﴾ [الأنبياء: 78] هذه خصومة بين طرفين، احتكما فيها لداود عليه السلام: رجل عنده زرع، وآخر عنده غنم، فالغنم

شردتْ في غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود، فحكم في هذه القضية بأن يأخذَ صاحبُ الزرع الغنَم، وربما وجد سيدنا داود أن الزرع الذي أتلفتْه الغنم يساوي ثمنها.

فحينما خرج الخَصْمان لقيهما سليمان - عليه السلام - وكان في الحادية عشرة من عمره، وعرف منهما حكومة أبيه في هذه القضية، فقال: (غير هذا أرفق بالفريقين) فسمَّي حُكْم أبيه رِفْقاً، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً، لكن عنده ما هو أرفق.

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله: ما الرِّفق بالفريقين؟ قال سليمان: نعطي الغنم لصاحب الزرع يستفيد من لبنها وأصوافها، ونعطي الأرض لصاحب الغنم يُصلحها حتى تعود كما كانت، ساعتها يأخذ صاحب الغنم غنمه، وصاحب الزرع زَرْعه.

ومعنى ﴿ نَفَشَتْ . . . ﴾ [الأنبياء: 78] تقول: نفش الشيء أي: أخذ حَجْماً فوق حَجْمه، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبز أو البقسماط ووضعتَها في لبن أو ماء، تلاحظ أنها تنتفش ويزداد حجمها تقول: انتفشت، كما نقول لمن يأخذ حجماً أكثر من حجمه: "أنت نافش ريشك".

وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78] أي مراقبين .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا . . . ﴾ .

فداود وسليمان – عليهما السلام – نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما في هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح في عِلْم داود ، ولا يطعن في حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . . ﴾ [الأنبياء : 79] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضي الابتدائي قد يحكم في قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضي استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتي حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير . . . ﴾ [الأنبياء : 79] حينما جمع السياق القرآني بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طرفاً مِمَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . . ﴾ [الأنبياء : 79] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن مَيْزة لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير . . . ﴾ [الأنبياء : 79] .

والتسخير: قَهْر المسَخَّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكّ عنه، وليس مختاراً فيه، ونلحظ هنا الارتقاء من الأَدْنى إلى الأعلى: أولاً: سخّر الجبال وهي جماد، ثم الطير وهي أرْقَى من الجماد، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير؛ لأنه حَيٌّ، وله روح، وله حركة وصوت مُعبّر، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير، لا بُعمْق ونظر في لُبِّ الأشياء، فالجبال يروْنها جامدة، ليس لها صوت مُعبّر كما للطير؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبّح، فكيف لها ذلك وهي جمادات؟

لكن؛ ما العجب في ذلك، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس الأرض، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التي يعيشون فيها، فالناس مختلفون في مثل هذه الأمور متفقون فقط في الغرائز، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار.

ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ [النجم: 43] فما دام أنه سبحانه الذي يُضحِك، والذي يُبكِي، فلن نختلف في هذه الأمور.

فالكلام – إذن – من الأشياء التي يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس في صوت الحروف ، فالحروف هي هي ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن – إذن – متحدون في الحروف ، لكن نختلف في معاني الأشياء .

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربي لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما في العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرّقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاي والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربي يقول في (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكّلِم .

(255/512)

فإذا كنا – نحن البشر – لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربي ، وهذا إنجليزي ، وهذا فرنسي . . إلخ فإذا لم تتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذي لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزي في بيئة

عربية لنطق بالعربية . . وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهي أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعني عدم فَهْمِنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأَدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورة من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكة الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ يا أَيُّهَا الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [النمل : 16] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما عَلِمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22] .

ونلحظ هنا دِقَّة سليمان - عليه السلام - في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه في قوله : ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين ﴾ [النمل : 20] فقد اتهم نظره وشكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ . . . ﴾ [النمل : 22] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله . . . ﴾ [النمل : 24] .

ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشيء خاص به ، وبظاهر تُهمه : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [النمل : 25] .

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء ؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرِج خبأها ليأكله .

وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : ﴿ حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا . . . ﴾ [النمل : 19]

.

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَهمه سليمان ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ . . . ﴾ [النمل : 19] .

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ . . . ﴾ [الأنبياء : 79] قالوا : يعني تسبيح دلالة ، فهي بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ،

وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعترفوا لها بالتسبيح ؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن ، كما قال تعالى :

﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

والآن نرى في طموحات العلماء السَّعْي لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات ، ولا نستبعد في المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم في المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيّة التي أعطاها الله تعالى لنبيه داود – عليه السلام – ليستْ في تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة في أنها تُردِّد معه ، وتوافقه التسبيح ، وتجاوبه ، فحين يقول داود : سبحان الله تردد وراءه الجبال : سبحان الله ، وكأنهم جميعاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياةَ فيه ، فهو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ

المحاجر في طبقات الأرض لوجدت بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السنين ، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَوْنُ الحجر وتتغير طبيعته ، وهذا دليل الحياة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحجرة لَوْناً معيناً تراه يتغير مع مرور الزمن ، إذن : في هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولون في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أنه سبَّح الحصى في يده . أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلي ، فالحجر مُسبِّح في يد رسول الله ، وفي يد أبي جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هي أن رسول الله سمع تسبيح الحصى في يده .

فما من شيء في كون الله إلا وله حياة تناسبه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فرع وجود حياة ، وكل شيء في الوجود له حياة ، فعلبة الكبريت هذه التي نستعملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعلات تكفي لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] .

فكلُّ ما يقال له شيء - إلا وَجْه الله - هالك ، والهلاك يعني أن فيه حياةً ؛ لأن الهلاك ضد

الحياة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [الأنفال: 42].

(258/512)

فكُلُّ شيء في الوجود له حياة بقانونه، وليس من الضروري أن تسمع الكلام حتى تعترف بوجوده، فهناك مثلاً لغة الإشارة، وهي لغة مفهومة ومُعبِّرة، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً.

البحارة لهم إشارات يتعارفون عليها ويتفاهمون بها. جهاز التلغراف لَوْن من ألوان الأداء ووسيلة من وسائل التفاهم، إذن: الأداء والبيان ليس من الضروري أنْ يتمّ بالكلام المسموع، إنما تتفاهم الأجناس ويُكلِّم بعضها بعضاً كُلّ بلغته، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به فقدت غيرك من الأجناس.

لذلك يقول تعالى: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . ﴾ [النور: 41] والتنوين هنا دالٌّ على التعميم، فلكل شيء صلاته التي تناسبه، وتسبيحه الذي يناسب طبيعته.

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات

جميعاً لله يأتي الكلام عاماً في كل الأجناس بلا استثناء ، إلا في الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب . . . ﴾ [الحج : 18] هكذا بلا استثناء ، أمّا في الإنسان ، فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : 18] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 79] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شيء ، وفاعل كل شيء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا تعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانح والمحرك .

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ . . . ﴾ .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 80] العِلْم نقل قضية مفيدة في الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسان دائماً في حجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله في الأرض ، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل

وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير لَيِّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليه لكذا وكذا . . إلخ .

وقضايا العلم التي تحتاجها حركة الإنسان في الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخَلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحي ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذي نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التي لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقي عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق - سبحانه - لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يواري سوأة أخيه ، فقال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . ﴾ [المائدة : 31] .

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات في الكون حين نُعمِل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتي القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله في قَلْب الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 80] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحي ، أو بالتجربة أو الإلقاء في الرَّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هي الملابس التي تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر . . . ﴾ [النحل : 81] .

أما في الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التي نجدها في اللباس ، في الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو في الأماكن القاتلة ؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة في الجسم البشري ، وتتمثل هذه في الرأس والصدر ، ففي الرأس المخ ، وفي الصدر القلب ، فإن سَلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداوته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وكانت قبل داود مَلْساء يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ . . . ﴾ [الأنبياء : 80] أي : تحميكم في حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .

إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير في ارتقاء صَنْعه إنما ينشأ

من ملاحظة عيب في صَنْعة سابقة، فيحاول اللاحق تلافي أخطاء السابق، وهكذا حتى نصل إلى شيء لا عَيْبَ فيه، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقة؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 80] شاكرون على نعمة الله الذي يرعاكم ويحفظم في المآزق والمواقف الصعبة، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .

(261/512)

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : 25] .

فليست مهمة الحديد في الحياة أنه ينفع الناس فحسْب، إنما له مهمة قتالية أيضاً؛ لذلك قال : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد . . . ﴾ [الحديد : 25] كما قال : ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرآن . . . ﴾ [الإنسان : 23] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية، حيث نضرب به على أيدي الكافرين العاصين، ونحمي به صدور المؤمنين المصدِّقين؛ لذلك قال ﴿ وَأَنْزَلْنَا

. . . ﴾ [الحديد : 25] أي : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .

إذن : مسألة الحديد في الأرض نعمة كبيرة من نعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقّ مِنّا الشكر الدائم الذي لا ينقطع . انتهى . ا هـ

﴾ تفسير الشعراوى صـ ﴿

(262/512)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) ﴾

قوله : ﴿ لِحُكْمِهِمْ ﴾ : في الضميرِ المضافِ إليه " حكمَ " أوجهٌ . أحدُها أنه ضميرٌ يُرادُ به المثنى ، وإنَّما وقع الجمعُ موقعَ التثنيةِ مجازاً ، أو لأنَّ التثنيةَ جمعٌ ، وأقلُّ الجمعِ اثنان . ويدل على أنَّ المرادَ التثنيةُ قراءةُ ابن عباس " لحُكْمِهما " بصيغةِ التثنيةِ . الثاني : أنَّ المصدرَ مضافٌ للحاكِمِيْن وهما داودُ وسليمانُ والمحكومِ له والمحكوم ، وعليه فهؤلاء جماعةٌ .

وهذا يلزَمُ منه إضافةُ المصدرِ لفاعِله ومفعولِه دُفْعَةً واحدةً ، وهو إنما يُضافُ لأحدِهما فقط . وفيه الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ ، فإنَّ الحقيقةَ إضافةُ المصدرِ لفاعِله ، والمجازَ إضافتُه لمفعولِه ، والثالث : أن هذا مصدرٌ لا يُرادُ به الدلالةُ على عِلاجٍ ، بل جِيْءَ به للدلالةِ على أنَّ هذا الحدثَ وقع وصدَرَ كقولِهم : له ذكاءٌ ذكاءَ الحكماءِ وفَهْمٌ فهمَ الأذكياء ، فلا يَنْحَلُّ لحرفٍ مصدريٍّ وفعلٍ ، وإذا كان كذلك فهو مضافٌ في المعنى للحاكمِ والمحكومِ له والمحكومِ عليه . ويَنْدَفع المحذوران المذكوران .

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)

وقرأ العامَّةُ " ففهَّمْناها " بالتضعيفِ الذي للتعدية ، والضميرُ للمسألةِ أو للفُتْيا . وقرأ عكرمةُ " فَأَفْهَمْناها " بالهمزة عَدَّاه بالهمزة ، كما عَدَّاه العامَّةُ بالتضعيف .

قوله : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال . و" الطيرَ " يجوز أن ينتصبَ نَسَقاً على الجبالِ ، وأن ينتصِبَ على المفعولِ معه . وقيل : "يُسَبِّحْنَ" مستأنفٌ فلا محلَّ له . وهو بعيدٌ ، وقُرِىء " والطيرُ " رفعاً ، وفيه وجهان . أحدهما : أنه مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ أي :

والطيرُ مُسَخَّراتٌ أيضاً . والثاني : أنه نَسَقٌ على الضمير في "يُسَبِّحْن " ولم يؤكَّدْ ولم يُفْصَلْ ، وهو موافق لمذهب الكوفيين .

والنَّفْشُ : الانتشارُ ، ومنه ﴿ كالعِهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] ونَفَشَتِ الماشيةُ : أي : رَعَتْ ليلاً بغير راعٍ عكسَ الهَمَلِ وهو رَعْيُها نهاراً مِنْ غيرِ راعٍ .

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)

قوله : ﴿ لَبُوسٍ ﴾ : الجمهورُ على فتح اللام ، وهو الشيءُ المُعَدُّ للُّبْس . قال الشاعر :

3355 البَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها . . . إمَّا نَعيمَها وإمَّا بُوْسَها

وقُرِىء "لُبُوْس " بضمِّها ، وحينئذٍ : إمَّا أَنْ يكونَ جمعَ لُبْسٍ المصدرِ الواقعِ موقعَ المفعول ، وإمَّا أَنْ لا يكونَ واقعاً موقعَه ، والأولُ أقربُ . و" لكم " يجوز أَنْ يَتَعَلَّقَ بعَلَّمْناه ، وأَنْ يتعلَّقَ بصَنْعَة . قاله أبو البقاء . وفيه بُعْد ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ للَبوس .

قوله : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ هذه لامُ كي . وفي متعلَّقها أوجهٌ ، أحدها : أن يتعلَّقَ بَعَلَّمْناه . وهذا ظاهرٌ على القولين الأخيرين . وأمَّا على القول الثالثِ فيُشْكِلُ . وذلك أنه يلزم تَعَلُّقُ حَرْفَيْ جر متحدَيْن لفظاً ومعنىً . ويُجاب عنه : بأَنْ يُجْعَلَ بدلاً من " لكم " بإعادةِ العاملِ

، كقوله تعالى : ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بالرحمنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] / وهو بدلُ اشتمال

وذلك أنَّ " أنْ " الناصبةَ للفعلِ المقدرِ مؤولةٌ هي ومنصوبُها بمصدرٍ . وذلك المصدرُ بدلٌ

من ضميرِ الخطابِ في " لكم " بدلُ اشتمالٍ ، والتقدير : وعَلَّمْناه صنعةَ لَبوسٍ لتحصينِكم .

الثاني : أَنْ يتعلَّقَ ب " صَنْعَةَ " على معنى أنه بدلٌ من " لكم " كما تقدَّم تقريرُه ، وذلك على

رأيِ أبي البقاء فإنه عَلَّق " لكم " ب " صَنْعَةَ " . والثالث : أن يتعلَّقَ بالاستقرارِ الذي تعلَّقَ

به " لكم " إذا جَعَلْناه صفةً لِما قبله .

وقرأ الحَرَمِيَّان والأَخَوان وأبو عمرو " لِيُحْصِنَكم " بالياء من تحتُ . والفاعلُ اللهُ تعالى

وفيه التفاتٌ على هذا الوجهِ إذ تَقَدَّمَه ضميرُ المتكلمِ في قولِه : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ ﴾ أو داودُ أو

التعليمُ أو اللَّبوس . وقرأ حفصٌ وابنُ عامر بالتاء من فوقُ . والفاعلُ الصَّنْعَةُ أو الدِّرْعُ

وهي مؤنثةٌ ، أو اللَّبوس ؛ لأنها يُراد بها ما يُلْبَسُ ، وهو الدِّرْعُ ، والدِّرْعُ مؤنثة كما تقدم .

وقرأ أبو بكر " لِنُحْصِنَكم " " بالنونِ جرياً على " عَلَّمْناه " وعلى هذه القراءاتِ الثلاثِ :

الحاءُ ساكنةٌ والصادُ مخففةٌ .

وقرأ الأعمش " لتُحَصِّنَكم " وكذا الفقيمي عن أبي عمروٍ بفتح الحاءِ وتشديد الصادِ على

التكثير . إلاَّ أنَّ الأعمشَ بالتاءِ من فوقُ ، وأبو عمروٍ بالياء من تحتُ . وقد تقدَّم ما هو

الفاعلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 184 . 187 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ .

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . ففي مسألة واحدة اثبت لسليمان – عليه السلام – بها خصوصية ؛ إذ مَنَّ عليه بقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ولم يَمُنْ عليه بشيءٍ من المُلْكِ الذي أعطاه بمثل ما منَّ عليه بذلك ، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين – وإن اختلفوا – إذا كان اختلافُهم في فروع الدّين ، حيث قال : ﴿ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئه الآخر فله تعلُّقٌ بقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

أمَرَ الجبالَ وسخَّرها لتساعدَ داودَ – عليه السلام – في التسبيح ، ففي الأثر ، كان داود – عليه السلام – يمرُّ وصُفَاحُ الجبالِ تجاوبه ، وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه .

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)

سخَّر الله – سبحانه – لداود الحديد وألانه في يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى : ﴿

وَأَلَنّا لَهُ الحَدِيدَ ﴾ [سبأ : 10] ليتحصن من السهام في الحروب ، قال تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ﴾ [سبأ : 11] وأَحْكِمْ الصنعة وأوثِقْ المسامير . . . ولكن لما قصدته سِهامُ التقدير ما أصابت إلا حدقتَه حين نظر إلى امرأة أوريا – من غير قصدٍ – فكان ما كان .

(266/512)

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نَفْسه بابَ البيت ، وأخذ يصلي ساعةً ، ويقرأ التوراة مرةً ، والزبور أخرى ، حتى يمضي وينتهي ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أُوحِيَ إليه أنَّه يومُ فتنةٍ ، فأَمَرَ الحُجَّابَ والبواب ألا يُؤْذَنَ عليه أَحَدٌ ، فَوَقَعَ مِنْ كَوَّةِ البيتِ طيرٌ لم يَرَ مِثْلَه في الحُسْنِ ، فهَمَّ أَنْ يأخذه ، فتَبَاعَدَ ولم يَطِرْ كالمُطْمِع له في أخذه ، فلم يَزَلْ يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوَّةِ البيت ، فتبعه داودُ ينظر إليه من الكوة من ورائه ، فوقع بصرهُ على امرأة أوريا ، وكانت قد تجرَّدَتْ من ثيابها تغتسل في بستانٍ خَلْفَ البيتِ الذي به داود ، فحَصَلَ في قلبه ما حصل ، وأصاب سَهْمُ التقدير حَدَقَتَه ، ولم تَنْفَعْهُ صَنْعَةُ اللَّبوس التي كان تعلَّمها لِتُحَصِّنَه من بأسه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 511 . 513 ﴾

(267/512)

فصل نفيس لابن القيم فى فراسة الحاكم

قال عليه رحمة الله :

ومن فراسة الحاكم ما ذكره حماد بن سلمة عن حميد الطويل أن إياس بن معاوية اختصم إليه رجلان استودع أحدهما صاحبه وديعة فقال صاحب الوديعة استحلفه بالله مالي عنده وديعة فقال إياس بل أستحلفه بالله مالك عنده وديعة ولا غيرها

وهذا من أحسن الفراسة فإنه إذا قال ماله عندي وديعة احتمل النفي واحتمل الإقرار فينصب "ماله" بفعل محذوف مقدر أي دفع ماله إلى أو أعطاني ماله أو يجعل "ما" موصولة والجار والمجرور صلتها

ووديعة خبر عن "ما" فإذا قال "ولا غيرها" تعين النفي

وقال حماد بن سلمة شهدت إياس بن معاوية يقول في رجل ارتهن رهنا فقال المرتهن رهنته بعشرة وقال الراهن رهنته بخمسة فقال إن كان الراهن بينة أنه دفع إليه الرهن فالقول ما قال الراهن وإن لم يكن له بينة يدفع الرهن إليه والرهن بيد المرتهن فالقول ما قال المرتهن لأنه لو شاء لجحده الرهن

قلت وهذا قول ثالث في المسألة وهو من أحسن الأقوال

فإن إقراره بالرهن وهو في يده ولا بينة للراهن دليل على صدقه وأنه محق ولو كان مبطلا

لجحده الرهن رأسا ومالك وشيخنا رحمهما الله يجعلان القول قول المرتهن ما لم يزد على قيمة الرهن والشافعي وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله يجعلون القول قول الراهن مطلقا

وقال إياس أيضا من أقر بشيء وليس عليه بينة فالقول ما قال

وهذا أيضا من أحسن القضاء لأن إقراره علم على صدقه فإذا ادعى عليه ألفا ولا بينة له فقال صدق إلا أني قضيته إياها فالقول قوله كذلك إذا أقر بأنه قبض من مورثه وديعة ولا بينة له وادعى ردها إليه

من فراسة إياس

وقال إبراهيم بن مرزوق البصري جاء رجلان إلى إياس بن معاوية يختصمان في قطيفتين إحداهما حمراء والأخرى خضراء فقال أحدهما دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ثم جاء هذا فوضع قطيفته تحت قطيفتي ثم دخل فاغتسل فخرج قبلي وأخذ قطيفتي فمضى بها ثم خرجت فتبعته فزعم أنها قطيفته

فقال ألك بينة ؟ قال لا قال ائتوني بمشط فأتى بمشط فسرح رأس هذا ورأس هذا فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ومن رأس الآخر صوف أخضر فقضى بالحمراء للذي خرج

من رأسه الصوف الأحمر وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصوف الأخضر

وقال معتمر بن سليمان عن زيد أبي العلاء شهدت إياس بن معاوية اختصم إليه رجلان

فقال أحدهما إنه باعني جارية رعناء

فقال إياس وما عسى أن تكون هذه الرعونة قال شبه الجنون

فقال إياس يا جارية أتذكرين متى ولدت قالت نعم قال فأي رجليك أطول قالت هذه فقال إياس ردها فإنها مجنونة

وقال أبو الحسن المدائني عن عبد الله بن مصعب أن معاوية بن قرة شهد عند ابنه إياس بن معاوية مع رجال عدلهم على رجل بأربعة آلاف درهم

فقال المشهود عليه يا أبا وائلة تثبت في أمري فوالله ما أشهدتهم إلا على ألفين

فسأل إياس أباه والشهود أكان في الصحيفة التي شهدوا عليها فضل قالوا نعم كان الكتاب في أولها والطينة في وسطها وباقي الصحيفة أبيض

قال أفكان المشهود له يلقاكم أحيانا فيذكركم شهادتكم بأربعة آلاف درهم قالوا نعم كان لا يزال يلقانا فيقول اذكروا شهادتكم على فلان بأربعة آلاف درهم فصرفهم ودعا المشهود له فقال يا عدو الله تغفلت قوما صالحين مغفلين فأشهدتهم على صحيفة جعلت طينتها في وسطها وتركت فيها بياضا في أسفلها فلما ختموا الطينة قطعت الكتاب الذي فيه حقك ألفا درهم وكتبت في البياض أربعة آلاف فصارت الطينة في آخر الكتاب ثم كنت تلقاهم

فتلقنهم وتذكرهم أنها أربعة آلاف

فأقر بذلك وسأله الستر عليه فحكم له بألفين وستر عليه

وقال نعيم بن حماد عن إبراهيم بن مرزوق البصري كنا عند إياس بن معاوية قبل أن يستقضى وكنا نكتب عنه الفراسة كما نكتب عن المحدث الحديث إذ جاء رجل فجلس على دكان مرتفع بالمربد فجعل يترصد الطريق

فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلا فنظر في وجهه ثم رجع إلى موضعه

فقال إياس قولوا في هذا الرجل قالوا ما نقول رجل طالب حاجة

فقال هو معلم صبيان قد أبق له غلام أعور

فقام إليه بعضنا فسأله عن حاجته فقال هو غلام لي آبق قالوا وما صفته قال كذا وكذا وإحدى عينيه ذاهبة قلنا وما صنعتك قال أعلم الصبيان

قلنا لإياس كيف علمت ذلك قال رأيته جاء فجعل يطلب موضعا يجلس فيه فنظر إلى أرفع شيء يقدر عليه فجلس عليه

فنظرت في قدره فإذا ليس قدره قدر الملوك

فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوس الملوك فلم أجدهم إلا المعلمين فعلمت أنه معلم صبيان فقلنا كيف علمت أنه أبق له غلام قال إني رأيته يترصد الطريق ينظر في وجوه الناس قلنا كيف علمت أنه أعور قال بينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلا قد ذهبت إحدى عينيه فعلمت أنه شبهه بغلامه

وقال الحارث بن مرة نظر إياس بن معاوية إلى رجل فقال هذا غريب وهو من أهل واسط وهو معلم وهو يطلب عبدا له أبق فوجدوا الأمر كما قال

فسألوه فقال رأيته يمشي ويلتفت فلعمت أنه غريب

ورأيته وعلى ثوبه حمرة تربة واسط فعلمت أنه من أهلها

ورأيته يمر بالصبيان فيسلم عليهم ولا يسلم على الرجال فعلمت أنه معلم ورأيته إذا مر بذي هيئة لم يلتفت إليه وإذا مر بذي أسمال تأمله فعلمت أنه يطلب آبقا

وقال هلال بن العلاء الرقى عن القاسم بن منصور عن عمرو بن بكير مر إياس بن معاوية فسمع قراءة من علية فقال هذه قراءة امرأة حامل بغلام فسئل كيف عرفت ذلك فقال سمعت بصوتها ونفسها مخالطة فعلمت أنها حامل وسمعت صحلا فعلمت أن الحمل غلام ومر بعد ذلك بكتاب فيه صبيان فنظر إلى صبي منهم فقال هذا ابن تلك المرأة فكان كما قال

وقال رجل لإياس بن معاوية علمني القضاء

فقال إن القضاء لا يعلم إنما القضاء فهم

ولكن قل علمني من العلم

(270/512)

وهذا هو سر المسألة فإن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ فخص سليمان بفهم القضية وعمهما بالعلم

وكذلك كتب عمر إلى قاضيه أبي موسى في كتابه المشهور "والفهم الفهم فيما أدلي إليك"

والذي اختص به إياس وشريح مع مشاركتهما لأهل عصرهما في العلم هو الفهم في الواقع والاستدلال بالأمارات وشواهد الحال وهذا الذي فات كثيرا من الحكام فأضاعوا كثيرا من الحقوق

الطرق الحكمية

فصل الفراسة في السنة

فصل الفراسة في السنة

ومن أنواع الفراسة ما أرشدت إليه السنة النبوية من التخلص من المكروه بأمر سهل جدا

ومن تعريض بقول أو فعل

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رجل "يا رسول الله إن لي جارا يؤذيني قال انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس إليه فقالوا ما شأنك فقال إن لي جارا يؤذيني فجعلوا يقولون اللهم العنه اللهم أخرجه فبلغه ذلك فأتاه فقال ارجع إلى منزلك فوالله لا أوذيك أبدا"

الحيلة المباحة

فهذه وأمثالها هي الحيل التي أباحتها الشريعة وهي تحيل الإنسان بفعل مباح على تخلصه من ظلم غيره وأذاه لا الاحتيال على إسقاط فرائض الله واستباحة محارمه

وفي المسند والسنن عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أحدث في صلاته فلينصرف فإن كان في صلاة جماعة فليأخذ بأنفه ولينصرف"

في المعاريض مندوحة

وفي السنن كثير من ذكر المعاريض التي لا تبطل حقا ولا تحق باطلا كقوله صلى الله عليه وسلم للسائل "ممن أنتم ؟ قالوا نحن من ماء"

وقوله للذي ذهب بغريمه ليقتله "إن قتله فهو مثله"

وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها

وكان الصديق رضي الله عنه يقول في سفر الهجرة لمن يسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم "من هذا بين يديك !" فيقول "هاد يدلني على الطريق"

وكذلك الصحابة من بعده

فروى زيد بن أسلم عن أبيه قال قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حلل من اليمن فقسمها بين الناس فرأى فيها حلة رديئة فقال كيف أصنع بهذه إن أعطيتها أحدا لم يقبلها

فصل تعريض عبد الرحمن بن أبي ليلى

ومن ذلك قول عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه وقد أقيم على دكان بعد صلاة الجمعة فقام على الدكان وقال إن الأمير أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه لعنه الله

تعريض الحجاج بن علاط

ومن ذلك تعريض الحجاج بن علاط بل تصريحه لامرأته بهزيمة الصحابة وقتلهم حتى أخذ ماله منها

فصل فراسة خزيمة بن ثابت

ومن الفراسة الصادقة فراسة خزيمة بن ثابت حين قدم وشهد على عقد التبايع بين الأعرابي ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن حاضرا تصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ما يخبر به

فراسة حذيفة بن اليمان

ومنها فراسة حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا إلى المشركين فجلس بينهم فقال أبو سفيان لينظر كل منكم جليسه فبادر وقال لجليسه من أنت قال فلان بن فلان

فراسة المغيرة بن شعبة

ومنها فراسة المغيرة بن شعبة وقد استعمله عمر على البحرين فكرهه أهلها فعزله عمر عنهم فخافوا أن يرده عليهم فقال دهقانهم إن فعلتم ما آمركم به لم يرده علينا قالوا مرنا بأمرك قال تجمعون مائة ألف درهم حتى أذهب بها إلى عمر وأقول إن المغيرة اختان هذا ودفعه إلي فجمعوا ذلك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين إن المغيرة اختان هذا فدفعه إلي فدعا عمر المغيرة فقال ما يقول هذا قال كذب أصلحك الله إنما كانت مائتي ألف فقال ما حملك على ذلك قال العيال والحاجة

فقال عمر للدهقان ما تقول فقال لا والله لأصدقنك والله ما دفع إلي قليلا ولا كثيرا ولكن كرهناه وخشينا أن ترده علينا

فقال عمر للمغيرة ما حملك على هذا قال إن الخبيث كذب علي فأردت أن أخزيه

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة وكان الفتى جميلا فأرسلت إليهما المرأة

لابد أن أراكما وأسمع كلامكما فاحضرا إن شئتما

فأجلستهما بحيث تراهما

فعلم المغيرة أنها تؤثر عليه الفتى فأقبل عليه فقال لقد أوتيت حسنا وجمالا وبيانا فهل

عندك سوى ذلك قال نعم فعدد عليه محاسنه ثم سكت

فقال المغيرة فكيف حسابك فقال لا يسقط علي منه شيء وإني لأستدرك منه أقل من

الخردلة

فقال له المغيرة لكني أضع البدرة في زاوية البيت فينفقها أهل بيتي على ما يريدون فما أعلم

بنفادها حتى يسألوني غيرها

فقالت المرأة والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إلي من الذي يحصي علي أدنى من

الخردلة

فراسة عمرو بن العاص

ومنها فراسة عمرو بن العاص لما حاصر غزة فبعث إليه صاحبها أن أرسل إلي رجلا من

أصحابك أكلمه ففكر عمرو بن العاص وقال ما لهذا الرجل غيري فخرج حتى دخل عليه

فكلمه كلاما لم يسمع مثله قط فقال له حدثني هل أحد من أصحابك مثلك فقال لا تسل من

هواني عندهم بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني ولا يدرون ما يصنع بي

فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه

فمر برجل من نصارى غسان فعرفه فقال يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج

فرجع فقال له الملك ما ردك إلينا قال نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع من معي من بني عمي فأردت الخروج فآتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية فيكون معروفك عند عشرة رجال خيرا من أن يكون عند واحد

قال صدقت عجل بهم

وبعث إلى البواب خل سبيله

فخرج عمرو وهو يلتفت حتى إذا أمن قال لا عدت لمثلها

فلما كان بعد رآه الملك فقال أنت هو قال نعم على ما كان من غدرك

فراسة الحسن بن علي

ومن ذلك فراسة الحسن بن علي رضي الله عنهما لما جيء إليه بابن ملجم قال له أريد أن أسارك بكلمة فأبى الحسن وقال تريد أن تعض أذني فقال ابن ملجم والله لو أمكنتني منها

لأخذتها من صماخها

قال أبو الوفاء بن عقيل فانظر إلى حسن رأي هذا السيد الذي قد نزل به من المصيبة العاجلة ما يذهل الخلق وفطنته إلى هذا الحد وإلى ذلك اللعين كيف لم يشغله حاله عن استزادة الجناية

من فراسة الحسين

ومن فراسة أخيه الحسين رضي الله عنهما أن رجلا ادعى عليه مالا فقال الحسين ليحلف على ما ادعاه ويأخذه فتهيأ الرجل لليمين وقال والله الذي لا إله إلا هو فقال الحسين قل والله والله والله إن هذا الذي تدعيه عندي وفي قبلي ففعل الرجل ذلك

وقام فاختلفت رجلاه وسقط ميتا فقيل للحسين لم فعلت ذلك أي عدلت عن قوله والله الذي لا إله إلا هو إلى قوله والله والله والله فقال كرهت أن يثني على الله فيحلم عنه

فراسة العباس

ومن ذلك فراسة العباس رضي الله عنه فيما ذكره مجاهد قال "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ وجد ريحا فقال ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ فاستحيى الرجل ثم قال ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ فإن الله لا يستحي من الحق فقال العباس ألا نقوم كلنا فنتوضأ ؟" هكذا رواه الفريابي عن الأوزاعي مرسلا ووصله عن محمد بن مصعب فقال عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما

وقد جرت مثل هذه القضية في مجلس عمر رضي الله عنه

قال الشعبي كان عمر في بيت ومعه جرير بن عبد الله البجلي فوجد عمر ريحا فقال عزمت على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ فقال جرير يا أمير المؤمنين أو يتوضأ القوم جميعا فقال عمر يرحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية ونعم السيد أنت في الإسلام

فراسة عبد الملك بن مروان

ومن أحسن الفراسة فراسة عبد الملك بن مروان

لما بعث الشعبي إلى ملك الروم فحسد المسلمين عليه فبعث معه ورقة لطيفة إلى عبد الملك

فلما قرأها قال أتدري ما فيها قال لا قال فيها "عجب كيف ملكت العرب غير هذا ؟" أفتدري ما أراد ؟ قال لا قال حسدني عليك فأراد أني أقتلك فقال الشعبي لو رآك يا أمير المؤمنين ما استكبرني فبلغ ذلك ملك الروم فقال والله ما أخطأ ما كان في نفسي

ومن دقيق الفطنة أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ فتحمله رتبته على نصرة الخطأ وذلك خطأ ثان ولكن تلطف في إعلامه به حيث لا يشعر به غيره

ومن دقيق الفراسة أن المنصور جاءه رجل فأخبره أنه خرج في تجارة فكسب مالا فدفعه

إلى امرأته ثم طلبه منها فذكرت أنه سرق من البيت ولم ير نقبا ولا أمارة فقال المنصور منذ كم تزوجتها قال منذ سنة قال بكرا أو ثيبا قال ثيبا قال فلها ولد من غيرك قال لا قال فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذ له حاد الرائحة وغريب النوع فدفعها إليه وقال له تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب غمك فلما خرج الرجل من عنده قال المنصور لأربعة من ثقاته ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم فمن شم منكم رائحة هذا الطيب من أحد فليأت به وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته فلما شمته بعثت منه إلى رجل كانت تحبه وقد كانت دفعت إليه المال فتطيب منه ومر مجتازا ببعض أبواب المدينة فشم الموكل بالباب رائحته عليه فأتى به المنصور فسأله من أين لك هذا الطيب فلجلج في كلامه فدفعه إلى والي الشرطة فقال إن أحضر لك كذا وكذا من المال فخل عنه وإلا اضربه ألف سوط فلما جرد للضرب أحضر المال على هيأته فدعا المنصور صاحب المال فقال أرأيت إن رددت عليك المال تحكمني في امرأتك قال نعم قال هذا مالك وقد طلقت المرأة منك

فصل ذكاء المهدي

ومنها أن شريكا دخل على المهدي فقال للخادم هات عودا للقاضي يعني البخور فجاء الخادم بعود يضرب به فوضعه في حجر شريك فقال ما هذا فبادر المهدي وقال هذا عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره على يديك فدعا له وكسره

ذكاء المعتضد

ومن ذلك ما يذكر عن المعتضد أنه كان جالسا يشاهد الصناع فرأى فيهم أسود منكر الخلقة شديد المرح يعمل ضعف ما يعمل الصناع ويصعد مرقاتين مرقاتين فأنكر أمره فأحضره وسأله عن أمره فلجلج فقال لبعض جلسائه أي شيء يقع لكم في أمره قالوا ومن هذا حتى تصرف فكرك إليه لعله لا عيال له وهو خالي القلب فقال قد خمنت في أمره تخمينا ما أحسبه باطلا إما أن يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة أو يكون لصا يتستر بالعمل فدعا به واستدعى الضراب فضربه وحلف له إن لم يصدقه أن يضرب عنقه فقال لي الأمان قال نعم إلا فيما يجب عليك بالشرع فظن أنه قد أمنه

فقال قد كنت أعمل في الآجر فاجتاز رجل في وسطه هميان فجاء إلى مكان فجلس وهو لا يعلم مكاني فحل الهميان وأخرج منه دنانير فتأملته وإذا كله دنانير فساورته وكتفته وسددت فاه وأخذت الهميان وحملته على كتفي وطرحته في الأتون وطينته فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه فطرحتها في دجلة

فأنفذ المعتضد من أحضر الدنانير من منزله وإذا على الهميان مكتوب فلان ابن فلان فنادى

في البلد باسمه فجاءت امرأة فقالت هذا زوجي

ولى منه هذا الطفل خرج وقد كذا وكذا ومعه ألف دينار فغاب إلى الآن فسلم الدنانير إليها

وأمرها أن تعتد وأمر بضرب عنق الأسود وحمل جثته إلى ذلك الأتون

وكان للمعتضد من ذلك عجائب منها أنه قام ليلة فإذا غلام قد وثب على ظهر غلام فاندس

بين الغلمان فلم يعرفه فجاء فجعل يضع يده على فؤاد واحد بعد واحد فيجده ساكنا

حتى وضع يده على فؤاد ذلك الغلام فإذا به يخفق خفقا شديدا فركضه برجله واستقره

فأقر فقتله

ومنها أنه رفع إليه أن صيادا ألقى شبكته في دجلة فوقع فيها جراب فيه كف مخضوبة بحناء

وأحضر بين يديه فهاله ذلك

وأمر الصياد أن يعاود طرح الشبكة هنالك ففعل فأخرج جرابا آخر فيه رجل فاغتم

المعتضد وقال معي في البلد من يفعل هذا ولا أعرفه ثم أحضر ثقة له وأعطاه الجراب وقال

طف به على كل من يعمل الجرب ببغداد فإن عرفه أحد منهم فاسأله عمن باعه منه فإذا

دلك عليه فاسأل المشترى عن ذلك ونقر عن خبره

فغاب الرجل ثلاثة أيام ثم عاد فقال ما زلت أسأل عن خبره حتى انتهى إلى فلان الهاشمي اشتراه مع عشرة جرب وشكا البائع شره وفساده ومن جملة ما قال أنه كان يعشق فلانة المغنية وأنه غيبها فلا يعرف لها خبر وادعى أنها هربت والجيران يقولون إنه قتلها فبعث المعتضد من كبس منزل الهاشمي وأحضر اليد والرجل وأراه إياهما فلما رآها امتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاها وحبس الهاشمي حتى مات في الحبس

فصل من الأجوبة الحصيفة

ومن محاسن الفراسة أن الرشيد رأى في داره حزمة خيزران فقال لوزيره الفضل بن الربيع ما هذه قال عروق الرماح يا أمير المؤمنين ولم يقل الخيزران لموافقته اسم أمه

ونظير هذا أن بعض الخلفاء سأل ولده وفي يده مسواك ما جمع هذا قال محاسنك يا أمير المؤمنين

وهذا من الفراسة في تحسين اللفظ

وهو باب عظيم اعتنى به الأكابر والعلماء وله شواهد كثيرة في السنة وهو من خاصية العقل والفطنة

فقد روينا عن عمر رضي الله عنه أنه خرج يعس المدينة بالليل فرأى نارا موقدة في خباء فوقف وقال "يا أهل الضوء" وكره أن يقول يا أهل النار

وسأل رجلا عن شيء "هل كان؟" قال لا أطال الله بقاءك فقال قد علمتم فلم تتعلموا هلا قلت لا وأطال الله بقاءك؟"

وسئل العباس أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هو أكبر مني وأنا ولدت قبله

وسئل عن ذلك قباث بن أشيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر مني وأنا أسن منه

وكان لبعض القضاة جليس أعمى وكان إذا أراد أن ينهض يقول يا غلام اذهب مع أبي محمد ولا يقول خذ بيده قال والله ما أخل بها مرة

ومن ألطف ما يحكى في ذلك أن بعض الخلفاء سأل رجلا عن اسمه فقال سعد يا أمير المؤمنين فقال أي السعود أنت قال سعد السعود لك يا أمير المؤمنين وسعد الذابح لأعدائك وسعد بلع على سماطك وسعد الأخبية لسرك فأعجبه ذلك

ويشبه هذا أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقارب في خطوه فقال له المنصور كبرت سنك يا معن قال في طاعتك يا أمير المؤمنين

قال إنك لجلد قال على أعدائك

قال وإن فيك لبقية قال هي لك

قول التي هي أحسن

وأصل هذا الباب قوله تعالى ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ فالشيطان ينزغ بينهم إذا كلم بعضهم بعضا بغير التي هي أحسن فرب حرب وقودها جثث وهام أهاجها القبيح من الكلام

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي"

وخبثت ولقست وغثت متقاربة المعنى

فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظ "الخبث" لبشاعته وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه وإن كان بمعناه تعليما للأدب في المنطق وإرشادا إلى استعمال الحسن وهجر القبيح في الأقوال كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال

فصل فراسة أحمد بن طولون

ومن عجب الفراسة ما ذكر أحمد بن طولون أنه بينما هو في مجلس له يتنزه فيه إذ رأى سائلا في ثوب خلق فوضع دجاجة في رغيف وحلوى وأمر بعض الغلمان يدفعه إليه

فلما وقع في يده لم يهش ولم يعبأ به

فقال للغلام جئني به

فلما وقف قدامه استنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته

فقال هات الكتب التي معك واصدقني من بعثك فقد صح عندي أنك صاحب خبر

وأحضر السياط فاعترف

فقال بعض جلسائه هذا والله السحر قال ما هو بسحر ولكن فراسة صادقة

(278/512)

رأيت سوء حاله فوجهت إليه بطعام يشره إلى أكله الشبعان فما هش له ولا مد يده إليه

فأحضرته فتلقاني بقوة جأش فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جأشه علمت أنه صاحب خبر

فكان كذلك

ورأى يوما حمالا يحمل صنا وهو يضطرب تحته

فقال لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاضت عنق الحمال وأنا أرى عنقه بارزة وما

أرى هذا الأمر إلا من خوف فأمر بحط الصن فإذا فيه جارية قد قتلت وقطعت

فقال اصدقني عن حالها

فقال أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة

فضربه وقتل الأربعة

وكان يتنكر ويطوف يسمع قراءة الأئمة

فدعا ثقته وقال خذ هذه الدنانير وأعطها إمام مسجد كذا فإنه فقير مشغول القلب ففعل

وجلس معه وباسطه فوجد زوجته قد ضربها الطلق وليس معه ما يحتاج إليه فقال صدق

عرفت شغل قلبه في كثرة غلطه في القراءة

فراسة المستكفي

ومن ذلك أن اللصوص أخذوا في زمن المستكفي مالا عظيما فألزم المستكفي صاحب

الشرطة بإخراج اللصوص أو غرامة المال

فكان يركب وحده ويطوف ليلا ونهارا إلى أن اجتاز يوما في زقاق قال في بعض أطراف

البلد فدخله فوجده متنكرا ووجده لا ينفذ فرأى على بعض أبوابه شوك سمك كثير وعظام

الصلب فقال لشخص كم يكون تقدير ثمن هذا السمك الذي هذه عظامه قال دينار قال

أهل الزقاق لا تحتمل أحوالهم مشترى مثل هذا لأنه زقاق بين الاختلال إلى جانب الصحراء

لا ينزله من معه شيء يخاف عليه أو له مال ينفق منه هذه النفقة وما هي إلا بلية ينبغي أن

يكشف عنها فاستبعد الرجل هذا وقال هذا فكر بعيد فقال اطلبوا لي امرأة من الدرب

أكلمها فدق بابا غير الذي عليه الشوك واستسقى ماء فخرجت عجوز ضعيفة فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيه وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك إلى أن قال لها وهذه الدار من يسكنها وأومأ إلى التي عليها عظام السمك فقالت فيها خمسة شباب أعفار كأنهم تجار وقد نزلوا منذ شهر لا نراهم نهارا إلا في كل مدة طويلة ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعا وهم في طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد ولهم صبي يخدمهم فإذا كان الليل انصرفوا إلى دار لهم بالكرخ ويدعون الصبي في الدار يحفظها فإذا كان سحرا جاءوا ونحن نيام لا نشعر بهم فقال للرجل هذه صفة لصوص أم لا قال بلى فأنفذ في الحال فاستدعى عشرة من الشرط وأدخلهم إلى أسطحة الجيران ودق هو الباب فجاء الصبي ففتح فدخل الشرط معه فما فاته من القوم أحد فكانوا هم أصحاب الجناية بعينهم

ومن ذلك أن بعض الولاة سمع في بعض ليالي الشتاء صوتا بدار يطلب ماء باردا فأمر بكبس الدار فأخرجوا رجلا وامرأة

فقيل له من أين علمت قال الماء لا يبرد في الشتاء إنما ذلك علامة بين هذين

وأحضر بعض الولاة شخصين متهمين بسرقة فأمر أن يؤتى بكوز ماء فأخذه بيده ثم ألقاه عمدا فانكسر فارتاع أحدهما وثبت الآخر فلم يتغير فقال للذي انزعج اذهب وقال للآخر أحضر العملة فقيل له ومن أين عرفت ذلك فقال اللص قوي القلب لا ينزعج والبريء يرى أنه لو تحركت في البيت فأرة لأزعجته ومنعته من السرقة

فصل من قضايا ثبوت النسب

ومن الحكم بالفراسة والأمارات ما رواه محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه قال خاصم غلام من الأنصار أمه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجحدته فسأله البينة فلم تكن عنده

وجاءت المرأة بنفر فشهدوا أنها لم تتزوج وأن الغلام كاذب عليها وقد قذفها فأمر عمر بضربه فلقيه علي رضي الله عنه فسأل عن أمرهم فأخبر فدعاهم ثم قعد في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وسأل المرأة فجحدت فقال للغلام اجحدها كما جحدتك فقال يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها أمي قال اجحدها وأنا أبوك والحسن والحسين أخواك قال قد جحدتها وأنكرتها فقال علي لأولياء المرأة أمري في هذه المرأة جائز قالوا نعم وفينا أيضا فقال علي أشهد من حضر أني قد زوجت هذا الغلام من هذه المرأة الغريبة منه يا قنبر ائتني بطينة فيها دراهم فأتاه بها فعد أربعمائة وثمانين درهما فدفعها مهرا لها وقال للغلام خذ بيد امرأتك ولا تأتنا إلا وعليك أثر العرس

فلما ولى قالت المرأة يا أبا الحسن الله الله هو النار هو والله ابني

قال وكيف ذلك قالت إن أباه كان هجينا وإن إخوتي زوجوني منه فحملت بهذا الغلام

وخرج الرجل غازيا فقتل وبعثت بهذا إلى حي بني فلان فنشأ فيهم وأنفت أن يكون ابني

فقال علي أنا أبو الحسن وألحقه بها وثبت نسبه

علي يستدرك على عمر

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب سأل رجلا كيف أنت فقال ممن يحب الفتنة ويكره الحق

ويشهد على ما لم يره فأمر به إلى السجن فأمر علي برده وقال صدق قال كيف صدقته قال

يحب المال والولد وقد قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ويكره الموت وهو حق

ويشهد أن محمدا رسول الله ولم يره فأمر عمر رضي الله عنه بإطلاقه وقال الله أعلم حيث

يجعل رسالاته

من أحكام علي

وقال الأصبغ بن نباتة جاء رجل إلى مجلس علي والناس حوله فجلس بين يديه ثم التفت إلى

الناس فقال يا معشر الناس إن للداخل حيرة وللسائل روعة وهما دليل السهو والغفلة

فاحتملوا زلة إن كانت من سهو ونزل بي ولا تحسبوني من شر الدواب عند الله الذين لا يعقلون

فتبسم علي رضي الله عنه وأعجب به

فقال يا أمير المؤمنين إني وجدت ألفا وخمسمائة درهم في خربة بالسواد فما علي وما لي

فقال له علي إن كنت أصبتها في خربة تؤدي خراجها قرية أخرى عامرة بقربها فهي لأهل تلك القرية وإن كنت وجدتها في خربة ليست تؤدي خراجها قرية أخرى عامرة فلك فيها أربعة أخماس ولنا خمس قال الرجل أصبتها في خربة ليس حولها أنيس ولا عندها عمران فخذ الخمس قال قد جعلته لك

من قضايا ثبوت النسب

وأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل أسود ومعه امرأة سوداء فقال يا أمير المؤمنين إني أغرس غرسا أسود وهذه سوداء على ما ترى فقد أتتني بولد أحمر فقالت المرأة والله يا أمير المؤمنين ما خنته وإنه لولده فبقى عمر لا يدري ما يقول فسئل عن ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال للأسود إن سألتك عن شيء أتصدقني قال أجل والله قال هل واقعت امرأتك وهي حائض قال قد كان ذلك

قال علي الله أكبر إن النطفة إذا خلطت بالدم فخلق الله عز وجل منها خلقا كان أحمر فلا

تنكر ولدك فأنت جنيت على نفسك

علي يفضح محتالة

وقال جعفر بن محمد أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار وكانت تهواه فلما لم يساعدها احتالت عليه فأخذت بيضة فألقت صفرتها وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها

ثم جاءت إلى عمر صارخة فقالت هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي وهذا أثر فعاله

فسأل عمر النساء فقلن له إن ببدنها وثوبها أثر المني فهمّ بعقوبة الشاب فجعل يستغيث ويقول يا أمير المؤمنين تثبت في أمري فوالله ما أتيت فاحشة وما هممت بها فلقد راودتني عن نفسي فاعتصمت

فقال عمر يا أبا الحسن ما ترى في أمرهما فنظر علي إلى ما على الثوب ثم دعا بماء حار شديد الغليان فصب على الثوب فجمد ذلك البياض ثم أخذه واشتمه وذاقه فعرف طعم البيض وزجر المرأة فاعترفت

الحكم في دعوى العنة

قلت ويشبه هذا ما ذكره الخرقي وغيره عن أحمد أن المرأة إذا ادعت أن زوجها عنين وأنكر ذلك وهي ثيب فإنه يخلى معها في بيت ويقال له أخرج ماءك على شيء فإن ادعت أنه ليس بمني جعل على النار فإن ذاب فهو مني وبطل قولها وهذا مذهب عطاء بن أبي رباح

وهذا حكم بالأمارات الظاهرة فإن المني إذا جعل على النار ذاب واضمحل وإن كان بياض بيض تجمع ويبس فإن قال أنا أعجز عن إخراج مائي صح قولها

ويشبه هذا ما ذكره بعض القضاة أن زوجين ترافعا إليه وادعى كل منهما أن الآخر عذيوط يغوط عند الجماع وتناكرا فأمر أن يطعم أحدهما تينا والآخر قثاء فعلم صاحب العيب بذلك

علي يفرق بين المتهمين

وقال الأصبغ بن نباتة إن شابا شكا إلى علي رضي الله عنه نفرا فقال إن هؤلاء خرجوا مع أبي في سفر فعادوا ولم يعد أبي فسألتهم عنه فقالوا مات فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئا وكان معه مال كثير وترافعنا إلى شريح فاستحلفهم وخلى سبيلهم فدعا علي بالشرط فوكل بكل رجل رجلين وأوصاهم ألا يمكنوا بعضهم أن يدنو من بعض ولا يدعو أحدا يكلمهم ودعا كاتبه ودعا أحدهم

فقال أخبرني عن أبي هذا الفتى في أي يوم خرج معكم وفي أي منزل نزلتم وكيف كان سيركم وبأي علة مات وكيف أصيب بماله وسأله عمن غسله ودفنه ومن تولى الصلاة عليه وأين دفن ونحو ذلك والكاتب يكتب ثم كبر علي فكبر الحاضرون والمتهمون لا علم لهم إلا أنهم ظنوا أن صاحبهم قد أقر عليهم

ثم دعا آخر بعد أن غيب الأول عن مجلسه فسأله كما سأل صاحبه ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع

فوجد كل واحد منهم يخبر بضد ما أخبر به صاحبه ثم أمر برد الأول فقال يا عدو الله قد عرفت غدرك وكذبك بما سمعت من أصحابك وما ينجيك من العقوبة إلا الصدق ثم أمر به إلى السجن وكبر وكبر معه الحاضرون فلما أبصر القوم الحال لم يشكوا أن صاحبهم أقر عليهم فدعا آخر منهم فهدده فقال يا أمير المؤمنين والله لقد كنت كارها لما صنعوا ثم دعا الجميع فأقروا بالقصة واستدعى الذي في السجن وقيل له قد أقر أصحابك ولا ينجيك سوى الصدق فأقر بمثل ما أقر به القوم فأغرمهم المال وأقاد منهم بالقتيل

من ادعى فقد بصره أو شمه

ورفع إلى بعض القضاة رجل ضرب رجلا على هامته فادعى المضروب أنه أزال بصره

وشمه فقال يمتحن بأن يرفع عينيه إلى قرص الشمس فإن كان صحيحا لم تثبت عيناه لها

وينحدر منهما الدمع وتحرق خرقة وتقدم إلى أنفه فإن كان صحيح الشم بلغت الرائحة

خيشومه ودمعت عيناه

من ادعى أنه أخرس

ورأيت في أقضية علي رضي الله عنه نظير هذه القضية وأن المضروب ادعى أنه أخرس

وأمر أن يخرج لسانه وينخس بإبرة فإن خرج الدم أحمر فهو صحيح اللسان وإن خرج أسود

فهو أخرس

علي يحكم في فداء الأسرى

وقال أصبغ بن نباتة قيل لعلي رضي الله عنه في فداء أسرى المسلمين من أيدي المشركين

فقال فادوا منهم من كانت جراحاته بين يديه دون من كانت من ورائه فإنه فار

من أقضية علي

قال وأوصى رجل إلى آخر أن يتصدق عنه من هذه الألف دينار بما أحب فتصدق

بعشرها وأمسك الباقي فخاصموه إلى عليّ

وقالوا يأخذ النصف ويعطينا النصف

فقال أنصفوك

قال إنه قال لي أخرج منها ما أحببت

قال فأخرج عن الرجل تسعمائة والباقي لك قال وكيف ذلك قال لأن الرجل أمرك أن تخرج ما أحببت وقد أحببت التسعمائة فأخرجها

وقضى في رجلين حرين يبيع أحدهما صاحبه على أنه عبد ثم يهربان من بلد إلى بلد بقطع أيديهما لأنهما سارقان لأنفسهما ولأموال الناس

قلت وهذا من أحسن القضاء وهو الحق وهما أولى بالقطع من السارق المعروف فإن السارق إنما قطع دون المنتهب والمغتصب لأنه لا يمكن التحرز منه ولهذا قطع النباش ولهذا جاءت السنة بقطع جاحد العارية

وقضى عليّ أيضا في امرأة تزوجت فلما كان ليلة زفافها أدخلت صديقها الحجلة سرا وجاء الزوج فدخل الحجلة فوثب إليه الصديق فاقتتلا فقتل الزوج الصديق

فقامت إليه المرأة فقتلته فقضى بدية الصديق على المرأة ثم قتلها بالزوج وإنما قضى بدية الصديق عليها لأنها هي التي عرضته لقتل الزوج له فكانت هي المتسببة في قتله وكانت أولى بالضمان من الزوج المباشر لأن المباشر قتله قتلا مأذونا فيه دفعا عن حرمته فهذا من أحسن القضاء الذي لا يهتدي إليه كثير من الفقهاء وهو الصواب

وقضى في رجل فر من رجل يريد قتله فأمسكه له آخر حتى أدركه فقتله وبقربه رجل ينظر إليهما وهو يقدر على تخليصه فوقف ينظر إليه حتى قتله فقضى أن يقتل القاتل ويحبس الممسك حتى يموت وتفقأ عين الناظر الذي وقف ينظر ولم ينكر

فذهب الإمام أحمد وغيره من أهل العلم إلى القول بذلك إلا في فقء عين الناظر ولعل عليا رأى تعزيره بذلك مصلحة للأمة

وله مساغ في الشرع في مسألة فقء عين الناظر إلى بيت الرجل من خص أو طاقة كما جاءت بذلك السنة الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها ولا دافع لكونه جنى على صاحب المنزل ونظر نظرا محرما لا يحل له أن يقدم عليه فجوز له النبي صلى الله عليه وسلم أن يحذفه فيفقأ عينه وهذا مذهب الشافعي وأحمد

من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص"

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سهل قال "اطلع رجل في حجرة رسول الله صلى

الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها في عينك

إنما جعل الاستئذان من أجل النظر"

وفي صحيح مسلم عنه "أن رجلا اطلع على النبي صلى الله عليه وسلم من ستر الحجرة

وفي يد النبي صلى الله عليه وسلم مدرى فقال لو أعلم أن هذا ينظرني حتى آتيه لطعنت

بالمدرى في عينه وهل جعل الاستئذان إلا من أجل البصر ؟"

أي لو أعلم أنه يقف لي حتى آتيه

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه "أن رجلا اطلع في بعض حجر النبي صلى الله

عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بمشقص فذهب نحو الرجل يختله ليطعنه به

قال فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يختله ليطعنه"

وفي سنن البيهقي وغيره عن أنس بن مالك "أن أعرابيا أتى باب النبي صلى الله عليه وسلم

فألقم عينه خصاص الباب فبصر به النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ عودا محددا فوجأ

عين الأعرابي فانقمع فقال لو ثبت لفقأت عينك"

وفي الصحيحين من حديث الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لو أن

امرءا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما لكان عليك من جناح"

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم "من اطلع في بيت قوم بغير

إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه"

وفي سنن البيهقي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لو أن رجلا اطلع في بيت رجل ففقأ عينه ما كان عليه فيه شيء"

فالحق هو الأخذ بموجب هذه السنن الصحيحة الصريحة والناظر إلى القاتل يقتل المسلم وهو يستطيع أن يخلصه وينهاه أعظم إثما عند الله تعالى وأحق بفقء العين والله أعلم

علي يقضي في رجل قطع فرج امرأته

وقضى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في رجل قطع فرج امرأته أن تؤخذ منه دية الفرج ويجبر على إمساكها حتى تموت وإن طلقها أنفق عليها

فلله ما أحسن هذا القضاء وأقربه من الصواب

فأما الفرج ففيه الدية كاملة اتفاقا

وأما إنفاقه عليها إن طلقها فلأنه أفسدها على الأزواج الذين يقومون بنفقتها ومصالحها فسادا لا يعود

وأما إجباره على إمساكها فمعاقبة له بنقيض قصده فإنه قصد التخلص منها بأمر محرم وقد كان يمكنه التخلص منها بالطلاق أو الخلع فعدل عن ذلك إلى هذه المثلة القبيحة فكان

جزاؤه أن يلزم بإمساكها إلى الموت

علي يقضي في مولود ولد وله رأسان وصدران في حقو واحد

وقضى في مولود ولد له رأسان وصدران في حقو واحد فقالوا له أيورث ميراث اثنين أم ميراث واحد فقال يترك حتى ينام ثم يصاح به فإن انتبها جميعا كان له ميراث واحد وإن انتبه واحد وبقي الآخر كان له ميراث اثنين

فإن قيل كيف يتزوج من ولد كذلك ؟

قلت هذه مسألة لم أر لها ذكرا في كتب الفقهاء وقد قال أبو جميلة رأيت بفارس امرأة لها رأسان وصدران في حقو واحد متزوجة تغار هذه على هذه وهذه على هذه والقياس أنه تزوج كما يتزوج النساء ويتمتع الزوج بكل واحد من هذين الفرجين والوجهين فإن ذلك زيادة في خلق المرأة

هذا إذا كان الرأسان على حقو واحد ورجلين

فإن كان على حقوين وأربعة أرجل فقد روى محمد بن سهل حدثنا عبد الله بن محمد البلوى حدثني عمارة بن زيد حدثنا عبد الله بن العلاء عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال أتي عمر بن الخطاب بإنسان له رأسان وفمان وأربع أيد وأربع أعين وأربع أرجل وإحليلان ودبران

فقالوا كيف يرث يا أمير المؤمنين ؟

فدعا بعلي فقال فيها قضيتان

إحداهما ينظر إذا نام فإن غط غطيط واحد فنفس واحدة وإن غط كل منهما فنفسان

(287/512)

وأما القضية الأخرى فيطعمان ويسقيان فإن بال منهما جميعا وتغوط منهما جميعا فنفس واحدة وإن بال من كل واحد منهما على حده وتغوط من كل واحد على حدة فنفسان فلما كان بعد ذلك طلبا النكاح فقال علي رضي الله عنه لا يكون فرج في فرج وعين تنظر ثم قال علي أما إذ قد حدثت فيهما الشهوة فإنهما سيموتان جميعا سريعا فما لبثا أن ماتا وبينهما ساعة أو نحوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الطرق الحكمية صـ 74.42 ﴾

(288/512)

وقال أيضا رحمه الله :

فصل من عجائب القضاء

من قضايا علي رضي الله عنه أنه أتى برجل وجد في خربة بيده سكين ملطخة بدم وبين

يديه قتيل يتشحط في دمه فسأله فقال أنا قتلته قال اذهبوا به فاقتلوه

فلما ذهب به أقبل رجل مسرعا فقال يا قوم لا تعجلوا وردوه إلى علي فردوه

فقال الرجل يا أمير المؤمنين ما هذا صاحبه أنا قتلته

فقال علي للأول ما حملك على أن قلت أنا قاتله ولم تقتله قال يا أمير المؤمنين وما أستطيع أن أصنع وقد وقف العسس على الرجل يتشحط في دمه وأنا واقف وفي يدي سكين وفيها أثر الدم وقد أخذت في خربة فخفت ألا يقبل منى وأن يكون قسامة فاعترفت بما لم أصنع واحتسبت نفسي عند الله

فقال علي بئسما صنعت فكيف كان حديثك ؟

قال إني رجل قصاب خرجت إلى حانوتي في الغلس فذبحت بقرة وسلختها فبينما أنا أسلخها والسكين في يدي أخذني البول فأتيت خربة كانت بقربي فدخلتها فقضيت حاجتي وعدت أريد حانوتي فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط في دمه فراعني أمره فوقفت أنظر إليه والسكين في يدي فلم

أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا علي فأخذوني فقال الناس هذا قتل هذا ماله قاتل سواه فأيقنت أنك لا تترك قولهم لقولي فاعترفت بما لم أجنه

فقال علي للمقر الثاني فأنت كيف كانت قصتك ؟

فقال أغواني إبليس فقتلت الرجل طمعا في ماله ثم سمعت حس العسس فخرجت من

الخربة واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصف فاستترت منه ببعض الخربة حتى أتى العسس فأخذوه وأتوك به فلما أمرت بقتله علمت أني سأبوء بدمه أيضا فاعترفت بالحق

فقال للحسن ما الحكم في هذا قال يا أمير المؤمنين إن كان قد قتل نفسا فقد أحيا نفسا وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعا ﴾ فخلى علي عنهما وأخرج دية القتيل من بيت المال

وهذا إن وقع صلحا برضا الأولياء فلا إشكال

وإن كان بغير رضاهم فالمعروف من أقوال الفقهاء أن القصاص لا يسقط بذلك لأن الجاني قد اعترف بما يوجبه ولم يوجد ما يسقطه فيتعين استيفاؤه

وبعد فلحكم أمير المؤمنين وجه قوي

وقد وقع نظير هذه القصة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنها ليست في القتل

قال النسائي حدثنا محمد بن يحيى بن كثير الحراني حدثنا عمر بن حماد بن طلحة حدثنا أسباط بن نصر عن سماك عن علقمة بن وائل عن أبيه بمك "أن امرأة وقع عليها رجل في

سواد الصبح وهي تعمد إلى المسجد روه على نفسها فاستغاثت برجل مر عليها وفر صاحبها ثم مر عليها ذوو عدد فاستغاثت بهم فأدركوا الرجل الذي كانت استغاثت به فأخذوه وسبقهم الآخر فجاءوا به يقودونه إليها فقال أنا الذي أغثتك وقد ذهب الآخر فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنه وقع عليها وأخبر القوم أنهم أدركوه يشتد فقال إنما كنت أغيثها على صاحبها فأدركني هؤلاء فأخذوني فقالت كذب هو الذي وقع علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا به فارجموه فقام رجل فقال لا ترجموه وارجموني فأنا الذي فعلت بها الفعل واعترف

فاجتمع ثلاثة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وقع عليها والذي أغاثها والمرأة فقال أما أنت فقد غفر لك وقال للذي أغاثها قولا حسنا فقال عمر رضي الله عنه ارجم الذي اعترف بالزنا فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال "لا إنه قد تاب"

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن محمد بن عبد الله بن الزبير حدثنا إسرائيل عن سماك عن علقمة بن وائل عن أبيه فذكره وفيه "فقالوا يا رسول الله ارجمه فقال لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم"

وقال أبو داود "باب في صاحب الحد يجئ فيقر" حدثنا محمد بن يحيى بن فارس عن الفريابي عن إسرائيل عن سماك فذكره بنحوه وفيه "ألا ترجمه قال لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبلت منهم"

وقال الترمذي "باب ما جاء في المرأة استكرهت على الزنا" حدثنا علي بن حجر أنبأنا معتمر بن سليمان الرقي عن الحجاج بن أرطأة عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه قال "استكرهت امرأة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فدرأ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الحد وأقامه على الذي أصابها" ولم يذكر أنه جعل لها مهرا قال الترمذي هذا حديث غريب ليس إسناده بمتصل وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه

وسمعت محمدا يقول عبد الجبار بن وائل بن حجر لم يسمع من أبيه ولا أدركه يقال إنه ولد بعد موت أبيه بأشهر والعمل على هذا عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم أن ليس على المستكره حد ثم ساق حديث علقمة بن وائل عن أبيه من طريق محمد بن يحيى النيسابوري عن الفريابي عن سماك عنه ولفظه

"أن امرأة خرجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد الصلاة فلقيها رجل فتجللها فقضى حاجته منها فصاحت فانطلق ومر عليها رجل فقالت إن ذاك الرجل فعل بي كذا وكذا ومرت بعصابة من المهاجرين فقالت إن ذاك الرجل فعل بي كذا وكذا فانطلقوا فأخذوا الرجل الذي ظنت أنه وقع عليها فأتوها به فقالت نعم هو هذا فأتوا به رسول الله

صلى الله عليه وسلم فلما أمر به ليرجم قام صاحبها الذي وقع عليها فقال يا رسول الله أنا صاحبها فقال لها اذهبي فقد غفر الله لك وقال للرجل الذي وقع عليها ارجموه وقال لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم" قال الترمذي هذا حديث غريب وفي نسخة صحيح

وعلقمة بن وائل بن حجر سمع من أبيه وهو أكبر من عبد الجبار بن وائل وعبد الجبار لم يسمع من أبيه

قلت هذا الحديث إسناده على شرط مسلم ولعله تركه لهذا الاضطراب الذي وقع في متنه والحديث يدور على سماك وقد اختلفت الرواية في رجم المعترف فقال أسباط بن نصر عن سماك فأبي أن يرجمه ورواية أحمد وأبي داود ظاهرة في ذلك ورواية الترمذي عن محمد بن يحيى صريحة في أنه رجمه

وهذا الاضطراب إما من سماك وهو الظاهر وإما ممن هو دونه والأشبه أنه لم يرجمه كما رواه أحمد والنسائي وأبو داود ولم يذكروا غير ذلك ورواته حفظوا "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل رجمه فأبى وقال لا"

والذي قال "إنه أمر برجمه" إما أن يكون جرى على المعتاد وإما أن يكون اشتبه عليه أمره برجم الذي جاءوا به أولا فوهم وقال إنه أمر برجم المعترف

وأيضا فالذين رجمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الزنا مضبوطون معدودون وقصصهم محفوظة معروفة

وهم ستة نفر الغامدية وماعز وصحبة العسيف واليهوديان والظاهر أن راوي الرجم في هذه القصة استبعد أن يكون قد اعترف بالزنا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرجمه وعلم أن من هديه رجم الزاني فقال "وأمر برجمه"

فإن قيل فحديث عبد الجبار بن وائل عن أبيه الظاهر أنه في هذه القصة وقد ذكر "أنه أقام الحد على الذي أصابها"

قيل لا يدل لفظ الحديث على أن القصة واحدة وإن دل فقد قال البخاري لم يسمعه حجاج من عبد الجبار ولا سمعه عبد الجبار من أبيه

حكاه البيهقي عنه على أن في قول البخاري "إن عبد الجبار ولد بعد موت أبيه بأشهر" نظرا فإن مسلما روى في صحيحه عن عبد الجبار قال "كنت غلاما لا أعقل صلاة أبي الحديث" وليس في ترك رجمه مع الاعتراف ما يخالف أصول الشرع فإنه قد تاب بنص النبي صلى الله عليه وسلم ومن تاب من حد قبل القدرة عليه سقط عنه في أصح القولين وقد أجمع عليه الناس في المحارب

وهو تنبيه على من دونه

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة لما فر ماعز من بين أيديهم "هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه ؟"

فإن قيل فكيف تصنعون بأمره برجم المتهم الذي ظهرت براءته ولم يقر ولم تقم عليه بينة بل بمجرد إقرار المرأة عليه

قيل هذا لعمر الله هو الذي يحتاج إلى جواب شاف فإن الرجل لم يقر بل قال "أنا الذي أغثتها"

فيقال والله أعلم إن هذا مثل إقامة الحد باللوث الظاهر القوي فإنه أدرك وهو يشتد هاربا بين يدي القوم واعترف بأنه كان عند المرأة وادعى أنه كان مغيثا لها وقالت المرأة هو هذا وهذا لوث ظاهر

وقد أقام الصحابة حد الزنا والخمر باللوث الذي هو نظير هذا أو قريب منه وهو الحمل والرائحة وجوز النبي صلى الله عليه وسلم لأولياء القتيل أن يقسموا على عين القاتل وإن لم يروه للوث ولم يدفعه إليهم فلما انكشف الأمر بخلاف ذلك تعين الرجوع إليه كما لو شهد

عليه أربعة أنه زنا بامرأة فحكم برجمه فإذا هي عذراء أو ظهر كذبهم فإن الحد يدرأ عنه ولو حكم به

فهذا ما ظهر في هذا الحديث الذي هو من مشكلات الأحاديث والله أعلم

عليّ أول من فرق بين الشهود

وقرأت في أقضية علي رضي الله عنه بغير إسناد "أن امرأة رفعت إلى علي وشهد عليها أنها بغت"

وكان من قصتها أنها كانت يتيمة عند رجل وكان للرجل امرأة وكان كثير الغيبة عن أهله فشبت اليتيمة فخافت المرأة أن يتزوجها زوجها فدعت نسوة حتى أمسكها فأخذت عذرتها بأصبعها فلما قدم زوجها من غيبته رمتها المرأة بالفاحشة وأقامت البينة من جاراتها اللواتي ساعدنها على ذلك فسأل المرأة ألك شهود قالت نعم هؤلاء جاراتي يشهدن بما أقول فأحضرهن علي وأحضر السيف وطرحه بين يديه وفرق بينهن فأدخل كل امرأة بيتا فدعا امرأة الرجل فأدارها بكل وجه فلم تزل عن قولها فردها إلى البيت الذي كانت فيه ودعا بإحدى الشهود وجثا على ركبتيه وقال قد قالت المرأة ما قالت ورجعت إلى الحق وأعطيتها الأمان وإن لم تصدقيني لأفعلن ولأفعلن فقالت لا والله ما فعلت إلا أنها رأت جمالا وهيبة فخافت فساد زوجها فدعتنا وأمسكناها لها حتى افتضتها بأصبعها

فقال علي الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين فألزم المرأة حد القذف وألزم النسوة جميعا العقر وأمر الرجل أن يطلق المرأة وزوجه اليتيمة وساق إليها المهر من عنده

ثم حدثهم أن دانيال كان يتيما لا أب له ولا أم وأن عجوزا من بني إسرائيل ضمته وكفلته وأن ملكا من ملوك بني إسرائيل كان له قاضيان وكانت امرأة مهيبة جميلة تأتي الملك فتناصحه وتقص عليه وأن القاضيين عشقاها فراوداها عن نفسها فأبت فشهدا عليها عند الملك أنها بغت فدخل الملك من ذلك أمر عظيم فاشتد غمه وكان بها معجبا فقال لهما إن قولكما مقبول وأجلها ثلاثة أيام ثم ترجمونها

ونادى في البلد احضروا رجم فلانة

فأكثر الناس في ذلك وقال الملك لثقته هل عندك من حيلة فقال ماذا عسى عندي يعني وقد شهد عليها القاضيان فخرج ذلك الرجل في اليوم الثالث فإذا هو بغلمان يلعبون وفيهم دانيال وهو لا يعرفه

فقال دانيال يا معشر الصبيان تعالوا حتى أكون أنا الملك وأنت يا فلان المرأة العابدة وفلان وفلان القاضيين الشاهدين عليها

ثم جمع ترابا وجعل سيفا من قصب وقال للصبيان خذوا بيد هذا القاضي إلى مكان كذا وكذا ففعلوا

ثم دعا الآخر فقال له قل الحق فإن لم تفعل قتلتك بأي شيء تشهد والوزير واقف ينظر ويسمع فقال أشهد أنها بغت قال متى قال في يوم كذا وكذا قال مع من قال مع فلان بن فلان قال في أي مكان قال في مكان كذا وكذا فقال ردوه إلى مكانه وهاتوا الآخر فردوه إلى مكانه وجاءوا بالآخر فقال بأي شيء تشهد قال بغت قال متى قال يوم كذا وكذا قال مع من قال مع فلان بن فلان قال وأين قال في موضع كذا وكذا فخالف صاحبه

فقال دانيال الله أكبر شهدا عليها والله بالزور فاحضروا قتلهما

فذهب الثقة إلى الملك مبادرا فأخبره الخبر فبعث إلى القاضيين ففرق بينهما وفعل بهما ما فعل دانيال فاختلفا كما اختلف الغلامان فنادى الملك في الناس أن احضروا قتل القاضيين فقتلهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الطرق الحكمية صـ 86.78 ﴾

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman
Bin Mohammed
AL-QAMMASH

26